4 me Année, No. 177 | Lundi - 23 - 11 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

زهرات على قبر

محمد فريد

بمناسبة ذكراه السابعة عشرة



ما كان أحقَّنا ونحن نجني ثمرات الجهاد ، ونعقد أقواس النصر ، ونُحيي بطولة الزعماء ، ونُحْيي ذكرى الشهداء ، أن نضع إكليلا من الزهر الندىّ على قبر الشهيد الأول محمد فريد !

لقد استُشهِدَ في مثل هذا الأسبوع الذى وقع فيه موافقة البرلمان على المعاهدة ،

واحتفال الشعب بذكرى الضحايا ، فكيف غفل اللسان الذاكر وذهل الفؤاد العروف عن تحية المجاهد الصابر والمضطهد المهاجر والصريع المحتسِب ؟ وما أقلَّ التحية للذين نفروا لخلاص الوطن لا يبتغون ثراء ولا دَعة ، وهاجروا في سبيل الحرية لا يجدون مراغَماً ولا سَعة ، ولفظوا أنفسهم في منازح الغربة ومضاجع البؤس حسرة فحسرة!

هذه دورهم ، كان للعزة في أفيائها مَرَاد ، وللنعمة في أفنائها ربيع ، فتقوض فيها المجلس وانصرف عنها اللاجىء وتعاقب عليها مالك بعد مالك ! وهذه قبورهم ، تناوحت عليها سوافي الرياح فطمست الشاهد وأبهمت الأثر وتناهبها هالك بعد هالك ! وهذه ذكرياتهم ، ملأت المسامع وعمرت القلوب حيناً من الدهر ، ثم أوشكت اليوم لِكُنود الناس أن تغوص في لجج النسيان والعَدم ! وهذه أرواحهم ، كانت في المحن السود تباكرنا بالعزاء وتراوحنا بالأمل وتغادينا بالمعونة ، ثم أقبلت ساعةَ النصر تخفق فخورة مع العلم ، وتصفق مؤيدة مع البرلمان ، وتهتف مبتهجة مع الأمة ، ولكنها لم تسمع واأسفاه مَن بادلها تحية برحمة ، وجازاها وفاء بدعاء !

إن الشريعة تنسخ الشريعة ، والفكرة تطرد الفكرة ، والجديد يخلف القديم ، ولكن الجهاد في سبيل الوطن غاية لكل جيل في طريقها خطوة ، وبناية لكل عامل في إقامتها حجر ؛ والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة ، والحجر الأعلى لا ينقض الحجر الأسفل . والمثل العُليا من الرجال قليلة في عهدنا الحديث ؛ فما أولانا أن نضن بهم على الفناء ، فننصب تماثيلهم في كل ميدان ، وندرس تاريخهم في كل معهد ، ونرفع ذكرهم في كل مناسبة

* * *

واحسرتاه على حظ فريد من أمته ! حبس عليها ثروته ورضى بالجوع ، ورصد لها قوّته وصبر على المرض ، وضحى لها أسرته وعاش على التشريد ، ثم كان نصيبه منها بِرًّا لا يسعف ، وتقديراً لا يدوم ، وذكراً لا يتصل ، وقبراً لا يعرف !

كان فريد — برد الله ثراه وخلد ذكراه — سليل مجد وربيب نعمة وحليف جاه ؛ وكان سبيله في الحياة سبيل كل أمير وكل كبير : يغتصب ثروته من عرق العامل ، وقوّته من دم الفقير ، ومسرته من دمع البائس ، وجبروته من ظلم الضعيف ؛ ولكنه تنكب طريق المترفين واتبع هادى الفطرة ، فدخل به في سواد الشعب وقرّنه في أغلاله وشركه في ذله ، فدفعته الحَمِيَّة الحرة إلى أن يتطوع لأنهاضه بجهده . ويتبرع لانقاذه بماله ؛ ثم اتصل برسول الوطنية يومئذ مصطفى كامل ، فكان منه مكان أبى بكر من محمد ، ومصطفى النحاس من سعد ؛ رفع معه ألوية الجهاد على سواعد الشباب الفتية ، ثم خلَفه على تكاليف الدعوة من جهد وبذل وتضحية ، فاستمر ينفخ فيما يشبه الرماد ، ويصيح فيما يقارب الجماد ، حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين فهاجر ناجياً بحريته وفكرته ؛ ولاذ بالأستانة يبتغى بها متنفساً لآمال مصر ، ومضطرباً لعزائم الشباب ، فكان في هذه المدينة ذات الأستار والأسرار والخفَر قبساً من الحق الساطع الصادع يبعث في قلوب المصريين المهاجرين والطلاب الضوء والحرارة

كان يدعو شبابنا الوديع إلى الثقافة الحربية في المعاهد العسكرية التركية استعداداً لليوم الموعود والحدث المنتظر ؛ وكانت الحرب الكبرى قد انفجرت دواهيها على العالم يومئذ ، فحاول أن يكون لمصر من أعقابها المجهولة مغنم . وكأنما دس عليه أهل الأفك ، أوعارضت أطماعُه أطماع الترك ، فائتمروا به ليحاكموه ، ففر خفية إلى برلين ؛ وهناك أراده الألمان على أن يكون وسيلة من وسائل الحرب السرية في الشرق ، فأبى عليه خلقه الصريح وجوهره الحر أن يكون أداة ليعيش . وتفرق عنه الرفاق إلى موارد الرزق الممكنة ، وانقطع عنه المدد من مصر ومن غير مصر ، فعمل عمل الأجير ، وعاش عيش الفقير ، يتبلغ بما يمسك الرمق ، ويكتسى بما يستر الجسم ، ويأوى إلى غرفة في بعض السطوح يكابد فيها المرض والفقر والوحدة والغربة ، حتى أدركه الموت البائس الخامل وهو في غيابة برلين المقهورة الباكية ، ليس فيه إلا فم يهتف للحرية ، وقلب يخفق لمصر !

إن فريداً كان مثال الفكرة السليمة والوطنية القويمة والرجولة الكاملة والتضحية المؤمنة . بذل في سبيل الوطن ، ما بذل عثمان في سبيل الدين ، ثم كانت عاقبة أمره أن مات كما مات عثمان شهيداً غير مفهوم ؛ ولكن الله جازى فريدا كما جازى عثمان : جعل اسمه للخلود وروحه للخلد !

احمد حسن الزيات

٤ – القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحبُ القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهى مقبلة تتيمَّمنا حتى بغته ذلك فساوره القلق، واعتراه ما يعترى المحب المهجور إذا فاجأه فى الطريق هاجره. أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهراً لا يراه، وصارمه مدةً لا يكلمه؛ فنزع نومه من ليله، وراحته من نهاره، ودنياه من يده؛ وبلغ به ما بلغ من السُّقم والضَّنى؛ ثم بينا هو يمشى إذ باغته ذلك الحبيب منحدراً فى الطريق

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيته على زلزلة من شدة الخفقان، وكأنه فى ضرباته متلعثمٌ يكرر كلمة واحدة: هى هى هى

ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيته يشعر مثل شعور المحتَضر أن هذه الدنيا قد نفته منها

ولو اطلعت على دمه فى عروقه لأبصرته مخذولاً يتراجع كأن الدمَ الآخر يطرده

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينيه أن كل شهواته فى خيبة، فيردُّ عليه الحبُّ مع كل شهوة نوعاً من الذل، فيكون بإزاء الحبيب كالمنهزم مائة مرة أمام الذى هزمه مائة مرة

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغتة والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن روحه وثبتْ إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه

***

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبته؛ ولكن من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعاطفتين المختلفتين، إذ كان دائماً على حدود الإسراف مادام حبًّا، فكل شىء فيه قريبٌ من ضده. والصدق فيه من ناحية مهيَّأ دائماً لأن يقابل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى، واليقين مُعدٌّ له الشك بالطبيعة؛ والحب نفسُه قضاء على العدل، فانه لا يخضع لقانون من القوانين، والحبيب – مع أنه حبيب – يخافه عاشقه من أجل أنه حبيب

وقد يصفرُّ العاشق لمباغتة اللقاء كما يصفر لمباغتة الهجر، وهذه كانت حال صاحبنا عند ما رآها مقبلةً عليه؛ وكان مع ذلك يخشى إلمامها به توَقياً على نفسه من ظنون الناس، وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن؛ وهو رجل ذو شأن ضخم ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُؤى مع مثلها. وكأنها هى ألمت بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقِّر المتزمِّت؛ فعدلت عن طريقها الينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى وما بيننا وبينها إلا خطوات. ورأيتها قد هيأت فى عينيها نظرة غاضبتنا بها ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى

وكأنها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهبته لدور ها ثم همَّت أن ترجع، ثم عادت اليه فجعلت تكلِّمه وعيناها إلينا، فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها: إنها نبيلة حتى فى سقوطها

ولا أدرى ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى، ولكن هذا الرجل لم يظهر لى وقتئذ إلا كأنه تليفون معلق

***

كانت عيناها الى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان الى غيره، ولا تُسارقه النظر بل تغالبه عليه مغالبة؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيل الى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة؛ وكانت تُطارحه ويطارحها كلاما مخبوءاً تحت هذه النظرات وقد نسيا ما حولها وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا فى بعض لحظات الروح السامية: أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنين فقط: هو وهى

وكان فمها الجميل لا يزال يُساقط ألفاظه لرئيس الموسيقى، وكأنها تسرُد له حكاية مروية أو تعارض بحافظته كلاما تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء؛ فهى تتحدث وعيناها مفكرتان شاخصتان، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه؛ ولكن كيف كانت عيناها؟

لقد أرادت فى البدء أن تجمل قوةَ نظراتها كلاماً، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد: أنتَ يا أنتَ

ثم بدا فى عينيها فتور الظمأ: ظمأُ الحب المتكبر المتمرد، لأنه حب المرأة المشوقة، ولأن له لذتين: إحداهما فى أن يبقى ظمأً الى حين...

ثم أرسلت الألحاظ التى تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة

الجميلة فى بعض حالاتها النفسية ، فتضطرم فى كلامها شرارةٌ من الروح تظهر الكلام كأنه يحرق ويحترق . . .

ثم توجهت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لا يشبه الرجالَ فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لا يشبه الباقين ممن تعرفهم ، فاذا أحبها فكأنما أحبها عـذراء خَفِرةً لم تُمس ، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها وطهارتها وحيائها وما لا يمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه

ثم ذَبلَتْ عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عينى امرأة تنظر إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكره ، أو عنادُ معنى فيها لمعنى فيه ، أو توكيد خاطرة تحتاج الى التوكيد ؛ ومرةً هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحيانا ، وأحيانا هو انتهاء مقاومة

* * *

وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقيها للتليفون .. فكرَّت راجعة الى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت : أنت يا أنت ...

فقلت لصاحبنا : ويحك يا عدو نفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما اليك نظر الفتنة لما اختار إلا عينيها فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها ؛ وأراك مع هذا كمنتظر ما لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحيوان الأليف إذا طمع فى المستحيل

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الأليف ؟

قلت : ذلك حين يطمع فى أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة

قال : لقد أغمضتَ فى العبارة فبينْ لى شيئاً من البيان

قلت : هب كلبةً تألف صاحبها وتحبه فهى له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع فى أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها هذه كلبتى ، بل يقول هذه زوجتى ...

قال : وىْ منك ، وىْ منك[1] ؛ لقد ضربتَ على رأس المسمار كما يقولون . هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظَ الحلوى ، يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلسانى ألف مرة ، فهل تضع فى لسانى طعمها ... ؟

(١) أى عجب بتعجب من فطنته

قلت : خفِّض عليك يا صاحب القلب المسكين فلست أكثر من عاشق

قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ، لأن فى العاشق راغباً وفىَّ أنا راهب ، وفيه الجرىء وفىّ المنكمش ، ويغترف الغُرفة من الشلاَّل المتحدِّر فيحسوها فيرتوى ، وأغترف أنا الغرفة بيدى ، وأُبقيها فى يدى ، وأطمع أن تهْدِرَ فى يدى كالشلال . . . . أنا أكثر من عاشق ، فأنه يعشق لينتهى من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمر فى هذا الألم

هذه هذه . العجيب ياصديقى أن خيال الانسان يلتقط صورا كثيرة من صور الجمال تجىء كما يتفق ، ولـكنه يلتقط صـورة واحدة بأتقان عجيب هى صورة الحب ؛ فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا فى غير حقيقته الأبليسـية ولم تفهم عنى[2] ؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فانه ليخيل الينا أننـا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب يبدِّل الزمنَ والنفسَ ويأتى بأشـياء من خارج الحياة ، فـكل حقائق هذا الحب فى غير حقيقتها

هذه هذه . لا أطلب فى غيرها امرأةً أجملَ منها ، فهذا كالمستحيل ، ولـكنى ألتمس فيها هى امرأةً أطهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضاً . إنها أجمل جسم ، ولـكن وا أسفاه ! إنها أجمل جسم للمعانى التى يجب أن أبتعد عنها

* * *

وسكت صاحبنا إذ رفعتْ سـتارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى . ظهرت فى زينة لا غاية بعدها تمثل العروسَ ليلة جَلوتها . ألا ما أمرَّها سـخرية منك أيتها المسكينة ! عروس ولـكن لمن ؟

كانت تبرُق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر

وأقبلت تمايل بجسم رخص لِين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمالُ والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله

وأظهر وجهها حسناً وأبدى جسمها حسناً آخر فتم الحسن بالحسن

واقفة كالنائمة ، فالجوُّ جوُّ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرورَ يحلم

(٢) مر هذا المعنى فى المقالة الثالثة

الوهم

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أكثر ما يقعد بالانسان عن الطلب، أو يصده عن السعي أو يصرفه عن الأقدام، وهم لا حقيقة؛ وقل أن يقدم الذي يطول تفكيره ومشاورته لنفسه؛ ويندر أن يفوز بالطيبات في هذه الدنيا إلا الجسور أو «الفاتك اللهج» كما يقول بشار، أي الذي لا يتردد ولا يضيع الوقت والفرص في الموازنات والمعادلات وحساب العواقب والمغبات

تكون مع المرأة التي تحبها، فتحدثك نفسك أن تبثها ما تجد، أو على الأقل أن تثني على جمالها أو ذوقها في اختيار ثيابها. فتتردد مخافة أن يسوء وقع ما تقول في نفسها وأن تعد ذلك منك تسحباً واجتراء عليها، فتحجم، وتتمعض هي، لأنك خيبت أملها فيك ورجاءها عندك. وقد لا تحب المرأة الرجل، ولكنه لا يسوءها منه أن تعرف أنه يحبها، ولا يثقل عليها أن يثني بما يعلم وما يتخيل أيضاً؛ والمرأة تنتظر من الرجل أن يشعر بجمالها وأنوثتها قبل أن يشعر بعقلها أو علمها أو أدبها أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى. وكثيراً ما تقرأ لي الفتيات ما يكتبن أو ينشدنني ما ينظمن، حتى إذا فرغن من التلاوة تعمدت أن أهمل ما سمعت منهن وذهبت أصف لهن ما وقع في نفسي من صوتهن وهيئتهن وهن يقرأن، وكيف كان النسيم يعبث بذلاذل الثوب ويكشف عن سيقانهن البضة، وكيف أن خصورهن كن يغرين بالتطويق، وشفاههن وهي تتحرك وتاتق وتفترق، وتختلج من فرط التأثر بالمعاني المصورة في الكلام، تحمل على اشتهاء القبلات الطويلة، ولا أراهن يغضبن لذلك أو يتجهمن، أو حتى يتكلفن العبوس والقطوب، بل تشرق وجوههن ويشيع فيها البشر، وتومض عيونهن وميض الجذل والاغتباط والرضى، وأنا أفعل ذلك لأسرهن وأشرح صدورهن ولأهرب من إبداء الرأي في كلام لا أرى له قيمة أو وزناً فننتقل بسهولة إلى حديث آخر نخوض فيه، وتطوى الورقات وتدس في الحقائب، ونحن نسح بالكلام، ثم ينصرفن راضيات مسرورات شاكرات، وأبقى أنا أو أذهب، ولا أكون قد رددت نفسي على مكروهها

وقد جربت الناس فلم أجد ما يربح مثل الاجتراء عليهم.

كنت في بعض ما مر بي مضطراً إلى الاتصال في عملي برجل سريع البادرة عظيم الغرور متقلب الرأي فلا راحة لانسان معه، وآثرت الملاينة في أول الأمر وقلت: أسايره خطوة أو خطوات لأجره باللباقة والكياسة إلى حيث أريد من حيث لا يشعر هو. فكان يفطن إلى حيلتي في بعض الطريق فينبو في الزمام، نخطر لي أن المنطق والحجة لعلهما أجدى، فصرت أجادله بالتي هي أحسن ولكن بالبرهان والبينة، فكان يتململ ويتأفف ولا يكتم ضجره مني وكراهته للجاجتي، فضاق صدري يوماً وخرجت معه عن طوري — على ندرة ذلك جداً — ولم أستطع أن أملك زمام نفسي، فأسمعته من رأيي فيه ما أعتقد أنه أوجع ما سمع في حياته، فما راعني إلا استخذاؤه والا أنه أذعن، وراح بعد ذلك يتقي أن يثير غضبي ويخشى بادرتي أشد الخوف. فاسترحت

وقد يظن القارئ أني أشير بالتوقح على الناس وسوء الأدب معهم، وما أريد شيئاً من هذا، وإنما أقول إن احترامك لغيرك لا ينفي أو يمنع أن تحترم نفسك؛ ومن احترام النفس أن تكون صريحاً وحازماً، والصراحة والجرأة ليس معناهما قلة الأدب، فأنك تستطيع أن تذهب في الصراحة إلى أبعد مدى وأن تتحفظ مع ذلك بالأدب. ومتى عرف الناس فيك الصراحة وألفوا منك الشجاعة، اقتنعوا بذلك ووطنوا أنفسهم عليه وأعفوك من كثير مما تكره

وقد قص علي بعضهم حكاية شاب اتخذت منه زوجته دابة، فهو لا يفعل إلا ما تأمر، ولا يخرج أو يدخل أو يقوم أو يقعد أو يأكل أو يشرب إلا إذ أذنت له، وقيل لي إنها هي التي تنتقي له ثيابه وتختار له ما يوائمها من قميص وربطة وحذاء إلى آخر ذلك. وتأمره فيصادق هذا ويخاصم أو يعادي ذاك، ويصل فلاناً ويقاطع فلاناً، فعجبت: وسألت محدثي: وماذا

مهتزة كالموج في الموج. هل خلقت روح البحر في جسمها المترجرج فشيء يعلو وشيء يهبط وشيء يثور ويضطرب؟

ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها المتحركة، وأحسسنا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر اليها وتتعجب. تتعجب من قوامها للغصن الحي، ومن بدنها للزهر الحي، ومن عطارها للنسيم الحي

أما صاحب القلب المسكين؟

(يتبع) [illegible]

يخيفه منها ؟ أهو يخشى أن تأكله إذا اعترض أو أبى أو تمرد على هذا السلطان ؟ فهز محدثى رأسه ولم يستطع أن يذكر لى سبباً معقولاً . وما أزال إلى هذه الساعة عاجزاً عن تصور ما تستطيع هذه المرأة أن تصنع إذا انتفض زوجها على هذا الاستبداد ؟ هى وقفة واحدة يقفها الرجل فلا يسع امرأته إلا أن تلزم حدها وتترك له حقه فى نفسه . وهذه الوقفة لا تحتاج إلى ثورة ، ولا تتطلب أن تقوم قيامة البيت ، بل لعل الهدوء أحجى وضبط الأعصاب أجدى . وما أظن امرأة تكبر رجلاً يكون عنانه فى كفها الرخص ، ولاشك أنها لاتنفك تحتال لتخضعه من حيث لا يشعر ولا يدرى ، والرجل الرشيد يدرك ذلك ولا يخفى عليه أنها تدور من ورائه لتحمله على ماتريد فيلين لها ليرضيها ويسعدها بالشعور بالنجاح ويجعلها بذلك ألين فى يده من ناحية أخرى . وحياة الرجل والمرأة مناوشات مستمرة ، ولعلها أشبه شىء بالحروب التى تشنها العصابات المتحصنة فى رؤوس الجبال على الجيوش المنظمة . وقدرة الرجل وسطوته معترف بهما ، ولكن المرأة لا تقر لها الاقرار التام ولا تزال تختبئ وتطلق قذيفتها . وخير للرجل وأجلب لراحته أن يدع لها فرصاً كافية لأصابة الهدف ، فتسكن نفسها وترضى عن حالها ، وإلا دفعها إلى التمرد الصريح . ولكنه ينبغى أن يكون له وجود وكرامة ، وإلا خسر احترامها له . واحتفاظه بكرامته واستقلاله وحريته لا يكلفه إلا أن توقن هى أنه لا خير فى محاولة إخضاعه لها .

وقد زاولت التعليم عشر سنين فما أذكر أنى احتجت يوماً أن أعاقب تلميذا ، ولو تمردوا على لما وسعنى شىء فأنى واحد وهم كثر ، ولو انتقضوا على نظام المدرسة لما استطاعت أن تكرههم عليه ، ولكن التلميذ يتوهم البأس والشوكة والسطوة والقوة ، ويرهب ما يتوهم ، ويطول عهده بذلك فيتقرر فى نفسه . وقد كنت وأنا معلم لا أحجم عن مصارحة تلاميذى بأن سلطان المدرس خيالى ولا حقيقة له ، وأنهم لو شاءوا لتناولونى وقذفوا بى من النافذة ، وقذفوا بالمدرسين جميعا وبالناظر أيضاً ورائى ، وكنت أراهم يبتسمون لما يسمعون منى ، ثم يعودون الى ما ألفت منهم من حسن الأصغاء وشدة الحرص على النظام

وكبر ابنى وصار أطول منى قامة ، وأنا الآن كهل وهو شاب ، وقد توخيت فى تربيته أن أدعه حراً ، وأن أجعله يشعر باستقلاله ، ومع ذلك لا أراه يجترىء الاجتراء الذى أتوقعه وأريده ويسرنى أن أراه منه ، لأنه يهاب ذلك السلطان الذى درج على اكبارى والاقرار له منذ الصغر . فهو لا يزال طفلاً بالقياس إلىّ فيما أرى ، وإنه لكذلك إذا اعتبرنا التجربة والعلم وما إلى هذا ولكن وهم الأبوة ، أو سلطانها ، أو لا أدرى ماذا ، يصده حتى عما لا بأس منه ولا ضير ، ولا عيب فيه ، ولا خوف من الزجر عليه . وأنا أيضاً كنت طفلاً — كما لا أحتاج أن أقول — وكان هذا شأنى ، لأن للعادة سلطانها

ولو جرب الناس الشجاعة والأقدام لأدهشهم أن ما كانوا يخافونه أو يتقونه أو يتوقعونه ، لا وجود له ، وأنه لم يكن سوى وهم ليس إلاّ . وأكرر أنى لا أحض على تجاوز الحدود ، فليس من حسن الأدب أن يكون المرء جبانا أو ذليلاً ، ولا من سوئه أن يكون عارفا بحقوقه حريصاً عليها وجريئاً فى سعيه وصريحاً فى قوله ، أى مخلصاً لنفسه

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

أثر البيئـــة
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

طبائع الانسان ومواهبه متماثلة حيثما حل من بقاع الأرض، ومجتمعاته متشابهة الظواهر أينما قامت . تتشعب بين أفراد كل مجتمع إنساني عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف، غير أن للبيئة أثرها في تشكيل المجتمع الانساني الذي يحيط به، بما تعرض أمام أبصاره وأذهانه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سـواها، ويكون لهذا وذاك أثره البين في لغة المجتمع وأدبه، مقرونا إلى أثر الطبائع والمواهب التي تشترك فيها الأمم جمعاء

فللبيئة في أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى: فهي أولاً تؤثر في مبنى اللغة وأصـواتها وألفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة، فـكل ذلك منتزع من طبيعة الاقليم؛ وهي ثانياً تؤثر في مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك في مرآة الأدب؛ وهي أخيراً تعرض دائماً أبداً أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها، تسترعي انتباههم وتسـتجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم في باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعي

وأثر البيئة في الأدبين العربي والانجليزي واضح وضوحاً شـديداً يكاد لروعته يخفى أثر الطبيعة الانسانية التي تشترك فيها الأمتان ويتفق عندها الأدبان، فأن تباين البيئتين تبايناً شديداً أدى إلى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر في المجتمعين، وأدى بالتالي إلى اختلاف أشكال الأدبين وصورهما ومواضيعهما وأساليبهما؛ ويمكن إيجاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب في بيئة صحراوية والآخر ترعرع في بيئة بحرية

نشأ العرب في البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته، واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والـكثيب والقطا، والمُنبتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وورود المـاء بماء أكيس، وإلقاء الحبل على الغارب . ولعـدم ملاءمة البادية لغير الأدب من الفنون عظمت مكانته بينهم

واشـتغل العرب في البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب، فامتـلأت لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربي وبعضها منقول عن الأمم التي بادلوها التجارة، وامتلأ أدبهم بالتشبيهات المنتزعة من أحوال التجارة: فالقرآن الـكريم يكرر في غير موضع تشبيه الخير والشر بالنجدين، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم؛ وعنترة يقول:

حصاني كان دلال المنايا ... فخاض غمارها وشرى وباعا

وبثت حياة البادية في العرب صفات الحمية والشجاعة والحرية والأنفة أن يدينوا لملك، وظهر أثر كل ذلك جلياً في أدبهم؛ وأشهر أمثلة ذلك معلقة عمرو بن كلثوم، فهي ديوان العرب في الحماسة؛ وأدى إباؤهم ودوام انتجاعهم الـكلأ إلى اسـتمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم، وانعكس ذلك في مفاخراتهم ومنافراتهم نثراً وشعراً

وهذه الصفات الشماء التي تَلْزَم حياة التبدي جعلت العرب ينظرون شزرا إلى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما مجال في البادية، ويحتقرون الزراع والصناع الذين تسـترقهم الأرض وتستعبدهم المـادة، ولا يرون الشرف والعزة إلا في رعي الأبل والتجارة والقتـال . فالأخطل يعيّر بني النجار بمساحيهم، وآخر يفاخر غريمه فيقول:

لحا الله ألأمَنَا نسبا — وأجدرنا أن ينفخ الـكيرَ خاله — يصوغ الشنوف والقروط بيثربا

والحق أن الشـعر الجاهلي مهما يكن قد داخله من تزييف يمثل الجانب الاجتماعي من حياة العرب في الجاهلية تمثيلاً رائعاً؛ ولا يمكن تصور حالة العرب في ذلك العهد إلا على

ما وصفت فى أشعار طرفة ومهلهل وأمثالهما

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطأة ، فيبدو أنها لم تشرب العرب من حب الطبيعة مقدار ما بثت فى نفوسهم من رهبتها والحرص على اتقائها ، ولم تلهمهم من أشعار فى وصف محاسنها قدر ما أوحت اليهم من أشعار فى التأمل فى أحوالها والاستعبار والخشوع ، فلا غرو لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر ، كتلك التى تحفل بها الألياذة والأوديسة ، وإنما أخرجت أنبياء وحكماء فى شتى عصورها

وتحضر الشعب الانجليزى فى جزيرة تحيط بها البحار ، وتجرى فيها الأنهار ، وتتخللها البحيرات ، وتتوالى عليها الأمطار والثلوج والسحاب والضباب ، ويتعاقب فيها الصحو والدجن ، وتنتشر فى أرجائها الغابات والآجام ، وتتتابع فيها الربى والقيمان ، فامتلأت لغتهم بأوصاف البحر والغاب ، وأسماء ما أسكنوها من جان ، واشتقت منهما تشبيهاتهم وأمثالهم ، فاستعير الضباب لحالة الشك والابهام ، والسحاب للحزن والقلق ، وقالوا فى أمثالهم إن الوقت والمد لا ينتظران إنسانا ، وحلت السفينة من تخيلهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة : فبينما ترى حسان يشبه تراقص الخمر فى إنائها بتهادى الناقة المسرعة فيقول :

زجاجة رقصت بماقى قعرها   رقص القلوص براكب مستعجل

يشبه ملتون « دليلة » وهى شاخصة فى عظم جرمها وتمام زينتها وعتادها الى « شمسون الجبار » لاختداعه عن سر قوته بالسفينة المنشورة الشراع

وامتلأت قلوب الانجليز بحب البحر ، وظهر أثر ذلك فى أدبهم فى كل العصور : فى روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية ، وفى تواريخ أمراء البحر الانجليز ككتاب « وستورد هو ! » الذى سماه مؤلفه كنجزلى باسم البلدة التى أنجبت معظم أولئك البحارين الذين يسمون بأفذاذ ديفون ، وككتاب سوذى عن نلسون ، والروايات الخرافية عن البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا فى مسالك البحار ، أمثال روبنسون كروزو ، واسكندر سلكرك ، وجليفر ؛ وأوصاف البحر وقصصه تكون جانباً كبيراً مما يعرف بأدب الأطفال

ولم يشغف الانجليز بالبحر وحده ، بل بالماء حيث حل من البقاع ، وأياً اتخذ من الأشكال ، فهاموا حباً بالأنهار والبحيرات ، ونال اقليم البحيرات فى غرب انجلترا مكانة سامية فى قلوب شعراء الانجليزية ، واتخذه شعراء النهضة الرومانسية مستراداً ومقاماً ، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه ، فحل فى انجلترا محل جبال برناس التى كانت ترتادها آلهة الشعر فى بلاد اليونان

وحفل الأدب الانجليزى كذلك بذكر الغاب ووصفه فى مختلف أوقات العام ، واتخذ مسرحاً لروايتى « كما تشاء » و« حلم ليلة فى منتصف الصيف » لشكسبير ، وفى الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال ، وتختلط الاناسى بعرائس الغاب وعفاريته ، وفى تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة ، وفى تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة ، وبالجملة بثت طبيعة بلاد الانجليز المتعددة المناظر والحالات ألفة الطبيعة والشغف بها فى نفوس الانجليز ، فاحتلت من أدبهم موضعاً مكيناً

ولموقع الجزيرة وإحاطة البحار بها اشتغل الانجليز بالتجارة ، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد ، وقد مارسوها بحراً على حين مارسها العرب براً ، فدخلت تعبيراتها وأوصافها فى أدبهم ؛ واشتغلوا بالزراعة لملاءمة الاقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية ، وحياتهم ومجتمعاتهم ، وكثر ذلك خاصة فى العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وازداد التفات الأدباء إلى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا . ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردى ؛ واشتغل الانجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن فى بيئتهم ، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع ، وانصرف بعض الروائيين ، كأرنولد بنيت ، إلى وصف حياة الرأسماليين ، وبعضهم ، كتشارلز دكنز ، إلى درس أحوال العمال والمناداة بتحسينها

هكذا تأثر كلا الأدبين بالبيئة التى قام فيها ، فاختلفا لذلك مناحى ومواضيع وأشكالاً ؛ بيد أن البيئة التى تقدم ذكرها إن هى إلا البيئة المحلية المحض ، وهى على عظيم تأثيرها فى المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما ، بل تشاركها فى ذلك بيئة أوسع أطرافا هى البيئة العالمية ، أى العالم كله بما فيه من ظواهر

طبيعية وما يسكنه من أقوام ، فهيهات أن يعيش مجتمع فى بيئته المحليـة غير متأثر بالعالم الخارجى تأثراً قل أو كثر ، عن طريق التجارة والغارة والرحلة ، وذلك الأثر العالمى يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنـه بنجوة ، ويُدخل فى لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين

تأثر الشـعبان العربى والانجليزى بأحوال العالم الخارجى ، أى بالبيئة الـكبرى ، ولـكنهما اختلفا فى هذه البيئة كما اختلفا فى البيئة المحلية ، إذ تأثر كل منهما بما يليـه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالميـة : وما يلى بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين ، ذات الحضارة الشرقية العتيدة والملـكيات القديمة ؛ وما يلى الانجليز هو الأمم الغربيـة الوارثة لحضارة الأغريق والرومان ذوى التاريخ الحافل بالنظم الحـكومية والآراء الحرة فى السياسـة والاجتماع ، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تبايناً

تأثر العرب بحضارة الأمم التى كانوا ينقلون متاجرها . ولا سيما الفرس والروم ، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسـية ولأ كابرهم إلى ملوكهم سفرات ، وإلى اشـتغال قريش بتلك التجارة ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرقى الأدبى والمـادى الذى بلغته قبيل الاسلام ، وظهورها على القبائل فى الثروة والجاه والشرف واللغة ، وإنجابها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الاسلام ، فكانت مكة قبيـل الاسلام فى حال من التمدن وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة

ولو استمر تأثر العرب بالبيئة الخارجية طبيعياً محدوداً هكذا لازدادوا رقياً وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهاراً ؛ ولـكن التوسع الخارجى الذى أعقب نجاح المسلمين الحربى المفاجئ أوقف ذلك التأثر البطىء ، وأحدث انقلاباً تاماً فى مجرى الأمور ، فلم يعُد تأثر الأدب العربى بالعالم الخارجى مقصوراً على النقل التدريجى ، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصلى وهجر بيئته الأولى إلى بيئة أو بيئات جديدة فى الشام والعراق ومصر والأندلس وغيرها ، والأدب العربى فى انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن إلى وطن نسيج وحده بين آداب الأمم

وجد الأدب العربى نفسه فى بيئـة جديدة ، فى أراض مزروعة مثمرة ، وأمم مترفة مستقرة ، وبلدان عامرة متحضرة ، ذات علوم وصناعات ، فتأثر بهذه البيئة الجديدة فى ثلاث النواحى سالفة الذكر : فى مفردات اللغة وتعبيراتها التى ازدادت بالنقل والتعريب ، وفى المهن ومظاهر العمران ، وفى وصف مناظر الطبيعة الجديدة ، فكثر فى الأدب ذكر الرياض والأزهار

على أن تأثر الأدب فى الناحيتين الأولى والثالثـة كان قليلاً نسبياً لغنى اللغة فى الاشتقاق الذى أغناها عن الامعان فى التعريب ، ومحافظة العرب التى نفَّرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها إلا ما جاء عفواً أو ضرورة ، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم فى وصف البيـد والخيام والنؤى والعيس ، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم ، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين فى الأدب العربى كالمتحجرات فى عالم الجيولوجيا : قد فقدت كل حياة ولم تعد إلا رموزاً للمـاضى

ولم يشغف العرب شغفاً حاراً بمظاهر الطبيعة التى صادفوها فى بيئتهم الجديدة ، وكأنَّ نفرتهم القـديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم ، وكأن كل ما كانوا يطمحون اليـه بعد أن طووا الأميال ضرباً فى فلوات الجزيرة وهواجرها ، ظلٌّ ظليل وماء سلسبيل وهواء بليل ، تريح الجسوم وترويها وترفه عنها بعد طول الـكد ، فقص أدبهم الطبيعى بذكر راحة الجسم ولذات الحواس ، دون طويل تأمل فى محاسن الطبيعة واجتلاء لأسرارها وتَقصٍّ للذكريات والآمال عندها ، وأجمعُ الأمثلة لذلك قول الشاعرة الأندلسية :

وقانا لفحـــة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحـــه فحنا علينا ... حنوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشـــفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنـــديم
يصـد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبهـا ، ويأذن للنسيم

إنما كان أشد تأثر الأدب العربى فى بيئته الجديدة بالناحية الثانية ، ناحية العمران ، ناحية الحياة المستقرة فى البلدان ، المعتمدة على الزراعة والصناعة ، الخاضعة للملـكية ؛ وهى عكس حياتهم فى البادية تماماً ، فانغمر الأدباء فى جو المدن ، واعتزلوا الطبيعة وتكأكأوا على بيوت الأمراء ، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب ، واستفرغوا جهدهم فى انتهاب فرص الحياة من جاه

ومال ورفاهية ولهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يعد يتغنى بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستظلال بسلطان الحاكمين ، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يثورون على نيرهم ، وتفنن فى وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو فى المدن

أما الأدب الانجليزى ، فتأثر بالبيئة العالمية فى النواحى الثلاث — نواحى مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة — تأثراً كبيراً : فاللغة الانجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ؛ والمجتمع الانجليزى تأثر بالمجتمع الايطالى فى عصر الأحياء ، وبالمجتمع الفرنسى فى عصر لويس الرابع عشر ؛ ولم يخلُ فى عصر من التأثر بحالة العمران فى أوربا ، إذ كانت الحضارة الأوربية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ؛ وباطلاع الانجليز على أوصاف الطبيعة فى الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفاً بمفاتن بلادهم ، وزادوا فوصفوا محاسن الطبيعة فى إيطاليا وبلاد اليونان وغيرها

تأثر الأدب الانجليزى بالبيئة العالمية فى شتى النواحى ، ولكنه لاستقراره فى وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئاً محدوداً لم يطغ على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة فى الأدب ، ولم يزد الأثر الخارجى على أن أضاف إلى العناصر المحلية ما يناسبها ويخصبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجن الأدب جانباً من تلك العناصر مَثَّلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة

فالأدبان العربى والانجليزى قد نشآ فى بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا فى مجتمعين متباينين ، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة ، وهاجر أحدهما من بيئته الأولى إلى بيئة جديدة بينما ظل الآخر فى وطنه الأول ، فلا غرو أن يختلف الأدبان فى الصبغة والمناحى والأوضاع والأغراض والأخيلة ، اختلافاً يروع الناظر فيهما فيخيل إليه أن ليس هناك تشابه بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، ويكاد يخفى ما فيهما من تعبير مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التى تتفق فيها الطباع الانسانية ، فى شتى المجتمعات ، ومختلف البيئات

فخرى أبو السعود

خطر الفاشستية

على سلام العالم

ومشكلة البحر الأبيض المتوسط

بقلم باحث دبلوماسى كبير

لم يبد خطر الفاشستية على سلام أوربا وسلام العالم كما يبدو اليوم ؛ ولقد كان رأينا دائماً أن الفاشستية وما تقوم عليه من مبادىء العنف ، وما يحدوها من الأطماع المضطرمة ، وما تؤكده بأعمالها وتصريحاتها من احتقار لمبادىء الحق والعدالة الدولية ، إنما هى مصدر دائم للشر والخطر على السلام ، وبخاصة على الأمم الضعيفة التى تدين بوجودها واستقلالها لمبدأ الحق الطبيعى لا للقوة الغاشمة ؛ بيد أن الفاشستية لم تبد من قبل بمثل هذه الجرأة المكشوفة ، وهذا التحدى الواضح ، وهذا التوثب لارتكاب العدوان والشر ، وهذا الاستخفاف بحقوق الشعوب ومصايرها كما تبدو اليوم

منذ أكثر من عام نظمت إيطاليا اعتداءها المثير على الحبشة ، واستطاعت لا بحرب شريفة مشروعة ، ولكن بوسائل همجية ممقوتة أن تقهر هذه الأمة المنكودة وأن تضمها لأملاكها ، وأن تقيم على أنقاض الحريات المغصوبة إمبراطورية استعمارية تصول بها اليوم ؛ وفى الصيف الماضى استطاعت الفاشستية الايطالية وحليفتها النازية الألمانية أن تضرما فى أسبانيا نار ثورة مضطرمة ، وما زالتا إلى اليوم تمدان العسكرية الثائرة بالسلاح وكل صنوف المعاونة ، وما زالت أسبانيا تتلظى فى جحيم الحرب الأهلية ، لأن الفاشستية والنازية تود كل منهما أن تحقق لنفسها ظفراً معنوياً يكون مظهره قيام حكومة طغيان فاشستية فى اسبانيا على أنقاض الجمهورية ، وظفراً مادياً يقوم بتحقيق بعض المصالح السياسية والعسكرية التى تطمح كل منهما إلى تحقيقها

وكما أن مسألة البحر الأبيض المتوسط كانت أثناء الاعتداء الايطالى على الحبشة مثار الخطر والاحتكاك المستمر بين إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فكذلك تثير الحرب الأهلية الاسبانية

مسألة البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى ، وتثيرها بصورة أدق وأوسع نطاقاً وأشد خطراً ؛ وقد كانت الأزمة التى أثارتها الحرب الحبشية فى هذا البحر محلية فى نوع ما لأنها كانت تتعلق بشرقية فقط ، وتتعلق بالنزاع بين إيطاليا وبريطانيا على السيادة فى هذه المياه ، ولكن الأزمة التى تثيرها اسبانيا اليوم أزمة عامة شاملة ، تتعلق بالتوازن فى البحر الأبيض المتوسط كله ، وتدخل فيها فضلاً عن إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فرنسا وألمانيا

وقد خطب السنيور موسولينى فى ميلان أخيراً فى سياسة إيطاليا العامة نحو المشاكل الأوربية المختلفة وكرر دعاوى إيطاليا القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ووصفه بأنه بحيرة رومانية ، وأنه يجب أن يكون فى الواقع كذلك لولا أن بريطانيا تدعى فيه سيادة لايحق أن تكون لها ، ووجه الدعوة فى خطابه إلى بريطانيا أن تتفاهم مع إيطاليا على قاعدة المساواة فى الحقوق والمصالح ؛ لأن كون بريطانيا تتخذ من هذا البحر طريقاً لأملاكها فيما وراء البحار ، لا يجيز لها أن تدعى السيادة فيه والسيطرة على مياهه ؛ وقرن السنيور موسولينى خطابه السياسى كالعادة ببعض التلميحات والتهديدات المسرحية ، فأشار إلى عصبة الأمم بأنها حلم سخيف ، وسخر من مشروع نزع السلاح ونظرية السلامة الاجماعية ، وما إليها من مثل لتأييد السلام ؛ ولكن الحكومة البريطانية لم تلبث أن أجابت « الدوتشى » على مزاعمه ودعاويه ؛ فذكرت أولاً فى خطاب العرش الذى افتتح به البرلمان البريطانى ، أن سياستها الدولية تقوم على تأييد عصبة الأمم وتدعيمها وإصلاحها لتتمكن من تأدية مهمتها ، وأنها ما زالت تؤمن بالسلامة الاجماعية كوسيلة لتأييد السلام والتفاهم بين الأمم ؛ وأما فيما يتعلق بالبحر الأبيض المتوسط ، فقد ذكرت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها المستر ايدن فى مجلس العموم ، أن بريطانيا العظمى تعتبر هذا البحر شرياناً من شرايين الامبراطورية ، وطريقاً حيوياً لتجارتها تدافع عنه بكل ما وسعت

***

ألقى السنيور موسولينى خطابه الرنان غداة الاتفاق الذى عقد أخيراً بين إيطاليا وألمانيا ، وكان من أهم نتائجه اعتراف ألمانيا بالامبراطورية الايطالية وسيادة ايطاليا على الحبشة ، واتفاق الدولتين على اتخاذ خطة سياسية مشتركة فى أواسط أوربا وشرقيها ، وتحالفهما على مقاومة الخطر البلشفى الذى يزعج ألمانيا الهتلرية فى كل لحظة ؛ واتفاقهما على احترام استقلال النمسا إلى حين ؛ ولم يكن هذا الاتفاق بين الدولتين الفاشستيتين مفاجأة فى السياسة الدولية ؛ فمن المعروف أن إيطاليا وألمانيا تجمع بينهما روابط خاصة أهمها اتفاق الوسائل والخطط ، والاتحاد فى كثير من المطامع والغايات ، ولا سيما المطامع الاستعمارية ؛ وقد كانت ألمانيا أول الدول المؤيدة لايطاليا يوم اعتدائها على الحبشة ، لأنها تجيش بمثل الأمانى الامبراطورية التى تجيش بها إيطاليا ؛ هذا فضلاً عن اتحاد الدولتين فى مناوأة عصبة الأمم ، وسياسة نزع السلاح ، وفى النزعة العسكرية ، والخطط السياسية العنيفة

والواقع أن المسألة الاستعمارية تلعب دوراً كبيراً فى الأزمة الدولية الحاضرة ، وفى أزمة البحر الأبيض بنوع خاص ؛ فقد رأينا كيف بدأت هذه الأزمة وتفاقمت من جراء اعتداء إيطاليا على الحبشة ووقوف انكلترا فى وجه السياسة الايطالية ، وحشدها الدول بواسطة عصبة الأمم لتوقيع العقوبات الاقتصادية ضد إيطاليا ؛ والآن وقد كلل اعتداء إيطاليا بالنجاح وفازت بامتلاك الحبشة ، فانها تتطلع إلى تحطيم المركز الممتاز الذى تستأثر به انكلترا فى البحر الأبيض المتوسط لكى تأمن على مواصلاتها مع امبراطوريتها الافريقية ؛ ومن المحقق أن معاونة إيطاليا للجنرال فرانكو زعيم الثورة الأسبانية لها صلة كبيرة بهذا المشروع الذى تحلم به إيطاليا ؛ ذلك لأن قيام حكومة عسكرية فاشستية فى أسبانيا موالية للسياسة الايطالية ، يهدد مركز انكلترا فى جبل طارق وفى غرب البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه يعزز مركز إيطاليا ونفوذها فى هذه المياه خصوصا إذا ثبتت الأنباء القائلة بأن القوات الايطالية تحتل الآن جزيرة ميورقة كبرى جزر البليار . وألمانيا تؤيد إيطاليا فى هذا الموقف ، وتعاون ثوار أسبانيا أيضاً ، لأنها ترى فى قيام الفاشستية فى أسبانيا تقوية للجبهة الفاشستية التى تمثلها مع إيطاليا وإضعافا لموقف الدول الديموقراطية : أعنى فرنسا وانكلترا فى أوربا ، كما أنها ترى فى ظفر الفاشستية هزيمة

لعدوتها روسيا السوفيتية التي تعاون الجبهة الجمهورية في أسبانيا وربما كانت ألمانيا إلى جانب ذلك ترى في التدخل في شؤون أسبانيا وغرب البحر الأبيض وسيلة لاثارة المسألة الاستعمارية التي تعلق عليها أهمية كبيرة

وقد امتازت خطط الدولتين الفاشستيتين في العام المنصرم بالاندفاع والتحدى ؛ وما زال السنيور موسولينى بالأخص يبرق ويتوعد في كل خطبه وتصريحاته ، وينوه بقوة جيوشه واستعداداته وينذر أوروبا بالويل إذا لم تنزل عند أطماعه ومطالبه ؛ وما زالت انكلترا وهي التي يخصها « الدوتشى » بأكبر قسط من الوعيد والتحدى تقابل الموقف بالرزانة والاغضاء ، ماضية في تقوية تسليحاتها في نفس الوقت بكل ما وسعت ؛ كذلك نرى ألمانيا الهتلرية تنحو في خططها السياسية هذا النحو فتنقض المواثيق والعهود متى شاءت ، وتلوح في كل فرصة باستعداداتها العسكرية ؛ وفرنسا التي هي محور هذه الضربات تتلقاها في هدوء وتحاول مع حليفتها القديمة انكلترا أن تذلل الصعاب والأزمات بالأساليب السياسية ، وهي ماضية أيضاً في مضاعفة استعداداتها العسكرية العظيمة

ومن المحقق أن الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا وانكلترا ترغب في السلام كل الرغبة ، وتعمل على اتقاء خطر الحرب بكل ما وسعت ؛ كذلك لا ريب في أن الفاشستية لا تبدى مثل هذا الحرص في المحافظة على السلام واجتناب أخطار الحرب ؛ ولقد اندفعت إيطاليا وألمانيا خلال هذا العام إلى إثارة عدة أزمات دولية كانت كل منها تكفى لاضرام نار الحرب ، فنقض ألمانيا لميثاق لوكارنو ومعاهدة الصلح ، وغزو إيطاليا للحبشة وحملاتها العنيفة على انكلترا ، وعلى عصبة الأمم ، وعملهما معاً على إضرام نار الحرب الأهلية في أسبانيا ، كل هذه كانت وما تزال تثير كدراً في أفق السلام ، وقد كادت في أكثر من فرصة أن تغدو خطراً حقيقياً على السلام

وهذه النزعة الخطرة التي تندفع الفاشستية فيها دون تدبر للعواقب ترجع الى حالة نفسية تستغلها الفاشستية ؛ فالدول الغربية التي خرجت من الحرب بأكبر قسط من الغنيمة ، والتي تبسط سلطانها على امبراطوريات استعمارية شاسعة ، وتستأثر بوفرة هائلة في المواد الأوليــة ، تتمتع بمستوى مرتفع من الرخاء الاقتصادى ، ولها صناعات مزدهرة ، وتجارة خارجية عظيمة ، وهي تحرص على ذلك كله ، وتجانب الحرب ما استطاعت ، لأن الحرب نذير الخراب والبؤس الاقتصادى ؛ وهذا مثل انكلترا وفرنسا وبلجيكا ؛ فهي دول « راضية » لا تود بحالتها بديلا ، أما الدول الفاشستية ، أو بعبارة أخرى ايطاليا والمانيا ، فهما من الدول «غير الراضية» لأنهما تعانيان حالة من البؤس الاقتصادى ولا تحتكمان على مقادير كافية من المواد الأولية ، ولا تتمتعان بمقدار مرض من الرخاء ، فهما لذلك ساخطتان ، تحقدان على الدول «الراضية» ، وتودان تغيير هذه الحال والاستيلاء على بعض المستعمرات الغنية التي تكفل لهما الحصول على المواد الأولية ؛ وإذا كانت الفاشستية تقوم في الداخل على العنف ، فهي لا ترى أيضاً سوى العنف وسيلة لسياستها الخارجية ، وهي تندفع بلا تدبر للعواقب ، لأنها تعرف جيداً أن الدول « الراضية » أشد ما يكون زهداً في مقابلة العنف بالعنف ، وأنها تعمل جهدها لاتقاء خطر الحرب ؛ وقد نجحت الفاشستية في استغلال هذه الحالة ، وحققت لنفسها بالعنف ألواناً من الظفر ، في ميدان السياسة والحرب ، كغزو الحبشة ؛ ولا تزال تسرف في الوعيد كلما لاح لها أمل في التهويل والاستغلال

على أن الذى لا ريب فيه هو أن ألمانيا وإيطاليا مهما بلغتا اليوم من القوة لا تستطيعان الاضطلاع بحرب أوربية كبيرة ، فكلتاهما تفتقر الى المال والمواد الأولية ، وإن كانت غنية بالرجال والأساليب الفنية ؛ والحرب المعاصرة تقوم على المال والمادة كما تقوم على الفن والسواعد ؛ ومن ثم كان تلهف ألمانيا على استرداد مستعمراتها وهي أمنية تبدو مستحيلة التحقيق على الأقل في الوقت الحاضر ؛ ثم إن تيار الحوادث لا يستقر على حال ، فهاهي ذى الحرب الاسبانية تتطور في مصلحة الجمهوريين ، والثورة تدنو إلى الفشل ؛ وسيكون فشل الثورة الاسبانية ضربة أليمة ولكن عادلة للفاشستية التي أثارتها ؛ والأحوال السياسية تتطور في أوربا الوسطى تطوراً سريعاً ، ودول الاتفاق الصغير تنظر بعد خطبة الدوتشى في ميلان وما ورد فيها من إشارة إلى تعديل المعاهدات ، إلى السياسة الايطالية وغاياتها بمنتهى الريب ، بل إن الاتفاق الذى عقده أخيراً

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٥ —

اعتنق الفارابى ، بعد الكندى ، نظرية أرسطو فى الأحلام وقال معه إنها أثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها . ولا بد أن يكون القارىء قد لاحظ فى التفاصيل والجزئيات تشابها واتصالاً أكثر من هذا بين رأى الفيلسوف العربى والفيلسوف اليونانى ؛ فأن الفارابى يعتد بالميول والعواطف ويثبت مالها من أثر فى تكوين الأحلام وتشكيلها . ويرى كذلك أن للطبائع والأمزجة دخلاً كبيراً فيها . وكل تلك أفكار رددها أرسطو من قبل

بيد أن مؤسس الليسيه يجهد نفسه دائماً فى أن يبعد عن مذهبه التفسيرات الدينية والتعليلات القائمة على قوى خفية وأسرار غامضة . ونزعته الواقعية تغلب عليه فى دراساته النفسية كما استولت عليه فى أبحاثه الطبيعية والاخلاقية . لهذا نراه يرفض أن تكون الرؤى وحياً من عند الله ، ولا يقبل مطلقاً التنبؤ بواسطة النوم . لأن الأحلام ليست مقصورة على طائفة دون أخرى ، وفى مقدور العامة والدهماء أن يدعوا التنبؤ بالغيب عن هذا الطريق ، وهذا ما لا يسلم به أحد . وهنا يفارق الفارابى أستاذه ويقرر أن الانسان يستطيع بواسطة مخيلته الاتصال بالعالم العلوى واختراق حجب الغيب والوقوف على المكنون والخفى . ولكن يجدر بنا أن نعقب على هذا مسرعين بأن الفارابى وإن خالف أرسطو فأنما يخالفه فى نقطة محددة ؛ ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة لا يتم فى رأيه إلا لطائفة ممتازة وجمع مختار ، وإذا كان الفارابى قد وفق لحل موضوع المقامات والرؤى فلم يبق أمامه إلا خطوة واحدة لحل مشكلة النبوة . فان المخيلة متى تحررت من أعمال اليقظة المختلفة استطاعت أثناء النوم أن تصعد إلى سماء النور والمعرفة . وإذن متى توفر لدى شخص مخيلة ممتازة تمت له نبوءات فى النهار مثل نبوءات الليل ، وأمكنه فى حال اليقظة أن يتصل بالعقل الفعال مثل اتصاله به أثناء النوم ، بل ربما كان ذلك على شكل أوضح وصورة أكمل . فالنبى فى رأى الفارابى بشر منح مخيلة عظيمة تمكنه من الوقوف على الالهامات السماوية فى مختلف الظروف والأوقات

هذه هى نظرية النبوة فى حقيقتها العلمية والفلسفية ، وظروفها وأسبابها الاجتماعية ، ومصادرها وأصولها التاريخية ، ونعتقد أنها الجزء الطريف والمبتكر فى فلسفة الفارابى . حقاً إنها تعتمد على أساس من علم النفس الأرسطى ، إلا أنها فى مظهرها الكامل أثر من آثار تصوف الفارابى ومعتقداته الدينية . فأن الاتصال بالعقل الفعال سواء أكان بواسطة التأمل والنظر أم بواسطة التمثيل هو قمة الصوفية الفارابية . ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ أن الفارابى متمش هنا مع مبدئه فى التوفيق بين الفلسفة والدين ومتأثر بتعاليم الاسلام تأثره بأفكار أرسطو . فان العقل الفعال الذى هو مصدر الشرائع والالهامات السماوية فى رأيه أشبه ما يكون بالملك الموكل بالوحى الذى جاءت به نظرية الأسلام : كل منهما واسطة بين العبد وربه وصلة بين الله ونبيه . والمشرع الأول والملهم والموحى الحقيق هو الله وحده . وبهذا استطاع الفارابى أن يمنح الوحى والالهام دعامة فلسفية ، ويثبت لمنكريهما أنهما يتفقان مع مبادىء العقل ويكونان شعبة من شعب علم النفس

بين ألمانيا وإيطاليا يبدو ضئيلاً مزعزع الأسس أمام التطورات الأخيرة فى أوربا الوسطى ؛ وهاهى ذى إيطاليا رغم صياحها ووعيدها تؤثر أن تمد يدها إلى إنكلترا التى تمضى فى تسليحاتها البحرية والجوية بخطى الجبابرة

والخلاصة أن الفاشستية هى منبع الخطر على سلام أوربا ، ففى إيطاليا وألمانيا تضطرم النار الخفية التى قد تثير ضرام الحرب فى أية أزمة من الأزمات التى ما زالت الفاشستية تعمل على إثارتها بلا تدبر للعواقب ؛ فاذا لم تنجح أوربا فى كبح هذه النزعة الخطرة ، فالويل للسلام الأوربى والحضارة الأوربية ؛ بيد أن كل ما هنالك يدل على أن أوربا حريصة على سلامها وتراثها ، وأنها لن تنحنى أمام وعيد هتلر وموسوليني

غير أنه قد يعترض عليه بأنه يضع النبي فى منزلة دون منزلة الفيلسوف . فأن وصــول الأول عن طريق المخيلة فى حين أن الثانى يدرك الحقائق الثابتة بواسطة العقل والتأمل ، وليس هناك شك فى أن المعلومات العقلية أفضل وأسمى من المعلومات المتخيلة ؛ ولـكن الفارابى فيما يظهر لا يأبه بهذه التفرقة ولا يعيرها أية أهمية ؛ وسواء لديه أن تكون المعلومات مكتسبة بواسطة الفكر أم بواسطة الخيالة ، ما دام العقل الفعال مصدرها جميعاً ، فقيمة الحقيقة لا ترتبط بالطريق الذى وصلت إلينا منه ، بل بالأصــل الذى أخذت عنه ؛ والنبي والفيلسوف يرتشفان من معين واحد ويستمدان علمهما من مصـدر رفيع ؛ والحقيقة النبوية والحقيقة الفلســفية هما على السواء نتيجة من نتائج الوحى وأثر من آثار الفيض الآلـهى على الانسان عن طريق التمثيل أو التأمل .

على أن الفارابى بعد أن فرق فى كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة بين النبي والفيلسوف من ناحية الوسائل التى يصلان بها إلى المعرفة عاد فقرر فى مكان آخر أن الأول ، مثل الثانى ، يمكنه أن يعرج إلى مستوى الـكائنات العلوية بواسطة العقل . فان فيه قوة فكرية مقدسة تمكّنه من الصـعود إلى عالم النور حيث يتقبل الأوامر الألهية فلا يصـل النبي إلى الوحى عن طريق المخيلة فحسب ، بل بما فيه من قوى عقلية عظيمة . يقول الفارابى : « النبوة مختصة فى روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصـغر فتأتى بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات ؛ ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شىء عن انتقاش ما فى اللوح المحفوظ من الـكتاب الذى لا يبطل ، وذوات الملائـكة التى هى الرسل ، فتبلغ مما عند الله إلى عامة الخلق » [1] .

وإذا كان فى مقدور النبي أن يتصل بالعقل الفعال بواسطة النظر والتأمل فأن النبوة تصبح ضربا من المعرفة يستطيع الناس على السواء الوصول اليه . فبتأثير العقل الفعال نبحث ونفكر وندرك الحقائق العـامة ، ويتفاوت أثره فينا تختلف درجاتنا ويفضل بعضنا بعضا ، وإذا ما عظم اشراقه على واحد منا سما بنا الى مرتبة الالهام والنبوة . وعل هذا هو الذى دفع علماء الـكلام

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ٧٢

الى أن يأخذوا على الفارابى ومن جاء بعده من فلاسفة الاسلام ميلهم الى عد النبوة أمرا مكتسبا . مع أن أهل الحق ، فيما يصرح الشهرستانى ، يقولون « إن النبوة ليست صفة راجعة الى النبى ، ولا درجة يبلغ اليها أحـد بعلمه وكسبه ، ولا استعداد نفسه ، يستحق به اتصالا بالروحانيات ، بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده » [1] . ونحن لا ننكر أن موازنة الفارابى بين النبى والفيلسوف تدع باب النبوة مفتوحاً للجميع ، كما أن الفلســفة ليست مقصورة على طائفـة دون أخرى . إلا أنه يخيل الينا أن الفلسفة فى رأى الفارابى ليست سهلة المنـال بالدرجة التى تبدو لأول وهلة ، فلـكل أن يتفلسف ، ولن يحظى بالفلسفة الحق إلا أفراد قليلون ؛ وفوق هذا فالفارابى يقرر أن النبى ينعم بمخيلة ممتازة أو قوى قدسية خاصة ، ويغلب على ظننا أن هـذه القوة القدســية وتلك المخيلة فطريتان فى رأيه لا مكتسبتان وإن كان هو نفسه لم يصرح بذلك . ونحن نسلم جميعاً بأن فى نفس النبى ومزاجه كمالاً فطرياً استحق به النبوة ، وسما بسببه الى الاتصال بالملائكة وقبول الوحى . والأنبياء هم صفوة الناس وخيرة الله فى خلقه : « الله يصـطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس » يقول الشهرستانى : « فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق . فيرفعهم مرتبة مرتبة ، حتى اذا بلغ أشـده ، وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانيـة وتهيأت لقبول الأسرار الآلـهية بعث اليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً » [2]

وأخيراً اذا كان الفارابى قد استطاع التخلص من الاعتراضين السابقين فهناك اعتراض ثالث تعز الاجابة عليـه ، وهو أن تفسير الوحى والالهام على النحو السيكلوجى السابق يتعارض مع كثير من النصوص الثابتة . فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة بعض الأعراب أو أنه كانت تسمع له صلصلة كصلصلة الجرس ، إلى غير ذلك من

(١) الشهرستانى ، نهاية الأقدام ، ص ٤٦٣

(٢) المصدر نفسه ؛ ص ٤٦٣

آثار متصلة بالوحى وطرائقه . ولا نظن أن هذه الآثار غابت عن الفارابى ، إلا أنه ، فيما نعتقد ، شغل بمسألة أخرى ، وعنى بأن يثبت أولاً وبالذات أن الوحى أمر ممكن ولا يخرج على المبادىء العلمية المقررة ، وبذا أصبح اتصال الروحانى بالجسمانى الذى كان يستبعده الصابئة وغيرهم مقبولاً ، وينبغى أن نلاحظ أن جل جهد الفارابى فى نظرية النبوة لم يكن موجهاً نحو أهل السنة الذين يؤمنون بكل ما جاء فى القرآن والحديث متصلاً بالوحى وكيفياته ، وإنما كان مصوباً الى تلك الطائفة التى أنكرت النبوة من أساسها ، وهذه الطائفة لم تحارب الاسلام فحسب ، بل حاربت الأديان على اختلافها . فلم ير الفارابى بداً من أن ينتصر لمبدأ النبوة من حيث هو وأن يوضحه بمعزل عن أية بينة أو وسط خاص ، وليس بعزيز عليه بعد هذا أن يتأول ماورد من نصوص دينية تخالف آراءه أو تبعد عنها ، وقد سلك سبيل التأويل غير مرة ، فسلم بوجود اللوح والقلم مثلاً ، ولكنه فسرها تفسيراً يتفق مع نظرياته الفلكية والميتافيزيقية [1] ، ونحن لا ننكر أن الاسترسال فى التأويل قد يغير كثيراً من معالم الدين ، إلا أنه وسيلة لازمة لمن يحاولون التوفيق بين العقل والنقل . والحقيقة أن الفارابى وقف هنا ، شأنه فى نظرياته الأخرى ، موقفاً وسطاً ، فأثبت النبوة اثباتاً عقلياً علمياً غاضاً الطرف عن بعض النصوص والآثار المتصلة بها . وكأنه فى الوقت الذى منحها فيه أسلحة جديدة جردها من بعض ما كانت تعتمد عليه من أحاديث وأسانيد . والموفق مضطر دائماً لأن يستخلص من الرأيين المتقابلين مذهباً جديداً يمت إلى كل واحد منهما بصلة

ومهما يكن من شىء فلو لم يصنع الفارابى إلا أنه أظهر فى جلاء منزلة النبى السياسية والاجتماعية لكفى . وقد استطاع بهذا أن يرد على أباطيل ابن الراوندى واعتراضات الرازى . وعلى ضوئه سار فلاسفة الاسلام الآخرون وفسروا كثيراً من التعاليم الدينية بهذه الروح وتلك النزعة . وبوضع النبوة هذا الوضع الانسانى الاجتماعى يمكن أن تحل مشكلة الرياسة الدينية والسياسية التى شغلت المسلمين منذ القرن الأول للهجرة . وفى رأى الفارابى أن النبى والامام والملك والحاكم والفيلسوف الذى نادى به أفلاطون لجمهوريته يجب أن يقوموا بمهمة سياسية واحدة [1] . فهم واضعو النواميس والمشرفون على النظم الاجتماعية مسترشدين فى كل هذا بالأوامر الآلهية . وميزتهم المشتركة أنهم يستطيعون الاتصال بالعالم الروحانى فى حال اليقظة وأثناء النوم بواسطة المخيلة أو الفكرة [2] . وفى هذا التفسير ما فيه من انتصار للاسماعيلية والشيعة بوجه عام سنرى أثره فيما بعد

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) الفارابى : الثمرة المرضية ؛ ص ٧٧

(١) الفارابى : تحصيل السعادة ؛ ص ٤١ — ٤٤

(٢) الفارابى : السياسات المدنية ؛ ص ٤٤ — ٥٠

شخصية ناقدة يجهلها النقد العربي

نقد ابن أبي عتيق

للأستاذ خليل هنداوي

ما زدت خوضاً في آثار الأقدمين إلا زدت إعجاباً بها وبهذا الجد الذي ولدها ؛ وإنك لتقلب في كتبهم فيبهرك هذا التلون في المادة وهذا التفنن ، وهب أنك خرجت منزعجاً لاضطراب في الاتساق واختلاف في الاتفاق ، فان هذا لم يكن ليذهب ببعض عجبك من هذا الجد وهذا الدأب اللذين يدلانك على عقلية حاولت أن تتأمل وتملل !

في كتب الأقدمين ذلك الاضطراب الذي كان لا يحسه أصحابه . لأنهم لم يعملوا أعمالهم على حساب الأجيال الآتية ، ولو فعلوا لهوّنوا على مؤرخينا كثيراً من عناء الافتراض وقياس ما لا يقاس ، ولكن أصحابنا — عفا الله عنهم — لم يريدوا أن يطعمونا الثمرة ناضجة بل أرادوا أن نعمل على انضاجها وصونها . وفي كتبهم ثمرات كثيرة تنادي الأيدي وهي دانية القطوف ؛ وأذكر أني ما جلست يوماً إلى كتاب من هذه الكتب إلا خرجت بحديث ممتع أو فائدة جيلة تدفعني نفسي إلى التقاطها وأني لي أن أقسم أعضاء جسدي أقلاماً تسطر !

جلست في هذا الصيف إلى أغاني أبي الفرج التي كلما ضربها الأدباء تفجرت منها عيون جديدة . ووقفت على اسم « ابن أبي عتيق » الذي عاش في الحجاز في العصر الأموي ورافق تطور المدرسة الغزلية أتأمل تكرر اسمه في كثير من المواقف مع كثير من الشعراء ، طوراً يبدو لي كناقد وطوراً كسامر ، لحصرت مواقفه في هـذه المواضع على التقريب ، فاذا بي أراني أمام شخصـية عنيدة في النقد هي — إذا صح ظني — أول شخصية في الأدب العربي « اليقيني » عالجت الأدب وعملت على نقده غير مستلهمة إلا ذوقها ... ولكن أبا الفرج عفا الله عنه ترك هذه الشخصية مجهولة لأنها — في زعمه — لم تبتكر ولم تنتج شعراً ولا لحناً ، ولكن هذه الشخصية تتردد كثيراً على الأفواه . وتغشى كثيراً مجامع اللهو والأدب ، وتصبغ كثيراً هذه المجامع بألوانها الخاصة . ومما يجعل هذه الشخصية بارزة ترددها الكثير إلى هذه المجامع المختلفة ، وتردد أصحابها اليها معتبرين رأيها في النقد والأدب . ولا أعلم — بحسب روايات الأغاني — نقداً تحليلياً عميقاً كهذا النقد . ولقد أردت أن أوضح هذه الشخصية وأستوضح عنها في بطون الكتب والأخبار ، وليس عندي ما يسعفني على ذلك ؛ ولو كان ذلك سهلاً لما سهل على عقلي الذي لم أتعود إرغامه على الدخول في هذه المنعرجات الطويلة التي تحتاج إلى تأمل طويل وأناة في الامعان . ولكن ذلك غير مانعي من أن أغامر في رسم ناحيـة من نواحي شخصية هذا الرجل العجيب المنتج في النقد ، وأظنها الناحيـة الأكثر بروزاً في الرجل

والآن من هو ابن عتيق ؟

يبدو لنا ابن أبي عتيق رجلاً يخالط المغنين والشعراء ولابد أنه كان يتذوقهم ، وأنه كان صاحب ثقافة واسعة في الشعر والغناء تخول له الحكم فيهما ، وإنه كان بعد هذا كله صاحب ذوق خاص يفهم الشعر والغناء به . ومذ كان كما يبدو يقصده الملحنون والشعراء أنفسهم يحتكمون اليه في لحن أو بيت أو ملحن أو شاعر فلا يتباطأ في حكمه ، ولا يفل له رأي في ذلك . حديد اللسان والجنان والبيان ! ولولا هذه الثقافة وهذه الشهرة لما كان له مقام في ذلك . ولقد كان عمر بن أبي ربيعة أحسن القريبين اليه ، وكان له معه عشرة حسنة ومجالس طيبة ، وكان له مع شعراء الحب والغزل أمور كثيرة ، ولابد أن حادثة من حوادث غرامه جملته يحدب على المحبين ، ويمثل دور الرسول بينهم وبين أحبتهم

ويمتاز نقده بأنه كان نقد روح ومعان لا نقد قشور ومبان ؛ ويعود سر ذلك الى أن اللغة العربية كانت لا تزال بعيـدة عن الفساد ، وأن لسان العرب كان لا يزال لساناً فصيحا ، وكان نقده أقرب الى أحاديث النوادي ، لأنه نقـد بيت أو فكرة ، ولأنه نقد يلم بجانب واحـد من المعنى ويهمل بقية الجوانب . ونقده ليس فيه صرامة ولا خشونة ولا صلف ، وإنما هو نقد تهيمن عليه رقة حجازية ومجون بريء يأبى إلا أن يظهر . ومن وراء ذلك تهكم بعيد ويصيب المفصل ! ولهذا التهكم جعل الشعراء يتقربون اليـه ويطمعون في اكتساب مرضاته . وهو يذهب تارة في نقده يكشف عن المعنى غطاء ثقيلا ، وطورا

يستجلي المعنى البعيد فى البيت ويكشف عن قصده، وتارة يفسد على الشاعر ما ذهب اليه ولم يفطن له! ومثل هذا النقد أقرب الى الروح الأدبيــة فى ذلك العصر وهو — بعد هـــذا — بعيد عن مثل ذلك الاختلاق الذى وضع على لسان الخنساء يوم نقدت حسان بن ثابت وأضعفت بنقدها اللغوى مواضع فخره! لأن الوثبات الأدبية الأولى فى الأمم لا ترنو إلى مثل هذه الفروق اللغوية الدقيقة التى لا تنشأ إلا عند رجال انصرفوا إلى اللغة وتدقيقها والتفريق بين فروقها، ولو أن هـذه الوثبات تلتفت إلى هذه الفروق لفتات كثيراً من روح نشاطها وأخمدت كثيراً من نار إبداعها. ويمتاز ابن أبى عتيق بثقافته الغنائية، ومثل هـذه الثقافة ترقق الذهن وتلطف الحواس وتجمل للبيت المنظوم قدراً خاصا. وقد كانت هذه الثقافة الغنائية عنده سليقة طبيعية. ولقد مر ذات يوم بمعبد وهو يغنى — وكان طفلاً — فقال: « إن عاش معبد كان مغنى بلاده » وعاش حتى رأى صدق نبوءته. ويمتاز بهذه الروح الخفيفة التى لا يستغنى النقد ولا الناقد عنها. ويدل على ذلك مواقف كثيرة

منها أن عمر بن أبى ربيعة شبب بزينب بنت موسى الجمحية بقصيدته:

يا خليلى من ملام دعانى ... وألما الغداة بالأظعان

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبى عتيق ذكرها عنده ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر. فبلغ ذلك ابن أبى عتيق فلامه فيها وقال له: أتنطق الشعر فى ابنة عمى؟ فقال عمر

لا تلمنى، عتيق! حسبى الذى بى ... إن بى يا عتيق ما قد كفانى

لا تلمنى، وأنت زينتها لى ... أنت مثل الشيطان للانسان

فقال أبو وداعة السلمى منكراً على عمر التشبب بها « لا أقر لابن أبى ربيعة أن يذكر امرأة من بنى هصيص فى شعره » فأجاب ابن أبى عتيق « لا تلوموا أبا وداعة أن . . . من سمرقند على أهل عدن » ومن خفة روحه أن سمع عمر ينشد قصيدته

ومن لسقيم يكتم الناس ما به ... لزينب نجوى صدره والوساوس

ولست بناس ليلة الدار مجلساً ... لزينب حتى يعلو الرأس رامس

خلاء بدت قمراؤه وتكشفت ... دجنته، وغاب من هو حارس

وما نلت منها محرماً غير أننا ... كلانا من الثوب المورد لابس

قال عتيق: أمنا يسخر ابن أبى ربيعة، فأى محرم بقى؟ فاعتذر عمر، فقال له عتيق: يا عاهر! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة. فانظر ما كان أبعد هذه الروح فى كشف المستور، وما أخف روحها فى التعبير عنه

ولقد يثب فى تهكمه من الأدب إلى السياسـة ويضربهما ويصيبهما بحجر واحد ويكون تهكمه فى هذا الموقف الدقيق بليغاً ما بعده أبلغ! سمع عمر ينشده قوله

فأتتها طبـة عالمة ... تخلط الجد مراراً باللعب

إن كفى لك رهن بالرضا ... فاقبلى ياهند! قالت: قد وجب

فقال له عتيق: إن الناس يطلبون خليفة مذ قتل عثمان فى صفة قوادتك هذه يدبر أمورهم فما يجدونه. فماذا يستطيع الخيال أن يزيد على هذا التهكم؟ ويسمع عمر ينشده قوله

حبذا أنت يا بغوم وأسما ... وعيص يكننا وخلاء

فقال له: ما أبقيت شيئاً يتمنى يا أبا الخطاب إلا مرجلاً يسخن لكم فيه الماء للغسل. ولا أدرى كيف يوفق بين محرم وطاعة إلا التهكم وحده؟

ويسمع عمر ينشده قوله:

ليت ذا الدهر كان حتما علينا ... كل يومين حجـة واعتماراً

فأجابه عتيق: الله أرحم بعباده أن يحمل عليهم ما سألته ايتم لك فسقك! وهكذا تجد أنه يتصـدى لعمر لا لأنه يضمر لعمر مقتاً أو كرهاً، ولقد كان لعمر فى نفسه منزلة لم ينزلها غيره من شعراء عصره وهو الذى تنبأ بنصف بيت كان فى خاطر عمر

قال عمر: لا تلمها وأنت زينتها لى

فأجاب عتيق: ... أنت مثل الشيطان للانسان

فقال عمر: هو والله!

فقال عتيق: إن شيطانك ورب القبر ربما ألم بى فيجد عندى من عصيانه خلاف ما يجده عندك من طاعة، فيصيب منى وأصيب منه

ولعمر كما ذكرت فى نفسه منزلة خاصة إذ يرى فيه المثل الأعلى للشعر، اليه يسمو الشعراء، وبشعره يقتـدى الشعر. ولقد كان يعرف شعراء عصره منزلة عمر عند ابن أبى عتيق. فـكان يأتيه من يحاول مناقضته أو مجادلته فيه، وكان الشاعر يأتى بأبيات يتحدى شعر عمر، ولا أعلم شاعراً انثنى سالماً من نقد ابن أبى عتيق، ولا أعلم واحداً استطاع أن يجرح له حكماً أو نقداً

(وبه الزور) البقية فى العدد القادم

خليل هنداوى

فى الحيـــاة

للأستاذ السيد محمد زيادة

لست أكتب هذا لأكتب ؛ وإنما هى شكوى أطرحها هنا . . . أما طرفها الأول فهو أنا ، وأما طرفها الثانى فلا أدرى أهو شعورى المرهف لكل كبيرة وكل صغيرة تمرُّ به ، أم هو وجدانى المستوعب دائماً كلَّ ما فىَّ وكل ما أنا فيه ، أم هو نفسى المتفتحة لكل ما ينتهى إليها من أمرها ومن أمر غيرها ! ! . فأنى فى هذا الشعور بهذا الوجدان مع هذه النفس أعيش فى الدنيا كسفينة المستكشف عملها فى اليمّ أن تظل حائرة على وجه اليم فلا تكاد ترسو إلى شاطئ إلا لتنشد غيره ؛ ويتملك رأسى خيالٌ يقظ لا يهجع . ويقظة الخيال شقاء من الفن فهى شقاء فى كل مواقع الحس لكل نواحى الحس

وأرانى منكوباً بهذا الخيال مرزوءاً بهمّه ، ثم أرانى أحبه ولا أحيا بغيره . . . فكأنما أنا بين بليّتين فيهما مشكلتان لا حل لها فلا نجاة منهما . . .

وأحس أننى قد قدر علىّ أن أعيش هكذا حتى أموت هكذا ؛ فما أستريح يوماً من سعى الخيال وراء ما يعنى ومالا يعنى ، ولا أقصر يوماً عن التفكير فى صوره التى يستخرجها من صور الحياة . أُرانى مقطوعاً من قمة جبل محطوطاً عند سفحه ، وأريد أن أرى وأنا عند السفح ما أراه وأنا فى القمة ؟ . . أم ترانى أخطأتُ إذ خلقتُ لتحتوينى الدنيا فظننت أننى خلقت لأحتويها ؟ . .

* * *

أمشى فى الطريق فأرى قصاباً يمر بسكينه مرتين على رقبة ديك كبير ، ثم يقذف به بعيداً ؛ فيقف صامتاً تتدفق الدماء من عنقه ، وتزوغ عيناه فتارة تشخص إلى القصاب ، وتارة تتطلع إلى الصبية الملتفين حوله يشهدون مصرعه ، وتارة تنظر إلىّ وكأنها تقول كلاماً ، ثم يرقص الديك رقصة الموت إذ ترنّحه المنية ، ثم يرتمى على الأرض . . . فألقى عليه نظرة ساكنة ثم ألتفت عنه وآخذ سبيلى فاذا هى على غير ما كانت عليه ، وكأن الشارع بما فيه من سابلة وما يحفه من مبانٍ خلوةٌ هادئة فى وهدة غارقة بين نجدين . فأستعيد صورة الديك مضطرباً ثم مذبوحاً ثم هامداً فيخيل إلىّ أنه كان وقت ذبحه يقول : الآن قد آمنتُ بأننى ما خلقت إلا ليأكلنى من كان يطعمنى . .

ثم أغيب عن الوجود غيبة ، وأظل أفكر ويشغل بالى التفكير . وقد يستنفد هذا من وقتى ومن ذهنى ما أنا فى حاجة إليه لشؤونى

* * *

وأنطلق مع صديق لى إلى ناحية المروج فى نزهة خلوية فتقابلنا على الأرض نملة تسعى ، فيدوسها الصديق بقدمه عامداً إلى قتلها ؛ ولكنه يتركها تتلوى فلا هى بالحيّة ولا هى بالميتة ، فيشجر بينى وبينه شقاق فى الرأى حول فملته . . . أريد أن أثبت له أنه مخطئ وأن الله لم يجعله على الأرض مبيداً للحشرات ، ويريد هو أن يثبت لى أنه مصيب وأن الله لم يجعلنى على الأرض مرشداً للناس . وبطول الخلاف بينى وبينه ، فلاهو مقتنع بأن عمله هذا قسوة ولا هو مقنعى بأن عمله هذا رقة ؛ فأضطر إلى السكوت على مضض وأمشى مشفقاً على النملة المتوجعة ، متألماً لطغيان القوة على الضعف ، متعجباً لاعوجاج معنى الحياة ، حاملاً من إشفاقى وتألمى وتعجبى ثورة على صديق . . . لقد ديسَتْ النملة وتحطمتْ وبقيتْ تتعذب حتى تموت فماذا جرى منها حتى نَستحلَّ ما جرى عليها ؟ . . وأين الرحمة ؟ أين الرحمة ؟

وأظل أتغيظ ويملأ الغيظ نفسى ، وقد يذهب هذا من سرورى ما أنا فى حاجة إليه لنفسى

* * *

ويصادفنى فى الطريق رجل كسير مسكين يترقرق الدمع فى عينيه ويكاد يطفر ، وتجول الحسرة الصامتة فى جبينه وتكاد تتكلم ؛ فتلتقى عيناى بعينيه فى موضع الفاقة من هيكله ، ثم يلتقى شعورى بشعوره فى موضع الألم من نفسه ... وأراه يتلفت عن يمينه وعن شماله متفرساً فى وجوه المارين به من الزوارق اللاهية بالصخرة الحزينة ، فأذهب أتصور نفسى بائساً بؤسه حائراً حيرته واقفاً ، وأمكث أتحرى فى مسارح شعورى ما كنت أقوله لنفسى وما كانت نفسى تقوله لى ... حتى أسمع فى وجدانى هذا الحديث : كنت أقول لنفسى : أنا جائع فهل من هؤلاء الناس السعداء من يعرف الجوع ؟ وهل منهم من يرده ؟ ... وتقول لى نفسى : أمسك على الطوى فليس بين الناس من يرجى ، وليس

غير الله من يُسأل ... فأقول لها وهل المحسن من الناس إلا يدٌ من الله تمد بالحسنة ؟ ... فتقول لى : يد الله لا تنتظر السؤال لتعطى ...

ويتمطط حديث الوجدان ويطول ، وأظل أتحسر ولا أستطيع إلا أن أتحسر ؛ وقد يستغرق هذا من وجدانى ومن خاطرى ما أنا فى حاجة اليه لعملى

* * *

وأجلس فى غرفتى مسهداً فى هدأة الليل تشرف بى جلستى على دور ومن ورائها حقول ومن ورائها ما لا يرى ... فتذهب عينى إلى مسارب الفكر ، ويغوص فكرى إلى أعماق الكيان . فماذا أجد هناك ، وما تحمل نفسى من هناك ؟ !

أجد هناك إرادة الحياة تغالب إرادة الموت فتتجاذبان روح الانسان ، والانسان بينهما عاجز لا حيلة له ، ضعيف لا قوة فيه ، مسخر لا رأى عنده ... وما تزالان تصطرعان حتى تهتديا إلى حل تصطلحان عليه ، هو أن يموت الانسان جزءاً من اليوم على قدر استعداده للخمود والموت ، ويحيا بقية اليوم على قدر استعداده للعمل والحياة ؛ وتتفقان على أن تسمى تلك الموتة اليومية الصغيرة بالنوم ، فيقال نام .... حتى تعافه الحياة فتنزل عنه للموت فيقال مات ...

وتحمل نفسى من هناك كلمة الفناء ومعها كلمة الألم ؛ وأقول لنفسى : حقاً إن هذا الذى نسميه النوم ما هو إلا راحة أصغر من راحة ، فهو موت أصغر من موت . . . ياعجباً ! ! أهكذا جُعل الموت على رقابنا حتى لم تخلُ منه الحياةُ نفسها ؟ ! أهكذا خُلقنا لنموت ونحيا كل يوم ثم نموت فى يوم فلا نحيا ؟ ! ثم أقول : ياويلتاه . . . لن ألبث إلا قليلاً حتى أكون فى عداد هؤلاء الأموات الذين تركوا الدنيا وما يزالون فيها . . فمنهم من يبعث ليأرق ثم يموت ، ومنهم من يبعث ليشرب ثم يموت ، ومنهم من تدخله موتته الصغرى فى موتته الكبرى فلا يبعث إلا يوم الحشر . . .

وأظل أتأمل وأتوزع بين التأملات ؛ وقد يشغل هذا من بصيرتى ومن إدراكى ما أنا فى حاجة إليه لقلبى

* * *

وآوى إلى مضجعى قبيل الفجر مهدماً كالقادم من سفر طويل ، مكدوداً كالفارغ من عمل شاق ؛ وألقى برأسى على الوسادة ثقيلاً كالحجر ، ساخناً كالأتون ؛ ممتلئاً بما أفرغت فيه المشاهد والمشاعر من صور طول النهار ومعظم الليل . . . وفيما أنا أستشعر الخلو ، وألتمس الاستقرار ، وأستكفى محى عناء التفكير ، وأقنعه بضرورة الرقاد . . . يطرق مسمعى صوت بوم ينعب ، وأنا لا أمقت كما أمقت البوم طائراً نافعاً أو ضاراً ؛ فأنهض من فراشى لا لأغلق النافذة دون ذلك الصوت الكريه البعيد فأزيد بعده أو أصده ؛ وإنما لأطل من النافذة فأقترب من ذلك الصوت الكريه البعيد فأسمعه جيـــداً لعلنى أفهم غموضه فأفسره . . .

وتمر من الليل فترة وما تكاد تنقضى حتى أجدنى قد انقلبت عاطفا على البوم واجداً فى نعيبه جمالاً ولذة ؛ وما تغير هو حتى صار محبوباً ، وما تغيرتُ أنا حتى صرت أحبه .. ولكننى إذ أفتح لسماعه آذان نفسى أسمعه كالمغنى ، وإذا أفتح لغنائه آذان عقلى أتسمع فيه نداء المحب المشتاق للحبيب الغائب ...

وأظل ألقى على نفسى فى أمر البوم ونعيبه وشؤمه السؤال بعد السؤال ؛ وقد يأخذ هـذا من راحتى ما أنا فى حاجة إليه لجسمى

* * *

وهكذا أرانى منكوبا بهذا الخيال مرزوءاً بهمه ، حتى ليقودنى إلى جنون شعرى ثائر يفقدنى لذة التمتع بظاهر الكون وجماله فى البحث عن حقيقة الكيان وأسراره

والعزيز على هو أنى لا أملك الخلاص من الخيال ، فأنا لا أملك الخلاص من هذا التعب — اللهم إن كان هـذا من فطرة الشعر فلبئست الفطرة ، والخير منها فطرة الجمود والبلادة

إن من الناس أناساً يعيشون فى هذه الحياة ليعيشوا فقط ؛ لا فكر فى أدمغتهم ، ولا حرب فى عقولهم ، ولا نصب فى أفئدتهم ... كأنما خلقوا جسوماً بغير قلوب ، ولكنهم سعداء لأنهم يشعرون بأنهم سعداء !!

أريد أن أجرب هذه السعادة فأطرح هموم الخيال ، وأنسى خيال الهموم ، وأعيش بظاهر ما أرى .. أريد أن أفهم ولو يوما واحداً أننى سعيد وإن فهم الناس فى ذلك اليوم أننى شقى

(طنطا) السيد زيادة

بغـــــير عنوان ...

[إن وجدتم فى هذه الـكلمة صراحة فى الوصف ، فلا تلوموا الطبيب فأنه يصف المرض ، ليعين الدواء]

للأستاذ على الطنطاوى

كان شاباً غريراً نقاً جميلاً ، صبوح الوجه ، متأنثاً ، قد أصيب بمرض التجمل ... فلم يكن يجىء إلى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس تزف إلى بعلها ، قد صفف شعره ودهنه وعطره ولبده وعقربه على صدغيه ، وحلى وجهه وصقله ، وصنع به ما لست أدرى ... فبدا أبيض أحمر مشرقاً مجلواً صقيلاً ، كأنه صفحة مرآة ... وكشف عن أعالى صدره ، وأحاط عنقه بهذه العقدة التى يفتن فى عقدها واختيار لونها واتساقها مع الحُلة التى يلبسها افتناناً .... ولا يزال أبداً يمدّ يده إليها يتلمسها ، ويصلحها ويطمئن عليها ، ثم يحرك رأسه حركة غنجة يردّ بها عقارب صدغيه إلى مكانها !

وكان واضح الجبين ، أزجّ الحاجبين حتى كأنهما قد خطا بقلم ، أنجل العينين أشهلهما كأن لهما لون السماء وعمق البحر ، وكأنهما تستجديان الحب ... إذا نظر غض الطرف من الحياء ، ودانى بين جفونه ، ورقت عيناه الناعستان فقالتا كلمة فلم تتم ، فأتمها فمه القانى الصغير وشفتاه المضمومتان ... واذا تكلم تكلم بصوت لين حالم سكران ، كأن ألفاظه تقول شيئاً ، ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر ، تقول : إن رجولة صاحبى رجولة مزورة ! واذا مشى تثنى وتخلع وتكسر ، وماج جسمه موجاً ، وذهب كل عضو منه فى ناحية ، كأن جسمه متفكك ، قد تقطعت أوصاله وفصمت عراه وانحلت لوالبه .... وإذا دعوته أقبل الى يتهادى ويميل ، فاذا وصل الى حيث أكون ، وجد أقرب متكأ فاستند عليه ، كأنه بناء لا يقوم الا اذا اسندته بدعامة ، واذا كلمته خجل كأنه فتاة فى الخدر ، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلعه الخجل ، فكنت أزعق فى وجهه من الغيظ ، ثم أطرده طرداً ...

ولم يكن ينصرف الى علم أو يقبل على درس ، لأن عقله قد سال على جوانب جسمه خرقاً وثياباً ، ولم يبق منه فى داخل ما ينفع لعلم أو درس ، فهو دائماً ينظر فى عطفيه ، ويتأمل ثيابه ويخرج من جيبه مشطه ومرآته ، ولولا بقية من حياء لأخرج أبيضه وأحمره وقلم شفتيه ...

وكنت أراه فى باحة المدرسة فأراه غريباً عن هؤلاء الشباب لا يطيق حراكا ، ولا يحسن لعبا ، ولا يدفع عن نفسه اعتداء ، وما فيه من الرجولة الا اسمه وبدلته

* * *

وحاولت اصلاحه ، وتعهدته بالنصح والارشاد ، فكنت كمن ينفخ فى غير ضرم ، فأيست من اصلاحه وكرهته وأبغضته ، وجعلت أزوى بصرى عنه ، وأتناساه وأهمله ، ثم افتقدته فلم أجده ، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة

ومرت أسابيع ، ثم رأيت فى مكانه طالباً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية ، يلبس الثوب العسكرى ، وعلى وجهه طابع الرجولة : له شاربان كاملان ، وأثر اللحية ظاهر على خديه ، والقوة والصرامة بادية فى عينيه وملامحه ؛ وكان قوى النظرات ، صماقا جهير الصوت ، ذكياً مقبلاً على الدرس ، فطناً ألمعياً ؛ وكان سريع الحركة ، جم النشاط ، اذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة ، يطأ الأرض وطأ شديداً ؛ وقد نصب قامته ورفع رأسه ، فاذا قام بين يدى قرع رجلاً برجل ثم رفع يده بالسلام لا كما يرفعها مثلى أو مثلك ، بل كما يرفع يده الجند بالسيف يستله من قرابه ، واذا كلمته أجاب بجرأة وأدب ؛ وكنت أراه فى ساحة المدرسة ، فأراه على اجتهاده واقباله على العلم ، قوياً نشيطاً يصارع الطلاب ويباطحهم ، فاذا تمكن من منهم وعلا عليهم عفا عنهم وأبقى عليهم ، فكنت أعجب من قوته ونبله ، وعلمه وفضله ، وأكبر فيه هذه الصفات

* * *

ثم اننى أحببت أن أشجعه وأضرب منه للطلاب مثلاً ، فتكلمت وأثنيت ، وقلت : كم بين هذا وبين ذاك من فرق ...!!

فصاح الطلاب : ومن هذا ومن ذاك ؟ انهما شخص واحد !

قلت : ويحكم ! فأى معجزة هذه التى بدلته شخصاً آخر ، وأنشأته انشاء جديداً ؟

قالوا : يا أستاذ ... إنه تدرب أسابيع على الجندية ... ...

(بغداد) على الطنطاوى

في الموسيقى

إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب

للأستاذ محمد زروقي

سيدى الاستاذ :

لا أدرى إذا كانت أعمالك الكثيرة تسمح لك بتوجيه بعض اهتمامك الى ملاحظاتى الآتية ، كذلك لا أدرى إذا كانت وجهة نظرى تبدو لك على صواب . وبالرغم من ذلك فانى أحسن الظن بك ، وأسجل هنا أنى آمل منك أن تتنازل لسماع صوت متواضع من بعيد لشخص من أكثر المعجبين بك والمتحمسين لك

واسمح لى بادىء ذى بدء أن أوضح لك نقطة هامة راجياً منك العفو وحسن القبول

وليس لى أن أوجه خطابى الجرىء الى الأستاذ محمد عبد الوهاب الذى ليس لى شرف معرفته المعرفة الكافية ، ولكنى أوجهه الى فنانى المفضل ، الى ذلك الذى كثيراً ما أستمع اليه ، الى ذلك الذى يستطيع — كصديق حميم — أن يفتح لى قلبه بكرم فأرى وأميز قلبى منعكساً عليه

وهنا يخيل إلى أن معرفتى الدقيقة بالفنان — وهى ترجع الى مدة بعيدة — تحتم على ألا أخفى عنه شيئاً ، وإلا كانت بمثابة خيانة له . كما يخيل الى أن تبادل الشعور يجعل لى الحق ، وربما يتطلب منى البحث عن شىء من أخطائه والاحتجاج على بعض وسائله

بعد ذلك أبدأ — إذا سمحت لى — بأن أعبر عن الأسف الذى يعتورنى عند ما أسمع بعض مقطوعاتك المشهورة مثل « فى الليل » و « اللى انكتب » باللهجة المصرية ، فى حين أن لغة امرىء القيس والمتنبى هى التى كان يجب استعمالها إذا كنا نود أن نهدى الى أحفادنا مثل هذه الأعمال الخالدة . فذلك الذى أودع « يا جارة الوادى » فى أسطوانة يجب ألا يتقيد بحدود البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ، وأن يظل ضمن الحدود التى اختطها الفراعنة « فماذا تهم الزجاجة نفسها ما دامت تسكرنا ؟ »

وإنى أشارك « نيتشه » رأيه الذى يقول بأن العاطفة يجب أن يعبر عنها الصوت دون غيره ، وألا نعطى للكلام أكثر مما يستحق من الأهمية ، ولذلك فأننى أعطى الموسيقى نفس المرتبة التى يضعها فيها المفكرون : تلك المرتبة التى تحلها محل الكلمات العاجزة عند ما تكون هذه الأخيرة فقيرة وقاصرة أمام مطالب الحساسية القوية

الآن أنتقل الى الغرض الأساسى من خطابى :

حاولت فى بحث قصير كان موضوع إحدى المناقشات أن أوجد مقارنة بين الحساسية فى الغرب وبينها فى الوسط الذى أعيش فيه ، وذلك عن طريق دراسة أقوى وسائل التعبير عنها — ألا وهى الموسيقى — ولكى أعزز مناقشتى لجأت الى الأدب وتاريخه وشخصياته البارزة . وحينئذ أصبحت مدفوعا الى أن أقرر بأن الغرب قد تأخر الى القرن التاسع عشر ليشهد ازدهار « المذهب الرومانتيكى » أى تلك الحركة الفكرية والفنية التى تشبه أدبنا الى حد بعيد . ولذلك فان أوروبا لم تخلق إلا حديثاً ، وحديثاً جداً من يكمل ما بدأه عمر الخيام والمعرى والفردوسى . فالنفثة الحزينة المؤلمة التى بعثها الفيلسوف شبنهور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) هى التى ألهمت كل الموسيقيين الرومانتيكيين ، هؤلاء الموسيقيين الذين عالجوا مسائل القدر المعقدة ، وآلام الانسانية المحكوم عليها بالعذاب . وإن أشهر زعماء المتشائمين الغربيين ليس لهم أن يعلمونا شيئاً ، كما أن شوبان الذى قيل إن « توقيعاته ما هى الا دموع متساقطة على أصابع البيانو » لم يصل مطلقاً الى ما وصلت اليه أغانينا الحزينة حسب رأيى على الأقل

ولاشك فى أن الموسيقى ليست عالمية . فلن تستطيع أن تفهم « سيزار فرنك » كما يفهم نفسه أو كرجل مسيحى ، ولا « بتهوڤن » بدون دراسة عميقة للفلسفة الألمانية . وانى أحاول فى حكمى أن أتناسى الآراء التى انتقلت الى بالوراثة ، وأن أتحاشى التحيز والتعصب فى نقدى ، وأنا لا أنكر أن هذا العمل يتطلب منى جهداً عظيماً ، وتسامحاً كبيراً . ولكن دراستى المتواصلة والبعيدة عن المحاباة لشلر ومدام دستايل وشاتوبريان وبيرون وبودلير ، الذين أذكرهم هنا كقادة المدرسة الرومانتيكية ، لا ترسم لنا صورة جديدة أو أثراً يكون أجنبياً عنا حقيقة

بقى علينا أن نتساءل فى صراحة : أليست الموسيقى الغربية التى لا تسير الا فى المحيط النظرى (الميتافيزيقى) أكثر تأخيراً من موسيقانا ؟

إن أوروبا بمؤلفيها الموسيقيين فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين — برغم أعمال سترافنسكى — تظهر تخبطاً لا نهاية له فى محاولتها دراسة القضاء والقدر التى تتحكم فى رقاب الناس. فاعتبار هذه الحالة درجة من الكمال تستحق أن تحتذى كما يحتذى التقدم العلمى ونظرياته تكون غلطة ما أقبحها من ذلك الشخص الموهوب الذى يصدح على ضفاف النيل. فالبحث كذلك عن مناح جديدة فى الألحان الغربية واستخدام وسائل تعبيرها يعد منا رجعة الى الوراء

وقد ظهر لى أن محاولاتك تتجه يوماً بعد يوم نحو توافق الأصوات واخراج مجموعة متنافرة منها فى لحظة واحدة وبالتبعية محاولة التعبير عما يضطرم فى نفسك عما تستخلصه من ذلك

كانت النغمة الفردية الأوربية دائماً أبداً ضعيفة، فلا عجب أن نراها تلجأ الى تلك الأصوات المتجمعة ؛ هذه الأصوات تعبر عن أشياء متباينة، ولكنها تصدر فى وقت واحد لتنتج من ذلك تآلفاً فيما بينها . ولا أدل على ضعف السلم الموسيقى الغربى من اقتصاره على استعمال النغمتين فقط (ويلاحظ أن النغمة المنخفضة ترجع الى عرب اسبانيا) فى حين أن الفرس فى العصور الوسطى قد استعملوا ستا وثلاثين نغمة وأن الأندلسيين استعملوا أربعين منها، وأن الشرقيين بعكس المؤلفين الموسيقيين الحديثين لم يجعلوا ألحانهم تعتمد على قدرة آلاتهم وعلى الأخص على وضع علامات لها

وليست الرغبة فى استعارة آلات موسيقية عجمية «كموسيقى اليد» إلا وقوعاً منا فى نفس الخطأ الشنيع الذى وقعوا هم فيه وتجنياً منا على الموسيقى الشرقية

ومهما كانت محاولاتك جريئة وتستحق الاعجاب فيجب أن تعرف — فى رأيى المتواضع — كيفية الرجوع الى مصادر الأشياء، وأن تتساءل عن ماهية العوامل التى تهيىء الخلود لفكرة ما، وأن تفكر فى النتائج التى يصح أن تنتظرها من وراء هذا الاقتباس . وهنا يجب أن تعترف بأن قوانين الوراثة تلعب دورها الهام : فان «بولديبه» و «برليو» لا ينسبان فضل أعمالهما الى نفسيهما فقط . . . . لأنهما وضعا ألحانهما من ندى أميهما اللتين حصلتا عليها بدورهما ممن سبقوها، وهما ليستا إلا حلقتين من سلسلة طويلة

وليس من الغريب أن نرى وجوه الغربيين عند ما يستمعون الى موسيقانا وقد ارتسمت عليها تلك الابتسامة التى ترتسم على وجوهنا نحن عند ما نستمع الى الموسيقى الأولية . وهناك حقيقة أخرى أكثر خطرا، وهى أن الأوربيين لا يكادون يفهمون من أنغامنا الموسيقية إلا ما استعرناه منهم، وحيث أننا لم نوفق فى استعاراتنا فهم لا يحجمون عن الحكم على الجزء العربى منه بأنه ردىء

وهذا ما يدفعنى الى سرد أمثلة من خطواتك المحيرة غير الموفقة : «فبحارة الفلجا» أغنية روسية واقعية تعبر عن العذاب العقلى والجثمانى الذى كان يعانيه سكان قلب الروسيا، وقد أخذتها أنت بنفسك فى فلم «الوردة البيضاء» وهو فلم شعرى خالص : فالشقة بينهما بعيدة بعداً شاسعاً

و «ياشراعاً» وهى قصيدة مقدمة الى الملك فيصل عبارة عن نشيد يراد به مدح بلاد الرافدين، فهل يصح أن نقبل هذه النغمات التى تحرك العاطفة بدون شك، ولكنها خالية من الحمية والملاطفة التى يجب أن تكون عند مَنْ يريد أن يمدح ملكا محبوباً يعجب به ؟ ففى هذا النشيد نبحث عبثاً عن الحمية التى نراها فى نشيد «Le Marche du Prophéte» لميربيير الذى فيه يعبر عن الكثير من العظمة والنبل

وعند ما ننعم النظر فى مقطوعاتك الأخيرة نلاحظ فى حسرة شديدة بأن «الحركة» قد زادت فيها كثيرا بحيث أن الأذن تتساءل فى حيرة عما إذا كنت أنت حقيقة الذى ملأت اسطوانة «أيها العلم الخفاق» رقم ٩٩,١٠٤. (١)

(١) هذا الخلط غير المقبول بين ألحاننا والألحان الأوربية مما يستدعى مزيد الأسف وهو فى رأيى لا يختلف عن وضع المستردة فوق الكسكسى ليعطى له طعماً شهياً وهذه الحالة تذكرنى بالبضائع الغربية الرديئة التى كثيراً ما يضعها أغنياء المسلمين فى منازلهم : تلك البضائع التى تتنافر مع بدائع الفن وروائعه، أو مع سجاد بخارى القديم وسجاد القيروان والرباط والرسوم الدقيقة على النحاس المصنوع فى الأندلس وفى سورية

فهل يجب علينا إذن ألا نستوحى شيئاً عن الموسيقى الغربية ؟ لا بكل تأكيد . وليكن ذلك لمجرد الاطلاع فقط . فمن الضرورى أن ندرس هوجو ولامرتين وشكسبير ورابندانا ناجور وإبسن وكبلنج وتولستوى وسرفنتس لكى نفهم الآداب العالمية ، وهذه الدراسة ليست أقل لزوماً من إرسال أبنائنا الى الخارج لتمضية بعض الوقت فى « مدرسة الفنادق فى جرينوبل » أو فى معامل الاختبار للمراكز الصناعية فى « بربى » و « برمنجهام » وفى الأحواض البحرية فى « نانت » و « كيل »

ولكى أعزز رأيى هذا أذكر الحقيقة التاريخية الآتية : عند ما انتصر هرون الرشيد على الامبراطور نيقفور البيزنطى عام ٨٠٦ ميلادية نص فى معاهدة الصلح بينهما على شرط يلزم المغلوبين بتسليم العرب جميع المؤلفات التى خلفها القدماء والمحفوظات الموجودة فى دور الكتب بالقسطنطينية القديمة . وقد برهن العاهل العربى مرة أخرى على ذكائه الفائق وفهمه للحقائق ، فقدّر أن شعبه يجب أن يتفهم ويستوعب سريعاً كل المعارف التى وقف السابقون على أسرارها ، وأن العرب بدون مساعدة غيرهم لا يمكنهم تأسيس حضارة ثابتة ؛ ولذا يجب عليهم أن يستمينوا بمن تقدموهم من مصريين وكلدانيين ويهود وفرس وهنود ويونانيين ورومانيين وقرطاجنيين ، وأن يستفيدوا من معارفهم ، وأن يتوفروا على دراسة أوراق البردى واللوحات وتماثيل الآلهة . فبعد أن درس العرب العصور السابقة أمكنهم أن يضيفوا معارف من سبقوهم الى معارفهم الخاصة التى ستبقى على مدى الأيام

وكذلك اليابان : فما الذى فعله حزب التجديد عندما تربع فى دست الحكم عام ١٨٦٨ ؟ لقد بدأ بدراسة مبادئ الأحزاب الأخرى فى الدول المتمدينة

فاذا تحدثنا عن القلب ونشاطه والحساسية وطرق التعبير عنها وجدنا الأمر هنا مختلفاً عن ذلك ، وهذه النقطة الهامة هى محور بحثى : فالاحساس المتناهى ورد الفعل وتجسيم التأثيرات النفسانية لا يمكن أن تقارن بالمعارف التى يمكن اكتسابها

وهناك نقوش فرعونية تذكر بعض النصائح الموجهة من أم الى ولدها يوم أن عهدت به الى أستاذه . وهناك نقوش أخرى تعبر عن مثال خالد : ذلك هو ألم الأشخاص المحكوم عليهم بالعمل اليومى الشاق المضنى . فعليك أيها الأستاذ أن تبحث فى زوايا التاريخ عن ألحان أكثر إنسانية ! بل من السهل عليك أن تتخيل الأمهات فى هذه العصور البعيدة وهن يهززن مهود أطفالهن بنفس المحبة والعناية والحنان التى تبديها أمهات العصر الحالى . أليس من الخطل والنفاق أن نعتبر وقع الألم النفسانى الذى عاناه أسلافنا أخف على نفوسهم من وقعه علينا ؟ وإنى لا أجد صعوبة فى أن أتخيل الألحان الجميلة التى كانوا يعبرون بها ويصورون عواطفهم التى تتوثب من الألم

وللرجوع إلى الحديث عن محاولات التجديد أو فرنجة موسيقانا يمكننى أن أضرب مثلاً بأحد موسيقيينا الذى حاول منذ سنوات أن يعبر عن بعض مقطوعاتنا الشعرية بأوزان أوروبية ، فكان سبب نجاحه أنه قد استحدث شيئاً جديداً ولكنه كان نجاحاً قصير الأجل ، وسرعان ما أسدل النسيان ستاره على هذه المحاولة وحسناً فعل . وقد بدأ مغنى الجزائر الحالى أو « كاروزو شمال أفريقية » كما أطلق على نفسه بالقاء مقطوعات تحترم موسيقانا القديمة ، ويجب على أن أشير أثناء حديثى إلى أن طرق التلحين الأندلسية الاثنتى عشرة التى لا زالت مستعملة فى المدن الرئيسة بشمال أفريقية ليست إلا مخلفات وبقايا بالية فى حاجة إلى عيون عالم بالآثار — وأقصد أذان رجل موسيقى — لنكشف فى هذه البقايا عن عظمة القطوعات التى كانت تردد تحت أبواب الحمراء الرمرية ، أو تحت ظلال الأشجار الوارفة فى اشبيلية وقرطبة [1]

ومهما يكن من شىء فان استعمال هذه المخلفات القديمة لا يدخل كثيراً من التغيير على قواعد الموسيقى ، إذ أن فى ذلك محافظة على تراثنا القديم

ولكن للغرب سحره الأخاذ ما فى ذلك من شك ، لأن

---

(١) وإنى لا أستطيع أن أتكلم أكثر من ذلك عن الموسيقى الأندلسية وحالتها الراهنة إلا إذا أطلت كثيراً فى ملاحظاتى التى ذكرتها الآن . ومع ذلك فإنى أشير هنا إلى أن العرض السريع الذى لم يسبقه تحضير كاف لبعض نماذج من هذه الموسيقى الأندلسية فى مؤتمر الموسيقى الأخير المنعقد بالقاهرة لم يكن عرضاً صادقاً بل خيانة حقيقية لأن الجمهور الذى يجهل ما اكتنف عرضها من عوامل قد نظر إليها نظرة ليس فيها تقدير

مغنينا الجزائرى خضع لتأثير الأوبرا ، واستمع بسرور إلى الألحان القصيرة من الأوبريت والصالات ؛ تلك الألحان التى طغت شيئاً فشيئاً على مقطوعاته حتى أصبحنا الآن نلمس فيهـا أكبر فشل فنى معيب

وقد سارت المرحومة أنيسة يامنة الجزائرية فى طريق مخالف لذلك كل المخالفة . فهذه الموسيقية انتهجت نهج الغناء القديم الذى يمكن تقدير أهميته ، واستندت إلى شعورها النسوى القوى وخبرتها الموسيقية الطويلة . وكانت تذهب للاقامة بين أفراد الطبقة الفقيرة وبين العرب الرحل لتغترف من شعورهم البسيط الخالى من كل زخرف ثم تعود بمحصول غنى متنوع وفير ، وبعد ذلك تستسلم لتفكيرها ولأبحاثها وتستمع الى نفسها وتستوحى صوت أجدادها ثم تترك قلبها يعبر عما فى خلدها بألحان تخلب الألباب

وإنى أعرف الكثير عن الطريقة المخالفة لتلك التى يتبعها الأستاذ ، وبمعنى آخر ترجمة الغربيين واقتباسهم لموضوعاتنا ؛ وأسوق اليك هنا مثـلا مشهورا لأوضح وجهة نظرى : أقام المؤلف الموسيقى سان سانس حقبة طويلة فى الجزائر ، ولذلك يقوم مؤلفه المشهور « شمشون ودليلة » على طريقـة التلحين الأندلسية « زيدان » . ولا أردد فى أن أضيف الى هـذا المثل مثلا آخر فيما فعله ف . دافيد الذى أمكنه بعد رحلة طويلة إلى الشرق أن يخرج مؤلفيه : « الصحراء ، ولالاروك » . وكذلك فعل الاسبانيون وكذلك « بيزت » فى « كارمن » (١٨٧٠) وغير هؤلاء من الذين يدينون بالشىء الكثير الى الأندلس فى القرون الوسطى . ومثل هؤلاء أيضا موسيقيى وسط أوربا مثل است وشوبر وموزار وبعض موسيقيى أمريكا الجنوبية أيضاً الذين وجدوا فى ألحاننا مورداً فياضاً لا ينضب

والآن أعود متسائلاً إذا كان العكس ممكناً : فتقدم الموسيقى الغربية — فى رأيى — قد بدأ يصل إلى درجة التشاؤم التى تكلمت عنها من قبل . وإنى لا أفـكر لحظة فى أن أحط من شأن « الأرلزين وفيـدليو ولوهنجرين » ولا أريد إلا أن أضع كل موسيقى فى الوضع المناسب له . وأنى لأذكر هنا ما قاله المسيو « أندريه كوردى » فى مؤلفه « مشاهد الموسيقى المصرية » :

صراع دائم .. الموسيقى العربية تحتضر كل يوم باتصالها بالموسيقى الغربية ؛ وستموت الموسيقى الشرقية إن عاجلاً وإن آجلاً إذا لم تثابر على مقاومة الموسيقى الأوربيـة الزاحفة عليها بموسيقى شرقية بحتة

قد أكون فيما كتبته أعبر عن أمنية لى . فالفنان الكبير الذى لمصر فخر الاحتفاظ به ، والذى له تلك المهارة الفائقة التى استطاع أن يهضم بها بعض القطع الخالدة فى الموسيـقى الرومانتيكية ، لن يعجز بفضل ما وهبه الله من حسن اختيار أن يوفق فى أعماله القادمة فى مزج الموسيقى العربية بالافرنجيـة بدلاً من المجهود الضـائع فى اخراج ثمرة غير ناضجة لا يهضمها الذوق العربى . وإنى أتمنى له التوفيق المطرد والفوز المظيم

(تلمسان) محمد رزوقى

الفصل فى نبوة المتنبى

من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٣ —

ولنعد إلى النظر فى قصيدة المتنبى :

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود

فقد ابتدأها المتنبى بالنسيب على عادة الشعراء ، وتدله فى ذلك النسيب كل التدله ، وقتل نفسه فيه من فرط الصبابة والوجد ، ثم ذكر أيام الصبا والجهل وحنَّ إليها ، وتفنن فى وصف الحسان اللاتى نسب بهن أيما تفنن

ولم يكفه ذلك التدله فى النسيب ، والتفنن فى وصف النساء ، بل عمد إلى الخمر ينسب بها أيضاً ، ويتدله فيها بأكثر مما تدله فى نسيبه

ولا شك أن هذا الأسلوب فى النسيب ووصف الخمر ، لا يتفق مع ذلك الأسلوب الذى ينسب إليه فى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن يحصل هذا وذاك من شخص واحد ، لاختلاف نزعتهما ، وتباين المشارب فيهما ، واتجاه كل منهما إلى غاية تخالف الأخرى ، فهو فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة رجل جد وصلاح ، مبعوث إلى هذه الأمة الضالة المضلة ، ويريد أن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ؛ وهو فى قرآنه يدعو إلى الايمان ، ويحارب الالحاد ، ولكنه فى شعره هازل خليع ، يدعو إلى الفسق والفجور ، وينغمس فى حمأة الضلال ، ويبلغ من أمره أن يستهتر بالايمان والتوحيد إلى هذا الحد فى قوله :

يترشفن من فمى رشفات هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وهذا البيت يذكر فيما يؤخذ على المتنبى من الالحاد فى الدين فكيف يتفق أن يأتى فى شعره وهو فى عهد يدعو فيه إلى التوحيد ويحارب الألحاد ويزعم فيه أنه نبى مرسل ؟

ثم يبلغ أيضاً من أمره عند ما أخذ فى وصف الخمر أن يقول فيها هذا القول :

كلُّ شىء من الدماء حرامٌ شربُهُ ما خلا دم العنقود

فأى نبى هذا الذى يحلل الحرام ويحرم الحلال ؟ وأى ضلال يحاربه وهو يدعو إلى هذا الضلال ؟

وقد جاء البيت الأول فى بعض الروايات :

يترشَّفن من فمى رَشفاتٍ هُنَّ فيه حلاوةُ التوحيد

وهو فى هذه الرواية أخف فى الاستهتار من روايته الأولى وهى الرواية المشهورة

فلما جاوز فى قصيدته هذا كله ، ووصل الى مقصوده من الفخر بنفسه وشكوى حاله ، وحمل نفسه على تحمل الصعاب فى سبيل آماله ، كانت آماله أشياء أخرى دنيوية ، ولم تكن هى الآمال التى تنسب اليه فى دعوى النبوة ؛ فليس لهذه الآمال ذكر هنا ، ولا تشتم لها فيه رائحة ، وانما هو هنا رجل يسعى فى اكتساب المجد ، ويكد فى طلب الغنى والمال ، ويشكو من اخفاقه فى هذا الطلب مع كثرة سعيه فيه :

ضاق صدرى وطال فى طلب الرِّزْ قِ قيامى وقلَّ عنه قعودى

أبداً أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى سعود

وهو أبداً مولع بذلك الاستهتار حتى فى مقام الجد ، فاذا أمر بطلب العز لا يفوته أن يقول إنه خير من الذل ولو كان فى جنة الخلد ، وأن يفضله ولو كان فى لظى على الذل

فاطلب العزَّ فى لظى وذر الذ لَّ ولو كانَ فى جنان الخلود

فمثل هذا لا يصح أن يكون من شخص يدعى النبوة ، ويدعو الناس الى العمل الذى يوصلهم الى نعيم الله فى الجنة . ولا فرق بينه فى هذا وبين ذلك الشاعر الجاهلى الذى سبقه الى ذلك المعنى ، وكان له من جاهليته ما يهون من أمره فيه ، وهو ذلك الشاعر الذى يقول :

حكم سيوفك فى رقاب العذل وإذا بليتَ بدار ذلٍّ فارحل

دار النعيم بذلة كجهنم وجهنم بالعز أكرم منزل

وكذلك هذا الفخر لا يليق ممن يدعى النبوة :

إن أكن معجباً فعُجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورَبُّ القوافى وسِمامُ العدى وغيظ الحسود

وهكذا نخرج من دراسة هذه القصيدة بيقين لا شك فيه ، أنها لا تتفق مع تلك النبوة المزعومة للمتنبى ، فاما أن تكون هذه القصيدة مختلقة عليه ، وإما أن تكون تلك النبوة مكذوبة . وإذا كانت هذه القصيدة للمتنبى باتفاق الفريقين المختلفين فى أمر نبوته ، فأن تلك النبوة تكون هى المكذوبة قطعاً

* * *

وهذه قصيدة ثانية للمتنبي ، قالها فى ذلك العهد الذى ينسب إليه فيه إدعاء النبوة :

ضيفٌ ألمّ برأسي غير محتشم … والسيفُ أحسن فعلاً منه باللمم
ابعِدْ بعدتَ بياضاً لا بياض له … لأنت أسودُ فى عيني من الظلم
بحبِّ قاتلتي والشيبِ تغذيتي … هواى طفلاً وشيبي بالغ الحلم
فما أمرُّ برسم لا أسائله … ولا بذات خمار لا تريق دمي
تنفّستْ عن وفاءٍ غير منصدع … يومَ الرّحيل وشعب غير ملتئم
قبّلتها ودموعي مزجُ أدمعها … وقبّلتني على خوف فماً لفمِ
فذقت ماء حياةٍ من مُقبّلِها … لو صاب ترباً لأحيا سالف الأمم
ترنو إليّ بعين الظبي مُجهِشةً … وتمسح الطَّلّ فوق الورد بالعنم
رُويدَ حكمكِ فينا غير منصفةٍ … بالناس كلِّهم أفديك من حكم
أبديتِ مثل الذى أبديتُ من جزع … ولم تُجنّي الذى أجننتُ من ألم
إذن لبزّكِ ثوبَ الحسن أصغرهُ … وصرتِ مثلي فى ثوبين من سقم
ليس التعلّلُ بالآمال من أربي … ولا القناعةُ بالإقلال من شيمي
ولا أظن بناتِ الدهر تتركني … حتى تسدُّ عليها طُرقها هممي
لمِ الليالي التى أخنت على جدتي … برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى أناساً ومحصولي على غنم … وذكرِ جودٍ ومحصولي على الكلم
وربَّ مال فقيراً من مُروّته … لم يُثرِ منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصلُ مني مثل مضربه … وينجلي خبري عن صمّة الصِّمم
لقد تصبرتُ حتى لات مَصطبر … فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركنَّ وجوهَ الخيل ساهمةً … والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدم
والطعنُ يُحرقُها والزجرُ يقلقها … حتى كأنَّ بها ضرباً من اللمم
قد كلّمتها العوالي فهي كالحةٌ … كأنما الصّابُ معصوب على اللجم
بكل مُنصلتٍ ما زال مُنتظري … حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخٍ يرى الصلوات الخمس نافلةً … ويستحل دمَ الحجاج فى الحرم
تنسى البلادَ بروقَ الجوّ بارقتي … وتكتفي بالدم الجارى عن الدِّيم
ردِي حياضَ الرّدى يا نفس واتركي … حياض خوف الردى للشاء والنَّعم
إن لم أذرْكِ على الأرماح سائلةً … فلا دعيت ابن أمّ المجد والكرم
أيملك الملكَ والأسياف ظامئةٌ … والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآني ماءً مات من ظمأٍ … ولو مثلتُ له فى النوم لم ينم
ميعادُ كلّ رقيق الشفرتين غداً … ومن عصا من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم … وإن تولّوا فما أرضى لها بهم

وقد افتتح المتنبي هذه القصيدة بذم الشيب الذى ظهر فيه قبل أوانه ، فحل فى رأسه ضيفاً ثقيلاً غير محتشم ، وبدا بياضه فى عينه أسود من الظلم ، وقد اجتمع عليه بذلك أمران صارا له كالغذاء : حب مبكر فى عهد الطفولة ، وشيب مبكر فى بلوغه الحلم . ولا شك أن من يتبرم بالشيب هذا التبرم لا تحدثه نفسه بادعاء النبوة وما يلزم لها من إظهار الصلاح والتقوى ، والفرح بالشيب إذا أقبل ، لأنه كما قال بعض الحكماء : زهرة الحنكة ، وثمرة الهدى ، ومقدمة العفة ، ولباس التقوى . وأين قول المتنبي فى هذا من قول دعبل بن علي

أهلاً وسهلاً بالمشيب فإنه … سِمة العفيف وحلية المتحرّج
ضيف ألمَّ بمفرقي فقريتـه … رفض الغواية واقتصاد المنهج

فمثل هذا هو الذى كان يقوله المتنبي فى الشيب لو صح ما ينسب اليه فى دعوى النبوة ، وهو الذى يتفق مع الغاية التى تنسب اليه فيها

ثم مضى المتنبي يتغزل على أسلوبه فى قصيدته الأولى ، يسأل كل رسم ، ويجرى فى حب متنقل وراء كل ذات خمار ، وهو حب شهوى كحب ابن أبي ربيعة وغيره من الشعراء الذين تستهويهم كل ذات جمال ، ولا يعرفون فى حبهم شيئاً من الوفاء ، بل يتحدثون عن وفاء النساء لهن ولا يفون ، كما تحدث المتنبي عن ذلك فى قوله :

تنفست عن وفاء غير منصدع … يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

وقد يتفق لنبي أن يسمع هذا النوع من الغزل إذا كان بريئا كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم فى سماعه قصيدة كعب بن زهير

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول … متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا … إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة … لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت … كأنه منهل بالراح معلول
إخالها خلة لو أنها صدقت … موعودها أو لو ان الوعد مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها … فجع وولع وإخلاف وتبديل

ولكن فرقا كبيرا بين سماع هذا النوع من الغزل وإنشائه ، ورب شيء يقبل من شخص ولا يقبل من شخص أعلى منه ،

ورب حسنات فى ذلك تعد سيئات ، ورب سيئات تعد حسنات .

ولا شك أن مثل هذا الغزل لا حرج فيه على كعب رضى الله عنه ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاعتبار ، وإن لم يكن من شأنه هو أن ينشئه

ثم اقتضب المتنبى نسيبه اقتضابا ، وابتدأ مقصوده من قصيدته بقوله :

ليس التعالل بالآمال من أرَبى ... ولا القناعة بالاقلال من شيمى

فاذا هو فيه طالب دنيا لا أكثر ولا أقل ، وإذا به لا يرضى فى ذلك بالقليل ، وينفر من صفة القناعة التى حث عليها جميع الأنبياء قبله

وهو فى ذلك أيضا ثائر على دهره الذى يفقر مثله على مروءته وشجاعته ، ويغنى سواه على فقره من المروءة والشجاعة ؛ ثائر على تلك الدول التى أقامها فى عصره خدم العباسيين الذين كانوا يجلبونهم أرقاء فيصبحون ملوكا على الناس ، فهو يقيم الدنيا ويقعدها من أجل تلك المهازل فى نظره ، ويرى نفسه أعلى شأناً من هؤلاء الخدم ، وأحق منهم بهذا الملك الذى استأثروا به لأنفسهم

وهو هنا لا يتحدث عن عدل وجور كما يتحدث فيما ينسب فى دعوى نبوته ، بل يتعطش إلى الحرب والقتال كما يتعطش كل فارس جبار يعشق سفك الدماء ونشر الفساد فى الأرض

ولا يتحدث كذلك عن إيمان وكفر ، بل يتحدث عن خدم أقاموا لهم ملكا هو أحق به منهم لما امتاز به من المروءة والشجاعة عليهم

ثم تراه لا يقلع فى هذه القصيدة عن استهتاره ، وأخذه فيما يدل على ضعف دينه ، فيقول

بكل مُنصلتٍ مازال مُنتظرى ... حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوت الخمس نافلة ... ويستحل دم الحجاج فى الحرم

فالذى يقول هذا لا يمكن أن يأخذ وسيلته إلى الناس دعوى النبوة ، لأنها تقتضى منه شيئاً آخر غير هـذا الاستهتار ، وتواضعاً فى القول غير هـذا التجبر ، واقتصادا فى الحديث عن النفس غير هذ الاسراف فى الفخر

وسبيل هذه القصيدة بعد هذا سبيل القصيدة السابقة فى القطع بكذب هذه الدعوى على المتنبى ، لأنها تظاهره فى ذلك العهد بخلاف المظهر الذى يظهر به فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة وادعاء مثل هـذه الدعوى من المتنبى فى علمه وذكائه تقتضى منه الحيطة فى أمره ، وتوجب عليه ألا يظهر بين الناس بهذا المظهر فى شعره ، حتى يصدقه الناس فى دعواه ، ويلتئم حاله فيما التئاما يخدعهم فيه

ويجب علينا بعد هذا أن نأخذ فى هذا اللقب بما نقله ابن جنى عن المتنبى نفسه ، وقد ذكرناه فيما سبق ، فلا نعيده هنا ، ولكنا نذكر فى ذلك مذهباً للأستاذ « محمود شاكر » رأى أنه أقرب إلى الصدق ، وأولى بالاعتبار ، وهو أن المتنبى نبز هذا النبز من أجل أنه كان فى أول أمره متورعا فى خلقه لا يخرج عن حدود الوقار ، متزمتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى إليها مقاده مترفعاً عن سفساف الأخلاق متمسكا بمعاليها ، آخذا نفسه بالجد الذى لا يفتر ؛ وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها ، فما كذب ولا زنا ولا لاط ، ولا أتى أمراً منكرا يؤخذ عليه ، أو يُزَنُّ به . واستمر على ذلك حياته كلها ، وخالف الأدباء والشعراء من أهل عصره فما شرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطراره فيما نرى لما حضر مجلسها . وكان الأدباء والشعراء فى ذلك الوقت أهل شراب ومعاقرة ولهو وهزل وباطل ، فلما وجدوا ما هو فيه من التعفف والتورع ، ووقفوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى شعره ، وتشبيه نفسه بهم ، نبزوه هذا النبز ، ولقبوه المتنبى يريدون المتشبه بالأنبياء

ولا شك أن هذا غلو من الأستاذ فى أمر المتنبى ، وقد روى عن بعضهم أنه عاشره فما رآه كذب ولا زنا ولا لاط ، ولكن هذا لا يكفى لأن يجعل منه الرجل الصالح الزاهد المتورع الذى يصفه الأستاذ محمود . على أن هذا الاشتقاق لا يدل على التشبه وإنما يدل على الادعاء ، وقد جاء فى القاموس (وتنبأ ادعى النبوة ومنه المتنبىء أحمد بن الحسين) وإنما يقال فى ذلك تأله ، لأن التأله التنسك والتعبد ، ولم يلصق هذا اللقب بالمتنبى إلا لأجل الكيد به ، وإيهام أنه ادعى النبوة ، ولهذا كان يكرهه المتنبى . ولو كان لهذه الأغراض المذكورة لفرح به وهش له ، والخطب فى هذا سهل بينى وبين صديقى الأستاذ محمود شاكر ، بعد اتفاقنا على أن هذه النبوة مختلقة على المتنبى ؛ وإنى لا أحب أن أثير فى هذا جدالاً بينى وبينه ؛ ولعله يتغاضى عن هـذا الخلاف القليل بيننا ، ليكون ما ذكرناه هو القول الفصل فى هذا الموضوع حقا

عبد المتعال الصعيدى

تاريخ العـــــرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصـــل الأول

— ٥ —

وإن نفس عاطفة الوطنية المتأججة فى صدر الهمدانى والتى بعثته على أن يخصص نفسه للبحث العلمى قد أوحت إلى نشوان ابن سعيد — الذى ينتمى من ناحية الأب إلى أسرة قديمة من أشراف اليمن — أن يتذكر الماضى الخرافىّ ويتملق بأحياء مجد أمبراطورية زالت معالمها ودرست آثارها . وإنه ليتغنى فى « القصيدة الحميرية » بعظمة وقوة أولئك الحكام الذين تبوأوا عرش أمته ، ويؤوّل فى روح إسلامية حقة حقيقية الفناء والحياة ، وحقارة المطامع البشرية [١] ، ومع أن هـذه القصيدة فى ذاتها قليلة القيمة فانها تعتبر وثيقة قيمة — نوعاً مّا — لاشتمالها على أسماء الملوك [٢] ، ومعها شرح تاريخى واف إمّا أن يكون كاتبه نشوان نفسه — وهذا ما يرجحه فون كريمر — أو أحد معاصريه . والذين لا يرون التاريخ إلا مجمل حقائق لن يجدوا مأربهم فى هذا التعليق ، إذ نرى خيوط الحقيقة معقّدة متشابكة مع أساطير خرافية مكذوبة ، وقد وضع القصّاصون فى فجر الاسلام صورة حرفية لمثل هـذه الأساطير ، من ذلك أن أحد عرب الجنوب واسمه « عبيد بن شريْة » زار دمشق تلبية لدعوة الخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى سأله « عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس فى البلاد [٣] » وطلب اليـه أن يكتب وأمر أن تجمع وتكتب إجاباته كلها ثم تنشر باسمه ، وهذا العمل الذى

Die Hinjarisdhe Kasidsh herausgegaben und übers- (١) etzt von Alfred von Kremer (Leipzig, 1865) . W. F. Lrideaux: The Lay of the Himyarites (Sshose, 1879)

(٢) كان نشوان عالما لغويا شهيرا ، وإن قاموسه الكبير « شمس العلوم » لخير عون لمن يدرسون آثار عرب الجنوب ، وقد اعتمد عليه D. H. Müller فى تصحيح أسماء الأعلام التى وردت فى « القصيدة الحميرية » وقد قام الدكتور عزم الدين أحمد بطبع مقتطفات من « شمس العلوم » تتعلق باللغة العربية الجنوبية (E. S. W. Gibb Memorial Serie, vol. xylv.)

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٨٩ س ٢٦

لم تصلنا منه أية نسخة للأسف كان يسمى « كتاب الملوك وأخبار الماضين » وقد تكلم عنه المسعودى [١] (٩٥٦ م) ككتاب معروف متداول فى محيط كبير ، كما اعتمد عليه فيما بعد شارح « القصيدة الحميرية » إما مباشرة أو بواسطة الاكليل للهمدانى . وقد نعتبره — كما اعتبره الشارح نفسه — كقصة تاريخية لكثير من شخصياتها وحوادثها أساس من الحقيقة والواقع قد مُوِّهت بكثير من القصص الخيالية والقصائد المكذوبة ، مما يجد فيها السّامر خير عون له على أداء مهمته . ومن بين المؤلفين المسلمين القلائل الذين اهتموا بدراسة تاريخ عرب الجنوب فى العصر السابق للاسلام حمزة الأصفهانى ، ويعدّ لنا الكتاب الثامن من تاريخه (الذى انتهى منه عام ٩٦١ م) بتفاصيل تاريخية دقيقة موجزة عن التبابعة أو ملوك اليمن الحميريين

* * *

خلف قحطان — جدّ أعراب الجنوب — ابنه يعربُ الذى يقال إنه أول من اتخذ العربية لسانا ، وأول من أخذت له التحايا التى اعتاد العرب أن يحيوا بها ملوكهم كقولهم « أنعم صباحا » و « أبيْت اللعن » وقد اشتهر حفيـده عبد شمس سبأ باسم مؤسس مأرب وبانى سدها المشهور ، وإن كان هناك آخرون يقولون إن مؤسسه هو لقمان بن عاد ، وكان لسبأ ولدان حمير وكهلان ، وقبـل موته عهد إلى حمير بالجلوس على العرش وإلى كهلان بحراسة التخوم ، وشنّ الغارات على الأعداء ؛ ومن ثم كانت لحمير السيادة واتخذ اسم « أبو أيمن » وأقام فى عاصمة المملكة بينما تعهّد كهلان بالدفاع عنهـا وتدبير الحروب [٢] وبالاغضاء عن سرد سلسلة نسب الملوك السبئيين الخرافيين الذين لا تذكر القصة عنهم إلا قليلاً جدا ، فانا نمضى إلى ذكر حادثة رسخت فى أذهان العرب رسوخاً لا يمكن استئصاله منهـا ، ألا وهى الحادثة المعروفة عندهم بسيل العرم أو فيضان السدّ

(١) ومما قاله المسعودى « ولم يصح عند كثير من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عبيد بن شرية وأخباره عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والأحداث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شرية فى يد الناس مشهور » راجع « مروج الذهب طبعة باربيه دى مينارد ج ٤ ص ٨٩ » (المترجم)

(٢) Von Kremer : Die Tüdarabische Sage, P. 56

ومن الممكن أن تكون هذه القصة (كما يرى كريمر ص ١١٥) رمزاً لحقيقة ثابتة تلك هى تشعب السبأيين الى فريقين كبيرين : حمير وكهلان وقد كانت القوة فى يد الأول

على بضعة أميال قلائل من الجنوب الغربى لمأرب تمتد الجبال متلاحمة تاركة فيما بينها أخدوداً يشقه نهر « أدنة » الذى يجف غالباً مجراه خلال فصل الصيف ؛ أما فى الشتاء فتسقط الأمطار الغزيرة وتتدفق المياه بقوة هائلة تكاد لا تحتمل ، فلكى تكون المدينة بمنجاة من الفيضان ولأجل تنظيم الرى وزرع الأرض وفلحها بنى الأهالى سداً من الحجر الصلد استرعى خيال محمد بعد أن دمر تماماً ، وعده المسلمون إحدى عجائب الدنيا[1] . وليس بغريب أن ألبس مؤرخوهم تلك الحقيقة المجردة (انفجار السد) ثوب حادثة فضفاضة طريفة[2] وإذ آذنت شمس القرن الثالث للميلاد بالمغيب[3] أو قبل ذلك بقليل كان يتربع على عرش مأرب عمرو بن عامر ماء السماء المزيقيا[4] ، وكانت زوجته « ظريفة » ماهرة فى علم الكهانة خبيرة بفنونها ، وقد رأت أحلاما ورؤى تنبىء عن شر جسيم يتهددهم ، وفى ذات يوم قالت لزوجها الذى لم يكن يثق فى عرافتها : « إمض إلى السد فان أبصرت فأراً[5] ينبش السد بمخالبه ويقذف قطعاً كبيرة من الصخور بقدميه الخلفيتين فتيقَّنْ بأن العذاب قد حلّ بنا » فمضى عمرو إلى السد

(1) لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) « ٣٤ : ١٥ — ١٦ من القرآن » أما الخرائب الباقية فقد وصفها Arnaud فى الجريدة الأسيوية المجموعة السابقة ٣٢ (١٨٧٤) ص٣ ومابعدها

(2) راجع مروج الذهب (طبعة باربيه دى مينارد) ج ٣ ص ٣٨٧ وما يليها والنويرى Pimoe lineoe Rerum Arab icarum ص١٦٦ وما يليها

(3) ربما كان لقصة الهجرة من مأرب — التى ذكرت — أساس تاريخى ولكن السد نفسه لم يتهدم كله إلا بعد دهر طويل ، وإن النقوش التى عثر عليها منحوتة فى الصخور الباقية منه ليستدل منها على أنه ظل قائما حتى منتصف القرن السادس الميلادى وإن أول فيضان معروف قد وقع بين عامى ٤٤٧ — ٤٥٠ م كما أعاد بناء بعض أجزاء السد « ابرهة الحبشى » والى اليمن بين ٥٣٩ — ٥٤٢ م . راجع ذلك فى « كتابات فى انفجار سد مأرب لجلاسير »

E. Glaser: Zuli Inachaiften ueber den Dammbruch von Mârip (Mitteilnngen der Vorderasiatischen Gesellschaft. 1897,)

(4) يقول الأستاذ نيكلسون إنه كان من عادة عمرو بن عامر أن يمزق ثوب نهاره كلما جن المساء . أما صاحب كتاب « التيجان فى ملوك حمير » فيقول « سمى مزيقيا لأنه كانت تنسج له فى كل سنة ثلثمائة وستون حلة ثم يأذن للناس فى الدخول فاذا أرادوا الخروج استلبت عنه وتمزق قطعا ولذلك سمى مزيقيا » ص ٣٦٢ طبعة حيدرأباد الدكن سنة ١٣٤٧ هـ (المترجم)

(5) وقد قال فى ذلك أحد الشعراء :

وقد هد قدما عرش بلقيس هدهد   وخرب حفر الفأر سداً لمأرب

(المترجم)

وأنعم النظر فشاهد جرذاً يحرك حجراً كبيراً يعجز خمسون رجلاً جلدا عن نقله من مكانه فأيقن عمرو أن السد منهار ، وأن الأرض لابد هالكة بمن عليها ، فعزم على بيع أملاكه والرحيل بعائلته ، لكنه خشى أن يبعث الاضطراب إلى قلوب السكان ، فدبر حيلة ناجمة ، ذلك أنه دعا أشراف المدينة ورؤوسها إلى وليمة فاخرة مدها لهم ، واتفق مع ابنه أن يثيرا الخلاف بينهما (أو بينه وبين اليتيم الذى درج فى بيته كما يقول آخرون) وتبودلت بينهما الضربات فصاح عمرو : « وافضيحتاه !! أفى يوم مجدى وفخرى يسبنى ويلطمنى غلام عاق ؟ » ثم أقسم أن يقتل الفتى ، فتوسّل إليه ضيوفه أن يرحمه ويرأف به فأجابهم ، بيد أنه أقسم قائلاً : « لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وسأبيع أرضى ومتاعى » وإذ نجح فى الخلاص من أعبائه — إذ لم يعدم مشترين لبوا دعوته واغتنموا غضبته — لم يتردد فى أن يخبر الناس عما يتهددهم من بلاء ثم بارح مأرب على رأس جمع حشيد ، ثم أخذت المياه تثقب السد شيئاً فشيئاً وتغمر الأرض ، مرسلة فى لجها الدمار طولاً وعرضاً ، ومن هنا نشأ المثل القائل « تفرقوا أيدى سبأ » أى تشتتوا كما تشتت قوم سبأ[1]

وإن ذلك الطوفان ليؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية ثم غاضت المياه واخضرت الأرض بعد المحال وعادت إلى الايناع والزرع ، بيد أن مأرب ظلت مهجورة ، واختفى السبئيون إلى الأبد إلا ما يذكره الأعشى فى قصيدة له من قوله[2]

وفى ذاكَ للمُؤتسى أُسْوةٌ   ومَأربُ عَضَّ عليها العرِمُ
رُخامٌ بَنتْهُ لهم حِمْيرٌ   إذا جاء مَوّارُهُ[3] لم يَرِمْ
فأرْوَى الزُّروعَ وأعنابَها[4]   على سِعَةٍ ماؤُها إذ قُسِمْ
فَصارُوا أَيادِيَ ما يَقْدِرونَ   مِنهُ على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

وليست فى كلام الشاعر عن حمير دقة تاريخية ، أما الحميريون وعاصمتهم ظفار (صنعاء فيما بعد) فقد صاروا حكام اليمن بعد

(1) Freytag: Arabum Proverbia, Vol I, P. 497 وترجمه هكذا

Abiesunt tanquam agmina Sabaeorum; et dispersi sunt tanquam agmina Sabaeorum

(2) الهمدانى : الأكليل الكتاب الثامن طبعة ميللر فى S.B.W.A, فى فينا ١٨٨١ ج٩٧ ص١٠٣٧ ، وقد نقل هذه الأبيات ياقوت الحموى فى شىء من التغيير فى معجمه (طبعة وستنفلد) ج٤ ص٣٨٧ وابن هشام ص٩

(3) بفتح الميم وبعضهم يرويه بالضم والفتح أصح مأخوذ من قوله تعالى « يوم تمور السماء مورا »

(4) قوله « فأروى الزروع وأعنابها » أى أعناب تلك البلاد (ابن هشام)

انفجار سد مأرب وتلاشى السبئيين الذين أقاموه (١)

أما تبع الأول — الذى أطلق لقبه مؤرخو المسلمين على من خلفه من ملوك حمير فيسمى « حارث الرائش » لأنه زين بيوت قومه بالغنائم والأسلاب مما جلبه معه — كفائح — من الهند وأزربيجان (٢) ، أما عن التبابعة الذين ولوا الحكم بعده فان بعضهم يدين بدرجه فى سلسلة حمير إلى النسابين الذين كان احترامهم للقرآن يفوق دقتهم النقدية كما حدث مثل هذا بشأن المخلوق الخرافى صعب ذى القرنين ، وإن الأبيات التالية تخلط بينه وبين ذى القرنين المجيب الوارد نبؤه فى القرآن والذى يعتبره معظم المفسرين نفس الأسكندر الأكبر (٣)

لنا مُلكُ ذى القرنَينِ هل نالَ مُلكَهُ
من البشرِ المخلوقِ خلقٌ مصوّرُ ؟

نوى ثمّ يتلو الشمسَ عند غروبها
لينظُرَها فى عينِها حين تُدحَرُ

ويسمو إليها حين تطلع غدْوةً
ليلمحها فى بُرجها حين تظهرُ

دليلاً بأسبابِ السماءِ نهارُهُ (٤)
وليلاً رقيباً دائماً ليس يفترُ

وأرصدَ سدًّا من حديدٍ إذا بدا
ومن عين قطرٍ مترعاً ليس يظهرُ

رَمى فيهُ يأجوجاً ومأجوجَ عنوةً
إلى يومِ تُدعى للحساب وتُنشرُ (١)

(يتبع)

ترجمة حسن حبشى

(١) وقد وجد الوصف التالى محفورا على حجر من القراميد الصخرية التى وصفها أرنود فى الجريدة الأسيوية يثعمريين (بتشديد الياء وكسرها) ابن سمه على ينوف أمير سبأ قد نقب جبل البلق وبنى السدود (وتسمى رحب) لتنظيم الرى وميللر (المرجع السابق ص ٩٦٥)

(٢) لم ترد بتاتا كلمتا « حمير وتبع » فى النقوش القديمة ، أما فى الحديثة فلم ترد إلا قليلا جدا

(٣) يقصد ما جاء فى سورة الكهف (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) (المترجم)

(٤) وصف الهمدانى فى كتابه جزيرة العرب (ص ٣٦ س ١٠) ذا القرنين بأنه « مساح الأرض » وإذ نترك مجال التاريخ الأدبى لحظة لأشرح الخرافة التى تتسرب من خلال هذه الأبيات ، فيظهر لى أن « ذا القرنين » إنما يقصد به الآلهة السبئية « عشتر » التى تمثل « نجمة الصباح الجميلة » (راجع ما كتبه D. H. Muller فى S. B. W. A. مجلد ٩٧ ص ٩٣٧ وما يليها) ونجد فى النقوش المعينية « عشتر الجالسة وعشتر الواقفة » (شرحه ص ١٠٣٣) أضف الى ذلك أن عشتر والمقه يذكران فى أقدم النقوش دائما مقرونين بعضهما ببعض . أما « المقه » (وهى فينوس أو الزهرة كما يذكر الهمدانى) فيعتبرها علماء الآثار القديمة من العرب بلقيس ، أما عن « قرن » بمعنى « أشعة أو ضوء » فراجع ج ١ ص ١١٤ من كتاب جولدزيهر Abhand - zur Arab. Philologie ولا يحوم كثير من الشك فى إضافة اسمى « ذى القرنين وبلقيس » إلى الأمثلة العدة لهذا التغيير الذى بواسطته استطاعت كثير من آلهة الوثنية أن تظل قائمة فى ظل الاسلام بعد أن تنكرت بأسماء مختلفة

(١) Von Kremer Altarabis-che Gedichte ucber qei Volkssage von Jemen P. 15 (No. viii, 6 seg)
وهذه الأبيات لحسان بن ثابت شاعر الرسول

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

— ٣ —

— ٧ —

وأمسى المساء مرخياً سدوله على الساحة فتفرق عنها المتفرجون وقد أرهقهم الفضول والرعب، وبقى زارا جالساً على الأرض قرب الميت فاستغرق فى تفكيره ناسياً مرور الزمان حتى هبت نفحات الليل عليه منفرداً، فناجى نفسه قائلاً:

لقد كان صيدك موفقاً اليوم يا زارا! لقد أفلت الناس منك فاصطدت جثة هامدة

إن حياة الانسان محفوفة بالأخطار، وهى فوق ذلك لا معنى لها ... فأن مهرجا يمكن أن يقضى عليها

أريد أن أعلم الناس معنى وجودهم ليدركوا أن الانسان الكامل إنما هو البرق الساطع من الغيوم السوداء من الأنسان

ولكننى لم أزل بعيداً عن هؤلاء الناس وفكرتى بعيدة عن مداركهم، فأنا لم أزل متوسطاً المدى بين مجنون وجثة هامدة

إن الليل مظلم ومسالك زارا مظلمة أيضاً. تعال أيها الرفيق المتيبس فى حقيبته! إننى ذاهب بك إلى حيث أواريك التراب بيدى

— ٨ —

ورفع زارا الجثة على كاهله ومشى، ولكنه ما قطع مائة خطوة حتى زحمه رجل؛ وما كان هذا الرجل إلا مهرج البرج، فأسرّ اليه فى أذنه:

— اذهب من هذه المدينة يا زارا فان مبغضيك فيها كثيرون. هنا يكرهك أهل الصلاح والعدل، فيصفونك بالعدو والمزدرى، ويكرهك المؤمنون بالدين الحق فيرون بك خطراً على عامة الناس، وقد كان من حظك أن هزأ الحشد بك لأنك كنت تتكلم كالمهرجين، وكان من حظك أيضاً أن اشتركت والكلب الميت، فقد كان خلاصك هذه المرة فى إسفافك إلى هذه المهاوى، ولكنك لن تسلم فى الثانية فاذهب من هذه المدينة وإلا فاننى قافز غداً فوق جثة أخرى

قال الرجل هذا وتوارى وتابع زارا سيره فى الشوارع المظلمة. ولما بلغ باب المدينة التقى حفار القبور فوجهوا إلى رأسه أشعة مصابيحهم وإذ عرفوا فيه زارا أشبعوه سخرية وهزءا وقالوا:

— مرحى يا زارا! لقد صرت الآن حفاراً للقبور؛ إنك تحمل الكلب الميت. لقد أحسنت، فان أيدينا أطهر من أن تدنس بجثته. أتريد يازارا أن تختلس من الشيطان طعامه؟ كل هنيئاً! ولكن الشيطان أمهر منك، ولعله يسرقكما كليكما فيلتهمكما التهاما

ودار حفار القبور بزارا يتفرسون فيه. أما هو فلزم الصمت وسار فى طريقه. وبعد أن مشى ساعتين يقطع الأحراج والمستنقعات، شعر بالجوع لكثرة ما عوت حوله الذئاب الجائعة، فوقف أمام بيت منفرد لاحت له الأنوار من نوافذه. وقال: لقد عضنى الجوع وداهمنى كاللص بين الأحراج فى الليل البهيم

إن لجوعى نزوات مستغربة وقد يداهمنى حتى بعد الطعام، ولكنه اليوم ندّ عنى منذ الصباح حتى المساء فأين كان هذا الجوع؟

وطرق زارا باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلاً، وقال له: من الآتى إلىّ وإلى رقادى المضطرب؟

فأجاب زارا: أتيناك اثنين حىّ وميت، أعطنى مأكلاً ومشرباً فقد نسيت الغذاء النهار بطوله، إن من يشبع الجياع يولى نفسه قوة، هكذا قالت الحكمة

فغاب الشيخ وعاد بخبز وخمر وقال:

— إنها لأماكن موحشة للجياع، وذلك ما دعانى إلى السكن هنا حيث يهرع إلىّ البشر والحيوان فى وحدتى. أفلا تدعو رفيقك ليأكل ويشرب معك فهو أشد تعباً منك

فقال زارا: إن رفيقى ميت ولا يسهل على اقناعه بتناول الطعام.

فتمتم الشيخ: ذلك لا يهمنى؛ إن من يطرق بابى عليه أن يأخذ ما أقدمه له. كلوا هنيئاً

وعاد زارا إلى السير فمشى ساعتين أيضاً وهو يهتدى إلى رسوم الطريق بنور النجوم، وقد كان معتاداً السرى ويحب أن يتفرس فى كل شىء راقه. وعند ما لاح الصباح كان زارا وصل

إلى غابة كثيفة حيث انقطع كل طريق أمامه ، فتوقف ووضع الجثة فى فراغ شجرة حواها حتى رأسها ليقيها هجمات الذئاب ، ورقد بعد ذلك متوسداً نبات الأرض وما عتم حتى استغرق فى نومه منهوك الجسم مرتاح الضمير

— ٩ —

وطال نوم زارا حتى غمرت وجهه أنوار الضحى بعد أن داعبته تباشير الفجر ففتح عينيه مبهوتاً وسرح أبصاره على الغاب ثم حولها يستكشف نفسه ساكناً مستغرباً

وهبّ من مجلسه فجأة كما يهبّ الملاح تبدو لعينه الأرض ، فهتف وقد هزّه المرح لأنه اكتشف حقيقة جديدة تخاطب قلبه قائلاً

لقد انفتحت عيناى . إننى بحاجة إلى رفاق أحياء لا إلى رفاق أموات وجثث أحملهم إلى حيث أريد

إننى أطلب رفاقاً أحياء ليتبعونى لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيان توجهت

لقد انفتحت عيناى ، ليس على زارا أن يخاطب جماعات بل عليه أن يخاطب رفاقا ، يجب ألا يكون زارا راعياً للقطيع وكلباً له

إننى ما جئت إلا لأخلص خرافاً عديدة من القطيع ، وسوف يتمرد الشعب والقطيع علىّ . إن زارا يريد أن يعامله الرعاة معاملتهم للصوص

قلت رعاة غير أنهم يدعون بالصالحين والعادلين . قلت رعاة غير أنهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق

أنظروا إلى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو ألدّ أعدائهم ، إنه من يحطم الألواح التى حفروا عليها سننهم ذلك هو الهدّام ذلك هو المجرم — غير أنه هو المبدع

أنظروا إلى المؤمنين بجميع المعتقدات تعلموا من هو ألد أعدائهم إنه من يحطم الألواح التى حفروا عليها سننهم ، ذلك هو الهدام ، ذلك هو المجرم غير أنه هو المبدع

إلىّ بالرفاق . إننى أطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثثاً وقطعاناً ومؤمنين

إن المبدع لا يتخذ له رفاقا إلا من كانوا مثله مبدعين ، إنه يتخذهم ممن يحفرون سنناً جديدة على ألواح جديدة

إن من يطلب المبدع إنما هم الحصاد يعاونونه فى الحصاد لأن كل شىء قد أصبح فى عينه ناضجاً للحصاد ، ولكن المائة منجل ليست بين يديه فهو يتميز غضباً ويقتلع السنابل من أصولها

إن المبدع يطلب رفاقاله بين من يعرفون أن يشحذوا مناجلهم ، وسوف يدعوهم الناس هدّامين ومستهزئين بالخير والشر ، غير أنهم يكونون هم الحاصدين والمحتفلين بالعيد

إن زارا يطلب من كانوا مثله مبدعين يشاركونه فى الحصاد وفى الراحة فلا حاجة له بالقطعان والرعاة وأشلاء الأموات

وأنت يا رفيقى الأول ، ارقد بسلام لقد أحسنت دفنك فى فراغ الشجرة ووقيتك افتراس الذئاب

غير أننى سأفترق عنك لأن الزمان قد مر سريعاً ، وقد انبثقت حقيقة جديدة فى أفق نفسى ما بين فجرين

لن أكون راعياً ، ولن أكون حفار قبور ، ولسوف لا أقف بعد الآن فى الجماعات خطيباً فقد وجهت آخر حظى إلى ميت

أريد أن أنضم إلى المبدعين ، إلى أولئك الذين يحصدون ويرتاحون فأريهم قوس قزح والمراتب التى يرقاها الواصلون إلى الأنسانية الكاملة

سأهتف بنشيدى للمعتزلين ولمن يشعر بمثنويته فى انفراده أننى سأملأ بغبطتى قلب كل من له أذنان تصغيان إلى مالم تسمعه أذن بعد

إننى أسير إلى هدفى وأتبع طريقى فأقفز فوق المترددين والمتأخرين ، وهكذا سيكون سيرى جنوحا إلى الغروب

— ١٠ —

وكان زارا يناجى نفسه بهذا القول والشمس فى الهاجرة وإذا به يسمع صوتاً جارحاً فى الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات فى طيرانه وقد تعلقت به أفعى وما كان يقبض عليها بمخلبيه كفريسة ، بل كانت ملتفة حول عنقه التفاف المحب

فهتف زارا والحبور يملأ فؤاده : هذان نسرى وأفعاى ، فهو أشد الحيوانات افتخاراً ، وهى أشدها مكراً تحت الشمس ؛ وكلاهما ذاهبان مستكشفين فى الفضاء ليعلما ما إذا كان زارا لم يزل فى

على شواطئ البسفور

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

هنا الدنيا هنا الدنيا ألا ما أحسن المَحْيا
رُواء كفم الصّبح إذا افترّ عن الفجر
على الأفق ، على الروض على البرّ ، على البحر
كأن الأرض قد قامت على الرقصة والزمر
سرور أينما سرت وعرسٌ لم يزل يجرى
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

صفاء الأفق كالبحر ولون البحر كالأفْق
فمن يرنو إلى تحتٍ كمن يرنو إلى فوق
يشيم الأفق مطبوعاً على البحر بلا فرق
كأن البحر دون الأفـق أمسى مطلق الزرق
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

رباع لجنان الخلـد لا حرّ ولا برد
حباها فى ضحى آب كما ينفحه الورد
فروض أرج العطر وجوّ غَنِجٌ سعد
أنيق الوشى كالجيد إذا زيّنه العقـد
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

يحار الفكر إن جال بما يشهد من حسن
فما يؤثر أو يهوى وما يبعد أو يدنى !
إذا أعجبـه مرأى رأى أعجب فى الشأن
فلا ينفك مسحوراً كمأخوذ ابنة الدنّ
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

شهدت الحسن مطبوعا كما أبصرت مصنوعا
ورمت الحب مبذولاً فما صادفت ممنوعا
وشِمت الخلد مرئيا وكان الخلد مسموعا
وألفيت شتات الحسـن فى « البسفور » مجموعا
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

حسان كعذارى الخلـد يمرحن زُرافات
كأن آذار أبداهن فى الآفاق باقات
فهن الزهر فى الروض نشرن الحسن طاقات
وهن الزُهر فى الأفق تزين الأرض غادات
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

كأن الدهر بالغادا ت كالأزهار نيسان
فهل غاب عن الخلد رقيب الخلد رضوان
نشاوى مثـل رائيهـ ن بالاعجاب نشوان
يمّمن ربوع الأنـ س حيث الحب ألحان
فيا عاشق دنياه ... هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

أغان وأغاريد لها يطرب محزون

الحياة ، فهل أنا لم أزل حياً بعد ؟

لقد اعترضنى من المخاطر بين الناس ما لم أجد مثله بين الحيوانات ؛ إننى أتبع السبل المخطرة فلأقتدين بنسرى وأفعاى

وتذكر زارا حينئذ القديس المنعزل فى الغاب فتنهد وقال :

لأكونن أوفر ؛ حكمة لأكونن ماكراً كأفعاى ؛ غير أننى أطلب المستحيل لذلك أتوسل إلى افتخارى أن يلازم حكمتى ولا ينفصل عنها

وإذا ما تخلت حكمتى عنى يوماً وهى تتوق إلى الطيران وا أسفاه فاننى أرجو أن يطير افتخارى مستصحباً جنونى

وهكذا بدا جنوح زارا إلى المغيب

(يتبع) فليكس فارس

بلحن الطير فى الأيك   يناغيهن   قانون
تثير الروح بالشـــدو   كما ينشر   مدفون
تغنيها   الرياحين   كما استضحك مفتون
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

لديها متعـــة السمع   وفيها شهوة العين
تعـالى الله ما أقد   ر أن يجمع حسنين
وما أحسن أن تلتذ (م)   باثنين شهيين
بريئين بلا إثم   جميلين بلا شين
فيا عاشق دنياه ...   هنا الدنيا ، هنا الدنيا

***

حيـــاة لم ينغصها   ســوى ذكرى لأوطانى
أرى البسفور بساماً   فأبكي ثغر « بغدان »
نبا من أفقها الحسن   ولم تنعم بعمران
كأن لم تك فى الدهر   جمال العالم الفانى
فياشـقوة «بغـداد»   إذا لم تشـبه الدنيا !

(بغداد)   محمد بهجة الأثرى

في شعاع الفجر

مناجاة زهرة

بقلم أحمد فتحي مرسي

إيه يا زهرتى ! لقد أقبل الفجـ   ـرُ يفيض الضياء من بسماته
والشعاع الحبيب قدفاض فى القلـ   ـب فأحيا الدفين من أمنياته
والنسيم الرخيُّ يعبث بالغصـ   ـن ويثنى الندىَّ من زهراته
قد مضى يوقظ الزهور ويسرى   طابعاً فوق ثغرها قبلاته
رق حتى كأنه لمسة الطفـ   ـل ومسُّ الرقيق من أنملاته
والفَراش الوديع يرتشف الضو   ء ويروى صداه من لمحاته
يلتوى كالقطاة أخطأها الرا   مى فراحت تحيد عن رمياته
والرياحين هامسات إلى المر   ج كهمس الضمير فى خلواته
قائمات على الربى ساجدات   كسجود التقى فى صلواته
كلُّ ما فى الوجود يا ملكة الرو   ض يشعّ الجمال من قسماته

***

إيه يا زهرتى ! لقد أشرق الرو   ضُ وسال الندى على وجناته
فارشفى النور من سنا الصبح رفا   فا تلذ النفوس من رشفاته
وابسمى فالحياة حلم ويمضى   ويفيق الفؤاد من سكراته

***

إيه يا زهرتى ! لقد صدح الطيـ   ـر فهز الوجود من صدحاته
فاض فى النفس لحنه فشجاها   وأذاب الفؤاد من نغماته
فهبيه من وجهك الطاق وحيا   يتملى من ســحره أغنياته

***

إيه يا زهرتى ! لقد أسفر الكو   ن وراق الجمال فى جنباته
لم تبكين ؟ جفِّفى ذلك الدمـ   ـع وصونى عن البكا قطراته
لا يرُعك الزمان إن نثر الزهـ   ـر وأفنى النضير من ورقاته
لا يرعك العذابُ إن ملأ الكو   ن فكلٌّ معذب فى حياته

(القاهرة)   أحمد فتحي مرسي

القصص

تذكرة سفر
من طنطا الى سقر

للأستاذ ابراهيم جلال بك
وكيل محكمة الزقازيق الأهلية

كان باحدى ضواحى مدينة طنطا قروى له فتيان أحدهما جميل المحيا ، مفتول العضل ، تام الرجولة ، كأبيه فى الاستقامة والدأب على حرث الحقل ورعاية الماشية واسمه حسن . أما الآخر وهو يونس فكان على نقيض أخيه ، خامل الذكر ، دائم التلهى بمعاكسة جيرانه ، يسد مسيل الماء عنهم ، ويسرق أمطار الذرة ، ويسلبهم دجاجهم وسائر ما يكتنزون

وكان أبوهما مصطفى كهلاً أرمل ، ولكنه عرف بالنجدة وصلابة العود ، قد أخرجته الجندية متين البدن ، وأكسبته سكنى المروج الخضر حدة فى البصر

وماتت زوجته والغلامان فى الطفولة الأولى ، وكان قد ادخر بقية من نقود الجندية فابتاع بها حقلاً زرعه نصف فدان وأحسن القيام عليه حرثاً وإنباتاً ، وأقام تحت ظلال صفصافة عالية كوخاً صغيراً وسد به الحشائش الجافة وأضجع فيه طفليه واتخذ حوله سياجاً من قصب الذرة ، ومهد فى ناحية من السياج مناخاً للدواب أسكن به شاة ذات أحمال وعنزات صغار . وكان الشيخ قد عرف بحسن الرماية وإحكامها من عهد أن كان فى مصاف الجيش ، ولديه قلائد الشرف حازها بحسن بلائه وبسالته فى فتوح السودان . وقد رآه أهل القرية غداة العيد يحمل تلك القلائد ويخطر فى الدرب عند باب العمدة كما شهد له العمدة بحسن السمت حين حياه مسلماً فى أدب الجند وسكينتهم ، وحين تناول قدح القهوة ثم انقلب إلى كوخه الصغير بين غلاميه وماشيته

وكان مصطفى قد اتخذ لنفسه محراباً للعبادة فى ظل تلك الشجرة ، فاذا انشق الغسق عن غرة الفجر قام إلى قناة الماء فاغتسل ثم جثا فى المحراب بقلب سليم ، وكان هذا حاله فى المواقيت الخمسة

فكان الله فى عونه حتى ترعرع الغلامان ، وجاوز حسن سن الخامسة عشرة ولحق به أخوه يونس ، وزكا الزرع ودر الضرع وسال النضار بكف الشيخ مسيل الماء فى حقله ، فلم تطغه أخلاف الرزق وسعة العيش ، وعكف على تثقيف ولديه فى مكتب القرية ، فحذق حسن فن الكتابة والحساب ؛ أما أخوه فكان غافل اللب ، ينسل من المكتب مع رفقة له فيتسكعون فى دروب القرية حتى خرج غراً جاهلاً لا يحسن شيئاً ، ولم تجد فيه نصائح أبيه الشيخ ، ولا نالت منه سياط التأديب ولا وجيفة القيد ؛ فكان يفر من الكوخ ويبيت ليله بالعراء . وكان حسن يتميز رحمة وحناناً بيونس ؛ وكم كان يتقى بساعديه سياط أبيه ويقاسم أخاه بلاء التأديب

وطرقهم طارق بليل ، وكانت ليلة قرها زمهرير وريحها عاصف ، فهرت كلابهم بباب الكوخ ونهض الشيخ إلى غدارة له بالجدار عامرة بأسباب الموت . وكان حسن قد نما عوده ، واستقام كاهلاه كأحسن ما تقوم أبدان الرجال ، فتصدى لأبيه وتناول منه آلة الموت ، وخرج إلى الفناء وأبوه يرقبه بعينى صقر وبيده هراوة

ورأى حسن شبحاً قد التقط حملين من الخراف ، وتجاوز السياج بهما فانطلق فى أثره حتى حاذاه ، وسدد اليه القذيفة ، ولكنه تعرف السارق فى عدوه ، ولمح من وميض الأفق تصاوير بدنه ، فألقى الغدارة ولحق به ؛ وصحت فراسته فقد كان أخاه يونس . وقال له حسن خل الخراف لئلا يلحق بنا أبوك فان بيده

المراوة . ورفض يونس صاخباً ؛ وتعاقد الاخوان بالأيدى ، وطمن قابيل هابيل وفر بالخراف . وجاء الشيخ يشتد وبيده آلة الموت التى رماها حسن ، وجثا بجانب الجريح وقال له : عجيب أمرك والله : كيف تلقى عنك سلاحك ثم تذهب الى اللص أعزل ؟ ومسح الشيخ مقلتيه وحدق فى شبح السارق ، ثم بسط الغدارة على تلك السواعد الخالدة وهم باطلاق القذيفة لولا أن قام اليه حسن وانكفأ على صدره ، فطاشت القذيفة ونجا يونس وخلف الخراف . وشفى الله الجريح ورده الى أبيه فلاحا كادحا زينة الغلمان حماة الفؤوس

واستبان الشيخ أن سارق الليل كان يونس

وجاء عيد الأضحى فنحر مصطفى كبشاً ، وجاد بأكثره على الأيامى من عجائز القرية وضعاف أهل السبيل ، ثم جلس مع ابنه حسن يأكلان شواء وثريدا

وقال الغلام لأبيه : ياأبت إنى راحل الى مصر غدا إن شاء الله ، فقد أنقصوا أجرة السفر كرامة لهذا العيد . فقال الشيخ يا بنى إنى لأجد فى سفرك هذا خفوقا بين أضالعى لا أدرى والله له علة ولا سببا

وانطوى النهار وجاء الغد ، فخرج الشيخ يشيع غلامه الى المدينة ، ودخلا المسجد الأحمدى ، وطافا حرمه مع الطائفين من أهل القرية ، وصلى الناس الظهيرة مهللين مكبرين ، ثم قاموا إلى المحطة ، أما مصطفى فأنه تناول جبين ابنه لثما وزفر أنفاساً محزونة ثم توارى

ورأى حسن فى غمار الناس أخاه يونس يرسف فى أطماره ويزوى مسكنة وفاقة ، وقد غارت عيناه بين غضون الشقاء والاغتراب

وتعانق الأخوان ، وناح يونس من كبد نادمة موجعة ، ونسى حسن جراحه السالفة وما فعل قابيل به وقال : « لا عليك يا أخى ! وابتاع تذكرتين وحمل الى أخيه قرصين من خبز السميذ »

واستقر الناس فى العربات فى حلل العيد وحولهم قدورهم وحلواهم ، وأخليت مساند القرية للشيوخ ، أما الولدان والرضع فركبوا كواهل الآباء وحجور الأمهات

وتوالى ولوج هذا الركب المنكود بأفنية العربات ، وامتد مصافهم الى السقف ، حتى لقد أسبلوا من أبدانهم سترا كثيفاً على النوافذ . وكرت العربات فى إثر القاطرة تنهب الأرض وراكبها لاه يرى انطواء الحقول والضياع والقرى كالصحف المصورة بيد الطفل ينشرها ويطويها

وكان ذلك قدرا محتوما وإن كان مكتوما ، فنزل بالركب المسافر موت فات الذين نوعوا أسباب الموت ، وغاب بهم الحساب عن الذين يعدون على الأيام أنواع البلاء وألوان العذاب

ذلك أن سعيرا من وقود جهنم فار من موطىء الأقدام وجوف العربات كما فار الطوفان من أغوار مدينة نوح

وما كان الركب إلا أهل الفاقة والمسكنة عبيد الضائقة المالية قد ذهب رب الحقل بما أنبتوا من قطن وبر ، ومشت الحكومة بماشيتهم فى الخراج . ولو كانت العربات مفضية الى بعضها لسارع الناس بالنجاة من باب الى باب وخلفوا النار تأكل بعضها ، ولكنها يا للحسرة الفاجعة ، كانت عليهم موصدة فى عمد ممددة

وكشفت نوافذ العربة لمن يرجو النجاة وثبا ، فتقاطر كل مقبل على الموت ليختار أحد السبيلين الى الآخرة أيهما أهون عذابا . أغمرة الاحراق ، أم دق الأعناق ؟ ورأى أهل القرى والحقول ضرام النار فى أتونها المستعر ، وهالهم ضجيج الوقود البشرى ، وجن جنونهم لغفلة السائق واندفاعه بقاطراته كعجلات الرومان الأولى نيط بها الأسرى فى أغلالهم ، وحمل الموتى الى مدينة بنها ، وعرضوا فى فناء المستشفى وأسعف الذين بهم رمق

وصاح النعاة بأهل القرى فأقبل الشيخ الفانى مصطفى مخذول الساقين ، زائغ البصر ، لا يدرى ما كتب لولده حسن ؛ ودخل فناء المستشفى فى مشيخة من قريته ، فعرف الناس موتاهم وعلا النحيب من اليتيم والأرمل والثكلى . أما مصطفى فقد دلف إلى الاشلاء حبواً وكف بصره بدمع يحرق الأديم ، وأراد أن يرى بعينه مبلغ الكارثة من فؤاده

فلمح ولده العاق يونس قائما يبكى وحول ساعديه العصائب وعلى صدره اللفائف ، وقد نشر رداءه على جسد أخيه حسن يحاول أن يخفيه عن بصر الشيخ المفجوع ، ولكن الشيخ رأى بالبصيرة مالم يره البصر ! !

ابراهيم جلال

البريد الأدبي

أوجين أونيل الفائز بجائزة نوبل للآداب

ذكرنا في العدد الماضي أن الأكاديمية السويدية قد منحت جائزة نوبل للطب والفسيولوجيا هذا العام إلى العلامة النمسوي الدكتور أوتو ليفي والعلامة الانكليزي السير هنري هالت ديل والآن نذكر أنها منحت جائزة نوبل للآداب إلى الكاتب الأمريكي الشهير أوجين أونيل Eugene O'Neill

وأوجين أنيل هو أعظم كاتب مسرحي أمريكي في عصرنا، اشتهرت قطعه التمثيلية في أمريكا وفي العالم القديم معاً؛ وكان مولده في سنة ١٨٨٨ بمدينة نيويورك من أب ممثل شهير، ودرس أوجين في هارفارد وقضى شباباً مضطرباً يعالج مختلف الأعمال، وينتقل من بلد إلى بلد، فاشتغل بحاثاً عن الذهب، واشتغل بحاراً، وصحفياً مخبراً، وممثلاً، وأحرز خبرة كبيرة في مختلف الأعمال؛ وأصابه السل وهو في بدء شبابه، فأودعه أبوه أحد المستشفيات، وهنالك كتب عدة قطع تمثيلية من فصل واحد؛ ولما شفي عاد إلى كلية هارفارد وتلقى دروس الكتابة المسرحية على الأستاذ باكر؛ ومثلت بعض قطعه المسرحية في الأقاليم فأصابت نجاحاً. وفي سنة ١٩١٩ ظهرت أولى قطعه الكبيرة بعنوان « ما وراء الأفق » Beyond the Horizon، فنالت شهرة كبيرة؛ وفي سنة ١٩٢١ ظهرت « الأمبراطور جونس » Emp · Jones فزادت في شهرته؛ وفي سنة ١٩٢٢ ظهرت « أنا كرستي » AnnaChristie، ومن أشهر قطعه رواية « القرد الغزير الشعر » The Hairy Ape وقد مثلت بنجاح عظيم في نيويورك ولندن. وظهرت بعد ذلك عدة قطع اشتهرت كلها في العالمين الجديد والقديم ومثلت في جميع العواصم الكبرى، ومنها: Lazanus laughed (١٩٢٧) و Strange Interlude (١٩٢٨).

وقد امتازت روايات أونيل بأنها تعرض المحادثات النفسية للأشخاص على المسرح في ثوب جديد ساحر، واشتهر بعضها بالتطويل حتى إنها لتبلغ تسعة فصول، وتستغرق في تمثيلها خمس ساعات، ومع ذلك فقد اشتهرت بقوتها وعميق تأثيرها. وقد تقلب أونيل في الكتابة بين عدة مذاهب « الحقيقي » و « التعبيري » والرمزي والنفسي؛ وهو لا يعنى بشيء من الآراء والمذاهب السياسية والاقتصادية، وكل ما يعنيه هو الفكرة الانسانية، وما تعرضه في الحياة الواقعة؛ ومعظم الخواتم في قطعه تعرض الخيبة والفشل، ويهزم الأشخاص لا بخطئهم أو تقصيرهم ولكن بفعل الحظ والمصادفة، وهي مؤثرات يبغضها أونيل ويرى أنه لا حق لها أن تؤثر في حياة الفرد

جائزة نوبل للعلوم الطبيعية والكيمياء

ومنحت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية للعلامة النمسوي الدكتور هيس والعلامة الأمريكي الدكتور هندرسون مناصفة بينهما، ومنحت جائزة نوبل للكيمياء للعلامة الألماني الدكتور هيلاندي دربي من معهد برلين

وفاة شاعر مجري كبير

نمت الينا أنباء بودابست الأخيرة الكاتب والشاعر المجري الكبير ديشو كوشتولاني D. Koszolanyi، توفي في الثالث من نوفمبر بمنزله في بودابست بشارع تابور بعد مرض طويل. وكان مولده بقرية زباتكا من أعمال جنوب المجر؛ وتلقى دراسته بجامعة بودابست؛ واشتغل بادئ ذي بدء بالصحافة؛ ثم كتب بعض القصص ونظم الشعر؛ وترجم إلى المجرية عدة قطع خالدة من شكسبير، وموليير، وموباسان، وڤلده، وغيرهم من الشعراء المحدثين من كل قطر وكل لغة. ومن أشهر مؤلفاته « الشاعر الدموي » وهي قصة رائعة عن عصر نيرون، وقد ترجمت الى الانكليزية (The bloody Poet): وهو شاعر مجدد بمعنى الكلمة وقد استطاع أن يصوغ أعقد المسائل المعقدة الحديثة في أجمل

الأساليب وأرقها ، ومن نظمه المجموعات الآتية : « بين جدران أربعة » (١٩٠٧) « أنين طفل » (١٩١٠) « السحر » (١٩١٢) « أخي » (١٩١٥) « بوبى » (١٩١٦) « الخبز والنبيذ » (١٩٢٠) « أنين رجل محزون » (١٩٢١) العارية (١٩٢٧) وغيرها ، وقد ترجمت معظمها الى الانكليزية

فى الأكاديمية الفرنسية

فى الأنباء الأخيرة أن ثلاثة أعضاء جدد قد انتخبوا للجلوس فى الأكاديمية الفرنسية والانتظام فى سلك الخالدين ، وهم الأميرال لاكاز وقد انتخب مكان السياسى الكبير چول كامبون ، والمونسنيور جرانت وقد انتخب مكان المؤرخ الكبير بييردى نولهاك ، والمسيو جاك دى لا كرايتل وقد انتخب مكان الشاعر والقصصى الكبير هنرى دى رينيه

وينتمى كل من الأعضاء الجدد إلى طراز خاص من التفكير ، فالأميرال لاكاز من رجال الحرب ، ولكنه كاتب وخطيب كبير ؛ وهو اليوم فى الخامسة والسبعين من عمره ، وكان وزيراً للبحرية ، وقائداً لأسطول الغواصات أيام الحرب الكبرى ؛ ومن تقاليد الأكاديمية أن يمثل فيها دائماً الى جانب أبطال الأدب ، أبطال العسكرية البارزين فى التفكير والثقافة مثل الماريشال فوش الذى كان من أعضائها

وأما المونسنيور جرانت ، فهو على رغم كونه من رجال الدين ، كاتب ومؤرخ كبير ؛ وهو دكتور فى الآداب ، وقد انتخب منذ سنة ١٩٢٨ لمنصب الأسقف ، وكان من قبل مديراً للمعهد الكاثوليكى فى ليل ؛ وله ثبت حافل من الكتب والمصنفات المختلفة نذكر منها : « عيوب التربية المنزلية الحالية » « بوسويه فى متز » « تطور الشعائر والعبادات فى باريس منذ الثورة إلى عصر الكونكوردا » « شهداء سبتمبر سنة ١٧٩٢ » « رسالة إلى المشرق » وكثير غيرها ، وهو خطيب مفوه ومحاضر بارع ، وقد اشتهر بمحاضراته الدينية والاجتماعية التى يلقيها من آن لآخر فى العواصم الأوربية المختلفة

وأما جاك دى لا كراتيل فهو كاتب وقصصى كبير ، وقد ولد بمصر ونشأ بها ؛ وكان بمصر فى العام الماضى وألقى بعض محاضراته فى القاهرة والاسكندرية ؛ وهو من أساتذة الشباب فى القصة المعاصرة ، بيد أنه يميل إلى النزعة القديمة ، وينتمى بنوع خاص إلى مدرسة الأب « بريفوست » ؛ ويؤثر الاستعراض الهادئ للأحداث والفواجع ، وأسلوبه حاد ولكنه واضح . ومن أشهر قصصه « الحب الزوجى » و « الأسقف العالية »

أنباء الزمن فى أخبار اليمن

أصدرت « مجلة الأسلام » Der Islam الألمانية فيما تصدره من دراسات لتاريخ الشرق الاسلامى وحضارته القسم الأول من مؤلف هام عن تاريخ اليمن ، هو « أنباء الزمن فى أخبار اليمن » ليحيى بن الحسين بن المؤيد اليمنى . وقد وقف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه ومهد له فى مقدمة طويلة بالألمانية الدكتور محمد عبد الله ماضى عضو بعثة الامام محمد عبده ، ونال بتقديمه إجازة الدكتوراه فى مايو الماضى . وهو يطبع لأول مرة عن مخطوط قديم ، ويتناول تاريخ اليمن فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع من الهجرة من سنة ٢٨٠ إلى سنة ٣٢٢ هـ . وقد أهدى الناشر ثمرة مجهوده إلى روح المرحوم الامام محمد عبده اعترافاً بفضله ومآثره ؛ وسنعود إلى دراسة هذا السفر فى فرصة أخرى

فكرة العصبية عند ابن خلدون

أصدرت مجلة « الاسلام » الألمانية كذلك فى مطبوع خاص رسالة بالألمانية عن « فكرة العصبية فى مقدمة ابن خلدون »

« Der Asabija Begriff in der Muqaddima Ibn Halqun »

وهى الرسالة التى تقدم بها صديقنا الدكتور طاهر خميرى مدرس اللغة العربية بكلية همبورج الى نيل إجازة الدكتوراه . ويشرح المؤلف نظرية الفيلسوف ابن خلدون فى « العصبية » ، وأثرها فى القبيلة وتكوين الملك بطريقة نقدية مقارنة ، وسنعود أيضاً الى استعراضها ودراستها فى فرصة أخرى

العالم المسرحي والسينمائي

التأليف والترجمة للمسرح

حديث للأستاذ زكي طليمات
لناقد « الرسالة » الفني

قبلت الفرقة القومية استقالة الأستاذ طليمات ، كما ألغت وزارة المعارف انتدابه للعمل في هذه الفرقة ، فحرم المسرح في مصر من جهود شاب نشط مثقف أرسلته الحكومة الى فرنسا ليدرس التمثيل والاخراج كي تنتفع به في النهوض بهذا الفن

ولسنا ندري حقيقة الدوافع التي حدت بالأستاذ طليمات الى تقديم استقالته ، ولكننا علمنا أنه ضمنها كتابه الذي رفعه الى الأستاذ الكبير محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف ، ولذلك قصدت الى الأستاذ طليمات وسألته أن يطلعني على صورة من هذا الكتاب ، فأبى ورفض أن يدلي بأية تفاصيل ، ولكنه أمام الالحاح صرح بما يلي :

« لم أستقل لا من أجل زيادة مرتب أو طلب مركز أو خلافه ، وإنما استقلت لأنني غير قادر على تقوية ضعف أرى الفرقة تنساق اليه يوماً بعد يوم

كنت مغلول اليدين مشدوداً الى خشبة تعذيب ، أرى وأتألم وأصيح ولا يستمع لي أحد ، وهذا عذاب لا يطاق

فاستقالتي إنما هي لأراحة ضميري »

ولم يرض الأستاذ طليمات أن يزيد كلمة على هذا التصريح بل جمل ينتقل بالحديث من موضوع الى آخر حتى عرض لنا موضوع التأليف والترجمة للمسرح فوجهت اليه السؤال التالي :

ما رأيك في الروايات المصرية التي أخرجتها أو اطلعت عليها ؟

فأجاب « رأيي أن المسرحية المصرية لم تستكمل بعد مقومات نضوجها ، وما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذي يميزها عن الرواية الغربية ، إذ لا يخفى عليك أن الجمهور المصري لم يتعرف الى المسرحية في اللسان العربي إلا منذ سبعين عاما ، والأدب القديم خلو منها على الرغم مما يذخر به من المخلفات الممتعة في مختلف العلوم والفنون

أدبنا العربي الحديث يفتقر الى الورانة المهذبة في فن صياغة القطعة المسرحية . وليست له تقاليد فيها ، فنحن ما برحنا في دور النقل والتقليد والاستساغة ، نأخذ عن المسرح الغربي في صياغة مسرحياتنا وننحو نحوه ، ولابد لنا أن نجتاز هذه المرحلة قبل أن يستقر وضع أصيل للمسرحية المصرية . غير أن هذا لا يحجزني عن التصريح بأن بيننا نفرا من المؤلفين المصريين قد وفقوا كثيرا في تأليف روايات متينة البناء قوية الحبكة جاء حوارها قويا في سلاسة وسهولة . فهنالك أمثال : (ابراهيم رمزي) ، (عباس علام) ، (المرحوم محمد تيمور) يأتون في مقدمة هذا النفر . وجاء أخيراً (توفيق الحكيم) فأضاف ذخيرة جديدة إلى محصولنا في آداب المسرحية المصرية

وأهم ما آخذه على أكثرية المؤلفين المصريين أنهم لا يحسنون العدة للتأليف ، فتحصيلهم سطحي هزيل ، ولذلك لم يكن غريباً يكون نتاجهم فجاً . وأعرف ممن يكتبون المسرح من لم يقرأ رواية أجنبية واحدة ، فاذا سألته عن شغفه بالتأليف أجابك في زهو أنه مواظب على حضور التمثيل في فرقة فلان أو فلانة

وأبين مواطن الضعف في المسرحية المصرية جهل بصياغة الرواية وحبكة حوادثها في منطق سليم يستثير اهتمام الجمهور في غير افتعال أو خروج على المعقول ، كذلك ميل إلى معالجة الموضوع بطريقة سطحية يُهدر فيها جانب الشخصيات في الرواية فيبدون نحفاء مهازيل من حيث التحليل النفسي . أما الأسلوب الذي يكتبون به فتعلوه مسحة من التكلف والنزوع إلى الاتيان بمهجور اللفظ والمبالغة في سرد المترادفات والجود بالألفاظ في إسراف معيب . فاذا خلا من هذه العيوب في بعض الأحايين ، فلكي يقع في قص الحديث والسرد . وإذا قلت إن قليلاً ، وقليلا جداً من مؤلفينا يحسنون جدل الحوار لما قررت غير الواقع .

وأعتقد أنه يجب أن يمر زمن طويل حتى يحسن صناعة تأليف الرواية المسرحية . والعلة فى هذا ترجع إلى أننا نعمل فى جديد دخيل فى آدابنا

فقلت له : « وما رأيك فى الروايات التى تترجم للمسرح المصرى . ومن هو أحب المؤلفين إليك ؟ » وقد أجابنى قائلاً « أكثر هذه الترجمات من هزيل الروايات الغربية ذات الصبغة القاتمة Melodrame أو ذات المواقف العنيفة المفتعلة . وقد تهافت أصحاب الفرق التمثيلية على نقل هذا النوع من الروايات لسهولة اخراجه على المسرح ، ولأن نقله إلى العربية لا يحتاج إلى الكثير من العناء الذى يتطلب زيادة الأجر فى نفقات الترجمة . هذا فضلاً عن أن هذه الروايات تستهوى الأكثرية الغالبة من الجمهور ، وهى أكثرية ساذجة التفكير لا تميل إلى إعمال الروية فيما يقدم إليها على المسرح . ولا يخفى عليك أن الجمهور المصرى لم يتعود إشغال الفكر فيما يراه فى دور اللهو ، ولم يطالعه فن التمثيل باللسان العربى إلا منذ سبعين عاماً ، وفن التمثيل ظاهره لهو وباطنه تهذيب وتثقيف

ومن المجيب أن كثيراً من روايات « موليير » وبعض روايات كورنى وراسين ، وهم من عباقرة المؤلفين المسرحيين قد نقلت إلى العربية فى أوائل عهد مصر بالتمثيل ولكنه كان نقلا مشوهاً مسخت فيه معالم تلك الروائع الفنية فخرج بعضها يتعثر فى أسلوب من العامية والبعض الآخر يتنكر فى أسلوب ركيك محشو بالسجع مطبوع بالتعابير (الكليشيه) التى مج استعمالها وأنكرتها الآذان

وتقدمت عملية النقل فى السنوات الأخيرة ، وتنبهت وزارة المعارف أخيراً إلى ضرورة تغذية المسرح المصرى ببعض من نفائس الأدب المسرحى فترجمت عدداً منها ترجمة أنموذجية ، وقامت بطبعها متوخية فى عملها هذا أن يطالع المتأدبون على أنفس الذخائر الفنية فى المسرح الغربى ، وأن يتأثر بطابعها من يعالجون التأليف المسرحى فى مصر . ولاغنى لنا عن المسرح الغربى فى هذه المرحلة ، مرحلة الاستساغة ، ولكن هذا يجب ألا يصرفنا بأى حال عن العناية بالرواية المصرية وتشجيع مؤلفيها . ويجب ألا يكون قياسنا فى الحكم عليها مابعمر رؤوسنا من آثار نوابغ المسرح الغربى ، فنحن ما برحنا فى دور المحاولة ، محاولة جعل الرواية المسرحية شعبة من أدبنا المصرى الحديث

وألاحظ أن أكثر مترجماتنا مأخوذ من الأدب الفرنسى ، بل يكاد يكون مسرحنا (لاتينياً) فى نزعته ، وما هذا بعجيب فثقافتنا لاتينية منذ القدم كما أن مزاجنا يكاد يتشابه بالمزاج اللاتينى ، وذلك بحكم أننا من أبناء شواطئ البحر الأبيض المتوسط ومصر هى الضفة المقابلة لايطاليا

ولكن ما أحوجنا إلى أن يتعرف الجمهور والمتأدبون إلى آثار الأدب الجرمانى وأدب الشمال والأدب الأمريكى الشاب الذى هو خلاصة آداب مجتمعة ، فمسرحنا لم يتعرف بعد إلى « أبسن » النرويجى و(استرنبرج) السويدى و(هوبتمان) الألمانى و(أوجين أونيل) الأمريكى

وأحب المؤلفين المسرحيين إلى هم (موليير) الفرنسى ، و(أبسن) النرويجى ، و(شاكسبير) الانجليزى . ولى ولع خاص بمطالعة أعمال موليير لأنها علمتنى الاعتدال (La mésure) ، وهى صفة أقر بافتقارى اليها ، وطالما كان حظى الصغير منها سببا فى أخطاء أتيتها فى حياتى ، ولأن فى موليير يجتمع كاملة شخصيات الشاعر الانسانى ، والكاتب المسرحى والممثل ، فهو رجل مسرح بحق

وتهزنى مآسى شاكسبير بروعتها ، وفيض عواطفها ، وهى مآس عاطفيه تركزت فيها الانسانية بأسرها

أما (إبسن) فهو أبو المسرح الحديث وأستاذ أساتذة نوابغ المسرح الغربى ، وهو الطود الشامخ وغيره الكثبان الرملية والتلال . وفى ضباب مآسيه غموض الحياة وظمأ المعرفة الذى لاتنقع غلته ، وفى نضال شخصياته أروع مآسى الحياة الفكرية »

قلت له وما رأيك فى استقدام الخبير الفنى الذى تنوى وزارة المعارف استقدامه من الخارج ؟ فأجاب « سبق أن صرحت برأيى فى ذلك ، وهأنذا أكرر ما قلته : وهو أن فى استقدامه ما قد يبصرنا بما خفى علينا الأخذ به من وسائل ترقية المسرح المصرى وإذاعة آثاره ؛ وأرجو أن توفق الوزارة فى اختيار أحد الرجال البارزين فى المسرح الأوربى ؛ ولعل فى استقدامه واضطلاعه بشؤون الفرقة القومية ما يقضى على أسباب الفوضى المنتشرة فى هذه النشأة الجديدة ، وهو الأمر الذى عجزت عنه وأعيانى أمره »

يوسف نادرس

4 me Année, No. 178

Lundi - 30 - 11 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٧٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

بعـــد المعاهدة

بعد ليل غاشِي الجوانب ترا كمت على (الوادى) همومه ، وطريق دامى المسالك تشابهت على الدليل رسومه ، انجلى الغيهب الكثيف عن وضَح الفجر ، وانتهى الطريق المخيف إلى أمان الغاية ؛ فحمدنا السُّرَى عند الصباح ، ورضينا الغنيمة بعد المعركة ، وهدهدنا الأمانىَّ على نشيد الفوز

كنا مقيدين لا نملك مع القيد مجال العمل ، ومحجورين لا نجد مع الحجر سبيل التصرف ، ومستذلين لا ندرك مع (الامتيازات) معنى الكرامة ، ومستقادين لا نعرف مع (الاحتلال) عبء التبعة ؛ فاذا كانت مصر الأمسِ قد مشت عرجاء فى طريق التقدم ، وجاهدت عزلاء فى ميدان العيش ، فانما كان وِزر ذلك على الغاصب الذى سلط قوته على الحق ، ومنفعته على العدل ، فحجز البلاد عن وجهتها الحرة حقبة من الدهر أوْفت على نصف قرن . أما اليوم وقد انكسر القيد ، وانتفى الحَجْر ، وتقلص الاحتلال ، وتصاغر الامتياز ، وقال لك القوى الغالب : لقد رشدت فتصرف فى أمرك ؛ وشببت فدافع

فهرس العـــــدد

عن حوزتك ، واستقلات فاحكم فى بلدك ، فلا يسعك فى تقصيرٍ عذر ، ولا يسعفك فى دفاعٍ حجة

هذه ثروة النيل التليدةُ والطريفة ، عبثت بها أهواء القيم المفروض بالباطل ، فنقص النامى ، وبلُد الحساس . وفسد الصالح ، واعوج المستقيم ، وتنافر المنسجم ؛ فكل شىء فيها معتل يفتقر إلى علاج ، أو منتشر يحتاج إلى ضبط . فاذا قصرنا الجهد أو أكثره على تنفيذ المعاهدة ، من إنشاء الجيش وبناء الثكنات وشق الطرق ، ظل حالنا على ما كان من بؤس العيش ، ونقص الكفاية ، وعجز القدرة . وهل يكون الأمر حينئذ إلا حبس قوى الأمة على الاستقلال فى السعى إليه أو فى المحافظة عليه ؟ وهل يريد الاستقلال على أن يكون استرداداً للحرية المسلوبة ؟ تنعم الأمة فى ظله وهى آمنة ، وتعمل فى حماه وهى حرة ، وتحكم على مقتضاه وهى سيدة ؟

إن إعداد الأمة لحمل نصيبها من أمانة الحياة ورسالة الحضارة وعهد الخالقة ، يقتضى أن تتظاهر ملكاتها الموجدة ، وكفاياتها المدبرة ، وقواها المنفذة ، على طرد الجهل منها ، ودفع الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها ؛ وهذه العلل الثلاث هى جمّاع العلل ، لا تجد عاهة من عاهات الجسم ، ولا آفة من آفات الروح ، فى الفرد أو فى الجماعة إلا ضاربةً فيها بعرق ، أو واصلة إليها بسبب . والأمة كلها خَلق سَوِىٌّ كامل لا تستطيع أن تقويه وترقيه إذا عُنيت بعضو دون عضو ، وشُغلت بملكة دون ملكة

كل ما فينا عاطل يبغى العمل ، وباطل يريد التغيير ، ورثٌّ يطلب التجدد ؛ وتلك مخلفات العهود السود وتركات الأجيال المريضة ، نمت فينا نمو الجراثيم يزرعها ويغذيها المحتل الذى لا يرحم ، والحاكم الذى لا يعدل ، والواغل الذى لا يعف

كان من جرائر فقد الاستقلال فى الحكم أن فقدناه فى كل شىء حتى فى الذات ؛ فنحن نفكر تابعين ، ونعمل مقلدين ، ونعيش متواكلين ، ونسعى على غير اطمئنان ولا ثقة . وقد ظهرت هذه التبعية واضحة فى الآداب والعادات ، وهى أدخل الأشياء فى بناء الشخصية وأبعدها عن التراث المشترك بين الأمم كالعلم والحضارة

ولعل أقبح آثاره ما نجد فى الشباب من رخاوة العود وطراوة الخلق ، وفى الكهول من ضراعة النفس وضعف الإرادة : فإن ترك الدفاع عن أنفسنا لغيرنا كسبنا طباع العيش الأبله من الوداعة والأغضاء والرضى ، فلا ترى فى الجملة من يغضب للإهانة ، ويثور للعدوان ، ويتحمس للخصومة . وإن استبداد الأجنبى بأمرنا من دوننا قتل فينا التفكير ، وأنام فينا الضمير ، ودهانا بطائفة من طبائع الاستبداد كالملق والنفاق والتواضع والأثرة : فالأمة مستنيمة لهوى الحكومة ، والحكومة مستكينة لإرادة المحتل ؛ وبين طبقات الشعب ودواوين الحكم منافع مسعورة لا ترتوى ، ومحاباة مهتوكة لا تستحى ، وتواكل غفلان لا يفيق

نعم كل ذلك كان نتيجة لفقد الاستقلال ما فى ذلك ريب ؛ ومن الممكن أن يكون وجوده علة فى عدم هذه النقائص على التدريج مسايرة لفعل الزمن ؛ ولكن الوقت ضيق والفرصة عجلى والضرورة حافزة ، فلابد لأولياء العهد الجديد أن يغسلوا أدران العهد القديم بالسموم ، ويحسموا أدواء الماضى بالكى ، ويجعلوا بين العهدين سدا من النار والحديد لا ينفذ منه إلا مصهور أو مطهَّر

نريد أن ندخل العهد الجديد فى لباس الأحرام : صدورنا نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسنا بريئة من شهوات العصبية ، وميولنا نزيهة عن خسيس المطامع

كنا نعيش كما يعيش السَّوَام فى البر أو السمك فى البحر . لا تجمعنا وحدة شاملة ، ولا توجهنا غاية معينة ؛ وكان ذلك أثراً محتوماً للسلطات التى كانت تتنازع الحكْم ، والتيارات التى كانت تتوزع الثقافة ، والامتيازات التى كانت تمزق المجتمع

أما اليوم فنريد أن نعيش كما يعيش الناس فى كل أمة : وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة ، لا سلطان لقوة خارجية عليه ، ولا سيادة للغة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوربية به ؛ وحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ويأمن بها على رأيه ؛ ومجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى ، يؤلف نافرَه الخلق ، ويجمع شتيته الحب ، ويرفِّه حياته التعاون ، ويئويه إلى كنفه الله وعلَم وملك . ذلك ما نرجيه فى الحياة الجديدة . وذلك ما نبتغيه من الحكومة الرشيدة

احمد حسن الزيات

كل امرئ وما خلق له

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

عرفت شاباً حفيت قدماه من السعي حتى فاز « بوعد » بأن يستخدم « ساعياً » أو نحو ذلك بعد أن يقر البرلمان ميزانية الدولة . ووافق البرلمان عليها وأصبحت معمولاً بها وراح صاحبنا يستنجز الوعد ويستعجل التعيين فلم يجد إلا مطاولة وإخلافاً ، فمل ذلك وجاءني يوماً وذكر لي جيرة أهله لنا في بعض ما مضى ورجا أن أدله على وسيلة تبلغه ما يريد . فقلت له يا أخي : أما الحكومة فلا صلة لي بها ، وأنا أراك لا تستنكف أن تعمل فيها عمل الخدم وإن كنت شاباً متعلماً ، فاذا كان هذا هكذا فما أظن أن الدنيا تضيق بك في غير الحكومة ولن تعدم عملاً في شركة أو متجر أو ما أشبه ذلك . ولم أزل به حتى صرفته عن الحكومة ، فمضى عني وفي نيته أن يلتمس الرزق من العمل الحر . ولم يكد يفعل حتى ساورتني الوساوس ، فقد رأيته شاباً حيياً طيب القلب سليم النية مستقيم الفطرة لا يكاد يعرف عن الدنيا شيئاً ؛ ومثل هذا خليق أن يغرق في محيطها الطاغي ، ولكني لم أكن أستطيع أن أصلح ما اعتقدت أني أفسدت ، لأني لا أعرف أين يسكن حتى كنت ألحق به وأمحو ما وقر في نفسه من كلامي . ولم يعد هو إلى بعد ذلك فذهب كل أمل ، فجعلت ألوم نفسي وأوسعها تقريعاً وتأنيباً ، ثم شغلتني الحياة فنسيته

ومضت شهور لا أراه ولا أسمع به — وأعترف فأقول : ولا يرد له ذكر على بالي . وجاء الصيف واحتجت أن أقضي بضعة أيام في الأسكندرية فنزلت في فندق جديد على البحر عند شاطئ « ستانلي » ، فاتفق يوماً أني خرجت أتعشى فعدت متعباً فقلت أستلقي على السرير ففعلت وأخرجت سيجارة احتجت لأشعالها أن أنهض قليلاً لأمد يدي إلى الكبريت ، وكان على منضدة صغيرة قريبة من السرير ، فما راعني إلا حذاءان ضخمان لا حق لمخلوق في أن يكون له مثل ما فيهما من القدمين ، ففزعت ثم تذكرت أن الذي يختبئ تحت السرير يكون هو الخائف الفزع ، ففي وسعي أن أطمئن قليلاً ، فقمت وقعدت على كرسي ودعوت صاحب القدمين الكبيرتين أن يخرج بالمفوعنه ، فخرج القهقرى — أعني أن الساقين ظهرتا أولاً ثم الجزع ثم الكتفان ثم الدماغ . وبعد أن خرج هذا كله رفع صاحبه وجهه إلى فاذا هو الشاب الذي غاب وانقطعت أخباره عني فصحت به : « حامد ؟ ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

وكان الواجب أن ينهض وينفض التراب ويشرح لي الأمر ويفسر لي كيف دس نفسه تحت سريري ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله بل بقي قائماً على ركبتيه وراحتيه فضحكت وقلت له : « أظن أن على أنفك شيئاً من التراب »

فقال : « صحيح ؟ » وشرع يمسحه بكفه

فقلت وقد سرني المنظر : « وهل تظن أني أكذب عليك في أمر مهم كهذا ؟ . ولكنك حين مسحت أنفك وضعت على وجهك نحو طن من التراب لأن يدك كما لا أحتاج أن أنبهك غير نظيفة »

فاتكأ على كف ورفع كفه الأخرى إلى عينه لينظر وقال : « صحيح »

فقلت : « أظن أن هنا حوضاً وماء وفي وسعك أن تغتسل وتعود نظيفاً كما كنت . . . وبعد ذلك نستطيع أن نتفاهم »

فغسل وجهه ورأسه وسرح شعره ، ونفض التراب عن ثيابه ثم التفت إلي وقال : « الحقيقة أن الرقاد تحت السرير حماقة »

فقلت : هذا يردنا إلى الموضوع ، فلماذا كنت راقداً تحت سريري ؟؟ وماذا جاء بك إلى هنا على كل حال ؟ »

فقال : « تحت السرير ؟ أنا ؟ ... آه »

فقلت : « نعم . تحت السرير . . . . . هذا سرير ؟ أليس كذلك ؟ اتفقنا إذن : وأنت كنت تحته ... فماذا كنت تصنع تحته ... أعني تحت هذا السرير ؟ سريري أنا .. ؟ »

فقال : « أهي غرفتك ؟ »

قلت : « ليس اسمي مكتوبا عليها لا بأحرف من نور ولا بالطباشير ولا بالدهان ، ولكني أظن صاحب الفندق يشهد بأنها غرفتي إذا شئت أن تسأله . . . . على كل حال يمكنك أن تصدقني وتكتفي بما أقول »

فقال : « طبعاً ... طبعاً ... لا شك ... لا شك »

فراقنى هذا جداً ، وأدركنى العطف على هذا الشاب الذى قذفت به نصيحتى فى عباب حياة لا قبل له به ، وقلت « الآن نعود – إذا سمحت – إلى السؤال » فقال : « لقد كنت أظنها خالية .... وخطر لى أن خير ما أفعل هو أن أرقد تحت السرير »

فقلت : « الأمزجة تختلف ، ولكن ألا تقول لى لماذا رأيت هذا خير ما يمكن أن تصنع ؟ أو فلنبدأ من البداية .... ماذا جاء بك إلى الاسكندرية ؟ »

قال : « هذه قصة طويلة ... »

قلت : « إنى رجل واسع الصدر .. ومع ذلك ، فى وسعك أن تحذف قصة ميلادك وطفولتك ، وأن تقفز إلى ما بعد اليوم الذى زرتنى فيه »

قال : « لقد عملت بنصيحتك »

قلت : ظاهر .... ولكنى – على قدر ما أذكر ، فان ذاكرتى ضعيفة كما تعلم أو لا تعلم ، – لم أوصك بالتسلل إلى الغرف التى تظنها خالية وإن كانت فيها حقيبة كبيرة وثياب معلقة ، ولا بالنوم تحت أسرة الناس »

قال : « لا لا لا . لست أعنى هذا . إنى آسف لازعاجك »

قلت : « استغفر الله ... بل آنستنى ... البيت بيتك ... أعنى الفندق .. نعم ؟ »

قال : « خطر لى أن أهرب من مصر »

قلت : « هل ارتكبت جريمة ؟ »

قال : « لا لا ... أعوذ بالله ! إنما أعنى أن الناس يعرفوننى فى مصر وقد أخجل أن يرونى أزاول عملاً غير لائق ... »

قلت : « صحيح ... مصر صغيرة جداً ... ليس فيها إلا مليون وربع مليون من الناس ... ومثلك لا يمكن إلا أن يبرز جداً فى مثل هذا العدد الضئيل .... معك حق ... وإلى أين ذهبت ؟ »

قال : « جئت إلى الاسكندرية ... لا يعرفنى فيها أحد ... وبدأت بأن صرت أبيع أوراق « اليانصيب » ولكن الناس كانوا يستريبون بى لأنى ألبس بذلة ، ويشترون من الصعيدى لابس الجلابية ... لا أدرى لماذا ؟ فتركت هذا وعملت خادماً فى مطعم ... لم أبق فيه سوى أسبوع واحد ... الحقيقة أنى لا أدرى كيف يستطيع أن يحمل المرء كل هذه الصحون والملاعق ولا يكسر منها شيئاً ... »

قلت : « هل كسرت الصحون ، وحطمت الأوانى ؟ »

قال : « لم أكسرها ، إنما كانت هى تسقط منى »

قلت : « هذه مسألة دقيقة جداً . فلنقف عندها قليلاً ... إنها تذكرنى بابنى ... كان معى يوم زرتنى ، فلا شك أنك تعرفه »

فقال وقد أضاء السرور والاعجاب وجهه : « أكان هذا ابنك ؟ »

قلت : « لا يزال ابنى على الرغم من كل شىء »

قال : « ما شاء الله ... »

قلت : « أشكرك ... وأعود فأقول إن بائع تين مر ببيتنا يوماً فوزن لنا أقة ، فأخذها منه الصبى – أعنى ابنى فقد كان صبياً صغيراً كما لا بد أن تعرف – وأكل منها تينات فى طريقه الينا ... بلعها بلا مضغ على ما أظن ، فقد كانت المسافة أقصر من أن تسمح بالأكل الصحيح – أعنى الصحى ... المضغ اثنتين وثلاثين مرة إلى آخره – فلم يعجبنا التين ، فأعدناه إلى صاحبه ، ولا أدرى كيف عرف ، ولكنه تبين أن التين أنقص مما كان ، فسألنا الغلام ، فقال إنه لم يأخذ شيئاً ، ولكن التين كان يثب من الطبق إلى فمه ... فهذا من ذاك ياصاحبى ! ثم ماذا أيضاً بعد أن طردت من المطعم ... لا بد أن تكون طردت ... أم تراك قدمت استقالة مسببة ذكرت فيها أنك لا تستطيع أن تعمل مع هذه الصحون والأطباق اللعينة التى تأبى إلا أن تماسكك وتحاورك وتفافلك وتسقط من يدك ؟ »

فتمتم قليلاً ثم قال إنه اشتغل بائعاً للبن الزبادى – اليغورت كما يسمى فى أحياء الرمل – فضحكت وقلت : لا بد أن تكون قد عانيت من سلاطين اللبن مثل ما عانيت من صحون المطعم ... الطبيعة واحدة ، ولست أحتاج منك إلى بيان ما حدث ، فأنى أعرف روح هذه المادة التى تصنع منها الصحون والسلاطين »

فقال بلهجة الجد المضحك : « الحقيقة أنه أمر غريب .. لقد كان يخيل إلى أن شيئاً فوق رأسى يحرك الطبلية ويميلها فتتسابق السلاطين الى الأرض »

قلت : « معقول .... معقول .... شيطنة معهودة من

كل ما يصنع من هذه المـادة المـكهربة »

ولا أطيل ، فما أردت من إثبات هـذا الحوار إلا أن يرى القارىء مبلغ سذاجة هذا الشاب وبراءة نفسه وطيب خيمها ، وقد علمت منه أنه يشتغل ، خادما أو « ساعياً » عند قصاب ، وأنه جاء الى الفندق — كما يفعل اليوم — بمقدار اللحم المطلوب فوضعه قرب باب المطبخ قبل أن يسلمه الى رجال الفنـدق ، ووقف يحادث اللبان ، فجاء كلبان ضخمان وأعملا أسنانهما فى اللحم ، وأقبلت القطط — لا يدرى من أين — فاختطفت ما بقى ؛ وظهر صاحب الفندق ، فذهب صاحبنا يعـدو ، بلا عقل ، فاذا به يرى نفسـه بين الغرف ، وكان اليوم يوم أحد ، وليس عليه بعد ذلك عمل ، وقد قبض أجره الأسبوعى ، فرأى أن يرتدى بذلته ، ليتسنى له بعد أن يسلم الرسالة أن يخرج للرياضة والتنزه من غير أن يحتاج أن يعود الى غرفته فى « المـكس » . والتقى فى طريقه بين الغرف بأحد النازلين فى الفندق خارجا من غرفته ، فخاف ودخل غرفتى فألفاها خالية ، فدس نفسه تحت السرير ، بلا تفكير ، حتى أخرجته . . .

فسألته : « ألا يمكن أن يكون هناك عمل تصلح له ، ويصلح لك . . . كالحلاقة مثلاً ؟ »

فحدق فى وجهى مستغرباً وقال « إيه .. أعنى .. معذرة .. »

قلت : « لا بأس ... أردت أن أقول ألا يمكن أن تكون شيخ طريقة مثلاً ؟ ؟ ، ولـكن هذا يحتاج الى ذكاء وحـذق وبراعة وجرأة . . ولاشك أنك ذكى حاذق ، وشجاع وبارع ، ولـكن الأمر يحتاج إلى ضرب آخر من هذه المزايا ، فقل لى .. لابد أن يكون هناك شىء تتقنه . . . فماذا هو ؟ فكر ... اقدح زناد هذا الفكر . . . أرنا همتك . . . »

فأطرق ملياً ثم قال : « لو كان عندى رأس مال لاقتنيت غيّة . . . ولـكن . . . »

فقلت : « هل سمعتك تقول « غيـّة » ؟ »

قال : « نعم ... غية ... »

قلت : « مفهوم ، ولـكن ألا يمكن أن تجعلها أسهل . . . . أعنى أن تفسرها ؟ » قال : « غيـّة ... ألا تعرفها ؟ »

قلت : « لا بد أن أكون أعرفها ... ولـكن ينقصنى أن أعرف ماذا هى ؛ فماذا هى ؟ » قال : « الغيـّة هى ... هى الغية »

قلت : « هذا أحسن ... »

قال : « تعرف ماأعنى ... الحمام ... تبنى له بيتاً من الخشب فوق السطح ، وتعنى به »

ففهمت وسألته « ولـكن هل هذا عمل يربح منه الانسان ، أم هو تسلية فقط ؟ » قال : « لست أثنى على نفسى ، ولـكنى لو وجدت المال اللازم أستطيع أن أستولده ... »

قلت : « تستولد المال ؟ »

قال : « لا لا ... الحمام ... أربيه وأستولده ... وأبيع منه ... عمل رابح جداً » فخطر لى أن لعله صادق ، وأن هذا شىء يحسنه ، فسألته عما يحتاج إليه من المال فقال : إنه ادخر نحو جنيهين ، وأنه يستطيع أن يقترض من أهله نحو عشرة ، ولـكنه ينقصه مثل هـذا القدر للبناء وشراء الحمام اللازم ، فاقترحت عليه أن نجعلها شركة مساهمة فانطلق يحدثنى عن الحمام وطباعه ومزاياه ، ويصف لى أنواعه ويذكر لى أسماء لم أسمع بها من قبل ، فاطمأن قلبى وأيقنت أنه اهتدى إلى ما يحسن ، وعدت به إلى القاهرة وجمعت له من اخوان لى ما يكفى « لمشروعه »

ولم أكن أظن أن الحمام تجارة رابحة ، ولـكنه بعد عام واحد استطاع أن يرد ما اقترض من أهله ومنا ، وأن يخبرنى أنه موفق ، وأنه يعيش عيشة راضية ، لا ترف فيها ولا بذخ ، ولـكنها — على كونها عيشة كفاف — هى التى كان يصبو إليها ، لفرط حبه لهذا الطير ....

فلا يزال صحيحاً أن المرء ميسر لما خلق له

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

النقـــد

في الأدبين العربي والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

ليس النقد إلا ميلاً طبعياً في الانسان إلى الحكم على ما يحس وما يرى، واختيار الأحسن من ذلك. ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة في كل أمة؛ بل هو ضرورى لتقدم الأدب: يقفه على مواضع إحسانه ويظهره على مواقع تقصيره، ويجلو أمامه غاياته وطرائقه، ويستحثه على دوام الترقى والتزيد. فالأدب صدى الحياة، والنقد صدى لذلك الصدى، يُظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب في تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم في النفوس

فالناقد النزيه خير صديق للأديب: يضع إصبعه على عيوبه فيتلافاها، ويستحسن إجاداته فيزيده ثقة بنفسه وإقبالاً على ممارسة أدبه. ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث: فقد وجد الأخير في صاحبه — حين إعراض الجمهور عنه وغمط الجميع حقه — خير عارف بقدره معجب بأدبه، وكان لاعجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى في أدب وردزوث، وكان الشعر الذى كتبه في عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق

بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة إلى نفوس الأدباء والنقاد، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد. وقد شهد الأدبان العربى والانجليزى ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد. ومن أمثلة ذلك في العربية حملة الصاحب على المتنبي وإشلاؤه عليه أذنابه. وفي الانجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيتس حملات الرجميين والحاسدين، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجمه بعض ناقديه فأقذع أن مات محتضراً في عنفوانه

وقد كتب الكتاب في العربية والانجليزية وغيرهما من اللغات في النقد كثيراً، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للأدب توضح غثه من سمينه وتعين القارىء والناقد على استحسان الحسن واستهجان الهجين مما يكتب الكاتبون، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شىء ذى بال، بل ناقض بعضهم بعضاً، واستجاد هذا ما استرذله ذاك، وظل المرجع الأول في نقد الأثر الأدبى إلى ذوق الناقد وتكوينه الفكرى، وظل كل أثر أدبى من شعر أو نثر يحمل في طياته المبادىء التى يجب أن ينقد على حسبها، بل رأى وردزورث — وأصاب — أن الناقد الذى يُقبل على نقد أثر أدبى، وقد كون لنفسه مبادىء ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره

وللنقد صور شتى: فالأديب هو أول ناقد لأدبه، وإنشاء الأثر الأدبى عملية مكونة من الخلق والنقد معاً؛ ومن الأدباء من يعرض ما ينشىء على رفاقه، ويستمع إلى ملاحظاتهم عليه؛ وكان ذلك معروفاً بين العرب قبل أن تذيع الكتابة، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد في الأسواق الأدبية، ولتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء للأدب. ويروى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم: كثير وليلى الأخيلية والمتنبي نوادر في ذلك، فكثيراً ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه؛ فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد

وكتب النقد أنواع: فمنها ما يدرس مبادىء الأدب وغاياته ووسائله ويدخل في هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية، وهى كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد. ويشترك الأدبان العربى والانجليزى في وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبى فيهما؛ ومن كتب النقد ما يدرس أديباً واحداً أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة، كالكتب الكثيرة المؤلفة في دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون وهاردى؛ ومنها ما يدرس نوعاً خاصاً من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائى، ومن ذلك كتاب أبر كرومبى عن الملحمة؛ ومنها ما يدرس عصراً يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله، كالعصر الاليزابيثي والعصر الفيكتورى؛ ومنها ما يدرس من عصور

أدب اللغة جملة : وتلك هى كتب تاريخ الأدب ، وليست فى صميمها إلا نقداً ، وهى حديثة العهد

وكل هذه الأنواع نادرة فى الأدب العربى وبعضها لا يوجد به ، وإنما الضرب السائد فيه هو ذاك الذى توخاه مؤلفو البيان والتبيين والكامل ويتيمة الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ؛ وتلك هى كتب الأدب التى لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم ، بل كان الغرض اقتطاف أطايب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل إخراج الأديب المقبل

وقد استفاد النقد فى الانكليزية كثيرا بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربى فى نواح شتى : فتقدُّم علم التاريخ علَّم النقاد أن يهتموا بحالة العصر الذى يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ؛ وتقدُّم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التى نشأ فيها الأديب الذى يدرسون والصفات التى ورثها عن أسرته ، ومزاجه النفسى وتكوينه الجسمى ، وأثر كل ذلك فى أدبه ، فجاء النقد الانجليزى الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرزَ للعصور والأعلام صوراً جلية وشخصيات متميزة

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماما بدرس فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدرس الأشخاص والعصور ؛ وقد أسهبوا فى درس الفنون التى فشت فى أدبهم واستأثرت بمعظم نثرهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلالى والمدح والهجاء والرثاء ، وهى المناحى التى لم تظفر من أدباء الانجليزية ونقادها بالتفات ، فقسَّم قدامة بن جعفر مثلاً الممدوحين الى ضروب : فملوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح فى أربع : الشجاعة والعدل والعقل والعفة ، يجمعها قول زهير :

أخى ثقة لا تُهلك الخمر مالَه ... ولكنه قد يهلك المال نائله

فمن مثل حصن فى الحروب ومثله ... لانكار ضيم أو لخصم يجادله

والناظر فى كتب النقد فى الأدبين العربى والانجليزى ، يرى — عدا ما تقدم — فروقا واضحة بين نقدى الأمتين كالفروق التى يرى بين أدبيهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة فى الحالتين ؛ ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب ، بل إن النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدى مستمرا طوال العصور ؛ والخصائص التى تغلِب على أحدهما لابد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد فى العربية والنقد فى الانجليزية ما نجد بين أدبى اللغتين من فروق فى نواحى المحافظة والتجديد ، والتأثر بالأثر الأجنبى ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا

فنرى المحافظة هى الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا إلى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلاً يزعم أنه يجدد بذ الأوائل ثم يأتى بأمثلة من تجديده فاذا هى محافظة مغرقة وتقليد مفرط ؛ وأغلب نقاد العربية يقدسون النقد بن دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولاً ويضعونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو على الحاتمى يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالانسان فى تناسب خلقه ، فلا ينشب أن يقول : « وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة » ، فهو لا يتصور القصيدة إلا نسيباً ومديحاً كما فعل الأوائل

وتتجلى نزعة المحافظة فى النقد العربى فى أمرين : غرضه ، ومِمارسيه ، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد فى العربية كما تقدم وقف الناشىء المتأدب على بلاغة المتقدمين ، وتفهيمه أسرار إعجاز القرآن ، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد إلا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم ، كوصية عبد الحميد لمعشر الكتاب ونصيحة أبى تمام للبحترى ؛ وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملاؤهم من تقاليد ، كثورة أبى نواس بالوقوف على الديار فى مثل قوله :

لا جفَّ دمع الذى يبكى على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وتمرُّد المتنبى على النسيب الاستهلالى فى قوله :

إذا كان شعرٌ فالنسيب المقدَّمُ ... أكلُّ أديبٍ قال شعراً متيم ؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تُكوِّن مذهباً ولم تغير سنة ، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما

نظموه ، وإنما مارس النقد فى العربية المقلون فى النثر والشعر كالجرجانى وأبى هلال العسكرى ، أو من لم يؤثر عنهم شىء ، وهكذا كان الأدباء فريقاً والنقاد فريقاً آخر

أما فى الانجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضاً ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضاً زعيم النقد فيها : فكل من بن جونسون ودريدن وبوب وصمويل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسى وماكولى وماثيو أرنولد ورسكن ، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقداً ، وذاك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فان يكون الأديب أديباً حتى يكون له رأى فى الأدب والحياة ينضح عنه فى كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه فى آثاره الأدبية ، وكلٌّ من دريدن وبوب ووردزورث قد استجد مدرسة فى الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته فى النقد . فبينما كان غرض النقد فى العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان فى الانجليزية ابتداء حركات جديدة

ولا ريب أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدهما ، لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ؛ والأديب الذى يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلةً مؤيِّدةً لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث فى أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها ، أحرى أن يُتَّبَعَ من الناقد الذى لا يمارس الأدب ، وإنما يملى على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربى تنحى فحوله عن مضمار النقد ، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسى السلف

ولتقديس النقاد للقديم وقفوا موقفاً متناقضاً : فكانوا ينكرون على الأديب أن يحيد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التى سبقوه اليها ، وصرفوا جانباً عظيما من اهتمامهم إلى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب الوساطة للجرجانى أغلبه جهد ضائع فى تقصى المعانى إلى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القصائد بيتاً بيتاً ؛ والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية

وكان نقاد العربية أكثر التفاتاً إلى الألفاظ منهم إلى المعانى ، وعد أكثرهم إحكام اللفظ ميزة الاديب الفحل ، وعدوا المعانى مشاعا بين الجميع ، قال أبو هلال العسكرى : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه » ، وقال ابن الأثير « ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوِّج بين لفظتين ؛ فالعبارة عن المعانى هى التى تخاب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى »

ولهذا صرف أكثر النقاد هممهم إلى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام الجناس والطباق والسجع ، وطُرُق تضمين الآيات وحَلّ الأشعار ؛ ووجود علم البديع فى العربية دون الانجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ؛ وكان للنقاد والأدباء معاً إيمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أى معنى ، وثقة لا تتزعزع فى تفوق اللغة العربية فى الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التى بذتهم فى شتى العلوم

أما موقف جمهور الأدباء الانجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وإن لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها ، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس ، بل عدَّها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية إلى تلك الغاية ، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدى غرضه ؛ فلم يهتم أدباء الانجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموه ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها ، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفى أو المنظر المرئى : من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة ، ويفاضل النقاد الانجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون إن الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية

ولما كان إيمان العرب بتفوقهم البيانى كما تقدم ، لم يهتموا

بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي كثيراً ، فهم واضعو علوم البلاغة في لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجدهم في هذا السبيل جسيم جليل ؛ أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبي الأجنبي دائماً نصب أعينهم ، قديماً كان أو حديثاً ، فمما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس في النقد نشأ النقد الأدبي في الانجليزية ، وغُذِّي بعد ذلك بكتابات دانتي وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين ؛ فالناقد الانجليزي يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق

ولا ريب أن اشتمال النقد الانجليزي على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح في العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة إتقان الناقد في أدب ما أدباً أجنبياً واحداً على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلي

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كُتب فيها في النقد ، ثم هم كانوا – ولا سيما متأخروهم – مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كُتب في نقدها ، بل كان منهم من جمعَ بين نقدها والنقد الأدبي : فدريدن واضع أساس النثر الانجليزي الحديث كتب رسالته في « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكري ورسكن بين نقد الادب ونقد التصوير أو النحت ؛ ولا ريب أن تفقه الناقد في تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر في الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون في وسائلها وغاياتها

فالناقد الانجليزي كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظما ونثراً فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الادب الأجنبي والنقد الاجنبي ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه ، ولأنه متبصر في الفنون فهو أعلم بمناحي فنه الخاص – الأدب – ومن ثم حفل الأدب الانجليزي بالدراسات القوية لعصور الادب وفحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجاً وأبين معالم من تاريخ الأدب العربي

فخري أبو السعود

صور سياحة

أيام في سويسرا

بقلم سائح متجول

غادرنا باريس في منتصف الليل قاصدين إلى سويسرا ؛ وإذا كنا قد هبطنا باريس فرحين مغتبطين بزيارتها والتمتع برؤية معالمها ومعاهدها التاريخية ، فقد غادرناها أيضاً دون أسف ، بعد أن تركت في نفوسنا صوراً أخرى غير تلك الصور الخلابة التي ألفناها في كتب الأدب وفي المقالات والفصول الرنانة ؛ وسار بنا القطار ينهب الأرض ليلاً متجهاً نحو الالزاس ، فلما أسفر الصبح كنا نخترق أراضي الالزاس مارين بتلك المواقع الشهيرة في تاريخ الحرب والسياسة مثل بلفور ومياموز وغيرهما ؛ وقد لاحظنا مذ بدأنا نجوز الالزاس أننا نكاد نخترق أرضاً غير فرنسية ، فالناس يتحدثون بالألمانية المحرفة (أو الالزاسية) في كل مكان حتى موظفي القطار يخاطبون الركاب بالألمانية ، وكل ما هنالك من طبيعة ومناظر وأشخاص يكاد ينطق بأن الالزاس ليست فرنسية في طابعها وفي روحها ، وإن كانت السياسة ومصاير الحرب قضت بأن ترد الالزاس واللورين إلى فرنسا عقب انتصارها في الحرب الكبرى

ووصلنا إلى الحدود السويسرية في الصباح الباكر ، ودخلنا محطة بازل (أو بال) حيث أجريت الاجراءات الجمركية في أدب وظرف ؛ وشعرنا في اللحظات القليلة التي مرت حتى وصولنا إلى الفندق أننا نجوز إلى محيط آخر أرق خلالاً ومدنية من محيط فرنسا والشعوب اللاتينية كلها ؛ وإنك لتأنس نفس الشعور عند ما تخترق الحدود الايطالية مثلاً إلى النمسا ، فتشعر في الحال أنك غادرت في إيطاليا محيطاً أقل مدنية وخلالاً

وسويسرا موطن السياحة بحق ، والسياحة أهم مواردها القومية ، ولهذا تعنى ولايات الاتحاد السويسري ومدنه المختلفة بتنظيم شؤون السياحة أحسن تنظيم وتذيع عن سويسرا ومصايفها ومشاتيها ومناظرها ونزهها نشرات بديعة جذابة ، وتعنى بتنظيم

كل ما يتعلق براحة السياح ورفاهتهم مثل الفنادق والمطاعم وطرق المواصلات والألعاب والنزه ولا سيما النزه والألعاب الشتوية الجبلية والثلجية التي اشتهرت بها سويسرا ؛ والفنادق السويسرية حسبما رأيناها في بازل وتسيريخ (زيوريخ) فنادق من الطراز الأول من حيث النظام والنظافة وما يتجلى فيها من الأناقة وحسن التنسيق ، وكذلك المطاعم والمقاهي يبدو عليها طابع الأناقة والبهجة والذوق الحسن ؛ ونستطيع أن نقول إن مدينة صغيرة مثل بازل أو تسيريخ تتمتع بمجموعة من الفنادق والمطاعم الأنيقة لاتوجد في مدينة عظيمة كباريس ، التي مازالت فنادقها متأخرة من حيث الفخامة والتنسيق والرفاهة نحو نصف قرن عن فنادق العواصم الأخرى

غير أنه لابد أن نقول هنا إن السائح يدفع لهذه الأناقة والرفاهة في سويسرا ثمناً غالياً ، ذلك أن موجة من الغلاء المرهق تعم سويسرا ؛ وقد كانت سويسرا وقت زيارتنا لها في أغسطس من أشد الدول تمسكا بقاعدة الذهب ، وقد كان الجنيه الانكليزي يساوى ١٥ فرنكا سويسريا فقط ؛ ولم يمض علينا في بازل يوم واحد حتى أدركنا فداحة هذا الغلاء الذي ينغص على السائح كل شيء خصوصاً إذا كان يحمل نقداً خارجا عن عيار الذهب كالجنيه الانكليزي أو المصري ؛ فالسائح المتوسط لا يستطيع أن يعيش في سويسرا عيشة لائقة مريحة بأقل من ٢٥ الى ٣٠ فرنكا في اليوم (١٦٠ الى ٢٠٠ قرش) ، واليك بعض الأمثلة العملية ؛ فأجرة الغرفة في فندق متوسط تساوى من ٦ الى ٨ فرنكات يومياً (والفرنك ستة قروش ونصف) وأجرة الحمام فرنك ونصف ووجبة الطعام في مطعم لائق تساوى ٣ — ٤ فرنكات ، والقهوة أو قدح البيرة يساوى فرنكا ، وهكذا ؛ وأذكر أنني دفعت حين وصولي الى محطة بازل نحو ثلاثة فرنكات (عشرين قرشاً) أجرة لحمل حقيبتي من المحطة الى الفندق الذي لا يبعد عنها أكثر من مائة متر ودفعت مثلها حين سفري من بازل ، ووقع مثل ذلك كرة أخرى حين وصولي الى تسيريخ وسفري منها ؛ وهذا من أشنع ما لقيت من صور الغلاء ، وتقضى تعريفة الحمالين الرسمية بأن يدفع المسافر نصف فرنك (خمسين سنتا) عن كل قطعة ، وأن يضاعف هذا الأجر ما بين الساعة العاشرة مساء والساعة السادسة صباحا ، ولا يتعدى عمال المحطة باب الخروج حيث تقف عربات التاكسى ، وعندئذ يتسلمك حمال الفندق أو تركب التاكسى ، وكذلك لا يسمح لحمال الفندق أن يتعدى باب المحطة ؛ ومن ذكريات هذا الغلاء الشنيع أيضاً أنني دفعت فرنكين ونصف (١٧ قرشاً) أجرة لقص الشعر ! وهكذا قضينا بضعة أيام نكتوى في بازل وفي تسيريخ بنار هذا الغلاء الشنيع الذي لا يكاد يلطف من وقعه شيء

ولقد اشتهرت سويسرا بأنها بلد السياحة ، وقد حبتها الطبيعة فعلاً وحبت مجتمعاتها بكل ما يجذب السائح ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا تعول قبل كل شيء على السياحة الغالية أو السياحة المترفة ؛ ولما كانت السياحة مورداً قومياً أساسياً في سويسرا ، فالظاهر أنها تعمل كل ما وسعت لاستغلاله في جميع نواحيه . وحالة الرخاء المستمر التي تتمتع بها سويسرا تساعد في ارتفاع معيار العيش ، وتحمل الشعب السويسري على طلب المزيد من ثمار هذا الاستغلال ؛ ولكن الظاهر أن سويسرا شعرت أخيراً كما شعرت فرنسا أن هذا المورد قد أصابه النقص وأن دولا أخرى مثل ألمانيا وإيطاليا والمجر قد أخذت تجذب أنظار السياح وتستغل مورد السياحة بما قدمته من تسهيلات في النقد والسكك الحديدية ، وأن الخروج عن معيار الذهب في مسألة النقد وسيلة لاستدراك هذا النقص . وقد خرجت سويسرا فعلاً كما خرجت فرنسا عن معيار الذهب ، وخفضت قيمة الفرنك السويسري نحو ٣٠ ٪ بحيث أصبح الجنيه الانكليزي يعادل ٢١ فرنكا ؛ وربما كان في ذلك تخفيف على السائح وتخفيض معقول في مستوى المعيشة ، ولكن ذلك يتوقف دائماً على المحافظة على مستوى الأثمان القائم ، فاذا ارتفعت الأثمان تبعاً لنزول النقد ، فأن السائح لا يستفيد شيئاً ويبقى الغلاء المرهق حيث هو

* * *

ولنعد الآن إلى بازل ؛ فهي مدينة أنيقة سكانها نحو مائة وخمسين ألفا ، وتتمتع بموقع بديع على منعطف نهر الراين ، والراين يخترق بازل ، ولكنه يبدو متواضعاً هادئاً كأنه نهير صغير ؛ وفي ظاهر بازل من الغرب تجتمع حدود أمم ثلاثة ترى على قيد البصر

سويسرا وألمانيا وفرنسا ؛ وفى بازل أقدم الجامعات السويسرية يرجع إنشاؤها إلى نحو خمسمائة عام ، وبها مكتبة كبيرة تضم نحو نصف مليون مجلد ، وعدة كنائس قديمة أشهرها وأفخمها كنيسة سانت مارتن . وشوارع بازل وطرقها حسنة التخطيط ، ومبانيها منسقة متوسطة الارتفاع ؛ وأهم ميادينها ميدان المحطة Bahnhof's Platz وعليه يشرف معظم الفنادق الكبيرة ، ومنه يتفرع بحذاء المحطة أهم شوارعها ، وهو « الشارع الحر » Freie Strasse وهو الممتد فى وسطها حتى النهر ؛ ولبازل ضواح بديعة يمتد اليها خط ترام خاص من المدينة ، يمر خلال مجموعة ساحرة من الوديان النضرة والقرى النظيفة الساحرة ؛ ولقد ذهبنا ذات صباح نجوس خلال هذه المناظر الممتعة ، وقصدنا إلى قرية دورناخ Dornach حيث يقوم معهد « الجتيانوم » Goetheanum فوق أكمة عالية تصل اليها من طرق صاعدة تقوم على ضفافها المنازل والحدائق الأنيقة ؛ ولما وصلنا إلى « الجتيانوم » بعد رياضة مجهدة ألفينا بناء ضخما أبلق ، قد بنى على الطراز الاغريقى والقوطى ؛ فجزنا إلى داخل المعهد وقابلنا سكرتيره ووقفنا منه على تاريخ المعهد ونظمه وغاياته ؛ وخلاصة ما علمناه أن « الجتيانوم » أو (معهد جيته) معهد دولى للعلوم العقلية ، سعى إلى تأسيسه الدكتور رودلف شتينر العلامة النمسوى فى سنة ١٩٢٣ ، وبنى على طراز الملاعب اليونانية القديمة ؛ وأريد به أن يكون معهداً دولياً حراً لترقية العلوم العقلية يجرى على مبدأ الثقافة الحرة المطلقة من كل قيد ؛ وأنشئت فيه أقسام للتربية والفنون الموسيقية والطب والعلوم والفلسفة . وفى الصيف تلقى فى المعهد دروس ومحاضرات دورية من أشهر الأساتذة فى مختلف العلوم والفنون فيقبل على سماعها جمهور كبير من الزائرين ، ومعظمهم من الانكليز والامريكيين والألمان ، وقد شهدنا كثيرين منهم حول المعهد وداخله ؛ وهنالك على مقربة من المعهد عدة فنادق منزلية تأوى زوار دورناخ ، وإلى جانبه فوق الأكمة العالية مقهى أنيق يقصده الرواد والمتنزهون

***

وبعد بازل قصدنا إلى تسيريخ (زيوريخ) ، وهى أكبر المدن السويسرية وسكانها نحو ثلثمائة ألف . وتقع تسيريخ على نهر ليمات أحد أفرع الراين عند مصبه فى بحيرة تسيريخ ، ويخترقها نهر ليتام وقد أنشئت عليه قناطر مدرجة لحبس المياه ودفعها بقوة لتوليد الكهرباء ؛ وتقع بحيرة تسيريخ فى نهاية المدينة شرقا ، وهى من أبدع المناظر البحرية التى يمكن تصورها ، وتكثر فيها القوارب البخارية المعدة للنزه القصيرة ، وكذلك السفن المعدة للحفلات الراقصة ؛ ويمتد أكبر شوارع تسيريخ ، وهو شارع المحطة Bahnhof's Str ، ما بين المحطة والبحيرة ، وهو شارع طويل فخم وبه معظم البنوك والمحلات التجارية وإدارات الصحف الكبرى وقد رأينا منها إدارة « جريدة تسيريخ الجديدة » Neue Zuricher Zeitung ؛ وفى تسيريخ أيضاً جامعة ، ومتحف تاريخى كبير . والمدينة على وجه العموم كثيرة النظافة والاناقة تفيض حركة وحياة ، غير أننا عانينا بها نفس الغلاء المرهق الذى أشرنا اليه .

وقد رأينا فى الأيام القليلة التى قضيناها فى هذه الربوع السويسرية الجميلة من خواص المجتمع السويسرى كل ما يحمل على التقدير والاعجاب ، فسويسرا الألمانية بلا ريب من أرقى بقع أوربا وأعظمها حضارة ، والشعب السويسرى (الألمانى) من أذكى الشعوب الأوربية ، وأرفعها ثقافة وخلاقا ؛ فحيثما سرت رأيت أرقى مظاهر النظافة والصحة والعافية ، وألفيت الشباب النضر يتدفق حياة وبهجة ؛ وتمتاز الفتاة السويسرية برشاقتها ومظهرها الرياضى ولونها النضر ، وجمالها الطبيعى الذى لا تكلف فيه ولا صناعة ؛ وفى جميع طبقات المجتمع تسود الرقة والأدب الجم وحسن المعاملة والأمانة ؛ ويلقى الغريب كل معاونة وتقدير واحترام ؛ واللغة الألمانية هى اللغة السائدة فى هذه المنطقة من سويسرا ، وهم يتحدثونها بظرف ورشاقة ، ولكنك تستطيع التفاهم أيضا بالانكليزية والفرنسية والايطالية فى معظم الأحوال

ولقد أنستنا هذه الأيام القليلة الممتعة ، وما لقيناه خلالها من شمائل هذا الشعب الرفيع الدمث ، ومظاهر حياته وذكائه ونشاطه التى تحمل على الاعجاب ، ما لقيناه من متاعب الغلاء المرهق الذى يرجع بالأخص الى تفاوت سعر النقد ، وأنستنا بالأخص كثيرا مما لقينا فى فرنسا وباريس من مظاهر التكلف والخشونة والرياء والجشع ، وكل ما هنالك من مظاهر حضارة تؤذن بالانحلال

(***)

إلى من يسمع !...

مقصورة : Villa غلالة : Pyjama

للأستاذ كرم ملحم كرم

عقدنا الأمل الأكبر على المجمع اللغوى المنعقد فى مصر ، وتوسمنا فيه حافزاً للخروج باللغة العربيـة عن جمودها وهى البعيدة عن روح العصر ، الضيقة المسالك بمستنبطات العلم الحديث ، والفسيحة الفجاج بما لنهضة اليوم غُنية عنه . فكان من المجمع الكريم أن خيبنا خيبة فاضحة . فما جاد علينا رجاله الميامين — دفع الله عنهم الخيبة ! ... — بكلمة واحدة من الكلمات التى خلقوها أو اشتقوها يجوز الركون إليها . فأتحفونا بالوحشىّ الغريب النافر منه حتى ابن البادية الجاثم بين كثبانه ونخيله ، ورمونا بمئات « المستشزرات » ونحن نضيق بواحدة منها

ألا عفا الله عن الأرزيز والجاز وأخواتهما . فمن يحفظها ويجهد قلمـه فى إثباتها والذوق نفسه يمجها . أنعتمدها نكاية بالذوق ؟

ليعلم المجمع اللغوى السامى المقام أنه كفر بالرسالة المفوض أمرها إليه ، فزلت به القدم فى الخطوة الأولى . وإذا أبى إلا الصراحة قلنا إن ثقتنا به ذهبت عنا ، خصوصاً والمفروض فى إنشاء المجامع العلمية اللغوية رفع اللغة إلى مستوى روح العصر ، لا التقهقر بها إلى ما بعد عشرات الأجيال ، فيتخاطب بها جيل اليوم كما كان يتخاطب بها الأعراب فى البادية

والأعراب أنفسهم نفروا من كل لفظ غريب ، فهل يجوز لمن يفاخر أسلافه بكونه ابتدع الطيارة والموّاج والمذياع أن يتكلم بلغة راعى الشويهة والبعير ، وضارب خيام الوبر ، ومفترش البلس ؟

إنها لأضحوكة . والمجمع اللغوى فى مصر وفر لنا هذه الأضحوكة ، وربما شاء بها أن ينفى عنا جهامة الأيام السود . فالشكر له كل الشكر . على أنه كان فى وسعه أن يثير فينا روح الاعجاب بدل أن يجرنا إلى الضحك فى موقف الجد . فما يدعو رجاله إلى التمسك بالكلام العويص ومجالسة الشنفرى والملك الضليل والهمذانى وصاحبنا الفرزدق وإمامهم زهير والحطيئة وعمر بن أبى ربيعة ولا غضاضة بجرير ؟ ... فهؤلاء ما حشوا أشعارهم بما لا يُفهم من وحشى غليظ ، بل جاؤونا بكلام يقال اليوم وغداً وسميعه طروب له راض عنـه ، لا يحتاج أبداً إلى القاموس كى يدرك ما يقرأ ويقع فى أذنيـه . فكأنه وهو يصغى إلى هذا النفر من الشـعراء فى حضرة خطيب من أبناء القرن العشرين !

وعندنا أن السادة أعضاء المجمع اللغوى الزاهر لو استشاروا أذواقهم لوقعوا على غير هذه المتكأكآت المفرنقعات . ولكنهم حرصوا على الشاذ فرموا أنفسهم بكل شذوذ . وما ضرّهم لو نهجوا نهج الأقدمين فى إثبات الكلمات الدخيلة الشائعة على الألسن والأقلام . وإذا أبوا إثباتها كما هى فليدوروا حولها بما لا تبعـد بينهم وبينها الآفاق . فان يروا من الحيف أن نقول « تلفون » و « فونوغراف » و « بيجاما » فما عليهم إلا أن يقاربوا بين هذه الكلمات وكلمات عربية مشتقة أو أن يخلقوا كلمات جديدة غير وحشية تدل عليها

أنا لا أرى اللغة تضيق بكلمة « تلفون » وقد فتحت صدرها لمئات الكلمات الدخيلة من فارسـية وعبرية وسريانية ويونانية . فـكما أثبتت الاسطرلاب والشمعدان والقنديل والورد والدستور والخردق والمنجنيق وما أشبه ، فى استطاعتها إثبات « تلفون » لاسيما والكلمة شاعت وباتت ملء الأفواه والأسماع . وإذا طاب لأفراد المجمع المحترمين العـدول عنها فهناك كلمتا « هاتف » و « ندى » وكلتاهما أفضـل من الأرزيز . وليس للمجمع إلا أن يقر إحـداهما لتجرى عليها الألسن والأقلام فى البلاد العربية جمعاء ، وهى ترى فى المجمع صاحب الكلمة الفاصلة فى الموضوع إن يكن ثمة تقدير للصواب والمألوف

أجل ، لم يثبت المجمع اللغوى المصرى وجوده . فكان أشبه باخوانه المجامع التى قامت فى سائر البلاد العربيـة وحاولت أن تخدم لغتها فسقط فى يدها وخفت صوتها ؛ وهـذا من سوء

الحظ . فانه ليؤسفنا أن يجول فى الخواطر أن المجمع المصرى لا يملك الكفاية فى القيام بالواجب المفروض عليه ، مع أن رجاله متضلعون من علم اللغة ، ولكن ما ينفع العلم إذا ندّ عن الذوق ؟ ...

هذه كلمات تجرح — ولا نكير — غير أنى أجرؤ على التفوُّه بها فالموقف يقضى باعلانها ، خصوصاً ونحن إزاء حقائق لا تجوز فيها المصانعة ولا المحاباة

لقد طلبنا من المجمع أن يلجأ إلى قاموس « لاروس » الفرنسى يترجمه إلى اللغة العربية ، وكفى الله المؤمنين القتال ؛ على أن يترجمه بكلمات غير ثقيلة على السمع ولا مهجورة ، فلم ينزل المجمع على هذا الطلب الحق ، وكان أن نفحنا بألفاظ مستغربة من مخترعاته يؤلمنا أن يتوكأ عليها فى تشييد مكانتــه ، وهى ألفاظ واهية كالدعامة الوشيكة الانهيار

ولو أنصفت الحكومة المصرية فى اختيار رجال المجمع لنظمت عقده من فئة مختارة لا من علماء اللغة فحسب ؛ بل من أساتذة كل فن . فاللغة مجموعة شاملة لا تقف عند سيبويه ولا عند الكسائى . لا تدين بصلف علماء الكوفة ، ولا بعناد أئمة البصرة . فالعصر يدعوها إلى جمع العلوم كافة . ومجمعها اللغوى يجب أن يضم العلماء من أبناء الفنون دون ما استثناء . فيحشد فى حلقته المهندسون والاشتراعيون والأطباء والصحفيون والتجار وأرباب الصناعات ، ليتفق الجميع على الكلمات المطلوبة لكل فن ومهنة . وهــذا ما غاب عن الحكومة المصرية وهى تنشئ صرح المجمع ، فشاءت إصلاح اللغة وتهذيبها فكان أن قضت عليها بتقهقر آخر لسنا بحاجة اليه . فالصيبة الأولى أهون من مصيبــة اليوم فى « نفثات » المجمع العاطرة

ولكن المجال لا يزال رحيباً ، والمجمع قائم البنيان ، ومن السهل التبديل أو الاضافة ؛ فيممد المجمع إلى محو ما رسم ، أو إلى خلق ألفاظ جديدة لا تعقد فيها . وبهذه الوسيلة وحدها تتعادل الكفتان ، ويثق أبناء اللغة العربية بما يعلن رجال المجمع ويؤيدونه فيما قرّ رأيه عليه ؛ وإلا إذا بقيت الحال كما نرى فما على المجمع إلا أن ينسج بيده كفنه ، وليس فيما اخترع واشتق كلمة تتداولها الأقلام

* * *

لى على المجمع الكريم اقتراح بسيط ، فما يضرُه لو أقرّ لفظة « مقصورة » لكلمة Villa الفرنجية ؟ ... فالكلمة تحوى معنى القصر وVilla منزل فخم لطيف يشبه القصر بعض الشبه . ثم إن كلمة « مقصورة » معناها حجرة ، واللغة العربية أجازت تسمية الكل باسم الجزء ، عدا أن الكلمة معروفة خفيفة الوقع على السمع ، قريبة المتناول ، مدعاة إلى التفاخر ، غير مهجورة . فمن يقول : « هذه مقصورتى ! . . . » كمن يقول : « هــذا قصرى ... ! » وفى ذلك ما يرضى ذوى المطامع وعشاق الأبهة

ولقد تفضل المجمع فأطلق كلمة « ظظار » على Villa الفرنجية فما معنى « ظظار » أيها المجمع المحترم ؟ ... وهب كان لها معنى فمن يتلفظ بها وهى ثقيلة كالرصاص ، على حين أن كلمة «مقصورة» لطيفة شائعة ، تسرع إلى اقتباسها الألسن والأقلام ؟

وهناك كلمة pyjama فماذا يحول دون تسميتها بالغلالة ، والغلالة شعار يلبس تحت الثوب ، فهل ما يمنع أن تكون الغلالة pyjama ؟

* * *

أقترح على المجمع اثبات ها تين الكلمتين فى قاموسه ، وإذا استزادنا زدناه ، وإن أبى العمل باقتراحنا طلبنا إلى حملة الأقلام أن يتناولوا اللفظين فيما يكتبون ويتحدثون به وليس فيهما شائبة

ولا يغضب المجمع أن يتصدى لانتقاده كاتب يغار على لغته ويريد لها النهوض والسير فى ميدان العصر الفسيح والخروج من فقرها اللغوى فى عهد المنطاد والسيارة والصاروخ . فهى لا تزال تعيش بذهن عتيق مثلها يوم كان البعير لديها أشبه بالطيارة ، والسهم كالمدفع ، والنار فى رؤوس الجبال كالمذياع والمواج

لقد عرف الشيخ ابراهيم البازجى كيف يحضر اللغة بما وفر لها من كلمات مستحدثة تماشى الذوق والعصر ، أيخلو المجمع من مثيل للرجل العلامة وكلٌ ينادى نفسه نعم الفتى ؟ ...

* * *

نحن نخاطب من له أذنان وعينان . فليسمع المجمع اللغوى المصرى الرفيع العماد !

(بيروت) كرم ملحم كرم

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

وسطاء شر أبرياء

هذه قصة ثِيُوبُلْد إسميث Theobald Smith . قصة الرجل الذى قاد الانسانية فمالت معه حيث مال إلى طريق جديد طلع عليها بأمل جديد . كان أولَ أمريكى سبق إلى كشف المكروب ، ولم يلحق بغباره إلى الآن منهم لاحق . أخذ يتشمّم الأرض يطلب غاية ، ويستتبع أثراً يقود إلى عين ، وأفاد فى تتبعه هذا من رأى رآه الفلاحون ، وظِنـّة قال بها بسطاء المزارعين ، فلم يلبث بواسطتها أن اطّلع من بحوثه على كل عجيبة غريبة . فهذه القصة ستنبئك بالذى اطّلع عليه إسميث ، وبالذى وجده من بعده من تعقّبوا آثاره

« إن فى استطاعة الانسان أن يمحو كل داء وبىء من على وجه الأرض » . هكذا قال بستور وبهذا تنبـأ وهو مفلوج بعد نُصرته المعهودة على داء دودة القزّ التى أكسبته ذكراً وأنالته مجداً . ولعلك تذكر بأية قوة وأية حرارة ألقى هـذا الأمل فى الناس ، حتى لحسبوا أن الداءات المعْديات لا يهلّ عليها العام القابل أو على الأكثر الذى يليـه حتى تكون خبراً يُروَى . واطمأن الناس لقوله واستبشروا وأخـذوا يرقبون ما تأتى به الأيام ... واخترع بستور الألقحة فهتفوا له عالياً ، وكانت هذه الألقحة لا شك بدائع عجيبةً رائعة ، ولـكنك لا تستطيع القول أنها كانت لاستئصال المكروب من على ظهر البسيطة . وجاء من بعد بستور كوخُ فأدهش الناس وأفزع عندما لعب بجرثومة السل المخُوفة حتى وجدها . ولم يكن كوخ أسرف فى وعوده ، ولـكن وعود بستور كان صداها يرن فى الآذان ، فرفع الناس أبصارهم إلى كوخ ينتظرون امّحاء السلّ على يديه . وجاء رو ، وجاء بارنج ، واشتبكا والدفتريا فى معركة حامية دامية دامت سنين ، هـدهدت أثناءها الأمهات أطفالهن المناكيد ، وغنتهم أغانى آملةً راجيةً تَمِلّةً ومصابرةً عسى يسبق العلم بالشفاء أيامهم الباقية المعدودة . وجاء متشنيكوف ، ومن الناس من ضحك منه ، ولـكن حتى هؤلاء أضمروا فى الخفاء أملاً قليلاً علَّ الأقدار تُتيح له برغم ثرثرته أن يعلّم فاجوساته أكل جراثيم الأرض جميعاً

. . . نعم أخذت وطأة الأمراض لسبب مجهول تخف على ما أحسِب ، ولـكن لم يظهر عليها أنها تنوى الرحيل وتستعجل الفراق الذى أمّله الناس ، فخاب ظنهم وظلّوا على أملهم يرتقبون ولم يطل ترقّبهم ، فالزمان الذى يجود بالرجال الفَينة بعد الفينه جاد لهم وهم فى أزمتهم هـذه برجل جديد شاب ، اسمه ليوبلد إسميث Leobald Smith ، ظهر فى أمريكا فى أوائل عشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ؛ وحكاية ذلك أن الأبقار فى شمال أمريكا الشمالية كانت تُرسَل جنوباً فلا تلبث أن تستقر هناك حتى تأتيها حُمىّ تعرف بالتِّكساسية[1] فتمرض وتموت . وكذلك كانت تُرسَل الأبقار من الجنوب إلى الشمال وهى صحيحة سليمة فكانت كأنما تبـذر على أرضه حيثما وطئت بذوراً للموت تفتك بالأبقار الشمالية فتكاً ذريعاً . فجاء إسميث وفسر هذا وهـــذا ، وكتب فى عام ١٨٩٣ تقريراً بيّناً كشف للناس فيه سر هـذه الظواهر الغامضة ، وسلك به أقوم الطرق وأخصرها ، ولم يكن فيه طنطنـة ونفخ أبواق ، وهو لا يُشترى الآن لنفاد طبعتـه . فهذا التقرير أوحى إلى قُنّاص المكروب الذين أتوا من بعده بالشىء الكثير : فأوحى بفكرة بديعة إلى الفخور الصخاب داڤيد بروس David Bruce ، وبلمحات من اقتراحات نافعة إلى پاتريك منسون Patrick Manson ، ومسَّ بقبَسه رأس العبقرى الطليانى الغضوب جراسى Grassi فجرت النار فى أفكاره اشتعالاً . والأمريكى ولتر ريد Walter Reed ، ملأه هذا التقرير ثقة ، وملأ كذلك رجاله الأبطال من عساكر وضباط ، فقاموا بمغامراتهم الخطيرة فى اطمئنان كبير ، ورفضوا زيادة فى الرواتب وآثروا عليها الشهادة والتضحية فى سبيل العلم

(١) نسبة إلى تكساس وهى ولاية من الولايات المتحدة فى أقصى الجنوب تجاور المكسيك وتقع على خليجه

فأى رجل كان إسميث هذا الذى يجهله الأمريكيون إلا آلافا قليلة ؟ وكيف أن كشفا له عن مرض فى بقرة استطاع أن يحرّك فى البشر كل هذه الآمال والأحلام ؟ وما منطق الريفيين هـذا الذى ابتدأ به إسميث فحققه وأثبته ، والذى من جرّائه استطاع أن ينير للبحاث من بعده الطريق التى يسلكونها ليحققوا بهـا أمل البشرية المنشود ، ووعدها الأكبر الخلوب الذى وعدها إياه بستور ؟

— ٢ —

فى عام ١٨٨٤ كان إسميث فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وكان نال درجة بكالوريوس فى الفلسفة من جامعة كُرنيل Cornell (١) ، وكان نال درجة دكتور فى الطب من كلية ألْبَنِى (٢) Albany medical College ، ولكنه كره أن يقضى حياته فى تشخيص أمراض يلبس لهـا وجهَ الجادّ العابس وهو يعلم أن لا رجاء فى شفائها ، وأن يُذبل زهرة أيامه فى بذل الطمأنينة والسلوى والكلام الحلو الراجى لمرضى بنى الناس عوضاً عن بذل العلاج الناجح الذى لا يعرف له وجودا . واختصاراً تراءى له الطب والطِّبابة أنهما عمل مهوّش لا يستقيم مع العقل السليم . وأحب أن يضرب فى المجهول قليلاً ليعلم من خفاياه قدراً يستطيع حمله فلا ينوء به ظهره ، أو يُتخَم به عقله . كان طبيباً ولكنه شاء برغم هذا أن يكون باحثاً ، ورغب بخاصة إلى دراسة المكروب . وكان قد عُنِى وهو فى كُرنيل باللعب على الأرغون ، لَعِبَ عليـه المزاميرَ وقطعاً من بيتهوفن (ولم يكن جاء زمن الجاز باند) . وفى كرنيل فى جامعتها عبّ عبّة طيبة من الرياضيات ومن علم الفيزياء ومن اللغة الألمانية ، وبخاصة اشتد ميله إلى النظر فى المكرسكوبات ، ولعله عندئذ نظر أول مكروبة رآها

ولكنه لمـا جاء مدرسة الطب فى ألْبَنى Albany لم يجد فى أساتذتها اهتماما بالمكروبات ، فلم يكن أطباء هذا المعهد يَعْمدون فى شفاء الأمراض إلى قتل الجراثيم . ولم يكن فى المدرسة برنامج لدراستها ، بل لم يكن فى أى مدرسة طبية بأمريكا شىء من هذا ، وأراد أن يتعلم علم الجرثوم برغم كل هذا ، وكان لا يأبه لألوان العرفان التى كانت تتعاطاها الجمهرة من طلاب الطب ، وكان يحتقر التخرّصات والأكاذيب التى يسبلون عليها رداء العلم . وأشبع هَوِيّته ببحث أحشاء القطط بحثاً مكرسكوبياً ، ونشر أول رسالة له فى ذلك ، وفيها أبان اختلافات للطبيعة خرجت بهـا فى أعماق بطون القطط عن المألوف الذى درجت عليه فى سائر الأحياء ، وعلق عليها حواشى دلّت على الفطنة وحدة فى الذهن شديدة ، وكانت أول عمل دخل بفضله فى زمرة البحّاث

ونال درجته الجامعية ، وأراد أن يتخذ التجريب العلمى صناعته ، ولكن تحتّم عليـه قبل ذلك وفوق ذلك أن يرتزق ليعيش . وكان فى هذا الوقت كثير من أطباء أمريكا الأحداث يتسابقون إلى أوربا ، إلى الأستاذ الكبير كوخ Koch يودون أن تتاح لهم الفرصـة ليقفوا وراء ظهره ، ويتعلموا من فوق كتفه كيف يصنع البشِلّات وكيف يُربيها صريحة ، وكيف يضربها بالمحاقن تحت جلود الحيوانات ، وكيف يستطيعون من بعد ذلك أن يتحدثوا عن المكروبات حديث الخبير الضليع . ورغب إسميث أن يتبعهم ، ولكن تحتم عليـه أن يبحث عن وظيفة ليعيش . ورحل هؤلاء الأطباء الشبان الأثرياء الى أوربا ، وبينما هم يأخذون من العلم الجديد بمبادئه الأولى ، وبينما هم يوشكون من أجل ذلك أن يقعوا على مناصب أستاذيات فى العلم هامة ، وقع إسميث على وظيفته التى طاب . وكان منصباً وضيعاً هـذا الذى ناله ؛ ومن وجهة العلم لم يكن منصباً محترما ، فقد تعين فى مكتب اصلاح الماشية والحيوان بواشنطن Washington ، ولم يكن عندئذ إلا مكتبا صغيرا حقيرا فقيرا لا يكاد يأبه له أحد . وكان فى المكتب من المستخدمين ثلاثة غير إسميث ، وكان على رأسهم رجل طبيب يُدْعى سلمون Salmon ، كان كثير الاهتمام بما عسى أن تصنعه الجراثيم من السوء للأبقار ، مؤمناً شـديد الايمان بخطر البشِلّات على الخنازير ، ولكنه جهل كل الجهل كيف يتصيد المكروبات التى تعيث فى هذه الماشية الثمينة . وكان فى المكتب السيد كلبورن Kilborne ، وكان يحمل درجة بكالوريوس فى الزراعة ويغتبط بها ، وكان يعرف بعض الشىء فى البيطرة ، وهو الآن يتاجر فى الصينى وما اليه بمكان قريب من نيويورك . وكان ثالثَ الثلاثة فى المكتب رجلٌ جسيم

(١) جامعة فى مدينة إثاكا Ethaca فى مقاطعة نيويورك فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة . وقد سميت باسم أكبر متبرع لانشائها

(٢) عاصمة مقاطعة نيويورك بالولايات المتحدة

مَهيب عتيق أسود كان عبداً فأُعتق، وكان اسمه اسكندر، وكان يجلس حيثما جلس رزينا وقورا ساكنا حتى يُحرَّك، فيقوم الى القنينات القذرة فيغسلها، أو الى الخنازير الغينية فيُعنى بها

وبدأ إسميث فى صيادة المكروب فى حجرة فى ذروة بيت حكومىّ أضاءها شباك واحد مفتوح فى سقف البيت. بدأ فى صيادة المكروب، فبدأ عمله الأوفق الذى هيأته الطبيعة له. وجاءته هذه الصيادة سلسة منقادة فكأنما ولدته أمه وبيمينه مِحقَن وبفمه عود من البلاتين. وعلى الرغم من أنه خريج جامعة فقد كان يقرأ اللغة الألمانية قراءة جيدة، فكان فى الليل يعتكف الى دراسة ما صنع كوخ من المكروبات وصار يعبّ من مآثره العلمية المجيدة عبا. وكان كالبُطَيطة نزلت فى الماء لأول مرة. فأخذ يفعل بالتفصيل كل مافعله كوخ من قبله ويقلده تقليداً ويتبع طرائقه اللبقة فى تربية الجرثوم واقتناص البشلات وتلك الخلائق العجيبة الأخرى التى تسبح فى الماء انفتالا كأنما هى بَريمة الفلين جرت فيها الحياة. قال: «إن كل ما صنعت مرجعه إلى كوخ»، وتصور كوخَ فى بعده وعبقريته شيئاً سماويا قدسيا

وعَمِل فى حجرته السقفيّة بلا هوادة ولا حسبان لضعف جسمه، وقام على صيادة المكروب كل يومه وطرفا من ليله. وكانت له أنامل دقيقة رقيقة متّزنة كأنامل الموسيقى فساعدته على غَلْى الأحسية فندر انكبابها فى يديه. وكانت الى جانب حجرته حجرة أخرى يُختزن فيها المتاع الخسيس، وكان يخرج منها اليه قُطُر من الصراصير لا تنقطع فيتلهى فى أوقات فراغه بدقّها. وفى وقت قصير بالغ القصر علّم نفسه كل ما يتطلبه البحث، ثم بدأ يكتشف الكشوفات على حذر، فاكتشف لقاحا غريباً مأموناً، لا يحتوى على البشلات نفسها، ولكن على عصاراتها الزلالية التى تُبتزّ منها اعتصارا وترشيحا. واشتد الحر فى غرفته فزاد على حر المدينة وهى جهنم الحمراء، ولكنه احتمل هذا ومسح العرق المتقطّر من أنفه، وظل يعمل على أسلوب كوخ الأدقّ الأحذر، ونبا به طبعه عن أسلوب بستور الأخشن وطرائقه الفضفاضة

(يتبع) أحمد زكى

شخصية نافرة بهلها النقد العربى

نقد ابن أبى عتيق

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

للأستاذ خليل هنداوى

ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر عند ابن أبى عتيق فى مجلس رجل ففضل الرجل شعر الحارث. فقال ابن أبى عتيق: بعض قولك يا ابن أخى! لشعر عمر نوطة فى القلب، وعلوق بالنفس، ودرك للحاجة ليست لشعر. وما عُصى الله بشعر أكثر مما عُصى بشعر عمر أشعر قريش، من دق معناه، ولطف مدخله وسهل مخرجه، ومتن حشوه، وتلطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته. وذكر الرجل المفضل أبياتا للحارث ينعت بها الطلل:

إنى وما سخروا غداة منى ... عند الجمار يؤودها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها ... سفلاً، وأصبح سفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها ... فيرده الأقواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت ... منى الضلوع لأهلها قبل

فقال له ابن أبى عتيق: «استر على نفسك واكتم على صاحبك، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا! أما تطير الحارث عليها حين قاب ربعها فجمل عاليه سافله. ما بقى إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل» فتأمل ما ألطف هذا المأخذ، وصاحب هذه الأبيات — فى الحقيقة — قد سار إلى غاية شريفة من معناه. ولكن المبالغة أفسدت عليه غايته؛ وإن معرفة الدار وإظهار الشوق لأهل الدار لا يحتاجان إلى قاب العالى أسفل والسافل أعلى؛ وإن فى هذا نذيراً أدنى إلى الشؤم منه إلى إظهار الشوق. ولعن الله شوقا لا يثبت نفسه إلا على الركام والخراب!

ولقد كان يقحم شعر عمر بنقده — على رغم الصداقة — ويضربه فى الصميم. ألم يسمع عمر يقول:

بينما ينعتننى أبصرننى ... دون قيد الرمح يعدو بى الأغر

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ! وهل يخفى القمر ؟

وعمر فى هذه الأبيات قد شغل الثلاثة به ودلههن بحبه . فقال له ابن أبى عتيق : أنت لم تتشبب بها ، وإنما تشببت بنفسك ، وإنما كان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت لى فوضعت خدى فوطئت عليه

وأنشد نصيب الأسود قوله :

وكدت ، ولم أخلق من الطير إن بدا
لها بارق نحو الحجاز أطير

فسمعه ابن أبى عتيق فقال له : يا ابن أم : قل « غاق » فانك تطير ، وأراد بذلك أنه لا يكون إلا غراباً أسود ، ولا يكون الغراب إلا نذيراً بالويل . وهكذا تنبه الناقد بعقله إلى شىء لم يتنبه إليه الشاعر بفنه

وأنشد ابن جندب قول العرجى لابن أبى عتيق فى جاريته :

وماأنس م الاشياء لاأنس قولها لخادمها ، قولى اسألى لى عن الوتر
فقالت : يقول الناس فى ست عشرة
فلا تعجلى منه فانك فى أجر
فما ليلة عندى وإن قيل جمعة ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر
بعادلة الاثنين عندى ، وبالحرى يكون سواء منهما ليلة القدر

فقال ابن أبى عتيق — وقد راعه هذا التكلف — أشهدكم أنها حرة من مالى إن جاز ذلك أهلها . هذه والله أفقه من ابن شهاب ! وليتنا نعلم شيئاً عن ابن شهاب الذى حشره الناقد حيث لا يحشر !

وقد يتأمل ابن أبى عتيق فى مواقع الألفاظ ويتبين مواضعها ، فيقول مثلاً عند ما يسمع قول قيس بن الحطيم :

بين شكول النساء خلقتها حذواً ، فلا جبلة[1] ولا قضف

لولا أن أبا زيد قال « حذواً » ما درى الناس كيف يحشون هذا الوضع

ويسمع عتيق ابن قيس يقول : « سواء عليها ليلها ونهارها » فيقول له : كانت هذه يا ابن أمّ فيما أرى عمياء ، فما يستوى الليل والنهار إلا على عمياء . فقال ابن قيس : إنما عنيتُ التعب .

(١) الجبلة الغليظة والقضف الدقيقة

قال : فبيتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه ، وما عسى يكون قدر البيت إذا كان لا يُفسر إلا بترجمان !

وأنشد كثير ابن أبى عتيق قوله :

ولست براضٍ من خليل بنائل قليل ولا أرضى له بقليل

فقال ابن أبى عتيق : هذا كلام مكافئ ليس بعاشق ، القرشيان أقنع وأصدق منك : عمر حيث يقول :

ليت حظى كلحظة العين منها وكثير منها القليل المهنا

وحيث يقول :

فَعِدِى نائلاً وإن لم تنيلى إنه يقنع المحب الرجاء

وابن قيس الرقيات حيث يقول :

رُقَىَّ ! بعيشكم لا تهجرينا ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غد ماشئت إنا نحب — وإن مطلت الواعدينا
فاما تنجزى عدتى وإما نعيش بما نؤمل عنك حينا

وهكذا أفسد على كثير فكرته بنظرة نفسية عميقة لأن المحب الحقيقى الذى يتلهب ويتقلب على جمر من حبه لا يقول لمحبوبته إذا عرضت له : إليك عنى فانى لا أرضى بالقليل ، وإنما يتمنى قول عمر : « ليت حظى كلحظة العين منها » ويخلق الله بعد هذه اللحظة لحظات

قال كثير لأحدهم — وكان مديوناً — إذهب بنا إلى ابن أبى عتيق نتحدث عنه فذهبت إليه معه ، فاستنشده ابن أبى عتيق فأنشده قوله :

أبائنة سعدى ؟ نعم ستبين

حتى بلغ قوله :

وأخلفن ميعادى وخُن أمانتى وليس لمن خان الأمانة دين

فقال ابن أبى عتيق : ويلك هذا أملح لهن وأدعى للقلوب إليهن . سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك وأوضع للصواب موضعه فيهن . ألم تسمع قوله :

حبذاك الدل والغنج والتى فى عينها دعج
والتى إن حدثت كذبت والتى فى وعدها خلج
وترى فى البيت صورتها مثلما فى البيعة السرج
خبرونى هل على رجل عاشق فى قبلة حرج ؟

وهكذا أدرك ابن أبي عتيق من نفس المرأة ما لم يدركه كثير، وأدرك أن مثل حب كثيرَ العذرى لا يستطيع أن يدخل إلى أعماق نفوس النساء لأنه حب مقتول بالاعجاب لا يرى حيث حل إلا نفسه! ومثل عمر وابن قيس وأمثالهما ممن يقمون كل يوم على امرأة يدركون ما يعجب المرأة وما تزدريه، ويفهمون تقلبها وقيمة وعودها، ولكن عتيقاً أهمل هذه المرة النظر إلى البيت الأخير في هذه القطعة حيث أخذ الشاعر يستفتى الناس فى قبلة، وقد علم أن مثل هذه الفتوى باردة وأبرد منها هذا الاستفتاء الذى هو أدنى إلى الفضيحة والتهتك منه إلى العفة والتستر. وما على صاحبه إلا أن يردده فى أحد المساجد ويناقش فيه أصحاب الفتاوى

وأنشد أبو أذينة مرثيته لأخيه بكر:

سرى همي وهم المرء يسرى ... وغار النجم إلا قيد شبر
أراقب فى المجرة كل نجم ... تعرض فى المجرة كيف يجرى
بحزن ما أزال له مديما ... كأن القلب أسعر حر جمر
على بكر أخى ولى حميداً ... وأى العيش يحسن بعد بكر

فضحك ابن أبي عتيق وقال: كل العيش يحسن حتى الخبز والزيت. فآلم تهكمه أبا أذينة وحلف لا يكلمه أبداً. وهذا هو الموقف الوحيد الذى خرج فيه شاعر متأذيا من ابن أبي عتيق

وهناك مواقف متعددة تبدى لنا عطفه على رجال الفن؛ فلقد كان يمتزج بهم ويحس إحساسهم

سمع عمر يقول:

كان ذا فى مسيرنا إذ حججنا ... علم الله فيه ما قد نوينا

فقال له ابن أبي عتيق: إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه فأورد التفسير، ولئن مت لأموتن معك. أف للدنيا بعدك يا ابن الخطاب! فقال عمر: بل عليها بعدك العفاء يا أبا محمد!

ولقد كان فيه حدب خاص على المحبين. وإن له مواقف كثيرة كان يقوم فيها بوصل المنقطع من حبال المودة كما فعل مع عمر، وكان رسوله إلى الثريا. وكما فعل مع نصيب، وقد توسط بينه وبين سعدى محبوبته: ولعل هذا الموقف يبدى لك غيرة ابن أبي عتيق على رجال الشعر والغناء والعمل على نصرهم. وهذا الموقف يبديه لنا رجلاً قوياً حاد الطبع قوى الشكيمة مفتول العضل.

رأى ابن أبي عتيق حلق ابن عائشة مخدشاً فقال: من فعل بك هذا؟ قال فلان. فمضى فنزع ثيابه وجلس للرجل على بابه، فلما خرج أخذ بتلبيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له: مالك تضربنى؟ أى شىء صنعت؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ثم خلاه وأقبل على من حضر فقال: هذا أراد أن يكسر مزامير داود! شد على ابن عائشة فخنقه وخدش حلقه

والآن أرجو أننى وفقت فى الكشف عن شخصية جديدة فى تاريخ النقد العربى، وأرجو زملائى كتاب (الرسالة) أن يعملوا على جمع شوارد هذا الرجل، وأرجو أن تتولى (الرسالة) نشر ما يأتيها عنه وما تقع عليه. فربما استطعنا أن نؤلف من هذه الشوارد حياة الرجل وحياة الناقد، لأن لنقده تأثيراً أكبر مما ذكرنا فى توجيه أدب عصره. وإنما أدبنا لا يزال فقيراً إلى رجلين: المؤرخ والأديب. فليعمل المؤرخ عمله يعمل الأديب عمله أيضاً

(دير الزور)

خليل هنداوى

الكلب والديك
في كتاب «الحيوان» للجاحظ

بقلم محمد طه الحاجري

يعرف كل قراء الجاحظ تلك الخصومة الحادة العنيفة التي أثارها أبو عثمان ، في أول كتابه الحيوان ، بين الكلب والديك ، وتلك المناظرة الطويلة المسترسلة المفتنة شتى الأفانين ، والذاهبة في شتى مذاهب الكلام بين صاحب هذا وصاحب ذاك ؛ دون أن يكون بينهما — في حقيقة الأمر — خصومة ، أو سبب يدعو إلى المناظرة ، وإنما هي عبقرية الجاحظ التي لا تفتأ تبدع وتبتكر ، وأسلوبه المتدفق الذي لا يألو يشقق الكلام ويولد المعاني والصور . ذلك هو الظن السائد الذي نلجأ إليه كثيراً في تفسير مثل تلك المناظرة الغريبة . ولكني أحسب أن الأمر بين الكلب والديك أعجب من أن يكتفي في تفسيره بتلك الصفة الغالبة ، والنظرة العاجلة المقاربة

فلقد أطنب الجاحظ في تلك المفاضلة إطناباً غريباً ، حتى كسر عليها جزءين كبيرين من كتابه ، لعلهما يقربان من ثلثه ؛ ثم كأنه لم يكتف بذلك ، فترى حديث صاحب الكلب وحديث مناظره صاحب الديك يتخللان الأجزاء الأخرى

ثم إن هذه المفاضلة غريبة أيضاً في كتاب الحيوان ، فقد سار الجاحظ في أبواب الكتاب التي تلي ذلك الباب على منهج غير ذلك المنهج ، فليس إلا وصف الحيوان ، وبيان عاداته وطبائعه ، ومزاياه ومساوئه ، ورواية النوادر عنه ، والآثار الأدبية التي تدور حوله ، وحكاية كلام بعض علماء الحيوان والمعنيين بأمره ، مثل أرسطاليس وأقليدون ، دون أن يعرض للمفاضلة بين هذا الحيوان وذاك ، إلا قليلاً لا نكاد نلحظه . فالأمر بين الكلب والديك إذن ليس متمشياً مع طريقة الجاحظ في الكتاب عامة ، فما الذي جعله يميزه من غيره ، ويسلك فيه أسلوبا على حدة

وأخرى لا سبيل إلى الاغضاء عنها ، وهي وجه اختيار هذين الحيوانين بالذات ليكونا موضعاً للمقارنة والموازنة والمفاضلة وما من سبب ، فيما يبدو ، يجمع بينهما ، أو يدع سبيلاً للتنظير والتفضيل . ولعل السبيل بين الضب والنون أو بين الملاح والحادي كما يقول البلاغيون أكثر استقامة مما هو بين الكلب والديك . ولو أن الجاحظ يريد المقارنة وحدها ، والمقابلة بين خلقيهما ، لكان ذلك مستساغا ؛ أما أن يجعلهما خصيمين ، وينصب لكل منهما صاحباً يهاجم باسمه ، ويدافع عنه ، ويناضل دونه ، دون أن يكون بينهما جامعة طبيعية إلا جامعة الحيوانية ، فأمر لا نستطيع أن نصفه إلا بالغرابة . فهلا ناظر بين الفيل والبعير ، أو بين الثعلب والذيب ! !

ورابعة تلفت نظرنا ، وتثير دهشتنا ، وهي ما أشار إليه في أول كلامه من أن هذه المناظرة كانت تدور بين شيخين من علية المتكلمين ، ومن الجلة المتقدمين ، فما للمتكلمين ولهذا ؟ وما شأن الكلب والديك في الكلام على الصفات والقدر ، أو المناظرة بين النار والدر ؟ ! لسنا ننكر أن من أول ما كان يعني به المتكلمون ، وخاصة المعتزلة ، بيان دقائق صنع الله في الكون ، وحكمة الله في الخلق ، على نحو ما في رسالة « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » لأمامنا الجاحظ . فهل نستطيع أن نفهم أن تلك المناظرة إنما كانت تأخذ هذه السبيل وتتجه إلى تلك الغاية ؟ إن من العسير أن تقنع أنفسنا بهذا في مثل ذلك الذي صوره الجاحظ بين الكلب والديك . وإذا أجزنا ذلك بوجه من الوجوه فانا نتساءل مرة أخرى : ما بالهم لم يختاروا من جميع الحيوان موضوعا لهذه المناظرة إلا ذينك الحيوانين — على ما في المفاضلة بينهما — فاقتصروا عليهما ، ولم يعدوهما ؟

فالمسألة كما يرى القارئ الكريم غامضة ، لا يكفي في بيانها ذلك التفسير العام المبهم الذي يفسر به أسلوب الجاحظ جملة واحدة

***

إن ذهناً دقيقاً كذهن الجاحظ مارس الفلسفة وأساليب المتكلمين ، حتى صار رأساً لطائفة من المعتزلة تدعى باسمه ، ليس من القريب احتماله أن يأخذ في الكلام اعتباطاً ، فيناظر بين الكلب والديك وليس بينهما وشيجة أو سبب . فاذا كنا لا نرى بينهما صلة ذاتية ، فلا بد أن تكون بينهما صلة أخرى خارجية ، هي التي مهدت السبيل للمناظرة ، فما هي هذه الصلة وأين نلتمسها ؟ هل هناك صفات أضيفت إلى الكلب تقابل صفات أخرى

أضيفت إلى الديك بحيث يكونان متناظرين ؟ أما أننا يجب أن نتلمس ذلك نفساً فى روح العصر الذى كتب فيه الحيوان ، وفى التيارات الاجتماعية التى كانت سائرة فيه ، وفى الآثار الأدبية التى بقيت لنا حول هذين الحيوانين

وإذن فأنا أزعم أن هذه المناظرة بين الكلب والديك كانت صدى من أصداء تلك الحالة الاجتماعية الشديدة السلطان فى العصر العباسى ، والتى أخذت تتغلغل فى المجتمع الاسلامى منذ أوائل القرن الثانى ، وبلغت عنفوانها فى عصر الجاحظ وأعنى بها تدافع المنصرين العربى والأجنبى على التأثير فى الحياة مما أنتج تلك الخصومة العنيفة بين العرب والشعوبية ، تلك الخصومة التى جعلت تمتد وتنتشر وتغمر الجو هنا وهنا حتى لم يخلص من سطوتها ذانك الحيوانان المسكينان ، لأن أحدهما كان يضاف إلى العرب والآخر كان يضاف إلى العجم . فالعرب كانوا فى نظر الفرس قوماً جفاة غلاظاً رعاة إبل وغنم ؛ الكلب أصدق أصدقائهم ، وألصق صاحب بهم ، وأعز رفيق لديهم ، وهو ما هو ضعة شأن وهوان منزلة وخبثاً ولؤماً وقذراً ودناءة . والفرس فى نظر العرب كانوا قوماً أنباطاً أصحاب قرية ، قد أخذتهم طبيعة حياتهم بالاستكانة والذلة ، فلا كرم ولا نجدة ولا أريحية ، كل مالهم الدجاج والديكة ، تمثل ضعفهم ، وتبرز بخاهم وضيق حياتهم . وهكذا أخذت الخصومة بين العرب والشعوبية مظهراً طريفاً من الخصومة بين الكلب والديك والتنابذ بينهما

وهنا يجىء دور المتكلمين الذين أشار إليهم الجاحظ ، ونحن نعرف عنهم أنهم لم يساهموا فى هذه العصبية ، وإن نسب المسعودى إلى طائفة منهم شيئاً منها ، فرد عليه الأستاذ الكبير أحمد أمين فى الفصل الذى كتبه عن الشعوبية فى كتابه « ضحى الاسلام » ، فأرادوا أن يحولوا تيار هذه الخصومة العصبية إلى ناحيتهم ، وأن يصبغوها بصبغتهم ، وأن يجعلوا من هذه المناظرة سبيلاً من سبلهم إلى بيان حكمة الله فى المخلوقات ، ودقائق صنعه فى الكائنات . ثم جاء الجاحظ فأخذ هذه المناظرة وجعلها باباً فى كتابه ، فأفاض فيها وتدفق ، وجمع فيها بين الكلام والحكمة والأدب على طريقته

هذه صورة المسألة كما ثبتت لدينا ، لا تكلف فيها ولا تعسف ، وإن بدت فى أول الأمر غريبة . فأما أن الشعوبية كانت تعيّر العرب باتخاذ الكلاب فأحسبه مما لا نزاع فيه ، فقد كانت لا تفتأ تتجنى على العرب المساوئ والمعايب ، ولعل فى هذا القول الذى يرويه الجاحظ عن بعض المتعصبين على العرب ما يدلنا إلى أى حد كان تجنيهم . قال الجاحظ : « وزعم لى سلمويه وابن ماسويه مطبّب الخلفاء أنه ليس على الأرض جيفة أنتن نتنا ولا أثقب ثقوباً (١) من جيفة بعير ، فظننت أن الذى وهّمهما ذلك عصبيتهما عليه ، وبغضهما لأربابه »

أما الديك فكان عند العرب من أظهر ألوان الحياة الفارسية ، فهم دائماً يضيفونه إلى العجم . ومن ذلك قول الشاعر :

لعمرى لأصوات المكاكى بالضحى ... وسوء تداعى بالعشى نواعبه
أحب إلينا من فراخ دجاجة ... ومن ديك أنباط تنوس غباغبه

وعن قتادة أن أبا موسى الأشعرى قال :

« لا تتخذوا الدجاج فى الدور فتكونوا أهل قرية » ويفسر الجاحظ هذا بأن الديك من خصائص الحياة المدنية ، وكان ولاة العرب حريصين على أن يظلوا عرباً ، وأن يحتفظوا بمواهبهم الحربية التى لا تلبث أن تضعف فيهم ، ثم تتلاشى منهم ، إذا هم ركنوا إلى حياة القرى ، فاتخذوا الديكة التى هى من أبرز مظاهرها

وهكذا نرى أن الصلة وثيقة بين العجم والديك بقدر ما هى وثيقة بين العرب والكلب ، وأن كلا منهما يعتبر من خصائص الحياة الاجتماعية لذويه ، وأن العرب كانوا يكرهون الديك وينفرون منه بقدر ما كان الفرس يمقتون الكلب ويسخرون من أصحابه

وهناك دليل آخر على ما أسلفنا من أن الديك كان شديد الصلة بالأعاجم فيما يرى العرب ، حتى كان يرمز فى العقل العربى إليهم ، وهو — فيما نحسب — دليل قوى ، لأنه يجىء من عالم الأحلام ، ومجالها العقل الباطن فيما يذهب إليه المحدثون من الباحثين . ذلك هو ما حكاه الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » قال : « روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى ، وهى أن ديكاً نقرنى ثلاث نقرات ، فحدثتها أسماء بنت عميس ، رضى الله عنها ، فحدثتنى بأن يقتلنى رجل من الأعاجم » وهناك رواية أخرى للحاكم

(١) يقال ثقبت الرائحة ثقوباً أى سطعت وهاجت

ليست فيها أسماء بنت عميس : « قال على المنبر رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى » ثم إنه مهما تكن قيمة هذه الرواية فان تأويل الديك بالأعجمى يدل وحده دلالة صريحة على ما ذكرنا . ويضاف إلى هذا ما حكاه ابن سيرين من أنهم كانوا يؤولون الكلب الأسود بالعربى . وإذن فقد تم الأمر من وجهيه ، وتضافرت الدلائل على أن ذلك الفرض الذى افترضناه قريب لا تكلف فيه ولا تعسف

***

على أن هذا الفرض — فوق تفسيره لموقف الجاحظ — يفسر لنا طائفة من الأحاديث الموضوعة ، لم نفهم من قبل السر فى وضعها ، والعناية بصنعها ، فنحن نعرف كيف كانت الطوائف المختلفة تجتهد فى وضع الأحاديث ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتأييد مذاهبها ، ونشر الدعاية لمبادئها ؛ ومثل هذه الأحاديث نستطيع فى غير عنت أن ندرك السر فى وضعها . أما تلك المجموعة من الأحاديث التى نحن بصددها فيبدو فى بادىء الرأى أن وضعها كان عبثا ولهواً وسخرية ، وإلا فما ظنك بهذه الأحاديث التى وضعت عن الديك ، ووضعته فى صف الملائكة المقربين . كذلك الحديث الذى ذكره صاحب التهذيب ، فى ترجمة البزى — وقد قال عنه إنه ضعيف الحديث — وهو : « الديك الأبيض حبيبى وحبيب حبيبى جبريل ، يحرس بيته وستة عشر بيتاً من جيرانه » أو ذلك الحديث الآخر : « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قارىء القرآن وصوت المستغفرين بالاسحار » . أو ذلك الحديث الثالث الذى يعتبر بدعة فنية خليقة بالخيال الفارسى المترف ، وقد رواه الطبرانى فى معجمه : « إن لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه مُوَشّيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ : جناح بالشرق وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش وقوائمه فى الهواء ، يؤذن فى كل سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الأرض ، فاذا دنا يوم القيامة يقول الله تعالى ضم جناحيك وغض صوتك ، فيعلم أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين أن الساعة قد اقتربت » ومثل ذلك كثير مذكور فى الكتب

أفى الحق أن كل ذلك كان عبث عابث ولهو لاه ساخر ؟ أكل ذلك العناء فى وضع تلك الأحاديث ، والتكلف لها وتلفيق أسانيدها ، وذلك الجهد الذى لا نشك فى أنه كان عظيما من أجل إمرارها وإدماجها بين الأحاديث الصحيحة ، أكل أولئك كان لهواً ولعباً لا غاية له ولا هدف يتجه نحوه ؟؟

كلا ! وإنما هى الشعوبية التى أسرفت فى وضع الأحاديث عن فارس وسلمان الفارسى وغير ذلك ، هى هى التى أوحت بتلك الأحاديث الغريبة فى تمجيد الديك وتقديسه ، باعتباره رمزاً فارسيا (١)

وإذن فقد استطاع ذلك الفرض أن يكشف لنا عن السر فى وضع تلك الأحاديث الغريبة ، وأن يبين لنا لوناً من ألوان ذلك النزاع بين النزعة العربية والنزعة الشعوبية

محمد طه الحاجرى

(١) ومما يناسب ذكره هذا المقام من كلام الجاحظ قوله — عقب ذكره بعض أحاديث القوم عن أبرويز والفيل (ج ٧ . ص ٥٦ من كتاب الحيوان) — : « واعلم أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس وهم أصحاب تنفج وتزيد ، ولا سيما فى كل شىء مما فى باب العصبية »

٤ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

خطب زرادشت

التحول فى ثلاث مراحل

سأشرح لكم تحوّل العقل فى مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً ، وكيف استحال الجمل أسداً ، وكيف استحال الأسد أخيراً فصار ولداً.

إنها لعديدة تلك الأحمال التى تثقل العقل الجَلْد الصليب الذى يتجلى الوقار فيه ، فأن صلابته تتوق إلى الحمل الثقيل بل إلى الحمل الأثقل

يفتّش العقل السليم عن أثقل الأحمال فيُنيخ كالجمل ظهره متوقعاً رفع خير حمل إليه . إن العقل السليم ينادى الأبطال قائلاً : أىّ حمل هو الأثقل لأرفعه فتغتبط به قوتى ؟ أفليس أثقل الأحمال هو فى الاتضاع لاتزال العذاب بالغرور ؟ أفليس أثقلها أن يبدى الانسان اختلالاً لتَظهر حكمتُه جنوناً ؟

أم أثقلها فى تخلّى الانسان عن مطلب حين يقترن هذا المطلب بالنصر ، أم فى ارتقاء قمم الجبال لتحدّى من يتحدّى ؟

أم أثقلها فى أن يتغذّى الانسان بأقماع السنديان والأعشاب ويتحمّل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة

أم أثقلها فى احتمال المرض وطرد العائدين المعزّين ، أم فى مخادنة الصمّ الذين لا يسمعون ولا يعون ما تريد ؟

أم أثقلها فى الانحدار إلى المياه القذرة إذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التى تقطر صديداً

أم أثقلها فى محبة من يحتقرنا وفى مدّ يدنا لمصافحة شبح يقصد إدخال الرعب إلى قلوبنا . إن العقل السليم يحمل ذاته جميع هذه الأثقال المرهقة ، وكالجمل الذى يسارع إلى طريق الصحراء عندما يرفع الوِقرَ عن ظهره ليندفع هو أيضاً نحو صحرائه

وهنالك فى الصحراء القاحلة يتمّ التحوّل الثانى إذ ينقلب العقل أسداً لأنه يطمح إلى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه

وفى هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء كما ناصب سيده السابق ، فهو يستعد لمكافحة التنّين والتغلب عليه

ومن هو هذا التنّين الذى يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن أن يرى فيه ربه وسيده ؟

إن التنين هو كلمة « يجب عليك » وعقل الأسد يريد أن ينطق بكلمة « أُريد »

« إن كلمة (الواجب) تترصد الأسد على الطريق تنّيناً يدّرع بآلاف الأصداف وعلى كل قطعة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة « يجب عليك »

وعلى هذه الأصداف تشع سنو ألف عام والتنّين الأعظم يعج قائلاً إن جميع السنين تتوهج علىّ

كل ما هو سنّةٌ قد أُوجد من قبل ، وبى تتمثل جميع السنن الكائنة . والحق أن كلمة « أُريد » يجب ألا ينطق بها أحدٌ بعد ! هكذا قال التنّين

فأية حاجةٍ لكم أيها الأخوة بأسد العقل ؟ أفما يكفيكم الحيوان القوى الجليل المتّع بامتناعه ؟

من العبث أن تطمحوا إلى خلق سنين جديدة ، إن الأسد نفسه ليعجز عن هذا الخلق إذ لا يسعه إلا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد لأن قوته لن تتجاوز هذا الحد

أيها الأخوة ، إنّ العمل الذى تحتاجون فيه الى الأسد إنما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع فى وجه كل شىء حتى وجه الواجب . ذلك أيها الاخوة هو العمل الذى تحتاجون الى الأسد للقيام به

إن الاستيلاء على حق إيجاد سنن جديدة يقضى بالجهاد المنيف على العقل الخشوع الصبور ، ولا ريب أن فى هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها إلا الحيوانات المفترسة

لقد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة « الواجب » كأنها أقدس حق له ، وقد أصبح عليه الآن أن ينظر حتى الى هذا

الحق المفسدى فيراه توهماً واعتسافاً ، ليتمكن بارهاق عشقه أن يستولى على حريته وليس غير الأسد من يقوم بهذا الجهاد

ولكن ما هو العمل الذى يقدر عليه الطفل بعد أن عجز الأسد عنه ؟ ولماذا يجب أن يتحول الأسد المكتسح الى طفل ؟ ذلك لأن الطفل طهرٌ ونيسانٌ ، لأنه تجديد و لعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدةٌ مقدسة

أجل أيها الاخوة إن العمل الآلهى للأبداع يستلزم عقيدة مقدسة ، فأن العقل يطلب الآن إرادته ، ومن فقد الدنيا يريد الآن أن يجد دنياه

لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فأوضحت كيف استحال العقل جملاً وكيف استحال أسداً وكيف استحال أخيراً الى طفل

هكذا قال زارا ، وكان فى ذلك الحين مقيما فى مدينة اسمها البقرة العديدة الألوان

منابر الفضيلة

وبلغ زارا خبر حكيم أطنب الناس فى علمه ومقدرته فى التكلم عن الكرى وعن الفضيلة فحبوه بالتكريم والتبجيل واتبعه عدد من الشبان أصبحوا دعامة لمنبره العالى ، فذهب زارا وجلس معهم أمام المنبر مصغياً إلى الحكيم فكان يقول :

مجدوا الكرى وعظموه لأن له المقام الأول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق

إن اللص ليقف خاشعاً أمام الكرى فيدلج فى الليل مخرساً وقع أقدامه ولكن الساهر المجازف لا يتورع عن حمل بوقه

ليس بالسهل أن يعرف الانسان كيف يستسلم لسنة الكرى وليس إلا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار أن ينام ملء جفنيه

يجب عليك أن تقاوم نفسك عشر مرات فى النهار فتغنم خير التعب وتهيىء الخدر لروحك

عليك أن تصالح نفسك عشر مرات فى النهار لأنه إذا كان فى قهر النفس مرارة فأن فى بقاء الشقاق بينك وبينها مايزعج رقادك

عليك أن تجد عشر حقائق فى يومك كيلا تضطر إلى السعى وراءها فى نومك فتبقى نفسك جائعة

عليك أن تضحك عشر مرات فى يومك لتكون مرحا كيلا تزعجك معدتك فى ليلك والمعدة بيت الداء

قليل من يعرف هذا من الناس ؛ ولن يتمتع بالرقاد الهنىء إلا من حاز جميع الفضائل . فاذا ما المرء أدى شهادة زور أو تلطخ بالزنا وإذا هو اشتهى خادمة قريبة فقد حرم وسائل الهناء فى نومه

غير أن المرء يحتاج فوق فضائله إلى شىء آخر وهو أن يدفع إلى الرقاد بفضائله نفسها فى الزمن المناسب

إن من الفضائل من هى كالغانيات المتجنيات ، فأقم بينهن حائلا كيلا ينتهين إلى عراك تكون أنت ضحيته

ليكن سلام بينك وبين ربك وبين الأقربين ، فلا نوم هنىء بدون هذا السلام . وسالم شيطان جارك أيضاً لئلا يراودك فى رقادك

أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذه السلطة عرجاء . إن ذلك ما يقتضيه النوم الهنىء

وما أنا بالجانى إذا كان يحلو للسلطة أن تسير متعارجة

إن خير الرعاة من يقود قطيعه إلى المروج الخضراء ذلك ما يقتضيه الرقاد الهنىء »

لا أطلب كثيراً من المجد ولا وفيراً من المال وكلاهما يؤدى إلى الاضطراب ، ولكن المرء لا ينام هنيئاً ما لم يكن له شىء من الشهرة ولديه شىء من المال

أفضل أن يزورنى القليل من الناس على أن يرتاد مسكنى عشراء السوء ، وهذا العدد القليل يجب عليه ألا يطيل السمر عندى لئلا يعكر صفو رقادى

تسرنى مجالسة البلهاء لأنهم يجلبون النعاس ؛ ولشد ما يغتبطون عندما نحبذ حماقتهم ونشهد باصابتهم

على هذه الوتيرة يقضى فضلاء الناس نهارهم . أما أنا فانى إذا ما أمسى المساء أحترس من أن أراود النعاس لأنه سيد الفضائل ولا يرتاح إلى تحرش الساهرين

وتحت جنح الظلام أستعرض ما فكرت فيه وما فعلته فى يومى فأنطوى على نفسى كالحيوان الصبور وأسائلها عما قهرت به أميالها عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتها عشر مرات ،

وعن الحقائق العشر والمسرّات العشر التى أُفعمت بها

وبينما أكون مستغرقاً تهزنى الأربعون خاطرة يستولى النعاس على فجأة ، وهكذا يسودنى السكرى سيد الفضائل دون أن أتوجه بدعوة إليه

يشغل النعاس جفنىّ فتغمضان ، ويلمس فمى فيبقى مفتوحاً

إنه يدلف إلىّ كلص محبوب فيسرق أفكارى وأبقى أنا منتصباً كعمود من خشب ، ثم لا تمر لحظات حتى أنطرح ممدداً على فراشى

وبعد أن أصغى زارا إلى هـذه الأقوال بقرع الحكيم بها الأسماع تملك ضحكه وأشرق نور فى جوانب نفسه فناجاها قائلاً :

يتراءى لى أن هذا الحكيم قد جُنّ بخواطره الأربعين .

ولـكنه جد خبير بحالات الكرى . فما أسعد من يجاور هذا الحكيم ! لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى الى وراء الجدران

إن شيئاً من السحر يفوح من منبره العالى ، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثا حول خطيب الفضائل

إن قاعدة هذا الحكيم إنما هى — اسهروا لتناموا — وفى الحقيقة لو لم يكن للحياة معناها فوجب أن اختار لهـا حكمة لامعنى لها لمـا كنت أجد أفضل من هذه القاعدة

لقد أدركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شىء عندما كانوا يفتشون على أوليات الفضائل ؛ إنهم كانوا يطلبون النوم الهنىء والفضائل التى يتجلىّ على مفرقها تاج المخدرات . وما كانت الحكمة فى عرف حكماء المنابر ، وقد نالوا الاعجاب والثناء إلا قاعدة النوم لا تقلقه الأحـلام . إنهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة

وكم فى أيامنا هذه من أناس يشبهون هذا الواعظ فى دعوته الى الفضيلة غير أنهم أقلّ إخلاصاً منه . ولـكن هذا الزمان لم يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والـكرى يراود أفكارهم فهم عن قريب سيُمددون

طوبى لمن دبّ الى عيونهم النعاس ! إنهم عما قريب سيرقدون

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس

بين أحضان الطبيعة

للشاعر السويسرى جوتفريد كلر

أيتها الطبيعة المشرقة . أنشرى فوق رداءك الأخضر الجميل
وغنى حولى بحفيف أشجارك الباسقة الناضرة
وأيقظينى عند تباشير السحر المشرق ، وفى بسمة الفجر المنير
لقد تعبت روحى فذهبت ترفرف عليك حيرى واجفة
ونعست عينى أمام تلك العظمة وهذا الجلال !
فدعينى أحلم بلياليك الزاهرة

***

إن وجهك كوجه الطفل فى مهده
وأنت تتناجين بحفيف أزهارك التى بللت وجناتها دموع الحزن وجرت على خدّها عبرات الأسى
ولـكنها ما تلبثُ أن تستردّ نضارتها وبشاشتها من جمالك السحرىّ
إن قلبى مُفعمٌ بالآلام والأشجان ، ولـكنها تتلاشى بين أحضانك الزاهرة ، وتذوب فى أجوائك الساحرة ، فأعود كالطفل الطروب

***

أيتها الطبيعة : أيتها الصديقة التى وهبتنى إخلاصها الأبدى
وشبابها الدائم الذى أحيا فى قلبى ميت الأمل وضائع المنى
أنت قبلتى التى أؤمها ، وكنفى الذى أستظلّ به
فاذا جاء يوم نسيتُ فيه وفاءكِ ، ولم أوفّك حقك من الاخلاص فاعلمى أنى هبطت إلى الدرك الأدنى وأصبحت هائماً ذاهلاً . واعلمى أن قلبى قد أدمته الجراح فنسى كل شىء

***

أيتها الطبيعة المشرقة ! قفى بجانبى فى معترك الحياة الزاخر وظلليني بحنانكِ ، واشمليني بعنايتـــك ، وارقبيني بنظرات الأمومة الحانية . وإذا دنت ساعتى وحانت منيتى فانشرى فوق رداءك الأخضر الجميل

ما أبهج الحياة والموت فى أوديتك الساكنة !

أحمد فهمى منسى

٦ – تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن حبشي

الفصل الأول

وهكذا نجد بين التبابعة ملكة سبأ التي ذكرت مخاطراتها مع سليمان في السورة السابعة والعشرين من القرآن ، وبالرغم من أن محمداً (ص) نفسه لم يشر إلى اسمها أو نسبها فان المفسرين اعتبروها بلقيس ابنة شراحيل (أو شرحبيل)

أما البطل الوطني الذي ورد ذكره في أسطورة عرب الجنوب فهو « تبع أسعد كامل » أو كما يسمى أحياناً « أبو كرب » الذي مازالت ذكراه حتى اليوم — كما يقول فون كريمر — حية باقية ، ومازالت روحه تكثر من الترداد على خرائب قصره في ظفار « وما من أحد يطالع قصيدة مخاطراته أو النصائح التي وجهها إلى ابنه حسان وهو مسجى على فراش الموت إلا اعتقد مضطرا أنه أمام شعر قصصي أصيل مستمد من الخرافات العربية الجنوبية التي ترجع أوليتها دون شك إلى عصر قديم جداً [1] » وهأنذا أقدم للقارئ بعضاً من القصيدة التي يمكن تسميتها بقصيدة « الساحرات الثلاث [2] »

الدهر يأتيك بالعجائب والأيا ... م والدهر فيـه معتبر
بينا ترى الشمل فيه مجتمعا ... فرقه في صروفه القدر

(١) ص ٧ من مقدمة فون كريمر لكتابه Die Südorabische Sage

(٢) وقد ترجمها نثراً فون كريمر في كتابه السابق (ص ٧٨ وما يليها) أما النص العربي الذي طبعه بعد ذلك في Altarabis che Gedichte ueber die Volkssage von Jemen, p. 18 فكثير الخطأ في بعض المواضع ، وقد اتبعت ترجمته إلا حينما ألمس الخطأ الجسيم الفاحش ، وليس من الصعب على القارئ أن يعتقد أن القصد من هذه القصيدة أن يلقيها السامر الجوال على أسماع السمار ليلا ، وربما كانت من وضع أحد هؤلاء القصاصين المحترفين الذين كثر وجودهم في القرن الأول للهجرة كعبيد بن شرية أو يزيد بن ربيعة ابن مفرغ (٦٨٨ م) الذي يقال إنه وضع القصائد والقصص المنسوبة لملوك حمير (الأغاني ج ٧ ص ٥٢)

لا ينفع المرء فيه حيلته ... فيما سيلقاه لا ولا الحذر
إني زعيم بقصة (عجب) ... عندي لمن يستزيدها الخبر

* * *

يكون في الأسد مرة رجل ... تم له في ملوكه الخطر
مولده في قرى ظاهر هم ... دان بتلك التي اسمها خمر
يقهر أصحابه على حدث الـ ... ـسن ويحقرهم فيحتقر
حتى إذا مكنته صولته ... وليس يدري ما شأنه البشر
أصبح في هيوم [1] على وجل ... وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهم ... أزرى لديهم بجهله الصغر
لا يفقدوه لا در درهم ... لو علموا العلم فيه لافتخروا
حتى إذا أدركته روعته ... بين ثلاث وثلاثة (!) حجروا
جاءت إليه الكبرى بأسقية ... شتى وفي بعضها دم كدر
قالت له : ذر فقال لا أذر ... فقال هاتي إليّ أشربها
فناولته فما تورع عن ... أقصاه حتى أماده السكر
فنهنهته الوسطى فنازلها ... كأنه الليث هاجه الذعر
قالت له هذه مراكبنا ... فاركب فشر المركب الحمر
فقال « حقاً صدقت » ثم سما ... فوق ضبيع قد زانه الضمر
فدق منه جنباً فغادره ... فيه جراح منها به أثر
ثم أتته الصغرى تمرضه ... فوق الحشايا ودمعه درر
فخال عنها بمضجع ضجر ... ولا تساوي الوطاء والزعر
كان إذ ذاك بعد صرعته ... من شدة الجهل [2] تحته الابر
قلن له لما رأين جرأته ... أسعد أنت الذي لك الظفر
في كل ما وجهة يوجهها ... وأنت يشقى بحربك البشر
وأنت للسيف والسنان وفي ... الأبدان تبدو كأنها الشمر
وإن أنت المهريق كل دم ... إذا ترامى (بشخصك) السفر

(١) قرأها نيكلسون هنوم ، وقرأها فون كريمر « أهنوم » بدلا من هيوم ، ولكن انظر كتاب جزيرة العرب للهمداني ص ١٩٣ السطر الأخير

(٢) هكذا في نسخة فون كريمر فقال في ترجمته :

Under lag so nach seinem Sturze
Aus grosser Unwissenheit, als wöre or auf Nadeln gaelttet

أما نيكلسون فقد قرأها « الجهد » بدلا من « الجهل » فقال :

And himthought, in anguish Lying there,
That needles underneath him were

(المترجم)

فارشد ولا تستكن فى (حمر) ورد ظفارا فأنها الظفـــر
فلست تلتـــذ عيشة أبداً والأعادى عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب يا تبعٌ الخير هاجنا (الدعر)
فما بلوناه فيــك من تلف عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهــله فأخبرهم بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسارعتهم من بعد تأسمة إلى ظفار وشأنه (الفكر)
تحلّ فيها والدهر يرفعــه فى عظم شأن وهو يشتمر [1]
إنا وجدنا هذا يكون معاً فى علمنا والمليــك مقتدر
فالحمـــد لله والبقاء له كل إلى ذى الجلال مفتقر

ويجمل هذه القصيدة أسعد بطل حملة عظيمة إلى فارس حيث نازل القائد الذى أرسله اليه أحد ملوك العراق وقهره ثم انطلق إلى بحر قزوين ، وفى طريق عودته اخترق الحجاز وإذ ذاك علم أن ابنه الذى خلّفه فى المدينة قد قتل غيلة ، فأقسم أن يكون ثأره من أهل تلك البلدة شديداً « وبينما كان تبع منهمكا فى إعداد الغارة عليهم ، وفد عليه حبران يهوديان من قريظة يتفجّر العلم منهما ، فلما علما بعزمه قالا له : « أيها الملك لا تفعل فأنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة » فقال لهما : « ولم ذلك ؟ » فقالا : « هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان تكون داره وقراره » فتناهى عن ذلك ، ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما [2] » ... وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجّه إلى مكة وهى فى طريقه إلى اليمن ، ثم أتاه نفر من هذيل فقالوا له : « أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ » قال : « بلى » فقالوا : « أرسل إلى الحبرين » فأرسل اليهما وأخبرهما بما حدثه به الهذليون فقالا له : « ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكنّ وليهلكنّ من معك » فسألهما ما يصنع إذا قدم عليه فأشارا عليه بأن يصنع مايصنع أهله « تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له » فقال : « فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ ... » قالا : « أما والله إنه لبيت ابراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله وبالدماء التى يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك » فامتثل أمرهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل [1] ثم لما دنا تبع من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا « لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا » فدعاهم إلى دينه ، وقال : « إنه خير من دينكم » فقالوا : « فحاكمنا إلى النار » قال : « نعم »

وكان باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تنفر تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قوم بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلّديها حتى قعدا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما لم تضرها فأصبحت عند ذلك حمير على دينه . فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن [2]

(يتبع)

---

(١) حذف الأستاذ نيكلسون من ترجمته بعد هذا البيت سبعة أبيات تتضمن قصة امرأة جاءت تشكو ظلامتها فانتصر لها ، وإتماماً للفائدة الأدبية نذكر هذه الأبيات :

حتى أتته من المدينـــة تشـ كو الظلم شمطاء قومها غدروا
(أدت) إليـــه منهم ظلامتها ترجو به ثارها وتنتصر
فأعمل الرأى فى الذى طلبت (فـكان) كل بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به مثل الدبا فى البـــلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره كأنه الليل حين يعتكر
نعم أعـــداءه كتائبه وليس يبقى فيهم ولا يذر
حتى مضى منهم لثانية وفاز بالنصر ثم ينتصر
(المترجم)

(٢) ابن هشام ص ١٣ س ١٤ وما يليه

(١) ابن هشام ص ١٥ س ١ وما يليه

(٢) ابن هشام ص ١٧ س ٢ وما يليه

من الأدب الانكليزى

مرثيـــــة جراى

[تعد هـذه المرثية من أبلغ المراثى فى الشعر الانكليزى ، قرأها على صديق الأستاذ حيدر الركابى فنقلتها إلى العربية كما فهمتها] « على »

للأستاذ على الطنطاوى

قرع الناقوس ينعى النهار الآفِل ، وراح القطيعُ يزحف ببطء يتسلق الهضبة راجعاً الى القرية ؛ وعاد الفلاح الى البيت يجر رجله تعباً ... وبقى العالم لى وللظلام !

***

تدثّر الكون بالسواد ، وتوارى عن الأنظار ، وسكنت الدنيـا سكوناً مَهيباً ، ولم يبق فى الجو نأمة تسمع ، إلا هـذه الأصوات العميقة تفيض بها الأودية البعيدة والشعاب النائية ، وإلا طنين حشرة تطير ، ونعيبُ بومٍ على تلك الدوحة ، يشكو ظلم الناس وعدوانهم على وكره الآمن

***

هنالك ... عندَ تيك الشجرات القديمات ، تحت تلك الرِّجام التى يزدحم عليها المشب ، ويَتكَوَّمُ الكلأ [1] ... كان « أجداد القرية » ينـامون إلى الأبد فى حفرهم الضيِّقة ، وأجداثهم العميقة

***

لا يوقظهم نسيم الصباح الأرج ، ولا تغريد البلبل الطَّرب ولا زقاء الديك المزهو ، ولا زمّارة الراعى السعيد ... كل ذلك لم يعد يوقظهم من رقدتهم

***

لا . ولن توقد من أجلهم نيران المدافئ ، ولن تقوم فى خدمتهم ربات المنـازل ، ولن يهتف أطفالهم الألُثغ فرحين بمقدمهم ، ولن يَتَسـلَّقوا ركبهم يستبقون إلى أحلى تَمْنِيةٍ لهم قبلة من آبائهم عند عودتهم إلى منازلهم وأهليهم

***

كم كان المنجل العضب يخضع لسواعدهم ، وكم كانت الأرض الصَّلدة تشقق تحت معاولهم ، والغابة القاسية كم لانت لضرباتهم

***

كان عملهم مفيداً . وحياتهم مجدية ، فلا يسخر الطموح من مسرّاتهم الهينة ، وحياتهم المجهولة ، ولا تستمع العظمة هازئة حديث الفقر ، وقصته الساذجة القصيرة

***

فان فخر القواد ، وعظمة الأقوياء ، وكل ما تمنحه الثروة ، ويأتى به الجمال ... كل ذلك ينتظر الساعة التى لا مفر منهـا ، والغاية التى لا محيد عنها ، لا فرق فى ذلك بين عظيم وحقير ، لأن طريق المجد لا ينتهى إلا إلى القبرْ !

***

فيأيها المغترون ، لا تلوموا هؤلاء المساكين إن خلت قبورهم من نُصُب المجد ، وتماثيل العظمة ، على حين تتصاعد ألحان الثناء وأغانى المديح ، من بين جدران المدافن الفخمة ، وتحت أقبيتها المزخرفة

***

لأن البَخُور المحروق ، والتمثال المنحوت ، لا يرد الروح على الميت الراقد ، وهُتاف الناس ، وعجيج الجماهير ، لا ينفخ الحياة فى التراب الجامد ، وهمس التملق ، وهجس التزلف ، لا يبلغ سمع الموت البارد !

***

ومن يدرى ؟ فلعلَّ فى بطن هـذه البقعَة المهجورة قلباً كان يمكن أن يفيض منه النور السماوى ، ويداً كانت تدير دفّة المركب السياسى ، وأصابع كان يمكن أن تمشى على أوتار القيثارة الخالدة فتنشئ النغم السحرى . . . لولا أن العلم لم يفتح أمامها صفحاته الحافلة بثمرات الزمان !

***

أخمد النسيان جذوة أرواحهم النبيلة ، وأجمد نهر حياتهم الجارية ، وطغا عليهم لج الزمان ... ولكن ، كم فى جوف البحر من جواهر مخبوءة ، ولآلئ مجهولة ، وكم فى عرض البادية ، من وردة تفتحت واحمرت ، فلم يرها أحد ، فضاع أريجها العطر فى رياح الصحراء

***

(١) كوم الكومة ، وتكومت من العامى الفصيح

ومن يدرى ؟ فلعل هنا بطلاً (كهامْبِتن) كان حاكماً فى حقوله مطلقاً ، وكان جباراً شجاعاً ، ولعل هنا (ملتون) آخر ، ولكنه صامت مغمور ، ولعل هنا (كرمْوِل) ، ولكنه كرمْوِل برئٌ من دم أبناء الوطن !

* * *

منعهم القدر من الاستمتاع بهتاف الجماهير ، وتصفيق البرلمانات ، ومنعهم من المغامرة ، وركوب الأهوال ، وازدراء المصاعب ، واحتقار العقبات ، ومنعهم من نثر الخيرات على بلادهم ، وقراءة تاريخهم فى عيون الشعب

* * *

ولكن القدر لم يمنعهم مزاياهم وحدها وفضائلهم ، بل منعهم رذائلهم أيضاً وجرائمهم . . . فلم يرتقوا العروش على الجماجم ، ولم يسدوا أبواب الرحمة على البشر ، ولم يخفوا حمرة العار والخجل ، ولم يخفتوا صوت الضمير ، ولم يعطروا معابد ترفهم واستكبارهم بالبخور الذى تحرقه « ربّة الشعر »

لقد اتبعوا طريقهم السوى فى وادى الحياة المنعزل البارد ، وساروا فيه صامتين ، لم تتعلم أمانيهم القريبة ، وشهواتهم البريئة الخروج بهم عن صفوف الشعب المناضل على الحياة ، المزاحم على البقاء

* * *

ولكنهم – مع ذلك – لم تخل قبورهم ، من أثر للذكرى ضئيل : شعور مكسور ، ونقش محطوم ، يستجدى المارة آهة العطف ، وهمسة التقدير ، ويحفظ عظامهم من أن تهان

* * *

إن هذا الشعر – شعر الأميّة الساذجة – الذى ينطق بأسمائهم وأعمارهم ، يقوم مقام التعظيم والتبجيل والرثاء ، وينشر بين القبور نصوصاً مقدّسة ، تعلم المربين والمعلمين كيف يصمتون ويتعلمون

* * *

وأى امرىء مهما بلغ من خمول الذكر والهوان على الناس يترك الدفء والنور والسعادة من غير أن يتلفت الى الوراء فيودع العالم بنظره . . . إن الروح الراحلة تريد أن تتكئ قبل رحيلها على صدر محب ، والعين المغمضة تحتاج قبل اغماضها إلى دموع الاخلاص . . . بل إن صراخ الحياة لينبعث من صميم القبر فيضرم نارها فى رمادنا البارد

* * *

وبعد ، فيأيها الشاعر الذى يقوم فى المقابر ، ويندب الموتى المنسيين ، إنى لألتفت الآن إليك ، فأرى رجلا مثلك ، شاعراً هائماً ، قد جاء يبحث عما حلّ بك ، وانتهى اليه مطافك ، فوجد فلاحاً هرماً فسأله عنك ، فقال له :

لقد طالما رأيناه عند انبلاج الفجر ، يسرع الخطو ليستقبل الشمس من ذروة الهضبة

وطالما لمحناه فى الظهيرة متمدداً بجسمه المنهوك على أقدام تلك الشجرة الهرمة ، وفوق جذورها البادية العجيبة يرقب الجدول الذى ينساب إلى جانبه ، ويتأمل أمواهه الهادرة المتكسرة ، وطالما أبصرناه هائماً على وجهه بالقرب من هذه الغابة باسماً آناً كأنه ساخر من كل شيء ، وآناً عابساً كئيباً كأنه مضنى هدته الآلام ، أو مريض قتله الحب اليائس

* * *

وفى ذات صباح ، نظرنا إلى الهضبة فلم نجده ، فبحثنا عنه فى الذروة ، وعند الشجرة ، وإلى جانب الجدول ، وبالقرب من الغابة فلم نقع له على أثر

ثم رأينا شاعراً آخر يحتل مكانه

ثم رأينا بعدُ نعشه محمولاً إلى المقبرة ، ترتل من حوله أناشيد الموت

* * *

وها هو ذا قبره ، قائم تحت تلك الشجرة التى كان يجلس اليها ، فتعال اقترب ... اقرأ ما عليه :

« هنا .... فى حضن الارض ، يرقد شاب تجهله الثروة ولا يدرى به المجد ، ولا يعرفه إلا الحزن الذى اصطفاه خليلاً وهو فى المهد

كان كريماً مخلصاً ، فكانت مكافأته عظيمة ؛ منح البائسين كل ما يملك : وهو دمعه ! ومنحه الله كل ما يطلب : وهو صديق

لم يحب أن يفيض فى ذكر مزاياه أكثر مما أفاض ، ولم يشأ أن يهتك الستر عن نقائصه ، لأنه أودعها كلّها أمانة فى قلب أبيه ، وعند ربه ... »

على الطنطاوى

من شعر المناسبة

إلى زعيم الأمة الأكبر

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

تقَبّلْ من الدُّنيا العُلى والتهانئَا وعش هانئاً يا جاعل الشعب هانئا
وهيهات أن تنسى أياديك أمة درأتَ الرَّدى عنها، ومازلت دارئا
أتنسى أعاصيرَ السنين التى مضت وإن كنت مَنْ لاقى الأعاصير هازئا
أتنسى جبال الموج حتى كأننا غرقنا، فلم تيأس ونلت الشواطئا
معاذ الوفاء اليوم تنسى قلوبُنا فكل فؤادٍ كان عندك لاجئا
وقد كنت للمجد المقدّس قارئاً فأصبحت أنت اليوم وحيا وقارئا
لئن عرفَ الشانى بنصرك حقدهُ فكلُّ عظيمٍ ليس يعدم شانئا
وما عرف الشانى المآثر تبتنى وغايتُه للشرّ يعملُ ذارئا
صبرت ولكن فى جهادٍ مُضاعف وفُزْتَ ولكن عُدت للجهد بادئا
وما القدوة المثلى سواك، وحسبنا هداك، وما يرضى هداك المالئا
ليصخبْ كما يرضى هواه، فللورى عقولٌ ترى الحسنى وتدرى المساوئا
رميت بأقوى حُجة بعد حُجةٍ ويُضحكنى من جاء بالوهم لاثئا
ولو نحن نقبنا وَجدناه دائماً تذبذب حتى ضيع العُمر صابئا
فسِمناه فى هذا التهافت ساخراً وَشمناه فى هذا التحرُّق طارئا
تقدم زعيم الشعب للفتح ثانيا وَنظم شؤون الحكم سمحا وواضئا
وَجُدْ بغنى الدستور حريةً لنا فقد مات عهد كان للحر رازئاً
وَدُسْ كلّ أفعى فى سبيل كماله فكم دُست من قبل الغنى واللآلئَا
وَكم قد بذلت التضحيات لأجله وَما زلت من حبّ المنافع بارئا
فأهلاً بمن يغلو بنقدك عامداً وإن فضح الاسرافُ ما كان غابئاً
ستروى له الأيام حزمك خالقا مدَى العدْل وَالحكم المنزه كالئا
لئن كان طفلاً فهو باسمك ناشئ وَحبك كم قد صيَّر الطفل ناشئا
كأنك قد أنجبت جيلاً مؤخراً وَإن لم تكن بالخير وَالعدل ناسئا
كأنك قد أبدعت جيشك غازيا وَأسطولك النامى يجوب الموانئا
سنلقى وَيلقى أمةً شع نورها وَقد كان من فرط التحزب طافئا
وجواً طليقا بالتسامح عابقا ونبعا سريا ليس يُرجع ظامئا
وذكراً أبيًّا منجبا نفع قومه وَقد كان مدفونا فأصبح نائثا
وَأنك أهلٌ أن تناظر مصلحا سميَّك[1]، لا تحيى بلادك جازئا
تحديت فى الماضى المصاعب هادئا كذلك فى الآتى ستلقاك هادئا

(الاسكندرية) أحمد زكى أبو شادى

(١) مصطفى كمال منشئ تركيا الحديثة

ذكرى شهيد كلية الآداب

للشاعر الحضرمى على أحمد با كثير

فى مثل هـذا اليوم ثرَّ دمُ تبكى البلاد له ويبتسم
جذلان يمضى للخلود، ولا يلوى به أسـف ولا ندم
خلَع الشباب على نضارته لشــباب مجدٍ ماله هَرَمُ
خلع الشبابَ، فويح رَيِّقهِ لم توفَ منـه للهوى ذِمم!
عينانِ ناعستانِ ترقبُه ويدان فى لطف النَّدى، وفمُ
كانت ترى فيـه لهـا حُلماً فصَحَتْ ولما ينقضِ الحُلُم!
ونوازع للشِّـعر جائشة تهفو عليه أسىً وتضطرم
قد كان يذخره ليُجلِسَه يوماً بحيث تألَّقُ النُّجُمُ
قد كان يأمل أن يتمّ به للضاد ما ترنو له الأُمم
حتى دعا وطنٌ تحفّ له شيحانُ فى عرنينه شمَم
مِصْرٌ؛ وأىّ فتًى تُهيب به مصر فليس جوابَهُ «نعم!»
نسى المُنى والأهلَ واحتشدت فى قلبـه العزماتُ والهمم
هذا الحِمى نَهْب يعيث به خصمٌ ألدّ وطامع نَهِمُ!
جاثٍ على الوادى ينوء به ويضيقُ من أنفاسه الـكظَمُ
أتظلّ مصرٌ تحت كلكله! أيُهان شَعب كله كرم؟
أتداس للوادى كرامته؟ أيُصان من غدروا ومن ظلموا؟
هلا فتًى يسـخو بمهجته! هلاّ فتى للعزّ ينتقم!
وهناك صاح دمٌ تردّد فى الـ وادى فلبّاه دمٌ فدم!!
أصغى له (الطاغى) وقبل شكا الـ شاكى فلم يُسمع له كلِمُ
لا يُسمِعُ الخطباء مظلمةً ما يُسمِعُ الدّمُ من به صمم!
يا مصر لم يفِ غيرَ واجبه مُستَشْهَدٌ لعُــلاك ينتقم
أنت الـكنانة أرضها ذهب تنمى الفنون، وماؤها شبم

القصص

أقصوصة وصفية

سائق القطار

للأديب محمود البدوى

«تشرب ... ؟»

«لا ... وأشكرك ...»

فانحنى مساعد السائق ، ووضع القلة الفخارية الفحمة فى ركن من القاطرة ، وانتصب وهو يمسح بيده الماء السائل من جانبى فمه ، وتحول إلى النافذة وقال بعد أن لمح نور إحدى القرى :

«الفكرية ؟»

«آه ... ...»

«... ... ...»

«نعم ...»

ففتح المساعد باب الفرن المستدير ، ورمق النار وهى تتضرم وتلتهب ، وطالعه وهجها وسعيرها ، فارتد عنها وأمسك بجراف الفحم وقوس ظهره وغيب طرف الجراف فى المخزن ، ثم استدار وتقدم خطوة وعينه على الباب ، ورمى النار بالوقود ، فخمدت جذوتها وتلوت ودخنت ، ثم شبت وامتدت ألسنتها على الحديد والتصقت بجدران الفرن ، ودارت على جوانبها وسقفها ، وزادها تيار الهواء ضراماً وسعيراً ... ورمى المساعد النار بجراف آخر ، ثم رقبها لحظة ، وكأنه شعر بحاجتها إلى المزيد فرماها بجرافين معاً ، وضم الباب بيده ، ونصب قامته ويده على مقبض الجراف ، وطرف كمه الممزق يمسح العرق المتصبب الملوث بغبار الفحم وقطرات الزيت ، ونزلت يده على جنبه وتنفس وقال فى صوت هادئ تشوبه بعض المرارة :

«كل شىء تغير فى هذه الدنيا بعد الحرب ... حتى الفحم»

فسأل السائق وعينه على الطريق وظهره إلى مساعده :

«لماذا ... ؟»

فقال المساعد فى حماسة غير منتظرة وهو ثائر ضامر ناحل الجسم معروق :

«كان الفحم قوالب ضخمة ... كارديف ... وكان القالب الواحد يسير قاطرة بأسرها .. كنا ننزل القالب فى حوض

وعلى سمائك صحو عاشقة ... هبت سُحيراً وهى تبتسم
ترعى «الجزيرة» فيك نهضتها ... وبحبل ودٍّ منك تعتصم
قد تأملين فكلها أمل ... أو تألمين فكلها ألم
ما تنقلين لسؤددٍ قدماً ... إلا وتقفوها لها قدم
فاستقبلى (العهد الجديد) بما ... تجلى به عن أفقك الظلم
قوى عتاد الجيش تحترمى ... فالجيش دون الحق يحترم !
إنا لفى زمن يسود به ... بين الشُعوب الفاتك الحُطم
السيف يخطب فيه مرتجلاً ... فى العالمين ، ويهمس القلم !
بدأ الجهاد اليوم — إذ فرغت ... من قدحِه كفاك — يحتدم !
دون المرام مصاعبٌ غُلُبٌ ... لكنها بالعزم تُقتحم
وبنوكِ قد عزموا الخلاص ولن ... تقف الرواسى دون ما عزموا !
آمنتُ أنهم بما اتحدوا ... غُلُبُ الأسود وأنكِ الأجم

***

شهداء مصر أيهنكم نُزُلٌ ... بجوار (سعد) يحوطه العِظم
أقسمتم بشراء أنفسكم ... فى حب مصر فبورك القسم
ولتحىَ «مصرُ» ويحىَ «عاهلها» ... و«زعيمها» و«النيل» و«العلَمُ»

على أحمد باكثير

الورشة ونضربه ضربتين على يافوخه ، ومثلها على جنبه ، فيتهشم ويتناثر ، فننضحه بالماء ، وندفع منه الجرافين أو الثلاثة فى النار وننام على حسه ! ! أما الآن فهذا الفحم كميدان الذرة لا خير فيه . . »

فتحول اليه السائق بجانب وجهه ، وبصره لا يزال عالقاً بالقضيب ، وقال باسماً فى خبث :

« تعبت ... ؟ »

« تعبت !! لا يزال نور (المنيا) باديا . . رحم الله أيام الشباب ، كنا نعمل فى الورشة أكثر من عشر ساعات وقوفاً على الأقدام ولا نفكر حتى فى الطعام . كان أحسن الله إليه ... »

وحبس سيل الكلام بعد أن بصر بالسائق يتراجع إلى الوراء ويرقب البخار . . وسأله :

« ٥٩ ؟ . . »

« ٨ .... »

ثم نسى ما كان فيه من حديث وأمسك « بالاسطبة » وأخذ يلمع جوانب الفرن وعجز الآلة الضخمة ويزيل الزيت اللاصق بالحديد والنحاس ، والأنابيب الصفراء الملتوية والمعدنية الدقيقة ؛ ولما وصل إلى محبس البخار بدا له أن ينفس عنه قليلاً ، ففعل ، وهب البخار القوى من بوق القاطرة وهو يئز وينش وطار مع التيار ، ولما قفل المساعد المحبس ثانية رضت أصابعه بعض المفاتيح الصغيرة ، فعبس وكشر ، وصمت محنقاً ، وكان صمته منتهى ما يرجوه السائق !

وكان السائق واقفاً عند نافذة القطار الزجاجية الصغيرة يرقب الطريق ، وهو يدخن ؛ وكان يتحول عن موقفه من حين إلى حين ليلمح الساعة وضاغط الهواء ودرجة البخار ومقياس الطريق ، ثم يعود إلى مكانه عند النافذة ، ويده فى سرواله الأزرق ، وسترته تنحسر عن صدره العريض القوى البارز ، وعلى كتفيه وفى طرف كمه الزيت الملوث بالفحم المنضوح . وكان فى وقفته ساكن الملامح ، هادئ النفس ، ثابت الجوارح ، راسخ القدم ، فعل الواثق من نفسه وعمله ؛ وكان لصلابة عضلاته ووثاقة تركيبه وقوة أعصابه أثر واضح فى ذلك

أما المساعد فقد مال بظهره على ركن القاطرة تحت مخزن الفحم بعد أن أشعل سيجارة من جمرة جذبها من الفرن وانطلق يدفع الدخان ويفكر ، ونظره لا يتحول عن السائق الواقف أمامه فى حلته الزرقاء . ولما مد السائق رجلا وثنى الأخرى وعينه مستقرة على الطريق ، انتصب المساعد وحدجه بطرفه ، وتحول الى ظله الجارى على الأرض ، وأنعم فيه النظر فى سكون حتى بصر به ينسحب بعد لحظات فرفع وجهه ، وكان السائق قد انحنى عليه وفى فمه سيجارة جديدة فأخرج المساعد سيجارته من فمه وناولها إياه ، وقد تلاقت عينا الرجلين واختلطت أنفاسهما ، ونظر المساعد فى حدة الى عينى صاحبه العميقتين السوداوين ذواتى البريق العجيب ، والى ملامح وجهه المعبرة القوية الساكنة وجبهته العريضة البارزة ووجهه الأبيض المستطيل . . وأحس بتضعضعه وخوره أمام قوة صاحبه وغلبته ؛ شعر أمام السائق بالعجز والضعف والونى فتحسر وتقبض ، ولما ارتد السائق الى مكانه من النافذة أخذ المساعد يتفرس فيه ، ويقارن بين جسمه القوى المصبوب ، وبين نفسه ، وهو الناحل الضامر المعروق . وفتق هذا التأمل المستكن ذهنه حتى أخذ يستعرض فى مخيلته عمل كل منهما ، وشغله هذا التفكير حتى نسى أن ينفض عن السيجارة رمادها أو يمحو عن فمه ما ارتسم عليه من أسى مشوب بالحقد والحسد ... وانطلق يحدث نفسه :

« ما الذى يفعله هذا السائق . . يحرك القطار فى المحطة ثم يتركه بعد ذلك للأقدار . . ويمضى معظم الليل واضعاً يده فى جيوبه يدخن ، ويتلهى بالنظر إلى الطريق ، وكل ما يعمله هو عقرب الساعة ومقياس البخار والضغط والطريق . . وبعض الأحيان يتواضع ويمسح ما على الساعة من غشاوة !! ثم بعد هذا كله يلقى الأوامر : غذِّ النار . . ندِّ الفحم . . زيِّت الآلات . . أما أنا فأظل الليل طوله واقفاً على باب جهنم ، أضرمها وأغذيها وأصلى بنارها وأمسح ما على الحديد من غبار وفحم وزيت ، حتى يلمع ويصقل ، وجسمى عليه ضعف قاذوراته . وإذا وقف القطار فى المحطة نزلت تحت العجلات وانبطحت على الأرض لأزيِّت العدد الصغيرة والمفاصل والدوافع والجواذب وأمسح معدن الذراع ، فحتى هذا يجب أن يكون لامعا ! . وإذا ملأنا مخزن الماء طوقت الخرطوم بذراعى ودفعته عن الخزان بجسمى فيصيبنى هاطله ويزيدنى بلاء على بلائى ... هذا هو عملى وعمله ، ومع هذا فأجره ضعف أجرى ويزيد ، وأوقات فراغى وراحتى ليست كأوقات فراغه وراحته ... وامرأته عاقر وامرأتى تجيء فى كل عام بمولود سعيد !! وأولادى من فرط الطوى ضامرون مهزولون يترقبون الصيب من السماء ليربوا ويكتنزوا ويملأوا البطون بالطعام والسماء لا تجيب ! وهو فارغ

قوى مفتول يفور جسمه بحرارة الشباب ، وأنا قميء ناحل معروق تقوست قناتى ، وشابت شياتى ، وأضحت جلدتى تتخدد . والحياة تقبل عليه بوجهها وتدبر عنى ... ومن يدرى ؟ ربما كان لقوته وسطوته سبب فى ذلك ، فما تحط الحياة إلا على أمثالنا من الضعاف المرضى المناكيد ، وما كنا مناكيد إلا لأننا مرضى ، ولو كنا أقوياء مثله لخافت بأسنا ، واتقت شرنا ، وأحنت لنا الرأس فسرنا فى مسالكها شامخين ... »

« تحم ... ... »

فاستفاق المساعد من خواطره على صوت السائق الرنان ؛ وفتح باب الفرن وأقبل على النار يغذيها بالوقود وهو صامت صابر

* * *

عندما جاز القطار محطة (ملوى) كان الليل قد انتصف واعتدل الجو ، وهب النسيم العليل من جنبات الوادى الخصيب ، فأثر هذا الجو الرخى المنعش على خواطر المساعد ، فخف حسده على صاحبه وزالت نقمته عليه ، ووقف ينصت لدوى القطار وهو ينهب الأرض ويطوى القرى والدساكر ، وقد خيم عليها النخيل وطواها الظلام فى جوفه ، حتى بدت صامتة موحشة رهيبة ، ثم بارح مكانه وأخذ يجرف بعض الفحم من المخزن ويهيئه على عتبته للنار ، وبعد أن فرغ من ذلك أشعل سيجارة ونظر إلى السائق وود لو يحادثه ؛ يثرثر معه فى أى موضوع ، ويتكلم عن أى شىء ، دون أن يكون لكلامه وقع أو غرض أو غاية ، فما كان يعنيه هذا ، وإنما حسبه أن يتكلم لأن الصمت يمله ويضجره ويأخذ بخنقه ويثير أعصابه . . . . وفتح فمه ثم أطبقه ، وكان يعرف أن السائق قليل الكلام طويل الصمت . وتنحنح وسعل وأطل من النافذة فطن فى أذنيه التيار الشديد ، وسفى فى وجهه الغبار وجرى على وجهه دخان الفحم ، وسمع صفير قطار من بعيد فبقى فى مكانه ليحيي سائقه إن أمكن . ! ومر قطار البضاعة يجلجل على القضبان ، فقال المساعد : وكأنما انبعث صوته من أعماق هاوية سحيقة

« ٣٦٧ : . ؟ »

« نعم ... »

« من الأقصر ... ؟ »

« آه .. وخزن فى أسيوط ... »

« توفيق شاكر ... ؟ »

فهز السائق رأسه موافقاً ، وصمت المساعد لحظة كأنما يستعرض فى ذهنه صوراً باهتة يحاول بروزها ووضوحها وغير من نبرات صوته وهو يقول :

« كان سائقاً للقطار ٧٢ ... أعرفه ... بعض الأحيان تتحكم الأقدار ... »

فلم يقل السائق شيئاً وأخذ يتمثل فى مخيلته صورة حادث توفيق كما سمعه من رفاقه ... ثم وضع يده على جبينه يتفرس فى الطريق ، يستشف الحجب ، ما وراء الغيب ، ما فى بطن الأقدار

فقال المساعد وقد طاب له أن يجد ما يتحدث فيه :

« كان خارجاً من ورشة سوهاج ... ليوصل القطار إلى الأقصر ... كانت السرعة أكثر من اللازم ، وكان العامل يتخطى القضبان ... توفيق نفسه لا يدرى كيف مات الرجل .. شهد عليه عامل « البلوك » و « اثنان من الخفراء »

فقال السائق وقد حز فى نفسه الأسى على صاحبه

« سىء الحظ ... وكان عليه أن يحاذر »

فقال المساعد بصوت وإن :

« يولد كثير من الناس ليموتوا تحت العجلات ... فما الذى يدفعه الحذر والسائق والكشاف ونور الكشاف ؟ مرت على المرء كثير من الحوادث العجيبة التى تبعث على الدهشة والتفكير العميق ... كنا قد بعدنا عن ديروط وفلاح مسكين ، على جمله ، ينتظر مرور القطار ، ومر القطار وفزع الجمل ، ورمى الرجل تحت العجلات . قد يكون مر على هذا الجمل مائة قطار وهو ساكن ثابت ولكنه جفل فى هذه المرة لسبب لا نفهمه . »

فقال السائق وقد بدت على وجهه البشاشة :

« ولكن إذا كان الفلاح قد رد الجمل عن حديد الممر وبعد به عن الشريط أكان يموت ؟ »

« كان لا يستطيع فى تلك الساعة أن يفعل ذلك ... كان لابد أن يموت فمات »

ومر القطار على حقل كبير من القطن وقد تفتح ونوّر فتحول المساعد إلى الحقل وراقب السائق مقياس الطريق لحظات ثم أدار المحرك إلى اليسار قليلاً ، فقد بدأ الوادى ينحنى والشريط يدور ، وكان يعرف هذه الطريق أكثر من موضع أنفه من وجهه ، وهدأت حركة الآلات نوعاً ، ثم أرجع المحرك إلى مكانه بعد توان ، وارتد عن النافذة ووقف أمام الفرن ، وطرفه على الساعة والمقياس ، واستمر هكذا مدة ، ثم أدار المحرك إلى اليسار

مرة أخرى فى شدة حتى تعدى الكثير من الدرجات ، فقد وصل القطار إلى طريق مهم واهن لا تزال تجرى عليه أيدى العمال فى النهار . . ودار بخلده أن أحد العمال قد يكون ترك سهواً بعض الأدوات الحديدية على الشريط ، فمد بصره إلى نهاية نور الكشاف وثبت نظره على حديد القضبان . . . وفكر فى نفسه أنه بعد نصف ساعة وستمائة ثانية سيدخل محطة أسيوط ؛ وسره هذا كما سره خروجه منتصراً من الطريق المرمم . . وبعد أن لمح المقياس أدار المحرك بالتدريج إلى اليمين ، إلى نهاية ما تتحمله أرض النيل السعيد ! وكان يود أن يعوض بتلك السرعة الجارفة ما قضاه وهو سائر ببطء على الطريق الواهن . . وانطلق القطار كالسهم يطوى القرى ويزلزل تحته الأرض

وقال المساعد :

« النيل عال . . وشديد »

فقال السائق وقد تحول بوجهه إلى النيل فرأى بعض المراكب الشراعية تسير مغالبة التيار

« أتخاف أن تتقطع الجسور ؟ »

« لا ... جسور القطارات هى آخر من يصيبه الأذى دائماً ! »

وبقى نظر السائق ثابتاً على النيل وقد راقه هول الليل عند الأفق البعيد

وأطل المساعد من النافذة وبصره على الأرض الجارية ... وخيم صمت عميق

وقال المساعد بعد دقائق بصوت يرتعش :

« رجل ... »

« ماذا . . ؟؟؟ »

« رجل تحت . . ال ... »

فتلفت السائق فى سرعة البرق حيث أشار مساعده فرأى شبه شبح يضطرب فى غمرة الليل . . فصفر وألقى الشبكة وأدار المحرك الى اليسار فى حذر شديد . . . وكان قد فوجىء بالأمر فاضطرب جسمه قليلاً وجاشت نفسه ... ثم حبس البخار ... وأحس بعد مدة بضغط الفرامل وجلجلة العدد وقد أجبرت على البطء على غير انتظار ، ووقف وروحه تثور ونفسه حانقة ساخطة . كان يود أن يدخل محطة أسيوط فى الساعة الواحدة والدقيقة الرابعة والعشرين ... منذ خمس سنوات لم يتأخر فى حياته مرة . . مرة واحدة . . . كان دائماً يحاذى الرصيف وعقرب الثوانى على الستين . كم كان يشعر بالفخر والزهو والشموخ والتعالى على الأخوان ، كم كان يشعر بالزهو والفخر وهو العارف بأنه المسيطر على الحديد والنار . كان إذا تأخر فى أثناء الطريق يغذى النار ويدفع البخار ويجهد العدد ليدخل المحطة فى ميعاده ... ولكنه الآن سيتأخر لأول مرة فى حياته كسائق سيتأخر ... سيتأخر ... لا دقيقة ولا دقيقتين ولا ثلاثا ... بل أكثر من ذلك . شعر بنفسه تذوب حسرات ، أحس بالآلات تئن وتتوجع وتدق كالطبول ... كانت ضربات الضاغط والدوافع وسحبات الذراع ورجمات « البستون » ... تدوى فى أذنيه كالطاحون البالية ، كالدافع المنطلقة على غير هدى فى وادى التيه . أحس بدمه يفور ... وروحه تثور حتى عقدت جبينه السحب .. ولكن يده القوية كانت لا تزال على المحرك ، والقطار يحبس نفسه ويغالب قوة دفعه ... أى مأفون هذا الرجل الذى عبر الشريط هكذا وألقى بنفسه الى التهلكة ... ؟ وتصور الرجل وقد تمزق وطارت أشلاؤه ، وطحنته العجلات ، وجرى دمه مع الزيت فتفطر قلبه على الرجل المسكين ... ووقف تتملكه أعصابه الحديدية . صامتاً ... حتى أحس بعد مدة بالآلات تجلجل وتطيل ، والبخار ينش ويئز ، والذراع يغالب ويجاهد ، ويعاوح بنفسه فى ثقل ثم يدركه الونى فيحتضر

* * *

ونزل السائق ودار حول مقدمة القاطرة ، ثم انحنى ودخل تحتها يفحص العدد الصغيرة والآلات المحركة وخرج بعد دقائق ووجهه ينضح عرقا ، وعلى معارف وجهه الساكنة آيات الهدوء المطلق ، ورآه مساعده وهو يستقيم بظهره القوى عند العجلات الأمامية ثم يتراجع خطوتين إلى الوراء ويتقدم تجاهه وهو يضرب بقدميه الزلط الملقى بجانب الشريط ، وكان لصوت قدميه دوى مسموع فى الليل الساكن ، وتوقف المساعد عن مسح عمود الذراع وقبض براحته على « الاسطبة » الملونة بالزيت القذر ، وقال وهو يميل بوجهه إلى حيث صاحبه :

« لا شىء ... ؟ »

« لا شىء فى العجلات الأمامية ، وإنما أثر الدم واضح فى التروس الخلفية التى أخذ عندها الرجل ، على أن العدد سليمة ولا أثر للحم ولا عظام ... »

فصمت المساعد وكأنه يفكر ، ثم استأنف عمله وكان المشعل الصغير الذى فى يسراه ينتفض ويخبو ويشتعل ويميل لسان اللهب يمنة ويسرة تبعاً لهبات الرياح . . وكان الزيت قد امتزج بعرقه

البريد الأدبي

وفاة عميد الموسيقى الانكليزية

نمت الينا الأنباء الأخيرة السير ادوارد جيرمان عميد الموسيقى الانكليزية توفى فى الرابعة والسبعين من عمره بعد حياة موسيقية حافلة ، وكان مولده فى ستروبشير فى سنة ١٨٦٢ ، وتخرج من أكاديمية الموسيقى الملكية ، وظهر لأول مرة بقطعته الأوپريت المسماة «الشعراء المتنافسون» The Rival Poets وفى سنة ١٨٨٩ عين السير جيرمان مديرا للموسيقى فى مسرح جلوب بلندن ؛ وفى نفس العام وضع تلحينه لرواية رتشارد الثالث لشكسبير ؛ ثم أتبعه بتلحين عدة روايات أخرى من روايات الشاعر الكبير مثل هنرى الثامن وروميو وجولييت ؛ وكما تحب ، وهملت وغيرها . ووضع السير جيرمان قطعاً موسيقية مستقلة نالت نجاحا عظيما ؛ واشتهر بحفلاته الموسيقية الرائعة فى أواخر القرن الماضى ، كما اشتهر اشتراوس فى ڤينا . وله عدة مقطوعات موسيقية شهيرة مثل «الجزيرة الخضراء» التى وضعها لسوليڤان ؛ وانكلترا المرحة ؛ وأميرة كنسنجتون وغيرها ؛ وألف كبلنج مجموعة غنائية شهيرة عنوانها Zust so Song Book ؛ وهو الذى وضع نشيد التتويج للملك جورج الخامس ، وعزف أثناء تتويجه فى سنة ١٩١١ .

ومن مؤلفاته أيضاً مجموعة كثيرة من الأناشيد والأغانى ؛ وهو كثير الشبه فى أسلوبه بأسلوب سوليفان ، بيد أنه يسبغ عليه من ابتكاره طابعاً خاصاً ؛ ويتجه بنوع خاص الى الروح الانكليزية القديمة

كتاب عن النيل لأميل لودفيج

ظهر أخيراً فى لندن كتاب جديد للمؤرخ الألمانى الشهير أميل كون المشهور فى عالم التأليف بأميل لودفيج ؛ وهو كتابه الموعود عن « نهر النيل » . وكان لودفيج يشتغل بتصنيف هذا الكتاب منذ عدة أعوام ؛ وقد خطرت له فكرة تأليفه مذ زار مصر والسودان فى سنة ١٩٢٩ ، وأثرت فيه مناظر النيل وروعته الخالدة . وعرض لودفيج فكرته على المغفور له الملك فؤاد فأولاه كل عطف وتشجيع ، ولقى من جانب السلطات كل معونة فى الوقوف على ما أراد من المعلومات ، ومراجعة ما شاء من المستندات . ولودفيج مؤرخ بالفطرة ، وليس بعالم جغرافى ، ولكنه لم يجعل من كتابه عن « النيل » بحثاً جغرافياً جامداً ؛ وإنما اتبع فى وصف النيل ومناظره ووديانه وفيضانه نفس الأسلوب الذى يتبعه فى كتابة التاريخ ، فكما أنه لا يعنى فى ترجمة

الداخل وسال من يده على ساعده ولوث الكثير من جسمه ، فمسح الرجل الزيت فى سرواله ، بعد أن رمى الأسطبة على الأرض ، ودارت يده حول ذقنه ورفع المشعل إلى مافوق رأسه ، واستدار ومد بصره وكان الكثير من الركاب يطلون من النوافذ ووجوههم إلى الخلف ، وظلهم للواقف منهم على الأبواب واضح على الأرض ، وعامل العربة الخلفية يتحدث مع (الكمسارى) وحولهما بعض الناس

واعتمد السائق على حديد النافذة وأخذ يدخن ونظاره مسدد إلى الوراء حتى رأى عامل الاشارة يلوح برايته ، فقال لمساعده : « اطلع ... »

فطلع المساعد إلى القاطرة ووضع الزيتة جانبا ، وبعد السائق عن النافذة الجانبية ووقف أمام الآلة يحدق فى الساعة ، ثم مد يده وأدار المحرك إلى اليمين قليلاً فتحركت العجلات الأربع الأمامية الصغيرة فى بطء وثقل شديد ، ودارت العجلات الأربع الكبيرة التى خلفها على الفارغ ، ارتفعت عن القضبان ودارت على الفارغ فى سرعة وجنون ، وزفر القطار وأز البخار ونش ، وشال الذراع وحط ، وتحركت العجلات الأمامية ولامست العجلات التى خلفها القضبان ، وشال الذراع وحط وتقدم القطار وهو يئن ويتوجع وينوح ... تقدم القطار فى بطء وحزن من غير صفير !

محمود البدوى

الأشخاص بالحوادث العامة قدر عنايته بالحوادث والصور الخاصة وقراءة الأفكار والمشاعر من الأعمال والتصرفات الشخصية ، فكذلك قد عنى بأن يبرز من النيـل شخصيته المعنوية الرائعة وما يرتبط بها من الصور والأفكار التي ترجع إلى غابر العصور ، وتسبغ على النيل طابعاً من العظمة الخالدة . وكتاب لودفيج شعرى ووصفى أكثر منه جغرافيا ، وإن كان المؤلف لم يهمل تقديم المعلومات الجغرافية الكافية . وقد صدر كتاب لودفيج بالانكليزية لأول مرة ، ولم يصدر بالألمـانية ، لأن لودفيج من الكتاب اليهود الألمـان الذين شردتهم ألمـانيا الهتلرية ، ونزعت منهم كل حقوق الطبع والنشر في ألمـانيا ، وحرمت دخول كتبهم في الأراضي الألمـانية ، ولذلك يصدرون اليوم كتبهم في لندن وباريس وامستردام ، تارة بالألمـانية وغالباً بالانكليزية أو الفرنسية

وفاة مشترع نمسوى

من أنباء النمسا أن الدكتور يوسف ردلنج المشترع النمسوى الكبير قد توفى في التاسعة والستين من عمره ؛ وقد كان الدكتور ردلنج حجة في المسائل القانونية والادارية وخصوصاً ما كان منها ذا صفة دولية ؛ وكان حتى وفاته عضواً في محكمة العدل الدولية الدائمة ؛ وكان أيضاً من أقطاب الساسة النمسويين في أواخر عهد الامبراطورية ، وقد شـغل منصب وزير المالية في آخر وزارة للامبراطور كارل ؛ ثم تولى الوزارة مرة أخرى في سنة ١٩٣١ . ومنذ سنة ١٩٢٦ يشغل منصب أســـتاذ القانون العام في جامعة هارفارد

وللدكتور ردلينج عدة مؤلفات قانونية شهيرة منها كتاب عن اجراءات مجلس العموم البريطاني ، وكتـاب آخر عن الحكومات المحلية الانكليزية ؛ وهما من أحسن الكتب في موضوعيهما

صورة حية للانسان الأول

نشرت صحف هلسنجفور نبأ غريباً عن عثور بعثة للصـيد على مخلوق مدهش نصفه قرد ونصفه إنسان في بعض أحراج ريفا عاصمة لاتافيا . وتفصيل النبأ أن بعثة صيد كانت تجوس خلال إحدى الغابات الكبيرة في تلك المنطقة ، فلحظ بعض أفرادها ذلك المخلوق جاثماً عند ساق شجرة ؛ فلمـا اقتربوا منه فر هاربا ، وتسلق أحد الأغصـان المدلاة ، وصعد إلى أعلى الشجرة برشاقة مدهشة ؛ فصوب أحد الصيادين بندقيته إليه وأطلق النار عليه فصاح المخلوق صيحة مزعجة ، وسقط على الأرض مضرجاً بدمه . ولمـا قبض الصيادون عليه وجدوه مخلوقا عاريا وقد نما الشعر في جسمه حتى غطاه . فحملوه إلى القرية القريبة ، وهنالك تبين أن هذا المخلوق كان عاملاً في إحدى المزارع ، وقد فر منها منذ بضعة أعوام ولم يظهر له أثر بعد

ولا يستطيع هذا الانسان القرد أن يتكلم ، كما أنه لا يفهم مايقال له ؛ ولـكنه يصبح مسروراً حينما يقدم اليه اللحم والفاكهة وقد أثار هذا الاكتشاف الغريب اهتماماً خاصاً في الدوائر العلمية ؛ ويرى بعض الباحثين أن اكتشاف مثل هـذا المخلوق يدلل بصورة حية على الصلة القوية التي توجد بين الانسان وبين بعض أنواع القردة ، وهي صلة يدلل عليهـا العلامة داروين في كتابه « أصول الأنواع » ؛ ثم إن منظر هـذا المخلوق يذكرنا بالانسان الأول في أطوار همجيته الأولى في عصور ما قبل التاريخ

أسرار المجتمع الالباني

ألبانيا من البلاد البلقانية القديمة ، ولـكنها مازالت غارقة في غمار المـاضي ، ولا يعرف عن حياتها الداخلية سوى القليل ، وقد رأى كاتب وصحفي انكليزي معروف هو مستر برنارد نيومان عاش في ألبانيا أعواماً طويلة أن يضع كتابا عما شهده ووقف عليه من أسرار هذه البـلاد المجهولة ؛ وأخرج كتابه أخيرا بعنوان « باب ألبانيا الخلفي Albanian Back Door » ؛ ويقول المؤلف إنه دخل ألبانيا من بابها الخلفي فوجدها بلادا لا فن فيها ولاموسيقى ولا آداب ، ولـكنه وجد فيها شعبا يرتبط أفراده فيما بينهم بكلمة اللسان فقط . ومن المأثور في تلك البلاد أنه إذا توفى شخص فأن الناس لا يسألون عن سبب وفاته ، ولـكن يسألون عمن قتله ؟ ذلك لأن مبـدأ الثأر لا يزال يسود جميع الطبقات والأسر ، ولا يهدأ بال انسان حتى يقتل خصمه ؛ وكل فرد في قبيلة يحمل بندقية . ويقول لنا المؤلف أيضا إنه عقد عهد الأخوة الدموية مع ألباني ، ووجـد أن أهم آثاره ينحصر في احترام

الأخوين كل لحياة صاحبه . وقد طاف مستر نيومان فى جميع أرجاء ألبانيا بعجلته التى كانت مثار الدهشة ، ولقى فى كل مكان حفاوة ودية بالغة ، واستطاع خلال طوافه وإقاماته المديدة بين مختلف الطوائف والطبقات أن ينفذ الى الروح الألبانية ، وأن يعرف كثيراً عن أخلاق هذا الشعب وعاداته وتقاليده . ولكتابه قيمة تاريخية واجتماعية كبرى ، ومعظم الكتاب الذين كتبوا عن ألبانيا فى العهد الأخير يقصرون عنايتهم على مسائلها السياسية والاقتصادية ، ولكن مستر نيومان لا تعنيه هذه المسائل ، وإنما يحصر جهده فى المسائل الاجتماعية والاخلاقية

كيف يعامل الكتاب فى ألمانيا النازية

أضحت ألمانيا جحيم الكتاب الأحرار من كل لون وكل أمة ؛ وقد هجرها جميع كتابها ومفكريها الأحرار مذ عصفت بها ريح الطغيان الحالية ؛ ولكن ألمانيا النازية ما زالت تضيق ذرعا حتى بالضيوف إذا كانوا أحراراً ؛ فقد روت بعض الصحف السويدية أن الكاتب الروسى الكبير ايفان بونين الذى أحرز جائزة نوبل فى الآداب منذ عامين ، قد عومل فى ألمانيا عند زيارته لها معاملة سيئة ؛ وأنه قبض عليه وعذب فى سجن « الجستابو » : (سجن البوليس السرى السيسى) ؛ وكان بونين يقوم بزيارة عادية لمدينة لانداو فى جبال الالب طلبا للراحة والنزهة ، ولكن بونين معروف بأنه كاتب حر ، وأنه حمل فى بعض كتاباته على النظم الطاغية التى تسود ألمانيا فى الوقت الحاضر ؛ ومع أنه من الروس البيض (خصوم البلاشفة) فان مجرد كونه انتقد ذات يوم نظم النازى كان سبباً فى القبض عليه وتعذيبه . وقد أثارت كتابات الصحف السويدية عن هذا الحادث الرأى العام الدولى ، فبادرت وزارة الدعاية الألمانية إلى إنكاره ، ولكنها سلمت بأن إيفان بونين كان أثناء زيارته لألمانيا موضوعا تحت الرقابة السياسية !

حول مباراة المولد النبوى

تناولت الصحف فى الأيام الأخيرة موضوع مباراة المولد النبوى وما انتهت اليه باختيار رسالة الأستاذ عبد الله عفيفى — على الرغم مما فيها من العيوب التى اضطرت الوزارة إزاءها أن تمنحه نصف المكافأة — وأشارت بعض الصحف إذذاك إلى أن اللجنة التى ألفت من هيئة كبار العلماء لفحص الرسائل التى تقدم بها ١٣٣ كاتباً من مصر والأقطار العربية ، كانت قد اختارت من مجموعها ثلاث رسائل إحداها رسالة الأستاذ عفيفى ، وطلبت هذه الصحف إلى الوزارة بهذه المناسبة أن تقسم النصف الثانى من المكافأة بين صاحبى الرسالتين الثانية والثالثة تقديراً لما بذلا من جهد ، وتحقيقاً لبعض ما علقا من آمال ، وإنفاقا لهذا المبلغ فى الناحية التى أرصد لها ، ولأن الاقتصار على مكافأة واحدة فى مباراة كهذه فيه شىء كثير من الغبن وتثبيط الهمم لا يتفق مع ما ترمى اليه المباريات العامة من التشجيع وإظهار الكفايات المغمورة

ولقد كان غريباً بعد هذا أن ينشر الأستاذ عفيفى بياناً فى بعض الصحف يشكو فيه من الوزارة لأنها لم تمنحه المكافأة كلها ولم تغض عما فى رسالته من نقص . ويحاول أن يزكى نفسه ورسالته فينشر للمرة الثالثة خطابا أرسله اليه الأستاذ عبد الوهاب النجار أحد أعضاء لجنة التحكيم يصفه فيه بأنه أقدر من كتب فى السيرة بعد القاضى عياض — وتلك شهادة يشكر عليها الأستاذ النجار ويغبط عليها الأستاذ عفيفى — ثم يذهب الأستاذ فى بيانه إلى أنه سوف ينشر رسالته ، ويحتكم فيها الى الجمهور لينتصف لنفسه ولرسالته من وزراة الأوقاف

ولا شك أن الأستاذ عفيفى يعلم حق العلم أنه إذا كان فى هذه المباراة غبن أو ظلم فأنه واقع على غيره ، وأنه إذا كان لأحد أن يشكو ويتظلم فأن الأستاذ آخر من يحق له ذلك .

على أنى أعتقد أن فى الأقدام على هذه الخطوة إثارة لحقائق قد تكون مؤلمة . ولقد كنا نتحاشى ونحن نكاد نلمس الغبن الواقع فى بعض نواحى هذه المباراة أن نلجأ إلى النشر أو الاحتكام إلى الجمهور احتراماً لرأى اللجنة وتنزيهاً لقرار الوزارة عن مظنة الشك والارتياب . أما وقد اندفع الأستاذ فى هذا الطريق فأنا نؤيده فى فكرته ، وسوف نستأنف معه الشوط الأخير ، وللرأى العام أن يحكم ، وللتاريخ أن يشهد ، وللحق أن يأخذ مجراه

(حمامات حلوان) محمد كامل حتة

أحد الثلاثة الأول

الكتب

١ — مقتل عثمان بن عفان : للأديب محمود الغزاوى
٢ — الشخصية
٣ — التربية الانكليزية : تأليف الأستاذ محمد عطية الابراشى

للأستاذ محمود الخفيف

يعتبر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه من أهم الحوادث فى تاريخ الاسلام ، إذ كان مقتله نتيجة ثورة عاصفة عاتية ، نسى فيها الثوار — والاسلام فى مستهل ضحاه — مانهى عنه دينهم من قتل النفس التى حرم الله ، وامتدت أيديهم الأثيمة فى غير تردد أو اضطراب إلى عثمان بن عفان خليفة الرسول ، وزوج ابنتيه ، وأحد السابقين الأولين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وسال دم الخليفة الشيخ فى عقر داره ، فلم يشن على أحد غارة أو يشهر فى وجه أحد سيفا ، مما ضاعف بشاعة الجريمة ، وزاد تلك المأساة هولاً ونكرا

ولقد انطوت تلك المأساة على معان كثيرة ، فهى وليدة عدة عوامل ، ثم هى أول حادث من نوعه فى الاسلام ؛ ترى فيها ثورة سياسية ، مازالت تنمو حتى انقلبت إلى فتنة ثم إلى طغيان

وفى هذا الكتاب الذى ألفه الأديب محمود الغزاوى ترى دراسة واضحة لتلك الثورة وتصويراً قوياً لما انتهت اليه من مأساة . مهد لموضوعه بمقدمة مبينة عن الخلافة وما كان من أمر تولية أبى بكر وعمر ، ثم وضح ما حدث من الشورى بعد موت الخليفة الثانى ، وأخذ بعد ذلك يدرس عوامل الفتنة فأشار إلى العداوة القديمة بين الهاشميين والأمويين ؛ ثم درس سياسة عثمان وبين عوامل الثورة ، وشرح حال الفتنة فى الأمصار وصور فى الخاتمة المأساة

فالكتاب يعطيك فكرة جلية عن هذا الحادث التاريخى ، وهو مجهود جدير بالثناء ، نرجو أن تعقبه مجهودات أخرى للغزاوى فهو رجل نشاط وأدب . وأريد ألا أختم الحديث عن كتابه دون أن أشير إلى بعض هفوات لا تتفق وما عرف به من فطنة وحصافة ، فهو فى صفحة ١٣ بينا نراه يحار بين أمرين فى تلمس العلة فى عدم توصية النبى لأحد بالخلافة ، نراه فى الوقت ذاته يشير إلى مخافة النبى من وقوع الانقسام والفتن ، فهل لا يعتبر هذا تعليلا ؟ . وفى هامش ٥٢ نرى خطأ مطبعياً لم يصححه ، كذلك لم يبين المؤلف كيف كان جمع الناس على مصحف واحد عاملاً من عوامل الثورة صفحة ٦١ ، وفى صدد الكلام عن إيثار عثمان أقاربه بالخلافة نراه يثبت فى صفحة ٦٥ أن عثمان عزل عن الكوفة محمد بن عتبة وولى سعيد بن العاص ، ولكن المؤلف عند ما راح ينقد هؤلاء الولاة تكلم عن الوليد كوال للكوفة فاذا كان من أمر سعيد بن العاص ؟ ومتى عين الوليد ؟

هذا وفيما عدا تلك الهنات فالكتاب بحث قيم ممتع . ومما يحمد للمؤلف أنه وضع فى آخره ثبتاً مسهباً للمراجع العربية والأفرنجية وأنه عنى بطبعه عناية جعلت الكتاب فى طبعته الثانية هذه أجمل شكلاً وألطف حجماً مما كان عليه فى لباسه الأول ، وهو مطبوع فى دار النشر الحديث للأستاذ الصاوى وثمنه خمسة وسبعون مليما

— ٢ —

يأتى بعد ذلك كتاب « الشخصية » للأستاذ محمد عطية الابراشى وهو كتاب ظريف الشخصية قويها ، يجتذبك إذا رأيته ، ويسرك إذا خبرته : يجتذبك بلطف شكله وحجمه ، ويسرك بما تطالع فيه من عوامل تكوين الشخصية . والأستاذ المؤلف معروف اليوم بكتاباته فى علم النفس ، ولقد كتب عن الشخصية فصلاً فى كتابه فى « علم النفس » ولكن « عن له فيما بعد أن موضوعاً كالشخصية يحتاج إلى كثير من التفصيل والتمثيل ، والآن يسره أن يتقدم إلى قراء العربية وبخاصة شبان اليوم ورجال الغد بذلك الكتاب »

ولقد نحا الأستاذ فى كتابه طريقة سهلة سائغة ، فهو يتعرض للمسألة ثم يوضحها بالأمثلة المتنوعة ؛ ومما يحمد له أنه كان يأتى بها من

الشرق والغرب ، بل لقد كان يتمثل بكثير من الشخصيات العربية ويرينا كثيراً من مواقف البطولة والفضيلة عند العرب ويعرض علينا منهم صوراً ما أجلها وأدقها فى المقارنة بين حاضرنا وماضينا

بهذه الطريقة الشائقة جعل الأستاذ الابراشى كتابه فى متناول كل قارئ، فلا يحتاج الانسان إلى كد ذهنه فى تفهمه ، بل إنك إذا تناولته لا تحب أن تدعه حتى تتمه

بيد أنى أحب أن أشير إلى بعض هنات ما أحسبها تنال من شخصية الكتاب إلا بمقدار ما ينال من شخصية العالم الضليع بعض ما تضطره إليه العجلة من الهفوات . فلست أرى رأيه فى المثال الذى أورده فى صفحة ١٠ عن الحجاج وزياد بن عمرو العتكى ؛ وأسأل الأستاذ ما ذا عسى أن يكون موقف الحجاج لو أن زيادا انتقده عند الخليفة وأظهر معايبه ؟ كذلك لا أشاركه رأيه فى أن من أكبر عيوب نابليون شدة قسوته على النوع الانسانى . ثم إنه ذكر نابليون فى صفحة ٥٠ باسم ملك فرنسا وما كان نابليون ملكا فى يوم ما ؛ ثم هو يقول عن باستور إنه أعظم العلماء نفعاً للبشرية وهذا تعميم فى غير محله . هذا إلى أننى لم أفهم ما يرى إليه فى الفصل التاسع ، فأنه يخيل إلى أنه يعتبر نقص الانسان فى الخلقة كأنه أمر مستحب لا ينبغى أن يخشى المرء منه أو يتوقاه لأنه « ان نقص الانسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى » . وما أظن هذا يقع فى جميع الظروف والأحوال ؛ والأستاذ نفسه يشير فى أول الفصل إلى أن الشخص الناقص فى الخلقة كثيراً ما يضطر إلى التكلف والتظاهر وهما من أكبر ما يهدم الشخصية . وفيما عدا هذا فالكتاب جدير بأن ينتفع به شبابنا ، وهو من المؤلفات التى نشعر بأشد الحاجة إليها لنبنى بها الجيل الجديد ، ونطبع رجاله على الفضيلة ، ولذلك فأنى شديد الغبطة حين أقدمه إلى القراء

— ٣ —

أتكلم بعد ذلك عن كتاب « التربية الانكليزية » وهو كتاب آخر للأستاذ الابراشى أو هو دليل آخر على نشاطه العقلى ، ويقع فى نيف ومائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير محلى بأكثر من ثلاثين شكلاً توضيحياً

نهج الأستاذ فى هذا الكتاب طريقة العرض ، فموضوعه وصفيا أكثر منه نقديا ، يستطيع القارئ بمطالعته أن يلم بنظم التعليم فى إنجلترا والروح التى تسير تلك النظم . وأعتقد أن الأستاذ أحسن بذلك صنعاً ، فما أحوجنا فى مصر إلى مقارنة نظمنا المدرسية بغيرها من النظم فى البلاد المدنية ، إذ ما تزال تلك النظم عندنا مضطربة لا تكاد تتبين لها غاية ، بل لا تكاد تعرف على أى أساس وضعت . نعم إن لكل أمة ظروفها ولكل أمة وجهتها ، ولكن المقارنة على الرغم من ذلك خليقة بأن تكشف لنا كثيراً من عيوبنا وأن ترينا كثيرا من أوجه الاصلاح ، وعلى الخصوص فيما كان له مساس بالقواعد العامة للتربية والغرض منها مما لا تختلف فيه الأمم كلها اختلافاً كبيراً

تطالع فى هذا الكتاب مناهج التعليم الأولى والابتدائى والثانوى فى انجلترا فى المدارس الشعبية والحكومية ، وتتبين فيه الروح التى تسيطر على كل مدرسة ونظامها المحلى والداخلى ، وما يتعلق فيها بالأساتذة وطريقة اختيارهم ومرتباتهم ورؤساء المدارس واعمالهم ، كما تتبين الغاية التى يرمى اليها التعليم فى جملته ، فلقد أسهب الأستاذ فى الأمثلة وإيراد البيانات والجداول التى تقوم فيها الأرقام مقام الكلام ، ثم تطالع الى جانب ذلك فصولا فى الجامعات الانجليزية ونظمها وكليات المعلمين ، وإدارة التعليم فى البلاد والسلطات المحلية والرئيسية والتفتيش المدرسى وأعمال المفتشين . . . الخ

ولقد يقول بعض الناس ، وأراهم محقين فيما يقولون إن الكتابة عن التعليم ينبغى أن تكون كتابة نقدية تحليلية ، أو بعبارة أخرى ينبغى أن يعنى فيها بالناحية النظرية ويكتفى بضرب الأمثلة ، على نحو ما فعل صاحب « سر تقدم الانجليز السكسونيين » مثلا فى كلامه عن التربية فى انجلترا ، وكما فعل مؤلف هذا الكتاب الذى أحدثك عنه فى كلمته التى صدر بها الكتاب ، وهى « كلمة عامة عن العلم فى انجلترا » . بيد أنى أرى من جهة أخرى أن الطريقة الوصفية تضع أمام المشتغل بالتربية مادة درسه فيستخرج منها ما شاء من النظريات ، وهى فى ذاتها طريقة عملية يظهر أثرها قويا كما أسلفت بين نظم ونظم ، وبالمقارنة يهتدى الى كثير من الصواب . وكذلك أميل الى اعتبار طريقة الأستاذ ميزة كتابه بدل أن أراها عيباً فيه ، هذا ومما يحمد له أنه يشير بين حين وآخر الى ما يراه من أوجه النقص فى نظمنا ذاكرا ما يرى من أوجه الاصلاح والعلاج بقدر ما اتسع له المجال ؛ وحبذا لو رأينا له فى القريب العاجل كتابا عن « التعليم فى مصر » ينتقد لنا فيه ما يراه عندنا من خلل ونقص ويبسط لنا آراءه فيما يرى من سبل الاصلاح

الخفيف

العالم المسرحي والسينمائي

الجريمة والعقاب لدستوفسكي

على مسرح الأوبرا الملكية

لناقد «الرسالة» الفني

لم يكن ليـدور بخلدي يوم قرأت الترجمة الانجليزية للرواية القصصية كما وضعها دستوفسكي — وذلك منذ سنين بعيدة — أن هنالك من سيخاطر يوماً باقتباس مسرحية منها؛ فان من أصعب الأمور أن يعمد كاتب إلى هذا الاقتباس دون أن يحجم مرات خوف الفشل. فاقتباس مسرحية من رواية قصصية معناه تلخيصها، والتلخيص مهما كان وافياً يعطى صورة غير صحيحة عن الأصل، ولـكن جاستون باتيه المخرج الفرنسي المعروف لم يعبأ بكل هـذا واقتبسها وأخرجها على المسرح في باريس فلاقت من النجاح والاعجاب الشيء الكثير مما حدثتنا عنه الصحف الفرنسية

حقاً إنه لحدث عظيم أن تظهر على مسرح مصري رواية لدستوفسكي ذلك الكاتب الألماني العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق، ونقلت مؤلفاته إلى جميع اللغات الحية؛ وإنه لنصر عظيم للفرقة القومية أن تخطو خطوة جريئة كهذه وتفتتح موسمها الثاني بهذه الرواية أمام كبار رجال الدولة وشيوخ الأمة ونوابها، فتعلن فوز الفن العالي والأدب الرفيع

والرواية تقوم على التحليـل النفسي العميق، ولـكن في بساطة ووضوح يسهل تناولهما لمن كان على قليل من الثقافة؛ وهي خالية من العوامل المفاجئة والصـناعة التي اعتدنا أن نراها في المسرحيات الفرنسية. وفيها أوضح المؤلف غاية الرجل الروسي — في أيام القيصرية — من الحياة، فهو لا يرى لها غاية غير الألم على عكس الرجل الأوربي الذي يرى غاية الحياة السعادة فيسعى اليها. أما الروسي فيفتتن بالألم ويتكالب عليه، بل يسعى اليه جاهداً ليصهر في بوتقتـه روحاً لا يراها مؤدية رسالتها في الحياة إلا من طريق التفكير والعذاب

نقل المسرحية عن الفرنسية الشاعر الرقيق الدكتور ابراهيم ناجي، والممثل الأديب فتوح نشاطي، فجاءت الترجمة سلسلة سهلة مما يلائم موضوع القصة وبساطة الوسائل في معالجة المؤلف للموضوع، فكان اعجابنا بالترجمة قدر اعجابنا بالاقتباس

ملخص القصة

الطالب راسكو لينكوف شاب روسي نفور عبوس، شديد الـكبرياء على الرغم من طهارة قلبـه؛ تسممت روحه بفلسفة القوة التي سادت أوربا في نهاية القرن التاسع عشر، فخيل اليه أنه شخص ممتاز، وأنه باعتباره عبقرياً وضع نفسه فوق القانون. وكان يسائل نفسه: «لو كان نابليون قد صـادف في طريقه إلى المجد عوائق وعثرات، أ كان ينكص على عقبيه، أم يتقدم في جرأة ويزيلها؟»

كان الرد الطبيعي على هـذا التساؤل أن قتل مرابية عجوزاً ليثبت لنفسه أنه يمتاز على الناس أجمعين بقوة تتسامى عن الخضوع للقوانين، ففي رأيه أن هناك أناساً يحق لهم أن يعتدوا على الحياة الانسانية دون أي عقاب، ولـكنه ما انتهى من جريمته حتى أضحى فريسة آلام مبرحة، فشعر بوحدته القاسية بين الناس ولم يطق البقاء حتى مع أمه وأخته، وهجر الجميع ليختلف إلى الحانات يختلط فيها بالأوساط الوضيعة

وهناك يلتقي بسكير شيخ جعـل يقص على الطالب آلامه وكيف أن إدمانه قد جر على أسرته الوبال من مرض اضطرت معه ابنته أن تسقط في مهاوي العار لتقوم بأودهم، فيعطف الطالب على هذا المخلوق الملوث. وتدهم هذا السكير عربة فيقضي نحبه، ويتعرف الطالب إلى الأسرة البائسة ويساعدها بما تملك يده ويحنو على الفتاة الساقطة التي تقوضت حياتها مثله ويرى فيها ملجأه الوحيد في هذا العالم

وكان (بوفير) قاضي التحقيق الذي عهدت اليه قضية مقتل المرابية يشك في الطالب ، وتشاء المصادفات أن يطلع على مقال بتوقيع راسكولنيكوف يشير فيه الى أن هناك طبقة ممتازة من الناس تملك حق ارتكاب الجرائم ، فيلاحقه في حذر ودهاء ، فهو لايملك برهاناً ماديا ، لأن يقظة الطالب تفسد عليه كل شيء

وهكذا لا تستطيع العدالة أن تقتص من القاتل ، فهل ينجو من يقتل نفساً بشرية ؟ ! لا ، إنه الضمير يهيب في نفسه ويعذبه فتهن أعصابه ولا يستطيع أن يحتمل هذه الحياة ، فيسير الى الفتاة ليلقي على منكبيها هـذا السر الذي أنقض ظهره وعجز عن احتماله ، فترى الفتاة ان الانسان وإن انتصر على عدالة الناس إلا أن في أعماق ضميره عـدالة أسمى وأقسى لا يخفت لهـا صوت حتى يكفر عن جريمته ، فيستمع لها ويخرج من بيتها فيلتقي قاضي التحقيق فيناديه قائلاً « بوفير . انتصر » ويركع أمام أكثر الأفراد الذين ظهروا في المسرحية ويعترف بجريمته

الاخراج والتمثيل

جهود كبيرة ومصروفات باهظة جعلت الرواية مظاهرة إخراج هائلة . ولقد أعجبنا بالمناظر كل إعجاب ، كما أعجبنا بالتاج القيصري الذي يعلو الستار الحريري الجميل الذي يحمل الشعار القيصري ويفصل بين المنظر والآخر ، والحق أن الجهد الذي بذله الأستاذ عزيز عيد يستحق الشكر

ولـكن ، هل فـكر المخرج قليلا في أن طريقته هـذه في الاخراج تتعارض وأهم خصائص الفن الروسي وهي البساطة ؟

إن تعـدد المناظر وإصرار المخرج على إظهارها كاملة البناء جعل التمثيل يمتد بالنظارة حتى منتصف الساعة الثانية صباحا ، فكنا نشهد تمثيل المنظر في وقت قصير ونبقى طويلاً وطويلاً جداً في انتظار تهيئة المنظر الذي يليه ، وهكذا كان يضيع الأثر الذي تركه التمثيل من ملل الانتظار الطويل . ولقد كان « المايسترو » المسكين الذي يدير فرقة الموسيقى يعيد ويكرر القطوعة الواحدة حتى يشغل النظارة فأرهق وضاعت آثار قطعه التي تعب كثيرا في إعدادها ، ولولا ذلك لاستسغناها وصفقنا لـكل مقطوعة منها

إن أهم واجبات المخرج أن يعمل على تركيز إخراجه حتى تأتي الرواية والتمثيل بالأثر المطلوب ، لا أن يتركها هكذا مفككة ؛ وأظن أنه رأى معنا إخراج مملت وروميو وجوليت من الفرقة الايرلندية التي عملت في الموسم الماضي على مسرح الأوبرا . لقد كانت كما قلت في حـديث سابق على صفحات « الرسالة » تعتمد على منظر واحد وتستعين بستار صغير وبالضوء في تبديل المنظر ، وهذا لا يستغرق بضع ثوان . ولو أن الأستاذ عزيز عيد عمد الى هذه الطريقة أو قارب بينها وبين طريقته لـما اضطر الى حذف أربعـة مناظر حتى لا يتأخر التمثيل عن منتصف الثانية صباحا . فهل للمخرج أن يترفق بالجمهور ؟ !

تحدث معي أحد المعجبين بالأستاذ عزيز مؤيداً وجهة نظره في عرض المناظر في بناء كامل فهو يراها خير من استعمال الستائر مع « الفوندو » ، وإني أخالف هذا الرأي ، فان استخدام الطريقة الثانية أجل إذ هي تحمل الجمهور أكثر انتباها وأكثر استخداما لعقله من الطريقة الأولى ، وهذه الطريقة هي طريقة بدائية . ولو أنك عهدت الى ممثل مبتـدىء باعداد مناظر رواية كبيرة لما فكر إلا في اختيار مناظر كاملة البناء لـكل فصل وكل منظر من مناظر الرواية . أما الطريقة الأخرى فلا يلجأ اليها إلا الفنان القوي الذي يتغلب على الصعاب ويلجأ إلى كل جديد ؛ واعتقادي في عزيز أنه يستطيع هذا ، ولـكني لا أدري لم لا يفعل ؟

والاضاءة عادية تحتاج إلى بعض العناية ؛ ويجب على المخرج أن يستخدمها أكثر من ذلك لتساعد ممثليه على قوة التعبير . وهناك بعض الاضطراب في إضاءة منظر القـابر ولا أظنه إلا خطأ غير مقصود نتيجة الاسراع ، وأرجو أن يتلافاه رجال المسرح كما أرجو ألا يضاء الستار الحريري بضوء قوي صارخ بعد المناظر المؤثرة لأن هذا الضوء يضيع الأثر الحزين من النفوس

لا يتسع لي المجال للتحدث عن التمثيل بافاضة ، وأكتفي اليوم بأن أذكر أن جميع الأفراد قد أدوا جهوداً كبيرة في سبيل نجاح هذه الرواية ؛ ولـكني أحب أن ألفت نظر الأستاذ جورج أبيض إلى أنه لم يكن مستذكراً دوره ، فكان صوت الملقن يرتفع لاسماعه فيصل إلينا في القاعد الخلفية ؛ وموقفه كذلك مع عباس فارس الذي يعترف له بأنه القاتل لا يحتاج إلى هذه الثورة وهذا الالقاء التراجيدي . والآنسة زوزو الحكيم عليها أن تعنى بالالقاء ومخارج الألفاظ وبتلوين جملها ؛ أما الآنسة أمينة نور الدين فـكانت تلقي جملها في خشونة تشبه خشونة الرجال ، وأرجو أن تترفق بالنظارة قليلاً وتخفف من حدتها ؟

يوسف تادرس

4 me Année, No. 179

Lundi - 7 - 12 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٧٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ رمضان سنة ١٣٥٥ — ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــــدد

٥٦ ـ ٧

بعد المعاهدة

استقلال اللغـــة

استقلال اللغة مظهر استقلال الذات ؛ ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة ، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأى والهوى والثقافة . فإذا سمعت امرأً يتكلم غير لغته من دون ضرورة ، أو يلهج غير لهجته من دون مناسبة ، فلا يخامِرْك شك فى أنه كذلك فى خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله . وإذا رأيت أمة تدير فى أفواهها ألسنة الأمم ، وتستعير فى أعمالها دلالات الناس ، فلا تتردد فى الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفَّق . وإذا شق عليك أن ترى فى الأرض هذه الأمة ، أو تسمع فى الأمة ذلك الإنسان ، فتحامل على شعورك وجل جولة فى إحدى عواصم مصر . فهنا أو هناك تجد فى معارض التجارة ، ودور الصناعة ، وبيوت المال ، وأماكن اللهو ، خليطا من الناس كجيش الدمُسْتُق (١)

تجمَّع فيـه كل لَسْنٍ وأمة ... فما يُفهِم الحدَّاثَ إلا التراجم

(١) الدمستق لقب قائد جيش الروم . والبيت للمتنبى فى وصف معركة (الحدث) وكانت بين سيف الدولة وبين الروم

تدخل متجرا من المتاجر، أو مصرفا من المصارف، أو مقصفا من المقاصف، أو شركة من الشركات، فلا تقرأ فى الاعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبيـــة، ولا تسمع فى المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية، فإذا حرصت على أن تتفاهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها، تضاءلتَ فى رأى مخاطبك فينظر إليك بشـطر عينه، ويكلمك ببعض شفته، وربمـا صغرت وصغرت حتى يستسرّ عليه مرآك فلا يحفلك. وتغشى قصرا من قصور الأمراء أو داراً من دور الكبراء، فتسمع النادين يتطارحون الحديث بالفرنسية أو التركية، فإذا شاركتهم فيه بلغتك، وقرُّوا آذانهم عن سماعك، لأنك نقلت الحديث الخطير إلى لغة السوقة، وأنزلت البهو الوثير إلى مجلس العـامة، وتلقى أبناء (الذوات) فى المشارب والملاعب والأندية، فتسمعهم يتراطنون بلغة مشوهة التأليف، مدخولة الوضع، بغيضـــة اللهجة، من نحو قولهم: (mon cher يا incroyable ودا شى.).(je ne peux pas أطلع l'escalier) ولو وجدت فى هذا الخلط تظرفا من أولئك الأيفاع المدلّلين الذين نشَّأتهم المهود الأرستقراطية، وثقَّفتهم المدارس الأجنبية، فإنك لا تجد فيه غير حَمى الروح إذا تكلفه من درج فى البيئات الشعبية، وخرج من المعاهد الدينية. فقد حدثوا أن شيخاً من شيوخ اللغة ومعلميها أوفدته وزارة المعارف إلى انجلترا ليلم بطرائق التعليم ومذاهب التربية؛ فمكث تحت ضباب لندن عاما أو عامين ثم عاد، فإذا لسانه قد اعوج وسَمْتُه قد تبـدل! يكلمك فتسمع من وراء (البيبة) كلاما عربى الحروف سكسونى المخارج! فاذا تمضمض بالجملة أو الجملتين فى المعنى المألوف توقف وتأفف، ثم راح يزاوج فى الفقرة الواحدة بين العربيـة والانجليزية، لأن العربية أصبحت أمام الخاطر الدفاق، والخيال السباق، والمعانى الجديدة، أعجز من أن تسعف اللسان وتجارى البيان وتحدد الفـكرة!

كل ذلك كنا نراه فنشعر بالغربة وسط الدار، وبالذلة بين الأهل، وبالتبعية تحت العَلم. وكل ذلك كنا نسمعه فنحمل الآذان على مكروهه، ونروض الأنفس على أذاه، لأن أمورنا كانت فى كل ناحية من نواحى الحياة شذوذا لا يستقيم فى عقل، ونشوزا لا يتسق فى شعور. فلما أذن الله لوجودنا أن يتميز، ولاستقلالنا أن يتم، كان من المحتوم على أولياء العهد الجديد أن يعالجوا الضعف الذى يوهن وثبات العزة، ويزيلوا النقص الذى يعوق خطوات الـكمال

* * *

تريد اللغة العربية من أولياء العهد الجديد أن يطردوا الاحتلال اللغوى من الشركات والبنوك كما طردته تركيا، فيمدوا لهـا أسباب السيادة، ويهيئوا للعاطلين وسائل العمل، ويضمنوا للأهلين صحة التعامل، ويمصروا هذه البيوت التى تطاول الحكومة فى النفوذ، وتجابه الأمة بالعجز، ويشتمل كل منهـا على دولة وسفارة وامتياز. تريد العربية أن تكون لسان العلم فى المدارس الأجنبية، وفى كليات الجامعة المصرية، فإن التعليم باللغـة الأوربية ينقل بعض الأفراد إلى العلم، ولكن التعليم باللغة الوطنية ينقل كل العلم إلى الأمة. وما دام للغة مجمع لغوى قوى يساعدها على النمو، فلن يُخشى عليها فى الطريق قصور ولا فشل

تريد العربية أن تأخذ مكانها الشرعى فى المحاكم المختلطة ريثما تدك قواعدَها المعاهدة. فإن من أعجب الأمور أن يضيع القانون بين قوم يعيشون بالقانون، ويزهق العدل فى دار أقيمت للعدل. وقد كان الأغضاء على ذلك يحمل على مصانعة القوة ومخادعة السياسة، ولكنه اليوم لا يُحمَل إلا على تفريط العجز وترويض الاستكانة

كذلك تريد العربية أن تطهر من شوائب التركية فى الدواوين والقوانين والمدارس والجيش، فلا تحب أن يداخلها بعد اليوم باشكاتب ونوبتجى وبوستجى وقلفة وطابور وبكخانة ويوزباشى وصاغ وأميرالاى الخ. ولنا فيما يعمل الترك والفرس بالعربية مَثلٌ ماثل ودافع محرض

ذلك ما تريده اللغة من الحكومة. أما ما تريده من الأمة فذلك شىء تلهمه العزة وتمليه الـكرامة؛ فإن لغة المرء تاريخه وذاته؛ فالغض منها غض منه، والتفضيل عليها تفضيل عليه، ولا يرضى لنفسه الضعة والصَّغار إلا مَهِين أو عاجز

احمد حسن الزيات

٥ـ القلب المسكين (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى ؛ وجعل ينظر الى هذه الفتّانة تمثّل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعتْ ولمعتْ فبدتْ له مُفسرةً في هذه الغلائل غلائلُ العُرْس ؛ وما غلائل العرس ؟

إنها تلك الثيابُ التي تكسو لابستَها إلى ساعة فقط . . . ثياب أجمل ما فيها أنها تقدم الجمال إلى الحب ، فأزهى ألوانها اللون المشرقُ من روح لا بستها ، وأسطعُ الأنوار عليها النورُ المنبعث من فرح قلبين

تلك الثيابُ التي تكون سكباً من خالص الحرير ورفيع الخز ، وحين تلبسها مثلُ هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير ، إذ تعلم أن الحرير ما تحتها . . .

ثم تنهد المسكين وقال : أفهمت ؟

قلت : فهمتُ ماذا ؟

قال : هذا هو انتقامُها

قلت : يا عجبا ! أتريدها في ثياب راهبة ؛ مُكبكَبة فيها كما أُلقيت البضاعة في غرارة ، بين سوادٍ هو شعارُ الحداد على الأنوثة الهالكة ، وبياض هو شعار الكفن لهذه الأنوثة ؟

قال : أنت لا تعرفها ؛ إن الرواية التي تُمثّل فيها بين الروح والجسم ، هي التي احتاجت إلى هذا الفصل يقوَى به المعنى ؛ وكل عاشقة فمشقتُها هو الرواية التي تمثّل فيها ، يؤلفها هذا المؤلفُ الذي اسمه الحب ؛ ولا تدرى هي ماذا يصنع وماذا يؤلف ، غير أنه لا يفتأ يؤلف ويضع وينقّح كما تتنزّل به الحالُ بعد الحال ، وكما نعرض به المصادفة بعد المصادفة ؛ وعليها هي أن تمثل . . .

قلت : فهذا ؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاما ؟

قال : إن الأفكار أشياء حقيقية ، ولو كُشف لك الجو هذه الساعة لرأيته مسطوراً عبارات عباراتٍ كأنه مقالة جريدة .

هذا الفصل حوارٌ طويل في الهموم والآلام ورقة الشوق وتهالك الصّبوة ؛ لو كُتب له عنوان لكان عنوانه هكذا : ما أشهاها وما أحظاها ! إن الهواء بين كل عاشقين متقابلين يأخذ ويعطى . . .

قلت : يا عدو نفسه ما أعجبَ ما تُدقّق . لقد أدركتُ الآن أن المرأة تتسلّح بما شاءت لا من أجل أن تدافع ، ولكن لتزيد أسلحتَها في سلاح من تحبه فتزيده قوةً على قهرها وإخضاعها . . .

* * *

أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحدُّها فهي تظهر كيفما اتفق ، مرسَلةً إرسالاً في اللّفتَة والحركة والهيئة والقَومة والقَعدة ، وهي من علمتَ : امرأةٌ تعيش للحقائق ، وبين الحقائق ، ككل ذى صنعة في صنعته ، فكانت في تماديها خطراً أيَّ خطر على صاحب القلب المسكين ، تمثل شيئاً لا أدرى أهو ظاهر بخفائه أم هو خافٍ بظهوره ؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل في حسابه ، فكانت الخبيثة الماجنة كأنها تسكره بسكر حقيقى غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر .

وكانت لذهنه المتخيِّل كالسحابة المتلألئة بالبرق ؛ تومِض كلَّ لحظة بأنوار بعد أنوار ، وبين الفترة والفترة ترمى الصاعقة . . .

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب ؛ فلقد أيقنتُ حينئذ أن الحب إن هو إلا الغريزةُ البهيمية بعينها محاولةً أن تكون شيئا له وجود فنى إلى وجوده الطبيعى ، فهو مصيبتان في واحدة ، وكل عمله أن يجعل اللذةَ ألذَّ ، والألم أشدَّ ، والقلةَ كثرة ، والكثرة أكثر ، وما هو نهاية كأنه لا نهاية

هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها ، أما الآن فأنها تقتحم الحدودَ وتغزو غزوها وتمتلك

يا لَسحر الحب من سِحر ! كل ما في الطبيعة من جمال تظهره الطبيعةُ لعاشقها في إحدى صور الفهم . أما الحبيب الجميل فهو وحده الذي يظهر لعاشقه في كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفة متناقضة ، فى ساعة يكون العقل ، وفى ساعة يكون الجنون

(١) نرجح أن يكون القراء قد أدركوا الغرض من كتابة هذه المقالات على هذا السرد الذى وصفته لنا إحدى الأديبات بأن « فيه أشياء مادية » . فنحن نرمى إلى تصوير الغريزة ثائرة مهتاجة بكل أسباب الثورة والاهتياج ولكنها مكفوحة بأسباب أخرى من الدين والعرف والمروءة وفلسفة العقل

بالسحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشــية الانسان الأول الـكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله وعصمته ؛ فسَنَحتْ له كما يسنح الصيد للصائد يحمل فى جسمه لحمه الشهى... وتركت شعوره جائماً إلى محاسنها بمثل جوع المعِدة... وبرزت له صريحةً كما هى ، ولما هى ، ومن حيث أنها هى هى ؛ وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة

آه من (هى) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب ! وآه من (هى) إذا خرجت هذه الـكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد !

إن فى كل امرأة ... امرأة يقال لها (هى) باعتبار الضمير للتأنيث فقط كما يعتبر فى الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هذه المؤنثات التى يرجع عليها هــذا الضمير ؛ ولـكن (هى) المفردة فى الـكون كله لا توجد فى النســاء إلا حين يوجد لها (هو) ....

***

أما أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، قد كابدت من شدة الحب وإفراط الوجد ما يملأ قلبين مسكينين لا قلباً واحدا ؛ وكانت لى (هى) من الهيّات عانيت فيهــا الحبَّ والألم دهراً طويلاً ؛ وقد ذهبتْ بى فى هواها كل مذهب إلا مذهباً يحلُّ حراماً ، أو مذهباً يُخلُّ بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشىء السامى فى الحب هو ألا يخرج من العاشق مجرم

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجلُ الفصلَ بين الحب من أجل جمال الأنثى يظهر عليها ، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر فى جمالها . فهو فى الأولى يشهد الالاهيــةَ فى إبداعها السامى الجميل . وفى الأخرى لا يرى غير البشرية فى حيوانيتّها المتجملة ...

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الـكبرى لهذا الجمال الأزلى الذى يملأ العالم — قد جملت حنين العشق فى قلب الانسان هو أول أمثلتها العملية فى تعليمه الحنين اليها إن شاء أن يتعلم . فكما يحب انسانٌ بروح الشهوة يحب انسان آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة (تلطيف السر) أى جعله مستعدا للتوجه الى النور والحق والخير ، وقد عدُّوا فيما يعين عليه الفكر الدقيق والعشق العفيف

وكذلك تبينتْ مما علّمنى الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه ثقلَ معانى الفردوس وعرَضها لـكل آدم وحواء يمثلان الرواية . . فأذا « قطفا الثمرة » طُردا من معانى الجنة طردا كهوَ من الجنة (١) ، وهبطا بعد ذلك من أخيـلة السماء الى حقائق الأرض

نعم هو الحب شىء واحد فى كل عاشق لـكل جميل ، غير أن الفرق بين أهله يكون فى جمال العمل أو قبح العمل . وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المـادة الواحدة ؛ فالحب فى بعضها يكون قوة وفى بعضها يكون ضعفا ؛ وفى نفس يكون الهوى حيوانياً يُراكِم الظلمة على الظلمة فى الحياة ، وفى أخرى يكون روحانياً يكشف الظلام عن الحياة

والمعجزة فى هذا الانسان الضعيف أن له مع طبيعة كل شىء طبيعةَ الاحساس به ، فهو مستطيعٌ أن يجد لذةَ نفسه فى الألم ، قادر على أن يأخذ هبة من معانى الحرمان . وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو ، وهى على أتمها وأقواها فى عظماء النفوس حتى لكأن الأشياء تأتى هؤلاء العظماء سائلةً : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضمّه فى نفســه بين شيئين : الخلق الرفيع والحـكمة الناضجة ، فأن لم يستطع فلا أقل من شيئين الحلال والحرام (٢)

***

أما أنا الذى يقص للقراء هــذه القصة ، أعرف هذا كله ، وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين : إن ظهور صاحبته فى فصل العروس هو انتقامها ، حاصرت عيناها عينيه ، وزحفت معانيها على معانيه ، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة فى معركة حبها ، وبكلمة واحدة : كأنمــا لبست هذه الثياب لتظهر له بلا ثياب ...

وأردت أن أعيبها بمــا صنعت نفسها له ، وأن أعيبه هو بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت فى غير طائل ولا جدوى ، فما كنت إلا كالذى يعيب الورد بقوله : يا عطر الشذى ويا أحمر الخدين

(١) أى طردا كطرد من الجنة

(٢) بسطنا هذا المعنى فى المقالة الثانية من هذه المقالات على وجه آخر

وقد أمسك عن جوابي وكانت محاسنها تجعل كلماتي شوهاء ، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالي مرة ، وكانت ثياب العروس وهي تزف به ألفاظي في ثياب العجوز المطلقة . وكلما غاضبته مع نفسه أوقعت هي الصلح بينه وبين نفسه

والعجيبُ المجيبُ في هـذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام ؛ ليس إلا هذا ولا يكون أبداً إلا هذا . فمهما أعطيتَ من جدل فأقناعك المحب المستهام كأقناعك النائم المستَثْقَل [1] ؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إياك ، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تعطى وما تمنع

***

ثم . . ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت ضحكت بحزنٍ حُزنَ [2] الذي يسخر من حقيقة لأنه يتألم ن حقيقة غيرها . . وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصورة ، للخير الذي اعتدى عليه الشر فأحاله ؛ والارادة التي أكرهها القدر فأخضعها ؛ والعفة المسكينة التي أذلتها ضرورة الحياة ؛ والفضيلة المغلوبة التي حيل بينها وبين أن تكون فضيلة وياما كان أجلها ناظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك ؛ تتنهد ملامح وجهها وفمها يبتسم

كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداه على وجهها بلطف ورقة ؛ كان يسأل إنساناً : ألا تحل هـذه العقدة ... ؟

وانقضى التمثيل وتناهض الناس

أما صاحب القلب المسكين ؟

(يتبع) طنطا مصطفى صادق الرافعي

إلى ا . ج . بدمشق : يابني قل لذلك الذي يسمى نفسه فقيها : إن كتب الفقه لو قالت لله انخدع لحيلة الفقهاء في تحليل ما حرمت ، لكانت كتب الكفر لا كتب الفقه ...

وسنكتب يوماً إن شاء الله مقالة (العمائم) فان الاسلام مبتلى بهؤلاء الذين يأكلون في بطونهم فقها ... الرافعي

(١) بفتح القاف أي الذي أثقله النوم

(٢) حزن الثانية في هذا التركيب منصوبة على أنها مفعول مطلق

تطور خطير في السياسة الدولية

هل تقترب نذر الحرب

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تتابعت الحوادث الدولية في الأسبوعين الأخيرين بسرعة ، وبدت في الأفق أزمات واحتمالات مزعجة يرى فيها المتشائمون نذر الحرب يجتمع وتهيء الأسباب للاصطدام الخطر ؛ ففي أسبانيا تتطور الحوادث تطوراً واضحاً ، إذ يقف هجوم الثوار على مدريد ، بعد أن كادت تسقط في أيديهم ، وترجح قوات الجمهوريين التي تؤيدها نجدات سوفيتية قوية ؛ وتسارع إيطاليا وألمانيا إلى الاعتراف بحكومة برجوس (حكومة الثوار) لكي تشد أزر الجنرال فرانكو زعيم الثورة من الوجهة المنوية ، ولكي تسبغ على حكومته صفة الدولة المحاربة فيسهل عليه تلقي النجدات الخارجية بصورة أوسع ؛ وقد ظهر أثر هـذا التأييد واضحاً في تصرفات الجنرال فرانكو الأخيرة ؛ فقد أعلن أنه سيفرض الحصار البحري على شواطيء اسبانيا الشرقية والشمالية ، وأنه سيغلق ثغور اسبانيا التي بأيدي الجمهوريين أعني برشلونه وبلنسية واليقنت ومالقة ، وأن سفنه ستطلق النار على أية سفينة أجنبية تدخل هـذه المياه ؛ ووجه الجنرال فرانكو أيضاً إلى فرنسا إنذاراً بطلب الذهب الاسباني الذي سحبه الجمهوريون من بنك اسبانيا ، وأودعوه في باريس ؛ ومع أن الجنرال فرانكو لا يملك من الوحدات البحرية سوى عدة طرادات صغيرة لا تستطيع أن تضطلع بمثل هذا الحصار الضخم ، فان المفهوم أنه سيعول في تنفيذ وعيده على يد الغواصات الايطالية والألمانية ؛ وقد ظهر أثر هـذه المعاونة البحرية سريعاً في إصابة الطراد الجمهوري « سيرفانتيس » من مقذوف بحري أطلقته عليه غواصة أجنبية ؛ على أن الجنرال فرانكو لم يلبث إزاء موقف إنكلترا وتشددها في عدم اعتبار صفة شرعية لحكومة الثوار ، ومطالبتها بألا يتعدى الحصار المياه القومية ، أعني مدى الثلاثة أميال المقررة في القانون الدولي ، وأن تعين منطقة محايدة لرسو السفن الأجنبية ، أن اضطر إلى تعديل موقفه والتسليم بهذه المطالب التي أبدتها

إنكلترا بإجراء بعض المناورات البحرية الضخمة فى المياه الاسبانية

وظاهر من هذه الخطوة التى اتخذها الجنرال فرانكو ، بتحريض الدول الفاشستية أعنى إيطاليا وألمانيا وتأييدها المعنوى والمادى ، أنه يقصد وقف المساعدات القوية التى تتلقاها الحكومة الجمهورية من روسيا السوفيتية عن طريق برشلونه وبلنسية ، ومطاردة السفن الروسية التى ترد بلا انقطاع إلى هذه المياه مشحونة بالذخائر والمؤن ، وهى معاونة كان لها أكبر الأثر فى إحباط هجوم الثوار على مدريد ، وفشل خطط الجنرال فرانكو فشلاً قد يؤدى إلى انهيار الثورة بصورة نهائية ؛ وظاهر أيضاً أن فشل الجنرال فرانكو إنما هو فشل لألمانيا وإيطاليا اللتان تؤيدانه منذ البداية وتمدانه بكل أنواع المعاونة فى البر والبحر والهواء ؛ ولهذا بادرت الدولتان الفاشستيان إلى الاعتراف بحكومة برجوس ستراً لهذا الفشل ، وإلى دفع الجنرال فرانكو إلى إعلان الحصر البحرى وتأييده بإرسال الغواصات إلى المياه الاسبانية لمحاولة اعتراض السفن الروسية أو الأجنبية الأخرى التى تحمل الذخائر والمؤن للحكومة الجمهورية

بيد أنه يشك كثيراً فى أن يكون لهذا الاجراء أثره المنشود، ذلك لأن روسيا السوفيتية أبدت أنها لن تعبأ به ، وأنها ستقاوم العنف بالعنف إذا اعتدى على سفنها ، وما زالت السفن الروسية ترد إلى برشلونة وبلنسية تحرسها وحدات بحرية روسية ؛ وهذا مما يجعل الموقف فى هذه المياه فى منتهى الدقة والخطورة خصوصاً بعد أن ثبت وجود بعض القوات الايطالية فى جزيرة ميورقة تجاه بلنسية ، ووجود بعض الطرادات والغواصات الايطالية فى مياهها ، هذا فضلاً عن أن انكلترا تهتم بالحالة فى تلك المياه اهتماماً شديداً وتجوسها بعض وحدات أسطولها ، وكذلك فرنسا ، فأن وقوع هذه المياه على مقربة من شواطئها ، ثم فى طريق الجزائر يحملها على أن تشاطر انكلترا اهتمامها ، وأن ترقب الحالة مع الاستعداد لكل طارئ

وهكذا نرى هذه المعركة التى تضطرم فى الظاهر فى أسبانيا بين الجمهورية وخصومها تبدو فى صورتها الحقيقية صراعاً بين الفاشستية والديموقراطية حسبما بينا من قبل غير مرة ؛ وهى تبدو اليوم فى هذه الصورة واضحة تؤيدها الأدلة المادية الظاهرة ، فمن وراء الجنرال فرانكو تعمل إيطاليا وألمانيا والبرتغال بصورة منظمة مستمرة ؛ وتعمل روسيا السوفيتية لمعاونة حكومة مدريد الجمهورية بكل ما وسعت ، وتؤيدها فرنسا وانكلترا بصورة مستترة ؛ وقد شرحنا من قبل ما ترتبه الدول الفاشستية من المطامع والأمانى على إضرام نار الحرب الأهلية فى أسبانيا بهذه الصورة ، والسعى بواسطة الجنرال فرانكو إلى إقامة حكومة فاشستية فى أسبانيا تعضد نفوذ إيطاليا وألمانيا فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، وتحقق لهما بعض المغانم الاستعمارية فى جزر البليار والكنارى ، وربما فى مراكش الاسبانية ؛ وبينا أيضاً ما يحمل الدول الديموقراطية أعنى انكلترا وفرنسا على مقاومة هذه المحاولة وإحباطها ؛ وإذا كانت الدولتان الديموقراطيتان لا تعملان لمعاونة أسبانيا بصورة ظاهرة ، فأنهما تعتمدان فى هذه المعاونة على روسيا ، وتؤيدان مساعيها فى هذا السبيل ؛ وهناك بالأخص نقطة تلفت النظر ؛ وهى أن الأسطول الروسى الذى يحمل المؤن والذخيرة إلى حكومة مدريد يسير بعيداً عن قواعده لنجدة الجمهوريين ، ويغامر بالظهور فى مياه أجنبية ، وقد يتعرض لاعتداء الغواصات الألمانية والايطالية ؛ ولكن لا ريب فى أن روسيا لا تقدم على مثل هذه المغامرة إلا وهى معتمدة على تفاهمها مع انكلترا ، وعلى حماية الأسطول الانكليزى وإمكان استخدام المياه الفرنسية لحماية سفنها وقت الخطر

وقد لاح مدى لحظة أن قوات الجنرال فرانكو تكاد تكتسح كل شىء فى طريقها وتستولى على مدريد بأيسر أمر ؛ ولكن الحوادث تطورت بسرعة وتحطم هجوم الثوار على مدريد، وبدا التفوق فى جانب الجمهوريين واضحا ، وربما كان هذا الفشل مقدمة انهيار الثورة الاسبانية ، والخطط الفاشستية التى تؤيدها

* * *

على أن هناك غير حوادث أسبانيا عدة تطورات وحوادث دولية خطيرة أخرى زادت فى حرج الموقف ودقته . ذلك أن السياسة الفاشستية نشطت أخيراً إلى مضاعفة جهودها فى سبيل تقوية جبهتها ضد أوربا الغربية بوجه عام ، وروسيا السوفيتية بوجه خاص ؛ فبعد أن عقدت ألمانيا وإيطاليا تحالفهما المعروف ضد « البلشفية » ، وبعد أن اتفقتا على تقسيم أوربا الوسطى إلى منطقتى نفوذ سياسى واقتصادى ، تتعاونان فى استغلالها وتوجيهها مع اختصاص ألمانيا بالعمل فى تشيكوسلوفاكيا ، واختصاص إيطاليا بالعمل فى المجر ، واشترا كهما معاً فى العمل فى النمسا ، فاجأت ألمانيا العالم بعقدها تحالفا مع اليابان اتخذت

مكافحة البلشفية والثورة العالمية التى تعمل روسيا لاضرامها ستاراً له ، وهذه الحجة الظاهرة ، أعنى مكافحة البلشفية هو الشعار الذى تستتر به ألمـانيا فى سياستها الحالية وتقرنه بالتهويل فى وصف الخطر البلشفى ووجوب اتحاد أمم العالم على مقاومته وإنقاذ المدنية من شره ؛ بيد أنه يظن أن الاتفاق الألمانى اليابانى ، رغم ما نشر من نصوصه ، يبطن تحالفاً عسكرياً سرياً ، ويقصد إلى غايات خطيرة أخرى تتلخص فى تعاون اليابان وألمانيا على مقاومة روسيا وتهديدها فى الشرق الأقصى ، وفى أوربا ؛ وتدعيم الخطط الاستعمارية اليابانية فى الصين والشرق الأقصى ، نظير تدعيم الخطط الألمـانية العسكرية والاستعمارية فى شرق أوربا وفى غربها إذا اقتضى الأمر ؛ وبعبارة أخرى يمكن اعتبار التحالف الألمـانى اليابانى رداً على التحالف الفرنسى الروسى الذى اعتبرته ألمـانيا موجها ضدها .

وقد كان لعقد هذا التحالف الألمانى اليابانى وقع شديد فى أوربا وأمريكا معاً ؛ ومع ما قدمته ألمانيا واليابان من الايضاحات لتخفيف وقع التحالف ، فأن الغاية من عقده لم تخف على أحد ؛ ولم تقتنع الدول الكبرى بصحة الزعم الذى اتخذ ستاراً لعقده ، وهو التعاون على مكافحة البلشفية ، لأن البلشفية نظام داخلى يخص روسيا وحدها ، وفى وسع الدول التى تخشى من تسربه إليها أن تقاومه داخل أرضها بوسائلها الخاصة ؛ ولدى ألمانيا واليابان أشد الوسائل الداخلية لمكافحة البلشفية وغيرها من الأنظمة غير المرغوب فيها ؛ وترى انكلترا وفرنسا وأمريكا فى عقد هذا التحالف خطراً على مصالحها فى الشرق الأقصى ، لأنه يعاون اليابان فى تنفيذ خطتها لاستعمار الصين الجنوبية ، ويقوى مركزها فى المحيط الهادى على حساب أمريكا وانكلترا ، وقد كانت هذه الدول ترى فى التوازن اليـابانى الروسى فى الشرق الأقصى نوعا من الضمان لمصالحها ، فاذا قضى على هذا التوازن ، واستطاعت اليابان أن تطلق يدها فى شؤون الشرق الأقصى اعتمادا على انشغال روسيا بحماية حدودها الغربية من مطامع ألمـانيا ، أصبح التفوق اليابانى خطرا على مصالح الدول الغربيـــة وسيادة أمريكا فى المحيط الهادى

والظاهر أن ألمـانيا تحاول أن تحشد فى هذه الجبهة الجديدة كل الدول التى تميل الى التعاون معها وفى مقدمتها ايطاليا ، وهى تعمل لذلك الغرض بنشاط مضاعف ؛ ومن المشكوك فيه أن تستطيع المـانيا أن تحشد فى تلك الجبهة الشرقية دولا أخرى ، وإن كانت إيطاليا تميل الى تأييـدها من الوجهة المعنوية ، لأن ايطاليا مع صفتها الفاشستية العميقة لا تذهب فى خصومة روسيا الى الحد الذى تذهب اليه ألمـانيا ، والواقع أنه إذا كانت المانيا قد استطاعت بتحالفها مع اليابان أن تقوى مركزها ضد روسيا السوفيتية فأنها قد أثارت بعقده فى نفس الوقت شكوكا ومخاوف جديدة ، ففرنسا وروسيا تريان فيه خطرا جديدا عليهما يجب أن يقابل بمضاعفة الجهود فى التسلح والاستعداد ، وانكلترا وأمريكا تتوجسان شرا من تطور الأحوال فى الشرق الأقصى تطوراً قد يضطرهما الى العمل لصون مصالحهما ؛ فهذه الظروف مع ازدياد الشك فى نيات ألمانيا ومطامعها العسكرية والاستعمارية يثير حول سياستها ريباً ما كان أغناها عن إثارتها ، ويجعل مزايا التحالف الجديد ضئيلة بالقياس الى ما أحدثه من رد فعل عميق

هذا ، ومن جهة أخرى فأنه مهما كانت مزايا هذا التحالف من الوجهة العسكرية ، فان الدول التى تقصدها ألمـانيا بعقده ، وهى فرنسا وروسيا ، هما الآن أعظم الدول استعدادا من الوجهة العسكرية ، وكلتاهما تتمتع بتنظيمات دفاعية وموارد عسكرية هائلة ، ومهما قيل فى استعداد ألمـانيا الحربى من الوجهة الفنية ، فانها فقيرة فى المـال والمواد الأولية ؛ وفرنسا تعنى بمضاعفة جهودها فى التسلح والدفاع ولا سيما فى الأشهر الأخيرة التى ظهرت فيها المـانيا بمظهر الوعيد والتحدى ؛ وكذا روسيا فانها مذ أدركت خطر السياسة النازية العسكرية على حدودها الغربية ، انضمت إلى جبهة الدول الغربية ، وعقدت ميثاق التحالف مع فرنسا ؛ وفرنسا لا يمكن أن تترك روسيا وحيدة إذا هاجمتها ألمانيا ، لأن بقاء روسـيا قوية سليمة مما يهم فرنسا كضمان لسلامتها ؛ وعلى ذلك ، فاذا اندفعت ألمانيا فى سياستها العسكرية الخطرة ، وعملت على إثارة الحرب فى شرق أوربا بصورة من الصور ، فلا ريب أن الحرب ستقع أيضاً فى غرب أوربا ، وعندئذ تقع حرب عالمية أخرى

والخلاصة أن الأفق الدولى مثقل بالسحب ؛ ومما يلفت النظر فى ذلك كله أن الفاشستية تلعب فى إثارة هـذه الأزمة الدولية الدقيقة أكبر دور ، ولا تحجم عن تغذية الاتجاهات والشهوات العسكرية الخطرة بكل ما وسعت ؛ وقد شرحنا فى

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

التنكر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قلت مرة لنفسى : « لماذا لا أخرج للناس متنكراً كما كان يفعل الولاة والسلاطين والخلفاء وفيما تحدثنا الروايات أو الخرافات ؟ »

وليست لى رعية أتفقدها ، ولا لى شعب أتعهد مرافقه ومراشده ، ولكن هذا الخاطر استبد بى مع ذلك فلم يسعنى إلا أن أجرى معه إلى حيث يومىء ؛ والتنكر فن ، واتقانه لايتسنى إلا بالتدرب ، ولكن قلت إن الله ركب لى فى وجهى عينين أنظر بهما ، وعندى مرآة تستطيع أن ترينى هل وفقت أو أخفقت ، وفى وسعى أن أعيد التجربة مرة وأخرى فلا أبرز للناس إلا وأنا مطمئن القلب

وقد كان . اشتريت لحية كثة طويلة — شبراً وبعض شبر إذا أردت الدقة — وشاربين وحاجبين ، ومسحوقاً أبيض أنفضه على شعر رأسى ، وشرعت أجرب — أعنى ألصق هذه الأشياء بوجهى ، وعينى على المرآة ، وكنت أوصد الباب علىّ ، وأنا أفعل ذلك ، لأضمن الوحدة ، ولأنى اعتزمت أن أجعل التجربة الأولى فى بيتى . فلما وثقت أنى قد أحكمت التنكر ، وأنى أستطيع أن أقوم وأقعد وأمشى ، وأحرك رأسى ، وألمس لحيتى ، وأفتح فمى ، وأرفع حاجبى على هيئة المستغرب ، وأضحك ، وآكل وأشرب من غير أن تسقط اللحية أو ينحرف أحد الحاجبين عن قوسه ، أو يتدلى شارب ، على حين يبقى الآخر مفتولاً — خرجت على أهلى ، وعلى وجهى هذه الأشياء ، وفى يدى عصا غليظة أتوكأ عليها وقد تقوست قناتى من الهرم ، فلم تكد تقع على العيون فى مدخل الباب حتى صرخت أمى وجدتى وأسرعتا فسترتا وجهيهما عن هذا الشيخ الغريب ؛ وكان أخى الصغير معهما فوثب إلى قدميه وصاح بى يسألنى أنا من ؟ ويأمرنى أن أخرج ، وينعتنى بقلة الحياء وسوء الأدب ويهددنى بالشرطة ، وأنا أقول له بصوت يرعش من الكبر وما يجره من الضعف « حلمك ، حلمك يا بنى ! » فيأبى أن يكون حليما ، ولا يعبأ بشيخوختى ، ولا يترفق بوهنى البادى ، ويدفعنى عن الباب فأكاد أسقط على الأرض ؛ فأنه صبى قوى ، وأنا شيخ هِمٌّ أقوم على العصا ، فلم تبق لى حيلة إلا الخروج من البيت كما أمر ...

خرجت مطمئناً واثقاً ؛ وإذا كان أخى — ابن أمى وأبى — لم يعرفنى فكيف يعرفنى الاخوان والخلان ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يفطن إلى أن هذه الغابة التى زرعتها حول وجهى وسترت بها شبابى جليسة ؟ وكان انخداع أخى — لا أمى ولا جدتى — هو الذى أراح بالى ، ونفى عنى الخوف ؛ لأن فزعهما واستحياءهما منعا أن ينظرا ويحدقا ؛ أما أخى فأمره مختلف جداً ، وقد كان يمسك بكتفى ويهزنى ويدفعنى ويحدق فى وجهى متعجباً لجرأتى ، منكراً لتطفلى . ومع ذلك لم يعرفنى !

ومضيت إلى شارع الدواوين ، وكنا — اخوانى وأنا — نختلف إلى « قهوة » فيه ، ونقضى هناك بعض الوقت ، نشرب « الخشاف » ونتبارى فى لعب « الطاولة » ونصغى إلى الفونغراف وننظر إلى الرائحين والغادين ، فلقيت فى بعض الطريق أحد هؤلاء الاخوان ، فوضعت يدى على كتفه وابتسمت له وقلت :

« هل تستطيع يا بنى أن تدلنى على لاظ اوغلى » فقال : « يظهر أنك لست من أهل الحى ؟ ! هذا هو أمامك مسافة مائة متر لا أكثر »

قلت : « آه ! لعن الله الشيخوخة ! وقاتل الله الضعف !

مقال سابق ما تنطوى عليه سياسة الدول الفاشستية ، أعنى ألمانيا وإيطاليا ، من المغامرة وقصر النظر ، وبينا أن الخطر على سلام أوربا وسلام العالم يرجع قبل كل شئ إلى هذه السياسة الخطرة . بيد أنه مما يبعث إلى نوع من الطمأنينة أن تكون الدول الغربية ، أعنى فرنسا وبريطانيا العظمى قد فطنتا إلى الخطر فى الوقت المناسب ، واستطاعتا أن تصلا فى تحقيق التسليح والتنظيمات الدفاعية إلى حدود بعيدة ؛ فاذا أضفنا إلى ذلك أن كفة روسيا إنما هى دائماً مع الدول الغربية ، فأن مما يشك فيه أن تذهب الفاشستية الصاخبة إلى المغامرة بأثارة حرب تلقى فيها مثل هذه القوى الساحقة ؛ وإذا كان ثمة سحب وأزمات خطيرة تكدر أفق السياسة الدولية ، فلسنا مع ذلك نذهب مع المتشائمين إلى حد الاعتقاد بأنها نذر الحرب ، وأن الحرب قد غدت على وشك الاضطرام

(***)

مائتا متر : يا سلام : أقول لك ... ربنا المعين . نعم ربنا المعين »

وهممت بأن أنصرف عنه ، فقال : « هل تسمح بأن أتناول ذراعك وأساعدك على السير قليلاً ؟ »

فدعوت له بخـير ، وبشرته ، وأكدت له أن الله سيجزيه أحسن الجزاء ، وتركت له ذراعى ، وسرنا معاً بعض الطريق ، وأنا أدب بالعصا وأقول من الضعف « إه ! إه » كما يفعل الشيوخ الذين انقطعت أنفاسهم ، فقد كانت اللحية التى لففت فيها وجهى عظيمة جدا وبيضاء كالقطن . وبلغنا « القهوة » المـألوفة فهمست فى أذنه بصوت خافت : « أقول لك يا بنى ؟ سأستريح هنا قليلا . . . نعم فأن العجلة من الشيطان ، ولا خير فى أن يحمل المرء على نفسه ويكلفها فوق وسعها »

وجلست الى أقرب مائدة ووضعت العصا عليها واضطجعت مغمض العينين حتى انتظمت أنفاسى وسكن اضطراب صدرى ، وهدأت دقات قلبى ، ثم التفت الى صديق وقلت « الله يرحم أيام الشباب ! ! هل تعرف يا بنى ؟ لقد كنت أصعد درج السلم — مائة درجة — خمس مرات أو ستا فى اليوم ، جريا بلا تمهل أو ترفق ؛ وكنت أستحم فى الشتاء القارس البرد من بئر فى البيت ، مرتين ... مرة فى الفجر ومرة فى العصر ؛ وكنت أستطيع أن ألتهم نصف الخروف وحدى فضلاً عن غيره من الألوان ... أين هذه الأيام ؟ إيه ؟

وتنهدت : فقال : « يظهر أنك كنت قوياً متين الأسر فى شبابك ! »

قلت : « قوى ؟ ولو لم أكن قويا لما عشت الى هذه السن . أما أقول لك ... كنت أتناول عيدان القصب ... سبعة وأربطها ثم أتناولها من الطرفين وأضرب بها ساق ، فتنكسر ... أعنى العيدان هى التى كانت تنكسر لا ساق بالطبع ... ها ها ... تنكسر ولا تبقى قشرة واحدة تصل قطعتى عود...فهل تستطيع الآن — وأنت شاب — أن تصنع هذا ؟ »

فهز رأسه وابتسم ، فقلت : « وعلى الرغم من ضعفى الظاهر وشيخوختى العالية ، لا أزال محتفظاً ببعض القوة ، ولولا أن الدخان قطع نياط قلبى لما رأيتنى أنهج ... احذر يا بنى أن تمتاد التدخين ! إنها نصيحة شيخ مجرب ... نصيحة لوجه الله . نعم لا تزال فىّ قوة باقية ... هذه يدى ... اقبض عليها ... احتفظ بكل قوتك وانظر »

وفتحت له كفى ، ومددت إليه ذراعى فتناول يدى كما يفعل المرء عند المصافحة ، ثم قبض عليها وقبضت على يده . وضغط وضغطت . ثم بدت عليه الدهشة ، وقد نسيت أن أقول إنى كنت وما زلت قوى الذراعين جداً إذا اعتبرنا ضآلة جسمى ، وكل قوتى فى يدى ، فلا عجب إذا كان قد دهش ، فقلت له : « أرأيت ؟ ؟ ألم أقل لك ؟ ؟ وتصور كيف كنت خليقاً أن أكون لولا فعل الدخان الملعون ؟ ؟ لقد خرب صدرى من سوء تأثيره ... »

وسحبت يدى وفركتها فقد كانت ضغطته قوية لا رفق فيها قبحه الله ؛ وجاء فى هذه اللحظة واحد آخر من إخوانى وكان كثير العبث ، فوقف ينظر إلينا ويعجب ، ثم سأل صاحبه بصوت عال كأنما كان قد وثق أنى أصم

« من هذا الرجل الفظيع ؟

قال : « هذا شيخ يستريح ... اسمع ... (لى) أعطه يدك ليمتحن قوتها .. »

فقلت : «لا يا بنى ... تعبت ... »

وقال : اللعين الواقف « ماذا تصنع بكل هذه اللحية ؟ أليس فى بيتك مقص ؟ أو مخرطة ؟ أو منشار ؟ »

فخطر لى أن أمازحه — وليتنى ما فعلت — فقلت : « لا فائدة . وما غناء المقص ؟؟ إنه يتقصف إذا لامسها ... والمنشار ماحيلته فى هـذه الخيوط الحديدية ؟؟ لا ... لا تطمع فى محوها ، فقد أعيانى أمرها مذ جئت إلى هذه الدنيا .. وقد كنت حين بدأت أتعلم المشى بعد الحبو أتعثر بها ... »

فقهقه اللعين ثم مد يده إليها وتناول شعرات منها وفتلها كما يفتل الحبـل ، وأنا صابر جامد لا أتحرك مخافة أن أرتد برأسى فتتزحزح عن موضعها أو تسقط فى يده ، وكنت أتبسم أيضاً لأتألفه وأخجله عسى أن يكف عن لحيتى ، فأطمعه حلمى ، فـكف عن فتل الشعرات ، وتناول منها قبضة ، فاضطربت ، وجذب هو ، أو ارتددت أنا — لا أدرى — فاذا هى فى يده .؟؟

وقلت بعد أن سكنت العاصـفة : « ما قولـكما الآن ؟؟ ألم أخدعكما ؟؟ » وبدأت أقلد نفسى وأقول : « هل تستطيع يا بنى أن تدلنى على لاظ اوغلى ؟ ... لقد قطع الدخان أنفاسى ، فيحسن أن أستريح هنا برهة ... احذر يا بنى الدخان ، فأنك ترى ما صنع

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

بى ... والآن أعترف أنى كنت بارعاً ... »

فقال اللمين : « بارع ؟ أنت كنت بارعاً ؟ .. لقد عرفتك على بعد عشرة أمتار .. يقول إنه كان بارعاً ؟؟ وأين المغفل الذى عكن أن تخدعه هـذه اللحية السخيفة ؟؟ ... وعلى فـكرة ... ألا تنوى أن تخلع الشاربين والحاجبين ؟؟ فأنا أخاف أن يجتمع علينا الأطفال ويتدخل الشرطة وتسوء العاقبة بها »

فنزعتها ، فما بقيت بى اليها حاجة بعد زوال اللحية ، ولـكنى لم أستطع أن أصدق أن يكون قد عرفنى كما زعم بعد أن نـكرنى أهلى — وأخى على الخصوص . وقد أعيانى أن أعرف الحقيقة ، فسكت ... وآليت بعد ذلك ألا أبرز للناس إلا فى جلدى الذى خلقه الله لى ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

أثر نظام الحكم
فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

تمر الأمم فى استقرارها وتحضرها بثلاثة أطوار عامة من أنظمة الحكم : فى الطور الأول تـكون أزمة الأمور بأيدى رؤساء القبائل الرحالة أو القريبة العهد بالاستقرار ، وهو ضرب من الحكم أرستقراطى ؛ وفى الطور الثانى تتجمع مقاليد الحكم فى يد حاكم فرد يوحّد أجزاء مملكة ذات مساحة يُعتد بها وتخوم طبيعيـة ، وهو نظام الملـكية ؛ وفى الطور الثالث يعود تصريف شـؤون الدولة فى أيدى جميع أبنائها القادرين ، وهو النظام الديمقراطى الذى هو أصلح الأنظمة جميعاً ، إذ هو أدناها إلى العدل والمساواة وأجدرها أن يفسح المجال للمواهب الفردية ويمهد الطريق لرقى الأمة

ومن الشعوب البدائية مالا تتجاوز الطور الأول ، ومن الأمم ما تقف عند الثانى كجميع دول الشرق القـديم ، ومنها ما تصل إلى الثالث كبعض مدن اليونان ورومة ، وقد تعود دولة بعـد بلوغ الطور الثالث فترتد إلى الثانى ، لنكسة فى أحوالها تحرمها التمتع بمزايا الحكم الديمقراطى وتجعل الحـكم الفردى ضربة لازب ، ومثال ذلك رومة حين اتسع سـلطانها وأفسد الترف أخلاق أبنائها ، فعجز السناتو عن تصريف شؤونها ووقع حكمها فى قبضة الدكتاتوريين والأباطرة

وقد عرف العرب الطور الثانى من أطوار الحكومة فى جاهليتهم فى أطراف الجزيرة ، حيث ساعد خصب الأرض واستواؤها على توحد دولة متسعة وتوطد ملـكية قوية ، أما فى سائر الجزيرة فظل الطور الأول ، طور الحـكم الأرستقراطى ، سائداً ، وبلغ بين بعض قبائلها ولا سيما فى الحجاز مستوى عالياً من الاحكام ؛ وكانت لأشراف العرب دراية عملية فائقة بقواعد الحكم والاجتماع . تتمثل فى قول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت ... فان تولت فبالأشرار تنقاد

وهو تلخيص شعرى رائع لنظريات أرسطو فى السياسة . وقد نمى هـذا النظام فى نفوس العرب نزعات الحرية والحمية والشجاعة التى أدت إلى دوام الخصام بينهم ، وأورثتهم الفخر بالعصبية والتمدح بالنسب ؛ وأثر كل ذلك بيّن فى أشعار ذلك العهد التى أغلبها تكرار مستمر للمفاخر والمآثر القبلية ، والتمدُّح بالعز والمنعة ، فالى ذلك صرف شـعراؤهم قولهم ، ولم ينصرف الشعراء إلى مدح الملوك وتعداد مآثرهم دون مآثر القبيلة أو الأمة إلا حيث قامت ممالك الغساسنة والمناذرة والتبابعة ، فـكانت من ذلك مدائح حسان والنابغة والأعشى

فلما جاء الاسلام خرج العرب دفعة واحـدة من الطور الأول من أطوار أنظمة الحـكم طور الأرستقراطية ، إلى طور الملـكية الذى توطدت بينهم قواعده وظلوا فى حدوده لا يتمدونه إلى الطور الثالث طور الديمقراطية ؛ ويرجع تمـكن الملـكية بين العرب بعد تعودهم التشاور فى الأمور ورغم حض الاسلام على ذلك التشاور ، إلى عوامل خطيرة أولها مكانة النبى عليه السلام : إذ كان أول حاكم فرد للجزيرة ، وكان له من جلال النبوة وعظمة الشخصية والقدرة الخارقة ما عود العرب الامتثال لأمير مطاع ؛ وزادهم انقياداً لهذا الضرب من الحـكومة اقتفاء العُمرَيْن أثره

فى عدل الحكم ونجاحهما فى الخارج والداخـل ، وحرص المسلمين على وحدة الكلمة والدينُ ما يزال يجاهد أعداءه ؛ ومن تلك العوامل أيضاً اتساع أطراف الدولة العربية السريع ، حتى عادت إدارتها متعذرة إلا بيد حاكم فرد مطاع ؛ ومنها قيام الدولة على أنقاض ملكيات عتيدة ما لبثت تقاليدها أن سرت فى كيان الدولة الجديدة ؛ ومنها الصفة الدينية التى ظل يتخذها الحاكمون

لذلك هجر العرب تدريجياً تقاليـد التشاور وتوطد لديهم نظام الملكية المطلقة ، فكان منذ قيام دولتهم النظام الوحيـد الذى عرفوه ، أو فكروا فيه ، فلم يقم من مفكريهم من نادى بنظام مخالف له ، أو دعا إلى ضرب من الديمقراطية ؛ بل كانت الملكيـة لديهم هى النظام الطبيعى الذى لا نظام غيره ؛ وظل لسان حالهم قول المتنبي : « وإنما الناس بالملوك » ، وإنما كان أحرارهم يفرضون فى الملك العدل والاصلاح واتباع أحكام الدين وإلا وجب خلعه . وعلى هذا الأساس كان خلع عثمان والوليـد ابن يزيد ، وامتلأ تاريخ العرب بالثورات ، ولـكنها لم تكن — فيما عدا ثورة الخوارج الذين تمسكوا وحدهم بتقاليد الجاهلية وديمقراطية الاسلام — تمردا على نظام الملكية المطلقة ، بل كانت ثورة مظلوم على ظالم ، أو وثبة فرد بفرد ، أو فتكة أسرة بأسرة ؛ وفى ظل هذا ظل هذا النظام الملكى المطلق بلغ الأدب العربى غاية رقيه

أما فى انجلترا ، فساعدت الظروف المحلية الجغرافية والتاريخية على خروج الشعب من الطور الثانى إلى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، فأن عزلة الجزيرة أبعدتها عن غمار الحروب التى تتخذها الملكية ذريعة لتقوية سلطانها ، وفرض الضرائب ، وجمع جيش قائم يخمد كل تمرد على مظالمها فى الداخل ويشـيد فى الخارج امبراطورية لا يتسق حكمها لغير الملكية ، فلم يتجه الشعب الانجليزى إلى التوسع الخارجى ، ولم يبن امبراطورية إلا بعد أن وطد أساس حقوقه وحرياته ، وبنى تلك الامبراطورية تدريجاً ، فلم يستهدف لتضخُّم يجنى يوقع حكومته فى يد دكتاتور ، وبذلك ظل الشعب غنياً عن خدمات الملكية فى الخارج قادراً على كبح جماحها فى الداخل لقوته وضعفها ، فأحرز عليهـا النصر الحربى فى كل ثورة ثارها فى وجهها ، بينما كان نصيب الثورات الشعبية فى الدولة العربية السحق العاجل

ترعرع الأدب الانجليزى وقد ثبت النظام الدستورى فى انجلترا بجانب نظام الملكية ، وشهد الأدب تضامنهما أحياناً كما فى عصر شكسبير ، وصراعهما أحياناً كما فى عصر ملتون ، وكان رجال الأدب عادة فى جانب الحرية والديمقراطية يجاهرون المستبدين العداء ، وقد عميت عينا ملتون فى دفاعه بقلمـه عن الجمهورية فى ظل كروموبل ؛ ولم يصالح ما بين الملوك والأدباء إلا بعد انتصـار الديمقراطية على الملكية ، وصيرورة الملكية جزءا من النظام الدستورى ، وشارة من شاراته ؛ وفى ظلال هذه الديمقراطية بلغ الأدب الانجليزى مبالغ عظمته

فهذا فرق ما بين الأدبين فى هذا الصـدد : أن أحدهما بلغ أوجه فى ظل النظام الملكى ؛ والثانى جرى إلى مداه فى حمى النظام الدستورى ؛ ومن ثم نجد الأدب الانجليزى أعظم حرية فى النزعة وأصدق فى التعبير ، وأغنى بالمواضيع ، وأكثر تنوعاً فى الأشكال ، لأن الملكية ليست بخير النظم التى يترعرع فى ظلها الفن الصحيح ، لأنها شديدة الأثرة والغيرة ، لا ترضى من ضروب النشاط إلا بما يتوفر على خدمتهـا ، ولا تسمح للحق والفن بالذيوع إذا كان فى ذيوعهما تحدٍّ لسلطتها . أما النظام الدستورى فيفسح المجال للمواهب بلا عائق ، ويطلق العنان للحقيقة بلا كابح

فمن شأن الملكية المطلقة أن تخمد الرأى العام فى بلادها ، لأنهـا « هى الدولة » والرأى لها ، لا يكاد ينطق ناطق أو يعمل عامل إلا بما ترضاه ؛ ومن ثم كفَّت الشعب عن ممارسة شؤون الحكم ، وكفَّـت الأدباء عن نقد أحوال المجتمع ؛ فعاش أدباء العربيـة بنجوة عن ذلك المجتمع لا يكادون يشعرون بشـعوره أو يعبرون عن خوالجه أو يصـفون أحواله ، ومن ثم لم تظهر فى الأدب العربى القصة التى تدرس المجتمع وتحلل دخائل النفس، وجاء شعر الشعراء ونثر الكتاب أكثره نظرياً لا اتصال بينه وبين حقائق المجتمع والحياة اليومية . أما فى انجلترا فان توطُّـد أركان الديمقراطية صاحبهُ ظهور القصة الاجتماعية وتعاظم مكانتها حتى طغت على أشكال الأدب الأخرى

وفى ظل الملكية المطلقة ذوَى ضربٌ آخر من ضروب الأدب ، هو الخطابة التى لا تزدهر إلا حيث الديمقراطيـة والمشاورة وحرية الرأى ، فنراها بعـد أن بلغت أوجها قبيـل الاسلام وفى صدره تخمل تدريجا تحت الملكية التى تستأثر بالرأى

والفعل ، وتبطل كل رأى آخر وكل فعل ، على حين ظلت للخطابة فى الانجليزية منزلتها ، وأنجب البرلمان الانجليزى فى عهوده القريبة خطباء مصاقع ، أمثال والبول وفوكس وبت وبرايت وغلادستون

وفى نظير ابتعاد الأدباء عن نقد المجتمع والخوض فى شؤون الحكم ، ترك لهم الملوك عنان العبث مرسلا ، يقارفون ضروب المجون فى منتدياتهم ، ويبدون صنوف الهجر فى آثارهم ، ويتبادلون فاحش القول فى أشعارهم ، فامتلأ الأدب بذلك السقاط حتى ظن المتأخرون الذين شبوا على دراسته أن الرقاعة والخلاعة من صفات الأديب ، وحتى ترفع ذوو الحسب عن معاطاة الأدب

ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم بل اتخذوا رجاله أبواقا للتمدح بمآثرهم ما صح منها وما بطل ، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصارا لهم على إخضاع الرعية ، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعوانا على تضليلها ، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات ؛ وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق الى وهدة الشحاذة والتمليق والكذب ، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الانجليزى فى أغلب عهوده ، لأن الشعب لم يمكن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده لتبعثرها فى مظاهر الأبهة الجوفاء ، وتنثرها على المرتزقة من الجند والشعراء

وفى سبيل استرضاء الحكام واستدرار صلاتهم لم يحجم كثير من الشعراء عن امتهان الفن من جهة ، فأذالوا الشعر وملأوه بالأكاذيب ، وعن امتهان الخلق الكريم من جهة ، فمدحوا الظالم والقاتل ما دام فى دست الحكم ، وتقربوا اليه بذم أحفاد الرسول ، وتملقوه بهجاء من فتك بهم من قواد ووزراء ، وهجا البحترى الخلفاء المخلوعين ومدح من استعادوا العرش على التوالى ، ومدح بشار العلوى الخارج على المنصور ، فلما علم باندحاره حور القصيدة ومدح بها المنصور . وتحاسد الشعراء وتهاجوا لتنافسهم على جوائز الأمراء ، على حين نرى فى الانجليزية أن شلى لما بلغه امتداح سوذى لملك انجلترا فى ذلك العهد امتداحاً متملقاً ، كتب اليه يوسمه توبيخاً ويجاهره بالقطيعة

وإذا ندرت فى الأدب العربى آثار انتصار الأدباء للشعب ومناصبتهم الملوك دفاعا عنه ، فلم تندر فيه اخبار الخارجين على الحكام طلباً الملك والمجد الشخصى كحكاية تميم بن جميل الذى أنشد بين يدى المعتصم نائيته البديعة التى مطلعها :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً
...

يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسل على السيف فيه وأسكت

ولم تندر أخبار الأدباء الطامحين الى الملك كالمتنبى الذى خرج فى صباه وظل يتوق الى الخروج طول حياته ، والشريف الرضى الذى باح مرة بدخيلة نفسه فأسقط عليه الخليفة ، بقصيدته التى أولها :

ما مُقامى على الهوان وعندى ... مِقوَل صارم وأنف حمىّ

وما كان مثل ذلك ليكون فى الأدب الانجليزى : فالأدباء الانجليز كانوا أشد حباً للأدب واعتداداً بمكانة الفن من أن يهجروهما إلى شىء آخر ولو كان هو المُلك ، كما كانوا من جهة أخرى أشد إخلاصاً لوطنيتهم ووفاء لسعادة بلادهم من أن يفكروا فى اعتراض سبيل الحياة الدستورية التى رضيتها لنفسها ، وما كانت الظروف لتعينهم لو حاولوا بأكثر مما أعانت أدباء العربية سالفى الذكر

ولتزاحم شعراء العربية على صلات الملوك ومن تشبه بهم من الأمراء تجمعوا فى المدينة وانصرفوا عن محاسن الطبيعة ، فلم تفز من أغلبهم بكبير التفات . وقُل مثل ذلك فى شتى أبواب الشعر : فما يكاد يكون فى أشعار الفحول وصف لجيش أو أسطول أو بحر أو بلد أو قصر أو منظر ، أو رثاء أو حكمة أو تفكير فى الحياة والموت ، إلا مرئياً كل ذلك من وجهة نظر الممدوحين وجارياً فى أطواء مدحهم والترنم بما حازوا من رفيع الشأن ، فكانت مدحة صاحب النوال هى الوحى الأول الذى يدفع الشاعر إلى ملاحظة تلك المشاهد وتدبُّر تلك الحقائق

ولاعتماد الأدباء فى معاشهم على صلات الأمراء ، وتوقُّف سعودهم ونحوسهم على رضى الأمراء وغضبهم ، كثرت الشكوى فى الأدب العربى ؛ وأنحى الأدباء على ما أسموه الدهر ذماً وتقريعاً وتفنيداً ، وعزَوا أنفسهم بالتفاخر الأجوف ، وطال ذمهم لحرفة الأدب ، وما يزاملها من شقاء وحرمان ؛ ولا ذنب للأدب ، وإنما هم صيروه حرفة وما هو إلا فن ، بل هبطوا به إلى ما دون الحرفة فصيروه تسولاً . أما فى الانجليزية فنرى جيبون مثلاً يسخر مرَّ السخر ممن يزعمون أن للأدب أشقاهم ، ويبان فى صراحة واغتباط أن كتابه عن تاريخ الرومان كان خير رفيق له

وسمير لروحه أعوام تصنيفه ، ثم أناله من بعد ذلك صيتاً وضمن له بعد مماته ذكرا ما كان يستحقه بدونه .

أما من قنطوا من صلات الأمراء من بين شعراء العربية ، وقعد بهم عجز حيلتهم عن الوصول إلى ساحات الملوك ، فاما هجروا الشعر جملة وإما عكفوا على نظم أشعار الزهد ، فغزر ذلك الضرب من النظم في العربية . وليس التزهيد في الحياة بأسمى رسالات الآداب ، بل رسالتها الصحيحة الترغيب في الحياة والتعبير عن جمالها والدعوة إلى الاستمتاع به .

ولطمع الأدباء في جوائز الأمراء نزحوا من أطراف البلاد إلى العاصمة ؛ فصارت دون سواها من المدن مجال الشعر وسوق الأدب ، وخمد في غيرها نور الفنون ؛ أما في انجلترا فقلما هجر أديب بلده إلى لندن طلبا للحظوة والمال ، بل هجر بعضهم مُقامه بالعاصمة إلى منطقة البحيرات ، فاستقر حيث الجمال الطبيعي والحياة الشعرية والوحي الصادق ، وحيث عرش الطبيعة لا عروش المالكين .

ومن خلال المدح كان يتحدث شعراء العربية عن انتصارات الدولة في الحروب ، فكل من أبي تمام والمتنبي وابن هانىء الأندلسي يشيد بانتصار ممدوحه ، وينسب إليه كل الفضل في تدبير الرأى والاقدام وهزيمة العدو ونصر الدين ؛ أما في الانجليزية فكان شعراء الوطنية أمثال كامبل وتنيسون وكبلنج يرون في انتصارات الدولة ظفراً للقومية الانجليزية لا فخراً شخصيًّا للملك ، فتغنى الشعراء بتلك الانتصارات ، وشادوا ببسالة القواد وأمراء البحر الذين أكسبوا أمتهم مواقف الفخار ، وقلما التفتوا إلى الملك أوخصوه بذكر .

وكما طلب شعراء العربية الرزق بمدح الملوك ، طلبه الكتاب بالاستيزار والانشاء في دواوينهم ، فجاءت آثارهم الأدبية كآثار الشعراء ، كثيرة المبالغة والاغراق ، قليلة النصيب من صدق الشعور وصحة النظر ، كثيرة التلاعب بالألفاظ ؛ وكان لأولئك الوزراء شأن أعجب من شأن الشعراء : إذ اتخذهم الخلفاء وسيلة لابتزاز أموال الرعية ، حتى إذا ما حان الحين فتكوا بهم واستصفوا أموالهم ، وكُتُبُ الأدب حافلة بأنباء نكباتهم .

ولا ريب أن غيرة الملوك على سلطانهم المطلق كانت من أسباب الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبي والتاريخي ، كما ترجم تراثهم الفلسفي إلى العربية ، لأن هذا الأخير مشحون بالنظريات والقضايا الخيالية التي لا تتعرض لسلطانهم بسوء ، على حين أن تراث اليونان الأدبي حافل بمظاهر الديمقراطية ، وآثار اشتراك الشعب في حكم نفسه [1] ، فالملكية أكثر تسامحا مع العلماء وتشجيعاً للعلوم التي تَدْرُسُ ظواهر الكون العامة ، منها للآداب التي تترجم عن مشاعر النفوس ؛ ولا شك في أن اطلاع الانجليز على آداب الاغريق وتاريخهم كان من عوامل تمكين نفوسهم وتشبثهم بحقوقهم . وهكذا كانت الملكية المستبدة من أسباب حرمان الأدب العربي من الأثر اليوناني الذي استفاد منه الأدب الانجليزي فوائد جزيلة .

فالملكية في إبان صولتها ليست بخير أنظمة الحكم التي تزدهر في ظلها الآداب الرفيعة ، أما في عهود عجزها فهي شر مستطير على الفكر والحضارة عامة : فحين ضعفت قبضتها على الدولة العربية تقطعت أوصال المملكة ، وتكاثر الملوك والأمراء وتنازعوا وتحاربوا ، فكل بلدة « فيها أمير المؤمنين ومنبرُ » ، وظهروا في جلود الأسود منتفخين ، وأفقروا البلاد بحروبهم ومغارمهم ، وكان منهم الأعاجم الذين لا يقدرون الأدب ، فخيب لديهم رجاء الشعراء فركد حتى ذلك الضرب من الشعر المملوء بالأماديح والمبالغات ، ودخلت الحضارة عامة والآداب خاصة في دور ذلك التدهور الطويل الذي دام قرونا .

فالأدب العربي قد شهد الطورين الأول والثاني من أطوار النظام الحكومي التي تقدم ذكرها في صدر هذه الكلمة : طور الأرستقراطية في الجاهلية ، وطور الملكية في الاسلام ، فجاء في الطور الأول أكثره حماسي عصبي ممجد للقبائل وأبطالها ، وكان قائلوه عادة من الأشراف ذوي المكانة ، وظل في الطور الثاني مكفوفاً في حيز الحدود التي رضيتها له الملكية ، منصرفاً عن أغراض كثيرة من أغراض الفن السليم ، وترعرع الأدب الانجليزي في الطور الثالث من أنظمة الحكم ، طور الديمقراطية ، فجاء حر النزعة ، متعدد النواحي ، واسع الأفق ، محتفظاً بسمو الفن وتجرده عن المادة ؛ وكان الفرق بينه وبين الأدب العربي ، أن الأخير بلغ أشده في ظل الحماية والمنحة ، والأول جرى إلى غايته في ظل الحرية والاستقلال

فخري أبو السعود

---

(١) ذلك رأى وجيه إذا ثبت أن هؤلاء الملوك قد اطلعوا على مضامين الأسفار الأدبية الاغريقية في أصولها (الرسالة)

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٦ —

للباحثين فى تاريخ الفلسفة مذاهب كثيرة وطرائق مختلفة . فجماعة يرون أن واجب المؤرخ ينحصر فى دراسة الأشخاص وتفصيل القول فى حياتهم وبيان الظروف المحيطة بهم والعوامل الداخلية والخارجية التى أثرت فيهم . ولا يعنون عناية كبيرة بأفكارهم فى نشأتها وتكونها وارتباطها بالآراء والنظريات السابقة واللاحقة . على أنهم إن تعرضوا لهذه الأفكار نظروا إليها منعزلة عما حولها ، وبدت فى أيديهم كأنها وحدة مستقلة وحلقة منفصلة عن سلسلة التفكير الانسانى . وهناك طائفة أخرى تؤمن بأن الفلسفة دائمة وأن الأفكار الفلسفية فى مختلف العصور متصلة الحلقات مرتبط بعضها ببعض . فيجب على الباحث إذن أن يبين مقدار تأثر الخلف بالسلف وما زاد التلميذ على الأستاذ . وليس بكاف أن يقال إن فيلسوفا ما جاء بفكرة معينة ، بل لا بد من البحث عن أمهات هذه الفكرة وجداتها القريبات أو البعيدات ، وعن بناتها وبنات بناتها إن صح أنها أعقبت فى الأجيال التالية ؛ والأفكار كالأشخاص ذات تاريخ يطول ويقصر وحياة متنوعة الألوان والأشكال ، فى حين أنه يقدر لبعضها الخلود قد يقضى على بعضها الآخر بالاهمال والنسيان

وفى رأينا أن الدراسة التاريخية الكاملة تستلزم الجمع بين هاتين الطريقتين ؛ وكى تفهم الأفكار فهماً صحيحاً يجب أن تدرس على ضوء حياة أصحابها والبيئة التى تكونت فيها ، ولا يمكننا أن نقدُر الفلاسفة والمفكرين حق قدرهم وننزلهم فى المنزلة اللائقة بهم إلا إن تتبعنا أفكارهم فى مختلف أدوارها وأثبتنا ما أنتجت من آثار . وكثيراً ما أعانت الأفكار على توضيح نواح غامضة فى حياة مبتكريها أو القائلين بها

وسيراً على هذه السنة قد بدأنا فعرضنا نظرية النبوة كما تصورها الفارابى ، وحاولنا أن نبين الأسباب الاجتماعية والدينية التى دفعته إليها ، والمناقشات اليومية والأبحاث النظرية التى ولدتها ، ثم صعدنا إلى أصولها التاريخية ووضحنا العلاقة بينها وبين بعض الآراء القديمة ، وناقشناها أخيراً مبينين ما إذا كانت تلتئم مع التعاليم الاسلامية وتقصر شقة الخلاف بين الفلسفة والدين ؛ ونرى اليوم واجباً علينا أن نبين ما لهذه النظرية من أثر فيمن جاء بعد الفارابى من فلاسفة ومفكرين ، وسنتتبع تاريخها فى المدارس الاسلامية على اختلافها محاولين أن نبين كذلك مقدار نفوذها لدى اليهود والمسيحيين فى القرون الوسطى والتاريخ الحديث

وقد يكون أول سؤال يسأله الباحث هو : هل أخذ فلاسفة الاسلام الآخرون بهذه النظرية ؟ والجواب على هذا أن ابن سينا أولاً اعتنقها فى إخلاص ، وعرضها على صورة تشبه تمام الشبه ما قال به الفارابى من قبل ، وقد خلف لنا رسالة عنوانها : (فى إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم)[1] ، وفيها يفسر النبوة تفسيرا نفسيا سيكولوجياً ، ويؤول بعض النصوص الدينية تأويلاً يتفق مع نظرياته الفلسفية . ويبدأ كالفارابى ، فيوضح الأحلام توضيحاً علمياً ؛ فإذا ما حل مشكلتها جاوزها الى موضوع النبوة . وفى رأيه أن التجربة والبرهان يشهدان بأن النفس الانسانية تستطيع الوقوف على المجهول أثناء النوم ؛ فليس ببعيد عليها أن تستكشفه فى حال اليقظة . فأما التجربة والسماع فيقرران أن أشخاصاً كثيرين تنبأوا بالمستقبل بواسطة أحلامهم . وأما عقلاً فنحن نسلم بأن الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلة مثبتة فى العالم العلوى ومقيدة فى لوح محفوظ ، فإذا استطاعت النفوس البشرية الصعود الى هذا العالم والوقوف على هذا اللوح عرفت ما فيه وتنبأت بالغيب ، وهناك أشخاص يدركون هذا أثناء النوم عن طريق مخيلتهم فيحلمون بأشياء كأنها حقائق ملموسة ، وآخرون عظمت نفوسهم وقويت مخيلتهم ، فأدركوا ما فى عالم الغيب فى حال اليقظة كما يدركونه أثناء النوم . وهؤلاء هم الأنبياء

---

(١) ابن سينا ، تسع رسائل فى الحكمة ، ص ١٢ وتوابعها ، لسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن فى هذا العنوان ضرباً من التحريف منشؤة فى الغالب عدم عناية الناشر

الواصلون الى مرتبة النور والعرفان . يقول ابن سينا « التجربة والقياس متطابقان على أن للنفس الانسانية أن تنال من الغيب نيلا ما فى حال المنام . فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل فى حال اليقظة إلا ما كان الى زواله سبيل ولارتفاعه إمكان . أما التجربة فالتسامع والتعارف يشهدان به ، وليس أحد من الناس إلا وقد جرَّب ذلك فى نفسه تجارب ألهمته التصديق ، اللهم إلا أن يكون أحدهم فاسد المزاج نائم قوى التخيل والتذكر . وأما القياس فاستبصر فيه من تنبيهات :

تنبيه : قد علمت فيما سلف أن الجزئيات منقوشة فى العالم العقلى نقشا على وجه كلى ، ثم قد نُبهت لأن الأجرام السماوية لها نفوس ذوات إدراكات جزئية وإرادات جزئية تصدر عن رأى جزئى . ولا مانع لها عن تصور اللوازم الجزئية لحركاتها الجزئية من الكائنات عنها فى العالم العنصرى

إشارة : ولنفسك أن تنتقش بنقش ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال الحائل . قد علمت ذلك فلا تستنكرن أن يكون بعض الغيب ينتقش فيها من عالمه[1] » فالحقائق منقوشة فى العالم العلوى وكل من اتصل به أدركها . والمهم فقط هو شرح كيفية هذا الاتصال . وابن سينا يوضح هذا توضيحاً يحاكى فيه الفارابى حذوك القذة بالقذة . فيلاحظ أن بعض المرضى والممرورين يشاهدون صوراً ظاهرة حاضرة دون أن يكون لها أية صلة باحساساتهم الخارجة ؛ ولا بد لهذه الصور من سبب باطنى ومؤثر داخلى . وإذا بحثنا فى قوى النفس المختلفة وجدنا أن المخيلة مصدر الصور الباطنية المختلفة[2] بيد أنه قد يصرفها عن عملها شواغل حسية وأخرى باطنية[3] . فاذا انقطعت هذه الشواغل أو قلت أثناء النوم لم يبعد أن تكون للنفس فلتات تخلص بها إلى جانب القدس فينتقش فيها نقش من الغيب . وإذا كانت النفس قوية الجواهر تسع الجوانب المتجاذبة ، وتستطيع الاستيلاء على الشواغل المختلفة ، لم يبعد أن يقع لها هذا الخلس والانتهاز فى حال اليقظة[4] . وهذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلى ؛ وقد تحصل بضرب من الكسب يجعل النفس كالمجردة لشدة الذكاء كما تحصل لأولياء الله الأبرار . والذى يقع له هذا فى جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه ، فهو ذو معجزة من الأنبياء ، أو كرامة من الأولياء[1] . وتزيده تزكيته لنفسه فى هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته فيبلغ المبلغ الأقصى[2]

(١) ابن سينا ، الأشارات ، ص ٢٠٩ — ٢١١
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ — ٢١٣
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٤

فالنبوة إذن فطرية لا مكتسبة ، وكل ما للكسب فيها من يد أنه يزيد النبى كمالاً على كماله ، ورفعة فوق رفعته . وإذا ماحظى شخص بالاتصال بالعالم العلوى تمت على يديه أمور خارقة للعادة من معجزات وكرامات . وهذه الأمور وإن غاب عنا سرها يمكن أن تفسر من هذه الطريق النفسى الروحانى . يقول ابن سينا : « لعلك قد تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتى بقلب العادة فتبادر إلى التكذيب . وذلك مثل ما يقال إن عارفاً استسقى للناس فسُقوا ، أو استشفى لهم فشُفوا ، أو دعا عليهم فخسف بهم وزلزلوا أو هلكوا بوجه آخر ، أو دعا لهم فصرف عنهم الوباء والموتان ، أو السمير والطوفان ، أو خشع لبعضهم سبع ، أو لم ينفر عنه طير ، أو مثل ذلك مما لا يأخذ فى طريق الممتنع الصريح ، فتوقف ولا تتعجل ، فان لأمثال هذه أسباباً فى أسرار الطبيعة ، وربما يتأتى لى أن أقص بعضها عليك[3] . » وهذه الأسباب ، فى رأى ابن سينا ، ليست شيئاً آخر سوى أن النفوس السامية وقد تجردت عن المادة وصعدت إلى سماء الأرواح تستطيع التأثير فى العالم الخارجى مثل نفوس الأفلاك وعقولها[4] . وأثرها هذا خاضع فى الواقع للأرادة الالهية وفيض من العناية الربانية . فالمعجزة وإن خرجت على المألوف فى ظاهرها هى أثر من آثار القوى المتصرفة فى الكون . وكأن ابن سينا أحس بأن هناك أشخاصاً سيتمادون فى طريق الفروض العقلية ويرفضون هذه التفسيرات الروحانية ، فعاد فى آخر بحثه ودعاهم إلى التأنى والتدبر والبحث والتمحيص قبل الأنكار والقطع

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٠
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٩
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ — ٢٢٠

بالاستحالة، وختم إشاراته بتلك النصيحة الذهبية الغالية التى يجب أن يضعها كل باحث وكل مفكر دائماً نصب عينيه . يقول : « إياك أن يكون تلبُّسك وتبرُّؤك عن العامة هو أن تنبرى منكراً لكل شىء فذلك طيش وعجز ، وليس الخرق فى تكذيبك ما لم تستبن لك بعدُ جليّتُه دون الخرق فى تصديقك ما لم تقم بين يديك بيّنتُه . بل عليك الاعتصام بحبل التوقف ، وإن أزعجك استنكار ما يُوعاه سمعك ما دامت استحالته لم تبرهن لك . والصواب لك أن تُسرّح أمثال ذلك إلى بقعة الامكان ، ما لم يذدك عنها قائم البرهان ، واعلم أن فى الطبيعة عجائب ، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب[1] »

درس ابن سينا نظرية النبوة فى البحث الأخير من الأشارات فجاءت درة العقد وأكليل الكتاب ، وأفاض عليها من فصيح بيانه وقوة برهانه ما منحها سلطاناً فوق سلطانها وقوة إلى جانب قوتها ، ويغلب على ظننا أن كل فلاسفة الاسلام أخذوا بها . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا شىء عن ابن باجة وابن طفيل يوضح موقفهما إزاءها ، إلا أن نزعتهما التصوفية ورغبتهما الأكيدة فى التوفيق بين الفلسفة والدين تدفعنا إلى القول بأنهما كانا يسلمان بها ويدعوان إليها ، أما ابن رشد فقد عرض لها فى تهافت التهافت مفنداً لاعتراضات الغزالى ومدافعاً عن الفلاسفة القدامى والمحدثين ، وهو يرى أن هذه النظرية وإن تكن من صنع فلاسفة الاسلام وحدهم مقبولة فى جملتها ، ولا وجه للغزالى فى الاعتراض عليها[2] ، وما دمنا نسلم أن الكمال الروحى لا يتم إلا باتصال العبد بربه فلا غرابة فى أن تفسر النبوة بضرب من هذا الاتصال . غير أن هذه التفسيرات العلمية يجب أن تبقى وقفاً على الفلاسفة والعلماء ، فأن عامة الناس لا يدركون كنهها ولا يستطيعون الوقوف على حقيقتها[3] ، وجدير بنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم ، ونقدم لكل طائفة ما يناسبها من غذاء

(يتبع)

ابراهيم بيومى مدكور

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) ابن رشد ، تهافت التهافت ، ١٢٦ وتوابعها

(٣) ابن رشد ، مناهج الأدلة ، ٧٣

الشفاء

للأستاذ على الطنطاوى

... كان مصاباً بالسل ، ولكنه سل غريب قتل ، لم يكن فى الرئة ولا فى الأمعاء ، بل كان فى النفس ، فى الفكر ، فكان يعطل شعوره وتفكيره ، ويخنق حياته ، ويهد كيانه ... كان مصاباً « بداء الحب »

خمدت جذوة قريحته ، وتعطلت ملكاته كلها ، وضاع ذكاؤه وبادت فطنته ، وضاق كل شىء فى نظره ، فأصبح يراه مقتضباً مختصراً : فالمسرات كلها اختصرت فى لقاء من يحب ، والآلام فى فراقه ، والواجبات كلها فى إرضائه ، والمحرمات كلها فى إغضابه ، واختصر كتاب حياته ، وطمس اسمه وعنوانه ، فكان حاشية صغيرة على هامش حياة التى يحبها ، واختصرت الدنيا الطويلة العريضة المليئة بالفضائل والأمجاد ، الفياضة بالجمال والحقيقة والخير ، فكانت كلها هذه المرأة ..

وأقهمَ عن الطعام واجتواه ، وأصبح خالفاً لا يشتهيه ولا يميل إليه ؛ وإذا اضطر أكلَ أكل من قزّتْ نفسه واكتفى بلقيمات ما يقمن صلبه ، كأن هذا المرض لا يرضيه ما يفسد من النفس ، حتى يحطم الجسم ؛ وأصابه الأرق ، فأمسى يبيت ليله سهران مسهداً ، وإذا رنق النوم فى عينيه ، وغلبته حاجة جسمه خفق خفقة ، ثم أفاق فزعاً ، يفكر فى هذا الانسان ، يخاف أن يطير مع الأنفاس ، أو يسيل مع الدمع ، أو يغرق فى بحر عينيه ! . .

فهزل جسمه وخارت قواه ، وتراخت مفاصله ، وشحب وجهه ، وآض ساهما رازماً ، ضعيفاً مُخَبْخَباً ، ولم يعد يعيش إلا على المجاز ، يعيش بذكرى أيامه الماضية قبل أن يصيبه هذا السل ، أيام كان ذا جسم قوى ، وفكر ثاقب ، وقلب شاعر .. ولم يعد ينتفع بنفسه ، أو ينتفع بها الناس بشىء ، لأنه أصبح لا لنفسه ولا للناس ولا للحياة ، ولكن لانسان واحد يحبه . .

وهكذا الحب أبداً : مرض فى الجسم ، وضيق فى الفكر ، وفرار من خومة الحياة !

***

وكان أمس ، وكان يوماً هجهاجاً من أيام الخريف فى بغداد ، هبت فيه الرياح خرقاء هوجاء معصفة ، تدعذع[1] الأشجار ، وتثير الأوراق ، وتكسر الأغصان ، وتمتد إلى كل شىء فى الطبيعة ، فتعيث فيه وتعبث به ، وتدفعه من ههنا ، وههنا ... معتكرة تسف التراب . وتحمل هذا الغبار الناعم الدقيق الذى يملأ الجو ويخالط كل ذرة من ذرات الهواء ، وينتشر فى السماء كمثل السحاب ، يمنع الشمس ، ويحجب المرئيات ، ولا يمنع منه شىء ، فهو يدخل الغرف مهما أحكمت إغلاق الباب وضبطت النوافذ ، وينفذ من خلال الثياب مهما كانت حصيفة محكمة ، ويحش[2] فى العيون والمناخر والآذان ، وفى أصول الشعر ، ويمر إلى أجواف الصناديق ، وبطون الخزائن ، وقلوب الساعات ... بل إنه لدقته وخفته وسرعته ليكاد يدخل فى نفسه ...

وكان على صاحبنا أن يغدو إلى عمله فى بغداد ، وكان ينزل ضاحية من ضواحيها ، فتردد ثم لم يجد من الأمر بداً ، فتحزم وتدثر ، وتمطف بممطفه الثخين ، والتحف فوقه بالممطر (المشمع) يتقى به المطر ، ولف شملة على عنقه ، ولبس قفازيه ، وأخذ عصاه فتوكأ عليها ؛ وسار الهوينى ، لا يطيق حراكا ، لكثرة مايحمل من ثياب ، ولطول الطريق ، وشدة الرياح ، وما به من الضعف والاعياء .

***

وكان وحده فى طريق (الصُّلَيخ) ، لم يجد سيارة يركبها ، ولا قوماً يصحبهم ، فنزل ماشياً ، وكان الطريق طويلاً على طرفيه النخيل ، تعبث به الرياح فتميل بجذوعه وتحرك أغصانه . فتفرقها ثم تجمعها ، فتبدو كأنما هى مراوح ضخمة ، تحركها يد لا ترى ، فتُروّح بها على وجه الدنيا ، وكانت تظهر أوائلها ، وتغيب أواخرها فى هذا السحاب الترابى الذى يغطى على كل شىء ، ويصل الأرض بالسماء ، فترى الطريق كأنه صاعد إليها ، أو تراها كأنها هابطة إليه ؛ وكانت الرياح زعزعاً شديدة ، تميل بالأشجار وتمصف بالغصون ، ولم يكن ثابتاً وسط الرياح إلا صاحبنا بعصاه وضعفه وأحماله ... ولحظ ذلك من نفسه ، وأعجبه أن يلحظه ويفكر فيه ، وعراه شىء من الاعتداد بالنفس ، وازداد حتى ملأه الشعور بقوته ، فجعل ينظر فى عطفيه زهواً وتيهاً ، وجعل يتأمل دخيلته ، ويفكر فى نفسه ؛ من هو ؟ وما هذه الحياة التى يحياها ؟ ...

واشتدت الرياح وعزفت ، ثم صفرت صفيراً ، فلم يبال بها ولم يحفلها ، لأن زوبعة أخرى أشد هولاً قد هبت فى نفسه ... تنطح هذا الحب وتريد أن تنسفه . . فوقف يفكر : لماذا يضيّق حياته بيده ؟ لماذا يعطل فكره وملكاته ؟ أكل ذلك لأنه وجد إنساناً جميلاً ظن أنه يحبه ؟

لتكن جميلة أو قبيحة ، ما شأنه هو بها ؟ ومن قال إنه لا يعيش إلا بها ؟ ماذا كان يصنع قبل أن يعرفها ؟ ألم يكن يعيش ؟ ألم تكن حياته أجل وأحفل بالمطامح ، وأملأ بالفضائل ؟ هل كان هذا الحب إلا مرضاً عضالاً هد جسمه ومحا مواهبه ، وفل عزيمته ، وأقام بينه وبين الحياة سداً من لحم ودم ؟

يا للسخف ! أيحكم على نفسه بالألم الدائم ، والقلق المستمر ليحظى ذلك الانسان بالسرور والاطمئنان ؟

أيوجب على نفسه الشحوب لأنها موردة الوجنتين ؟ أيختار المرض والهزال لمجرد أنها صحيحة بضة ؟ ...

يا للخجل ! ألا يرى الدنيا إلا فى عينى هذا الانسان ؟ أيقنع من السعادة والمجد والعلم والبطولة والدفء والنور والحياة بابتسامة واحدة ؟

وبدا له الحب كأسخف شىء يكون . . . . . .

***

وكانت الدنيا قد استطير لبها ، وجن جنونها ، وهطلت الأمطار سريعة قوية ، تضرب وجهه ... فأحس بالقوة والنشاط ، وجعل ينشق ملء رئتيه ، وتبرق عيناه بريق العزم ، ثم ألقى عصاه وشملته ، ونزع عنه هذه الأحمال من الثياب ... وانتفض وضرب الفضاء بقبضته ، وصاح صيحة الفرح : قد شفيت !

ثم انطلق نحو الدنيا الواسعة . لم تعد محرمة عليه ، لأنه لم يعد يحب !

(بغداد) — علي الطنطاوي

(١) أى تميل (٢) قال فى القاموس : خشخشت فى المكان دخلت !

ما قول علمائنا ؟

الوحدة الاسـلامية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالأزهر

سمعت المحاضرة التى ألقاها بدار جمعية الشبان المسلمين صاحب السماحة الشيخ عبد الكريم الزنجانى كبير مجتهدى الشيعة ورئيس مجلسهم الأعلى ، وكانت المحاضرة فى الدعوة إلى الوحدة الاسلامية ، فرأيت فيه عالماً كبيراً ، وإماماً مصلحاً ، يندر وجود مثله بين علماء المسلمين فى هذا العصر . ولا غرو أن تنجب بلاد إيران مثله ، فقد أنجبت قبله فى هذا العصر ذلك الحكيم العظيم ، « جمال الدين الأفغانى » موقظ المسلمين من غفلتهم ، وباعث الدعوة الاصلاحية القائمة الآن فيهم ؛ وكأن الله أتى بالأستاذ الزنجانى ليكمل ما بناه قبله الحكيم الأفغانى ، فليسر الأستاذ فى سبيله ، ولينسج على منواله ، فالطريق ممهدة والغاية مرجوة ، والأمل كبير فى النجاح بعون الله تعالى

ولكن كيف تتم الوحدة الاسلامية التى يدعو الأستاذ الزنجانى إليها ؟ وما هو الطريق الموصل إليها حقيقة لا خيالاً ؟ هنا أخالف الأستاذ الزنجانى فيما يراه من قيام هذه الوحدة على إزالة الفوارق بين الطوائف الاسلامية فى الأصول الدينية على الأقل ، وتقريب شقة الخلاف بين هذه الطوائف حتى تنحصر فى الفروع وحدها

فانى أرى أن هذا طريق شائك لا يوصلنا إلى الغاية المطلوبة من هذه الوحدة ، لأن هناك خلافات حقيقية وكبيرة بين هذه الطوائف ، ولا يمكن التقريب بينها فيها ولو بذلنا فى ذلك ما بذلنا ؛ فلا بد من طريق آخر يوصلنا إلى هذه الوحدة غير هذا الطريق ويقوم فيه بناؤها مع قيام هـذه الفروق ، وبقاء تلك الخلافات فى الأصول والفروع

فالخلاف بين أهل السنة والشيعة فى عصمة الأئمة خلاف حقيقى ، وهو خلاف فى أصل من أصول الاعتقاد لا فى حكم من الأحكام الفرعية ؛ وأهل السنة يرون أن العصمة صفة خاصـة بالأنبياء والرسل عليهم الصـلاة والسلام ، أما الشيعة فلا يرون العصمة صفة خاصـة بهم ويعتقدون العصمة فى الأئمة من أهل البيت أيضاً ، ولـكنهم لا يقولون بأنهم أنبياء أو رسـل . وقد تكلف الأستاذ الزنجانى إزالة الفرق بين أهل السنة والشيعة فى هذا الاعتقاد ، فقال ما مؤداه إن عصمة النبيين تختلف عن عصمة الأئمة عند الشيعة ، وأنها فى الأئمة معناها العدل والثقة ، ونحن إذا وثقنا من رجل فى علمه ودينه وعمله استبعدنا أن يقع منه خطأ أو مالت نفوسنا إلى استبعاد وقوع هذا الخطأ منه ؛ أما عصمة الأنبياء فلها معناها الحقيق ، فهم معصومون عن كل خطأ ، والفرق ظاهر فى التقديرين وفى الحـكمين . وإنى أرى أنه لو كان هذا هو المراد من عصمة الأئمة لـما كان هناك معنى فى تسميتها عصمة ، ولـكان شأن الناس فيها كشأن الأئمة من أهل البيت وهو ما لا يقول به الشيعة

وكذلك الخلاف بين أهل السنة والشيعة فى خلافة الشيخين « أبى بكر وعمر » خلاف حقيقى ، وله قيمته عند الفريقين

ويضاف إلى هذا وذاك أن الشيعة فى أصول الاعتقاد يتفقون فى كثير منها مع أئمة المعتزلة ، ويخالفون أهل السنة ، كمسألة نفى الصفات وغيرها من مسائل علم الـكلام ، وهذه كلها خلافات يصعب إزالتها ، فلا يصح أن نطمع فى بناء الوحدة الاسلامية على محوها وإنما الواجب فى ذلك أن نقبل هذه الخلافات فى ديننا ، وأن تتسع لها صدورنا ، وأن نجعل الخلاف فى مثل هذه الأصول مثل الخلاف الذى نقبله فى الفروع ، فاذا قال الشيعة بعصمة الأئمة فلهم فى هذا رأيهم ، ما داموا يقولون إنهم أئمة معصومون ، وليسوا بأنبياء ولا برسل ؛ وإذا قال الشيعة إن عليا رضى الله عنه كان أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وأنكروا خلافتهما فلهم فى هذا أيضاً رأيهم ، ولنا رأينا فى أن خلافتهما خلافة صحيحة

وليقم الجدال فى هذا وأمثاله بين الطوائف الاسلامية على الاقناع بالحجة النقلية أو العقلية ، ولنبعد فيه عن التغالى فى التعصب للرأى ، والطعن فى الدين والعقيدة ، والرمى بالالحاد والـكفر ، ولنجعل الخـلاف فى الرأى أداة تواصل وتعارف ، لا أداة تقاطع وتجاهل ، وليقم الخلاف بيننا على أنه خلاف بين أخوين فى الدين ، تجمعهما كلمة الاسلام ، وتظلهما راية التوحيد ، وقد امتاز الاسلام على غيره من الأديان بما سنه من سنة الخلاف

فى الرأى ، فقال الله تعالى فى سورة هود (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم للمجتهد إذا أخطأ أجرا واحدا ، فاذا أصاب فله أجران ، ولم يفرق فى هـذا بين أصول وفروع ، بل أطلق الأمر إطلاقا ، وفتح باب الاجتهاد فى الأصول والفروع معاً

وهـذا هو الأساس الصحيح الذى لا يمكن أن تقوم على غيره تلك الوحدة المطلوبة ، أما ذلك الأساس الذى يراد بناؤها عليه فلا يمكن تحقيقه أبداً ، لأن الخلاف فى الرأى سنة طبيعية فى الإنسان ، وعلى هذا مضى أمره منذ الخليقة ، وسيمكث عليه إلى ما يشاء الله تعالى

ولا بد أن أشير فى هـذه الكلمة إلى أنه لابد فى تحقيق تلك الوحدة من قبر ذلك الماضى القائم على التدابر والتقاطع ، ولا يمكن قبر هذا الماضى إلا بقبر هذه الكتب المتدابرة المتقاطعة ، وهى الكتب التى يدرسها أهل السنة فى الجامع الأزهر بمصر ، والكتب التى يدرسها الشيعة فى معهد النجف الأعلى بالعراق ؛ وقد أخذت النفوس فى الأزهر هذه السنة تحن إليها ، وتعمل على إعادة كثير منها ، وتمدح مماحكاتها اللفظية الساقطة ، وتنسى ما جلبت من الشقاء على الاسلام والمسلمين ، وأنه بينما كانت كل قوانا الفكرية مصروفة إلى ألفاظها ، كانت قوى غيرنا مصروفة إلى حقائق الأشياء ومعانيها ، فنجحوا فى علومهم دوننا ، وتقدموا وتقهقرنا ، ولم تنفعنا هذه المماحكات اللفظية التى برعنا فيها . ولابد أن أشير أيضاً إلى أنه لا يكفى فى تحقيق تلك الوحدة أن يزور الأستاذ الزنجانى الأزهر والكليات التابعة له ، ثم نبادله فى معهد النجف الأعلى زيارة بزيارة ، بل لابد من الاعتراف فى الأزهر بفقه الشيعة ودراسته فيه كما يدرس فقه أهل السنة ، ويكون هذا بندب أستاذ لدراسته فى الأزهر من أساتذة معهد النجف الأعلى ، كما يجب أن يعترف الشيعة بفقه أهل السنة ، ويدرسوه فى معهدهم كما ندرس فقههم فى أزهرنا ، ويكون هـذا بندب أستاذ من أساتذة الأزهر لدراسة فقهنا عندهم ، فيتم بهذا التعارف بيننا وتزول تلك الجفوة الممقوتة ، وتتحقق تلك الوحدة المطلوبة

عبد المتعال الصعيدى

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

— ٣ —

إن العلم يجب أن يكون حراً طليقاً يبحث فى العالم المجهول حيث شاء وأين وقع . هكذا تقول أنت ، وهكذا كنت أقول ياسيدى ، ومن أجل جهرى بهذا الرأى وإعلانى إياه بصوت غير خافت ساء ما بينى وبين قوم ذوى نباهة وسلطان . كلانا مخطىء ياصاحبى فى زعمه ! وشاهدُنا إسميثُ الذى نحن بصدده . بدأ عمله مستمتعاً بحرية لا تزيد إلا قليلاً على حرية كاتب حكومى صغير ، ووجب عليه ألا يبحث إلا فى أشياء يمليها عليه الدكتور سلمون ، وهذا بدوره إنما استُخدم ليوجّه إسميث إلى حل معضلات أعجزت المزارعين وأرباب المواشى . فالثلاثة جميعهم — سلمون وكلبورن وإسميث ، وكذلك اسكندر ، وليس بنا عنه غنى — كل هؤلاء دفعت السلطات إليهم أجورهم كما تدفعها إلى فرقة المطافئ ، وانتظرت منهم مثل الذى تنتظره من فرقة المطافى : أن ينهضوا كرجال الحريق كلما اشتعلت عدوى المرض فى الخنازير والعجول والثيران والخرفان فيوجهوا إليها خراطيمهم فيندفع منها العلم اندفاعاً حتى تنطفىء فيعود البرء والسلام إليها . وكان أصحاب الماشية فى هذا الوقت قلقين قلقاً شديداً من جراء مرض غريب يُدعى بحمّى تكساس[1]

كانت الأقطار الجنوبية تستورد أبقاراً من الشمال ، فتُساق هذه الأبقار السليمة من القُطُر الحديدية إلى المراعى فتنساب فيها فتختلط بأبقار الجنوب وهى جِدّ سليمة ، فيمضى الشهر أو الشهران على خير ، ثم فجأة تظهر الوافدة الخبيثة فى هـذه الأبقار الشمالية الجميلة فلا تلبث أن تعاف الطعام ، ويصيبها الهزال فتفقد فى اليوم الواحد أرطالاً من وزنها ، ويجرى بولها أحمر

(١) تكساس ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية فى أقصى جنوبها

غريباً ، وتقف حائرة متقوّسة الظهر حزينة العين ، ثم لا تمضى أيام قليلة حتى تكون كل بقرة قد سقطت سقطة الاعياء ، ثم ترقد على الأرض رقدة الموت ، وقد تصلبت أرجلها ، واستترت بجسومها الباردة المديدة أرض الحقول . وحدثت هذه المأساة عينها عند ما استورد أهل الشمال من الجنوب عجولا ، فلما رعت هذه العجول فى الحقول ونزحت عنها ، وحلّ محلها قطعان من بقر شمالىّ ، لم يمض على هذا البقر ثلاثون يوماً أو نحوها حتى أخذ يموت ، ولم تمض عشرة بعد أيام ذلك حتى عمّه الموت

أى موت غريب هذا الذى حملته الأبقار الجنوبية الى الحقول الشمالية دون أن تصاب هى به ، فاختبأ بعد ذلك فى مخابىء الأرض يتربص لأبقار الشمال ليذيقها عذاب الموت ألوانا ؟ وما السر فى أنها إذا طلعت على هذا الموت المخبوء لا يبادرها بالهلاك بل يتمهل شهراً أو يزيد ؟ وما السر فى أن هذا الهلاك لا يُحيق بها إلا فى أشهر الصيف الحِرار

وثارت ثائرة الأمة[١] كلها من أجل هذا ، وساءت العلاقة بين أصحاب البقر فى الشمال وأصحاب البقر فى الجنوب . وهاجت مدينة نيويورك[٢] وارتاع أهلها لما جاءت الأنباء بموت مئات من الأبقار فى القُطُر التى كانت تحملها من الغرب اليها لتتغذى من لحومها . وتحرج الموقف ، وصار لابد من عمل شىء ، فنهض الأطباء الفخام فى مصلحة الصحة للمدينة العظيمة وأخذوا فى البحث عن المكروب الذى سبّب هذا الداء . . .

وكان فى الغرب طائفة من البقّارين كسبوا الحكمة من طول تربيتهم للبقر ، فخالوا لهذا الداء علة أُوحيت اليهم إيحاء من خَلَل الدخان المتصاعد من تراجيلهم وهم يتأسّون بتدخينها فوق الجثث المركومة التى أضاعوها بسبب هذا الداء . خالوا فى شىء من الابهام أن هذه الحمّى التكساسية تسببها حشرة تعيش على جلد البهيمة وتمتص دمها ، وأسموا هذه الحشرة القرادة tick[٣]

وضحك الأطباء العلماء فى مصلحة الصحة بالمدينة العظيمة ، وضحك معهم كل بيطرى ممتاز فى المحطات التجريبية الحكومية .

(١) الأمة هى الولايات المتحدة الأمريكية
(٢) تذكر أن نيويورك تقع من الولايات المتحدة فى شمالها الشرقى
(٣) القراد دويبة تتعلق بالبعير ونحوه وهى كالقمل للانسان

قرادة تقدح حمى ! حشرة تخلق داء ، من ذا الذى سمع بهذا أبداً ! وأى علم يرضاه ؟ إنها حماقة بالغة ! وقال الدكتور جامجى Gamgee وهو عمدة فى الموضوع معروف : إن تفكيرا يسيراً قصيراً يقنع كل أحد بسخافة الفكرة . وكان قائماً قاعداً فى بحث حمى تكساس ، ولكن لفظة القُراد لم تخرج من فيه أبداً . وكان العلماء فى كل نواحى القطر قائمين فى تقطيع أجسام الأبقار النافقة وكانو يجدون البشلات فى بطونها ، ولكنهم لم يستخرجوا منها قُرادة واحدة ! قال أحدهم : إن روث البهائم[١] ينشر بينها الحمى ، فقال الآخر : إنك مخطىء ، بل إن اللعاب ينقلها . وهكذا تعددت النظريات بتعدد الباحثين ، وظلت الأبقار تموت وهم يختلفون

— ٤ —

وفى عام ١٨٨٨ كلّف الدكتور سلمون رجاله الثلاثة أن يتوفروا على بحث الحمى التكساسية ، فوضع اسميثَ فى القيادة يعاونه كِلْبورن ، ثم اسكندر ينظف من ورائهما . وطلب إليهم « أن يكتشفوا الجرثومة » ، ولم يذكر لهم شيئاً عن القراد . ولم يأتهم فى هذا العام من البقر غير أربع من الأكبدة ومثلها من الأطحلة ، جاءتهم فى الثلج فى جرادل من فرجينيا Virginia وماريلاند Maryland [٢] إلى غرفتهم فى ذروة البناء وهى كالفرن فى حرارتها

وكان لدى اسميث حسّ لم يكن لدى سائر البحّاث ، فحرّر مكرسكوبه على قطع من الطحال الأول فرأى فيه مكروبات كثيرة عديدة الأنواع . واقترب بأنفه منها فتجمّد من سوء ما أحسّ من رائحتها . فقد كانت فاسدة

عندئذ قام برسل الرسائل فوراً إلى البقّارين أن ينتزعوا أحشاء البقر عقب موته بلا تريّث ، وأن يرسلوها اليه فى الثلج ، وأن يعملوا على تقصير ما تستغرق من الوقت فى سفرها . وأنفذوا ما أراد . ونظر فى الأطحلة لما جاءته فلم يجد بها مكروبة واحدة ، ولكنه وجد بها عدداً كبيراً من خلايا الدم الحمراء قد انفقع لغير سبب ظاهر ، قال : « إن هذه الخلايا انفقعت

(١) ماتتغوطه
(٣) ماريلاند وفرجينيا ولايتان من الولايات المتحدة على المحيط الأطلسى جنوب ولايتى نيويورك وبنسلفانيا

فتحطمت بفعل فاعل » ، ولكنه لم يجد مكروباً ، وكان لا يزال حدثاً ، وكانت به سخرية الشباب ، وكانت به قلة اصطبار واحتمال للبحاث الذين لا يقدرون على التفكير العميق والتركيز الشديد

وكان رجل يُدعى بيلينجس Billings ادّعى فى سخافة أنه رأى بشلة عادية فى كل جزء من جثة كل بقرة فحصها ، وفى كل ركن من أركان الزريبة ، حتى فى أكوام روثها ، ونسب إلى هذه البشلة حمّى تكساس ، ونشر عن ذلك مقالاً قال يفتخر فيه : « إن شمس البحوث الأصيلة فى الأدواء تحوّل مطلعها من الشرق إلى الغرب [1] »

قرأ إسميث هذا المقال فقال : « تلك لعمرى طنطنة الفخور الغالى » . وعقّب على هذا ببضع جمل قصيرات قاسيات نال بها شر منال من هذا العبث الذى يُدعى علماً . واستيقن أن لا فائدة من الجلوس فى معمل مهما كثرت خنازيره الغينية ، وترصصت زاهيةً بارقةً محاقنه ، ما دام أن الباحث لا يصنع فيها إلا التحديق فى أكبدة وأطحلة من جثث بقر نالها الفساد إن قليلاً وإن كثيراً ، وأراد أن يسلك السبيل السوى ، سبيل التجريب الصادق ؛ أراد أن يدرس الداء فى البهائم الحية ، أراد أن يدرسه فيها وهى تلفظ آخر أنفاسها ، أراد أن يتتبع الطبيعة فى خطواتها . وجاء صيف عام ١٨٨٩ فأخذ يتجهز له . وذات يوم أخبره كلبورن Kilboren بخبر تلك النظرية الخرقاء التى يتحدث بها البقارون ، تلك النظرية التى تعزو الداء إلى قُراد البقر

عندئذ أرهف إسميث آذان عقله ، لو أن للعقل آذاناً : « إن البقّارين الذين يعيشون مع البقر ، ويخسرون البقر إذا مات ، ويرون من هذه الحمى الخبيثة أكثر مما يرى البحاث ، هؤلاء البقارون هم الذين يقولون بهذه النظرية ! »

وُلد اسميث فى المدينة ، فهو ابن المدينة لا ابن الريف ، ومع هذا فقد كانت تستهويه نفحات الحشيش وهو يُحَشّ ، وأخاديد الحقل الدكناء وهو يُفلَح . وكان يؤمن بتلك الجمل القصيرة المقلّمة التى ينطق بها الفلاحون عن الجو وعمّا تنبت الأرض ، وكان يرى الحكمة فيها وأنها الحق أو أقرب ما تكونه . كان إسميث ضليعاً فى الرياضيات عارفاً باختر الآتها البديعة ، وهى علوم يجهلها كل الجهل هؤلاء الرجال الذين اصطنعوا الأرض واحترفوا فلاحتها . وكان كذلك ضليعاً خبيراً فى كل تلك العلوم التى تتمثل فى المجاهر والأنابيب والخرائط وبريق المعامل ، ملمًّا بكثير من فنون العرفان الدنيوى الصناعى المزوّق الذى درج على احتقار الحكمة تجرى على ألسن العامة ، والسخرية بسذاجة الفلاح وبساطة حاله . ولكنه مع كل هذه الدراسات الواسعة لم يأذن للأبنية الفخمة والمعامل البديعة وأجهزتها المعقدة أن تمكر عليه فكره الرائق ، أو تتنفس على مرآة ذهنه الصقيلة ، وهذا فيمن نشأ نشأته غريب نادر . وكان دائم الشك لكل ما يحصّله من الكتب ، دائم الريبة فى كل ما تريه الأنابيب ... ونظر إلى أشد الفلاحين جفافاً واخشيشاناً ، وأحصرهم وأعقدهم لساناً ؛ حتى إذا أمسك ببيبته — وهى من قلاح الذرة — فأخرجها من قبضة أسنانه — وقد تكون صفراء قَلِحة قذرة — فمهم كالرعد بالمثل الريفى المشهور : « شآبيب ابريل تنبت زهور مايو » ، سقط هذا القول من فم هذا الفلاح إلى قلب صاحبنا كأنما سقط من شفة حكيم أريب

واستمع إسميث إلى كلبورن وهو يتحدث حديث النظرية السخيفة ، وأكّد له كلبورن أن البقّارين فى الغرب يكادون يجمعون على أن القراد أصل البلاء ، ثم أخذ يفكر مليًّا : « رؤوس هؤلاء البقارين خالصة من زخارف المنطق ومفسدات الفكر ، وإن أجسامهم لتتفاوح منها روائح الثيران والعجول كأنهم بعضها ، وهم هم الذين سهروا الليالى وقد تركّزت فكرتهم على الداء وهو يجرى بالفناء فى عروق بهائمهم فيحيل دمها الثخين ماء رقيقا ، وينتزع لقمة الرزق من أفواه أبنائهم وعيالهم ، وهم هم هؤلاء الذين قاموا على دفن هذه البهائم الضائعة بعد موتها . فهؤلاء الفلاحون هم الذين يقولون فى نَفَس واحد : « لا حمّى حيث لا قُراد »

فارتأى إسميث أن يتّبع الزراعين ، وأن يراقب الداء عن كثب مراقبة البقارين ، وتلك طريقة مستجدّة فى صيادة المكروب : اتباع الطبيعة والتدخل فيها بالحيلة الهيّنة القليلة ..

---

(١) لعله يقصد من أوروبا إلى أمريكا

وجاء صيف عام ١٨٨٩ واشتد حره ، فذكر الناس خسائرهم الماضية ، وذكروا شكاواهم المرة التي كانت ، فكان لابد من عمل شيء . وأحست الحكومة كذلك بالحاجة الى عمل حاسم ، فاعتمدت الوزارة للبحث مبلغاً طيباً من المال ، وقام الدكتور سلمون بادارة البحث المطلوب . ومن حسن الحظ أنه لم يعرف إلا القليل عن التجارب والتجريب فلم تقم إدارته عقبة فى سبيل إسميث أبدا

— ٥ —

وفى منطقة منعزلة بعيدة أقام إسميث معمله ، وأعانه كلبورن فى إقامته . وما بالمعمل المعهود كان ، فلم يحدّه سقف وأربعة أركان ، بل كان سقفه السماء الحارة ، وكان حجراته خمسة أو ستة من الحقول تسوّرت عن بقية الأرض بسور . وفى يوم ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٩ جاءت سفينة فخرجت منها الى المعمل سبع بقرات نحيفة بعض النحافة ولكنها صحيحة سليمة . وجاءت هذه البقرات من كَرُلينة الشمالية [1] وهى بؤرة الحمى التكساسية ومقبرة كل بقرة تدخلها من الأقطار الشمالية . وكان على ظهور هذه البقرات بضعة ألوف من القُراد ، منها الصغير الذى لا تراه إلا بالمجهر ، ومنها أُنثيات عظيمة تبلغ نصف بوصة طولاً ، قد انتفخت مما امتلأت بالدم الذى شربته من الجسم المذب المنكود الذى أضافها غيرَ مختار

فساق إسميث وصاحبه كلبورن الى الحقل الأول أربع بقرات من هذه ، وأدخلوا معها ست بقرات شمالية سليمة . قال إسميث : « والآن فلن يلبث القراد أن ينتقل الى هذه البقرات الشمالية ، وهى لم تعرف قط ما الحمى التكساسية ، فهى لا تعرف ما الحصانة منها ... » ثم قال : « والآن فلننهض الى حيلة يسيرة لنعرف أحقاً هذا القراد سبب الحمى »

وأنفذ حيلته الأولى — أو إن شئت فأسمها تجربته الأولى — وما كانت إلا تجربة قليلة ، كان فى استطاعة أى بقّار ذكىّ أن يبتدعها لو أنه فرغ من عمله الكثير للتفكير . أما سائر العلماء الامريكيين فعدوا هذه التجربة من السخف بحيث لا تستأهل محاولة . وبالرغم من هذا قام إسميث وكلبورن فأجرياها ، فأخذا يلتقطان بأيديهما ما على ثلاث البقرات الجنوبية الباقية من قُراد فلا يفلتان منه واحدة ، وأخذ البقر يرفص ويضرب فى وجههما بذيله ، واحتر الجوّ فعلت درجته على السابعة والثلاثين ، وارتفع تراب الأرض برفص البهائم فانعقد سحباً فوق الرجلين وحولهما ، وامتزج بالعرق على جبهتيهما فتعجّن وتاصّق . واحتل القراد من جلود البقر موضعاً تحت شعورها المتلبّدة ، وخرج صغاره من اللبَد فما أحس بأنامل اللاقطين وهى مجهودة تتحسّس حتى انكفأ راجعاً يجد له فى مسارب الشعر مهربا . وتلك القرادات الكبيرة ، تلك الأنثيات التى جرَعت من الدم حتى انتفخت ، كانت لا ترضى أن تُنتزَع فتتعلق بجلد البقر ، فاذا شدّت عليها أنامل اللقّاط انفقمت فتبجس دمها ولوّث

ولم ينقض النهار حتى خلصت البقرات الثلاث من القُراد جميعه ، فلم تكن لتجد على جلدها قرادة واحدة ، فوضعاها فى الحقل الثانى ، ووضعا معها أربع بقرات شمالية صحيحة ؛ ثم قالا : « هذا البقر الشمالىّ على تمام الاستعداد لأخذ الحمّى والموت بها لو تهيأت اليه أسبابها ؛ وقد وضعناه الآن مع هذا البقر الجنوبى على أرض واحدة ، فسيأكل الجميع حشيشاً واحداً ، ويشرب الجميع ماء واحداً . وهذا البقر الجنوبى سيحك أنوفه فى أنوف الشمالىّ ، وسينتشم رَوْثه ، ولكنه لن يستطيع أخذ قرادة واحدة منه . إذن فلنصبر لنرى ما شأن القراد والحمى ! »

وصبرا على القلق والحرّ شهرين : يوليو وأغسطس ، تسلى فيهما إسميث بدراسة القراد دراسة واسعة ، أعانه فيها خبير فى الحشر حكومىّ يدعى كُوبَر كِرْتيس Cooper Curtice . فدرسا معاً حياة القراد وأعماله وأحواله ، فاكتشفا كيف يتساق طفل القراد وله ست أرجل ظهرَ البقرة ، وكيف يرتبط بجلدها ، فلا يقع من على ظهرها ، وكيف هو يمص من دمها بعد ذلك ، وكيف ينسلخ من جلده ثم يزيد فى أُبّهة إلى أرجله الست رجلين فتصير ثمانية ، ثم هو ينسلخ من جلده مرة أخرى ، واكتشفا كيف

(١) ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية تقع على المحيط الأطلسى جنوب ولاية فرجينيا وإنما أسميت بالشمالية تميزا لها عن ولاية كرلينة الجنوبية التى تقع جنوبها

أن الأنثى من بعد ذلك تتخذ لها زوجاً صغيراً تتزوجه على ظهر البقر ، ثم كيف تجرع بعد ذلك من دم البقر جرعات عظيمات كأنها وليمة العرس ، فاذا هى استكملت أنوثتها سقطت إلى الأرض لتبيض فيها ألفى بيضة أو تزيد ؛ وعندئذ ، وبعد ما لا يزيد على عشرين يوماً من تسلقها رجل البقرة فى أول مرة ، تكون قد أدّت رسالتها فى هذه الحياة الدنيا فتأخذ تنضمر ثم هى تموت . أما الألفان من البيض فتبدأ فيها سِيَرٌ وأحداث غريبة أخرى

وكان إسميث لا يفوته السفر إلى معمله فى العراء البعيد يوماً واحداً ، وكان يجد رَوْحه فى الخروج من المدينة وترك معمله المعهود فى تلك الحجرة الكابسة الحابسة هرباً من صراصيرها ولو إلى تلك الحقول وهى تكاد من الحر تتقد ناراً ، وكان كابورن قوّاماً على معامل الحقل ، وهو الذى طلب الرزق بعد ذلك من تجارة الصينى والفخّار . وكان إسميث يدخل الى الحقل الأول ليرى هل ظهر القراد على أى من البقرات الشمالية ، وليرى هل زادت حرارتها وأخذت رقابها تميل . ثم هو يخطو من بعد ذلك إلى الحقل الثانى ليلتقط من على ظهور البقرات الجنوبية التى فيه بضع قرادات ظهرت عليها ، وما كان أغفلها فى لقطه الأول ، ولكنها كانت عندئذ صغيرة لا تُرَى . وما كان تنظيف البقر من القراد والتيقّن منه إلا عملاً ثقيلاً مجهداً . والحق أن تلك الأيام التى صبراها على الحر والعرق لم يكن فيها إلا السأم امتد واتصل ، حتى جاء يوم بعد منتصف أغسطس بدأت تطلع البشائر فيه . فى هذا اليوم ظهر القراد على بقرة من البقر الشمالى فى الحقل الأول ، ولم يمض طويل حتى تقوس ظهرها وعافت الطعام . ثم ظهر القراد على كل أخواتها ، وانقدت الحمى فيها جميعاً ، وخفّ دمها فصار كالماء ، وشفّت أضلاعها وبرزت فى الجوانب عظامها . والقراد ؟ رحماك فقد كان يموج عليها موجاً

هـذا هو الحقل الأول . أما الحقل الثانى حيث لا قراد ، فقد ظلت البقرات الشمالية فيه صحيحة سليمة كصاحباتها الجنوبية التى اختلطت بها

(يتبع) أحمد زكى

بحث لغوى

كلمة « قرآن »

بقلم محمد طه الحاجرى

للقراء فى أداء كلمة قرآن طريقان : تحقيق الهمزة فيها ، وإهمالها منها ؛ فبعضهم يقرؤها « القران » وبعضهم « القرآن » والقراءة غير المهموزة تنسب إلى إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين [1] قارئ أهل مكة فى زمانه ، وآخر أصحاب ابن كثير زمانا ، كما يقول عنه الذهبى فى كتابه «طبقات القراء المشهورين» وقد روى عن أبى عبد الله الشافعى قوله فى هذا الصدد ، قال : « قرأت على إسماعيل وكان يقول القرآن اسم وليس بمهموز ، ولو كان من قرأت كان كل ما قرئ قرآنا ، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والانجيل ، تهمز قرأت ولا تهمز القرآن » وكذلك روى صاحب اللسان مثل هذه الرواية ، وزاد عليها تزكية لها وإعلاء لسندها النسب الذى يصل قراءة اسماعيل بالقراءة الأولى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « قال اسماعيل قرأت على شبل ، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير ، وأخبر عبد الله أنه قرأ على مجاهد ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس رضى الله عنهما ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبىّ ، وقرأ أبىّ على النبى صلى الله عليه وسلم » ، وبعد أن أورد ابن منظور هذا القول روى عن أبى بكر بن مجاهد أنه قال : « كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القرآن ، وكان يقرؤه كما روى عن ابن كثير » فهذه إذن قراءة معتبرة لا شك فى صحتها وقوة سندها

ولكن عبارة القسط ينظر إليها من ناحيتين : ناحية الرواية وناحية الدراية أو التعليل ، أما الأولى فلا كلام لنا فيها ، وأما الناحية الثانية فقد نازعه فيها كثير من العلماء الذين أورد الفخر الرازى أقوالهم ، فقد قال الزجاج عن قول اسماعيل هذا إنه سهو والصحيح أن ترك الهمزة من باب التخفيف ، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، فكأنه يرى أنها مشتقة من مادة قرأ ، وأنها تساوى كلمة قرآن المهموزة ، إلا ما كان من هذا التخفيف الذى تجيزه اللغة وتخضع له ، ولا يغير شيئاً من أصول الكلمات فيها

على أن هذا التخفيف كثير شائع مطرد فى كثير من القراءات التى ترجع إلى أهل الحجاز لما فى طبيعة نطقهم وميلهم اللغوى ، وهاك ما يقوله ابن الجزرى فى كتابه : « النشر فى القراءات العشر » : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا ، تنوع العرب فى تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل والبدل وبينَ بينَ والأدغام وغير ذلك ، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفاً ، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كابن كثير من رواية ابن فليح ، وكنافع من رواية ورش وغيره ، وكأبى جعفر من أكثر رواياته ، وكابن محيصن قارئ أهل مكة مع ابن كثير وبعده ، وكأبى عمرو فأن مادة قراءته عن أهل الحجاز »

وهذا صريح جلى فى بيان قول الزجاج وصحة مذهبه ، وأن اسماعيل بن قسطنطين قد غاب عنه المنحى العربى اللغوى فى مثل هذا ، فذهب يلتمس التعليل المنطقى ويقول : « لو كان من قرأت كان كل ما قرئ قرآناً » كما غاب عنه أيضاً أن الاصطلاح من طبيعته أن يحدّ من مدلول الكلمة المصطلح عليها

وذهب آخرون إلى تلمس اشتقاق لها فى مادة « قرن » باعتبار أن الكلمة على أصلها لم تعان شيئاً من الابدال والاعلال : فقال قوم إنها مشتقة من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه ، ونسب إلى الفراء القول بأنها مشتقة من القرائن لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً ويشابهه

هذا مجمل الآراء فى تعليل كلمة قُران بغير همز . أما القراءة الأخرى المهموزة فاختلف كذلك فى اشتقاقها على قولين أو ثلاثة

فابن جرير الطبرى يروى رأيين فى هذا ، أحدهما عن ابن عباس ، والآخر عن قتادة ، أما الأول فيذهب إلى أن القرآن مصدر من قول القائل : « قرأت » كقولك الخسران من خسرت والغفران من غفر الله لك ، والكفران من كفرتك ، والفرقان من فرق الله بين الحق والباطل — ولم يتعرض الطبرى لرواية قراءة ابن عباس لها ، وإن كان مساق القول فى المهموزة ، لكن ذلك لا يعتبر نصا ؛ وإنما تعرض لاشتقاقها . وقد رأينا من كلام

(١) ويلقب فى كتب طبقات القراء بالقسط ، كأنه تعريب اسمه

اسماعيل بن قسطنطين أن سند قراءاته يتصل بابن عباس ؛ فكأن ابن عباس كان يقرؤها مخففة ، ويعلم أنها مخففة عن تحقيق ، كما رأى ذلك الزجّاج فيما سبق بيانه[١]

أما رأى قتادة فهو أنها مصدر من قول القائل : « قرأت الشيء » إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض ، كقولك ما قرأت هذه الناقة سلى قط ، أى لم تضمم رحما على ولد قط . كقول عمرو بن كلثوم :

ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أما الرأى الثالث فيرويه السيوطى فى كتاب الاتقان عن الزجاج . فهو يرى أنه مشتق من القرء بمعنى الجمع . ثم هو لا يعتبره مصدراً — كما روى عن ابن عباس وقتادة — وقد سمى به الكتاب المقروء ، وإنما يعده وصفاً على فُعلان

وقد وقف الطبرى بين رأيى ابن عباس وقتادة ، ثم أخذ يرجح الأول على الثانى بأنه يتمشى مع تأويل قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » على الأصل الثابت المقرر فى الدين ، إذ لو كان القرآن هنا بمعنى الجمع والتأليف لما لزم الرسول صلى الله عليه وسلم فرض « اقرأ باسم ربك » ولا فرض « يأيها المزمل » ولا غيرهما من آى القرآن الكريم قبل أن يؤلف إلى ذلك غيره من القرآن

وهذا توجيه وجيه استطاع ابن جرير أن يملك به على خصمه الحجة فى أسلوب منطقى حاسم

ونحن إذا أجزنا لأنفسنا أن ندخل فى هذا النزاع ، وندلى برأينا فيه ، اتخذنا لأنفسنا مسلكا غير ذلك المسلك ؛ فقد نستطيع أن ننظر إلى المسألة من ناحية فنية محضة ، نلتمسها فى القرآن نفسه ؛ وحينئذ نلاحظ أن كلمتى القرآن والقراءة تزدوجان فى كثير من آى الكتاب الكريم ، فأولى أن تكون كلمة « القرآن » مشتقة من القراءة لا من القرء ، قال تعالى :

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا » . «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» . «إن علينا جمعه وقرآنه » « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »
« فاذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »

وقد تقترن بكلمة القرآن كلمة التلاوة فى نحو قوله تعالى :

« وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن » . « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله »

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشير إلى أصل كلمة قرآن إشارة نحسبها كافية فى مثل هذا المجال

ثم إن تسمية القرآن بالذكر وبالكتاب تشير إشارة ما إلى هذا الأصل أيضاً ، وحسبنا هذا

فاذا انتقلنا من مادة قرآن إلى صيغتها رأينا المتقدمين يختلفون فيها : هل هى مصدر أو وصف على فُعلان . وأيا كان الوجه فلا شك أنها قد تركت المصدرية أو الوصفية وتمحضت للاسمية المحدودة ، علما على ذلك الكتاب المقدس

ولكن بعض المستشرقين مثل شفللى Schwally وفلهوزن Wellhausen يعارض فى عربية كلمة « قرآن » ، ويرى فيها كلمة « قِريانى » السريانية ، وهى بمعنى القراءة أو المقروء ، ويقوى هذا الفرض لديهم مقاربة الكلمة السريانية للكلمة العربية فى الصيغة ولكن هذه المقاربة أو المشابهة لا قيمة لها ، لأن فى العربية كثيراً من المصادر على وزن فُعلان مثل رجحان ونقصان وغفران وكفران وخسران وغير ذلك مما هو عربى صريح مادة وصيغة ، فأى شيء يلجئنا إلى مثل هذا الفرض ؛ ألأن السريانية لغة الانجيل ... ؟

قد لا نمنع أن يكون الكتاب الكريم قد استحدث كلمة « قرآن » استحداثا ، وليس هذا الاستحداث بالأمر الغريب فى اللغة . بل ربما لم نجد بدا من فرض ابتداع القرآن الكريم لهذه الكلمة ، ما دامت نصوص اللغة الجاهلية الصريحة النسبة الى ما قبل الاسلام قليلة نزرة لا تمدنا بالدلائل العلمية الكافية القاطعة .

ولكن إذا كان كتاب الله قد استحدثها فذلك من أصل عربى وعلى نحو عربى . وقد لا يكون ذلك النحو شائعاً فى اللغة كثير السريان فيها كغيره من الصيغ ، ولكنه فى حقيقة الأمر موسيقى مرنان ليس أجدر منه أن يكون اسما وعنوانا لذلك

(١) غير أن الزجاج يخالف ابن عباس فى المصدر المشتقة منه كلمة قرآن كما ستعرف

الـكتاب الخالد . وقد قصـد الى تقرير ذلك الاسم فى الأذهان إذا كان ذلك من الأمور الخطيرة فى الدعوة ، ولذلك كرره أكثر من ســتين مرة على أساليب متنوعة ، وفى مواضع مختلفة ، ومناسبات شتى

لقد كان أساس الدعوة الى الدين الجـديد هو القرآن ، ولاسيما فى العهد المـكى ، فلا جرم كان تقرير اسمه أمراً جديراً بالعناية فكان كثير التكرار كما قلنا ، وهذه الـكثرة واضحة وضوحا تاما فى العهد المـكى ، دون المدنى الذى لا نكاد نقرأ فيــه كلمة (القرآن) فى أكثر من خمـسة مواضع ، وقد كان المقتضى لذكرها فى بعض هذه المواضع مجرد السياق الذى لابد منه كما فى آية سورة التوبة : « . . . وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن » أو سبب النزول كما فى آية سورة المـائدة : « ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لـكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لـكم » — على حين نرى فى إحـدى السور المكية الظاهر فيها أسلوب الدعوة الحارة المفتنة ، والجـدل القوى الغلاّب ، وهى سورة الاسراء ، أن كلمة القرآن تكررت فيها نحو ثمان مرات . والفرق بين العهدين ظاهر ، فنى العهد المدنى كان اسم « القرآن » قد ثبت وتقرر وأخذ ذلك المعنى المحدود فلم تعد الحاجة ماسة الى تكراره وإشاعته ، كما فى العهد المـكى

إن قول المستشرق فى إنكار كلمة « قرآن » يرجع — فيما أحسب — الى أصلين : أحدهما قولهم فى القرآن إنه يصدر عن أصول أجنبية كالتوراة والانجيل ، فن هنا لا يرون بأسا فى أن يكون القرآن قد استعار عنوانه من هذه المصادر أو من اللغة التى كتبت بها ، ولاسيما إذا عُزز هذا الأصل الثانى المقرر لديهم وهو عدم ورود كلمة قرآن فى نص جاهلى ، وبعد الذى تقرر من صيغة فعلان صيغة عربية صريحة لا يكون لهم إلا إنكار مادة قرأ بمعنى القراءة فى اللغة العربية الخالصة L'arabe pur ، وقد يكون لهم عذرهم فى هذا ، فأن من العسير حقاً أن نعثر فيما بين يدينا من النصوص الجاهلية على مادة القراءة ، وإنى أقطع بأن هذه المادة لم تجئ فى المعلقات العشر ، وإنما وردت كلمة « تقرأ » فى بيت عمرو بن كلثوم على رواية أبى عبيدة ، ولـكن هذا من واد آخر ولـكن هبه صحيحاً أن مادة القراءة لم ترد فى نص جاهلى آخر ، فهل يدل هذا دلالة قاطعة على عدم وجود الـكلمة فى اللغة ؟ إنما يكون هذا لو أن الأدلة انحصرت فى النص وحده ، وليس النص هو كل شئ ، فالوقوف عنده يؤدى بنا من غير شك إلى الخطأ فى الاستنتاج

لم تـكن العرب قبل الاسلام أمة كتلك الأمم التى تعيش فى حالة أوليـة ، وإنما كانت أمة تجارة تتعامل بتجارتها مع أمتى التاريخ الـكبريين : الفرس والروم على معرفة وبصيرة ، وكانت مكة بصفة خاصــة مركزاً من المراكز الـكبرى لهذه التجارة الواسعة النطاق ، وكانت المظاهر التجارية فيها بارزة فى حياتها بروزاً كبيراً مما دعا الأب لامنس H. Lammens إلى تلقيبها فى كتابه عنها بالجمهورية التجارية . وهذه الحياة التجارية تعتمد إلى حد كبير على الـكتابة — ولن تـكون كتابة بغير قراءة — فن الغريب جداً الحـكم بأن لغة العرب لا تحتوى على ما يدل على هذا المعنى . وإن النصوص الجاهلية نفسها تدل على أن العرب قد اتخذوا الـكتابة ، لا فى الوثائق التجارية فقط ، بل فى عقد المحالفات بين القبائل المختلفة ، وحسبنا ما قاله الحارث بن حلزة فى شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه العهود والـكفلاء
حـذر الجور والتعدى وهل ينقض ما فى المهارق الأهواء[1]

ونحن نعرف فى السيرة مظهراً من مظاهر هذه العهود فى « عهد الحديبية » وكان مندوب قريش فى كتابته عمرو بن سهيل ، وهو يقدم إلينا صورة من صور الحصافة والدقة فى كتابة العهود والاتفاقات ، فلم تـكن قريش حديثة عهد بمثل هذا

وانظر هذه الصورة التى يقدمها لبيد فى معلقته :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُر تجد متونَها أقلامُها

ومثل هذه الصورة شائع فى الشعر الجاهلى الذى بين أيدينا ، وكلها تثبت أن العرب لم يكونوا غرباء عن الـكتابة والقراءة وإذن فافتراض أن القرآن استعار مادة القراءة من بعض اللغات السامية الأخرى لعدم العثور على هذه المـادة فى النصوص الجاهلية التى بين أيدينا افتراض فيه شيء كثير من المجازفة

محمد طه الحاجرى

(١) قال الجاحظ فى الحيوان : « ولا يقال للـكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان »

٥ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

المأخوذون بالعالم الثاني

وترامى زارا يوماً بخياله الى ما وراء الانسانية ، فتراءى هذا العالم لديه كما يراه جميع المـأخوذين بالعالم الثاني خليقة رب متألم مضطرب ، فقال :

رأيت الدنيا كأنها أحلام نائم أبدعت أبخرة حوّالة متلونة ترتد عنها ألوهية النفس على غير رضى . وقد لاح لى الخير والشر والافراح والاحزان وذاتى وذات الآخرين كما تلوح الأبخرة الملونة لعين المبدع ، ولعل المبدع أراد أن يتحول ببصيرته عن ذاته فأوجد العالم

لا ينتشى المتألم بمسرة أشد من مسرته حينما يُعرض عن آلامه وينسى نفسه . هكذا تكشف لى العالم يوماً فرأيت مسرته ثملاً ونسياناً وهو يتقلب أبداً فى نقائصه مَعكَساً للتناقض الأبدى

نظرت إلى العالم يوماً فلاح لى مسرةً مسكرة يتمتع بها مبدع غير كامل خلقتُه أنا ، فجاء كـكل أعمال البشر جِنةً بشرية

ما كان هذا الآله إلا إنساناً ، بل جزءاً من شخصية إنسان ، لأنه نشأ من ترابى ومن لهبى . إنه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم

شهدت ذلك ، أيها الأخوة ، فتفوقت على ذاتى بآلامى ، وحملت ترابى إلى الجبل حيث أوقدت ناراً تشع نوراً فاذا بالشبح يتوارى مبتعداً عنى

فاذا ما آمنت الآن بمثل هذا الشبح ، فلا يكون إيمانى إلا توجعا وصغارا ، ذلك ما أقوله للمأخوذين بالعالم الثانى

ما أوجدت العوالمُ الأخرى فى هـذا العالم سوى الآلام والشعور بالعجز ، ذلك ما أوجدته تلك العوالم فأوجدت معه هذا الجنون السريع الزوال بسعادةٍ ماذاقها من الناس إلا أشدهم آلاما

إن المتعب الذى يطمح الى اجتياز أبعد مدى بطفرة واحدة بطفرة قاتلة ، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حداً لا يستطيع عنده أن يريد ، انمـا هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الأخرى

صدقونى ، أيها الاخوة ، إن الجسد قدقطع رجاءه من الجسد، فغـدا يجس بأنامله مواضع الروح المضللة ، وذهب يتلمسها من وراء الحواجز القائمة على مسافة بعيدة

صدقونى ، أيها الأخوة ، إن الجسد قد تملكه اليأس من الأرض فسمع صوتاً يناديه من قلب الوجود ، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز ، بل حاول العبور منها إلى العالم الثانى ، غير أن العالم الثانى جد خفى عن الناس لأنه بتخنثه وابتعاده عن كل صفة إنسانية ليس إلا سماء من العدم . إن قلب الوجود لا يخاطب الناس إذا لم يكلمهم كانسان

والحق إنه ليصعب علينا إثبات الوجود واستنطاقه . أجيبوا أيها الاخوة ، أفـا يلوح لـكم أن أغرب الأمور أثبتها دليلاً ؟..

أجل ! إن هذه الذات على ما فيها من تناقض واختلال تثبت بكل جلاء وجودها فتبتدع وتعلن ارادتها لتضع المقاييس وتعين قيم الأشياء ، وما تطلب هذه الذات فى اخلاصها الا الجسد حتى فى حالة استغراقه فى أحلامه وتحفزه للطيران بأجنحته المحطمة

إن هذه الذات تتدرب على الأفصاح عن رغباتها باخلاص ، وكلما ازدادت تدرباً ألهمت البيان للاشادة بالجسد وبالأرض

لقد علمتنى ذاتى عزة جديدة أعلمها الآن للناس : علمتنى ألا أخفى رأسى بعد الآن فى رمال الأشياء السماوية ، بل أرفعها رأساً عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض

إننى أعـلم الناس إرادة جديدة يتخيرون بها السير على الطريق التى اجتازها الناس عن غباوة من قبلهم ؛ أعلمهم أن يطمئنوا إلى هذه الطريق فلا تنزلق أرجلهم عنها كما انزلقت أرجل الأعلاء المتهكمين ، وما هؤلاءِ إلا مَن ابتدعوا الأشياء السماوية واخترعوا قطرات الدماء المراقة لافتداء البشر . على أن هـذه السموم التى أخذوا بلذتها ورهبتها لم يستخرجوها إلا من الجسد ومن الأرض

لقد شاءوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الـكواكب بعيدة صعبة المنال فوجموا يدفعون بالزفرات قائلين : وا أسفاه ! لمَ لا تنفتح أمامنا سبلٌ فى السماء ننسحب عليها إلى وجود آخر وسعادة أخرى

فى ذلك الحين اخترعوا أوهامهم وكؤوسهم الصغيرة المترعة بالدماء . . وحسب هؤلاء الناس فى عقوقهم أنهم فازوا بالنعيم بعيداً عن جسدهم وعن الأرض ؛ وتناسوا أن تنعمهم ورعشة ملذتهم إنما نشأت من جسدهم ومن هذه الأرض [1]

إن زارا ليشفق على الأعِلاء فلا يغضب لما أوجدوه من وسائل السلوان ولا يتبرم لأنهم عقّوا جسدهم وأرضهم ، بل هو يرجو لهم الشفاء والتغلّب على أنفسهم ليوجدوا لهم أجساداً أرق من أجسادهم

إن زارا لا يغضب أيضاً على الناقه الذى يحنّ إلى وهمه فيذهب فى منتصف الليل ليطوف بقبر إلـهه ، ولـكنه لا يرى فى دموع هذا الناقه إلا أثر المرض والجسم المريض

لقد وجد فى كل زمان كثير من المرضى المستغرقين المتشوقين فهم يكرهون إلى حد الهوس كل من يطلب المعرفة ، ويكرهون أبسط الفضائل وهى فضيلة الاخلاص

إنهم يلتفتون دائماً إلى الوراء ، إلى الأزمنة المظلمة ، إذ كان للجنون وللايمان حلتهما الخاصة ؛ فكان الالـه يتجلى فى هوس العقل ، وكانت كل ريبة خطيئة

لقد عرفتهم جد المعرفة ، أولئـك المتجلين على صورة الله ومثاله ، فتيقنت أن جميع رغباتهم تتجه الى أن يؤمن الناس بهم وأن يصبح كل شك فيهم خطيئة ، وما فات مداركى ذلك الايمان الذى يدّعون رسوخه فيهم . فانهم لا يؤمنون لا بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدى العالم ، بل هم كسائر الناس يعتقدون بالجسد ، ويرون أن أجسادهم نفسها هى الـكائن الواجب الوجود

غير أن هؤلاء الناس يرون الجسد كائناً معتلا ، فيودون أن يبارحوا جلودهم وذلك ما يدفعهم إلى الاصغاء للمبشرين بالموت وما يهيب بهم إلى التبشير بالعوالم الأخرى

أما أنتم ، يا إخوتى ، فاصغوا الى صوت الجسد الذى أبلّ من دائه لأن هذا الجسد يخاطبـكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات

ان الجسد السليم يتكلم بكل إخلاص وبكل صـفاء ، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم وليس بيانه إلا إفصاحاً عن معنى الأرض

هكذا تـكلم زارا

المستهزئون بالجسد

لأقولنّ للمستهزئين بالجسد كلمتى فيهم : إن واجبهم ألا يغيروا طرائق تعاليمهم ، ولـكن عليهم أيضاً أن يودّعوا أجسادهم فيستولى على ألسنتهم الخرس

يقول الطفل : أنا جسدٌ وروح . فلماذا لا يتكلم هؤلاء الناس كالأطفال ؟ أما الانسان الذى انتبه وأدرك ذاته فيقول : إننى بأسرى جسد لا غير ، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد

ما الجسد إلا مجموعة آلاتٍ مؤتلفة للعقل ، ومظاهر متعددة لمعنى واحد . إن هو إلا ميدان حرب وسـلام ، فهو القطيع وهو الراعى

إن آلة جسدك إنمـا هى أداة عقلك الذى تدعوه روحا ، أيها الأخ ، إن هو إلا أداة صغيرة وألعوبة صغيرة لعقلك العظيم

إنك تقول : (أنا) ، وتنتفخ غروراً بهذه الـكلمة ، غير أن هنالك ما هو أعظم منها ، أشئت أن تصدق أم لم تشأ ، وهو جسدك وأداة تفكيره المظمى ؛ وهـذا الجسد لا يتبجح بكلمة

(١) ليذكر القارىء الـكريم ما وجهنا انتباهه إليه فى مقدمتنا ، فهاهو ذا نيتشه قد بدأ يوضع علة جحوده ، فهو يرى معبود الناس قائماً من وهمهم أو بتعبير آخر أن الانسان قد خلق الله فصوره من ترابه ونفخ فيه نسمة من هبه . ولو أننا وقفنا عند كل فكرة جانحة من أفكار نيتشه لنحللها ونرجع منها إلى إيماننا المـكين لاضطررنا إلى التحول من الترجمة إلى البحث الذى وعدنا بالقيام به بعد الفراغ منها . غير أننا لا نجد بدأ الآن من دعوة القارىء إلى الامعان فى الصفات التى تتراءى لنيتشه كأنها هى الألوهيـة فيتأكد أن الاله الذى يهاجمه هذا الفيلـوف هو غير إلهنا ، وعالمه الثانى هو غير عالمنا الروحى الذى يقيم فينا قبل أن نقيم فيه

إن نيتشه كان قد خرج على الدين الذى اقتبسته الآرية عن السامية فشوهته ، فأصبح بعد ذلك طريد فـكره الجبار ينتقد آثار الدين فى المجتمع ، وقد وقف موقفه السـلبى فلاهو يسكت صراخ نفسه المتمردة ، ولا هو يهتدى إلى الدين الحق الذى تسكن الروح إليه وينتظم المجتمع بأحكامه ؛ وها نحن نورد كلمة لنيتشه قالها وهو يكتب زرادشت وفيها عبرة للمؤمنين وللجاحدين

فى حديقة من حدائق لوزرن جلس نيتشه إلى السيدة (لو سالومه) وهى حسناء روسية ملـكت لبه ، وفى حديثه معها ملـكه الصمت ؛ فرأت لو دموعه تنهمر وبدأ يقص عليها تاريخ تطوره الفـكرى ؛ فوصف لها سنى فتوته التى قضاها فى التعبد ، ثم عرض مراحله فى شكوكه واضطرابه فى عالم لا بد من إسرار الحياة فيه دون أن يكون لهذا العالم إله . . . فقال ، والسيدة نفسها دونت قوله للتاريخ :

« هكذا بدأت مغامراتى الفكرية وما وصلت إلى محجة منها ، فالى أين أتجه ... أفلا يجدر بى أن أعود إلى الايمان ، أو أن أوفق إلى إيمان جديد ؟ على أنه خير لى إذا أنا لم أوفق إلى الوصول لهدف أن أعود أدراجى من أن أقف فى حيرتى » هـ . نقلا عن كتاب دانيال هالاى.

أنا، لأنه هو (أنا)، هو مُضمر الشخصية الظاهرة

إن ما تتأثر الحواس به وما يدركه العقل لا نهاية له فى ذاته، غير أن الحس والعقل يحاولان اقناعك بأن فيهما نهاية الأشياء جميعها، فما أشد غرورهما!

ما الحس والعقل الا أدوات وألعوبة؛ والذات الحقيقية كامنة وراءهما مفتشة بعيون الحسّ ومصغية بآذان العقل

إن الذات ما تبرح مفتشة مصغية، فهى تقابل وتستنتج ثم تهدم متحكّمة فى الشخصية سائدة عليها، فأن وراء إحساسك وتفكيرك، ياأخى، يكمن سيدٌ أعظم منهما سلطاناً، لأنه الحكيم المجهول، وهذا الحكيم إنما هو الذات بعينها المستقرّة فى جسدك وهى جسدك بعينه أيضا[1]

ان فى جسدك من العقل مايفوق خيرحكمة فيك، ومَن له أن يعلم السبب الذى يجعل جسدك بحاجة الى خير مافيك من حكمة

ان ذاتك تهزأ بشخصيتك وبألعابها قائلة: — ما هى خطرات الفكر وتساميه إن لم تكن جنوحاً الى هدف، أفلست أنا رائدة الشخصية وملهمة أفكارها؟

تقول الذات للشخصية: — اشعرى بألم، فتتألم وتفتكر بالتخلص من هذا الألم وقد تحتم عليها أن تتجه الى هذه الغاية

وتقول الذات للشخصية — اشعرى بالسرور، فتسر وتفتكر بأطالة أمد هذا السرور؛ وقد تحتم عليها أن تتجه الى هذه الغاية

لى كلمة أقولها للمستهزئين بالجسد، وهى أن احتقارهم انما هو فى الحقيقة حرمة واعتبار، إذ من هو يا ترى موجد الاحترام والاحتقار والتقدير والارادة؟

ان الذات المبدعة أوجدت لنفسها الاحترام والاحتقار كما أوجدت اللذة والألم، ان الجسم المبدع أوجد العقل لخدمته كساعد يتحرك بارادته

انكم لتخدمون الذات الكامنة فيكم حتى فى جنونكم وفى احتقاركم. وأنا أقول لكم أيها المستهزئون بالجسد إن ذاتكم نفسها تريد أن تموت، وقد تحولت عن الحياة لأنها عجزت عن القيام بما كانت تطمح اليه، وماأقصى رغباتها الا ابداع من يتفوق عليها، ولقد مضى زمن تحقيق هذه الرغبة، لذلك تطمح ذاتكم الى الزوال أيها المستهزئون بالأجساد

إن ذاتكم أصبحت تتوق الى الزوال، وهذا ما يدفع بكم إلى الاستهزاء بالأجساد إذ قد امتنع عليكم أن تخلقوا من هو أفضل منكم

ان هذا العجز قد ولد فيكم النقمة على الحياة والأرض. وهاهى ذى تتجلى شهوة فى لحظاتكم المنحرفة دون أن تعلموا

إننى لا أسير على طريقكم أيها المستهزئون بالأجساد، لأننى لا أرى فيكم المعبر الذى يؤدى الى مطلع الانسان الكامل

(يتبع) فليكس فارس

(١) أفلا يرى القارىء الكريم إثبات واجب الوجود فى محاولة إنكاره والايمان الفكرى الأسمى فى أضل منطق وأصرح جحود؟ ذلك هو رد الفعل الذى أشرنا اليه فى مقدمتنا، فان الايمان الغربى قد اعتبر الجسد آلة شهوة محتقرة يجب إذلالها، فأنكر الحياة (وما الحياة فى نظر الشرق المؤمن إلا مقدمة للخلود) وما ثار نيتشه إلا على هذا التصور للكيان الانسانى، فهب يقلب ظاهره باطناً وباطنه ظاهراً، ويشطره إلى ذات وإلى شخصية معتبراً الشخصية عقلا وإدراكا زائلين وقائلا بأن الجسم بما فيه من حوافز مجردة خفية إنما هو بنفسه الذات الواجبة الوجود التى تندفع إلى التكامل لتبلغ بالانسان مرتبة الألوهية

هذه كلمة لم نر بدأ من الاتيان بها وهى جد موجزة، ولكنها ستكون مداراً لبحثنا عند ما ننتهى من ترجمة فيلسوف الغرب الكبير لنأخذ من إلحاده دليلا له شأنه على صحة إيمان الشرق بالواحد الأحد وبما نفخ فى الأجساد من نسمة الحياة الخالدة

الربيع الناطق !

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

يامَن تفتَّح كالربيع لناظرى فلمحت فيه شقائقاً وبهارا
والفُلَّ يشرق بالضياء وبالشَّذا والنرجسَ النعسان والنوَّار
والوردَ نوراً يتمتم : « ويحكم هيا اُغنموا، مُتع الحياة قصارا »
متباين الألوان ألَّف بينها ذوق يبلبل سرُّه الأفكارا
تلك المفاتنُ يتهين لغايةٍ ولقد يريبك أنها تتبارى !
أمثولةُ الحسن البديع مرامُها تطوى لها المضمار فالمضمارا
فكأنها أحزاب شَعب راشدٍ ، كلٌّ يجمّع حوله الأنصارا
يتنافسون ، وإنما مرمامهم تحقيق آمال البلاد كبارا
ما للجمال وللسياسة ؟ إنه أهدى إلى قصدِ السبيل منارا
هو عالم ننساب فى أطيافه ونعانق الأنداء والأنوارا !
من ضلَّ فى ساحاته كمن اهتدى وكمن صحا من لا يفيق خُمارا

***

يا من تفتَّح كالرَّبيع لناظرى ! أضرمت ما بين الجوانح نارا
أسكرتَ روحى بالسَّنا فذهلتُ عن
نفسى ، وخلت العالمين سكارى !
وسهوتُ عن زمنى فلست بمثبتٍ أسكرتُ ليلاً أم سكرت نهارا ؟
رمتُ الكلامَ ، فحار فى شفتىَ كما تاه الجمالُ بناظريك وحارا !
ماذا أقول وكل لفظٍ شاردٌ ؛ عيناك أعظم أن تُطيقَ حوارا
عيناك أقوى بالحياة وفيضها زخراً ، وأعمق فى الحياة قرارا !

***

لَبَصُرْتُ بالتُّفاح يلعن نفسه لما أبيتَ مساسه استكبارا !
كم ودَّ لو يلقى الشهادة فى فمٍ يهبُ الخلود وينهب الأعمارا !
ما كان ضرَّك لو مسحت جبينه فأحاله لَهَبُ الحياة نُضارا !
أو لو قبلت فداءه فجعلتَه معنى يحيط به الجمال إطارا
أم غرت منه ؟ فيالقلبك قاسياً ! ماذا تركت لحسنه فتغارا ؟
يكفيه فى زيناته أن يكتسى شَفقاً له من وجنتيك مُعارا
ما كان إلا خادماً لك طائعاً يقفو خُطاك يُقبِّل الآثارا !
راجع فؤادك فى أحقِّ مُورَّد برضًى وأكرمِ مُشبهيك نجارا
تغفو وتصحو ، وهو فى صلواته لخدودك الآصالَ والأسحارا !
أما نثار الورد إذ بدَّدته فلو استطاع من السرور لطارا
أَلِأَنّه يحكى القلوب بشكله عبثت يداك بشمله استهتارا ؟
إهنأ بظلُمك ؛ فالقلوب تودّ لو تُلقى لديك على البساط نثارا !
ويح القلوب ! غلوت فى بغضائها فمقَتَّ من جرَّائها الأشعارا
أتلوم أرضاً — ياغمام — بخيرها حفلت ، وأنت فجرتها أنهارا ؟
أهبطت (شاكسبير) من عليائه وأزحْتَ عن كرسيّه (مهيارا)
ووقفت فى وجهِ (الخلود) ؛ فهل تُرى
تطوى الخلود وقد طوى الأدهارا ؟
لن تستطيع لفن جمالك دونه سدٌّ يقيه سطوك الجبارا ! !

***

رفقاً بحبّات القلوب تسومُها سوء العذاب وما جنت أوزارا
ألِأنها تهفو لحسنك كلما لمحته أو هجست به تذكارا !
يا لأنمِ الأوتار فى إرنانها مهلاً ! بنانك تضرب الأوتارا !
يا طاوى الأقدار تحت جفونه ! حتَّى لَنَخْشاهنَّ لا الأقدارا
لما أبيتَ على مشاعرنا الهوى هلا مسخت قلوبنا أحجارا !!

على أحمد باكثير

خاطرة !

قلبى يعاطف هذا الكون أجمعه
لكنه لم يجد قلباً يعاطفُه !
يا ليت لى فى الورى قلباً يلوذ به
قلبى فتبيضَّ من حُبٍّ صحائفُه
أقول شعرى فهل قلب يصيخ له
وتستبيه كما أهوى طرائفُه !؟

العوضى الوكيل

قسوة الطفولة*

للأستاذ أمجد الطرابلسي

عُدْ به للوطن الغا   لى ولِلامِّ الرؤومِ
عد به للوكْن البا   كى وللصحب الوُجومِ
عد به لِلفننِ الذا   وى وللزهر الكليم
وارحمِ اليُتْمَ فمن أصـ   ـعبُ عيشاً مِن يتيم
زهرةٌ فواحةٌ مطـ   ـروحةٌ فوقَ الأديم
ونُدَتْ فى عُنفوان الـ   ـحُسْنِ ما بيْنَ الرجوم
تطأُ الأقدامُ خدَّيـ   ـها على التربِ الوخيم
أيها الطفلُ — وهلْ أر   هبُ من طِفْلٍ غشوم —
ما جنى ترْبُكَ حتّى   سِيمَ ألوانَ الهُموم ؟
هُوَ يا طفلُ حزينٌ   جائعٌ غيرُ فطيم
صامتٌ يجهلُ بثَّ الـ   ـحزنِ والكربِ العظيم
أىُّ مسكينٍ غريبٍ !   أىُّ مظلومٍ مَضيم !
جِسمُهُ الأزغبُ لا ينـ   ـهضُ بالخطبِ الجسيم
يتنزّى فرَقاً كالزْ   هرِ فى مَسْرى النسيم
أوْ كغُصْنٍ مُرْعَشٍ ما   بينَ عصفٍ وهزيم

***

أُمُّه يا طفلُ تبكى   فى دُجى اللّيلِ البَهيم
تتمشّى فوْقَ أغصا   نِ الرُّبى مَشْىَ السَّقيم
تسألُ الأزهارَ عنْهُ   وعناقيدَ الكروم
والنسيماتِ اللّواهى ،   ونُثاراتِ الغيوم
لم تذُقْ طعْمَ الكرى فى   وَكرِها الداجي الوَجوم
أكرىً والدَّمْعُ ما بيـ   ـنَ نشيرٍ ونظيمٍ ؟
والجوى يعصِفُ بالأضـ   ـلاعِ والقلبِ الهشيم
أكرىً بعْدَ فِراقِ الأ   هلِ أوْ فقْدِ النّديم

غابَ لا تدرى أحَىٌّ   هوَ أمْ بعضُ الرّميم
أسجينُ القفصِ الخا   نِقِ أمْ فريسةُ بوم

***

أنا يا عُصفورُ منْ بر   أفُ بالهمِّ الكظيم
ما بأشجانكَ يا مِسْـ   ـكينُ مِثلى من علِيم
هِجْتَ فى قلْبِى جرحاً   غافياً جِدَّ قديم
هو عطفُ الأمِّ ، ما أنـ   ـداهُ فى القلبِ الكليم !
لم أذُقْهُ ؛ ليتَ لى منْ   قدْسِهِ بعضَ رسوم

***

إيهِ يا عُصفورُ هذى   سُنّةُ البغْى الذميم !
هكذا الناسُ ! فمنْ عا   دٍ وَمِنْ نهْبِ هَضيم
ظالمٌ يقسو علىْ الـ   ـحقِّ انتصاراً لظلوم
وجريحٌ مُؤلمٌ يحـ   ـنو على الجرحِ الأليم
القصورُ الشمُّ نشوى   الراحِ واللّحنِ الرّخيم
والدموعُ الحُمْرُ تنْـ   ـهلُّ منَ الكوخِ الهديم
ساكِنُ الفِرْدوسِ لا يُد   ركُ ويلاتِ الجحيم
وهو فى الاحلامِ واللـ   ـذاتِ والعزِّ المقيم
أينَ طعمُ العسلِ الدفّـ   ـاقِ منْ لذْعِ الحميم !
أينَ مرُّ النسمة الحُلْـ   ـوةِ من لفحِ السّموم !
أينَ أصداءُ الاغاريـ   ـدِ وهمساتُ النجوم
من عويلِ الأكبدِ الحرَّ   ى وأناتِ الجُسوم !

***

عدْ بهِ للوطَنِ الغـ   ـالى وللامِّ الرّؤوم
وارحَمِ الضّعْفَ فما يسْـ   ـحقُهُ غيرُ لئيم
سافِكٌ لا يعرِفُ الرأْ   فةَ أوْ أسْوَ الكلوم
يتلهّى بالدّمِ المُهْـ   ـراقِ والدّمْعِ السّجيم
كيفَ تصفو عيشةُ الحُـ   ـرِّ وأفراحُ الكريم
وعلى الأرضِ شقىٌّ   واحدٌ نِضْوُ غموم
كُنْ رحيماً إنما الإنْـ   ـسانُ ذو القلبِ الرّحيم

(دمشق)   أمجد الطرابلسى

(*) كتبت هذه القصيدة وقد رأيت فى المدرسة طفلا صغيراً يتلهى بتعذيب عصفور صغير مثله ، وكله فرح وسرور بألعوبته

٧ ــ تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن حبشي

الفصل الأول

أما القصيدة الموجهة إلى ولده وخليفته حسّان والتي اقتضت التقاليد والعرف أن يقولها فلا تعدو نصيحة الوداع وقد استنفد جزءاً كبيراً منها في تعداد غزواته والفخر بأسرته وبنفسه[1] وكل ما نجده فيها من الأمثال والنصائح لا يعدو قوله :

حضرتْ وفاة أبيك يا حسّان ... فانظر لنفسك فالزمان زمان
فلربّما ذل العزيز وربّما ... عزّ الذليل وهكذا الانسان
قولوا لحمير يقبروني واقفاً ... وتكن مني الخيلان والرقّان[2]
وانظر لكاهنتي فان كلامها ... علم وأن بصوتها غيمان

وعلى ذكر غيمان[3] فيمكن إضافة بضع كلمات قلائل حول قلاع اليمن التي تجثم بقاياها الخربة وتتراءى للمسافر المار بها في وحدتها متجهمة ساخرة ؛ ومنذ ألفي عام ، وربما قبل ذلك بكثير كان يسكن هذه القلاع والحصون أمراء أقوياء الشكيمة مستقلون أو شبه مستقلين يولون ملوكهم ويعزلونهم أحيانا حينما أخذت دعائم الامبراطورية الحميرية تتداعى . ولقد أسهب الهمداني الجغرافي في وصف هـذه القلاع في المجلد الثامن من مؤلّفه العظيم « الاكليل » الذي تناوّل فيه تاريخ اليمن وذكر عادياتها وآثارها[4] ، وإن أقدم هاتيك الحصون وأشهرها لهو المسمى

(١) يجد القارىء النص العربي الكامل لهذه القصيدة في كتاب فون كريمر :
Altarabische Gedichte ueber die Volkssage von Jemen, P. 20 seg
وقد ترجمها بنفسه نثراً في كتابه « خلاصة المسألة الحميرية ص ٨٤ وما يليها »

(٢) وقد ترجم فون كريمر (في تعليقه على النص العربي ص ٢٦) « ادفنوا مني الخيلان » بمعنى الخيل ، و « الرقان » جمع رقيق ، وفضلا عن عدم ورود هذا الجمع في المعاجم فليس من المعقول أن يأمر الملك بمثل هذه الوحشية ، ومن ثم فقد قرأت خيلان (جمع خال) بمعنى « حشايا اليمن الناعمة » وقرأت « زقان » جمع « زق » (المؤلف)

(٣) غيمان أو مقلاب قلعة قرب صنعاء كان يدفن فيها ملوك حمير

(٤) قام D. H. Müller بطبع النص العربي من هذا الجزء من كتاب الاكليل مع ترجمته في مجلة S. B. W. A. ج ٩٤ ، ٩٧ (فينا ٨٧٩ — ١٨٨٠)

« غمدان[1] » قلعة صنعاء ، ويصفونه بأنه صرح هائل ذو عشرين طابقا ارتفاع كل طابق عشر أذرع ؛ وقد شيدت أوجهه الأربعة من حجارة متباينـة الألوان : بيضاء وسوداء وخضراء وحمراء ، وعلى قمة الصرح غرفة ذات نوافذ رخاميـة محلاة بالأبنوس والخشب المصقول ، وفي وسطها لوحة مرمرية فاذا ما اضطجع صاحب غمدان على سريره ، شاهد الطيور محلّقة فوق رأسه ، واستطاع أن يميز الحدأة من الغراب ؛ وفي كل ركن من أركان الغرفة قد نصب تمثال أسد من البرنز ، فاذا ما هبت الريح تغلغلت في ثناياها ، فيخرج منها إذ ذاك صوت أشبه بزمجرة الليوث

وإن مخاطرات « أسعد كامل » مع الساحرات الثلاث تذكر القارىء ببعض مناظر خاصة في رواية ماكبث . وإن العجيب في تاريخ ابنه حسان ، تلك الحادثة التي تؤلف منظراً أشبه بمنظر مسير غابة برنام[2] . وهنا نشير إلى قبيلتي طسم وجديس ، ولما أحدثت جديس المجزرة التي فتكت فيها بطسم استطاع أحد أفراد القبيلة الثانية الهروب وهو « رباح بن مرة » فاحتمى بتبع حسان ، واستطاع أن يؤثر فيـه حتى أرسل معه جيشاً ليقتصّ به من القتلة . وكانت أخت رباح وتدعى « زرقاء اليمامة » قد بنت بأحد رجالات جديس ؛ وكانت حادة البصر حتى لقد كان في استطاعتها أن ترى الجيش على بعد ثلاثين ميلاً ، ولما كان رباح يعرف ذلك في أخته فقد نادى في الجيش أن يقتلع كل رجل شجرة ويحملها أمامه . وإذ جن المساء وأصبحوا على مسيرة يوم من جديس قالت زرقاء اليمامة لقومها : « إني أرى غابة تسير إليكم » فلم يصدقها أحد وسخروا بها حتى إذا كان الصباح أغار حسان عليهم وأعمل السيف في رقابهم

ولقد أحس زعماء حمير أن الحملات الحربية — التي شجعها حسان — إنما هي عبء ثقيل عليهم ، فدبروا مؤامرة لذبحه

(١) مما جاء في الطبري (ج ١ ص ٩٢٩) عن غمدان قول أحد الشعراء :
وغمدان الذي حدثت عنه ... بنوه مسمكا في رأس نيق
بمنهمة وأسفله جروب ... وحر الموصل اللثق الزليق
مصابيح السليط تلوح فيه ... إذا يمسي كتوماض البروق
ونخلته التي غرست إليه ... يكاد البسر يهزز بالعذوق
(المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى المنظر الخامس من الفصل الخامس ، حينما دخل مارس الغابة على ماكبث مخبراً إياه بأنه قد رأى غابة برنام Bernam تسير
(المترجم)

وتولية أخيه عمرو مكانه ، فقالوا له : « اقتل أخاك حسانا وتملك علينا وترجع بنا إلى بلادنا [١] » فامتنع بادئ ذى بدء وأبى الخضوع لما أشاروا به ، غير أنهم استطاعوا التغلب عليه فطمن بسيفه تبع ؛ بيد أن الجرم أقض مضجعه ، ولم يذق جفناه الكرى فصمم على أن يقتل كل من وسوس اليه بذلك ؛ وكان هناك زعيم يدعى « ذا رعين » حاول جهده انقاذ عمرو مما هو مقدم عليه فما استطاع ، ولما وجد أن محاولاته ذهبت عبثاً كتب رقعة رفعها اليه وختمها وقال له : « ضع لى هذا الكتاب عندك حتى أطلبه » فلما مثل ذو رعين أمام عمرو سأله عن الرقعة فأخرجها فاذا فيها :

ألا من يشترى سهراً بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين
فاما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذى رعين [٢]

فلما قرأها عمرو أيقن الاخلاص فى قوله ثم أطلق سراحه

وقد انتهى عهد التبابعة بعمرو هذا . أما الملوك الذين خلفوهم فقد كان يختارهم ثمانية أقيال أقوياء ، كانوا فى الحقيقة أمراء مستقلين ، يحكم كل منهم فى حصنه القوى . وفى أثناء هذه الفترة غزا الأحباش بعض أجزاء المملكة ، وأرسل النجاشى ولاته المسيحيين ليحكموها باسمه ، حتى قام أخيرا ذونواس — وهو من ذرية تبع أسعد كامل — وطرد الأشراف الثائرين ، وجعل نفسه حاكما لليمن غير مسئول ، وكان يهوديا متعصبا ، فجمع العزم على أن يستأصل شأفة المسيحية من نجران التى يقال إن النصرانية دخلتها على يد رجل مبارك يدعى فيميون ، ودخل الحميريون فى دينه أفواجا يدفعهم إلى ذلك كرههم لاستبداد الأحباش أكثر من احترامهم للدين . وحدث إذ ذاك أن قتل طفلان يهوديان فأتاح هذا الحادث لذى نواس فرصة ليصب نقمته عليهم ، فسار إلى نجران على رأس قوة جرارة ، ودخل المدينة وخير أهلها بين اليهودية أو القتل ، فرفضوا دينه ، فحكم السيف فى أعناق الكثيرين ، وألقى بالآخرين فى أخدود أمر بحفره وأشعل النار فيهم ؛ وبعد مائة عام تقريبا من هذا الحادث حين لقى محمد (ص) أشد ضروب الاضطهاد من قومه أخذ يضرب لأتباعه المثل بنصارى نجران وكفاحهم : (قُتِل أصحابُ الأُخدودِ ، النّارِ ذاتِ الوَقودِ ، إذ هُم عليها قُعودٌ ، وهُم على ما يَفعَلونَ بالمؤمِنينَ شُهود ؛ وما نَقَموا مِنهم إلا أن يُؤمِنوا باللهِ العَزيزِ الحَميد [١]) وقد دفع ذو نواس عن هذا النصر غالياً ، فان دوس ذا ثعلبان كان قد نجا من القتل ففر إلى امبراطور الروم مستنصراً إياه باعتباره كبير المسيحيين ليساعدهم على أخذ ثأرهم ، فكتب يوستنيانوس رسالة إلى النجاشى طالباً اليه أن ينوب عنه فى تنفيذ هذه المهمة ؛ وسرعان ما حشد النجاشى سبعين ألفاً من الأحباش الأيدين ، وجعل عليهم أرياط قائداً فغزا اليمن . ولم يستطع ذو نواس الاعتماد على إخلاص أشراف حمير ، وتفرقت قواته « فلما رأى ما نزل بقومه وبه وجه فرسه إلى البحر ثم ضربه فدخل فيه ، فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى إلى غرق فاقتحمه فيه فكان آخر العهد به [٢] » وبهذا انتهت سلسلة الملوك الحميريين

وعلى كل فان اليمن تظهر فى تاريخ ما قبل الاسلام ، كامارة حبشية أو ولاية خاضعة للفرس ، وأما القصص التى تروى بعد ذلك فتعتبر تمهيداً لرواية جديدة تمثل على مسرحها عرب الجنوب دوراً تافهاً لا يعتد به [٣]

(يتبع)

حسن حبشى

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠

(٢) الأغانى ج ٢ ص ٨ س ١٤ — ١٥

(١) القرآن ٨٥ : ٤ — ٨

لكى يقف القارىء على الآراء المعاصرة والمسيحية المتأخرة المتعلقة باستشهاد نصارى نجران راجع كتاب « الحميريين » (النص السريانى والترجمة الانجليزية) طبعة A. Moberg سنة ١٩٢٤ وراجع :

Tor Andrae : Der Ursprung des Islams und das Christentum (Uppsalla, 1926) pp. 10 — 13

(٢) الطبرى ١ : ٩٢٧ س ١٩ وما يليه

(٣) راجع الطبرى ج ٢ ص ٩٢٨ س ٢ وما يليه ، وما كتبه نلدكه فى :

Geschichte der perser und Araber Zur Zeit der Sasaniden, p. 192 899.

البريد الأدبي

بين الأدب والسياسة — فون أوسيتسكي حامل جائزة نوبل

قررت اللجنة المختصة بجامعة استوكهلم أن تمنح جائزة نوبل للسلام عن سنة ١٩٣٥ للكاتب الألماني كارل فون أوسيتسكي، وعن سنة ١٩٣٦ للدكتور سافدرا لاماس سفير جمهورية الأرجنتين في لندن، وذلك لما أبداه كل منهما في سبيل قضية السلام من خدمات وجهود

وليس في قرار جامعة استوكهلم ما يثير الدهشة، لأن جائزة نوبل للسلام تمنح كل عام كباقي جوائز نوبل الأخرى عن العلوم والآداب والفنون، وقد منحت في الأعوام السابقة لكثير من الكتاب والساسة مثل مسيو بريان رئيس وزارة فرنسا السابق، والسير نورمان انجل الكاتب الانجليزي المعروف

وقد منحت جائزة نوبل للهرفون أوسيتسكي Von Ossietzky تطبيقاً لدستور نوبل الذي يقضي بأن تمنح هذه الجائزة «لكل من قام بأكبر جهد وبأفضل جهد في سبيل توثيق روابط الأخوة بين الشعوب، أو في سبيل تخفيض السلاح، أو نشر الدعوة الى السلام»، وقد لبث فون أوسيتسكي مدى أعوام يبث بقلمه الدعوة الى السلام من منبر الصحافة، ولا سيما في صحيفة «الثلت بينه» Welt Buehne «مسرح العالم» التي كان يحررها مع صديقه وزميله في الدعوة الى السلم الكونت فون جيرلاخ الكاتب السياسي الكبير الذي توفي منذ أشهر في منفاه في باريس

ولكن حكومة برلين النازية ترى في منح جائزة السلام لهذا الكاتب الألماني إهانة لها، وتحتج على ذلك رسمياً لدى حكومة السويد، ولماذا؟ لأن كارل فون أوسيتسكي يعتبر في نظرها خائناً لوطنه، فتكريمه بهذه الصورة من هيئة عالية يعتبر مناقضاً لواجب المجاملة الدولية، بل يعتبر استفزازاً لألمانيا

واليك قصة كارل فون أوسيتسكي المحزنة، ولماذا تعتبره ألمانيا الهتلرية خائناً لوطنه: كان فون أوسيتسكي من دعاة السلم كما قدمنا، وكان كاتباً مستقلاً لا ينتمي لأي حزب سياسي، وإنما يبث دعوته السلمية بالكتابة الملتهبة، ويدعو إلى تفاهم الشعوب ونزع السلاح بكل قواه، ويحمل على السياسة العسكرية لأنها خطر على السلام والمدنية؛ ولم تكن هذه الدعاية مما يتفق مع مبادئ الوطنية الاشتراكية ونزعتها العسكرية؛ فلما قبض الوطنيون الاشتراكيون (النازى) على زمام الحكم في سنة ١٩٣٣، كان فون أوسيتسكي ممن قبض عليهم من الكتاب المعارضين للمبادئ الهتلرية؛ فزج من ذلك الحين في أحد معسكرات الاعتقال المشهورة دون محاكمة أو تهمة معينة، وعانى في الاعتقال ضروباً مرهقة من الحرمان والتعذيب؛ والتمس كثير من الهيئات الأدبية والكتاب في مختلف الأمم من الحكومة الألمانية أن تطلق سراحه فأبت حتى أشرف الكاتب المعتقل على الموت، وعندئذ فقط سمحت بأن يغادر معسكر الاعتقال إلى أحد المستشفيات، حيث هو الآن تحت الحجر والاعتقال

ورأت الهيئات الأدبية المختلفة وأكابر الكتاب في أنحاء العالم أن يلفتوا نظر جامعة السويد إلى قصة هذا الكاتب الشهيد لكي تمنحه جائزة نوبل للسلام، واشترك في تقديم هذا الطلب رومان رولان، وابتون سنكلير، وهنريش مان، والفيلسوف ليفي بريل، وأميل لودفيج، وجيللو فيريرو وغيرهم، تقديراً لخدماته وكتاباته الكثيرة في سبيل قضية السلام؛ وكان أن شاطرت اللجنة المختصة تقدير الرأي العالمي ومنحت كارل فون أوسيتسكي هذا الشرف العظيم

والآن يحتضر فون أوسيتسكي على سرير موته، وقد يموت بعد أيام أو أسابيع قلائل دون أن يعرف شيئاً عن الشرف العظيم الذي أسبغ عليه

أما اعتبار الحكومة الألمانية مواطنها خائناً، فلأنه كان قبل تبوئها الحكم بأعوام، يكافح بالقلم في سبيل السلام

كتاب عن نابليون لاوكتاف أوبرى

أوكتاف أوبرى كاتب ومؤرخ من أشهر كتاب فرنسا الحاليين ؛ وهو مؤرخ قبل كل شيء يمتاز بأسلوبه الشائق وبيانه الساحر فى عرض الوقائع وتصنيفها ؛ وقد اتخذ فى الأعوام الأخيرة عصر نابليون بونابرت ميداناً لمباحثه ، وأصدر عن نابليون وعن العصر وأبطاله عدة كتب : وآخرها كتاب « نابليون وعصره Napoléon et son Temps » ؛ وفى هذا الكتاب يعنى أوكتاف أوبرى بالنواحى الشخصية والاجتماعية أكثر مما يعنى بالنواحى السياسية والعسكرية ؛ فلست تقرأ فى كتابه استعراضاً تاريخياً جامداً ، وإنما تقرأ قصة ممتعة عن الامبراطور ، وأطوار حياته الشخصية ، وعن خاصته وصحبه من الرجال والنساء ، وعن حوادثه الغرامية ؛ وتقرأ عن جوزفين وعن منافساتها فصولاً شائقة ؛ ثم تقرأ تفاصيل المأساة الأخيرة : نفى الامبراطور ، واعتقاله فى سنت هيلانة ، وما قاساه من الآلام المادية والمعنوية ، وتعرف الكثير عن بطانته التى صحبته فى الاعتقال من رجال ونساء الى أن تصل الى ختام المأساة فى جو يفيض سحراً وتأثراً .

ويفرد أوكتاف أوبرى للامبراطورة مارى لويز بحثاً شائقاً يحلل فيه شخصية هذه الأميرة التى ألقتها أقدار الحرب والسياسة فى طريق الامبراطور ، وأنجبت منه ولده « ملك رومه » أو النسر الصغير أو الدوق فون ريخشتاث ، كما يسميه آل هبسبورج

هذه محتويات كتاب أوبرى تغرى بالقراءة ، ويحيطها جميعاً جو من السحر المؤثر

بين العلم والعاطفة

كثر الجدل منذ حين فى انكلترا حول مسألة اجتماعية وإنسانية دقيقة ، وهى هل يحق للانسان أن يعاون على الموت شخصاً عزيزاً عليه أصابه المرض وعز شفاؤه ؛ وقد ثارت هذه المسألة أخيراً فى ألمانيا على أثر ظهور رواية للكاتب الوطنى الاشتراكى الدكتور هلموث عنوانها « الرسالة والضمير Sendung und Gewissen » ؛ بطلها طبيب يعالج هذا السؤال : هل يحق لى أن أعجل الموت لمريض استعصى شفاؤه ، أم يجب على الانتظار حتى يوافيه الموت ؛ وقد عنى يبحث هذه المسألة عدة من أكابر الأطباء الألمان ، وأذاعوا آراءهم فى الصحف ؛ فيرى الأستاذ زاوربروخ الجراح الأشهر ، أن هذه مسألة ضمير لا يمكن حلها على هذا الوجه ، وأنه لا يمكن أن توضع لها قاعدة ولا أن يشرع لها قانون ، وهى تبعة عظمى لا يمكن أن يحتملها الطبيب بسهولة .

ويقول الدكتور كلارى الاخصائى الكبير فى مباحث السل ؛ إنها مسألة لا يمكن التسليم بها ، ولا معنى مطلقاً لأن تثار مسألة اليأس من الشفاء لأن العلم يتقدم ويأتى كل يوم بالجمائب ، فمن يدرينا أنه لن يكتشف بين اليوم والغد علاج للسرطان مثلاً ؟ إنه من الاستهانة الكبرى أن تعامل الحياة بمثل هذه الرعونة بحجة الاشفاق على مريض عزيز ؛ ويؤيده الدكتور أونفرخت فى ذلك ويقول إن مهمة الطب هى أن تعاون على صون الحياة واطالتها ، لا على تحطيمها والتعجيل بسحقها ؛ وهذا هو رأى معظم أعلام الطب فى ألمانيا فى هذه المسألة الدقيقة

ديوان حافظ

رفع الأستاذ أحمد أمين إلى صاحب المعالى وزير المعارف ديوان المرحوم حافظ بك ابراهيم بعد أن تم جمعه وشرحه وتبويبه وقد بدأت مطبعة دار الكتب فى طبعه

ولم يعثر الأستاذ فى جميع المجلات والصحف المتداولة على قصيدتين من خير قصائده وهما قصيدته فى رثاء البابلى ومطلعها :

بدأ الممات يدب فى أترابى ... وبدأت أعرف وحشة الأحباب

والثانية قصيدة فى وصف الحالة فى مصر قبيل وفاته ومطلعها :

قد مر عام ياسعاد وعام ... وابن الكنانة فى حماه يضام

وهو يرجو ممن لديه القصيدتان أو إحداهما أو شىء منهما أن يتفضل فيبعث بذلك اليه فى لجنة التأليف والترجمة والنشر فى شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين وله الشكر

واجبنا بعد المعاهدة

فرغت لجنة أسبوع المعاهدة من تنظيم محاضراتها التى تبحث فيما يجب أن يتجه اليه المجتمع المصرى فى عهده الجديد على البيان التالى :

يوم السبت ٥ ديسمبر « واجب الشباب بعد المعاهدة » لسعادة أحمد نجيب الهلالى بك

يوم الاثنين ٧ ديسمبر « فكرة عامة عن منشأ الحروب وواجبنا الحربى بعد المعاهدة » لسعادة اللواء عزيز المصرى باشا

يوم الخميس ١١ ديسمبر « واجبنا الاجتماعى بعد المعاهدة » لسعادة حسن نشأت باشا

السبت ١٩ ديسمبر « واجبنا الأدبى بعد المعاهدة » للدكتور طه حسين بك

الكتب

نفح الطيب
فى طبعته الجديدة
بقلم محمد فهمى عبد اللطيف

همة مشكورة تلك التى يبذلها الدكتور أحمد فريد رفاعى فى الحرص على تراثنا الأدبى الحافل، باحياء عناصره، ونشر مصادره. وإذا كنا قد عرفنا هذه الهمة فى نفس الأستاذ من قبل — رغبة وأملا — فأننا الآن نلمسها منه عملاً جليلاً وجهداً كبيراً يؤديه فى نشر كتابى، معجم الأدباء، ونفح الطيب، فى طبع متقن، وضبط كامل، وتقسيم واضح، وتصحيح دقيق، تقوم وزارة المعارف بمراجعة أصوله النهائية مبالغة فى إجادته وحرصاً على إتقانه

ولقد وقع لى « القسم » الأول من نفح الطيب، فرأيته كالعروس المجلوة تخطر فى الثوب القشيب، فهو يغرى بالقراءة إغراء، ويستحث على المضى فى استجلائه وتأمله، فعاودت الكتاب بالنظر والتصفح، إذ كنت قد قرأته من قبل فى طبعته الأولى، فقدرت عمل الدكتور النافع، وتملكنى الأعجاب بذلك المجهود الذى بذله فى اخراج هـذا الكتاب الجليل، ولكن نشوة الأعجاب بالدكتور لا تمنعنى من أن أنبه على بعض هنوات ما نحسبها إلا قد ندت عن الخاطر اليقظ، وخرجت عن الدقة البالغة

الاثنين ٢١ ديسمبر « واجبنا نحو التعليم بعد المعاهدة » للدكتور على مصطفى مشرفة

الخميس ٢٤ ديسمبر «واجبنا الصحى بعد المعاهدة» للدكتور حامد محمود « واجبنا الزراعى بعد المعاهدة » لحسين عنان بك

الاثنين ٢٨ ديسمبر «واجبنا الرياضى بعد المعاهدة» لصاحب السعادة محمد طاهر باشا

الخميس ٣١ ديسمبر «واجبنا القانونى بعد المعاهدة» للدكتور عبد الرزاق السنهورى

الاثنين ٤ يناير سنة ١٩٣٧ « واجبنا القومى بعد المعاهدة » للأستاذ محمد توفيق دياب

الخميس ٧ يناير « واجب الطلبة بعد المعاهدة » للأديب فريد زعلوك

الاثنين ١١ يناير « واجبنا الصحفى بعد المعاهدة » لأنطون الجميل بك «واجبنا نحو الفلاح بعد المعاهدة» للآنسة ابنة الشاطئ

الخميس ١٤ يناير « واجب المرأة بعد المعاهدة » للسيدة استر فهمى ويصا

وستلقى هذه المحاضرات فى قاعة يورت التذكارية وقد أعدت اللجنة بطاقات تبيح لحاملها الدخول فى جميع المحاضرات أو بعضها مجاناً لمن يطلبها من سكرتير اللجنة بكلية الحقوق أو بنادى الجامعة

وثائق الحملة الفرنسوية

اعتزمت الجامعة المصرية شراء طائفة من الوثائق والمستندات التاريخية الخاصة بعهد نابليون بونابرت فى مصر، وقد طلبت إلى وزارة الماليـة الموافقة على الاعتماد الذى قدرته لهذا المشروع؛ وفى انتظار تلك الموافقة وكلت إلى صاحب العزة عميد كلية الآداب أن يتصل بالمفوضية المصرية فى باريس ويطلب إليها موافاة الجامعة بالبيانات والمعلومات الخاصة بهذه المجموعة، فتلقى الأستاذ العميد من معالى وزير مصر المفوض برقية يقول فيها إن هذه المجموعة ملك لأحد الفرنسيين، وأنه قد عرضها للبيع بالمزايدة العلنية خلال هذا الشهر. أما ثمنها الأساسى فيقدر بنحو ألفى جنيه. ثم عرض معاليه على الجامعة استعداده لشراء هذه المجموعة إذا هى رغبت فى ذلك

فمن ذلك أنه وضع اسم الكتاب على الغلاف ناقصا ، فسماه نفح الطيب فحسب ، والمؤلف قد سماه (نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) وهذا الاسم هو الذي وضع على الطبعات السابقة ، وكان على الأستاذ أن يثبته كاملاً للمحافظة على وضع المؤلف ، ولأن ذكر لسان الدين هو الفكرة الداعية لتأليف الكتاب كما أوضح ذلك المقرى في مقدمته

ثم إن الأستاذ رأى أن يخرج الكتاب أقساماً تبلغ العشرين وأسمى القسم الأول منها بالجزء الأول ، ومن المعلوم أن المؤلف قسم كتابه عند التأليف إلى أربعة أجزاء ، ومسألة التقسيم مسألة اعتبارية ، والدقة تقضى بالمحافظة على اعتبار المؤلف الذي أخرج الكتاب عليه ؛ فكان الأنسب أن يقسم الناشر كل جزء إلى أقسام ، فيقول مثلاً : القسم الأول من الجزء الأول ، والقسم الثاني من الجزء الأول ... وهكذا حتى ينتهى الجزء الأول ، فيبتدئ تقسيما جديداً للجزء الثاني

ونتجاوز هذا إلى صميم الكتاب ، فنقف مع الأستاذ في تلك المقدمة التي دبجها في التعريف بمؤلف الكتاب ، فنجده قد جاء بأشياء ذكرها المقرى نفسه في المقدمة التي كتبها عن سفراته ورحلاته ، والباعث له على تأليف الكتاب . ومن العجيب أن يقول الأستاذ وهو يسرد مؤلفات المقرى : ومن مؤلفاته الشائقة عرف الطيب في أخبار ابن الخطيب ؛ ثم يقول في الهامش : ذكر في كشف الظنون أنه سماه بعد ذلك نفح الطيب ، وهذا لف لاحاجة اليه ، فأن المؤلف قد شرح مسألة التسمية في المقدمة فقال : « وقد كنت أولاً سميته بعرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب ، ثم وسمته حين ألحقت به أخبار الأندلس بنفح الطيب ... » فكان سبيل الكلام أن يقول الأستاذ : ومن مؤلفاته نفح الطيب ... ولا يثبت اسماً قد ألغاه صاحبه ، ولا ينتدب كشف الظنون لمهمة قد أداها المؤلف عن نفسه ؛ على أنه بعد ذلك قد ذكر الاسم الأول محرفاً كما يتبين ذلك من مقابلته بعبارة المؤلف

وفي (ص ٥٢) قال المقرى من قصيدة طويلة :

أين الذي الهرمان من بنيانه الحاكى اعتزامه

فعلق عليه الشارح بقوله : كشف من الأهرام حتى الآن أربعة !! إلا أن شعراء الماضي يذكرون الهرمين : هرم خوفو وهرم خفرع ، ثم استشهد لذلك بقول أبي الطيب :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع !

نقول : وشعراء الماضي يذكرون الأهرام بلفظ الجمع وهو كثير في أشعارهم ، ومن ذلك قول ابن جبارة :

لله أى غريبة وعجيبة في صنعة الأهرام للألباب
أخفت عن الأسماع قصة أهلها ونضت عن الابداع كل نقاب

وفي (ص ٦١) قال المقرى : « وقد زمت للرحيل القلص الرواسم » فقال الشارح : الرواسم هي الابل السائرة رسيما قال الشاعر :

متى تقول القلص الرواسما يدنين أم قاسم وقاسما

وهذا تفسير ناقص فكان عليه أن يبين مرتبة هذا الرسيم من السير ، أهو إلى السرعة أم إلى الريث ، وإنما نبهنا على هذه لأن أمثالها في الكتاب كثير . ألا تراه يعلق على كلمة — نيسان — بالشرح فيقول . هو شهر رومى ؟

وفي (ص ٧٩) قرأت قول القائل :

رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا ففاضت لروعات الفراق عيون

وقد رأيت كلمة فشرفنا بالفاء ، ولعل من الواضح أنها بالقاف لتكون في مقابلة (فغربوا) وأحسب هذا الخطأ من تحريف الطابع

وفي (ص ٩٨) قال المقرى : « فكم جبنا من مهامه فيحا ، ومسحنا بالخطا منها أثيراً وصفيحا ... » فقال الأستاذ الشارح : الأثير عند الأقدمين الفلك التاسع ، فهو على تشبيه المهامه بالفلك في اتساعه ، أو الأثير من أثر السيف وهو فرنده ورونقه وديباجته ولعل هذا أنسب . نقول : أما المعنى على التفسير الأول فخطأ لا يصح ، وأما التفسير الثاني ففيه نظر ؛ تقول اللغة : أثر السيف بوزن الأمر فرنده ؛ وتقول اللغة أيضاً : الصفيح العريض من كل شيء ، فالمقرى يريد أن يقول : إننا جبنا هذه المهامه ومثرنا بالعريض منها والدقيق . ومن هنا ترى أن صحة العبارة « ومسحنا بالخطا منها أثراً وصفيحاً . . . »

وفي (ص١٣٩) قال المقرى وهو يتكلم عن دمشق : « وهي المدينة المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع » فلم يطمئن الشارح لكلمة الرباع بالباء الموحدة ، وقال : لعلها الرياع بالياء المثناة أى الريع والنماء والزيادة . نقول . واللغة لا تقول الرياع وإنما تقول الريع ، ثم لا شك أنها الرباع بالباء الموحدة جمع رَبْع بمعنى

القوم كما هو إطلاقهم على الحجاز ، فـكأن المقرى يريد أن يقول : إنها عامرة بالفضل وبالأقوام ، وهو كما يقولون فى التعبير الحديث (آهلة بالسكان)

وفى (ص ١٥٢) قول القائل فى وصف دمشق أيضاً :

إن تـكن جنة الخلود بأرض فدمشق لا يكون سواها (؟)
أو تـكن فى السماء فهى عليها قد (أمدت) هواءها وهواها

فقال الشارح : لعلها أمرّت !! نقول ومعنى أمرت أذهبت ولا يصح المعنى على هذا الحدس ، فهى أمدت كما فى الأصل لأن الشاعر يريد أن يقول : إن تكن الجنة بالأرض فهى دمشق ، وإن كانت بالسماء فموضعها فوق دمشق وإنها أمدتها بهوائها وهواها . .

وفى (ص ١٦٢) قال الشاعر :

زونق كالحباب يعلو على الما ء ولـكن تحت الحباب الحباب

والشارح قد قيد الحباب جميعها فى البيت بالضم ، وإنما هى فى الأولى والثانية بالفتح بمعنى الفقاعات التى تعلو سطح المـاء ، وقد فطن إلى هذا الخطأ فقيد الـكلمة مصححة بالفتح فيما بعد

وفى (ص ١٦٤) قال المقرى : «ولو كان بين الصفا والحجون » وقد رأيت الصفا مضبوطة بكسر الصاد ، وإنمـا هى بالفتح كما جاءت فى القرآن الـكريم

وفى (ص ١٨١) البيتان :

تمتع بالرقاد على (شِمـــال) فـسوف يطول نومك باليمين
ومتع من يحبك باجتماع فأنت من الفراق على يقين

فقال الشارح : يجوز أن تـكون (شمال) جمع شملة وهى كساء يشتمل به ... وفى حديث على (!؟) قال للأشعث بن قيس : إن أبا هذا كان ينسج الشمال بيمينه ؛ وهى من أحسن الألفاظ وألطفها بلاغة !! وهذا كله شرح فاسد ، فأن المراد بالشمال مقابل اليمين ، إذ المعنى : تمتع بالنوم على جنبك الشمال فى الحياة قبل أن يستمر نومك باليمين فى الموت . ولعل من المعروف أن الأفضل فى دفن الميت أن يوضع على جنبه الأيمن

وفى (ص ٢٠١) قال الشاعر :

أين أيامنا اللواتى تقضت إذ زجرنا للوصل أعين طير

فقال الأستاذ فى الشرح : زجر الطير من العيافة ثم قال : والعيافة باطلة ، واحتج لذلك بقول الشاعر :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا (زجرت) الطير ما الله صانع

وهذا فضول فى الشرح ومثله فى الـكتاب كثير ، ثم فى كلمة زجرات تحريف وإنما هى زاجرات

وفى (ص ٢٠٣) قرأت قول ابن الخياط :

فلم أر الطرة حتى جرت دموع عينى (بالمرزيب)

وأنا أحفظها كالمرزيب وهى أصح وأبين . .

وفى (ص ٢٢٠) أثبت المقرى قصيدة للمولى الشاهينى جاء فيها :

وها كها سيارة أعتقت على جواد كان للبحترى
ورثته منه ولـكنما من شاعر وافى الى أشعر
ما للفتى الطائى شوط امرئ يصطاد نسر الجو بالمنسر

وقد علق الأستاذ على البيت الأخير فقال : أظنه يريد بالفتى الطائى أبا تمام وبامرئ امرأ القيس فانظر — وقد نظرنا فرأينا أنه يعنى بالفتى الطائى البحترى الذى ذكره فى البيت الأول ، وأنه يريد بامرئ : نفسه على جهة التشبيه بامرئ القيس وهذا هو الذى يقتضيه السياق ، ويتطلبه المعنى

وفى ص (٢٥٧) قال المقرى فى تحديد الأندلس : « وهذه المدينة — يعنى مدينة أربونة — تقابلها مدينة برديل . . . » فقال الأستاذ : لم نعثر فى المعاجم على اسم هذه المدينة ، وقد تكون محرفة عن (برديش) وهى من مدن قرمونية بالأندلس . وليس ثمت تحريف ، فأن برديل هى بردو الآن ، وتقع حيث يقترب البحر المحيط من البحر الشامى ، وهى فى مقابل أربونة ؛ وقد كان القدماء يقسمون الأندلس الى ثلاثة أركان ، ويقولون إن ركنها الثانى يقع بالشرق بين أربونة وبرديل

وفى (٢٧٩) قال وهو يتكلم عن المعادن والأفاويه بالأندلس : « وقد سبق منه — أى العود الهندى — الى خيران الصقلبى صاحب المرِّية » والمقرى قد نقل العبـارة بنصها عن الاحاطة للسان الدين ، وقد جاء فى الاحاطة اسم صاحب المرية (حيزوان)

ذلك ما أحصيناه فى هذا القسم من الـكتاب فى نظرة عجلى ، وربما لو عدنا اليه بالنظرة الفاحصة لعثرنا على ما هو أهم وأجل ، ولعل الله ييسر لنا النظر فى جميع أقسام الـكتاب

محمد فهمى عبد اللطيف

العالم المسرحي والسينمائي

بعوث التمثيل

وسياسة إعداد المخرجين

لناقد «الرسالة» الفني

لقد ترك الأستاذ زكي طليمات باعتزاله العمل في الفرقة القومية مكاناً شاغراً وإنه ليصعب على فرقة تضم هذا العدد الكبير من الممثلين أن تسير بمخرج مسرحي واحد، ونحن إذا طالبنا الأستاذ عزيز عيد أن يخرج جميع روايات الموسم فإنما نطلب ما ليس في الاستطاعة وما يخرج عن القدرة؛ وهو إن قبل هذه المهمة فإنما يظلم نفسه، وتكون النتيجة تعطيل عدد كبير من الممثلين انتظاراً لاعداد رواية بعد أخرى كما هو حاصل اليوم. ثم إن قيام مخرج واحد بهذه المهمة يجعل دراسة الروايات سطحية لكثرة العمل وضيق الوقت؛ وقد يضطر المخرج إلى تأجيل موعد التمثيل في إحدى الروايات حتى يتسع له الوقت لتدريب الممثلين كما حدث في رواية «سافو» في الأسبوع الماضي

ونحن نناشد مدير الفرقة أن ينظر إلى هذه الحال جيداً وأن يقدر الموقف لعله يستطيع أن يوفق الى مخرج. أما نحن فنرى أن من الخير للممثلين أنفسهم وللجمهور وللفرقة أن يعهد صاحب العزة مديرها الى أحد كبار الممثلين الذين لهم من الثقافة وسعة الاطلاع ما يؤهلهم للقيام بمهمة الاخراج ببعض الروايات لاخراجها، وأنا على ثقة من أن في الفرقة من سبق له أن أخرج عشرات الروايات لطلبة المدارس الثانوية الأميرية وغير الأميرية. فهل تحقق الفرقة هذا الرجاء حتى يعود إليها من الخارج من توفدهم من البعوث لدراسة الفن في أوربا!!

وعلى ذكرى البعوث نقول إن خير عمل قامت به لجنة ترقية التمثيل العربي منذ انشاء الفرقة القومية في العام الماضي؛ هو قرار لجنتها التي عقدت في مساء يوم الخميس الماضي، القاضي بارسال أربعة من الشبان المصريين إلى أوربا لدراسة فن الاخراج والتمثيل: اثنين من الممثلين المعروفين واثنين من الشبان المتعلمين الحائزين على درجات علمية محترمة. وهذه السياسة التي تسير عليها اللجنة جديرة بأن تقابل من كل محب للمسرح بالشكر إذ تهيئ لنا شباناً مثقفين ثقافة مسرحية شاملة، وسوف يدخلون على المسرح المصري كل جديد طريف ويسيرون به إلى الامام خطوات واسعة، وسوف يجد فيهم صغار الممثلين أساتذة وإخواناً يستفيدون منهم كل ما تغيب عنهم معرفته

إن أهم ما يشكو منه المسرح هو عدم وجود المخرج الفنان، فعلى أعضاء البعثة أن يعنوا بدراسة الاخراج أكبر العناية، وأن يخصصوا له الجانب الأكبر من جهودهم فيتفهموا وسائله ونظرياته ويدرسوا الضوء، فمن المحزن أن نبقى حتى اليوم ونحن لا نكاد نفهم ما هو الضوء، وكيف نستخدمه ونستفيد منه، وكيف نستعين به في معاونة الممثلين على التعبير وإبراز عوامل الجمال في الرواية

رواية سافو

كانت الفرقة القومية المصرية قد أعلنت عن تمثيل رواية سافو ابتداء من ٢ ديسمبر الماضي، ولكن اضطرت الفرقة لظروف خاصة إلى تأجيل هذا الموعد إلى يوم الثلاثاء القادم الموافق ٨ ديسمبر، ونحن نرجو أن يقبل الجمهور على هذه الرواية فهي من روائع الأدب المسرحي الفرنسي

فيلم جديد لاستديو مصر : الشيخ شريب الشاى

جرت العادة أن تدعو الشركات الأجنبية ممثلى الصحافة إلى حفلة عرض خاصة لكل فلم جديد تنتجه ، وقد اقتدى استديو مصر بهذه الشركات فدعا النقاد السينمائيين إلى شهود آخر منتجاته « الشيخ شريب الشاى » الذى قام باخراجه لحساب جمعية الشاى الدولية

فالفلم للدعاية وأصحابه هم أصحاب فكرته ، ولكن الاستديو هو الذى قام باعداده وإدارته فنياً ؛ وموضوعه تحبيذ للشاى الجيد ، وحض للناس على تفضيل هذا النوع من الشاى . وبطل الفلم شيخ من الفلاحين له مكانته فى قريته يستيقظ فى الفجر هو وأولاده يطلبون الشاى ويلقون الأغانى فى طلبه ، ونرى الأم تقوم باعداده على الطريقة الصحية . وهنالك مواقف كثيرة فيها تتجلى مضار الشاى الأسود ، ومحاسن الشاى الجيد المصنوع على الطريقة الصحية وأثر هذا الشاى فى الصحة . وقد وفق الأستاذ نيازى مصطفى فى إدارة الفلم فنياً كما وفق يوسف بهجت فى تصميم مناظره ، وكذلك وفق حلمى رفلة فى عمليات التنكر وإبراز الشخصيات مما يتفق وأدوارها فى الفلم ، وأذكر له شخصية الشيخ ، وشخصية الخفير الأبله الذى تدل سحنته على البلاهة حقاً كما كانت سحنة بائع الشاى « المغشوش » بغيضة أيضاً . وإلى مجهود هؤلاء الشبان يعود الأثر الأكبر فى متابعة النقاد لمشاهدة الفلم برضاء وسرور مع أنه كما قلنا فلم دعاية فيه كثير من الترديد والاعادة والتحبيذ للشاى الصحى وشربه ، وفى هذا ما قد يبعث الملل إلى النفس

ويمكننى أن أقول إن نيازى أثبت فى هذا الفلم أنه مدير فنى متمكن من فنه ، فعمله يفوق أى فلم مصرى آخر مما تخرجه الشركات وتستغل به طيبة المصريين

والتمثيل لا بأس به، وفى مقدمة الجميع كان محمد كامل الذى قام بدور البربرى فله مواقف طريفة ، وابراهيم عمارة فى دور الشيخ شريب الشاى أعطى جوانب طيبة من الشخصية ، ولكنه أهمل جوانب أخرى واهتم بالالقاء أكثر مما اهتم بالتمثيل ولهذا لم يبرز روح الفلاح كاملة . أما الموسيقى فكانت تتنافر وجو الفلم ، وكان من الأفضل أن يميل الملحن فريد غصن إلى الموسيقى البلدية فى أغانى القرية حتى ولو كانت عن الشاى

والفلم فى مجموعه مجهود موفق ، فنرجو للاستديو التوفيق المستمر

التصوير أم الاضاءة

رأى المدير الفنى لفيلم نشيد الأمل

يعمل رجال شركة فلم الشرق بهمة كبيرة لاخراج فلم نشيد الأمل الذى تقوم بالدور الأول فيه الآنسة أم كلثوم ، ويبذل كل من المخرج والمدير الفنى مجهوداً مضنياً ، حتى ينتهى إعداد الفلم قبل يوم ١٠ يناير وهو الموعد المحدد لعرضه فى سينما رويال

جمعنى مجلس بالأستاذ أحمد بدرخان فتحدثنا عن فلم نشيد الأمل وعن الجهود التى يبذلها الجميع لاخراجه فى هيئة تنال رضاء الشعب ، وانتقل بنا الحديث إلى التصوير فقلت له : إن الذين شاهدوا فلم « وداد » لاحظوا أن الآنسة أم كلثوم فى الصور المأخوذة عن قرب Close Up تبدو غير جميلة ، وتضعف شخصيتها كثيراً عما نعرفه عنها ، وتمنيت أن يكون قد عمل على تلافى هذه الغلطة فى فيلم نشيد الأمل . وسألته عما إذا كان قد فكر فى إظهار الآنسة أم كلثوم فى الصور القريبة غير واضحة التفاصيل Flue حتى يمكن تلافى أى عيب . وقد أجاب الأستاذ بدرخان بأنه لو كان قد أشرف على الادارة الفنية فى « وداد » لما ظهرت أمثال هذه الصور التى لفتت الأنظار ، لأنه يعرف كيف يلافى أمثال هذه الأخطاء ، وأنه شخصياً يرى أن الصور غير الواضحة التفاصيل تظهر الوجه بديناً إلى حد ما وإن أدت إلى الغرض المقصود ، وهذه الصور تلائم الممثل النحيف كالأستاذ محمد عبد الوهاب ولكنها لا تلائم الآنسة أم كلثوم ؛ ولهذا يرى أن الاضاءة الفنية تحقق هذه الغاية

وسوف يرى النقاد ورواد فلم نشيد الأمل كيف تظهر الآنسة أم كلثوم هذه المرة ، وسوف يحكمون على إدارة المصريين للأفلام ويقارنون بين ما ينتجون وبين ما أنتج الأجانب الذين استقدمناهم لادارة أفلامنا الشرقية والمصرية (يوسف)

تصويب

جاء فى مقال المسرح المنشور بالعدد الماضى صفحة ١٩٧٩ فى السطر الثانى عشر من العمود الأول : (ذلك الكاتب الألمانى العظيم) والصواب (الكاتب الانسانى)

4 me Année, No. 180

Lundi - 14 - 12 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٨٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ رمضان سنة ١٣٥٥ — ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

عرض وسرد

بين سلطان وسلطان

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟

هذا ملك المغرب ، وامبراطور المشرق ، وإله البحر ، وصاحب العرش المحمول على أعناق الشعوب ، ووارث التاج المتألق على جباه القرون ، وخليفة المجد المحفوف بالجلال الباهر والسؤدد العريق والسنَّة المقدسة ، وسليل الدم السَّرى الذى يتدفق بالحياة فى هدوء ويجيش بالنشاط فى ثبات ، وربيب البيئة التى تعظم القوانين وتقدس التقاليد وتعبد الامبراطورية ؛ هذا هو ينزل عن العرش ، ويُلقى التاج ، وينبذ اللقب ، ويهجر الوطن ، ويلحق بحبيبته أميرا لا يميزه شعار ، وإنساناً لا تحدوه أبهة ، وفرداً لا تصحبه حاشية !

يا جاحدين لسلام الروح وراحة القلب ورضى العاطفة ، أتمارون بعد اليوم فى هذه الآية ؟

زعمتم أن الأرض بُدِّلت غير الأرض ، والدنيا أصبحت

غير الدنيا ، فقدَّرتم سعادة الحياة بالوزن والكيل والمساحة ، وقلتم أوْدى منطق العقل بإلهام القلب ، وأزرتْ مادية العلم بروحية الأدب ، وغلبت أثرة المنفعة على إيثار التضحية ؛ ورحتم تتجهزون بما صنع العلم من صواعق وزلازل وبراكين ، لتنسفوا ما قام من المدنية ، وتقتلوا ما بقى من الإنسانية ، وتقرُّوا فى ملكوت الله نظاماً لا يعيش فيه جمال ولا خير ولا حق ؛ فقام أكبر ملك فى العالم ، على أظهر مكان فى الأرض ، يعلن أن عظمة الملك لا تضمن سعادة النفس ، وسلطان العرش لا يعوض حرية الإرادة ، وجواهر التاج لا تساوى بَسْمةَ الحبيب !

* * *

سبحانك يا بديع الحياة والحب ! ماهذا الذى تضعه فى العيون فنسميه سحراً ، وتجريه على الشفاه فندعوه جاذبية ، وترسله فى الأعضاء فيكون رشاقة ؟ ما هذا الذى تودعه هذا الجسم الرقيق الناعم فيقهر سطوة الجبار ، ويُسوِّى أخدع المتكبر ، ويطاطئ إشراف الملك ؟ أهو إعجاز القدرة التى تغلب بالأضعف ؟ أم سر الحكمة التى تمكر بالأقوى ؟ أم روح القدس الذى ينفِّذ قانون الحياة فى هذا الكوكب ؟

بين سَورة المُلك وأمانة التاج ، وبين فتنة الجمال ومحنة الهوى ، وقف العاهل ادوار الثامن يتحسس فى مطاوى الغيب مشيئة القدر : أيعيش فى نفسه ولنفسه ، أم يعيش فى جنسه وللناس ؟ أيظل رمزاً لأمته يخفق فوق رءوسها كالعلَم ، ويتغلغل فى قلوبها كالايمان ، ويتردد على ألسنتها كالصلاة ، ثم لا يكون له ما للعامل الفقير من وجود مستقل وإرادة مختارة ؛ أم يرتد إلى طبيعة الانسان فيضرب بنفسه فى الزحام ، ويبحث عن نصيبه فى الرغام ، ويضطلع بعبئه ككل فرد ؟؟ أيبقى أسير التقاليد التى نسجتها عناكب الماضى البعيد على نوافذ البلاط والبرلمان ، فلا يفكر إلا بإيحاء ، ولا يتحرك إلا بميقات ، ولا يتكلم إلا بمقدار ، ولا يعمل إلا بإشارة ؛ أم يتمرد تمرد الحى المريد ، فيدفع من أمامه ذلك الحاجز الصفيق الثقيل ، ويجذُّ من ورائه ذلك الذيل العتيق الطويل ، ثم ينطلق فى أجواء الله انطلاق الطائر المرح ، يقع فى كل روضة ، ويهبط على كل غدير ، ويملى أليفه فوق عروش الورود ، وعلى بُسُط المروج ، وبين أفنان الخمائل ؟؟

كانت هذه الآراء الحائرة تعصف نكباء فى رأس الملك : بينما كان فى (لندن) الواجبُ المرير الخشن يتمثل فى وجه (بلدوين) الحازم الجبار ، ومن خلفه برلمان متحد يؤيد دستوره ، وملكوت واسع يريد امبراطوره ، وشعب مخلص يحب ملكه ؛ وفى (كان) حب عنيف مُلح يشرق فى قسمات (مسز سمبسون) الفاتنة ، ومن ورائه إنسان يطلب حريته ، وقلب ينشد سعادته ، وحى يبتغى حظه من الحياة

وهنا يتدخل القدَر الذى يحكم وحده على الملوك ، فيحل عقدة الرواية التى يشهدها العالم كله ، على غير ما يحلها به الروائيون الخياليون ، فينصر تجديد الطبيعة على تقليد العرف ، ويغلِّب سلطان الحب على سلطان الواجب ، ويرفع سرير الأسرة على عرش الأمة !

* * *

يا كافرين بالشعر والأحلام والحب ! أتريدون بعد حادث اليوم معجزة ؟

أيها الناسون ما صنعت حواء بأبيكم آدم ! لا تحسبوا أن الماسونية والجاسوسية والشيوعية والصهيونية والفاشية والنازية هى التى تقلب فى السر أو فى العلن أوضاع المجتمع. فتشوا فى زوايا كل أولئكم عن المرأة ! وإذا كانت مأساة البرنس ادوار تذكرنا بمأساة البطل أنطوان ، فليست كليوبطرة أول النساء ، ولا مسز سمبسون آخرهن ؛ وسيظل هذا الجنس القوى الخفى الغامض سلطان الكون المطلق ؛ فهو محور الطموح والمنافسة ، ومصدر الخير والشر ، ومنبع السرور والألم . ولئن خضع له اليوم ادوار ، فمن قبله خضع نابليون ، ومن قبل نابليون خضع الرشيد وقال فيما حدَّث الرواة :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها ... وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... ـ وبه قوين ـ أعز من سلطانى

أحمد حسن الزيات

٦ ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحبُ القلب المسكين فقام ليخرجَ ، وقد تقارَطتْه الهمومُ وتسابقت إليه فانكسر وتفتّر ؛ وكأنما هو قد فارق صاحبته باكياً وباكيةً من حيث لا يرى بكاءه غيرُها ولا يرى بكاءَها غيرُه

ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تَغشَّى الدنيا لونُ نفسه الحزينة إذ كانت نفسُه ألقت ظلَّها على كل شيء يراه ؛ وجمل يدلف ولا يمشي كأنه مثقلٌ بحمل يحمله على قلبه

إنه ليس أخفُّ وزناً من الدمع ، ولكن النفوس المتألمة لا تحملُ أثقل منه ، حتى لينتثرُ على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناءٌ قائم يتهدَّم على جسم . وبعضُ التنهدات — على رقتها وخفتها — قد تشعر بها النفس في بعض همِّها كأنها جبل من الأحزان أخذته الرَّجفةُ فادت به ، فتقلقل ، فهو يتفلَّق ويتهاوَى عليها

آه حين يتغير القلبُ فيتغير كل شيء في رأى العين . لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور في الدنيا يقول له : أنا لك ؛ فعاد الآن وما يقول لك أنا لك إلا الهمّ ؛ والتقى هو والظلام والعالم الصامت

جمل يدلُف ولا يمشي كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه .

ومتى وقع الطائر من الجو مكسورَ الجناح انقلبت النواميس كلُّها معطلة فيه ، وظهر الجو نفسُه مكسورا في عين الطائر المسكين ، وتنفصل روحُه عن السماء وأنوارها حتى لو غمره النورُ وهو ملقىً في التراب لأحسَّه على التراب وحده لا على جسمه

ثم خرجنا فانتبه صاحبنا مما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر فتعذَّب به عذابين : أما واحدٌ فلأنه كان ولم يَدُمْ ؛ وأما الآخر فلأنه زال ولم يُعدْ .

والسرورُ في الحب شيء غير السرور الذي يعرفه الناس ؛ إذ هو في الأول روحٌ تتضاعف به الروح ؛ فكل ما سرك وانتهى شعرتَ أنه انتهى ؛ ولكن ما ينتهي من سرور العاشق المستهام يشعره أنه مات . فله في نفسه حزن الموت وهمُّ الثكل ؛ وله في نفسه همُّ الثكل وحزن الموت

***

وينظر صاحبُ القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت في الحديقة ، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره

كان وجهُ القمر في مثل حزن وجهِ العاشق للمبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا . فكان أبيضَ أصفرَ مكمدا ، تتخايلُ فيه معاني الدموع التي يُمسكها التجلد أن تتساقط

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظاهرُ تأثير القدَر المفاجئ بالنكبة

وبدت لنا الحياةُ تحت الظلمة مقفرة خاوية على أطلالها فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مُشرقاً في نصف النهار . يا لك من ساحر أيها الحبُّ ! إذ تجعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيام والليالي

أما الحديقةُ فلبسها معنى الفراق ؛ وما أسرعَ ما ظهرت كأنما يبست كلها لتوّها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها فهي ساكنة ؛ وتحوّلت روحها خشبيّة جافة ، فلا نضرة فيها على النفس ؛ وبدت أشجارها في الظلام قائمة في سوادها كالنائحات يلطمن ويُولولن ، وتنكر فيها مشهدُ الطبيعة كما يقع دائماً حين تنبتُّ الصلة بين المكان ونفس الكائن فيه

ماذا حدث ؟

لا شيء إلا ما حدث في النفس ؛ فقد تغيرت طريقة الفهم ، وكان للحديقة معنى من نفسه فسُلب المعنى ، وكان لها فيض من قلبه فانحبس عنها الفيض ، وبهذا وهذا بدت في السلب والعدم والتنكر ، فلم يبق إبداعٌ في شيء مُبدَع ، ولا جمال في منظر جميل

أ كذا يفعل الحب حين يضع في النفس العاشقة معنى ضئيلا من معاني الفناء كهذا الفراق ؟

أ كذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً ، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء ؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق ، مسكين أنت !

***

ومضينا فملنا إلى ندىٍّ نجلس فيه ، وأردتُ معابثة صاحبنا

المتألم بالحب ، والمتألم بأنه متألم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتها نفسُك

قال : آه . من أنا الآن ؟ وما بالُ ذلك الخيال الذى نسّق لى الدنيا فى أجمل أشكالها قد عاد فبعثرها ؟ أتدرى أن العالم كان فى ثم أخذ منى فأنا الآن فضاء فضاء

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصى لمحبه

قال : ولذلك يعيش المحب المهجور ، أو المفارق ، أو المنتظر وكأنه فى أيام خلت ؛ وتراه كأنما يجئ إلى الدنيا كل يوم ويرجع

قلت : إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف كالملك يستبدّ ليتحقق من نفاذ أمره ؛ وكأن الجميل لا يتم جماله إلا إذا كان أحياناً غير جميل فى المعاملة

قال : ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهى تطلبنى وأتنكبها ، وهى مقبلة لكنها مقبلة على امتناعى ؛ وكأنها طالب يعدو وراءه مطلوب يفرّ ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك

قلت : فان هذه هى المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان المحب مثلك ، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها

قال : كذلك هو ، فهل تعرف فى البؤس والهم كبؤس العاشق الذى لا يتدبر كيف يأخذ حبيبته ، ولكن كيف يتركها ؟ ماهى المسافة بينى وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها . إن مسافة ما بين الحلال والحرام متراخية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية . وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا (نعم) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد ، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه طاهر ؛ ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيدها من الأدب والشريعة وكرامةِ الانسانية فى المرأة والرجل

وإذا لم ينته الحب بالأثم والرذيلة ، فقد أثبت أنه حب ؛ وشرفه حينئذ هو سرُّ قوته وعنصرُ دوامه

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة ...؟ إنه بهذا يودُّ ألاّ يكون بينهما العقلُ والقانونُ وهذا الحرمانُ الذى يسمى الشرف ، وألاّ يكون بينهما إلا قيدُ غريزتها الذى ينحلُّ من تلقاء نفسه فى لحظةٍ ما ، وأن يُترك لقوته وتترك هى لضعفها ؛ والقوة والضعف فى قانون الطبيعة هما مِلك وتمليك واغتصابٌ وتسليم

قلت : وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان ، فان بينهما قوةً وضعفاً من نوع آخر ، فمنه الثمن وبها الحاجة ، وهما فى قانون الضرورة مِلك وتمليك

قال : وهذا مما يقطّع فى قلبى ، فلو أن للأمة ديناً وشرفاً لما بقى موضع الزوجة فارغاً من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن فى تلك المواضع الخالية أولَ ما ينزلن ، فكل بغىّ هى فى المعنى دينٌ متروك وشرف مبتذَل فى الأمة

* * *

قلت : فحدثنى عنك ما هذا الوجدُ بها وما هذا الاحتراق فيها ، وأنت قد كنت بين يديها خيالياً محضاً كأنما جمعتها فى حواسك فأخذتها وتركتها فى وقت معاً . وحواسك هذه لا تزال كما هى بل هى قد زادت حِدّة ، فكما صنعت لك من قرب تصنع لك من بُعد

قال : أنا فى محضرها أحبها كما رأيت بالقدر الذى تقول هى فيه إنك لا تحبنى ، إذ كان بيننا آخر اسمه الخُلق ؛ ولكنى فى غيابها أفقد هذا الميزان الذى يزن المقدار ويحدده . وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق فى غيبة المعشوق ، فاعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بازائها ما تقاومه فتتخلى عنه وتخذله ، وفضيلته لا تجد ما تستعلِنُ فيه فتتوارى وتدعه ، وشخصيته لا تجد ما تبرز له فتختفى وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهَن والنقص وحدّة الشوق ، وهنا ينتقم الحب مما زوّرت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمة لا تقوم لها القوة ، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التى كتمت عنه . وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدُّه وتباعده ، وهى فى خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القَدَم وعلى هذه القدم

ألا إنه لا بد فى الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أى الروايات من مثلها ؛ ولكن ثياب المسرح هى دائماً ثياب استعارة ما دام لابسها فى دوره من القصة

* * *

ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال : آه . إن هذا القلب يغاضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان

مَن مِن الناس لا يعرف أحزانه ، ولكن من منهم الذى يعرف

أسرار أحزانه وحكمتها ؟ أما إنه لو كُشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملاً في النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل في إيجاد الأصلح والأقوى ، ثم يعمل كذلك لايجاد الأفضل والأرقّ . ومن ثم كانت آلام الحب قويةً قويةً حتى لكأنها في الرجل والمرأة ، تهيئ أحد القلبين ليستحق القلب الآخر

آه من هذه اللواعج ! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجمر ، وبذلك يُصْهَرُ المعدن الانساني ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى أن ينصهر ويتصفى ويُصنع ، ماذا يكون للانسان في كل شيء من حبيبه ؟

يكون له في كل شيء روحه الناري

***

قلت : بَخٍ بَخٍ[1] . هكذا فليكن الحب . إنها حين تهيج في نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها وما هو أبدع من جسمها ، إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشدَّ اللوعة . ياعجبا ! كأن الحياة لا تقدم في عشق المحبوب إلا عشقها هي ، فاذا وقعت الجفوة ، أوحُمَّ البيْنُ ، أو اعترى اليأس — قدَّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت

إن الحزن الذي يجيء من قبل العدو يجيء معه بقوة تحمله وتتجلد له وتكابر فيه ، ولكن أين ذلك في حزن مبعثه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب ؟

***

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً . فاذا كان غدٌ وانسلخ النهار من الليل ، جئنا إليها فرأيناها في المسرح ، ولعل الأمر يصدر مصدراً آخر . قال : أرجو

ولم يكد ينطق بهذه الرجيَّة حتى مرَّ بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا وجئنا ؛ وياويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلتْ ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه . . .

من قوله : أرجو

ولماذا رحلت ؟ لماذا . . . ؟

وأما هو ؟

(جنبع — طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) كلمة الاعجاب تقال عند الرضى والمدح ؛ ومثلها (زه) وهذه فارسية

سالزبورج

مدينة المطر والموسيقى

بقلم سائح متجول

لما بطل بنا المكث في ربوع سويسرا الجميلة فغادرنا « تسيريخ » (زوريخ) إلى ألمانيا عن طريق شافهاوزن ، وقصدنا « منشن » (ميونيخ) عاصمة بافاريا عن طريق أوجسبورج واولم ؛ وفي أثناء الزيارة الجمركية عند الحدود الألمانية ، أحصى الموظف المختص ما معنا من صنوف النقد الأجنبي وقيمه وأثبتها بعد الاطلاع عليها في شهادة خاصة ؛ وهذا إجراء لا بد منه لكي يستطيع السائح أن يخرج من ألمانيا بما يحمل من صنوف النقد الأجنبي ، ووصلنا إلى « منشن » عصراً بعد رحلة ممتعة خلال سهول بافاريا الغنية ، فألفينا المدينة تموج بالوافدين عليها من السياح من مختلف الأقطار ، وألفينا الفنادق غاصة بالزائرين ، وقد رفعت أجورها جميعاً عن الأسعار الرسمية المدونة في سجل الفنادق الألمانية ؛ وقد كانت دورة الألعاب الأولبية قد بدأت في برلين قبل ذلك بأيام ، فلم نرغب في الذهاب إليها اجتنابا لضجيجها وحياتها الصاخبة ، وآثرنا البقاء في منشن وبافاريا فلم نجد ما كنا ننشد من الراحة والهدوء

وقد تحدثنا في فصل سابق عن « منشن » ومناظرها وعن أبهاء البيرة الضخمة التي اشتهرت بها ، فلا نعود إلى ذلك . وإنما نلاحظ هنا فقط أن الفنادق الألمانية لا ترضى بالأسعار الرسمية التي تقيدت بقبولها والتي يعول عليها السائح ، وهي مدونة في دليل الفنادق الرسمي الذي يقدم اليك ؛ وإن السائح يتكبد في صرف تحاويل السياحة « رجستر مارك » خسائر لا مبرر لها ، فكل تحويل بخمسين ماركا أو أقل يؤخذ عنه « مارك » ويؤخذ عن المائة مارك ونصف مارك ، وهكذا فاذا ذكرت أنه يؤخذ مثل هذه النسبة أو أكثر عند شراء التحويل ، فان « العمولة » قد تصل بذلك إلى أربعة أو خمسة في المائة ، هذا والسائح الذي يريد أن يحول ما تبقى لديه من النقد الألماني بعد انتهاء زيارته يتكبد في تحويله خسارة لا تقل عن عشرين أو خمسة وعشرين في المائة ، وهذه نسبة غير معقولة

أضف إلى ذلك أن نفقات المعيشة فى ألمانيا ليست من الرخص كما يقال ، وهذا بالرغم مما وضعته ألمانيا من تسهيل فى مسألة النقد بتقرير «الرجسترمارك» للسياح ؛ وتمنح ألمانيا على سككها الحديدية تخفيضاً قدره ستون فى المائة ، ولكنها تشترط فى مقابل ذلك أن يقيم فى أرضها سبعة أيام كاملة على الأقل ، وهذا شرط مرهق بلا ريب ؛ لأن إيطاليا تمنح للاجانب تخفيضاً قدره خمسون فى المائة أو أكثر على سككها الحديدية دون اشتراط الاقامة مطلقاً ، وكل ما هنالك أنك تزور معرضاً فى إحدى المدن الايطالية التى تمر بها وقد لا يستغرق ذلك أكثر من ساعتين

***

غادرنا « منشن » بقطار الساعة الثانية مساء إلى مدينة سالزبورج ، فوصلنا إليها بعد رحلة قصيرة وتمت الاجراءات الجمركية بسرعة فى الجانب النمسوى من المحطة ؛ ثم جزنا إلى خارج المحطة ، ولشد ما كان سرورنا ودهشنا إذ التقينا فى فنائها بصديقنا القديم الصحفى النابه الأستاذ محمود أبو الفتح ، فبادلناه تحية حارة ، وتواعدنا على التزاور واللقاء ، ولكن الظروف لم تسمح للأسف بتلاقينا بعد ذلك ؛ وقد علمنا فيما بعد من صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم أنه كان فى نفس الوقت الذى زرنا فيه سالزبورج يقبع فى فندق بقرب فندق «شتات ميران» الذى نزلنا فيه ؛ ومع أننا كنا نجوس خلال المدينة فى كل وقت بالنهار وبالليل ونغشى جميع المقاهى والمنتديات التى ذكر لنا الصديق أنه كان يغشاها أيضاً ؛ فاننا لم نعرف بوجوده ولم نقع له على خبر أو أثر ؛ ولعله كان يؤثر الاعتكاف والاحتجاب ليستجم كل تفكيره وخياله ثم يطالعنا بكتابه الذى اعتاد أن يخرجه كل موسم ؛ وعلى أى حال فقد كان المطر ينهمر باستمرار فى سالزبورج ، ويحمل ذوى الأمزجة الرقيقة على الاحتجاب والاعتكاف . أما نحن فقد كنا نجد فى هذا الغيث المنهمر الذى اشتهرت به سالزبورج ظاهرة بديعة من ظواهر الطبيعة ، وكنا نستقبله باسمين مرحين رغم أنه كان يغمرنا بالبلل ليل نهار . والواقع أن المطر يغمر هذه المدينة الرشيقة بنوع من الصباحة المنعشة ، كما تغمرها الشمس أيام الصحو بضوئها النمش ؛ وحينما يسقط المطر تقدم إليك تلك المدينة منظراً بديعاً ، فالظلات تنتشر فوق الرؤوس ، ويرتدى الناس معاطف المطر الجلدية ؛ وترى المطر يقطر من المارة ، ولكن حركة المدينة تبقى على حالها ؛ ومما يلفت النظر بنوع خاص منظر السيدات وهن يرتدين المعاطف الجلدية أو معاطف صنعت من ورق خاص يسيل عليها المطر وتحمى من البلل ؛ وإذ كانت سالزبورج وقتئذ تموج بالوافدين لحضور حفلاتها الموسيقية الشهيرة ، فقد كنا نرى أسراب الحسان يرتدين هذه المعاطف الورقية المختلفة الألوان فوق ثياب السهرة ، وينساب الماء فوق معاطفهن ، كما ينساب السحر من زينتهن وعطرهن ، وهن ضاحكات مرحات لا يزعجهن البلل

وإذا كانت سالزبورج تشتهر بعطرها الذى لا ينقطع حتى فى أشد أيام الصيف ، والذى يغمرها دائماً بالبلل المنعش ، فانها تشتهر أيضاً بصفة أخرى ، هى أنها مدينة الموسيقى ؛ وشهرتها عالية تدعو اليها الزائر من أقاصى العالم ؛ ولا غرو فهى مسقط رأس موتسارت ، وفيها بزغ مجده ؛ وما زال المنزل الذى ولد فيه موتسارت قائماً فى سالزبورج ، وفيه الجناح الذى قضى فيه طفولته ؛ وقد حول هذا الجناح اليوم إلى متحف يحج إليه المعجبون بذكرى الموسيقى الكبير ، ويتأملون فيه ذكرياته وآثاره ؛ وإنك لتشعر حين ترى هذا المنزل المتواضع الذى حرص أولو الأمر على استبقائه بشكله القديم ؛ وحين تطوف بغرفه الضيقة ذات الأسقف الخفيضة ، بنوع من التأثر يمازجه الخشوع ؛ ذلك أنك ترى فى كل زاوية من المكان أثراً حياً لذلك الذى بهر العالم وسحره منذ طفولته برائع أنغامه وروائع مقطوعاته ؛ فهنالك مسودات لكثير من قطع موتسارت كتبت بخطه ، وهنالك رسائل كثيرة ، وصور عديدة تمثله فى مناسبات وحفلات مختلفة ؛ وهنالك جمجمة الموسيقى الكبير ذاتها ، لا نجد لوضعها معنى بين هذه القطع والآثار الفنية ؛ ثم هنالك مناظر سحرية تمثل كثيراً من القطع التمثيلية التى وضع موتسارت مقطوعاتها الموسيقية واشترك فى إحيائها مثل « الدون جوان » و « زواج فيجارو » و « المزمار المسحور » و « كوزى فان توتى » و « اختطاف الحريم » وغيرها ؛ وهذه المناظر آية فى الدقة والابداع لأنها تمثل المناظر والأشخاص والألوان مجسمة واضحة ، وتدل على مبلغ ما انتهى إليه المسرح فى عصر موتسارت أعنى فى أواخر القرن الثامن عشر من التقدم ؛ ولفت نظرنا بنوع خاص من بين هذه الذكريات عدة اعلانات مسرحية ترجع إلى سنة ١٧٨٠ و ١٧٨١ ، عن روايات يشترك فى إحيائها موتسارت وقد ذكر فيها أنه يتولى قيادة الموسيقى ، وأن الأثمان عادية أو مخفضة ؛ ومازلنا نرى هذه الأوضاع ونقرأ هذه العبارات التى كان يتخذها المسرح منذ قرن ونصف للاعلان عن نفسه ،

فيما يصـدره اليوم من الاعلانات والبرامج ! وإنك لتكاد تقرأ فى هذه الغرف المتواضعة ، وفى هذه الذكريات المؤثرة طرفاً من حياة ذلك الذى لم تغنه عبقريته الرائعـة شر الحاجة ؛ ذلك أن موتسارت قد بهر مجتمعات عصره بسمو فنه وافتنانه ، ونهل من منهل المجد ماشاء ، ولـكنه لبث طول حياته يتخبط بين غمار الفاقة ، وتوفى مثقلاً بالبأساء والدين

وقد أسبغ تراث موتسارت وذكرياته على سالزبورج شهرة موسيقية عالية ما زالت تحتفظ بهـا حتى اليوم . ولسالزبورج موسم موسيقى مشهور تقيمه فى كل صيف فى يوليه وأغسطس ، ويشترك فى إحيائه أقطاب الموسيقى العالميون مثل برونو فالتر ، وفيلـكس فينجارتنر ، وأرتورو توسكانينى ؛ وتمثل فى هـذا الموسم عدة من القطع المسرحيـة الخالدة التى وضع موسيقاها موتسارت وبيتهوفن وشوبرت وغيرهم من أقطاب الفن ، وتنظم حفلات موسيقية رائعـة تعرض فيها قطع وأناشيد من وضعهم ، وتقوم بتنفيـذها فرقة موسيقية رائعة على رأسها أحد أقطاب العصر ممن ذكرنا ؛ وتقام إلى جانب هذه الحفلات حفلات موسيقية منوعة ، كلاسيكية أو عصرية أو كنسية ؛ وقد أعدت بلدية سالزبورج لاحياء هـذه الحفلات الشهيرة مسرحاً شامخاً يمتاز بسذاجته وفخامته معاً ؛ وكنا فى سالزبورج والموسم على أشده ، والمدينـة تموج بالوافدين عليها من سائر الأقطار ، تغص بهم فنادقها ومقاهيها وطرقاتها ، ولم نستطع أن نشهد من هذه الحفلات الرائعة أكثر من حفلين لاستحالة الحصول على التذاكر ولأنه يجب للحصول عليها أن تشترى قبل الموعد بأيام إن لم يكن بأسابيع ، وكان مما شهدنا حفلاً موسيقياً رائعاً برآسة أرتورو توسكانينى ، نظم فى ضحى يوم ماطر كثير البلل ، ومع ذلك فلم نتمكن من شهوده إلا بعد جهد جهيد

وتتخذ مدينة سالزبورج وسكانها خلال الموسم استعدادات خاصة لاستقبال آلاف الزوار الوافدين عليها ، وتنظيم معدات الاقامة ، وتيسير حركة النقل والتنزه ، ويرابط فى الطرق المؤدية إلى المسرح كثير من رجال البوليس لتنظيم حركة المرور الهائلة التى تجرى حوله ، وتغص الشوارع المجاورة والمقاهى القريبـة بالجماعات الأنيقة وأسراب الحسان من كل جنس وأمة ، وتسمع مختلف اللغات فى كل مكان

* * *

وتقع سالزبورج فى بسيط ساحر تحيط به الجبال الشاهقة ؛ ومن أشهر بقاعها ونزهها ضاحية «هيلبرون» وقصرها الشهير ، وتقع هيلبرون على مسيرة نصف ساعة من سالزبورج ، ويربطها بها ترام خاص ، يخترق طائفـة من الربوع والحلات المزهرة ؛ وقد قصـدنا اليها ذات صباح ماطر ، وزرنا قصرها وبساتينها الشهيرة ، ورأينا فى قصر هيلبرون مناظر عجيبة لم نرها فى أى أثر آخر ؛ ذلك أنه قد نظمت فى هـذا القصر الغريب مغارات ومجالس جهزت كلها بنوافير من المياه تنبثق من كل نواحيها فى أشكال وأوضاع ساحرة ؛ ورتبت هذه النوافير والمنابع الخفية فى حديقة القصر حول الماشى والأحراج بنفس البراعة والدقة ، فكنا نتصور حين تطلق المياه من منابعها الخفية أننا أمام سحر ساحر ؛ وفى هـذه المغارات والمجالس تماثيل بارزة وصور من الفسيفساء صنعت على مثل صور كنيسة القديس مرقص بالبندقية. وأما القصر ذاته فهو صرح فخم من صروح القرن السابع عشر ، وقد زينت غرفه وأبهاؤه بطائفة من الصور الثمينة ومجموعات من الأثاث القـديم الذى يرجع الى عصر إنشائه ، وزينت سقفه بالأخص بصور ونقوش بديعة تأخذ الألباب بدقتها وروعتها . وقد فهمنا من دليل القصر ، أن الذى أنشأ هذا الصرح الفخم أسـقف سالزبورج فى ذلك العصر ، وأنه هو الذى أشرف على زخرفته وتنسيقه على هذا النحو المدهش ؛ ويقع القصر وسط بستان شاسع نظمت فى إحدى جوانبه حظيرة ترتع الغزلان فى جنباتها ، ويؤمها زوار القصر للتفرج ومداعبة الغزلان

وعلى الجملة فأن هذه المدينة الصغيرة — لأن سالزبورج مدينة صغيرة لا يتجاوز سكانها أربعون ألفاً — تبدو بفنادقها الأنيقة ، وطرقها وميادينها المنسقة فى ثوب خاص من الحسن والرشاقة ، ينم عن حسن ذوق أهلها وسلطاتها البلدية ، ويزيد فى سحر سالزبورج ومتاع الاقامة فيها ، فضلاً عن روحها الموسيقى ، ما فطر عليه أهلها من الأدب الجم والشمائل الرقيقة . وهذه فى الغالب أخلاق أهل المدن السياحية ؛ بيد أنك تشعر فى سالزبورج أن هذه الخلال الحسنة ترجع الى الفطرة أكثر منها الى مقتضيات المعاملة ، وتشعر أنها بعيدة عن الرياء المعسول الذى تأنسـه فى المجتمعات السياحية الأخرى

وغادرنا سالزبورج لأيام قلائل ، وقد تراك بللها المنعش ، وموسيقاها الساحرة ، وذكرياتها السريعـة الممتعة فى النفس أجمل الأثر

(***)

حبهـا . . .

للأستاذ السيد محمد زيادة

عرفتها شاعرة فى عينيها الشعر ؛ وكأنما خلقها الله بهاتين العينين ليودع فيهما من أسرار الغيب ، ويصور بهما من معانى الخلود معنى الفن . . . فجاءتا هكذا ساحرتين لا يُفهم من أى نوع سحرُهما ، ولا يُدرك إلى أى حد تأثيرهما ؛ وغاية ما يفهم أو يدرك منهما أنهما حين تلمحان تجرحان ، وحيث تنظران تأسران . . .

ويبدو فمها كأنه جمرة صغيرة . . .

وتُرى خداها كأن على كل منهما وردة فى لهب . . .

وعرفتها فى كل هذا وبكل هذا . . . عرفتها فى قصة حب أولها معروف وآخرها مجهول

كانت تغنى ، ووقع بصرى عليها لأول مرة فلا أدرى ما الذى نزل منها على نفسى فجال فيها ثم استقرّ فيها فما ذهب عنها وما هو ذاهب أبداً !! إلا أننى أذكر . . . أذكر جيداً أنها كانت ترسل الأغانى من فمها ومن عينيها ، وأننى كنت أسمع الأغانى بأذنى وبقلبى

ولله ما أحلاها وقد بدت فى ثوبها الأسود الهفاف ، فلا يظهر منها إلا وجه كأنه حلم بالوصل فى منام عاشق محروم ، ويدان كأنهما زهرتان غضّتان أسفرتا من جنة محجوبة

وقد أبى صدرها إلا أن يتيه ويشمخ ، وعز عليه أن يحد الرداء من كبريائه فنهض يتحرر ، وبدا كأن بينه وبين الرداء معركة . . .

وظهر جِيدها فوق صدرها كشعاع الصبح يشرق من أعلى جبل . . .

ونظرتُ اليها فرأيتها كلها فناً منفرداً فى كل جزء منه فن منفرد ؛ ثم نظرت إليها فرأيتها نوراً تتشعب منه أنوار ، ثم هممتُ أنظر إليها فريع البصر ورُدّت النظرة إلى الفؤاد مهمماً

ثم تنفست كالبلبل المتنـدى ، ثم نظرتْ إلى الحشد ثلاث نظرات وقعت إحداها علىّ فلتُ أتحاشاها ؛ ولكنها سبقت إلى القلب فاذا القلب عاصفة فى وسط عاصفة ؛ ثم راحت تغنى

فأرسلت من بين شفتيها صوتاً فيه شذى جعلنى أعتقد أن للورد تغريداً وأن هذا هو تغريد الورد ، وأعتقد أن سرباً من البلابل لو اجتمع على أن يأتى بمثل سحرها لما أتى إلا بما يثبت أنها ساحرة معجزة

* * *

وأحسستُ أنها كلما زادت فى غنائها آهة أو لفظة ربطت بين روحى وبينها آصرة ، وأنها كلما أصابتنى بنظرة مدت بين قلبى وبينها جسراً . . . ثم أحسست أنها قربت منى حتى صارت جزءاً منى فيه روحى وقلبى وعقلى ؛ ولكننى بعد ذلك لم أحسب إلا أننى خبلت ، ولم أدرك أن هذا هو حبها يدخل من عينى ومن أذنى . . .

وانتهيتُ من ساعتها ثملاً لأتم ليلتها أرقاً وبى من الجنون مس فى القلب يكاد يبلغ إلى مس فى العقل . . . هو الحب . . . هو الحب الوليد الجبار وُلد ثم أيفع وشب شبابه فى ساعة . . . هو الحب خلق فى عينيها ليعيش فى قلبى . . .

هو الحب جاء يعلن أنه الحب بعذابه وسهره ، وأنه سيكون عقدة بعد عقدة ، ثم لا يكون إلا عقدة بعد عقدة . . .

هو سهمها جاء قاسياً ليقتل ثم اشتدت قسوته فلم يقتل ؛ وإنما جرح وأدمى ليظل الجرح جرحاً ويظل الألم ألماً . . . ياليته قتل . . .

* * *

ومرّ عام فى ليلة ، وآه منها ليلة قاسية وسمت كل دقيقة من دقائقها هاجساً من هواجسى فبتُّ أصبو بصبوة قلبى ، ثم أحار بنزاع عقلى ، ثم أغنى بعين أحلامى ، وأقطع مدى الليل بين الصبوة فى جهلها وغرورها ، والحيرة فى شدتها وعسرها ، والأحلام فى جلوتها وروائها ؛ وما أستطيع أن أخرج من هذا كله إلا باليأس منها حبيبة مُحبة ولو بعد حين . . .

ما كان لى أن أحبها وهى ذات جاه ، ولها سلطان وحاشية ، ويسعى إلى مجلسها من علية القوم فئة يبتغون الأنس والسمر ، وهى تدلّ عليهم دلال حسنها ودلال عفتها ، ثم تتدلى اليهم زهرة محصنة يُستَنشى أرجُها ولا تُقطف ولا تمس

وما كان سهلاً على أن أيأس من حبها فى أول حبها مادامت فى باطنى عين لا تنظر إلا إلى أعلى فلا تبصر إلا ما هو أعلى ، ولا مستحيل عندها ولا صعب . ماكان سهلاً علىّ أن أيأس

من حبها وعين خيالى كالنظار تقرّب لعينىْ رأسى بعيدها وتهوّن مسافتها

***

وطلع الفجر يتثاقل كأنه لا يريد أن يطلع ... طلع وأنا بين شيطانين شيطانها الفاتن وشيطانى المفتون ، كلاهما يدعونى اليها بينما أتخوفها على نفسى ولا أبتغى اليها الوسيلة ؛ فمثل هذه التى ألِفتْ تهافت العشاق ، وتفنّنتْ بآلام المدنفين ، لا يقع فى قلبها الحب إلا بمعجزة ...

ومضى الليـل إلا قليلا وأنا فى أمرى كما أنا ، آخذ بقلبى وأرد بعقـلى ! ولبثتُ يتقاذفنى تحذير اليأس وإغراء الأمل حتى يئست ونمت

ورأيت فى الرؤيا أنى أزورها وأنها ترحب بى ؛ وما أحسب إلا أن لقاءنا كان فى فردوس ، فقد رأيتها ترفل فى الخز وحول قامتها قوس من نور يتهادى على أفق من شفق ، وتحت قدميها ورد منثور كأنه طبقة من الأرض ، وهى تتخفف فى خطوها كأنها تسير على الماء

وسرتُ اليها أترفق بالورد ، ورأتنى أحييها بتحيـة قلبى فتبسّمتْ فتبسم فى ثغرها الأمل ، ثم تأودت فكأنها بانة عطفتها نسمة ، ثم قالت : تعال ...

ثم ... ثم قالت : أهلاً ... تعال ...

ووثب قلبى اليها ووثبت أدركه بين يديها فصحوت ...

***

وما تم الليل بانفلاق صبحه حتى تم فى قلبى الحب بانتصار أمله على يأسه ، فشعرت بهـا تغنى فى قلبى ، وتتجلى فى عقلى ، وتعيش فى خيالى ؛ ثم شعرت بها توحى إلىّ وحى فتنتها لتؤدى به رسالة الجمال إلى الفن ، وتثبت فيه ارتباط الفن بالجمال

وعشتُ أستوحيها حيناً من الدهر طال ما طال ولم يكن فيه إلا اكتفائى من حبها بالوحى : أتنسّم حنان صوتها ، وأتفيأ ظلال مفاتنها ، وأعيش فى جوها وأناجيها وأستلهمها ... كل هذا وأنا بعيد أتباعد لأن قلبى جعل لها سلطاناً عليـه وتهيّبها وبذلك سد علىّ منافذى إليها

ولـكن الحب أقوى وأشد ... فما زال بى حتى طنى علىّ فرحت أطلب زيارتها ؛ وهى كانت تعرف وحيهـا فى كلامى ولا تعرفنى ، فعرّفتُ نفسى إليها بكتاب ، ثم ذهبت أزورها فى موعد حددته ...

وكان موعدها فى ضحوة النهار من يوم مخلد ؛ قمت ليله أتطير بالشوق بين الفرح والرهبة ، ولا يتحول بصرى عن الساعة فى يدى وهى تبطئ كأنها نائمة ؛ وكلما غبَرتْ من الليل ، فترة ودعتها من الفؤاد زفرة ، حتى أحسست فى نهاية الليل أن دمى قد احترق بنيران فكرى ، وأننى لم يبق منى إلا هيكل كل ما فيه أنه هيكل

وجاء الموعد الذى كنت أحسبنى لن أبلغه ... جاء الموقف الذى كان وراء المقل ... جاءت الساعة ، ولقيتها ... ولقيتهـا وأنا حى ! !

ما ذا كنت فى تلك اللحظة ؟ ... إنى كنت بركاناً وكنت زلزالاً وكنت ريحاً عاصفاً ...

وجلست هكذا فى قاعة الاستقبال بدارها ، ورأيت الأثاث فيها كأنه يهتز لينقلب على رأسى

أكان هذا حباً ؟ ... أكان هذا شوقاً ؟ ... لا والله إنه كان هذياناً ، ثم ظهرت فيه حكمة الحب عند ما لاحت الفتانة بالباب تتقدم إلىّ ؛ وحكمة الحب لا تظهر إلا حين يريد هو أن تظهر ...

***

جاءت تتيه فى مشيتها كأنها سكرى ، وكأن خطواتها همساتُ قلبٍ متيم الى صاحبه ، وكانت قد بارحتْ فراشها من لحظة ، فدخلتْ علىّ صاحيةً بكل جسمها إلا عينيها ، فقد كانتا ذابلتين كأنهما ما تزالان فى نعاسهما

أما وجهها فكان بمسحة النوم عليه كأنه الفجر مائلاً بسناه يقبل باقة من الورد . . .

أما شعرها فكان ثائراً ثائراً كأنه ليل عاشق مؤرّق ، وكأنها استيقظت وما زال رأسها نائماً فى ليله . . .

أما قوامها فكان سكْباً من البان فى سكب من الحرير . . .

أما هى — أما هى فكانت سحراً يمشى ويتبختر ، وكانت حسناً متكبراً يتواضع . . .

وجاءت تلوح لعينى متصوفة سكرى وقالت : أهلا بمن سبقه الينا شيطانه ! !

ثم صافحتنى بيد أنضر من الزهر ، واتخذتْ مجلسها ، ثم نظرتْ إلىّ تتأملنى فقلت : وكيف عرفت شيطانى ؟ . . .

قالت : أما شَعَر لى وتغنى بى وكتب عنى ؟ . . .

قلت : يا له حظاً سعيداً . . . ما كنت أحسب شيطانى موفقاً هذا التوفيق ! ! أوَ تقرأين ما يكتب ؟ !

قالت : بلى . . . وما أحبَّ شياطين الشعراء الى نفوسنا نحن المغنيات . إن للمغنية فى كل شاعر تستميله مرآة ترى فيها نفسها ؛ والشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر فيما خلقا له

فتنهدتُ وقلت . إنك الآن توقدين رأسى

قالت : وكيف ذلك ؟

ثم انبسطت على شفتيها ابتسامة صغيرة بان فيها أنها داهية تمكر ؛ إلا أن مكرها فى ابتسامتها كان مكراً أحمر ملتهباً فى فتنة حمراء ملهبة ؛ فنظرت اليها أستزيده ثم قلت : كلامك هذا فيه نار أشعر بأجيجها فى رأسى

فقالت وهى تمكر مكرا أشد وأحلى : إذن لا يعجبك كلامى

قلت : كلا كلا ... وهل يُخرج مثل هذا الفم إلا ما يُحب ؟ إن النار التى فى كلامك نار لذيذة كنار الحب فى قلب المحب . لقد قلتِ إن الشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر ، فهل بعد هذا من سحر على لسان ؟ وهل بعد هذا من نار محبوبة فى كلام ؟ . إنك توقدين رأسى بهذه النار من هذا السحر فى هذا المعنى . . . إنك لو اطلعت الآن على أحشائى لعلمت أن الحسن يجنى ولا يشفق فى جنايته

تخفرتْ وكسرتْ فى عينيها لحة وتهدل شعرها على وجهها ليستر روعة الخفر ، ثم فتحتْ بيديها بين ذوائبها منفذاً لقولها وقالت : هذا كلام شيطانك

قلت : بل هذا كلام قلبى ...

فرفعت بقية شعرها عن وجهها بيديها ورشقتنى بنظرة داوية سمعت لها رعداً فى صدرى وقالت : أنت إذن . .

ووقف لسانها ببقية الكلمة ، وقالت لى عيناها بنظرة أخرى حنون : أعمها . .

فقلت : أنا إذن . . أحب . .

فأطرقت تخبأت وجهها بين شعرها ثم هزت رأسها تنفض الشعر فرأيت وجهاً جديداً مشرقاً فى معنى الحب

يا عجباً !! يا عجبا ! إن كلة الحب تسمعها غادة جميلة من محب هائم تجمل فى محياها المشرق قسمات جديدة

ونضح الحياء على جبينها قطرات كأنها قطرات الندى على أوراق وردة بيضاء ، فمسحتها بمنديلها وشخصتْ إلىّ فقلت : وجهك الآن مؤمن . . .

قالت : وهل كان من قبل كافرا ؟ وكيف يكون إيمان الوجوه وكفرها ؟

قلت : الوجوه تؤمن وتكفر إيمان القلوب وكفرها ! وقد رأيت وجهك الآن مؤمناً إيمان قلبك .. لكأنه كان يقول لى : إنى شاعر بك وشاعر بما بك ، لأنى أفهم حبك فهو وحى جمالى اليك ، وأعذر قلبك لأنه صيد عينى منك ...

أما سمعت وجهك يقول هذا ؟

فضحكت وقالت : وجهى لم يقل شيئاً ، وأنا لم أسمع منه شيئاً .. كيف يتكلم الوجه إلا بالفم ؟ . . ولكن فمى لم يقل هذا فمن أين جئت به ؟.

وضحكت ضحكة أخرى وهى تنتظر جوابى فقلت : لا يتكلم من الوجوه إلا الوجه الجذاب ، فتكون فى كل لحة من لحات عينيه عبارة ، وفى كل وقدة من وقدات وجنتيه همسة ، وفى كل ومضة من ومضات جبينه إشارة

أما رأيتنى أصغى إلى كلام وجهك بشغف ؟.

فضحكت مرة ثالثة ثم سكنت وجهها كأنها تتذكر ، ثم قالت : لا ... لم أر .. ولم أعقل ما تقول ..

قلت : آه !! ها هو ذا وجهك عاد يستهتر بإيمانه ... ها هو ذا يُدل ويتجنى

وسكتت هى تداعب يداً بيد وطرفها يختلس ما يختلس ، وسكت أنا ألتهمها بعينى فى سكونها الساحر المترنم .. ثم فاجأتنى بطرفها ينظر إلى كل أجزائى بكل ألحاظه وقالت : إنك لتنظر إلى بعين الشاعر المليئة بالحب فترى فى كل شىء منى شيئين متناقضين .

قلت : وأنظر إليك بهذه العين من ناحية القلب فأراك نشوة للقلب تأخذه بقوتها ؛ وأنظر إليك من ناحية العقل فأرى فيك غذاء للعقل ما أحوج العقل إليه !. ثم أنظر إليك بالعين المجردة من الشعر والحب فأراك فى أقل درجاتك جميلة عزيزة الجمال

فرأيتها كأنها تنظر إلى من خلال منظار لتتبين فى كلامى حقيقة .. ثم كأنها تقتنع .. ثم رأيتها تفكر . فحدقت فيها ملياً ثم قلت : أنت شاعرة ..

قالت وهى تمسك وراء شفتيها ابتسامة : وعلى هذا تكون أنت مغنياً ..

فانتفضت فى مكانى وقلت : إذن أنت تعتقدين أننى جزء منك يكملك فى أى أحوالك — إذن قد تحقق الحلم يا آنستى

فتأجج خداها وأطرقت ، وعجز قلبى عن مقاومة ما فيه منها ، وحسبت أنه قضى

***

ثم إنا تفرقنا عاماً لا نملك أن نلتقى ، وكان هذا العام مثار الوحى ومجال القلم

ثم تلاقينا فى قصر جميل شيد على جناح النيل بين الخضرة والماء

وجلست فى بهو القصر أضم جوانحى على الأشواق والهموم ، وينبعث دخان التبغ من فمى مختلطاً بدخان كبدى المحترقة

ومضت أفكارى تصور لى ما سيكون فى لقاء ساعة بعد فراق سنة ... وإنى لمضطرب أجر نفسى جراً بين أول دقيقة الانتظار وآخرها ، إذ سمعت على الدرج الرمرى وقع حذاء الحسناء تتوثب فى نزولها كالظبية تتنقل فى واديها بين الربى والسهول

وتلفت فإذا هى مقبلة تتهادى فى وشاح فضفاض من حسنها ، وأمامها فى الهواء نهدان خلقا ليسبقاها أينما مشت

وكان وجهها يتلألأ بين ضوء الجبين ووهج الوجنتين حتى حسبته قمراً كحلت عيناه فى ليلة التمام

ووقفت بفصل بينى وبينها بعد خطوتين ، وفى عينيها نظرة عتاب كأنها طعنة خنجر ، ووقفت أنا وفى عينى نظرة اعتذار كأنها دمعة قلب ... والتقت النظرة بالنظرة فإذا هما فى الهواء قطعة من (المغنيزيوم) تشتعل ، وإذا هما فى كبدى شعلة من الوجد تضطرم

ثم تقدمت الحسناء وقالت : أهلاً بذا كرنا أهلاً بناسينا

فقلت : وكيف أنساك وأنا ناس بك كل ما عداك ؟ ..

قالت : ما رأيت من تذكرك إلا ما قرأت من رسائلك ؛ فهل كل ما عندك أن ترسل الرسائل ؟ ! كأنى بك لا تحب إلا أن تتخيل لتعيش فى خيالك

قلت : وكثيراً ما أهرب من لقاء الحقيقة لأظل مفتوناً بالخيال ناعماً بمتعته ؛ ولولا أنك فوق تصوره لما بحثت عنك إلا فى خيالى بين أحلامى وأوهامى

قالت : أنت إنسان عجيب . . .

وبدا محياها كأنه مبلول بالخمر ، وعربد قلبى كأنه سكير ، وصمتنا ؛ ثم تنفست وقلت : ويحى ... ويحى ... إنك حقاً فوق تصورى وبعد خيالى ، فأنى لأحس الآن أن كل قطرة من دمى تناجيك وتسبح لك ، وأحسب أن الله تعالى قد خلقك خلقة ممتازة

فضحكت ضروباً ، وانعطفت فى ناحية الكبرياء من جمالها وقالت : هكذا أنتم أيها الشعراء كثيراً ما تكفرون ...

قلت : آه لو كنت رجلاً مثلى وعشقت فتاة مثلك ! ! إذن لصدقت أنك من خلقة ممتازة

قالت : أما زال شيطانك يكفر ؟ . . إنكم أيها الشعراء لقادرون ؛ . إنكم تستطيعون أن تصنعوا من القبح جمالاً ، ومن الجمال فن جمال ، ومن فن الجمال عالماً من الفنون . فكم تصورون من مشاهد الكون وتبالغون فى التصوير فيظن الناس أن الطبيعة هى التى أبدعت ما صنعت فتقلتم عنها حقائق

ثم سكتت ثم قالت : ها أنت تقول عنى ما ليس فى فأكاد أصدق أن فى ما تقول ...

فقلت : مه مه ... يا فاتنة ... إنك تتكبرين فى تواضع ، وتتواضعين فى تكبر ؛ والله ما رأيت مثلك غادة جميلة تنكر أنها جميلة ... ألا إن هذا وحده يقوم دليلاً على أنك مطمئنة إلى نبوغ جمالك وعبقريته

فرمقتنى بنظرة تائهة فى فرح عينيها وقالت : إنك تغزونى ...

قلت : أرأيت القاتل يقتل ويتهم المقتول ؟ ... هذه أنت تتهميننى بأننى أغزوك وأنت فاتحة قلبى

قالت : لسانك وقلمك قد تآمرا على ...

وحزن جمالها فصور فى حزنه أجمل معانى الحزن ، وترقرقت عيناى إلا أننى أمسكت العبرة بين أجفانى فتغشى بها بصرى لحظة ... ولما نظرت بعد ذلك رأيتها مطرقة تشد منديلها بين يديها وكأنها تغالب فى باطنها قوة تمردت عليها ... وكأن وجهها يفكر ، وكأن لحظها يحلم ...

قلت : إنك تخبأين شيئاً وريد الشيء أن يظهر

فرنت إلى بطرفها مبللاً بالحنين ، فانطبقت أجفانى

وحى المعرفة

للأستاذ اسماعيل مظهر

لا أقصد به الوحى الذى ينزله الله سبحانه وتعالى على المختارين من عباده ، أو المصطفين من خلائقه ، فان ذلك الوحى بعيد عن أن تدرك العقول من ماهيته شيئاً ، بل اعتقد أن جل ما تدرك منه إنما يتعلق بأعراضه وظواهره دون حقيقته وجوهره

ولا أقصد به الوحى الذى يقول به الروحانيون ، أولئك الذين يحاولون إثبات العلاقة بين الجواهر اللطيفة الروحانيـة ، وبين المواد الغليظة الجسمانية ، حتى بعد أن تفارق الأرواح الأبدان ، وتنفصم تلك العروة التى تربط بين المبـدأ العلوى الحال فى الأجسام السفلية

ولا أقصـد به ذلك الوحى الذى حاول أوائلنا من السلف الصالح عليهم رحمة الله أن يثبتوا أن له بالأحلام وأضغاث الأحلام صلة ورابطة ؛ ولا الوحى الذى يقول به بعض المحدثين من أنصار العلامة فرويد ، أولئك الذين قلبوا آية الأحلام فجعلوا عالم الشهادة سبباً فى الرؤى ، بعد أن كانت الرؤى عند الأقدمين نذيراً بما سوف يقع فى عالم الشهادة

لا أقصد شيئاً من هذا ولا من غيره من الأشياء التى تجعل بين ما بعد الطبيعة والطبيعة رابطة ، قد يدركها التصور ، وقد ينفيها الادراك الحسى ، وإنما أقصد الوحى المادى ، وحى المعرفة تلك التى تشعر ونعتقد أن لها بكياننا المادى علاقة السبب والمسبب ، ورابطة العلة والمعلول . ذلك بأنى أعتقد أن بعض العقول الممتازة ، ولا أعلم كيف هى ممتازة ، قد خصت بكفايات الوحى ، مستمداً من المعرفة التى تستوعبها . وكذلك أعتقد أن لبعض العقول ميولاً أشبه بميولنا النفسية ، وأن لبعضها دون بعض رباطاً بناحية معينة من نواحى المعرفة . فلبعضها رابطة بالعلم ، ولبعضها رابطة بالأدب والفلسفة ، ولبعضها رابطة بالفن ، ولبعضها رابطة بالدين . تلك صدور من المعرفة ، أو بالأحرى أشكال من المعرفة ، لكل منها حدودها التى يعينها العقل تعييناً قد يبلغ بعض الأحيان مبلغ اليقين ، وقد ينزل بعض الأحيان منزلة الشك ؛ ولكنها على قدر ما نعلم من اختصاص العقول بالتبرز فى ناحيـة من نواحيها لها حدودها المتفق عليها عند من يعنون بوضع الحدود والفروق بين كفايات العقل الانسانى

أما وقد نعلم من طريق اختصاص العقول بالتبرز فى نواح معينة من المعرفة أن لصور المعرفة من علم وأدب وفلسفة وفن ودين حدوداً معينة وتخوماً مقررة فى شريعة العقل ، فما نشك بجانب هذا فى أن لكل عقل من العقول اختصاصاً فى ناحية من نواحى المعرفة . نضيف إلى ذلك ظاهرة أخرى ؛ هى أن لبعض العقول فوق اختصاصها فى التبرز فى ناحيـة معينة من نواحى المعرفة ، قد خلقت وفيها موهبة خاصة تجعلها أكثر من غيرها استعداداً لتلقى نوع من أنواع الوحى ، تظهر آثاره باستيعاب قدر خاص من المعلومات قلّ أم كثر ، وهـذه الآثار التى تتجلى فى إدراك بعض العقول لحقائق أو نظريات ، قد تظهر عند درسها أنها قد لا تكون نتاجاً لدرس عميق ، ولا لأكباب على التفكير ، ولا تعمل أو تمحل فى إدراك حقائق الأشياء ؛ بل غالباً ما تكون أشبه بالومضة السارية فى الظلام أو الشعاع المنير يفلق بنوره غياهب الشك ويقضى على الجهالات

أى سر هذا ؟ عقول تدرك بالومض كأنها اللوح الحساس وعقول تعجز عن إدراك ما تدرك تلك ! عقول تنفذ إلى صميم الأشياء بلمحة سانحة ، فتستخلص الحقائق الأوليـة وتنتزعها من تلك الأضغاث التى تراكمت حولها من فتنة الفكر وتحف الخيال ، وأخرى تستوعب ما تستوعب من مبادىء العلم وصور

تتنهد ، ودارت بى الأرض دورة ... ثم فتحتُ عينىّ فرأيت منديلها يسقط من يدها ...

الله أكبر ! ! ما هـذا السحر الذى كان يشع من فتنتها وهى تنهزم ؟ ... كانت ساكنة سكون ثورة ، وكان قلبها ينبض فلا يحتمل بدنها الرقيق نبضه فيتموّج ؛ وانعكس قلبى على وجنتيها فرأيتهما تلتهبان بالحب ، وكانت عيناها تتألم ، وكانت نظراتها تئن ! !

وزفر قلبها زفرة ، وزفرت عيناها زفرة أخرى ، ثم قالت وهى تجاهد نظرها إلى : أتحبنى ؟

***

ثم ماذا ... ثم ماذا أيها العشاق ؟

(طنطا) السيد محمد زياده

الأدب ونظريات الفلسفة وتاريخ الفن وشرائع الدين ، وتظل في جمودها تنظر الى تلك الومضات التي تفيض بهـا الأولى مأخوذة بأن ما أدركت الأولى قريب مما استوعبت ، ولـكنه بعيد عن أحلامها قصى عن إدراكها !

* * *

يصعب على العلم أن يعلل هذا تعليلاً يصـل به الى حقيقة الأمر منه . بل ولا شك فى أن الخيال والتصور يقفان أمام هذه الظاهرة وقفـة العلم من حيث العجز عن إدراك السر فيه . وليس لنا أن نستوحى العـلم أو نذهب مع الخيـال نمالى حقيقة هذه الظاهرة . وإنما نريد أن نحـصر بحثنا فى بعض الظواهر التى ترجع الى ما ندعوه وحى المعرفة

إذا مثلت لتاريخ الفكر البشرى بشريط طويل من اللون الأسود ، وأردت أن تضع على مسافات معينة من هذا الشريط دوائر بيضاء ، تمثل بها لتلك الومضات الوحيية التى جادت بها عقول ممتازة ، وكان لها الأثر الدافع الى غايات طلبها الانسان وضرب فى سبيل الوصول اليها ، لرأيت أن الفراغات السود بين الدوائر البيض قد تطول حدودها حتى يخيل اليك أن الانسانية منـذ أبعد عصورها لم تستهد بغير عـدد قليل من العقول التى وهبتها الطبيعة تلك الهبة السامية ، هبة الوحى تستنزله المعرفة . ولا شك فى أنك تقف عند فـكرة التوحيد فى عقل اخناتون ، وفـكرة الانسان الـكامل فى عقل سقراط ، وفـكرة المنطق عند أرسطوطاليس ، وفـكرة دوران الأرض والسببية الطبيعية فى عقل غليليو ، وفـكرة الأسلوب والشـك فى عقل ديكارت ، وفـكرة المثاليات فى عقل اسبينوزا و (كانت) ، وفـكرة التطور فى عقل دروين

قد نجعل لمثل هـذه العقول منزلة وحدها ونرفعها الى مكانة من الفضل مفردة . فاذا نزلنا عن هذه درجة أمكننا أن نسرد من العقول الممتازة عدداً إن خص بهذه الموهبة فان اختصاصها بالفن يرفعها إلى درجة الأولى ، بل تلوح لنا كأنها التابع حيال المتبوع ، أو الصورة الواضحة فى المرآة الصافية . ثم تنزل من هذه درجة ثم الى أخرى ، حتى نبلغ حداً لا نميز فيه بين العقول ، وحيث نأنس أن العلم بالأشياء وحفظ المتون ظهر الغيب ليس له من أثر فى الابتكار ، كأنما تلك العقول ليست أكثر من نسخة مكررة فى كتاب واحد

أكثر أولئك الذين نسميهم علماء أو ننعتهم بأنهم أدباء أو مفكرون ، هم من طبقة الذين نطلق عليهم طبقة « النسخة المكررة من الكتاب الواحد » . يعيشون فى حدود ما قرأوا ؛ وقد يجيدون حفظ الكتاب إجادة تبلغ درجة الـكمال ، ويفكرون على الأسلوب الذى رسمه الكتاب ، بل قلما يجيدون التفكير على ذلك الأسلوب فيفسدون ما قرأوا فى الكتاب وينزلون به درجة بعد درجة حتى تمسخ عقولهم ما قرأوا وما حفظوا ، فيصبحون بذلك نسخة مبدلة من كتاب قرأوه ، أو فرض عليهم أن يقرأوه ليؤدوا بقراءته غرضاً لا يعترف به العلم ، ولا هو من شريعة الفهم فى شىء

قد يكون السبب فى ذلك راجعاً الى أن عقول هؤلاء قد صرفت مقسورة عن تنمية الموهبة التى أعدتها الطبيعة فيها ؛ وقد يكون للنشأة فى ذلك أثرها وللبيئة طابعها الثابت ؛ وقد يكون لنظرة ما ينظر من ناحيتها فى الحياة أثر فى العقل ينتج ذلك الجمود العلمى والتحجر العقلى ؛ وقد يكون للخلق وللشهوات عوامل خفية تؤثر فى اتجاه العقول

قد يكون ذلك وقد يكون أكثر منه . والحق أن من يفكر فى مثل هذا الأمر يشعر بالعجز عن بلوغ الغاية فى تعليله تعليلا علمياً يقبله العقل ، ولـكن لنا أن نقول إن للوراثات المختلفـة وحالات الحياة الأثر الأول فى حدوث هذه الظواهر العجيبة

على أننا إلى جانب هذا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الملكة ، ملـكة الوصول إلى غايات من العلم والأدب والفن تكاد تظهر كأنها الوحى ، هى من الملـكات التى يمكن أن تنميها التربية ، وتصححها النشأة ، وتقويها طرق التعليم . ذلك بأن العقل الانسانى فى ذاته يكاد يكون فى أشياء الطبيعة بمثابة الوحى فى جمود الحيوانية وموت الجمادات . قسه مثلاً على غرائز الحيوان أو تفاعل الجمادات الـكيميائى ، وأنت واجد أنه فى ظواهر الطبيعة نسيج وحده وطابع لا يتكرر . وهذا العقل بكفاياته وملـكاته ، تصبه البيئة والتعاليم والنشأة فى قوالب تظهر بها مرونته وقدرته على التشكل فى أشكال كثيرة ، واستعداده إلى قبول حالات جديدة ليست له من قبل . وما تلك الأشكال وهـذه الحالات إلا آثار مختلفة يخلقها ما يحيط بالعقل من عوامل التدرج نحو بلوغ الغايات العليا من المعرفة ؛ تلك الغايات التى تنتهى إلى تلك الومضات

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

وسطاء شر أبرياء

وصل الفائت : بدأ إسميث يبحث علة الحمى التكساسية التي تنتقل من أبقار الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة إلى أبقار الولايات الشمالية فيها . فجهز حقلين : ووضع في الحقل الأول بقرات شمالية مع بقرات جنوبية ولم ينتزع من هذه الأخيرة القراد الذي عليها ، ووضع في الحقل الثاني مثل ذلك بعد أن نظف البقرات الجنوبية من قرادها ، وتركها جميعاً ، فأصابت الحمى البقرات الشمالية في الحقل الأول ، ولم تصبها في الحقل الثاني

وزادت الحمى في الحقل الأول انتقاداً ، ثم أخذت بقراته تموت واحدة بعد أخرى . وشُقَّت بطون الجثث للفحص فجرى دمها أحمر صبيباً . واختلفوا بين حقول الريف ومكرسكوبات المعمل بالمدينة في امتحان الدماء . وانتقلت عدوى العمل إلى اسكندر الكسول لمّا أحس بأن في الجوّ أمراً جللا ، فنفض غبار كسله المأثور وأخذ نصيبه من الحركة . ونظر اسميث إلى دم البقر الخفيف وأخذ يتأمله ، ثم قال : « إن المكروب الحقّ لهذه الحمى التكساسية إنما يهجم على كريّات الدم الحمراء فيفقؤها . ففي بطون هذه الكريّات يجب أن أبحث عن المكروب »

كان لا يثق بالتقارير التي يكتبها المكرسكوبيّون المختصون ، أو الذين يُدعَوْن بالمختصين ، ومع ذلك فقد كان له بالمكرسكوب خبرة لا تبارى . وحرّر أقوى مكرسكوب لديه على دم البقرة التي ماتت أولاً ، فأخذ الحظُّ بعينه ، فرأى لأول وهلة في الكُريّة الدموية الحمراء ، وهي في المعروف متصلة الجوف صماء ، رأى فراغات صغيرة تمنقدتْ معاً فاتخذ مجموعها شكل الكمثرى ؛ وتراءت له في أول الأمر كأنها ثقوب في قرص الكرة الدموية ليس إلا ، ولكنه أخذ يُبعد عدسة المجهر ويقرّبها فأحكم بَوْأرتها ، وأخذ يُكثّر عدد العينات التي يمتحنها ، فأخذت هذه الفراغات والثقوب تنبض في بصره بالحياة فتتمثل له على حقيقتها أحياءً لها شكل الكمثرى . ورآها في دم كل بقرة ماتت بالحمى التكساسية ، ورآها دائماً في جوف كرات الدم الحمراء تُفسد فيه وتُخيفه فيصبح مُرهفاً كالماء . ولم يرها قط في دم بقرة شمالية صحيحة ، فأسرّ لنفسه : « لعل هذا مكروب الحمى » . وكان له اتئاد الفلاح فلم يتعجل في الحكم ، واعتزم قبل أن يَقضي على أن يفحص دماً من مائة بقرة مريضة وسليمة ، وأن يمتحن الملايين من الكرات الحمراء

وكان الحرّ قد مضى وحلّ شهر سبتمبر ، وكان في الحقل الثاني أربع بقرات من البقر الشمالي كلها سليمة ترعى الحشيش وتزداد سمنا — ولم يكن عليها قُراد أصلاً . فقال إسميث وهو ينظر اليها : « إن من الميسور هنا أن نحقّق التهمة المعزوّة الى القراد من تسبيب الحمى » . وقام فساق اثنتين من هذه البقرات السليمة الأربع الى الحقل الأول الذي مات به البقر الرزيض ، ففي أسبوع رأى قراداً أحمر أغبر صغيراً يزحف على فخذ البقرتين . ومضى أسبوعان أو يزيدان قليلاً فماتت إحداها ، أما الأخرى فغادرها تعاني من الحمى ما تعاني

ولم يقتنع إسميث بكل هذا فطلب المزيد — المزيدَ الذي لا يطالب مثله في العلماء سواء . وكانت لا تزال هناك حيلة لابد

الوحيية التي جادت بها على البشرية عقول ننعتها بأنها فذة وأنها بلغت الغاية من سمو الادراك

لما كان للتربية والبيئة خاصة التأثير في تكوين العقول ، ولما كان لهما ذلك الأثر البالغ ، كان علينا ألا ننكر أن همّ المصلحين يجب أن يتجه أولاً إلى وضع التربية والتنشئة الأولى في موضع من الاعتبار يجعل لها القيمة العليا في أشياء الجمعيات الانسانية كما يجب عليهم أن ينظروا في تأثير البيئات التي تكتنف النشء ، وأن يسيطروا عليها إلى الحد الذي يباح فيه للحكومات أن تحُدَّ في بعض النظم والمعاهد اتقاء لما تنشئ من بيئات مصطنعة بعيدة عما تتطلبه التربية السامية وقواعدها المقررة وأصولها المعروفة

ففي البيت وفي المدرسة وفي الحياة العامة ، ينبغي أن تقوم تلك البيئات التي تساعد على تنشئة العقل وتدريبه على النظر في الأشياء نظرات تنفذ إلى صميمها ، وأول خطوة في هذه السبيل يجب أن تقوم على هدم الأوهام ومحو الأضاليل ، وما محو الأوهام وهدم الأضاليل ، إلا نتيجة أولية لتحرير العقول

إسماعيل مظهر

من احتيالها ، أو إن شئت فقل تجربة لا بد من إجرائها . فقد كان جاء من كرُلينة الشمالية صفائح ملأى بالحشيش تجرى عليه جماعات القراد تسعى عطشى الى دم تستقيه . فأخذ إسميث هذه الصفائح الى حقل ثالث لم تطأ أرضه بقرة واحدة من بقر الجنوب أو قرادة قط من قراداته . وأخذ يذهب فيه ويجيء ، يُفرغ حشيش الصفيحات وينثره بقراده على أرضه فلعل فيه الموت ، ثم اقتاد أربع بقرات سليمة الى هذا الحقل ، فمضت بضعة أسابيع انحل فيها دم البقر كله . وماتت منه بقرة ، أما الثلاث الأخريات فنالتها نوبات شديدة من الحمى ولكنها اشتفت أخيراً

— ٦ —

وعلى هذا فقد نجح إسميث أول ناجح فى تتبع أثر مكروب قاتل ، والكشف عن السبيل الذى يسلكه الى حيوان بركوبه على ظهر آخر . ففى الحقل حيث كان بقرٌ جنوبىّ ، وكان قرادٌ مات البقر الشمالىّ . وفى الحقل حيث كان بقرٌ جنوبى ، ولكن لم يكن قراد ، زاد البقر الشمالى سِمَنا وهنىء عيشا . وفى الحقل الذى لم يكن به بقرٌ جنوبىٌ ولكن كان قرادٌ ، أصيبت البقرات الشمالية بالحمى التكساسية

إذن فالقراد أصل البلاء

وإذن فقد أثبت إسميث بذلك المنطق البسيط ، وبهذا العدد المديد من التجارب أن البقّارين فى غرب أمريكا إنما قالوا حقاً ورأوا صدقاً ، واستبانوا حقيقة جديدة من أكبر حقائق الطبيعة عند ما اتهموا القراد . واستخلص إسميث هذه الحقيقة الكونية الكبرى من ذكاء الشعب ومما جرت به ألسنة الخلق فكان مَثَل هذا الكشف الخطير مَثَلُ العَجَلة يُرَدّ اختراعها الى الناس ، الى قوة ابتكار الدهماء حتى تبوأت مكانها من الحركات الكهربائية العظيمة الدوّارة الطنّانة

ولعلك حاسب بعد ذلك من وضوح تجاربه وثبوت نتائجها ثبوتا قاطعاً أنه اكتفى بها ، ولعلك حاسبٌ أنه نصح حكومته بعد ذلك باشهار حرب طاحنة على القراد . ما كان هذا طبع إسميث ، ولم تكن تلك سبيله ، فبدل ذلك اصطبر الى صيف العام المقبل عام ١٨٩٠ ، فلما جاء حرّه أجرى تلك التجارب مرة أخرى وزاد عليها ، وكلها تجارب بسيطة ولكنه إذ اتهم لم يُرد أن يكون اتهامه إلا عن يقين . فتساءل : « كيف ينقل القراد الداء من بقرة جنوبية الى بقرة شمالية ، ونحن نعلم أن القرادة تقضى حياتها كلها على ظهر بقرة واحدة ، وهى لا تطير كالذباب من بقرة الى أخرى ؟ . . »

وهذا سؤال لا شك عويص ، أعوص من أن يحله البقارون بمعارفهم الساذجة . فنصب إسميث نفسه ليردّ عليه

فتفكر ثم قال : « لا بد أن القراد يمتص من الدم ثم يمتص حتى إذا امتلأ وبلغ واستوى ، سقط فانهرس على الأرض ، نخلّف على الحشيش المكروب الكمثرىّ الشكل الذى كان بالدم الذى استقاه ، فجاء البقر الشمالى فأكل الحشيش ومكروبه »

وعلى ذلك أخذ آلافاً من القراد الذى جاء فى الصفائح من الجنوب ، وخلطها بحشيش جاف ، وأطعمها بقرة شمالية لا تقوى على دفع الحمى ، كان أسكنها حظيرة وحدها ، واعتنى عناية مختارة بها ؛ وانتظر أن يأتيها الداء فلم يأت . وأخذت البقرة تجتر طعامها الجديد هانئة مستمتعة ، وازدادت عليه شحما . وأشرب بقرةً أخرى حساء صنعه من قراد مدهوك ، ثم عاد فأشربها ثم أشربها فكأنما أراد أن يغرقها فى الحساء إغراقاً . ولكن هذه البقرة أيضاً خُيِّل أنها تستمرئ شرابها الغريب وحسُنت عليه حالها

فسدت التجربة فأُرْتِجَ عليه ، إذن فالبقر على ما يظهر لا يأتيه المكروب من أكل القراد . وفى الليل توالت عليه الأسئلة يلقيها على نفسه تباعاً فى سلسلة لا تنتهى . وتساءل فيما تساءل : « إن البقر الجنوبى ذا القراد ينزل فى الحقل فلا يكون هذا الحقل وبيئاً إلا بعد ثلاثين يوماً من نزول البقر فيه . فلم هذا ؟ » وعرف البقّارون هذه الحقيقة أيضاً ، وعرفوا أنهم يستطيعون خلط بقر شمالى بجنوبى عشرين يوماً أو نحوها ، ثم يفصلون بينها فلا ينال المرض البقر الشمالى أبداً . أما إذا هم تركوها على اختلاط فوق هذا القدر من الأيام ، أو حتى إذا هم أبقوا البقر الشمالى وحده حيث هو من الحقل فوق العشرين يوماً بأيام قليلة ، فلا يلبث أن يَفْجأه الداء فكأنما انقض عليه من السماء . فتلك أُحْجِيةٌ أى أحجية !

وذات يوم من هذا الصيف صيف عام ١٨٩٠ تفسرت الأحجية بغتة واتصلت قطع الصورة المتكسرة المتفرقة فُجاءةً فاتضحت فى عينه على حين غِرّة فشَدَهَته ، فوقف أمامها ذاهلاً مبهوتاً . وكان إذ ذاك فى شُغل من أمور عديدة أخرى وإجراء تجارب من ألوان شتى : كان يفصد البقر الشمالى ويسكب من دمه جالونات ليفقر دمه ، فقد كان خال أن المكروب

الكُمَّثْرَىّ الذى رآه فى كرات الدم ربمـا كان فقراً فى الدم لا مكروباً . وكان يتعلم كيف يُفَقِّص قراداً صغيراً نظيفاً فى معمله . وكان لا يزال يلقط القراد من على ظهر أبقار جنوبية ليثبت أنها من غير قراد لا تضر الأبقار الشمالية . وقد يفوته أن يلتقطه كله فتأتى نتيجة التجربة بغير الذى أراد . وكان قائماً فى سبيل استكشاف حقيقة باهرة : أن المجول الشمالية لا تصيبها إلا حمى هيِّنة لا تُميت فى الحقول التى تفِيضى على أمهاتها . كان همّه أن يجـد كل أثر أياً كان نوعه للقراد فى البقر الشمالى — فلعلها تسبب لها أسواء أخرى غير الحمى التكساسية

ففى أثناء كل هذا تفسرت الأحْجِية . ذلك أنه سأل نفسه أتُرَى أنى بدأت ببويضات القراد فى صحن من الزجاج فأخرجت منها فى حجرتى قرادات نظيفة لم تَرَ حقلاً أو بقرة وبيئة ، ثم لو أنى وضعتها بعد ذلك على بقرة شمالية وتركتها تمتص من دمها مِلئها ، أفتستطيع أن تمتص ما يكفى لاقفار دم بقرة ؟ سؤال غريب يتراءى لى أنه كان لغير غاية ؛ ولكنه يدل على أن فكرته كانت أبعد ما تكون من الحمى التكساسية

ومع هذا حاول أن يحصل على جواب سؤاله ، فأتى بعجلة سمينة بنت عام ووضعها فى زريبة مقفلة ، وأخذ يُهيل عليها يوماً فيوماً مئات من قرادات صغيرات من تفقيسه ، ويمسك بها حتى يغوص القراد بعيداً تحت شعرها ويتمسك بجلدها . وأخذ يوما فيوما يشق جلدها ليأخذ قطرات من دمها ليستوثق من فقره . وذات يوم جاء إلى الزريبة ليجرى عليها ما اعتاده ، فلما وضع يده عليها أخذته الدهشة مما أحسّ . فقد أحسها حارّة ، شديدة الحرارة شدّة جملته يتهم حالها . ونظر اليها فوجد رقبتها تميل . وامتنعت عن الطعام ، ودمها الذى كان يخرج من شقوق جلدها أحمر ثخيناً أصبح يجرى رهيفاً داكناً . فجرى إلى حجرته بقطرات من هذا الدم على قطع من الزجاج ، ووضعها تحت المجهر ورأى ، ويا صدق ما خال . ورأى كرات الدم الحمراء قد التوتْ وتثلمتْ وتحطمت وقد كان عهده بها قوراء ناعمة كالدرهم المسيح . وفى هذه الكرات الحطيمة وجد المكروب ... فهاكَ غريبةً من الغرائب التى قد لا تجود بها الأحلام : فهذه المكروبات لا بد أنها جاءت من جنوب أمريكا فى القراد البالغ ، فلما باض وجد المكروب سبيله إلى البيض فاستكنّ فيه ، فلما انفقس البيضُ فى صحون الزجاج عن قرادات صغيرة حملت هذه المكروبَ معها ، فلما وقعت على ظهر العجلة مصت دمها فانساب المكروب أكثر ما يكون تهيؤا للفتك بالعجلة المسكينة التى وقعت فريسة القَدَرِ على غير قصد وبغير ذنب

فى سرعة البرق انضح كل هذا لعين إسميث

ليست القرادات العجائز التى امتلأت بالدم وارتوت هى التى تهيىء سبيل المكروب إلى البقر الشمالى ، بل صغارها من ذات خمسة الأيام إلى العشرة هى التى حملت القتلة الأشرار إلى ضحاياها

وعندئذ فَقِهَ السبب الذى من أجله تأخر الحقل أن يكون خطيراً ، فان الأمهات من القراد كان لا بد لها من السقوط عن ظهر البقر الجنوبى الحصين أولاً ، ثم لابد لهـا على الأرض من أيام تبيض فيها ، ثم لا بد للبيض من عشرين يوماً أو تزيد لانفقاسه ، ثم لابد للصغار الخارجة من البيض من زمن تزحف فيه إلى أرجل البقر الشمالى فإلى أفخاذه — وهـذه الأحداث تستغرق أياماً كثيرة ، تستغرق الأسابيع . فهل وجدتَ جوابا أيسر من هذا لسؤال أعسر من هذا ، لولا المصادفة البحتة ما تيسر أبداً ؟

وما لبث أن استخرج بالتفقيس فى صحون دافئة من الزجاج آلافاً من القراد ، وأخذ فى زيادة إثبـات اكتشافه الكبير حتى ثبت ثبوتاً قاطعاً . فكان كلما ركم قرادة على ظهر بقرة شمالية أصابتها الحمى ؛ ولم تكن تكفيـه الكفاية من البراهين . وأخذ صيف عام ١٨٩٠ فى الادبار وأخذ البرد فى الاقبال ، فاذا به يدخّن الحظائر بمواقد الفحم ، ويفقس القراد فى مكان دافئٍ ، ثم يضعه على جلد البقرة فيقوم نار الحظيرة مقام الشمس فى إكمال نموّه ، فاذا به يصنع على ظهر البقرة صنيعه المعهود ، وإذا بهـا تجيئها الحمى فى الشتاء وهى لم تكن جاءت شتاءً فى الطبيعة أبدا

وقضى إسميث وكلبورن صيفين آخرين يضربان فى الحقول يستكملان بحثهما ، ويسدّان خروق السفينة بالقار والكتان ، ويتساءلان كل سؤال يخطر بالبال ، ويجيبان بتجارب غايةٍ فى البساطة غايةٍ فى الافحام على كل اعتراض يحتمل أن يثيره العلماء البيطريّون ، وذلك قبل أن تُعطَى الفرصة لهم ليعترضوا . وا كتشفا

أثناء ذلك حقائق غريبة فى الحصانة ، إذ وجدوا أن العجول الشمالية تصيبها الحمى التكساسية إصابتين خفيفتين أو ثلاثاً فى الصيف ، فاذا دار العام وكبرت أخذت ترعى فى الحقول الوبيئة القاضية على كل بقرة شمالية فلا تحس وباءها أصلاً ... لا يفسران حصانة البقر الجنوبى : إن هذه الحمى الخبيثة توجد فى الجنوب حيثما وجِد القراد . والجنوب كله قراد . فهذا القراد لا يفتأ يصب مكروبه فى دماء الأبقار الجنوبية فى كل آن ومكان ، وهذه الأبقار الجنوبية تحمل المكروب فى دمها ليل نهار ، ولكنها لا تحفل به ، لأنها أصيبت به وهى عجول فاحتملته فتحصنت منه من بعد ذلك

وأخيراً ، وبعد أربعة أصياف شديدة الحرّ كثيرة الانتاج مجيدة ، جلس إسميث جلسة طويلة يصف الحمى التكساسية فلا يدع فيها سؤالاً لسائل ، ويصف كذلك كيف يُمحَى الداء محوا . وكان ذلك فى عام ١٨٩٣ ، وكان بستور الذى تنبأ بامحاء الأدواء جميعاً على نحو هذا المثال يتهيأ عندئذ للكفن والقبر .

كتب إسميث ما كتب عن هذه الحمى فأتى على قطعة رائعة من قطع الفن لم أجد أبسط منها ولا أوضح فى حل لُغز من ألغاز الطبيعة ، أقول هذا وأنا لست بناس روائع لوفنهوك ولا بدائع كوخ أو أى رجل من رجال المكروب ؛ قطعة رائعة يفهمها الصبىّ الذكىّ لبساطتها ، ويرفع لها نيوتن العظيم قبعته احتراماً لعظمتها . كان إسميث وهو صغير يحب بيتهوفن وموسيقاه ، وإنى لأجد فى قطعة إسميث هذه التى أسماها « بحثاً فى طبيعة الحمى التكساسية أو حمى الأبقار الجنوبية ، وفى أسبابها ، وفى منعها » إنى لأجد فيها من الروعة ما فى السمفونة الثامنة لبتهوفن ، تلك التى أنشأها فى أواخر أيامه المريرة . كلتا القطعتين بسيط موضوعهما بساطة بلغت حد السخف ، ولكن موضوعهما هذا البسيط نُوِّع وركّب تنويعاً لا يستطيعه إنسى ، فكانتا على مثال الطبيعة ذاتها ، غاية فى البساطة غاية فى التركب والتعقد

فبهذا التقرير فتح اسميث للانسانية فتحاً جديداً ، فأرى الناس سبيلاً جديدة يسلكها المكروب بالداء إلى ضحيته : محمولاً على حشرة . وبدون هذه الحشرة لا يستطيع الوصول . أعدِموا هذه الحشرة ، غطّسوا كل مواشيكم فى سائل ليقتل قُرادها ، أعيشوا البقر الشمالى فى أرض لا قراد فيها . افعلوا كل هذا تختَفِ الحمى التكساسية من على ظهر البسيطة . واليوم تقوم عدة ولايات كاملة بتطهير مواشيها بالتغطيس فى المطهِّرات ، واليوم لا تجد أحداً يرتاع أقل ارتياع لهذه الحمى التى أنذرت بالفناء الألوف المؤلفة من قُطعان أمريكا

وليس هذا كلّ الخير الذى جاء من هذا التقرير البسيط الذى لا زركشة فيه ولا تزويق ، هذا التقرير الخالد الذى لم ينل ما يستحق من التقدير حتى لا تجد منه فى السوق نسخة واحدة . فانه لم يلبث أن شاع حتى حدثت من جرائه أحداث عظيمة فى جنوب أفريقيا وفى الهند وإيطاليا . ففى أفريقيا الجنوبية فى أدغالها الخطيرة عضت ذبابة [1] رئيس الأطباء فى كتيبة من كتائب الجيش ، وكان اسكتلنديا جسيما ، فسب من عضتها ولعن ، ثم خطر له الخاطر فأخذ يفكر فيما عسى أن تصنع هذه الذبابة من الضر بالانسان غير عضتها القلقة . وبعد هذا بقليل حدث أن رجلاً انجليزياً فى الهند ، وآخر إيطالياً فى إيطاليا ، فتح كلاهما آذانهما وسَمْعَيهما يُنصتان لجماعات البعوض ترسل بطنينها الديد الشاكى ، ثم فتحا أذهانهما وأعملا خيالهما وأطلقا الأعنة للأحلام فاختطا خططا عجيبة لتجارب غريبة ...

على أن هذه قصص ستروبها الفصول القادمة . قصص تحكى لنا عن أوبئة قديمة معجزة جامحة أعجزها الانسان وألجها ، فأسلمت له القيادة ؛ قصص تحكى عن وباء أصفر فتاك ، امحى الآن من الوجود أو كاد ، قصص تحكى لنا عن رجال ذوى آمال صوّروا الحياة البشرية تزداد بتناقص الأدواء ، وتنشط وتمتد عبابها الزاخر حتى يغمر أدغالاً لا تسكنها الآن غير الزواحف والضوارى ، فتزدهر عن مدائن ذات أنوار وأبراج ؛ فهذه القصص كلها مهّد لها إسميث بما قام به فى صيادة المكروب من بحوث جديدة عفّى عليها الآن النسيان أو كاد ، بحوث هى الأولى التى سوغت لبنى الناس أن يحلموا الأحلام الجميلة عن دنيا لهم مقبلة جميلة تختلف اختلافا بيّنا عن دنيا هم الحاضرة

أحمد زكى

---

(١) هى ذبابة تسمى tsetse تقتل عضتها المواشى والخيل والكلاب

الفتح الاسلامى (١)

للأستاذ على الطنطاوى

« الفتح الاسلامى » أكبر لغز من ألغاز العبقرية ، وأروع أُحْجِيَّة من أحاجى النبوغ ، وأجل مظهر من مظاهر العظمة فى تاريخ البشر . ولقد مرت عليه إلى اليوم قرون طويلة ، وأعصار مديدة ، ارتقى فيها فن الحرب ، وتقدم فيها البشر أشواطا فى كل ميدان من ميادين الحضارة ، وغاص المؤرخون فى أعماق الحوادث التاريخية ، فكشفوا أسرارها وعرفوا أسبابها ، فبدت لهم هينة ضئيلة ، بعد أن كانوا يرونها لغزاً لا يحل ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا سر الفتوحات الاسلامية — ولم يدركوا كُنْهَهَا . وستمر قرون أخرى وأعصار — قبل أن يكشف ذلك السر ، وقبل أن يرى تاريخ البشر حادثاً أعجب وأعظم من « الفتح الاسلامى »

إن الحوادث العظيمة فى التاريخ على اختلاف مظاهرها وتنوع أشكالها ، لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث : إما أن تكون عظمتها فيما أورثت الانسانية من حضارة وعمران ، وما رفهت من عيش الناس ، وما أفادتهم من رغد ونعمة وترف ، وإما أن تكون هذه العظمة فيما خدمت به العقل البشرى ، وأمدته بأسباب القوة والنضوج ، ورفعت من تفكير الناس ، وأدنتهم من المثل العليا التى يطمحون إليها ، بما فتحت عليهم من أبواب الثقافة وسبل المعرفة ، وإما أن تكون عظمة الحادث التاريخى فى ذاته ، وفيما ينطوى عليه من بطولة نادرة ، وقدرة عجيبة ، وجلال لا يعرفه التاريخ إلا قليلاً ؛ أى أن العظمة إما أن تكون عظمة حضارة وعمران ، أو علم وفكر ، أو بطولة وحرب .

« والفتح الاسلامى » أعظم الحوادث التاريخية كلها ، فى أبواب العظمة كلها ، لا يدانيه فى ذلك حادث فى تاريخ الشرق والغرب ، القديم منه والحديث

أما فى الحروب فان التاريخ يعرف كثيراً من الفاتحين ، منذ عهد الاسكندر ومن قبل الاسكندر ، إلى عهد نابليون ومن بعد نابليون ، ولكنه لم يعرف فتحاً أوسع ولا أسرع من « الفتح الاسلامى » الذى امتد فى اثنى عشر عاماً فقط من طرابلس الغرب إلى آخر بلاد العجم ، وحاز مصر وسورية وفارس كلها . على أن ميزة الفتح الاسلامى ليست فى السعة والسرعة وحدهما ، ولكن ميزته الكبرى أنه فتح أبدى ، فلم يعرف عن المسلمين أنهم دخلوا بلاداً وخرجوا منها (١) ؛ ذلك أنهم لا يفتحون البلاد بسيوفهم شأن كل الفاتحين ، ولكنهم يفتحون القلوب والعقول ، بعدلهم وعلمهم ، فلا تلبث البلاد المفتوحة أن تندمج بالمسلمين ، وتصبح أغير على الاسلام من المسلمين الفاتحين ، بينما ترى البلاد التى فتحها غيرهم تبقى خاضعة لهم ما بقى السيف مصلتاً فوق رؤوس أهلها ، فاذا أحسوا من الفاتحين غرّة ، وآنسوا منهم ضعفاً وثبوا عليهم فطردوهم ، وعادوا إلى ما كانوا عليه ، حتى أن أمريكا على رغم أنها كانت خاليـة إلا من قبائل لا شأن لهـا ، وليس فيها دين يناوئ ديناً ، أو عادات تصادم عادات ، وعلى رغم أن أهلها الذين استعمروها إنكليز كالانجليز الحاكمين ، فانهم وثبوا عليهم وحاربوهم حتى نالوا استقلالهم ؛ ولا تجد اليوم أمريكياً واحداً يريد الانضمام إلى إنكلترا (الأم الكبرى) ، بينما تجد كل مسلم فى الصين أو الهنـد أو جاوا أو القسطنطينية كل مسلم صحيح ، يتحسر على الوحدة الاسلامية — ويسعى إليها — ولا يقبل بها بديلا ، على رغم ما أحدثوا لهم من كذبة القوميات وبدعة الوطنيات ، وما أقاموا بين الاخوان من سدود ، وما فصلوا به بينهم من حدود ، وما مرّ على هذه التفرقة من سنين وأعوام . ذلك لأن « الفتح الاسلامى » فتح أبدىّ ، مستقر فى القلوب ، لا تقوى قوة بشرية على انتزاعه ، وهذه هى ميزته التى امتاز بها على كل فتح فى التاريخ

أما فى العلم والثقافة ؛ فقد كان « الفتح الاسلامى » أكبر حادث علمى ، لأنه حمل إلى البلاد التى فتحها علم السماء والأرض ،

(١) فصل من كتاب (عمر بن الخطاب) تأليف الشيخ على الطنطاوى وأخيه ناجى الطنطاوى ، وقد صدر اليوم الجزء الأول منه فى (٣٦٨) صفحة من القطع الكبير ، وهو يطلب من (المكتبة العربية بدمشق) وسيصدر الجزء الثانى قريباً . والكتاب على نمط كتاب (أبو بكر الصديق) وأسلوبه

(١) الا الأندلس وما يلحق بها ، وقد بقيت روح العرب المسلمين فى الأندلس ، برغم نصرانيتها وإسبانيتها ، وبرغم ما حاربوها به من وسائل وحشية همجية — حتى ظهرت أخيراً على ألسنة كبار شعرائها ، وأعاظم ساستها ، واقرأ نبأ ذلك فى (حاضر العالم الاسلامى) الكتاب الذى ينبغى ألا تخلو منه مكتبة مسلم

فخر رعقولها بالتوحيد ، وأعتقها من عبودية الأحجار والأشجار ، والنيران والأخشاب ، والقسس والأشراف . ثم وضع فى أيديها القرآن الذى يأمر بالتفكر فى خلق السموات والأرض ، ويحفز إلى البحث والنظر والاستدلال ، والسنّة التى ترغب فى العلم وتدعو إليه ، وتجعل طلبه فريضة على كل مسلم ؛ وكان الفاتحون أنفسهم علماء ، فما هى إلا أن فرغوا من الحروب حتى وضعوا السيف وحملوا القلم ، وألقوا الدروع وأخذوا الكتب ، وجلسوا فى المساجد (والمساجد برلمانات المسلمين وجامعاتهم العلمية) يُدرِّسون ويُقرئون ويبحثون ، فكان من تلاميذهم المفسرون والمحدّثون ، والفقهاء والأصوليون ، والأدباء والنحويون ، والقصاص والمؤرخون ، والفلاسفة والباحثون ، والأطباء والفلكيون ، أولئك الذين تصدّروا بعدُ للتدريس فى جامعات الشرق ، وجامعات الأندلس ، فجلس بين أيديهم البابوات ، والملوك ملوك أوربا ، وكانوا أساتذة العالم الجديث

فكان من ثمرة الفتح أن هذه البلاد الأعجمية — التى كانت تئنّ فى ظلام الجهل والظلم — لم تلبث أن ظهر منها علماء فحول ، كان لهم الفضل على العقل البشرى ، ولا تزال أسماؤها خالدة ، تضىء فى جبين الدهر

ومن لعمرى ينسى البخاريّ والطبريّ والأصبهانى والهمذانىّ والشيرازىّ والسَّرَخْسىّ والمرْوَزى والرازىّ والخُوارزمى والنَّيْسابورىّ والقزوينىّ والدِّينَوَرى والسّيرافى والجُرجانى والنَّسائى وغيرَهم وغيرَهم ممن لا يحصيهم عدّ ؟ ألا يشعر كل مسلم بأن هؤلاء وأمثالهم هم علماء الملّة وأعلامها ؟ ألا يحلّ كتاب البخارى أسمى محل من نفوسنا ، ونتخذه حجة بيننا وبين الله ؟ ألا يؤلف هؤلاء العلماء صلة من أوثق الصلات بيننا وبين فارس لا يستطيع أن يفصم عراها مائة حكومة من مثل الحكومة الحاضرة ، التى تستنّ فى فارس سنّة (هذا الآخر ...) فى تركيا

هذا هو فضل الفتح علينا وعلى الأجيال الآتية — أما فضله على العقل البشرى — فحسبك أن تعلم أنه لولا الفتح الاسلامى ، ولولا علماء المسلمين وفلاسفتهم لم يكن عقل القرن العشرين

أما فى الحضارة والعمران ؛ فللفتح الاسلامى أكبر الأثر فى نشر الحضارة وتوطيد العمران ، والعمران طبيعة فى العربى المسلم ، فلم يمض على فتح المسلمين بلاد العراق إلا سنوات حتى أسسوا مدنتين كبيرتين كان لهما الفضل والمنّة على الحركة العلمية والأدبية فى العالم كله . فضلاً عن أنهما كانتا قاعدتين حربيتين من أكبر القواعد الحربية ؛ وما استقرت أقدامهم فى البلاد حتى شرعوا فى بناء المدن الكبيرة ، والقصور العظيمة ، وإنشاء أروع آثار البناء ، حتى كانت بغداد وسرّ من رأى ، وكانت دمشق من قبل ، والقاهرة ومدن الأندلس من بعد ، أعجوبة فى فنّ العمران ، وها إن أثراً صغيراً من آثار العرب — ليس بأعظمها ولا أكبرها — لا يزال إلى اليوم محطّ ركاب الرحال من أهل العلم ورجال الأدب ، ولا يزال مصدراً مالياً لحكومة من كبار حكومات أوربة تعيش إلى اليوم بفضل العرب ، هى حكومة أسبانيا . ولقد حاول الانكليز على قوتهم وغناهم — فى هذا العصر الذى تيسرت فيه أسباب كل شىء — أن ينشئوا مثل « الحمراء » فأنشأوا قصراً فى سيدنهام يعدّ من أعظم المبانى المصرية وأجملها ، ولا يزال دون الأصل بمراحل [1] فكيف عن بنى الأصل فى ذلك العصر الغابر ؟

وكيف لو بقيت « الزهراء » التى حيّرت رُسُل الافرنج ، أو بقى « التاج » فى بغداد ، أو « دار الشجرة » التى أدهشت وفود الروم ؟

* * *

إنه ما من شك لدى المنصفين من المؤرخين ، أنه لولا قيام الحضارة الاسلامية فى القرون الوسطى [2] وازدهارها فى الشرق حين كانت أمم الغرب فى ظلمات بعضها فوق بعض ، لم تقم الحضارة الحاضرة ، ولم يتمتع البشر اليوم بثمراتها

فالفتح الاسلامى إذن أعظم حادث فى البطولة والفكر والعمران . وهو لغز غامض حيّر نابليون (نابغة العصر الحديث فى فن الحرب) وحيّر المؤرخين كلهم . ذلك أن العرب على ما امتازوا به من الكرم والشجاعة والوفاء والعزة والاباء ، كانوا فى جاهليتهم بُداة متفرقين ، وجاهليين وثنيين ، منقسمين على أنفسهم ، مختلفين فيما بينهم ، لا يعرفون إلا جامعة القبيلة ، ووحدة العشيرة ، فاذا فخروا فبها يفخرون ، وإن دافعوا فعنها

(١) حضارة العرب لأسعد داغر ٢٥٦

(٢) المذهب الصحيح فى القرون الوسطى هو ما ذهب اليه المؤرخ الألمانى (شبنكلر) وغيره من أن هذا التقسيم إلى قرون قديمة ووسطى وحديثة — إن صح وقبل — فلا يطلق على غير أوربة ، ولا علاقة له بالشرق ، لأن لكل حضارة مميزات خاصة ، ومن الخطأ الجسيم سحب صفات القرون الوسطى على الشرق المسلم الذى كان إلى ذلك العهد فى ذروة الرقى

يدافعون . . . إذا وجد العربي من القبيلة قافلةً من غير قبيلته ، كان في حل من انتهاب مالها ، وقتل رجالها ، لا حكومة تنظم أمورهم ، ولا دين يردعهم ، إلا ديناً مضحكا سخيفاً ، دين من يتخذ رباً من التمر ، فاذا جاع أكله ، كما (أكلت حنيفةُ ربها . . .) ، أو من ينحت من الصخر صنما ، ثم يعكف عليه عابداً داعياً ، أومن يعبد الشجر والحجر . وكانوا يخشون كسرى ، ويرهبون قيصر ؛ وكان ملوكهم في الحيرة والشام تبعاً للفرس والروم وجنداً لهما ، يضربون بعضهم ببعض ، ليذهبوا هم بالغنم ويعود العرب بالغرم ؛ وكان اتحاد قبيلتين اثنتين كبكر وتغلب في طاعة كليب ، أو قيس والسَّكون في جيش قيس بن معدى كرب حادثاً عجيباً يكسب صاحبه فخر الأبد ، وأمراً نادراً يلبث حديث الناس أياماً وليالي . . . فكيف يتحد العرب كلهم ، عدنانيّهم وقحطانيّهم ، ويسيرون في صف واحد ، يقدمهم رجل واحد ، حتى يواجهوا جيوش كسرى وقيصر التي يهابونها ويرهبونها ، ثم يضربونها الضربة القاصمة للظهر ، فاذا انجلى غبار المعركة نظرت فاذا المعجزة قد ظهرت على أتمها ، وإذا الأرض قد بُدلت غير الأرض ، وإذا فارس الوثنية ، وسورية النصرانية ، ومصر الرومانية ، قد محيت كلها محواً ، وقامت مكانها أمم إسلامية في فارس وسورية ومصر ، كأنما هي لاخلاصها للعربية والاسلام لم تكن يوماً من الأيام على غير الاسلام ؟

أكان هذا الانقلاب ما بين ليلة وضحاها . . . أكان هذا التبدل الذي تغلغل في صميم الأمة العربية فغير كل شيء فيها وأنشأها إنشاء جديداً لأن رجلاً قام في مكة ، يتلو كتاباً جاء به ؟ أيقوى رجل مهما كان شأنه على مثل هذا العمل ويكون له في تاريخ العالم ومستقبل البشرية هذا التأثير ؟

هذا هو اللغز الذي حير المؤرخين من الغربيين ، ولم يعرفوا له حلاً معقولاً !

على حين أن الأمر واضح والسبب ظاهر ، ذلك أن هذا الأمر لم يكن عمل رجل عظيم من عظماء الناس ، ولكنه عمل الله جلّت قدرته ، أظهره على يد سيّد أنبيائه ، وخاتم رسله ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ذلك أن « الفتح الاسلامي » معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم

***

هذا وإن من الخطأ أن نعدّ الفتح الاسلامي ، مثل ما نعرف من فتوح الأمم المختلفة في الأعصار المتباينة ، لأن للفتح الاسلامي طبيعة خاصة به تجعله ممتازاً عن سائر الفتوح ، وتنشىء له في التاريخ باباً خاصاً ، ذلك أن كافة الفتوح إنما كانت الغاية منها ضمّ البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين ، والانتفاع بخيراتها ومواردها ، لا نعرف فتحاً يخرج عن هذا المبدأ إلا الفتح الاسلامي ، فلم تكن الغاية منه ضمّ البلدان الى الوطن الاسلامي . وامتصاص دماء أهلها وأموالهم ، واستغلال مواردها الطبيعية وخيراتها ، ولكن غايته نشر الدين الاسلامي ، والسعي لاعلاء كلمة الله ، وإذاعة هدى القرآن في الأرض كلها ؛ فكانوا كلما وطئوا أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الاسلام ، فأن قبلوا به واتبعوه ونطقوا بكلمة الشهادة انصرفوا عنهم وعدوهم إخوانهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، لا فرق بين أمير المؤمنين وآخر مسلم في أقصى الأرض ؛ كلهمْ سواء في الحقوق والواجبات (١) ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وإن لم يقبلوا بالاسلام عرضوا عليهم الجزية ، وهي أقل بكثير مما كانوا يدفعونه الى ملوكهم وأمرائهم ، وسموهم ذميين لهم ذمّة المسلمين ، وأعطوهم الحرية في أمور دينهم ودنياهم ، وتعهدوا لهم بالأمن الداخلي والخارجي . وإن أبوا أن يعطوا الجزية حاربوهم . . . ثم لم يكرهوا أحدا على الاسلام ، لأن في صحة الاسلام وفوائده في الدنيا والآخرة ما يغني في الدعوة اليه عن السيف . وما (دين محمد دين السيف) كما يهتف العامة والجاهلون ، ولكنه دين العقل والمنطق والعلم ، ، والمسلمون عامة دعاة مرشدون ، ولكنهم دعاة أقوياء ، يحملون القرآن بيد ، والسيف بالأخرى ، فمن قبل فما كانوا ليحاربوه ، ومن أبى وحاربهم أدّبوه حتى يرجع الى الحق ، ويجنح الى السلم

ثم إن معاملة المسلمين للذميين ، ووفائهم بعهودهم ، وصدق وعودهم وكرمهم وتسامحهم الذي شهد به الأصدقاء والأعداء ؛ وصار أشهر من أن يذكر ما يؤكد طبيعة « الفتح الاسلامي » ويرفعه عن أن يقاس به فتح آخر !

وهذه هي التواريخ فاستقروها واحكموا !

(بغداد) علي الطنطاوي

(١) في كتاب (عمر بن الخطاب) هذا فصل عن طبيعة الحكومة الاسلامية وحقيقة الخلافة فليراجع

كتاب أنساب الأشراف
للبلاذرى

للدكتور اسرائيل ولفنسون

أستاذ اللغات السامية بدار العلوم

يعلم كل من تتبع حركة النشر والطبع فى الأقطار الشرقية فى العصر الحديث أن كثيرا من المصنفات العربيــة العظيمة الشأن إنما نشرت بوساطة العلماء المستشرقين ؛ ومما لا شك فيه أن هذه العناية المفرطة إنمـا كانت من الأسباب المباشرة التى ساعدت على نمو النهضة العلمية فى الديار العربية

كلنا نعلم أن كتاب السـيرة النبوية لمحمد بن اسحق من رواية عبد الملك بن هشام طبع للمرة الأولى سنة ١٨٥٩ — ١٨٦٠ بوساطة العالم ويستنفلد ، وكذلك تولى العلامة دى غويه بمعونة علماء آخرين طبع كتاب تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى فى ليدن من سنة ١٨٧٦ ، وكذلك طبع نخبة من المستشرقين كتاب الطبقات الـكبرى لابن ســعد من سنة ١٩٠٥ — ١٩٢١

وكذلك طبع كتاب (كشف الظنون عن أسامى الـكتب والفنون) لمصطفى بن عبد الله المشهور باسم حاجى خليفة من سنة ١٨٣٥ — ١٨٥٨ بمدينتى ليدن وليبسيك ، وكان ذلك تحت إشراف العالم فليجل ، وهو الذى تولى طبع كتاب فهرس ابن النـديم من سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١

وليس هذا المقام مقام احصاء كل ما طبع العلماء المستشرقون ، وإنما سردت بعض الـكتب القيمة العظيمة القدر التى لا تتصور حركاتنا العلمية ونهضتنا الأدبيــة دون الرجوع الى هــذه المصادر الهامة

وهناك أمر آخر له خطره فى أمر نشر المصنفات العربيــة بوساطة المستشرقين وهو أنهم أساتذة لنا ، معشر الشرقيين ، فى إخراج المطبوعات على الطريقة العلمية المجدية ، إذ هم ليسوا طابعين وناشرين فحسب كما اعتدنا أن نرى من الناشرين للمؤلفات عندنا ، بل هم يميلون الى المراجعة بعناية ، والمقابلة بمـا ورد فى الـكتاب الذى أمامهم بالمصادر والمراجع الأخرى ، ويذيلون مطبوعاتهم بحواش هى غاية فى الدقة والخطورة فى أغلب الأحوال

وقد لاحظنا أن بعض الناشرين عندما عمدوا إلى إعادة طبع ما طبعه المستشرقون فى أوربا ، ولـكن مع الأسف الشديد جاء عملهم ماسخاً لمـا عمله المستشرقون مشوهاً له ؛ إذ كانت الطبعة الثانية غير مضبوطة ، كثيرة الأغلاط ، فاحشة الأخطاء

على أن بعض الأفراد ممن تثقف فى أوربا ، وممن اتصـل بالحركة العلمية الأوربية قد بدأ ينشر بعض المصنفات العربية على الطريقة المألوفة عنـد الافرنج ، وخصوصاً ما ظهر من الهمة والعزيمة فى نشر الـكتب تحت إشراف دار الـكتب المصرية ، فلا شك أن عمل دار الـكتب يعد صفحة بيضـاء جديدة فى تاريخ نشر الـكتب والعرفان فى الشرق . على أننا نريد أن نقول لدار الـكتب كلمة صريحة نؤجلها إلى فرصة أخرى إن شاء الله

ذكرت ذلك بمناسبة تولى المعهد الشرقى بالجامعة العبرية بالقدس نشر كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى الذى ظهر منه فى الآونة الأخيرة الجزء الخامس

ذاع صيت احمد بن يحيى بن جابر البلاذرى فى العصور الأخيرة بوساطة كتابه الصغير فتوح البلدان الذى أقدم العالم دى غويه على طبعه سنة ١٨٦٦ بمدينة ليدن . أما مصنفه العظيم المذكور فى معجم ياقوت الحموى باسم أنساب الأشراف (معجم الأدباء ج ٢ — ص ١٣١) أو كما سماه ابن النـديم بكتاب الأخبار والأنساب (فهرس ص ١١٤) أو كما يقول الشريف المرتضى (الشافى ص ٢٦٠ ، ٦٨٨) كتاب البلاذرى ، أو كما يشير ابن عساكر إلى البلاذرى ويصفه بصـاحب التاريخ (تاريخ دمشق ص ١٣١)

وهو الـكتاب الذى ارتشف من منهله المتقدمون والمتأخرون ممن جاءوا بعد البلاذرى من كبار الأدباء والمؤرخين والجغرافيين مثل الشريف المرتضى الذى توفى سنة ٤٣٦ ، وابن عساكر الذى توفى سنة ٥٧١ ، وياقوت الحموى الرومى الذى توفى سنة ٦٢٦ ، والنويرى الذى توفى سنة ٦٣٢ ، وابن خلكان الذى توفى سنة ٦٨١ ، وابن حجر العسقلانى الذى توفى سنة ٨٥٢ ، وابن تغرى بردى الذى توفى سنة ٨٧٤ . أما هذا الـكتاب فقد توارى عن العيون فى العصور الأخيرة ومر عليه العلماء من الـكرام حتى أصبح

نسياً منسياً إلى أن جاء العالم أهلوارت فى سنة ١٨٨٣ وأخرج جزءاً منه كان يشك بعض العلماء فى صحة نسبه إلى البلاذرى . ثم حدث أن أعلن الأستاذ بيكر (C. H. Becker) فى مؤتمر المستشرقين الثالث عشر أنه عثر على نسخة كاملة من كتاب أنساب الأشراف فى الآستانة ولم يحفظ الدهر لهذا الكتاب نسخة كاملة غيرها ؛ وكان قد عقد النية على نشر الكتاب ولكن كبر حجمه من ناحية ومشاغل الأستاذ بيكر من ناحية أخرى عاقته عن المضى فى تحقيق هذا المشروع إلى أن اقترح عليه الأستاذ جوتهلد وبل الذى كان مديراً للقسم الشرقى من مكتبة برلين الكبرى على العلامة بيكر أن يعرض مشروع طبع أنساب الأشراف على هيئة تدريس اللغة العربية فى الجامعة العبرية بالقدس ففعل

* * *

أما المخطوط من هذا الكتاب فيشتمل على ١٢٢٨ صفحة ، وهو أكبر حجما من الطبقات الكبرى لابن سعد أو أقل قليلاً من كتاب التاريخ لابن جرير الطبرى ؛ وهو بحث مفصل فى أنساب العرب يبدأ دراسته بالتاريخ القديم من عهد نوح وذريته إلى سيدنا ابراهيم خليل الله وأعقابه ، ثم ينتقل إلى قريش وبنى هاشم ويبحث فى أصلهم وفصلهم ، ثم يقص سيرة الرسول وأخبار على بن أبى طالب وما جرى فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويفصل تفصيلاً كثيراً مطولاً تاريخ بنى أمية حتى تشتمل أخبارهم على ثلث الكتاب بأجمعه . ومع أنه كان من الموالين لبنى العباس وكان يشغل منصباً رفيعاً عند خلفائهم فان ما ورد بشأنهم من الحوادث والأخبار لا يتجاوز سبعين صفحة من المخطوط الكبير

وكذلك يوجه عناية شديدة إلى قبائل مضر الآخرين فيتعرض لأنساب كنانة وأسد وهذيل وعبد مناة ومزينة وتميم وقيس وذبيان وفزارة وعبس وهوازن وسليم وثقيف

ولم يذكر قبائل ربيعة واليمن لأن المنية عاجلته عن اتمام كتابه إذ لقى حتفه فى أوائل عهد الخليفة المعتضد سنة ٢٧٩ (كشف الظنون ج ١ ص ٢٧٤)

ومع أن هناك مصنفات فى أنساب العرب قبل البلاذرى إذ كان محمد بن هشام الكلبى الذى توفى سنة ٢٠٤ قد وضع كتابه جمهرة الانساب والهيثم بن عدى ألّف مصنفاً فى تاريخ الأشراف وهو ممن توفى فى أوائل القرن الثالث فان كتاب انساب الأشراف للبلاذرى يعد فى الذروة مما وصل إليه الأدب التاريخى عند العرب فى الأنساب

والبلاذرى لم يكتف بجمع الأخبار من مصنفات من سبقه بل جمع كثيراً من الأخبار من السجلات الرسمية التى كانت فى خزائن الدولة ؛ وهو على ميله إلى العباسيين لا يظلم بنى أمية بل يقص عنهم أخباراً كثيرة تدل على أن له حنكة المؤرخ الذى يتغلب على شعوره ويتجرد عن أهوائه ، وذلك أمر لابد للمؤرخ المنصف منه

* * *

والكتاب الذى طبع الآن ليس الجزء الأول بل الخامس منه ، إذ وزعت صفحات المخطوط على جملة من العلماء لم يتمكنوا إلى الآن من اتمام العمل الذى كلفوا أن يقوموا به

وكان الجزء الخامس قد وكل أمر العناية به إلى الأستاذ س . د . جويتاين وهو الآن فى العقد الرابع من العمر تخرج من جامعة فرنكفورت بألمانيا وكان من خيرة تلاميذ الأستاذ المرحوم يوسف هورفيتس واختاره للتدريس بالجامعة العبرية بالقدس

وقد بذل الأستاذ جويتاين جهده مدة سنين كثيرة فى مراجعة صفحات المخطوط وأخرجه بعد عناء ومشقة على النسق المألوف عند كبار المؤلفين من المستشرقين مع مقدمة علمية بحث فيها الناشر فى أصل تسمية الكتاب وما يحتوى عليه مع مقارنة بين من سبقه وبين من أتى بعده من المؤرخين وبيّن ما أخذه ممن كان قبله ومن أخذ عنه ممن جاء بعده

ومما يؤسف له أن هذه المقدمة النفيسة قد وضعت بالعبرية من ناحية ، وبالترجمة الانجليزية من ناحية أخرى ، وقد اكتفى الناشر بكلمة موجزة بالعربية . كان من الواجب أن يصدر بالمقدمة العربية قبل كل شىء ، لأن الكتاب عربى موجه إلى الناطقين بالضاد قبل غيرهم ، وإذا كان جمهرة من العلماء الافرنج يدرسون كتاب أنساب الأشراف فهم يستطيعون أن يدرسوا المقدمة بالعربية أيضا

وكذلك أقول عن الذيل الذى وضع بالانجليزية كأن

٨ – تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسنه محمد حبشى

الفصـــل الأول

وقد استمر إرياط يتوغل فى اليمن بعـد موت ذى نواس الحميرى « فقتل ثلث رجالهـا وخرب ثلث بلادها ، وبعث إلى النجاشى بثلث سباياها ، ثم أقام بها فضبطها وأذلها [١] ، ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبش ، وكان فى جنده حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ؛ ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى إرياط « إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً ، فابرز لى وأبرز لك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده » فقبل أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لحيماً حادراً وكان ذا دين فى النصرانية ؛ وخرج إليه ارياط وكان رجلاً عظيما طويلاً وسيما ، فرفع إرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخه ، فوقعت على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته ، فسمى أبرهة الأشرم ، وحمل غلام أبرهة عَتْـودَة على إرياط فقتله ، فملك أبرهة ، ثم كتب الى النجاشى : « أيها الملك إنما كان إرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا فى أمرك ، وكلٌّ طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه » فثبته النجاشى . ثم إن أبرهة بنى « القليس » بصنعاء لم ير مثلها فى زمانها ، ثم كتب إلى النجاشى : « إنى قد بنيت لك كنيسة ولست بمنته حتى أصرف إليها حاجّ العرب » فلاكت الألسن ذلك فقام رجل من بنى فُقَيم : فخرج إلى القليس فقعد فيها ، ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فحلف ليسيرن الى البيت فيهدمه » ولكن الفشل الذريع الذى منيت به هذه الحملة التى وقعت عام الفيل (سنة ٥٧٠ م) لم يحرر بلاد اليمن فى الحال من نير الأحباش ، إذ أن ولدى أبرهة يكسوم ومسروق كانا عبئاً ثقيلاً على العرب ضجوا منه . وقام فى ذلك الحين أحـد أشراف حمير واسمه « سيف بن ذى يزن » مستحثا الهمم ، ولكن ضاعت دعوته إياهم أدراج الرياح . ولما لم ير مساعدة من قومه وجه وجهه شطر الاستعانة بمبعوث أجنبى ، وتردّد بين قيصر الروم وكسرى فارس ، فمضى أولاً الى القسطنطينية فردّه القيصر خائباً ، فطلب من والى الحيرة العربى الذى كان خاضعاً لفارس أن يقدّمه الى بلاط المدائن ؛ ولكن كيف استطاع أن يكسب عطف الملك الساسانى أنو شروان الملقب بالعادل حتى أرسل معه ثمانمائة مقاتل من نزيلى السجون ممن أطلق سراحهم ؟ وكيف أبحروا معه الى اليمن وعلى رأسهم قائد طاعن فى السنّ ؟ وكيف أحرقوا مراكبهم واستمدوا من اليأس قوّة ، وكيف هزموا الأحباش هزيمة منكرة وطردوهم واستردوا اليمن وجعلوها ولاية فارسية [١] . . . كل هـذا يسوقنا الى سرد قصة طويلة آثرت تخطيها وإغفالها فى مثل هذا المجال ، لأنها تتصل بتاريخ الفرس أكثر من اتصالها بتاريخ الأدب العربى ، تلك الأمور التى قامت — كما رجّح نلدكه — على أخبار لقنها الغزاة الفرس الذين

(١) وفى ذلك قال بعضهم ذا كراما ساق إليهم دون ذو ثعلبان من أمير الحبشة : « لا كدوس ولا أعلاق رحله » (المترجم)

(١) يجد القارئ بياناً وافياً وتفصيلا شاملا لهذه الأمور كلها فى كتاب تاريخ الفرس الأدبى Lit Hist. of Persia للاستاذ براون ج ١ ص ١٧٨ — ١٨١

الكتاب إنما كان موجهاً إلى العلماء الغربيين لا للأندية المثقفة من أبناء الشرق أيضا

وإنى أوجه أنظار الأساتذة العاملين على إخراج بقية أجزاء الكتاب ألا يتورطوا فيما تورط الأستاذ جويتاين من مسألة المقدمة والذيل التى أغفل فيهما العربية إغفالاً يكاد يكون تاماً

والذى نتمناه من صميم الفؤاد أن يبادر بقية العلماء القائمين بمراجعة الكتاب باخراج الأجزاء الأخرى حتى يستفيد العالم العربى عاجلاً من كتاب أنساب الأشراف الذى يعد بحق من أمهات المصادر لكل من يبحث فى عصر ظهور الاسلام وفجره وضحاه

اسرائيل ولفنسوه (أبو ذؤيب)

استوطنوا اليمن لأبنائهم الأشراف ، الذين يسميهم العرب الأبناء أو بنى الأحرار

وإنا لنترك الآن مملكة اليمن وقد تهاوت دعائم قوتها ودالت دولتها وسقطت من عليا مكانتها الى الأبد ، ونعود ناحية الشمال فى دراسة التاريخ العربى :

الفصل الثانى

تاريخ العرب الوثنيين وأساطيرهم

يسمى المسلمون الفترة الواقعة منذ فجر التاريخ العربى حتى ظهور الاسلام بالجاهلية ، وقد ورد هذا اللفظ فى أربع فقرات فى القرآن ، ويقصد به عادة « الجهل » ، وإن كان جولدزيهر قد أوضح أن المدلول الذاتى لكلمة « جهل » (الذى اشتقت منه الجاهلية) عند شعراء ما قبل الاسلام لا يقصد به « عدم المعرفة » أو « الوحشية » و « الهمجية » ، وليس المعنى المضاد لكلمة « علم » ، ولكنه عكس معنى حلم المعبّر عن التهذيب الأدبى عند الرجل المثقف . « وحينما يقول المسلمون إن الاسلام قضى على طبائع وعادات الجاهلية فانهم يقصدون بذلك العادات المستقبحة ، وهذا الخلق الهمجى الذى تفترق به الوثنية عن الاسلام ، وبالمستهجن من الطباع التى جدّ محمد (ص) فى استئصالها من نفوس قومه : كحمية الجاهلية ، والعصبية القبلية ، والجد فى طلب الثأر ، والحقد ، وغير هذا من طبائع الوثنية المستهجنة التى قضى عليها الاسلام »[1]

وإن المصادر التى نستمد منها صورة حياة هذه الفترة لتندرج تحت أربعة أبواب كما يلى :

(١) القصائد والمقطعات الشعرية التى وإن لم تكن قد دونت فى ذلك الحين إلا أنها ظلت محفوظة بالرواية الشفهية ، ثم كتب معظمها بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهى فى الحقيقة الأثر الوحيد الذى بين أيدينا عن تاريخ العصر السابق للاسلام ، وتتضح أهميتها من القول المأثور « إن الشعر ديوان العرب وجامع شتات المحاسن التى سلفت لهم » وسيرى القارئ فى الفصل التالى بعضاً من الشعر العربى فى تلك الفترة

(٢) الأمثال وهذه أقل قيمة من الشعر ، إذ قلما تفسر نفسها بينما يكون الشرح المرفق بها من عمل الأدباء الذين يدأبون على تفسيرها ، ولو أنه فى حالات عدة يؤتى بمعانيها ومقصودها على سبيل الحدس ، كما نسيت الظروف التى بعثتهم على إرسالها . وبالرغم من هذا فقد كنا نخسر شيئاً جسيما لو لم تكن بين أيدينا المجاميع الشهيرة للمفضل بن سلمة[1] (المتوفى حوالى ٩٠٠م) والميدانى[2] (١١٢٤م) التى تضمنت إشارات عجيبة وأخباراً تلقى بصيصاً من النور على كل جوانب الحياة التى سبقت ظهور الاسلام

(٣) الأخبار والأقاصيص : لما لم يكن للعرب الوثنيين — على العموم — معرفة بفن الكتابة الخطية واستعمالها فقد كان من المستحيل أن تقوم للنثر - باعتباره فناً أدبيا - قائمة فيهم ، ومع ذلك فان بذور النثر الأدبى يمكن إرجاعها الى عصر الجاهلية ، وعدا المثل والخطبة نجد عناصر التاريخ والقصة فى القصص النثرى الذى كان يقدمه الحفاظ والرواة لتوضيح موضوع أغانيهم ، وفى القصص التى تمدّد مآثر القبائل وأبنائها . وإن العدد الوفير من هذه القصص (التى يرجع بعضها الى أصل حقيقى والآخر يحمل طابع الخرافة) لمبثوث فى ثنايا المؤلفات الأدبية والتاريخية والجغرافية التى وضعت أيام الدولة العباسية وخاصة فى كتاب الأغانى[3] لأبى الفرج الأصفهانى (٩٦٧ م) وهو مجموعة ثمينة قامت على دراسة الشخصيات[4] الأدبية الكبيرة فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . وقد ضاعت الكتابات الأولى لهؤلاء الأدباء والنقاد دون استثناء ، ولولا اقتباسات الأغانى الكثيرة لما كان فى متناول أيدينا نماذج من آثارهم . ويقول ابن خلدون عن هذا السفر : « إن أبا الفرج جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب

(١) Goldziher Muhammedaniahe Studien, Part I, P. 225.

(١) لقد أصبحت مجموعة أمثال المفضل بن سلمة الكوفى المسماة « بالفاخر » فى متناول اليد إذ طبعها طبعة أنيقة مستر C. A. Stotey فى ليدن ١٩١٥

(٢) طبع أمثال الميدانى وترجمتها اللاتينية Freytag فى ٣ مجلدات (طبعة Bonn ١٨٣٨ — ١٨٤٢ م) تحت اسم Arabum Proverbia

(٣) طبع كتاب الأغانى فى بولاق مصر (١٢٨٤ — ١٢٨٥ هـ) فى عشرين مجلدا ، وقد أضاف اليها Brünnow مجلدا بأسماء الأعلام الذين ترجم لهم أبو الفرج فيه ، وهو مطبوع فى ليدن عام ١٨٨٨ م . وتقوم دار الكتب المصرية حديثا بطبع الأغانى طبعة منقحة مع ملاحظات نقدية

(٤) هكذا يسميهم سير شارلز ليل

وأوفاه ، ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلم وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها [(١)]

ولن أحاول فى الصفحات التالية أن أضع فى ترتيب واتصال هذه الأشعار والقصص المضطربة التى رسخت فى الأذهان واندس بين ثناياها جميع ما نعرفه عن بلاد العرب فى العصر السابق للاسلام ؛ إذ أنجز هذا خير إنجاز وفى دقة عجيبـة كوزان دى برسيڤال [(٢)] فى كتابه : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme وليس هناك ثمت جدوى مطلقاً من أن أسوق للقارئ موجزاً مقتضباً لهذا العمل القيم ، والأجدى — كما يتراءى — أن أسوق للقارئ بضع ظواهر واضحة بينـة تمثل هذه الفترة كما وضعها العرب أنفسهم . وإذا كانت الأحاديث العربية يعوزها الدقة التاريخية فانهـا فى مجموعها تكشف القناع عن الروح السائدة فى العصر المظلم الذى تستحضره من غياهب الزمن السحيق وتبرزه أمامنا

وفى حوالى منتصف القرن الثالث المسيحى كانت تتاخم بلاد العرب من الشمال والشمال الشرقى امبراطوريتان تتنافسان فى الزعامة هما دولة الروم ودولة الفرس اللتان تفصلهما صحراء الشام عن بعض ؛ ولمـا رأى الفرس أنهم عرضة لغزوات البدو الذين كانوا يشنون الغارات بين حين وآخر على الحدود ، ويستولون على ما يصل أيديهم من الغنـائم ، ثم يختفون بنفس السرعة التى اتسمت بها إغاراتهم ، لما رأوا ذلك وجدوا الضرورة تدعوهم إلى إيجاد حامية على طول حدود هذه الصحراء ، وبهذا أمكن صد غزوات القبائل البدوية وغاراتها ، ولـكن تبيّن أن القوة علاج غير ناجع تماماً ، فضلاً عما تكلفه الدولة ، وعملاً بالمثل القائل : « فرّق تسد Divide et impera » فقد ارتُؤى ادخال بعض القبائل المغيرة فى خدمة الامبراطورية . ومما أدّى إلى عدم قيام البدو بأى اضطراب دفع شىء من المـال لهم بانتظام ، واستعدادهم على الدوام للغزو الفجائى إذ كان الروم والفرس فى هـذه الأيام فى حروب لا يخمد أوارها ولا يخبو ضرامها ، ومن ثم فقد حاربوا كمحالفين أحرارا تحت لواء أمرائهم أو شيوخهم . وبهذه الوسيلة ظهرت أسرتان عربيتان هما دولة الغساسنة فى سورية واللخميين فى الحيرة غرب الفرات ، وكانتا فى نزاع دائم واصطدام ونزال ، حتى ولو لم تكن تدفعهما من الخلف قوة الامبراطوريتين ، وسرعان ما ظهرت كفاية العرب الحربية ومهاراتهم حينما دربوا على الأسلحة . وفى أثناء حرب ڤاليران مع كسرى سابور الأول خرج شيخ عشيرة عربى فى « تدمر » ويدعى أذينـة وسار على رأس قوة كبيرة ضـد المغير ونازله وفرّق شمله وطرده من سورية واقتفى آثاره حتى ردّه الى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة ٢٦٥م ولقد قدر الامبراطور جاليانوس Gallienue صنيعه الباهر فأنعم عليه بلقب Auguatus المظيم » ، ولقد كان فى الحقيقة السيد المطاع فى الكتائب الرومانية فى الشرق ، ولكنه قتل غيلة فى العام التالى وكان فى زوجته زينوبيا (الزباء) خير خاف ، فأخذت على عاتقها تشييد امبراطورية شرقية ضخمة ، ولم يكن نجاحها أعظم من نجاح كليوپاترا فى مثل هـذه المحاولة ، ولـكن حدث ما ليس فى حسبانها إذ انتصر أرليان واقتيدت « ملكة الشرق » المتكبرة أسيرة أمام عربته فى شوارع رومة عام ٢٧٤ م

(يتبع)

حسن محمد حبشى

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠) ص ٥٥ :

(٢) وقد طبع فى باريس (١٨٤٧ — ١٨٤٨) فى ٣ مجلدات

مرثية توماس جراى

نشر الأستاذ على الطنطاوى فى (الرسالة) عدد ١٧٨ بتاريخ ٣٠ نوفبر سنة ١٩٣٢ ترجمة لمرثيــة جراى الشاعر الانجليزى الشهير نقلاً عن قراءة صديقه الأستاذ حيدر الركابى ، والأستاذ الطنطاوى أديب فنان لا يشق له غبار فى كل ما يكتب ، ومن الأفذاذ الذين رفعوا رأس الأدب العربى الحديث عالياً ، ومن الملهمين الذين أراد الله لهم ولأدبهم الخلود ليؤدوا رسالة الأديب الفنان للمجتمع الذى يعيش فيه . وممـا لا شك فيه أن الأستاذ الطنطاوى يؤله أن يقوم إنسان فيغير على آثاره الأدبية بترجمها ويقول على لسانه شيئاً لم يقــله ، أو يشوه أفكاراً وتعابير خالدة فى فنه . ومما لا شك فيه أيضاً أن المترجم يحمل أمانة فى عنقه لمن يترجم عنه ، وعليه أن يؤديها غير منقوصة ، وألا ينقل إلا الواقع وإلا ما أراده ذلك المترجم عنه . وعندى أن الأستاذ لو ترجم المرثية عن أصلها لبان له من روحه الفنانة وإخلاصه ما يجعل ترجمته فى دقتها تقف فى صف واحد مع ترجمة جرالد للرباعيات الخيامية المشهورة . ولو كانت صفحات الرسالة تتسع لأ كثر من هـذا المقدار لقدمت أمثلة على عدم دقة النقل ؛ والذى يراجع الأصل لا يجد صعوبة فى اكتشاف ذلك وهو كثير . على أن الواقع يدفعنى إلى تقديم الشكر للأستاذ الطنطاوى على الاجادة التى لا تجارى فى ترجمته التى كادت أن تقرب من الـكمال . وإنا لنرجو أن يتبارى الشعراء فى نقــــل هذه القطعة الخالدة إلى الأدب العربى شعراً بالرجوع إلى الأصل مع الاستعانة بترجمة الأستاذ المذكورة

وزيادة لفائدة القراء رأيت أن أذكر مختصراً لحياة الشاعر توماس جراى وعن الظروف التى رافقت نظم تلك المرثية

توماس جراى Thomas Gray

ولد فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٧١٦ فى كورن هل (Cornhill) ، حيث كانت والدته وشقيقها يتجران بقبعات السيدات ، وكان والده فيليب جراى كاتب عقود رسمية ، وكان هو الوحيد الذى عاش من أسرة عدد أفرادها إثنا عشر شخصا . وفى سنة ١٧٢٧ التحق بكلية إيتون حيث كان عمه مدرساً مساعداً فى تلك الـكلية ، وهناك نشأت صداقته المتينة مع ريتشارد وست ، وهراس ولبول ، وتوماس اشتون

وترك كمبردج فى السنة التالية دون أن ينال أجازة علمية ؛ ورحل فى عام ١٧٢٩ إلى القارة مع صديقه الحميم هراس ولبول فى رحلة استغرقت ما يقرب من التسعة أشهر ، وعاد بعدها الى لندن . وفى سنة ١٧٤١ توفى والده فانتقلت والدته وشقيقتها إلى المعيشة مع أخت ثالثــة اسمها مارى فى مقاطعة بكنجهام شير (Buckingham Shire) ، وهناك نظم أول قصيدة عنوانها اجريبنا (Agrippina)

وفى عام ١٧٤٢ مات صديقه ريتشارد وست ، فرثاه رثاء مؤثراً . وفى هذه السنة عاد إلى كمبردج وبقى مدة سنتين حصل فى نهايتهما على درجة بكلوريوس فى الحقوق

وبعد ذلك بخمس سنوات توفيت خالته مارى وأحرق منزله فى كورن هل

وفى عام ١٧٥٠ أكمل مرثيته التى نحن بصددها ، وبعد ذلك بثلاث سنوات توفيت والدته . وفى سنة ١٧٥٧ عرض عليــه أن يكون شاعر العرش البريطانى الذى خلا بموت كولى سيبر (Colley Cibber) فرفض ذلك . وبعد ذلك بخمس سنوات عرض نفسه ليكون مدرساً للتاريخ بدلاً من الدكتور ترنر المتوفى فى تلك السنة ، ولـكن اللورد بيوت حال بينه وبين هـذه الأمنية التى نالها بعد ثمانى سنوات

وفى سنة ١٧٦٥ زار اسكتلندا وهناك عرضت عليه جامعة أبردين Aberdeen أن تمنحه لقب دكتور فى الحقوق فرفض ذلك مستنداً الى أن دراسته فى كمبردج لا تؤهله لقبول مثل هـذا اللقب . وبعد ذلك بأربع سنوات نظم نشيده المشهور Ode fo music الذى مُثّل عند تولية دوق جرافتون رئاسة الجامعة التى كان يدرس فيها التاريخ الحديث ، وزار فى تلك السنة منطقة البحيرات

وفى سنة ١٧٧١ توفى فجأة بينما كان يتناول طعام الغداء ، الى جانب والدته فى ساحة الكنيسة فى Stoke Poges فى مقاطعة بكنجهام شير

هذا مختصر لحياة هذا الشاعر . وفيما يلى وصف لظروف المرثية :

Elegy Written in a Country Churchyard

ابتدأ فى نظم هذه المرثية فى عام ١٧٤٢ ولكن القسم الأعظم منها كتبه بين السنوات ١٧٤٦ — ١٧٥٠ ، وقد أتمها فى اليوم الثانى عشر من شهر يونيه سنة ١٧٥٠ ، وفى العاشر من فبراير أرسل إليه رئيس تحرير مجلة المجلات الانجليزية Magazine of Magazines يستأذنه فى نشرها فى مجلته فرفض طلبه . وعند ذلك أسرع وطلب إلى صديقه هراس ولبول أن ينشرها على الناس دون إمضاء . وفى السادس عشر من نفس الشهر طبعت فى كراسة بعنوان « مرثية كتبت فى ساحة كنيسة قرية » مع المقدمة التالية من ولبول : « لقد وقعت القصيدة التالية فى يدى مصادفة ، إذا جاز أن يدعى انتشار هذه القطعة وذيوعها بين الناس عرضا . إن الاستحسان الذى صادفته هذه القصيدة سيجعل اعتذارى لمؤلفها فى غير محله ، لأنه ولا شك يشعر باغتباط شديد لاعجاب الناس وسرورهم بها فيما مضى . ومما لا شك فيه أيضاً أنه سيغفر لى جرأتى على النشر ، لأشاركه تقديم المسرات لعدد آخر غير قليل »

وهناك ثلاث نسخ بخط الشاعر جراى نفسه محفوظة حتى اليوم . فالأولى كانت سابقاً ملكا للسير W. Fraser وهى الآن فى كلية ايتون ، ومن المحتمل أن تكون النسخة الأصلية . والثانية تخص Wharton ورتون وهى موجودة فى المتحف البريطانى تحت الرقم (٢٤٠٠) . والثالثة فى كلية بيمبروك Pemdroke وفى آخر هذه النسخة كتب جراى بخطه أيضاً ما يأتى : « نشرت فى فبراير سنة ١٧٥١ بواسطة دوزلى وأعيد طبعها أربع مرات شهرين ، وبعد ذلك طبعت الطبعة الخامسة حتى الحادية عشرة . وأعيد طبعها فى ١٧٥٣ بواسطة مستر بنتلى ثم ترجمت الى اللاتينية وطبعت فى عام ١٧٦٢ »

(نابلس) ف . . . . .

الثقافة والأنتاج العلمى فى فلسطين

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

لا يختلف اثنان فى أن الوضع الحاضر فى فلسطين شاذ وغير طبيعى وهو غيره فى الأقطار الشقيقة المجاورة ، فالكل يقاسى آلاماً مبرحة من الاستعمار والمستعمرين ، والكل واقع تحت نير الاستعباد والعبودية ؛ ولست واجداً أحداً يرضى عن السياسة المتبعة فى بلاده وعما يجرى حوله ، إلا أن هناك فرقاً بين فلسطين وغيرها من البلاد المجاورة ، ففى هذه جبروت واحد وطاغية واحد ، وهنا جبروتان وطاغيتان قد تسلحا بالخبث والمكر والقوة والدهاء ، وعلى هذا فالمصيبة هنا أعظم والبلاء هنا أعم والخطر محقق والفناء يتهدد

ومن الطبيعى أن بلاداً هذه حالها لا تكون صالحة للانتاج العلمى ولا لازدهار الثقافة والأدب بالمعنى الواسع . ومن الطبيعى أن تؤثر هذه الأوضاع على الشباب المثقف وعلى الأدباء والعلماء فتأخذ قسما من أوقاتهم ومجهوداتهم وتفكيرهم يصرفونها فى مبادئ السياسة لدرء الأخطار المحدقة ، ولتخفيف المصائب المنصبة علينا انصباباً من كل جانب . وكيف يمكن لثقافة أن تنمو ، ولقريحة أن تنتج وتبتدع إذا لم تكن تلك القريحة فى جو من الحرية ، وفى محيط خال من القيود والاغلال ليس فيه من يسخرك لمنافعه ومصالحه ، وليس فيه من يسعى للقضاء على معنوياتك ، وعلى قتل الطموح فيك ؟

وكيف يمكن لشاب أن يعكف على العلم بقصد الاستزادة والاكتشاف والبحث والاستقصاء إذا لم يكن هناك من يساعده ويشجعه ويأخذ بيده ؟ فكيف به إذا وجد فى محيط كله تثبيط للهمم ، وكله إحباط للعزائم ؟ . وإذا تتبعنا الطرق التى تسير عليها الحكومات المستعمرة فى مختلف دوائرها ، ولا سيما المعارف منها نجد أنها ترمى إلى القضاء على روح الطموح ، على روح البحث وحب الاستزادة من العلوم والفنون ؛ ترمى إلى خلق روح الاعتماد فى الناشئة على الغير ، إلى إماتة الروح الوطنية ،

وبث روح الاستهتار بالتراث العربى والاسلامى وانتقاصهما بشتى الوسائل ، وفوق ذلك بجدهم (المستعمرين) يشغلون أوقات الناس والموظفين فى أمور ليس فيها متاع ، وليس فيها ما يعود على البلاد بخير أو انتفاع . فمن الطبيعى إذن – هنا وفى البلاد المرزوءة بالاستعمار – أن الحكومات فيها لا تشجع العلم ولا تحث على متابعته ، ولا على إيجاد رغبة صادقة فى التأليف والبحث على الرغم من حاجة الأمة إلى كل ذلك . وإذن فلا محل لغرابة الكثيرين فى موقف الحكومة تجاه المؤلفين وتجاه الذين يلاحقون فروعهم فى العلم والفن ، بل الغرابة كل الغرابة فى حسن ظن هؤلاء الكثيرين بالحكومات المنتدبة والاعتماد عليها فى تشجيع الناس فى التنوير والتقدم وقد جهلوا أو تناسوا أن هذه الحكومات تسير على برنامج استعمارى خاص من شأنه أن يقضى على كل ما من شأنه رفع مستوى الأمة ورقيها . لهذا وجب على العلماء العرب أن يلتفتوا إلى هذه الناحية ، وأن يعيروها بعض اهتمامهم ، وأن يعتمدوا على أنفسهم قبل كل شىء ، وأن يأخذوا من موقف الحكومات قوى تحفزهم إلى توسيع الحركة الثقافية فى فلسطين وغيرها ، ونشر روح البحث والاستقصاء بين المثقفين ، ويقضى الواجب الوطنى على الشباب العامل والأساتذة أن ينحوا فى تعليم الناشئة وتثقيفها ناحية قومية وطنية ، وقد يجدون فى هذا صعوبة ، وقد يصادفون أمامهم عقبات ، ولكن عليهم أن يجاهدوا ويصرفوا بعضاً من مجهوداتهم فى التغلب على ذلك ، وفى توجيه التعليم والثقافة توجيهاً يخلق فى النشء روح الاعتزاز بالقومية وروح الاعتقاد بالقابلية ، يخلق فى الناشىء شخصية قوية وكياناً مستقلاً ورجولة مستعدة لتلبية نداء الوطن قادرة على المساهمة فى خدمة الحضارة . ويقضى الواجب الوطنى على الباحثين أن ينحوا ببحوثهم الناحية القومية ، وأن يبينوا للناشئة فضل العرب الكبير على المدينة ، وقد تبوأوا مركزاً سامياً لم يتبوأه غيرهم أيام كانوا سائرين على النهج القويم الذى وضعه الرسول وصحبه وخلفاؤه ، أيام كان الاهتمام باللباب دون القشور ؛ بهذا وحده يمكن أن تنشىء الأمة شبابا مؤمنين عاملين على رفع مستوى البلاد ، شباباً مثقفين ثقافة قومية وطنية يعرفون كيف يخدمون الوطن . وهذا هو أقوى سلاح يمكن أن تمد به الأمة الناهضة ليساعدها على خوض غمار هذه الحياة عالية الرأس موفورة الكرامة ، وعلى نيل ما تبنى من عز وسؤدد .

وقد يسر القراء الكرام أن يعلموا أن هناك مساعى جدية للشروع فى أعمال مشتركة تقوم بها جماعات مثقفة تأخذ على عاتقها الاشتغال فى ناحية خدمة الأمة عن طريق بعث الثقافة والتعليم القومى ، عن طريق بعث الثقافة العربية والاسلامية ، عن طريق تشجيع ذوى العقول النيرة والقرائح الخصبة فى توجيه بحوثهم ونتاجهم فى العلم والفن الى ناحية قومية وطنية . وقد قام جماعة فى نابلس من الشباب المثقف بانشاء ناد ثقافى أطلقوا عليه اسم (النادى الثقافى) غايته هى : « إيجاد روابط وصلات بين المتعلمين ، والعمل على تأليف قلوبهم وتوحيد جهودهم العلمية والأدبية وتوجيهها توجيهاً قومياً ، ورفع مستوى البلد الثقافى والأدبى بطرق مختلفة عملية أهمها المحاضرات والحلقات العلمية وإيجاد مكتبة حافلة بالكتب القيمة .. » وسيجد الناس فى هذا النادى وطنية عملية ستعود على البلاد بفوائد جليلة . وكذلك هناك جماعات فى نابلس والقدس ويافا وحيفا وبقية البلاد تفكر فى مشروع إنشاء لجنة ترجمة وتأليف ونشر على غرار لجنة مصر . والذى نرجوه أن توفق هذه الجماعات فى مشاريعها الثقافية ، وأن تأخذ بيد الأمة الى حيث التقدم والمجد ومعارج القوة والعظمة

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

كبرياء الألم

وراحة النفس فى الشكوى ولذتها
لو أمكنت ، لا تساوى ذلة الشاكى
« أسامة بن منقذ »

للأستاذ أمجد الطرابلسى

أتظلُّ تخفق فى الأضالع واهيا ❊ ياقلب حسبك! لن ترانى شاكيا
يا ذلة الباكى ! إذا أعداؤه ❊ شمتوا بهُ ، والخِل أصبح راثيا
يا ذلة الباكى ! لَجُرحى لاهِباً ❊ أرضى لنفسىَ يا خفوق ونارِيا
اكتم لهيبك ما تقسمك الأسى ❊ لا يرخصن بكاك جرحاً غاليا
واشمخ بأنفك فى الخطوب ولا يكن ❊ غلف القلوب أشـد منك تعاليا
وأتكرم الألم المخلّد ، ولتكن ❊ بلظى تكتمه الضلوع مباهيا
فالكون تضحكه الدموع إذا جرت ! ❊ أتظل تضحك ذا الزمانَ اللاهيا ؟
والمجد للألم الدفين على المدى ❊ لا للذى يؤذى المسامع باكيا
والوجد أنبله كمينٌ صامت ❊ وأجله ما كان جُرحاً خافيا
كنز من الالهام لا تلق له ❊ بين الكنوز مشابهاً ومساويا
يهب الجلال لمن يطيق صيانه ❊ والعبقرية والثناء الباقيا
يا أصدقائى النائحين تجملوا ! ❊ لا تصبحوا بين الأنام ألاهيا
تبًّا لقلب لم يذق مجد الأسى ❊ و لِىَ لقلب لا يملّ تشاكيا
أغلوا الجراح فلن ترواامثل الجوى ❊ للعبقرية مُنضجاً ومواتيا
إن القريض أعز مجداً من فتى ❊ يمسى ويُصبح ضارعاً متباكيا
لا يستحق الخلد شِعر ناحب ❊ تتقاطر العبرات منه جواريا

***

يا أيها الشاكى ! إلى من تشتكى ؟ ❊ أفأنت مُلْفٍ فى الأنام مواسيا ؟
و إذا لقيت فإن فى إشفاقه ❊ ورثائه ذلاًّ لنفسك كافيا
أم للطبيعة ما تبث وأذنها ❊ موقورة ما إن تجيب مناديا
تشكو فتمتنق الطيور على الربى ❊ بين الغصون ضواحكاً ولواهيا
وتنوح والأزهار تضحك خلسة ❊ والجدول المِطراب يسخر جاريا
هل أسكنت يوماً تشاكى علة ❊ طيراً على عرش الأزاهر شاديا
أو حطمت أغصانها لعجيعة ❊ أو مزقت حُللا ترف زواهيا
أوَ لم تجىء هذى الطبيعة مرة ❊ ولهان تفتقد الحبيب النائيا
كم جئتماها قبلُ فى كنف الهوى ❊ وقضيتما فيها ضحى وأماسيا
الزهر حولكما يرفُّ مهنئاً ❊ والطير فوقكما تحوم شواديا
والغصن مخمور يصفق ناثراً ❊ قُبَلاً على عطفيكما ولآليا
أودعتماها الذكريات حبيبة ❊ تحكى أزاهرها اللطافُ، غواليا
وكتبتما فوق الجذوع مواثقاً ❊ ونقشتما فوق الصخور أسآميا
واليوم ...! تأتيها وحيداً شارداً ❊ ترجو بمغناها لجرحك آسيا
فانظر إليها! هل رعت ذمم الهوى ❊ أوخلدت ذكراً حلوْن خواليا
سائل! أفلست ترى لعهدك ذاكراً ❊ وابحث فلست ترى لحبك راعيا
واجزع! فلن تلقى لخطبك جازعا ❊ واندب! فلن يلقى بكاك مباليا !
ما بالها تلهو وأنت مكلّم ❊ تتلمس الذكرى وعهداً خاليا
إن الطبيعة غادة فتانة ❊ لا تعرف القلب الوفى الحانيا !

***

أحبيبى الغالى ، وأنت مخاطبى — ! ❊ هيا استشفَّ من القصائد ما بيا
هذا القريض يشف عما تحته . ❊ أتظن قلبى بعد ذلك ساليا ؟
ألهو وأضحك ليس يبصر ناظرى ❊ ماذا تكنُّ أضالعى وفؤاديا
أتقول : لا يذكى الهيامُ قصائدى ! ❊ لولا لحاظك ما زكتْ أشعاريا
أقصائد يحملن آلام الهوى ! ؟ ❊ يا هونَهن ! ولو يكنَّ دراريا
وأنا قصيدتك البديعة صغتَها ❊ من فيض سِحرك أبحراً وقوافيا
وبخافقى ما لو تقسمه الورى ❊ وسع القلوبَ على الزمان خواليا
لكننى أغلى فؤادى أن يرى ❊ بين الأنام ـ وأنت فيه ـ داميا

(دمشق) — أمجد الطرابلسى

ذكرى ١٧ رمضان :

ثورة بدر

بقلم محمود حسن اسماعيل

مقتطفات منها

خَفَقَ العرشُ بالنشيدِ المطهرْ … فدع الشعرَ والأغانى .. وكبِّرْ!

. . . .

رجفتْ فى الجنانِ كالزعزعِ القصَّـــافِ … تدوى بجانبىَّ وتزأرْ

من فجاجِ الغيوبِ هاجت صباحا … ثورةٌ فى الرمالِ هبّت تُزَمْجِرْ

أقبلت كالعجاجِ فى هبوة الحرْ … بِ «قُرَيْشٌ» على الحياض تُنفِّرْ

حشدوا موكبَ المنايا وخفوا … لِفِداء الإلهِ غاوين فجَّرْ

يتراءونَ كالصواعِقِ فى الرمـ … ـلِ ووجهُ الضحى من الروعِ أغبر

كالشياطين جلجلت فى دجى اللـيـ … ـل وهاجت فى البيد تعوى وتصفر

أرزمت فوقهم سيوف، وريعت … من تناديهمُ أضاةٌ ومغفر

زلزلوا راسى الفيافى ، وراحت … مِنهم البيدُ تقشعر وتذعَر

ومضى الشرك بينهم مزعج الهيـ … ـجة طيشانَ كاللظى المتسعِّر

جَمَّع الهول كله فى يديه … ومضى بالحِمام فى الهول يزفر

إن يكن كِبرُه أجنَّ البلايا … لنبىِّ الاسلام . . فالله أكبر

***

وعلى التل خاشع فى عريش … قُدُسىّ الظلال زاكٍ مُنوَّر

كاد من طيبه الجريدُ المحنَّى … من ذُبول البلى يميس ويزهر

هالة تسكبُ الجلال ، وتندى … بوميض الهدى يُفيق ويسحر

لو رمت كاسف البصيرة أعمى … عاد منها مُبلَّج القلب أحور

باسطٌ كفّه إلى الله يدعو : … رَبِّ حُمَّ القضا لدينكَ فانصر

إن أجنادىَ البواســـل قُلٌّ … وخميس العدو كالموج يزخرْ

خفقة من كرى تجلّتْ عليه … مال من طهرها الرِّداء المحبَّرْ

وإذا الوحى بارقٌ مستهلٌّ … من سماء الغيوب هَنَّا وبَشَّرْ

فانتضى سيفه وهبَّ على الغا … رةِ بأسٍ سرمدِ القوى مؤزَّرْ

ينفح القوم بالحصا فتــدوِّى … أسلات الإسلام فى كل منحر

وجنود السماء من كل فجٍّ … غُيَّبٍ للعيان فى القلب تحضر

تشعل النار فى قلوب المذاكى … وتوّج الرجال ناراً تسعَّر

قوّةٌ من جوانب العرش هبّت … ذاب من بأسها الحسام المشهَّرْ

و«بلال» يلقى «أُميّة» غضبا … ن فيشفى الغليل منه ويثأر

أمس كم حمل الصخور الدَّواكي … بلهيب الرمضاء تغلى وتسعر

وهو اليوم قاذف صخرةَ المو … ت ... عليه تهوى فتردى وتقبر

وأبو جهل جندلتــه قناة … فهوى تحت جندل البيد يُجحر

وقف الكفر فوقه يندب الكفـ … ـر ويهذى على الرُّفات ويهذر

لـكأنى بعظمك الآن يصطكُّ … وَيغلى من الأسى وَالتحسُّر

وَشــظايا اللسان ندمانة كا … دت لنور الهدى حنيناً تكبِّر!

تمرات فى كف أعزل جوعا … ن هضيم بين الوغى متعثِّر

عربىّ من شـيعة الله وان … عن صراع الهيجاء قهراً تأخر

حينما شاهد النبىَّ تلظّت … جمرة النصر فى حشاه المفتَّر

هاج كالعاصف المدمِّر فى الجيـ … ـش وأهوى كالموت يبلى ويدحر

سلَّ من روحه حُساماً وَمن إسـ … ـلامه فى مسابح الروع خنجر

هكذا نجــدة السماء أحالت … واهِن الجسم كالعتىِّ المدمِّر

فاذا النصر صيحة هزت الدنيـ … ـا وراعت بروج كسرى وقيصر

وإذا «بدر» خفقة فى لسان الشـ … ـرق يزهى على صداها ويفخر

محمود حسن اسماعيل

القصص

قصة واقعية

الغـــريب ...

« نالت هذه القصة جائزة قدرها ١٠٠ جنيه فى مسابقة للقصص الواقعية فى مجلة «True Story» الأنجليزية »

نقلها عن الانجليزية
أحمد فتحى مرسى

لا أعلم ما الذى جعلنى أشعر بالخوف والوحدة بعد أن امتطى فرانك صهوة جواده ومضى فى سبيله ظهر أحد أيام الأحد ... لقد كان علىّ أن أمكث مع طفلى العزيزين أياما وأياما وحيدين فى مزرعتنا بين تلك المروج الواسعة ، لم يساورنى خلالها مثل ما ساورنى ذلك اليوم . . ربما كانت الوحدة تخيف بعض النساء ؛ بيد أننى قضيت فى هذه الجهة ما يقرب من عامين بعيدة عن العالم منفردة عن المجتمع ، فضلاً عن أننى نلت قسطا من التعليم جعلنى أنبذ ما تدعيه النساء من خرافات وأباطيل ... كان هناك ما يقرب من العشرين ميلا بيننا وبين أقرب جار لنا ؛ ولقد كان فى تناثر المزارع على هذا الشكل مغنم للصوص ورجال العصابات ، فكان الانسان يقضى أياما طوالا دون أن يرى فى هذه الناحية وجها لانسان ، اللهم إلا أحد رعاة البقر يبحث عن قطيعه الممزق ويجمع أشتات ماشيته المتفرقة ، ولكنى كثيرا ما قضيت مع فرانك الشهور الطويلة دون أن يقع بصرنا على إنسان ما

***

ولقد كانت مصاحبة طفلى العزيزين تجعلنى سعيدة قريرة العين . وكان أكبرهما فى الثانية من عمره ويدعى بوبى ؛ وأما فيل الصغير فقد كان عمره لا يزيد على بضعة أشهر ، ولكنه برغم ذلك كان طفلا هادئا مريحا

ولقد يتساءل البعض : لماذا اخترنا هذه البقعة الموحشة لنقضى فيها ميعة صبانا وزهرة شبابنا ؟ فأجيب : منذ حوالى أربع سنوات عند ما تزوجت من فرانك ، كان يشغل منصباً فى أحد البنوك فى مدينة ولتون فيل على مسير خمسة وثلاثين ميلا من مزرعتنا ؛ وكان قد اقتصد قليلا من المال مدة اشتغاله فى المصرف . ولم يلبث فرانك طويلا فى المصرف بعد زواجنا ، فقد أصبح المصرف فى غنى عن عمله لضيق أعماله ، فأخذ يبحث عن عمل ولكن دون جدوى ... وأخيرا وجدنا أنفسنا وليس معنا إلا قليل مما اقتصدناه . وكان فرانك قد درس هذه المنطقة ملياً مدة اشتغاله فى المصرف ، وكانت تحوى الكثير من المزارع التى تصلح لتربية الماشية وزراعة بعض الحاصلات الصيفية .

وفى ركن قصىّ من تلك الأصقاع كانت تقع مزرعة جميلة فيها منزل ريفى بديع الموقع بسيط التأثيث ، وبها بئر طيبة المورد عذبة الماء ، وحول المنزل قطعة مسورة من الأرض يخيل إلى أنها كانت حديقة فيما مضى . وأخذنا الفرح بهذه المزرعة ، فاشتريناها وبدأنا عملنا فيها

وكان كلانا فى ضحوة شبابه وربيع حياته يتمتع بصحة جيدة وبنية قوية . وكان فرانك لا يعرف الكثير من أحوال المزارع وإدارتها فلازمنا الفشل فى أول الأمر - شأن كل من يبدأ عملا لم يمارسه من قبل - ولكن أدركتنا عناية الله فذللنا كل ما قابلنا من العقبات

ولد لنا (بوبى) فى مدينة ولتون فيل ، وأما (فيل) فقد ولد فى مزرعة مرى وذر على بعد عشرين ميلا منا . ولقد كانت السيدة مرى وذر نعم الأم الحنون البرة مدة إقامتى عندها

***

ومضت الأيام تتبع الأيام والشهور تقفو أثر الشهور ، ونحن سعيدان بهذه الحياة الهادئة على رغم بعدنا عن العالم وانفرادنا عن المجتمع ، إلى أن كان يوم زارنا فيه جار لنا يدعى جيبون ، يطلب مساعدة فرانك فى إصلاح قطعة من الأرض اشتراها أخيرا . فلما اعتذر

له فرانك بأنه ليس لديه جواد، فضلا عن أنه لديه من الأعمال ما يشغله عن ممارسة غيرها، قال غاضباً:

— هذا شيء لا يحتمل! من أين لي أن أجد رجلا آخر في هذه الناحية المقفرة؟ سأعطيك كل ما تطلب من الأجر نظير ترك أعمالك، فضلا عن أني سأعوضك جواداً خيرا من جوادك

وبعد نقاش طويل قبل فرانك ما عرضه عليه الجار على أن يدعه يعود إلى المزرعة في أيام السبت والأحد لانجاز أعماله الهامة. وعلى هذا أصبحت أقضي جل الأسبوع وحيدة إلا من طفلين لا يستطيع أكبرهما أن ينطق. ولكني كنت أعزي نفسي بأن العمل يستغرق أسابيع يعود بعدها فرانك ومعه المال والجواد

***

ولا أكون مبالغة إذا قلت إننا لم نشعر في حياتنا بسرور قدر ما شعرنا به تلك الليلة عند ما عاد فرانك للمرة الأولى يحمل أجرة الأسبوع الأول، فقد خيل الينا أننا في حلم عندما نثر النقود على المائدة؛ وليس هذا عجيباً، فقد كان كلانا لم ير النقود من زمن غير قليل. قال فرانك:

— أظن أنه ليس في الامكان السفر إلى ولتون فيل لايداعها في المصرف قبل أن أنتهي من مساعدة چيبون، وستكون هنا في مأمن. فقلت:

— إذن دعنا نخبئها في مكان ما

— حسن! ثم وضع النقود في كيس صغير وأعطاها إياي قائلا:

— ضعيها تحت وعاء الدقيق ياعزيزتي ... فاذا داخلك الشك يوماً في أحد يحوم حول هذا المكان فاحفري لها في الأرض

وفي مساء الجمعة التالية زاد قدر ما عندنا من النقود بما أضافه اليها فرانك من أجره الثاني

***

وفي صبيحة السبت نهض فرانك مبكراً وأخذ يعمل في المزرعة بجد ونشاط — كعادته في سائر أيام السبت والأحد — حتى إذا كان ظهر الأحد خرج ليسرج جواده ويمضي إلى عمله عند چيبون ... ولسبب ما داخلني شعور غريب هذه المرة، فقد كنت أريد من أعماق نفسي ألا يذهب وألا يتركني هذه المرة. ولما ضمني ليودعني لم أجد ما أقوله له غير هذه الكلمات:

«لا تذهب يافرانك ... لا تتركني هذه المرة ياعزيزي» والحقيقة أنني كنت أشعر بشعور خفي، وبدافع من صميم قلبي يدفعني إلى استبقائه بجانبي. ولكنه ابتسم قائلا:

— تشجعي ياعزيزتي ... سأعود قريبا

ثم انطلق الجواد كالسهم وأنا واقفة أتابعه بنظري وهو يختفي في ظلام من الغبار

***

استيقظت في الرابعة من فجر اليوم التالي، لأنه كان يروق لي أن أنجز أعمالي في الصباح الباكر قبل أن يشتد وهج الشمس في سماء الصيف الصافية ويحمر قيظها، فأخرجت الماشية من حظائرها وأوقدت النيران في الموقد، ثم عدت إلى المنزل لأغذي الأطفال، وألقيت وأنا أصعد الدرج نظرة خاطفة على الطريق الذي مضى فيه فرانك أمس. ولشد ما كانت دهشتي عند ما أبصرت من بعيد شبحاً سائراً على قدميه يقترب رويداً رويداً من المزرعة؛ وقد عجبت من ذلك أشد العجب، فهذه أول مرة أرى فيها شخصاً يجوب هذي السهول المترامية سيراً على الأقدام. أسرعت إلى المنزل ووقفت في النافذة وأنا أفكر فيمن يكون ذلك الشخص وما مأربه؟ أهو صاحب مزرعة من اللواتي حولنا يطلب مساعدة؟ ولكن هذا لا يمكن، فكل منهم يملك جوادا على الأقل إن لم يكن يملك مركبة. إذن فهذا الرجل غريب عن الناحية

ولكن لماذا يأتي الغريب إلى هنا؟ ربما ضل الطريق وأخطأ الجهة التي يقصدها! ولكنه لا يمكن أن يصل الى هذه الجهة المنفردة دون أن يدرك أنه أخطأ الطريق ... كل هذه الأفكار كانت تساورني وأنا واقفة في النافذة أرقب الرجل وهو يقترب:

— ترى ماذا يفعل ذلك الرجل لو علم أني وحيدة في ذلك المنزل؟ وماذا يفعل لو عرف شيئاً عن النقود؟

وأخيراً قلت لنفسي: «حسن. ما دام فرانك أخذ دوره وعمل بجد حتى حصل على هذه النقود، يجب أن آخذ دوري في الدفاع عنها» وأسرعت إلى «مسدسي» وكان محشوا، وأيقظت الأطفال حتى لا يزعجهم إطلاق النار. وكان الرجل قد وقف على بعد خمسين خطوة من المنزل يقلب الطرف في الحديقة والدار؛ وبدا لي وجهه مخيفاً مرعباً وملابسه قديمة رثة. على أنه لم يدهشني قط عندما أخرج مسدسه من جيبه ومشى صوب الباب لأني

كنت أتوقع ذلك بين لحظة وأخرى .... انتظرت حتى أصبح على بعد خطوات من الباب ثم دفعت الباب بقدمي فأصبحت أمامه وجهاً لوجه

***

— مكانك وإلا ألهبت رأسك !

فوقف الرجل مبهوتاً ، ثم أردفت على عجل :

— والآن ماذا تريد ؟

— سيدتي ! ما أنا إلا رجل فقير جائع ؛ أريد قطعة من الخبز أسد بها رمق ، أو أي عمل عندكم أعيش منه ... ثم تابع كلامه وقد رأى الشك في عيني :

— إنني أمين يا سيدتي ؛ لا تسيئي بي الظن

— شكراً لك ! إن زوجي قد قام بكل الأعمال ، وليس لدي ما أعطيك إياه

— لقد قضيت يا سيدتي يومين سائراً . يعلم الله أني لم أذق في خلالها شيئاً قط ....

وأيقنت من نبراته أنه صادق في كلامه برغم ما داخلني فيه من شك . وقد رأيت أن من الغباء أن أدعه يعمل عندنا ونحن لا نعرف أصله ، ولكني لم أعدم شيئاً من العطف على رجل لم يذق الطعام من يومين ؛ فقلت له وأنا ما أزال قابضة على المسدس :

— إن ورائي على المائدة وعاء من اللبن وقطعتين من الخبز خذهما وامض في سبيلك .. فنظر لحظة إلى المسدس قبل أن يجد في نفسه الجرأة الكافية على الدخول ، ثم جمع أشتات نفسه ودخل وحمل الطعام ثم خرج متمتماً بكلمات الشكر

ومضيت في عملي فنسيت ذلك الحادث . وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء . فجلست مع بوبي لنتناول الفطور في هدوء وصمت . وفجأة تذكرت أنني لم أجمع بيض الدجاج هذا الصباح ، وكانت عادتي أن أجمعه في الصباح الباكر قبل أن تعبث به زواحف القفر . فلما بلغت آخر مجاثم الدجاج طرق سمعي فحيح حاد صادر من الحطب الهشيم الملقى على جوانب المجثم ، فعرفت الصوت لساعته وإن كنت لم أسمعه في هذه الجهة من قبل ، فهلع قلبي وأسرعت بالعودة ، إلا أنني لم أكد أدير وجهي حتى شعرت باللدغة في قدمي اليمنى

لقد كانت عضة أفعى سوداء كبيرة . وقد جمدت في مكاني لمجرد ذكرها قبل أن تلمحها عيناي المضطربتان وهي تزحف بين الهشيم

وأخيراً بلغت المنزل أجر قدمي ورائي وأنا ألهث من التعب ، ومزقت الحذاء مرتبكاً فبدا أثر النابين عميقاً ظاهراً ، وكنت أجهل تماماً ما سأفعل وأنا على قاب قوسين من الموت ... فجعلت أجهد ذاكرتي حتى أصل إلى ما قاله لي فرانك عن علاج مثل هذه الحالة . وأخيرا وجدت ضالتي المنشودة . لقد قال لي : يجب أن تربط الرجل من فوق اللدغة بقليل حتى لا يسري السم مع الدماء ، ثم تعالج الاصابة « ببرمنجانات البوتاس » ... وسرعان ما مزقت قطعة من القماش من غطاء المائدة وربطت بها الرجل من فوق اللدغة بقليل ثم قمت أبحث عن الدواء

ولكني تذكرت فجأة أنه لم يبق عندنا منه شيء ، فقد استنفدته عن آخره في تطبيب الدجاج في الربيع الماضي ونسيت أن أطلب من فرانك أن يشتري بدله

عدت إلى المقعد في ذهول وأغمضت عيني وجعلت أفكر وأفكر ولكن دون جدوى .... كل ذلك والسم آخذ طريقه في قدمي حتى تصلبت عضلاتها .... ماذا أفعل وأنا وحيدة مع طفلين وهناك عشرات الأميال بيني وبين أقرب نجدة ؟ وإذا قدر لي الموت فما مصير الطفلين البريئين ؟ كانت قدمي تؤلمني ألماً مبرحاً ولا أعلم إن كان ذلك من السم أم من شدة الرباط ؟

لم يكن أمامي ثمة شيء ينقذ حياتي وحياة الأطفال إلا أن أحاول أن أذهب معهم إلى (مري وذر) . فربما أتمكن من إدراكها قبل فوات الوقت إذا تركت للجواد العنان ... فقمت أتحامل على نفسي وعلى الحائط ؛ ولكن قبل أن أدرك الباب تذكرت شيئاً آخر جعلني أكاد أسقط على الأرض ... لقد أخذ فرانك الجواد ولسنا نملك غيره . شعرت بأن الدم يكاد يفيض من وجهي ، وأنا أعود إلى المقعد في ذهول ... أأصحب الطفلين وأمضي سائرة على الأقدام ؟ ولكن هذا معناه ساعات وساعات دون أن نصل الى وجهتنا ... قمت ثانية لأحمل (فيل) ولكني عدت فتذكرت أن قدمي بوبي الصغيرتين لا تحتملان السير أكثر من ميل أو ميل ونصف ... إذن سأضطر الى حمل الطفلين في الطريق ، وسأبذل من الجهد ما يجعل الدم ينشط والسم يسري فتكون النهاية المحتمة الأليمة : طفلان في القفر في يد القدر بجانب أم ميتة

يا إلهي ! ماذا أفعل وهذا الموت المحقق يسير في عروق ، وعن قريب أصير في عداد الأموات ... ولكن الطفلان

ما مصيرها ؟ الموت دون شك .. وإذا كان لا بد من الموت فلم لا أسرع حتى أخلص من عذاب النفس الممض وعذاب الجسم المبرح ؟ ... لم لا أسرع بالقضاء على نفسي وعلى الطفلين حتى نستريح جميعاً ؟ . . . خففت قليلاً من وطأة الرباط فلم تعد ترجى منه فائدة ، وتناولت قلماً وورقة من المكتب ثم جلست أكتب لفرانك ظهر الاثنين :

عزيزى فرانك :

لقد لدغتنى أفعى سامة كبيرة ..ولم أجد لها علاجاً ناجعاً ولا يمكننى أن أعيش أكثر من بضع ساعات . أما الطفلان فلا أظنهما يلبثان على قيد الحياة الى حين حضورك . لذلك سأفعل الأمر الوحيد الذى يمكننى أن أفعله فى هذه الحالة فأريح نفسى والطفلين من العذاب الأليم . وأتمنى لك حياة طويلة سعيدة م؟

عزيزتك

روز مارى

ووضعت الورقة على المائدة ثم تناولت المسدس ، واقتربت من طفلى فيل وكان مستغرقاً فى نومه فركعت بجانبه ثم طبعت على جبينه قبلة حارة وصوبت «المسدس» الى رأسه بيد مرتعشة ، ثم أغمضت عينى لأطلق النار . . . .

— بحق السماء ماذا تفعلين ياسيدتى . . . ؟

اضطرب « المسدس » فى يدى وتلفت إلى مصدر الصوت فى جزع فاذا الرجل الغريب الذى رأيته فى الصباح واقفاً بالباب ينظر الىّ تارة والى المسدس أخرى . . ثم تقدم أخيراً فقبض على المسدس من يدى وألقاه على المائدة ، ثم تابع كلامه قائلاً — أتقدمين على قتل هذا الطفل البرىء ؟

— نعم أقدم على ذلك

— أمجنونة أنت ؟

— كلا . . . لقد لدغتنى أفعى سوداء سامة وأدركت أن الموت من نصيبى وأيقنت أن الطفل سيموت جوعاً ففضلت أن نموت سويا

— أفعى سوداء ! قالها وتقدم الىّ فى سرعة فرفعنى من مكانى وأنجحنى على المقعد ثم أخرج من جيبه سكيناً حاداً رسم بها دائرة حول أثر النابين ، ثم أخذ يضغط الجرح بشدة حتى سالت الدماء وفاضت على جوانبه . . . ثم نهض مسرعاً وجذب قضيباً من الحديد كان ملقى على المائدة ، ثم سأل :

— أين الموقد ؟

— وراءك الى اليمين . فأسرع إليه ووضع القضيب فى النار الى أن احمر طرفه ثم عاد الىّ قائلاً :

— يعز علىّ أن أفعل ما أنا مقدم عليه ، ولكن هذا هو العلاج الوحيد . ولما انتهى من كىّ الجرح أحضر لى جرعة من الماء . ثم تبع ذلك صمت طويل قطعه أخيراً بقوله :

— لقد توسمت فيك الشجاعة هذا الصباح يا سيدتى . وقد رأيتها الآن رأى العين ؛ وأظن أنك ستشعرين بألم مبرح بضعة أيام يزول بعدها كل شىء . ورانت على الغرفة فترة أخرى من الصمت ثم قال أخيراً فى هدوء وتؤدة :

— لا يمكننى على ما أظن أن أمضى وأتركك على ما أنت عليه . . . ثم أردف باسماً :

— إنه ليبدو عجباً أن أحضر الى هنا رغبة فى الاستيلاء على أموال زوجك وقتلك إذا دعت الحال ، فاذا بى أساعدك وأسهر عليك وأعنى بمرضك كما لو كنت صديقاً حميا !

***

وأظن أن آخر شىء يمكننى أن أذكره قبل أن يأخذنى الاغماء هو صورة الغريب فى يده وعاء اللبن وهو ذاهب لحلب البقرة وبوبى يقفز حوله فى سرور . أما فيل فقد كان مستغرقاً فى سباته ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب . . . ثم أظلم المكان فى عينىّ ولم أشعر بما يجرى حولى ، اللهم إلا أشباحاً تتراقص ، وأيدياً تلوّح ، وأصواتاً تدوى . . .

حينما أفقت من الاغماء كان الوقت ظهراً والسُجُف مرخاة على النوافذ والغرفة خالية إلا منى ومن بوبى الذى كان جالساً يأكل فى أحد الأركان فى سرور جعلنى أشعر بمثله

— أظنك تشعرين الآن ببعض التحسن يا سيدتى . . . كان ذلك صوت الرجل الغريب ، فتلفت فاذا به واقف بجانب السرير ينظر الى فى حنان وعطف . فسألته :

— فى أى يوم نحن الآن ؟

— الأربعاء يا سيدتى

***

وفى مساء الجمعة وكان قد ثاب إلى بعض صحتى ونشاطى ؛ وكان بوبى وفيل قد أخذتهما سنة من النوم ، قال لى الغريب :

— فى أى وقت تتوقعين حضور زوجك يا سيدتى ؟

— إنه يصل عادة بعد التاسعة بقليل

— إذن يجب عليّ أن أذهب ، ولكني لن أتركك حتى أسمع وقع حوافر جواده

— ولكن لماذا ؟ قد يرغب فرانك في رؤيتك ليقول لك شيئاً

— شكراً ، إني أعلم ما سيقوله لي

— إذن دعني أمنحك قليلاً من المال ، وإنه لشيء تافه بجانب ما تكبدته لانقاذي وإنقاذ الطفلين . . ثم قمت لأحضر النقود ، ولكنه اعترض سبيلي قائلاً :

— أرجوك الجلوس ياسيدتي — لقد كانت النقود في متناول يدي طول أيام الأسبوع ، ولكني لم أمسها ولن أمسها . . . ! ثم خيم على الغرفة صمت طويل قطعه أخيراً وقع حوافر جواد قادم في الطريق ، فقام الرجل وسار نحو الباب في خطوات متزنة ثم اختفى بين طيات الظلام

***

قصصت على فرانك القصة فما انتهيت منها حتى ابتدر الباب باحثاً عن الرجل ، ولكني استوقفته وأخبرته أن من العسير أن يعثر عليه في هذا الظلام الحالك ، فرجع آسفاً . ومنذ ذلك الحين ونحن نتمنى لو تتاح لنا فرصة نشكر فيها ذلك الغريب ونوليه أضعاف جميله ؟

أحمد فهمي مرسي

البريد الأدبي

قانون جديد للصحافة في فرنسا

صدر أخيراً قانون جديد للصحافة في فرنسا يرمي إلى وضع حد لذلك الاغراق التي انتهت اليه بعض الصحف المتطرفة في شأن الأنباء الكاذبة والمقالات القاذفة ؛ وكان صدوره على أثر انتحار المسيو سالنجرو وزير الداخلية الذي لبث مدى أشهر هدفاً لحملات بعض الصحف المتطرفة مثل «جرينجوار» و« لا كسيون فرانسيز » ، فقد استمرت هذه الصحف تنشر عنه وعن ماضيه كثيراً من الأخبار والمطاعن المثيرة ، وتطعن في وطنيته ونزاهته وإخلاصه لوطنه . ومع أن اللجنة الخاصة التي ألفت لبحث ماضي المسيو سالنجرو قد انتهت بتقرير بطلان هذه التهم جميعها ، ومع أن البرلمان ذاته قد انتهى بتبرئته وإعلان تقديره لوطنيته ، فأن هذه الصحف القاذفة لم تنقطع عن مطاردته حتى سقط صريعاً في الميدان . فبادرت الحكومة باستصدار القانون الجديد ، وهو يرمي إلى أغراض ثلاثة : الأول قمع الأخبار الكاذبة ؛ والثاني منع المطاعن والحملات القاذفة ؛ والثالث وضع رقابة فعلية على المصادر المالية للصحف ، نظراً لما ثبت من أن كثيرا من الصحف تندفع بتأثير ما تتناوله من الاعانات المالية الى إثارة الخصومات السياسية والمطاعن الشخصية دونا كترات للنتائج والشخصيات . وبناء عليه يجب أن تقوم الصحف من الآن فصاعدا في شكل شركات مساهمة ، وأن يعتبر مديروها كما يعتبر محرروها مسؤولين عما يظهر في الجريدة

وقد كانت الحملات الصحفية القاذفة تعرقل كثيرا من أعمال الحكومات ، وكانت الحكومات المختلفة تفكر في إصدار مثل هذا القانون منذ زمن طويل ، ولكنها تتراجع دائماً ، حتى جاءت الحكومة الاشتراكية ووقعت حادثة مسيو سالنجرو . ومن الغريب أن تكون الحكومة الاشتراكية هي التي اضطلعت بأصدار مثل هذا القانون المقيد للحرية ، ولكنها في الواقع أصدرته لحاجة ماسة . ذلك أن الاسراف في نشر الأنباء الكاذبة والحملات القاذفة قد وصل الى حدود لا يمكن احتمالها ، وكثرت الصحف القاذفة التي تعيش من الطعن في الأشخاص والجماعات ؛ والقذف معاقب عليه في القانون الفرنسي دائما ، ولكن القانون الجديد يعتبر القذف واقعاً في جميع الأحوال إذا كان يمس الهيئات الرسمية أو الأشخاص الذين تشير اليهم المادة ٣٥ من قانون سنة ١٨٨١ ؛ وقد نص في القانون الجديد على تقصير الاجراءات حتى يقع العقاب المنشود بالقاذفين بسرعة ، ونص فيه على عقوبات مالية فادحة إلى جانب العقوبات المقيدة للحرية وما نص عليه من تعطيل الصحيفة . وقد أثيرت حول القانون الجديد اعتراضات كثيرة أهمها أنه لا يمكن إجراء الرقابة المالية المنشودة دون الاضرار بكثير من الصحف النزيهة المخلصة وعرقلة تقدمها ، وإنه يخشى أن تعمد الهيئات التي تستتر وراء الصحف القاذفة الى تزويدها برجال من قش يحكم عليهم دون أن ينال هذه الهيئات شيئاً ودون أن تقطع معونتها عن الصحيفة المحكوم عليها . ثم إنهم يخشون جداً من عدم استقلال القضاء الفرنسي وميله مع الاتجاهات السياسية . بيد أن الحكومة الاشتراكية تتمتع في إصدار هذا القانون بكثرة من كل أولئك الذين يقدرون قيمة النزاهة والاخلاص والتعفف عن المطاعن القاذفة في صناعة القلم التي يجب أن ترتفع عن الاستغلال في الخصومات الدنيئة

كارل فون أوستيسكي أيضاً

بسطنا في العدد الماضي قصة كارل فون أوستيسكي الكاتب الألماني الكبير الذي فاز بجائزة نوبل للسلام عن سنة ١٩٣٥ ، والذي اعتبرت الحكومة الألمانية فوزه بهذا الشرف تحدياً لها لأنها تعتبره خائناً ، لما كان يكتبه من مقالات في الدعوة إلى السلام ونزع السلاح ؛ وقد أرادت أن تعتقله منذ سنة ١٩٣٣ ، ولكنها اضطرت إزاء اشتداد العطف الدولي عليه أن تطلق

سراحه، فغادر المستشفى مريضاً منهوكا حيث يعالج الآن . وقد اطلعنا أخيراً في جريدة « بازلر ناخرختن » السويسرية على حديث جرى لمكاتبها البرليني مع هذا الكاتب الشهير بأذن السلطات الألمانية، خلاصته أن فون أوستيسكي حينما نقل إليه خبر فوزه أبرق إلى الأكاديمية السويدية بقبول الجائزة، وبأنه سيأتي بنفسه إلى استوكهلم ليلقي خطبة القبول؛ بيد أنه سيحاول جهد استطاعته أن يكون واسطة لتحسين العلائق بين ألمانيا والسويد . ويصرح فون أوستيسكي بأنه ما زال على عقيدته السلمية يدعو إلى تفهم الأمم، وأن الدعوة إلى السلم إنما هي في مصلحة وطنه، وأنها تتجه إلى جميع الأمم التي تبالغ في التسليح مثل روسيا السوفيتية؛ وأنه حين يغادر ألمانيا لن يعود إليها بعد . على أنه لا يريد قط أن يكون فوزه بجائزة السلام مدعاة لمظاهرة سياسية؛ وأنه يأسف كل الأسف إذ كان فوزه بهذه الجائزة مثاراً للمناقشة بين السويد وألمانيا . ويأسف بنوع خاص لأنه كان موضع حملة من الشاعر النرويجي الكبير كنود هامبسون

والظاهر أن الحكومة الألمانية قد اقتنعت أخيراً باطلاق سراح الكاتب الكبير نهائياً، ورأت أن ليس في صالحها أن يطول أمد اعتقاله؛ وقد كان الكاتب عند وطنيته وإخلاصه لوطنه على رغم ما لحقه من صنوف الأذى طيلة هذه الأعوام

نقل الآداب الأوربية الى الأدب العربي

ذكرنا من قبل في إحدى افتتاحيات (الرسالة) أن لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أعدت مشروعا لنقل الآداب الغربية الى الأدب العربي؛ ويسرنا أن نذكر اليوم أن وزارة المعارف العمومية قابلت هذا المشروع بما يستحقه من التقدير والعناية، فقررت أن تساعد اللجنة على تحقيقه بخمسمائة جنيه في ميزانية هذا العام، تزيدها إلى ألف جنيه في ميزانية العام المقبل (على أن يشرف على هذا المشروع لجنة من حضرات الأساتذة الدكتور طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين مع الاستعانة بالعناصر الأجنبية للارشاد عن خير المنتجات الأوربية في اللغات الثلاث: الانجليزية والفرنسية والألمانية) . وبعد عطلة العيد ستجتمع اللجنة لتنتخب الأساتذة الذين يناط بهم تنفيذ هذا العمل الخطير تمهيداً للسير فيه

وفاة لويجي بيراندللو

توفي في صباح يوم الخميس الماضي الكاتب الايطالي لويجي بيراندللو على أثر إصابته بالتهاب الرئة . وهو زعيم الأدب المسرحي في إيطاليا من غير منازع، وصاحب المذهب الفني المعروف بمذهب الفكاهة humorisme أو Pirandillisme نسبة إليه .

وقد ولد في أجريجانتي بجزيرة صقلية في سنة ١٨٦٧ ودرس الأدب في روما ثم سافر إلى ألمانيا فحصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة (بُن) . ولما رجع إلى بلاده عين أستاذاً في المدرسة العليا للبنات فظل فيها من عام ١٨٩٧ إلى عام ١٩٢١، وكان في خلال ذلك يؤلف القصص والروايات وينشرها حتى بلغ إنتاجه أربعمائة أقصوصة وعشر قصص وثلاثين رواية . وفي سنة ١٩٣٤ نال جائزة نوبل للآداب، وبهذه المناسبة نشرت « الرسالة » عنه فصلاً تحليلياً ضافياً في عددها الرابع والسبعين فارجع اليه إن شئت المزيد

كلمة حول زارا وتحقيق نسبته

كتاب « زارا تسترا » للفيلسوف الشاعر الألماني « فردريك نيتشه » الذي تنشر ترجمته (الرسالة) من المؤلفات الذائعة الصيت في عالم الثقافة الغربية، ويُعَدُّ هذا الكتاب بل « الديوان » أعظم أثر شعري في العصر الحديث . وقد قيل فيه إنه لم ينتج شاعر في العصر الحديث أثراً يضارع ماحوته دفتا هذا الكتاب! وحسبك أن تعلم أن الموسيقي الألماني الشهير « ريشارد شتراوس » قد لحنه موسيقياً

وبلغ من تأثير هذا الكتاب أن عُدَّ مسؤولا إلى حد كبير عن إذكاء تلك الروح التي حفزت الشباب الألماني ودفعته إلى خوض غمار الحرب الكبرى، ولم يقتصر أثر هذا الكتاب على كثير من عقول مفكري الغرب، بل تناول كثيرين من مفكري الشرق . فالشاعر الهندي الفيلسوف محمد إقبال قد تأثر به إلى حد كبير تحسه في كتبه « أسرار الذاتية[1] » و « أسرار اللاذاتية » . . . وما دعوة الجهاد الاسلامي التي يريد إحياءها « إقبال » ولا يفتأ يرددها ويدعو اليها إلا أثر من آراء نيتشه وفلسفته في تمجيد القوة والدعوة إلى « السوبرمان »

وجبران خليل جبران الشاعر اللبناني ينهج في كتابه « النبي »

(١) را[illegible] في الطبعة الانجليزية

الكتب

كتاب باب القمر

تأليف الأستاذ ابراهيم رمزي

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

ماذا أسميه ؟ أأسميه قصة ؟ إننى إن فعلت فان أعدو الحقيقة إذ هو فى الواقع قصة فيها ما فى القصص عادة من مداخل الخيال وطلاوته . ففيها لمياء ابنة الحارث بن كلدة ، تلك الصورة الحية الناطقة التى لا يسع قارىء القصة إلا أن يتمثلها ويحس ما تحسه من أشجان . فتاة عربيـة رومية تجمع ثقافة الاغريق وصفاء نفس العرب ، وتتمثل فيها فضائل المدنية وفضائل البداوة جنباً الى جنب . وفيها ورقة ابن المغيفة ، ذلك الفتى العربى النبيل الذى يتقلب فى بلاد العرب وفيما حولها حتى ينتهى به التجوال الى الاسكندرية فيصبح فيها أمين الحاكم وكبير حراسه . وهذان هما الشخصان اللذان قد حيكت حولهما حوادث القصة على ما ألف الناس فى القصص من دوافع العواطف الشريفة وخوالج النفوس المضطرمة ؛ على أننى لا أملك إلا أن أعقب على هـذا القول لأحدد منه . فان هذا الكتاب ليس على ما يفهم من القصة المحض ، فان المؤلف قد جمل الى سداه القصصى لحمة من التاريخ المصفى الذى لا يخطىء القارىء إذا اعتمد عليه ووثق من حقائقه ، فهو يصور حال بلاد العرب فى أول أيام البعثـة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السـلام ، فابتدأ فى نجران وصور ما كانت عليه حال تلك المدينة القديمة ومكان الأسقف المسيحى منها ؛ ثم هبط اليمن مع قوافل التجار التى تيمم الشمال فى رحلاتها المنتظمة حتى بلغ معها بلاد الحجاز فصور مكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أوائل سنى البعثة وصور صحابته تصويراً لا أظن ريشة المصور تبدع خيراً منه ، كما صور أعداءه وشتى وسائل عداوتهم له الى حصارهم إياه فى الشعب على ما هو معروف فى كتب السيرة ؛ وعبر بعد ذلك الى الشام فعرض صورة لدولة الروم وهى تناضل الفرس

نهجاً يشابه طريقة الفيلسوف الألمانى ، وهو إن خالفه فى الروح والمبادىء فانه يشابهه فى الأسـلوب وطريقة الأداء التى يتميز بها كتاب « زارا تسترا » ، وقد تبوأ هذا الـكتاب مكانه فى التفكير الغربى كأنجيل جـديد يبشر بمذهب جديد فى الحياة وغايتها على الأرض ، مذهب هو أقرب الى الدعوات الدينية منه الى المذاهب الفكرية الفلسفية

وقد دعانى الى كتابة هذه الـكلمة ما رأيته من خلاف فى نسبة « زارا » . على أن كل المصادر مجمعة على نسبته الى Zoroaster ، ولـكن الخلاف هو فى تفسير Zoroastre هذا ؛ فالمستر « Rhys » فى مقدمة الترجمة الانجليزية طبعة (Everymein's Libray) يشير الى أنه زرادشت صاحب الديانة الفارسـية القديمة ، وهكذا أيضاً تفسره دائرة المعارف الفرنسية « La Grande » ، وأما دائرة المعارف البريطانية فلم أجد بها ما يفسره

على أنه توجـد طبعة لترجمة إنجليزية أخرى بدار الـكتب المصرية بالقاهرة تفسر هذا الاسم بأنه لأحـد آلهة الاغريق القدماء يدعى Zoroaster ؛ ولست أدرى المصدر الذى استقى منه محرر مقدمة هذه الطبعة . على أن هذا الرأى كفيل بأن يسترعى منا كل عناية واعتبار ، لأنه من المعلوم أن نيتشه كان متضلعاً فى الثقافة الاغريقية ؛ ثم إنه يدين للاغريق بكثير من إنتاجه وفلسفته ؛ وتأثره بآلهة الاغريق عميق ولاسيما الآلـه ديونيزوس Dionysus إلـه الخمر ، وقد أسهب فى هـذه النقطة البروفسور ليشتنبرجر Leachetenberger فى كتابه عن نيتشه المسمى « إنجيل السوبرمان » The Gospel of Superman

فلا نستبعد أن يكون نيتشه قد نسب بطل كتابه إلى هذا الآلـه الاغريقى القـديم اعترافاً منه بفضل الثقافة الاغريقية وتمجيداً لها . وهذا موضوع من الفائدة بمكان لو تبارت فيه عقول المحققين لتجلو غامضه وتظهر حقيقته ؛ وإنه لخليق بمجلة البحث والفكر « الرسالة » الغراء .

(المنصورة) . محمد فهمى

ذلك النضال الهائل الذى غلبت فيه فى أدنى الأرض ، وعرض بعدها صورة ثانية لمصر والاسكندرية وبين ما كان فيها من اضطراب وأحزاب الى أن دخلتها جيوش فارس بتدبير بعض الخونة مثل بطرس البحرينى المنافق

فصور القصة قد تدخلت فيها صور التاريخ تدخلا عجيبا كان من أثره أن جليت للعصر صفحة واضحة يكاد قارئهـا يحس أنه يحيا بين أهله ويتنفس فى جوهم

ولست بمستطيع فى هذه الكلمة الموجزة أن أذكر كل من جـلاهم ذلك الكتاب القيم من شخصيات التاريخ ، فانك لا تكاد تجد اسما من الأسماء المعروفة فى هـذه الفترة لم يبرزه فى ناحية منه ويُصور له صورة حية ؛ ولكن شخصيتين من هذه الشخصيات كانتا مثلاً عالياً فى التصوير الأدبى ؛ ولعل المؤلف النابه قد قصد منهما أن يكونا رمزين للحزبين المتناضلين : حزب الرسول وحزب قريش ، ألا وهما حمزة بن عبد المطلب رمز المسلمين ، والنضر بن الحارث الطبيب رمز المكذبين من قريش . وأما أشخاص غير العرب فقد أبدع فى تصوير بعضهم إبداعا عظيما ، ومن هؤلاء بطرس البحرينى الذى قيـل إنه كان آلة الفرس فى فتح الاسكندرية بالخديعة والخيانة

وإذا كان المؤلف الفاضل قد جمع بين القصة والتاريخ هذا الجمع فانه لم يقع فى خطأ وقع فيه كثير من القصصيين ، وذلك هو الخلط بين الخيال والحقيقة وما يترتب على ذلك من تشويه لكليهما ، فانه حرص على أن تكون وقائع التاريخ كلها صحيحة ، وبالغ فى ذلك فجمل فى هامش القصة ذكر بعض المراجع وبعض فقرات الايضاح ، واحتاط عند ذكر ما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فما وقع منه فعلا نسبه إليه كما جاء فى كتب السيرة ، وأما ما كان فيه مدخل للخيال فقد قال فيه : « وإخاله قد فعل » . فهذا الكتاب حلقة مجيدة من سلسلة مجيدة ظهرت فى الأيام الأخيرة لبعض أعلام الأدب الحديث

وإنا إذا رأينا هذه النهضة المحمودة فى إيراد حوادث التاريخ على هذا الأسلوب كان علينا أن نبتهج ونغتبط وأن نشكر هؤلاء الأدباء الأعلام الذين يمهدون لجمهور القراء مثل هذا الغذاء العقلى السليم . ولا أظن أن فى استطاعة أحد أن يكافئ هؤلاء الأفاضل على ذلك المجهود الكبير ، اللهم إلا أن يكون رضاؤهم عن أنفسهم وشعورهم بأنهم قد أدوا للناس خدمة أدبية تفيد لغتهم الشريفة وتعمل على إعلاء نهضتهم المباركة . « فعلى هامش السيرة » للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين و (محمد) الأديب الكبير توفيق الحكيم و « باب القمر » للأديب الكبير إبراهيم رمزى ثلاثة أعلام يجدر بالعصر الحديث أن يفاخر بها

ولقد حاولت فى قراءتى لهذه القصة التاريخية أن أجد مأخذاً أدخله إلى مقالى حتى لا يكون كله صورة من الأعجاب الذى ملك على نفسى فلم أظفر من ذلك إلا برأى أظنه جديراً بأن يعرض ، وهو أن الاستطراد الكثير فى سياق القصة كان كثيراً ما يضيع شيئاً من تماسكها

وأمر آخر لمحته فى بعض المواضع وهو أن بعض القول كان على غير ما عليه الطبع . ومن ذلك أن سيدة كانت فى موقف حزن عميق إذ فقدت زوجها وولدها « تخنقهـا العبرات وتحدرت الدموع على خديها متداركة كقطرات السقاء المخاخل ، ولم يستطع ورقة (الذى كان فى موقف الصديق) أن يحبس دمعه لهذا المنظر المؤلم فبـكى لبكائها ثم تمالك نفسه يقول : هونى عليك يا سيدتى . لا تضعفى نفسك بهذا الوجد ، أنت شابة وسرية كما أرى ، وستشرق عليك شمس حياة طيبة جديدة يوم تعودين إلى الأسكندرية ، وسيكون لك أولاد وزوج يحبينه . إن الله واسع الرحمة . ما أرجو منك إلا أن تمضى أمور الدنيا أمامك كما تمضين الكتاب ، وتقرئى فستجدين فى هذا الكتاب مخطوطاً بقلم عريض كبير : لا تنظرى إلى الوراء : أنظرى إلى الأمام . إذا ورد عليك فكر مؤلم فرديه بيدك وسيرى الى الامام لتبانى ما تمـده الدنيا لشبابك وجمالك من النعمة والمتعـة التى تنسين بها كل ما مضى الخ » . وإننى لأظن أن هذا القول ما كان يلائم أن يقال فى مثل هذا الموقف ولا سيما من قائله (ورقة) . على أننى أرى مع ذلك أن مثل هذا النقد ناشئ من اختلاف فى النظر والتفكير ، وما ينبغى أن يتفق الناس فى مثل هذه الأمور كل الاتفاق

وأما لغة الكتاب فانها اللغة الجديرة بكاتب مجيد كابراهيم رمزى جمع إلى لباقة الفنان متانة الأديب

فرحباً بذلك الفتح الجديد فى الأدب العربى . وما أحرانا أن نهنئ الأديب الكبير بنجاحه الباهر فى قصته ، وأن نستنجزه الوعد الذى وعد به فى آخرها أن يتحفنا بباب الشمس بعد أن أمتعنا بباب القمر .

جاءنا من صديقنا الدكتور عبدالوهاب عزام نقد لكتاب (معجم الأدباء) فى طبعته الجديدة ، ومن الأستاذ الشيخ أحمد يوسف نجاتى الأستاذ بدار العلوم رد على نقد كتاب (نفح الطيب) فأرجأناهما مضطرين إلى العدد القادم

فى المسرح المصرى

الفرقة القومية المصرية
وسياسة اعداد المخرجين

لناقد الرسالة الفنى

تحدثنا فى العدد الماضى عن بعثات التمثيل إلى أوربا وانتخاب اللجنة لأربعة من الأعضاء؛ اثنين من الممثلين واثنين من غيرهم.

ونزيد اليوم أن أسماء هؤلاء الأعضاء قد أذيعت، وقد استولت الدهشة على كل المتصلين بالمسرح والذين يعنون بشؤونه، لأن اللجنة ترسل واحداً إلى انجلترا لدراسة المناظر المسرحية وتصميمها، وبقية الأعضاء إلى ألمانيا وفرنسا لدراسة فن الاخراج والتمثيل ولم ترسل أحداً إلى انجلترا فى حين أنها فى مستهل الموسم أذاعت على الممثلين أنها ترى أن ينهجوا على الطريقة الانجليزية فى أداء الأدوار لأنها أجدى على الفن؛ وهذا اعتراف صريح بما للمسرح الانجليزى من مكانة تفوق مكانة المسارح الأخرى

والثقافة الانجليزية هى الثقافة الغالبة والسائدة الآن ولا سيما بين الشبان منذ أصبحت الانجليزية اللغة الأوربية الأولى فى المدارس المصرية. والأدب المسرحى الانجليزى لا يقوم على العواطف والحب والصلات غير الشريفة كالأدب المسرحى الفرنسى، بل هو يعالج الشؤون الاجتماعية والدراسات النفسية والآراء الاصلاحية، ولذلك يحتاج إلى وسائل خاصة فى إخراج رواياته

ولست فى حاجة إلى القول بان المسرح الانجليزى يقوم على البساطة فى وسائله وطرق إخراجه، فقد رأينا فيما تعرضه الفرق الانجليزية على مسرح الأوبرا الملكية بالقاهرة شواهد عدة وهو فى هذا عكس المسرح الفرنسى الذى يقوم على الصناعة والمغالاة والتعقيد فى الاخراج. هذا إلى أن الاضاءة المسرحية فى انجلترا قد تقدمت حتى بزت جميع المسارح الأوربية. فأزاء هذا نرى من واجب اللجنة أن تبعث بأحد الممثلين الذين يجيدون الانجليزية إلى لندن ليدرس الفن هناك

وإنما طالبت بأن يكون المبعوث ممثلاً لا متعلماً أياً كان لأن الممثل أقدر من غيره على تفهم وسائل الاخراج والقيام بهذه المهمة فيما بعد، فان من الصعب على غير الممثل وهو يخرج رواية أن يرشد الممثلين إلى أداء الأدوار أداء صحيحاً أو رد أى ممثل إلى حدوده الشخصية إذا ما خرج أو شذ عنها

ولقد ازددنا دهشة حين لم نجد اسم الممثل الأستاذ أحمد علام بين أعضاء البعثة، فى تخطى اللجنة له الى غيره من الممثلين وغير الممثلين قسوة وإنكار لجهوده الطويلة ومواهبه العظيمة؛ فأعضاء اللجنة المحترمون أكثر من غيرهم معرفة بمكانته الأدبية وثقافته الانجليزية واطلاعه الواسع على فنون المسرح، ومكتبته عامرة بكتب الفن الانجليزية التى ازدحمت هوامشها بالملاحظات الجديرة بالتقدير، كما نعلم أن وزارة المعارف قد عهدت اليه بتدريس الفن المسرحى فى مدارسها الأميرية، فقام بالمهمة خير قيام، وهو كممثل من أقدر الممثلين، فأدواره فى رمسيس منذ عام ١٩٢٦ تشهد بنبوغه، فلا يستطيع إنسان أن ينكر أدواره فى روايات: الهب، والذئاب، والاغراء، وتوسكا، والشرف، وغرام الوحش؛ ولنجاحه المنقطع النظير فى فرقة السيدة فاطمة رشدى فى روايات: الحب المحرم، والبعث، ويوسف الصديق، ومجنون ليلى

ولقد أرسلته وزارة المعارف عام ١٩٣١ فى بعثة صيفية إلى انجلترا، فمن الواجب أن تعاونه اللجنة على إتمام دراسته، ولا أظن أن هنالك مجالا للاعتذار لأن فى بقائه تعزيزاً لقوة الفرقة القومية، فالواقع يؤيد أنها لا تنتفع به كما يجب فهو حتى اليوم لم يظهر على المسرح ولا ينتظر ظهوره حتى الرواية الرابعة، وعلى اللجنة ألا تنظر إلى المنفعة القريبة بل تنظر للمستقبل، وتعمل للبناء حتى يمكنها أن تجنى ثمار جهودها الكبيرة

هذه كلمة دفعنا اليها حبنا للمسرح نرجو أن يكون لها أثرها

يوسف

4 me Année, No. 181

Lundi - 21 - 12 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ شوال سنة ١٣٥٥ — ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

اللســـان المرقَّع ... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وقال صاحب سر (م) باشا : جاء « حضرة صاحب السعادة » فلان لزيارة الباشا ؛ وهو رجل مصرىّ وُلد فى بعض القُرى ، ما نعلم أن الله تعالى ميزه بجوهر غير الجوهر ، ولا طبع غير الطبع ، ولا تركيب غير التركيب ، ولا زاد فى دمه نقطة زهو ، ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَّين من الخليقة . غير أنه زار فرنسا ، وطاف بانجلترا ، وساح فى إيطاليا ، وعاج على ألمانيا ، ولوَّن نفسه ألواناً ، فهو مصرىّ ملوَّن . ومن ثم كان لا يرى فى بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحبها وعاصر فيها ، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها ، ولا تاريخُ قومه إلا مغمى عليه ... كالميت بين تواريخ الأمم

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين : مصرى المال فقط ، إذ كانت أسبابهم ومستَغَلاَّتهم فى مصر ؛ غربىُّ الاسم لا غير ،

(١) أذكرتنى مقالة الأستاذ الزيات (استغلال اللغة) بحديث من أحاديث صاحب سر (م) باشا كنت أرجأت نشره الى حين فها هو هذا

إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة ؛ مُسلِمٌ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذ كان لا حبة في أنسابهم التي انحدروا منها

هو كغيره من هؤلاء المترفين المتسمّين المفتونين بالمدنية ، لكل منهم جنسه المصريّ ولفكره جنس آخر

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التي تلغها العربية ، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطاً . . . نازلاً بها عن لغة السُّوقة نزولاً عالياً ... فكان يرتضخ لكنة أعجمية بينا هي في بعض الألفاظ جرسٌ عالٍ يطن ، إذا هي في لفظ آخر صوت مربض يئنّ ، إذا هي في كلة ثالثة نغم موسيقى رن . ورأيته يتكلف نسيان بعض الجمل العربيـة ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية ، لا تظرُّفاً ولا تملحاً ولا إظهاراً لقـدرة أوعلم ، ولـكن استجابة للشعور الأجنبي الخفي التمكن في نفسه . فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذِّب وطنيـة لسانه ، وهو باحداها زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائف على غير قومه

***

فلما انصرف الرجل قال الباشا : أفٍّ لهذا وأمثال هـذا ! أفٍ لهم ولمـا يصنعون ! إن هـذا الـكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة » ، ولأشرفُ منـه والله رجلٌ قرويٌّ ساذج يكون لقبه « حضرة صاحب الجاموسة » . . . . نعم إن الفلاح عندنا جاهلُ علم ، ولـكن هذا أقبح منه جهلاً فانه جاهلُ وطنية

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقّع) هذا ؟ إن عمله أن يعلن بطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مَهينة ، وأنه مُتجرد من الروح السياسي للغة قومه إذ لا يظهر الروح السياسي للغةٍ ما إلا في الحرص عليها وتقديمها على سواها

كان الواجبُ على مثل هـذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته ، وكان الذي هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها في أرضها ، فترك هـذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » لا يُنزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبي في حانة

أتدرى ما هو سر هؤلاء الـكبراء وهؤلاء السَّراة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة فأنهم يصنعون هـذا الصنيع منجذبين الى أصل راسخ في طباعهم ممـا تركه الظلم والاستبداد والحمق في زمن الحـكم التركى . فهم يُبدون جوهرَ نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغـة الأجنبية فيما بينهم علامة الحـكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق في الدم . . . . وهم بها يتنبّلون

وأما طبقة فانهم يتكلفون هـذا مما في نفوسهم من طباع أحدثها النفاقُ والخضوع والذلُّ السياسي في عهـد الاحتلال الانجليزى ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتداد ، كأنهم بها من غير الشعب المحـكوم الذى فقد السلطة وهم بها يتمجدون

وأما جماعة فأنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغـة طريقة انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه ؛ وفيهم العالم بعلوم أوربا والأديب بأدب أوربا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الاسلامى إذ جعل هذه اللغةَ حكومةً باقيةً في بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كلَّ واجباته . وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً إذ يغلون في مصريتهم غلواً قبيحاً ينتهى بهم إلى سفه الآراء وخفـة الأحلام وطيش النزعات فيما يتصل بالدين الاسلامى وآدابه ولغتـه . وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفُـه من حيث هو رقيعٌ ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا لمقتٌ (كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا)

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئةٌ رابعة تحوّل فيهم ذلك الخلط من الـكلام إلى طريقة نفسية في النفس ، فهم يُقحمون في كتابتهم وحـديثهم الـكلمات الأجنبية ويحسبون عملهم هذا تظرفاً ومعابثةً ومجوناً ، على أنه هو الذى يُظهِرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخى في نفوسهم ، وأماكن الفساد القومى في طبيعتهم ، وجهاتِ التحلل الدينى في اعتقادهم . هؤلاء يكتب أحدهم (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب ، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل في مكانها المغازلة ، (وسكانس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان ، وهكذا وهكذا : ولا والله أن تـكون المسافةُ بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم

وما برح التقليدُ السخيف لا يعرف له باباً يلج منه الى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ ابتُلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدِّها فى المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبَهم إذ كانت هى الأسهلَ علينا ، وهى الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها — تجدها هى علينا أصعبَ وأشدَّ لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شىء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا

***

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبرَ العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة . . .

(طنطا)

طور جديد
فى تاريخ أوربا السياسى
بقلم باحث دبلوماسى كبير

تجوز أوربا اليوم مرحلة فاصلة فى تاريخها القومى والسياسى . وقد ظهرت الأعراض الأولى لهذه المرحلة الجديدة فى التاريخ الأوربى عقب الحرب الكبرى ، إذ قامت عصبة الأمم لتحقق أمنية عالية ، ولتؤيد مبادئ السلام والتفاهم بين الأمم ، ولتحاول القضاء على الحرب كأداة للسياسة القومية ؛ وقد كان قيام العصبة وما تحمل من مبادئ ومثل جديدة فى السياسة الدولية ، وفى علائق الأمم ظاهرة جديدة فى تاريخ أوربا السياسى ؛ فقد كانت أوربا حتى الحرب الكبرى تمثل من الناحية العامة كتلة معنوية موحدة ، وكانت تأخذ بزعامة العالم القديم ، وتحاول دائماً أن تفرض عليه حضارتها وسلطانها السياسى ؛ وكانت أوربا تحتفظ باستقلالها المعنوى وسيادتها القديمة بين الشرق القديم وأممه من ناحية وبين العالم الجديد (أمريكا) وأممه من ناحية أخرى ؛ ولكن الحرب الكبرى أسفرت عن ظاهرة جديدة هى تراجع أوربا عن دعواها القديمة فى الاستئثار بزعامة العالم القديم ، وإفساحها المجال لزعامة أمة عظيمة ناهضة هى اليابان التى استطاعت فى الأعوام العشرة الأخيرة أن تقوض أسس النفوذ الأوربى فى الشرق الأقصى ، وشهدت أوربا لأول مرة تدخل العالم الجديد فى شؤونها الحيوية ؛ وقامت عصبة الأمم لتجمع أمم الشرق وكثيرا من أمم العالم الجديد مع أوربا فى صعيد واحد ؛ وبذلك نزلت أوربا أمام تطور الظروف والحوادث العالمية عن زعامتها القديمة واستئثارها القديم بالقيادة السياسية والمعنوية فى شؤون العالم

وهذا التطور فى موقف أوربا يرجع الى الثغرة العميقة التى أحدثتها الحرب الكبرى فى القومية الأوربية ؛ فقد خرجت أوربا من الحرب محطمة ناضبة الموارد ، وانقسمت إلى معسكرين كبيرين هما معسكر الغالبين ومعسكر المغلوبين ؛ واستأثر الفريق الظافر مدى حين بالزعامة فى توجيه الشؤون ، فأملى على المغلوب شروطه المرهقة ، وعمل على تمزيق الوحدات السياسية القديمة ، وإحياء قوميات ناشئة ليحقق بقيامها أغراضاً عسكرية وسياسية ؛ وبذلك مزقت أوربا نفسها ، واضطرمت الأحقاد القومية القديمة أضعاف ما كانت قبل الحرب ؛ وكان اضطرامها أشد فى الجبهة المغلوبة أو المغبونة ؛ ولم يلبث أن أسفر هذا الاضطرام عن النتيجة المحتومة ، أعنى الانفجار ؛ فقامت الفاشية فى ايطاليا ساخطة على هذه الزعامة وهذا الاستئثار فى استخلاص المغانم والأسلاب وفى توجيه الشؤون ، وأخذت تعمل على إنشاء قومية إيطالية حديثة ، تضطرم بمختلف الأطماع المشروعة وغير المشروعة ، وتسرف فى الحقد ، وفى الوعيد والتحدى ، وتمعن فى انتهاك النظريات والمبادئ القديمة المتعلقة بالحقوق والحريات الشعبية ، وتسخر من دعوة السلام ومن مبادئ العدالة الدولية . وقامت الاشتراكية الوطنية بعد ذلك فى ألمانيا ، وشعارها الانتصاف لألمانيا مما نزل بها من فروض مرهقة ، وتحريرها من الأغلال التى

طوق بها الغالب عنقها ، والارتفاع بها الى مكانتها القديمة فى معترك الحرب والسياسة ؛ ولكن الاشتراكية الوطنية ، عملت من ناحية أخرى على إذكاء الأحقاد القومية والجنسية ، بصورة لم يسمع بها ، وقد فاقت الفاشية فى عنف أساليبها ، وفى نزعاتها العسكرية والاعتدائية ، وفى سحق الحقوق والحريات الفردية ، وإنكار الحقوق العامة ، وفى تحدى كل مبادئ العدالة الدولية ، وعادت النظرية الألمانية القديمة « الحق هو القوة » فى أخطر صورها ؛ ولم تشهد أوربا منذ حرب الثلاثين ، والحروب الدينية موجة فى الاحقاد والنافسات القومية والجنسية أشد من تلك التى تثيرها اليوم الفاشية الايطالية والنازية الألمانية

تلك هى الظاهرة الأولى فى انحلال القومية الأوربية . وأما الظاهرة الثانية فهى معركة المبادىء التى تضطرم اليوم فى أوربا بصورة لم تشهدها منذ الثورة الفرنسية ؛ ولقد بدأت هذه المعركة قبل نهاية الحرب الكبرى ، حينما ظفرت البلشفية بتحطيم دولة القياصرة فى روسيا ، وأقامت مكانها جمهورية شيوعية تمثل سيادة الكتلة العاملة ؛ وكانت المعركة يومئذ واضحة محدودة المدى ؛ فقد كانت البلشفية فى ناحية ، وكانت أوربا كلها فى الناحية الأخرى تناضلها وترد غزوها ؛ بيد أن هذا النضال بين البلشفية والرأسمالية يغدو اليوم فى المحل الثانى بالنسبة لمعركة أشد وأبعد مدى تضطرم بها أرجاء القارة الأوربية ، تلك هى معركة الفاشية والديموقراطية ؛ فالفاشية أو بعبارة أخرى نظم الطغيان العنيف التى تحمل لواءها ايطاليا والمانيا ، تحاول أن تغزو الديموقراطية الأوربية وأن تصرعها ؛ والديموقراطية الأوربية تناضل عن كيانها بكل ما وسعت . وما زال حصن الديموقراطية فى غرب أوروبا : فى فرنسا وانكلترا ؛ بيد أنه يمكن أن يقال أيضا إن روسيا البلشفية تنحاز فى هذا الصراع الى جانب الديموقراطية ؛ وليس أدل على خطورة هذا الصراع ، مما نرى فى الحرب الأهلية الاسبانية من انتظام القوى الفاشستية والقوى الديموقراطية وجهاً لوجه ، واعتماد الأولى على معاونة ايطاليا والمانيا ، واعتماد الثانية على معاونة روسيا وفرنسا ، وظهور الحرب الاسبانية كأنها مظهر الصراع بين هاتين الجهتين الخصيمتين . فهذا الصراع المذهبى الذى يخرج اليوم من طور الجدل والنقاش ، الى طور النضال المادى ، يهز أسس القوميات الأوربية ويهددها بأروع الأخطار التى يمكن تصورها

وهنالك ظاهرة عامة ليست أقل خطورة وأثرا فى تطور تاريخ أوربا السياسى ، تلك هى انهيار المبادىء العامة التى يقوم عليها القانون الدولى ، وانهيار الضمانات القومية والدولية التى كانت تكفل احترامه وتطبيقه . ففى الأعوام الأخيرة رأينا بعض الدول الكبرى ، مثل اليابان وايطاليا وألمانيا ، تعمل على انتهاك المعاهدات والحقوق القومية والدولية بجرأة ترجع بالسياسة الدولية الى فوضى العصور الوسطى ؛ فاليابان تعتدى على منشوريا الصينية وتفتحها بالقوة المسلحة أمام سمع العالم وبصره ، وتتحدى عصبة الأمم ، ثم تغادرها لكى تطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية دون أى تدخل أو وازع ، وما زالت تتابع اعتداءها على الأراضى الصينية طبقاً لخطة منظمة ترمى الى بسط حمايتها المسلحة على هذه الامبراطورية الشاسعة ؛ وإيطاليا تحذو حذو اليابان ، فتنظم اعتداءها على الحبشة ، وتجرد أقوى وأحدث وحداتها على الشعب الحبشى الضعيف ، وتمطره وابلاً من القنابل الجوية والغازات الخانقة ، ثم تنتزع منه أرضه قسراً ، وتضمها الى إيطاليا ؛ وذلك على رغم كل العهود والمواثيق الدولية التى قطعتها على نفسها باحترام استقلال الحبشة ووحدتها الجغرافية ، ورغم ما اتخذته عصبة الأمم فى هذا الظرف من تقرير العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ؛ وهاهى ذى الفاشية تباهى اليوم بظفرها ، وتسخر جهاراً من عصبة الأمم ومن كل المعاهدات والمواثيق الدولية ، وهى على أهبة لتمزيق أى ميثاق وأية معاهدة لا تتفق مع أطماعها العسكرية والاستعمارية . وأما ألمانيا الهتلرية ، فقد خصت بضرباتها أعظم دستور دولى وضع لأوربا منذ معاهدة فينا ، ونعنى معاهدة الصلح أو معاهدة فرساى ، فنقضت جميع نصوصها العسكرية التى كانت تقيد حريتها فى التسليح ، والتى تتعلق بتحريم منطقة الرين ، ونقضت أخيراً نصوصها الخاصة بنظام الملاحة الدولية فى بعض الأنهار الألمانية ؛ ونقضت وثيقة دولية هامة أخرى هى ميثاق لوكارنو الذى عقد لتدعيم معاهدة فرساى وتأمين السلام فى الحدود الفرنسية الألمانية ؛ وحطمت ألمانيا بذلك آخر القيود العسكرية والسياسية التى فرضت عليها فى

معاهدة الصلح . ومهما قيل فى تبرير هذا النكث من جانب ألمانيا وكونها حملت عليه مضطرة لتقضى بذلك على الأغلال الظالمة التى فرضتها عليها معاهدة الصلح ، والانتصاف لسياستها القومية ، وكرامتها كدولة عظمى ، فانها بلا ريب قد عملت أكثر من أى دولة أخرى لتمزيق العهود والمواثيق الدولية ، ولتقويض أسس الثقة بين الأمم وإضعاف هيبة القانون الدولى ؛ ولا ريب أنها قد أعادت للعالم ذكرى اعتدائها على البلجيك فى سنة ١٩١٤ وذكرى نظريتها الشهيرة فى المعاهدات الدولية بأنها « قصاصات ورق » لا يعتد بها

فهذه الظواهر والظروف الخطيرة تهز اليوم أسس الدستور الدولى الذى عاشت القارة الأوربية فى ظله منذ معاهدة فينا ، — أعنى منذ قرن وربع — وتدفع بها إلى طريق جديد لم تتضح طوالعه بعد . بيد أن هنالك ما يدل على أن هذا المصير الذى تتهيأ أوربا لاستقباله سيكون هائلاً مروعا ؛ فالدول العظمى تستعد كلها لخوض أعظم معارك عرفها التاريخ ؛ والدول الصغرى ترتجف كلها فرقاً من المستقبل ، وتحسب لاعتداء القوة المسلحة أعظم حساب ؛ وهى لا تستطيع أن تعتمد على قوة المواثيق والضمانات الدولية كما كانت فى الماضى بعد الذى رأته من عبث بعض الدول العظمى بكل هذه المواثيق والضمانات ، ولكنها تزمع فى جميع الأحوال ألا تسقط دون دفاع : فالبلجيك وهولندة وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة وغيرها من الدول الصغيرة تجد فى تسليح نفسها بكل ما وسعت ، وبعضها مثل البلجيك وهولندة ينظر بمنتهى الجزع إلى مصير أملاكه الاستعمارية الواسعة ؛ على أن هذه الدول تندمج غالباً فى إحدى الجبهتين الأوربيتين اللتين تستعدان لخوض المعركة القادمة ، ومصيرها يتوقف على مصاير المعركة ذاتها

وقد فقدت أوربا القديمة زعامتها العالمية ، وفقدت حتى زمام سياستها الخاصة ؛ فاليوم نجد دولة أوربية عظمى هى ألمانيا تحالف دولة أسيوية عظمى هى اليابان ضد روسيا وضد الجبهة الأوربية التى تندمج فيها . وهذا تطور خطير فى سياسة أوربا التقليدية التى حرصت دائماً أن تواجه الشرق متحدة ؛ وهذه ظاهرة تعود بنا إلى القرن السادس عشر والسابع عشر حينما كانت فرنسا تستعين بمحالفة الدولة العثمانية على قتال خصومها الأوربيين ولا سيما أسبانيا ؛ وقد استطاعت أوربا أن تقضى على هذه الظاهرة ، وأن تقف طوال القرن التاسع عشر متحدة ضد الدولة العثمانية حتى انتهت بتمزيقها ؛ وفى الحرب الروسية اليابانية كانت أوربا كلها تتوجس شراً من انتصار اليابان ، ولو أن دولا أوربية كانت تتمنى ألا تنتصر روسيا انتصاراً يؤدى إلى تقوية سلطانها فى القارة ؛ ولما انتصرت اليابان ارتاعت أوربا ، وذاعت من ذلك الحين صيحة الخطر الأصفر ، واجتمعت أوربا على مقاومة الاستعمار اليابانى حتى كانت الحرب الكبرى فانضمت اليابان ألى الحلفاء ضد ألمانيا ، واستولت على أسلابها الاستعمارية فى الصين . أما اليوم فان ألمانيا تحالف اليابان ضد أوربا ، وتحدث بذلك ثغرة عميقة فى إجماع أوربا القديم ، وتجمع الشهوات العسكرية والاستعمارية بين الجنس الأصفر الذى اعتبر فيما مضى خطراً على أوربا ، وبين الجنس « الآرى » الذى تزعم ألمانيا الهتلرية أنه أفضل أجناس العالم

وأخيراً نجد العالم الجديد (أمريكا) يتأهب للأخذ بنصيبه فى توجيه سياسة القارة القديمة ؛ وقد دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، وعاونت على ظفرهم فى المعركة الحاسمة ، واشتركت فى شؤون أوربا مدى حين ، ولكنها انسحبت منها حينما تفاقمت الفوضى الدولية في أوربا ، وعادت إلى سياستها التقليدية من اعتزال الشؤون الأوربية ، بيد أنه يلوح لنا أن التحالف اليابانى الألمانى قد يحملها على العود الى الاشتراك فى السياسة الأوربية مرة أخرى ، والى محالفة الدول الغربية على العمل لمصالحها المشتركة فى الشرق الأقصى ، وهذا عامل خطير أيضاً فى إضعاف الطابع الأوربى للسياسة الدولية العامة

والخلاصة أن أوربا فقدت زعامتها السياسية والاجتماعية القديمة ، وأخذت تندمج شيئاً فشيئاً فى الوحدة العالمية الكبرى ؛ وقد فقدت فكرة الحضارة الأوربية ، وخصومة الشرق والغرب ، والتضامن الأوربى فى الشؤون الاستعمارية كثيراً من معانيها وأوضاعها القديمة التى كانت تسبغ على أوربا مكانة الزعامة والوحى والارشاد

(* * *)

سوء تفاهم

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كانت الساعة العاشرة حين خرجت السيارتان إلى الطريق العام — أو صعدتا إليه إذا أردت الدقة فان الأرض هناك، فى لبنان، قلما تكون مستوية — وكنت أقود إحداها ومعى فيها زوجتى وأبنائى، وفى الثانية أقارب لنا يقضون الصيف فى « ضهور الشوير » وقد مروا بنا فى بكفيا — حيث كنا نقضى الصيف — ليرافقونا إلى « الشاغور » حيث دعينا إلى الغداء عند أسرة صديقة لنا من يافا. وتوكلنا على الله وأخذنا الطريق إلى بيروت وكله من بكفيا انحدار وبعضه أوعر من بعض، ولكنى كنت قد ألفته وزايلنى الخوف من التواءاته وتعاريجه الحادة التى يثب عندها القلب إلى الحلق. وكان اليوم مشرقاً والمناظر على الجانبين مما ترتاح العين إليه وينشرح الصدر له، والطريق أحسن ما يكون نعومة وملاسة وإن كان مما يدير الرأس أحياناً أن يصوب المرء عينه من الجبل الأخضر من ناحية إلى الوادى العميق من الناحية الأخرى؛ وكان لا بد من العناية والحذر فى السير لشدة الانحدار وكثرة المنعرجات وازدحام الطريق بالصاعدين والنازلين فيه بالسيارات الخفيفة والثقيلة والضخمة والصغيرة، فكان البطء الذى اضطرنا إليه الحذار من أسباب المتعة، فاستطعنا أن نتملى بالمناظر التى حولنا وأن نتحدث كما نشاء ونجنب الصمت الذى تدعو إليه السرعة والذى لا يكون إلا ثقيلاً على المسافرين

واحتجنا أن نتزود من « البنزين » ولم يكن معنا إلا ورق مصرى، فقالت زوجتى وأنا أناول الرجل ورقة مصرية بجنيه وآخذ الباقى: « ماذا أعطاك؟ »

ففتحت لها كفى على ما فيه فأخذته وعدّته، ثم سألتنى: « كم أعطوك؟... إنى لا أفهم! »

قلت: « الجنيه المصرى يساوى ٣٩٤ قرشاً سورياً، وقد أخذوا حقهم وأعطونى حق وهو معك »

فقالت زوجتى والتفتت لأقاربنا « لست أفهم... لقد كان الجنيه يساوى ٣٩٧ قرشاً »

فقلت: « ولكن الفرنك ارتفع وارتفعت تبعاً له العملة السورية »

فقالت مستغربة: « ولكن لماذا أهمات أن تستبدل النقود المصرية قبل أن يهبط »

قلت وأنا أبتسم: « إنه لم يهبط بل ارتفع »

فقالت وهى تخلط: « كيف يكون ارتفع وهو قد هبط.. ألسنا نأخذ أقل »

فقالت قريبتنا: « تمام.. ٣٩٤ أقل من ٣٩٧ »

فقلت: « دعينى أشرح لك الأمر.. تصورى أن الفرنكات التى فى الدنيا كلها انقلبت تفاحاً »

فقالت زوجتى: « نعم »

قلت: « وتذهبين إلى السوق وتجدين التفاح كثيراً فتشترين الأقة بخمسة قروش »

قالت: « نعم »

قلت: « وفى أثناء الليل يرتفع التفاح »

فقالت قريبتنا: « كيف يرتفع »

قلت: « يقل.. هه.. يتعفن.. يسرق.. تصيبه آفة... يقل والسلام؛ فاذا ذهبت تشترين أخذت بالقروش الخمسة أقل من أقة »

فقالت قريبتنا: « يعنى أنه يهبط »

قلت: « يصعد »

قالت: « كيف يصعد وهو أقل؟ »

فقال زوجها: « اسمى.. أنا أفهمك المسألة... تعرفين مقياس الحرارة »

قالت: « بالطبع.. ماله؟ »

قال « لا شىء. تنظرين إليه يوماً فتجدين أن الرقم الذى يشير إليه ثلاثون؟ »

قالت: « نعم »

قال « وفى اليوم الثانى تنظرين إليه فاذا الرقم قد صار ٢٨... ومعنى هذا أنها هبطت »

قالت: « نعم »

قال : « أما الفرنك فان المعنى يكون المكس »

قالت : « نعم »

قال : « هذا كل ما هنالك »

فنظرت اليه كالمذهولة وكنا نحن نضحك ؛ فقالت زوجتي وهي تجرها : اسمى ... إنهم يضحكون منا ويخيل إلى أن أسلم طريقة أن نقول إن الفرنك صمد كما فهمنا أنه هبط »

واستأنفنا السير وكنا قد ملنا عن طريق بيروت إلى طريق (عاليه) وفرغنا من الانحدار وبدأ الصعود والطريق في هذا الجبل أوسع وأرحب والتواؤه أقل حدة ، فأطلقنا للسيارتين العنان ، ولم تمنع السرعة زوجتي أن تتكلم فقالت : « إني أشعر أننا لن نجد زينب » تعني الصديقة التي دعتنا إلى الغداء . ففزعت وكادت عجلة القيادة تضطرب في يدي وقلت لهـا بصوت تشي لهجته بالقلق : « لماذا ؟ »

فلم تجب بل سألتني : « ماذا قلت لها بالتليفون .. بالضبط ؟ »

قلت : « قلنا كلاما كثيراً .. وألححت عليها أن تجيء لتتغدى معنا في بكفيا ولكنها أصرت إصراراً شديداً على أن نذهب إلى الشاغور .. وأذكر تماماً وبغاية الوضوح أنها وصفت لي عين الماء التي هناك »

فأشارت إلى بكفها أن اسكت وقالت : « ماذا قلت لها بالضبط . هـذا ما أريد أن أعرفه فلا تغرقه في طوفان من الوصف الذي لا يفيد شيئاً ... وإذا كنت تريد أن تصف الشاغور فانتظر حتى تراه »

قلت : « ماذا قلت بالضبط ..؟ ياله من سؤال .. اتفقنا على اليوم .. وأؤكد لك أني لم أترك عندها أي شك فيه .. صرخت حتى بح صوتي .. قلته بالعربية .. وقلته بالفرنسية Samedi »

فصاحت زوجتي Samedi ؟

قلت : « بأعلى من هذا الصوت »

قالت : « هل قلت Samedi .. هذا معناه السبت لا الأحد »

فتداركت الخطأ وقلت وأنا مضطرب « لا لا لا لا بل قلت Dimanche »

وجرى ببالي أني لا أزال أغلط في أسماء الأيام باللغة الفرنسية ولـكني كافحت هذا الخاطر حتى نفيته وطردته وقلت لها : « وهبيني أخطأت فقد قلت لها بالانجليزية Sunday ولا يمكن أن أغلط في هذا »

قالت : « سنرى »

فقلت وأنا محنق : « سنرى .. ألا يمكن أن أتكلم بالتليفون من غير أن تتهميني بالتخليط ... هل هـذا التليفون معجز ..؟ سبحان الله العظيم ! »

قالت : « طيب اسكت بقى »

* * *

فسكت . ووصلنا الشاغور ودخلنا الفندق وسألنا عن السيدة وزوجها فقيل لنا إنهـا خرجت معه في الصباح الباكر وإنهما قالا إنهما سيرجعان بعد المغرب ؛ فنظرت إليّ زوجتي نظرة ذات معنى ، ولم تـكفها النظرة بل راحت تقص الحكاية على أقاربنا باسلوب وكلام لا يدعان أي شك في أني حمار من أطول الحمير آذانا وأنا ساكت ، لأن كل شيء كان يثبت أنها هي الصادقة وأنا الـكاذب أو على الأقل المخطيء . ولا أحتاج أن أقول إني اضطررت أن أطعم كل هذا الجيش على حسابي . ولـكن اليوم كان على الرغم من هذه الخسارة الفادحة ممتعاً وكان أحلى ما فيه أننا نمنا على الأرض بعد الغداء الباهظ التكاليف بجانب المـاء الذي يتدفق كالشلال من المعين وهو يرغى ويزبد ثم يتحدر في أقنية ضيقة محفورة له تتخلل الحديقة الواسعة

ولمـا آن أن نعود تركت هذه الرقعة لصديقنا وزوجته :

« لا شك أن النسيان أرخص . ولـكنه كلفني ما أخشى أن أحسبه ، فقد جئنا إليكما من غير أن ننظر فنجو تما أنتما ووقعت أنا في الفخ ؛ وصدق مرة أخرى أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها . على أن هذا هين وإنما الذي يضيق صدري به ولا أكاد أقوى على احتماله أن زوجتي تحملني التبعة عن هربكم ، وإذا كنت لا أطمع في أن تردوا إلى ما أنفقته على إشباع هذه البطون الجائعة كلها ، فأني أطمع أن تردوا ثقة الزوجة بي وذلك بأن تعترفوا بأنـكم هربتم »

* * *

ولم نـكد نبلغ بيتنا حتى وقفت الصانعة — كما يسمون الخادمة في لبنان — وقالت لنا : إن السيدة زينب وزوجها كانا

في الأدب المقارن

غرض الأدب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

التعبير عن خوالج النفس الانسانية وتأثراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعاً ومن بينها الأدب. ولا يرقى الأدب إلى مرتبة الفن السامي حتى يكون ذلك التعبير عن المشاعر النفسية غرضه الوحيد، منزهاً عن كل غرض خارجي أو مطلب مادي؛ فاذا خالطه شيء من ذلك هبط إلى مرتبة الصناعة، ولم يعد له في النفوس ذلك الوقع المطرب الذى تتركه فيها الفنون الجميلة

وقد ظل التعبير الحر الصادق عن نوازع النفس غرض الأدب الانجليزي الوحيد في أغلب عصوره، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشىء إلا الافصاح عما يشعر به أو يفكر فيه؛ فزخر الأدب في عصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار في مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس؛ وتناول بالتصوير والتحليل دخائل النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات، ولم يدع نحوله شاردة ولا واردة من نوازعهم وبوادرهم ومشاهداتهم وتأملاتهم إلا أثبتوها في منشآتهم وأبرزوها في روائع الصور

وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجي غاية الكثير مما نظمه الشعراء وسطره الكتاب في العربية، وحفل الأدب العربي بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها؛ وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار إليها، وإنما نذكر منها الوصايا المنسوبة إلى بعض فحول العربية، كذى الاصبع العدواني وعلى بن أبي طالب، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول: «إن من الناس ناساً ينقصونك إذا زدتهم، وتهون عليهم إذا أكرمتهم. ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره. فاذا عرفت أولئك بأعيانهم، فأبد لهم وجه المودة، وامنعهم موضع الخاصة، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرهم، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم»

غير أن في الأدب العربي بجانب ذلك آثاراً كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها، ولا الصدق شعارها، فهي لذلك لا ترقى إلى مرتبة الفن الجميل، ولا تؤثر في النفس تأثيره، وإنما هي أدنى إلى الصناعة؛ لها كالصناعة غرض مادي تؤديه وغاية خارجية تخدمها. ولا غرو كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين، ويعدون الأدب «صناعة» أو «آلة» «يتعاطاها» صاحبها، ولم يكن لكلمة «الفن» لديهم ما لها اليوم من المعنى السامي

بلغ الأدب العربي مرتبة الفن السامي في عصر الجاهلية، حين كان أشراف القبائل وحكماؤها يودعون الشعر حكمتهم وأطرابهم وأحزانهم؛ فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقى الأدب في وجهته الصحيحة، بل عملت في غير ناحية على تقهقره وفقدانه ما كان له في الجاهلية من قوة وصدق وسمو، وهي سمات الفن الصحيح، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية، بل تقسيم آثار كل أديب مفرد، إلى قسمين: قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل في دائرة الفن السليم، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت إلى الصناعة ولا يمت إلى الفن

وأول تلك العوامل ذيوع التكسب بالشعر، فأنه جعل للشعر غرضاً سوى التعبير عن خوالج النفس الذى هو غرض

هنا ودفعت إلى ورقة فيها هذه العبارة الوجيزة:

«لا بأس! لعلكم نسيتم. والآن يجب أن تجيئوا أنتم إلينا. ولن نهرب منكم كما هربتم منا»

قرأتها وهممت أن أدسها في جيبي ولكن زوجتي سألتني ماذا فيها؟ فقلت إنهما يعترفان بخطئهما، ودفعت إليها الرقعة وذهبت أعدو.. وكيف أقنعها بأن الذى وقع خطأ غير مقصود.. كلا. لا فائدة. والهرب أحجى وأرشد... حتى تهدأ الفورة

إبراهيم عبد القادر المازني

الفنون جميعاً ، وصـير له غاية مادية هي صلة الممدوح التي قامت مقام الحافز النفسي والشعور الصادق ، فسارع إلى الشعر الـكذب والمبالغـة ، وهبط عن مرتبة الفن السامي وصار صناعة تمارس ويبرز فيها ذوو اللباقة والمهارة ، لا أصحاب العبقرية والنفوس الـكبيرة ؛ وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر ، لأنه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكمين

وثاني العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد ، التي سرعان ماتمكنت من الأدب العربي ، حين أشفق العرب على أدبهم ولغتهم ودمائهم ممـا اجتاحها من هجنة الأعاجم الداخلين في دينهم ولسانهم ومجتمعهم ؛ أدى ذلك إلى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل العظيم لأشكال الأدب وصوره في عهدهم ، والاعجاب المطلق بأشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة ؛ وتمادى الشعراء فقلدوهم في وعورة الألفاظ أحياناً ، وفي المعاني وضرب الأمثال والاستهلال بالنسيب ، وتمادى الـكتاب فأنحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباساً وتضميناً ؛ وفي مثل هـذا الجو من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذي يصدر عن صادق الشعور ، ولا يسود إلا الصناعة التي تتكلف الألفاظ وتتعمل المعاني

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربي غيره من الآداب ، فهو قد أهمل الأدب اليوناني ولم يتأثر بالأدب الفارسي ، إلا قليلاً عن غير قصد ، واتصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسي لدوام رقيه في معارج الفن السليم ، لأن ذلك الاتصال يدخل في الأدب صادق النظرات والأفـكار ، التي تشترك فيها الانسانية جمعاء على اختلاف المشارب واللغات ، دون التفات إلى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعاني ، التي لا تمت إلى الطبع السليم بصلة ، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب . واعتزال الأدب غيره ينحرف به شيئاً فشيئاً عن وجهة الفن القويمة ، ويميل به إلى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة

ولـما كان الـكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان : إرضاء صاحب السلطان الذي تسخر له الأقلام ، وإرضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولاً ، لم يسعهما إلا الاقلاع عن محاولة التعبير عن شـعورهما الصادق ، والالتجاء إلى محاولة إظهار البراعة ليرضيا الفريقين ، فصارت البراعة — لا صدق التعبير عن الشعور — هي غاية الأديب . فالبحتري وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريري وأضرابهم ، قلما نظموا أو نثروا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تعتلج في نفوسهم ولا يستطيعون لها حبساً ، وإنما كان إبداء البراعة وطلب الاعجاب وتحري الاغراب ديدنهم في معظم ما أنشأوا ، وكتاباتهم لذلك — حتى حين يجيدون — فاترة الشعور باردة الوقع لا تنفذ إلى القلب ولا تهز النفس ، ربمـا أوحت إلى المطالع أن أصحابها بارعون ، ولـكن قلما توحي إليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة

ولـما جهد الأدباء في تقليد معاني الأقدمين ومناحيهم ، واختراع أوصاف الممدوحين ومحامدهم ، حتى لم يَعُد في مجال المعاني متسع لتكلف ، التفتوا إلى الألفاظ يطالبون في مجالها السبق والبراعة ، ففشت المحسنات اللفظية ، فـكانت انحرافاً جديداً للأدب عن جادة الفن القويم ؛ وشغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صدق الشعور وصدق التعبير ، وركبت الصناعة الأدب من ناحيتيه : ناحيتي المعنى واللفظ

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر : فأقحموا في الأدب ما تقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها ، كعلوم النجوم والـكلام والنحو والمنطق ، فتجات البراعة فيما أنشأوه من ذلك ولـكنه فقد دبيب الحياة ، فمن تقليد قضايا المنطق قول المتنبي :

تقولين ما في الناس مثلك عاشق   جِدِى مثل من أحببته تجدى مثلى

وقول الشاب الظريف :

رمى فأصاب قلبي باجتهاد   صدقتم : كل مجتهد مصيب

ومن استخدام مصطلحات النحو قوله :

لأي شيء كسرت قلبي   وما التقى فيه ساكنان ؟

ووقر في نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة ، وليس مظهراً لأحاسيس النفس ولا مستودعاً لخوالجها . فاذا أعوزهم ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغات ، طلبوا البراعة واصـطنعوا التظرف بوصف أمر تافه ، كحمل هزيل أو قدح خمر أو محبرة أو يراع ، الى غير ذلك مما لا خطر له في ذاته ، ولـكنه يمنح الفرصة لطلاب البراعة ليُظهروا لطافة بديهتهم وحسـن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوي . وكثيرا

ما كانوا يتبادلون ذلك فى الرسائل الاخوانية ، والكتب التى يستهدون فيها الخمور والأقداح والمزاهر والقيان

ولأصدار الأدباء فى كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة : فيمدح أحدهم الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم ، فأن خاف بطشه عاد مستغفرا متزلفا يقول كما قال الأعشى :

سأمحو بمدح فيك إذ أنا صادق كتاب هجاء سار إذ أنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن ، أو بمدح الشيء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه ، كما فعل الحريرى حيث جعل أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر ، ثم يذمه بأخرى حين اقترح عليه بعض الحضور أن « يذمه ثم يضمه » ، ويدّعى المتنبى الغرام والصبابة والنحول فى مطالع أماديحه ، فاذا أفصح عن صادق شعوره وميوله قال إن المجد ليس زقا وقينة ، وأن للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة ، وأنه يرى جسمه يكسى شفوفا تربُّه ، وقال :

ومن خبر الغوانى فالغوانى ضياء فى بواطنه ظلام

وجاء النقاد فأقروا الشعراء على هذا التناقض ، وأباحوهم ضروب اللغو والهذر ، وأخذوا تلفيقاتهم فى قصائد المديح مأخذ الجد ، وأضاعوا وقتهم ومنطقهم وحججهم فى الموازنة والمفاضلة بينها ، وفضلوا شاعرا على شاعر ، لا لصدق شاعريته وصدق فهمه للحياة ، ولكن لبراعته فى احتيال الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه . فقدامة بن جعفر مثلا يقدم الأعشى فى قوله فى ممدوحه :

وإذا تجيء كتيبة ملمومة شهباء يخشى الراهدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جُنة بالسيف تضرب مُعْلَما أبطالها

على كثير لقوله فى ممدوحه :

على ابن أبى العاصى دِلاص حصينة أجاد المُسَرَّى نسجها وأذالها
يود ضعيف القوم حمل قتيرها ويستظلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى غير مدرع ، والثانى وصف صاحبه بالتحصن وراء الدروع الثقيلة . يفاضل قدامة بينهما بصرف النظر صرفا تاما عما إذا كان المعنى المذكور فى كل حالة صحيحا ، فالمسألة لا تتعلق لديه بالتزام الصدق ، بل البراعة فى الاختراع والمبالغة وتهويل أمر الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة أو مزعومة ، ممكنة أو مستحيلة

وبهذا القياس المجحف الذى لا يقيم اعتباراً لصدق الشعور والتعبير ، بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة والإباقة والخفة والاحتيال ، قاس كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم .

بل إن النقاد صرفوا جل اهتمامهم إلى ذلك الضرب الصناعى من الأدب الذى قوامه التعمل والاختراع ، وعماده الأقيسة المنطقية ، بل المغالطات المنطقية ، وأهملوا الضرب الصادق الذى يُترجم عن شعور الأدب الصحيح . فاذا رأوا أثراً من هذا القبيل مروا به كراما ولم يروه أهلا للنقد والتحليل ، لأنهم يرونه بسيطا عاديا غير محتو على براعة لفظية أو معنوية . والأدب كان فى نظر كثير منهم صناعة لا فناً . وقد سمى أحدهم وهو أبو هلال العسكرى كتابه فى أصول الشعر والنثر : « كتاب الصناعتين »

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات ؛ فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات ، لأنها كانت فى أكثر الأحيان تخدم أغراضاً مادية خارج ذاتها ، وكانت تنتج نتاجها فى ظلال الملوك والكبراء الذين يسخرونها لأبهتهم ومتعتهم ، ولم تنل من الاستقلال الفنى والغرض الذاتى مالها اليوم . ومن ثم ظل الفنان الأخيران دائما فى حالة بدائية لم يتعدياها الى أطوار الفن السامية

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير فى ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء ، كما حدث فى عهد النهضة الايطالية التى أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنسى وعشرات من أمثالهم ، أما الأدب فهو أشد احتياجا إلى الحرية وأسرع انحطاطا وركودا فى ظلال الاستبداد ، فأن الملكية المستبدة إذا سخرته لأغراضها وسيرته فى ركابها حملته على إخفات الحق وإغفال الصدق ونسيان رسالته ؛ ولهذا ازدهر الأدب فى انجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التى اقتبسها الانجليز عن أهل القارة ، حتى بارى الانجليز غيرهم فى الآداب وبذوهم ؛ فقد ألفى الأدب فى انجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألفى فى غيرها . ولنفس السبب ازدهر الأدب فى المدن الأغريقية ، على حين كان رقيه فى روما الملكية قصير العمر

لم يسخّر الأدب الانجليزى نفسه لتمليق الأمراء والكبراء، كما سخّر الأدب العربى نفسه، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح، وإن كان بعض رجاله — منذ عهد شكسبير — قد تزلفوا إلى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب، ولو بتضحية رضى الفن أحياناً. على أن ذلك قلما كان؛ وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطيته، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتساموون عن الفضول؛ وانقسم الكتاب إلى فريق محافظ على سمو الأدب، فهم عماد الأدب السامى، وفريق ينشد إقبال العامة باللغو والهراء. ولم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض

كذلك ربأ بالأدب الانجليزى أن تركبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح، دوام تبصر رجاله فى الآداب الكلاسية والأوربية المعاصرة، فكان معين تلك الآداب يجرى فى شرايينه من آن لآخر، فيجرد ما فَتَرَ فيها من دفعة الحياة، فكلما مر الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة الفن الصحيح — كذلك الذى مر به فى بعض القرن الثامن عشر — شعر الأدباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى، فانتشلوه من وهدته

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الانجليزى بصبغته الفنية، وحماه الهبوط إلى درك الصناعة الرخيصة، إطلاع فحوله على آثار الفنون الأخرى الراقية، من تصوير ونحت، تلك التى تشترك جميعاً فى غرضها الذى ذكر فى أول هذه الكلمة، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح، فكان للأدب دائماً من تلك الفنون أسوة، تهيب به أن يحيد عن جادته أو ينحرف عن غايته، أو يضل فى تيه التلفيقات المعنوية والزخارف اللفظية

وقد راج فى الأدب الانجليزى ضروب من القول قد يتبادر إلى الظن لأول وهلة أن الأديب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح ويطلق العنان للخيال والصناعة، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة التى يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ويصف عواطف غيره وتصرفاتهم، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقا ووفاء للحياة وحقائقها عن المؤلف فى غيرها، ولا هو يتجرد من ميوله، بل يخلع تلك الميول على أبطاله، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم؛ فكل بطل من أبطال شكسبير، كهملت وعطيل وليير، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة أو فكرات من أفكاره؛ والقصصى الانجليزى الذى يتحدث عن الآخرين فى كتاباته أصدق وأكثر إفصاحاً عن ذات نفسه من الشاعر العربى الذى يشبب بليلى ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه

ففى كلا الأدبين العربى والانجليزى ترى فى آثار الفحول دلائل الطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح، ولكن نظراً لتلك العوامل التى صاحبت الأدب العربى فأفشت الصناعة فى كثير منه، وهذه العوامل التى لازمت الأدب الانجليزى فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن، جاء الأدب الانجليزى أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربى، وكان التعبير الصادق عن النفس الانسانية غرضه دائماً، على حين زاحمت هذا الغرض فى الأدب العربى أغراض أخرى: كالصناعة وطلب البراعة والاغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين؟

فخرى أبو السعود

صخرة النجوى*

لالفرد دى ميسيه

« الحياة عذبة سائغة ولكن
عنـد من لا يعرفونها ... »

بقلم الأستاذ أحمد المحمود

وكان الليل جميلا رائعاً ، والقمر يصَّاعد متئداً على شمالى ، وقد اجتذب اليه نظر « بريجيت » طويلا وهو يخرج متسللا من الأسنان السوداء التى كانت الهضبات الحرِجة ترسمها على رقيع الأفق . ورقت أغنيـة « بريجيت » الشجية حينما أخذ القمر يتخلص من أسوجة الغابة الكثيفة وتتسذرّى أضواؤه فى الفضاء وعلى الجلَد ، فانحنت على تطوق رقبتى بذراعيها قائلة :

« لا تظن أننى لا أعلم قلبك ، وأننى أنتدب لك لايلامك إياى ؛ وليست الخطيئة خطيئتك إذا ضقت ذرعا يا صديقى العزيز بنسيان حياتك الماضية . ولقد أحببتنى وكنت مؤمنا بهذا الحب ولن أتأسف — إذا ما أسكت هواك نأمتى — على هذا اليوم الذى استسلمت لك فيه . واعتقدت أنك بُعثت الى الحياة ثانية وأنك ستنسى — بين ذراعى — ذكريات اللواتى أضمنَّك . واحسرتاه يا أكتاف ! لقـد تبسمت فيما مضى من هـذه التجاريب الباكرة التى كانت لك فى حياتك والتى كنت تدل بها على كالاطفال الذين لايدرون من أمور الحياة شيئا ، وحسبت أن ليس لى إلا أن أشاء ، وأن قد سيطفرُ كل ما فى قلبك من صلاح وخير على شفتيك للقبلة الأولى التى منحتك إياها ، وقد كنت أنتَ تحسبُ ذاك أيضاً ولكن كنا مخدوعين . أيهـا الطفل ! ... إنك تحمل فى قلبك جرحاً لا يندمل ، ويجب أن تكون قد أحببت هذه المرأة الخادعة الهاجرة حبا جما ؟ أجل ... وأكثر مما أحببتنى وإلى أبعد الحدود واحسرتاه ! ... لأننى لم أستطع — مع حبى الشديد البائس — أن أمحو من مخيلتك صورتها ! ويجب أن تكون خديعتها لك قاسية لأن أمانتى تبذل لك عبثاً ؟ والأخريات الشقيات ماذا فعلن لتسميم شبابك ؟ وهل كانت الملذات التى بعنها منك حادة ورهيبة لتطلب إلى أن أماثلهن وأتأرهن ! . . . وتذكرهن وأنت بجانبى ؟ ما أقساك أيها الطفل ! . . . ولأحبُّ للنفس وأثلج للفؤاد أن أراك ظالماً مغضباً ، وأن تنسب إلى الجرائم الوهميـة وأن تثأر منى للأذى الذى لحق بك من خليلتك الأولى من أن تطفر فى وجهك هذه المسرة الرهيبة وهذا المظهر الخليع الذى ينتصب حجاباً من الصلد الأصمّ بين شفتى وشفتيك . قل لى أكتاف ، لم هـذا الصقيعُ فى شفاهك ؟ ولم هذا التهكم والاحتقار يبينُ فى حركاتك وسكناتك ؟ وإنك لتسخر — بحزن شديد — حتى من أعذب صباباتنا ، وكيف استحوزت على أعصابك المهيجة هذه الحياة الماضية الرهيبة حتى تنثالَ من فك مثل هـذه الشتائم بالرغم منك ؟ أجل بالرغم منك لأن لك قلباً نبيلاً وتصطبغ خجلاً مما تفعل . أنت تحبنى كثيراً ويجب أن يُسمدك هذا الحبُّ لأننى آلم منه كما ترى . آه ! أعرفك الآن ! . . وعند ما وقع بصرى عليك لأول مرة وأنت على حالك هذه عرانى هول شديد لا شىء يعطيك صورة عنه . ولقد حسبتك ماجناً فى توددك إلى ، وأنك تحاول خدعى بسيماء هذا الحب الذى لم تـكن لتحس به ، وإنى أرى حقيقـة نفسك كما بدت لى لأول وهلة . أواه يا صديقى ! لقد فكرت فى الموت وأية ليلة نكراء قضيت ! أنت لاتعلم حياتى ولا تدرى أننى — أنا التى أخاطبك — قد خلصتُ من هـذه الحياة بتجربة هى أعذبُ من تجربتك وأحلى . واأسفاه ! الحياة عذبة سائغة ولـكن عند من لا يعرفونها

أى عزيزى أكتاف ! لست بالرجل الأول الذى أحب . إن فى أعماق هذا القلب ذكرى مشئومة راقدة أحب أن أطلعك عليها

أعدَّنى والدى منذ بكورى فى الحياة إلى ابن صديقه الأوحد ، وكانا جارين فى الدار والأرزاق ؛ وعاشت العائلتان على هذا النمط من الاختلاط والوحدة . مات أبى وتصرّم زمن طويل على فقدان أمى فانتقلت الى وصاية خالتى التى تعرفها ، وأزمعت خالتى سفراً فأسلمتنى إلى حمِىً الذى عشت فى كنفـه برهة من الزمن ،

(*) القطعة مترجمة عن كتاب «اعترافات ابن الجيل» لالفرد دى ميسيه طبعة لاروس فى القسم الثالث من الكتاب :

Confesions d,uu cufaut du Siécle

وكان يدعونى بابنته ، وكان الجيران يعرفون خطوبتى من ابنه ، فيتركون لنا الحرية التامة

تظاهر دوما هـذا الشاب الذى لا أدرى حاجة الى ذكره بمحبتى ، فقد كان صداقة ساذجة من أيام الطفولة تحولت الى حب وهيام مع الزمن . وكان يقص على عند ما نخلو ، أو نكتّنُ فى زاوية من البيت عن السعادة التى تنتظرنا وذهوب صبره ، وكان يكبرنى بسنـة واحدة ، ولـكنه تعرف الى رجل من الجيران سيء العيش محتكر للصناعة فوسوس له وأغواه ، وبينما كنت أستسلم إلى مداعباته بوداعة الطفل إذا به يغـدر بوالده ويتركنى بعد أن أضاعنى

أتى بنا والده إلى غرفته وأبلغنا موعد الزواج فلقينى فى مساء اليوم نفسه فى الحديقة ، وباح لى بقوة عما يكنه لى من الحب ، وأنه زوجى منذ الآن أمام الله ونفسه ما دام أن موعد الزواج قد تحدد . فلم أعتذر اليه بغير شبابى وجهلى وسذاجتى ، فاستسلمت اليه قبل أن يتم الاقتران الشرعى ، ولم تمض ثمانية أيام حتى غادر بيت أبيه وهرب مع امرأة قدمها له صديقه الجديد فكتب لنا أنه مسافر إلى ألمانيا ومنذ ذلك الحين لم نره

هذه هى قصة حياتى وقد عرفها زوجى كما تعرفها أنت الآن ، ولى من عزة نفسى وكبريائها ما أهاب بى إلى العزلة ، فآليت ألا أقرب من رجل يسبب لى ألما وضرًا أكثر ممـا لقيت فى سابق حياتى ؛ ورأيتك فنسيت قسمى ولـكن لم أنس جرحى ، فعليك أن ترأف بتضميده . وإذا كنت مريضاً فأنا مريضة أيضاً ، فيجب أن نتعهد نفسينا بالتداوى . وأنت ترى يا أكتاف أننى أعرف أيضاً قيمة الذكرى المـاضية التى ما تزال تقض مضجعى إلى جانبك ، ولـكنى سأتذرع بالشجاعة والصبر لأننى قاسيت أكثر مما قاسيتَ ، ومن حق البدء فى هذا العمل ، وإن قلبى لقليل الثقة بنفسه ، وأنا أضعفُ عن احتمال أكثر مما احتملت .

وكم كانت حياتى سعيدة فى القرية قبل قدومك اليها ! وما أكثر ما أخذت على نفسى ألا أغيّر من حالها شيئاً مما جعلنى أتطلّبُ منها ما لا تستطيع أداؤه ، ولـكن لتكن مشيئة القدر فأنا لك الآن : أو لم تقـل لى فى أوقات انبساطك بأن العناية الألـهية سخرتنى للحدب عليك كأم رؤوم ؟ الحق ماقلت ياصديقى العزيز . أنا لست خليلتك كل الأيام وأود أن أظفر بأكثر من هذا فى بعضها وأن أكون لك أماً حتى لا أرى فيك حبيباً يقسو على حبيبته . أواه يا أكتاف ! لقد أصبحت طفلاً مريضاً عاتياً متشكـكا ، أريد أن أمرضه بنفسى وأبعث فيه الرجل الذى أحب وأهوى حتى الأبد . فليمدنى الله بالقوة ! ... قالت ذلك ونظرت إلى السماء ضارعة : ربِّ يامن ترانا وتسمع نجوانا ! ياإلـه الأمهات والمحبين ، هب لى الحياة للقيام بهذا الواجب ! وإذا كان لى أن أخفق وأن تثور كبريائى أو أن ينحطم قلبى البائس بالرغم منى وأن حياتى كلها ...

ولم تتم الـكلام حتى غامت عيناها بالدموع فلم تعد تستطيع النطق . يا إلـهى ! . إنى أراها را كعة أمامى ويداها مضمومتان منحنيـة على الصخرة والهواء يموجها كما يموج حقول الخلنج المجاورة . يا لك من مخلوق ضعيف سام ! لقد صاتت من أجل حبها ثم أنهضتها بذراعى متمتما : « واصديقتى الوحيدة ! وا خليلتى وأمى وأختى !.. اضرعى إلى الله واطلبى منه أن يمدنى بالقدرة على حبك والاخلاص لك كما تستحقين . توسلى بأن يمد فى حياتى وأن يقدرنى على العيش وأن يغسل قلبى بدموعك وأن يجعله قربانا مقدساً نقياً نقتسمه أمام الله !... »

واستلقينا على الصخرة وغرق كل ما حولنا فى هدوء عميم وانبسطت السماء فوق رؤوسنا ألقـــة بالنجوم « أو تذكرين يابريجيت لقاءنا الأول ؟ »

حمداً لك اللهم ! ومنذ هاتيك الأمسية لم نعد إلى تلك الصخرة التى ظلت لنا قدساً طاهراً والطيف الأبيض الوحيد من حياتى الماضية ما يعبر من أمامى إلا ويفترق بصرى وعلاً حسى

(طرطوس) أحمد المحمود

قصــــة المـــكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

— ١ —

كل الناس متفقون على أن ولتر ريد Walter Reed ، رئيس بعثة الحمى الصفراء ، كان رجلاً ذا أدب جمّ ولطف كثير ، لا يُؤخذ بعلامة ، ولا يُعوِز ذمّتَه طُهْر ؛ وكان يألف الاعتدال فى أعماله ، ويجرى على المنطق فى تفكيره ؛ ولا شك أيضاً فى أنه قامر بحياة آدميّين فأقحمها المخاطر على علم فى سبيل أبحاثه ، ولم يكن له مندوحة عن ذلك ، فالحيوانات تأبى كل الأباء أن تأخذ عدوى الحمى الصفراء

كذلك ليس بين الناس اختلاف فى أن جيمس كارول James Carrol ، وقد كان خشّاباً فيما مضى ، كان على أتم استعداد للتضحية بنفسه فى سبيل ما يريد ريدُ Reed إثباتَه ، وأنه لم يكن ممن تأخذه عاطفة أو رحمة بأرواح الخلق إذا ما أراد برهان أمر جلّ أو قل

كذلك يُجمِع الكوبيّون[1] Cubans ، وهم الذين شهدوا البعثة تعمل عن كَثَب فى أرضهم ، على أن الجنود الأمريكيين[2] الذين تطوعوا بأجسامهم فى التجارب عوضاً عن الخنازير الغينية المعهودة كانوا على جانب من الشجاعة لا يوصف . كذلك أجمع الأمريكيون الذين كانوا عند ذاك فى كوبا وأكّدوا أن المهاجرين الاسبانيين الذين تطوعوا فى التجارب مكان الخنازير الغينية لم

(١) نسبة إلى كوبا وهى أكبر جزيرة فى جزر الهند الغربية وأغناها وتقع فى مدخل خليج المكسيك وعدد سكانها نحو ٣½ ملايين . وعاصمتها هفانا أوهبانا . استوطنها الأسبانيون واستعمروها وحكموها أربعة قرون ثم قامت ثورة عام ١٨٩٥ ضد الاسبانيين فتدخلت فيها الولايات المتحدة بالقوة . وكانت نتيجة ذلك استقلال كوبا عام ١٩٠٢ ، وحوادث هذا المقال حدثت فى فترة الثورة والحرب عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٢ .

(٢) يقصد بأمريكا والأمريكيين فى هذا المقال الولايات المتحدة وسكانها

يكونوا شجعاناً مخاطِرين ولكن تجاراً طامعين . أفلم يُنقد كل واحد منهم مائتى ريال أجراً عن مخاطرته ؟

وما من شك فى أنك تستطيع أن تنحِى باللائمة الشديدة على القَدَر أنْ قسا تلك القسوة البالغة على جِس لازار Jesse Lazear ولكن كذلك لا بد أن تُنحى باللائمة عليه هو أيضاً ، فهو الذى أبى أن يطرد تلك البعوضة التى وقعت على ظهر يده ، وهو الذى أذِن لها أن ترتوى من دمه مِلء جوفها . والقَدَر إن كان قسا عليه فقد حنّ له من بعد موته وعطف على ذكره ، فحكومة الولايات المتحدة سمّت باسمه مدفعية فى ميناء بلتيمور[1] إحياء له ، ورتّبت لأرملته معاشاً خمسمائة وألف ريال

وسترى أن قصة الحمى الصفراء لا نِقاش فيها ولا خصام ، فحكايتها متعةٌ للحاكى ، وهى فوق ما فيها من المتعة ضرورية لكتاب يَحكِى عن المكروب ورجاله ، ففى تحقق الحُلُم الذى ارتآه بستور ، فهو لو قدر الآن لصاح من قاع قبره الجميل بباريس يتحدّى العالم أجمع تيّاهاً فخوراً : « ألم أقل لكم ذلك من زمن بعيد » . ذلك أننى الآن وأنا أكتب هذا أعلم أن الدنيا أصبح لا يوجد بها من سمّ هذه الحمى ما تنطفى به رؤوس ستة دبابيس . وقد لا تمضى عدة سنوات أخرى حتى لا يكون على ظهر الأرض كلها ذرة من سمها ، وتصبح الحمّى خبراً يُروَى كبعض البائدات — هذا إذا لم نكن فوّتنا غلطةً خطيرة فى التجارب المحكَمة الريعة التى قام بها ريدُ وجنوده الأمريكيون ومهاجروه الاسبانيون

كانت هذه الحرب التى انتهت بالغلبة على الحمى الصفراء مثلاً جميلاً للتعاون الجيد ، انتظم فى إثارتها وإدارتها جنود من أعجب الجنود . وكان أول من قدح شرارتها رجل عجوز غريب يُدعى الدكتور كَرْلوس فِنلى Carlos Finlay ، أعفى من اللحية ذقنه ، ولكنه أنبتها على كل من صدغيه ، فجاءت جميلة يغبطه الناس عليها . وكان يخلّط فى التجارب تخليطاً . وحسبه أفاضل الكوبيّين وحكماء الاطباء رجلاً مغفّلاً قديم الغفلة مغرماً بالنظريات . وعدّه الناس أجمعون رجلا مأفوناً جسوراً . فهذا الرجل هو الذى خمّن فى هذه الحمى تخمينة أبعدت فى الاغراب

(١) ميناء شهيرة فى ولاية ماريلاند بالولايات المتحدة

ولكنها وقعت فى الصميم من الصواب

نعم عدّه كل أحد مأفوناً ، لأن كل أحد من الناس عرف عرفان اليقين كيف يدفع هـذا الوباء المخوف — هذه الحمى الصفراء ! وكان لكل أحد طريقته لدفعها : قال بعضهم : يجب تبخير الحرائر والسّتان Satin ومتاع الناس جميعاً قبل خروجه من المدن الوبيئة . وقال آخرون لا ، فهذا غير كاف فلابد من حرقه جميعه ، لا بد من حرق الحرائر والستان والأمتعة ولابد من دفنها ولابد من إتلافها قبل دخولها مناطق الوباء . وقال قوم : ليس من الحزم أن تصافح أصدقاءك إذا كان لهم أقرباء يموتون بالحمى الصفراء . وقال آخرون : ليس فى هذا ضرر أبداً . وقالت جماعة ثالثة : إن الخير فى هدم المنازل التى دخلتها الحمّى ، فليس بكاف تطهيرها بدخان الكبريت . وعلى اختلافهم هـذا فقد أجمع الناس فى جنوب أمريكا وفى أوساطها وفى شمالها ، مدة قرنين تقريباً ، على أنه إذا حدث أن أهل مدينة أخذت تصفرّ وجوههم ، وتَشخَص الريحُ من صدورهم ، ويصعد القيء أسودَ من جوفهم ، ثم أخذوا يموتون بالعشرات والمئات كل يوم ، لم يبق لعاقل ما يفعله إلا أن ينتفض على رجليه ، ويتجه إلى أقرب باب للمدينة ويسير قُدُماً غير لاوٍ عن يمين أو يسار حتى يخرج منها . ذلك أن عزريل ذا اليد الصفراء يحذق النفاذ من الحيطان ، واستراق الخُطا على الأرض ، ومباغتة الناس من وراء الأركان ، حتى النار يجوس خلالها ؛ وقد يحق عليه الموت ، ولكنه لا يلبث أن يُبعث حيًّا . ويقوم الناس لمطاردته وفيهم أحذق الأطباء ، فبعد أن يخطئوا فى مطاردته أكثر ما يستطيعون من أخطاء ، يأتونها بأكثرِ ما فى قلوبهم من هوس ، يجدون هـذا القاتل الفلاّت لا يزال فى قتله قائماً ؛ ثم يسأم القتل بغتة فيكف عن الناس . ويجيئه هذا السأم دائماً فى شمال أمريكا بمجيء الصقيع

هذا ما كان من علم الناس عن الحمى الصفراء الى عام ١٩٠٠ وصاح فِنلى عالياً ملء صدغيه : « أيها الناس إنكم تجهلون . أيها الناس إن الحمى الصفراء تأتى من بعوضة » ، فذهبت صيحته كصرخة فى واد ، وارتد عليه صداها بالسخرية والهوان

— ٢ —

فى عام ١٩٠٠ كانت الحال فى مدينة هبانا[1] أسوأ حال . فالحمى الصفراء كانت قتلت من الجنود الامريكيين ألوفاً أكثر مما أسقط رصاص الاسبانيين ، وكان للمهود فى الأوبئة أنها تنزل اختياراً من طوائف الناس حيث الفقر والقذر . أما هذه الحمى فنزلت فى أركان حرب للجنرال ليونارد وود Leonard Wood فذهبت بثلث ضباطه ، وضباط أركان الحرب ، كما يعلم الحربيّون ، رجال مصطَفون هم أكثر الجند نظافة ، وأكبرهم حظاً فى الحماية من الأمراض . وزأر الجنرال بأوامره فنزل رجاله على أهل هبانا غسلاً ودعكا حتى أحالوا الكوبيّين من قوم فى وسخهم سعداء إلى قوم فى نظافتهم تعساء ؛ وصنعوا كل ما يُصنَع للمدينة ، ولكن الوباء لم يتراجع ، بل تزايد حتى بلغ حدًّا لم يبلغه فى السنوات العشرين الماضية

عندئذ أرقت هبانا إلى وشنطن Washington ، وفى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٠ جاء البكباشى ولْتَرْ ريد إلى كوعادوس Quemados فى كوبا ومعه أمر « بأن يُعنَى عناية خاصة بكل ماله صلة بأسباب الحمى الصفراء وبطرق منعها » . وهذا أمر كبير ، يزيده كبره كبراً إذا ذكرنا مَنْ هو ولتر ريد ؛ هو أمر حاوله بستور من قبل ! وأين ريدُ من بستور ؟ بالطبع لم يكن ريد خلواً من المؤهلات ، ولو أنك قد تعترض عليها بأنها ليست مما له صلة بصيادة المكروب ؛ فهو جنديّ كأحسن ما يكون من الجنود ، خدم فى الغرب[1] فى سهوله وجباله أربعة عشر عاماً أو تزيد ؛ وكان يطير كبعض الملائكة والريح تعصف والسماء تَثلِج حتى يحط على فراش المرضى ممن هبطوا تلك البقاع استعماراً واستيطاناً ؛ وكان على خلق متين ، وجانب ليّن رقيق ؛ وكأنى بك تقول : ما الرقة وما الخلق الكريم ومكروبَ الحمى الصفراء وهو إنما يتطلب عبقرية نادرة لاصطياده . أنت على حق ، ولكن مع هذا سترى أن العمل الجليل الذى تم كان يتطلب قبل كل شيء خلقاً قوياً وإرداة من حديد . ومع هـذا فان ريد قام يبعض صيادة المكروب فى عام ١٨٩١ ، وقام يبعض بحوث متقطعة فى أحسن مدرسة للطب فى كنف أستاذ هو من غير شك أشهر أساتذة المكروب فى أمريكا ، وكيف لا يكون هـذا الأستاذ هكذا وهو الذى عرف كوخ وخالطه مخالطة الحميم حميمه

وجاء ريد إلى كيمادوس . وبينا هو يدخل مستشفى الحمى

(١) عاصمة جزيرة كوبا كما ذكرنا

(١) يقصد غرب الولايات المتحدة

الصفراء مرّ به عدد كبير من شباب الجند الأمريكى خارج منه محمولاً على الأعناق ... فاطمأن ريد الى أن العمل لن يعوزه، وأن المرضى الهالكين كثيرون . وكان مع ريد الدكتور جيمس كارول James Carroll ، ولم يكن ممن يوصف بالرقة تماما ، ولكنك ستجد بعد قليل أنه نعم الجندى الباحث كان . ووجد ريدُ جس لازار Jesse Lazear فى انتظاره ، وكان صياد مكروب متدرّب تدرب على صيادتها فى أوربا . وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة ، وكانت له زوجة وطفلان خلّفهما وراءه فى الولايات المتحدة ، وكانت تبدو فى عينه نُذُر الموت . وكان رابع الثلاثة أرستيدس اجرامونتى Aristides agramonte ، وكان كوبياً ، وكان عمله قطع جثث الأموات . وأحسن عمله إحسانا كبيرا ، ولكن اسمه لم يَذع لأنه كان أصيب بالحمى فتحصّن منها خلا عمله من المخاطر . فهؤلاء الأربعة هم « بعثة الحمى الصفراء »

وكان أول ما صنعته البعثة أن عجزت عن إيجاد المكروب فى الحالات الثمان عشرة الأولى التى فحصتها ، وكان منها حالات غاية فى السواء ، ومات منها أربع . ولم يتركوا حالة من تلك الحالات إلا ضبعوا وأوغلوا فيها فحصاً وتنقيباً ، فمن ابتزاز دم الى تزريع مكروب الى تشريح جثث . وكثرت زريعات المكروب حتى لم يحصرها عدٌ ، ولكنهم لم يجدوا فى أيها بشلة واحدة . وكان الوقت صيفا ، والشهر يوليو ، وهو أسوأ الشهور لهذه الحمى . وخرجت الجنود من المستشفى متلاحقة وهى أجساد هامدة

خابت البعثة خيبة كاملة فيما ارتجت ، ولكن من هذه الخيبة كان النجاح . فهذه إحدى خصائص هذه الصناعة صناعة المكروب . وهذا هو الأسلوب الذى يَدرُج عليه قُنّاصه ليجدوا منه مثل الذى وجدوا . وجد إسميث ما وجد من القُرَاد لأنه آمن بالذى قاله الفلاحون . ووجد رونالد رُس Ronald Ross(١) ما وجد مما يفعل البعوض الأشهب لأن بتريك منسون Patrick Manson (٢) دلّه عليه . وكشف جراسى Grassi (٣) ما كشف عن بعوضة الملاريا بدافع من وطنيته . وهذا ريدُ يخيب فى أول خطوة يخطوها ، وقد يقول كل أحد إنها أهم خطوة يخطوها ، فماذا هو صانعه ؟ لا شىء . فلم يبق لديه مايصنعه . وإذن توفّر لديه الوقت الكافى ليفرُغ الى نفسه ويُفكر ويُصغى الى صوت ذاك المغفل القديم ذى النظريات ، صوتِ الدكتور كارلوس فنْلى يصيح : « أيها الناس إنكم تجهلون ! إن الحمى الصفراء تأتى من بعوضة ! »

وخفّ رجال البعثة إلى هذا الرجل المأفون الذى ضحك منه كل سنّ ، وصُمَّت دونه كل أذن . فتلقاهم هذا الشيخ بالسرور والترحاب وأخذ يفسر لهم نظريته ، ويذكر لهم أسبابا غامضة إلا أنها مبدعة جميلة حَدَتْ به إلى اتهام البعوض فى نقل أسباب الحمى الصفراء . وأطلعهم على نتائج تجارب أجراها هى بئست التجارب لا تقنع أحداً . وأعطاهم بعض بيض أسود اللون مستطيل كالأصبع وقال لهم : « هذا بيض الجرم » . فأخذ ريد البيض وأعطاه إلى لازار ؛ وكان هذا فى إيطاليا من قديم فعرف هناك بعض الشىء عن البعوض . فأخذه لازار ووضعه فى مكان دافىء فانفقس عن دُوَيدة انقلبت إلى بعوضة صغيرة غاية فى الحسن كأنما شُدَّت على ظهرها أوتار من فضة فتراءى كالقيثار

خاب ريد ، ولاشك فى هذا . ولكن إلى جانب إقرارنا له بالخيبة ، يجب أن نُقرّ له بقوة الملاحظة الحادة ، وبكثير من التمييز وحسن التبصر فى الامور ، وستعلم فوق هذا أنه كان كبير البخت محظوظاً . ومن ملاحظته وهو فى غمرة من إخفاقه أن رأى حالات للمرض ثقيلة فظيعة ، احمرّت فيها عيون المرضى كأنما صعد الدم متدفقاً فيها ، واصفرت صدورهم فصارت كأنها الذهب وأخذوا يفوقون(١) ويتهوعون إنذاراً بالسوء . ثم رأى الممرضات يَجُسن خِلال هذه الحالات وينلن منها ويتلوثن بها ، ولكنهن بالرغم من ذلك لم تجئهن الحمى الصفراء أبداً

---

(١) سير رونالد رس طبيب انجليزى اختص فى أمراض المناطق الاستوائية وبخاصة الملاريا . وهو الذى اكتشف كيف أن الملاريا تنقل طفيلياتها من انسان لانسان بواسطة البعوض فى عام ١٨٩٨ وما بعده . وكان ذلك تطبيقاً لنظرية بتريك منسون (المترجم)

(٢) بتريك منسون هو الذى اكتشف فى عام ١٨٧٩ كيف أن دودة تسبب مرضا استوائياً مشهوراً (فلارية بنكروفت) إنما تنتقل = وهى جنين من إنسان لانسان بأن تقتبسها بعوضة من دم الأول ، ثم هى تتطور فى البعوضة ، ثم هى تدخل بعضة البعوضة فى جسم الانسان الثانى . على أن قيمة هذا الكشف لم تظهر إلا عام ١٨٩٨ لما طبقها السير رنالد رس فى دراسة الملاريا

(٣) جيوفانى جراسى عالم إيطالى فى الحيوانات مات عام ١٩٢٥ . له أبحاث كثيرة فى الأحياء الدنيا ومنها طفيلية الملاريا وطريقة انتقالها فى الانسان المترجم

(١) فاق الرجل شخصت الريح من صدره من غير قىء

فناقش ريد رجال بعثته ، قال : « لو كان الـكروب أصل هذه الحمى عثل ما هو أصل الـكوليرا والطاعون ، إذن لأصاب الممرضات لجاءتهن الحمى »

وأخذ ريد بعد ذلك يلاحظ ألا عيب شتى تقوم بها هـذه الحمى ، فرآها تظهر فى كيادوس لجأة حيث لامظنة لظهورها : جاءت رجلاً يسكن فى منزل رقم ١٠٢ بشارع دبل ، وإذا بها تنظم من هذا الشارع فتنعطف إلى شارع الجنرال لى فتنزل بساكن به فى منزل رقم ٢٠ . ثم هى تنط ثالثة إلى الصف الآخر من هذا الشارع . ولم يكن بين المصابين صلة ما ، ولا التقى بعضهم ببعض أبداً

قال ريد : « كأنى بهذا الحال يشير إلى أن شيئاً ينقل المرض عَـبْرَ الهواء من دار إلى دار » . وكانت هناك حيل غريبة أخرى تأتيها هذه الحمى درسها عنها كرتر Carter الأمريكى : تصيب الحمى رجلا فى منزل ، فقد يموت وقد يُشفَى فيرحل عن المنزل ، ثم يمضى على هذه الاصابة أسبوعان فلا يحدث جديد ، ثم ينقضّ البلاء كالصاعقة ، فاذا بنفر من أهل هذا البيت يصابون بها .

قال ريد لرجاله : « كأنى بمكروب من هذا البلاء يتريّث أسبوعين فى بطن حشرة ليستكمل نموّه » ، فلم يصدقوه ولـكنهم كانوا جنوداً طائعين

قال ريد : « وعلى هـذا فقد يكون صواباً ما ارتآه فِـنْلِى Finlay عن البعوض ، وعلى أساس فـكرته فلنقم بالتجربة » . فاعتزامه التجريب كان بناء على الاسباب السابقة والملاحظات السالفة ، وعلى الاخص بناء على أن البعثة لم تدر ما تصنع بعد الذى صنعته

وكان القول بالتجريب قولاً هيّناً . ولـكن كيف يكون البدء فيه ، والمعروف الثابت أن الحمى الصفراء لا يمكن إعطاؤها للحيوانات ، حتى القردة وهى أقرب إلى الانسان خلقاً لا تأخذها . ولـكن لاثبات أن البعوض ينقـل الحمى لا بد من حيوانات للتجريب ، وإذن لم يبق إلا أن تـكون هذه الحيوانات آدمية .

ولـكن أيكون معنى هذا إعطاء هذه الحمى عمداً لبعض الناس ! إن الاحصاءات دلّت على أن الوافدة إذا حلّت فقد يموت من المصابين ثمانون وخمسة من مائة ، أو قد يبلغون خمسين ، وعلى أية حال لا يقل الموتى عن عشرين فى المـائة . إذن فاعطاء الحمى عمداً لبنى آدم قتل للأنفس التى حرّمها الله ! ولـكن هنا تتدخل شدة أخلاق ريد وصلابته لتلعب دورها الـكبير . كان ريد رجلاً لا شائبة فى خلقه ، ولا عائبة فى ذمته ، وكان مؤمناً ، وبالرغم من اعتداله كان الرجل الذى اصطفاه الله لخدمة أهله بنى هذه الانسانية على مثل هذا الأسلوب الوعر المتطرف . وتخيّل إسميث أنْ قد ثبت له أن البعوض وحدَه هو ناقل هذه الحمى وتخيّل ما يكون بعد ذلك من أحداث خطيرة ... !

وطاف نهار يوم بين رجال صُفرٍ يحتضرون . فلما جاء الليل بحرّه الشديد ، جمع رجاله ثم قام فيهم فقال من حديث : « ... فلو أننا نحن رجال هـذه البعثة قمنا لجازفنا بأرواحنا فأذِنّا لبعوض تغـذّى من دم قوم محمومين أن يمَصَّنّا ويشرب من دمائنا ، إذن لضربنا خير المُثُل للجند الأمريكيين ... » . ونظر إلى لازار . ونظر إلى كارول

قال لازار : « أنا أقبل عضة البعوض » ، وكانت له زوجة وطفلان

وقال كارول : « اعتمد علىّ ياسيدى وتوكل على الله » ، وكانت له زوجة وخمسة أطفال ، ولم يكن له من متاع الدنيا غير أجر جراح مساعد فى الجيش ، وهو أجر حقـير معروف ، وغير عقل الباحث ومزاجه

(يتبع) أحمد زكى

الخلود والأدباء

[مهداة إلى الأستاذ المازنى]

للأستاذ عبد الحليم عباس

يعتقد الأديب — والأديب الناشىء على الأخص — بأنه الانسان المصطفى لتأدية رسالة الحياة إلى الأحياء، وأن غيره ... هذه المخلوقات التى لا تدين بالأدب ولا تتلق وحى الفن، ليست خليقة أن تساميه، ولا أن تطاول إلى مقامه. إنها تقف فى حيث تأخذ عنه، وتسمع اليه ... ومن ثم فهو خالد بخلود هذا الأدب، وما عداه — من عباد الله — فمن التراب وإلى التراب ... وهذه قضيةٌ مسلم بها — فى رأى الأديب — لا تحتاج إلى مماراة، ومن هنا يجىء هـذا العنت، وهذه السلسلة من الخيبة والاخفاق فى حياة الأديب. إنه يعجب من الناس كيف لا يقدرونه حق قدره، وكيف لا يتنحون له عن مقامه الذى هو خليق به، والذى أعدته الحياة له؟ ولم لا! وهذا العلم بالحياة، وهذه المذاهب الفلسفية، والتبحر فى فنون الأدب، أليس من حقها أن تقدم صاحبها وتقدره من المجموع؟.. بلى بلى — هكذا يقول الأديب — ولكنه ظلم الحياة، وجحود الأحياء، فما عليه إلا أن يقف معانداً لهم، مناهضاً لهذه الحياة، ليُعاد اليه حقه السليب المهتضم ...

وبين هذا العناد والاصرار يضيع الأديب حاضره، ويخرِّب حياته، وقد يخربه الجوع ... قال لى أديب ناشىءٌ: لست أنظر الى الجراح الماهر إن لم يفهم الأدب أكثر من نظرى إلى جزار وقال لى آخر: سأترك العمل عند هذا الوزير لأنه سخيفٌ وبذىء؛ فقلت له: هل أصابك رشاش من بذاءته؟ قال: كلا؛ ولوحدث لأدَّبته؛ قلت إذن دعه وشأنه. قال لا أستطيع. وفى اليوم التالى أضاع أديبنا وظيفته. وقليل من رجال الأدب من ربحت تجارته الدنيوية، وأصبح من رجال الأعمال

مثل هذه الحوادث كثيرة نشاهدها فى كثير من الأحيان، ونحتار فى تعليلها؛ ولكن مردها فى البعيد يعود إلى فهم الأدباء للحياة على ضوء الأدب، وإلى الذهاب فى تقدير قيمهم، وإن من حقهم أن يتمالوا على الناس، لأنهم من طائفة الخالدين ...

ويكبر الأديب، ويشب عن الطوق — كما يقولون — وتمر عليه صورٌ من الحياة، وتثقله تكاليفها اليومية السخيفة — كما ينعتها سبينوزا فيرى أن يقبل عليها، ويضرب مع الضاربين فيها — إن أراد أن يعيش — فالكواكب ليست أرغفة، والسماء لا تمطر بقلا ... وهكذا ترغمه الحياة على أن يصانعها ويصانع معها الأحياء ...

... ولكن هل انتهى بينه وبينها الخلاف؟ وهل أصبح هو وبينها على أتم وفاق، يوم علم أن هذا الأدب الذى يدلُّ به ليس له كبير فضل، وأن هذا الخلود لا يعنى شيئاً؟ لقد خلدت فى الدنيا بغلة أبى دلامة، وحمار الرشيد. أم أن فهمه للدنيا على هذا النحو الجديد، يعنى بداية معركة جديدة حامية، ولكنها تحرق الأديب قبل أن تحرق غيره.. أظن أن كثيرين يوافقوننى على أن هذه بداية معركة لا نهاية؛ فالحياة لم تلق من هؤلاء الذين يناصبونها العداء طول حياتهم مثلما لقيت من هذه الطائفة من الأدباء الذين يضربون فى زحمتها، ويسايرون مواكبها، على أن يخرجوا لها ألسنتهم هزؤاً، كلما آنسوا منها غفلة، وليفضحوا سرائرها فى كل حين ...

لم تنته المعركة بعد، فليست قضية الخلود هى كل الخلاف بين الأديب والأحياء. فكيفما جارى الأديب الناس فى فهمهم للحياة فلا مشاحة فى أنه يفهم الحياة على وجهة تختلف عن الوجهة التى يفهمها عليها الأحياء، إذ أن الأمر لا يتعلق باختياره؛ وقد يحب هو أن يجاريهم فى كل شىء، ولكن ما حيلته فى هذه الأعصاب التى ركبت على شكل يختلف عما ركبت عليه أعصاب الناس — أحسن منهم أو دونهم هذا لا يعنينا — إنها مرهفة دقيقة، مستوفزة، تفعل بها الاشارة الغامضة ما لا تفعله بغيرها العبارة الصريحة، كيف يحب؟ وكيف يكره؟ وكيف يجنُّ بالحسن، وتفعل به الزهرة الغضة أو الذابلة؟ هذه أشياءٌ تفسيرها عند هذه الأعصاب

وشىء آخر يباعده عنهم، ويمد فى شقة الخلاف، هو أين يعيش الأديب، وما هى دنياه؟؟ لا نحب أن نكتب خيالاً،

إن إدمان مطالعته فى نماذج الجمال والأدب ، ولد فى نفسه حباً للجمال . إنه يعيش بهذا الجمال الذى يطالعه به الخيال ، أكثر مما يعيش فى دنيا الواقع ... كما وإن إدمان دراسته للحياة والواقع فتح عينه على الجانب البشع منها . أليس فى الحياة بشاعة ؟ ومن لا يقول هذا مع الأديب ، حتى عباد الحياة أنفسهم ؟ إذن فهو يريد أن يتسامى فى هذا الواقع ليوائم بينه وبين ما فى نفسه من جمال ، يود أن يرتفع بهذه الخلائق ، يذيب نفسه قطرة قطرة ، ليرى الناس جمال الحق وعظمة الصدق ونبالة الوفاء ، ولكن الحياة والواقع يحتاجان إلى نقائض هذه ، فما هو إلا أن يشعر بالخيبة حتى يروح يحرق الأرم ويتلوى على نفسه ؛ وبين الخيال ، وركود الأحياء فى دنيا الواقع ، تختضب الأيام بدم الكاتب ، فهو على مثل هذا وفاق بين الأديب ودنياه ، على أننا لا نأسف — نحن النظارة — لذلك ، فلو لم يغمس الأديب قلمه بدمه ، ولو لم يقدم نفسه قرباناً للجمال والحق ... لما عرفنا أين يقع الجمال والحق فى هذه الدنيا . فلتدم هذه المعركة — وهى دائمة بفضل هذه الأعصاب الشاذة — ما برحت — وإن نحر فيها الأديب نفسه — تدنينا من الحق ، ولو قيد شعرة . . .

إذن فلا وفاق بين الأديب والأحياء .. ؟ نعم ولو أصبحت هذه الدنيا وفاق حلم الأديب ، ودنياه المثالية ، فالخيال لا يزال يبدع والجمال فى هذه النفوس لا يحد . . .

وما هــذه المصانعة التى تبدو من جانب الأدباء للحياة فى بعض الأحايين والتى يخيل إليهم فيها أنهم أصبحوا يتلقون الحياة كما يتلقاها الآخرون — « بلا تذمر ولا سخط » إلا مخادعة النفس ، وإلهائها عن آلامها الرفيعة التى تحزُّ فيها ؛ هى قطعة الحلوى نقدمها للطفل لنسكته عن الصراخ

كيف يكون على وفاق هذا السابق السابق مع المقعد المتخاف ؟ فالأدباء فى كل أمة هم رواد النهضات . يشيرون إلى العالم البعيد المجهول المتلثم به أفكارهم ، الآخذ عليهم مسارب نفوسهم ، وخفى أشواقهم . كلُّ نهضة كان يسبقها أديبٌ أو أكثر ، يبشر أن فجر الحق قريبٌ ورائع ، وأن هناك فى ضمير الغيب دنيا أمتع من هذه وأحلى . . .

. . ؛ والآن هل استطاع المازنى — أن يلقى الحياة ، كما يلقاها الغير ، أبناؤها ؟ أما هو فيكاد يقول نعم ، أو قد قالها بالفعل ، بعد أن أزاح من فكره — حب الوَلوع بالخلود — والحمد لله .

أما نحن جمهرة القراء فنقول لا ، ونمدُّ بها أصواتنا

كيف يلقى الناس الحياة ؟ إنهم ينسابون فى غمارها ، يندفعون فى لجتها — كما تندفع أنت يا أستاذ بالذات — حذو القذة بالقذة ، ولكن تمرُّ الشهور ، وتتصرم السنون ، وينتهى العمر ، وهم لا يفطنون لذواتهم ، ولا يعرفون عن هذا السرور شيئاً ، كيف جاء ، وكيف راح ؟ تلك قضية لادخل لهم فيها . حسبهم أنهم مسرورون وكفى ؛ أما هؤلاء الذين يلقون أنفسهم بالسرور إلقاء ، ثم يقفون عند كل شوط ، ليسائلوا أنفسهم هل سروا حقاً ؟ هل استطاعوا أن يغرقوا ذواتهم المضطربة ، ويسكتوها ولو دقيقة واحدة ؟ فهؤلاء بعيدون عن السرور ، وأحرى أن يتقلب بهم هذا السرور إلى شر ، أو يزيدهم شراً . ، إنهم يحتسون من خمرة الخيام تلك التى اتخذها ليغرق فى أكوابها صحوه وعقله

وإذا ما التوت الحياة وتعقدت ، وكان ضيقها لا ينفرج ، وعقدتها لا تحل ، إلا فى نحر الوفاء ، وتضحية الصدق ، فما عسى يصنع الأديب ؟ أما ابن الحياة فينحر هذه غير آسف ، بل هو ينحرها دون أن يعلم ، ولو توصلاً « إلى ترفيع درجة إن كان موظفاً » ... فهل يستطيع الأديب ذلك ؟ وماذا يصنع بهذا الضمير وهذه المثل التى لا حياة له إلا بها ؟ إنه خليق أن يجن ان فعلها . . .

نعود فنستميح — أديبنا المازنى — عذراً ، فما أراد كل هذا ، وإنما أراد أن يوهم نفسه ساعة واحدة أنه أصبح كسائر الناس ، يسر بما يسرون ويضحك كما يضحكون . وقديماً قال :

ياصدى إن بقلبي لكلوماً وهموماً مدرجات فيه لكن لا تموت
كلما قلت قضت رهن السكوت صحن بى من كل فج يتراءى

عم مساء

أما هــذا الرفيق المخالف الذى يتمناه للأديب ، فما إخال الأحياء مع الأديب إلا إياه ، وما أظن الدنيا تتعدى أن تكونه ، فحسبه هذا . . .

(شرق الأردن) عبد الحليم عباس

٩ ــ تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

الفصل الثاني

لم ينس العرب هذه الحوادث فبعثت فيهم الكبرياء القومي، فقالوا إن الجيوش الرومانية سارت ذات مرة — على أية حال — تحت لواء أميرة عربية، ولكن القصة — كما نستدل من أخبارهم — ذات صلة قليلة بالواقع، ولم يقتصر التغيير على أسماء الأشخاص والأماكن فحسب، (كما حدث في اختلاط اسم زينوبيا باسم وزيرها زبدى) بل إن الوضع التاريخي قد أصبح مستحيلاً على التمييز. وكل ما بقي لا يتعدى قصة من قصص المخاطرات التي كان عرب الجاهلية يميلون الى سماعها، وكما هو الحال اليوم في أبنائهم المحدثين الذين لا يملون سماع قصة عنتر أو ألف ليلة وليلة

ويقال إن أول ملك من العرب الذين استقروا في العراق[٢] هو مالك الأزدى الذى رمى بقوس من يد ابنه سليمان وقبل أن يسلم الروح قال بيتاً راح فيا بعد مضرب المثل:

أعلمه الرماية كل يوم   فلما استد ساعده رماني

وقد وحد مملكة مالك — إذا جاز أن توصف بهذا اللقب — ونظم أمورها ابنه جذيمة الأبرش (وهو تصحيف أدبي لكلمة أبرص)، الذى حكم كتابع لأردشير بابكان (٢٢٦ م) مؤسس الدولة الساسانية في فارس، التي استمرت مسيطرة على عرب العراق طول فترة ما قبل الاسلام، وإن جذيمة هذا لبطل كثير من الخرافات والأمثال، وكان من كبريائه — كما يقال — إنه لم يكن ليسمح لأحد ما بمجالسته ومنادمته سوى نجمين يسميان بالفرقدين، فاذا ما عاقر الحان صب لكل منهما كأساً، وقد علقت أخته بوصيف له يدعى «عديا بن نصر»، وفي لحظة لعبت الخمر برأس جذيمة رضى بزواجها إياه، فبنى عدى بها؛ وفي الصباح، عندما عاد أخوها إلى رشده، وثاب الى صوابه تميز من الغيظ من تلك الخديعة التي جازت عليه فأطاح رأس الزوج المسكين، وأرغم أخته أن تتزوج من عبد حقير، ومع ذلك فلما وضعت غلاماً تبنّاه جذيمة وكلأه بعطفه وحدبه؛ واختفى الشاب عمرو ذات يوم فجأة ويئس الجميع من وجوده، وانقضى زمن طويل لم يعثر أحد فيه له على أثر حتى صادفه أخوان: هما مالك وعقيل، وقد وجداه عرياناً متوحشاً يهيم على وجهه، فاهتما به وألبساه ومثلا به أمام الملك الذى غلب عليه السرور فوعدهما ألا يرد لهما طلبة يسألانه إياها، فاختارا الشرف الذى لم يجرؤ على طلبه إنسان قبلهما قط: وهو أن يكونا نديميه، وعرفا فيما بعد باسم «ندماني جذيمة»

وكان جذيمة هذا أميراً مفكراً شجاعاً، وفي إحدى حملاته ذبح عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة، وهو رئيس عشيرة عربية كان قد ضم جزءاً من سورية الشرقية وأرض الجزيرة إلى نفوذه، والذى يتضح لنا أنه (كما هو ظاهر من اسم أذينة) كان بعينه أذينة زوج زينوبيا، يؤيد هذا الرأى ما قاله ابن قتيبة «وخطب جذيمةُ الزباءَ، وكانت بنت ملك الجزيرة وملكت بعد زوجها[١]» وطبقاً لما يراه المؤرخون المسلمون، فقد كانت الزباء ابنة عمرو بن ظرب، واختيرت لتكون خليفته، بعد ترديته في ساحة القتال، ومهما يكن هذا الأمر فقد برهنت على أنها امرأة نادرة الشجاعة ذات عزم جبار، ولكى تأمن شر الغارات شيدت حصنين قويين على شاطىء الفرات جمات بينهما نفقاً، وأقامت هي في أحدهما وسكنت أختها زينب في الآخر، فلما اجتمع لها أمرها واستحكم ملكها أجمت على غزو جذيمة ثائرة لأبيها فكتبت تقول له إنها قد رغبت في صلة بلدها ببلده، وإنها في ضعف من سلطانها وقلة ضبط لملكتها وإنها لم تجد كفؤاً غيره، وتسأله الاقبال عليها وجمع ملكها إلى ملكه، فلما وصل ذلك إليه استخفه الطرب ولم ينتصح برأى مشيره، فقال له قصير مرشده في طريقه «انصرف ودمك في وجهك» حتى إذا شارف مدينتها قال لقصير: «ما الرأى» قال: «ببقة تركت الرأى»

(٢) هؤلاء هم نفس بدو عرب تنوخ الذين صاروا فيا بعد سكان الحيرة كما سيمر بك

Brünnow : Chrestomathie aus Arabischen Prosas - chriftstellen, P.29 (١)

فراحت مثلاً ، ثم استقبله رسلها بالهدايا والالطاف فقال : « ياقصير كيف ترى ؟ » قال : « خطر يسير فى خطب كبير ، وستلقاك الخيول ، فأن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت فى جنبيك وأحاطت بك فالقوم غادرون ، اركب العصا (أى فرسه) فانها لا تدرك ولا تسبق قبل أن يحولوا بينك وبين جنودك » فلم يفعل ، ولما أحيط بجذيمة التفت فرأى قصيراً على فرسه العصا ، وقد بعدت ثلاثين ميلاً ، وأدخل جذيمة على الزباء ، ثم أمرت جواريها أن يقطعن رواهشه فى طست من ذهب وقالت : « يا جذيمة لا يضيعن من دمك شىء فأنما أريده للخبل » ، ثم سقطت نقطة من دمه على اسطوانة رخام ومات

ومضى قصير الى عمرو بن عدى وطلب إليه أن يثأر لخاله ، فقال عمرو : « كيف وهى أمنع من عقاب الجو » ، فجدع قصير أنفه وأذنه ودخل على الزباء ، وأخبرها أن عمراً لاحق به لقتله جزاء خيانته فصدقته وأعطته مالاً للتجارة ، فأتى بيت مال الحيرة فأخذ منه بأمر عدى ما ظن أنه يرضيها ، وانصرف به إليها ، ففرحت به ، ثم قال لها يوماً : « إنه ليس من ملك ولا ملكة إلا وقد ينبغى له أن يتخذ نفقاً يهرب إليه عند حدوث حادثة يخافها » فقالت له : « قد اتخذت نفقاً تحت سريرى هذا يخرج إلى نفق تحت سرير أختى » وأرته إياه ، فأظهر لها سروره بذلك وخرج فى تجارته وعرف عمرو بن عدى ما فعله ، فركب عمرو فى ألفى دارع على ألف بعير فى الجوالق ، حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير يسبق الابل وقال لها : « اصعدى فى حائط مدينتك فانظرى الى مالك وتقدمى الى بوابك » ، فلما دخل آخر الجمال نخس البواب عكما من الأعكام ، فأصاب خاصرة رجل فصاح ، فقال البواب : « شر والله عكمتم به فى الجواليق » فثاروا بأهل المدينة وانصرفت الزباء راجعة ، فلقيت عمرو بن عدى فمصت خاتمها ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو[1] »

ولقد بلغت الثقافة فى مملكتى الحيرة وغسّان فى عصر ما قبل الاسلام شأواً بعيداً فى الرقّ وشمشمت أنوارها ، وعمّ

(١) لخصنا هذه القصة مما ورد فى الأغانى ج ١٤ ص ٧٣ س ٢٠ وراجع الطبرى ج ١ ص ٧٥٧ — ٧٦٦ ، والمسعودى فى مروج الذهب طبعة باربييه دى مينارد ج ٣ ص ١٨٩ — ١٩٩

أثرها جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وليس من الاسراف فى القول أن نذكر فى هذا المجال تاريخ وملابسات الظروف ، التى مكنتهم من القيام بنشر الرق والحضارة[1]

فى مستهل القرن الثالث بعد الميلاد كانت هناك بعض قبائل يرجع كلها أو بعضها الى أصل يمنى ، وقد عقدت فيما بينها حلفاً وسميت فى مجموعها « بتنوخ » ، وكانت تلك القبائل تثير بين آن وآخر كثيراً من الاضطرابات ، وانتشرت فى جميع ربوع امبراطورية Arsacid ، وأغارت على العراق ، حتى ألقت عصا التسيار فى إقليم غرب الفرات الخصيب ، وبينما ظلّ بعض المغيرين يحبون حياة بدوية محضة ، اشتغل آخرون بفلاحة الأرض وزرعها ، وعلى كرّ الأيام نشأت المدن والقرى ، وكان أعظمها أهمية الحيرة (أى المعسكر) ذات الموقع الصحىّ الجميل وعلى مسيرة عدة أميال قليلة من جنوب الكوفة ، بالقرب من بابليون القديم[2] ، وطبقا لما ذكره هشام بن محمد الكلبى (+ ٨١٩ أو ٨٢١ م) المؤلف العظيم عن عصر الجاهلية ، فقد كان سكان الحيرة فى عهد أزدشير بابكان أول ملك ساسانى لفارس (٢٢٦ — ٢٤٠ م) يتكوّنون من ثلاث طوائف هى :

(١) تنوخ : وتسكن غرب الفرات بين الحيرة والأنبار فى طنب من وبر الجمال

(٢) العباد : ويسكنون البيوت فى الحيرة

(٣) الأحلاف : ولم يكونوا ينتمون الى إحدى الطائفتين

(١) وعلى ذكر الحيرة وتاريخها يمكن القارئ مراجعة المقال الرائع الذى كتبه الدكتور G. Rothstein عن دولة اللخميين فى الحيرة : Die Dynastie der Lahkmiden in Al Hira (برلين ١٨٩٩) حيث يبين مصادر المقال (ص ٥ وما يليها) ، كماأن ما وصفه الكتاب اليهود والبيزنطيون مما رأوه بأعينهم لثمين القيمة فى ذكرهم التسلسل التاريخى الذى يرويه المؤرخون المسلمون على سبيل الحدس ، وإن التواريخ الاسلامية عامة لتشمل فصولا بعضها خرافى عن « ملوك الحيرة وغسان » ويجب أن تتخذ الحيطة والحذر الشديدين خاصة فى الجزء الذى نقله الطبرى عن هشام بن محمد الكلبى ، والذى ترجمه نلدكه وعلق عليه فى : Geschicte der Perser und Araber zur Zeit der Sasanidsn

وقد رجع هشام إلى السجلات المحفوظة فى كنائس الحيرة ويدعى بأنه استخلصها من شروح تاريخية ، ونسبية تتعلق بأسرة اللخميين (راجع الطبرى ج ١ : ص ٧٧٠ س ٧)

(٢) الحيرة هى حيرتا السريانية ، وقد أطلق اسمها على المعسكر المتنقل من العرب والفرس ثم ظلت إشارة وإسماً للمدينة العسكرية

السابقين بل ألحقوا أنفسهم بأهل الحيرة ، وعاشوا بينهم كأنهم آبقون قتلة يلاحقهم الثأر ، أو مهاجرون معوزون يحاولون الاطمئنان على مستقبلهم

وطبيعى أن يؤثر أهل المدن الى حد بعيد فى السكان ، ولقد رأينا هشاما يسميهم « العباد » وهذا لفظ غير دقيق تماما إذ العباد عرب الحيرة المسيحيون ، وقد سموا بذلك لاعتناقهم النصرانية ، أما العرب الوثنيون الذين سكنوا الحيرة منذ أن أنشئت ، وظلوا مقيمين بها ، فلم يكونوا يدلون على نقيض المعنى المفهوم من الوثنية . أما لفظ « العباد » فيقصد به خُدّام الله والمسبح ، ولا نستطيع أن نحدد تماماً أبان بدء اطلاق هذا اللقب على أولئك المتدينين الذين كانوا من قبائل مختلفة ، كانت تسكن الحيرة أثناء القرن السادس ، وليست التواريخ ذات قيمة كبيرة نسبياً ، بيد أن الأمر الذى يجب الاشارة اليه ، هو وجود جماعة عربية فى فترة ما قبل الاسلام لم تكن قائمة على صلات الدم أو تجمعها العصبية ، ولكن تربطها روابط روحية أعنى بذلك الايمان العام . أما ثقافة وديانة « العباد » فقد تسربتا الى أقصى الأماكن والجهات النائية المنعزلة فى شبه جزيرة العرب كما سترى ذلك مفصلاً فى مكانه الخاص ، وكان هؤلاء أساتذة العرب الوثنيين الذين قليلاً ما كانوا يقرأون أو يكتبون كما كانوا عازفين عن التعليم فخورين بجهلهم بالتهذيب الذى يرون فيه نوعاً من الذلة ، ومع ذلك نرى أن أرقى العقول ثقافة بين البدو كانت مجذوبة بلا نزاع الى الحيرة ، ولقد وجد شعراء هاتيك الأيام فى الأمراء خير مشجع ، فزار كثير من شعراء الجاهلية بلاط اللخميين كما اتخذها بعضهم كالنابغة الذبيانى وعبيد بن الأبرص دار اقامة

وليس من المهم أن ندخل فى تفاصيل غير مجدية كأصل ونشأة دولة اللخميين فى الحيرة ، ويذكر هشام بن محمد الكلبى (١) ان أول حاكم لخمى كان يدعى « عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم » وهو الذى تبنّى جذيمة والذى انتقم له من الملكة الزّباء ، ولسنا ندرى فى الغالب شيئاً عن خلفائه ، حتى نصل الى النعمان الأول المسمّى بالأعور ، والذى كان حكمه فى الربع الأول من القرن الخامس الميلادى ، وقد اشتهر النعمان هذا بأنه بانى الخورنق ، وهو قصر فخم بقرب الحيرة بناه فى عصر الملك الساسانى يزدجرد الأول الذى أراد مسكناً صحياً لابنه الأمير بهرام جور ، وعند اتمامه أمر النعمان بأن يلقى مهندسه الرومانى سنمار من شاهق البنيان ، إما لافتخاره بأنه كان يستطيع إقامته بناء عجيباً يدور مع الشمس حيث دارت ، أو خوفاً من أن يذيع مكان حجر خاص اذ أزيح من مكانه انهار البناء كله . وفى صباح يوم من أيام الربيع أخذ النعمان مجلسه فى الخورنق مع وزيره ، وأشرف على النجف وحدائقها وما فيها من نخيل وعيون ، وأدار بصره فى جميع النواحى شرقاً وغرباً ، فلما امتلأت نفسه بسحر ما رأى قال لوزيره :

— أرأيت مثل هذا ؟

— كلا . ولكن لو دام !

— وما الذى يخلد ؟

— ما عند الله فى السموات

فسأله النعمان : كيف يتوصل المرء إلى ذلك ؟ فأجابه الوزير : بالعزوف عن الدنيا والتفانى فى خدمة الاله ، والكفاح من أجله . ويقال إن النعمان آلى على نفسه حينئذ أن يهجر مملكته ، حتى اذا ما أقبل الليل تدثر بثوب خشن ، وتسلل فى جنح الظلام ، وساح فى الأرض فلم يره أحد بعد ذلك ؛ ويظهر أن هذه الأسطورة قد تبلورت وتضخمت من هذه الأبيات التى نظمها عدى بن زيد العبادى :

وتدبّر ربّ الخورنق إذ أشـ ... رف يوماً وللهدى تفكيرُ
سره حاله وكثرة ما يـ ... ـلك والبحرُ معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال : «وما غِبْـ ... ـطة حى الى المماتِ يصيرُ ؟
ثم بعد الفلاحِ والملك والامّـ ... ـة وارتهمُ هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف (م) فألوت به الصبا والدبور (١)

أما ما يراه جمهرة مؤلفى العرب من اعتناق النعمان المسيحية فليس له أساس من الصحة ، وإن كان هناك ما يبعث على الاعتقاد بأنه كان ميالاً إليها ، إذ كانت الحرية الدينية مطلقة لرعاياه المسيحيين ، كما ورد ذكر حبر مسيحى بالحيرة سنة ٤١٠ م

(يتبع)

ترجمة حسن حبشى

(١) ذكر هشام بن محمد الكلبى أسماء عشرين ملكا حكموا مدة ٥٢٢ عاما وثمانية أشهر

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفانى ، والطبرى ج ١ ص ٨٥٨

٦ - هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الملذات والشهوات

اذا كان لك فضيلة يا أخى ، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فأنك لا تشارك فيها أحداً سواك . ولا ريب فى أنك تريد أن تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها ، ولكنك بهذا أشركت بها الناس بما أطلقت عليها من تعريف ، فأصبحت أنت وفضيلتك مندغمين فى القطيع

خير لك يا أخى أن تقول : إن ما تلذ به روحى وتتعذب به يتعالى عن الايضاح ، ويجل عن أن يسمى ، وهذا العجز عن ادراكه يخلق المجاعة فى أحشائى

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالأشياء عند تحديدها ، وإذا ما اقتحمت هذا التحديد ، فلا تستحى من أن تتلفظ به تمتمةً ، فقل وأنت تتمتم :

— إن هذا هو خيرى الذى أحب ، إن هذا ما يثير إعجابى ، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة . لا أريد هذه الأشياء تبعاً لارادة ربّ من الأرباب ولا عملاً بوصية أو ضرورة بشرية ، فأنا لا أريد أن يكون لى دليلٌ يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود . . .

قل : ما أحب سوى فضيلة هذه الأرض ، لأن ما فيها من الحكمة قليل ، وأقل منه ما فيها من صواب متفق عليه . إن هذا الطير قد بنى عشه على مقربة منى ، لذلك أحببته وعطفت عليه ، وها هو ذا الآن يحتضن عندى بيضه الذهبى

على هذه الوتيرة تكلّم وأنت تتمتم ممتدحاً فضيلتك

لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شروراً ، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل ، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها ، لأنك وضعت فى هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك إلى فضائل وملذات هى منك ولك ، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل إلى فضائل ، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكاً حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليزك من قبل ، فها هى ذى الآن أطيار مغرّدة . لقد استقطرت بلسما من سمومك وحلبت ناقة الأوصاب ، وأنت الآن تكرع لذيذ دَرِّها

لن يخلق شرٌّ منك بعد الآن ؛ غير أن هنالك شراً قد ينشأ من تخاصم فضائلك . فاصغ إلىّ ، يا أخى ! إنك إذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك وهى تسهّل اجتياز الصراط عليك

إنها لمزية أن تكون للانسان فضائل عديدة ، غير أن تعدّد الفضائل يرمى بالانسان إلى أشق الحظوظ . وكم من مجاهدٍ أرهقه النزال فى ساحات الفضائل فتوارى لينتحر فى الصحراء

إذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً ، فاعلم يا أخى أنها شرور لابد منها ، لأن للحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بين فضائلك نفسها . تبصر ترَ أن كلا من فضائلك تطمح إلى المقام الأسمى وتطمع فى الاستيلاء على جميع أفكارك لتستعبدها وتحصر بها وحدها كل ما فى غضبك وبغضائك وحبك من قوة

إن كلا من فضائلك تحسد الأخرى ، والحسد هائل مريع يتناول الفضائل أيضاً فيبيدها

إن من يحيط به لهيب الحسد تنتهى به الحال إلى ما تنتهى العقرب اليه فيوجه حمته المسمومة إلى نحره

أفما رأيت ، يا أخى ، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر ؟

ليس الانسان إلا كائناً وجب عليه أن يتفوق على نفسه ، لذلك حقٌّ عليك ، يا أخى ، أن تحب فضائلك لأنك بها ستفنى

هكذا تكلم زارا . . .

المجرم الشاحب

أفما تريدون أن تنزلوا القصاص ، أيها القضاة والمضحون ، مالم يهز الحيوان رأسه ؟ إليكم رأس المجرم الشاحب ، إنها لترتعش ؛ وها ان أفظع احتقار يتكلم فى نظراته

إن عيني المجرم تقولان لكم ما الشخصية إلا شيء وجب علينا أن نتسامى فوقه ؛ وما شخصيتي إلا عظيم احتقاري للبشر

لقد انتهى أجل هذا المجرم عند ما أصدر حكمه على نفسه ؛ فلا تتركوا للتسامي سبيلاً يندفع منه إلى الانحطاط . عاجلوه بالموت فهو المنفذ الوحيد لمن بلغ عذابه بنفسه هذا الحد البعيد

ليكن قصاصكم ، أيها القضاة رحمة لا انتقاماً . وإذا ما حكمتم بالموت فلتكن غايتكم تبرير الحياة . لا يكفيكم أن تقيموا السلم بينكم وبين من تقتلون ، بل يجب أن يكون حزنكم تعبيراً عن ولهكم بالانسان الكامل . وهكذا تبررون الاستبقاء على أنفسكم

قولوا إن هـذا الرجل عدوٌ ولا تقولوا إنه سافلٌ . صفوه بالمرض لا بالدناءة . اعتبروه مختلاً لا مجرماً . وأنت أيها القاضي لو أنك تعلن للملأ ، وأنت في برودك الحمراء ، ما ارتكبت من مآتٍ في تفكيرك ، لكنت تسمع الناس يهتفون قائلين : اخلعوا هذا الرجل عن كرسيه فهو ممتلىء أقذاراً وسموماً

ولكن الفكرة شيءٌ والعمل شيءٌ آخر ، كما أن شبح العمل شيءٌ مستقل بنفسه أيضاً . فليس بين هذه الأشياء الثلاثة أية علاقة يصح أن تعتبر علاقة العلة بالمعلول

إن شبح الجريمة كان صورة لاحت لهذا الرجل فملا وجهه الاصفرار ، لانه عندما ارتكب جرمه كانت قوته على مستواها ، ولكنه ما أتم الجرم حتى وهنت تلك القوة فلم يستطع أن يتفرّس في شبح جرمه

لقد لاح لهذا الرجل أنه ارتكب فعلة واحدة لا غير ، وبذلك يقوم جنونه لأن الشواذ تحوّل إلى قاعدة في كيانه . إن الدائرة التي يرسم خطها المجرم هي قيد الأفكار ، إذ يصبح كالفرخة يرسم النومُ حولها دائرة فلا تستطيع اجتياز خطّها . وهكذا لا يكاد المجرم يخرج من جرمه حتى يدخل في دائرة جنونه

اصغوا إليّ ، أيها القضاة ؛ إن الجنون الذي يتلو العمل إنما تقدّمه جنونٌ آخر قبله ؛ وانتم لم تسبروا روح المجرم إلى أقصاها

إن القاضي الأحمر يتساءل عن سبب إقدام المجرم على القتل ، فيقول في نفسه إن القاتل أراد السرقة أولاً ، أما أنا فأقول إن نفس المجرم لم تقصد السرقة بل طلبت إراقة الدماء ، لأنها كانت ظامئة إلى إغماد النصل . ان عقلية المجرم لم تفهم هذا الجنون فاندفع الى ارتكاب جرمه ، وعقليته تناجيه قائلة : ما يهمك أن تريق الدماء ما دام جرمك يوصلك الى السرقة أو الانتقام . لقد أصغى المجرم الى صوت عقليته المسكينة لان ما أمرت به اليه كان ثقيلاً كالرصاص ، فسرق بعد أن قتل لأنه أراد أن يبرّر جنونه ولا يخجل منه

وعاد جرمه فثقل عليه كالرصاص أيضاً ، فثقل عقله المسكين فاستولى عليه التخدّر والشلل . ولو أن هذا المجرم تمكّن من أن ينتفض بهامته لكان تهاوى حمله الثقيل عنه ، ولكن من كان سيهزّ له رأسه يا ترى ؟

لو أنك أنعمت النظر في هذا الانسان ، لما تجلّى لك إلا مجموعة علل تتطلع بالعقل الى العالم الخارجي مفتشة عن غنيمة تظفر بها

ليس هذا الانسان الا كتلة أفاعٍ اشتبكت وهي في تدافع مستمر لا تستكن الا لتتفكك منسابة في شعاب الدنيا تسعى وراء غنائمها

أنظروا الى هذا الجسم المسكين ! إن روحه الضعيفة طمحت الى استكناه ما في الجسم من ألم ورغبات ، فخيّل لها أنها متشوقة الى القتل

إن من يتسلط عليه هذا المرض في هذه الأيام لتباغته شرورها فيريد أن يعذب الآخرين بما يتعذب هو به ؛ غير أنه قد مرّ زمان من قبل كان له خير وشر ، هما غير خير هذه الأيام وشرها . ذلك زمان كانت تحتسب فيه شكوك الانسان ومطامعه جرائم عليه ، فكان المبتلى بالشكوك والمطامع يعدّ ساخراً ومنشقاً عن المجتمع فيعمد هو إلى تعذيب الآخرين بعذابه

إنكم لا تريدون الاصغاء إلى أقوالي إذ ترونها تلحق الضرر بالصالحين بينكم ، ولكنني لا أقيم وزناً لرجالكم الصالحين

إن في هؤلاء الرجال من تشمئز منه نفسي ؛ وليس ما أكره فيهم ما يُعدّ من الشرور ، فانني أتمنى لهم جنوناً يوردهم الردى كجنون المجرم الشاحب

والحق أنني أريد أن يدعى هـذا الجنون حقيقة أو إخلاصاً أو عدلاً ، لأن فضيلة هؤلاء الناس لا تقوم إلا على إطالة عمرهم لقضائه بالملذّات السافلة ولا ملذّة لهم إلا بالارتياح إلى نفوسهم والرضى عنها

ما أنا إلا حاجز قائم على ضفة النهر ، فمن له قدرة على التمسك بى فليفعل ، ومن لا طاقة له على ذلك فلا يظن أنى سأكون فى يده يقبض على كما يقبض الكسيح على عصاه

هكذا تكلم زارا ...

القراءة والكتابة

إننى أستعرض جميع ما كُتب ، فلا تميل نفسى إلا إلى ما كتبه الانسان بقطرات دمه . اكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح ، وليس بالسهل أن يفهم الانسان دماً غريباً .

إننى أبغض كلّ قارئ كسول لأن من يقرأ لا يخدم القراءة بشىء ، وإذا مرّ قرن آخر على طغمة القارئين فلا بد من أن تتصاعد روائح النتن من التفكير

إذا أُعطى لكل إنسان الحق فى أن يتعلم القراءة ، فان تفسد الكتابة مع مرور الزمان فحسب ، بل إن الفكر نفسه سيفسد أيضا

لقد كان الفكر فيما مضى إلٓهاً فتحوّل إلى رجل ؛ وها هوذا الآن كتلة من الغوغاء . إن من يكتب سُوَراً بدمه لا يريد أن تتلى تلك السور تلاوة ، بل يريد أن تستظهرها القلوب

إن أقرب الطرق بين الجبال إنما هو الخط الممتد من ذروة إلى ذروة ، ولا يمكنك أن تتبع هذا السبيل إذ لم تكن لك رجلا مارد . يجب أن تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى ، وأن يكون لمن تلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم

لقد رقّ النسيم وصفا ، وهذه المخاطر تحدق بى عن كثب ، وفكرتى تتخطر مرحة فى قسوتها ؛ أمامى الصراط الممهد فلأتخذنّ من الجن أتباعا . أنا ربّ الجسارة والعزم ؛ ومن توصل بأقدامه الى طرد الأشباح لا يصعب عليه أن يخلق من الجنّ له أتباعا

لقد تاقت شجاعتى الى الضحك ، وقد انقطع كل حبل بينى وبينكم . إن السحب المتمخضة بالعواصف لهى سحبكم السوداء الثقيلة وأنا أهزأ الآن بها

إنكم تنظرون الى ما فوقكم عند ما تتشوقون الى الاعتلاء ، أما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع الى ما تحت أقدامى . فهل فيكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى

من يحوِّمْ فوق أعالى الجبال يستهزئ بجميع مآسى الحياة ، ويستهزئ بمسارحها ، بل بالحياة نفسها

تريدنا الحكمة شجعانا لا نبالى بشىء ، تريدنا أشداء مستهزئين ، لأن الحكمة أنثى ، ولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب

تقولون لى إن الحياة وقر ثقيل ، فقولوا لى أيضا لماذا تقابلون الصباح بغروركم ، ثم يجىء المساء فلا يجد فيكم إلا الذلة والخضوع ؟

إن الحياة جدّ ثقيلة ، ولكن ما هذا الخوَرُ الذى يبدو عليكم ؟ أفلسنا كلنا دواب ولكل دابّة منا وِقرُها ؟ وهل من شبه بيننا وبين برعم الورد ، يرتجف متضايقا لسقوط قطرة الندى عليه !

لاريب أننا نحب الحياة ، وليس سبب ذلك لأننا تعودناها ، بل السبب فى أننا تعوّدنا حب الحياة

إن فى الحب شيئا من الجنون ، ولكن فى الجنون شيئا من الحكمة . وأنا نفسى التائق الى الحياة يتراءى لى أن خيرَ من يدرك السعادة إنما هى الفراشات وكرات الصابون الفارغة ، ومن يشبهها من الناس . ولا شىء يبكى زارا ويدفعه الى الأنشاد كنظره الى هذه الأرواح الصغيرة الخفيفة الرائعة الدائمة الخفقان فى جنونها

إن الالٓه الذى يمكننى أن أومن به إنما هو الالٓه الذى يمكنه أن يرقص

عند ما تراءى لى الشيطان رأيته جامداً مستغرقاً ماؤه الجد والجلال ، فقلت هذا هو الروح الثقيل الذى تتساوى جميع الحالات لديه

إذا أردت القتل فلا تستعن بالغضب ، بل استعن بالضحك .

فهيّا بنا نقتل الروح الثقيل

إننى ما زلت راكضا منذ تعلمت المشى . وهأنذا أطير الآن ولست بحاجة الى من يدفعنى لأتحرك

لقد أصبحت خفيفاً ، فأنا أطير مشعرا بأننى أحلق فوق ذاتى وأن إلٓهاً يرقص فى داخلى

هكذا تكلم زارا . . .

(يتبع) فليكس فارس

مشرقيات

فى الأدب العربى الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقويفسكى

الأستاذ بجامعة لينينجراد

بقية ما نشر فى الأعداد السابقة

إن مسألة لغة الحوار فى التأليف المسرحى قد تبـدو ذات أهمية أكثر منها فى عالم القصة . ويستدل من الاتجاه السائد أن اللغة العربيـة الفصحى احتفظت حتى الآن بقواعدها ، لـكن هناك محاولات جديرة بالاهتمام ، مشبعة بروح متناقضة . ولنذكر منها محاورات جلال وتيمور . وكثيرا ما ظهرت مؤلفات نظرية تشير الى ضرورة انتهاج تقاليد أدبية ثابتة . بل إنه قام جدال قلمى حاد فى سوريا ، عند ظهور مؤلفات مارون غصن ، (المولود فى سـنة ١٨٨١) ، فالموضوع يثير اهتمام الباحث المدقق ، لـكن حله ليس من السهولة بمكان

ومما يجـدر ملاحظته أن القصصى محمود تيمور ، الذى كان يكثر من استعمال العاميـة فى الطبعات الأولى من مؤلفاته ، عاد يكتب بعدئذ بلغة هى أقرب الى الفصحى ، وذلك على الرغم من أنه — نظريا — يتنبأ بمستقبل العامية المصرية ويدافع عنها

وفى مؤلفات توفيق الحـكيم المسرحية ، نراه يجمع بمهارة بين اللهجة العامية فى الحوار وبين اللغة الفصحى عند ما يدون ملاحظاته أو وصفه . وقد دلت التجارب العملية على أن هذا الحل هو خير الحلول الوسطى فى الوقت الحاضر

د — أنواع أخرى

إن تاريخ تقدم الأدب العربى الجديد محاط ببعض الظروف الخاصة التى تضطرنا الى الولوج ف   أنواع قد نترك جانباً إذا أثير البحث حول ما اتفق على   » . مثال ذلك الصحافة ، فقد لعبت بأسرها دوراً من المرتبة الأولى فى الأهمية ، إذ كانت مدرسة لا للقراء فحسب ، بل وللـكتاب أنفسهم ، فكان ما ينشره الـكتاب من المقالات فى الصحف يساعدهم على تحسين أسلوبهم شيئاً فشيئاً ، وذلك يؤثر فى كتابتهم عنـد ما يتناولون الأنواع الأخرى

وأشد هذه الأنواع تأثراً : النثر الخطابى (السياسى وغيره) وهكذا نشأت أبحاث فى النقـد وتاريخ الأدب ، ورسائل أدبية مختلفة ، تذوقها الجمهور ، إذ وصلت فى أسلوبها الى مرتبة الشعر المنثور . وسار هذا الأسلوب الخاص بالصحف والمجلات والرسائل سريعا فى طريق التقـدم . نعم ، إن القرن التاسع عشر لم ينتج شيئا جديرا بالاهتمام ، لـكننا لا نستطيع أن ننكر أثر البستانى ونشراته الدورية العديدة . وقد تخرج فى تلك المدرسة عدد كبير من الصحفيين أمثال أديب اسحق ، الخطيب الملتهب حماسة ، ونجيب حداد الذى اتجهت ميوله الى الجدل الفلسفى

وكان للهجرة الى أوربا بعض الشىء من الأهمية ، إذ أنجبت شخصيات فذة عديدة ، مثل الشدياق وخصمه رزق الله حسون المتوفى فى سنة ١٨٨٠ ، ورشيد الدحداح الذى امتاز بما نشره من المؤلفات القديمة (١٨١٣ — ١٨٨٩) . وفى خلال المدة من سنة ١٨٨٠ الى ١٨٩٠ اجتازت مصر نقطة من أدق النقط فى تاريخها . فعلى أثر نشوب الثورة العرابية بدت فى الأفق شخصية عبد الله نديم (١٨٤٤ — ١٨٩٦) الذى أخذ يعالج فى صحف عدة المسائل الاجتماعية والسياسية بأسلوب لاذع وفى لغة الـكلام العادية . ومثله يعقوب صنوع (١٨٣٩ — ١٩١٢) المعروف باسم الشيخ أبو نضارة والذى أقام فترة طويلة فى فرنسا . أما عبد الرحمن الـكواكبى (١٨٤٩ — ١٩٠٣) فكان فى شبه عزلة عن كتاب عصره . كان الـكواكبى رحالة ثائراً ، يحلم بالجامعة الاسـلامية ، وقد أنشأ فى كتابه « أم القرى » فكرة خيالية رائعة عن مؤتمر الاتحاد الاسلامى بمكة المكرمة

فى خلال تلك المدة ، أخذت مدرسة الشيخ محمد عبده تنمو وتقوى . ومن الذين تخرجوا فى تلك المدرسة سعد زغلول (١٨٥٩ — ١٩٢٧) أشهر خطيب سياسى فى مصر الحديثة ، فلم يكن له نظير فى مستهل القرن العشرين سوى مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) مؤسس الحزب الوطنى . أما الذين خلفوا

الشيخ عبده مباشرة ، فقد وقفت جهودهم عند أبحاث إسلامية بحتة فى التفسير وفى الدفاع عن الاسلام ، ولم تحدث أى أثر واقع فى الحركة الأدبية . وهذه الملاحظه تنطبق على أمثال محمد رشيد رضا ، وهو أدقهم محافظة وأشهرهم . ومحمد فريد وجدى (المولود فى سنة ١٨٧٥) ، وهو أكثرهم تشبعاً بالروح المصرية

وفاقت شهرة على يوسف (١٨٦٣ — ١٩١٣) — منشىء « المؤيد » — فى عالم الصحافة شهرته فى أى ميدان آخر . ولا يزال الأمير الدرزى شكيب أرسلان نزيل أوربا منذ سنوات ، يشغل المقام الأول . واستأنفت المدرسة الصحفية السورية تقاليدها فى مصر ، بفضل يعقوب صروف (١٨٥٢ — ١٩٢٥) صاحب المقتطف ، وسليمان البستانى (١٨٥٦ — ١٩٢٥) الرحالة النابه ، ومترجم الالياذة ، وقد كتب عن تركيا مؤلفاً جاء فيه بأحسن الأوصاف عن حالة العرب الاجتماعية قبل الحرب العظمى . وللأسلوب العلمى الفلسفى الذى امتاز به البستانى نقيضه فيما كتبه ولى الدين يكن (١٨٧٣ — ١٩٢١) من مقالات ورسائل ، وقصائد

كان ولى الدين من أشد أنصار التقرب من الأتراك والعرب ، فراح يصنف بعبارات تلتهب حمية وحماسة ، وفى صور مؤثرة أيام أسره فى استامبول فى عهد السلطان عبد الحميد ، وما شاهده من المفارقات الاجتماعية فى تركيا

وامتاز مصطفى لطفى المنفلوطى — وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سناً — بما بذله من الجهود الموفقة لابتكار أسلوب جديد شائق ، ويمكننا أن نقول إنه نجح نجاحا كبيراً عن جدارة واستحقاق . أما البحث فيما إذا كانت المؤلفات العديدة التى نقلها بتصرف عن أصلها الأوربى قد أفادت القراء من حيث فهمها على حقيقتها ، فهذا موضوع بحث آخر

وأظهرت المدرسة السورية ميلاً خاصاً إلى الرسائل والشعر المنثور . ويعتبر أمين الريحانى مبتكر هذين النوعين ، وهو كاتب معروف ، حائز حسن التقدير . وكان أول من رفع فن الرسائل والشعر المنثور إلى المكانة الأولى وضمن لهما شهرة ذائعة ، وقد ظل مخلصاً لفنه ، كما هو واضح فى مؤلفاته الأخيرة . ومثله جبران خليل جبران ، فانه تفرغ إلى هذين النوعين ، بل إن جل مؤلفاته دواوين من الشعر المنثور أو رسائل تحوم حول نظرية خاصة أو فكرة مركزية . ثم سارت المدرسة السورية المتأمركة فى طريق التنويع (مثال ذلك : ميخائيل نعيمة) لكن الأفضلية ظلت للرسائل والشعر المنثور . وهذه الرسائل ، مع اختلاف مضمونها ، تعد أهم مميزات المدرسة الحديثة ، وإن كانت فى مصر توجه عناية واهتماماً خاصاً إلى مسائل تاريخ الأدب ، والفلسفة ، والاجتماع

ومن الأمور الغريبة الجديرة بالملاحظة أن كتب رواد هذه المدرسة (كمنصور فهمى والعقاد وهيكل والمازنى وسلامة موسى) إن هى إلا مقالات سبق أن نشرت على صفحات المجلات والصحف اليومية ، وهو دليل على حيوية هذا النوع ، بل برهان ساطع على الأثر القوى الذى تركته الصحافة الدورية بالنسبة لتقدم الأدب

ترجمة محمد أمين حسونة

من ذكريات رحلة الجامعة المصرية الى أوربا

زاكوپانا ZAKOPANE

مدينة الأحلام والثلج

بقلم محمد عبد الرحيم عنبر

كان فى برنامجنا الطويل أن نزور بولندا ، فوصلنا عاصمتها الجديدة « فارسوفيا » فى مساء ١٧ أغسطس الماضى ، كما كان من المقرر أن نقيم فيها ثمانية أيام ، إلا أن أموراً شاقة عرضت فجعلت رئيس الرحلة يغير وجهة السير ، إذ أن شرذمة كبيرة من مهرة « النشالين اليهود » قد احتفت بمقدمنا الاحتفاء اللائق ! ومما زاد فى مضايقتنا اجراءات البوليس البولنـدى التى كان لها كل الفضل فى تأخير وصول حقائبنا الى « بيت الطلبة » القذر الذى هيئ لاقامتنا ! . وكان أغلبنا قد غلبه النعاس من فرط الأعياء فأسلم عينيه لسلطان الكرى ونام بيذلته نوماً هنيئاً حتى تبدت خيوط الصبـاح فى اليوم التالى . وفى ذلك اليوم استفحلت احتفاءات النشالين الى درجة مزعجة

فكان طبيعياً اذن أن يستقر بنا الفكر على مغادرة فارسوفيا بعد اذ جاهدنا جهاد الأبطال فى الذود عن « جيوبنا » مما محا من نفوسنا جمال كل رؤية !

وعلى رصيف المحطة حدثنى أحد الأولاد البولنديين عن هذه الظاهرة فى أسف قائلا لى : « يؤلمنا جداً أن يزعجكم أولئك النشالون الدوليون من سفلة اليهود الذين تضيق بهم بلادنا ! » فشكرته وطيبت خاطره لكى أذهب عن وجهه لمة الخجل

وبعد سفر شاق دام عشر ساعات بالقطار بلغنا زا كوپانا . وكم كان المنظر رائعاً حين كنا نعدو سراعاً خفافاً ، كل خمسة منا فى عربة رشيقة صغيرة ذات حصـان واحد ينهب الأرض نهباً ، ويطوى المسافات الطويلة صاعداً فوق صدر ربوات عاليات فى طريقنا الى فندق « مارتون Maraton » الجميل الذى يطل على قلب المدينة من فوق ارتفاع تسعمائة متر ، ارتفاع شاهق يتيح للنزل أن يدوروا بأعينهم فوق آفاق الجبال السامقة المترامية الأطراف ، ذات التيجان الثلجية ؛ أو أن يرسلوا أنظارهم بعيداً الى حيث تفترش أشعة الشمس رقع الأرض ذات الألوان الصارخة المختلفة ؛ وأينما تقع أبصـارهم يشاهدوا جمالاً أخاذاً ، ويروا صوراً مختلفات من سحر الطبيعة الخالدة . فها هى ذى تلك الذرى الشاهقة — ذرى الجبال — تلتحف بأوشحة رمادية فاتنة من ضباب كثيف لا يلبث أن يستحيل رذاذاً خفيفاً ثم مطراً ثقيلاً يتجمع ليفترق لينتهى الى جداول ضئيلة تتشابك أو تتشعب ، وتلتوى أو تستقيم ، وتنتهى بدورها الى مجار أوسع تعترضهـا صخور ضخمة ترقاها المياه بعـد صراع عنيف تنبعث فى لحظات عنفوانه ألحان الانتصار وأنغام موسيقية شجية فتنة الناظرين وسرح السامعين !

وها هى ذى الغابات الكثيفة تزين كل مكان وتهز فى النفوس حنين الالتجاء الى أحضانها ، فى ظل أشجارها الباسقة ، وتحت أغصانها المتهدلة ، لقضاء ساعات طوال بين الخضرة والمـاء والوجه الحسن !

وههنا وهناك المنازل الخشبية الريفية على صـدر الجبال وقممها أو على قلب السهول ، متقاربة حينا ومتباعدة أحيانا . وتبدو جلية طورا تحت أشعة الشمس وبين الرياض النضرة كأنما هى زهرات من بنفسج فضاح ! وشاحبة طورا بين لفائف الضباب كأنها فكرة سابحة فى خيال شاعر مفتون !

فكيف إذن لا تكون زا كوپانا مدينة الخيال والأحلام ؟

وزا كوپانا ليست مصيفاً فقط ، كما أنها ليست مشتى فقط ، بل هى هما معاً . فالمعجبون بها يرحلون اليها فى الصيف كما يرحلون اليها فى الشتاء ، ويبهرهم جمالها فى الفصلين . فاذا زرتها فى الصيـف فلست منتهيا من سماع وصف الشتاء حين يهبط بثلوجه فتتحول تلك البقاع الخضراء الضاحـكة الى بساط فاتن من الثلج فتتيح للناس الانزواء فى منازلهم يلتمسون الدفء والراحة . وتعطى الأزواج فرصة الأوبة الى زوجاتهم مبكرين على غير العادة ! ولا يخرج إلا أولئك الراغبون فى الانزلاق على الجليد . عادة شائعة فى تلك البلاد

فاذا كان الشتاء حدثوك عن جمال الصيف وسحره . الصيف

الفتون حيث تطوى شمسه الدافئة ذلك البساط الرهيب وتدفع بأفواج الناس الى أحضان الغابات ، راجلين أو فوق ظهور الجياد . حيث تدب الحياة من جديد فى الكائنات المقرورة . حيث تلبس الطبيعة رداءها الجديد ! فالناس هناك لذلك تواقون الى الرياضة المنيفة . وتتجلى هذه الروح فى الطفل والشاب والشيخ ؛ فى الرجل والمرأة ؛ فى الفقير والغنى ؛ فى العاشق والخلى ! فى كل كائن حى حتى الحيوان الذليل . . .

والقوم هناك لا يألون جهدا فى توفير أسباب السعادة حيث يعيشون عيشة الفطرة وينزعون عن أجسامهم المنهكة أردية السهرات الأنيقة وملابس العمل الثقيلة . فلا كلفة ولا تصنع ولا رياء ولا حقد ولا مفاخرة كاذبة . تأويهم الدنيا كلهم على السواء ، ولا تجعل لأحدهم مجال الفضل على آخر ، كأنهم أسرة واحدة يخرجون الى الشوارع « بالبيجامات » وأثواب النوم . ذلك الأمر المستقبح فى مدن العمل والرسميات . يتبادلون المجاملات الرقيقة كأنهم متعارفون متوادون منذ زمن بعيد

ولم يحاول أهل تلك البلاد زخرفة الطبيعة . بل تركوها كما هى بزركشتها الالهية . وإن كان هناك ثمة مجهود يبذله الانسان فهو فى الاستمتاع بسحر الطبيعة ليس إلا ؛ فيتسلق الجبال أو ينزلق على الثلج ، . . الخ . وزا كوبانا فى كل هذا كالجمهورية الفاضلة التى أسسها أفلاطون فى خياله الواسع ! . تكفى نفسها بنفسها وتعيش بذاتها لذاتها . يكاد يشعر المقيم بها أن تلك المدينة الوديعة هى كل ما يستطيع أن يتصور من الدنيا

وفيها السهرات الصاخبة التى تصل الليل بالنهار ، وتجعل السهران يستطيع أن يقول فى شىء من الزهو — إن كان هناك ثمة مجال لزهو — « بدأت سهرتى تحت ضوء القمر وختمتها تحت ضوء الشمس ! »

وإن أنس لا أنس تلك الليلة البارعة التى أمضيناها فى كازينو وتشاسكا Chaska حيث سعدنا ساعتين أو يزيد بمشاهدة الرقصات القومية التقليدية التى يؤديها الوطنيون فى ثوبهم الوطنى الموشى بالقصب والحرير ذى الألوان الفاقعة . يؤدونها رجالاً ونساء وأطفالاً ؛ يختلط الحابل فيهم بالنابل . يأخذ الرجل بيد أية امرأة يقع عليها بصره ! ويمسك الطفل الغرير — مازحا — بذقن الشيخ العجوز الماثل على حافة القبر ! ويحتضن الشاب الغريب الفتاة المكتملة ذات الصدر الناضج ! فيدورون جميعاً فى حلبة الرقص ، يتجاذبون ويصفقون ويلفون لفات سريعة بارعة على كعوب أحذيتهم أو أطراف أصابعهم : ضاحكين متراقصين

* * *

وصعدنا مرات جبال تاترى « Tatry » راجلين أو ممتطين « القطار المعلق » الى حيث ارتفع بنا نحو ألفين وخمسمائة متر فوق سطح البحر ! نوع غريب من المواصلات لا يوجد الا حيث تتناهى الجبال الى مثل هذا الارتفاع الشاهق كسويسرا . وهو عبارة عن صندوق ذى أركان من الصلب وجدران من الزنك ، معلق فى أسلاك قوية شدت الى أعمدة متينة رفعت فوق ذرى الجبال السامقة . وفى كل ذروة محطة كبيرة ، ومكتبة وبوفيه صغيران

وزا كوبانا كـكل قرية أوربية بها دار للسينما وأخرى للتمثيل وناد للرياضة . وتتوفر فيها كل أسباب الحياة من حوانيت ومقاه ومستشفيات وفنادق . . . الخ

وتنتشر هناك على الأخص الصناعات الخشبية الرفيعة كالتماثيل وأدوات المكتب والزينة والعصى لوفرة الخشب المجلوب من الغابات الكثيفة

هذه هى زا كوبانا التى تفتح ذراعيها لكل قادم . وتتألم لكل راحل بعد اذ يكون قد أنشأ بينه وبين المقيمين بها علاقات ود وصداقة ! المدينة التى تأوى كل هارب من مضنيات الحياة ، كل ناشد راحة ومتعة وسعادة وجمالاً !

وأخيراً ! المدينة التى قضينا فى رحابها ستة أيام بين جمال لا ينتهى وسحر لا يوصف . والتى غادرناها محملين منها فى جعابنا بمقادير غير محصورة من الأحلام والشعر !

ولعل كثيرا منا دخل اليها وقد أقفلت دونه أبواب الشعر والنثر ، وخرج منها شاعراً مجيداً وأديباً فريداً ! ! . . .

محمد عبد الرحيم عنبر
بكلية الحقوق — الجامعة المصرية

القصص

راعية الغنم

للآنسة جميلة العلايلي

هناك فى أعماق الصحراء النائية اتخذت راعية الغنم مأواها ؛ وعند شط البحر الزاخر بأمواج الأزل استقر بها المقام ، حيث تختلط أضواء السماء بظلال الأجواء ، ويبدو الفضاء كأنه مرآة لصورة اللانهاية

فى هذه الدنيا المجهولة اتخذت الراعية سكنها أو معبدها كما نظن وهى لا تدرى كيف استطاعت أن تعبر محيط الحياة المحدود لتعيش فى كنف الوحشة الهائلة التى لاحد لها ، وكيف تمكنت من تحطيم التقاليد المرعية لتقيم لنفسها حياة لا وزن لها ولا قيمة فى نظر المجتمع الانسانى

كذلك لا تدرى كيف تمكنت من مغالبة رغبات الشباب وأهواء الصبا ونزعت راضية إلى حياة التقشف والحرمان

وتحار أيضاً فى تفهم حياتها بقدر حيرتها من خضوعها لقوة قاهرة مجهولة ساقتها دون وعى منها إلى هذه الحياة الجرداء

وهى تذكر ماضيها القريب بما يحمله من نعم الحياة ومباهج الترف والملذات وأطايب الوجود كأنه حلم مر بها لحظات من الزمن الحالم ، ولكنها لا تذكره بحنين ولا تتوق إليه ولا تتمناه ، وهى تتأمل نفسها فى حاضرها فيحلو لها أن تشعر بقدرتها التى حملتها — وهى لم تتعد بعد العشرين من عمرها — إلى اجتياز عقبات الحياة ، وقد عبرت محيط الوجود فى غير خوف ، وحطمت تقاليد المجتمع الغاشمة فى غير لين . . .

إنها تضحية هائلة منها بلا ريب ، إذ كيف يمكن لانسانة رقيقة ناعمة شديدة الحساسية أن تعيش فى دنيا موحشة مليئة بالمخاوف والأوهام ! إنها تشعر بذلك ، ولكنها تعرف أيضاً أن الوحشة الهائلة والخوف المروع والسكون الرهيب أهون من أباطيل المدنية وتهاويل الجوع ومساوئ البشر ، وأقل خطراً من محن التقاليد وتعسف البيئة الحاكمة ! ! !

لذلك ارتضت حياة الحرمان قانعة ؛ ومع أن ليل الصحراء المروع كان يملأ جوانب نفسها رهبة ، فانها كانت تقتل الخوف بأحلامها السانحة . . .

كانت تتخيل دائماً أن الله معها ، وأن ذلك الشروق البهيج كلمة الأمن تنطق بها شفتا الأزل ، وأن مظهر الغروب كلمة العزاء ترسم على صفحة السماء لتوحى إليها أحلام الأمن والطمأنينة والصفاء ! ! !

كانت تشعر أن قلبها عامر بالحب إلى درجة يسع معها ذلك الخلاء المطلق لو ضمت الخلاء بين جانحتيها ؛ وعندما تواتيها أخيلة المساء تتأمل الكون فى خشوع فيرتد اليها الأمن وتعاودها الطمأنينة ، ويبعث الله إليها ملائكة الرحمة فتنام نوماً هادئاً لا تشوبه مرارة القلق ولا الفزع حتى يقبل الصبح فاها بمنقار طير جميل فتستيقظ وهى على يقين أن ذلك الطاير بعثه الله ليحمل إليها رسالة رضاه

على أن حياتها كانت لا تخلو من العمل الجدى فى نهارها . كانت ترعى أغنامها وتغزل أصوافها وتستخرج الزبد والجبن من ألبانها ولا تنتفع بذلك لنفسها بل كانت تهبه راضية أبناء السبيل وهم فى ناظريها اليتامى والمساكين والمحرومون

هؤلاء هم الذين يعرفون الله ويحبونه حباً جماً ، ومع ذلك يحرمهم الحياة من نعمه وهى واحدة منهم — كما تعتقد — ولكنها الآن تملك ما لا يملكون فلم لا تمنحهم مما وهبها الله الجليل العظيم ؟

إنها تشعر أنه وهبها ذلك من أجلهم وعليها أن ترد الأمانة لهم ، ولعل هذا الاحساس الذى ولد معها وظل ينمو ويترعرع حتى اشتد أزره وملك عليها قلبها وعقلها هو الذى دفعها إلى ترك

حياة القصور والفرار من بيئتها سراً لتعيش هنا فى كنف هاته الوحشة أليفة وحيدة . بنت عشها من الأغصان وزينته بالزهر، وراحت تقتات النبت وتروى عطشها من ماء النهر ، وباتت تحس أن كل ما يحيط بها حانٍ عليها ، وتحس بنسمات العطف ترف عليها من كل جانب ، فتشعر أن قلبها بحبه الهائل أسمى من الوجود ، أو لعله صورة لذلك الذى يسمونه الخلود . ويخيل إليها أنها تملك الحياة بأسرها لأنها تتنفس فى طلاقة ، وتمدو فى غير قيد ، وتخلع أرديتها دون أن تخشى النظرات الفاسقة ، وتسير كما يحلو لها فلا يلاحقها أصحاب القلوب المريضة

* * *

مرت بها الأيام وهى لا تعرف لأيامها حساباً ، بل تشعر أنها كما ولدتها أمها خالية الذهن إلا من الايمان الأكيد حتى بلغ بها الخيال يوماً فحسبت أنها تعيش فى الفردوس الذى وعد الله به المخلصين من عباده ، حتى رأت يوما إنسياً يروح ويجىء من بعيد فأيقنت أنها مازالت على أرض الحياة تعيش

وتعلق نظرها بذلك الشبح الذى تراءى لها وهو يتمشى فى سكون ، وينقل خطاه فى هوادة ، وفى يده كتاب لا يقرأ منه إلا لماما ليتأمل مظاهر الطبيعة الفاتنة البادية فى الصحراء ؛ وظل كذلك حتى لمح عن بعد طيف الراعية الحانية على الغنم تطعمها وتسقيها ، فتقدم نحوها عامداً ، وراح يتأملها فى عجب وهو يتوجس خيفة من وحشة المكان الذى يأويها ؛ وقد عجب لجرأتها ، وظن أنها لابد أن تكون همجية مستأنسة أو أنسية متوحشة — ولكن مظهرها الملائكى طبع فى ذهنه فاكتسح أمامه هذه الخواطر وراح يرثى لحالها ويفكر فى أمرها ، ووجد نفسه يتقدم اليها من حيث لا يدرى فتوقف عن المسير وأسرع الخطى بعيدا عنها

فلشد ما كان يؤلمه أن يخاطب امرأة مجهولة ، وكذلك يخجله أن يواجه امرأة . ولما ابتعد عنها وشعر بطول المسافة بينهما — ندم على تسرعه وقال لنفسه : وما ضرنى لو حادثتها ؟ ألا يحتمل أن تكون هى صحيفة مجلوة من ذلك الكتاب الغامض الذى يحتاج لقاموس ؟ ثم ارتد اليه اعتدال رجولته فاطمأن الى تصرفه

أما هى فقد راحت تتأمله فى حذر وتعجب بدورها ! فلأول مرة فى تاريخ وجودها فى الصحراء ترى إنسيا ، وقد كانت سعيدة بوحدتها ، فأى قدر قذف اليها اليوم بذلك الرجل المجهول . فملكها خوف ورعب ، وسادها قلق واضطراب ، وراحت تنظر للخلاء كأنه مفازة مخيفة تكاد تبتلعها ، ثم تنزل عليها خاطر غريب فهدأت أعصابها فاطمأن قلبها وقالت لنفسها : عله عابر سبيل !! ثم استعادت بخيالها صورته ، فأدركت أنه شاب وسيم الطلعة عليه مهابة الشباب الثرى ، وتأمله فى كتابه يدل على أنه من طلاب العلم أو المتأدبين ، من عسى أن يكون ؟

عله يملك هذه البقاع فجاء اليوم يزورها — ولكن لو كان لسألنى بأى حق اتخذت هذه البقعة ؟ ثم إنى لا أعرف إنسانا متمدينا يبلغ به جنون الزهد أو التقشف الى حد يدفع به الى شراء أرض قاحلة لا فائدة منها . والناس كلهم يجرون وراء الفائدة المادية

بهذه الخواطر شغلت نفسها طوال الليل حتى طلع الصباح فمر بها وقد تأملها فى سكون ، بينما هى تتأمله فى خفر ، وراح يمر عليها كل يوم ملقياً عليها نظرة عابرة وهى تتعمد أن تبدو غير آبهة ولا حافلة ، حتى اشتد ظمؤه يوماً ، فاقترب منها وعليه طابع الصلف والكبرياء ، وطلب كوب ماء ، فقدمت له إناء به ماء وهى تبتسم وتقول : يؤسفنى أن الماء غير مكرر . . . فذق مياه الزاهدين (قالت ذلك بلهجة لا تخلو من عطف خفىّ ، ولطف ساذج ، وعذوبة محببة ،وتحفظ رزين ، فتأفف وأبى فى صمت قالت : إذن تفضل كوبة من اللبن ؟

فهز رأسه موافقاً وشرب ثم مد يده يمض دريهمات اليها فامتنعت فى إباء وقالت : المال لطلاب الحياة ولست منهم ! فشكرها فى إيجاز وكبرياء ، وتركها فى موقفها وسار فى طريقه فى هدوء وراحت تترقب مروره وقد هيأت له كوب اللبن فى كل صباح فلم يحضر ، ومرت الأيام وقد ازدادت لهفتها

لم ترغب فيه كرجل يحادثها أو يجالسها ، ولكنها كانت تود أن تراه ثم تغمض عينيها الى الأبد ، ولم تستطع تفسير شعورها الغامض الذى ملكها . لقد باتت تحلم به فى الليل وتترقبه فى النهار ، وجاءها على غير موعد يطلب لبناً . . . ولما شرب ظل

فى موقفه لا يتحرك ولا يتكلم وهى فى موقفها توارى اضطرابها بالاشتغال فى غزلهـا وأخيرا قال بلهجة التهكم المر : ما الذى جاء بك الى هذه البقاع الجرداء وأنت صبية حسناء ؟

فالت برأسهـا إلى الخلف وقد بانت أشد فتنة وسحراً ثم قالت فى هدوء ودعة :

ما الذى يجنيه من حياة الدنية وضجيجها ! ما الذى يجنيه من أوهام الحياة ؟

لا شىء بالتأكيد !! ...

إذن خير لنا أن نفكر على قدر عقولنا فى حياة تكفل لنا بقدر المستطاع الأمن والسلام

فضحك الشاب متهكما وقال : وإذا كان جميع الناس على هذا الطراز (طرازك التقشفى) فما الذى تجنيه الانسانية أيضاً ؟

قالت : على الأقل تخلو من التنابذ والتنافر فترتدع الخلائق عن الحرب والتقاتل

فازداد تهكما وقال :

وهل تظنين أن امتناعك عن مشاطرة الناس حياتهم العامة يشوه من جلال الحياة ؟

قالت : لا ، ولـكن يطمئننى أنا ويسعدنى

قال : إذن فأنت تلبسين مسوح الراهبة إمعاناً فى الأنانية ؟

قالت : وهل يمكن لانسان أن يتحرر من الأنانية ؟ . . .

ولـكن يمكن تحديد الأنانيـة وتوجيهها إلى طريق مستقيم ، فهناك فارق كبير بين إنسان يقتـل إنساناً ليسعد نفسه ، وبين آخر يعرف كيف يمتع نفسه فى حدود الخير والفضيلة دون أن يلجأ إلى الشر أو الرذيلة

فهز رأسـه وهو يتمتم ويقول : هيه ؟؟ ... وأخيراً قالت : سأعيش هنا حتى نهاية أيامى ، فقال : ألا تشعرين بوحشة الوحدة ؟

قالت : قلبى عامر

قال : عن ؟

قالت بنغمة حارة : بالحب !

فعاد إلى تهكمه ضاحكا وقال : وأين ذلك الحبيب ؟

قالت : إنه معى

قال : ولـكنى لم أره ، قد جئت هنا كثيرا

قالت : يخيل إلىّ أنك تتغابى لتستدرجنى

فتلفت الشاب يمنـة ويسرة كأنه يفتش عن ذلك الحبيب ، ولكنها لم تدعه فى حيرته وقالت : أيمكنك أن ترى الله ؟ من أجل الله جئت هنا ، ومن أجله أعيش ، ومن أجله أحب العالم كله !

قال : قد يكون ذلك صحيحاً ، ولـكن لا بد لك من تحـديد هذا الحب وتركيزه

فلم تفهم ما يعنيه وقالت : إننى أحب كل كائن لأننى أرى فيه سمة من سمات العظمة الالـهية ، فأنا أحب الـكائنات كلها لأنها تكون فى مجموعها القوة الجليلة الهائلة والجمال اللامحدود ، أعنى أحب صورة الله منوعة الرسوم

كانت تتحدث وكل خالجة فيها تعبر بوضوح عن صدق إيمانها ، وكان فى التماع عينيها واختلاج شفتيها معنى صريح لعواطفها الصادقة

فغمغم الشاب بلهجة المريب : لقد دفعك الحرمان إلى ذلك

فتندت عيناها وتمتمت بصوت خفيض : أجل . هو الحرمان الذى قربنى إلى الله ، وهو الذى فتح قلبى للحب السامى ، وهو الذى أودع فى قلبى عاطفة هائلة هى على قدر غموضها عميقة

وأحس الشاب أن كلماتهـا تنزلت على قلبه فتمنى لو يعانق جسمها اللدن ليبثها الحرارة التى فى كيانه ، ولـكن بقية من كبريائه دفعته للصمت ، وكان شعورها قد فاض بها فازداد اضطرابها

ولـما أحس بحنينه يشتد خاف أن يفتضح أمره فانسحب وقد حياها على عجل وانصرف

***

ومرت بها الأيام وهى تتجنبـه بقدر ما تتمناه ، فقـد أدركت من المرات التى لقيته فيها أن فى التماع عينيه حكاية ، وعلى شفتيه طابع الرغبة الجامحة ؛ ولعله ظن ذلك التجنب زهداً فاحترم مشيئتها وراح يمر بها هادئاً ويعرض عنها صامتاً

وقد فسرت هى تصرفه بالخشونة والجمود فاكتفت أن تنظر اليه من بعيد عند ما يجىء ويجلس هناك على صخرة وسط الرمال كأنه يحدثها بسرائر نفسه ليرفه عن صدره عبء خواطره الثقيل

وفى أمسية قمرية ساجية أحست بشعور قوى جارف يدفعها اليه . . لتراه ثم تعود ، ولـما جاءته وكان قد أخذ مجلسه على الصخرة ، نظر اليها نظرة خاطفة ، ثم أشار اليها بيـده لتجلس

فامتنعت واتجهت خلفه لتعود ، فانتصب فى هدوء وقال لها فى رفق : إجلسى يا طيفى الهارب ... فامتنعت ...

فعاد يقول بصوت حزين : أنا مريض

فتمتمت : لا أظن

قال : صدقينى

قالت : لست مريضاً ... ولكنك حالم — أجل — إن ما بك هو حلم عميق وهو الذى أورثك هذا الجمود

فارتاع ثم قال : أجامد أنا ؟

قالت : أو تشك ؟

قال : أجل

قالت : ثق

قال : لا أظنه جمود عاطفة ولكنه رهبة وخوف

قالت : ممن تخاف ؟

قال : منك ! ! !

قالت : أيمكن أن يخاف الرجل القوى امرأة ضعيفة ؟

قال : آه من المرأة : فى عينيها بريق الأمل وعلى شفتيها طابع الألم ، ومن هذا الالتباع تتدفق القسوة فى شبه زلال الرحمة

قالت : إن الله يحيط المرأة بسياج الغموض وهو ما يخيف الرجل ، وما يسميه بالقسوة ليجعل لها حصانة طبيعية وسلاحا لا يؤذى . فتكلف ابتسامة شاحبة وقال : ورغم ذلك فالف أف من سلاح عينيك

فضحكت فى سذاجة وقالت : فى عينيك حكاية وفى عينى سلاح — هه — يا للفارق الهائل !

فتماكر وقال :

فى عينى حكاية ! ! عجبا ! !

أتعرف الراعية التهكن ؟

قالت : أجل

قال : إذن نبئينى يا كاهنتى ؟

فلزمت الصمت طويلاً وهى تحدق فى عينيه ثم قالت : فى عينيك حكاية حلمك ! !

قال : يا لله ، وهل لحلمى حكاية ؟

وإذا كان هذا رأيك عن عينى فما عساى أقوله فى عينيك

فقالت : بدون اكتراث :

قل ما بدالك

فنظر إليها طويلاً ثم أرخى جفونه وراح يعبث بعصاه فى الرمل كأنه يصور خواطره بها ثم نظر إليها وقال :

فى عينيك عمق الأبد وسر الأزل

قالت : ثم

قال : لا شئ

قالت : فسر ما وراءهما

قال : عسير على إدراك ما وراء الأبد وتفهم خفايا الأزل

قال ذلك وهو يتأهب للانصراف فتشبثت بردائه وقد نسيت حذرها وخوفها وقالت : ابق بجانبى ، ابق بجانبى ، لا تتركنى هكذا وشيكا

فتعمد عدم الاهتمام وحاول أن يخلص نفسه من بين يديها . ولما رفع وجهه إلى عينيها ولمح دموعها تخاذل وأخفق وأطرق برأسه فى استسلام وقد تجهم وجهه ولزم الصمت . وأخيراً غمغم بصوت خفيض : أغنى ، فقبضت على يده وهى تقول : افتح عينيك ! ! ودعنى أتأمل فيهما طويلا

دعنى أتأمل فيهما حتى نهاية الوقت بل دعنى أتأمل فيهما حكاية قلبى !! وهنا تلاشى كبرياؤه وبدأت عواطفه تشيع فى عينيه وتتراءى كالظلال على شفتيه بسمة السخرية حتى امتدت الى قهقهة طويلة فاستفاق فوجدها بين يديه جثة هامدة

فنضحها بالماء حتى استفاقت ففتحت عينيها فى بطء وغمغمت : أما زلت هنا أيها القدر الجائر . ثم ابتسمت وقالت أترانا انتهينا ؟

قال : أى قوة هائلة قد قذفتك من أعماق الحياة لتأخذى مكانك فى قلبى ؟ فانتصبت وقد ملكها الفرح وقالت : إذن أنت لى وسوف تظل بجانبى إلى الأبد

وأحس فى أعماقه بسخرية القدر فتألم لها وعليها ، إذ أدرك خطورة تصرفه وأيقن أنه عاجز عن مكافأتها على حبها — انه مرغم على فراقها ، فللتقاليد حرمة يجب أن تصان ، ولبيئته تقاليد مرعية يجب أن تحترم ، ولوالده عليه حق الطاعة والخضوع — فتلطف بها وقال : قد أكون تطفلت عليك فمعذرة ، سأذكرك دائماً بالخير ، وإذا احتجت إلى معونة فأنا أقرب الناس إليك

فتألمت واحتجت فى عنف وحاولت أن تحتم عليه البقاء بجانبها لخانها النطق وقعد بها الحياء.

ولم يترك لها مجالاً لاستعادة قواها . فحرك ساقيه ومضى عنها مهرولاً وتركها فى مكانها تتمتم :

أيمكن أن تقذفنى الحياة من أعماقها إلى شاطىء فيصدمنى القدر بصخرة الفناء

***

ومرت الأيام سراعا وهى تترقبه كل يوم وتسقط ورقة أحلامها من على شجيرة أمانيها ذابلة صفراء وحاولت أن تبحث عنه هنا وهناك فلم تعثر على آثار خطاه

لقد مل الصحراء كما ملتها ، أو لعله تعمد تجنبها رحمة بها وخوفا عليها فأنه كان على يقين من أنه أعجز من أن يحارب أوضاع المجتمع الصارمة ، وأضعف من أن يحطم التقاليد الغاشمة

ورأته فى منامها على سفر يشير إليها بيـده من نافذة القطار فقامت مبكرة وقطعت الوهاد والنجاد حتى بلغت محطة أول قرية تقرب من الصحراء لتتعزى برؤية المسافرين ، ومرت القطر تباعا وهى تتأمل الوجوه الغادية والرائحة ؛ (وأخيراً) لمحته من النافذة رقبها فى حذر ويشير إليها بيده من نافذة القطار ، وسمعت بجانبها صوت رجل يقولون له (العمدة) يصيح : مع السلامة ! لا تتأخر فى الميعاد المحدد ! وقال له صاحبه لماذا ؟

فأجابه : يوم زفافه !

حميد العلايلى

البريد الأدبي

نظريات جديدة في الفن والنقد

اطلعنا في البريد الأخير على تفاصيل القرار الذي صدر في ألمانيا بتحريم النقد الأدبي والفني، والبواعث التي أملت باصداره؛ ويقضي القرار الجديد بتحريم نقد المؤلفات الأدبية والفنية والوسيقية والمسرحية، ويشمل أيضاً المسرح والسينما والحفلات الموسيقية كما يشمل أشخاص المؤلفين والفنانين جميعاً، ولا يباح بمقتضى القرار الجديد سوى عرض الموضوعات ووصفها دون التعليق أو إبداء الرأي. وقد صدر من قبل قرار يقضي على الكتاب بأن يعنوا عند نقد المؤلفات الفنية بالتنويه بالمزايا السياسية والثقافية والجنسية للاشتراكية الوطنية

ويرجع هذا التحريم إلى رأى الوطنية الاشتراكية (أو الهتلرية) في الفن وهو أن الفن يجب أن يستمد إلهامه من المثل والخواص القومية، وأنه لا يوجد من أجل قيمته الذاتية فقط، ولكنه يوجد لخدمة مصالح الدولة والأمة

وقد بسط الدكتور جبلز وزير الدعاية الألمانية في بيانه الرسمي بواعث هذه الخطوة الحديثة، فذكر أن مهمة الفنان هي أن يحمل الى الأمة «القوة مع السرور»، وأن النقد الفني لا يزال في ألمانيا يحمل طابع «الحرية اليهودية» على رغم جميع الجهود التي بذلت لمحو هذا الطابع؛ وإن أولئك الفتية الذين يزعمون اليوم أنهم أقطاب المعرفة والنقد يسيئون دون قصد إلى حياتنا الفنية والثقافية؛ وهم بلا ريب ورثة الارستقراطية اليهودية الناقدة دون أن يشعروا. ثم قال إن ذلك لا يعني اخماد حرية النقد، ولكن القصد أن يقتصر النقد على أولئك الذين تؤهلهم معارفهم ومقدرتهم للحكم على أعمال الآخرين. وإنه ليس من الانصاف أن يتصدى فتية أحداث في العشرين أو الثانية والعشرين لنقد أعمال رجال من أقطاب الفن قضوا أعمارهم في تفهمه وإتقانه وأحرزوا شهرة عالية فيه، وإنه يجب أن يبدأ أولئك الفتية بالتمرن على الوصف والعرض، وإن باب النقد مفتوح للقادرين، ولكنهم لا يوجدون الآن، وإنه لا يريد أن يسقط الفنانون صرعى النقد الحر. هذا ولن يفقد الفن شيئاً إذا بعد أولئك النقدة الأغرار من الميدان، فالعظمة الزائفة تسقط في ظرف عام حتى ولو لم يقتلها النقد. أما ذوو العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الابتكار والاحتفاظ بكرامتهم الفنية، ويجب أن تصان العبقرية الحقيقية من كل ما يؤذيها ويمهد لسقوطها

هذه هي نظريات العهد الألماني الجديد في الفن وفي النقد؛ ومهما كانت في ظاهرها تحمل طابع الطرافة، فلا ريب أنها أخطر ما يكون على الفن وعلى العبقرية الفنية، فالفن الحقيقي لا يزدهر في ظل العبودية الفكرية، ولا تنظمه القوانين العسكرية، والعبقرية الفنية أو الفكرية، لا تزدهر إلا في جو النقد الحر، والنقد وحده هو الذي يبرزها ويذكيها ويصقلها

كتاب عن علائق العرش والأمة

لعل في الأزمة الدستورية التي تجتازها انكلترا الآن وفي الخلاف الذي قام بين العرش والحكومة مايجعل لمثل هذا الكتاب أهمية خاصة؛ فقد صدر أخيراً بالانكليزية كتاب للدكتور ريدبل كايت B. Keith عنوانه «الملك والتاج الامبراطوري. ما لجلالته من حقوق وما عليها من واجبات» The Kiug and The Imperia Crown Iete، ويتناول المؤرخ بالشرح كل الواجبات والأعمال التي يضطلع بها العرش في مختلف الشؤون العامة، ثم مركز الملك وعلائقه بالنسبة للامبراطورية وماله من حقوق وما عليه من واجبات في الحالتين؛ ثم مدى تأثير العرش في مختلف الدوائر الحكومية، ويتناول المؤلف خلال بحثه كثيراً من الشخصيات السياسية الكبيرة، ويبين ماذا كان موقفها من العرش؛ ويخص السياسي الكبير جلادستون بمديحه وتقديره، في حين أنه يحمل على دزرائيلي وعلى أسلوبه. ومع أن الكتاب يدور في معظمه على علاقة العرش بالحكومة والأمة، ومدى ما يقوم به في سبيل الخدمة العامة، فان أهم فصل في الكتاب

هو الفصل الذى يتناول علاقة العرش بالامبراطورية ، لأن هذا البحث جديد » ولأن المسألة التى يتناولها جديدة فى تاريخ الامبراطورية البريطانية »

وقد أسبغت الأزمة الانكليزية الأخيرة على هذا البحث أهمية خاصة

ذكرى موسيقى كبير

يحتفل فى العام القادم فى مدينة ليبسك بألمانيا بذكرى الموسيقى الكبير بكستهودى أعظم أساتذة « باخ » عميد الموسيقى الألمانية ، وذلك لمناسبة مرور ثلثمائة عام على مولده ؛ وستقام بهذه المناسبة حفلات موسيقية يعزف فيها بآلات الكنيسة القديمة التى كان يعزف عليها فى عصر بكستهودى ، ويقام قداس موسيقى ، وينظم متحف يضم مخطوطات الموسيقى الكبير ورسائله والكتب التى ألفت فيه

وقد كان بكستهودى من أهل ليبسك وقضى معظم حياته فيها ولبث أعواماً طويلة رئيس الفرقة الكنسية فى كنيسة سان مارى ؛ وما زالت بهذه الكنيسة المنابر التى أمر بكستهودى بانشائها لباقى منها مقطوعاته الشهيرة ؛ وهنالك أيضاً معزف صغير كان يعزف عليه ، وعدة آلات موسيقية أخرى كان يستعملها لتوقيع الموسيقى المقدسة ؛ ويوجد بمكتبة ليبسك كثير من القطع الموسيقية التى وضعها ، وكثير من الوثائق التى تتعلق بحياته وعلائقه مع تلميذه باخ

معهد من نوع جديد

افتتحت جامعة لايبزج أخيراً معهداً تاريخياً من نوع جديد يختص لدراسة المسائل المتعلقة بشعوب جنوبى شرق أوربا ؛ وسيقوم بالتدريس فيه جماعة من الاخصائيين من يوجوسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وبلغاريا والمجر وتركيا ؛ وقد انتدب لادارة المعهد الجديد الأستاذ الدكتور « منستر » ، وهو من أعظم المتخصصين فى هذا الباب

كتاب عن العراق الحديث

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن العراق عنوانه « تكوين العراق الحديث» The Making of Modern Iraq بقلم كاتب أمريكى هو مستر هوارد فوستر H. Foster والكتاب بحث نقدى مدعم بكثير من الوثائق ، كتب بأسلوب هادئ ؛ بيد أنه يكتفى من الوثائق بالمطبوع منها ، ولا يدعى بأنه اطلع أو أحاط بأية وثيقة غير معروفة . ويستعرض المؤلف تاريخ العراق الحديث حتى سنة ١٩٣٤ ؛ إلا أنه يغضى عن ذكر بعض الحوادث المعروفة كثورة الآشوريين وإخمادها فى سنة ١٩٣٣ ، وعقد اتفاق أنابيب النفط فى سنة ١٩٣٤ ، مع أنه يتحدث عن موضوعات أخرى لا تتعلق مباشرة بتاريخ العراق مثل الحرب بين ابن السعود والامام يحيى . وينوه المؤلف بجهود الرئيس ولسون فى وضع مبدأ تقرير الشعوب لمصيرها ، ويرى أنه لولا جهاده فى سبيل هذه المثل العليا لكانت العراق وغيرها قد راحت ضحية الاستعمار الجشع . وهذا رأى لا يوافقه عليه الكثيرون

آثار فرعونية فى المتحف البريطانى

تعرض لأول مرة فى المتحف البريطانى مجموعة من التماثيل الفرعونية نادرة المثال . وهى ملك للمسيو كالوستى جلبنكيان من كبار رجال المال والزيت الدوليين ، وقد أعارها للمتحف من مجموعته الخصوصية المشهورة بباريس

وهناك أربع عشرة قطعة بينها رأس تمثال يرجع أنه للملك أمينمحت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة . وهو مصنوع من « الابسديان » أو الزجاج الطبيعى ، وكان يستعمل قبل المعادن فى صناعة الأسلحة مثل رؤوس الحراب والرماح . وكذلك يوجد تمثال لقطة بحجمها الطبيعى ومعها قطتان صغيرتان . وربما كان التمثال الفريد بينها رأس امرأة يرجع عهده إلى ٣٥٠٠ سنة خلت ، وهو مؤلف من جزءين : غطاء الرأس وهو من الفخار المدهون بطلاء أزرق ، ثم الوجه وهو من مادة زجاجية

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء
بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

سمعت بعد عودتى من العراق الصيف الماضى أن الأديب الهمام الدكتور احمد فريد الرفاعى تطوع لنشر طائفة من أمهات كتبنا ، وأن وزارة المعارف وازرته فيما تطوع له فضمنت له تصحيح الكتب ، وأن تشترى من كل كتاب ألف نسخة . وتلك همة مشكورة من الدكتور ، وسنة محمودة من الوزارة

وقد عرفت من قبل فى معجم الأدباء ، كما طبعه الأستاذ مرجليوت ، نقصاً وسقطاً وتحريفاً ، فرجوت أن تكون الطبعة الجديدة سادّة ما فى الكتاب من خلل ، ولبثت أنتظر أن يتحقق رجائى حين ينشر القسم الأول من الكتاب . فلما طلعت الجرائد بالبشرى بادرت إلى قراءة الاجزاء التى نشرت ؛ ولكنى ألفيت غير ما رجوت ، وتوالت علىّ أثناء القراءة خيبة ظن بعد خيبة حتى فرغت من القسم الأول موقناً أن نشر الكتاب على هذه الشاكلة أمر لا يفى ربحه بخسارته ، ولا يقوم سروره بندامته ؛ وأنه يجب وقف الطبع إلى أن تؤخذ الأهبة الكافلة تصحيح الكتاب وإتقان طبعه . فليس يليق بالكتاب العظيم ، ولا بالناشر الفاضل ولا بوزارة المعارف هذا التحريف والمسخ والشرح السخيف

— ٢ —

وسأعرض على القارئ كيف توسمتُ الخيبة ثم ترادفت شواهدها ، وتوالت أمثلتها :

نظرت إلى صفحة العنوان فرأيت أسطراً لم أبالها ، ثم رأيت اسم الكتاب والمؤلف على هذا الترتيب : « معجم البلدان » وتحته : « فى عشرين جزءا » وتحت هذا : « لياقوت » . فبدا لى أن وضع اسم الكتاب والمؤلف على هذا الشكل ليس فاتحة خير . وكان ينبغى أن يقدم اسم المؤلف على عدد الأجزاء ويكمل الاسم بذكر اسم الأب والنسبة ويكتب بخط كبير . ثم المؤلف لم يجزّئ كتابه هذه التجزئة ، فكان ينبغى الاحتفاظ بتجزئته ، وتقسيم كل جزء أقساماً . ومن اللطائف أنى قلت لبعض الأصحاب : لماذا كتب اسم ياقوت مختصراً بحرف صغير ؟ قال انظر . وأرانى نسخة أهداها الناشر إلى بعض الأدباء ، وقد سمى نفسه فيها المؤلف لا الناشر ، ثم قال لا تعجب بعدُ من وضع اسم ياقوت هذا الوضع . قلت : أتعنى أن قلم المطبوعات يفكر فى حذفه ؟

ثم قرأت على صفحة العنوان : « الطبعة الأخيرة » فلم أدر كيف سمى الناشر طبعته الطبعة الأخيرة . أرأيتَ إن طُبع الكتاب طبعة أخرى أتكون طبعتنا هذه الطبعة الأخيرة أيضاً ؟ أيمكن أن يقال إن فى نية وزارة المعارف أن تحرّم على الناس طبع الكتاب من بعد فتبقى طبعتها الطبعة الأخيرة إلى يوم القيامة ؟

رأيت هذا كله فى صفحة العنوان فسألت الله ألاّ يصدق المثل : « الكتاب يقرأ من عنوانه » ، ومضيت أتصفح الكتاب فاذا هو مشكول كله كلمة كلمة وحرفا حرفا . وعجيب أنه تُحمّل الكلمات هذه الأحمال ، ويؤذى القارئُ بهذه الأشكال دون فائدة . إن الشكل فى مثل هذا الكتاب ينبغى أن يُتحرّى به مواضع اللبس ، فلا يشكل ما لا يشتبه على القارئُ ، وأما شكل واو العطف و « فى » الجارّة ، والقاف من قال واللام من أداة التعريف فعمل أقل ما يوصف به أنه عبث . خذ مثلاً هذه الجملة من صفحة ١٩٤ : « كان من أبلغ الناس فى الكتابة » فهذه لا تحتاج إلى أن تشكل لقراء معجم الأدباء . فاذا راعينا المبتدئين من طلاب الأدب وضعنا كسرتين تحت الغين والسين .

فأية حاجة إلى شكل الحروف كلها : « كَانَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابَةِ »

قلت لنفسي : دعى شكل العنوان وشكلات الحروف ولا تقفى عند الأشكال وانظرى إلى الموضوع . فقرأت فألفيت تحريفاً فى الطبعة الأولى مُتَّبعاً ، وتحريفاً آخر مبتكراً ، وسوء صنيع فى بيان مبادئ الكلام ومقاطعه ، والفصل بين ما يقوله ياقوت وما ينقله ، وشرحا فى الحاشية لا يعدو فى معظمه أن يكون غلطاً أو عبثاً

أعرض على القارئ أمثلة من هذه المآخذ ، وأكتفى فى هذا المقال بالتحريفات الواضحة والغلطات البيّنة تاركا التحريف الخفىّ الذى يحتاج الى مراجعة الكتب لبيان صوابه ريثما أفرغ له

ا — تحريفات فى حروف الكلمات أو شكلها :

أول ما يلقى القارئ من التحريف الذى كشف عنه الولع بشكل الكلمات اسم مرجَليوث بفتح الجيم وجُب بضمها ، وقد وردت الثانية مرتين ص ٥ و ١٥

ولا أدرى ما عذر الناشرين فى هذا الضبط . ونحن نسأل صديقنا المستشرق الأستاذ جِب : أجاء اسمه بضم الجيم فى لهجة انكليزية أو خطانية أو عدنانية ؟

أنا أعلم أن شاعر الترك الكبير عبد الحق حامد حينما كتب البيتين اللذين ينشران على غلاف مطبوعات جب ، اضطر الى مدّ الجيم من جب أو الكاف كما كتبها فقال :

نه اولور دى ياشامش اولسه ايدى مستر گيب

ولكنى لا أعرف ضرورة تقضى بضم الحرف

ص ١٦ — نَشوار ، والقَفطى . والصواب كسر النون والقاف

ص ٢٠ — كيش وعَمّان . والصواب عُمان . وشتّان ما بين البلدين

ص ٢١ — السلطان محمد بن تَكَش . والصواب تُكُش بضمتين

ص ٢٣ — ثعلبة بن عكاية ، وص ١٠٧ ثعلبة بن عكاشة . والصواب عكابة بالباء

ص ٣١ — مرو الشاهِجان ، ونِتَفها . والصواب فتح الهاء وضم النون

ص ٣٥ — لبّ عازب ، وحُلم غائب . والصواب كسر الحاء

ص ٣٧ - يعالج لما خَرّبه من هذا الأمر المقيم المقعد . وفى الحاشية : خرّبه نزل به . والصواب لما حزبه . يقال حزبه الأمر لا خرّبه الأمر . والمقيم بالفتح مفعول يعالج لا صفة للأمر

ص ٤٠ — أبيات لياقوت « فى غلام تركى رمدت عينه وعليها رفائد سود» . وفى الحاشية الرفادة الخرقة توضع على الجرح . وهذا صواب . ولكن جاء فى البيت الثانى :

« أرخى على عينيه فضل وقاية » وكان ينبغى أن يُعلم أنها فضل رفادة بعد أن ذكرت الرفادة وشرحت

ص ٦٣ — قول ياقوت : « فاجمل جائزتى دعاء يزكو غرسه عند ذى العرش ، واحمدنى فى بُسُطه والفرش » والصواب فى بَسْطه أى بسط الكتاب

ص ٦٤ — « إذ كلٌّ همُّه تحصيل المأكول والمشروب » . والصواب همُّه بضم الميم . والمراد هنا الأسم ، لأن الفعل أهمّ لا همّ

ص ٨٠ — ومعاوية بفارسٍ . والصواب بفارسَ ، فانها ممنوعة من الصرف ، وفى الصفحة نفسها : ينمى . والصواب ينمىَ بالفتح

ص ٨٢ —

أمفطِرٌ منى على بصرى بالسحب أم أنت أكمل الناس حُسناً

وقد شرحه الناشر فى الحاشية وقال : « ويروى أمُفَطّىً على صيغة المفعول . » والصواب أمغطًّى لا يحتمل البيت غيرها ، وكان الواجب تصحيح البيت لا اثبات الغلط وشرحه ، وفى البيت غلط آخر فى وضع كلمة السحب بدل الحب . والبيت معروف .

ص ٩٣ — « ولا أبدأُ نفعا ولا أحمدُ أخلاقا ولا أدومُ سرورا » ، وقال فى الحاشية : فى الأصل أبد نفعا . فقد أصلح غلط الأصل بغلط آخر . والصواب أبدى بالياء .

ص ٩٩ — « ولم تعوَّض من ذاك ميسُرة » . والصواب فتح السين .

ص ١٠٨ — « لُغو بِا نبهـا تَـبَـبّتا » . وقد شرحها فى الحاشية فقال : والثَبَـبّت بفتح الباء الحجة والرجل الثقة . والصـواب ثبْتا . يقال رجل ثبْت لاثبَـت ، والثبت بالفتح البرهان اسم لا وصف .

ص ١١٢ — كأنْ ثنى الـتَّـحوص . . الخ والصواب فتح النون .

ص ١١٥ — أُضِقت إضاقة شديدة ، وبعد أسطر : أُضِقت مرّة . والصواب أضَـقت بالبناء للفاعل أى أصابه ضيق .

ص ١٣٣ — فلا أزال أما كسهم ويزيدونى . والصـواب يزيدوننى .

ص ١٨٨ — فـقطت القلم نقطة . وفى الحاشية : الأنسب نقط القلم . أقول : وأنسب من هذا نقطت من القلم نقطة .

ص ١٨٧ — يسائل عن أخى جُرم . . الخ والصواب جَـرم وهو اسم قبيلة .

ص ٢٠٨ — ابراهيم بن قُـطْن . ونحن نعرف فى الأسماء قَـطَـنا لا قُـطنا .

ص ٢٠٩ — المُـصَـيِـصَـة اسم بلد . والصواب المَـصّـيصة

ص ٢١٣ — أبو علىّ الرَّوْزبارى . والصواب الرُّوذبارى .

ص ٢١٩ — ثنى الصَّبا غصنا قد غازلته صَبا ، والصواب ثنى الصِّبى

ص ٢٣٧ — أحمد الفِيرغانى . والصواب فتح الفاء

ص ٢٤٠ — غُمار الناس . والصواب كسر الغين

ص ٢٢١ — :

يخال بأن العِرض غير موفَّر عن الذم إلا أن يدال له الوفر

والصواب يذال بالذال المعجمة من الاذالة أى الامتهان

ص ٢٢٤ — :

سـقى الله صوب القصر تلك مغانياً وإن غنيت بالنيـل من سُبُـل القطر

وهذا بيت معمور بثلاث غلطات . والصواب صوب القطر . و « عن سَبَـل القطر »

ص ٢٣٢ — « وسعد بن مسعود هو أخو عبيد بن مسعود صاحب يوم الجسر . » والصواب أبو عبيد وهو صحابى معروف قاد جيوش المسلمين فى وقعة الجسر وقُـتل بها . والعجيب أن فى الـكتاب بعد سطر واحد : وسعد هو عم المختار بن أبى عبيد الثقفى . ولم يتنبه الناشر إلى أن أبا عبيد الثقفى هذا هو أبو عبيد ابن مسعود الذى سمّاه عبيد بن مسعود . ومثل هـذا ما جاء فى ص ٢٣٥ : « محمد بن على الشلمغانى » وبعدها بسطرين : « من أهل قرية من قرى واسط تعرف بشلغمان . ولو لم يكن المصحح نائماً لما سمى الرجل فى سطرين عبيداً وأبا عبيد ، وسمى القرية فى سطرين شلمغان وشلغمان

ص ٢٥٦ — « وكان حسن الحفظ للقرآن . أولَ ما يبتدىْ به الخ » . وفى الحاشية : أول مفعول يبتدىْ . والصواب أولُ بضم اللام وهى مضافة إلى المصدر المؤول بعدها لا مفعول يبتدىْ . وينبغى أن يُعلم أن ما بعد ما المصدرية لا يعمل فيما قبلها

ص ١٨٧ — فى متن الـكتاب : « ثم التى لا يقع حسم الداء بغيرها . » وهو كلام مستقيم ، ولـكن الناشر أخرج هذه الجلة إلى الحاشية . وأثبت فى المتن « التى لا يقع بحسم الداء غيرها . » أجاز لنفسه هنا أن يغيّر المتن وهو صحيح . ولم يجز لنفسه فى مواضع أخرى أن يصحح المتن وهو غلط بيّن فاكتفى باثبات الرواية الصحيحة فى الحاشية

ص ١٩١ — كان فى متن الـكتاب :

كذبت همـة عين طمعت فى أن تراكا
أوَ ما حظٌّ لعين أن ترى من قد رآكا ؟

فغير الناشر « أوَ ما » إلى « أىُّ ما » . والصواب ما كان فى المتن . والغلط ما رآه الناشر . وغلط آخر فى رسم « أيّما » مفصولة كما رسمها

ص ٢٧٠ :

معاذ الله أن نُلقى غضـابا سوى ذاك المطاع على المطيع

وفى هذا غلطان . والصواب : نُلفى غضابا بالفاء ، فى الشطر الأول و « دَلّ للمطاع » بدل « ذاك المطاع » فى الشطر الثانى

هذا ما أخذته وأنا أعبر القسم الأول وهو جزء من عشرين ، ووراء هـذا معضلات من التحريف تحتاج إلى بحث وتنقيب ليتبين صوابها . وسأبين فى المقال الآتى ما فى تعليق الناشر من غلط وعبث ، يرى فيهما القارىْ المبكى المضحك ، وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

نفح الطيب

فى طبعته الجديدة

بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتى

شارح الكتاب

اطلعت فى العدد الأخير من مجلة (الرسالة) الغراء على مقال بالعنوان الذى اخترناه لكلمتنا هذه بقلم الأديب محمد فهمى عبد اللطيف ، فأردت بعد قراءته أن أقدم لحضرته هذه الكلمة فى غير ردّ عليه ولا تزييف لقوله . وعسى أن تكون هذه الكلمة البريئة رسالة تعارف وودّ بينى وبين الناقد الكريم تتلاقى به الأشباح كما تلاقت الأرواح ، فطالما قرأت له بمجلة (الرسالة) القيمة مقالات شائقة ممتعة ؛ ولا غرو فى ذلك فالرسالة ميدان تتبارى فيه فرسان البلاغة وجياد البراعة ، وهى المجلة التى يتقبلها الأدباء بقبول حسن ويحلونها من أنفسهم أكرم محل

افتتح حضرة الناقد الجهبذ مقاله الكريم بكلمة طيبة أثنى فيها على تلك الهمة المشكورة التى يبذلها حضرة الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعى فى إحياء الأدب العربى وبعث تراثه من مراقده ونشر موسوعاته الجامعة ؛ ورأى من كتاب نفح الطيب (وغيره طبع متقن وضبط كامل وتقسيم واضح وتصحيح دقيق تقوم وزارة المعارف بمراجعة أصوله النهائية مبالغة فى إجادته وحرصا على اتقانه) ؛ ونحن نشاركه فى هذا الثناء ونتوجه بالشكر الجزيل لحضرة صاحب المعالى زكى العرابى باشا وزير المعارف الجليل وإلى حضرتى وكيليه الهمامين ، فما منهم إلا نصير للغة وآدابها عامل على ترقيتها ، فجزاهم الله خير الجزاء . وكذلك سرّنا من حضرة الناقد أن نوه بالمحاسن — وإن أجمل القول فى ذلك إجمالاً — فجانب بذلك عادة عرف بها كثير من نقادنا وهى اغضاؤهم عن الحسنات وتشهيرهم بما يرونه هفوات

فليس من الحزم فى شئ أن ينزل الكاتب — لشهوة الكتابة — على حكم النظرة الأولى المجلى فطالما أعجلت الكاتب عن التفكير ، وكان حكمها خاطئا بعيدا عن الحق متنكبا جادة الصواب ؛ وليس من الكياسة الحكيمة أن يسرع بعض الناقدين الى رمى من ينقدون أعمالهم بفساد القول وزلل المنطق ، فقد كان من آثار ذلك أن أحجم كثير من المبرزين فى الآداب أن يجلوا للناس عرائس أفكارهم ، ضناً بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة المضرّاة حتى تركوا الميدان لهؤلاء الذين جعلوا عقولهم وراء ألسنتهم ، يجولون فيها وحدهم ، ونرجو أن يكون للكتاب والناقدين قدوة حسنة فى حضرة ناقدنا الأديب وأسوة صالحة بالكاتبين الكرام فى الرسالة الغراء

١ — قال حضرة الناقد : إن الناشر (وضع اسم الكتاب على الغلاف ناقصاً فسماه : (نفح الطيب) والمؤلف قد سماه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وهذا الاسم هو الذى وضع على الطبعات السابقة) ونحن أيضاً نرى أنه كان الأولى أن يكتب على الغلاف اسم الكتاب كاملاً محافظة على وضع المؤلف . ولعل العذر فى ذلك اشتهار الكتاب باسم (نفح الطيب) فحسب ، وأن الاسم لو أثبت كاملاً لم يتسع له نطاق الغلاف بهذا الوضع المنسق الذى هو عليه ، وأن القارئ لا يلبث إذا تصفح بضع ورقات من الكتاب أن يرى اسمه التام الذى اختاره له مؤلفه ، والخطب فى هذا يسير وليست ملافاته عسيرة . وكذلك نرى أنه كان من الخير أن يراعى تقسيم المؤلف فيقسم كل جزء من الأجزاء العشرين إلى أقسام ينبه بها إلى التقسيم الأصلى للمؤلف ، ويبين فيها حدود أجزائه الأربعة الأصلية ، وهذا أيضاً شئ يهون أمره ولا يعز تداركه فى الأجزاء الآتية إن شاء الله

٢ — ونقول لحضرة الناقد إن المقدمة التى صدر الجزء الأول بها للتعريف بمؤلف الكتاب ليست للناشر ولا لغيره من الشارح أو المراجعين ، وإنما هى منقولة بنصها من كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر لابن فضل الدين المحبى ، وقد نبه حضرة الناشر إلى ذلك فى أول ذيل الصفحة الأولى ، وما كان للناشر أن يتصرف فى تلك المقدمة بمحو أو إثبات . فليس من العجب أن ينقل الأستاذ عبارة المحبى كما هى ، وليس هو الذى أثبت اسماً قد ألغاه صاحبه ولكن المحبى صاحب خلاصة الأثر هو الذى أثبته غير مرة فى هذه الترجمة الطويلة التى (جاء فيها بأشياء ذكرها المقرى نفسه فى المقدمة التى كتبها عن سفراته ورحلاته والباعث له على تأليف الكتاب) وإذا عرفنا أن المقدمة كلها من ص ٩—٣١ منقولة من خلاصة الأثر فقد ارتفع اللوم عن الناشر وغيره

وليس (لغًا) من الشارح ولا (فضولاً) أن ينبه فى أسفل صفحة ٩ إلى أن المؤلف قد غير اسم الكتاب من (عرف الطيب) إلى (نفح الطيب) قبل أن ينبّه المؤلف نفسه إلى ذلك فى صفحة ٢٤٤ حتى لا يتوهم بعض القراء فى أول الكتاب عند صفحة ٩ قبل أن يقطع المسافة إلى صفحة ٢٤٤ أنهما كتابان متغايران

(يتبع)

محمد يوسف نجاتى

4 me Année, No. 182

Lundi - 28 - 12 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ١٣٥٥ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

الضـــحك

للأستاذ أحمد أمين

ما أحوجنى إلى ضحكة تخرج من أعماق صدرى فيدوّى بها جوّى ! ضحكة حية صافية عالية ، ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء ، ولا هى ضحكة صفراء لا تعبر عما فى القلب ؛ وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدرى ، وأفحص منها الأرض برجلى ؛ ضحكة تملأ شدقىّ ، وتبدى ناجذىّ ، وتفرج كربى ، وتكشف همى

ولست أدرى لماذا تجيبنى الدمعة وتستعصى علىّ الضحكة ، ويسرع إلىّ الحزن ، ويبطىء عنى السرور ، حتى لئن كان ثمة وتسعون سبباً تدعو إلى الضحكة وسبب واحد يدعو إلى الدمعة ، غلب الدمع وانهزم الضحك ، وأطاع القلب داعى الحزن ولم يطع دواعى السرور !

ولى نفس قد مهرت فى خلق أسباب الحزن ؛ تخلقها من الكثير ، ومن القليل ، ومن لا شىء ؛ بل وتخلقها من دواعى الفرح أيضاً . وليست لها هذه المهارة ولا بعضها فى خلق أسباب السرور ؛ كأن فى نفسى مستودعاً كبيراً من اللون الأسود ،

لا يظهر مظهر أمام العين حتى تسرع النفس فتفترف منه غَرفة تسوّد بها كل المناظر التي تعرض لها ، ثم ليس لها مثل هذا المستودع من اللون الأحمر أو اللون الأبيض !

يقولون لي : اضحك يدخل على قلبك السرور ؛ وأنا أقول لهم : أدخلوا السرور على قلبي أضحك . فنى المسألة « دَوْر » كما يقول علماء الكلام ، وكما يقول الشاعر :

مسألة « الدوْر » جَرَتْ بيني وبين من أُحِب
لولا مَشيبي ما جَفَا لولا جَفَاهُ لم أَشِب

وإلى الآن لم أدر من المصيب ! هل الضحك يبعث السرور ، أو السرور يبعث الضحك ؟ ودخلت المسألة فى دور من الفلسفة مظلم كالعادة ، وانتقلت إلى بحث بيزنطى ، كالبحث فى هل البيضة أصل الدجاجة أو الدجاجة أصل البيضة ؟ فلنغلق هذا الباب ولنعد إلى « الضحك »

يقول الناطقة فى أحد تعريفاتهم للانسان : « الانسان حيوان ضاحك » ؛ وهـذا عندى أظرف من تعريفهم الآخر : « الانسان حيوان ناطق » . فالانسان فى هذا الزمان أحوج إلى الضحك منه إلى التفكير ، أو على الأصح نحن أحوج ما نكون إلى التفكير والضحك معاً

ولكن لمَ خصت الطبيعة الانسان بالضحك ؟

السبب بسيط جـدًّا . فالطبيعة لم تحمّل حيوانا آخر من الهموم ما حمّلته الانسان ؛ فهمّ الحمار والكلب والقرد وسائر أنواع الحيوان أكلة يأكلها فى سذاجة وبساطة ، وشربة يشربها فى سذاجة وبساطة أيضاً . فاذا نال الحمار قبضة من تبن وحفنة من فول وغَرفة من ماء ، فعلى الدنيا العفاء ، ولكن تعال معى فانظر إلى الانسان المعقد المركب ! يحسب حساب غده كما يحسب حساب يومه ، وكما يحسب حساب أمسه ؛ ويخلق من هموم الحياة ما لا طاقة له به ، فيحب ويهيم بالحب حتى الجنون ، ويشتهى ويعقّد شهواته حتى لا يكون لعقدها حل ؛ فاذا حلت من ناحية عقدها من ناحية ؛ ثم إذا سذجت اللذة وتبسطت لم تعجبه بل أخرجها من باب اللذة ، وعقد أمله على لذة معقدة . وإذا تفلسف — والعياذ بالله من فلسفته — خرج بها عن المعقول ، وحاول أن ينال مافوق عقله ، ولم تعجبه الأرض والسموات مجالاً لبحثه ؛ إنما يريد الحقيقة والماهية والكُنْه . وويل له من كل ذلك ! أستغفر الله فقد نسيت أن أذكر هموم الموظف بالعلاوات والترقيات ، وما كان منها استثنائياً ، وما كان غير استثنائى ، وما يترتب على ذلك من معاشات وحساب تمغة ، وما إلى ذلك من أمور لا تنتهى . وهذا أيضاً من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعد إلى الضحك

أقول إن الطبيعة عودتنا أن تجعل لكل باب مفتاحاً ، ولكل كرب خلاصاً ، ولكل عقدة حلاً ، ولكل شدة فرجاً ؛ فلما رأت الانسان يكثر من الهموم ويخلق لنفسه المشاكل والمتاعب التى لا حد لها ، أوجدت لكل ذلك علاجاً ؛ فكان الضحك والطبيعة ليست مسرفة فى المِنَح ، فلما لم تجد للحيوانات كلها هموماً لم تضحكها ، ولما وجدت الانسان وحده هو المهموم المغموم جملته وحده هو الحيوان الضاحك

***

لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما فى « الصيدليات » بالضحك ، فضحكة واحـدة خير ألف مرة من « برشامة أسبيرين » وحبة « كينين » وما شئت من أسماء أعجمية وعربية . ذلك لأن الضحكة علاج الطبيعة ، والاسبيرين وما اليه علاج الانسان . والطبيعة أمهر علاجاً وأصدق نظراً وأكثر حنكة . ألا ترى كيف تعالج الطبيعة جسم الانسان بما تمده من حرارة وبرودة ، وكرات حُمر وبيض ، وآلاف من الأشياء يعالج بها الجسم نفسه ليتغلب على المرض ويعود إلى الصحة ، ولا يقاس بذلك شىء من العلاج المصطنع ؟

فانفجار الانسان بضحكة يُجرى فى عروقه الدم ؛ ولذلك يحمر وجهه ، وتنتفخ عروقه . وفوق هذا كله فللضحكة فعل سحرى فى شفاء النفس وكشف الغم ، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن ، وإعداد الانسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبشر والترحاب

ولو أنصفنا — أيضاً — لعددنا مؤلفى الروايات المضحكة والنكت والنوادر البارعة التى تستخرج منك الضحك وتثير فيك الاعجاب ، وتُنشىء بك الطرب ، وهؤلاء الذين يُضحكون بأشكالهم وألاعيبهم وحركاتهم ؛ أقول لو أنصفنا

لعددنا كل هؤلاء أطباء يداوون النفوس ، ويعالجون الأرواح ، ويزيحون عنا آلاماً أكثر مما يفعل أطباء الأجسام ، ولعددنا من يستكشف الضحكات فى عداد من يستكشف دواء للسل أو للسرطان أو نحو ذلك من الأدواء المستعصية ؛ فكلاهما منقذ للانسانية من آلام ، مصلح لما ينتابها من أمراض

والضحك بَلْسم الهموم ومرهم الأحزان ؛ وله طريقة عجيبة يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال ، ويحط عنك الصعاب ، ويفك منك الأغلال — ولو إلى حين — حتى يقوى ظهرك على النهوض بها ، وتشتد سواعدك لحملها

* * *

ومن مظاهر رقى الأمم أن نجد نواحى الضحكات ، ملائمة لاختلاف الطبقات . فللأطفال قصصهم وألاعيبهم ومضحكاتهم ، ولعامة الشعب مثل ذلك ، وللخاصة وذوى العقول الراقية المثقفة ملاهيهم وأنديتهم ومضحكاتهم . فأن رأيت أمماً — كأممنا الشرقية — حرم مثقفوها من معاهد الضحك وكانت مسلاتهم الوحيدة أن ينحطوا ليضحكوا ، أو يرتشفوا من الأدب الغربى والتمثيل الغربى ليضحكوا ، فهى أمم ناقصة فى أدبها ، فقيرة فى معاهدها . وهذا أيضاً ضرب من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعمد إلى الضحك

* * *

تعال معى نتعاهد على أن نرعى فى حياتنا جانب الضحك كما نرعى جوانب الصحة والمرض ، وجانب الهزل بجوار جانب الجد ، ولنتخذ الضحك علاجاً فى بعض أمورنا

قال لى صديق مرة إنه حاول أن يتغلب على همومه وأحزانه بعلاج بسيط فنجح . ذلك أنه إذا اشتد به الكرب ، وتعقدت أمامه الأمور حتى لا يظن لها حلاً ، انفجر بضحكة مصطنعة فسُرى عنه وتبخرت همومه

ويروى أنه كان عند اليونان فيلسوفان يلقب أحدهما الفيلسوف الضاحك ، والآخر الفيلسوف الباكى ؛ كان أولهما يضحك من كل شىء ضحكَ جدٍ أحياناً ، وضحك سخرية أحياناً : يضحك من سخف الناس ومن وضاعتهم وحقارتهم ، ويبكى الثانى مما يضحك منه الأول

وقرأت مرة قصة لطيفة أن بئراً ركِّب عليها دلوان ، ينزل أحدهما فارغاً ، ويطلع الآخر ملآن ؛ فلما تقابلا فى منتصف البئر سأل الفارغ الملآن لم تبكى ؟ فقال : ومالى لا أبكى ؟ أخذ الرجل مائى وسيأخذه وسيعيدنى إلى قاع البئر المظلم ! وأنت لم تضحك وترقص ؟ فقال الفارغ : ومالى لا أضحك ؟ سأنزل البئر وأمتلىء ماء صافياً وأطلع بعد إلى النور والضياء !

وقد أراد مؤلف القصة أن يصور نفس الموقفين اللذين وقفهما الفيلسوف الضاحك والفيلسوف الباكى ، وأن الحياة مليئة بأشخاص يتولون عملاً واحداً ، ثم هذا ينظر إليه من الجانب السار الفرح ، وذاك ينظر إليه من الجانب الحزين القابض

فكن الفيلسوف الضاحك ، ولا تكن الفيلسوف الباكى . وكن الدلو الراقص ، ولا تكن الدلو الدامع . وجرب أن تلقى الحياة باسماً أحياناً ، ضاحكاً أحياناً ، ولأجرب معك !

أحمد أمين

٧ – القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما صاحبُ القلب المسكين فما علم أنها قد رحلتْ عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه ، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيء لا يرى ، فاذا غابت انطفأ هذا الضوء ؛ ورأيتُه واجماً كاسفَ البال يَتنازَعُه في نفسه ما لا أدرى ، كأن غيابها وقع في نفسه إنذارَ حرب

لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلتاعُون بها ويرتعضون منها وهي أحجارٌ وآثارٌ وبقايا ؟ وما الذى يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة ؟ يتلقاهم بالفراغ القلبيّ الذى لا يملأه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد ؛ وعند هـذا الفراغ تقف الدنيا مليًّا كأنها انتهت إلى نهاية في النفس العاشقة ، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معانى الحياة وبين شعور الحى ؛ ويكون العاشق موجوداً في موضعه ولا تجده المعانى التى تمرُّ به ، فترجع منه كالحقائق تُلِمُّ بالفراغ العقلىّ من وعى سكران

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما الذى يجعل فيك تلك القدرة الساحرة ؟ أهو فصلك بين زمن وزمن ، أم جمعك الماضىَ في لحظة ؛ أم تحويلك الحياة إلى فكرة ؛ أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها ؛ أم تصويرك روحية الدنيا في المثال الذى تحسُّه الروح ؛ أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنيةٌ على الانقلاب ؛ أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن ؛ أم رجوعك باللذة ترى ولا تمكن ؛ أم أنت كل ذلك لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويخلى بك وحدك ؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما هذه القوة السحرية فيك تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك ، وتستهوى بها الفم ليقبلك ، وتستدعى الدمعَ لينفرَ لك ، وتهتاج الحنين لينبعث فيك ؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب ، أم لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك ؟

* * *

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم ؛ وتلك هى طبيعة الألم الذى يفاجئُ الانسان من مكمن لذته وموضع سروره فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها ، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه في قبر الماضى . يكون ألماً لأن فيه المضض ، وكآبةً لأن فيه الخيبة ، وذهولاً لأن فيه الحسرة ؛ وتتم هـذه الثلاثةُ الهموم بالضيق الشديد في النفس لاجتماع ثلاثتها على النفس ، فاذا المسكين مبغوت مبهوت كأن الآلام أطبقت عليـه من الجهات الأربع فقلبه منها مَصْدُوعٌ مَصْدوع

وجعلت أعذلُ صاحبنا فلا يعتذل ، وكلما حاولت أن أثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود . ثم تنفس وهو يكاد ينشقُّ غيظاً وقال : لماذا رحلتْ ، لماذا ؟

قلت : أنت أذللت جمالها بهذا الأسلوب الذى ترى أنك تُعزُّ جمالها به ، وقد اشتددت عليها وعلى نفسك وتمنّتْ على قلبك وقلبها ؛ كانت ظريفة المذهب في عشقها وكنت خشناً في حبك ، وسوَّغتك حقاً فرددته عليها ، وتهالكتْ وانقبضتَ أنت ، ورفعتْ قدرك عن نفسها تحبباً وتودُّداً فخفضت قدرها عن نفسك من اطراح وجفاء ، واستفرغتْ وسعها في رضاك فتغاضيت ، ونَفَضْتَ عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شيء سؤالاً فلم تكن أنت من جوابها في شيء

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعتْ أن تكون البادئة ، فالتوتْ على صاحبها وهى عاشقة ، وجاحَدَتْ وهى مُقرَّة ؛ إذ تريد في الأوّلة أن تتحقق أنها محبوبة ، وفي الثانية أن يُقدَّم لها البرهان على أنها تستحق المهاجمة ؛ وفي الثالثة هى تريد ألا تأخذها إلا قوةٌ قوية فتمتحن هذه القوة ، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهـذا الامتاع شأنٌ وقيمة ، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ليكبر هذا بهذا

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدئ صاحبها ؛ ثم ابتدأتْ ولم تجد الجواب منه ، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب ، فان الابتداء حينئذ يكون هو النهاية ، وينقلب الحب عدو الحب . وأنا أعرف امرأة وضعتها كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها : سأتألم ولكن لن أغلب ؛ فكان الذى وقع وا أسفاه – أنها تألمت حتى جُنَّت ، ولكن لم تُغلَب . . .

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدئ كل يوم رجلاً ؟

قلت : إنها تبتدئ متكسِّبةً لا عاشقة ، فاذا أحبت الحب الصحيح أرادت قيمتَها فيمتَها فيما هو قيمتها . وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنفَ وهذه القسوة وهذه الروحية الجبارة ، فانها لذّات جديدة للمرأة التي لا تجد من يُخضعها . وفى طبيعة كل امرأة شئ لا يجد تمامه إلا فى عنف الرجل ، غير أنه العنف الذى أوله رقة وآخره رقة

***

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة ؛ والشئ الغريب يسمى غريباً فيكفى ذلك بياناً فى تعريفه ؛ غير أنه إذا وقع فى الحب سمى غريباً فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه عزيب فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شئ غريب ؛ ثم تبق وراء ذلك منزلة للاغراق فى التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا يشعرون

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ، وكأن النبوة نبوتان : كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فاحداهما بالنفس العظيمة فى الأنبياء ، والأخرى بالقلب الرقيق فى العشاق . وفى هذه من هذه شبهٌ لوجود العظمة الروحية فى كلتيهما غالبةً على المادة ، مجرِّدةً من إنسان الطين إنساناً من النور ، محركةً هذه الطبيعة الآدمية حركةً جديدة فى السمو ، ذاهبةً بالمعرفة الانسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل ، واضعةً مبدأ التجديد فى كل شئ عر بالنفس ، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلوى السماوى

بيدَ أن فى العشق أنبياءَ كذَبة ؛ فاذا تسفَّل الحب فى جلال ، واستعلنت البهيميةُ فى عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنسان الحجر ، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة فى السقوط ، وذهبت المعرفة الانسانية إلى ما هو الأقبح والأسوأ ، وتجدد لكل شئ فى النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلى — إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟

لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة فى بعض العشاق كما يقلد النبوة الكبيرة فى بعض الدجّالين

***

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان فى الحديقة وكنا دخلناها ليجدّد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به ؛ واستفاض كلامنا فى وصف تلك العبهرَة[1] الفتانة التى أحلَّته هذا المحل وبلغت به ما بلغت ، وكان فى رقةٍ لا رقة بعدها وفى حب لا نهاية وراءه لمحب . وخيل إلى أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما

وأنفع ما فى حديث العاشق عن حبه وأمله أن الكلام يخرجه من حالة الفكر ، ويؤنسُ قلبه بالانعاظ ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ، فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهمية ، وتأتيه بالحقائق على قدرها فى اللغة لا فى النفس ؛ وفى كل ذلك حيلة على النسيان ، وتعلل إلى ساعة ، وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين فى هذا البلاء الذى يسمى الفراق أو الهجر

وكان من أعجب ما عجبتُ له أن صديقاً مرَّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يومئ إلى : أنا وفلان هذا نختلفان منذ اليوم لا هو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة ؛ وأحسب أن عندك رأياً فاقض بيننا

ويسأله الصديق : ما القضية ؟ فيقول وهو يشير إلى :

إن هذا قد تخرَّق قلبه من الحب فلا يدرى من أين يجئ لقلبه برقعة ... وأنه يعشق فلانة الراقصة التى كانت فى هذا المسرح وزعم لى ... أنها أجمل وأفتن وأحلى من طلعت عليه الشمس ، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى فى كل ما يضئ القمر عليه ، وأن عينيها مما لا ينسى أبداً أبداً أبداً ... لأن ألحاظها تذوب فى الدم وتجرى فيه ، وأن الشيطان لو أراد مناجزَةَ العفة والزهد فى حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل حيَله وأساليبه وقدَّم جسمَها وفنها ...

فيقول له المسؤول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحياً لقد صحا . إن المشكلة فى الحب أن كل عاشق له قلبُه الذى هو قلبُه ، وحسبها أن مثل هذا هو يصفُها . وما يدرينا من تصاريف القَدَر بهذه المسكينة ما عليها مما لها ، فلعلها الجمالُ حكم عليه أن يُعذّب بقبح الناس ، ولعلها السرورُ قضى عليه أن يسجن فى أحزان

***

(١) هى التى جمعت الحسن والجسم والامتلاء وجمال الخلقة من كل ناحية كهذه التى نحن فى وصفها منذ شهرين ...

في الطفـــولة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

زارني مرة في مكتبي صديق كريم ، وكان معي في ذلك اليوم أصغر أطفالي ؛ فقد تشبث بي وأبى إلا أن يصحبني . فلم أر بأساً من ذلك ، وسأله الصديق بعد حوار طويل لم يعلق بذهني منه شيء « أبوك من . . » — قالها هكذا بالعربيـة الفصيحة — والصبي حديث عهد بتعلم القراءة والكتابة فلم يفهم « من » هذه وظنها شيئاً معيباً أو غير لائق وهز رأسه منكراً ؛ فكرر الصـديق السؤال ، فقطب الصبي وقال : « تو توْ » فنظر إلى صديق فقلت : « يا صاحبي إنه يحسب أن (من) هذه مثل قولك « كاب » أو « قط » أو شيء آخر لا يليق في رأيه أن يكون به أبوه ، ولو كنت قلت له « مين » بالعامية لفهم وأجابك ، وما أظن به الآن إلا أنه وقع في نفسه منك أنك تسب أباه وإني لأخشى أن يحقدها عليك ولا يكون رأيه فيك بعـد اليوم إلا سيئاً ، وأكبر ظني أنه سيحدث أمه عنك حديثاً لا يسرك أن تسمعه

وانقضت هـذه الحادثة وانطلق الغلام خارجاً ليلعب فقد سئم الحوار الذي ارتفعنا به عن طبقته . فقال صديقي بحق : إنه موقن أن الصبي يشعر بوحشة مع أمثالنا من الكبار لأنه يحتاج إلى صغار مثله يفهمهم ويفهمونه فيسر بهم ويأنس . فقلت له إني لا أظن أن أبنائي يستوحشون حين أكون معهم لأني أستطيع أن أنزل إلى مستوى مداركهم فأكون معهم كأني أحدهم ، فقال إن أمره ليس كذلك

وخرج صديقي فذهبت أفكر فيما قال فسألت نفسي : « لماذا لا نحسن نحن الكبار أن نفهم الصغار كما ينبغي أن يفهموا . . إننا لم نجيء إلى الدنيا كما نحن الآن . . ولم تلدنا أمهاتنا بأسناننا وشواربنا ولحانا ورؤوسنا الناضجة — أو التي نزعمها لغرورنا ناضجة — وإنما جئنا إلى الحياة صغاراً ثم كبرنا شيئاً فشيئاً . ولم تكن طفولتنا قصيرة العمر ، بل كانت سنوات طويلات ، وإن من الكبار لكثيرين لا يزالون أطفالاً وإن كانوا قد شابوا وشيخوا . . وإنا لنذكر حلاوة الطفولة وجمال عهدها ونحن إليها ونتمنى لو أمكن أن نرتد إلى ما كنا في أيامها بكل ما حفلت به . . ومع ذلك لا نستطيع بعد أن كبرنا أن نفهم الأطفال ونفطن إلى أساليب تفكيرهم وقد كنا مثلهم . . ومع أن الطفولة ليست غريبة عنا ولا أجنبية منا حتى يستعصي علينا فهمها فإن صفحتها تمحى من ذاكرتنا كل المحو فننقلب محتاجين إلى من يشرحها ويفسرها لنا ويبين لنا ما فيها ويعلمنا كيف نقرأها ونفهمها . . .

وأذكر أني وأنا طالب في مدرسة المعلمين العليا كنت أضحك فيما بيني وبين نفسي حين أسمع أستاذنا يقول لنا بلهجة الجد إن علينا أن نعنى بأن ندرس الطفل ؛ وكنت أقول لنفسي وأي حاجة بنا إلى درس المعروف المفهوم كأنه مجهول أو غامض . فلما كبرت وصار لي ابن أدهشني أني وجـدت أني محتاج أن أروض نفسي على النظر إلى الأمور بعين الطفل لا بعيني أنا ؛ ولم تكن هذه الرياضة لا سهلة ولا خفيفة ، فقد كانت تستنفد صبري ومجهودي معاً ، ولكني كنت مضطراً إلى ذلك بعد أن شاءت الأقدار ألا يبقى له من أبويه سواي ، ولولا ذلك لنفضت يدي من الأمر كله وتركت العبء لغيري

ومن فرط جهلي بالطفولة وثقل الشعور على نفسي بذلك أراني أحياناً أتمنى لو يرزقني الله عشرين أو خمسين طفلاً دفعة واحدة لا لأعذب نفسي بهم وأطير عقلي معهم ، بل ليتسنى لي أن أدرس

وقلت له : يا صديقي المسكين ، أوَ كلُّ هذا لها في قلبك . فما هذا القلب الذي تحمله وتتعذب به ؟

قال : إنه والله قلب طفل ، وما حبُّه إلا التماسُه الحنان الثاني من الحبيبة ، بعد ذلك الحنان الأول من الأم . وكل كلامي في الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق تفكيره

آه يا صديقي ، إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لا يستمر طفلاً بعد زمن الطفولة إلا في اثنين : من كان فيلسوفاً عظيماً ، ومن كان مغفلاً عظيماً

***

وافترقنا ؛ ثم أردت أن أتعرّف خبره فلقيته من الغد ، وكان لي في أحلامي تلك الليلة شأن عجيب ، وكان له شأن أعجب

أما أنا فلا يعني القراء شأني وقصتي

وأما هو ... ؟

(يتبع — طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الطفولة كما ينبغى أن تدرس على نحو ما سمعت أن العلماء يدرسون ما لا أدرى فى معاملهم ، ولكن الحوائل دون ذلك كثيرة : منها أن المرأة ليست كالقطة أو الأرنبة ، ومنها إنى لا أستطيع أن أعول كل هذا الجيش من الصغار ، ومنها إنى خليق فى هذه الحالة أن أجن فلا أنا درست شيئاً ولا أنا أبقيت على عقلى

والضرورة تفتق الحيلة كما يقولون ؛ والحاجة أم الاختراع . وقد لجأت إلى وسيلة أخرى أخف محملاً وآمن عاقبة ، وفيها بعد ذلك لهو لا بأس به ، وتلك أنى أكون مع أطفالى كما يكونون أو كما أراهم يكونون ، وكما يبدو لى منهم ، فأخلع ثوب الكبر والوقار والاحتشام وأجعل من نفسى طفلاً مثلهم ، وأحاول أن ألبس هـذا الثوب الذى نضته عنى الأيام بكرهى ولم تبق لى منه إلا ذكرى السعادة وأنا أمرح فيه . ومن العجيب أنا لا نذكر إلا أنا كنا سعداء به ؛ أما كيف كنا سعداء ، وما كان يسعدنا ، فهذا ما نتخيله فى كبرنا لا ما نعرفه على التحقيق . ولكن استعادة هذا العهد الذاهب عسيرة جداً . نعم أستطيع أن أقلدهم فيما أراهم يصنعون ، فأضحك مثلاً بكل جسمى لا بفمى وعينى فقط ! وأسقط على الأرض متهافتاً من شدة الضحك كما يفعلون ، وأقذف بالكرة بلا حساب أو تقدير فتصيب المرآة أو زجاج الصورة المعلقة أو أنف جالس يستغرقه الحديث الذى يخوض فيه مع جاره فينتفض مذعوراً ، ويسبقه لسانه بما لا يروى وما يجب أن يغتفر له ، ونرى ذلك نحن الأطفال فيترامى بعضنا على بعض من فرط السرور والجذل ، وتتصادم رؤوسنا ثم نفطن إلى غضب الذى أصيب أنفه وندرك أن هذا الغضب قد يكلفنا ما لا نحب فنذهب نعدو ويد الواحد منا على كتف صاحبه أو ممسكة بذيل ردائه ، ونتزاحم ونحن خارجون من الباب الذى لا يتسع لنا جميعاً ؛ فيقع أحدنا ويتعثر الباقون فوقه ، ويصيح المتأذون من الضجة التى أحدثناها وينهروننا ويزجروننا عن هذا العبث المزعج الذى يفلق الرؤوس ويعرض الأنوف والعيون للاصابات الباغتة ، فتخفت أصواتنا ويلصق بعضنا ببعض فى ركن من الغرفة الثانية ونكمن وراء خزانة أو غيرها مما يتفق وجوده ونصمت برهة ثم يشق علينا السكوت ، وتمل ألسنتنا الهدوء ، ويتذكر أحدنا ما أفاد من المتعة حين رأى المصاب فى أنفه يصرخ ويرفع يديه إلى وجهه ويصيح باللعنات الحرار والتهديد المرعب — يذكر أحدنا ذلك فيغلبه الضحك فيكركر ويساوره الخوف مما هدد به فيتناول بعض ثوبه ويضمه على فمه ليخفض صوت السرور ولكنا نرى ذلك منه فيعدينا فنفعل مثل ما يفعل ونصبح نحن الثلاثة أو الأربعة كأننا ثلاثة قطط أو أربعة — قطط صغار وليدة من فرط التدانى والاختلاط ، فهذا وجهه مدفون فى صدر ذاك ، وذاك رأسه تحت ذقن الثالث ، والثالث وجهه إلى الحائط وهو ينت ويغالب ضحكه ، والرابع قاعد على الارض ومخف وجهه فى طيات الثياب . وأحيانا أكون مع الأطفال قطاراً يسير متعرجا بين الكراسى والمقاعد والأثاثات المختلفة ، ولا يخلو سير هذا القطار الآدمى من حادثة فيكسر كوبا أو إبريقاً أو يقلب شيئاً ؛ وقد تقع الحادثة له — فيتعثر الذى هو القاطرة وتنكب المركبات على جسمه ؛ ولكن الحوادث — كائنة ما كانت — لا يراق فيها دم — إلا دم أصبع مجروح أحيانا — ولا تمنع البشر والضحك ، بل لعل هذه الحوادث هى التى تجلب السرور ولا تكون المتعة إلا بها

أفعل ذلك وغيره وأقدر عليه ، ولا يحس الأطفال الذين ألاعبهم وأغالط نفسى بأنى أحدهم ومثلهم أن هنالك أى فرق بينى وبينهم ، ولكنى أنا أحس بالفرق الذى يخفى عليهم . ومهما بلغ من استغراق اللعب لى فليس يسعنى أن أنسى أنى كبير وأنى مقلد ليس إلا . ولو نسيت لأذكرنى التعب الذى سرعان ما يحل بى ، وصدرى الذى يعلو ويهبط كموج البحر ، ودقات قلبى السريعة ، وأنفاسى المنبهرة ، فلا يلبث ذلك كله أن يردنى بعنف وغلظة إلى ما أتجاهله من الحقائق ؛ ولو لم يكن هناك شىء من هذا لكان حسبى من الفرق أن الأطفال يختلفون عنى فى التفكير والنظر والتقدير ، وأنهم يفعلون ما يفعلون بفطرتهم ، ولأن حيويتهم كلها فى أعضائهم وأنى أجاريهم متكلفا ؛ وهم يسرون بما يفعلون ، أما أنا فسرورى بمبلغ توفيقى فى التقليد والتمثيل لا فى الفعل نفسه ، أى أن سرورى بمحاكاتهم ومجاراتهم فنى فى الحقيقـة ؛ أما هم فالأمر عنـدهم طبيعى ، وإفادة السرور راجعة إلى أنهم يرسلون نفوسهم على سجيتها

ولست ألاعب الأطفال لأسرهم فقط — وإن كان هذا وحده كافياً لتهوين ما أتكلفه من العناء والجهد — ولكنى أحب أن أدرس الطفولة بمحاولة الاندماج مع الأطفال وتمثل إحساساتهم وتصور بواعثهم على قدر ما يتيسر ذلك لى وبمعالجة

استرداد القدرة على الصدور عن وحي الفطرة التي لا يكبحها العقل أو التهذيب أو العرف أو غير ذلك من اللجم التي يحسها الكبار كلما هموا بفعل شيء تغريهم به الفطرة

ولدرس الطفولة مزايا كثيرة هي السر في ولعي بهذا الموضوع : منها أن الطفل في بلادنا أشقى عباد الله . وإنه ليخجلني أن أقول إننا نعذب الأطفال ونقمع في نفوسهم الجديدة روح الطفولة ونمنعها أن تتفتح وتزهو وتربو ؛ وأحر بنا إذا فهمنا الطفولة أن نحسن سياستها ونسعدها ونجعل عهدها حميداً وتمهيداً صالحاً لعهد الشباب ؛ وأنا موقن أن خير الآباء ليس هو الذي يرضى عن أبنائه أو عما يعتقد فيهم ويظن بهم — فقد يكون مخدوعاً وهذا هو الأغلب — وإنما أحسن الآباء هو الذي يرضى عنه أبناؤه ويفرحون به ويباهون ويعتزون

فسياستي مع أطفالي هي أن أسعى لاكتساب رضاهم عني لا أن يكونوا بحيث أرضى أنا عنهم ؛ والفرق دقيق ولكني أظنه واضحاً . وقوام هذه السياسة أن تدرك أن للطفل نفساً غير نفسك ، وأن لها استعداداً لعله غير استعدادك ، وأن مهمتك أن تعين الطفل على إنماء مواهبه الكامنة والانتفاع بهذا الاستعداد المضمر ، وأن توجد الفرصة لإبراز ذلك ، لا أن تأخذ عليه الطريق وتسده ؛ وبعد أن يبدو لك ما يشي بالاستعداد تسرع في توجيهه وتقويته . ولا يمكن أن يتيسر ذلك إلا إذا تركت للطفل حريته . وكيف يمكن أن تعرف ما يخفى من أمره إذا كنت تلزمه حالة معينة ، أو تحتم عليه مسلكا لا يجوز له أن يعدوه أو ينحرف عنه ؟ ... وكيف ترجو أن تكون له شخصية متميزة بخصائصها إذا كنت تأبى عليه الاستقلال والحرية ؟ ... إن تربية الطفل هي في الحقيقة تجربة يجريها المربي ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى صحة النتيجة إذا كنت تبدأ برأي معين وفكرة لا تحيد عنها . وسلسلة الاختبارات المتعاقبة هي التي تشير إلى اتجاه النفس ، وتدل على ناحية الاستعداد المجهول ؛ فلا بد من ترك الطفل حراً ، ومن تعويده الاستقلال في النظر والعمل وفي تلقي وقع الحياة ، وفي طريقة استجابته لهذا الوقع . ولا نكران أن الرقابة لا معدى عنها ، ولكنها يجب أن تكون بحيث لا يشعر بها الطفل ولا يتأثر بها . وكذلك ينبغي أن يكون التوجيه حين يجيء وقته ، وإلا فقد الطفل استقلاله وخيف أن يكون قد اتجه حيث أردت له لا حيث يدعوه استعداده الشخصي

ومزية أخرى هي أن الطفل يمثل الأدوار التي اجتازتها الانسانية والمراحل التي قطعتها كلها في تاريخها الطويل . وصحيح أنها تكون فيه — أي في الطفل — مختزلة جداً ، ولكن المرء يستطيع أن يفطن إلى بعضها وإن كان يفوته أكثرها . وحسبي هذا القدر لئلا ندخل في مباحث علمية لا قدرة لي عليها

ومزية ثالثة لا يشق عليّ الكلام فيها ولا يثقل فيما أرجو على القارئ ؛ وتلك هي أن الطفولة غرائز ساذجة وعواطف وإحساسات فطرية لم تهذب ولم تصقل ، ولكننا بالتربية نعود الطفل أن يكبح شهواته ويضبط أهواءه ويضع لنفسه اللجم والقيود ، وهذا شبيه بما يصنعه المجتمع بنا نحن الكبار . وقد يعلم القراء — أو لا يعلمون فما أدري — أن سبيل المدنية أن تتخذ من النظم الاجتماعية مجاري تتدفق فيها العواطف والغرائز الانسانية الساذجة الفطرية . مثال ذلك أن الحب هو الذي يرجع إليه الفضل في نظام الزواج الذي صلح به أمر المجتمع إلى الآن . ذلك أن الرجل كان فيما خلا من عصور الاستيحاش تأخذ عينه امرأة فتروقه فيخطفها أو يستحوذ عليها بالقوة أو غير ذلك من الوسائل ، ويستأثر بها ويقاتل دونها ما دام راغباً فيها ، ثم يدعها أو يبقيها بعد الفتور عنها إلى أخرى تستولي على هواه ، وكان الأمر كله فوضى ولكنه انتظم بالزواج ، فلا خطف الآن ولا قتال ولا عنف . وقد احتفر الرقي المجرى الاجتماعي فتدفقت فيه الحياة من هذه الناحية . وكذلك الوطنية ليست في مرد أمرها إلا مظهر أنانية وأثرة ، ولكن نطاق الأثرة اتسع فشمل الجماعة المتماثلة كلها بعد أن كان قاصراً على القافلة الصغيرة مثلاً أو على الفرد قبل ذلك وهكذا إلى آخر ذلك ؛ وما من نظام اجتماعي إلا والأصل فيه غريزة من الغرائز الساذجة التي لم تهذب ولم تصقل

ونحن نصنع بالطفل ما تصنع بنا الحياة المدنية — نعلمه كبح الغرائز ونروضه على ضبط النفس وننشئه على إدراك الحدود والواجبات ونعده لحياة الجماعة المنظمة التي لا يسمح فيها بإرسال النفس على السجية في كل حال بغير كابح أو رادع أو ضبط

وشيء آخر لا سبيل إليه إلا الطفل ، وذاك أن من أراد أن يعرف حقيقة الانسان فليتأمل الطفل ؛ وأنا أومن بأن الانسان مخلوق لا شريف ، ولا كريم ، ولا خير ، ولا فيه خصلة واحدة

من خصال الخير ؛ وأنه لا يعرف لا خيراً ولا شراً ، ولا فضيلة ولا رذيلة ، وإنما يعرف نفسه وأهواءها وشهواتها وما يحسه من رغباتها ؛ وهنا موضع التحرز من خطأ ؛ فأنا لا أقول إن الانسان خير بطبعه ، ولكني لا أقول إنه شرير بطبعه . وسبب ذلك أني لا أرى الغرائز الطبيعية لا خيراً ولا شراً ، وإنما هي غرائز طبيعية وكفى ، وعقلي لا يسمح لي أن أستنكر الفطرة التي بنينا عليها

ولا حاجة في الحقيقة إلى الرجوع إلى الطفل للاستدلال على أن الانسان ليس بفطرته خيراً أو فاضلاً أو كريماً إلى آخر هذه المعاني الحسنة ، فانه يكفي أن يفكر الانسان في هذه الشرائع والقوانين وما إليها وكلها حض على الخير ونهي عن الشر . ولماذا يحتاج الانسان إلى كل هذا الحض على الخير والتزيين له والتحبيب فيه ، وكل هذا الزجر عن الشر والتخويف منه والتهديد بالعقاب عليه إذا كان بفطرته خيراً عزوفاً عن النكر والسوء ؟ .

ولكن الطفل مع ذلك أبرز مثال محسوس لحقيقة الفطرة الانسانية . هات طفلاً وأعطه عصفوراً ، وانظر ماذا يصنع به .. يربط رجله ويشد عليها ولا يبالي ألمه ويروح يطوح به ذراعه مسروراً بالدائرة الوهمية التي يرسمها به في الهواء غير عابيء بما يكلفه ويحمله من الأذى ، أو يقبض على عنقه ويحبس أنفاسه ثم يلقيه على الأرض ويغتبط بأن يراه منطرحاً على جنبه ورجلاه إلى فوق ، وهو لا يحس أن هذا قسوة لأنه لا يعرف لا القسوة ولا الرحمة ، وإنما يعمل ما يفيده السرور الذي يطلبه والمتعة التي يشتهيها .

وتعطيه قطعاً من الحلوى ويجيء من يطلب منه واحدة ، فاذا كنت لم تعلمه ما نسميه الأدب فانه لاشك يضم يده الصغيرة عليها وقد ينثني فوقها ليحجبها عنك ويعتمك في ظنه أن تأخذ منها ما طمعت فيه

وتكون في يدك موزة أو تفاحة أو ما يشبهها من الفاكهة فاذا كنت لم تروضه على كبح النفس فستراه يثب ويمد كلتا يديه إلى ما في يدك ويصيح بك أن هاتها واحرم نفسك وأعطني

وتكون قد وعدت أخاه بشيء إذا حفظ درسه مثلاً فيحفظه فتهدي إليه ما وعدته ، ويراك أخوه فيغضب ويغار وينقم منك أنك اختصصت أخاه دونه بشيء ، ويدعوك أن تأخذ من أخيه وتعطيه هو ، ويسره أن تفعل ذلك ولا يبالي أخاه ولا يحفل أنه خطفت من يده الهدية الموعودة ، بل يروح يخايله بها ويكايده ويغتبط بأن يراه منغصاً محروماً دونه

ولا شكر على صنيع جميل ولا حفاظ لعهد ، ولا وفاء ولا ذكر ، إنما له الساعة التي هو فيها ، والشيء الذي يحس أن نفسه تطلبه ، وفيما عدا ذلك على كل شيء وكل إنسان أنف سلام

قد يقال إن هذا من الجهل وقلة الادراك ، فأقول : إني أتكلم عن الأصل قبل التهذيب والصقل . أما الادراك فهو كالرقي الذي وصل اليه الانسان على الأيام وبعد الحقب الطويلة ؛ وقد أسلفت أن الطفل يمثل الأدوار التي مرت بالانسانية من بدئها إلى حاضرها . فأنت ترى في سنة من عمر الطفل اختزالا لما قضت الانسانية دهوراً ودهوراً طويلة وهي فيه من الحالات . وأما التعليم والتهذيب فهذه هي اللجم والأعنة التي نضعها لضبط هذه الغرائز وكبح العواطف وتوجيهها إلى المجاري التي احتفرت على الأيام وتحددت فيها حياة الجماعة المتنظمة المهذبة ؛ واللجام طارئ ، فاذا كان يكبح بما يشد ويصد فليس معنى هذا أن ما صار إليه الأمر بعد ها هو الذي كان قبلها

ومع ذلك هل نحن الكبار المثقفون المهذبون المصقولون خير من الأطفال الصغار ؟ . وللجواب عن هذا السؤال أرجو أن يسأل القراء أنفسهم ما ذا يكون الحال — حال المجتمع لو أمنتم عقاب الله وسطوة القوانين وحكم العرف ؟ . والقوانين لا تعاقب على بعض الرذائل مثل الكذب والخداع والنفاق ، فانظر من الذي لا يكذب أو يخادع أو يداهن وينافق — أحياناً كثيرة على الأقل ؟ أظن أنه لو أمن الناس البطش والعقاب لما بقي شيء لا يجترحونه

وتعال إلى الرجل الساكن الوقور الرزين الذي يملك زمام أعصابه ولا يدعه قط يفلت من يديه ، وادن منه وهو بين الناس والطمه على خده لطمة قوية ، ثم انظر ماذا يبقى من صقله وسكون طائره ووقاره ، ومن هذه القشرة التي كسته المدنية وزانته بها ؟

وأوجز فأقول إن الانسان يرتد إلى طباعه الفطرية إذا أوجدته في حالة تسمح لهذه الطباع بالظهور والتغلب على لجم المدنية مثل الجوع أو الغضب أو الألم أو الخطر على الحياة أو السكر . فليس الطفل وحده هو الذي يشهد أن الانسان في الأصل لا كريم ولا ذو مروءة أو شهامة أو غير ذلك ، وأنه إنما يكون كذلك اكتساباً وبالدربة والعادة وبفضل الرغبة والرهبة وغيرها مما يدفع إلى الحرص على المصلحة الذاتية ، ومن هنا كانت أهمية العناية

بالطفل ، فما ترك طفل وشأنه بغير عناية وتوجيه إلا فسد وصار شريراً وأمره سوء . وهذا دليل آخر على أصل فطرة الانسان . وليس معنى هذا أن أصل فطرة الانسان سيئة ، وإنما معناه أن عوامل مانسميه الشر فى الدنيا أقوى وأشد إغراء وأعظم استيلاء على النفس ، وأن الخير محمول لمصلحة الجماعة ومصلحة الفرد ضمنا

وليس أقدر من الأطفال على التخيل . ترى الواحد من الأطفال يمشى القهقرى بحذر فلا تفهم ، وتجده يحشر نفسه بين كرسيين ثقيلين ثم يعجز عن التخلص ، ويضيق صدره فيصيح بك ، أو يبكى فتنهض اليه وتسأله عن الخبر فيقول لك إنه كان يدخل السيارة فى الجراج فانحشرت وانكسر السلم ويكون معنى هذا أنه عد نفسه سيارة واستولت عليه هذه الفكرة فهى تستغرقه وتذهله عن كل شىء ، فلو كلمته لما سمع ؛ وتراه مرة أخرى يشير إلى الهواء ويكلم من لا وجود له ويدعوه أن ينزل ؛ فلو كان رجلاً لظننته قد جن ، ولكنه طفل يتصور أن فى الجو طيارة يحادث ربانها ويدعوه إلى النزول ليركب معه وهكذا

وللطفولة أحزانها كما أن لها مباهجها ومسراتها ، ولكن المزية أن الأحزان أو الهموم لاتكون إلا هموم هنيهة قصيرة تزول وتمحى ولا يبقى لها ذكر متى عرض شاغل آخر . ويعيش المرء منا مايعيش ويبلغ من العلم والعرفان والتجربة والفطنة ما يبلغ ولكنه لا يستكبر أن يتمنى أن يرد إلى هذه الطفولة الذاهلة . فاذا كان للسعادة معنى أو كان لها فى الدنيا وجود فهى فى عهد الطفولة ولا شك

ابراهيم عبد القادر المازنى

القصور المثلى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

للصروح والهياكل العظيمة، كما للأشخاص والدول شخصيات تشغل مكانها فى حياة الأمم والعصور، وتؤدى دورها فى الحوادث والسير العظيمة؛ فاذا ذهبت الدول وفنيت الأجيال بقيت الصروح والهياكل شاهدة بما توالى عليها من الاحداث والمحن تلقى على الماضى نوعا من الضياء القاتم، وتذكرنا بتلك الأدوار العظيمة التى لعبتها فى سير الدول والشخصيات الذاهبة

ومازالت طائفة كبيرة من هذه الصروح والهياكل العظيمة تزين العواصم الأثرية القديمة؛ ولدينا فى مصر عدة من الهياكل الفرعونية الخالدة لعبت أدوارها العظيمة فى تاريخ مصر القديمة، ولكنا لا نتحدث عنها هنا لأنها تقترن بعصور تغيض منا فى ظلمات الماضى البعيد؛ ولم يبق بمصر من الصروح الاسلامية العظيمة سوى المساجد، وهى ليست مما نعنى به فى هذا الفصل

وإنما نريد أن نتحدث هنا عن بعض الصروح الأوربية العظيمة التى شهدناها، والتى تعتبر بما لعبت من أدوار خطيرة فى الدول والعصور التى قامت فيها صروحا «مثلى»

***

إن أسماء صروح كاللوڤر وڤرساى والڤاتيكان وقصر الدوجات لا تمثل الهياكل والأبنية العظيمة التى تعرضها هذه الصروح فقط، ولا تقف أهميتها وروعتها عند النقوش والذخائر الفنية العظيمة التى تحتويها، ولكن أعظم ما تدلى به هذه الصروح فى نظرنا هو تراثها المعنوى والحوادث والذكريات العظيمة التى اقترنت باسمها

فقصر اللوڤر مثلا يمثل عصوراً بأسرها من حياة الملوكية الفرنسية ويعرض لنا فى أبهائه الشاسعة ونقوشه وذخائره طرفا من روعة هذه الملوكية وأيام عظمتها وازدهارها؛ هذا جناح هنرى الثانى، وهذا جناح زوجه كاترين دي مديتشى التى تملأ سيرتها كثيراً من القصص الشائق؛ وهذه غرف ولديها فرانسوا الثانى وشارل العاشر؛ وهذا جناح هنرى الرابع؛ ولويس الثالث عشر، وهذا جناح الملك العظيم لويس الرابع عشر: فى تلك الغرف والأبهاء الشاسعة عاشت الملوكية الفرنسية أحقابا تشرف على مصاير أمة عظيمة، وفيها كم دبرت أمور وكم قررت شؤون خطيرة كان لها أكبر الأثر فى سير التاريخ الأوربى؛ كان اللوڤر مدى قرنين قلب فرنسا النابض، وأحيانا قلب أوربا بأسرها شأنه فى عهد لويس الرابع عشر

وقد كان قصر ڤرساى يكمل حياة اللوڤر؛ وكان فى أواخر عهد الملوكية الفرنسية ملاذها ومستقرها: هذا جناح لويس الرابع عشر الفخم، وهذه غرفة نومه، وهذا بهو عمله ومتزينه، وهذا جناح الملك الخليع لويس الخامس عشر قد أثث بأثاث ما يزال إلى اليوم نموذجا فنياً رائعاً؛ أجل وهذا جناح خليلاته دوباردى ودى بومبادور الخ على مقربة من جناح زوجه الشرعيه، مارى لكزنسكا، وهذه أبهاء الحفلات الباذخة التى كان ينفق عليها بغير حساب، وكانت تثقل كاهل الشعب المسكين؛ وأخيراً ها هوذا «بهو المرايا» الشهير الذى عقد فيه مؤتمر الصلح فى سنة ١٩١٩ وأملت فيه فرنسا وحلفاؤها الظافرون إرادتهم على ألمانيا المهزمة ووقعت فيه ألمانيا وثيقة انكسارها وذلها

فى هذه الربوع والمواطن الصامتة التى تغدو اليوم آثاراً يحج اليها السائح كان يكتب تاريخ فرنسا وتاريخ أوربا

***

على أن الأحداث والذكريات التاريخية الرائعة لم تجتمع قدر اجتماعها فى صرحين عظيمين، هما قصر الڤاتيكان فى رومة، وقصر الدوجات فى البندقية (ڤينزيا) فأما الڤاتيكان فهو بلا ريب أجل آثار النصرانية وأعظمها؛ وفى الڤاتيكان الذى غدا علماً على البابوية والكرسى الرسولى، تتمثل عظمة البابوية، وبذخ البابوات، وكل ما فى عصر الأحياء من عبقرية وجمال وافتتان؛ وليس الڤاتيكان قصراً تستطيع أن تحيط رؤيته فى ساعات، وإنما الڤاتيكان مدينة من القصور الرائعة يقتضى التجوال فيها والتمتع بروائعها أياماً عديدة. وقد نشأ الڤاتيكان فى أواخر القرن الرابع عشر قصراً متواضعاً إلى جانب كنيسة القديس بطرس، وغدا من ذلك التاريخ مركز الكرسى الرسولى، ثم تعاقب عدة من البابوات على إنشائه وزخرفته، فأقاموا إلى جانب القصر

القديم قصوراً وأجنحة جديدة بلغت أعظم مبلغ من الفخامة والبهاء ، نخص بالذكر منها مصلى سكستوس الرابع المسمى كابيلاسستنا ، والذى خلف ميشيل آنجلو فوق جدرانه من ريشته آيات خالدات ، وجناح آل بورجيا الذى أنشأه اسكندر السادس ، وأفاض عليه أبدع ما تمخض عنه الأحياء من بذخ وزخرف وبهاء ؛ وجناح چوليوس الثانى (لوجى) ، وهو الذى زينه رافائيل بآيات باهرات من فنه وريشته ؛ ولبث البابوات يزيدون فى صروح الڤاتيكان وفى زخرفته حتى غدا مجموعة من القصور الشامخة الباذخة ، تضم عشرات من الأبهاء والأروقة الفخمة ، وعشرات الساحات والأفنية العظيمة ، ونحو عشرة آلاف غرفة . ولا يستطيع القلم مهما أوتى من قوة أن يصف ما تزدان به تلك الصروح والأبهاء الخالدة من نقوش وزخارف وصور تأخذ الأبصار بجمالها وروعها ؛ ويكفى أن نقول إنها مثوى لأبدع وأروع ما تمخضت عنه عبقرية الجمال والفن فى أعظم وأزهى العصور

على أن روعة الڤاتيكان لا تقف عند جمال الفن ؛ وإنما تمثل بنوع خاص فى ذلك الدور الخطير الذى أداه فى تاريخ النصرانية ، وتاريخ البابوية ، فقد كان الڤاتيكان وما زال رأس الكنيسة المفكر وروحها المسير ، وكان مدى عصور طويلة مبعث تلك السلطة الزمنية القوية التى زاولتها البابوية مع سلطتها الروحية جنباً إلى جنب ؛ وكانت أبهاء الڤاتيكان ومخادعه مسرحاً لكثير من الحوادث التاريخية البارزة ، وكانت أيضاً مسرحاً لكثير من المؤامرات والدسائس والمآسى المروعة

وليس بين صروح أوربا الأثرية كلها صرح يثير ما يثيره الڤاتيكان فى النفس من روعة وإجلال وإعجاب ؛ وسيبقى الڤاتيكان عصوراً علما على عظمة البابوية الذاهبة ، وسيبقى حلية الآثار النصرانية والكنسية كلها

ولنتحدث بعد ذلك عن قصر الدوجات ذلك الصرح الذى لا يدلى مظهره المتواضع بذلك الدور العظيم الذى لعبه فى تاريخ أعظم جمهوريات العصور الوسطى

كان قصر الدوجات Palazzo ducale الذى لا يزال يجثم بحناياه العربية البيزنطية وشرفاته المنخفضة بجوار كنيسة القديس مار كو على المنعطف الذى يصل بين البحر وبين ميدان سان مار كو (القديس مرقص) منزل الدوجات ومستقر الهيئات النيابية التى امتازت بها نظم البندقية فى العصور الوسطى ، مثل المجلس الأعلى ومجلس العشرة الشهير الذى يثير اسمه كثيراً من الذكريات المروعة ؛ وكان رأس الجمهورية المفكر وقلبها النابض ، يكتب فيه تاريخها وتدبر فيه أسباب قوتها وعظمتها ، وتضطرم فيه تلك الدسائس والمؤامرات الخطيرة التى تدفع بها إلى براثن المحن الدموية أو الفوضى ، وكان أخيراً حرمها المقدس وملاذ دستورها ، وسلطانها الأعلى

ومن هم أولئك الدوجات الذين سمى الصرح المتيد باسمهم ، وتوج اسمهم تاريخ البندقية الحافل من مبدئه إلى منتهاه ؟ كان الدوج (أو الدوق[1]) رئيس الجمهورية وحاكمها الأعلى ، وكان فى المبدأ يعين بالانتخاب على يد جمعيات من الشعب ، ثم أنشىء المجلس الأعلى فى القرن الثانى عشر من نواب يمثلون زعماء الولايات ، ومنهم ينتخب الدوج والوزراء وكبار القضاة ؛ وكانت البندقية جمهورية ، ولكن جمهورية ارستقراطية ، تقبض الارستقراطية على مصايرها وتستأثر فيها بالحكم والسلطان ؛ وكان الشعب يجاهد طول الوقت لكى ينتزع لنفسه تلك السلطات التى تستمد منه وتدار باسمه ؛ ولكن تلك الارستقراطية الطاغية المستنيرة معاً كانت حريصة على سلطانها وزعامتها ؛ وفى القرن الثالث عشر استطاعت الارستقراطية أن تقصى الشعب نهائياً عن كل اشتراك فى الشؤون العامة ، وذلك بأن حول المجلس الأعلى من هيئة نيابية انتخابية إلى هيئة وراثية خالدة ، وبذا قامت فى البندقية تلك الارستقرطية الوراثية القوية التى يصفها المؤرخ الفيلسوف سسموندى بقوله : « كانت فياضة الحزم والغيرة والطمع ، جامدة فى مبادئها ، راسخة فى سلطانها ، تقترف باسم الحرية طرفا من أشنع مثالب الاستبداد ، مشا كسة غادرة فى السياسة ، دموية فى الانتقام ، متسامحة مع الفرد ، باذخة فى الشؤون العامة ، مقتصدة فى الادارة المالية ، عادلة نزيهة فى القضاء ، قديرة فى إزهار الفنون والزراعة والتجارة ، محبوبة مطاعة من الشعب ؛ يرجف النبلاء الذين تمثلهم منها فرقا » ثم اختارت

(١) من اللاتينية D x أعنى الأمير أو الدوق

الارستقراطية مجلس العشرة الشهير ، وخول سلطات استثنائية وعهد إليه بحماية الجمهورية وسحق كل جريمة وثورة يدبرها الخوارج والطامعون ، فتم بذلك للاستقراطية سلطانها المطلق ، وغدت كل شيء في نظم الجمهورية وحياتها ومصايرها

وقصر الدوجات من أقدم الصروح التاريخية يرجع بناؤه إلى نحو ألف عام ، ولكن القصر القديم أحرق وزالت معالمه غير مرة خلال الحوادث والفتن ، وأعيد بناؤه ، وتمهده الدوجات بالانشاء والزخرف حتى اتخذ شكله الحالى منذ القرن الرابع عشر ؛ وتشرف واجهة القصر الأمامية التى تذكرنا حناياها المرمرية بالمشرفيات الشرقية ، على منعطف سان ماركو ، وتشرف واجهته الخلفية على قناة من الماء ؛ ويقع فى مواجهته بناء عتيق قاتم هو سجن الدولة القديم ؛ وتربط الصرحين قنطرة معلقة هى قنطرة الزفرات الشهيرة (بونتى دى سوسبيرى) التى يمثل اسمها فى كثير من القصص المؤسى ، والتى يقال إنها لعبت أيما دور فى مصارع النبلاء والسادة ، يدفعون منها إلى السجن أو يلقون إلى الماء

وتتكون أبنية القصر من طبقات ثلاث تشرف من الداخل على فناء مستطيل واسع ، وليس فى مظاهرها الخارجية كثير من الزخرف ، ولكنها تبدو قاتمة عابسة تؤذن بأنها كانت أيام مجدها ملاذ الكتمان والصرامة ، فاذا نفذت إلى الداخل أخذتك روعة الغرف والأبهاء الشاسعة الفخمة التى زينت جدرانها وسقفها بأجمل ما خلقته عبقرية الأحياء من النقوش والصور ؛ ولقد زينت شرفات الطبقة الأولى بتماثيل عدة من مشاهير الدوجات ، وزينت إحدى غرف الطبقة الثانية بطائفة كبيرة من الدروع والأسلحة القديمة التى كان يرتديها أو يتقلدها الدوجات أو قادة الجمهورية ؛ بيد أن أروع ما فى هذا القصر الشهير هو الطابق الثالث حيث يوجد جناح الدوج والابهاء الرسمية التى تحيط به ؛ هذا هو بهو اجتماع المجلس الأعلى لا يزال بتقاسيمه ومقاعده الخشبية القديمة وفى صدره مقعد الدوج ؛ وهذا هو البهو الأكبر حيث تنعقد الاجتماعات الرسمية الكبرى ، وهنالك فى أعماق القصر وراء هذه الأبهاء الشاسعة توجد غرفة متوسطة متواضعة أقيمت فى صدرها عدة مقاعد خشبية هى غرفة اجتماع مجلس العشرة ! وهنالك بالضبط عشرة مقاعد يتوسطها مقعد الدوج ؛ وفى تلك الغرفة المتواضعة التى يخيل اليك أنها تمثل روح العصور الوسطى ، وتمثل الصرامة والغدر والسلطان المطلق معا ، كانت تبرم أهم الشؤون وأخطرها ، وتصدر أعظم القرارات فى حياة الجمهورية ، ولقد زينت جدران هذه الأبهاء وسقفها بطائفة بديعة من الصور التاريخية رأينا بينها صورة لافتتاح الصليبيين والبنادقة لقسطنطينيه سنة ١٢٠٣ وموقعة لبانتو البحرية الشهيرة التى هزم فيها الترك سنة ١٥٧١

وقد عرفت مصر الاسلامية عظمة الجمهورية البندقية وعظمة الدوجات فى العصور الوسطى وكانت ثمة فى عصور السلام علائق ومخاطبات منتظمة بين بلاط مصر وبين قصر الدوجات ، وكان البلاط المصرى يخاطب « الدوج أو الدوك » باسمه مقرونا بالقاب التعظيم والتكريم

***

هذه طائفة من الصروح العظيمة التى تمثل بماضيها الحافل عصوراً وأحقاباً عظيمه من التاريخ ؛ وهى بذلك صروح مثلى كالأمم والشخصيات المثلى ، لا تقف عظمتها عند تلك الأبنية الشامخة وتلك الروائع الفنية التى أسبغتها عليها عبقرية الأجيال والعصور الزاهرة ؛ ولكن أشد ما تتمثل عظمتها فى تلك الصفحات الخالدات التى سجلتها فى بطون التاريخ ، وذلك التراث المعنوى الزاخر الذى يغمر كل رحابها وجنباتها الصامتة

محمد عبد الله عنانه

في الأدب المقارن

أثر الترف
في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الترف من مستتبعات الحضارة ، تتجه اليه الأمم عقب عصور النهضات ، إذ يلذ لها الركون إلى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التي بذلتها في عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتميل إلى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور في ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها ، وفي بحبوحة الثروة والنعمة اللتين أثلهما جهاد السنين والأجيال ، فيهجر الشعب رويداً رويداً حياة الخشونة والقناعة والجد ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة ، وإشباع مطالب الجسم والنفس ، وبدوات الخيال والشهوة

ويكون أشد الأمم إقبالاً على وسائل الترف ومضيًّا إلى غاياته ، أشدها من قبل تخشناً في العيش ، وأعظمها جلاداً في ميدان تنازع البقاء ، وأتمها ظفراً وغلبة على البلدان ، لما تجنح اليه من الراحة بعد الجهد ، والاستمتاع بعد الحرمان ، ولما تغدقه عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم ، وما تطلّع عليه من وسائل لهوهم وترفهم ؛ ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف في مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة في آسيا ، وفي أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره ، وفي روما بعد اتساع سلطانها شرقاً وغرباً

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية خرجتا من بداوة وخشونة عيش إلى حضارة وحياة دعة ؛ وكلتاهما أقامتا امبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز ، ومرّت اليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها في أدبيهما . بيد أنهما تفاوتتا تفاوتاً كبيراً في مدى تأثرها بذلك الترف ، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأمم أخذاً بوسائله وتفنناً في ضروبه ؛ وكانت الأخيرة أقلها انقياداً لتياره وأشدها تشبثاً بأهداب الاعتدال

فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصادي إلى ثلاثة أطوار كبيرة : فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب إلى الفقر والخشونة التي فرضتها على العرب طبيعة بلادهم الضنينة ، مما أورثهم صفات القناعة والصبر والجلد واحتمال المشقات ، كما أورثهم الجود وقرى الأضياف ، فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلأ بها شعرهم ، وجاء ذلك الشعر في جملته قوياً متسماً بالرجولة مثيراً للاعجاب ؛ وندر في ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ووصف دواعي الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة ، بل كان السادة يتبرأون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس . ومن روائع آثار ذلك في الأدب قول حاتم الطائي :

وإني لأستحيي صديقي أن يرى	مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
وإنك مهما تُعط بطنك حقه	وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول عنترة :

يُخبرك من شهد الوقيعة أنني	أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وأرى مغانم لو أشاء حويتها	فيصدني عنها الحيا وتكرمي

وبقيام الدولة العربية دخل العرب في الطور الثاني : طور الحضارة والرفاهية والترف ، وتدرجوا في الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية . ولا غرو فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكد يجتمع لغيرهم ؛ فان نجاحهم الحربي الفجائي أوقع في أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفاً لعهدهم ، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضاً متلاحقاً من الأموال ، وأدخل في حوزتهم شاسع الأملاك ، وأقام في خدمتهم الجمَّ الغفيرَ من الموالي ؛ وسمحوا هم لشتى الأجناس بمخالطتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فجاءت الأمم المقهورة في ميدان الحروب تسلط على الأمة الغالبة ما بذته فيه من أسباب الرفاهية واللذاذة ، وهي التي كانت من قبلُ سبب سقوط عزمتها وإدبار دولتها

وكان كل ذلك جديداً على أعين العرب الذين قضوا الأجيال في شظف البادية وتقتيرها ، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات ما حرموه طويلاً ، وأغرقوا في استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يغرق الوارث الذي طال حرمانه في تبذير ثروة الغني الراحل . وكأنما تعجل العربُ في تراث كسرى وقيصر ما وُعِدوه في الدار الآخرة من طيبات ؛ ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا

لتشييدها الصناع من شتى الأجناس ، ووفروا بها آنق أسباب الدعة والمتعة ، وحشروا فيها الغلمان والقيان ، وبالغوا فى إعداد الموائد والأسمطة ، وأكثروا من الألوان والصحاف ، واستمتعوا بالغناء والشراب ، ورفلوا فى فاخر الثياب ، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات ، وأسرفوا فى أعراسهم حتى ضربت ببعضها الأمثال ، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم إلا استاموها

واحتذاهم فى ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب ، فانتشرت مجالس الشراب والغناء ، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها ، وراجت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه ، وراجت تجارة الرقيق ونفقت سوق الجوارى ، وأُخِذْن بالتثقيف والتهذيب ليجمعن فتنة اللب إلى فتنة النظر ، وأولع الناس بالرقة والظرف والكياسة ، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة ، واحتفوا بالمواسم يشخصون فيها إلى الرياض أو الأديرة فى أرباض المدن ، يتنادمون ويتغزلون

وأثر تلك الحياة الترفة جلى فى الأدب العربى ، بل لعله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الاسلام والحضارة عن أدب الجاهلية ، إذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها ، بل كانوا من أشد الناس حرصاً على الانغماس فيه ، بل تجمعوا فى العواصم طلباً لأسبابه ، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء فى مجالس شرابهم وسماعهم وساعات تبذلهم واستمتاعهم ، وجلسوا إلى موائدهم وشاركوا فى محافلهم ومهرجاناتهم ، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحكام ؛ وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحوكونه فيها من القصائد ، من متممات السرور والأنس ، ومستلزمات الأبهة والعظمة

ومن ثم يحفل شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدائق والنافورات ، وسفائن النزهة وكلاب الصيد ، وألوان الطعام والفاكهة والأسمطة ، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات ، والمحافل والمواكب ، كما امتلأ بالنسيب الذى كان أغلبه نسيباً بالجوارى دون الحرائر ، والذى امتزج بكثير من الخلاعة والفجور ؛ وروى الشعراء فى كل ذلك عن ممدوحيهم من الأمراء تارة ، وعن أنفسهم تارة أخرى ، وصوروا فى الحالتين حياة الترف المغرق التى طغى سيلها فى عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الأولى فى النفوس ، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء ، فكانت معقد السرور ومناط الأنس ورمز الصفاء ؛ وتفنن الشعراء فى تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلسها وساقيها وكأسها ، وطلبوا البراعة بالابتكار فى تلك الوجوه ، وخلعوا العذار واطرحوا التدين فى التوفر عليها والتغنى بها ، وهزئوا باختلاف الفقهاء فى تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض ، وظفرت الخمر فى الأدب العربى بمنزلة لا تبارى فى أدب آخر ، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهد الجاهلية ، فأصبح وصف الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلال القصيد

ومن أجمل الشعر فى وصف أسباب الرفاهية تلك ، قول ابن الرومى الذى يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف ، إذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء ، وكانوا من قبل فى الطور السابق كما تقدم يتبرأون من الاستبسلام للترفُّه والشهوات :

فى أمور وفى خمور وسَموُّ … رٍ وفى قاقُمٍ وفى سنجاب
فى حبير منمنم وعبير … وصحانٍ فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بساتيـ … ـن تمس الرؤوسَ بالأهداب
عندهم كل ما اشتهوه من الآ … لات والأشربات والأشواب
والطروقات والمواكب والو … لدان مثل الشوادن الأسراب
والغوالى وعنبر الهند والمسـ … ـك على الهام واللحى كالخضاب
لم أكن دون مالكى هذه الأشـ … ـياء لو أنصفَ الزمان المحابى

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الغارقة فى اللذات ، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يُقرَّبوا ويُمنحوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة ، ويشاركوا ممدوحيهم فى أبهتهم ولذاتهم ، وبغية النوال ينفقونه فى ارتياد مواطن اللهو التى حفلت بها العواصم ، ويبذرونه فى مجالس الشراب والغزل يعقدونها فى دورهم أو فى دور المغنين والنخاسين أو فى الحانات والأديرة ؛ ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة ، وبوصف الملاهى من جهة أخرى ، وراح بشار مثلا يفخر بكلا الأمرين : باقتناص أموال الملوك ، وانتهاب سوانح اللذات ، قال :

وإنى لنهَّاض اليدين إلى العلا … قروعٌ لأبواب الهمام المتوج

وقال :

قد عشت بين الريحان والراح والـ ـمزهر فى ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هذا جاء الطور الثالث طور الفقر والانحلال ، حين استنزفت موارد البلاد ، وعظمت مفاسد الحكام ، وخمدت العزائم من جراء الانهماك فى ذلك الترف ، وفدحت الضرائب الأهلين ، وتنازع الأمراء والولاة . وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم فى عهد الرخاء والترف السالف ؛ أما فى هذا العهد فعم الشقاء ، وانتشر الخراب ، وكسدت الصناعات ، وظهر القحط وتتابعت المجاعات

ولم يبق معتصما بربوة الترف فوق سيل هذا البؤس إلا القليل ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالى بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفخة ويتشبهوا بالسابقين فى الجاه والأبهة ؛ يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالأثواب والأطعمة فى المواسم والأعياد كأنما يأبون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة ، ولا يريدونهم إلا مجزة مستجدين يفزعون إلى بر الأمير ويتمدحون بجوده . تلك كانت حال مصر مثلاً فى فترات طويلة من حكم الفاطميين والمماليك ؛ وتلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ ، حتى لقد تشابه ثمت الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب العصابات والمناسر . وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفاهية البلاد فى قوله المفعم بالحسرة :

أطاعت أمير المؤمنين كتائبٌ تصرِّفُ فى الأموال كيف تريد

فثالث الأطوار المشار اليها فى بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذى جاء رد فعل لطور الاسراف فى الترف ، كما يجىء الخمار عقب الاسراف فى الشراب . وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقراً طبيعياً معتدلاً قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين ؛ والأخير فقر منشؤه الافراط والتفريط ، وحليفهُ الذلة والمسكنة واللئيم من الطباع ، وفى طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلدد والحرمان . وقد انعكس كل ذلك فى أدب هذا الطور إذ جاء ضاوياً سقيما مملوءاً بالشكوى والتوجع ، منطوياً على تمويهات المعانى ومخادعات الألفاظ التى تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه

هكذا جرى العرب من الترف إلى أبعد غاياته ، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى . أما الانجليز فأنهم وإن شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان فى تأسيس امبراطورية ضخمة ، كانوا نسيج وحدهم فى توقى اعراض الترف وتحاشى عقابيله التى يجرها على المجتمع ، والتى تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها لصروح الدول ، لما تسلب أبناءها من صفات النخوة والجهاد والغلبة ، فلم يمسّ الترفُ المجتمع الانجليزى والأدب الانجليزى إلا مساً خفيفاً ، وفى عهود قصيرة ، وذلك للظروف التى أحاطت ببناء الامبراطورية

فقد شيدت الامبراطورية الانجليزية ببطء وتدرج ، لا بسرعة كما شيدت الامبراطورية الرومانية ، ولا فجاءة كما بنيت الامبراطورية العربية ، فلم يغمر المجتمع الانجليزى سيلٌ مفاجىء من الثروة ؛ وبنيت الامبراطورية فى العصور الحديثة فلم يتبع الانجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر القاتلين أو المسالمين واسترقاقهم ؛ ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح ، فتنحصر الثروة فى طبقة محدودة تسرف فى اللذات بينما بقية الشعب محروم ، بل كان الاقليم المفتوح حرباً يفتح للتجارة الانجليزية ورجال الأعمال الانجليز صغارهم وكبارهم ، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلاً مما كان فى المجتمع العربى

أضف إلى ذلك أن الانجليز لم يخالطوا الشعوب المفتتحة ولم يسمحوا لأبنائها أن يملأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينتقلوا هم إليهم بحواضرهم كما فعل العرب ، ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من مظاهر الحياة ، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة ، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتع ؛ وظل الانجليز فى بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم ، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التى نمت وتوطدت قبل الالتفات إلى ما وراء البحار

هذا إلى أن الامبراطورية لم تشيد إلا وقد كسرت شوكة الملكية فى إنجلترا واستتب النظام الدستورى ؛ والملوك المستبدون هم عادة رادة الترفُ فى ممالكهم والموحون إلى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهى ، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأثيل السلطان ، ثم يعكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات ، ويقتدى بهم من هم دونهم . كذلك كانت الحال فى الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الامبراطورية ؛ أما فى انجلترا حيث كف الملك عن أموال الدولة

أن يبذرها ، فقد ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال ، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات

إنما فشا الترف والفساد فى المجتمع الانجليزى فى أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها ، مصحوبة بالفرسان الانجليز الذين عاشوا زمناً فى المجتمع الفرنسى ، والفرسان الفرنسيين الذين شبوا فى بلاط لويس الرابع عشر ، فعج البلاط الانجليزى بمظاهر الترف وأسباب الغواية ، وفشا ذلك منه فى طبقات الشعب ، وساعد على ذلك تبرم الناس عما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت ، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقى فى دراما ذلك العهد

وانتشر الترف كرة أخرى فى بعض القرن الثامن عشر بين طائفة ارباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها فى الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الانجليزية على إدارتها ، وعادوا إلى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفخة ، وعرفوا بالنواب تشبيهاً لهم بأمراء الهنـد ؛ ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة ، وأولع بهم ما كنزى وكوبر وغيرهما طويلا ؛ على أنه فى كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضة قصيرة الأمد ضيقة الحيز ، صمد لها الخلق القوى ، والطبع الانجليزى الهادئ ، وتغلبت عليهـا تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شعار البلاط والمجتمع والأدب

فالأدب العربى قد حوى من آثار الترف الشىء الكثير ، بل حوى من ذلك ما لعل أدباً آخر لم يحوه ، وحفل بالرائع من الأوصاف لتلك الآثار ، وإن نبا بعضها أحياناً عن الذوق السليم والخلق الكريم . ولا ريب أن ميله هـذا إلى زخارف العيش وولعه بتصويرها كان مما جنح به أخيراً إلى زخرف الألفاظ وأنيق المعانى . أما الأدب الانجليزى فظل رجاله غالباً بعيدين عن موائد الأمراء ، وظل الاعتـدال فى أغلب العصور رائده ، بعيـداً عن زخارف الحياة المترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معاً ، وكان رجاله أشد شغفاً بتصوير دخائل النفس الانسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعيـة منهم بوصف قصور الأمراء ومحافلهم ومواكبهم .

فخرى أبو السعود

من صديق إلى صديقين

للدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير قلم المطبوعات

صدقني أيها الصديق، الكبير في أدبه، الكبير في خلقه، الكبير في أثره، أستاذنا الزيات، أنني معجب بما تفضلتم بنشره في مجلتنا الشرقية المحبوبة «الرسالة» مما دبجته براعة الصديق الزميل، البحاثة الدءوب، الكاتب العالم الوديع، الأديب عبد الوهاب عزام، خاصاً بما لاحظه – مشكوراً مني ومن المستفيدين بنقده وعلمه، مأجوراً من ربي وربه – على ما فات علينا جماعة «دار المأمون» أولا وقبل كل شيء، ومن عاوننا في الطبع والاخراج من وراقين وطابعين آخراً

ومهما يكن من إيماني بصدق قول يحيى بن خالد: «لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يصنف كتابا» بيد أني ارتحت الارتياح كله إلى أن فاضلاً أديباً كأخي الاستاذ عبد الوهاب عزام تجشم المتاعب والصعاب، وأفنى الليل والصحة والجهد، في القراءة والمقابلة، والمطالعة والمقارنة، والتصحيح والاستقراء، في سبيل إقامة الأوَد، وإحقاق الحق؛ فله الحمد والثناء على ذلك، ما أبلى وأجاد، وبحث وأفاد. ولست بقائل له إنني ألحقت بالجزء الثالث ما يفيد ويرشد، وفي الرابع ما ينصف ويحمد. ولست بمتألم لما كان من مبادرته بما تدارکناه، لأن الكرم العلمي، والسخاء الادبي لا يمدوان صنيعه. بيد أني – وهو الأستاذ الحجة – ناقل له هنا كلمات متواضعة أرجح أن علمه الوفير سيسيغها، وعطفه الفسيح سيسعها، وأدبه الجم سيبررها

«وكم (1) كان يحلو لي أن أتحدث طويلاً عن النقد وحقيقته، علماً وفناً، وتاريخاً وتطوراً، وما له من أثر عميق يعتد به في توجيه نهضتنا التجديدية إلى الانتاج والبقاء، والتشييد وحسن الأداء، والتقدم والنماء؛ وكم كان يحلو لي أن أستفيض معك في القول في هذا الباب، وأميط لك اللثام عما لنصفة النقدَ من سداد تزجية، وحكيم توجيه، وحسن إبانة، وفضل على الصناعة، ومتن في عنق التأليف، ورواج للكتب والتصنيف، وإصابة للنصاحة، وإعانة على الفصاحة؛ وكم كان يحلو لي أن أزاملك في جولة في تلخيص كتاب «سالسبوري» في علم النقد، وأن أرافقك في سياحة في أسفار «ما كولي» وما كان له من إرشاد إلى الحقائق، في شكر للناشر، وثناء على المؤلف، في غير افتئات ولا إعنات، وفي نأى عن الحقد والشحناء، والجدل والمراء، والاقذاع والهجاء. كم كان يحلو لي ذلك كله وما في سلكه ونظامه، لو لا أن النية منصرفة، إذا مد الله في سني العمر، وأطال في حبل الحياة، إلى أن أفرد لك كتاباً في هذا، وأن أشرح لك فيه ماله صلات بالأدب والعالم، وأعرج لك فيه على مضار الخصومات والاتهام بالزندقة، والتشكيك في العقيدة، لأن العلم يجب أن يكون للحق خالصاً، والأدب يجب أن يُخلق للفن محضاً، والفن يجب أن يتجه للجمال صرفا، والجمال يجب تحليته لرفاهة الحس، ومتعة العين، وصقل الذوق، مستساغاً حلواً»

«وهذه فصول لعمرك تتطلب الدرس والتقرِّي، والفرْي والتقصي؛ ولكن قصارى ما نثبته لك هنا، التوجه إليك بالنصيحة، أن تجعل الدين السمح بينك وبين ربك، وأن تتخذ من هديه تهذيب نفسك، وتقويم عوجك، وتغذية روحك، وأن تتنكب ما في وسعك لها مزالق الفتن، واغترارات التردى، ومجاهل التدسى في الخصومات التي تقوم بين العلم والدين، وبين القديم والحديث، وبين الحق والأضلولة، وبين الموعظة والأحبولة، وبين الوجدان والسخيمة، وبين السليمة والسقيمة، وبين الصدق والمين، وبين القصد والسرف، وبين الافتيات والارشاد، وبين الأعوجاج والسداد، وبين الحلكة والنور، وبين الافادة والغرور، وبين الرقة والالطاف، والشدة والعنف، وبين التعليم والتجريح، وبين الابهام والتوضيح، وبين الملتوى والصحيح، وبين اللفظ والمبنى، وبين العبارة والمعنى، وبين الاجحاف والانصاف، وبين الاصلاح والاتلاف، وبين المعدلة والتحيف، وبين الافادة والتعسف، وبين الاجادة والتحرف، وبين العقل والشهوة، وبين الزبد والرغوة، وبين الهدى والتدني، وبين الجنى والتجنى، وبين

(1) ص ٢١١ بكتاب التعليق من مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للجيب

الشفاء والتشفى ، وبين الورع والغاية ، وبين البداية والنهاية . »

* * *

« ولكن ذلك كله لا يحول بيننا وبين أن نجتزىء لك القول ، بأن النقد هو المرشد البرىء ، والمعلم المؤدب ، والظهير المعين ، الذى يقدر متاعبك فى التأليف ، ويشيد بأوجه إحسانك ، ويجلى لك مواطن الضعف ، فى أدب ولباقة ، مع تحليل الموضوع ، شخصاً كان أو عصراً ، إلى ما له من عناصر ومقومات ، وأثر بيئة ووسط ، ووراثة ودم ، ومنبت ومنجم ، ومزاج نحيزة ، وطبيعة إقليم ، إلى ما يلابس عصرك من علوم وفنون ، وحقائق وبداية ، ونظريات وأسس ، ومدارس تفكير ، وقواعد جدل ، وأصول نقد ، ومعايير منطق ، ومقاييس مقارنة ، وأوجه موازنة ، وتناسب مقدمات ، واستخلاص نتائج ، وفهم لطريقة « ديكارت » ، وتعرف لمناهج « كولريدج » ، واستيعاب لتاريخ « سالسبورى » ، وانتهال من مقولات « ماكولى » ، ووقفة على أطلال مذهب « بوالو » ، فى استشراف إلى ناحية الجمال والخير من كل شىء ، ودرس للطبيعة المركبة فى كل شىء ، لذاتها لا لأشخاصها ، ووصف للصفات الانسانية العامة ، والفضائل البشرية العامة ، والطبائع الاجتماعية العامة ، كمدرسة القرن التاسع عشر التى كان فى طليعة كتابها « كورنى » « وموليير » و « راسين » وأترابهم وأشباههم ، وانتقال إلى أصحاب المذهب الايجابى ، وهم « أوجست كنت » و « أرنست رينان » ورائدهم « تين » الذين يتوخون البرهنة العلمية فى كل شىء ، ويرجعون مقومات الرجل إلى الجنس والبيئة والطبيعة والزمن وما إلى ذلك ، مع إلمامنا بمذهب « فرديناند برونتير » ، فى التدرج والانتقال ، المبنى على فلسفة « دارون » فى النشوء والارتقاء ، من تقسيم الآداب الملمة ، من وجدانية واجتماعية ، وشعرية ونثرية ، إلى وحدات وفصائل ، مما ليس هذا موضع الاسهاب فيه ، والشرح له ، مع أخذنا بأساليب العرب ، وتذوق لمعنى الجمال ، فى صفاء روح ، ومضاء عزيمة ، ونفس طُلَعة ، ورفاهة إحساس ، للموازنة والافادة ، واضطلاع بقدسية العلم ، وأمانة البحث ، وحرمة المنقول ، واستكناه لهدى الجدل المترفق الوئيد ، وتحرر من ربقة التعنت العتيد ، ونزول على سياسة التسهيل والتعبيد ، والتأسيس والتشييد ، وأن تكون الروح الحاكمة على سلطان النقد الحافزة إلى الارتصاد له والتبسط فيه الأخذ بصفو المؤلف لا إهدار جهده ، والمعنى فى الاعانة له لا التقحم لانتقاص أثره ، والتقدم إلى شد أزره ، لا التهافت بذكره ، وإجلال صنيعه ، فى ذوب نفسه ، واعتصار ذهنه ، وسهر ليله ، ومتاعب تحصيله ، ودءوب إكبابه ، ومضنى إمضائه ، وعناء كتابه ، بديلاً من سياسة السخرية والتكذيب ، والهدم والتخريب ، واللوم والتثريب ، فى غير هدى ولا تعقيب »

* * *

أما بعد : فلست يا سيدى الجليل بمنتحل كتاب ياقوت ، إلى شخصى الضعيف ، لا سيما وقد أفردت لتاريخه ربع الجزء الأول . وأود أن تعلم يا سيدى ، غير معلم ، فى غير غمز ولا لمز ، ولا تعليق ولا تعقيب ، أن حكمة إصدارنا لما نحاول إصداره من مؤلفات السلف الصالح ، « من[1] رسمية وشبيهة بالرسمية ؛ فالرسمية ، ونعنى بها كتب الأدب المجمع عليها ، وهى البيان والتبيين ، والعقد الفريد ، والكامل ، والأمالى ؛ والشبيهة بالرسمية أمثال ابن منظور ، وابن قتيبة ، وابن بسام ، وابن ظفر ، وأبى حيان ، والزمخشرى ، والجاحظ فى حيوانه ، وما إليها ، وكتب الطبقات والتراجم ، أمثال معجم الأدباء لياقوت ، وتاريخ الاسلام للذهبى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومن على شاكلتهم — أود أن تعلم يا سيدى أن حكمة إصدارنا لهذه المؤلفات هو أنا نرى فى إحياء هذه الكتب ، وبعثها إلى النشور والظهور ، اللبنة الأولى فى بناء صرح الموسوعة العربية ، التى يحتاج إليها الناطقون بالضاد ، والتمهيد الذى لا محيص عنه ، إذا ما رغبنا رغبة عملية حقة فى الاتجاه العلمى والعملى معاً ، فى وضع دائرة معارف عربية شرقية ، مستندة على أصول تاريخية صحيحة ، وقائمة على أسس عملية حقة »

* * *

ثم أود أن تعلم يا سيدى الصديق الكريم أن وزارة معارفنا قد أحسنت صنعاً وأصلحت أمراً ، حينما أخذت على عاتقها إنشارَ الأدب ، وإحياء لغة العرب ، وبعث تواليف السلف الصالح ، والأخذ بناصرنا فى إصدار أمهات كتبنا الأدبية ، ومظاننا التاريخية ، ومراجعنا اللغوية . ولتعلم — غفر الله لى

(١) ص ١٢ كتاب التعليق

ولك — أنها قررت أن تفتح الباب على مصراعيه لكل أديب عالم، أو أستاذ مثقف، أو ناشر همام، يتقدم لها برغبته فى المعونة برجالاتها وأئمتها لمراجعة ما يصدر، والاشراف على ما يطبع، رغبة فى خدمة الثقافة، وحرصاً على الأمانة العلمية المرجوة. ثم أود أن تعلم يا سيدى أن تسعة أعشار ما يطبع الآن، وما يروج فى السوق، ليس من آثارك النافعة، ولا من منتجات من هم فى مكانتك وثقافتك، بل هو مع الأسف الشديد من الروايات المبتذلة، وقصص البوليسيات والاجراميات، وأن المصلحة كل المصلحة فى محاولتنا جميعاً تغيير الاتجاه، وخلق الذوق الأدبى الجديد

ثم أود أن تعلم — غير معلم طبعاً — أيها الأستاذ الجليل أن ضبط الأعلام، ومراجعة الأعلام، وشرح المبهم، والتذييل على ما فات المؤلف والناشر — كل هذا ليس بالسهل اليسور، ولا بالعمل الضئيل، الخليق بالسخرية والتهانف. وحاشاك أن تجنح — وأنت المؤدب خلقاً ولفظاً، ومعنى ومبنى — إلى مالم يعهد فيك طوال حياتك. وأود أن تعلم أيها الصديق الأديب أننا كانا، فى أعمالنا الأدبية والثقافية والعلمية، لم ندرج بعد من مهدنا، وأننا فى بداية البداية، وأن لغتنا العربية بحاجة إلى الضبط الكامل، والشكل الكامل، والأيد الكامل، والتآزر الكامل، وأننى أومن بحاجتى إلى توالى نصحك، ومطرد إرشادك، ومتتابع تعقيبك، ومحتاج حقاً إلى علمك وأدبك. وأود أن تعلم ياسيدى أنك ستأسف كثيراً — وأنا العليم برجاحة عقلك، وسجاحة خلقك، ومتانة مباءتك، ودماثة سجاياك — حينما ترجع إلى الجزءين الثالث والرابع، وترى فيهما أن حضرة أستاذنا سوياً الشيخ عبد الخالق عمر، أستاذ اللغة العربية الأول بدار العلوم لم يأل جهداً فى إصلاح الكتاب وتدارك ما فات على الأستاذ المستشرق د. س. مرجليوث، فى غير موضع، يستحق التقدير والشكر، والثناء وحسن الأجر

وأود أن يعلم الصديق الكريم — فى غير منّ ولا تجمل، وفى غير زهو ولا اغترار — أننى ارتحت أيما ارتياح لتجنيبك مبطلاً، أو هديك مرشداً، أو تحيفك متعنتا، أو إرشادك محقاً، فى ترجيح نبالة القصد، وحسن الطوية، على ما عداهما علم الله. ارتحت أيما ارتياح — مهما كان الحافز والدافع، والحادى والهادى — لما كان، لأننى أسأت التصرف حقاً، ولأننى أخطأت محجة السبيل صدقاً، ولأنه لا معنى لأن يحتمل مثلى، ومن فى صحتى ومتاعبى، ومن خرج أمس القريب من محنة المماش، وإضاقة الرزق، وتوالى النكبات والأرزاء — لا معنى لأن يحتمل مثلى مسئوليات كبار، مخيفة ومفزعة، فى التصدى لما تصدره الآن «دار المأمون»، التى تكلفنى هى والمراجع الشمسية ومنسوخاتها ومصادرها ما لا يقل عن مائة وخمسين جنيهاً شهرياً؛ لو علم الصديق الكريم النفس والخلق مصدرها وطريقة جمعها، لتردد فى أن يركب رأس الشيطان، ولتريث حتى يطلع على استدرا كاتنا، ولكان نعم المشجع والظهير، ونعم العون والنصير

وأود أن يعلم الصديق الكريم — غفر الله لنا سوياً، وهو هو النبيل الخلق، الطاهر الذيل، العف الوجدان — أننا معشر الكتاب نعانى الأمرين من حسد الحاسدين، وظلم المبطلين، وشظايا الراجين. ولو كان الصديق الكريم — رحمه الله، وهو المتصل بالدكتور طه حسين بك زعيم الأدب ونصيره، ومن خاصة الأستاذ أحمد أمين وهو عميد الأخلاقيين، ومن كتاب الرسالة ولها فى الأدب وبنائه رسالات خالدات ليس إلى انتقاصها من سبيل — لو كان الصديق الجليل أنعم النظر لآثر أن يترك منهجه الجديد فى تقدمته لنقده، لمن هو دونه بمراحل، خلقاً وعلماً، وثقافة وأدباً؛ ثم لوازن — بفرض عدم مطالعته لاستدرا كاتنا فى الجزءين الثالث والرابع — بين معجم ياقوت لمرجليوث ومعجم ياقوت لدار المأمون، ثم لم يبخل بالارشاد عن طريق الصحف إن كان محباً للاعلان، أو عن طريق الصداقة إن جنح إلى الاحسان، فى غير انتقاص لفضله ولا نكران

وأود أن يعلم الصديق الكريم — وأقول هذا من باب الاكبار وأنت خير أهله، ومن باب التقدير وأنت خير موضع له — أننى كنت أنتظر منك ومن زمرتك الصالحة الجليلة أن تكونوا أكثر عوناً لى من الأستاذ مرجليوث؛ فلقد كتب إلىّ — فيما بينى وبينه وبين ربى وربه — ليرشدنى إلى أن نسخة شمسية لقسم ناقص من الكتاب لدى المستشرق يهودا، وأن آخر فى فلسطين لديه كذا، وأن نسخة مكتبة جلالة الشاه فيها كذا، وهو ليس بعربى، وإن كان للعربية محبا ولها

نصيراً ؛ وأنت يا سيدى — الكريم البيت ، الكريم الخلق ، الكريم الماضى والحاضر — تمسك بمعاول هدم ، ومقولات إقذاع ، وتمهيدات تهكم ! ويا ليتك أتيت بجديد ، بل يا ليتك لم يفتك ما استدركناه ! والله لا أحمل عليك لأنك شخص ، ولكنه الاكبار لشخصك ، والاكبار لعروبتك ، والاكبار لمصريتك ، والاكبار لنصفتك العلمية ، ومكانتك الأدبية

ثم أود أن تعلم أيها الصديق الكريم ، والزميل القديم ، أننى — مع اكبارى لكل نقد ، ورضوخى لكل هدى ، وإذعانى لكل ارشاد ، وخضوعى لحجة الصواب — كنت أؤمل منك كثيراً ، وكنت أؤمل من (الرسالة) كثيراً ، وكنت أؤمل من علماء العربية كثيراً ، وكثيراً جداً ؛ وليس بعاب ولا نقيصة أن أفتح لكم قلبى جميعاً ، لأقول إن مشروع الأحياء أكثر مما أطيق ، وأكثر مما أحتمل ، وإنه بحاجة ماسة إلى عونكم الأدبى والمادى ؛ أما الأدبى فبتغير تلك السبيل الشائكة القذعة المريرة ؛ لا سيما وأنتم أعلم منى ، وأدرى بطلاسم النساخ ومعميات الكتاب ، وأخطاء الأجيال ، ومجاهل اللغة ، وفيافى الأحاجى ؛ وأما المادى ، فبأن تتقدموا بالدعاية القوية الحارة المؤمنة ، بأن يساهم السراة والأغنياء فى أكبر عمل ثقافى أدبى ، يخدم لغة القرآن ، ويرفع سمعة مصر إلى السماكين ، ويحتفظ بزعامتها على الشرق وعلى الناطقين بالضاد

ثم أود أن يعلم سيدى الصديق الكريم — غير معلم طبعاً — أننى ممن لا يحفل كثيراً بمادحه أو ذامه ، وأن مرانى فى هذا الباب كون منى رجلاً لا يخشى إلا الله ، ولا يعمل إلا بوازع يخشى الله دون سواه ، وأن مدح اليوم قد يكون ذم الغد ، لأن معايير الأشياء تختلف بالبيئة ، والظرف ، والمكان ، والزمان . وما زلت أذكر ما تذكره جيداً من محاضرة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدى ، حينما حدثنا عن الصاحب بن عباد ، وما عزاه إليه صاحب الأمتاع ، فى معرض الذم والهجاء ، من ميله إلى أن يقال عنه [1] : « أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، — ولله دره — ما رأينا مثله ، مَن ابن عبد كان مضافاً إليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى ؟ ومن صريع الغوانى ؟ ومن أشجع السلمى ؟ إذا سلكا طريقهما ، قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ، وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطاطاليس فى المنطق ، وعلى الكندى فى الجدل ، وعلى ابن سيرين فى العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى سهل بن هرون فى الفقر ، وعلى يوحنا فى الطب ، وعلى ابن يزيد فى الفردوس ، وعلى عيسى بن كعب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى النجار فى البدل ، وعلى ابن ثوابة فى التقفية ، وعلى السرى السقطى فى الخطرات والوساوس ، وعلى مزيد فى النوادر ، وعلى أبى الحسن العروضى فى استخراج المعمى ، وعلى بنى برمك فى الجود ، وعلى ذى الرياستين فى التدبير ، وعلى سطيح فى الكهانة ، وعلى أبى الحياة خالد بن سنان فى دعواه . » وما عزاه إليه آخر فى معرض المديح والثناء ، فى باب مكارم الأخلاق [1] : « إنه استدعى يوماً شراباً من شراب السكر ، فجىء بقدح منه ، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم . فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال : بأن تجربه على من أعطاكه . قال لا أستجيز ذلك ولا أستحله . قال فجربه على دجاجة . قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز . وأمر بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عنى ، ولا تدخل دارى بعدها ، وأقر رزقه عليه . وقال : لا تدفع اليقين بالشك ؛ والعقوبة بقطع الرزق نذالة » . فلعلك ترى ما أراه من أن للكاتب الواحد أحزاباً لامتداحه ، وأخرى لاستهجانه والزراية عليه ؛ وأن وجهات النظر تختلف ، بل معايير الحقائق تتباين على قدر غلبة النسبية فيها . ولعلك ذاكر قصة العميان السبعة مع فيلهم الموصوف ؛ ولله فى خلقه شؤون

وأخيراً أود أن تعلم يا سيدى أننى شاكر لك حقا كل فضل فى إصلاح خطئنا فى المعجم وفيما أصدره ، لأننى أنشد الخدمة الحقة لوطنى ودينى ولغتى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحمد فريد رفاعى

(١) ص ١٨٠ الجزء الثالث من معجم الأدباء

(١) ص ١٨٥ الجزء السادس من معجم الأدباء

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت

أرسلت حكومة الولايات المتحدة البكباشى ريد إلى جزيرة كوبا ليفحص سبب وباء الحمى الصفراء . وكانت الحرب الأسبانية انتهت فى كوبا . فأعلن البكباشى أن الحرب قائمة ضد عدو جديد هو الحمى الصفراء . وطلب متطوعين ليجرب فيهم عض البعوض ليعلم هل تنقل الحمى به . فتطوع لازار وهو صياد مكروب متدرب ، وتطوع كارول وكان جراحا مساعدا فى الجيش

— ٣ —

واستدعى رجال الحكم رِيدَ إلى واشنطن ليؤدى تقريره عن أعمـال جرت فى الحرب الأسبانية . فلما جاءته الدعوة أصدر أوامره مفصـلةً إلى كارول ولازار وأجَرَمُنْتِى . وكانت أوامر سرّية ، وكانت غاية فى التطرف والوحشية إذا أنت قرنتها بطبع ريد المعتدل الهادئ — أوامر إذنابية لا ترضاها الذمم ، وهى إلى جانب هذا خروج على النظام العسكرى ، فما كان لدى ريد إذن من رؤسائه فى الجيش باصدارها . ورحل ريد إلى واشـنطن . وقام لازار وكارول يصدعان بأوامره فيركبان خطة غاية فى الجرأة لم يركبها قبلهما من صُياد المكروب أحد . أما لازار ، وقد كنتَ بالأمس تقرأ فى عينه معنى الفناء ووجمة الموت ، فقد صرت اليوم تقرأ فيها معنى العزم والتلهف على البحث . وأما كارول فقد كان جنديا بطبعه فلم يأبه عمرَه بمجالس التأديب العسكرية ولم يحفل قط بالموت ، وقد كان فى المكروب صـياداً طويل الحبل طويل الباع

بدأ لازار خطته . فحمل معه فى زجاجات تلك البعوضات التى فقّسها فخرجت من البيض تحمل على أظهرها أقلاما من فضة وأخذ يسير بها بين سرائر المرضى وقد اصفرّت وجوههم كورق الخريف ، واحمرت أعينهم بالدم القانى ، وهذَوا فى القول وحق عليهم الفناء . وفتح زجاجاته على جلود المرضى ، فأخذت البعوضات تمتص من دمائهم حتى إذا امتلأت سدّ الزجاجات عليها ، وحملها إلى منازل من الزجاج أُعدّت لهـا ، وأدخل فيها إلى البعوض أطباقا صغيرة من الماء ومن السكر . وفى هـذه المنازل هضمت أُنثيات البعوض هذه غذاءها من الدم المحموم ، وطنّت قليلا ، ثم سكنت فى انتظار التجربة

وتذكر لازار ما قاله رِيدُ له : « يجب ألا تغفل عن حمى اللاريا ، فلعل بينها وبين هذه الحمى الصفراء شبهاً قريبا ، ففى حمى الملاريا لا يكون البعوض خطراً على الناس إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة ، فلعل الحال فى هذه مثله فى تلك »

ولـكن أين الصبر من لازار ، وأين منه صبر أيام بَـلْهَ صبر الأسبوعين أو الثلاثة ! فجاء بسبعة متطوعين لا أدرى كيف جاء بهم ، ولا أدرى ما اسمهم ، لأن أسماءهم على ما أعلم أُسدِل عليها الستار عمداً ، لأن التجربة أُريدَ إجراؤها فى خفاء كالليل البهيم . وقام لازار على هؤلاء السبعة — ولعلّه أسكرهم أو لعلّه خدرهم — فأسقَى البعوضَ من دمائهم ، هـذا البعوض الذى استقى منذ أيام قلائل من دم مرضى أصبحوا فى هذه الساعة فى عداد الأموات

وا أسفاه للازار ! فقد جاءت النتيجة بغير ما ارتجى ، فظل السبعة الرجال على أصح حال ولم تأتهم الحمّى . فانكفأ على عقِـبَيْـه خاسراً نادماً

خسر لازار ، وبقى كارول لم يجرّب بعدُ حظَّه . وكارول هو الرجل الذى قضى سنين عونَ ريد الأول ، وكان دخل الجيش أول ما دخل جنديا بسيطاً ، ثم صار أمباشيًّ وجاويشَ سنوات عديدة تعلم فيها الطاعة حتى صارت من جبلّته . وكان رئيسه ريد قال : « جربوا البعوض » . وكان رئيسه ريد ارتأى أن الشيخ المأفون فِنْـلى لم يقل لغوا عندما اتهم البعوض . فلزم كارولَ أن يقول ما قال ريد وأن يرى ما ارتآه . أما رأيه هو فثانوىّ فى حكم الجيش ومألوفه . ألم يقل لهم البكباشى ريد عند رحيله « جربوا البعوض » !

فجاء كارول إلى لازار وهو فى يأسه يذكّره ، قال : « هأنذا بين يديك متأهب لما تريد » . وسأله أن يُخرج إليه أخطر بعوضة

لديه – بعوضة تكون عضّت لا مريضاً واحداً بل عدة من المرضى ، ومن مرضى فى أسواء حال من حمّاهم . وفى السابع والعشرين من أغسطس أخرج لازار بعوضة حسبها أخطر ما عنده ، فقد كانت شربت من دماء أربعة من مرضى الحمى الصفراء كان من بينهم اثنان فى أسوأ حال . وحطّت هذه البعوضة على ذراع كارول.

ونظر إليها الجندى كارول وهى تتحسس بمقراصها تتخير للقرص مكاناً من جلده . فما الذى دار فى خلده وهو يرقبها تنتفخ كالكرة مما تشرب من دمه ؟ لا أدرى ولا أحد يدرى ، ولكنى أحسبه يداور فى فكره حقيقة يعرفها كل أحد : « أنا الآن فى السادسة والأربعين ، وفى الحمى الصفراء كلما زادت السن قل الرجاء فى الشفاء » . وكان فى سنّه السادسة والأربعين ، وكانت له امرأة وخمسة أولاد ، ومع هذا فقد كتب فى هذا المساء إلى ريد يقول : « إذا كانت نظرية البعوض صائبة وجب أن يكون حظى من الداء وفيراً » . وفعلاً قد كان حظه منه وفيراً

فبعد يومين أحس بالتعب ورغب عن عيادة المرضى فى عنبرهم ، وبعد يومين آخرين أحسّ أنه مريض ، وخال أن عنده حمى الملاريا ، فنهض بنفسه على رجليه وذهب إلى معمله وفحص دمه تحت المجهر فلم يجد به مما خال أثراً . ولما خيّم الليل ضرب فى عينيه الدم ، واحمرّ وجهه واقتمّ ، وفى الصباح حمله لازار إلى عنبر الحمى الصفراء ، وبقى هناك أياماً طويلة وإلى جنبه الموت ... ومرّت به دقيقة أحس فيها كأن قلبه سكت فلم ينبض ... وتلك دقيقة أعقبته سوءاً ستعلمه بعد حين . وظل بعد شفائه يعد تلك الأيام التى قضاها مريضاً بالمستشفى أمجد أيامه . قال : « أنا أول رجل أصابته الحمى الصفراء فى أول تجربة من عضة بعوضة متعمّدة »

وعانى مثلَ حظ كارول جندىٌّ يدعى « س . ص » ، أسماه هذا الاسم هؤلاء البحّاث الذين خرجوا على القانون فتستروا فى ظلام الكتمان ، وكان اسمه الحقيق وليم دين William Dean ومسكنه جراند رابدز Grand Rapids بمتشجان Michigan (١) . فهذا عضّته أربع بعوضات وكارولُ فى أول مرضه ، إحداها هى التى عضّت كارول ، والثلاث الأخريات عضت ستة رجال فى درجة من المرض معتدلة وأربعةَ رجال كانوا فى أسوأ حالة من الحمى ورجلين ماتا بها . وحَظِى هذا الجندى بالشفاء كما حظى كارول

إذن فالتجارب جاءت بخير ما يُرَجى . نعم لقد عض البعوض ثمانيـة رجال فلم يصبهم سوء ، ولكنه عض كارول وعض « س . ص » ونِمسَم الخنزيرين الغينيين كانا فى هذا التجريب فأصابتهما الحمى ، وكاد قلب كارول أن يقف ، وتماثل الاثنان للشفاء ؛ وكان كارول مغتبطاً يكتب إلى رئيسه ريد وينتظر اليوم الذى يعود فيه ليطلعه على سجل التجارب زاهياً فخورا

ولم يشكّ فى هذه التجارب أحدٌ إلا لازار ، فداخله فى هاتين الاصابتين شىء من الريبة ، لأنه كان مجرِّباً متقناً دقيقاً حذِراً فى تجريبه ؛ وكان يرى أنه إذا قام بتجربة وجب عليه أن يتحكّم فى ظروفها ويضبطها غاية الضبط حتى لا يتسرب إليها الخطأ ، شأنَ البحّاثة القح . حدّث لازار نفسه قال : « ليس من الكرم التشكك فى أمر هاتين التجربتين بعد ما أبدى فيهما كارول و « س . ص » من التضحية والجرأة ما أبديا ، ولكن كلا الرجلين تعرض للاصابة قبل التجربة وذهبا حيث توجد الحمى مرة أو مرتين قبل أن يصابا بها فعلا ، فليست التجربة بالغة حدّ الكمال ، فمن يدرينى أن بعوضى لا غيره هو الذى أعطاهم الحمى»

تشكك لازار ، ولكن ما تشكُّكُ جندى أول واجبه إطاعة الأمر ؟ وإذنْ فقد أخذ يجرى على عادته فيذهب عصر كل يوم إلى أسِرّة المرضى فى تلك الحجرات ذات الرائحة الغريبة الضعيفة المعهودة ، وإذنْ فقد استمر يقلّب زجاجات اختباره بما فيها من البعوض على أذرع رجال حمر الوجوه محمومين ، ويجعل البعوض يمتص من دمائهم حتى يرتوى . وجاء اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فكان يوماً على لازار مشؤوما ، إذ بينا هو يأذن للبعوض فى الزجاج أن يشرب من دم المرضى ، حطت من الجو على ظاهر كفه بعوضة تائهة ، فتركها تشرب من دمه وقال : « دعها تشرب فما أظنها من البعوض الذى يسىء » ، قال ذلك عن بعوضة تائهة طائرة طليقة فى عنبر به الرجال تموت !

كان هذا فى اليوم الثالث عشر من سبتمبر

(١) بالولايات المتحدة

ادوارد الثـــامن

بين عرشه وقلبه

للأستاذ محمود غنيم

أرأيت ذلك العاهل الشاب ، يتنازعه عاملا عرشه وقلبه ، يهيب به الأول : أن الجاه الجاه ، والسلطان السلطان ؛ ويهيب به الثانى : لا سلطان إلا سلطان الغرام ؛ وهو فيما بين هذا وذاك كريشة فى مهب الريح ، وقد أرهف العالم أذنيه ، ليسمع كلته الفاصلة ، وكاد الفلك يكف عن دورانه ، لينصت إلى قراره الأخير ، حتى أطلقها من فيه كلة كالقذيفـة ، وسمع دويها فى الخافقين ، فكانت فصل الخطاب ؟

ألا فليشهد الفلك وليحدث التاريخ : أن عرش الأمبراطورية البريطانيـــة الذى لا يهزه قصف المدافع ، ولا تزعزعه قوة الأساطيل ، قد هزه لحظ فاتر ، وزعزعه بنان مخضوب ! وهكذا تثبت الطبيعة البشرية أن المرأة هى المرأة فى كل زمان ومكان ، منذ أن أخرجت آدم من الجنة إلى أن زحزحت ادوارد الثامن عن عرشه

***

لقد شهد تاريخ القرون الوسطى حرباً شعواء دارت رحاها بين السلطتين الزمنية والروحية ، فليشهد التاريخ الحديث حرباً شعواء من نوع آخر بين السلطتين الزمنيـة والقلبية . فلئن كان العرش أخضع الفاتيكان يوماً لنفوذه ، فها نحن أولاء نرى العرش ينهزم أمام الحب ، ثم يقف بين يديه خاضعاً ذليـلاً ، يبايعه بالأمارة ، ويعترف له بالغلب . ولعمرى إن السلطة القلبية لهى أقوى السلطات الثلاث بأساً ، وأصعبها مراساً ، وأشدها عراماً ، وأنفـذها أحكاماً . ألم يضح الناس قديماً بالأديان على مذبح الحب والغرام ؟

فأن تسلمى نسلم وإن تتنصرى يخط رجال بين أعينهم صُلبا

***

هذه هى بريطانيا العظمى أولى دول العالم ، وهذا هو ادوارد الثامن الرجل الأول فى بريطانيا العظمى ، فأن شئت أن تشير إليه فقل : إن الانسانية جسم هـذا هامته ، أو هى رأس هو ذؤابته ، لو خلق إنسان من غير طين وماء لـكان إياه ، ولو استمر البشر على عبادة البشر لعبدوه من دون الله

ولـكن ، أليس عجيباً أن يكون هذا العاهل العظيم ، لا يملك من أمر نفسـه ما أملـكه أنا من أمر نفسى ، وما يملـكه عامة شعبه من أمور أنفسهم ؟ ! يشاء العامل البسيط أن يتزوج فيخطب فيمهر فتزف إليـه عرسه ، ويشاء ادوارد الثامن أن يتزوج فتهز القوانين رأسها نفياً ، ويطل شبح التقاليد بأذنيه ، وتحول الحوائل ، وتمترض العقبات ، وتنطبق الزرقاء على الغبراء !

أليس عجيباً حقاً أن تتقيد حرية الملك فيما هو أمس الأشياء بشخصه إلى هذا الحد ، وأن الذى يقيد حرية الملك إلى هـذا الحد هو الدستور الذى يكفـل جميع الحريات ! الدستور الذى يحرر الأديان ، ما باله يقيد العواطف ؟ الدستور الذى يحرر اليد واللسان ، ما باله يحول بين المرء وقلبه ؟ ما باله يمنع الملك أن يتزوج زواجاً شرعياً ، يقره الأنجيل ، ويباركه يسوع ! ما هـذا الدستور الذى يبيح للرعيـة ما لا يبيح للراعى ، ويمنع الملك

و « فى مساء اليوم الثامن عشر من سبتمبر ... شكى الدكتور لازار سوء المزاج ، وجاءته رِعدة فى الساعة الثامنة مساء » . هكذا ذكر سجل المستشفى

واستمر السجل يذكر فى إيجاز :

« ١٩ سبتمبر : الساعة ١٢ ظهراً ، الحرارة ٣٩٫١° درجة . النبض ١١٢ . بالعين احتقان وبالوجه ارتشاح »

« الساعة السادسـة مساء . الحرارة ٣٩٫٩° درجة النبض ١٠٦ »

« ظهرت الصفراء فى اليوم الثالث . واستمرت حالة المريض فى التدرج إلى أن ظهرت عليه أعراض الحمى فكانت شديدة مؤئسة »

ثم يخرج السجل عن جفافه القاسى ويلطف من أسـلوبه قليلاً : « جاءت الوفاة زميلنا العزيز فمات مأسـوفا عليه فى مساء الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٠٠ »

(يتبع) أحمد زكى

ما يمنح الملوك ، والذى يجلس الملوك على العروش آلات صماء تتحرك بالكهرباء ؛ لا تأمر ولكن تأتمر ، ولا تصدر الأحكام ولكن تتلقى الأحكام ؟ أهكذا تنقلب الأوضاع وتنعكس الحقائق فى القرن العشرين ؟

***

لقد كان خليقاً بهذه الأزمة أن تستحكم حلقاتها فى كل قرن إلا فى القرن العشرين ، وفى كل مكان إلا فى أوربا ؛ أوربا التى حملت لواء الديموقراطية وطافت تبشر بها فى أنحاء الكرة الأرضية ، ما بالها تنغمس اليوم فى الأرستقراطية إلى الآذان ، وتأبى الاعتراف « بمسز سمبسون » لأن الدم الملكى لا يجرى فى عروقها ؟ أ كان يجرى الدم الملكى فى عروق نابليون يوم سمحت له أوربا أن يكون امبراطوراً يعبث بخريطتها كما يعبث الأولاد بالألواح ، ويصرف ملوكها كما تصرف قطع الشطرنج ؟ أحرام على « مسز سمبسون » أن تتبوأ عرش انجلترا ، كما تبوأت « جوزفين » عرش فرنسا من قبل ، ولا سيما فى هذا الزمان الذى أصبح فيه كل عامل فى منجم وزيراً ، وكل بائع صحف دكتاتوراً ؟

***

وماذا يفعل الملك ببنات الملوك إذا كان قلبه عند غيرهن ؟ وما ضر « مسز سمبسون » ألا تكون بنت ملك متوج ، أو أخت ملك متوج ، ما دامت هى ملكة متوجة على عرش الجمال ؟ ... وكيف لا تتبوأ مع قرينها عرش الحكم كما تبوأت عرش القلوب ، دولة بدولة ، وسلطان بسلطان ؟ فلماذا لا يقال : إنهما كفؤان ؟ هبوها ليست عذراء ، هبوها ذات زوجين من الأحياء ، أليست فاتنة حسناء ؟ إن الجمال يقتل كل غيرة ، ويغطى على كل اعتبار ، وهل نضيرها بيكارتها الذاهبة ، ما دامت فتنتها باقية ، ووجهها لم يفقد نضرته ، وعينها لم تفقد سحرها . الحسناء عذراء وإن بدلت كل يوم بعلاً ، بكر وإن أعقبت كل يوم نسلاً ؛ ولن تزال بكراً عذراء حتى تفقد جاذبيتها ، ويحول نضرة خديها ، وتنطفئ الجذوة التى تشع من عينيها ؛ ألا رحم الله جاريتى الرشيد حين سحبت الأولى على الثانية ذيل التيه وقالت : أنا عذراء . فأجابت الأخرى ما بيننا إلا ليلة

***

ألا رحم الله زمانا كانت تثب فيه المرأة من أحضان عاشقيها إلى أريكة الحكم ! رحم الله عشيقات البلاط الفرنسى فى عهد أسرة البوربون — وما عهدهم ببعيد — حين كانت تقيد بأسمائهن التشريفات ، وتصدر بأسمائهن الأحكام ، وتعنوا أمامهن جباه أهل النفوذ والجاه ! كلمة إحداهن مرسوم ، وإيماءتها قانون ، وأمرها نافذ حتى على الملك نفسه ، وهى له خليلة لا حليلة

ألا رحم الله أيام العباسيين ، إذ كان يؤهل المرأة لمشاطرة الملك فراشه رشاقة فى قد ، أو أسالة فى خد ، أو رأى صائب تبديه ، أو بيت من الشعر فصيح ترويه ، فتصبح زوجا لخليفة ، وأما لخليفة ، كلاهما يتحكم فى الرقاب ، ويتحدى السحاب !

ألا رحم الله أيام الأندلسيين ، حين كان يقف الملك على شاطئ الغدير ، وينتقى زوجته من بين حملة الجرار ، فيغدق عليها من ألوان النعيم ما لا عهد لها به ، فتضيق بذلك كله ذرعا ، ثم يعاودها حنينها إلى حمل الجرار ، والانزلاق بها فى الأمطار ، فتخضب ردهة القصر بالحناء تخضيباً ، وتمطر سماؤه بدل الماء طيباً ، ثم تحمل جرتها وتسير فتنزلق قدمها ، فيسرى عنها ، وتقر عينها ، ثم لا تلبث أن تثور على الملك ثائرتها ، فتقسم ما رأت معه يوم صفاء ، حتى ولا يوم الحناء !

***

أليس من حق الملك الذى نهاره لشعبه ، أن يكون ليله لقلبه ؟ قاتل الله السياسة ، فأنها ما تركت شأناً من شؤون أصحابها ، إلا دست فيه أنفها ، لقد أحصت عليهم الحركات والسكنات ، فلا يتحرك أحدهم إلا بتبيقات . ولم تقنع بذلك ، بل تركتهم يمرضون حين تشاء لهم المرض ، ويشفون حين تسمح لهم بالشفاء ، ويأكلون على خوانها ، ويشربون من دنانها ، ويجوعون ويظمأون إذا ضنت عليهم بالطعام ، أو حبست عنهم المدام ؛ ثم لم تقنع بذلك ، فأرادت أن تمعض على قلوب أصحابها بأنيابها ، فلا يميلون إلا وفق ميولها ، ولا يتزوجون إلا ممن تحوز شرف قبولها

***

لحا الله شعراء العرب ! لقد كان يأرق أحدهم ليلة فى سبيل الحب ، فيطول به الضجر ، من طول السهر ، ومناجاة القمر ؛ ولقد كان يذرف عاشقهم عبرة ، فيلونها بالحمرة ، ويشكو من تقرح جفنيه ، ويجعل الدمع خالقة عينيه ، ثم يعاف الماء القراح ، ويشرب الدمع بالأقداح ؛ كم أنشأ عاشقهم المعلقات الطوال ، فى

والأيثار ، وأنه ابتعد عن أهله ، وفارقهم من أجله

وحاربت أهلى فى هواك وأنهم وإياى لولا حبك الماء والخمر

فياليت شعرى ، ماذا يقول ذلك العاشق الذى لم يـسل الحب نومه من عينيه ، ولم يرق دمعة على وجنتيه ، وإنما أفقده عرشاً يمتد ظله على ربع الـكرة الأرضية ؟

لاتباه امرأة بعد اليوم بما بذل فى صداقها من فضة ونضار ، ومنقول وعقار . إنهما امرأتان ، مهر كل منهما عرش وإيوان ! كليوباطره فى التاريخ القديم ، « ومسز سمبسون » فى هذا الزمان . فما أحرى كلا من ادوارد الثامن ومارك أنطوان أن يترنم بقول أمير الشعراء :

من يكن فى الحب ضحى بالـكرى
أو بمسفوح من الدمع جرى
نحن قربنا له ملك الثرى

***

أعود فأقول : أيها الملك النازل عن عرشه ، هون عليك . لا أقول لك : ابك ملكا مضاعاً لم تحافظ عليه ، لقد كسبت امرأة ، ولم تخسر شيئاً ، فانعم بالاً ، وقر عيناً

ولعمرى إن أمبراطور الحبشة لأولى منك بالدمع مقلة . لقد كان أمبراطوراً طيلة حياته ، ولم تـكنه فى يوم من أيام حياتك . وماذا يجديك أمبراطورية واسعة لا تحتكم فيها على موضع قدميك ؟ شتان بين من يحكم شعبه ومن لايحكم قلبه ! فعزاء له عن ملكه الزائل ، وهنيئاً لك حريتك المستردة ، وقلبك الحر الطليق .

(كوم حماده) محمود غنيم

مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

٧ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

دوحة الجبل

وارتقى زارا ذات مساء الربوة المشرفة على مدينة (البقرة الملونة) فالتقى هنالك بفتى كان يلحظ فيما مضى صدوده عنه ؛ وكان هذا الفتى جالساً إلى جذع دوحة يرسل إلى الوادى نظرات ملؤها الأسى ، فتقدم زارا وطوق الدوحة بذراعيه وقال : — لو أننى أردت هز هذه الدوحة بيدى لما تمكنت . غير أن الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء . هكذا نحن تلوينا وتهزنا أياد لا ترى

فنهض الفتى مذعوراً وقال : هذا زارا يتكلم ! وقد كنت موجهاً أفكارى إليه

فقال زارا : ما يخيفك ياهذا ؟ أليس للانسان وللدوحة حال واحدة ؟ فـكلما سما الانسان إلى الأعالى ، إلى مطالع النور ، تذهب أصوله غائرة فى أعماق الأرض ، فى الظلمات والمهاوى

فصاح الفتى : أجل ! إننا نغور فى الشرور ؛ ولـكن كيف تسنى لك أن تـكشف خفايا نفسى ؟

فابتسم زارا وقال : إن من النفوس من لا نتوصل إلى اكتشافها إلا باختراعها اختراعاً

وعاد الفتى يكرر قوله : أجل إننا نغور فى الشرور . قلت حقاً يا زارا ، لقد تلاشت ثقتى بنفسى منذ بدأت بالطموح إلى الارتقاء فحرمت أيضاً ثقة الناس ، فما هو السبب يا ترى ؟ إننى أتحول بسرعة فيـدحض حاضرى ما مضى من أيامى . ولـكم حلـقتُ فوق المدارج أتخطاها وهى الآن لا تغتفر لى إهمالى . إننى عند ما أبلغ الذروة أرانى دائماً منفرداً وليس قربى من يكلمنى ، ويلفحنى القـرُّ فى وحدتى فترتجف عظامى ، وما أدرى ماذا أتيت أطلب فوق الذرى !

إن احتقاري يساير رغباتي في نموّها ، فكلما ازددت ارتفاعاً زاد احتقاري للمرتفعين فلا أدري ماهم في الذرى يقصدون . ولكم أخجلني سلوكي متعثراً على المرتقى ، ولكم هزأت بتهدج أنفاسي . إنني أكره المنتفضين للطيران . فما أتعب الوقوف على الذرى العالية !

ونظر زارا إلى الدوحة يتكيء الفتى عليها ساكتاً فقال : إن هـذه الدوحة ترتفع منفردة على القمة وقد نمت وتعالت فوق الناس وفوق الحيوانات ، فاذا هي أرادت أن تتكلم الآن بعد بلوغها هذا العلو فلن يفهم أقوالها أحد . إنها انتظرت ولم تزل تتعلل بالصـبر ، ولعلها وقد بلغت مسارح السحاب تتوقع انقضاض أول صاعقة عليها

فهتف الفتى متحمساً : نطقت بالحق ، يا زارا إنني اتجهت إلى الأعماق وأنا أطلب الاعتلاء ، وما أنت إلا الصاعقة التي توقعتها . تفرّس فيّ ، وانظر إلى ما آلت إليه حالتي منذ تجليت لنا ، فما أنا إلا ضحية الحسد الذي استولى عليّ

وكانت الدموع تنهمر من مآقي الفتى وهو يتكلم ، فتأبط زارا ذراعه وسار به على الطريق . وبعد أن قطعا مسافة منها قال زارا : — لقد تفطر قلبي ، إن في عينيك ما يفصح بأكثر من بيانك عما تقتحم من الأخطار . إنك لما تتحرر يا أخي ، بل مازلت تسعى إلى الحرية ، وقد أصبحت في بحثك عنها مرهف الحس كالساثر في منامه

إنك تريد الصعود مطلقاً من كل قيـد نحو الذرى ، فقد اشتاقت روحك إلى مسارح النجوم ، ولكن غرائزك السيئة نفسها تشتاق الحرية أيضاً

إن كلابك المقورة تطلب حريتها ، فهي تنبح مرحة في سراديبها ، على حين أن عقلك يطمح إلى تحطيم أبواب سجونك كلها . وما أراك بالطليق الحر فأنت لم تزل سجيناً يتوق إلى حريته ، وأمثال هـذا السجين تتصف أرواحهم بالحزم غير أنها تصبح واأسفاه مراوغة شريرة

على من حرّر عقله أن يتطهّر مما تبقّى فيه من عادة كبت العواطف والتلطخ بالأقذار ؛ لتصبح نظراته برّاقةً صافية . إنني لا أجهل الخطر المحدق بك ، لذلك أستحلفك بحبي لك وأملي فيك ألا تطرّح عنك ما فيك من حب ومن أمل

إنك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريماً بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء إليك ، فاعلم أن الناس لا يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق ، غير أن أهل الصلاح يهتمون بهم ، فاذا ما صادفوا في سبيلهم من يتشح الكرامة دعوه رجلاً صالحا ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده

إن الرجل الكريم يريد أن يبدع شيئاً جديدا وفضيلة جديدة ، على حين أن الرجل الصالح لا يحن إلاّ الى الأشياء القديمة ، وجل رغبته تتجه الى الأبقاء عليها

لا خطر على الرجل الكريم من أن ينقاب رجل صلاح ، بل كل الخطر عليه في أن يصبح وقحاً هدّاما

لقد عرفت من الناس كراما دلّت طلائعهم على أنهم سينيلون أسمى الأماني ، فما لبثوا حتى هزأوا بكل أمنية سامية ، فعاشوا تسير الوقاحة أمامهم ، وتموت رغباتهم قبل أن تظهر ، فما أعلنوا في صبيحتهم خطة إلا شهدوا فشلها في المساء

قال هؤلاء الناس : ما الفكرة إلا شهوة كغيرها من الشهوات

وهكذا طوت الفكرة فيهم جناحيها فتحطما ، وبقيت الفكرة تزحف زحفا وتدنس جميع ما تتصل به

لقد فكر هؤلاء الناس من قبل أن يصيروا أبطالاً ، فما تسنّى لهم الا أن يصبحوا متنعمين ؛ يحزنهم شبح البطولة ويلقي الخوف في روعهم

أستحلفك بحبي لك وأملي فيك ألاّ تدفع عنك البطل الكامن في نفسك اذ عليك ان تحقق أسمى أمانيك

هكذا تكلم زارا . . .

المنذرون بالموت :

ما أكثر المنذرين بالموت ! والعالم مليءٌ بمن تجب دعوتهم الى الاعراض عن الحياة

إن الأرض مكتظة بالدخلاء وقد أفسدوا الحياة ، فما أجدرهم بأن تستهويهم الحياة الأبدية ليخرجوا من هذه الدنيا

لقد وُصف المنذرون بالموت بالرجال الصفر والسود ، ولسوف أصفهم أنا فينكشفون عن ألوان أخرى أيضاً

إنهم لأشد الناس خطراً ، إذ كمن الحيوان المفترس فيهم ، فغدوا ولا خيار لهم إلا بين حالتين ، حالة التحرق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب . وما شهوتهم إلا التعذيب بعينه . إن هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد ، فليبشروا بكره الحياة ، وليقلعوا عن مرابعها

هؤلاء هم المصابون بسلّ الروح ، فانهم لا يكادون يولدون للحياة حتى يبدأ موتهم ، وقد شاقتهم مبادئ الزهد والملال

يود هؤلاء الناس أن يُدرَجوا فى عداد الأموات ، فعلينا أن نحبّذ إرادتهم ولنحترس من أن نعمل على بعث هؤلاء الأموات وعلى تشويه هذه النعوش المتحركة

إذا هم صادفوا مريضاً أو شيخاً أو جثة ميت ، فانهم يقولون — لقد انتفت الحياة ؛ ولو أنصفوا لقالوا إنهم هم نفىٌ للحياة ، وإن عيونهم دحضٌ لها لأنها لا تتجه إلا الى مظهر واحد من مظاهر الوجود

هم يتلفّعون برداء وسيع من الأسى ويتشوقون الى الحوادث التى تجر وراءها الموت . ولكنهم يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك فرقا . غير أنهم فى الوقت نفسه يمدون أيديهم الى ما لذّ وطاب هازئين ، فكأن الحياة قشة يهزأون بها ولكنهم يحرصون عليها . إن حكمة هؤلاء الناس تهتف قائلة (الحياة جنون ، أفقطع منه التمسك بالحياة . وقد بلغ الجنون بنا هذا الحد الفظيع)

يقولون إن الحياة آلام ؛ فهم يقولون حقا ، فلماذا لا يضعون حداً لهذه الحياة إن لم يكن فيها سوى العذاب ؟ تلك تعاليم ترمى إلى وجوب الانتحار ؛ فيقول البعض وهو يدعو إلى الموت : إن الملاذ الجنسية خطيئة فيجب الامتناع عنها والاضراب عن التوليد . ويقول البعض الآخر : إن الولادة مؤلمة ، فعلامَ تلد النساء وهنّ لا يقذفن الى الوجود الا بالأشقياء ؟ وهـذه الفئة هى أيضا من المنذرين بالفناء

وتقول لك فئة أخرى : إن الرحمة لازمة نخذ ما عندك ، بل خذ ما تتكون شخصيتنا منه ، فان فعلت فأنك تقطع من الأسلاك التى تشد بنا إلى الحياة . ولو أن رحمة هذه الفئة من الناس تتغلغل فى صميم ذاتهم لكانوا يبذلون الجهد فى سبيل دفع سواهم إلى كره الحياة . ليستمر هؤلاء الناس على ماهم عليه ، لأن رحمتهم الحقيقية كامنة فى إيقاع الأذى

إن ما يقصد هؤلاء الناس إنما هو التملص من تكاليف البقاء فلا يهمهم أن هم ألقوا بأغلالهم على الآخرين .

وأنتم أيضاً ، أيها المتحملون من الدنيا همومها وجهودها المرهقة ، أفما تعبتم من الحياة ؟ أفما أنضجت المحن نفوسكم لتقوم هى أيضا منذرة بالموت ؟

أنتم يا من تحبون الأعمال الوحشية وكل حادث يمتعكم بكل جديد وغريب سريع الزوال ! لقد ضقتم ذرعا بأنفسكم فما تهالكون فى العمل إلا تهربا من الحياة وطلبا للاستغراق لتصلوا بذاتكم إلى نسيان ذاتها . ولو كنتم أشد إيمانا بالحياة لما كنتم تستسلمون هذا الاستسلام الكامل لحاضركم . لقد خلت سرائركم من القوة اللازمة للانتظار ، بل خلت مما يستلزم كسلكم نفسه من جلد

ان صوت المنذرين بالموت يدوى فى كل مكان ، والعالم مكتظ بمن وجبت دعوتهم الى الموت أو بالحرى إلى الحياة الأبدية ؛ ولا فرق عندى بين ذاك وهذه إذا كان هؤلاء الناس يسارعون إلى إخلاء الأرض

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس



فى بهو فندق

خيانة اللغة العربية والآباء والأجداد والدهر والتاريخ

للأستاذ محمد بدر الدين الخطيب

أنا (ولا أمانية) والسائح العراقى الأستاذ يونس البحرى الساعة فى «صالون» فندق من أكبر فنادق بيروت، نقلب الطرف والسمع فى الزمر التى تحتشد حولنا، ونتداول شتى الحديث ونعود إلى «الرسالة» وافتتاحيتها المشرقة بما فى نفس كاتبها الأستاذ الزيات وبما فى نفوسنا نحن إخوانه من شعور صحيح يتصل بتيار الحمية ولا يتقطع ملحقا بسلك مذبذب ضعيف يتفرع إلينا من الغرب.

نحن فى حماس واشراق، والزمر التى رأيت تلغط حولنا بالفرنسية، وبالفرنسية فقط، لغطاً ضعيفاً أشبه بالنور الضئيل فى المصباح الكهربائى الذى يستمد تياره من الفرع الضعيف الذى رأيت أيضاً

هذه فتاة ريانة يهفهف العطر والجمال والدلال فى خطوها، تتحدث إلى أخرى بالفرنسية، وازاءها أمها تتطلع إليها تطلع المأخوذ الذى لا يعى ما يقال.

ها هى ذى أمها تسائلها (بالعربية)

التفتت الفتاة فى نزق وقد التهب وجهها بالحنق ولسانها بالنزق وصاحت بأمها:

أى! أى! هس! هس!

وعادت إلى الكلام بالفرنسية وفى نفسها أن أمها قد مسخت المدنية أو مسخت موقفها من المدنية والفرنسية فى حديثها إليها بالعربية.

لم أكتم نفسى وتركت الغضب يمد عليها ويحملنى ألتفت إلى صاحبى (يونس) وأحدثه بما يشبه الصيحة عما أرى وأسمع.

وكان صاحبى مثلى فى وجوم وألم مما يرى فلم يكتم نفسه وانبعث يصيح ويعلن أسفه (بالثلث)

وكان بجوارنا زمرة من الشباب وقع عليها ما نقول وقع العجب فى غير رجب، فالتفتت بجملتها وتوجه أحدها إلينا يقول:

(الناس أحرار بتكلمو ما شاءوا أفرنسية ولا عربية ولا ألمانية حتى شوهاد يا إخوان).

قلت له شوهاد؟ أى كلمة كبرت، وأى حمية صغرت، وأى...

ليتك تذهب إلى تركيا وتتكلم بغير التركية ويحسبك الأتراك تركيا مارقا فترى وتسمع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من التأنيب والتعذير!

لا دواء لك ولا لأمثالك إلا أن تذهب إلى تركيا فى شكل تركى، ولا أحسب المنطق يفيدك أو يفيد هذا الجمهور الغريب من أشباه الشباب وأشباه الرجال، هذا الجمهور الخارج من حظيرة فنية استعمارية.. نعم...

وصاح صاحبى السائح العراقى يقول: لقد طفت أكثر بلاد العالم فلم أجد أمة تحتقر نفسها وتلوى ألسنها وتتحمس لهذا العبث إلا فى بلادنا العربية

ما شأن اللغة العربية حتى تتجاوز عنها وترطن بالفرنسية؟ أليست لغة المجد والعلم، ولغة دمك وبلادك؟

بهتت الزمرة، وساد وجوم، وتلجلج الجو، لا يحير، وماذا يحير، وعناصره عربية، وإن لم تكن عربية فطبيعية، تشهد للأمر الواقع، وتخشع احتراماً له وإجلالاً؟

ساد صمت وعدنا إلى حديثنا، ثم انفضت من حولنا الزمرة! وذهب أفرادها وفى نفوسهم ما لا يعلم إلا الله

وعدنا نقرأ مقال الأستاذ الزيات نفرج به ما اشتبك واحتبك من الشجون، ونثنى على كاتبه ثناء خالصاً مشرقاً وثناء صحيحاً يجدر بالشعور الصحيح والرأى الصحيح

وتأملنا ولا زلنا نتأمل فى هذه الظاهرة السوء والعلة الغريبة التى تجد فى كثير من الذين داخلتهم حمية وحماسة ورعونة ولؤماً للدفاع عنها والسفاهة فى سبيلها

تأملنا ولا زلنا نتأمل، وفى نفوسنا وأمانينا أن يبادر من يشعر بالخطر وبما وراء هذا الانحلال من نذر من الكتاب إلى معالجته بقوة وبصراحة

محمد بدر الدين الخطيب

فى ساعة يأس

للشاعر القروى

هل بينكم من راحمٍ قاتلٍ   يزحزح الأيامَ عن كاهلى
يقذفُ بى فى دَرَك اللجِّ لا   يلفظنى موجٌ إلى ساحلِ
يا من يُذَرِّينى طحيناً على   وجهِ صعيدٍ محرقٍ قاحل
ما رشَحَت من جوِّه قطرةٌ   يومًا على نَضْرٍ ولا ذابل
أُشفِقُ أن أُبعثَ فى عُشبةٍ   أو زهرةٍ أو غُصُنٍ مائل
يالَاشتهائى جنَّة من لظىً   آ كلُ من يانعها الآ كلِ
فى شجرٍ من لهبٍ ثائرٍ   على ضفاف اللهبِ السائلِ
مأدبةٌ تأ كلُ أضيافَها   آمنـةُ الوارشِ والواغلِ
وابرْدَها عندى إذا أُججَت   كأختها فى قفصى الناحلِ
لا قفةٌ فلكَ همومى معى   ذاهبـة بالحِمل والحامل
من يشترى لى عَدمًا مطلقاً   يُعيى على النافخ والجابل
لاشِ حيـاتى يا إلٰهى ولو   حققتَ زعمَ الملحدِ الجاهل
جسمى وروحى وأغانىَّ لا   تُبقِ على باقٍ ولا زائلِ
ما حيلةُ اليائسِ لا ينتهى   من عاجل إلا إلى آجلِ
أقسى من الموتِ على النفسِ أن   تسعى إلى الموتِ بلا طائل
هَبْ كانَ لى الخلدُ تنغصتُه   بذكرِ هـذا الألمِ الهائلِ

* * *

واحيرة العـاقلِ فى . . .   قضى وأمضى بشـقاَ العاقل
يفعل ما لو غـيره فاعلٌ   لقامت الدنيـا على الفاعلِ
يا بائعًا «سحبانَ» من «باقل»   كبيعه شـعبيه بالشاقلِ
القدسُ لم تَزنـ فما بالها   تُرجَمُ عن «بابلَ» من «بابلِ»
كم صرعةٍ للحق قد زعزعَت   رأيىَ فى الحقِّ وفى الباطلِ

* * *

مُت ياأخى العامل ، مُت جائعا   ولا تسل عن أجرة العامل !
إن فاتكَ الخبزُ فلكْ آية   وانعم بموت الآمن الآمل !
غداً لك الخلدُ فما ضرّ إن   لم تأ كلِ اليومَ مع الآ كلِ !
قبلْ يدَ الظالمِ قسراً ولا   تعتب على خالقهِ العادلِ !
هل كانت الآلام مذ قدِّرت   إلا نصيبَ الرجل الفاضلِ !
فلنحمـدِ المولى على نعمةٍ   خُصت بنا من فضله الشامل ،
إبليسُ ! يا مسكين ! مُت غيرة   فالصَّلب .. حظ البشر الكاملِ !

* * *

يا سائلى عن سر هذا الأسى   أَقصِرْ وقكَ الله يا سائلى
ما أبعد الشكوى ، على هولها   عن بعض ما ينهش فى داخلى
عن سرّ أسرار عذابى الذى   عزّ على السـامع والقائلِ

* * *

يا مستعير الدمع لبيكَ خذ   ما شئت من طَلٍّ ومن وابلِ
فى كل جفن من جفونى سَمًا   وكلُّ هـدب مقلتا. ثا كل

(سنبولو — البرازيل)

الشاعر القروى
من العصبة الأندلسية

ادوارد الثامن

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

كأنكَ لم تبذل فؤادك داويا   لشعبكَ حتى فاتكَ اليوم داميا
كأنكَ لم تدر البطولة يافعاً   ولم تصحب الهيجا وتَسْلُ المغانيا
كأنكَ لم تُعطِ العظائم حقَّها   ولم تعرفْ الأوطان حُبَّكَ فاديا
كأنكَ ما طاردت عن شعبكَ الأذى   وأنفقت فى هـذا الطراد اللّياليا
مَواهبُ يجنى العُرْفُ شرَّ جنايةٍ   عليها ، ويَنْسَى العُرْفُ غيركَ جانيا
وما قيمةُ التـاجِ الذى أنتَ تاركٌ   إذا بات هـذا التاجُ خصما وعاديا ؟
تفانيتَ فى الإحسـانِ للشعبِ دائمًا   فلم يزنِ الإحسـانَ أو كان ناسيا
وأذعنَ للتقليدِ فى حين قد أبى   نزولَكَ عن عرش زهابكَ ساميا
وهيهات أن يحظى بسحرك تاليا   وهيهات أن يلقى شبيهك ثانيا
فكان مُهينا كبرياءك ، جارحا   وفاءك ، مهما عدَّ للعرش وافيا

ومنْ قِدَمٍ كان التذبذبُ مِلّةً   وسوف على الدهماءِ يلبثُ عاتيا
أمثلكَ في إشفاقهِ وإبائهِ   يُسَخّرُ، مهمازُخرفَ القيدُحاليا
أتحرِمُ محضَ العيشِ مثلَ بني الورى ؟
إذنْ كلُّ عيش دونه ليس غاليا
تُضَحّي ؟ نعم ضحّيتَ أضعافَ ما رَجَوْا
ولكنّهم ما بادلوكَ الأمانيا
وما كنتَ للحبِّ المقدَّس خاضعا
ولكن لمعنًى بَذّ عندي المعانيا
هو البِرُّ بالنفسِ العظيمةِ عنـــدما
تَرَى الناسَ فَوْضى والأماني مآسيا
ومثلُكَ لن يرضى الحياةَ مَنيَّةً   ولكنّما يهوى الحياةَ معاليا :
معالي مِن نُبلٍ وسعي وخدمة   وحرية ، لاأن يرى العيش خاليا
وَهبتَ الكثيرَ الفخمَ للشعبِ خالصا
ولكنّه يأبى لكَ النّزْرَ صافيا
ومِن عَجَبٍ يحنو عليكَ بلهفةٍ   فلم ترض إلا أن تكون المواسيا
وكنت عظيمَ النُّبْلِ في كلِّ موقف
كأنكَ يومَ الرَّوْعِ تشدو الأغانيا
فأفعمتَ قلبي من ثباتِكَ نشوة
ومِنهُ لباكي الشعبِ صغْتَ التعازيا
إذا أسَرَ التقليدُ أحلامَ أمّةٍ   نظمتُ لها قبلَ العزاءِ المراثيا !

الإسكندرية   أحمد زكي أبو شادي

الى الفيلسوف الشاعر نيتشه

بقلم محمد فهمي

نظمت على أثر قراءة ديوانه « هكذا قال زرادشت » الذي تترجمه « الرسالة »

أذبْتَ قلبك أشعاراً تردّدُها   أوْدَعْتها الذعَ مافي القلب من نارِ (١)

---

(١) إشارة إلى قول نيتشه « إني لا أحب من الكتابات إلا ما يسطره الكاتب بدماء قلبه » فإذا لمس القارئ في هذه القصيدة شيئاً من الحيوية فما هو إلا قطرة من ذلك الكتاب بل البحر الزاخر الموار حيث تحس وأنت تطالعه كأنك في محيط متلاطم الأمواج

في كل بيتٍ لسانُ النار مندلعٌ   في كل بيت تبدّى شبه إعصارِ
وأيُّ قلب تَراكَ اليومَ ساكِبه   وأيُّ فكرٍ تراءى لي بأسرار
ألا هو القلب دفاقاً ومنطوياً   على البُطولة في سيّالها الجاري
ألا هو الفكر في أجوازه لَمَعٌ   من الخلود كضوء الفرقد الساري

* * *

تُلقي القـــذيفة من شعرٍ مؤججةً
نحو القلوب فتغدو كاللّظى الواري
وتبعث البأس فيها جِدّ محتدمٍ   وتوقظ العزم في إقدام جبّار
وتحطِمُ القيدَ إذ حلقاتُه نسجت   من الخرافة في تأثيرها الزّاري
وتُطلق الروح كالطير الذي فُتحت
له السجون وأقفاصٌ لأُسّـــار
يمضي يُحلّق نشـــواناً ومنطلقاً
ويهتك الحُجب من غيب وأستار
حتى يشارف سر الكون مجتليا   غايَ الحياةِ لإنسانٍ به سار !

* * *

فما الحياة أراها اليوم أُلهيـــةً   لفتنةِ النفس في كشف وإضمار
وما الخلود أراه طيف أُمنيَةٍ   تساور الفكر في حلّ وتسيار
ولا الوجود هبـــاء ليس يَعدِله
في كفّة الزُّهد حتى عُشر مِعشار !
بل الحياة كفاحٌ لا قرار له   وليس يلحاه إلا كلُّ خوّار
بل الوجود هو الفردوس تحجبه   عنا سخائف أوهامٍ وأوطار
وما الخلود ســوى قُصوى بُلهَنيةٍ
لكامل الخلق فوق الأرض قرّار (١)
أنت الذي جمل الآمال دانيــةً
وأنزَلَ الخُلد في الأخرى لذي الدار
وَحْيٌ من الفكر يهدي شهد حكمته
في كأس سِفرٍ تَجلّى فوق أسفار . . .

(المنصورة)   محمد فهمي

---

(١) صيغة مبالغة من « قر » إشارة لخلود الانسان الكامل أي (السوبرمان) على الأرض

من هنا ومن هناك

بوشكين أمير شعراء روسيا

تستعد روسيا السوفيتية استعداداً عظيما للاحتفال بمرور مائة سنة على وفاة شاعرها الأكبر بوشكين الذى مات متأثراً بجروح بالغة بعد مبارزة جنونية مع هيكرن دانت أحد ضباط الحرس القيصرى الذى كان يغازل امرأة بوشكين ، والذى قيل إنه استطاع أن يحظى بها بعد مجازفات غرامية سافلة انتهت بمقتل شاعر روسيا الكبير فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧

ولو عاش بوشكين الى اليوم لأبى أن تحتفل به روسيا هذا الاحتفال الذى يؤله ويكبر عليه من رجال مستبدين غاشمين داسوا تعاليمه ، ولم يبالوا أن يجعلوا روسيا جحيما لا يطاق من العسف والجبروت ، والفاقة والعوز ، والكبت والتنكيل . وهى أمور وقف بوشكين حياته على محاربتها فى عهد القيصر ، وانضم بسببها الى جماعة الديسمبريين يناضل الظلم بيده ولسانه وقلبه ، ولم يبال أن ينفى الى الجنوب ، وأن يحرم ملذات بطرسبرج وأنوارها التى كانت فى ذلك الوقت زينة الحياة الدنيا

ولد بوشكين فى ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ من أب روسى ، وأم خلاسية يجرى فى عروقها دم الزنوج الأفريقيين ، لأنها حفيدة (هينبال !) المظيم ، أحب خدم البلاط الى بطرس الأكبر ، والذى كان يلقبه عاهل روسيا (جوهرة بلاطى !) من سبيل الدعابة ، لأنه كان عبداً أسود امتاز بشجاعته النادرة وإخلاصه المتين لصاحب التاج

وكان أبوه روسياً مثقفاً يقتنى مكتبة حافلة تزخر بأجود الكتب الفرنسية كقصص ڤولتير ومؤلفات روسو وغيرها ، فكانت النبع الفياض الذى ارتوى منه بوشكين وشفى نفسه الصادية ، وساعدته ذاكرته القوية على استظهار ما فى كتبها من درر وغُرر ومُلَح وطُرف ، وهو لم يعد بعد طور الصبى . ولم يظهر بوشكين عبقرية ما فى صغره ؛ وكان يكره اللغة الروسية من صميمه ، ولم يكن يعلم أنه سيصير عما قريب إمامها المجلى ، وفارسها المغوار ، وشاعرها الذى لا يدانيه شاعر

وكان أبوه يضيق بضعف ولده فى الروسية ، فلما ضبطه مرة مكباً على فولتير يكاد يلتهمه ، لم يسعه إلا أن يضربه ضرباً مبرحا وحرّم عليه دخول مكتبته حتى يتقن اللغة الروسية . . . « وعندها يا بنى يمكن أن يثمر فى قلبك ، وعلى لسانك ، هذا الأدب الفرنسى الجميل ! . . . » وقد صدق أبوه ! !

وفى سنة ١٨١٢ التحق بصالة المحاضرات Lyceum فى قرية زارسكوسيلو ، إحدى ضواحى موسكو ، وهناك تعرف إلى الشاعر (درزهاڤن) فنفخ فيه من روحه وشجعه على قرض الشعر ، وكان يستملح منه هذه القصص الممتعة التى كان ينظمها وينشدها أخواته الصغيرات . وحدث أن زار الشاعر الروسى الكبير (زهيكوفسكى) ضاحية زارسكو ، وسمع بوشكين فأعجب به وتنبأ له عن مستقبل باهر . وقد تأيدت تلك النبوءة عند ما نظم بوشكين قصيدته الطويلة (رسلان ولدميلا) سنة ١٨٢٠ فأرسل إليه الشاعر الروسى صورته وعليها هذه العبارة (إلى التلميذ : من أستاذه المغلوب على أمره !)

وقد اشتملت قصيدة رسلان على طائفة كبيرة من الفوكلور الروسى الذى كان يترفع عنه الشعر فى ذلك الوقت ، وبرغم ذلك فقد كان للقصيدة رنة عظيمة فى روسيا ولهج بها كل لسان ؛ وكان الشاعر باتيوشكوف يصبو إلى إمارة الشعر الروسى ، فلما صدرت قصيدة بوشكين حقد على الشاعر الشاب « الذى سبق الشعراء إلى ما كانوا يصبون إليه ! »

رحل بوشكين إلى العاصمة الصاخبة بعد حصوله على شهادة الليسيوم ، وكان يتمنى لو التحق بالمدرسة الحربية ، بيد أنه ألحق بوظيفة فى السلك السياسى ، واستطاع أن يجوب آفاق القوقاز ، وهو فى ذلك العهد مسبح خيال الشعراء ونبع إلهامهم ؛ ثم

تجول فى ربوع القرم ، وقضى حقبة طويلة درس فيها الايطالية والانجليزية ، واشتد ولعه بشاعر الانجليز بيرون فكان يستظهر قصائده ، وبلغ من إعجابه به أن قلد بقصيدته (أسير القوقاز) قصيدة بيرون (تشيلد هارولد) . وفى هذه القصيدة يبدع بوشكين فى الكلام عن الحب ووصف الجمال القوقازى والخرائد القوقازيات ويرتفع ببطل القصيدة إلى ذروة الطهر

وشعر بوشكين فى هذه الفترة من عمره متأثر بالأدب العربى إلى حد بعيد ؛ وأثر أبى نواس والمدرسة العباسية فيه شديد الوضوح ، فهو يصف بيوت الحانات وما فيها من ألوان الترف وجمال السرارى والولدان . ومن يقرأ ما جاء فى الأغانى ونهاية الأرب عن حب الأعراب ثم يقرأ قصيدة (الغجر Gypoies) لبوشكين يلمس أثر الثقافة العربية فى هذا الشاعر لمساً تاما .

فهذا الفتى (أليكو) الذى يسأم صخب المدن ويفر إلى الريف فيحب الفتاة (زمفيرا) ويتزوجها ، ثم تمله الفتاة وتقلوه وتعلق فتى وسيم الخلق فتتصل به وتساقيه كؤوس الغرام ويفاجئهما أليكو فى حالة مريبة فيقتلهما جميعا ، ويثير عليه غضب سيده وهو والد الفتاة ، فيطرده من خيامه ليهيم على وجهه فى الأرض ، ويعود السيد ليرى زوجته بين يدى عاشق أثيم فتسود الدنيا فى عينيه ويترك العاشقين وشأنهما وينطلق على وجهه فى الأرض حيران ... كأنما انتقم منه القضاء للفتى أليكو

وتأثر بوشكين بشكسبير أيضاً ، ويبدو ذلك الأثر على أتمه فى قصيدته (بوريس جودينوف) التى تصور رجلاً آفاقياً متشرداً يصل إلى عرش أمة فى غفلة الزمن ، وقد عرض فيها بديمترى الذى استطاع أن يحكم روسيا ولم يكن من قبل شيئاً مذكورا

ومن أحسن قصائده (أونجين) التى بدأ بنظمها سنة ١٨٢٣ وأتمها سنة ١٨٣١ وسنعود اليها فى عدد تال

مسز جراندى

اشتهر القرن التاسع عشر فى انجلترا بأنه قرن الانتقال المفاجئ فى حياة أمة عظيمة عتيقة محافظة — ففيه ظهر داروين الذى قلب البيولوجية رأساً على عقب ؛ وفيه تبدل الاجتماع الانجليزى فأصبح اجتماعاً صناعيا يرتكز على أساس من الآلة البخارية بعد أن كان اجتماعاً زراعياً أو صناعياً يرتكز على أساس من آلة تدار باليد . وفيه خطا الطب خطوة واسعة من الشعوذة إلى التشريح العلمى وبحث خصائص الميكروب

ولكن القرن التاسع عشر لم يستطع أن يخطو بالأسرة الانجليزية خطوة واحدة إلى الأمام ، بل إنه زاد الطين بلة فأغرق انجلترا فى بحر من الذهب فأرف الانجليز إترافا زادهم جموداً وقوى من سلطان مسز جراندى عليهم جميعاً

ومسز جراندى هذه هى هذا الشبح الخرافى الذى يكنى به فى انجلترا إلى اليوم عن سلطان التقاليد العتيقة البالية التى تعطى للأب فى منزله سلطة الدكتاتور ، وللأم سلطان القديسة ، تأمر وتنهى وترفع فى وجوه أبنائها عصا القرون الوسطى فتغل بها من حريتهم وتحد من استقلالهم إن فرض أن لهم استقلالا أو حرية .
وكان صوت مسز جراندى يدوى فى كل بيت انجليزى فيقول : هذا واجب وذاك لا يصح ، وينبغى أن تدنى الفتاة عليها من جلابيبها ، وألا تفتح النافذة ، وألا تمد عينيها إلى أحد إذا سارت فى الطريق ، وألا تختار لنفسها بل أبوها هو الذى يختار لها

وكان لمسز جراندى سلطان مخيف على الأدباء ، وكانوا جميعاً يخشون بأسها ، ولذا كانت أفكارهم سجينة فى زخارف من الكلام الأجوف الموشى الذى يعجب اللغويين ويهزأ به الأدباء المصاحون . وما كولى دليل على ذلك ، فأسلوبه المرقص المطرب لا يكاد يدانيه أسلوب آخر فى موسيقاه ، ولكنه بأفكاره يعيش كما تعيش العناكب فى الأركان والزوايا ، وكما تسعى الخفافيش فى ظلام الليل . وجون رسكن كذلك ، وهو رجل أنيق العبارة رشيق الأسلوب ، ومع ذلك أراد أن يضحى تقدم انجلترا ورقيها الآلى ما دام هذا الرقى فى رأيه ينافى الفن الصحيح . ولقد ثار على مسز جراندى أديبان عظيمان هما لورد بيرون وبرسى شللى فكان أولهما يجاهر بآرائه الكفرية ، ويغيظها فيشرب الخمر فى جمجمة ميت ، ويترخص فى الحب وينظم دون جوان . وكان الثانى يحتقرها فى عظمة ووقار وينظم مأساة سنسى ويفلسف فى الحب ، ولكن مسز جراندى هى الأخرى لم تأبه بهما ، بل هى قد لفظتهما من انجلترا إلى اليونان وإيطاليا ولذلك لم يشعر بهما أحد إلا بعد أن مرضت هذه السيدة المحتشمة وأوشكت أن تموت

والذى يهمنا من هذه الكلمة عن مسز جراندى أن الشريعة الاسلامية أكبر أعدائها ، ومع ذلك فسلطان مسز جراندى فى مصر أقوى منه بكثير فى انجلترا ، فهل يتأذن الله أن تموت ؟!

د . خ

البريد الأدبي

كتاب جديد لأندريه جيد

منذ بضعة أعوام ظهرت للكاتب الفرنسي الكبير أندريه جيد عدة مقالات رنانة تفيض بالمديح في روسيا السوفيتية وفي نظمها وأحوالها ، وفيما هيأته للطبقات العاملة من حياة جديدة ، ولكن أندريه جيد يطلع الآن على قرائه بكتاب جديد عنوانه : « العودة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي Retour de C. U. R. Z. S. : وفيه يحمل على روسيا السوفيتية بعنف وشدة ، وينعت ما سماه قبل بجنة العمال والطبقات العاملة بالجحيم المستعر ، ويقول لنا أندريه جيد في سر هذا الانقلاب إنه كان يحب روسيا ونظمها الجديدة قبل أن يرى ويختبر بنفسه ما فيها ؛ ولكنه الآن وقد وقف بنفسه على الحقيقة ، وشاهدها في موطنها ، وبعد أن أقام في روسيا زهاء ثلاثة أعوام ، يستطيع الآن أن يقول فيها كلمة حق وصدق

يقول لنا أندريه جيد في كتابه : « إن أقل احتجاج أو نقد يعاقب عليه في روسيا السوفيتية بأشنع العقوبات ، ثم يخمد في الحال ؛ وإنه يرتاب في أن دولة أوربية أخرى — حتى ألمانيا الهتلرية ذاتها — يخمد فيها الرأي ويسحق ويذل مثل ما هو في روسيا »

ثم يقول لنا أن الثقافة العالية وسفه الرعاع في روسيا أمر سواء ، ولا يسمح لانسان أن يفكر بغير ما تفكر به جريدة (برافدا) لسان الحزب الشيوعي ؛ ويحظر على كل روسي أن يعبر الحدود ؛ وأن يعرف شيئاً عن العالم الخارجي ؛ والمهم دائماً هو أن يعتقد الشعب الروسي أنه أسعد حالاً من كل الشعوب الأخرى

ثم إنه فيما خلا الطبقة الممتازة التي تنعم بالحياة المترفة في الطعام واللباس والمسكن ، ترى الشقاء يسحق كل الطبقات والجوع ؛ ويتكدس الناس في مساكن ضيقة قذرة ويعيش معظمهم على الخبز الجاف والسمك ؛ وأما البضائع فهي مكدسة في الحوانيت والمخازن ولكنها جميعاً من أردأ صنف ؛ والرداءة صفة عامة لكل شيء في روسيا . وأما المبادئ الشيوعية فلم يبق منها إلا صورتها ؛ ونجد السياسة السوفيتية الحالية في التدرج في إحياء الأسرة والملكية الشخصية والميراث ، حتى يشعر الفرد أنه يملك شيئاً لنفسه يجب أن يدافع عنه ؛ بيد أن الفرد ليس له وجود ، وقد سحق كل ما فيه من مظاهر الاستقلال المادي والمعنوي

وقد أحدث ظهور كتاب أندريه جيد دهشة كبيرة في جميع الدوائر لأنه كان معدوداً من أصدقاء روسيا الحميمين ، ومن أخلص محبيها ودعاتها

معرض للتاريخ السياسي

افتتح في برلين أخيراً ، في جناح من المكتبة الملكية البروسية ، معرض من نوع خاص عنوانه : « ألمانيا السياسية ، الطريق إلى مصير الشعب الألماني » ، وقد عرضت في هذا المعرض الجديد عدة وثائق تاريخية ، مما عرض من قبل في مؤتمر نورمبرج ، مما يتعلق بتطورات الحزب الاشتراكي الألماني ، وكفاحه في سبيل الحكم ، وما قامت به الحكومة الجديدة في الأعوام الثلاثة الأخيرة من المشاريع والأعمال ؛ وفيه أيضاً وثائق ومخطوطات تاريخية ، لقادة ألمانيا في العصر الحديث ، مثل إرنست مورتس آرنت ، وفردريك وليم الثالث ، والبارون فون شتاين ، وشارنهورست ، وأندرياس هوفر ، وكلها ترجع إلى العصر المسمى في التاريخ الألماني « بعصر التحرير » وهو في أوائل القرن التاسع عشر

وقد أذيع عن المعرض والغاية التي أقيم لأجلها بيان جاء فيه إن هذا المعرض يوضح كيف أشرفت الامبراطورية الألمانية غير مرة على السقوط ، وأنها كانت تجتاز مثل هذه المرحلة حين قبض الحزب الاشتراكي الألماني على زمام الحكم ، وأن الكفاح لانتشال ألمانيا من هذه الوهدة والعود بها الى مركزها القديم هو نقطة التحول في تاريخ العصر الجديد ؛ وأن ألمانيا

تكتب الآن تاريخها مرة أخرى ، وأنها قد حققت مركزها القديم فى الأسرة الأوربية ، وستعمل على تبوء مركزها فى تاريخ العالم ؛ وأن الاشتراكية الوطنية التى تقود ألمانيا الآن الى مصايرها ، تقدر القوى الثقافية والكفاحية التى كانت لها فى الماضى حق قدرها ، ولذا ترى أن تبرز هذه القوى للجيل الجديد

قبيلة الكنتين

تلقينا من (نيالا) بمديرية دارفور بالسودان من مأمورها الفاضل عبد الماجد ابراهيم الكلمة الآتية :

السلام عليكم ورحمة الله ؛ وبعد : فتوجد قبيلة فى دارفور الآن تسمى الكنتين نزحت إلى دارفور من جهة مراكش وأن رجالها ملثمون ونساءها سافرات ؛ وفى أكثر حليهم وسيوفهم علامة الصليب ؛ وهم مسلمون ولغتهم أعجمية ؛ وهم يقولون إنهم عرب أو أصلهم عربى ، وينتمون فى نسبهم الى طارق بن زياد . ولكن بعض المؤرخين يقول إن الكنتين (بربر) من جهات مراكش ، وبعضهم يقول إنهم تتار . فأرجو أن تتفضلوا وتوضحوا لنا أصل هذه القبيلة إذا كانوا حقيقة من أصل عربى أو بربرى أو تترى ... الخ

وقد رأينا أن نذيع الاستفهام على صفحات (الرسالة) عسى أن يتقدم من الباحثين الذين توفروا على دراسة السودان وقبائله من يتفضل باجابة الكاتب عن سؤاله

مرثية جراى

نشرت الرسالة فى عددها ١٨٠ بتاريخ ١٤ / ١٢ / ٣٦ كلمة من نابلس عن مرثية جراى أبدى كاتبها فيها إعجابه بالنص العربى كما خطه يراع صديق الأستاذ على الطنطاوى وأنحى باللوم على الترجمة . ولما كان لهذا اللوم مساس بى فقد أحببت أن أقول كلمة فى الموضوع :

قال الكاتب ما نصه : « وعندى أن الأستاذ لو ترجم المرثية عن أصلها لبان له من روحه الفنانة وإخلاصه ما يجعل ترجمته فى دقتها تقف فى صف واحد مع ترجمة جرالد للرباعيات الخيامية المشهورة » . وأكبر ظنى أن الكاتب المحترم لم ينتبه الى كلمة (دقة) التى ذكرها وعلاقتها بالموضوع [1] فاذا كان يريد بالدقة المحافظة فى الترجمة على المعنى الحرفى للأصل فانى أعترف بأن ترجمتنا للمرثية لم تكن دقيقة ، لأننا لم نسع لذلك ألبتة ، بل كان هدفنا الوحيد جمل القارئ العربى يستمتع — على قدر الامكان — بجمال الفكرة التى أوحت الأصل ، وقد كان أسلوب الأستاذ الطنطاوى كفيلاً بذلك . ولا شك أن الكاتب يوافقنى إذا قلت بأن ترجمة فيتز جرالد (لا جرالد كما ذكر هو) لرباعيات الخيام لم تكن قط دقيقة بهذا المعنى . واذا كان فى شك من ذلك فليقارن مابين ترجمة فيتز جرالد المذكورة وترجمة الأستاذ الصافى النجفى . هذا وقد أجمع النقاد الانجليز على أن قصيدة فيتز جرالد ما كانت لتتبوأ مكانتها العظيمة فى الشعر الانجليزى لو راعى المترجم النص الأصلى (بدقة)

وأخيراً فان جاز لى أن أفهم رأى الكاتب فى الدقة بالترجمة من قصره لمعنى كلمة uncle على العم [1] وترجمته لكلمة Continent بقارة [2] بدون أن يفكر فى معناها الخص ، أو من ترجمته لمقدمة ولبول التى اعترف بأنى لم أفهمها الا بعد الرجوع للنص الأصلى — نعم ان كان هذا مراده من الدقة فى الترجمة فانى مغتبط بأن ترجمتنا لم تكن دقيقة ولله الحمد

(بغداد) على حيدر الركابى

(١) وليراجع الكاتب مقدمة الدكتور منصور فهمى لكتاب الأستاذ الزيات (رفائيل) حيث يجد درساً مفيداً فى الترجمة ، ثم يقرأ الكتاب نفسه ليتلق درساً فيها أيضا

(١) قال الكاتب إن عم (كذا) جراى كان مساعد أستاذ فى إيتون والصحيح أنه خال جراى ويدعى المستر انتروبوس . وغنى عن البيان أن كلمة uncle تطلق على العم أو الخال ولا تخصص إلا بالقرينة

(٢) من المعروف أن لكلمة continent باللغة الانجليزية معنى خاصاً وهو القارة الأوربية غير معناها العام وهو قارة . وقد كانت رحلة جراى التى أشار إليها الكاتب فى أوربا

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء – الجزء الأول

للدكتور عبد الوهاب عزام

وعدت القارئ في المقال السابق أن أعرض عليه بعض ما أخذته على تعليق الناشرين في القسم الأول من المعجم

والمآخذ هنا أنواع: منها شرح كلمات بيّنة لا يجهلها أحد ممن يقرأون معجم الأدباء، ومنها غلط في الشرح، ومنها فضول يذكر ما لا يحتاج إليه البيان ولا ينتظره القارئ، ومنها نوع آخر لا أدري ماذا أسميه إلا أن أسميه الشرح المضحك.

وسأجتزئ بمثل من هذه الأنواع دون استقصاء:

(ا) فمن الأول الأمثلة الآتية:

ص ٥٢ درى الشيء وبالشيء دراية: وصل إلى علمه

ص ٥٢ حسب ما اقتضاه: قدر ما استلزمه. وهذا معنى يعثر عليه بالقرائن اه وأنا أسأل القارئ هل يحتاج إلى قرائن لمثل هذا التفسير؟

ص ٥٥ القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها، الغيّ: الضلال. العيّ: العجز عن الكلام

ص ٥٦ الفسحة: السعة

ص ١١٣ النصارى: أتباع يسوع المسيح، الواحد نصراني نسبة على غير قياس إلى الناصرة أو جمع نصران أو جمع نصرى الخ، فهل يرى القارئ أن ورود كلمة نصارى في المعجم يحوج إلى هذا التفسير؟ وهي لم ترد في سياق بحث في الدين أو في الاشتقاق، بل لأن بعض المترجمين أخواله نصارى

ص ١١٥ اقترضي: استسلفني. يقال استسلف منه دراهم وتسلف

ص ١٥٧ أجلّك: عظّمك

ص ٢٠٨ سما: علا

ومن العبث الضار أن الشارح ينقل أحياناً عن كتب أخرى ترجمة لبعض أدباء المعجم لا تزيد على ما رواه ياقوت، كما فعل في ترجمة إبراهيم بن العباس الصولي، وفي نقل ترجمة ياقوت نفسه عن شذرات الذهب بعد ترجمة وافية لا تعدو الثانية أن تكون نبذاً منها. ولو كانت التراجم التي ينقلها مفيدة فوائد ليست في المعجم ما جاز إثباتها ولوجبه أن يكتفي ببيان موضعها ليرجع إليها من يشاء. وفي الجزء الثاني من هذا مثال عجيب جداً سيراه القارئ إن شاء الله

(ب) وأما الغلط فسأقتصر منه على ما لا يقبل التأويل والتخريج على الأوجه الضعيفة في اللغة والنحو حتى لا أفتح باباً للمناقشات الواهية

ص ٤٧ ذكر ياقوت كتاب المرزباني في النحو وقال: « إلا أنه حشاه بما رووه، وملأه بما وعوه، فينبغي أن يسمى مسند النحويين » وجاء في التعليق: « المسند من الحديث ما عزى ورفع إلى قائله » وهذا صواب، ولكنه لا يصلح تفسيراً لكلمة المتن. فالمسند هنا الكتاب الذي يجمع الأحاديث على ترتيب الرواة؛ وليس كل كتاب في الحديث يسمى مسنداً، فلا يقال مسند البخاري كما يقال مسند أحمد

ص ١٠٦ « وكانت كلماته حاملة إياي على هذا التصديع لمجلسه الرفيع » وهذه جملة من رسالة كاتب إلى بعض الرؤساء يقول فيها: إن ما بلغه من ثنائه عليه، حمله على كتابة الرسالة إليه. فالتصديع هنا كناية عن الكتابة التي تكلف المكتوب إليه مشقة القراءة. ولا تزال هذه العبارة جارية في بلاد العرب والفرس. يقول المتكلم لمن يخاطبه، أو الزائر لمن يزوره: صدّعنا كم. أي سببنا لكم الصداع بكلامنا الخ. فقول الناشرين في الحاشية في تفسير الجملة السابقة: « صدعت إلى الشيء ملت إليه » خطأ

ص ١٠٨ في ترجمة أبان بن عثمان: « يعرف بالأحمر البجلي أبو عبد الله مولاهم » فسرت كلمة مولاهم بهذه العبارة: « من الشيعة » وهذا غلط، والمراد بها أنه مولى بجيلة. ومثل هذا شائع في التراجم. مثلاً يقال: محمد بن الحسن الشيباني مولاهم. أي مولى بني شيبان. الخ

ص ١١٠ « ابراهيم بن عبد الوهاب الابزاري الطبري » وفي الحاشية: « نسبة إلى طبرية » والمعروف أن الطبري نسبة إلى طبرستان، وأن طبرية يقال في النسبة إليها طبراني، ومنها

الحافظ أبو سليمان الطبرانى المحدث المعروف

ص ١١٠ بنو حمدان ممن استقلوا بالموصل ... وكان مقر ملكهم الموصل وأشهرهم سيف الدولة ... الخ . والمعروف أن سيف الدولة لم تكن له إمارة بالموصل بل فى حلب ، وأن أمارة الحمدانيين بالموصل ورثها ناصر الدولة وحده

ص ١١٧ استحلفنى : أقسمت له يميناً بناء على طلبه . ويرى القارئ ما فى هذا التفسير

ص ١٢١ « ونهى النبى عن لبس السراويل المخرفجة » . وفى الحاشية : « خرفج الشىء أخذه أخذاً شديدا . وكأنه يريد أنها أخذت وهى تخالط أخذاً حتى ضاقت فصارت بحيث تصور أعضاء الجسم لضيقها . » وهذا تفسير بالنقيض . يقال عيش مخرفج أى واسع ، والسراويل المخرفجة الواسعة التى تسقط على ظهر القدم . وبهذا فُسر الحديث

ص ٢٢٢ فى الحاشية : رماح خطية منسوبة إلى الخط : مكان فيه شجر تصنع منه الرماح . والصواب : أن الخط بلد فى البحرين تجلب إليه الرماح من الهنـد . قال فى اللسان : وليست الخط عنبت الرماح ، ولكنها مرفأ السفن التى تحمل القنا من الهند »

(ح) وأما الفضول فى الشرح فمن شواهده :

ص ١٠٢ ذكر فى المتن الجواليق بمناسبة أبى منصور الجواليقى ، فقال الناشرون فى الحاشية : « الجوالق والجواليق وعاء من صوف أو شعر مندوف وهو الذى تقول عنه العامة شوال : قال الراجز .

يا حبذا ما فى الجواليق السود من خشكنان وسويق مقنود

أى مختلط بالقند : وهو عسل قصب السكر ؛ يقال : سويق مقنود ومقند . »

فاذا أغضينا عن التسوية بين الجوالِق والجواليق فى الشرح مع أن الأول مفرد والثانى جمع نجد الشارح أتى بالرجز لا شاهدا بصحة تفسيره ولكن لاشتماله على كلمة الجواليق ، ثم استطرد لتفسير المقنود الخ

وص ١٠٥ الصنائع جمع صنيمة وهى الجميل والمعروف

قال الشاعر :

إن الصنائع لا تكون صنيمة حتى تصيب بها مكان المصنع

وفى الحديث صنائع المعروف تقى مصارع السوء

ص ١٥١ وأغرب من هذا ما جاء فى ترجمة ابراهيم بن سمدان ، فقد أبى الشارح إلا أن يشرح ، فلما قال ياقوت : « وكان لسمدان ابن المبارك النحوى ابن يسمى ابراهيم » كتب هو فى الحاشية : « سعدان علم منقول . والسعدان نبات من أحسن المرعى وأجوده يضرب به المثل ؛ فيقال فى الشىء يحسن ولا يبلغ فى الحسن درجة غيره : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان . »

وص ٢٣٨ « وهذا قول متمرد على الله مستغر بإمهال الله »

وفى الحاشية : أغراه إمهال الله استدراجا له فتمرد وتمادى . وفى الحديث إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وقال تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » ، « فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً »

وظاهر أن سوق الحديث والآية الأولى شرح الموضوع لا للفظ وهو فضول هنا . ومصدر هذا كله أن الشارح لا يسير على خطة ، فهو حيناً يستطرد بما لا حاجة إليه ، وحيناً يترك ما يحتاج إليه القارئ . بل أحسب أن للكتاب شراحاً مختلفين ليس بينهم اتفاق ؛ ولهذا أدلة فيما يأتى

وأما ما سميته الشرح المضحك فمن فكاهاته :

ص ١٣١ فى سياق الكتاب : « فجاء كتاب بعض بنى مارقة من الصراة » فأراد الشارح أن يعرف القارئ بنى مارقة فقال : « بنو مارقة قوم يسكنون الصراة » قلت : وفوق كل ذى علم عليم !

ص ١٦٥ فى الكلام على ابراهيم الصولى ويزيد بن المهلب : « حتى قتل يزيد يوم العقر » . وفى الحاشية : يوم العقر بفتح العين من أيام العرب ، قتل فيـه يزيد بن المهلب » فهل زاد الشارح على ما فهمه القارئ من الكتاب ؟ على أن قتل يزيد كان فى أيام بنى أمية ، وأيام العرب تقال غالباً لأيام الجاهلية

ص ١٦٧ روى ياقوت أبياتاً أولها : ولكن الجواد أباهشام ، الخ ثم قال بعد الأبيات : « وهذا الشعر يدل على أن قبله غيره » فقال فى الحاشية فى تفسير كلمة « غيره » : أى من الشعر

ص ١٠١ هراة بفتح الهاء والراء بلد ، النسبة اليها هروى . وبلخ بفتح وسكون يصرف ويمنع من الصرف ، وإليها ينسب أبو معشر البلخى » . لم يبال الشارح أن يبين أين هراة وبلخ ، ولكن اهتم بأن يبين أن بلخا ممنوعة من الصرف أو مصروفة . ثم قوله فى هراة « بفتح الراء » لغو لأن ما قبل الألف لا يكون إلا مفتوحاً

هذا وموعدنا العدد الآتى لنبين بقية مآخذ الجزء الأول وبعض مآخذ الجزء الثانى . والله المستعان

عبد الوهاب عزام

نفح الطيب

فى طبعته الجديدة

بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

٣ — لم يقل الشارح الذى علّق على ما فى صفحة ٥٢ إن القدماء جميعاً لم يذكروا الأهرام إلا بصيغة التثنية ولكنه قال: إن شعراء الماضى يذكرون الهرمين، وليس معنى هذا أنهم لا يذكرون الأهرام، ولكن الغرض أن الكثير الشائع على ألسنة أغلب الشعراء ذكر الهرمين: هرمى خوفو وخفرع كما فى قول المتنبى، وقول لسان الدين بن الخطيب وغيرها، وخطب هذا يسير أيضاً

٤ — قد يكون تفسير الرسيم فى صفحة ٦١ ناقصاً كما يقول حضرته، بل كان خيراً لو بينت مرتبة هذا الرسيم من السير، ولكن لو تتبع حضرته كل صفحات الجزء لوجد أنها مشروحة شرحاً شافياً فى غير هذا الموضع؛ ودعوى أن أمثالها فى الكتاب كثير دعوى مجازفة لا ينهض عليها دليل؛ بل إن بعض الكلمات اللغوية التى يوجز فى شرحها فى موضع يشبع القول فيها فى موضع آخر؛ ولو فصل القول فى كل مرة للعبارة الواحدة — والكلمة قد تتكرر فى الكتاب نحو مائة مرة لكان هذا البيان (فضولاً) من القول يتحقق به وصف الناقد الأديب صانه الله

٥ — شكرنا لحضرة الكاتب أن أحسن ظنه بالشارح فى مثل هذا التحريف الذى يدركه كل قارئ فى صفحة ٧٩ حتى أن نقطتى قاف (فشرقنا) فى ذيل ص ١٤ ظاهرتان جد الظهور

٦ — أضم صوتى الى حضرة الناقد الأديب فى أن شرح الأثير ص ٩٨ الشرح الأول خطأ لا يصح — ويعلم الله كيف سرى هذا التفسير إلى الكتاب فقد سها عن محوه مراجع النموذج الأخير وكان قد أثبته غيره، وان كان حضرة الناقد إنما يوجه نقده الى ما فى الكتاب من تفسير خاطئ لبعض كلماته من حيث هو خاطئ. وليس بدافع اللوم عن هذا الخطأ تعدد الأيدى فى الشرح فهى متكاتفة على العمل متضامنة فيه ولكن الكرام يعفون عن نصف تفسير خاطئ لأكثر من ألف تفسير مصيب. وأما التفسير الثانى الذى أتى به الشارح لكلمة الأثير فالنظر الدقيق يؤيده، والذوق السليم لا يبعده، بل هو الذى رآه حضرة الناقد بعينه، لا بل إن الشارح قد قال فيه أكثر مما قال، وكان يحسن بحضرته أن يأتى بنص العبارة تاما ولا يختزلها. وما رآه حضرته من أن صحة العبارة: ومسحنا بالخطا منها أثراً وصفيحا لا نراه، بل صحة العبارة كما هى فى الأصل (أثيراً) الموازنة (صفيحاً) فان أثر السيف، أثره، وأثيره، فرنده ورونقه، وكأن المقرى جعل الطريق سيفاً لاستطالته ودقته وصعوبة السير فيه وجعل خطاهم به وقطعهم إياه مسحا له

٧ — ليت شعرى ما الدليل على أن (الشارح) لم يطمئن (ص ١٣٩) لكلمة الرباع بالباء الموحدة؟ ويا لله لمن يدرى خلجات النفوس أكثر من أصحابها ويعرف اطمئنان القلوب وقلقها وإن لم يشعر بذلك ذووها. ولو أن الشارح لم يطمئن لها لاستبدل بها فى الأصل غيرها كدأبه فى كثير من صفحات الكتاب مع تنبيهه إلى ذلك، ولكنه أبقاه لارتياحه إليه واطمئنانه به. ثم قال أيضاً فى أسفل الصفحة تعليقاً عليه (لعلها الرياع بالياء المثناة أى الريع والنماء والزيادة، و (لعل) تفيد معنى ربما، وقد يكون، ولا يزال الشارح مصرا على ذلك الجواز فكلا المعنيين لا غبار عليه. أما المعنى الأول فيجذب إليه كلمة (البقاع) فان الرباع جمع ربع بمعنى الدار والمحلة والمنزل والوطن، فهو بذلك التفسير مناسب للبقاع؛ وقد يكون الربع بمعنى أهل المنزل مثل السكن، وجماعة الناس، ولست أحيل أن يكون (رباع) جمعاً لربع بهذا المعنى الذى يراه حضرة الناقد وإن كان الأنسب أن تكون بمعنى الأماكن معطوفة فى سجعة المقرى على كلمة البقاع. وأما الرأى الثانى وهو أن تكون الكلمة (الرياع) فيقتضيه كلمة الفضل المجاورة له، ولا زلنا نصر على رأينا (أن اللغة تقول علماء فيها (الرياع) بمعنى النماء والزيادة، ويقول أهل اللغة: راع الطعام وغيره رَيْعاً رُيوعا ورياعا وريَعانا إذا نما وزاد وزكا

٨ — قال حضرة الناقد وفى ص ١٥٢ قول القائل فى وصف دمشق:

... أو تكن فى السماء فهى عليها قد (أمدّت) هواءها وهواها

فقال الشارح: لعلها أمرّت؟ نقول ومعنى أمرت أذهبت ولا يصح المعنى على هذا (الحدس) الخ. ونحن نقول: إنا لا نزال عند رأينا فى جواز إرادة معنى أمرّت، وإن اللغة تقول: أمرّ كذا بالشئ. إذا جعله يمرّ به وينعطف عليه، والمعنى الذى شرحه لكلمة (أمدت) فيه شىء من القلق لا يساعد عليه كثيراً تركيب البيت

٩ — اشتد حضرة الكاتب فى حملته على تعليقنا الذى رأينا جوازه فى معنى كلمة (الشمال) بصفحة ١٨١ عند قول الشاعر:

تمتع بالرقاد على (شمال) فسوف يطول نومك باليمين

فقد قال الشارح (يجوز) أن تكون (شمال) جمع شملة وهى كساء يشتمل به ... ثم أتى بحديث على رضى الله عنه الخ فقال حضرة الناقد الأديب — بعد أن نقل العبار مقتضبة : (وهذا كله شرح فاسد) فان المراد بالشمال مقابل اليمين ، إذ المعنى : تمتع بالنوم على جنبك الشمال فى الحياة قبل أن يستمر نومك باليمين .

ولا زلنا مصرين جد الاصرار على أن هذا المعنى جائز — وان لم يكن متيقنا — بل ان سياق الحديث ربما رجح هذا المعنى . قال المقرى : ويحث على انتهاز فرصة اللقاء اذ هى غنيمة ، ويذكر بقول من قال — وأكف الدهر موقظة ومنيمة : تمتع بالرقاد على شمال الخ . فالشاعر يحض على انتهاز الفرصة وانتهاب المسرة ، ويحرض المرء أن يختلس غفلات الدهر اذا نامت عيونه عنه فيتمتع من يحب بالنوم على هـذه الشمال التى تجمع الشمل وتلم الشتات يلتف المتحابان بها اذا لفهما الليل بشملته قبل أن يودع كلاهما بطن الثرى فلا يكون فراش وثير ولا مضجع ممهد ، وإنما يوسد فى القبر يمينـه ،.ويجعل عمله لا حبيبه قرينه . ومن لفظ (الشملة) اشتقت العرب معنى الشمل واجتماعه ، والجمع والتئامه

وإنا لنعجب جد العجب من وضع حضرة الكاتب علامتى التعجب والاستفهام بعد قولنا (وفى حديث على !؟) فليس فى العبارة ما يتعجب منه ولا فيها منكر يستفهم عنه . فما أحوج علامتيـه هاتين إلى بضع علامات التعجب والاستفهام

قال الناقد الأديب فى شرح زجر الطير (وهـذا فضول فى الشرح ومثله فى الكتاب كثير) وهاتان دعويان يصعب على حضرته تأييدهما ، فان ما يراه حضرة الناقد فضولاً قد يراه غيره لازماً ؛ والضعيف أمير الركب . وهل على الشارح من حرج أو ضير وهو يشرح بيتاً يقول : إذ زجرنا للوصل أيمن طير ، أن يبين أن زجر الطير كان عادة جاهلية أبطلها الاسلام (وإن لم يرد الشاعر هنا حقيقة معناها البـدوى) . وأى فضول فى هذا البيان الذى استدعته المناسبة وجر اليه الحديث وهو ذو شجون ؟

قال حضرته : وفى صفحة ٢٠٣ قرأت قول ابن الخياط :

فلم أر الطرة حتى جرت دموع عينى بالمرزيب

ثم قال وأنا أحفظها كالمرزيب وهى أصح وأبين . وأنا أقول كلتا الروايتين لا بأس بها والمعنى عليهما واحد

أما مانبه اليه فى صفحة ٢٢٠ من أن المراد بالفتى الطائى هو البحترى لا أبو تمام فلم يفت الشارح ، بل سبقه إلى التنبيه عليه منذ شهرين فى الاستدراك على الجزء الأول الذى طبع ملحقاً بالجزء الثانى ؛ وكان يجمل بحضرة الناقد الحكيم أن يطلع عليـه قبل أن يسجل نقده على صفحات الرسالة الغراء ؛ وقد تداولت الأيدى الجزء الثانى من مدة غير قصيرة (يريد بالفتى الطائى أبا عبادة البحترى لسبق ذكره فى هذه الأبيات) وقول حضرته إنه يريد بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر نفسه على جهة التشبيه بامرئ القيس (كما قلنا فى ذيل صفحة ٢٢٠) أخالفه فيه ، فقد يسوغ لى أن أرى الآن خلاف ما ذهبنا اليه معاً فى ذلك بل يصح أن يكون امرؤ القيس لا دخل له هنا ، وأن الشاعر (وهو ابن شاهين) إنما يرى نفسه كالبحترى الذى يزعم أنه ورث منه طرفاً كريماً وجواداً سابقاً أعنقت عليه قصيدته ، وسار مسرعاً عليه أدبه ، وأنه يريد (بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر) ممدوحه المقرى إقراراً من الشاعر بأنه أشعر منه كما صرح بذلك من قبل فى قوله :

ورثته منـــه ولـكنما من شاعر وافى الى أشعر

فالشاعر ابن شاهين هو نسر الجو (وقد اصطنع التوجيـه والتورية فى اسمه (شاهين) نسر الجو ، والذى يصطاد نسر الجو بالنسر ويتغلب عليه هو المقرى الممدوح بالقصيدة ، يعنى أنه أقوى من النسر ، وأشد افتراساً من الشاهين . والغرض من هذا أنه أشعر وأقدر وذلك ظاهر واضح لمن يتأمل

ومثل ذلك ما أخذه حضرته على تعليقنا على مدينة (برديل) بصفحة ٢٥٧ ، فقد تلافينا هذا السهو بالاستدراك ، فنرجو حضرته أن يطلع عليه بصفحة ١٠ منه ، بل قد نبهنا إليـه مرة أخرى فى الجزء الثالث وأشبعنا القول فى هذه المدينة ، وهدانا الله منذ زمن الى موقعها ، والى لغات العرب فيها ، بل الى لغات غير العرب ، وقلنا إنها هى مدينة بوردو ، وأطلنا الكلام فى ذلك بالجزأين الثانى والثالث

وفى الختام نقول لحضرة الكاتب أن اسم صاحب المرية هو (خَيْران) الفتى العامرى الصقلبى وإليه تنسب قلعة خَيْران بالأندلس . أما ما فى الاحاطة من أن اسمه (خيروان) فهو تحريف فاسد لا يعول عليه ، وإنمـا هو (خَيْران) (فَعْلان من الخير) وقد ذكرنا ترجمته وتكلّمنا عليه طويلاً فى الجزأين الثالث والرابع (الذى يجرى الطبع فيـه) والشارح يعرف من قديم (خَيْران) هذا فله أثر عظيم فى تاريخ العرب بالأندلس ، وهو مشهور لدى المؤرخين وليس من رجال الأندلس من يسمى خيروان أبداً

وأرجو من حضرة صديق الغيب أن يحمل حديثى هذا على

سافو على مسرح الأوبرا الملكى

لناقد الرسالة الفنى

وهذه رواية أخرى تقتبس للمسرح وتلاقى من النجاح ما بلغته « الجريمة والعقاب » وإن أضاع الاقتباس نواحى كثيرة من جمال الرواية القصصية على الرغم من أن مؤلفها العظيم الفونس دوديه اشترك مع مؤلف مسرحى آخر هو أدولف بيلو فى وضع هذه المسرحية . ولكنها مع ذلك عظيمة تحوى شخصيات قوية وفيها دقة وصدق تصوير وجمال

تصف حال الشبان عندما يبلغون العشرين ويمرون بهذه المرحلة الخطرة من الحياة وهم فى سذاجة وقلة تجريب يتصلون بالنساء فيقاسون من ألم الفراق والهجر والوصل والغيرة ما تنوء به كواهلهم ، فهى إنذار للشبان من بنات الهوى وتحذير لهم من الاتصال بهن والعيش معهن تحت سقف واحد ، فان من أخطر الأمور على الشاب أن يقع فى حب واحدة منهن لأنه لا يستطيع أن يحتمل ماضيها ويغفر لها ما سلف من حبها الغير ويكون الخطر أشد لو أن المرأة بادلته الحب الخالص فاذا حدث وخضع أحد الحبيبين للعقل والواجب وترك الآخر فما أشد الهجر وأمر الفراق ولهذا فقد أهدى دوديه القصة : « إلى أولادى عندما يبلغون سن العشرين »

الإخراج والتمثيل

يؤلمنى أن مخرج الفرقة القومية لا يقوم بدراسة الروايات كما يجب ، فازاء رواية كهذه كان من الخير للفرقة والفن أن يرجع إلى الرواية القصصية ليفهم كل شخصية على حقيقتها فيوفر على نفسه هذا التخبط فى توزيع الأدوار وتفهيم ممثليه لروحها وهو لو فعل لما أسند دور سافو الى السيدة دولت أبيض ، ولما عهد إلى على رشدى بدور جان جوسان أو على الأقل لأفهم كلا منهما الشخصية على حقيقتها حتى لا تكون الهوة بين ما رسم المؤلف وبين ما أبرز الممثلون سحيقة

ان أول ما يلفت نظر الناقد أن سافو دولت أبيض تكبر فى السن عن سافو الفونس دوديه وفى هذا نقص يجب على الممثلة والمخرج أن يعملا على تغطيته ، ولكن طبيعة السيدة دولت جامدة وهى لا تليق لأدوار العاطفة ، ومن المؤلم أنها تعتقد أن البكاء وحده هو الوسيلة التى تستطيع بها أن تؤثر فى النظارة وتصل الى قلوبهم ونسيت أن الصناعة وحدها ليست كافية فهى لم تتأثر بالقصة ولم تعش فى هذه الشخصية وتحس بها والا لأبرزت ما يضطرم فى نفسها من احساسات متباينة ولم تقصر همها على الالقاء والبكاء وتبدو سطحية بكل معنى الكلمة

انظر اليها وهى تسرع بالقاء كلماتها فى الفصل الأول ثم وهى تقف خلف جان ، ثم وهى فى الحان لا تهتم بأن تبرز عاطفة ، بل تهتم بالالقاء ، وفى هذا الفصل الثانى بينما يكون الموقف على أشد ما فيه من حياة بين الممثلين تراه فجأة قد برد عند دخولها واشتراكها فى الحديث معهم واتهامها لهم ، وكان الطبيعى أن يزداد حياة وقوة كل هذه دلائل على أن دولت لم تستطع أن تسمو بالدور أو تؤديه على وجه مرض . على أنى لا أبخسها مواقفها فى الفصل الخامس منذ دخول جان وحوارها معه . ثم وهى تلقى علينا الرسالة التى تكتبها له فقد أجادت الى حد بعيد . فهذه المواقف تلائم طبيعتها لأنها مواقف تخمد فيها العاطفة الثائرة ويعمل فيها العقل وتتغلب غريزة الأمومة والواجب ؛ وهذا يؤيد قولى بصلاحيتها لتأدية أدوار الأمومة

وكما أن دولت تكبر من سافو كذلك (على رشدى) لا يصلح لجان ، فليس هو بالشاب الريفى القوى ، وليس بالجميل الذى يجعل إحدى النساء تصرخ : « يا للفتى الجميل » وهو مع هذا كان بعيداً عن الشخصية بعداً تاماً إذ كان عبداً لتعاليم المخرج حتى كأنه يحاول أن يبرز لنا عزيز عيد الشاب فى صباه لا جان جوسان

قلت إن الشاب كان ريفياً قوياً جامد العواطف ؛ فقد كان يجلس إلى مكتبه بينما سافو أمامه على كرسى فلا يتحرك إليها فى تلهف بل يبقى مكانه يقرأ ، وهكذا عكس ما أبرزه على رشدى فقد كان فى الفصل الأول متظرفاً ضعيفاً حتى كأنه باريسى ، بل وأكثر من ذلك كانت تبدو لنا منه جوانب الخنوثة وكان اهتمام على بالالقاء والصناعة أكثر من اهتمامه بابراز إحساساته وما يضطرم فى نفسه من مختلف العواطف . ولست أسوق دليلاً أكبر من موقفه فى الفصل الثانى حيث الفارق كبير بينه وبين منسى وعباس . وكذلك فى الفصل الرابع ترى الصناعة واضحة يكشفها القاء عباس الهادئ الحزين الذى يؤدى بعاطفته

أكتفى بهذا اليوم وسأتحدث عن بقية الممثلين والترجمة كما أتحدث عن رواية المعجزة ؟

يوسف

خير محامله ، وأن يتنزل بقبول شكرى له وثنائى عليه أن عُنى بالكتاب وقدر العمل فيه قدره ونبّه الى ما اعتدّه هفوات ، وكلنا نتعاون فى خدمة هذه اللغة الشريفة والنهوض بآدابها ونشر ثقافتها .

أحمد يوسف نجاتى
الأستاذ بدار العلوم العليا

فهرس الموضوعات للمجلد الثاني من السنة الرابعة

فهرس الكتاب للمجلد الثانى من السنة الرابعة

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

5 me Année, No. 183

Lundi - 4 - 1 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ١٣٥٥ — ٤ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

الرسالة

فى عامها الخامس

استهل عامُ (الرسالة) الخامس والدنيا فى بلاد الرسالة تلقى بسمعها إلى دعاء الوحى من جديد . فالعقول التى كبلتها أغلال الجهل تتحرر ، والنفوس التى دنستها أرجاس الذل تتطهر ، والعزائم التى طالما استنامت لسلطان القوة تستفيق ! كأنما ارتد إشراق الروح إلى مطالعه بعد أن اضطرب فى الضباب والسحاب عشرة قرون ! هذه مصر والعراق وسورية وأكثر أمم الشرق تنبثق فى أجوائها وأرجائها أشعة الشمس الصحراوية الأولى ، فتنعش ما خمد من غرائز الرجولة ، وتحيى ما همد من نوازع المجد ، وتقتل ما عاث من جراثيم البلى ، وتهدى من ضل إلى سواء المحجة ؛ بينما أمم الغرب يغيم عليها الأفق ، فتدفع بالسلام إلى الحرب ، وتُلقى بالحياة إلى الموت ، لأن حضارتها الحديدية علمتها كيف تهدم ، ولم تعلمها كيف تبنى ! فالمصرى أو العربى أو الشرقى يعلم أنه كان يناضل عن ذاتيته ، فلما استردها عاد يناضل عن إنسانيته ؛ وسلاحه فى كفاح البربرية

اليوم ، هو سلاحه فى كفاحها أمس : قوة صارمة تعتمد على العدل ، وثقافة عاملة تستند إلى الروح ، وسياسة جامعة تقوم على المحبة . ومحال على ابن الرسالة والنور أن يرى مخلفات الدقل والقلب تتهاوى فى العدم ثم لا ينهض !

* * *

استهل عام (الرسالة) الخامس ومصر وأخواتها على باب عهد جديد ؛ فالنوايا معقودة على تغيير الحال ، والميول متجهة إلى طريق الكمال ، والآمال معلقة على الثقة بالله ؛ ولكل حال مقتضى ، ولكل عهد رسالة ، ولكل قوم أدب . وسبيل القلم أن يدخل فى عُدَد هذه النهضة دخول الآلة والمدفع : ينتج إنتاج الخير كتلك ، ويدافع دفاع الحق كهذا ، ثم ينفرد هو بالوساطة بين الروح والجسم ، والسفارة بين السماء والأرض . ولقد كان لأدبنا فى أمسه الدابر ذبذبة بين الشرق والغرب ، فلا إلينا ولا إليهم . وتلك حال كانت لازمة لما نحن فيه لزوم النتيجة المحتومة ؛ فإذا أحس الفنان مظاهر الاستقلال والاستقرار فى الوطن والحكم والرأى والعقيدة والعزيمة ، كان حريا بفنه أن يستقل ، وبذهنه أن يبتكر . (والرسالة) ترجو أن تحمل بعون الله دعوة العقول الخصيبة إلى هذه الأمة النجيبة . وستظل تنقل خطاها الوئيدة السديدة المتزنة على ما رسمته لها كرامة الجنس وطبيعة البيئة وحاجة الثقافة ؛ لا تتخذ لهو الحديث ، ولا تصطنع خوادع الحس ، ولا تملق شهوات الأنفس . وأصدقاؤها — والحمد لله والشكر لهم — لبسوها على هذه الخشونة ، فلا يريدون أن تخطر فى وشى ، ولا أن تَطَرَّى فى كلام ، ولا أن تميل إلى هوى العامة ، حتى أبوا كل الأباء أن يتسع فيها مجال القصص ، والقَصص فى الأدب الحديث فرع يكاد يختصر كل فروعه ويطغى على جميع نواحيه . وما زلت أذكر يوم أعلنا عن باب المسرح والسينما فى الرسالة ! فقد انثالت علينا رسائل الاشفاق والعتب تناشدنا الله أن نربأ بالصحف المهذبة الوقورة أن تنطوى على هذا (المذر) ! ولا يكاد العدد يخرج إلى الناس حتى تأتينا آراء القراء فى التليفون أو فى البريد تستحسن ما ارتفع إلى المستوى الذى عهدوه ، وتستهجن ما انخفض عنه ؛ وهذه الرقابة الغالية دليل على اشتراك الذوق ووحدة الهوى بين القارئ وبين المجلة . فنحن لذلك حريون أن نحرص كل الحرص على أن ندع للرسالة هذه الخطة ، ونحفظ عليها تلك السِّمة

على أن هناك طائفة من ذوى الثقافة المتخطَّفة والذوق الملول ، تعودوا أن يتناولوا كل شىء بالمس الرقيق ؛ فهم يريدون أن يكون لكل عدد لون ، ولكل مقالة خلاصة ، ولكل خلاصة نكتة ، ولكل نكتة صورة . وما دامت الصورة تمثل الفكرة ، والعنوان يلخص الموضوع ، فالاستغراق فى التفاصيل بعد ذلك عناء وعبث !! هؤلاء هم الجناة على الأديب والأدب ؛ يدفعون الباحث بسأمهم إلى توخى السهولة وإيثار الخفة ، فيكون من ذلك هذا التفاعل الدوْرى بين سطحية القارئ وسطحية الكاتب . وإنا لنرجو أن تجد هذه الطائفة فى (الرواية) مجازاً إلى (الرسالة) ؛ فإن المثل يقول : تَطَعَّمْ تَطْعَمْ ، أو ذُق تَشتهِ . ومن الخير أن تمهد للجد باللهو ، وأن تجر إلى التثقيف بالتسلية . والرواية حلقات بين عامىّ الذوق ونبيله ، ودرجات بين خفيف الأدب وثقيله ؛ وخفتها من طرافة الموضوع لا من سخافة الفن ، ورَزانتها من براعة الأسلوب لا من وقار الفكرة . وبالرسالة والرواية نحاول مخلصين أن نرضى كل ذوق ، ونساير كل طبقة ، ونضع فى بناء الأدب العربى الجديد لَبنة

* * *

تحرشت بالرسالة فى عامها المنصرم عوادٍ من الأسى والمرض ، بعضها يقطع الوجهة على السالك البصير ، ويدفع اليأس فى صدر الواثق المؤمن . ولكن الله أبرّ بالعمل الصالح أن يدعه فريسة الأحداث والغِيَر . ومُضِىّ الرسالة قُدُما فى خطتها الرشيدة إلى غايتها البعيدة أربع سنين لا تتغير ولا تتعثر ولا تتخلف ، يجرئنا على أن نجدد لقرائها العهد ، ونؤكد لأصدقائها الوعد ، ونحن أقوى ما يكون العاهد والواعد اطمئناناً للوفاء ووثوقاً بالمستقبل

احمد حسن الزيات

البحث عن الذهب

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

وجدت صديق ينتظرنى — كما وعد — فدخلنا معاً وجلسنا متقابلين إلى مائدة صغيرة ، وبدأنا بأيدينا ففركناها — فقد كان البرد شديداً ، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش ، وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفى لانتقال الدفء إلى أبداننا . ثم أكب صاحبي على البيان الذى فيه ألوان الطعام وجعل يسردها لى لأتخير ما يطيب لى منها . وفرغنا من ذلك بعد طول التردد وانصرف العامل بدفتره الذى دوّن فيه ما طلبنا . فقال صديق وهو يميل على المائدة :

« والآن ما العمل ؟ »

قلت : « هذا هو السؤال الأبدى ! وما أظن بنا إلا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر — طال أم قصر . . المسألة مسألة حظ يا صاحبي »

فقال : « كلا . . لا بد أن هناك وسائل كثيرة لاكتساب المال بسرعة . . كثيرون يفعلون ذلك . . وهذا دليل على أن الوسائل موجودة ولكنا نحن — لسبب ما — لا نهتدى إليها »

قلت : « فليكن الأمر كما تصوره ، فلست أرى أن هذا يجدينا شيئاً »

قال : « ولكن لا بد أن تكون هناك وسيلة »

قلت . « إذا كان ينفعك أو يريحك الايقان من ذلك فأيقن وأرح نفسك »

فقال وهو يهز رأسه : « نحن اثنان . . كلانا محتاج إلى مبلغ حسن من المال . . والحاجة ملحة ، والسرعة لا مفر منها . . لا سبيل إلى الاقتراض لأن الذين يُقرِضون يطلبون ضماناً . . شيئاً يطمئنون به على مالهم . . سخافة ؟! . ولماذا ينبغى أن نرد شيئاً ؟؟ . ألسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكنزونه ويدفنونه فى خزانات أو فى قدور يدسونها تحت الأرض . . ؟؟ »

فضحكت وقلت : « هذه بلشفية »

قال : « لا تصدق . . آه لو كنت غنياً !! . إذن لصارت الدنيا أرغد وأهنأ . . »

قلت وأنا أبتسم : « ماذا كنت تصنع ؟ »

قال : « أصنع ؟ . أتسأل ؟ . . كنت أضع المال فى صرر وأرمى بها لمن أتوسم فيهم أنهم أهل لأن يكون فى يدهم مال . . (وأطرق شيئاً ثم رفع رأسه وقال) : هل تعرف أنى زرت اليوم أختى ؟؟ . . إنها غنية كما تعرف . . وكيف لا تكون غنية وهى لا تنفق شيئاً ؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمى لأتكلم رفعت يدها فى وجهى وقالت : « ولا مليم ! » فغضبت وصحت بها ونهرتها عن هذا السلوك »

فقلت : « ماذا قلت لها على سبيل الزجر عن هذا السلوك الذى لا يليق بين الأخ وأخته ؟ »

قال : « قلت لها ؟ . قلت لها هل تظن أنها من بوليس المرور حتى ترفع يدها هكذا لأقف ؟؟ شىء غريب ! فقالت بهدوء : إنها ليست هذا ، وليست كذلك دكان تسليف ! كلا لا فائدة !. . ح صوتى معها . . أكدت لها مائة مرة أنى محتاج إلى قليل من المال ، فوافقت وأكدت لى أنى سأكون محتاجاً إلى هذا المال حين أخرج من بيتها . . سلوك يطير العقل . . فهل تسمى هذه أختاً ؟ إنى أتصور أختاً ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطينى ، وهى تمتذر ، وتملأ يدى وهى مُغضبة ... وهكذا تكون الأخت ... أما هذه ؟ . . . أعوذ بالله ! . . على كل حال لا فائدة . . وإنما أردت أن أقول لك إن هذا الباب أيضا سد فى وجهى »

فقلت : « لماذا لا تفكر فى طريقة لكسب المال ؟ »

قال بلهجة الاستنكار : « أفكر . . وما الفائدة من التفكير ؟ لا فائدة ما دامت الدنيا مقلوبة . . آه لو كان لى سلطان فى هذه البلاد . . إذن لعقدت امتحاناً كل ثلاثة شهور للأغنياء . . . يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغنى فيقول له أحدهم : « كم تملك يامولانا ؟ » فيقول : « ألف فدان ، ونحو مائتى ألف جنيه فى المصرف وعمارتين — كلا منهما ذات سبع طبقات فى شارع الملكة نازلى » فيقول أحد الأعضاء « وماذا تصنع بكل هذه الثروة » فيقول « أوه لا أصنع شيئا . . كل ما زاد على حاجاتى الضرورية جدا أضيفه الى المدخر » فتقول اللجنة : « شىء جميل ... أهذا رأيك فيما ينبغى أن يصنع المرء بالمال ؟ . . لا بأس . . اسألوا أحد (أى العبد الخاضع المطيع) ماذا يكفيه ؟ » فأقول ردا على

السؤال : « أوه . . يكفينى القليل . . خمسون ألفاً . . كفاية . . أعنى مؤقتا . . » فتقول اللجنة : « أحد هذا رجل يحسن انفاق المـال . . اعطوه ما يطلب » فأقبض المبلغ وأفرك يدى وأقول « إذا سمحتم لى يا حضرات الأعضاء الموقرين فأنى أستأذنكم فى لفت نظركم الى رجل يعرف كيف يعطى . . . بارع جـدا فى الانفاق » فيسأل أحدهم « من هذا . . . قل بسرعة » فأقول « إنه المازنى » فيقول « آه صحيح ! . . كيف نسيناه ؟ . . هاتوه حالاً . . علينا به . . اقبضوا عليه فى حيثما تجـدونه » فيقبض عليك الشرطة ويجرونك مصفدا الى اللجنة فيضحك الأعضاء ويقولون « خذ . خذ . خذ أيضا » فتخرج معى مسرورا . . ونروح ننفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالى . . ما قولك ؟ »

فقلت وأنا أضحك : « شىء عظيم جدا ... ولـكن الى أن يتيسر أن تلى أمور الناس ماذا نصنع ؟ »

فقال : « آه هذه هى المسألة . . ما رأيك أنت »

قلت : « يمكننا أن نكسب الورقة الأولى الرابحة من يانصيب المؤاساة ، أو اليانصيب الارلندى »

قال : « هذا ممكن . . ولـكن ذلك يتطلب أن ننتظر بضعة شهور . والعجلة من الشيطان ، ولـكنه لا معدى لنا عنها — كائنة ما كانت منه . . شيطان أو غير شيطان . . سيان . . »

قلت : « صدقت .. يمكن أن نخترع شيئا ونحتكر بيعه — وصنعه بالطبع — فنغنى »

قال : « صحيح ... فكرة لا بأس بها . . . سأدون هذا فى مذكرتى . . تنفع فى المستقبل .. وعلى ذكر ذلك ماذا نخترعُ ؟ »

فقلت : « باب الاختراع واسع . . واسع جدا . . . مثلا نخترع طريقة تجعل السيارات تستغنى عن البنزين وتكتفى بالماء — أو حتى بالهواء — أو نخترع بديلا من النقود ، فان النقود هى أصل البلاء فى هذه الدنيا . . . أو نخترع . . »

قال : « يكفى ! يكفى ! ولـكن هذا كله يحتاج الى زمن . والمطلوب هو الاهتداء الى وسيلة تكفل إفادة المـال اللازم فى أربع وعشرين ساعة ... »

فقلت وأنا اضطجع وأرسل الدخان من فمى خيطا متلوّيا— فقد فرغنا من الطعام — : « يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقة »

فقال : « معلوم . . اسمع . . أترى هذا الرجل القاعد هناك فى الركن الأيمن ؟ . أترى كيف يأكل ؟ . أترى كرشه المدورة كالـكرة ، ووجهه المنتفخ ؟ وكيف يفتح عيناً ويغمض أخرى وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة فى فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد ؟ . . الحق أقول لك إنى أكره وجهه ولا أرتاح إلى النظر إليـــه »

قلت : « يا أخى لا تنظر إليه . . دعه وحول عينك عنه »

قال : « ولـكنى لا أستطيع . . إنه وجه سوء . . لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل الخير . . إنه ممن لا يؤتمنون على القصر والأيتام والأرامل . . »

فضقت به وصحت « ولـكن مالك أنت ؟ . دعه وشأنه . . أليس له حق فى أن يأكل هنا مثلى ومثلك ؟ »

قال : « يا أبله . . إن هذا الرجل لا بد أن يكون منطويا على أسرار يكره أن تذاع . . لأن وجهه ناطق بأنه شرير . . فلو قمت إليه الآن وقلت له : « طيب . طيب . طيب » كأنى أعرف سره الذى يجاهد لاخفائه ألا تظن أنه يفزع ويضطرب ويشترى سكوتى بأى ثمن . . »

فقلت : « أها ؟ . أهذه طريقتك ؟ . أتريد أن تبتز المال من الناس بهذه الوسائل ؟ . . »

قال : « المصيبة أنى لا أستطيع . . تنقصنى الشجاعة . . ولـكنى واثق أنى أنجح إذا استطعت أن أصنع هذا ؟ . . ومع ذلك لـكل إنسان سره القبيح . . ولو أن واحداً جاء إلى ووقف على رأسى الآن وحدق فى وجهى ثم هز رأسه هزة العارف بكل ما هناك ثم قال « طيب ! طيب ! يا أحمد » لـما وسعنى إلا أن أضطرب . . على كل حال يظهر أنه لا فائدة . . لا أمل فى مال كثير نفيده بالسرعة اللازمة . . »

قلت : « صدقت . لا أمل »

قال : « خسارة . . سأظل أتحسر لأنى لم أجد الشجاعة الـكافية للوقوف على رأس هذا المجرم — هو مجرم ولا شك — وإبلاغه بعينى أنى لا أعرف باطنه كما أعرف ظاهره البادى لنا . . خسارة . . نهايته

. . . نقوم ؟ »

قلت : « تفضل »

ودفع إلى الخادم ثمن الطعام وخرجنا

ولم نقل للرجل المنتفخ الأوداج شيئاً فلم نعرف أله — أم ليس له — سر يشترى كتمانه . .

***

وقلت لصاحبي وأنا أودعه « على فكرة .. من قبيل الاحتياط المستقبل . . من يدرى ؟ . »

قال : « نعم . . »

قلت : « ما هو الجواب الصحيح . . أمام اللاجئة ؟ »

قال : « آه ! . . انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب »

قلت : « أهو ذاك ؟ . أما ما فى الجيب فلست أحتاج فى أمر إنفاقه إلى التكلف . . وأما ما فى الغيب فهل تعرفه يأتى يا صاحبى ؟ »

فأشار لى بيده ومضى عنى وهو يضحك

ابراهيم عبد القادر المازنى

عاصفة فى الشرق الأقصى

حول حوادث الصين الأخيرة

بقلم باحث دبلوماسى كبير

بينما تواجه أوربا أزماتها الخاصة ، فى اسبانيا وفى حوض البحر الأبيض بنوع خاص ، وتنظر إلى تطوراتها بحيرة عازجها الجزع ، إذا بحدث خطير يقع فجأة فى الشرق الأقصى ويثير فى الصين فتنة جديدة كادت تسفر عن أخطر العواقب لو لم تخمد فى مهدها . وقد غدت هذه الفورات الفجائية ظاهرة الحوادث فى الصين ، وأضحى من الصعب أن نقف على بواعثها وغاياتها دون الرجوع إلى مثيلاتها من الحوادث والفاجآت التى توالت فى الصين فى عشرة الأعوام الأخيرة ، واستعراض الاوضاع السياسية الفريدة التى تعيش فى ظلها تلك الأمبراطورية الشاسعة

وملخص الحادث المسرحى الجديد الذى كاد يثير ضرام الحرب الأهلية فى الصين كرة أخرى ، هو أن الماريشال تشانج هسويه ليانج الذى يرابط بقواته فى سيانفو عاصمة إقليم شنصى ، قد دبر كميناً للقبض على الماريشال تشانج كايشك رئيس حكومة نانكين الوطنية ، والقائد العام للجيوش الصينية بينما كان يستشفى قريباً من سيانفو ، واعتقله مع بعض حاشيته ؛ ثم أذاع أنه يرمى بذلك إلى حل الحكومة الوطنية الحاضرة التى تمادت فى خضوعها لليابان ، وتأليف حكومة جديدة تعلن الحرب على اليابان ، وتعمل على استرداد الأقاليم التى انتزعتها اليابان من الصين وفى مقدمتها إقليم منشوريا ؛ وقد أخطر الماريشال الثائر أسيره بهذه المطالب ، وأخطر بها حكومة نانكين ، فرفض الرئيس المعتقل ورفضت الحكومة أن تبحث فى شأنها قبل الافراج عن الرئيس ، وإعادة الأمور إلى نصابها ؛ وقد حاولت حكومة نانكين أن تصل بطريق المفاوضة والتفاهم إلى تسوية مؤقتة يفرج معها عن الماريشال المعتقل ، فأبى الزعيم الثائر ؛ واضطرت الحكومة أن تجرد عليه بعض قواتها ؛ وقد زحفت القوات الحكومية فعلاً صوب سيانفو ، وبدأت المعارك الأولى بين الفريقين ونحن نكتب هذه السطور

فمن هو هذا الزعيم الثائر تشانج هسويه ليانج ؟ وما هى بواعث حركته ؟ إن الماريشال تشانج هسويه ليانج هو ولد الماريشال تشانج تسولين زعيم منشوريا السابق الذى قتل غيلة فى حادث قطار دست له القنابل سنة ١٩٣٠ ؛ وكان تشانج تسولين مدى أعوام طويلة حاكما بأمره فى منشوريا قبل أن تنتزعها اليابان ؛ وكان يعمل بالاتفاق مع السياسة اليابانية ، فلما قتل خلفه ولده فى حكم الاقليم ، ولكنه اختلف مع السياسة اليابانية ، وكانت حكومة نانكين الوطنية قد قامت يومئذ باسم الصين المتحدة كلها ، فأعلن تشانج هسويه ليانج انضمامه إليها ؛ ورأت اليابان الفرصة سانحة لتنفيذ مشروعها الاستعمارى فى الصين ، فاحتجت بوقوع بعض حوادث اعتداء على الرعايا اليابانيين ، وغزت منشوريا فى سنة ١٩٣١ ، واضطر الجنرال تشانج هسويه ليانج إلى الانسحاب بقواته دون مقاومة تذكر ؛ وعسكر مدى حين فى إقليم جيهول فى جنوب منشوريا ؛ ولما أتمت اليابان غزو منشوريا واحتلالها ، دفعت قواتها إلى جيهول ، فارتد أمامها الماريشال المنهزم بقواته ؛ واحتلت اليابان أيضاً هذا الاقليم فى سنة ١٩٣٣ ؛ وعسكر تشانج

هسويه ليانج من ذلك الحين بقواته فى بعض أنحاء إقليم شنعى . وفى سنة ١٩٣٥ ، انتدبته حكومة نانكين ، أو بعبارة أخرى انتدبه الماريشال تشانج كايشك لمحاربة القوات الشيوعية التى تقدمت جنوباً واحتلت ولاية ستشوان المجاورة لشنعى ؛ ولكنه بدلاً من أن يقوم بهذه المهمة فضل التفاهم مع الشيوعيين ، واتخذ من ذلك الحين موقفه المريب من حكومة نانكين

ويجب أن نذكر كلمة عن الشيوعية فى الصين ؛ ففى الصين الآن حزب شيوعى كبير يسيطر على قوات عسكرية كبيرة بقيادة زعيم الشيوعية الصينية ماوتسى دون ؛ وقد كانت الشيوعية من قبل عضد الحركة الوطنية ، ومنذ سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ ، وهى فترة الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ، تعمل الحركة الوطنية بمعاونة الشيوعية ، ويندمج الحزب الشيوعى فى الحزب الوطنى الصينى (الكومن تانج) وتستمد الحركة الوطنية كثيرا من القوة والتنظيم من روسيا البلشفية ودعاتها فى الصين . ولكن الماريشال تشانج كايشك بعد أن تم له الظفر على قوات الشمال فى سنة ١٩٢٧ ، واستطاع أن يقيم حكومة نانكين الوطنية رأى أن يضع حدا للتعاون مع الشيوعية ، وقضى على عناصرها من (الكومن تانج) ومن الحكومة والجيش ، وبدأت الخصومة من ذلك الحين بين حكومة نانكين وبين الشيوعية ؛ ومنذ عدة أعوام تعمل قوات الحكومة لمطاردة قوات الشيوعية ومحاصرتها فى الأقاليم الوسطى التى تسيطر عليها ولكنها لم تستطع حتى الآن أن تقضى عليها

وفى تلك الفترة استطاعت اليابان أن تنتزع منشوريا وجيهول وبعض الأقاليم الأخرى من الصين ، وأن تمهد تمهيدا قويا لسياستها الاستعمارية فى الصين ؛ وهنا حدث تطور واضح فى سير الحركة الوطنية ، فقد رأى كثير من الزعماء والمستنيرين أن استمرار الحرب الأهلية على هذا النحو يقوى نفوذ اليابان ويفتح أمامها أبواب الصين ، وأنه من الحكمة والضرورة أن تتضافر القوى المشتتة لمقاومة الاعتداء الأجنبى ؛ ولوحظ أيضا أن الماريشال تشانج كايشك رئيس الحكومة الوطنية يتبع إزاء الغزو اليابانى سياسة الضعف والتسليم ، وأنه لم ينفك عن التصريح بأنه يريد التفاهم والاتفاق مع اليابان ، ولكن على أى الأسس ؟ إن اليابان تسير مسرعة فى تنفيذ برنامجها الاستعمارى ، ومازالت تنتهز كل فرصة للتوغل فى قلب الصين واحتلال أراضيها . ويرد زعماء (الكومن تانج) على ذلك بأن الحكومة الوطنية مرغمة على اتخاذ هذا الموقف ، وأن الصين لا تستطيع فى ظروفها الحاضرة أن تقف أمام الغزو اليابانى ، وأنه يحسن التفاهم مع العدو المغير حتى تقوى الصين نفسها وتستطيع أن تقاوم الاعتداء بصورة فعلية ؛ وقد اضطر تشانج كايشك نفسه أمام هذا التيار الجديد أن يؤكد فى تصريحاته الرسمية أمام مؤتمر اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى (الكومن تانج) فى الصيف الماضى أن الحكومة المركزية لن تتنازل قط عن التمسك بوحدة الصين وسلامة أراضيها ولن تعقد أية معاهدة تخالف هذا المبدأ ، ولن تنزل عند أى رغبة أو وعيد بارغامها على إقرار الحالة فى منشوكيو (منشوريا) أو أية حالة أخرى من حالات الاعتداء على الأراضى الصينية

وقد رأى الماريشال تشانج هسويه ليانج أن ينتهز فرصة هذا التطور لينزل إلى الميدان ، والظاهر أنه يريد أن يحاول استغلال الشعور القومى الذى أثاره اعتداء اليابان المتكرر على الصين ، وأن يجعل من مطالبته حكومة نانكن بأن تعلن الحرب على اليابان شعاراً قوميا يلتف حوله المعارضون لسياسة الحكومة الوطنية . بيد أن تشانج هسويه ليانج شخصية ثانوية فى الواقع ، وهو لا يشغل بين زعماء الصين أو قادتها مركزاً خطيراً يمكنه من تزعم مثل هذه الحركة الخطيرة ؛ ومن جهة أخرى فان الأساليب التى لجأ إليها فى اعتقال رئيس الحكومة وقائد الجيش الأعلى ومعاونيه ، ليست مما يشهد له بالفطنة والكياسة ، وليست مما يعاون على التمهيد الحسن لمشاريعه . وتقدر قوات الزعيم الثائر بنحو مائة وخمسين ألف جندى ، وهى قوة ضئيلة بالنسبة للوحدات العسكرية الصينية ، وبالنسبة لقوات الحكومة المركزية التى تقدر بنحو مليونين ؛ وإذا كانت الحوادث لم تسفر حتى كتابة هذه السطور عن حل حاسم للمشكل فانه لا ريب أن حكومة نانكين لن تنزل عند وعيده ، ولن تتخلى عن محاربته حتى يلقى سلاحه

هذا من الناحية الداخلية ، بيد أن للمسألة ناحية خارجية

فى منتهى الخطورة . فنحن نعرف أن الصين ميدان للتنافس الخطر بين اليابان وروسيا ، وأن اليابان تسيطر على منشوريا ، كما تسيطر روسيا على منغوليا الخارجية ، وأن عوامل الاحتكاك بينهما لا تنتهى ، وخصومة اليابان وروسيا خصومة طبيعية وتاريخية معاً ؛ وكلتاهما تخشى الأخرى وترقب مساعيها فى الصين بمنتهى الغيرة واليقظة ؛ وقد ذهبت اليابان فى توغلها فى الصين إلى حد يثير مخاوف روسيا ويحملها على مضاعفة جهودها لصون أملاكها ومصالحها فى الشرق الأقصى ؛ ومن جهة أخرى فقد عقدت اليابان أخيراً تحالفاً مع ألمانيا ضد الشيوعية أو بعبارة أخرى ضد روسيا ، ومن المرجح أن هذا التحالف الذى يقوم فى الظاهر على هذا الأساس ، يتضمن تحالفاً سرياً عسكريا بين الدولتين ، وأن غايته الحقيقية هى حصر روسيا بين نارين : نار اليابان من الشرق ، ونار ألمانيا من الغرب إذا ما وقعت حرب عالمية . ذلك أن ألمانيا الهتلرية تعتبر روسيا البلشفية عدوتها الميتة ، وتسعى لتحطيمها وسحقها بكل ما وسعت وتعتقد أن تعاونها مع اليابان على هذه الصورة يكون رداً بليغاً على الميثاق الروسى الفرنسى الذى اعتقدت أنه موجه ضدها ، وأنه خطر دائم على سلامتها ؛ والظاهر أن حوادث الصين الأخيرة لم تكن بعيدة عن آثار الميثاق اليابانى الألمانى ، وأنه يمكن أن نلمس فيها أثراً لأصبع روسيا ، وأن الماريشال تسانج هسويه ليانج كان يعول فى ثورته على معاونة روسيا الخفية إذا ما ساعدته الحوادث على تنفيذ برنامجه ، وأن روسيا ترى فى اضطرام هذه الثورة على حكومة نانكين وضد النفوذ اليابانى ، ما يمكن أن يكون رداً من جانبها على الميثاق اليابانى الألمانى ؛ بيد أن روسيا لم تخرج عن تحفظها إزاء هذه الأزمة ولم يبد منها ما يدل على أنها تتصل بها أو تعلق عليها أهمية خاصة ، هذا فى حين أن اليابان قد أبدت استعدادها وتحفزها للتدخل إذا ما تطورت الحوادث تطورا يمكن أن يهدد نفوذها أو مصالحها

ثم هنالك الدول الغربية وعلى رأسها انكلترا ، وهى تعلق أهمية خاصة على سير الحوادث فى الشرق الأقصى ؛ وهنالك أمريكا ، وهى تخشى ازدياد النفوذ اليابانى فى الصين وفى المحيط الهادىء . ومن الواضح أن بريطانيا العظمى ، والدول الأخرى التى تسيطر على أملاك عظيمة فى الشرق الأقصى مثل فرنسا وهولنده ، يهمها كبح التوغل اليابانى ومقاومته ، لأنه يزداد كل يوم خطراً على أملاكها ومصالحها ؛ والسياسة البريطانية تميل بلا ريب إلى تأييد كل حركة تؤدى إلى تحقيق هذه الغاية ؛ بيد أنها لا تميل فى نفس الوقت إلى نهوض الشيوعية وتقدمها فى الصين ، لأنها تعتبرها خطراً عظيما على أملاكها ونفوذها ؛ وهى الآن فى موقف انتظار وتريث واستعداد للطوارىء ؛ وأما أمريكا فهى تسير فى ذلك على سياسة مستقلة ، وكل ما يهمها هو الاحتفاظ بنفوذها وسيادتها فى المحيط الهادىء ، وهى تعتقد أنها تستطيع تحقيق هذه الغاية بالتفاهم مع اليابان وعقد اتفاق يصون مصالح الفريقين

هذا وقد صح ما توقعناه من أن حكومة نانكين لن تخضع لوعيد الزعيم الثائر ، وإن الثورة لن يرجى لها النجاح المنشود ؛ فقد وردت الأنباء الأخيرة بأن الماريشال تشانج هسويه ليانج قد أذعن للأنذار الذى وجهته إليه الحكومة المركزية ، واستمع لنصح زملائه حكام الولايات المجاورة ، وأفرج عن الماريشال تشانج كايشك ؛ وقد عاد الماريشال إلى نانكين عود الظافر فى مظاهرات حماسية ، واعتذر الزعيم الثائر عن فعلته ؛ ولم تعرف شروط التسوية بعد ؛ ولكن الظاهر أن تشانج هسويه ليانج سيغادر الصين مدى حين ، وأن الحكومة ستمنحه معاشاً حسنا ، وأنه تعهد بعدم التدخل فى الشؤون العامة العسكرية أو السياسية

على أنه يبقى لنا أن نتساءل ، هل انتهت الفتنة وأخمدت نهائياً ، أم أنه يخشى أن تكون بذورها قد تمكنت فى القوات المتمردة ، وإن الشيوعية المحلية لا تزال تغذيها ؟ هذا ما لا يتضح الآن : بيد أنه يمكن القول أن حكومة نانكين ستنشط إلى محاربة الشيوعية والقضاء عليها ، لأنها تخشى منها على نفوذها واستقرارها . ولا ريب أيضاً أن الحكومة الوطنية ستعنى بأمر هذا التطور العميق فى شعور الشعب الصينى واتجاهه إلى وجوب الوقوف فى وجه اليابان ووضع حد لمطامعها ؛ وربما اضطر الماريشال تشانج كايشك غير بعيد إلى أن يتخذ سياسة أشد حزماً إزاء المطامع اليابانية ، إذا وجد فى مثل هذا الشعور ما يكفى لتوحيد الصفوف ، وشد أزر السياسة الوطنية المتطرفة التى يجب اتباعها يومئذ وتدعيمها بقوة السلاح إذا اقتضى الأمر (***)

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٧ —

تعددت المدارس وتنوعت الفرق في العالم الاسلامي ، فمن متكلمين إلى متصوفة ، ومن شيعيين إلى سنيين ، وتحت كل شعبة من هؤلاء طوائف شتى وأحزاب متفرقة . بيد أن هذه المدارس المتنوعة والفرق المتعددة تلتقي في نقط مشتركة ويقوم الخلاف بينها على بعض المبادىء العامة . وقد استطاعت التعاليم الفلسفية أن تنفذ إليها جميعاً ، ولكن بدرجات متفاوتة . ففي حين أن الشيعة ، وخاصة الاسماعيلية ، يتقبلون بقبول حسن كثيراً من الآراء الفلسفية ، نرى أهل السنة يقفون من هذه الآراء موقف الحذر والحيطة ؛ وعلى هذا النحو يمكننا أن نلاحظ أن المعتزلة يدنون في أغلب أبحاثهم من الفلاسفة ، في حين أن الأشاعرة يعارضونهم ويناقضونهم . وقد سبق لنا أن بينا مقدار تأثر فلاسفة الاسلام بنظرية النبوة الفارابية ، ونريد اليوم أن نبين إلى أي مدى استطاعت هذه النظرية أن تؤثر في المدارس الاسلامية الرئيسية ، وكيف استقبلت من معارضيها ومحبذيها . ولا نظننا في حاجة إلى أن نبين موقف الصوفية منها ، فهي بما فيها من تصوف كفيلة بأن تنال حظوتهم ، وهي فوق هذا تضع أساساً علمياً لآرائهم ونظرياتهم . وسنقصر حديثنا على المعتزلة والأشاعرة من علماء الكلام ، والاسماعيلية والباطنية من الشيعيين

وأما المعتزلة فقد دالت دولتهم تقريباً وانقضى سلطانهم قبل أن تظهر نظرية النبوة الفارابية في ثوبها الواضح وشكلها الكامل . غير أن نظرية كهذه تتلاءم مع نزعتهم العقلية وروحهم الفلسفية ، ولا نظنهم ، لو أدركوها ، كانوا يحاربونها ويقابلونها بالرفض والمعارضة الصريحة ، ذلك لأن أكبر مأخذ يؤخذ عليها ، كما أسلفنا ، أنها تتعارض مع بعض النصوص الثابتة الواضحة ، ولكن المعتزلة وقد فتحوا باب التأويل على مصراعيه لن يعدموا الحيلة في التوفيق بين هذه النصوص وبين فكرة تشرح النبوة شرحاً عقلياً فلسفياً . وأما الأشاعرة فقد نصبوا أنفسهم للدفاع عن التعاليم الاسلامية المأثورة ، وجدّوا في تفهمها كما وردت . حقاً إنهم يقولون بالتأويل ، ولكنهم لا يتوسعون فيه توسع المعتزلة

ونظرية الفارابي في النبوة تناقض في رأيهم مناقضة صريحة طرق الوحي المسلم به في الكتاب والسنة . ومما يؤسف له أن أبا الحسن الأشعري وهو من معاصري الفارابي لم يخلف لنا شيئاً يعتد به في هذا الصدد . إلا أن الغزالي وهو أكبر نصير للأشاعرة على الاطلاق ، وفي النصف الأخير من القرن الخامس الهجري بوجه خاص ، لم يغفل نظرية الفارابي في النبوة ، وتحامل عليها كما تحامل على الآراء الفلسفية الأخرى ، ولكنه في تحامله هذا لم يستطع أن يرد عليها رداً مقنعاً أو ينقضها بشكل واضح . على أنه هو نفسه بالرغم من خصومته لها وتحامله عليها لم ينج من أثرها ، وقال بآراء تقترب منها كل القرب ؛ وخصومة الأفكار تختلف إلى حد ما عن خصومة الأشخاص ، فقد تستطيع التبرؤ من كل ما يتصل بخصمك المادي مع أنه يعز عليك أحياناً أن تنجو تماماً من سلطان فكرة تعارضها ، ذلك لأن النظريات والآراء بما فيها من قدر من الصواب يمكنها أن تؤثر في أصدقائها وأعدائها ، بل وفي أشد الناس هجوماً عليها ؛ ولا أدل على هذا مما نلاحظ في مسألتنا الحاضرة ، فأن الغزالي يناقش في كتابه « تهافت الفلاسفة » نظرية النبوة الفارابية ملاحظاً أن النبي يستطيع الاتصال بالله مباشرة أو بواسطة ملك من الملائكة دون حاجة إلى العقل الفعال أو قوة متخيلة خاصة أو أي فرض آخر من الفروض التي يفترضها الفلاسفة(١) ، ثم يعود في كتابه « المنقذ من الضلال » فيقرر أن النبوة أمر مسلم به نقلاً ومقبول عقلاً ؛ ويكفي لتسليمها من الناحية العقلية أن نلاحظ أنها تشبه ظاهرة نفسية نعترف بها جميعاً ، ألا وهي الأحلام والرؤى . وها كم عبارته بنصها : « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه أن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير(٢) » .

(١) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، ص ٦٢
(٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ٣٣

ونحن فى غنى عن أن نشير إلى أن هذه العبارة تحمل فى ثناياها أفكاراً فارابية واضحة وبصرف النظر عما فى موقف الغزالى من تناقض فان اعتراضه على نظرية الفارابى فى النبوة لم يكن شديداً ولا قاطعاً . ولهذا لم يتردد فى أن يعتنقها فى مكان آخر محاولاً ، كما صنع الفارابى ، إدعامها على أساس من الفيض والاشراق . ولعل هذا هو الرأى الأخير الذى اطمأنت إليه نفسه ، ولاسيما . والدلائل قائمة على أن المنقذ متأخر تأليفاً عن التهافت ، ومشتمل على خلاصة أبحاث الغزالى ونتيجة دراساته السابقة

وإذا كانت نظرية النبوة الفارابية قد استطاعت التأثير فى خصومها من الأشاعرة فهى على هذا أقدر لدى من ينتمون إليها من الاسماعيلية والباطنية . وإنا لنلاحظ منذ أخريات القرن الرابع الهجرى أن إخوان الصفا الذين لم يبق اليوم شك فى أمر اتصالهم بالاسماعيلية يشيدون بذكر قوة المخيلة ويبينون ما لها من أثر فى المظاهر النفسية المختلفة ، وخاصة فى المنامات والأحلام والوحى والالهام[(١)] . ويلخص لنا الغزالى فى رده على الباطنية معتقدهم فى النبوات قائلاً إنهم يذهبون إلى « أن النبى عبارة عن شخص فاض عليه من السابق بواسطة التالى قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عند الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الذكية فى المنام حتى تشاهد من مجارى الأحوال فى المستقبل إما صريحاً بعينه أو مدرجاً تحت مثال يناسبه مناسبة ما فيفتقر فيه إلى التعبير إلا أن النبى هو المستعد لذلك فى اليقظة ، فلذلك يدرك الكليات العقلية عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية ، كما ينطبع مثال المحسوسات فى القوة الباصرة من العين عند شروق نور الشمس على سطوح الأجسام الصقيلة »[(٢)] . ويضيف الغزالى أن هذه الآراء كلها مأخوذة عن الفلاسفة ، وهذه ملاحظة لا تقبل الشك ولا الأنكار[(٣)] وقد تأثر الاسماعيلية بالأفكار الفلسفية فى غير موضع ، إلا أن نظرية النبوة على الخصوص راقتهم إلى حد كبير وصادفت هوى فى نفوسهم . فانها لا توضح النبوة فحسب ، بل تشرح فكرة الأمامة التى قامت عليها دعوتهم ،

(١) اخوان الصفا ، رسائل ، ج ٣ ص ٣٨٥ — ٣٩١ ، ج ٤ ١٥٩ — ١٦٥

(٢) الغزالى ، فضائح الباطنية ص ٩

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠

وقد قدمنا أن الفارابى يصرح بأن الامام والنبى والفيلسوف يرمون إلى غاية واحدة ويستمدون تعاليمهم من مصدر مشترك ألا وهو العقل الفعال[(١)] . وإذا كان بعض الاسماعيلية قد أخذ على عاتقه أن يرد على منكرى النبوة فهو فى الوقت نفسه يدفع شبهاً يمكن أن توجه إلى الأمامة . فنظرية النبوة الفارابية أساس علمى متين بنى عليه الاسماعيليون كثيراً من تعاليمهم . ولم يزيدوا عليها شيئاً إلا أنهم تأولوا بعض النصوص التى سكت عنها الفارابى فقالوا مثلاً إن جبريل هو العقل الذى يفيض على الأنبياء بالمعلومات ، وإن القرآن تعبير عن المعارف التى فاضت على النبى صلى الله عليه وسلم من هذا المصدر[(٢)]

***

الآن وقد لخصنا فى اختصار أثر نظرية النبوة الفارابية فى القرون الوسطى الاسلامية ، يجدر بنا أن نولى وجهنا شطر القرون الوسطى اليهودية والنصرانية لنبين ما إذا كانت هذه النظرية قد تمكنت من النفوذ إليها أم لا . وسنكتفى من بين مفكرى اليهود بموسى بن ميمون الذى يعلن فى صراحة تلمذته للفارابى وابن سينا[(٣)] . وسنشير بين المسيحيين إلى (ألبير الجراند) فقط الذى كثيراً ماردد اسم الفارابى فى مؤلفاته اللاتينية[(٤)] . فأما ابن ميمون فلا نظن أن واحداً من رجال الفلسفة المدرسية — اللهم إلا ابن سينا — قد استمسك بنظرية النبوة الفارابية وعنى بها مثل عنايته ، فقد وقف عليها فى الجزء الثانى من كتابه «دلالة الحائرين» نحو مائة صفحة أو يزيد ، وبذل جهده فى التوفيق بينها وبين الديانة الموسوية[(٥)] وترجع الآراء المتعلقة بالنبوة فى نظره إلى ثلاثة أقسام . فطائفة ترى أن النبى مجرد شخص اصطفاه الله من بين خلقه وكلفه بمهمة خاصة سواء أكان عالماً أم جاهلاً صغيراً أم كبيراً ، فلا يشترط فيه أى شرط ما دام الله قد اختاره ، اللهم إلا أن يكون حسن السلوك سامى الأخلاق ؛ ويرى المشاؤون — ويعنى بهم ابن ميمون فيما نعتقد الفارابى وابن سينا — أن النبوة تستلزم كمالاً فى الطبيعة الانسانية وسمواً فى المواهب العقلية والاستعدادات الفطرية ، فليس لكل شخص إذن أن يكون

(١) الرسالة عدد ١٧٧ ، ص ١٩١٥

(٢) الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ٩

(٣) اسرائيل ولفنسون ، موسى بن ميمون ، ص ٦٤

(٤) Madkour, La plaçe d' al Fârâbi, p. 2.

(٥) Maimonide, Guide, t. II, . 259 — 294.

نبياً ، بل من اكتملت فيهم صفات نفسية وعقلية معينة .

والرأى الأخير الذى ينحاز إليه الفيلسوف اليهودى هو أن النبى إنسان كامل من الناحية العقلية قد فضله الله واصطفاه على عباده الآخرين [١] . ولا بد له من مخيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال وتقفه على الأمور المستقلة كأنما هى أشياء محسوسة ملموسة [٢] . وعلى قدر ما تعظم المخيلة ويزيد اتصالها بالعالم العلوى تسمو الالهامات النبوية وتتنوع ، ومن هنا تفاوت الأنبياء فيما بينهم بتفاوت مخيلاتهم ، واختلف ما يوحى إليهم تبعاً لذلك [٣] . فقوة المخيلة إذن ذات أثر كبير فى الكشف والالهام وشرط أساسى فى كل من يرقى إلى مرتبة النبوة [٤] . بيد أنه يجب أن ينضم النبى إلى مخيلته قوى عقلية عظيمة ، لأن المخيلة لا تستطيع أن تصعد إلى درجة العقل الفعال إن لم يكن فى معونتها قوى فكرية ممتازة [٥] . هذه اللاحظات على اختصارها تكفى للبرهنة على أن ابن ميمون اعتنق فى إخلاص نظرية الفارابى فى النبوة

وأما ألبير الجراند فقد أثرت فيه الآراء الفارابية عامة من نواح كثيرة . فهو يقول بنظرية فى السعادة لا تختلف كثيراً عما ذهب إليه الفارابى ، ويقرر أن الانسان متى وصل إلى مرتبة العقل المستفاد أصبح على اتصال دائم بالعالم الروحانى ، وأضحى إلى حدما شبيها بالله ، ووقف على المعارف المختلفة ، وفاز بغبطة لا نظير لها [٦] . ويحلل من جهة أخرى نظرية النبوة تحليلاً سيكلوجيا يتفق اتفاقا تاما مع ما جاء به الفارابى [٧] . كل هذا يثبت ، كما لاحظ رينان من قبل ، إلى أى حد نفذت اللغة العربية والنظريات الاسلامية الخطيرة إلى المدرسة الألبيرية [٨] . ويسهل علينا أن نحدد على وجه التقريب المصدر الذى استقى منه ألبير نظرية النبوة الفارابية ، فانه لا يبعد أن يكون قد قرأ عنها شيئاً فيما ترجم من كتب ابن سينا إلى اللاتينية ، أو فى كتاب دلالة الحائرين الذى أحرز منزلة عظيمة فى مختلف المدارس المسيحية

(يتبع)

ابراهيم بيومى مدكور

(١) Ibid., p. 298.
(٢) Ibid., p 333 et suiv.
(٣) Ipid., p. 333
(٤) Ipid.' p. 232.
(٥) Ipid., p. 313
(٦) Reuan, Averroès, 235
(٧) Ibid
(٨) Ipi

فى الأدب المقارن

أشكال الأدب

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

تبدأ العلوم والفنون الانسانية كلاً مختلطاً كالسديم ، فاذا ما ارتقت وتطورت تبينت أجزاؤها وانفصلت ، ووضحت أشكالها وتميزت ، وتعددت مناحى كل علم وفن ، وتوفر بعض ممارسى تلك العلوم أو الفنون على ناحية من نواحى العلم أو فرع من فروع الفن وتوفر غيرهم على غيرها ، كلٌّ يتبع ما هو أقرب الى طبعه وأوفق لعبقريته وأتمُّ تعبيراً عن منازعه ؛ وكلما ارتقى العلم أو الفن جدت فيه ضروب وأشكال لم تكن من قبل ، وتولدت من الأشكال القديمة أخرى غيرها

وذلك شأن الأدب : يبدأ بانفصال الشعر عن الموسيقى ، فاذا هو ألحان وأهازيج ساذجة المعانى ؛ ثم ما يزال جانب المعنى منه يقوى حتى يطغى على جانب النغم ، حتى يبلغ الشعر أشده وما تزال الأمة متبدية ؛ فاذا ما نالت حظاً من الحضارة والثقافة ظهر النثر بجانب النظم ، حاوياً لكثير من مميزات الشعر الفنية : كالتعبير عن الوجدان وحسن اختيار الألفاظ المعبرة ، فاذا ما استمر الأدب فى رقيه تعددت أشكال النظم والنثر واختلفت صورها ، واجتذب كل شكل فريقاً من الأدباء يصطفونه دون غيره أو بجانب غيره ، لاخراج أفكارهم وأحاسيسهم فى قالبه ، وإبراز نظرتهم الى الحياة فى أوضاعه وحدوده

فتعددُ أشكال الأدب من دلائل رقيه وابتعاده عن عهود الابتداء وعصور الابهام والعموم ، وهو أيضاً من دلائل سريان روح التجديد فيه : فمن طبيعة النفس الانسانية أن تسأم النغمة الواحدة إذا كررت ، مهما كانت عذوبتها أو براعة صاحبها ، وتستوى فى ذلك الموسيقى وغيرها من الفنون ، فاذا ما سئم جيل شكلا من أشكال الأدب ، أو أصبح ذلك الشكل الأدبى غير ملائم لعصره ، فأن روح التجديد — إذا كانت هناك — تدفعه

إلى ابتكار شكل طريف ملائم ، وهجر الأشكال القديمة مهما كانت منزلة الأدباء المتقدمين الذين مارسوا تلك الأشكال ، ومهما يكونوا قد أودعوها من صادق الأفكار والشعور ، ومحكم الصور لعصورهم

وقد شهد الأدب الانجليزى عصر إليزابث ، وهو ما يزال مختلط الأجزاء ، مضطرب الصور ، لم تتميز أشكال منظومه ومنثوره ، بل لم تستقم بعد أساليبه الشعرية ولا لغته الكتابية ؛ فما لبث الشعر على أيدى شكسبير ومعاصريه من مؤلفى المسرح ، وسبنسر وملتون ثم دريدن ، أن كسب لغة نقية مختارة ، وأشكالاً واضحة بينة ، صالحة للتعبير عن شتى الأفكار وتصوير مختلف الحالات النفسية . وضع شكسبير أساس الشعر المرسل ، ورفع بعبقريته مكانة ذلك الضرب من الموشحات المعروف بالسونيت ، وهو موشح من أربعة عشر بيتاً متداخلة القوافى على هيئة تبرز الفكرة الوحيدة التى تتضمنها السونيت إبرازاً رائعاً ؛ ووضع سبنسر موشحه المنسوب إليه والمكون من أبيات تسعة متداخلة القوافى آخرها أطول عروضاً من سائرها ، مما يجعل الموشح أداة صالحة للقصص الشعرى الرصين

وجاء ملتون فأدخل الملحمة فى الشعر الانجليزى الحديث : والملحمة أعظم ضروب الشعر شأناً ، وأكثرها كلفة ، وأبعدها منالاً لما تحتاج إليه من طول التوفر ، وعمق البصر بالأدب ، واتساع الثقافة ، والتضلع من اللغة ، والتمكن من الأساليب الشعرية ، وامتداد الخيال ؛ وقد قدّر كولردج الزمن اللازم لانشاء ملحمة بعشرين عاما : ينصرف الشاعر فى عشر منها إلى الاستعداد والتحضير ، ويتوفر فى عشر على الانشاء والتجويد ؛ وجاء دريدن عقب ملتون فوطد أساس ضرب آخر من النظم يدعى الأود oad أو القصيد الخطابى ، يمتاز بوعورة عروضه وقوافيه ، ويوجه الخطاب فيه عادة إلى شىء مخصوص أو فرد معروف أو ذكراه ؛ ورفع دريدن كذلك مكانة « الدوبيت » فى الشعر الانجليزى ، أعنى القصيد المؤلف من أبيات ثنائية القوافى ، محكمة الوزن ، مصقولة اللفظ ؛ وهو الضرب الذى تلقفه عنه بوب فزاده صقلاً وإحكاما ، وساد من بعدهما القرن الثامن عشر

توطدت دعائم الشعر وتميزت أشكاله فجاء دور النثر ، وهو داعماً متأخر عن الشعر فى الظهور ، ودعت الأحوال السياسية والاجتماعيـة التى سادت القرن الثامن عشر إلى احتفاء الأدباء والمثقفين بالنثر : فقد كانت النظم الدستورية قد استتبت ، والرأى العام قد تكون ، والطبقة الوسطى قد تعاظم شأنها ، والحركة العلمية قد نشطت بعد ما اقتبسته انجلترا من علوم أهل القارة ، والصحف قد انتشرت معتمدة على الرأى العام والطبقة الوسطى ، وقد قبر عهدُ المخاطرة والجهاد الذى تجلى فى حكم إليزابث وثورة المطهرين ، وألهب خيال الشعراء ، وجاء عهد الاصلاح والعمل الرزين فى الداخل والخارج

وفى أول ذلك القرن كان النثر الانجليزى حطاماً مبعثراً من الألفاظ المتنافرة والتعابير المتعثرة ، والأساليب العامية ، وزخارف اللفظ ، وبهارج المعنى ، والتقليدات الفاشلة للأسلوب اللاتينى المتطاول الجمل ؛ فما لبث دريدن وكاولى أن هذبا من حواشيه وقوّما من معوجه ، ونقياه من الغريب والسوقى ، فظهر النثر الانجليزى الحديث المعروف ببساطة ألفاظه ، ولطافة مأخذه ، وسلاسة تعابيره ؛ ثم تلاهما أديسون وستيل فوطدا دعائم « المقالة » فى الصحف التى تعاونا فى إصدارها ، فاذا المقالة شكل من أشكال الأدب جم المزايا . فهى تدور حول فكرة مفردة تكون وحدتها وتجمع حولها شتى الأفكار الثانوية ، وتتناول ما شاء الكاتب أن يدرسه من مسألة اجتماعيـة أو نقد أدبى أو حالة نفسية ، أو نظرة فى الفنون

ومن المقالة نمت بذور شكل آخر من أشكال النثر دعت إليـه طبيعة ذلك العصر : هو القصة التى تكونت من اجتماع عدد من المقالات تدور حول شخصيات معينة ، فما لبث الذوق العام أن استطرفها وكان قد مل الرواية التمثيلية ، فحلت القصة محلها فى تصوير المجتمع ودرس الأخلاق واستكناه دخائل النفس الانسانية ، وتوفر عليها من كبار الكتاب أمثال ريتشاردسن وجولد سميث ، وجين أوستن ، فأحكموا أوضاعها ، وهذبوا حوارها ووضحوا شخصياتها ، وأسلموها إلى القرن التالى شكلا من أشكال الأدب جم المزايا مبشراً بمستقبل حافل

وكأن النثر لم يقنع بهذا الضرب الخيـالى من التأليف ، وآثر أن يجعل من الحقيقة الواقعة مادة للفن كما جعل من القصص الخيـالى ، ويتخذ من الماضى مراداً له كما اتخذ من الحاضر ،

فالتفت إلى التاريخ ، وكان من قبل يدون باللاتينية أو بانجليزية ملتوية التراكيب مختلطة الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، فبعث فيه الروح الفنية التي شملت نواحي الأدب ونفخ فيه النزعة العلمية التي تمشت في سائر العلوم ، ولم ينصرم القرن إلا وقد ظهر أكبر أثر تاريخي في اللغة ، وهو كتاب جيبون عن الدولة الرومانية ، وإذا النثر الفني قد كسب شكلا جديداً هو التاريخ الفني للعصور أو الوقائع أو الأبطال

وهكذا صار الأدب الانجليزي أدباً رفيعاً متسع الجوانب متميز الأوضاع متعدد الأشكال ، مشتملاً على أرقى ما لدى الأمم الأخرى من الصور الأدبية ، يقدم لدارسيه ما يختارونه من أشكال الأدب ملاءماً لطبائعهم ، ولقرائه ما يؤثرونه موافقاً لأذواقهم ، وورث القرن التاسع عشر عن القرنين السابقين له تراثاً ضخما من أشكال المنظوم والمنثور وآثار الفحول فيهما ، فلم يكد يحس حاجة الى استحداث أشكال أخرى ، بل انصرف إلى استغلال ما بين يديه منها ، ولاءم بين بعضها وبين حاجاته ، وآثر بعضاً منها على بعض : فعالج وردزورث وتنيسون الشعر المرسل ، وعالج سوذي وموريس وهاردي الملحمة واختلفت حظوظهم من النجاح ، واستغل هازلت وتكري وماكولي المقالة في النقد الأدبي ، وعالج ماكولي وكارليل التاريخ . وهجرت الرواية التمثيلية الشعرية وحلت محلها أخرى نثرية أكثر التزاما للواقع وملاءمة لحاجة العصر ، وتعاظمت مكانة القصة الطويلة والصغيرة حتى فاقت ما عداها ، والتفتت إلى تصوير المجتمع الجديد القائم على الصناعة والمخترعات

أما تاريخ الأدب العربي منذ نهضته بقيام الاسلام وتوطد دولته ، ودخوله في طور الحضارة والثقافة ، فمغاير لهذا : فقد ورث عن الجاهلية لغة قوية غنية تبشر بمستقبل عظيم ، وشعراً رصيناً محكم الاوزان متعددها موطد الأركان ممهد الأساليب مؤذنا برقي إلى أبعد الغايات ، فاذا الأدب يجمد في أول الطريق ، ويجتزئ بماضيه عن مستقبله ، ويطوي زهاء خمسة قرون من عهود الحضارة والثقافة ، فلا يتفرع كما تفرع الأدب الانجليزي إلى أشكال متميزة ذات خصائص واضحة ، بل يظل كل من الشعر والنثر سديماً مشوشاً كما كان في أول بدئه ، وينبغ من فحول العربية أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن الرومي والمتنبي والمعري ، فلا يعنيهم غير تقيل السلف فيما درجوا عليه من مناهج القول ، ولا تتوطد على أيديهم أشكال جديدة للنظم والنثر ، ولا يؤدون للعربية الخدمات الجلى التي أداها للانجليزية أبناؤها

طوى الأدب العربي عصور ازدهاره وهو يضرب على نغمة واحدة في النظم وأخرى في النثر ؛ ففي النظم ظلت القصيدة المفردة القافية ، غير المحدودة الطول ، غير الموحدة الفكرة ، غير المعروفة العنوان ، هي الشكل الشعري الوحيد ، يصوغ فيه ابن القرن الخامس أفكاره كما صاغ الجاهلي أفكاره من قبل ؛ وفي النثر ظلت كتب الأدب المبهمة العناوين المشتجرة الفصول والفقرات المتباعدة المواضيع ، المختلطة النظم بالنثر ، والأدب بالدين ، والقصص بالنقد ، هي الضرب السائد منذ انتشرت الكتابة إلى أن خمد الأدب

وفي الشعر ابتكرت الموشحات ، فلم تكن غير زخارف من القوافي ينمقها الناظم كما شاء دون أن تكون أوضاع قوافيها معينة على إبراز المعاني ، ولم ينتشر استعمال تلك الموشحات واقتصرت على ضروب من الشعر الوجداني الضئيل الحظ من المعنى . قال ابن رشيق : « وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ، ويكثرون منها ، ولم أر متقدماً حاذقا صنع شيئاً منها لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه . . . وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم ومن ناسب طبعها من أهل الفراغ والرخص » ؛ وفي النثر ابتكرت المقامة فاذا هي أشد من الموشح احتفاء باللفظ ، وإذا هي لا تفوقه ذيوعا ونجاحا ، وحاكته عقما فلم ينتج عنها ابتكار جديد ، كما مهدت المقالة في الانجليزية السبيل مثلاً للقصة

فاذا بحثت في الأدب العربي عن أشكال أدبية متميزة متعددة لم تجدها ، وإنما ظل الأدب كما بدأ سديما مختلطا متشابها : ارتقت معانيه وتعددت أغراضه ورقت ديباجته ، ولكن جمد شكله فلم يتحول الى أشكال جديدة ، وظل النقاد لا يقسمون الأدب الى أكثر من نظم ونثر ثم يقفون ، ويفاضلون بين النظم والنثر مفاضلة ليس لها موضع ولا هناك مايسوغها ؛ فأن أرادوا التوسع فاضلوا بين الرجز والقصيد ، وقدموا شاعرا على شاعر لبراعته في الطوال أو في القطع ، وهي مفاضلات كذلك لا موضع لها ولا مبرر ، لأن هذه الأشياء متقدمة الذكر ليست بأشكال

للشعر متميز كلٌّ منها بخصائص فى الأسلوب أو فى الموضوع ، تجعل شكلا منها أصعب على الشاعر المعالج من شكل آخر أو أبعد متناولا

وإنما جنح بالأدب العربى الى هذه الحال من الجمود الشكلى التى لا يجد معها جديد ، ولا يحل طريف محل عتيق ، ولا يتسع أفق الأدب ولا تتشعب مناحيه ، عوامل تقدمت الاشارة اليها مراراً و كان لها أبعد الأثر فى تاريخ الأدب العربى ، بل كان لها فيه ضرر بليغ ، إذ باعدت بينه وبين أن يكون دائما تعبيرا حرا صحيحا عن شعور الفرد والمجتمع ، متطورا مع حاجات الأجيال وتجدُّد شؤون الحياة ، وتلك هى تغلب روح المحافظة على روح التجديد فيه ، واعتماده على تشجيع الملوك ، واعتزاله الآداب الأخرى ، واحتفاله باللفظ قبل المعنى

فلو عنى أدباء العربية بدراسة الآداب الأخرى حق العناية لاطلعوا على أشكال للأدب تستحق أن تنقل الى العربية فتكون باعثا على ابتكار غيرها . ولقد اهتدى الأدباء الانجليز فى كل ابتكاراتهم سالفة الذكر بهدى الأمم الأخرى : فالسونيت اقتبسوها عن بترارك ، والشعر المرسل أخذوه عن الدرامة الاغريقية ، والأود نقلت عن بندار ، والملحمة تأثر فيها ملتون أثر هوميروس وفرجيل ، والمقالة أوحت بها كتابات مونتين ؛ وليس يدين الأدب العربى بشىء من هذا لغيره من الآداب ، ولو فعل لجاء أرحب آفاقا وأوضح مناهج وأبرز أشكالا

استقل الأدب العربى بنفسه واعتزل غيره ، ولم يكن له من داخله حافز الى التجديد والابتكار : فأن نفس السبب الذى صده عن آداب الأمم الأخرى صدف به عن تجديد نفسه ، ذلك السبب هو اكبار المتقدمين وإجلال آثارهم إجلالاً لا مطمع معه الى تنكب طرائقهم أو الحيدة عن أساليبهم ، وغير هذه النزعة المحافظة كانت تسود الأدب الانجليزى : كانت روح التجديد متمكنة من سائر فحوله ، لا يمنعهم إعجابهم بمتقدميهم من الأعلام عن اختطاط غير طرقهم ، وبفضل هذه الروح المجددة كان الأثر المنقول عن الآداب الأجنبية لا ينشب أن تتمثله الانجليزية ويونع فيها ، ويؤتى ثمرا جديدا لم تحظ به الآداب المنقول عنها ؛ فالسونيت أصبحت فى الانجليزية ضربين : الشكسبيرى والملتونى ؛ والمقالة هذِّبت واستخدمت فى مقاصد لم تخطر لمونتين على بال ، وكانت أداة إصلاح اجتماعى نادر المثال ، وخرجت من غضونها القصة الاجتماعية

وولوع أدباء العربية بالألفاظ استغرق كل تفكيرهم واجتهادهم : ألهاهم احتيال الحيل فى تنسيق الألفاظ وإظهار البراعة فى استخدامها عن التفكير فى المعنى أو الشكل الأدبى الذى يصاغ فيه ، فابتكروا كثيراً فى البديع الذى يتعلق باللفظ ولم يبتكروا فيما يتعلق بالشكل الأدبى . ولما أراد شاعر مجيد كالمعرى أن يأتى بجديد فى القوافى لم يتجه إلى تحرير الشعر من بعض قيودها أو تذليلها لابراز المعنى على أحسن صورة ، بل زادها قيوداً فضاعف حروف الروى فى لزومياته ، لأنه كان يحس أنه يفعل ذلك دون أن يخرم التقاليد الأدبية المتخلفة عن الأقدمين ، ودون أن يتهمه متهم من النقاد كابن رشيق « بعجزه وقلة قوافيه وضيق عطنه »

واعتماد أدباء العربية على نوال الأدباء ، وترددهم على أبوابهم ، ومشاركتهم إياهم فى لذاتهم وترفهم أحياناً ، أو دوام طموحهم إلى تلك اللذات والنعمات ، وذهاب أيامهم بين مرارة الحرمان ونشوة اللذاذة ووخامة البَشم والُخمار ، كل ذلك لم يدع لهم وقتاً للتوفر على الأدب الصحيح والانصراف إلى الفن الرفيع ، ولم تقم أمامهم حاجة إلى الابتكار والتجديد ، إذ كان الأمراء قانعين أن يقال فيهم مثلُ ما قيل فيمن قبلهم من الملوك الفخام وكما قيل فى أولئك الملوك ، فكان حسب الشاعر أن يقتفى أثر من قبله ويحذق وسائله فى اقتناص معانى المديح

أما فحول الانجليزية فكان معظمهم بمنجى من هذه الحاجة الملحَّة ، وممتصم من حياة الفلاكة واللذاذة التى كان يحياها كثير من أدباء العربية ، وكان لهم بفضل كدِّهم فى سبل الحياة أو بفضل ما ورثوه من ثروة غنى عن سؤال الأمراء ، ومتسع من الوقت للاعتزال فى صومعة الفن الخالص من شوائب المادة ، بل كان منهم أفراد كوردزورث وشلى وتنيسون عاشوا فى رغد دون أن يعملوا فى حياتهم عملاً سوى أن يقرأوا ويكتبوا ما يسر نفوسهم ويرضى الفن وحده . ولا ريب أن أمثال هؤلاء أشد رغبة فى التجديد والاختراع ، وأقدر على القيام بالتجاريب الأدبية فى الأشكال والصيغ والمواضيع ، ممن يقضون العمر نظماً المدح والسؤال وترقُّباً للرضى والانعام . وقد فطن ابن رشيق فى عبارته السالفة إلى ضرورة اتساع الفراغ للتفنّن فى ضروب القول ،

البيــــان (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

لا وُجودَ للمقالة البيانية إلا فى المعانى التى اشتملت عليها يقيمها الكاتب على حدودٍ ويديرها على طريقة ، مصيباً بألفاظه مواقع الشعور ، مُثيراً بها مكامن الخيال ، آخذاً بوزن تاركاً بوزن لتأخذ النفسُ وتترك

ونقلُ حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر ، هو انتزاعُها من الحياة فى أسلوب وإظهارها للحياة فى أسلوب آخر يكون أوفى وأدقّ وأجملَ ، لوضعه كلّ شىء فى خاصّ معناه وكشفِه حقائق الدنيا كشفةً تحت ظاهرها الملتبِس . وتلك هى الصناعةُ الفنيةُ الكاملة : تستدركُ النقص فتتممه ، وتتناول السر فتعلنه ، وتلمس المقيَّد فتطلقه ، وتأخذ المطلق فتحدُّه ، وتكشف الجمالَ فتظهره ، وترفع الحياة درجةً فى المعنى ، وتجعلُ الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب ؛ ولكنه أداة فى يد القوة المصوِّرة لهذا الوجود ، تُصوِّر به شيئاً من أعمالها نوعا جيلاً من التصور . الحكمة الغامضة تُريدُه على التفسير ، تفسير الحقيقة ؛ والخطأ الظاهر يريده على التبيين ، تبيين الصواب ؛

(١) هذه القطعة الفنية الرائعة هى مقدمة كتاب (وحى القلم) ، ولاريب أن القراء سينعمون منه بأبلغ وأمتع ما أخرجته العربية فى هذا العهد .

والفوضى المائجةُ تسأله الاقرار ، إقرار التناسب ؛ وما وراء الحياة يتخذ من فكره صلة بالحياة ؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلةً نفسيةً لتعلو به أو تنزل . ومن ذلك لا يُخلق الملْهَم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية ، وله فى قلبه الرقيق مواضعُ للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانيةُ وتتساقط منها

وإذا اختير الكاتبُ لرسالة ما ، شعر بقوة تفرض نفسها عليه ، منها سِنادُ رأيه ، ومنها إقامة برهانه ، ومنها جمال ما يأتى به ؛ فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجود ، وله بها وجود آخر ؛ ومن ثمّ يصبح عالَماً بعناصره للخير أو الشر كما يُوجَّه ؛ ويلقى فيه مثلُ السر الذى يلقى فى الشجرة لاخراج ثمرها بعمل طبيعى يرى سهلاً كل السهل حين يتم ، ولكنه صعب أىُّ صعب حين يبدأ

هذه القوة هى التى تجعل اللفظة الواحدة فى ذهنه معنى تاماً ، وتحول الجملة الصغيرة الى قصة ، وتنقلب باللمحة السريعة الى كشف عن حقيقة ، وهى تخرجه من حكم أشياء ليحكم عليها ، وتدخله فى حكم أشياء غيرها لتحكم عليه ؛ وهى هى التى تميز لغته وأسلوبه لأنها تلتقط بمعانيها ألفاظها ، وما تعطيه هو إلا لتعطى الناس منه ، وكما خُلق الكونُ من الاشعاع تضع الاشعاعَ فى بيانه (١)

ولابد من البيان فى الطبائع الملْهمة ليتسع به التصرّف ، إذ الحقائق أسمى وأدقّ من أن تُعرف بيقين الحاسة أو تنحصر فى إدراكها . فلو حُدَّت الحقيقة لمابقيت حقيقة ، ولو تلبَّس الملائكةُ هذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثم فكثرةُ الصور البيانية الجميلة للحقيقة الجميلة ، هى كل ما يمكن من طريقة تعريفها للانسانية

وأىُّ بيان فى خُضرة الربيع عند الحيوان من أكِلِ العُشب إلا بيان الصورة الواحدة فى معدته ؟ غير أن صُوَرَ الربيع فى البيان الانسانى على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ويكاد الندى يُنضّرها كما ينضره

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى : كالايمان والجمال والحب والخير والحق — ستبقى محتاجة فى كل عصر

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التى صنع منها الكون

وإن يكن قد قرَنَ ذلك بذكر الرخص وأضافه الى البطالة والعبث

فالأدب الانجليزى ظل دائماً على صلة بالحياة وحقائقها ، يعينه على ذلك ما به من روح التجديد ، وما أخذ نفسه به من التزود من الآداب الأخرى ، وما تمتع به أقطابه من وقت قصروه على فنهم والحياة دائبة التحول والتجدد ، فلا ندحة للأدب إذا توثقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صوره وأزيائه .

أما الأدب العربى فباعد بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر ؛ فلا غرو أن جد فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن ، وتحول الأدب الانجليزى فى قرنين من أدب ناشئ مختلط الأوضاع إلى أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال **فخرى أبو السعود**

إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة

***

وفى الكتّاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتى ألفاظهم ومعانيهم فنًّا عقلياً غايته صحةُ الأداء وسلامةُ النَّسق ، ويندر البيان فى كلامهم فيكون كوخْزِ الخضرة فى الشجرة اليابسة هنا وهنا ؛ ولكن الفنّ البيانى يرتفع على ذلك بأن غايته قوةَ الأداء مع الصحة ، وسموُّ التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة ؛ أولئك فى الكتابة كالطير له جناح يجرى به ويدِفُّ ولا يطير ، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجرى ، ولو كتب الفريقان فى معنى واحد لرأيت المنطق فى أحد الأسلوبين يقول : أنا هنا فى معانٍ وألفاظ . والالهام فى الأسلوب الآخر يقول : أنا هنا فى جلال وجمال وصور وألوان

ودورةُ العبارة الفنية فى نفس الكاتب البيانى دورة خَلْق وتركيب ، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هى كأنها شبَّت فى نفسه شباباً ، وأقوى مما هى كأنما كسبت من روحه قوة ، وأدلّ مما هى كأنما زاد فيها بصناعته زيادة . فالكاتبُ العلميُّ تمر اللغة منه فى ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابع واضعيها ؛ ولكنها من الكاتب البيانى تمر فى مصنع وتخرج عليها طابعُه هو . أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية ، وهؤلاء علوْا بها إلى أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شىء إلا الفكر والنظر والحكم ؛ غير أنك مع ذى الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والاحساس والتأثر

وللكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين فى خلق الناس : فنى كل الوجوه تركيب تامٌّ تقوم به منفعةُ الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخَلق جمال الخَلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ؛ وهو لذلك يُرى ويؤثر ويُعشق

وربما عابوا السموّ الأدبىّ بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ؛ وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه مُحيِّر ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك

إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع ، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد ، وان لم يكن الكاتب البيانى فلا تنتظر الأدب

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

حب الشاعر

للأستاذ السيد محمد زيادة

يا حبها : أأنا مخلوق بك ومخلوق لك ؟ .. كيف ألقها وجمالها فى كل مشرق من مشارقه صورة ، وفى كل صورة معنى ، وفى كل معنى خلابة وفتنة ؟ ..

***

كنا على موعد أنا وهى ، وكان موعدنا بين الأصيل والغروب فى حديقة سميناها حديقة الحب ؛ تترامى أطرافها ، وتُرى فى مكانها من بعيد كأنها عاشق برّح به هواه فذهب إلى الخلاء يتفرج بالوحدة ، وتُرى من داخلها فى جوها الشعرى الغزلى كأنها جنة هيئت لعاشقَيْن

وتقوم بين أفنانها ربوة صاحية نائمة ... صاحية بنسيمها الرفاف المعطر ، ونائمة بمنظرها السكران الحالم ، وتظلل هذه الربوة شجرة لفاء وارفة تعانقت أغصانها فكان لها موقف الحب والشوق ... وهناك على هذه الربوة تحت هذه الشجرة كان الموعد .. والتقينا

وقبل أن يحين الملتقى بساعة كنت جالساً فى حجر الشجرة أرقب من خلال أوراقها احمرارِ الشمس بعد تمايل الأصيل ، وكان كل ما فى الحديقة من أشجارها وزهرها يترجرج ، كأنما كان للحديقة قلب ينتظر انتظار قلبى ...

وسرَب خيالى بين أنحاء الطبيعة فى أنحاء الفكر ؛ أما قلبى فكان معى ولم يكن معى !! . كنت أحس أنه معى يدق ويرتعش وهو مطمئن خائف ، وكنت أحس أنه بعيد عنى بعد حبيبتى وأنه قادم معها بعد فترة

ومرت على الدقائق ثقيلة محببة ، فكانت كل دقيقة تأتى بعد دقيقة كأنها أجل يمتد من أجل ...

***

وإنى لفى غِرقٍ وذهول فكر إذ رأيت الحديقة تهتز فجأة كأنما راعها رائع ... فتبينت فاذا بنسمة وردية تنفاق فى جو الحديقة نصفين وينفذ من بينهما صوت ملاك ... وتسمَّعتُ فاذا بها أغنية هى فن وسحر فن ، وسمعت صوت الملاك يردد :

يا حبيب القلب مالى   شغلتْ نجواك بالى

وأنصتُّ فاذا الصوت يقترب شيئاً فشيئاً ، وإذا الحديقة تبتسم شيئاً فشيئاً ، وإذا القلب يذوب شيئاً فشيئاً . . .

لقد جاءت الحسناء . . .

جاءت تترنم بهذه الترنيمة !! ومادت بى الربوة فلم أسمع إلا رعد فؤادى ، ولم أر إلا برق خيالى ؛ ثم انقشعت من فوق رأسى سحابة فنظرتُ فرأيت الحديقة ترقص ، ورأيت الحسناء قد وافت باسمة مغنية متثنية . وخيل إلىّ أن الأشجار كلها قد تجمعت وسارت جحفلاً لتحيى جمالها وتزف إلى الطبيعة فى قوامها غصناً خلقه الله ليحيا ، وأحياه ليظل سراً وتظل الطبيعة عاجزة عن معرفة هذا السر

***

ومدت إلىّ يدها وهى ضاحكة وقالت : كأنك تناديني من بعيد ؛ فهل أنت بعيد ؟

قلت : كانت روحى بعيدة شاردة ، وها قد رجعتْ لما سمعت صوتك . . . وأنا الآن أناديك منها

قالت : لعل روحك طويلة ، ولعلك تناديني من أولها . . .

قلت : بل أناديك من آخرها ، ولولا أنك أدركتنى فأدركت آخرها لضاع منى فى الانتظار كما ضاع أولها

ثم ضحكت وافتنّ مبسمها فى الضحك فقلت : كأنى بالحديقة كلها تضحك فى وردة إذ تضحكين

قالت : هذا رأى خيالك

قلت : ورأى عينىّ ورأى قلبى ورأى الحقيقة . . .

قالت : إذا كانت الحديقة تضحك كما تقول فلم لا أراها كما تراها ؟

قلت : لأنك لا ترين ثغرك الضاحك كما أراه

فضحك وجهها كله ، ويا للجمال فى ضحكة الوجه الجميل ! !

لقد رأيته يومض وميض قبلة دانية تمتنع ، ويشع شعاع قبلة ممنوعة تدنو ، فقلت : وها هى الدنيا كلها تضحك

قالت : لقد كبرتْ الحديقة فصارت فى خيالك دنيا . . .

قلت : لا ... بل تبسمت الدنيا من حول الحديقة لأن وجهك تبسم من حول ثغرك

فأطرقت إطراقة حنين وحب ، وترقرقت فى مفاتن حسنها معانى هواها فكانت فلسفة الجمال بين فلسفة العواطف ؛ ثم رفعت رأسها ونظرت إلى السماء فسبحت عيناها فى الشفق ، ثم عادت إلىّ من غيبتها وقالت : ما أرق قلب الطبيعة ، إنها الآن حانية ... ألا توحى إليك ؟ . .

قلت : لقد أوحى إلى بهذه الأبيات وأنت قادمة

قالت : ما أشوق نفسى الآن إلى الشعر

قلت : هذا هو شعر الحديقة :

صدْح البلابل فنٌّ من تغنيها ... ياسكرة اللحن لما مرَّ من فيها

البدر تفسير معنى من تلألئها ... والغصن تفسير معنى من تثنيها

كأنها آية قد ألبست جسداً ... يحار فى حسنها الرفاف رائيها

فى صـــوتها رنة لم يعطها ملك

تضنى قلوب الورى من حيث تشفيها

غنت فقال الهوى هذى مخلدتى ... هذى التى قدستنى فى أغانيها

***

فأسبلتْ أجفانها على نظرة صارخة ثم زفرتْ وقالت : آه منكم أيها الشعراء ! ! إنكم إذ تغوون لا ترشدون

قلت : وأين الني هنا ؟

قالت : فى لسانك ، من وراء شيطانك ، من وراء قلبك... لقد جعلت الشعر مصيدة . . . إنك محتال شريف ! !

قلت : إذا فما لشعرى لم يصد ؟

فسكتتْ هى وقالت عيناها : يا مُنكر الخير . . .

ثم سكتت عيناها وقالت هى : . . . ويحك

قلت : لو أنك رأيت كيف كان اللحن بين شفتيك وأنت مقبلة علىّ إقبال الدنيا على طريدها ، وكيف كانت شفتاك فى وجهك وكيف كان وجهك فوْق قوامك ، وكيفَ كان ميْد قوامك بين ميد الغصون ... لو أنك رأيتِ هذا لكنت الآن شاعرة ولما قلتِ فى وصف نفسك غير ما قلته ؛ . والله لكأن الفتنة ما خلقت إلا للمغنيات . . .

ونظرتُ اليها خُلسة فرأيت وجهها ساكناً يحتج على أنى أخطأت وعددت فتنته من فتنة غيره ، ثم رفعت بصرى لأخلس نظرة أخرى ، فصدمتْنى منها نظرة حزينة وقالت : أكل المغنيات جميلات لديك ؟ . . .

قلت : ومن غيرك جمعت بين جمال الجسم وجمال الصوت فى جمال ثالث هو انفرادها بالجمع بينهما ؟؟.. فاذا كنت لم أحسن التعبير فليكن عذرى أنى أحسنت القصد

ولكنها غضبت وطال منها الغضب ، وتراءت لى كأنها

تجادل قلبها فى صوابه لترده إلى صوابها ، ثم كأنها انتصرت وأمسكت قلبها بالحجة ؟.. ثم تبسمت فتهكمت ثم قالت : يخيل إلى أنك خلقت وفى قلبك أذن مرهفة للغناء فمشت لتهوى المغنيات ، وتجعل من كل منهن قصة حب ، وتفيد من كل منهن تجربة حب ، وتحسب كلا منهن أنها نهاية فلا تلبث حتى تراها بداية ؛ وجاء دورى عندك ... ولكن أى حب ؟ !

قلت : حب الشاعر الجاعل روحه نسمة فى جوك ، الباذل لك من قلبه كل البذل

قالت : كفى أن تقول حب الشاعر ليفهم سامعك أنه حب أيام أو أسابيع أو شهور ، وأنه كالزهرة لا تكاد تينع حتى تجتنى

قلت : لقد عكست الوضع يا آنستى ؛ فحب الشاعر غير حب الناس ، لا يكون له آخر كما يكون له أول ؛ وإنما هو الحب الذى يبدأ ليظل حيث يبدأ فيرتبط بأجل الشاعر ما طال أجله ثم يبقى بعده ما بقى ذكره . . . أفلا تعلمين أن الشعراء هم أشد أهل الوفاء تمسكا بالوفاء ، وأكثر أهل الحب صدقاً فى الحب ؟..

قالت : هذا من وهم الشعر والشعراء

قلت : أفلا تعرفين أنهم يشقون ليسعدوا غيرهم ؟ . .

قالت : وهذا من أكاذيب الشعر والشعراء

قلت : أفلا تعتقدين أنهم مخلدون ؟ . .

قالت : وهذا من أحلام الشعر والشعراء

قلت : إذن فما ذا تقولين فيهم ؟

قالت : أقول إنهم شواذ النـاس ، أما خلالهم فهى الخير والشر ، كلاهما يشق طريقه فى جوف الآخر ، وأما كلامهم فأجمل ما فيه أكذب ما فيـه ، وأما حياتهم فما منها غير تناقضها واضطرابها ، وليس لها أن تركن إلى حال مهما تكن الحال . . .

قلت : وحبهم إذا كان من قلوبهم ؟

قالت : أليس الشاعر كالطائر لا يطيب له عيشه إلا فى تنقله بين الأفنان والأدواح ؟ ثم أليس من طبيعة الشاعر أنه طماح لا تقنع نفسه إلا بسعيه وراء الجديد حيث يكون ؟ فهل مع هذا نصدق أن فى طوقه أن يحب فتنفرد لديه حبيبته ، ويحبس عليها قلبه ؟

قلت : وهذه الحرق التى فى كبـــدى منك ، ما هى وما مصيرها

قالت : هى الهوى الثاوى ومصيرها إلى غيرها من غيرى

ثم اضطجعت إلى ظهر المقعد تبتسم وتخفى ابتسامها كأنها شاعرة بنبيط فؤادى فقلت : وهذه الألفة التى بين روحى وروحك من أين جاءت إذا لم تكن بنت الحب ؟

فقطَّبتْ بعض جبينها الوضاح ، وظهرت لى كأنها تنكرنى وتتنكر لى ، فقلقت بهذا كبدى ثم قالت : هذه الألفة ؟... سل عنها قلبك . . .

أواه منها ! ! أواه منها ! ! ما كان أقساها

* * *

وسكتنا فترة وكلانا فى حاله ... هى فى دلالها تتأود وتهز ساقاً موضوعة فوق ساق ، وأنا فى حَنَق أتلوَّى وأضغط يداً مضمومة إلى يد ، ثم نظرتُ إليها ونظرتْ إلىَّ فقلت : هل تعلمين كيف أنت الآن فى قلبى ؟

قالت : لا إخالنى إلا ممقوتة مقت الحقيقة عند ما تكون مرة

قلت : بل محبوبة حب الدلال فى الجمال ... إنى أراك الآن فاتنة أخرى ممثلاً فى فتنتها عناد الفتنة ؛ فأنت فى عينى برق يثور على برق ؛ أما أنا فلست أنا . انظرى ... هل تَرينني كما كنت قبل دقائق إنساناً بحالة إنسان ؟

فسرَّحتْ طرفها فى هيكلى ، فاقتحمتْ نظراتها الى قلبى فذابت فى دمى وجرت فى عروق ، وكانت النظرات شيئاً حلواً فى شىء مر ... كانت رضا فى غضب ، وإغراء فى صد ، وليناً فى صلابة

ثم كفَّت الغادة بصرها وقالت : لو لم يكن غرامُ الشعراء غرامَ برهة من الدهر قد تطول وقد تقصر لما كان منزعاً مُخَلّى ، ولكان فيه أظهر ما فى الغرام ؛ ولكن من حكمة الله أنه يخلق فى كل شىء كامل شيئاً ناقصاً ليجعل الكمال فى الدنيا غاية لا تدرك

قلت : الشاعر يخلق موعوداً بحبيبة يتناهى إليها الجمال فى رأيه ، فيعيش ما يعيش هائماً على وجهه بين مراتع الغيد يفتش عن تلك الحبيبة المجهولة ، فتجنح به عيناه الى كثيرات يتخايلن له بتلك التى فى غيبه ...حتى إذا صادفها وعرضتْ له جمعته على حبها وأخرجته من طور الفكرة الشمئة الى طور الفكرة الملمومة ... وهأنت التى كانت فى غيبتى فأصبحتْ فى حياتى

قالت : لا أكاد أصدِّق هذا إلا لأكذِّبه ، فما يثبت عندى أننى أول من توافى وآخر من تحب

قلت : كيف لا وأنت قد أصبحت لى فى كل مالى ، فأنا لا أرى الجمال إلا فى جمالك أو فى خلال جمـالك ؟ . . إن خيالى

ليقف عند نهايتك فليس فيه مابعدك وليس فيه إلا أنت أو مايجىء عنك ...

يارب سبحانك ! ! يا فاتح الروح للروح ... يا هازم القلب بالقلب ... يا فاعل ما تريد ... يارب سبحانك ...

ماذا أقول ؟ ... يا حبها أجب ، فأنت السائل وأنت المجيب

إنى رأيتها تبكى ولكن بغير دموع ، وسمعتها تضج ولكن بغير صوت ، ثم بدت فى عينيها فترة كأنها سنة ، ورأيتها فى جلستها رخية كأنها نائمة ، وكانت حقاً نائمة نوم أحلام فى يقظة فكر

قلت : آه ما أجملك ! ...

قالت : وما أجمل شيطانك ...

ثم هزت رأسها هزة ضعف ، ثم سكتت فتركتها تسكت لأرى ما فى سكوتها من كلام حسنها ... فماذا رأيت ؟ رأيت وجهها يحمر ويحمر حتى يكاد يلتهب ، ثم رأيته يميل عنى ليخفى ما سفر عليه مما احتجب خلفه ، وأدركت ما بها فاستحييت أن أطيل النظر إلى شعاع السحر فى احمرار الخفر على محياها ، فأغمضت جفونى على حلم سكران فلم أرها ...

وسمعتها تتنهد ، وجاوبها قلبى فتنهد ، وفتحت عينى مخمورتين لأراها فاذا بجمالها ثائر فزع ... عينان مهمومتان ووجه مرتبك ثم رأيتها وخزت شفتها بسنها ، وقرصت إصبعاً بأصبعين ، ودقت برجلها على الأرض دقة وقالت : ما أضعف الانسان ! ! .

ثم تفترت وتندى جبينها وهدأت هدوء الفكر المستسلم فقلت : وما أقوى الحب ! !

(طنطا) السيد محمد زياده

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت

ذهب البكباشى ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء فى جزيرة كوبا إلى الولايات المتحدة بدعوة من السلطات . وبقى مساعداه كارول ولازار فى كوبا . أما كارول فطلب إلى لازار أن يسلط عليه بعوضة سبق أن شربت من دم مريض بالحمى ، ففعل ، ومرض كارول بالحمى ثم اشتفى . ثم وقعت بعوضة وبيئه اتفاقاً على ذراع لازار وهو يدور فى عنابر المرضى فرض بالحمى ومات

— ٤ —

وعاد ريد من الولايات إلى كوبا ، فرحب به كارول ترحيباً حارًّا . وحزن ريد للازار وفرح للتجربتين اللتين نجحتا فى إعطاء الحمى إلى كارول وإلى س . ص . وجفّفَ مدامعه على لازار ورأى فى القدر الذى وقع به يدَ الله التى لا غالب لها ، ولم يفته أن يرى فيه ظاهرة للعلم أيضاً . كتب ريد : « إن لازار قرصته بعوضة وهو فى عنابر الحمى الصفراء بالمستشفى ، فلا أقلّ من الاقرار بجواز أن هذه البعوضة تلوثت بالحمى الصفراء من مريض ، وإذن لحادث لازار وقع اعتباطاً ولكنه لم يضع سدى ... »

قال ريد : « والآن جاء دورى أنا لأذوّق البعوض دمى » . ولكنه كان بلغ الخمسين من عمره فأرادوا تخزيله فقال لهم : « ولكن لابد من البرهان » . وتُنصِتُ إلى صوته الموسيقى فتجده لطيفاً خافتاً . وتنظر إلى وجهه فلا تجد لذقنه هذا البروز الذى يكون للفتوّة والرجولة القوية . وتجمع هذا وهذا فتكاد تحسب أن ريد كان فى الذى قال متردداً هيّاباً . ووالله لو حسبت ذلك ما شانه ، وكيف يَشينه وهو واحد من ثلاثة مات أولهم من غير شك وَوُرِيَ التراب يقيناً

قال ذلك الصوت اللطيف الناعم : « ولكن لابد من برهان » . وقام رِيدُ صاحب هذا الصوت اللطيف الناعم إلى الجنرال ليونارد وُود Leonard wood ، وحمل إليه الأخبار كلها وما تضمنته من أحداث مؤثرة . وكان وُود أقل الرجال تخنثاً . فاستمع ماسمع حتى أَذِن لريد أن يفعل مايشاء وأن يذهب إلى أى حد شاء . وأعطاه مالاً ليقيم معسكراً من سبع خيام وبيتين صغيرين ، حتى قناة العَلَم أعطاه ثمنها . وأحسن من هذا كله أنه أعطاه مالاً يشترى به رجالا يقامرون فى تلك التجارب بأرواحهم فيسلكون بها سبيلاً تهلك فيها على الأقل نفسٌ من كل خمس فلا تعود الى الوجود لتستمتع بالثمن الذى دُفع فيها . فشكر ريد الجنرال ، وخرج عن كيمادوس حتى إذا بعد عنها ميلاً نصب على الأرض سبع خيام ، ونشر العلم الأمريكى فوقها ، وأسمى المعسكر معسكر لازار — ولْنهتف ثلاثاً لذكرى لازار . وستعرف بعد قليل أى أعمال مجيدة وقعت فى هذا المكان

ليس آكد فى الحقائق من الحقيقة الآتية : كل صائد من كِبار صُيّاد المكروب يختلف اختلافاً بيناً عن كل صائد آخر منهم ، ولكنهم جميعاً تجمعهم صفة واحدة : أنهم جميعاً مبتكرون ، إلا ريد . ولكنه لا يستأهل الشنق لأنه لم يبتكر ، لأن عذره حاضر ، فأمر البعوض والقُراد وغيره من ناقلات المكروب كان حديثا شائعا على ألسن البحاث فى عشر السنوات الأخيرة من القرن الماضى ، فلم يكن لريد مندوحة عن سماعه واقتباسه . وإن فاته الابتكار فى هذا ، فوالله ما فاته أن يسُود البحّاثَ جميعا بقوة خُلُقه . وإلى جانب هذا كان مجرّبا متقناً محسنا . ووسوس إليه خُلُقه الصلْب القويم : « لا بد من قتل الناس لخلاص الناس » ، فقام يرسم سلسلة من اختبارات مُحكَمة هى أسوأ ما ابتدعه رجل خَيِّرٌ من الجرائم

وكان ريد رجلاً يحب الاتقان والاحسان فى الأعمال ، فقضى بأن كل رجل يُراد قرصه ببعوضة يصير حبسه قبل قرصه أياماً وأسابيع فى هذا المعسكر تحت شمسه المحرقة حتى يكون بمعزل عن أى عدوى بالحمى الصفراء تأتى من غير هذه البعوضة ، فلا بد أن تكون التجارب مسدودة الثقوب محكمة لا يخرّ الماء منها . وأعلن ريد فى الجند الأمريكى أن الحرب لم تضع أوزارها بعد[1] ، وأن حرباً جديدة أعلنت لخلاص الانسان . وسأل هل فيكم متطوعون ؟ ولم يكد يجف مداد الاعلان حتى دخل

(١) يقصد الحرب بين الاسبانيين والولايات المتحدة التى قامت فى كوبا كما قدمنا . وكانت انتهت عندئذ

إليه فى مكتبه جنـدى يُدعى كيسنجر Kessenger من أُهَيُو Ohio (١) ، ودخل معه رجل آخر يُدعى جون موران John J. Moran ، وحتى هذا لم يكن جنديا بل كاتباً ملكيًّا يعمل فى مكتب الجنرال فِتز هيُولِى Fitzhugh Lee ، دخلا عليه مكتبه فقالا : « جئنا أيها السيد لتجرّب فينا » . وكان ريد رجلاً ظاهر الذمّة حىّ الضمير ، فسألهما هل أدركا كل الادراك ما أقدما عليه من المخاطر ، وأخبرهما خبر الصداع الذى يجيئهما ، والتهوّع الذى يأتيهما ، والقىء الأسود الذى يقيئان . وذكر لهما ما كان من وافدات جائحة لم تُبق من الرجال على رجل واحد ليعود فيحكى خبرها ويدُلّ على فظائعها

فأجاب الرجلان : « نعلم ذلك ، وإنما جئنا تطوّعاً واختياراً فى سبيل العلم والانسانية وحدها » . عندئذ أخبرهما ريد بما كان من كرم الجنرال وُدْ ، وذكر لهما أن من تعضه البعوضة سيكون له مائتا ريال قد تُزاد إلى ثلثمائة . فقال الرجلان : « نحن إنما تطوعنا على ألا نأخذ عن تطوّعنا أجراً » ، فانتفض ريد على قدميه ورفع يده بالسلام إلى قبعته ، وهو البكباشىّ ، وقال لهما : « أيها السيدان الكريمان ، لكما تحيتى ! »

وفى نفس هذا اليوم دخل الاثنان المحجر العسكرىّ ليتجهزا فيه ليصيرا بمثابة خنزيرين غينيين للتجريب على أحسن ما تكون الخنازير ، فلا تدخل إليهما لوثة ولا تتطرق إليهما ريبة . وفى الخامس من ديسمبر استضاف كيسنجر خمس بعوضات شربت من دمه حتى تروّت ، وكانت اثنتان منها قد شربتا منذ خمسة عشر يوماً وتسعة عشر يوماً من دم مرضى هلكوا بالحمى . ولم تمض عليه غير خمسة أيام حتى جاءه صداع يكاد يتصدّع رأسه ، ومضى يومان آخران فأخذ يصفرّ لونه ، وتعاقبت عليه أعراض المرض كما يجب أن تكون . ثم تعافى فحمد اللهَ ريدُ على هذا الشفاء

ثم جاء المجد يسعى إلى ريد وصاحبيه كارول وأجرمنتى . وإن يكن الدهر لم يسعفهم ، بمعنى أن الشبان الأمريكيين لم يزدحموا عليهم للتطوع ازدحاماً ويدوسوهم فى سبيله دوساً ويرموا بحياتهم رمياً فى سبيل العلم والانسانية ، فقد بعث الدهر إليهم رجالاً أسبانيين جاؤا كوبا حديثا من أسبانيا ، وكانوا غاية فى الجهالة ، وكان لهم مآرب فى المائتى ريال ؛ فتقدم خمسة من هؤلاء طمعاً فى المال . ولنسمّهم المهاجرين الأسبان ، أولعل الأوفق أن أسميهم بالأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ كما يسمى صيادو المكروب حيواناتهم التجريبية فيقولون الأرنب رقم ١ والأرنب رقم ٢ وهلم جرا . وعلى كل حال تقدم هؤلاء الخمسة ، فلما تهيأوا للقاء البعوض عضهم عضات هى أخطر فى المتوسط من رصاص البنادق ، واستحقوا المال الذى أخذوه ، فان أربعة منهم جاءتهم الحمى الصفراء على أبين ما تجىء وبأظهر ما تكون من الأعراض ، أو كما يقول بعض الأطباء إذا هم لبسوا جِلْد العلماء : « بأجمل ما تكون الأعراض » وهذا نصر مبين ! نصر لا يأتيه الشك من أىّ جهاته ؛ فان أحداً من هؤلاء الرجال لم يقترب يوماً من حيث يكون الوباء ، وأُخذوا فعوملوا معاملة الخنازير الغينية والفئران والأرانب التجريبية فحبسوا طويلاً فى كِيمادُوس فى خيمات مستورة لا يصنعون شيئاً ولا يرون أحداً ، ولم تحدث لهم أحداث إلاّ شكّات فى أجسادهم شكّتهم إياها إناث البعوض المقلّمة ظهورها بالفضة . وكان الضجر لا شك قاتلهم لو لا أنهم كانوا جهالاً مُغرقين فلم يكن بينهم وبين الحيوان فارق مبين

كتب رِيد إلى زوجته يقول : « افرحى معى يا حبيبتى ، فانك لو استثنيت لقاح الدفتريا وبشلة السل التى اكتشفها كوخ ، فهذا الكشف العلمى الذى وجدناه سيُروَى للأحفاد بأنه أكبر كشف حدث فى القرن التاسع عشر ... »

لم يكن ريد فى السبيل التى اتخذها مبتكراً ، ولكن دقته هذه بلغت حداً تنهض به إلى طبقة المبتكرين ، فهو لا شك مبتكر فى دقته ، وقد كان فى مقدوره أن يقف من بحثه عند هذا الحد ، بل لعلك مقسمٌ أن قد سوّلت له نفسه الوقوف عند هذا الحد ، ولِمَ لا وهؤلاء ثمانيةٌ جاءتهم الحمى من قرصات البعوض ؟

ألا أىّ حظ هذا الذى صحب ريدَ فلم يمت من رجاله الثمانية غير واحد ؟

على أن ريد لم يقف عند هذا الحد ، وأخذ يتساءل : « .... ولكن أيجوز أن تُنقل الحمى عن طريق غير البعوض ؟ »

واعتقد الناس أجمع أن ملابس الموتى من الحمى وأفرشتهم وكل ما عتلكون يحمل الموت فى طياته ، فأحرقوا من أجل ذلك من الأفرشة والملابس ما بلغت قيمته ملايين الدولارات . وارتأى هذا الرأى رئيس الأطباء ، وارتآه كل طبيب له اسم فى أمريكا شماليها وجنوبيها وأوسطها إلا الشيخ المخبول فِنْلى . وتشكك فيه ريد . وبينما هو فى سرور من نجاحه فى عدوى

---

(١) مدينة بالولايات المتحدة

كيسنجر والأسبانيين المهاجرين جاء النجارون فنصبوا بيتين صغيرين دميمين فى معسكر لازار . وكان البيت الأول أقبح البيتين ، طوله أربع عشرة قدما فى عشرين عرضا . وكان له بابان فى مدخله ، نُصِب أحدهما فى حذقٍ خلف الآخر حتى لا يُفلِتَ منه البعوض . وكان له نافذتان تطلان على الجنوب فُتِحا والباب فى حائط واحد حتى لا يجرى فى هواء البيت تيار . ووُضع فى البيت موقدٌ لطيف ليرفع حرارته بعيداً فوق الدرجة الثانية والثلاثين المئوية ، ووُضِع فيه براميل مليئة بالماء ليتشبع منه الهواء فيصبح بحرّه ومائه خانقاً كبطن سفينة بيعض مناطق الاستواء . وكان فى هذا كفاية لهذا البيت من كرب وضيق ، ولكن جاء الثالث عشر من نوفبر عام ١٩٠٠ فحمل جند إليه وهم يتصببون عرقاً عدداً من صناديق محكَمَة التسمير متَّهمة المنظر جاءت من عنابر الحمى الصفراء لتجعل من هذا البيت مثلاً يُضرب فى اللعنة والشؤم . . .

فلما أدبر نهار هذا اليوم وخيّم ليله شهد ريدُ وكارول مشهدا من خير مشاهد الشجاعة والتضحية ، فى هذا البيت اللعين الأول دخل دكتور أمريكى شاب يدعى كوك ، ودخل معه جنديان أمريكيان (ليت شعرى ماذا عوّق الناسَ فلم تنصب لهؤلاء الأبطال تماثيل الأبطال) يُدعَى أحدهم فوك Folk ويدعى الآخر جرنجان Jernegan

وفتح هؤلاء الرجال الثلاثة هذه الصناديق المحكمة المريبة داخل هذا البيت فى جو رطب متلزّج تضيق فيه الأنفاس

أف لها من رائحة كريهه ! ولعنوا وسبّوا وسدّوا أنوفهم واستمروا يفتحون الصناديق . فأخرجوا منها وسائد عليها القىء الأسود لقوم باتوا بالحمى . وأخرجوا منها مُلاءات أسرةٍ وألحفةٍ تلوثت بما يخرج من المريض إذا غاب حسه وهمدت قوته وضاع تحكّمه فى جسمه . وأخذوا يضربون الوسائد وينفضون الملاءات والألحفة ، فقد كان ريد قال لهم : « لابد أن تُعفّروا جو هذه الحجرة بالوباء وتنشروه جيداً بين أرجائها » . وقاموا يهيئون لأنفسهم من هذا المتاع فراشا على أسرة صغيرة من أسرة الجيش . وخلعوا ملابسهم ورقدوا على هذه الفُرُش القذرة وحاولوا النوم فى تلك الحجرة الملعونة . . . وأقام ريد وكارول على هذه الحجرة يحوطانها بالرعاية ويحاذران خشية أن تدخلها بعوضة تائهة . أما طعام فوك وكوك وجرنجان فلا تسل عنه فقد كان لا شك أطيب طعام

وتوالت الليالى وثلاثتهم فى هذا البيت راقدون ، ولعلهم كانوا يفكرون فيما صنع الله بأرواح من سبقوهم إلى هذه الملاءات وهذه الألحفة ، أو لعلكم كانوا يفكرون هل من سبيل غير البعوض تنتقل به الحمى . . . ثم جاء ريد ، وهو رجل يجمع إلى طهارة ذمته شدة دقته ؛ وجاء كارول ، وهو رجل كالح عبوس ؛ جاء كلاهما يزيدان تجربتهما إحكاماً على إحكام . فحملا معهما صناديق أخرى وردت من عنابر الحمى الصفراء ، فلما فضّها فوك وكوك وجرنجان فزعوا إلى خارج البيت عجزاً عن احتمالها ولكنهم عادوا ورقدوا ، وناموا . . .

وقضوا على هذا عشرين ليلة ! فأين ذكراهم لا تُخلَّد ، ولِمَ صنيعهم لَمْ يُمجد ! ثم نُقلوا وعُزِلوا وحدهم فى خيمة طلقة الهواء وانتظروا أن تأتيهم الحمى : ولكنها لم تأتهم ، وزادوا وزناً وصحّوا أجساماً وقرقموا بالنُّكات على البيت القذر الذى شرفوه ، وعلى ألحفته وملاءاته التى تلفعُوا بها فيه . ولما جاءتهم الأخبار بأن كيسنجر والاسبانيين أصابتهم الحمى ضحكوا ملء أشداقهم كتلاميذ المدارس أنْ تكون الحمى جاءت هذه الأجسام الكبيرة من عضة بعوضة صغيرة

قد يعجبك هذا البرهان إعجابا شديدا ، ولكن أى تجربة فظيعة تلك التى ساقت اليه ، على أنه لم يكف ريد فلم يَرْضه عِلْمه ولم تقتنع به لوثَتُه

فأعاد الكرة ، فأدخل إلى تلك الحجرة ثلاثة آخرين من شباب أمريكا ، وجاءهم بمُلاءات وألحفة جديدةِ القذرِ جديدة البَشَع وعلى هذه أنامهم عشرين ليلة ؛ وأراد أن يزيد فى رفاهيتهم فأنامهم فى نفس الأقمصة التى مات فيها الصابون

ثم عاد بعد ذلك فأدخل ثلاثة شبان أمريكيين آخرين فى نفس هذا البيت ، وأرقدهم فيه عشرين ليلة على نفس الأسلوب مع فرق بسيط زاد التجربة دقة : ذلك أن غطّى وسائدهم بفوَط أُشرِبت قبل ذلك من دماء رجال ماتوا بالحمى

ورغم كل هذا بقى كل هؤلاء الرجال التسعة أصحاء فلم تنالهم مَسّة ولو خفيفة من الحمى . قال ريد : « ما أعجب العلم ؟ » . وكتب : « إن الأسطورة الكاذبة التى تقول بأن الملابس تنقل الحمى الصفراء قد انفقأت كما تنفقئ فقاعة تخزُها بدبوس » . ولقد صدق ريد ، فما أعجب العلم حقا ! ولكن كذلك

بين عامين

أنا ونفسي . . . !

للأستاذ علي الطنطاوي

. . . كنت نائماً ولكن قلبي لم ينم ، بل كان يقظان يهزني لأفيق ، ويغريني بشتى الألاعيب يلوح لي بها ، ملفوفة بثياب الأحلام زاهية وكابية ، سارة ومحزنة ... فلا أحفل بها ، فلما ضاق بي ذرعا ، وضمني على حافة الهاوية ، ودفعني . . . فأفقت فزعاً . . .

فاذا العام على وشك الرحيل !

* * *

نظرت من النافذة فاذا كل شيء أراه نائم ؛ هذه النخلة التي تقوم حيال شباكي ، وقبة الأعظمية التي تبدو من ورائها في عظمة وجلال ، ودجلة التي تجري صامتة مهيبة ، والقمر الذي يغسل ماءها بشعاعه ...

وإذا على الطريق شبح يسير منهوكا !

* * *

على الطريق الذي لا يمتد في سهل ولا وعر ، ولا يسير على سفح جبل ، ولا شاطىء بحر ، ولا يسلك الصحراء ، ولا يخترق البساتين ... ولكنه يلف السهل والوعر ، والجبل والبحر ، والصحراء والبساتين وكل ما تحتويه ، ومن يكون فيها ..

على الطريق الطويل الذي يلوح كخط أبيض ، يغيب أوله في ظلام الأزل ، ويختفي آخره في ضباب الأبد ..

رأيت شبحاً يسير على .. طريق « الزمان » !

* * *

وسمعت صائحاً يصيح بالطبيعة : أن تيقظي ، إن العام يرحل الآن !

ففتحت النخلة عينيها ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت عشرات مثله تأتي وتذهب ، فلم تبدل شيئاً . . الفأس لا تزال باقية ، وهذا الوحش البشري لا يزال ينتظر ثمري ليسلبنيه ؛ ثم إذا قنط مني كافأني بالفأس والنار ... فمالي وللعام الراحل ؟

وأغمضت عينيها فنامت ، ولم تكترث !

ونظرت القبة ، فلما أبصرته قالت : قد رأيت مئات مثله تجيء وتروح ، لم تبدل شيئاً ؛ فهذا النخيل قائم حولي كما كان ، والشمس تطلع على كل يوم وتغيب ، والنجوم تسطع فوقي كل ليلة ، والأرض تنتظرني ، تريد أن أهرم فتجذب أحجاري إليها وتأكلني .. وكل شيء على حاله لم يتبدل إلا الانسان : كان الخليفة يغشى محتي ، ويخطر بين أساطيني في حلل المجد وأردية الجلال ؛ إن أمر أطاعت الدنيا ، وإن نادى لبي الدهر ، وإن مال مالت الأرض ؛ وكان الناس يطيفون بي أجلة أمجاداً ، عباداً أذلاء لله ، وملوكا أعزة على الناس .. فأصبحت وحيدة منعزلة ، لا أرى إلا هذه الفئات من العامة المساكين الذين تعروا من كل جاه إلا جاه العبادة ، ومجد إلا مجد الآخرة .. فمالي وللعام الراحل ؟ وأغمضت عينيها ، وعادت تحلم ، ولم تكترث !

وتنبهت دجلة ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت ألوفا مثله تمر في هذه الطريق فلم تعمل في الكون شيئاً ، ولم تغير إلا الانسان ؛ كانت تقوم على شاطئ القصور الفخمة ، تتوج هامها المظمة ، ويحل أرجاءها الجلال ، ويمثل في أبهائها المجد ، ويقف على بابها التاريخ ، يصدر عنها ، ويكتب حديثها ، وتبثق

ما أقساه ! وما أقسى صيادة المكروب ! فهي قد تنزع من الباحث قلبه . وأخذ شيطان ريد الباحث يوسوس اليه : «ولكن أصادقة حقاً تلك النتائج التي أدّت اليها تجاربك» ؟ نعم إن الحمى لم تأت أيا من هؤلاء الرجال الذين ناموا في هذا البيت ، ولكن ما أدرانا أنهم بطبيعتهم حصينون من الحمى ، فهي لا تأتيهم أبداً ؟ وكان ريد وكارول سألا فوك وجرنجان أمرا هو أقصى ما سأله ضابط جنديا فأجاباهما اليه ، ومع هذا فقد قام الاثنان من جديد فحقنا جرنجان بدم وبيء أشدّ الوباء جاءا به من دم مريض ، وقرصوا فوك ببعوض كان قرص مرضى ماتوا من الداء .

فأصيب جرنجان وفوك بآلام جسام . واحتقن وجهاهما ، واحمرت بالدم عيونهما ، ونزلا وادي الموت ولكنهما عبراه سالمين . فحمد ريد ربه ؛ حمده لخلاصهما ، ولكنه حمده على الأكثر لما تبيّن له أنهما لم يكونا حصينين من الحمى لما باتا في بيت الكرب عشرين ليلة

ووهبوا كلا من فوك وجرنجان عن صنيعهما ثلثمائة ريال ، وهو مبلغ لم يكن صغيراً في تلك الأيام

(يتبع) أحمد زكي

منها أشعة الحضارة والفن ، وتسطع منها أنوار العلم والأدب ، وتومض فى شرفاتها وأروقتها العمائم التى كانت على أشرف رؤوس وأحفلها بالفضائل والعلوم .. فلم يبق من هذا كله إلا أطلال ، يريدون أن يطمسوا اليوم آثارها ويُعفوا عليها بقبة . . . ولكن ذلك لن يدوم ؛ إن طريق الزمن لا يزال مسلوكا . . . ثم صمتت وعادت تجرى كما كانت تجرى ولم تكترث !

وأنصت القمر وأطل ينظر ، فلما رأى العام الراحل قال : لقد رأيت ملايين مثله ، وقد مللت مر السنين وكرّ العصور ، فالى وله ؟ وعاد يفيض نوره على الكون ولم يكترث !

وبقيت وحدى !

* * *

بقيت وحيداً .. فنظرت فى نفسى :

لقد صحبت سبعاً وعشرين قافلة من قوافل الزمان ... فهل اقتربت من آمالى ؟ هل دنوت من الغاية التى أسعى اليها فى سفرى ؟

ثم سألت نفسى : ما هى الغاية التى تسعين اليها ؟ أتسيرين الى غير ما نهاية ، كلما مرّ عام تعلقت به فسرت معه حتى يضيق بك عام من الأعوام فيقذف بك الى وادى الموت ؟ ألا تعلمين الى أين المسير ؟

ولم تكن النفس ترقب مثل هذا السؤال ، فاضطربت اضطراباً شديداً ، وكثرت فيها الآراء ، واشتد بين أعضائها الخلاف ، ثم انشقت انشقاقا ، وانقسمت أحزاباً ، وانتثرت نفوساً

* * *

قالت النفس الأولى : الغاية يا صاحبي واضحة ؛ إننا نسعى لخدمة هذا الجسم الذى نحمله ، نحيا لسدّ حاجاته ، وإجابة رغباته ، وإمتاعه بلذاته

قالت الثانية : خسئت أيتها « النفس الفاجرة ! » إننا لم نسخر من أجل هذا العنصر الأجنبى ؛ إن الجسم ليس منا

قالت الأولى : أفهو إذن من غيرنا ؟ وقهقهت ضاحكة

قالت : اسخرى من نفسك ، إنه لو كان منّا ، لما عشنا إلا فيه ولم نعش بعده ؛ إنه ثوب نلبسه ونخلعه ، أفيكون الثوب جزءاً من اللابس ؟

قالت الأولى : إننى لم أفهم فلسفتك ، أتزعمين أن يدى ورجلى ليستا منىّ ؟

قالت : نعم إن المرء لو قطعت يده أو رجله ، أو ذهب سمعه أو بصره ، لا تنقص نفسه شيئا ، بل لقد يكون الأعمى الأصمّ أكمل نفساً ، وأقوى عقلا ، وأسمى روحا ، من السميع البصير ؛ وإنك لتعلمين هذا ، ولكنك « نفس سوء » تريدين الاستمتاع بشهواتك ، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات !

قالت الأولى : فلم إذن نحيا يأيتها « النفس المفكرة ؟ »

قالت : نحيا لنكشف خبايا الوجود ، لنستطلع طلع الكائنات ، لنعرف نواميس الكون وأسرار الطبيعة . . . من أجل هذا نحيا

* * *

فانبرت لها نفسى الثالثة . . . فقالت :

— كنت أظنك عاقلة تفهمين وتعرفين ، فاذا أنت جاهلة . ويحك ! ما نحن والوجود ؟ مالنا وللطبيعة ؟ ماذا يعنينا أكانت المجرّة نهراً فى السماء ، أم كانت مجموعة من الكواكب ؟ وماذا ينفعنا أن يكون فى المريخ ناس ، أو يكون مقفراً لا ناس فيه ؟... مالنا ولهذا الفضول ؟

قالت الثانية : إنك « نفس شاعرة » تنكرين قيمة العلم

قالت : إن هذا العلم خسران لك يا حمقاء ! إنك كنت ترين فى الكسوف حادثاً غريباً مليئاً بالأسرار يبعث فيك عالماً من العواطف ، فلما علمت أنه حادث طبيعى : كوكب يقوم بحذاء كوكب ، ضاع معناه ، وانتفت أسراره ، ولم يعد يثير فيك عاطفة ، أو يهيج فيك حسا

قالت الثانية : وما قيمة العاطفة ؟ أتريدين أن ندع العلم من أجل عاطفة ؟

قالت الثالثة : لا . بل تعلمى ، ولكن تعلمى ما تحتاجين اليه ؛ العلم دواء يؤخذ بمقدار الحاجة ، ولكن الشعور غذاء لا يستغنى عنه ، فنحن نحيا لنرى الجمال ونستمتع به ، ونتذوّقه فى الطبيعة وفى الانسان وفى الفن ... من أجل هذا نحيا

* * *

فوثبت النفس الرابعة « النفس المؤمنة المطمئنة » فقالت : يا للسخف !

قالت الثالثة وقد غاظها ما قالت : أى سخف ترين من فضلك ؟ إذا كنا لا نرى الجمال فَلِمَ نحيا ؟

قالت الرابعة متهكمة : كأنك تحيين الآن ! إنك ياسيدتى سجينة فاسى لتتخلصى من قيود السجن ، ثم انطلقى فى فضاء

الحرية، فنيشى فى الحياة الأخرى: حياة الانطلاق

ورأيت المناقشة قد طالت وغدت مملة، وتشعبت فيها الآراء فأسكتهن ورجعت أفكر وحدى

***

قلت: إننى لا أدرى لماذا أحيا؟ ولا أعرف ما هى صلتى بالكون!

كنت أنظر إلى الدنيا من خلال الكتب، وأشرف عليها من نافذة المدرسة، فأراها صغيرة كقبضة الكف، فحسبت أنى إذا خرجت من المدرسة وحزت الشهادة قبضت عليها بيدى

وعشت بهذا الأمل، فلم أعرف حقيقة الحياة، ولم أعد لها العدّة، ولم أجد من يخبرنى خبرها إلا هؤلاء الأساتذة، وهم قوم مخادعون، لا يبصرون التلميذ بالدنيا كما هى فى ذاتها، بل كما يريدون هم أن تكون ...

وخرجت من المدرسة، وهبطت من سماء الخيال إلى أرض الحقيقة، فاذا الطريق مزروع بالشوك؛ فانطلقت أمشى وأجاهد بهمّة الشاب القوى الطموح، فما قطعت من الطريق إلا قليلاً حتى وجدت هذه (الطفيليات البشرية) تتعلق بكتفى وتستمسك بى، حتى إذا دنوت من أول منزل وهممت أن أستريح فيه وثبت فسبقتنى اليه، فسرت أجاهد وأتقدم أؤم منزلاً آخر، حتى هدنى التعب، ونال منى النصب، ولم أصل إلى شىء.

***

ولاح لى فجأة قصر عظيم على جانب الطريق، تلمع قبابه المغشاة بالذهب، وتشرق جدرانه المغطاة بالفضة، وتضىء نقوشه وزخارفه فى شعاع الشمس، ويقرأ على بابه بأحرف من النور: «هذا قصر اليأس» فراعنى مظهره، وهممت أن أحيد عن الطريق فأدخله، ولكنى نظرت اليه أولاً، فاذا هو موحش مظلم فى وسطه قبر مفتوح مملوء بالأساود والأفاعى ... وإذا هو خال من البشر، ليس فيه الا جماعة الشعراء البائسين، يعدّون قصائدهم لتدفن معهم فى هذا القبر الأسود فلا يدرى بها أحد ...

فوليت هاربا، وآثرت العودة الى مقارعة الشوك، وجهاد الحياة

عدت فقارعت وجاهدت، فلم أصل الى شىء ... فسألت نفسى: هل أيأس؟

***

سألتها وحدثتها، ولكنى جهرت بالحديث، فأيقظت النائمين ...

أطلت علىّ النخلة، فقالت: إلامَ تجاهد وتناضل؟ ماذا تريد أيها الرجل؟ ألا تقنع مثلى بأن تقف فى مكانك حتى يأتيك الموت؟

قلت: لا. إن لى غاية واحدة، هى أن أبقى دائماً أجاهد وأناضل!

فضحكت وقهقهت أوراقها، وعادت الى منامها

ومدت القبة رأسها فقالت: ألا تنام مثلى أيها الفتى وتحلم؟ لماذا تعدو فى طريق القبر؟ قلت: إنى أحب أن أصل الى القبر لأنى سأخرج منه الى الفضاء الواسع؛ سأخلع فيه ثوبى الجثمانى ثم أنطلق صُعُدا

فذهبت وهى تحدث نفسها: ينطلق صعداً؟ أنا هنا منذ ألف ومائة سنة ولم انطلق صعداً، ثم رجعت الى المنام

وقالت دجلة وقد صفّق لى ماؤها سروراً:

— امض أيها الغلام امض؛ إن طريقك طويل، ولكنك قوىّ؛ إنك لاتمشى الى القبر لتفنى، ولكن تدخل من باب القبر الى عالم الخلود، هأنا قد بلغت من العمر سبعمائة وخمسين ألف سنة، ولكنك قد ولدت بعقلك قبلى، وستعيش بروحك من بعدى ... انطلق ... انطلق الى حياة الخلود؛ إنك ستبقى بعد أن تموت الجبال، وتغرق البحار، ويختنق الهواء ... وتدفن الصحراء!

وأمّن القمر على كلامها، وأطلّ علىّ من النافذة فصافحنى بشعاعه وقال:

لقد صدقت! إنك تعيش الآن لتعد العدّة للحياة ... إنك ستحيا حقاً حين تنطلق من قيود الجسم

ثم صمت ... وصمت!

***

وكان العام يقطع اللحظة الأخيرة ... فصحت به:

أنا الذى يهتم بك أيها العام ... أنا الذى يودعك ويستقبل غيرك، لا النخلة ولا القبة ولا دجلة ولا القمر ... تلك للفناء، وأنا للبقاء... تلك تنتظر الموت، وأنا أنتظر الحياة ... أنا أمشى على هام السنين الى الحياة الأخرى!

(بغداد)

علي الطنطاوي

بَنانٌ على بِيان

« البيانو »

للشاعر العالم الراوية الأستاذ أحمد الزين

ضَربتْ على وَتَر الحنان   نفسى فداؤك من بنان (١)
وشــدَت بعاجٍ من أنا   مِلِها على عاجِ (البيانِ)
مرّت عليــــه مثلما   مرّت على القلب الأمانى
أو مثلما مرَّ الخيا   لُ يعيدُ لى ذكرى المغانى (٢)
وأفتن فى سـحر النُهى   شـدوُ الأنامل واللّسان
وهفا بلُبِّكَ فى أفا   نين الصبابة ساحران
رنّات ساحرةِ الغِنا   ءِ تجيبُ رنات المثانى
بثت إلى الأوتار من   حرِ الصـبابة ما تعانى
كم أودعت ألحانَها   فى الشوق من سحر المعانى
فتحِسُ أوتار « البيا   ن » وقلبها يتشاكيان
لم يعرف الحبَّ المبرِّ (م) حِ مثلُ أفئدة الغوانى
فلرُب حابســـةِ الدُّمو   ع ودمعها فى الصدر قانى
حبس الحياء بكاءها   فبكت بترجيع الأغانى
نشرت بصحيفة لحنها   رمزاً يدق عن البيان
رمزوا إلى ألحانهم   صوناً لها عن الامتهان
واللحن من سرِّ الملا   ئك غير مبتذل الصهان
وحى تنزَّلَ من سما   ءِ قريحـة ذات افتنان
تنسى الوقورَ وقاره   طرباً وتمضى بالجبان
وتخالُ بالأوتار نا   رَ الشوق تضرمها اليدان
لاقت أناملها (البيا   نَ) كما تلاقى عاشـقان
يتضاحكان من السرو   رِ وفى الأسى يتباكيان
فى نفحة أحسَنت من   طرب بها طرَب المكان
وتجاذَبا ذِكر الهوى   وحـليث أيام حِسانِ
وليالياً طابت وأث   مارُ المنى فيها دوانى
ومجالساً هبطت إلى الد   نيا بها عُليا الجنان
زَمن تولى صفوه   أيعود صفوك يازمانى
آناءُ لهوِ خلفت   حزناً عليها كل آن
لم أنسها ياصاحبىْ   وُدى ولـكن ذكّرانى
إنى ليُطربنى الحدي   ث وإن ملأت بها جنانى
زيدا فؤادى لوْعة   لا تطمعا أن تسليانى
من لم يذق ألم الحيا   ة قضى سِنيها وهو فانى

أحمد الزين

(١) البنان : الأصابع   (٢) المغانى : منازل الأحياء

هدى النفس

بقلم العوضى الوكيل

ياهُدَى النفس بعد طول ضَلالِ   لا تزالين لُمعَةً فى خيالى
أتملاكِ فى خيالىَ طَيفاً   بالغ السـحرِ ، عبقرىَّ الجمالِ
وكأنى أراك باسمـــــةَ الثغ   رِ تجيبين لوعتى واشـتغالى
نحن روحان عاشتا قبل هذا ال   ـكون ، فى عالم رفيع الجلال
ينكر الناس منهُ صورةَ ما تش   هدُ عين الهوى ، ولسنا نُبالى !

***

أنا هـذا الفتى المثـــالىُّ فى التصـ   ـر ، وأنت — الحياةَ — أسمى مِثال

العوضى الوكيل

الفنون

بيتر باول روبنز
PETER PAUL RUBENS
الفنان الخالد

للدكتور أحمد موسى

إذا قيس قدر الفنان بعمله، وفنه بحسن اختياره، ومجده بتراثه، فأنك تجد روبنز فى عصره إمام الفنانين، وحجة العارفين، لأنه الفنان الذى عاش لفنه، وشعر بالجمال فيما حوله، وبحث وراء المثل الأعلى فى كل ما صادفه. صور الجمال فأبدع، والطبيعة فأحسن، والحياة فأجاد. صور القصص التاريخيـة والدينية فأوضح، والشخصية فعرف؛ لا تجد فيما ترك مجالاً للنقد، ولا بين ما اختار موضعاً للزلل

هذا هو روبنز الذى ولد فى مدينة سيجن سـنة ١٥٧٧، وانتقل فى صحبة والديه وإخوته إلى كولونيا سنة ١٥٧٨ وبقى فيها إلى سن العاشرة ثم تركها إلى انتفرب سنة ١٥٨٨. تمتع بقسط وافر من التربية الراقية التى لم تكن دائماً متوفرة لغيره من الفنانين، ودان بكثير من درايته بالتاريخ العام والتاريخ الدينى إلى المدرسة الكاثوليكية بأنتفرب

شب روبنز مولعاً بمشاهد الطبيعة، موهوبا حدة النظر ودقة الملاحظة، له نظر سجل كل ما رآه؛ انجذب نحو الجمال، وتعطش الى الخلود، وهام بالكمال المطلق

لم ير روبنز المثل الأعلى بين الموجودات، ولكنه ظل فى خياله السامى، فعبر عنه جهد طاقته فى تراثه المجيد

استمد من الطبيعة مادة التعبير والتصوير، فاستطاع إظهار ما انطوت عليه عبقريته وما جال بخاطره. كان من هذه الناحية

ننشر تحت هذا العنوان ابتـداء من هذا العـدد مقالات فى تاريخ الفن العام وتراجم مصورة لعباقرته فى العصور المختلفة، يحررها الدكتور أحمد موسى خريج جامعة برلين

عبداً للطبيعة، ولكنه فاز فى النهاية بدرجة الوصول فكان سيدها، لأنه استمد منها مادته، ووصل بها إلى ما لم تصل هى اليه من تسام، إن قدر لنا أن نتأمله ونفهمه ونتأثر به، وصلنا نحن أيضاً بمشاعرنا إلى كمال الاستمتاع

كان أول معلميه للمناظر الطبيعية توبياس فيرهجت الذى وصل صيته إلى إيطاليا، كما كان آدم فان نورت معلمه لتصوير الأجسام والمناظر الشخصية؛ أما معلمه للفن والألوان فكان أوتو فان فين

لا حظ فيه معلموه نبوغا ظاهراً، فكانت دروسهم له أشبه بتعاريف أولية لأصول سير العمل، أما هو فقد نهج فى أقصر وقت منهجا سار عليه وعرفت روحه فيه، وظل بعده مائة عام يؤثر فى الفن الفلامنكى تأثيراً عميقاً إلى أقصى حد

شاءت المقادير لروبنز أن يسافر إلى إيطاليا سـنة ١٦٠٠، وشاءت المقادير أن يلحق بخدمة أحد أمرائها الذى كان من كبار عشاق الفنون الجميلة فى مدينة مانتوا، فشاهد روبنز لدى الأمير حيناً وبوساطته حيناً آخر أحسن ما أخرجته قرائح الفنانين الايطاليين وغير الايطاليين

لم يكن لروبنز إلا الانتقاد والتأمل، فكان فى حالة من البؤس النفسى شبيهة بحال الفيلسوف المتصوف؛ لم يقنع بما رآه، ولم ير شيئاً عده كاملاً؛ ولذا فقد عمل مكملاً، ووصل إلى ما صبت اليه نفسه، تلك النفس التى تميزت من نفوس المجموع بدقة التأمل وبالدرس وبقوة الملاحظة وبالتغلغل فى كنه المرئيات، وأخيراً بالقدرة اللانهائية على تفهم الجمال

وبقدر تفانيه فى التصوير كان عاشقاً لسماع الموسيقى ولعزفها، كأنه يقول إن مصدر الفنون واحد، وإن الفنان الكامل لابد له من دراية بالفنون الأخرى لزيادة الاستمتاع بما فى الحياة من

مكنونات لا يصل اليها إلاّ العارف

تراه أيضاً ألمّ بأصول الكيمياء لرغبته فى الوقوف على سر صناعة الألوان

سافر كثيرا ، وتأمل كثيرا ؛ لم يترك لحظة تمر دون النظر والدرس ، باحثاً عن الجمال أياً كان نوعه ، وحيثما كان وجوده .
كان لرحلته الى أسبانيا تأثير فى نفسه لم يقل من أثر رحلته الى ايطاليا التى استطاع أن يعرف الفن القديم والفن المعاصر أثناء إقامته بها

وتدل كراسات روبنز ومذكراته الخاصة على أنه كان كثير التدوين والتسجيل والنقل والاقتباس ، لا للتقليد بل للالمام ، شأن العالم الجهبذ ؛ فتراه ينقل قدماً لتمثال استماله ، وعيناً من صورة استهوته ، وذراعا ورأساً من أخرى ، فكان جباراً فى اختياره عنيفاً فى نقده

خَلَق روبنز فنا قائما بذاته ومدرسة عرفت باسمه ، بعد أن شاهد الكثير من أعمال فنانى إيطاليا ، وتأثر الى حد بعيد بمشيل انجلو وروفائيل وتيتسيان وكراتسى ، كما أن بعض لوحاته تمت بصلة الى جيليو رومانو الذى شاهد صوره عند ما أقام فى مانتوا

أشبع نفسه الفنية ، فمرج بعد عودته من إيطاليا على دراسة الألوان ودرسها درساً وافياً ، فكان له فى صوره لون أسمر قوى ، وظلّ أزرق رمادى عُرفا بعده باسمه

أقام فى بروكسل حيث تزوج من ازابلا برانت سنة ١٦٠٩ وبنى بيتاً خاصاً لاقامته كان متحفا لآيات الفن ومدرسة لتلامذته ، أمثال فان دايك ، وفان تولدن ، وكورن ، وأراسموس كويللينيوس ، وجان فان دِن هوك ، وتوماس فان ايبرن ، وساللارت ، وفوتز ودِل مونت ، وولفوت

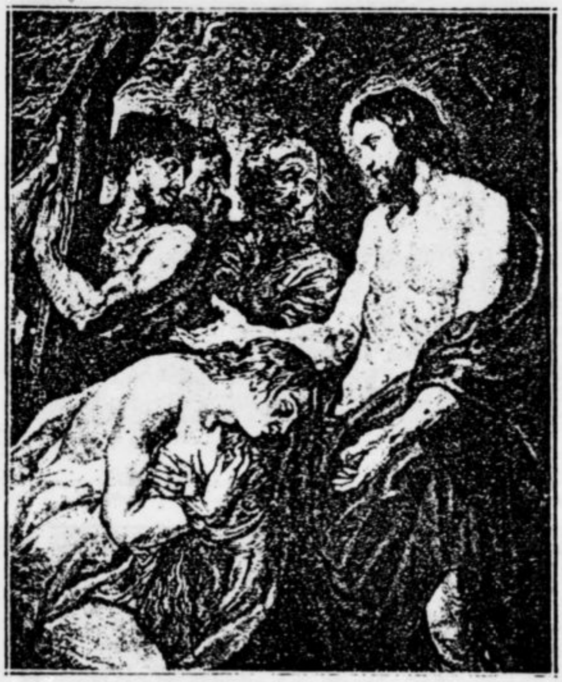
وكل هؤلاء كانوا خير معين له على إتمام أعماله ، فكان غالباً يضع التصميم والرسم التخطيطى ويترك لهم القيام بالتنفيذ تحت إشرافه ، كما أنه كان المخرج الأخير لكل صورة

على أن فان سيندر وباول دى فوس كانا قديرين الى حد أن سمح لهما بتصوير بعض الحيوانات فى مصوراته

أما لوكاس فان آدن وجان ويلدنز فكانا يصوران أجزاء على لوحاته الشاملة للمناظر الطبيعية ، كما كان جان بروجل يصور الزهور

ولا يُعدّ هذا نقصا فى مقدرة روبنز ولا تقصيرا منه ، لأنه كان فى ذلك أشبه بأستاذ يدير معهداً للأبحاث يساعده فيه تلامذته

والمجال لا يسمح هنا بوصف كل تراثه الخالد الذى بلغ ألفى قطعة من روائع الفن موزعة على متاحف العالم ، ولكننا نقتصر فقط على وصف ما جاء من صوره بهذا المقال



فالصورة الأولى (الخاطئون أمام المسيح) تمثل يسوع واقفا وحول رأسه هالة من نور ، أمامه امرأة خاطئة تقف منحنية بخشوع والدمع منهمر من عينيها تلتمس المغفرة عن الخطيئة ، وحولها ثلاثة رجال ظهرت على وجوههم علائم الندم والألم لما فرط منهم ، ولأنهم أمام رسـول الله الذى ينظر اليهم نظرة العطف والسمو

والصورة الثانية (إنزال الجسد من الصلب الى الأرض) تراها مجموعة رائعة من تسعة أشخاص لا تجد بينها واحدا خرج عن دائرة الاندماج وتكميل الشخصية الكاملة للصورة . انظر الى طريقة وقوف القديسات واشتراكهن فى حمله ، ولاحظ ما ارتسم على وجوههن من علائم الألم والحزن . أليس هذا الانشاء الكامل دليلا على قوة المعرفة بالقصص الدينية والعبقرية الفنية فى الاخراج ؟



وصورة مادونا القديس إلديفونسو تمثل العذراء جالسة على



عرش وفوق رأسها ملائكة ثلاثة فى هيئة أطفال بأجنحة يحملون الأزهار ، وحولها وقفت أربع قديسات ينظرن إلى القديس إلدفونسو وهو راكع أمامها ، وهى فى مجموعها تبين إلى حدٍّ بعيد نبل الاخراج وقوة التعبير . وإذا تأملنا وجوه هذه القديسات وملابسهن نراها تعطينا فكرة صحيحة عن ناحية القوة البنائية فى إنشاء روبنز



أما الصورة الرابعة (حكم الراعى باريس) فهى توضح لنا إلى أى حد وصل علم روبنز بالتاريخ القديم وبالقصص الاغريقى ؛ فباريس هذا كان شاباً وديعاً يرعى الغنم ، صادفه فى طريقه ثلاثة آلهة هن هيرا وأثينا وأفروديت فى هيئة نسوة غاية فى الجمال ، وسألنه أن يعطى التفاحة التى بيده إلى أجملهن منظراً . فأجاب باريس سائلاً ماذا يكون جزاؤه ؟

وعدته هيرا بأن تمنحه المُلك والغنى — وَأثينا بمنحه الحكمة والشهرة — وأفروديت بأجمل النساء على الأرض إطلاقاً ؛ تريث باريس وأخيراً أعطى تفاحته إلى أفروديت (راجع إلياذة هومير ٢٤ : ٢٨)

انظر إلى باريس وهو يمثل التريث والحيرة فى الاختيار ؛ ثم انظر الى كل واحدة منهن ثم إليهن جميعاً ، فكل واحدة أبرع من الأخرى جمالاً ، ثم لا تلبث أن يستافت نظرك ما فيها من قوة لا تزال إلى اليوم مطمح الفنانين

فكرّ قليلاً فى العصر الذى مثل فيه روبنز هذه القصة الاغريقية الخرافية ! أليس عجيباً أن يوفّق روبنز إلى هذا الحد الذى يدعو إلى الدهشة والاستغراب ؟ ألا تراه وُفّق كل التوفيق

فى تصوير هذه القصة الرائعة؟ أعطى تفاصيل الجسم كل عنايته، فكانت آية فى جمال التناسب وعظمة الانسجام. لا ترى للتكرار فيها أثراً. إن متحف مدريد يحسد حقاً على احتوائه هذه التحفة الفنية، ولعل الحرب الداخلية لا تكون سبباً فى أن يتسرب التلاف إليها كما تسرب إلى غيرها فى هذه الأيام بأسبانيا



وتمثل لوحته المثلة لاحد مواقف رواية أشيللوس تاتيوس فى القرن الخامس قبل المسيح والمسماة لوسيبوس وكليتو فون

من أروع وأبدع اللوحات



أنعم النظر إلى مظهر المرأتين المخطوفتين وإلى ما ظهر عليهما من علائم الوجل والتوسل، وكيف استطاع روبنز أن ينفث فيها من روحه وعبقريته، وتأمل كيف ينظر الحصانان إلى هذا الموقف الخطر كما لو كانا يتحفزان للهرب، ثم إلى قوة عضلات الرجلين الخاطفين

إن مجلداً ضخماً لا يكفى للكتابة عن روبنز الخالد، ولكنا مع هذا استطعنا أن نعرف بعض ما سجله تاريخ الفن له

دكتور أحمد موسى

القصص

البنتُ سرُّ أمها

« لثولتو دوجلاس » و « فوجان بيسكو »

ترجمة محمد عبد الفتاح محمد

مالت السيدة « بولا بار فيلد » فى مقعدها الوثير إلى الوراء فبان جيدها العاجى الأبيض ينم عن أنوثة ناضجة وفتنة ساحرة وأخذت ترنو إلى سقف الغرفة بعينين ساجيتين وقد عزبت عن بالها لفافة التبغ التى استوت بين أصابع يدها البضة الجميلة المستندة على ذراع المقعد

كانت تحلق فى أجواء الخيال تبحث عن حيلة تحوك خيوطها وهى التى قد بلغت السابعة والثلاثين من عمرها — ولم تجنح إلى تدبير الحيل واستنباط الوسائل . لأن وسامة محياها كانت أحبولة كافية لجر الغنم ونيل القصد . . إلاّ أن توالى الأعوام لم يدع من فتنة وجهها شركا يقوى على اصطياد الفرائس . . بل رأت أن شحذ الفكر وتدبير الحيل خير عون لها الآن على نيل ما تصبو إليه النفس وما يتمناه الفؤاد . . بعد أن ألْفَتْ أن نجاحها عن طريق لحاظها الفتاكة قد تعثر فى كثير من المواقف

كانت تقنع إبان حياتها المدرسية بالبنسات لشراء الحلوى راضية بعطف معلميها ومعلماتها . غير أن الثناء الذى كان ينصب على جمالها انصباباً والمديح الذى كان ينهال على فتنتها انهيالاً . حولا وجهها إلى أصدقائها الشبان فأنصتت لهم وهم يترغون بهزج الهوى فى أذنيها ويرتلون آية الحب على مسمعيها . . مالت إليهم بكليتها . وتقبلت منهم الهدايا على اختلاف صنوفها

ولتلك الخطة الزرية عثراتها وأخطاؤها . فما بلغت الثامنة عشرة من سنيها حتى تزوجت من رجل فقير أهاب بها قلبها القلبُ أنها تحبه وتهواه

وكان زوجها هذا رجلاً هادئ الطبع ، وديعاً جميلاً ، خاملاً مغموراً ، لا يهمه من دنياه سوى أن يملأ بطنه ليعيش . لذلك أخذت هى تدبر أمور الحياة لها وله ولابنتهما التى خرجت مبكرة إلى عالم الوجود بعد الزيجة بتسعة أهِلّة

ولم تحس بأى إحساس من الحزن عندما قضى بعلها نحبه بعد ثلاث سنين من زواجهما . بل انبسطت أساريرها ، وسُرت لزوال تلك العقبة الكؤود التى كانت تقف حائلاً بينها وبين آمالها وأمانيها

كذلك لم تكن بالمرأة التى ترى أن الشرف فى الحياة هو العمل على تحصيل القوت من سبله المشروعة ، بل كانت من النساء اللوانى يسلكن أى سبيل للوصول إلى الحياة الرغدة الهانئة ؛ ولا غضاضة فى أن تهب جسدها متعة لمن يشاء ما دام يجر عليها ذلك ما ترغب من أطايب العيش ولذائذه . ولذا عهدت بطفلتها إلى مرضع ، ثم إلى مربية ، ومن ثم إلى مدرسة داخلية ، وانبعت هى أهواءها وما تمليه عليها رغباتها ومطامعها . راحت تخبط فى ذلك العالم العابث الصاخب مع من يقع فى يدها من الرجال

ولما أتمت ابنتها الثانية عشرة ألحقتها بمدرسة خارجية ، ثم بأخرى ، ومضت لا تعنى بتتبع أخبارها ، ولا تهتم لترسم خطواتها ؛ فكان لهذا أبلغ الأثر فى إفساد الفتاة وإتلافها إلى أن بلغت الثامنة عشرة فبدت جميلة فاتنة . . . ففكرت أن تسلخها من دور العلم وأن تبقيها فى المنزل ، إلا أنها ألفتها منافساً خطراً وأليفاً ينقص من قيمتها فى سوق الجمال

ولا ننكر أنها كانت تنظر إلى ابنتها كمجرد طفلة ، ولكن عند ما تكون المرأة فى السابعة والثلاثين ، وترى نفسها تبدو كأنها فى السابعة والعشرين ، لا ترضى بأية حال أن تكون لها

ابنة حسناء فاتنة فى الثامنة عشرة

وكانت الابنة حقاً فاتنة ، ولم تكن تلك الحقيقة لتغيب عن المرأة ... غير أنها كانت تبدو دائماً دمثـة الأخلاق مهذبة ... ولم تبدر منها طوال حياتها أية بادرة تؤخذ عليها ، بل كانت تعامل أمها بما كانت تتلقنه من ضروب الأدب وحسن الأخلاق

* * *

وفتح الباب آنئـذ ودخلت الفتاة تقول لأمها فى صوت ثابت رزين مشوب باحترام شديد :

— لقد أفرغت حقيبتى يا أماه ... هل آخذ « بوجو » إلى الحديقة لنتنزه قليلا ؟

يا للجمال الرائع ! ويا للحسن الخلاب ! كانت طويلة القامة فى مهابة وجلال ، ناضجة الأنوثة ، مستكملة لـكل معانى الجاذبية وجابهت المرأة الحقيقة المرة ، وصدمتهـا الرؤيا الحقيقية القاسية ... روعتها تلك المنافسة الخطرة ... رأت من غير جهد جاذبية قوية وجمالاً باهراً ، فأحست بنيران الغيرة تضطرم بين ضلوعها ، وكرهت فيها ... فى ابنتها ذلك الجمال المغرى الذى أكسبه رداؤها المدرسى البسيط روعة وجلالا

ورنت إليها وأخذت تحدث نفسها قائلة : « إنها ساحرة ... تانك العينان الزرقاوان الصـافيتان ، وتلك الأهداب الوُطف الناعسة . لقد كنت وأنا فى مثل سنها أبدو كما تبـدو ، مغرية فاتنة ، بذلك الشعر الذهبى المتهدل فى إهمال حبيب على جبينهـا الأبيض المشرق ، وبهاتين الشفتين الحمراوين اللتين تغريان بالقبل . إنها بهذا الحسن الفتاك ، وبهذا الجمال الغلاب ، تبدو كاحدى ربات الجمال القديمات »

وأخذت كل من الأم وبنتها تنظر إلى الأخرى فى صمت وسكون ... فى حين كانت تنتاب المرأة شتى العوامل والأفـكار وهى تتفرس فى ابنتها البريئة .. الطاهرة .. والفاتنة أيضاً

وكانت الفتاة مازالت فى وقفتها تنتظر رد أمها على سـؤالها ولـكن تجاهلت المرأة ذلك وقالت كأنها تنتزع الـكلام من حلقها انتزاعا

— سوف لا تذهبين إلى المدرسة بعد الآن يا عزيزتى . فماذا اعتزمت أن تفعلى بنفسـك بعد ذلك ؟

— لست ... لست أدرى بالضبط ... وأظن أنه يجدر بى أن .. أن أبقى هنا بجوارك .. إنى أحب ذلك من قرارة نفسى . وعلى كل . سأتبع ما تشيرين به على

— أظنك سئمت المدرسة ؟ إذ قد تركتك فيها زمنا طويلاً

— لقد كنت جد سعيدة والله يا أماه ... وقد ارتبطت فيها بأواصر الصداقة مع كثيرات

ودق جرس التليفون ، فرفعت المرأة السماعة ، ثم قالت تحدث مخاطبها :

— أهذا أنت يا « فريدى ؟ » لقـد ظننت أنك لن تعود إلا فى الغد ! ... ماذا ؟ ... أجل ... سأكون على أهبة الاستعداد فى تمام السابعة لنتناول العشاء معا ... إلى اللقاء ياحبيبى ...

ثم وضعت السماعة مكانها وعادت الى مقعدها تفكر ، وغرقت فيه وهى لا تزال فى تفكيرها ؛ غير أنها بعد لحظة ضربت بيدها فجأة على ذراع المقعد ، ثم رنت الى ابنتها وهى تقو ل :

— تعالى واجلسى يا عزيزتى ... إن لى حديثاً معك

فجلست الفتاة قبالتها وتفرست فيها أمهـا فترة طويلة وهى صامتة ؛ ثم خرجت من صمتها أخيراً وأخذت تسرد عليهـا تاريخ حياتها فى شىء من الاسهاب ... مالت إلى الخلف فى مقعدها وقصت عليها تلك الأسباب التى دفعت بها الى هـذه الطريق الوعرة التى تنساب فيها ، وتلك الحياة الشائكة التى تحياها

وعندما انتهت من قصتهـا خيم على الغرفة صمت رهيب أطرقت أثناءه الابنـة وأخذت تنظر الى الفُرُش الثمينـة التى ازادنت بها أرض الغرفة

غير أن الأم استأنفت تقول :

— وهأنت ترينى وقد بلغت السابعة والثلاثين من عمرى ، فإذا كنت ترغبين فى حياة رغدة هانئـة فدعينى أشق لنفسى الطريق التى أراها أجدى لنا وأنفع

فرفعت الفتاة رأسها فى سرعة وقد شع من عينيها الزرقاوين بريق غريب لم تستطع الام أن تدرك معناه

فترددت المرأة طويلاً قبل أن تتابع الحديث . وساءلت نفسـها . . ترى هل أدركت ابنتها معنى ما قصته عليها . . إنها تجلس أمامها هادئة رزينة ، فى تأدب واحترام كطالبة صـغيرة ساذجة واستطردت قائلة :

— والآن ، هل فهمت ما أرى إليه ؟ وهل تفقهين ما أبغى

إذا قلت لك إنه يتحتم عليك الخروج من الميدان ردحاً من الزمن؟ فهناك رجل جديد . رجل غنى واسع الثراء . . . وإنى أحوك حوله شباكى هذه المرة . لا لشيء سوى أن أقترن به . إنى أعمل يا إبنتى كى أوفر لك، ولى أيضاً أسباب السعادة والهناءة . وسوف يأتى هنا هذا المساء . فيجب ألا تظهرى أمامه ... وليس ذلك لأنك تظهرين حقيقة عمرى فحسب ، بل لأنى أيضاً لا أستطيع الثبات بجمالى أمام سحرك ؛ ليس هناك من الرجال من يقوى على رؤيتنا معاً — أنا وأنت — فى غرفة واحدة دون أن يفتنه حسنك

فهبت الفتاة واقفة بغتة وهى تقول صارخة :

— أمى ! !

واختفت دلائل الطهارة والبراءة والأدب الجم والحياء الشديد ، اختفت كل تلك الدلائل وحل محلها بريق غريب فى العينين الزرقاوين . تبدلت بضحكة ثائرة صاخبة تحشرجت فى حنجرتها المتهدجة الحنون

وألقت بنفسها على حجر أمها ثم طوقت عنقها بذراعيها واستطردت تقول :

— أمى ... أمى العزيزة .. كم .. كم أنا سعيدة ! كم أنا فرحة هانئة ؛ إنك طيبة القلب جداً ؛ لطالما أعجبت بك إعجاباً شديداً ؛ إنك حياتى يا أمى ؛ إنى أحبك حباً هائلاً ؛ وسأكون لك أكبر عون على نجاح خطتك ... هيا أعطينى « شلنين » لأذهب الى « السينما » ؛ وسأبقى خارج الدار حتى يرحل عنها رَجُـلك . . ومن ثم ننظر فى باقى الأمر عندما يسفر الصبح . . ويا حبذا لو أمكنك بسلاح جمالك وقوة سحرك أن تجعليه يهبنى سيارة صغيرة ذات مقعدين ... سيارة سباق زرقاء بجوانب حمراء . . يا لسعادتنا ! يا لطالعنا المجدود !

فلهثت الأم وهى تقول :

— ابنتى ! !

فقالت الفتاة المصرية الساحرة :

— ماذا علينا لو فعلنا ذلك ما دمنا نود رغد العيش ؟ . يا تُرى هل سنشرب « الجن »[1] و « الفيرموت » الايطالى ! ؟

محمد عبد الفتاح محمد
بالمساحة والمناجم

(١) « الجن » و « الفيرموت » الايطالى نوعان من الخمور

البريد الأدبي

العيد المئوى لمعهد مصرى جليل

كان الاحتفال بالعيد المئوى للمدرسة الخديوية حادثاً فريداً فى تاريخ مصر الثقافى والاجتماعى، فقد انقضت مائة عام كاملة منذ قام هذا المعهد الجليل ليعنى بالثقافة الاعدادية أو الثانوية؛ وكان قيامه فى سنة ١٨٣٦ فى أبى زعبل مكان مدرسة الطب القديمة، ثم ألحق بعد ذلك بمدرسة الألسن الشهيرة التى كان مقرها مكان فندق شبرد الحالى، والتى كان مديرها العلامة الشهير رفاعة رافع بك الطهطاوى؛ ثم أعيد بعد ذلك إلى أبى زعبل، ثم إلى بولاق، ثم إلى العباسية؛ واستقر أخيراً فى بنائه الحالى بسراى فاضل باشا بدرب الجماميز منذ سنة ١٨٨٨، أعنى منذ ثمانية وأربعين عاما، وأطلق على المعهد اسم «المدرسة التجهيزية» إشارة إلى مهمتها فى إعداد الطلبة للالتحاق بالمدارس العالية أو الخصوصية كما كانت تسمى فى ذلك الوقت؛ ثم أطلق عليها اسم المدرسة الخديوية أيام اسماعيل باشا، وكان التعليم فيها داخليا مجانياً حتى أواخر القرن الماضى

وقد أنجبت المدرسة الخديوية خلال عمرها الطويل الحافل ثبتاً باهراً من العلماء والعظماء والزعماء فى كل ضرب وفن، وزودت مصر الحديثة بمئات من أبنائها البررة الذين عملوا على تقدمها، وشادوا نهضتها الحديثة، وقادوها فى مختلف نواحى حياتها العامة، وسهروا على مصايرها وتسديد خطاها طوال هذه الحقبة المليئة بالحوادث والخطوب من تاريخها. والمقام أضيق من أن يتسع لتعداد هذا الثبت الباهر؛ ويكفى أن نذكر أن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا زعيم مصر المستقلة هو من خريجى هذا المعهد الجليل، وأن أكابر رجال الدولة الآخرين الذين شهدوا الاحتفال بصفة رسمية كرئيس مجلس الشيوخ، ورئيس مجلس النواب، ووزير المعارف كلهم من خريجيه، وأن منهم أعلاما ساطعة كأميرى الشعر الحديث صبرى باشا وشوقى بك، وإمام الوطنية المصرية الشاب مصطفى باشا كامل

وكان الاحتفال بالغ الروعة والجلال؛ وقد بدئ فى اليوم الأول، وهو يوم الاثنين الماضى بإقامة حفلة رياضية شائقة فى النادى الأهلى اشترك فى مباراتها كبار الرياضيين القدماء من خريجى الخديوية؛ وكان منظراً شائقاً مؤثراً أن ترى أولئك الكهول الذين شابت نواصيهم وصلعت رؤوسهم يرتدون ثياب اللعب القديمة فرحين جذلين، ويلعبون متأثرين متحمسين؛ ثم أقيمت فى المساء بدار الأوبرا الملكية حفلة تمثيلية موسيقية؛ وفى اليوم التالى أقيم الاحتفال الرسمى الكبير فى سرادق فخم رحيب نُصب فى فناء المعهد القديم، واحتشد فيه آلاف من خريجى الخديوية، وانتظموا جماعات يجمع بينها عهد التخرج؛ وكان لقاء الخريجين بعد هذا البعاد الطويل مؤثراً، وكان بعضهم يعانق بعضا فى مظاهر من الحنان الشجى، وألقيت فى الاحتفال خطب رنانة، اشترك فى إلقائها وزير المعارف، ورئيس الوزراء، ورئيس مجلس الشيوخ، وناظر المدرسة الحالى، وبعض الخريجين

وبعد أن قام مندوب جلالة الملك بوضع الحجر الأساسى بفناء المعهد الجديد اختتم الاحتفال بمنظر بالغ فى الطرافة والروعة، إذ هرع المدعوون جميعا وفى مقدمتهم مندوب جلالة الملك والوزراء والعظماء والخريجون على اختلاف أعمارهم ومراتبهم الى قاعات طعام معهدهم القديم، وجلسوا جميعا يتناولون الشاى والفطائر على موائدهم الخشبية القديمة عارية كما عرفوها أيام الدرس، فكان لذلك منظر مرح مؤثر معاً

بول بورجيه بالعربية

ظهرت أخيراً ترجمة عربية لأثر من الآثار الغربية الخالدة هو قصة «التلميذ» Le Disciple بقلم بول بورجيه الكاتب الفرنسى الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية؛ أخرجها بالعربية

الأستاذ عبد المجيد نافع المحامى . وقد ظهرت هذه القصة لأول مرة فى سنة ١٨٩٢ ، وبورجيه يومئذ فى عنفوان شبابه ، فنالت نجاحاً عظيما ، وحملته إلى الطليعة بين كتاب العصر ، ومهدت لدخوله بعد ذلك بعامين فى الأكادمية الفرنسية وانتظامه فى سلك الخالدين . ويعتبرها البعض أعظم قصصه ، وأمتنها أسلوبا ، وأوفرها افتنانا . أما الترجمة العربية فهى متينة بليغة تشهد لمترجمها بما بذل فى سبيلها من جهد شاق يقدره على الأخص أولئك الذين يقرأون بورجيه بالفرنسية ويعرفون روعة أسلوبه ، ودقة بيانه ، وقوة تعبيره

وقد توفى بورجيه منذ نحو عام فى الثانية والثمانين من عمره بعد أن غمر الأدب الفرنسى بفيض رائع من شعره وقصصه ومسرحياته وآثاره النقدية

وظهور مثل هذه الآثار الخالدة من الأدب الغربى مترجمة بأقلام رصينة بارعة كقلم الأستاذ نافع مما يبعث إلى الغبطة ، ويدفع بالترجمة إلى غايتها المقصودة ، ويرتفع بالتراث المترجم إلى المستوى الرفيع الذى نرجوه غذاء للعقلية المصرية الفتية فى عصر النهضة والاستقلال

معهد ألمانى جديد للتمثيل

يفتتح فى يناير الحالى معهد جديد للتمثيل فى مدينة ميونيخ (منشن) عاصمة بافاريا (بألمانيا) ، وسيكون برنامجه شاملا لدراسة فن التمثيل ذاته ، وفن الزخرفة والاخراج ، وتنظيم الأزياء والمناظر ، وتاريخ المسرح ، ومدة الدراسة فيه سنتان . والجديد فى هذا المسرح هو أن أساتذته سيختارون جيماً من بين الشباب . ولميونيخ شهرة خاصة بفنها المسرحى ، وبها مسرح تاريخى قديم تمثل فيه أرقى الروايات الألمانية يقع إلى جانب القصر الملكى القديم ؛ وفى كل عام ينظم فيها مسرح عظيم فى العراء يشهده الألوف

مجموعة شعرية عن الريف المصرى

صدرت أخيراً بالفرنسية مجموعة شعرية عن الريف المصرى بعنوان : « فى الجنوب تحت السماء الحارة » A Midi, sous Le Ciel Torride ؛ بقلم السيدة نيللى فوشيه زنانيرى ؛ والسيدة نيللى مصرية المولد والنشأة والوطن ، ومن الشخصيات المعروفة فى الأوساط الاجتماعية المصرية الأوربية ؛ وهى كاتبة وشاعرة قديرة تعبر عن خواطرها باللغة الفرنسية ، وعضو فى نادى القلم المصرى . وقد أصدرت من قبل مجموعتين شعريتين أخريين ؛ ومجموعتها الجديدة تحتوى على خمس وعشرين قصيدة كلها وصف وتصوير للمناظر الطبيعية المصرية والريف المصرى بشمسه الوضاءة وفلواته الشاسعة ، ورماله وضبابه ورذاذه المنعش ؛ وهذه القطع الشعرية تفيض قوة ورقة ، كما أنها تفيض موسيقى . ذلك أن الخيال الذى أخرجها قد صاغته الطبيعة المصرية ، ونما وترعرع فى ظلها ، فهو يحسن لذلك التعبير عنها وعن مؤثراتها . وقد زينت هذه المجموعة الشعرية بعدة صور فنية بديعة

المدينة الخالدة ومجتمع المستقبل

منذ نصف قرن أصدر الكاتب الأمريكى ادوارد بلامى كتابه أو قصته عن الحروب الجوية ، وعنوانها « نظرة إلى الوراء من سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ١٨٨٧ » فيها تخيل أن الحرب قد انتقلت من الأرض إلى الجو ، وأن معارك جوية ستنشب فى السماء كما تنشب المعارك بين الجيوش البرية ؛ وقد أيدت الحوادث خيال الكاتب ، فلم تجئ الحرب الكبرى حتى كانت أساطيل من الطيارات تملأ الجو ، وحتى كانت المعارك الحامية تنشب فى الهواء

وقد صدرت أخيراً بالألمانية قصة جديدة من هذا النوع فى تصور المستقبل ؛ وهى ليست قصة عسكرية كقصة بلامى ، بل قصة اجتماعية عنوانها « المدينة الخالدة » Die Unsterpleche Stadt ، بقلم الكاتب النمسوى الكبير البارون فون ليفنتال ؛ والمدينة الخالدة هى مدينة فينا عاصمة النمسا ؛ ويصور لنا الكاتب فى قصته ماذا سيكون عليه المجتمع النمسوى سنة ٢٠٠٠ ، وهو يتوقع أن يكون النظام السائد يومئذ هو نظام النقابات ؛ ويتوقع أن ينعم المجتمع بكثير من الرخاء والرفاهة ، وأن يحتفظ المجتمع النمسوى خلال هذه الحقبة دائماً بميوله المرحة ، وتفاؤله رغم كل الظروف والمحن ؛ وقصة البارون ليفنتال تفيض وطنية وحماسة ، وقد استقبلت فى النمسا استقبالا عظيما ، وذاعت ذيوعاً كبيراً ، وهى اليوم كتاب الموسم فى العاصمة النمسوية ؛ وتعتبر فى نظر النقدة أصدق صورة للروح النمسوية والمواطف الفنية التى تجنح فى مجموعها إلى المرح والدعابة والترويح عن النفس ، واستقبال الحياة دائماً بالابتسام والرضى

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء – الجزء الثانى [1]

للدكتور عبد الوهاب عزام

أفتتح هذا المقال بكلمتين : الأولى أن الدكتور الفاضل أحمد فريد الرفاعى مشكور على ما يبذل من جهد فى نشر الآداب العربية ، معترَف له بالهمة العالية . وليس يذهب بجهده ، ولا يحط من همته ، أن تقع فى الكتب التى ينشرها أغلاط ، ولكن يشين الأدباءَ جميعاً ألاّ يُبيَّن له الغلط ليبتغى الوسيلة إلى تجنبه

والكلمة الثانية أوجهها إلى أستاذى الجليل الشيخ عبد الخالق عمر الذى أعترف كل حين بفضله ، وأنطوى ما حييت على حبّه ؛ فقد شرعت أنقد الكتاب وليس أمامى إلا الناشر ومن ورائه وزارة المعارف . ولما تبينت أن لأستاذى الفاضل شركة فى العمل لم أعدّ هذا النقد موجّهاً إليه ، ولا حسبت هذه الأغلاط مأخوذة عليه ، لأن هذا العمل على اضطرابه لا يمكّن أستاذنا من الاشراف على التصحيح ، والتصرف فى الأمر على قدر علمه الواسع وبحثه الدقيق . ولو وكل الأمر إليه ما وقعت فى الكتاب هذه المآخذ .

ثم أمضى فى نقد الجزء الثانى (أو القسم الثانى من الجزء الأول فى تجزئة ياقوت) متجاوزاً عن بقية مآخذ الجزء الأول ، بادئاً بأغلاط المتن فمثنّياً بمآخذ التعليق . وأذكّر القارىء بما قلته فى مقالى الأول أن هذا النقد نقد تمثيل لا استقصاء ، وأنى لا أثبت إلا الغلط الذى أدركه بالنظرة الأولى ، تاركاً إلى حين الجمل التى يحتاج تصويبها إلى مراجعة وبحث

ص ١٠ أبيات أولها :

فان تسأليني كيف أنت فاننى   تنكرت دهرى والمعاهد والصَّبِرَا

وسائر الأبيات على روى الباء المطلقة ، مثل عزبا ، الدربا . فلست أدرى كيف سها الناشر عن اختلاف القافية فى الأبيات ؟ وكيف يتفق هذا السهو مع عنايته بشكل الصّبِرا ، وهو غلط آخر ، فالصبرُ هو المادة المرة المعروفة ، وما أظن الناشر أراده ، والوزن لا يحتمله . فهذه كلمة واحدة تنوء بثلاثة أغلاط

ومثل هذا فى ص ٢٤٤ . أبيات أولها :

إذا كانت صِلاتكم رقاعا   تَخطط بالأنامل والأكف

وبعده بيت عكس شطراه فصار :

فما خطى خذوه بألف ألف   ولم تكن الرقاع تجر نفعا

ولم ينبه اختلاف القافية الناشر إلى هذا الغلط

وهذا الغلط مما استدركه الناشرون ، ولكنى أبقيته فى المقال لأننى لم أدّع أن هذا يدق على أفهامهم ، ولكنه دليل على مقدار العناية بالتصحيح ، وليس يذهب بالمؤاخذة إنهم استدركوه ؛ فان وقوعه فى الكتاب يدل على الاسراع والتساهل

ص ١٦ « وكان من رستاق جِى » وفى الحاشية تروى : رستاق الحىّ ، ولعلها رستاق حى على الاضافة .. الخ . والصواب جىّ بالجيم المفتوحة والياء المشددة ، وهو موضع بأصفهان

ص ٢٩ « لأن المهلّبى مات بعَمّان » . والصواب عُمان

ص ٣١ « ولقد قرَرْتَ عينَ أبيك بك فى حياته ، وسكَنَتْ مضاجعهُ إلى مكانك بعد وفاته » . والصواب قرّت عينُ أبيك ، لأن قرّ لازم ، ولو جاز أن يتعدى ما جازت التعدية فى هذه الجملة رعاية لسياق الكلام

ص ٣٧ « كتابى — أيدك الله — من المعسكر بجَبْيل » والصواب جبل بالكسر ، وكانت بلدة قرب بغداد ؛ أو جَبُّل وكانت بين بغداد وواسط

ص ٤١ ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك ، وعلينا المحافظةُ فيك على حفيظتك . وفى الحاشية على بمعنى مع . والصواب غلّبنا المحافظة ... الخ

٤٨ « نخرجت مبادراً وأنفذت لِشُكْرَستان صاحبى ، وأنفذ ابن سعدان محمداً لأواتيه ، وانتظرت عودهما بما فعلا » . والصواب

(١) بعد كتابة هذا المقال اطلعت على ما استدركه الناشرون من أغلاط هذا الجزء وألحقوه بالجزء الرابع فأسقطت كل ما استدركوه

لَشْكَرِستان . والظاهر : محمدا ابنه كما يفهم من سياق الكلام

ص ٥٣ « لولا الثقة بأنه يحقن مياه الوجوه ويحميها ، ويَجُمُّها ولا يَقذيها » . والصواب يُجمّها ولا يُقذيها ، من أجم وأقذى .

ص ٥٧ : أيارب كلُّ الناس أبناء عَلّة أما تعثر الدنيا لنا بصديق

والأصح أبناء عَلّة ؛ وأبناء العلات من أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة . والمراد أن الناس على اختلافهم متشابهون ينزعون إلى أصل واحد . وفي الحديث : « الأنبياء أبناء علات » وقال المعري :

ألا إنما الأيام أبناء عَلّة وهذي الليالي كلها أخوات

ص ٨١ حتى ترى في وجهك الميمون غاية سُؤلها

والصواب تسهيل الهمز لتلائم القوافي الأخرى : رَسولِها ، وُصولِها الخ

ص ٨٦ ثلاثة عشر بيتا في الغزل ، والخطاب فيها لمؤنث . غيّره الناشر الى المذكر ، مع أن الشاعر سمى من يخاطبها ظبية ، وجعل لها فرعاً من الشعر ؛ ومن هذه الأبيات :

والصابئون يرون أنك فردة في الحسن إقراراً لرب ماجد

كالزهرة الزهراء أنت لديهم مسعودة بالمشترى وعطارد

قال الشارح : فردة بمعنى مفرد ، ليستقيم له خطاب المذكر على رغم الشاعر واللغة

ص ٩٠ السرى بن أحمد الشاعر الرَّفّاء . والصواب تشديد الفاء

ص ٩١ « وارتقوا كيف شِئْتُمْ في المعالي — والصواب شئتمُ بضم الميم ومدها

ص ١٢٢ « ومات فرأته السيدة فأُتهِمَ أنه سقاه السم » — والصواب فمات ابن أخي السيدة الخ والدليل في ص ١١٠

ص ١٢٣ المُحْسن بن علي التنوخي . والصواب المحسِّن

قال المعري في القصيدة التي كتبها إلى ابنه عليّ بن المحسن :

يا ابن المحسِّن ما أُنسيت مكرمة فاذكر مودتنا إن كنت أنسيتا

ص ١٢٦ منديل الغُمْر . والصواب منديل الغَمَر

ص ١٢٨ لها نَخِذٌ بُختيّةٌ تُماف النوى — والصواب نخذا بختيّة بالتثنية والاضافة

ص ١٣٣ :

إن بان شخصي عن مجالس غيره فالنفس في ألطافه تتقلب

والصواب مجالس عِزّه ، لأن الأبيات شكوى من احتجاب الممدوح وأولها :

ومحجب بحجاب عز شامخ وشعاع نور جبينه لا يحجب

ص ١٣٥ وجدت في آخر نسخة المقتضد لعبد القاهر الجرجاني — والصواب المقتصد

ص ١٣٩ « وكان ورعا متخشناً في الحكم » وفي الحاشية « هكذا رواه ابن الأنباري وفي الأصل متلينا . ورواية ابن الأنباري أظهر . » أقول : وأظهر من هذا وذاك « متثبتاً في الحكم »

ص ١٧٨ قول بديع الزمان :

أخا مقة حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وفي الحاشية : المقة المحبة — والصواب أُحامقه حتى يقال سجية . أي يجاريه في الحمق

ص ١٨٢ من مطبوخ وملوخ الخ — والصواب بين مطبوخ الخ

ص ١٨٨ في رسالة الخوارزمي إلى البديع : « أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه رَغْمٍ في القيام » . والصواب مضايقتي إياه — زَعَم — في القيام . يعني ما زعمه من مضايقتي الخ

ص ١٨٩ من رسالة الخوارزمي أيضاً : « ففيهم لعمري فوق ما وصف حسنُ عشرة ، وسدادُ طريقة وجمالُ تفصيل وجملة . »

والصواب الفتح في الكلمات الثلاث : حسنَ عشرة الخ على التمييز ، يشهد بهذا سياق الرسالة .

ص ١٩٤ من رسالة الخوارزمي أيضاً : ولو أراد سيدي أن أصدّق دعواه في شوقه إليّ ، ليَنقُضَّ من حجم عتبه عليّ ، فانما اللفظ زائد ، واللحظ وارد » وهذه جمل لا معنى لها . والصواب لنَنقُص من حجم عتبه الخ فانما اللفظ رائد بالراء

ص ١١٤ أبو العباس أحمد بن محمد البارودي — والصواب الباوردي

ص ١٣٨ أبو لهب محمد بن أبي العلاء — والصواب أبو كريب ، وليس في المسلمين من يسمى أبا لهب

ص ١٣٩ وكان مُفْتياً في علوم شتى . والصواب متفنناً

١٤٧ في نسخة مرجليوث : قال ابن أبا جعفر ؛ فصححت في هذه الطبعة : قال ابن أبي جعفر . والصواب قال ابن الفرات : أبا جعفر الخ كما يفهم من سياق القصة ؛ فابن الفرات يخاطب أبا جعفر

ص ١٥١ ابن عمر — والصواب أبي عمر

وسأبين في المقال الآتي إن شاء الله ما أخذته على تعليق الناشرين في هذا الجزء . ثم أبين سوء النسق في تراجم الكتاب وفي متنه . والله ولي التوفيق

عبد الوهاب عزام

معجم الأدباء أيضاً

رد على نقد

للأستاذ محمود مصطفى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

قرأت كلمة للعالم الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام يتناول فيها ذلك العمل العظيم الذى اضطلع به الدكتور أحمد فريد الرفاعى من إظهار هذه الكنوز الأدبية العظيمة فى ثياب قشيبة معبدة الطريق للقراء

وأشهد أن الدكتور عزام قد دل بكلمته على غيرة على العربية لم يقر له معها قرار حتى يغير ماراه غير مساوق للصواب فى نظره، وهى غيرة يشكر عليها قدر شكر الدكتور الرفاعى على غيرته التى حملته بذل المصونين الجهد والمال فى سبيل خدمة العربية

وما دفعنى أن أدخل بين الناقد والمنقود إلا حبى لأحقاق الحق وإقرار الأمور فى نُصُبها

أكتب هذه الكلمة ولم أسعد بعد باقتناء الكتاب، فأنا أكتفى بالرد على ما امست عدوله عن الجادة فى كلام الدكتور عزام

* * *

(١) « إذ كلٌّ هَمُّه تحصيل المأكول والمشروب » ، يقول الدكتور عزام الصواب هُمُّه بضم الميم والمراد هنا الاسم إذ الفعل أهمه لا همه . وتقول عبارة القاموس المحيط : وهمه الأمر أحزنه كأهمه . ولا يعزب عن البال أن استعمال هذا الفعل بمعنى شغله واستبد بمشاعره مجاز قريب لا تكلف فيه

(٢) « ومعاوية بفارسٍ » قال الصواب بفارسَ فأنها ممنوعة من الصرف . وأقول ورد فى القاموس وفارس الفرس أو بلادهم . وإذا اتبعنا القاعدة القائلة إن كل اسم قبيلة أو موضع لا علامة للتأنيث فيه يصح تذكيره على معنى القوم أو الرهط والوضع ، وتأنيثه على معنى القبيلة أو البلدة ، فعلى هذا لا يكون لتخطئة الدكتور التنوين وجه مقبول

(٣) « ولم نعوّض من ذلك ميسُرة » قال الدكتور عزام : الصواب فتح السين ؛ وأقول فى القاموس المحيط الميسرة مثلثة السين . وفى كتاب « نيل الأرب فى مثلثات العرب » للشيخ قُوَيدر الخليلى :

مهولة الأمر تسمى ميسره ومصدر الى قدرت مقدره

يريد أن ميسرة مثلثة السين ، وكذلك كلمة مقدرة مثلثة الدال . وغيرهما مما هو على هذا الوزن كثير

(٤) « لغويا نبيها ثَبَتاً » قال الدكتور عزام والصواب ثَبْتاً يقال رجل ثَبْت لا ثَبَتٌ والثَبَت بالفتح (يريد بالتحريك) البرهان اسم لا وصف . وأقول : فى القاموس الاثبات الثقات ، وفى شرحه وهو ثبت من الاثبات إذا كان حجة لثقته فى روايته ، وهو جمع ثَبَت بالتحريك وهو الأقيس وقد يسكن وسطه . الخ

ولعل التفرقة التى جاء بها الدكتور عزام وهى أن الثبت (بالتحريك) البرهان اسم لا وصف ، إنما عقدها بنظرة خاطفة من قول الشارح « وقيل للحجة ثبت بفتحتين إذا كان عدلا ضابطا » فذهب باله الى أن الحجة هنا الدليل والبرهان

(٥) « أُضِقتُ إضاقة شديدة » قال الدكتور عزام « والصواب بالبناء للفاعل أى أصابه ضيق » وأقول لو أنه فسرها بقوله أصابه عسر لقلنا إنه تابع صاحب القاموس فى قوله : أضاق ذهب ماله وأعسر ، فأما وقد فسرها بقوله أصابه ضيق فهو تفسير عام ينطبق عليه قول القاموس : ضاق ضد اتسع وأضاقه وضيقه » فمعنى كل ذلك جعله ضيقاً . والمراد هنا ضيق الصدر

(٦) « المُصَيْصة اسم بلد » قال الدكتور عزام والصواب المَصِّيصة . وأقول : ورد فى كتابى « إعجام الأعلام » : (المَصِيصة — المِصِّيصة مدينة على ساحل البحر الرومى ... قال فى القاموس « والمصيصة كسفينة بلد بالشام ولا تشدّد » وقد ضبطها صاحب تقويم البلدان عن مزيل الارتياب فقال : بكسر الميم وتشديد الصاد وسكون الياء وفتح الصاد)

فمن ذلك يعلم أن الناقد والمنقود وقعا فى الخطأ وإن كان اللوم فى نظرى على الناقد أشد ، لأنه يأخذ على غيره فى مسألة بعينها فيجب أن يكون تحريه للصواب أدق

(٧) «غُمار الناس» قال الدكتور عزام والصواب كسر الغين ، وأقول يفهم من مراجعة القاموس المحيط لمن وقف على سر اختصاره وراعى مراده فى عطفه واستئنافه أن الغمار جمع لغَمْر وهو الماء الكثير كما أن الغَمْر يكون بمعنى الكريم الواسع الخلق أو الجواد من الخيل أو السابغ من الثياب أو اللفيف من الناس ويشاركه فى هذا المعنى الأخير (اللفيف من الناس) مفردات أخرى وهى الغَمَر (بالتحريك) والغَمْرة بالفتح فالسكون مع تاء التأنيث والغُمارة بالضم مع التاء والغَمار بالفتح أو الضم . وعلى هذا يكون مصيباً من قال غمار الناس (بالضم)

معجم الأدباء أيضا

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

يعرف أولو البصر بالأدب الأستاذ الباقعــة الدكتور عبد الوهاب عزام، عالماً ثقة، وعلماً حجة، فيصلاً إذا قال، وثبتاً إذا جال؛ لا يقف نبوغه عند ناحية من نواحى الأدب، بل يفيض علمه عليها جميعاً؛ فهو من أدبائنا القلائل الذين برزوا فى كل أفق، وربطوا بآصرة الأدب بين الغرب والشرق، وقد اختص ببحوثه الرائعة وآرائه الشائقة مجلة « الرسالة »، لأنها رسول الثقافة، وآخر ما أمتع به قراءها ذلك النقد الجامع لكتاب «معجم الأدباء» الذى ينشره الدكتور الرفاعى. فنقد القسم الأول منه نقداً عميقاً، وفحص عن وجه الحق فحصاً دقيقاً، وأبى له تواضعه إلا أن يقول: « هــذا ما أخذته وأنا أعبر القسم الأول وهو جزء من عشرين، ووراء هــذا معضلات من التحريف تحتاج إلى بحث وتنقيب ليتبين صوابها » وأقرر مؤكداً أن هذا النقد الممتع سيحمل الناشر على الامعان فى التحرى، وسيدفعه إلى التريث والتأنى حتى يخرج الكتاب كما يريده الأدباء والمؤرخون

على أن لى رأياً فى قليل من كثير مما أورده من المآخذ الأستاذ القدير ولعلى قد وفقت إلى الصواب

ص ٦٤ « إذ كلٌّ همّـه تحصيل المأكول والمشروب ». (والصواب همه بضم الميم، والمراد هنا الاسم، لأن الفعل أمّ لا هَمّ) هذا ما ارتآه الدكتور. واللغة تخالفه. نص القاموس « مادة هم » قال: (وهمه الأمر هماً ومهمة حزنه كأهمه) وإن الأبلغ ما رآه الأستاذ، وليس فى الكتاب شبهة من خطأ

ص ٨٢:

أمغط منى على بصرى بالحبـــــب أم أنت أكمل الناس حسنا

وقد شرحه الناشر فى الحاشية وقال: « ويروى أمغطى على صيغة المفعول ». (والصواب أمغطى لا يحتمل البيت غيرها وكان الصواب تصحيح البيت لا إثبات الغلط وشرحه) وأرى أن كلا اللفظين جائز والمعنى معهما مستقيم، فالأول يثبت أن حبيبه قد غطى على بصره بالحب أو أنه أكمل النـاس جمالاً فى صورة الاستفهام عن الشقين، ولا أنكر أن الوجه الثانى أفضل وأفصح

ص ٩٣ « ولا أبدأ نفعا، ولا أحمد أخلاقا، ولا أدوم سرورا ». (وقال فى الحاشـية فى الأصل أبد نفعا؛ فقد أصلح غلط الأصل بغلط آخر. والصواب أبدى، وليس مامححه الناشر غالطا، ولعله الأوفق حتى يتفق ونظم الكلام ووزن الأفعال الذى يبدو أنه مراعى فى العبارة

ص ٩٩ « ولم تعوض من ذلك ميسُرة » (والصواب فتح السين » والفتح والكسر والضم كلها صحيح إذ السين مثلثة، وأحسب الأستاذ اختار الفتح لأنه به قرىء قوله تعالى « فنظرة إلى ميسرة » وكان أيسر للناشر أن يتركها دون ضبط أو يثلث ضبطها

ص ١٣٣ « فلا أزال أما كسهم ويزيدونى » (والصواب تزيدوننى) ولا أدرى كيف ساغ للدكتور تخطئة الصواب فكتب النحو تنص على جواز تزيدونى بالتخفيف والتثقيل، وبالتخفيف قرأنا نافع تأمرونى وتحاجونى

ص ٢٢١

« يخال بأن العرض غير موفر عن الذم إلا أن يدال له الوفر »

(والصواب يذال بالذال المعجمة من الاذالة أى الامتهان)

وبدال ليست خطأ بل لعلها أوقع فى المعنى لأن الغرض من الادالة الدوران والتحول والزوال، وكل هذه المعانى أنسب من الامتهان فى البيت. هذا ما عنّ لى التعليق به على نقد أستاذنا النابغة وأرجو أن يلاحقنا بالحكمة والرأى الرشيد

(المعادى) عبد العظيم على قناوى

عمنى جماعتهم ولفيفهم. كما أنه ليس فى القاموس ما يدل على أن غِماراً يكون جمعاً لغَمْر بهذا المعنى الأخير وإلا لأتى به قبل ذكر الجمع كما هى عادته

وليس معنى كل هذا أن استعمال غِمار بالكسر فى معنى جماعات الناس خطأ بل نقول إنه خلاف الأولى لأن استعماله يكون مع التجوز بتشبيه جماعة الناس باللجة وإطلاق لفظ غمر عليها ثم جمعه على غمار. أما المفرد وهو غمار (بالضم) فكاف فى الدلالة على الجماعة دلالة حقيقية لا تجوز فيها. فظهر من هذا أن النقود استعمل الضبط الجائز القريب فى الاستعمال

هذا قول أعجلتنا عن الافاضة فى نواحيه وتتبع مظانه، مشاغل لم نستطع أن نزيحها عن كاهلنا إلا بهذا القدر والسلام

محمود مصطفى

العالم المسرحي والسينمائي

المعجزة

The Barretts of Wimpole Street.

لناقد الرسالة الفني

النقاد عادة من أدق الناس في مسائل الذوق الفني ، فهم بطبيعة عملهم كقضاة ، قاسون لا يرضيهم من الأعمال إلا كل عظيم جليل ، ولهذا فان اختيارهم يكون بلا ريب ممتعاً ، وقد أيد زميلنا وصديقنا الناقد المسرحي الأستاذ محمد علي حماد هذا الرأي باختياره هذه القصة وقيامه بترجمتها للمسرح المصري ترجمة سلسة الأسلوب سهلة اللفظ تلائم رواد المسرح

والرواية قطعة فنية رائعة من تأليف الكاتب الانجليزي « رودلف بيزير » نالت في انجلترا نجاحاً كبيراً دعا الكتاب الفرنسيين إلى نقلها لمسرحهم ودفع بأكبر شركة سينمائية في العالم إلى اقتباسها . وقد أتيح لرواد السينما أن يروا شارلس لاتون ونورما شيرر وفريدريك مارش يقومون بالأدوار الرئيسية في هذا الفلم الذي نال الجائزة الأولى للعام الذي أخرج فيه . والذين شاهدوا الفلم ثم رأوا القصة تمثل على مسرح الأوبرا لا بد أحسوا بأن المسرح قد أبرز عوامل الجمال فيها في حين أن الفلم قصر عن أداء هذه المهمة كاملة

لست في حاجة إلى ذكر ملخص الرواية فوضوعها معروف لأن أشخاصها ظهروا على مسرح الحياة في العهد الفكتوري ، فالبطل روبرت برونتج شاعر إنجليزي كبير له دواوينه وأعماله الأدبية ، والبطلة إليزابيث باريت شاعرة رقيقة العاطفة تزوجت من برونتج ؛ وقد نشرت مجموعة الرسائل التي تبادلها البطل والبطلة والتي استمد منها المؤلف مادة قصته

لست أوافق من قام بالتلخيص المنشور في البرنامج الذي توزعه الفرقة القومية من أن القصة تدور في أساسها حول ذلك النزاع القديم المتجدد بين جيل وجيل ، وبين فكرة وفكرة ، وبين الآباء المحافظين الذين يريدون أن يفرضوا آراء أجيالهم الغابرة على أبنائهم الخ ، فلو أن القصة تقوم على هذا الأساس وحده لما استحقت أن توصف بأنها عمل فني ؛ فقد سبق المؤلف كثيرون إلى طرق هذا الموضوع . والواقع أن في القصة تحليلا نفسيا عظيما لشخصية الأب وشخصية الفتاة ؛ ومن يتتبع القصة بانتباه تبرز أمامه الحقيقة الواضحة التي يعنيها المؤلف ويصورها بدقة ، وهي أن الأب يحب ابنته — دون أن يدري — حباً جنسياً

فالعاطفة الجنسية هي سر حبه لابنته ، ولكنه لا يدري هذه الحقيقة ؛ فابنته ثمرة الحب ولدتها أمها أيام كانت الحياة هانئة بين الزوجين ، فهو إنما يحب أمها فيها ، في حين أنه يكره أولاده الآخرين لأنهم ليسوا ثمرة الحب ، بل أنجبتهم أمهم في أيام الجفوة والشقاء بين الزوجين ، وهذا هو السر في قسوته عليهم وفي أنه لا يفهمهم ولا يفهمونه

الإخراج والتمثيل

تصرف المخرج تصرفا له من السوابق ما يبرره وهو إخراج الروايات التاريخية في ثوب عصري ، إلا أنه كان من الخير أن تظهر القصة في ثوبها التاريخي ، فانما تمثل واقعة تاريخية هي قصة زواج روبرت برونتج من إليزابيث باريت . أما رسم المناظر فبديع ولاسيما المنظر الثاني ، ولكن اختيار الورق الأزرق الداكن لكساء حوائط غرفة نوم إليزابيث مما لا يلتئم والحوادث التي تجري فيه . فالرواية كما نعلم تحوي المواقف المحزنة والمواقف المضحكة ، والأزرق الداكن لا يصلح إلا للمواقف المحزنة ، لأنه يبعث أثراً قابضاً في نفوس النظارة ، فكان من الواجب أن يتنبه المخرج لهذه الحقيقة

أما الاضاءة فهملة إلى أبعد حدود الاهمال : فهي واحدة لا تتغير سواء في المواقف المحزنة والمفرحة ؛ ومن بديهيات الاضاءة

أن الضوء القوى الصارخ من ضروريات المواقف الفكهة ، كما أن الضوء الخافت من ضروريات المواقف المحزنة ؛ ولكن الأستاذ عزيز يتجاهل هذا كله ويجعل الضوء قوياً صارخاً طوال مواقف الرواية

وفى المنظر الأول نجد الشبان يصعدون إلى غرفة نوم شقيقتهم بعد تناول العشاء وهم فى ملابس السهرة فى حين أن الشقيقتين كانتا تلبسان الملابس العادية . والأدهى أننا لم نحس أثناء التمثيل أننا فى جو انجليزى ، فقد كان الممثلون فى أحاديثهم وحركاتهم مصريين أكثر منهم انجليزا . فالأستاذ منسى فهمى قام بدور الأب وبذل مجهوداً كبيراً ووفق إلى حد بعيد فى تأدية الدور ، ولكن كان يثور من حين لحين مما لا يتلاءم مع الشخصية ومع الخلق الانجليزى ؛ فالشخصية ليست فى حاجة إلى الثورة لتؤثر الأب فى نفوس أولاده ، فان الرهبة التى فى نفوسهم منذ الطفولة كفيلة بأن تغنى عن هـذه الثورة ، ولكن الذنب ليس ذنب الممثل بل هو ذنب المخرج . والآنسة نجمة ابراهيم كانت مجيدة فى دور هنريتا ، ولكنها كانت فى ثورتها مصرية ، وفى سخريتها كانت بعيدة عن تصور الخلق الانجليزى . ومن المؤلم أن يسمح المخرج لعباس فارس أن يظهر الكاتبن بهذه الصورة المزرية ، فان من الاسفاف أن نلجأ إلى الحركات لأضحاك النظارة ونيل رضاهم ، والفرقة القومية قامت للسمو بالفن ، والشخصية سهلة واضحة هى أن الكابتن خجول يرتبك فى حضرة السيدات ، وكان من الواجب أن يبرز الشخصية على حقيقتها دون الالتجاء إلى الافتعال

قام حسين رياض بدور الشاعر فأداه أداء طيباً ، ولكن إبرازه له على أنه شاب رزين مما لا يرضينى ومما يتعارض مع ما هو معروف عن نزوات الشعراء وخفتهم ، وهذا الشاعر تقدم للزواج من فتاة شبه مقعدة !! وفى الموقف الذى يطالب فيه بد اليزابيث اهتم بتجويد إلقائه أكثر من اهتمامه بابراز عاطفته

أما السيدة زينب صدقى فقد كانت بديعة إلى أبعد حد . والحق أن هذا الدور من أحسن أدوارها ، وفيه أثبتت أنها مقلدة ماهرة لنورماشيرر ولا سيما فى المنظر الأول عند حدوث المعجزة وقيامها من فراشها وسيرها إلى النافذة ، وفى الفصل الأخير عندما قبلها والدها القبلة التى كادت تفضح عاطفته

يوسف نادرس

سافو على مسرح الاوبرا الملكى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

تحدثنا فى العدد الماضى عن دولت أبيض فى « سافو » ثم عن على رشدى فى دور جان ، وقبل أن أنتقل الى غيره من الممثلين أرى انصافا لهذا الشاب المجتهد أن أقول إنه ظلم ظلما كبيرا فى إسناد دور لا يليق به ولا يتفق مع طبيعته ، وإنه على رغم هذا قد بذل جهداً مشكوراً يستحق الثناء

ولا بد لى أن أذكر عباس فارس فى دور (ديشليت) ومنسى فهمى فى دور (كودال) وفؤاد شفيق فى دور (سيزير) فهؤلاء الثلاثة بلغوا درجة كبيرة من النجاح ، وإليهم الفضل فى النهوض بالرواية والوصول بها إلى درجة تجعل الجمهور يتقبلها ويستسيغها

وأما المناظر فمنقولة عن المناظر التى أخرجت بها الرواية فى فرنسا ، وقد استطاع الأستاذ أدمون تويما مدير المسرح أن يقنع الأستاذ عزيز باخراجها فى ثوب عصرى ولكنه فيما أرى أخفق فى إقناعه بالاستغناء عن المصباح البترولى فى الفصل الأول ، فقد كان مضحكا أن نرى الشاب الفقير الذى يسكن الطابق الخامس يضىء غرفته بثريا كهربائية كبيرة ! وبرغم ذلك نراه يضىء مكتبه بمصباح بترولى ! إن التقيد بالأصل دون استعمال العقل يبعث السخرية ، وكان أولى بالمخرج أن يضع بدلاً من المصباح البترولى مصباحاً كهربائياً للمكتب

أما الاضاءة فعادية ، وبودى لو يعنى المخرج بتوزيع الضوء ومساقطه حتى لا تتعارض ظلال الممثلين وحتى لا يقع ظل ممثل على زميله وأن يختار من ألوان الضوء ما يلتئم مع جو المواقف

الترجمة

نقل القصة إلى العربية الأستاذ محمود كامل المحامى ، وقد لاحظت الفرقة بعد أن نقدت المترجم الأجر أن الترجمة غير دقيقة ، فعهدت إلى لجنة مؤلفة من الأساتذة ادمون تويما وابراهيم الجزار ومراج منير بمراجعتها فاستغرق عملها ٢٧ يوماً . وقد اطلعنا على صفحات عديدة فشاهدنا الكثير من التصحيح والتبديل ، فكان أثر هذا أن أصبحت القصة تحوى أكثر من أسلوب واحد ، وكنا نفضل لو أن المترجم اشترك مع أعضاء هذه اللجنة لتجنب هذا الخلط .

5 me Année, No. 184 — Lundi - 11 - 1 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ شوال سنة ١٣٥٥ — ١١ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

ذكرى ميــلاد ...

فى مثل هذا الأسبوع من عام ١٩٣٢ وأنا فى دار السلام، هبط علىّ برق الأثير هبوط الملك البشير على زكريا الواهن اليائس. بشّرنى بأن اسمى قد اشترك، ووجودى قد ازدوج، وعمرى قد امتد، وأصلى قد تفرّع! فأخذنى شعور لا عهد لى بمثله؛ لا أصفه لأنه أعمق من الإدراك، ولا أنساه لأنه أوسع من الذاكرة. هو شعور خليط مبهم؛ لا هو حماسة، ولا هو نشوة، ولا هو جذل، ولا هو غبطة؛ وإنما هو كل أولئك وشىء آخر لا أدريه، لوّن مشاهد الطبيعة بألوان الأمل، وعطّر نسائم (دجلة) بروائح الجنة، وزيَّن مغانى الكرخ بأوشية السحر. فخرجتُ إلى بساتين (الصالحية) وفى إهابى المشبوب رجل آخر، يحيا لأنه يحب الحياة، ويعمل لأنه يريد العمل، ويزهى لأنه يسعى لأُسرة. مررت بالأطفال الذين كنت أراهم كل يوم، فبدت لى فى قسماتهم وبسماتهم معانٍ جديدة. لم يعودوا شقاء الوالدين وهمّ الحياة كما كنت أشعر، وإنما أصبحوا كطفلى

بهجة الوجود وراحة المكدود ورجاء المستقبل ؛ ثم وجدتُني آنس بكل أب ، وأسكن إلى كل أم ، وأشعر كما يشعر كل والد بحملٍ رخيٍّ رضيٍّ يثقل رويداً رويداً على البال المطمئن الوادع ! !

***

عدت إلى مصر فرأيتني أرسخَ في الوطنية لأني غدوت أصلاً من أصولها ، وأعزَّ في القرابة لأني صرتُ فصلا من فصولها ؛ ثم تجددت الأفراح ، وتسابقت التهاني ، وتنافست الهدايا ، وتعاقبت المآدب ، وغرقت الدار الكئيبة في فيض من البهجة ، ورقصت الروضة الموحشة على ألحان البلبل ، ورفرفت السعادة الهشة على مهد الوليد

وكان العُش الآمن الغازُ يعلن في كل رابع عشر من شهر يناير ذكره للنعمة وشكره لله ؛ فيرفُّ للأصدقاء بالأنس ، ويخف للفقراء بالصدقة ، وتتفتح مصاريعه الضاحكة لتهنئات الصحاب ودعوات الأحبة . ويخرج المرموق المعشوق صاحب العيد في زينته وبهجته كالسوسنة الغضة ، يقابل مهنئيه ، ويتقبل هداياه ، ويستعرض لعبه ، ويُشعُّ على الحفل البهيج من روحه الجذاب ، وحسنه الفاتن ، وذكائه الباكر ، إشعاعاً من وراء المعلوم لا يدركه إلا الأب الحنون وإلا الأعزب الشاعر

حنانيك يا رباه ! أكل ذلك أصبح اليوم ذكرى ؟ أغاية السعادة في الأرض أن تنقلب وحشةً في النفس وظلمة في العين وحسرة في الفؤاد ؟ لا يزال صوته الصافي الجميل يرن في شعوري كله : فأنا أسمعه يقول ويده الصغيرة تجذب يدي : « ياللّه نِشترِي خروف عيدي يابابا ... عاوز أتومبيل أحمر زَيّ أتومبيل الملك يا بابا . » فأخرج معه كما يخرج الصديقان الأليفان لأمر مشترك ؛ فينتقي ثيابه بذوقه ، ويختار لعبه بنفسه ، ويقترح عليَّ أن نذهب إلى (حديقة الفردوس) ، فيمشي بين أفواف الزهر ، أو على زخرف الممشى ، فلا أدري أجمال الروض زها فيه فنضر حتى فتن ، أم جماله هو فاض على الروض فزها حتى بهر ! ثم يتفرق بصره المبهور بين التماثيل والتصاوير والورد ، فيذهل عن طريقه فيخوض في الماء فجأة ؛ فيخلع حذاءه وينزع جوربه ثم يدعهما للشمس ويقعد هو تحت المظلة أو فوق العشب يرسل على أبيه السعيد سيلا من الأسئلة لا ينقطع ، وفيضا من المسرة لا ينضب ؛ ثم يعود إلى بيته المزدان المرح فيستقبل في المساء أعمامه أحمد أمين وزكي وخلاف والعبادي وعوض وزناتي ويونس وسائر محبيه ومحبي أبيه ، فينقلهم بإشراق نفسه وانطلاق طبعه من عالم الناس إلى عالم الملائكة !

***

ثم دار الفلك ، وتجرّم العام ، وعاد اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولكنه وا حسرتاه يعود هذه المرة على بيت غير البيت ، ودنيا غير الدنيا ! ! فلا العش مرِحٌ بفرخه ، ولا الروض شادٍ ببلبله ، ولا الأتومبيل حالٍ براكبه !

يعود على ثياب مطوية ، ولُعَب مخفية ، وصور مستورة ، وعيون مقروحة ، وقلوب محطمة ، وآمال مهيضة ! فلا بساط الأنس ممدود يا رفاق ، ولا حفلة العيد ساهرة يا أحبة !

أجل يعود اليوم الرابع عشر من شهر يناير ، ولكنه والهفتاه يعود على قبر جَنِيِّ الأزاهير بين حقول القرية البعيدة ؛ تسهر عليه الشجرة الصغيرة ، وترعاه من قرب عيون الأهل !

فيا من دعوت نفسك الرءوف الرحيم ! أين أجد رأفتك فيخف أساىَ ، وأصيب رحمتك فيندمل جُرحي ؟

ويا شاعر العروبة ، وحكيم الدهر ، وطريد الغِيَر ؛ متى أجد مصداق بيتك المعزِّي الخالد :

ستألف فِقدانَ الذي قد فقدتَه
كإلفك وِجْدانَ الذي أنت واجد

أحمد حسن الزيات

الشمس

للأستاذ أحمد أمين

أى شىء أحب إلى النفس ، من التمتع هذه الأيام بالشمس ، والحديث عن الشمس ؟

فقد أقرسنا البرد حتى اصطكت منه أسناننا ، وانكمش جلدنا ، ويبست أطرافنا ، وحتى وددنا — إذا رأينا النار — أن نحتضنها ، وإذا رأينا الجمرة أن نلتهمها ؛ ولوددت فى هذه الأيام أن أكون فراناً ، أو طباخاً ، أو سائق قطار ، حتى لا أفارق النار

***

كل شىء فى الطبيعة جميل ، وأجمل ما فيها شمسها

وهى فى شتائنا أجمل منها فى صيفنا ، ولها فى كلٍّ جمال

فلها — صيفاً — جمال القوة ، وجمال القهر ، وجمال السفور الدائم ، نُعظِمُها ونجلها ؛ ونهرب منها ولكن نحبها . تقسو أحياناً ، ولكنا نرى الخير فى قسوتها ؛ فهى كالمربى الحكيم ، تقسو وترحم ، وتشتد وتلين ؛ تلفحنا بنارها ، ولكنها نار كنار الحب يكتوى بها قلب العاشق ، ثم هو يرجو بقاءها ، ويخشى زوالها ؛ ترسل علينا شواظاً من نار ، فتسفع جلودنا ، وتكوى جباهنا ، حتى إذا غلا جوفنا ، ووغر صدرنا ، غابت عنا ، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) تخفف من حدتنا ، ولطف من سَورتنا ، وأصلح ما أفسدت ، وضمد ما جرحت ؛ فاذا خشِيَتْ أن نطمئن إليه ، أدركتها الغيرة منه فغيبته ، وطلعت علينا ببهائها ، وجمالها وجلالها . وهكذا دواليك

***

وهى — شتاء — تطلع علينا بوجه آخر ، ترينا فيه جمال الحنو ، وجمال الدعة ، وجمال الرحمة والعطف ، وجمال النادة اللعوب ، تشاغلك فتظهر وتختفى ، وتسفر وتتحجب ، وتخرج من قناعها ثم تتقنع

وتنتقم من رسولها الذى غارت منه صيفاً فتطلقه علينا فى جو بارد لا نطيقه ، حتى لا نفكر إلا فى دفئها ونسمتها ، ولا نشتاق لشىء شوقنا لرؤيتها

فما أجملها قاسية وراحمة ! وما أجملها واصلة وهاجرة !

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول ، وتبهر العيون ؛ فهى تارة بيضاء ، وتارة صفراء ، وتارة حمراء ، ثم لا تستطيع أن تحكم هى فى أيها أبهى وأجمل ، فهى تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها

فتحت النافذة قبل أن أكتب مقالتى فتدفقت فى حجرتى أشعتها الفضية اللامعة ، وملأتها روحاً وحياة ، وملأتنى دفئاً ، وملأتنى معانى ، وكانت حياتى فى حجرتى قبل زيارتها حياة مظلمة باردة جامدة لا معنى فيها ولا روح

***

خلعتِ من جمالكِ على الزهر ، فكان فتنة للناظرين ؛ فجماله من جمالك ، ولونه قبس من ألوانك ، وحياته مدد من حياتك ؛ فأبيضه وأحمره ، وأصفره وأزرقه ، ليس إلا نعمة من نعمك ، وأثراً من فيضك

فالوردة الحمراء ليست إلا نقطة من دمك ، والياسمين الأبيض ليس إلا لمحة من نورك ، والنرجس الأصفر ليس إلا تبراً ذائباً من شعاعك

لقد أبيتِ على الناس أن يديموا النظر إلى جمالك ، فألهيتهم بالنظر إلى بعض آثارك ، ولوّنت الأزهار بألوانك ، وأريتهم قدرة إبداعك . فشغل الجاهلون به عنك ، وشغف به العارفون على أنه قبس منك ، يطالعون جمالك فيه ، ويقرأون معانيك فى معانيه

***

ثم شأنك فى البحر عجب أى عجب ! تضربينه بشعاعك ، وتلفحينه بنارك ، فيتحول ماؤه بخاراً ، يصعد إليك ليستجير منك ، ويمثل بين يديك لتمنحيه عفوك ، وتنيليه عطفك ، حتى إذا شعر برضاك ، وأمن من غضبك ، دمع دمعة السرور ، ففارقته ملوحته ، وعاد إليه صفاؤه وعذوبته ، واكتسب منك الحياة فكان ماء جارياً ، بعد أن كان ماء راكداً ، فجرى جداول وأنهاراً ، فأرسلته إلى خدمك فى الأرض من أزهار وأشجار يحيى ذابلها ، ويستخرج دفينها ، وينضج ثمارها

***

ثم تحركت فملأت الحياة حولك حركة ؛ فكم من نجوم لا يعلمها إلا الله تسير حولك وتحذو حذوك ؛ ثم تلعبين بالهواء من سخونة وبرودة فيتحرك ، ويتعلم منك اللعب فيلعب بالبحار والأنهار والأشجار وبكل شيء يمر به ؛ فاذا الدنيا كلها لعبة فى يده

ثم أنت أنت حرقت الأشجار والنبات ، وطمرتها تحت صفحة الأرض آلافا من السنين بعد آلاف ، حتى إذا تنبه الناس آخر الزمان فطنوا إلى أنه مستودع من مستودعاتك ، فاستغلوه فى كل ما نرى الآن من حركة ، فهو سر حركة المصانع والبواخر ، وسر حركة القطارات والآلات ، فلو قلنا إن كل حركة فى الأرض أنت مصدرها لم نبعد

* * *

تلعبين بالناس فتنيمينهم وتوقظينهم ؛ ترسلين أشعتك الجميلة على العالم فينتبه ، وتغيبين عنه فينام ؛ ثم تتداولين العالم فتنبهين قوما وتنيمين قوما ، ويراك قوم شروقا وقوم غروبا ، وقوم ليلاً وقوم نهاراً ، وقوم صيفاً وقوم شتاء ، وأنت أنت فى عليائك لا تَملِّين الحركة ولا تشعرين بنوم أو يقظة ، ولا بليل أو نهار

* * *

بل بك يجرى الدم فى عروقنا ، فدمنا من غذائنا ، وغذاؤنا من حرارتك ، تسلطينها على الأرض فتخرجين منها « حباً وعنبا وقضباً وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبًّا » ؛ بل ما أفكارنا إلا منك ؛ أليست أفكارنا من دمائنا ، أو ليست دماؤنا منك ؟

بل لقد كنت حينا من الأحيان إلـه الناس ومعبودهم ، فكنت مصدر وحيهم ، ومصدر إلهامهم ، ووجهة عبادتهم . رأوك مصدر الحياة فعبدوك ، ورأوك مصدر النعم فحمدوك ، ورأوك يحيط بك كثير من الغموض على جلائك ووضوحك فألهوك ، ورأوك أكبر النجوم فربَّبوك

ثم أتى الأنبياء فرأوك تأفلين فسلبوك ألوهيتك ، ورأوك تتغيرين فحولوا عبادتهم عنك

ولكن إن سلبوك ألوهيتك فلم يسلبوك عظمتك وجمالك وجلالك وكفاك ذلك فخراً

* * *

لست أدرى أأصاب العرب إذ أنثوها أم أصاب الانجليز إذ ذكروها ؛ لعل الانجليز رأوا القمر وادعاً جميلاً هادئاً رقيقاً فأنثوه ، ورأوا الشمس قوية قاهرة قاسية فذكروها ؛ ولكن لعل واضعى اللغة من الانجليز لو عاشوا فى عصرنا ، ورأوا ما نرى من قوة المرأة وضعف الرجل ، وجبروت المرأة واستكانة الرجل ، لرجعوا إلى رأى العرب ، وآمنوا بسعد نظرهم ، وقلبوا المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً

ولعل العرب أيضاً رأوا الشمس أمّ الأرض وأمّ القمر وأم الزرع فأنثوها ، إذ لا تلد إلا امرأة ؛ ورأوا القمر طفلاً يدور حول أمه فذكروه ، واحتاط العرب أن يدرك الشمس شيء مما يلحق الأنوثة فقال شاعرهم : « وما التأنيث لاسم الشمس عيب »

أما الشمس نفسها فلم تعبأ بتأنيث ولا تذكير ، كما لم تعبأ عن أنثها وعن ذكرها

فهى فى سمائها تؤدى رسالتها ، وتسير سيرتها ، وتبهرنا بجمالها ، وتوحى إلينا بأسرارها

فما أعظمك ! وأعظم منك من خلقك !

٤ يناير سنة ١٩٣٧

أحمد أمين

٨ ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما هو فحدَّثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنّه قال : انصرفت إلى دارى وقد عزَّ علىَّ أن يكون هـذا منها وأن يكون هذا منى ، وهى إن غابت أو حضرت فأنها لى كالشمس للدنيا ، لا تظلم الدنيا فى ناحيةٍ إلا من أنها تفىء فى ناحية ، فظلمتها من عمل نورها . وكانت ليالى فارغة من النوم فبتُّ أَعْمَلُ ، وجعل القلب يدقّ فى جنبىَّ كأنه آلة فى ساعة لا قلب إنسان ؛ وكان فى الدنيا من حولى صمت كصمت الذى سكت بعد خطبة طويلة ، وفىَّ أنا صمت آخر كصمت الذى سكت بعد سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذى انطرح من ثقلة السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد ؛ والوجودُ كلّه يبدو كالمختنق لأن معنى الاختناق فى قلبى وأفكارى . ونظرت نظرةً فى النجوم فاذا هى تتغوَّرُ نجماً بعد نجم كأن معنى الرحيل انتشر فى الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة ، وكأن كل وجهٍ مضىءٍ يقول لى كلمة : لا تنتظر

فلما عسعسَ الليلُ رميت بنفسى فنمت والعقل يقظان ، وصنعت الأحلامُ ما تصنع ، فرأيتها هى فى تلك الشُّفوف التى ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجب كبرياءَ المرأة المحبوبة ! إنها لتبدو لعينى محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشف عنها كالضوء ، ثم تدلُّ بنفسها أن ترفعَ هذا الستر ؛ فأن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هى ؛ وكأنها تقول له : قد رفعتُه بطريقتى فارفعـه أنت بطريقتك . . .

وكانت مصوَّرة فى الحلم تصويراً آخر فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن الذى أتأمله وأعقله ، ولـكن معنى السكر الذى يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تـكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولـكنها ظهرت لى كاللون على الوردة الزاهيـة ؛ تُظهر فتنةً وتُتم فتنة

أيتها الأحـلام ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الانسانى ، ماذا تبدعين ؟

قلت : ياصديق دع الآن هذه الفلسفة وخـذ فى قص ما رأيت . ثم ماذا بعد الوردة ولون الوردة ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائماً ، إنه القلب المسكين . لقد ضحكت لى وقالت : هأنذى قد جئت ، وأقبلتْ تراءينى بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتتنهد بصـــدرها ، وألقت يدها فى يدى فأحسست اليـدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم تركناهما نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هُنيهةً وقد خيِّل الينا أننا إذا تـكلمنا استيقظت يدانا

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت فى يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقـل إلى عينيها فاذا هما فاترتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلُمٌ قصير ؟

قلت : ياصديقى دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعـد أن نامت يدٌ على يد ؟

قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط

قلت : حسبى لـكأنك شرحت لى ما بقى . . .

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ، وكأنى به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره ... أفتدرى ما الذى كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنتُ مولعاً بامتحان قوتى فى الضغط بيدى على أعواد منصـوبةٍ من الحديد ، أو على أيدى الرجال الأقوياء إذا سلمتُ عليهم ؛ فلما صافحتنى لبثت مدة من الزمن ثم شددتُ على يدها قليلاً قليلاً ، فتنبهتْ فىَّ هذه العادة ، فسخت الحلمَ وانصرف وهى إلى أقبح صورةٍ وأشـنعها وأبعدها ممـا أنا فيه من الحب ولذات الحب ؛ فاذا بأزائى وجه ؛ وجهُ من ؟ وجهُ مصارع ألمانى كنتَ أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده . . .

* * *

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عفتك تنبهتْ فى تلك الشّدة من يدك ، ولا يزال أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائـكة ومع الناس شياطين ؟

قال : والذى هو أعجب أنى رأيت فى أضعاف أحلامى كأن قلبى المسكين يخاصمنى وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يُرى ولا يُرى إذ لا شكل له ؛ وسبَّنى وسببتُه ، وقلت له وقال لى ، وتغالظنا كأننا عدوان ؛ فهو

يرى أنى أنا أمنعه لذته ، وأرى أنه هو يمنعنى ، وأنه أشقى بى على ما أشقى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرارَ على جنايتك فاذهبْ عنى ولا تتسمَّ باسمى فانه لا فُلانَ لك[١] بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمتَ أن لمسةَ يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوعٌ مخفَّف من التقبيل ، فاذا هى تركته يرتفع فى الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فم لفمها ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فاذا هى تركته يشتد فى الدم انتهى يوما إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولـكنك مخذول فى الحب ، ولـكنك مخذول .

وقال لى فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمتَ أن أناملها الرَّخْصة هى أناملُها ، لا أعوادُك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشَّدة التى أخرجت لك وجهَ المصارع ؟ ولـكنك خائب فى الحب ، ولـكنك خائب .

قلت : فهذه قضيةٌ بينى وبينك أيها القلبُ العدوّ ؛ لقد تركتنى من الهموم كالشجرة المُنْخَرِبةِ قد بليَتْ وصارت فيها التخاريب فلا حياتُها بالحياة ولا موتُها بالموت ، وكم علَّقتنى بفاتنةٍ بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهى ولا فيها مطمعٌ يبتدىء ؛ ما أنت فىَّ إلا وحشٌ أكبرُ لذته لطعُ الدم .

***

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتنى فى محكمة الجنايات ، وكأنى شكوت قلبى إليها فهو جالس فى القفص الحديدىّ بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل فى أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم وجلس النائب العامُّ فى مجلسه يتولى إقامةَ الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافاً كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أولَ من تكلم فقال : ليس فى قضية القلب محامٍ ، فابغُوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى تختار للدفاع عنك ؟

قال القلب : أوَهنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه — وأومأ إلى السماء — ولا فوق هذه — وأومأ إلى الأرض — إلا . .

فبدَرَ النائب العام وقال : إلا الحبيبة . أكذلك ؟ غير أنها أستاذة فى الرقص لا فى القانون

— القلب : ولـكننى لا أختار غيرها محكوما لى أو محكوماً علىّ . أنا أريد أن أنظر فيها وانظروا أنتم فى القضية . . . .

— الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إيذَنْ لها أيها الآذِن

فنادى المحْضِر[١] : الأستاذة . الأستاذة

وجاءت مُبادرِة ، ودخلت تمشى مِشيتَها وقد افترَّ ثغرها عن النور الذى يسطع فى النفس ؛ وأومَضَتْ بوجهها يميناً وشمالاً فصرفَ الناسُ جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ وثارت فى كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقةُ البشرية فانتقضت طباع الموجودين فى قاعة الجلسة ، وأُبطل قانون جمالها قانونَ المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصواتُ واختلطت ؛ وتردَّدت بين جدران المكان صَدى فى صَدًى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين

أصوات أصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ، تبارك الله ، آه آه ؛ آه آه ؛ وسمع صوت يقول : اتَّهمونى أنا أيضاً ... فتفَرَّت الكلمات وأنا وأنا وأنا . واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فاتنته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام فى أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط لا يخشاها أحدٌ أن تنظر إلى ما يصنع

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله ... المحكمة المحكمة

— النائب العام : هذا بَدْءٌ لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه . نعم إن هذا الوجه الجميل أبرعُ محام فى هذه القضية ، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهى ... عن المتَّهم . هذا وضع كوضع العـذر إلى جانب الذنب . وكأنكم يا حضرات المستشارين . .

فبدَرت المحامية تقول فى نغمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً ...

واشتدَّ ذلك على النائب وتبين الغضب فى وجهه ، فقال : يا حضرة الرئيس

(١) ذكر اسمه كما تقول مثلا لا عهد لك

(١) هو الموظف الذى يكون فى الجلسة للنداء على الخصوم

— الرئيس مبتسما : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ثالثة . . . . (ضحك)

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وكنت بلا قلب ... فلم ألتفت للجمال ، بل راعنى ذكاءُ المحامية ونفاذُها وحسن اهتدائها إلى الحجة فى أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع فى لسانها لا كما يقع مثله فى لسان المحامى القدير ، ولكن كما يقع زوجٌ فى لسان زوجة ممشوقة متدللة يجادله بحجج كثيرة بعضها الكلام ... وقلت فى نفسى : يا رحمة الله لا تجملى من النساء الجميلات الفاتنات محاميات فى هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لحىً مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة نداء قانونياً للقبلات . . .

ونهضت المحامية العجيبة فسلطت عينيها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر فى هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبى المسكين ... أريد أن أتعرف الرأى القانونى فى اعتبار الجريمة . أهى شخصية ، فتقتصر على صاحبها ؛ أو خاصة فتضر غير جانيها ؛ أو عامة فيتناولها العموم المحدود لمن يجمعهم جامعة الحب ؛ أوهى أعم ، فيتناولها العموم المطلق للهيئة الاجتماعية ؛ ما هى جريمة قلبى ..؟

— الرئيس : ما رأى النيابة ؟

النائب ضاحكا : (غزالها رايقة) كما يقول الراقصات والممثلات . . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص فى العام .. (ضحك)

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبى بكر . كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتُغلظ له الكلام وهو يفرَق منها ولا يخالفها . فرآها يوما وقد طابت نفسها فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يافلانةقد والله أحرق قلبى .. ولم تدعه يتم الكلمة ، فحددت نظرها اليه وقطبت وجهها وقال : أحرق قلبك ماذا ؟ فخاف ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال : حب أبى بكر الصديق رضى الله عنه .. (ضحك) ورنت ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت فى كل دم ، وفى دم النائب أيضاً ؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول : أحتجُ من كل قلبى . .

الرئيس : لندخل فى الموضوع ، ولتكن المرافعة مطلقة فان الحدود فى جرائم القلب تُسدل وتُرفع كهذه الستائر فى مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة

* * *

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول اتهامى فان هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة

المحامية : ولكنه قلب

النائب : وأنا يا سيدتى لم أحرف الكلمة ولم أقل إنه كلب . (ضحك) وتفرج وجه المحامية وخجلت[1]

— الرئيس : الموضوع الموضوع

النائب : ياحضرات المستشارين . إن ألم هذه الجريمة إما أن يكون فى شخص الجانى أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجاً مثلاً ، أو صيته الأدبى . فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم ... (ضحك)

— المحامية : أستميح النائب عذراً إذا أنا . . إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه « التذاكر » ... (ضحك) وتفرج وجه النائب العام وخجل .

— الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقىّ ألا يكون للثالثة رابعة ... ؟

— النائب : يا حضرات المستشارين . وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج ؛ ولا تغرنَّكم صوفية هذا القلب ، ولا يخدعنكم تألّهه وزعمُه السموّ . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء فى ضمنه اعتداء ؛ على الزواج وعلى الشرف . وهبوه متصوفاً متألها ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . . وبهذا اقترف الجريمة . آه . ان هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها

(١) إذا كان كلباً فهو يتبع كلبة ... وهذه هى غمزة النائب للمحامية ، ولا ينس القراء أن المحكمة فى الرؤيا ؛ وفى الرؤيا علمنا أن هذا النائب كأكثر شبان العصر فى هذه المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدنية جعلتهم بين الفتيان « أنصاف متزوجين » على وزن «أنصاف عذارى» بين الفتيات ... وفى الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ويقال ممثلة — بينها وبين صاحبة القلب المسكين منافسة ...

أخشى أن يكون نقصا فى الحكم أيضاً ، فأنوه أنتم . يا حضرات المستشارين إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهى لا يظهر إلا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون

— المحامية : هـذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور . يا حضرة النائب ؛ من الذى لا يحمل شهوداً فى لسانه ويديه ورجليه ؛ بل ألف شاهد على ليلة واحدة . . . يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء فى لفظة (نائب) غير النون والباء فى لفظة (نبى)

— النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يُحرجنى فى الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيّرنى فى هذه الجريمة أنْ ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا ثلم الكرامة . فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . . .

— المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقُه فى هذه القضية فلعل المحكمة تأمر لى بكأس ... (ضحك)

— النائب : يا حضرات المستشارين . يعشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً بل عُرياً فى شكل ثياب . . . امرأة لا كالنساء ؛ كذبها هو صدق من شفتيها . لماذا ؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . . .

المحامية : تضحك . . .

— النائب بعد أن تتمتع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة فى العمل ، ورجلاً فى الكسب . . .

— المحامية : ولكنك لا تدرى تحت أى رحل سقطت [1] المسكينة . وقد يكون فى الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب ؛ ذات عظمة . . .

— النائب : يحب راقصة ، أى يضمها فى عقله الباطن ويشتهيها . نعم يشتهيها . فمن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته — تخرج الجريمة أو على الأقل فكرة الجريمة

والصيت الأدبى يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لمن يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة فى الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل العاشق تكون تحت قدمى المرأة المعشوقة كالممسحة الخشنة تمسح فيها نعليها

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيوانى للانسان هو الذى يهيىء من الحب مداخل ومخارج للشياطين فى جسمه . وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ، هل رضى بعشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، او رضى بقدر ما . فعلى كل ما يقوم فى نفسه مانع والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة

— المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها الى جنحة كما فى القانون الانجليزى . وقد قرر الشرّاح أنه مادام الرضى غير مستلبٍ بكله ، فالجريمة غير واقعة بكاملها

— النائب : جنحة كل قلب هى جناية من هـذا القلب بخصوصه ، على طريقة : «حسَنَات الأبرار سيئات المقربين» . والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية . وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً فى تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة فى هـذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة ...

— المحامية : قد نسيت أن هـذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البرىء

— النائب : إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال ؛ وهذا أشق عليه من العقاب باثنتى عشرة مادة وبعشرين وثلاثين

الرئيس : وما هى الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ، وبالسينما فتبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب ، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميمات ، ويمنع نشر صور الجمال فى الصحف والكتب ، و . . .

المحامية : قل فى كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لأصلاح القلب الانسانى

***

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها :

وأما هو ؟

(لها بقية — طنطا)

مصطفى صادق الرافعى

(1) هذه الكلمة لفكتور هيجو

الـــــريف

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

أرانى كلما فسد الجو ، وكثر تقلبه ، وعز الاطمئنان اليه ، أميل إلى الخروج إلى الصحراء أو الريف ، ولا أطيق القعود فى البيت ؛ ولست أعرف لهذا المزاج — الشاذ فيما أعتقد — تعليلاً يسكن اليه العقل وتستريح اليـه النفس . فأما أنه مزاج شاذ فأعرفه من صياح أهلى حين يروننى أرتدى ثيابى والمطر منهمر والريح تعصف ، وأهم بالخروج ؛ ولست أراهم يملون أن يقولوا لى : « يا شيخ ، ما هذا الجنون ؟ تخرج فى هذا المطر !! أما إن هذه لحكاية ! اقعد ... اقعد ... نضرم لك الفحم ، ونشوى « أبا فروة » أو نمص القصب ونحمـد الله على وقاية الجدران » فأهز رأسى وأقول : « ما أحلى هذا ! ولكنى لا أطيق المكث هنا على حى له بينكم ، ولست أحب أن أفارقكم لحظة ، وإنه ليعز على ألا تأخـذكم عينى فى حيثما أكون ، ولكن نفسى أمارة بالسوء ، أو بالحماقة ، أو بما شئتم غير ذلك . فاذا كنتم تحبوننى فتعالوا معى ... فان الفضاء رحيب ، والصحراء واسعة ، وهاتوا القصب معكم ، وأبا فروة أيضاً ... نضع هذا كله فى السيارة ونمضى بها ... قوموا »

ولكنهم لا يفعلون ، فأمضى وحدى وأعود بزكام أو برد ، ولكنى أعود مستريح النفس هادئ الأعصاب !

وقد كنت أقول لصـديق لى منذ بضعة أيام ، وهو من أصحاب العقول المثقفة ، والنظر البعيـد ، والغوص الشديد : « يا أخى ، لماذا لا يحب المصريون الريف ؟ »

قال : « وكيف لا يحبونه وهم لا يبرحونه ؟ »

قلت : « إنما أعنى أهل المدن — القاهرة مثلاً — قلما يخطر لهم أن يقضوا أيام البطالة والفراغ من العمل فى رحلة إلى الريف »

قال : « وأين تريد أن يذهبوا ، وليس فى الريف لغير أهله مذهب أو مقام ؟ »

قلت : « هذا هو سؤالى ... لو كان الناس عنـدنا يحبون الريف ويطيب لهم أن يقضوا فيه كل ما يسعهم أن يختلسوه من الوقت ، لتغير حال الريف ، وتكيف على مقتضى هذه الرغبـة ، وصار لغير أهله فيه مذهب ومقام »

قال : « ربما » وانقطع كلامنا فى ذلك

ولكنى لم أكف عن التفكير فيـه ، وقد أدرت عينى فى شعوب البحر الأبيض فاذا أكثرها كأهل مصر ، ليس لهم « غرام » أو « عشق » للريف أو ما يسمى « الطبيعة » ، فالروم والطليان والفرنسيون والأسبان ، كلهم على شاكلتنا : الحضرى منهم يبقى فى المدينـة ولا ينشد الريف أو يحن اليه ؛ والريفى فى قريته ، يندر أن تنزع نفسه إلى تركها أو التطواف بعيداً عنها . ولا نكران أن هجرة أبناء هذه البلاد إلى الأقطار الأخرى غير قليـلة ، وفى مصر وحدها منهم عشرات الألوف ، أو مئاتها ؛ ولكن الهجرة تجىء عن اضطرار لا عن رغبة ، والباعث عليها الحاجة ، فلا دخل لهذا فيما أقول عنهم من ضعف ولوعهم « بالطبيعة »

وأكثر الأجانب هنا يتخذون مساكنهم فى قلب المدينـة ولا يبعدون بيوتهم عن أماكن عملهم بعـداً يكلفهم مشقة أو يجشمهم عناء ونفقة ، ما خلا الانجليز ، فان الرجل منهم يكون عمله فى شبرا ، فيتخذ بيته فى أطراف مصر الجديدة أو فى الزمالك على النيل ، أو فى الجيزة على طريق الهرم ، ولا يبالى ما يضيع من الوقت فى الذهاب والاياب ، ولا يحفل ما يكلفه هـذا البعد من النفقة . وقلما يقضى يوم بطالة فى بيته إلا إذا كان مريضاً . وليس بالنادر أن ترى الواحد منهم يحمل فى سيارته خيمة وطعاماً وشراباً يكفيان أياماً ، وفراشاً أيضاً للنوم والجلوس ، وأدوات للعب ، ويذهب بذلك كله إلى السويس مثـلاً ؛ ولو شاء لأعفى نفسه من هذا العناء كله ، فان يعـدم فندقا يبيت فيه ، ولـكنه يضرب خيمته على ساحل البحر أو فى الصحراء ويقضى أياما ناعما بالعزلة والوحدة وبما حوله من وجوه الأرض أو الماء ، ويروح يمشى بضعة فراسخ كل يوم ... وقد يكون وحده ، فلا يشعر بوحدة ولا تخطئه سكينة النفس ، وقد يكون معه غيره ، فلا تراه — فيما يبدو لك — شاعرا بأنس يفتقده فى وحدته ، فكأن أنسه كله بالمحل لا بالرفقة .. ومن المتع التى يحرص عليها أن يكون له بيت أو كوخ — سيان عنده — فى مكان ريفى بعيد يذهب اليـه كلما وسعه أن يخلو من مشاغل العمل . فهو فى هذا نسيج وحـده . ولا يمنعه المطر أو الأعصار أن يخرج فى ثياب السهرة ليتمشى ويرقص ويحيى الليل على أسعد حال ، ولا

يقعده البرد في بيته كما يقعدنا — حتى في بلاده التي لا أعرف أسخف منها جواً ، ولا أبعد عن الاعتدال ، فهو هناك كعهدنا به هنا

وأهل الشام على خلاف أهل مصر ، فانهم كثيرو الخروج الى الرياض والبساتين ؛ حتى «قهواتهم» أو «مقاهيهم» . كما يريدوننا أن نسميها — قلما تكون إلا في بستان أو كما يقول ابن الرومي :

« في » ميادين يخترقن بساتيـ ـن تمس الرؤوس بالأهداب(1) .

ولا أعرف كما قلت تعليلاً لهذا الاختلاف في الطباع ؛ وأحسب أن اعتدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالموجود ولا يغري بغشيان غيره . ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس في المدينة ما يزهده فيها ويدفعه الى الخروج منها والتماس ما هو أخف محملاً ، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب ؟ ومما يساعد على القناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود ؛ فالذي يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يحظها فيها ؛ والمناظر في الريف واحدة أو هي متشابهة ، فلا جبال هناك ولا غابات ولا أحراج ، ولا غير ذلك مما يحرك الخيال فيحرك النفس ، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة ترجى . والريف من مصر قريب ، فهو معروف غير مجهول . والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل ، ولكن الانجليزي شأنه غير شأننا ، فأن جو بلاده دائم التقلب ، وهو مع تقلبه السريع سخيف غير مأمون ؛ وقد يكون هذا مما يدفع الانجليزي الى اشتياق الريف ويغريه بتصور سحره ويبعثه على التماسه ونشدانه حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأمم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج ، وجوها أقرب الى الاعتدال من جو الشمال ؛ ومن هنا فيما أظن مشاكلتها لنا في هذه الطبيعة ، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر في هذا

ولا نكران أننا نتغير . فكثير بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن ، ولكننا نفعل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة وبفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافز من الطبيعة . ومثلنا في هذا أمم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أمم الشمال كالانجليز والاسكندناويين والألمان ، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طباع ، وما هو بذاك

ابراهيم عبد القادر المازني

(1) البيت في الأصل « من ميادين الخ »

الخليفة العزيز بالله

وزوجه النصرانية وأصهاره البطاركة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس غريباً أن تقرأ في التاريخ الاسلامي أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانية أو أنه قد تزوج من نصرانية وله بين الأمراء النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب ؛ ولكن ربما يبدو غريباً أن يقترن خليفة مسلم بنصرانية تنتمي إلى أسرة من الأحبار ، وأن يكون له بين أحبار الكنيسة أصهار ، ولولده منهم أقارب وخؤولة : تلك هي حالة العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر ، ولد المعز لدين الله ، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر تتشح بصبغتها المذهبية العميقة ؛ بيد أنها رأت أن تتبع نحو الذميين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر ؛ وظهر أثر هذا التسامح جلياً في علائق الذميين بالدولة ، وفي ارتفاعهم إلى أرقى مناصبها ؛ بل نرى في خلافة المعز لدين الله وولده العزيز ثبتاً حافلاً من الوزراء والكتاب النصارى واليهود يحتلون أرفع المناصب في البلاط وفي الحكومة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهودياً اعتنق الاسلام ، وهو الوزير يعقوب بن كلس ؛ وفي عصر العزيز كان مدبر الدولة وكبير الوزراء نصراني هو عيسى بن نسطورس ؛ وكان متولي أعمال الشام يهودياً يدعى منشا ؛ وفي عهد المعز والعزيز أنشئت كنائس وأديار كثيرة ؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته في عصر العزيز حيث استولى الوزراء والكتاب الذميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذه السياسة المتطرفة في التسامح والعطف أثر سيء في المجتمع المصري ؛ وتنقل الرواية إلينا في ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم في طريق الركب الخلافي امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامة . فتناولها ، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزاراً ، وإذا في الرقعة ما يأتي : « بالذي أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى

ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتى ... » فأدرك العزيز ما انتهت إليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية فى مناصب الدولة ومرافق الأمة ؛ وسواء صحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى ، فان العزيز لم يلبث أن أدرك خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبة إمامتها الذهبية ، فانقلب إلى مطاردة الذميين ، وقبض على الوزراء والكتاب من النصارى واليهود ؛ ولكنه عاد فأفرج عنهم بعد أن اتخذ بعض الضمانات التى تكفل الحد من طغيانهم وإسرافهم فى سياسة الاصطفاء

وتجمع الروايات المعاصرة على أن جنوح العزيز إلى هذا الاسراف فى التسامح نحو الذميين يرجع من وجوه كثيرة إلى نفوذ زوجه أو سريته النصرانية ، وابنته منها الأميرة ست الملك ؛ وكانت فتاة عاقلة حازمة يحبها والدها العزيز ويستمع إلى نصحها فى كثير من الأمور ؛ وأخيراً إلى نفوذ صهريه أخوى زوجه ، وهما حبران كبيران تبوآ فى عصر العزيز أرفع المناصب الكنسية

* * *

وهذه القصة : أعنى قصة زواج العزيز من سيدة نصرانية ، قصة يمازجها شىء من الغموض والاضطراب ، وتنفرد بتفاصيلها الرواية النصرانية ، ولا تكاد تشير اليها الرواية الاسلامية ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه السيدة زوج العزيز أو سريته ، كانت جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير فى الدولة ؛ وكان لها أخوان هما ارسانيوس أو (أرسانى) وأريسطيس ، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه إلى ذرى المناصب الكنسية ، فعين أريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة ٣٧٥ هـ) وعين أرسانيوس فى نفس العام مطراناً للقاهرة ، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالاسكندرية (سنة ٣٩٠ هـ)[١] وكان لهذين الحبرين بلاريب نفوذهما فى بلاط يرتبط معهما بأواصر المصاهرة ، وفيه أختهما « زوج الخليفة » وابنتها منها الأميرة العاقلة المحبوبة ست الملك ؛ وكانت عند وفاة والدها العزيز فى نحو السادسة والعشرين من عمرها ؛ وقد حلت رسالته فى التسامح بعد ذلك فى فرص كثيرة ، ولا سيما بعد مصرع أخيها الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ

وتذهب الرواية الكنسية إلى أبعد من ذلك ، فتقول لنا إن هذه السيدة النصرانية هى أم الخليفة الحاكم بأمر الله ولد العزيز ، وتنفرد بهذا القول الرواية القبطية المعاصرة ، وتقول لنا بالنص ما يأتى : « وكان الملك العزيز بالله بن المعز لدين الله قد رزق ولداً من سرية له رومية وجلس فى الملك من بعده ، ولقب بالحاكم بأمر الله ؛ وكان للسرية المذكورة التى هى أم الحاكم أخ اسمه أرسانى فجعلته بعنايتها بطرك الملكية ... »[١] ولكن الرواية النصرانية تنقل الينا فى غير موطن أن هذه السيدة هى أم ست الملك ابنة العزيز دون الاشارة إلى أنها أم الحاكم ؛ فيقول لنا يحيى الأنطاكى مثلاً ، وهو مؤرخ معاصر تقريباً : « وفى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلثمائة صير اريستس خال السيدة ابنة العزيز بالله بطريركا على بيت القدس ، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية ، وصُير أخوه أرسانيوس أيضاً مطرانا على القاهرة ومصر »[٢] . ويقول لنا المكين بن العميد فى صراحة ووضوح : « إن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتا ؛ وكان للمرأة أخوان أحدهما اسمه أرميس (أريستس) صيره بطركا على بيت القدس ، والآخر أرسانيس صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر ؛ وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته »[٣] ، هذا بينما تلزم الرواية الاسلامية الصمت إزاء هذه المسألة كلها ، ولا تشير الى أم الحاكم إلا بأنها « الست العزيزية »[٤] . بل نرى المقريزى يشير الى ارسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الاشارة الى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك[٥] . ومما يبعث الى التأمل أنه إذا كانت هذه السيدة النصرانية هى أم ست الملك ، فان العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها وهو ولى عهد بالمغرب قبل سنة ٣٥٩ هـ — وهو تاريخ مولد ابنته — ففى أى ظروف حصل

(١) راجع المؤلف الكنسى (القبطى) المسمى « بسير البيعة المقدسة » والملحق بكتاب ساويرس بن المقفع (سير الآباء البطاركة) وقد اقتنت دار الكتب أخيراً منه نسخة فتوغرافية كاملة (رقم ٦٤٣٤ ح) وتاريخ الأنطاكى ص ١٦٤ و١٦٥ و١٨٥ ؛ والمكين بن العميد ص ٢٤٧

(١) المخطوط الكنسى المشار اليه

(٢) الانطاكى ص ١٦٤

(٣) ابن العميد ص ٢٤٧

(٤) راجع خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ٢٠٧

(٥) الخطط ج ٤ ص ٣٩٨

هذا الزواج أو التسرى ؟ وفى أى ظروف وقعت هذه الجارية الرومية المصرية فى يد البلاط الفاطمى بالمغرب ؟ هذا ما لا توضحه لنا الرواية ، ومن جهة أخرى فان الرواية الكنسية (القبطية) المعاصرة هى التى تنفرد بالقول بأن هذه السيدة هى أيضا أم الحاكم ، هـذا بينما تكرر الرواية النصرانية المعاصرة والمتأخرة أنها هى أم ست الملك فقط ؛ ولو كانت نفس الأم هى أم الحاكم ، وهو الخليفة وشخصيته أهم من شخصية أخته ، لما ترددت الرواية فى ذكر هذه الحقيقة . وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاما (سنة ٣٧٥ هـ) ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن يدعى محمداً وقد توفى طفلاً[١] ؛ وفى ذلك أيضا ما يبعث الى التأمل

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات أن نرتاب فى هذا القول الذى تنفرد به الرواية الكنسية ، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية كانت أما لست الملك فقط ، وان « السيدة العزيزية » التى تشير اليها الرواية الأسلامية بأنها أم الحاكم هى سيدة أخرى ، وأنها هى الزوجة الشرعية ؟ هذا ما نميل الى الأخذ به ، خصوصا إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى ، وهو موقف عطف دائما وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لهما ، وصمت الرواية الاسلامية فى هذا الموطن لا يمكن أن يحمل على أنه صمت تحفظ وإغضاء ، لأن الرواية الاسلامية تقدم الينا ثبتا حافلا من الخلفاء الذين ولدوا من أمهات من النصارى ، وفى مقدمتهم عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس

* * *

وتقدم إلينا الروايه النصرانية بعض تفاصيل عن حياة هذين الحبرين الكبيرين أريسطيس وإرسانيوس صهرى الخليفة العزيز بالله ؛ فتقول لنا إن الطائفة الملكية اشتد ساعدها فى عصر العزيز من جراء هـذه المصاهرة الملوكية ، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة ؛ وإن البلاط الفاطمى فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله ، وفى عهد مدبر دولته برجوان الصقلبى ، انتدب أريسطيس بطريرك بيت القدس ليكون سفير الحاكم إلى قيصر قسطنطينية باسيل الثانى فى سنة ٣٩٠ هـ (سنة ١٠٠٠ م) ، ولكى يعمل على عقد الهدنة والصداقة بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن استطالت الحرب بينهما فى الشأم منذ عهد المعز لدين الله ؛ فسار أريسطيس إلى قسطنطينية مع رسل القيصر ، وقام بالمهمة ، وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ، وأقام أريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى فى سنة ٣٩٤ هـ[١]

أما ارسانيوس فأنه لبث بطريركا للملكية زهاء عشر سنين ؛ وكان فى أواخر أيامه قد اعتزل الحياة ، فى دير القصير الذى شيد فى بعض ربى المقطم ، وعكف على النسك والتعبد ؛ وفى سنة ٤٠٠هـ (١٠١٠ م) حينما اشتدت موجة الاضطهاد الدينى التى أثارها الحاكم بقوانينه الصارمة ضد النصارى واليهود ، أمر الحاكم بهدم هذا الدير الشهير ضمن ما أمر بهدمه من البيع والأديار الأخرى ، فهاجمته الغوغاء ، وقوضت أبنيته ، ونهبت مقتنياته وآنيته ، وأخرج منه أرسانيوس مع باقى الرهبان الساكنين فيه ؛ وقضى أرسانيوس أشهراً أخرى فى بعض البيع حزيناً على ما أصاب قومه من الخطوب ؛ وفى ذات ليلة من شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ نفذ بعضهم إلى مكانه المتواضع وقتلوه سراً ، واحتوت ابنة أخته ست الملك على ما كان له من المال والثياب والذخائر المقدسة[٢] . ولم تحدثنا الرواية عمن قتله أو من أمر بقتله ، بيد أن فى هذا الحادث نفسه ما يبعث إلى الريب فى قرابة الحاكم بأمر الله بالحبر المقتول

تلك هى قصة زوج العزيز أوسريته النصرانية وقصة أخويها الحبرين البطركين ؛ وهى مصاهرة طريفة فريدة فى نوعها ، ولا تذكر لنا الرواية مثلاً آخر يرتبط فيه خليفة مسلم مع بعض خلفاء النصرانية برباط المصاهرة ، وإذا استبعدنا من الرواية ما يتعلق بالحاكم ونسبته لهذه الأم النصرانية ، فانه ليس ثمة ما يحمل على الشك فى جوهرها وتفاصيلها . بيد أن الرواية لا تحدثنا عن اسم هذه السيدة الرومية النصرانية التى سطعت فى قصر من أعظم القصور الاسلامية ، وفى ظل خلافة تطبعها الصبغة الذهبية بأعمق طابع ، ولا تحدثنا عن مصيرها

محمد عبد الله عنان

(١) النويرى — نهاية الأرب — النسخة الفوتوغرافية بدار الكتب ج ٢٦ ص ٦١

(١) الانطاكى ص ١٨٣ و ١٨٤ وابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ ، والمقريزى ج ٤ ص ٦٨ و ٦٩

(٢) الانطاكى ص ١٩٧ و ٢٣٧

صفحة من طفولتي

ترتبط بصفحة من حاضري

للأستاذ خليل هنداوي

« كان لي أخت فقدتها صغيرة أيام نكبة الحرب العظمى بالكوليرا . وما زال اسمها يطوى أيامي حتى استقر على صغيرة لي حلت مكان الأولى ؛ فكانت الأخت والبنت ؛ وكان لها اسمها ومقامها »

يالشد ابتهاجي حين أراها تخطر أمامي ووجهها يتدفق نوراً بالصفاء، وشعرها الأشقر يتموج كالشملة !

تملأ وحدها مكاناً وعلأ أخواها مكاناً ،

وتفعم وحدتي أنساً وقلبي محبة ؛

فلا ألحها إلا ضاحكة ، ولا أسمعها إلا مهللة ! . . .

كأنها ضحكة انطلقت بها الحياة ،

أو بسمة انجلت عن معنى الرضا .

أناديها باسمها ، فيهزني اسمها لأنه وليد ذكرى أليمة ترتبط بها ذكريات . أراها فأرى فيها صاحبة هـذا الاسم أيام كانت تحيا بجانبي وتصـل طفولتي بطفولتها ، أيام كانت تتعانق أحلامنا وتتلاقى آمالنا . . .

أرى فيها صاحبة هـذا الاسم طفلة كما كانت بالملامح التي كانت . ولـكن العين التي أرى بها قد اختلفت وزالت عنها معاني الطفولة ! ولـكني أراها وألمسها وأعانقها فأرى أن سلسلة هذا الزمان الطويل لم تكن خلال ذلك منقطعة ، لأنها استطاعت أن تثبت لي اتصال الموت بالحياة ، واستطاعت أن تعيد لي الميت باسمه وروحه !

أراها تخطر أمامي واثبة أو متهادية ، ويراها من معي بعينه كما أراها ، ولـكن عين الذكرى تمتد إلى أبعد من هـذا الحد ، فتراها متصلة بذكريات بعيدة الأمد ، تحملها كما تحمل عيناها نور غدها . تراها تحمل إلى شيئاً من طفولتي المطوية ، أناديها باسمها فأرى « يسرى » الأولى التي كانت تخاف كثيراً من الدخان كأنما صفاء روحها لا يحتمل أن يرى السواد يغشى السماء الزرقاء والتي كانت لا تجـد وسيلة إلى إهداء سلامها إلى أبينا الجندي إلا القمر !

كانت في الخامس من ربيعها يوم زحف الهواء الأصفر بجنوده وويلاته ، يغشى المدينة فيأخذ منها جنوداً ، ويدخل البيت فلا يرضى إلا بكبشين أو ثلاثة ! أو بكل ما تنفس بحياة . كنا نسمع بصفقته فنخشى ريحه ، ونرتاع من صوته ونحذر أن نلقاه في مكان ؛ ولـكنه كان يمشي ولا يرى ، ويدخل ولا يحسه أحد . فأنشب مخالبه في أخي الصغير . فـكانت « يسرى » تخشى الدنو منه ، ولـكنها كانت تسمع من الجارات يقلن لأمه : « إنه سليم لأن يديه لم يزرقا .. خافي من زرقة اليدين فهي علامة الموت » وما مر على الصغير ساعات معدودة حتى سقطت « يسرى » التي كانت تحذر وتبالغ في الحذر على صغرها ، لأنها تفهم الموت شيئاً مروعا . وكانت أمنا تجاهد فينا لا تخشى أن ينشب المرض مخالبه فيها ، وما غلبته إلا بقوة اعتقادها وإيمانها . فحنت على سرير « يسرى » وقد رأت أخاها نجا بمعجزة ... ولـكن يسرى تتأمل في يديها فترى أن الزرقة أحاطت بهما فتقول لأمها : « ها إنني أموت ، لأن يدي مزرقتان ..» فتواري الأم وجهها لتذرف دمعتها بعيدة عن عينيها ! « إنني لن أشفى يا أماه لأنني لا أرى في جسدي إلا الزرقة . » هاتي لي ثياب العيد — وكان العيد بعد أسبوع — من خزانتي ، أريد أن ألبسها كلها . هاتي ردائي الأحمر الذي أرسله إلي والدي من القدس . » لبست ثيابها واغتبطت برغم الألم، ثم أخذها ذهول عميق عقبه سكرة الموت ، ولبثت حتى حان وقت وقوعها في الداء ، فأسلمت روحها ولما يتنفس الفجر ! فبكت أمنا بهدوء يشقه بعض شهقات ، تحاول ألا نسمع وكنا نياماً ، وهي تخشى على أخي النكسة ، حتى طلع النهار — وأوصت حفار القبور

تتراءى لي هذه الصفحة الأليمة فأراها واضحة السطور على رغم القدم ، وأذكر أنني نهضت فوجدتها كتلة زرقاء هامدة لا تنبض بالحياة ، فروعني ذلك ولـكني لا أذكر كيف بكيت ؟ فمشينا إلى المقبرة وهي على يدي الحفار لا يمشي خلفها إلا ثلاثة : أمها وجدتها وأنا ، أعدو خلفهما حافي القدمين ، ولـكني أرى من وراء ظهر الحفار رأسها الملتف وقدميها الملتفتين . وكيف يمشي

أحد ممنا والناس لا هون بموتاهم . فوجدنا على باب المقبرة ولداً لا أهل له يوارونه التراب وكان اللحد ضيقاً ، فطووا قدميه بالعنف حتى يتسع اللحد له ! فشينا حتى أدركنا لحدها وكان واسعاً ، فقالت أمها :

إنه كثير السعة وهي صغيرة .

وسدّوها اللحد وهالوا على وجهها التراب . وكنت أظن أن وجهها توارى الى الأبد . فعدنا وأخذ النسوة يعزين والدتي قائلات :

— اشكري الله على نجاة الصبي بهذه الفدية

ولعل هذه التعزية كانت مما تخفف عن الأم لوعتها ولكن مكان الولد لا يسد

« لكلٍّ مكانٌ لا يسد اختلاله »

بلى ظننت أن وجه يسرى قد توارى الى الابد

ولكن هاهي ذي الحياة تتمخض مرة جديدة عن «يسراى»

تعيدها إلى ابنة لا أختاً ؛ تعيدها قطعة من كبدى

لا أحفظ للاولى صورة ، ولا أذكر من ملامحها شيئاً ، ولكن جدتك — يايسراى — تقول لى : إنها عادت بملامحها ونضرة وجهها وكأنها هى . وإنها لا ترى فيك إلا ابنتها . . .

فأهلاً بك أختاً وبنتا !

وأهلاً بك ياشملة حياتى !

خليل هنداوى

في الأدب المقارن

الأدب العامي

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

بداوة الأمة هي عهد طفولتها : فيها يكون أدبها ساذجا على صدق عاطفته ، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره ؛ ويشبه دخولُ الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغَ الناشىء الحلم : إذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها عما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها ؛ ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب في آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة ؛ على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق ، فأنه يصير للأمة المتحضرة أدبان : أدب راق للخاصة وأدبَ عامي للدهماء ؛ ولاريب أنه كلما ازداد انتشار التعليم في الأمة كان ذلك كسبا للأدب الراق ؛ ولم توجد بعد الأمة التي يتوحد فيها الأدبان

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفُّه المجتمع : فتدخل الأدب الراقي النزعة العلمية ، وترتقي لغته وتتسع جوانبها ، وتتهذب لهجته وترق حاشيته ، ويزداد تراثه من جيل الى جيل لاستعانته بالكتابة ؛ أما الأدب العامي فيتداول بالرواية ، ولذا يظل في تجدد وتحول وزيادة ونقص ؛ تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها ، وتترك فيه العصور المتوالية مياسمها ، ويظل ساذجا كأدب البداوة الأولى : يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة ، ويتحدث بأحلام النفس الانسانية في السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمال والقوة والحق والفضيلة ، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التي تتمتع بها الطبقة العاملة

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك : ساعد على قيام الأدب الراقي اعتداد أشراف العرب بأدبهم القديم ، وتمسكهم بلغتهم ، وانتشار الثقافة والعلوم التي وَرَدَ مناهلها فريق من الأمة دون فريق ؛ وساعد على ظهور الأدب العامي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام . وصار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتثقفوا وامتزجت اللغة الانجلوسكسونية باللاتينية ، واستخدمت في العلوم والآداب ، وتوطدت قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق . فانفصال الأدبين الخاص والعامي أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية في الأمتين : ظهر الأدب العامي في العربية بفساد اللغة الفصحى وانحطاطها ، وظهر الأدب الفصيح في الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها

تختلف الأمتان في هذا ، وتختلفان أيضاً في علاقة الأدبين الفصيح والعامي في الأزمنة التالية لانفصالها : ففي العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما ، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه ، بل تجاهله لوجوده ؛ أما في الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب ، والاتصال أوثق ؛ وظل للأدب العامي دائما للمثقفين اعتبار ، ورحب به الأدب الفصيح مراراً وخالطه بنفسه ، واقتبس أساليبه وصوره ، واصطنع مواضيعه ونغماته ، فأفاد بذلك فائدة كبرى

فالأدبان الفصيح والعامي وإن اختلفا تهذُّبَ لغة واستقامة تفكير وعمق نظرة وتنوُّع أشكال ، يستقيان من معين واحد ، هو النفس الانسانية ، عيوبها وأحلامها وآمالها . وإذا امتاز أولها بصفات هي وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقي والعلم المنظم ، فأن الثاني يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التي هي مرجع كل فن ؛ والأدب الفصيح عُرضة من آن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر ، وظهور التأنق والتحذلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل ، فهو بحاجة دائما الى العودة الى الطبيعة ، وخير سبيل له اليها الأدب العامي ، إذا نقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره

ظل للأدب العامي في انجلترا دائماً اعتبار ، وظل كبار الأدباء مهما سمت ثقافتهم واتسعت نظرتهم إلى الحياة على علم به : فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصاً سائغاً ضمنوه آثارهم ، والتقطوا من كنوزه ألفاظاً معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها ؛ وأتيح للأغاني الشعبية من حين إلى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصل إلى عهودهم منها ، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء ،

يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها فى الأسلوب والنظم

وكان لتلك الأغانى فضل عظيم فى بعث النهضة الرومانسية فى أوائل القرن التاسع عشر ، بعد أن اختنق الشعر فى جو المدينة وأثقلته قيود الألفاظ والتقاليد ؛ فقد انصرف جمهور المتأدبين عن ذلك الضرب المتكلف من النظم إلى مجموعات الأشعار الشعبية التى توفر على جمعها ونشرها إذ ذاك نفر من الأدباء ، وضمنوها ما وصل إليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى فنازلاً ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب الطبيعة ووصف مناظرها ؛ وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير فى تلك الحركة ؛ فقد أخذ الكثير من الأغانى من أدبها العامى ، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم

ومن الاسكتلنديين أيضاً كان الرعيل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم فى التغنى بالطبيعة وحياة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغابرة ؛ ومن أولئك ألان رمزى وروبرت برنز والترسكوت . وقد كان ثانى هؤلاء فلاحاً قحاً ، فعبر فى شعره عن حياة فلاحى اسكتلندا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم ؛ أما الثالث فقد كان على نقيض ذلك أرستقراطياً سليل أسرة تمتُّ إلى فرسان العصور الوسطى ، فاحتفى شديد الاحتفاء بالأغانى الراجعة إلى تلك العصور ، وازداد شغفاً بالأغانى الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية ، فطاف فى اسكتلندا طلباً للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لأشعاره وقصصه التى رفعته فى زمنه وبعده إلى مصاف كبار الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة فى القارة الأوربية

وفى هذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلى وكيتس ، وهذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغانى الشعبية هى التى أوحت إليهم أشعارهم البديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف . وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيده ، واختيار أشخاصه من بين الريفيين والدهماء ، واستعمال ألفاظهم بذاتها فى شعره ؛ وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط فى كتابه « الأغانى الشعرية » الذى أخرجه بالاشتراك مع كولردج ، وصدَّراه بمقدمة شرحا فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغانى والأقاصيص العامية

ووجد الأدب العامى لنفسه مسلكا جديداً إلى الأدب الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق ، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقلياتها بالعرض والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم فى الخطاب ؛ وفى روايات هاردى تصوير لكل ذلك دقيق لا يبارى دقة ونفاذ بصيرة ؛ وهكذا كسب الأدب الفصيح كسباً جديداً من الأدب العامى

أما فى العربية فكان نصيب الأدب العامى دائماً الزراية والتجاهل ؛ وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفسه التخلص من شوائب العامية لفظاً ومعنى وأسلوباً ، وشر ما يوصم به لفظ أنه عامى ، أو معنى أنه سوقى ؛ وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء متسم بالسذاجة ، أو يطوف فى الأرض طلباً لذلك كما طاف سكوت وأمثاله فى شعاب اسكتلندا ؛ إنما كان أدباء العربية يشدون الرحال إلى البادية طلباً للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب ، والمأثور من أقوال العرب يُتّخذُ حجة فى المناظرة ، وأنموذجاً فى الانشاء ، وقد عيب على بشار قوله فى جارية :

ربابة ربة البيت   تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات   وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعا بسيطاً عامياً وتحدث فى سذاجة لا تليق بالشعر الفصيح . وإنما كان الأدب العربى فيما ارتضى له أصحابه ، واستن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوقة ، ونديم أرستقراط يشارك فى حياة العلية ويشمخ عمن دونهم ، ولا يرى فى حياة الدهماء وحيا لقول ، ولا موضوعا لتفكير ، فلم يكن من شعراء العربية من يحتفى بوصف أشخاص قريته كما فعل جولد سميث فى « القرية المهجورة » وصفا كله حب وحرارة ، ولا من رثى أبناء القرية فى مراقدهم الأخيرة ، وهم الذين أفنوا العمر كداً دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو يصمدوا إلى المجد على أكتاف غيرهم أو دمائهم ، كما فعل جراى فى مرثيته

وقد أثر عن بعض شعراء العربية كأبي نواس وأبي تمام ، أنهم كانوا يتلقفون أحيانا أقوال العامة فيصوغونها شعراً ، كالذي رواه ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده إلى قوله : « وأحسنُ من نَور يفتّقه الصَّبا » وأرتج عليه ، حتى مر بالباب سائل يقول : « من بيض عطايا كم في سواد مطالبنا » ، فأكمل أبو تمام البيت : « بياض العطايا في سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادراً ضئيل الأثر . أما الاحتفال للأدب العامي ، ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة في جمعه ، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيداً جداً عن أذهان أدباء العربية

لم يستفد الأدب العربي الفصيح من شقيقه العامي شيئاً ، مع أنه كان أحوج كثيراً من الأدب الأنجليزي إلى تلك الاستفادة ، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه : فقد أبى الأدب العربي إلا اعتزال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتعالى عليه تعاليه عليها ؛ ورأى المسعودي وابن النديم نسخاً من قصص ألف ليلة وليلة ، التي بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها ، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقرية الأديب أو لقاحا للأدب ، سخرا من الأقاصيص الشعبية في القرن الرابع الذي كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والتقاليد قد كبلت المنظوم والمنثور ، ولو التفت الأدباء إلى ذلك الأدب الشعبي الناشيء واستوحوه جديداً من القول ، لربما شهد الأدب العربي نهضة جديدة وإحياء كالذي شهده الأدب الانجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه

والحق أن الأدب العربي العامي قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح ، بل إنه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته وأقرب إلى التعبير عن الشعور . والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربي ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربي وخلاصة النفس العربية في تعاقب العصور ، والأدب العامي أصدق وأوفى منه في كل ذلك

فالأدب العامي حافل بآثار الخيال ؛ مملوء برائع القصص ، وهو ما يعوز الأدب العربي الفصيح منثوره ومنظومه ؛ فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألفه أدباء العربية ، والخيال الذي أولع به الشعراء واشتهر به البحتري خيال كاذب ، إنما هو وهم ومغالطات صبيانية : من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها ؛ ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها إلى لغة الفكر المثقف والوضع المهذب ، فأضافوا بذلك إلى الأدب فناً يجد فيه متحولاً عن فنونه المتيقة

والأدب العامي حافل بضروب الأوزان والقوافي الشعرية المتداخلة ، وهي الأشكال التي رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة الموحدة القافية ، وأبعدها عن حظيرته فالجأت إلى حظيرة الأدب العامي ؛ على أن تلك الوشحات التي راجت في الزجل دون الشعر أدل على الرقي الأدبي وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فتلك فائدة أخرى ما كان أحرى الأدب الفصيح أن يستفيدها من الأدب العامي ، ولكن الأرجح أن ذيوع تلك التوشيحات في أدب العامة زاد الأدباء صدوداً عنها فيما يحتفون به من أغراض القول

وأسباب هذا الجفاء الذي استحكم بين الأدبين الفصيح والعامي في العربية هي : روح المحافظة التي سادت الأدب الفصيح ، والتبجيل العظيم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغة الضاد التي هي لغة الكتاب المنزل والدولة ؛ وهي عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب في صدر الاسلام بقوميتهم وتعاليهم عن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أساليبهم ؛ كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامي سوقي حقير لاقيمة له ، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن ، وكل احتذاء لها مهما أرهقه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس ، فهو مقبول ممدود في الأدب ؛ هذا إلى ماتقدمت الاشارة اليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة

فالأدب الفصيح استحال في حيز تلك التقاليد والمراسيم إلى

قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبة ، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج ، لا يتأثر إلا بماضيه . بتراث العرب الأقحاح الذين قصدوا القصائد ونسبوا وفخروا وهجوا وارتجلوا الخطب ؛ وتلك حال إذا صار اليها الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها . وشبيه بذلك ماصار اليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزيغ عن الحقيقة ، حين كبلتها الأوضاع والرموز الدينية

وقد أصبح لزاما على الأدب الفصيح وقد كبلته التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصناعة بالسدود ، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمع للادب العامي ، وذلك هو الذي تم دون أن يشعر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبريائهم وترفعهم عن الشعب . فظلوا في تقاليدهم الجامدة وبراعاتهم اللفظية سادرين ، وقد نما الأدب الشعبي واتسع ، وحوى من صادق المشاعر والعواطف ، وجيل المحاورات والمناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح ، وماقربه إلى نفوس الشعب وإلى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوربيون من عهد الحروب الصليبية إلى ما في الأدب العربي من جمال وعبقرية ومتعة ، فتداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها في آدابهم الشعبية وخلطوها بها ، وترجموا مجموعات منها إلى لغاتهم في شتى الأزمنة ، ولم يألوها حفاوة وامتداحا ، وعرفوا فضلها في إدخال العنصر الرومانسي في آدابهم العالية ، وهي نفس الوظيفة التي أداها أدبهم الشعبي ؛ أما موقفهم من الأدب العربي الفصيح فكان خلاف ذلك : فأنهم كلما حاولوا دراسته والانتفاع به في آدابهم صدهم عنه ما فيه من غرابة معان متكلفة لا تمت إلى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف ألفاظ يحتفي بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فاذا ترجمت لم تعد شيئاً مذكورا ، فرجعوا خائبين وعَزَوْا تلك الغرابة إلى اختلاف عقليتي الشرق والغرب ، وما هو كذلك وإنما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية ، شرقية كانت أو غربية

فالأدب العربي العامي قد احتوى من عناصر الصدق في الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد لقي الاهمال والازدراء من المثقفين وخسر الأدب الفصيح معونته في العصور الماضية ، وهو إن لم يكن أحرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه في تلك الوجوه ، وهو خليق أن يدرس معه جنباً إلى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى العصور ، ففيها هي ذاتها متعة جليلة ، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقصصي ما يبعث الالهام ، ويبسط منادح التفكير والقول ، ويدني من الطبيعة والصدق

فخري أبو السعود

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٨ —

انتهى بنا الحديث فى المقال السابق الى بيان أثر نظرية النبوة الفارابية فى القرون الوسطى . ويظهر أنها لم تقف عند هذا الحد بل جاوزته الى التاريخ الحديث . ونرى واجباً علينا لاتمام هذا البحث أن نشير الى بعض المفكرين المحدثين فى الغرب والشرق الذين حاولوا تفسير النبوة تفسيرا يمت بصلة الى النظرية الفارابية ؛ ولن نتحدث من بين فلاسفة الغرب إلا عن اسبينوزا الذى أشرنا فى بحث سابق الى أنه يلتقى مع الفارابى فى نقط كثيرة (١) . وأما مفكرو الشرق ومصلحوه فسنذكر من بينهم شخصيتين جليلتين كانت لهما اليد الطولى فى نهضة الأمم الاسلامية الأخيرة وتقدمها العلمى والأدبى ، وهما السيد جمال الدين الأفغانى والأستاذ الامام . ولا نظن أحدا الى الآن حاول أن يربط آراء هذين المصلحين ربطاً وثيقاً بنظريات علماء الاسلام الأول ومفكريه ، اللهم إلا محاولات ضئيلة ترمى الى إيجاد علاقة بينهما ، أو بين الأستاذ الامام بوجه خاص من جانب وابن قيم الجوزية وابن تيمية والغزالى من جانب آخر (٢) . وإذا صح أن آراءهما الدينية قد ربطت بأقوال بعض أئمة السلف فأبحاثهما العقلية لا تزال حتى الساعة غير واضحة الصلة بنظريات فلاسفة الاسلام . وخطأ أن يظن أن هذه الصلة مقطوعة أو معدومة ، فأن السيد والامام إنما تم تكوينهما أولا وبالذات على حساب المصادر العربية ؛ وفى مجلة العروة الوثقى ما يشهد بأنهما كانا يدعوان الى دراسة فلاسفة الاسلام وتفهم أفكارهم (٣) . وسنرى بعد قليل كيف يلتقيان فى مشكلة من أهم المشاكل الاسلامية

(١) مدكور ، الرسالة ، عدد ١٧٢ ، ص ١٦٦٨

(٢) I. Segach, Muhmed Abdo, dens Enqyc de. l,lslam

(٣) العروة الوثقى ، المقالة الرابعة

كانا يعلم أن للصلة بين العقل والنقل بين الفلسفة والدين شغلت الفلاسفة المحدثين كما كانت حجر الزاوية فى فلسفة القرون الوسطى . وقد وقف اسبينوزا على هذا الموضوع كتابا مستقلا غير معروف من جمهور القراء ، لأن نفوذ كتابه الآخر المشهور « الأخلاق » غطى عليه ، ونعنى به « رسالته الدينية السياسية » التى تتمم فى رأينا مذهبه الفلسفى . ذلك لأنه إذا كان « كتاب الأخلاق » يوضح الحقائق العقلية ، فأن هذه « الرسالة » تشرح الحقائق النقلية . وهذان الضربان من الحقائق متميزان عند اسبينوزا ومستقلان تمام الاستقلال ويقابلان علمين منفصلين : الحقيقة العقلية موضوع الفلسفة ، والحقيقة النقلية موضوع علم الالهيات ؛ واسبينوزا فيلسوف وعالم فى الالهيات فى آن واحد ، فلا يستطيع أن يلغى إحدى هاتين الحقيقتين ولا أن يدمجها فى الأخرى ، بل يقرر أن كل واحدة منهما ضرورية ومطلقة النفوذ فى مضمارها ؛ والدين إن لم يكن الحقيقة كلها حقيق فى ذاته ولا غنى للجمعية عنه (١) . غير أن الحقيقة الدينية تعتمد رأساً على الوحى والالهام ، فكيف يتم هذا الوحى وبأيه وسيلة يستطيع الأنبياء الوصول إليه ؟ هذا هو السؤال الذى حاول اسبينوزا أن يجيب عليه . وفى رأيه أنا إذا تتبعنا الكتب المقدسة جميعها وجدنا أن الالهامات النبوية المختلفة سواء أكانت عبارات صريحة أم صوراً رمزية إنما تتم بواسطة مخيلة قوية (٢) . وعلى هذا لا تتطلب النبوة شرطا آخر سوى أن يكون الأنبياء ذوى خيالة نشيطة متنبهة (٣)

لا يمكننا أن نمر بهذه الآراء دون أن نفكر على الفور فى الفارابى وفى الدراسات الفلسفية اليهودية فى القرون الوسطى . حقا إن المعرفة الناتجة عن الوحى والالهام لا تساوى فى نظر اسبينوزا المعرفة العقلية ، مع أنهما عند الفارابى متساويتان متكافئتان ؛ ولعل هذا راجع إلى أن اسبينوزا فيلسوف قبل أن يكون لاهوتياً ، وديكارتى قبل أن يكون فارابياً ؛ ولا شك فى أن الأفكار الواضحة النيرة هى وحدها عند ديكارت سبيل المعرفة

(١) Brochord, Etnds, 336 — 337

(٢) Spinoza, Traité théologieo. politique, p. 18

(٣) Ibip., p, 24

اليقينية غير أنه بالرغم من هذا الخلاف فمن المسلم أن الفيلسوف العربى والفيلسوف اليهودى متفقان على أن قوة الخيالة شرط أساسى فى النبوة . وهنا نتساءل : هل هذا الاتفاق مجرد مصادفة أو أخذ اسبينوزا عن الفارابى بعض آرائه فى النبوة ؟ إذا ما لاحظنا أن الأول درس فى عناية مؤلفات ابن ميمون أمكننا أن ندرك الصلة بين الأفكار الاسبينوزية ونظرية النبوة الفارابية . ونحن نلحظ من جهة أخرى أن مذهب السببية عند الفيلسوفين متحد ، وأنهما يقبلان فكرة التنبؤ بالغيب دون أن يكون لها أى أثر فى مجرى القوانين الطبيعية . ففى مقدور ذوى النفوس الممتازة أن يقفوا أثناء اليقظة أو فى حالة النوم على الأمور المستقبلة ويتكهنوا ببعض الحوادث التى ستحصل غداً أو بعد غد لا محالة [1] . وعلى كل حال فنحن لا نذهب مطلقاً إلى أن اسبينوزا أخذ عن الفارابى مباشرة ، لأنه ما كان يعرف العربية ؛ وبعيد أن يكون قد وقع فى يده شىء مما ترجم من كتب الفارابى إلى اللاتينية . وكل الذى نعتقده أنه استقى بعض الأفكار العربية من مصدر ثابت هو كتاب « دلالة الحائرين » لابن ميمون ، وفى هذا الكتاب ، كما قدمنا قسط وافر عن نظرية النبوة

ولنعد الآن مرة أخرى إلى الشرق وإلى السيد جمال الدين الأفغانى والأستاذ الامام بوجه خص . فأما السيد فلم يخلف لنا مؤلفات كثيرة نستطيع أن نقرأ فيها كل أبحاثه ونظرياته ، وفيما وراء « رسالته فى الرد على الدهريين » ، و« تاريخه للافغان » لا نكاد نجد له إلا مقالات متفرقة فى « العروة الوثقى » وفى بعض الصحف والمجلات الموجودة فى ذلك العهد [2] . وكأنما اكتفى بأن يلقن أتباعه وتلاميذه تعاليمه دون أن يودعها بطون الكتب شأن سقراط وطائفة من المصلحين . هذا إلى أن حياة الاضطراب والرحلة والانتقال التى قضاها ما كانت تسمح له بالهدوء الكافى للجمع والتأليف . ومهما يكن فقد أدلى فى موضوع النبوة بآراء جديرة بأن تسرد هنا . وذلك أنه أثناء مقامه الأول فى القسطنطينية سنة ١٨٧٠ دعى إلى إلقاء محاضرة فى دار الفنون . ويظهر أنه شاء أن يكون موضوع المحاضرة متناسباً مع المكان الذى ألقيت فيه ، ولهذا تحدث عن فائدة الفنون . وفى خلال هذا الحديث شبه الجمعية بجسم مرتبط الأجزاء والأعضاء ، ولكل عضو من أعضائه خاصة . ثم انتقل من هذا إلى أنه لا حياة للجسم إلا بالروح ، وروح هذا الجسم هى النبوة أو الحكمة . فالنبى والحكيم من الجمعية الانسانية بمنزلة الروح من البدن . وكل ما بينهما من فارق : هو أن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده « والله أعلم حيث يجعل رسالته » فى حين أن الحكمة تنال بالبحث والنظر . وفوق ذلك فالنبى معصوم من الخطأ والزلل ، بينما الحكيم يجوز عليه ذلك ويقع فيه [1] وأول شىء يستخرج من التشبيه السابق أن النبى عضو وعضو هام من أعضاء الجمعية الانسانية ، وأن النبوة مهنة ووظيفة من الوظائف الضرورية للمجتمع . وفى هذا ما هيأ السبيل لشيخ الاسلام حسن فهمى أن يثيرها شعواء على السيد متهما إياه بأنه يزعم أن النبوة فن ، وأن النبى صانع . وقد أحدثت هذه التهمة ضجة عنيفة فى صحف الشرق المختلفة ، وترتب عليها أن أرغم السيد على مفارقة استامبول سنة ١٨٧١ [2]

(التتمة فى العدد القادم) ابراهيم بيومى مدكور

(١) Brochard, Etudes, p. 335

(٢) Goldziher, Gyamâl al Dìn dans, Encyc qe l'Islam t. I. p. 1039

(١) Ibid., 1037—Browee The Tersian Bexolution, p.7

(٢) جورجى زيدان مشاهير الشرق ج ٢ ص ٥٤ — ٦٦

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى
مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت : بنى ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء ومساعده كارول بيتا صغيراً وأناما فيه ثلاثة رجال ، الطبيب كوك والجنديين فوك وجرنجان ، أناماهم فى أقمصة الموتى بالحمى وفى دمائهم ، فلم تصب الحمى أحداً منهم . إذن فالحمى لا تنتقل من ثياب المرضى ولامن قذرهم ، وإنما من البعوض . وخشية أن تكون الحمى لم تصبهم لأنهم بطبيعتهم حصينون ، حقنا أحدهم بدم مريض ، وسلطا على الآخر بعوضة وبيئة ، فجاءت الحمى كليهما

— ٥ —

وبينما هذه التجارب تجرى كان رجل غير جندىّ من أهْيُو Ohio [١] كاسف البال حزيناً . هذا جون موران John Moran الذى انتصب له ريد قائماً ورفع له يده بالسلام . تذكُرُ أنه تطوع « فى سبيل العلم والانسانية » ورفض بتاتاً أن يأخذ أجراً ، وقرصته بعوضة الحمى ذات الأقلام الفضية البيضاء ، وبعد ذلك قرصته مراراً بعوضات مختارات تحمل السم نقيماً فى بطنها ، ولكنه صمد وا أسفاه لكل هذا وظل صحيحاً سليما . لحار ريد ماذا يصنع به

ثم أسعده الخيال فقام فبنى له بيتاً صغيراً ثانياً إلى جانب ذلك البيت الكريه الأول ، وكان هذا البيت الجديد على نقيض جاره القديم . فكانت له نوافذ فى قبالة الباب حتى يجرى فيه الهواء ، وكان بارداً ، وكان به سرير لطيف نظيف عُقِّم فراشه بالبخار . وعلى الجملة كان منزلاً ترضاه الصحة غاية الرضاء ، فكأنما بُنِى خصيصاً لمسلول يعيش فيه ليطيب ؛ وأقام فى وسط البيت ستراً من ثوب شفٍّ دقيق ضاقت فروج نسجه فلا تأذن لأصغر بعوضة أن تنفذ منها . ونال الستر من البيت عدا الحائطين سقفه وأرضه

وفى اليوم الحادى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٠ فى الساعة الثانية عشر ظهراً دخل البيتَ مُورانُ بعد استحمام ، وليس عليه من الثياب غير قميص فضفاض للنوم ؛ ومضت خمس دقائق ، فجاء ريد وكارول بوعاء من زجاج فتحاه فى البيت فخرج منه خمس عشرة من بعوضات أنثيات عطشى تطنّ حنيناً إلى شربة من دم . وكانت كل واحدة من هذه الخمس عشرة شربت فى أيام مختلفات قبل هذا من دم صِبيةٍ صفر الوجوه فى مستشفى لاس أنيماس

دخل موران إلى هذه الحجرة النظيفة الصغيرة بعد استحمامة فى قميص واحد ورقد على سريرها النظيف وانتظر القدرَ الذى يكون . هذا موران ، فهل يسمع به أحد من الناس الآن ! وبعد دقيقة طن البعوض حول رأسه . وبعد دقيقتين قرصه البعوض . وفى ثلاثين دقيقة كنت تراه راقداً سطيحاً وفى جلده عدّة وخزات وخزها إياه البعوض وهو صاغر مستسلم لا يؤذن له حتى فى شفاء غليله بدق هذا البعوض

وعاد للقرص فى منتصف الساعة الخامسة من نفس اليوم ، وعاد إليه مرة ثالثة فى غد اليوم ليعطِى الفرصة لأناث البعوض التى لم تعثر عليه فتمصه ، لتعثر عليه وتمصه حتى تشتفى منه . وكان إلى جانب موران فى النصف الآخر من البيت شابان يعيشان فيه لا يفصلهما عن موران وعن بعوضه غير الستر الشفاف ، وعاشا فى هذا النصف ثمانية عشر شهرا فى سلام

أما موران ففى صبيحة عيد الميلاد [١] من عام ١٩٠٠ استقبله العيد بالهدايا الآتية : وجع ينبض فى رأسه ، وحمرة فى عينيه يزيدها نور الشمس ألماً ، وهمود بلغ منه حتى عظامه ؛ لقد هدّه البعوض شرّ هدّة ، وأطاح به حتى كان من الموت على قيد شَعره ؛ ثم أخذت الأقدار بيده فحمد اللهَ ريدُ على أنه اشتفى ، ولكنه اشتفى ليعيش فى خمول ذكر ما استحقه أبداً ، وعلى كل حال فقد نال أمنيته — فى سبيل العلم والانسانية ؛ والنتيجة أنه هو وفوك وجرنجان وكوك وكل من تطوع معهم أو أُوجر ، كل هؤلاء أثبتوا أن البيت الأول بيتَ الكرب والهول خلا من البعوض فخلا من كل خطر برغم قذره ، وأن البيت الجميل النظيف الثانى دخل إليه البعوض فدخل إليه كل خطر برغم

(١) بلدة بالولايات المتحدة وقد ذكرناها سابقاً

(١) هو ميلاد المسيح وهو يوم ٢٥ ديسمبر

أناقته ونظافته . ووقع ريد أخيراً على جواب كل سؤال فى معضلته الكبرى ، وكتب فى أسلوبه العتيق يقول : « إن أول شرط يجب توفره فى بناء ليكون وبيئاً بالحمى الصفراء أن يحل فيه بعوض عض من قبلُ مرضى بالحمى الصفراء »

كلة ماأبسطها . وكلة ما أصدقها . وانتهى الأمر وكان ماكان . وكتب ريد إلى زوجه : « إن الدعاء الذى بتّ أدعو الله إياه عشرين عاماً : أن يكون من نصيبى بطريقة ما وفى وقت ما أن أخفف عن الانسان شيئاً من شقاء الانسان ، هذا الدعاء قد استجابه الله ! وهـذا العام الجديد يُطلّ علينا ، فألفَ عام وأنتِ بخير ياعزيزتى . . . أنصتى ! أنصتى ! هؤلاء عشرون بوّاقاً ينفخون أبواقهم معاً يسترقدون العام القديم »[1]

أم هم ينفخون أبواقهم تحية لازار ! أم هم ينفخون أبواقهم احتفالاً بالحمى الصفراء أنْ أمكن محوُها من على ظهر الأرض ! أم ينفخ هؤلاء الموسيقيون أبواقهم إنذاراً بالقدَرَ الخبىء الذى لن يلبث أن يجىء أفراد هذه البعثة الصغيرة بُعَيْد ساعة نصرها بقليل . . .

— ٦ —

وجاءت الدنيا إلى هبانا ، وهتفت هناك لريد . وجاء العلماء إلى هبانا واشتركوا فى نقاشهم العابس وفى التساؤل والتشكك المعهود . ثم جاء وليم كرُوفورد جُرجاس William Crowford Gorgas[2] ، وكان رجلاً مثلَ ريد لا يُعاب ، جاء إلى هبانا يتدرّب استعداداً لصنيعه الأكبر الأخلد فى بنما Panama ، فدخل إلى ميازيب هبانا وإلى مجمّعات مراحيضها وإلى أحواض مائها وشن فيها الغارة على البعوضة الاستيجوميّـوتة[3] ، وفى تسعين يوماً خلصت المدينة من الوباء لأول مرة بعد قرنين فلم تقع فيها إصابة واحدة من الحمى الصفراء . انقلابٌ كأنه السحر ، ولكن مع هـذا بقى الشك يساوز الأطباء العلماء والنطاسيّين ذوى اللحى المبوسة ، فى أوربا وأمريكا ، فظلوا يسألون عن هذا ، ويعيدون الكرة على هذا ، فِعْلَ الذى لم يطمئن قلبه . . . وذات صباح دخل خمسون من هؤلاء الشكاكين بيت البعوض المذكور وأخذوا يقولون : « إن هذه التجارب بارعة جميلة ، ولكن نتائجها يجب أن تُمحّص وتوزن من غير عِوَجٍ أو ميل . . . » . وبينا هم فيما هم فيـه انكشف غطاء وعاء به بعض أُنثَيات البعوض ، انكشف بالطبع اتفاقاً ، فخرجت البعوضات منه وذهبت قُدُماً إلى وجوه هؤلاء العلماء تطن طنيناً وفى عيونها بسمة الخبيث ولهفة الجوعان . فواحسرتا على العلماء الأجلاء ! طار الشك من قلوبهم ، كما طارت أرجلهم بهم — إلى الباب . وارتد الستار بينهم وبين البعوض بقوة صاخبة تحكِى عن قوة اقتناعهم بالذى قال ريد . ثم انضح الأمر فاذا بالبعوض لم يكن لُوّث بالحمى

بعدئذ جاء جرجاس ، وقد سبق ذكره ، وجاء معه جون جِتراس John Gatéras وكان كوبيًّا عمدةً فى الحمى الصفراء ، وكانا كلاهما اقتنعا فى الذين اقتنعوا بالتجارب التى أجريت فى معسكر لازار ، فاختطا الخطط لتطبيق نتائج هذه التجارب . وكانت خططاً جميلة ، ولـكنها كانت مع الأسف سريعة نَزِقة . قالا : « إن من الغريب أن تلك الاصابات التى حدثت فى معسكر لازار لم يمت أصحابها . إنها كانت إصابات ذات أعراض نموذجية من الحمى الصفراء ، ولكن أصحابها اشتفوا منها وصحّوا من بعدها . أفيكون سبب ذلك أن ريد لم يعملهم على أرجلهم طويلا وبعث بهم إلى الفراش ليستريحوا سريعاً » . وبدآ يلعبان بالنار . قالا : « سنأتى بنفر من المهاجرين الاسبانيين الذين وردوا حديثاً ، فهُمْ غير حصينين ، ثم نصيبهم بالحمى إصابة شديدة ، ولـكن على أسلوب ريد لتكون العاقبة مأمونة » . هكذا فكّرا وهكذا اختطّا ، وماكان أيسر محو الوباء بإبادة البعوض وهو من البعوض الأنيس الذى يسكن منازل الناس ويتناسل فى أماكن بين ظهرانيهم غير خافية . ولـكنهما قالا : « وبهذا نكون أيضاً قد أعدنا تجارب ريد وخرجنا على نفس نتائجه فزدناها ثبوتاً »

وجاءا بالمهاجرين ، وكانوا قوماً جهلاء لايفقهون ، فأنصتوا للذى قالاه لهم واطمأنوا إلى أن الاصابة ستكون مأمونة العاقبة . ثم عض البعوض سبعة منهم ، وعض ممرضة أمريكية شابة جسورة . فخرج من المستشفى من هؤلاء الثمانيـة مهاجران والممرضة ، وقد أمن الثلاثة عواقب للمرض جديدة ، وأمنوا عواقب الأمراض أجمع ، وكلَّ همٍّ من هموم الدنيا . خرجوا محمولين على الأعناق والطبول تدق دقاً بطيئاً خافتاً حزيناً . . .

(١) فى المعسكرات ينفخ البواق البوق ليلا لترقد الجند وتطفأ الأنوار ويسود السكون . وإنى لأحسب هؤلاء البواقين يسترقدون قرناً لا عاماً فقد كان العام عام ١٩٠٠ (المترجم)

(٢) طبيب فى الجيش الأمريكى خلد اسمه عند ما كافح الحمى الصفراء فى منطقة قنال بنما حتى محاها . وتملك زمام حمى الملاريا فيها . وبذلك نجح حفر القنال (المترجم)

(٣) هذا اسم بعوضة الحمى الصفراء ، بل هكذا كانت تسمى عندئذ

ألا ما كان أبرع ريد فى بحثه . ألا ما كان أسعده حظًّا فى بحثه — فى تلك التجارب التى خلت من الموت فى معسكر لا زار . . .

واســـتولى الذعر على هبانا ، وأخذت الجماهير تتجمع وتتحدث بالغضب اصطخاباً ، ومن ذا الذى يلومهم والحياة الانسانية عند كل الناس غالية مقدسة

كان كارول قد عاد إلى هبانا ليقضى فى بعض مسائل علمية صغيرة ، وكان رجلاً كالحنوطى [1] ذهبت العاطفة من قلبه ، وكان فوق ذلك جندياً . قال : « نحن الآن نستطيع أن نستأصل الحمى الصفراء فلا تكون ، ونحن الآن نعلم بأى وسيلة تنتقل من رجل لرجل ، ولكن الذى لا نعلمه هو الشىء الذى يسببها » .
هذا ما قال كارول لريد ، وهذا ما قاله ريد لكارول ، ولا بد من اعترافنا ، واعتراف كل أحـد معنا ، بأن الشىء الذى لم يعلماه بعـد ، والذى ظلاّ يعتزمان طلبه ، إنما كان أمراً علمياً محضاً لا يَهُمّ إلاّ من يطلبون المعرفة للمعرفة . وإنى أسألك أكان هذا امراً من الخطورة بحيث يستحق ضياع الأرواح ، ولو أرواح مهاجرين إسبانيين ؟ أما أنا فلن أستطيع جواب هذا السؤال .
وأما ريد وكارول فقد أجاباه بنعم . ولا عجب . فهما بدآ هـذا الأمر جندّيين يطيعان أمراً ، وبدآه إنسانين يخاطران بروحيهما فى سبيل الانسان ، وأذ نا للبعوض أن يصبّ سمّه فى جلديهما فى سبيل المعرفة القاسية الباردة ، ثم زهاهما المجد الذى يكون من كشف الغطاء عن كل مجهول . . .

وتأكّد لديهما أن الوباء ليس له بَشِيلَة تُرى ، أو أية مكروبة أخرى تُريها أكبر المجاهر . لقد نظرا فى أكبدة الناس وأحشاء البعوض طلبا لهذا المكروب عبثاً . ولكن أمعنى هذا أنه لا يوجد ؟ كلا . فهناك احتمالات خفية أخرى . فهناك احتمال وجود نوع أصغر من المكروب دق حتى عن أكبر مكرسكوب لا يحسن وجوده إلا بقتل الرجال ونفث سمه الخفى فيهم ، قد تكون هذه طبيعة مكروب هـذه الحمى الصفراء . يؤيد هذا أن فريدريك لفلار ، الرجل القديم ذا الشوارب الكبيرة ، كشف عن وجود مثل هذه الاحياء فى داء « الفم والقدم » الذى يصيب العجول . وودّ ريد وكارول أن يكشفا فى الحمى الصفراء عن وجود مثل هذا المكروب الذى خرج عن طوق المجاهر فلم تكتشفه

وكان ريد فى شغل شاغل ، فبعث كارول إلى هبانا يستطلع الأمر ، فلما جاءها غضب أشد الغضب لموت من مات فى تجارب جتراس ، وكان جتراس فى هلعٍ هالع ، ومن ذا الذى يلومه ، فمنع كارولَ أن يستخرج دماً من مرضى الحمى الصفراء . لا ، لا . لا يمكن أن يستخرج دماً أبداً . بل ولن يؤذن لكارول أن يعضهم ببعوضه . وزاد جتراسُ فى سُخفه ففضّل ألا يفحص كارولُ حتى الجثث التى تموت خشيةَ أن يثير هذا ثائرة السكان . فكتب كارول إلى ريد يقول : « . . . فتصور خيبتى فى وسط هذا » ، وزاد فاستنكر مخاوف قوم جُهّال يتسخّفون . على أن هذا لم يورثه الخيبة ، فما مِثل كارول يخيب

ولسنا ندرى أى حيلة أعمل ، وبأى سحر استنجد حتى جاء بدم وبىء من مريض بالحمى ، ورشّحه فى مرشّح خزفىّ دقّت مسامّه حتى لا تنفذ منه المكروبات التى تريها المجاهر ، وأخذ السائل الراشح الذى نفـذ من الخزف فحقنه تحت جلد ثلاثة رجال غير حصينين من الحمى — ولا يذكر التاريخ كيف أغراهم بالرضاء . فأصيب اثنان منهم . فصرخ صاحبنا صرخة الفرح : إن الحمى الصفراء مثل مرض « الفم والقدم » ، كلاهما ينشأ عن أحياء بالغة الصغر تستطيع الافلات من مرشح خزفى دقيق المسام

وكتب ريد إلى كارول يقول : « كُفّ عن قتل الناس فقد غلونا فيه » ، ولكن أين الكفّ من كارول ، فلا بد له من الحصول على بعوض وبىء ، وحصل عليه ببعض طرائقه الجريئة الشيطانية ، وانتزع الرحمة من قلبه وقام بأخيرة تجاربه

وقال فى صدد ماجرى : « لقد عضنى البعوض ومرضتُ ، وكنت أنتظر الخاتمة تأتى فى بحر سبعة أيام . ولكنها لم تأت ، فاقتنعتُ كل الاقتناع بأن قوة الاصابة تتوقف على قابلية المصاب أكثر منها على عـدد القرصات . ففى التاسع من أكتوبر عام ١٩٠١ جمعتُ كل البعوض الوبىء الذى عندى ، وكانت ثمانٍ أتاها الوباء قبل ذلك بثمانية عشر يوماً ، وسلّطتها عامداً على رجل غير حصين ، فكانت الاصابة التى جاءته إصابة معتدلة » .
وختم مقاله ختام الفاخر المنتصر . ولكن ماذا كان الحال لو أن هذا المريض مات ، والله يعلم أن احتمال هذا كان كبيراً ؟

هذه قصة هذه المصابة العجيبة ، غريبةٌ ماوَسِمتْ الغرابة .
وإنى لأعود بالذكر إلى الذى كان من هذا الباحث كارول ، وأتصوره وقد عَرِيَتْ من الشعر رأسه ، واحتجبت عيناه وراء منظاره ،

(١) الحنوط كل طيب يخلط لأجسام الموتى وأكفانهم . والحنوطى نسبة إليه وهى لا شك أصل كلة حنوتى العامية المصرية (المترجم)

ثم أذكر أنه كان حطّاباً قبل أن يكون بحّاثاً ، ثم أذكر ما كان من جرأته الخارقة وقلة مبالاته بالعاقبة فى أمر نفسه ، فلا أتمالك أن أرفع قبعتى احتراماً له وإعجاباً به بالرغم من إغرامه الشديد وإلحاحه فى أن يتجسس عن أسرار الطبيعة فى أخطر مخابئها .

إن كارول كان أول رجل أصيب فى هذا السبيل ، وهو الذى سنّ السنّة الأولى فاقتدى به الجنود الأمريكيون ، وقفّى على أثره الكاتب الملكىّ ، وتشجع به المهاجرون الاسبانيون رقم ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ ، وحذا على حذوه البقية الباقية من هذا النفر الكريم الذين عرفنا أعمالهم وجهلنا أسماءهم — كلٌّ هذا فى سبيل العلم وسبيل الانسانية ! ولعلك تذكر أنه لما أصيب وقف قلبه أو كاد فى سبيل العلم وفى سبيل الانسانية . فهذا القلب الذى وقف أو كاد فى عام ١٩٠٠ ، ثم تشبث بعد ذلك بالحياة ، عاد فى عام ١٩٠٧ فوقف وقفة لا حركة من بعدها . . .

— ٧ —

وقبل ذلك بخمسة أعوام ، أى فى عام ١٩٠٢ ، مات ريدوهو فى عنفوان شبابه . وكان متعباً أشد التعب برغم صباه . مات وهتاف الأمم له يزداد اصطخابا . وهل تدرى بأى علة مات ؟ بالزائدة الدودية . ومات فقيراً . تمتم لصديقه كين Kean وهو على سرير العمليات قبيل أن يهبط المخروط بالأثير على وجهه : « انى لم أترك لزوجتى ولابنتى من متاع الدنيا الا القليل . . . القليل . . القليل » ، وأسكت الأثير لسانه ، وهبط به الى الأخير من أحلامه

لنا الفخار فى أمتنا وفى مجلس أمتنا[1] ، فانهم منحوا مدام اميلى لورانس ريد ، زوجة الرجل الذى اقتصد للعالم ملايين الدولارات ، دَعْ ذكر الأنفس ، منحوها منحة طيبة ، خمسمائة وألف دولار معاشاً سنويا ، ومنحوا مثلها لأرملة لازار ، ومثلها لأرملة كارول ، ولا شك أن هذا كانت فيه الكفاية لهن ، بدليل أن لجنة من شيوخ المجلس قالت فى غرابة وإبهام : « إن الأرامل لا يزال باب الرزق فى وجوههن مفتوحا »

ولكن ماالذى جرى لكيسنجر ، جندىّ أهيو ، الذى غامر فى التجربة وصمد فيها صمودا فى سبيل العلم والانسانية وحدهما ؟ إن الحمى الصفراء لم تقتله . وإنه رفض ان يأخذ أجرا عن آلامه وتخاطره . ولكنهم أخيرا وبعد الجهد أغروه بقبول خمس عشرة ومائة دولار وساعة من ذهب ، أهديت إليه فى حفْل جنود معسكر كولومبيا وضباطه . إنه لم يمت بالحمى ، ولكن خرج سمّ الحمى من جسده ليدخل فيه ما هو شر منه : شللٌ زحف فى جثمانه بطيئا . واليوم هو مُقعَد يَعُدّ الزمن مصابرةً على عقارب ساعته ، وهى من ذهب ! وساعده الحظ أخيرا فجاءته زوجة طيبة تموله من غسل الثياب للناس

وماذا جرى للقوم الآخرين ؟ إن الوقت يضيق بى عن تناولهم . وفوق هذا فأنا لا أدرى ماذا جرى لهم . لقد لقى كل واحد من هذا النفر قسمةً مختلفة خصته بها المقادير . أى والله لقد كانوا زمرة من أغرب الزمر ، قامت فى تلك السنوات العشر بأعجب ما قام به صُياد المكروب ، وتوّجتْ هذه الصيادةَ بأفخرها وأفخمها ، وعملت بيد واحدة وقلب واحد فى بحث وباء الحمى الصفراء حتى لم يبق من سمّه وأنا أكتب هذا ما يُغطّى رأس دبوس

قال دافيد بروس David Bruce وهو محارب الموت القدير : « ليس بمستطاع فى الوقت الحاضر أن نتخذ من أجسام الناس أداة للتجريب » . فاليوم ماذا يقول بعد الذى كان !

أحمد زكى

(١) المجلس النيابى للولايات المتحدة . ويخيل إلى أن الكلام القادم به طعم السخرية دافعت أن أتذوقه فلم أفلح (المترجم)

٨ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الالمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الحرب والمحاربون

لا نريد أن يراعينا خيرة أعدائنا ، كما لا نريد أيضاً أن يراعينا من نحبهم من صميم الفؤاد

دعونى أعلن لكم الحقيقة

إننى أحبكم من صميم الفؤاد ، أيها الرفاق فى المعارك ، فما أنا الآن إلا ، كما كنت فى الأمس ، جندى مثلكم ، فأنا إذن من خيار أعدائكم . دعونى أعلن الحقيقة لكم

إننى عارف ما فى قلوبكم من حقد وحسد ، فأنتم من المظمة بحيث لا يمكنكم أن تتجاهلوا الحقد والحسد ؛ فلتكن عظمتكم رادعة لكم عن الخجل بما فى قلوبكم . واذا امتنع عليكم أن تكونوا أولياء فى معرفة الحق فكونوا على الأقل جنوداً يكافحون من أجل هذه المعرفة ؛ وما المكافحون الا طليعة الأولياء

لقد كثر عدد الجنود فليتنى أرى مثل هذا العدد من المحاربين ، وعسى ألا تكون مرائرهم على طراز واحد كالألبسة التى يرتدونها

لتكن أنظاركم منطلقة تفتش على عدو لكم ، وقد لاحت فى لمعانها بوادر البغضاء . عليكم أن تجدوا العدو لتصلوا معه حرباً تناضلون فيها من أجل أفكاركم ، حتى اذا سقطت هذه الأفكار فى المعترك ، ينتصب اخلاصكم هاتفا بالظفر

أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب ، وخير السلام ما قصرت مدته . إننى لا أشير عليكم بالعمل ، بل أشير بالكفاح ؛ لا أشير عليكم بالسلم ، بل بالظفر . فليكن عملكم كفاحاً وليكن سلمكم ظفراً

لا اطمئنان فى الراحة إذا لم تكن السهام مسددة على أقواسها . وما راحة الأعزل إلا مدعاة للثرثرة والجدال . فليكن سلمكم ظفراً . . .

تقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب ؛ أما أنا فأقول لكم إن الحرب المثلى تبرر كل غاية ، فقد أتت الحروب والأقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس ؛ وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا إقدامكم لا إشفاقكم

إنكم تتساءلون عن الخير ، وما الخير إلا الاتصاف بالشجاعة ، فدعوا صغيرات الأطفال يقلن : (إن الخير فى اللطف والجمال)

يقولون أن لا قلوب لكم ، ذلك لأن قلوبكم تنبض بالاخلاص ، وأنا أحب تواضعكم فى إخلاصكم . إنكم تستحون لأن أمواجكم تندفع فى مدها ، وسواكم يخجل من تراجعها فى جزرها

إن قبحكم مريع ، فتدثروا به أيها الأخوة ، لأن فى دثار القبح ما ليس فى سواه من الروعة والبهاء

ان النفس لتقف صاخبة عنـد ما تعتلى ، والقسوة كامنة فى اعتلائكم ، فما خفيت حالكم عنى . ففى ميدان القسوة يلتقى الشـديد العزم بمنهوك القوى فلا يمكنهما أن يتفاهما — إننى أعرف من أنتم

إذا ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم ؛ وحاذروا أن تصبوا عليه احتقاركم ، فما عـدوكم الا مدعاة مباهاتكم ، فاذا عملتم بوصيتى يصبح انتصاره انتصاراً لكم أيضاً

إن الثورة مفخرة للعبيـد ، فليكن افتخاركم أنتم قائماً على طاعتكم . وليكن أمر الآمر فيكم جزءاً من هذه الطاعة نفسها . إن المحارب الصادق يفضل ما يجب عليه على ما يريده . فعليكم أن توجهوا ما تؤمرون به الى هدف رغباتكم . وليكن حبكم للحياة تعبيراً عن أسمى أمانيكم ؛ ولتكن هذه الأمانى عبارة عن أرفع فكرة فى الحيـاة . وما أرفع فكرة لكم ، وأنا أستميحكم إبداءها لكم كأمر ، إلا هذه القاعـدة : (ما الانسان إلا كائن يجب أن تتفوق عليه)

على هذا الوجه تمر حياتكم بالطاعة والجهاد ، فما يهمكم أطالت الحياة أم قصرت . فليس من محارب يطلب أن يُعامل بالمراعاة

لقد قلت لكم الحق بلا محاباة لأننى أحبكم من صميم الفؤاد ، أيها الأخوة فى السلاح

هكذا تكلم زارا . . .

الصنم الجديد

لم يزل فى بعض الأماكن من الأرض شعوب وجامعات ، أما نحن فليس عندنا سوى حكومات ، وماأدراكم ما هى الحكومات

أعيرونى أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب : — ليست الحكومة إلا أبرد مسخ بين المسوخ الباردة ، فهى تكذب بكل رصانة إذ تقول : « أنا الحكومة ، أنا الشعب »

إياكم وتصديق ما تقول ؛ فما كون الشعوب إلا المبدعون الذين نشروا الأيمان والمحبة ؛ فأتوا بأجل خدمة للحياة . وما الناصبون الأشراك للجموع الغفيرة إلا من يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها ، ويعلقوا نصلاً قاطعاً فوق رأس الشعب ، وينصبوا مئات الشهوات أمام عينه

إن الشعب ، حيث بقى له مرتع على الأرض ، لا يفهم ما هى الحكومة ، بل هو ينفر منها كما ينفر من العين الساحرة ، ويراها شذوذاً هادماً للشرائع والتقاليد . وإليكم هذا الدليل : إن لكل شعب بيانه عن الخير والشر ؛ وجيرة هذا الشعب لا تفهم هذا البيان الذى أوجده لنفسه محدداً به شرائعه وتقاليده ، على حين أن الحكومة تكذب فى جميع تعابيرها عن الخير والشر ، فليس ما تقوله إلا كذباً ، وليس ما تملكه إلا نتاج سرقتها واختلاسها إن كل ما للحكومة مزيف ، فهى تنهش بأسنان مستعارة ، وأحشاؤها مختلقة اختلاقاً ؛ وما شعارها إلا « البيان المبهم المشوّش عن الخير والشرّ » فهى تتجه به نحو الفناء ، وتقوم بنشره بدعوة صريحة للمنذرين بالموت

إنّ عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد ، وما أُوجدت الحكومة إلاّ لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة . انظروا إلى هذه الحكومة كيف تجتذب إليها الدخلاء فتضمهم إلى صدرها وتشبعهم عناقاً وتقبيلاً . اسمعوها تهدر قائلة :

— ليس أعظم منى على وجه الغبراء ، فأنا يد الألوهية المنظمة

وعندما تهتف هذا الهتاف ، تتهاوى الركاب جاثية ، وبين الراكعين كثير من غير طوال الآذان وقصار النظر

إن هذه الأكاذيب تجد مصدقين لها وأسفاه حتى بينكم أنتم ، يا من تجول فيكم النفوس الأبية ، لأن الحكومة تعرف أن تدغدغ قلوبكم الطامحة بالمكارم ، الطامحة إلى الجود ، إنها لتخترق سرائركم ، أنتم أيضاً ، يا من تغلبتم على الألوهية القديمة ، فهى تعرف أنكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد

إنه لصنم يتمنى أن يحيط به الأبطال وفضلاء الرجال ؛ إنه لمسخ بارد يريد أن يدفأ بشمس الضمائر المشمة المشرقة

إنه ليمنحكم كل شىء إذا أنتم سجدتم له . فهذا الصنم الجديد يشترى لمان فضائلكم وما فى لفتاتكم من عزة وكرامة . إنه فى حاجة إليكم ليجتذب إليه العدد الفائض من الدخلاء على الحياة ، فهنالك البرج الجهنمى ، وهنالك جياد الموت تقرقع بعُدَدها حاملة شارات المراتب والامجاد ؛ أجل ذلك هو اختراع الموت أتى به للجموع ليحصدها حصداً وهو يباهى بأنه هو الحياة ، والمنذرون بالموت يرون بفعلته خير خدمة لمبادئهم

حيث يكرع الجميع السموم ويضيع كل إنسان نفسه صالحاً كان أو طالحاً ، فهنالك تقوم الحكومة لأنها تسود كل مكان يوصف فيه الانتحار البطىء بالحياة

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء . إنهم يختلسون ثمرة جهود المخترعين وكنوز الحكماء ويدعون هذا الاختلاس تمدناً ؛ غير أن كل شىء يصبح أدواء ومصائب تحت سلطانهم . أنظروا إلى هؤلاء الدخلاء وليس فيهم إلا الأعلاء ينفثون غسلين مرائرهم ، وينتحلون صفة الصحافيين . . . إنهم يتناهشون ويلتهم بعضهم البعض الآخر وليس لهم القوة على هضم ما يلتهمون

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء ، إنهم يحشدون الأموال ، وكلما ازدادت ذخائرهم زاد فقرهم ، فانهم يطمحون إلى الاستيلاء على القوة فيبدأون بالقبض على محركها الأول : على الأموال الطائلة ، وما هم إلا الدخلاء العاجزون

أنظروا إليهم ! أنظروا إلى هؤلاء القرود يتسلّق بعضهم البعض الآخر فيتدافعون متمرغين فى الأوحال على الشفير . إن كلا منهم يطمح إلى التقرب من العرش ، وقد عراهم جنون التوصل إليه ، فكأن لا سعادة إلا على مقربة منه ، وقد يرتفع رشاش الأوحال إلى العرش كما ينزلق العرش نفسه إلى الأوحال[1]

إننى أراهم وقد جُنّ جنونهم ، قروداً لا تسكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم البارد وقد انبعثت منه ومنهم أكره الروائح وأخبثها

(يتبع) فليكس فارس

(١) لا يغرب عن القارئ الكريم أن نيتشه يعالج فى هذا الفصل القضية الكبرى فى مدنية الغرب ، وقد نشأت من استخدام أصحاب الأموال لنتاج عبقرية المخترعين وجهود المكتشفين فى سبيل حشد الثروات الطائلة والتسلط بها على الحكومات ، وقد أصبحت مدنية الغرب من هذا الوضع الشاذ فى حلقة مفرغة تبتدئ حيث تنتهى بين ملوك الحكومات وملوك المال ، ولبس ، والحمد لله فى الشرق أمثال لهؤلاء الملوك

١٠ – تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

الفصل الثاني

وخلف النعمان ولده المنذر وكان أميراً عاقلاً شجاعاً . ويستدل على سطوة اللخميين إذ ذاك من الحادثة التي حدثت عقب موت يزدجرد الأول ، ذلك أن المنذر تدخّل في النزاع القائم حول انتخاب خليفته ، وأيد اختيار بهرام جور [1] الذي عارض توليته رجال الدين في فارس . وفي الحرب التي اندلع لهيبها بعد قليل بين الفرس والروم برهن المنذر على أنه تابع مخلص ، ولكن الروم كبّدوه خسائر فادحة عام ٤٢١ م . وفي أوائل القرن السادس الميلادي اعتلى العرش أمير يسمى المنذر الثالث الذي دعاه العرب ابن ماء السماء [2] ، وطالت مدة حكمه وازدهرت ، وإن كانت قد تلبدت سماؤها بغيوم حادثة يستحيل فهمها دون الرجوع إلى التاريخ العام لهذه الفترة ؛ ذلك أنه حوالي ٤٨٠ م امتد نفوذ قبيلة كندة التي يظهر أن أمراءها كانوا خاضعين لتبابعة اليمن خضوع اللخميين لملوك فارس ، وشمل نفوذها جزءاً كبيراً من وسط بلاد العرب وشمالها . وكان اليد العاملة في بسط هذا النفوذ حجر (آكل المرار) أحد أجداد امرئ القيس ، ولكن مالبث أن تفكك هذا عند ما مات حجر ، ولكن عاد الشمل فالتم مرة ثانية لمدة وجيزة حوالي سنة ٥٠٠ م على يد حفيده الحارث بن عمرو ، وصار منافساً خطيراً لامارتي الحيرة وغسان ؛ على حين كانت تعاليم مزدك الاشتراكية قد اتسع نطاق دعوتها وتغلغلت بين العامة في فارس حتى انتهى الأمر بأن اعتنقها الملك قباذ [3] نفسه . ومن المؤكد أنه قد حدث بين عامي ٥٠٥ ، ٥٢٩ م أن اجتاح الحارث بن عمرو الكندي العراق وأقصى المنذر عن مملكته . وليس من البعيد أن يكون سقوط الأخير — كما يؤكد كثير من المؤرخين — راجعاً إلى عدائه للتعاليم المزدكية التي أثارت سخط مولاه . وعلى كل حال — وأياً كانت الأسباب — فان الحارث قد أقصى المنذر وقتاما ؛ وبالرغم من أنه قد عاد إلى عرشه بعد فترة قصيرة قبل تولية أنوشروان الذي قتل كثيرين من أتباع مزدك (٥٢٨ م) فان النسيان لم يسحب ذيوله على ما لحقه من إهانة وقسوة [1] ، وإن حياة امرئ القيس وقصائده لتحمل طابع الكراهية الموروثة التي تأصلت جذورها بين لخم وكندة . ولقد أدت أعمال المنذر ضد الروم إلى نشاط كبير ، فقد دخل سورية ووصل الى إنطاكية ، ورأى جستنيان نفسه مضطراً لأن يكل أمر الدفاع والذب عن هذه الأقاليم الى الحارث بن جبلة الغساني (الحارث الأعرج) الذي وجد فيه المنذر قوة تفوق قوته . ومنذ ذلك الحين أخذ كلٌّ من ملوك الحيرة وغسان في الاغارة على أقاليم الآخر وتخريبه ؛ وفي إحدى هذه الغزوات أسر المنذرُ ابنَ الحارث ، وسرعان ما ضحى به لأفروديت الآلهة العربية العزى [2] . ولما استرد الأقاليم ثانية سنة ٥٥٤ م فوجئ في معمعان القتال وذبح في موقعة تدعى « يوم حليمة » . ومجمل القول أن اللخميين كانوا وثنيين ليس لهم حظ من الرقي والحضارة ، تلك التي يستحقها تماماً المنذر الثالث . وقد روى الأغاني أنه كان له نديمان من بني أسد هما خالد بن المضلّل وعمرو بن مسعود ، فأغضباه في بعض المنطق ، فأمر بحفر حفرتين وأن يجعلا في تابوتين ويدفنا فيهما ففعلوا ذلك بهما ، حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما فندم على ذلك واغتم ؛ ثم ركب المنذر حتى نظر إليهما فأمر ببناء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عندهما يسمى أحدهما يوم نعيم يعطى فيه أول طالع عليه مائة من الابل سوداً ، والآخر يوم بؤس يعطى فيه أول طالع عليه رأس ظربان أسود ، ثم يأمر به فيذبح ويطلى بدمه

(١) شكى عظماء من أن بهرام جور لم يتأدب تأدب العجم ، وإنما أدبه أدب العرب وخلقه كخلقهم لنشأته بين أظهرهم ، واجتمعت كلمتهم وكلمة العامة على صرف الملك عن بهرام (الطبري ج ١ ص ٨٥٨ س ٧ — ٩)

(٢) وقيل إن ابن ماء السماء كنية له عن أمه التي كانت تدعى مارية أو ماوية

(٣) للاطلاع على مزدك وتعاليمه يمكن القارئ مراجعة ما ترجمه نلدكه عن الطبري ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٤٥٥ — ٤٦٧ وما كتبه الأستاذ براون في كتابه Lit Hist of Persia ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٢

(١) ذبح المنذر أربعين أو خمسين فرداً من عائلة كندة المالكة الذين وقعوا أسرى في يده ، ولقد كان الحارث أحد من قتلهم المنذر بيده عام ٥٢٩ م ومنذ ذلك الحين أخذ شأن كندة في الضعف ، وأخذت ترتد بالتدريج إلى مواطنها الأولى في حضر موت

(٢) وفي مرة أخرى ضحى بأربعمائة راهبة مسيحية لهذه المعبودة

الغريان ، ويقال إن عبيد بن الأبرص كان أول من أشرف عليه يوم بؤسه فقتله[١] ؛ وظل على هذا الحال حتى مرّ به رجل من طى يقال له حنظلة ، فلما رأى نفسه مقتولاً قال له : « أجلنى سنة أرجع فيها إلى أهلى ، ثم أصير إليك فأنفذ فى حكمك » فقال : « من يكفلك حتى تعود ؟ » فنظر فى وجوه جلسائه فعرف فيهم شريك[٢] بن عمرو الذى قام وقال للملك : « أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه إن لم يعد إلى أجله[٣] » فلما كان العام القابل جلس فى مجلسه ينتظر حنظلة أن يأتيه فأبطأ عليه ، فأمر الملك بشريك ليقتله ، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم فتأملوه فإذا هو حنظلة متكفنا متحنطا معه نادبته تندبه ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السنة[٤]

***

وقد خلفه على العرش ابنه عمرو الذى يعرفه شعراء العربية المعاصرون والمؤرخون المحدثون باسم عمرو بن هند ؛ وفى عهده أصبحت الحيرة مركزاً أدبياً زاهراً ، وقد وفد على بابه كثيرون من شعراء عصره ، وسترى فى الفصل التالى علاقاته مع طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة . ولقد كان عمرو هذا رجلاً شرس الطباع مستبداً طاغية ضاق العرب به ذرعا كما ترى ذلك من قول الدهان المعجلى[٥] :

أبا القلبُ أن يهوى السدير وأهله وإن قيل عيشٌ بالسدير غريرُ

فما أنذروا الحىّ الذى نزلوا به وإنى لِمَنْ لم يأتهِ لنذيرُ

به البقّ والحمّى وأُسْد خفيَّة وعمرو بن هند يعتدى ويجور

ولقى عمرو مصرعه على يد كبير التغالبة عمرو بن كلثوم ، ثأرا لكرامة أمه ليلى التى خدشت عنده

ونكتفى بالاشارة إلى اسمى قابوس والمنذر الرابع ابنى هند اللذين ولى كل منهما العرش فترة قصيرة ، ونكون بذلك قد وصلنا إلى آخر ملك لخمى للحيرة ألا وهو النعمان الثالث ابن

(١) راجع قصة هلاكه فى الأغانى ج ١٩ ص ٨٦ — ٨٧

(٢) وقد ذكر له الأغانى (ج ١٩ ص٨٧ س ١٨) شعراً مطلعه :

يا شريك بن عمرو ما من الموت محاله

(٣) الأغانى ج ١٩ ص ٨٦ طبعة بولاق

(٤) كانت هنـد أميرة كندية ، وهى ابنة الحارث بن عمرو الذى أسره المنذر فى إحدى غاراته ، وكانت نصرانية وأقامت ديراً فى الحيرة « راجع ترجمة نلدكه للطبرى ص ١٧٢ هامش رقم ١ »

(٥) الأغانى ج ٢١ ص ٩٤ س ١٦ — ١٨

النذر الرابع ويكنى بأبى قابوس وقد حكم من سنة ٥٨٥ إلى ٦٠٧ م ، كما نشأ فى أحضان أسرة مسيحية شريفة فى الحيرة قامت بتربيته وتعليمه ، وكان كبيرها زيد بن حماد أبا الشاعر عدى ابن زيد ، وعدى هذا ذو شخصية جذابة كما كانت وثائقه قوية الصلة بحوادث النعمان ؛ وكان كل من جدّه وأبيه ذا ثقافة ليست بالقليلة ، وشغلا مراكز سامية أيام للنذر الثالث وخلفائه ، وقد استطاع زيد بواسطة دهقان يدعى « فاروخ ماهان » من اجتذاب عطف كسرى أنوشروان[١] بأن صار كاتب ديوانه ، وذلك منصب لا يرقاه إلا أبناء الأشراف . وحينما اشتد ساعد عدى أرسله أبوه ليتلقى المعارف مع ابن الدهقان فأجاد الفارسية كتابة وقراءة ، كما أتقن العربيـة اتقاناً تاماً ، وقرض الشعر ، وتعلم ركوب الخيـل ، ولعب الـكرة ، كما أن جماله الشخصى وذكاءه وذلاقة لسانه وحضور بديهته كل أولئك حبّبهُ إلى أنوشروان فقرّبه إليه واتخذه كاتباً له ومترجماً فى ديوانه ؛ ولم يكن قد كتب بالعربية قط من قبل فى الديوان الملـكى ، وحباه الملك عطفه ، وبعث به إلى القسطنطينية فى سفارة خاصة حيث استقبل أجل استقبال ؛ وعند أوبته أوحى القيصر[٢] — جريا على سنة متبعة — إلى جميع الموظفين القائمين بحراسة الطريق بمدّ الخيل فى محطات البريد بما يلزمها حتى يرى المبعوث الفارس عظمة واتساع الامبراطورية البيزنطية

(يتبع) حسن حبشى

(١) تولى زيد الحيرة نيابة عن الملك بعد موت قابوس ومهد الطريق للمنـذر الرابع الذى أسرف فى الطغيان حتى كرهه الشعب ومقته « راجع ترجمة نلدكه للطبرى ص ٣٤٦ هامش رقم ١ »

(٢) يطلق العرب على الامبراطور البيزنطى لقب قيصر ، والملك الفارسى لقب كسرى

من ديوان البغضاء :

ألســت التى . . . ??

للأستاذ محمود محمد شاكر

بَلَى ! كنتِ فى قلبى سِرَاجاً يضيئه
فيفترُّ عن أنوارِه كلُّ جانبِ
وكنتِ حياة للحياةِ تمدُّها   بأفراحها فى عابسات المصائب
وكنت لىَ البرَّ الوديع إذا غلت   بأمواجها وادَّافعت بالمناكب
وكنتِ نسيما واللَّظى ينشِفُ اللَّظى
ويترُك ظِل الدَّوْح ظلَّ اللَّواهب
وكنتِ ملاذى والشؤون كأنَّها   من الدَّمع ينبوعٌ يجيش بغارب
وكنتِ إذا ما العينُ مدّت هيامها   إليكِ تلقّتها أحنُّ الترائب
وكنتِ كأنفاسِ الرياضِ ، عبيرُها
على الفاقدِ المحزون فرْحة آيب
بَلَى ! كنتِ . . . كنت السحرَ تبدو صدورُه
من الخير تخفى منه شرَّ العواقب
أرى الحيّة الرقطاء أجملَ منظراً   وألينَ مسًّا من ثَدِىِّ الكواعب
إذا ما تراءتْها العيونُ بريئةً   من الخوف خالَتها دُعابةَ لاعب
تدانَى إلى اللاّهى دنوَّ مُقارِبٍ   فيدنو ويُدْنِى كفّه كالمُداعب
ألا ارْفَعْ يداً ، واذهب بنفسك رهبةً
فمنْ حُسْنها نابٌ شـــديد المعاطب
بَلَى ! كنتِ . . . إذْ عينى عليها غِشاوةٌ
وإذْ أَرْدَّى من سوادِ الغياهب
وأخرى على عينِ البصيرة خيَّلت
لنفسى هداها بالأمانى الكواذب
أُرى من تكاذيب الخيالِ كأنّنى   إلى جنة الفردوس أحدو ركائبى
أُغنى لآمالى لأبلغ غايتى   وأُدرك لذّاتى ، وأجنى مطالبى
وما ذاكِ إلا راحةُ القلب بالهوى   وبالوُدِّ فى عيشٍ شديد المتاعب
وأنْ أَرِدَ الماء الزلالَ . . . ولم أَرِدْ
وقد عشت دهراً — غيرَ رَنْقِ المشارب
ألا فاعلمى أنى ظَمِئت ، وأنّنى   تجنبت جُهْدِى المآجمَّ الشوائب
فجئتُك ظمآناً يموتُ بغُلّةٍ
فأغريت بى الفَلاتِ من كل جانب
لقد كنتُ خِلواً أنْتحى حيث أشتهى
وأرْضَى وآبى مُقدِماً غير هائبِ
تسهِّلُ لى الصعب الأبى عزيمتى   ويكفُلُ لى صدق قضاء مآربى
وأرمى بنفسى فى المهالك باسماً   لأنفُذَ منها باسماً غيرَ خائب
فواحزنا . . . ! أضلت عزمى وهمّتى
وأيتَمت أفكارى وَضيعت وَاجبى
تخشَّعت تحت الحُبِّ وَالوجد وَالجوى
وَطول اضطرابى فى الهموم الغوالب
أذلَّ شبابى الحبُّ حتى رأيتُنى   أمرُّ بأترابى مرور المُجانِبِ
وَأحسدُهم مِمّا لقيت . . . وَإنّنى   لأخشى عليهم مِحْنتى وَتجاربى
ألا وَيحها ! ! كم بت أرقُبُ طيفها !
وَكم سهرت عينى نجىَّ الكواكب !
وَكم طُفت بالبيداء أطاب خـــلوة !
وَأُرسل طرْفى فى ضلال المذاهب !
أُمثِّلها حتى أكادَ أمسها !   وَأُلقى إليها ما تضمُّ جوانبى !
وَأشتاقُها وَالبحر بينى وَبينها   وَبيدٌ تعاوت بالرِّياح الغواضب !
فلما التقينا ضمّنا الشوق وَالهوى
وَكان حديث الوصل صمت الرغائب
وَلكن . . . رمت بينى وَبينك بعدهُ
ضريبة أُنثى . . . وَهى شرُّ الضرائب
فأطلقت فى إثرى الضوارى مُجدة   تعان على أنيابها بالمخالب
تمزّقنى ألحاظها وَعيونُها   كأنى أُرمى بالسهام الصوائب
يفزِّعُنى ظِلِّى إذا مالمحتُه   وَقد غالنى رُعبى وَسُدَّت مهاربى
فما كدْت أنجو بالحشاشة بعدما   تلقيت من حُبيك شرّ النواكب
ألا لاَ تقولى كيف كنت !! . . فإننى
أرى كلَّ أُنثى شرُّها غيرُ غائب

[البقيـــة فى ذيل الصفحة التالية]

الفنون

فرانسسكو جويا

GOYA

للدكتور أحمد موسى

يعد جويا من أغرب شخصيات القرن التاسع عشر وأبعدها أثراً في الفن. ظل يصور حتى تجاوز الثمانين من عمره، وقضى حياة حافلة بمختلف الحوادث والعبر، وبوفاته انتهى دور من أهم أدوار الفن الأسباني

ولد فرانسسكو جويا في ٣٠ مارس سنة ١٧٤٦ في فونديتورس إحدى القرى الصغيرة في مديرية أراجون لوالدين فقيرين اشتغلا بالفلاحة في قطعة صغيرة من الأرض كانت مصدر حياتهم؛ فكانت طفولته مليئة بالعمل والتعب والملل.

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره رسم شكلا تخطيطياً لخنزير على حائط مسكنه الريفي، وشاهد أحد الرهبان هذا الرسم مصادفة فوجد فيه ما يدل على استعداد راسمه؛ فتقدم إلى والده ناصحاً بأن يذهب بابنه إلى فنان يقيم في سرقوسه وهي أقرب البلدان إلى قريتهم

كان أول معلميه جوزي لوزان مارتنز، فعرف منه كيفية تحضير الألوان وشد قماش اللوحات في الأطار، وما إلى ذلك من وسائل العمل نظير خدمته لمعلمه

وفي مدة وجيزة استطاع جويا أن يفهم الأسرار العملية لمهنته التي ولد لها، وأمكنه أن يصور بعض تفاصيل مهمة على لوحات معلمه، ولم تنقض ثلاث سنوات حتى رخّص له مارتنز برسم لوحات بأجمعها

جمع جويا بين ظاهرة العبقرية الفنية وبين قوة العضلات؛ فكان يمضي أوقات فراغه في الرياضة البدنية والمصارعة والجري وحمل الأثقال

وكان محبوبا من بنات البلدة اللواتي كن يحضرن لمشاهدة مصارعته مع أمثاله الذين تغلب عليهم دائماً. وكان كثير التردد على القهوات والحانات فكان روادها يخشون بأسه.

بدأ جويا حياته الفنية بتصوير العذراء، فأخرجها إخراجا أنيقاً في ثوب رقيق وقوام رشيق. ومع هذا السمو كنت تراه أحياناً يغني أغاني شعبية عامية لا تنسجم مطلقاً مع مصوراته في ذلك الحين، كما كان عصبي المزاج سريع الغضب سريع البطش

عاد في آخر الليل مرة مع أصدقاء له إلى المدينة فصادفه في حارة قذرة من حاراتها نفر من قطاع الطرق الذين أرادوا به وبأصدقائه شراً، ولكن جويا بمساعدة رفاقه استطاع مطاردتهم وقتل ثلاثة منهم

ولم يترك الفرصة تسنح للقبض عليه ففر هارباً إلى مدريد. ظهر في العاصمة كفنان بسيط، ولم ير سبيلاً إلى العيش لأنه

تُرومينَ مني الوُدَّ بُقيا عَلَى الذي
مضى..!!خاب فالى أن أرى غير ثائب
تَرومين مني الودّ!.. تلك عجيبة
وَأسعى لذبحي! تلك أمّ العجائب
تشهَّيت لحماً..!فَات ماتشتهينه — فلم يبق من لحمي طعامٌ لساغب
تملّيت هذا البغض حتى رأيتُني — أُرَبب حيّاتي وَأغذو عقاربي
فإن يك بُغضى كلّ ذنب جنيته — إليك..! فانى لست منه بتائب
وَكيف!.. وَقد أنهكتني وَعرقتني
وَقدت عَلَى قلبي جيوش النوائب!
دريني... وَلكن الحياة مليئة
بكن... فما في الأرض منجى لهارب

محمود محمد شاكر

لم يكن يعرف أحداً فيها . كان دائب البحث عن أى عمل ولكنه كان يعود مساء كل يوم كسير القلب إلى الملجأ الذى أقام فيه

وفى صباح يوم وجد المسكين فى إحدى الأزقة الضيقة وقد اعتدى عليه بالسكاكين فأخذه أولئك الذين كان يقيم معهم وعنوا به حتى شفى من جراحه



علم البوليس بأنه من العاطلين المدمنين على شرب الخمر فطارده إلى خارج العاصمة ، فذهب إلى حلبة مصارعة الثيران واستطاع أن يجد عملاً حقيراً نظير أجر بسيط ادخر معظمه حتى تمكن به من الوصول إلى إحدى موانى أسبانيا الجنوبية حيث أبحر إلى شاطىء إيطاليا الغربى . وصل إلى روما وهناك أمكنه العمل عند فنان شمبى راجت حاله

وعند هذا الفنان تعرف إلى أناس لا يميلون بطبعهم إلى العلم ولا إلى المتعلمين وإنما هم من أولئك الذين تجتذبهم حياة الشوارع وما فيها من وسائل لقتل الوقت

ومال بطبيعته وبحسب استعداده وبعامل البيئة التى عاش فيها إلى تصوير مناظر الأزقة والحارات والقهوات على نقيض الفنانين الآخرين الذين كانوا كثيراً ما يتحاشون إظهار هـذه المواقف على لوحاتهم

وهذه نزعة لم يسبق أحد إليها خصوصاً وأنه أكثر من تصوير الوجوه الثائرة والمناظر الشاذة المتصلة بحياة الجمهور والغوغاء مباشرة ، حتى لترى هذه المسحة على معظم لوحاته التى تعد بحق خير مسجل لشخصية مصور من أنبغ فنانى القرن التاسع عشر صعد يوماً إلى قبة كنيسة بطرس ليحفر الأحرف الأولى من إسمه ، ولا تزال محفورة إلى اليوم . وهكذا كانت إقامته فى روما غريبة الأطوار . وقد تعرف فيها بسفير روسيا الذى طلب إليه السفر إلى بطرسبرج ليكون مصوراً للقصر . وفى أثناء المفاوضة فى هذا الشأن قُبض عليه بتهمة تحريض احدى الراهبات على عمل غير شريف . ولولا اتصاله الوثيق بسفير روسيا لما استطاع الأفلات من يد العدالة

كان جويا تمساً فى غربته ، وكان دائم الحنين إلى بلدته ، ورأى فى إقامته الطويلة بروما تكفيراً كافياً لسابق جرائمه ، فعاد إلى مدريد سنة ١٧٧٥ وتزوج من يوزيفينا بايو شقيقة الفنان فرانسسكو بايو الذى كان مصوراً فى قصر مدريد والذى بوساطته استطاع جويا أن يقوم بعمل تصميمات لمناظر وزخارف الأقمشة التى كانت تُغطى بها حوائط القصر . وأول تصميم له نُسج على قماش لهذه الغاية سنة ١٧٧٦ ، واستمر حاله هكذا حتى سنة ١٧٩١ ، وتدرج فى التقرب من سادة القصر وتقدم فى فنه تقدماً عظيماً حتى أصبح أبرز فنانى عصره فى أسبانيا ، وعمل لوحات مثلث الحياة على الصورة التى تغلغلت فى نفسه كما صور أكبر الشخصيات

كان جويا فناناً بكل معانى الكلمة ، كما كان بوهيميا فى علاقته الزوجية ، ولم يخل تاريخ حياته من فضائح أهمها اتصاله بأميرة إلبا التى عشقها عشقاً ملك عليه مشاعره فصورها على لوحات تجل عن الحصر فى مواقف مختلفة ، وكان يعيش فى جناح من قصرها . أما هى فكانت تتوجه من حين لآخر إلى زوجته وأولاده وتقدم اليهم العطايا والهدايا



ولم تكن الملكة راضية عن هـذه العلاقة ؛ فعملت ترتيباً

أخرجت به الأميرة من القصر إلى جهة نائية . سافر جويا بصحبة معشوقته فى عربة خاصة كُسرت عجلتها فى الطريق الوعر ، فقام بعمل الاصلاح اللازم كما لو كان حداداً ماهراً ، وأمكن السير بالعربة إلى أقرب قرية لتغيير العجلة . تعرض جويا بعد هذا المجهود للهواء البارد فأصيب بصمم فى احدى أذنيه لازمه حتى آخر حياته

مضت الأعوام وعادت الأميرة إلى مدريد وماتت بعد وصولها . وعاد هو لتصوير مناظر دلت على منتهى الحنق والحقد على النساء ، كما دلت على كثير مما خالج نفسه من البؤس والشقاء

زحف الفرنسيون على مدريد فقابلهم جويا بكل ترحيب وانضم إليهم بقلب مطمئن ، وبعد خروجهم منها وجهت إليه تهمة الانضمام للعدو ؛ إلا أنه تمتع بالعفو لكبر سنه

بدأ الهدوء يدب إلى نفسه ، واستمر يصور لوحاته ، وأكمل مجموعته بالقلم الرصاص حتى بلغ السابعة والسبعين ، ثم رحل إلى وردو عملاً بمشورة طبيبه ، ولم يترك التصوير مع ضعف بصره ، بل كان يستعين بالمجهر . وآخر لوحة له صورها فى سن الحادية والثمانين ، ومات بعدئذ بسنة واحدة سنة ١٨٢٨

هذه هى ترجمة فنان لم يكن له نظير فى مجرى حياته ولا فى قوته الانشائية لمجموع لوحاته التى من أشهرها صورة (البقرة العمياء) تمثل مجموعة من بنات وشبان تتوسطهم بنت مغمضة العينين تبحث عمن يناديها (محفوظة بمدريد) ، وصورة (الغداء فى الغيط) وفيها مثل الطبيعة تمثيلاً رائعاً (محفوظة بلندن) وصورة (النزهة فى الاندلس) وكانت مرسومة خصيصا للنسج (محفوظة بمدريد) وصورة الولد النطاط وهى من أدق الصور التى تدل على منتهى قوة الملاحظة والاخراج : وقفت اربع بنات يحملن ملاءة كبيرة وفوقها صبى واقف على ساق واحدة استعدادا للقفز إلى أعلى عندما يشددن الملاءة

وصورة (المشاجرة فى الملجأ) وهى من أحسن صوره ، تذكرنا بوقت بؤسه عندما كان بعيداً عن بيته يبحث عن عمل ولم يجد إلا ملجأ حقيراً يأوى اليه . والناظر فيها يأخذه العجب عندما يرى أنها تمثل حياة الملاجىء تمثيلا صادقا ؛ صور عليها بعض الحيوانات وبعض الأشجار وعربة قديمة فى ركن من اللوحة ؛ أما بوسطها فقد وقف المتشاجرون موقفا عنيفا لايستطيع غير جويا أن يخرجه فى هذه القوة

وله لوحة خالدة (محفوظة بمدريد) اسمها (الرمى بالرصاص) على يمينها وقف الجنود شاهرين بنادقهم ، وعلى اليسار اصطف المنبوذون مستسلمين للأعدام ، وقد أعطى الصورة ظلا ونورا قويين قلما تراهما لغيره من الفنانين

هذا غير لوحاته العظيمة للشخصيات البارزة فى عصره ، كصورة مارى لويس ، وصورة فرديناند السابع وصورة امير الكاديا وغير ذلك مما يجل عن الحصر

وله لوحات تعد من أغرب ما تركه فنان ، منها صورة (شجرة الربيع) ، وهى تمثل صبية التفوا حول رجل يحمل ساقا طويلة ثبت فى أعلاها شجرة صغيرة وولدان صغيران يتسلقان الساق

أما لوحته (بالقلم الرصاص) الممثلة لحلبة مصارعة الثيران فهذه تعد فى مجموعها من أعظم ما أخرجه ؛ فقدرته على تصوير الثور الثائر والمصارع الماهر لاسبيل إلى وصفها .

أحمد موسى

البريد الأدبي

توحيد الثقافة العربية

بحث أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أسابيع في أمثل الطرق إلى توحيد الثقافة في البلاد العربية، ثم رأوا أن يذاكروا في ذلك إخوانهم القائمين على أمور الثقافة في لبنان وسورية وفلسطين، فدعوهم إلى القاهرة في عطلة عيد الفطر، فلبى الدعوة بعض أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت والأستاذ اسحق الحسيني عن فلسطين، ولم يستطع الأساتذة الدمشقيون الحضور لأسباب طارئة؛ ثم قضوا في القاهرة أسبوعاً حافلاً بالزيارات والمشاهدات على برنامج معين؛ واجتمعوا مراراً في دار «لجنة التأليف والترجمة والنشر» وتناقشوا في موضوع الدعوة ومنهاجها ووسائلها، فأسفرت المناقشة عن اتفاقهم على هذه الأسس الآتية:

١ — أن تؤلف جمعية لتوحيد الثقافة العربية وتركيزها وتقويتها تتكون من ٢٤ عضواً هم الداعون والمؤسسون

٢ — أن تسعى الجمعية في أن تضم اليها أعضاء من البلدان العربية الأخرى، وهي العراق وشرق الأردن وتونس والجزائر ومراكش

٣ — أن يراعى في اختيار الأعضاء الجدد أن يمثلوا فروع الثقافة المختلفة

٤ — أن تؤلف لجان فنية لدرس النهضات الفكرية والبرامج التعليمية في البلاد العربية لتوحد غاية التعليم وتقرب مناحي الفكر بقدر ما تسمح بذلك طبيعة الأقليم

٥ — أن تتلافى تعارض الجهود الأدبية، فلا ينشر مثلاً كتاب قديم في بلد يكون بلد آخر قد أخذ بنشره على صورة مرضية

٦ — أن تعمل الجمعية لأصدار مجلة خاصة بها يعالج فيها أعضاؤها الأغراض التي أنشئت لها

٧ — أن تعقد الجمعية مؤتمرات ثقافية في العواصم العربية على التتابع يحضرها الأعضاء ومن يدعون من الأدباء والعلماء فيوثقون الروابط ويرصدون التطور ويوجهون الجهود إلى الغرض المشترك. وسننشر أسماء الأعضاء وتفاصيل المشروع في فرصة أخرى

لجنة تفسير القرآن تحدد الغرض وتضع قواعد العمل

حددت اللجنة التي ألفت لتفسير القرآن الكريم تمهيداً لترجمة معانيه غرضها بأنه: «وضع تفسير يقصد به إلى فهم معاني القرآن الكريم كما يدل عليه نظمه العربي المبين، ومعرفة ما فيه من أنواع الهداية، ويكون في متناول جمهرة المتعلمين فهمه والاهتداء به إلى معاني القرآن في سهولة ويسر»

ولتحقيق ذلك تتبع القواعد الآتية في التفسير:

١ — أن يكون التفسير خالياً ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية إلا ما استدعاه فهم الآية

٢ — ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية فلا يذكر مثلاً التفسير العلمي للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق، ولا رأي الفلكيين في السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم؛ إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربي، وتوضح مواضع العبرة والهداية فيها

٣ — إذا مست الحاجة إلى التوسع في تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة في حاشية التفسير

٤ — ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها، ولا تتعسف في تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك

٥ — أن يفسر القرآن بقراءة حفص، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة اليها

٦ — أن يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض

٧ — أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث ، وأعان على فهم الآية

٨ — عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد ثم تحرر معانى الآية أو الآيات مسلسلة فى عبارة واضحة قوية ، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات فى الموضع المناسب

٩ — ألا يصار الى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات

١٠ — يوضع فى أول كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها فى السورة ، أمكية هى أم مدنية ، وماذا فى السورة المكية من آيات مدنية والعكس

١١ — توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه فى كل فن من فنونه كالدعوة إلى الله وكالتشريع والقصص والجدل ونحو ذلك ، كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها

طريقة التفسير

١ — تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور ، فتفحص مروياتها وتنقد ، ويفرد الصحيح منها بالتدوين ، مع بيان وجه قوة القوى وضعف الضعيف من ذلك

٢ — تبحث مفردات القرآن بحثاً لغوياً ، وخصائص التراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً وتدون

٣ — تبحث آراء المفسرين بالرأى والتفسير بالمأثور ، ويختار ما تفسر الآية به مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول ويفند ذلك كله

٤ — يصاغ التفسير المختار مستوفياً ما نص على استيفائه فى الفقرة الثانية من القواعد السابقة ؛ وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأفهام جمهرة المتعلمين خال من الاغراب والصنعة

التوزيع

نظراً لظروف أعضاء اللجنة وتحقيقاً للتعاون رئى أن تقوم لهذه الأعمال الأربعة جماعتان فقط : أولاها تقوم ببحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور وبحث آراء المفسرين بالرأى وما يستنبط من الآية . الخ . وتتألف من فضيلة رئيس اللجنة وحضرات الأساتذة جاد المولى بك ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى ، والشيخ على الزنكلونى ، والشيخ محمود شلتوت

وثانيتهما تقوم ببحث المفردات اللغوية والأوجه البلاغية كما تقوم بالصياغة الأخيرة للتفسير الذى يختار ؛ وتتألف هذه الجماعة من حضرات الأساتذة على الجارم بك ، ومصطفى عبد الرازق ، والشيخ ابراهيم حمروش

على أن تقدم الجماعة الثانية بحثها أولاً فى المفردات اللغوية والأوجه البلاغية للجماعة الأولى التى تتقاسم بينها أعمالها وتقدم تقارير بها ، وما يستقر عليه الرأى فى اختيار المعنى يعرض على اللجنة العامة مجتمعة فتنتهى فيه إلى قرار يقدم بعده الى الصياغة فتنجزها الجماعة الثانية وتعرضها على اللجنة العامة مجتمعة ليقر إقراراً نهائياً مع ملاحظة أن كل خطوة يتم بحثها يطبع ما تم فيها ويوزع على أعضاء اللجنة جميعها ليدرسوه قبل مناقشته فى اللجنة العامة

التفسير المختصر

تقرر كذلك أن تضع اللجنة بعد الفراغ من تفسير كل آية أو آيات موجزاً يختصر من التفسير الأول اختصاراً دقيقاً فى جلاء ووضوح يفرد وحده ويكتب فى كتاب خاص

وفاة شاعر تركيا الكبير محمد عاكف بك :

فى ٢٩ من ديسمبر الماضى استعز الله بالشاعر الكبير محمد عاكف بك أستاذ اللغتين التركية والفارسية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وكانت علته الفادحة قد اضطرته إلى اعتزال هذا المنصب فى يونيو سنة ١٩٣٦ والسفر إلى الآستانة حيث قضى نحبه بين قومه . كان الفقيد أستاذاً فى جامعات تركيا قبل الانقلاب ، وزاول الصحافة زهاء ثمانية عشر عاما أصدر فى خلالها مجلتى (صراط مستقيم) و (سبيل الرشاد) ؛ وكان إلى ذلك عضواً فى المجلس الوطنى أثناء حرب الأناضول

ولا تزال قصائده الوطنية وأناشيده الحماسية التى نظمها فى ذلك الحين تعلق بالقلوب وتجرى على الألسن . ومن روائعه الخالدة فى الأدب التركى قصيدة (جناق قلعة) التى وصف فيها موقعة الدردنيل وصفاً بليغ المعرض شديد الروعة ؛ وقصيدته فى رحلته من نجد إلى المدينة ؛ ثم نشيده الوطنى الذى يردده ملايين

الأتراك . وقد اشتمل ديوانه على خمسة أجزاء نشرها جميعاً تحت عنوان (صفحات)

وفد إلى مصر منذ أربعة عشر عاما لازم فيها المغفور له الأمير محمد عباس حليم ؛ وقد نظم فى مصر والمصريين قصائد رائعة ، منها قصيدته (مع فرعون) . وعسى أن تتهيأ الفرصة لصديقه الحميم الوفى الدكتور عبد الوهاب عزام فيجلو لقراء « الرسالة » نواحى أدبه بعد مماته ، كما أمتعهم بروائع شعره فى حياته .

كتاب الأشباح :

صدر أخيراً فى انكلترا كتاب طريف مدهش مما عنوانه : «قصص حقيقية عن الأشباح» True gohost Stories بقلم المركيزة توز هنـد أوف ربنهام والسيدة مود فولـكس ؛ وطرافة هـذا الـكتاب فى أن هذه القصص التى يحتويها ليست قصصاً خيالية من مبتكرات مؤلفتها ، وإنما هى قصص حقيقية واقعية تؤيدها المركيزة توز هند بكثير من الأدلة والشواهد ؛ وهى فى مجموعها تدور على العلاقة بين الأحياء والأموات ، وعلى الاتصال بأرواح الذاهبين ومثولها فى كثير من الأحيان . والمركيزة توز هند مؤلفة هذه المجموعة هى من أشهر المشتغلات بمسائل الأرواح والغيب ، ولها فى ذلك تجارب شهيرة ؛ وهى تقيم منذ أعوام فى دار اشتهرت منذ بعيد بمـا يسكنها من الأشباح والأرواح ، وهى دار ربنهام وتعرف فى مقاطعة نور فولك « بالبيت الأعظم » ؛ وقد كانت هذه الدار مسرحا لأكثر من مأساة دموية ، ولها شهرة مرعبة فى جميع الأنحاء المجاورة

وإذا كانت تلاوة قصص الأشباح المختلقة تثير الدهشة والجزع أحياناً ، فأن تلاوة هـذه القصص الحقيقية تثير الروعة والرعب فى الأذهان المؤمنة

وفاة الشاعر والفيلسوف الاسبانى أونامونو

من أنباء أسبانيا الأخيرة أن الفيلسوف الـكاتب الشاعر الاسبانى الكبير ميجويل دل أونامونو مدير جامعـة شلمنقه (سلامانكا) قد توفى فى الثانى من يناير . وكان مولده بثغر بلباءو فى سـنة ١٨٦٤ ؛ ودرس دراسة جامعية حسنة ، وبدأ أستاذا للغة اليونانية فى جامعة شلمنقة سـنة ١٨٩١ ؛ واشتغل منـذ حداثته بالشعر والأدب ، ودرس الفلسفة دراسة مستفيضة .

وأخرج فى سـنة ١٩٠٧ ديوانه « Poesies » فلقى تقديراً عظيما ، وتبوأ أونامومو مكانته فى الطليعة بين شعراء أسبانيا المعاصرين . وعالج أونامومو كتابة القصة أيضاً ؛ وأخرج منـذ سنة ١٨٩٧ قصته الشهيرة : « السلام فى الحرب » وفيها يصف مسقط رأسه ، ومشاهد صباه ؛ ثم اتبعها بقصة عنوانها « من بلادى » ، ثم بقصة « المركيز دى لومبريا »

بيد أنه اشتهر على الأخص بمباحثه الفلسفية ، فأخرج فى سنة ١٩١٣ كتابه « الشعور المؤسى بالحياة » ؛ وفى سنة ١٩٢٥ أخرج كتابه الشهير : « احتضار النصرانية » ، وأخرج أيضاً عدة كتب أخرى فلسفية ولغوية

ومنذ سـنة ١٩١٤ يشغل أونامومو منصب مدير جامعة شلمنقه . وقد عزل عن كرسيه سنة ١٩٢٤ لمطاعنه اللاذعة فى نظام الطغيان العسكرى الذى أنشأه الجنرال دى ريفيرا ؛ ثم نفى مدى حين إلى جزر الـكنارى ، ثم رحل إلى فرنسا . وكتب فى منفاه عدة رسائل وكتباً شائقة منهـا : « كيف تكتب القصة » ، ومنها كتابه المؤثر : « رومانثيرو فى المنفى » ، ولمـا انهارت دعائم الطغيان فى أسبانيا عاد أونامومو إلى شلمنقه ، وأعيد إلى منصبه الجامعى

وقد كان أونامومو من أعظم الشخصيات الأدبية التى طبعت الأدب الاسبانى المعاصر بطابعها العميق

تصويب

جاء فى الصفحة ٣٤ من العدد الماضى : « فى الجنوب تحت السماء الحارة » وصواب الترجمة : ساعة الزوال — تحت السماء الحارة



النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

للدكتور عبد الوهاب عزام

أخي صاحب الرسالة :

أود أن تفسح لي قليلا في صفحات رسالتك فإني مضطر إلى التوسع قليلا في الكتابة . وسأضن كما ضننتُ من قبل بصفحات الرسالة القيّمة فأقتصر على سرد أغلاط المعجم سرداً واثقاً بفهم القارئ، مكتفياً باللمحة الدالة والإشارة الموحية ، ولو استوعبت الأغلاط وأسهبت في بيان الأدلة لكان لنا معجم آخر

أبدأ مقال اليوم بكلمة في نقد الأستاذ الفاضل محمود مصطفى وأخرى في نقد الأديب الكريم عبد العظيم قناوي وثالثة في مقالات الأستاذ عبد الخالق عمر

وأود أن يتنبه الكاتبون إلى أمرين ؛ الأول : أننا في شأن كتاب قديم يُنشر . فكل همّنا أن يكون الكتاب كما أراده مؤلّفه . فاذا أثبت الناشر أو المصحح كلمة تدل القرائن على أن المؤلف لم يكتبها فهي غلط على المؤلف ولو كان لها محمل في اللغة

والثاني : أن مقياسنا في النقد هو اللغة التي نتعلمها ونعلّمها ونكتب بها ، ونعرف أن المؤلف كتب بها ، فالأوجه الشاذة والمحامل الضعيفة ليس لها مساغ هنا

أقول بعدُ للأستاذ محمود مصطفى :

١ — جاء في مقدمة ياقوت : « إذ كل همه تحصيل المأكول والمشروب . » والقارئ بين أن يقرأ « هَمُّه » فيخرج الكلام على وجه قويّ ، وبين أن يقرأ « هَمَّه » فيحمل الكلام على وجه ضعيف ، لأن همّ لازمة أصالة عرض لها التعدي توسّعا ، وأهمّ متعدية وضعاً ، وهي لغة القرآن . وليس من حقنا أن نعدل عن الراجح إلى غيره دون ضرورة . على أن المصححين أنفسهم اعترفوا بأن عبارة المؤلف « هَمُّه » بالضم واستدركوها في آخر الجزء الرابع فلا موضع للجدال

٢ — وجاء في الكتاب : « ومعاوية بفارسٍ » فقلت إنها ممنوعة من الصرف . فنقل الأستاذ عن القاموس أن فارسَ الفرسُ أو بلادهم . وقال إن التذكير والتأنيث في أسماء القبائل والمواضع جائز فيجوز فيها الصرف والمنع . وأما أقول : إن فارس في عبارة ياقوت ليست الفرس أو بلادهم ، ولكنها ولاية في الجنوب الشرقي من بلاد الفرس . فليرجع إلى الكتاب . وأما الصرف ومنعه بنية التذكير أو التأنيث فهو من مماحكات بعض النحويين . وقد جرت اللغة على تأنيث ألفاظ وتذكير أخرى ، وإجازة الوجهين في غيرها . فلا ينبغي أن ننوى التذكير في لفظ جرت اللغة على تأنيثه . فذلك ضرب من التأول لا حاجة إليه . وقد جرى العرب على تأنيث فارس . جاء في الحديث : « خدمتهم فارس والروم . » وشواهد هذا كثيرة . وهؤلاء مؤرخو المسلمين هل تجد من يقول « فُتِحَ فارس » أوهم جميعاً يقولون : فتحت بالتأنيث ؟ وما رأى الأستاذ في هذا النص : قال ياقوت نفسه في معجم البلدان : « قال أبو عليّ : فارس اسم البلد وليس باسم الرجل ؛ ولا ينصرف لأنه غلب عليه التأنيث ... وليس أصله بعربي بل هو فارسيّ معرب بارْس »

٣ — وأما ميسرة فقال الأستاذ فيها إنها مثلثة . ولا أظنه يجادل أن المختار فيها الفتح وبه جاء القرآن . فضَبْط كلمة مثلثة على غير الوجه المختار فيها غلط . وكان على المصحح أن يتركها لاختيار القارئ أو يعين الوجه المختار فيها . على أن المصحح اعترف في مقالة له بالمقطم أن « ميسُرة » غلط مطبعي . فان أراد الأستاذ من بعدُ أن يجادل فيها فليجادل المصحح نفسه

٤ — جاء في ياقوت « لغوياً نابهاً ثَبَتاً » فقلت الصواب : « ثبْتاً » بالسكون . والثبَت بالفتح البرهان اسم لا وصف . فقال الأستاذ : إن القاموس أجاز فيها الفتح ، وظن أني وهمت

حين قرأت قول شارح القاموس : « وقيل للحجة ثبَت بفتحتين إذا كان عدلاً ضابطاً » فذهب بالى (كما يقول) إلى أن الحجة هنا الدليل والبرهان . أقول : هل يظن الأستاذ حقاً أنى إذا قرأت هذه العبارة والشارح يقول فيها : « إذا كان عدلاً ضابطاً » يذهب بالى إلى أن الحجة هنا البرهان ؟ ثم أقول له : لا ريب أن الوصف ثبْت بالسكون ، وأن الثَبَت مصدر . قال صاحب اللسان : « ورجل له ثبَت عند الحملة بالتحريك أى ثبات » . ويقال للبرهان ثبَت . قال فى اللسان : « لا أحكم بكذا إلا بثبَت أى بحجة . وفى حديث صوم يوم الشك : ثم جاء الثبَت أنه من رمضان . الثبَت بالتحريك الحجة والبينة » . فاذا قيل للرجل المتثبِّت ثبَت ، فذلك كما يقال له حجّة ، وكما يقال رجل عدْل . كل هذا وصف بالمصدر للمبالغة . فأما الوصف الأصيل الدائر على ألسنة المحدثين فهو ثبْت بسكون الباء ، وهو الذى يحمل عليه عبارة ياقوت . فضبط الباء بالفتح إن لم يكن غلطاً فهو عبث

٥ — جاء فى ص ١١٥ ج ١ : أُضيقَت إضاقة شديدة الخ . قلت الصواب أَضَقت . ويريد الأستاذ محمود أن يصوبها مبنية للمفعول . كأن الرجل يقول : أضاقنى الزمان فأُضيقت أى صرت ضيقاً . وهذا تعسف لنصر الغلط على الصواب . والوجه أن يقال : أضاق الرجل كأعسر . قال صاحب اللسان : « أضاق الرجل فهو مضيق إذا ضاق عليه معاشه . وأضاق أى ذهب ماله » فما بالنا نعدل عن المنهج الواضح الى بُنَيَّات الطريق ؟

٦ — وجاء فى ص ٢٠٩ : نزل ثغر المُصَيْصَه . قلت الصواب : المَصِّيصَه ، وقال الأستاذ إنها المِصِّيصه ، واحتج بكتابه إعجام الأعلام . وأيد حجته بقولين متناقضين : قول صاحب القاموس بأنها كسفينة ؛ وقول صاحب التقويم إنها مِصّيصة . ثم خطّأ الناقد والمنقود وجعلنى أوفر نصيباً من اللوم ؛ وأنا أحتج عليه بقول ياقوت نفسه ، قال فى معجم البلدان : « المَصِّيصَه بالفتح ثم الكسر ثم التشديد وياء ساكنة وصاد أخرى . كذا ضبطه الأزهرى وغيره من اللغويين بتشديد الصاد الأولى الخ » ومثل هذا فى اللسان . ثم أقول للأستاذ إن كان الناقد حين يخطئ أجدر باللوم من المنقود ، فما تقول فى خطأ ناقد الناقد ؟

٧ — جاء فى الكتاب ص ٢٤٠ : أنه من غُمار الناس وصغارهم . قلت الصواب : غِمار بالكسر . وصوّب الأستاذ الوجهين ، واعترف المصحح أن الكسر أولى ، وأن الضم غلط المطبعة ؛ وأنا أقول مع الأستاذ محمود إنه لم يخطئ فى هذا ولم تخطئ المطبعة

وبعد ، فأسأل الأستاذ الفاضل : ما رأيه فى بقية الغلطات التى أخذت على الجزء الأول ؟ لماذا لم يتعرض لها فى مقاله ؟ وإن كان راضياً بها فلماذا لم يصرح بهذا ؟

* * *

وأما الأستاذ عبد العظيم قناوى فقد شارك الأستاذ مصطفى فى كلمتى « مَمَّه وميسُرة » . وقد تقدم الكلام فيهما . وبقى من ردّه قوله فى البيت :

أمفطرٍ منى على بصرى بالحب (م) أم أنتِ أكمل الناس حسنا

إن هذا الضبط جائز — وهذا غلط بيّن ، فالشطر الثانى خطاب لامرأة . وهو لا يستقيم مع هذا الضبط . ثم المسألة ليست مجالاً للرأى بل هى رواية يجب أن تتبع ، والبيت فى كتب الثقات كما رويته . وقد اعترف المصححون أنفسهم بالوجه الصحيح الذى نبهتُ اليه

وقوله إنه يجوز فى « أما كسهم ويزيدوننى » حذف النون . وذلك حمل للكلام على الأوجه الشاذة . وقد تقدم القول فيه

وجاء فى الكتاب ص ٢١٢ .

يخال بأن العرض غير موفر عن الذم إلا أنه يُدال له الوفر

فقلت الصواب يذال — وقال الأستاذ « ويدال ليست خطأ بل لعلها أوقع فى المعنى الخ » وأنا أقول إنها خطأ لأن البيت فى مدح رجل . ومعناه أن هذا الممدوح يظن أن عرضه لا يبرأ من الذم إلا إذا بُذل ماله وأُذيل أى امتهن — وإذا قرئت « يدال » كان البيت ذما . ويكون معناه أنه يظن أن عرضه لايسلم إلا إذا أديل له المال أى صار غنياً . وهذا ليس من المدح فى شىء

وأختم بشكر الأستاذ على حسن ظنه ، ولومه على مبالغته فى الثناء علىّ . والله يهدينا جميعاً للتى هى أقوم

* * *

وأما أستاذنا عبد الخالق عمر فقد وجهت اليه كلمة بارّة فى

المقال السابق ، ثم اطلعت على مقالات له فى المقطم . وأنا أسأل الله أن يمينني على تناسى هذه المقالات . وأرى أن من الخير لى وله ألا أناقشه فيما قال . فسأستمر فى نقدى فارضاً أننى لم أقرأ ما كتب متمنيا أنه لم يكتب

ثم أعود الى الموضوع متمماً نقد الجزء الثانى من الكتاب ، وقد وعدت فى المقال السابق أن أبين ما أخذته على تعليق الناشرين ، ولكنى أتقدم بتبيين أغلاط كتبتها ثم سهوت عن الحاقها بأخواتها فى ذلك المقال

ص ١٩٩ : قول البديع ردّ على الخوارزمى هجاء الصحابة

هلا يهتك الوجنة الموشومه عن مشترَى الخلد ببئر رومه

والصواب مشترِى بالكسر . ومشترى الخلد الخ هو عثمان ابن عفان ، وقصة شرائه بئر رومة فى المدينة ووقفها على المسلمين معروفة . ثم هذا البيت لم يستحق تفسيرا من الناشرين الذين يكافون فى مواضع أخرى بأن يفسّروا الماء بالماء

ص ٢٣٧ : فقال هذا زنبيل الحوائج الخ — وفى الحاشية ! وفى الأصل زبيل الحوالج تحريفاً — أقول التحريف ما فعله المصححون ، فأما الزبيل فهو أفصح من الزنبيل أو هو معربه ، وقد اقتصر عليه صاحب القاموس ولم يذكر الزنبيل . وذكره صاحب اللسان بعد الزبيل ثم قال : وقيل الزنبيل خطأ وإنما هو زبيل اه . وقال المعرى :

أيها الجامع الكنوز أزرّ أم زِبال من غلة فى زبيل

وأما الحوالج فالظاهر أنها جمع حالجة المرأة تحلج القطن ، وزبيل الحوالج يجمع فيه ندافة القطن ، وقد جُعل فى الكتاب مثلا فليرجع إليه

ص٢٤٢ : فى أخبار جحظة البرمكى أنه كان يلقب خَنْيا كر وفى الحاشية : « كلة فارسية معناها المغنّى » . وهذا التفسير صحيح ، ولكن كيف ضبطت الكلمة هذا الضبط ؟ هل أجراها المصححون مجرى الأعلام الأعجمية وجروا فيها على المذهب الذى نشر فى المقطم فأجازوا فيها كل تحريف ؟ والصواب خُنيا كَر

ص ٢٥٨

ماذا ترى فى جَدْىٍ وفى عقار بوارد
وقهوة ذات لون يحكى خدود الخرائد

والوزن لا يستقيم فى الشطر الأول فينبغى أن يكون : ماذا ترى فى جُدَىّ — تصغير جدى . ولا يفرد الصغر إذا كان لحمه لذيذاً

ص ٢٧٢ : قول جحظة البرمكى فى قصة رجل أعطاه ثيابا وعتيدة وهى وعاء للطيب : « نخرجت كأنى لص قد خرج من بيت قوم ، على قفا غلامى الثياب والعتيدة كارة » والكارة رحل الثياب . فرأى المصحح أن يحذف كلمة « كارة » كرها ويضع مكانها كلمة « كلها » وكتب فى الحاشية : كانت رواية الأصل كارة ، ولامعنى له » وقد عرف القارئ أن له معنى وأن المصحح غيّر متن الكتاب غلطا ، وقدمت لهذا نظائر وسيأتى :

ص٢٧٩ : قول جحظة :

يا من دعانى وفر منى أخلفتَ والله حسن ظنى
قد كنت أرضى بخبز رزّ ومالح أو قليل بُنّ

وأرى أن الصواب فى القافية الثانية بُنىّ بالياء . وهو ضرب من السمك لايزال معروفا بهذا الاسم فى مصر والعراق . وفى بعض الأغانى العامية المصرية بنىّ يا سمك بنىّ . وليت الناشرين فسروا كلمة بُن هنا فهى فى حاجة الى التفسير

ص ٢٨٠ يقول بعض الشعراء إلغازاً عن الدواة والأقلام :

أحاجيك . ماقبر عديم ترابه به معشر موتى وإن لم يكفّنوا
سَلوْتُ عن التبيان مدة قبرهم فان نبشوا يوماً من الدهر بيّنوا

وهو إلغاز عن الأقلام فى الدوىّ القديمة

والتحريف فى كلمة سَلَوْتُ ، والصواب سُكُوتٌ الخ

ص ٢٨٣ فى الكلام عن أبى نصر الباهلى الذى يقال إنه ابن أخت الأصمعى : « وكان أثبت من عبد الرحمن يعنى ابن أخت الأصمعى وأسنّ » . والمعروف أن عبد الرحمن ابنُ أخى الأصمعى لا ابن أخته . وصاحب الأمالى يكثر الرواية عن عبد الرحمن عن عمه (الأصمعى)

ص ٢٨٥ وكان يسكن باب الأزَجّ . والصواب الأزَج بغير تشديد . وهو اسم محلة كبيرة كانت فى الجانب الشرقى من بغداد

ويضيق مقال اليوم عن الكلام فى مآخذ التعليق على هذا الجزء فوعدنا العدد الآتى إن شاء الله . والله ولى الهداية إلى الصواب

عبد الوهاب عزام

العالم المسرحي والسينمائي

شركة أفلام الشرق

وجهودها في إخراج « نشيد الأمل »

تقرر أن يعرض فلم نشيد الأمل في يوم الاثنين ١١ يناير سنة ١٩٣٧ بسينما رويال ، والمعروف أن هذا الفلم لم يستغرق في إعداده أكثر من ٨٠ يوماً ، وهذه المدة القصيرة تشهد بالجهود الكبيرة التي بذلها رجال الشركة في إخراج هذا الفلم العظيم .

ويقول رجال الشركة إن الفضل في هذا التوفيق يرجع إلى معاونة العناصر الفنية في مصر وتضافرها على نجاح هذا الفلم ؛ فأولا استديو مصر — ذلك البناء الشامخ الذي يعتبر الدعامة الأولى في نهضتنا السينمائية والذي خطا بصناعة الأفلام خطوة جريئة واسعة — وضع تحت تصرف الشركة كامل معداته الحديثة وجهد فنانيه ، فقاموا بأحسن ما في وسعهم من جهد فني

فالتصوير قام به سامي بريل المصور الأول للاستديو فجاء متقناً بديعا ، وتسجيل الصوت قام به مصطفى والي يعاونه عزيز فاضل فجاء واضحا جليا ، وبناء المناظر (الديكور) قام به ولي الدين سامح يعاونه يوسف بهجت فكان شاهداً على حسن الذوق والدقة ، والتنكر (الماكياج) قام به ستراتج الروسي يعاونه حلمي رفله المصري الذي اشترك في أكثر الأفلام المصرية نجاحا

أما الاخراج فكان من نصيب الأستاذ أحمد بدر خان وهو شاب وديع هادىء مفكر يشع الذكاء من عينيه ، وقد كان بين أوائل المصريين اهتماما بفن السينما ؛ وهو مبعوث شركة مصر إلى فرنسا لدراسة هذا الفن . ونشيد الأمل هو أول عمل فني يقوم بإدارته ؛ وطبيعي أنه ركز كل قواه ومعلوماته في هذا الفلم حتى جاء تحفة رائعة . وقد عاونه في عمله صديقه الشاب جمال مدكور

هذا والفلم يحوي عدا الآنسة أم كلثوم مجموعة من خيرة الممثلين في مصر وعلى رأسهم الأساتذه زكي طليمات مبعوث الحكومة المصرية لدراسة التمثيل في أوربا وعباس فارس وفؤاد شفيق وغيرهم من كبار ممثلي الفرقة القومية وممثلاتها

الفاكهة المحرمة

للأستاذ أحمد عبد الرحمن قراعه المحامي

والأستاذ محمد السوادي

وأخيراً بعد صراع عنيف بين لجنة قراءة الروايات في الفرقة القومية ، وبين المؤلفين قدر لهذه المسرحية أن تظهر على مسرح الأوبرا ، وأن يستمتع الجمهور بمؤلفة مصرية ممتازة نالت رضا رواد المسرح واستحسانهم ، لأن الرواية تمس جانباً من حياتهم .

ولعل في النجاح الذي تعاون عليه المؤلفان وممثل الدور الأول الأستاذ أحمد علام ما يجعل الفرقة القومية ورجال اللجنة تعطي الأفضلية للروايات المصرية ، فليس من شك أن الفاكهة المحرمة نالت من الاقبال ما لم تنله الروايات الأخرى في هذا الموسم

لكن عيب على المسرحية المصرية أنها ما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذي يميزها عن الروايات الغربية لخلو أدبنا القديم من هذه الصورة من الأدب ، فان هذه الرواية تختلف عن هذا النوع ، إذ تتميز بهذا الطابع تميزاً ظاهراً ، فهي قطعة من صميم الحياة والبيئة المصرية ، تتصل بحياتنا وتقاليدنا وروحنا أوثق اتصال ؛ وهي تقوم على الصراع بين الشباب الذي يأبى لنفسه أن يهن أمام الشيخوخة التي لا تعرف من الدنيا إلا الاعتزاز بالثروة ، وعلى الصراع بين المنطق المستمد من الحكمة وجموح الرغبة ، ولكن ... في ظل التقاليد !!!

ليس من شك في أن أدبنا يفتقر إلى الوراثة المهذبة في فن صياغة المسرحية ، فليست لنا تقاليد ولا آثار سابقة كما قلنا ؛ ولهذا فان كتابنا الذين بما لجون المسرحية ما برحوا يأخذون بتقاليد المسرح الغربي وينحون نحوه . فالمؤلف في مصر يقف بين ثقافتين الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية ؛ فالأولى تهتم بالمفاجآت والحركات المسرحية المتصلة والشخصيات المشتبكة المعقدة ؛ والثانية تعنى بخلق الجو الهادىء والشخصيات الواضحة البسيطة

فضل مؤلفا هذه المسرحية الثقافة اللاتينية ، بل قل المدرسة الفرنسية ، فجملا الحوادث تتجدد ، وجاءا بشخصيات تعاون على إبراز الشخصيات الرئيسية فى المسرحية ، وبهذا كثرت الحركة بالمسرحية والنشاط ؛ ولكن فى رأيى أنهما لو سلكا الطريق الآخر وأعطيا هذه العناية للشخصيات الرئيسية لكان توفيقهما أتم . فهذه شخصية (فاضل) ذلك الصديق الذى يحب (درية) وشخصية (زوزو) ابنة صاحب الجريدة التى تحب (حسن) لو فكر المؤلفان فى الاستغناء عنهما أو الاستغناء عن الشخصية الثانية وتصحيح موقف الشخصية الأولى منذ بدء الفصل الثانى ، فأنا زعيم بأن ختام المناظر يكون أهدأ وأفعل فى النفس أثراً ، ولرأينا صورة بارزة من المسرح المتزن الذى يجعلنا نلتذ للتكشف الهادىء للحادثة ويصدم أذهاننا فيميتنا على التأمل والاعتبار بالحوار ومناقشة الرأى . ولو أن لى أن أشير بنصيحة لطالبتهما بهذا الاصلاح

على أن هـذا الرأى قد يكون متأثراً بعض الشىء بثقافتى السكسونية وحبى للمسرح الانجليزى ، ولكنى ألقى به مع اعتقادى بأن المسرحية قطعة أدبيـة ممتازة بشخصياتها الرئيسية الكاملة التصوير ، والجو المصرى الخالص الذى تعيش فيه هذه الشخصيات ، والأسلوب الرائع الملموس فى نواحى المسرحية

اشترك فى تأليف المسرحية الأستاذان أحمد عبد الرحمن قراعة المحامى المعروف ومحمد السوادى الصحفى ؛ وقد يصعب على الناقد أن يفرق بين عمل مؤلفين أتما رواية واحدة معاً ، ولكن المسرحية من حيث الأسلوب وطريق التفكير والشخصيات تنم عن قراعة أكثر مما تنم عن زميله

يقول « بيفون » الكاتب الفرنسى الكبير : إن الأسلوب هو الرجل . وليس من شك فى أن أسلوب قراعة القوى قد نم عليه ، وليس الأسلوب وحده ، بل كذلك الشخصيات وطريق التفكير ؛ والمأساة تدل على أن له النصيب الأوفر فى هذا العمل

فنحن نرى الشخصيات تنحنى أمام قوة التقاليـد ، وحتى حسن ودرية ، وهما من أصحاب الثقافة العالية ، لا يفكران فى الثورة على التقاليد والنظم بل يخضعان ويقبلان التضحية من أجل والديهما ؛ ثم النهاية القاسية التى تفرق بين حسن ودرية ، لأن الشرع يحول دون زواجهما — تنم عن روح قراعة ربيب بيت التقاليد وبيت الافتاء

الإخراج والتمثيل

ظهرت هذه المسرحية من غير مخرج ، فقد كانت من نصيب الأستاذ زكى طليمات ، وقد بدأ فعلا فى تدريب الممثلين ، فلما ترك الفرقة وقامت العقبات فى سبيل ظهور هذه المسرحية أهملت ، وأبى الأستاذ عزيز عيد أن يتم إخراجها ، فقام الممثلون أنفسهم بهذا العمل وعاونهم الأستاذ أدمون تويما منظم المسرح

وأفلح الممثلون فى مجهودهم ، كما وفق الأستاذ أدمون تويما فى اختيار المناظر واختيار ألوان الضوء وتوزيعه كما يتناسب وجو المسرحية . وأقرر أن هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها مسرحية مصرية اكتمل فيها الضوء وكان عونا للممثلين ؛ وأرجو أن تهتم الفرقة بهذه الناحية ، وتسند إلى الأستاذ تويما الاضاءة دائماً

قام الممثل الأستاذ أحمد علام بالدور الأول ، فكان لظهوره رنة فرح بين جمهور المعجبين به الذين احتجب عنهم زمنا غير قصير . ولقـد أظهر براعة فائقة فى دور حسن بك . وإنى لأذكر له موقفه البديع فى الفصل الأول وهو يكاشف درية بحبه ، وفى الفصل الثالث بعد عودته الى البيت وحديثه مع درية زوجة أبيه ، ذلك الحديث الهادىء الذى يدل على ما يضطرم فى نفسه من شتى الاحساسات ، إحساسات الألم والحب المكبوت وما إليها . وكذلك فى الفصل الرابع وهو يتحدث مع شقيقته ، وبعدها وهو يتحدث الى درية ، ويعرف أنها تضمر له الحب ، يسمو فى هذه المواقف ويصـل الى قلوب النظارة فيحركها بالألم

ويأتى بعد علام فى النجاح السـيدة ثريا فخرى التى مثلت دور الدادة ، فقد وفقت فيه توفيقاً كبيراً وأدته أداء طيباً يعجز ممثلات الفرقة عن إدراكها فيه . وكان سراج منير موفقاً فى إبراز شخصية والد درية . وكانت (روحية خالد) بديعة فى تأدية دور شقيقة حسن ، وكانت حسـنة الالقاء خفيفة الظل ، كما كان محمود رضا عذب الروح فى دور نسيم أفندى مضحك الأسرة

وقامت الآنسة فردوس حسن بدور درية ، وهو الدور الأول فى هذه الرواية ، فبذلت مجهوداً لا بأس به ، إلا أنها لم تعن العناية الكافية بإبراز عاطفتها وإحساساتها فى شتى المواقف ، وأن تكون أقل سرعة فى إلقاء كلماتها . والأسـتاذ منسى فهمى قام بدور يحيى بك ، ويخيل إلى أنه لم يهتم به اهتمامه بأدواره السابقة ولم يعره جانب عنايته ، ولكنه فى الفصل الرابع أبدى بعض العناية فأنقذ الشخصية فى النهاية

يوسف تادرس

الناقد الفنى

5 me Année, No. 185

Lundi - 18 - 1 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
قرش
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ١٨ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

الدفاع المقـــــدس

قانون الحياة مادتان : هجوم على القوت ، ودفاع عن الذات . وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات فى يد الطبيعة ، تتذرع بها إلى ضمان الحياه بالوفرة ، كما تتـذرع بالجمال والشهوة واللذة إلى بقاء النوع بالولادة . فالحى الخليق بالبقاء تتوفر فيه ولا ريب قوة السعى لنفسـه ، وقوة الوقوف لغيره ؛ فإذا فقد هاتين القوتين أو إحداهما كان طفيليا على مائدة الحياة ، وفضوليا فى ملـكوت الطبيعة . وليست العزة التى تملك القاصر حين يرشد ، أو التابع حين يستقل ، إلا يقظة الأنانية فى طبعه ، وثورة الحيوية فى دمه . وهذا الذى نشهده اليوم فى مصر المستقلة من التسابق إلى إعداد القوة ، والتنافس فى إنشاء الدفاع ، إنما هو استكمال لاحدى وسيلتى العيش ، واستثمار لأرقى طبيعتى الوجود . فقد كانت مصر قبل عهـدها الجديد تجرى على قدَر مجهول فى الغيب ، وتعيش على خطر معلوم من العدو ، ثم لا تجد فى واديها ولا فى أيديها ما يدفع الغارة ويمنع الحوزة ، فهى كالمرأة حمايتها على الزوج ، وكالقاصر تَبِعَتُهُ على الوصى . لذلك

خشعت نفوسها أمام القوى الساطية خشوع الوحش الداجن إذا حُطِّم نابه وقُلِّم ظفره ، فلا تدخل فى شر ، ولا تشارك فى مراء ، ولا تملك من دون وليها المحتل نفعاً ولا ضرا . كان ذلك وأكثر الدول السيدة الأَيِّدة كالبلجيك واليونان والترك لا يطولها أصلا ، ولا يَكثُرها نفراً ، ولا يفوقها ثروة . وكان ذلك والقوة هى الدستور النافذ فى الأرض ؛ فالتسليح خطة السياسة ، والحرب عماد السلام ، والمنفعة حجة القانون ، وعصبة الأمم والمعاهدات (منيكير)(1) لمخلب الأسد ؛ ولكن الاحتلال الذى غل اليد وشل الارادة قد سلبنا فيما سلب الثقة بالمقدرة ، والاعتماد على النفس ، فكنا فقراء مع الغنى ، أذلاء على الكثرة ، لا ندرى على اليقين قيمة ما نملك ولا مدى ما نطيق

أما اليوم وقد تحطمت حلقات القيود على ضغط الجهاد المُلِحّ والزعامة المخلصة ، فها هى ذى مصر طليقةً على سجيتها ، سافرة عن طويتها ، قد عصفت فى رأسها النخوة ، وتمرد فى نفسها التاريخ ، فهى تتأهب لإعلان قوتها واعزاز كلمتها وتحصين عزتها فى ميادين الحرب الثلاثة ! وهاهم أولاء أبناؤها الميامين البررة يتدفقون فى التبرع السخى لمشروع الدفاع الوطنى تدفق الدماء الحية فى قلوبهم الحرة ! وسيدهش العالم لهبّتهم العاصفة ، كما دهش من قبل لغفوتهم الثقيلة ، فإن مصر فى كل شىء فريدة عجيبة !

لقد هبوا أول الجهاد فسخَوْا لها بالأنفس ، وهم يهبّون اليوم أول النصر ليسخوا لها بالأموال ؛ وعلى قدر الاخلاص والتضحية فى الهبّة الأولى ، سيكون البذل والايثار ولا ريب فى الهبّة الثانية

صحيح أن تلك النهضة بدأت من الشعب وانتهت إلى الحكومة ، وأن هذه النهضة ابتدأت من الحكومة وستنتهى إلى الشعب ؛ ولكن ذلك لا يقدح فى حقيقتها ، ولا يشكك فى نتيجتها ، فإن حكومة اليوم هى شعب الأمس ، والذين ألبوا الأنفس على ذل الاحتلال ، هم أنفسهم الذين يحمسون الأفئدة لعز الاستقلال ؛ وبين عرش المُلك ، وكرسى الحكم ، ومقعد البرلمان ، وئام ناشىء من خلوص النية ، وانسجام قائم على وحدة الغاية ؛ ولن يهلك على خلوص النية رأى ، ولن يصل على وحدة الغاية سبيل

***

افتتح التبرعَ للدفاع المقدس الوزراء فتبعهم الموظفون ؛ فهل يفتتحه من الجانب الآخر الأمراء والأغنياء ليتبعهم الأهلون ؟

يريد الوطن الضعيف الأعزل من أولئك الذين ربّبهم على دلال السرف ، وقلّبهم فى أعطاف النعيم ، فحشا أُهُبَهم بخيره ، وأفعم خزائنهم بذهبه ، وبسط ملكهم على أكثر أرضه ، ومد نفوذهم على معظم بنيه ، أن يعززوه ليُبقى عليهم ، ويسلحوه ليدافع عنهم ، ويبروه ليدوم عليهم بره وظله

ما الذى يحبس هذا الأمير المترف أن ينفق على سلاح وطنه مثل ما ينفق على سلاح صيده ، ويبذل فى سبيل أمته بعض ما يبذل فى سبيل شهوته ؟

وما لهذا الباشا البطين صاحب الهيْل والهيلمان ، ومالك الثيران والأطيان ، ورب النفوذ والسلطان ، يَقِرُ أذنه عن نداء وطنه ، وإنما عظمته من فضله ، وعزته من أهله ، وثروته من ثراه ! أيتلكأُ الباشا ويتباطأ الأمير حتى تنشأ عدة الدفاع مما يرضخ به الفقير والأجير والعامل ؟ وهل ترك هذا أو ذاك لأحد من هؤلاء شيئاً يعطيه ؟ وهل من المروءة أن يدعا الفقير أو الأجير يتبرع من قوته وهو لا يكفيه ؟

***

سادتى أصحاب السمو وأرباب السعادة ! إن الفقير يغذيكم طيلة العمر بعرقه ، وسيدافع عنكم يوم الفزع بدمه ، ولن يكلفكم هذا الصابر المسكين إلا أن تشتروا له الفأس ، وتقدموا له السلاح ، فهل هذا كثير ؟

احمد حسن الزيات

(1) منيكير (Manicure) إسم الذى يجمل اليدين بالقص والصقل والصبغ ، وليس له لفظ فى العربية ؛ فهل يسمع المجمع ؟

فى الحـــب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

الكلام فى الحب يحـلو للعاشق والسالى والخلى ؛ وأنا والله « لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، وقد كنت أتوهم أنى عشقت بضع مئات من المرات فى حياتى مذ عرفت أن لى قلباً وأن مكانه فى الناحية اليسرى لا اليمنى . ولهذه المعرفة قيمتها عندى ، فقد خيل إلى فى صدر أيامى أنى أحب فتاة وأفضيت إليها يوماً — أو على الأصح ليلة وكان القمر طالعاً والجو سجسجاً — بما يجن صدرى ، وأردت أن أؤكد لها الحب فأشرت إلى حيث الضلوع فى الجانب الأيمن ، وكانت أعرف منى بتركيب الجسم الانسانى ، فضحكت وقالت : « هل أنت واثق مما تقول ؟.. » فلم أفهم معنى لسؤالها وظننتها تريد أن تعاهدنى على الحب والحفاظ وما إلى ذلك من الكلام الفارغ — أو الذى صرت أعتقد أنه فارغ — فوضعت كفها الرخصة على حيث أشرت لها إلى موضع قلبى وقالت : « مسكين هذا القلب !.. » فتناولت يدها وقبلتها وقلت على سبيل التأييد : « إى والله . . مسكين . . » فسألتنى : « وما العمل الآن ؟ . . » فقلت : « فى أى شىء ؟ » قالت : « أليس الواجب أن نبـدأ بقلبك فترده إلى مكانه الذى حوله الحب عنه ؟ » قلت : « كيف ؟ . ماذا تعنين ؟ » قالت : « إن قلوب الناس هنا .. إلى اليسار .. ولـكن قلبك قد وثب وثبة نقلته إلى اليمين ؛ وهذا — فيما أظن — يجب أن يستعان على إصلاحه بالجراح . . وإلى أن يتم ذلك . . . »

فلم أدعها تتم كلامها ووليت هارباً . وخطر لى بعد ذلك أنه إذا كان القلب فى غير الموضع الذى حسبته فيه فأن ما توهمته من إحساسه — أو بعبارة أدق — من الاحساس فى ذلك الوضع لابد أن يكون تخيلاً لا حقيقة له . وكانت هذه مغالطة ، فليس من الضرورى أن يعرف الانسان موضع قلبه ليحب ، ولـكن المغالطة نفعتنى وشفتنى من هذا البلاء

وأنا لا أعشق بالمعنى المألوف لأنى شديد النسيان سريعه . والنسيان يجعلنى أمسى عاشقاً ، وأصبح سالياً . وكثيراً ما حدث أنى عشقت ، ولـكن الليـل يجىء فأجوع — ولا سيما فى الشتاء — فآكل فيغلبنى النعاس — والامتلاء يساعد عليه — وأنهض فى الصباح فيخطر لى شىء ساعة أفتح عينى على الدنيا فأشغل بذاك عما عداه وأفرغ من هذا الأمر الجديد فى العصر أو بعد يوم أو اثنين ؛ فأقعـد أفكر فيما مر بى فى يومى ، أو فى الأيام الأخيرة ، وإذا بى أتذكر فجأة أنى عشقت فأقول : « أوووووه ... أعوذ بالله ! ما هذا النسيان الفظيع ؟ ألا شدّ ما أذهلتنى الحياة عن حبيبتى التى لا شك أنها تحسبنى الآن أحيى الليل ساهراً أناجيها ... كلا ، ينبغى أن أكتم هذا لئلا تغضب ؛ وليس من اللائق على كل حال أن أخبرها أنى كنت ناسياً أنى عاشق مدنف . . . ولـكن من هى الحبيبة ؟ . لقد ذكرتُ حبها ولـكنى والله نسيتها هى . . » وأحار ماذا أصنع . . . فليس من المعقول أن أسأل من أعرف من الفتيات أهى التى أحبها أم سواها . ويعجبنى هذا الموقف فأتصور أنى أقبلت على واحدة وفركت كفى وقلت لها : « هل تسمحين لى أن ألقى عليك سؤالاً عنى ؟ » فتقول » تفضـل . . بالطبع . . لم لا ؟ . » فأقول : « إن المسألة بسيطة ! ! . . أعنى أنها فى الحقيقة دقيقـة . . والمفروض أنى أعرف بها ولـكنى كما تعرفين حمار . فتقول : « استغفر الله ! . لماذا تطعن على نفسك هكذا ؟ . » فأقول : « معذرة . . وأشكر لك هذا اللطف ولـكنها الحقيقة . . على كل حال لقد تبينت من كلامك . . أعنى . . أريد أن أقول إن كلامك الذى سمعته أغنانى عن السؤال فألف شكر لك يا روحى ونور عينى وحبة قلبى و . . . . »

فتقاطعنى وتصيح بى : « ماذا جرى لك ؟.. لماذا تتكلم هكذا ..؟ »

فأقول : « معذرة ... ولـكن ألست أنت روحى ونور عينى وحبة قلبى ... لقد ظننتك ... »

فتسأل وهى مقطبة : « هل جننت ... ؟ »

فأقول : « لا ... لم أجن ... ولـكنى نسيت ... »

فتقول وهى كالذهولة : « نسيت !.. ماذا نسيت ..؟ »

فأقول : « اسمعى ... لم يبق بد من الاقرار بالحقيقة ... إنى أحب ، ولـكنى نسيت ولم أعد أعرف من هى التى سرقت قلبى ، وقد كانت نيتى حين ربكتنى بالقاطعة أن أسألك أأنت التى أحبها ،

أم أنا قد غلطت ؟ ... فلما أظهرت هذا العطف على وأغضبك أنى أطمن على نفسى ، قلت إنك لا بد أن تكونى المحبوبة الضائعـة — أعنى المنسية — فان لم تكونيها فأنت لا شك أولى منهـا بحبى ... وهذا هو تأويل قولى : ياروحى يانور عينى وحبة قلبى .. فما رأيك ؟ »

أتصور هذا الموقف فلا يسعنى إلا أن أضحـك . ومتى ضحك المرء فقد سلا وخلا قلبه من الوجع . ولو أن كل عاشق استطاع أن يضحك لـكان الأرجح ألا يبقى فى الدنيا حب عنيف طاغ

ولا أحتاج أن أقول إنى فى الحب كما تشاء ذاكرتى : فاذا استيقظت وتنبهت ، ووسعها أن ترتب ما فيها ، وتبرز ما يستحق الابراز ، وتؤخر ما التأخير أولى به ، وتعرض الأمر على عرضاً يساعد على التدبر ولا يغرى بالفرار والتماس النجاة ... إذا فعلت ذاكرتى هذا فأنى أستطيع أن أعرف أأنا عاشق أم خلى ، ومن هى التى أحببتها ، أو من هن اللواتى أحببتهن ثم نسيتهن ؟ ولا غرابة إذن أن يكون حبى — حين أفطن اليه — بالجملة . أما إذا عجزت ذاكرتى عن هذا العرض فأنى أمشى فى الدنيا مستريح القلب من هم الحب وكربه ، واثقاً من نعمة الخلو ومزية السلامة والنجاة

ولـكن البلاء والداء العياء أن ذاكرتى تفاجئنى بومضات التذكر حين تحسن اللجاجة فى النسيان ... وتصور أن تكون جالساً تناجى من تذكرت أنك تحبها ، وأن تكون راغباً فى ملاطفتها لتعوضها من الاساءة إليها بنسيان أمرها ، فتروح تبثها هذا الحب وتناجيهـا بأعذب ما تستطيع من عبارات الشغف والهيام ، وتؤكد لها أنك ما أحببت ... كلا ، ولن تحب سواها ، وأن قلبك وقف عليها ، وأن حبك لها خالد ، وأن الدنيا تستطيع أن تعمر بمن شاءت من النساء الجميلات الفاتنات الساحرات ؛ ولـكنك أنت لن تكون لك عين ترى سواها ، أو قلب يخفق لغيرها ... وإنك لتسح بهذا الـكلام وإذا بذاكرتك تصيح بك :

« حاسب ... ماذا تقول ؟ ... أتزعم أنك لا تحب سواها ؟ يوه ... أتراك نسيت تلك التى كنت تقسم لها مثل هذه الأيمان الغلاظ البارحة ... البارحة فقط ... فى الساعة التاسعة ... على شاطئ النيل ... أو تلك التى دعوتهـا إلى الذهاب معك إلى الاسكندرية لأنك لا تطيق البعـــد عنها يوماً واحداً ... أو الأخرى ... أو ... أو ... »

وأرجو أن يكون القارئ منصفاً ، وأن يقول لى كيف بالله يمكن أن يمضى المرء فى الـكلام الذى بدأه ؟ ... أو كيف يستطيع أن يستحلى ما هو فيـه ؟ ... أو ماذا يبلغ من شعوره بالتنغيص فى لحظة جميلة كالتى هو فيها ؟... ثم إن هذه سماجة من الذاكرة .. لـذا لا تنتظر حتى تنقضى اللحظة الحلوة ، ويفوز المرء بالمتعة — متعة الجلسة والحديث والمناجاة وسرور المحبوبة بأنها محبوبة ثم بعد ذلك — بعد أن تنقضى الساعة التى هو فيها لا يبقى مانع من أن تذكره عما شاءت ، وأن تعرض عليه الحقائق الثقيـلة فى غير أوانها

فماذا أصنع بالله ... وكيف أستطيع أن أحب ما ينبغى ... وهل مما يستظرف أن تعابثنى ذاكرتى معابثة تحرمنى لذة الحب فى دنيا تزخر بالجمال ؟ ... وماذا عسى أن أقول للغانيات ؟ ... والله إن هذه لحيرة وأى حيرة ، ثم والله إنى لمستريح مسكين

ابراهيم عبد القادر المازنى

القلب المسكين

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال صاحب القلب المسكين : ووقفت المحامية وكأنها بين الحراس تزدحم عليها من كل ناحية ، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحب ، ونقلتهم في الزمن إلى مثل الساعة المصوَّرة التي ينتظر فيها الأطفالُ سماع القصة العجيبة ؛ ساعة فيها كلُّ صور اللذة للقلب

وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها ، فلو نطقت غيًّا أو رشداً فلهذا صوابٌ ولهذا صوابٌ ، لأن أحد الصوابين منظور بالأعين

كان صوتُ النائب العام كلاماً يُسمعُ ويُفهم ؛ أما صوت المحامية الجميلة فكان يُسمع ويُفهم ويُحس ويُذاق ، تلقيه هي من ناحية ما يُدرك ، وتتلقاه النفس من ناحية ما يُعشق ، فهو متصل بحقيقتين من معناه ومعناها ، وهو كله حلاوة لأنه من فمها الحلو

***

وبدأت فتناولت من أشيائها مرآة صغيرة فنظرت فيها

— النائب العام : ما هذا يا أستاذة ؟

— المحامية : إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليفُ عينيَّ ، فأنا أسأل عينيَّ قبل أن أتكلم

— النائب : نعم ياسيدتي ؛ ولكني أرجو ألا تُدخلي القضية في سر المرآة وأخواتها ... إن النيابة تخشى على اتهامها إذا تكحَّلتْ لغة الدفاع

فضحكت المحامية ضحكة كانت أولَ البلاغة المؤثرة ...

— النائب : من الوقار القانوني أن تكون المحامية الفتانة غير فتانة ولا جذابة أمام المحكمة

— المحامية : تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة ...؟ (ضحك

— النائب : جمال حسناء ، في ظرف غانية ، في شمائل راقصة ، في حماسة عاشقة ، في ذكاء محامية ، في قدرة حب . هذا كثير

— المحامية : يا حضرات المستشارين . لم تكن المرآة هفوة من طبيعة المرأة ، ولكنها الكلمة الأولى في الدفاع . كلمة كان الجواب عنها من النائب العام أنه أقر بتأثير الجمال وخطره ، حتى لقد خشى على اتهامه إذا تكحلت له لغتي

— القضاة يتبسمون

— النائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانوني . الوقار ، نعم الوقار ، وأن المحامية أمام المحكمة ، هي متكلم لا متكلمة

— المحامية : متكلم بلحية مقدَّرة منع من ظهورها التعذُّر ... (ضحك)

كلا يا حضرة النائب ؛ إن لهذه القضية قانوناً آخر تُنتزعُ منه شواهد وأدلة ؛ قانون سحر المرأة للرجل ، فلو اقتضاني الدفاع أن أرقص لرقصت ، أو أغنى لغنَّيت ، أو أثبتُ سحر الجمال لأثبتُّه أول شيء في النائب العام ...

— الرئيس : يا أستاذة ؟

— المحامية : لم أجاوز القانون ، فالنائب في جريمتنا هو خصم القضية ، وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية

— النائب : لو حدث من هذا شيء لكان إيحاءً لعواطف المحكمة . . . فأنا أحتج

— المحامية : احتجَّ ما شئت ، ففي قضايا الحب يكون العدلُ عدلين ، إذ كان الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك

— النائب : هذه العقدة ليست عقدة في منديل ياسيدتي ، بل هي عقدة في القانون

— المحامية : وهذه القضية ليست قضية إخلاء دار ياسيدي ، بل هي قضية إخلاء قلب

— الرئيس : الموضوع ، الموضوع

— المحامية : يا حضرات المستشارين . إذا انتفى القصد الجنائي وجبت البراءة . هذا مبدأ لا خلاف عليه ؛ فما هو الفعل الوجوديّ في جريمة قلبي المسكين ؟

— النائب : أوله حب راقصة

— المحامية : آه دائماً هذا الوصف . هبوها في معناها غير جديرة بأن يعرفها لأنه رجلٌ تقيٌّ ، أفليست في حسنها جديرة بأن يحبها لأنه رجلٌ شاعر ؟ احكموا يا حضرات القضاة . هذه راقصة ترتزق وترتفق ، ومعنى ذلك أنها رهنٌ بأسبابها ، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التي تدفع . . . فلماذا لم ينلها وهي

متعرضة له ، وكلاهما من صاحبه على النهاية ، وفى آخر أوصاف الشوق ؟ أليس هذا حقيقاً بإعجابكم القانونى كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل ؟ وإن لم يكن هـذا الحب شهوة فكر ، فما الذى يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها . . . ؟

— القضاة يتبسَّمون

— النائب . نسيت المحاميـــة أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقفة على النهاية وفى آخر أوصاف الشوق . . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الراقصة

— المحامية : آه دائماً الراقصة . من هى هـذه المسكينة الأسيرة فى أيدى الجوع والحاجة والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة ؟ أليست هى الجائعة التى لا تجد من الفاجرين إلا اللحمَ الميتة ؟ نعم إنها زلَّت . إنها سقطت . ولـكن بماذا ؟ بالفقر لا غير ؛ فقر الضمير والذمة فى رجل فاسـد خدعها وتركها ؛ وفقر العدل والرحمة فى اجتماع فاسد خذلها وأهملها . يا للرحمة لليتيمة من الأهل ، وأهلها موجودون : والمنقطعةِ من الناس ، والناسُ حولها !

تقولون : يجب ولا يجب ، ثم تدعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغى هو الذى ينبغى ، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب . فاذا ضاع من يضيع فى هذا الاختلاط ، قلتم له : شأنك بنفسك ونفضتم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى . ويحكم يا قوم ! غيروا اتجاهَ الأسباب فى هذا الاجتماع الفاسد تُخرجْ لـكم مسبَّبات أخرى غير فاسدة

تأتى المرأةُ من أعمال الرجـل لا من أعمال نفسها ، فهى تابعة وتظهر كأنها متبوعة ؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة ، يظلمها الاجتماع ظلماً آخر فيأخذها وحـدها بالجريمة ، ويقال سافلة وساقطة وما جاءت إلا من سافل وساقط

لمـاذا أوجبت الشريعـــة الرجمَ بالحجارة على الفاسق المُحْصَن ؟ أهى تريد القتلَ والتعذيب والمُثلة ؟ كلا فان القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا . ولـكنها الحـكمة الساميـة العجيبة : إن هذا الفاسق هدم بيتاً فهو يُرجم بحجارته

ما أجلَّك وأسماكِ يا شريعة الطبيعة ؛ كل الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار الأسرة إذا انهدم

تستسقطون المسكينة ولو ذكرتم آلامها لوجدتم فى ألسنتكم كلمـات الاصـلاح والرحمة لا كلمـات الذم والعار . إنها تسمى برذيلتها إلى الرزق ؛ فهل معنى هـذا إلا أنها تسعى إلى الرزق بأقوى قوتها . نعم إن ذلك معنى الفجور ؛ ولـكن أليس هو نفسه معنى القوت أيها الناس ؟

— الرئيس وهو يمسح عينيه : الموضوع الموضوع

— المحامية : ما هو الفعل الوجودى فى جريمة قلبى المسكين ؟ ما هو الواقع من جريمة يضرب صاحبها المثلَ بنفسه للشباب فى تسامى غريزته عن معناها إلى أطهر وأجمـل من معناها ؟ لبئس القانونُ إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل دينىٍّ من أعمال الفضيلة

— النائب : ألا يخجل من شعوره بأنه يحب راقصة ؟

— المحامية : ومم يخجل ؟ أمن جمال شـعوره أم من فن شعوره ؟ أيخجل من عظمةٍ فى سموّ فى كمال ؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهى نفسها أعمال النصر والمجد ؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لـكم جمال صاحبته وأن أظهر شيئاً من سر فنها الذى هو سر البيان فى فنه ؟

— النائب : إنها تماجن علينـا يا حضرات المستشارين ، فالذى يحاكم على السكر لا يدخل المحـكمة ومعه الزجاجة ...

— الرئيس : لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الـكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة

— المحامية : كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بنيَّات المتكلمين بها أو المصغين إليها ؛ فـكلمة الحب مثلاً قد تنتهى إلى فـكر من الأفـكار حاملة معنى الفجور ، وهى بعينهـا تبلغ إلى فـكر آخر حاملة إلى سموه من سموها . وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين ؛ فالأصل فى مدنية هؤلاء إباحة المعانى الخفيفة من العفة .. وإكرام المرأة إكرام مغازلة ... يقولون إن رقم الواحد غير رقم العشرة فيضعونه فى حياة المرأة ، فـما أسرع ما يجىء « الصِّفر » فاذا هو العشرة بعينها . . .

أما الشرقيون فالأصل فى مدنيتهم التزام العفة وإقرار المرأة فى حقيقتها . لا جَرَم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين : الاستبداد والعدل ، والقسوة والرحمة ، و ...

— النائب : وامرأة البيت وامرأة الشارع ...

المحامية : وبصر القانون وعمى القانون ...

— الرئيس : وحسن الأدب وسوء الأدب . . . . .

الموضوع الموضوع

— المحامية : لا والذى شرفكم بشرف الحكم يا حضرات المستشارين . ما يرى القلب للمسكين فى حبيبته إلا تعبير الجمال ، فهو يفهمها فهم التعبير كَكل موضوعات الفن . وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها . أئن أحسّ الشاعر سراً من أسرار الطبيعة ، فى منظر من مناظرها ، قلتم أجرَم وأثِم ؟

هذا قلب ذو أفكار ، وسبيله أن يعان على ما يتحقق به من هذا الفن . قد تقولون : إن فى الطبيعة جمالاً غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعط منها . ولكن ما الذى يحيى الطبيعة إلا أخذها من القلب ؟ وما هى طريقة أخذها من القلب إلا بالحب ؟ وقد تقولون : إنه يتألم ويتعذب ، ولكن سلوه . أهو يتألم بأدراكه الألم فى الحب ؛ أو بأدراكه قسوة الحقيقة ، وأسرار التعقيد فى الخير والشر ؟

إن شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا فى أحد الطرفين : همٌّ أكبر من الهم ، وفرح أكثر من الفرح . فاذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذى لا يكون الحب المعتدل إلا فيه ؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة

هذا قلب مختار من القدرة الموحية اليه ، فالتى يحبها لا تكون إلا مختارة من هذه القدرة اختيار ملك الوحى . وهما بهذا قوتان فى يد الجمال لأبداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتاهما عظيمة

فأن قلتم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه ، قالت الحقيقة الفنية : بل امتناع هذه الجريمة جريمة

إن خمسين وخمسين تأتى منهما مائة ؛ فهذا بديهى ؛ ولكنه ليس أبينَ ولا أظهرَ ولا أوضحَ من قولنا : إن هذا العاشق وهذه المشوقة يأتى منهما فن

***

قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة الى غرفتهم ليتداولوا الرأىَ فيما يحكمون به ، وأومأتْ لى المحاميةُ الجميلة تدعونى إليها ، فنهضتُ أقوم فاذا أنا جالس وقد انتبهتُ من النوم !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(جائزة) لمن يحسن كتابة الحكم فى هذه القضية خمس نسخ من كتاب (وحى القلم) . وترسل المقالات باسمنا إلى (طنطا) ، والموعد إلى آخر شهر يناير هذا ، والشرط رضى المحكمين ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبته

فى التاريخ السياسى

تفاقم المشكلة الاسبانية

ألمانيا تكرر محاولة أغادير

بقلم باحث دبلوماسى كبير

يظهر أن أخطار المشكلة الاسبانية لن تقف عند حد ؛ فقد بدأت الثورة الاسبانية فى أواخر يوليه الماضى حرباً أهلية ، ولكن عوامل التدخل الدولية التى صحبتها منذ قيامها لم تلبث أن غلبت على صفتها المحلية الداخلية ، فهى اليوم حرب دولية فى الأراضى الاسبانية ، يستتر فيها فريق الدول الفاشستية وراء الجنرال فرانكو زعيم الثورة ، وتستتر الدول الديموقراطية وراء حكومة مدريد ؛ وقد كان هذا الاستتار شفافاً فى البداية ينم على حركات الدول المختلفة ؛ ولكنه يفصح اليوم عن كل شىء بجلاء ؛ وتبدو الدول المتدخلة ولا سيما ألمانيا وإيطاليا والسوفييت فى الميدان بكل جرأة ؛ وتتقاطر الأسلحة والذخائر والنجدات الأجنبية إلى الفريقين المتحاربين بلا انقطاع

فهذه الصورة الدولية التى أسبغها التدخل الأجنبى على الحرب الأهلية الاسبانية تغدو اليوم بالنسبة لأوربا بركاناً يضطرم بمختلف المفاجآت والأخطار ؛ وقد كان آخر طور من أطوارها الخطرة تفاقم التدخل الألمانى وظهور ألمانيا فى سياستها الاسبانية بمظهر يزعج الدول الغربية ويثير كل مخاوفها . ذلك أنها لم تكتف بارسال السلاح والذخيرة والمتطوعين إلى جبهة الثورة ، ولكنها بعثت بقسم من أسطولها إلى المياه الاسبانية الشمالية وأخذت سفنها الحربية تعتدى تباعاً على السفن الاسبانية الجمهورية بحجة الانتقام لحادث الباخرة « بالوس » ؛ وفى الأنباء الأخيرة أن قوة عسكرية ألمانية نزلت فى مراكش الاسبانية ، وأنه شرع فى بناء الثكنات اللازمة لأيوائها مما يدل على أنها ستمكث هناك طويلاً ؛ وأن قوات أخرى نزلت فى قادس لنجدة الجبهة الثورية

وقد كان تدخل إيطاليا وألمانيا فى الحرب الاسبانية على هذا النحو يزعج الدول الغربية منذ البداية ؛ بيد أنه يلوح لنا أن السياسة الايطالية أخذت على أثر تفاهمها مع انكلترا تخفف نوعاً

من هـذا التدخل ، وأنا لاتفاق الانـكليزى الايطالى (اتفاق الجنتلمان) على الاعتراف بالحقوق والمصالح المتبادلة فى البحر الأبيض المتوسط ، وعلى احترام الحالة الراهنة فيـه كان ذا أثر كبير فى تعديل سياسة إيطاليا الاسبانية ، وقد ظهر هذا التحول واضحاً فى سـحب إيطاليا لقواتها من جزيرة ميورقة ، وفى وقف النجدات التى كانت ترسلها تباعاً إلى جبهة الثوار ؛ هذا بينما يشتد التدخل الألمانى ويتفاقم ، ويمتد من أسبانيا نفسها إلى مراكش الأسبانية ؛ وكان المنتظر أن المجهود الذى تقوم به السياسـتان البريطانية والفرنسية لحصر الحوادث الأسبانية فى نطاقها المحلى ودرء أخطارها الدولية يسفر عن بعض النتائج المرضية ؛ ولـكن الدولتان الفاشستيان وهما إيطاليا وألمانيا لجأتا إلى المطل والتسويف فى الرد على هذا المسعى . وكانت المذكرة البريطانية الفرنسية تقترح على الدول ذات الشأن أن تبذل مجهوداً مشتركا لوقف التدخل الدولى فى شؤون أسـبانيا الداخلية ، ومنع المعاونات العسكرية عن الفريقين المتحاربين ، وترك المسألة الأسبانية يحلها الأسبان فيما بينهم ؛ وقد أجابت روسيا وهى التى تؤازر حكومة مدريد على هذا الاقتراح بالقبول ؛ ولـكن إيطاليا وألمانيـا وهما اللتان تؤازران فريق الثوار تمهلتا فى الرد حتى تطورت الحوادث الأسبانية على هذا النحو الخطر ، واستطاعت ألمانيا أن تمد الثوار بنجدات عسكرية كبيرة ؛ وأخيراً قدمت إيطاليا وألمانيا ردهما وهما متحدان فى اللهجة والموضوع ، وخلاصة رد الدولتين الفاشستيتين هو أنه لامحل لاجراء المفاوضات الدبلوماسية للبحث فى هـذا المشكل فى حين أن هنالك لجنة خاصة للبحث فى مسألة عدم التدخل ، وأن منع المتطوعين الآن معناه معاونة حـكومة مدريد التى تؤازرها قوات بلشفية كبيرة ، وأن التبعة فى تفاقم التدخل الأجنبى فى أسبانيا ترجع إلى انكلترا وفرنسا لأنهما هما اللتان اعترضتا منذ البداية على اقتراحات ألـمانيا فى وجوب منع المتطوعين الأجانب ؛ وتزيد ألمانيا على ذلك أنها ترى بحث المشكلة كلها لا بحث بعض نواحيها فقط ، وأنها تحتفظ بحرية العمل إذا لم تقبل وجهة نظرها

ومن الغريب أن ألمانيا تقرن ردها بأرسال نجدات جديدة إلى أسبانيا ، وبانزال بعض قواتها فى مراكش الأسبانية ، وإذا كان ظهور الجنود الألمانية فى أسـبانيا وفى صفوف الجنرال فرانـكو قد أثار مخاوف انـكلترا وفرنسا ، فأن ظهورها فى مراكش الأسبانية يضاعف هذه المخاوف ويذكيها ، وقد رأينا الوزارة البريطانية تسارع بالاجتماع لبحث المشكلة الأسـبانية ، ورأينا السياسة الفرنسية ، تضطرب لهذا التطور المزعج فى الشؤون الأسـبانية . ولـكى نقدر خطورة هـذا الظرف يجب أن نرتد بالذاكرة إلى حادث مماثل وقع فى ظروف مماثلة ، ذلك هو حادث أغادير الشهير الذى كاد يثير ضرام الحرب بين فرنسا وألمانيا ؛ ففى أغسطس سنة ١٩١١ ظهر فى مياه أغادير المراكشية (وأغادير واقعة على المحيط الاطلنطى) طراد ألمانى ، وطلب القيصر فى نفس الوقت « مركزا لألمـانيا تحت الشمس » واضطربت فرنسا لهذا الحادث واعتبرته انتهاكا لحقوقها التى كفلتها معاهدة الجزيرة والتى عقدت بين الدول العظمى ومنها ألـمانيا ، ونصت على أن حفظ النظام فى مراكش هو من شأن فرنسا وأسبانيا وحدهما ؛ واشتد توتر العلائق بين الدولتين يومئذ ولاح شبح الحرب بينهما فى الأفق ؛ ولم تسحب ألـمانيا طلباتها ووعيدها إلا بعد مفاوضات طويلة شاقة ، وبعد أن تنازلت لها فرنسا عن بعض أراضيها فى الـكونغو ؛ والآن وقد بسطت فرنسا حمايتها على مراكش ، ووطدت فيها مركزها وسلطانها ، وأضحت جزءاً من امبراطوريتهـا الضخمة فى شمال إفريقيـة ، فانها ترتجف لأقل بادرة تهدد مراكش أو أى جزء آخر من أجزاء هذه الامبراطورية الغنيـة ؛ وقد كانت فرنسا تتوجس جزعاً مذ قامت الثورة الاسبانية ، واضطربت شؤون مراكش الاسبانية التى تحد أملاكها من الشمال ، وأضحت منطقة عسكرية خطرة ؛ فالآن تزيد جزعها وتتضاعف مخاوفها إذ ترى الجنود الألـمان ينزلون فى هذه المنطقة ويعسكرون فى مليله على مقربة من الحماية المراكشية

وهنالك ما يدل على أن هذا الحادث يشبه حادث أغادير من كل الوجوه . ذلك أن ألـمانيا أثارت حادث أغادير لأطماع استعمارية ، واستغلته لأرضاء هذه المطامع ، وهى الآن تعيـد الـكرة ، وتجيش بنفس الأطماع . وليس من المصادفات أن تنزل الجنود الألـمـانية فى مراكش الاسبانية فى نفس الوقت الذى تتقدم فيه ألـمانيا بمطالبها الاستعمارية إلى فرنسا وانكلترا بصورة رسمية . وقد كانت ألـمانيا تروج لمطامعها الاستعمارية منذ أشهر وينادى بها زعماء ألـمانيا المسؤولون فى شدة وصراحة ؛ وقد أجابت فرنسا وانكلترا غير مرة على لسان ساستها وصحفها أنهما لا تفـكران فى النزول عن شبر من الأرض لألـمانيا ، ولـكن

ألمـانيا لم تنثن عن ندائها ومطالبها ؛ ومنذ أسابيع قلائل كان وزير الاقتصاد الألمـانى الدكتور شاخت يكرر هذه المطالبـة بعنف وشدة ويصرح بأن استعادة ألمـانيا لمستعمراتها لم يبق مسألة كرامة فقط ، وإنما أضحى ضرورة اقتصادية تزحزح ألمـانيا تحت عوامامها المرهقة ، وينذر أوربا بالانفجار إذا لم تعط ألمـانيا حقها من المستعمرات والمواد الخام ؛ ثم اتخذت ألمـانيا بعد ذلك خطوتها الرسمية الأخيرة بتقديم مطالبها الخاصة بالمستعمرات إلى فرنسا وانـكلترا ، مقرونة بمناوراتها البحرية فى المياه الاسبانية الشمالية ، وبمناوراتها العسكرية فى شمال مراكش

فهل تزمع ألمـانيا أن تستغل هذه المظاهرات العسـكرية لتحقيق مطامعها الاستعمارية ؟ هذا ما نعتقد؛ ولقد جرت ألمانيا النازية فى العهد الأخير على سياسة المجازفة والوعيد والتظاهر ، وجنت ثمار هذه السياسة فى نقض ميثاق لوكارنو ، وفى تسليح منطقة الرين الحرام ، وفى غيرهما ، واستطاعت أن توقع بسياستها الخلاف فى صفوف الحلفاء السابقين ، واضطرت فرنسا أن تسلم بالأمر الواقع فى هذه المسائل مع أنها مما يمس سلامتها ؛ فهل تنى فرنسا أمام الوعيـد والتظاهر مرة أخرى ؟ هذا ما لا نعتقـد ؛ ففرنسا تنظر الى أعمال المانيا ومشاريعها فى أسبانيا وشمال إفريقية بمنتهى التوجس ؛ وألمـانيا تصيب هنا نقطة حساسة جدا فى السياسة الفرنسية ، وقد ظهر اهتمام فرنسا واضحا فى ذهاب وزير حربيتها الى شمال أفريقية ليتفقد أعمـال الدفاع ، وفى حركات أسطولها حيث تجتمع وحدات كبيرة منـه على مقربة من المياه الاسبانية ؛ وقد بادرت فرنسا بالاحتجاج لدى حكومة بورجوس على السماح للجنود الالمانية بالنزول فى مراكش طبقا لما تنص عليه معاهدة الجزيرة من تحريم مثل هذا الاجراء ؛ ومن المحقق أن فرنسا لن تتساهل على الاطلاق فى مشاريع المانيا فى هذه الناحية خصوصاً أن مراكش الاسبانية تقع وسط امبراطوريتها الافريقية كما أنها تشرف من جهة البحر على طريق فرنسا الامبراطورى ؛ وانكلترا لا تستطيع مثـل فرنسا أن تتسامح فى وجود الجنود الألمان فى هذه المنطقة على مقربة من ثغر سبتة المواجه لجبل طارق والذى يعتبر أهم من جبل طارق ذاته بالنسبة للاشراف على مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وقد بدأت انجلترا مثل فرنسا فى حشد جانب كبير من أسطولها على مقربة من المياه الاسبانية ؛ فالسياستان البريطانية والفرنسية تجمعهما هنا سياسة موحدة ، وتحدوهما الى العمل المشترك بواعث مشتركة لا شك فى خطورتها

والمعروف ان ألمانيا منذ قيام الحرب الأهلية ترنو إلى استغلال هذه الأزمة الأوربية الجديدة لصالحها الخاصة ، وأنها تحوم حول مراكش الاسبانية وجزر الـكنارى ، كما أن إيطاليا كانت تحوم حول جزائر البليار ، ولـكن إيطاليا انتهت إلى إدراك الحقائق الواقعة وآثرت أن تتفاهم مع انكلترا ، وأخذت فى الواقع تخفف من تدخلها فى المسألة الاسبانية وإن كانت فى الظاهر تبدو مؤيدة لخطة ألمانيا . أما ألمانيا فقد اندفعت فى خطتها إلى هذا المدى الذى يثير اليوم أزمة فى منتهى الدقة والخطورة . وفرنسا لا تجهـل البواعث التى تدفع ألمانيا إلى مثل هذه المغامرة ، وهى تدرك تمام الأدراك أن من ورائها المسألة الاستعمارية برمتها ؛ ولـكنها على ما يفهم من تعليقات صحفها لا تنوى أن تنزل فى هذا الوطن على وعيد ألمـانيا ورغباتها ؛ وكل ما هنالك أنها لا تأبى أن تبحث المسألة الاستعمارية على ضوء جديد ، وأنها لا ترى مانعاً من تحقيق بعض رغبات ألمـانيا فى هذا السبيل إذا كانت ألمانيا تتعهد من جانبها بأن تقف عند هذا الحد من تحقيق مطامعها ، وأن تعود إلى حظيرة الدول الغربية لتعمل معها على تأييد السلام الأوربى ؛ ويقتضى ذلك أن تخفف ألمانيا من حدتها العسكرية ، وأن تعمل مع الدول الأخرى على تخفيض سلاحها ؛ أما إذا كان قصد ألمانيا من الاستيلاء على المستعمرات هو بالعكس استثمارها لتوسيع مشاريعها العسكرية ، فأن فرنسا تعارض كل المعارضة فى استيلاء ألمانيا على شبر من الأرض يعاونها على تحقيق هذه الغاية . هذه هى النظرية الفرنسية كما تعرضها الصحف الفرنسية ؛ أما انكلترا فلم يتضح موقفها بعد فى هـذه المسألة تماماً ، وإن كان ساستها المسؤولون قد أكدوا غير مرة أنها لن تنزل عن شيء من مستعمراتها

ومن المحقق أن تطور هذه الأزمة الجديدة يتوقف إلى حد كبير على تطور الحوادث الاسبانية ذاتها ، وعلى نتائج المعارك التى تضطرم حول مدريد ؛ فاذا كتب الفوز للثوار ، فان ألمانيا تزداد إصرار فى سياستها ومشاريعها ؛ وإذا كان الأمر بالعكس ، فمن المحقق أن هذه المغامرة الألمانية تنهار فى مهدها

وسنرى من جهة أخرى ماذا تستطيع الجهود السياسية أن تحقق فى هذا السبيل

(***)

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمة

وبصرف النظر عن هـذه الحملة الباطلة التى أثارتها عوامل الحقد والحسد والتى لم يكن لهـا أساس من الواقع والحقيقة فى شىء ، فأن الذى يجب أن نستخلصه من الأفكار السابقة هو أن السيد يلتقى مع الفارابى فى نقطتين هامتين ؛ فهو يوضح أولاً مهمة النبى الاجتماعية والسياسية ، وهذه مسألة يعد الفارابى من أول من صوروها فى الاسلام بصورة علمية نظرية ، وربما تلخص كتابه « آراء أهل المدينة الفاضـلة » فى إدماج فكرة النبوة على أساس من « جمهورية » أفلاطون وعلم النفس عنـد أرسطو . والسيد وهو مصلح دينى وسياسى لابد له أن يحتذى هذه الخطى ويسير على هذا النهج . ومن جهة أخرى لا يفوتنا أن نشير إلى أن النبى والحكيم يقتربان عند هذين المفكرين إلى حد كبير ، فهما روح الجمية ومبعث الحياة والاصلاح . نعم إن السيد يفرق بينهما من ناحية الكسب والعصمة ، فى حين أن الفارابى لم يوضح القول فى الأول وأغفل الثانية بتاتاً ، وبدا كأنه يسوى بين النبى والفيلسوف من جميع الوجوه . ولكن يجدر بنا ألا ننسى أن الفارابى كان يصعد بالحكيم إلى مستوى هو العصمة بعينها ولا يمكن أن يتصور فيه الزلل ، ولهذا لم يفرق بينه وبين النبى فى هذه النقطة . وفوق هذا فأن السيد إذا كان قد جهر بهذه التفرقة فهو متأثر بعصره وبيئته والحملات التى وجهت من قبل إلى البحث العقلى ، لأنه يعود إلى موضوع الحكمة بعد سبعة قرون قضاها المسلمون فى مطاردة الفلسفة والفلاسفة . فلم يكن فى مقدوره أن يدعو للفلسفة دعوة صريحة ولا أن يثبت لها حقاً فى الحياة مكتملاً من كل نواحيه . وكيفما كانت الفوارق بينه وبين الفارابى فما لا شك فيه أنه قرب المسافة بين النبى والحكيم ، وعدهما معا مصدر تقويم وإصلاح ؛ وهاتان الفكرتان فارابيتان فى أصلهما سـواء أكان السيد قد استمدهما مباشرة من كتب الفارابى أم بالواسطة من مصدر آخر . وقد ساهم السيد فى نصرة الفلسفة والأخذ بيدها وساعد على إحياء دراستها فى الشرق بعد أن كان الناس قد انصرفوا عنها زمناً

ولم يكن الأستاذ فى تأثره بالفارابى أقل وضوحاً من شيخه وصديقه السيد جمال الدين ، فقد قرأ ابن سينا واشترك بنفسه فى إحياء الدراسات الفلسفية القديمة المهجورة . وفى نشره لكتاب « البصائر النصيرية » ما يشهد بذلك . هذا الى إنه وإن اشترك مع السيد فى فكرة التجديد والاصلاح يخالفه فى الوسائل الموصلة الى ذلك . فبينما السيد مجـدد طموح يريد الوصول سريعا وعن طريق السياسة ، إذا بالأستاذ الامام يعتقد أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة وأن الاصلاح يستلزم خطوات رزينة ، وتدرجا معقولا ، ودعائم مثبتة من الأخلاق والدين . لهذا اتجه أولاً وبالذات نحو التعاليم الدينية يحاولا أن يصوغها فى القالب الذى يتفق وروح العصر ، وأن يصعد بها الى ما كان عليه السلف الأول [1] . فقد كان على يقين مما لحق الاسلام من أفكار فاسدة صوَّرته بصورة معيبة شنيعة ، ووضعت حجر عثرة فى سبيل النهوض والتقدم . ولم ير بدا من محاربة هذه الأباطيل والترهات والقضاء على البدع والخرافات ، والأخذ بيد التفكير الحر الطليق تحت راية الدين الصحيح ؛ وأثره فى هذه الناحية أوضح من أن ينوه عنه . وفى رأيه أن العلم والدين لا يختلفان مطلقاً ، بل يجب أن يتضافرا على غاية واحدة هى تهذيب الانسانية وترفيهها وإسعادها [2] . فالدين يحول دون الانسان والزيغ الذى يقود اليـه عقل جامح ؛ والعلم يوضح الأصول الدينية ويبين أنها لا تتنافى مع المبادىء العقلية . ولن نستطيع الأدلاء هنا بكل أفكار الأستاذ الامام الدينية ، وسنكتفى بأن نلخص رأيه فى النبوة كى نتبين وجوه الشبه بينه وبين النظرية الفارابية

يقف الأستاذ الامام على هذا الموضوع ثلث « رسالة التوحيد » المشهورة أو يزيد ، وفيها يتحدث عن الرسالة العامة وحاجة البشر إلى الرسل وإمكان الوحى ووقوعه ووظيفة الرسل ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ويصرح بأن الانسان مدنى

(١) Encyc. de l'Islam Mohamed Abdo.
(٢) محمد عبده ، الاسلام والنصرانية

بطبعه محتاج الى المخالطة والمعاشرة ، وعلى كل فرد من أفراد الجمعية واجب يؤديه وحق يطالب به [1] . بيد أن الأفراد قد يخلطون الحقوق بالواجبات ، ويتهاونون فيما كلفوا به مسرفين كل الاسراف فيما يدعونه لأنفسهم من حقوق ؛ فتعم الفوضى وينتشر الفساد ، وتصبح الجمعية فى حاجة ماسة إلى قيام بعض أفرادها هداة ومرشدين ، يبينون للناس النافع والضار ، ويميزون لهم الخير من الشر ، ويعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يقفهم عليه من شؤون ذاته وكمال صفاته ؛ وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم [2] . فبعثتهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع الانسانى منزلة العقل من الشخص ؛ منحة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [3] . وليس غريباً أن يختص الله بعض خلقه بالوحى والالهام ، فقد سمت نفوسهم وأصبحوا أهلاً للفيض الالهى والكشف الربانى ؛ وبديهى أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً ، ولا يدرك الأدنى منها الأعلى إلا على وجه الاجمال . وليس هذا التفاوت نتيجة الاختلاف فى التعليم فحسب ، بل كثيراً ما كان أثراً من آثار الاختلاف فى الفطرة التى لا تخضع لقوانين الكسب والاختيار ؛ ولا يزال المرء يرقى فى الكمال حتى يبدو البعيد له قريباً ، وتتفتح أمامه حجب الغيب [4] . يقول الأستاذ الامام : « فاذا سُلم ولا محيص من التسليم بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها ألا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهى لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهى من الانسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم [5] »

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص ٧٣ — ٧٤
(٢) المصدر نفسه : ص ٨٢ — ٨٣
(٣) المصدر نفسه : ص ٨٤
(٤) المصدر نفسه : ص ٨٥
(٥) المصدر نفسه : ص ٨٦

لا نظننا فى حاجة أن نشير إلى أن كثيراً من هذه المعانى التى رددها الأستاذ الامام قال بها السيد جمال الدين . فمهمة النبى فى رأيهما أخلاقية اجتماعية ، ووظيفته تنحصر فى تربية الشعوب والسير بها نحو الطريق القويم . وإذا كان السيد قد اعتبر النبى روح الجمعية الانسانية فالأستاذ الامام عده عقلها . ولا نظننا مغالين إذا قلنا إن الامام يعود بنا إلى عصر الفارابى وابن سينا الذين كانا يفسران النبوة تفسيراً علمياً سيكلوجياً . وهو يميل دائماً ، كما قدمنا ، إلى أن يرجع التعاليم الاسلامية إلى الحال الزاهرة التى كان عليها السلف الأول ؛ وفى كثير من آرائه ما يقربه من هذين الفيلسوفين وما يدفعنا لأن ندرس العلاقة بينه وبينهما فى شكل أكمل وعلى صورة أوضح . فهو يقرر مثلهما أن التعاليم والأوامر الدينية يراد بها الشعوب وعامة الناس فى حين أن الفلسفة إن صلحت غذاء لطائفة معينة فليس فى مقدور الجميع استساغتها . ويقول بالأسباب الطبيعية التى أنكرها أهل السنة ملاحظاً ، كما لاحظ فلاسفة الاسلام من قبل ، أنها لا تتنافى مع قدرة الله واختياره فى شىء . وفى اختصار يتفق الأستاذ الامام مع الفارابى فى محاولته التوفيق بين العقل والنقل ، بين العلم والدين . وهذه المحاولة تدور عادة حول نقط تكاد تكون محدودة ، ولعل هذا هو السبب الذى قرب المسافة فى بعض المسائل بين هذين المفكرين

تتبعنا فى كل ما سبق نظرية النبوة الفارابية منذ نشأتها ، أعنى فى القرن العاشر الميلادى ، إلى أن وصلنا بها إلى أوائل القرن العشرين ؛ ونأمل أن نكون قد وفقنا لبيان أثرها فى الشرق والغرب ، فى التاريخ المتوسط والحديث ؛ ونعتقد أن فى هذا ما يحفزنا إلى إحياء الدراسات الفلسفية الاسلامية ، فقد ثبت أن هناك صلة بين أفكار اليوم والأمس ، وفى أبحاث القرون الوسطى ، كما لاحظ ليبنتز ، درر نفيسة لا يصح إغفالها . على أن نهضتنا العقلية والفكرية لا يمكن أن تؤسس على أساس صالح إلا إن ربط فيها الحاضر بالماضى واتصلت سلسلة التفكير الاسلامى الصحيح ؛ ولنا فى الأستاذ الامام والسيد جمال الدين أسوة حسنة

ابراهيم بيومى مدكور

في الأدب المقارن

النســـيب
في الأدبين العربي والانجليزى
للأستاذ فخرى أبو السعود

الجمال هو مادة الفن ، والتأثر به هو وحى الأديب ، والتعبير عنه هو رسالة الأدب ، سيان جمال الطبيعة والجمال الانسانى ؛ وأصدق مقياس لرقى الأدب وحيويته حسن تعبيره عن الفتنة بهذين الضربين من الجمال ، وأدق برهان على رقى المجتمع وصحة بنيته حفولُ أدبه بالتعبير الصادق عن الشعور الحار بفتنة الجمال فى مظاهره . والأديب الموهوب لا مندوحة له عن الاتيان بشىء جليل فى بابى الوصف الطبيعى والنسيب ، مهما كان حظه من سائر ضروب القول ؛ فالجمال الطبيعى والجمال الانسانى هما لباب الفن وصميمه ، وما عدا ذلك نوافل وفضول

والنسيب لا يزدهر إلا فى مجتمع توفرت له شروط خاصة : فى مجتمع على جانب من الثروة لا هو الى الترف ولا هو الى الفاقة ، على جانب من الخلق العظيم لا هو الى النعومة والضعف ولا هو الى الجلافة أو التزمُّت ، على حظ من حب المغامرة لا فانٍ فى حروب متواصلة ولا خانع قابع ، فى منزلة من الحضارة والرقى العقلى بين الهمجية والتوحش ، وبين الاغراق فى التقاليد الملوءة بالنفاق : ففى المجتمع الفقير يشتغل الأفراد بكسب القوت عن الترنم بعواطف النفوس ، وفى المجتمع المترف ترذل الأخلاق وتدنس العلاقات ، والتزمت أو التشدد الدينى يخفت صوت العواطف ، وكذلك تخفته التقاليد الحمقاء الشديدة الوطأة ، كما أن عصور المغامرة هى شباب الأمم الذى تحس فيه بكل نوازع الشباب ، من حب الجمال والشغف بالمغامرة

وقد تحققت هذه الشروط الى مدى بعيد فى العربية فى العصر الأموى : ففيه كانت الأمة العربية على جانب من الثروة والرقى العقلى والسمو الخلقى وحب المغامرة : قد ورثت أخلاق البادية المتينة وصقلتها الحضارة ولم تفسدها بعد ، وأصابوا من ثروة الأمم التى دانوها ، وما زالوا مجاهدين متأهبين للجلاد ، فلا غرو ارتقى النسيب فى هذا العصر ؛ وكان قد بلغ فى الجاهلية درجة عاليـة من الرقى ، فأصاب فى العصر الأموى غاية رقيه ؛ وكان ذلك العصر عهده الذهبى فى العربية ، فيه نبغ من شعراء النسيب جميل وكثير وقيس ، وجم غفير منهم عروة بن حزام وابن الدمينة وأبو صخر الهذلى وابن الطثرية

امتاز نسيب هذا العصر بخير ما يمتاز به النسيب : صدق شعور ، وحرارة عاطفة ، وجزالة نسج ، وعفة مقال ، وحسن بيان لمظاهر الحب وخفاياه وأحواله ، وحسن وصف لجمال المحبوبة الجسمى دون إغفال لجمالها النفسى . ومن عَجَب أنَّ جيلاً نبغ فيه من ذُكر كان يصغى فى نفس الوقت الى الأخطل والفرزدق وجرير وهم يتشاتمون ؛ ونَبَهُ شأن هؤلاء حتى كادوا أن يخملوا الأولين ، مع أن جميلا وعروة وأمثالهما كانوا يترنمون بعواطف انسانية نبيلة ، والآخرين كانوا يتقاذفون بالأوضار ! ومن بديع النسيب المتخلف عن هذا العصر قول قيس بن ذريح :

نهارى نهار الناس ، حتى إذا دجا   لى الليل هزتنى اليك المضاجع
أقضّى نهارى بالأحاديث والمنى   ويجمعنى بالليـــل والهم جامع

وقول ابن الدمينة :

لك الله إنى واصـل ما وصلتنى   ومـثن بمـا أوليتنى ومثيب
وآخُذُ ما أعطيتِ عفواً وإننى   لأزورُّ عما تكرهين هيوب
وإنى لأستحييك حتى كأنمـا   علىّ بظهر الغيب منك رقيب

تصرم ذلك العصر تدريجاً ، ودخل عصر الترف والمجون والملكية المطلقة ذات الأبهة ، فلم يعد المجتمع يصلح للحب الصادق ، ولا الأدب يتسع للتعبير الصادق عن الحب : فقد ضعفت الأخلاق وانتشرت المفاسد ، واشتد تأثير الجوارى فى المجتمع . وتقلصت مكانة الحرائر وضرب عليهن حجاب الجهل . وفى ذلك الجو الخليع تفشو الغواية والشهوة ، ولا يفشو الحب العذرى الحار ؛ فالحب الصادق لا يكون ، والنسيب الرائع لا يزدهر ، إلا حيث جمالٌ وحيث عفة ، كما قال العذرىّ ؛ أما حيث تقع الجارية من نفس الرجل فيشتريها بماله ويصيّرها فى عداد ممتلكاته ، فلا يكون ذلك

وذهب عهد المغامرة والجلاد وتلاه عهد الشيخوخة والوهن وكفَّت الأمة العربية عن الحرب، وأقيم عليها المرتزقة من الترك والعجم، وخمدت العزائم؛ واستخذت النفوس تحت جبروت الملكية المطلقة وعُمالها الغاشمين الذين أفقروا الأهلين بمغارمهم، فانصرف الناس الى طلب القوت وحرصوا على المادة؛ ولم يَعُد الحب إلا اسماً يذكر، وطيفاً يُتوهم، وأنيناً موصولاً وعويلا، وتصابياً كتصابي الشيوخ؛ أما صدق الشعور بالحب والتقلب في أحواله وأطواره، فقد انقضى بانقضاء شباب الأمة

أما الأدب فسرعان ما داخله التكلف في ظل الملكية ذات الصلات، وتوفر الشعراء على المديح؛ وبدل أن يبتكروا جديداً انصرفوا إلى معارضة معاني الأقدمين في المدح والنسيب: ومن ثم انقسم شعراء العصر العباسي فريقين: فريقاً انغمس في تيار الشهوات وملأ شعره بوصفها، كبشار وأبي نواس اللذين أوغلا في الباب الذي كان فتحه ابن أبي ربيعة في العصر السابق؛ وفريقاً كان أنقى صفحة وأعف طبعاً فلم يجر إلى ذلك المدى، ولكنه لم يودع شعره وصفاً صحيحا صادقاً لعواطفه وغرامه كذلك الذي توفر عليه جميل ومعاصروه، بل اكتفى بالنسيب الاستهلالي التقليدي الذي تتكلف فيه البراعة وتتوخى المحسنات البديعية؛ ومن ثم لا نرى في أشعار البحتري والطائي والشريف ومهيار وصفاً صادقا حاراً لغرامهم. ومن الخطأ الشديد حين الكلام على النسيب في العربية أن نخلط نسيب هذا العصر الاستهلالي التقليدي بنسيب العصر الماضي الصادق الحي

* * *

وقد شهد النسيب في الانجليزية عصوراً مشابهة لهذه وإن جاء ترتيبها مختلفاً: فأما العصر الذهبي للنسيب في الانجليزية فهو العصر الاليزابيثي الذي توفرت فيه الشروط السالفة الذكر، فكان عهد شباب وطموح ومغامرة، فيه ثروة ونهضة عقلية وخلق متين؛ ومن ثم حفل مجتمع ذلك العصر بأحاديث الحب؛ وكانت قدوة الشعب ملكته التي كانت على جانب عظيم من الجمال والثقافة، يحيط بها طائفة من الفرسان البواسل، يتقربون إليها بتدويخ أعدائها ومد سلطانها براً وبحراً؛ ومن ثم ازدهر النسيب في أشعار شكسبير وسبنسر وبن جونسون وغيرهم

وفي العصر التالي خمد النسيب حيناً بتغلب طائفة المطهرين المتشددين الذين حولوا المملكة إلى صومعة يسودها الوقار والكآبة، وحرموا شتى المتع والمسرات، حتى قيل إن سبب تحريمهم قتال الديكة — وكانت تلك تسلية معروفة إذ ذاك — لم يكن رغبتهم في الرفق بتلك الطيور، بل حرصهم على حرمان الناس من السرور والتمتع. وقد ركد النسيب كذلك في العربية ركوداً طبيعياً لم يفرضه عليه أحد، في صدر الاسلام حين امتلأت النفوس برهبة الدين وانصرفت الهمم إلى جهاد أعدائه

وتلا عصر المطهرين في انجلترا عصر ترف وفساد، جاء رد فعل للعصر السابق، فرانت الشهوات في المجتمع، وشاع الفجور في الأدب، كالذي كان في العصر العباسي؛ ثم زايلت المجتمع والأدب تلك اللوثة رويداً رويداً خلال القرن الثامن عشر. على أن النسيب لم يزدهر ثانية خلال ذلك القرن لأقفاره من رُوح المغامرة والطموح، وتقاعد رجاله في المدن وتزاحمهم في المنتديات التي شاعت إذ ذاك. ومن أهم ما يعاب على شعراء ذلك العصر أمثال بوب وأديسون وجونسون خلو شعرهم من آثار الفتنة بالجمال في مظهريه الطبيعي والانساني

وإنما ازدهر النسيب وحفل الأدب بوصف فتنة الجمال بانبعاث النهضة الرومانسية، التي انصرف رجالها إلى الطبيعة والتفتوا إلى الماضي الحافل بحوادث البطولة، فكان جميع رجالها كوردزورث وكولردج وكيتس وشلي مغرمين غراماً شديداً بمحاسن الطبيعة ومفاتن الجمال الانساني. ولكيتس في ذلك أقوال جرت مجرى الأمثال، كقوله: «الشيء الجميل هو حبور لا ينقضي» وقوله: «الجمال هو الحق والحق هو الجمال؛ هذا كل ما هنالك، وهذا كل ما يعنيك أن تعلمه»

والحق أن النسيب في الانجليزية مقرون غالباً بالوصف الطبيعي، لشعور الأدباء البدهي بما بين الأمرين من صلة وثيقة؛ فالطبيعة غالباً هي المنظر الخلفي للصورة التي يرسمها الشاعر لموقف الحب الذي يريد رسمه، كما يتخذ المصورون مظاهر الطبيعة من بحر أو غاب أو أفق مناظر خلفية لما يصورون من وجوه أو أشخاص آدميين. والطبيعة هي التي تمد الشاعر الانجليزي بالأوصاف والتشبيهات التي يمثل بها حبيبته وعاطفته؛ وظواهر الطبيعة هي الرسل الأمينة بينه وبين محبوبته، وهي أيضاً الوحي الذي يوحي اليه فلسفة الحب التي ينسجها لنفسه

فشلي مثلاً يقول: «النافورات تمازج النهر، والنهر يمازج المحيط، ورياح الفضاء تمازجها دائماً روح عذبة، ولا شيء في

العالم يمضي وحيداً ، بل كل الأشياء مطيعة لقانون إلهي عازج أحدها الآخر ، فلمَ يشذ كلانا ؟ » ومارلو يقول : تعالىْ سويا وكونى لى ، كى نستوعب كل المتعات التى يحبونا بها التلاع والسهول والوديان والحقول والجبال الوعرة » وتنيسون يقول : « ما بالها تتباطأ فى إسباغ الحب على قلبها تباطؤ الوريقة على الغصن فى اكتساء الخضرة وقد اخضر جميع الغابة ؟ » وولر يقول : « اذهبى أيتها الوردة الجميلة إليها ، إلى تلك التى تضيع وقتها ووقتى ، والتى تعلم حين أشبهك بها كم هى تبدو لى جميلة جذابة . أخبريها — تلك الصغيرة التى يأبى لها الخفر أن يطلع إنسان على مفاتنها — أنك لو نبت فى القفار الموحشة لذويت دون ان يطرى جمالك إنسان ؛ ثم موتى أيتها الوردة كى تقرأ فيك النهاية المحتومة لكل غال عزيز ، وتعلم قصر المدة التى يحظى بها كل جميل جذاب »(١)

ولولوع أدباء الانجليزية بالفنون الجميلة ، وشمول نظرتهم إلى شتى مظاهر الجمال وأحواله ووسائل التعبير عنه ، كانوا كثيراً ما يمزجون جميع ذلك فى مقطوعة واحدة من شعر النسيب . فشلى يقول مثلاً : « إن رجع الألحان بعد خفوت الصوت يبقى مردداً فى الأفئدة ، ولِنشر البنفسج بعد موته طيب فى الأنوف ، وأوراق الورد بعد ذبولها تنثر على فراش الحبيب ، وكذلك ذكرياتك تظل بعد ذهابك ماثلة » ، وكولردج فى قصيدته « الحب » يصور موقفه مع حبيبته حيال تمثال فارس مدجج تستند إليه محبوبة الشاعر ، ثم يمضى يقص عليها حكاية غرام ذلك الفارس فى سالف الدهر فى أسلوب خيالى عذب ، مازجا وصف عواطف الفارس بوصف عواطفه هو نفسه

وفى النسيب فى العربية شىء من ذكر الطبيعة ولكنه ضئيل . وقد كانت الطبيعة على العموم مهضومة الجانب فى الأدب العربى ، كما مرَّ ذكره فى كلمة سابقة ؛ ولم يخفق الأدب العربى فى عصر من عصوره بمثل ذلك الحب الحار الذى خفق به للجمال الانسانى ، فى معالجته للوصف الطبيعى ؛ إنما جرت عادة شعراء العربية على تحميل الرياح سلامهم ، ودعاء الغيث إلى سقى منازل أحبابهم ، ومناجاة الحمائم والتشاؤم بالغراب ، وتشبيه لواعجهم بلواعج الابل أو القطا لفقد صغارها وألأفها ، كما كانوا يغبطون الوحش الآمن فى سربه الهنأ بألفه كما قال أبو صخر الهذلى :

لقد تركتنى أغبط الوحش أنْ أرى
أليفين منها لا يروعهما الذعر

أما مناظر الطبيعة : أشجارها وأزهارها ، والامتزاج الروحى بكل ذلك ، فقليلة الأثر فى الشعر العربى عامة وفى النسيب خاصة ؛ فبينما نجد الشاعر الانجليزى حين يتأنق فى تصوير أقصى مناه يتصور نفسه ومحبوبته يجوسان بين الخمائل والغدران ، نجد الشاعر العربى الذى تعوَّد حياة المدينة واستمرأ معيشة الحضارة ، لا يتصور اللقاء إلا فى الدار ، ولا يقابل حبيبته إلا فى المجالس والمحافل والمآتم والحج ، كما قال أبو حية النميرى :

رمَتْه أناةٌ من ربيعة عامر   نؤومُ الضحى فى مأتم أى مأتم

وكما قال كثير :

ولما قضينا من منى كل حاجة   ومسَّح بالأركان من هو ماسح
نقمنا قلوبا بالأحاديث واشتفت   بذاك نفوس منضجات قرائح

وكما قال ابن الرومى :

ياليت شعرى هل ابيت معانق   ويداى من دون الوشاح وشاحه ؟

وقد يتفق النسيب العربى والنسيب الانجليزى من بعض الوجوه : ففى كليهما استعار الشعراء أحياناً أسماء خيالية تكتُّماً وتعمية عند التحدث عن حبائبهم : ففى العربية فشت أسماء هند وليلى وسعاد مأخوذة عن العرب المتقدمين ، وفى الانجليزية استُعملت أسماء جوليا وإلكترا وثيرزا منقولة عن الأدب الكلاسى ؛ وفى كلا الأدبين اشتهر نفر من رجال الدين برقة النسيب والبصر بملابسات الحب : ففى الانجليزية كتبَ دن وهريرت وسويفت وغيرهم قطعاً من أصفى وأنق ما كُتب فى النسيب ، وفى العربية أُثر عن عروة بن أذينة الفقيه نسيب رائع أشهره أبياته التى مطلعها « إن التى زعمتْ فؤادك ملَّها » ، وألَّف ابن حزم وهو فقيه من بيت فقهاء كتاب « طوق الحمامة » يفصِّل فيه أطوار الحب ونوازعه ، ويبرهن على نظرياته بتجاريبه الخاصة

وقد تناول الأدبان شتى أغراض النسيب بين فارحها وحزينها ، وبين الذكريات والآمال ، وبين طرب اللقاء ولوعة الفراق ، وبين التوجع لغدر الحبيب والتفجع لوفاته ؛ بل تماثل فى الأدبين معان كثيرة جداً من معانى النسيب : فقول الشاعر العربى : « أسربَ القطا هل من يعير جناحه ؟ » له نظير فى مقطوعة تنيسون « إلى الخطاف » ، وقول كراشو : « وجهٌ لم يُصنع من دكان غير ذلك الذى تفتحه يدُ الطبيعة البيضاء على

(١) كأنما ينظر هذا الكلام إلى قول المتنبى :

زودينا من حسن وجهك مادا   م فحسن الوجه حال تحول
وصلينا نصلك فى هذه الد   نيا فان المقام فيها قليل

مصراعيه » شبيه بقول جميل : « إذا ابتذلت لم يُزرِها تَركُ زينة » ، وقول تنيسون من قصيدته « مود » : « لو كنت فانياً منذ قرن لسمع قلبي خطاها على رفاتها ، ودقَّ وخفق تحت قدميها ، وارتد زهراً أحمر قانياً » يشبه قول توبة الحميري :

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت ... عليَّ ودوني جندل وصفائح
لسلّمتُ تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح

واختص الأدب العربي بمواضيع احتفى بها وأدمن طرقها ، وكان أكثرها وليد خصائص بيئته ، وقلما التفت إليها الشاعر الانجليزي : كالوقوف بالاطلال ، ومناجاة الأطياف ، ووصف نحول الجسم وذم المشيب الذي يُقعِد عن المتعات ويَرُوع الغانيات ، والشكوى من الواشي والرقيب والعذول ؛ وهذا الأخير راجع إلى انتشار الحجاب وحظْر الاختلاط بين الجنسين إلى حد بَعُد أو قرُب في مختلف عصور العربية . وهو أمر جعل مسحة الحزن والتفجع أظهر في النسيب العربي منها في الانجليزي ، إذ لا مانع في المجتمع الانجليزي من الاختلاط ، ولا رقيب سوى الخلق القوي ؛ وكأن الشريف الرضي عَنى هذه الحالَ في المجتمع الانجليزي بقوله :

عفافيَ مِن دون التَّقيَّة زاجرٌ ... وصَونك مِن دون الرقيب رقيب

يختلف النسيبان من هذه الوجوه ، ويختلف أدباء كلا الأدبين بعض الاختلاف في النظر إلى الجمال ، لاختلاف البيئتين وأثر ذلك في تكوين الجسم : فالأديب العربي في بيئته الحارة يتشبّب بالعيون الدعجاء والحوراء ، والشعور السوداء الأثيثة ، والجفون المريضة ، والجسم الممتلىء ، ونؤوم الضحى ؛ على حين يهيم الشاعر الانجليزي بالشعور الشقراء يشبهها بالثلج نقاءً ، ويهوى زُرق العيون وينفر من الحدَق النُّجل ؛ والأديب العربي يشبب بكاعب « بنتِ عشرٍ وثلاث » كما قال بشار ، ولا تكون مثل هذه في الجو الانجليزي إلا طفلة غريرة ؛ والشاعر الانجليزي آخر مَن يُعجب بصاحبة الشاعر العربي التي يصفها بقوله :

أبتِ الروادف والثديُّ لقمصها ... مسَّ البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع المشيِّ تناوحت ... نبهن حاسدة وهجنَ غيورا

ويختلف النسيبان من وجه آخر أهم كثيرا : ذلك أن النسيب كسائر فنون القول في الأدب العربي التزم طريقة التعبير المباشر ، يعبر الشاعر عن إحساسه الفردي تعبيراً صريحاً ثم لا شأن له بسواه ، كما عبر جميل عن حبه لبثينة ، وتوبة عن حبه لليلى ؛ أما في الانجليزية فيقوم بجانب هذا الضرب المباشر من التعبير ضرب غير مباشر ، فيه يتحدث الشاعر عن شعور سواه بالجمال ، ويصف جمال غير محبوبته ، ومجال ذلك الروايات التمثيلية كروايات أنطوني وكليوباترا لشكسبير ، والقصص كقصص وسكس لهاردي ، ففي هذه وتلك يصور الأديب عواطف غيره ومواقفهم ، مازجا ذلك بلا ريب بمواطفه ومواقفه ، مسبغاً على إنشائه ثوبا رائماً من الخيال

وفي العربية شيء من القصص أُولع بتأليفه بعض المتأخرين من الكتاب كأبي الفرج الببغاء ؛ غير أنه بدائي سطحي مشوب بلوثة الترف والشهوة . وأحسن ما في العربية من وصف للحب وأطواره هو النسيب الشعري ؛ فالشعر لموسيقاه واختيار ألفاظه وأخيلته خير معبر عن الشعور الفردي المباشر ؛ فالشعر في العربية دون النثر هو المستأثر بالتعبير عن الحب ؛ أما في الانجليزية فللنثر نصيب من ذلك تزايد بانتشار الرواية التمثيلية وذيوع القصة ، حتى ليكاد بفضل الأخيرة يغلب الشعر على مكانته من نفوس القراء ، لما يستطيعه دون الشعر من التحليل المسهب الدقيق ، والحركة المستمرة ، والوصف المستوعب لدخائل النفوس وأطوار الحب ومواقف الغزل ، حتى ليستطيع القصصي البارع أن يُبكي قراءه ويمزج نفوسهم بنفوس أشخاص قصته ، ويجعلهم يتمثلونهم أحياء ويذكرونهم مدى حياتهم كأنهم أصدقاء قدماء قد فقدوهم

ومن ثم نرى أن أعلام الغرام المذكورين في الأدب العربي ، والذين تتخذ أسماؤهم رموزاً للحب ، وتضرب أمثالاً في الهيام ، هم الأشخاص الحقيقيون الذين عاشوا وسجلوا قصة غرامهم بأنفسهم في أشعارهم وحدثتنا عنهم كتب الأدب ، كعنترة وعبلة ، وجميل وبثينة ، وتوبة والأخيلية ، وابن زيدون وولادة ، على حين نرى في الانجليزية أن أعلام الغرام الذين تُضرب بهم الأمثال ويجري ذكرهم على الألسنة ، هم الأشخاص الخياليون الذين اخترعتهم مخيلة الأدباء ، مثل روميو وجوليت ، وعطيل وديدمونة ، وأوفيليا وهملت ، نعرف كل أولئك وهم من ابتداع شكسبير ، ولا نعرف إلا الشيء القليل غير المستيقن عن محبوبته « الحسناء السمراء »

ولم ينفرد القصصيون بذلك الابتداع وذلك التعبير المباشر عن مظاهر الحب ، بل حاراهم الشعراء : فمعظم شعراء الانجليزية الذين تناولوا الحب في شعرهم تغنوا بالجمال الانساني على إطلاقه ، ولجأوا إلى الخرافات اليونانية أو أساطير عهد الفروسية ، ينتخبون

منها من وقائع الغرام بين بواسل الأبطال وفاتنات ربات الحجال ما يصوغونه شعراً سلساً ، يضفون عليه ثوبا رقيقاً من الخيال ، ويودعونه شغفهم المطلق بالجمال غير مقصور على امرأة واحدة ، ولا على الوجه الانسانى ، بل شاملاً لمحاسن الطبيعة أيضاً

ولهذا الضرب من الشعر النسيبي مزايا جمة : ففيه إمتاع للخيال وإثارة للطرب ، وإشباع لحب الجمال على إطلاقه ؛ وهو منزه عن الغرض الشخصى وعن ريبة الشهوات تنزيهاً تاما ؛ وهو يجعل من الحب والجمال والبطولة والمرأة مُثلا عليا تهفو إليها النفوس ، ويمنح المؤلف والقارىء معاً جواً من النقاء والسمو كثيراً ما يعوزنا فى الحياة الواقعة ، وفى ذلك عزاء للنفس عن نقائص الواقع المجرد وأوشاب الحياة التى قلما تتعلق بالكمال

فالأدبان العربى والانجليزى فرسارهان فى مضمار النسيب ، قد وعيا من آثاره سجلاً حافلاً يصور فتنة النفس الانسانية بالجمال الانسانى ؛ يتمثل ذلك فى العربية فى بعض شعر الجاهلية ، وبالأخص فى شعر العصر الأموى ، وبذلك النسيب الأموى يمتز الأدب العربى ويفاخر أول ما يفاخر ، لصدق ما فيه من شعور يعوز شعر العصور التالية ، ونبل ما فيه من غرض يباين غرض أشعار المديح والهجاء ، وجزالة ماله من أسلوب يزدرى أسلوب الصناعة والمحسنات التى داخلت الشعر بعده ، وذلك الأدب النسيبى لم ينل حقه من التقدير والاهتمام بعد ، وأولئك الشعراء الناسبون لم يتبوأوا مكانهم الجدير بهم فى الأدب العربى

فخرى أبو السعود

جى دى موباسّان*

١٨٥٠ – ١٨٩٣

بقلم محمد سليمان على

حياته :

ربما ظل جى دى موباسان كاتباً خامل الذكر فى القسم المدنى الفرنسى طيلة حياته لولا إيحاء جوستاف فلوبير . فقد اكتشف الروائى المظيم مخايل النبوغ فى الطالب الذى كانت غايته من الحياة الدنيا على حد اعترافه أن يكون « حيواناً كامل الصحة » والذى أطلق وهو فى الثالثة عشرة على الدين اسم « اللاشىء الأبدى »

وكانت أمه تعتزم أن تجعل منه مؤلفاً نابهاً . وربما كان فلوبير باعث هذا الأمل ، فقد كان يعرف لورا موباسان قبل زواجها من جستاف دى موباسان الفتى المتأنق الذى هجرها بعد أن جردها من كل شىء . وكان فلوبير ولورا يتراسلان بلا انقطاع ، فكان يسدى النصح إليها فيما يختص بتربية ابنيها هرفيه وجى . ولقد كان لهما بمثابة الأب الناصح على نقيض أبيهما الذى كان يتجنب المسؤولية ويحب اللهو ، حتى حرم بأسرافه ابنيه من فرصتهما فى الحياة . ولقد كان (جى) وهو صبى « كجواد طليق فى أحد الحقول » ، وفى (الليسيه امبريال نابليون) برع فى الرياضة والسباحة ، والنكات العملية الأنيقة ؛ وفى الثالثة عشرة كان فلوبير يقرأ المحاولات الأولى فى الشعر لمتبنّاه

وبعد أن غادر موباسان المدرسة بدأ يدرس القانون ، غير أن المال أعوزه فلم يتم الدرس ، واضطر أن يلجأ إلى حمى الوظيفة التى كانت غاية الوقار والأمان عند أسر الطبقة الوسطى . وكان موظفاً قديراً . وظل سنين عدة فى منصب مغمور ، يتناول مرتباً ضئيلاً لا يكفى رغباته المسرفة . ولكنه لم يتمجل لتعزيز وسائله بالكتابة ، اللهم إلا بضع مقالات لجرائد ومجلات أدبية .

فقد كانت يد حكيمة ، قائدة ، تسدد مستقبله الأدبى . وكان يرد على إلحاح أمه إذ تطالب منه قطعاً رائعة : « لم يحن الوقت بعد . إننى أتعلم صناعتى » وكان يكتب بعزم دون كلل ، ويعرض كل سطر على فلوبير ليصححه أو يكتبه له من جديد ، وما اشتكى موباسان قط ولا كد نفسه

واستمرت تلمذته ثلاث عشرة سنة تلاها عشر من الغنى والمجد . ولما تخلص من خمول الوظيفة ، وأصبح سمير الأبهاء الفرنسية ، تعطش للنجاح ، بيد أنه على أثر سقوطه النسبى كمؤلف مسرحى اعتراه ذلك الأسى الذى ألقى ظلاً قاتماً على الجزء الأخير من حياته . (فالتكرار) وهى المسرحية التى كان بها جد فخور ، لم تمثل إلا بعد إحدى عشرة سنة من وفاته

وقد انتصر الكاتب على حساب « الحيوان كامل الصحة » ؛ فقد كان من مغامراته أن يلقى بنفسه فى السين وهو فى لباسه ليدهش مواطنيه الباريسيين المتكافى الاحترام ، وأن يصطاد فى الهواء والماء ، وأن يلاكم ويبارز بالسيف ، وأن يجوب البلاد والأمصار . إلا أن حياة الحيوان فى دى موباسان لم تكن فى واقع الأمر فى حدود الصحة ، فقد فرط فى قواه الجسمانية ، وعبث بالصحة التى كان يقدرها فوق كل شىء . ولقد قُدر « لثور بريتانى » كما كانوا يدعونه لضخامة جسمه أن يجلس فى تراخ فى الأبهاء بحكم عمله ؛ ومع حبه للأدب كان نظره الضعيف يعوقه عن القراءة . وفى شبابه كان فى سن تؤهله للاشتراك فى الحرب الفرنسية الألمانية عام ١٨٧٠ ، ولكن نفوذ من يهمهم مستقبله الأدبى كان سبباً فى تعيينه فى قسم المؤونة بعيداً عن معمعة القتال . وكان كبستر ندبرج يحتقر النساء ، ولكنه لم يكن يستطيع العيش دونهن

وكان فى أسرته جنون وراثى ؛ فبعد أن أصيب أخوه فى قواه العقلية ثم موته ، علم موباسان أنه محكوم عليه بتلك النهاية ، وكانت حالته معقدة ، وأغلب الظن أنها لو فحصت فى البداية لكان فى الامكان انقاذه . ولن يعادل ما وضع من السخريات فى قصصه تلك السخرية التى أصابته فى السنين القلائل الأخيرة من سنى حياته ، حينما انحطت قواه العقلية بسرعة . وحقاً لقد كان استمراره فى الكتابة نتيجة لارادته الحديدية وقوته الشديدة !

---

* اعتمدنا فى هذه الكلمة على ما كتبه الكتاب والنقاد الانجليز : « سومرست . » و « جيرالد جولد » و « سكارلين ويلسون . »

٨ - ٧

وفى ذات يوم وهو يغادر مكتبه التفت فأبصر نفسه ما زال جالساً إلى مكتبه هذا ، وزادت أخيلته سوءاً وأخذت أشكالاً مخيفة ؛ ولم يكن هناك أمل بعد ؛ غير أن الساخر الذى لم يكن يعتقد فى فضيلة من الفضائل ظل بغالب الأمل ، وفى الدرجات الأخيرة من مرضه كتب الى أمه يخبرها أنه فى تحسن ظاهر : فالعقل فى داخليته ما زال يستطيب الحياة ويقدر الشمس والسباحة والرياضة

وحاول بمعونة فرانسوا خادمه الأمين الذى ظل سنوات عدة صديقه المخلص أن يفر من النساء المعجبات به اللاتى لم يتحققن أنه هالك ، ولا سيما إحداهن وهى امرأة غامضة ؛ وقد حاول بعد زيارة فجائية منها أن يطلق الرصاص على نفسه ، لكن فرانسوا اليقظ كان قد اتخذ الحيطة فأخرج الرصاص من الغدارة . وبعد محاولة أخرى للقضاء على حياته نقل إلى مستشفى المجانين حيث ظل فى راحة لا يذكر شيئاً ولا يحس شيئاً سوى تلك التأملات المبهمة التى يراها من فقد قواه العقلية بلا أمل

فنه :

لو اطلع إنسان على نخبة من قصصه دون الملم بالتواريخ والأحوال والنظريات ، لاستطاع دون عناء أن يستنتج أنه كتب حين كانت مرارة الهزيمة فى حرب السبعين ما زالت تلقى على فرنسا ظلاً عبوساً ، وأنه كان رجلا مكنته وسائله وأخلاقه من الاختلاط بالأوساط الخاصة إلا أن النصيب الأعظم من عطفه الغريزى كان للفلاحين والفقراء ، وأنه كان مشغولا بمعضلة البقاء ، وأنه مع كل عظمته كفنان كان فى استثماره تلك المعضلة لمؤثرات عاطفية ظاهرة يهبط أحياناً الى درجة الاسفاف

وقصص موباسان جيدة . فالموضوع جذاب مشوق حتى ليجذب الانتباه لو حكى على مائدة الأكل ، وهذه ميزة يمتد بها ، فها كانت كلماتك متقطعة ، وسردك فاتراً ضعيفاً ، فلن تخفق فى إثارة اهتمام سامعيك إذا قصصت عليهم القصة العارية فى « بول دى سويف » أو « الميراث » أو « القلادة » فهذه القصص لها بداية ولها وسط ولها نهاية . فليست تهيم فى خط متردد لا تستطيع أن تعرف أين تنقاد ، ولكنها تتبع من المقدمة الى النهاية منحنيا قويا جريئا

وربما خلت قصته من المعنى الروحى . ولم يرم موباسان الى ذلك ، فلقد كان ينظر الى نفسه كرجل عادى . ولم يدع الفلسفة وحسنا فعل ، لأنه حين يندفع فى التأمل يصبح سطحياً . ولكنه مبدع فى حدوده . وحقاً لقد كانت له مقدرة عجيبة فى خلق أشخاص يزخرون بالحياة ؛ وقد يضيق بالايجاز ، ولكنه يستطيع فى صفحات قلائل أن يعرض أمامك ستة من الرجال فى صورة واضحة حتى إنك لتعرف كل ما تحتاج عنهم فضلاً عن أن حدودهم ظاهرة ، ومزاياهم واضحة ، وأنهم يتنسمون أنفاس الحياة ، وقد خلوا من التعقيد ومن التردد ومن المفاجآت ومن الغموض الذى نراه فى الآدميين

فصور أشخاصه بسيطة إلا أن هذه البساطة غير متعمدة ، فميناه الحادتان كانتا تريان بوضوح وإن كان على عمق غير بعيد . ولقد كانت فرصة سعيدة أن تريا ما هو ضرورى للفكرة التى يرى إليها . فهو حقاً يضع عينه على المرمى الذى نصبه أمامه ، ولكنه ما كان يستطيع أن يرى أكثر من مرمى واحد فى وقت واحد . فالمنظر الواحد ، والجو الفاجىء ، والباعث القاهر ، كانت قوام مادته . وهذا هو السبب فى أنه لم ينجح فى القصة الطويلة كما نجح فى القصيرة . ويقول موباسان : « الفنان يحاول أن ينجح أو يخيب ، والناقد لايحق له أن يقدر النتيجة دون أن يتتبع طبيعة المجهود ، وليس له الحق فى أن يشتغل بالمؤثرات . » ولما كان يفرق بين الخيالى والواقعى ، كان يصر على أن الواقعى يجب أن يكون « أكثر كمالاً ، وأشد تأثيراً ، وأتم انطباقاً ، مثل الحقيقة نفسها . » وهو كمن سبقه من الكتاب النابهين لم يكن خيالياً فحسب ولا واقعياً فحسب ، ولكن كان الاثنين معاً ؛ وكانت عبقريته فى أن يرى ما فى الحقيقة من ابتداع

وتمتاز كتابته أيضاً بصحة وطلاوة وبساطة من الصعب تحليلها ولكن من السهل فهمها . وليس معنى ذلك أن سهولة فهمها للأجنبى تجعلها سهلة الترجمة . فالواقع أننا نجد أن أسهل الأعمال فى كل لغة أصعبها فى النقل ، فقراءة هوميروس أسهل من قراءة (مآسى أثينا) إلا أنه لم ينجح فى نقل هومير الشاعر الساحر إلى الآن أحد . وموباسان يعالج المحيط بنفس البساطة ، فهو يضع منظره بدقة واختصار وتأثير ، فاذا كان يصف طبيعة

نورمانديا الفاتنة ، أو أبهاء القرن الثامن عشر ، فهو في الحالين سواء

وكان من أتباع المذهب الطبيعي يرمي دواماً إلى الحق ، غير أن الحق الذي كان يتوصل إليه به قليل من الزيف . فلم يكن يحلل شخصياته ، ولا يهتم بالأسباب الدافعة . فهم يتصرفون ولكنه لا يعرف إلى أي نهاية . وفيما يلي تعليله على حد قوله : « في رأيي أن التحليل النفسي في قصة طويلة أو قصيرة معناه هذا : أن أظهر الرجل الداخلي من حياته » حقاً هذا جميل ، بل هو ما يفعله القصصيون أجمعون ، ولكن الحركة لا تدل دواماً على الباعث . والنتيجة عند موباسان كانت تبسيطاً للشخصية ، وهذا له أثره في القصة القصيرة ، ولكنه عند إعمال الفكر يتركك غير مقتنع . وإذذاك تقول إن في الرجال من يفوق ذلك . هذا وقد كانت تتملكه الفكرة المنتشرة بين مواطنيه إذ ذاك ، وهي أن الواجب على المرء لنفسه أن يتصل بأي امرأة دون الأربعين تصادفه . فأشخاصه تساير رغباتها الجسية لكي ترضي احترامها لنفسها . فهم كمن يأكل لوناً من الطعام دون احساس بالجوع ولكن لأنه غالي الثمن

قلنا إنه كان تلميذاً وصديقاً لفلوبير . وكان التلميذ يتقبل آراء أستاذه في مواضيع عدة ؛ وكان يعتقد أنه يحاكيه في مجهوداته الجبارة في الانشاء . إلا أنه من الصعب أن يتفق ذلك وسهولة أسلوب موباسان ؛ على أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الانشاء الفني كان عند فلوبير نصباً وعناء . ولما كان موباسان قدمات في شرخ الشباب ، فمن المحتمل أن ننسى أحياناً أنه لم يكن تلميذ فلوبير فحسب ، إنما كان تلميذاً لدوديه وزولا وأناتول فرانس أيضاً . ومن العبث القول بأن هؤلاء الكتاب الكبار كانت لهم طريقة مشتركة ، سواء من الوجهة النظرية أو العملية ، ولكن إذا تكلمنا على وجه العموم دون تقييد فقد نستطيع القول أنهم يمثلون الحركة المتجهة نحو الدقة والواقعية . فالتنقيب عن الكلمة الملائمة أكثر من سواها ، والقول بأن الفنان ينبغي أن يسدد نظره إلى الموضوع ، وألا يقبل القيود العامة لتنظيم التقديرات الشخصية كانت ميول المدرسة والوقت . والدقة الجميلة في عمل فلوبير تدين لمبدئه وطريقته ، على حين أن أدب زولا الواقعي كان في الحقيقة منتخبات من أجزاء من الطبيعة أثارت اهتمامه أكثر من سواها . وبعد ، أليست ماهية الفنان وعمله مهما حاول أن يوضحه ، أننا في النهاية نجده لم يصور الحقيقة وإنما غيرها ؟ فاذا سما بهذا التغيير نحو الجمال فقد نجح ، وإذا انحط به الى القبح فقد أخفق . وكان موباسان فناناً مجيداً لدرجة تسمو به عن الاسفاف المطلق ، فأن أرخص قصصه له ميزة الابتكار ، ولكنا نرى النقاد في بعض الأحيان قد بالغوا في مدحه ، ومع محاولته أن يكون طبيعياً نجده أحياناً يهبط إلى القيود البيانية ، ويسمح أحياناً بالمواطف الزائفة

ولقد كان غالباً ما يبدأ قصصه بمقدمة يقصد بها أن يهيء القارىء لحالة عقلية خاصة ، وهي طريقة خطيرة إن لم تنجح فقد تكون مملة ، وقد تحمل القارىء بعيداً عن الأثر . ولقد كان يختار أشخاصاً عاديين ، ويحاول أن يظهر ما في أعمالهم العادية وحياتهم من الفواجع ، وكان يختار الحادث الذي لا أهمية له ويخرج منه كل ما يستطاع من المواقف المؤثرة ، وهي طريقة تساعد على خلق الانتباه للقصة . وكان يكتب ويفرط في الكتابة ، وكان أيضاً يتخذ موضوعاً متشابهاً حتى (بول دي سويف) التي سببت شهرته تعطينا مقارنة سهلة عادية بين الرحلة التي قام بها بعض البلجاين هرباً من غضب البروسيين وقد أحسوا بقرص الجوع العنيف فسرهم أن يشاركوا البغي المسكينة زادها ، وبين الرحلة الأخرى بعد أن أغروها بشتى الوسائل من حيلة ورجاء على ارتكاب الخطيئة مع الضابط الألماني تلبية لطلبه ، حتى إذا قبلت التضحية على مضض شديد ، أبدوا لها ازدراءهم وترفعوا عن دعوتها لمشاركتهم الزاد في الطريق بعد أن نالوا الاذن باستئناف المسير

ولقد وجد قادة النقاد أن قصص موباسان وإن لاءمت نبوغه لا تصلح على الرغم من مظهرها الخادع لأن تكون أنموذجاً مثالياً للغير . وقد كان مع حيوانيته وشهوته يعرف رقة الحب النقي . انظر على سبيل المثال قصته « ضوء القمر » ففيها نرى الكاهن الذي يكره النساء وهو ذاهب لكي يفاجيء ابنة أخيه وعشيقها ويجازيها شر الجزاء ، يذهب إلى ضوء القمر الشاحب ، ويذهل بين الغمام والبلابل ، وحين يرى الحبيبين يخطران في تلك الجنة الفيحاء ، يقول في نفسه « ربما خلق الاله القادر ، هذه الليالي السواحر ، لكي يلقي غلالته القدسية على الحب البشري »

محمد سليمان علي

من ذكريات المجد !

وحى دار ابن لقمان

بقلم الأديب محمد فهمى

نحن الآن فى ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هجرية ، والقصر الملكى بجزيرة الروضة يموج بالأمراء والعظماء والحاشية ؛ الكل يغدون ويروحون فى ردهاته الفخمة فى قلق شديد يكاد لايستقر أحدهم فى مكان ، وصاحب الجلالة الملك الصالح نجم الدين أيوب جالس على العرش تضطرب الدماء فى شرايينه ؛ أعصابه ثائرة ، وقلبه يخفق خفقاناً شديداً . إنهم جميعاً ينتظرون النبأ الخطير : نبأ المعركة الدائرة رحاها حول أسوار دمياط . دمياط الواقفة كالسد المنيع أمام الجيوش الأوربية الصليبية وهى تتدفق كالسيل وتحاصرها بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) . إنها ليست حرب المسيحية والاسلام ، وإن سموّها كذلك ، وإنما هى نضال الشرق والغرب الذى لم يخمد أُواره منذ أن كان هناك شرق وغرب ؛ هى الحرب بين مصر العظيمة زعيمة الشرق والاسلام ، وأوربا بأجمعها ؛ هى حرب بين الغرب الطامع والشرق الدافع !

نعم إن أول من دعا إليها هم رجال الكنيسة باسم الدين ، ولكن الدين من دمائها براء ! فلم يخضها إلا ملك طامع فى توسيع ملكه ، أو أمير يمنى نفسه بالذهب الوفير ، أو فقير يطلب المال والغنى من بلاد النفائس والكنوز . . .

وبينما القصر الملكى على تلك الحال من الاضطراب والغليان اذا بفارس قد أنهكته وعثاء السفر أشعث أغبر يلهث من الاعياء ويتصبب عرقاً يقتحم ردهات القصر وطرقاته متخذاً سمته قُدُماً نحو قاعة العرش . وطلب الاذن بالمثول بين يدى صاحب الجلالة . فدخل الحاجب يُعلن قدوم الرسول المنتظر ! انتفض الملك فى مكانه وحبس أنفاسه كأنما يتهيأ للنبأ الهائل . . . دخل الفارس وألقى بالنبأ الخطير فى صوت أجش . فيه شجاعة وفيه ألم . . . مولاى ! سقطت دمياط بعد معركة تشيب لهولها الولدان ، ودفاع يشرف شهداءنا الأبطال ! سقطت دمياط ! !

كانت هذه العبارة خنجراً مسموماً نفذ إلى صميم قلب الملك . . .

سقطت دمياط ! وفى عهدى أنا ؟ أبعد أن كان جدى البطل صلاح الدين يدوخ جيوشهم فى ربوع سوريا وفلسطين ، ويذيقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة ، يجرؤون اليوم على الدنو من العرين الذى طالما رجفوا لذكره ؟ ! هكذا ناجى الملك نفسه فى حسرة ما بعدها حسرة . . . ثم أمر الجيش بالتجهز وسار على رأسه لملاقاة العدو المغير ، وعسكر فى مدينة المنصورة ، وقد اتخذها قاعدة لحركات الجيش

ولكن قلبه كان دائماً يئن فى حشرجة المذبوح من أثر الطعنة التى أصابته عند ما ألقى إليه نبأ سقوط دمياط ! ! فما هى إلا فترة حتى اشتد عليه المرض ، فحمل إلى قصره بجزيرة الروضة ؛ وهناك وبين يدى المرأة التى أحبها وأخلص لها « شجرة الدر » أم ولده وولى عهده غياث الدين توران شاه فاضت روحه إلى ربها فى هذه اللحظة الرهيبة وقد نظرت شجرة الدر فاذا بمليك مصر وزوجها الأثير عليها مُسجى على سرير الموت بين يديها ، فتملكها الأسى على الفقيد العظيم ، ولكنها سرعان ما أفاقت على صوت يهتف فى أعماق نفسها . . . الوطن . . . الأعداء . . . ! فولىّ العهد كان فى تلك الأثناء ببلاد الشام ولم يبلغه بعد نبأ الرزء الفادح . وها هوذا العدو قد اقتحم أبواب البلاد متجهاً نحو العاصمة . فساءلت نفسها كيف يستطيع الجيش الثبات ومقاومة العدو إذا علم بموت الملك وفقدان الرأس المدبِّر ؟ وهل تقاوم البلاد بغير رأس ؟ إن الوطن فى خطر فلابد من الحكمة والتبصر . . . وهنا لمعت فى خاطرها فكرة جريئة . . . لا . . . يجب ألا يعلم الجيش بموت الملك . . . ثم خرجت من الحجرة وأشاعت أن الملك مريض ويرغب ألا يدخل عليه أحد ؛ وأرسلت إلى قواد الجيش وأمرائه أن الملك يأمرهم بالتأهب للقاء العدو المغير فى طريقه ، بينما طيرت النبأ إلى ولى العهد ببلاد الشام بالقدوم على جناح السرعة . . .

أخذت الجيوش الفرنسية تخوض فى أحشاء البلاد قاصدة المنصورة ، والفزع يزداد يوماً بعد يوم ، والاستعداد قائم على قدم وساق ؛ فى هذه الساعة العصيبة حضر ولى العهد توران شاه فأطلعته شجرة الدر على كل شىء وتسلم زمام الملك . فجمع الملك

الشاب كل عزمه وأصدر أوامره للقواد ، وعبأ الجيوش وتأهب لليوم المظيم ... هذا هو يوم الفصل ، فاما نصر لأوربا والجيوش الصليبية يُملّكها مصر وبيت المقدس ، بل وقلاع الشرق جميعاً ويقضى على الاسلام فى دياره قضاء مُبرماً ، وإما نصر لمصر يرد هذه الموجة الهائلة ويحمى ذمار الوطن والدين . وكم كانت مصر كالصخرة الهائلة تتكسر عليها أمواج الحملات الصليبية المتتابعة !.

ها هى ذى أوربا بعظمتها وجيوشها الجرارة كاملة المدة هائلة العدد (كان جيش الصليبيين حوالى تسمين ألفاً) وعلى رأسها ملك من أعظم ملوك أوربا : لويس التاسع ملك فرنسا . . .

التحم الجيشان وبدأ الصراع الهائل : التقى صراع بين عدو مغير وبين أبطال يدفعون عن حمى الدين والوطن . وقد نفث فيهم المليك الشاب من روح الشباب وعزيمته ، فاندفعوا كالليوث يفتكون بالأعداء ؛ ولما اشتد الضغط على العدو التفت حوله ليكشف مكاناً للهرب ، فما هاله إلا الماء قد حاصره من الخلف ، إذ كانت الأوامر قد صدرت بفتح جسور النيل فتدفقت مياه الفيضان من وراء الأعداء كالسيول الجارفة . . نظر العدو فاذا البحر قد حصره من الخلف والجيش الباسل قد أطبق عليه يرمى عن قلوب تشتعل حمية وحماسة للوطن والدين ، وينظر الملك لويس والحسرة تنهش قلبه فيرى أشلاء جيشه تتطاير تحت مطارق الأذرع الحديدية من جنود مصر . هاهم أولاء جنوده يتساقطون فى الميدان حوله جماعات كالفراش . ومن طلب الفرار من شفرات السيوف ابتلعه اليمّ ...

وإذا بفرقة من الجيش المنتصر تتقدم نحو الملك «لويس» .. هاهم أولاء بعض الأمراء والفرسان المحيطين به يناجزونها مناجزة اليائس المستميت مدافعين عن مليكهم . ولكن ماذا تجدى شجاعة بضعة أفراد أمام جيش كله أبطال ؟ ! فما هى إلا جولة أو بضع جولات حتى كان الملك ومن بقى معه من الأمراء جميعاً فى الأسر ! ! وإذا بالجيش العرمرم قد انهار كما ينهار البناء الشامخ ! ! . . . .

انجلت المعركة عن فناء العدو وقد بلغ عدد قتلاه ثلاثين ألفاً خلاف الأسرى ، وكُتبت آيات النصر بمداد غزير من الدماء . هاهو ذا الملك المعظم توران شاه يعود إلى المدينة تجلّله أكاليل النصر والفخار ، ويسوق وراءه فى السلاسل والاغلال ملك فرنسا وأمراءها . الكونت دنجواى ، والكونت داراَوار ، والكونت دوبواتيه ؛ والكونت دوبواتيه !؟ يالروعة الذكرى التى يعيدها إلى الأذهان اسم هذا الكونت ! ! ويالسخرية القدر الذى ساقه ليشهد بعينى رأسه كيف تثأر مصر لشهداء بواتيه « بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م » بعد خمسة قرون فى معركة تكسو فرنسا عارا يطغى على بريق بواتيه ويسجل فى تاريخ فرنسا بل فى تاريخ أوربا كلها جبروت مصر وعظمة الشرق . . .

خيم الليل على دار ابن لقمان فى مدينة المنصورة حيث أودع الملك الأسير وأمراء بلاده ؛ وكان ليلاً رهيباً . وفى جوف الليل تذكر الملك الأسير بلاده وجيشه ومجده وآماله المحطمة والذل الذى يعانيه ، فانحدرت الدموع غزيرة من عينيه . فخاطبه أحد أمرائه الذين يشاركونه الأسر قائلاً : (لقد نصحتك يا مولاى وقلت لك إن مصر عرين الشرق ، وإن روح صلاح الدين المعظم لا زالت تغذى أشبالها ، فأبيت إلا محاولة ما أعجز قبلك امبراطور ألمانيا وريكاردوس قلب الأسد) ! ؟ وهنا جاجل فى حنايا القاعة صوت الحارس الطواشى «صبيح» الذى وُكل إليه حراسة الملك الأسير ، قائلاً : (نعم ، صدقت أيها الأمير ! ان أشبال الحمى وأبطال الوطن لتعد هذه الخاتمة لكل من رام مرام هذا الملك الأسير)

* * *

إن دار ابن لقمان لا تزال قائمة تنتظر الجيل الذى يعيد إليها حياة أبطالها . وإن من السواح الأوربيين والفرنسيين على الأخص من يقصدون هذه الدار ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم عظة من أبلغ العظات ودرساً من أقسى الدروس تلقنهم اياه مصر ؛ وإن الفرنسى الذى يتيه عجباً وخيلاء فى رحاب دمشق وربوع ميسلون[1] ليحنى الرأس إذلالاً أمام دار ابن لقمان . ولكن كيف يحتفظ المصريون بهذا الهيكل من هياكل المجد والفخار ! إنهم وياللعار قد أهملوه شر إهمال وتركوه نهب البلى والاقذار . وهاهى ذى أحجاره وجدرانه تصارع البلى فى أنفة وكبرياء ! فأية كرامة لأمة لا ترعى هياكل المجد !؟ وكأنى بزوار الدار من الأوربيين يقولون فى أنفسهم وقد نظروا إلى حالتها المزرية هذه : (لو كانت لنا هذه

(١) الموقعة التى هزم فيها الجيش الفرنسى جيوش الملك فيصل واستولى بعدها على سوريا عقب الحرب الكبرى

الدار لجعلناها كعبة يحج اليها الشباب والفتيان ليستمعوا أبلغ أناشيد المجد والبطولة ترددها جوانب هذه الدار، ولجعلنا منها رمزاً خالداً على الدهر، مجد فى رحابه أرواح أسلافنا الأبطال وهى ترفرف محومة بين جدرانه! ولكنها ويا للأسف المرير لشعب لا يرعى مجد آبائه!!)

إيه أيتها الدار!! لقد خط المجد على جدرانك أروع آيات البطولة؛ وفى رحابك سجن ملك من أعظم ملوك أوربا حاول اقتحام الوطن بجيشه العرمرم فتاقفته سيوف الأبطال والأشبال، فاذا الجيش أشلاء تتطاير على شفرات السيوف وأسنة الرماح، وإذا بالملك العظيم .. سجين جدرانك..!!

ألا خبرينا أيتها الدار، كيف شهدت أوربا المتجبرة العاتية التى خرجت بجيوشها الجرارة لأذلال مصر؟ كيف شهدتها تذرف دموع الحسرة والتفجع، وأنات الأسى والحزن، وهى ترسف فى قيود الأسر وذل الهزيمة. فى شخص «لويس التاسع» ملك فرنسا ...!!

ألا تكلمى أيتها الدار، فكلمة منك توقظ الأسماع وتهز القلوب. لأنك تتحدثين بلسان من قد رأى وقد سمع!!

ألا تكلمى، فكلمة منك تقشع عنا كب النسيان والجهل التى خيمت على صفحات المجد والبطولة من سفر تاريخنا الحافل!...

أيها المصريون! ألا إن بقاء هذه الدار بحالتها الحاضرة الزرية لطمنة فى صميم الكرامة المصرية والوطنية المصرية والشعور الحى لأمة تعرف مالها من كرامة ومجد وتاريخ...

محمد فهمى
(المنصورة)

علمنا أن هناك مشروعاً لشق شارع حول دار ابن لقمان، ولكنا نريد عناية خاصة بهذه الدار تتفق وجلال ذكراها

بناء العالم

للسير جيمس جنز

ترجمة ابراهيم البرلسى

إذا ما تجمع لدى الباحثين قدر مناسب من الحقائق فى ناحية من النواحى العلمية، فالخطوة التالية تكون محاولة إيجاد قاعدة عامة تربط هذه الحقائق جميعها؛ وقد تتفق هذه القاعدة أو لا تتفق مع الاعتبارات المقررة. ولا يكفى أن تفسر هذه القاعدة الحقائق المعروفة، بل لا بد أن تتفق مع كل ما يكشف منها؛ فهى على ذلك لا تكون إلا بمثابة افتراض؛ ويبدأ العالم بأن يقول: «إن التجارب أثبتت هذه الحقائق، وأرى أن افتراضاً معيناً يتفق معها جميعها» ثم يستمر هو وأمثاله فى العمل للحصول على بيانات أدق وأوفى مرتبطة بالحقائق الأولى؛ وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى الوصول إلى حقائق جديدة. ويمتحن الافتراض الأول بمطابقته للمعلومات الجديدة

أما إذا وجد افتراضان متناقضان، فقد يكون ممكناً أن نتبين الصحيح منهما؛ فاذا أمكننا مثلاً أن نبين أن ظاهرة «س» تحدث إذا كان الفرض الأول صحيحاً، ولا تحدث إذا كان الفرض الثانى صحيحاً، فبأجراء تجربة لمشاهدة الظاهرة «س» يثبت أحد الافتراضين

هذه التجربة كغيرها: هى فى الواقع توجيه سؤال للطبيعة وهو: «هل يستقيم الفرض الأول؟..» وهى تجيب بأن ترينا إما ظاهرة مناقضة للفرض أو متفقة معه؛ ولكنها لا تستطيع مطلقاً أن ترينا ظاهرة تثبت صحة هذا الفرض، لأن ظاهرة واحدة تكفى لتهدم فرضاً معيناً بينما لا تكفى ملايين الظواهر لأثباته. ولهذا السبب لا يستطيع العالم أن يجزم بمعرفته أى شىء على وجه التأكيد؛ اللهم إلا الحقائق المباشرة للمشاهدات. وإذا تعدى هذا فلا يستطيع التقدم إلا بافتراضات متعاقبة تحظى الواحدة منها باتفاقها مع حقائق أكثر من سابقتها وتتخلى كل منها لمن تتبعها؛ وفى الواقع لن يأتى وقت الانتقال من الافتراضات إلى التأكيدات

الآن وقد ناقشنا أبسط مثل لاستفسار الطبيعة يجدر بنا أن نشير إلى بعض الصعوبات ، فليس من الممكن دائماً أن تضع سؤالاً يكون جوابه « الايجاب » أو « النفى » فقط ، فكثيراً ما تنشأ مسائل أكثر صعوبة عندما يخدع فرض وهمى من يقوم بتجربة ، أو يحاول الحصول على جواب لسؤال غير معقول ؛ فاذا أمكنه بطريقة ما أن يجرى تجربته فان نتيجتها تكون غير مفهومة كما كان السؤال بالنسبة للطبيعة

ولنضرب لذلك مثلاً ، فنتصور عدداً من الرجال مجهزين بأدق الأجهزة ، ولكن ينقصهم الادراك العلمى ، فاذا رأوا مثلا « قوس قزح » فى السماء ورغبوا فى معرفة بعده عنهم ، وبدأوا يعتبرونه كمنظر عادى بسيط فكونوا فرقة من المساحين لتعيين بعده ، فمن القياسات المأخوذة بأدق الأجهزة تظهر نتيجة واحدة لا خلاف فيها ، وهى أن المسافة « ناقص ٩٣ مليون ميل »

وظاهر أن من السخف بمكان أن تقاس مسافة بالسالب ، وأسخف منه هذا التقدير الكبير لها ، إذ أن القوس قد يظهر بيننا وبين جبل معين مثلا وبعده لا يدانى هذه المسافة بحال . أما إذا غير وضع السؤال بأن قلنا « ما المسافة التى يبعدها مصدر الضوء الذى نراه فى القوس أمامنا ؟ » رأينا الجواب « ناقص ٩٣ مليون ميل » محملا بالمعانى . فالعلامة السالبة تدلنا على أن مصدر الضوء لا يقع أمامنا بل خلفنا ، ومن بعده نستنتج أن هذا المصدر ليس إلا الشمس بعينها

وفى الواقع أن وضع سؤال معقول أصعب كثيراً من الحصول على جواب لسؤال غير معقول ، ولنضرب مثلا ينقلنا من هذا التعميم وصعوبته بالفلك والنظرية النسبية :

جمع الاغريق والمصريون عدداً كبيرا من الحقائق المتعلقة بالحركة الظاهرية للشمس والقمر والكواكب . وحوالى عام ١٥٠ من الميلاد حاول « بطليموس » عالم الاسكندرية وضع فرض يفسر هذه الحركات جميعها ؛ وقد تصور الأرض مركزا لهذه المجموعة تدور الشمس والقمر والكواكب حولها ، مخالفاً بذلك ارسطاطاليس وأتباع فيثاغورس ، فالشمس والقمر يتحرك كل منهما فى دائرة ، بينما الكواكب تتحرك فى مسارات معقدة . ولم تكشف حقائق جديدة لاختبار هذا الفرض حتى وضع « كوبرنيكس » فى سنة ١٥٤٣ فرضا آخر اتضح أنه يفسر الحقائق السالفة الذكر بطريقة أبسط ، فاعتبر الشمس — لا الأرض — مركزا للمجموعة الشمسية بينما الأرض والقمر والكواكب تسير فى دوائر حولها ، ولكن لا زالت حركة الكواكب معقدة بعض الشيء بالحركة فى دوائر ثانوية

وعلى ذلك ظهر افتراضان فى المحيط العلمى ؛ وقد حاول « كوبرنيكس » الفصل بينهما . فاذا كان فرض « بطليموس » صحيحا فان كوكب « الزهرة » لا يرى أقل من نصف دائرة ضوئية . ومن الناحية الأخرى إذا دار هذا الكوكب حول الشمس وجب أن نرى له أوجها كأوجه القمر . وقد مكننا التلسكوب الذى استكشف فى سنة ١٦٠٩ من توجيه سؤالنا الى الطبيعة لتفصل بين الفرضين . وبمجرد أن رأى « جاليليو » كوكب الزهرة يظهر على شكل قوس دقيق تأكد أن فرض بطليموس لا يستقيم

ولم يثبت هذا بالطبع فرض « كوبرنيكس » ولكن تجمعت حقائق جديدة على جانب كبير من الدقة جعلت الشك يحوم حول هذا الفرض . ونخص بالذكر من بين هذه الحقائق ما لاحظه « كِبلر » من أن حركة المريخ التى درسها فى شىء من التفصيل لا تتفق مع فرض « كوبرنيكس » . وقد جعله هذا يعرض فرضا جديدا ، وهو أن الكواكب لا تدور حول الشمس فى دوائر ودوائر صغيرة حول محيطها ، ولكن فى أقطاع ناقصة تكون الشمس بؤرتها المشتركة . وقد ظل هذا الفرض متفقاً مع كل الحقائق الفلكية لمدة طويلة

وقد حاول « نيوتن » بعد هذا بنصف قرن أن يجمع هذه الحقائق وغيرها تحت فرض أوسع ، فتصور أن كل جسم فى الكون يجذب غيره بقوة الجاذبية ، وهذه تتغير عكسيا مع مربع المسافة بين الجسمين ؛ وفرض أن الكواكب تتحرك تحت تأثير هذه القوى فقط ، ثم بين أن هذا الفرض يفسر سير الكواكب فى أقطاع ناقصة ، وكذلك يفسر كمية كبيرة من الحقائق والظواهر منها حركة القمر حول الأرض وحركة كرة الكريكيت فى قطع مكافىء عند قذفها . حتى المد والجزر فسره هذا الفرض وأخيراً وجد أنه يفسر حركة المذنبات هذه التى كانت تعتبر دلائل

مخيفة ومجهولة تخشى لأنهـا علامة الشر أو الغضب السماوى أصبحت لا ترى إلا كـكتل جامدة ترسم مسارها حول الشمس تحت تأثير نفس القوى التى تعمل فى الـكواكب

ثم استمرت بعد ذلك الحقائق والبيانات تترى وكلها متفقة مع نظرية نيوتن حتى منتصف القرن التاسـع عشر حيث وجد الفلـكى «لفرييه» شذوذاً فى حركة عطارد ، فان فرض نيوتن يتطلب أن يعيد الـكوكب مساره دائماً حول الشمس فى نفس القطع الناقص كما تدور لعب الأطفال الآلية فى نفس المسار مرات مستمرة ، بينما وجد « لفرييه » أن كوكب عطارد يتحرك فى قطع ناقص ولـكن هذا القطع نفسه متحرك فى الفراغ ويتم دورته فى نحو ثلاثة ملايين من السنين ، فـكأنما المسار الذى تجرى فيه هذه اللعبة موضوع على مائدة متحركة تدور حول محورها ببطء بينما تجرى هى بسرعة فى مسارها

وبمضى الزمن عرض « أينشتين » فرضاً جديداً هو النظرية النسبية ، وهذه لم تفسر الظواهر التى فسرتها نظرية الجاذبية لنيوتن فحسب ، بل وضحت حركة «عطارد» توضيحاً دقيقاً وفسرت كذلك عدداً كبيراً من الحقائق العلمية الأخرى

وقد أمكن عمل تجارب ومشاهدات فاصلة بين النظريتين : النظرية الحديثة « لأنشتين » والنظرية القديمة لنيوتن ، وفى كل هذه التجارب والمشاهدات قضت الطبيعة على نظرية الجاذبية وعززت النظرية النسبية ؛ وقد أجريت تجارب أخرى لتفصل فى النظريات السائدة فى هذا العصر كالنظرية القائلة بأن الضوء ينتقل كموجات فى الأثير الذى يملأ كل شىء ، وأن القوى الـكهربائية والمغناطيسية تنتقل كضغط وشد فى هذا الأثير ، وفى هذه أيضاً انحازت الطبيعة للنظرية النسبية . وقد أصبحت النظرية النسبية الآن تفسر مجموعة هائلة من الظواهر الطبيعيـة ولم تظهر بعد حقيقة واحدة لا تتفق معها .

إن الغرض العام للعلم هو أن يسير إلى مثل هذه النظريات ويصل اليها . ولا نستطيع مطلقا أن نعتبر نظرية ما نهائية أو حقيقة مطلقة ، اذ من المحتمل أن تظهر حقيقة جديدة فى وقت ما رغمنا على هذه النظرية ؛ وقد يحدث ذلك للنظرية النسبية ولو أنه بعيد الاحتمال . وإذا ما حدث ذلك برغم استبعاده فان الوقت الذى أنفق فى تكوينها لم يضع سدى ، بل سيكون تدرجا إلى نظرية أوسع وأكمل تتفق مع عدد أكبر من الظواهر الطبيعية . من ذلك يظهر العلم للرجل العادى متغيرا دائم التغير دائراً حول نفسه مخالفا لنظرياته الأولى ، ولـكن العالم يراه دائم التقدم يرقى من نظرية الى أخرى ، تحظى كل نظرية منهـا باتفاقها مع حقائق تزيد على التى أزاحتها ، ورائده الوصول إلى هدفه الأسمى وهو النظرية التى تفسر ظواهر الطبيعة كاملة .

ابراهيم البرلسى

١١ ـ تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد. نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

الفصــل الثانى

وأمضى عدى فترة من الزمن فى سورية وخاصــة فى دمشق حيث يقال إنه نظم فيها أول قصيدة . ولما مات أبوه حينئذ هجر مقامه فى الحيرة واهتم بالصيد والقنص وسائر فنون اللهو والتسلية . وكان يزور « المدائن » بين فترة وأخرى ليشرف على أعمـال التحرير ، وفى فترة زيارته للحـيرة علق فؤاده هند ابنة النعمان التى كانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشرة سنة . وإن القصة التى يرويها الأغانى[1] لفى غاية الغرابة حتى لا يمكن التجاوز عنها ؛ وتتلخص فى أن هنداً كانت أجمل نساء أهلها وزمانها ، خرجت فى خميس الفصح تتقرب فى البيعة فى أيام المنذر ، ودخلها عدىّ يتقرّب ، وكانت عبلة الجسم فرآها عدى وهى غافلة وتأملها ولم يقـل لها جواريها ذلك ، وإنما فعلن هذا من أجل أمة لهند يقال لها مارية ، كانت قد أحبت عدياً ، فلم تدر كيف تجىء له ، فلما رأت هنـد عدياً ينظر إليها شق عليها ذلك وسبت جواريها ، ولـكنها وقعت فى نفس عدىّ ، فلبث حولاً لايخبر بذلك أحداً حتى أخبرت مارية هنــداً ببيعة دومة وما فيها من الرواهب وحسن بنائها ، فسألت أمها الاذن فأذنت لها ، وبادرت مارية إلى عدى فأخبرته الخبر فأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ودخلوا البيعة ، فلما رأته مارية قالت لهند : « انظرى إلى هذا الفتى فهو أحسن من كل ماترين من السرج وغيرها » فقالت هند : « ومن هو ؟ » فقالت : هو عدى بن زيد ، ثم حرضتها على الاقتراب منه وسألتها أن تـكلمه ، ثم انصرفتا وقد تبعته هند بنفسها وانصرف بمثل حالها ، ثم عرضت له فى الغد فقال لها : « لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك إياه » فعرفته أنها تهواه وحاجتها الخلوة به على أن تحتال له فى هند وعاهدته على ذلك ، وبادرت إلى النعمان فأخبرته خبرها وذكرت أنها شغفت به ، وأنه إن لم يزوجها إياه افتضحت فى أمره أو ماتت . فقال لها : « ويلك وكيف أبدؤه بذلك ؟ » . فقالت : « هو أرغب فى ذلك من أن تبدأه » ، وأتت عديا فأخبرته الخبر وقالت « ادعه فاذا أخذ الشراب منه فاخطب إليه فأنه غير رادّك » قال : « أخشى أن يغضبه ذلك » قالت : « ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه » فصنع عدى طعاماً ، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان ، فأجابه وزوجه وضمّها إليه بعد ثلاثة أيام[1]

وعند موت المنذر الرابع أيّد عدى حق النعمان الذى كان من قبـل تلميذه ثم غدا حماه ، فى عرش الحيرة ، ولقد تكللت الخدعة التى مثلها فى هذا الحادث بالنجاح التام ، ولـكنها كلفته حياته[2]

فمزم على الأخذ بالثأر أتباع «أسود بن المنذر» إذ فشل صاحبهم فى نيل العرش ، ولـكن مكائدهم أثارت شـكوك النعمان ضد صانع العرش له . فألقى عديا فى غياهب السجن حيث ظل يرسف فى القيد ردحاً طويلاً حتى قتـله النعمان حينما توسط كسرى ابروز[3] فى إطلاق سراحه[4]

وترك عدى غلاماً يدعى زيداً أشار كسرى أبروير بأن يخاف

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٢٢ س ٣ وما يليه

(١) كتب إلى صديقى وزميلى الأستاذ بيفان يقول « إن قصة زواج عدى من ابنة الملك قد بنى بعضها على بيت يذكر فيـه الشاعر نفسه كأن صلته بالبيت المـالك صلة زواج (الأغانى ٢ : ٢٦) وتارة أخرى على بيت آخر يذكر فيه بيت هنـد (الأغانى ٢ : ٣٢) ولـكن هندا هذه كانت امرأة بدوية وليست ابنة الملك» أما البيت الأول (أغانى ٢ : ٣٦ س ٥) فهو :

أجل نعمى ربها أولـكم ودنوى كان منها واصطهارى

وأما البيت الثانى الذى يذكر فيه بيت هند (أغانى ٢ : ٣٢ س ١) فهو :

عرجا بى على ديار لهند ليس إن عجتما المطى كثيرا

(٢) حينما اســتدعى هرمز أولاد المنذر إلى المدائن ليختار ملـكا من بينهم اختلى عدى بهم وقال لهم « إذا سألـكم كسرى : أتكفوننى العرب ؟ فقولوا نعم ، فاذا قال لـكم فان شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه ؟ فقولوا إن بعضنا لايقدر على بعض ليهابـكم » وجاء إلى النعمان وقال له « أما أنت فقل له إن عجزت عنهم (أى عن إخوته) فانى عن غيرهم لأعجز » فلما سمع هرمز ذلك منهم عقد للنعمان على العرش وألبسه التاج

(٣) هو كسرى بن هرمز

(٤) يرى القارىء شرحا وافياً لهذه الناحية فى الطبرى

أباه فى إدارة التحرير العربى فى الديوان الملكى بالمدائن ، ولما تصالح مع النعمان لم ينس ثأره القديم ولكنه أخذ يتحين الفرصة ويتأهب لها ؛ وكان ملوك الفرس ذوى دراية بمحاسن النساء فأذا أرادوا امرأة بعثوا من يذيع طلبتهم وما يتوفر فيها من محاسن جثمانية وخلقية ، ولكنهم لم يكونوا قد فكروا حتى ذلك الحين فى نساء بلاد العرب ظناً منهم بأنها خالية من أية امرأة جميلة حوت من الصفات ما طلبوه ، فوجد زيد إذ ذاك الفرصة سانحة ، فجاء كسرى وقال له : « رأيت أيها الملك أنك كتبت فى نسوة ، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمه وأهله كثير فابعثنى وابعث معى رجلا من حرسك يفقه العربية » فبعث معه رجلا جليداً ، ثم دخلا الحيرة ثم وصف للنعمان طلبة الملك ، فقال لزيد والرسول يسمع : « أما فى عين السواد ما تبلغون به حاجتكم ؟ » فقال الرسول لزيد : « ما العين ؟ » قال : « البقر » ثم رجعا إلى كسرى فقال لهما : « أين الذى كنت خبرتنى به ؟ » فقال له الرسول : « قال النعمان أما فى بقر السواد ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟ » فعرف الغضب فى وجهه ، ثم بعث إليه كسرى فقيده وبعث به إلى خانقين ، فلم يزل فى السجن ، ثم أمر بقتله فقتل ووطأته الفيلة[(١)]

وإن الشواهد المنقولة إلينا لتظهر النعمان الثالث حاكما مستبداً زير نساء مولعاً بالخمر والغناء ، كما كان مشجعاً لكثير من الشعراء وخاصة النابغة الذبيانى الذى فر هاربا من الحيرة لفرية كاذبة . وإن هذه القصة وأخرى اتهم فيها الشاعر المنخل لتلقيان شعاعا نستطيع على هديه أن نتعرف حياة النعمان الخاصة ، فلقد تزوج امرأة أبيه المتجردة أجمل نساء عصرها ، وبينما كان هو يوليها كل حبه كانت هى تحب غيره . وقد اتهم فيها النابغة لنظمه قصيدة يصف فيها محاسن الملكة ويذكر فيها نواحى خاصة دقيقة ، ولكن الحقيقة هى أنها كانت والمنخل اليشكرى يتبادلان الحب ويجرعان كؤوس الهوى ، وقد فاجأهما النعمان ذات يوم على غير ما يهوى ؛ ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يرى المنخل . ومن هنا نشأ المثل القائل « حتى يعود المنخل[(٢)] » وبالرغم مما يقال من أن كثيراً من ملوك الحيرة كانوا مسيحيين فان الشك يحتك فى الصدور عما إذا كان أحدهم — سوى النعمان الثالث — يستحق هذا اللقب ؛ وكان اللخميون بعكس غالبية رعيتهم عريقين فى الوثنية . أما تعاليم النعمان فقد هيأته للنصرانية ، كما أن هدايته — كما تؤكد القصة — كانت على يد رائده عدى بن زيد

* * *

يذكر النسابة المسلمون أن الغساسنة — سواء المقيمون منهم فى المدينة أو من جرى العرف بتسميتهم بغساسنة الشام — من ولد عمرو بن عامر المزيقيا الذى كان قد باع أملاكه فى اليمن وهاجر على رأس جمع غفير من سكانه قبيل انفجار سد مأرب ؛ ويعتبر ابنه جفنة عادة مؤسس الأسرة ، أما عن تاريخهم البدائى فالثابت منه ضئيل جداً لا يبل ظمأ الباحث . ومما يذكر عنهم أنهم دفعوا الجزية للضجاعمة وهى أسرة من نسل صليح الذى كان حاكما على حدود سورية تحت رعاية الروم . وتبع ذلك صراع عنيف خرج منه الغساسنة ولواء النصر يرفرف فوق رءوسهم . ومنذ ذلك الحين نراهم قد استقروا فى هذه الأقاليم كممثلى السلطة الرومانية ذوى ألقاب رسمية كأشراف وقواد ، تلك الألقاب التى أبدلوها هم والعرب الذين حولهم بكلمة « ملك » كما هى العادة الشرقية . « وأول من ملك الشام من آل جفنة الحرث بن عمرو ابن محرق ، وسمى محرّقا لأنه أول من حرّق العرب فى ديارهم ويكنى أبا شمر ؛ ثم ملك بعده الحرث بن أبى شمر وهو الحرث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين ، وكان خير ملوكهم وأيمنهم طائراً وأبعدهم مغاراً ، وأشدهم مكيدة وكان قد غزا خيبر[(١)] فسبى من أهلها ثم أعتقهم ، وكان قد سار إليه المنذر بن ماء السماء فى مائة ألف فوجه إليهم مائة رجل فيهم لبيد الشاعر وهو غلام ، وأظهر أنه إنما بعث بهم لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه وقتلوا من معه فى الرواق وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقتل بعض ، وحملت خيل الغسانيين على عسكر المنذر فهزموهم وكانت له بنت يقال لها حليمة كانت تطيب أولئك الفتيان يومئذ وتلبسهم الأكفان والدروع ، وفيها جرى المثل « ما يوم حليمة بسر »[(٢)]

(يتبع)

حسن حبشى

---

(١) راجع هذه القصة بأكملها فى الطبرى ج ١ ص ١٠٢٤ — ١٠٢٩ ، وفى ترجمة نلدكه ٣٢٤ — ٣٣١ وابن قتيبة فى : Chrestamathy لبرنو ص ٣٢ — ٣٣

(٢) وهو أشبه بالمثل الانجليزى :
« Until the Comming of the Coqcigrues »

(١) التى تقع فى شمال المدينة

(٢) Freytag : Arabum Proverbia, Vol II,P. 611

٩ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أفيحلو لكم، أيها الاخوة، أن يخنقكم ما يتبخر من أشواق هؤلاء المسوخ؟ حطموا النوافذ واقفزوا منها لتنجوا بأنفسكم

حاذروا هذه الأبخرة الخانقة وابتعدوا عن عبادة الأصنام فأنها دين الدخلاء على الحياة. حاذروا هذه الأبخرة وأعرضوا عن هذه الضحايا البشرية

لم يزل حتى الآن مجال تسمى في رحبه النفوس الكبيرة نحو الحرية في الحياة، ولم تخل الأرض من أماكن يلجأ إليها المنعزل منفرداً أو مزدوجاً حيث تهب نسمات البحر الهادئة. فأن الحياة الحرة لم تزل تفتح أبوابها لكبار النفوس؛ والحق أن من يملك القليل لا يناله إلا اليسير من تحكم المتسلطين. فطوبى لصغار الفقراء!

لا يظهر الانسان الأصيل في الحياة إلا حيث تنتهي حدود الحكومات، فهنالك يتعالى نشيد الضرورة بنغماته المحررة من كل مطاوعة وتقييد

هنالك عند آخر حدود الحكومات، قفوا وتطلعوا، يا إخوتي، أفما ترون تحت قوس قزح المعبر الذي يجتازه الانسان الكامل؟

هكذا تكلم زارا

حشرات المجتمع

سارع إلى عزلتك، يا صديقي، فقد أورثك الصداع صخب عظماء الرجال، وآلمتك وخزات صغارهم. إن جلال الصمت يسود الغاب والصخور أمامك، فعد كما كنت شبيهاً بالدوحة التي تحب، الدوحة الوارفة الظل الشرفة على البحر مصغية في صمتها إلى هديره

على أطراف حقول العزلة تبدأ حدود الميادين حيث يصخب كبار الممثلين ويطن الذباب المسموم. لا قيمة لخير الأشياء في العالم إن لم يكن لها من يمثلها، والشعب يدعو ممثليه رجالاً عظاماً. فالشعب يسيء فهم العظمة المبدعة، فيبتدع من نفسه المعاني التي يجمل بها ممثليه والقائمين بالأدوار الكبرى على مسرح الحياة

إن العالم يدور دورته الخفية حول موجدي السنن الجديدة. وحول لاعبي الأدوار على مسرح الحياة يدور الشعب وتدور الأمجاد، وعلى هذه الوتيرة يسير العالم

إن للاعب الأدوار ذكاءه، ولكنه لا يدرك حقيقة هذا الذكاء لانصباب عقيدته إلى كل طريقة توصله لخير النتائج وإلى كل أمر يدفع بالناس إلى وضع ثقتهم به

غداً سيمتنق هذا الرجل عقيدة جديدة، وبعد غد سيستبدل بها أجد منها. ففكرته تشبه الشعب تذبذباً وتوقداً وتقلباً

إن ممثل الشعب يرى بالتحطيم برهانه، وبايقاد النار حجته، وبأراقة الدماء أفضل حجة وأقوى دليل. إنه ليعتبر هباء كل حقيقة لا تسمعها إلا الآذان المرهفة، فهو عبد الآلهة الصاخبة في الحياة

إن ميدان الجماهير يغص بالغوغاء المهرجين، والشعب يفاخر بعظماء رجاله فهم أسياد الساعة في نظره. ولكن الساعة تتطلب الاسراع من هؤلاء الأسياد، فلذلك يزحمونك، يا أخي، طالبين منك إعلان رفضك أو قبولك، والويل لك إذا وقفت حائراً بين (نعم) وبين (لا)

وإذا كنت عاشقاً للحقيقة فلا يغرنك أصحاب العقول الرعناء المتصلبة، وماكانت الحقيقة لتستند يوماً إلى ذراع أحد هؤلاء التصلبين

دع المشاغبين وارجع إلى مقرك، فما ميدان الجماهير إلا ممترك يهدد سلامتك بين خنوع (نعم) وتمرد (لا). إن تجمع المياه في الينابيع لا يتم إلا ببطء، وقد تمر أزمان قبل أن تدرك المجاري ما استقر في أغوارها

لا تقوم عظمة إلا بعيداً عن ميدان الجماهير وبعيداً عن الأمجاد، وقد انتحى الأماكن القصية عنها من أبدعوا السنن الجديدة في كل زمان

اهرب، يا صديقي، إلى عزلتك. لقد طالت إقامتك قرب الصماليك والأدنياء، لا تقف حيث يصيبك انتقامهم الدساس وقد أصبح كل همهم أن ينتقموا منك. لا ترفع يدك عليهم فأن عددهم لا يحصى، وما قدر عليك أن تكون صياداً للحشرات. إنهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة. ولكم أسقطت قطرات المطر وطفيليات الأعشاب من صروح شامخات. ما أنت بالصخرة الصلدة، ولشد ما فعلت بك القطرات، ولسوف

يتوالى ارتشافها عليك فتصدعك وتحطمك تحطيما

لقد أرهقتك هـذه الحشرات السامّة تخدّشت جلدك وأسالت منه الدماء، وأنت تتحصن بكبْرك لتكظم غيظك، وهى تودّ لو أنها تمتصّ كل دمك معتبرة أن من حقها أن تفعل لأن دمها الضعيف يطلب دماً ليتقوى، فهى لا ترى جناحاً عليها إذ تُنشب حمتها فى جلدك. إن هذه الجروح الصغيرة لتذهب بالألم إلى مدى بعيد فى حسّك الرهف، فتتدفق صديداً يرتميه الدود. أراك تتعالى عن أن تمد يدك لقتل هذه الحشرات الجائمة، فحاذر أن يحول سمُّ استبدادها فى دمك

إن هؤلاء المشاغبين يدورون حولك بطنين الذباب، فهم يرفعون أناشيدهم تزلفاً إليك ليتحكموا فى جلدك ودمك. إنهم يتوسلون إليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء، وما يحتال غير الجبناء

إنهم يفكرون بك كثيراً فى سرهم فيلقون الشكوك عليك، وكل من يفكر الناس به كثيراً تحوم حوله الشبهات

إنهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك ولا يغتفرون لك من صميم فؤادهم إلا ما ترتكب من أخطاء. إنك لكريم وعادل، لذلك تقول فى قلبك: «إن هؤلاء الناس أبرياء وقد ضاقت عليهم الحياة» ولكن نفوسهم الضيقة تقول فى نجواها: «إن كل حياة عظيمة إنما هى حياة مجرمة» ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عند ما تشملهم بعطفك، فيبادلونك عطفك بالسيئات. إنك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون إلا عند ما يتناهى تواضعك فيستحيل غروراً. إن الناس يطمحون بالطبع إلى إلهاب كل عاطفة تبدو لهم، فاحذر الصعاليك لأنهم يحسون بصغارهم أمامك فيتحمسون حتى ينقلب إحساسهم كرها وانتقاماً أفما شعرت أنهم يخرسون عند ما تطلع عليهم، فتبارحهم قواهم كما يبرح الدخان النار إذا همدت

أجل ياصديقى، ما أنت إلا تبكيتٌ فى ضمائر أبناء جلدتك لأنهم ليسوا أهلاً لك، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك

إن أبناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة لأن العظمة فيك ستزيد أبداً فى كرههم لك

إلى عزلتك، ياصديقى، إلى الأعالى حيث تهب رصينات الرياح، فانك لم تخلق لتكون صياداً للحشرات

هكذا تكلم زارا...

العفة

أحب الغاب، فما تسهل حياة المدن على وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات

لخير أن يقع الرجل بين براثن سفاحٍ من أن تحدق به أشواق امرأة جامحة ملتهبة

إنك إذا ما تفرست فى رجال المدن، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون فى الأرض شيئاً يفضل مضاجعة امرأة...

فى أغوار أرواحهم ترسب الأقذار، وأشقاهم من تمرغ عقله بأقذاره

ليتك حيوان اكتملت حيوانيته على الأقل، ولكن أين منك طهارة الحيوان؟ ما أنا بالمشير عليك بقتل حواسك؛ إن ما أوجبه إنما هو طهارة هذه الحواس

ما أنا بالمشير عليك بالعفة، لأنها إذا كانت فضيلة فى البعض فانها لتكاد تكون رذيلة فى الآخرين. ولعل هؤلاء يمسكون عن التمتع، غير أن شبقهم يتجلى فى كل حركة من حركاتهم

إن كلاب الشهوة تتبع هؤلاء المسكين حتى إلى ذرى فضيلتهم فتنفذ إلى أعماق تفكيرهم الصارم لتشوش عليه فى سكينته؛ ولكلاب الشهوة من مرونة الزلفى ما تتوسل به إلى نيل قطعة من الدماغ المفكر إذا منعت قطعة اللحم عنها...

إنكم تحبون المآسى وكل ما يفطر القلوب، أما أنا فلا أثق بكلاب شهواتكم لأن نظراتكم الرصينة تمتلىء شهوة عندما تقع على المتألمين؛ وقد تتنكر الشبق فيكم فتدعوته إشفاقاً. وإنى لأضرب لكم مثلاً على هذا: حالة العدد الوفير ممن أرادوا طرد الشياطين فدخلوا هم فى الخنازير بدلاً منها

إذا ما ثقلت العفة على أحد منكم فعليه أن يعرض عنها كيلا تنبسط أمامه سبيلاً إلى الجحيم، جحيم أقذار النفس ونيرانها

لعلكم ترون بذاءة فى كلامى، أما أنا فأرى البذاءة حيث لا ترونها أنتم

ليست البذاءة فى قذارة الحقيقة، بل هى فى تدنيها وإسفافها، وطالب المعرفة يأنف من الانحدار إلى مهاويها

إن من الناس من دخلت العفة قلوبهم فلانت هذه القلوب لها. أولئك هم الضاحكون وفى ابتسامهم ما ليس فى ابتسامكم من إخلاص. إنهم يهزأون بالعفة ويتساءلون عما يمكن أن تكون

الى شباب الوادى

للأستاذ محمود الخفيف

تنفس صُبحكمو المنتظر ... فلله هذا الصباحُ الأغرّ
تهلّلَ فى المهد سمحَ الجبين ... رفيف الحواشى بهيّ الغرر
على جانبيه يفيضُ اليقينُ ... ويلمعُ فى مُقلتيــه الظفَرْ
وتضحك بين يديه المنى ... وتبدو البشائرُ ملءَ البصر
ثقيفَ العزيمة فى مهــده ... يريك نبوغَ صِباهُ الصِّغر
جرىءُ الوثوب إلى مبتغاه ... ذكى الفؤاد وثيق الحذَر
يفيضُ على الأرض من ذَوبه ... نُضارٌ يكلّلُ هام الشجر
وتحنو عليــه بنات الهديل ... وتنثر فى المهرجان الزَّهَرْ
ويزهى الوجودُ بهـذا الوليد ... وينسى لديه وضىء البُكَرْ
ويستقبلُ الشرق من وَمضه ... معانى تبعث حُلو الذِّكَرْ
أناشيد جاشت بهن النفوس ... يقصّرُ عنهن لحن الوتر
تُرِنُّ بأيامه الحافلات ... وتومى إلى سرّه المدَّخر
وتوحى إلى مصر من مجدها ... ومُعجز آياتها ما غبر
تدبُّ بواديه روحُ الرَّجاء ... ويُحصى القرونَ إليــه النهر
وقد طال بالنيل عهد الهوان ... وبالأمس كان عزيزَ النفر
وما عرف النيل معنى الخلاص ... ولا لَمَحَ النصر حتى سفر
فيالك صــبحاً جرى نورُه ... فبدَّد من ليلنا ما اعتكر
نرى حُمْرَةَ الورد فى أفقــه ... بشير السلام جلاه السَّحَرْ
وما كان يقطر إلا النجيع ... وما كان يلبس إلا العفَرْ
تلقته مصرُ لقاءَ الرؤوم ... ألح عليها الضنى والسهر
وطال المخاضُ وطافت بها ... صنوف الرزايا وشتّى الغِير

***

عبرنا إلى شطّه الحالكاتِ ... وخضنا الحتوف إليــه زُمَرْ
دعاَ الأعْزَلُ الشيخ أشبَالَهُ ... فضج له الغاب لما زأر
وراحت تُعربدُ ريح المنون ... وترمى صواعقها بالشرَر
تقدَّم يزجى صفوف الجهاد ... وليس من الموت فيــه وَزر
عنيد الخصومة صعب الأباء ... شـديد المراس جليل الخطر
على رأسه من جلال المشيب ... هــدًى ومن الحق نورٌ بهر
وليس بيمناه غيرُ اليقين ... إذا غيره بالسنان افتخر
فتىّ الفــؤاد له عزمةٌ ... تذيب الحديد وتفرى الصخَر
سل الموت كيف طغى موجه ... وكيف صــبرنا له فانحسر
سل المجد كيف ارتخصنا النفوس ... وكيف ارتضينا ظلامَ الحُفر
وكيف انثنت دوننا الحادثاتُ ... وكيف انجلت جانحات الغمر
سل الحرب من خاضها قبلنا ... بغير القنا والظبا فانتصر ؟ !

***

بنى مصر وافا كمو يومُكُمْ ... وثاب الزمان ولان القــدر
جعلتم من الروح مهر الخلاص ... فسال بها دمكم وانتشر
وَما ضنّ حُرٌ غداة النضال ... وَلا مَنَّ يوماً بها من مَهَرْ
فلله موقفكم فى الفــداء ... ولله سـيرتكم فى السِّيَر !
ومصر لكم فى غدٍ أمرها ... أعدوا لها من جليــل الأثر

***

بنى مصرَ لا يُكتفى بالصباح ... فقد يعقب الصَّفْوَ فيه الكدر
هلموا فما دون رأدِ الضحى ... وما دون جـذوته من وطر
هلموا إلى صهوات العــلى ... فما ضــلّ ساعٍ لها أو عثر
وكونوا لها فى ظلال السلام ... كما كنتمو فى غواشى الخطر
فليس الســلام ركوناً وعجزاً ... وَلكنه همــة تُعتصر

***

شبولَ الحمى لن يذِلّ الشبولُ ... وَلن يعرف الليث معنى الخور
زمانكمو للجرىء النطاح الد ... ؤوب الجـلادِ القوىّ الظفُر
لكل كمىّ يخوض الوغى ... إذا شب جانِبُها واستعر
وَلن تتناعس أظفارُه ... إذا زحمتــه ذئاب البشر
فروضوا على البأس أخلاقكم ... ر العَصْرُ من روحكم ما استتر
وَيرهب أحلافُكمْ وُدَّكُمْ ... ودادُ الأعزّة لا يحتقر

***

أفليست العفة غروراً ؟ أفليست هى التى جاءت إلينا ولم نذهب نحن إليها ؟

لقد فتحنا قلبنا لها فاستقرت ضيفاً ثقيلاً فيه ، فليبق هذا الضيف نازلاً فينا ما طاب له المقيل

هكذا تكلم زارا ...

(يتبع) فليكس فارس

ألستم طلائع هــذا الوجود … أصول الحضارة فيمن عَمَر ؟
أفيضوا على مصر من روحكم … شــباباً يرد لهـا ما اندثر
خذوا الوحى من أمسها العبقرىِّ … وَمن يومها بالغات العبر
أشيروا إلى غدها فى الكفاح … وَغنوا بحاضرها فى السَّمَر
شــبول الحمى قد تولى الشتاء … وَوَافى ربيع المنى وَازدهر
وَليس الربيع جمالاً فحسب … يهز القـلوب وَيَسْبى النَّظر
وَلكنه قوة لا تنى … وَبَعْثٌ تراه شتيت الصُّور
نماءٌ وَخَلْقٌ وَحُرِّيةٌ … الى سرها جو مصر افتقر
وَأنتم لعمرى رياحينُـــه … وَزينته وَشـــذاه العَطِر
أعيذ كمو أن تشينوا الربيعَ … وَأن تذروا غرسـه يهتصر
فصونوا عن اللهو ! كليلكم … وَإلا ذوَى عِقـدُه وَانتثر
غدا نبتنى صرحنا عالياً … وَنجنى من الغرس أحلى الثمر

الخفيف

تأملات ...

المصباح الناعس

للأديب أحمد فتحى مرسى

خافقٌ فى الظلام كالأملِ البا … سم قد فاض فى القلوب وَرَفّا
هامسٌ كالشفاه تهمسُ فى رف … قٍ بما نمَّ عن أساها وَشــفّا
ناعس كالجفون أدركها الأيـ … نُ فلبّى الكرى نداها وَخفّا
باسمٌ كالطيوف فى حُلُم الصبِّ (م) توالت عليــه طيفاً فطيفا
راقصٌ كالظـــلال فى نغم الرو … ض إذا الروضُ فاض شدواً وَعزفا
وَكأن الظلامَ جمْعٌ من الخلا … ق غفيرٌ يلوح صفّا فصفّا
وَكأن المصباح فى وِقفةِ الوا … عظ شيخٌ ينوء وَهْناً وَضعفا
أُرتِجَ القولُ وَالخطابُ عليــه … فبدا فى الظلام يرجف رَجفا
فاغراً فاهُ ، فاتحاً شــفتيه … دون أن يلفظ ـ العشيَّةَ ـ حرْفا

* * *

نشر الليلُ بردتيــه وَأرخى … فوق هام الربى مُسوحاً وَسُجفا
وَالنجومُ الوِضاء تخفق فى الأفـ … ق وَريحُ المساء تعصفُ عصفا
وَكأن الظـلام بحر خِضمٌ … يَفرَقُ القلب منه رُعباً وَخوْفا
وَكأن المصباحَ فيــه غريقٌ … بين لجاته يلوح وَيخفى
يغلب الموج ساعديه فينأى … كلما قارب النجاة وَأوْفى

* * *

أيُّهذا السجينُ فى ظلماتِ الليـ … ل كيف الخلاص مِنْهن كيفا ؟
أنت فى قبضة الظلامِ أسير … فى صِفادِ السهادِ ترسف رسفا
ساهرُ الجفن قيدتك يد الليـ … ل فلهفاً عليك فى القيد لهفا
وَالفراش الوديع يرقصُ حوليـ … ك وَيروى صداه لثماً وَرشفا
أى شىء أحبُّ من رشفةِ الضو … ء وَأحلى من السناء وَأشفى
أى شىء أرق من لمحة النو … رِ وَأبهى من الضياء وَأصفى
عَشِقَ الحرق فى سناكِ قريراً … وَتمنّى لوْ مدَّ للموت كفا ...
رُب نفس هفت إلى النور وَالحسـ … ن وَلو كان ثمَّ موتا وَحتفا

* * *

هكذا هذه الحياةُ شُــعاعٌ … فى ظلام الوجود يَخطَفُ خطفا
يغلِبُ الليل وَالظلامَ فيحيا … أو يغير الدجى عليه فيُطفا

أحمد فتحى مرسى

الفنون

رمبراندت

REMBRANDT

للدكتور أحمد موسى

أراد الله أن يكون خلود الشخصية وقفاً على الغنى أو الجاه، كما شاء ولا راد لمشيئته أن يمنح الانسان عقلاً يميز به موضع الجمال فى خلقه، فيقدسه ويستلهم منه وحياً لحياته التى لا تعتبر حياة بمعناها الكامل إلا إذا رجعت فى جوهرها إلى التمييز

وكأن الشخصية التى نحللها اليوم من تلك الشخصيات التى لم يكن للغنى يد فى تخليدها، ولا للجاه أى أثر فى تكوينها، بل رجع الفضل فيها إلى الفن الذى عبر عنه رمبراندت تعبيراً استلهمه من الواقع الملموس طامحاً به إلى الكمال المنشود

وُلد رمبراندت فان راين فى منتصف يوليو سنة ١٦٠٦ بلَيْدِن لأبوين فقيرين، اشتغل الوالد طحاناً محدود الرزق؛ أما أمه فكانت الزوجة المخلصة البريئة

شب الولد بسيط النشأة والمعيشة لم ير أحد على ملامحه أى أثر للنزعة الفنية، كما أنه هو نفسه لم يكن يدرى ماذا يكون من أمره فى مستقبل الأيام

والشخصية فى نظر التاريخ لا يتحتم أن تكون فذة فى العلم أو الأدب، ولا فى السياسة أو الحرب؛ لأن الحضارة فى أكمل معناها تقوم على أركان لا يقل الفن فيها قيمة عن أى ركن آخر، بل إن شيلر شاعر ألمانيا الأعظم يقول: « إن الحضارة الحق يجب أن تمهد سبيل الحرية للانسان، وأن تعينه على الوصول اليها، كما يجب أن تشغل فراغ عقله حتى يصبح بهما قادراً على الشعور بوجدانه مادام أنه مخلوق ذو إرادة »

وهكذا كان إنتاج رمبراندت ممهداً السبيل للشعور بالحرية فى تراثه المجيد، الذى إذا تأملناه شعرنا بالوجود، وانتعشت فينا الارادة إلى العمل والانتاج، بل وإلى الاستمتاع إلى حد بعيد، أعنى أنه ترك وراءه ركناً هاماً من أركان الحضارة الانسانية!

ونبوغ التلميذ لا يتوقف دائماً على قدرة أستاذه؛ وهذا ما يلاحظ على رمبراندت؛ فعند ما التحق بالعمل عند سوانبرج فى لَيْدِن سنة ١٦٢١ لم يكن معلمه هذا من الدرجة الأولى؛ ومع أنه استمر يتلقى مبادئ الفن عليه ثلاث سنوات؛ فقد سافر إلى امستردام لزيادة المعرفة؛ فتلقى الدرس على لاستمان نصف سنة عاد بعدها إلى بلدته ليدن، وبدأ حياته العملية مستقلاً فى آخر سنة ١٦٣١، أعنى عند ما بلغ الخامسة والعشرين؛ إلا أنه ظل — ولو أن أول لوحة له مؤرخة سنة ١٦٢٧ — يواصل الليل بالنهار فى المران والمشاهدة، حتى إذا ما بلغ الثلاثين كان أستاذاً معترفاً به

تزوج رمبراندت فى أواخر يوليو سنة ١٦٣٤ من زاسكيا فان أولنبرج، فأتمت عليه نعمة الحياة؛ ولم يكن اختياره لها لمجرد الهدوء إلى جانب زوجة، بل لأنه وجد فيها خير معين؛ وكان القدر قاسياً، فلم تمض ثمانى سنوات حتى فرق الموت بينهما

كانت وفاة زاسكيا فاتحة مصائب كثيرة، تراكم دينه، وساءت حاله؛ وبعد أن كان من عشاق جمع الصور النادرة والتحف الثمينة، أصبح والمحكمة تحدد موعداً لبيع بيته ومافيه

وكانت هندريكا ياجرز مدبرة بيته عاشقة له معجبة به، فتقدمت بمالها الخاص وأنقذت الموقف ولم يتم البيع

أثرت هذه الصدمات تأثيراً فعالاً فى اتجاه الفنان، نتبينه فى لوحات كثيرة له، فنرى بعضها تشمله روح اكتئاب وحزن ظاهرين

توفى رمبراندت فى اليوم الثامن من اكتوبر سنة ١٦٦٩ بعد حياة مليئة بالانتاج الفنى الهائل، الذى تخلله هدوء العيش حيناً، وآلام النفس أحياناً أخرى، معتبراً فى التاريخ العام وتاريخ الفن إماماً لفنانى المدرسة الهولاندية إطلاقاً

وتاريخ الفن لا يُعنى بانتاج الفنان من حيث الكثرة؛ وإنما يُعنى أول مايعنى بقدرته على الابتكار، ولمس النواحى التى لم يسبق

لغيره معالجتها ، ولذا يقول كارل بوليوس فيبر بأن الفنان الجدير بالتسمية هو ذلك الذى ينتج ما لا يستطيع غيره انتاجه ؛ لأننا نقول إن إنتاجاً ما بعيد عن الفن إذا استطاعت الكثرة عمل نظيره

ترك رمبراندت حوالى الخمسمائة لوحة ، صوّرها خلال ثلاثين سنة ، مثلت المناظر التاريخية الدينية ، والشخصية ، والطبيعية بروح لا يمكن لغيره تصويرها

حفظت المتاحف والكنائس كثيراً منها ، وتتباهى الممالك بكثرة ما بمتاحفها وكنائسها من عمله . وتوجد أربعون لوحة منها بمتحف بطرسبرج ومثلها بباريس وكاسل وأمستردام ، واثنتا عشرة ببرلين وأقل من ذلك بفينا ومدريد

هذا عدا ما هو فى حيازة الأفراد ؛ فلدى ملك انجلترا ودوق وستمنستر والليدى والاس ، واللورد السبار بلندن ، وهافير بنيويورك ، ورودلف كان بباريس ، وكارستانجن ببرلين ، والليدى سيكس بامستردام قطع من تصويره

أما الدّارس للوحاته فأنه يرى ما يفيض عليها من صدق التمثيل للحقيقة متمشياً فى ذلك مع مذهب الواقع (Realism) فضلا عن أنه من ناحية مذهب الكمال (Idealism) لا يقل بحال عن كبار الفنانين ، كما يلمس فيها روح القوة المنيفة المتغلغلة فى إخراجها ، وسحر الألوان المشتملة عليها ، والقدرة التى أصبحت مضرب الأمثال فى تكوين الظل والنور ، اللذين لا يزالان مثلاً أعلى يحتذى به الى هذا العصر

بهذا الظل والنور أبرز رمبراندت الجمال التكوينى والمجموعى إبرازاً يعتبر أدق ما أمكن الوصول إليه ، مكوّناً طرازاً خاصاً انطبعت عليه نفسه ، وعرف باسمه على مر القرون

ويعتبر إنتاج رمبراندت إجمالاً المقياس الصادق لقوة الفن الجرمانى ؛ إذ بشخصيته الممثلة فى طرازه يتم التوازن بين عظمة الفن الرومانى فى كفّة ، والفن الجرمانى فى الكفّة الأخرى

فسر رمبراندت الكتاب المقدس على لوحاته تفسيراً سهلاً من الناحية الوضعية ، ولكنه قوى من الناحية الفنية ، متخذاً مادته من الطبيعة المحيطة به ، أما الأشخاص فقد كانوا من مجاوريه ، حتى أشخاص أقاصيص كتاب العهد القديم كانوا من يهود هولاندا المعاصرين . ومن كل هذا لا نرى فيه فناناً عبقرياً فحسب ؛ بل مسجّلاً ومؤرخاً صادقا فى كل ما صوّر ، لأنه لم يعتمد على الخيال كل الاعتماد ، بل على الوجود الملموس

أخرج اللوحات الشخصية إخراجاً فذاً ، فصور أبرز رجال عصره تصويراً دقيقاً ، كما صور حوالى الأربعين لوحة لنفسه حينما كان يخلو مستلهماً بين حين وآخر ؛ ولذلك ترى فى هذه الأربعين لوحة صفحة كاملة لتكوينه النفسى والفنى ، وتطوره فى تفكيره وفهمه لحقيقة الوجود

ومن أهم هذه الصور لوحته المحفوظة بمتحف برلين والمؤرخة سنة ١٦٣٤ ، ولوحته المحفوظة بالهاى سنة ١٦٣٤ أيضاً ، وبفينا سنة ١٦٣٥ ، وباللوفر سنة ١٦٣٧ ، وفى لندن بالناشونال جاليرى سنة ١٦٤٠ ، وبيكنجهام بالاس فى لندن سنة ١٦٤٢

ومن أحسن صوره لنفسه من الناحيتين الانشائية والفنية تلك اللوحة التى مثلته جالساً على مقعد وثير ، وهى فى حيازة اللورد الشستر بلندن ومؤرخة بسنة ١٦٥٨ ، وكذلك واحدة أخرى فى باريس مؤرخة بسنة ١٦٦٠ ، وثالثة فى لندن بالناشونال جاليرى سنة ١٦٦٤

أما آخر صورة من هذه المجموعة فهى مؤرخة بسنة ١٦٦٩ أعنى قبيل وفاته ، وهى فى حيازة السير ريلد بلندن



(صورته لنفسه)

وصورته لنفسه لا تنم عن عظمة مصطنعة ولا تجميل مرغوب فيه ، ولا تكلف لضعف فى الاخراج . تراه وقد أسدل الشعر على كتفيه متفنناً بدقة وانسجام ، مكوّناً للوجه من حوله مكاناً ملاصقاً لسواد الشعر ؛ فأبرزه خير إبراز . كوّن فيه شخصيته

دون جفاف ؛ فترى نظرة العينين وما ينطوى فيهما أقرب إلى الآلام منه إلى مسرّة الحياة ، ولكن هذا ليس غريباً على رجل كامل الحس ، فنان بنفسه ولحمه ودمه ، صادف آلاما مبرحة فضلا عن نظرته الخاصة إلى الحياة.



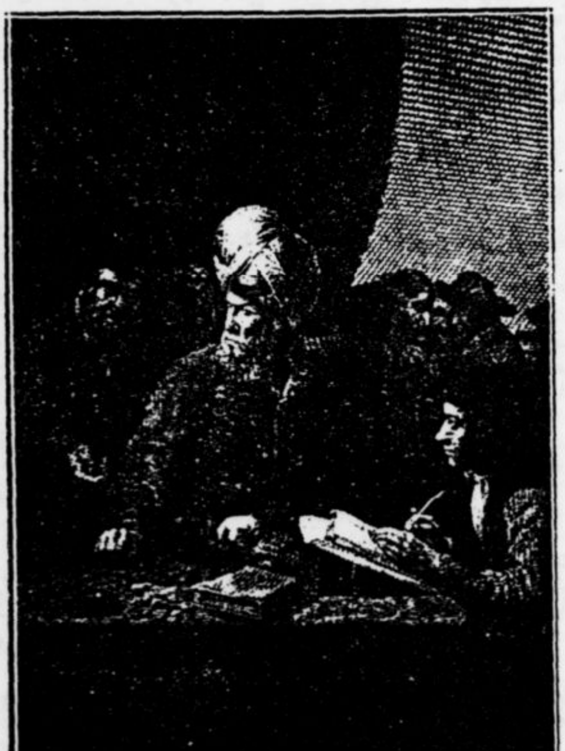
(صورته مع زوجته)

وله لوحة (بمتحف درسدن) خالدة ، تنبض بالحياة ، تمثله وزوجته زاسكيا فى مرح وسعادة ، والمشاهد لها يدهش للقدرة العظيمة التى استطاع بها أن يجعلها فذّة مؤدية للغاية التى صورها من أجلها ، فجاءت ملامح وجهيهما ناطقة بالهناء والتوفيق . انظر إلى يده اليمنى رافعة كأساً امتلأت لنصفها ، وإلى صفاء لون الخمر فيها ، ثم المس جمال الانشاء العام ولاحظ قوة الظل والنور التى جعلتها مجسمة

ولوحته لمدبّرة بيته هندريكا ، وهى مؤرخة سنة ١٦٦٣ ومحفوظة بمتحف برلين ، والمجموعة المحفوظة بقاعة وندسور ومنها لوحة لأمة ، وصورة أخيه أدريان لابساً خوذة ذهبية ومؤرخة ١٦٥٠ ، ومحفوظة بمتحف برلين ، وصورة ابنه تيتوس المحفوظة بمتحف فينا ، عدا الكثير لأبيه وأخته ، كل هذه تكوّن لك ناحية جليّة لقوّته

أما اللوحات التى صورها للشخصيات البارزة فى عصره فهى أيضاً مجموعة جديرة بالتسجيل هنا . من أهم ما فيها صورة الخطاط كوبينول مؤرخة سنة ١٦٣١ ومحفوظة بيطرسبرج ، وصورة إليزابيث باس ، وصورة حرم الأدميرال ســوار تهوت فى أمستردام ، وصورة الممدة بانكراس وحرمه مؤرخة سنة ١٦٤٥ فى قصر بكنجهام بلندن ، وصورة الطاهية مؤرخة ١٦٥١ بمتحف ستوكهلم ، وصورة جان سيكس مؤرخة ١٦٥٤ ومحفوظة بسيكس جاليرى فى أمستردام

وأهم لوحاته العامة صورة الصيرفى وهى مؤرخة ١٦٢٧ ، ترى أن أبرز ماعليها شخصية الصراف الجالس إلى منضدة ، ملتفتا إلى محدّثه فى شىء من التردد ، واضعاً يديه عليها ، قابضاً باليسرى على كيس نقوده ، واليمنى فى حالة استعداد لأخذ قطعة النقود من محدّثه . وترى على يمينه كاتب الحسابات جالساً مصغياً ، شاخصاً بعينيه إلى المتكلم ، وقد أمسك ريشة الكتابة بيمينه ، ووضع اليسرى على الكتاب وضعاً فى غاية الدقة لا يوفق إليه غير رمبراندت



(صورة الصيرفى)

والوجوه خلف الصورة لا تقل روعة عما فى مقدمتها ، إلاّ أن مهارة الفنان جعلت المشاهد يدرك تماماً أبرزَ وضع للوحة وأهم ما يقصد منها بمجرد النظر إليها ، لما خيّم عليها من ضآلة

البريد الأدبي

الأدب العربي الحديث

جاء في جريدة (النوفيل ليترير) الفرنسية ما يأتي :

كثيراً ما قيل وما زال يقال : إن تلك الصلة الوثيقة التي تجمع الشرق والغرب لا يجب إنقاذها مما هي سائرة اليه فحسب ، بل يجب تمكين أواصرها ، وتوثيق عراها ؛ وهذا بالطبع لا يتأتى إلا بتبادل الأفكار وتناقل الآراء ... فما الذي يعرفه الغربيون عن الأدب العربي الحديث ؟ . وما الذي يعرفه الغربيون عن تلك النهضة الأدبية الحديثة التي يحمل لواءها شباب مصر ، وتلك الباكورة الأدبية الطيبة التي تتزايد في ربوع النيل يوماً بعد يوم ؟

ويسرنا هنا أن نشكر جهود هؤلاء الكتاب الذين بذلوا ما في طاقتهم في سبيل نشر هذه الآداب في ربوع الغرب ، وفي طليعتهم الكاتب الفرنسي القدير موريك برن ... فهو لا ينفك يعمل منذ اثنى عشر عاماً على احكام الرابطة بين الفكرين الشرقي والغربي . ولم يقتصر على ما بذله في سبيل ذلك من الجهود التي ترمى إلى تبادل الآداب والفنون ، بل نرى له اليوم جولة أخرى في ميدان الترجمة اعتزم فيها أن ينقل أفكار أعلام الأدب العربي الحديث إلى اللغة الفرنسية ، وقد بدأ جولته — بالاشتراك مع الأستاذ . م . خضرى — بترجمة رواية توفيق الحكيم الرائعة « شهر زاد »

وقد سئل موريك برن لماذا آثر تقديم توفيق الحكيم على غيره من كتاب العربية ، فأجاب :

— إن توفيق الحكيم — دون منازع — هو أقدر كتاب العربية في التأليف القصصي « الدرامى » وهو الكاتب المسرحي الأول في مصر . ومن روائع مسرحياته رواية « أهل الكهف » التي قامت دار الأوبرا الملكية المصرية بتمثيلها في الشتاء الماضي ولا تقل « شهر زاد » عنها قوة ولا روعة

فسئل : ألا يكتب توفيق الحكيم غير المسرحيات ؟ فأجاب :

— كلا ... إن له أيضاً باعاً طويلا في غير المسرحيات ... فهو أقدر كتاب العربية على تصوير الحياة المصرية خير تصوير .. ولست مبالغاً في ذلك ؛ فعند ما تقرأون روايته القادمة (عودة الروح) التي أوشكت على الفراغ من ترجمتها ستتثبتون من ذلك . وهذه القصة تصور حال أسرة مصرية ثرية تصويراً يبعث الاعجاب في نفس القارىء ؛ وسترون في شخص بطلها « محسن » الشاب المصري الذي يمتلىء حماسة ويفيض قوة وفتوة ، مما يجعلني أكرر لكم أن توفيق الحكيم أقدر كاتب مفتن في تصوير الحياة المصرية أصدق تصوير

فسئل : ولكن لماذا اختار لها اسم « عودة الروح » ؟ فأجاب :

— لأن القصة تصور كيف انبعثت من جوانح مصر روح

النور المتعمدة . أما الظل والنور فهما واضحان بالنظر إلى الظل الواضح على صفحة الكتاب تحت يد الكاتب ، كذلك ظل الكتاب فوق المنضدة ، فضلا عما تراه من الظل على الجانب الأيسر لوجه الصيرفي ؛ على حين جعل الجانب الأيمن منيراً .
وظهر الشعر المجعد ظهوراً غاية في الدقة . وتدل ملامح وجه المتكلم على الرجاء والالتماس بكل قوة

وله لوحة أسماها « دانيا » وهي صورة لامرأة عارية بالحجم الطبيعي مؤرخة سنة ١٦٣٦ ، ومحفوظة بيطرسبرج ، وصورة الراكب وامرأته وهي في حيازة ملك انجلترا ، وصورة كوبنتابل في سان ريمو ؛ وصورة امرأة تستحم ومؤرخة سنة ١٦٥٤ بلندن ؛ وصورة العروس اليهودية مؤرخة سنة ١٦٦٥ بامستردام ؛ وكذلك صورة رجال الكنيس اليهودي في جنازة دوق دوفنشير . هذا عدا صوره لرجال ونساء عجائز تعد من آيات الفن ، معظمها محفوظ بلندن وبطرسبرج وبروكسل ودرسدن

(لها بقية) أحمد موسى

جديدة جملتها تحطم أصفادها، وتكسر أغلالها. فقصة «عودة الروح» هي قصة جهاد مصر ونضالها في سبيل استقلالها . . .

***

وأقول أخيراً إنه لن يمضي طويل من الزمن حتى نرى أدباء مصر الناهضة يتبوأون مكانهم اللائق من أدباء الغرب، فمن بواعث السرور أن نرى بينهم تلك النهضة الأدبية الموفقة التي تنتظم ربوع النيل

محمد عاكف بك

نعت الرسالة في عددها الأخير الشاعر الكبير محمد عاكف بك، ولما كنت من الذين عرفوا الفقيد شاعراً، وأعجبوا به، وترجموا بعض آثاره إلى العربية، فاني أكتب هذه الكلمة الصغيرة للتعريف بالنواحي التي عرفتها من أدبه، تاركا للدكتور عزام صديقه ما وراء ذلك من تعمق واستقصاء

سمعت بالفقيد بعد أن أصدر ديوانه «الظلال» وقد كان يُترجَم لي إلى النثر العربي، كان يترجمه صديقي الاستاذ محمد محمد توفيق

وأول ما قرأت له مقدمة ديوانه الظلال، وهي قصيدة تشرف على العشرين بيتاً، عنوانها خسران، وفي نهايتها يقول :

« وذلك نظمي بالعربية »

وصدى تألمي العميق يضيع في تجويف هذي القبة الزرقاءِ
وكذاك خسراني الذي أودعته في شعري المتأجج الوضاء
لهفي عليه يئن أنا خافتاً وكأنه ماخط من لأوائي !

ولست أذكر هذه القصيدة بتمامها، ولم أعثر عليها في أوراق، ووددت لو وجدتها فنشرتها على الناس فانها تفيض باسلامية الرجل، وحبه للجامعة الاسلامية التي يتمناها، وفي ذلك يقول :

. . . . وغايتي أن يستعيد نفوذه الاسلامُ

والصوفية العميقة هي الطابع الذي يغلب في شعره، قرأت منها قصيدة عنوانها «الوحدة» أشتغل الآن بنقلها نظماً إلى العربية، وقد بلغ الذروة العليا في تصوير الاحساس، وقد استهلها بقوله :

من منذ آبادٍ وآباد وإ ماني لنورك ظامئٌ لم ينهل !

وله منها قصيدة نظمها وهو منحدر إلى الحجاز حاجاً، وأبدع فيها أيما إبداع، ولعلها خير ما قيل في هذا على الاطلاق

وفي شعره موسيقى تتملك عليك مشاعرك، وقد أعجبتني قصيدة له سمعتها بالتركية فافتتنت بها وترجمتها إلى العربية نظماً وعنوانها على قبر شهيد ؛ وها هي ذي :

خليليَّ إن الأولى يبذلو ن نفوسهمُ فدية للوطن
مسجّون تحت سجوف السما ء، يحيط بهم دمهم كالكفن
ومثل أولئك عاشوا وماتوا وهانوا...وأوطانهم لم تهن...

ولا يسكنون الثرى بل لهم غوادٍ برحمته رائحه
ولا يطلبون إلى عابر قراءة شيء سوى الفاتحه

وقد أعجب رحمه الله بالترجمة لما رآها وشكر لي الدقة التي راعيتها فيها. رحم الله الفقيد، وعوض الأدب عنه خيراً ووفق إخوانه وأصدقاءه أن يترجموه لنا عربياً حتى نستمتع بأدبه وفنونه

العوضي الوكيل

وحي القلم للرافعي

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر في هذا الأسبوع الجزء الأول والثاني من كتاب «وحي القلم». والأستاذ الرافعيُّ من أفذاذ الألسنة البيانيّة في الأدب العربيّ كله قديمه وحديثه، وقد استقام قلمه على طريقة من البيان انفردَ بها فعرفتْ به وعرف بها. وهذا الكتاب قد اجتمعت فيه روح الرافعيّ الفلسفيّة وروحه البيانيّة، وتعاونا على بناءِ الفنِّ العربيِّ بناءً جديداً فيه من الروعة والمتانةِ والتسامي والجمال كل بديع. وكلّ أديب عربيّ يحتفل بهذا الكتاب احتفالاً خاصاً لأنه قطعة من النفس العربية المتّصلة بالماضي والحاضرِ والمستقبَل، ويهتزُّ له لأنه تعبيرٌ فنيٌّ دقيقٌ عن المعاني الغامضةِ التي لبثتْ قروناً لا تجدُ من يبين عنها إبانة الرافعي

محاضرة عن حاجتنا الى الفن

يلقي الأستاذ محمود تيمور برابطة موظفي الحكومة شارع عماد الدين رقم ١٨٧ بعمارات الخديوي حرف (أ) محاضرة عن حاجتنا إلى الفن. وذلك في يوم الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٣٧ في تمام الساعة السادسة مساء. وتطلب التذاكر من دار الرابطة أو من المحاضر بشارع الأمير حسين رقم ٦ بالزمالك بالقاهرة

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

للدكتور عبد الوهاب عزام

كان للأستاذ محمود مصطفى أرباً فى أن يصدَّنى عن نقد معجم الأدباء ، أو مصلحة فى أن يحسب من المجادلين عن ناشرى الكتاب . فهو لا يألو جهداً فى أن يشغلنى بمناقشة غير سديدة نشرت « الرسالة » للأستاذ ردَّه فى سبعة مآخذ مما أخذته على المعجم فى مقالى الأول ، ثم طلع على الناس فى جريدة المصرى بمقال قال فيه :

« فقد كانت المآخذ عشرة فما زال بى (يعنى صاحب الرسالة) حتى نزلت له عن اثنين فيها . فلما حاول أن أنزل له عن ثالث لم أقبل فتظاهر بالرضى عن نشره ، ولكنه حين خلا بنفسه حذف ذلك المأخذ ، وما كنت أحب أن يكون منه ذلك . والأعجب من هذا أنى حين ناقشته بعد ظهور المجلة فى أمر هذا الحذف كان جوابه أن الدكتور عزاماً لم يرض عن نشره »[1]

وأنا أعرف أن الزيات نصح الأستاذ أن يحذف جداله فى بعض الكلمات تنزيهاً له وللرسالة عن اللغو لا إشفاقاً من حججه الدامغة . وقد أبى الأستاذ إلا أن ينشر على الناس المآخذ الثلاثة التى نصحه الزيات بحذفها ؛ وليس أدل على نصح صاحب الرسالة ، ولا أدمغ لحجة الأستاذ محمود من نشر هذه الكلمات

١ — قال الأستاذ إن مرو الشاهجان ينبغى أن تكون بكسر الهاء . وهذه حجته : « إن التركيب إضافىّ فى اللغة الفارسية ، ومعنى مفرداته هكذا . المرو = المرج . الشاه = الملك . جان = نفس أو روح . فالمعنى على ذلك : مرج نفس الملك . والقاعدة فى اللغة الفارسية أن جميع كلماتها مهملة الاعراب ملازمة السكون إلا فى موضعين : الموصوف وأول المتضايفين فهما يكسران ، وذلك يعرفه من ألمّ أقل إلمام بهذه اللغة ، فمن أجل ذلك كان كسر كلمة الشاه واجبا . . . ويظهر أن لهذا المأخذ شأناً خاصاً إذ كان هجوما فانتصارا من أعزل مثلى (لم يجلس إلى معلم الفارسية إلا شهراً أو شهرين) على عالم جليل يفوق أهل اللغة علماً بأسرارها . فهذا ما حدا بصديقه الأستاذ الزيات إلى تخطّيه التقليد الواجب فى مثل هذا المقام » ا ﻫ

وأقول إن للكتّاب محنا ، وأشدها على أنفسهم أن يضطروا إلى الجدل فى الصغائر وأن يرجعوا القهقرى إلى عهد الكُتّاب

إن تفسير مرو الشاهجان بما فسره الأستاذ منقول من معجم البلدان ، وقد قرأته منذ أمد بعيد وعددته من هذيان ياقوت فى تفسير أسماء البلدان . كالذى يقوله عامة مصر فى تفسير الفيوم بألف يوم ، والبدرشين بقول يوسف الصديق حين رأى زليخا عجوزاً : أصبح البدرشينا الخ

والصواب : أن مرو الشاهجان تعريب مرو شاهكان ، أى مرو الشاهيّة . وتفسير هذا لا يفهمه من درس الفارسية شهراً أو شهرين

ولو سُلّمت للأستاذ هذه الخرافة مابلغت به غايته ، فمن (ألم أقل إلمام) بالفارسية يعلم أن القاعدة التى ذكرها الأستاذ غلط . ولو أنه (جلس إلى معلم الفارسية شهراً أو شهرين) لعرف أن المضاف إذا تقدم يكسر ، فاذا عكست الاضافة وتقدم المضاف اليه لم يكسر ، مثل عالمشاه وجهانْشاه وخوانْسلار وهلم جرّا . ومقتضى خرافة ياقوت التى تبعه فيها الأستاذ أن شاهجان معناه روح الملك فالمضاف اليه مقدم ، فيجب أن يقال : شاهْجان باسكان الهاء ، وهذا الضبط مروىّ أيضا

هذا جدال الأستاذ فى الفارسية ، فلننظر أ كان أقوم رأياً فيما يرجع إلى العربية وآدابها والاسلام وتاريخه

٢ — فى ص ٢٩ ج ٢ من المعجم : « لأن المهلّبى مات بعَمّان » وفى الحاشية : عمّان بلد فى أطراف الشام . قلت

---

[1] (١) هكذا زعم الأستاذ محمود ! والله وحده يشهد أن ذاكرته عصته فنسى ، أو أن لسانه أطاعه فاختلق . (وما كنت أحب أن يكون منه ذلك) (الرسالة)

الصواب : عُمان ، لأنى أعرف من تاريخ المهلبى أنه مات بعُمان لا بعَمان . فانظر كيف يجادل الأستاذ . يقول : يفهم من كلامى أنى لا أعرف أن فى الشام بلداً اسمه عَمّان . كأن اشتغالى بأمور المسلمين والعرب التاريخية والحاضرة ، وذهابى إلى الشام ثمانى مرات لم يعرفانى أن فى الشام بلداً اسمه عَمّان ... الخ . والحمد لله على أن أحداً غيره لم يفهم هذا من كلامى . ثم يقول : « فيثبت بواسع علمه أن المهلبى إنما مات بالتى على الخليج الفارسى (عُمان) ولم يمت بالتى فى الشام ، فأما مجرد التخطئة فى الضبط فليس فيها إقناع مادام للبلدين وجود فى العالم العربى الذى كان المهلبى يتولى الوزارة فيه » اه

يا أستاذ ! المهلبى مات بعُمان ، ولا يحتاج إدراك هذا إلى علم واسع فاقرأ ترجمة المهلبى فى معجم الأدباء نفسه لتعرف أين مات الرجل . كيف وأمامنا النص القاطع نقول إن المهلبى كان وزيراً فى البلاد العربية فجائز أن يكون مات فى كل بلد عربى ؟ ولو لم نعرف بالنص أن الرجل مات بعُمان أو عَمّان لرجحنا الأولى ، لأنا نعلم أن المهلبى كان وزيراً لمعز الدولة بن بويه ، وبنو بويه لم يمتد سلطانهم على عَمّان قط . أرأيت أيها الأستاذ أن الزيات نصحك ولم يغشك حين أشار عليك بالعدول عن الجدال فى هذا ؟

٣ — جاء فى الكتاب : « وأنفذتُ لِشُكْرِسْتان صاحبى الخ » فقلت الصواب لَشُكَرِستان ، فوقف الأستاذ موقف الحكم يخطىء الناشر والناقد فى ناحية ويصوب رأيهما فى أخرى — ولو عرف أن لشكرستان هنا اسم رجل لا مكان لأراح نفسه من هذا العناء . فليخطىء نفسه ويسترح

٤ — ورد فى الكتاب السَّرِىّ الرّفَاء — فقلت الصواب تشديد الفاء . فقال الأستاذ إن المؤاخذة بهذه الشَّدّة « شِدّة متناهية » وأن الذنب فى هذا على المطبعة — وأنا أقول لولا أن الناشرين التزموا الشكل فى كل حرف لما آخذتهم بهذا ، وقد شكلوا حروف الرفاء كلها فشددوا الراء وفتحوا الفاء عبثاً . فلم يكن بد من أن أظن أن تخفيف الفاء مقصود . لأن من يشكل ما لا يحتاج الى شكل لا يترك ما يحتاج إليه إلا عمداً

٤ — وجاء فى الكتاب من رسالة الخوارزمى إلى البديع : « ففيهم لعمرى فوق ما وصف حسنُ عشرة وسدادُ طريقة وجمالُ تفصيل وجملة » فقلت الصواب أن ينصب حسن وما عطف عليه على أنها تميز — فقال الأستاذ ما قال : ورمانى بأنى لم أدرك ما تقضى به بدائه النحو

والأستاذ فى هذا مُليم ومعذور ؛ مُليم بما حسبنى قرأت الجملة كما قرأها فلم أهتد إلى أن « فيهم » خبر مقدم و « جمال » مبتدأ مؤخر . وكان عليه أن يفرض أن لى وراء هذه البدائه النحوية نظراً دقيقاً فى الجملة عدل بى عن رفع الكلمات إلى نصبها ، وكان عليه إذ لم يبن له قصدى أن يستوضحنى ثم يجادل . وأما أنه معذور فلأنى لم أكتب الجملة كلها مصححة وكان يلزمنى أن أعيدها كلها على هذه الشاكلة : « فهم فوق ما وصف حسنَ عشرة الخ » ولكن حرصى على الايجاز فى نقدى كله أفاتنى هذا البيان

وانظر ما الذى دعانى إلى تخطئة الجملة كما ضبطت فى الكتاب : لو أنى اكتفيت بقراءة الجملة وحدها أو قراءة رسالة الخوارزمى كلها لما أدركت السقم فى هذه العبارة ، ولكن قرأت رسالة البديع التى أجاب عنها الخوارزمى فأدركت الخطأ والصواب . وبيان هذا أن البديع كتب إلى الخوارزمى ينقم عليه سوء لقائه ويصف قومه فى همذان بأوصاف هى فى مضمونها حسن العشرة وسداد الطريقة الخ . وأجابه الخوارزمى معترفا بأن قوم البديع أو أهل همذان فيهم هذه الأوصاف : حسن عشرة الخ فلا يمكن أن يكون معنى جملة الخوارزمى : إن قومك فيهم فوق ما وصفت : حسنُ عشرة الخ لأن هذه الأوصاف ليست زائدة على ما وصف البديع ، بل هى خلاصة وصفه ، ويجب أن يكون مراد الخوارزمى أن القوم فيهم من حسن العشرة الخ فوق ما وصف البديع ، وهذا لا يستقيم مع الجملة التى فى الكتاب فالصواب ما رأيت . ويؤيد هذا رواية رسائل البديع المطبوعة فى بيروت : فأما القوم الذين صدر عنهم سيدى فكما وصف حسنَ عشرة وسداد طريقة الخ »

فهل يرى الأستاذ بعد هذا أنها غفلة عن بدائه النحو أو نظر دقيق وراء النحو والصرف لا يدركه إلا الموفقون لادراك دقائق البيان ؟

٥ — جاء فى الكتاب « وكان مفتياً فى علوم شتى » قلت : الصواب متفنناً . وقال الأستاذ مفتَنّا . فقد وافقنى على خطأ الكتاب . وأنا أفرض أن مفتنا أصح من متفنّن . ولكنا نبحث عن عبارة ياقوت ، وهو قد استعمل « متفننا » فى مواضع منها ما فى ص ٢٣٨ ج ٢ : وهو شاب فاضل بارع متفنّن » وقد استعملها الناشرون أنفسهم فقالوا : « كان غزير الفضل متفننا فى العلوم (ص ١٠٧) فأن ادعى أنها حيث وجدت فى الكتاب محرفة عن مفتن فليؤاخذ بها الناشرين حيثما وجدها

وبعد فأنى أحمد للأستاذ غيرته فى المجادلة عما يظنه صوابا ، ولكنى أود أن يتثبت ويتهم ظنه كثيراً وأن يجادل للحق لا طلبا للزلفى عند الناس . ثم أقول له ختاما : إنى أربأ بالأستاذ وبنفسى وبالقراء عن مثل ماجادل به فى مرو الشاهجان ، وعمّان ، والشكورستان الخ ، فأن عاد الى المجادلة فى أمثالها فليعذرنى إذا لم يظفر منى بجواب وحسبى ما أضعت من وقتى فى جداله

ثم أعود الى المعجم ، منجزاً ما وعدت به من نقد تعليق الناشرين على الجزء الثانى :

سأتجاوز عن شرح البديهيات مثل السخط : ضد الرضا . والعواقب : جمع عاقبة آخر كل شىء . وسأترك شرح الفضول فان الناشرين يقولون إنا نريد أن نوضح الواضح وأن نستطرد لأفادة القارئ كما يستطرد صاحبا الكامل والأمالى وشكل وجهة ثم أعدّد المآخذ الآتية :

ص ٣٠ — قول الصابى :

قلّدت ديوان الرسائل فانظروا أعدلت فى لفظى عن التسديد
أعلىّ رفع حسابِ ما أنشأته فأقيم فيه أدلتى وشهودى

وفى الحاشية : « فى هذا البيت لبس . ولعل حساب منونة منعت من الصرف للضرورة وتكون ما نافية والمعنى حسابِ ما أنشأته أو أن الأصل ما أنشيه » وليس فى البيت لبس ولا ضرورة . وحساب مضاف الى ما أى حساب الذى أنشأته . والمعنى أيلزمنى أن أرفع إليكم حساب منشآتى كما يرفع صاحب الخراج حسابه الخ

ص ٣٨ — الكنَف : الظل . وهذا تفسير مضلل للقارئ الذى فرضنا أنه فى حاجة الى إيضاح الواضح . والتجوّز لا يسوغ هذا الشرح ، بل الكنف الجانب والناحية الخ

ص ٤٠ — « فتبعنى بعض حجابه وعدل بى إلى بيت من داره » وفى الحاشية : عدل إلى الشىء رجع . وهذا تفسير إن صح فى بعض الاستعمال لا يصح لتفسير الكلمة هنا . فهى هنا تعنى مال وحاد

ص ٦٩ — العذار الشعر المتدلى بجانب الأذن ؛ وهذا غلط . فالشعر المتدلى لا يسمى عذارا ، وإنما هو الشعر النابت على جانبى الوجه

ص ٧٣ — الحائن : الأحمق . والذى نعرفه أن الحائن اسم فاعل من الحَين أى الهلاك

ص ٧٤ — قول الصابى فى وصف البق :

أحاط بى عسكر للبقّ ذو لجب ما فيه إلا شجاع فاتك بطل

فى الحاشية : اللجب الصوت والجلبة . ما عهدنا للبق لجبا ، وإنما ذلك للبعوض اه . أقول البق هو البعوض . ولا يعرف البعوض فى العراق اليوم إلا بهذا الاسم

ص ٨٩ — الشريحة كل قطعة من اللحم — والصواب القطعة المرقّقة من اللحم

ص ٩٠ — الجمار الجزء الأبيض من طلع النخل — والجُمّار ليس من الطلع وإنما هو قلب النخلة أو شحمها كما يقول اللغويون واسأل أى عامىّ فى مصر عن الجمار

ص ١٠٧ — ذكر اسم الصابى فى المتن . فأثبت الشارح فى الحاشية ترجمته فى خمسة أسطر . وقد مضت قبل عشر صفحات ترجمة الصابى فى أربع وستين صفحة — كأن الشارح لا علم له بما مضى فى الكتاب — وفى الحاشية نفسها ترجمة للصاحب بن عباد فى ثمانية أسطر وستأتى ترجمته فى خمس وأربعين ومائة صفحة

وفى حاشية ص ١٦١ ترجمة لبديع الزمان مختصرة من ابن خلكان . وفى الصفحة نفسها تبتدىء ترجمة البديع فى متن الكتاب وتستغرق إحدى وأربعين صفحة

فليت شعرى لم هذا العبث ؟ أما كان يمكن إحالة القارىء على التراجم المطولة فى أماكنها ؟

ص ١٨٤ — « وإنما يشتغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل » وفى الحاشية الجل : السرج . وهذا غلط واضح إنما الجل ما تُلبَسه الدابة ليصونها من برد أو حر

ص ١٨٥ — البارح الريح الحارة فى الصيف تأتى من قبل اليمين ، ولست أدرى ما معنى اليمين هنا ؟ هل المراد ان هذه الريح تدور مع الشخص كيفما دار فتأتيه عن يمينه ؟ أظن فى هذا لبسا بين البارح من الرياح والبارح من الحيوان

ص ٢٠٥ — « تكريت : بلدة مشهورة ... ولها قلعة حصينة فى طرفها الأعلى راكبة على دجلة غربيها » وهذا وصف تكريت فى الزمن القديم وكان ينبغى أن توصف تكريت الحاضرة أو يقال : كانت الخ ولا يجوز أن توصف بلاد قائمة بأوصاف زالت عنها ، وليس فى تكريت اليوم قلعة حصينة فى طرفها الأعلى

ص ٢٧٧ — فى الكلام عن بعض الوزراء : « فكانت له أفعال منكرة ، منها أنه استدعى العيارين وضمنهم مايسرقونه من أموال الناس » . وفى الحاشية : ضمنه الشىء كفله به وألزمه إياه اه وهذا تفسير لا يصلح هنا . فلو أن هذا الوزير ألزم العيارين

مايسرقونه ما كان هذا فعلا منكراً بل التضمين هنا معناه أن الوزير اتفق مع العيارين على أن يؤدوا مالا معينا مقابل ما يكسبون بالسرقه . كما يؤدى العامل مالاً عن أرض أو غيرها . وهذا من الوزير إقرار للعيارين على أعمالهم . ومن أجل هذا كان عملاً منكراً

وبعد فلست أستطيع إحصاء أغلاط الكتاب وتحريفاته ، ولا تبيين مساوىء الترتيب فى التراجم ، والتهاون فى تنسيق المتن ، وحسبى أن دللت على العيب ، ودعوت الى تداركه .

وقد رأيت فى الأجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ مثل ما فى الأول والثانى من الأغلاط . فسأنتظر حتى تظهر الأجزاء التى طبعت بعد هذا النقد ، فأن ألفيتها كما أود فذلك مقصدى . وإن كانت كأخواتها أديت حقها من النقد حتى يقوّم الأود . والخيرَ أريد ، وما توفيقى إلا بالله .

عبد الوهاب عزام

العالم المسرحي والسينمائي

على ستار سينما رويال

نشيد الأمل

انتاج شركة أفلام الشرق

وإخراج أحمد بدرخان

ظهرت كلمة « النهاية » على شاشة سينما رويال فكانت إيذاناً بانتهاء عرض فيلم نشيد الأمل ، فضج الناس بالتصفيق وتطلعوا إلى الشرفة حيث تجلس الآنسة أم كلثوم بطلة الفلم وجعلوا يهتفون بحرارة فلقد أخذتهم بتمثيلها ، وسحرتهم بصوتها العذب البارع ، ولم أغادر مقعدى وجلست قليلاً فى مكانى فمر بى خاطر عجيب وقلت لنفسى : « ترى هل كان يظهر الفلم على هذه الصورة وينال هذا النجاح لولم تنشئ شركة مصر للتمثيل والسينما أستوديو مصر العظيم ؟ »

الحق أن هذا الفلم الهائل إذا كان يدين ببعض النجاح لمواهب بطلته ، فهو يدين أولاً إلى رجل مصر العظيم طلعت حرب باشا الذى أنشأ شركة مصر للتمثيل والسينما وأقام ذلك الاستديو الكامل المعدات الذى عرض لنا الفلم بعض معداته

ولقد كان لرجال الاستديو النصيب الأكبر من إعداد الفلم حتى المدير الفنى (أو المخرج كما يسمى فى مصر خطأ) كان مبعوث شركة مصر إلى فرنسا لدراسة السينما ، فهو معدود من رجال الأستوديو وإن كان قد بعد عنه لظروف خاصة . فلولا الاستوديو لما ظهر الفلم فى هذه الصورة ، ولولا طلعت حرب لما أقيم الأستوديو

***

نجح الفلم نجاحا كبيراً ، ما فى هذا شك ، وهذه باكورة مباركة لشركة أفلام الشرق فى أول أعمالها ، وجزاء طيب للجهود الجبارة التى بذلها الأساتذة عبدالله فكرى أباظة ومحمد شتا وعبد الحليم محمود كما هو توفيق عظيم يستقبل به صديقنا الأستاذ أحمد بدرخان أول أعماله الفنية التى نرجو لها الاتصال ودوام التوفيق

ملخص السيناريو

قبل أن أتحدث عن نواحى الفلم المتعددة أرى من الخير أن أبدأ بتلخيص القصة أو السيناريو حتى يتفهم قولى من لم يسعدهم الحظ بشهود الفلم بعد

فآمال فتاة منكودة الحظ كان من قسوة الحياة عليها أن تزوجت من رجل غوى يدعى اسماعيل كان بين عصابة تعمل لترويج المخدرات . وأهمل الزوج امرأته وابنته سلوى وتركهما يعانيان آلام الفاقة ، حتى انتاب الصغيرة المسكينة المرض ولم تجد ماتقتات به . ولم يكن الزوج يكتفى بهذا بل كان ينتهز الفرص ليقتنص بعض المال مما ينال زوجه من نصيب لها فى وقف

ظلت هذه الحال تلازم « آمال » وازدادت حال الصغيرة سلوى سوءاً لولا عناية الله إذ أرسل الدكتور عاصم وهو طبيب كريم

الخلق طيب القلب ، فتولى معالجة ابنتها و كان يغمر الأم بحنانه وكرمه .

وجاء الدكتور يوماً لزيارتها فسمعها تنشد لطفلتها نشيداً عذباً تحتال به على إنامتها ، فأعجب برخامة صوتها . وطلبت آمال من الدكتور أن يعاونها فى الحياة بأن يجد لها عملاً شريفاً يساعدها على كسب قوتها كممرضة مثلاً ، ولكن عاصماً يشير عليها باستغلال ما وهبها الله من صوت ملائكى فتتردد أولاً ثم تقبل أخيراً . ويتعهدها الدكتور بأكبر الأساتذة يلقنونها فن الموسيقى والغناء كما عهد لها الطريق للظهور أمام الجماهير ويقوم للدعاية لها بين أصدقائه ومعارفه

وكانت الحفلة الأولى لها فنجحت نجاحاً هائلاً وحالفها الحظ ، تخطت خطوات واسعة وارتقت درجات الشهرة ، وصارت قبلة عشاق الموسيقى والطرب . وكان بين المرضى الذين يعالجهم الدكتور عاصم مخرج سينمائى يشكو اضطراب الأعصاب ، فأخذه عاصم ليسمع « آمال » فى حفلة طلبة الجامعة ، فيعجب المخرج بها ، ويختارها بطلة لفلم التضحية الذى يتولى إخراجه

وعاد الدهر يناوىء « آمال » فبعث لها زوجها السابق يرهقها بطلب المال ، فأمرته ألاّ يتردد على بيتها وأن يلازم داره وهى تمر عليه لتناوله ما تجود به نفسها

وتوثقت عرى الصداقة بين عاصم وآمال ، وأخيراً كتب لها يكاشفها بحبه ، ويعرض عليها الزواج فتسر وتقبل ، وينتظر الاثنان حتى ينتهى عملها فى الفيلم ويحتفلا بالزواج . ويحدث أن الممثل الأول فى الفلم يتودد الى آمال فتصده ، ويتابعها يوماً فيراها تدخل البيت الحقير الذى يقطنه اسماعيل ، فيسرع بالكتابة الى عاصم يقول له إن آمال تخونه

ويحل الوقيعة بين الحبيبين بعد أن يتهمها بالخيانة ، ولا يحتمل عاصم الصدمة فيرحل إلى أوربا ، ويخرج اسماعيل لها يرهقها بطلباته ، فلما رأى أنها لا تهتم له كثيرا يعمل على كيدها بانتزاع فلذة كبدها (سلوى) فيستصدر حكما شرعياً بحضانة ابنته بحجة أن أمها تحترف الغناء . وهكذا تفقد حبيبها وتنتزع طفلتها المسكينة من أحضانها

ولم ينقطع اسماعيل بعد هذا عن إرهاقها ، فذهب إليها فى الاستديو فأمهلته قليلاً ، وأشارت الى أحد موظفى الاستديو باستدعاء رجال الشرطة ، ويعرف اسماعيل بهذا فيثور ويقرر الانتقام منها ، ويستمر العمل فى التقاط صور الفلم ، ويكون من نصيب ممثل الدور الأول أن يطلق مسدسه على آمال ، فينتهز اسماعيل الفرصة ويطلق فى نفس الوقت رصاصة حقيقية من مسدسه فتسقط مضرجة بالدماء

ويصل رجال الشرطة ، وتقوم معركة بينهم وبين اسماعيل تنتهى بموته كما يقع بقية زملائه المهربين فى أيدى الشرطة وتسعف آمال بالعلاج ، ويتولى العناية بها الدكتور محبوب صديق عاصم ، فيعرف الحقيقة كلها ويكتب بها الى عاصم

وتشفى آمال ، وتحضر حفلة العرض الأولى لفلم التضحية الذى ينال أكبر النجاح ، ويتوافد الناس على بيتها يهتفون لها ، ويجىء لتهنئتها المخرج والدكتور محبوب ومعهما الدكتور عاصم ، ويلتقى الحبيبان ثانية

* * *

إن أول ما يذكر لرجال شركة أفلام الشرق أنهم لم يسيروا وراء غيرهم من الشركات الأخرى فيختارون قصصاً مضطربة ضنا على المؤلف الأديب ببعض المال وإنما اختاروا قصة من تأليف شاب مثقف هو صديقنا ادمون تويما واقتبسوا منها قصة سينمائية ، ولهذا فان الوقائع كانت تسير سيراً منتظما وتتتابع تتابعا طبيعياً من غير تعسف ولا شطط

وقد يرى القارىء أن القصة لا ترمى إلى غرض سام أو فكرة نبيلة ولكن ليس من الضرورى أن يقوم الفلم على فكرة من هذا النوع ؛ ولقد شاهدنا الكثير من الأفلام الامريكية والأوربية تنال أكبر النجاح وهى لا تقوم إلا على فكرة بسيطة ، أو قل إن فى بعضها ما تنعدم فيه الفكرة ؛ وإنما يكفى الفلم أنه يصور ناحية مصرية وينقد ناحية خاصة فى أخلاقنا وأحكامنا ، ويسير فى طريق طبيعى دون أن يشعر المشاهد أن هنالك ثغرة فى الوقائع أو قطيعة فى التسلسل تجعل المشاهد يصحو إلى نفسه من سحر المنظر ، فيفسد خياله وينحى باللوم على الشركة والممثلين والمدير الفنى

أكتفى الآن بهذا القدر وسأتم الحديث فى العدد القادم

يوسف

وحى القلم

إلى الذين اشتركوا فى وحى القلم بوساطة مجلة الرسالة :

كان الاعلان أن أجرة البريد عن هذا الكتاب هى ثلاثة قروش ، ولكن بلغت هذه الأجرة خمسة قروش داخل القطر وثمانية عشر قرشا ونصف للخارج ، وذلك لكبر حجم الكتاب ووزنه

فعلى كل مشترك إرسال فرق القيمة لترسل اليه نسخته (إدارة الرسالة)

5 me Année, No. 186

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 25 - 1 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٨٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ٢٥ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــــــدد

محضر جلســــة

للأستاذ أحمد أمين

تذاكر جماعة — من ذوى الرأى — فى الأدب العربى وحاجته إلى الاصلاح ، وفيما له من ثروة قديمة قيمة تحتاج إلى الأحياء ، واقترحوا أن يكوّنوا جمعية للأخذ بناصر الأدب ونشر ذخائره ؛ وكان من بينهم من ينتسب إلى الجامعة الأزهرية ، ومن ينتسب إلى الجامعة المصرية ، ومن ينتسب إلى المجمع اللغوى ، ومن هو عضو فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومن يتصل بدار الكتب ، وغيرهم ؛ وصحت عزيمتهم على ذلك ، وعهدوا إلى أحدهم بوضع مشروع قانون للجمعية يحدد غرضها ، ويوضح نهجها ، واختاروا يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٦ الساعة الخامسة بعد الظهر لقراءة المشروع

فلما حان الموعد حضر واحد فقط ، وخُيّل إليه أنه أخطأ اليوم ، أو أخطأ الساعة ، أو أخطأ المكان ، فأعاد قراءة الدعوة فإذا كل شىء من الزمان والمكان صحيح . وبعد ربع ساعة حضر آخر ، فتبادلا العجب من عدم حضور الأعضاء فى الموعد

وأخذ من تأخر يلقى محاضرة قيمة فى المحافظة على الزمن ، وكيف هى عند الانجليز والفرنسيس والألمان ، وما جرى له من

أحداث فى هـذا الباب أيام كان فى أوربا ، وحاجة المصريين إلى معرفة قيمة الزمن ؛ وقد استغرقت محاضرته القيمة ربع ساعة كان قد حضر فى أثنائه عضوان آخران فاشتركوا جميعاً فى الحديث عن قيمة الوقت ، وكل يروى نادرة فى هذا الموضوع طريفة ، وقصة ممتعة ؛ وتختم النادرة أو القصة بضحكات عالية يدوّى بها المكان ، وتتخلل الضحكات تعليقات على ما يُروَى تُسلسِلُ الضحك وتُتابع الفكاهة

ولا أطيل عليك ، فقد تم اجتماع أغلب الأعضاء فى الساعة السادسة والنصف ، وقد اعتذر بعضهم بزيارة صديق له عند خروجه ، وآخر بتعطيل الترام له ، وثالث بأن من عادته أن ينام بعد الظهر وقد طال نومه على غير عادته ، ورابع بأنه نسى الوعد لولا أنه لقى فلاناً مصادفة فذكّره به

أخذوا يتناقشون فى هل يختارون رئيساً للجلسة حتى يتم القانون ؟ انحاز إلى هذا الرأى فريق ، لأنه لا بد لكل جلسة من رئيس يدير المناقشة ويأخذ الأصوات ؛ وعارض فريق بحجة أننا نريد أن نكون ديمقراطيين لا رئيس ولا مرءوس ، وأنه حتى بعد أن يتم القانون لا حاجة لنا إلى رئيس ، فكلنا سواسية فى الرأى ، ويكفى أن يكون للجلسة « ناموس » يدون الآراء ويأخذ الأصوات

ولا أطيل عليك أيضاً فقد وافت الساعة السابعة والجدل على أشده فى هذا الموضوع الخطير ! وعند تمام الساعة السابعة والنصف انتصر الفريق الأول فكان لا بد من رئيس

ولكن عرضت مشكلة أخرى أخطر من الأولى : هل يختار الرئيس بالسن أو بالاقتراع السرّى ؟ قال قوم بهذا ، وقال قوم بذاك . وكاد يحتدم الجدل على نمط المسألة الأولى لولا أن أحد الحاضرين قال : أختار فلاناً ليدير هذه الجلسة ، فخجل الآخرون أن يطعنوا فى هذا الاختيار ، فسكتوا وكفى الله المؤمنين القتال

***

وطُلب من المقرر أن يقرأ المادة الأولى فقرأها ، ونصها : «أنشئت بمدينة القاهرة جمعية تسمى جمعية إحياء الأدب العربى »

— ا — : هل يقال : « أنشئت » أو « تنشأ » ؟ أظن أن الأصح أن يقال : « تنشأ » ، لأن الجمعية لم تتكون بعد ، فكيف يعبر بالماضى فيقال أنشئت ؟

— ب : هذا رأى فى محله ، لأن إنشاء الجمعية مستقبل ، والذى وضع للدلالة على المستقبل هو الفعل المضارع والأمر لا الفعل الماضى . فاذا قلنا أنشئت دل على أنها تكونت فى الزمن الماضى ، وليس ذلك بصحيح

— ح : الفرض فى القانون أن يوضع فى شكل يدل على أن الجمعية أقرته ، فواضع القانون فرض أن الجمعية اجتمعت وأقرت القانون وألبسته ثوبه النهائى ، ولذلك يوضع فى صيغة الماضى

— ء : وأمثال ذلك كثيرة ، فكاتب العقود يقول : «فى تاريخه أدناه قد باع فلان لفلان كذا » ثم يمضى البائع والمشترى العقد ؛ وقبل الامضاء كان البيع مستقبلا ، ومع ذلك عبر عنه بالماضى

— هـ : ومع هذا فلِمَ تذهبون بعيداً ؟ والماضى يستعمل فى المستقبل كما قال تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » فأمر الله هو يوم القيامة وهو لم يأت بعد ، وإنما عبر عنه بالماضى للايذان بأنه أمر محقق ، أو للتنبيه على قرب مجيئه ، فهنا كذلك ، لما كان تكوين الجمعية محققاً إن شاء الله أو قريب الوقوع يعبر عنه بالماضى على سبيل المجاز

— و : الأمر أبسط من هذا كله ، فاذا قلنا « أنشئت » أو « تنشأ » لا يترتب على ذلك ضرر ، وهو لا يقدم الجمعية ولا يؤخرها ؛ إنما ينهض بالجمعية عملها فى تحقيق غرضها ، فاذا حققته لا يضرها أنشئت أو تنشأ ، وإذا لم تحققه لا ينفعها أنشئت أو تنشأ

— ا (محتداً) : ولكننا نجتمع لأحياء الأدب العربى فأقل مايجب علينا أن تكون عباراتنا صحيحة لفظاً ومعنى ، نحواً وبلاغة ، وإلا أعطينا مثلاً سيئاً لأحياء الأدب العربى

— الرئيس : أظن أن الأمر وضح ؛ فلتأخذ الآراء على « أنشئت » أو « تنشأ »

— ز : لكن بقيت مسألة : أليست « تكونت » خيراً من « أنشئت » لأن الانشاء فى اللغة هو الخَلْق ، والخلق يكون من العدم ، وليست أفراد الجمعية معدومين حتى يقال فيها أنشئت ؛ إنما هى موجودة مفرقة ، فهى تتجمع وتتكون لا تُنشأ

— ا : ومن قال إن التكوين لا يكون من العدم ؟ ففى كتب

المتكلمين « إن التكوين إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود » وفى التوراة سفر اسمه سفر التكوين وفيه حكاية خلق العالم ، والعالم قد خلقه الله من العدم .

(أراد (ز) أن يرد عليه فقاطعه الرئيس وأخذ منه الكلمة)

— الرئيس (فى شىء من الضجر) : أرى أن نكتفى بهذه المناقشة فى هذا الموضوع ونأخذ الأصوات على ما يأتى : هل نقول أنشئت أو تنشأ ، أو تكونت أو تتكون ؟

— ا : لا ، بل نأخذ الرأى — أولاً — على أن تصاغ الكلمة من مادة الانشاء أو من مادة التكوين ، وبعد ذلك نأخذ الرأى هل نعبر بالماضى أو المضارع

— الرئيس : وهو كذلك

(أخذت الآراء — أولاً — فكانت الأغلبية فى جانب مادة الانشاء ؛ ثم أخذت — ثانية — فخرجت الأغلبية فى جانب أنشئت

— الرئيس : إذن ننتقل إلى المادة الثانية

— ا : لا ، بل لا تزال هناك مسألة فى المادة الأولى على جانب كبير من الأهمية

— الرئيس : وما هى ؟

— ا : التعبير « بأحياء الأدب العربى » ، فأن هذا تعبير لا أقبله ، وأحتج عليه بكل قوتى ؛ فأنه يدل على أن الأدب العربى ميت ونحن نريد إحياءه ، فهل كان الأدب العربى ميتاً ؟ إنه حى ، وكان حياً فى العصور الماضية وسوف يبقى حياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكيف نقول إن الأدب العربى قد مات وعلى رأسه القرآن الكريم وقد قال الله تعالى فيه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . إن الأدب العربى حى ، وكل ما نريد أن تعمله الجمعية أن تنظمه أو تنشر كتبه القديمة . فأما لفظ الأحياء فلا ؛ وأنا أنذركم أنكم إذا أصررتم على لفظ الأحياء انسحبت من الجمعية

هنا ساد المجلس صمت رهيب

— ح تشجع وقال : فى الواقع أن المسألة لا تحتاج إلى كل هذا ، فلفظ الأحياء لا يدل على سبق الموت ؛ ألا ترى يا أستاذ — ا — أن الغزالى سمى كتابه الكبير « إحياء علوم الدين » فهل كانت علوم الدين قبله ميتة ؟ كلا إنما أصابها نوع من الركود والجمود ، فأراد الغزالى أن يزيل عنها ركودها وجمودها ، وأن يعرضها عرضاً جديداً يتفق وذوق عصره ؛ ولم يقل أحد إن الغزالى صبأ أو كفر أو تزندق بتسمية كتابه هذا الاسم . وموقفنا الآن من الأدب العربى هو موقف الغزالى من علوم الدين ؛ نريد أن نُنهض الأدب ونعرضه فى شكل حديث يتفق وأذواق الناس فى هذا العصر

— ى : وأيضاً فأن الأحياء ترجمة لكلمة « رينسنس » Renaissance وقد استعملها الفرنج للدلالة على حركة النهضة العقلية فى أوربا وبعث المدنية من رقدتها ، والمعنى الحرفى لهذه الكلمة : « الولادة من جديد » فاختار الكتاب المحدثون كلمة الاحياء للدلالة على ذلك

— الرئيس : نأخذ الأصوات على بقاء كلمة « إحياء الأدب العربى » أو تغييرها

— ا ك ﻫ ى ى (فى نفس واحد) : لا ! المناقشة لم تستوف بعد

— الرئيس : الساعة الآن التاسعة فلنؤجل المناقشة إلى الجلسة المقبلة

— الجميع : موافقون

قال صاحبى . ومتى تنتهى قراءة القانون ؟

قلت : فى المشمش . . . !

أحمد أمين

فى النسيان

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أعوذ بالله من قولة « أنا » : ولكنى مصاب بنفسى وهـذا عذرى . وشر ما أصبت به منها النسيان ؛ وحسبك به بلاء عظيما .

وقد صرت بفضله — أو من جرائه — امرأ له الساعة التى هو فيها ، فأعفيت من الهموم كما أعفيت من اللذاذات أو المسرات ومن ذكرياتها الحلوة . ولا آسف على ذلك فقـد تكافأ الربح والخسارة . ولو أراحنى الناس كما أراحتنى نفسى لتمت لى السعادة فى هذه الدنيا الدنية . ويبلغ من نسيانى أنى أكون ذاهباً إلى فراشى فى الليل فأرانى أقف أمام السرير متردداً حائراً لا أدرى ماذا جاء بى إلى هنا . . أهى علبة السجائر ، أم أريد المعطف أو العباءة ؟ هذا فى الشتاء — أم ماذا يا ترى ؟ ثم أستخير الله وأقول لنفسى : « نم ياشيخ وأرح نفسك من عناء المحاولة فما فيها فائدة »

وأرقد على فراشى ، فتدور فى نفسى معان وتتمثل لذهنى صور أتعلق منها بما يروقنى فأغمض عينى — وقد قرت — وأقول إن شاء الله فى الصباح أكتب الفصل أو أرسم الصورة أو أقص القصة .. وأقرأ الفاتحة للموتى وآية الكرسى ليحفظنى الله من العين وأنام . ويطلع الصبح فأستيقظ مع الدجاج فاذا بى قد نسيت كل شىء ، وإذا بالصور والمعانى قد مسحت بقدرة ربك من اللوح ولم يبق منها ولا أثر ضئيل يدل عليها ويهدى إليها ، ويساعد على رجع ما ولى منها ، فأتعزى بأن الذى لا أجده لا يزال هناك وأنه غاب ولكنه لم يمح ، وقد تنتعش الذاكرة فجأة فيطفو ما رسب

ويتفق أن أقف أمام المرآة لأسرح شعرى أو أسوى ربطة الرقبة أو أفعـل غير ذلك من الشؤون التى تحوج فى العادة إلى المرايا — وإن كنت أنا أستطيع ذلك كله بغير معونتها — حتى إذا صرت أمامها وقفت متعجباً متسائلاً : « لماذا يا ترى أنظر فى المرآة ؟ » وأرفع يدى إلى جبينى وأفركه وأحاول أن أتذكر ، ولـكن الأمر يعيينى فأهز رأسى وأمضى لشأنى

وأقول وأنا ماض إلى عملى اليومى : إنى سأكتب كيت وكيت ، ويشغلنى ذلك طول الطريق ، وأصعد إلى مكتبى وألتقى باخوانى وزملائى ويجر اللقاء الى التحدث فى أمور شتى من عامة وخاصة ، حتى إذا خلا المكان وتناولت القلم وأقمت سنه على الورقة رأيتنى أتساءل : فى أى شىء كنت أنوى أن أكتب يا ترى ؟ . وكيف أمكن أن أنسى بهذه السرعة العجيبة وقد كنت مشغولاً به طول الطريق ؟ . وأحتاج أن أبحث عن موضوع آخر . . ومن يدرى . . فقد يكون الموضوع الذى أهتدى إليه بعد العناء هو بعينه الذى نسيته وأنا أحسبه غيره

ومن كثرة نسيانى تحتاج الخادمة أن تحاسبنى كلما هممت بالدخول أو الخروج ، فانى أفقد مناديلى لأنى أنسى أين أتركها ، أو ألقيها ولا أذكر ماذا صنعت بها ، وزوجتى تعدها مسئولة عن هـذه المناديل التى لا ينتهى الخلاف عليها ولا ينقطع الجدال من جرائها . فأنا أزعم أنى تركتها حيث ينبغى أن تترك هذه الأشياء ، والخادمة تنفى ذلك وتؤكد أنى لم أفعل — بأدب طبعاً — وتقسم أنها عدتها فألفتها ناقصة ؛ وزوجتى تحدق فى وجهى وتسألنى : هل أكون مستريح الضمير إذا صدقونى ؟ ومتى وصل الأمر الى الضـمير والذمة فأنه لا يسعنى إلا أن أتردد وأقول بالأرجح والمعقول كأنها قضية منطقية

فتشير زوجتى الى الخادمة وتقول : « يكفى ... اذهبى يابنت » فتذهب البنت ولـكنها تواجهنى حين أهم بالخروج وتسألنى كم منديلاً معى ؟ فأصيح « أوووه . . وهل أنا أعرف ؟ . سبحان الله العظيم ! ألا يمكن أن يستريح المرء فى هذا البيت ؟ . ما معنى هذا التعطيل ؟ . تنحى من فضلك »

فتقول : « أرجو أن تعدها »

فأقول : « وما الفائدة ، ما دامت تضيع . . . . هـه » وأخرجها من الجيوب وأعدها وأقول « ثلاثة » مثلاً

فترجو ألا أنسى أنها ثلاثة ، فأقول : « طيب . طيب »

وتفتح لى الباب وأنا عائد وتسألنى عن المنـاديل ، فأخرج ما أحمل منها وأرمى به اليها وأمضى عنها ، فتـدركنى وهى تصيح وتقول : « هذه أربعة . . . من أين جاء الرابع ؟ »

فأتعجب وأقول : « من أين جاء ؟ . . ماذا تعنين .. ربمـا كنت اشتريته »

فتقول : « ألا يمكن أن تكون أخذت منديل صديق

وأنت . . . وأنت . . . ! »

ويمنعها الأدب والحياء أن تنطق باللفظ فأنوب أنا عنها وأقول « ذاهل . . . أليس كذلك ... كلا لم يبلغ الأمر هذا الحد . . »

فتلح وتقول : « ولكن من أين جاء إذن ؟ »

فأقول متململا : « أوووه . . . إن شكواك لا تنقطع من أن المناديل تنقص وأنت الآن تزعمين أنها زادت واحداً فاحمدى الله إذن وأريحينى »

ولكنى لا أرتاح منها ولا من ستها ولا من الأطفال ، ولا أزال أرى من يجرى ورائى منهم ويخبرنى أنى نسيت الجورب أو لبست اثنين مختلفين ، أو تركت الطربوش ويوشك أن أخرج رأسى عاريا ، الى آخر هذه التوافه التى لا أعرف لها آخرا

وأحسب أن نسيانى إنما يشتد لأن رأسى لا يخلو من شىء يدور عليه تفكيرى ويستغرقنى ذلك حتى لأذهل عما عداه ؛ وقد كانت أمى — عليها رحمة الله — تتعجب لأمرى وتقول لى : « يا بنى ما الذى يطير عقلك ؟ »

فلا يعجبنى هذا وأقول معترضا : « إن عقلى لم يطر . . ثم إن هذا غير معقول . . أم تظنينه حمامة »

فتقول غير عابئة بملاحظتى : « لم يكن أبوك هكذا . . ولا أنا مثلك . . إنك لا تتذكر شيئاً أبداً »

فأقول : « إنى من صنعكما — أنت وأبى المحترم — فأين ذنبى بالله ؟ »

فتقول مستاءة : « لماذا لا تتكلم خيرا ؟ »

فأقبلها وألثم يدها وأسترضيها وأقول معتذرا : « ماذا أصنع إذا كان ربى قد خلقنى هكذا . . . واسع خروق الرأس كالغربال القديم »

فتبتسم وتدعو لى الله أن يرد على ما غرب من عقلى ، فأتقبل دعاءها بالشكر وأمرى الى الله

والأم تحتمل ابنها وتصبر على ما يكون من ذهوله ، ولا تسىء به الظن ، وليست هكذا الزوجة فانها تحمل ذلك على غير محمله ، وتؤوله بأنه قلة اكتراث وعدم مبالاة ، وأن الرجل لا يفكر فيها ولا يفرض لها وجودا ولا يقيم لها وزنا إلى آخر هذا الهراء ؛ وهى سليمة لا تخونها الذاكرة ، فليس فى وسعها أن تدرك بلاء النسيان وأن تعذر المنكوب به . ومن العبث أن يقول لها المرء إن كثرة الشاغل هى التى تطير من الرأس كل ما عسى أن يكون فيه . إذن لماذا لا يشغل الرجل بها هى ولا ينسى ما عداها هى . . . ؟ هذا هو المشكل

وما دخلت البيت مرة إلا شعرت أنى لا بد أن أكون قد نسيت شيئاً أوصتنى به زوجتى ، فأقول لنفسى : « سترك اللهم . . وعونك أيضاً » وقد أكون مخطئاً ولكن الخطأ لا يمنع الشعور الثقيل . وكثيراً ما يتفق أن يكون ظنى فى محله ، فلا تكاد ترى وجهى الناطق بتوقع اللوم حتى تبتدرنى بقولها : « بالطبع نسيت » فأقول وأنا أتكلف الضحك : « أى والله . . صدقت . . الحق أن فراستك قوية »

فتقول : « وما العمل ؟ »

فأسأل متحرزاً : « فى أى شىء ؟ »

فتقول : « فى أن تذكر . . كيف نحملك على التذكر ؟ »

فأقول : « اربطى لبسة فى رجلى فأضطر أن أتذكر كلما سمعت كركرتها »

فتقول : « إنى جادة »

فأقول : « نكتب الشىء فى ورقة واضعها فى جيبى أو مع الساعة »

فتقول : « وتنساها فى جيبك . . وتخرج الساعة فترى الورقة فترميها وأنت ذاهل »

فأقول : « ألبسينى الجاكتة مقلوبة . . أزرارها إلى الخلف »

فتهز رأسها وتقول آسفة « كلا . . لا فائدة . . الأمر لله . . لو كان شيئاً يعالج . . ولكنه مستعص ... لا علاج له »

فأقول متشهداً : « صدقت يا امرأة . . أما والله إنك لمنصفة . . جزاك الله خيراً وقواك على احتمالى »

وأعترف أنى كثيراً ما أنتفع بالمعروف المشهور من نسيانى ، فاذا سألتنى عما لا أريد أن أبوح لها به أو أذكر الحقيقة فيه تظاهرت بالبلاهة وقلت : « وهل أنا أعرف ؟ . وأين العقل الذى يتذكر ؟ . . »

وما قرأت كتاباً إلا نسيت ما فيه — نسيته جملة وتفصيلاً ؛ حتى اسمه واسم كاتبه ؛ وقد أعود إليه فكأنى ما قرأته ولا سمعت به ، فهو فى كل مرة أعود فيها إليه جديد ولو كنت قرأته عشر مرات ؛ وهذا نافع لأن فيه اقتصاداً . وكم من كتاب اشتريته ثم

انتصار الحب (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كلُّ ما يكتب عن حبيبين ، لا يُفهم منه بعضُ ما يفهم من رؤية وجهِ أحدهما ينظر إلى وجه الآخر

وما تعرفه العين من العين لا تعرفه بألفاظ ، ولكن بأسرار والغليلُ المتسعِّرُ فى دم العاشق ، كجنون المجنون يختصُّ برأسه وحده

وضجَّةُ المحب لحبيبه إحساسٌ لا يُستعار من صدرِ آخر ، كما لا يستعار المولودُ لبطن لم يحمله

وكلمةُ القبلة التى معناها وضعُ الفم ، لن ينتقلَ إليها ما تذوقه الشفتان

***

ويومُ الحب يومٌ ممدود ؛ لا ينتهى فى الزمن إلا إذا بدأ يومُ السلوِّ فى الزمن

فهل يستطيع الخلقُ أن يصنعوا حداً يفصل بين وقتين لينتهىَ أحدُهما ؟

وهَبْهم صنعوا السُّلوانَ من مادة النصيحة والمنفعة ، ومن ألف برهان وبرهان فكيف لهم بالمستحيل ، وكيف لهم بوضع السلوان فى القلب العاشق ؟

وإذا سالتِ النفسُ من رقة الحب ، فبأى مادة تُصنع فيها صلابةُ الحجر ؟

وما هو الحب إلا إظهارُ الجسم الجميل حاملاً للجسم الآخر كلَّ أسراره ، يفهمها وحده فيه وحده ؟

وما هو الحب إلا تعلّق النفس بالنفس التى لا يملأها غيرها بالأحساس ؟

وما هو الحب إلا إشراق النور الذى فيه قوة الحياة ، كنور الشمس من الشمس وحدها ؟

وهل فى ذهب الدنيا وملك الدنيا ما يشترى الأسرار ، والاحساس ، وذلك النور الحى ؟

فما هو الحب إلا أنه هو الحب ؟

***

ما هو هذا السرُّ فى الجمال المعشوق ، إلا أن عاشقه يدركه كأنه عقلٌ للعقل ؟

وما هو هذا الادراكُ إلا انحصارُ الشعور فى جمال متسلطٍ كأنه قلبٌ للقلب ؟

وما هو الجمالُ المتسلطُ بانسان على إنسان ، إلا ظهور المحبوب كأنه روحٌ للروح ؟

ولكن ما هو السر فى حب المحبوب دون سواه ؟ هنا تقف المسألة وينقطع الجواب

هنا سرٌّ خفيٌّ كسر الوحدانية ، لأنها وحدانية (أنا وأنت)

***

ناقشوا الحب ؛ فقالوا أصبحت الدنيا دنيا المادة ، والروحانية اليوم كالعظام الهَرِمة لا تكتسى اللحمَ العاشق

وقال الحب : لا بل المادة لا قيمة لها فى الروح ؛ وهذا القلب لن يتحول إلى يد ولا إلى رجْل

ناقشوا الحب ؛ فقالوا إن العصر عصر الآلات ، والعمل الروحى لا وجود له فى الآلة ولا مع الآلة

قال الحب : لا ، يصنع الانسان ما شاء ، ويبقى القلب دائماً كما صنعه الخالق

وقالوا : الضعيفان : الحب والدين ، والقويان : المال والجاه ، فماذا ردّ الحب ؟

جاء بلؤلؤة روحانية فى (مسز سمبسون) ؛ ووضع إليها فى ميزان المال والجاه أعظم تاج فى العالم : تاج ادوارد الثامن « ملك بريطانيا العظمى وإرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وملك — امبراطور الهند »

وتنافست الروحانية والمادية ، فرجع التاج وما فيه إلا ضعف المنبين من القلب

---

(١) شغلتنا مقالات (القلب المسكين) عن الكتابة فى حادثة (القلب المسكين الأعظم) قلب الملك ادوارد عندما وقعت الحادثة

نسيت أين وضعته ثم يتفق أن أعثر عليه فأقف مستغرباً متسائلاً : أتراني قرأت هذا الكتاب من قبل . . أم لم أفتحه . . على كل حال . . الأمران سيان . . توكلنا على الله »

وأحسب هذا يجمل العلم والجهل سيين . ولولا أنى أعرف أن ما أقرأ لا يضيع وإنما يختفى لأغرانى ذلك بالانقطاع عن القراءة لقلة ما يبدو لى من فائدتها المحسوسة

ابراهيم عبد القادر المازنى

وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الاعلان ، فهز العالم كله هزة صحافية :

الحب . الحب . الحب

* * *

(مسز سمبسون) ، تلك الجميلة بنصف جمال ، المطلقة مرتين . هذا هو اختيار الحب

ولكنها المشوقة ؛ وكل معشوقة هى عذراءُ لحبيبها ولو تزوجت مرتين ؛ هذا هو سحر الحب

ولكنها الفاتنة كلّ الفتنة ، والظريفة كلّ الظرف ، والمرأة كل المرأة ؛ هذا هو فعل الحب

ولكنها العقل للأعصاب المجنونة ، والأنس للقلب المستوحش ، والنور فى ظلمة الكآبة ؛ هذا هو حكم الحب

ومن أجلها يقول ملك انجلترا للعالم : « لا أستطيع أن أعيش بدون المرأة التى أحبها » ؛ فهذا هو إعلان الحب .....

* * *

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه ، فذلك معنًى من الذبح .

وإذا انتزعوها انتزعوها من نفسه ، فذلك معنى من القتل .

وهل فى غيرها هى روح اللهفة التى فى قلبه ، فيكون المذهب إلى غيرها ؟

لكأنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة

وكأنهم يريدون منه أن يُجنّ جنوناً بعقل ... هذا هو جبروت الحب

* * *

وللسياسة حجج ، وعند (مسز سمبسون) حجج ، وعند الهوى .. التاج ، الملكية ، امرأة مطلّقة ، امرأة من الشعب ، فهذا ما تقوله السياسة

ولكنها امرأةُ قلبه ، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاعُ ثلاث زوجات ؛ وهذا ما يقوله الحب

واللحظة الناعسة ، والابتسامة الناعمة ، والاشارة الحالمة ، وكلمة (سيدى) [1] . هذا ما يقوله الجمال

وانتصر الحب على السياسة ، وأبى الملك أن يكون كالأم الأرملة فى مِلك أولادها الكبار . . .

* * *

العرش يقبل رجلا خلفاً من رجل ؛ فيكون الثانى كالأول والحب لا يقبل امرأة خلفاً من امرأة ، فإن تكون الثانية كالأولى

وطارت فى العالم هذه الرسالة : «أنا ادوارد الثامن . أتخلى عن العرش وذريتى من بعدى

« وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الاعلان ؛ فهز العالم كله هزةً صحافية . »

الحب . الحب . الحب

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) لا تخاطب (مسز سمبسون) إدوارد إلا بكلمة (سيدى) ، ولا تتحدث عنه ولا تسميه إلا قالت (سيدى) . ولن يأمر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة العبودية اللطيفة هذه حين تنطق بها المرأة فى صوت قلبها وغريزتها . وقد كان هذا أدب نساء الشرق مع أزواجهن ؛ أما اليوم ...

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى ؟

معترك من الروايات والأساطير المدهشة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى ليلة السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ من الهجرة (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم بأمر الله يطوف كعادته فى شعب المقطم حيث اعتاد أن يرصد النجوم ، ثم لم يعد من جولته قط ، ولم يعرف إنسان خبره أو مصيره قط ؛ وكل ما عثر عليه بعد ذلك من آثاره ، حماره الأشهب وقد وجد معرقباً فى طريق حلوان ، ثم ثيابه مزررة وبها آثار الطعان فى بركة قريبة من حلوان

بيد أن اختفاء الحاكم فى تلك الليلة الشهيرة ، واجتماع مختلف القرائن والآثار على مصرعه بيد الجناة ، لم يكن خاتمة حاسمة لعهده وسيرته وذكراه . أجل أعلنت وفاة الحاكم ، وأقيم ولده أبو الحسن على مكانه فى كرسى الخلافة ، وذلك يوم النحر (١٠ ذى الحجة سنة ٤١١ هـ) لأسابيع قلائل من اختفائه ، ولقب الظاهر لاعزاز دين الله ؛ وبدأت الخلافة الفاطمية عهداً جديداً ؛ ولكن ذكرى الخليفة الذاهب لبثت تغمر الأفق مدى حين ، وتثير فى المجتمع مختلف الفروض والأساطير . ذلك أن أدلة الجناية لم تكن واضحة ، ولم يقم دليل قاطع على القتل أو الوفاة ، ومن جهة أخرى فأن الحاكم بأمر الله لم يكن فيما زعموا شخصية عادية يغمرها العدم كما يغمر سائر البشر ، وتطوى آثارها من ذلك العالم لتغيض فى العالم الآخر بتلك البساطة التى أحاطت باختفائه . ألم يكن الحاكم شخصية خارقة تهيم فى الخفاء ، وتزعم الاتصال بعوالم الغيب ، وترنو إلى مدارك السمو فوق البشر ؟ ألم يقدمه الدعاة السريون إلى الناس بأنه « ناطق الزمان » وأنه آلة وروح حل فى صورة البشر ؟ وهل من كانت هذه خواصه ومزاعمه يسرى عليه قانون الفناء كما يسرى على جميع الناس ؟

لقد أجمع معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة على أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة على اختلاف بينها فى مدبرى المؤامرة ومرتكبى الجريمة . ومعظمها على أن الذى دبر المؤامرة أخته الأميرة ست الملك ، وذلك لما بدا من إسرافه فى قتل الزعماء ورجال الدولة ، وما ارتكب من التصرفات المنيفة المتناقضة التى هزت أسس المجتمع وقلبت أوضاعه ؛ وأخيراً لما جنح إليه من حماية الدعاة الملاحدة الذين نادوا بألوهيته ؛ فهذه الأسباب حسبما تقول الرواية هى التى حملت أخته على تدبير مصرعه اتقاء لنشوب ثورة تودى بالعرش وبتراث الدولة الفاطمية كله ؛ أما شريك ست الملك ومنفذ الجريمة ، فهو الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة ، وكان يخشى سطوة الحاكم وفتكه ؛ وأما القتلة فهم عبيده أو هم جماعة من البدو اعترضوا الحاكم فى طريقه ليلة اختفائه بحجة التماس الاحسان والصلة ، ورتبهم المتآمرون لقتله ؛ أما جثته فقد حملها الجناة إلى أخته فدفنتها فى نفس مجلسها : هذا ملخص ما تقوله الرواية فى شأن المؤامرة والجريمة

وهذه الروايات ليست موضوعنا فى هذا البحث ؛ وهى ليست كل شىء فى تلك المأساة العجيبة ؛ وإنما نعنى فى هذا البحث بطائفة أخرى من روايات ذات نوع خاص ودلالة خاصة ، لا تأخذ بنظرية المؤامرة أو الجريمة ، ولكنها تؤيد فكرة الاختفاء العمد والهجرة الأبدية ، وتسبغ بذلك على ذهاب الحاكم لوناً من الخفاء الغامض ، كذلك الذى يغمر شخصيته وحياته كلها ؛ وإذا كانت هذه الروايات تجنح فى مجموعها إلى نوع من الأسطورة ، فأنها مع ذلك تدخل فى عداد التاريخ وتستحق الدرس بهذه الصفة ، خصوصاً ، وأن ماتقدمه إلينا من التفاصيل والوقائع ليس فى ذاته مستحيلاً ولا خارقاً

وأول رواية من هذا النوع رواية كنسية كتبت فى عصر الحاكم ذاته ، ووردت ضمن سير البطاركة ، أو سير البيعة المقدسة فى ترجمة الأنبا زخاريا البطرك القبطى المعاصر للحاكم ؛ وخلاصتها ، أن الحاكم خرج الى الجبل ذات ليلة ، وسار فى الجبل ومعه ركابى واحد الى أن بلغ حلوان ، ثم نزل عن حماره ؛ وأمر الركابى أن يعرقبه ففعل ، ثم أمره بالانصراف الى القصر وتركه بمفرده ، فعاد الركابى كما أمر ؛ فلما لم يعد الى القصر فى اليوم التالى سأل رجال القصر هذا الركابى عن سيده ، فأجابهم بأنه تركه فى حلوان ، وعاد وحده نزولاً على رغبته ، فمضوا فى طلبه ، فوجدوا الحمار معرقباً ، وبحثوا عن الحاكم فى كل موضع ،

فلم يجدوه ولم يقفوا له على خبر أو أثر [١]

ووردت فى تاريخ الكنائس المنسوب لأبى صالح الأرمنى ، والذى كتب فى أواخر القرن السادس الهجرى رواية مماثلة نصها : « وبهذه الناحية (أى حلوان) نزل الأمام الحاكم بأمر الله عن الحمار الذى كان راكبه ، وتقدم الى الركابى الذى كان يصحبه إلى حيث يذهب بأن يمرقب الحمار ، وذهب هو وحده إلى داخل البرية ، ولم يرجع يعود ، ولا عرف أين توجه الى يومنا هذا ، وكان ذلك فى شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة » [٢]

ويشير مؤرخ نصرانى آخر ، هو ابن العبرى الذى كتب تاريخه فى أواخر القرن السابع الهجرى إلى مثل هـذا الرأى ، فيقول فى حوادث سنة ٤١١ هـ : « وفيها فقد الحاكم بن العزيز ابن المعز العلوى صاحب مصر ، ولم يعرف له خبر » ، ثم ينقل قصة طوافه ومصرعه حسبما رواها القضاعى ، وذلك على سبيل الرواية والترديد فقط [٣]

وتقول الرواية الكنسية أيضا ، « ولم تزل الناس مدة غيبة الحاكم والى أن انقضى مدة ولده يقولون إنه بالحياة . وكثير كانوا يتزيون بزيه ويقول كل واحد منهم أنا الحاكم ، يتراءوا للناس فى الجبال حتى يأخذوا منهم الدنانير » ثم تروى لنا قصة رجل يسمى « شروط » كان نصرانيا وأسلم ثم تعلم السحر والشموذة ، وكان يشبه الحاكم شبها عجيبا ، ولو أنه أطول منه بقليل ؛ فلما اختفى الحاكم ظهر فى الناس باسم « أبى العرب » ، وادعى أنه الحاكم ، والتف حوله بعض الناس ، وكان يطالب الأغنياء بالمال ، ويقول لهم إنه سيعيده إليهم عند رجعته إلى مملكته ؛ ثم استتر طيلة عهد الظاهر ، وهو مستمر على دعواه حتى اعتقد كثير من الناس أنه الحاكم ، وأنه يخفى نفسه لأمر مكتوم لا يعرفه سواه ؛ وفى أوائل عهد المستنصر ، نزح إلى

(١) وردت هذه الرواية الكنسية بتفاصيلها التى أوردناها فى مخطوط كنسى حصلت دار الكتب أخيرا على نسخة فوتوغرافية منه ، ويتضمن كتاب سير الآباء البطاركة تأليف ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين الشهير ؛ ثم فصولا عديدة أخرى تذييلا على كتاب ساويرس فى سير البطاركة أيضا جمعت تحت عنوان « سير البيعة المقدسة » ويحفظ هـذا المخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٣٤ ح

(٢) تاريخ أبى صالح الأرمنى ص ٥٢ ب

(٣) مختصر تاريخ الدول طبعة اكسفورد ص ٣٣٥

البحيرة ونزل عند بعض البدو ، وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب واستمر فى دعواه أنه الحاكم وأنه يعتزل الحياة العامة حتى ينتهى قطع طالعه الذى يخشاه ؛ ولما ذاع أمره ، واهتمت السلطات بمطاردته توارى عن الأنظار ، ولبث مختفيا حتى عرف بأمره سانونيوس البطرك ، وأنفذ اليه مالا وتعهده بعونه ورعايته [١]

وأول ما يلفت النظر فى هذه الرواية الكنسية هو أنها لا تشير أية إشارة إلى فكرة المؤامرة أو الجريمة ، بل لا تشير مطلقاً إلى فكرة الوفاة ، ولكنها تميل فى مجموعها إلى تأييد فكرة الغيبة والاختفاء ، وتستأنس فى ذلك بالاشاعات والأساطير التى ذاعت فى ذلك الشأن منذ اختفاء الحاكم ، واستمرت ذائعة أيام ولده الظاهر

على أن الرواية الكنسية لا تقف عند ذلك الحد ؛ ذلك أن ابن العبرى يحدثنا عن مصير الحاكم بعـد اختفائه ، ويقول لنا إن كثيراً من النـاس اعتقدوا حين اختفائه أنه لجأ إلى مكان بالصحراء واعتنق النصرانيـة ، ثم ترهب وقضى أيامه هنالك ؛ ثم يقول إنه ، أى المؤرخ ، حينما كان بدمشق سمع بعض كتاب الأقباط يقولون إن الحاكم حينما اشتد فى مطاردة النصارى ظهر له يسوع المسيح كما ظهر لبولس الرسول ، فآمن به ، وتوارى سراً فى الصحراء حتى توفى [٢]

ومما يجدر ذكره أن هذه الأسطورة — أى أسطورة تنصر الحاكم وترهبه — ليست هى الأولى من نوعها ، فقد نسب جده المعز لدين الله إلى مثل ما نسب اليه ، وزعمت الرواية الكنسية أن المعز تأثر بما شهده من معجزة نصرانية هى تحرك جبل المقطم لدى صلوات الأحبار النصارى وتضرعاتهم ، فنزل عن الخلافة لولده العزيز ، وتنصر وترهب ، ودفن باحدى الكنائس [٣]

ويجب لكى نقدر مغزى هذه الروايات الكنسية أن نذكر الظروف التى نشأت فيها ، وأن نذكر موقف الكنيسة القبطية ونفسية المجتمع النصرانى فى عصر الحاكم بأمر الله : فقد عانت الكنيسة وعانى النصارى فى هذا العصر ضروبا مرهقة من

(١) المخطوط الكنسى المشار اليه (رقم ٦٤٣٤ ح) لوحة ٩٣

(٢) لم ترد هذه الرواية فى جميع التراجم العربيـة التى انتهت إلينا من تاريخ ابن العبرى ؛ ولكن الظاهر أنها وردت فى الأصل السريانى . وقد كتب ابن العبرى تاريخه بالسريانية ثم ترجم بعد ذلك ، وأوردها المستشرق دى ساسى فى كتابه عن الدروز

(٣) كتاب الجريدة النفيسـة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٢٤٨ . وراجع كتابى مصر الاسلامية ص ٧٨ وما بعدها

الاضطهاد المادى والمعنوى ، وجازت الكنيسة شر محنة نزلت بها منذ عصر الاضطهاد الرومانى ، فهدمت بيعها وأديارها ، ونهبت أموالها ، وبدد تراثها المقدس ، ونال الأحبار كل هيبة ونفوذ ، وامتحن الكثير منهم ، وعانى المجتمع النصرانى من القوانين والفروض الجديدة شر ما تعانيه أقلية مضطهدة من ضروب العسف والذلة والارهاق ؛ ومن ثم فان الروايات الكنسية المعاصرة تصور لنا هذا العصر ، عصر استشهاد للكنيسة ورعاياها ، وتحدثنا فى مواطن عديدة عن مختلف المعجزات النصرانية التى ظهرت فى هذا العصر ، والتى كانت الكنيسة تستمد منها العزاء والصبر على مغالبة المحنة ؛ ومنها قصة فتى مسلم يسمى ابن رجاء تأثر بمعجزات المسيح فتنصر وترهب ، ورسموه قديساً باسم بولس ولقبوه بالواضح ؛ ومنها قصة أبى نجاح النصرانى ، وكان من أعيانهم وأكابرهم ، فأراد الحاكم أن يرغمه على الاسلام فأبى فأمر بجلده حتى توفى ، وزعمت الأسطورة أن الماء كان يقطر من لحيته أثناء ضربه ، وأن المسيح ظهر له وتولى سقايته أثناء تعذيبه ؛ وقصة الرئيس الفهد الوزير ، فقد قتله الحاكم لأنه أبى الاسلام ، وأمر بأحراق جثته ، ولكن النار لم تؤثر فيها ؛ وقصة البطرك زخاريا فقد اعتقله الحاكم وطرحه للسباع لتأكله ولكنها نفرت منه ولم تمسه بأذى[(١)] ؛ وغير ذلك من الخوارق المزعومة التى تدل على روح الكنيسة وعقليتها فى هذا الظرف العصيب ، وعلى جنوحها إلى الاستعانة بسيل من الأساطير والمعجزات الجديدة لتأييد هيبتها المقوضة ، وتقوية نفوس رعاياها والمؤمنين بقدرتها وسلطانها

فهل نعجب إذا كانت الرواية الكنسية تحدثنا عن مصير الحاكم بأمرالله بهذا الروح ذاته ، فتحيط هذا المصير بأسطورة من أساطيرها ، وتضيف بذلك معجزة إلى معجزاتها ؟ إن فى تقديم الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمى ، فى ثوب النادم المستتيب ، يبدو له المسيح ، فيرتد عن دينه ويعتنق النصرانية ، ثم يترهب ، ويقضى بقية حياته فى بعض الأديار النصرانية ، لأعظم معجزة تقدمها الكنيسة إلى المؤمنين ، وأعظم ظفر تستطيع أن تصوره لرعاياها فى هداية ذلك الذى أنزل بهم شر البلايا والمحن أعواماً مديدة ، ثم انتهى به المطاف إلى أن غدا جندياً من جند المسيح .

(١) راجع المخطوط الكنسى المشار إليه لوحة ٩١ و ٩٣ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١١٠

إن فى هذه الخاتمة لأعظم عقاب للآثم ، وأعظم ترضية للكنيسة والمؤمنين ، وأبلغ انتقام يمكن أن تنزله الكنيسة بخصيمها

— ٢ —

ولا ريب أن التاريخ لا يمكن أن يحفل بمثل هذه الأسطورة التى لم يؤيدها أى دليل أو أية قرينة سوى الرواية الكنسية التى تنفرد بترديدها ، والتى تنم فى الحال عما وراءها من الغايات والبواعث ؛ بيد أن هنالك فى الرواية الكنسية الأولى شيئاً واحداً يمكن الوقوف به ، وهو ما تنوه به من اختفاء الحاكم أو غيبته دون الاشارة إلى مصرعه بصورة من الصور . ذلك أن هذه النظرية — نظرية الاختفاء — لم تكن دون صدى فى حوادث العصر ووثائقه . وإذا استبعدنا فكرة المؤامرة والجريمة مدى لحظة ، واستبعدنا ما ينسب إلى الأميرة ست الملك من أنها هى التى دبرت مصرع أخيها على الوجه الذى بسطنا ، فان الحوادث والقرائن الأولى التى عقبت ليلة السابع والعشرين من شوال تسبغ على فكرة الاختفاء مسحة من الاحتمال . ذلك أن مصرع الحاكم أو وفاته لم تكن أول ما خطر لرجال القصر والدولة ، بل كان أول ما خطر لهم فكرة الغيبة ، فخرجوا فى أثر الحاكم عدة مرات يبحثون عنه ويستقصون أثره قبل أن يؤمنوا بمصرعه ؛ ولبث الكرسى الخلافى شاغراً مدى ستة أسابيع حتى يوم عيد النحر (العاشر من ذى الحجة) ، ولم يناد بالخليفة الجديد حتى استقر لدى رجال الدولة أن الحاكم قد لقى حتفه بصورة من الصور أو على الأقل قد ذهب إلى غير ما عودة : بيد أن فكرة مصرعه ، مهما كانت الصورة التى صورت بها ، ومهما كان الجناة الذين نسب تدبيرها أو تنفيذها إليهم ، لم تكن فيما يبدو من روايات العصر وأحاديثه ، حقيقة مقررة ، ولم تكن رأى السواد الأعظم من الناس . بل لقد أشارت بعض الروايات التى سلمت بمصرع الحاكم إلى مدى هذا الشك فى مقتله ، فنرى ابن خلكان مثلاً يقول فى ترجمة الظاهر ولد الحاكم ما يأتى : « وكانت ولايته بعد أبيه بمدة ، لأن أباه فقد فى السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ؛ وكان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر »[(١)]

(النقل ممنوع — للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٣

فى الأدب المقارن

التأثير فى الآداب الأخرى

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

من أقوى الدلائل على حيوية أدب أمة وصدق ترجمته عن المشاعر الانسانية احتفاء الأمم الأخرى به ، وعنايتها بدرسه ، وتأثرها بنتاجه ، واصطناعها وسائله ، واشتهار فحوله بينها ؛ فان الأدب إذا كان حياً صادق التعبير عن النفس الانسانية ، عميق النظرة فى مشاهد الكون ، تخطى حدود أمته واجتاز حوائل اللغة والتقاليد والجنسية والبيئة ؛ تخطى ذلك إلى ساحة الانسانية التى تمحى عندها فوارق الزمان والمكان ، ويلتقى لديها أبناء الأمم المختلفة والأزمان المتباعدة ، وتمجد العبقرية الفنية حيثما نبتت

فحيوية الأدب وصدقه شرط أساسى لذيوعه وتأثر الآداب الأخرى به . وقد تجتمع إلى قوة الأدب الفنية الخالصة قوة أصحابه الحربية وسلطانهم السياسى ، فيكون ذلك عاملاً كبيراً مؤديا إلى انتشار الأدب ؛ على أنه عامل إضافى لا يضير انعدامه . فالأدب واللغة هنا على طرفى نقيض : فلغة الأمة لا تذيع فى الأمم الأخرى إلا تبعاً لارتفاع سلطانها السياسى ، مهما كان رقى اللغة ذاتها وصلاحيتها وتفوقها على اللغات الأخرى ، أو تخلفها عنها ؛ فلغات الرومان والعرب ، ثم الفرنسيين والانجليز ، لم تدع وتتخذ صبغة عالية إلا مصاحبة لامتداد نفوذ تلك الأمم ؛ أما الأدب فلا يذيع إلا لرقيه وصلاحيته وتفوقه فى بعض النواحى ، سواء أساعده النفوذ السياسى أم أعوزه ؛ ذلك لأن اللغة وسيلة ضرورية من وسائل التعامل ، فلا بد من الالمام بلغة الأمة ذات الشأن العظيم فى الحياة الدولية والاقتصادية ؛ أما الأدب فهو متعة وجدانية كمالية ، تقبل النفس منه ما وافق طبعها وترفض مالا تستسيغه ، ولو كان يمت إلى أوسع الأمم سلطاناً وأضخمها جيشاً

والأدب الاغريقى نسيج وحده فى هذا الباب ، وهو مصداق كل ما تقدم ذكره ، ولم يؤثر أدب تأثيره فى آداب الأمم ، ولا نال مثل ما نال من احتفالها : فهو أدب حى راق صادق ، ذاع فى عهد سطوة أصحابه وفى عهد اضمحلالهم ، بل أثر فى غالبيهم فى ميدان الحرب والسياسة — الرومان — أبعد تأثير ؛ ثم عاد فبعث من مكمنه فأثر فى نشأة الآداب الأوربية الحديثة ، بل على يديه درجت ، وفى حجره شبت ؛ وما زالت دراسته أحد فروع الثقافة العالية فى الجامعات الأوربية ؛ ومن أجل دراسته والاستفادة من كنوزه تدرس اللغة الاغريقية على بعد ما بينها وبين اللغات الحديثة . أما اللغة ذاتها فتقلص ظلها منذ تقلص ظل السيادة اليونانية التى أظلت حوض البحر الأبيض الشرقى على عهد أثينا والاسكندر والبطالسة ، ودرست اللغة وبطل التخاطب بها حتى فى بلاد اليونان ذاتها

وتتراوح درجة تأثير أدب أمة فى آداب غيرها تبعاً لحالة المؤثر والمتأثر : فيكون الأثر شاملاً غامراً إذا كانت الهوة بينهما بعيدة ، بأن كان الأول عظيم الرقى والآخر بدائياً ساذجاً ، كما كان تأثير الأدب اليونانى فى الأدب الرومانى والآداب الأوربية الحديثة ، وكما كانت منزلة الأدب الفرنسى من الأدب الألمانى فى أوائل القرن الثامن عشر ؛ وقد يكون أثر أدب فى غيره قاصراً على ناحية يتفوق فيها أو يمتاز بها ، كما كان تأثير قصة المغامرات الاسبانية فى الأدب الانجليزى ، أو تأثير القصة الروسية فى الآداب الأوربية المعصرية ؛ وقد تحتفى أمة بدراسة أدب أمة أخرى إعجاباً به وتقديراً له ، دون أن يتأثر به أدبها تأثراً كبيراً ؛ وأغلب ما يكون ذلك إذا تماثل الأدبان فى الرقى ، كما هى الحال بين كثير من الآداب الأوربية الحديثة التى قطعت مراحل متماثلة ، ووصلت إلى درجات من الرقى متقاربة ؛ وقد يتناكر أدبان ويتنابذان فلا يتأثر أحدهما بالآخر ، لشدة ما بينهما من تفاوت ، أو لاعتداد كل منهما بنفسه ، كما كان من ازورار الأدب العربى عن الأدب اليونانى ؛ وقد يُدرس الأدب فى المعاهد وعلى أيدى العلماء والأدباء لمجرد البحث العلمى والتأريخ ، دون أن يكون له كبير أثر فى آداب الأمم ، أو يكون لجمهور المتأدبين بصر به ، كما يدرس الأدب العربى فى بعض الجامعات الأوربية اليوم

وكلا الأدبين العربى والانجليزى أثر فى آداب الأمم الأجنبية ،

وبلغ من الرق والخطر ما جعله جديراً باحتذائها ، واشتهر فحوله وأعلامه بينها ، وساهم بنصيب فى الأدب الانسانى العالى . على أن الأدب العربى أعطى أكثر مما أخذ ، وأثر فى آداب الأمم الأجنبية أكثر مما تأثر بها ، بينما الأدب الانجليزى قد أخذ أكثر مما أعطى إلى اليوم ، وغنم من كنوز الأمم الأخرى أكثر جداً مما أودع تلك الكنوز ؛ وهذه فى الحقيقة ظاهرة مطردة فى تاريخى الأمتين لا فى أدبهما فقط . كانت الأمة العربية منذ ظهورها أمة إعطاء ، أعطت العالم ديناً وقوانين ولغة وأدباً ، ولم تأخذ إلا ما يتضاءل أمام ذلك كله من حضارة الفرس المادية ، ونظريات اليونان الفلسفية . وكانت الأمة الانجليزية أمة أخذ ، أخذت عن غيرها دينها ، وألفت من لغاتهم لغتها ، واشتقت من آدابهم أساليب أدبها وأشكاله ، وأغنت جزيرتها بخيرات الأقطار ، ولم تهد إلى العالم من مبتكراتها إلا نظامها النيابى . وعلى حين انزوت جزيرة العرب قابعة فى عزلتها بعد أداء رسالتها ، أثرت انجلترا بما قطفت من أطايب العالم المادية والأدبية التى اجتنتها على مدى العصور اجتناء مميز بصير خبير بما ينفع ، نابذ لما يذهب جُفاء

أثر الأدب العربى فى آداب كثير من الأمم الشرقية ، كالهنود والفرس والترك واليهود ؛ وما يزال ذلك التأثير ماثلاً فى الألفاظ والأساليب التى اقتبستها منه تلك الآداب ؛ وقد أدى إلى اتصال تلك الآداب بالأدب العربى اتصال العرب بتلك الأمم بالحرب والتجارة ، وبسط العرب سيادتهم عليهم حيناً ، ونشرهم دينهم بينهم ، فكانت سيادة العرب سبب انتشار اللغة العربية التى ظلت تدرس فى تلك الأقطار عصوراً طوالاً ، ولم تزل تدرس فى بعضها ؛ وكان انتشار الدين الاسلامى عاملاً آخر أطول بقاء ؛ فلما انتقلت السيادة إلى الفرس فالترك ضعفت مكانة اللغة العربية ، بينما ظل التفوق والتأثير للأدب العربى حيناً طويلاً لرقيه وتأخر الآداب الأخرى

ولم يَسمُ من تلك الآداب الشرقية إلى مضاهاة الأدب العربى إلا أدب الفرس . وقد كان بين هذين الأدبين وفحولها تمازج واتصال وتعارُض وتبادل عديم النظير بين أدبين آخرين : بدأ ذلك بانتصار العرب الحربى والدينى ، وكان أدبهم على جانب عظيم من التقدم ، بينما أدب الفرس بدائى لم يتعد بعدُ طور الطفولة ، ولم يستقل تماماً عن الدين ، لأنه — كأدب قدماء المصريين — ترعرع تحت ملكية شديدة الجبروت والأنانية ، وكهنوتية شديدة الغيرة والأثرة ، فلم يكن يعدو الأقاصيص الساذجة والمواعظ ونوادر الملوك والآلهة ؛ أما الأدب العربى فكان قد ترعرَع فى حرية البادية

فلما اتصل الفرس بالأدب العربى وأعجبوا به ، لم ينقلوا ماراءهم منه إلى أدبهم بل انتقلوا هم إليه ، فنثروا ونظموا فى لغة الدولة والدين والقرآن ، وكان منهم جملة من فحول الأدب العربى ، على حين كان أدبهم هم خالياً من الفحول على الاطلاق ؛ ثم نشأت طبقة منهم كانت تؤلف باللغتين وتساهم فى الأدبين ، وبذلك بدأ الأدب الفارسى فى الظهور وكان الشعر أسبق من النثر ؛ فلما استقلت فارس واستعادت سيادتها القومية فى ظل السامانيين والبويهيين ومن بعدهم ، نبغ فيهم رهط كبير من الشعراء والكتاب عكفوا على إحياء أدبهم وإثرائه ، متأثرين خُطى الأدب العربى فى المواضيع والأشكال الأدبية والأوزان الشعرية والألفاظ ، وأخذوا عن العربية ما كان قد داخلها إذ ذاك من محسنات وصنعة ؛ وبينما دخل الأدب العربى فى طور ركوده افتتح الأدب الفارسى عصر رقى رائع طويل ، ضارع فيه الأدب العربى وفاقه فى كثير من الأبواب ، كشعر الملاحم ووصف محاسن الطبيعة ، ونال بعض فحوله كالفردوسى والخيام من الشهرة العالمية ما قصر عنه فحولة العربية

وكان للأدب العربى أثر كبير فى آداب الأمم الغربية ؛ ولكن بينما تأثرت الآداب الشرقية بالأدب العربى الفصيح ، كان الأدب العربى العامى هو الذى أثر فى الآداب الغربية : فالأقاصيص الشعبية وضروب الأزجال التى فشت فى الأندلس كانت نواة الأدب الاسبانى الحديث الذى تمثل فى عهد النهضة الأوربية فى قصص سرفانتيس ، والذى أثر فى الأدبين الفرنسى والانجليزى أثراً مذكوراً فيما بعد ؛ وتلك الأقاصيص والأزجال انتقلت من أسبانيا إلى جنوب فرنسا ، حيث نشأ شعراء التروبادور الذين وضعوا اللبنة الأولى فى أساس الشعر الفرنسى الحديث . أضف إلى ذلك ما نقل من تلك الأشياء الى الأدب

الايطالى وأثر فى كتابات بوكاشيو وبترارك ودانتى ، وما تسرب الى الأمم الأوربية فى عهد الحروب الصليبية . هـذا إلى قصص ألف ليلة وليلة التى انتقلت إلى أوربا من عهد بعيد وترجمت الى لغاتها ، وكانت موضع اعجاب الأدباء واقتباسهم

وللأدب العربى أثر ثالث عظيم الخطر عديم النظير ، لم يتأت حتى للأدب اليونانى أن يأتى بمثله : ذلك هو حلوله محل غيره فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية ، حتى نسى أهل كل قطر من هاتيك ما كان له من أدب قبل ذلك ، وأصبح تاريخ الأدب فى كل أقليم منها يبدأ بعهد الجاهلية فى جزيرة العرب . والواقع أن الأدب العربى لم يَسُدْ تلك البقاع لمجرد قوته وحيويته ، وإنما تمكن من الأتيان بتلك المعجزة بفضل ما صاحَبه من ظروف وعوامل ، كقوة اللغة العربية ذاتها وكونها لغـة الدين الجديد والدولة ، ثم السياسة الحكيمة التى سلكها العرب فى حكم الأقطار : فقد تركوا لها حرية العبادة والمعيشة ، وأشعروها مع ذلك بالنقص وانحطاط منزلتها عن منزلة الفاتحين أصحاب الدين والدولة ؛ فتسامحهم الدينى لم يستفز تلك الأمم الى مقاومة الدين الجديد ومعاندته ، كما قد كان يستفزها القهر والأرغام على اتباعه ؛ وشعورها الباطن بالنقص والانحطاط دفعها إلى التشبه بالقائمين بالأمر عليها والانغمار فى جملتهم ؛ ومن ثم انتشر الدين واللغـة وحلا محل غيرهما ، وانتشر بانتشارهما الأدب العربى

فالأحوال كانت مهيأة فى الشرق مساعدة لانتشار الأدب العربى : لتفوقه وتفوق لغته على ما كان هناك من آداب ولغات ، وانتشار دين قومه وسيادتهم ، ومشابهة الأمم الشرقيـة للعرب فى الطباع إلى مدى ، وامتزاجها بهم فى أطراف الامبراطورية العربية . أما فى الغرب فلم يكن الأدب العربى الفصيح ليُلاقى مثل هذا النجاح ، بل هو لم يلاق نجاحا ما ، ولم يصب إعجاباً قط ؛ وقد هرع اليه متأدبو الافرنج غير مرة يريدون الانتهال من مورده ، وارتدوا خائبين قانطين ؛ وبينما وجدوا فى الأدب الفارسى ما يترجمونه ويضنون به ضنهم بآثار آدابهم ، لم يجدوا فى مدائح المتنبى لسيف الدولة وأهاجيـه لكافور ، وتفنن بديع الزمان فى صوغ الأسجاع والنكات على لسان أبى الفتح ، ما يستحق عناء الدرس والترجمة ، أو يحث على الاعجاب والضن .

إنما تنقل الأمم من آداب غيرها ما يمت إلى الانسانيـة فى شتى بقاعها وعصورها بأوثق الأسباب ؛ أما المدح والذم والزخارف اللفظية التى إذا ترجمت تبخرت فلا تنفق فى غير لغتها وعصرها

ولقد كانت الآداب الغربية قبل عهد النهضة ناشئة تتلفت باحثة عن الأستاذ المرشد ، فلم تره فى الأدب العربى الفصيح ، لأنه لم يكن أدب شعب ومجتمع وحياة متجددة ، بل اختار لنفسـه أن يكون أدب بلاط ، ونديم عِلْية ، ورهين تقاليد لا تتغير ، واستبعد من حظيرته منادح كثيرة من منادح القول ، ومواضيع شتى من صميم الحياة والفن ؛ وإنما استفادت تلك الآداب بما وجدته فى الأدب العربى العامى من آثار الخيال الرائع ، والتصوير الصادق ، والتعبير المتعدد الأشكال عن الحياة الانسانية المتدفعة المتجددة ، فضلاً عما ينسم منه من روائح الشرق وبذخه وكنوزه وغرائبه ، تلك التى ما زالت من قديم تستهوى نفوس الغربيين وتثير أخيلتهم ، فأوسع الأوربيون ذلك الأدب العامى دراسـة وترجمة ومحاكاة ، ثم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى ضالتهم المنشودة فى الأدب اليونانى ، فعلُّوا من معينه ونهلوا

وقد قيل إن كوميدية دانتى الآلـهية متأثرة برسالة الغفران ، وقصة ربنسون كروزو أوحت بها قصة حى بن يقظان ، وذلك بعيد : فلو أن الآداب الأوربية كانت تتأثر بالأدب العربى الفصيح لـما اقتصر تأثرها على هذين المثالين الشاردين — على كون قصـة حى بن يقظان أثراً فلسفياً لا أدبياً — وليس بين الكوميدية الآلـهية وبين رسالة الغفران شـبه سوى أن الجنة والنار مشاهـدُ وقائعهما ، ولا بين روبنسون كروزو وحى بن يقظان تماثُلٌ إلا انعزالهما فى جزيرة ، وتوفيرهما حاجاتهما بأنفسهما ؛ وكانتا الفكرتين بديهيتان يلوح أنهما تطرآن على الفكر الانسانى فى شتى العصور والأصقاع . وهل شىء أكثر بداهة وأقرب إلى الطبيعة من أن دانتى المتعصب الدينى فى عصر التعصب الدينى وفى وطن البابوية يلتفت الى العالم الآخر ويُجرى فيه حوادث مهزلته ؟ أو أن ديفو المغامر الأفاق فى عصر المغامرات البحرية ، وفى انجلترا البلد البحرى يتخذ بطلاً لقصته مخاطراً بحاراً ؟

أما الأدب الانجليزى فكان — كما تقدم — أقل من الأدب العربى تأثيرا فى الآداب الأجنبية ، وأكثر منه تأثراً بها : تأثر

من عهد النهضة بالأدب اليونانى والرومانى والفرنسى والايطالى والأسبانى ثم الألمـانى ، وأخذ خير ما فى تلك الآداب من الأشكال الأدبيـة والمواضيع والأساليب ، وصاغها على النحو الملائم لطبائع أهله وعبقرياتهم الخاصة ، ومثَّل كل ما أخـذ ونقَّاه ، حتى جاء الأدب الانجليزى مضاهياً لأحسن ما فى تلك الآداب إن لم يفقها جميعاً عمق فكرة وشمول نظرة وحرارة شعور وصدق عاطفة وبساطة بيان ، ونبغ فيه من الأعـلام أمثال شـكسبير وملتون وبيرون وسكوت مَن كان لهم مكان رفيع فى القارة ، وعُنى بدراسـتهم ، والاشادة بفضاهم أقطاب الآداب الأوربية ، أمثال هوجو وتين وسنت بيف ، وحوكيت قصائد بيرون وقصص سكوت ، ومُثلت روايات شـكسبير فى مسارح العواصم الأوربية ، وساهمت انجلترا بنصيبها فى النهضة الرومانسية التى كانت حركة أدبيـــة دولية ساهمت فيها سائر الآداب الأوربية والأمريكية

على أن كل ذلك لا يكاد يتخطى حـدود التقدير والاعجاب بذلك الأدب ، ولم يتمد ذلك إلى إحداث ثورة شاملة أو تطور خطير فى تلك الآداب ، ولم يؤثر الأدب الانجليزى فيها بعض ما أثرت هى فيـــه ، فهو قد جاء متأخراً عنها قليلاً ولحق بها فتشابه الجميع اليوم رقيا ، فهى فى غنى عن الأخذ عنه ، وهو لا يفاجئها بعناصر ليست فيها ، وهو وهى سواء فى الأخذ من الأدب اليونانى والبناء على أساسه واعتناق مبادئه التى دان بها فى تصوير الحياة وتحليل النفوس وعبادة الجمال

فالآداب الأوروبيـة اليوم ، بما فيها الأدب الانجليزى ، فرسا حلبـة واحدة ، متشابهة فى النشأة والتاريخ والمنهج ، وهى وإن كانت على اتصال وامتزاج دائبين ، لن ينتظر أن يكون تأثير واحد منها فى غيره تأثيراً بعيد المدى شاملاً غامراً ، كما كان تأثير الأدب اليونانى فى الأدب الرومانى ، أو تأثير الأدب العربى فى الأدب الفارسى ، فمِثلُ هذا التأثير الشامل لا يكون إلا بين أدبين قد انفرجت بينهما مسافة الخلف ، وضرب حجاب العزلة بينهما دهراً ، كما هو الشأن اليوم بين الآداب الغربية فى مجموعها — ومن بينها الأدب الا نجليزى — والآداب الشرقية فى مجموعها — ومن بينهـا الأدب العربى — فقد كان التدابر والتناكر سائدين بينهما عصوراً طويلة ، والأولى فى رقى مطرد ، والثانية فى تدهور مستمر ؛ فلما تلاقتا ورفع من بينهما حجاب العزلة أثرت الأولى فى الثانية ؛ وما تزال تؤثر تأثيراً هو أدنى إلى الثورة المطلقة أو الخلق من جديد

فالأدب الانجليزى قد بلغ من الرقى وصدق الرسالة واتساع الجوانب ما يبذ به الأدب العربى ، ونال من المـكانة بين آداب الأمم أسماها ، وحاز من أدباء تلك الأمم أعظم التقدير والحفاوة ، وهى مكانة ستظل له دائما كما ظلت مكانة الأدب اليونانى بعد زوال دولته ، وهو خليق أن يؤثر فى آداب الأمم التالية أثراً بعيداً ؛ أما إذا ووزن بين تأثيره فى الآداب الأخرى الى اليوم وبين تأثير الأدب العربى فى الآداب المعاصرة له ، فان الأدب العربى يرجحُهُ كثيراً . بيد أن الأدب العربى قد أدى رسالته فى ذلك الصدد ولم يعد صالحاً لأن يؤثر فى آداب الأمم الأخرى حتى يتجدد ويتأثر هو ذاته بغيره من الآداب ، ويفتتح فى تاريخه فصلاً جديداً غير الفصل السالف

فخرى أبو السعود

على أطلال الماضي

وقفة على «إيوان كسرى»

للأستاذ علي الطنطاوي

خرجنا من بغداد فسلكنا على « حيّ البتاويين » ظاهر « الباب الشرقي » ، وجزنا على قصوره الشمّ التي تتكئ فيها الارستقراطية الناعمة على الأرائك سكرى بخمرة الذهب ، ومررنا الى « الهنيدي » في الطريق التي تنام على بسط الحقول السندسية ، يحرسها صفّان من النخيل ، حتى انتهينا الى « المعسكر البريطاني » صرح أكاسرة اليوم ، فتركناه وأممنا صرح أكاسرة الأمس لنقف عليه ذاكرين معتبرين

عبرنا نهر « ديالى » وخلفنا القرية جاثمة على كتف النهر ، قد دلّت رجليها في مائه ، واستقبلنا الفلاة الواسعة ، فما عدنا نرى إلا الفضاء ؛ حتى إذا سرنا فيها ساعتين طلعت علينا قرية « سلمان » تلوح على حاشية الأفق ، تضِحُ وتغيب ، ثم تبيّناها ورأينا قبة مسجدها واضحة ، ورأينا بجنبها بناء ضخما كأنه جبل ... فقلت : ما هذا ؟ قال صحبي : هذه قبة سلمان الفارسي ، وهذا إيوان كسرى . فقلت : يا للعجب ! أطاف سلمان حتى استقر قبره بجانب الايوان ، فغدوا متلاصقين ، وبدوا متعانقين ؟ وحثتنا « الدرّاجات » الى القرية فبلغناها بعد ساعة

كانت قرية صغيرة ، نشأت على تربة سلمان رضى الله عنه ، ليس فيها — إلا مسجده — شيء يذكر ؛ أما الايوان فهو فى ظاهر البلد ، متربع على ظهر الفلاة وحيد معتزل ، مطرق حزين !

***

وقفنا عليه فاذا هو (طاق) عالٍ متهدم ، وجدار شامخ متصدّع ، وإذا هو ضخم فخم ، ولكنه عار موحش ، ليس فيه صورة ولا نقش : لا صورة انطاكية التي تروع بين روم وفرس ، ولا أنوشروان الذى يزجي الصفوف تحت الدرفس ، ولا عراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم وإغماض جرس ، من مشيح يهوى بعامل رمح ، ويليح من السنان بترس . . .

لقد محا الدهر الصورة ، كما محا أهلها ، ودار الزمان دورة أخرى ، فأصبح حاضر البحتري ماضياً وعيانه أثراً . . ذلك لأن الماضي نقطة واحدة ، تتلاقى فيها الأبعاد ، وتضيع المسافات ، وتفنى الدهور . . . نقرأ قصيدة البحتري ، ونرى الايوان ، فنحس أنهما قد التقيا في عالم الماضي وضاع ما كان بينهما من عصور ، كما التقت آثار « سرّ من رأى » بأطلال بابل ،



(المنظر الأمامي للطاق وللجدار)

فكان حكمهما فى الخيال واحداً وأثرهما فى النفس واحداً ، وكما التقت فى أبصارنا ونحن قادمون على القرية قبة سلمان بالايوان ... ومن لعمري يدرك الزمن الذي كان بين آدم ونوح ، وابراهيم وموسى ، وبلقيس والزباء ، وهوميروس وأفلاطون ، وحروب طروادة وفتوح اسكندر ؟ إن الحوادث كلما أمعنت في المضيّ ، ضاعت من بينها الأزمنة وامّحت الأبعاد

***

وليس يهيج النفس ويثيرها كرؤية أطلال الماضي والوقوف بآثار الغابرين ؛ ففيها روعة البقاء ، وهول الفناء ، وعبرة الدهر ؛ وهي نوافذ تطلّ منها النفس على عالم المجهول الذي نحنّ اليه أبداً ولا نني نقرع بابه ، فنتحرر فيها ساعة من قيود المادة ، ونطير في مسارب الأحلام

ولقد وقفت على الاهرام ، ومررت على الحديبية ، وجلت في العقيق ، وعرّجت على حطّين ، وزرت بعلبك ، فكان شعوري في ذلك كله كشعوري اليوم وأنا في المدائن أمام إيوان كسرى ... أستعظم الأثر وأعجب بجلاله ، وأكبر القدرة التي أنشأته ، ثم أعود بفكري إلى الماضي فأحس بأن صفحته تفتح أمامي فأرى حقيقة شاهدة كل ما قد قرأت في الكتب ، وأتخيّل أني مع الغابرين أسمع وأرى ، فأراني قد عشت دهوراً ؛ ثم أقبل

وأعتبر ، ثم أذهل عن نفسي ، وأجول بفكرى وخيالى فى آفاق كثيرة لم أرها من قبل



(منظر الطاق من داخله والجدار الخلق القصير وفيه أحد الأبواب الثلاثة الباقية)

فى الآثار الباقية للأمم الماضية يلتقى أعظم شيئين وأجلهما : الزمان والمكان ؛ فتلمس القرون تنحدر على صخر الهرم ، أو أعمدة بعلبك ، أو آجر الايوان ، هذا الآجر الذى حمل أعباء القرون السبعة عشر . يالروعته وجلاله ! إنى لأحتقر نفسى وأنا قائم بقامتى القصيرة الهزيلة حيال هـذا الكائن الجبار الهائل ، ثم أعود فأرى كل شىء دونى حقيراً ، أنا الحىّ ، وأنا الباقى ، وما هذه كلها إلا أثر من آثارى ، ليس لها لولا فكرى وجود ولا لوجودها معنى ...

***

أطفت بالايوان فى خشوع وإكبار ، ووقفت على بابه فى هيبة وإجلال ، ثم دخلت من الصحراء فاذا ... فاذا أنا خرجت إلى الصحراء ، الصحراء الصامتة صمت الموت ، الموحشة وحشة المقبرة ، الممتدة امتداد الزمان ... وقفت أستنشق عبير المجد ، وأتسمّع نشيد العظمة ؛ فما سمعت إلا صفير الرياح ، ولا نشقت إلا رطوبة الفناء . لمست الجدار فما أحسست إلا برودة الحجر ؛ تسلقت الجدار حتى كلّت رجلاى ولم أبلغ نصفه ، فجلست على لبنـة بارزة لأستريح ، وتلفّت ... فاذا الأفق الواسع الرحيب وإذا الناس كالنمل ، وإذا القرية كأنها كومة من الحجارة ، مكومة فى أعماق الوادى ، وإذا دجلة تجرى بعيداً تلبس حلة من نور الشمس فتبدو لامعة تزيغ منها الأبصار ، وإذا أنا وحدى معلق بين السماء والأرض ، فغشّت نفسى ، وأخذنى الدُّوار ، وهممت بالسقوط ، فأغمضت عينىّ كيلا أرى شيئا

أغمضت عينىّ ، وفتحت قلبى ، فرأت البصيرة ما لا يراه البصر : رأيت أنى قد ذهبت أتخطى أعناق القرون وأطوى سجل الزمان ، وأدير بفكرى دولاب الفلك ، فيكرّ راجعاً . . ازّخرفت هـذه الجدران العارية وأخذت زينتها ، وعادت هذه الأبواب ، فأسدلت عليها سُتر الوشى والديباج ، وتحلّت هذه السقوف بالصور والنقوش وتدلت منها سلاسل الذهب ، تحمل الثريات المرصّـعة باللؤلؤ . . . عاش الايوان ، وقام فى صدره سرير أنوشروان ، ورجع المجد وعاد السلطان

وحلّت الحياة فى هذه الصحراء ، فنبمت المدائن والقصور من الأرض نبماً ، ونبتت منها نباتاً ، فنمت فى لحظة وأورقت ، وعات واستطالت ، ولوّنت الحياةُ هـذه البرية الكالحة بألوان الزهر ، فمادت حدائق وبساتين ، كانت لهـذه المدائن كالاطار ، فرأيتها أعظم المدن ، وقصورها أفخم القصور ، والايوان أجلّ صروحها وأعلى ذراها ، ورأيت هذه الأبواب التى كانت منذ ساعة تفضى من الصحراء إلى الصحراء ، مفتّحة للرياح والذئاب ... قد قامت عليها الحجاب ، ووقفت دونها الملوك ، وحل على أعتابها المجد ، والجدران التى كانت عارية مصدّعة ، قد شمخت وبذت وعزّت ، حتى غدت والطير تخشى أن تطير فوقها ، أو تحوّم فى سمائها ، ورأيت دجلة التى كانت منذ ساعة تجرى فى البادية بعيدة عن الايوان ، معرضة عنه ، لا تلتفت إليه ، ولا تأبه له ، قد غدت ساقية . . . تمشى خاضعة وسط المدائن ، وتنحنى لتعقد على كتفيها القناطر والجسور ، وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصـــور ، وهى تستنقع فيها فى أمسيات الصيف الحارة !

ورنوت بعينى إلى هناك ، إلى الحيرة ، فاذا الخورنق السامق يعنو للايوان كما يعنو صاحبه لربه ؛ ورميت ببصرى إلى بعيد . إلى الجزيرة ، فاذا فيها أشباح تجىء وتروح خلال الضباب ، تموج كأنها فى بحر واسع ، وكأن خيامها سفائن يحملها الموج ، ويمشى بها مد وجزر ، ولكن هذه الأمواج تتكسر على صخرة الايوان ثم ترقد ضعيفة وانية ، والايوان مشمخرعات ، لا ملك أعظم من ملكه ، ولا سلطان أعظم من سلطانه ، ولا إنسان أعز من ربه ؛ وأمتد ببصرى إلى المشرق والمغرب فلا أرى كالايوان ثروة وجاها وعظمة ومجداً ...

ولكن ... مه ! إن فى البادية لشيئاً جديداً ؛ إنها تضطرب وتهتز ؛ إن فيافيها تتمخض بالحياة ، ها هوذا النور يشق الضباب الكثيف ، حتى يلمع كالبرق الخاطف ، بين قصور المدائن وتحت أقبية الايوان ... لقد ضرب محمد (صلى الله عليه وسلم) صخرة الخندق ، فأضاءت المعجزة الايوان ، فوعده أتباعه وقال لهم : هذا الطريق

ياللعجب العجاب ! إن هـذه القرية الملتفة فى ألحفة الرمل ، النائمة على صخور الحرة ، المتوسدة سفح أحد ، وجوانب سلع ، تريد أن تأكل المدائن ! .. بلغ كسرى الخبر ، فضحك حتى استلقى ... ثم جاء كسرى الكتاب ، فعبس وبسر ، وأعرض واستكبر ، ومزق كسرى كتاب سيد العالم ...

لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ : ليمزقن الله ملك كسرى

* * *

وفتحت عينىّ فاذا الحلم قد تصرم ، ففاضت المدائن فى الأرض ونزعت الجدران ثيابها ، وابتلعت الصحراء زهرها ووردها ، وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الأنقاض جاثمة على ظهرها ، قد حطمها الكبر ، وثقلت عليها السنون ، فانحنت حتى تسلق صبية القرية سطحها يلعبون عليه ...

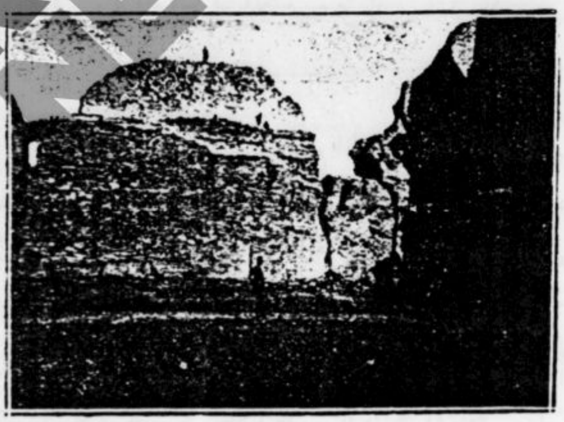
* * *

الصبية يلعبون على سطح الايوان ! أين كسرى يرى ما صار إليه إيوانه ؟ أبناء العرب يتلهون بمجلسك يا شاهنشاه ! لقد قوّض المجلس ، وثلّ العرش ، وهوى التاج ، فما أنجدك الجند ، ولا أغنى عنك الغنى ، ولا حمتك الحيّة ، ولا آواك الايوان !

لقد مزّق البدو ملكك يا كسرى ؛ وما هذا عجيباً ، فالتمزيق أسهل من الترقيع ، والهدم أهون من البناء ؛ ولقد هدم البرابرة من قبل عرش الرومان ... غير أن هؤلاء البدو — ياملك — قد أسسوا حضارة خيراً من حضارتك ، وبناء أجل من بنائك ، وحكموا أعدل من حكمك . لقد أثمرت حضارتهم حضارةَ القرن العشرين ، وحضارتك لم تثمر شيئاً

لقد بنت ديموقراطية عمر الذى كان ينام على التراب ، ويلتحف بالبرنس ، ويؤدب بالدرة ، ويعين الفقير ، ويخدم العجوز ، وينصف من نفسه ، لقد بنت ديموقراطيته دولة . أما جبروتك ، وعظمتك الجوفاء ، واستعبادك الناس ، فلقد هدم دولة !

هذه بغداد الاسلام ؛ فيها أربعمائة وخمسون ألفاً ؛ وهـذا إيوانك تصفر فيه الرياح الباردة صفير الفناء الرعب ، وتنشد فيها الطبيعة نشيد الموت !



(المنظر الجانبي للطاق)

من الذى كان يفكر أيام عزّ الايوان أن صبية العرب ستلعب فى أنقاضه ؟ من الذى يفكر اليوم بأن أطفال الحبشة ستقفز على أطلال روما ؟ لا تتعجبوا من شيء ، إن الليالى يلدن كل عجيبة ...

وليعتبر الطغاة ، فلقد كان كسرى — يوم كان كسرى — أضخم سلطاناً ، وأعظم بنياناً ، وأكثر أعواناً ، فأباد الزمان السلطان ، ودك البنيان ، وأهلك الأعوان ...

* * *

اعتبروا ... فهذا صرح كسرى خال موحش . وهذا قبر سلمان عامر مأنوس . . . قد مات القصر ، وعاش القبر ! قصر كسرى شاهنشاه ، الذى كانت تقوم على بابه الملوك

. . . ضاحين حسرى   من وقوف خلف الزحام وخنس

قد مات ، وغدا قبراً فى الفلاة ؛ وهذا القبر ، قبر فارسى من عامة الناس ، يصبح مثوى الحياة ، تلتف به البيوت ، ويؤمه الزائرون ، يقفون حياله خاشعين ، ثم يعودون ولا يلتفتون إلى الايوان ، وبينهما ثلثمائة متر ...

أين كان سلمان من كسرى أنوشروان ؟ أين كان من وزرائه وأتباعه ؟ أين كان من خدامه وحشمه ؟ صَه : لقد خلد سلمان بالاسلام ، فكان أعظم من كسرى !

* * *

الى الأستاذ الزيات

«ذكرى ميلاد» حركت قلمي !

للمربية الفاضلة الآنسة زينب الحكيم

أحييك من قلب يتهيب فواجع الحدثان لتتابعها ، ويئن من المصائب لتواليها ، حتى أصبح قلباً كسيراً ملتاعاً . وأشكرك على كلمتك (ذكرى ميلاد) بقدر ما أشاركك عواطفك النبيلة نحو ذلك « الرجاء » الضائع والأمل المنهار

لقد هز نفسي هذا المقال هزة عنيفة ، وحرك قلمي بعد أن سكن طويلاً ليكتب عن الأطفال ، والطفولة المهنيئة . وكنت قد دفنت هذه الذكرى لا تعمداً ولكن قهراً ، مع أن أمنيتي في الحياة كانت العمل على إسعاد الأطفال واستمتاعهم بطفولتهم ، ولا سيما ونحن في بلد لا يعرف للطفل حقه ، ولا يدرك للطفولة كرامتها

وكم نحن في حاجة إلى آباء مثلك يعنون بدراسة أبنائهم ، ويشاركونهم الحياة ليعيشوا وإياهم سعداء

غالب الظن ، أن الأستاذ الزيات لم يدخل مدرسة علم النفس الحديثة ، أو هو إذا كان قد فعل لا يطنطن بدراساته المتعددة وجهوده المتكررة كما يفعل بعضهم . إن كلمتك يا أستاذ تعد بمثابة رءوس لعدة دروس تربيوية جامعة في عالم الأطفال ، يجب أن توضح وتدرس للآباء والأمهات جميعاً

فان « فرحك الصادق ، واستبشار نفسك بذلك المولود الذي هبطت عليك بشراه هبوط الملك على زكريا ، والذي جعل نفسك تطمئن إلى أن اسمك قد اشترك ، ووجودك قد ازدوج ، وعمرك قد امتد في الحياة » ، كل ذلك ما ينبغي أن يحسه ويشعر به جميع الآباء والأمهات ، قبل وبعد أن يرزقهم الله أطفالاً ، وذلك من أهم العوامل التي تؤثر في حياتهم

إن ذلك « الرجاء » الذي غير من نظرتك إلى الأطفال ، فجعلها نظرة عملية جادة ، بعد أن كانت خيالية نظرية ، تلك النظرة التي جعلتك تتقرب إلى كل أب ، وتسكن إلى كل أم ، هي التي جعلتك من هذه الناحية في صف المكلفين المسؤولين . ولعمري إن الرجل المكلف المسئول هو الرجل الحر الذي يعتمد عليه . فلله ما أجل ما اختصك الله به من فطنة للوجود الحق ، وما أقوى ما امتازت به طبيعتك من تكوين الأسرة السعيدة التي هي اللبنة الأولى في بناء الوطن العزيز

ثم إن خطة تعاقب المآدب ، وتقديم الهدايا ، وبهجة الدار المتوالية ، وإعطاء الصغير فرصة الرياضة في الحديقة ، والعناية بنظام حياته كلها في غير إسراف أو تقتير ، يتفق تماماً وروح التربية الصحيحة . كذلك إقامة حفلات الميلاد ، والتعارف بين الأطفال ، وما إلى ذلك ، لما يزيد في بهجة الأسر ، ويدرب النشء على الآداب العامة من نعومة أظفارهم ، ويشعرهم بالواجب ، ويعد شخصيتهم للنضوج التدريجي ، ويشجعهم أيضاً على قبول كل شيء حولهم وفحصه ، من أشياء وأفكار ومبادئ ، فيخضعون للصالح منها في غير تأفف ، ويأنفون من الطالح في صراحة ويقين

لقد كنت مثال الأب الصالح بالنسبة لطفلك العزيز ، فان مصاحبة الآباء لأبنائهم أثناء شراء لعبهم ولوازمهم ، وإعطاءهم فرصة الانتقاء والاختيار مع التوجيه الصحيح والارشاد الحكيم ، يمكنهم من دراسة غرائز أطفالهم وتعرف ميولهم ، فيعملون على تربية كل وفق طبيعته

أما بعد ، فقد تكون الأهرام أضخم وأفخم ، وأعمدة بعلبك أجل وأجمل ، ولكن للايوان معنى آخر ...

هنا كان يستقر جلال الماضي كله ؛ هنا كانت عظمة الملك وجبروت السلطان ؛ هنا كان الذي يستعبد الناس ، فيؤلهه الناس ... لم يبق من ذلك كله شيء ...

وكانت الشمس قد جنحت الى المغيب ، فنزلت ووقفت أودع الايوان ، فاقترب مني سائل أعمى ، وجعل ينفخ في ناي معه نغمة حزينة مؤثرة ... فكان لها — في تلك الساعة ، في صمت الصحراء ، ووحشة الايوان ، وغروب الشمس — أثر في نفسي لا يوصف ، فقلت : آه ... ليتني كنت شاعراً

علي الطنطاوي
مدرس الأدب في الثانوية المركزية ببغداد

وكم كنت أباً رحب الصدر ، بارعاً فى فن تربية الأطفال وهم رجال المستقبل وعدة الوطن حينما كنت تجيب « رجاء » على أسئلته بقدر ما يحتمل عقله ، ولا ترد له سؤالاً أو تمتهنه عليه ، ولو كنت فعلت لما لحظت مخائل نجابته المبكرة ، ولا حدة ذهنه وشخصيته القوية المرنة كما وصفت

الى هنا ، يأتى دور العتب على الأستاذ الزيات ، فى هلع نفسه ، وتطيره من الحياة ، لأن الله اختار ذلك الكم العبق لجواره الكريم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) أيدرى أحدنا لماذا خلق على النمط الذى اختصه الله به ؟ ! أو لماذا يرجعنا الله إليه إن عاجلاً أو آجلاً ؟ ! له فيما يريد أبلغ حكمة

وعهدنا بالأستاذ كبير النفس قوى الإيمان ، صقلته غِيَرُ الدهر وصروف الزمن ، فلا ينبغى أن يجزع إلا على قدر

ولست أدرى لم تطوى ثياب « رجاء » تعبث بها الهوام وتوارى فى الحقائب ، وقد لامست جسمه النضر ، وتضوع فيها شذى أنفاسه العطر ! ! ولماذا تخفى لُعب « رجاء » ، وهو الذى لمسها بيديه الطاهرتين ؟ ! وأتساءل فى دهشة : لماذا تستر صور « رجاء » وجميع آثاره ؟ ! !

إن هذا ينافى بقاء ذكراه الكريمة ، ويمحو صورته الجميلة من المخيلة ، ويذهب بصوته الرائق من الأذن

أيها الأب الكريم ! سهل على النفس عزاءها ، وعلى القلب حنينه ، وعلى العقل حيرته . انشر صور « رجاء » فى كل مكان جميل فى المنزل ، وضع لعبه فى أكرم مكان وأليقه ، وانفض عن ثيابه المطوية الغبار ، حتى تتلمسه فى كل شىء حولك ؛ وضع أثراً من آثاره كمنديل ، أو قفاز ، أو لعبة صغيرة فى مكان يحتمل أن تطرقه على حين فجأة ، وانس أنك وضعت ذلك الأثر فى هذا المكان ، فاذا صادفك بعد حين ، فاختبر انفعال نفسك بالعثور على ذلك الأثر المنسى ، وجدد الذكرى ؛ ثم حدث أصدقاءك ومحبيك كلما زاروك عن صور « رجاء » على اختلاف مواضعها ومناسباتها . وأشد بذكائه وجمال نفسه ، وما كنت تعقد على وجوده من أمل ، وبهذا تستطيع أن تُبقى « رجاء » حياً فى عقلك وفؤادك ، وبهذا تستطيع أن تجد رجاء أقوى فى (خليفة رجاء) . وحذار من تضليل الطفل بعاطفة مصطنعة ، فأنها لن تخفى عليه مهما صغر سنه ، وإن هو عجز عن أن يثأر لنفسه منك صغيراً ، فلن تفلت منه وهو كبير . واعمل بالمبدأ القائل : إحى ويسر للآخرين الحياة

وإنى بهذه المناسبة ، يحضرنى حوار شعرى طريف ، كنت قد حفظته وأنا طفلة بالمدرسة لشاعر الطبيعة الانجليزى (وردذورث Wordthworth) ألخص معناه فيما يلى :

تخيل الشاعر أنه قابل مرة طفلة ريفية راقه حسنها ، فاستأذن فى محادثتها ، وسألها : « ألكِ إخوة وأخوات أيتها الصغيرة ؟ قالت : نعم ، نحن سبعة من ذكور وأناث ، مات منا اثنان . فقال لها : إذن أنتم خمسة الآن لا سبعة ؟ ! فقالت : لا ، نحن سبعة . فقال إذا كان قدمات منكم اثنان فالأحياء خمسة فقط ! ! فأجابته الريفية الساذجة بدهشة ردت الشاعر العظيم إلى صوابه قائلة : ولكنهما حيان عند الله وسنتقابل جميعاً فى الجنة . »

هذا ياسيدى الأستاذ تحليل طفلة غربية ساذجة ، فهل يجوز أن يكون جواب الشرق فى مثل هذه الأحوال كذلك ؟ ! !

الجواب منك وإليك ، وأنت صاحب النفس الكبيرة ، والايمان العامر . أطال الله بقاءك ، وأجل عزاءك

زينب الحكيم

من الشعر المنثور

أحبك أيها الشتاء !

للأستاذ خليل هنداوى

« ألف أدباؤنا أن يكرهوا الشتاء لأنه فصل قاتم الأحشاء ، يفرون من جوه الثقيل ولا يدعون شعره ينفذ إلى قلوبهم ، ولكني أراني تدفعني إلى تقاء الشتاء دوافع لا أستطيع لها دفعاً ، وقد أترك القطر الذى لا تظهر فيه آثار الشتاء كثيراً إلى قطرى الذى تتجلى فيه »

« خ . هـ »

أحبك أيها الشتاء :

أحب غيومك المتناطحة فى الأعالى ، تغشى السماء فتحجب زرقتها عن العيون ، وتسطو على النور فتتركه قاتم الأحشاء

أحب خيوطك المتواصلة التى لا تنقطع ، كأنها أغنية السماء للغبراء

أحب طيورك السوداء النازحة ، هائمة بين الأشجار الجرداء ، أو محلقة فى الأجواء

أحب أشجارك العارية لأنها خلعت ثياباً قديمة وطرحت أوراقاً ذاوية ، تاركة لغيرها حق النماء

أحب عصافيرك التى تتوارى فى الغيوم المدلهمة وقد صرفها التأمل عن الغناء

أحب هامات الجبال المكتسية بالثلوج ، وبطونها التى فى كل منحدر منها ساقية تغنى ، وفى كل منبطح جدول له خرير

أحب رائحة الأرض التى تنم عن كنوز تنطوى عليها فأفعم نفسى بشذاها ، وأملأ قلبى من طيب ثراها

***

أحبك حيثما كنت أيها الشتاء !

أحبك وأنت تزجى إلى مدينتى الغيوم السوداء

تطرح على غامرها وعامرها شباكاً من خيوطك المتواصلة

فما يبالى العاملون بك ، ولا يفر الساعون منك ؛ يمشون سراعاً تحت شباكك إلى العمل الذى يناديهم !

أحب هذه الحجب القاتمة التى يطرحونها على أبدانهم يتقون بها برد الشتاء

إنهم يريدون أن يصافحوك تحت هذه السرابيل ولا يريدون منك فراراً

أحبك وأنت تغشى مدينتى لأننى أرى قلبها ينبض ويخفق بهؤلاء المتزاحمين صفوفاً متراصة فى كل شارع ؛ تدوى أصواتهم فى قلبك وقد كانت هامدة ، وتملو حركتهم فى جوك وقد كانت خامدة

أحب أنفاسك المتراكمة على المدينة حابسة أنفاسها فيها ...

أروّح هذه الأنفاس فلا أجد إلا نفساً واحداً ، وأنت لو ميزت هذا النفس لرأيت أنه خليط من أنفاس متباينة ؛

أنفاس زفرت من صدور عاملين بائسين ؛ وأنفاس خرجت من رجال ونسوة مرحين

كلما صدتها أنفاسك تحت غيومك ، فردتها إلى المدينة نفساً واحداً ، أكاد — إذا تروحته — أن أقول : هذا نفس عاشقة تترنح ! وهذه زفرة بائس يتروح !

ولكنى لا أجدها إلا نفساً واحداً ممتزجاً ! يبقى فى جو المدينة ، وينسل إلى دور المدينة

فنهارك الحائل متحرك ، وليلك الحالك متحرك

***

هذه الحركة هى أبرز مظاهرك وخير ظواهرك ، تنشأ وتنمو فى حضنك أيها الشتاء !

أحب حركتك التى تدل على ثورة الأرض والسماء فيك ، فكل شىء فيهما وبينهما ثائر يتحرك !

توحى غيومك المتناطحة معنى الحركة ، وتهدى عواصفك الثائرة ورياحك الجائرة إلى الحركة ، وتعلن فى كل مكان نزلت فيه الحركة . . .

***

أقم ما شئت يا شتاء !

ولتدلهم — ما شاءت — غيومك !

فأننى أحببت كل اضطرابك ، وأنست باصطخابك

يا علامة النفس الحية الثائرة !

خليل هنداوى

من مراثى لامرتين لحبيبته الفير

الى إلفير

« ... أما الشاعر فانه لقادر على أن يترك لمن يحب ويهوى حياة لايهرمها العفاء ! »

لامرتين

ترجمة الأستاذ معروف الأرناءوط

بَلَى إنَّ نهر « آنيو » ليمور وقد استفاضت أثباجه ، ورجع صداها اسم « سنتى [(١)] » البهىّ ، وكذلك نهر « الفوكلوز » ألا تراه هادرا دافقا يحمل إلى صخور « تيبور » اسم « لور [(٢)] » المستحبّ ، وإن لنهر « فه رار » مثل هذا الشأن ، إذ ألقى فى سمع العصور الآتية اسم « أليتور [(٣)] »

***

يا لهناءة الجمال وقد عكف الشاعر على عبادته واصطفاه حرماً ومقاماً ! بل يا لهناءة الاسم الذى يسكن فى أغانيه وأناشيده ! أيتها الحبيبة ! إنك لتستطيعين أن تبعثى أنفاسك الأخيرة . أما الشاعر فإنه لقادر على أن يترك لمن يحبّ ويهوى حياة لا يهرمها العَفَاء . ألا ترينه وقد سدر فى سدفة ، يُحلِّق فى الفضاء بجناحين من عبقرية وذكاء ؟ إنه ليصعد حتى يلتقى مع الخلود فى مصاف واحد

***

لَئِنْ كان زورقى ، وقد استخذى للرياح البوارح ، غَبَرَ يمشى قدماً إلى شاطىء وادع ساكن ، فذلك لأنَّ ريحا لَيِّنَةً سَجْوَاء تهافتت عليه ومشت به إلى نور دافق

إذا كانت هنالك شموس أبهر لألاء استفاضت فوق هامتى ، إذا كانت دموع الحبيبة غسلت حوبات قدرى العاثر ورفعت عن جبينى وقد غشيته ظلال الفناء ، فربما كان ذلك — عفوك يا صاحب النغم الثائر — حادياً بى إلى أمر يتساوى معه تمزدى بالحبّ الذى يستهوينى فأصوغ أناشيد الرثاء والنزع وأترك فى معبد الحبّ القديم نصباً قائماً وأثراً خالداً

ألا ترى الرجل الجوّابة وقد اعتسف السَّيْر وارتاد حمى الوادى كيف اطمأنَّ إلى الشجرة الفرعاء ، ينعم بوارف ظلها ثم استفزته نوازع النفس إلى نقش اسمه على جذعها فترك بذلك أثراً بيّناً

***

أرأيتَ كيف تنكّر كلُّ شىء واستبهم ، وكيف غشيت ظلمة الموت حواشى الطبيعـــة فتعرّت الأرض من روائها ، ونصل زبرج الغابات وذوى ، واستفاقت أمواج النهر فى أعماق الزّاخر الهزج ، وهبّت على المروج ريح صَرْصَرٌ عاتية صوّحت زهرها وأقاحها ومشت عربةُ الخريف فى مزالق السنين تدفعها إلى المجهول يدُ الشتاء العابثة

إنَّ الزمن والموت حليفان سلاحهما سيفٌ مُرْهَفُ الحدّ عَظِيم الصليل ، إنهما ليطويان العالم الخامد ويجددانه كرّ الغداة ومرّ العشىّ

***

يتثال الحصاد فى حضيض النسيان الأبدىّ ، وكالصيف الذى يتساقط عشبه وينهار ، وكالكرمة الذابلة المصفرّة إذ ترى الخريف المخصوصب يلقى بأزهارها إلى القطاف ، هكذا ستسقطين وتذبلين يا زهرات العمر القصيرة وما تمثل فيك غير الشباب ، والحبّ والسرور والجمال الزائل

انظر بعين رأفةٍ وَحُبّ إلى ذلك الشباب الهادر ! إنه يتألّق ويفيض جمالاً ثم يمتصه السرور والفرح ، وحينما تنصب كأسه المترعة لن يبقى منها إلا ذكرى ضئيلة ، فإن القبر الذى ينتظره يبتلعه بأسره ، ثم يسود هذا الحبّ سكونٌ أبدىّ

***

ولكن العصور الآتية ستمرّ فوق رغامك يا « إلفير » وستعيشين إلى الأبد

(دمشق) معروف الأرناءوط

---

(١) « سنتى » حبيبة الشاعر الايتالى « برونه رس »
(٢) « لور » حبيبة الشاعر « بترارك »
(٣) « اله ونور » حبيبة الشاعر « لوتاس »

إلى نينون ...

لألفريد دي موسيه

ترجمة الدكتور أحمد ضيف

أستاذ الأدب العربي بدار العلوم

تُرى ... ماذا تقولين لي — ياذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء — إذا بحتُ لكِ بحبي ... الحب كما تعلمين ينبوع أسقام مضنية ، بل هو سقم لا يعرف الشفقة .. وإنك لتتجرعين آلامه . مع هذا فقد تتوعدينني بالعقاب

***

نينون ! إنك لبارعة .. فقد خفي عليَّ انصرافك عني فلم أتنبأ به ؛ فاذا قلت لك إن ستة أشهر قد انصرمت في صمت وسكون خفيت فيها آلامي المبرحة وآمالي السانحة .. ربما تقولين إنك تعلمين ذلك ...

فأذا قلت لك إن جنوناً حلواً لذيذاً صيّرني ظلاً من ظلالك ، وحملني على ألا أفارق خطواتك ، وإن شيئاً من الشك والوجد ، كما تعلمين ، جعلك أجملَ ما تكونين ، قد تقولين لا أظن ذلك . وإذا قلت لك إني أحتفظ في سويداء قلبي كل صغيرة وكبيرة من مسامراتك ، وإن نظرة ارتياب منك — كما تعلمين — تجعل تلك العيون الزرقاء لهيباً مشتعلاً ... إذن لتحرمين على رؤيتك ؛ وإذا قلت لك إن السهاد ينتابني كل ليلة ، وإن البكاء يتملكني كل يوم ، وإني أدعو الله جاثياً .. نينون ! ألا تعلمين أنك عند ما تضحكين تظن النحلة أن فمك زهرة قرمزية .. إذا قلت لك ذلك ربما تضحكين مني !

***

سيخفى عليك أمري فسأجيء إليك صامتاً .. أجلس في ضوء مصباحك وأتحدث معك فأسمع صوتك وأستنشق عبيرك ، ولك أن ترتابي في حبي وأن تظني بي الظنون وأن تضحكي مني ، ولكن لن يتسنى لعينيك أن تعرفا لماذا تنظران اليّ شزراً ؟

***

سأجيء في الخفاء زهرات حافلة بالأسرار ، وفي المساء أجلس خلفك وأسمع عزف يديك على البيانو ، وأشعر بقدك الرشيق يلتوي بين ذراعيَّ كغصن يميد ، وأنت غارقة في لجة الأنغام المرقصة !

***

فاذا جننا الليل ، وبدد النوى شملنا ، ودخلت حجرتي ، وأرخيت سدولها ، تناوبتني ذكريات أيقظت في نفسي الغيرة ؛ فهناك وأنا وحدي أمام الله أهيم فرحاً وسروراً . . . أفتح قلبي ، وكأنه خزانة من ذهب ، فأجده مملوءاً بحبك ... إني أحب وأعرف أن أكتم حبي ... أحب ولا ينبيء عن حبي شيء ... أحبُّ ومثلي لا يذاع له سرٌّ ! فما أعز سرّي ، وما أعز سقمي وحبي !

لقد أقسمت أن أحب في غير أملٍ ولا رجاء ، ولكن في سعادة وهناء ... إني أراك وكفى ! كلا ... لم أخلق لهذه السعادة الجلَّى كي أموت بين ذراعيك أو أعيش تحت قدميك ! واأسفاه ! كل شيء ينبيء بذلك ... حتى آلامي . .

مع هذا ، تُرى ماذا تقولين لي — ياذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء إذا بحت لك بحبي ؟

أحمد ضيف

١٠ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الصديق

يقول المنفرد فى نفسه (لا أطيق وجود أحد بقربى) ولكثرة ما يقف محدقاً فى ذاته تظهر التثنية فيه ، ويقوم الجدال بين شخصيته وبين ذاته فيشعر بالحاجة إلى صديق . وما الصديق للمنفرد إلا شخص ثالث يحول دون سقوط المتجادلين إلى الأغوار كما تمنع المنطقة المفرغة غرق المائعين

إن أغوار المنفرد بعيدة القرار ، فهو بحاجة إلى صديق له أمجاده العالية ؛ فثقة الانسان فى غيره تقوده إلى ثقته بنفسه ، وتشوقه إلى الصديق ينهض أفكاره من كبواتها

كثيراً مايقود الحب إلى التغلب على الحسد ، وكثيراً مايطلب الانسان الأعداء ليستر ضعفه ويتأكد امكانه مهاجمة الآخرين

من يطمح إلى اكتساب الصديق وجب عليه أن يستعد للكفاح من أجله ، ولا يصلح للكفاح إلى من يمكنه أن يكون عدواً . يجب على المرء أن يحترم عداءه فى صديقه ، إذ لا يمكن لك أن تقترب من قلب صديقك إلا حين تهاجمه وتحارب شخصيته

أنت تريد الظهور أمام صديقك على ما أنت عليه هاتكا كل ستر عن خفايا نفسك ، فلا تعجب إذا رأيت صديقك يعرض عنك ويقذف بك إلى بعيد

من لا يعرف المصانعة يدفع بالناس إلى الثورة عليه ، فاحذر العرى ، ياهذا ، لأنك لست إلهاً ، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار

عليك بارتداء خير لباس أمام صديقك ، لتهيب به إلى طلب المثل الأعلى : الانسان الكامل

أفما تفرست يوماً فى وجه صديقك وهو نائم لترى حقيقته ؟ أفما رأيت ملامحه إذ ذاك كأنها ملامحك أنت منعكسة على مرآة مبرقعة معيبة ؟ أفما ذعرت لمنظر صديقك وهو مستسلم للكرى ؟ ما الانسان ، أيها الرفيق ، إلا كائن وجب عليه أن يتفوق على ذاته ، وعلى الصديق أن يكون كشافاً صامتاً ، فامسك عن النظر علناً إلى كل شىء ما دمت قادراً فى غفلتك على كشف كل ما يفعله صديقك فى انتباهه . عليك أن تحل الرموز قبل أن تعلن إشفاقك ، فقد ينفر صديقك من الاشفاق ويفضل أن يراك مقنعاً بالحديد وفى عينيك لمان الخلود

ليكن عطفك على صديقك متشحاً بالقسوة وفيه شىء من الحقد ، فيبدو هذا العطف مليئاً بالرقة والظرف

كن لصديقك كالهواء الطلق والعزلة والغذاء والدواء ، فان من الناس من يعجز عن التحرر من قيوده ولكنه قادر على تحرير أصدقائه

دع الصداقة إذا كنت عبداً ، وإذا كنت عاتياً فلا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء

لقد مرت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبدة أو مستعبدة فهى لم تزل غير أهل للصداقة ، فالمرأة لا تعرف غير الحب

إن حب المرأة ينطوى على تعسف وعماية تجاه من لا تحب ، وإذا ما اشتعل بالحب قلبها فان أنواره معرضة أبداً لخطف البروق فى الظلام ...

لم تبلغ المرأة بعد مايؤهلها للوفاء كصديقة ، فما هى إلا هرة ، وقد تكون عصفوراً ، وإذا هى ارتقت أصبحت بقرة ...

ليست المرأة أهلاً للصداقة ، ولكن ليقل لى الرجال من هو أهل للصداقة بينهم ؟ إن بفقر روحكم وخساستها يستحقان اللامنة أيها الرجال ، لأن ماتبذلونه لأصدقائكم يمكننى أن أبذله لأعدائى دون أن أزداد فقراً

إنكم لا تتخذون إلا الأصحاب ، فالى متى تسود الصداقة بينكم ؟

ألف هدف وهدف

لقد شاهد زارا كثيراً من البلدان وكثيراً من الشعوب ، فنفذ إلى حقيقة الخير والشر ، وعرف أن لا قوة فى العالم تفوق قوتهما

تحقق أن ليس على الأرض من شعب تحلو له الحياة دون أن يخضع النُظُم والسُنَن لتقديره ، وأن كل شعب يرى من واجبه ، إذا أراد الحياة ، أن يجىء بتقدير يختلف عن تقدير من

يجاوره من الشعوب . وهكذا كان ما يراه أحدها خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً

ذلك ما عرفته ، فكم من عمل اتشح بالعيب فى بلد ، رأيته مجللا بالشرف والفخر فى بلد آخر

لم أر جاراً تمكن من إدراك حقيقة جاره ، بل رأيت كلاً منهما يعجب لجنون الآخر وقسوته

لقد علق كل شعب فوق رأسه لوح شريعته ، وسطر عليه ما اجتاز من عقبات وما تضمر إرادته من عزم ، فما تراءى له صعب المنال فهو موضوع تمجيده ، وما خيره إلا حاجة ملحّة عز مطالبها ، فهو يقدس كل وسيلة تمكنه من الظفر بهذه الحاجة

إن كل ما يوطد الحكم لهذا الشعب ، وكل ما ينيله النصر والمجد ويلقى الرعب فى روع جاره مثيراً حسده إنما هو فى نظره ذو المكانة الأولى ، وما احتل المقام الأول فى اعتباره يصبح مقياساً لجميع أموره ومعنًى لجميع ما يحيط به ؛ فاذا ما تمكنت من الاطلاع على حاجات أى شعب وخبرت أرضه وجوه وحالة جاره ، فأنك لتدرك النواميس التى تتحكم فيه وتحفزه الى المجالدة للغلبة على أهوائه ، ولتعرف السبب فى اختياره مراقيه الخاصة يتدرج عليها لبلوغ أمانيه

(عليك أن تكون سبّاقاً مجلياً فى كل مضمار ، فلتتلفع نفسك بغيرتها كيلا تبذل الولاء إلا للصديق)

إنها الكلمات إذا وقعت فى أذن يونانى ، ترتعش نفسه لها فيندفع الى اقتحام الصعاب طلباً للمجد

(قل الحق ، وكن ماهراً فى تفويق سهامك من قوسك)

إنها لوصية صعبت وعزّت على الشعب الذى اقتبست اسمى منه ، وفى هذا الاسم من المصاعب قدر ما فيه من أمجاد

(أكرم أباك وأمك ، ولتكن باراً بهما من صميم قلبك)

وهذه الوصية القائمة على إرغام النفس ، قد عمل بها شعب آخر فبلغ القوة وأصبح خالداً

(كن أميناً وابذل للأمانة دمك وشرفك حتى ولو كان جهادك فى سبيل ما يضير وما يورد المهالك)

وهذه أيضاً وصية عمل بها شعب آخر ، فتغلب على ذاته وأصبح عظيما تثقله الأمانى الجسام

لقد أقام الناس الخير والشر ، فابتدعوهما لأنفسهم ، وما اكتشفوهما ولا أنزلا عليهم بهاتف من السماء

لقد وضع الانسان للأمور أقدارها ليحافظ على نفسه ، فهو الذى أوجد للأشياء معانيها الانسانية

ما التقدير إلا الايجاد بعينه ، فاصغوا إلى أيها الموجدون

ما الكنوز والجواهر إلا أشياء أرادها تقديركم جواهر وكنوزاً ، فما القيمة إلا اعتبار ، ولولا التقدير لما كان الوجود إلا فتوراً لا نواة فيها . اسمعوا أيها الموجدون : — إن قيمة الأشياء تتغير تبعاً لتحول اعتبار الموجد ، ولا بد لهذا الموجد من أن يهدم فى كل حين

لقد كانت الشعوب تتولى الايجاد فى البدء حتى ظهر الأفراد الموجدون ، فما الفرد فى الواقع إلا أحدث هيئات الوجود

لقد أقامت الشعوب لنفسها قِدَماً شريعة خيرها ، وما نشأت هذه الشريعة إلا باتفاق المحبة التى طمحت الى السيادة ، والمحبة التى رضيت بالامتثال

إن هوى المجموع أقدم من أهواء الفرد ، وإذا كان خير الضمائر ما يكمن فى المجموع ، فان شرها ما يتجلى فى الفرد المعلن شخصيته

والحق أن الشخصية المراوغة التى لا محبة فيها ، الشخصية التى ترمى الى الاستفادة من خير الاكثرية ، إنما هى عنوان انحطاط المجموع لا مبدأ كيانه

ما خلق الخير والشر فى كل عصر إلا المهوسون المبدعون ، وما أضرم نارهما إلا عاطفة الحب وعاطفة الغضب باسم الفضائل جمعاء !

لقد شاهد زارا كثيراً من الشعوب والبلدان فما رأى قوة على الأرض تفوق قوة المهوسين ، والقوة معنى لكلمتى الخير والشر

ما أشبه ما يستدعى التمجيد ويستوجب العقاب بالمسخ الهائل ، فمن له بسحق هذا المسخ ، أيها الاخوة ؟ من سيشد بالأغلال على ما يُتلِعُ هذا الحيوان من آلاف الأعناق ؟

لقد بلغت الأهداف الألف عدا إذ بلغ عدد الشعوب ألفاً ، فنحن بحاجة إلى قيد واحد لألف عنق ، لأننا بحاجة إلى هدف واحد ، فالبشرية لم تعرف حتى اليوم لها هدفاً ، ولكن إذا كانت الانسانية تسير ولا غاية لها ، أفليس ذلك لقصورها وضلالها ؟

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس

١٢ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

الفصل الثانى

ثم ملك بعده الحرث الأصغر بن الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر ؛ ومن ولد الحرث الأعرج أيضاً عمرو بن الحرث الذى كان النابغة سار إليه حين فارق النعمان بن المنذر ؛ وكان يقال لعمرو أبو شمر الأصغر ومن ولده المنذر بن الحرث والأيهم ابن الحرث ، والأيهم هذا أبو جبلة بن الأيهم ؛ وجبلة آخر ملوك غسان ، وكان طوله اثنى عشر شبراً ، وكان إذا ركب مسحت قدمه الأرض ، وأدرك الاسلام فأسلم فى خلافة عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد ذلك ولحق بالروم . وكان سبب تنصره أنه مرّ فى سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرسه فوثب الرجل فلطمه فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبى عبيدة بن الجراح(١) فقالوا هذا لطم سيدنا . فقال أبو عبيدة : « البينة بأن هذا لطمك ؟ » قال وما تصنع بالبينة ؟ قال إن كان لطمك لطمته بلطمتك . قال ولا يقتل ؟ قال لا . قال تقطع يده ؟ قال لا ، إنما أمر الله بالقصاص فهى لطمة بلطمة ، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى أن هلك(٢) » . وإن الأخبار العربيـة الخاصة بدولة الغساسـنة لجديرة موئسة ، وقل أن تمد الباحث بأى مادة حتى يستطيع أن يؤلف من شتاتها هيكلا تاريخياً تقريبياً باضافتها إلى النتف المبعثرة فى كتب المؤلفين البيزنطيين(٣) . ويظهر أن أول أمير مستقل من الغساسـنة هو الحرث بن جبلة الذى اختاره جستنيانوس حوالى ٥٢٩ م ليكون فى جانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وقد قضى الجانب الأعظم من حكمه الطويل (٥٢٩ — ٥٦٩) فى حروب طاحنة مع منافسه الخطير الذى ذكر شىء عن دفاعه وموته فى الواقعة الفاصلة واقعة حليمة التى أشرنا إليها آنفاً ، وكان الحرث مسيحياً يعقوبياً ، وقد دافع عن هذا المذهب دفاعاً شديداً فى حماسة منقطعة النظير فى وقت كان التعلق بأهدابه إبانه مجازفة خطيرة . وإن القصة التاليـة لتصوّر خلقه الخشن المخيف : ذلك أنه فى أخريات أيامه زار القسطنطينيـة ليتفق مع السلطة الحاكمة هناك عمَّنْ يخلفه من أبنائه ، واستطاع أن يجتذب اليه عطف الكثيرين ، وترك أثراً عظيما فى نفوس أهلها وخاصة ابن أخى الامبراطور جستنيانوس ؛ وبعد عدّة أعوام حينما تقدّم بجستنيانوس عمره وأصابه الجنون ، خافه حجابه إذ أخذ يهـــذى بقوله : « هش سيأتى إرثماس ويأخذكم(١) »

وخلف الحارث ابنه المنذر الذى ظهر على ملك الحيرة الجديد قابوس بن هند عام ٥٧٠م فى الموقعة التى ربما كانت هى المعروفة عند العرب بعين أباغ(٢) ، وربما يكون رفض الامبراطور جستنيانوس إمداده بالمـال مانعاً إياه (المنـذر) من الاهتمام برعاية مصالحه ؛ وكان ذلك فاتحة عداء بينهما ، ولذلك تلبـدت سماء صداقتهما بغيوم عداء ظل مستحكم الحلقات إحدى عشرة سنة ؛ ومنذ ذلك الوقت حتى استيلاء الفرس على فلسطين سـنة ٦١٢ م ضربت الفوضى بجرانها ، وعمت أرجاء مملكة الغساسنة ، فأخذت القبائل المختلفـة تختار رؤساءها الذين كانوا بطبيعة الحال ، وفى كثير من الأحيان ، من جفنة ؛ ولكن الأسرة نفسها تحطمت تمـاماً ؛ وغير بعيد أن تكون قد استعادت قواها الدائرة وسطوتها الغابرة ، حينما طرد هرقلُ الفرس من أرض سورية سنة ٦٢٩ م إذ نجد الغساسـنة مراراً يحاربون المسلمين بجانب رومة ، ويتفق المؤرخون العرب جميعاً على أن جبـلة بن الأيهم الجفنى — الذى كان له ضلع كبير فى النزاع — هو آخر ملك غسانى ، وقد حكم حوالى سنة ٦٣٥ م ؛ وأن الشاعر حسان بن

---

(١) أحد صحابة الرسول قاد الجيش الاسلامى فى فتح الشام ، ومات سنة ٦٣٩ م

(٢) ابن قتيبه 28 — Brünnow : chrestomathie pp. 26

(٣) التفاصيل المذكورة مستقاة من مقال نلدكه

Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's فى Abhband. d.Kòn. Preuss Akad. d.Wiss-enschaften (Berlin, 1887) ١٠ ، ٨

---

(١) يرى نلدكه (المرجع السابق ص ٢٠) أنها تشير الى قيس افسيوس (الباب الثانى الفصل الثالث) راجع :

The Ecclesiastical History of John, Bishop of Ephesus trans. by R. Poyne Smith, Part III, q. 168

(٢) لا يمكن أن تكون هذه الواقعة هى نفس واقعة « عين أباغ » التى حدثت بين المنذر بن الحرث بن جبلة والمنذر الرابع ملك الحيرة عام ٥٨٣ م راجع :

Guidi : L'Arabi antéislamique, p. 27.

ثابت الذى كانت تربطه رابطة القربى بالغساسنة قد زار فى شبابه بلاطهم فصوّر لنا تصويراً شاملاً دقيقاً ما يموج به من صور النعيم والترف والعظمة فى قوله[1] « لقد رأيت عشر قيان : خمسا روميات يغنين بالرومية ، وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن اليه إياس[2] بن قبيصة ، وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف من الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل بها هو وأصحابه فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء والفنك وما أشبهه ؛ ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه . هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث ، ما رأيت منه خناً قط ولا عربدة[3] »

ولم تكن إقامة الغساسنة ثابتة بعكس منافسيهم فى الفرات ، فقد حكموا الاقليم الذى حول دمشق وتدمر ، ولكن هذه الأماكن لم تكن فى حوزتهم أبدا ، وكانت عاصمة ملكهم البدوية « الحيرة » التى ظلت تنتقل معهم هنا وهناك ، ولكنها كانت توجد عادة فى الجولان جنوب دمشق ، وقد استطاع الغساسنة أن ينشئوا حضارة أعظم من حضارة اللخميين لتأثر الأوّلين تأثرا شديداً بالثقافة الاغريقية ، وللطبيعة البدوية التى كان عليها الآخرون الذين كانوا أوثق اتصالاً بالعرب الوثنيين الذين استطاعوا أن يسموهم بميسمهم . وإن بعض مظاهر هذه الحضارة لتتضح لنا من خلال الوصف الشائق لبلاط جبلة بن الأيهم ، ذلك الوصف الذى ينسب إلى الشاعر حسان . ولما صبّ النعمان الثالث ملك الحيرة جام غضبه على الشاعر الألمعى النابغة هرب إلى سورية حيث نظم قصيدة رائعة امتدح فيها الغساسنة فى شخص مليكهم الحرث بن الأعرج ، وبعد أن امتدح بسالتهم وشجاعتهم فى ركوب متن الأهوال التى صوّرها فى بيت واحد قوى يقول فيه :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أخذ يقول :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود والاحلام غير عوازب
محلتهم ذات الأله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حجزاتهم ... يحيوّن بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم ... وأكسية الاضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب[1]

وتاريخ البدو أيام الجاهلية لا يخرج عن كونه سجلا لحروبهم ، أو بالأحرى عن ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر للسلب والنهب . ولم تكن ثمت حاجة إلى الاستغاثة ، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه ، ويرى الآخر بوابل هطال من الأهاجى المقذعة وتؤسر الابل والنساء ، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم ، ولكن القليل منها يؤدى الى نشوب حرب ، وكان ذلك نوعاً من الحروب الهومبرية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوى على البطولة . ويقول نوريك فى ذلك : « وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعى لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب الى المستحيل . أما عن المصادر المعاصرة لها التى تستأهل عناية الباحث ، فليس لدينا سوى القصائد والمقطعات الشعرية التى ظلت محفوظة . وطبقاً لما يذكره السيوطى كان العرب يطلبون من أى بدوى يقص حادثة تاريخية أن يقرنها ببعض أشعار تتعلق بها . وفى الحقيقة أن هذه الأقاصيص وأشباهها التى حفظت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد . ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة ، وكثيراً ما يتضح أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعا حتى توافق موضوع الأشعار[2] »

(يتبع)

حسن حبشى

(١) الأغانى ج ١٦ س ١٥ س ٢٢ — ٣٠

(٢) تولى أياس بن قبيصة ملك الحيرة (٦٠٢ — ٦١١ م) عقب النعمان الثالث وينمى الى قبيلة طئ . راجع ماكتبه Rothstein فى : Lahmiden, P. 119.

(٣) مع استبعاد أن تكون هذه القطعة من قول حسان فهى مشكوك فيها ، ولكن هذا لا يؤثر جديا فى قيمتها إذا اعتبرنا أنها مأخوذة من ديوان الشاعر نفسه الذى تكلم فيه مرارا عن الغساسنة ، والاشارة الخاصة الى جبلة بن الأيهم خطأ ، فان معرفة حسان بالغساسنة ترجع الى أيام أن كان وثنياً ؛ والمعروف أنه اعتنق الاسلام قبل حكم جبلة بعدة سنوات

(١) ديوان النابغة الذبيانى طبعة Derenbourg ص ٧٨ ، وفى Delectus لنلدكة ص ٩٦ ، وقد ترجم القصيدة بأكملها سير شالز ليل فى كتابه Ancient Arabian Poetry, P. 95

(٢) Thorbecke : Antarah, ein vorislamis-cher Ditcher, P.14

الأمــل

مهداة إلى شبابنا البواسل
أمل مصر فى عهدها الجديد

للأستاذ محمود الخفيف

طامحٌ يوحى لقلبى ما الطاحْ   سائلُ الغُرّة رفّافُ الجناح
سابحٌ فى النور هيمانُ به   أبداً تلقاهُ فى عليائه
نازعاً صوبَ السماوات الفساح

خافق يملأ نفسى سِحرُه   وإذا غاب تخبى ذِكرُه
كلما أزعج رُوحى خاطرٌ   هتف بالقلبُ به مُستروِحاً
فتراءى ، فاجتلاهُ ، فاستراح

قبسٌ لاح من الخلد سناه   كم جلا للنفس من سرّ الحياه
كم تطلعت إلى غُرّته   وهفَتْ نفسى إلى بسمته
فى غُدُوٍّ للمعالى ورَواح

كم نَفى مرآهُ عن قلبى الشَّجن   كم سمت روحىَ عن هذا البدنْ!
آهِ كم ثارت بقلبى عزمَةٌ   ولكم آنستُ فى إشراقه
من تجلٍّ لم يكن قبلُ يُتاح

حُلم ياحُسنه من حُلُمِ   قصّرت عنه وضاقت كلمى
فقصاراى مُنى ناضرةٌ   ورؤًى ضاحكةٌ مُسفِرةٌ
منه فى دُنيا جمال ومِراح

لمحةٌ فى الأرضِ من معنى الخلودْ   سلوَةُ الانسان فى هذا الوُجود
ماثِلٌ فى كلّ حُسن ، ناطِق   كم رأتْ عيناى فى ساحاته
من معانٍ ترجمت عنه فِصاح

***

شِمتُه فى البدرِ نَدْيانَ الشبابْ   شقّ فى مسراهُ مركومَ السحاب
ثمّ فى الصبح بدت آيته   وتجلى بعدَ ليل مُطبق
أبلَجَ الوجنةِ ورْدىَّ الوشاح

فى تباشير الربيع المُغدِقِ   فى تثنّى كل غصن مورق
فى زِياط العُشِّ ، فى أفراحِه   فى انتشاء الكون ، بل فى بعثه
فى الشّذى نمّ بأسرار البطاح

فى نَدِىّ الزَّهرِ جلاه الفلق   مُشبَعَ الصبغة من لون الشفق
ملأ الأنفسَ من نُضرته   ومضى يروى حديثاً عجباً
عن وجوهٍ مثله غُرٍّ صِباح

شِمتُه فى البُرْءِ بعد السَّقَمِ   مسحَتْ يمناهُ برْحَ الألمِ
فى الشباب الغض موفور الجذل   تبهرُ الألبابَ فى إقدامه
عزَماتٌ منه فى الجدّ صِحاح

فى نهوض الفذ من عثرته   فى تساميه إلى غايته
فى انطلاق الحرّ من أصفاده   فى خُطى العائدِ من غربته
بعد شوق وعناء وانتزاح

***

توأمَ الحُبّ وبانى عُشّه   إيه ياصنوَ الهوى فى عرشه
أجتلى وجهك سمحاً مُشرقاً   فى وجوهٍ تشرق الدنيا بها
مِثلما يُشرق بالشمس الصباح

أجتلى طَيْفَكَ حُلواً رائعاً   فى مُحيّين يروقان معا
أنت أحييت المنى فالتقيا   وجعلت الوصلَ لهواً سائغاً
لا أرى فيه على الحُبّ جُناح

أجتلى طيفك فى وجه الغلام   راق فى عينيه معنى الابتسام
تطرَب الأمُّ إلى لثغته   ويَرى الوالدُ من أفعاله
أبداً بين ثناء وامتداح

***

يا أنيس الروح فى وحشتها   وحديث النفس فى خلوتها
كم تراءاكَ فؤادى قبساً   ولكم لحتَ لعينى صورةً
أذهلت قلبىَ عن لذع الجراح

هاتِ من فيضك يانورَ الأمَلْ   إيه ياروح الشباب المُقتبل
أدِرِ الدفّة وانشر لى الشراعا   رافق الفلكَ إلى وجهتها
وابتسمْ : يلمعْ على الافق النّجاح

الخفيف

رواية الدمع

للسيد رفيق فاخورى

أيها النائى على قُرْبىَ دمٍ ... بين قلبينا، أغث قلبى الصَّدِى
عاطِ من راحك ظمآن إلى ... خمرة تحيى صريع الكمد
وحياةِ الحب يا من بعثتْ ... روحُه ميتَ الهوى فى كبدى
لم تخنك العين فى السرّ ولم ... تستـر نشوتها من أحد

***

أنا مشتاقٌ فهل تعطف أو ... لا تَرى فى الحب رأيَ المشفق ؟
عادنى البينُ بألوان الضَّنَى ... فأجرنى من بعادٍ مُوبِقِ
أين منى ناظرٌ يجلو الدجى ... عن جفونى بسواد الغسق
أين منى بسمـةٌ لاهيةٌ ... جرحها فى القلب باق ما بقى

***

أنت مأمون على القلب فلا ... تمتحن إخلاص قلبى بالجفا
شهدت حالى على حبى وهل ... يستطيع الصب كتمان الهوى ؟
صاح ما فى الحب مكنونٌ ولا ... من روايات التصابى ما انطوى
يسكت العاشق عنها جهده ... ويقص الدمع منها ماجرى

***

يا نجىَّ الروح لا تبعـدْ فما ... تصبر النفسُ على بُعد مُناها
طال ليلى فاجْلُها ضاحكةً ... لا يطل الفجر إلا من سناها
طلعـة غرّاء يستهدى بها ... حائر فى مجهل الأحلام تاها
وَحَّدَتْ عيناىَ لما أشرقت ... حسنَها واعتنقت روحى هواها

***

حبـذا طيفك يأتينى وإن ... سلب النوم وأهدى البُرَحاء
زائرٌ يخرجنى من وحدةٍ ... قرّبت من شقوتى ما قد تناءى
أيهذا الليل إن آنسنى ... طيف من أهوى وأصفيه الولاء
قل لهذا النجم: لاتبرح، وقل ... لرسولٍ حلَّ ضيفاً، عمْ مساء

(حمص) رفيق فاخورى

طلـــل*

للسيد عمر أبو ريشة

قفى قدمى! إن هذا المكا ... ن يغيب به المرء عن حسّه
رمالٌ وأنقاض صرحٍ هوت ... أعاليه تبحث عن أسّه
أقلّب طرفى به ذاهـلا ... وأسأل روحىَ عن أمسه
أكانت تسيل عليه الحيا ... ة وتغفو الجفون على أنسه
وتشدو البلابل فى سعده ... وتجرى المقادير فى نحسه
أأستنطق الصخر عن ناحِتِيه ... وأستنهض الميْت من رمسه ؟!
حوافر خيـل الزمان المشتْـ ... ـتِ تكاد تحدّث عن بؤسه !!
فما يطمع الشوك فى تربه ... ولا يرغب البوم فى مكسه
وتهجر أوكارَها العنكبوت ... وترجو التخلص من حبسه
لقد تعبت منه كفُّ الدمار ... وباتت تخاف أذى لمسه !
هنا ينفض الوهم أشباحه ... وينتحر الموت من يأسه !!!

(حلب) عمر أبو ريشة

(*) من ديوان (شعر) وقد صدر حديثاً

الفنون

رمــــبراندت

REMBRANDT

للدكتور أحمد موسى

بقية ما نشر في العدد الماضي

أما صور الجماعات ، فمنها ما هو في منتهى الروعة والقوة . وصورة التشريح تمثل عدداً من فطاحل أطباء أمستردام ملتفين حول جثة منبسطة على منضدة التشريح ، والدكتور تلب يلقي عليهم شيئاً عن حالة تشريحية معينة أتم الفنان تصويرها سنة ١٦٣٢ ، وكانت في دار جماعة الأطباء بأمستردام إلى أن أخذتها الجليري اللوكية في الهاي . وهي صورة تمثل ثمانية أشخاص ، سبعة منهم يستمعون لثامنهم وهو الدكتور تلب ، وتظهر على الوجوه إجمالاً ملامح الوقار العلمي والشوق إلى معرفة الجديد . أما الدكتور تلب فقد مثل الثبات والهدوء اللازمين للعالم ، ماسكا « جفتاً » بيمينه رافعاً به الشرايين ، ناظراً إلى زملائه ، متحفزاً للشرح ، مشيراً بيسراه إشارة العالم الواثق الذي تنبعث من عينيه نظرة محيطة بالدرس والفحص ؛ وتبدو على وجوه المستمعين ظاهرة الرغبة الاكيدة والاستغراب . انظر للواقف إلى جانب الدكتور تلب ، ممسكا صفحة ورق بيسراه ، ألا ترى وجهه ناطقاً بالحياة ؟ ثم انظر إلى التكوين المجموعي للرؤوس وقد بدت اللحى نامية تحت الذقن ، سنة العلماء في ذلك الحين . لقد جمع رمبراندت بين بساطة مظهر العالم وبين جلالة العلم والوقار ، أما الجثة فلا يمكن إخراجها بأحسن مما أخرجه رمبراندت ، فهي مسلوبة الارادة تماماً ، ترى اليد مرتمية ارتماء متراخياً على المنضدة ، فضلاً عما ظهر على الوجه من علائم فقدان الحياة ؛ فالفم مفتوح والعينان مغمضتان ، والجسم عار ، والذراع الايسر مشرح ظهرت منه الشرايين ممسوك بعضها بالجفت ، وهي في مجموعها لا تدل فقط على القوة في الاخراج ، بل تدل أيضاً على النزعة العظيمة التي نزع إليها رمبراندت ، فهو ميال إلى الجديد ، مدفوع بعامل الفن الى خدمة النواحي البعيدة التي لولا تفكيره فيها واتجاهه إليها لما شرع في عمل شبيهاتها غيره من بعده



(التشريح)

وتكاد تكون أهم لوحاته عموماً صورة الحراسة الليلية وهي أكبرها مساحة ، إذ يبلغ طولها أربعة أمتار ونصف متر وعرضها ثلاثة أمتار ونصف أو يزيد قليلاً . وبالرغم من أن الصورة تظهر كما لو كانت تمثل فرقة من الجنود الامستردامیين خارجين من مركزهم نهاراً ، نظراً لما وقع من أشعة النور على جانب من وجوههم ؛ إلا أن الظل والنور في الصورة يعطي فكرة صحيحة عن قوة هذا العبقري ولمسه جمال التصوير في ظلام حالك يخترقه شعاع من النور ، فيزيد في جلال التصوير بجوار الظلام الحالك . تمثل هذه اللوحة عشرين شخصاً لا ترى وجهاً يشابه الآخر ، ولكنه مع هذا جمل الجزء مندمج في الكل ومندمج في المجموع ؛ فهو بتصويره على هذه الصفة أشبه بملحن موسيقي يوزع قطعته على آلات موسيقية عديدة ، جاعلاً

الانسجام الكلى متوافراً بينهما ليتم بذلك الخلق الفنى المنشود

صورها رمبراندت فى فترة طويلة وأتمها سنة ١٦٤٢ ، وهى مع اتساع مساحتها مليئة بالانشاء ، لا ترى فيها فراغ إصبع دون معنى أو دون عناية ، جعل الظل شديداً والنور شديداً hellpunkel فظهرت بألوانها الساحرة معجزة عصره



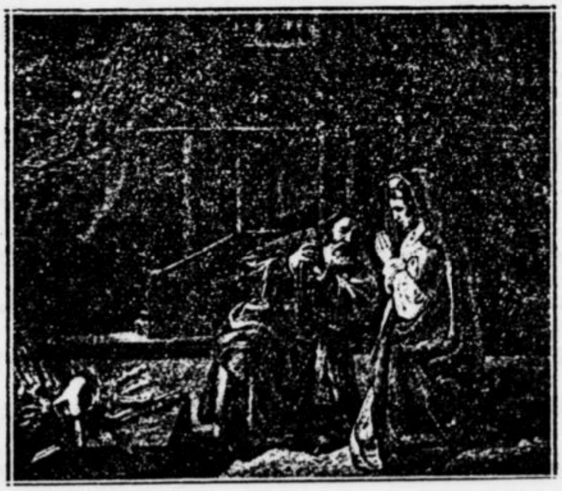
(الحراسة الليلية)

ومجموعته للصور الدينية كبيرة عظيمة من أهمها صورة (بولص فى السجن) مؤرخة سنة ١٦٢٧ ومحفوظة باستوتجارت ، وسمسون ودليلة سنة ١٦٢٨ ببرلين ، والعائلة المقدسة سنة ١٦٣١ بميونيخ وتجهيز الصليب ١٦٣٣ بميونيخ أيضاً . وإنزال المسيح من الصلب ١٦٣٣ ، وضحية إسحاق ١٦٣٥ بيطرسبرج ، وسيمون يُنذر حماه ، وصعود المسيح ١٦٣٦ ، وعائلة توبياس ١٦٣٧ باللوفر ، وبعث المسيح ١٦٣٩ بميونيخ ، وبحث العذراء عن المأوى ١٦٤٠ فى جروسڤنور هاوس بلندن ، والعائلة المقدسة باللوفر ، وتضحية مانوا مؤرخة ١٦٤١ بدرسدن ؛ وهى أيضاً تكمل تعريفنا بفنان لا يمضى يوم دون ذكر اسمه فى عالم الثقافة والفن . انظر إلى وجهى القديسة والقديس وما بدا عليهما من فرط الخشوع والاستسلام . أما الملابس بثناياها وتفاصيلها ، والدار والمدخل والسلم ، فكلها بجانب ما ظهر على تكوين الملاك الصاعد شىء ثانوى ؛ صوّره كما لو كان مسحوباً من أعلى بارادة خارقة ، وتراه وقد تجرد عن الارادة الذاتية صاعداً دون مقاومة

وصورة الزوجة الزانية أمام المسيح ١٦٤٤ ، والعائلة المقدسة ١٦٤٥ بيطرسبرج ، وابراهيم مضيفاً لملاك ١٦٤٥ بيطرسبرج أيضاً ، وسوزانا فى الحمام ١٦٤٧ ببرلين ، وداود وشاول يعزفان الهارب بأمستردام ، وأولاد يعقوب يحضرون لأبيهم القميص الملطخ بدم أخيهم يوسف بيطرسبرج ، وعودة الابن المفقود (وهذه أيضاً من أحسن لوحاته) بيطرسبرج

أما الصور الطبيعية ، والتى ظهر أنها لم تتجاوز الاثنتى عشرة ، فمن أهمها صورة الطاحونة وهى فى حيازة اللورد لانسدون ، وصورة الرعد فى متحف براونشوايج ، وصورة منظر جبلى على سفحه بعض خرائب وهى مؤرخة ١٥٦٠ بجاليرى كاسل ، وصورة جبال وقع عليها ضوء القمر فجملها تؤثر على الناظر تأثيراً شعرياً غريبا

ومجموعته بالقلم الرصاص والريشة معظمها باللوفر وفينا ، وبمتحف الصور اليدوية بميونيخ وبرلين ودرسدن ، وبالمتحف البريطانى ، وبمتحف هارلم وامستردام غير ما لدى الأثرياء ؛ وهى كلها تبلغ حوالى المائتين وستين صورة تصلح لأن تكون وحدها رسالة علمية فنية لحلقة فى سلسلة تاريخ الفن العام



(تضحية مانوا)

ولا يحضرنى الآن ما أقوله عن رمبراندت الخالد سوى قول شيللر :

« إن الانتاج الفنى الحق لا ينبغى أن يحيط بما هو خارق للعادة من الناحية الاشتمالية البحت ، ولكنه ينبغى أن يشمل ما هو خارق لها من الناحية التكوينية ، التى بها يتأثر الانسان بكليته ؛ على حين لا يتأثر إلى هذا الحد بالناحية الانشائية التى لا تهم غالباً إلا الاخصاء ذوى الحاجة المحدودة »

أحمد موسى

من هنا ومن هناك

غاندى والفيران

انتهى سلطان غاندى فى الهند وظهرت حقيقة الزعيم الذى كان بريق شهرته يخطف الأبصار . وفى الحق لقد كان الناس معذورين فى إعجابهم بغاندى ، لا سيما أيام اعلانه العصيان المدنى وصبره الجميل لبطش نائب الملك وغطرسة الحكام الانجليز ؛ فلما فشل العصيان المدنى ورأى الهنود أن غاندى كان يسخرهم فى تيه لا طائل وراءه ، هب الشباب فى أنحاء الهند يسخطون على المهاتما ولم يبالوا أن يلتفوا حول جوهر لال نهرو . وزهدهم فى غاندى انغماسه الشديد فى الهندوكية ، ودفاعه الحار عن تعاليمها التى هى سبب نكبة الهندوكيين . وغاندى برهمى سخيف العقيدة ، فهو مؤمن سنى يقدس البقرة ويتبرك بروثها بل يتطهر به ، وهو لذلك لا يرى مانعاً من أن تترك ٧٠ مليون بقرة سائمة ، لا يستطيع أحد أن يطردها من حقله إذا عاثت فيه أو نفشت فى زرعه . ويدعى غاندى أنه انصرف عن الميدان السياسى إلى نصرة المنبوذين وتخليصهم ، وكان ادعاؤه ذلك جميلاً لو أنه عمل به ، ولكن غاندى ، بدلاً من أن يوصى بالمنبوذين خيراً ويكف عنهم أذى البراهمة ، أوصاهم بالصبر على هذا الأذى ... لأن الدين يأمر بذلك ... وهو يقول إن الدين يأمر بذلك ، ويعلم أن الفيدا — كتاب البراهمة المقدس — لم يرد فيه سطر واحد يهون فيه من شأن هذه الطبقة البائسة . وبذلك كان غاندى ضغثاً على النبوذين ، وكان موقفه الموئس سبباً فى ثورة الدكتور أمبيدكار — زعيم النبوزين — عليه وتصميمه على الانحياز بأخوانه ، وهم سبعون مليوناً — إما إلى المسلمين وإما إلى السيخ

ولكن المضحك من أمر غاندى هو انهيار ماضيه العظيم وتربيته العالية تلقاء خرافات الصوفية البرهمية التى لا تطاق . فقد حدث أن زلزلت الأرض زلزالها فى الهند وانخسف جانب عظيم من الأرض ، فما كان من غاندى إلا أن عزا الزلزال إلى غضب الآلهة ؟ ! وأحنق بذلك أديب الهند الكبير طاغور .

وحدث مرة ثانية أن اجتاح الهند طاعون قتال ، فأوصت الحكومة بوجوب محاربة الفيران لأنها أكبر الوسائل فى نقل ميكروب هذا المرض ... فما كان من غاندى إلا أن هب يحمى الفيران ويناضل عنها (لأنها مخلوقات ضعيفة لا حول لها وهى لا تستحق التعذيب والقتل لكى يسعد الناس ، والطاعون قضاء من السماء إن شاءت رفعته !!)

بين يوريبيدز وأرسطوفان

كان يوريبيدز عدوا للمرأة ، وهو فى كل دراماته كان يبشر بالحد من سلطانها وجعل الرجل سيدها المطلق . ولم يكن يؤمن بها مطلقاً ، وكان يبنى مآسيه دائماً على المصائب التى تنبع من مكرها والتى كان يعزوها إلى الشيطان الثاوى فى أعماقها ؛ وعلة ذلك أنه كان بائساً فى زواجه ؛ فقد دخل الجحيم عندما تزوج زوجته الأولى ، فلما خرج منها وتزوج زوجته الثانية استقر فى سقر ، ولم يسعه إلا أن يطلقها كذلك ، وقد طلق زوجتيه لأنهما كلتيهما خانتاه وصبتا إلى غيره ...

هذا ويوريبيدز أقوى رجال المسرح اليونانى ، ودراماته تدل على تفكير عميق وخيال خصب ، ولكنه هاج الرأى العام اليونانى بأفكاره المتطرفة وآرائه التى كان لا يتورع أن يسخر فيها بالآلهة ، بله الناس

وقد سلطت القادير أرسطوفان — الدرامى الكوميدى — على يوريبيدز يوسمه سخرية ، ويتخذمن أدبه هزوا ؛ وأرسطوفان أكبر أديب مهرج عرفه التاريخ ، وهو لا يستحى أن يظهر على المسرح بطل الدرامة راكباً حماراً أعرج ، أو يلبس الرجل زى امرأة وما يلبث أن ينكشف آخر الأمر ؛ وقد يحشو الرواية بنكات مكشوفة تتصل بالعرض وتنهش الشرف ويحمر لها وجه الفضيلة

وسنلخص كوميديات أرسطوفان فى هذه النبذ فى الأعداد التالية ، غير أن الذى روعنا منه فى هذه المناسبة هو جراءته

الكريهة على سيد أدباء اليونان والتعريض الزرى بأمه ؛ وكان يبالغ فى إيذائه فيتهمها بالدعارة والفجور ، وأنها كانت فى صدر حياتها تبيع الفجل والخيار والطماطم فى (مشنة) تحملها على رأسها وتنادى فى شوارع أثينا !! وكان اليونانيون يسمعون هذا البذاء ويغضبون . وقد أدى رضاؤهم عن أرسطوفان إلى سقوطهم وظهور رومة عليهم

سرفانتس

هاج ضرب الثوار الأسبانيين للطراد سرفانتس ذكريات سرفانتس الكاتب الروائى الأسبانى العظيم صاحب (دون كويكسوت) والذى يباهى به الأسبانيون الانجليز كما يباهى الانجليز كل العالم بشاكسبير . والذى يقرأ سرفانتس لا يلبث أن يتملكه الاعجاب الشديد بذكائه الخارق ، ونشاط روحه التى يطبعها المرح ، وتسبح فى لجة من المزاح البرىء والدعابة الخلابة والنكتة الحلوة المضحكة . ولقد كتب سرفانتس مقدمة كتابه (دون كويكسوت) وهو نزيل السجن ، وقد صدرت تلك المقدمة عام ١٦٠٥ فما لبثت أن ترجمت إلى الانجليزية ثم الفرنسية بعد صدورها بعام واحد . هذا وقد صدر الجزء الثانى سنة ١٦١٥ ، وقد استطاع سرفانتس أن يتناول فى كتابه هذا الخالد حياة طبقات الناس فى أسبانيا كما لو كان عاشاً بينهم — ولم تفته طبقة من تلك الطبقات على كثرتها إلا وتغلغل فيها واندمج فى معائشها . فهو يصف المحامين والحلاقين ، والأطباء والسماسرة ، والمعلمين واللصوص ، والكهنة وعذارى الأندلسيات من العرب والطباخين وأميرات قشتالة والجزائر . وشخصية دون كويكسوت شخصية عجيبة اخترعها سرفانتس فجعلها تحب وتكره ، وتسخط وترضى ، وتنشد المثل الأعلى للحياة والقدوة الصالحة للفروسية ، ودون كويكسوت رجل غريب الاطوار ، وهو فى الحقيقة يمثل سرفانتس نفسه ، لأنه شقى كما شقى صاحبه ، وتعذب كما تعذب ، وجال فى الآفاق كما سجن سرفانتس وحيى عبداً رقيقاً فى قيود البيئات المختلفة كما حيى سرفانتس عبداً رقيقاً عند أحد أمراء الجزائر ببلاد المغرب . ولقد عاش سرفانتس فى العصر الذهبى لاسبانيا المسيحية فى القرن السادس عشر بعد جلاء العرب والقضاء على صولة ملوك الطوائف ، ومات فى نفس اليوم الذى مات فيه شاكسبير من عام ١٦١٦

يوريبيدز والسوفسطائيون :

يصغر يوريبيدز الشاعر الدرامى اليونانى الكبير مواطنه سوفوكلس بخمسة عشر عاماً ، ولهذه الخمسة عشر عاماً أثر كبير جداً فى المسرح اليونانى الذى بدله يوريبيدز وغير معالمه إن لم يكن قد هدمه وأقامه على أسس جديدة متينة . فى هذه الفترة كان السوفسطائيون قد عظم سلطانهم ، واتسع مدى تعاليمهم ، وتأثر الناس بفلسفتهم ، لأنهم علموا اليونانيين قواعد النقد ، وبذروا فى نفوسهم الشك ، وجعلوهم يستريبون فى كل قديم حتى آلهتهم ، لأنهم كانوا يجيدون الجدل ويتقنون المنطق ، فوسعهم أن يصبحوا المعلمين الفنيين لجميع الشعب اليونانى المثقف . ولقد تأثر بهم يوريبيدز ، وانتهل من مورد فلسفاتهم ، ومن هنا ثورته على التقاليد القديمة للمسرح ، واستهزاؤه الشديد بآلهتهم ، ونظرته إلى هذه الآلهة نظرة السخرية المرة التى تقع فى اعتبارها موقع المردة والشياطين الجبارين ، لا موقع الأرباب الرحماء

حقيقة لقد أسخط يوريبيدز قومه ، ولكنه فتح عيونهم على حقيقة الحياة ، وبدلاً من أن يقدم لهم روايات أبطالها الأرباب وأنصاف الأرباب ، قدم لهم روايات أبطالها هؤلاء الناس ، وحوادثها تلك الحوادث التى تزدحم بها الحياة كل يوم . . . الحب ، والبغضاء ، والحقد ، والطمع ، والأنانية ، و . . . المرأة !

ولا نغالى إذا قلنا إن يوريبيدز هو الذى أثار الذهن اليونانى وأعد الافكار لثورة الفلاسفة (سقراط وأفلاطون وأرسطو . . .) وبالتالى فهو الذى أثار أذهاننا منذ أكثر من أربعة وعشرين قرناً

هل برنرد شو كافر ؟

لا تستطيع أن تدعو برنرد شو فيلسوفاً ؛ مع أنه أحسن الفلاسفة الذين يعيشون فى العصر الحديث ، وليس فى هذا الكلام تناقض ، إذ لا تستطيع أن تحدد فلسفة شو كما تحدد فلسفة نيتشه أو كانت أو ديكارت أو برجسون ، وكل من هؤلاء قد ترك أثراً كبيراً أو طفيفاً فى عصره وبيئته ، ولكن شو قد ترك آثاراً جليلة فى الدنيا برمتها ، وسيعيش أدب شو ، ولكن أدباً كأدب ولز سيموت . ذلك أن أدب شو كتب لهذا الجيل وللأجيال القادمة ، أو قل إنه كتب للنفس البشرية

فى كل العصور ، ولكن ولز يكتب لهذا العصر الذى نعيش فيه فقط ، وقد ماتت كل كتبه التى دعا فيها إلى الأخاء الأممى . وها هى ذى الدكتاتوريات تبتلع آراءه وتغيبها فى أعماق الظلام . ولذلك كتبنا مرة أن ولز قد مات وكان ذلك يوم الاحتفال ببلوغه السبعين ، وكنا نقصد أنه مات بأفكاره وكتبه وقصصه لولا أن سها الصفاف فأغفل هذه العبارة

وفلسفة شو هى باقات يانعة من الآراء الاجتماعية منتثرة فى قصصه ودراماته ، وليست له نظرية محدودة كما للفلاسفة ، ولكن الذى يبرز بروزاً واضحاً منها هو كفره الصريح وإيمانه بأن الله هو الحياة نفسها ، وليس شيئاً آخر . ومع أن هذا الرجل متأثر إلى حد بعيد بالطهريين ، وهو إلى الآن ينحو نحوهم فى امتناعه عن إيذاء الحيوان والا كتفاء بالأغذية النباتية فانه يكفر بأفكارهم الدينية ويثور على تقاليدهم الاجتماعية بكل ما فيه من قوة وجلد . ولعلها ألف شو فى الحب ، وهو يستهزئ بالمحبين ، ولذلك لم ترج دراماته فى مصر خاصة ، وفى ممالك البحر الأبيض عامة ، ذلك لأن شعوب هذا البحر شعوب وجدانيون مولعون بالموسيقى والرقص والغناء والفنون ، وهذه كلها من آلات الحب ، ويدلنا ذلك أيضاً على رجحان العقل فى رأس شو على القلب فى صدره ، ولذلك لم ندهش يوم زار مصر وتفرج على آثار توت عنخ واحتقرها ، وقال إنه جدير بمصر أن تبيعها للأمريكان وتبنى بثمنها سدوداً على النيل أو تسدد بها ديونها . حقاً إن شو لكافر !

د . غ

البريد الأدبي

ذخائر أسبانيا الفنية

أثارت أهوال الحرب الاهلية الاسبانية جزع الكثيرين على مصير ذخائر أسبانيا الفنية والاذبية، ولكن السنيور كارلوس مونيثلو رئيس اللجنة التي ألفت للمحافظة على هذه الذخائر يؤكد لنا أن تراث أسبانيا الفني قد نجا من السلب والتخريب، وأنه اليوم حيثما يصان من كل عبث، ولم تفت هذه المشكلة الخطيرة حكومة مدريد حينما اشتدت وطأة الحرب الاهلية، فقد ألفت لجنة من العلماء والفنيين لتعنى بالمحافظة على تراث أسبانيا الفني؛ وبادرت اللجنة بنقل ذخائر الاسكوريال (ومنها المكتبة العربية الاندلسية) إلى مكان أمين؛ ولما اشتد هجوم الثوار على مدريد وتقاطرت قنابلهم على المدينة المحصورة نقلت اللجنة معظم الذخائر الفنية إلى بلنسية حيث تقوم الآن حكومة الجمهورية. ويقول السنيور مونيثلو إنه قد فقدت بعض الذخائر أو أتلفت خلال الحرب، ولكن من جهة أخرى وجدت ذخائر كثيرة كانت مدفونة في أعماق الاديار أو مخبأة في المجموعات الخاصة، وهذه وحدها تعدل كل مافقد أو أتلف أو تزيد عنه. وقد وجدت أيضاً عدة صور ومخطوطات ثمينة في المنازل والمكاتب الخاصة التي تركها أصحابها حينما اقترب الثوار من مدريد، ومنها مخطوطات كانت قد سرقت من المكتبة الوطنية. وقد سجلت هذه الذخائر كلها في قوائم سرية حتى لا يعرف بوجودها أحد، وحتى يبت في مصيرها متى وضعت الحرب أوزارها، ومما عثرت عليه اللجنة من الذخائر المجهولة مخطوط بأغاني برثيو أقدم شاعر أسباني، ومخطوط من كتب لوبي دي فيجا أعظم شعراء أسبانيا.

وقد زعم الثوار أن الجمهوريين أتلفوا ذخائر كنيسة طليطلة ومنها صورة الجريكو الشهير، ولكن السنيور مونيثلو يؤكد أن الجمهوريين غادروا الكنيسة سليمة بكل ذخائرها وحافظوا عليها حتى اللحظة الأخيرة، وحاولت اللجنة الجمهورية أولا أن تحمي المتاحف العامة بوضع أكياس الرمل وحظائر السمنت، ولكن إلقاء القنابل المحرقة كان يهددها بالدمار، فمنذئذ قررت نقلها من مدريد، ونقلت معظم الذخائر الشهيرة مثل صور موريليو، وفيلاسكيز، ونقوش جويا، وصور رافائيل كلها إلى بلنسية، ولما شبت النار في قصر دوقات ألبه من جراء قنابل الثوار، بذل الجمهوريون جهداً عنيفاً لانقاذ معظم ما فيه من الذخائر الفنية، وهكذا استطاعت الحكومة الجمهورية خلال الاهوال والخطوب أن تنقذ معظم تراث أسبانيا الفني ليبقى ذخراً لاسبانيا وللحضارة كلها

حول تنظيم المسرح المصري

نشرت مجلة «الكوميديا» الفرنسية في أحد أعدادها الأخيرة مقالا عن تنظيم المسرح المصري، ذكرت فيه أن المسيو جورج ريمون مراقب الفنون الجميلة بوزارة المعارف العمومية قد اقترح على الوزارة أن تنتدب الفنان الفرنسي الكبير المسيو أميل فابر المدير السابق لمسرح «الكوميدي فرانسيز» ليقوم بمهمة تنظيم المسرح المصري. والأستاذ فابر من أعظم الاخصائيين في فن التنظيم المسرحي، ومن أعظمهم مقدرة وافتنانا؛ وقد أشرف مدى أعوام طويلة على تنظيم مسرح الكوميدي فرانسيز وهو مسرح الدولة، وأحرز على يديه تقدماً باهراً. ولكن الذي يدعو إلى التأمل أن ينتدب المسيو فابر لتنظيم مسرح شرقي ذي تقاليد خاصة تمتزج بعادات الشعب وعقائده الدينية، ذلك أنه إذا كانت روح المسرح ومقاصده واحدة في مختلف المجتمعات، فانه يختلف في توجيهه وفي مظاهره وفي وسائله لتحقيق غاياته الثقافية، باختلاف الامم والشعوب، وهذا ما نرجو أن تفطن إليه وزارة المعارف

وقد صرح مسيو فابر لمكاتب الصحيفة المذكورة أنه قد خوطب فعلاً في قبول هذه المهمة وأنه قد يسافر قريباً إلى مصر

مجموعة شعرية فرنسية عن مصر

أصدرت السيدة إيمى خير الكاتبة الشاعرة المعروفة وعضو نادى القلم المصرى مجموعة شعرية جديدة بالفرنسية عنوانها «تعاريج النهر Méandres» ؛ وتحتوى هذه المجموعة على عشرات من القصائد والمقطوعات الساحرة فى وصف أيام مصر ولياليها، ومروجها وضفاف نيلها ؛ وعدة أخرى فى سعادة الأمومة ومتاعبها. ويمتاز نظم السيدة إيمى خير بالدقة والبساطة المؤثرة ؛ وهى فوق كونها شاعرة أديبة ممتازة، عالجت القصة وأخرجت منذ بضعة أعوام بالفرنسية قصتها المعروفة «سلمى وقريتها»

بعض أوراق البردى المصرية

كانت مكتبة ريلاند الشهيرة بمنشستر قد اقتنت فى سنة ١٩٠٧ على يد الدكتور رندل هاريس مجموعة من أوراق البردى المصرية، وبينما كان العلامة الأثرى الأستاذ روبرتس يعنى أخيراً بفحص هذه المجموعة إذ استوقف نظره قطعة سميكة من الورق القوى كانت قد وجدت فى تابوت مومياء، وظهر بفحصها أنها مجموعة من عدة أوراق البردى ألصقت معا، فتولى الأستاذ علاجها ووصل أوراقها، ولجأ فى ذلك إلى عدة عمليات صعبة دقيقة، وكلل مجهوده بالنجاح إذ أخرجت كل ورقة منها على حدة، ووجد أنها عبارة عن مجموعة أدبية شعرية ترجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد ؛ ومن بينها عدة مقطوعات من كتاب «الدوترونوم»، وعدة أخرى من الكتاب الأول من «الالياذة»، وقطعتان من مأساة يونانية قديمة، وقطعة من كتاب تاريخى، وبعض قصائد متفرقة ؛ فعولجت الأوراق جميعها، وألقيت عليها طبقة من الصمغ تمسك أجزاءها.

عصير البرتقال والدم الانسانى

هل يحل عصير البرتقال مكان الدم الانسانى؟ إن عملية نقل الدم الانسانى من شخص سليم قوى البنية إلى شخص عليل يحتاج إلى الغذاء الدموى ليست حديثة، فقد ظهر من النقوش والصور المصرية القديمة أنها لم تغب عن تفكير الطب المصرى القديم. ولكن هذه العملية تغدو اليوم من أهم الظواهر والوسائل الطبية فى عصرنا ؛ وفى برلين وحدها مائة شخص من الأقوياء يعطون دمهم للمرضى ؛ واشتهر من بينهم بالأخص شخص يدعى أدموند اكارث تبرع منذ سنة ١٩٣٣ إلى نحو خمسين مريضاً بدمه وخص كل منهم نحو نصف لتر، والمدهش فى أمر هذا الرجل أنه يعيش طبقاً لنظام خاص، ويشرب كميات كبيرة من عصير البرتقال والليمون، ويؤكد أن هذا العصير من أعظم المقويات الغذائية والدموية وهو يتناول منه نحو ثلاثين قدحاً فى اليوم. وقد أثارت حالة هذا الشخص دهشة الأطباء، ويتولى بعضهم فحصه ليرى مبلغ ما يمكن أن يؤديه عصير البرتقال فى تقوية الدم وغزارته

التدريم Manicure بمناسبة ما جاء فى افتتاحية العدد الماضى

أهم شئ فى (المنيكير) هو تسوية الأظفار بعد القص، فاذا وضعت لها لفظة (التدريم) مشت الحال

جاء فى القاموس المحيط: «درم أظفاره تدريماً سوَّاها بعد القص»

والاصطلاح والاستعمال سيشملان سائر تلك العناية باليد، وهل اللغات أصلها إلا تواضع واصطلاح، فيقال:

فن التدريم، تدريم اليد، درمت يدى، الآنسة المدرمة، الأوانس المدرمات، ما أجمل هذا التدريم

«وفوق كل ذى علم عليم»

أحمد الفراء

النشيد القومى

نشرت جريدة الأهرام هذا الخبر:

تلقى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف كتابا من لفيف من حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء هيئات التدريس بكليات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة الاسلامية والمعهد الأزهرى يرفعون فيه باسم اللغة والدين إلى معاليه أجمل عبارات الشكر والتقدير لاقراره النشيد القومى، حامدين لأعضاء لجنة التحكيم يدها البيضاء على البلاد وعلى رأسهم سعادة رئيس مجلس النواب

وقد طلبوا إلى معالى العرابى باشا تعميم النشيد بين جميع أبناء البلاد طلاباً وشعباً ؛ ثم رجوا فى آخر كتابهم أن تساير النهضة الوطنية الحاضرة نهضة دينية لتصبح البلاد مثلاً أعلى فى الفكر والدين والخلق

***

وهذا الخبر العجيب فى صورته العجيبة ، هو إجماع من لفيف من حضرات علماء الأزهر الشريف على أن النشيد لا غلط فيه ولا إلحاد ولا ضعف ولا ركاكة ، ثم هو إعلان للناس جميعاً ليقولوا سمعنا وأطعنا . . .

ومعنى هذا أن لفيفاً من حضرات علماء الأزهر يردون على مانشر فى «الرسالة» من غلطات هذا النشيد رداً لا برهان فيه إلا كلمة « العلماء »

وهل يكفى فى مثل هذا القرار أن ينسب إلى لفيف من علماء الأزهر ليقول للناس : « إنه لقول فصْل وما هو بالهزل » ؟ ونحن فى زمن العلم الذى قاعدته « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ؟ . . .

لقد نزل حضرات العلمــاء إلى المعركة ، فلنا أن نطلب منهم الرد على ماجاء فى « الرسالة » من غلطات النشيد واحدة واحدة .. فان لم يتفضلوا بذلك قلنا لهم الكلمة المشهورة : ولو أفتاك المُفْتون ... نعم ولو ! . . .

السيد زيادة

الاجتهاد فى الأصول

قال الأسـتاذ عبد المتعال الصعيدى (الرسالة ١٧٩) : وأن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل المجتهد إذا أخطأ أجراً واحداً وإذا أصاب فله أجران ، ولم يفرّق فى ذلك بين أصول أوفروع ، بل أطلق الأمر اطلاقا ، وفتح باب الاجتهاد فى الأصول والفروع معاً فأنكرت هذا القول أشد الانكار ، وعجبت منه أشد العجب

لأن الاجتهاد (فى تعريفه الأصولى) هو بذل الجهد فى طلب العلم بأحكام الشريعة ، وهو عبارة عن استنباط الفروع من الأصول ، ولأنهم ينصّون فى كتب الأصول (راجع كتاب الخضرى ، وهو أقرب المراجع ص ٤٥٧) ينصّون على أن المجتهد فيه هو كل حكم شرعى ليس فيه دليل قطع ، يخرج من ذلك ما لا مجال للاجتهاد فيه ممـا اتفقت عليه الأمة من جليّات الشرع ، أما المسائل الكلامية ، أى الأصول (راجع الخضرى ص ٤٦٢) فالحق فيها واحد ومن أخطأ فهو آثم ، فان كان الخطأ فيما يرجع إلى الايمـان بالله ورسوله فالمخطىء كافر

وقد ألحق الأصول بالفروع الجاحظ وأشباهه ، ممن لا يعتد بهم ، ويتضح بطلان مذهبهم لكل من كان واقفاً على شيء من علم الأصول

على الطنطاوى

هومير لابلاند

نعت إلينا أنباء السويد الأخيرة كاتباً من طراز خاص هو صائد الذئب والـكاتب اللابى الشهير يوهان تورى Johan Tuuri توفى ببلدته يوكاسيرفى فى قاصية لابلاند (شمال السويد) فى الثانية والثمانين من عمره ؛ وكان تورى فى شبابه من أشهر صائدى الذئب فى تلك الأنحاء الثلجية ، وكان كاتباً وشاعراً ماهما بالفطرة حتى أنه سمى « هومير لابلاند » ، وعرف تورى لأول مرة حينما أصدر كتابه الشهير عن الشعب اللابى بلغته الأصلية التى يجيد الـكتابة بها ، ويرجع الفضل فى حثه على تأليفه وإخراجه إلى آنسة دانماركية تدعى أميلى ديمانتهات عرفته فى رحلة لها إلى لابلاند حيث أقامت حيناً بين القبائل اللابية ودرست أحوال معيشتهم ، وعندئذ فاتحها تورى برغبته فى وضع كتابه عن حياة هذا الشـعب القطبى المدهش ، ولم يكن معتاداً على الـكتابة ولا على الجلوس إلى المكتب ، فشـجعته وعاونته حتى أتم الـكتاب ؛ ثم ترجمته إلى اللغة الدانماركية ، فنال نجاحا عظيما وذاعت شهرة مؤلفه فى الأمم الشمالية كلها

وكتب تورى بعد ذلك عدة كتب باللغـة اللابية أيضاً وترجمت جميعها إلى السويدية والنرويجية والدانمـاركية ؛ وأنعم عليه بوسام شرف لما أداه من مجهود فى التعريف بجنسه وأمته ؛ وكان فوق مواهبه الأدبية يشغف بالرسم ، وله عدة لوحات قطبية بديعة نالت تقديراً واعجابا

وكان تورى صياداً بارعا ويقال إنه قتل من الذئاب مالم يقتله أى صائد آخر فى عصره ، وكان فى أعوامه الأخيرة يعيش من راتب صغير أجرته عليه الحـكومة ، ويغذى نفسه بالأسماك التى يصيدها بنفسه ، وقد احتفل مواطنوه منذ عامين ببلوغه الثمانين فى حفلة قطبية رائعة أفاضت فى وصف طرافتها وبهائها الصحف السويدية .

وحى القلم

إلى المشتركين فى السودان

أرسلنا الـكتاب لحضرات المشـتركين فى السودان ودفعنا أجرة البريد تسعة قروش ونصف قرش عن كل نسخة ، مع أن كل مشترك لم يرسل لأجرة البريد غير ثلاثة قروش ولم نؤخر الـكتاب عنهم ثقة بهم ؛ فنرجو أن يتفضل كل منهم بإرسال الفرق ولهم الشكر

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعى

الكتب

وحى القلم

تأليف الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم

للدكتور عبد الوهاب عزام

أنا معجب بالرافعى منذ قرأت له . وأحذر أن يغطى الاعجاب على بصرى ، وتكل عين الرضا عن العيوب ، وقد اتهمت نفسى ، ولتكافئ التهمةُ الاعجاب ، ويعادل الحبَّ الارتياب

الرافعى نسيج وحده ؛ تقرأ له فتشعر أنك فى اختراعه وتصوره ، وبيانه وتفكيره ، لا يذكرك بأحد ، ولا يذكرك به أحد . وحسب الكاتب أن يكون كوناً مستقلاً يستملى الضمير ، ويُبدع فى التصوير ، وكثير من الكتاب قوالب تختلف أحجامها وأشكالها ، ولكنها صور مستعارة لا تفتأ تستمير مادة عملها

بين شعراء الفرس شاعر تسمّى « خلاق المعانى » ؛ والرافعىّ فى وحى القلم جدير بهذا اللقب . وما أعسر الخلْق هنا ، وما أصعب الابداع . يعمد إلى الحدث الصغير ذى المعنى المحدود فيحطم حدوده ويصله بالبشرية كلها ، أو يُشيعه فى العالم كله ، ويصوّره صوراً تلقى القارئ بجدّتها وروعتها . والكاتب الملهم يرى الخليقة أسباباً متصلة ، ومعانى متجاوبة ، وصوراً متجاذبة ، فما يبصر ذرة إلا رأى وراءها الفلك ، ولا يمسك شعاعاً إلا جذبه إلى الشمس ؛ وكأن كل شىء فى الوجود عين تطل على العالم غير المحدود . تنثال عليه الفِكَر وتتزاحم أمامه الصور ، فيكون همه أن يشق طريقه بين المعانى التزاحمة ، ويحدّ سبيله بين الطرق المتشعّبة ، وأن يطرد المعانى التى لا يريدها عن المعانى التى يقصدها . فهو من الخصب فى نصب — نصب الكاتب المقلّد من الاجداب والاجبال

العالم أمام الرافعى كتاب مفتوح ، يدرك فيه جمال الحروف وحسن السطور ، ثم ينفذ إلى ما لا ينتهى من المعانى . وما يزال يعرض المعنى الواحد فى صور رائعة حتى يدع القارىء معجباً حيران ، قد اجتمعت على القراءة خفقاتُ قلبه ، ونظرات عينه ، وأسارير وجهه . فلو أن الرافعى صور هذه الخفقات وبينَ هذه النظرات والقسمات لا ستردّ البيان الذى أفاضه على قارئه

والرافعى يغرب أحياناً ، أو يدقّ فينبهم معناه . وفى هذا ثورة بعض الأدباء عليه ، ولكن الذى آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه يؤمن أنه حين يغمض يتحيل لمعنى دقيق خفىّ لم تَرُضه الألفاظ ، ولم يذلّله الكتّاب ، أو يتلطف لفكر نفور آبد ليختله . وكثيراً ما يخيّل إلىّ وأنا أقرأ آبدات الرافعى أنى أُتبع بصرى طائراً يرتفع فى الأُفق ثم يرتفع حتى تُضمره السحب ؛ فلا تراه العين ولكنها تعرف أنه فى جوّ السماء . فان قيل إن هذا حُكم الاعجاب والرضى ، قلت فانى أتهم نفسى فلا أدفع عن هذه الأوابد . ولكن وحى القلم برىء من الغموض والانبهام ، وإنما أكتب اليوم عن وحى القلم

وهذا الكاتب النابغة نزّاع إلى الجمال ، طمّاح إلى الفضيلة ، مولع بكل خلق كريم ، فلا يعالج أمراً إلا حلّق به إلى الجمال والرأفة والرحمة والاحسان والحرية والأقدام وهلم جرّا

وقلبه فياض بالايمان والطهر ، فاذا كتب فى الدين وما يتصل به ارتقى إلى حيث تنقطع المطامع . اقرأ مقاله : « سمو الفقر فى المصلح الاجتماعى الأعظم » . إنها تملأ القارى إعجاباً ، وتسمو به حتى يحسب نفسه ملكاً محلّقاً يرى مآتم الناس ومصائبهم من حيث لا تتعلق به ولا تستهويه ؛ ولا يوفق لهذا البيان إلا مسلم ملهم كالرافعى ، يكتب فى حقيقة علوية كالنفس المحمدية . ثم اقرأ فى مقاله : « الله أكبر » وصف المسجد ونشيد الملائكة ؛ لقد قرأت فكانت تنبعث التكبيرة من قرارة نفسى ، فأمسكها مؤثراً الاستماع إلى هذا التكبير الذى يدوى به المسجد ؛ فلما انتهى

المقال لم أملك أن رفعت صوتى بآخر كلمة منه « الله أكبر »

هذه النزعات الملونة ، والسمو الروحى يتجلى فى مقالاته : الاشراق الالهى ، فلسفة الاسلام ، حقيقة المسلم ، وحى الهجرة ، فوق الآدمية ، درس من النبوة ، شهر للثورة ، ثبات الأخلاق

الرافعى كاتب الاسلام والعربية ، يتناول الحديث الصغير فى تاريخ الاسلام ومآثر العرب فيجعله عنوان فصل بليغ من الحكمة والموعظة ، يسايره فيه القارئ متعجباً : كيف ولدت الواقعة الصغيرة هذه المعانى التى تحاول أن تكون تاريخ جيل ؟ . اقرأ « زوجة إمام » و « السمكة » . واقرأ « ياشباب العرب » و « يأيها المسلمون »

وهذا الكاتب السماوى أبرع الناس تحليقاً بالحب الطاهر ، وأعظمهم ترفعاً به ، وأبصرهم بالمهاوى والمهالك التى يحلق عنها هذا الحب العلىّ الأبىّ . نظرة إلى السماء تصف العلاء والصفاء والطهر والسمو الروحى الذى لا يحد ، ونظرة إلى الأرض تصف السقوط الحيوانى ، والهوى الشيطانى ؛ فترى القارئ مدعواً الى السماء ، مطروداً عن الأرض ، طائراً إلى الخير ، نافراً عن الشر

وإذا وصف صاحبنا الجمال ، بث فى العالم معانيه ، ونفض عليه ألوانه ، فكأنما خلق العالم خلقاً جديداً . يخلق من الشعاع شمساً ، ومن القطرة نهراً ، ومن الوردة حديقة ؛ ثم يفرد فلا يُدرى أهذا التفريد تفسير هذا الجمال ، أم هذا الجمال تصوير هذا التفريد . ولا يدرى القارئ أهو فى ربيع باهر ، أم فى بيان ساحر ؟ . وما أشبه قلمه وهو يشقق النظر المُقفل عن مرائر الجمال بإبرة الحاكية ، تسلط على الصفحة الجامدة السوداء فتردّها كلاماً وأنغاماً وألحاناً ؛ واقرأ « عرش الورد » تر كيف جعل ابنته على عرشها مركزاً يحيط بها الجمال فلكا دائرا

ولله مصطفى حين يتغلغل فى الجماعات ، فيجس آلامها ، ويصف أسقامها ، ويعرب عما فى ضمائر البائسين ، وعما فى رءوس المتكبرين ؛ ولا يزال بالمعنى الذى يراه الناس جمادا ، يقدحه حتى يخرج منه النار والنور . ويأخذ الحادثة الصغيرة ينطقها بما وراءها ، ويكشفها عما انطوت عليه حتى يقيم بها للانسانية عرساً أو مأتماً . اقرأ « أحلام الشارع » تسمع أنات البشرية وتر عبراتها وتلمس مصائبها مصورة ملونة بدم المهج وماء العيون ونار الزفرات وحز الحسرات وسواد الفاقة والذلة ؛ ثم تسمع لعنة الانسانية على لسان ما خلفت الانسانية من قوانين . والعجب أنك كلما أسال الحزن عبراتك طبع البيان الساحر على شفتيك بسمة إعجاب لا تملك نفيها . واقرأ « عربة اللقطاء » تر أنه صاغ من أسارير هم حروفا للهجاء تسع كل معنى ، وتتمثل الآثام التى ولدت هؤلاء ، والمصائب التى يحملها هؤلاء ، والمفاسد التى سيلدها هؤلاء . وتقرأ « لحوم البحر » فتستمع إلى الشيطان والملك ، كل ينشد أناشيده . ويستخرج الرافعى منها دعوة إلى الفضيلة ولعنة للرذيلة ، وهو قادر على تسخير الشيطان لبيانه . فقد أعطى فى البيان مُلك سليمان .

وإذا وعظ مصطفى الصادق نفذ إلى السرائر ، وصور للانسان فضائله ورذائله تصويراً لا يدع له أن يختار إلا الأولى وأن يهجر إلا الثانية . وهو لا يعمد إلى النذُر يصبها على النفس صب السياط ، بألم لها الجسم ، ويموت القلب ، بل يعمد إلى الحياة يصورها هنا على حقائقها نافياً عنها تلبيس إبليس ، وإلى القلب ينفخ فيه العظمة ، ويبث فيه الفضيلة والطهارة والطموح إلى كل خير ، والنفور من كل شر . واقرأ له « وحى القبور »

وهذه المقاصد الجليلة والنزعات السامية تخالطها دعابة دقيقة ، وسخرية نافذة ؛ ترى الكاتب يرتفع فوق العالم ثم يسخر مما عبّد الناسَ من أباطيل وأهواء ، فاذا التماثيل التى يسجدون لها تهاويل ، وإذا الهول الذى يفزعون منه تهويل ، وإذا العظمة والكبرياء والسلطان والجاه والغنى وكل ما عدّه الاجتماع عظمة لقوم وحقارة لآخرين ، أضاحيك يخلقها الجهل ، ويهدمها العقل ، ويقدسها الانسان حيواناً ، ويحطمها الانسان إنساناً -- وأعوذ بالله من الرافعى إذا انطلق ساخراً يرسل بيانه طمنات درا كا وهو يضحك ضحك البرق فى السحاب الراعد ، أو لمع السيف فى يد الضارب .

* * *

وبعد ، فهذا وصف الروض فى كلمات لو كانت أزهاراً ما مثلته ، ونعت البحر فى سطور لو كانت أمواجاً ما صوّرته . فأما الروض فى بهجة جماله ، والبحر فى روعة جلاله ، فهما ماخطه الرافعىّ . فان شئت فقل جنات فى صفحات ، وعباب فى كتاب ؛ وإن شئت فقل إنه العالم فى سطور قد انتظم ، ووحى إلهى سماه الرافعى « وحى القلم »

« ذلك الفضل من الله »

عبد الوهاب عزام

العالم المسرحي والسينمائي

نشيد الأمل

إنتاج شركة أفلام الشرق

لناقد الرسالة الفني

السيناريو والإدارة الفنية (الإخراج)

تحدثنا في العدد الماضي عن قصة الفلم التي أخذ عنها السيناريو، ولكن القارىء فيما أعتقد يرى أن هناك بعض نواح كان من الخير إهمالها، مثل مناظر عصابة تجار المخدرات

إن سر نجاح الأفلام الفنية أنها تؤدى رسالة واحدة وتشبع فيها ناحية واحدة هي ناحية الفن الخالص، ولكن الأستاذ بدرخان عندما كتب سيناريو «نشيد الأمل» وأدار الفلم أعطى بعض المناظر أهمية لا تستحقها، وأخذ لها صوراً كثيرة؛ فتصويره للاستديو وشركة الطيران والباخرة النيل جعل من الفلم أداة دعاية، ونحن يسرنا بالطبع هذه الدعاية لمؤسسات مصرية وطنية ناجحة نؤيدها ونعتز بها، ولكن يؤسفنا أن نقلل من القيمة الفنية لأفلامنا بمثل هذا التصرف

وهو كذلك لم ينصف شخصياته، فتراه في دور الدكتور عاصم — وهو الشخصية الرئيسية الأولى في القصة — قد اختزله وجعله ثانويا في حين جعل دور المخرج دوراً رئيسياً وجارى غيره

مجموعة قصص

من الأدب الحديث

تأليف السيد عبد الوهاب الأمين

مؤلف هذا الكتاب شاب عراقي من أولئك الشبان الذين يكتبون القصة، ويكتبونها للفن، ويسمون بفنهم وتفكيرهم وعمقهم عن مستوى الجماهير. وفي الكتاب خمس عشرة قصة، منها الموضوعة ومنها المترجمة، والمترجمة منها لكبار كتاب القصة القصيرة في الغرب ونحوهم؛ وناهيك بتشيكوف، وبيراندللو، وويلز، وموبسان من أسماء!.. ولقد ترجم المترجم وتخير أحسن روائع هؤلاء وأمسها بمشاعرنا وإحساساتنا، ولا ينقصه في عمله هذا إلا المراجعة الدقيقة وتخير الألفاظ، وصقل الأسلوب

أما القصص الموضوعة: فكلها تصور تقريباً شخصيات مريضة مضطربة كثيرة الهواجس والخواطر والشرود الذهني، ولهذا كانت القصص تحليلية فيها عمق وبراعة وصدق، ولا يعوزها كذلك إلا عرض الصور الذهنية قوية على القرطاس كقوتها في ذهن الكاتب . . .

ولا يمنعنا هذا من أن نقول: إن هذا القصصي الشاب من أحسن الشبان في الشرق العربي الذين يفهمون القصة على أحسن وجه، ويتأثرون تأثراً عميقاً بكتاب القصة الانجليز والروس الذين سموا بالقصة وبلغوا بها نهاية مجدها؛ كما أننا نكبر فيه إخلاصه للفن القصصي الذي دفعه إلى الكتابة بهذا العمق وهذا الابداع وهذا اللون الجديد من الأدب، مع علمه بأن الجماهير في الشرق العربي على الاخص لا تستسيغ القصة التحليلية ولا تتأثر بها، مع أنها خلاصة الفن ونهاية الرقي في هذا الميدان الأدبي؛ وهو مع شبان قليلين في مصر يستحقون كل إعجاب وإكبار

والكتاب في اثنتين وتسعين صفحة من القطع المتوسط، وهو مطبوع بمطبعة الثغر بالبصرة على ورق مصقول

(م)

من المديرين الفنيين المصريين فى استغلال عناصر الضحك فى الفلم إلى أبعد حد بإفساح المجال للشخصيات الهازلة . وأعتقد أن بدرخان وفق فى كتابة سيناريو « وداد » أكثر مما وفق فى كتابة سيناريو « نشيد الأمل » ولا سيما فى خلق مناسبات الغناء ، فهى فى الأول تكاد تكون طبيعية جداً على عكسها فى الثانى إذا استثنينا الأغنية الأولى

لم أرد بهذا النقد إلا توجيه نظر المدير الفنى وكاتب السيناريو إلى ما كنا ننتظر منه وما كانت نفوسنا تصبو إليه ، وأن نشرح له وجهة نظرنا فى صراحة ، ولا سيما وهذا أول عمل يقوم به حتى يكون غيره من المديرين على هدى فى عمله القادم وأقرب إلى الكمال . وأنا على ثقة من أن الأستاذ بدرخان سيحمله على المحمل الصادق الذى أرمى إليه

والنواحى التى أبدع فيها بدرخان هى نواح فنية خالصة ، وهى الاضاءة وزوايا التصوير ؛ فهو يستحق فى هاتين الناحيتين أطيب الثناء ، ونجاحه فيهما يرفع قيمة الفلم ويغطى على كل تصرف أو نقص آخر ، ويبدو جلياً أن الصور التى أخذت الآنسة أم كلثوم فى « نشيد الأمل » أبدع وأحسن من الصور التى أخذت لها فى « وداد »

الأغانى :

ليس فى أغانى الفلم نوع جديد ، فهى من النوع الذى اعتدنا سماعه على التخت ومن الاسطوانات . وكان الواجب على من يلحن أدواراً للفلم أن يتذكر أنه يلحن لممثل أو ممثلة وظيفتهما فى الفلم أن يترجما عن العواطف وما يضطرم فى النفس من متباين الأحاسيس ، وليس الغرض ربط نغمات يلذ للأذن سماعها . فلعل الأستاذ القصبجى والأستاذ رياض السنباطى يتنبهان إلى هذه الحقيقة ؟ !

أما الغناء فان الآنسة أم كلثوم قد ملكتنا بصوتها الرائع ، وقد تحدثنا فى العدد الماضى عن هذه الناحية وأفضنا فيها

التمثيل

لا شك أن الآنسة أم كلثوم نجحت فى هذا الفلم كممثلة نجاحا طيباً ، وإن كانت حركاتها مقيدة بعض الشيء ، ولو تركت لنفسها الحرية لكانت مواقفها أبلغ فى النفس أثراً ، ولكنها فى هذا تخضع لأوامر المخرج حتى تكون دائما مواجهة لعدسة الصور حيث تبدو شخصيتها أروع وصورها أجمل

والأستاذ زكى طليمات مثل دور الدكتور عاصم ، وقلنا إن الدور مقتضب ليس فيه مجال يبرز فيه الممثل مقدرته وفنه ، ولكنه أحسن القيام فى النصيب الذى خص به ؛ وقام فؤاد شفيق بدور المخرج السينمائى فكان خفيف الظل ، وقد نجح نجاحا كبيراً كاد يغطى على غيره من الشخصيات ؛ وقام محمود رضا بتمثيل الدكتور محبوب وهى الشخصية التى نقلها رجال الشركة عن شخصية الدكتور الفاضل محجوب ثابت طبيب الجامعة المصرية ، فكان عذب الروح تمكن من اضحاك رواد الفلم ، ولكنه فى الحقيقة لم يستطع أن يصل إلى روح الدكتور محجوب وإن قلد بعض حركاته

واسطفان روستى قام بدور الممثل أمام الآنسة أم كلثوم ، وكان فى حركاته متكلفاً ففشل فى اضحاك الجمهور ، وغالى عباس فارس فى تصوير شخصية الزوج وإن نجح فى أدائها ، والطفلة سلوى كانت مبدعة وخفيفة ولعلها أحسن من أجاد فى الممثلين

يوسف

5 me Année, No. 187

Lundi - 1 - 2 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

بدل الاشتراك عن سنة
صـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ١ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

قرآن الفجر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كنتُ فى العاشرة من سنّى وقد جمعتُ القرآنَ كلّه حفظاً وجوّدتُه بأحكام القراءة ؛ ونحن يومئذ فى مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة ؛ وكان أبى رحمه الله كبير القضاة الشرعيين فى هذا الإقليم . ومن عادته أنه كان يعتكفُ كل سنة فى أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان ؛ يدخل المسجد فلا يَبرحهُ إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم ؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق ، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد ، ويُطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ، ويغير الحياة فى عمله وفكره ، ويهجر تراب الأرض فلا يمشى عليه ، وترابَ المعانى الأرضية فلا يتعرض له ، ويدخل فى الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس ، ويستقر فى المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير ؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطَّبَ الروح بالوضوء ، المدعوَّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية ، المنحنيَ فى ركوعه ليخضع لغير المعانى الذليلة ، الساجدَ بين يدى ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم

وما هى حكمة هذه الأمكنة التى تقام لعبادة الله ؟ إنها أمكنة قائمة فى الحياة ، تشعر القلب البشرىّ فى نزاع الدنيا أنه فى إنسان لا فى بهيمة . .

٭٭٭

وذهبتُ ليلةً فبتُّ عند أبى فى المسجد ؛ فلما كنا فى جوف الليل الأخير أيقظنى للسَّحور ، ثم أمرنى فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته . فلما كان السَّحَرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور : اللهمّ لك الحمد ! أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد ، أنت بهاء السموات والأرض ؛ ولك الحمد ، أنت زينُ السموات والأرض . ولك الحمد ، أنت قيامُ السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومنك الحق . إلى آخر الدعاء .

وأقبل الناس يتتابعون المسجد فانحدرنا من تلك العِلّيَة التى يسمونها (الدِّكّة) وجلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجدُ فى ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت فى كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلا يبَص بصيصاً كأنه بعضُ معانى الضوء لا الضوء نفسهُ . فكانت هذه القناديل والظلامُ يرتج حولها ، تلوح كأنها شُقوق مضيئة فى الجو ، فلا تكشف الليلَ ولكن تكشف أسراره الجميلة ، وتبدو فى الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يُومىء إليه ولا يُبَيِّنُهُ ، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد فى ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرّ يشف عن سر

وكان لها منظر كمنظر النجوم يُتِم جمالَ الليل بإلقائه الشُّعَلَ فى أطرافه العليا وإلباس الظلام زينتَه النورانية ؛ فكان الجالسُ فى المسجد وقت السَّحَر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويُحس فى المكان بقايا أحلام ، ويسرى حوله ذلك المجهول الذى سيخرج منه الغد . وفى هذا الظلام النورانى تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روحُ المسجد ، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقَدَر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه ، مجتمعاً فى حواسه ، منفرداً بصفاته منعكساً عليه نورُ قلبه ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضىء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على أبواق الأرض .

ثم يشعر بالفجر فى ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً نديّاً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنضرَ من يُبْس ، ويرقَّ من غلظة . وكأنما جاؤوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتَحاً بالجمال ؛ فاذا كان شاعر النفس التقى فيه النورُ السماوىّ بالنور الانسانى فاذا هو يتلألأ فى روحه تحت الفجر

٭٭٭

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن فى جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم فى مناطها من الفلك ، وتلك السُّرُج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون ، عليهم وقارُ أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه ؛ وقد استبهمت الأشياء فى نظر العين ليلبسها الإحساس الروحانى فى النفس ، فيكون لكل شىء معناه الذى هو منه ومعناه الذى ليس منه ، فيُخلق فيه الجمالُ الشعرى كما يخلق للنظر المتخيل

لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث فى جو المسجد صوت غَرِد رخيم ، يشقّ سُدْفةَ الليل فى مثل رنين الجرس تحت الأفق العالى ، وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنَةِ وجادلْهم بالتى هِى أحسنُ ، إن ربّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثْل ماعُوقبتم به ؛ ولئن صبرتم لهُوَ خيرٌ للصابرين . واصبرْ وما صبرُكَ إلا بالله ، ولا تحزَنْ عليهم ، ولا تكُ فى ضيْق مما يَمْكرُون . إنَّ الله مع الذين اتقوْا والذين هم محُسنون . »

٭٭٭

وكان هذا القارىء يملك صوته أتمّ ما يملك ذو الصوت المطرب ، فكان يتصرّف به أحلى مما يتصرّف القمرى وهو ينوح فى أنغامه ، وبلغ فى التطريب كلّ مبلغ يقدر عليه القادر ، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت ؛ وما كان إلا كالبلبل هزّته الطبيعة بأسلوبها فى جمال القمر ، فاهتزّ يجاوبها بأسلوبه فى جمال التغريد

كان صوته على ترتيب عجيب فى نغماته ؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ، ويضطرب اضطرابا روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجاة . يصيح الصيحة تترجح فى الجو وفى النفس ، وتتردد فى المكان وفى القلب ، ويتحول بها الكلام الألهى إلى

أنا والأحمر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

غضبت علىّ ذات دل وحسن . ومن النساء من تدل ولا حسن لها . ومنهن الجميلة التى لاتدرك قيمة ماوهبها الله ؛ ولكن هذه عارفة مدركة أصح إدراك وأدقه . وآية ذلك أنها لاتنفك تؤكد خصائص جمالها وتبرزها بألوان الثياب ، وأسلوب التفصيل ، وبطريقة تسريح الشعر وفرقه ، وبحركاتها ومشيتها ولفتة وجهها ، والجانب الذى تؤثر أن تمنحكه منه ، وبابتسامتها وخطرتها ووقفتها ، وبالصورة التى تعرضها على عينك وهى متكئة على ظهر كرسى أو خافة شرفة ، إلى آخر ذلك إذا كان له آخر

وسر هذا الغضب أنها تؤمن بالدلال — كما لايسعها إلا أن تفعل — وأنى أنا أومن بقول المتنبى عليه ألف رحمة :

زودينا من حسن وجهك ماداً م فان الجمال حال تحول

وصلينا نصلك فى هذه الدنيا فان المقام فيها قليل

فلها عقلها وطبيعتها ، ولى عقلى وطبيعتى ؛ ومن أجل ذلك نحن مختلفان متجافيان - ترانى فتعرض عنى ، وأراها فأتجاوزها بعينى ، كأنها ليست هناك ؛ وتراجع نفسها أحياناً فتصفو وتقول عفا الله عما سلف ، وتومئ إلى إيماءة تجعلها خفيفة خفية من الكبر والتردد ، فأتجاهل وأتعامى وأتباله ، فترجع إلى شر مما كانت فيه من الغضب والسخط ، وتمنحنى كتفها أو توليني ظهرها ، وتمضى الايام على هذا التقاطع الشديد - أخرج إلى الشرفة وتكون هى مطلة من النافذة فتأخذنى عينها ، فما أسرع ما تتناول مصراعى الشباك وتغلقهما بعنف لا داعى له سوى أنها تريد أن تسمعنى صوت الاغلاق لأدرك معناه . وأكون أنا فى الشرفة فتظهر فى نافذتها أو شرفتها ، فلا أكاد أراها حتى أعبس وأمط بوزى . كان من سوء حظى ألا أستطيع أن أقف فى الشرفة دقائق من غير أن تسد الفضاء أمامى ، ثم أدور دورة سريعة وأرتد إلى الغرفة ملتمساً الوقاية من جدرانها

ولم يكن هذا حالنا من قبل ، بل كنت أقبل عليها فتهش لى وترينى وميض أسنانها والتماع عينيها ، وكنت ألقاها فتدنو منى حتى لأحس أنفاسها العطرة على وجهى ، وتضع راحتها البضة على قلبى وتقول لى : « كيف حال هذا المسكين الذى لا يمل الدق بل الوثب ؟ »

فأقول « أتريدين أن يمل »

فتقول « أعوذ بالله . . ما هذا الكلام ياشيخ . . »

فأصرف الكلام عن وجهه وأقول « إنه يدق لى ولك ، فلا عجب إذا كان يتوثب »

فتبتسم لى - فى عينى - وتقول : « ألا يمكن أن يفتر ذكرك لى - يفتر قليلا - ليرتاح هذا القلب بعض الراحة . . إنه عنيف الدق وأنا أشفق عليه »

فأقول « لا تخافى عليه ولا تجعلى اليه بالك . . دعيه يدق فان هذا عمله وواجبه فى الحياة »

ثم نمضى معاً إلى حيث يروق القعود ويطيب الحديث وتحلو النجوى ويحسن الغزل ، ونرجع ضاحكين وتنام ملء عيوننا

شىء حقيق ، يلمس الروح فيرَفض عليها بمثل الندى . فاذا هى ترف رفيفا ، وإذا هى كالزهرة التى مسحها الطل

وسمعنا القرآن غضًّا طريًّا كأول مانزل به الوحى ، فكان هذا الصوتُ الجميلُ يدور فى النفس كأنه بعضُ السرّ الذى يدور فى نظام العالم . وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى فى كلامه ، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضىء من هذا النور .

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التى فى الخارج من المسجد وبطل باطلها ، فلم يبق على الأرض إلا الانسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛ وهذه هى معجزة الروح متى كان الانسان فى لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية

أما الطفل الذى كان فىَّ يومئذ فكأنما دعى بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذى يجىء فيه من بعد . فأنا فى كل حالة أخضع لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا فى كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : واصبر وما صبرك إلا بالله .

طنطا **مصطفى صادق الرافعى**

وقلت لها مرة « لماذا هذه المساحيق كلها .. ماحاجتك إليها ؟ كيف يمكن أن يفتقر إلى زيفها هذا الوجه الخارج من الفردوس؟

فضحكت وقالت « أهو زيف .. ؟ »

قلت مغالطاً « إنه تأكيد لا حاجة بك إليه »

قالت « يا خبيث .. اعترف أنك تريد أن تقبل فمي وتخشى أن يعلق بشفتيك الأحمر ! »

قلت « ألا يكون مجنوناً أو أعمى ذاك الذى لا يشتهى أن يقبل هذا الفم الجميل ! »

قالت « لا تغالط .. دع العموم إلى الخصوص »

قلت « أتعمدين أن تضعى هذا الأحمر إذن ؟ »

قالت « لا .. هى عادة ليس إلا .. »

قلت ملحاً : « أتكرهين أن أقبلك .. أو بعبارة أصرح فان عفريت الصراحة ركبنى اليوم .. ألا تشتهين هذه القبلة التى تقيمين فى سبيلها الحواجز وتضعين الأسلاك الشائكة أو الأصباغ العالقة ؟ »

قالت « مالك اليوم .. ما ذا جرى لك ؟ »

قلت : « إن الذى جرى لى هو هذا .. أنت تعرفين أنى أحب فمك .. وأنت لا تكرهين أن أضع شفتى على شفتيك .. وتعرفين أيضاً أنى شديد الكره لهذا الأحمر السخيف ، وتعرفين فوق هذا أن إزالته سهلة إذا هو علق بفمى منه شىء يسير أو كثير ، ولكنى مع ذلك أكرهه لله .. هكذا أنا .. خلقنى الله كذلك ولا حيلة لى .. فلماذا تصبغين به شفتيك على الرغم من ذلك .. ليس الأحمر فى ذاته هو الذى يضايقنى ولكن تعمد وضعه . إذا كان الدلال هو الباعث على ذلك فان الدلال ميسور بغير الأحمر . وعلى أن الدلال حسن وجميل ، وهو يشحذ الرغبة ويقوى الحب إذا كان فى حدود الاعتدال ولم يجاوز المعقول أو المحتمل .. أى ما يسهل على الرجل احتماله بلا عناء شديد أو مرهق ، ولكن المرأة لا تفهم هذا مع الأسف ، وهى لا تزال تلح فى الدلال وتلح وتلح حتى يسأم الرجل وتنتفخ مساحره ويتعذر عليه الصبر ويضيق صدره فيفتر حبه ، لأنه يكلفه فوق ما تطيق أو ما يمكن أن تحتمل طبيعته ، فتذهب المرأة تقول غدر الرجال وعدم وفائهم وتقلبهم ؛ ولو أنصفت للامت نفسها ولأدركت أنها هى التى أملته وأزهقت روحه »

فقطبت وقالت « أهذا تهديد ؟ »

قلت « وهذا خطأ آخر .. فليس فيما أقول تهديد وإنما هو عجب واستغراب يدعو إليهما اختلاف الطبيعتين .. »

فقاطعتنى وقالت « قل إن طبيعتك المتجبرة تريد أن تجعل منى ملهاة لنفسك لا تخالف لك إرادة ولا تعصى لك أمراً .. »

فقاطعتها وقلت : « كلا : ليس هناك تجبر ولا شبهه ، إنما أشرح لك ما تغريك به طبيعتك وما تغرينى به طبيعتى .. »

ولا أحتاج أن أروى كل ما قالت وقلت ، فان فى مقدور القارىء أن يتصور ذلك ، وأكبر الظن أن تجارب مثل هذه مرت به وعاناها ، فما تعيش المرأة بغير رجل ولا الرجل بغير امرأة إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ؛ ومتى عاش رجل وامرأة فلا مفر من أن تسوقهما الطبيعتان إلى الشجار والنقار فى بعض الأحيان ، وأكثر ما يحدث ذلك من جراء توافه لا قيمة لها ، ولا يجرى فى الخاطر أن تجر إلى خلاف .

وقد حاولت يومذاك أن ألاعبها وأمازحها بعد فتور الحدة وذهاب السورة ، ولكن تعبى ذهب عبثاً ، ورجعنا وقد أيقن كل منا أن هناك سراً أعوص لما أبدى صاحبه من الجفاء وضيق الصدر .

ولقيتها بعد ذلك ، فقلت لنفسى إن العتاب يجدد مرارة الخلاف ، ولم يكن لى ولا لها مفر من الكلام والنفاق ، فقد كنا فى حفل حاشد من المعارف والأهل ، وانفض السامر فناولتها ذراعى وقلت « تعالى فأن بى حاجة إلى الهواء الطلق » فابتسمت ، فتوهمت أنها نسيت ما كان بيننا أو آثرت مثلى أن تطويه . وإذا بها تقول لى أول ما تقول ونحن فى السيارة « إنك مستبد » فعجبت وقلت : « كيف ؟ لقد كنت أظن أنى من ألين من خلق الله وأسلسهم قياداً » فصاحت بى « أنت .. تقول إنك لين سلس القياد .. أعوذ بالله .. »

قلت وأنا أحاول أن أصرفها عن هذا الموضوع الشائك « طيب .. آمنا وسلمنا .. مستبد مستبد . كما تشائين .. والآن يا جاحدة .. »

وكنت أنوى أن أمازحها . ولكنها قاطعتنى بسرعة وحدة : « جاحدة .. لماذا بالله .. هه »

فقلت لنفسى إن ليلتى لا شك سوداء . . وأنا رجل أكره الجدل العقيم ولا يثقل على نفسى شىء مثله ، ولست أعرف لى صبراً عليه ؛ غير أنى ضبطت نفسى ولم أدع عنانها ينفلت من بين أصابعى فقلت : « معذرة . . إنى أضحك ولا أعنى ما أقول »

قالت « واعترف أنك مستبد »

قلت « إذا كان الاعتراف بما ليس فى يرضيك ، فها أنذا أعترف وأمرى إلى الله »

قالت « كلا . . إنما أريد اعترافاً صريحاً لا مكابرة ولا تحفظ فيه »

قلت « فليكن ؛ ولكن ما خيره ؟ . ماذا يفيدك أن أقول لك بأنى مستبد ؟ . أما إن هذا لغريب »

قالت « اعترف والسلام . . لست أريد فلسفة »

قلت « اعترفنا ياستى . . فهل راق مزاجك ورق »

فضحكت وقالت : « نعم » قلت : « إذن امسحى الأحمر الذى صبغت به شفتيك ، أو دعينى أمسحه لك بهذا المنديل . . إنه نظيف »

قالت « كلا » وأصرت على الرفض والتأبى فقلت : « ألا تدركين أنك مغرورة ؟ » فاحمر وجهها كأنما أفرغت على وجنتيها كل ما فى الدنيا من الأحمر ، فقلت وقد تعمدت أن أثقل عليها : « نعم مغرورة . . ولم أكن أحسب شوقى رحمه الله صدق فى قوله : والغوانى الخ . . تعرفين الباقى . . وأحسبك تتوهمين أن حياتى رهن بأن تمسحي هذا الأحمر . . أو أن روحى معلقة بشفتيك وما يكون أو لا يكون عليهما من الأصباغ السخيفة . . ثقى أن الأمر ليس كذلك . . إنما أنصح لك بمسح الأحمر لأنه . . . »

وأمسكت إشفاقاً عليها من اللفظ القاسى الذى كان على لسانى فسكتت ولم تقل شيئاً

والغريب أنها بعد أن نزلت أمام منزلها وودعتها تعمدت أن تقف هنيهة قبل أن تدخل من الباب وتخرج منديلا صغيراً وتمسح به الأحمر عن شفتيها وفى يدها الأخرى مرآة الحقيبة وكان هذا آخر عهدى بلقائها وكلامها

ولا تزال المعركة ناشبة ، وأحسبنا سنمل هذه الحرب الباردة ـ حرب الشفاه الممطوطة والأكتاف المهزوزة والأشاحة بالوجه والاعراض بالعين وتقطيب الحواجب وتجعيد الجبين ، إلى آخر هذه المناظر المضحكة ، ولولا أنى لا أعدم القدرة على رواية الجانب المضحك لانفلقت ، ولكنت حرياً أن ألقى السلاح وأعدل عن الكفاح ، ولكنها هى متكبرة . . أوه جداً جداً . . وأنا كما تعرف . . دائم الضحك ـ هذا أولا ـ وأما ثانياً فانى لا أنفك أقول لنفسى : لقد عشت قبل عهدها دهراً طويلا لا تحس بالحاجة إليها ولا تعرف أنها موجودة . وإنك الآن لتحيا بغيرها ، ولا تعدم نعيما تفيده بدونها ومن غير طريقها ، فماذا ينقصك ولماذا تعنى نفسك بالتفكير فى الأمر كله ؟ . . دع كل شىء للظروف والمصادفة . . ولكن ما يكون . . . ولكن يخطر لى أحياناً أنى قد ألقاها ولا أرى على شفتيها هذا الأحمر ، فماذا يكون العمل حينئذ ؟ . أقول لك . . دع هذا أيضاً للمصادفة وإلهام الساعة ، إن التدبير هنا قلما يجدى أو يصح . .

ولكن ضحكى يحنقها ، وابتسامى يثير سخطها ، وأنا لا أستطيع أن أكره نفسى على التعبيس بلا موجب ، وهذا هو البلاء والداء العياء ، فانها تتوهم أنى أسخر منها فتزداد لجاجة فى الصد والاعراض ، وأحسبنى سأظل هكذا أبداً . . أفسد على نفسى متع الحياة بسوء تصرفى وقلة حكمتى ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

الانسان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إذا ما استقر الإنسان في موطن آمن، وارتقت عقليته، لم يعد يكتفي بتوفير حاجاته الجسدية واتقاء قوارع الطبيعة، بل بدأ يفكر في نفسه ومنشئه وغايته؛ لم يعد يكتفي بقبول الحياة على علاتها ومداراة غوائلها، بل راح يتساءل عن ماهيتها وغايتها وما بعدها، وأجاب عن تساؤله ذاك بما تتيح له عقليته البدائية من تفسيرات فطرية، بعضها صادق وأكثرها وهمي؛ ثم ما يزال كلما ترقى في مدارج الفكر يعاوده الشك من حين إلى حين في تلك التفسيرات، ويثور على عقائده المتوارثة، ويتناولها بالتعديل والتهذيب، فيكون من ذلك الدين والفلسفة

ويشارك الأدبُ الدينَ والفلسفة في التعبير عن تأمل الإنسان في نفسه، وتساؤله عن نشأته ومصيره، فيحفل الأدب شيئاً فشيئاً بآثار تفكير الانسان في الحياة والموت، وافتخاره بقوته وسيادته، وجزعه من ضعفه وقصور حيلته، واعتداده بمبتدعاته في مجال العلم والفن والصناعة، وارتياعه من تضاؤل آثاره تلك جميعاً إزاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون؛ وتصطبغ تأملاته تلك في عالم الأدب بصبغة البشر والتفاؤل حينا، وبصبغة التشاؤم والقنوط حينا، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والاقبال على أسباب المتعة والحبور، أو دواعي الانخذال وسقوط الهمة وفتور العزيمة، وحسب ما يخالج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارىء، وتشاؤم مصاحب أو عارض.

فتأمل الانسان في نفسه، وتساؤله عن مكانه في الكون، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه، كل هاتيك من أظهر ميزات المجتمع المتحضر والأدب الحي. وقد كان ذلك الاهتمام الملحّ بالانسان: قواه وطباعه ومواطن ضعفه، ومفاخره ومعايبه ومصائره ومطامحه، من أبرز ظواهر الحضارة الاغريقية وخصائص الأدب الاغريقي والفنون الاغريقية، ففيها تنويه بالجمال الانساني وترنم بالبطولة الانسانية، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائص الانسان ومغامزه، وفيها إشادة بما تمهد له الحياة من أسباب المجد والابتداع والتمتع والسرور، وتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصَغر وقهر وآلام، وما تبسط له من لجاج الحرية وماتكبله به من مشعبات القيود؛ وليست مواضيع الدرامة اليونانية المتعددة في صميمها إلا موضوعاً واحدا: هو اصطدام مطامع الانسان بصرامة الأقدار

ولحفول الأدب الاغريقي على ذلك النحو بدراسة الانسان، سميت الآداب الاغريقية أو الكلاسية عامة منذ عهد النهضة الأوربية، «بالانسانيات»، فان الاطلاع عليها لم يكن كشفا للعالم القديم فقط، بل كان كشفا للنفس الانسانية ذاتها، تلك النفس التي كانت قد أهملت في العصور الوسطى أشد الاهمال، وازدريت شر الازدراء، بتأثير الكنيسة التي ذهبت في تضليل العقول مذهبا بعيدا، فزعمت الانسان شريراً خاطئاً بالطبع، وعلمت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان، لا يذهب مسها عنهم إلا العصا في الصغر، ودوام الندم والاستغفار في الكبر. وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله، فلا غرو خمد الأدب في تلك العصور، إذ لا أدب ولا حياة إلا حيث للإنسان ثقة بالانسان

وقد ورث الأدب الانجليزي فيما ورث عن الأدب الاغريقي تلك النزعة الإنسانية، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الإنسان من جهة، والأسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى: فمواضيع روايات شكسبير الكبرى كهملت وعطيل وماكبث هي مواضيع الدرامة اليونانية: فهي تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد وشرف المحتد وفضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيما، ولكن كل مزاياهم تلك تذهب هدرا من جراء مغامز في شخصياتهم تتسلل منها أصابع القدر إلى سعادتهم فتنغصها، وإلى مجدهم فتثله؛ ورواياته بجانب ذلك تعج بشتى الدراسات للطبائع الإنسانية، التي تثير الروعة والإكبار تارة، والشفقة والأسى مرة، والاحتقار والاشمئزاز حينا، والسخر والضحك طورا.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث في الأدب الانجليزي ألفينا نفس ذاك العراك المستمر بين النفس الإنسانية الجادة في تحقيق مطالبها ومطامحها، وإثبات شأنها وخطرها، وبين القدر الصارم

القوانين السادر فى جبروته . لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى الطبيعة إلا تجسما واستفحالا . وقد نقله هاردى من عالم الرواية التمثيلية التى تدور حول الأبطال والملوك ، إلى القصة المقروءة التى تدرس المجتمع العادى ، وتتناول أوساط الناس ودهماءهم ،وليست « تس » الفقيرة إلا نظيرة « أوفيليا » المنعّمة ، ولا « يهود المغمور » فى طموحه إلى القوة إلا قريع « مكبث » المشهور فى تطاوله إلى العرش : مطامح إنسانية ، وآمال فى المتعة والسعادة ، وأقدار ماضية تعترضها وتبطش وهي عمياء بطش جبارين

وقد كان الموت ولن يزال عدو الانسان اللدود ، وبلاءه الأكبر ، واللغز الأعظم الذى استغلق على فهمه ، ووقف له بالمرصاد كأنما يسخر من كل ما يبنى وما يجمع ، ويتهكم بكل ما يأتى وما يدع ، ويقنعه فى ذروة نجاحه ومجده وسعادته بعبث سعيه وإدراكه ؛ ومن ثم امتلأت الآداب بذكر الموت وصولته وإزرائه بالحياة والأحياء ، وإتيانه على الجبابرة ، وتسويته بين العلية والسوقة ، وبين العالم والجاهل ، وتمزيقه شمل الألّاف ، وتعفيته لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة ، وعبثه بحوَر العيون وبياض الأجياد والنحور . وقد تفنن الخيام فى رباعياته فى صوغ هذه المعانى وتحليتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة ومن الجمال الانسانى ، ومن مجالس الصفو والشراب

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعينى الانسان فى مظاهر الطبيعة الرائعة ، وقواها المصطرعة ، ولججها المترامية ، ومخلوقاتها المقتتلة فى سبيل الغلب والبقاء ، وصممها عن آلامه وأشجانه ، وغفلتها عن أفراحه وأتراحه ، ومضيِّها على عاداتها حسُنت به الحال أو ساءت ، وخلودها على رغم فنائه ، ووطئها جيلا من الناس بعد جيل ؛ فامتلأ الأدب بذكر ذلك كله . ومن جميل أمثلته مقطوعة هوجو « الطبيعة والانسان » التى يقابل فيها بين شباب الطبيعة وشيخوخته ، ونضارتها وجفاف عوده ، وبقائها ووشك ذهابه ، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها ، وبمضيه غير ماسوف عليه منها ، ولا محسوس فقدانه .

وقد كان شكسبير معنيا بالموت موكلا بالتفكير فيما بعده ، يُنطق بذلك أبطاله كهملت ، الذى يتأمل فى الموت فى خلوته ، ويوم المقابر حيث يرى الحفارين يعبثون بالجماجم وحيث يشهد دفن حبيبته فى ريعانها . ولا يمل شكسبير ذكر الموت والبلى ، حتى فى شعره النسيبى ، الذى يتسم لذلك بمسحة الحزن والكآبة . ولشيرلى مقطوعة رائعة فى الموت سارت بعض أبياتها مسير الأمثال ، وهى تطابق فى شتى المواضع معانى رباعيات الخيام . ومن أحسن أشعار التأمل فى الموت فى الانجليزية قول كيتس ، وقد كان لضعف بنيته مازال متمثلا شبح الموت : « حينما يخامرنى الخوف من أن أقضى قبل أن أجنى كل ثمار عقلى الوافرة ، وقبل أن تحويها الكتب المكدسة كما تحوى البيادر المحصول الناضج ؛ وحينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزاً من الغمائم لرواية تجرى فى علو ، وأذكر أنى ربما لا أعيش حتى أرسم ظلا لها بيد الالهام السحرية ؛ وحينما أشعر يا جميلتى الوشيكة المضىّ أنى لن أراك بعدُ ، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة : قوة الحب الأعمى ، عند ذلك أقف وحيداً على شاطىء الدنيا الرحيبة ، وأفكر حتى يصير الحب والمجد هباء »

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الانجليزية فى البحر وهياج أواذيه واصطخاب عواصفه ، واطراد ثورته وبعد غوره . ومن روائع آثار الشعراء فى هذا الصدد أبيات تنيسون التى نظمها وقد قصد البحر مفكراً مهموماً ، يبغى العزاء عن فقد صديق له حميم ، ومنها قوله : « تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة ، وطوبى لابن الصائد إذ يتصايح هو وأخته لاعبين ، وتمضى الجوارى المنشآتُ إلى مرافئها بسفح التل . ولكن من لى أنا بمصافحة تلك اليد التى غابت ، وذلك الصوت الذى سكت » . واستعار شلى رحب البحر وشدة أسْرِه وصرامة صروفه ، للتعبير عن صرامة الزمان وبطشه بالانسان . قال يخاطب الزمان : « أيها البحر الذى لا يُسبر غوره ، والذى أمواجه السنون ، والذى قد غدت أواذيه أجاجا من ملح دموع الإنسان ، والذى يطوى فى مده وجزره أطرافَ الإنسانية ، ويبشَم من فرائسه وإن يكن ما يزال يعوى طلباً لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة »

واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التى رضيها الانسان لنفسه مُقاماً وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها مجتمع أو جيل ، وما فى بعض أنظمتها من تقييد للحريات وهضم لحقوق بعض الأفراد أو الطبقات ، فنددوا بتلك المساوىء ونادى بعضهم باصلاح تلك المفاسد التى تهبط بالانسان عن رتبته التى هو جدير بها فى الكون ، وتعترض سيره إلى ماينشده من كمال ؛ فكان منهم رَادةُ حركات النهوض والاصلاح ؛ بل نادى بعضهم

بفض المجتمع والعودة إلى الطبيعة . ويمثـل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فلتير وروسو . وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر فى الآداب القديمة ؛ أما فى الآداب الحديثة فهى تتعاظم وتشتد جيلا فجيلا . فالنقد الاجتماعى والحض على الاصلاح غرض حديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والافصاح عن الشعور الفردى

فالتفكير فى شأن الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الإنسان المتحضر المثقف ، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته ؛ ولا تزال أشباح الماضى والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه ، يكوّن لنفسه فى شأنها فلسفة تختلف عمقاً واتساعاً وإقناعاً ، وتختلف فى مدى قربها من اليقين والجزم ، أو قيامها على الشك والرفض . على أن هذا التفكير الإنسانى يفرض نفسه فرضاً شديداً على كل أديب أو كل مثقف أو كل إنسان ، فى فترة خاصة من فترات حياته ، بل أزمة من أزمات وجدانه ، يشتد فيها تفكيره فى نفسه وبنى جنسه ، ويحفزه إلى التساؤل والثورة على الحياة الإنسانية حادث نفسانى يؤثر فيه أثراً عميقاً : من خيبة أمل أو إخفاق حب أو موت عزيز ، فتتّسم آثار الأديب فى تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكآبة ؛ وقد يحاول إصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس إلى حياة جديدة تصورها له أحلامه ، ثم ما يلبث أن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتثبط هياجه وتروض جماحه ، فيُعدّل حياته بما يلائم ظروف الحياة الإنسانية البطيئة التغير الوئيدة الخطى ، فتعود آثاره الأدبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الامعان فى التفتيش عن معايبها

ولسريان الحيوية فى دماء الشعب الانجليزى وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنائه ، كان أدباؤه إذا راعتهم نقائص الحياة الانسانية وشرورها ، وأحزنهم ضعف الإنسان وشقاؤه ، لم يلبثوا أن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة إلى جانبها الأبيض ، ويطلبوا العزاء بما فى الحياة من جمال عما فيها من قبح ، فيشيدون بمقدرة الانسان على الجلاد وبراعته فى الابتكار ، وبطولته وماضيه الحافل بالعظائم ، ويترنمون بمفاتن الطبيعة وما يصيب الانسان عندها من رخاء بال وراحة نفس ، ويطلبون السلوى قبل كل شيء بممارسة فنهم الذى يصور تلك الحياة ويحكيها حكاية تروى من نفوسهم مالا ترويه الحقيقة الواقعة ، يصور آلامها تصويراً يخفف وقع تلك الآلام عن نفوسهم ، ويحكى مفاتنها ونعمها التى فاتتهم حكاية تشفى صدورهم . فتمثيل الأديب للحياة فى فنه بشعره كأنما قد أحاط بتلك الحياة وتمكن من أعنتها ، ويكسبه ثقة بنفسه وإيمانا بقدرته على الابتداع والاتيان بجديد من عنده .

فتنيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على إنشاء قصيدة طويلة فى ذكراه ، ولكنها لم تقتصر على ذكراه بل امتدت إلى شتى نواحى الحياة وشملت نظرته العامة إليها ؛ وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى باخفاق آماله فى الحب والصداقة ، نفّس عن صدره بمآسيه الكبرى ، وفيها لا نرى الانسان ألعوبة عاجزة فى يد الأقدار ، بل نرى من آثار بطولته ما يملؤنا روعة ويُبقى أمامنا نور الأمل ؛ ووردزورث حين تبددت أحلامه فى المجتمع الانسانى الفاضل الذى خال الثورة الفرنسية منجلية عنه ، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه إلا تعزّيه بمحاسن الطبيعة وقضائه الوقت متفيئا ظلالها مصوراً آثارها فى شعره . وفى عبادة الجمال الطبيعى والانسان كان كيتس يجد مفزع روحه مما يتكنفه من بأساء الحياة وما يمض عيشه من فتكات الداء

ومن أبدع الأشعار التى تعرض جانبى الصورة ناصعهما وحالكهما ، وتجسم ضعف الانسان وفناءه ، وتمجد قوته وعبقريته ، مقطوعة شلى المسماة « أوزيمانديإس المصرى » وفيها يقول : « قابلت مسافراً من أرض قديمة قال : تقوم فى الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع ، وقد ارتمى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور فى الرمال ، تنطق تقطيبته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة ، بأن المثّال قد أجاد قراءة تلك الصفات التى ماتزال حية مطبوعة على ذلك الحطام الجامد ، وقد فنيت اليد التى صوّرتها والقلبُ الذى غذاها ، وقد لاحت على القاعدة هذه الكلمات : اسمى أوزيمانديإس ، ملك الملوك . انظروا إلى آثارى أيها الجبابرة وأقروا يائسين ، وليس بجانب ذلك شيء باق ، قد أحاطت بذلك الحطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد إلى مالا نهاية » ؛ فهنا وصف شائق أخاذ لعظمة الملك وبراعة الفنان ، وتصوير رائع لسطوة الموت وبطشة الفناء

وفى الأدب العربى نرى تزايدَ هذا الاهتمام بالإنسان نشأته وأحواله ومصيره ، بتزايُدِ حظ العرب من الحضارة والثقافة : ففى الأدب الجاهلى وفى صدر الاسلام لا نعثر إلا بالأبيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر فى ضعف الانسان وقصر حياته ، وتلاحق همومه ، واتصال آماله برغم ذلك ، وشدة إقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها . وفيما عدا تلك النظرات الخاطفة والمواعظ العارضة ، لا يكرث الشعراء أنفسهم كثيراً بالتساؤل فيما كان وماسوف يكون ، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره ، فتغزل عاكف على هواه مترنم بليلاه ، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته ، ومداح مجتهد فى استدرار صلات الأمراء ، وهجاء يمعن فى إثخان غريمه . ومما أثر عن متقدمى الشعراء فى التأمل فى حال الانسان قول القائل :

منَعَ البقاء تقلبُ الشمس … وطلوعها من حيث لا تمسى

وقول الآخر :

ألا تسألان المرء ما ذا يحاول ؟

أنحبٌ فيُقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟

ويتزايد التفكير فى خَلق الإنسان وغايته كلما انتشر العلم والفلسفة : فترى فى شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام من آثار ذلك فوق ما نجد فى شعر الأخطل والشماخ وجميل ، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة فى القرنين الثالث والرابع ، ويبدو ذلك واضحاً فى آثار شعراء العربية الكبار : ابن الرومى والمتنبى والشريف والمعرى : لكل من هؤلاء فلسفة إنسانية منثورة فى أنحاء شعره ، ونظرة إلى الحياة تلائم طبعه ومذهبه : فابن الرومى يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعى والإنسانى يجب أن تغتنم ، ومتعة للحس والروح يجب أن تباكر . والمعرى يرى حياة الناس شقاء وشراً متصلا . والشريف يرى مثله الأعلى فى الفضيلة والمعالى . والمتنبى يرى الناس سواما يحرّ فيهم القتل ويحق لمثله أن يسود فيهم ويعتلى ، فلسان حاله قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها … وبالناس روّى رمحه غير راحم

كما أن جُماع فلسفة المعرى قوله :

فأف لعصريهم : نهار وحندس … وجنسى رجال منهم ونساء

والحق أن المعرى كان أشمل هؤلاء جميعاً نظرة ، وأنفذ شعراء العربية جميعاً فكرة ، وأشدهم شغلا بالحياة ، وعناء بأمر الإنسان والأحياء عامة ، وتفكيراً فى ماضى الإنسان ومستقبله ، وتبصراً فى أحوال مجتمعاته ودياناته ، وله فى كل ذلك من مستنير الأفكار المصبوبة فى جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين ، على ما يشوب تفكيره فى أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القاتم المغرق الذى هو وليد عصره المضطرب ، وحياته الكئيبة ، وبنيته السقيمة ، وأعصابه المرهفة .

وفيما عدا المعرى نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشؤون الانسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الانجليزية ؛ وهم أكثر منهم قبولا للحياة على علاتها . ورغبة فى اغتنام متعاتها والتغاضى عن سوآتها ، وأقل تمرداً ولجاجاً فى الأزمات النفسية . والأديب العربى أكثر تحدثاً عن نفسه وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الإنسان عامة ؛ وهذه النزعة السمحة الراضية ترجع إلى عوامل أهمها طيب المناخ الذى يبعث البشر والثقة ، والايمان الدينى الذى بعثه الإسلام فى نفوس أبنائه وبثه فى مجتمعهم ، والإسلام أكثر تغلغلا فى حياة معتنقيه وتسرباً فى أرواحهم وتجسما فى مظاهر مجتمعهم من غيره من الأديان . هذا إلى أن الحكم المطلق لم يكن يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقداً جريئاً ، وإنما كان يروضهم على الاندماج فى ظروف الحياة المحيطة بهم ، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء شرها ، كما قال الشاعر :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما … من الناس إلا ما جنى لسعيد

فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك ومضايق الأزمات النفسية ، بل سرعان ما كانوا يشيحون عما يطوف بهم من خيالاتها علماً بأن من أطال الفكر فى الحياة وغايتها ، والانسان ومصيره ، أقامه الفكر بين العجز والنصب ، كما قال المتنبى ، وحين كانت تطيف بهم تلك الحالات النفسية العابسة ، ويثير شجنهم وجزعهم ما يلاحظون فى حياة الإنسان ومجتمعه من نقص وشر ، لم يكونوا يتأسَّون كما يتأسى شعراء الانجليزية بمحاسن الطبيعة ، فقلما أعاروا محاسنها التفاتاً ، كما أنهم قلما اكترثوا لفجائعها وأهوالها . ولو كانوا يتعزون بذكر البطولة الإنسانية ، فما يكاد يكون لها فى آدابهم أثر ؛ أو بتاريخ الأمم العظيمة ، فما كانوا يذكرون من أمرها إلا غرور مشيدها وتقويض الزمان لأركانها ، ولا بالتأمل فى مخلفات فنون تلك الأمم ، فما كانت توحى إليهم إلا بضعف الإنسان وبطلان مساعيه .

وقد التفت المتنبي إلى شرق الأمبراطورية الاسلامية المترامية فقال:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى   كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا؟
من كل من ضاق الفضاء بجيشه   حتى ثوى فحواه لحد ضيق

والتفت إلى غربيها فقال:

أين الذى الهرمان من بنيانه؟   ماقومه؟ مايومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها   حيناً ويدركها الفناء فتتبع

إنما كان أدباء العربية إذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشرور مجتمعه، يجدون مفزعهم من الحزن والقنوط فى «الفضيلة الاجتماعية»: فى الأخلاق القويمة التى تكسب الإنسان حسن الأحدوثة الموروث حبها عن العرب الأقدمين، وتنجيه من شرور المجتمع الذى لا يد له بإصلاحه. والذى لا تنال شروره عادة إلا من يستهدف لها بسوء فعله. وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار. ومن ثم زخر الأدب العربى بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربى وبه يمتاز على غيره، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول إياس بن القائف:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها   فقدت صديق والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر مادمتما معا   كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقول الشريف:

لغير العلا منى القلى والتجنب   ولولا العلا ما كنت فى العيش أرغب
غرائب آداب حبانى بحفظها   زمانى، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب إلى الاجتماع، وفضيلة اجتماعية أصيلة، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون. وأن يكونوا أمة مصلحة، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معاً، ويشتغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها، وطول التشكك والتحير فى منشأ الكون ومنتهاه، وميلهم الطبيعى ذاك واضح الأثر فى شعر شعرائهم. وفضيلتهم الاجتماعية تلك هى مرجع ازدهار العمران فى كل بلد وطئوه، حالما وطئوه، على حين نشر الأغريق الخراب فى شرق البحر الأبيض حين هبطوه، واستغرقوا قروناً طويلة فى الاستقرار وتشرب الحضارة؟

فخرى أبو السعود

ضوء جديد على مأساة شهيرة

٢ - هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

نظرية الاختفاء كما يشرحها الدعاة السريون

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقد رأينا فيما تقدم أن الدعاة الملاحدة، أعنى حمزة بن على وصحبه، ألفوا فى اختفاء الحاكم فرصة لأذكاء الدعوة وتغذيتها، واتخذوا من هذه الاختفاء وظروفه الغامضة، مستقى جديداً للزعم والارجاف؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عند ماتحل الساعة فيملأ الأرض عدلا، وأضحى هذا الزعم أصلا مقرراً من أصول مذهبهم. وقد انتهت إلينا فى هذا الزعم — أى زعم الغيبة والرجعة، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن على ذاته، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه، وإليك ما جاء فى تلك الوثيقة الهامة التى تقدم رغم غرابة شروحها ومزاعمها إلى المؤرخ مادة للتأمل:

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان: «نسخة السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الامام الحاكم»، وهى التى يفتتح بها رسائله فى متن الدعوة وأصولها حسبما أشرنا فيما تقدم

ويؤرخ الداعى هذه الرسالة بشهر ذى القعدة سنة ٤١١ ﻫ، أعنى عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتتحها بدعوة الناس إلى المبادرة «بالتوبة إلى الله تعالى وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته فى أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين»، وأنه قد سبق إليكم، أعنى إلى الناس «من الوعد والوعظ والوعيد من ولى أمركم وامام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة باريكم وخليفته، الشاهد عليكم بموبقاتكم، وجميع مااقترفتم فيه من الأعذار والانذار، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم فى وادى الجهالة تسبحون، وفى تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذى كنتم به توعدون»

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ولم يفر عليهم

شيئاً منها ، ولم يبخل عليهم بجزيل عطائه ، ولم يشاركهم فى شىء من أحوال هذه الدنيا ، نزاهة عنها ، ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه اعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه مالم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم . . . ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ؛ بل منة منه عليكم ولطفابكم ورأفة ورحمة واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ولتعرفوا قدر ماخصكم به فى عصره من نعمته وحسن منه وجميل لطفه وإحسانه . وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم ،

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم من الذهب والفضة والخيل المسومة والأقطاع والضياع ، ورفعهم إلى ذرى المراتب وشرفهم بأرفع الألقاب ، حتى غدوا سادة يحكمون ويطاعون ، وعاشوا فى نعماء ورغد ، فأقبلوا على الدنيا واعتزوا بها ، وظنوا أنها سبيل الفوز فى الآخرة ، وتظاهروا بالطاعة فى حين أنهم متمسكون بالمعصية ؛ ثم يقول الداعى :

« ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الاسلام والايمان ، التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وطهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، ومزيتم من عبدة الأوثان وابانهم عنكم بالذلة والحرمان وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم . . . وانقادت الذمة إليكم طوعا وكرهاً فدخلوافى دين الله أفواجا ؛ وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلاة فى أوقاتها والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الاسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وخفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار ، وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة السدقات ، وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً ، وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، فشينتم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة ، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنواسرائيل فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته وأظهر لكم الحكمة وفتح لكم خارج قصره دارعلم حوت من جميع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام ... وأمدكم بالأوراق والدواة والحبر والأقلام . لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون ... »

ثم يقول حمزة بعد أن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو ـ إنهم ـ أى الناس ، لم يزدادوا إلا ضلالا وأثما ، وتمادوا فى غيهم وفجورهم ؛ وينعى على الناس هذه النازلة الأليمة ويحذرهم من عواقبها ، ثم يقول مشيراً إلى اختفاء الحاكم : « فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه من عظم إسراف الكافة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم . قال الله ذو الجلال والاكرام : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وعلامة سخط ولى الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى . فمن دلائل غضب الامام غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ومنعه عن الكافة سلامه ، وقد كان يخرج إليهم من حضرته ومنعهم لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد وفى شهر رمضان ، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الآذان ولا يذكرونه . ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب . وإنهاؤه جميعهم من الترجل عن ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم ، وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون ...

ومن ثم « فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى الذى آثروه على الهدى »

ويختتم الداعى رسالته الغريبة بتكرار الدعوة إلى التوبة والاستغفار ، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم إلى الطريق التى سلكها أمير المؤمنين « وقت أن استتر » وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم ، وأن يطهروا قلوبهم ، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين ، وأن يتوسلوا إليه بالصفح والمغفرة وأن يرحمهم بعودة وليه إليهم . . . « والحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً ، ولا تبرحوا فى طريق يتوسل

جميعكم . . . فاذا أطلت عليكم الرحمة خرج ولى الله أمامكم باختياره راضياً عنكم ، حاضراً فى أوساطكم . فواظبوا على ذلك ليل نهار قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر . . . الخ ،.

ويؤرخ الداعى رسالته بذى القعدة سنة إحدى عشر واربعمائة، وينعت نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين ، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها (١) .

وهذا السجل يعتبر وثيقة مدهشة ، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها . ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى ، واذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعى يصدر فيه عن إيمان حقيق ، فانه ينم على الأقل عن براعة الداعى فى عرض ما يريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مدهشة ، هذا إلى أن هذا « السجل » يعتبر وثيقة تاريخية هامة بما يقدمه إلينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة فى بادىء عهده ثم فى خاتمته .

على أنه ما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الاسلامية والنصرانية ، المعاصرة والمتأخرة . لا تشير أية إشارة إلى هذا « السجل » الذى يقول لنا الداعى إنه وجد معلقاً على المشاهد ، ولو وقعت مثل هذه العلانية فى اذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الاشارة إليها ، ولعل الدعاة حاولوا إذاعته فلم يفلحوا . وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة عقب مصرع الحاكم كما رأينا فلاذوا بالاختفاء والاستتار . وأصدر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ولد الحاكم سجله الشهير الذى يتبرأ فيه من هذه المزاعم الخارقة التى قيلت فى أبيه وفى أسلافه ، وفيه يعلن اعترافه إلى الله « بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتدارا ومربوبون اقتسارا ، لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وأن جميع من خرج منهم عن حد الأمانة والعبودية لله عز وجل ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ؛ وأنه قدم انذاره لهم بالتوبة إلى الله من كفرهم ، فمن أصر فسيف الحق يستأصله

وإلى جانب هذه الوثيقة التى كتبها حمزة بن على عقب اختفاء الحاكم . والتى يحاول فيها أن يعلل هذا الاختفاء وأن يشرح بواعثه ، وأن يطمئن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه ، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة أخرى عنوانها « الغيبة » تمس نفس الموضوع من ناحية أخرى ، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أشهر عن لسان قائم الزمان (أى الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول ، والظاهر أن كاتبها هو المقتنى أحد أكابر الدعاة وأحد « الحدود الخمسة » : وقد وجهت إلى أهل الشام خاصة ، وفيها يذكرهم قائم الزمان بالعهد الذى قطعوه ، ويحذرهم من الدجال الذى يزعم أن الألوهية انتقلت إليه ، والذى عاند الموحدين وحاصرهم . ويقول إن الدين لا يصح إلا عند الامتحان ، ثم يخاطب الموحدين بقوله :

« معشر الموحدين ، إذا كنتم تتحققون أن مولاكم لا تخلو الدار منه وقد عدمته أبصاركم . . . وإذا فسدت المعدة ضرت البصر ؛ فهكذا إذا كانت المادة واصلة إلى النفوس الصحيحة ، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً ، وإذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأنس وشرائعهم فيفسد النظر وما ينظر إلا بشر

« واعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود سبحانه وتنزه عن الحد والمحدود أن قائم زمانكم يطالبكم ، وقد شهدتم فى مواثيقكم بعضكم على بعض بما شرطتموه على نفوسكم . . . » (١)

ثم يشير إلى أن كثيراً من الموحدين ارتدوا عما كانوا أقروا به وهو الاعتراف بألوهيته ، ويحذرهم من سلوك هذا الطريق ؛ ويشير إلى « الدجال » ويقول إنه قتل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم ؛ وأن المولى غنى عن عبادتهم ، وإنما هى أعمالهم ترد عليهم .

ثم يقول : « ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه .. معشر الاخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم » .

ويلوح لنا أن هذا « الدجال » المشار إليه فى هذه الرسالة إنما هو عبد الرحيم بن الياس ولى العهد ، ووالى الشام ؛ فقد اشتد فى مطاردة الدعاة ، حينما ظهرت دعوتهم بالشام ، وفتك بكثير من أتباعهم وأنصارهم ، وهو ما تشير إليه الرسالة .

(النقل ممنوع — للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(١) لم ترد هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب والتى لدينا منها نسخة فتوغرافية (وهى محفوظة برقم ١٣٢ عقائد النحل) إذ ينقصها من أولها عدة أوراق ولكنها وردت فى مخطوط باريس ؛ ومنه لخصنا ونقلنا ما تقدم ، ثم وفقنا أخيرا إلى الحصول على نصها الكامل .

(١) وردت هذه الرسالة فى المجموعة المحفوظة بدار الكتب برقم ٥٤ عقائد النحل : والمجموعة المحفوظة برقم ٢٠ عقائد النحل مع شرح لها .

الى رجال التعليم :

نقد نظام التعليم فى مصر

للأستاذ ساطع الحصرى بك
مدير دار الآثار العربية بالعراق

يذكر القراء أن المربى الكبير الأستاذ ساطع بك الحصرى كان قد وفد إلى القاهرة فى العام الماضى ليطلع على الأنظمة التعليمية المصرية فزار المدارس وقرأ المناهج ثم لاحظ على نظام التعليم عندنا ملاحظات قيمة لم يرد أن ينشرها يومئذ لصفته الرسمية فى وزارة المعارف العراقية . فلما انتقل منها إلى دار الآثار رأى أن يذيع هذه الملاحظات فى مصر عن طريق الرسالة ليطلع عليها القائمون على شئون التعليم فيها ثم يناقشونها . وهذه فرصة حسنة يتيحها الأستاذ لرجال التعليم ليتداولوا الرأى فيما يجب أن يكون عليه نظام التعليم فى عهد مصر الحديث . (الرسالة)

— ١ —

لعل أبرز المآخذ التى تستلفت أنظار الباحث المحايد عند ما يلقى نظرة انتقادية عامة على نظام التعليم فى مصر هو « حرمان المدارس الابتدائية من أساس متجانس متين » . فان الدراسة فى هذه المدارس لا تبتدىء ببداءة « الاعمار المدرسية » كما هو شأن المدارس الابتدائية فى سائر أنحاء العالم ، بل تبتدىء بعد ذلك بسنة أو سنتين ، لأن المدرسة الابتدائية لا تقبل إلا من « يعرف القراءة والكتابة » . وهذه « المعرفة » لا تتيسر بطبيعة الحال إلا بالتخرج فى رياض الأطفال ، أو بالدراسة فى الصفوف الأولى من المدارس الأولية مدة سنتين أو أكثر ، أو بالدراسة فى المنزل مدة غير محدودة . وإذا تركنا الدراسة المنزلية جانبا ، ولاحظنا الفروق العظيمة الموجودة بين أساليب التعليم والتربية المتبعة فى رياض الأطفال من جهة ، وفى المدارس الأولية من جهة أخرى ، اضطررنا إلى القول بأن « أسس المدارس الابتدائية » فى مصر بعيدة عن « التجانس » بعداً كبيرا . وإذا شبهنا تلك المدارس بالمبانى ، نستطيع أن نقول : إنها ليست مشيدة على الأرض المتينة ، بل قائمة على دعائم غير متجانسة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا من حيث الطول والعرض والعمق والمتانة .

لهذا السبب ، نشاهد بين طلاب الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية فروق عظيمة ، من حيث العمر والمعلومات والقابلية العقلية

ومن المعلوم أن « عدم التجانس بين الطلاب » من أخطر الآفات التى تعترى « نظام التعليم الجمعى » ، ومن أكبر المشاكل التى تعقد مهمة المعلمين الذين يقومون بتعليم عدد غير قليل من الطلاب فى فصل واحد ووقت واحد . ولذلك تجد رجال التربية فى البلاد الغربية يبحثون عن ألف طريقة وطريقة لزيادة التجانس فى الصفوف ويسعون دائما للتأليف بين ضرورات التعليم الجمعى وبين مطالب الفروق الفردية .

وأما نظام التعليم الابتدائى المرعى فى مصر - فبعكس ذلك - يزيد هذه المشكلة زيادة هائلة . لأنه يضيف إلى الفروق الطبيعية فروقا اصطناعية ناشئة عن اختلاف نتائج الدراسة السابقة .

إن التخلص من مضار هذه المشكلة ليس من الصعوبة بمكان . إذ يكفى لذلك تغيير النظام الحالى على أساس « إتمام بناية المدرسة الابتدائية بايصال أسسها إلى الأرض القوية » ؛ وجعلها مؤسسة تعليمية قائمة بنفسها ، تتعهد بتعليم وتربية الأطفال منذ بدء أعمارهم المدرسية ، دون أن تتكل على مؤسسات أخرى فى تعليم القراءة والكتابة .

— ٢ —

ومن المآخذ البارزة التى تستلفت الأنظار فى نظام التعليم فى مصر هى « اصطباغ رياض الأطفال بصبغة مدرسية » واضحة .

ومن المعلوم أن رياض الأطفال تعتبر - عادة - بمثابة معاهد « تربية قبمدرسية » préscolaire (١) تتعهد بتربية الأطفال - حتى وصولهم إلى الاسنان المدرسية - بالأساليب الملائمة للأعمار التى تتقدم تلك الاسنان بوجه عام .

وأما نظام التعليم المتبع فى مصر فينظر إلى « رياض الأطفال » نظره الى « المدارس » تماما . فان التعليمات الرسمية المتعلقة بها تحمل عنوان « منهج الدراسة » و « مدارس رياض الأطفال » وتوصل عدد « الدروس » فى الأسبوع إلى الأربعة والثلاثين ، وتكرر كلمات « الدرس » و « الدراسة » و « أوقات الدروس » و « خارج أوقات الدروس » على الدوام ، حتى إنها تنظر إلى « التهذيب » أيضا كدرس من الدروس ، وتعين « الغرض من تدريس التهذيب للأطفال » ، وتبين كيف يجب أن « تلقى عليهم دروس التهذيب » ، وكيف يجب أن يجرى « تدريس التأمل فى مشاهد الطبيعة » .

إن حركة التطور والتقدم السريعة التى حصلت فى ساحة رياض الأطفال منذ بداءة القرن الحالى - ولا سيما ما كان منها بسبب آراء وأعمال دكرولى ومونتسورى - اتجهت على الدوام نحو « تخليص رياض الأطفال من الصبغة المدرسية » . وأعتقد أن أسباب بقاء رياض الأطفال فى مصر بعيدة عن هذا الاتجاه ، بهذه الصورة ، تعود أولا وبالذات إلى كيفية « تكوين المدرسة الابتدائية » . إذ من الطبيعى أنه عند ما يطلب من رياض الأطفال أن تهيىء الطلاب إلى المدارس الابتدائية القائمة على الطراز الذى ذكرناه آنفا ، ويحتم عليها تعليم القراءة والكتابة والحساب بالقدر الذى تتطلبه المدارس الابتدائية

(١) منحوتة من (قبل) و (مدرسية)

الحالية – يتعسر جعلها «دور تربية، أكثر من جعلها بيوت تدريس»، بل يصبح من الضروري جعلها «مدارس من نوع خاص».

إن التعديل الذي يدخل على أسس المدارس الابتدائية، – وفقا للاقتراح الذي أدرجناه في الفقرة السابقة – يفسح في الوقت نفسه مجالا واسعا لإصلاح رياض الأطفال وفقا للنزعات التربوية الحديثة، ولجعلها بمثابة «معاهد تربية قبمدرسية» – كما تقتضيها النزعات المذكورة – أكثر من «مدارس إعدادية للمدارس الابتدائية» كما هي الحال الآن

— ٣ —

غير أن أهم المآخذ التي تؤخذ على نظام التعليم في مصر، هو «الاختلاف العظيم الموجود بين الدراسة الابتدائية وبين الدراسة الأولية»، اذ أن مناهج هذين النوعين من المدارس المصرية تختلف بعضها عن بعض اختلافا كليا، ولا توجد بينهما رابطة منظمة تسهل انتقال الاطفال من الواحدة للأخرى؛ حتى ولا يوجد تماثل نسبي يساعد على تقريب تأثيراتهما على نفوس الأطفال على الأقل.

لنفرض أننا أخذنا جدولين يبين كل واحد منهما خطة الدراسة المتبعة في كل واحد من هذين النوعين من المدارس؛ واستبدلنا فيهما تعبير «اللغة العربية» بتعبير «اللغة البيتية» أو «لغة الأم»؛ وعرضنا الجدولين على أحد المربين دون أن نخبره بماهيتهما. فلا شك عندنا في أنه عند ما يقارن هذين الجدولين بعضهما ببعض، سيظن أن كل واحد منهما يعود الى مملكة، وسيجزم بأن هاتين المملكتين تختلفان اختلافا كليا من حيث الحاجات والتقاليد والنزعات. واذا أخبرناه بأن هذين الجدولين يعودان الى مملكة واحدة، فسيقول بدون تردد «اذن يجب أن يكونا عائدين الى دورين مختلفين من الأدوار التي مرت عليها حياة تلك المملكة»، وسيظن أن هذين الدورين ينفصل بعضهما عن بعض بتطورات خطيرة وانقلابات عظيمة؛ وعلى كل حال سوف لا يتصور قط أن هذين الجدولين يمثلان مناهج الدراسة المتبعة في نوعين من المدارس التي تربي أبناء جيل واحد في مملكة واحدة بل في مدينة واحدة.

وفي الواقع تصوروا جارين يسكنان في محلة واحدة، وافرضوا أن لكل منهما طفلا في التاسعة من العمر، غير أن الأول قد أرسل ابنه الى مدرسة ابتدائية في حين أن الثاني أرسل ابنه الى مدرسة أولية أو الى مكتب عام؛ ثم قارنوا بين الدروس التي سيتلقاها كل واحد منهما، تجدوا أن الأول سيخصص ستة في المائة من أوقات دراسته لتعليم الدين والقرآن، في حين أن الثاني سيخصص ثمانية وعشرين في المائة من مجموع أوقات دراسته لنفس الموضوع، كما أن هذه الأوقات ستصل الى أربعين في المائة اذا ذهب الطفل الى أحد المكاتب العامة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأول سيخصص خمس مجموع أوقات دراسته لتعليم اللغة الانكليزية، وسيبدأ بدراسة تلك اللغة قبل أن يبدأ بتعلم قواعد اللغة العربية نفسها؛ في حين أن الثاني سوف لا يتعلم شيئا منها طول مدة دراسته المقبلة. وعلاوة على كل ذلك، فان الأول سيخصص أكثر من ربع أوقات دراسته للرسم والاشغال اليدوية والتربية البدنية، في حين أن حظ الثاني من هذه التمارين والاعمال سيكون شبيها بالعدم.

واذا لاحظنا مدى تأثير هذه الفروق العظيمة على عقلية الأطفال ونفسياتهم، وجب علينا أن نقول: إن نظام التعليم المتبع في مصر لا يساعد على تكوين «جيل موحد الشعور».

كان يوجد في البلاد الغربية أيضا بعض الفروق بين مناهج الفصول الابتدائية التابعة للمدارس الثانوية وبين مناهج المدارس الابتدائية المستقلة عنها، غير أن تلك الفروق كانت «طفيفة جداً» بالنسبة الى الفروق الهائلة التي تشاهد بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية في مصر. مع هذا؛ قام علماء التربية ورجال السياسة في تلك البلاد بحملات عنيفة ضد تلك الحالة، وأثاروا حولها أبحاثا دقيقة ومناقشات شديدة، انتهت في معظم البلاد بتوحيد أسس الدراسة الابتدائية وفقا لمبدأ «المدرسة الموحدة» école unique ذلك المبدأ الذي يلخص في عبارة «شعب واحد، مدرسة واحدة».

أفليس من الغريب جدا ألا تبدأ في مصر الى الآن أية حركة ضد هذا النظام؟.

إنني لا أجهل بأنه نشأت في مصر – منذ مدة – حركة مباركة تطالب بتوحيد التربية والتعليم، وتعمل في سبيل ذلك بنشاط وقوة. غير أني ألاحظ في الوقت نفسه أن أغراض تلك الحركة المباركة وخططها لم تتعد حدود «التوحيد بين المدارس الأميرية والمدارس الحرة»؛ في حين أنني أعتقد اعتقادا جازما بأن هذه الحركة لا يمكن أن تثمر الثمرة الكافية، اذا لم تسع لتوسيع نطاق عملها فتشمل في الوقت نفسه «توحيد أسس الدراسة في المدارس الأميرية نفسها».

إن الفرق العظيم الموجود بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية كان من أول النقائص التي استوقفت نظري في نظام التعليم في مصر عندما زرت مدارسها للمرة الأولى سنة ١٩٢١ قبل مجيئي الى العراق؛ واستمرار هذه الفروق بدون معارضة أو انتقاد كان من أهم ما استلفت نظري عند زيارتي الثانية لها سنة ١٩٣٦

لقد عرضت ملاحظتي هذه – عند زيارتي الأولى على وزير المعارف بكتاب خاص. وعند ما قدمت العراق، وجدت أن السلطة الانكليزية كانت قد نقلت هذا النظام الى هذه البلاد أيضاً، وكانت قد أحدثت مدارس أولية تختلف بمناهجها عن المدارس الابتدائية. وأول الاعمال التي أقدمت عليها – عند ما توليت ادارة المعارف العامة هنا – كان القضاء على ذلك النظام؛ فقد وحدت برامج الدراسة في السنين

الأربع الأولى توحيدا تاما، وجعلت الدراسة الاولية منطبقة على دراسة السنين الأربع الأولى من المدارس الابتدائية كل الانطباق.

أقدمت على ذلك - حينئذ - تحت تأثير عقيدة تربيوية اجتماعية، قبل أن أرى مفعولها فى كثير من البلاد بصورة فعلية. فان مبدأ «المدرسة الموحدة» كان قد دخل حديثا فى صلب دستور (وايمار) فى ألمانيا؛ غير أن معظم البلاد الأوربية كانت قد ظلت بعيدة عن الأخذ به، كما أن جميع البلاد الشرقية - بما فيها تركيا - كانت معرضة عنه. غير أن التطورات التى حدثت فى نظم التعليم العام فى تلك البلاد وغيرها - منذ ذلك التاريخ - أثبتت تماما أننى كنت مصيبا فى ذلك العمل كل الاصابة.

أفلا يجب على مصر أيضا أن تقوم بعملية مماثلة لتلك، وتعيد النظر فى أسس نظامها التعليمى على مبدأ «توحيد أسس الدراسة»؟

— ٤ —

من الأمور التى يجب أن تلاحظ بوجه خاص، أن الفروق العظيمة التى أشرنا الى وجودها بين مناهج المدارس الابتدائية ومناهج المدارس الاولية كانت تتماشى بفروق مماثلة بين معاهد المعلمين الذين يتولون شؤون التربية والتعليم فى كل نوع من نوعى هذه المدارس، فان معلمى المدارس الأولية يتخرجون فى دور المعلمين الأولية فى حين أن معلمى المدارس الابتدائية يتخرجون فى معهد التربية. غير أن الفروق الموجودة بين دور المعلمين ومعهد التربية فى مصر، لم تكن من نوع الفروق الاعتيادية التى تنتج من اختلاف «درجة التحصيل العام» أو «أسلوب الاستعداد المهنى» فحسب، بل هى من نوع الفروق العظيمة التى تنتج من اختلاف «نوع الدراسة ونزعتها». و «نوع الثقافة التى تتولد منها». وذلك لأن دور المعلمين الأولية تستند على المدارس الأولية، فالمدارس الأولية الراقية، وتستمر على خططها ونزعاتها، فى حين أن معهد التربية يستند على المدارس الابتدائية، والثانوية، ويستمر على خططها ونزعاتها.

إننى لا أود فى هذا المقام أن أتطرق إلى خطط كل من معهد التربية ودور المعلمين الأولية وهاهجها وأبدى رأيى فى هذه الخطط والمناهج نفسها، بل أود أن ألفت الانظار إلى الفرق العظيم الموجود بين نوع الثقافة واتجاه العقلية التى يستند عليها ويصل إليها كل واحد منهما. وأقول: إن الفروق العظيمة التى شرحنا وجودها بين مناهج الدراسة الابتدائية والأولية تشتد وتقوى بصورة هائلة خلال تطبيق تلك المناهج، من جراء الهوة العميقة الموجودة بين معاهد معلمى المدارس الابتدائية والأولية.

ولهذا السبب تصل «ثنائية التربية والتعليم فى مصر» إلى أقصى الدرجات التى يمكن أن يتصور الانسان وجودها فى مملكة واحدة

إننى كثيرا ما تصفحت التقارير التى قدمها الخبراء الفنيون الذين استقدمتهم الحكومة المصرية للاسترشاد بآرائهم فى إصلاح معارفها، وأردت أن أطلع على رأيهم فى هذه الثنائية، ولو من خلال التقارير التى قدموها؛ وعلمت أنهم لاحظوا هذه الثنائية؛ غير أنهم لم يبدوا أى اعتراض عليها. ويغلب على ظنى أن السبب فى ذلك كان اعتقادهم بأن هذه الأمور تتعلق بتقاليد مصر ونزعاتها التى لا يجوز المناقشة حولها. لأنهم قسموا النظام التعليمى فى مصر إلى قسمين، عنونوا أحدهما بعنوان «المدارس التى على النمط الأوربى»، واكتفوا بأبداء بعض الملاحظات لأصلاح كل واحد من هذين النظامين على حدة: غير أنى أرى من الضرورى أن نتساءل قبل كل شىء: هل يجوز أن يكون فى مملكة واحدة نظامان من المدارس، أحدهما على «نمط أوربى»، وثانيهما على «نمط محلى أو غير أوربى»؟

أنا أعتقد أن ذلك مما لا يجوز بوجه من الوجوه. فعلى مصر أن تأخذ من الأنماط الأوربية مايلائم حالاتها وحاجاتها، ثم توجد نمطا قوميا خاصا بها. فلا يجوز لها مطلقا أن تؤسس صنفا من المدارس «على النمط الأوربى» بجانب صنف آخر يبقى على نمط غير أوربى. وإذا كان لوجود هذين النمطين بعض المسوغات والمبررات فى بدء تأسيس المعارف، فلا يمكن أن يكون لبقائهما الآن أى موجب بعد أن وصلت مصر إلى هذه المرحلة من مراحل نهوضها، وبعد أن صارت تحكم نفسها بنفسها...

يظهر أن مصر ألفت هذا النظام المزدوج منذ مدة طويلة. ولعل هذه الألفة الطويلة كانت من أهم الأسباب التى حالت دون انتباه مفكرى مصر إلى أضرار هذا النظام.

غير أننى أعتقد أن إعادة النظر فى أسس النظام التعليمى فى مصر على مبدأ «توحيد أسس الدراسة» أصبحت من أهم الاصلاحات الضرورية لمصر فى بدء عهد نهضتها السياسية والاجتماعية الحديثة. فان بقاء نظام التعليم على ماهو عليه من الثنائية dualité يكون خطرا على وحدة الشعور التى يجب أن تسود البلاد.

قد يقول قائل: لاخوف على وحدة الشعور فى مصر أبدا، لأن هذه الوحدة تجلت بأجلى مظاهرها خلال كفاح المصريين الطويل ضد الحماية والاستعمار؛ غير أننى أقول بأن «وحدة الشعور» التى عملت عملها خلال ذلك الكفاح كانت «وحدة» من نوع خاص، تكونت تجاه عدو مادى وخارجى، استمر فى إرهاق نفوس الجميع منذ مدة تنيف على نصف قرن. أما الآن فستدخل مصر فى حياة كفاح جديدة تتطلب النضال فى سبيل إصلاح النقائص الداخلية، وضمان التقدم فى جميع مناحى الحياة.

إن وحدة الشعور التى تكونت وتجلت خلال الكفاح السياسى

لا تلبث أن تندثر خلال هذا النضال الاصلاحى إذا لم تغذ بتربية موحدة مستندة على نظام تعليمى موحد.

ولذلك أقول: إن إعادة النظر فى أسس نظام التعليم أصبحت من الواجبات التى تتحتم على مصر فى مستهل حياة النهوض التى دخلتها الآن.

— ٥ —

هذه ملاحظات تتعلق بأسس نظام التعليم فى مصر، أبسطها أمام الرأى العام المستنير بكل احترام وصراحة واخلاص. وأرجو ألا يعتبرنى أحد متطفلا على مصر بهذه الملاحظات، فأنى عربى صميم أدين بدين «العروبة» فى إيمان وصدق، وأهتم بمصر بقدر ما أهتم بسورية والعراق. ولا أكون مغاليا اذا قلت: إننى أهتم بمصر اكثر مما أهتم بسورية والعراق، لأننى أعرف أن مصر - بحسب أوضاعها العامة - أصبحت «القدوة المؤثرة» فى العالم العربى بأجمعه. فأعتقد لذلك أن كل تقدم يحصل فى مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية، كما أن كل نقص يعيش ويستمر فى مصر لا يخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية.

فكل خدمة تسدى الى مصر تكون كأنما أسديت الى سائر البلاد العربية جمعاء.

بغداد — أبو خلدون (ساطع الحصرى)

الفقر أستاذ...

للأستاذ السيد محمد زيادة

التقى رجلان فقيران، كلاهما مدقع ذليل لفقره ... وجلسا يتشاكيان ويتناجيان بأحاديث يصل فيها الفقر إلى الألم، ويصل الألم إلى الحسرة، وتبلغ الحسرة إلى الثورة. وتنتهى الثورة إلى الدموع ... ثم يكون بعد الدموع الاستسلام والجلد والهدوء والراحة

قال أحدهما للآخر: هبك أصبحت غنياً من أهل الترف والنعيم والجاه؛ فكيف تكون فى غناك. وماذا تعمل إذ ذاك بمالك؟.

فأجاب: أكون ظلا مباحا يأوى إليه الشُّرَّدُ بلا قيد، ويتفيؤه الفقراء بغير عناء، وأكون حلقة الاتصال بين الأغنياء والمساكين ... أعطى أولئك المكانة والمظهر، وأعطى هؤلاء النفس والجوهر

وأما مالى فلا يكون إلا مطية للكرم ومجالا للعطف وسبيلا للرحمة. ولا أكون عليه إلا كالأمين على مال موقوف للخير، ولا يكون لى منه إلا ما للمرضع من لبن ثديها تدرُّ به للتربية

***

والتقى رجلان غنيان كلاهما مرهوب مرفوع لغناه ... وجلسا يتداعبان ويتنادمان بأحاديث يصل فيها الغنى إلى الفخر، ويصل الفخر إلى الكبر، ويبلغ الكبر إلى التعاظم، وينتهى التعاظم إلى الوقاحة ... ثم يكون من الوقاحة انتفاخ الأوداج واتساع المزاعم وادعاء المستحيل

قال أحدهما للآخر: هبك أصبحت فقيراً من أهل البؤس والعدم؛ فكيف تكون فى فقرك؟ وماذا تجد إذ ذاك فى دنياك؟

قال الثانى: وهل تتوقع الفقر لأمثالنا؟

قال الأول: ليكن هذا مستحيلا، ولنفرض أنه وقع ...

قال الآخر: إذن أنتحر ...

***

ومشت الأيام فى طريقها إلى غايتها ... فإذا الفقير المعدم غنىٌّ موسر يتدرج نحو الثراء وشيكا؛ فيجد فى كل عمل حظا، ويكسب من كل حظ ثروة، ويحس فى كل ثروة سعادة ... لأن الدنيا رضيت عنه فراحت تسترضيه، ومالت إليه فأخذت تستميله

وقد كان بين آخر العسر وأول اليسر يحمل تلك النفس الطيبة التى كان يحملها وهو فقير والتى أوحت إليه إذ ذاك أن يقول لصاحبه ما قال... فظل نفسه باستمساكه بمذاهب الفقر واستعذابه حياة الفقراء!!. ثم تغير قليلا فكانت دنياه مزيجاً من حياته القديمة وحياته الجديدة، فأنصف نفسه بذلك وعدل بين الفقر والثراء!!. ثم تغير تغيراً بيناً فنسى الفقر ونسى أنه كان فقيراً، وحقر الفقراء واستقر فى الأغنياء، وطغى واستكبر، وبدّل النفس الخيرة بنفس شريرة، واستطاب لسانه كلمة أنا ... وبذلك لبس الغنى كما يشاء الغنى أن يلبس

وويل للغنى من جهله إذا تسلط على عقله الغرور فتعبَّده!!. ينسيه أنه إنسان ويلقى فى روعه أنه فوق مرتبة البشر، ليجرّده من صفات الانسانية، ويكسوه صفات غيرها تُصيِّره تحت؛ ودائماً تحت مرتبة البشر ... المال فى يده مفسدة لخلقه ومضيعة

للفضيلة ونداء للجشع وقضاء على الرحمة ...

لقد تلف الرجل، وفقدته الحياة حياً فلم يصبح معدوداً فى الناس؛ وإنما أصبح رقاً حسابياً لثروة واسعة ليس من ورائها خير

***

ومشت الأيام فى طريقها إلى غايتها، فاذا الغنى الذى استبعد على نفسه الفقر قد رجع فقيراً يستبعد على نفسه الرجعة إلى غناه. تمور به الدنيا وتهيء له فى كل خطوة عثرة، وفى كل عثرة كبوة، وفى كل كبوة مصيبة، وفى كل مصيبة هماً وشقاء ... لأنها غضبت عليه فراحت تقصيه عنها شيئاً فشيئاً لتقطع أسباب المودة بينها وبينه

وكان فى بدء انكسار حظه واغتراب نجمه يستكبر على الفقر ويتعظم على القدر، ويحاول بشق النفس ألا يتحول مرتعه ولا يتبدل منزعُه، فوضع نفسه بهذا أمام الدنيا فى موضع الحرَد والعنَت ليناصبها العداء، ويملى عليها العصيان والكبرياء!!. ثم اشتدت عليه غضبة الدهر فأيقظت فيه بعض عقله ونبهته إلى حاله ومصيره... فاعتدل طغيانه، وفتر عنفوانه، وهمّت به نفسه الخائرة الواهنة تريده على أن ينتحر فراراً من الفقر النازل؛ ولكن راجعَته بوادر السمو المنساقة إليه فى بوادر الفقر ... فتشجع واستمهل نفسه فيما أرادت!!. وكان فى هذا كالذاهب على رغمه إلى ميدان الحرب ...

ثم تمّت صنعة الفقر فيه، فتأهب للصبر الطويل، وتماسك عزمه لاحتمال الفاقة وصراع الزمن، وتهذبت سريرته من شوائب الغنى وكفر المادة؛ وبذلك أسلمت نفسه بالحقيقة وحسُن إسلامها.

***

الفقر فى ذاته قبيح شديد القبح؛ ولكنه فى عمله جميل رقيق الجمال، إذا نزل بالرجل مسخه وبدل فى طبيعته، وصير منه للناس الفقراء رجلا خفيفاً محبوباً، وصير منه للناس الأغنياء رجلا ثقيلا مبغَضاً، وصير منه بين أولئك وهؤلاء رجلا بين المحبوب والمكروه... فيصبح الرجل بفقره ثلاثة رجال، لكل منهم روح خاصة تضعُه فى مكانه من الانسانية

وإذا رضى الله عن رجل ممن ولدوا أغنياء وأحبه امتحنه بمحنة الفقر ليخلق منه إنساناً فى أرفع درجات الانسان، وإذا غضب على رجل ممن ولدوا فقراء ومقته هيأ له الغنى وغمره به، ليخلق منه رجلا آخر بين الانسان والحيوان.. حتى إذا أراد الله وعاد الأول إلى غناه وعاد الثانى إلى فقره شعر كل منهما بنعمة الفقر

وإن الفقير ليتعلم من فقره القناعة فيجد سعادته فى قناعته، كما يتعلم الغنىّ من غناه الجشع فيجد شقاءه فى جشعه...

ولا يعرف الفقير أنه فقير إلا إذا عرف أن غيره غنى... ولا يشعر بوجود الفقر معه إلا إذا شعر بامتناع الغنَى عليه؛ فإذا اجتمع قوم من الفقراء ولم يكن بينهم واحد من الأغنياء، لم يجدوا للفقر مَضَضاً ولوعة، ولم يحسوا أنهم فقراء... حتى يكون منهم أو يكون بينهم ذو يسار فيرونه فى مباهج النعيم ومناهج السعادة. فيفكرون فيجدون فى حياته حياة أخرى لم يألفوها ولم يعرفوها، ثم يفكرون فيجدون فى حياتهم فراغا لا يملؤه إلا المادة، ونقصاً لا يسده إلا الثراء، ثم يفكرون فيعرفون أنهم فقراء...

والفقراء فى هذه الحياة مظلومون لأنهم يحرمون بقدر ما يعملون...

والفقر يمتاز من الغنى بأنه ألزم للحياة وأدعى لسلامتها. فليس الناس إذا جمعهم الفقر فصاروا جميعاً فقراء، كالناس إذا جمعهم الغنى فصاروا جميعاً أغنياء.. إذ لو أراد الله الحالة الأولى لوجدنا الناس كتلة واحدة مبنية على الطهارة الفطرية مدعمة بالاخلاص الروحى؛ يتبادلون المعروف ويتعاونون على أيامهم بمناعة الايمان وقناعة النفوس... فتصلح لهم وتصلح بهم الحياة، ويعيشون فى نعيم دونه نعيم الغنى...

ولو أراد الله الحالة الثانية لوجدنا الناس كالوحوش بنفوس داجية وعقول ضارية؛ يتعشق كل منهم التسلط حيث لا مجال للتسلط، ويستكبر على القيام براحة نفسه فلا يجد من يقوم براحته... فتفسد عليهم وتفسد بهم الحياة، ويعيشون فى جحيم أخف منه جحيم الفقر...

فالفقر أستاذ أخلاق، ومن قدر له أن يكون أحد تلاميذه فقد قدر له أن يتلقى دروس الحياة؟

طنطا

السيد زياده

التعـــب

للأستاذ محمد جلال

ألقى الأستاذ ميكائيل فستر Michael Foster خطبة فى هذا الموضوع بجامعة كمبردج فى ١٤ يونية سنة ١٨٩٣ لا تزال ذات قيمة .

ولا بد للباحث من الرجوع إليها ليعرف نشوء الآراء وتبدلها فيما هو بصدده . ولذلك سأبدأ بتدوين ملخص رأيه .

قال الأستاذ فستر : « إن قوة الانسان الجسمانية محدودة بنقيصتين هما : ميل الجسم إلى السكون حتى ليعسر حثه على الحركة . وسرعة استعداده للتعب ، أى العجز عن مواصلة العمل المطلوب منه .

والتعب ينشأ حتى من تكرار أبسط الحركات . ولنضرب لذلك مثلا تحريك صنج أو ثقل باليد . إن هذا العمل يتم فسيولوجيا على الوجه الآتى : يحصل فى الجهاز العصبى المركزى - ولنطلق عليه اسم « المخ » تبسيطاً للشرح - تغيرات تبعث على حدوث تغيرات أخرى فى حزم من الألياف تسمى الأعصاب . وهذه التغيرات التى يسميها الفسيولوجيون دوافع عصبية تحدث فى العضلات تغيرات من شأنها أن تجعلها تقصر ثم تنكمش حتى تتلاقى أواخرها معاً . وفعلها هذا يحرك روافع عظيمة ، وبذلك تنثنى الذراع أو اليد ويرفع الثقل

ومن الجلى أن التعب قد ينشأ بطرق ثلاث على الأقل .

(١) نكوص العضلات (٢) نكوص الأعصاب

(٣) نكوص المخ ، أو نكوص اثنين منها أو الجميع معاً .

أما ما يعترى العضلات من نصب فلا يتوقف على مقدار ما تنفقه من جهد مثل ما يتوقف على مقدار سرعة ذلك الجهد وتعويضه ، أى على مقدار الفرق بين سرعة الهدم وسرعة البناء

ويشذ القلب عن جميع عضلات الجسم بأنه لا يعرف الكلل ، وحينما يعجز عن الاستمرار فى تأدية وظيفته يكون ذلك بسبب اختلال أو فساد يصيب أحد أجزاء الجسم الأخرى لا بسبب اختلاله أو فساده هو إلا فى ما ندر .

وتوجد عوامل لتعب العضلات غير الافراط فى بذل رأس ماله الحيوى ، ذلك بأنها ميدان حياة وموت ، إذ تحمل إليها الشرايين مواد حية وتنقل منها الأوردة مواد ميتة . ومن مظاهر الحياة الغريبة أن كل عضو يصنع سما لنفسه وهو يؤدى حركة من حركاته

فالتعب يتوقف على مقدار ما تفرزه العضلة من السم الضار بها كما يتوقف على ما تدخره بقية أجزاء الجسم من قوة تعين بها تلك العضلة على مقاومة ما يعتريها من وهن بإزالة السموم وجلب مواد حية جديدة .

على أن كل عمل تأتيه العضلات يشاركها فيه المخ والأعصاب ، وما ينجم من تعب لا يصيب العضلات وحدها . ومن المشاهد أن الانسان قد يبلغ به الجهد حد الأعياء ، ومع ذلك قد يدفعه الفرح أو الخوف المفاجىء إلى إتيان ما كان يظنه منذ لحظة مستحيلا ، وقد تشل حركتنا وتنضب قوتنا من تأثير انفعال مباغت . ولما كانت العضلات لا تحس ولا تشعر ولا تدرى بما يفاجىء ، فلا يمكن أن تتأثر بالانفعالات ، فالتعب الذى يمحوه الأمل أو الذى يعجل به اليأس لا يمكن أن يعزى إلى العضلات ، بل لا بد أن يكون مصدره الجهاز العصبى .

وهنا يجب التنبيه على التفرقة بين الأعصاب والجهاز العصبى ، فالأعصاب لا تتعب مطلقاً ، وإنما الذى يكل هو المخ أو الارادة ، وهذا ما نقصده بالجهاز العصبى ، وهو أقل قدرة من العضلات على تحمل التعب . ولعل سرعة تكرار ذبذبة الأمواج الصوتية والضوئية وغيرها مما يجهد المخ مسجل الاحساسات ، فاننا لنرى أن الصوت المستمر يأتى علينا وقت لا نسمعه كما نفقد الشعور بلمسة واصبة ولا نشعر بحلاوة ما نأكل أو نذوق من مادة سكرية نأكلها أو نذوقها دون انقطاع ، واحساسنا يكاد يصبح بليداً ، دون أن ندرك بفعل التكرار ، ولذلك تفقد الملذات لذتها فى نظرنا بطول المدة وتشبع الجسم وسآمته

ولما كانت أعضاء الجسم جميعاً مرتبطة فى العمل . فالجهد الذى يصيب أحدها لا تسلم منه سائر الأجزاء . ولما كان الدم يحمل السموم كما يحمل المواد المنعشة فان مروره فى الجهات الحساسة كالمخ قد يسبب لها اضطرابا وقلقا أو تخديراً وموتاً .

على أن تلك السموم تفيد بعض الأعضاء التى تتغذى بها أو

تحولها إلى مواد غير ضارة أو تقذف بها إلى خارج الجسم، ولذلك تجب علينا العناية بالأعضاء الداخلية وخصوصاً الكبد. ولا يفوتنا أن الجلد لا يقل أهمية عن الكبد. وليذكر كل واحد أن لأبداننا علينا حقوقاً يجب أن نوفيها بالراحة والرياضة غير المجهدة».

هذا بعض ما يقوله الأستاذ فستر.

أما الدكتور فلورى فقد أفرد باباً للتعب فى كتابه الطلى الذى جعله مقدمة لطب النفوس، وفيه يقول: «إن الانسان يستنفدقواه اليوم ما يتعرض له من مختلف الذبذبات، فقد أقام المسيو فيريه Féré البرهان على أنه يكفى أن يمر تحت نظرنا لون زاه، أو على سمعنا صوت، حتى يهيج جهازنا العصبى إلى حد يزيد قوتنا مؤقتا ثم يعقب ذلك خمول دائم. فاذا قدرنا مايقع تحت أبصارنا من ألوان الصور، وما يقرع أسماعنا من أصوات الموسيقى وحركة العربات وغيرها، أمكننا أن نكون فكرة عن مقدار مايذهب من قوانا هباء بسبب التعب الجسمانى ليس غير

وإذا أضفنا الاجهاد العقلى وما تستنفده حياتنا العاطفية استطعنا أن نعرف أن أجل نومنا قصير لا يعوض ما كابدنا من مشقة، وهذا هو الارهاق بعينه، ولا يكون علاج هذا الارهاق المدمر إلا باحدى وسائل ثلاث:

الراحة والمران ثم تنبيه المراكز العصبية تنبيهاً منظماً

أما الراحة فتتطلب العزلة التامة بعيداً عن المنغصات والمثيرات فى بيت من بيوت العلاج المائى بحيث لا يقطع تلك الحياة البسيطة التى يقضيها المجهد هناك إلا فترات الأكل والاستحمام والنزهة والتعرض لتيارات الكهرباء الاستاتيكية.

وفلورى يرى أن هذه الوسيلة شرها أعظم من خيرها ولا يقرها علاجاً إلا حين يخفق كل علاج سواها، فان المرء لا ينبغى له أن يرتمى فى أحضان السآمة بل يجب عليه أن يصون نشاطه ويذكيه بتنمية ميله الطبيعى إلى العمل بالمران. فان البطالة والكسل مصدر كل الموبقات ومنبع عدة اضطرابات وأمراض عصبية. والتعب الحقيقى نادر عارض لا يلازم المفكرين المنتجين إلا أمداً قصيراً، ولكنه كثيراً ما يلازم الفارين من متاعب الحياة الذين يقضون أوقاتهم دون عمل، والذين لا ينتجون إلا إذا هبط عليهم وحى أو الهام. لأمثال هؤلاء لا تنفع الراحة إذ هم فى راحة دائمة، والراحة لا تفيد إلا من تعوزه، وهى لا تعوز إلا من يبذل أقصى الجهد فى عمل متواصل. أى أناة وجلد ومثابرة، وأى جهد استلزمته مؤلفات اسكندر دوماس الكبير أو مؤلفات بلزاك أو ميشليه أو هوجو أو تيير؟ فلنر كيف كان هؤلاء الفحول يشتغلون

يقول دوماس الصغير فى والده: لم يكن والدى يشتغل متقطعاً، بل كان يشتغل يومياً من وقت استيقاظه حتى الظهر غالباً؛ ولم يكن الغذاء إلا فترة راحة، وإذا تناول طعامه وحيداً، وهذا نادر، نقلت له مائدة صغيرة إلى حجرة العمل حيث يأكل برغبة ولذة كل مايقدم إليه. فإذا انتهى الأكل عاد إلى كرسى العمل وتناول قلمه. ولم يكن يشرب وقت الغداء إلا النبيذ الأحمر أو الأبيض مخلوطاً بماء سلتز، فلا قهوة ولا خمر ولا تبغ. أما بقية اليوم فلم يكن يتناول فيه إلا شراب الليمون. وشغله فى المساء قليل، ولكنه على كل حال لم يكن يسهر أبداً حتى ساعة متأخرة من الليل بل كان ينام نوماً عميقاً.

ولم يكن يشعر بتعب إلا إذا قضى على هذه الحال عدة أيام بل عدة أشهر. عند ذلك يسافر للصيد والقنص فى رحلة قصيرة يستغرق معظم وقتها فى النوم دون أدنى تفكير، فاذا ماحل ببلدة فيها ما يدعو الى الفرجة ذهب لمشاهدة غرائبها ودوّن مذكرات عنها؛ فكل راحته فى تغيير العمل.

ولقد شاهدته فى عدة سنين يصاب بالحمى يومين أو ثلاثة عقب عمله اليومى المستمر، وتبلغ ضربات قلبه ١٢٠ أو ١٣٠ فيعالج نفسه بالنوم العميق وشراب الليمون يوضع له فى جفنة عظيمة على منضدة بجوار السرير، فكلما استيقظ تناول جرعات، منها وبعد مضى يومين أو ثلاثة ينتهى كل شىء فيقوم ويستحم ويبدأ عمله.

وكان دائما فى صحة جيدة لا يرتاح راحة تامة إلا فى الصيد والسفر، ولم أعهده يرتاح فى المنزل مطلقا. غير أنه كان كثير النوم؛ وقد ينام بالنهار «على حسب هواه» ربع ساعة نوما مصحوبا بشخير عظيم، فاذا ما استيقظ أمسك بالقلم، ولم يكن يمحو شيئا حين يكتب، وكان جميل الخط

أما دوماس الصغير فكان على خلاف والده، متقطع العمل

يسكت أشهرا ثم يستأنف الكتابة ، ذلك بأنه كان عديم الخيال ، معتمدا فى تأليفه على الملاحظات والتفكير : فكان لابد من أن يستغرق زمنا طويلا فى المشاهدات ، ثم يفكر فى طريقة صوغ القصة ، حتى اذا مانضجت الفكرة عمد إلى تدوينها على القرطاس : وكان يقضى مدة المخاض فى حركة ، حتى إذا ما أراد الوضع بدأ عمله مُبكرا واستراح عند الظهر . وكان يحب التأليف فى الريف ، ولا يشتغل فى اليوم أكثر من ساعتين أو ثلاث ، وكلما طال عمله طال نومه وقلت رغبته فى الأكل ، وكانت صناعة الكتابة منهكة له ، وكثيرا ما اضطر إلى الانقطاع عن العمل بتاتا مددا طويلة .

على أنه كان كأبيه من حيث الاعتدال ، فلم يكن يشرب نبيذا ولا قهوة ولا خمرا ولم يكن يدخن تبغا .

أما بلزاك العظيم فقد كان غريبا فى حياته التأليفية ، فلم يكن يكتب إلا بعد أن يلبس لباس الرهبان ؛ وكذلك كان سلوكه مثلهم منظما نقيا جيدا . ويروى تيوفيل جوتييه أن بلزاك كان ينصح لتلاميذه أن ينقطعوا للعمل سنتين أو ثلاثا بمعزل عن الناس ، وألا يشربوا إلا الماء ولا يأكلوا إلا الأرانب ، وأن يناموا عند تمام الساعة السادسة مساء ويستيقظوا عند منتصف الليل فيبدأوا عملهم حتى الصباح ، كما كان ينصحهم بالعفاف المطلق ؛ وكان كثير التكرار لهذه النصيحة الأخيرة . ولم يكن هازلا فى نصائحه . وقد كان عظيم الانتاج بفضل إرادته الخارقة . ومزاجه التقشفى وانقطاعه عن الناس انقطاع المتحنثين الأبرار . وكان فى سلوكه مستقيما حتى لم يكن يشرب النبيذ

وأما هوجو فكان مفرطاً فى شرب الخمر والأكل دون اكتراث ، ولكنه ككل عظماء المنتجين ، كان يبدأ عمله فى ساعات محددة من وقت الاستيقاظ إلى وقت الغداء . وكان يستيقظ فى الساعة السابعة دائماً فيغسل رأسه بماء بارد ، ثم يبدأ يكتب وهو واقف بسلاسة دون محو صفحات من نثر أو نظم قد اختمر فى عقله فى مساء اليوم السابق فى أثناء نزهته المعتادة بعد الظهر . وما أكثر ما صنف ! ولكن تصانيفه الهائلة لم تجهده أبداً ، وذلك بفضل نظام العمل .

أما ميشليه فكان من عادته أن يكتب مبكراً ؛ فكان فى أول حياته يستيقظ فى الرابعة صباحاً ، ثم أصبح فى وسط حياته يعمل نحو الساعة الخامسة : وفى آخر حياته صارت السادسة هى ساعة بدء العمل . وكان محباً للنوم ، هادئه عميقه ؛ وكان ينام الساعة التاسعة مساء حين كان وحيداً . وكان يدرس قبل نومه الحقائق الأساسية الخاصة بالفصل الذى عليه أن يكتبه فى اليوم التالى . فما لا شك فيه أن العقل يشتغل بالليل وصاحبه نائم .

وكان معتدلا فى غذائه ، لا يأكل شيئا ثقيلا ، ويكثر من الخضر ؛ وقبل بدئه عمله يتناول فنجانة صغيرة من قهوة ولبن دون خبز ؛ وفى الحادية عشرة صباحا يأكل بيضتين وشريحة من اللحم المشوى ؛ وقد يأكل قليلا من الفاكهة ويشرب قليلا من النبيذ . أما الخمر فلم يكن يتعاطاها ولم يكن يحب القهوة الا باللبن

وكان يشتغل فى كل يوم ست ساعات طول حياته ، ولم يكن يحب الملاهى ، وما كان يزورها الا نادرا ؛ وما كان يلهيه عن عمله شىء . فاذا ما أتم كتابه شعر بأثر متاعب العمل المتواصل فلا ينجيه من آلامه الا الريف والتاريخ الطبيعى

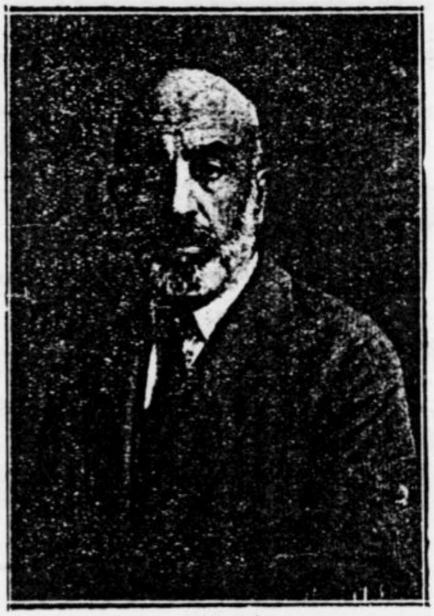
مما سبق يتبين أن هؤلاء العظماء قد اشتغلوا كثيرا جدا دون انقطاع تقريبا مدى عدة سنين ولم يصابوا فى صحتهم بسوء ، فقد عاش دوماس الكبير ٦٧ سنة وميشليه ٧٤ وتيير ٨٠ وهوجو ٨٢ ودوماس الصغير ٧١ ، ولم يمت صغيرا الا بلزاك فقد عاش ٥١ سنة فقط . ولعل لكثرة مشاغله وهمومه المالية أثرا فى ذلك ؛ فكثيرا ما كان يضطر الى العمل ١٦ ساعة فى اليوم شهرين متتاليين أو ثلاثة أشهر . فلا عجب اذا كل وعجز عن المقاومة وإن كان قوى الجسم مفتول العضلات .

شاعر الاسلام [1]

محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —



شاعر الاسلام

كنت أقرأ اسم محمد عاكف بين أعـــلام الأدب التركى الحديث، وكنت لا أعرف إلا طرفاً من أخباره وأشعاره . فلما سافرت إلى استنبول منـذ سبع سنين ، وكان عاكف قد هاجر إلى مصر ، عرفت من سيرته وأدبه ما حببه إلى وشاقنى إلى لقائه . فلما عدت إلى مصر بادرت إلى زيارته ، وكان من سعادة الجد حينئذ أن ألفيته على مقربة منى فى حلوان نازلا فى كنف الأمير عباس حليم باشا رحمه الله

ذهبت إلى داره ، فطرقت الباب فاذا رجل ناهز الستين أشمط ربعة قوى البنية ، عليه سيما الحياء والتواضع . وجلست فتحدثنا قليلا ، فافتتحنا عهداً من المودة المؤكدة والصداقة المخلصة

وكان صديق حيياً ، نزر الكلام ، كثير التفكر ، طويل الصمت . نزّاعاً إلى العزلة ، نفوراً من المجامع ؛ فتوفر حظى من لقائه والأنس به ، فقلما زرته فلم ألفه فى داره

وكان أنسه أن أزوره أو يزورني ، فنفرغ للحديث نصرفه بين الماضى والحاضر ، ونمزج فيه الجد بالفكاهة . ونطوف به فى أرجاء الأدب والتاريخ ، ونتعرف بها أحوال المسلمين . وكان اذا أنس بالمجلس انطلق فى الحديث وتبسط واستزاد المحدث بحسن استماعه واهتمامه . فاذا قاسمنا مجلسنا غير ناصمت حياء أو انقباضاً ، أو إصغاء أو إنكارا ؛ فاذا سألته لأشركه فى الحديث هز رأسه متجاهلا ، أو ابتسم أو أجاب موجزاً ، ثم راجع صمته . فاذا انفض المجلس أبدى لى رأيه مخالفاً أو موافقاً ، ساخطاً أو راضياً

وكان أحب شىء اليه أن نلتقى فى عشاء الصيف ، فنطوف فى حلوان نتعطف فى شوارعها كما تتعطف بنا شجون الحديث ، فلا ننتبه لمكاننا حتى نخرج من أبنية المدينة فنرجع إليها ، ويلهينا الحديث حتى ننتهى إلى طرفها الآخر . وكان قوياً على المشى محباً له لا يذكر الدار إلا إن شكوت إليه التعب ، فيشكينى عائداً إلى داره أو دارى لنقطع الحديث بشرب الشاى .

وكم تحدثنا وقرأنا فى سيرنا وجلوسنا فى الآداب الثلاثة : العربية والفارسية والتركية . وكنت أحب أن أقرأ عليه شعره : وكان يسره أن يستمع له . وكانت كل أحاديثنا وقراءتنا متعة ، نجتمع فيه على الفكر والذوق والأمل والألم . وكان أطيب المجالس مجلسا نفزع فيه الى شعر محمد اقبال . وهو ، رحمه الله ، عرفنى باقبال يوم أعارنى ديوانه « پيام مشرق » . فاذا صفا الوقت عمدت الى أحد كتب اقبال فقرأت واستمع مقبلا مستغرقا يقطع انشادى فى الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجب أو التأوه . وشد ما كان يثير إقبال نفسه ، أو يثلج صدره ! وشد ما كان يحزنه أو يفرحه ! وأذكر أنا بدأنا كتاب اقبال « أسرار خودى » فوالينا الجلسات حتى أنهيناه انشادا ، ثم أتبعنا به أخاه « رموز بى خودى » ، فختمناه على شوق الى الاعادة

وكنت عرفت أساتذة كلية الآداب بهذا الأديب الكبير ، فاختاروه لتدريس التركية بها ، فكان محببا الى الأساتذة والطلاب يأنسون به ويجلونه ويتوددون اليه

— ٢ —

كرّت على هذا الأيام ، وعددنا فيه بضع سنين لا يكاد عاكف يغيب ثلاثة أيام لا أراه فى حلوان أو كلية الآداب . وكان قويا صحيحا مغتبطا بالعافية ، فلم يرُعنا الا أن بدا عليه الهزال والشحوب ، وازداد به الانقباض والحزن ، فاذا سألناه اخبرنا أن

(1) بذلك كان يلقب فى تركيا

مرضا قديما عاوده . وهو يطبّ له ويرجو الشفاء . ثم بدا له أن يذهب الى الشام يستمد العافية من السفر وتجديد الهواء ، فعاد بعد شهرين وقد استفاد أن مرضه لم يزدد . ثم تغير وتغير فأنكرنا حاله ورثينا له ، واذا الجسم القوى المضمور عظام تحت الثياب ، ولكنا كنا نأمل له العافية ، ونرتقب أن نغتبط به معافى متهللا كما كان .

وكان سفرى الى العراق ، فتركته راجيا أن ينجده الطب فيسترد عافيته ونضرته ، وتطول سعادة أصدقائه وغبطة الأدب به . وكتبت اليه من بغداد فلم أظفر بجواب ، ولم يكن ذلك من دأبه . فالتمست له عذرا من المشاغل وتمنيت الا يكون المرض شغله عن رجع الخطاب ، ثم علمت أنه سافر الى استنبول وأن حاله لاتبشر بالرجوع الى مصر .

— ٣ —

رجعت الى حلوان أفتقد زوراته بالنهار والليل ، وأندب غدواتى وروحاتى اليه ، ممسكا بكتاب أومُعِدًا لحديث ، وأتذكر مجالس عزّت علىّ من بعده ، ومن لى بعد عاكف بمجالسه ؟

وعلمت أواخر الصيف الماضى أن صاحبنا لما به ، وأن داءه قد استفحل . وغلب اليأس الأمل . ثم انقطعت الأخبار ، وطال الانتظار ، وأرجفت الأنباء ، ولم نظفر من الأمر بيقين . والتمسنا أخباره بالبريد والبرق فلم نستقر على نبأ

ثم طلعت جرائد مصر بالنعى ، وترادفت جرائد تركيا بخبره ، ولكن بالحسرة والرثاء ، وبصورته ولكن فى ساعاته الأخيرة ، وبمشهده ، ولكن محمولا على الأعناق ، وبالخبر اليقين ! ولكن فى بطن الثرى .

فالى رحمة الله التقى النقى ، وفى ذمة الله الأديب الألمعى ، وفى رضوان الله « شاعر الاسلام »

(للكلام بقية)

عبد الوهاب عزام

سجين شيلون

للشاعر الانجليزي لورد بيرون

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

إلى الذين لايلويهم شيء عما يعشقون من حرية
(المعرب)

تمهيد كتب بيرون هذه القصيدة الجيلة فى فندق صغير فى قرية بالقرب من لوزان، حيث عاقته رداءة الجو عن متابعة سيره، وقد أثار مرأى ذلك الحصن العتيق (شيلون) فى قلبه ذكرى فرنسوا دى بونفارد الذى سجنه فيه دوق سافوى من أجل مبادئه الجمهورية عام ١٥٧٠ م وقد جعله بيرون بطل هذه الأقصوصة الخيالية الرائعة.

— ١ —

لقد علق الشيب بشعرى ولكن لم تلده السنون، كذلك لم تبيض رأسى فى ليلة كما تبيض رؤوس الرجال بغتهم الرعب. وتقوست ساقاى، وإن لم يك ذلك عن جهد، بل لقد صدئتا فى سكون موبق مهلك، إذ كانتا نهب الدمار فى سجن مظلم تحت الأرض

***

وكان حظى فى هذه الدنيا حظ أولئك الذين لا يجدون فى أرضها مضطربا، ولا فى سمائها مسرحا. إذ كان ذلك عليهم محرما على أن ما ألاقيه، إنما هو من أجل عقيدة أبى! أجل، من أجل تلك العقيدة أقاسى الأصفاد وأغازل الموت طالبا يده!

***

ولقد قضى ذلك الأب نحبه مستشهدا على خشبة الصلب، فى سبيل مبادئه، التى لم يكن ليثنى عنها، وفى سبيل هاتيك المبادىء عينها، يجد أبناؤه مأواهم فى ظلمات السجن

***

كنا سبعة، نحن الذين تراهم الآن واحدا فحسب، ستة فى الشباب وواحداً فى المشيب، انتهوا جميعا كما بدأوا نخورين بما صبه الاضطهاد على رؤوسهم من نقمة.

ألقى بواحد فى النار، وهلك اثنان فى الميدان، حيث طبع الدم عقيدتيهما بخاتمه، وذهبا كما ذهب أبوهما فى سبيل الله الذى أنكره أعداؤهم، وألقى بالثلاثة الباقين فى غيابة السجن حيث لم يعش منهم سواي أنا ... حطامهم الباقى

— ٢ —

هنالك فى سجن «شيلون» ذلك السجن العتيق العميق، توجد سبعة أعمدة أقيمت على النمط القوطى. سبعة أعمدة ضخمة شهباء، تتراءى كالحة على بصيص منبعث من شعاع كئيب سجين، شعاع من أشعة الشمس ضل طريقه، فسقط من خلال الشقوق فى الجدار الضخم على أرض السجن، وأخذ يزحف فوق تلك الأرض الرطبة المبللة كأنه خيال المذنَّب انعكس فى مستنقع

***

فى كل عمود من تلك الأعمدة علقت حلقة. وفى كل حلقة ربطت سلسلة. آه. يا لهذا الحديد من آكل، فهاهى ذى أسنانه لا يزال أثرها فى ساقى ولن يزول ذلك الأثر إلا بزوال هذا النهار الجديد، الذى تتأذى به الآن عيناى وتتألمان، لأنهما لم تريا الشمس هكذا تشرق منذ سنوات لا يسعنى حصرها، فقد نسيت عددها وغاب عن وعيى تعاقبها الثقيل، منذ أحنى آخر إخوتى رأسه وفارق دنياه، وأنا بجانبه لا تزال تدب فى جسمى الحياة!

— ٣ —

أوثقونا كلا فى عمود من تلك الأعمدة الحجرية وكنا ثلاثة معا، ولكن كل فى معزل عن أخويه، ولم نك نستطيع أن نتحرك خطوة واحدة، ولم يك يتسنى لأحدنا أن يرى وجهى الآخرين لولا ذلك الضوء الشاحب الأغبش الذى جعل كُلًّا منا غريبا فى عين أخيه: وهكذا كنا معا وإن كنا فى الوقت نفسه منفردين، كانت أيدينا مغلولة مربوطة، ولكن قلوبنا كانت تذوى من الحزن.

***

على أننا مع ما كنا نقاسيه من حرمان أنفسنا من عناصر الحياة الصافية وجدنا بعض العزاء أن كنا نستطيع أن نتحادث ويسمع كل منا كلام أخويه فيسرى كل عن الآخرين بما ينشد من أمل جديد أو بما يذكر من أسطورة قديمة أو بما يتغنى به من نشيد حماسى من أناشيد البطولة

***

ولكن هاتيك التعلات وا أسفاه قد تسربت إليها فى النهاية برودة المكان، وصار لأصواتنا رجع كئيب موحش هو الصدى المرتد من أحجار ذلك السجن، صارت أصواتنا حبيسة ضعيفة، ولم تعد كما كانت بالأمس طليقة مليئة. ربما كان ذلك وهما، ولكنى لم أعد أتبين فى تلك الأصوات أصواتنا السوالف.

— ٤ —

كنت أكبر هؤلاء الثلاثة ، وكان على ان أشد أزر أخوى وأسرى عن قلبيهما ، ولقد قمت من ذلك بأحسن ما استطعت ، وكذلك قام كل منهما بما وسعه

* * *

وتالله لقد حرك الحزن نفسى من أعماقها ، وبلغ الأسى منها كل مبلغ من أجل أخى الأصغر ، ذلك الفتى الذى أحبه أنى لأنه كان يرى فى جبهته جبهة أمه ، وكان يرى فى عينيه لازورد السماء. وفى الحق إنه مما يذكى القلوب أسى أن يرى مثل هذا الطائر فى مثل ذلك القفص . ذلك لأنه كان جميلا كالنهار حين كان يبدو لعينى من جمال النهار بقدر ما يبدو منه لأعين النسور الفتية المحلقة فى جو السماء ؛ كان جميلا كنهار القطب ، لا يرى الغروب حتى يتصرم صيفه ، ذلك الصيف الصاحى الطويل زمن ضوئه ، ابن الشمس المتشح ببياض الثلج .

كان أخى شبه ذلك النهار فى نقائه وبريقه ، وكان عذب الروح يفيض بالمرح ، ولا تعرف عيناه الدموع فى شىء ، اللهم إلا فيما ينال الآخرين من شقاء ، وهنالك تفيضان كما يفيض الغدير المنحدر من الجبل ، ولن يرقأ دمعه حتى يدفع ذلك الشقاء الذى أزعجه مرآه وأمضه

— ٥ —

وكان الآخر مثله فى صفاء الروح ، ولكنه خلق محارباً مقداما . فكان قوى البنية ، متين الأعضاء ، له من قوة الارادة ما يتحدى به العالم فى ساحة الحرب ، وكان أشد ما يبهج نفسه أن يتاح له الموت فى طليعة الصفوف ، لا أن يذوى هكذا فى الأغلال .

ولقد أوهن روحه صليل تلك الأغلال حتى ذبلت كما تذبل الزهرة ، ورأيتها تتساقط شيئا فشيئا . وفى الحق لقد نالنى مثل ما ناله ، ولكنى تجلدت لأبقى على حشاشة هذا البيت العزيز الغالى ، وكان أخى هذا صائداً يطارد الغزلان والذئاب على متون التلال ، ولذلك كان يرى فى هذا السجن أقبح هوة وفى تصفيد قدميه أسوأ عذاب .

— ٦ —

كانت تقع بحيرة ليمان تحت أقدام ذلك الحصن على عمق ألف دم . وكانت لججها تتلاطم وتعج حتى لتصل إلى رأسه وتجعل قياس عمقه يبدأ من تلك الرأس البيضاء التى كانت تكتنفها الأمواج من جميع النواحى ، وتجعل مع الحائط من الحصن سجنين ؛ وتدعه كالقبر الحى !

وكان يقع القبو الذى ألقى بنا فيه تحت سطح البحيرة ، وكثيرا ما سمعنا موجها فوق رؤوسنا يلطم الجدران بالنهار والليل ، ولقد أحسست ثبج الشتاء يضرب القضبان فى الريح العاصفة ورأيته ينبعث صعداً نحو السماء الهائجة .

وعند ذلك ارتج الصخر وهو الصخر ، وأحسسته يهتز وما هو بالمهتز ، ذلك أنى كنت حينئذ أستطيع أن أبتسم ، أن أرى للموت الذى يطلقنى من هذا الأسر !

البقية فى العدد القادم — الخفيف

الشـــــتاء

للأستاذ أديب عباسى

أحسب أن مقال الاستاذ الكبير (احمد أمين) فى امتداح الشمس وذكر آياتها فينا وأياديها علينا، كان بداعى توارد المعانى والانتقال الطبيعى من موضوع «الضحك» إلى تاليه فى «الشمس»، فالشمس بما ترسل إلى النفوس فى الشتاء من إشراق، وما تشيعه فى الوجوه من بشر، وما تبعثه إلى القلوب من حرارة، تعمل عمل الضحك فى النفوس والأجسام. ومن هنا ما جوَّزت لنفسى أن أفترض من انتقال الأستاذ بين الموضوعين انتقال توارد لا انتقال عفو

وأنا أعترف بأننى متأثر الأستاذ الكبير، متأثر به فى كتابة هذا الفصل. فلولا موضوع الشمس الذى دبجت يراعته الساحرة ما كنت فى الأرجح أفكرَّ فى موضوع «الشتاء»، وأكتب فيه فى هذا الفصل الذى يغرى بالاعتكاف والانكماش. ولولا طريقة الاستاذ فى امتداح الشمس والتغزل بمحاسنها لكانت لى خطّة تباين فى الراجح هذه الخطة عند الكتابة فى هذا الموضوع لو عنيت يوما أن أكتب فيه

والشتاء — كما لابد أنك تعلم — أقل فصول العام نصيباً من احتفال الشعراء والكتاب له. ومن هنا كان ما قيل فيه مدحاً وهو القليل، وذماً وهو الكثير، أقل لما جاء فى الربيع أو الصيف أو الخريف مدحاً وثناء. ولعل ذلك لما يرين على النفوس فى هذا الفصل من حرج الشتاء وضيق البرد مما يذود عن الشعراء أقل الشعر والنثر فى التغزل بالشتاء ومدح القر. على أننى سأخرج على هذه القاعدة وأمتدح الشتاء فى فصل الشتاء عينه وإبان اشتداده وسورته غير العادية فى هذا العام.

وأول ما نذكره للشتاء وغيومه المقطبة وبروقه الملعلعة ورعوده المقعقعة وغيثه المنهل وسيله الحادر ونهره الهادر، أنه فصل الأحياء والبعث فى الطبيعة، وأنه محرك رواقد الأجنة وغواقى النبت، ثم هو مغذى الزرع وباعث الرزق ومحيى الضرع. ولعلة واضحة وسبب مقبول أن اشتق العرب الغيث من الغوث، إذ لولا الشتاء ما نبت نبت ولا تفتح زهر ولا اكتسى دوح ولا فاح عطر ولا غنى جدول ولا انبجس نبع ولا أورق عود ولا اخضر ربع ولا أحصد زرع

يسيل فى الترب الماء فينقل أسباب الخصب والنماء إلى البذور المستكنة والأجنة المخبوءة فى باطن الارض، فتصاعد الجواهر المغذية محمولة فى مطاويه إلى سوق النبت وأزهاره وأوراقه وبراعمه وتسير فيه كل مسير، فيأخذ كل حاجته ونصيبه كفعل الجسم بالدم

ولولا الشتاء لحرمنا الربيع بوشيه وأفوافه وأنواره، والصيف وظلاله الندية ونسماته الرخية وغلاله الوفية. والخريف وما أنضج من ثمر شهى وفاكهة روية

وللشتاء جماله الرائع القوى: ففيه الغيوم تأخذ كل شكل وتلوّن كل لون وتسير متلاحقة مطّردة، تارة مسرعة وأخرى وئيدة، تشق عباب الجوّ كالسفين المثقلة. وهى تجتمع فى الجو لتفترق، وتفترق لتجتمع، فهى حيناً جميعة وهى حينا الشملُ شتيت. وآناً هى مسفّة حتى لتدخل من النوافذ وتتطفل على الناس فى مخادعهم واسرتهم، وآونة تسمو وتشيل فى كبرياء وأنفة حتى لتكاد تحسّ بأنها تبغى الى الشمس سبيلا.

والغيم رمز الأمل القوى والعزم الفتى. فهو أبداً متجدِّد وهو أبداً يسير، وأبداً يستهدف المرامى البعيدة والآفاق القصية، ولن يصدّه عنها سهل ولا وعر. وهو كلما وصل أفقاً وبلغ غاية استهدف أفقاً آخر جديداً الى أن يفنى كفناء الأمل بفناء العمر الذى يضع الحدود ويقيم السدود للآمال والأمانى الانسانية.

وفى الشتاء السيلُ المترع والموجُ المصطفق والنهر الزاخر، وفيه الثلج يكسو الأرض حلة نقيّة من أديم الشمس هى لولا برودها. وفيه الجليد كالثريات المدلاّة حيناً. وحيناً كصفحة السماء، فى الزرقة والاستواء. وحيناً آخر تراه فتخاله هشيما من البلور النقى الصفيق. وفيه الندى مسلوكا عقوداً من اللؤلؤ فى خيوط الزرع وتباشير النبت. وفيه الضباب يضيِّق الافق ويقصِّر أمد الابصار فترة، فيكون للأبصار كالحمية للأجسام يعطيها فرصة للاستجمام من ألم النظر البعيد! وفى الشتاء البروق الخواطف والرعود القواصف والرياح العواصف. وكل هذا فيه جمال القوة وجمال الروعة. وهما كجمال الهدوء والاعتدال

لازمان لرياضة العواطف وحياة الشعور . وإن يكن فى فصول العام مايُرينا عظمة الخالق وجبرَوته ففصل الامطار هو أوّل هذه الفصول . ولا يذكر الناس الله ويخشعون أمام سطوته خشوعا صادقا إلاّ فى فصل الشتاء . حينما يعود إلى الاذهان ذكر الطوفان الذى أغرق قوم نوح ، وحينما يشتد قصف الرعد وهزيمه فتزلزل الأرض زلزالها ، وتوشك أن تخرج أثقالها كيوم الحشر .

والشتاء فى أوّل عوامل التعمير والبناء فى صرح الاجتماع ، فلولا الشتاء لما كان الموقد . ولولا الموقد لما كانت الأسرة أو لتأخّر نشوؤها أمداً طويلا ، ولولا الأسرة ما كانت قبيلة ، ولولا القبيلة ما كانت دولة ولا مملكة . فأنت ترى أنه لولا الشتاء وضرورة اجتماع الافراد حول النار للاصطلاء وطلب الدفء ، لظل نشوء الاسرة رهناً بحوادث وظروف أخرى طارئة قد تقع وقد لاتقع .

وفى الشتاء يقل الاجرام قلة ملحوظة . وذلك أن الناس يقلّون من الغدوّ والرواح ويعتكفون فى بيوتهم مما لا يهيء للصوص فرصا عديدة للسلب والنهب . وفيه كذلك يسمو مستوى الحياة العائلية . فالأب يرى بنيه وزوجه ، يخالطهم ويباسطهم ويقيم بينهم وقتا أطول ، فلا الزوجة ساهرة مسهّدة ، ترقب دامعة العين والقلب أوبة الزوج من إحدى زوراته الليلية ، ولا البنون يلتمسون حنوّ الأب وعطفه عليهم ورعايته لهم وانتباهه إليهم فلا يجدونها . ولا العاشق المفتون ييُسَّر له كل اليُسر أن يتسوَّر على الناس الدور ليسطو على الأعراض ويلغ فيها ويفسد

وفى الشتاء تقلّ الضوضاء ولا يقطع على الناس فى الليل وأطراف النهار هدوءهم لغط الباعة وهرجهم وصراخهم وضجيجهم فى الشوارع والأزقة وأمام الدور والمدارس والمستشفيات وفى كل محل تجوس خلاله أقدامهم

هذا ويعلّم الشتاء الناس الحذر والحيطة ، فلا يُجدى معه أن تهمل لباسك أو تهمل أمور بيتك أو تهمل استشارة الطبيب أو تغامر فى الأدلاج والسير فإنه على خلاف بقية الفصول ، سريع حاسم فى عمله ، ولا يدع لك فرصة للمطل والمراوغة وترك التبعات المفروضة عليك نحوك ونحو بنيك وذويك .

ويعلّمنا الشتاء بتقلّبه واختلاف وجوهه وقوة تنبيهه دراسة الطبيعة وحسن الاستدلال بالأمائر والإشارات على حال الجو من دفء أو قرّ أو إمطار أو انحباس وخلافها . والبدوى أسرع الناس استدلالاً وأسوغهم معرفة وأصدقهم فراسة بشؤون الجو ، لان للشتاء عنده من المعانى غير ماله عند الحضرى وساكن المدينة

ومن أنعُم الشتاء على الناس وفضله العميم أنه يحجب عن الأبصار كثيراً من مشاهد القبح والتشويه المغثية مما تقذى به العيون ، وأنه يحجب كذلك الكثير من مظاهر الفتنة والجمال والاغراء

وقد تقول محتجّا ومعارضاً : نستطيع أن نفهم ونسيغ أن يكون من فضل الشتاء على الناس وخيره العميم أنه يحجب عنهم مظاهر القبح فيمن حُرموا الجمال بما لا بدّ أنهم يخبّئوه من أجسامهم الشوهاء المضطربة بما يلفون به أنفسهم من أردية وأكسية ثقيلة ، حتى لا يكاد يبدو الاضطراب والتشويه . قد تقول : إننا نستطيع أن نُسيغ هذا ونفهمه ، ولكن كيف نفهم أن يكون إخفاء الحسن والجمال والفتنة من أنعم الشتاء عندنا وفضله العميم علينا ؟

وأجيب : إنك بلا ريب تحمد للشتاء أنْ يُخفى عنك الفرو الغزير حول العنق فتنة الجيد العاجى ، وما يصله بأعلى الصدر من نحرٍ يُطلّ عليك إطلالة الفجر . وتحمد للشتاء أن يخفى عنك بالمعطف الثقيل والدثار الكثيف والصوف الخشن الصدر الناهد البض ، والترائب المصقولة والاعضاء المملوءة . والرداء الشفّ يخفى شيئاً ويُبدى أشياء فتكون الفتنة — وايم الله — أشدّ من فتنة العرى الكامل ! ! وتحمد للشتاء أنه يُخفى عن عينيك ضمور الخصر وهيف القد والساقين لفرط انسجامهما لاتدرى أهما إلى الربالة والامتلاء ، أم هما إلى الدقة والنحافة . ستحمد للشتاء كل أولئك لانك تحبّ ان يثوب إليك رشدك والعازب من لبك ، وتحب أن تنقطع شيئاً آهاتك وتغيب حيناً مثيرات الحرمان والحسرة فى فؤادك .

أفبعد هذا لا نصوغ للشتاء عقود المدح والثناء ، ونردد قول الشاعر : « سلام الله يامطر عليك » . سواء أعنى الشاعر مطر السماء أم عنى اسما من الاسماء ؟ !

بلى ، سلام وألف سلام ياشتاء !

أديب عباسى

١١ - هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

محبة القريب

إنكم لتعطفون على القريب، وتعبرون عن عطفكم بتزويق الكلام، أما أنا فأقول لكم إنَّ محبتكم للقريب إنْ هى إلا أنانية مضللة.

إنكم تلجأون للقريب هرباً من أنفسكم، وتريدون أن تعدوا هذا العمل فضيلة، وهل يخفى علىَّ كنه تجردكم هذا؟

إن المُخاطَب أقدم من المتكلم، فالأول مقدس أما الثانى فلم يقدَّس بعد. ذلك هو السبب فى عطف الإنسان على قريبه.

إن ما أشير به عليكم هو أن تنفروا من القريب لا أن تحبوه لتتمكنوا من محبة الإنسان البعيد، فإن ما فوق محبة القريب محبة الإنسان البعيد المُنتَظَر، وإنى أضع فوق محبة الإنسان محبة الأشياء والأشباح.

إن الشبح الذى يعدو أمامك، يا صديقى، لهو أجمل منك، فلماذا لا تعيره لحمك وعظمك؟

لقد استولى الخوف عليكم فلذلك تفزعون إلى القريب. لا قِبل لكم باحتمال أنفسكم وما حبكم بالحب الكامل، لذلك أراكم تطمحون إلى إغواء قريبكم لتتمتعوا بضلاله.

أتمنى أن تنفروا من جميع فئات الأقربين ومن جيرتهم أيضاً لتضطروا الى إيجاد الصديق الذى يطفح قلبه بالاخلاص. إنكم لتدعون شهوداً عند ما تريدون أن تغدقوا الثناء على أنفسكم، وإذا ما توصلتم إلى تضليلهم ليحسنوا الظن بكم تبدأون حينئذ بإحسان الظن بأنفسكم.

ما من أحدٍ يرتكب الكذب إلا إذا تكلّم ضد ضميره؛ فأصدق الناس من لا ضمير له يحول دون قوله الصدق. على هذه القاعدة تتكلمون عن أنفسكم بين الناس لتضللوهم فى حقيقتكم. يقول المجنون فى نفسه: (إن مخالطة الناس تفسد الأخلاق، بل هى تفسد بخاصة من لا خلاق لهم)

إن منكم من يهرع الى جاره ليفتش عن نفسه، ومنكم من يذهب إليه لينساها. انكم تسيئون محبة أنفسكم، لذلك يصبح انفرادكم بمثابة سجنٍ لكم.

إن الغائبين يؤدون ثمن حبكم للقريب، لأن خمسة يجتمعون منكم يقضون دائماً على السادس الغائب.

إننى لا أحب أعيادكم، إذ رأيتها مليئة بالممثلين، ورأيت النظارة أبرع منهم تمثيلاً.

لا أدعوكم إلى محبة القريب، بل أدعوكم إلى محبة الصديق. فليكن الصديق لكم مظهر حبور الأرض، فتحسون بما ينبئكم بالانسان الكامل.

أوصيكم بالصديق يطفح قلبه إخلاصاً؛ غير أن من يطمح إلى الظفر بمثل هذا القلب يجب عليه أن يكون كالاسفنجة قادراً على تشرّب السائل المتدفق. أوصيكم بالصديق الذى يحمل عالماً فى نفسه، فهو الصديق المبدع الذى يسعه أن يقدم لكم هذا العالم فى كل حين، فيعرض عليكم ما مرَّ به من عبر الحياة، فتشهدون كيف يتحول الشر إلى خير، وكيف تنتهى الصدف بكم إلى غاياتكم.

ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ما تصبو إليه فى يومك، فتحب فى صديقك الانسان الكامل، وتضعه نصب عينيك كغاية لوجودك.

لا أشير عليكم بمحبة القريب أيها الاخوة، بل محبة الآتى البعيد.

هكذا تكلم زارا . . .

طريق المبدع:

أتقصد العزلة يا أخى لتجد الطريق التى توصلك إلى مكمن ذاتك؟ إذن، فقف قليلا فى ترددك واصغ إلىّ:

لقد قال القطيع: (من فتش فقد تاه، ومن انعزل فما أمن العثار).

وأنت قد عشت طويلا بين هذا القطيع، ولسوف يدوى صوته ملياً فى داخلك. فاذا قلت له: ـ لقد تغير ضميرى جانحاً عن ضميرك ـ فلن تكون إلا شاكياً متألماً.

إن اشتراكك بالشعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم، وآخر وَهَج من هذا الضمير المشترك لا يزال يلهب فجيعتك فيجددها . ولكنك ترغب في اتباع هاتف آلامك لأنه يقودك إلى التوغل في ذاتك ، فأين برهانك على حقك في المضى إليها وعلى انك قادر على هذا السفر . أفأنت قوة جديدة وحق جديد؟ أأنت حركة ابتداء؟ أأنت عجلة تدور على ذاتها؟ أبوسعك أن تجعل النجوم تدور حولك؟

لَـكَمْ من طموح يتحفز نحو الأعالى ، ولكم من طمع يرتعش فى أمانيه ، فاثبت لى أنك لست من الطامحين الطامعين .

إن كثيراً من ساميات الأفكار لا تعمل إلا عمل الأكر المنتفخة فلا تكاد تتضخم حتى يحكمها الضمور .

إنك تدعو نفسك حراً ، فقل لى ما هى الفكرة التى تقيمها مبدأ لك . ولا تكتف بقولك إنك خلعت نيرك . فهل كنت ياترى ذا حق بخلعه؟ إن من الناس من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم .

لايهم زارا أن تقول له من أية عبودية تحررت ، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التى تحررت من أجلها

هل بوسعك أن تسنّ لنفسك خيرها وشرها فترفع إرادتك شريعة تسود أعمالك . أبوسعك أن تكون قاضياً على نفسك وأن تكون منتقماً منها لشريعتك؟

إنه لأمر مريع أن يبق الإنسان منفرداً مع مَنْ أقامه قاضياً عليه ومنتقماً منه بالشريعة التى أوجدها . إن مثل هذا الإنسان ليذهب فى الفضاء ذهاب الكوكب مقذوفاً إلى فراغ الوحدة وصقيعها .

إنك وقد أصبحت منفرداً لاتزال تتألم من المجتمع لأنك لم تطرح شجاعتك ولم يزل للأمل مرتع فيك . غير أنك ستتعب من انفرادك يوماً ، إذ تلين قناتك ، وينحطم غرورك فلا تتمالك من الهتاف قائلا . إننى أصبحت وحيداً فريداً

سيأتى يوم تحتجب فيه عظمتك عنك فتلتصق صغارتك فيك حتى لترتجف فرقاً من تساميك نفسه إذ يبدو أمامك كشبح مرعب فتصرخ قائلا (كل شىء باطل)

إن فى المنفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه ، فإن لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت . فهل أنت مستعد لارتكاب جريمة القتل؟

أتعرف ، ياأخى ، معنى كلمة الاحتقار ، وما ستكون آلامك إذا أنت أردت العدل واضطررت إلى الاقتصاص ممن يحتقرونك؟

انك تُـكره الكثيرين على تغيير اعتقادهم فيك ، فتثير حفيظتهم عليك . لقد اقتربت منهم ثم تجاوزتهم ، فهم لذلك لن يغتفروا لك .

لقد تفوقت عليهم ، فكلما اعتليت فوقهم ازددت صغاراً فى أعين الحاسدين . وما كره الناس أحداً كرههم للمحلق فوق السحاب .

لقد وجب عليك أن تقول للناس : — إننى اخترت ظلمكم نصيباً حق لى منكم ، لذلك عز إنصافى عليكم . إن الناس يرشقون المنفرد بالمظالم والمثالب ، ولكنك إذا كنت تريد أن تصبح كوكباً فعليك أن ترسل أنوارك حتى إلى الراشقين .

واحترس بخاصة من أهل الصلاح والعدل لأنهم يتوقون إلى صلب من يوجد فضيلة لنفسه . إنهم يكرهون المنفرد .

واحترس أيضاً من السذاجة المتقيَة ، لأنها ترى الكفر فى كل إنسان لا يلتصق بها . وقد كان الساذجون فى كل زمان يتوقون إلى إيقاد النار واللعب بها .

كن على حذر من التطرف فى حبك ، فان المنفرد يمد يده متسرعا لمصافحة من يلتقى فى طريقه . إن من الناس من يجب عليك ألا تمد إليهم يداً ، بل مخلباً ناشباً .

غير أن أشدّ من تصادف من الأعداء خطراً إنما هو أنت وما يترصدك فى المغاور والغابات إلا نفسك .

لقد تبيّنت الطريق الذى يقودك إلى ذاتك . أيها المنفرد ، وطريقك منبسط أمامك وأمام شياطينك السبعة . فتصبح منذ الآن جاحداً لنفسك ، ساحراً مجنوناً ، مشككا كافراً شريداً . فيجب عليك أن ترضى بالاحتراق بلهبك إذ لا يمكنك أن تجد مالم تشتعل حتى تصبح رماداً .

إنك تتبع طريق الخالق ، أيها المنفرد ، فأنت تفتش على إله لك تقيمه من شياطينك السبعة . إنك تتبع طريق العاشق ، أيها المنفرد ، وقد عشقت نفسك ، فأنت لذلك تحتقرها احتقار العاشقين.

يريد العاشق أن يبتدع لأنه يحتقر، وما له أن يدّعى الحب إذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب.

توغل فى عزلتك يا أخى. سِرْ فلا رفيق لك إلا حبك وإبداعك. إنك ستسير طويلا قبل أن تقفو العدالة أثرك متثاقلة متعارجة.

اذهب إلى عزلتك فأننى أشيعك بدموعى يا أخى، لأننى أحب من يتفانى ليوجد فى فنائه من يتفوّق عليه.

هكذا تكلم زارا

الشيخة والفتاة

لماذا تدلج مختفياً فى الغسق يازارا؟ وما هو الذى تخفيه بكل احتراس تحت ردائك؟ أكنز وُهِبْتَه أم طفل رُزِقته؟ وإلى أين تتجه على طريق اللصوص ياصديق الأشرار؟.

فاجاب زارا: — والحق يا أخى، أن ما أحمل إنما هو كنز وُهِبْتُه، فهو حقيقة صغيرة طائشة كالطفل، ولولا أننى كمت فمها لصاحت بملء شدقيها.

بينما كنت أسير اليوم منفرداً فى طريق عند الغروب، التقيت بشيخة ناجتنى قائلة: —

لقد كلّمنا زارا مراراً نحن النساء، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة.

قلت لها: — يجب ألا يتكلم عن النساء إلا للرجال.

فقالت: — لك أن تتكلم أمامى عن النساء لأنى بلغت من العمر أرذله فلن تستقر أقوالك فى ذهنى.

وقبلت رجاء المرأة العجوز فقلت لها: — كل ما فى المرأة لغز، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحِد وهو كلمة (الحَبَل)

ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة؛ أما غايتها فهى الولد، ولكن ما تكون المرأة للرجل ياترى؟ إن الرجل الحقيقى يطلب أمرين: المخاطرة واللعب؛ وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة، فهى أخطر الألعاب.

خلق الرجل للحرب، وخلقت المرأة ليسكن الرجل اليها، وما عدا ذلك فجنون، ولا يحب المحارب الثمرة إذا تناهت حلاوتها، فهو لذلك يتوق إلى المرأة لأنه يستطعم المرارة فى أشد النساء حلاوة

تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل؛ غير أن الرجل أقرب إلى خلق الطفل من المرأة، ففى كل رجل حقيقى يحتجب طفل يتوق إلى اللعب. فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل فى الرجل.

لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشع فيها فضائل العالم المنتظر.

ليتوهج الكوكب السنى فى حبك أيتها المرأة، وليهتف شوقك قائلا: لأضعن للعالم الانسان الكامل. ليكن فى حبك استبسال تتسلحين به لاقتحام من يثير الوجل فى قلبك. ضعى شرفك فى حبك، وما تعرف المرأة من الشرف إلا يسيراً؛ غير أن الشرف فى حبك هو الخلق الذى يجعلك تبادلين المحبة بأكثر منها فلا تنحدرين إلى المقام الثانى

ليحذر الرجل المرأة عند ما يستولى الحب عليها، فهى تضحى بكل شىء فى سبيل حبها، إذ تضمحل فى نظرها قِيَمُ الأشياء كلها تجاه قيمته، ليحذر الرجل المرأة عند ما تساورها البغضاء، لأنه إذا كان قلب الرجل مكمنا للقسوة. فقلب المرأة مكمن للشر

إلى من توجه المرأة أشد بغضائها؟

والجواب فى قول الحديد للقوة الجاذبة:

— إن أشد كرهى موجه إليك لأنك تجتذبين ولا طاقة فيك لتربط على ما تجتذبين.

إن سعادة الرجل تابعة لأرادته؛ أما سعادة المرأة فتوقفة على إرادة الرجل.

تقول المرأة وقد استسلمت لحبها العميم: لقدا كتمل العالم.

ولا بد لها أن تخضع وأن ترى أعماقا على سطحها، لأن روح المرأة سطحية، فهى صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح، فى حين أن روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها فى المغاور السحيقة القرار؛ وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها

عندئذ قالت العجوز: لقد تكلم زارا عن أشياء طريفة أجدر بسماعها من النساء من لم يزلن فى مقتبل العمر. ومن الغريب أن ينطق زارا بالحق عند ما يتكلم عن النساء وهو لا يعرفهن إلا قليلا. أفتكون إصابته ناشئة عن أن ليس فى حالة المرأة شىء ممتنع

والآن اصغَ إلىّ يا زارا، فانى سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافاة على ما قلت، وكبر سنى يجيز لى أن أعلنها لك، فاسترعها وأطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك

فقلت هاتها، هذه الحقيقة الصغيرة أيتها المرأة. وهذا ماقالت العجوز: —

— إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط.

هكذا تكلم زارا...

(يتبع) فليكس فارس

شاعر الطبيعة (١)

للسيد عمر أبو ريشة

شاخص الطرف محدق فى الفضاء   فوق طود عالى المناكب ناء
يرقب الفجر والندى مالىء بُرْ   دَيْه والشعر مائج فى الهواء
شاعرٌ خافق الجوانح بالحب (م) بعيد عن   عالم الضوضاء
نتراءى فى وجهه الهادىء الوا   جم آى الوداعة الغرّاء
وبعينيه بارقٌ قذفته   شعلة الروح مبهم اللألاء !
نهض الفجر مثقلاً يتلوّى   فوق صدر الطبيعة الخرساء
يتخطّى الربى وئيداً ويهمى   بشتيت الأظلال والأنداء
وثبةٌ إثر وثبة ذائب الألــوان   فيها وجامد الأضواء
فارتدى الكون بردةً من جمال   وتهادى بباسم النعماء
فاذا السفح باسمٌ تمرح القطعــانُ   فيه وترتعى بهناء
وإذا الطير بين كرٍّ وفرٍّ   من غدير لروضة غناء
صورٌ أفرغت على أذن الشا   عر نجوى علوية الايحاء

***

هبط السهل والهجيرة تنقضّ (م) وتطوى   مطارف الأفياء
وتصبّ الخمول والسام الصاخـــب   والصمتَ فى فم الغبراء
وتردّ الجمال منهتكَ الستر (م) سليب   النعومة العصماء !
وتسلّ النشاط من قبضة الكو   ن فيغفو على ذراع الفناء !
فصدور الحقول متعبةٌ تلـ   ـهث فى غمرة من الإعياء !
ورءوس الأزهار مطرقة تنـ   ـسلّ منها انتفاضة الكبرياء !
وقيان الغصون ملويّة الأعــناقِ   صرعى كآبة عمياء . . .
صورٌ أفرغت على أذن الشا   عر نجوى علوية الإيحاء !! . .

***

بلغ المنحنى . . لجاز مدى الطر   ف بحسٍّ مفجَّع الأنباء !
مأتمُ الشمس ضجّ فى كبد الأفـــق   وأهوى بطعنة نجلاء
عصبت أرؤس الروابى الحزانى   بعصاب من جامدات الدماء !
فأطلّت من خدرها غادة الليـــل   وتاهت فى ميسة الخيلاء
وأكبّت تحلُّ ذاك العصابَ (م) الأرجوانى   باليد السمراء !!
وذؤابات شعرها تترامى   فى فسيح الآفاق والأجواء
وعيون السماء ترنو إليها   من شقوق الملاءة السوداء !!
فاذا الكون لجّةٌ من جلال   فجّرتها أصابع الظلماء
يرسب الطرف فى مداها ويطفو   ثم يرتد فاقد الإرتواء
فتطلّ الأشباح من كوّة الوهم (م) وتعوى   مجنونة فى العراء
وتموج الأصداء من جهش الأر   ض بأذن المهابة الصماء
وتحس الروح الوديعة بالرعـ   ـشات تسرى كموجة الكهرباء !
صور أفرغت على اذن الشا   عر نجوى علويّة الإيحاء !!

***

هكذا استعرض الوجود مليًّا   فى غضون الإصباح والإمساء
فى اختلاج البروق فى قهقها   ت الرعد فى صاخب من الدأماء
فى ابتسام الرياض فى هدأة الجد   ول فى نفحة الربى الفيحاء
فانثنى ضاربا على الوتر الشا   دى اهازيج روحه الشماء !
فَضَّ فيها عن الحياة نقابا   من خداع وبرقعا من رياء !
ورمى ختم سرها فتجلت   بعد لأى عريانة للرائى !
فتهادت بناتها باصطفاق الصـ   ـنج والدف واتساق الغناء
كدُمى هيكل لقد نفض الله (م) عليها   اختلاجة الأحياء !
يتمايلن راقصات نشاوى   بدلال مفجر الإغراء !
فمن الخصر عطفة تركت فى   حلبة النهد نفرة للعلاء
كل بنت جياشة الصدر ترمى   أختها بابتسامة استهزاء
هذه فى يمينها مشعلُ الحب (م) قصير   الأنفاسِ خابى السناء
هذه فى عيونها تصرخ الشهـ   ـوة جوعا وتزدرى بالحياء
هذه فوق رأسها تشرق الحكـ   ـمة فى شبه هالة وضاء !
هذه . . خلّ هذه ، ودع الأخـ   ـرى فصعب إصابة الإحصاء
زمر من كواعب برزت فى   صور العيش فى أتم جلاء ! . .
عزف الشاعر النبيغ فجسّت   أكبدَ الراقصات كف العزاء
مسنداً رأسه على كتف القيـ   ـثار مستسلماً إلى الأهواء
وإذا ماصحا على نفخة البو   ق بأذنيه وازورار القضاء . .
خدرت كفه على الوتر الشا   دى وسالت أصداؤه فى الفضاء
وتلاشت تلك الحسان تلاشى الـ   ـشمع فى زفرة اللظى الحمراء
وهوى فوق مضجع من تراب   تحت عطفى صفصافة غيناء !!

حلب   **عمر أبو ريشة**

(١) من ديوان (شعر) الذي صدر حديثا

الفنون

اكروبوليس أثينا

AKROPOLIS - ATHENA

للدكتور احمد موسى

الجمال فى هذا الوجود كثير، ولكنه ليس رخيصاً؛ ولذلك كانت معرفته والاستمتاع به شأن فئة معينة من الناس. وكان من أهم ما نظرت إليه الجامعات الأوربية الحديثة وجوب تدريس مادة علم الجمال Aesthetik ضمن دراسة الفلسفة، ومادة تاريخ الفن العام وعلم الآثار بعد إكمال دراسة التاريخ والجغرافيا؛ فبالأولى تتمكن من معرفة الجمال بقواعد تؤدى إلى ترقية حواسنا وتهذيب تقديرنا، وتقريب استمتاعنا من الكمال، وما ينبنى على هذا كله من تمهيد السبيل إلى إكمال سلسلة التطور الفنى والوصول بها إلى الغاية المقصودة دون ركود أو انحطاط. وبالثانية نسجل ماضى الفن تسجيلا علمياً نقيس به الحضارات ونعمل على ربط الحاضر بالماضى وبالمستقبل فيكون التطور طبيعيا والتقدم منتظراً

وإذا رجعت إلى حضارة أى شعب أو أمة، وجدت أن الآثار والفن من أهم مواد التسجيل لمقياس مدى هذه الحضارة؛ فكأننا بدراساتنا هذه نقصد الوصول إلى معرفة الوسائل التى بها نستطيع تكوين حضارة حقيقية ترجع فى جوهرها إلى معرفة نواحى الجمال الفنى، فضلا عن الاستمتاع واللذة نتيجة صدق التقدير.

وإذا نظرنا إلى مصر وجدنا أن الفن فيها عظيم، وأن الطبيعة منحتها الكثير من جمالها، ومع هذا يجهل كثير من أبنائها ما فيها منه، وليس جهلهم هذا نتيجة مباشرة لجهلهم العام دائما، ولكنه نتيجة لاهمال مدارسنا لعلم يعد اليوم من أهم العلوم الدراسية فى أوروبا التى نأخذ عنها الكثير.

والظاهر أننا بحسب مولدنا والبيئة التى نشأنا فيها قليلو التأمل فيما نراه - وأثر ذلك واضح فى كثير من تصرفاتنا العامة حتى فى مطالعتنا، ترانا نقرأ ما نقرأ بطريقة أوتوماتيكية خالية من الأخذ والرد تبعدنا غالبا عن الاستمتاع.

وإذا نظرنا إلى الطبيعة فاننا قد لا نستطيع أن نتذوق ما يسميه الغير جمالا؛ وإذا شاهدنا معبدا أوكنيسة أو جامعا أو صورة صعب علينا التعرف على ما فيها من سر الجمال والإنشاء.

وإذا كان من نصيب البعض زيارة متاحف أو معارض فنية، وكان من شأنه وصف ما شاهد، أو نقد ما عاين، أو تكوين رأى شخصى، تراه لا يخرج فيما يكتبه أو يقوله أو يقرره عن مديح وإطراء أو ذم وتقليل ليس فيه قيمة دراسية تعود على القارىء أو المستمع بأى تثقيف أو فائدة، بل على النقيض من ذلك قد تضر استعداده الفطرى وتنقص منه؛ وذلك ما حدا لى فى الواقع إلى الاتصال بالأستاذ الكبير رئيس تحرير هذه المجلة، بقصد التحرير فى تاريخ الفن وتاريخ الآثار إجمالا، حتى أستطيع بذلك أن أقدم للقارىء تعاريف إجمالية تكون خلاصة هذه الدراسات، إذ بها يمكن اكتساب المعرفة الحقة لعلمين مهمين يؤديان بنا إلى التعرف على ما فى حياة الانسان من تراث فنى مجيد، ويكسبنا ناحية من الاستمتاع قد لا يمكن الوصول إليها دون المعرفة الدراسية ولا سيما وبيئتنا لا تزال تخلو من هذا النوع من التثقيف.

وقد فكرت كثيرا فى الخطة التى يمكننى السير عليها، ووجدت أن من الملائم للقراء وجمهرتهم من الأدباء والمثقفين، ألا أنحو نحواً مدرسياً بحتا قد يمل القارىء، فتراني مرة أكتب عن روبنز وأخرى عن جويا وثالثة عن رمبراندت، ثم ترانى أنتقل فجأة إلى اكروبوليس أثينا، مع أن الصلة المدرسية أو المنهجية بين هذه المقالات وبعضها مفقودة تماما؛ كما أنى لم أعرج على الفن المصرى أو الاسلامى بعد، ولكنى أتعمد هذا الاعراض مؤقتا، كما أتعمد الانتقال المفاجىء لأمرين: أولهما تشويق القارىء كل مرة بقراءة شىء جديد يخالف سابقه؛ وثانيهما إعطاء الفكرة العامة عن ماهية تاريخ الفن وتاريخ الآثار فى أبسط عبارة تؤدى إلى معرفة وسائل القياس بواسطة الفن المقارن، وبذلك تكمل حواسنا، وندرك الجمال على الوجه المتقدم.

على أنه إذا كان ولابد من جعل الدراسة منتظمة، فهذا ماسيكون بطبيعة الحال فى النهاية؛ إذ يمكن عندئذ، بعد عمل ترتيب بسيط، جمع فنانى كل مدرسة على حدة، ووضعهم معاً وضعاً تاريخيا، وهذا الترتيب يمكن إجراؤه فيما يتعلق بتاريخ الآثار أيضا.



(ش ١) منظر عام لأكروبوليس أثينا ــ وفيه يؤدى السلم إلى مدخل بروبولين وخلفه على اليمين معبد بارتنون

واليوم أقدم إيضاحاً عن أكروبوليس أثينا الذى يعتبر آية من آيات الفن القياسى ، إلا أنى مضطر للاشارة إلى تاريخ أثينا نفسها قبل الدخول إلى اكروبوليس اضطرار من يريد تاريخ الأزهر مثلا ، فيعرج على تاريخ القاهرة وعلى ما كان لها من الشأن أيام إنشائه

كانت اثينا من ناحية حضارة الاغريق مركز الحياة اليونانية ، وكانت من الناحية السياسية من أهم بلاد الاغريق حينا ، وعاصمة لها حيناً آخر .

قامت هذه المدينة على مرتفع أكسبها بروزاً هاماً فى مقاطعة أتيكا Attika بين نهيرى اليزوس وكفيزوس وعلى بعد خمسة كيلومترات من شاطئ البحر وسبعة كيلومترات من ميناء بيريوس . يرجع إنشاؤها إلى الملك ككروبس Kekrops الذى اختار لها هذا المرتفع لحسن ملاءمته . ثم أقيم مكان هذه المدينة بناء قلعة اكروبوليس الذى خصص للحفلات الدينية والحربية فى عصر الحضارة الاغريقية ، بعد إصلاح الأرض وتسطيحها ثم إحاطتها بسور عال من كل الجهات (ش ١) فكان بذلك أهم بناء فى أثينا ، وقد جعل المدخل فى الجهة الغربية للمرتفع مكونا من مداخل بعضها خلف بعض لتعزيز الوصول إلى اكروبوليس ، ولامكان عمل الرقابة اللازمة عند الدخول إليه أو الخروج منه ، وسمى هذا المدخل فى ذلك الحين بلاسجيكون نسبة إلى ما يقال من أن مؤسسيه كانوا البلاسجر (ش ٢)

وفى داخل المرتفع المحاط بالسور سكن ملوك هذه المنطقة من أتيكا ، وبجوار تمثال الآله زويس Zeus بنى معبد هيكا توميدوس Hekatompedos وهو أقدم المعابد ، وفيه أقيم تمثال أثينا بولياس وتمثال الآله ارشتايوس وعلى اسمه بنى بعدئذ معبد ارشتايون ، وتمثال بوزيدون اله البحر والزلازل .

كثر سكان أثينا وزحف جزء منهم تدريجياً إلى جنوب وغرب المرتفع ، فكان أمام المدخل وعلى بعد مناسب منه أول سوق تجارية ونظراً لاتحاد سكان أتيكا وتكوينهم مقاطعة متحدة الأطراف عملا بأرادة الملك تيسيوس Theseus ، اتسعت دائرة المدينة وزادت قيمتها الاجتماعية والسياسية فأصبحت العاصمة .

أما السكان الذين زاد عددهم كثيرا عن قبل فقد امتدوا بمساكنهم إلى الأطراف خصوصاً إلى الجزء الشمالى الغربى ، حيث سكن صناع الفخار ، ولذلك سمى هذا الموقع حى الفخارين (Cerameikos)

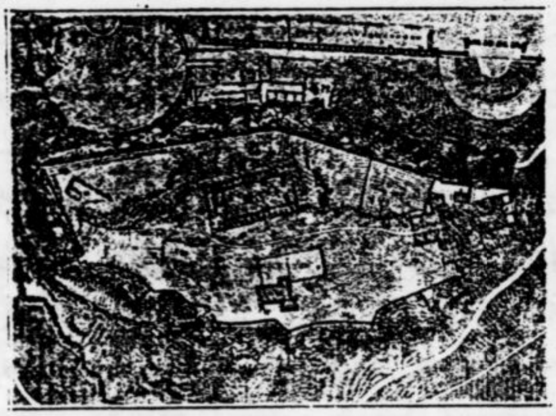
اشتغل الفنان بيسستراتوس Pisistratos وأولاده بتجميل المدينة مبتدئين بالجزء الشمالى الغربى منها ، فبنوا هيكلا شمل الاثنى عشر إلهاً ، كان بوضعه ملتقى الشوارع التى أنشئت وتقاطعت عنده .

ثم ابتدأ بيسستراتوس وأولاده أيضا فى بناء معبد زويس الأولمبى بالطرف الجنوبى الشرقى وسموه معبد ألمبيون Olympieion ؛ على أن بناءه لم يتم إلا بواسطة هدريان Hadrian ، كما أنهم أضافوا إلى مبانى معبد أثينا القديم مدخلا مكونا من أعمدة أقيم فى أعلاها إفريز

رسومات شملت تماثيل تبين مواقع حربية ؛ أما المدخل العام للمرتفع فأنهم أدخلوا عليه كثيراً من التحسينات البنائية ، فأصبح مدخلا فخماً بكل معانى الكلمة .

ولم يترك بيسستراتوس البئر الموجودة بالسوق القديم دون تجميل ، فبنى حولها بناء ظاهراً ، كما بنى بالجهة الشرقية دائرة ليكايون Lykeion لتقديس أبولون ؛ على أن بناءها لم يتم إلا بواسطة بركليس . وقد تحولت هذه الدائرة فيما بعد إلى جنازيوم أقيمت فيه الحفلات الرياضية منذ أيام الحاكم ليكورجوس Lykurgus .

وبعد ثورة تيرانيس Tyrannis وانتصار الديموقراطية بواسطة كلايستينس Kleisthenes فى نهاية القرن السادس قبل المسيح أصبحت أهمية اثينا عظيمة وقيمتها الاجتماعية أعظم .



(ش ٢) خريطة تبين اكروبوليس اثينا وعلى الجهة الغربية منه مدخل ابروبولين وفى الجنوب الأوسط معبد وارسو

وبعد عام ٥٠٠ ق . م . أقيم مكان خصص للرقص فى الموضع المخصص للاله ديونيزوس Dionysos فى الجنوب الشرقى للمرتفع تطل عليه أماكن صنعت من الخشب لمشاهدة تمثيل المناظر الدراماتيكية التى مثلت أيضا فى هذا المكان .

ظل الحال كذلك حتى جاء الفرس محاربين (٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م) فدمروا المدينة وهدموا معظم مبانيها . وكانت فترة إقامتهم قصيرة ، فعاد الأثينيون إلى أثينا نشطين ، وأخذوا يعيدون الحال إلى ما كانت عليه مبتدئين ببناء سور جديد بطول ثمانية كيلو مترات .

وواصل المهندس تيميستو كليس أعماله البنائية بميناء بيريوس وهى التى بدأها قبل الحرب الفارسية ، ثم انتقل إلى مواضع أخرى أنشأ عليها موانى أخرى غير بيريوس .

ابتدأ رؤساء المدينة بالاشراف على أعمال التاسيس والبناء ، وأول ظاهرة لهذا اهتمام كيمون بتوسيع الجهة الغربية لمكان القلعة وبجوار مدخل اكروبوليس ، وذلك ببناء أكتاف عريضة أقيم على جزء منها ومن المسطح الاول معبد أثينانيكا Athena-Nike الذى اتخذ منه الأتراك عام ١٦٨٧ طابية لهم ؛ فتفككت أحجاره وتهدم ، وظل كذلك حتى أعاد بناءه المهندسان الالمانيان شوبرت وهانزن تحت إشراف العالم الأثرى لودفيج روس عام ١٨٣٥ .

وبنى بايسيانكس Peisianax أحد أقارب كيمون صالة رحبة على أجورا ، وصور الفنان بوليجنوت Polygnot لوحات زين بها هذه الصالة .

انتهت أيام كيمون وابتدأ عصر بركليس الذى يعد أهم عصور اثينا . فأنشأ الأوديون Odeion ثم التفت إلى تجميل اكروبوليس وبنى اكتينوس Aktinos معبد بارثنون Parthenon (ش٢) وبعده قام البناء العظيم منيسيكليس Mnesikles ببناء المدخل الباهر للقلعة ، وهو المسمى برويلين Propylaen (ش ٢) .

هذا بيان موجز لنشأة اثيناوأكروبوليس وما أحاط بهما لم يكن منه بد .

للكلام بقية — احمد موسى

القصص

العبقرى الملعون

للكاتب الايطالى

چيوفانى پابينى

ذهبت إلى براغ مرتين ولكنى لم أستطع لقاءه . فى المرة الأولى لم أجرؤ على التطلع إلى بيته . وفى الثانية لم أهتد إلى منزله الجديد ، فقضيت ليلة فى تلك المدينة الغريبة أسائل الناس عنه وأنا مسوق إليه سوقى إلى المصير المحتوم .

لقد كنت فى تلك الليلة متشبعاً بكلامه وأفكاره حتى أخذت أحلم أحلامه وأغنى أغانيه وأتابع تيارات تفكيره وأتمثل نفسى أحد أبطال قصصه . لم أخضع لرجل من قبل كما خضعت لذلك الرجل الغريب الذى يزداد تأثيره فىَّ يوماً بعد يوم حتى لم أعد أفكر فى أمل الخلاص منه . كنت أعتقد أنه أعظم رجل أنجبته أوربا . ففى فنه روعة « بو » وتهاويله ، وقوة نيتشه ووحدته ، وموسيقى شيلى وعذوبته ، وآلام « دستوفسكى » ومرارته . فيه حمرة الجحيم وزرقة السماء . فيه طلاقة الطفل وعبوس الشيطان ، ولكن شيئاً آخر كان خافياً علىَّ هو عبقريته الفذة التى لم يكن يدركها أو يشرف عليها إلا القليلون . ولم تكن شهرته الذائعة التى نالها فى سنين قلائل إلا مجداً خالداً يشدو بذكره . لقد رماه الناس بالكبرياء والنفور ، ولكنهم لم يدروا شيئاً عن مؤلفاته ولم يحيطوا بأركان عبقريته . لقد أحببت قصصه إذ كانت كلها سيرة لشخصه من نسج غريب . تزأر أرواح أبطاله وتدوى بين أحزان الحياة ومخاوفها .

لم أستطع أن أكبت ذلك الإعجاب طويلا ، بل أحسست بدافع قوى لأن أراه وأتطلع إلى وجهه وأسمع كلمات تخرج من فمه . أردت أن أقرأ فى سطور وجهه تلك الآلام العاصفة التى صبها فى أبطال قصصه فوطنت العزم على لقائه . وقد ساعدنى على ذلك رجل فرنسى قادنى إلى بيته ، فدلفت إلى سلمه وقد ازدادت دقات قلبى شدة كلما دنوت من الطابق الذى كان يقطنه . وقفت أمام الباب وحاولت الكلام ولكن لسانى كان قد لصق بسقف حلقى فوقفت برهة أنظر إلى تلك اللوحة النحاسية المنقوش عليها اسمه فى حروف كبيرة سوداء فازددت هلعاً ورعبا . وأخيراً استجمعت قواى ومددت يدى إلى الباب أقرعه ، فجاءتنى خادمة تَصَّفُ فى لباس أسود ، فهمست فى أذنها باسم ذلك الكاتب العظيم ، فقادتنى إلى ممر طويل ينبعث فيه نور ضئيل شاحب حتى وصلت إلى غرفة نظيفة قد أغلقت نوافذها وتدلت مصابيح الكهرباء فى وسطها ، فلمحت فى أحد جوانبها مكتبا صغيراً عليه دفتر كبير شبيه بدفاتر المحامين وقد كسيت الجدران بالخرائط والصور .

شعرت بخيبة الأمل عندما وقع نظرى على تلك الغرفة العادية التى لم تكن تختلف عن سائر الغرف ولا سيما وقد كنت أتوقع صومعة لقديس أو عريناً لأسد لا مكتب أحد المحامين ؛ فأخذت أسائل نفسى : أحقا هذا بيته وتلك غرفته . أم أنا فى بيت أحد أقربائه ؟ ولكنى لم أطل التفكير فى هذا إذ رأيت أمامى رجلا ضئيلا قد أربى على الخمسين يحيينى بلغة فرنسية صحيحة ، فارتعت لمرآه . أيعقل أن يكون رجل أحلامى وأمانى هذا الرجل الضئيل الذى يرمقنى بعينين صغيرتين وتنفرج شفتاه عن ابتسامة هى أقرب إلى ابتسامات البله والسذج ؟ أيعقل أن يكون هذا الرجل الذى يرتدى ثوباً أسود ويضع يديه فى جيبه كما يصنع ضابط الاستيداع أو موظف المعاش ؟ ذلك الذى جعل قلبى يخفق بروعة آثاره وقوة أسلوبه ؟ وهل يمكن أن تكون تلك الأفكار العظيمة التى حيرتنى وجعلتنى أقطع الليالى ساهراً قد نبعت من ذلك الرأس الأصلع الصغير ؟ لم أكن لأصدق هذا ، بل كنت كلما أنعمت النظر فيه ازددت دهشة وعجبا ، حتى لم أستطع أن

أخفى دهشتى فقلت. أأنت الكاتب الذى أبحث عنه والشاعر الذى كتب «نفسى» و «الله» و «مشاكل نصف الليل»؟ فأجابنى فى هدوء وابتسام: نعم، وكأنه لم يشعر أنى أهنته بسؤالى هذا فدعانى إلى الجلوس وسألنى حاجتى.

لم أكن أعرف مكانى، ولم أكن أستطيع التفكير فى شىء أقوله، فلاحظ على بعض هذا الارتباك فدنا منى متلطفاً وقال: أراك أحد المعجبين الأجانب الذين يأتون لرؤيتى. إن هذا أمر يسير، فأنى أستطيع أن أقوم لك بما تريد. ثم أسرع إلى مكتبه وأخرج ورقة ومجموعة من الصور وعاد ثانية يستأنف حديثه: «هاك بعض تاريخ حياتى مدوناً بالفرنسية، وفهرساً كاملا لجميع مؤلفاتى. أى صورة تعجبك؟ إنى أظن أن أحسن صورى ما كان جانبيا، ولكن لك الاختيار. فى أى صحيفة ستنشر هذا المقال؟ أفى صحيفة يومية أم فى مجلة؟ فلما رأى أنى لم أجبه إلا بنظرة حائرة ساهمة عاد إلى مكتبه وأخرج كتابا صغيرا وقدمه إلى قائلا: هاك أشهر المقالات التى نشرتها كبرى الصحف عن مؤلفاتى، إنها مدبجة بأقلام كبار الناقدين. ألا تريد صورة تنشرها مع المقال؟ ثم أسرع ذلك الرجل الذى لا يعرف التعب إلى مكتبه وجاءنى بأقاصيص من الورق مكتوبة بخط يده، فلم أستطع أن أخفى دهشتى، ولكن صاحبى مضى فى حديثه قائلا: أليس هذا كل ما تحتاج إليه؟ أظنك تريد أن تعرف كيف أكتب، سأخبرك حالا: إنى أعمل أربع ساعات فى اليوم ولا أكتب أكثر من خمسين صفحة فى جلسة واحدة. إنى لا أستعمل الكتب القديمة ولا المعاجم البالية، لأنى صنفت كل مواد الكتابة تصنيفا جديدا. فى هذا الصندوق تجد الصفات، وفى ذلك تجد التشابيه والاستعارات، وفى الثالث تجد المتناقضات، وفى الأخير تجد أوصاف المناظر الطبيعية، وفى ذلك الذى عن يمينه تجد الأوصاف الغريبة لجميع الناس. أما الذى عن يساره فقد جمعت فيه كل عناوين القصص والمسرحيات. اظنك الآن تستطيع أن تفهم أن عملى ليس شاقا جدا بفضل هذا الترتيب. إنى أكتب بدون تفكير كأنى آلة: فاذا أردت أن أكتب شيئاً فما على إلا أن أضع يدى فأخرج ما أحتاج إليه. إنى لست أحد أولئك البلهاء الذين ينتظرون الوحى والالهام، فانى أكتب بانتظام وفى أوقات معينة. فماذا ترى فى هذا؟ فحاولت ان أتكلم ولكنى لم أستطع. فمضى صاحبى يقول: «أخبرنى. ألا يمكن أن تؤدى لى عملا فى إيطاليا؟ ألا يمكنك أن تنقل بعض كتبى إلى الايطالية؟ إنى أعطيك ٤٠٪ فى المائة من الأرباح وحق النشر فى بلادك. دعنا نكتب العقد.

ومن حسن الحظ أن دق جرس التليفون فى الغرفة الثانية فأسرع إليه الرجل دون استئذان، ولكنه مالبث أن جاءنى يقول: عفوا إن ناشرى كتبى فى ميونيخ يطلبوننى. دعنا نستأنف حديثنا. قل لى بصراحة: ألا تستطيع أن تقوم بهذا! فنهضت مذعورا وأنا أعجب أن تكون هذه اليد الغليظة قد جرت بتلك الروائع الخالدة، ثم صوبت نظرى إلى الباب ولكنه لم يكد يرانى أنهض حتى صاح: ألا تنتظر الشاى! إن زوجى وطفلى سيعودان حالا وسنتناول الشاى معاً. ألا تريد أن ترى طفلى؟ إنهما طفلان جميلان، أحدهما فى السابعة والآخر فى الحادية عشرة، إن زوجى تجيد العزف على «البيان» وتتقن فن التصوير. إن هذه اللوحات الفنية التى تراها على الجدران من ريشتها، فقبعت فى كرسى وأنا أتفرس فى وجه ذلك الرجل الذى لم يفتأ يقوم ثم يقعد ويفتح الأدراج ثم يقفلها وأخيراً قال لى: هنا تجد الطبعة الأولى من كتبى، وفى الدرج الآخر تجد الطبعات الثانية، وتحتها التراجم. إنه محصول كبير، أليس كذلك؟ إنى أعنى بها عنايتى بأطفالى. ثم أخذ يقهقه عاليا فلم أطق أن أرى فكيه ينفرجان عن فم واسع كريه، فصحت: يجب أن أذهب، ثم اندفعت إلى الباب وتدحرجت على السلم؛ وبدون أن أشعر وجدت نفسى خارج المنزل، وما كدت أصل إلى منزلى حتى ألقيت جميع مؤلفات ذلك الملعون فى النار

ترجمة نظمى خليل

البريد الأدبي

اكتشاف مدهش في الموميات المصرية:

وقع العلماء الأثريون في متحف « المتروبوليتان » بنيويورك على اكتشاف مدهش في شأن الموميات المصرية القديمة؛ فقد رأى الدكتور ونلوك مدير المتحف أن يسلط أشعة رنتجن على لفائف الموميات لأول مرة، وقد انتهى البحث إلى نتيجة مدهشة؛ وكان بعض العلماء قد سلط هذه الأشعة على الموميات من قبل فكانت النتيجة سلبية دائما لأن اللفائف الكثيرة التي تحيط بالجثث المحنطة كانت تحول دون ظهور أية نتيجة. ولكن العلامة الكيميائي الدكتور أرثوركوب توصل إلى اختراع جهاز جديد، واستعمل الدكتور ونلوك للكشف على مومياءين ترجعان إلى الأسرة الحادية عشرة، وهي مما وجدته البعثة الامريكية أثناء حفرياتها بمصر سنة ١٩٢٠، فكشفت الأشعة عن حقيقة مدهشة هي أنه يوجد تحت هذه اللفائف العديدة، وفوق الجثة المحنطة كثير من الحلي والجواهر التي زينت بها الجثة في الصدر والعنق والمعاصم، وبذا كشفت الصورة التي أخذت عن كنز لم يكن يحلم به إنسان، ففي عنق المومياء وجدت أربعة عقود، منها واحد ذهبي يتوسطه بعض اللآلىء الكبيرة والصغيرة، وعقد من اللآلىء الصناعية الصغيرة (الخرز)، ووجد على الصدر غطاء من الخرز وعقد كذلك، وكشفت الاشعة عن سوارين، كل معصم فيه سوار من الخرز وثلاثة جعارين كبيرة قد ثبتت فيهما. كذلك كشفت الاشعة عن سوارين في مفصل القدمين كسوارى المعصمين. ومن أعجب ما كشفت الاشعة هيكلا جرذين صغيرين عند القدم يظهر أنهما تسربا إلى الجثة عند ربطها. وقد رأى العلماء ازاء هذا الاكتشاف أن يحاولوا نزع اللفائف عن المومياء، بيد أنه رؤى قبل ذلك أن تتخذ كل الوسائل العلمية لحفظها خوفاً عليها من التلف. وقد عرضت الصور التي كشفت عنها الأشعة بجانب المومياء في متحف نيويورك.

شعب مصري في غانة الجديدة؟

نشرت إحدى الصحف الالمانية التي تصدر في بودابست نبأ اكتشاف غريب وفق إليه بعض الطيارين والعلماء الانكليز أخيراً في جزيرة غانة الجديدة التي تقع في المحيط الهادي على مقربة من استراليا، فقد طار إلى الجزيرة بعض الطيارين الاستراليين وتوغلوا في داخلها، فوقعوا على شعب غريب عن أهلها يعيش في الداخل ويبلغ عدده زهاء مائتي ألف، وليس بينه وبين باقي سكان الجزيرة شبه في الجنس أو العادات. وجاء بعدهم بالطيارة إلى الجزيرة بعض الاخصائيين في علم الأجناس وبحثوا أحوال هذا الشعب المتأخر المنقطع عن العالم فألفوه ماهرا في الزراعة خبيراً بطرق الري. ورأى العلماء أنه يوجد بين هذا الشعب وبين المصريين شبه كبير، ورتبوا هذا الاستنتاج على عدة حقائق علمية، منها أنهم يحرزون من الآلات الموسيقية ماهو شبيه بالآلات التي ترسم على الآثار الفرعونية، كذلك اسلحتهم الحجرية تشبه أسلحة المصريين القدماء. كذلك يوجد في معتقداتهم الدينية كثير مما يشبه عقائد المصريين القدماء. ويرى هؤلاء العلماء المكتشفون أنه ليس بعيداً أن يكون المصريون القدماء قد ساحوا إلى تلك المياه في العصور الغابرة، ونزلوا على تلك الجزيرة النائية وحل بعضهم بها، وأقاموا فيها مجتمعا خاصا بهم ونقلوا اليها بعض عاداتهم وحضارتهم. بيد أنه بقي على أولئك العلماء أن يبحثوا عما إذا كان لذلك الشعب من الخواص الجنسية، وعما إذا كان في لغته، ما كان للشعب المصري القديم؛ فاذا وقفوا إلى وجود هذه الخواص، فعندئذ يغدو الاكتشاف حقيقة علمية لا ريب فيها

ولقد دلت أبحاث المكتشفين من قبل على وجود آثار حضارة مشابهة لحضارة الفراعنة في بعض أنحاء أمريكا الجنوبية والمكسيك، ولكن البحث لم يقطع بوجود الصلة بين هذه الحضارة وحضارة المصريين القدماء.

فيبر عميد الموسيقى الالمانية

احتفلت دوائر ألمانيا الفنية والموسيقية أخيراً بذكرى الموسيقى الالماني الكبير كارل ماريافون فيبر Weber وذلك لمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على وفاته. وكان مولد هذا الموسيقى الكبير في ديسمبر سنة ١٧٨٦ في إحدى قرى هولشتين وكان أبوه رئيساً لموسيقى البلاط المحلي — فخرج على رأس فرقة من الممثلين الهزليين يطوف

جميع أرجاء ألمانيا ، ومعه ابنه فيبر ؛ وهكذا قضى الموسيقى العظيم حداثته متجولا فى مختلف الأنحاء ؛ ومنذ سن العاشرة ظهر شغفه بالموسيقى ؛ ولم يمض عامان حتى وضع أولى مقطوعاته الموسيقية ؛ وفى الرابعة عشرة وضع أولى « أوبراته » ، وفى الثامنة عشرة أتم فيبر دراسته الموسيقية ، وغدا علماً يشار إليه . وتولى رياسة الفرقة الموسيقية فى برزلاو ـ وقام بتنفيذ موسيقى « طيطوس » لموتسارت ثم التحق بخدمة دوق فرتمبرج . وبعد أن تنقل حينا فى قصور هذا الأمير اتهم بالتدخل فى الشؤون السياسية فقبض عليه وزج إلى السجن. ولما أطلق سراحه تقلب حينا بين مانهايم ودارمشتات وبامبرج حيث تعرف بالكاتب الأشهر هوفمان ، ثم زار ميونيخ وهنالك مثلت « أوبرته » « أبوحسن » ، ثم قصد إلى فيمار وتعرف بشاعر ألمانيا الأكبر جيته ، واشتغل بعد ذلك فى درسدن وفى برلين واشتهرت أوبراته ومقطوعاته الغنائية ؛ وكانت أشهر قطعه « فراى شتس » التى نالت فى عصره أعظم نجاح ، والتى تعتبر فاتحة عهد جديد فى تاريخ الموسيقى وهذه القطعة التى حملت فاجنر فيما بعد على أن يقول « لم يوجد موسيقى أكثر ألمانية من فيبر » .

وتوفى فيبر فى الأربعين من عمره فى لندن ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى مدينة درسدن تثوى إلى يومنا .

عيد جريدة الطان

من أنباء باريس أن جريدة « الطان » كبرى الصحف الفرنسية قد احتفلت بعيدها الخامس والسبعين فى حفل فخم أقيم فى بهو الاستقبالات بقصر أورسى ، وشهده جمع عظيم من الوزراء والنواب وأكابر الكتاب والفنانين ورجال المال والصناعة وأعضاء الأكاديمية والمجمع العلمى ، وخطب فيه عدة من الوزراء وأقطاب التفكير الفرنسى مثل مسيو أندريه تارديه ، ورنيه بو ، وجاك شاستنيه وغيرهم منوهين بعظمة الطان وعظمة المهمة التى تضطلع بها وكونها فخر الصحافة الفرنسية بلا مراء سواء من حيث رصانتها وسمو تفكيرها أو أسلوبها الرفيع المتزن ، والواقع أن الطان على رغم ثوبها المحافظ وحرصها على القديم واحجامها عن مجاراة التطور الصحفى المعاصر من حيث التصوير والتوزيع ، تبقى عميدة الصحافة الفرنسية من حيث غزارة مادتها وقوة تحريرها ونزاهة غايتها واحتشام أسلوبها

وقد أسست الطان منذ خمسة وسبعين عاماً سنة ١٨٦١ فى أواخر الامبراطورية الثانية ؛ وكان مؤسسها صحفيا يدعى نفتزر . أسسها أولا لخدمة التجارة الدولية . ثم تحولت إلى جريدة سياسية قوية ، أهم مظاهرها إذاعة الأنباء الدولية ؛ ثم كانت المرحلة الثالثة فى عنايتها بالعلوم والآداب والنقد ؛ وكتب فيها أئمة التفكير الفرنسى مثل شيرر وسانت بيف وبريسون وبلان ، وكتب فيها عظماء الوزراء والساسة مثل بوانكاريه وتارديه . وقد اشتهر مراسلوها الخارجيون بأنهم أعظم مراسلين من نوعهم حتى قيل فى المثل ان فرنسا لها سفيران : « السفير الفرنسى ومراسل جريدة الطان » ، وأشرفت على إدارة هذه الصحيفة الشهيرة مدى نصف قرن أسرة ايبرار ، التى أنجبت عدة من كبار الصحفيين والكتاب ، وكان آخرهم فى الاشراف عليها أميل ايبرار الذى تخلى عن إدارتها منذ نحو عشرة أعوام .

أيام تولستوى الأخيرة

صدرت أخيراً ترجمة انكليزية لمذكرات الكونته تولستوى زوج الكاتب الروسى الأشهر ليون تولستوى بعنوان « المعركة الأخيرة » The Final Struggle ترجمها ومهد لها الكاتب الانكليزى الميرمود . وقد ذاعت عن أيام تولستوى الأخيرة قصص عديدة ، فقيل إنه فى أواخر حياته كان يعيش عيشة الفلاحين الذين اعتنق قضيتهم ؛ وقيل إنه رجل نظرى لا يفعل مايعتقد . فهذه المذكرات التى كتبتها عن هذه المدة من حياته ألصق الناس به تبدد كثيرا من الأخطاء الذائعة وتلقى ضوءاً كبيراً على خاتمة الكاتب العظيم فى مقامه الهادىء فى « سنايا بوليانا » .

وقد اجتمعت أسباب عديدة لتنغص عيش تولستوى فى أعوامه الأخيرة ، وأهمها الدسائس والشجار المتواصلة بين زوجه وأبنائه من ناحية ، وبين ابنته الكبرى وهى أعظم أصدقائه . وكان تولستوى يود فى تلك الفترة أن يترك العالم لينقذ روحه ، وكانت ثمة مسألة مؤلفاته ولا سيما مذكراته وكلها ذات قيمة أدبية ومادية معا . وهذه المذكرات التى تنشر اليوم تشمل سنة ١٩١٠ التى توفى فيها تولستوى . وفيها مذكرات كثيرة من تحرير تولستوى نفسه عن أحواله وشؤونه اليومية .

وكانت هذه المذكرات بين تراث أسرة تولستوى حتى صحت عزيمة ولده سيرجى على طبعها واخراجها ، وقد تولى ترجمتها الميرمود صديق تولستوى وأخرجها فى أسلوب صادق مؤثر كما هى فى أصلها . ومهد لها بمقدمة بديعة يحلل فيها شخصية الكاتب العظيم تحليلا يدل على الوفاء والاعجاب الذى لاحد له . وشرح كثيرا من مواقفها وغوامضها . وما كادت هذه الترجمة الانكليزية تصدر حتى هرع القراء إلى اقتنائها بسرعة مدهشة دلت على مالذكرى الكاتب العظيم من الأثر والصدى .

جائزة للقصص التاريخى

كانت جريدة « الانترانسيجان » الفرنسية قد خصصت منذ حين جائزة مالية كبيرة ، تقوم بمنحها الأكاديمية الفرنسية والمعهد العلمى لمؤلف أحسن قصة تاريخية تعرض فيها حقائق التاريخ

في أسلوب القصص الرفيع . وقد عقد أخيراً اجتماع كبير من بعض أعضاء الأكاديمية وكثيرين من رجال الأدب لتخصيص هذه الجائزة عن سنة ١٩٣٦ ، وكانت لدى اللجنة عشرة مخطوطات جديدة ، فنال الجائزة المسيو روجيه رجيس عن قصته التاريخية التي عنوانها «La Belle Sabotière» وهي قصة تدور على أسر نابوليون الثالث في الحرب السبعينية في قلعة «هام» ، وبطلتها فتاة حسناء هي «صانعة قباقيب» ؛ ومع أن للواقعة أصلا تاريخيا لا شك فيه ، فان المؤلف استطاع أن يخرج منها قصة خيالية ممتعة .

وقد تبوأت القصة التاريخية مركزها في الأدب الفرنسي في العصر الأخير بنوع خاص وكان كتابها في الغالب مؤرخين من الطراز الأول ، وكان أستاذ هذا الفن من المعاصرين المؤرخ لينوتر الذي توفي منذ نحو عام ، وكان يكتب قصصه التاريخية في جريدة «الطان» بعنوان «التاريخ الصغير» ، وفيها يحيي شخصيات وحوادث تاريخية مجهولة ويسبغ عليها من قلمه سحراً لا يبارى

ألمانيا وكتابها المنفيون

أصدرت الحكومة الألمانية أخيراً قانوناً بنزع الجنسية الألمانية عن طائفة كبيرة من الكتاب والمفكرين الذين يخاصمون النظام الهتلري والذين غادروا ألمانيا منذ بدء الحركة اتقاء الفتك والمطاردة . ومن هؤلاء الذين نزعت عنهم الجنسية الكاتب القصصي الكبير توماس مان وجميع أفراد أسرته ، والمؤرخ الكبير الأستاذ ديتريش فون هلدبراند الذي يشغل الآن كرسيا في جامعة فينا ، وعدة كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين الذين يقيمون في مختلف العواصم الأوربية . وهذا آخر إجراء تتخذه الحكومة الهتلرية في شأن هؤلاء الكتاب المنفيين بعد أن نزعت كل أملاكهم وحرمت نشر كتبهم في ألمانيا .

حياة النور

النور أو الغجر من الشعوب البدوية المدهشة التي مازالت تحتفظ بعاداتها وتقاليدها القديمة وسط أمواج الحضارة المحدثة . ومع أن النور يستقرون جماعات كبيرة في أواسط أوربا ، ولا سيما في المجر ورومانيا ، فانهم بدو في أعماق نفوسهم بمعنى أنهم لا يستقرون على أسلوب معين في الحياة . وقد صدر أخيراً بألمانيا كتاب عن هذا الشعب الغريب بقلم الدكتور مارتني بلوك عنوانه «النور : حياتهم ونفسيتهم» « Zigeuner, ihr Lebenund ihre Seele » وأصدره معهد التراجم بمدينة لايبزج ، ويتناول المؤلف حياة النور وخواصهم وعاداتهم ، ثم يحاول شرح نفسيتهم ومشاعرهم وتفكيرهم بطريقة تدل على تعمقه في هذا البحث . ويبين محاسن عاداتهم التي ما زالت تقوم على الفطرة والسذاجة كما يبين مساوئهم وميولهم الخبيثة التي أملتها عليهم عصور من التشريد والاضطهاد . ومع أنه ينحو في مؤلفه نحواً علميا رزينا فانه يتبع في نفس الوقت في عرض آرائه أسلوبا بسيطا جذاباً ؛ ويفيض المؤلف في خواص النور النفسية والفكرية والفنية ، ويصف براعتهم في بعض الفنون مثل الموسيقى التي اشتهروا بها ونحوا فيها نحواً خاصاً لا يباريهم فيه أحد .

ومع أن مصادر هذا البحث ليست كثيرة ، فان الدكتور بلوك استطاع أن يجمع في مؤلفه شوارد موضوعه بافاضة ، وأن يجمع فيه كثيراً من المسائل والحقائق التي تلقي ضياء كبيراً على حياة هذا الشعب الغريب الذي مازال ينظر إليه أينما حل بعين البغض والريب

جريدة الشباب بدلا من الشورى

جاءنا من الأستاذ محمد علي الطاهر أنه اتفق مع الأستاذ محمود عزمي على أن يتولى إصدار جريدته «الشباب» بشكل آخر في خلال شهر فبراير المقبل .

وهو يرجو من أصدقاء الشورى القدماء أن يمنحوا الجريدة الجديدة نفس الثقة التي منحوها للشورى ، وسيظل عنوانه كما كان : ٣٠ شارع عبد العزيز بمصر تليفون ٥٦٨٠٠

الكتب

شرح الايضاح

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

أتمت المطبعة المحمودية التجارية، ومكتبتها بالأزهر بمصر طبع الجزء الثالث من شرح الايضاح فى علوم البلاغة للأستاذ عبدالمتعال الصعيدى المدرس بكلية اللغة العربية

وقد بدأ فى هذا الجزء بشرح قسم علم البيان من كتاب الايضاح وأتمه فيه، وسار فى شرحه على منوال الجزء الأول والثانى، لا يعنى بالمماحكات اللفظية، والمناقشات التى لا تتصل بصميم علوم البلاغة، وإنما عنى بتحقيق مسائل هذه العلوم، وبشرح شواهدها ونسبتها إلى أصحابها. وقد يذهب فى ذلك إلى مخالفة من سبقه من علماء هذه الفنون، كما ذهب فى هذا الجزء إلى أن وظيفة علم البيان تخالف وظيفة علم المعانى مخالفة تجعله علماً مستقلا عنه، وليس شعبة منه، كما ذهب إليه الامام السكاكى ومن تبعه

فوظيفة علم المعانى على هذا تطبيق الكلام على مقتضيات الاحوال، ومرجع ذلك إلى مراعاة ما يرجع فيه من جهة البلاغة؛ ووظيفة علم البيان معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة من الدلالة ليعرف ما يقبل منها وما لا يقبل، ويحترز بهذا فيها عن التعقيد المعنوى؛ ومرجع ذلك فى الكلام إلى مراعاة ما يجب فيه من جهة الفصاحة بقطع النظر عن مراعاة مقتضى الحال وإن كان لابد من ذلك فيه، ولكن هذه وظيفة علم المعانى، وشأنها من وظيفة علم البيان كشأن وظيفة علم النحو وغيره منها

وعلى هذا لا يكون من شأن علم البيان أن ينظر فى مثل قول امرىء القيس:

ألم تسأل الربع القديم بعسعسا كأنى أنادى إذ أكلم أخرسا

من جهة مطابقته لمقتضى الحال أو عدم مطابقته له وإنما ينظر فيه من جهة فساد التشبيه، لأجل أنه لا يقال كلمت حجراً فلم يجب فكأنه كان حجراً، وإنما الجيد فى ذلك قول كثير عزة:

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

كأنى انادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها النفس زلت

وكذلك ينظر فى قول امرىء القيس:

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

من جهة فساد الاستعارة فيه؛ لأنه إذا غطى الشعر العين لم يكن الفرس كريماً، ولا يعنيه فى ذلك اعتبار المطابقة وعدمها

وكذلك ينظر فى قول أبى تمام:

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت فى أنه برد

من جهة أن الرقة لا تستعار للحلم، وإنما يوصف بالرجحان والرزانة كما قال النابغة:

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وهكذا يسير الشرح فى علم البيان على هذا المنوال، يطنب إذا اقتضى المقام الاطناب. ويوجز إذا اقتضى المقام الايجاز، فجزى الله مؤلفه عنه خير الجزاء؟ (ص)

مرافعات

تاليف الأستاذ حسن الجداوى

كثير منا رأى الدفاع فى قاعة المحكمة وهو يدافع عن المتهم.. يدافع عن المجرم! ويحاول بقوة حجته وشدة عارضته وذلاقة لسانه أن يحطم الأغلال والقيود التى تطوق الرجل ويطلقه من إساره... أو يرجو متى أفلت أمر الرجل من يده وغدا مصيره إلى الظلمات أن يعامل بروح القانون. وكثير منا أنصت إلى وكيل النائب العام وهو يحمل على المتهم، ويدافع عن الانسانية المعذبة فى أشخاص هؤلاء المجرمين السفاكين الذين يسودون وجه الحياة المشرق النضير ويلطخونه بالدماء، لا يزجرهم زاجر ولا يأخذ على أيديهم قانون. ولكن قليلا منا من فكر فى الظروف القوية التى تسوق المجرم إلى الاجرام، قليل منا من فكر فى ظروف الحياة القاسية التى تخلق

المجرمين والسفاكين وتدفعهم إلى ارتكاب أشنع الآثام . قليل من الناس من يفكر كما يفكر الدفاع وهو يدرس القضية ويقف أمام القضاء يشرح أدوارها ويبسط فصولها ويلقى الضوء القوى الباهر على ماخفى منها من أسرار .

هذه المرافعة البيانية القوية لها أثرها المحمود فى نفوس القضاة ونفوس الناس ، فكثيراً ماتقسو الحياة وتتضافر العوامل السيئة على المتهم المسكين ، فلا ينقذه إلا محاميه ومرافعة محاميه ، متى كانت قوية خلابة كهذه المرافعات التى بين أيدينا الآن ، والتى ترجمها الأستاذ حسن الجداوى عن الفرنسية وتخير فيها قضايا إنسانية تقع فى كل بلد وتجرى فى كل محكمة وتدور على كل لسان . فقضايا حرية الرأى والصحافة والدفاع عن العرض ، والقتل بدافع الغيرة والشفقة ، والخيانة الزوجية التى يضمها هذا الكتاب القيم ، كلها قضايا إنسانية لاتقف على بلد واحد وشعب واحد . ولقد أبدع المترجم فى الترجمة خير ابداع ، ووفق أحسن توفيق ، فجاء كتابه تحفة أدبية رائعة أكملت نقصاً محسوساً فى المكتبة العربية وسدت فراغا كبيراً فى الأدب القضائى

وسيجد القارئ فى مرافعة بعض المحامين الفرنسيين منطقاً أخاذاً ولساناً رائعاً دعم بالدراسة الفنية الدقيقة كمرافعة جوزيه فى قضية التجميل حتى قال عنها زميله وخصمه ولقد أدهشتنى مرافعة الأستاذ جوزيه تيرى بما فيها من معلومات طبية أنحنى أمامها ، كنت أسائل نفسى أيهما أخطر على ، الأستاذ جوزيه تيرى أو الدكتور جوزيه تيرى ؟ ، وهذا أقل مايجب أن يكون عليه المحامى فى هذا العصر ، إحاطة شاملة بعلم التشريح وعلم الاجرام وعلم النفس

وفى قضية حرية الدفاع سيقرأ القارىء دفاعاً فذاً فيه بلاغة وقوة وبيان وحجج منطقية وكلام يجرى مجرى الأمثال ، إن القوانين لم تعد تطبق بل أصبحت تفسر ، وتفسر دائماً بالمعنى الذى لا تدل عليه ولا أراده المشرع لها . . . إنهم يعذبون القوانين ليجعلوها صالحة لتعذيب الناس ، وما الذى سيقوله القارئ بعد هذا الكلام .

وفى محاكمة شارل الأول ترى صورة قوية للشعب الانجليزى الصابر الباسل المتفانى فى حب مليكه حتى فى عهد كرمويل .

وفى القرن الماضى أعدم مجرم شقى بطريقة همجية وحشية فثار شارل هيجو ابن شاعر فرنسا الكبير فوصف الحادث فى الصحف وحمل عليه حملة شديدة وسيق بعدها إلى المحاكمة . ومما كتب قوله :

، ما الذى ارتكبه هذا الرجل ضد الهيئة الاجتماعية ؟ أنه قتل . . وما الذى فعلته الهيئة الاجتماعية بذلك الرجل ؟ إنها عذبته . . . ولكن أتدرون ما الأثر الذى تركته فعلتكم ؟ لقد أتيتم أمراً إداً ، فيه قسوة وفيه وحشية وفيه إيلام . . إنكم بدلا من أن تكسبوا عطف الجمهور المشاهد لجانب القانون كدتم تحولون عطفه لجانب المجرم . لقد أخفق الجلاد الأول فجئتم بثان ، وبعد نصف يوم من جهاد مستمر استطعتم آخر الأمر أن تقهروا الرجل ، وتمسحوا فى آن واحد الدم من نصل المقصلة والعرق من جباهكم . . لا لا . إن الاعدام ليس بالمنظر الجميل . . . ،

ومرافعات الكتاب كلها قوية بليغة وهى على نسق قصصى يسر ويشوق ، ويعرض صوراً بارزة من الحياة . وسيجد فيها القارىء لذة خالصة وفائدة محققة ، أما المحامى فسيطلع فى لغته على مرافعات يكفى أن يقال عنها إنها لأفذاذ رجال القانون .

هذا والكتاب مطبوع طبعاً جيداً على ورق ناعم وغلاف مقوى وهو يقع فى ١٨٠ صفحة من القطع الكبير وهو مفهرس الأعلام حسن التبويب زهيد الثمن .

ونرجو ونحن نهنىء المؤلف على جهده الأدبى المشكور أن يتحفنا دائماً بأمثال هذا الكتاب الرائع .

محمود البدوى

5 me Année, No. 188

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

Lundi - 8 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العــدد ١٨٨ ، القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ٨ فبراير سنة ١٩٣٧ ، السنة الخامسة

فهرس العــدد

لو كنا نقرأ ...

فى مصر تسعمائة وتسعون فى كل ألف لا يقرأون ، وتسعة من العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية ، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة ؛ وواحد هو الذى يقرأ الكتاب المثقِّف ويطالع المجلة المهذِّبة ؛ وهذا الواحد الأحد يدركه فى أكثر العام فتور الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام فيعاف الكتاب ، ويجتوى الصحيفة ، ثم يقعد فى مشارب القهوة يتقمع ، أو يسير فى مجالى الطبيعة يتأمل . أو يضطجع فى مراقد السكينة يستجم . ذلك تقدير مقارب تتهجم به على (مصلحة الاحصاء) وفى يدينا استقراء متتبع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر فى التعليم والتأليف والصحافة . وتقدير المؤلفين والكتاب فى هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة السليمة والرقى الصحيح . أما قياس درجة الرقى على نسبة القارئين بالقوة لا بالفعل ، فذلك عمل كل ما يدل عليه أنه خانة فى سجل التعداد — ماذا يردُّ على العقلية المصرية إذا بلغ (فكاكو الخط) فينا مائة فى المائة ما دام فك الخط لا يطلق عقلا أسيرا ولا يجلو بصرا حسيرا ولا يذكى قريحة كابية ؟ أوافق مصلحة الاحصاء على أن فى الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليونى قارىء ، وأن فى هذين المليونين ألوفا من ذوى الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن

يكشفوا للعقل آفاق المعرفة ، وينهجوا للنفس طرائق الكمال :
ولكنك إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يطبع من الكتاب وما يوزع من الصحيفة خامرك الشك في إحصاء المصلحة . أو في تعليم المدرسة ، أو في عقلك أنت ! ينشر في العام كله بضعة من الكتب يتراوح ما يطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة ، ثم تساق إلى قراءته بالطبل والزمر مصر جمعاء وفي معونتها العالم العربي أجمع ، ومع ذلك لا تنفد طبعته المباركة بعد الاغراء بالاعلان والاهداء قبل خمس سنين !

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أمي وإن عرف حروف الهجاء ، وعامي وإن تلقب بألقاب العلماء ؟ تتبّع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة ؛ فهل تراه يقرأ - إن قرأ - إلا كتب المدرسة أو ملخصات المعلم أو فكاهات الصحف ؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ ، ويده على القلم ، وعينه في الدفتر ، يختصر ما اختصر ، ويقتصر على ما اقتصر : وتراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه ، فيصدع رأسه بترديد ما لا يفهمه ، ويغثى نفسه بإساغة ما لا يهضمه ، حتى اذا خرج من المدرسة خرج مكروباً لا ينتقار من الكلال والسأم ، فينفس عن صدره بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة ! فاذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى منصبه إذا كان عبد الوظيفة ، أو إلى مكتبه إن كان حر العمل ، فيكره الأدب لأنه يتذكر درس (المحفوظات) ، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة) ؛ وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمق ولا المزيد ، فيعود كما بدأه الله أمياً يعمل بالارشاد ، وفطرياً يهتدي بالغريزة . والمعلم الذي يخرّج التلميذ اليوم ، كان هذا التلميذ نفسه بالأمس : أرسل إليّ مدرس في كلية الآداب كتاباً يسألني فيه أن أقطع عنه (الرسالة) لأنه لا يجد وقتاً لقراءتها ، وهو لا يلقاك إلا حدثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة فلانة ، وما تهزأت به المجلة الأخرى من الاستاذ فلان : ثم سأله أحد طلابه ذات يوم عن (واسط) فقال له : أحسبها مكاناً في طريق القصير ! قرأت هذا الكتاب فعذرت وكيل المعرض الزراعي الصناعي وقد دخل عليه مندوب الرسالة يطلب اليه « تصريحاً صحفياً » بدخول المعرض ، فقال له وأمارات التعجب الساخر تتخايل على جبينه العريض : ولكني لم أر هذه (الرسالة) قط ! فلم يجبه مندوبنا وانما أجابه حاجبه هو بقوله : لا ، يابك ! هذه مجلة صفتها كيت وكيت ؛ وأنا وابنتي نقرأها كل أسبوع ، ونجلدها كل سنة ! سمعت هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القاروني الذي أهديت اليه الرسالة لصلة بين أخي وبينه ، فردها علي وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ : (مرفود) فوقع في نفسي أن الباشا يتشبه بالملوك والخلفاء ، في رفد المعوزين من الأدباء والشعراء ، فهممت أن اكتب اليه أشكره وأستعفيه لولا أن نبهني صديق أوتي منطق الناس أن (مرفود) معناها (مرفوض) ولا أريد الترسل في هذا الحديث ، ففي ذا كرة كل صحافي من بابه طرائف وأعاجيب

الحق اننا لا نزال أمة أمية تنظر الى الكتاب نظر المتعظم الخائف ، أو المتقنع العازف ؛ وما دمنا لا نرى الكتاب ضرورة للروح ، كما نرى الرغيف ضرورة للبدن ، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود

تتطور المذاهب والآراء ، كما تتطور الحلي والأزياء ؛ فاذا لم تتقصّ بالقراءة المتجددة أخبار هذا التطور في أطراف الأرض عشت في عصرك غريب العقل أجنبي الشعور وحشي الثقافة ، كالذي يلبس في الناس زيا مضى بدل زي حضر

إن من وظائف المدرسة أن تعودك القراءة وتعلمك كيف تقرأ ، وإن من وظائفك أن تقرأ وأن تعرف ماذا تقرأ ؛ فاذا لم تفعل هي فقد قصرت عن رسالة ، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت في واجب .

ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويجيدوا الانتاج ، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة . فلو كنا نقرأ لخلقنا الكاتب والكتاب ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فأزهرت في كل مكان وأثمرت في كل نفس ؛ ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذي تتذبذب فيه الأفكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية ؛ ولو كان العالم العربي يقرأ لنشر من الكتاب زهاء مائة الألف ، ووزع من الصحيفة قرابة المليون ؛ وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزدهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب !

احمد حسن الزيات

حديث مجلس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

زارنى صديق، ففعلت مايفعل المرء مثله فى العادة حين يجيئه ضيف: قدمت له السجاير ليأخذ منها واحدة وأشعلت عود الكبريت. وكنت لا أشعر برغبة فى التدخين فى تلك اللحظة، فكانت أصابع إحدى يدى ممدودة إليه بالكبريت وأصابع اليد الأخرى تثنى الغطاء على السجاير. فلما أشعل سيجارته رددت يدى إلى فمى وزممت شفتى لأنفخ وأطفىء النار ألفيتنى أتردد ثم أتناول سيجارة.

وقلت لصاحبى وأنا أنفخ الدخان مثله «أرأيت... لم أكن أريد أن أدخن، ولكن العادة غلبتنى حين رأيت النار فى طرف العود بين أصابعى. وأنا أغالط نفسى وأقول لها مازحا إن الكبريت أغلى من السجاير، وإن من سوء التدبير أن أضيع عود كبريت من أجل سيجارة واحدة. وتروقنى هذه المغالطة لأنها تفتح لى باب القياس والتمثيل فأقول إن الانسان كثيرا ما يضيع الكثير من جراء حرصه على القليل فما رأيك؟»

قال: «رأيى أن هذا صحيح. وسأقص عليك قصة»

قلت: «هاتها»

وسرنى أنى أطلقت لسانه وأنه صار فى وسعى أن أستريح من الكلام، فأن من نقائصى أنى طويل الصمت وإن كنت فى العادة ثرثارا عظيما، وأحسبنى أهرب بالصمت من الناس، وبالثرثرة من نفسى

وسمعته يقول: «كنت منذ سنوات أتعلم العزف على الكمان، وكان معلمى تركيا ضيق الصدر من أولئك «المولوية» الذين يعيشون فى التكايا ويزجون فراغ الحياة بالموسيقى وما تغرى به. وكنت قد اشتريت «فرسا» جديدة للكمان ـ والفرس كما تعرف هى قطعة من الخشب المنجور ترفع عليها الأوتار، فلما رآها أستاذى غضب ورماها وقال إنها غليظة، وذهب يعنفنى ويؤنبنى كأنما كنت أنا صانعها، أو كأنما كنت أدرى قبل ذلك شيئا عن الكمان والأوتار والفرس، فكرهت سوء خلقه وثقل على نفسى سلوكه وزهدت فى التعلم ـ على هذا الرجل على الأقل ـ وزارنى بعد خروجه صديق رآنى منقبضا متجهما، فسألنى عن السبب فحدثته به. فأحب أن يرى هذه «الفرس» التى أثارت كل هذا الخلاف، وكانت لا تزال على الأرض، فأشرت إليها فتناولها وقال: «هذه» وجعل يقلبها فى يديه مستغربا، ثم طلب أن أدعها له، فقلت: «خذها ياسيدى» فما لها قيمة فى الحقيقة فان ثمنها لا يزيد على قرشين، ولكن معلمى كان ممن يخلقون من الزبيبة خمارة عظيمة

ومضى بها صاحبى ونسيت الأمر كله جملة وتفصيلا، وإذا به بعد سنة أو نحو ذلك يقول لى إنه يتعلم العزف على الكمان وإن الدافع له على ذلك والمغرى به كان هذه الفرس التى ظل بضعة شهور يخرجها من مكانها كلما خلا إلى نفسه ويتأملها

وهو الآن من خير هواة العزف على الكمان

قلت: «وأنت»

قال: «أنا.. انقطعت عن الدرس.. لم أجد أستاذا أقدر منه أو مثله قدرة وإن كنت وجدت كثيرين أرحب صدرا... على أنى كنت أدور على المعلمين كارها وبى فتور شديد فكففت»

قلت: «هل تعلم أنى أنا أيضا تعلمت العزف على الكمان.. ظللت أتعلم أكثر من سنة.. فلو أنى واظبت لكنت الآن من أمهر العازفين على هذه الآلة.. خمس وعشرون سنة.. من يدرى.. لعلى كنت خليقا أن أتحول عن الأدب إلى الموسيقى. ولكن قلة الصبر.. والخجل من أن يسمع الجيران الأصوات النابية التى أخرجها.. والاستحياء من أن يعرف عنى أنى مبتدىء، كل هذا صرفنى.. كما صرفتنى عوامل أخرى عن الشعر..»

فابتسم وقال: «والآن؟»

قلت: «الآن.. أنا الذى كنت خليقا أن أكون شيئا. ولكن.. لا بأس.. أرانا بعدنا جدا عن الموضوع»

فابتسم مرة أخرى وقال «لا بأس..»

قلت: «صدقت.. كل شىء ككل شىء فى هذه الحياة.. هبنى كنت الشىء الضخم الذى كان يغرينى الصبى والخيال الجامح بالطمع فيه والتطلع إليه فماذا إذن؟..»

قال: «كنت تكون أشد رضى عن نفسك»

قلت: «كنت أشعر.. كلا.. كان رأيى فى نفسى يبقى كما هو.. ربما غرنى رأى الناس أحيانا، ولكن بلائى أنى حين أغتر

أدرك أني مغتر فيسلبني إدراكي هذا متعة الغرور . لست أقول إني غير قابل أو مستعد للغرور أو عرضة له ، فاني كغيري في هذا ، والغرور لازم لإطاقة الحياة ، وبغيره لا أدري كيف يطيق الناس عيشهم . ولكني لا أزال أدير عيني في نفسي وأتأملها وأفحصها وأنكت تربتها كما ينكت المرء الأرض بطرف العصى ، وأخلق بهذا أن يكشف للانسان عن حقائق غير التي يزيفها أو يموهها الغرور . . وأول ما يعرفه المرء — بفضل الفحص المتواصل والتدبر المستمر — هو حدودها ، ومتى عرف المرء حدود نفسه فأيقن أنها لن تغيب عن عينه قط . وقد يعالج توسيعها وإفساح ما بينها . . ولكنها تظل ماثلة أبدا . . والشعور بهذه الحدود كرب وبلاء . . والجهد الذي يبذله الانسان لعلاج النقص الذي يشعر به في نفسه كرب آخر . . آلة محدودة القوة تريد أن تبلغ بها ما تستطيعه آلة أخرى أقوى منها . . هذا الجهد ماذا تظنه يكلف الآلة المسكينة المحدودة القوة والعزم . . وفوق كل قوة أخرى أعظم . . وتجاهد حتى تبلغ بنفسك فوق ما كان ظنك أنها قادرة عليه فلا تقنع بهذا . . لأن هناك مرتبة أعلى ومنازل أخرى أسمى ، فانت لاتزال تستحث نفسك وتدفعها وتخزها . . ولا نهاية لهذه الدائرة . . وهذه هي حياتنا جميعا . . في الحقيقة والخيال . . محاولات مستمرة لعلاج ما نحسه من نقصنا . . ولا يخلو هذا من جانبه المضحك . . فقد يعيينا أن نصلح الفاسد ونعالج الضعف ، أو أن نعوضه من ناحية أخرى قابلة للزيادة والنمو فنروح نستر العيب أو الضعف أو النقص سترا نظنه وافياً كافياً أو نحتال لنبدو كأن قوتنا هي في هذه الناحية التي نعرف ضعفنا فيها . والانسان ليس بشيء إذا لم يكن منافقاً مرائياً ودجالا كبيرا .

فقال صاحبي : « أو لا يدرك المرء حدود نفسه إلا إذا دأب على ادارة عينه فيها ؟ »

قلت : « لا . . ليست هذه سوى طريقة واحدة لمعرفة النفس ، ومثلنا العامي يقول إن سكة أبي زيد كلها مسالك . ولا أعرف من هو أبو زيد هذا . ولكني أعلم أن المعرفة سكتها كثيرة المسالك . ومن المسالك التجربة والمعاناة . والتجربة تتيح للانسان أن يقيس ما عنده إلى ما عند سواه فيعرف في أية ناحية قوته ، وفي أي النواحي نقصه وضعفه وتقصيره . . وأعترف لك بحقيقة . . لقد كنت في سني وفي ميعتي يهولني أن أرى نفسي عاجزاً عن الحب الذي أرى غيري قادراً عليه . . . نعم كنت أشعر بالاعجاب وبسحر الجمال وفتنة الحسن ، ولكن شعوري هذا كان لا يطول ولا يلبث أن يفتر . . ولم يكن الحب عندي أكثر من مظهر رغبة وقتية تزول اذا زال الداعي اليها كما يجوع المرء فيشتهي الطعام ، حتى اذا أصاب شبعه صد عنه ولم يعد يذكره إلى أن يجوع مرة أخرى . . فلا أرق ولا شوق ولا أحلام ولا بكاء ، وإذا حرمت حظاً في باب الحب فكما يحرم المرء نصيباً من لون من ألوان الآكال كان يشتهي أن يفوز به . . وما أكثر ملايين الناس الذين يعيشون محرومين ويعلمون أنهم محرومون ومع ذلك يحيون ويسعدون بالحياة ... كذلك كنت . ولم يكن إخوا كذلك ، ولا كان الذين أقرأ أخبارهم في كتب الأدب مثلي . فكنت أستغرب وأنكر من نفسي هذا الجمود أو إن شئت هذه الحصانة أو المناعة من الحب بالمعنى المعروف المألوف . الحب الطاغي العنيف الذي لا يفتر ولا يخبو له ضرام والذي يذكرك بمجنون ليلى وأشباهه . فأغراني هذا الذي بلوته من نفسي بالتكلف ولججت في التكلف حتى لكان يخيل الى أحياناً أن الأمر صار جداً لا هزل فيه . وكنت أشجع نفسي على الأرق وأحثها على التذكر والشوق ، وألح عليها بأجمل شعر الغزل في الأدب العربي والآداب الغربية لأوحي إليها الروح الذي ينقصها ، وكنت أتمثل هذه الحالات التي يصفها الشعراء وأسمع بها من الاخوان ، وأروض نفسي على مثلها وأجعلها تستغرقني حتى قلت شعرا كثيرا في ذلك لا يشك قارئه في أنه صادر عن عاطفة صادقة عميقة قوية . ولم أكن أنا أشك في أن الأمر كذلك أيام كنت أقول هذا الشعر لأني لم أزل أعالج نفسي بالايحاء اليها حتى صار الأمر أشبه ما يكون بالحقيقة . ولكني كنت في أعمق أعماق نفسي أدرك الحقيقة . وكنت أمتحن نفسي أحيانا بالبعد فلا أراني أشتاق أو أتلهف أو أتحسر أو أصبو الى آخر ذلك . وأخيرا مللت هذا التكلف . وهذا من أسباب تركي للشعر . وثم أسباب أخرى ولكن هذا من أكبرها اذا لم يكن اكبرها » .

فاستغرب صاحبي وجعل ينشدني بعض ما يحفظ — وما نسيت أنا — من شعري ، ويسألني أكان هذا تكلفا ، فقلت له « لم يكن الشعور الموصوف في هذه الأبيات كاذبا ، فانه كان صادقا في ساعته . . كان حبا قصير العمر جدا . . حب ساعة . . اعجاب

اذا شئت . نشوة عارضة كنشوة الخمر. وكونها عارضة ... من فعل الخمر أو بتأثير الحسن لا يمنع أن الشعور الذى تحدثه صادق فى حينه . وقد يلح المرء على نفسه بالايحاء اليها حتى يشعر بما يشعر به العاشق الحقيقى . فيكون شعوره أيضا فى حينه صادقا . ولكن بعد ذلك .. بعد أن يثوب الرشد الذى أضاعه الخمر ، ويرجع الاتزان الذى أفسده منظر الحسن ، أو تعود الحالة الطبيعية التى اضطربت من جراء الايحاء . بعد ذلك يذهب ما جاءت به النشوة الوقتية ، وقد أفادنى علاج نفسى ورياضتها على أن تستغرقها الحالة التى أتمثلها . نعم بقيت عاجزا عن العشق وفى أمان من جنون الحب فان هذه طباع لا حيلة لى فيها ، ولكنى أصبحت بفضل هذه الرياضة أستطيع حين أفكر فى شىء أو أكتب شيئا أو أشغل بأمر أن أذهل عن الدنيا فلا أسمع ولا أرى ، ولا يستطيع شىء أن يصرفنى عما أنا فيه .. خرجت بفائدة على كل حال . وكثيرا ما ترى الانسان يطلب شيئا فيخطئه ويفوز بغيره . »

فقال « ولكنك محروم وهذا فظيع »

قلت « كلا . أنا على نقيض ذلك سعيد . مستريح من وساوس الحب وبلابله وهواجسه وتخريفه ، وفى وسعى دائما أن أمتع نفسى بالحسن وأنا هادىء الأعصاب مدرك لما أنا فائز به بلا اسراف أو غمط فى التقدير ، ومن غير أن أنغص على نفسى هذه المتع بعد ذلك بالوساوس والخيالات وما الى ذلك مما يكابده المحبون ... وأقول لك الحق إنى أصبحت لا أصدق من يزعم أن حبه على نحو ما يصف الشعراء ومن اليهم . ولا أعتقد إلا أن ذلك نشوة يطيلون عمرها بالايحاء . والايحاء يا صاحبي — الى النفس والى الغير — عامل خطير الاثر فى حياتنا . صدقنى »

قال : « ولكنى جربت »

قلت : « ما أظن بك الا أنك تخدع نفسك . وهذه سنة الانسان أبدا . عد الى نفسك وحلل خوالجك بلا خوف من مواجهة الحقيقة ولا جزع ولا اشفاق . اجعل من نفسك شخصا مستقلا . طبيبا يفحص حالة ولا يعنيه الا مايهتدى اليه . وانظر مايكون .. ثم تعال واخبرنى . وأنا واثق أن النتيجة ستكون مطابقة لما حدثتك به عن نفسى »

فوعد أن يفعل .. ولكنه لم يعد إلى

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى الأدب المقارن

التفاؤل والتشاؤم

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

حب الحياة كائن فى طبيعة كل حى ، والرضى بها والاطمئنان إليها والاقبال عليها شيمة جميع الأحياء ما دامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة ، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة مادامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب . ولما كان الانسان يمتاز بالخيال والفكر فإن له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية ؛ يرضى ويرتاح إذا قضاها ، ويقنط ويكتئب إذا أخطأها ؛ وليس يشكو الحى أو يألم ، وليس يسخط الإنسان أو ينقم ، إلا أن يغدو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب . فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هى الحال الطبيعية العادية ، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية ، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم مواتاة أسبابها .

فالمتشائمون قوم قست الحياة عليهم فحرمتهم قليلا أو كثيراً مما حبت به سواهم ، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة ، وجزوها على حيفها بمرير الذم والتفنيد ؛ فلسنا نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلا صحيح البدن معتدل المزاج مجدوداً واثقاً بنفسه ، بل كلهم ممن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساماً معتدلة أو أعصاباً مختلة ، أو ألحت عليهم الخطوب فحطمت مساعيهم ، أو اقتنعوا بعجزهم عن مُصاولة الأحياء فى ميدان الحياة ، فأورثهم ذلك حساً مرهفاً متيقظاً إلى مواطن الشر والقسوة والنقص فى الحياة ، فقعدوا يَبْرُون لها وللمقبلين عليها السهام .

وفى الحياة مواطن للنقص لا تحصى ، يهتدى إليها الناقمون عليها بلا عناء ، وهى تعرض مثالبها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها ؛ بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلما يلتفت إلى تلك المساوىء ، وإذا التفت إليها فبرهة قصيرة يأسى فيها

ويعتبر، ثم يعود إلى ما كان فيه من استمراء لمتعات الحياة واجتلاء لمفاتنها، متعزياً بهذه المفاتن والمتعات عن تلك النقائص والمقابح، باذلا جهده لتوفير السعادة لنفسه ولمن حوله، ومحو ما يستطيع من أسباب الشقاء؛ على حين يظل المتشائم أمام ما يروعه من مساوىء الحياة قائماً، لا يريد أن يحوّل بصره إلى سواها، بل يهوّل تلك المساوىء كما يسول له حسه المرهف وخياله المغرق.

والأدباء وغيرهم من رجال الفنون عادةً أرهفُ حساً وأبعد خيالا ممن عداهم، وما من أديب إلا تتجسم له مقابح الحياة جهمة مقززة فى فترة من فترات حياته، فتعافها نفسه، وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحياء جميعاً؛ فأما من كان متفائلا بطبعه معتزاً بنفسه واثقاً من قدرته على خوض وغى الحياة، فسرعان ما يخرج من تلك الغمّة وتنتصر فيه دفعة الحياة القاهرة، فيلتفت إلى ما بالحياة من مباهج بجانب ما بها من مآس، ويطلب العزاء ببعض تلك عن بعض هذه، ويستنّ لنفسه مثلا أعلى جديداً فى الحياة؛ وأما المتشائم المحض بوطأة الحياة الثقيلة على جسمه المتعب وأعصابه المنهوكة ونفسه الخائرة، فيرفض كل عزاء ويأبى كل إيمان ويسخر من كل مثل أعلى

فالفرق الرئيسى بين المتفائل والمتشائم هو أن الأول يرضى العزاء والثانى يرفضه، والأول يؤمن بمثل أعلى والثانى يأبى الإيمان بشىء، فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض، فالتشاؤم والدين ضدان لا يلتقيان: التشاؤم إزراء بالحياة وإنكار لجدْواها وتحقير لأبنائها، والدين يبشر بجدوى الحياة الصالحة ويبث العزاء فى النفوس عن آلام الحياة. وما كانت الديانات الأولى كديانات المصريين والفرس إلا محاولة حاول بها الإنسان أن يفسر ما راعه من تجاور قوى الخير والشر فى الحياة، وأن يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها، أما والتشاؤم هو فقد الإيمان بالحياة ورفض العزاء عن شرورها، فالتشاؤم والدين نقيضان، ولا ترى متشائماً إلا يُسِر الإنكار للدين أو يعلنه، ولا مؤمناً معتصماً بدينه قد هوى فى لهَوات التشاؤم

وليس فقد الإيمان بالحياة ومثلها العليا - أو التشاؤم - ينتهى بصاحبه فى كل حالة إلى الإسراف فى رفضها واعتزالها، بل هو ربما أدى إلى إسراف مناقض لهذا: إسراف فى انتهاب لذاتها القريبة وإشباع الغرائز النهمة منها، تناسياً لمنغصاتها وتخلصاً من لذعات التفكير فى نقائصها؛ فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقمون على الأحياء الساخرون من المجتمع، والمتشائمون المستهترون باللذات المتهكمون بتقاليد المجتمع وأخلاقه، الخارجون على عرفه المصادمون له فى عقائده؛ أولئك وهؤلاء سيّان فى التشاؤم ورفض الإيمان والعزاء النفسى، أو قُلْ هما طرفان متباعدان بينهما الوسط الذى يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على علاتها، المتسلون بنعمائها عن بأسائها فى قصد واعتدال، المتشبثون ببعض مثلها العليا

على أن المتشائمين أنفسهم لا يَخلون من عزاء وإن توهموا سوى ذلك؛ وأشدهم إمعاناً فى التشاؤم لا ينضب من نفسه حب الحياة، وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذى يزاولونه، هو أدبهم الذى يودعونه فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القاتمة، ففى كتابة أفكارهم تلك راحة لنفوسهم المعذبة وشفاء لغرائزهم الظامئة؛ ولولا أنهم ما يزالون يحبون الحياة فى صميم أفئدتهم، على رغم إعلانهم الحرب عليها، لما لبثوا بساحتها؛ ولو أنهم يزدرونها ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون، لما حفلوا بتدوين آرائهم فيها وعرض تلك الآراء على أبنائها؛ ففلسفتهم المتشائمة تناقض نفسها بنفسها

فإذا كانت فلسفةٌ تصدق أو تفسيرٌ للحياة يُقبَل، فليست فلسفة المتشائمين بالتى ترجح وتفسر الحياة، وليست رسالتهم التى يؤدونها إلى الإنسانية بالتى تُقبَل، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض نفسها، وتناقض طبيعة الحياة التى بثت حبها فى جبلات أبنائها، ومهدت من متعاتها ما يرجح شوائبها، وزودت بنيها بالسلاح اللازم لهيجائها. ليست فلسفة المتشائمين بالمقبولة فى جملتها، وإن احتوت فى أطوائها من صائب النظرات وبديع اللفتات وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل ما يمتاز به أصحاب ذلك المزاج، وما يهديهم إليه حسهم المرهف المستوفز وخيالهم المتيقظ المسترسل

وفلسفات المتشائمين فى مختلف الأمم والأجيال متماثلة، ومواضيعهم متقاربة: إسهاب فى شرح مظاهر تنازع البقاء، وإطناب فى ذكر لئيم الطباع فى الأحياء وفى الإنسان خاصة، وإصرار على تذكر الموت وكرور الزمن وحلول البلى، وتهويل

لضعف الإنسان إزاء جبروت القدر ، وتصوير لنفاق المجتمع وجور أنظمته ، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة ؛ وآراؤهم فى كل ذلك مَرَدُّها إلى اضطراب تكوينهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم وحرمانهم من شتى مطالب الحياة ؛ ففلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق الحياة والكون ، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل تكوين أذهانهم

فهم يجزعون لمرآى تنازع البقاء لأحساسهم بأنهم عزل ضعفاء ، وينحون على المجتمع بقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الحظوة والصدارة به . ويُذكّرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات ، فهم يُسَلُّون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة ، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن غيرهم يتمتعون بالقوة والاقتدار ، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذى يتلاعب بهم ويضحك من تدبيرهم ، ويرمون المرأة بالغدر والتقلب لأنها تنى لغيرهم ، ويجاهرونها بازدرائهم إياها لأنهم يُسِرُّون الاحساس بازدرائها إياهم وإعراضها عنهم .

ولما كان مَرَدُّ المزاج السوداوى المتشائم إلى عوامل فردية محض ، من وراثة أو بيئة ، يظهر المتشائمون فى شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب ؛ على أن مسحة التشاؤم تطغى عادة فى آداب عصور الأدبار السياسى والضيق الاقتصادى والفوضى الخلقية ، فيَسُود الشك والرفض والتهكم المرير ، كما كان الشأن فى الأدب الروسى تحت الحكم القيصرى ؛ كما أن صبغة الايمان والبشر والتفاؤل تغلب فى عصور الرخاء والنجاح والمغامرة ، وهى الصبغة التى سادت الأدب الاغريقى فى عصره الذهبى عقب الانتصار على الفرس . فلما تلا ذلك عهد الادبار ظهر السخر والشك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة ، ومذاهب الاستهتار والاباحية من جهة أخرى

ولعل أشد أدباء الانجليزية نكيرا على الانسان وتهكما بمساعيه وتهوينا لشأنه هو جوناثان سويفت ، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقلة ، ولازمه داء فى أذنه جشمه آلاما مبرحة ، وما زال حتى طغى على عقله فى أواخر حياته ؛ وحالف الاخفاق مطامحه السياسية وصاحب النحس غرامه ، فلم يبق له إلا الانزواء فى عزلته ببعض بلدان أرلندة ، وإلا أن يقول لبعض أصحابه إنه يمقت ذلك الحيوان المسمى الانسان من أعماق قلبه ، وما ذاك إلا لما كابد من عنت الظروف والأمراض ولَدَد الخصومات وغصص الاخفاق ، وهو الذى كان فيما عدا ذلك من أوفى الناس عهدا وأصفاهم ودا ، وهو الذى عطف على الأرلنديين ودافع عنهم ، على حين ناصبهم من قبل ذلك مواطنُه وزميله فى حرفة الأدب ادموند سبنسر . وكتاب سويفت « رحلات جليفر » على ما به من سلاسة وفكاهة وبراعة تصوير ، مملوء بالسخر المرير من الانسانية .

وزعيم التشاؤم فى العصر الحديث توماس هاردى ، الذى كانت أشباح الموت والبلى والقدر لاتبرح ناظريه ، وكان لايمل تكرار موضوعه الوحيد فى شتى قصائده وقصصه : موضوع ضعف الانسان وقلة حيلته وعبث مسعاه ، حيال ضربات القدر الأعمى ، ودوران رحى الزمن الطحون ، فكان دائما يتفنن فى اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسة ، يتخذ مشاهدها فى المقابر والبرارى وفى الأيام الداجنة الكالحة ، ويطيف أشخاص روايته بين الموتى ، ويُنطق الموتى فى أشعاره . ويغالى فى تصوير فجائع الحب : بين الغدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال ؛ فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة إلا إلى غمة ، ولا من محنة للانسان إلا إلى انتصار وحشى للأقدار عليه

ومعاصره أو خليفته فى هذه النظرة المتشائمة إلى نصيب الإنسانية فى الحياة هو هاوسمان ، الذى كان يحاكيه كثيراً فى اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها وإجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات . ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله : « — أما برحتْ خيلى تحرث الأرض كعهدى بها ، إذ أناحى أسوقها وأسمع صليل شكائمها ؟ — بَلَى ماتزال تنقل خطاها وشكائمها تصلّ . ولم يتغير شىء برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التى كنت من قبل تحرثها — أو ماتزال الكرة تترامى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطىء النهر ، وإن أك لا أستطيع اليوم نهوضاً ؟ — نعم تترامى الكرة بينهم وكلهم باذل فى اللعب جهده ، وذلك مرماهم قائماً وحارسه لا يَنِى — وفتاتى التى شقّ علىّ فراقها ، أسئمتْ البكاء واستطابت طعم الغمض ؟ — نعم هى ناعمة فى خدرها ، فنم أنت وقر — وهل

صديق صحيح معافى وقد نحلتُ أنا وبَليتُ ؟ وهل وَجدَ بعد فراشى فراشاً وثيراً ؟ — أجل أنا يا صاح لى ضجعة كأرْوَحِ مايشتهيه الفتى: أسلّى حبيبة رجل قضى، ولا تسألنّى حبيبة مَنْ،

ومن أمثلة الوراثة المختلة والمزاج السوداوى فى تاريخ الأدب الانجليزى كوبر وبيرون : كلاهما كان مضطرب التكوين اضطراباً أدى إلى ظهور الغرابة فى مسلكيهما وأدبيهما . على أنهما رغم اتفاقهما فى ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس : كان أولهما ضعيفاً متناهياً فى الخجل ، وكان الثانى مفرطاً فى الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه ، فقنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حرباً ، وإن ظهرت أعراض التشاؤم فى كثير من شعره ؛ أما بيرون فصادم المجتمع بسلكه الخلق كما هاجه فى شعره ؛ ولما لفظهُ المجتمع الانجليزى زاد عتواً وجرأة ، وتحدياً لخصومه وتشفياً من مؤيدى النظم الاجتماعية التى كان يمقتها . هذا فضلا عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الانسان وقصر مدته وعبث جهوده .

ورمز التشاؤم فى العربية هو ولا شك المعرى ، الذى اجتمع عليه من أسباب التشاؤم مالم يجتمع على غيره : من اعتلال التكوين الجسمى ، واختلال الصحة ، والحرمان من شتى اللذات ، واضطراب العصر الذى عاش فيه ، فجاءت فلسفته مثالا نادراً لفلسفات المفكرين المتشائمين : حقر الإنسان . وأنذر ببطش الأقدار ، وذكر بالموت ، وشك فى الدين ، وأزرى بالمرأة ، وندد بالمجتمع ، وفند الحكام ، وأطنب فى تنازع البقاء ؛ ورثى مع ذلك للإنسان ورأف بالحيوان ، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرم على نفسه اللذات وعاش نباتياً ومات عزباً لم يجن على أحد ، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التى سبق بها عصره ، تعبيراً شعرياً عربياً جزلا ممتعاً ؛ وكان صادقاً صريحاً : اعترف بأنه لم يختر تلك الحياة الضنكة إلا لأن سواها قد شآه ، فهو القائل .

ولم أرغب عن اللذات إلا ... لأن خيارها عنى خنسنه

فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته ، شديد التوقى لمواطن السخر والزراية ، فكان ذلك حائلا بينه وبين ماتصبو إليه غرائزه من متعات ، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه ، بين الرغبة فى الاستمتاع بطيبات الحياة والاصرار على رفضها ، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجدور ، إلا أن يبيح كرامته ويهدر خياءه . وما أطار خياله إلى طيبات الفردوس إلا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه إليها . وما كان وصفه لمتعات الخلد إلا إرضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتقشف . وما كان تأليفه رسالة الغفران أو اتخاذه الخلد مسرحا لها إلا تنفيسا عن مكتوم نوازعه ؛ وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلَّف المعرى الكفيف أثراً من آثار الخيال فريداً فى اللغة ، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله

والمعرى نسيج وحده فى التشاؤم فى العربية ، يرفع راية الرفض للحياة والاعتزال لها والازراء عليها . ويمارس فى حياته ما ينادى به فى أشعاره ، ولا ينضوى تحت تلك الراية سواه : إنما كانت غالبية المتشائمين فى العربية الذين نبذوا الايمان ورفضوا العزاء وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلا لسعى ولا لحفاوة ، هم طائفة المتشائمين المستهترين ، الذين ظهروا حين طغت تيارات الترف والمادية والشكوك ، على المجتمع والعقائد فى العهد العباسى كبشار وأصحابه ، وأبى نواس وأضرابه ، أولئك ساقهم تفكيرهم إلى تصغير الحياة وما يقدس الناس من مثلها العليا ، فلم ينبذوا الحياة جملة بل راحوا يطفئون غليل نفوسهم المتحرقة فى لذات الحياة الدنيا ، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متهكمين بما عدا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد . وأبو نواس هو القائل :

وما هنأتك الملاهى بمثـــل ... إماتة مجد وإحياء عار

والقائل :

قلت والكأس على كفــــى ... تهوى لا لتثامى :

أنا لا أعرف ذاك الـــيوم ... فى ذاك الزحام

وإنما حرضهم على سلوك تلك السبيل ماكان يسود عصرهم من حرية تقرب من الإباحية ، وما كان يسود المجتمع العربى دائما من صراحة لانظير لها فى المجتمع الإنجليزى ، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة الصرامة ، فعلى حين كان يتأتى لبشار وأبى نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حياة الاستهتار التى باشروها ، ويتهكموا بعقائد غيرهم ماشاءوا ، ويترنموا بمخازيهم شعرا ، نرى بيرون الذى لم يَجْرِ إلى مداهم يُلفَظ من المجتمع الانجليزى الذى بَجّله من قبلُ لشعره وحَسَبه

وحياة المعرى وبشار موضع لموازنة ممتعة : كلاهما عاش

كفيفا ، أى مكفوفا إلى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين ، فخلقت فيهما تلك الحالُ وحشة وشذوذا وزراية على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزّى الحيوانية مضطرم الشهوة ، فأكب على إشباع شهواته مستهدفا لزراية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقذع ، كما يشرع السبع المنهمك فى تمزيق فريسته مخلبه لذبّ غيره من السباع عنها .

تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الإيمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، فى الأدبين العربى والإنجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين - لما يتدفق فى شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفعة الحياة - متفائلين متشبثين بأهداب المثل العليا التى ترضاها لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يَغْبَرّ لهم وجه الحياة حينا فيبدو أثر ذلك عابسا فى آثارهم ، ثم يجنحون إلى التعزى والإيمان : فلتون فى الإنجليزية مثلا على فرط ما لاقى من خذلان فى حياته الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الايمان متطلبا للعزاء إلى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه فى أواخر أيامه طلبا للترفيه عن نفسه ولكى « يبرر للناس أعمال الله » ؛ والمتنبى فى العربية رغم ما أصاب من إخفاق متوال فى مطلب حياته الأسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كلمه ، ظل أبدا « من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان » ، متدرعا متأهبا للجلاد .

وإن يكن هناك مجال للمقابلة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطباغا بالتفاؤل والايمان ، على كثرة ما به من الشكوى ؛ والأدب الإنجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولاسيما فى العصور الحديثة التى زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة ؛ وإنما يبث ذلك التفاؤل فى المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الاسلامى الذى يبث الايمان فى النفوس ويحض على اجتلاء متعات الحياة التى أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا فى سرائر معتنقيه ، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

١٤ - ٨ **فخرى أبو السعود**

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى ؟

نظرية الدعاة المصريين ومزاعمهم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تلك هى النظريات والشروح الغريبة التى لجأ إليها الدعاة لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته ؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائى كان ضربة شديدة للدعاة ؛ فقد كان الحاكم ملاذهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم ؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة فى مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة فى مختلف الأنحاء اتقاء المطاردة به ، ولكن الدعاة ألفوا فى هذا الظرف ذاته مستقى جديداً لدعوتهم ؛ فقد اختفى الحاكم ولكن إلى رجعة ؛ وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى ؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عند ما تحل الساعة ، ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمعنوا فيه من الآثام والخطايا . ولن يظهر إلا عند ما تصفو قلوب المؤمنين وتصفو نياتهم ؛ وفى هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو فى السماء أو فى الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده « وإنه ليراهم من حيث لا يرونه » !

هذا وقد مضى إلى اليوم على مصرع الحاكم تسعمائة وخمسة عشر عاما ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ما هنالك أن حمزة يقول للمؤمنين فى رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولى الله إمامهم باختياره راضياً عنهم ، حاضرا فى أوساطهم . . . » ويكرر الدعاة هذه الاشارة الغامضة إلى مثول الحاكم ورجعته فى رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التى أشرنا إليها ، فيقولون : « إن مولاكم لا تخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم » ، « إن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه » ، « أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم » ، وأمثالها من الاشارات والعبارات الرمزية

الجوفاء. وخلاصة مزاعمهم فى ذلك هو أنه متى حلت الساعة، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين، ويقصدون إلى مكة فى كتائب جرارة، وفى غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليمانى من الكعبة، وهو يشهر بيده سيفاً مذهباً، ثم يدفعه إلى حمزة بن على فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس؛ ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد «الكلمة» وهو أحد الحدود الخمسة، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ويسحقون المسلمين والنصارى فى جميع أنحاء الأرض، ويملكون العالم إلى الأبد، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم، ويفترق الناس عندئذ إلى أربع فرق. الأولى الموحدون وهم «العقال» أو «العقلاء» والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة، والرابعة المرتدون وهم «الجهال» (الجهلاء)؛ ويعمد حمزة إلى أتباع كل طائفة غير الموحدين فيدمغهم فى الجبين أو اليد بما يميزهم من غيرهم، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة، وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصبحون أرباب السلطة والمال والجاه فى سائر أنحاء الأرض (١)

والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة فى سحق أبناء الأديان الأخرى مستمدة من أقوال حمزة ذاته فى رسالته المسماة «النهاية والبلاغ فى التوحيد» إذ يقول: «وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدى، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين، ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين؛ والذى يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون، ويلبسوا الغيار وهم كارهون»

تلك هى نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم فى غيبة الحاكم وفى رجعته، وهى نظرية فى منتهى الاغراق والجرأة؛ بيد أنه لاريب فى سخفها؛ وقد ألفى الدعاة بعد انهيار دعوتهم فى مصر، ملاذا لهم فى الشام، فوجهوا اليها أنظارهم. وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك، وما زالت ثمة بقية من شيعتهم الى يومنا وهم طائفة الدروز

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا فى نظريتهم الجديدة؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة هى فكرة بعض غلاة الشيعة فى المهدى المنتظر؛ ومنذ عصر على بن أبى طالب تتبوأ هذه الأسطورة مكانها؛ ويزعم هؤلاء الغلاة،

(١) لخصنا هذه الشروح الأخيرة عن كتاب مخطوط عن طوائف لبنان لم يعرف مؤلفه وهو محفوظ بدار الكتب رقم ١٦ م

وهم الرافضة، أن عليا لم يمت، ولكنه حى غائب عن أعين الناس مستقر فى السحاب، صوته الرعد، والبرق صوته؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول فى ابنه محمد بن الحنفية، وأنه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز؛ ويقول آخرون وهم الاثنا عشرية إن هذا الامام المنتظر هو محمد بن الحسن العسكرى (وهو أيضا من ولد على) وأنه لم يمت، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار، ولا يزال مختفيا الى آخر الزمان، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (١)

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الاسطورة القديمة؛ وقد كانت هذه الأسطورة، أعنى أسطورة الغيبة والرجعة، وما يكتنفها من الرموز والغموض، مبعث الخفاء دائما؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع فى المجتمعات الساذجة المؤمنة؛ وكان مبعثا لا كثر من دعوة بالنبوة والامامة؛ بل كان مبعثا لدعوى الألوهية ذاتها: أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيض الحاكم على هذا النحو الى حيث لا يعلم أحد؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء فى تأييد دعوتهم، وأن يبثوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع لذكرى ذلك الذى اختفى ليعود حين تحين الساعة، والذى «يرى ولا يرى»

على أن هناك نقطة غامضة فى موقف الدعاة إزاء هذا الاختفاء إذا سلمنا بان الحاكم اختفى ولم يقتل؛ ذلك هو الدور الذى يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة فى هذا الاختفاء ذاته. فهل للدعاة يد ما فى هذا الاختفاء؟ وهل دبروه أو اشتركوا فى تدبيره؟ أليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين أقنعوا الحاكم بان يختفى تقوية للدعوة، وتمكينا للزعم بألوهيته لدى الأولياء والكافة؟ بل نستطيع أن نتساءل أيضا، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا فى اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم، وأنهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا فى تدبيرها واستطاعوا أن يحكموا تدبير جريمتهم، لكى يستغلوا بعد ذلك فكرة الاختفاء على النحو الذى أسلفنا؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن فى مثل هذا الموطن، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجتراء، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترأوا على زعم الألوهية البشرية، وسفكوا فى سبيلها دماء الأبرياء: بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام

(١) ابن خلدون — المقدمة ص ١٦٥

المطبق ، ولا يقدم التاريخ إلينا عنها أية لمحة أو ضياء ، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة ، وستبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً .

بيد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها إلى دوائر البحث الحديث . فنرى المستشرق فون ميللر مثلا يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم ، ويعلق عليها بما يأتى :

« أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل ، فهو حديث خرافة ، والواقع أن مصيره لم يعرف قط ، وعندى أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته ، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه فى مصر . فاعتزل الحياة واختفى فى مكان ما ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار لكى يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو « الناطق » حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الامام أو المهدى ؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم فى عقائد الدروز » (١)

أما نحن فما زلنا نرجح فكرة المؤامرة والجريمة : وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك ، أم من تدبير ابن دواس ، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم ، وسواء أكان الذى ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس ، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه : أم آخرون لم يعرفوا : وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هى التى أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة ، فأن ما لدينا من الروايات والقرائن على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة ، يرجح فى نظرنا كل فرض آخر مما استعرضنا

وليس من المستحيل أيضا ، أن يكون الحاكم قد اختفى من تلقاء نفسه أو بتحريض الدعاة لبواعث أو مشاريع خيالية أو جنونية قامت فى نفسه : بيد أن هذا الفرض يبدو فى نظرنا من الضعف والاغراق بحيث لا نجد له موضعاً من التاريخ .

***

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بامر الله لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله ، أعنى بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصة ذلك المشعوذ الذى تسمى « بأبى العرب » وزعم حينا أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك . بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع كادت أن تحدث فتنة حقيقية ؛ ففى رجب سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) فى أوائل عهد المستنصر ، ظهر بمدينة مصر شخص يدعى « سكين » كان يشبه الحاكم فى بعض ملامحه ، وادعى أنه الحاكم ، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته ؛ والظاهر أنه كان من عصبة الدعاة السريين ، وأن الدعاة أرادوا بدفعه إلى هذه المغامرة أن يحاولوا إثارة الفتنة التى خمدت ، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به فى رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية ؛ فالتف حوله فل الملاحدة ، من شيعة الدعاة الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد فى هذه الخرافة ؛ وفى ظهر يوم سار سكين وأصحابه إلى القاهرة وقصدوا إلى القصر الكبير ، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم . قد عاد من غيبته ، فارتاع الجند مدى لحظة ثم ارتابوا فى الدعى فقبضوا عليه ، وحملوا على صحبه ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر ، وقتل من الملاحدة عدد كبير وأسر الباقون ، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة (١)

وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها ، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر . ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته إلا فى الشام حيث استقرت الدعوة فى بعض أنحائه ورسخت حتى يومنا .

(النقل ممنوع قطعاً — تم البحث)

محمد عبد الله عنان

(1) Von Muller : Der Islam I. P. 633

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٧ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٦٦

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

النفس سر الله فى خلقه وآيته فى عباده ، ولغز الانسانية الذى لم يحل بعد ، وقد لا يحل يوما ما . هى مصدر المعارف المختلفة والمعلومات المتباينة ، ولكنها لم تسم إلى أن نعرف حقيقتها معرفة صادقة يقينية ؛ وهى منبع الأفكار الواضحة الجلية ، الا أن فكرتها عن ذاتها مشوبة بقدر كبير من الغموض والابهام . ومع هذا فالانسان منذ نشأته تواق إلى تعرفها جاد فى تفهمها ، ولا يزال حتى اليوم يبذل قصارى جهده فى إدراك كنهها والوقوف على أمرها . وبوده أن يعرف فى دقة ماهيتها ويدرك الصلة بينها وبين الجسم ويتبين مصيرها ومآلها . وكيف لا وهو طلعة يحب أن يعرف كل شىء ، وهو فى معرفة الأشياء المجهولة والامور المستترة أرغب . وإذا كان قد خطا خطوات فسيحة فى سبيل فهم الطبيعة وتوضيح آياتها فنفسه التى بين جنبيه أولى بالبحث والتوضيح ، هذا إلى أنه مدنى بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن إخوانه وذويه ، ومعرفته لنفسه كثيراً ما تعينه على تفهم بنى جنسه ، وكم بذل الأخلاقيون والمربون من جهد فى تحديد الدعائم النفسية التى يقوم عليها اصلاحهم ووعظهم وتعليمهم وإرشادهم . والأديان والشرائع تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الأبدان ، وتتجه إلى الأرواح أكثر من اتجاهها إلى الأجسام . والثواب والعقاب والمسئولية الأخلاقية والدينية بوجه عام تدعو إلى التفكير فى الروح وخلودها ومآلها بعد مفارقة البدن . ففى أحوال الانسان الفردية وظروفه الاجتماعية وأبحاثه العلمية وتعاليمه الدينية ما يدفعه إلى كشف ذلك السر الذى أودعه الله فيه والذى آمن به الناس جميعاً دون أن يروه .

لهذا كان موضوع النفس شغل الباحثين والمفكرين فى مختلف العصور ؛ وليس ثمت فيلسوف إلا أدلى فيه برأى وتعرض له بالبحث والتحليل ، وربما كان فى تاريخه ما يلخص تاريخ الفلسفة باسرها . بيد أن ابن سينا ، فيما نعتقد ، قد عنى به عناية كبيرة لا نجدها لدى واحد من رجال التاريخ القديم والمتوسط . حقاً إن أفلاطون تحدث عن النفس فى محاورات عدة ووقف على خلودها محاورة مستقلة ؛ وكتاب أرسطو فى النفس ومؤلفاته المسماة « بالطبيعيات الصغرى » تصعد به إلى مرتبة أسمى عالم نفسى عرف فى التاريخ القديم . ولم يغفل أفلوطين أمر النفس فى تاسوعاته ، وشغل بوجه خاص بهبوطها من العالم العلوى واتصالها بالعالم السفلى ورغبتها الدائمة فى أن تعود إلى مقرها الأصلى . ولفلاسفة القرون الوسطى المسيحيين وخاصة أوغسطين وتوماس أبحاث مختلفة فى حقيقة النفس ووظائفها . إلا أن هؤلاء جميعاً لا يبدو عليهم الشغف بهذا الموضوع مثل ما شغف به ابن سينا ، فانه يعود اليه غير مرة ويقف عليه جملة رسائل مستقلة ، ويتحدث عنه فى كل كتبه الرئيسية التى وصلت إلينا . ففى كتاب القانون المعروف يبين قوى النفس المختلفة على طريقة الأطباء ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم [١] . وفى الشفاء يعقد فصلا مستفيضاً يفصل فيه آراءه النفسية [٢] ، وفى النجاة يلخص هذا الفصل ويصوغه فى قالب مدرسى محكم ، وفى الاشارات ينظم فى نحو عشرين صفحة عقداً من مسائل علم النفس كله درر قيمة وآيات بينة . وله تعليق على كتاب النفس لأرسطو لا يزال مخطوطاً حتى اليوم [٣] ولم يقنع بهذا ، بل كتب رسالة قيمة فى القوى النفسية أهداها للأمير نوح بن منصور الساماني ، ورسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، وشرح هبوطها إلى الجسم وحنينها إلى مصدرها الأول فى قصيدة مشهورة [٤] .

كنا نتوقع وابن سينا هو الطبيب والفيلسوف أن يستخدم طبه فى دراسة الظواهر النفسية وأن يستعين بالملاحظة والتجربة على شرحها وتوضيحها فينمى معلوماتنا ويخطو بنا إلى الامام فى سبيل هذا البحث الدقيق . ولكنه ، فيما يظهر : كان يعتقد

---

(١) ابن سينا ، (القانون) ، حـ ١ ص ٣٢ – ٣٦ (طبعه رومة)
(٢) (الشفاء) ، حـ ١ ، ٢٧٧ – ٣٦٨ .
(٣) (فهرست دار الكتب المصرية) ، فلسفة ، رقم ٢١٤ .
(٤) لا يفوتنا أن نشير إلى رسالة (فى القوى الانسانية وإدراكاتها) موجودة فى المجموعة المسماة : (تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) . وقد أثبتنا من قبل ، وبيدنا الدليل القاطع . أن هذه الرسالة من عمل الفارابى
« Madkour, (La Place) 14. 128 »

أن الفصل فى مثل هذا كل علم النفس ليس من عمل الطبيب ولا من دائرة اختصاصه، بدليل أنه يشير فى القانون إلى بعض نقط متصلة بالنفس وقواها قد اختلف فيها الأطباء والفلاسفة، ويصرح بأن الكلمة كلمة الأخيرين. وأن استيفاء هذه النقط إنما يتم فى كتبهم (١) والواقع أن التجارب المنظمة والابحاث العلمية الدقيقة المتصلة بالنفس أثر من آثار التاريخ الحديث وحده، بل القرنين الأخيرين فقط، وفى وسط طبي حظر فيه التشريح وحرم من الأدوات الحديثة لم يكن فى الامكان دراسة المخ والجهاز العصبي دراسة تجريبية كاملة. ولا نكاد نحظى بباحث بين المسلمين نحا هذا المنحى التجريبى فيما وراء ابن الهيثم الذى أدلى بآراء فى الضوء. والرؤية تقترب مما جاء به فيبير (Weber) حديثا (٢) . وأما ما يذهب إليه ابن سينا من تقسيم المخ إلى مناطق تقابل قوى النفس المختلفة ومن ملاحظات فسيولوجية شتى فهو ترديد لما قال به أطباء وفلاسفة اليونان. فقد كان أمامه تراث عظيم خلفه أفلاطون وأرسطو وجالينوس وأفلوطين أفاد منه كثيراً وعول عليه التعويل كله. وإليه يرجع الفضل فى عرض هذا التراث فى صورة واضحة مهذبة لم نعهدها عند سابقيه، وإذا كان قد فاته أن يتوسع فى دراسة المخ والظواهر النفسية دراسة تجريبية فانه لم يفته أن يفتن فى البرهنة على وجود النفس وخلودها افتناناً يستلفت النظر ويستحق التقدير. ولعل ذلك راجع إلى أن النزعة الميتافزيقية والفلسفية البحتة غلبت عليه فى كل أبحاثه النفسية.

وبالرغم من أن ابن سينا عالة على السابقين فى أغلب آرائه المتعلقة بالنفس وأحوالها فانه قدر لهذه الآراء نجاح عظيم فى القرون الوسطى ولدى بعض رجال التاريخ الحديث، فكانت عماد علم النفس جميعه فى العالم العربى منذ القرن العاشر الميلادى إلى أخريات القرن التاسع عشر؛ وخلفت آثاراً واضحة فى الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية؛ واتصلت بنسب إلى بعض ما جاء به ديكارت فى حقيقة النفس ووجودها. وقد عرف لها الباحثون المحدثون هذه المنزلة فسارعوا إلى دراستها وجمع مصادرها وبيان أثرها فى المدارس الغربية. وربما يكون البادرون كارادى فومن أول من لخصوها وحاولوا إعطاء فكرة عنها. فقد عقد لعلم النفس السينوى (نسبة إلى ابن سينا) فصلا فى كتابه المسمى : Avicenne (١) . ثم جاء الدكتور صليبا أخيراً فتوسع فى هذا الموضوع قليلا فى رسالته التى تقدم بها إلى السربون للحصول على الدكتوراه (٢) . أما من اشتركوا فى نشر مؤلفات ابن سينا السيكلوجية فيجب أن نشير أولا إلى الدكتور صمويل لانداور الذى نشر رسالة القوى النفسية المهداة إلى نوح بن منصور السامانى سنة ١٨٧٥؛ وقد وفق فى عمله هذا كل التوفيق وأحاطه بوسائل الدقة والبحث العلمى الصحيح (٣) فاعتمد على أصول عربية وعبرية ولاتينية ليختار النص المناسب والتعبير المقبول؛ ولم يفته أن يرجع إلى المصادر اليونانية رجاء أن يوضح بها بعض عبارات ابن سينا. وعلى ضوء مجهوده العظيم استطاع فنديك بعد ذلك بنحو ٣٠ سنة أن يعيد نشر هذه الرسالة مرة أخرى مع ترجمة انجليزية دقيقة (٤) وفى العام الماضى نشر ثابت أفندى الفندى أحد خريجى كلية الآداب ومبعوثها الآن فى باريس رسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها. ويظهر أن أثر أفكار ابن سينا السيكلوجية فى المدارس المسيحية قد شغل الباحثين ومؤرخى الفلسفة من قديم. ففى النصف الثانى من القرن الفائت نرى هانيبرج يدرس نظرية المعرفة لدى ابن سينا والبير لجراند (٥) . وفى أوائل القرن العشرين كتب فنتر فى إحدى صحف مونيخ العلمية مقالا طويلا عن الجزء السادس من طبيعيات الشفاء المترجم إلى اللاتينية، وهذا الجزء هو الذى يدرس فيه ابن سينا النفس وقواها (٦) وفى سنة ١٩٢٩ وفى المسيو جلسن مؤرخ الفلسفة المدرسية المسيحية وأستاذها فى « كوليج دى فرانس » هذا الموضوع حقه من البحث، وبين أثر ابن سينا فى هذا المضمار بما لا يدع مجالا للشك (٧)

وفى اختصار يمكننا أن نقول إن علم النفس عند ابن سينا

---

(١) ابن سينا، (القانون)، جـ ١ ص ٢٥.

(٢) De Boer, (Encyce. of Ethies), Soul.

(١) Carra de Vaux, (Avicenne), P. 207-238.

(٢) Saliba,(Etude sur lo métaphysique d'Avicenne), Paris, 1926, P. 185 et suiv.

(3) S Landauer, (Die Psycholo, gie des Ibu Sinâ), Z. D. M. G. 1896.

(2) (مبحث عن القوى النفسية) ، نشر فنديك ، القاهرة ١٣٢٥ هـ

(4) B. Haneberg, (Zur Erkenntnislehre von In Sinâ und Albertus), München, 1866.

(9) M. Winter, (Uber Avicennas opus egregium de Anima, Munchen, 1903.

(7) Er. Gilson, (Archives d'his). r- IV 1929, P. 38- 74.

كان أعظم حظاً من أجزاء فلسفته الأخرى وكان نصيبه من الدراسة والبحث أكبر منها جميعاً ، بيد أن هذه الدراسات على اختلافها ناقصة وغير مقنعة . فبعضها لا يخرج عن ترجمة حرفية أو ملخص غير كامل لآراء ابن سينا . وبعضها يعنى بهذا الفيلسوف لدى اللاتينيين أكثر من عنايته به لدى العرب ، ويفصل القول فى أثره فى الغرب تاركا جانباً ما كان من أمره فى الشرق ، وأغلبها ينسى الأساس اليونانى الذى بنى عليه فلسفته عامة وأبحاثه النفسية خاصة . وسنتتبع هنا آراءه النفسية المختلفة مبينين أولا صلتها بالوسط الذى نشأ فيه وبالأفكار الاسلامية على العموم وباحثين ثانياً عن منابعها لدى فلاسفة اليونان وأطبائهم ، ومظهرين أخيراً ما كان لها من أثر فى الشرق والغرب .

ابراهيم مدكور

من روائع أدب الغرب

الخلـــود L'Immortalité

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

ترجمة السيد حسين تفكجي

أحبها فبادلته حبه ، فراحا يرشفان أكؤس الغرام تحت ظلال الأشجار الباسقة .

فى أفياء الأدواح المنتشرة غنى لها لحن غرامه . فسمعه الطير على غصنه ، وأنصت له العصفور على فنته . اختلسا النعيم ساعات معدودة . حتى رمى الدهر سهم التفرقة ، فسافرت بعيدة عنه إلى باريس .

انتظر كتابا منها يطمئنه على صحتها يرجع الأمل إلى صدره ، وإلى فؤاده أشعة الحياة . ولكن ساعى البريد اتاه بكتاب نعيها .

مسكينة ؟ ! أماتت «جولى» . أو يموت من عاش لأجل الحب ؟ لم يصدق عينيه . سار يخبط خبط عشواء ، يردد ألفاظها ، يقف الساعات الطوال مكانه يرجع أنشودة غرامها .

إنها أمل رحل . وحب مقيم .

نظم قصيدته « الخلود » L'Immortalité فكانت قطعة من قلبه الملتهب ، ونشيدا لفؤاده المضطرب .

قضت «الفير» «كما يدعوها» نحبها . فدبت إلى جسم «لامرتين» يد المرض .

كان فى ريعان الشباب . ظن نفسه أنه على طريق الآخرة يسير . فلذا جاءت قصيدته « الخلود » جامعة لشتى معاني الفلسفة ، والحب والجمال ، والخلود ، والحياة والموت .(١)

إلى جولى

شمس حياتنا اصفرت وهى فى فجرها . ترسل على جباهنا الذابلة ووجوهنا المنهوكة المتعبة أشعتها المضطربة ، وأضواءها الحائرة ، التى تغالب طلائع الظلام وتناصب هواجمه . الظل يمتد ، النهار يموت ؛ كل شىء يزول ، وكل شىء يفر ويحول .

كم يهلع المرء لهذا المنظر الرهيب ويرتجف ! لشد ما يتراجع وهو راعن الأوصال مضطرب الفؤاد عن شاطىء الهاوية الماثلة أمامه ! بل لكم يخفق قلبه الضعيف ، إذ ينصت من بعيد لتلك الأنشودة المظلمة !

تلك أنشودة الموت ، مازالت تتردد فى أعماق صدره ، وتنتشر فى أنحاء نفسه . وتلك الزفرات المتصاعدة والتنهدات المرسلة ، والانات المخنوقة ، والأنفاس المتحشرجة ، لهى آهات الحبيب ، وزفرات الخليل ، وانتحابات الولهى ، تضطرب وتتراجع ، تتقدم وتتأخر ، حول سرير الموت .

الناقوس الصغير مازال يرسل الهمسات ، ويعلو بالخفقات . أصواته التى تطويها معالم الفضاء تنبىء الأحياء أن شقياً بائساً رحل ، ومكدوداً تاعساً إلى هوة القبر نزل

أحييك أيها الموت . أيها المنقذ السماوى ، سوف لا تظهر أمام ناظرى بهيئتك المرعبة ، وبزتك الموحشة ، وطلعتك المشؤومة . إن يمينك سوف لاتشارفنى بمرهف ماضيك ، إنى لا أرى تجهم وجهك ، ولا أقرأ فى عينيك معالم الجريمة والخيانة ، فأنت الذى تنقذنا من آلامنا ، تخفف من أحزاننا ، تأخذ بيمنانا لتقودنا إلى حيث الرب الرحيم ، تستعدى رحمته على نكباتنا ، وتستنزل رأفته على ويلاتنا .

إنك لاتميت بل تنقذ ؛ إنك لا تهلك بل ترحم ؛ إن يدك يارسول السماء تحمل إلى نبراسا إلهيا ، يوم تغمض عيناى الكليلتان أجفانهما . تأتى تحت الأضواء المنعشة لتبلل ناظرى ، وتغمض عينى ، والأمل إلى قربك يطفر ، يظلله الايمان ، تشده التقوى ، فتفتح أمامى عالما رائعا

إلى أيها الموت . أقبل واكسر عنى أغلال الجسد . بدد عن نفسى قيود الأوصال . افتح باب سجنى واكسر مغالق حبسى وأعرنى أجنحتك الرفرافة ، وقوائمك الهفهافة . ماذا يمنعك عنى ؟ . لماذا تتأخر ؟ ماذا يعيقك عن زيارتى الأخيرة ؟ تقدم إلى . فانى أريد أن أرمى بنفسى نحو ذلك الكائن المجهول ، حيث أعرف سر حياتى ومماتى

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابه (رفائيل)

أى شىء فصل عنى؟ من أنا؟ ومن سأكون؟.

أموت ولا أعرف ماهية الحياة وسر الوجود، وأذهب وأنا أجهل ما البقاء! ما أنت أيتها الروح المبهمة، أيها الطيف المجهول؟ أيها السر الغامض. قبل أن أردى فى لحدى أريد أن أسألك: أية سماء بحقك تسكنين؟ وفى أى عالم تعيشين؟ وأى قدرة إلهية رمتك إلى هذه الكرة المحطمة، حيث عالمنا الضعيف الهشيم. وأى يد إلهية قذفت بك إلى سجنك الفخار، واعتقلتك فى محبس الطين؟ وأى سر عجيب ربطك بالجسد وربط الجسد بك وأى يوم تنسلخ الروح فيه عن المادة؟ وتصبح عالما بنفسها، تقوم بأودها دون أن تعتمد على الجسد البالى والجسم الفانى؟

إلى أين تذهبين؟ أتتركين الأرض الجميلة لترحلى إلى قصر منيف؟ هل نسيت كل شىء؟ أم لا زلت تذكرين؟ إن هناك القبر، فهل ستبعثين إلى عالم مجهول جديد؟ أتعودين إلى حياة أشبه وعالم أحكى وأمثل إلى حجر الله، حيث رأيت أشعة الحياة ولمست معالم الوجود. أم إنك ستفصلين من كل شىء تدب إليه يد الفناء؟ وتسير فى عروقه دماء البلاء.

أستنعمين بنناعم الخلود الأبدية وتلعبين فى الجنان غير البالية؟

نعم، هذا أملى الوحيد يا نصف حياتى. تلك هى الأمنية التى بها رأت الروح التى تضىء جوانب صدرى طرق الحياة. وكانت عزاء نفسى المتألمة التى قضى عليها بالسجن فى هذا الجسد البالى. شهدت ربيع حياتك يرحل وألوانه البهيجة تموت وتذبل، وزهوره المتلألئة تسير نحو هوة الفناء. والحزن ما زال يفتك بى، والموت يدير منى الخطوات وأنا أجود بالنفس الأخير، ترتسم على شفتى الابتسامة، وتنهمل من عينى دموع الفرح، مقدماً إليك كلمات الوداع الأخير، منتظراً نظراتك لتشع فى عينى قبل أن يغمضهما الموت

أولئك الذين تعلقوا بأذيال المادة، وكانوا أشبه بالقطيع، يسيرون وراء راعيهم «أبيقور» Epicure سيهتفون «يا له من أمل كاذب خلب قد مضى ورحل، عند ما يرون معالم الدنيا قد قضت وانتهت

وذلك العالم الذى ما زال يفحص أسرار الطبيعة يود كتشافها، يدرسها فى زاوية مهملة تسمى العقل. سيقطع الدهر فى فهم كنه المادة، يعيش فى عالم الملموسات، يغفل عن الروح ولكنهم سيهتفون به:

أيها الأحمق، أى كبر سخيف يكسوك؟ انظر حولك! تأمل بناظريك! كل يبتدىء لينتهى، وكل يدب نحو الفناء دبيبه. إن سيرك نحو هدف ممثل، وإلى غاية نهائية هي «هوة الموت».

انظر إلى الحقل وقد علت أوراقه صفرة الذبول! ألا ترى الزهرة تتعب وتضمحل ثم تلفظ الأنفاس؟ ألا تشهد فى هذه الأحراج الملتفة تلك السدرة العظيمة بجبينها الشامخ ونظراتها إلى العلياء. كيف هوت تحت ثقل السنين وزحت تحت أعباء الدهر، ثم امتدت على العشب النضير المنتشر على بطحاء الأرض؟ ألا تنظر الأنهار تنضب فى مجاريها، والبحار تجف فى قيعانها، وهذا الكوكب المتلألىء فى السماء أخرت يد الزمن ولادته، وهذه الشمس، وما أشبهها بنا! إنها تسير الى الفناء والعدم، وفى السماء حيث الأموات ينتظرون يوماً به ينعمون.

تأمل حواليك الطبيعة. مرت الأجيال فتكاثفت أتربتها. وتحولت الأعوام إلى ذرات غبار تناثرت فى فضائها

إن الزمن بخطوة واحدة يذل من كبريائك، يخمد عزة نفسك، ويطفىء جذوة اشتعالك، يقبر فى جوفه العميق الحوادث، ويرمس فى لحده المخيف الأيام.

ولكن الانسان، الانسان وحده، المجنون الأكبر فى هذا الكون! إنه ليظن أن القبور لتسعد بسكانها، ويأمل أن يعيش الحياة ثانية فيها، فيظفر طياتها بالحياة أثر الحياة، ويحلم بالأبدية والخلود. وهو كريشة فى مهب زوبعة العدم الهائجة

ليجبكم غيرى، يا عقلاء الأرض، يا مدعى الفلسفة. اتركوا لى خطأى. فأنا أهوى فلذا آمل، فاذا كان الخلود خطيئة لا توجد مرسومة إلا فى بعض العقول دون أخرى، فكم هذه الخطيئة عزيزة لدى!

اتركونى أيها العقلاء أنعم بجانب ضلتى، إنى أحب أن أتمنى وأن أعلل الأشياء، إن عقلنا الضعيف المضطرب يتحير. بلى إن عقلنا ليمسك عن الكلام أمام حججكم، ولكن الادراك يجيبكم

أما أنا، عند ما أرى الكواكب تسبح فى السموات العلى، والنجوم تنحرف عن طرقها المدبرة وسبلها المقررة، وأشهد النجم فى حقول الأثير اللانهائية يناطح النجم، والكوكب

يركض أثر الكوكب ، فأنصت لصراخ الأرض ، واستسكن لسماع صرخاتها المتوالية تتنهد ، وقد شق جوفها ، ومادت كرتها هائمة تضطرب ، بعيدة عن السموات وشموسها . تبكى الانسان المحطم . ابنها العانى ، المسرع فى طريق الموت الذى هام فى حقول الأبدية المظلمة ، عندها أكون الشاهد الأخير ، والحاضر الفرد ، وقد احتاطتنى المدلهمات ، وأمسك بيدى الموت إلى جوف الظلمات . وبالرغم من ضعفى سأنهض واثباً ، لا خوف يدب إلى قلبى ، ولا ذعر يمسك على فؤادى ، أفكر فيك ، أرقب بفارغ الصبر عودة الفجر الأبدى ليضىء العالم المحطم ، حيث أرقب لقاءك وأرجو زورتك

كنت تذكرين دائماً رحلتنا الهنيئة وسفرتنا الرغدة ، يوم نشأ غرامنا الخالد وبدأ حبنا المقيم ، فكنا نتعم على ذوائب الصخور القديمة التى شهدت مجد الأولين حيناً ، وحينا على ضفاف البحيرة الساكنة ، نرقب أمواجها الهادئة ، ونستمع الى أصوات مياهها العذبة . فتحمل نفوسنا على جناح النعيم حيث نسلو العالم الصاخب .

كنت أخوض معك الظلماء التى أنتجها التفاف الأشجار ، وأسير جنبك تحت الظلال الوارقة والأفياء المنتشرة ، نهبط الربى لنصعد الجبال . لحظة سعيدة مرت أصغينا خلالها لموسيقى النجوم الغامضة ، وأصخنا بسمعنا إلى غناء الكواكب الجيل ، لاصخب يتخلله ولا ضوضاء تمسك ألحانه

كم دهشنا لهذه الصورة الجميلة التى تغطى العالم ، عدنا أدراجنا إلى المعبد ، خشعنا أمام الضوء الخافت الذى يرسل أشعة متضائلة تبعث إلى القلب الرهبة ، وإلى الأجسام الرعشة . سكرى من جمال الوجود ، كنت ترددين النظر بين الأرض والسماء ثم تهتفين :

« إله الغيب ، هذه الطبيعة مأواك ، عند ماتتأمل بنظراتا تاصنع يديك ، الروح تراك متمثلا فى كل صورة من إبداعك ، فهذه الدنيا صورة كمالك : النهار نظرتك ، والجمال ابتسامتك . فى كل مكان القلب يعبدك ، والنفس ترجو أن تدب فيها الأمل وتنفخ طياتها روح العمل

« أيها الخالد اللانهائى القدير الجليل ! إن قلبى ليعجز عن وصف اسمك وكتابة حسناتك ، والروح التى حبيتها بنفختك تمجد عظمتك حتى تخمد فيها الحركة ، وتسكن بين جنباتها الخفقات

« أيها الإله القدير ! إن الروح لتخضع لحكمتك العليا وأنشودتك المثلى . تريد أن تطفر نحو علاك ، وتثب إلى سمائك . إنها لتشعر أن الحب هو ختام حياتها ، فهى تحترق لمعرفتك وتلتهب لمرآك

كذلك كنت تقولين وبهذه النفثات كنت تناجين . وقلبانا بجمعان التنهدات ، بمزجان الأنات ، يصعدان الزفرات ، يرسلانها صوب هذا الكائن العظيم الذى يدل عليه هوانا ، ويشهد لعظمته غرامنا ، نخشع بصلاتنا أمامه ، نحمل طيات قلوبنا محبته واحترامه ، يرسل إليه الفجر تخشعاتنا وتضرعاتنا ، ويرفع نحوه المساء تذللاتنا وابتهالاتنا ، وعيوننا السكرى بجمال ما صنعت يداه ، تأمل بين الفينة والفينة الأرض حيث نفينا ، والسماء مسكنه .

أواه ! فى هذه اللحظة والروح على وشك الفرار تريد البعاد ، تود تحطيم السجن . هو ذا الإله يطل علينا من عليا سمائه ، يستجيب دعانا ، ينظر إلى شكوانا نظرة عطف تنقذ كلينا .

إن روحينا تريدان أن ترجعا إلى حيث وجدتا النور . واستشفتا الضياء . تريدان أن تقطعا معاً خضم هذا العالم إلى النهاية المحتمة ، يداً بيد ، ووجهاً إزاء وجه . حتى تصلا على جناح الحب إلى النهاية . فهى تصعد كضوء النهار إلى أن تنتهى إلى حيث الاله الخالد ، وترتمى تحت أقدامه متعانقة باكية .

هذه الأفكار : أتراها تغشنا وتخدعنا ؟

أواه ! ألِلعدم خلقت أرواحنا ؟ أللفناء كانت حياتنا ؟ أتشترك الروح فى مصير الجسد إلى العدم ، ويلتهمها جوف القبر الغامض كما تلتهم الضوارى اللحم ، ويضيع بين ترابها العظم ؟ أتعود إلى التراب الذى منه نشأت ، أم تطير فى الأجواء ولا تستحيل إلى هباء ؟ أم تراها تتبدد فى الفضاء ، كما تتبدد صرخات صوت قذفته عروس حسناء ؟

بعد حسرة ضائعة ، وزفرة راجعة ، وتوديعة باكية ، أترى يفنى الحب ، ويطوى الدهر فى صفحات كتابه غرامنا ؟ أواه ؟ ! إن هذا السر العظيم لا يعرف كنهه إلا أنت . ألا انظرى موت من أحبك ، الغير ، أجيبى . ردى على !

حسن ت. كمبى

وطنى فى عرس الحرية

للاستاذ عبد المنعم خلاف

عرش الشمس ، عليه صباح مشرق ، كله أضواء وأنداء وأغاريدُ وطوالع سعد ، واستهلال مجد

يَرِفُّ فوقه علم هو رمز النمو والخصب والعلا وإقبال الأيام ، رفيفَ القلوب حوله والأجفان فيه

وعلى العرش ملك يومئ الزمن باسمه إلى تاريخ وقف ، وتاريخ أقبل . . . . وبشبابه إلى ربيع مخضر يلف بنت النيل بطيلسانه وريعانه فتنبت الورد والشوك . والغصن والرُّمح ، للجمال والقوة . فهو ملك وكلمة من كلمات الغيب ألهِمَها « فؤاد » فوضعها فيما وضع من أعلام المجد

وأمة صهرت الفتن جوهرها نصف قرن ، فخرج صافياً غير مدخول ولا زائف ، قد « تكتل » وتجمعت ذراته ، وتضامت خلاياه ، ونشطت عضلاته ، ونهض فى مركزه بين مشرق الشمس ومغربها صلب العاتق كالأهرام ، رشيقا كالنيل ، رهيبا كالصحراء ، ينتظر أن يحمله الزمن رسالته الحديثة

وشعب يبدو كخلية النحل ، يعمل فى رأى مجتمع ، ونشوة بعذوبة الوحدة بعد مرارة الفرقة ، وحيرة الادلاج والسرى خمسين سنة فى مجهل السياسة ، وقد ترك على الطريق جثثا صرعى ونفوساً هلكى ، فلما عسعس الليل وملَّ الحادى وحار الدليل ، أسعفه القدر بانفلاق الاصباح وإقبال النور والهدى إلى الغاية

وتاريخ يمسك قلمه القديم الذى كتب به أولى صحائف الحضارة والعلم ليكتب صحيفة جديدة نرجو ألا ينقضى مداها ولا يأفل سناها

وأرواح حائمة من الأبوة الأمجاد تصلى فى ملكوت السموات أن يحمى رحمن العالم أرض الذرية ووصلة الشرق بالغرب .

وشيوخ محنكون يضعون الأساس ويخلقون الجو الجديد للروح والجسم ، بالقلم والسيف ، للمجد والحق .

وشباب ملتهب الفؤاد مسعر الروح ، يريد أن يقيم البناء بنجوم السماء . . لايدرى ماذا يقدم من مطالب الوطنية ورغائب الحياة الجديدة ، فما يولد يوم إلا ومعه إلهام منه يتنزل على العقول بمعنى من معانى توكيد الاستقلال والتأهيل لاستكماله ، لأنه يشعر بالعظيمة التى ألقيت على كاهله فى عصر الانتقال وتغير مجرى التاريخ ، وإليه مآل الحوادث وقرار النتائج

ذلكم هو وطنى من بُعد . . أبى وأبوكم الرحيم أيها المصريون ! تشيع منه فى عينى صورة حاضرة على غيابه ، مجلوة على احتجابه ، طائفة فى المُصبَح والمُمسى ، والخلوة والجلوة

وقد شاء الله أن تعود الحرية النائية إلى ربوعه وأنا عنه بعيد ، فلم أشهد مواكبها وعُرسها على الجباه والشفاه ، ونشوتها فى الأرواح والأشباح ، وأملأ فراغى من فرح الحياة بها كما ملأته من الأسى عليها وهى حمراء دامية . . وأضحك للبلسم كما بكيت للدم !

ولى ولع برؤية الجماهير ورصدها ، وللجماعة فى أعصابى سحر . . . عجيب يجدد إيمانى بقوة الذرة إلى الذرة . إلى الصحراء ، وبالقطرة إلى القطرة . . . إلى الدأماء ، وبالانسان إلى الانسان . . إلى الدولة . فكانت مناى أن أرى الشباب الذى طالما خر إلى الأرض شهيداً يخر للأذقان ساجداً تحت رجفة من هتاف الزعيم « اسجدوا . . اسجدوا لله شكرا »

* * *

طلع الفجر يابنى أبى ! وانفجر الضوء . فاغسلوا قلوبكم بنوره ، ونقوا ضمائركم بطهوره ، وأشيعوا معانيه فى صدوركم ، وسلطوه على أوكار الظلام والضعف والجهل ، واقتلوا به الحشرات المخربة الدنيئة . . . ثم أجمعوا أمركم لسفر طويل فى طريق وعر مملوء بالأشراك والتعاسيف والمتاهات والزحام والسعالى والغيلان . . وجثث الأمم الوانية الخطى ، الخرقاء التدبير ، المتخاذلة القوى ، المفرقة الهوى . . . طريق المجد ! !

وقبل السير قفوا وتلفتوا إلى الخلف ، وسرحوا الأبصار فى معالمه ، وتذكروا أغلاط الماضى واستوحوا هداه وعبره ، فان ذلك أحرى أن يطرد معه السير على الجادة دون انحراف إلى بنيات الطريق

بغداد **عبد المنعم خلاف**

حول رأيين في

الوحدة الاسلامية

للأستاذ حسين مروة

لنكاد نلمس اليوم في مظاهر الحركة الاصلاحية القائمة في ديار الاسلام وأمة القرآن الكريم — اتجاها جديدا يغتبط به كل مسلم يستشعر في نفسه الايمان الحق، ومظهرا مباركا يرتاح إليه كل موحد يحمل في صدره عاطفة الخير الصريح، وإننا - إلى اغتباطنا بهذا الاتجاه - لنزداد طمأنينة إليه إذ نتلمس بين عوامله وأسبابه عامل النضج الفكري وفهم الحقائق المستوحاة من ملابسات الحياة وروحية الدين الاسلامي الحنيف. وإننا لنذهب في طمأنينتنا واغتباطنا هذين مذهباً أبعد مدى، إذ نشهد بين العاملين على هذا الاتجاه طائفة رجال الدين التي يرى كثير من المشتغلين في هذا الحقل أنها السبب الأول في إخفاق الحركات الاصلاحية التي نشأت في الأعوام المتأخرة لتوحيد كلمة الأمة الاسلامية وجمع رأيها الشتيت ورتق مافتق التاريخ من مجدها السني وعزها الرفيع.

وفي الحق أن طائفة رجال الدين هذه كانت في عصور التاريخ الاسلامي الأولى هي العنصر الصحيح الذي عمل للاسلام أكثر مما عمله العناصر الأخرى، إذ بينما كانت هذه العناصر تحمل المعاول لهدم صروح الوحدة الاسلامية الشامخة — كان علماء الدين يجلسون إلى القرآن والحديث الشريفين يستوحونهما حقائق الدين: ويستهدون بنورهما المبين إلى حل المشكلات وتوضيح الغامضات، يجتمعون على ذلك فيما بينهم وإن باعدت المذاهب بين صفوفهم، ويتواصلون تواصل الأرحام وإن حاولت أهواء السياسة أن تنثر جماعاتهم نثراً وأن تستغل بساطتهم البريئة استغلالا، وأن تستثير حفائظهم الدينية لتأييد أغراضها، فتراهم — على هذا كله ينصرفون عما حولهم من شؤون إلى دراسة، أو تدريس، أو تأليف، أو مناظرة علمية مهذبة الحواشي طاهرة المقاصد موطأة الأكناف بالسماحة الرحبة والتساهل العذب وأدب البحث النزيه. وإذا كنت ترى في مخلفات هذه الطائفة في عصورها تلك من المؤلفات والدراسات مالا يدل على شيء من هذا الذي نقول — فانما هو النادر الذي لا يصح القياس به، أو هو مما ألحت عليه السياسة باسبابها ونوازعها الآثمة. وهكذا كانت السياسة تلحف بالتنقص من أطراف الوحدة، وتلح في تبديد الشمل، وتجهد في تضييع الخلق العلمي السمح، واستئصال هذه البقية الكريمة من تراث العصر الأول للاسلام — حتى انثال رجال الدين إلى السياسة، وانهال العلماء على الدنيا، وكان ماكان من هذه الطرائق المبعثرة، وهذه الأهواء المتدافعة، وهذه الدنيا الاسلامية المليئة بالأحداث الجسام والنوازل المروعة الفادحة

وعفا الله عن رجال الدين هؤلاء ومن خلف من بعدهم إلى يوم المسلمين هذا، فلقد سايروا أهل المطامع، وكانوا معهم إلبا على الدين من حيث لا يشعرون، وكانوا لهم عونا على الاثم من حيث هم غافلون، ونحن لا نشك في أن أصحاب الرأي القائل بأن علماء الدين قد عرقلوا سير الاصلاح في الاسلام — على شيء من الحق، وإن لم يكونوا على الحق جميعه فيما نرى، لأن تخلف هؤلاء عن قافلة رجال الاصلاح الذين قطعوا شوطاً في هذا المضمار — ليس هو السبب — كما يرون — في إخفاق الحركات الاصلاحية التي قامت في هذه الأمة إلى اليوم، لأننا لا نعتقد أن سلطة رجال «الاكليروس» الاسلامي تتناول هذا المدى من التأثير في سير الأمور العامة في دنيا المسلمين، ولعلنا لا نزيغ عن الحق إذا قلنا لأصحاب هذا الرأي إن السبب الأول في فشل المصلحين يرجع إلى عاملين اثنين: أحدهما — كاتبوا التاريخ الاسلامي أنفسهم الذين أمعنوا كثيراً — علم الله — في تملق السياسة ومجاراة أهواء النفوس من أي حزب كان هؤلاء ومن أي شيعة ولون، جعلوا تاريخنا مثارا للحزازات وموقظا للنعرات كلما شاء الزمان أي يبدلنا بشرنا خيراً، وبفرقتنا اجتماعا، وشر البلية في هؤلاء أننا مرغمون على قراءتهم فما الحيلة إذن؟. ترى هل يعمد القائمون على فكرة الاصلاح إلى ما كتب المؤرخون عن عصور القلق الاسلامي فيقطعون ألسنتهم فيما يتحدثون به إلينا من فضول الاحاديث؟.

وأما العامل الثاني فليس في قراء «الرسالة» الكريمة - كما نعتقد - من يجهله، أو ليس هو «الغرب» الغازي . . . المظفر . . .، ويعلم القراء ما وراء هذا من شجون الحديث وشؤونه الرائعات.

هذان ما نعتقد أنهما السبب الأول في تمزيق شمل المسلمين. وإذا كان لرجال الدين من أثر بعد هذا، فذلك هو استسلامهم إلى هذين العاملين استسلاماً ساذجاً أخرق، ولا نقول عنه إلا ذلك . . .

ونعود الآن لنقول ثانية: إن هذا الاتجاه الحادث في دفة الحركة الاصلاحية، يزيد في اطمئناننا إليه أن بين عوامله وأسبابه فهم أولى الشأن من طوائف المسلمين حقائق الحياة المحدقة بهم وأسرار الروحية الاسلامية السمحاء، وأن في صف العاملين عليه طائفة رجال الدين، ورجال الدين هؤلاء المساهمون في هذا الاتجاه ليسوا من الازهر الشريف وحده، وليسوا من النجف المقدس وحده، ولكن المعهدين الشقيقين كليهما بمدان الفكرة الجليلة المنشودة: «الوحدة الاسلامية» بروح منهما وبسبب من عندهما بليغي الأثر، كريمي العنصر، طيبي المنبت، وها هي دار «الكنانة» العزيزة، زعيمة هذه الفكرة المثلى وحاملة المشعل المقدس اليوم قد شهدت منذ أيام عالما جليلا من علماء النجف يحاضر في دار جمعية الشبان المسلمين في موضوع «الوحدة الاسلامية» بروح من التسامح جليل البادرة، ويجتمع إلى عظماء البلد الاسلامي الكريم يحادثهما حول هذا الشأن فيلقى في رجال العرش المؤثل الرفيع كل العطف، ويشهد في أوساط الأزهر العظيم

أبلغ المثل على نضج الفكرة ، وبأنس من علية البلد وزعمائه الأبرار ومن حملة العلم والقلم ورجالَ الفكر فيه - ألمع الدلائل على قرب اليوم السعيد ، إذ يصبح المسلمون إخوانا كانهم «البنيان المرصوص» تظلهم جميعاً راية التوحيد العليا .

ولكننا - ونحن نعرض لهذا كله - نرى من واجبنا أن نقول كلمة فى مرحلة ثانية للموضوع ، وهى التى أردناها أول ما أردنا أن نكتب فى هذا الباب ، ذلك أن للموضوع مرحلتين : أولاهما - حاجة الأمة الاسلامية إلى الوحدة الشاملة الكبرى ، وهذه قد فرغ الباحثون من التدليل عليها ، ووضعها فى ميزانها الصحيح، وفرغ كذلك المصلحون من عقد الضمائر على الايمان بها وجعلها مثلا أسمى تستهدفه النفوس ، وتستهون فى سبيله الجهود . والمرحلة الثانية هى : قضية العوامل والأسباب الأقرب أثراً وأعظم فعلا فى تحقيق هذه الأمنية الغالية والمثل الرفيع .

هذه المرحلة الثانية قال الكاتبون والمصلحون فيها ما شاؤا ، ولقد طلع على العالم الاسلامى منذ أعوام بعيدة أو قريبة ، رأى بهذا الشأن عرفه السوريون أكثرمن غيرهم ، إذ نشأ - أول ما نشا - فى ديارهم ، ويقول أصحاب هذا الرأى إن الخلافات المذهبية - ولا سيما بين طائفتى السنة والشيعة - هى مصدر الفرقة ، وهى مصدر البلاء والشقاء ، وإذن فلنعمد إلى قلع هـذا الوباء من أصله ، ونجذه من جذوره ، بان نجمع المسلمين كافة على مذهب واحد يستخلص من مجموعة هذه المذاهب على ضوء القرآن والحديث ، ولكن هذا الرأى لم يكد يظهر حتى اختنق دون أن يثير وراءه جدلا ولا بحثا ، ودون أن يترك بعده صوتا لنادب عليه أو شامت به ؛ وهاهو ذا اليوم يظهر ثانية على لسان سماحة العلامة الزنجانى - ومن النجف كذلك - ، فاذا هو يلقى هذه المرة فى مصر وفى ديار الشام غير ما لقى أول مرة ، وإذا هو موضوع بحث وعناية من العلماء ورجال الفكر وأولى الشأن الجليل فى القطرين الشقيقين . وبينا نفكر فى إدلاء دلونا بين الآراء فى الموضوع وإذا «الرسالة» الرفيعة تطلع علينا فنستقبلها بالنهمة الروحية التى نستقبلها بها فى كل مرة ، ونقف - أثناء سيرها - على مقال جليل للاستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى الموضوع نفسه وبعنوان : «الوحدة الاسلامية» وللاستاذ حرمة فى النفس حملتنا على أن نجمع الفكر إلى مقاله ، فاذا هو يقول فيه ما كنا نحاول أن نقول فى الموضوع قبل ذلك ، وهانتقدم إلى «الرسالة» الغراء بهذه الكلمة العاجلة تأييداً لرأى الأستاذ الصعيدى الذى تفرد به بين من عرضوا لهذا «المشروع» بشىء من القول :

فى الحق - ياسيدى الأستاذ - أن محاولة توحيد المسلمين عن هذا الطريق الذى يقولون ، لهى - شهد الله - عامل جديد على توسيع شقة الخلف بينهم ، وتهديد هذا الكيان الحاضر - على هزاله - بالاضطراب فالاضمحلال .

ليس هذا أوان التلبيس والابهام ونحن نبحث أمراً حيويا له خطره ، وله عواقبه الجليلة ونتائجه المرموقة ، فلنقل -إذن- بصراحة : إن خلاف الطائفتين فى أصول العقائد حقيقى ، وليس هو - كما قالوا - ظاهرى قشرى يستطاع «تصفيته» فى اجتماع أو مؤتمر أو ما يشبه هـذا . ولنقل كذلك - بمثل هذه الصراحة - : ان من العسير ، بل من المتعذر ، أن نحمل أية من هذه الطوائف على التزحزح عن مبدأ واحد من مبادئها أو أصل واحد من أصولها - قيد شعرة ، بعد أن أصبحت هذه المبادىء والأصول عقيدة فى العقائد . ولا نظن السادة أصحاب هذا الرأى يجهلون أن العقيدة جزء من كيان المرء لا ينفك عنه ما دام كيناً ينسب إليه ويتميز به ، ونظننا فى غنى عن التبسط بهذه الناحية، وفى مباحث العلوم النفسية والاجتماعية وفى منطق الواقع نفسه مايغنى عن التبسط والتدليل

ولنفرض - جدلا - أن اجتمع نخبة من علماء كل طائفة ، وتجرد هؤلاء عن اعتبارات المذهب ، وموحيات العقيدة ، وبحثوا الأمر بحثاً علمياً صريحاً مستهدين بروح الاسلام الأعلى ومبدأ القرآن الأول ، ثم أقروا جملة من المبادىء والأصول قد تكون مزيجاً من مذاهب شتى وقد تميل إلى مذهب دون مذهب - لنفرض هذا كله ، ولنجعله بمكان من الاعتبار الصحيح ، ولكن من يضمن لنا هذه الدهماء أن تتنازل عن عقائدها لقاء ما يقول لها العلماء ، هكذا قضى البحث وقواعد العلم ، وهكذا تشاء مصلحة الاسلام . أو أن تتقبل هذا المذهب «الجديد» بطمأنينة ورضا واقتناع ، ومن يضمن لنا كذلك هذا التاريخ الأرعن أن يوقظ النعرات من جديد فنستهدف مشكلة جديدة ونضيف إلى هذه المجموعة «الضخمة» من المذاهب مذهباً جديداً ، أو قل : عاملا جديداً على صدع الصف وخلق الفوضى التى نحاول أن نبيدها من الوجود ؟ .

لا . لقد جاء الأستاذ الصعيدى - حفظه الله - بالحق إذ نحا غير هذا المنحى فى سبيل الاصلاح وجمع الشمل . ولقد نحونا مثل هذا كذلك فى مقالات نشرتها جريدة «الهاتف» النجفية ناشدنا فيها هيئة العلماء العليا فى النجف أن يعتبروا هـذه الخلافات فى أصول العقائد بين المذاهب الاسلامية ، كما يعتبرون هذه الخلافات فى الفروع بين مجتهدى المذهب الواحد ، وأن تمد مدرسة النجف يدها إلى شقيقتها الكبرى مدرسة الأزهر ، وأن يتبادل المعهدان الكريمان البعوث العلمية ويوحدا مناهج التعلم فيها وأن يشتركا فى الرأى كلما حدث فى الاسلام حدث من إصلاح أو تثقيف ، أو تأليف ، أو تأسيس الخ .

هـذه هى الخطة المثلى التى نرجو أن يعتبرها المصلحون من علماء الطائفتين قاعدة لأعمالهم فى سبيل الوحدة الاسلامية المنشودة . وإننا لنرجو أن يكون لنا فى هـذا الاتجاه الاصلاحى الجديد - سبب أى سبب فى تحقيق هذه الأمنية الحبيبة .

وأنا أرجو - فى ختام كلمتى . أن أحقق أمنية تعتلج بالصدر فى أن أشد الرحال فى اليوم القريب إن شاء الله إلى الأزهر العظيم رجاء أن نشق الطريق إلى تواصل الأرحام بين المعهدين الشقيقين ، وتحقيقاً لمقترح الأستاذ الصعيدى الكريم ، والله ولى الأمر ؟

حسين مروه

دعابة الجاحظ

بقلم محمد فهمى عبد اللطيف

كان أبو عثمان الجاحظ لوقته شيخ الأدب، ونخر العرب، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأى والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، إن تكلم حكى سحبان فى البلاغة، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل(١)، وكان إلى جانب هذا كله ظريفاً مرح النفس، يحرص على النادرة ويحتفل بها، ولو كان فيها ما ينال من شخصه، ويمسه فى سمته. ولما كان الأدباء قد أكثروا القول عن الجاحظ فى أدبه وفنه، وعلمه وتحقيقه واقتداره على الكلام والجدل، فقد رأينا أن ننظر إليه فى دعابته ومرحه؛ وإنها الناحية للباحث فيها مراد ومنزع، وللقارىء منها متاع ولذة. ولعل من الخير قبل الإمعان فى البحث أن ندحض وهماً يقوم فى رؤوس بعض الناس إذ نجدهم ينكرون ذلك على الجاحظ وأضراب الجاحظ، لأن كرامة الأديب أو العالم فى رأيهم أكبر من أن تكون مصدر عبث ومجانة، وأرفع من أن تبتذل فى الضحك والتنادر، وقديما قيل: ليس لمزاح مروءة، ولا لمار خلة. ولقد رأيت ابن قتيبة لما أراد أن يثلم الجاحظ لم يدخل عليه إلا من هذه الجهة إذ قال: إنه كان يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث. وفات هؤلاء الناس أن الانسان حيوان ضاحك باك بطبعه، وأن الله قد خلق فيه الضحك قوة تعينه على استساغة هذه الحياة المريرة، كما خلق فيه البكاء قوة تقف به موقف العظة والاعتبار. وقد روى فيما روى عن الحسن البصرى أنه قال: حادثوا هذه القلوب فأنها سريعة الذبول، وارعوا هذه الأنفس فانها طلعة، وإنكم إن لم ترعوها تنزع بكم إلى شر غاية!!

ومما جاء فى التاريخ أن عبد الله بن طاهر جلس مجلسا أنصف فيه من وجوه القواد، وأمراء الأجناد، وضرب الأعناق، وقطع الأيدى، وردّ كبار المظالم، ثم قام وقد دلكت الشمس، فتلقاه الخدم، فأخذ هذا سيفه، وهذا قباءه، وهذا إزاره، فلما دخل دعا بنعل رقيقة فلبسها ثم رفع ثوبه على عاتقه وتوجه نحو البستان وهو يتغنى:

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

قال عيسى بن يزيد: وكنت جريئا عليه. فجذبت ثوبه من عاتقه وقلت له: أتقعد بالغداة قعود كسرى وقيصر، ثم تعمل الساعة عمل علوية ومخارق؟! فردّ ثوبه على عاتقه وهو يقول:

لابد للنفس ان كانت مصرفة من أن تنقل من حال إلى حال

ومن أولى - رعاك الله - بأن يصرّف نفسه من حال إلى حال، ومن أحق بالاسترواح والانشراح من ذلك العالم أو الأديب الذى يصهر ذهنه فى خدمة الانسانية، كالذبالة تضىء للناس وهي تحترق؟ وهل هو يفعل فى ذلك إلا ما تقضى به إنسانيته، وتدفعه إليه طبيعته؟ فاذا طاب لنا أن نقف بهذا وأمثاله موقف التزمت والوقار فى كل فترة من فتراتهم، فنحن فى الواقع نجردهم من نصف إنسانيتهم ونعطل فيهم قوة خلقها الله لهم مباءة للرفاهية والراحة، بل نحن نبقى لهم حياة هى الكرب الآخذ بالخناق، والجحيم الذى لا يطاق. وإنى لأعجب لبعض الناس أن تطرق إلى عقولهم تلك العقيدة الغريبة وهى أن حياة الأبرار فى الجنة، أرفع وأشرف من أن يدخلها الضحك، ويكون فيها التنادر. ولقد رأيت كثيرا من هؤلاء يهيئون نفوسهم فى هذه الحياة الدنيا لاستقبال تلك العيشة العابسة التى يزعمونها فى دار النعيم، فهم يطردون من صدورهم كل ميل إلى السرور والانشراح، ويكشحون عن صحائف وجوههم كل لمحة من سنا البشر والطلاقة. وكثيرا ما أصادف فى غدواتى أحد هؤلاء العابسين فينظر إلى كمن عرفنى نظرة موحشة شزرة. كأنما هو قاض سماوىّ قد هبط إلى هذا العالم ليحكم بأقصى العقوبة على كل من يعرف، ومثل هذا الرجل يقطع ولا شك ذنَب هرّته اذا هو صادفها تعبث به، فبالله سله من علم الهرة أن تعبث بذنبها؟!.»(١)

هذا وللجاحظ فى هذا المعنى كلام حسن هو من أقوم ما قيل فى بابه، وأدق ما أتى فى معناه، وإنما ساق الرجل الحديث فى ذلك وهو ينضح عن نفسه، ويدحض شبهة كالتى نعالجها، إذ

(١) من تقريظ التوحيدى للجاحظ.

(١) هذه النبذة من كتاب «حديث المائدة» للكاتب الأمريكى هولمز وقد اعتمدنا على ترجمة الأستاذ السباعى

خاف ـ وهو العالم الأديب ـ أن يتهم بالنزق والسفه من أجل مايستروح به من المزح والفكاهة ، وبسوقه من الطرف والتنادر . والظاهر أن مسألة الجد والمزاح كانت من المسائل التى شغلت الأذهان فى عصر الجاحظ ، فكثر حولها القول ، وطال فيها الخلف والتضارب ، وما كان ذلك إلا نتيجة لازمة لتلك الحياة الفكرية التى كان عليها القوم ، وهى حياة مضطربة لم تأخذ وضعها من الاستقرار بعد ، ولم تكن قد خلصت من شوائب الأخذ والرد ، فهناك علماء الفقه والسنة ما زالوا يتلمسون نصوص الشريعة يطبقونها على ما أمامهم من مظاهر وظواهر ، وتبيان ما هو حلال منها وما هو حرام ، وإلى جانب هؤلاء جماعة يتولون الوعظ بأحوال السابقين ، والزجر بالقصص والآثار ، وإن فيهم من لا يتورع عن التزيد والافتراء ، والحشو والكذب ، لتأييد أمرله فيه غرض ومأرب . وثمت عناصر فارسية من الشعراء والأدباء لا يتحرجون من اقتحام الدين والخروج على الأوضاع ، فكل همهم اشباع الجسد ، وامتاع القلب . وفيهم من يذهب فى التظرف مذاهب ، فكان من الطبيعى أن تقوم مسألة « المزاح » عند كل فريق من هؤلاء باعتبار ، وأن يجرى فيها القول على خلاف ، إذ لكل هوىً ومنزع ، وقد عرض الجاحظ أقوالهم أجمل عرض فقال : « وقد ذهب الناس فى المزاح إلى معانٍ متضادة ، وسلكوا منه فى طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان ، وبعد أن أتى الجاحظ على جمل هذه الأقاويل أخذ فى إعلان رأيه فقال : « ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح فى الجملة ، كالجد فى الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزح ، وقد يكون الكلام فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسجيح والتسهيل ، وعقدوا أعناقهم فى كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضا أردّ عليهم ، ولكن لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل ، فأن ذممنا المزاح ففيه لعمرى مايذم ، وإن حمدناه ففيه مايحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، ويننى حتى يصير كالغدر فلا ، لأن المزاح مما يكون مرة قبيحا ومرة حسنا ، ولا يكون الظلم الا قبيحا ، وبعد : فمن حرّم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة ، وفرع من فروع الطلاقة ، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة [1] .. »

ولا شك أن الجاحظ فى رأيه هذا قد وقف موقف العدل والانصاف ، وقال قولا هو غاية القصد . ولقد أحسن الرجل كثيراً إذ راعى « المقام » فى حكومته بين الجد والمزاح ، فقال بأن « لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل » نقول : بل وكذلك كل شأن من شؤون هذه الحياة ، وما أحسب أحداً فى الناس يجهل أن وضع الندى فى موضع السيف مضر ، كوضع السيف فى موضع الندى ؛ ولكن قل فى الناس من يتعرف الوضع المناسب ، ويتبين المقام المشاكل ، وما ذلك فى الواقع الامسبار الذكاء ، ومحك البراعة ، وهل التنادر يقوم الا على قوة المفارقات ، والتميز بين المناسبات ؟ وهل الرجل الذى يلق بالنادرة فى موقف العظة والاعتبار ، أو يخلق الضحكة ينطلق بها فمه بين مظاهر الأسى والحزن ، ألا نزق طائش ، بل قل سفيه لا يحس بالواجب ، ولا يقدر العواقب ، وسرعان ما ترمقه العيون بالنظر الشزر ، ويقعد فى الجالسين مقعد الثقيل المملول ، وربما كانت نادرته حلوة رائعة ، وضحكته رقيقة حسنة ، ولكنه ألقى بها فى المقام الكز ، واختار لها الموقف الخشن ! !

ولا عاب فى المزح عند الجاحظ إلا أن الخطأ اليه أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، ومن ثم فهو يرى أن من الصون للأديب أو العالم أن يكون فيه على قصد ، وأن يعالجه على قدر ، هو قدر الاسترواح والانشراح . ولقد أوضح هذه الناحية اذ يقول : « والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير . ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان ، وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرق له مطرق ، لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم فى نفسه ، لأنه أصل بنائه على الخطأ ،

(١) رسالة التربيع والتدوير ص ١١٤ من رسائل الجاحظ .

ولا يخالطه من الأخلاق الا ما سخف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شيء ولا أطول له صحبة . . . من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء [٢] . . . »

وهذا كلام يتفق فيه الجاحظ هو وصاحب حديث المائدة ، إذ يقول فى كلام له عن الجد والمزاح « أنا لا أمقت منكم ميلكم إلى الضحك ، ولا أضن عليكم بالكلمة تضحككم متى قدرنى الله على ذلك ، فأما أن تطلبوا إلىّ ألا أقول إلا ما يضحك ، وإلى أنفسكم ألا تفعل شيئاً غير الضحك ، فذاك مخالف لسنة الطبيعة ، وجدير بمن هذا شأنه أن ينقلب قرداً لتوّه وساعته . . . ولذا كان من البلية على الكاتب أو الشاعر أن يسترسل فى باب المضحك ، فانه يعوّد الناس بذلك ألا ينتظروا منه إلا ما يضحك وألا يعرفوه إلا مزاحاً ، فهم يضحكون معه مادام يضحكهم ، فاذا أراد أن يجد وشرع ينطق بالعلم والحكمة ضحكوا منه وهزئوا به » . ثم ينظر صاحب حديث المائدة إلى الموضوع من ناحية لم يتمعنها الجاحظ فيقول : « على أن هناك سبباً أغمض من ذلك ، ألا تشعر أنك ترى نفسك فوق كل إنسان يتصدى لاضحاكك ، سواء بحركات جسده أو بحركات قلمه ؟ بل ألا تشعر بأنك تفيض عليه من برك وإحسانك إذ تمن عليه بتقبلك منه الوثبات الحقيقية أو الشعرية !! . فاذا لزم أدبه ، ووقف عند حده نخيراً يفعل ، وإذا حاول أن يعلو إلى مقامك الرفيع ، فأخذ يدلى اليك من منبر عظته نوابغ الحكم . فبئس ما صنع ، وساء ما أتى ، وهيهات أن يقوم عندك مقام الواعظ ، أو يفوز منك بنظرة الاجلال التى هو جدير بها لعلمه وأدبه ! [١] » .

وما كان الجاحظ من الدعابة والمزح ، إلا فى ذلك المقام الكريم الذى اتفق عليه هو وصاحب حديث المائدة ، فتجده يستروح بالنادرة ، ويتفكه بالدعابة ، ولا يضن على السامر بالكلمة تصفق لها القلوب ، وترتاح لها النفوس . وإنه فى ابحاثه وكتاباته ليبتدع النكتة ابتداعاً ، ويحتفل بالنادرة يسوقها إلى القارىء ، ولكن كل هذا فى المقام المناسب ، وعلى القدر اللازم ، فما تعدى طوره ، ولاخرج عن قدره ، ولااستذل كرامته بالتزيد والأمعان فى المجانة . وإذا كان ابن قتيبة قد عاب الجاحظ بالعبث والضحك ، فما ابن قتيبة إلا مسرف فى هذا الاتهام ، وإنه ليطعن الجاحظ فى غير مطعن ، بل إنه ليريد أن ينكر على الرجل طبيعته البشرية ، وكأنه كان يحمل له ضغناً ، ولماذا ينكر ابن قتيبة على الجاحظ ما استباحه هو لنفسه فى عيون الأخبار من سرد المضاحيك والمعائب ، حتى ليقول فى مقدمة ذلك الكتاب بلهجة صريحة : « وسينتهى كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فاذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له ، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به ، واعلم أنك إن كنت مستغنياً عنه بتنسّكك ، فان غيرك ممن يترخص فيما تشدّدت فيه محتاج إليه ، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك ، فيهيأ على ظاهر محبتك ! ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك ... » ، وأحب أن يتأمل القارىء قوله — شطر بهائه وشطر مائه — فياليت شعرى إذا كان توقى المزاح والفكاهة سيذهب بالبهاء والماء ، فماذا يبقى بعد !؟؟

« للكلام صلة » **محمد فهمى عبد اللطيف**

(٢) التربيع والتدوير للجاحظ .

(١) حديث المائدة تعريب السباعى فى البيان .

جولات في الأدب الافرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب في جامعة السربون ، دانيال مورني ، Daniel Mornet

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

« فصول ملخصة من كتاب تاريخ الأدب والعقل الفرنسي الحديث لأستاذ الآداب في جامعة السوربون ، دانيال مورني ، تبحث تطور الشعر والرواية والنقد والتاريخ والفلسفة ، (١) ودانيال مورني أستاذ له مدرسته التحليلية وطريقته الادبية التي يفرضها على آداب أمته في هذا الجيل ! وهو مؤرخ للأدب بطريقة خاصة يكاد يكون بها نسيج وحده . تقرأ كتبه ومقالاته فتشعر باطلاع واسع عميق وجهد كبير وفكر عال استطاع أن يقرأ ويفيد ويحلل فتأخذ منه ما اوجزه فاذا به يخفى طي سطوره القليلة ما يغنى !

يكتب بأسلوب سهل كتابة يغلب عليها الاسلوب الأدبي طورا والاسلوب التحليلي تارة ، وهو في كل ذلك حي تجري حياة الفكر فيه ، يكتب عن المدرسة الادبية أوحياة الاديب صفحة اوصفحتين ويقف وإنك لراغب في الزيادة ! ولكن وقوفه هو الحاجز الذي يجب ان يقف عنده . ولن يمضي زمن حتى ينشأ هذا الاسلوب الموجز في تحليل الادب وتمييز مواقفه الحاسمة. واشهر كتبه المنشورة تاريخ شامل للأدب الفرنسي قديمه وحديثه . وتاريخ لمراحل خاصة للعقل الفرنسي وقد احببت ان أدرس هذا الكتاب لانه درس شامل لعقل وادب . لا يذهب وراء الخيال كثيرا كأنه كل شيء ، ولا ينطلق وراء العقل كثيراً كأنه كل شيء . .. لأن صاحبه يرى التأثير متبادلا بينهما ، ففيه نرى تأثير العلم في تطور الادب وتأثير الادب في الفلسفة . وفيه يرى أصحابنا تأثير النظريات الفنية والعلمية في توجيه الأدب ؟

« خ ، ه »

رقية العلم عام ١٨٨٠

لم تبلغ العلوم الطبيعية من الذيوع والقوة مابلغته في أواخر القرن التاسع عشر . فإن أهم اكتشافاتها ومخترعاتها إنما تمت في عهد قبل عهد الأواخر . فكتاب « داروين » مثلا عن أصل الانواع إنما ظهر عام ١٨٥٩ وكذلك في الأعوام الاخيرة نشأت اكتشافات جديدة غمرت الأرض وألقت في أخلادهم أن العلم قادر على تبديل الحياة الاجتماعية وغير عاجز عن تغيير الحياة ذاتها . وساعدت على نشر هذا الاعتقاد الانتصارات المتتالية في كل ميادين العلم . ولم يقبل عام السبعين حتى ازداد هذا الاعتقاد عنفا ورسوخاً حتى اعتنقه بعضهم كما يعتنق ديناً . على أن الناظر لا يرى خلقا جديداً في مذاهب العلم وأساليبه وأصوله ، ولكن غير العلماء كانوا يتحرون في أصوله عن النور الذي ينبغي له أن ينير مسالك الحياة الاجتماعية والحياة الخاصة وما قدر لها . فـ « رينان وتين » قد جمعت آثارهما قبل عام السبعين ولكن الشباب لم يتخذ منهما قائدين إلا بعد هذا العام . وهكذا انتشر سلطان العلم وغلب على كل سلطان وطغى على الأدب وأصبح موضع الأنظار . وأعلن أحد رسل العلم « برتلو » بعد اكتشافه في الكيمياء مذهب تأليف الأجزاء المتفرقة بأنه بواسطة هذا المذهب يستطيع إنسان الغد أن يصبح المسيطر على عالم الأجساد والنفوس . فهو يضع غذاءه ويخلق عصور الرفاهية التي تتجلى فيها المساواة والاخاء إزاء شريعة العمل المقدسة . كل شيء سجله العلم ويخلقه خلقا جديداً . وكذلك شأن الأخلاق يدركها هذا التطور الذي أدرك الطبيعة

كل شيء في الحقيقة ينتظم ليخضع كل فكرة إنسانية لقوانين العلم . وقد كان علم طبقات الأرض وعلم الآثار القديمة والتوسع فيها كانا ذائعين في القرن الثامن عشر قبل أن تتفجر عن العلم اكتشافاته وتزداد حركته . وهنالك مجامع كثيرة قامت ومدارس نشأت تطلب أن تقيم الدراسة المحض للحقائق بدلا من الركض وراء الخطرات الخيالية اللامعة على غير جدوى . ولكن هذه المطالب كانت لا تزال تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فيها تردد غير المطمئن وشك غير المؤمن . فبقي التعليم وجامعاته والنقد وحركاته أمينة لمذاهب الأدب القديمة التي تعتمد على الذوق والذهاب إلى إحياء فن الأوائل بالخيال ، حتى بزغ عام السبعين فبدأت الأذواق تنفر من هذه الأخيلة . ودعا الأدباء الى اعتناق علم « الالمان » الذين ربحوا الحرب ، ليكونوا منهم علماء في دراسة اللغات ومؤرخون وأساتذة ، وأن تكون دراساتهم مرتكزة على بحث الحقائق وتجريدها ونقدها نقداً علمياً . وقد طغت هذه الدعوة العنيفة على جامعات فرنسا وغزت مجامعها الأدبية . فتغير الأسلوب وتبدلت المناهج ، ونرى أثر ذلك في

---

(١) حقوق التعريب والنشر باذن المؤلف

مدرسة (أثينا) الفرنسية التى أخذت تنهج فى الدرس نهجاً حديثاً، وفى بقية مدارس أنشئت لهذه الغاية كمدرسة (روما) ومدرسة القاهرة، وفى بعض مجلات علمية أنشئت لتعمل على تشجيع هذا المذهب الجديد!

وقد سرى هذا الارتجاج الى الفلسفة نخالت أن العلم يبدل منهجها. وبدا أثر هذا الارتجاج فى الدراسات النفسية التى كانت تعتمد على الدرس الباطنى فبدل نوع هذا الدرس وجاءوا بعلم جديد لدرس النفس لا يعتمد الا على الفحص والتجريب والبرهان. وخزانة الفلسفة الفرنسية لا تزال طافحة بهذا النوع الجديد من الدرس كآثار الفيلسوف «ريبو» فى معالجة أمراض الذاكرة والارادة والشخصية. وكلها أبحاث قائمة على الفحص العلمى والبرهان العملى الذى لا مجال للخيال فيه وهى تثبت أن أصول علم النفس الروحانى لا تتلاءم مع الأعمال، وأننا بدرسنا - علمياً - لفساد المادة الدماغية ندرس كذلك فساد الفكرة التى لابد أنها مظهر من مظاهرها وأثر من تأثيرها.

أما علم درس المجتمعات فهو لا يشبه العلم فحسب، بل يجب أن يكون علماً صارماً فى تطبيق مبادئه وفى تطبيق نتائجه، كما هو الحال فى علوم الطبيعة ولم ينشأ هذا العلم فى فرنسا الا بعد عهد، ولكن هذا لا يمكن أن يكون وليد المذاهب العقلية. وإنه علم ومنطق يراد به خلق أصوله ومذاهبه. وقد وقف العالم «دوركهايم» جهوده على القول بأن الحوادث الاجتماعية هى حوادث مخصصة معينة يجب اعتبارها كأنها خاضعة لقوانين خاصة يكتشفها علم الاجتماع كما يكتشف علم الطبيعة قوانين الطبيعة

وهنالك فئة علمية تدين بالعلم. هذه الفئة التى قدم لها «رينان» كتابه «مستقبل العلم» هذه الفئة هى التى مشت وراء تعاليم «داروين» وعلى هذه الفئة ثبت مستقبل العلم ومستقبل الديموقراطية، وفى الحقيقة كانت الجمهورية الفرنسية متقلقلة متزعزعة حتى عام ١٨٨٠، فتألب رجال السياسة والصحافة على استنقاذها من مأزقها، فعمدوا الى التبشير بكلمات «برتلو» بالمساواة والحرية والاتحاد والسعادة، بالعمل على تأييد العلم الذى يجازى العاملين من أجله بالسلامة والعافية ورفاهية العيش، وهو الذى سيحل عقدة الحياة والوجود.

ان هذه الرقية العلمية غزت الأدب فيما غزت وكان لها فيه تأثير بليغ؟

خليل هنداوى

دمعـــة وفاء

على المرحوم الأستاذ غانم محمد

بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاته

للأستاذ زكى نجيب محمود

أحقاً يا غانم حم القضاء وقام فيك الرثاء؟ أحقاً طاح بدوحك العاتى منجل الفناء؟ وافجيعتاه؟ قم إذن يا صاح فاهتف بالمحاجر أن تسح الدمع هتوناً سخيناً، وبالحناجر أن تسكب ذوب النفوس أنيناً حزيناً.

عجباً! أستطاع الدهر فى لمحة من الزمن، أن يطوى الشمس فى ظلمة الرمس؟ أستطاع الموت بلفظة فى لحظة أن يدك طوداً كان شامخاً بالأمس؟ أفى اليوم الذى نرجو للأمة فيه غانماً وغانماً، يهوى مخلب الموت، بين أشاجعه رعب القدر، وننظر فاذا غانمنا الواحد قد افتقدناه فى مثل اللمح بالبصر؟ حنانيك يا رباه! أأصبت بالمنية غانماً أم أصبت عشيرة فى رجائها؟أرميت بالبلية رجلا أم رميت الرجولة فى سويدائها؟ فما كان فقيدنا فى عداد القوم واحداً كسائر الآحاد، بل كان ينبوعاً للرجولة دافقاً، وقلباً للوطنية خافقاً، يمتلىء همة حتى ليسكب الهمة فى بنيه، ويشتعل حماسة حتى ليبث الحماسة فى مواطنيه، لا يدخر فى سبيل ذلك ما وسعه من جهد اللسان والقلم. فهأنذا أطوى الليالى القهقرى أعواما ثلاثة، فاذا بالمطبعة العربية تذيع فى الناس كتاباً لا يخطف العين مظهره، ولا يضج به فى الناس منشئه ومسطره: جان دارك تأليف غانم محمد.

أقبلت على الكتاب حينئذ، ولم أكن أدرى عن صاحبه إلا أشتاتاً منثورة، فحسبته بادىء الأمر كتاباً من الكتب أخرجه للناس كاتب من الكتاب، فما هى إلا صفحات عشر أتلوها حتى همست لنفسى قائلا: كلا! تالله إن الرجل لكاتب بارع وأديب قدير، اختلجت فى نفسه الفكرة عنيفة جبارة. تنشد التصوير والتعبير، فاستجاب لدعوة القلم وكأنه فولتير بثور فيسطر فيثير. نعم لم تكن إلا صفحات عشرا أتلوها حتى أيقنت أن الكاتب منتش مخمور، قبس من صحائف التاريخ

هدى ونورا ليلقيه فى جوانحنا لهباً مسعوراً ! فما كتابه هذا عن جان دارك إلا منصرف تدفقت فيه أواذى نفسه المضطربة المصطخبة فى بيان رائع خلاب. كأنها وحى النبوة يستحيل إلى بلاغ فى كتاب.

« استمع إليه كيف يستهل كتابه :

لم أكتب مذ عرفت أناملى قبض القلم وتحريكه، ولم تنطق شفتاى مذ انفرجتا للنطاق، ولم يخفق قلبى، ولم يجش وجدانى وتنشرح جوانحى، منذ أن خرجت إلى الدنيا، لأمر من الأمور هو أسمى وأرفع وأشرف من الغرض الذى أرمى إليه بموضوع اليوم ».

ثم انفذ إلى الختام وانصت إليه ماذا يقول قبيل أن يضع القلم:

« وإنى أختم هذا الكتاب مترسما أثر جان فى دعوتها وحياتها وصفاتها، وكلى أمل خالص أن تبعث قراءة قصتها فى قلوب القارئين نور الإيمان الصادق ونشوة الوطنية الحقة... إن ما حققته جان فى مقدورنا أن نحققه، إذا ما ارتفعت بنا، كما ارتفعت بها هى من قبل، أجنحة الوطنية والدين... أيتها الفتاة المنقطعة النظير! انفخى فينا من روحك، وبثى فينا من حماستك، لكى نحيا حياتنا ونموت فى سبيل الله والوطن!! »

وإذا أنت مضيت بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة، لم تقرأ أسطراً كالاسطر، بل أحسست فى الكلم حرارة وقوة وحياة، فهو ثائر حيناً شاعر حينا، إذا جالت جان دارك فى أجنادها زأر القلم فى يده زئيراً، وإذا جلجلت جان دارك فى أصفادها صر القلم من الأنين صريراً. وهكذا صور تتلوها صور، أبدعها صناع فسواها، وألهمها من شعوره فأذكاها، حتى لتقرأ الكتاب وكأنما تخوض فى أتون مستعر، أو كأنك تنصت إلى صوت من السماء يهتف بك: تلك جان دارك فى فرنساها، وهأنت ذا فى مصرك، فماذا أنت صانع ليذكو شعورك الخابى، وينهض بلدك الكابى؟! وهذا النداء فى ذلك الحين ما كان أبلغه من نداء حيث كادت تذهل أنفس عن الطموح إلى السماء، فانحرفت إلى الأرض راضية من الغنيمة بالحب والماء!

لم أكد أفرغ من قراءة الكتاب عندئذ، حتى حملت قلبى على وهنه وعثاره، ودعوت للكتاب (فى الرسالة) لأنى آمنت أن الدعوة له صيحة وطنية واجبة، وكلما ازددت للكتاب قراءة ازددت يقيناً بما قلته إذ ذاك من « أن غانماً أخرج بكتابه للناس درة من أثمن ماتحوى لجة التاريخ من درر، ونشر صفحة من أسطع ماطوى الدهر من صفحات. ومن أنه بهذا الكتاب قد أذاع فى الناس مثلا أعلى للتضحية والفداء، ونموذجاً سامياً للوطنية المشتعلة الصادقة ممثلة فى جان دارك ». وما أزال عند كلمتى التى ختمت بها مقالى من أن غانما « قد وفق فى التصوير توفيقاً بلغ حد الكمال، وأن ليس هذا الكتاب واحداً من الكتب يتلى ثم يطوى وكأنه لم يكن، إنما هو فيض من الشعور القوى النبيل سيغمرك ويحتويك حين قراءته، وسيطبعك بطابع هيهات أن يزول أثره مابقيت على الدهر إنسانا ».

ذلكم هو غانم الذى التقيت به فى كتابه منذ أعوام ثلاثة لقاء قارىء بكاتب، ثم التقيت به منذ أشهر ثلاثة لقاء روح بروح، ثم افترقنا فراق الأبد، بعد أن خلف لنا حرارة نفسه وحلاوة جرسه فى كتابه الخالد

فرحمة الله ورضوانه على الفقيد الكريم

زكى نجيب محمود

شاعر الاسلام

محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

كتب الأديب الكاتب عمر رضا صهر الأستاذ محمد عاكف مقالا فى جريدة جمهوريت التركية بعنوان «أيام عاكف الأخيرة» فأردت أن يطلع عليه قراء الرسالة فى هذه الترجمة :

منذ ستة أشهر أرست فى استنبول باخرة قادمة من مصر، توسمتُ النازلين منها فاذا على السلم شبح لم أثبته للنظرة الأولى، فلما أنعمت النظر عرفت الفاجعة؛ وتأوه رفيق مدحت جمال آهة أعربت عن وقع الفاجعة فى نفسه .

لقد انحطم الأستاذ عاكف! ولكنه كان على ذلك، لا يزال متفائلا يحسب أن هواء الوطن يحييه . ذلك كان ظنه ، وذلك ما أمله إلى آخر رمق من حياته . أخبرته يوما أن أحد أقاربه يود مقابلته . فقال: «لا يشق على نفسه؛ سأزوره أنا حين أستعيد بعض عافيتى»

ولقد حيرنى حقاً هذا الرجاء، وهذه القوة الروحية التى رسخت فيه بعد أن آذنه الأطباء بخطر المرض، وضعف الأمل، ورأى هو صحته تضمحل يوما بعد يوم . كان تفاؤله يملأ نفسى عجبا، فكنت أقول لنفسى: أتراه يريد أن يشعرنا الطمأنينة وينفى عنا الفزع ؟ ثم أرجع فأقول: كلا إن هذا الأمل القوى لا ينبع من تعلق البشر بالحياة وإفراطهم فى حبها، بل وراءه منبع أبعد غوراً، وأغزر فيضا، وأسمى مكانا

كان الزائرون يتتابعون إلى حجرته فى المستشفى، وكان فى هذه الزيارات ارهاق له . وكان الأطباء يكرهونها ولكنه هو كان يحرص على لقاء أصدقائه ورؤية أحبّائه، وكان يسكن إلى محادثة كل واحد منهم منفرداً ولا يجد فى هذا حرجا ولا نصبا .

ولم يكن بد من تغيير هذه الحال، فدُعى الأستاذ لينزل ضيفا فى دار لأحد أصدقائه القدماء . وكانت الدار فى «علم طاغى» . وحسِب أصدقاء الأستاذ أنه سيجد فى هواء هذه الجهة ومائها بعض شفائه إلى ما تجدى عليه العناية بنظام الغذاء وتناول الأدوية التى كانت تجلب له من أوربا

فرح الأستاذ كثيراً حين بلغ علم طاغى وسكن إليها . ورُسم له أن يهبط المدينة مرة كل أسبوع لزيارة أصدقائه واستشارة أطبائه . وكان هو يقول: سأفترش سجادة تحت شجرة وأنشق الهواء النقى، وأستمتع بحرارة الشمس الصافية، وأحاول أن أسترجع قواى وشيكا . فاذا آنست فى بدنى الصحة، دعوتكم جميعاً إلى علم طاغى، وعندى هناك طاهٍ منقطع النظير .

وحق أن الأستاذ افترش سجادته فى ظلال أشجار علم طاغى الخضراء، وأنس بها وتمشى فى تلك المروج، ولكن مرارة الدواء كانت تنغص عليه جمال المكان ومسراته، بل كانت ترد هذه المتعة الموموقة سما قاتلا . وكان يقول: لو أن هذه الأدوية تشرب مرة واحدة كل يوم! لا أكاد أخلص من جرعة حتى ألزم بجرعة أخرى، فأنى لى أن أشهد جمال علم طاغى وآنس لذاتها .

لست أنسى قوله ذات يوم: «يا بنى لقد كنت أطوى الطريق من اسكدار إلى علم طاغى سيراً على قدمى لا أبطىء ولا أقف . وها أنذا اليوم أقطع الطريق لا تمس قدماى الارض . ولكن ماذا تُجدينى هذه السيارات وآهاتى فيها لا تفتر . آه لو شفيت فعدت سيرتى أقطع الطريق على قدمى! .» — وأما هواء «علم طاغى» فلم يرد على الأستاذ عافيته بل كانت قواه فى خور مستمر .

* * *

ليت شعرى ماذا ألهمه هذا التفكير العميق الذى دام أشهراً ؟ وماذا كان يريد أن يعرض علينا من أفكاره حين يبل من مرضه!! لقد كان نظم «قصة الاستقلال» إحدى أمانيه منذ سنين . وكان يبغى من التجائه إلى مصر أن يخلص من متاعب الحياة ويفرغ لهذه القصة . فلما هم بهذا طلبت إليه رياسة الأمور الدينية فى أنقرة أن يترجم القرآن الكريم إلى اللغة التركية، فأشفق وأبى واعتل بأن أمامه قصصاً يود أن ينظمها . فلم يقبل عذره وتوسلت رياسة الأمور الدينية بصديقه الحميم احمد نعيم بك أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة استانبول فاضطر عاكف أن يذعن كارهاً . والحق أن إباءه الاضطلاع بترجمة

القرآن أول الأمر كان من إجلاله الكتاب الكريم واعتقاده أن إنساناً لا يستطيع أن يؤدى ترجمته على الوجه الجدير به مهما أوتى من العلم والبيان . وكان كلما سئل عن الترجمة قال : « لم أقدر عليها . إنها لم ترضنى فكيف ترضى غيرى ؟ » . وقضى الأستاذ سبع سنين فى مصر وهو فى شغل شاغل عن ترجمة القرآن ، وكانت النتيجة ما رأينا (١) فقد ضاعت تلك السنون وحرم الأدب التركى من أثر خالد . وكان نظم حجة الوداع من أمانيه ـ هذا المشهد التاريخى العظيم الذى يمثل الرسول فى حجته الأخيرة يخطب على مائة ألف من المسلمين . وكذلك كان يريد أن ينظم قصة تمثيلية فى الحروب الصليبية وبطولة صلاح الدين الأيوبى ، وحالت دون الأمانى حوائل ، وعاد الأستاذ إلى استانبول عليلا بدت عليه أمارات الهجوم الأخير من هذا المرض المشئوم فثقل لسانه قليلا ولكنه لم يفقد من إدراكه إلا يسيراً

ويوماً تغيرت حال الأستاذ فجأة ، وبدت عليه أمارات القوة والنشاط ، فكان يتحدث إلى الناس ويستمع إليهم ، ويطلب أن يكونوا حوله ولا يرضى أن يترك وحده .

وفى مساء هذا اليوم ضاقت نفسه فلم يلبث إلا يسيراً حتى كانت الخاتمة

(للكلام بقية) عبد الوهاب عزام

(١) حدثنى الأستاذ رحمه الله أنه كان كارها احتمال هذا العب. وأن أصدقاءه قالوا له : إذا لم يكن بد من ترجمة القرآن فليس لها غيرك ، وأنه أكمل الترجمة وأراد أن تنشر معها تفسيرات فى الحاشية وأبت حكومة انقرة ان يكون مع الترجمة تفسير فأبى الأستاذ ان يعطيهم ما ترجم وانتهى الأمر .

سجين شيلون

للشاعر الانجليزى لورد بيرون

بقلم الاستاذ محمود الخفيف

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

— ٧ —

ذكرت أن أقرب الأخوين إلى مكانى تساقطت نفسه وذوى عوده ، وكذلك ذكرت أن قلبه القوى انصدع وانسرقت قوته

عزفت نفسه عن الأكل وعافته ، ولم يك ذلك لما كان عليه من قبح ووحشية ، فقد ألفنا طعام الصيد ورضنا أنفسنا عليه .

أبدل ما كنا نشربه من لبن تجود به غنمات الجبل ، بماء أتوا به من الخندق ، وكان الخبز الذى يلق إلينا على حال أحسسنا معها كأن دموع الموثقين البائسين قد سقته فالاته آلاف السنين . منذ ألقى الانسان ببنى جنسه أول مرة فى الأصفاد كما يفعل بضوارى الوحوش !

***

ولكن ما كان ليضيره ذلك أو يضيرنا ، لم يكن ذلك ما أذاب قلبه وفت فى عضده ، فقد كانت روح أخى من ذلك الطراز الذى تتسرب إليه برودة الموت حتى ولو كان فى قصر ، إذا حيل بينه وبين شعاب الجبال وجوانبه الحادرة . وليت شعرى لم أخفى الحقيقة وأؤجل النطق بها ... لقد لفظ أخى أنفاسه

***

رأيته يموت ولكن واحسرتاه لم أستطع أن أسند رأسه . لا ولم أستطع أن أمسك بيده وهى تموت ولا بعد أن همدت فيها الحياة ، لم أستطع شيئا من ذلك ولو أنى تنزيت فى الحديد وحاولت عبثا أن أفك السلاسل وأجعل أصفادى شطرين . لفظ أخى أنفاسه ، ففكوا سلاسله وحفروا له لحدا قليل العمق ، وقد جعلوه هكذا قريب القرار فى مثل تلك الأرض الباردة أرض ذلك القبو

***

ولقد توسلت إليهم أن يمنوا على بسلوة لنفسى فيدفنوا جثمانه فى بقعة يقع عليها ضوء النهار وهى فكرة سخيفة ، ولكنها أوحت إلى نفسى أن قلبه الذى فطر على الحرية لن يجد حتى فى ضجعة الموت راحة فى مثل ذلك السجن

***

وكان أولى بى أن أكفى نفسى عناء هذا التوسل ، فما أغنى عنى منهم شيئاً ، إذ ضحكوا فى برود ثم وسدوه وسدوا عليه حيث سجنوه ، وهناك رقد ذلك المخلوق الذى أجزلنا له الحب تحت أرض منبسطة لا ينبت فوقها عشب ، ترتكز فوقها السلاسل المفرغة والأغلال نصبا ملائما لذلك الاغتيال !

— ٨ —

ولكن الآخر ، ذلك الفتى الحبيب الذى كان يشبه الزهرة ، ذلك الذى أعززناه منذ أن رأت الوجود عيناه ، ذلك الذى كان يحمل صورة أمه فى وجه صبوح . ذلك الطفل الذى تحب فيه الطفولة جميعاً ، ذلك الذى كان أحب وأعز خيال إلى أبيه الشهير ، والذى أصبح فى السجن آخر ما بقى لأعنى به ، والذى كنت من أجله أجهد أن أبقى على حشاشة نفسى ، عسى أن يقلل ذلك من شقائه وعسى أن تتاح له الحرية يوما ما ؛ أقول حتى ذلك الأخ أيضاً ، ذلك الأخ الذى ظل إلى ذلك الوقت محتفظا بروح ذاتية أو موحاة ، غلب على نفسه فى النهاية ورأيته يذبل كما تذبل الزهرة على غصنها يوما بعد يوم

***

يا إلهى ! إنه لمما يبعث الرعب فى القلوب ، أن نرى الروح البشرية تنطلق مولية فى أية صورة وفى أى موقف ، ولقد رأيتها من قبل تنطلق فى دم مسفوح ، ورأيتها فى البحر الثائر تجاهد الموج المنتفخ القاذف ، ورأيت المضاجع المحتضرة مضاجع الذين أسرفوا على أنفسهم يشيع فيها الهذيان من شدة الهول ، رأيت ذلك كله وما حوى من صور مرعبة ، ولكن رزئى فى أخى كان فاجعة .

***

لم يصحب موته هول مما أسلفت ، وانما أسلم روحه مستيقنا غير معجل ، وتساقطت نفسه ومضى هادئا وادعا ، أكثر نعومه فى نحوله ، وأبرز جمالا فى ضعفه ؛ ذهب غير دامع المقلتين ولكنه عطوف رؤوف ، حزين على من خلفهم وراءه ؛ سار للموت وفى وجنتيه نضرة بدت كأنها تهزأ بالقبر ! ولقد ذهبت صبغتها فى رقة وهدوء كما يتلاشى فى السماء قوس الغمام ؛ سار وفى عينيه بريق يكاد ومضه يضىء ذلك القبو

***

مات لم أسمع له غمغمة ولا أنة تحسر على هذا الذى انتابه قبل أوانه . لم أسمع سوى كلمات قليلة عن حياة هى خير وأبقى ، واشارة طفيفة الى الأمل أراد بها أن يثيره فى نفسى اذ قد غرقت فى السكون ، وأحسست بفقدان روحى فى ذلك القفر الذى عظم عندى عن كل قفر .

وأخيرا توانت وتضاءلت تلك التنهدات التى كان يحاول كتمانها ، تلك التنهدات المنبعثة من هزال نفسه المتلاشية

***

أصخت بسمعى . ولكننى لم أسمع شيئا ، فصرخت اذ ذهب الهلع بلبى ، فعدت فى وحشية المذعور ثم أدركت أنى صرخت عبثا ؛ ولكن هلعى ماكان لينهنه بزجر ، لذلك عاودت الصراخ وأحسبنى سمعت صوتا ، وإذ ذاك فصمت سلسلتى فى وثبة قوية وأسرعت اليه ولكننى لم أجده !

وما فعلت سوى أن رحت أحدق فى تلك البقعة القاتمة ، وما أحسست سوى أنى مازلت حيا وأن رئتى تتنفسان ذلك الهواء الرطب اللعين هواء القبو .

وهكذا انكسرت تلك الحلقة التى كانت تصلنى باللانهاية ، والتى كانت تربطنى بتلك السلالة المضمحلة التى انحدرت منها ؛ انكسرت فى ذلك المكان المهلك تلك الحلقة الوحيدة آخر الحلقات وأعزها جميعا لدى . وبات أخواى أحدهما تحت الأرض والآخر فوقها وكلاهما لا ينبض فيه عرق

***

أخذت بيدى تلك اليد التى تدلت هامدة ، ولكن يدى واحسرتاه كانت مثلها فى برودتها ، ولم أعد أجد فى نفسى القوة لأن أتحرك أو أناضل ، ولكنى على الرغم من ذلك أحسست أنى مازلت حيا . وتملكنى ذلك الشعور المضطرم الذى لا يقر ، ذلك الشعور الذى يكون مبعثه ادراكنا أن الشىء الذى أوليناه محبتنا لن يعود أبدا الى ماكان عليه . وليت شعرى لم عجزت عن أن أضع حدا لتلك الحياة ؟ لم يعد يربطنى بالأرض أمل . ولكن ظلت لى فيها عقيدتى وهي التى حالت دون أن أقتل نفسى .

— ٩ —

أما ماكان من أمرى بعد ذلك ، فلست أتبينه تماماً . لاأذكر سوى أنى فقدت شعورى أولا بالضوء ثم بالهواء ، وأخيراً بالظلمة نفسها . لم أعد أفكر فى شىء أو أحس شيئاً ، ووقفت حجراً بين الأحجار . كنت كالصخرة الجرداء يغشاها الضباب ، إذ لم يكن حولى سوى الفراغ والكآبة والظلام . لم يعد ثمة ليل ولا نهار ؛ حتى ولا ذلك النور البغيض نور القبو الذى كان ينفر منه بصرى الكليل ، لم يبق إلا الفراغ الذى فنى فيه الكون كله فلا أحس سواه ، والوجود الذى لا يرتبط بمكان فى معناه !

لم يعد ثمة سماء ولا أرض ، ولم يعد ثمة ثبوت ولا تحول ولا زمن ولا خير ولا شر . لم يكن هناك سوى السكون ، والتنفس الذى لا يبعث حركة فلا هو إلى الحياة ولا هو إلى الموت .

كنت فى بحر من الخمود الراكد تغشاه الظلمة ، لا تدرك له نهاية ، ولا يسمع فيه صوت ، ولا تحس فيه حركة !

— ١٠ —

طافت بعقلى بغتة بارقة من النور ؛ كانت غناء حلوا تغنى به طائر ، غناء انقطع ولكنه ما لبث أن عاد ؛ ولقد كان أجمل سجع سمعته الآذان ! طربت له أذناى حتى دارت عيناى تتبعان هذه المباغتة السارة ، فى تلك اللحظة لم تستطيعا أن تريا أنى حليف الشقاء ، ولكن حواسى عادت فى خطا كئيبة إلى طريقها التى ألفتها . ورأيت جدران القبو وأرضه تدور فتلتف حولى فى بطء كما كانت من قبل . ورأيت ذلك البصيص المنبعث من الشمس يزحف كما كان يزحف من قبل ؛ بيد أنى رأيت ذلك الطائر فى تلك الكوة التى دخل منها الشعاع يقف مشغوفاً أليفاً كما لو كان فوق شجرة ، بل أكثر ألفة مما لو كان هنالك . كان طائراً جميلا ذا جناحين أزرقين وغناء جم المعانى ؛ ولقد خيل إلى أنه تغنى بتلك المعانى جميعاً من أجلى ! وما وقعت عيناى من قبل على طائر مثله ولن تريا بعد شبيها له أبداً . وبدا لى كأنما كان يعوزه إلف كما كان يعوزنى إلف ، ولكنه لم يصل إلى نصف ماكنت فيه من وجد ووحشة . وكذلك بدا لى أنما قد جاء ليهبنى حبه ، على حين لم يبق لى من يهبنى ثانية مثل ذلك الحب . ولقد جعلتنى هذه البشرية المنبعثة من حافة القبو أشعر ثانية وأفكر ، ولست أدرى أكان أطلق سراحه حديثاً ، أم أنه كسر قفصه وجاء ليطل على قفصى ! ولكنى أيها الطائر الجميل وقد عرفت معنى الأسر لن أستطيع أن أريده لك !

وليت شعرى لعله زائر من الفردوس تنكر فى جناحين ! ذلك أنى كنت أفكر أحياناً أنه ربما كان روح أخى هبطت إلى . ولتغفر لى السماء تلك الفكرة ، تلك اللحظة التى جعلتنى أذرف الدمع وجعلتنى أبتسم ، ولكنه فى النهاية ولى بعيداً عنى ،

وإذن فقد كان من بنى الفناء ؛ عرفت ذلك حق المعرفة . وإلا فما كان ليذرنى هكذا فى وحدة أحسستها ضعفين : وحدة كنت فيها كما يكون الجسد فى أكفانه ، أو كما يكون السحاب المنعزل : ذلك السحاب الفريد الذى يتراءى فى اليوم الضاحى حينما تكون نواحى القبة صافية كلها فيبدو فى الجو كعبوس لا موجب لظهوره والسموات طلقة والأرض فى بهجة

— ١١ —

طرأ على حالى نوع من التغير إذ أصبح آسرىّ ذوى رحمة ؛ ولست أدرى ماذا جعلهم كذلك وقد ألفوا مناظر الشقاء . ولكن ذلك ماحدث . بقيت سلسلتى المكسورة منفصمة الحلقات . وكانت الحرية عندى أن أتجول فى صومعتى من جانب إلى جانب ، وأن أقطعها طولا وعرضاً ، وأن أطأ أرجاءها جميعاً ، وأدوز حول كل عمود ، ثم أعود إلى حيث بدأت ، لا أتجنب وأنا أطأ الأرض بقدمى إلا ذينك القبرين العاريين : قبرى أخوى . ذلك أنى كنت اذا ظننت أن وطأة على غير قصد منى قد أهانت مضجعهما الخافض ، ينبعث نفَسى لاهثاً كثيفاً ، وينقلب فؤادى المتحطم ضريراً عليلا .

— ١٢ —

تسلقت الحائط ولكنى ما أردت الهروب . فقد غال الردى كل من كانوا يحبوننى من البشر ، ومن ثم صارت الارض كلها عندى سجنا أكثر سعة مما أنا فيه . لم يكن لى ولد ولا والد ولا ذو قربى ، ولا شريك فيما ألاقى من شقاء .

ذكرت ذلك فاغتبطت به لأن فكرى فى هؤلاء قد أورثنى الجنون . ولكنى كنت أتطلع إلى تسلق الجدار حتى النوافذ التى تعترضها القضبان . كما كنت أتطلع إلى أن أصوب بصرى مرة أخرى فى هيام إلى تلك الجبال الشاهقة

— ١٣ —

رأيتها لما تزل على ما كانت عليه ، فلم تنل منها يد التغيير كما نالت منى فى الاغلال ؛ ورأيت الثلج الذى يكلل هاماتها منذ آلاف السنين كما رأيت البحيرة الواسعة الطويلة أسفل منها ، ونهر الرون الازرق فى أشد فيضه ؛ وسمعت جارف السيل يتلاطم ويندفق فوق الصخر المتشقق والجذوع المتحطمة ؛ وأخذت عيناى المدينة النائية البيضاء المنازل ، كما لمحت القلاع التى تفوقها ابيضاضاً تجرى مسرعة ؛ ثم وقع بصرى على جزيرة صغيرة تراءت حتى لى أنا باسمة ، ولم يلح سواها أمام ناظرى ؛ جزيرة صغيرة خضراء ظهرت كأنما لا يزيد عرضها على ذلك إلا قليلا ، قامت فيها ثلاث شجرات باسقات ، وكانت تهب عليها نسمات الجبل وتجرى بجوارها المياه ، كما كانت تنمو فوقها زهرات جميلة اللون عاطرة الانفاس .

ورأيت فيما رأيت السمك يسبح إلى جدران السجن ؛ ولقد بدا للعين مرحاً : وحداته وجماعاته ؛ وأبصرت النسر يركب متن الريح الهائجة ، ويخيل إلى أني لم أره من قبل فى مثل تلك السرعة . وعندئذ اخضلت عيناى بدمع جديد وتبلبل خاطرى ، ووددت لو أنى لم أنطلق من تلك السلاسل ، ولما نزلت أحسست كأن الظلمة فى مأواى الكدر تقع على كأنها حمل ثقيل ؛ كانت كأنها القبر ينطبق على من جهدنا فى خلاصه ، وأحس بصرى وقد انقلب الى هكذا محزونا كأنه يطلب راحة كراحة القبر .

— ١٤ —

ولست أدرى كم لبثت بعدها فى ذلك القبو ، ربما كانت شهورا أو أعواما أو أياما . لم أحص لها عددا ولم ألق اليها بالا . ولم يك ثمة من أمل يرفع عينى ويمسح عنهما القذى المحزن . وأخيراً أقبل الرجال ليطلقونى من الأسر ، فلم أعن أن أعرف ماسبب هذا ولا حفلت أين أذهب ، فلقد تساوى فى النهاية عندى الفكاك والقيد . وتعلمت أن أصالح على اليأس نفسى . ولذلك حين أقبلوا يطلقوننى وحين ألقيت جميع السلاسل جانبا ، أحسست أن تلك الجدران السميكة قد صارت لى معتكفا وأصبحت على وقفا ؛ وكأنى شعرت نصف شعور ساعتئذ أنهم أتوا ينتزعوننى من وطن ثان . لقد اتصلت بينى وبين العناكب أسباب الصداقة ، وكنت أراقب عملها الدائب ، كما كنت أرى الجرذان فى نور القمر . وليت شعرى ماذا يدعونى أن أحس أننى دون هؤلاء جميعا ؟ لقد صرنا ألافا جمعتهم وحدة المكان

وكنت أنا فيهم ملك الجميع ، ولى الحول أن أقتل أنى شئت ! ولكننا تعلمنا أن نعيش معا هادئين ، وذلك لعمرى من عجيب الأمور ! فى ذلك السجن توثقت الألفة بينى وبين الأغلال ذاتها . وهكذا ينتهى بنا طول الاعتياد إلى ما نصير اليه فهأنذا الذى لا قيت ما لاقيت قد تنهدت حينما عادت حريتى إلى !

الخفيف

الفنون

اكروبوليس اثينا

ومعبد پارتنون: Parthenon

للدكتور احمد موسى

يرى الواقف فى وسط اثينا على بعد ليس بقليل، مرتفعاً أشبه بتل منبسط القمة، تعلوه مبان ظاهرة، أكثرها ارتفاعاً معبد پارتنون.

والقاصد إلى هـذا المرتفع يعرج إلى جهته الغربية ليستطيع الوصول اليه، فتنتهى به الطريق إلى مدخل پروپيلين المعتبر من أكبر الأعمال البنائية فى اثينا، مبنى كله من الرخام بين سنة ٤٣٧ وسنة ٤٣٢ ق. م.، على آثار بناء قديم، تحت إشراف المهندس منيسيكلاس Mnesikles، واستغرق بناؤه زهاء الخمس سنوات. وهو بحالته الحاضرة لايزال يعطى المشاهد أنموذجاً فذاً لعصر البناء الفنى فى اثينا، فضلا عن أنه مثال رائع لجمال البناء على مر القرون.

وهو بوضعه أشبه شيء بجبين الحسناء فى نظر المتجه إلى اكروبوليس، لأنه فى مقدمة مايرى الداخل إلى المرتفع، يمر منه للوصول إلى المعابد.

وكانت شهرة پروپيلين وپارتنون شهرة فاقت كل وصف فى ذلك الحين، ومع أن عمل التجديد به لم ينته بعد، إلا أن الزائر لاكروبوليس لا يمر منه دون أن يأخذه العجب من عظمة إخراجه وإتقان بنائه وجمال أجزائه.

ويتكون الجزء الأوسط منه من مداخل بعضها خلف بعض على جانبيها أعمدة من الطراز الدورى تحمل سقفاً جلونى الشكل يبدأ بأفريز شمل نقوشاً ورسومات دون تماثيل، كما ذكر ذلك كل من سپن وهيلر Sponn & Wheler اللذين زاراه سنة ١٦٧٥.

ويلاحظ المشاهد للمدخل آثار الألوان وماء الذهب على أجزاء من رؤوس أعمدته، كما يرى أن الردهتين الأمامية والخلفية تتجهان بستة أعمدة دورية إلى الشرق والغرب، وبينهما يقع المدخل بفتحات كبار كانت فى ذلك الحين مما يمكن إغلاقه وفتحه حسب الرغبة بواسطة أبواب أشبه بأجنحة.

وعمل المدخل المؤدى إلى الباب الأوسط بحيث يتصل بالردهة الغربية، وله أيضاً ثلاثة أعمدة يونية الطراز على كلا الجانبين، وتتصل الصالة الداخلية من الشمال والجنوب ببناءين صغيرين زاداها قوة وهيبة جعلت من المجموع الكلى لپروپيلين فخامة ظاهرة، وطرازاً أنيقاً.

أما البناءان الصغيران فيسمى الأيمن منهما پينا كوتيك لأنه كان شاملا لمجموعات صور الفنانين فى ذلك الحين. والأيسر أصغر بكثير من الأيمن نظراً لما طرأ على العمل من التعطيل بسبب حرب البلوبونيس ولمعارضة حزب الكهنة فى امتداد البناء خشية أن يصل إلى حدود معبد اثينا نيكا وارتميس برورونيا فيقلل من شانهما، كلاهما يكمل الجمال الانشائى لپروپيلين. (انظر ش ١ من المقال السابق)

وهناك ردهات أخرى لم يتم بناؤها كما كان مفروضاً وفق التصميم الذى وضعه منيسكليس للأسباب المشار إليها.

يسير المشاهد بعدئذ إلى معبد پارتنون الخالد الذى يعد أبهى بناء فنى فى العصر القديم كله، فهو وحيد فى مظهره العام وأبهة بنائه وعظمة تجسمه وضخامته دون خروج على أصول الانسجام فى أكمل معانيه.

وإذا شاهدت كل آثار اثينا فلن ترى من بينها بناء يفوق پارتنون؛ ومع أن الفارق بين مظهره الحالى ومظهره القديم شاسع جداً إلا أنه لايزال يشع جمالا خالداً يملأ الروح بهجة ويفعم العقل روعة.

يقع پارتنون فى وسط جنوب المرتفع، فهو بموقعه هذا يشغل نقطة أشبه بمركز قوس دائرى يلتف حوله كل ما قام على المرتفع من مبان زادت فى عظمته وقوته (انظر ش ١ من المقال السابق).

كان أساس الحوائط وما يعلوه قليلا من الرخام الخالص عند ما هاجم الفرس أثينا وأشعلوا النار بالمرتفع، ولكن أدرك عصر پركليس لجدد بناؤه وجعل كله من الرخام.

قام پركليس ببناء هذا المعبد كما تولى بنفسه الانفاق على تكاليفه. أما أستاذا بنائه فكانا اكتينوس Aktinos وكليكراتس Kallikrates

وتعد حليات البناء الخارجية من أروع القطع الفنية التى عملها الفنان العظيم فيدياس Phedias فكانت معجزة سميت باسمه إلى اليوم، وضع تصميمها وأشرف على عملها واشترك فيها بيده ونفخ فيها من روحه. كان فيدياس صديقاً مقرباً لپركليس، فأفادت هذه الصداقة إلى حد بعيد فى إخراج معبد پارتنون على هذه الصورة من الجمال والروعة.

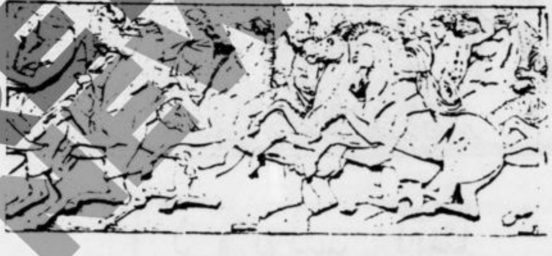
أقيم هذا البناء كما تشير الكتابات الخاصة به فى القرن الخامس عام ٤٣٨ ، وافتتح عام ٤٤٧ ق . م . ، ومن هذا يتضح أنه تم فى عشر سنوات بعد مجهود جبار استغرق كل أيام السنين العشر . وإذا علمنا أن هذه الأعجوبة البنائية الرائعة شملت ٦٢ عموداً كبيرا و ٣٦ عمودا صغيرا وحوالى الخمسين تمثالا بحجم الانسان الطبيعى لتحلية الموضعين المثلثى الشكل من الناحية الأمامية والخلفية المحمولة على الأعمدة لتكوين واجهتى السقف الجمالونى وبأفريزه البالغ طوله ١٦٠ مترا حول البناء من نواحيه الأربع ، واثنين وتسعين مستطيلا صغيرا انحصرت بين رؤوس الأعمدة وقاعدة السقف فكونت الافريز ؛ وأخيراً تمثال اثينا الذى بلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً وصنع كله من العاج والذهب ؛ إذا تمثلنا كل هذا الانتاج الفنى الهائل فى بناء واحد تناسقت كل أجزائه وانسجمت كل مشتملاته ، وجدنا أنفسنا أمام عظمة قل أن يجود الزمان بمثلها مرة أخرى .



(شكل ١) منظر عام لمعبد بارتنون

أنظر إلى الأعمدة المتكررة دون املال ودون تشابه (ش ــ ١) ، وتصور إلى أى حد وصل فنانو الاغريق ، وإلى أى درجة بلغت القدرة فى الانتاج الفنى الذى يعد بحق آية من آيات القدرة الانسانية فى أبهى ماوصل إليه تفكيرها وشعورها بالوجدان والجمال .

والاعمدة كما ترى عملت مسلوبة من أعلاها ، كما أنها لم تكن مستديرة صماء حفرت على طولها قنوات متوازية سارت على ارتفاع العمود فزادته حسناً وأكسبته حياة . حملت الاعمدة السقف الجمالونى الذى لم يبن فوقها مباشرة ، بل ارتفع قليلا ليترك مكاناً إلى المستطيلات الصغيرة الملتفة حول محيطه الخارجى البالغ طوله ١٦٠ متراً كما سبق القول . وترى على هذا المحيط الافريز الشامل لتلك المستطيلات المملوءة بالمناظر البارزة الأخاذة لبصر المشاهد المدقق . اشتملت كلها ما يمثل كثيراً من حياة الاغريق العامة والخاصة . والمجال هنا لا يسمح بالتوسع فى التكلم عنها أو الاتيان بمعظم صورها . ولما كانت دراستنا فى هذا المقال اجمالية ، فاننا نأتى ببعض هذه القطع .



(شكل ٢) المتسابقون ، جزء من الافريز الشمالى لمعبد بارتنون

فاذا تأملت المتسابقين بخيولهم (ش ٢) أخذتك روعة غريبة تملك عليك مشاعرك عند ما تعلم أن هذا ما استطاع الفن الاغريقى إبداعه قبل المسيح بخمسة قرون .

انظر إلى الانشاء الكلى للقطعة وتصور أن هذا منحوت على الرخام ومع ذلك ظهر بهذه القوة التى مثلت صورة تنبض بالحياة . انظر إلى الخيل وهى جامحة وإلى تفاصيل أجسامها وهى فى غاية من الدقة ، وإلى بروز عضلاتها التى لا تخالف أصول التشريح ؛ ثم تأمل الفرسان واذكر قدرة فيدياس فى عظمة إخراجه لهم دون تناظر ودون تماثل ، لاشك ترى أن هذا دليل الغنى الفنى إلى أبعد حدوده . تأمل عيون الفرسان وعيون الخيل تر اليقظة الكاملة فى الاولى ، والوثوب التام فى الثانية .



(شكل ٣) جزء من افريز معبد بارتنون

والصورة ٣ أوضحت لنا أربع نساء تحمل كل منهن آنية ، ظهرت أجسامهن كاملة مغطاة إلى أعناقهن بملابس امتلأت بالحياة ، فالتعاريج والتفاصيل التى شملتها هذه الملابس لا ترى لها نظيراً فى قوة الاخراج ولم يترك الفنان رؤوسهن متشابهة ، بل جعلها تختلف الواحدة عن الأخرى مسجلا بذلك الحالة كما كانت ، فضلا عما ينجم عن ذلك من تقوية درجة الاستمتاع النظرى ، فجعل البينى تربط الشعر برباط

رفيع ، على حين جعل الثانية بذؤابة صغيرة ظهر بروزها من خلف رباط الرأس ، وتركت الثالثة شعرها مسترسلا على ظهرها ، أما رابعتهن فقد أخفت الشعر تحت غطاء هرمى الشكل .

أما تفاصيل الوجوه فهى مع كونها تعبر عن جمال المرأة الاغريقية فانها تمثل الخشوع إلى حد بعيد ؛ إنهن يحملن ما بأيديهن بقصد التوجه إلى المعبد . أما نبل الاخراج فهو ظاهر من طريقته فى تكوينهن الواحدة وراء الأخرى فى انسجام .



(شكل ٤) حاملو الاوانى

وصورة حاملى الأوانى (ش ٤) تريك ، فوق قوتها الفنية البعيدة إلى أى حد استطاع المثال أن يجعل من حركة سير الثلاثة رجال صورة رائعة لقدرته على الإخراج — تأمل صدر الرجل الأوسط تر الفنان لم يتركه دون حياة ، فوضوح خطوط العضلات وبروزها مع ما تراه شاملا للقطعة من حسن التصوير ودقة الثنايا ، كل هذا جدير بالاعجاب . إن غنى مادة فيدياس ظاهر واضح عند ما تتحقق من الكيفية التى سار عليها المثال فى تكوين ذراعى كل رجل وكيفية حمله الآنية فوق رأسه وسندها بيمينه .



(شكل ٥) مجموعة آلهة العدالة من الافريز الشرقى لمعبد بارتنون

ومن قطع بارتنون الرائعة أيضا اللوحة (ش ٥) حيث ترى إلى أقصى اليسار رجلا جالسا يتحدث إلى شاب بجواره . مشيراً له بيسراه إشارة المستمر فى الحديث ، وهو ينصت اليه ، وإلى اليمين ترى ولداً عارياً يستند إلى ركبة أمه وهى تشير إليه لافتة نظره إلى شىء معين ، وكأن بجاورتها تشترك معهما فى النظر ، وهى فى مجموعها أوضحت ما أراده الفنان من تمثيلها آلهة العدالة .

أما صورة تيسويس Theseus (ديونيزوس) الجالس عارياً فهى وحدها درس كامل لجمال الانشاء وصدق التعبير وقوة الاخراج ، فكل ما برز فيها من تفاصيل تشريحية مملوءة بالحياة وان المتحف



(شكل ٦) ثيسويس (ديونيزوس ؟)

البريطانى ليفخر بوجود هذه القطعة وغيرها من تماثيل بارتنون التى لا تزال إلى الآن النماذج الفذة لفن النحت .

ومهما يكن من شىء فان بارتنون أعظم بكثير من أن يسجل بين سطور لا يتجاوز ما جاء فيها قطرة فى محيط فنه وجماله .

(لها بقية) أحمد موسى

من هنا ومن هناك

الأنثولوجيا الجديدة وهر هتلر

الأنثولوجيا (New Ethnology) أو علم الأجناس البشرية هو علم حديث لا يزيد عمره على الخمسين أو الستين سنة ، وأشهر العلماء الذين ساهموا في مباحثه هم هكسلي وولفرد بلنت وجريفث تايلر وسير . ف . بتري والأستاذ ج . ف هورابين الذي وضح بالرسوم خلاصة التاريخ لولز ثم الأستاذ العلامة إليوت سميث الذي يتعصب لمصر القديمة ويعترف أنها صاحبة الفضل في تثقيف العالم . ولقد كانت الأنثولوجيا القديمة تحصر الأجناس البشرية في السلالات الثلاث التي تنتسب إلى أبناء نوح وهم حام وسام ويافث ، وقد نسخت الأنثولوجيا الحديثة تلك النظرية البالية وأصبحنا نرد الشعوب في أقاصي الأرض إلى أصول أقرب إلى الحقيقة وإن يكن الجدل لم ينته بعد حول هذه الأصول

وقد أثار العداء الناشب بين هر هتلر وبين اليهود الجدل من جديد حول الأصول الأنثولوجية وكانت النتيجة الهائلة أن طرد اليهود من ألمانيا وأن حرمت ألمانيا التزاوج على أبنائها من غير الآريين، وهي تخص بهذا التحريم الشعوب السامية وإن تكن تقصد - كما صرح ساستها - أنها تعني اليهود من بين الشعوب السامية قاطبة ! !

وبعد أن نهضت اليابان نهضتها الحاضرة أصبح علماء الأنثولوجيا في شك مريب من القيم الذهنية التي كانوا يخصون بها بعض الشعوب. ونحن لا تعنينا هذه القيم الآن وإنما أردنا أن نقدم للقارىء خلاصة مفيدة عن الأجناس التي تعترف بها الأنثولوجيا الحديثة

١ — فهم يرجعون الأصول الإنسانية إلى العصر الباليوليتي الأقدم وأشهر أناسيه هم : إنسان هيد لبرج والإنسان النيندرتالي وإنسان بلتدن ثم الانسان الراقي الذي هو الجد الأول للشعوب

٢ — ثم يأتي العصر الباليوليتي الحديث وتنقسم أناسيه إلى مجموعتين كبيرتين : المجموعة الكروماجنارديه Cromagnard Types والمجموعة الجريمالديه Grimaldi Types . وهذه المجموعة هي مجموعة الزنوج وقبائل البوشمان والاستراليين والطسمانيين والأندمانيين

٣ — أما المجموعة الجريمالديه فهي مجموعة الأجناس الراقية وتتفرع إلى ثلاث شعب: الأجناس النورديه والأجناس السامية ، الأجناس المغولية

٤ — على أن بعض العلماء يطلق اسم (الجنس القوقازي) على سكان أوروبا وغرب آسيا، ويقسم القوقازيين إلى (نورديين) وهم أهالي شمال غرب أوروبا ثم (أيبريين) وهم أهالي البحر الأبيض و (ألبيين) وهم سكان الألب والجبال الممتدة منها

٥ — وهناك أجناس مولدة (خلاسية) من النورديين والأيبريين أهمها الأيرلنديون والقلتيون والغاليون

٦ — وإذا ذكر الآريون فإنما يجيء ذكرهم عند الكلام عن الفيلولوجيا (التي تعني علم فقه اللغات) ويشملون الأنجليز والفرنسيين والألمان والاسبان والأيطاليين والأغريق والروس وأهل أرمينيا . والفرس وشمال ووسط الهند ويسمون Indo-European أو Aryan Family

٧ — وتشمل شعبة الساميين المصريين والعرب والشآميين والفرس والسامريين والدرافيد (الهند) والسياميين وأهل ملايو

٨ — أما شعبة المغول فتشمل الهون والترك والمنغوليين والاسكيمو والأمرنديين واليابانيين والصينيين والتتار

٩ — ويتكون من أجناس المجموعة الراقية الكروماجنارديه مزيج وسط يطلقون عليه (البرونيتيين) وهم شعوب الثقافة الهليولتية

ولا يحسبن القارىء أن هذه الأجناس صافية مستقلة بأصولها محتفظة ببذرتها فقد تزاوجت كثيراً وتداخل بعضها في البعض الآخر . ومن أنفع الكتب التي تفيد المستزيد في هذا الباب كتاب الأستاذ إليوت سميث (هجرة الثقافة في العصور القديمة) (Migrations of Early Culrure)

د . خ

لويجي بيراندللو :

مات الأديب الايطالي العظيم لويجي بيراندللو منذ شهرين فخسرت فيه إيطاليا ملكاً أكبر من الحبشة أو أمبراطورية أوسع من امبراطورية سبط يهوذا . وشتان بين فتح مغتصب ، رأدب خالد مكتسب !

لقد استطاعت إيطاليا أن تساهم فى الثقافة العالمية منذ القدم إلى اليوم بطائفة من الأدباء الأفذاذ الملهمين، لولاهم لتأخر موكب الانسانية، ولتباطأت النهضة (الرنيسانس) عن تاريخها منذ خمسة قرون، ولاستطالت العصور الوسطى، ولتبدل مجرى التاريخ. وهذه الأسماء البارزة فى تاريخ الفكر الانسانى: فرجيل، هوريس، شيشرون، سنكا، دانتى، بوكاشيو، جاليليو، كوپرنيكوس رفائيل، سانازارو، كارو، كاسا، كاستليونى، ليوپاردى، بترارك الخ. هى أسماء عظيمة لا شك، وقد ضم إليها ورقد إلى جانب أصحابها لويجى بيراندللو فزاد التراث وعظمت إيطاليا

ولد براندللو فى جيرجنتى إحدى مدائن صقلية وشب فى أسرة كثيرة المتاعب والخصومات، وقد ماتت أمه فتزوج أبوه وكان أبا شهوانياً مولعاً ببنات الهوى، وقد ظل متصلا بابنة عمته الأرمل برغم زواجه، وقد حملت منه سفاحاً فأرضاها بهبة مالية على أن تهاجر إلى بلد آخر

ويظهر أثر هذه الحياة العائلية المضطربة فى بيراندللو، وقد سجل فضيحة أبيه فى درامته (إكساء العراة) حيث يصور العلاقة الأثيمة بين الفتاة أرزيليا ومخدومها الذى شغف بها حباً واتصل بها ثم أولدها. فلما حاولت الانتحار ولم تستطعه أخف عليها مخبرو الجرائد ليتعرفوا سبب محاولتها الانتحار حتى اضطرت أن تعترف لهم بكل شىء ثم أفلحت آخر الأمر فى أن تنتحر.

وفى درامته (إيف ـ و ـ لين) يصور لنا شاباً مالياً يتزوج من الفتاة الجميلة (إيفلين) ثم يقع فى عسر مالى فيهرب ويتركها وقد ولدت منه طفلا جميلا ـ وتتصل إيفلين بمحامى زوجها فتتزوج منه وتلد له طفلة بارعة الجمال . . . وتمضى الأيام . . . ويعود الزوج الأول وقد هاجه الشوق إلى زوجته ولكنه يجدها متزوجة محاميه وقد ولدت له هذه الطفلة ـ وكان كل منهما يدللانها فيدعوها الاول (إيف) ويدعوها الثانى (لين) ـ وهنا تظهر براعة بيراندللو فى تصوير العواطف المتباينة فى قلب هذه المرأة وحيرتها بين حبها القديم وواجباتها الزوجية الحاضرة، وبين حبها لطفلها الاول الذى أصبح اليوم شاباً وطفلتها الاخرى من زوجها الآخر . . . ثم لا يسعها إلا الرضى بما قسم لها . . .

ولم ينبه ذكر بيراندللو إلا بعد إصداره درامته الخالدة (ماتياس باسكال) والتى يصور فيها حياة رجل ضج بالحياة وتبرم بزوجه وحماته فهرب منهما واعتزم الرحيل إلى الدنيا الجديدة. ولكنه مر فى طريقه على مونت كارلو بلد الميسر والمقامرة فرأى أن يجرب حظه على الروليت فربح أرباحاً طائلة ـ ولكنه قرأ فى الجرائد أن جثة غريق ظهرت فى النهر وأنها لرجل يدعى (ماتياس باسكال) فضحك ماتياس. وهنا خطر له أن يستغل الحادث وأن يعيش عيشة رجل مجهول طليق من الأوضاع الاجتماعية ولكنه سرعان ما يفقد شخصيته ويحس كأنه ميت حى!

وبعد صيت بيراندللو فعين أستاذا للآداب فى جامعة رومه، ولكن مهنته الجديدة زادت فى متاعبه، فقد كان يعلم التلميذات فى الجامعة، وكن ظباء كلهن، واضطرمت الغيرة فى قلب زوجته، وكثيراً ما اتهمته بميله إليهن وغرامه بهن؛ وغلا هو فى التبرؤ إليها ولكنها ازدادت حقداً عليه بزعم غلها يده فى نفقته الشخصية حتى لم تكن تسمح له إلا بدريهمات لا تغنى... ثم تضاعفت غيرتها وساورتها الشكوك فكرهت أبناءها وقلبت بيتها جحيما لا يطاق، فاضطر بيراندللو آخر الأمر أن يلجأ بها إلى مستشفى الأمراض العقلية

وقد أرسل بولديه إلى الميدان فى الحرب الكبرى فأسر الأكبر وجرح الأصغر، ثم وصل إليه أبوه المفلس الأعمى من صقلية، فزادت أشجانه وتضاعفت متاعبه، ولا سيما بعد أن لفظت الألسن وولغت فى عرض ابنته التى اضطرت أن تقضى بقية حياتها فى دير بعيد منفرد بعد أن فشلت فى الانتحار غير مرة ... ... فمن هذه الفذلكة السريعة يدرك القارىء كيف أثرت تلك الحياة المشجونة القلقة التاعسة فى كاتب إيطاليا العظيم، حين أصدر درامته الخالدة العبقرية (ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف) والتى ملأها بكل مخاوفه وأحزانه

وقد تأثر بيراندللو بالكاتب الروسى دستوئفسكى، وبين دراماته وقصص دستوئفسكى صلات وثيقة، ولا نكاد نقرأ قصة أو درامة لبيراندللو إلا ونلمح أثر البطل راسكولنيكوف ومناظر (بيت الموتى) ماثلة فيها ـ وقد تأثر كذلك بالسيكولوجى النمسوى فرويد

وقد غادر منصبه فى الجامعة سنة ١٩٢٢ ليتفرغ للمسرح، وقد كان يصحب فرقته التمثيلية إلى مختلف العواصم الاوربية والامريكية ليباشر إخراج دراماته بنفسه

ومن أخلد دراماته وقصصه: هنرى الرابع ـ و ـ أنت تضحك ـ وزوجها ـ كوميديا الموت ـ وحصان فى القمر ـ والفخ ـ وشهوة الشرف . . . الخ.

ومما يؤخذ على بيراندللو إغراقه فى الخيال وتجزىء الشخصيات والغموض الشديد فى بعض مواقف دراماته المملوءة بالمنازعات وقد نتناول بعض دراماته بالبحث والتحليل فى أعداد تالية

د . ح

البريد الأدبي

المصطلحات العسكرية في مجمع اللغة العربية :

تألفت في المجمع اللغوي الملكي لجنة لوضع كلمات عربية للمصطلحات العسكرية المستعملة في الجيش من حضرات الأساتذة الأب انستاس الكرملي وحسن حسني عبد الوهاب باشا والشيخ أحمد السكندري وسيادة حايم ناحوم أفندي ومنصور فهمي بك، وقد روعي في تشكيلها أن تضم بعض ممثلي الأقطار العربية الأخرى للاستئناس بما اتبع في البلاد الأخرى ورغبة في توحيد المصطلحات في جميع الأقطار العربية.

ومما يذكر أن بعض هذه الأقطار مثل العراق عرب تلك المصطلحات منذ مدة وقد حصلت اللجنة على بيان بالمصطلحات العربية في تلك البلاد. وكان المجمع قد كتب إلى وزارة الحربية لموافاته بالمصطلحات العسكرية المستعملة في الجيش الآن والتي ينظر أن تستعمل فيه بعد زيادته وإعادة تنظيمه، وقد ألفت وزارة الحربية لجنة لموافاة المجتمع بما يطلبه. وقد أرسل المجمع إلى وزارة الحربية خطاباً طلب فيه انتداب ضابط ملم باللغة العربية ليحضر الجلسات التي يعقدها المجمع للنظر في وضع عبارات عربية لعبارات التعاليم العسكرية

الاجتهاد في الأصول

قرأت ما كتبه الأستاذ على الطنطاوي في الرد على ماذهبت إليه من تجويز الاجتهاد في الأصول كالفروع، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً واحداً إذا أخطأ، ولم يفرق بين أصول وفروع، بل أطلق الأمر إطلاقاً، وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً

وقد أنكر الأستاذ هذا أشد الإنكار لأنه يخالف ما استقر عليه الرأي بين المتأخرين من علمائنا في الاجتهاد، ويخالف تعريفهم له بأنه استنباط الفروع من الأصول، فيخرج من هذا المسائل الكلامية لأنها ليست من الفروع. ولأن الحق فيها واحد فمن أخطأه فهو آثم، فان كان الخطأ فيما يرجع إلى الايمان بالله ورسوله فالمخطئ كافر

وما كنت أظن أن الاستاذ يؤاخذني بهذا بعد أن قرأ ما كتبته في موضوع الاجتهاد، وهو موضوع سأعود إليه بعد في مجلة الرسالة الغراء، فإني فيما كتبت في هذا الموضوع خارج على أولئك العلماء من المتأخرين، فلا يصح أن يحتج على برأيهم في الاجتهاد، وتقييدهم له بالفروع دون الأصول

فالاجتهاد عندي بذل الجهد في استنباط الأحكام من النصوص الشرعية، اعتقادية كانت تلك الأحكام أو عملية

وليس بصحيح ما ذهب إليه الاستاذ من أن المخطئ في المسائل الكلامية آثم، لأن الخلاف بين أهل الكلام ليس مقصوراً على الخلاف بين جماعة أهل السنة وغيرهم من الفرق التي يقال إنها آثمة. فهناك خلاف أيضاً في علم الكلام بين أهل السلف والخلف من جماعة أهل السنة، وهناك خلاف أيضاً بين الخلف من الاشعرية والماتريدية، وهو خلاف لا إثم فيه لقيامه على الاجتهاد. وأنا لا أزيد على هذا إلا أني لا أفرق فيه بين أهل السنة وغيرهم

عبد المتعال الصعيدي

كتاب سياسي خطير

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب سياسي عنوانه «عند الصفر» Zero Hour ؛ بقلم رتشارد فرويند R. Freund ، وهو كاتب انكليزي من أصل نمسوي، عرف أخيراً بقوة كتاباته السياسية وحسن تقديره للحوادث والنتائج ؛ ويتناول المؤلف في كتابه مواطن الخطر في أوربا الحالية وفي أفق السياسة الدولية بصفة عامة ؛ ولا يعني الكاتب بالنظريات والمبادئ النظرية، ولكنه يعني بنوع خاص بالحقائق العملية وبالحوادث الواقعة ؛ وهو يعلق أملا ضئيلا على عصبة الأمم وعلى مستقبلها وما يمكن أن تؤديه في انقاذ العالم من اضطرابه الحالي. ويتحدث عن كل مسألة

وكل دولة فى أوروبا ، وعن الحوادث والقوى التى تضطرم بها افريقية والشرق الاقصى فى الوقت الحاضر ؛ وهو أكثر ميلا إلى التشاؤم ، ولا يرى فى النظم والمجتمعات الحالية سوى معترك من الأنانية القومية . ويخشى أن يسفر هذا الاضطراب عند أية لحظة عن الانفجار الذريع الذى يحمل العالم إلى مصير كله الويل والدمار

ويعنى المستر فرويند بمركز المانيا الهتلرية بنوع خاص . ويرى أنها تمثل الآن طوراً من أطوار الطموح والتوسع ، لابد له أن ينفجر آجلا أو عاجلا ؛ ومن حسن الحظ أن ميول هتلر الشخصية وبغضه المأثور لروسيا والبلاشفة يحول دفة المعترك اليوم إلى جهة الشرق وإلى الجنوب الشرقى ؛ ولكن إذا مات هتلر ، أو إذا استطاعت روسيا أن تسحق تحديه ، فقد تتجه ألمانيا إلى ناحية أخرى ، وقد تتجه إلى الأمبراطورية البريطانية . ويرى مستر فرويند أن ألمانيا الهتلرية قد بدأت بالفعل تتجه إلى مناوأة المصالح البريطانية فى كثير من المواطن ، وأن السياسة الانكليزية تسىء صنعاً إذا هي لم تعتبر بهذه الحقيقة وآمنت بوعود هتلر وتأكيداته ؛ وعلى أى حال فان المصاعب الداخلية التى تتخبط فيها ألمانيا الآن كفيلة بأن تشحذ سياسة العدوان الألمانية وتدفع ألمانيا فى طريق الحرب والاعتداء

أما عن إيطاليا فيرى مستر فرويند أنها تنمو وتتقدم باستمرار، وأنه لابد أن تأتى الساعة التى تضطر انكلترا فيها إما إلى الحرب وإما إلى التراجع ، لأنها لاتستطيع أن تنزل عن سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط دون المخاطرة بكل مركزها فى إفريقية والشرق الأدنى . كذلك يتوقع الكاتب أن تضطر انكلترا قريباً إلى الوقوف فى وجه اليابان بشىء من الحزم لأنها بدأت فعلا تهدد منطقة المصالح البريطانية . ويعرض مستر فرويند نظرياته بقوة وصفاء ويدعمها بكثير من الحقائق والحوادث الواقعة

رأى جديد فى أسباب الثورة الفرنسية

يرى البحث الحديث رأيا جديدا فى الثورة الفرنسية وفى أسبابها ، فبينما تجمع الروايات والبحوث القديمة كلها على أن الثورة ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية فقط ، إذا بالبحث الحديث يرى أنها ترجع أيضا إلى جهود الجمعيات السرية الخفية ولا سيما محافل البناء الحر ، الماسونية ، وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دورا عظيما لأضرام نارها

وقد ظهر أخيرا كتاب بالانكليزية عنوانه : «لويس السادس عشر ومارى انتوانيت قبل الثورة» Louis XVI and M. Antoinette before the Revotution بقلم السيدة نستا وبستر N. Webster وفيه تميل المؤلفة إلى الأخذ بهذا الرأى ، وتفصل العوامل والظروف الخفية التى كانت تحيط بهذين الملكين التعيسين قبل نشوب الثورة . وترى السيدة وبستر أن المساعى الخفية التى قامت بها الجمعيات السرية وراء الستار كانت كالأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عاملا خطيرا فى نشوب الثورة الفرنسية ؛ ومن رأيها أن قضية عقد الملكة الشهيرة التى ثارت حول اسم الملكة واتهم فيها الكردينال دى روهان والكونت كاجليوسترو ، إنما ترجع إلى تدبير هذه القوى الخفية . وإن كاجليوستر لم يكن سوى داعية خطر يحمل رسالة هذه القوى ، ويحيك شراكه من وراء الكردينال . ولقد كانت هذه القضية أو هذه الفضيحة من أعظم أسباب الثورة ، ومع أن السيدة وبستر تعدد عيوب مارى انتوانيت ووجوه ضعفها كامرأة وملكة ، فانها تدافع عنها فى موطن الشرف والكرامة ، وتقول إن الدعاية الواسعة التى أثيرت حول اسمها لتشويه سمعتها الشخصية لم تكن سوى مزيج من الأكاذيب والوشايات المدبرة وأن مارى انتوانيت . كانت امرأة وافرة الشرف والعفة ، وملكة وافرة الكرامة والعقل .

الكتب

رسالة المنبر الى الشرق العربى

للأستاذ فليكس فارس

يقول الله فى صفة بقية من القوم الصالحين من القسيسين والرهبان « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » وقد قرأت كثيراً من هذا الكتاب فتراءت لى هذه الآية ، وتراءى الأستاذ فليكس فارس بقية من هذه البقية الصالحة ، فهو طالب حق لا يغفل ، وساع إلى غاية لا يمل . والكتاب مجموعة من أدب الأستاذ تربط بينها هذه الرابطة : طلب الحقيقة مبرأة من العصبية لما يخالفها ، وسعى إلى غاية مبدأة فى الطلب ، يحتمل فى سبيلها إرهاق الفكرة للبلوغ ، وحرمان النفس للسمو ، والعدل بين المتخالفين لاقرار الحق وتثبيته والعلو به عن نوازع النفوس وشهواتها ، وهو فى ذلك فارس كاسمه متدفع متدفق ، مأمون العثرة ، حديد النظرة ، ثابت الجنان لا يرهب ولا يتخلف

وقد تعاطى - فى كتابه - القول فى كثير من الأدباء ، وتكلم فى أدبهم الكلام القسط ، وكشف ببيانه عن الحقيقة الأدبية التى انطوى عليها أدبهم ، وعن الحقيقة الفنية التى اشتملت عليها جوانحه ، وأفصح عن الحقيقة الشرقية التى تعمل فى حياة الشرق عمل الدؤوب والاستمرار لتجعل فى ضعفه قوة عضلة تستعصى على الأنياب الأجنبية التى تزعم أنها (تستعمر) أرضه وبلاده ونفوس أهله وبنيه . فجزى الله (فارس الحلبة) خير ما جوزى مجاهد عن أمته .

وقد سمى الأستاذ الفارس كتابه « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » وأصاب ، فهو فى جوهره يحمل الأصل المشرق الذى تكون منه الرسالة . ففيه الشمول والتعدد واختلاف الأغراض وما يتبع ذلك مما يمتاز به الكاتب من جودة الفكرة ، وجلاء العبارة ، وحسن القصد ، وبلاغ الغاية . فأنت من أول فصل مندفع إلى قراءة البقية لما تجد من الروعة واللذة والفائدة .

بدأ رسالته بقوله « نحن وأنتم » ، وهى أول رسالة إلى البلاد العربية مصر والشام والعراق وأرض الحجاز فهو فيها عربى قد غلبته عروبته على هواه وعلى عصبيته ، يدعو دعوة الحق لليقظة والاتحاد والتعاضد والتخلص من آصار العبودية القاتلة التى تتلجلج فى أوهامها تلجلج المحموم ، ثم يتدافع من ثم إلى رسالته فى الثقافة الشرقية والعربية ، فهو عربى مفكر يقظ مؤمل هاد إلى حقيقة الثقافة الشرقية العربية ، عامل على ربط الأول بالآخر من هذه الأمة ، داع إلى نبذ الأوهام المتمكنة من وباء الجهل القديم ، والسمو عن التورط فى التقليد الذى لا يرد بنا إلا موارد التلف . ثم يقف بك على باب من أدب (جبران) وهو كتاب وحده فيه من الفكر ما تختلف عليه العقول ، وحسب القارىء أن يقرأه فان فيه روح الكاتب متجلية كاشفة ناقدة بصيرة عليمة بفنها وإحساسها قادرة على الابانة عن خلجاتها خير الابانة . ثم الرسالة الخامسة وهى إصلاح الحياة البيتية ، وهو من أدق أبواب هذه الرسالة ، يبين عن الفكرة الاجتماعية المخلصة التى تدفع الأستاذ إلى البصر والتفكير والنقد والتمييز ، ولولا ما يحول بيننا وبين الافاضة لأثبتنا بعض هذا الباب وعقبنا ، فهو على جلالته فيه مواقع من القول لو عاد اليها الأستاذ بثاقب فكره ومسدد نظره لا نكشف له الحق الذى ينشده ويبغيه .

وأما الرسالة الأخيرة فهى « المهود فى الشرق والغرب » ، وهى التى كتبها بالفرنسية ونشرها ثم ترجمها إلى العربية ، فلا غرو أن كانت هذه الرسالة « هى رسالة الشرق والغرب » فانها بنيت على أصل ثابت من نظرة الشرق المتحفز بشرقيته فى الحياة الغربية التى انتقلت إلينا انتقال الوباء . وأهم ذلك مسألة النسل ، وقد كان الرافعى قد كتب « رؤيا فى السماء » ، فترجمها الأستاذ الفارس واستخرج منها الحكمة الاسلامية فى الزواج والنسل وما أعجزت به هذه الشريعة فكر الانسان فى إصابتها مكان الداء على اختلاف الزمان والمكان وانطوائها على الدواء الذى لايدع للعلة ما تتعلق فى الجسم الاجتماعى

فهذه هى رسالة المنبر إلى الشرق العربى ، وهى قبس من اشراق هذا الشرق المتلفع المتجافى ذى الأهوال والأسرار

ثمن الكتاب عشرة قروش ويطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة .

(ش)

نظرات تاريخية دستورية

للأستاذ حسن صادق

١٨٠ صفحة من القطع المتوسط

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

قلما يعالج الباحث القانونى فى مصر موضوع البحث الدستورى، وقلما يتناول الانظمة النيابية فى العالم بأى درس أو بحث. وإذا استثنينا بضع مذكرات موجزة يضعها أساتذة القانون لطلبتهم. فاننا نرى هذا الميدان خلوا من أقلام الباحثين.

وأخيرا يطالعنا الأستاذ حسن صادق بكتابه « نظرات تاريخية دستورية » ويشمل هذا الكتاب ثلاثة بحوث مستفيضة لثلاثة من دساتير العالم الهامة التى تكونت بعد الحرب العظمى وهى: الدستور الألمانى، والنمسوى، والتشيكوسلوفاكى.

مهد الأستاذ لكتابه بمقدمة قصيرة، أوضح فيها كيف جاهدت مصر فى سبيل دستورها على يد زعيميها، وبين فيها كيف كان لزاما على المصرى أن يعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات، وأشار فيها إلى أن الغرض من كتابه هو المساهمة فى تربية الشعب تربية دستورية صادقة.

ثم بدأ الكاتب بدراسة الدستور الألمانى دراسة دقيقة، فتكلم أولا عن الوجهة التاريخية فى ذلك الدستور منذ أن سنه بسمارك فى ابريل سنة ١٨٧١ فخلص ذلك الشعب الذى رسف فى قيود الرجعية زمنا طويلا، والذى آده الظلم وأضنته الآلام من نير الظلم ووطأة الاضطهاد، وعلمه كيف يحكم نفسه بنفسه، وكيف يصبح سيداً لا مسوداً، وكانت ألمانيا إلى قبل الحرب مكونة من دويلات صغيرة، وكانت السيادة فى دولة الريخ ممثلة فى مجلسين: الأول وهو البندسرات ويتكون من مندوبى أمراء الدول. والثانى الريخستاج وينتخب من الشعب. ثم الامبراطور وهو الرئيس الأعلى للدولة.

واستمر الحكم على هذا النظام إلى أن شبت ثورة سنة ١٩١٨. وأخذ الشعب يعمل بجد وعزم حتى سن لنفسه دستوراً، يذهب فى الديموقراطية إلى أبعد حد. وأنشأ سلطاناً نيابياً يعبر عن سلطته حق التعبير، وجعل نفسه الحاكم العام فى كل خلاف يقع بين عناصر الدولة، وبذلك جعل الشعب الحكومة تستمد منه سلطانها وتدين له بمناصبها إن شاء أسقطها، وإذا شاء أبقاها، وفى ذلك اطمئنان الشعب.

ثم انتقل الكاتب إلى الكلام عن الدستور النمسوى فبين لنا كيف تخلص ذلك الشعب بعد جهاد طويل من أغلال الامبراطورية النمسوية التى قيدته زمناً طويلا. فما أشرق عام ١٩١٨ حتى هب الشعب يطالب بحقوقه. فسن لنفسه دستوراً ووضع السلطة كلها فى يد المجلس الوطنى، وهذا المجلس له حرية مطلقة فى تحديد انعقاده وتأجيله ولا يمكن لرئيس الدولة أو الوزارة التدخل فى ذلك. وفى أثناء الحل والعطلة تقوم مقامه لجنة تراقب أعمال الحكومة.. واذا خالف الرئيس أو الوزارة قواعد الدستور حوكموا أمام المحكمة الدستورية. والدستور النمسوى منظور فيه إلى الدستور الألمانى ومقتبس منه فى بعض أجزائه.

أما الشعب التشيكوسلوفاكى الذى نزلت به ضروب الظلم، وصنوف الارهاق أيام الامبراطورية النمسوية فانه انتهز فرصة انهزامها سنة ١٩١٨، فأعلن استقلاله، وسن لنفسه دستوراً مقتبسا من دساتير العالم الأخرى. ونص فيه على وجوب دوام الحياة النيابية وذلك بتأليف لجنة من ٢٤ عضواً ستة عشر من الشيوخ وثمانية من النواب، تزاول عمل البرلمان فى عطلته وذلك لضمان وجود السلطة التشريعية حتى لا تستأثر السلطة التنفيذية بالأمر

ومما يلاحظ فى الكتاب أن الدساتير الثلاثة التى اختارها الاستاذ متشابهة إلى حد ما، ويشمل ذلك التشابه أيضاً نظام الحكم فى هذه الدول الثلاث (الحكم الجمهورى) فلو أن الكاتب الفاضل اختار لنا صوراً مختلفة من الدساتير العريقة الأخرى التى يمكن للشعب أن يفيد من تجاربها الدستورية لجاء الكتاب جامعاً شاملا.

والكتاب - فى دقة آرائه وبحوثه - مجهود موفق نشكره للاستاذ، وقدوة طيبة نرجو أن نجد فى مصر من يقتدى بها، وثمرة تبشر باهتمام الكتاب بالناحية الدستورية، ومساهمتهم فى تربية هذا الشعب تربية دستورية صادقة.

احمد ف. م

التلميـــذ

لبول بورجيه

ترجمة الأستاذ عبد المجيد نافع

لعل من فضول القول أن يتحدث متحدث عن الفراغ الذى ملأته ترجمة هذه القصة إلى العربية، فما أشد ما كانت تمتلىء قلوبنا أسفاً وحسرة حينما نرى الدنيا تتحدث عن بول بورجيه، ونسمع بأدبه وترى فى قصته الخالدة Le Discible مثلا من أروع المثل للقصص المفتن الدقيق، والأدب العالى الجيل؛ ثم نتلفت حولنا، فترى مكانه فى العربية خالياً إلا من كلمات عنه طائرة هنا وهناك، لا تمثل فى ذهن القارىء العربى أدبه، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يجد فيها ذلك المتاع الفنى المهذب، أو يستشعر لقاءها تلك اللغة العقلية السامية التى يبتعثها فى النفس أدب ذلك الأديب.

وقصة التلميذ التى بين يدينا هى، فيما يقول بعض نقاد الأدب الفرنسى، أروع ما كتب بول بورجيه وما نحسبهم أطلقوا هذا اطلاقا إلا أنها خير ما يمثل مذهبه فى كتابة القصة. فقد أبدع فيها أيما إبداع فى عرض الدقائق النفسية عرضا فنياً خلابا، وتحليل الامزجة العقلية المعقدة تحليلا عبقريا رائعا. حتى لا يكاد يفلت منه عنصر

من العناصر التى تكون الشخصية ، على ما فيها من غموض وإبهام وتصوير ذلك فى صورة فنية منسقة مضطردة ، لايحس القارىء فيها بنبوة ، ولا يلمح بها شيئا من الصنعة المتكلفة ، أو التلفيق البغيض .

وهو فى هذه القصة يعرض شخصية شاب من شبان القرن التاسع عشر ، وهو من أعقد العصور فيما أحسب إذا اعتبرنا التأثيرات المختلفة ، والنزعات المتباينة ، والاتجاهات الغريبة التى تعرض لها الفكر الأوربى فى تلك الفترة من الزمن ، وامتحن بها محنة ظهر أثرها فى جميع مجالات الحياة ، فلا يدع شيئاً مما يكون الشخصية حتى يسوقه فى سياقة الغنى الرائع ، فاذا أتم عرض شخصيته فى صورة فيلسوف من فلاسفة ذلك القرن . قد فنى فى الفلسفة حتى صار صورة حية منها كر عليه كرة أخرى . فاذا بذلك كله آثار سطحية ، وإذا بتلك الصبغة الفلسفية وهذه الصوفية العلمية لم تستطع أن تغير من كيانه الداخلى أو تنسخ ذلك الميراث الذى ورثته الانسانية الحاضرة عن أناسيها الأولى . فما تزال له من تحت هذا الظاهر الوقور المتزن غرائزه الطبيعية الكامنة التى كان يبدو بادىء الرأى أنها ضعفت وتلاشت بتأثير تلك الحياة الفلسفية الخلابة ، ولكنها لم تلبث أن وجدت فى البيئة التى تلائمها : ورأت من حولها موضوعا لبروزها ونشاطها حتى ثارت ثورتها ، وخرجت من مكمنها ، ملونة ألواناً . . بتأثير المؤثرات المختلفة التى كونت صاحبها ، ولا تزال تعمل فيه وتوجهه فى طريقها وفى هذه الألوان الغريبة التى عملت فى تكييفها شتى العوامل ، وفى اظهارها مفتنة متموجة ، تتجلى عبقرية بورجيه وقدرته الفائقة على تحليل الحالات النفسية المعقدة إلى دقائقها ، وتصويره لها فى أروع صورها وأدقها ، فى أسلوب بيانى خلاب .

فما من شك فى أن هذه القصة من أعجب المثل الأدبية الخليقة بالخلود ، الحقيقة بأن تمثل فى كل لغة تقيم للأدب العالى وزناً ، فللأستاذ المترجم أخلص التهنئة على هذا التوفيق الذى صادفه فى ترجمتها ، وأجزل الشكر على الجهد البليغ الذى بذله فيها ، حتى جلاها فى أسلوب عربى رائق ، ومظهر من النشر أنيق .

* * *

وبعد فقد كنا نود ، مع هذا الصنيع المبارك المشكور ، لو أن الأستاذ المترجم عنى بأن يبرز إلى اللغة العربية صورة من هذا الأثر الفنى الخالد دقيقة كاملة بتفصيلاتها . كما أبرزها جيلة وافية فى جملتها . ولكنه اتخذ لنفسه مذهبا فى الترجمة وضع فيه الأدب ودقة النقل فى المكان الثانى . ووضع فيه جمهور القراء فى المكان الأول : فهذه صورة لاتتفق مع تقاليد جمهورنا . إذن يجب أن تبعد ! وهذه مسالة فلسفية أطنب المؤلف فى عرضها حتى لا تلائم عقلية جمهورنا ، إذن يجب أن تبتر ! وهـذا إسهاب فى التحليل والتصوير يبعث السأم إلى نفوس جهورنا ، إذن يجب أن ينفى ! ولا بأس بشىء من ذلك مادام سياق الرواية مضطردا ، ووقائعها متسقة ، وفكرتها محققة . هذا هو مذهب الأستاذ المترجم عرضه فى مقدمة ترجمته . وعندنا أن هذا المذهب إن جاز أن يتخذ فى نقل بعض الآثار الأدبية الأخرى فلا يجوز أن يتخذ فى هذا الذى سماه الأستاذ المترجم نفسه خالدا ، والذى صدر عن نابغة كتاب فرنسا حقا ، فهو أثر عالمى لاينبغى أن يخضع لسيطرة بعض هذه الاعتبارات البسيطة . على أنا لانمنع مع هذا أن المسألة دقيقة كل الدقة ، وأن الفصل بين المذهبين ليس من الأمور الهينة التى يتقبلها الضمير دون معاناة .

أما أسلوب المترجم فهو على ما نعرف منه : عربى جميل ناصع ، لاابتذال فيه ولا إبهام . وقد وفق ـ على حد قوله ـ إلى إحلال المعانى الغربية فى معان عربية . على أنا كنا نود أيضا أن لو برىء من مثل هذه العبارة : « عالما لايشق له غبار ، ولايصطلى له بنار » فليس هذا فيما نحسب معنى عربيا ، بل هو دمنة بدوية .

وهناك هنوات لغوية لا نرى بأسا فى أن نشير إلى شىء منها مثل قطع همزة الابن فى صفحة ٤١ ، ومثل قوله (ص ٥٥) أصبحت وأمى وحيدين ، والصحيح الفصل فى مثل هذا بالضمير المنفصل فيقال : « أصبحت أنا وأمى وحيدين » ، ومثل قوله (ص ١٩) « قد تلق خمسة أو ستة خطابات » وليس هذا فيما أحسب بناء عربياً ، وإن كان من الممكن أن يخرج له وجه نحوى ، والعربية المستقيمة تقول : خمسة خطابات أو ستة وهذا على كل حال أمر هين يسير ، لا يغض من القيمة الأدبية لذلك الصنيع العظيم .

« الحاجرى »

5 me Année, No. 189

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 15 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٥

العـــدد ١٨٩ «القاهرة فى يوم الاثنين ٤ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧» السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الحيـــاة والقيود

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قلت لصديق ونحن خارجون من السينما — أو لعلنا كنا داخلين فما أذكر الآن : —

« يا أخى أحسب أن من الخسارة علينا أننا خلقنا فى هذا الزمان ، ولو تأخر بنا الحظ جيلا آخر لكان عيشنا خليقاً أن يكون أطيب وأرغد ، فان هذا عصر انتقال لم تستقر فيه الأمور على حد مريح »

فوافق واستطردنا إلى حديث آخر . ولكنى ظللت أفكر فيما قلت فبدا لى أنى أخطات . ولا نكران إن زمننا هذا زمن انتقال ، ولكن هذا حال كل زمان ، فما تلزم أمور الحياة حداً تنتهى إليه ولا تكون قط على حال لا يتغير أو يتبدل . وكل عصر عصر انتقال . والتحول هو قانون الحياة فلا وقوف ولا رجوع ، لأن هذا وذاك مستحيلان فى الحياة . ولو كنا خلقنا فى زمن غير هذا — قبله — لكنا أحسسنا ما نحسه الآن من أننا فى عصر انتقال وأننا نعانى من جراء ذلك اضطراباً وقلقاً وقيوداً كثيرة تثقل علينا ونعتقد أن الأيام ستصدعها عن الناس وتعفيهم

منها . ولتوهمنا أن الناس حينئذ سيكونون أسعد وأرغد عيشاً وأكثر حرية وأقل شعوراً بالتقلقل والاضطراب والحيرة بين القديم المشنوء الذى يتزلزل والجديد المأمول الذى بدت بشائره. وحضرنى وأنا أفكر فى هذا مثال قريب ، فقد كنا فى الجيل الذى مضى نسخط على الحجاب وما يقتضيه من التفريق بين الرجال والنساء ، وكانت بشائر السفور قد بدت ، ولكن أملنا يومئذ فى إدراك عهده والانتفاع به قبل أن تعلو بنا السن وتفتر الحيوية ويفسد علينا الأمر كله — كان يبدو لنا بعيداً . وقد أدركنا زمن السفور بأسرع مما كنا نتصور ووثبنا إليه فى أوجز مما كنا نقدر ، وقبل أن ترتفع أسناننا وينضب معين الحيوية فينا ، غير أنا بعد أن صرنا إلى هذا الحال الجديد الذى كنا نحلم به ونتطلع إليه ونتخيل أن الحياة ستكون به أهنأ وأطيب — لم نرض ولم نقنع. ولسنا الآن فى حاضرنا ننظر إلى ما كان بل نحن ننظر إلى تيار الزمن واتجاهه ، ونقول إنه يتحدر إلى ساحة من الحرية أوسع وأرحب . ولاسيما بعد أن عرف الانسان ضبط النسل . والشجرة - كما لا أحتاج أن أقول - تعرف بثمرها ، فحيث لا توجد ثمرة لا يخطر للمرء أن هناك شجرة فهى غير موجودة فيما يعلم وإن كانت فى الواقع هناك

لا . . لم نخسر بأن خلقنا فى هذا الزمان . وليست العلة أننا موجودون فى زمان دون آخر ، بل العلة أن العمر إلى انتهاء وأن الحياة إلى نفاد كائنا ما كان الزمن الذى نحن فيه . ولا خير فى تقطيع النفس حسرات على ما عسى أن يكون الغيب منطوياً عليه ، وأحجى بالانسان أن يقصر همه على حاضره فانه هو الحقيقة التى يضيع كل شىء اذا هو ضيعها . ومهما يبلغ من اتساع نطاق الحرية فى المستقبل فان حياة الجماعة لا تنتظم إلا بالقيود والحواجز والاسداد . وستظل هناك قيود من ضروب شتى

ومع ذلك ماذا ينقصنا من الحرية فى زماننا هذا . . ألسنا نصنع ما نحب كما نحب وحينما نحب . . ولا شك أن هناك قيوداً وأغلالا غير قليلة أو هينة ، ولكن هذه القيود هى التى تكسب الحياة الطعم وتفيدها المزية والفضيلة . ولست أحاول أن أعزى نفسى بهذا الكلام أو أغالطها به بل أنا أومن بأن الأمر كما أقول والحال على ما أصف

وتصور أن الماء المنحدر من الجبال أو غيرها لم تعترض طريقه الاسداد ولم يمنعه شىء أن يظل يتدفق وينتشر على وجه الأرض حتى يذهب أو ينتهى إلى البحر ، أكان من الممكن فى ظنك أن تتكون بحيرة مثلا . . وقد لا تكون ثم حاجة إلى البحيرة وقد تحتاج الجماعة فى وقت ما إلى محوها من الوجود ، ولكن هذا لا يؤثر فى القضية ولا ينفى أن البحيرة انما تتكون بفضل الاسداد التى يلقاها الماء وهو يجرى

والطيارة التى تحلق فى الجو وتنقلنا إلى حيث نحب وتقصر المسافات وتطوى الأبعاد والتى نعدها من آيات هذا العصر ، كيف كان يمكن أن نفعل ذلك لولا مقاومة الهواء لدفع المحرك ؟ . بل كيف كان يتسنى أن تتحرك لولا هذه المقاومة . ولست أعرف شيئاً فى هذه المسائل العلمانية فإنى من أجهل خلقه سبحانه وتعالى وتنزه عن العبث ، ولكنى التفت إلى هذا الأمر يوماً وكنت فى طيارة وإنا فيها لمسرورون مغتبطون بهذا التحليق وإذا بها تسقط كالحجر مائة وخمسين قدماً كما قيل لى فيما بعد ، وكانت هنيهة قصيرة جدا ، ولكنها على قصرها الشديد كانت أقسى ما جربت فى حياتى ، فقد أحسست أن قلبى صار فى حلقى من فعل السقوط المفاجىء لا من الخوف فما اتسع الوقت لخوف أو رجاء . ثم عادت الطيارة فمضت بنا فى طريقها وكرت إلى مثل الارتفاع الأول فلم أفهم سبب هذه السقطة المزعجة ، فلما نزلنا كدت أنسى أن أسأل عن السر فيما حدث ، ولكنى تذكرت بعد أن مشيت خطوات فارتددت إلى الطيار فقلت له يا أخى قد سقطنا فى الهواء فما سبب ذلك ؟ قال هل أحسست شيئاً ؟ قلت كيف لا أحس وقد كادت أنفاسى تنقطع . ؟ قال لقد صادفنا فراغاً . . قلت كيف واستغربت فبين لى أن بعض طبقات الجو تخلو لأسباب شتى — نسيتها — من الهواء فتصبح فارغة ، فاذا دخلت الطيارة منطقة الفراغ لم تستطع أن تجتازها لأن الهواء هو الذى يعينها بمقاومته على الطيران ، ولهذا تسقط حتى تخرج من المنطقة الفارغة فيتيسر لها أن تمضى فى

طيرانها وذكر لى أن المنطقة التى صادفناها كانت من أكبر ما لقى من الفراغ مذ ركب طيارة

وقد علق بذهنى هذا ودار فى نفسى من يومئذ فأضفته إلى ما كنت أعرف من فضل المقاومة، بل ضرورتها فأنى عاجز عن تصور حياة لا يلقى فيها الحى مقاومة. وكيف تكون يا ترى هذه الحياة إذا أمكن أن توجد حياة على هذا النحو.. لا أدرى ولا أحسب أن أحداً يستطيع أن يزعم أن فى وسعه تخيلها.. ماذا يدفع فيها إلى العمل ويغرى بالسعى.. ويبعث على الطموح.. الذى هو الوسيلة إلى حفظ النوع فى الدنيا؟ كيف يكون حينئذ ولا مقاومة هناك ولا عائق ولا صعاب ولا عراقيل ولا حواجز من العرف أو القانون أو غير ذلك.. أتراه عبثاً ومسلاة.. وكيف تكون له لذة اللهو ومتعة العبث ومزية التسلى وهو لا يمكن أن يوجد أصلا.. أم ترى ينحط فينقلب مجرد رغبة عارضة واشتهاء زائل بزوال دواعيه الوقتية.. وكيف تنشأ الرغبة وماذا يشحذ الشهوة ولا شىء هناك من قبيل الموانع

ودع الحب وانظر فى غيره واسأل نفسك ماذا عساك أن تطلب حينئذ ولا عسر هناك ولا عناء ولا خوف من حرمان لأنه لا عقبة هناك ولا صعوبة ولا مقاومة من الأحوال أو الحظ أو الناس أو التنافس أو غير ذلك مما تكون به المقاومة..

ويطول بى الكلام إذا أنا أحببت أن أتقصى وجوه هذا الأمر: وما الداعى إلى الأطالة والمسألة واضحة. كلا لم أخسر بأن خلقت فى هذا الزمن. ولا خسر أحد شيئاً بأن خلق فى زمنه وإنما ينظر الانسان إلى ما هو مستطيع ويقيسه إلى ما يشتهى فيرى البون عظيما والبعد كبيرا والمسافة طويلة بين المطلوب والموجود، فيتوهم أن ذلك إنما كان هكذا لأن فى الزمن عيباً وفى أحواله فساداً، وأنه لو كان فى زمن آخر لكان حقيقاً أن يكون أمله أقرب منالا وسعيه أعظم توفيقاً. وهذا وهم كما قلت فأن رغائب الانسان فى أى زمن أكثر مما يبلغ وينال. والذى يسمح لرغبته بأن تطغى إلى هذا الحد حتى لتصور أمر الحياة على هذا النحو المقلوب تكون شهوته أقوى من إدراكه أو إرادته أو أعصابه إذا شئت

ولم ألق صديق لأبلغه أنى غيرت رأيى أو صححته، فهأنذا أقول له ذلك فى «الرسالة»

ابراهيم عبد القادر المازنى

صعاليك الصحافة...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

لما ظهر كتابى (وحى القلم) حملت منه إلى فضلاء كتابنا فى دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقرأوه ويكتبوا عنه. وأنا رجل ليس فىَّ أكثر ما فىَّ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقَع. فما أعلم فى طبيعتى موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة. ولست أهدى من كتبى إلا إحدى هديتين: فإما التحيةُ لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم؛ وإما إنذار حرب لغير هؤلاء

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجةٌ إلى من ينكرها ويردها، كحاجتها إلى من يقر بها ويقبلها؛ فهى باحدهما تثبت وجودها، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار. والشعور بالحق لا يخرس أبداً، فاذا كانت النفس قوية صريحة مرَّ من باطنها إلى ظاهرها فى الكلمة الخالصة، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما. وإذا كانت النفسُ ملتويةً اعترضته الأغراض والدخائل، فمرَّ من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر فى الكلمة المقلوبة، إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالحسد ونحوه، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعاً

٭٭٭

وكنت فى طوافى على دور الصحف والمجلات أحس فى كل منها سؤالا يسألنى به المكان: لماذا لم تجىء؟ فأنى فى ابتداء أمرى كنت نزعت إلى العمل فى الصحافة، وأنا يومئذ متعلم ريِّض ومتأدب ناشىء، ولكن أبى رحمه الله ردنى عن ذلك ووجَّهنى فى سبيلى هذه والحمد لله، فلو أنى نشأت صحافياً لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة فى الطبع...

وللصحافة العربية شأن عجيب، فهى كلما تمت نقصت، وكلما نقصت تمت، إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرأونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين. وهى بهذا كالطريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية. فتمامُها بمراعاة

قواعد النقص فى القارىء . . . وما بدٌ أن تتقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تتقيد بحقيقة نفسها . فهى معه كالزوجة التى لم تلد بعد، لها من رجلها من يأمرها ويجعلها فى حكمه وهواه . وليس لها من أبنائها من تأمرهم وتجعلهم فى طاعتها ورأيها وأدبها . ثم هى عمل الساعة واليوم فما أبعدها من حقيقة الأدب الصحيح إذ ينظر فيه إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان

ولا يقتل النبوغ شىء كالعمل فى هذه الصحافة بطريقتها ، فأن أساس النبوغ (مايجب كما يجب) ، ودأبه العمق والتغلغل فى أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثر الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق . أما هى فأساسها (مايمكن كما يمكن) ، ودأبها السرعة والتصفح والالمام وصناعة كصناعة العنوان لاغير

فليس يحسن بالأديب أن يعمل فى هذه الصحافة اليومية إلا إذا نضج وتم وأصبح كالدولة على « الخريطة » لا كالمدينة فى الدولة فى الخريطة ، فهو حينئذ لايسهل محوه ولا تبديله . . . ثم هو يمدها بالقوة ولا يستمد القوة منها ، ويكون تاجاً من تيجانها لا خرزة من خرزاتها ، ويقوم فيها كالمنارة العظيمة تلقى أشعتها من أعلى الجو إلى مدى بعيد من الآفاق . لا كمصباح من مصابيح الشارع

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره ، إذ كان الرجل السياسى هو صوت الحوادث سائلا ومجيباً ، ثم يليه الرجل شبه العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلى . . والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير أنه عندنا فى الصحافة وراء هؤلاء جميعاً

***

ولما فرغت من طوافى على دور الصحف جاءت هى تطوف بى فى نومى . فرأيتنى ذات ليلة أدخل إحداها لأهدى (وحي القلم) إلى الأديب المتخصص فيها للكتابة الأدبية ، ودلونى عليه فاذا رجل مربوع مشوّه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين ، تدوران فى محجريهما دورة وحشية كأنما أرعبته الحياة مذ كان جنيناً فى بطن أمه لأنه خلق للاحساس والوصف ، أو كأنما ركب فيه هذا النظر الساخر ليرى أكثر مما يرى غيره من أسرار السخرية فينبغ فى فنونها ، أو هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الالهية بأنه رجل قد أرسل لتدقيق النظر

وقال الذى عرّفنى به : حضرتهُ عمرو افندى الجاحظ . . . وهو أديب الجريدة

قلت : شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ؟

فضحك الجاحظ وقال : وأديب الجريدة ، أى شحاذ الجريدة ، يكتب لها كما يقرأ القارىء على ضريح ؛ بالرغيف والجبن والبيض والقرش . . .

قلت : إنا لله . فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من أعاجيب الدنيا ، وكيف خِبتَ فى الصحافة وكنت رأساً فى الكلام ؟

قال : نجحت أخلاقى فخابت آمالى ، ولو جاء الوضع بالعكس لكان الأمر بالعكس . والمصيبة فى هذه الصحف أن رجلا واحداً هو قانون كل رجل هنا

قلت : وذاك الرجل الواحد ما قانونه ؟

قال : له ثلاثة قوانين : الجهات العالية وما يستوحيه منها . والجهات النازلة وما يوحيه إليها ، وقانون الصلة بين الجهتين وهو . . .

قلت : وهو ماذا ؟

فحملق فىّ وقال : ما هذه البلادة ؟ وهو الذى « هو » . . . أما ترى الصحيفة ككل شىء يباع ؟ وأنت تخبرنى - ولك الدولة والصولة عند القراء - ألم تر بعينيك أنك لو جئت تدفع ثمانمائة قرش ، لكنت فى نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت تهدى ثمانمائة صفحة من البيان والأدب ؟

قلت : يا أبا عثمان . فماذا تكتب هنا ؟

قال : ان الكتابة فى هذه الصحافة صورة من الرؤية ، فماذا ترى أنت فى . . وفى . . وفى . ؟ لقد كنا نروى فى الحديث . « يكون قومٌ يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرضَ البقرةُ بلسانها» : فلعلّ من هذه الألسنة الطويلة لسان صاحب الجريدة . . .

قلت : ولكنك ياشيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة .

قال : القراء ما القراء . وما أدراك ما القراء . وهل أساس

أكثرهم إلا بلادة المدارس، وسخافة الحياة، وضعف الأخلاق، وكذب السياسة؟ إن الابداع كل الابداع فى أكثر ما تكتب هذه الصحف، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة... وما دام المبدأ هو الكذب فالمظهرْ هو الهزل. والناس فى حياة قد ماتت فيها المعانى الشديدة القوية السامية، فهم يريدون الصحافة الرخيصة، واللغة الرخيصة، والقراءة الرخيصة. وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعاليك الصحافة)

***

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير؛ فنهض اليه ثم رجع بعينين لا يقال فيهما جاحظتان بل خارجتان... وقال: أفٍّ، «وحَبِط ماصنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون». كلاَّ والذى حرَّم التزيُّدَ على العلماء، وقبَّح التكلف عند الحكماء، وبَهْرَجَ الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا الا من ضل سعيُه». (1)

قلت: ماذا دهاك يا أبا عثمان؟

قال: ويحها صحافة. قل فى عمك ما قال المثل: جَحَظَ اليه عمله. (2)

قلت: ولكن ما القصة؟

قال: ويحها صحافة. وقال الأحنف: «أربعٌ من كنَّ فيه كان كاملا، ومن تعلّق بخَصلة منهن كان من صالحى قومه: دين يرشده، أو عقل يسدّده، او حَسَبٌ يصونه، أو حياء يقناه». وقال: «المؤمن بين أربع: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يجاهده، وشيطان يفتنه. وأربع ليس أقل منهن: اليقين، والعدل، ودرهم حلال، وأخ فى الله». وقال الحسن بن على ... (3)

قلت: يا شيخنا دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحنف. فماذا دهاك عند رئيس التحرير؟

قال: لم أحسن المهاترة فى المقال الذى كتبته اليوم....

ويقول رئيس التحرير: إن نصف التمويه رذيلة؟ فأن نصفه الآخر يدل على أنه تمويه. ويقول: إن سمو الكتابة انحطاط فصيح، لأن القراء فى هذا العهد لا يخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء، بل من الروايات والمجلات الهزلية. وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع فى النفس قانون النفس، ويجعل معانيها مهيَّأة بالطبيعة للاستجابة لتلك المعانى الكبيرة فى الدين والفضيلة والجد والقوة؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات والمغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهى؟

ويقول رئيس التحرير: إن الكاتب الذى لا يسأل نفسه مايقال عنى فى التاريخ، هو كاتب الصحافة الحقيق، لأن القروش هى القروش والتاريخ هو التاريخ. ومطبعة الصحيفة الناجحة هى بنت خالة مطبعة البنك الأهلى. ولا يتحقق نَسَبٌ ما بينهما الا فى إخراج الورق الذى يُصْرَف كله ولا يرد منه شىء.

إنهم يريدون إظهار المخازى مكتوبة كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها؛ يزعمون أنها أخبار تروى وتقص للحكاية أو العبرة، والحقيقة أنها أخبارهم الى أعصاب القراء...

***

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير..

لما بقية (طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

(1) هذه الجملة من كلام الجاحظ

(2) يريدون أنه اذا نظر فى عمله رأى سوء ما صنع

(3) هذه طريقة الجاحظ يخلط الكلام دائما بالنقل

الى رجال التعليم

بقايا التركية

فى لغة مصر الرسمية

للأستاذ أبى خلدون ساطع بك الحصري
مدير دار الآثار العربية بالعراق

لقد لاحظ العلماء الذين توغلوا فى درس الحوادث الاجتماعية اللسانية ، أن الكلمات كثيراً ما تنتقل من لغتها الأصلية إلى اللغات الأخرى حسب العلائق التى تنشأ وتتوثق بين الأمم التى تتكلم بها ، وقد تندمج هذه الكلمات فى اللغة التى دخلت عليها ؛ فتنتظم فى سلك كلماتها الأصلية وتتكيف بمقتضيات قواعدها الخاصة ؛ وقد تولد نسلاً جديداً فى موطنها اللغوى الجديد ، يختلف عن النسل الذى كان قد تولد منها فى موطنها الأصلى اختلافاً كلياً

أما أنواع الكلمات التى تنتقل بهذه الصورة من لغة إلى لغة ، فتتبع - بطبيعة الحال - أنواع العلائق التى تحدث بين الأمم التى تتكلم بها : فالمعاملات التجارية تؤدى إلى انتقال الأسماء مع الأشياء والأمتعة ، والنفوذ العلمى يسبب انتقال المصطلحات العلمية مع الآراء والمعلومات . والسيطرة السياسية تؤدى إلى انتشار الكلمات والتعبيرات المستعملة فى الأنظمة الادارية والعسكرية . والكلمات والمصطلحات التى تدخل على اللغة بسبب هذه العلائق المتنوعة ، تبقى فيها عادة حتى بعد انقطاع تلك العلائق . . ولهذا السبب نجد العلماء الذين يستكشفون الحقائق فى مجاهيل التاريخ يستندون فى بعض الأحوال إلى « مقارنة الألسن » و « تتبع الكلمات » فى استدلالاتهم المتعلقة بالحوادث التاريخية والتطورات الاجتماعية .

* * *

لعل الآثار التى تركتها التركية فى مصر ، ولاسيما فى لغة الدواوين الرسمية ، من أبرز الأمثلة وأقربها إلى ما أسلفنا . إذ أننا إذا استعرضنا عناوين الوظائف الرسمية فى جداول الميزانية ودليل التليفون وتصفحنا بعض النشرات الرسمية ، وتتبعنا بضعة أعداد من الجرائد اليومية ، فسجلنا الكلمات والتعبيرات التركية التى نصادفها خلال هذا البحث السريع . . دهشنا من كثرة الكلمات والتعابير الباقية من عهد الحكم التركى فى مصر

نستطيع أن نقول إن معظم النعوت والألقاب المستعملة فى مصر هى من بقايا ذلك الحكم . ولا سيما الكلمات والتعابير التى تدل على الرتب الملكية والعسكرية ، فكلها ترجع إلى منشأ تركى بدون استثناء فان كلمات « بك . افندى ، باشا ، هانم » تركية الأصل . مع هذا تستعمل فى مصر كالكلمات العربية ، ويقال لذلك « بكوية وبكوات » و « باشوية وباشوات ، افندية ، وهوانم » . ومما تجب ملاحظته أن هذه الالقاب ألغيت فى تركية أخيراً واستبدلت بكلمة « باى » للرجال و « بايان » للنساء

فمن يتتبع الجرائد التركية الآن لا يجد فيها أثراً للكلمات التى بحثنا عنها ؛ غير أن من يتصفح الجرائد المصرية يصادف فى كل نسخة منها مئات

ومما يستلفت الأنظار أن الألقاب الرسمية التى تستعمل فى مصر عند ذكر أصحاب الرتب أو مخاطبتهم — مثل : صاحب العزة ، صاحب السعادة — أيضاً تمت بقرابة إلى العهد التركى ، بالرغم من مظهرها العربى : فان الأتراك عند ما أرادوا أن يضعوا لقباً خاصاً بأصحاب كل رتبة من الرتب الملكية والعلمية ، اقتبسوا من العربية كلمات كثيرة ، مثل « رفعة ، عزة ، سعادة ، عطوفة ، دولة ، فخامة ، فضيلة سماحة ، سيادة ، عناية ، عصمة . » وأضافوا إلى آخر كل واحدة منها حرف « لو » الذى يعرف فى قواعد الصرف التركى باسم « أداة المصاحبة » فقالوا « . . . عزتلو ، سعادتلو ، دولتلو ، فخامتلو ، فضيلتلو ، سماحتلو . . . » إن هذه النعوت والألقاب استعملت فى مصر مدة غير قصيرة بصيغتها التركية ، ثم استبدلت فيها « أداة المصاحبة » التركية بتعبير « صاحب الـ . . . » العربية ؛ فتحولت بذلك هذه الألقاب إلى « صاحب العزة ، صاحب السعادة ، صاحب الدولة ، صاحب الفضيلة ... » فنستطيع أن نقول : إن هذه الألقاب تركية بمدلولاتها الحالية ، وإن كانت عربية بألفاظها الأصلية . وإلا فلا يوجد أى سبب معقول لاعتبار « الفضيلة » خاصة برجال الدين ، ولا لاعتبار « السعادة » أكبر من « العزة » ، ولا لاعتبار « الفضيلة أو العزة أو السعادة » من النعم التى يستطيع أن يحصل عليها الانسان عن طريق انعام الملوك والحكومات . .

وأما أسماء الرتب العسكرية المستعملة فى مصر ، فبعضها تركية بحتة مثل شاويش ، باشاويش ، أونباشى ، يوز باشى ، بيك باشى ، . . . فان اللفظة الأولى كلمة مفردة ، والأربع الباقية كلمات مركبة ، تعنى « رئيس الشاويشية ، رئيس العشرة ، رئيس المائة ، رئيس الألف .. » وهناك أسماء رتب عسكرية مؤلفة من كلمة تركية وكلمة عربية ، حسب

الاستعمال التركى : مثل «بلوكامين» بمعنى أمين الرهط ، و «ميرآلاى» بمعنى آمر الكتيبة . .

وأما كلمة «صاغ» التى تدل على إحدى الرتب العسكرية فى مصر ، فتركية أيضا ؛ غير أنها لا تستعمل فى التركية للدلالة على رتبة من الرتب العسكرية أبداً . لأن معناها اللغوى عبارة عن «أيمن» ؛ فليس من المعقول طبعاً أن يسمى أحد باسم «الأيمن» ، نظراً لرتبته العسكريه .

وأما كيف صارت هذه الكلمة لقباً لاحدى الرتب العسكرية فى مصر ، فلا يتضح إلا بمراجعه تاريخ الألقاب العسكرية فى تركية : إذ يوجد فى الجيش التركى رتبة عسكرية تسمى باسم «قول أغاسى» بمعنى «آمر الجناح» . وبما أن القطع العسكرية كانت تقسم إلى جناحين ، كانوا يقسمون هذه الرتبة قبلا إلى درجتين فيسمون الأولى «صاغ قول آغاسى» بمعنى «آمر الجناح الأيمن» ، ويسمون الثانية «صول قول آغاسى» بمعنى «آمر الجناح الأيسر» . غير أنهم وحدوا الدرجتين مؤخراً ، فحذفوا كلمات «صاغ» و «صول» من هذه الألقاب واقتصروا على تسمية الرتبة بـ «قول آغاسى» أى «آمر الجناح» . ويظهر أن لفظ «صاغ قول آغاسى» كان يستعمل فى مصر أيضاً ؛ غير أنه اختصر مؤخراً ، بدون ملاحظة معانى الكلمات التى يتألف منها ، فجرى الاختصار عن طريق حذف الكلمتين الأخيرتين ، والاحتفاظ بالكلمة الأولى وحدها . وبما أن الصفة فى اللغة التركية تتقدم على الموصوف ، كما أن المضاف إليه يتقدم على المضاف ، صار هذا الاختصار بمثابة حذف كلمتى «آمر» و «الجناح» ، والاحتفاظ بكلمة «الأيمن» وحدها ، وبهذه الصورة أصبحت كلمة «صاغ» التركية ، التى تدل على «اليمين» أو «الأيمن» ، اصطلاحا على رتبة من الرتب العسكرية المصرية

غير أن الكلمات التركية المستعملة فى الجيش المصرى لاتنحصر فى أسماء الرتب العسكرية التى أسلفنا ذكرها . بل ان المصطلحات العسكرية التالية أيضاً تمت إلى منشأ تركى صريح ؛ بلوك ، تابور ، آلاى ، أورطة ، قيشلاق ، قره‌قول ، طوبجى ، نوبتجى . .

إن كلمة «أورطة» تستحق النظر والتأمل بوجه خاص : فأن هذه الكلمة من التعبيرات الدارجة فى تشكيلات مصر العسكرية وهى تدخل فى التراكيب مثل الكلمات العربية ، فيقال مثلا «الأورطة الثالثة» و «استعراض الأورطتين» و «أعلام الأورط» ، كما يقال «أورطته ، أورطته ، أورطتهما . . . » . . مع أنها من الكلمات التركية المهجورة فى تركية نفسها . فان استعمالها فى الجيش التركى قد بطل منذ عهد بعيد ، يرجع إلى تاريخ إفناء الانكشارية ، وإحداث النظم العسكرية الجديدة ؛ ومن المعلوم أن المدة التى مضت منذ ذلك التاريخ تناهز القرن الكامل

هذا ، ومما يجدر بالانتباه أن قاموس الاصطلاحات العسكرية المصرية يحتوى على بعض الكلمات الفارسية أيضاً - مثل «بيادة» سوارى ، ياور ، سردار - غير أن هذه الكلمات لم تدخل على العربية من الفارسية مباشرة ، بل دخلت عليها بواسطة التركية . ولذلك يجب علينا أن نعتبر هذه الكلمات أيضاً من بقايا الحكم التركى بالرغم من أصلها الفارسى

كذلك كلمة «حكم دار» أيضاً تشبه الكلمات المذكورة آنفاً ، إذ أنها مركبة من كلمة «حكم» العربية وكلمة «دار» الفارسية ، فمعناها اللغوى عبارة عن «صاحب الحكم» . غير أن معناها الاصطلاحى المعروف فى مصر يختلف عن معناها الدارج فى تركية ، إذ أن تعبير الـ «حكم دار» لايستعمل فى التركية إلا للدلالة على «الملوك»

هذا وإذا استعرضنا عناوين الوظائف والخدمات المختلفة نجد بينها أيضاً عدداً كبيراً من التعبيرات التركية

أولا ، سلسلة كبيرة من التعبيرات التى تحتوى على كلمة «باش» التركية : باشكاتب ، باشمفتش ، باشمهندس . باشمعاون ، باشمحضر باش صراف ، باش حكيم ، حكيمباشى ، حاخامباشى ، باش ساعى ، باش فراش ، باش طباخ ، باش جناينى ، باش بستانى ، باشميكانيكى باش أدلاء ، باش رئيس البحرية . باش رئيس المطافى . فاذا أنعمنا النظر فى هذه التعبيرات نجد أن كلماتها الأساسية عربية ، غير أنها موصولة بكلمة «باش» وفقا لقواعد اللغة التركية ، وإذا بحثنا عن منشأ هذه التراكيب نجد أن نصفها الأول مستعمل فى التركية أيضاً غير أن نصفها الأخير لم يستعمل فى التركية أبداً . فنستطيع أن نقول إن القسم الأول منها (من باش كاتب إلى حاخام باشى) مقتبسة من التركية . وأما القسم الثانى (من باش ساعى إلى باش رئيس المطافى) فستحدثة فى مصر نفسها . قياساً على التراكيب المماثلة المستعملة فى التركية

ثانيا ، سلسلة غير قصيرة من التعبيرات التى تحتوى على أداة «جى» التركية : تليفونجى ، تلغرافجى ، بوسطه جى ، نوفكجى ، نيشانجى ، تعليمجى ، مخزنجى ، محاسبجى ، قهوجى ، سفرجى ، عطشجى . عربجى قمشجى ، اجزاجى ، تيمارجى ، جاشمبجى ، مطبعجى ، استفجى ، جزمجى مكوجى ، أشارجى ، ناضورجى ، مفتاحجى . ومما يجب التنبيه اليه أن التراكيب الأربعة الأخيرة ليست مستعملة فى التركية ، مما يدل على أنها استحدثت فى مصر قياسا على أمثالها . وعلاوة على كل ما تقدم نذكر فيما يلى الكلمات التركية التى صادفناها فى النشرات الرسمية :

فنار ، ليمان ، بوغاز ، أورمان ، كوبرى ، قزان ، طولمبة ، بورى ، باشبورى ، أوضه ، قاووش ، آغا ، ترزى . وهذه الكلمات تدخل فى تراكيب بعض التعبيرات مثل : مصلحة الليمانات والفنارات ، حديقة الأورمان ، أوضة المحامين ، الطلبات الأميرية ، تعمير القزانات ، مصلحة الكبارى . كما نذكر فيما يلى الكلمات الفارسية التى صادفناها فى تلك النشرات ، والتى انتقلت إلى مصر بواسطة التركية أيضاً سراى ، شنكل ، كليم ، نيشان ، أورنيك ، ماهية ، رفت ، خانة . . .

ومما يجدر بالذكر أن الكلمة الأخيرة تدخل فى تراكيب كثيرة مثل : أجزخانة ، كتبخانة، دفترخانة ، بطركخانة ،سلخانة . جبخانه بمكخانه ، أدبخانه ، عربخانه ، شفخانه ، مهندسخانة .

***

بعد أن ألقينا هذه ال   السريعة على اللغة الرسمية فى مصر يجدر بنا أن نقوم بمقارنة عامة بين دواوين مصر وبين دواوين سورية والعراق فى هذا الموضوع

من الغريب أن هذه المقارنة تظهر لنا تباينا عظيما فى الأمر : إذ بينما نجد أن دواوين مصر مضيافة لجميع هذه الكلمات الدخيلة والمصطلحات الأعجمية نجد أن دواوين سورية والعراق - بعكس ذلك - مجردة منها ومتعصبة عليها . .

هذا . . مع أنه قد مضى على انفصال مصر عن تركية عهد طويل ، فى حين أنه لم يمض على انفصال سورية والعراق عنها إلا زمن قصير ، ومع أنه لا يشاهد فى مصر أثر للقوانين الموضوعة فى العهد التركى ، فى حين أن عدداً غير قليل منها لاتزال نافذة فى سورية والعراق . . . ومع أن أنظمة الحكومة المصرية مختلفة عن الانظمة التركية اختلافاً كليا فى حين أن أنظمة سورية والعراق لم تتباعد عنها إلا تباعداً جزئياً . . . ومع أن الذين يعرفون التركية بين موظفى الحكومة المصرية قليلون جداً ، فى حين أن عددهم كثير فى سورية والعراق . . ومع أن اللغة الفصحى منتشرة فى مصر انتشاراً كبيراً ، ودراسة الآداب العربية متقدمة فيها تقدما عظيما ، فى حين أن كل ذلك لايزال محدودا فى سورية والعراق

فيجدر بنا أن نتساءل عن أسباب هذه الاحوال والحوادث المتناقضة : كيف أن مصر حافظت ، ولا تزال تحافظ ، فى دواوينها الرسمية على هذه المصطلحات الأعجمية ، بالرغم من قدمها فى الانفصال وتقدمها فى فصاحة القلم واللسان ؟ وكيف أن حكومات سورية والعراق - بعكس ذلك - تخلصت فى دواوينها من جميع تلك المصطلحات ، بالرغم من قرب عهدها فى الانفصال وحداثة دخولها فى مضمار فصاحة الإنشاء والبيان . ؟

إننا نعتقد بأن أسباب ذلك تعود إلى تباين الظروف التى حدث فيها انفصال هذه الأقطار العربية المختلفة عن الدولة العثمانية : فان انفصال مصر حدث قبل أن يستيقظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قومى واضح ، واللغة العربية استولت على الدواوين المصرية بصورة تدريجية ، دون أن تضطر إلى الاصطدام مع اللغة التركية والقيام عليها بحركة عنيفة . وهذا ما جعل مصر متساهلة مع الكلمات التركية ومضيافة لها ، بل لانغالى إذا قلنا : غير منتبهة إلى أعجميتها .

وأما انفصال سورية والعراق عن الدولة العثمانية ، فلم يحدث إلا بعد حوادث كثيرة أدت إلى إيقاظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قومى واضح واللغة العربية لم تصبح رسمية هناك إلا بعد أن حدثت مشادة بينها وبين التركية وبعد أن مازج هذه المشادة شىء غير قليل من العنف من الطرف الواحد ومن الثورة من الطرف الآخر . فقد قامت فى سورية والعراق ، فى أواخر العهد العثمانى ، جمعيات عديدة تطالب « حق التعلم والتعليم بالعربية » و « حق المرافعة والمراجعة بالعربية » ، تارة بالطرق السياسية ، وطوراً بالطرق الثورية . ولم تنل تلك البلاد هذا « الحق » بصورة فعلية إلا بعد الحرب العالمية ، فعند ما تألفت الحكومة العربية فى سورية أسرعت إلى تحويل لغة الدواوين إلى العربية بجد وحماس ؛ فلا نغالى إذا قلنا إن المصطلحات التركية خرجت من الدواوين هناك مع خروج الموظفين الأتراك منها .

والحكومة العراقية التى تأسست بعد سقوط الحكومة العربية السورية أيضاً حذت حذوها فى هذا الباب ؛ وزيادة على ذلك وجدت أمامها متسعا من الوقت لاتمام عملها فى تكوين مجموعة المصطلحات الادارية والعسكرية من الكلمات العربية التى لاتشوبها شىء من الأعجمية

هذه هى سلسلة الحوادث والأسباب التى وجهت الأمور فى سورية والعراق إلى اتجاه يختلف عن الاتجاه الذى سارت عليه فى مصر فى هذا المضمار . . .

مع هذا ، لابد من الاشارة إلى أن هذه الأسباب تعود إلى النشئة الأولى وظروف الانفصال فأدت إلى إبقاء هذه المصطلحات فى لغة الدواوين المصرية إلى الآن . غير أنه يجدر بنا أن نتساءل : هل هذه الأسباب ستضمن دوام هذه المصطلحات بعد الآن أيضا ؟

إننى لا أتردد فى الاجابة على هذا السؤال بالنفى . فلا أستبعد أن يصبح معظم ما كتبته آنفا « حكاية ماض » - فى عهد مصر الحديث - بعد مدة وجيزة من الزمن

بغداد أبو خلدون
ساطع الحصرى

في الجامعة المصرية

كرسي خاص

لدراسة الأدب المصري الاسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأت مع الغبطة نبأ ذلك الاقتراح الجليل الذي تقدم به صديق الأستاذ العميد الدكتور طه حسين إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية بوجوب إنشاء كرسي خاص للأدب المصري الاسلامي ؛ وهو اقتراح لا ريب أن سيلبيه المجلس الجامعي الموقر ، وسيلقى بلا ريب تأييداً حارا من كل أولئك الذين يقدرون تراث التفكير القومي ، ويعتزون به ، ويتوقون إلى بعثه وإحيائه واستعراض نفائسه ، بعد أن طال الأمد على إغفالها ونسيانها .

ولقد حاولت منذ أعوام أن ألفت النظر إلى وجوب العناية بدراسة تاريخ مصر الاسلامية وآدابها ، وحاولت جهدي أن أحث الشباب المتادب على قراءتها ودراستها ، وكان من بواعث دهشتي أن الجامعة المصرية الفتية لم تفكر منذ قيامها في إنشاء كرسي خاص لتاريخ مصر الاسلامية ، وكرسي آخر لآدابها إلى جانب ما أنشأته من كراسي خاصة للتاريخ الأوربي والآداب الفرنسية والانكليزية : فاذا كان الأستاذ العميد يتقدم اليوم باقتراحه بانشاء كرسي خاص للأدب المصري الاسلامي فهو إنما يعبر في ذلك عن أمنية قديمة لنا جميعاً ، والجامعة إنما تعمل بتحقيقها على استدراك نقص في دائرة الثقافة القومية كان خليقاً أن يستدرك منذ بعيد

والواقع أن الأدب المصري الاسلامي لم ينل في عصرنا شيئاً من العناية التي هو حقيق بها ، في حين أن كثيراً من نواحي الأدب الأخرى من شرقية وغربية تنال من عنايتنا أوفر حظ ؛ وما زال الأدب العربي يقدم إلينا في صورته العامة ويمثل لنا بنوع خاص في الأدب العباسي ، وقلما نعنى بدراسة نواحيه الخاصة ، بل إن الشباب المتعلم ليرغب اليوم عن الأدب العربي كله ويتجه شطر الأدب الغربي ، ويعرف من تطورات هذا الأدب ومن خواصه ما لا يعرف عن تطورات الأدب العربي وخواصه ؛ ويعرف من شخصيات الآداب الأوربية وآثارها ما لا يعرف عن شخصيات الأدب العربي وآثارها ؛ وإذا كانت ثمة أقلية من الشباب المتادب تعنى بالأدب العربي على وجه التعميم ، فهي قلما تعنى بدراسة شيء من تراث أدبنا المصري

ونحن نعرف الأسباب التي يرجع إليها هذا الشذوذ في ثقافتنا الأدبية وهذا الانصراف عن تراثنا العربي وتراثنا المصري بنوع خاص ؛ وهي أسباب سياسية واجتماعية لا نرى محلا لاستعراضها في هذا المقام ؛ بيد أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى سبب مادي واضح ، هو أننا لم نوفق حتى اليوم سواء في برامجنا الدراسية أو في بحوثنا الأدبية إلى تقديم الأدب العربي في مثل تلك الصور الأنيقة الشائقة التي يقدم بها الأدب الغربي إلى قرائه ؛ ومن ثم كان انصراف الشباب عن الأدب القومي إلى صنوف منوعة من الأدب الغربي يجد في قراءتها كثيراً من المتاع العقلي ، فيؤثرها بعنايته وفراغه ، ولا يستطيع أن يتذوق بجانبها شيئاً من ذلك التراث الذي ما زال يغمره القدم وما زال يقدم إليه في صور العصور الوسطى

وإذا كنا قد دعونا منذ أعوام إلى العناية بدراسة الأدب المصري الاسلامي ، وإذا كنا نرى وجوب التخصص في دراسة هذا الأدب ، فليس ذلك فقط لأن البواعث القومية تدعو إلى مثل ذلك في كل أمة حية تشعر بماضيها وتعتز بتراثها القومي ، بل لأن هناك أيضاً من البواعث العلمية والثقافية والتاريخية ما يدعو إلى اعتبار الأدب المصري الاسلامي وحدة أدبية مستقلة بين تراث الأدب العربي العام ، تستحق أن تدرس على حدة ؛ وأن تدرس خواصها وتطوراتها دراسة خاصة ، كما يدرس الأدب العباسي أو الأدب الأندلسي

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأدب المصري الاسلامي يستأثر بمميزات خاصة قلما توجد في فرع آخر من الأدب العربي ؛ نعم إن الأدب العباسي والأدب الأندلسي ، وأدب الشام ، وأدب شمال إفريقية يمتاز كل منها بمميزاته الخاصة ، من إقليمية ، واجتماعية وسياسية ، ولكن الأدب المصري فضلا عن احتفاظه بمثل هذه المميزات العامة يمتاز أيضاً بطابعه المصري العميق ؛ وتبدو هذه الخاصة واضحة في كل فنونه ومراحله ، وتكاد تغلب على كل خواصه الأخرى ؛ وذلك يرجع إلى عوامل تاريخية وثقافية خاصة ؛ فقد اتخذت الحضارة الاسلامية في مصر طابعها الخاص ؛ وكان قيام الأزهر بالقاهرة منذ منتصف القرن الرابع عاملا جديدا في توكيد هذا الطابع الخاص للأدب المصري ؛ ولما انهارت الخلافة العباسية في المشرق

وفرت العلوم والآداب الإسلامية أمام الغزاة البرابرة من السلاجقة والتتار، تبوأت مصر زعامتها الفكرية في المشرق. ولبثت القاهرة بجامعتها الكبرى، ملاذ التفكير الاسلامي، حتى الفتح التركي؛ وفي جميع هذه المراحل كان الأدب المصري الاسلامي يحتفظ بجميع مميزاته وخواصه في جميع مناحي التفكير. في الشعر والأدب والتاريخ والعلوم والفنون: وإذا كان الأدب المصري قد تأثر في العصور ببعض العوامل الخارجية، سواء من المشرق أو المغرب، فأنه لم يفقد شيئاً من خواصه الجوهرية ولم يفقد بالأخص شيئاً من طابعه المصري العميق

ويبدو هذا الطابع المصري الخاص لأدبنا الاسلامي في تراثنا الفكري بأوضح صورة؛ في الرواية والتاريخ، وفي الشعر والنثر. وفي أساليب التفكير والكتابة. نلمس هذه الخاصة ولا سيما في الشخصيات والآثار النموذجية؛ فأنه يصعب مثلا أن تجد بين شعراء العربية في الأمم الأخرى. شاعرا مثل البهاء زهير، أو ابن نباتة: فهذان شاعران مصريان روحا ومعنى، يمثلان مصر أقوى تمثيل وأصدقه، ومن النادر أن تجد بين شعراء العربية من يحمل الرسالة القومية بمثل ما يتجلى في شعرهما من إخلاص وقوة في التعبير عن الروح القومي وكل خواصه ومميزاته: كذلك ينفرد الأدب المصري بنوع من أدب الموسوعة أو (الأدب الانسكلوبيدى)، ولدينا من ذلك آثار تعتبر بحق نماذج فريدة مثل نهاية الأدب للنويري، ومسالك الأبصار للعمري. وصبح الأعشى للقلقشندي، وهي آثار ليس لها نظائر من حيث تنوعها وطابعها العام، وتخصصها مع ذلك فيما عرضت إليه: وانفردت الرواية المصرية الاسلامية أيضا بمميزات خاصة تستحق أن ندرس على حدة. فأليها يرجع الفضل مثلا في ابتكار فن الخطط والآثار، الذي يقوم على استعراض تاريخ المجتمع والحضارة إلى جانب تاريخ الدول، ونستطيع أن نقول بحق إنه لا يوجد بين آثار الرواية الاسلامية كلها أثر كخطط المقريزي في طرافته وقيمته الاجتماعية والتاريخية: وهذه أمثلة قليلة من كثيرة نستطيع أن ندلل بها على ذلك الطابع القومي الخاص الذي يمتاز به أدبنا المصري الإسلامي على غيره من آداب الأمم الإسلامية الاخرى

كذلك يجب ألا ننسى أثر الأزهر في تكوين ذلك الطابع الخاص؛ وقد لبث الأزهر قرونا ملاذ العلوم والأدب في مصر الاسلامية؛ وأثره في تكوين تراثنا الفكري أعظم من أن نحيط به في مثل هذا المقام، وهو أثر يستحق أن يدرس لذاته ولأهميته وإذا كان الأزهر نفسه أحق بأن يدرس تاريخه العلمي الحافل؛ فانه من المعقول أيضا أن تكون رسالة الأزهر في ماضيها وحاضرها موضعا للدراسة المستفيضة في استعراض مراحل الأدب المصري الاسلامي التي تعنى الجامعة المصرية بالبحث في إنشاء كرسي خاص لها؛ بل يلوح لنا أن مثول الأزهر في تاريخنا الفكري بمثل هذه القوة من العوامل الأدبية الخطيرة التي تملي بضرورة إنشاء هذا الكرسي الخاص

وقد كنا نود أن تعنى الجامعة المصرية إلى جانب عنايتها بأنشاء كرسي للأدب المصري الاسلامي بأنشاء كرسي آخر لتاريخ مصر الاسلامية؛ فقد انقضى عصر طويل لم يحظ فيه تاريخنا الاسلامي بما يجب من الدرس والعناية؛ ونحسب أن العوامل السياسية التي كانت تملي من قبل باسدال الستار على ماضينا وعلى ذكرياتنا القومية المجيدة، وبتصوير مصر في جميع مراحل تاريخها أمة مستعبدة، لم تذق في ماضيها الطويل الحافل طعم الحرية والاستقلال قد انقضت؛ ونحسب أن الوقت قد حان لأن يعرف الشباب المصري عن تاريخه القومي على الأقل مثلما يعرف عن تاريخ الأمم الغربية الذي تسخو برامجنا التعليمية في تلقينه للطلاب، وأن يرفع عن تاريخنا ذلك الستار الذي أسدلته يد الأهواء، وأن نستعرض ذكرياتنا القومية المجيدة على ضوء البحث المنزه، فيكون لنا منها غذاء قومي حقيق، يخلق بالعصر الجديد الذي تستقبله مصر. فالتاريخ القومي في جميع الأمم الحية عنصر هام في تكوين الشعور الوطني وفي تغذيته وإذكائه

فالمشروع الجليل الذي يتقدم به اليوم الأستاذ العميد إلى مجلس الجامعة المصرية إنما تملي بتحقيقه بواعث علمية وقومية معا؛ وما نحسب المجلس الموقر إلا سيقدر هذه البواعث قدرها وسوف يكون إنشاء الكرسي المنشود حادثا علميا في تاريخ الجامعة المصرية، كما أنه سيكون حادثا قوميا في تاريخ برامجنا الدراسية؛ وفي اعتقادنا أن الجامعة ستفهم مهمة هذا الكرسي بأوسع معانيها، فتجعل منه بداية حسنة لدراسات مصرية إسلامية شاملة فيما بعد، وسوف يكون لهذه الدراسات أكبر الأثر في إحياء تراثنا الفكري. وسيكون لها بالأخص أكبر الأثر في التدليل على أهميته وعلى قيمته التي طمستها عصور طويلة من النسيان والنكران

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

البطـــولة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

البطل فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية، يظهر بها بينهم وينال من أجلها إجلالهم ويبذلها في خدمتهم ويتولى قيادتهم في معترك الحياة ردحا من الزمن، ويترك في تاريخهم أثرا يطول عهده أو يقصر؛ فالبطل لا يكون إلا في مجتمع. وهو عادة نموذج لصفات أبناء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم، ومواهبه إجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته في فترة من الزمن. فالأمة المحاربة إذا كانت تجرى الحياة في عروقها قوية وتتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد، والأمة الشاكة الحيرى يظهر فيها النبي. والشعب الذي يشكو فساد أنظمته الاجتماعية يقوم فيه المصلح

والأمة المتبدية الساذجة التي لم تستقر بعد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب، لا يكاد يظهر فيها من أنواع البطولة إلا القواد البسلاء، الذين يقودونها في مهاجراتها ومحارباتها لجيرانها، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأي والمكيدة ما يبلغون به الفرصة في أعدائها؛ ولأولئك الأبطال في تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلمة لا ترد، وإن أحدهم ليغُني غناء الجحافل، ويعدل بين قومه ما لا تعدل الآلاف، ولا غرو: فالحروب في أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال

وفضلا عما يناله البطل في عصره من تبجيل وتقديم. فإنه إذا ما مات وخلا مكانه وافتقد مثاله، زاد ذكره ارتفاعا وزاد ذاكروه مبالغة في تعظيم آثاره وتصوير وقائعه وتخيل صفاته ومواهبه، وما يزال جيل يزيد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال أقاصيص طويلة السرد، تنطوي على شيء من الحقيقة الأولى ويتكون أغلبها من صنعة الخيال ومما تصبو إليه النفس الإنسانية دائما، من أمثلة القوة والشهامة والنجدة والغلب وحماية الذمار، وما تتوق دائما إلى تصوره من روائع المشاهدات، وجسام الوقائع؛ بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالي فترتفع بأبطالها إلى مصاف الآلهة. كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه، وكما فعل أوائل الاسكندناويين ببطلهم أودين، أو إلى مراتب أنصاف الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم

وإذا ما استقرت الأمة وتحضرت، وجنحت إلى السلم ولم تعد الحرب هي الحالة الطبيعية العادية التي تعيش في ظلها، تغيرت حالها الاجتماعية وضؤلت مكانة أبطال الحرب قليلا وزاحمهم أبطال السلم من أنبياء ومصلحين ومشرعين وحكام وأرباب علم وفن، وهبطت قيمة القائد في الجيش قليلا فلم يعد هو وحده المهيمن على مصائر الحرب بل صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير؛ وبطل تصديق المتعلمين بوقائع الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال؛ ولكن البطولة على صورة من الصور خالدة، وعبادة الناس في كل العصور لها قائمة، بل إن احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها. كما أن من دلائل حيويتها احتفول تاريخها بأسمائهم، بل يغالي كارليل ويزعم ان تاريخ الأمة هو تاريخ أبطالها، وتاريخ العالم إن هو إلا سِيَر الأبطال

وتلك الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال إذا فقدت اعتقادَ الناس بصدق كثير مما فيها فما فقدت إلا هينا يسيرا، ولن تفقد ما يعج به من روائع الأوصاف وبدائع الصور وممتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع، والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار. والتأمل في طبائع الإنسان ومذاهبه في الحياة؛ فتظل تلك الأقاصيص تُحفظ لنفاستها، وتظل كنزا ثمينا لقرائح الأدباء وأخيلتهم. يطيب لهم الهيام في عالمها البعيد، وإجراء أفكارهم على ألسنة أشخاصها العظماء، واستعارة وقائعها وتشاهدها في التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها، وإبراز معانيهم وأغراضهم بالاشارة إلى حوادثها وملابساتها؛ وخير مثال لكل ذلك عصر الأبطال في بلاد الاغريق:

فعصر الأبطال في بلاد الأغريق، الذي امتد زمن استقرارهم في شرقي البحر الأبيض وتشربهم حضارته، هو أشهر عصور

الأبطال وأسيرَها ذكرا ، لأن أشعار هوميروس قد خلدت روائع الصور لأحواله وعظائم أبطاله، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصوّرهم لآلهتهم ؛ حتى إذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان فى عالم التاريخ الواضح وطلعت فى عصرها الذهبى وحلّت الفلسفة محل الخرافة ، وبطل الاعتقاد بكثير من أخبار الالياذة والاوديسة ، اتُّخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب جديد من الأدب هو الدرامة ، التى ظهرت لتسد من حاجة ذلك العصر مالم يعد يسده شعر الملاحم الذى يلتفت إلى الماضى ويتوفر عليه ، ولا يعير الحاضر التفاتا

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية قد مرت فى استقرارها وتحضرها بعصر أبطال ترك أثره فى أدبها : وعصر الأبطال فى التاريخ العربي هو عهد الجاهلية الذى انتهى بظهور الإسلام وظهور الأمة العربية فى ضوء التاريخ المستيقن ، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميرى : فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لا تفتر عن القتال ، ولا يزال يظهر فيها من الأبطال أمثال عنترة ومهلهل ودريد بن الصمة ، ولا تزال تتحدث بأيام المواقع وتتفاخر وتتنافر كما تَفَاخَرَ أبطال الحروب الطروادية ، ولولا أن الإسلام وضع حدا فجائيا لذلك العصر ، لَمَا بَعُدَ أن تتجمع أشعاره وأقاصيصه فى ملحمة أو ملاحم كبرى ؛ وكان العرب على تفرقهم يشعرون بوحدتهم فى الجنس واللغة ويجتمعون فى مواسم الحج وأسواق التجارة والأدب ، كما كان اليونان يجتمعون فى دلفى وأولمبيا ، وكما كان اليونان يزدرون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعربيتهم ويلقبون غيرهم بالأعاجم ، ولم يفتهم أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية لدفاع الفرس فى موقعة ذى قار ، كما فعل الاغريق من قبل إذ تجمعوا بزعامة أثينا لرد عادية الفرس أيضا ، وفى موقعة ذى قار يقول الأعشى :

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

ومن الانجليز بمثل ذلك العصر فى عهد استقرارهم فى الجزيرة . وأهم الآثار الأدبية المتخلفة عن ذلك العصر ملحمة بيولف التى تصف كيف تغلب أمير انجليزى على وحش هائل أقض مضاجع بعض الملوك المجاورين ، وذلك العصر فى التاريخ الانجليزى شديد الغموض ، ولغموضه ذاك رُدَّت إليه خرافات لعلها لم تكن منه فى شىء ، كقصص الملك آرثر وفرسان مائدته المستديرة ، وهى قصة قد نالت من احتفال أدباء الانجليزية ما لم تنله قصة بيولف ، لسذاجة هذه وشدة إمتاع تلك ، واحتوائها على كثير من تقاليد العصور الوسطى وأنظمة فروسيتها ومغامراتها

ولما ظهر الأدب الانجليزى الحديث ، بعد انتشار الحضارة والعلم ، اتخذ الشعراء والروائيون من تراث العصر السابق مادة لخيالهم ، ولم يكتفوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الاغريقى مضافا إليها تاريخ الاغريق والرومان ، بما انطوى عليه ذلك التاريخ من سير الأبطال ، فحفل الأدب الانجليزى بذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، سيان انجليزيهم وأجنبيهم ، تاريخيّهم وخرافيهم ، عَجَّتْ بذكر هؤلاء وأولئك روايات شكسبير ، وتفنن سبنسر وتنيسون فى سرد قصص آرثر وفرسانه ، واستعار شلى أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضيعه ، كما فى قصيدته « پروميثيوس المقيد » ، ولم يألُ سكوت جهدا فى تصوير بطولة القرون الوسطى فى قصصه

تناول الأدباء سير أولئك الابطال بالدراسة الفنية لشتى الاسباب : لما رُكب فى الطبع الانسانى من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم ، ولما يُضفيه مجدهم وبأسهم على الموضوع المتناوَل من عظمة وجلال ، ولما يبعثه حديثهم فى النفس من تَسامٍ وصبو إلى المثل الأعلى ، وما يبثه ذكر أبطال الوطن فى نفوس أبنائه من فخر وثقة ؛ فلعبادة البطولة فى إطلاقها وتمجيد العظمة الإنسانية فى عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف ، وكتب ماثيو ارنولد قصيدته الطويلة سهراب ورستم ، ولتبجيل البطولة القومية والاعتزاز بأبوّة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنرى الخامس فى حرب مائة العام ، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منتروز وكونتين دروارد

ولم يقتصر أدباء الانجليزية فى تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضى الخرافى أو التاريخى البعيد ، بل التفتوا إلى الحاضر والماضى القريب ، ووفوا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكانتها وأعلوا كلمتها حقهم من الذكر والتعظيم ، فى جانبى المنثور والمنظوم ؛ بل كان الابطال الخرافيون يستعارون أحيانا رموزاً

للعظماء المعاصرين ، كما فعل ادموند سبنسر فى قصته الشعرية « الملكة الحسناء » . وكما قيل إن شكسبير قد قصد من الرمز لشخصية هملت إلى شخصية إرل إسكس ؛ وقد احتفل سوذى وكامبل وتنيسون وما كولى بتمجيد أبطال الانجليز وعظمائهم فى البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف . وكتب كارليل كتابه « الأبطال وعبادة الابطال » فأسهب فى الكلام على مظاهر البطولة فى شتى الأزمان والأمم ، وأثر الأبطال فى تقدم العمران البشرى وما هم جديرون به من حفاوة

فالأدب الانجليزى ، بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين ، لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، بل ظل معنيا بأبطال الماضى ولم يجعل الحاضر دبر أذنه : لأبطال الماضى البعيد بوقائعه الخارقة التمجيدُ والتصوير الفنى المبالغ المغرق فى الخيال والشاعرية ، ولأبطال الحاضر التكريم والتأريخ الذى هو أدنى إلى الحقيقة دنوَّ عصرهم من الأذهان ، وأبعد عن الخرافة والخيال بُعدَ الإنسانية عن عصور طفولتها ؛ أما فى الأدب العربى فقد انقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاء عصر البطولة الجاهلية : أهمل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة العارضة ، ولم يكن أبطال الإسلام أوفر منهم حظا من عناية الأدباء . مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم فى التاريخ

ولم يخل تاريخ العرب بعد الاسلام من أبطال يمجدون وتنسج حولهم القصائد الطوال ، ولا أقفر تاريخهم من حوادث مملوءة بالوحى الشعرى الصادق ، بل إن تاريخ نهضتهم وبسط سلطانهم لهُوَ ملحمة التاريخ الكبرى التى تزرى بكل ملحمة ، وتسخر من الوقائع الموضعية الضئيلة التى حاك حولها هوميروس قصيدهُ الفاخر . وقد أنجبت تلك النهضة - بعد شخصية الرسول الكريم التى لم يجد بمثلها الزمن - نخبة من أبطال السلم والحرب ، كخالد وعمر وعلى وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من فحول الابطال الذين لم تنجب أمة أعظم منهم . واحتوى تاريخ العرب على سير أفذاذ يستفزون الوحى الشعرى خاصة ، لما انطوت عليه سيرهم من طرافة وجاذبية : كالحسين الذى استشهد على أسنة الرماح آبيا أن يستأسر ، وصلاح الدين الذى رفع لواء الاسلام وقصم ظهر الصليبيين فى سورية ، وعبد الرحمن الداخل الذى شاد من الفوضى دولة من أزهر دول التاريخ ، ومحمد بن القاسم ، الذى فتح السند وهو يافع والذى قيل فيه :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددا من مولد

ولكن الأدب العربى قد نبذ ذكر أولئك جميعاً ظهريا ، ولم يحتو من ذكر البطولة والحماسة والحروب إلا على وقائع ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال ، كبدر بن عمار ، وغيره من ممدوحى الشعراء الذين كانوا يطمعون فى رضاهم ونوالهم ، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقا فى التهويل ؛ أما إذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهز نفس الشاعر ، ولا عظمة تستدعى إعجابه وتستجيش وحيه ، ولا يَرِد ذكر عظماء الجاهلية فى القصيد إلا مستعارةً صفاتهم وفضائلهم للممدوح مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية إلى السخرية ، بل كان أولئك العظماء يُزدرَوْن فى مواقف الملق لأرباب السلطان : فقد قيل إن بعض الحضور عاب على الطائى تشبيه ممدوحه « بأجلاف العرب » حين أنشد سينيته فى مدح احمد بن المعتصم فقال منها :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

ومن مثل هذا الحديث تتبين بعض أسباب إعراض الأدب عن حديث البطولة : كالتكسب بتملق أمراء أنانيين يأبون إلا أن يكون كل المدح لهم ؛ بيد أن هناك سببا أهم هو انعدام روح القومية بين العرب : فقد كانت العصبية القبلية فوق القومية العربية فى عصر الجاهلية . فلما وحد الاسلام العرب تحت لوائه وحض على التآخى ونبذ العصبية ، لم يستمر العرب دولة واحدة مستقلة منعزلة زمنا طويلا كافيا لتوحد عناصرها توحدا صحيحاً ، واعتناقها جميعاً للقومية العربية مكان العصبية القبلية ، بل اندفعوا وهذه العصبية ما تزال على أشدها يفتحون شرق العالم وغربه ، فإذا هم فى بضع سنين يموجون فى امبراطورية مترامية ، ضلت قوميتهم العربية فى قومياتها المتعددة ، وظلت عصبيتهم المتأصلة تستأثر بولائهم وتثير الفتن بين قبائلهم ، وكان هذا التناحر القَبَلى من أكبر أسباب انتصار الفرس ، ووثوبهم إلى السلطان على أيدى العباسيين

فالمجتمع العربى عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود

والامبراطورية العالمية الفضفاضة الجوانب، ولم يعرف القومية العربية التي تسمو على العصبية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أي الأحياء كانوا، والتي تضيق دون مدى الامبراطورية الواسعة، التي لا يجمعها ماض واحد ولا تشترك في تراث عمراني ثقافي فرد. فلم يكن العربي المسلم يفخر بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بآبائه الذين تنتسب إليهم قبيلته. فابن الرومي في القرن الثالث يمدح أبا الصقر فلا يفوته أن يمدح قبيلته شيبان، وأبو الصقر يرى أن ابن الرومي لم يوف شيبان حقها فيحرمه العطاء، وأبو فراس في القرن الرابع يفخر ببني حمدان الذين يراهم لم يخلقوا إلا لمجد أو لبأس أو لجود، ولا يرد ذكر العرب في شعره، وهذه النزعة القبلية الضيقة لا تنتج شعر بطولة فنياً راقياً، بل تنتجه الروح القومية المتدفقة

إنما كان الدين يحل محل القومية من نفوس العرب. ومن ثم كان له في أدبهم أثر بعيد المدى، ولذلك نرى أن جانباً عظيما مما قد ندعوه شعر بطولة في العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية في الاسلام بعد الرسول الكريم، شخصية الامام علي، وشخصيات أبنائه: ففي الأشعار التي تندب مصارعهم — رغم اتسامها بالحزن والفجيعة، وقلة ما تسجله من عظائم أولئك الأبطال الذين نهضوا في الحقبة بعد الحقبة، وساروا إلى الموت مملوئين ثقة وبسالة — تمجيد صادق الشعور للمثل العليا مشخصة في أولئك النفر الغر الميامين، ولدعبل وابن الرومي وغيرهما أشعار حارة فيهم، ومن ذلك قول الأول:

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

وسبب آخر عظيم الأثر في خلو الأدب العربي من تمجيد البطولة، هو أن هذا الضرب من الأدب ضرب فني يحتاج في ممارسته إلى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعة، ومثل هذا الفراغ لم يتهيأ لأدباء العربية، ومثل هذا العكوف أو الترهب الفني الذي حظي به ملتون ووردزورث وتنيسون وغيرهم من شعراء الانجليزية لم يفز به شعراء العرب وكتابهم، أضف إلى ذلك أن الأدب العربي كان دائماً يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ مواضيع أو صور جديدة لم يرثها عن العرب الأولين، ولهذه النزعة المحافظة قد نفى من حظيرته كثيراً من فنون القول ومنادح الفن، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جديرة بالتفاته، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الاغريق فيقف على بدائع النظم التي تأتي من ذلك الباب

وكان الأدب العربي كلما نفى من حظيرته باباً من أبواب القول يمت إلى الطبيعة الانسانية بسبب لا يجذ، ويروي من النفس البشرية غليلا دائم الحاجة إلى الري، تلقفه عنه الأدب العامي فنهض عنه بالعبء الذي طرح، وآثر إرضاء النفس الانسانية حين آثر الأدب الفصيح إرضاء التقاليد، ومن ثم حاك الأدب العامي، أو الخيال العربي، حول أبطال الجاهلية كعنترة وكليب، وعظماء الاسلام كعلي بن أبي طالب وهرون الرشيد، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الانس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة؛ وما كان بالأدب العربي الفصيح قصور عن ذلك الضرب من القول لو أراده. انظر إلى روعة الوصف في قول المتنبي:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم

وقول ابن هانىء الاندلسي في جيش جوهر:

اذا حل في أرض بناها مدائناً
وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع

فهذا وصف للجيوش لن تحوى أبلغ أشعار الملاحم أروع منه، ولا غرو: فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا، فقد تفنن المسلمون في وسائل الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات السبق، والدول والانقلابات كانت تتوالى على أعين الأدباء تباعا واللغة العربية الرحبة المساعدة بالألفاظ، الغنية بالاوزان الرصينة والقوافي المتعددة، خير معوان على نظم قصيد الملاحم ووصف عظائم الابطال، فلو التفت الشعراء إلى هذا المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيما أغفلوا، وعدوا البطولة والابطال شأناً من شؤون التاريخ، لا فناً من فنون الأدب

فخري ابو السعود

٢ - دعابة الجاحظ

بقلم محمد فهمى عبد اللطيف

ولقد رأيت فى الناس من يحسب أن التنادر من الشىء الهين، الذى يستطيعه كل إنسان، ويقدر عليه كل شخص؛ وهذا حسبان خطأ، فأن التنادر فن له ثقافة ودراية كسائر الفنون، ولا بد فى حذقه من استعداد موهوب، وملكات فطرية، يتصل بعضها بالقلب وبعضها بالعقل، وقد يناقض بعضها بعضا، وقد لا تجتمع كلها لشخص واحد، ومن ثم اختلف حظ الناس فى إجادة هذا الفن، كاختلافهم فى إجادة الشعر والكتابة والرسم وغيرها، ففيهم الذى يبلغ فى ذلك مرتبة العبقرية، ومنهم من يقف عند حد النبوغ، وفيهم من هو دون ذلك وأقل، ثم تتدلى وتتدلى حتى تقع على البليد الأصم الذى لا يفهم ما يقول، ولا يفقه ما يقال، فهو أخو الجمادات فى فقدان الشعور، وبلادة الأحساس، وإن كان قد تميز بالنطق، وبالنطق فحسب!

ومن أجل أن نقيم الأود فى هذا الخطأ على وجه أوضح، ونعطى الموضوع بعض ما يستحقه من الشرح، نقول: بأن التنادر لا يقف فى اتجاهاته ومراميه عند حد العبث والضحك، ولكنه فى الواقع يقصد إلى ما هو أهم وأجل، ويرمى إلى أغراض متعددة، كل غرض منها يعتمد على ملكات ولا بد له من استعداد خاص، فمن ذلك السخر وهو يقوم على الذكاء وقوة الأدراك، وحسن المفارقات؛ والدعابة وهى تعتمد على انبساط النفس، ومرح الطبيعة، وخفة الروح؛ ثم الهزل وإنما يكون عن استهانة بتكاليف الحياة وعظائم الأمور، وتفريط فى الواجب؛ وقد يندفع الأنسان إلى الهزل والعبث بدافع العطف والتبسط، كما تضحك من طفلك الصغير، ومن أصحاب النقص وذوى العاهات. وقليل فى الناس من تجتمع له كل هذه الجهات بملكاتها كما كان الجاحظ، وكثير من نجده يجيد الضرب والضربين، فهو فى أحدها يقطف، وفى بعضها يقف

على أنه لابد لحذق هذا الفن بعد كل هذه المواهب والملكات من ثقافة بضروبه، وعلم بمسالكه وانتهاجه، حتى يمكن للتنادر أن يقع بالنادرة من قلوب السامعين موقعا يهز المشاعر، ويشفى نجى البلابل، وقد تكلم الجاحظ فى تبيان النهج الذى يكون به أداء النادرة وحظها من القبول والاستملاح والاستطابة فقال: «والنادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً، وإنما الكرب الذى يخيم على القلوب ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التى لا هى حارة ولا هى باردة، وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط، وإنما الشأن فى الحار جداً والبارد جداً...

ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب، فأياك وأن تحكيها إلا مع اعرابها ومخارج ألفاظها، فأن أنت غيرتها بأن تلحن فى إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فأياك وأن تستعمل فيها الأعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فان ذلك يفسد الأمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذى أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها، واستملاحهم لها...(١)».

وثمت ناحية لا أحب أن تغرب عن البال، وهى أن الانسان وإن اجتمعت له ملكات التنادر، وتمت له مواهب الدعابة، وكان على علم بشرائط ذلك وضروبه، فأنه مع هذا كله لا يستطيع أن يكون له فى هذا الفن الا اذا استوفى شرائط أخرى فى هيئته ومخبره وإشاراته، وما هذه الشرائط فى الواقع الا أداة هذا الفن وآلته، فكما أنهم ارتضوا للخطيب نمطا خاصا فى موقفه من اعتجار العمامة، واصابة الأشارة، وجهارة الصوت، وجودة الايقاع؛ وكما أنهم اشترطوا للمنادم بزة معلومة من الزى، وحسن الحديث ولطف المدخل، فكذلك رأوا من شرط المسامر والمنادر أن يكون خفيف الاشارة لطيف العبارة، ظريفا رشيقا، لبقا رفيقا، غير فدم ولا ثقيل، ولا عنيف ولا جهول، قد لبس لكل حالة لباسها، وركب لكل آلة أفراسها فطبق المفاصل، وأصاب الشواكل(٢)، ولقد تم للجاحظ كل هذا من مواهب الفن وملكاته، فبلغ فيه مبلغ العبقرى النادر، وكان له فى كل ضرب من ضروبه واتجاهاته، يتهكم تهكما مراً لاذعا، ويداعب مداعبة حلوة سائغة، ويهزل هزلا هو مراح الأرواح، وأنس القلوب. وإنك لتجده فى سائر كتاباته وأحاديثه يحمل القول بالنادرة، ويخلط الجد بالدعابة، فيجعله حبيبا الى النفوس، سهلا فى التناول، وما أعرف للجاحظ ضريبا فى تلك الناحية غير الكاتب الانجليزى الماجن صاحب «الأفكار البليدة» (٣) فقد كان ذلك الكاتب خفيف الروح، فويم الفكر، له آراء صائبة، ولكنه كان يسوقها الى القارىء مساق الدعابة والتفكه، وكان مشغوفا بنقض ما تواضع عليه الناس من الفضائل والأخلاق، فيحسب الغرور فضيلة، والقناعة بلادة، ويرى أن أهل الخير والطيبة على باطل، وإنه فى ذلك لكالجاحظ إذ كان يكتب فى الأمور المتناقضة، والحالات المتضاربة، فيحتج لفضل السودان على البيضان، ويفتخر للرماد على المسك، وإن الشبه ليشتد بين الرجلين إذ يتحدث كل منهما عما يتصل بنفسه، ويمسه فى شخصه، ولقد وقفت على فصل لذلك الكاتب يتكلم فيه عن الذاكرة، ويتنادر

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١١١ ط السندوبي

(٢) جمع الجواهر ص ٧ للحصرى

(٣) هو الكاتب الفكه جيروم ك. م. كان يسمى نفسه بالمفكر البليد، وله كتاب سماه الافكار البليدة...

بضعف ذاكرته حتى بلغ به أنه كان ينسى اسمه فى بعض الأحيان ، فأذكرنى ذلك بما كان من أمر الجاحظ إذ قال : نسيت كنيتى ثلاثة أيام ، فسألت أهلى بماذا أكنى فقالوا لى : أبو عثمان ! !

ولقد كان الجاحظ فى كثير من قبح الشكل ، ودمامة الخلقة ، وقصر القامة ، ونشوز التركيب . ولكنه كان على الرغم من ذلك كله طيب المحضر ، شهى الحديث ، خفيف الروح . ظريفاً فى إشاراته، فكان بذلك ريحانة السامر ، وأنس النادى ، ومهوى الرؤساء وولاة الأمر ، يطلبون لخفته ، ويحرصون عليه لظرفه ، ويغمرونه لذلك المرح الذى يفيضه عليهم . وأسوق اليك من ذلك طرفا : حدث الرواة أن الجاحظ كان فى جانب الوزير ابن الزيات ينصره على القاضى ابن أبى دؤاد ، وقد كان الشنآن مستحكما بين الرجلين ، فلما غضب المتوكل على ابن الزيات وقتله ، وتم الظفر للقاضى ، خاف الجاحظ على نفسه التلف ، فطلب السلامة بالهرب ، فلم يلبث أن قبض عليه ، وحمل إلى ابن أبى دؤاد مغلول العنق ، مقيد الرجلين . فى قيص سمل . فلما وقف بين يديه ، أرسل القاضى فى طلب حداد . فقال الجاحظ أعز الله القاضى ، ليفك عنى أو ليزيدنى ؟ قال : بل ليفك عنك ! فلما جىء بالحداد ، غمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساقه ، ويطيل أمره قليلا ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فان الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة . فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه . وقال ابن أبى دؤاد لمحمد ابن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه ! ! ثم قال يا غلام صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، فنزع منه الغل والقيد وأدخل الحمام وقد حمل اليه تخت من ثياب وطويلة وخف ، ثم جاء فصدره المجلس ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان (١) .

وكم كنا نشتهى أن يصلنا ذلك الحديث الذى لا نشك فى أنه كان عذباً شهياً يفيض بألوان من المرح ، وفنون من الأنس ، قد توثب فيه الجاحظ على طريقته من نادرة إلى نادرة . وتنقل به من طرفة إلى طرفة . فياترى ما ذا قال أبو عثمان ، وبماذا أجاب ابن أبى دؤاد ، ولماذا سكت الرواة ؟ !

« له بقية »

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) اعتمدنا على معجم الادباء فى تلك الرواية وقد حذفنا مالا يتصل بمقام الكلام

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

ألفونس كار من أبرز أدباء القرن التاسع عشر وقد اشتهر بأسلوب خاص من السهل الممتنع ، ومن أبلغ آثاره (حديث الأزهار) وهو مجموعة قطع صغيرة في كل منها مجال وسيع للتفكير ، وهذه بعض احاديث ازهاره انقلها إلى العربية وأقدمها إلى قراء الرسالة .

ف . ف

(١)

الزهرة الأولى

لقد انبلج صبح نيسان (ابريل) فإلى الحقول يابنات الأمل لاقتطاف أول زهرة من أزهار الربيع .

أقطفى أول زهرة يافتاتى وضعيها تحت طيات ثوبك على صدرك ، فأنها طلسم السعادة يشدد العزم ويحيي الأمل .

* * *

ليست الوردة ولا البنفسجة أولى أزهار الربيع ، بل هى الزهرة التى تلمحها العين قبل سواها ؛ هى التى تبدو لمرتاد الحقول كأول ابتسامة ترسلها الطبيعة من خلال دموع الشتاء .

لقد كانت الوردة أول زهرة أعلنت إلى قدوم الربيع فى السنة الماضية ؛ وكانت زهرة البنفسج رسول الحياة إلى قلبى فى أول هذا الربيع . ومن يدرى ما تكون الزهرة الأولى بعدها ، فلعلها زهرة القبور . ؟

من أى نوع كنت يازهرة الربيع ، أنت ابتسامة الحياة بعد الموت ، ولمعة الأمل بعد اليأس . أنت الزهرة الأولى ، لاتلمسك يدٌ دون أن ترتجف ، ولا تقع عليك عينٌ دون أن تترطب بندى الأجفان .

إن الناظر إليك يا أولى الأزهار ، ليشعر بأن فتوة القلب ستعود مع فتوة الزمان ، وأن النفس ستنوّر مع تتويج الأزهار وتخضّر ذاوياتها مع اخضرار الأوراق .

أنت الأمل يازهرة نيسان ، بل أنت ابتسامة أوهام ينخدع بها المرء فيؤمن بامكان رجوع المنصرم وعودة خطوات الزمان .

* * *

أولى الأزهار شبيهة بالأعياد فى دوران الأعوام ، فهى درة فى عقد الساعات والأيام ، إذا ما بدت فى الحاضر نبهت ما مضى بمثل زمانها الغابر ودفعت بالقلب إلى العودة نحو الزمان القديم .

إنها لوقفة يربط الانسان فيها حلقة الآن الحاضر بمثلها من الآن البعيد ، فيحسب نفسه إلهاً ينفخ فى الأموات نسمة الحياة . وما أوجع مايشعر به حينما يرى هذه الرجعة وهماً تولده حرارة القلب وتبدده عاصفات الأقدار .

ما أجملك أيتها الزهرة الأولى ، وما أحلى وما أمر ما تفعلين بالقلوب ، ينشر مشهدك من جوانب التذكار ألوفا من مجنحات الحياة ثم يطويها ليردها مكسورة الأجحة إلى قبر الزمان .

إنها لسريعة الذبول ، أولى أزهار الربيع ، وما أشبهها بما تولد فى القلب من شعور .

* * *

سلاما على وريقاتك يا زهرة الربيع وبلسما من عبيرك على قلوب العاشقين و الشعراء ، على قلوب الحزانى والآملين .

لئن كان فى وهمك بعض العذاب . فان فيه ما يعيد إلى التذكار برهة من متلاشيات الحياة .

فى أوان قطفك برهة من الشباب للشيخ ، ولحظةُ أمومة للثكلى ، وفترةُ بنوّة لليتيم . وما بين وريقاتك الباسمة فترةُ لقاء لأبناء هذه الحياة بأحبابهم الراحلين الثاوين فى القبور

سلامٌ عليك يازهرة الربيع ، فاننى وجدت بك وأنا اقتطفك لوحدى ما كنت أجده وأنا أقتطفك من قبل مع الأحبة المودعين .

فليكس فارس

جولات في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية
في فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب في جامعة السربون ، دانيال مورني ، Daniel Mornet

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

القصة الواقعية « Le Roman Naturaliste »
اميل زولا

أصول مذهبه :

يتولد أدب زولا من ارادة قانونية ومن طبع لا يتلاءم مع هذه الارادة . أما هذا النظام فهو يعود إلى تأثير « بلزاك » فيه و« فلوبير » وفلسفة « تين » والواقعيون هم الذين قالوا بأن القصة لا ينبغي أن تكون رومانتيكية ابداعية لأنها ليست وليدة خيال أو وهم ، وإنما يجب أن تكون محاكاة حقيقية للحقيقة ، ولكن زولا بما أوتى من الخصب وبما أفاد من مطالعة المتأخرين وجد أن هنالك مذهباً أجدر بالأخذ ، يجب أن تخلق القصة المبنية على الامتحان الذى يصل إلى عرفان حقائق علمية . وقد آلت بزولا مطالعته للدراسات النفسية التى نشأت فى جيله كنظرية ولادة العواطف ونظرية الوراثة الطبيعية فلسفياً وفسيولوجياً إلى أن يرى أن الطبائع فى الرواية المدرسية انما كانت عقداً بسيطة ، على أن كل مافى الانسان وكل ما فى القصة يخضع للجبلة الطبيعية أو للطبع . وهذا الطبع انما هو وليد الوراثة ووليد تأثير الاوساط والظروف ، فواجب القصة اذن ألا تقف بحثها على دراسة حالات نفسية ماهى إلا كلمات مصفوفة ، وانما على حالات واقعية . فتأنيب الضمير مثلا ما هو إلا اضطراب بسيط عضوى ، « وانما غايتى أن أكون كاتباً واقعياً وطبيعياً » ولكن القصة الامتحانية يجب أن يكون لها هدف أبعد ، انها ستكون درساً . فقد يجلس القصصى وتحمله ملاحظته وتأملاته إلى حالة من حالات كل يوم ، فيرى مثلا حالة جنون التصوف أو هلاك المدمنين للكحول ، أحل بهم هذا عن مصادفة ، أم نتيجة شريعة معلومة ؟ اذا أردنا أن نعرف ذلك فلنقم أشخاصنا وأنفسنا مقام من تخيلهم فكرنا المؤلف على الطريقة الامتحانية ، ولنتأمل مجرى هذه الاشياء ، فاذا وصلنا فى النهاية الى النتيجة التى أدركناها بالتأمل الاول كان لنا أن النتائج الواحدة تتبع الاسباب الواحدة ، وهكذا أوجدنا قانوناً ، وعملنا علماً !

على ان أهواء « الرومانتيكيين » لم تكن أبسط ولا أسهل من هذه البحوث العنيفة التى يشبهها زولا بحقائق علمية يختلقها رجل الأدب كما يشاء هواه لكى يصل إلى النتائج التى تلائم فكرته وغايته . وأحكام زولا العلمية لم تكن أكثر جداً من بحوثه .

وقد وضع زولا قصصه سائراً على طريقته بصبر وجلد ، لا يعرف الملل ، وقد عمل على الذهاب من المبدأ إلى النتائج ، فبعض أشخاصه تؤثر فيهم عوامل الوراثة ، وبعضهم لا يستطيعون فرارا من تأثير الاوساط والظروف . وبهذا لم تظهر الفضيلة عنده كشئ مستقل وانما الفضيلة تحتاج إلى الوراثة وإلى تأثير الاوساط والظروف كما هو الحال فى الرذيلة التى تنشأ بهذا التأثير .

طبع المؤلف وعبقريته

لقد كان طبع زولا أشد وأقوى من تعاليمه الفلسفية ، وقد كانت آثاره الأولى تفيض عاطفة ورقة . لقد كان كاتباً رومانتيكياً ! وهو لا يجهل ذلك فى نفسه . فلقد أخذ عهداً على نفسه بأن يكون واقعياً وطبيعياً ، وطلب الى القصصى أن يكون ذا عاطفة ، تموج فى صدره كل العواطف حيث لا تغنيه عاطفة التأمل والتحليل وحدها . ولقد كانت تموج فى صدر زولا العواطف على اختلافها : العواطف الاجتماعية ، والعواطف النبيلة . ولقد كان جمهوريا ثم صار اجتماعياً فاشتراكياً . وله هذه الجملة المأثورة « الجمهورية ستكون واقعية أو لن تكون » . فكان من وراء ذلك ان رأى فى الاغنياء والاسياد والمثرين رجالا لؤماء ، وأرواحاً قاسية وعقولا منحطة ، ولا ينزل النبل والشرف والحقيقة الا منازل رجال الشعب والفنانين والمفكرين المؤمنين بالجمهورية الواقعية . وفى استطاعتنا أن نناقش هذه الافكار ولكنها بجملتها تصل بنا الى بعض الأنانيه والحمق ، والى الاشفاق على البؤس والبؤساء .

ان الصورة التى صور بها ـ زولا ـ الانسانية صورة مظلمة الالوان ، تحمل فى طياتها اليأس والوجوم . تتلخص هذه الصورة فى أنها مجموعة مظلمة للعيوب وإالخبث والرياء ، وجهود دائبة تبعث

على الأشفاق تذهب مذهب العنف فى قتال الفاقة الروحية والجسدية ؛ على أن زولا برغم ذلك كله يعتقد أن هذا النضال شريف وعظيم ، يبشر بمستقبل خير من الحاضر ويعلن أن الحياة الحرة المخصبة هى التى ستظفر و تنتصر . و تراه قبل كتابة « أناجيله العاطفية » كان يعتقد بجمال الحياة ، هذا الجمال الذى هو عنوان قصة له ، إن جمال الحياة سينتصر على كل شناعة فيها ، وسيغلب على كل مناسك وشعائر لا تبعث إلا على الزهد والفرار من الحياة . وسيقهر المذاهب المسممة . الحياة وحدها ستكون جميلة لأنها ستكون صادقة مبدعة . وهكذا تجد زولا يتشاءم ويطغى عليه تشاؤمه ولكن تشاؤمه تلوح خلاله لمعات الرجاء ، ويمشى فيه شعاع التفاؤل ولزولا مخيلة قوية وثابة . ان الشىء الذى يحبه حباً جماً هو مشهد الحياة . يحب الشناعة فيها والرذيلة والفساد أيضاً ، أليس هو مشهداً من مشاهدها ؟ وان مشهد الحياة يجمل بنفسه حيث يبدو بمجموعة صور تتجلى فيها لجبة الحياة ، وفى الحق لا تظهر عبقرية زولا الا فى هذه القدرة على التخيل . وان هوجو وفلوبير قد وصفا الجماعات فى حركتها ، وفى عراكها وصراعها ، ولكنه وصف ينشأ حول أبطال القصة ولا يدخل فى أنفسهم . أما زولا فقد بدّل هذا النظام ، وترك الحياة المضطربة المبهمة تسود جو القصة كلها . فهنالك صور كبيرة تهيمن على الجماهير ، وهنالك كائنات سرية عظيمة كأنها تحيا باضطراب الجماعات ، وان عالماً ضخماً واسع الحدود ، ذا لجب وصخب ، مبهم التفسير ، يفتش ويتحرى ويجد تأويل نفسه فى هذا الرمز يبدو ـ طوراً ـ كصورة عنه ، وتارة كوهم باطل !

وقام لزولا منتمون لمدرسته ، أخذوا بمبادئه الأدبية وهجروا مبادئه الفلسفية ، فلم يشاءوا أن يجعلوا تاريخ البشرية مقيداً بتاريخ الوراثة والأدواء الكحولية ، ولم يعتقدوا بأن القصة انما تكون تجربة فسيولوجية اجتماعية . . . فعادوا إلى المصادر التى صدر عنها زولا ، وإلى الواقعية التى اقتبسها من فلوبير وكونكور ، ورأوا أن كل ما فيه اختلاق هو افتراء ، ورأوا ألزم شىء التحدث عن شىء لاحظناه ، ولو أن الحياة قدمت لنا مشاهد نادرة الوقوع فمن الواجب أن نهملها لأنها افتراء ! مادة الرواية هى مادة كل يوم ، هى مادة كل شىء لا ابتداء له ولا انتهاء ، مادة كل ما يمكن وقوعه كل يوم فى كل كون ، والحياة التى تتمثل لنا كل يوم وفى كل كون هى حياة فيها القبيح والشنيع ، أما الجمال والفضيلة فهما صفتان نادرتان ، أو قل هما مستحيلان ، وهما مما لا يصح اتخاذه موضوع القصة . القصة تعرض الشناعة والرياء الضعيف الممثل فى مجتمع بنيت أسسه على رذائل مشتهرة وأنانية متبجحة . وانما قيمة القصة وحسنها يتوقفان على مقدار صدقها فى وصف هذه الشناعة والرياء

هذه مبادىء جهد بها هؤلاء ولكنهم لم يكونوا أمناء لمبادئهم ، فقد كانت فضيلتهم زاهية مختالة ، قتلوا كبرياء وخلقوا كبرياء ، وكرروا موضوع « كتلة الشحم » تحت مظاهر متحدة الغرض ، وكل رواياتهم تعود إلى وصف فئة تتظاهر بنصر الفضيلة ، تمدح جماعة سافلة اذا افتقرت اليها ، وتعود إلى إهانتها إذا فرغت منها . ولهذا لم يبق من « الواقعية » إلا مبادىء عامة قد تتلاقى بالمذهب « المثالى » حيث تكتب القصة بأسناد وأدلة . والروائى لا يحيا إلا فى العالم الباطن ، عالم نفسه ، وإنه ليخرج منه ليلتقط من الحياة اليومية ألف مشهد ، ويتحرى فى هذه المشاهد عن الغرائز والأهواء التى تمثل هذه القصة . الحياة الحقيقية ليست هى حياة صفوة مختارة ، وقد تكون هذه الحياة كاذبة مرائية ، إن الحياة فى حياة المجموع ، حياة الشعب الصادقة ، والفن يكون فى تصوير هذه الحياة الشعبية

جى دى موپاسان

جمال الحياة ومذهبه الواقعى :

عاش موپاسان للحياة ولجميع لذائذ الحياة . لقد كان فتى « نورماندیا » له مظهر يملأ العين ونفس لا تعرف الكلال . كان يهيم شغفاً بالطبيعة وجمالها وهو القائل « إنى أحب السماء كعصفور ، والغابات كذئب شرس ، والصخور كوعل . أحب حباً وحشياً عميقاً قدسياً وحقيراً ـ كل شىء يحيا » . ولقد كان له فى فنونه حواس لا للتمتع فحسب ، بل للملاحظة ، وقد كان الصديق المقرب الوفى للكاتب « فلوبير » إذا هم بأن يكتب قيد بانتباه ودقة لا كل ما شاهده ، بل كل ما يقدر أن يشاهده . ولقد أعطى صوراً كثيرة قوية عن مناظر السين والمارن ومقاطعة نورماندیا وعن حياة القرويين وطلاب الجامعات . وفى قصصه الأولى سخر من معايب نفسه ومخازيها ، وسخر من كل ما يراه كاذبا فى المجتمع فى الأديان والشرائع والعادات .

لقد كان ماجنا مرحا ولكن لم يطل عهد مجونه ومرحه . فقد تألم وغزا الألم جسمه ونفسه فبدل كل نظراته الواهمة فى الحياة

لقد كان مسرفا جد الاسراف فى التمتع بالحياة ، وقد أساء لنفسه وجسده بهذا الاسراف ، إسراف عنيف فى لذته وصناعته كأنما كان طبيعة شاذة عنيفة فى ميولها ! فبكرت إليه الأوصاب وتناوشت جسمه العلل ، فأراد أن يقاوم سلطانها فعكف على الخمر والمورفين والمخدرات وما لبث قليلا حتى أثر ذلك فى نفسه فولد فيها الاضطراب فتبدلت ألوان الحياة فى وجهه ، واستحال نورها ظلمة حالكة ، وأخذت هذه الروح المرحة تشك فى فرح الحياة وبدأت تحقر معانيها ، وآزره على ذلك عقول أوى إليها كان تفكيرها متجهما، فهو يحب شوبنهاور ممن وجدوا الحياة صفحة سوداء . ومنذ ذلك الحين غدا كل شىء فى عينه زهوا باطلا وجنونا وعدما : « سعداء هم أولئك الذين لا يبصرون بسأم كبير: لا شىء يتبدل، ولا شىء يتحول، وأن كل شىء يغمره سأم طويل . . فكرة الانسان ساكنة لا تتحرك وإنما تدور ضمن حدودها المتقاربة كذبابة فى قارورة مسدودة »

وهذا الضجر الذى عراه يظهر على صور مختلفة فى ثنايا مواضيعه ورواياته ؛ على أنه لم يجعل من هذه الانسانية الكئيبة المحزنة صورة فتانة ، وهو اذا لم يجلُ هذه الصورة بوجه صحيح فانه كان مفعماً شفقة وحناناً عليها ، فهو فى المواطن التى تهتز فيها الغرائز وتملك على المشاعر يبصر فضائل خفية وجمالا متوارياً ونزوعاً عنيفاً متألماً نحو المثل الأعلى ، تراه يعود إلى حديث من أحاديث الحياة حيثما كان مصدره ، يسكب عليه الحنان والرقة ، ويسبغ عليه الجمال ؛ على أن فوزه الأدبى والثروة التى نالها قد بدلاه وأثرا فى نفسه ، فقد كان يغشى الأوساط الارستقراطية ويتمتع بما تخلقه هذه الاوساط من الفنون والمرح العنيف فى الحياة ، فلم يعد يقنع بطريقته وفنه الأول فى وصف الأشياء البسيطة وتصوير الحوادث القريبة . إنه نشط إلى ما تدعوه طبيعته الصافية إلى تحليل نفوس مركبة يستحوذ عليها القلق ويهدها الشقاء ، ومن جملة هذه الأنفس نفسه . كتب قصة « قوى كالموت » و « قلبنا » و « بطرس » و « حنا » وما هى قصص تحليلية . هو يريد فيها أن يخفى التحليل بدلا من نشره . وأشخاصها يريدون أن يخدعوا الناس عن أسرار نفوسهم بهذه الفصول والحركات التى يأتون بها . وأكثر قصصه تجرى على طريقته . القصة الشخصية التى تدور حوادثها حول بطل هو صاحب القصة ، تجرى على طريقة الاعترافات التى تعبر عن الحياة الباطنة والتحليل الخلقى .

على أن موباسان كانت جهوده بارزة فى تطور المدرسة الواقعية وهو فى خير قصصه تبدو واقعيته فى ذوق حاد مشبوب يسمو إلى فتنة الحياة الشعبية وهجو الحياة الاجتماعية هجواً لا فظاظة فيه ولا مرارة فى انتقاء هذه الحقائق التى تمثل الحقيقة الاكثر ارتباكاً فى الحياة . كل شىء فى أسلوبه يدل على صرامة واتزان . ولا يمل « موباسان » من قول كل شىء ، ولكن من قول كل ما يوحى إليه عقله بقوة وبيان . وقد تفتنه الطبيعة وتأسره وتؤثر فيه ، ولكن القصة تخون نفسه ، وأخيراً تراه لا يتردد فى التحرى عن الحقيقة الانسانية التى تعكس فى لحظة واحدة من هذه الحياة المتغيرة العابرة شيئاً من حقيقة النفس الخالدة للناس .

« يتلوه بحث تأثير العلم فى الرواية » **خليل هنداوى**

التبعة الأدبيـــة

للدكتور حسن صادق

سنبين فى هذه الكلمة تبعة الشعراء والكتاب التى يحملونها أمام التاريخ وتثقل على أسمائهم وشهرتهم عند مؤرخى الأدب وتطوره ، اذا أنتجت أعمالهم الأدبية حالة من الاضطراب العقلى والقلق النفسى بين شباب الأجيال المتعاقبة

وقد يقول قائل إن من ينسب الى مصنفى الكتب مثل هذه التبعة الخطيرة ، إنما يجعل للأدب قيمة أكبر وأعظم من قيمة الدور الحقيقى الذى يقوم به فى حياة الأفراد والشعوب . ولكننا نجيب على هذا الاعتراض بأن الطريقة الوحيدة التى نملكها لحفظ كنز الانسانية الأدبى ونقله من جيل إلى جيل ، من فجر العصور التاريخية إلى اليوم ، هى الكتب ؛ وكل ما نعرفه عن العصور الماضية البعيدة لم نصل إليه إلا بفضل أعمال الكتاب . وفضلا عن ذلك فان الدراسة المضنية التى يقوم بها الأساتذة أثناء الأعوام الطوال فى معاهد العلم المختلفة ، ليست إلا شرحاً وتفسيراً لأعمال مكتوبة

وينتج عن ذلك أن الحضارة والأدب أمران متعاونان لا ينفصلان ، وأن أحدهما بغير الآخر لن يكون إلا التكرار المستمر لوقائع ومذاهب ونظريات بعينها ، بدون أية مقارنة ممكنة بين الماضى والحاضر . وما دام هذا هو اعتبار مهمة الكتابة فان من السهل تصور التبعة الهائلة الملقاة على عاتق الذين يدونون أفكارهم وينشرونها بين الناس

إن الروح السائد بيننا الآن ، قد كونه الشعراء والكتاب والمؤرخون والفلاسفة الذين يتحدثون إلينا بوساطة كتبهم منذ آلاف السنين ؛ وسيتأثر من غير شك روح الأجيال القادمة بما نكتب اليوم أو ببعضه على الأقل . ومن أجل ذلك يشعر الانسان بشىء من الانفعال المستبهم كلما نشر كتاب جديد ، لأنه يجهل مبلغ الخير أو الشر الذى ينتجه الكتاب خلال سير الانسانية .

وليست أنواع الكتب جميعاً متساوية فيما تنتج من الأثر ، ولكن أعظمها سلطاناً على النفس وأشدها خطراً وأقواها بأساً هى الكتب التى مصدرها الخيال ، أو ما يصح أن يطلق عليها اسم الكتب الشعرية

وفى الحق أن الكتب الغزيرة المادة التى تدل على التبحر وتتطلب الجدال والمناقشة ، أو التى تثبت آراء وأفكاراً أو تفندها وتهدمها ، سواء أكان موضوعها التاريخ أم الفلسفة أم الدين ، تجد أمامها كتباً أخرى كتبت فى الموضوعات نفسها للقضاء على الأثر الذى أنتجه النوع الأول من الكتب ؛ وبهذه الطريقة نجد تصحيحاً لشر هذه ، فى الخير الذى تنشره تلك . وجمهرة الناس الذين لهم حق الخيار فى الأخذ بما يرون لهم من الآراء ، يستطيعون الوصول إلى الحقيقة بفضل جهودهم العقلية الخاصة . وبهذه المناسبة أذكر كلمة حكيمة للكاتب الفرنسى أناتول فرانس ، فقد دخلت عليه فى صباح أحد الأيام سيدة ، فراعها كثرة ما رأت عنده من الكتب والمجلدات ، وقالت له فى دهشة شديدة : أقرأت ياسيدى الأستاذ هذه الكتب جميعا ؟ فقال نعم ، ومن أجل هذا لا أعرف شيئا . فازداد عجبها من هذا الجواب الغريب وسألته الافصاح فقال : كل كتاب من هذه الكتب ينقض الآخر ويهدمه . ولهذا السبب لا يخرج القارىء منها جميعاً إلا بفائدة واحدة ، هى أن يتعلم كيف يفكر !

ولنفرض - كما هو الواقع - أن مؤرخا نشر كتابا لحمته الهوى وسداه الحقد على شعب أو ملك أو زعيم ما ، ففى هذه الحال يكتب مؤرخ آخر فى الموضوع نفسه كتابا يدافع به عن الشعب أو الملك أو الزعيم الذى حمل عليه المؤرخ الأول . ثم يقوم مؤرخ ثالث بجمع الوثائق والأدلة الصحيحة ويثبت الوقائع والآراء فى دقة تاريخية ، وهكذا . فاذا كان المؤرخ الأول قد قصد إلى الشر ، فان نجاحه لا يكون إلا فى حدود ضعيفة وقتية لا تلبث أن تزول . وكذلك الحال فى ميدان الفلسفة ، فاذا دعاك حكيم إلى الركود وعدم الاكتراث مثلا ، أظهر لك حكيم آخر بالمنطق ضرورة الارادة والعزم والحركة

فمهما تكن قوة أصحاب المذاهب والمفكرين ، فليس لهم علينا إلا سلطان نسبى ، لأننا نظل سادة أنفسنا فى قبول مبادئهم ومذاهبهم أو رفضها ، ونجد فى كتابات أخرى السلاح الذى ندفع به عن أنفسنا هجمات هؤلاء.

أما حالنا مع الشاعر فعلى النقيض من ذلك ، لانه السيد المطلق فى الميدان الذى اختاره لنفسه . والشاعر هنا هو الذى يخلق من عبقريته الخاصة عالماً من الحوادث والانفعالات والصور ينفث فيه كل حيوية الأشياء الحقيقيه ، وإذن فالشاعر هو الروائي أو المؤلف التمثيلى ، أو الموسيقار ، أو مبتكر الحكايات الخرافية أو مصنف الملاحم أو مبتدع الكلام الموزون المقفى

وبفضل هذه الموهبة ، موهبة خلق عالم مستقل . يكون الشاعر نجما عظيما أو خطراً مخيفاً . إنه لا يبحث ولا يناقش ولا يبرهن ، ولكنه يبتدع ويخترع . فهو لا يقنعنا ، ولكنه يستهوينا ويفتننا كما تفتننا المناظر الطبيعية الجميلة واصطفاق الأشجار فى سكون الغابة وخرير الماء فى الغدير ، أى أن الشاعر يغزونا دون أن نستطيع الدفاع عن أنفسنا وصد غارته عنا . وهو بعبقريته يجعلنا عاجزين عن أن نحذر سلطانه ، ويفرض علينا أريج أزهاره وظلال غاباته والتحليق فى أفقه ، فنحن فى الواقع سجناء سحر . وأين نجد ملجأ للخلاص من الصور والأخيلة التى يطبعها فينا ؟ أنلجأ إلى شاعر آخر ؟ كلا لأن هذا يكون تعباً ضائعاً لا طائل تحته . فكل شاعر منهم له ميدان حر مستقل خالص ، وليس من المعقول أن يفند الانسان ملحمة بأخرى ولا درامة بأخرى ولا نشيداً بأغنية . ومن هنا نرى الخير أو الشر الذى يستطيع الشاعر عمله . فهو يستطيع أن يغرس فينا بذور البطولة أو جراثيم الجبن ؛ وفى وسعه أن يقودنا إلى الخير أو يدفعنا إلى الشر على الرغم منا

والشاعر الكبير الجدير بهذا اللقب هو الذى يشعر بالرحمة العميقة ، ويحتقر المتاع المادى ، ويستعذب الآلام فى سبيل المجد المستقبل ، ويلهمنا حب الحياة ويحثنا على إعزاز الارادة وقهر الهوى ، ويدفعنا إلى ضروب التضحية المجيدة ، أى يدفعنا إلى البطولة مهما اختلفت البلاد والجنس والدين والفلسفة . وهذه صفات مشتركة بين الشاعر والبطل

وكلامنا هنا عن الشاعر العبقرى ؛ أما الشاعر الذى يعوزه الابتكار والأسلوب والعبقرية فلا قيمة له ولا أثر يخشى منه . ومثل هذا ربما يحصل على نجاح وقتى ، ولكن شهرته لا تطول ونفوذه لا يمتد ولا يثمر

والشاعر العبقرى نوعان : الأول هو الذى أوتى المقدرة على استهواء الناس بخصوبة ذهنه ورقة خياله وقوة ألفاظه وإحكام نسجه ، ثم يستسلم فيما يكتب لضعف الهوى ويتغنى بالحياة السهلة الرخوة ويندفع فى الملذات الحقيرة المبتذلة ويؤثر بهذا فيمن يسحرهم ويدعوهم إلى الضعف والجبن والأثرة والاشتهاء والشراهة . والثانى هو الذى يحملنا نحو مثل أعلى من القوة والنور والبطولة ولا يورطنا فى اضطراب الذهن ورعشة الأعصاب والحواس

حسن صادق

١٣ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة محمد حسن حبشي

إن تاريخ البدو أيام الجاهلية لايخرج عن كونه سجلا لحروبهم ، أو بالحرى هو ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر بغية السلب والنهب . ولم يكن ثمة حاجة تدعو إلى الاستغاثة ، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه ، ويصب على الآخر وابلا هطالا من الأهاجي المقذعة ، وتؤسر الابل والنساء ، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم ولكن القليل منها يؤدى إلى نشوب حرب . وكان ذلك نوعاً من الحروب الهومرية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوى على البطولة . ويقول ثوربك بصدد هذا الشأن : « وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعي لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب إلى المستحيل . أما عن المصادر المعاصرة له التي تستأهل عناية الباحث فليس لدينا سوى القصائد و المقطعات الشعرية التي ظلت محفوظة ، وطبقاً لما يذكره السيوطى كان العرب يطلبون من أى بدوى يقص حادثة تاريخية أن يقرنها ببعض أبيات تتعلق بها . والحقيقة أن كل مثل هذه الأقاصيص التي ضغطت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد . ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة ، ويتضح فى أغلب الأحيان أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعاً وهيئت حتى توافق موضوع الأشعار[1] » ورغماً من أن معظم مايتعلق بأيام العرب خرافى إلى حد بعيد إلا أنه يصف فى أمانة الخصومات القبلية التي كانت تنشب بينهم والطريق الذى كانوا يسلكونه فيها . وقصة[2] حرب البسوس التالية - وهى أشهر حرب فى الجاهلية كافية فى تصوير هذا الجانب المهم من الحياة البدوية ، وجنوب أرض نجد المرتفعة يقترب المسافر بالتدريج من البحر الأحمر الذى تفصله عن الجبال المحاذية له أرض منخفضه ضيقة يقال لها تهامة ، أما الحجاز فهو تلك الهضبة الوعرة المسلك التي تقوم بين نجد والشاطئ . وهذا هو الشعب الذى كانت تسلكه فى الأزمنة القديمة قوافل السبئيين محملة بالبضائع الغالية الثمينة ، ميممة شطر موانى البحر الأبيض المتوسط ؛ ومنذ عدة قرون قبل الميلاد نشأت محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكرب (مكة فيما بعد) وفى شمالها يثرب (اسم المدينة قبل الاسلام) ولسنا نعرف شيئا عن سكانهما الأولين أو تاريخهم إلا ما تفيض به روايات الكتاب المسلمين التي تطوى القرون القهقرى حتى تصل إلى ذكر أيام آدم وإبراهيم ؛ ولقد كانت مكة مهد الاسلام هذا الدين الذى كان - كما يذكر محمد (ص) - ملة إبراهيم ، ولكن جاء من بعده خلف أفسدوه إلى أن أرسله الله ليطهره من شوائبه مبشراً به من جديد ، ولذلك قيل إن دين أهل مكة قبل ظهور الإسلام بزمن كبير كان هو فى ذاته الإسلام . وإن مدينة الإسلام المقدسة لتظهر منذ آلاف السنين وهى مغمورة بفيض هذا السناء . ويقال إن العرب حينذاك كانوا جميعا يعبدون « الله » ثم تفرقوا بعد ذلك وزلوا بعبادة الأوثان ولكنهم عادوا كحجاج إلى مزار خصص أولا للكائن الأعظم الفرد ، بيد أن المطاف قد استحال إلى حرم لآلهة القبائل المختلفة ، وهذه النظرية من أول ما جاء به الإسلام ، وسأقص - جهد ما أمكنني الاختصار - النقط البارزة القوية .

فى وادى مكة - وهى البيت الأول لهذا الفريق من الجنس العربى الذى يدعى أنه من ذرية اسماعيل بن ابراهيم من زوجه هاجر - يقوم بناء مكعب الشكل على غير نظام ، وفى مساحة صغيرة ذلك هو الكعبة ، وتنسب قصة بنائها إلى آدم الذى شادها بأمر سماوى ، وحينما طغى الطوفان وطوى فى لجته كل ما على الأرض رفعت الكعبة إلى السماء حتى إذا غاض الماء أعاد بناءها فى مكانها السابق اسماعيل وإبرهيم . وبينما كانا منهمكين فى عملهما هذا جاءهما جبريل بالحجر الأسود المعروف وموضعه الجنوب الشرقى من البناء ، وأوصاهما بأداء فريضة الحج . ولما انتهى البناء انتصب ابراهيم واقفا على صخرة يطلق عليها المتأخرون « مقام إبراهيم » واستدار إلى الجهات الأربع ثم

(1) Thorbecke : ' Antarah, ein Vorislamischer Ditcher, P. 14.

(٢) لم نشأ ان نكتب هذه القصة لشهرتها عند قراء العربية ويكفى القارئ مراجعة ما ذكره التبريزى فى شرحه لحماسة (طبعة Freytag) ص ٤٢٠ - ٤٢٣ ، ص ٢٥١ - ٢٥٣ كذلك راجع ايضا Delectus لنلدكه ص ٣٩ وما يليها

ولى وجهه شطر السماء وصاح ، أيها الناس : لقد فرض عليكم الحج إلى البيت العتيق فاستمعوا لإلهكم ، وحينئذ أجابته من كل الجهات أصوات هاتفة ، لبيك اللهم لبيك ».

وكثر نسل اسماعيل حتى ضاق بهم الوادى فساح عدد جم منهم فى فجاج الأرض ، وخلفتهم قبيلة جرهم كأسرة حاكمة للبقعة المقدسة ، ولقد غرقت تلك القبيلة فى الكبرياء والآثام حتى حلت نقمة الله عليها ، وكثيرا ما يشار إلى انفجار سد مأرب الذى جعل الكثير من عشائر اليمن تشد رحالها ناحية الشمال ، ولقد استقر المهاجرون فى الحجاز واستأصلوا غالبية الجرهميين ثم واصلوا السير إلا قبيلة واحدة تلك هى قبيلة خزاعة التى استقرت فى جوار مكة تحت امرأة زعيمها الحى ، وأشهر عمرو ابن لحى بين العرب بثرائه وكرمه ، ويقول ابن هشام ، حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره فلما قدم مأرب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ماهذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له هبل . فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه (١) . وقلده العرب فى ذلك فجاءوا بأوثانهم ونصبوها حول المعبد ، وبذلك تم انتصار الوثنية وعم انتشارها ، حتى لقيت كل هاتيك الأوثان مصرعها حينما دخل محمد (ص) مكة على رأس جيش من المسلمين فى السنة الثامنة للهجرة (= ٦٢٩ م)

أما أشهر القبائل التى نسلت من إسماعيل من عدنان واستقرت فى الحجاز فهى هذيل وكنانة وقريش ، وينبغى أن نجعل اسم هذه القبيلة الأخيرة على الدوام نصب أعيننا ، إذ نجدها قبل ظهور محمد بقرن صاحبة السيادة فى مكة . وشيوخها حراس الكعبة ، وتلك مرتبة قد حرصوا عليها لما تدره من ثراء عظيم . وسبب صعودهم إلى معارج القوة أنه كان لكلاب بن مرة ولدان : هما زهرة وزيد وكان الثانى طفلا حينما اغتصب الموت أباه ، وتزوجت أمه فاطمة من رجل يدعى ربيعة فاحتملها إلى بلاده ، وشب زيد بعيدا عن وطنه الأول ومن ثم سمى « قصيا » ، ولما بلغ مبلغ

(١) ابن هشام ج ١ ص ٥١

الرجال وعرف موطنه أتى مكة حيث كانت السيادة فيها معقودة على هام بنى خزاعة وتحت زعامة شيخهم حليل بن حبشية ، فكانت شؤون الكعبة بعيدة عن قريش وهى من سلالة إسماعيل ، ثم إن قصى بن كلاب خطب إلى حليل بنته حبى فرغب فيه حليل ، وكان هدف قصى أن يخلف حليلا فى هذه المكانة الرفيعة ، بيد أن هذا سلم مفاتيح الكعبة ساعة وفاته إلى أحد ذوى قرباه واسمه أبو غبشان ، وكان كثير الشرب فاحتال قصى عليه وأسكره حتى باعه مفاتيحها لقاء زق من النبيذ . ولذا يقال فى الأمثال ، أضل من غبشان ، ولم ترض خزاعة بهذا الأمر فامتشقت الحسام ، ولكن قصيا ظهر عليها . ومن ثم غدا المهيمن على شؤون البلدة وحرمها القدسى ، وكانت باكورة أعماله أن جمع قريشا وكانت قد تفرقت فى سهول مكة فسمته قريش ، المجمع ، وبنى دار الندوة حيث يجتمع شيوخ العشائر والقبائل فيها متبادلين الرأى والمشورة فيما يعرض أمامهم من الأمور . ولما مات قصى احتفظت قريش بهذا الأرث المقدس وظل فى بيتها .

وربما كان موت قصى قد حدث فى النصف الثانى من القرن الخامس للميلاد ، ولقد ولد الرسول بعد ذلك بقرن أعنى عام ٥٧٠ أو ٥٧١ م وهنا ينبغى الإشارة إلى أن تاريخ مكة طوال هذه الفترة كان سجلا لمشاغبات تافهة قل أن تتخللها حادثة ذات أهمية ، كما أننا نجد الصدارة لأسلاف النبى طوال هذه المدة . وتظهر المنافسة التاريخية للبيتين الأموى والعباسى فى شخص مؤسسيهما : أمية وهاشم ؛ وفى أثناء ذلك كان نفوذ قريش ثابت الدعائم ، واسع الإنتشار ، وغدت الكعبة دار ندوتهم الأهلية الكبرى ، كما أن وفود الحجاج الذين أقبلوا من مختلف أصقاع بلاد العرب لم يعملوا فحسب فى رفع العبء عن قريش بل عاونوها فى تثبيت مركزها التجارى ، ولقد قصصنا عليك من قبل ، كيف عزم أبرهة — والى الحبشة على اليمن — على النيل من مكة لما ارتكبه أحد القرشيين من تدنيس كنيسة صنعاء ، وقد يصح أن يكون هذا سببا يتخذه أبرهة ، بيد أنه كان يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها .

ويزعم المؤرخون المسلمون أن هذه الحادثة (١) العجيبة وقعت عام ميلاد الرسول فى السنة المعروفة بعام الفيل حوالى ٥٧٠ م ،

(١) راجع ما كتبه الطبرى عن حملة ابرهة ج ١ ص ٩٣٦ ، ٩٣٩ - ٩٤٥ ، وفى ترجمة نلدكه ص ٢٠٦ - ٢٢٠

وبرهان على أن العرب قد هالهم مرأى هذه الحيوانات الضخمة أن واحداً أو أكثر قد صحب الحملة الحبشية ، وقد أوقع صدى استعداد أبرهة الحربى الرعب فى قلوب القبائل التى حاولت فى مبدأ الأمر أن تصده، معتبرة الدفاع عن الكعبة واجباً مقدساً، ولكن سرعان ماطارت نفوسهم شعاعاً إذ رأوا أن لاقدرة لهم على ذلك، وبعد أن هزم ابرهة ذا نفر الحميرى، عسكر فى جوار مكة دون أن يلقى مقاومة تذكر، بعث إلى عبد المطلب جد النبى الرسالة التالية، وكان عبد المطلب موقراً محترماً من جميع القبائل « إنى لم آت إلى سريكم، إنما جئت لأهدم البيت، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم » فرد عليه عبد المطلب « والله مانريد الحرب وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم، وإن للبيت رباً سيمنعه، وإذا لم يتسأ فلاحول لنا» وانطلق عبد المطلب إلى معسكر الأحباش مع حناطة رسول أبرهة فتوسط له أنيس(1) عند الملك وقال له «أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال، فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب رجلا عظيما وسيما جسيما، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه « قل له ما حاجتك » فقال عبد المطلب « حاجتى إلى الملك أن يرد علىّ مائتى بعير أصابها لى » فقال أبرهة لترجمانه « قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ » فقال عبد المطلب « إنى أنا رب الأبل وإن للبيت ربا سيمنعه » قال « ما كان يمتنع منى » قال « أنت وذاك ، اردد إلى إبلى »(2)

ويقال إن القبائل المقيمة حول مكة قد أوفدت رسلا من لدنها ومن بينهم عبدالمطلب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم(3) ولما استعاد عبد المطلب إبله انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرّة الجيش، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش فقال عبد المطلب :

لا همّ إنّ العبـد يمـ   نع رحله فامنع حلالكْ(1)
لا يغلبنّ صـليبهم   ومحالهم أبدا محالكْ
ولئن فعلت فربمّـا   أولى فأمر ما بدا لكْ
ولـئن فعلتْ فإنه   أمر تتمّ به فعالكْ(2)

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة فأقبل نفيل بن حبيب الخثعمى حتى قام إلى جانب فيله وقال « ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل فوجهوه لمكة فأبى ثم للشام فهرول، وللمشرق واليمن ففعل مثل هذا، وأرسل الله عليها طيرا من البحر أمثال الخطاطيف(3) يحمل كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر فى منقاره وحجران فى رجليه لا تصيب أحدا منهم إلاّ هلك وقد أشير إلى هذا الحادث فى السورة الخامسة بعدالمائة المعروفة بسورة الفيل حيث يقول تعالى (ألمْ تر كيف فعلَ ربُّكَ بأصحابِ الفيلِ. ألمْ يجعلْ كيدَهُمْ فى تضليلٍ، وأرسلَ عليهمْ طيرًا أبابيلَ، ترميهمْ بحجارةٍ منْ سجيلٍ، فجعلَهُمْ كعصفٍ مأكولٍ)

وإن الفصل الذى قام بتمثيله عبد المطلب فى هذه القصة لهو فصل دينى الغرض منه تبجيل شأن هذه المدينة المقدسة، كما يتضح لنا منه ما كانت عليه أسرة النبى من سطوة وثراء قبل انبثاق نور الإسلام بنصف قرن، وحينما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة، وعظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، وقالوا فى ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم وينسب ابن اسحاق الأبيات التالية إلى ابن الصلت بن ربيعة

---

(1) سائس فيل ابرهة وكان يسمى محموداً

(2) الطبرى ج ١ ص ٩٣٨ - ٩٣٩

(3) الطبرى ١ : ٩٣٩

(1) قرأها نيكلسون حلالك (بكسر الحاء) ومن ثم ترجمها هكذا :

O God ! defend Thy neighbouring folk even as a man his gear defendeth !

(2) ١ الطبرى ١ : ٩٤٠

(3) ويقول الطبري أيضا (ص ٩٤٠ س ٢) ان هذه الحجارة « لا تصيب شيئاً إلا هشمته وإلا نفطر ذلك الموضع فكان ذلك اول ما كان الجدرى والحصبة. وهنا نرى حقيقة تاريخية تلك هى انتشار المرض فى جيش الحبشة

الثقفى وينسبها كثيرون غيره لأمية بن أبى الصلت الشاعر المشهور وكان حنيفاً ومعاصرا للنبى :

إن آيات ربنا ثاقبات   لا يمارى فيهنّ إلاّ الكفورُ
خلق الليل والنهار فكلٌّ   مستبين حسابُه مقدورُ
ثمّ يجلو النّهار رب رحيم   بمهاةٍ شعاعها منشورُ
حبس الفيل بالمغمس حتّى   ظلّ يحبو كأنه معقورُ
لازماً حلقة الجرّان كما قطـ   ـطرّ من صخر كبكب مجدورُ (١)
حوله من ملوك كندة أبطا   ل ملاويث فى الحروب صقورُ
خلّفوه ثم ابذعروا جميعا   كلهم عظم ساقه مكسورُ (٢)
كل دِينٍ يوم القيامة عند اللـ   ـهِ إلاّ دين الحنيفة زور

ولقد أثارت غزوة الأحباش وهزيمتهم النعرة الوطنية فى نفوس عرب الحجاز ، هـذه المشاعر التى لابد وأن يكون قد شاركهم فيها إلى حد بعيد البدو عامة ، وظهرت روح جديدة خلال الحوادث التى تخللت الأربعين عاماً التى تلت هذا الحادث فى جميع نواحى شبه الجزيرة ، وينبغى أن تتذكر دائماً أن أسرة اللخميين فى الحيرة قد انتهت بالنعمان الثالث الذى لقى مصرعه على يد خسرو برويز (٦٠٢ ، ٦٠٧ م) وكان قبل موته قد استودع أسلحته وبعض حاجاته عند هانىء شيخ عشيرة بنى بكر وقد طلب خسرو هذه الودائع ولكن هانئا رفض تسليمه إياها . فأرسل هذا جيشا فارسيا عرمرماً إلى ذى قار وهو مكان قرب الكوفة يطفح بالمياه المتدفقة ولذلك كان ملجأ حصينا لبنى بكر أثناء فصل الجفاف ، ونشبت هناك معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة الفرس هزيمة منكرة (٣) وكانت قوات العرب أكثر من قوات الفرس (٤) ، وقد عد العرب هذه الموقعة فاتحة عصر جديد . من ذلك ما يروى أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) قال حينما سمع بهذا « هذا أول يوم استراح فيه العرب من الفرس » .

أما قبائل الصحراء فقد قوى اعتقادها فى نفسها وأخذت موقف المهاجم بعد أن كانت من قبل تستظل بلواء امبراطورية آل ساسان وتخضع للأسرة الحاكمة فى الحيرة ، وأخذت تلك القبائل تظهر الموجدة والاحتقار بهذا الشبح الذى لم يعودوا يخشون بطشه بل وطئوه بأقدامهم . ؟

« انتهى الفصل الثانى »

محمد حسن حبشى

(١) الجران العنق والكبكب اسم جبل ، والمجدور : الحجر الذى جدر حتى بلغ الأرض

(٢) ابذعروا تفرقوا (الاصل)

(٣) راجع الطبرى ١٠١٦ - ١٠٣٧ وترجمة نلدكه ٣١١ - ٣٤٥

(٤) كان عدد العرب ثلاثة آلاف مقاتل والفرس الفين ، وقـد ذكر هذا فى قصيدة لبكير اصم بنى الحارث بن عباد يمتدح بها بنى شيبان .

عربا ثلاثة الف وكتيبة   الفين اعجم من بنى الفدام

شاعر الاسلام

محمد عاكف [1]

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ٣ —

مات الشاعر الكبير والساعة ثمان إلا ربعاً من مساء الخميس التاسع والعشرين من ديسمبر، تاركا للأمة التركية آثاراخالدة، آثارا مثل «دفاع جناق قلعة» و «نشيد الاستقلال»

(١)

شيعت الجنازة من «عمارة مصر» في بيوغلى إلى جامع بايزيد. وهنالك أقيمت صلاة الجنازة، ثم اتصل المسير إلى قبر الشاعر الذى هُيِّئ له فى المقبرة التى أمام شهيدلك فى «أدرنه قبو»

كان فى توديع الشاعر كثير من أصدقائه وجمهور عظيم من طلبة الجامعة، فلما أديت الصلاة وأزيد وضع التابوت على السيارة أبى الطلبة إلا أن يحملوا النعش على أيديهم، واشترك مئات الشبان فى حمله طوال الطريق من بايزيد إلى «أدرنه قبو»

وعلى حافة القبر فتح التابوت وأخذ النحات راتب عاشر صورة الشاعر فى قالب من الجص ليصنع منها تمثالا

ولما وضع الشاعر فى لحده دوت أصوات الطلبة جميعابنشيد الاستقلال الذى نظمه محمد عاكف. ثم تكلم طالب من كلية الآداب فى حياة الشاعر وما أعقبته وفاته من أسى، وأنشدت طالبة قصيدة «جناق قلعة»، وأنشدت أخرى أبياتا كتبها الشاعر تحت صورته، وهى آخر ما نظم

ثم اقترح بعض الطلبة أن يشيد طلبة الجامعة قبر شاعرهم العظيم، فتلقاه الحاضرون بالموافقة والاستحسان، واتفقوا أن يحتفل كل عام بيوم الوفاة وأن يسمى «يوم عاكف»

ثم انصرف الذين أودعوا الشاعر الكبير مقره الأبدى بين الحسرات والدموع

(١) هذه الكلمة مستخلصة مما نشرته الجرائد التركية

(٢)

هو ابن محمد طاهر أفندى الايپكى أحد مدرسى الفاتح. وأمه تركية خالصة من بخارى

ولد فى استانبول عام ١٨٧٣. وبدأ تعلمه على أبيه، ثم حصل العلوم الدينية وأتقن اللغتين العربية والفارسية

ثم التحق بالمدرسة الاعدادية فى استانبول، فلما أتم دراستها التحق بمدرسة الطب البيطرى الى أن نال شهادتها من الدرجة الأولى. وقد فاق أقرانه جميعا فى الكيمياء والطبيعة، والنبات والحيوان والتشريح ووظائف الأعضاء

ثم تنقل فى عمله بين سورية والروملى والأناضول. وشرع حينئذ ينشر أشعاره

ولما وقعت حرب البلقان عمل فى شعبة النشر من جماعة الدفاع الملى. ولما كانت المهادنة بعد الحرب العامة ذهب إلى الأناضول ولبث هناك محتملا عبئه فى الجهاد الوطنى حتى النهاية، وكان نائبا فى المجلس الكبير عن ولاية بوردور. وفى ذلك الحين نظم «نشيد الاستقلال» الذى بذ به كل المتبارين فى نظم نشيد وطنى

(٣)

كان محمد عاكف يحب من شعراء العرب ابن الفارض، ومن الترك فضولى، ومن الفرس سعدى، ومن الفرنسيين لامرتين. ويمكن أن يقال إن فى شعره آثاراً من هؤلاء ظاهرة أو خافية، ولكن الذى لاريب فيه أن عاكفا قد رفع النظم التركى فى أوزان العروض [1] إلى درجة من السلاسة لم ينلها شاعر آخر، وقد صارت اللغة التركية بقلمه أيسر لغات الشعر وأبلغها. «نشيد الاستقلال» أبرع بيان لهذا اللسان الحساس النقى الذى ذلله قلم عاكف. ومنظوماته «صوت الحق» (حقك سسلرى) و «الصفحات» فى أجزائها السبعة تراث يغنى به الأدب التركى، وإن لعاكف فى تاريخ الأدب لمكانة خاصة. لقد فقدنا بموته شاعراً عظيما

(٤)

ذلكم اجمال ما كتبته الجرائد التركية عرضته على قراء «الرسالة» تمهيداً للكلام فى شعر عاكف، موضوعه ومقاصده، وأسلوبه وأوزانه. وعسى أن أبين هذا فى الأعداد الآتية

(للكلام بقية) **عبد الوهاب عزام**

(١) للترك بجانب الاوزان العروضية العربية اوزان مقطعية قديمه، وقد حاكوا الأوربيين فى اوزانهم فى هذا العصر

حول المدفأة

أنا وابنـاى

للأستاذ محمود غنيم

وأطيبُ ساعِ الحياة لديَّا عشيَّةَ أخلو إلى ولَدَيَّا
متى ألجُ البابَ يهتفُ باسمى العظيمُ ويحبو الرضيعُ إليَّا
فأجلسُ هـذا إلى جانبي وأجلس ذاك على رُكبتيَّا
وأغزو الشتاء بموقد فحمٍ وأبسُط من فوقه راحتيَّا
هنالك أنسى متاعب يومى حتى كأنى لم ألقَ شيَّا
وأحسَبُنى بين طفلىَّ «شاها» وأحسبُ عُشِّىَ قصراً عليَّا
فكلُّ شرابٍ أراهُ لذيذا وكل طعام أراهُ شهيَّا
وما حاجتى لغـذاءٍ وماءٍ بحسبىَ طفلاىَ زاداً وريَّا؟
هنا أستعيدُ زمانا خلا وأرجعُ أطوى الليالىَ طيَّا
فأنسَى عِذارِى وأنسى وقارِى وأحسبُ أنىَ عُدتُ صبيَّا

***

فقل لرفاق النـدىِّ سلاماً فلستُ من اليوم أغشى النديَّا
ولن أتلهَّى «بشاةٍ» «وفرز» ولن ألعب النرد ما دمت حيَّا

***

وأيَّةُ نجوى كنجوايَ طفلى يقولُ: أبى فأقولُ: بُنَيَّا؟
ويا رُبَّ لغوٍ يفوهُ الصبى به فيكونُ حديثاً شجيَّا
وأفصحُ من ألف سحبانَ طفلٌ أراد الكلام فكان عَيَّا

***

فيا ليتَ شِعرى أتمتـد بِى حياتى فأجنىَ غرسَ يديَّا؟
وأشهدَ طفلِىَ حين يَشِبُّ فتى عالىَ النفس شهما أبيَّا؟
أبوك امرُؤ من رجال الكلامِ فكنْ أنت يا ابنى امرءاً عَمليَّا
فما احتقر الناسُ إلا الأديبَ ولا احترم الناسُ إلا الغنيَّا

***

أيا ابنىَّ أحبِبْ بما تكسِرانِ وأهوِنْ بما تُتلفان عليَّا
يصونكما الله من حادثات اللـيالى ويُبقيكما لى مليَّا
ويكفيكما اللهُ شرَّ البكاءِ ويحفظُ من وقعه أذُنيَّا
أمن كبدى أنتما فِلذتا ن أم أنتما حبَّتا مقلتيَّا؟

كوم حماده
محمود غنيم

أروع الأشياء

للدكتور عبد الوهاب عزام

أتذكرين يوم جئت حيرى سائلة: ما أروع الأشياء!
أتذكرين حـيرتى وأنى طوّفت فى الأرض وفى السماء
ثم اثنثيت واللسان عىٌّ يعثر بين العجز والحياء؟

***

أتذكرين بعد ذاك يوما أسلمك الحزن إلى البكاء
ترقرقت فيـه الدموع تترى لآلاءة فى خـدك الوضاء
هذى الدموع، لاعراك حزن أوحت لقلبى أصدق الإيحاء
أروع شىء فى الورى دموع فى مقلة الحزينة الحسناء

وله أيضاً:

شباب أم أمانى؟

يا زهرة فى ضفاف الماء ناضرة يهتز فيها جمال جد مفتون
وللنسيم على أوراقها عبث ينشر فيه الحسن كل مكنون
تطالع الماء تبغى فيه صورتها تردّها الريح عنه رد مغبون
وينفذ الدهر فيها حكمه فاذا شتى الوُريقات بين الماء والطين
أين الشباب الذى راقت نضارته ورفرفت فوقه أحلام مجنون
أنضرة الزهر لم تثبت لناظرها أم صورة الماء بين الحين والحين

السراج المفقود

للأستاذ أمجد الطرابلسي

لا! دعونى وسط الجموع وحيداً … أشعل القلب كى أنير سبيلى

عجباً أيها الورى! ما الذى تبـ … ـصر فى حالك الدجى المسدول؟

أترانى ولدت أعمى؟ أم الكو … ن ظلام؟ أم كل حى متيلى؟

أم هم الناس واهمون سكارى … يتغنون بالسراب الجميل؟

رقصوا فى فم الجحيم وغنوا … فوق أشلائهم وبين الطلول!

خابت العين! ليس يبصر إلا الـ … ـقلب، يا نعمة الخلى الجهول!

يا هناء الصخور فى هذه الدنيـ … ـا ويا شقوة الشعور النبيل!

يا ضلال العقول فى الحانة السكـ … ـرى ونعمى المعربد الضليل!

***

أين منى قلبى ينير سبيلى؟ … أترى ذاب قبل ليلى الطويل؟

أم ترى أطفأته عادية الر … يح جنوناً وزمجرات السيول؟

ورمته كفى فأهوى به السيـ … ـل غضوباً إلى أقاصى السهول

واخبالى! أما سمعت سراجى … يتشظى؟ وما أشد ذهولى!

مزجت شرة السيول بقايا … ه مع الشوك والحصى والوحول

تلك أشلاؤه تشع على البعـ … ـد وراء الربى وخلف الحقول

***

يا سراجى المفقود فى ثورة الليـ … ـل شهيداً، يا مشعلى ودليلى!

يا سنا مقلتى فى الظلم السو … د ويا نور غمى المملول!

كنت لحنى فمن يمزق صمتى؟ … ومدامى فمن يبل غليلى؟

وأنيسى فمن تركت لأنسى؟ … وخليلى فمن يكون خليلى؟

يا سراجى كلت ذراعى فألقتـ … ـك بلا رحمة ودون عويل

فرحت مثلما تسر بترك الـ … ـغل كف المصفد المغلول

حسبت فى نواك راحتها الكبر … ى ضلالاً، واخيبة المأمول!

يا سراجى! لما صرخت هشيماً … وتبددت كالدم المطلول

قد تصامت عن أنينك، لا بل … كان عندى كأنه إلا رغول!!

نصب آذنى تخففت حملى … بعد يأسى من حلى المقتول

ما ترى الفلك فى العواصف تلقى … بخفيف من حملها وثقيل..؟

***

أيهذا السارى المروع! مهلاً … وعزاء عن كل قصد وسول

ما ترجى وهذه الدجية النكرا … ء غشت بوارق التأميل؟

الدجى راعب تفح به الأشبـ … ـاح ظمأى إلى النجيع العليل

موحش ليس فيه غير صدى الوبـ … ـل، وهزج الأمواه وسط المسيل

وأعاصيره تلاعب خديـ … ـك بسيف من بردها مصقول

والذئاب الجياع ضجت عواء … فى بطون الهوى وفوق التلول

تتحرى فريسة من جريح … أو طريد أو شارد أو قتيل

أيهذا المسكين! أى الأمانى … تتقرى؟ هديت من مخبول!

شعثت رأسك الرياح السوافى … وتعثرت فى الكثيب المهيل

لا تمدن إلى جبينك كفاً … ضرجت بالدم الزكى الطليل!

ضرجتها الأشواك من طول ما تكـ … ـبو عياء كالموثق المكبول

أترجى خلف الدياجى شعاعا … من صباح مزوق أو أصيل؟

ما وراء الظلام إلا ظلام … ليس فيه من ملجأ أو مقيل!

كل واد وراءه ألف واد! … كل ميل وراءه ألف ميل!

خاب من سار لاصطياد الأمانى … فى عمايات مهمه مجهول

من يسر دون غاية كيف يحظى … بعد طول السرى بنعمى الوصول؟

***

ارجع القهقرى فلن يطلع الفجـ … ـر ولن تستقر بعد الرحيل

وتلمس بين الصخور رماماً … من سراج محطم مشلول

وأعد سبكها سراجاً منيراً … لدجاك المعبس المسدول

لا تقل إنه يهد ذراعى … م ويدنى نضارتى للأفول

إنه فجرك الذى تتمنى … إنه نبعة الهوى والميول

إنه فرحة الحياة وبؤسا … ها وشهد المنى وسم الذحول

إنه هيكل الرضى والتأسى … إنه رفرف الجمال الخجول

إنه مهبط الرؤى والأمانى … والخيالات والهوى المعسول

***

يا سراجى أنت العناء ولكن … فى تواريك مصرعى وأفولى

«دمشق» **أمجد الطرابلسى**

الفنون

أكروبوليس أثينا

Erechtheion

للدكتور أحمد موسى

(تابع)

وإذا أردنا أن نسجل هنا كل ما في معبد بارتنون من عجائب الفن وآياته ؛ فانا نحتاج إلى أعداد كاملة من « الرسالة » ، ولكنا نقتصر على وصف أهم ما فيه مما يستطيع غير المشتغل بعلم الآثار أو بتاريخ الفن تفهمه وتذوقه

فالمثلثان المصوران بين السقف الجمالوني وافريز المعبد من واجهتيه حيث المدخل المؤدى للهيكل، اشتملا كما سبق القول على منحوتات غاية في الابداع الفني وجمال الانشاء المجموعي ، كلها من خلق الفنان فيدياس .

وترى في (ش ١) مجموعة منحوتات أحد المثالين ، نقلها العلامة كارى عن الأصل بتصرف قليل اضطر إليه ، وهي كما يتضح بالنظر إليها مبتورة الاجزاء ؛ ومعظم هذه القطع موجود بالمتحف البريطاني وبمتحف أثينا .

والصورة (ش٢) تبين امرأتين جالستين(١)، احداهما قد اضطجعت مستندة إلى صدر الأخرى وواضعة يمناها على فخذها ، على حين ترى ساق الثانية كأنما يلتصقان بالفخذين حتى يكون بذلك إخراجهما طبيعياً إلى أبعد حد .

والبناء العام لجسميهما مثل عال من أمثلة تناسب الأعضاء ؛ وإذا رجعنا إلى أصول وقواعد النحت ، نجد أن فيدياس من أقدم مؤسسي هذه الأصول والقواعد ، كما يتضح هذا من منحوتاته ، التي ترى الوحي فيها خارجا عن دائرة حاجات النفس المادية ، بل إنك إذا تفرغت بها للاستمتاع الذوقي ترى أنها تعرج بك إلى ملكوت الخيال السامي

ومهما وصفنا قطع فيدياس فأننا لا نزال نقصر عن وصف ما جال بخاطره عند نحتها الذي عبر به عن ثورة فنية رائعة تكاد

(١) لا ينطبق هذا الوصف على (ش ٢) ولعل ذلك سهو من الأستاذ الكاتب (الرسالة)



(ش ٢) التمثال الرخامي لأثينا بارتنوس



(ش ١) يبين المثلث الواقع تحت جمالون الوجهة الغربية لمعبد بارتنون

تكون خارقة للمعقول ، إذا علمنا أنها نحتت من الرخام فى القرن الخامس قبل المسيح .



(ش ٢) جزء من مجموعة النساء الممثلة فى مثلث الجهة الشرقية لهالون بارتنون

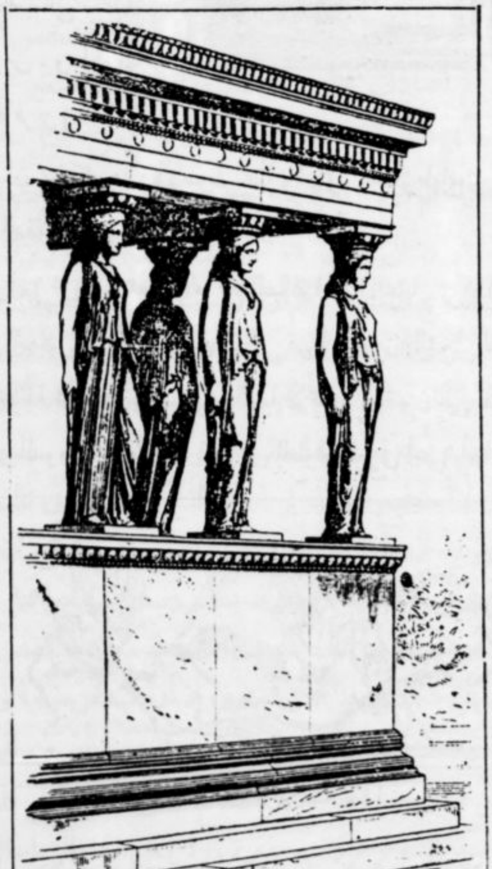
ولعل تمثال أثينا بارتنوس المصنوع من الرخام أيضاً (ش ٢) يعطينا فكرة عن تمثال أثينا الذى قلنا فى المقال السابق إنه كان من العاج الخالص والذهب وارتفاعه ثلاثة عشر متراً ، والصورة هنا ليست على جانب كبير من الدقة ، إلا أنها لا تخلو من إظهار الغاية التى عمل التمثال من أجلها

والمغادر لمعبد بارتنون يرى إلى الناحية الشمالية على بعد قليل ، معبد إرشتايون (انظر صورة اكروبوليس بالمقال الأول) وهو المعبد الذى بناه ككروبس لأثينا بولياس بأحجار نحتتها الآلهة وألقت بها من السماء إلى الأرض على هذه البقعة حيث تحاربت أثينا مع بوزيدون على امتلاك البلاد ، كما كانت شجرة الزيتون التى غرستها أثينا والمنبع الملحى الذى حفره بوزيدون فى هذا الموضع أيضاً

حطم كسركسس Xerxes هذا الموضع المقدس ، ولكن إقامته أعيدت بكل نشاط فى عصر بركليس ، إلا أنه لم يتم نهائياً إلا عند انتهاء حرب بيلوبونيز . والناظر إلى المجموع الانشائى لهذا المعبد يرى أنه مكون من ثلاثة معابد : هى معبد أثينا ومعبد بوزيدون ارشتايوس (ارشتايون) وباندوروزوش Pandorosos لأن الرغبة كانت متجهة إلى المحافظة على هذه المساحة المشغولة بالثلاثة المعابد معاً ، لذلك كان المجموع الانشائى على شكل غير منسجم التكوين من حيث الوضع الهندسى للبناء ، ولفظ ارشتايون باللغة الاغريقية معناه الأقدم ، وقد أطلق على هذا المعبد نظراً لأنه مكون من الثلاثة معابد القديمة

وصالة كرياتيد Karyatidenhalle (ش ٥) تحمل سقفها آنسات قد وقفن وعلى رؤوسهن السقف ، ولم تظهر على وجوههن علائم التعب أو الاجهاد ، بل إن وقفتهن تمثلهن كما لو كن يحملن شيئاً مألوفاً . ويعطى قوامهن فكرة كاملة عن جمال الشابات الاغريقيات اللاتى لم تمتلئ أجسامهن بعد . والواقع أن جمال الأجسام لا يرتبط بضخامتها أو نحافتها ، بل بتكوينها الكلى وحسن تناسب أجزائها وانسجامها بعضها مع بعض لتكوين المجموع ، وهذا نفسه ما قرره أوجستينوس (٣٥٤ - ٣٢٠ ب . م .) فى شرح الجمال Non Mole Constat, Sed Parilitate Ac Demension Membrosum

وإذا لاحظنا أن الأولى من اليمين تكاد تتشابه مع الثانية من حيث طريقة الوقوف ، مع فارق ضئيل فى كيفية امتداد الذراع ، وأن الأولى من اليسار اختلفت فى شكل امتداد الساق اليسرى بدلا من اليمنى كما كان الحال فى الاثنتين الأخريين ، وعلمنا أنهن يشتركن

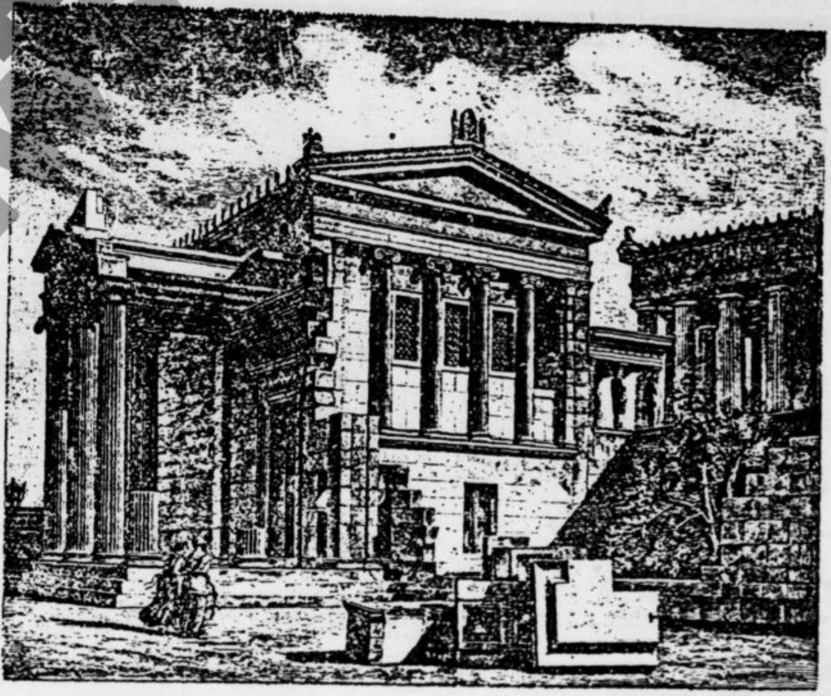


(ش ٤) حاملات سقف صالة كرياديت بمعبد ادشتيون

جميعاً فى حمل سقف واحد ؛ أمكننا أن نتصور القدرة الهائلة فى الاخراج ، لأن أوليات قواعد الهندسة تحتم أن يكن كلهن فى ارتفاع واحد لمستوى السقف . فترى الفنان مع هذا القيد الهام ووجوب

مراعاته استطاع أن يخرج عن ضرورة التشابه خشية الأملال كما هو الحال فى عمل الأعمدة ، وتصرف فى طريقة إخراج السيقان والأذرع لجعلها مختلفة دون إخلال بأصول التوازن

أما التيجان البسيطة التى علت الرؤوس ، وما فوقها من الافريز (الشامل للأسنان) فكل هذه فى ضبط نحتها واستوا خطوطها مثل آخر من أمثلة الدقة



(ش ٥) معبد ارشتايون

وفى (ش ٤) نعرف موقع الصالة المقول عنها . وكذلك الشكل الكلى للمعبد . وأهم ما يلفت النظر هو التكوين الشكلى للأعمدة ، فهى مخالفة فى قاعدتها السفلى والعليا لأعمدة بارتنون التى قلنا إنها من الطراز الدورى . أما هذه فهى من الطراز اليونى أعنى أنها اختلفت



(ش ٦) جزء من افريز معبد نيكا ابتروس

عن اليونية بوجود قاعدة صغيرة أسفل كل عمود فضلا عن التاج الدائرى الجانبين على نهاية كل منها ، وعلى هذه النهاية قام السقف الجالونى الذى ترك مثلثاه دون منحوتات بداخلهما كتلك التى رأيناها فى معبد بارتنون

والشجرة المغروسة إلى جانب الصورة تمثل شجرة الزيتون السابق ذكرها بالمقال الفائت . ولا نترك اكروبوليس أثينا دون تنويه بمعبد أثينانيكا القريب من المدخل العام (بروبيلين) وهاهى ذى قطعة من افريزه (ش ٦) تشمل أحد المناظر التى تجلت فيها قدرة الاخراج. فاذا تاملت الأشخاص وما مثله من حركات الهجوم والمقاومة والانتصار والانهزام ، رأيت أن المثال أخرجها فى قوة جديدة بالتسجيل بالنظر لما فيها من دقة العضلات وتفاصيل الجسم وحسن التمثيل

احمد موسى

القصص

شحاذ الارواح

للكاتب الايطالى

جيوفانى بابينى

دفعت آخر قرش كان معى ثمنا لفنجان القهوة ثم أخذت أفكر فى الجوع ـ الجوع للطعام والجوع للشهرة ـ إذ لم يكن هناك من يهمه أمرى حتى صاحب المجلة التى أكتب فيها لم يكن يقبل منى قصة إلا عندما لا يجد أفضل منها ، وقد اعتاد أن ينفحنى خمس « ليرات » سواء كانت القصة طويلة أو قصيرة

فى ذلك المساء من شهر يناير كان الجو يدوى بالرياح القوية العاصفة وأصوات الأجراس الرتيبة العالية ، فدلفت إلى أحد المقاهى الكبيرة أتفرس فى الوجوه النائمة المتعبة ، ثم أخذت أرتشف فنجان القهوة وأنا أفكر فى خاطرة غريبة تصلح لأن تكون موضوعا لقصة . فأخذت أقدح زناد فكرى علنى أهتدى إلى فكرة لقصة أصيب منها بضع ليرات تكفينى يوما أو يومين

كنت مضطراً لأن أكتب قصة فى تلك الليلة أقدمها لصاحب المجلة فى الصباح ، فينفحنى مبلغا من المال يكفى لأكلة طيبة ، فأخذت أفكر أترقب أول خاطر يهفو بذاكرتى أملأ به تلك الأوراق البيضاء التى وضعتها أمامى على المنضدة

قضيت أربع ساعات وأنا على هذه الحالة من الانتظار والحيرة ولكن رأسى كان فارغا وخيالى ثقيلا وذهنى مكدوداً ، فيئست من كتابة أى شىء فى تلك الليلة فألقيت بآخر قطعة من نقودى على المائدة وانصرفت

ولكنى لم أكد أترك المقهى حتى جال بخاطرى ذلك القول القديم وهو « إذا استطاع الانسان العادى أن يدون حياته الخاصة فانه يخرج لنا أعظم القصص » ثم أخذت أفكر فى هذا ولكنى لم أصل الى شىء جديد . إلا أنه ما كدت أصل الى منزلى حتى وقفت وقلت لنفسى « لماذا لا تحاول هذا بنفسك . لماذا لا تكتب حياة أى رجل عادى يقابلك » فى الطريق

لم يكن لدى ما أقوله عن نفسى فقد أفرغت كل شىء حدث لى فى قصصى ، وعلى ذلك يجب أن أبحث عن رجل عادى ـ وان كنت لا أعرفه ـ يقص على قصة حياته

لاحت هذه الفكرة غريبة وبسيطة حتى أننى عزمت على تنفيذها بأسرع وقت فتركت منزلى وأخذت أطوف فى الشوارع آملا أن أصادف فى تلك الساعة المتأخرة من الليل إنسانا . سرت مسرعا أتفرس فى كل الوجوه محاولا أن أختار الشخص المناسب ولكنى لم أصادف مخلوقا فانعطفت إلى ميدان صغير ووقفت هناك كأنى أحد قطاع الطرق أو أحد لصوص الليل . ثم لمحت شبحا قادما فلم أرد أن أفاجئه بهجومى السريع فانتظرت حتى دنا منى فاذا هو رجل عادى قد التف فى عباءة طويلة وترك شعره الطويل يتموج فى الفضاء فلم أرد أن أسأله وتركته يمضى فى طريقه ، ثم تبعه آخر وكان حليق الذقن محدودب الظهر يتمتم بأغنية أسبانية قديمة لعلها كانت تذكره بأيام شبابه الماضية ، فلم أكد أتفرس فى وجهه حتى رأيته يغلب عليه النوم فتركته لشأنه

انى لا أستطيع ان أتذكر الحالة التى كنت فيها فى تلك الليلة ، كلما فكرت فى تلك الحادثة فأتصور نفسى إنسانا غريبا من قطاع الطرق يترقب شخصا لا يعرفه يسأله قصة حياته وهو يتحرق شوقا لأن ينقض على تلك الفريسة المجهولة ، وكأن القدر القاسى قد ضن علىّ بذلك الرجل الذى أنتظر ، إذ أن جميع من مروا بى كانت تبدو عليهم علامات الترف والنعيم . ولكنى لم أيأس من الوصول إلى بغيتى ، فبقيت واقفاً تحت المصباح الذى كان يتمايل كلما هبت الريح ولكن الشوارع كانت مقفرة ، ولم تكن تلك الرياح العاصفة تغرى الناس على السير فى تلك الليلة الباردة . ولكن لم يطل انتظارى إذ لاح على بعد شبح قد أيقظ الشارع وملأه حركة بعد سكونه ثم أخذ يدنو منى شيئاً فشيئاً ، ولم يكد يقترب منى حتى عرفت أنه الرجل الذى أبحث عنه . لم يكن ذلك الرجل بالجميل ولا بالقبيح . بل كان وسطاً بين الاثنين كما كان وسطاً بين الشباب والكهولة ، ذا عينين هادئتين يلبس معطفا سميكا على أحدث

طراز . فلم يكد يخطو عدة خطوات حتى أوقفته بيدى ، فارتاع لمرآى ورفع يده كمن يتأهب للدفاع عن نفسه ولكنى أسرعت فطمأنته أنى لا أريد به سوءاً فقلت له فى صوت رقيق « لست قاتلا ولا سفاك دماء ولا شحاذاً وإن كنت شحاذاً من نوع آخر ، إنى لا أطلب مالا ولكنى أطلب شيئاً واحداً لا يكلفك نفقة هو قصة حياتك » فحملق الرجل فى وجهى ثم تراجع إلى الوراء ، فتوقعت أنه قد ظن أنى معتوه فقلت فى صوت هادئ رزين « إنى لست مجنوناً كما تظن وإن كنت قريباً من ذلك فأنا كاتب قصص علىّ أن أكتب قصة قبل طلوع النهار لأرد عن نفسى غائلة الجوع ، ومن أجل ذلك أسألك أن تخبرنى عن كل ما حدث لك . من أنت؟ وماذا تعمل؟ حتى يمكننى أن أكتب قصتى عنك . إنى أصارحك القول إنى أحتاج إليك وإلى قصة حياتك وإلى اعترافاتك . أرجوك ألا تخفى عنى شيئاً . إنى واثق أنك لا تضن بمساعدة مخلوق بائس مثلى فأنت الرجل الذى كنت أنتظره وربما كنت أستطيع أن اكتب بما تقدمه إلى أروع القصص

فبدا على الرجل التأثر ونظر إلى فى عطف وإشفاق وقد زال عنه الخوف وقال « حسنا . إذا كنت تريد حقا أن تسمع قصة حياتى فيمكننى أن أخبرك عنها لا سيما وأنها سهلة بسيطة . فقد ولدت منذ ٣٥ سنة من أسرة كريمة وكنت وحيد والدىّ فأرسلانى إلى المدرسة وأنا فى السادسة . وفى التاسعة عشرة التحقت بالجامعة وحصلت على درجتى فى الرابعة والعشرين . لم أظهر طوال دراستى شيئاً من النبوغ الخارق ، أو الغباوة الفاضحة . ثم أعاننى والدى على أن أشغل وظيفة فى السكة الحديدية وخطب لى فتاة جميلة . إنى أعمل ثمانى ساعات فى اليوم وعملى لا يحتاج إلا إلى الصبر وذاكرة متوسطة ، ويزداد مرتبى جنيهين كل ست سنوات ، وعلى ذلك فاذا عشت حتى الرابعة والستين فسأحصل على معاش قدره كذا . لقد أنجبت طفلين ولدا وبنتاً ، فالولد فى العاشرة الآن وسأعده لأن يكون مهندسا ، وأما البنت فهى فى التاسعة ، وسوف تكون مدرسة . إنى أحيا الآن حياة هادئة لا يشوبها نكد أو أطماع . أستيقظ فى الثامنة من صباح كل يوم وفى التاسعة مساء أذهب إلى المقهى حيث أتحدث مع بعض زملائى عن الطقس والحرب والحكومة والوظائف . والآن لقد أخبرتك بما تريد ، فهل تسمح لى بالعودة بعد أن تأخرت عن موعد ذهابى إلى المنزل عشر دقائق » .

ولم يكد ينتهي من كلامه حتى شعرت بشىء غريب اضطرب له جسمى إذ كيف يحيا ذلك الرجل تلك الحياة الرتيبة العادية الثابتة . فأشفقت عليه ومضيت فى طريق وأنا أقول فى نفسى « حسنا ، هذا هو أحسن نموذج للرجل العادى والبطل الحقيقى للحياة الحديثة . والعجلة الصغيرة فى الماكينة الكبرى ، واللبنة الأولى فى الحائط العظيم ، الرجل الذى لا يضطرب كثيرا للخيالات والتصورات ، كنت أظن أن مثل هذا الرجل غير موجود ولكنى قد وجدته أخيرا واقفا بجانبى ، ثم أردت أن أعرف عنه كل شىء فهرولت وراءه وأنا أقول « أليس هناك شىء آخر فى حياتك ، ألم يعرض لك حادث غريب ، ألم يحاول أحد أن يقتلك ؟ ألم تخدعك زوجك أو يهزمك عدو ؟ فأجابنى : « لاشىء من هذا . لقد كانت حياتى كلها هادئة منتظمة ، فلم أعرف الأفراح البهجة ولا الأحزان القاتلة . لم يحدث لى ما يستحق الذكر » فقاطعته قائلا : أحقا ما تقول ؟ حاول أن تتذكر - إنى لا أكاد أصدق هذا النوع من الحياة . فأجابنى : « إنى أؤكد لك أنه لم يحدث لى شىء حتى هذه الليلة ، حتى فاجأتنى بلقائك الغريب الذى هو أول مخاطرة - فاذا أردت أن تكتب شيئا فعليك بهذا

قال هذا ثم مضى مسرعا فبقيت فى مكانى أنظر حولى حائراً مذهولا .

ثم عدت إلى منزلى دون أن أكتب القصة . ومنذ ذلك المساء لم أعد أسخر من أولئك الناس العاديين ثانية

نظمى خليل

البريد الأدبي

كيف يكتبون عن حركتنا الأدبية

قرأنا فى صحيفة «هنوفر شركورير» الألمانية فصلا كتبه لها مراسلها الخاص بالقاهرة تحت عنوان «الشعراء المصريون» وأثر الشعر فى مجد مصر القومى، فرأينا أن نأتى على ترجمته ليرى قراء العربية كيف يكتب الأجانب عن حركتنا الأدبية وكيف يصورونها تصويراً يبعد أحيانا عن الحقيقة بمراحل؛ قال الكاتب:

تبدو مصر بطرافة مشاعرها القومية وروعة سمائها وأقليمها وسحر ماضيها وصراعها المستمر فى سبيل الحرية كأنها موطن الشعر، وتبدو كأنها تذكى الفكر وتجذبه، بيد أن تراثها الأدبى، وبالأخص تراثها من الشعر السياسى والقومى يبدو متواضعا جداً. ويرجع ذلك إلى أن شعب النيل منذ عهد اليونان والرومان يرزح تحت صنوف الاستبعاد والذلة؛ فبعد الاسكندر الأكبر جاء قياصرة رومة، ثم قياصرة بيزنطية، ثم العرب، وأخيرا الترك؛ وهكذا مزق صرح الوحدة القومية الذى لابد منه لكل تقدم عقلى قوى؛ ومنذ عصر محمد على أى منذ نحو قرن بدأ نماء هذا الصرح القومى، والى ختامه الظاهرى أخيرا حيث استطاعت مصر أن تحقق حريتها السياسية وسيادتها القومية؛ بيد أنها رغم هذا الظاهر لاتزال من حيث الناحية المعنوية فى المؤخرة

وللجاليات الأجنبية التى تعيش فى مصر منذ بعيد، رغم تطور مصر القومى أثر قوى فى جميع مناحى الحياة؛ وقد كانت الدوائر الاجتماعية التى كان بوسعها أن تعمل على خلق نهضة ثقافية خاصة على اتصال دائم مع الأجانب، بيد أنها فيما يتعلق بشؤون الأسرة اتجهت إلى استانبول، لأن معظم رجال هذه الطبقة كانوا يتخذون زوجاتهم من التركيات، وهؤلاء طبعن الحياة العائلية بطابعهن ولغتهن؛ بل لقد غلبت التركية على العربية، وألقى بالعربية إلى الشارع حتى غدت فى مستوى العامية، ولم تبق اللغة الأدبية إلا فى الدوائر الدينية، وبقى مثلها الأعلى لغة القرآن

وتبوأ الدين زعامته إزاء الاستبعاد المستمر وسحق الكرامة الوطنية، وسادت الفكرة الاسلامية كل نواحى الحياة العامة والاجتماعية؛ فحال ذلك دون نهضة الشعر القومى؛ وقامت ضد الفكرة الوطنية فكرة الجامعة الاسلامية، ولم تتخذ الفكرة السياسية لها مكاناً خاصاً بل غمرتها الفكرة الدينية فسارت فى أثرها؛ وهكذا كان منحى الشعر السياسى فانه سار فى أثر الفكرة الدينية؛ واجتمع حول رعاية القصر فى عهد أول زعيم لنهضة مصر الثقافية فى العصر الحديث ألا وهو الخديو اسماعيل؛ ومن شعراء هذا العهد على الليثى وعبده الحولى (كذا)

وتقدمت عملية ترقية الشعب على يد البعثات التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، وعاد أولئك الشبان إلى مصر يحدوهم العزم فى أن يخلقوا لمصر حياتها العقلية الخاصة؛ بيد أنهم كانوا دائماً متأثرين بالنفوذ الأجنبى ولا سيما النفوذ الفرنسى، وفى أثناء هذه البداية فى سبيل الوحدة القومية وقعت الحوادث العرابية التى انتهت باحتلال الانكليز لمصر؛ وهنا ظهر لأول مرة جيل فتى من الكتاب والشعراء يهتف بحريات الوطن والذود عنها، وشرد أبناؤه فى السجن والمنفى؛ وكان أهم أعلام هذا الجيل سامى البارودى ومحمد عبده

وبث الاحتلال الأجنبى وما أصاب الوطنية الوليدة روحا جديداً فى الوحدة القومية؛ وظهر فى مصر أول الزعماء الوطنيين فى المشرق، وأسس مصطفى كامل تلميذ جولييت آدم وبييرلوتى الحزب الوطنى، وأدرك هذا الزعيم منذ البداية أهمية الشعر والكتابة فى النهضة الوطنية فجمع حوله ماهنالك من كتاب وشعراء قلائل؛ بيد أن هؤلاء لم يكونوا سوى أبواق سياسية؛ ولم ينبغ من هذا الجيل سوى شاعرين اقتحما هذه الدائرة السياسية الضيقة فى نظمهما هما: شوقى وخليل مطران، فهذان شاعران بلا ريب؛ وهما لم يدعوا فقط إلى الوطنية، بل تجولا أيضاً فى ميدان التأملات الخاصة؛ وقد ضم ذهناهما الفكرة المصرية والفكرة الوطنية وتوثقت فيهما عداهما رغم أن خليل مطران ليس مصرياً إلا بالموطن (وهو سورى المولد)؛ ففى نظمهما يرى الانسان مصر، كما يود أن يراها كل منهما؛ تلك هى مصر المصرية وللشعب المصرى

هذا مانشرته الصحيفة الألمانية، وفيه ما يغنى عن التعليق، بيد أننا نلاحظ فقط أن مانكتبه نحن عن أدب الغرب وعن الحركات الأدبية الغربية يندر أن يعرض لمثل هذا الخلط فى الوقائع والتصوير

وإنا لنغتبط إذ يعنى القوم بالكتابة عنا كما نكتب نحن عنهم ، بيد أنا نرجو أن يوفقوا فى دراساتهم لشؤوننا وحركاتنا بأكثر فيما يبدو فى مقال الكاتب

الأزهر والمؤتمرات الدولية

قرر مجلس الجامع الأزهر تلبية لدعوة المكتب الدولى للتعاون الثقافى أن يشترك فى شهود مؤتمر القانون الدولى الذى تقرر عقده فى مدينة لاهاى (بهولندة) فى شهر أغسطس القادم ، وسيمثل الأزهر الشريف الاسلام ويقدم إلى هيئة المؤتمر بحوثاً شرعية فى الوقف والمواريث والهبة وغيرها من المسائل التى تمتاز بطرافة أحكامها ، وسيتألف الوفد الأزهرى إلى المؤتمر من ثلاثة أعضاء هم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم رياض مدير قضايا بنك التسليف الزراعى والأستاذ عبد الرحمن حسن القاضى الشرعى والأستاذ محمود شلتوت المدرس بكلية الشريعة وقد سبق أن اشترك الأزهر فى الأعوام الأخيرة فى غير مؤتمر دولى علمى أو دينى ، وهذه سنة حسنة تمهد لتعاون الأزهر مع الهيئات العلمية والدولية الكبرى ، وتزيد فى هيبته العالمية

تحريم جوائز نوبل فى ألمانيا

سبق أن أشرنا فى عدد سابق من «الرسالة» إلى الضجة التى حدثت فى ألمانيا على أثر منح الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للسلم إلى الكاتب الألمانى كارل فون أوسيتسكى ، وإلى ما أبدته الحكومة الألمانية يومئذ من الامتعاض والتأثر لأنها ترى فى الكاتب الذى أسبغت عليه لجنة نوبل هذا الشرف خائناً لوطنه ، والخيانة هنا هى أن أوسيتسكى كان قبل قيام النظام الهتلرى يدعو إلى السلم ونزع السلاح ومنع الحروب ، وهى مبادىء تخالف الأمانى العسكرية والامبراطورية التى تتعلق بها ألمانيا النازية : وكان أوسيتسكى حينما أنعم عليه بجائزة نوبل سجيناً فى المستشفى ، ولكن الحكومة الألمانية سمحت له تحت ضغط الرأى العام الدولى أن يقبل الجائزة . على أنها اتخذت أخيراً فى هذا الموضوع خطوة حاسمة ، فقد قررت أن تحرم جوائز نوبل أياً كانت على الألمان ، وأنشأت هى جائزة قومية ألمانية قدرها ثمانية آلاف جنيه ، (وهو ما يساوى قيمة جائزة نوبل) ، وبذلك خرجت ألمانيا من عداد الدول التى يتقدم علماؤها وكتابها لنيل الجوائز الشهيرة ، وقد فاز الألمان منذ نهاية الحرب الكبرى بنحو خمس وعشرين جائزة فى مختلف العلوم والفنون والآداب ، ولكن ألمانيا الهتلرية تمقت كل حركة تمازجها الصفة الدولية ، وكل شرف لا يطبعه الشعار القومى ، وهى من جهة أخرى لا تريد أن تسمح للهيئات العلمية الأجنبية أن تكون حكما عليها فى أمر من الأمور كما حدث فى مسألة كارل فون أوسيتسكى

طوالع الأيام قديماً وحديثاً

كان العرافون القدماء يحصون الحوادث السيئة والحوادث الطيبة فى أيام معينة لكى يستخرجوا بعد ذلك الأيام السعيدة والأيام المنحوسة ، وقد انتهوا بعد أجيال إلى القول بأن هناك أياما بعينها تعتبر أياما سعيدة ، وأخرى تعتبر منحوسة ، وكانت هذه الأيام معروفة منذ العصر الغابر ، وكان يعرفها أهل بابل قبل المسيح ، وكان المصريون القدماء يقولون أيضاً بمثل هذه التفرقة بين الأيام ، ولهم قوائم معينة بالسعيد منها والمنحوس ، واستمرت هذه القوائم معروفة متداولة حتى العصور الوسطى . وعندئذ طبقها العرافون على أيام التقويم الجريجورى .

فمثلا يمثل يوم الاثنين السلام ، ويمثل الأربعاء النجاح والخميس الشجاعة والأحد يمثل الراحة والسعادة ، وهذه هى الأيام السعيدة . أما الأيام المنحوسة فهى الثلاثاء وهو يوم مارس إله الحرب ، والجمعة وهو يوم فينوس ، والسبت وهو يوم زحل

أما العرب فقد خالفوا هذا الاستنتاج ، واعتبروا يوم الجمعة من الأيام السعيدة ، وأنه يوم القرآن .

ويرى العرافون المحدثون ألا يأخذوا فى ذلك بأقوال القدماء ، وأقوال عرافى العصور الوسطى ، ويرون أن لكل إنسان طالعا واحدا فقط هو طالع اليوم الذى يولد فيه ، ويتأثر هذا الطالع بظروف وحوادث معينة ، وعلى هذا الطالع يتوقف مصير الانسان مدى الحياة

رحلات بيتر موندى

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عن رحلات رحالة انكليزى فى القرن السابع عشر تعتبر فى ذاتها وثيقة تاريخية هامة ، والرحالة المذكورة هو بيتر موندى ، وقد كان موظفا فى شركة الهند الشرقية التى بدأت استعمار الهند ، وكتب عن أسفاره ومشاهداته مذكرات يومية لبثت مخطوطة حتى العصر الأخير ، وعندئذ عنى بنشرها السير تمبل فنشر منها أربعة مجلدات حتى سنة ١٩٢٥ ، وصدر أخيراً المجلد الخامس والأخير ، وفيه يقص موندى رحلته الأخيرة إلى الهند ، ويصف البلاد التى زارها أثناء مسيره فى أوربا وآسيا ولاسيما الجزائر الافريقية التى كانت ترسو بها السفينة مثل سنت هيلانة وأسانشيون . وقد شهد موندى حوادث الثورة الانكليزية ولكنه حريص فى سردها ، يقدمها كما وقعت دون تعليق ، وتتناول هذه الفصول وصف

كثير من المدن الآسيوية ومشاهدها فى هذا العصر الذى أخذ الشرق ينحدر فيه إلى سباته الطويل ، وأخذ الغرب يتربص به وينقض عليه تباعا ، وقد عاش موندى بين سنتى ١٢٠٨ و ١٦٦٧ ، وصدرت رحلاته بهذا العنوان : رحلات بيتر موندى فى أوربا وآسيا ، The Travels of P. Mnndy in Europe and Asia ومن المحقق أن المؤرخ يجد فى مذكراته كثيراً من الوقائع والحقائق التى تفيد فى درس مجتمعات القرن السابع عشر .

فى ميدان الاجتهاد

مسألة الاجتهاد فى الدين - من المسائل الفكرية - التى تعنى الرسالة بدرسها وتسجيلها - من أجل ذلك فتحت صدرها لمقالات الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى (فى ميدان الاجتهاد) - المجلد السادس : ٥٨ و ٢٦٠ و ٤٦٤ - والمجلد السابع : ١٩٩٨ - ونشرت آراءه فيها - فكان من رأيه فيها :

١ - (أن نعتمد من رجال كل من أهل السنة والشيعة والخوارج من اعتمدوه - ونرفض منهم من رفضوه - ولا يوجد مايمنعنا من الانتفاع بالحديث الضعيف فى التشريع - والأخذ به عند الحاجة اليه ، فلا نرفض من الأحاديث إلا ماثبت أنه موضوع بيقين ولا نتهم من رجال الحديث إلا من ثبت عليه الكذب قطعاً ورب حديث ضعيف يكون هو الصحيح - ورب رجل متهم . يكون هو الرجل الثقة)

٢ - (ان نحذف الاجماع من بين الأصول التى يرجع إليها فى الاجتهاد - وأن نرجع مباشرة إلى النصوص التى لابد من استناده إليها - فقد يفتح الله علينا بفهم جديد - غير مافهموه منها)

٣ - (ألا نقتصر فى القياس على الحاق الشبيه بالشبيه لأن هذه السنة قد اختلفت رواياتها اختلافاً كبيراً ولا بد من تحكيم الرأى فيها تحكيما مطلقاً)

٤ - (إن الاجتهاد جائز فى الأصول وفى الفروع لأن النبى صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً واحداً إذا أخطأ ، ولم يفرق بين أصول وفروع - بل أطلق الأمر إطلاقاً - وفتح باب الاجتهاد فى الأصول والفروع معاً)

٥ - وكان الأستاذ فى آرائه تلك خارجا على العلماء الأصوليين المتأخرين - كما قال هو عن نفسه فى الرسالة (١٨٨)

٦ - (ولم يدع العصمة فيما قال - بل عرض رأيه على صفحات هذه المجلة - لتشترك فيه الآراء - وتمحصه البحوث - كما قال فى خاتمة مقالاته (فى ميدان الاجتهاد)

* * *

فما هى آراء العلماء الأعلام - فى هذه المسألة ؟ أرجو أن يدلوا بها باختصار - وأنا واثق ان «الرسالة» التى أثارت البحث فى هذه المسألة المهمة - ونشرت كل ماقال الأستاذ الصعيدى - لن تضن عليهم بنشر مايرونه - وهذه سبيل الوصول إلى الحقيقة - التى نريدها ويريدها الأستاذ الصعيدى - والمسألة مهمة - تتصل بأصل الدين - ولا يجوز التغافل عنها .

« دمشق » على الطنطاوى

المعارض الدولية

أصبحت المعارض الدولية عنوان النهضات الاجتماعية والاقتصادية، ومع أنه لم يمض على البدء بتنظيمها أكثر من ثمانين عاما . فانها تغدو اليوم من أعظم المظاهرات القومية والدولية فى سائر نواحى التقدم ، وقد أقيم أول معرض أو سوق عالمية من هذا النوع فى لندن سنة ١٨٥١ فى قصر البلور الذى التهمته النيران منذ أسابيع قلائل : ثم تبعه معرض باريس فى سنة ١٨٥٥ ، وفى سنة ١٨٧٨ أقامت فرنسا معرضها الشهير فى قصر « التروكاديرو » الذى أنشىء خصيصاً لاقامته فأحرزت بأقامته نجاحاً عظيما وذاع صيته فى أنحاء العالم ، وفى سنة ١٨٨٩ ، أقامت معرضاً عظيما آخر . هو الذى أقيم لمناسبته برج ايفل المشهور ، وعرضت فيه مناظر فنية وموسيقية فى جميع أنحاء العالم ومنها القاهرة ، وقد كانت هذه المعارض فى الواقع مراحل واضحة لما بلغته الأمة من التقدم فى سائر النواحى والمرافق. أوهى كما يقول الفيلسوف المؤرخ « تاين » تبيان عصر ، وتعبير مجتمع . ومن المحقق أن المؤرخ يجد فى هذا المناظر المختلفة مجموع ما انتهى اليه مجتمع العصر من ضروب التقدم العقلى والاجتماعى ، وقد بلغ الشغف باقامة هذه المعارض فى عصرنا ذروته ، وأصبحت الأمم الكبرى تتنافس فى إقامتها وفى الانفاق عليها . حتى لقد تبلغ من الضخامة والتنوع قدر المدينة العظيمة ، وقد يقتضى الطواف بمعرض أو سوق دولية ساعات طويلة قبل أن تلم بمناظره ومحتوياته . والمنتظر ان تكون سوق باريس التى تستعد فرنسا لاقامتها منذ أعوام . والتى ستقام فى الربيع المقبل أعظم مظهر دولى لما بلغته هذه المظاهرات الاجتماعية والاقتصادية من الفخامة والتنوع والرونق والجمال

الكتب

احياء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

خير مانقدم به هذا الكتاب القيم إلى القراء أن ننشر هذه المقدمة التي صدره بها مؤلفه الفاضل فقد حدد فيها الموضوع ورسم الطريق وبين الغاية . وللرسالة بعد ذلك كلمة فيه

هذا بحث من النحو ، عكفت عليه سبع سنين وأقدمه إليك فى صفحات. سبع سنين من أوسط أيام العمر وأحراها بالعمل، صدقت فيها الاعتكاف إلى النحو ، وإلى ما يتصل بمباحثه ، وأضعت له من حق الصديق والأهل والولد والنفس جميعاً .

كان سبيل النحو موحشا شاقا ، وكان الإيغال فيه ينقض قواى نقضا ، ويزيدنى من الناس بعدا . ومن التقلب فى هذه الدنيا حرمانا . ولكن أملا كان يزجينى ويحدو بى فى هذه السبيل الموحشة ؛ أطمع أن أغير منهج البحث النحوى للغة العربية ، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو ، وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة ، تقربهم من العربية ، وتهديهم إلى حفظ من الفقه بأساليبها .

كانت بارقات الأمل - خادعة وصادقة - تدفعنى فى سبيلى ، غير راحة ولا وانية . فليكن ما أنفق من هذا العمر ذخراً فى أعمار الدارسين من بعد ، ولتكن شيخوخة هذا الشيخ فدى للعربية ؛ أن تقرب من طالبيها ، ويمهد السبل لمتعلميها .

اتصلت بدراسة النحو فى كل معاهده التى يدرس فيها بمصر ، وكان اتصالا طويلا وثيقا ؛ ورأيت عارضة واحدة ، لا يكاد يختص بها معهد دون معهد ، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة ، وهى التبرم بالنحو ، والضجر بقواعده ، وضيق الصدر بتحصيله ؛ على أن ذلك من داء النحو قديما ، ولأجله ألف « التسهيل » و « التوضيح » ، و « التقريب » ، واصطنع النظم لحفظ ضوابطه ، وتقييد شوارده .

والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة ، القول البات ، والحكم الفاصل . قد يهدى فى سهل القول ، من رفع فاعل ونصب مفعول . فإذا عرض أسلوب جديد ، أو موضع دقيق ، لم يسعفك النحو بالقول الفصل ، واختلاف الأقوال ، واضطراب الآراء ، وكثرة الجدل التى لا تنتهى إلى فيصل ولا حكم ، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد ، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير الكلام ، وتمييز صحيح القول من فاسده .

وإذا جئنا إلى مدارس الناشئين ، كانت المشكلة فى تعليمهم النحو أشد وأكد ؛ فهو على ما تعلم من بعد تناوله ، وصعوبة مباحثه ، قد جعل المفتاح إلى تعلم العربية ، وكتب على الناشئ أن يأخذ بنصيبه منه ، منذ الخطوة الأولى فى التعليم الابتدائى والثانوى ، واختير له جملة من القواعد ، قدر أنها تفى بما يحتاج إليه لإصلاح الكلام وتقويم اللسان ، ثم كانت خصومة هادئة قاسية بين طبيعة التلميذ ، وبين هذا المنهاج والقائمين عليه . أما التلميذ فقد بذل الجهد وأعيا ولم يبلغ من تعلم العربية أربا . وأما أصحاب المنهج . فقد رأوا أن يزيدوا فى منهجهم ، ويكملوا للتلميذ حظه من القواعد ، فلا سبيل له إلى العربية غير هذا النحو ؛ فزادوا فى هوامش كتبهم ما يكمل القواعد ويتمم الشروط – ثم تسللت هذه الزيادات إلى جوف الكتاب فضخم ، وزاد المنهاج المفروض - ولكن طبيعة التلميذ الصادقة فى إباء هذه القواعد ، والتململ بحفظها ، لم تخف شهادتها ، ولم يستطع جحدها ، فكانت ثورة على المنهاج وأصحابه ، وخفف منه ، وانتقص من مسائله ، والداء لم يبرأ ، والعوارض لم تتغير ، وتكررت الشكوى ، وعادوا على المنهاج بالنقص ، حتى كان المقرر قواعد من النحو مختلفة ، كأنما هى نماذج يراد بها عرض نوع من مسائله قد كان فى هذا ، الشهادة الصريحة بفشل هذا النحو أن يكون السبيل إلى تعلم العربية ، والمفتاح لبابها .

ولقد بذل فى تهوين النحو جهود مجيدة ، واصطنعت أصول التعلم اصطناعا بارعا ، ليكون قريبا واضحا ؛ على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها ، وإلى طريقة وضعها ، فيسأل : ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده ، وأن يكون الدواء فى تبديل منهج البحث النحوى للغة العربية ؟

هذا السؤال هو الذى بدا لى ، وهو الذى شغلنى جوابه طويلا .

ولقد تميز عندى نوعان من القواعد : نوع لا تجد فى تعليمه عسرا ، ولا فى التزامه عناء ، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيرا ، وذلك كالعدد ورعاية أحكامه فى مثل : قال رجلان ، والرجلان قالا . وقال

رجال والرجال قالوا . فع دقة الحكم فى رعاية العدد ، واختلافه تبعا لموضع الاسم والفعل من الجملة ، لا تجد العناء فى تصوره ، ولا المزلة فى استعماله

ونوع آخر لا يسهل درسه ولا يؤمن الزلل فيه ، وقد يكثر عنده خلاف النحاة ، ويشتد جدلهم ، كرفع الاسم أو نصبه فى مواضع من الكلام

ثم رأيت علامات العدد تصور جزءا من المعنى يحسه المتكلم حين يتكلم ، ويدركه السامع حين يسمع . أما علامات الإعراب ، فقل أن ترى لاختلافها أثرا فى تصوير المعنى ، وقل أن يشعرنا النحاة يفرق بين أن تنصب أو ترفع ؛ ولو أنه تبع هذا التبديل فى الاعراب تبديل فى المعنى ، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه ، ولكان هو الهادى للمتكلم أن يتبع فى كلامه وجها من الاعراب

فلو أن حركات الاعراب كانت دوال على شيء فى الكلام ، وكان لها أثر فى تصوير المعنى ، يحسه المتكلم ويدرك ما فيه من الاشارة ومن وجه الدلالة ، لما كان الاعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة ، وزواله بتلك المنزلة من السرعة

ألهذه العلامات الاعرابية معان تشير إليها فى القول ؟ أتصور شيئا مما فى نفس المتكلم ، وتؤدى به إلى ذهن السامع ؟ وما هى هذه المعانى ؟؟

والعربية ـ لغة القصد والايجاز ـ أتلتزم علامات الاعراب على غير فائدة فى المعنى ، ولا أثر فى تصويره ؟

لقد أطلت تتبع الكلام ، أبحث عن معانى لهذه العلامات الاعرابية ، ولقد هدانى الله ـ وله خالص الاخبات والشكر ـ إلى شيء أراه قريبا واضحا ، وأبادر إليك الآن بتلخيصه :

(١) إن الرفع علم الاسناد . ودليل أن الكلمة يتحدث عنها

(٢) إن الجر علم الاضافة ، سواء أكانت بحرف أو بغير حرف

(٣) إن الفتحة ليست بعلم على إعراب ، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة ، التى يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت ؛ فهى بمنزلة السكون فى لغتنا الدارجة

(٤) إن علامات الاعراب فى الاسم لا تخرج عن هذا إلا فى بناء أو نوع من الأتباع ، وقد بيناه أيضا .

فهذا جماع أحكام الاعراب ؛ ولقد تتبعت أبواب النحو بابا بابا واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير ، فصح أمره ، واطرد فيها حكمه .

ثم زدت فى تتبع هذا الأصل ، فتجاوزت حركات الاعراب ، ودوست التنوين على أنه منبيء عن معنى فى الكلام ، فصح لى الحكم واستقام ، وبدلت قواعد « مالا ينصرف » ، ووضعت للباب أصولا أيسر وأنفذ فى العربية مما رسم النحاة للباب . ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضا .

(١) إن التنوين علم التنكير .

(٢) لك فى كل علم ألا تنونه ، وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ من التنكير

(٣) لا تحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من التعريف

والبحث الذى أقدمه إليك الآن ، هو شرح موجز لهذه الفكرة ودرس لها فى أبواب النحو المختلفة ، وبيان لما رأينا من الأدلة لتأييدها

وكنت أريد أن أشكر لصديقى الدكتور طه حسين ، وأذكر فضله فى إتمام البحث وإخراج الكتاب ؛ ولكنه آثر أن يقدم الكتاب ، وانزلق إلى الثناء على صاحبه ، فأجررت أن أتكلم .

وحق على ان أشكر تلاميذى الذين عاونونى فى شيء من المباحث ، وإن لم أملك الآن أن أسميهم وأعمالهم .

وأحمد الله حمدا ملؤه التوحيد والتمجيد والشكر

قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة

تأليف الأديب توفيق الطويل

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ما زال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة فى حاضرهم إلى ذلك ، فأن تجربة العصور فى حاضرها لا تغنى الناس إذا شاءوا التماس الحكمة أو استبانة القانون الانسانى ، وذلك أن حوادث السنين لا تتصل نتائجها بمقدماتها إلا بعد مضى القرون ولا تكمل عبرتها إلا بعد توالى الأجيال . وليس فى تكرار التمثل بعبر الزمان إعادة ولا فى تعدد النظرات اليها إباحة لها أو ابتذال ، فان الحادثة الواحدة قد تنطوى على ما لا حد له من العظات ، وقد يتناولها الناس فى كل عصر فيجد كل منهم فيها ناحية من المغزى مخالفة لما وجده سواه من معانيها . ولقد كان النضال بين قرطاجنة وروما أحد هذه المواقف التاريخية الفذة التى هزت العالم هزة قوية فى إبانها ، وما زالت العصور التالية ترجع وتلتفت صوبه ، وكل منها يشير إلى ما يبتغى من عبرة فيه أو يتحدث عنه حديثاً يوجه إليه موقع الضوء عليه فى ناظره ، وهكذا كان شأن الأستاذ « توفيق الطويل » مؤلف هذا الكتاب عند ما تناول بالبحث هذا النضال

لقد نظر المؤلف الفاضل إلى تلك الحرب التي يسميها التاريخ بالحرب اليونانية كما نظر سواه إليها ووصفها ورسم لنا منها صورة خاصة لا أظن أنها تشابه صورة أخرى رسمها أحد فى لغة العروبة

فهو قد استدرج الذهن من موقعة إلى موقعة ومن صورة إلى صورة حتى بلغ به النهاية فأشار اليه مومئاً إلى ما تحت قدميه ، فاذا بالعبرة التى كان يرمى اليها ماثلة واضحة لا يستطيع أحد أن يخالف فيها

ولقد كانت الشعوب الانسانية منذ القدم ينافس بعضها بعضاً فى كل ميادين النشاط والمطامع ، فلقد كانت تتنافس فى امتلاك الاراضى وفى الانتفاع بالمراعى ، وكانت تتنافس فى القوة والمنعة ثم هى تتنافس اليوم فى كل هذه المعانى بوسائل سلمية تارة وحربية أخرى . غير أن ذلك التنافس الانسانى كانت له مظاهر عدة ، فقد كان يحدث بين وحدات القبائل الصغيرة فى دائرة محدودة كما كان يحدث بين الأجناس والشعوب فى دوائر أوسع ، فانا لا نكاد نجد عصراً خلا من محاولة شعب من شعوب الأرض سيادة سائر الشعوب ونبوغ شعب آخر يتصدى له بالدفاع ، فاذا بشعوب الأرض موزعة بين الزعيمين المتناضلين حتى ينتهى الأمر باذعان أحدهما أو انقراضه وضياع سلطانه . وقد حاول بعض علماء التاريخ أو الاجتماع أن يخلصوا من استقراء ما حدث من ذلك النضال فى كل العصور إلى أن أجناس العالم بينها طائفتان كبريان لا تفتأ تميل إلى النزاع والنضال على سيادة الأرض ، فيسمون طائفة من الطائفتين شرقاً والطائفة الأخرى غرباً ، ويقول هؤلاء العلماء إن النضال بين هاتين الطائفتين دائب مستمر استمرار الليل والنهار فقد يحدث أن شعبين من طائفة واحدة يثوران حيناً للنضال ثم لا يلبثان أن يستقرا على نوع من التفاهم والتجاور ، فى حين أن الطائفتين الكبريين لا يستقر بينهما النضال بل لا تزالان تصاولان وتصارعان . فأما إحداهما سيدة غالبة ، والأخرى تناضل فى سبيل الحياة تجاهها ، وإما أن تنقلب الآية فتصبح السيدة مسودة والمستضعفة سيدة ، وهؤلاء العلماء يجعلون قرطاجنة وروما رمزين لهاتين الطائفتين الكبريين فى العصور التى سبقت الميلاد بقرنين أو ثلاثة . كما أنهم يجعلون حرب الفرس واليونان رمزاً لذلك النضال قبل ذلك ، وحرب العرب والروم ثم الفرنج رمزاً له فى العصور الوسطى

ومهما يكن من أمر هذا الرأى فانا لا نستطيع أن نغضى عما فيه من الضعف والتعسف ، فالحقيقة التى لا شك فيها هى أن أمم الأرض تتنازع وتتناضل فيما بينها . وأن ما بقى بعد ذلك من التحديد ناشىء من الظروف والحوادث . ولقد كان نضال قرطاجنة ورومة بغير شك من أروع مواقف النزاع العالمى ، ولكن لم تكن رومة تمثل عند ذلك شيئاً اسمه الغرب ، ولم تكن قرطاجنة تمثل شيئاً اسمه الشرق ، فقد كانت مصر عند ذلك تحت سلطان البطالسة العظام ، وما كانت قرطاجنة إلا مدينة نامية تستولى على المال وتستخدمه فى سبيل بسطة سلطانها بأن تسخر الجيوش لتنتصر لها فى حروبها ، وما كان لمثل هذه المدينة أن تكون زعيمة الشرق أو الآخذة بزمامه فى نضال السيادة العالمية ، بل لقد كانت مصر أجدر منها بذلك وأحرى

ويلوح لى أن المؤلف الفاضل لايذهب مع أصحاب الرأى المتقدم فأنه وإن علم أن قرطاجنة لها رحم بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق فى نزاع الأجناس ، بل نظر نظرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك الوجهة التى أشرنا إليها ، فهو لايتعصب لها ولا يراها تمثل مثلاً من أمثلة الشرق العليا ، بل إنه لينظر إلى المثل العليا لرومة على أنها أقرب إلى تمثيل مثل الانسانية عامة ، وهو يتحدث عن حوادث نضال قرطاجنة ورومة حديث من يريد أن يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثه عظة تنفعنا فى حاضرنا فهو يريد أن يوجه أنظارنا إلى أن قرطاجنة قد فنيت لأنها كانت جديرة بالفناء ، وأن رومة قد بقيت ونمت لأنها كانت جديرة بالبقاء والنمو ، ثم هو يشير لنا وهو يسير فى حديثه إلى الأسرار التى أهلت كلا من المدينتين إلى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها

خلقت الأساطير قصتين عن منشأ المدينتين المتناضلتين ، وما أحرى هاتين الاسطورتين أن تكونا مختصراً لتاريخهما . فرومة تنشأ فى العراء وتغذوها الوحوش ثم ترويها الدماء ، ولكنها ترفض الاستكانة إلى الدعة ويطلب أهلها العيش فى ظلال المكاره ، فلا تزال مثلها العليا الخشونة والقوة والقسوة . وقرطاجنة تنشأ هرباً من مطامع الطامعين لتنفرد فى مأمن تتمتع فيه برغد العيش وذكريات السعادة ، ولكنها لاتلبث أن تحرق نفسها دفاعا لمطامع جديدة اتجهت إليها من ناحية أخرى . وما كان التاريخ ليحدثنا عن المدينتين إلا هكذا إذا شاء اختصار حكاية كل منهما فى كلمات قليلة

وإنه لمن ألذ المطالعات أن يتتبع القارىء وصف هذا الكتاب لحوادث تلك الحقبة من الدهر ، فان فيه خصالا ثلاثاً تسمو به . دقة فى البحث ، ونفوذ فى النظر ، وجمال فى الأسلوب

وإنى لأنتهز هذه الفرصة لتهنئته تهنئة حارة على ما أصاب من إجادة وتوفيق ؟

محمد فريد أبو حديد

وقع خطأ فى البيت الثانى من قصيدة (شباب أم أمانى) للدكتور عزام وصوابه :

وللنسيم على أوراقها عبث ينشر الحسن فيه كل مكنون

5 me Année, No. 190

بدل الاشتراك عن سنة

مصـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 22 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

*

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٩٠ «القاهرة فى يوم الاثنين ١١ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٧» السنة الخامسة

فهرس العـــدد

على هامش الرتب والنياشين

شكر المنعم واجب

قال لى صديق وهو أبىٌّ وفى نزيه : ألا يوحى اليك إنعام العرش وإكرام الوزارة كلمة فى الرسالة ؟ فأجبته جوابا أملس لا يتماسك عليه ايجاب ولا سلب ؛ لأن نفسى قلما تنفعل لما يشغل الناسَ من ضحكات القلوب فى هذه الحياة . فقال فى لهجة حادة جازمة : إذا لم تكتب أنت كتبت أنا ، لأن الأمر بالنسبة إليك يستغرق الفكر طويلا ويستوجب الشكر جهرة

انصرفت عن صديق ومضيت فى طريق أقاول نفسى فى اقتراحه ، وأداول عقلى على رأيه . فانثالت على خاطرى معان لا أدرى أين كانت

لا جرم أن الأمر بالاضافة إلى يستغرق كما قال صديق الفكر طويلا ويستوجب الشكر علانية . ولا ريب أن واجب الشكر على هذا العطف السامى لا يسقط عنى بتسجيله فى دفتر التشريف بقصر المُلك ودار الرياسة ، فانى لم ألق همى إلى هذا الانعام ، ولم أضع نفسى فى طريق هــذا الوسام ، ولم أكن ذا منصب فأقدَّم على حسب ما قضيت به من زمن أو أمضيت فيه من كفاية ، ولا صاحب مال فأكرم على قدر ما أنفقت منه فى مشروع

الدفاع أو فى سبيل الخير ؛ ولست بالكاتب السياسى الذى يكافأ على عظم جهاده وكرم تضحيته ، ولا بالأديب الصالونى الذى يتقرَّب للطف مدخله وحسن مصانعته ؛ وإنما أنا رجل لا أحسن بطبعى تكاليف المجتمع : أعيش فى زاوية مظلة من زوايا الحياة ، وأدور فى دائرة ضيقة من دوائر الوجود ، لا أتعرض لأقطاب السياسة ، ولا أتعلق بأصحاب النفوذ ، ولا أخرج عن هذا النطاق الصوفى الذى ضربته علىَّ مواهبى ، وحصرت فيه رغائبى وواجبى ؛ فأنا كما أجدنى فى شعورى هوى خالصاً من أهواء الطبيعة : أمجد الوادى لأنه الوطن ، وأقدس الملك لأنه الدولة ، وأحب الوفد لأنه الشعب ، وأوثر الخير لأنه الجمال ، وأعشق الأدب لأنه الحياة . فاذا نفذت مع ذلك عين الوزارة إلىّ ، وبسطت جناح برها علىّ ، دل ذلك على يقظة تخترق كل حجاب ، وعدالة تشمل كل فرد ، ونزاهة تفند كل اعتراض

ولا يمكن أن تكون الوزارة قد قصدت بهذا التكريم شخصى الضارع ، وإنما قصدت به ولا ريب تكريم الأدب المستقل فى جندى من جنوده ، وتشجيع الجهاد الثقافى فى ناحية من نواحيه . فأنا عسىٌّ أن أشكر هذه اللفتة الكريمة بلسان الأدب لأنها إلى الأدب ، وعلى منبر « الرسالة » لأنها متصلة بهذا السبب

* * *

كان العهد بالسلطان المطلق أن يكون إنعامه على رأى ابن المقفع أشبه بشجرة الكرم تعلق بأقرب الشجر لا بأكرمه . فلما غلبت الديمقراطية على طبيعة المُلك ، وقبضت الأمم على أزمة الحكم ، تهيأ لكل فرد أن ينال نصيبه المقدور من الكرامة القومية العامة ، والسيادة الوطنية المشتركة ، وتسنى للنبوغ المستور ، والذكاء المغمور ، والعبقريات الفقيرة ، أن تطاول فى المجد شرف الولادة ، وتنافس فى الجاه سلطان الثروة

وهذا الذى تفعله الحكومة من اقتراحها الألقاب المميزة والأوسمة المشرفة لأبناء الأمة ، ظاهره يخالف طبيعتها الشعبية ، ولكن باطنه يوافق المنطق ولا يعدو الانصاف . فإن المساواة روح الدستور وجوهر العدالة . فإما أن تلغى هذه الألقاب فيصبح الناس سواسية أمام المجتمع ، كما هم سواسية أمام القانون : وإما أن تبتذل هذه المميزات حتى تتدانى الطبقات ويقصر هذا الفرق المهين بين (الباشا) و (الفلاح)

لقد كانوا بالأمس يعيرون الوفد أنه حزب الرعاع وقائد السوقة ، فما بالهم اليوم وقد ورث أمجاد الوطن يعيبونه أن يرفع عن حزبه أو شعبه معرة هذه الإهانة ؟

زعموا أن الديمقراطية العاملة حين ثارت فى فرنسا على الأرستقراطية العاطلة ، أوحت إلى العمال العراة الجياع أن يقتحموا قصور السراة والنبلاء ، فلبسوا وشيهم ، وتقلدوا حَلْيهم ، وغرقوا فى مقاعدهم المنجدة ، وطعموا على موائدهم المنضدة ، فشعروا فى ساعة واحدة باسترداد ما فقدوه فى الحقب الطوال من اللذة والعزة والكرامة والعظمة ؛ فلم لا يكون ذلك من هذا ؟

* * *

عفواً ! لقد كدت أخرج عن موضوع الشكر وما قضيت منه لبانة وما نقعت به غلة . وليس الشكر بابا من أبواب الملق ولا ضربا من ضروب التنبيه كما يُظن ، ولا هو قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة كما يقال ، وإنما هو للصنيعة كالاعتراف للاقتراف والتسبيح للعقيدة ، يخفف عبء المنة عن الضمير ويكفكف سورة الإيمان عن القلب !

ولئن كان يخجلك فى رأى نفسك من التكريم أن تسعى إليه ، لقد يخجلك فى رأى غيرك الا تشكره وقد سعى إليك

على أن الأدب نفسه سجل عصره بما فيه من محاسن ومساوىء ؛ فهو يضمن الذكر والشكر لمعضده ، كما يضمن المجد والخلود لموجده . والأدب كان ولن يزال لغة التاريخ ، ولسان النهضة ، وقبس الروح ، وومضة الالهام ، ورائد الإنسانية إلى المثل الأعلى ؛ فلا يمكن أن يكون رجاله فى عهد الذين اشتهرت زعامتهم به ، وقامت دعايتهم عليه ، أضعف ركناً وأقل شأناً من رجال الأعمال وأصحاب الأموال وعبيد الأرض

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة المعالى كيف تبنى المكارم

احمد حسن الزيات

أسرة الرسالة والرواية تتقدم بالتهنئة الخالصة إلى أصدقائها وقرائها بعيد الأضحى ، وتدعو الله أن يعيد هذا العيد على العالم الاسلامى بالسلام والوئام والمحبة

فى الحب أيضا

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

أرجو ألا يتوهم أحد أن هذا حديث فى فلسفة الحب فانه لا قدرة لى على الفلسفة ، وقد فقدت ايمانى بها مذ خذلتنى وخيبت أملى وعجزت عن أن تفسر لى شيئا مما يحيرنى فى هذه الحياة . وقد قرأت كثيرا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمى ، غير أنى لم أقتنع به ولم استرح إليـه . ومن سوء الحظ – حظى أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه – أنه ليس لى فى هـذا الباب تجربة تستحق الذكر حتى كنت أعرض مايقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت وأرى إلى أى حد أصابوا ووفقوا . ولست اكتمكم أنى عاجز عن هذا الحب . وعسى أن أكون واهما لا عاجزا . ولكنى ما قرأت قط شعر العشاق وما قالوه فى الصبابة والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوالج والاحساسات فى القرب والبعد ، والاقبال والصد ، والمواتاة والحرمان ، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسى – حين أخلو بها – « اسمحى لى يانفس أن أقول إنك – ولا مؤاخذة – بليدة ، فتسألنى لماذا؟ فأقول « لأنى لا أراك تحسين شيئا من هذا الذى أجمع على وجوب الاحساس به الشعراء والناس قاطبة . فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون ؟ » ولا أحتاج أن أقول إنى لا أخرج من هذا الحوار الذى يدور بينى وبين نفسى بشىء آنس به واستريح إليه ، فانها تصر على أن الناس مبالغون وأصر أنا على منطق « قرقوش » المشهور . فقد قالوا إن ناسا كثيرين وضعوا رجلا من الأحياء فى نعش وحملوه فيه كالميت ، فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجدا وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة ، فأطرق قرقوش قليلا وفتل شعرات من لحيته ثم رفع رأسه ونظر إليه وإلى الناس وقال : « أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله؟» وكذلك أنا مع نفسى – لا يعقل عندى أن تكون هى وحدها على صواب وكل هـذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة ، أو مبالغة .

ولا أنكر أن نفسى كانت تتحرك أحيانا فاشجعها مسرورا واستحثها فرحا بيقظتها بعد طول السبات ، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلقى من فرط شدتها ، فأفهق وتعود فتهوى به إلى قريب من حذائى كأنما هذا ليس قلبا وإنما ركب لى الله سبحانه فى مكانه لعبة من لعب « اليويو » التى شاعت فى الزمان الأخير . وأحيانا أشعر بأن حولى فراغا وأحس شيئا من اللهفة وقليلا من الشوق ، ولكنه شوق هادىء ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشقى بها القلب ولا يسود من جرائها العيش . وشبيه بذلك أن يشتهى الانسان أن يرى شريطا من أشرطة السينما سمع عنه ثناء أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضا كبيرا فى بلد ناء . ولا أظن أن هذا يعد حبا بالمعنى القديم أو الحديث

وللسامع العذر إذا تساءل : « كيف إذن كنت تقول الشعر فى شبابك وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك » والسؤال طبيعى ولكن الجواب عنه حاضر ، ولولا عادة الصدق التى اكتسبتها فى الأيام الأخيرة لعز الجواب . والجواب يعرفه القراء فقد سقته فى فصل سابق عن الحب نشرته لى « الرسالة » وخلاصته أنى أوحيت الحب إلى نفسى

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك ، ولكنى أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الايحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعرف . ولو خلت الكتب مما نقرأه فى وصف الحب وأثره فى النفس وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبا لا يخرج بالنفس عن الاتزان لصار الحب هادئا فاترا كالصداقة . وأحسب أن الفرق بينى وبين غيرى ليس هو أنى شاذ وهم طبيعيون ، بل إنى تأثرت بايحاء الجماعة وايحاء الكتب وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته ، وأن الأكثرين يتأثرون على هـذا النحو تماما ولكنهم لا يدركون أن فى الأمر ايحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه . والحياة تقوم – كما لا أحتاج أن أبين – على الايحاء ، وكل امرىء يوحى إلى كل امرىء آخر ويستوحى منه ، بل نحن نستوحى الأشياء كما نتلقى الايحاء من الناس .

ويخيل إلى أن الحب اسمه غلط ، فانه يبدو لى أن هذه العاطفة التى نسميها الحب خالية فى الحقيقة من الحب والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مودة . وهذا كلام قد يبدو متناقضا ولكنى

أظنه صحيحا. ذلك أن الحب ضرب من الجوع ؛ ولا تقولوا إنه جوع معنوى فإن هذا يكون تخريفا، إذ ليس ثم فيما يتعلق بالانسان أو الحياة شيء معنوى. والانسان مادة وكل ما فى الحياة من المادة وإلى المادة، فلندع هذه الخيالات ولنجتزىء بالحقائق فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل. والمرء يجوع فيشتهى الطعام أى يطلبه، لا لأنه يحب الطعام فى ذاته، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة، بل ليسد الحاجة التى يشعر بها ويقضى الرغبة التى تلح به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل. وكذلك يجوع جوعا من ضرب آخر - جوعا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعية فى النسل إطاعة لغريزة حفظ النوع، كما يطلب بالأكل إطاعة لغريزة المحافظة على الذات. وكما لا يقال إن بين الآكل والمأكول مودة، كذلك لا ينبغى أن يقال إن بين المحبين مودة. إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة فى الالتهام أو الاستحواز إطاعة للغريزة لا عن مودة. والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين، لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة ؛ وهما لا يستعملان سلاحا ولا يحدثان جراحا، ولكن الواقع أن القبل والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين - كل ذلك ليس إلا وسائل للتليين بغية التغلب. وقد استعمل الشعراء ألفاظا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لا يشعرون، فذكروا فى مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل. والحقيقة هى أن الحب حرب واقتتال وفتك، وغايته - وهى النسل - تنطوى على تعرض للتضحية الكبرى - على الأقل من جانب المرأة - وسبيله الاخضاع. فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجىء بالنسل الذى جعلتها الطبيعة أداة له. والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذى يطلبه بغريزته. والحال بينهما دائر أبدا على الكفاح. وفى كل شعر صادق - قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلى لها

والحب يتخذ الصورة التى يؤدى إليها التفاعل بين عاملين : الأول هو الدافع الغريزى للإنسان، والثانى هو مقاومة الجماعة، وهي مقاومة مرجعها إلى العرف والدين وما يجرى هذا المجرى.

وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة. وقد كان التحرج شديدا فى الجيل الماضى من ذكر الحب والاعتراف أو المجاهرة به، لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يستهان به، وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام. وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية المثل المشهور «إذا بليتم فاستتروا»، فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم القانون بل بقضاء العرف، وكان الشبان مثلا يستحيون أن يجلسوا فى القهوات، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهينات، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها وانتشر التعليم وشاع الاطلاع على الآراء الحديثة فى الأمور الجنسية، وهدمت الهبة القومية المصرية حواجز كثيرة وفى جملتها ما كان يفصل الجنسين ويفرق بينهما، وصار الناس - شيئا فشيئا - يلهجون بذكر الحب ويتناولونه فى مجالسهم وفى كتاباتهم تناولا هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمى، ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون فى الأمر موجبا للحماسة أو داعيا للخجل أو باعثا على الاستحياء ؛ وجاء التطور الاجتماعى ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادما الحاجز منيع بين الرجل والمرأة. وفى الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها ؛ فإذا لم تكن ثم ثمرة فأين الشجرة؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه فى سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر. ومن أخطار الحرية فى بادىء الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التى تقابل الحقوق. والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة. وبذلك فقد الحب الهالة التى كانت حوله وسلب القداسة القديمة، وصار على الأيام أمرا عاديا، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية، لأن وطأة العرف والتقاليد ضعفت وخفت جدا حتى ليمكن أن يقال إنها غير محسوسة فى الأغلب والأعم. وفى مثل هذه الأحوال التى يعظم فيها الترخص والتسامح يندر الحب القوى العميق الطويل العمر، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر فى ركود الشعر إلى حد كبير فى هذه الفترة من حياتنا الأدبية

ابراهيم عبد القادر المازنى

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٢ —

يدرس ابن سينا النفس من نواح كثيرة، فيحاول أولا أن يثبت وجودها ومغايرتها للبدن، ثم ينتقل بعد هذا إلى حقيقتها فيعرض لجوهريتها وروحيتها ويبرهن على خلودها ببراهين شتى ووسائل متعددة. ولن تفهم حقيقة النفس فهما كاملا إلا إذا حددت وظائفها وبين فى دقة عملها. وابن سينا يتحدث طويلا عن أنواعها المختلفة من نباتية وحيوانية وإنسانية، ويسهب بوجه خاص فى حديثه عن قوى النفس الانسانية الظاهرة والباطنة، وهذا الجزء يلخص تقريباً علم النفس عنده. وواضح أن مشكلة العقل التى تعد أحد الأحجار الأساسية فى بناء الفلسفة الاسلامية والتى شغلت فلاسفة القرون الوسطى على العموم، تتصل اتصالا وثيقاً بقوى النفس الباطنة، وسنتتبع هنا الخطوات السابقة لندلى بفكرة كاملة عن أبحاث ابن سينا فى النفس، ولكنا سنجمل القول فى أقسامه وتفصيلاته الكثيرة المتصلة بأنواعها وقواها لأن هذا فى أغلبه أصبح من علم النفس البائد، وسنكتفى بأن نشير منه إلى مصادره اليونانية. وأما مشكلة العقل فهى من الأهمية بحيث لا تدرس عرضاً وفى ثنايا بحث كهذا، ولا بد لها من دراسة مستقلة سبق لنا أن حاولناها فى كتابنا عن الفارابى (١)

لم يعن مفكرو اليونان كثيراً بالبرهنة على وجود النفس، وكأنهم كانوا يعدون وجودها واضحا بحيث لا يتطلب الأثبات، ومسلماً به إلى درجة لا تقبل الشك أو المناقشة. فالماديون منهم والروحيون متفقون على وجود النفس، وخلافهم فقط فى بيان ماهيتها وتحديد وظائفها. وأطباؤهم وفلاسفتهم مجمعون على أن للظواهر النفسية مصدراً وأصلا تعتمد عليه بجانب الجسم. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن المادية المتطرفة التى ظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتى تنكر وجود النفس بتاتاً غير معروفة لديهم. ذلك لأن هذه المادية أثر من آثار الطب وعلم وظائف الأعضاء الحديثين، وكل همها أن تفسر الأحوال العقلية جميعها تفسيراً واقعياً تجريبياً، وفى اعتقاد أنصارها أن المخ والجهاز العصبي كفيلان بتوضيح كل أعمال الفكر السامية. لهذا نراهم يصرحون بأنه «لا تفكير بدون الفسفور» وأن «المخ يهضم الاحساسات بشكل ما ويفرز عصارة التفكير افرازاً عضوياً» (١) وما كان الطب متقدما عند اليونان تقدمه فى التاريخ الحديث، ولا كانت وظائف الأعضاء واضحة وضوحها اليوم

ومن الغريب أن ابن سينا الذى تقبل كل مبادىء الطب وعلم وظائف الأعضاء اليونانيين قد عنى عناية خاصة بالبرهنة على وجود النفس وإثبات أنها تغاير البدن. ولعل ذلك راجع إلى أن بعض الماديين قد غالوا مغالاة الماديين المحدثين وتطرفوا تطرفهم، فوحدوا بين النفس والجسم أو أنكروا وجودها رأسا واعتبروا الجسم مبعث الظواهر العقلية على اختلافها. فلم ير بدأ من أن يرد عليهم ويبين خطأهم، وقد أشار إليهم صراحة فى إحدى رسائله (٢). وفوق هذا فالمنهج القويم فى رأيه يقتضى أن يبدأ الباحث بأثبات وجود النفس ثم ينتقل بعد هذا إلى شرح وظائفها وأعمالها. يقول: «من رام وصف شىء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولا أنيّته (يعنى وجوده) فهو معدود عند الحكماء ممن زاغ عن محجة الايضاح. فواجب علينا أن نتجرد أولا لأثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع فى تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيها (٣)

وهو فى برهنته على هذا الوجود يسلك سبلا عدة ويستخدم وسائل متفرقة. فيلجأ تارة الى العرف العام والاستعمالات الدارجة مستمدا منها بعض الملاحظات الدالة على أننا نؤمن بوجود حقيقة فينا تخالف الجسم. ويركن تارة أخرى الى بعض القضايا الفلسفية

---

(1) Madkour, (La Place d'al Fârâbî), P. 122-180

(1) Cabanis, (Rapports du physique ert du moral), P. 138.

(٢) ابن سينا، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها)، ص ٨.

(٣) ابن سينا، (رسالة فى القوى النفسانية)، ص ٢٠.

المسلمة من القدامى ليستعين بها على تحقيق هذه الغاية . ويبتكر أحيانا فروضا وتعليلات دقيقة تقربه من بعض الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين . فيلاحظ أن الانسان اذا كان يتحدث عن شخصه أو يخاطب غيره فانما يعنى بذلك النفس لا الجسم . فحين تقول : أنا خرجت أو أنا نمت لا يخطر ببالك حركة رجليك ولا اغماض عينيك ، بل ترمى الى حقيقتك وكل شخصيتك . وقد صاغ ابن سينا هذه الملاحظة على الصورة الآتية « ان الانسان اذا كان منهمكا فى أمر من الأمور فانه يستحضر ذاته حتى أنه يقول إنى فعلت كذا أو فعلت كذا ؛ وفى مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه . والمعلوم بالفعل غير ماهو مغفول عنه ، فذات الانسان مغايرة للبدن » (1) . وإنا نلمح فى ثنايا هذه الملاحظة فكرة الشخصية أو فكرة « أنا » (l'idée du moi) التى هى مثار بحث طويل بين علماء النفس المعاصرين . فالشخصية أو « الأنا » فى رأى ابن سينا لا يرجع الى الجسم وظواهره ، وانما يراد به النفس وقواها

ومن جهة أخرى تبدو علينا آثار لا يمكن تفسيرها إلا إن سلمنا بوجود النفس ، وأهم هذه الآثار الحركة والادراك . فأما الحركة فضربان : قسرية ناتجة عن دفعة خارجية تصيب جسما ما فتحركه ، وغير قسرية وهى التى تتصل بنا هنا . وغير القسرية هذه منها ما يحدث على مقتضى الطبيعة كسقوط حجر من أعلى الى أسفل ، ومنها ما يحدث ضد مقتضى الطبيعة كالانسان الذى يمشى على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعوه الى السكون ، أو كالطائر الذى يحلق فى الجو بدل أن يسقط الى مقره فوق سطح الأرض . وهذه الحركة المضادة للطبيعة تستلزم محركا خاصا زائدا على عناصر الجسم المتحرك ، وهو النفس . وأما الادراك فأمر امتازت به بعض الكائنات على بعض ، واذن لابد للكائنات المدركة من قوى زائدة على غير المدركة (2) . هذا هو البرهان الطبيعى السيكلوجى الذى يعتمد عليه ابن سينا فى اثبات وجود النفس . وهو كما لاحظ لانداور مستمد فى أغلب أجزائه من كتابى « النفس » و« الطبيعة » لأرسطو (1) . ففى الكتاب الأول يصرح الفيلسوف اليونانى بأن الكائن الحى يتميز من غير الحى بميزتين رئيسيتين : هما الحركة والاحساس (2) . وفى الثانى يقسم الحركة الى أقسام عدة لم يعمل ابن سينا شيئا سوى أن ردَّدها وبنى عليها برهنته السابقة (3) . بيد أن هذه البرهنة ، فوق أنها برهنة باللازم ، غير مقنعة وخاصة فى جزئها الطبيعى . فأنه لو كانت الأجسام كلها مكونة من عناصر متحدة لكان لهذه البرهنة قيمتها . فأما وهى مختلفة التكوين فلا مانع من أن الجسم الذى يضاد الطبيعة العامة بحركته متمش مع قوانين طبيعته الخاصة ومشتمل على عناصر تسمح له بالحركة . وكم من جهازات وآلات تتحرك حركات مضادة للطبيعة ولا يخطر ببال أحد الآن أنها تحتوى على نفس أو قوة خفية أخرى ، وقد انقضى الزمن الذى كانت تعتبر فيه النفس أصل الحياة والتفكير فى آن واحد ، أو مصدر الحركة والادراك ان شئنا أن نستعمل لغة ابن سينا ، وأصبح علماء الحياة يفسرون الظواهر الحيوية تفسيراً آلياً أو « ديناميكياً » بمعزل عن القوى النفسية تاركين للنفسيين توضيح النفس وظواهرها ، وهؤلاء الأخيرون حتى الممعنون فى الروحية منهم لا يذهبون اليوم مطلقاً إلى أن للنفس عملا فوق الظواهر العقلية ويتقبلون التفسير الآلى للحياة والحركة . ويظهر أن ابن سينا قد تنبه إلى ضعف برهنته بدليل أنه لم يطنب فيها إلا مرة واحدة وفى مؤلف تقوم كل الدلائل على أنه كتبه فى صباه (4) . أما فى « الشفاء » و« الاشارات » وغيرهما من مؤلفات الشيخوخة : فانه يمر بها مسرعا ويحاول أن يثبت وجود النفس معتمداً على آثاره العقلية ؛ وهذه هى البراهين التى تدل على العبقرية والابتكار .

فيلاحظ أولا أن فى الأحوال النفسية تناسقاً وانتظاماً يؤذن بقوة مهيمنة عليها ومشرفة على نظامها ، وهى برغم تنوعها

(1) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .
(2) ابن سينا ، (رسالة فى القوى النفسانية) ، ص ٢٠ – ٢١ .

(1) Landauer, (Die Tsychologie des Ibn Sinâ), P. 376-77.
(2) Aristote, (De l'ame), I,2.403 b 125.
(3) Aristote, (Physique), V 177,4.431 a, 30.
(4) Landauer, (arr. cité), P. 336-338.
فنديك ، (رسالة فى القوى النفسانية لابن سينا) ، ص ٩ – ١٢ .

وتخالفها بل تنافرها أحياناً تدور حول مركز ثابت وتتصل بمبدأ لا يتغير ، وكأنها مرتبطة برباط وثيق يضم أطرافها المتباعدة ، فنسر ونحزن ، ونحب ونكره ، ونتنى ونثبت ، ونحلل ونركب ، ونحن فى كل هذا صادرون عن شخصية واحدة وقوة عظمى توفق بين المختلف وتوجد المؤتلف ؛ ولو لم تكن هذه القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها وطغى بعضها على بعض . وما النفس من آثارها إلا بمنزلة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة ؛ كلاهما يلم الشعث ويبعث النظام والترتيب [١] .

وهنا يشير ابن سينا إلى ذلك البرهان المشهور الذى كثيراً ما ردده أنصار المذهب الروحى من علماء النفس المحدثين . ويتلخص فى أن وحدة الظواهر النفسية l'unité des faits psychiques تستلزم أصلا تصدر عنه وأساساً تعتمد عليه [٢] . وضعف هذه الوحدة أو انعدامها معناه ضعف الحياة العقلية أو القضاء عليها

يدنو ابن سينا من المحدثين ، بل ومن المعاصرين بشكل أوضح من هذا فى برهان آخر يصح أن نسميه برهان الاستمرار . وملخصه أن حاضرنا يحمل فى طياته ماضينا ويعد لمستقبلنا ، وحياتنا الروحية هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع فى سلسلتها ، بل وترتبط بحياتنا منذ أعوام مضت . ولئن كانت هذه الحياة متحركة ومتغيرة فإنما تتحرك فى اتصال وتتغير فى ارتباط . وليس هذا التتابع والتسلسل إلا لأن أحوال النفس فيض معين واحد ودائرة حول نقطة جذب ثابتة . يقول ابن سينا : « تأمل أيها العاقل فى أنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجوداً فى جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك . فأنت إذن ثابت مستمر لا شك فى ذلك . وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً بل هو أبداً فى التحلل والانتقاص . . . ولهذا لو حبس عن الانسان الغذاء مدة قليلة

(١) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ ــ ١٠ و (الشفاء) ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ = (النجاة) ، ص ٣١٠ ــ ٣١٢ والأشارات ، ص ١٢١ .

(2) Ribot, âme dans (La Grande Encyc).

نزل وانتقص قريب من ربع بدنه . فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم يبق شىء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة ، بل جميع عمرك . فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة [١] » . وفكرة استمرار الحياة العقلية واتصالها من الأفكار التى أثبتها حديثاً وليم جيمس وبرجسون وعداها من أخص خصائص الظواهر النفسية ومن أكبر الدلائل على وجود « الأنا » أو الشخصية . وفى رأيهما أن تيار الفكر لا سكون فيه ولا انقسام ولا انفصام ، وهو فى حركة متصلة مطردة . وما أشبه الحياة العقلية بقطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقاً [٢]

يقول جيمس : « من الصعب جداً أن نجد فى شعور واقعى حالا نفسية مقصورة كل القصر على الحاضر بحيث لا نستكشف فيها أى شعاع من أشعة الماضى القريب » . [٣] فابن سينا ببرهانه المتقدم يسبق عصره بعدة أجيال ويدلى بآراء يعتد بها علم النفس الحديث كل الاعتداد

(يتبع)

ابراهيم مدكور

(١) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .

(2) Bergson‘ (Evolution créatrice), P. 3.

(3) James, (Principles of Psychology, I, P. 206.



الصوت الخافت

للأستاذ مصطفى حمدى القونى

« مهداة إلى صديق الكاتب السويسرى جوستاف بيل »

— ١ —

ما كان يدور بخلدى قط أن يكون هذا كل نصيبى من الدنيا ، لقد طالما حلمت إبان صباى وفى فجر شبابى أنى سوف أدير كرة الأرض على أناملى ، وأنى سوف أملأ باسمى الأفواه والأسماع والقلوب . والآن وقد نقضت أيام الصبا فاذا لى دنياى أديرها فى غير جهد ، وإذا أفواه وأسماع وقلوب يملؤها اسمى ، وإذا أيد ترتفع إلى الجباه تحيينى كلما أقبلت على عملى أو أدبرت عنه . وياما أ كثر ما يتملقنى تلاميذى !

واليوم إذ خرجت فى الصباح إلى المدرسة بدأت تطوف برأسى هذه الخواطر : كنت فى الماضى أصور الآمال وأنتظر تحقيقها فى أيام مقبلة ، وأقبلت هذه الأيام فاذا آمالى ليس إلى تحقيقها من سبيل ، فأصابنى شىء من الرضا والقناعة وطفئت حرارة الصبى وجرأته ، وأصبح الصبى وآماله حطاما ، وإن عاودتنى أحيانا ذكراه فلا أكاد أصدق أنى كنت فى يوم الأيام

إنى أحيا الآن ولكن . . . عاريا عن الآمال والعواطف . لقد سقطت عنى عواطفى وآمالى كما تساقط عن الشجرة الذاوية أوراقها ؛ وكثيراً ما أشعر أنى كالغريق الملقى على ضفة اليم ينتظر النهاية .

لست آسف على الماضى ولا أؤمل فى المستقبل ولا أبالى كيف يكون ، ولكنى أقف الآن حيث أنا فاتحا يدى للقدر يلقى فيهما مابه يجود . . .

وإنى لأدخل حجرة الدراسة — وأنا لا أزال غارقا فى مثل هذه الخواطر — إذ تسائلنى نفسى :

— أكان من الممكن أن تقنع بمثل هذا فى الماضى ؟

وإذا بى أسمع صوتا ساخراً يقول مجيباً :

— ولم لا ؟ ألم يكن يحلم بشجرة الخلد وملك لا يبلى و . . . عرش عظيم ؟

واعتليت المنصة !

ووقف التلاميذ رافعين أيديهم بالتحية ، وإذ رفعت يدى أرد تحيتهم جلسوا صامتين ، وبدأت قائلا :

— واجب الدرس السابق

ففهموا بذلك انى أريد أن يقف المقصرون ويلقوا إلى بأعذارهم عن التقصير فيما كلفتهم به ؛ ووقف واحد من التلاميذ كان من أكثرهم جداً وعناية بعمله ، ولكنه لم يلق إلى بأى عذر وإنما بقى ساكناً صامتاً كأنما لا يبالى

ونزلت من على المنصة وتقدمت اليه فى خطى ثابتة ورفعت يدى أريد أن ألطمه ، وحينئذ انبرى زميل له يقول فى صوت خافت :

— لا لا يا أستاذى ! إن أباه قد مات البارحة .

ونزلت يدى إلى جانبى وعدت إلى مكانى من جديد والحجرة يخيم عليها سكون ، وأنفاس التلاميذ كأنها محبوسة ، ونظراتهم متعلقة بى تتبعنى ، ففتحت كتاباً أمامى وقلت لهم من دون أن أرفع نظرى اليهم :

كتاب المحاسبة صفحة ٦٥ التمرين الثانى . سوف أراه مع سابقه فى الدرس القادم .

وفتحوا كتبهم فى سكون وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهوباً ورأسى يدور ، وقلبى كأن به بركاناً ثائراً

— ٢ —

ودق الجرس فخرجت من الفصل ومن المدرسة إذ كان هذا هو درسى الوحيد فى هذا اليوم ، وبدأت أجوب شوارع المدينة ذاهلا عن كل ما حولى إذ بدأت أعود بالذاكرة إلى الماضى وكأنما بدأت أعيش فيه كرة أخرى :

« هذا أنا طفلا فى المدرسة الابتدائية أسير إليها مع الشمس كل صباح وأعود منها كل أصيل . وهذا أنا أعود من المدرسة فى أصيل يوم من الأيام فلا أجد أمى : لقد انتقلت إلى الريف تبتغى فيه شفاء من مرض ألم بها . وهذا أنا أعود فى أصيل كل يوم أتنسم أخبارها ، فاذا جن الليل سهرت من أجلها أدعو لها وأتمنى لها طيب الأمانى . وهذا أنا أقوم إلى المدرسة ذات صباح فأجد رسولا من القرية جاء يستقدم أبى ، فينقلب أملى شكا طاغياً جارفاً . وهذا أنا أخرج من المدرسة فى أصيل هذا اليوم يائساً أشد اليأس ، حزيناً أشد الحزن ، أسرع الخطا ثم ابطئها ،

أسرع لأنى أريد أن أعلم ماذا كان مصير أمى، ثم أحس كأن شيئاً يرد من خطاى ويصدنى: لقد كان الشك يغمر نفسى

أذكر أن الشمس كانت جانحة إلى المغيب تلقى على طرق المدينة أشعة صفراء باهتة حزينة، وإنى لا زلت إلى الآن تفيض نفسى بالكآبة كلما رأيت مغرب الشمس.

وفى أول الطريق الذى ينتهى إلى بيتنا قابلنى عمى ثم أجلسنى إلى جانبه فى دكان صغير هناك وجاء أحد الجيران يشترى بعض حاجه من الدكان، فألقى إلى نظرة ومال برأسه إلى صاحبه كأنما يسأله عن شيء، وهز صاحب الحانوت رأسه ومص الجار شدقيه رائياً، وقمت من مكانى وانفجرت باكيا وجريت إلى البيت لأسترسل فى البكاء.

وهناك كانت نسوة كثيرات - فى ثياب سود - حاولن عبثاً أن يكفكفن من عبراتى. وهناك كانت أختى الصغيرة مدهوشة حيرى لا تدرى ماذا جرى. وهناك كانت أختى التى تكبر هذه - فى هدوئها وسكونها الدائمين - تسكب عبرات صامتة وكانت ليلة...

— ٣ —

وأصبح الصباح فاذا الشمس مشرقة كعادتها، وإذا بى أسير إلى المدرسة محني القامة خافض الهامة، أفكر فيما كان وفيما سيكون

وابتدأ الدرس الأول، وكان درس القواعد العربية، وإنى لأذكر تماما الشيخ عبد الحميد رجلا قصير القامة مكور الوجه قاسيا، وأذكر أنه كان فى هذا الصباح جاداً فى إلقاء الدرس وشرح ما غمض منه على السبورة، ولكنى لا أذكر ما هو الدرس الذى كان يلقيه، إذ أنى نسيت - فيما نسيت - هذا الباب الذى من أمثلته (حضرموت وبختنصر)، ولكن ماذا يهمنى من هذا، إن ما يزال عالقاً بذهنى هو أنى انتبهت لحظة للشيخ وللدرس، ورفعت نظرى إلى السبورة أمامى فوجدت هاتين الكلمتين (حضرموت — بختنصر)

تأملت الكلمة الأولى وقرأتها هكذا «حضَرَ موت»، ثم بدأت أقول فى نفسى:

— يا ماأسعد من لا تموت أمهاتهم! وهؤلاء الذين يحضرون موت أمهاتهم إنهم أسعد منى حالا، أنا الذى لم يحضر موتها ولا يدرى ماذا مصيرها

وحينئذ عن للشيخ أن يلقى إلى بسؤال — ولعله رآنى عنه وعن درسه فى شغل شاغل — ولكن كلمة واحدة لم تند عن شفتى جواباً لسؤاله

وكان أن تقدم إلى ولطمنى لطمة قاسية... تقبلتها صامتاً. وماذا كانت هذه إلى جانب لطمة القدر؟

— ٤ —

وحين وصلت بذكرياتى إلى هذا الحد — وكنت قد وصلت فى سيرى إلى شارع سليمان باشا — رفعت يدى إلى خدى كأنما أتحسس بها أثر اللطمة بعد هذه السنين الطوال. ثم تراءى لى — ويدى لا تزال على خدى — أن أعبر الشارع. وإنى لأخطو أولى خطواتى إذ سمعت كأن صوتاً ينادينى:

— إبراهيم! يا إبراهيم!

وكان الصوت خافتاً كأنه آت من بعيد، من أعماق هاوية، وقد خيل إلى أنه ليس غريباً عنى، وأنى سمعته قبل الآن، متى وأين لا أدرى؟ وتلفت حولى واختل توازن خطاى وكادت سيارة تدهمنى. فنظر إلى شرطى المرور كأنما يسألنى ماذا بى. فقلت له فى بساطة:

— إن اسمى ابراهيم!

فلم يبد على وجه الشرطى أنه فهم شيئاً وطفت على شفتيه ابتسامة فيها سخرية وفيها رثاء.

مصطفى حمدى الفولى

في أفق السياسة الدولية

المسألة الاستعمارية

والصراع على الأسلاب والغنائم

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يظهر أن المسألة الاستعمارية ستغدو في القريب العاجل مسألة المسائل، وربما لعبت دوراً خطيراً في تطورات السياسة الدولية هذا العام، وقد كانت مسألة المستعمرات، خلال الأعوام الأخيرة تبدو في الأفق من آن لآخر، ولكنها كانت تتخذ صبغة نظرية؛ بيد أنها منذ غزو إيطاليا للحبشة واستيلائها عليها تتخذ صورة عملية واضحة؛ وكانت ألمانيا وإيطاليا هما اللتان تصران على إثارة هذه المسألة الشائكة كلما سنحت الفرص، أما ألمانيا فلأنها فقدت كل مستعمراتها السابقة في افريقية وفيما وراء البحار نتيجة لهزيمتها في الحرب الكبرى وتنفيذاً لنصوص معاهدة الصلح، وأما إيطاليا فلأنها رغم كونها كانت في عداد الحلفاء الظافرين ورغم استيلائها على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة. كانت ترى دائماً أنها خدعت من حلفائها، وأنهم استأثروا دونها بالغنائم الكبرى وخصوصاً في مسألة المستعمرات والأراضي الجديدة، إذ بينما حصلت فرنسا وانكلترا وبلجيكا على انتدابات وأملاك واسعة في إفريقية وآسيا، إذا بإيطاليا تحرم من كل نصيب في هذا التراث وترغم على الاكتفاء بما منح لها من الأراضي النمسوية القليلة في أوربا؛ وقد كان هذا الغبن شعار السياسة الفاشستية في الأعوام الأخيرة، وذريعة إيطاليا في وجوب إعادة النظر في معاهدات الصلح وتعديلها تعديلا يكفل استقرار الأحوال في أوربا، وحل مسألة الانتدابات والمستعمرات بصورة ترضى الأماني الايطالية، فلما لم توفق ايطاليا إلى إرضاء مطامعها بطريق المفاوضة والتفاهم، عمدت إلى طريق القوة، فنظمت اعتداءها المعروف على الحبشة رغم المعاهدات المعقودة، واستولت عليها، وحققت بذلك بعض مطامعها الاستعمارية

وأما ألمانيا فلم تفكر قبل قيام الحكومة النازية في أن تثير مسألة المستعمرات بصورة جدية، وإن لم تنقطع منذ معاهدة الصلح عن الشكوى من فداحة شروطها المرهقة، ولم تنقطع ألمانيا بالأخص لحظة عن السعي في سبيل التنصل من تبعة الحرب التي اتخذت ذريعة لسحقها وتصفيدها بمثل هذه الفروض والمغارم الفادحة، وكانت ألمانيا تثير مسألة المستعمرات من آن لآخر ولكن بصورة نظرية فقط، فلما قامت الحكومة النازية منذ أربعة أعوام كان برنامجها الواضح أن تنكر معاهدة فرساي برمتها وأن تنكر بالأخص الأساس الذي قامت عليه وهو تبعة ألمانيا في الحرب الكبرى، وأن تحطم من نصوصها القائمة كل ما يمس السيادة الألمانية أو يغل حقوق ألمانيا وحرياتها؛ وقد فازت ألمانيا الهتلرية في هذه الأعوام القليلة بتحقيق غايتها من نقض معاهدة فرساي وتمزيقها. وفي نفس الوقت الذي كانت ألمانيا تنكر فيه تبعة الحرب وتنكر شرعية معاهدة الصلح، كانت تطالب برد مستعمراتها وتنوه بضرورة هذه المستعمرات لتقدمها الاقتصادي والاجتماعي؛ ولما نظمت إيطاليا مشروعها لغزو الحبشة كانت ألمانيا من ورائها تؤيدها بكل ما استطاعت، لأنها كانت ترى في مشروع ايطاليا دعامة لقضيتها الاستعمارية وذريعة لاثارة المسألة الاستعمارية كلها؛ ذلك أن غزو إيطاليا للحبشة لم يكن مشروعاً إيطالياً داخلياً فقط، ولكنه كان يمثل في نفس الوقت طموح الفاشستية إلى التوسع الاقتصادي، ويمثل بالأخص نزعتها العسكرية المتوثبة، وهي النزعة التي تضطرم بها ألمانيا اليوم كما تضطرم ايطاليا، وقد كان في مثل ايطاليا قدوة صالحة لألمانيا؛ وكان العام الماضي بالنسبة لألمانيا عام القضاء على معاهدة الصلح وميثاق لوكارنو، واسترداد ألمانيا لسيادتها المطلقة في مسائل التسليح، وفي منطقة الرين الحرام، أما هذا العام فسيكون بالنسبة لألمانيا عام المستعمرات والمسألة الاستعمارية، كما تدل على ذلك طوالع السياسة الألمانية الجديدة ومقدماتها

فمنذ أشهر يتحدث زعماء ألمانيا الهتلرية وتتحدث صحفها بشدة عن ضرورة استعادة ألمانيا لمستعمراتها السابقة، ويقولون إن المسألة فضلا عن كونها مسألة كرامة قومية لأن ألمانيا هي الدو

العظمى الوحيدة التي حرمت من المستعمرات، قد أضحت في نفس الوقت بالنسبة لألمانيا ضرورة اقتصادية واجتماعية، لأن سكان ألمانيا يزيدون بسرعة وألمانيا لا تستطيع الحصول على المواد الأولية اللازمة لصناعاتها إلا بالشراء واستنزاف موارد ثروتها القومية، وهي حالة تهدد كيانها الاقتصادي؛ وقد رأينا الدكتور شاخت زعيم ألمانيا الاقتصادي يهدد أوربا بالانفجار إذا لم تحقق ألمانيا أمانيها الاستعمارية، ورأينا الجنرال جيرنج رئيس الحكومة البروسية يصف اقتطاع الحلفاء للمستعمرات الألمانية بأنه سلب وسرقة صريحة؛ وقد كانت هذه كلها تمهيدات عنيفة للخطوة الرسمية التي تزمع ألمانيا أن تتخذها في سبيل المسألة الاستعمارية؛ وفي ٣٠ يناير الماضي أعلن الهير هتلر زعيم الدولة الألمانية في خطابه الرسمي الذي ألقاه في مجلس الريختاج لمناسبة الذكرى الرابعة لتولى النازى الحكم مطالب ألمانيا الصريحة في سبيل استرداد مستعمراتها وبذلك اتخذت ألمانيا في هذه المسألة موقفها الرسمي الصريح؛ ولم يمض على تصريح الهير هتلر أيام قلائل حتى كان صدى المطالب الألمانية يتردد في دوائر باريس ولندن، وحتى وقعت المقابلة الأولى بين الهير فون ريبنتروب السفير الألماني في لندن، وبين اللورد هاليفاكس القائم بأعمال وزير الخارجية البريطانية، وفيها بسط السفير الألماني وجهة نظر حكومته في مسألة المستعمرات

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك كله موقف ألمانيا من المسألة الاسبانية وهو موقف وثيق الصلة بمطالبها ومشاريعها الاستعمارية؛ فقد اشتركت ألمانيا مع إيطاليا والبرتغال في تدبير الثورة الاسبانية القائمة، وعاونت زعيمها الجنرال فرانكو بالرجال والذخائر، واعترفت بحكومته أي بحكومة برجوس الفاشستية، ولألمانيا عدة سفن حربية في المياه الاسبانية تعاون مشاريع الثوار؛ وقد أذيع في الأسابيع الأخيرة أن ألمانيا استطاعت أن تحصل من الجنرال فرانكو على امتيازات عظيمة لاستغلال مناجم النحاس وغيره في أنحاء كثيرة من اسبانيا؛ وقد ذهبت ألمانيا إلى أبعد من ذلك لحاولت بالتفاهم مع الجنرال فرانكو أن تحتل مراكش الاسبانية، وأنزلت فيها بعض قواتها فعلا؛ ولم يك ثمة شك في الغايات الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة التي تعلقها ألمانيا على هذه الحركة التي ذكرتنا بحادث أغادير في سنة ١٩١٢، وهو الحادث الذي استغلته ألمانيا يومئذ لمصالحها الاستعمارية؛ بيد أن ألمانيا اضطرت إزاء حزم فرنسا وما أبدته من الاستعدادات البحرية العظيمة في المياه الاسبانية وما همت به من اتخاذ الاجراءات العسكرية السريعة في مراكش وعلى حدود اسبانيا الشمالية أن تتراجع في مشروعها وأن تؤكد أنها لا ترمى إلى أية غاية استعمارية في مراكش الاسبانية أو في اسبانيا ذاتها

والآن ما هي الاحتمالات التي يمكن أن تسفر عنها حركة ألمانيا في سبيل المستعمرات؟ ان ألمانيا تتقدم بمطالبها الى جميع الدول التي استولت على أملاكها السابقة في إفريقية وفيما وراء البحار، وهي انكلترا وفرنسا وبلجيكا واليابان؛ وهي تتقدم الى انكلترا بصفة خاصة لأنها وضعت يدها على اكبر قسم من هذه التركة. ولأن موقفها من المسألة قد يغدو مفتاح الموقف كله؛ وقد كانت السياسة البريطانية تتوقع هذه الخطوة من ألمانيا منذ أشهر، ولهذا فقد بحثت المسألة، وانتهت فيها على مايلوح الى خطة معينة لم تتضح قواعدها بعد. بيد أنا نستطيع أن نتبين موقف السياسة البريطانية من بعض التصريحات الرسمية والتعليقات غير الرسمية؛ وقد أدلى السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية السابق، منذ اكثر من عام خلال مناقشات عصبة الأمم في المسألة الحبشية بأول رأى واضح لانكلترا في المسألة الاستعمارية وهو ان انكلترا مستعدة لأن تنظر في مسألة تنظيم توزيع المواد الأولية تنظيما يكفل توزيعها بصورة اكثر عدالة ورضاء للدول المحرومة منها؛ أما عن التخلي عن المستعمرات ذاتها أو اعادة شيء منها الى ألمانيا، فقد صرح مستر ايدن وزير الخارجية الحالي، وكذلك مستر بلدوين رئيس الوزارة اكثر من مرة في مجلس العموم، بان انكلترا لا تنوى التخلي عن أية مستعمرة أو منطقة يظللها العلم البريطاني؛ بيد أنه يلوح لنا أن السياسة البريطانية قد تقدمت أخيرا خطوة أخرى في سبيل بحث المسألة الاستعمارية، وهو أنها مع عدم استعدادها لبحثها من الوجهة الشخصية، فانها على استعداد لبحثها من الوجهة الدولية العامة، اعنى من حيث ارتباطها بالسلام الاوربي، ووضع تسوية عامة للمسائل الدولية والأوربية

يستقر معها السلم بصورة نهائية ؛ ومن هذه مسألة تحديد السلاح ، وتامين الحدود المختلفة ، وحل المشكلة الأسبانية وغيرها ؛ وهذا ما تاباه المانيا ، لأنها لا تقبل المساومة فى أى مسألة تتعلق بسيادتها وحرياتها فى العمل ، وتصر على أن تنظر المسألة الاستعمارية فى ذاتها ؛ وهى تجد فى انكلترا ذاتها بعض المؤيدين لنظريتها ، فقد رأينا مستر جارفن الكاتب السياسى الكبير ينصح باعادة مستعمرات ألمانيا اليها ، ويقول ان مسألة المستعمرات لا تستحق ان تكون مثارا للحرب بين الدول العظمى

ولا ريب أن المسألة لا يمكن ان تحل بمثل هذه السهولة ؛ فانكلترا لا تقبل مطلقا أن ترد لالمانيا مثلا شرق افريقية الألمانى وبذا تعيدها خصما منافسا لها فى شرق أفريقية الى جانب ايطاليا الفاشستية ، أو تعيد اليها غرب أفريقية الألمانى فتهدد بذلك سلامة امبراطوريتها فى جنوب أفريقية وفى أواسطها . أو مستعمرة غانه الجديدة فتهدد مواصلاتها مع استراليا ؛ وقد كانت هذه أهم مستعمرات المانيا السابقة . وليست فرنسا أقل تمسكا من انكلترا بما وضعت يدها عليه من تراث المانيا السابق فى الكمرون وفى توجولاند ؛ والنظرية الفرنسية فى مسألة المستعمرات معروفة ، خلاصتها أن فرنسا لا تقبل مطلقا أن تعيد الى المانيا أية مستعمرة أو أراض تستغلها المانيا فى سبيل تدعيم قواتها ومشاريعها العسكرية ، ولا تنظر فى مسألة المستعمرات الا اذا ارتبط البحث فيها بمسألة السلامة العامة ، واسفر عن ضمانات جديدة مؤكدة تقدمها المانيا فى هذا السبيل

والخلاصة أن مسألة المستعمرات هى مسألة اليوم ، وهى طور جديد من أطوار الصراع التى تثيره ألمانيا الهتلرية فى سبيل استرداد مكانتها القديمة كاملة شاملة وفى سبيل تدعيم مشاريعها الاقتصادية والعسكرية ؛ وقد يؤدى البحث فيها إلى بحث الموقف الأوربى كله ، ويؤدى إلى تسوية دولية عامة ؛ وقد يقف البحث فيها عند الخطوات التمهيدية إذا أصرت ألمانيا على وجهات نظرها المعروفة من رفض البحث فى مسألة تحديد التسليح ، والاصرار على وجوب ابعاد روسيا عن حظيرة الدول الأوربية ، وعندئذ تتعقد المشكلة الأوربية ، ويصعب التكهن بما قد يفضى إليه هذا التعقيد من التطورات

ويجدر بنا أن نشير أخيراً إلى أن هذه الشهوة المضطرمة التى تحدو الدول الفاشستية ، وتحدو ألمانيا إلى السعى لامتلاك المستعمرات لا ترجع إلى بواعث اقتصادية واجتماعية حسبما تصورها لنا السياسة الفاشستية ، فان الاحصاءات تدل على أن المستعمرات تغدو فى أحيان كثيرة ، عبئاً اقتصادياً ، وقد لا يهاجر إليها من البيض سوى آلاف قليلة لا تؤثر فى تخفيف مشكلة السكان فى البلد الأصلى ، وأكثر ما ترجع هذه الشهوة إلى بواعث سياسية وعسكرية فوق ما ترجع إليه من الاطماع المادية والاقتصادية ؛ وهى نفس البواعث التى تحمل الدول الأخرى على الاحتفاظ بتراثها الاستعمارى الشاسع ، وهى فى الواقع معركة الغنائم والأسلاب الخالدة ؛ فاذا كانت ألمانيا قد فقدت مستعمراتها فى حرب كبرى هزمت فيها وسحقت ، فمن الصعب أن تتوقع عود هذه المستعمرات إليها غنيمة باردة ، وعليها إما أن تبذل الثمن المناسب ، وإما أن تخوض حرباً تحرز فيها النصر ، وعندئذ تستطيع أن تملى شروطها ، كما أملى عليها الظافرون شروطهم بالأمس ، وهذا ما نستبعد وقوعه فى الظروف الحاضرة

(***)

٢ - صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وغاب شيخُنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعضَ ساعة ثم رجع تدور عيناه في جَحاظَيْهما وقد اكفهرّ وجهُه وعبس كأنما يجرى فيه الدمُ الأسود لا الأحمر، وهو يكاد ينشقُّ من الغيظ وبعضُه يَغلى في بعضه كالماء على النار . فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كَنَفَىْ أنفه تَستمّان كآبةَ وجهه المشوَّه، فكان منظرهما من عينيه السَّوداوين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا من ذبابتين . . .

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما. فقلت له : يا أبا عثمان هاتان ذبابتان ويقال إن الذباب يحمل العدوى

فضحك ضحكةَ المَغيظ وقال : إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة . . . فأكثر القول في هذه الجرائد حشرات من الألفاظ : منها ما يُستقذَر، وما تنقلب له النفس، وما فيه العدوى، وما فيه الضرر ؛ وما بدٌّ أن يعتاد الكاتب الصحافي من الصبر على بعض القول مثلما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه . وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة . . . كان أخفَّ عليه وأهون، وكان ذلك أصرحَ في معنى الطلب والتكليف (١) .

وكيفما دار الأمر فانّ كثيرا من كلام الصحف لو مسخه الله شيئا غير الحروف المطبعية، لطار كله ذبابا على وجوه القراء .

قلت . ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مُتَطَلِّقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقدا فما الذى أنكرت منه ؟

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهلُ بعواقب الامور لبطل النظرُ وما يشحذ عليه وما يدعو اليه ، ولتعطلت الأرواحُ من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » (١) . هناك رجل من هؤلاء المعنيّين بالسياسة كما هي السياسة في هذا البلد . . . يريد أن يخلق في الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفّق لها من المنطق رُقَعاً كهذه الرقع في الثوب المفتوق . ثم لا يرضى الا أن تكون بذلك رداً على جماعة خصومه وهى ردعليه .وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد الا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر في المستنقع الراكد

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبى عثمان في لطافة حسه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ولا من المميِّزين في الرأى ، ولا من المستدلّين بالدليل ، ولا من الناظرين بالحجة . وكأن أبا عثمان هذا رجلٌ حُروفى . . . كحروف المطبعة ترفع من طبقة وتوضع في طبقة وتكون على ماشئت . وأدنى حالاتها أن تمد اليها اليد فاذا هى في يدك

وأنا امرؤٌ سيدٌ في نفسى وأنا رجلُ صدقٍ ولست كهؤلاء الذى لا يتأثّمون ولا يتذمّمون ؛ فإن خضتُ في مثل هذا انتقض طبعى وضعفت استطاعتى وتبيَّن النقصُ فيما أكتب ، ونزلتُ في الجهتينِ فلا يطّرد لى القول على ما يرجو ولا يستوى على ما أحب . فذهبتُ أناقضُه وأرد عليه ؛ فبُهتَ ينظر إلىّ ويقلب عينيه في وجهى كأن الكاتب عنده خادمُ رأيه كخادم مطبخه وطعامه هذا من هذا

ثم قال لى : يا أبا عثمان إنى لأستحى أن أعنفك . وبهذا القول لم يستح أن يعنف أبا عثمان . . . ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :

أكُلَيب ... مالك كلَّ يوم ظالما والظلم أنكدُ وجهه ملعون ...

لولا أن ذكرتُ قولَ الآخر :

وما بين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حزِّ الغلاصمِ

« حزُّ الغلاصم » وقطعُ الدراهم ، من قافية واحدة ... وقال سعيد بن أبى عَروبة : « لأن يكونَ لى نصفُ وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر - أحب إلىّ من أن أكون

---

(١) هذه طريقة الجاحظ في الاغراق حين يتهكم .

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ .

ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السختياني ...

وهمَّ شيخنا أن يمرَّ في الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير ... ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة ، وهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ، فكما انقلبت العصا حيّةً تسعى ، وهي عصا وهي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوَّن والمعرفة بأساليب السياسة ، فتكون للتهويل وهي في ذاتها اطمئنان ، وللتهمة وهي في نفسها براءة ، وللجناية وهي في معناها سلامة . ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبُها الأحمر في دخانها الأسود . قال : وإن هذا المنطق الملوَّن في السياسة إنما هو إتقانُ الحيلة على أن يصدقك الناس ، فإن العامة وأشباه العامة لا يصدّقون الصدقَ لنفسه ولكن للغرض الذي يساق له ، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس ، فأذِقْهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقا وفوق الصدق ، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهينَ العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب ، ليحقّقوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودقّقوا . . .

ثم قال أبو عثمان : ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للاعلان لكانت العبارة هكذا : سياسة للبيع . . . .

* * *

قلت : ياشيخنا فإنك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون . ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب تقرأ فيها معانٍ لا تكتب ، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمنها طلبُ ما يُستحى منه . . . والحوادث عندهم على حسب الأوقات ، فالأبيض أسود في الليل والأسود أبيض في النهار ، ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرّج المعاني ؟

قال : بلى نعم الشاهد هو وأمثاله . إنهم مصدّقون حتى في تاريخ حفر زمزم

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر ، فأراد هذا أن يجرح شهادته ، فقال للقاضي : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحجَّ إلى بيت الله ؟ فقال الشاهد : بلى قد حججت . قال الخصم : فاسأله أيها القاضي عن زمزم كيف هي ؟ قال الشاهد : لقد حججتُ قبل أن تحفر زمزم فلم أرها . . .

قال أبو عثمان : فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكي به نفسه ؛ ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلا في الصحف لنفي المنفي وإثبات المثبت ، لا عملا يعملونه بالنفي والاثبات . ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق فلا يكون الشأن حينئذ في إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع .

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يترخَّص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة ، ومادامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة . وقد كان العمل السياسي إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطة ، ومن ثم كان الخلق القوي الصحيح هو الشاذ النادر يظهر في الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ؛ وذلك هو السبب في أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن المماري أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً . . . .

يا لَعبادِ الله ! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعا في « محليات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فبماذا تتشرف « المحليات » إلا به ؟ وهذا طبيعي ، ولكن في طبيعة النفاق ، وهذا واجب ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب . ولو أن للأديب وزنا في ميزان الأمة لكان له مثل ذلك في ميزان الصحافة ، فأنت ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامية الشعب ليس غير ... ومن ذا الذي يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها – وأكثر الألقاب عندنا هي أغلاط في معنى الشرف ... ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت في أرجة

(أميرال) انجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط فيه رسما من رسوم الحرب . ونظرتْ فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا . قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل وما أخفّ وما أهون ! ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقى وَنِيمها(1) هنا وهناك وتقول : هذه مدينة ، وهذا حصن ...

***

والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق . . . فلما لم يسمع شيئا قال :

لو أنى أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب) ، فمهما أكذب على الناس فقد صدقت فى الاسم ، ومهما أخطىء فلن أخطىء فى وضع النفاق تحت عنوانه

قال : ثم أخط تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها :

ما هى عزة الأذلاء ؟ هى الكذب الهازل

ما هى قوة الضعفاء ؟ هى الكذب المكابر

ما هى فضيلة الكذابين ؟ هى استمرار الكذب

قال : ثم لا يحرر فى جريدتى إلا صعاليك الصحافة ، من أمثال الجاحظ . ثم أكذب على أهل المال فأمجد الفقراء العاملين، وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين . و . . .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير . . .

لها بقية (طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

(1) ونيم الذباب هو . . . اي هذه النقط السود التي يحدثها

وحى القلم

كثرت عندنا كتب إخواننا من فقراء الطلبة . منهم من يريد الكتاب بقيمة الاشتراك ، ومنهم من يريده بنصف الثمن ، ومنهم من يطلبه بالدعوات الصالحات.. فأعتذر للجميع بأنى لم أنفق على طبع الكتاب وإنما أنفقت عليه لجنة التأليف والترجمة والنشر . ولو كان (بولانا كي) الفتى اليوناني المشهور يعرف الأدب العربي ، لرجوته لهم فاشترى واهدى إليهم .

ولكن بولاناكي لايعرف الأدب العربى ، ومثله جنا كليس ومانوسيان .

ورحمة الله على اغنيائنا الأموات الذين نعرفهم وزارة الأوقاف واطال الله بقاء الأحياء الذين لا اعرفهم انا ولا يعرفهم احد من المؤلفين ...

الرافعى

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى الفونس كار

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

(٢)

زهرة السلوان

حذار من زهرة السلوان ! إنها زهرة يصيبك بهاؤها ويقتلك عبيرها . إنها لزهرة تتشح الجمال وتتكلف الابتسام ، تحدجك بلفتات ساحرة لتستهويك وتقول لك : ـ تعالَ الىَّ ، فىَّ الأخلاص وفىَّ العزاء .

رأيت رجلا اقتطف زهرة السلوان من حقول الحياة بعد أن عرفته هائماً تتقد فى قلبه النار التى لا تنير دون أن تحرق ، فاصبح خلىَّ البال يحدّق فى من كان يهواها فلا يفرح ولا يحزن ، لا يلذه شىء ولا يتألم لشىء

ولكنَّ السلوان لا يدخل وحده إلى القلب ، بل يجر معه رفيقه الملازم له : يجر معه الضجر والملال . ومن اقتطف زهرة السلوان يسير حزيناً مطرقاً بالأرض لانه لن يحب بعد ...

من سطا السلوان عليه فهو طريدٌ لا قرار له

من ينس مرةً فلن يحب أبدا

أرى الخلىَّ يقطع السهول ويتسلق الروابى فيقف متضجراً ينصت إلى تغريد الأطيار ويسرّح الطرف فى أزهار الخمائل وجداول المروج متسائلا أمام الطبيعة العاشقة عما أفقده عشقه ، فتجيبه الطبيعة : لأنك قطفت زهرة السلوان

ويبكى هذا الطريد زماناً كان يبكى فيه إذ كان شقياً ، ولكنَّ قلبه لم يكن ساكناً لا حرارة فيه ولا خفوق

إن من الأمراض ما يفوق ألمُ شفائها آلامَ استفحالها

دلنى على منابت زهرة السلوان لأجتنبها ، قل لى أين تنوّر لأحوّل طريقى عنها

هى زهرةٌ صفتها اسم لها ؛ تنبت فى الأماكن الموحشة المقفرة ، وقد تنمو فى المدن بين الحركة والضجيج ، غير أن جرثومتها عالقة فى عالم الخيال فى أسرار حياة الموت وموت الحياة

هى زهرة الضجر والملال والعذاب ، زهرةُ السلوان

في الأدب المقارن

الرحــلة

في الأدبين العربي والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

كان الإنسان رحالة قبل أن يكون ذا وطن : كان يهجر جماعات جماعات بقاع الأرض الشحيحة ، ويقصد أصقاعها الخصبة ووديانها الكريمة ، طلبا للقوت والتماسا للغنم ؛ فلما استقر في الأوطان والمساكن لم يستغن في حياته عن الرحلة ، بل ظل يحفزه إليها ابتغاء الرزق تارة ، وحب الاستطلاع والمتعة أخرى ، وشهوة الغلب والفتح طورا ، ونشدان العلم آ نة ، وأداء مناسك دينه حينا ، والفرار من الظلم أو الذل أحيانا ؛ وامتازت عصور نهضاته خاصة باشتداد حبه للرحلة : فاذا ما مشت نسمة الحياة بين الأمة ، وتنبهت فيها ثقتها بنفسها ، وامتلأت روحها بحب العمل والاقبال على أسبابه ، تطلعت دولتها إلى الخارج تبسط سلطانها عليه ، وراح أفرادها في إثر جنودها يبتغون الرزق ويتوسمون وجوه المعرفة ، ويهجمون على ظواهر الكون وخفاياه

تلك النهضة الروحية التى تهب ريحها بين الأمة ، وتدفع أبناءها إلى الارتحال وطلب المغامرة والمجد والعلم ، وابتغاء الجديد والطريف ، تصحبها عادة نهضة أدبيـة تعبر عن هـذا الروح الوثاب ، وتنعكس فيها آثار تلك الرحلات وما تبهر به الأذهان من روعة الكون وعظمته ورحب أقطاره ، وما تحدث في العقائد الدينية والعلمية من ثورة ، وما توسع به آفاق التفكير من حقائق جديدة ، وما تدخل في الأدب من عناصر أجنبية تخالط عناصره المحلية ، من قصص وأوصاف وألفاظ ؛ فيفيد الأدب بذلك كله فائدة كبرى ، وينبغ فيه من أعلام النظم والنثر أنداد من ينبغون من أفذاذ المغامرة والقتال والرحلة

عرف قدماء المصريين هذه النهضة المصحوبة بحب المغامرة والاستطلاع على عهد امبراطوريتهم في آسيا ، فامتلأ أدبهم إذ ذاك بقصص الهجرة والمخاطرة والتجوال ؛ وإلى أدب ذلك العهد ترجع القصة التي مازالت تتشكل على توالى الأجيال ، حتى انتهت إلينا في شكل حكاية علي بابا واللصوص الأربعين . ومشت بين الاغريق روح المغامرة تلك إبان نهضتهم قبيل الحروب الفارسية وبعدها ، فكان كثير من أفذاذهم وعلمائهم أمثال فيثاغورس وصولون وهيرودوت وطاليس وافلاطون رحالين جابوا مهود الحضارة الشرقية ، وأخذوا عن المصريين والبابليين علومهم ، وكتبوا مشاهداتهم في رحلاتهم ، واصفين جغرافية تلك البلاد وتاريخها ، وهبت ريح المغامرة شديدة على الممالك الاوربية في عهد إحياء العلوم ، فدفعتهم إلى ارتياد العالم المعروف واكتشاف العالم المجهول ، وبسط حضارتهم وثقافتهم في أطراف العالمين القديم والجديد . وكان من رادة هذه النهضة مركو بولو وداجاما وكولمبس

وقد كان أكثر العرب في جاهليتهم رحالين لاينزلون أرضاً إلا ريثما يتحولون عنها ، يطلبون الكلأ أو يبتغون القتال أو ينقلون التجارة ؛ ومن ثم شغفوا حباً بأبلهم وجيادهم ، وترنموا بوصفها ، وكثرت في لغتهم أسماؤها وأسماء سيرها ، وقدموا الحديث عنها بين يدى قصيدهم ، وأدمنوا ذكر ارتحال أحبتهم ، وتمدحوا بطول التنقل وإنضاء الرواحل وإباء المقام بأرض الذل . وكان بعض سادتهم يسفرون إلى ملوك الروم والفرس ؛ وإلى تلك الرحلات المختلفة الأغراض يرجع الفضل في انتشار بعض أسباب الحضارة والرقى الفكرى والكتابة الخطية بين العرب قبيل الاسلام . ولا ريب أن الرحلات التى قام بها الرسول الكريم كانت من أهم عوامل تكوينه الروحى والعقلى ، حتى تهيأ له أن يضطلع برسالته العلوية ؛ فالرحلة عادة من أهم العناصر المكونة لشخصية العظيم ؛ كما أن الرحلات التى قام بها في الجاهلية أفذاذ القواد أمثال عمرو بن العاص إلى الممالك المجاورة كانت عظيمة النفع للجيوش العربيـة حين توجهت لغزو امبراطوريتى الفرس والروم . ومن تمدح العرب بالرحلة عن موطن الهوان قول الشنفرى :

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به إلا لدى ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بى على الذل إلا ريثما أتحول

وقول الشاعر الاسلامى أوس بن معن :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

ونهض العرب نهضتهم الحربية العظيمة فرأوا من أقطار الأرض وصنوف الخلق مالم يكن يخطر لهم ببال ، وكان لذلك كل الأثر في أذهانهم وآدابهم ، والتقت تحت رايتهم شتى الحضارات والأجناس ؛ وشدت الرحال من أقصى امبراطوريتهم إلى أقصاها : وهدأت ضجة الحرب فمشى التجار حيث مشى الجنود من قبل ، وسار العلماء والأدباء في شرقى الأرض ومغربها يطلبون العلم والأدب ، ويلتمسون الرزق والحظوة . وأظهر العرب من حب الرحلة لشتى الأغراض مالا تبذهم فيه أمة أخرى : هاجروا جماعات فأنشأوا الأساطيل يفتحون بها سواحل البحر وجزره ، وأفراداً فبثوا الدعوات وأنشأوا الدول وسافروا تجاراً فنشروا الاسلام وحضارته في الأطراف والمجاهل التى

لم تبلغها سنابك خيول الفاتحين ، وتجشم علماؤهم متاعب الأسفار طلبا لتحقيق العلم والمشاهدة والتثبت من صحة الأحاديث الشريفة . وحرص الكثيرون على حج بيت الله الحرام مهما بعد ، وزيارة عاصمة الاسلام حيث كانت

وظهر من أعلام الرحالين الذين طافوا أنحاء الامبراطورية الاسلامية وجاوزوها إلى الأقطار الأجنبية شغفا منهم بحب الاستطلاع والتجوال ، أوولوعا بعلم تقويم البلدان وطلبا لغرائبه ، أمثال المسعودى وابن جبير وابن بطوطة ، طوف أولئك الرحالون تدفعهم الروح التى كانت تدفع هيرودوت وديودور قديما ، والتى حثت ماجلان وكوك وأضرابهما فيما بعد ، وما تزال تدفع العلماء إلى قرع أبواب العلم المغلقة ، وطرق سبله المجهولة ، ودون أولئك الرحالون المسلمون مشاهداتهم ، فنالت كتبهم الذكر والاهتمام ، ودرست لافى البلاد العربية وحدها ، بل فى أوربا حيث ظلت زمانا من أكبر مراجع التاريخ والجغرافيا ؛ ولم تكن رحلات كولمبس غربا وداجاما شرقا فى الحق إلا إتماما لما بدأه العرب وحذقوه من التجوال فى البحار وارتياد الأقطار . وقد انتفع كلا ذينك الكاشفين وغيرهما بآثار العرب فى الرحلة والجغرافية ، واستفادوا بخبرة الملاحين المسلمين

كان لكل هاتيك الكتب والرحلات والأخبار آثارها فى الأذهان والآداب ؛ غير أنه لما كان الادب العربى قد نفى من حظيرته القصة وازدرى الخرافة ، وزهد فى كثير من منادح القول ، فقد أهمل الكثير من ثمار تلك الأسفار وطرائف تلك الاخبار التى تحوى أنفس المواد لخيال الأديب وفنه ، فلم تبد آثار الرحلات والمخاطرات فى الأدب العربى الفصيح إلا ضئيلة متفرقة : ففى المقامات شىء منها ، إذ تدور المقامة حول أفاق يذرع الأرض ويهبط كل يوم بين قوم ؛ وإنما استأثر بالتحدث عن الرحلة والمخاطرة والبلاد البعيدة الأدب العامى : تجمعت أقاصيص الامم القديمة ، وأضيفت إليها أخبار الرحلات الجديدة ، وذاع كل ذلك فى العامة ، ودون بعضه فى قصص ألف ليلة وأشباهها ، وظل بعضه غير مدون يتداول شفاها

ولم يكن الأدباء أنفسهم أقل من العلماء والتجار حبا للتجوال وجوبا للأقطار ، بل كانت الرحلة عندهم جزءا من منهاج الدرس والتأدب لا غنى عنه . فكانوا ينشدون الرحال إلى العواصم ، ويشخصون إلى العلماء والأدباء المتقدمين ويقصدون دور الكتب التى أولع بانشائها الأمراء ، فاذا ما قضوا من ذلك وطرا التفتوا إلى طلب الحظوة والنوال ، فنصوا المطايا إلى أبواب الملوك والخلفاء . فاذا تمت لهم الحظوة وأضواهم الملك تحت ظله صحبوه فى قليل أو كثير من رحلاته وغزواته ، كما صحب عباس بن الاحنف الرشيد ، وابن هانىء الأندلسى المعز . فحظ أدباء العربية عامة من الرحلة لم يكن بالضئيل حتى أبو العلاء الكفيف لم يقعده عماه عن ركوب مشاق الأسفار والشخوص إلى العواصم

وقد ضرب كبير شعراء العربية المتنبى فى الرحلة بسهم وافر : قضى شطراً من شبابه فى البادية ، وجاب أطراف العالم العربى ، وقصد الأمراء ما بين فارس ومصر ، وصحب سيف الدولة فى حروبه ، ومات وهو على سفر ، وامتلأ شعره بذكر الرحلة والشغف بها والتمدح بتعوده إياها ، ووصف الخيل والابل وذكر الليل والفلاة وتفضيل النياق على الغوانى . وقد كان يحب الرحلة حبا أصيلا لا تكلف فيه ولا ادعاء للبأس والفروسية : كان دوام التأهب والنقلة يشفى من نفسه الطامحة إلى جلائل الأعمال صداها ، ويستوعب نشاط جسمه المتحفز للنضال وحمل الأعباء . لم تتهيأ له الفرصة لمجالدة الأبطال وتضريب أعناق الملوك فاعتاض عن ذلك بمجالدة قوارع الطبيعة ومجابهة شدائدها . ومن رصين أشعاره فى ذلك قوله :

ذرانى والفلاة بلا دليل   ووجهى والهجير بلا لثام
فانى أستريح بذا وهــــذا   وأضوى بالاناخة والمقام

وقوله :

غنى عن الأوطان لا يستفزنى   إلى بلد ســافرت عنه إياب

فحب الرحلة كان أمراً شائعا فى الدولة العربية ، يدعو إليه توطيد الملك وبسط السلطان وابتغاء الرزق ، ونقل التجارة ونشدان العلم والأدب وتأدية مشاعر الدين . وقد أدلى الأدباء فى ذلك بدلوهم ، وقل منهم من لم يرحل عن وطنه ولم يتغرب فى بعض الأغراض ؛ وأثر ذلك ملحوظ فى الأدب ، غير أنه ضئيل محصور فى مواطن قليلة : كوصف الرحلة إلى بلد الأمير الممدوح يقدم فى صدر المدحة ، وكالحث على الارتحال فى طلب العلم والرزق والمنفعة وصحبة الماجدين فى أشعار مشهورة سار كثير منها أمثالا : يشبه فيها المرء فى وطنه بالأسد فى غابه لا يصيد ، والماء فى مستقره يأسن ، والعود فى أرضه لا ينفق ولا يزكو ، والشمس فى دارة الحمل لا يغنى عنها شرف المحل ؛ ومن جيد ما قيل فى ذلك قول أبى تمام :

ولكننى لم أحو وفرا مجمعا   ففزت به إلا بوفر مبــدد
ولم تعطنى الأيام نوما مسكنا   ألذ به إلا بنــوم مشرد
وطول مقام المرء فى الحى مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وكثير مما قيل فى الرحلة فى هذا الباب متشابه لا يمتاز بعضه من بعض إلا فى قوة الأسلوب أو ضعفه ، وكثرة ما به من محسنات أو قلته ، وكثير منها يتفق فى تداول نفس المعانى والاستعارات ، جريا على

عادة المحافظة على تقاليد المتقدمين الأدبية ، التى اتبعها الأدباء فى كثير من فنون القول . أما الوصف المسهب لروائع المشاهدات التى تمتع بها الأديب فى سفراته ، وأثرها فى ذهنه وقلبه ، وتحويلها لنظرته إلى الحياة والكون، وماأثارته فيه من تأمل طويل ، ومانازعه من حنين عميق إلى أوطانه ، وما استرعى نظره من محاسن الطبيعة ، وراع نفسه من آثار الأقدمين وبدائع فنون الانسان ؛ أما الوصف المسهب المفصل لكل ذلك ، وتصوير أثر الرحلة فى تكوين شخصية الأديب - فهى من أهم عناصر ذلك التكوين - فقلما يبدو فى الأدب العربى ، فهذا باب آخر من أبواب الأدب الصميمة تغاضى عنه الأدب العربى ، وتركه بين أيدى كتاب التاريخ وتقويم البلدان ، وتخلى عنه للأدب العامى

فالرحلة عن الموطن فى نظر الأديب المثقف ليست فقط وسيلة لابتغاء الرزق أو اصطحاب الماجد أو قصد الملوك ، ولا هى وسيلة لطلب العلم والأدب المدون والمحفوظ فحسب ، بل هى قبل هذا وذاك وسيلة للمشاهدة واكتشاف الجديد والاطلاع على المجهول والوصول إلى البعيد . فطول مقام المرء فى الحى لا يبغضه إلى معارفه ولا يحرمه من الوفر المجمع فقط ، بل هو يضيق أفق ذهنه ويخمد قوى نفسه ويكفكف وثبات مطامحه ؛ والرحلة تثير عزيمته وتزيد نشاطه وقدرته على التفكير والانتاج ، وتطلعه على أحوال الأمم الأخرى التى تزيده بصراً بأحوال أمته ومجتمعه ونفسه ، وتشهده بدائع الطبيعة التى تتجدد حلاها فى كل خطوة ، وتتبدل محاسنها من بقعة إلى بقعة ، وتبدى من أسرار جمالها صورة فى إثر صورة ، وفى ذلك من متعة النفس وغذاء الخيال والفن مافيه ، كما أن الوحدة التى هى نصيب الغريب فى كثير من أوقاته تعوده الوقوف عن العالم المضطرب بنجوة ، وإدمان الفكرة فيما يشاهد من أمور بنيه ، وبالكثير من هذا يعج الأدب الانجليزى

كان الانجليز كما كان العرب فى أول أمرهم رحالة دائبى التجوال والهجرة والمقاتلة ، بيد أنهم كانوا منصرفين إلى البحر مزاولين للملاحة ، فلما استوطنوا الجزيرة جنحوا إلى حياة الاستقرار رويدا رويدا ، وإن لم ينفكوا عن حبهم للبحر وركوب أثباجه ، وساهموا فى النهضة الأوربية فأولعوا بالرحلة والمغامرة والكشف فى عهد اليزابث وما يليه ، ونبغ من رحاليهم ومغامريهم أمثال رالى ودريك من رفعوا مكانة انجلترا فى البحر وما وراءه ، وتلاهم التجار ورجال الأعمال والمهاجرون أتباع المذاهب الدينية المضطهدة ، وانتشر الشعب الانجليزى شرقا وغربا ، وانتشر العلماء والأدباء فى أثر ذلك يكثرون معارفهم ويستقصون مباحثهم ، وصار من تقاليد خريجى الجامعات أن يطوفوا فى بعض أنحاء القارة الأوربية عقب إتمام دراستهم ، ليعرفوا أحوال الأمم ويزوروا خاصة إيطاليا واليونان مهدى الحضارة القديمة ، وفرنسا التى ظلت زعيمة الثقافة والمدنية فى أوربا مدى حين

وكان لأكثر أدباء الانجليزية ولع بالرحلة لا ينقضى ، وشغف بالبعيد لا يهدأ ، وغرام بالاستطلاع لا يحد ، واشتغال بمظاهر الطبيعة المتجددة ومحاسنها المتعددة ، وتطلع إلى أحوال الأمم قاصيها ودانيها حاضرها وماضيها ، ومن ثم أولعوا بالرحلة يقضون بها مآرب أرواحهم : فطوفوا فى أنحاء جزيرتهم ولا سيما منطقة البحيرات ومرتفعات اسكتلندا وجزرها ، وشخصوا إلى أصقاع أوربا المشهورة كباريس وإسبانيا وروما والبندقية وأثينا ، وجول بعضهم مثل كنجليك ولين بول فى الشرق ، وأودعوا أوصاف رحلاتهم تلك مذكراتهم أو رسائلهم إلى أصدقائهم فى الوطن أو قصصهم أو قصيدهم

ومن أدبائهم الذين طوفوا كثيراً ديفو الأفاق صاحب روبنسون كروزو . وجولد سمث الذى ضرب فى أنحاء أوربا على قدميه وهو لا يملك شروى نقير ، وكان يتكسب بالعزف على مزمار ، وسبنسر الذى قضى ردحا طويلا فى أرلندة ، وبيرون الذى جول مراراً فى أواسط أوربا وسواحل البحر الأبيض ، وانتهى به المطاف إلى اليونان حيث استشهد فى حرب الاستقلال ، وشلى الذى قصد إلى إرلندة ليقودها إلى الحرية ويحقق فيها مجتمعه الفاضل ، ثم آب إلى انجلترا وما زال فى ترداد بينها وبين أوربا إلى أواخر أيامه ، تركت هذه الرحلات آثارها واضحة فى الأدب ، فمن سفراته اتخذ بيرون مادة لقصيده ولاسيما قصيدتيه الطويلتين : « تشايلد هارولد » و « دون جوان » ، وفيهما يصف مشاهداته براً وبحراً وأثرها فى ذهنه . وكتب شلى وكيتس وبرونتج وهاردى الكثير عن آثار رومة وفنون إيطاليا عامة . وكان تنيسون فى رحلاته يدون ملاحظاته لدقائق المناظر الطبيعية كى يعود إليها وقت النظم . وهيهات أن تتتبع آثار الرحلة ومظاهر الشغف بها فى الأدب الانجليزى ، فهى مبثوثة فى كل موضع منه

لم يقنع أدباء الانجليزية بتدوين أوصاف رحلاتهم فى آدابهم تدويناً مسهبا نابضا بالحياة ، بل عمدوا - ولا سيما من قعد بهم الجد عن القيام بالرحلات الطوال التى يحلمون بها - إلى تخيل الأقطار البعيدة والمشاهد الغريبة والأمم العجيبة والحوادث الجسيمة وأودعوا كل ذلك قصصهم وأشعارهم ليشفوا غليل نفوسهم الظامئة إلى الجدة والحركة والجمال الطبيعى ، فتخيل شكسبير وقائع رواياته فى شتى بقاع الأرض والبحر ، وتخيل كولردج مشاهد « الملاح القديم » فى جهة من المحيط نائية مملوءة بالأسرار والألغاز ، وتصور ستيفنسون فى

قصصه الحوادث الجسيمة فى أقاصى الجزر والبحور ، وهى الحوادث والمناظر التى كان يقعده الداء الممض عن مباشرتها بنفسه

ولجأ الأدباء إلى تاريخ ملاحيهم وجوابيهم يقصونه ، وإلى الخرافة القديمة يستعينون بها على تصوير نزوعهم إلى الرحلة والمشاهدة فى شتى الصور ، كما استعانوا بتلك الخرافة فى الكثير من فنون الأدب.

ومن أبدع آثار ذلك قصيدة تنيسون المسماة يوليسيز باسم البطل اليونانى الذى تقص الأوديسا أخبار مغامراته ، وقد أصبحت قصيدة تنيسون تلك عنوانا فى الانجليزية على حب الرحلة . تبدأ القصيدة ويوليسيز ملك فى جزيرة إيثاكا ، يتململ من الاقامة ، ويتذكر سالف مخاطراته ومشاهداته ووقائعه حول طروادة ، ويحن إلى معاودة حياة التجوال فى البر والبحر واكتساب المعارف بلا انقطاع ، فيعول على ترك ابنه تلماك ملكا مكانه ، ويهيب بصحبه الأقدمين الذين شيبتهم الأهوال فى صحبته ، أن يأخذوا مقاعدهم من السفينة ، ويهووا بمجاديفها على الأمواج المصطفقة ، فتنطلق بهم إلى حيث لايعلمون ، إما إلى الردى وإما إلى جزائر الفردوس حيث يلقون البطل أخيل . يصف تنيسون كل ذلك فى أسلوبه الشعرى الممتاز ، وفى خيال معجب أخاذ ، ويرصعه بوصف مطرب لمناظر الطبيعة جملا وفرادى ، من سهول طروادة إلى أثباج اليم وهبوط حواشى الليل عليها ، إلى تلألؤ النجوم على صخور الشواطىء البعيدة ، وصعود القمر منها وئيداً .

ومن أجمل أشعار الحنين إلى الوطن ومناجاته قول جولد سميث فى « القرية المهجورة » : « قد كنت آمل دائماً - فى جميع جولاتى فى هذا العالم الرحب المملوء بالمتاعب وفى جميع أشجانى ، وقد حبانى الله نصيبى منها - أن أتوج ساعاتى الأخيرة بالقرار بين هذه المغانى البسيطة المتواضعة ؛ وكنت آمل - اذا ما تقشعت همومى - أن أعود إلى الوطن ، وفى الوطن أقضى نحبى ، كما يعود الأرنب البرى الذى تجد الكلاب والأبواق فى أثره ، إلى الجحر الذى انطلق منه أول مرة ».

ومن أعذب الأشعار المترجمة عن حب الرحلة فى الأدب الحديث مقطوعة الشاعر المعاصر جرالد جورلد : « الشمس طالعة فى المشرق وفى المغرب البحر ، وسيان إن كنت فى الشرق أو فى الغرب فهذا الظمأ إلى الرحلة لن يدعنى أقر ، بل يعصف بى كالجنون ، ويحملنى على توديع موطنى ، فالبحار تدعونى ، والنجوم تدعونى ، ويا شد ماتدعونى السماء ! ولست أدرى أين ينتهى الطريق الأبيض ، أو أعلم ما تلك الجبال الزرقاء ، ولكن كفى للمرء بالشمس زميلا ، وبالنجم دليلا ، ثم لا آخر للمطاف إذا ما هتف الصوت ، إذ الأنهار تدعونى ، والطريق يدعونى ، ويا شد ما يدعونى الطائر ! ذلك هو الأفق ممتدا ، وهناك ليل نهار تعود السفن القديمة إلى أوطانها ، وتنطلق السفن الصغار ، وربما أعود أنا ، ولكن لابد أن أذهب . فان سألك سائل ما السبب ، فألق اللوم على النجوم ، والشمس ، والطريق الأبيض والسماء ! ».

فحب الرحلة كان أمرا شائعا فى الأمتين ، وقد نال أدباؤهما منها بنصيب ، وظهر أثرها فى أدبيهما ؛ بيد أنها فى الأدب الانجليزى أظهر أثراً ، وأدباء الانجليز بها أشد شغفا وأكثر تغنيا ، ونظرتهم إليها أوسع أفقا من نظرة أدباء العربية : فهؤلاء كانوا ينظرون إليها نظرتهم الاجتماعية إلى شتى الأمور ، يرونها وسيلة من وسائل فهم المجتمع الذى يعيشون فيه ويطلبون الرزق فى مضطربه ، وذريعة من ذرائع استيعاب معارفه والتذرع بأسبابه ، على حين كانت نظرة أدباء الانجليزية إليها كنظرة الإغريق إنسانية شاملة ، وفنية حرة خالصة من كل غرض خارجى : كانوا يريدون بها المعرفة المطلقة بشؤون الكون والإنسان ، وإن لم تجدهم تلك المعرفة فى معركة الحياة فتيلا ، ويريدون رى غريزة الاستطلاع الكامنة فى الانسان والتى تظل متيقظة ما دامت النفس مقبلة على الحياة ، ويبغون إرضاء نشاط جسومهم وأرواحهم والتثبت من بقاء نشاطها وحيويتها ، ويسعون لاستجلاء محاسن الطبيعة التى لا تفنى مجاليها ولا تحد آفاقها

فخرى أبو السعود

من الأدب التركي

أبنـــاء المجرم

القاضى الشاعر :

فؤاد بك خلوصى أحد رؤساء محكمة النقض والابرام فى الجمهورية التركية الآن وهو مولود فى طرابلس الشام ، رجل فذ من رجال القانون وشاعر من أرق الشعراء عاطفة وأروعهم بيانا . ولهذا القاضى الشاعر ديوان باللغة التركية وقفت فيه عند قصيدة ممتعة من خالد الشعر يصف فيها تنفيذ حكم الاعدام على مجرم يترك فى الحياة أرملة وأطفالا ، وقد كان الشاعر أحد قضاة المحكمة العسكرية التى حكمت باعدام المجرم فى ثورة البلقان ، فاخترت تعريب هذه الأبيات لما فيها من حكمة وعواطف ، ولعرضها مشكلة كبرى من مشاكل العدل الانسانى تجاه سر الحياة ف . ف

وكانت من شهر ديسمبر أواخر أيامه القارصة ، وكان آخر الليل ؛ سواد يربط على صقيع وديجور أربد ملفع بالجمود

فى كل خطوة أوحال متحجرة بالجليد وزمهرير يسفع الوجوه فيلفحها كالسعير .

تجهم وجه السماء كجمرة تنطفىء ، وشرارها بقية كواكب الليل ، حكمها الملال فاطبقت على أنوارها وتراجعت إلى الافول

وساد الآفاق ارتعاش صامت ، ونعق البوم مقلقاً سكون الظلمة العميق

أمامك ووراءك حلك الظلام ، وفوق رأسك سماء متألمة واجمة ، فالى أين مسيرك يا فؤاد ، مضطربا معقود اللسان ؟ إلى أين تتجه فى آخر هذا الليل ، أيها الرجل ؟

هو قاتل أنزل القضاء عليه الحكم بالرفع إلى المشنقة ، وأمام قصر الجند المجلل بالرهبة بين المعاقل الحصينة ركزت يد الانتقام بل يد العدل آلة الاعدام ، وهنالك سينزل القصاص بمن أردى أحد الجنود شهيدا

هبوا من رقادكم أيها الشجعان وأسرعوا إلى المشهد ، ذلك حكم الأمة عادلا وهى تنتظر تنفيذه فى المجرم المهين ! أيتها الرقة الحديدية سارعى لأطلاق رصاصك على الجانى . ولكن لا ، انما رصاص بنادقك شريف يضيع فى هذا الخائن . اتركوا للحبل فريسته ، إن للموت المعلق قلادة القنب وقساوة الجلاد

أيها القضاة المقسمون بوجدانكم ! أفما أنتم الحاكمون بالاعدام إجابة لاختيار مجرد فيكم ، فعلى مَ ارتعاشكم ، وماهذا السهم النافذ الآن إلا سهمكم الذى شددتم له القوس وسددتم له المرمى . . ؟

لن أنسى ما حييت ما أرى

بين لجج الظلمات المطبقة على كل منظور ، كان نور مشعل واحد تجهمت أشعته على صفحة الأوحال لتزيد فى روعة المشهد ، وكان هنالك جذعان من الأشجار مرتكزان على الأرض وفوقهما عارضة أفقية تدلى منها حبل تجسم الموت فيه وارتجف الروع برجفانه

أفما تعجب لهذا الانقلاب فيك ؟ علام حزنك واضطرابك وأنت الشاجب والقاضى ؟ لقد عددت هذا الجانى عدواً للإنسانية ورآه وجدانك مستحقاً للإعدام ، وما يجديك افتكارك الآن شيئاً . اثبت أو تردد ، اضطرب أو تجلد ، لك ما تشاء ، فمشيئتك عبث وقولك لن يسمع ، ارجع إلى الوراء وقف إلى جانب ، اهرب وتوار عن الأنظار ، إن يد الجلاد هى التى تقبض الآن على زمام الأقدار

— ما اسمك وما اسم أبيك ؟

— فلان وأبى فلان على قيد الحياة

سئل هل له أولاد ، فترجم المترجم : إن له طفلين

وشعرت إذ ذاك أن اللجة قد فغرت فاها تحت رجلى

ارتفع الأنين من صدرى فاختنق ، وربط الروع بشهقة الألم على أنفاسى ، وانتصبت أمامى الضحية المقربة لليتم طفلين متشحين السواد ، وصرخ مزفوف المشنقة : عفوك أيها الإله ! وخمدت أنفاسه

وغشت عينى ظلمة خفقت من ورائها الأشياء . نفدت قولى وامتنع الاستجلاء علىّ ، فتلاشى أمام ناظرى القاتل والمقتول وانتصب مكانهما خيالُ عيالٍ باكية مصدوعة القلوب دامية الصدور

ذلك أب يبكى أرملة ويتيمين يجولون تائهين بالفقر والمسكنة فى فيافى المستقبل الأدكن . ويلاه ما جنت هذه العيال لتقتسم الجزاء مع الجانى ؟ معضلة ، من يسبر غورها ؟ ومسئلة ، من يحل عقدتها ؟

لو أن هذا المشهد أحلام لبدده انفلاق الصباح وانعتق القلب من روعه وآلامه ، ولكن هى الحقيقة الهائلة ، ليتها كانت طيفا أو خيالا ...

فؤاد خلوصى

تعليق على مقال

أثر المــرأة

في حياة الشيخ محمـــد عبده

للأستاذ عثمان أمين

كتب أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبد الرازق بك فى مجلة «الشباب»[١] مقالا عنوانه «أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده». ونحن مع إعجابنا بما حوى هذا المقال من طرافة ودقة بحث، هما شأن أستاذنا فيما يسطر قلمه البارع، نرجو أن يسمح لنا فى التعليق عليه ببعض ملاحظات

ذكر أستاذنا كيف كان قصر الأميرة نازلى فاضل[٢] مجتمعاً للعظماء وقادة الرأى فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأشار كذلك إشارات لطيفة إلى ما اتصفت به الأميرة من صفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والاجلال

ونحن من جانبنا نوافق أستاذنا مصطفى بك فيما ذهب إليه من أمر تلك المودة الصادقة التى قامت بين الشيخ محمد عبده وبين الأميرة نازلى والتى كان لها - من غير شك - أثر عميق فى حياة الشيخ وفى نفسه الكبيرة الحساسة.

ولقد وقع لنا - أثناء بحثنا عن آثار الأستاذ الامام - خطاب يشهد بوجود تلك الصداقة التى ذهب اليها حضرة صاحب المقال؛ والخطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ محمد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها. وهذا نصه :

Samedi

Cher Ami

Je vous prie de venir me voir ce soir après 7 h.
Je regrette d'avoir manqué votre visite hier.

Votre amie sincère.

Nazli

وإليك ترجمة الخطاب[٣] :

السبت

صديق العزيز :

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة
أنا آسفة إذ فاتتنى رؤيتك أمس

صديقتك المخلصة :

نازلى

فأمر الصداقة إذن حق. واختلاف الشيخ محمد عبده إلى قصر الأميرة أمر مقرر. ولعلنا الآن لا نبالغ اذا قلنا إن عناية الشيخ محمد عبده باتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التى كانت تتكلم بالفرنسية كأحدى بنات «السين» ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع. ونظرة إلى مجموعة الكتب الفرنسية التى وجدت بمكتبة الأستاذ الامام، والتى تعالج منها شؤون الأدب الفرنسى بنوع خاص، تؤيد ما ذهبنا اليه من أثر الأميرة فى ميول الاستاذ الامام واطلاعاته.

• • •

أراد أستاذنا الفاضل مصطفى بك أن يبين أثر الأميرة في حياة الشيخ محمد عبده من ناحية أخرى، فذكر فى آخر مقاله أن الشيخ كان يجهر أول أمره بعداوته لانجلترا ويكتب فى ذلك فصولا ضافية، ثم قال: «أما بعد اتصاله بالأميرة نازلى التى كان هواها مع انجلترا، وكانت صديقة للورد كرومر، فقد تلاشت عداوة انجلترا من صدر استاذنا (محمد عبده) وأصبح يجهر فى كتاباته ودروسه أن بريطانيا العظمى أحسن الدول استعماراً».

فهل يسمح لنا فضيلة الأستاذ أن نبدى فى هذه النقطة رأياً آخر؟

اذا كان الامام محمد عبده، أول أمره، قد حمل على الانجليز حملات شديدة، فقد كان ذلك فى جريدة «العروة الوثقى» أيام اتصاله بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى. فكان يكتب وهو فى باريس، مدفوعا بحماسة الشباب، ومرارة المنفى بعيداً عن وطنه، ومتأثراً بآراء استاذه الأفغانى، وقد كانت على ما يعلم الجميع — ترمى الى الثورة سواء بتأليف الجمعيات السرية، أو الاذاعة بالقلم واللسان. أو استعمال العنف والقتل، وبالجملة القيام فى وجه الظالمين المستبدين سواء أكانوا شرقيين أم غربيين[١].

---

(١) العدد الأول الصادر بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٩٣٦

(٢) ابنة الأمير مصطفى فاضل صاحب الخطاب المشهور المرفوع إلى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ والذى ترجمه فتحى باشا زغلول بعنوان: «من أمير إلى سلطان»

(٣) الخطاب مجلل بالسواد كتبت الأميرة على غلافه بالعربية: «عزتلو شيخ محمد عبده حضرتلرى» ولم ترسله إلى الامام عن طريق البريد، بل حمله إليه رسول من

(١) انظر: Blunt, (Secret History, P. 489

وكان محمد عبده ، أول الأمر يعتنق أكثر آراء استاذه الأفغانى ، لكنه بعد عودته من باريس وحبوط الدعوة وانفصاله عن استاذه ، عدل آراءه الأولى ، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتدريج متوخياً الاصلاح ، لامن طريق السياسة والثورة ، بل من طريق التعليم والتربية الاجتماعية والدينية ، وكان الأستاذ المصلح يتحدث عن هذا فيقول :

« علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين . وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة . وليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد : يفسد المال ويفضى إلى التهلكة » (١) .

أما عن الاصلاح الدينى فهو يقول فى رده على هانوتو : « إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم (أعنى المصلحين من المسلمين) إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، وتهذبت الأخلاق بالملكات السليمة . ولم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء فى مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين . » (٢) فلما أراد محمد عبده تطبيق وجوه الاصلاح على الأزهر بادخال العلوم الحديثة فى برامجه - وكانت أولى محاولاته الاصلاحية فى عهد الخديو توفيق - قام فى وجهه شيوخ جامدون على ما ألفوا من تقليد ، ولم يفطنوا إلى مدى إصلاحه ، وبعد ذلك نظر الشيخ عبده إلى السلطات العليا يتلمس عندها التأييد ، فوجد من الخديو عباس الثانى مناوأة له ومناصرة لخصومه ، ولقى الامام فى ذلك من الأذى كثيراً . ولسنا اليوم بحاجة إلى بيان ماكان فى خصومة الخديو للأستاذ الامام من شدة ، فذلك أمر مشهور . وحسبنا أن نشير إلى تلك الوثيقة التاريخية الخطيرة التى نشرها أخيراً احمد شفيق

(١) انظر : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٢١٧

(٢) راجع : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص٤٠٩ ومابعدها

باشا (١) والتى أرسلها الخديو إلى شفيق باشا - وكان إذ ذاك رئيساً للديوان العالى - يؤنبه فيها على السير فى جنازة الشيخ محمد عبده إزاء الدسائس المتوالية والحملات المنكرة التى كانت توجه من كل صوب إلى رجل الاصلاح ، لم يكن للأستاذ الامام بد أن يدير وجهه إلى السلطات الانجليزية (٢) فعرف « لورد كرومر » وأقنعه بوجهته فى الاصلاح ، ووجد محمد عبده المفتى من العون عند كرومر ما أخطأه عند عباس الثانى وعند شيوخ الأزهر . ومن اطلع على التقارير السنوية التى كان يقدمها لورد كرومر إلى حكومته وجد فيها ذكراً طيباً للشيخ محمد عبده وتقديراً لأعماله . وعميد الانجليز فى مصر يذكر لنا نفسه أن مناصرته محمدا عبده لم تكن بالأمر اليسير نظرا لما كان يلقاه الامام المصلح من خصومة المحافظين له وكراهة الخديو إياه ، بل لولا كرومر مابقى محمد عبده فى منصب الافتاء طويلا (٣)

• • •

نرى مما تقدم أن الشيخ عبده لم يصادق الانجليز عفوا ولا إرضاء لهواه ، بل ألجأته إليه الظروف : كان يريد الاصلاح حقا ، ولم يكن بمقدوره أن يمضى فى إصلاحه وأهل الجمود والتقليد يقيمون فى وجهه العراقيل ، ويحيكون من حوله ضروب الدسائس ، فكان طبيعيا إذن أن يلتمس موافقة الانجليز . وكان لهم حينذاك النفوذ الفعلى فى البلاد

على أن رضاه عن سياسة بريطانيا فى مصر لم يكن ينسيه واجبه كوطنى ، بل كان أول من حاول بث الفكرة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولم تكن تفوته فرصة دون أن يطالب فيها بقيام دستور للحكم العادل فى البلاد ، ووضع حد للتدخل الذى كان

(١) انظر : احمد شفيق باشا : مذكراتي فى نصف قرن . الجزء الثاني . سنة ١٩٣٦ ص ٧١ إلى ٧٤

(٢) يعلم الناس ان المحافظين الجامدين قد بلغ من شدة معارضتهم للاصلاح الدينى ان ألفوا حزبا (على رأسه الشيخ محمد الرفاعى والشيخ المنصورى) لمناوأة الشيخ محمد عبده . وحدث فى ذلك الحين أن صدرت من الاستاذ الامام فتوى تجيز للمسلم طعام اهل الكتاب والتزيى بزى الغربيين إذا اقتضته ظروف الحياة ان يعيش بين الاوربيين . وما كادت تذاع هذه الفتوى حتى قام لها حزب المعارضين ونادى بالويل والثبور ، واخذ يشيع فى الناس ان مفتى الاسلام إنما يعمل على التأليف بين المسلمين والمسيحيين . وانشأ الحزب جريدة يومية للطعن على فتوى الامام ؛ وقيل فى ذلك الحين ان مدير تلك الجريدة كان مؤيدا من الجهات الرسمية مقربا من الخديو . . . إلى آخر ما هنالك حتى شاع انهم ارادوا عزل المفتى لولا ان تدخل « كرومر » آخر الامر وصرح « ان المفتى هو المفتى وانه سيظل مفتيا » . وقد سجلت جريدة « المقطم » هذه الاشاعات فى ذلك الحين

(٣) انظر : Cromer,(Modern Egypt),vol .II. P. 180.

١٤ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الثالث

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة محمد حسن حبشى

يقول ابن رشيق القيروانى : « وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة لذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج (١) » .

وفى خلال هذا الزمن لم يكن هناك سوى أدب منطوق حفظته الرواية الشفهية ، ولم يشرع فى كتابته إلا بعد ذلك بزمن طويل . أما عصر الجاهلية فيشمل قرنا ونيفا من السنوات ، أعني منذ سنة ٥٠٠ بعد الميلاد حينما نظمت أول قصيدة وصلت إلينا حتى عام هجرة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى المدينة سنة ٦٢٢ م تلك السنة التى تعد نقطة انتقال ومستهل عهد جديد فى التاريخ العربى . وكان أثر هذه المائة والعشرين سنة كبيراً وخالداً ، فقد شهدت نشأة تدهور نوع من الشعر اعتبره أغلب المسلمين الناطقين بالضاد مثالا للابداع لا يتأتى الوصول إليه ، فهو شعر قد سار مع حياة القوم جنبا إلى جنب ، ووحد بينهم قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) بزمن طويل من الناحيتين الخلقية والروحية ، وقبل أن يؤلف الرسول بين أهوائهم المتشعبة وقبل أن يجعلهم أمة تسعى من أجل غاية مشتركة ، وترمى إلى مقصد واحد . فى هذه الأيام لم يكن الشعر من الكماليات للأقليات المثقفة بل كان الوسيط المفرد فى التعبير الأدبى (٢) ، وكان لكل قبيلة شعراؤها يعبرون بحرية عمّا يختلج فى النفوس ويصورون أفكارهم ، وكان كلامهم الشفهى هذا ينطلق فى رحاب الصحراء أسرع من انطلاق السهم ، ويجد آذانا صاغية وقلوبا واعية عند جميع من يستمعون إليه . وفى وسط هذا الصراع الخارجى والتفكك كان هناك مبدأ يربطهم جميعا : ذلك أن الشعر أحيا وعمّم المثل الأعلى الأوهو : « المروءة » ، ولو أنها كانت تقوم على عصبية الدم القبلية ، ونرى أن روابط الدم مقدسة ؛ بيد أنها غدت رباطا غير واضح تماما بين القبائل المختلفة . وأوجدت عرضا أو اتفاقا أساس اتحاد قومى فى الشعور

* * *

ولقد حاولت فى الصفحات التالية أن أتعقب أصول الشعر

---

(١) ابن رشيق فى المزهر للسيوطى (طبعة بولاق ١٢٨٢ هـ) ج ٢ ص ٢٣٦ س ٢٢ وما يتبعه ؛ وقد ترجم هذه الفقرة سير شارلز ليل فى مقدمته (ص ١٧) لكتابه Ancient Arabian Poetry ذلك الكتاب الرائع الذى ينبغى ان يكون فى يدى كل آخذ بدراسة هذا الموضوع الدقيق .

(٢) ذكر الاستاذ الجليل احمد امين فى كتابه ضحى الاسلام (ص ٥) وشهر العرب بالقدرة على الشعر حتى قال احمد بن ابى دؤاد : ليس احد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر ، طبعا ركب فيهم ، قل او اكثر . المترجم

يدعيه لأنفسهم الموظفون الانجليز كالمستشارين وغيرهم ، بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة فى أيديهم ، كما كان الحال فى ذلك الزمان (١)

ونحب فى ختام هذا التعليق أن ننبه إلى أننا ما قصدنا إلا أن ندلى بتعليل جديد للموقف الذى اتخذه المصلح الكبير إزاء الانجليز ؛ وما أردنا مما ذكرنا من وقائع أن نتعرض بالنقد لرأى أستاذنا الجليل مصطفى عبد الرازق بك . فنحن أول من يعترف بفضله ، ونجل فيه شدة وفائه لأستاذه الامام محمد عبده وعمله الدائم على إحياء ذكراه

ويخيل إلينا أن الأستاذ الامام قد توسم علائم هذا الاخلاص فى تلميذه الشيخ مصطفى فكتب إليه سنة ١٩٠٤ يقول : « ولقد عرفت منى على حداثة سنك ما لم يعرفه الكبار من قومك . فلله أنت ولله أبوك »

عثمان محمد خليل

مبعوث الجامعة المصرية بباريس

---

(١) انظر خطابى الأستاذ الامام إلى المستر « ولفرد بلنت » سنة ١٩٠٤ بشأن الحالة السياسية فى مصر وما يقترحه من حلول (وثيقتان نشرتهما مجلة « الشباب » بالعدد ٢٨ من الاستاذ حسن الشعرانى بأدنبره)

العربي ، وأصف طبيعته وعناصره وخصائصه العامة ، وأن ألِمّ بأبرز شعراء الجاهلية ، ومجاميع شعر هذه الفترة ، ثم أنتهى من ذلك إلى عرض الوسيلة التى حُفظت بها حتى وصلت إلينا

كان العرب القدماء يعدّون الشاعر كما يدل عليه اسمه - ذا صلة بالغيبيات ، وساحرا يؤاخى الجن والشياطين ويستمد منهم العون فيما يعرضه من مقدرة رائعة . وتتضح هذه النظرة إلى شخصيته ومكانته التى يتبوأها مما يروى عن شاب أبت حبيبته الزواج به لأنه لم يكن شاعرا أو كاهنا أو عرافا (١) ، وارتقت بعد ذلك فكرة الشعر كفن إذ كان الشاعر الوثنى فى الجاهلية كاهن قبيلته ومرشدها فى السلم والحرب ، وبطلها فى معمعان القتال ، تستشيره إذا ما بحثت عن مرعى جديد ، ولا تضرب طنبها إلا حسب إشارته . وإذا عثر رادوها المجهدون الظامئون على بئر نهلوا من مائها واغتسلوا به ، وقادهم إليه رافعين جميعا عقيرتهم بالغناء كما فعل إسرائيل من قبل : « انبثق أيها الماء ، وياهؤلاء غنوا له (٢) »

ولا بد أن تكون قد وجدت فى العصور الأولى ضروب أخرى من الشعر عدا أغانى الينابيع والحرب والتراتيل الدينية للأصنام - هذه الضروب كالتشبيب والرثاء ، كما كانت مواهب الشاعر تستغل أيما استغلال فى الهجاء الذى كان فى أقدم صوره « يبعث القبيلة على طلب الثأر ، ويُعد باعثا من بواعث الحرب لا يقل عن الطعن والنزال (٣) » كما يعد وعيده للعدو وتهديداته إياه دليل خطب جسيم ، أما منظوماته التى لا تقل عن السهام فتكا فكان أثرها أثر اللعنات الصارمة يجريها الوحى على لسان نبىّ أو كاهن (٤) ، وكان الشعراء يتناشدون أشعارهم فى حلقات خاصة ذات طقوس وأنظمة خاصة ، كدهنهم أحد جانبي الرأس ، وإسدالهم العباءة ، وانتعالهم « خفا » واحدا من الصندل (١) . وقد أبقى الهجاء على شىء من هذه العادات المستهجنة إلى عصر متأخر ، حينما تخلى منطق الشاعر الساحرُ عن مكانته للهجاء والقذع الذى كان يكيل به الشاعر لخصومه السب ويسمهم بميسم العار

وإن الطلائع الأولى المبهمة للشعر العربى (التى غطت عليها حيويته الساحرة المعروفة) لم تترك وراءها أثراً فى هيكل الأدب ، ولكن المهمة قد تكون سهلة نسبيا حينما نواجه قوماً جدّ محافظين مستمسكين بالقديم كالعرب . وقد يمكن القول بأن أقدم صورة للكلام الشعرى فى بلاد العرب كانت السجعَ أو كما ينبغى تسميته « النثر المقفى » (٢) وإنّ وصف مناهضى محمد عليه السلام إياه بأنه شاعر لما جاء به القرآن من صور له حتى بعد معرفة الموازين الشعرية واستنباطها ليظهر لنا أن هذه النظرة كانت لا تزال حتى ذلك الحين قوية ثابتة

وتطوّرَ السجع أخيرا - كما سنرى - فأصبح حلية لفظية فقط ، والميزةَ البارزة لكل فن من فنون البلاغة سواء فى الخطابة أم فى الكتابة ، ولكن كان له فى الأصل مرمى بعيد يتصل عن قرب بالناحية الدينية ، ويختاره الشعراء والكهنة ومن على شاكلتهم ممن كانوا يعتبرون ذوى صلات بالقوى الخفية ليفسّروا به للدهماء كل ما يحزبهم من مسائل عويصة لا يدرون لها تأويلا ولا يعرفون لها حلا . وتفرع من السجع فن آخر يجرى على وزن يعد أقدم موازين الشعر العربية ذلك هو الرجز (٣) ، وهو بحر شاذ العروض والتفاعيل يحتوى فى الغالب على تفعيلتين أو ثلاث . ومن أوضح مميزات الرجز التى تظهِر صلته القوية بالسجع أن نهايات شطراته تجرى على قافية واحدة ، مع أنه فى معظم البحور لا يحدث التصريع إلا فى مطلع القصيدة . وزيادة على ما ذكرنا ، نجد ميزة أخرى للرجز ، هى أنه على الدوام يكون مرتجلا ، فينشد الرجل الأرجوزة عند المفاجآت يفسّر بها بعض مشاعر

---

(1) Freytag : Arabum Proverbia, Vol. II, P. 494.

(٢) ولا تزال مثل هذه الاغانى تسمع حتى اليوم في صحراء الشام انظر :

Emro Littmann : Neuarabische Volkspoesie (in) Abhand. der Kön. Gesellschaft der Wissenschaften, Phil.-Hist. Klasse, (Göttingen, 1901) P. 92.

وعلى صفحة ٨١ نجد مثالا من ذلك وهو « اطلع يادلونا » حيث يردد عدة مرات

(3) Goldziher : Abhand. Zur Arab. Philologie, Part I (Leyden 1896) P. 26 [Ueber die Vorgeschichte der Higâ-Poesie.]

(٤) راجع ماكتبه جولد زيهر فى المرجع السابق ص ٤٢ وما يليها

---

(١) جولد زيهر : شرحه ص ٤٦ وما يليها

(٢) رأى المؤلف فى السجع واتصاله بأولية الشعر يتفق تماما مع رأى الأستاذ الزيات (انظر كتابه تاريخ الأدب العربى) فى اولية الشعر الجاهلى (المترجم)

(٣) يرى الدكتور G. Jacob ان البحور العربية نشأت من حداء العيس لاتفاق وقع أخفافها راجع فى ذلك ص ١٧٩ وما يليها من كتابه :

Studien in Arabischen Dichtern. Heft III.

الشخصية أو عواطف أو تجارب ، ومثل هذا ما ارتجله دويد بن زيد بن نهد القضاعى وهو يتهيأ للموت (١) :

اليَوْمَ يُبْنَى لِدُوَيد بَيْتُهُ • لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أوْ كَانَ قِرْنِى وَاحِدًا كَفَيتهُ • يَارُبَ نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ
وَرُبَّ عَبْلٍ خَشِنٍ لَوَيْتُهُ (٢)

ويحسن أن نأتى فى هذا المقام على ذكر بعض البحور الهامة فى الشعر العربى كالكامل والوافر والطويل والبسيط والخفيف وغيرها ، وايثاراً للاختصار أحيل القارىء إلى البحث الوافى عن هذا الموضوع فى مقدمة سير شارلز ليل فى كتابه Ancient Arabian Poetry (ص ٤٥ - ٥٢) . وكل البحور قياسية كما هو الحال فى الأغريقية واللاتينية . وقد استنبط قواعد العروض من القصائد القديمة لأول مرّة ونظمها ورتبها الخليل بن احمد اللغوى (٧٩١ م) الذى يقال إن الفكرة طرأت له حينما شاهد حداداً يضرب بمطرقته على السندان

ولا بد لنا الآن من أن نبحث فى نظام وموضوع هذه الأشعار التى تعد أقدم مافى التراث العربى ، فبين هاته النصوص البالغة حد الإتقان والروعة وبين شواهد السجع أو الرجز التافهة بون شاسع ليس من اليسير تحديده . وأول من نعرف من الشعر هؤلاء الذين تلوح فى آثارهم إجادتهم لصناعتهم وإبداعهم فيها ، وإن عدد الموازين التى يستعملونها وتعقدها وقوانينهم الثابتة عن الكمية . والطريقة (٣) المألوفة التى كانوا يستهلون بها قصائدهم بالرغم من الفترة التى بين كل ناظم وآخر ، هذه تحتاج إلى دراسة طويلة واندماج تام فى تعرّف فن التعبير للغة واتساع نطاقها وطلاقتها ، وهى دراسة قل أن نجد بين أيدينا اليوم ثبتا يساعدنا عليها » (٤)

« يتبع » **محمد حسن حبشى**

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٣٦ س ٣ — •

(٢) وقد ذكر فى بعض المواضع الاخرى كالقاموس « ورب غيل حسن لويته » بدلا من « ورب عبل خشن لويته » المترجم

(٣) كما فى قول عنترة فى القرن السادس الميلادي حيث شكا ان اسلافه لم يتركوا له شيئا بقوله :

هل غادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم

(4) Charles Lyall: Ancient Arabian Poetry, P.XVI.

إليهـــــا !

للأستاذ أمجد الطرابلسى

حبيبى ! إنْ بدا الفجرُ ورفَّ كثغركَ الزَّهرُ
وغنَّى الطيرُ مخموراً لحوناً كلُّها خمرُ
فـــلا تأسَ على أيا منا الفَرحى ولا تعتبْ
هو الدّهرُ ! ومنْ للدَّهـــرِ إن أخطأ أو أذنبْ ؟
حبيبى ! إنَّ فى قلبى ظلاماً مالهُ فجـــرُ
ولولا طيفُكَ الخطّا رُ ما شعَّ به كوكبْ !

° ° °

حبيبى ! بان لى الكونُ ولمْ أكُ مدركاً بعضهْ
عرفتُ نجومهُ الحَيرى عرفت زهورَه الغَضَّه
عرفت النسمةَ الفرحى عرفت البلبلَ الشادى
عرفت الحـــلمَ الزاهى عرفت الأمل الحـــادى
نشيدَ الروح ! هل كنّا سوى طيرينِ فى روضة ؟
فمن ظلٍّ إلى ظلٍّ ومن وادٍ إلى وادِ ...

° ° °

أأيامَ الهوى البرِّ وأمســـياتِه الحلوه !
جفَوْت ولم يذقْ طفلا ك بعدُ لذاذة الصَّبوه
حبيبى ! ياترى هـل تســـعدُ الأيامُ قلبَينا ؟
فنأسو الجرحَ والذكرى ونسلو الغمَّ والبَينا . . .
ألسنا فى الشبّابِ الحلـــوِ زَنبقتَينِ فى ربوه ؟
فما للعاصفِ المجنو نِ يفرقُ بينَ غصنينا ؟

° ° °

حبيبى ! إن دجا اللّيلُ وطافتْ بكَ أشباحُهْ
وأورى طرفك الساجى جوى البعدِ وأتراحه
فإنّى بينَ أترابى وأصحـــابى وإخوانى
غريب مُلهَبُ الأجفا ن وارى القلب كالعانى !
حبيبى ! إنّ ليل الحبِّ جرحُ القلب مصباحُهْ
وهل يعبق نشر العو د إلا وسْطَ نيران

من زوايا النسيان

زهرات ذابلات

لشاعر معروف

أحاذر فى نجواك بث شكاتى   فأكتم مافى القلب من حسرات
ويُضرعني وجدى فألقاك شاكيا   ولا بد للمصدور من نفثاتِ
لقد علمت أخت الملائكِ أننى   من الهمّ والآلام فى غمراتِ
وأن هواها مستبدٌّ بمسمعى   وفى كل حسن مالىء نظراتى
وملء فؤادى والأمانىُّ كلها   يبرح بى فى يقظتى وسُباتى
أروم اصطبارا عن لقاك فأنثنى   إليك بملء القلب من لذعات
وألتمس السلوى لديك فانثنى   بزاد من الأشواق مستعراتِ
اذا مادجا بالغم قلبى أضاءه   كواكب من ذكراكِ والخطرات
وان جنحت للشر نفسى هديتها   بذكرك فارتدّت الى الحسنات
وان أخلدت يوما إلى الارض ردها   هواك الى الافلاك فى لمحات
وذكرك قد يجلو عن القلب رَينه   فيسطع فيه النور حين صلاتى
على أننى يعتادنى من تذكرى   لواعج همّ مُشعَل الزفرات
هى النور وهى النار والسلم والوغى   بقلبى ، ومنها غبطتى وشكاتى
وأمنى وخوفى، وهى أنسى ووحشتى   وظلمة أيامى وضوء حياتى
فياقمرا إن غاب عنىّ نوره   فقلبى ليل موحش الظلمات
ويا شمس حسن إن تغب فجوانحى   بها شفق فى وقدة الجمرات
ويا فلكا للحسن والحب دائرا   يبارك ربي هـذه الدوّرات
فلو كان ما بينى وبينك فرقة   لقطع بحار أو لطىّ فلاة
ولكنه الدهر المُشتُّ يُقيمنا   على قربنا فى فرقة وشتات
تمنّيت أنا طائران بدوحة   تظلل بنا [illegible] فى الفلوات
أصوغ لك الأزمان شعرا وبهجة   وأسمع منك الخلد فى نغمات
ويُمسِك هذا الدهر عن حركاته   فلا هو بالماضى ولا هو آت

أناظمة الأشعار أنت قصيدة   جلَتها يد الخلاّق فى قَسَمات
يطالعها قلب من الشعر مُجدب   فينبت فيه الشعر أىّ نبات
وينشدها من قدّ فى الصخر قلبه   فيُنبض منه الحبُّ قلبَ صفاة
أرى وجهك الوضّاء شعرا مصوّرا   تحاوله الأبيات فى كلمات
كأن يراعا فى يمينك إبرة (١)   تردّد ما فى الوجه من نغمات
يقولون: شعر شاعر. هل عنوانه   بديعةَ حسن تنظم الشطرات
يُحيّى بهـذا الشعر قلبى فاقبلى   وإن كنت روضا، هذه الزهرات
سقتها دموعى واصطلت حرّ زفرتى   فلا تهزئى إن لم تكن نضرات

(شاعر)

(١) المراد إبرة الحاكية التى تخرج الأنغام المضمرة فى الألواح

وحى الشاطىء

أيها البحر...

للأديب احمد فتحى مرسى

سهرت عَينُهُ مَلالاً وسُهْدَا!   هدَأَ الليلُ مالهُ ليس يَهدَا
يرتمى لاغِباً على بُسُطِ الشطْ   طِ ويُولِى الرِمالَ ميلاً وصدّا
وكأنَّ الأمواجَ كفًّا بخيلٍ   رَامَ أن يَرفِدَ العَشِيّةَ رِفدَا
كلَّما مدَّ بالعَطاءِ يدَيهِ   غلَبَ البُخلُ نفسه فاستردَّا

ماأحبَّ الشطآنَ تَهدِرُ فى الليْـ   ـلِ ومَا أبهَجَ الرِمالَ وأندَى
وكأنَّ الأمواجَ أوفَتْ عليها   حَاسِبٌ جدَّ فى الحِسَاب وكدَّا
سطَّرَتْ كفهُ الرِمَالَ سُطوراً   وصفَا ذِهنهُ وراقَ وجدَّا
مفكرٍ فى السكونِ حتّى إذامَا   خذَلتهُ النهى ، وأخطأ عدَّا
عَادَ لِلوحِ حَانِقاً فمحَاهُ   وأعَادَ الحِسَابَ فيهِ وأبدَا

سَرِّحِ الطَرفَ أيها العَاشقُ الحُسْـ   ـنَ . هنا الحُسْنُ رَائِعٌ يَتَبَدَّى
وتأمَّلْ فى ذَلكَ الغَاضبِ الحَا   نِقِ يَطوى الفَضَا مَراحاً ومَغدَى
وكأنَّ الأمواجَ ترغى على الشُطآ   نِ شيْخٌ يَميلُ أيناً وجَهدَ
شَيَّبتْ صَولَةُ المقاديرِ فودَيْـ   ـهِ وهدَّت قوَاهُ فى الدهْرِ هَدّ
مدلِجٌ طالَ فى الظَلامِ سُرَاهُ   كلمَا جدَّ فى خُطَاهُ تَرَدَّى

أيها البحرُ ... ما لأَمواجِكَ الحَيْـ   ـرَى ترامى وترعِدُ اليومَ رَعد
فرّقتْ بَيننَا المقاديرُ يا بَحْـ   ـرُ وَوَدَّ الزمانُ ما لم يودَّ
أترَى أنتَ ذاكِرٌ طِيبَ ماوَلّى (م)   وما غابَ فى الزمان وأودَى
يومَ كنَّا والليلُ مُرخىً علينَا   نتساقى من أكؤُسِ الودِّ شهد
ساعة للصفاءِ مرّتْ من الدهْـ   ـرِ ، وللصفو ساعة لن ترُدَّ
كم نرَجى لو عاد ما فاتَ منها   وَسُدًى نرتجى لما فاتَ عود

احمد فتحى مرسى

٣ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

ولكن ليس كل هذا ما فقدناه من أحاديث الجاحظ وآثاره في المرح والدعابة فأن له كثيراً من الطرائف والملح التي ضاعت بين سمع الأرض وبصرها، وطوتها الاحداث بين أجواء العصور الخالية، فلم يبق منها إلا معالم كأنها معالم الطود قد استبد به الزمن ومحقته العواصف القاسية. وها نحن أولاء نكتب عن دعابة الجاحظ وليس بين أيدينا من مصادر البحث إلا وشل من معين، فكل ما هنالك جملة من النوادر المبعثرة في بطون الكتب يتلمسها الباحث بشق النفس، مع أن الرجل قد جرد في ذلك كتبا ورسائل تدل أسماؤها على أنها قد ضمنت ألواناً من الدعابة والمزاح، وأترعت بفنون من النوادر والمضاحيك. وتلك الكتب على ما ذكر الجاحظ نفسه وعلى ما قال بعض الباحثين: هي كتاب الملح والطرف، وما حر من النوادر وبرد، وماعاد بارده حاراً لفرط برده حتى أمتع بأكثر من امتاع الحار (١) ثم كتاب المزاح والجد، وكتاب خصومة الحول والعور. وكتاب المضاحيك، ورسالة في فرط جهل الكندي يعقوب بن إسحاق (٢) أول من اشتهر في الاسلام بالعلوم الفلسفية وما إليها. والظاهر أن الجاحظ قد ساق هذه الرسالة في التندر على هذا الرجل والتهكم به كمثل صنيعه مع أحمد بن عبد الوهاب في التربيع والتدوير... ثم أين نحن بعد هذا كله مما كتبه الجاحظ إلى إخوانه وخلطائه « من مزح وجد، ومن افصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن ملح تضحك، ومواعظ تبكي (٣)....»، بل أين نحن مما أفرغه في جميع كتبه ومؤلفاته من النوادر والمعابث، وقد كانت تلك طريقته وذلك صنيعه، وهو الذي يقول في وصف الكتاب: « ومن لك بوعاء ملىء علماً، وظرف حشى ظرفا، وإناء شحن مزاحاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وان شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه.. (٤)».

فيالها من ثروة كبيرة تلك التي وفرها الجاحظ في باب المزاح والدعابة. ولو أن الزمن قد أبقى لنا على كل هذه الثروة لفزنا بكثير، ولوقفنا باليقين على اتجاهات الرجل وما كان له من قدم في مسالك هذا الفن وضروبه؛ أما وقد خسرنا هذه الصفقة، فليس إلا أن نسير في البحث على قدر تلك الأثارة التي بقيت لنا من أماليح الجاحظ على الرغم من مغالبة المحن وقسوة الأحداث، وان فيها ما قد يجدي في البحث، ويغني في الوقوف على مقاصد الرجل من دعاباته. ولعل أهم تلك المقاصد وأجلها انما هو التهكم؛ ولعل الجاحظ لم يبرع في ناحية من مناحي الدعابة كما برع في تلك الناحية وتفنن، فهو عجيب في تهكمه؛ تنظر إلى إحدى غمائزه فلا تدري إلى أي جو قد نقلك الرجل، ولا ما ثم من أشتات المعاني التي قد أوردها على ذهنك وأثارها في نفسك، فهو يحاور ويداور. ويصطنع أسلوبا ملتوياً له ظهر وله بطن، وفيه لين وفيه قسوة، وبه طرافة وبه جفوة؛ وقد يقف من القارى موقف المتسائل، ويسير معه سير المتجاهل، فكأنه يريد أن يتهكم أيضاً بالقارىء على غفلة. وليس هذا كله إلا علامة القدرة ودليل الطبع؛ وإنما كان الجاحظ موهوباً في تهكمه، ساخراً بطبعه؛ ومن ثم لم يقف في تهكمه عند حد الدعابة والعبث، بل لقد كان يتناول ذلك في كثير من نواحي فنه، فهو أداته في الهجاء والتقريع، والنقد والتعريض، والجدل والمناظرة، وما إلى ذلك من مواضع الأخذ والرد والنظر والبحث. ألا تراه وهو ينتقد الخليل بن احمد إذ صنف في علم لم تجتمع له أداته، ولم يتوفر له شرطه فيقول: « والخليل بن احمد من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتابا في الايقاع وتراكيب الأصوات وهو لم يعالج وتراً قط، ولا مس بيده قضيباً، ولا كثرت مشاهدته للبغنين. وكتب كتاباً في الكلام ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك. ولو أن ممروراً استفرغ قوى مرته في الهذيان لم يتهيأ له مثل ذلك، وما يتأتى مثل ذلك إلا بخذلان من الله الذي لا يقي منه شيء. ولولا أن أسخف الكتاب، وأمجن الرسالة، وأخرجها من حد الجد إلى حد الهزل، لحكيت صدر كتابه في التوحيد، وبعض ما وضعه في العدل! (١)».

فهذا أسلوب من النقد الساخر الذي كان يصطنعه الجاحظ وإنه لأسلوب شديد الوطأة، وإنه بالهجاء لأشبه. فهو كما ترى يطلب «أولا» مرتبة لتصنيف الخليل هي أحط مراتب الضعف والتهافت، فيضعه دون الخطأ «يتعمده» كل «بليغ» في الأرض «جهده»، ولكن هذه المرتبة الدون لا تقنع الجاحظ، فيعود «ثانيا» فيجعله عدلا «لهذيان» الممرور قد «استفرغ» كل مرته في الهذيان؛ وهذه أيضا لا تقنع الجاحظ ولا تشبع نفسه، فنجده «أخيراً» يحكم على صنيع الرجل بأنه ضرب من الضعف لا يتأتى لطبيعة بشرية إلا «بخذلان» من الله، ثم زاد فجعله سخفاً ومجانة لو حكاه لخرج بالقارىء من حد الجد إلى باب الهزل. وهذه مداورة من الجاحظ فيها ما فيها

---

(١) الحيوان ج ١ (٢) الفرق بين الفرق للبغدادي
(٣) الحيوان ج ١ (٤) الحيوان ج ١

(١) ادب الجاحظ للسندوبي

من التهكم المر ، والتقريع اللاذع ، والتعريض الذى لايطاق استهزاء وسخرية !!

ولقد كان هذا التهكم هو سلاح الجاحظ أيضا وعدته فى تقريع الحشويين وأهل التزيد ، والذين يفترون الأخبار الغثة ، ويلفقون الأحاديث الكاذبة ، ويروجون القصص التافهة ، ثم هم يحشرون ذلك فى الدين ، ويلصقونه بالأخبار النبوية الشريفة ، ويسندونه فى الرواية إلى الأصحاب الأخيار ، والرواة الثقات ، كمثل ما زعموه عن كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وتنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه فى رأسه فأنتنت ريحه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، ودخول إبليس إلى سفينة نوح فى جوف الحمار ، وما أسندوه إلى ابن عباس من أن الحجر الأسود قد نزل من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا أهل الشرك ، ثم ما تحدثوا به عن السيدة عائشة بشأن الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع فأكلتها داجن للحى حين شغلوا بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكان الجاحظ يستنكر هذه الأخبار وأشباهها ، ويحكيها فى سخر بالغ ، وتهكم قارص. وتستطيع أن تقف على ذلك وأمثاله فى كتابه « الحيوان » فى كل موضع يفرغ فيه الرجل لبعض خرافات القوم ومزاعمهم . وقد تجده لا يعنى بتفنيد هذه المزاعم ولا يهتم بأدحاضها لأنها ظاهرة السخافة والبطلان ، ثم هو يعقب عليها بكل تهكم واستهزاء ، ويختمها بالعبارة القصيرة الموجزة تأتى عليها من القواعد . فمثلا تجده يحكى أقوال « صاحب المنطق » عن التزاوج والتلاقح بين بعض الحيوانات وبعضها ، فيسترسل الجاحظ فى الحكاية ، ثم ينتهى إلى التعليق عليها فيقول : « وقد سمعنا ماقال صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وماعندنا فى معرفة ما ادعى إلا هذا القول ! » ثم يخرج بعد ذلك إلى بعض خرافات القوم التى تتعلق بالحيوانات ، ثم يتهكم بها فيقول : « ولولا أنى أحببت أن تسمع نوعاً من الكلام ! ومبلغ الرأى ، لتحدث لله تعالى شكراً على السلامة ، لما ذكرت لك شيئاً من هذا الجنس . (١) »

فبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يتدرع الجاحظ فى كثير من نواحى فنه ؛ وبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يأخذ فى دعابته ومزحه فيبلغ الغاية من إرضاء الفن ، ويسمو إلى الذروة فى إمتاع القارىء . وعجيب أمر بعض أبناء العربية الذين يشدون من الأدب إذ تراهم يطيرون بفن الكاتب الفرنسى « فولتير » فيبالغون فى سخريته ، ويمتدحونه بلذعاته ، ويثنون على عبقريته فى التهكم ، وما أحسبهم يعرفون ذلك للجاحظ أو يعترفون به ، وأنهم لو علموا لتعجبوا من جهد كاتب العربية واقتداره فى ذلك ، ولراحوا يتلمسون تلك الناحية من فنه فيما له من كتب وآثار ، وهم لاشك واجدون متاعهم ولذتهم ؛ واقعون على أربهم ومبتغاهم ، ثم هم لاجرم سيعترفون له بما يعرفون « لفولتير » وأضرابه . وسترى الجاحظ فى أحاديثهم وكتاباتهم منعوتا بالكاتب الساخر ، وما يجرى مجرى هذا النعت

وتعال إلى الرجل فى شىء من دعاباته الساخرة . فانك واجده على ماذكرنا ـ حلوا مستساغا ، قويا قادراً قد تمكنت فى طبعه ملكة السخر ، وتمت له موهبة التهكم ، فاذا أخذ بعض الأشخاص بالتصوير « التهكمى » فهو يقدم لك الصورة الدقيقة الرائعة التى تثير فى نفسك كل ما يمكن من معانى الضحك والفكاهة ، والسخر والتهكم ، والعطف والاشفاق ، والنفور والبغض . ألا تراه وهو يتندر على سهل بن هرون فى بخله وشحه فيقول : « قال دعبل الشاعر : أقمنا عند سهل فلم نبرح حتى كدنا نموت جوعا . فلما اضطررناه قال : ياغلام ويلك غدنا. قال فأتانا بقصعة بها مرق فيه لحم ديك ، وليس قبلها ولا بعدها غيرها ؛ لا تحز فيه سكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطلع فى القصعة وقلب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلب جميع ما فى القصعة حتى فقد الرأس من الديك ، ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال : أين الرأس ؟ قال لم أظنك تأكله . قال : ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه ، ولو لم أكره ماصنعت للطيرة والفأل لكرهته فان الرأس رئيس ، وفيه الحواس ، ومنه يصدح الديك ؛ ولولا صوته ما أريد ؛ وفيه قرنه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء فيقال . شراب كعين الديك ؛ ودماغه عجيب لوجع الكلية ؛ ولم أر عظما أهش تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كانت بلغ من نبلك أنك لا تأكله فان عندنا من يأكله . أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق . فانظر أين هو ؟ قال والله ما أدرى أين رميت به . قال : لكنى أدرى : إنك رميت به فى بطنك والله حسيبك (١)

وقد تكون هذه النادرة من مرويات دعبل حقاً ، وقد تكون من اختراع الجاحظ وابتداعه ، وإنما حمله على تلفيقها ماكان بينه وبين سهل من الشنآن ، ثم عزاها لدعبل ليخلص من تبعتها ولتكون أبلغ فى المؤاخذة . ومهما يكن من شىء فان الرجل هو الذى عرضها هذا العرض وجلاها فى هذا الثوب ، فجاءت على ماترى من السخر والتهكم والضحك والمرح ، والغمز واللمز . وانها لصورة دقيقة رائعة مهما بلغ كاتب من القدرة فى التصوير فما أحسبه سيبلغ فى وصف بخل سهل وتصوير شحه واقتاره ما بلغ الجاحظ فى هذه النادرة وهيهات !

(للبحث صلة)

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) الحيوان ج ١ ص ٨٠ وما بعدها

(١) الحيوان ج ٢

الفنون

الفن المصرى

للدكتور احمد موسى

تمهيد

سل من شئت من المصريين عن تاريخ مصر الفنى وعما فى تراث لأجداد من مميزات ، وعن الناحية الجميلة الممتعة فيه ؛ بل سل أغلبية ناس فى مصر ممن زاروا أهرام سقارة ، وممن تطرف فى حب لشاهدة للآثار المصرية وسافر إلى الاقصر ، وشاهد معبد الكرنك طيبة ووادى الملوك والملكات وتمثالى ممنون ؛ سل كل هؤلاء عما اهدوه وعما استفادوه ، وعن ناحية الجمال فيما عاينوه ، فلا تسمع لا تخبطا يكاد لا يختلف عما تسمعه من أمى يعيش بجوار هذه الآثار لوال أيام حياته !

ثم شاهد مدينة القاهرة ـ على اعتبار أنها عاصمة القطر وأهم مدينة فيه ـ وما فيها من ضروب الخروج على أبسط مبادىء الذوق لعام ، واخطر فى أحسن شوارعها يستوقفك شذوذ الانسجام فى مبانيها وظاهرة انحطاط الذوق فى كل ما فيها ؛ ثم تفلسف قليلا لمعرفة السبب فى ذلك تجده دون شك ينحصر فى جهل الناس معنى الجمال ومعنى الذوق ومعنى الفن . وهم فى ذلك سواء ، يستوى الجاهل مع العالم ، والفقير مع الغنى ، والشيخ مع الافندى

بيوت عالية شاهقة ، وأخرى واطئة حقيرة ، كلها متجاورة . وإذا صادفت عشر عمارات كبار الواحدة ملتصقة بالأخرى ، ترى لكل منها شكلا ولكل منها منهجاً ؛ كل هذا بجانب دكاكين كتب فى أعلى مداخلها باللغة الاغريقية مرة وبالعبرية أخرى وبالارمنية ثالثة ، ودكاكين كتب أعلى مداخلها بالفرنسية حينا وبالايطالية أو الانجليزية حينا آخر ، كما تصادفك أخرى كتب عليها بالعربية لغة الوطن ، لغة البلاد !

تأمل كل هذا . ثم عرج على آثار الأقدمين تر أنها منسجمة ، كلها من طراز واحد سمى الطراز المصرى القديم . وإذا شاهدت المساجد جميعها رأيتها من طراز سمى «الارابسك» فيه روح الانسجام ، دون حاجة ـ فى هذه أو تلك ـ إلى دقة الفحص لمعرفة عصر الآثار ، وهل هى من مبانى الأسرات الأولى أو المتوسطة أو الأخيرة ، كما أنك لا تضطر إلى فحص نقوش مسجد أو كتاباته أو تفاصيل مبانيه لتعرف إن كان من الطراز الطولونى أو الفاطمى أو طراز المماليك البحرية أو الشراكسة ، وما ذلك إلا لأن الأول مصرى والثانى إسلامى

هذا ما سار عليه الناس أيام كانوا أميين ، أما اليوم حيث كثر المتعلمون ، وأصبحوا يلبسون كما يلبس الجنتلمان فى أوربا ، فنرى أنهم مع مزيد الأسف قد تجردوا من الذوق وبعدوا بعدا شاسعا عن المعرفة الحق ، والثقافة الكاملة المؤدية إلى حسن التقدير والاستمتاع عن طريق التذوق

لعل قائلا يقول : وماذنبنا نحن فى هذا ؟ الواقع أن الذنب راجع إلى مناهج التعليم المصرية ، لأنها تجردت من كل المشوقات للدرس ، وخلت مما يمهد لحب الفحص والنقد ، فضلا عن بعدها عن كل ماينتمى إلى الذوق العام بصلة

وفى أيامنا هذه كثر اللغط حول معارض الفن وحول التصوير والنحت وحول الموسيقى ووجوب تدريسها بالمدارس الابتدائية والثانوية ، على أنى أعتقد أن كل هذا لا يخرج عن معالجة الأعراض ، أما الأسباب فهى عند أولى الأمر فى المؤخرة

قرروا تدريس الموسيقى فى المدارس ، فهل قرروا إلى جانب ذلك تحسين الموسيقى وجعلها تخرج عن الوحدة الملائمة للرقص الخليع ورقص الخيل ؟

وهذا نفسه ينطبق على نوع التثقيف الفنى . فمنذ أن كانت لنا مدارس ابتدائية وثانوية وفن الرسم والتصوير باقيان على ما هما عليه لم يتغيرا ولم يتطورا ، حتى كتب التاريخ العام لاترى فيها أثراً لمعنى تاريخ الفن أو تاريخ الآثار تفصيلا أو إجمالا ، مع أن التاريخ فى جوهره يعتمد عليهما إلى أبعد حد

وهذا لم يكن سبباً كافيا لمن أولى الأمر على الاهتمام بدراسة تاريخ



(ش ١) مقبرة مصرية من عهد ما قبل التاريخ .

الفن ، ليغرسوا فى نفوس النشء شيئاً من التذوق والمعرفة الفنية

كان تاريخ الفن ضمن مواد الدراسة فى كلية الهندسة عندما كانت مدرسة عالية ، أما الآن فقد تقرر إلغاء تدريس هذه المادة للثقة التامة فى عدم نفعها أو على الأقل لعدم الحاجة إليها فى المستقبل العملى للمهندسين . أما كان الأجدر بكلية الطب إلغاء مادة الصوت والضوء من علم الطبيعة ومادة التشخيص الباطنى لمن سيكون طبيباً للعيون . وإذ كان الأمر كذلك فلم يدرس طلبة كلية الحقوق القانون الرومانى ؟ ولم يدرس طلبة كلية الآداب شيئا من الأدب الاغريقى مثلا مع أنه لاينفعهم فى مستقبل حياتهم ؟ (وهذا غير صحيح) الحق أننا نتخبط ولا نعرف إلى أى اتجاه نسير . فالثقافة العامة لن تكون كاملة مالم تشمل أيضا المعرفة بأصول الفن عن طريق دراسة تاريخه ولو إجمالا ! إن الرسم والتصوير والنحت فنون ليست من شأن الرسامين والمصورين

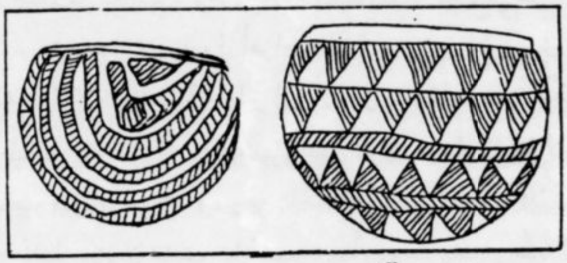


(ش ٢) أسلحة من حجر الصوان المصرى من عصر ما قبل التاريخ

والنحاتين وحدهم ، بل هى من شأن المجموع ، إذا علمنا أن الفنان لايعيش لنفسه ، كما أن خلقه الفنى لايسجله هو بشخصه ، بل أيضا بعصره الذى عاش فيه ، وبوطنه الذى شب على أرضه

وهذا مايحتم علينا أن نعنى عناية خاصة بتاريخ الفن المصرى والفن الاسلامى ، وإذا كان مقال اليوم منصبا على الفن المصرى وحده إجمالا ، فإنى أبدأ هنا بالتمهيد والتقديم له لأنى لا أقصد بالكتابة مجرد الكتابة ، ولا بنشر الصور مجرد التحلية ، وإلا فما كان أهون على من أن أتخير أجزل العبارات وأجمل المصورات ، ولكنى كأنى أذهب بك ثمانية آلاف سنة إلى الوراء . لكى أستطيع أن أوضح فى بساطة كيف نشأ الفن المصرى وكيف نما وازدهر

والناظر إلى خريطة العالم يرى أن القطر المصرى يتوسطها تقريبا إذا أراد أن يقسم الكرة الأرضية إلى قسمين متكافئى المساحة والتكوين ، كما يرى أن وادى النيل أهم بقعة فى القارة الافريقية ، ومن أهم مواقع الاتصال بين القارات جميعا .



(ش ٣) آنيتان مصريتان من عصر ما قبل التاريخ

وإذا كان هيرودوت قد قال بأن مصر هبة النيل (Homeros, Od. 4,351-355.) فلأنه كان ثاقب الفكر بعيد النظر ، لتوقف حياة مصر على النيل مباشرة حيث نشأت فى واديه أقدم مدنية عرفها التاريخ ولا يزال العالم أجمع يعجب بعظمتها فى كل نواحيها

سارت هذه الحضارة والمدنية سيراً بطيئاً طبيعياً كمكل الحضارات الأخرى ، مع فارق واحد هو التبكير العجيب ، وإن علمنا أنها بدأت منذ خمسة آلاف سنة ، فان ثلاثة آلاف قد سبقتها تمهد لها أعنى منذ أصبحت أرض مصر الواقعة على ضفتى النيل صالحة للزراعة هب إلى وادى النيل جماعات من تلك التى كانت تعيش فى الأراضى القاحلة بصحراء ليبيا ، والدارس لمقابر هؤلاء . وما وجد فيها من متروكات ، يستطيع أن يقف على طرق معيشتهم وأحوالهم رغما عن قلة ماتبقى منها (ش ١) فيرى أنهم صنعوا العصى من سيقان الأشجار بمقابض من الحجر ، كما زينوا أوانيهم الفخارية بأشكال متناظرة الرسم ، متكررة الوضع لاتخرج عن خطوط مستقيمة متقاطعة أو منحنية أو دائرية ، رسمت داخلها خطوط أخرى أقرب إلى الماشور فى أبسط مظاهره

وبمشاهدة مجموعات الاوانى الفخارية يمكن ملاحظة التقدم التدريجى الذى طرأ عليها ؛ فترى أنها اكتسبت شكلا تكوينياً أجمل (ش ٤) وزودت برسومات صغيرة مثلت شيئاً من حياتهم ، فضلا عن التقدم الفنى الذى نستطيع ملاحظته بمقارنة الأوانى فى (ش٣) وفى (ش ٤) بعضهابعض . والناظر إلى الآنية الوسطى من (ش٤) يرى على سطحها الدائرى رسوما ضعيفة ، تمثل أناساً يحمل أحدهم إلى أقصى اليسار وعاء على رأسه ، كما يرى على الجانب الأيمن للوعاء نفسه رسم النعام . أما الأوانى الأخرى فهى أجمل شكلا وأكثر زخرفة . مما لا يزال مستعملا الى اليوم فى مصر وبشمال افريقية ببلاد الجزائر والمغرب ، وهذا يدل على وجود صلة قديمة بهؤلاء .



(ش ٤) اوان مصرية من عصر ما قبل التاريخ

ووجدت ببعض المقابر أمشاط للشعر ، زينوها من أعلاها بأشكال كانت غالبا تمثل رؤوس حيوانات أو طيور أو رأس إنسان .

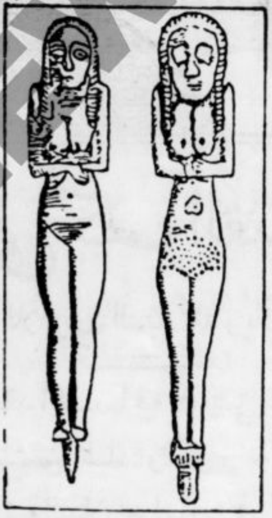
وصنعوا أسلحتهم من الصوان (ش ٢) ، وكانت هذه خطوة لا يستهان بها ، خصوصا لصلابته وصعوبة نحته وما يتطلبه ذلك من مجهود وعناية .

ولبس المصريون النعال المصنوعة من الجلد ، وجعلوا لها أربطة (ش ٥) من الجانبين لتثبيتها على القدم .



(ش ٥) نعال مصرية من عهد ما قبل التاريخ

وأخذوا يلتفتون تدريجيا إلى الزينة ، فعملوا العطور ووضعوها فى أوعية صغيرة كانت بأشكال مختلفة . واستمروا فى تقدمهم فراجت مصنوعاتهم وانتشرت تجارتهم . وازدادت صلتهم بالبلاد المجاورة وازداد عددهم . كما عرفوا المعادن واستخدموها فى مختلف أغراضهم وأدخلوها فى صناعة أدوات الزينة والتحلية ، فعملوا الأساور والعقود بعضها من الذهب ومن الحديد الأزرق الجميل الذى زادها رونقا ، وأعطانا فكرة صادقة عن ندرته وغلائه .



(ش ٦) تمثالان مصريان من عهد ما قبل التاريخ

وبدأت العقيدة الدينية تدب إلى نفوسهم نتيجة شعورهم بالوجدان والاجتماع ، وأخذت نظرتهم إلى الحياة تتطور ، فعملوا تعاويذ لجلب الرزق ولصد العين . وكانت هذه التعاويذ عبارة عن طيور وحيوانات عبدها المصريون أيام تحضرهم ، ورسموا بعضها فى مناسبات كثيرة .

واعتقد المصريون بخلود الروح ، فوضعوا فى مقابرهم كثيرا من الحبوب والتمر والتحف السابقة لعصر التاريخ .

وعند ما وصل المصريون إلى هذا المستوى ، فى وقت كان العالم فيه لا يزال فى ظلمات الجهل ، أخذوا يشعرون بحاجتهم إلى القانون وإلى الاتحاد لصد هجمات البلدان المجاورة ، فقام فيهم الملك مينا موحدا البلاد ، جاعلا من مصر السفلى والعليا مملكة واحدة ابتدأ بتأسيسها ، فبدأ بذلك عصر مصر التاريخى أو عصر الأسرات .

(يتبع) احمد موسى

القصص

على كف القدر

للأديب السيد محمد زيادة

الحياة لغز معقد أعجب ما فيه أن يشقى من لا يستحق الشقاء وأن يهنأ من لا يستحق الهناء؛ ولكن رحمة الله قريب ...

التف الولدان والبنتان حول أمهم فى أول الليل يسألون عن العشاء، وراحت هى تعللهم وتشاغلهم بما يلذ لهم من الحديث ليغمي على طفولتهم فيناموا . .

ثم ما لبثت صغرى البنتين أن استلقت على حجر أمها نصفها يقظان ونصفها هاجع ، فحدبت عليها الأم ومالت تقبلها وتهز أعطافها برفق لتصرف عنها بقية يقظة وتسرب إليها بقية نعاس.

ثم نامت الفتاة طاوية تشيع على وجنتيها حمرة صفراء فيها معنى الطوى، وترقد بين أجفانها نظرة موهونة فيها معنى الألم، وتجول على شفتيها ابتسامة حزينة فيها معنى اليأس !!

ورأتها أمها نائمة لا يستقر على ملامحها الكرى، فحدقت فى وجهها وأطالت التحديق . . . فأى حزن أبلغ من حزن أم فقيرة تنظر إلى وجه ابنتها النائمة فترى الجوع والفقر يتصالحان لتذبل فى صلحهما زهرة ناضرة ؟ .

وسقطت من عين الأم على خد الفتاة قطرة من الدمع . . . ثم نهنهت المسكينة دمعها ، ورفعت رأسها إلى أعلى وقالت : يارب !

ونظر الولد الأصغر إلى أمه بعد إذ تنهدت وقال : هاهى ذى قد نامت فلم يبق إلا نحن الثلاثة . . . أما لديك طعام لنا ؟

قال الولد الأكبر : إذا كان لديها طعام فماذا كان يمنعها أن تقدمه ؟ . انتظر يا مجنون حتى يعود أبونا فأنا لا نملك الطعام أو ثمن الطعام إلا بعد عودته.

قال الولد الأصغر لأمه : وهل يحضر معه ما وعدنى وهو خارج فى الصباح بإحضاره يا أماه ؟ أم يخلف ما وعد كما فعل بالأمس وكما يفعل كل يوم ؟ .

قالت الأم : سيأتيك بكل ما تطلب يا ولدى والله معينه .

قالت البنت الكبرى : إنه تأخر الليلة عن موعده يا أماه .

قال الولد الأكبر : أنا أعرف أنه تأخر ليملأ جيبه بالمال ، وسوف ترون كيف يوسع علينا الليلة فتشبع بطوننا بكل ما نشتهيه .

وما هى إلا هنيهة حتى أقبل الرجل يتحامل على نفسه فيتقدم به شىء ويتأخر به شىء . . . يتقدم به الحنين إلى أولاده وتتأخر به الحسرة عليهم . . . فهو بين الماشى والواقف، يحمل على كتفه صندوقه وفيه تجارته يجوب بها الطرقات .

ورآه الأولاد مقبلا فجنوا جنون الفرح ، واستيقظت النائمة على أصواتهم ، ونهضوا جميعاً يهللون ويصيحون : جاء أبونا . .جاء أبونا . . .أما هو فقد لقيهم بوجه كاسف مغبر ، فكان كمن توقع مصيبة فوافته مصيبتان. وأسلم لهم يديه وجسمه يتعلقون به ويتواثبون حوله ، وأبقى لنفسه رأسه بما حوى من فكر وما حمل من هم .

أما زوجته فقد علقت بصرها به فعرفت ما به ، وبادلته نظرات مستصرخة بنظرات صارخة ثم تنفست وقالت : يارب .

ووضع الرجل صندوقه وجلس إلى جوارها مكبكباً مخذولا ؛ والتأم الاولاد حولها وقال الولد الاصغر : هل نكثت بوعدك يا أبى كعادتك ؟ . قال الرجل : لا يابنى . سأفى إن شاء الله

قال الولد : ومتى يشاء الله؟. كل يوم تقول هذا ولا تفعل شيئاً !!

قالت البنت الصغرى : لقد تأخرت يا أبى للآن ولم نأكل، ألم تدر أننى جائعة ؟ إنى سأخاصمك ولكن بعد العشاء.

فضحك الرجل ضحكة باكية ثم قدم لزوجه ما فى جيبه وقال: خذى هذا فهو كل ما رزقته فى مطافى . . .

وما الذى كان فى جيبه ؟ .

قرش ونصف قرش جناها الرجل من سعيه طول يومه ، فهل تكفى لقوت أسرة لا أدم عندها ولا خبز ؟ يا رحمة الله بالمساكين ! يارحمة الله ! أى فقر هذا؟

أطفال أبرياء يرهقهم الجوع وليس لديهم مما يحمله غير الصياح والتوجع ، وليس حولهم مما يدفعه غير تسلية أمهم ووعودها وأم حسرى ممزقة الكبد ، ترى أولادها وهم فتات قلبها نوحاً يتكلم الجوع بألسنتهم . ويتكلم ألم الجوع بعيونهم ، وهى حيزى

تسمع كلامهم بأذنها وتحس آلامهم فى قلبها . ولكنها لاتملك لهم شيئاً فلا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فهى محتوم عليها أن تظل صابرة على ما تسمع وما ترى . وأن تنسى نفسها بأولادها فتحمل كربتهم على كربتها ، وأن تنظر دامعة ما يفلت من بين يدى القدر إلى يدى زوجها من رزقه الحبيس .

ووالد بائس يعلم أن وراءه أربعة أطفال يمرغهم الجوع بين أحضان أمهم البرّة فلا يغنيهم حنانها عن الطعام . . . ويعلم أنهم يحيون فى غير الحياة ، وينتظرون عودة الحياة فى عودته !! فيندلق فى الطرقات ناحية فناحية يتبع شيئا ممنوعا ، هو رزقه ، ويصل شيئا مقطوعا هو حظه ، ويقطع شيئا موصولا هو فقره . . .

ولكنه لايبلغ بسعيه وجهاده غير مايقدر له . . . وماذا يقدر للفقير غير الفقر ؟ ياويلتا !! ياويلتا لهم !!

وجعل الرجل والمرأة يتشاوران ، وراح كل من الأولاد يطلب شيئا بينما لا يكفى القرش ونصف القرش لشراء شىء . . .

قالت البنت الصغرى : أريد أن آكل سمكا فأنا أشتهيه من شهر وكلما طلبته تؤخرونه إلى يوم بعد كل يوم . وقد رأيت بنت الجيران تأكل منه بالأمس ، ولولا أنى خفت أن تضربونى لشحذت منها ؛ وكانت هى تنظر إلى مختالة ونظراتها تقول لى ماتقول . وكنت أنا أنظر إليها حزينة ونظراتى تقول لها ماتقول أيضا

فتبللت أجفان الأم وصرخ قلبها صرخة وقالت : عزيز على يا ابنتى — فاصبرى لعل الله يرحمنا

قال الولد الأصغر : وأنا أريد أن آكل أرزا . . .

قالت الأم : آه ياولدى !! غداً أعمل لك الأرز

قال الولد : يا طالما تقولون غداً وما يأتى الغد بشىء . . . أريد أن آكل الآن أرزاً ، وإلا فسأبكى . . .

وجهش الولد إلى أمه المسكينة ، ثم بكى فبكت له وضمته إلى صدرها وعيناها مدرار تميح من قلبها الدموع

وبكت البنت الأخرى فبكى الولد الآخر . . .

أما الرجل . فكان مطرقا واجما لايطيق أن يرى موقف البكاء فى منظر الفقر بين زوجه وأولاده ؛ وكان تائها فى دنياه يرى بخياله ماضيه الرخى الناعم فيهز رأسه ، ويرى بعينه حاضره الشقى المظلم فيزفر ، ويرى بفكره مستقبله الحالك المقطب فيرتعد

ثم ضاقت به نفسه فخرج على حكمة الرجولة وهوى من ثبات الايمان إلى خور اليأس . . . وبكى . . . وبكى بكاء رجل ، وما أمر بكاء الرجال !!

ثم رفع المسكين رأسه وقال : يارب ماذنبى وماذنب صغارى ؟ ماذا يطعم هؤلاء الليلة وماذا يطعمون كل ليلة ؟

قالت الزوجة : خفف عنك حملك . . . إن الله لم يخلقنا لينسانا . . . إنه يرانا . . . إنه قادر رحيم . . .

ثم قالت : سأخرج الآن لأشترى بالقرش خبزا وبالنصف قرش جبنا ليأكل هؤلاء . وغداً يفعل الله بنا ما يريد

ورضى الأولاد أن يمسكوا رمقهم بالجبن ، فشىء خير من لاشىء . . . وخرجوا تصحبهم أمهم لتهون عليهم فى الطريق مشقة انتظار الطعام ، ومشوا حولها يتناقشون . . . يقول هذا : أنا الذى أحمل الخبز ، وتقول هذه : لا . . أنا التى أحمله . . . ويقول هذا : أنا الذى أصون الجبن ، وتقول هذه : لا . . . أنا التى أصونه . . . ثم يقول هذا : أنا لذى أجلس إلى جنب أمى وقت الأكل ، وتقول هذه : لا . . . أنا التى أجلس إلى جنبها . . .

حتى إذا كانوا على بعد خطوات من البدال كان النقاش بينهم على أشده ، فعثرت أمهم بأحدهم فكادت تسقط على الأرض وسقطت النقود من يدها . . : فقفزت لترد القضاء . ولكن القضاء أسبق !! حمل القرش والنصف إلى الطين ثم إلى الخفاء .

يالله !! يالله !! ماهذه الدنيا ؟ إنها لاترحم ولاتعرف اللين فى القسوة . نكبت هذه الأسرة بالفقر ثم لم يرضها هذا حتى نكبتها بفقر الفقر ! يا أيها الأغنياء . . . كيف يحل لكم عيشكم الرغيد وفي الحياة مثل هذه الأسرة ؟

ومدت المسكينة يدها فى الطين تبحث فلم تجد شيئا ... وجعلت تبحث فلا تجد ... ثم وقفت ذاهلة وعيناها تذرفان ماسال من حشاها ثم جمعت أولادها الباكين وعادت ... ولكن كيف عادت ؟ عادت محطومة يستغلق على إحساسها كل ما حولها ... فلا تسمع شيئا مما ترى ، ولاترى شيئا مما تسمع ؛ وكأنما انفضت من حولها الدنيا فلم يبق إلاهى وأولادها ، ومابينها وبينهم إلا أنين وأنين ...

وإنهم ليقتحمون ظلمة الطريق بظلمة اليأس إذ أفلت الولد الصغير من بينهم فتأخر ...

ثم صاح وهو يجرى ليلحقهم : أماه ... لقد وجدت قرشا !

وأخذت الأم مافى يده فاذا فى يدها قطعة فضية بعشرين قرشاً ... ياأرحم الراحمين ... ودارت الأم ، ودار أولادها معها ومضوا ... ومضوا إلى السوق

طنطا

السيد محمد زباره

البريد الأدبي

التعاون الأدبي بين الشرق والغرب

ليس من ريب فى أننا ندين بكثير من تكويننا العقلى الحديث للغرب ولآثار الثقافة والآداب الغربية ، فنحن ننقل عنها وننتفع بها منذ أجيال ، ولها أكبر حظ من قراءتنا واطلاعنا . بيد أننا نستطيع من جهة أخرى أن نقول أن الأمم الشرقية بدأت تكوينها الأدبى الحديث ، وأخذت تسير فى طريق الانتاج المستقل وأخذ الغرب من جانبه يعنى بآدابنا كما نعنى بآدابه وإن كانت هذه العناية لاتزال محدودة . ولقد ترجمت إلى كثير من اللغات الاورية بعض الآثار الشرقية الرائعة المحدثة ، وكانت الهند أوفر الأمم الشرقية حظاً من ذلك ؛ فآثار تاجور مثلا تعرف فى الغرب كما تعرف آثار أعظم كتابه العالميين ، وقد كانت الآداب العربية المحدثة أقل حظاً فى هذا الميدان ، فلم يعن الغرب بها عناية كافية إما لأنها لاتستحق فى نظره أن يعنى بها ، واما لتقصير من جانبنا فى التعريف عنها ؛ بيد أنه يلوح لنا أنه قد تتاح فى المستقبل القريب فرص جديدة للتعاون الأدبى بين الآداب العربية والغربية ، فقد أثيرت مسألة النقل والترجمة فى أكثر من مؤتمر دولى فى الأعوام الأخيرة ، وأدلت مصر بصوتها فى هذه المؤتمرات على يد نادى القلم المصرى ؛ وقد بدت أخيراً نتائج هذه الحركة بصورة عملية ؛ فقد تقدمت بعض هيئات النشر الانكليزية إلى نادى القلم المصرى تطلب معاونته فى التعريف عن بعض الآثار العربية المصرية التى تصلح للنقل إلى الانكليزية ، وذلك لتترجم وتنشر بالانكليزية ، والمعروف أن هذه الهيئات قد وضعت مشروعا كبيرا لترجمة الآثار الشرقية النموذجية إلى الانكليزية ، وأفسحت فيها مجالا كبيرا للآثار العربية ؛ وسوف يعنى نادى القلم المصرى ببحث هذه المسألة واختيار الآثار النموذجية الصالحة ؛ والمرجو أن يسفر هذا التعاون فى القريب العاجل عن أثره المحمود فى التعريف عن طائفة من كتابنا وآثارنا ، وأن يتسع نطاقه مع الزمن حتى يغدو تبادلا حقيقيا بين الآداب الشرقية والغربية .

مهرجان أولمبى للآداب والفنون :

وقفنا فى الصحف الفرنسية الأخيرة على نبأ مشروع طريف تبحثه اليوم بعض الدوائر الأدبية فى مدينة مونبليه ، ذلك هو السعى إلى إقامة مهرجانات دولية أولمبية تمثل الحركة العقلية والفنية .

ولقد قيل فى ذلك إن المهرجانات الأولمبية التى تقام فى عصرنا لا تمثل إلا ناحية واحدة هى الثقافة الرياضية ، وهذه الناحية لا تمثل كل ما رتبه القدماء على إقامة الاحتفالات الأولمبية ، فقد كانت هذه المهرجانات الشهيرة تضم عدا الرياضيين عدداً كبيراً من المفكرين والموسيقيين والفنانين يعرضون ثمرات قرائحهم إلى جانب الألعاب الرياضية ويمثلون بذلك القوة العقلية والمهارة الفنية كما تمثل الألعاب القوة البدنية والمهارة الرياضية . ويرى أصحاب هذه الفكرة أن ينظم كل أربعة أعوام مهرجان أولمبى عقلى وفنى فى إحدى مدن أوربا التى اشتهرت بتراثها الفنى أو الثقافى مثل أوكسفورد وفلورنس وهيدلبرج ومونبليه وروما وأثينا وغيرها . وتختار كل أمة من الأمم المشتركة فى المهرجان وفداً يضم بعض المفكرين والشعراء والموسيقيين والفنانين يعرضون فى المهرجان ثمرات الحركة العقلية والفنية فى بلادهم فى شكل قطع شعرية أو موسيقية أو تمثيلية أو محاضرات يلقيها أو يمثلها الاخصائيون كل فى ناحيته ، وإن يقع الاختيار بالأخص على كل مايصلح للعرض أو الالقاء التمثيلى ، ويختص كل وفد بيوم يعرض فيه ما لديه على ممثلى الأمم الأخرى ، ويشمل البرنامج إقامة حفلات تمثيلية وموسيقية وراقصة عامة تتبارى فيها مختلف الوفود ، ويقترح أصحاب الفكرة أن تكون مدينة مونبليه مركزاً لأول مهرجان أولمبى عقلى إذ هى مهد قديم من مهاد الثقافة من الجنوبية ، ثم يعقد المهرجان بعد ذلك كل أربعة أعوام فى إحدى المدن التى اشتهرت بتراثها العقلى أو الفنى والتى لها طابع عالمى

نقول وهذا مشروع بديع بلا ريب، ومن المحقق أنه يلقى تأييداً من المفكرين والفنانين فى أنحاء العالم، ومن المحقق أن تنفيذه يعاون فى تقارب الشعوب وتعاونها معاونة لا تحققها المهرجانات الأولمبية الرياضية

أثر الفراعنة فى الفن السينمائى

هل تصدق أن الأفلام الفكاهية التى تعرف باسم «مكى ماوس» والتى غدت من أشهر المناظر السينمائية فى عصرنا إنما ترجع إلى أصل فرعونى؟! هذا ما يقوله العلامة الأثرى البلجيكى الأستاذ جان كابار نزيل مصر الآن؛ فهو يقول لنا إنه انتهى فى مباحثه إلى أن هذه المناظر والصور المحدثة قد عرفت فى مصر الفرعونية قبل أربعة آلاف عام، وأنها وجدت مرسومة على القبور الفرعونية قبل أن تظهر على شعار السينما؛ ويستدل العلامة المذكور على صدق نظريته بما يأتى:

أولا — يوجد فى متحف القاهرة صورة للملكة ماكيت وهى تشبه ميكى ماوس شبها عجيبا، وقد صورت وهى تتلق احترام رعاياها

ثانيا — يوجد فى متحف بروكسل الملكى وفى متحف التاريخ صورة لهذه الملكة ترى فيها وهى تتناول طعامها وأمامها قطة تقوم بخدمتها

ثالثا — توجد فى متحف تورينو لوحة من ورق البردى صورت عليها صورة جوقة موسيقية من عدة حيوانات: حمار بيده معزف، وأسد ينفخ فى مزمار، وتمساح بيده قيثارة، وقرد يقود الفرقة بحركاته وينفخ فى مزماره؟ وهذه الصورة تماثل شريطا من أشهر الأشرطة الفكاهية من نوع مكى ماوس التى عرضت أخيرا فى دور السينما

فى ذلك كله ما يدل على أن المصريين القدماء مع تمسكهم بالرسوم الدينية العميقة، وتعلقهم بالشعائر المقدسة، كانوا فى نفس الوقت يمزجون فنونهم الرصينة ونقوشهم المقدسة، بنوع من الفكاهة، وعلى أنهم قد عرفوا قبل آلاف السنين أن يتخذوا من الحيوانات رموزا لتمثيل الأفكار الفكاهية والسخرية الانسانية على نحو ما يبدو الآن فى الأفلام التى اتخذ أبطالها من الحيوانات وهى المعروفة بميكى ماوس

كتاب جديد عن مصر:

صدر أخيراً بالألمانية كتاب جديد عن مصر وضعه أستاذ مجرى كان مديراً لمتحف فؤاد الزراعى وعنوانه: الاقتصاد الزراعى فى مصر المعاصرة «Die Land wirt schaft im heutigen Agypten» وفيه أبحاث مستفيضة فى كل ما يتعلق بشؤون مصر الاقليمية والزراعية والصناعية، مثل تربة الأرض والنيل وطرق الرى وخزان أسوان، والمواسم الزراعية، والمحاصيل، وزراعة القطن ونسجه. والقروض الزراعية والتعاونية واستغلال المصايد والملاحات وشؤون المواصلات والتجارة الخارجية وغيرها مما يتصل بموضوع الاقتصاد الزراعى، ويختتم المؤلف كتابه ببحث قيم فى وسائل تنمية الاقتصاد الزراعى المصرى. ويبدى فى بحوثه خبرة واطلاعاً واسعين، وقد تولت نشره مطبعة «شوليه» فى فينا

رنيه بنجامان

قدم القاهرة منذ أيام قلائل الكاتب الفرنسى الكبير رنيه بنجامان، وقد ألقى محاضرة شائقة عن «رسائل بلزاك الغرامية» وسيلقى محاضرة أخرى فى الخامس والعشرين من هذا الشهر عن «موليير وشخصيته» بقاعة يورت التذكارية. ومما يؤثر عن الكاتب الكبير أنه من أقدر المحاضرين فى فرنسا، فهو يتمتع فى الالقاء بمواهب ساحرة، وأسلوبه جذاب رائع، وقد اشتهر بمحاضراته الأدبية والتاريخية الشائقة

كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء المعرى

هذا الكتاب الغريب فى بابه العجيب فى أسلوبه قد وضعه أبو العلاء فى الوعظ وتمجيد الله فزعم بعض أعدائه أنه يعارض به القرآن. وقد فقد هذا الكتاب فيما فقد من آثار هذا الفيلسوف حتى عثر على جزئه الأول الأستاذ محب الدين الخطيب وأهداه إلى المرحوم تيمور باشا، ثم قيض الله له صديقنا الأستاذ محمود حسن زنانى أمين الخزانة الزكية سابقاً فأخذ يقدم له ويعلق عليه ويشرحه ويصححه، وسيقدمه إلى الطبع عما قليل وهى بشرى نزفها إلى أصدقاء أبى العلاء من أعيان الأدباء والعلماء

الكتب

شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

أحوج ما يحتاج إليه أدبنا سواء فى ذلك قديمه وحديثه ، معرفة مكانة الأدباء والشعراء ، لا من حيث البلاغة والفحولة والمعانى الشعرية فى ذاتها فحسب ، بل من حيث الخاصية النفسية لكل منهم ونوع مزاجه ووشائجه الانسانية ونظرته إلى الطبيعة وفلسفته فى الحياة إن كانت له نظرة وفلسفة

وقد تناول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه الأخير شعراء الجيل الماضى يتخللهم بلحظه الناقد وطبعه القويم ، فاذا الرعيل المحشود فى صعيد واحد تتبين له ألوان وشيات مهما خفت وتقاربت ، وتتميز له ملامح وسمات مهما خفيت وتشابهت ، وإذا بكل شاعر من شعراء ذلك الجيل مبيت فى حيزه ، وكل أمر من أموره مقرر فى نصابه . وقد انتظم الكتاب بين دفتيه الساعاتى وعبدالله فكرى وعبدالله نديم وعلى الليثى ومحمد عثمان جلال ومحمود سامى البارودى وعائشة التيمورية وحفنى ناصف واسماعيل صبرى والسيد توفيق البكرى ومحمد عبد المطلب وحافظ ابراهيم وشوقى ثم كلمة ختام عن مدارس الشعر بعد شوقى

والأستاذ العقاد فى كلامه عن هؤلاء لا يرسل القول إرسالا ، بل يدعمه كعادته بما أحاط به تحصيله الواسع وأدركه تفكيره العميق من بحوث عالية فى رسالة الأدب للحياة وموازينه الصحيحة والفروق الفاصلة بين شعر الصنعة وشعر الطبع وبين الذوق الخاص والذوق العام

« فالذوق ذوقان : فأما الشائع منهما فهو الذوق الذى يتملى الجمال ويستحسنه حين يراه معروضا عليه . وأما النادر منها فهو الذوق الذى يبدع الجمال ويضفيه على الأشياء . ولا يكون قصاراه أن يتملاه حيث يلقاه أو يساق إليه .

فالذين يحبون محاسن الطبيعة كثيرون يحسبون بعشرات الألوف وكل من يخرجون إلى الرياض ويجلسون على الجداول ويسهرون فى القمراء ويستمعون إلى شدو العصافير ويبتغون منازه الأرض فى المواسم وأيام البطالة — هم محبون للطبيعة يشغفون بها كما يشغفون بالفرجة والاسترواح . وقد يشبههم فى هذا بعض الأحياء التى تغرد على الشجر كلما آن الأوان أو تأوى إلى الظلال والأمواه كلما حنت إلى الراحة وبرد الهواء .

ولكن هذا هو الذوق الشائع كما قلنا ، وليس هذا هو الذوق الخالق المحيى الذى يضيف من عنده شيئاً إلى شعور الناس بما يراه ويصفه ويحكيه

إنما صاحب الذوق الخالق المحيى هو الذى ينقل إليك إحساسه بالشىء القديم الموجود بين جميع الناس ، فاذا بك كأنك تحسه أول مرة لما أودعه فيه من شعوره وما أضفاه عليه من طرافة . فاذا وصف البحر أو السماء أو الصحراء أو الروضة فكأنما هو يجعلها بحره وسماءه وصحراءه وروضته لفرط ما مزج بينها وبين مزاجه وشعوره . وتسرى إلى القارىء هذه الجدة فيرى هذه المناظر بعين غير التى كان يرى بها مألوفاته

ومن ذلك المعين الفياض نبع وصف الأقدمين للطبيعة ومحاسنها ومخاوفها فتمثلوها - لفرط شعورهم بها - عرائس وحوراً وأطيافاً وأرواحاً وبعثوها جنة وشياطين وأغوالا . لأنهم عاشوا فيها وعاشت فيهم فمزجوها بدمائهم ولم ينظروا إلى الطبيعة كأنهم ينظرون إلى « سجادة » منسقة الخيوط مزبرقة الألوان مريحة لمن يمشى فوقها أو ينام عليها كما يستريح العديد الأكبر من رواد الرياضة فى منازه الخلاء

فالرياض - عند الشاعر من هؤلاء - والخمائل والجداول والأنهار والسموات هى بعينها رياض زوار « المواسم والآحاد » وخمائلهم وجداولهم وأنهارهم وسمواتهم لا تزيد ولا تنقص . . . . وإن بيتاً واحداً كبيت البحترى الذى قاله فى الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ليساوى كل ما نظم شاعرهم فى ربيعياته وريحانياته : لأن الطلاقة والاختيال والبشاشة والحسن الذى يهم بالكلام هى علامات الربيع المبثوث فى النفوس . وكل كلمة من هذه الكلمات تدل على النفس الحية التى تشاهد الربيع أكثر من دلالتها على الربيع الظاهر فيما يبدو للعيان أو على « السجادة » المزخرفة بالاصباغ والنقوش والدوائر

والخطوط ... ولو لم يكن البحترى قد أحس بشاشة الطلاقة وزهو الاختيال وفرح الحياة النامية ونجوى الحسن المتكلم حين شهد ربيعه لما كان لزاما أن يذكر هذه الكلمات ويجمع بين هذه الصفات. ولكانت له مندوحة عنها بوصف الأحمر أو الأخضر يبحث له عن أحمر أو أخضر مثله فى محفوظات المشبهين . وبوصف العطر يطلق حوله الند والبخور ، وكلمة من هنا وكلمة من هناك عن الخدود والعيون والوجد والهيام على نحو ما يفعل شعراء الصنعة

وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله . فمنه ما هو زيف فارغ لا يمت إلى الطبيعة بواشجة ولا صلة . وليس فيه إلا لفظ ملفق وتقليد براء من الحس والذوق والبراعة . ومنه ما هو قريب إلى الطبيعة ولكنه – كما قدمنا – منقول من القسط الشائع بين الناس . فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ولا تتبين فيه لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التى يتميز بها إنسان بين سائر الناس

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس « الخاصة » إن أردنا أن نضيق معنى الامتياز . وليس هو من أجل ذلك بالشعر الذى هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة . وإنما ذلك ضرب من المصنوعات غلا أو رخص على هذا التسويم

والفرق بينه وبين شعر « الشخصية » أن الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هى ، لا كما تنقلها بالمجاورة والسماع من أفواه الآخرين . فهذه هى الطبيعة وعليها زيادة جديدة مطلوبة أبدا ، لأن الحياة والفن على حد سواء موكلان بطلب « الفرد » الجديد أو النموذج الحادث ، أو موكلان بطلب « الخصوص » والامتياز لتعميمه وتثبيته والوصول منه إلى خصوص بعد خصوص وامتياز بعد امتياز

وأقرب ما يمثل به لذلك زارع يستنبت صنوف الثمار لينتقى منها « المميز » فى صفة من الصفات المطلوبة . فاذا عثر بالثمرة الواحدة التى وصل فيها إلى غرضه قومها وحدها بعشرات الأفدنة من الثمرات الشائعة عند غيره ، لأنه بهذه الثمرة الواحدة ليستأثر بالطلب والاقبال ويعفى على ثمرات الشيوع والعموم

وهكذا الشخصية الممتازة فى عالم الشعر أو فى عالم الحياة عامة : هى عندنا وعند الحياة التى أنشأتها أقوم من جميع المتشابهات الشائعات وإن كن جميعا مطبوعات غير مقلدات ولا زائفات

وإنما يستحق الشعر أن يسمع ويحفظ حين يكون كهذا الشعر – وقد أورد الأستاذ أروع الأمثال عليه – الذى يرينا ما فى الدنيا وما فى نفس إنسان ، ونعرف فيه الطبيعة على لون صادق ولكنه أيضا لون بديع فريد لأنه لون القائل دون سواه ، فتجتمع لنا غبطة المعرفة من طرفيها ، ويتسع أمامنا أفق الفهم وأفق الشعور ، إذ يتكرر الشعور الواحد باختلاف الشعراء كأنه مائة شعور ، ويتكرر فهم الحقيقة الواحدة كأنها مائة حقيقة ، وتلك هى الوفرة التى تتضاعف بها ثروة الحياة ، ونصيب الأحياء منها

وفى هذه الصفحات التى أدمجناها ما يجعل الاضافة والتعقيب فضولا منا . وإن القارىء بعد هذا الذى قدمناه لا شك مؤثر أن يخلو بالكتاب ونفسه

« ص »

أحـــــلام الصبا

للأديب إدوار حنا سعد

١٣٠ صفحة من القطع المتوسط

طبع بمطبعة مصر بالاسكندرية

قليل من أدباء الشباب فى مصر من يجمع فن القصة إلى جانب الشعر . فالأديب الناشىء فى طور التثقيف عادة إما أن يقتصر على قرض الشعر ويتجه إليه بكليته حتى يجعله يطغى على غيره من فنون الأدب . وإما أن يقتصر على القصة فتملك عليه زمامه وتشغله عما عداها من أغراض الأدب الأخرى ، وإما أن يجمع بين الاثنين فيغلب أحدهما على الآخر ويطغى عليه

وبين يدى الآن مجموعة من الشعر والقصص أهداها إلى صديق أديب جمعها فى كتاب أسماه « أحلام الصبا » . وقد قدم الأستاذ فخرى أبو السعود للكتاب بمقدمة قصيرة ، تناول فيها شخصية المؤلف ببعض التحليل ثم تكلم عن القصص وتحدث عن استقلال الكاتب فى موضوعاته ومتانة صياغته للقصة ، وربط أجزائها وحسن نسجها . وختم الأستاذ مقدمته بالكلام عن الشعر مستدلا ببعض بيوت المؤلف فى معرض حديثه

ننتقل بعد ذلك إلى قسم القصص فى الكتاب ... فنرى أن قصص المؤلف وإن كانت تدور حول موضوعات مطروقة من قبل إلا أنها حسنة السبك متينة الصياغة ، تسبغ عليها البساطة روعة الحقيقة . وأذكر منها هنا قصة « أحلام الصبا » وقصة « رقصة شيطان »

وأما الشعر فهو يشغل النصف الثانى من الكتاب . وللمؤلف نزعة شعرية وطابع خاص فهو يميل إلى الشعر الغنائى ، ولذا كثيرا ما نراه يختار لذلك البحور القصيرة ، وهو لا يهتم بجانب المعنى

قدر اهتمامه بموسيقية الألفاظ ، فكثيرا ما يخرج القارىء من بعض قصائده دون أن يلفت نظره معنى جديد . أما شعره فى جملته فسهل الألفاظ ، رقيق الديباجة ، موسيقى التوقيع . . ومن جيد شعره قصيدة «أنت وأنا» ، وقصيدة «لقاء الحبيبين» .

والمؤلف من أدباء الشباب الذين جمعوا بين القصة والشعر ، وغلب أحدهما على الآخر ، فنرى القصة غالبة عليه ، وأغلب الظن أنه لو والاها وصرف فيها بعض عنايته لكان له فيها مستقبل زاهر

أحمد فتحى مرسى

طلعت حرب

للأدباء : حافظ محمود ، مصطفى الفلكى ، محمود فتحى عمر

١٨٠ صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة مصر .

كثيرا مايطالعنا كتاب الغرب وأدباؤه بدراسات تحليلية طويلة ، وبحوث فائضة فى حياة زعمائهم ، اعترافا بفضلهم وإشادة بذكرهم وحثاً لغيرهم على الاقتداء بهم والنسج على منوالهم

وهذه الناحية التحليلية التى نراها بين أدباء الغرب قلما نجد لها أثراً ظاهراً فى الأدب الشرقى . . . . فأدباء الشرق لا يعنون بدراسة زعيم ما ، مادام بين ظهرانيهم ، وما دامت تجرى فيه دماء الحياة ، حتى إذا ضمه القبر وواراه التراب ، بدأوا يجمعون شتات أخباره ، وتثير آرائه وأفكاره ، فيما يسمونه بحث فى حياة الراحل ، أو تحليل لشخصية الفقيد

وبين يدى الآن كتاب أعده منوالا يجب النسج عليه ، وثمرة فكرة طيبة يجب اقتفاء أثرها ، وضعه ثلاثة جمعتهم بزعيم مصر الاقتصادى «طلعت حرب باشا» صلة وثيقة ، فألموا بدقائق حياته عن قرب ، ودرسوا شخصيته عن كثب ، ثم كشفوا لنا فى كتابهم عن صفحات ناصعة من حياة ذلك الرجل العظيم ، ودرسوا ماضيه وحاضره ، وبينوا لنا آراءه وأفكاره لافى الناحية الاقتصادية فحسب ، بل فى غيرها من نواحى المجتمع ، مستدلين بصفحات من مؤلفاته ونبذ من خطبه

وقد وفق الأساتذة المؤلفون إلى متانة نسج الكتاب وحبك خيوطه ، مما لا يجعل الملل يتسرب إلى نفس القارىء أو يدركه الضيق من طول الكتاب

(ف)

ثورة العرب الكبرى

تأليف السيد عبد الحميد راضى

١٢٠ صفحة . ورق صقيل . مطبعة الجزيرة ببغداد

من بواعث الغبطة والسرور ، أن نرى تلك النهضة الأدبية التى يحمل لواءها شباب العراق ، والتى تنتظم ربوع دجلة والفرات تنشط يوما بعد يوم ، فتعيد إلى الأذهان سيرة السلف الصالح وذكريات الماضى المجيد . . .

وأمامى الآن قصة شعرية طريفة وضعها أديب عراقى ، وتناول بها موضوع الثورة العربية الكبرى ، فبسط لنا دقائقها وصور حوادثها . وقد بدأت القصة بتمرد العرب على الأتراك ، وانتهت بوفاة الملك حسين بعد أن تنازل عن العرش لولده الملك على

وقد راقنى موضوع القصة بقدر ماراقنى أسلوبها ، فالمؤلف فى كتابه قوى الصياغة ، متين النسج ، غير متكلف النظم يرسل الشعر إرسالا على سجية الشاعر المطبوع دون تصنع أو تكلف

ولا يسعنى هنا إلا أن أهنىء المؤلف بكتابه الفريد كما أهنىء العراق بأدبائه النابهين وشبابه الناهض

أ . ف

كتاب الشهر

تتقدم دار الثقافه العامة ، وقوامها جماعة من شباب الجامعة وخيرة رجالها ، وكبار أصدقائها إلى قراء العربية فى أقطارها بمشروعها الجديد «كتاب الشهر» ، وهو سلسلة من المؤلفات ، يخرج كل مؤلف منها فى موضوع مستقل يكتبه عالم أو مؤرخ أو أديب أو بحاثة متخصص . وتكون غاية هذه الكتب تلخيص وتيسير مباحث العلم والتاريخ والأدب والسياسة وتقريبها فى أسلس أسلوب إلى أذهان قرائها ، مراعية إلى جانب الدقة فى اختيار المواضيع حسن العرض ، ورخص الثمن حتى تكون فى متناول الجميع . وقد اختيرت طائفة من فروع

العالم المسرحي والسينمائي

روميو وجولييت لشكسبير

اخراج ايرفنج تالبرج

لناقد « الرسالة » الفني

استطاع المرحوم « ايرفنج تالبرج » أن يخلد اسمه فى عالم السينما كمخرج قوى وعظيم باخراجه رواية روميو وجولييت . وتالبرج هـذا كان من كبار مخرجى شركة مترو جلدوين ماير الذين يشار إليهم . كان جريئاً مجدداً ، عمد إلى اقتباس أشهر المسرحيات العالمية الحديثة واخراجها على الشريط . وتاريخه جليل حافل ولكنه فى اخراجه البديع لهذه الرواية أضاف مجداً إلى مجد ، وكان هذا الفلم خير عمل يختم به مخرج حياته الحافلة .

لم يكن تالبرج أول من اقتبس أعمال شكسبير للسينما الناطقة ، بل سبقه إلى هذا المخرج المسرحي والسينمائي العظيم « ماكس رينهارت » إذ أخرج رواية « حلم ليلة صيف » A Mid Summer Night's Dream وهى أصعب روايات شكسبير فى الاخراج السينمائى ، ولكن ذلك الفنان العبقرى استطاع أن يبرزها على الشاشة فى أجمل الصور وأحبها إلى النفس ، فله فى هذا فضل السبق إلى جانب الروعة التى لم يدركه أو يدانه فيها أحد . على أن أهم ما يمتاز به اخراج تالبرج هو الصدق وعدم المغالاة ، والدقة فى ابراز حوادث الرواية والمحافظة على روحها واستعمال الحوار الشعرى الذى وضعه شكسبير نفسه

يعرف القراء أن اقتباس سيناريو من رواية مسرحية عمل من الصعوبة والدقة بمكان ، لأن الكاتب يعمد إلى ترجمة الحوار إلى صور . وليس كل حوار يمكن أن يترجم إلى صور ، والمسرحية مقيدة بزمان ومكان ، ولكن روايات شكسبير تشذ عن هـذه القاعدة ، فالمسرح فى عهد شكسبير لم يعرف المناظر التى تتغير ، لأن الستار لم يكن قد عرف بعد ، وكانت الحوادث تمثل على مسرح مرتفع ويُكتَفى بإبراز لوحة صغيرة مكتوب عليها اسم المكان الذى تجرى فيه الحادثة ، وعلى رواد المسرح أن يتخيلوا المنظر أمامهم ، ولهذا لم يتقيد المؤلف بالمكان فكثرت المناظر فى الرواية الواحدة وكانت نتيجة ذلك تتابعا مستمرا فى الحوادث دون انتقال مفاجىء أو انقضاء فترات طويلة بين فصل وآخر ؛ وهذا يشبه فى نواح

المعرفة العامة لتصدر بها السلاسل الأولى من كتب الشهر ، وهى السياسة الدولية فى أشخاص قادتها العالميين المحدثين . والتاريخ الاسلامى يمثله ستة من عظمائه لكل كتاب على حدة ، وتاريخ مصر الحديث فى كتب ستة ، وتاريخ العقائد الشرقية القديمة يبحث تاريخ آلهتها وأنصاف آلهتها فى أبدياتها

وبين يدى القراء الآن ، كتاب الشهر الاول عن هتلر وسيتبعه فى الشهر التالى كتاب ثان عن موسولينى ثم ديفاليرا ثم مصطفى كمال ثم ستالين

فاقتناء هذه السلاسل ، والحرص عليها ، يكون لدى أصدقائها بعد مدة وجيزة ، مكتبة نفيسة لن تقل قيمة عن مكتبات كتب الجيب والست بنسات وغيرها التى عرفت فى اللغات الأوربية . ولتيسير إقتناء السلاسل ، وضعنا نظاما للاشتراك فيها ، وهو عشرة قروش لكل سلسلة ، أى أنها تكون ثمناً لستة كتب (وتتضاعف القيمة للخارج)

ويسر دار الثقافة العامة ، أن تجد لغيرتها على مستوى الفكر المصرى العربى صدى يكون المكافأة الحقة لجهودها بعد أن اتضح من رخص أثمان الكتب ، وقيمة الاشتراك فى سلاسلها إلى جانب جودة الطبع ، ما ينفى كل فكرة عن أن غايتنا هى مجرد الاتجار أو الكسب

محمد صبيح

كثيرة القصة السينمائية. ولهذا كان الطريق أمام كاتب سيناريو هذا الفلم ممهداً فلم يلق صعوبة تذكر فى عمله وجاء الفلم مطابقاً للمسرحية فى كل نواحيها

ولقد أمكن المخرج ومساعديه أن يبرزوا الفلم فى جمال وقوة وروعة، وللمدير الفنى، جورج كيكور، فضل كبير فى نجاح الفلم وظهوره فى هذه الصورة الكاملة: من إتقان فى المناظر والإضاءة والتصوير بما يليق برواية الحب الخالدة التى يحفظ كل شاب وفتاة حوادثها

لم تكن المناظر عظيمة ولا ضخمة ولا ذات ترف كبير وما إلى هذا مما يعمد إليه المخرج الأمريكى سيسيل دى ميل للتأثير فى رواد أفلامه، فالمناظر بسيطة وفى حدود ضيقة، ولكنها تتسق مع القصة وحوادثها. ولقد أدت مهمتها فى معاونة الممثلين على الوصول إلى قرارة النفوس

إن من يتتبع الفلم باهتمام لا يكاد يلمس للمخرج أو المدير الفنى خطأ يحصيه عليه منذ بدء المعركة الأولى بين آل مونتاجو وآل كابيوليت حتى موت روميو وجولييت وتصافح الزعيمين أمام قبرهما اللهم إلا موقفاً واحداً عند ما تلتقى عينا جولييت بروميو وتنسى نفسها فالحوادث هنا تجرى أسرع مما ينبغى

لعل أول ما خطر ببالى عند ما سمعت بتوزيع الأدوار فى الفلم أن نورماشيرر تكبر فى السن عن الحد الذى يليق بجولييت وقدرت لها السقوط، ولكن الواقع كان عكس ماظننت، فهذه الممثلة استطاعت أن تؤدى الدور على خير ما يكون وأن ترتفع به إلى أعلى درجات النجاح، فصورت الطفولة والسذاجة فى جولييت الصغيرة حتى أحس رواد الفلم أن الممثلة التى أمامهم فتاة فى الحلقة الثانية لا امرأة فى الحلقة الرابعة، ولكنها مع هذا كانت تمثل بحذر وترقق من نبرات صوتها حتى تبدو صغيرة، فنجحت فى التمثيل ولكنها لم تستطع أن تحيى الدور. وهنالك فرق كبير بين أن يحيى الممثل الدور وبين أن يجيد تمثيله

وليسلى هوارد شاب توافق سنه سن روميو وقد نجح فى أداء الدور ولكن ليس إلى الحد الذى قدرناه. كانت حركاته ثقيلة وصوته خشناً أجش وإن كان يعبر بوجهه تعبيراً حسناً وموقفه فى الفلم عكس موقف نورما شيرر فهو مع صغر سنه بدا كبير السن فى الفلم

مثل جون باريمور دور «مار كيشيو» وكان بديعاً إلا أ[…] غالى فى تصوير الشخصية، وهذه المغالاة تبدو لمن قرأ الرواية أ[…] رآها على المسرح، ولكنه وهو يموت من أثر الطعنة التى أصيب بها كان بديعاً وقد وصل إلى القمة

والقسيس كان خشناً وقسمات وجهه قاسية ولم تبد م[…] نواحى الحنان والشفقة التى تحبب الانسان إلى رجل الدين وتجعل[…] يبوح له بمكنون سره، وأجاد بقية الممثلين أدوارهم ولا سيما المربية[…] مما جعل الاتساق يسود الرواية ويجعل التمثيل فى قوة الإخراج[…]

عرضت سينما ديانا بالقاهرة ترجمة عربية للحوار ولكنها مع[…] الأسف كانت ترجمة سخيفة. وكان ظهورها على الشاشة يتأخر[…] دائماً، ونرجو لو تعنى إدارة السينما باللغة العربية وبرواد السينما من[…] المصريين وعواطفهم أكثر من هذا؟

يوسف نادرسى

5 me Année, No. 191

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 1 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٩١ ، القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ١ مارس سنة ١٩٣٧ ، السنة الخامسة

فهرس العـــدد

ثقافة مصر المستقلة

يجب أن تقوم على أسس جديدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

مصر فى مفتتح عهد جديد ، لا يتناول مركزها السياسى فقط ، بل يتناول أيضا كل شىء فى حياتها العامة . ذلك أن التطورات السياسية العميقة تحدث أثرها دائما فى سائر نواحى الحياة الاجتماعية والفكرية لأمة من الأمم ؛ وقد كان تكوين مصر الاجتماعى فى العصر الحديث وليد تطورات وأحداث سياسية خاصة ، تختفى اليوم من الافق ليحل محلها عهد جديد بكل معانى الكلمة ؛ وسيحدث العهد الجديد أثره فى حياتنا الاجتماعية والفكرية ؛ وستتوقف آثاره ونتائجه على مبلغ ما تبديه مصر ذاتها من استعداد وطموح

ومن المعروف أن العوامل المعنوية فى تقدم الامم تسبق العوامل المادية دائما ؛ ومصر الآن فى مستهل المرحلة الأولى من العهد الجديد أى فى طور التكوين المعنوى الذى يلائم هذا العهد . ولما كانت هذه المرحلة من أدق المراحل فى حياة الأمم الناهضة ، فانه يجب على مصر أن توليها أوفر عناية حتى تستطيع أن تشيد خلالها تكوينها المعنوى الجديد على خير الأسس التى تمهد لها طريق التقدم والنهوض

ولا ريب أن الثقافة القومية هى أقوى دعامة يقوم عليها كيان الأمة المعنوى ؛ وقد قطعت مصر بالفعل فى هذا الميدان خطواتها الأولى، حتى قبل أن تحقق استقلالها السياسى ؛ ولكنها مازالت فى مفترق الطرق تنقصها عناصر الاستقرار فى توجيه ثقافتها الجديدة . وهذا التردد طبيعى فى تكوين الثقافات القومية الناشئة ؛ بيد أنه يجب ألا يطول عهده ، ويجب أن تحل مكانه عوامل الاستقرار المنشود بسرعة ؛ وعندئذ يبدأ بناء الصرح المعنوى الذى يقوم عليه كل شىء فى حياة الأمة الجديدة

ومصر تتمتع اليوم بثقافة حسنة ، ولكن ينقصها كثير من العناصر القومية الحيوية . ومن الصعب أن نحدد لون هذه الثقافة أو نوعها ؛ فهى اليوم مزيج متباين من ثقافات مختلفة يرجع تكوينه إلى ظروف مصر السياسية والاجتماعية فى العصر الأخير . ولقد قيل فى مناسبات كثيرة إن مصر تتمتع بنوع من الثقافة اللاتينية وان هـذا النوع من الثقافة . أعنى اللاتينية . هو خير ما يلائم عقلية مصر ومشاعرها ، كأمة من أمم البحر الأبيض المتوسط الذى تغمر هذه الثقافة ضفافه الشمالية منذ العصور الوسطى . وان الأمر يتعلق هنا بعوامل جغرافية واجتماعية لا سبيل الى إنكارها ؛ بيد أننا نشك فى صواب هذه النظرية : والواقع أنه إذا كانت الثقافة اللاتينية أو بعبارة أخرى الثقافة الفرنسية قد غلبت على الثقافة المصرية فى القرن التاسع عشر ، فان ذلك يرجع بالأخص إلى حوادث وظروف تاريخية طارئة ، أخصها مقدم الحملة الفرنسية إلى مصر . وما بذلت خلال مقامها القصير بمصر من مجهودات علمية وثقافية محمودة ، وما كان من اعتماد محمد على بعد ذلك على نصح المستشارين والعلماء الفرنسيين فى تنظيم ثقافة مصر الجديدة ؛ هذه هى الظروف والعوامل الحقيقية التى نشأ فيها لون ثقافتنا اللاتينى ، ولا دخل هنا للعوامل الجنسية والجغرافية فى هذا التطور الثقافى الطارئ ؛ والدليل على ذلك أن طابع ثقافتنا الفرنسى قد ضعف فى العصر الأخير ، وقوى فيها الطابع السكسونى نظراً لتغلب النفوذ الانكليزى فى شؤون التربية والتعليم ، وتسرب العوامل الثقافية الجديدة إلى المجتمع المصرى

والآن ومصر فى مستهل عهد جديد من تاريخها يمتاز بآفاقه الحرة المستقلة ، نرى أنه يجب على مصر أن تعمل ، كما تعمل جميع الأمم المستقلة الناهضة على أن تطبع ثقافتها الجديدة بطابع قومى واضح ؛ وأول مايجب عليها فى ذلك هو أن تجانب اصطفاء ثقافة أجنبية بعينها . وأن تنظر إلى مختلف الثقافات والحضارات نظرة واحدة تأخذ منها جميعا ما يصلح لانشاء ثقافتها الخاصة ، وان تنسق ذلك المزيج المستخاص من الثقافات المحدثة وتدعمه بالعناصر القومية التى تسبغ عليه طابعه القومى المنشود

والمعروف أن الثقافات القومية تعتمد دائما على أمور جوهرية منها اذكاء الروح والتقاليد الوطنية . وتقوية اللغة القومية ، وتدعيم المثل الأخلاقية . والعناية بالتاريخ القومى ، وتقديم الشؤون والدراسات القومية على غيرها . ولا مرية فى أن ثقافتنا الحالية ضعيفة فى معظم هـذه النواحى ، فهى بعيدة أولا عن ذينك التخصيص والاستيعاب اللذين تأخذ بهما جميع الثقافات المستقلة فى الدراسات القومية . بل يلاحظ بحق أن ثقافتنا الحالية تعتمد على المعلومات والدراسات السطحية العامة ، فتقتبس القليل السطحى من كل شىء . ولا تتجه إلى التخصص والاتقان فى شىء : وهذا عيب جوهرى يجب تداركه بأسرع ما يستطاع ، ثم ان ثقافتنا لا تكفى بصورتها الحالية لتغذية الروح الوطنى الناشىء ، لأن أنظمتها وبرامجها الحالية وضعت فى جو خانق من الريب والحجر على العواطف والأمانى الوطنية ، فوجب أن تبحث من جديد فى ظل العهد الحر الجديد . وان تفسح مجالا لكل ما يعاون فى تنمية الروح الوطنى ؛ ومن جهة أخرى فقد لبثت اللغة القومية . أعنى اللغة العربية ، عصراً ضحية هذه السياسة القديمة ، ولولا أنها استطاعت أن تقاوم ضغط الأجنبى بكل ما فيها من حيوية ، وأن تشق لنفسها طريقها المستقل خارج المعاهد الحكومية فى الآفاق الحرة ، لما استطاعت أن تنهض كما تنهض اليوم ؛ بيد أنه لا يزال علينا أن نحررها من شوائب المؤثرات والمنافسات الأجنبية التى تعرقل نهضتها ، والتى هى من بقايا عهد طويت صفحته ، فاللغة العربية يجب أن تتبوأ مقامها الأول فى كل معاهدنا ودراساتنا كلغة اصلية لا تنافسها فى هذا المقام أية لغة ، ويجب ان تكون لغة التربية والتعليم فى كل مراحل الدراسة ، إلا ما اقتضته مصلحة الدراسة ذاتها ؛ ويجب أن يختفى من معالم حياتنا العامة ذلك المزيج المؤلم من لغات أجنبية يستعمل بلا ضرورة فى كثير من دوائرنا ومصالحنا الحكومية ، بل وفى بعض بيئات مجتمعنا الرفيع ، فقد حان الوقت الذى يجب ان تختفى فيه هـذه الآثار الأخيرة التى ترمز إلى سيادة فكرية او اتفاقية اجنبية لا وجود لها اليوم

أما عن دراسة التاريخ القومى التى هى اليوم من دعامات

الروح الوطني في جميع الأمم المستقلة، فمن الاسف أنها انتهت في العصر الراحل إلى حالة يرثى لها: وما زال التاريخ القومي يغمط حقه من جميع النواحي، وما زلنا نتلقى عن تاريخ الامم والحضارات والشخصيات الأجنبية أضعاف ما نتلقى عن تاريخنا وتاريخ شخصياتنا وحضارتنا. ولم يكن ذلك غريبا في عهد السيادة الأجنبية لأنها تعرف بخبرتها في طبائع الشعوب ومشاعرها أن الأمم ذات التواريخ الحافلة المجيدة، تهتز في عصور الضعف والانحلال لذكرياتها القديمة، وتستمد منها الوحي والقوة في مغالبة الخطوب وشحذ الشعور الوطني؛ وقد كانت أساليب التربية القديمة ترمي إلى محاربة ذلك الشعور وإضعافه، وكان التاريخ القومي من العناصر الثقافية التي قضى عليها بالمسخ والمحو تقريبا: أما اليوم فان الاستقلال الوليد في أشد حاجة لأن نحيطه بسياج من تاريخنا القومي. وأن توطد دعائمه بما يبعثه إلى نفوسنا استعراض هذا التراث الحافل من اعتزاز وطموح إلى استئناف تاريخنا المجيد، وربط مستقبلنا بماضينا، وهذا عنصر في تغذية الشعور القومي تعرفه الامم المستقلة وتعنى به أشد عناية

وأخيراً يجب ألا ننسى ما للناحية الخلقية في تكوين الثقافة القومية من أهمية خاصة. ولسنا بحاجة لأن ندلل على أن المثل الأخلاقية الرفيعة يجب أن تكون غاية الغايات في كل ثقافة عظيمة: فاذا كان الماضي قد طوى بسيئاته ومثالبه المعنوية فمن ألزم واجباتنا في العهد الجديد أن نعمل على إخراج جيل جديد يتمتع بالجرأة والصراحة واستقلال الرأي وسلامة التفكير والتقدير؛ فهذه القوى المعنوية والأخلاقية ضرورية لحماية الاستقلال القومي ضرورة الجيوش ذاتها

والخلاصة أن ثقافتنا الجديدة يجب أن تكون وليدة ثورة حقيقية، سواء في نظمها أو روحها أو مادتها؛ يجب ألا تكون ثقافتنا المستقبلة كما كانت في الماضي، معتركا لتنافس الثقافات والمؤثرات الأجنبية المختلفة. بل يجب أن تكون ثقافة مصرية خالصة، حرة من كل تيار غير مرغوب فيه؛ ويجب أن تكون ثقافتنا غزيرة عميقة في نفس الوقت، تأخذ بالتخصيص في جميع الدراسات والشئون الجوهرية، ولا تخلو مع ذلك من التعميم النافع؛ وأخيراً يجب قبل كل شيء أن يتبوأ الطابع القومي مقامه الأول في صوغ ثقافتنا وفي توجيهها؟

محمد عبد الله عنان

النحو

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

النحو علم لا أعرف منه إلا اسمه. وما أكثر ما أجهل وأضأل ما أعرف! ولو كنت وجدت من يعلمنيه لتعلمت وما قصرت. وكيف بالله تنتظر مني أن أعرفه بالفطرة والالهام... كان أول من قيل لنا إنه معلم نحو رجلا قاسياً سيء الطباع سريع البادرة، وكانت له عصاً قصيرة من الخيزران يدسها في كمه، حتى إذا أمن أن يراه الناظر أخرجها وسلطها على أجسامنا الصغيرة وأهوى بها على أيدينا وجنوبنا ورؤوسنا فلا يتركنا إلا بعد أن ينقطع نشيجنا وتخفت أصواتنا وتذهب عنا القدرة على الصراخ والاستنجاد، فلم يكن أبغض إلينا من درسه. ومن المضحك أن ذلك لم يكن يخيفنا منه ولا يزيدنا إلا إلحاحاً في معابثته. وكنت أنا أثقل التلاميذ عليه وأبغضهم إليه، لأني كنت - وأحسب أني مازلت - شيئاً صغيراً جداً وخفيفاً مستدقاً لا أستقر في مكان. ولا أزال أنط من هنا إلى هنا ولا يكف لساني عن الدوران. فكان نصيبي من هذه العلقات النصيب الأوفر وحظي هو الأجزل. وكان الناظر فيه سذاجة عجيبة لم تفتنا نحن الأطفال. وكيف كان يمكن أن يفوتنا التفطن إلى سذاجته ونحن مئات من الأطفال لنا مئات من العيون نفحصه بها، ومئات أخرى من الآذان والرؤوس تسمعه وتتدبر أمره وتجسه وتختبره... فكنت أذهب إليه وأقول له على سبيل الملق والدهان: «يا سعادة البك» فيلتفت بوجهه الكبير إلي ويقبل علي بابتسامته البلهاء، فقد كانت الرتبة جديدة وفرحه بها عظيما. ويسألني «مالك يا امن (بالميم فقد كان أخن) عبدالقادر» فأقول له: «ياسعادة البك. الشيخ فلان ياسعادة البك معه عصا يخفيها في كم القفطان ويضربنا بها ياسعادة البك» وكنت صادقاً ولكنه لم يكن يعرف أني صادق: غير أنه كان يسمع «سعادة البك» تصافح أذنه مرات عديدة في نصف دقيقة فيطرب، ويصرفه الطرب عن التثبت فيقول لي - متآمراً معي - «طيب. رح انت إلى الفصل وماكسه، اي والله كان يحرضني

على معاكسة الشيخ المسكين ليضبطه ـ كما يقال ـ متلبساً بالجريمة . أو كان يكتفى بأن يأمرنى بالعودة إلى الفصل ثم يدخل هو ويفاجئ الشيخ بانتزاع العصا من كمه ويوبخه أمامنا وينصرف . فتصيح أربعون حنجرة جديدة « هيه » فيكاد الشيخ يجن وينهال علينا ضرباً باليدين والرجلين فتنكشف سراويلاته فيعلو الصياح من جديد . ولكنه يكون قد تعب وأضناه الجهد وبهر أنفاسه العدْو وراءنا فيقف وهو ينهج ويخرج المنديل من جيب القفطان ويمسح به العرق المتصبب ونحن جميعاً نتكلم وليس بيننا واحد يصغى إلى ما يقال

هذا كان أستاذنا فى النحو . ولو أنه كان موفقاً فى التعليم لكان الناظر وحده كفيلا بافساد الأمر عليه . فقد كان يتظاهر بالعلم بكل شىء وهو لا يعرف شيئاً . فاذا تورط ولم يسعه إلا الاعتراف بجهله قال : « جاهل جاهل . لكن إدارى تمام » ومن ظريف ما أذكره من نوادره أنه دخل علينا فى درس ترجمة وكان المعلم غائباً . ولم يكن هو يعرف ذلك وان كان فيما يزعم إدارياً حاذقاً . ولكنه سمع ضجتنا العالية فسأل فقيل له إن هذه الفرقة ليس فيها معلم . فلم يندب غيره بل جاء هو إلينا بنفسه وبطوله وعرضه وسألنا : « مالكم يا أولاد ؟ » قلنا « يا سعادة البك المعلم غائب » قال « الدرس إيه » قلنا « ترجمة يا سعادة البك » فانشرح صدره واغتبط وأيقن أنه سيظل يسمع منا مايسره فقال : « طيب وايه يعنى ؟ » فقلنا « ياسعادة البك لم نفهم الدرس السابق ياسعادة البك » فسأل عن هذا الدرس السابق الذى استعصى علينا فقلنا له انه كان يحاول أن يعلمنا النفى فى اللغتين العربية والانجليزية ولكنا لم نفهم عنه . فأعزب لنا بعبارات صريحة عن دهشته وتعجبه لوزارة المعارف التى تعين مدرسين لا يحسنون تفهيم التلاميذ ، وأكد لنا أنه يعطف علينا لأننا نؤدى للوزارة أجور التعليم كاملة ولا نتعلم مع ذلك شيئاً . ثم قال ان المسألة بسيطة وأن النفى سهل جداً وأن أدواته فى اللغة العربية معروفة وهى « لا ولم ولن الخ » والأمثلة سهلة ومعروفة ، وشرع يسوق الأمثلة . فلما بلغ « لم » قال « مثلا . . لم كتب . لم ضرب . لم ذهب » فانفجرنا ضاحكين وكان لنا العذر . وكيف لا نضحك من « لم كتب ولم ضرب »

فلما سكنت العاصفة بعض السكون قال يوبخنا ويزجرنا ويعظنا : « تضحكون ؟ . . ابكون . . ابكون . . » فلم يبق منا طفل على مقعده من شدة الضحك . ولم يسكتنا الخوف منه وإنما أسكتنا الألم الذى صرنا نحسه فى بطوننا من الضحك الطويل

هذا فى التعليم الابتدائى . أما فى التعليم الثانوى فقد كان أول معلم لى فيه مصابا بالربو ، فكان لا ينفك يسعل ويتفل حتى توجعنا بطوننا . ولهذا كنا ننام فى درسه أونهرب منه اتقاء لوجع البطن . ثم صار لنا معلم آخر وكان سياسيا ولكنه كان فى هذا نسيج وحده ، فكان يغلق النوافذ ليأمن أن يسمع أحد ما ينوى أن يقول ـ أعنى ما ينوى أن يفضى إلينا به من الأسرار . ثم يشرع فى الحديث فيصف لنا كيف كان الحكم المصرى على عهد الخديو اسماعيل ظالما ، فنجادله وينقضى الدرس كله فى هذا الجدل العجيب . ولست أدرى لماذا كان يجشم نفسه إغلاق النوافذ . ولو أن الناظر الانجليزى سمعه لكان حقيقا أن يسر لا أن يغضب ، ولكنى أحسبه كان يفعل ذلك ليكون تأثير كلامه فى نفوسنا أبلغ . والعجب بعد ذلك أن تلاميذه كلهم صاروا وطنيين متطرفين فى وطنيتهم لا خونة لبلادهم كما كان يشتهى هو أن يكونوا

فمن كنت أتعلم النحو بالله ؟ . وما الذى كان يمكن أن يغرينى أن أتعلمه وحدى ؟ . ثم مافائدة هذا النحو الذى لم اتعلمه ولم احتج اليه . . وعسى من يسأل : « وكيف كنت تصنع فى الامتحانات ؟ فأقول إنى كنت أقرأ ورقة الأسئلة وأترك النحو إلى آخر الوقت ثم أتناوله وأروح أجمع طائفة من الأمثلة أستخلص منها القاعدة فأجعل هذا جوابى . ولا شك أنه كان لا يخلو من نقص ولكنه لم يكن خطأ كله . هذه كانت طريقتى وقد استغنيت بها عن حفظ ما فى كتب النحو . وأرانى الآن أصبحت كاتبا ـ وقد كنت فى زمانى شاعرا كذلك ـ وقد وسعنى هذا وذاك بغير معونة من النحو . بل من غير أن أتعلم العروض . وأذكر أنى وأنا فى مدرسة المعلمين العليا كان الشيخ حمزة فتح الله هو الذى يتولى امتحاننا فى اللغة العربية ـ على الأقل فى احدى السنين ـ وكان من أعضاء اللجنة التى هو رئيسها الشيخ عبد العزيز شاويش وفتح الله بركات بك واستاذنا فى المدرسة ؛ وكنا ندخل على اللجنة واحداً واحداً

كما هى العادة فأخبرنى الذين سبقونى إلى أداء الامتحان أن الشيخ حمزة عليه رحمة الله يفتح كتاب النحو والصرف ويأمر الطالب أن يسمعه الباب الفلانى ، وكانت هذه مبالغة ولكننا صدقناها ، فأيقنت أنى مخفق ووطنت نفسى على معركة . وجاء دورى فدخلت ، فناولنى مقدمة ابن خلدون وقال افتحها فى أى موضع واقرأ . ففعلت ، فأمرنى أن أضع الكتاب وشرع يسألنى عن كلمة « العدوان » ما فعلها الثلاثى ولماذا يقال « اعتديا » - بفتح الدال للماضى - واعتديا » بكسرها للامر . فلم أعرف لهذا جوابا ، فقلت: « هكذا نطق العرب وعنهم أخذنا » . فألح فى طلب الجواب المرضى فقلت « إن اللغة نشأت قبل القواعد . وأنا أنطق وأكتب وأقرأ كما كان العرب يفعلون من غير أن يعرفوا قاعدة أو حكما » فساءه جوابى ونهرنى وخشى الشيخ شاويش العاقبة فقال له: « يا مولانا . العصر وجب » فنهض الشيخ حمزة لصلاة العصر وتركنى لزملائه فأسرعوا فى امتحانى قبل أن يفرغ الشيخ ويعود

وأحسب أن ماوسع العرب الأولين من معرفة العربية بلا نحو لا يعجز عنه أبناء هذا الزمان . ومن الميسور فيما أعتقد أن تحل قراءة الأدب العربى محل النحو . وليس يعجز رجال العربية عن وضع مختارات صالحة لكل سن . وإذا كان لابد من النحو فليكن ذلك عرضا وأثناء القراءة وعلى سبيل الشرح وللاستعانة به على الفهم ، وعلى ألا يكون ذلك درسا مستقلا يؤدى فيه امتحان .

أما الطريقة التى يتعلم بها أبناؤنا العربية فانى أراها مقلوبة لانها تبدأ بما يجب الانتهاء اليه . ومن ذا الذى يتصور أن صبياً صغيراً يستطيع أن يفهم ما الفعل وما الاسم وما الحرف ، وأن هذا يكون حكمه كيت وكيت وذاك يجرى عليه كذا وكذا من .. وان هذه الفتحات والضمات والكسرات علامات إعراب أو لا أدرى ماذا هى ، وأن لفظا يكون مسندا ولفظا آخر يكون مسندا اليه إلى آخر هذه الألغاز التى لا يعقل أن يدركها طفل صغير . بل إنى أنا الكبير أردت منذ بضعة أيام أن أراجع شيئا فى النحو ففتحت وقرأت فيه شيئا ثم وضعته يائسا من الفهم ولجأت إلى وسيلة أخرى كانت أجدى على من هذا الكلام الذى أراه يفهم ، وذلك أنى كتبت الوجهين اللذين حرت بينهما واختلط على الأمر فيهما فلم أعد أدرى أيهما الصواب وأيهما الخطأ ، ثم ذهبت أنظر اليهما فالذى سكنت اليه نفسى أخذت به وتبينت بعد ذلك أن ما أخذت به كان هو الصحيح وأن عينى لم تخدعنى وأن نفسى إنما اطمأنت إلى ما طال عهدها به من الصواب . أما ما لم تألفه أثناء مطالعاتى فقد رفضته . والطريقة التى أشير بها تجعل العربية سليقة على خلاف ما هو حاصل الآن فان أبناءنا يتعلمون العربية كما يتعلمون الانجليزية أو أية لغة أجنبية أخرى لا يشعرون بصلة بينها وبين نفوسهم . وكثيرا ما يتفق أن يخرج التلميذ وهو أعرف باللغة الأجنبية منه بالعربية . وليس بعد هذا فشل والعياذ بالله . واسأل من شئت فلن تجد أحداً لا يقول لك إن اللغة العربية انحطت - أعنى ضعف العلم بها - فى هذا الجيل . ولست أعرف لهذا سببا إلا أن التلاميذ لايتعلمون اللغة وإنما يحفظون نحوا وصرفا وبلايا كثيرة أخرى مثل البلاغة الخ لا تعلمهم اللغة وإنما تبغضها اليهم ، فاذا كان التبغيض هو الغاية المنشودة فلا شك أن المعلمين قد وفقوا إلى ما لا مزيد عليه . أما إذا كان الغرض هو تعليم اللغة فخير الأساليب هو الأسلوب الطبيعى الذى يتعلم به الطفل الكلام

ابراهيم عبد القادر المازنى

٣ - صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان فى هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير فى عمل وأدائه ، بل كان عند رئيس الشرطة فى جنايةٍ وعقابِها . فظهر منقلبَ السحنة انقلاباً دميماً ، شوَّه تشويهَه وزاد فيه زيادات .... ورأيتُه ممطوط الوجه مطاًّ شنيعاً ، بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستقرتين فى وجهه ، بل معلَّقتان على جبهته . . .

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هـذا بابٌ على حِدَةٍ فى الامتحان والبلوى ، ومافيه إلا المئونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعملُ فى هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين : على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير . « وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذى لا يتجزأ ماهو ؟ فقال : الجزء الذى لايتجزأ علىُّ بنُ أبى طالب عليه السلام . . . فقال له أبو العيناء محمد : أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى . حمزة جزء لا يتجزأ . . . قال : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ . . . قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين . . . قال : فأى شىء تقول فى معاوية ؟ قال : لا يتجزأ

فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أى شىء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون ابولقمان كان اذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لايتجزأ ، هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه البابُ الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لايتجزأ » (١)

قلت : ورجع بنا القول الى رئيس التحرير . . .

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذى لايتجزأ اليوم هو فلان ؛ وان فلانا الآخر يتجزأ مرتين . . . وأن المعنى الذى يبنى عليه رأى الصحيفة فى هذا النهار هو شأن كذا فى عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصوَّر فى صيغة تلائم جوعَ الشعب فتجعله كالخبز الذى يطعمه كل الناس وتثير له شهوة فى النفوس كشهوة الأكل ، وطبيعةً كطبيعة الهضم . . . وقد رمى إلىَّ رئيس التحرير بجملة الخبر ؛ وعلىَّ أنا بعد ذلك أن أضرم النـار وأن أجعل الترابَ دقيقاً أبيض يُعجن ويخبز ويؤكل ويسوغ فى الحلق وتستمرئه المعدة ويسرى فى العروق

وإذا أنا كتبت فى هذا احتجتُ من الترقيع والتمويه ، ومن التـدليس والتغليط ، ومن الخِبِّ والمكر ، ومن الـكذب والبُهتان — إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديقُ والدهرىُّ والمعطِّل فى إقامة البرهانات على صحة مذهب عرف الناس جميعا أنه فاسدٌ بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة أنه فاسد . وأين ترى إلا فى تلك النِّحَل وفى هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكِر ، وأن يجترئ وهو موقن أنه مجترئٌ ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقديرٌ من تقدير ، وعملٌ من عمل ، ومذهبٌ من مذهب ؛ والآفة أنهم لايستعملون فى الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكَّدة ؛ يأخذونها إذا وُجدت ويصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً ، ويلقَى اليه ولا يمتنع ، ويُعطى ولا يرُد على من أعطاه

قلت : ولـكن ما هو الخبر الذى أرادوك على أن تجعل من ترابه دقيقاً أبيض ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذى كتبت فيه لهذه الصحيفة نفسها ، أنقضه وأسفهه وأرد عليه وكان يومئذ جزءا يتجزأ . . . فان صنعتُ اليوم بلاغتى فى تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لى . ولا حائلا بينى وبين ذات نفسى - فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ . آه لو وضع الرديو فى غرف رؤساء التحرير ليسمع الناس . . .

قلت : يا أبا عثمان . هذا كقولك : لو وضع الرديو فى غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات

قال : ليس هذا من هذا فان للجيش معنى غير الحذق فى تدبير

---

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

المعاش والتكسب وجمع المال؛ وفي أسراره أسرارُ قوة الأمة وعمل قوتها: وللحكومة دخائل سياسية لا يحر كما أن فلانا ارتفع وأن فلانا انخفض، ولا تصرّفها العشرة أكثر من الخمسة؛ وفي أسرارها أسرارُ وجود الأمة ونظامُ وجودها

قال أبو عثمان: وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القارئ المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز، ثم هي لا تريد أن تذهب أموالها في إيجاده وتنشئته. وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن في تحريكها وتيسير مجراها، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة ... ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركا مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة، ولا خرجت عن النسق الطبيعي الذي وضعت له، فان الشعب تحكمه الحكومة، وإن الحكومة تحكمها الصحافة، فهي من ثم لسان الشعب؛ وانما يقرأها القارئ ليرى كلمته مكتوبة. وشعور الفرد أن له حقاً في رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع هو الذي يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم

قال أبو عثمان: فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً، وحيث يكون كل قارئ للصحيفة كأنه محرر فيها، هو مشارك في الرأي لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأي، متتبع لحوادث لأنه هو من مادتها أو هي من مادته، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر، فيُلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية، وتأتي اليه في مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين في داره

وفي قلة القراء عندنا آفتان: أما واحدة فهي القلة التي لا تغني شيئاً، وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم، وزراية أناس بآخرين، وتعلق نفاق بنفاق، وتصديق كذب لكذب. وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنتين: وهي أن أكثرهم لا يكونون في قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلهون به، أو كالفراغ يلتمسون ما يقطعون به الوقت. فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها، ويتعاطون الجد تعاطي من يلهو به، ويتلقون الأعمال بروح البطالة، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة، والمباحثة بفكرة الإهمال، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير. وهم كالمصلين في المسجد؛ فمثل لنفسك نوعا من المصلين اذا اصطفوا وراء الامام تركوه يصلي عن نفسه وعنهم وانصرفوا...

قال أبو عثمان: بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لا ثبات له إلا في الموضع الذي تكون فيه بين منافعه ووسائل منافعه؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة حكومة وسلطة وباشاوات وبيكوات... وكان من الطبيعي أن محل الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا في موضع قلب الحي من الحي.

ثم استضحك شيخنا وقال: لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها، فاذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا: أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال).

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير...

***

فلم يلبث إلا يسيرا ثم عاد متهللا ضاحكا وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعي، وجلس إلي وهو يقول:

بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال، ولم ير فيه استطرافاً ولا ابتكارا ولا نكتة ولا حجة صادقة، بل قال كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد، فاذا نحن زهدنا في الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الانساني وتركت من لم ينلها من ذوي الجاه والغنى، يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتزوجة... وقلنا انها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والنفاق لمن بيدهم الأمر، أو وسيلة إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها في عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان

الوسام كالرقعة من جلد الدولة ، يرقع بها الصدر الذى شقوه وانتزعوا ضميره . اذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا ، لم نجد الشعب الذى يحكم لنا . ووجدنا ذوى المال والجاه والمناصب الذى يحكمون علينا ، فكنا كمن يتقدم فى التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف .

يا أبا عثمان انما هى حياة ثلاثة أشياء : الصحيفة ، ثم الصحيفة ، ثم الحقيقة . . . فالفكرة الأولى للصحيفة والفكرة الثانية هى للصحيفة أيضاً . ومتى جاء الشعب الذى يقول : لا . بل هى الحقيقة ، ثم الحقيقة ، ثم الصحيفة — فيومئذ لا يقال فى الصحافة ما قيل لليهود فى كتاب موسى : تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً . .

قلت : أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير فى هذه المرة ، فشق عليك ألا تثلبه ، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة .

قال : أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو ، وفى مثل هذا لا يكون عمك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة) . إن الرجل اشتبه فى كلمة : ما وجهها أمرفوعة هى أم منصوبة ؟ وفى لفظة : ماهى : أعربية أم مولدة ؟ وفى تعبير أعجمي : ما الذى يؤديه من العربية الصحيحة ؟ وفى جملة : أهى فى نسقها أفصح أم يبدلها ؟ إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا اذا نطق . . .

ولقد ابتليت هذه الأمة فى عهدها الأخير بحب السهولة مما أثر فيها الاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها واستهدافه دونها للخطر ، فشبه العامية فى لغة الصحف وفى أخبارها وفى طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة ، وكأنه تثبيت للضعف والخور ، وأنت خبير أن كل شىء يتحول بما تحدث له طبيعته عالياً أو نازلا ، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية فى كتابة أكثر المجلات وفى رسائل طلبة المدارس ، حتى لتبدو المقالة فى ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل مأكلة صغاره ، فقرض عنقودا من العنب ، فألقاه فى الأرض وأتربه وتمرغ فيه ، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة فى عشرين إبرة من شوكه .

***

ثم مد أبو عثمان يده فتناول مجلة مما أمامه وقعت يده عليها اتفاقاً ، ثم دفعها إلى وقال : اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة . فقرأت هذه العناوين :

« مسئولية طبيب عن فتاة عذراء » ، « مودة الراقصات الصينيات » ، « تخر مغشياً عليها لأنهم اكتشفوا صورة حبيبها » « هل يعتبر قبول الهدية دليلا على الحب ، واذا كانت ملابس داخلية . . . فهل تعتبر وعدا بالزواج ؟ » ، « هل يحق للأب أن يطالب صديق ابنته . . . بتعويض اذا كانت ابنته غير شرعية » ، « بين خطيبتين لشاب واحد » ، « بعد أن قص على زوجته أخبار السهرة . . . لماذا أطلقت عليه الرصاص ؟ » ، « عروس تأخذ (شبكة) من شابين ثم تطردهما » ، « زوجة الموظف أين ذهبت » « لماذا خطفت العروس فى اليوم المحدد للزفاف ؟ » ، « فى الطريق - حب بالإكراه » ، « فلانون وفلانات ، زواج وطلاق ، وأخبار المراقص ، وحوادث أماكن الدعارة الخ الخ .

فقال أبو عثمان : هذه هى حرية النشر ؛ ولئن كان هذا طبيعيا فى قانون الصحافة إنه لأثم كبير فى قانون التربية ؛ فان الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه ، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا . « وباب آخر من هذا الشكل فكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده ، وهو ما يصنع الخبر ولا سيما اذا صادف من السامع قلة تجربة ، فان قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ — دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولا سهلا ، وصادف موضعاً وطيئاً وطبيعة قابلة ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة فى إزالته

ومتى ألقى إلى الفتيان شىء من أمور الفتيات فى وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و . . » [1]

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير . . .

(لها تتمة) (طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

---

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

الحكم فى قضية (القلب المسكين) تلقينا اربعين حكما فى هذه القضية وستجتمع اللجنة لاختيار ما يتحقق فيه شرطنا وهو « احسان الكتابة » ثم نعلن حكمها

الرافعى

في الأدب المقارن

موضوعات الأدب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

يعبر الأدب عن شتى خوالج النفس وخواطر الذهن . ويصف تأثر النفس بمختلف صور الحياة وظواهر الكون وصروف الدهر ، وكلها أمور لا يحد مداها ولا تحصى مذاهبها ، ومن ثم لا تحد ولا تحصى أشتات الموضوعات التي يعالجها أدب أمة من الأمم في مختلف عصوره ، فأدب الأمة الحي يشمل أطراف حياتها المترامية ، مما يوحى به التدين والورع إلى ما يمليه التبذل والاستهتار ، وما يمليه الحزن والألم إلى ما توحى به الغبطة والسرور ، وما يدعو إليه التفكير والتأمل الرزين أو يحمل عليه التفكه والتندر ، ومن كل ما يبعث اعجاب الإنسان ورهبته وخشوعه أو يثير احتقاره أو نفوره ، ومن كل ما يوقظ حب الاستطلاع والدرس والمعرفة المركب في طبع الإنسان ، ويمتد مجال الأدب حتى يختلط بشتى فروع العلم في بعض أطرافها

على أن موضوعات الأدب وإن تعذر استقصاؤها يتجمع أكبرها وأخطرها شأناً حول مواضيع رئيسية يكثر طرقها ويعزى إلى واحد منها كل أثر من آثار رجال الأدب ، كالنسيب والرثاء مثلا ؛ كما أن أدبا قد يختلف عن أدب في فن يحتفى به ولا يكاد يوجد في غيره ، أو فنون يدمن طرقها دون غيرها ، بل يختلف الأدب الواحد في عصر من عصوره عنه في عصر آخر من حيث فنون القول التي يحتفى بها ويقدمها على غيرها . فالبيئة والعصر يتركان أثرهما في فنون الأدب التي تحظى بالرواج والاقبال : ففي عصور الجهاد والصراع مثلا تسود أشعار الحماسة وتمجيد الحمى والأبطال ؛ وفي عصور النزاع بين المادية والترف وبين الدين والتقاليد ، تكثر آثار المجون والزيغ من جهة ، وآثار الوعظ والزهد من جهة أخرى ؛ وعصور البداوة تتسم آثارها بالسذاجة والعاطفة المتدفقة ، وعصور الثقافة تمتلىء آدابها بآثار التأمل والأزمات النفسية ؛ وكلما ارتقى المجتمع وصدق أدبه في التعبير عن حياته كثرت فنونه التي يطرقها ، وطال طرقه للفنون الرئيسية التي تمت إلى النفس الحية والفكر المهذب بأوثق الأسباب ، واختلف أدباؤه كل منهم يخص فنا أو فنونا منها باحتفائه . أما في عصور التدهور والركود فتضيق دائرة تلك الفنون ويتعلق كثير منها بالسطحي والتقليدي من الأقوال ، ويتفق أكثر الأدباء في طريقة تناول تلك الفنون المحصورة

والأدبان العربي والانجليزي قد تناولا أشتاتا من فنون القول ، وعبرا عما لا يحصى من أفكار الإنسان ومشاعره ، واتفقا في كثير من ذلك لاتفاق الطبيعة الإنسانية في كل مكان ، واختلفا في مدى الاحتفال ببعض الفنون والأعراض عن بعضها لاختلاف بيئات الانسان من إقليم إلى آخر ، وظهرت في كل منهما على تعاقب العصور مواضيع لم تكن معروفة من قبل ، وحظيت مواضيع دون أخرى بالحفاوة والصدارة ؛ فالشعر الحماسي كان في العصر الجاهلي هو الفن الرئيسي ، لما كانت تتطلبه الحياة القبلية من التعبير عن صفات القوة والغلب ، ثم حلت الخطابة السياسية في صدر الاسلام محل الشعر ، ثم احتل الصدارة في العصر الأموي النسيب والمهاجاة ، وهلم جرا . وفي الأدب الانجليزي بلغت الخطابة الدينية الوعظية شأوها في عهد المطهرين ، وملكت الطبيعة جل اهتمام الشعراء في العصر الرومانسي ، وفاز التحليل القصصي النفسي والاجتماعي بالصدارة في العصر الحديث

ولعل النسيب أحظى فنون الأدب باحتفال الأدباء في شتى الأمم ، لما يصدر عنه من عواطف وغرائز متأصلة في النفس الانسانية على اختلاف البيئات . وقد بلغ من احتفاء العرب به أنهم لم يقتصروا على الحديث عنه في مكانه ، بل استهلوا به منذ عهد الجاهلية قصيدهم . ولم تخل من حديث الحب أكثر روايات شكسبير في القديم وقصص هاردي في العصر الحديث . فوسع الأدبان شتى الأوصاف لحالات الحب الراضية وأطواره الغاضبة . وإلى الحب يرجع الفضل في كثير من الآثار الأدبية وفي تكوين نفوس كثير من الأدباء ، وحول حديثه يدور جانب عظيم من كل أدب ؛ وقد غلا قوم فعدوه مصدر كل أدب وفن

والرثاء فن معدود من فنون الأدب في العربية والانجليزية ، يمتاز كثير من آثاره بالصدق وحرارة العاطفة وعمق التأمل . وذلك لأن حلول الموت ينقض الشمل وينغص المسرة ويذهب بالإلف ، فيبعث في نفس الأديب ثورة ، ويدفعها إلى مراجعة التأمل في الحياة ، ويستخرج خير ما في النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخلجات الحنين . ومن غرر المراثي في العربية رثاء مهلهل لأخيه ، ودالية المعري ورثاء البحتري للمتوكل ورثاء ابن الرومي لأوسط صبيته ورثاء التهامي لولده . ومن روائع المراثي في الانجليزية مرثية ملتون المسماة ليسيداس ومرثية شلي المسماة ادونيس ومرثية تنيسون المسماة الذكرى . وقد نظم كل منهم قصيدته في رثاء صديق له رفيق لصباه مات معتبطا ومن بدائع المراثي الانجليزية أيضا خطبة مارك انطوني

على جسد قيصر فى رواية شكسبير الذائعة الصيت ، ومرثية جراى التى نظمها فى مقبرة قرية

والتدين والوعظ فن يشترك فيه الأديان ، يتمثل فى العربية فى خطب الرسول الكريم وكثير من خلفائه ، وكثير من أشعار أبى العتاهية وأبى نواس وابن عبد القدوس وابن الفارض وأصحاب المدائح النبوية ؛ وفى الانجليزية فى كثير من شعر ملتون ودن ونثر هوكر وبنيان ونيومان . وأكثرما كتب من ذلك فى الانجليزية إنما كان بأقلام رجال الدين المنتمين إلى الكنيسة . أما العربية حيث لم تكن للدين هيئة رسمية ذات نفوذ كالكنيسة فجاء أدب التدين متفرقاً يستوى فى معالجته رجال الدين المتفقهون فيه ورجال الدنيا غير المتوفرين عليه . ومن أنبغ رجال الدين فى الأدب العربى الإمام الشافعى الذى يمتاز شعره برصانة ونقاء وانعين ، ومن آثاره قوله :

ثلاث هن مهلكة الأنام وداعية الصحيح إلى السقام :
دوام مدامة ودوام وطء وإدخال الطعام على الطعام

وقوله :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته
حياة الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

والميل إلى الصداقة طبع فى الإنسان لا يكاد يقل عن الحب تمكنا وقوة ، فما يزال الإنسان فى حنين إلى الأليف الروحى الذى يبادله الفهم والشعور ، ويقاسمه الحزن والسرور ؛ ومن ثم تشغل الرسائل والقصائد الإخوانية فى الأدبين العربى والإنجليزى مكانا معدودا . بين تخاطب فى شتى الأمور وبين تعارف وتقاطع ، وبين تعاتب وتقريع . ومن آثار الصداقة فى الإنجليزية كثير من مقطوعات شكسبير ، وما كان بين بوب وكوبر وليدى منتاجيو وبعض معاصريهم من تراسل ، وما كان بين جونسون وجولدسمث وبوزويل وجماعتهم من أحاديث دونها الأخير فى كتابه عن الأول ، وما كان بين جراى وشلى وبيرون وكثيرين غيرهم وبين أصدقائهم فى الوطن من مراسلات ، حين كان أولئك الشعراء يطوفون فى ربوع أوربا . وللجاحظ والبديع والصابى وابن العميد رسائل إلى أصدقائهم بارعة تعد فى صميم الأدب العربى . ولم تكن رسالة الغفران إلا رسالة بين صديقين . ومن قصائد التعاتب المشهورة لامية معن بن أوس التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول

وهمزية ابن الرومى الطويلة التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ؟ أين ما كان بيننا من صفاء ؟

ونقد الأدب موضوع مهم من مواضيع الأدب ، تلذ قراءته كما تلذ قراءة آثار الأدب الأخرى ، لما يحوى من عام النظرات وخاصها فى مخلفات الأدباء وعصور الأدب . ومما يزيد أكثر كتب الأدب فى العربية ككتاب الصناعتين وكتاب الوساطة إمتاعاً حفولها بالكثير من بدائع المختارات والمقتبسات . وفى الانجليزية يحتفى بعض النقاد أمثال ماكولى وماثيو أرنولد وإديسون بأسلوبهم الأدبى فى نقدهم لآثار غيرهم ، حتى ترى آثارهم النقدية مضاهية لما ينقدونه لذة وإمتاعاً . ويمتزج بنقد الأدب فى الانجليزية نقد الفنون الجميلة عامة ، والاشارة إلى القواعد التى تشملها هى والأدب ؛ فى مقاله عن بيرون مثلا يوضح ماكولى آراءه بأمثلة من الفنون الأخرى من موضع إلى آخر.

وأحوال المجتمع وأحداث السياسة ليست مما يمر بالأديب المثقف دون أن يكرثه ، بل لا بد أن يترك ذلك أثره الواضح فى أدبه . وقد كان شعر الجاهليين سجلا موجزاً لكبريات أحداثهم ، فلما خضع العرب للملكية بعد الاسلام كفكفت تلك النزعة كثيراً ؛ وقل نقد الأنظمة الاجتماعية والسياسة فى الأدب والتعليق على الحوادث إلى حد كبير ، إلا أن يكون فى ذلك مجاراة ومظاهرة لأصحاب السلطان . وقد قتل المنصور ابن المقفع الذى رفع اليه رسالة فى شؤون الحكم وإن عزى مقتله إلى سبب آخر وأحيط بالغموض . إنما أثر السياسة والحوادث فى الأدب بعد الاسلام باد فى الرسائل الديوانية التى كان يتأنق الوزراء الكاتبون أمثال سهل بن هرون والقاضى الفاضل وابن زيدون فى كتابتها إلى عمال الأمير وأنصاره وأعدائه والخارجين عليه ، كما أن فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع تصويراً واضحاً لكثير من أحوال مجتمعهم وأنبائه . ومن أشعار الأحداث السياسية قصيدة يزيد المهلبى فى رثاء المتوكل وقصيدة ابن الرومى فى ثورة الزنج التى منها يقول :

بينا أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام
صبحوهم فكابد الناس منهم طول يوم كأنه ألف عام

وهذا الفن أوسع محيطاً وأحفل بالآثار فى الانجليزية ، حيث مهدت الحكومة الديمقراطية السبيل للنظرات الحرة والنقدات الصادقة . وكان استقلال الأمة الانجليزية عن غيرها واعتزالها سواها إلى حد بعيد داعياً إلى اشتداد الشعور القومى والاحساس بوحدة المجتمع والاهتمام لشؤونه كأنها شؤون كل فرد الخاصة . وقد قال الامام على : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . وما أسماه مبدأ إنسانياً ومذهباً ديمقراطياً وحكمة عمرانية ؛ بيد أنه كان شعار المجتمع الانجليزى أكثر منه شعاراً للمجتمع العربى ، ومن ثم كانت لأكثر أدباء الانجليزية نظراتهم الاصلاحية الخاصة ، التى تتراوح بين الخطرات العارضة وبين الرغبة فى الانقلاب الكلى ، وظهرت القصة نتيجة هذا الاندماج

لاجتماعى تصور المجتمع تصويراً دقيقا لا يغادر منحى ولا مذهباً .

ولكن الحياة ليست كلهاجداً مرا ، ولا النفس الانسانية تحتمل الجد المتواصل ، وإنما يميل الانسان بطبعه إلى الترفيه عن نفسه بالتفكه والنظر إلى الجانب الهزلى من الحياة . والأدباء لدقة إحساسهم ونفاذ نظراتهم سريعون إلى ملاحظة مواطن التناقض ومواضع الفكاهة فى أخلاق الناس وأعمالهم ؛ ومن ثم يحفل الأدبان العربى والانجليزى بصور عديدة من صور الفكاهة ، تتراوح درجاتها بين العبث البرىء فى أيدى شكسبير وجولد سمث وادبسون والجاحظ ، وبين السخر المرير فى أيدى سويفت وبوب وابن الرومى والمعرى ، ويتناول بها الأدباء منافسيهم ومعاصريهم ويفندون حماقات المجتمع

وهناك مواضيع احتفى بها الأدب العربى حفاوة بالغة تفوق ما نالته فى الانجليزية ، وأولها الحكمة : فأدباء العربية كانوا منذ الجاهلية يعشقون الحكمة ويحبون نظمها والاستماع إلى أشعارها ، بل كانوا كما قيل لا يعترفون لشاعر بالفحولة حتى يوفق إلى شىء منها . وظل الأعشى مزوياً عن مصاف الفحول حتى قال فى مدحه سلامة ذا فائش : « والشىء حيثما جعلا » ، لجمع صدق النظرة إلى إيجاز اللفظ وهما سمتا الحكمة عند العرب . ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم كان أهم ما احتفوا بنقله من آدابهم الحكمة . ومن كتب الحكمة مؤلفات ابن المقفع ومقصورة ابن دريد والخطب المنسوبة إلى قس ابن ساعدة والامام على ، والجم الغفير من أشعار المتنبى التى سارت مسير الشمس ؛ وليس من محض الصدفة أن كان أكبر شعراء العربية وأسيرهم ذكراً حكيما مكثراً لصوغ الحكم وضرب الأمثال . وبالحكمة الصادقة البليغة الموجزة كان الأديب العربى يستغنى عن فنون وأشكال من الأدب ازدهرت فى الانجليزية ، كالقصة والرواية التمثيلية والملحمة ، فالعبرة التى تنطوى عليها إحدى هذه يجمعها الشاعر العربى فى بيت واحد يلقيه إليك وخلاه ذم

واقتباس الحكمة والمثل والاستشهاد بأقوال السلف أقل حدوثا فى الانجليزية منه فى العربية ، لأن الحكم الموجزة التى تغزر فى الأخيرة قليلة فى الأولى . وكثيراً ما يلجأ المقتبس فى الانجليزية إلى الأدبين الاغريقى واللاتينى ، وحتى هذا يبطل تدريجا فى العصور الحديثة . وأكثر أدباء الانجليزية حظوة لدى المقتبسين والمستشهدين شكسبير ، وليس ذلك لأنه كان يتعمد صوغ الحكمة أو يحرص على التكثر منها ، بل لأن رواياته من جهة قد أحاطت بشتى أحوال الحياة والنفس الانسانية ، بحيث يجد فيها كل كاتب شيئا مقاربا لما هو بصدده ، ولأن مقدرته اللغوية العظيمة من جهة أخرى كانت تهديه إلى صوغ أفكاره صياغة موجزة ممتعة ؛ ويليه سيرورة أقوال بوب ، زعيم الأسلوب المحكم الرصين الذى كان شعاره فى الأدب التعبير « عما قيل من قبل كثيرا ، ولكن لم يقل أبدا بهذا الإحكام » ، فسار كثير من أبياته المحكمة الموجزة على الأقلام والأفواه

ومما يتصل بالحكمة فى الأدب العربى ويمتاز هذا الأدب به التمدح بحميد الخصال كالجود والشجاعة وحمى الذمار وحسن الجوار وحفظ السر وكظم الغيظ ومداراة السفيه ، إلى غير ذلك من الدساتير الخلقية التى كان كثير من أشراف العرب الأدباء يسنونها لأنفسهم ، وامتداح تلك الصفات فى الغير والحث عليها ، وهذا من أنبل مواضيع الأدب العربى ، ولحاتم الطائى ومسكين الدارمى والمقنع الكندى والشريف الرضى والإمام الشافعى آثار فى ذلك ، تروع برصانة أسلوبها ومتانة أسرها وعظمة خلقها ؛ فلما غلب التقليد على الأدب ، ودخل الشعر فى طور التقهقر انقلب مثل هذا التمدح المحبوب الصادق المقرون بالفعال فخرا عاجزا أجوف ، بمآثر وهمية وعزائم مزعومة ، وتيها على النجوم ودلا على الزمان ، كقول السرى الرفا :

وإنك عبدى يا زمان وإننى ... على الرغم منى أن أرى لك سيدا

والغريب أن أحد أولئك الشعراء المتشدقين بالفخر ربما قرنه فى القصيدة الواحدة بشكوى سوء الحال وقعود الجدود وخيبة الآمال . والشكوى موضوع من مواضيع الأدب العربى كانت أقرب إلى متناول أدبائه منها إلى أدباء الانجليزية ؛ وقد فشت خاصة فى آثار المتأخرين . والأدب العربى من جهة أخرى أحفل بوصف آثار الترف ومظاهره : من القصور والمحافل ومجالس الشراب وآلات الطرب ودواعى المجون . وللخمر خاصة منزلة فى الأدب العربى لا نظير لها فى الانجليزية ، وقد حظيت من جزالة أسلوب الأخطل وأبى نواس وابن الرومى بما خلد أوصافها وأعلى ذكرها ، وقلما يرد ذكر الخمر فى الأدب الانجليزى إلا تظرفا وتشبها بالاغريق الأقدمين وإشارة إلى باخوس إله الخمر عندهم

وراج فى الأدب العربى فنان ليسا من صميم الأدب فى شىء ، وما زالا يرقيان حتى احتلا مكان الصدارة من الأدب ، وموضع الحفاوة من الأدباء ، وهما المدح والهجاء اللذان استفحل أمرهما من عهد الأمويين فنازلا ، حتى استبدا بأجزاء كبيرة من دواوين بشار وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى ، وكادا يشغلان كل دواوين آخرين غير هؤلاء . وما كان ارتفاع شأنهما هكذا إلا نتيجة فساد تقاليد قديمة ، كانت فى الجاهلية تقاليد محمودة لا ضير فيها ، ثم استمرت بعد ذهاب عصرها واندثار بيئتها بظهور الاسلام وقيام الدولة المتحضرة المركزية ففسدت تلك التقاليد وصارت بلاء على الأدب الصحيح

كان العرب الجاهليون يحرصون على حسن الأحدوثة، ويتمدحون بكريم الصفات، ويناخون خصومهم بالشعر، ويجزون من فعل ذلك عنهم، وكان ذلك كله وليد بيئتهم البدوية، فلما كان الاسلام والدولة والحضارة لم يعد لمثل ذلك التفاخر والتهاجي موضع، ولكن الشعراء استبقوا ذلك التقليد طلباً للنوال، والأمراء قبلوا منهم ذلك الأحياء المفتعل لتقليد غبر عصره طلباً للمجد الزائف. ومن العسير أن تحصى المساوى، التي جرها هذان الفنان من القول على الأدب العربي: مواضيعه ومعانيه وأساليبه

ولم يكن فى الانجليزية شيء من هذين الفنين يقاس بما كان فى العربية، وحتى القليل من المدح الذى كان فى بعض الفترات يستفز الأدباء الأباة إلى مثل قول بوب: « فلأعبر عن رأيي فى الأمر فى كلمة: إن وصف الرجل بأكثر مما نعلم فيه عمل بعيد عن الامانة إذا قصد من ورائه الربح، وعمل أخرق إذا لم يقصد، وكل من نجح فى مثل هذا العمل لابد أن يعتقد فى قرارة نفسه أنه هو نفسه دجال لأنه فعل ذلك، وأن ممدوحه أحمق لأنه صدق ماقيل فيه »

وعلى حين احتفى شعراء العربية بهذين الفنين الزائفين من فنون القول، أهملوا إلى حد بعيد فناً هو من صميم الأدب والحياة، وهو الوصف الطبيعي: فديوان المتنبي الذى يعج بمعاني المدح والهجاء المخترعة لايضم إلا أبياتاً معدودة منثورة فى التغني بمباهج الطبيعة. أما فى الانجليزية فالطبيعة وحي مالا يعد من قصائد بين مقطوعات ومطولات، ووصفها يتخلل أشتات المنظوم والمنثور فى مختلف الأغراض، وهى المنظر الخلفى لكثير من روايات العصر الأليزابيثى وملاحم ملتون وسبنسر ومطولات تنيسون وقصص هاردى، بل بلغ من دقة دراسة تنيسون إياها أن أصبح شعره يقتبس فى كتب الجيولوجيا والجغرافيا أحياناً، وبلغ من معرفة هاردى بطبيعة الاقليم الذى أجرى فيه حوادث قصصه، أن كان يخصص الصحائف الطوال لوصف المنظر الواحد فى قصصه بدقة العالم لا القصصى

وهناك مواضيع أدمن أدباء الانجليزية ورود مناهلها وغزرت آثارها فى أدبهم، فكانت فيه مادة فن وإمتاع وغبطة: كالتحدث عن المغامرات وروائع القصص وعجائب الرحلات، وجسام حوادث الماضى وعظائم أبطال الامم، وممتع خرافات الأجيال وأغنيات طبقات الشعب وأقاصيصهم، كل هاتيك وجد فيها أدباء الانجليزية منادح للفن والخيال ومعارض لميول النفس الانسانية وطباعها وسجاياها المرسلة؛ أما الأدب العربى فيمتاز بكفكفة غلواء الخيال والتجافى عن البعيد من الأمكنة والأزمنة والازورار عن الامم الأخرى والترفع عن العامة وثقافتهم المتواضعة، واحتقار الخرافة وأساطير الماضين.

واتخذ الأدب الانجليزى التاريخ الواقعى مادة لموضوعاته: منه اتخذ الأليزابثيون مواضيع بعض رواياتهم، وفيه جال جيبون وسوذى وما كولى وكارليل، يدرسون كبريات الوقائع وعظماء الرجال وإليه رجع الشعراء والقصصيون، وقد صور سكوت فى قصصه حوادث التاريخ تصويراً يفوق كتب التاريخ أحياناً دقة ووضوحا، ولم يكد يلتفت إلى التاريخ من أدباء العربية ويتناوله فى أسلوب أدبى جزل سوى الجاحظ.

فالأدبان العربى والانجليزى قد تناولا مواضيع مشتركة بينهما، وطرق كل منهما مواضيع لم يحتف بها الآخر. على أن الأدب الانجليزى أغزر موضوعات وأكثر شغلا بأسباب الحياة؛ والأدب العربى لم يظل دائماً ترجماناً لكل عواطف المجتمع العربى، وكانت روح المحافظة التى سببت عدم تطور أشكاله سبباً فى قلة تطور مواضيعه أيضاً، فأهمل مواضيع شتى تمت إلى الطبع الانسانى بأوثق الأسباب وتدخل فى حظيرة الأدب أول داخل، وتناول غيرها لا تمت إلى الفن بسبب، ومرجع ذلك ما خالطه من نزعة تقليد جامدة، وما اعتمد عليه من رعاية الأمراء، على حين كان الأدب الانجليزى دائماً حر النزعة حر الحركة والنمو

فخرى أبو السعود

بين تلستوى وماكس نوردو

الأستاذ عبد الرحمن شكرى

قرأت تلستوى قبل أن أقرأ نقد ماكس نوردو لآرائه. وكنت أشك فيما شك الناقد الألمانى، ولكنى عندما قرأت نقده لتلستوى لم يتمنى تعليله، أو على الأقل رأيت أنه لم يتتبع كل احتمال يمكن أن تصير إليه النفس الحائرة فى بحث معضلات الحياة. ولم يقف كل موقف من الجائز أن تقفه فى أثناء بحثها؛ فكان تعليله لما ينقد من الآراء بالشذوذ الجثمانى فى صاحب الرأى، ولم يدر أن كل إنسان شاذ وأن كل مفكر مصحوب بشىء من الشذوذ الجثمانى، وأن الشذوذ الجثمانى قد يكون فى غير المفكر أكثر منه فى المفكر، وأن الانسان حيوان شاذ، وأن الرأى الذى ينقده قد يكون قد دخل عليه الخطأ بسبب رفض صاحبه لخطأ آخر فى أثناء بحثه الحياة واختيار مسالك الرأى فيها. ولو أن ماكس نوردو قد فسر سبب رفض تلستوى لنقيض ما رأى من الآراء لكان قد وصف رحلة نفس تلستوى فى عالم الاحساس والوجدان، ولكان قد وصف رحلة فكره فى عالم الأفكار، ولكان قد وصف من تلك المسالك ما هو كالتيه ذى الطرق المتشعبة وما يحسبه ماكس نوردو طريقا معبدا بالخرسان والقطران والأسفلت

خذ مثلا رأى تلستوى فى الامتناع عن الاجرام حتى قتل المجرم للدفاع عن النفس أو عن طفل برىء، فهو يقول لك انصح المجرم وعظه والتجىء إلى جانب الخير من نفسه وحاول أن تمنعه من ارتكاب جريمة القتل، ولكن احذر أن يكون منعك إياه عن الجريمة بأن تأتى أنت جريمة كأن تقتله؛ فاذا رأيت مجرماً يريد أن يقتل طفلا فضع نفسك بينه وبين الطفل وعظه، ولكن لا تقتله لأنه يريد أن يقتلك أو أن يقتل إنساناً آخر حتى ولو كنت قادراً على قتله

يأخذ ماكس نوردو هذا الرأى فيفنده ويسخر به ويهزأ منه. وله أن يفنده وأن يظهر مواطن الضعف فيه، وله أن يسخر منه ما شاء أن يسخر، وله أن يقول إن هذا رأى يؤدى إلى موت الأبرار وتحكم الأشرار. إذا أخذ به بعض الناس ولن يأخذ به كل الناس إلا إذا انمحى الشر من النفس الانسانية فلا يكون إذن للرأى معنى ولا ضرورة، وإذا مات الأبرار الأخيار بسبب أخذهم بهذا الرأى وتحكم الأشرار رجعت الحالة إلى ما كانت عليه قبل الشروع فى تحقيق هذا الرأى وانعدم هذا الرأى من عالم الأفكار والأحياء. فاذا قال ماكس نوردو كل هذا كان مصيباً فى قوله. وإن كنا لانقطع بحدود لجاءات النفس البشرية وحدود عدوى المحاكاة كمحاكاة الانقطاع المطلق عن الشر. ولعل تلستوى قد قدر كل ما قدره ماكس نوردو من شر يعود به الانقطاع عن الشر حتى فى الدفاع عن الخير أو عن النفس أو عن الأحياء، ولكن لعله كان يؤمن بالنفس البشرية أكثر من إيمان ماكس نوردو بها فقدر أيضاً ذيوع الأخذ برأيه وانتشار عدوى محاكاة الانقطاع عن الشر حتى تعم الناس قاطبة بعد ويل يكون للبادئين بالاخذ به، والبادئون دائماً ضحية فى كل رأى ومذهب. ولعله قدر أيضاً أنه لو أخطأ فى إيمانه بالنفس الانسانية فان الويل والضرر اللذين يكونان نتيجة الاخذ برأيه مقبولان فى سبيل تجربة قد تعود على الانسان بالخير الآجل إن لم يكن عاجلا؛ ولعله قدر أيضاً ان المرء قد لا يأخذ برأى الانقطاع عن الشر المطلق دائما، ولكن هذا الرأى قد يبعد به عن الشر أحياناً أو قد يقلل من غلواء شره كما قللت روادع المسيحية من قسوة من اعتنقها من التيوتون الذين غزوا الدولة الرومانية وإن لم تقض على قسوتهم كل القضاء. ولم يكن تلستوى أول من فكر هذا الفكر، فانه فكر تلتجىء إليه النفس الانسانية المعذبة كلما حاولت التهدى إلى وسيلة تخلصها من شرور الحياة كما فعل البوذيون قديماً عندما دهمتهم قبائل المغول والتتر والتركمان فى الهند، وكما فعل المسيحيون القدماء عندما كانوا مضطهدين فى الدولة الرومانية الوثنية قبل اعتناقها للمسيحية

ثم لعل تلستوى قد قدر أيضا أن دفع الشر بالشر يؤدى إلى خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر؛ وكثيراً ما فنيت أسر وقبائل وشعوب بسبب خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر جيلا بعد جيل. ونحن نرى الآن كيف يهدد الخراب عالم العمران بسبب دفع الشر بالشر والمباراة فيه.

فترى أن خطأ تلستوى ليس بالخطأ الذى يتهم صاحبه من أجله بالانحطاط والجنون كما فعل ماكس نوردو الناقد الألمانى،

ولم يكن هناك من داع فى هذه الحالة لنظرية الانحطاط التى بنى عليها ماكس نوردو كتابه (الانحطاط) ولو أنه اكتفى بابراز الحيرة الفكرية التى أدت بهروب تلستوى من نظرية دفع الشر بالشر إلى نظرية ألا يدفع الشر بالشر وأوضح خطأ هذه الحيرة لكان أقرب للتقوى

وعرض ماكس نوردو مذهب تلستوى فى العاطفة الجنسية: وله أن يفنده وأن يسخر منه، ولكن كان من تمام الحكمة والفلسفة والتفكير أن يعرض شرور الحلول الأخرى التى تحل بها معضلة العاطفة الجنسية لكى يفسر الحيرة التى أدت إلى هروب تلستوى منها، فان حل معضلتها ليس طريقا ممهودا بالأسفلت والقطران كما حسب ماكس نوردو؛ وهو إن كان كذلك فهو أيضا كثير الحفر والمهاوى. وهى التى أدت إلى ذلك الرأى الغريب الذى ارتآه تلستوى وجعله يطلب رفضها رفضا باتا حتى فى حالة الزواج؛ وهو فى هذه الناحية أقل إيمانا بالنفس الانسانية من ناقده، ولكن كان يجدر بناقده أن يبرز الشرور والآثام التى تكثر، سواء أكان حل معضلة العاطفة الجنسية بغلبة القيود والغيرة، أو بضعف القيود والغيرة أو بانعدامها كلها؛ فلعل تلستوى قد نظر طويلا إلى كل حالة من هذه الحالات؛ ولعل طول نظره فى كل حالة هو الذى حيره ودعاه إلى رفض العاطفة الجنسية رفضا باتا. فالحيرة ليست دائما دليلا على كلال الذهن وقصر نظره وغموضه وانحطاطه؛ وهى تذكرنى برجل جليل فاضل مفكر كان يجيد لعب الشطرنج ويفكر فى كل تفكير يصح أن يفكر فيه الذى يلاعبه، فكان لا يفكر فى لعبة إلا فكر فى طريقة ضدها تهزمها فينتهى به الحال إلى أن يلعب أول لعبة تخطر على ذهن اللاعب وتستدعى سخر الناظرين وضحكهم

ونظر ماكس نوردو إلى موقف تلستوى من العلم، وكان ينبغى لو حاول الاتزان فى النقد أن يفسر سبب الحيرة التى دفعت بتلستوى إلى رفض أكثره، وأن يميز بين حيرة الجاهل الغبى وبين حيرة الذكى التى هى أشبه بحيرة لاعب الشطرنج الذى وصفته، وأن يفرق بين خطأ الغافل الذى لا يفكر وخطأ المفكر الذى يحيره كثرة الفكر وتشعب مسالكه والتواؤها حتى يراها مثل حارات القاهرة القديمة التى ليس بها منفذ ولكنها حيرة لا تستدعى أن يتهم صاحبها بالانحطاط حتى ولو كان صاحبها مخطئا، وإلا كان الانسان حيوانا كثير الانحطاط. وكأن الانحطاط الذى يعنيه هو من النقص المحتوم فى الطبيعة البشرية. ولعل تلستوى قد قدر عواقب العلم الحديث فى النظم الاقتصادية وفى النظم والمخترعات الحربية وهى عواقب أدت إلى كوارث الحرب العظمى وأهوالها. وإلى الأزمة الاقتصادية ومعضلاتها، وهى إلى الآن تهدد العالم بالخراب؛ فلا غرابة إذ أدركته الحيرة، ولا غرابة اذا أخطأ فلم يصب أحد بعد فى حل تلك المعضلات. ولعل تلستوى قد فكر أيضاً فيما فكر فيه اللور بالفور عند ما قال فى وصف أثر العلم الحديث فى تغير نظر الانسان إلى الحياة: «إن العلم الحديث يعلم الانسان أن الدنيا تخلق من أجله، وأنه ليس تاج الخليقة ولا أنه من سلالة من سكن الجنان قديماً، وأن حياته جاءت عفوا، وأن تاريخه قصة عار وحوادث لا تشرف من حوادث أحقر نجم سيار، وأنه مملوء بالأسقا والآثام والمجاعات والقتل والقسوة، وأن الانسان بعد آلام لا تحصى قد صار له من الضمير ما يعرف به حقارة نفسه، ومن العقل ما يدرك به أنه مخلوق تافه، وأنه بعد عصور طويلة فى ذات قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من العصور الجيولوجية سينمحى بهاء الشمس ورونقها، ولا تسمح الأرض ببقاء ذلك المخلوق الذى أقلق هدأتها، فيفنى الانسان وتفنى معه آراؤه وأفكاره كلها فكأنما كان عمله وذكاؤه وايمانه وآلامه وجهاده فى عصو حياته الطويلة عبثاً ومن غير جدوى»

ثم إن العلم الحديث يقول أيضا إنه على فرض تحقق السـ والخير الشامل، وعلى فرض انمحاء الشر، فان هذه حالة تؤدى إلى تدهور الانسانية، لأن الخير فى مقاتلة الشر، والذكاء مستنبط من الخوف والحذر من الجوع ومن اعتداء القوى، فاذا انمحى الخوف والحذر والشر والاعتداء ضعفت الانسانية وتدهورت وتردت فى هاوية الفناء.

ولعل تلستوى قد نظر أيضا إلى ما نظر اليه ادن فلبوتس القصصى الانجليزى فى وصف أثر هذه الآراء كلها فى المجرمين فى أوروبا والولايات المتحدة وغيرهما. فاذا كان تلستوى بعد ذلك النظر قد رفض أكثر هذه الآراء العلمية فليس رفضه دليلا على الانحطاط كما قال ماكس نوردو بل هو من حيرة المفكر الذى يتهدى.

ولعل تلستوى فى استعراضه تاريخ العاطفة الجنسية ومحتملاته

ونفاقها واكاذيبها وآثامها ونظمها على اختلاف تلك النظم ولعله أيضاً عند استعراض تلك الآراء والنظم العلمية الحديثة قد نظر إلى قول القائلين إن العاطفة الجنسية والعلم الحديث هما كالماء الذى تضعه فى الاناء القذر فيصير قذرا ، وتضعه فى الاناء النظيف فيكون نظيفاً ، والآنية تختلف كاختلاف النفوس وأصل الماء واحد سواء الذى وضع فى الاناء القذر والذى وضع في الاناء النظيف .

ولكن لعل تلستوى أيضا قد فطن إلى أن هذا تشبيه لا أقل ولا أكثر ، وأنه عند امتحان النفوس وتطبيقه عليها يتلاشى ويتضاءل اذا أعوز الاناء النظيف من آنية النفوس البشرية

عبد الرحمن شكرى

فى الصحراء

للأستاذ عبد المنعم خلاف

عشقتها منذ أن عاش جسمى بين يديها أربعا وعشرين ساعة فى الخريف الماضى كذرة من رمالها فى وَهَج ظهيرتها ، وأفياء آكامها ، وطَفَل أصائلها ، وأشباح دياجيها ، ورَهَبوت عوالمها ... ومنذ أن لمست يدا قوية من طبيعتها تمتد إلى قلبى فتضربه بشعلها وتعصره برهبتها ، وتحمله فى أجوائها مع الهبَوات ، وتسقيه من آلها وسرابها أمواجا تظمئ ولا تروى ، وتتلف ولا تسعف ، لأنها أحلام الأرض الظامئة والأكباد الحرَّى ..

واستقبلت العودة إليها فى ظرف مُوات استقبال المتطلع إلى عالم مسحور ناطق بالصمت ، مُحيٍ بالموت ، مثير بالهدوء ، مُنضَّر بالشوك ، مُرْوٍ بالجفاف ، مؤنس بالوحشة ، يضج القلب فيه ضجيج الدنيا وإن صمت هو صمتَ الآخرة ، ويحوم الفكر فيه حول العقدتين : الأزل والأبد ، فتختلط الحواس ويتداخل فعلها فتسمع العين وترى الأذن وتُـلمَس الأضواء والألوان !

***

سلام عليكِ أيتها الذرات المتشابهة الراقدة على مهاد الأزل حالمةً بالنُّـقلة على جناح الرياح إلى عوالم الأنهار والأزهار والحيوان .. سأمانة من طول الرقاد على بساط الديموم ، تمثلين العقم والبساطة والصورة الأولى للأجسام ... تنظرين إلى الذرات العليا المضيئة الدائرة فى فضاء ربى والراقدة أيضا على صدر الفراغ .. تحلم بالقرار كما تحلمين أنت بالانطلاق والفرار ..

فى قلبى ذرة صغيرة مُعرْبِدة لذّاعة وددتُ لو استحالت إلى جمودك ! إذن لأراحت واستراحت من رُوح الحياة .. إنها ذرة تحلم بالرياح كما تحلمين . فهى ثائرة تريد الانطلاق من ضيق المكان .. وهى دائبة على ذلك حتى يفنى الزيت من السراج ، وتخمد الوَقدة التى وضعت شرارتها يد الله فى ذراتى الأولى !

***

نحن ركب مُسيَّرون لا سائرون أيتها الذرات .. مسيرون بعواصف خفية فهى أهول ، مكبوتة فهى أعنف ، متنافرة فهى أسرع فى تحطيمنا ونقض بنائنا . فلا إرادة ولا خيرة فى النقلة ، وإنما هى رياح من نوع آخر ، وما أكثر جنود ربى !

***

سألتُ : كم مضى من دهرك أيتها الديموم ... ؟ فأجابت : طفلة أنا لا أعى دورات الفلك ، ولا أشيخ على الدوام ... وإنما تقاس الأزمان وتعرف الأعمار بجفافٍ فى ورقة ، أو تجعيدةٍ على وجه . وأنا كما ترانى علامة ابتداء ...

وسألتُ : لمن خُلِق ليلك والنهار ، وشمسك والقمر ؟ ومن يسمع تناوُحَ رياحك وعزيفها على شعاف جبالك ، وصفيرَها فى كهوفك ؟ ومن يَسْمُرُ مع نجومك ، ويشهد تقاتل عناصر الطبيعة على صدرك ؟ لمن وَشائعُ الغيوم على صفحات سمائك ، وألوانُ جُدَدك وظرابك وآكامك ؟ وأين كل ماصبَّته الشمس والكواكب على أديمك من أضواء وألوان ؟ أللعابرين فيك كالنسمات والطائرين عليك كالخطرات ؟ ! أكل هذه الأكوان للشياه والبُعران والرُّعيان ؟ ! ويحَ الجمال من غير عيون تجتليه ، والجلال من غير قلوب تستوحيه ، والسطور من غير قارىء !

فأجابت : سِرِّى وسحرى أن أكون آبدةً عقيما متفردة . لأنى أرض الخفاء والمجهول والجن ... الجن الذين ملأوا آفاق بتهاويلهم كما ملأتم دياركم بالشواخص والأجرام ... وقد خلقت لهم ، وإنَّ منهم قلوبَ الشعراء والمتاملين ، السائرة مع الأضواء

والظلمات ترقبها فى الشفق والغسق . الخافقة مع الهبَوات والنسمات ترصد فعلها فى المدَر والوبَر والدوح والورق . النائمة فى حضن جبل أو على ذراعى موجة أو فى عين نجم . أو فى عُش . أو على زهرة منضورة نقّطها الندى . أو فى ناى راعٍ ، أو فى قبر مهدم متفرد !

* * *

يا أم الفطرة ! أريد أن أقبض قبضة من ذراتك البسيطة التركيب ، البريئة من الدنس ، المطهرة من الرجس ، فأحصب بها وجوه المصانع وناطحات السحاب لعل أحجارها تذكر المهد الأول فترعى ذممه ، وتوشج رحمه . وتزيح عنها دخان البارود لترى السماء وتسمع خبرها . . .

يا أم الفطرة ودينها ، انبهامُك ترك عقل « محمد » فى حيرة غداة شب عن الطوق يرعى ، ومجالى الفتنة والروعة فيك نادته إلى العزلة فى شعفة من شعفات جبالك يسأل الدنيا عن سرها وأزلها وأبدها وملَلها ونِحَلها حتى حدثته السماء خبرها . ولم ينزل خبر السماء إلا فيك أو على حوَافيك ، لأنك القدس والمطهر ، تسجد الطبيعة فيك بالاصباح والإمساء ، والنجوم والجبال والشجر والدواب ... وإن أهل الأرض مدينون لك بالظل الذى يجدون برْدَه على قلوبهم وامتدادَه على أرواحهم ؛ ولقد نشرت « كتابك » على الدنيا مرة فطبعت كلماتُه على الآفاق كلها ؛ ولكن رُكاما من الغيوم يكاد يخفيها ، فأرسلى رياحك الحارة تذيب الركام وتجلو كلمات النبوة . . تريد الأرض موجة جديدة منك أيتها الصحراء ، فاهتزى !

* * *

ضَحِكَت بالقَتاد والأشواك ضحكةً خِلتُها بشاشةَ باكِ
أرسلتها فى الصمت هَمْساً ولكن رَنّ فى مسمعى صداها الحاكى
فَرْحةً بالربيع دَبّ على الأرض وليدا يثيرها لِحراك
فَرَشت فى طريقه الشوكَ والحَمض ووشّت رمالها بالأراك
عجزت أن تجارىَ الخَصبَ بالحب (م) وفَرش الرُّبى ونفح الزواكى
فأنالت جهدَ المقل ، وما يُطـلَبُ من عاجز بلوغُ السماك

القاهرة

عبد المنعم خلاف

٢ - عمر بن الخطاب *

للأستاذ على الطنطاوى

— ٦ —

كان المسلمون فى مكة ـ فكانت الخصومة بينهم وبين الكفار من قريش ـ خصومة فردية . شخص يناوئ شخصاً ، وجماعة تقاتل جماعة . فلما كانت الهجرة واستقر الاسلام فى (يثرب) وفتحت له صدرها ، وقدمت لنصرته أبناءها وفلذات كبدها ، استحالت الخصومة إلى شبه (خلاف دولى) بين القرشيين المقيمين على الشرك ، العاكفين على الاصنام ، المدافعين عن الباطل ، وبين أهل (المدينة المنورة) بنور التوحيد ـ (أنصار) الاسلام وحماة الدين ، وجنود الله ؛ واتسع الخلاف وخاب مع الكفار المنطق وتعذر الصلح ولم يبق بد من الحرب

ومهما يقل اليوم (دعاة السلام) فى شناعة الحرب ويصفوا من أهوالها وينفروا منها ، ومهما يؤلفوا فى ذلك من كتب ويصنفوا من أصناف . فان مما لاريب فيه أن هناك (حرباً مقدسة) مشروعة فاضلة ، هى الحرب التى تشب نارها دفاعاً عن الحق وذباً عن الفضيلة وتأديباً للمجرمين . . . ومن ينكر على الجند أن يحاربوا اللصوص والمجرمين ويمنعوهم أن يعيثوا فى الأرض فساداً ؟ ومن يمنع القاضى أن يقتل القاتل ليشترى بموته حياة أمة ، ويحبس الجانى ليضمن بحبسه حرية شعب ؟

كذلك كانت (معركة بدر) حرباً مقدسة ، أثيرت من أجل الحق والفضيلة والسلام والاسلام . . . فمشت إلى بدر (عصابة المجرمين) من قريش ، مزهوة زهو اللصوص ، شامخة بآنافها شموخ القتلة ، مستكبرة استكبار قطاع الطرق . . . ومشت فرق الجنود المسلمين متواضعة لله خاضعة له . لا قوة لها إلا قوة الحق ، ولا سلاح إلا سلاح الايمان ، ولا غرض لها إلا تطهير الأرض من أدران الشرك وأوضار الظلم ومحو الارستقراطية السخيفة العاتية . .

(*) انظر الرسالة ١٦٨

والتقتا فى (بدر) ـ فالتقى الحق بالباطل ـ والنور بالظلام ، ووقف الجنود والحراس وجهاً لوجه . . . ووقف التاريخ على الطرق يرقب النتيجة ـ فاما أن ينتصر المسلمون فيمضى صعداً ويرق فى مدارج العلاء متوشحاً بوشاح الحضارة ، وإما أن يندحروا فينحدر إلى الهاوية . . فلم ينجل الغبار حتى خرجت راية محمد (صلى الله عليه وسلم) خفاقة منصورة وخرج اللصوص بين قتيل ملقى للسباع والطير قد خسر الدنيا والآخرة ، وأسير فى عنقه حبل يساق إلى (المحكمة) !

* * *

وانعقدت أشرف محكمة وأعدلها ـ برئاسة سيد العالم ـ وأفضل النبيين (صلى الله عليه وسلم) وعضوية شيخى المسلمين ، وخليفتى النبى الأمين ـ الصديق والفاروق ـ وكان فى كرسى (النيابة العامة) شاعر الاسلام ، وعلم الانصار ، البطل الشهيد : عبد الله بن رواحة ...

وافتتحت الجلسة ... وثبت الجرم . وكان (جرماً مشهوداً) وطلب (النائب العام) أن يعوّد المتهمون على حياة جهنم التى كذبوا بها ، وأقدموا عليها ـ فيكون جزاؤهم جزاء نارياً : يلقون فى وادٍ كثير الحطب ـ ثم يضرم عليهم ناراً

دخلت المحكمة (للمذاكرة) فسأل الرئيس الأعضاء آراءهم ، فكان أبو بكر (أرحم الأمة بالأمة) ورأى أن تؤخذ منهم الفدية فتكون قوة للاسلام ولا يقتلوا لأنهم بنو العم والعشيرة والاخوان ، وخالفه عمر (أشد الناس فى دين الله) وطلب (إعدامهم) جميعاً : هؤلاء أئمة الكفار وصناديدهم وقادتهم ؛ إنهم يعترضون سبيل الدعوة الجديدة ـ إنهم قطاع الطريق ـ يجب أن تسلم الطريق إلى الله ـ يجب أن تمضى الدعوة فى سبيلها آمنة مطمئنة

وسكت صلى الله عليه وسلم ـ ووازن بين الرأيين ـ ثم نطق الحكم فكان كما رأى أبو بكر ...

غير أن الحكم قد (استؤنف) ونزل (الاستئناف) من السماء : « ما كان لنبىٍ أن يكونَ له أسرى حتى يُثخِنَ فى الأرض . تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرةَ والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبَق لمسكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم »

— ٧ —

وسمت منزلة عمر فى الاسلام . فلم يكن فوقه إلا الصديق الأعظم . وكان عمر بطل الدعوة وفتاها وحارسها . ثبت مع النبى (صلى الله عليه وسلم) فى أحد ساعة اضطراب الجيش وفداه بنفسه ، واختاره صلى الله عليه وسلم ليجيب أبا سفيان باسم الاسلام ، فأجابه جواب القوىّ الظاهر ... حسب أبو سفيان أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد قتل . وقتل صاحباه ، واستراحت قريش من هذه البدعة فهى ذاهبة إلى حلقاتها حول الكعبة ـ التى تحدق بها الاصنام ـ تتحدث حديثها وترويها أبناءها ليعتبروا بها . فلا يحاولوا الخروج عما ألفوا عليه آباءهم ... حسب أبو سفيان أن الاسلام غمامة صيف جاءت ثم انقشعت . لم يدر أن الاسلام أثبت من الأرض ، وأخلد من الزمان ، وأنها تزول السموات والأرض ولا يزول ، فما هُبَل ، وما هذه الأباطيل ؟ أقطعة من الحجر وفلذة من المعدن ، تصنعها بيدك ، وتدوسها برجلك ، تسويها برب العالمين ؟ ما هذا العقل يا أبا سفيان ؟

* * *

كانت أحد فكان عمر عظيما ظافراً فيها . كما كان فى بدر وهما لعمرى سواء ، ما غُـلب المسلمون فى أحُد . وما غَلب فيها المشركون ... ذلك أنهم ما ساروا خمسمائة كيل ، من مكة إلى المدينة ليصيح قائدهم : اعل هبل ... اعل هبل ... ثم يرجع من حيث جاء ، ولكن ساروا ليفتحوا المدينة ، ويقتلوا محمداً ، ويجتثوا الاسلام من أصله ، فكيف يدعون المدينة ومابينهم وبينها إلا مسيرة نصف ساعة ، وما فيها حامية تذكر ولا يدخلونها ولا يحتلونها ولا يغيرون عليها فينهبونها ؟ وكيف ينظر قائدهم العام محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه وهم قواد العدو ، ويكلمهم ويحادثهم ولا يقتلهم ولا يأسرهم ، وهو ظافر بهم ظاهر عليهم ؟ وكيف يعد جيش المسلمين منهزماً ، وقواده ثابتون ، وضباطه مستقرون فى أماكنهم ، وقلبه باق ورايته مرفوعة ؟

أما إن الحق أن جيش المسلمين ، قد اضطرب بعد أن غادر الرماة أماكنهم ، وأغار عليه خالد ـ قائد فرسان المشركين ، وانهزمت بعض فرقه ، مذعورة خائرة ـ ولكنّ القادة ، وفرق القلب بقيت ثابتة فى أماكنها . تمنع العدو من الوصول إلى

المدينة حتى يئس فارتد على أعقابه من حيث جاء . ونجح الجيش الاسلامى فى خطته الدفاعية نجاحا باهرا . ذلك أن الجيش الاسلامى كان مدافعا ، وأكبر نصر يناله الجيش المدافع ، هو أن يردّ العدو وينقذ الوطن . وهذا ما قام به الجيش الاسلامى على أتمّه ولكنه خسر كثيرا من الضحايا ...

فمعركة أحد إذن نصر للاسلام ، وعمر من أعلام هذه المعركة وأبطالها

— ٨ —

واقرأ (السيرة) كلها ، فهى سيرة عمر - وإذا لم يظهر اسمه فى كل موطن — ولم يبد ذكره فى كل موقع — فلأن النبى صلى الله عليه وسلم شمس تسطع فى سمائها - فتكسف النجوم مهما كانت وضاءة متلألئة

على أن عمر رضى الله عنه لقوّة شخصيته ومضاء عزيمته لا يكاد يخفى ، فقد كان يمثل الجانب القوى المغامر الطماح ، من الجبهة الاسلامية ، لا يرضى بالهوادة ، ولا يعرف اللين ، ولا تأخذه فى الله شفقة ولا ملامة

كان يأبى أن توقع معاهدة الحديبية ، ويلح على النبى صلى الله عليه وسلم أن يعمد إلى الحرب : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؛ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ابنَ الخطاب ! إنى رسول الله ، ولن يضيعنى الله أبدا

فيشتد عليه الأمر . ويضيق به صبره ، فيذهب إلى أبى بكر وقد عجز الصحابة كلهم عن احتمال المحنة - إلا أبا بكر . فيقول له: يا ابن الخطاب . انه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . . .

فلا يقنع عمر ولا يرضى ، ولكنه يسمع مكرهاً ويطيع ، حتى اذا مرت الأيام ، ووضحت حكمة النبوة ، وكان الفتح ، أدرك عمر سمو رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، فما زال يتصدق ويصوم ويصلى ويعتق ، مخافة كلامه يومئذ ، حتى رجا أن يكون خيراً . على أن عمر لم يعارض النبى صلى الله عليه وسلم ولم يعصه ولكنه رأى رآه واجتهاد اجتهده : فكان يأمل موافقة ربه سبحانه وتعالى ، كما سبق له أمثالها ، وقد كانت طاعته للنبى صلى الله عليه وسلم معروفة ، وكان يؤثر رضاه على رضاه ، ولقد أقسم عمر — باراً — أن إسلام العباس يوم أسلم كان أحب اليه من إسلام أبيه الخطاب لو أسلم ، لأن إسلام العباس أحب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم أحب اليه من أهله وولده ، ومن نفسه التى بين جنبيه

— ٩ —

أنجز الله وعده . فظهر الاسلام وغلب وعم الجزيرة ودان له العرب كلهم ، واجتمعوا فى عرفات ، فى المؤتمر الأعظم فأنزل الله آخر آية من القرآن ، آخر مادة من الدستور الخالد « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » فاحتفلوا بكمال الدين ، وتمام النعمة ، وقام النبى صلى الله عليه وسلم خطيباً مودعا ، وأعلن (حقوق الانسان كاملة : الحرية والعدالة والمساواة .

وعاد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فلم يلبث أن مرض

***

جزع الصحابة ، وشغلهم مرضه عن أولادهم وأنفسهم فكانوا لا يهنأون بمنام ولا يسيغون طعاماً ، ولا يقبلون على عمل ، ولا يرون وجه الدنيا قلقاً عليه صلى الله عليه وسلم وكانوا يودون لو يفتدى بكل مافى الأرض من شيء ليفتدوه وكانوا يسألون عنه فى كل ساعة ولحظة ، ويعلمون علمه . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم طارت العقول ، وخفت الأحلام ، وزلزل الناس زلزالا شديداً ، وأصابتهم حيرة وعراهم ذهول ، فلم يدروا ما يصنعون ، وكانت ساعة من يوم الحشر ولا عجب فقد كانوا أمواتاً قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الرسول مطلع حياتهم ، وأول دنياهم ، فلم لاتكون وفاته خاتمة الحياة ، وآخر الدنيا ، وأن يكون يوم قبضه كيوم القيامة

وجزع عمر وهزت الرزية نفسه ، وغلبه حبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع أن يتصور أنه قد مات ، و[illegible] يقدر أن يتخيل الحياة بدونه ، فهو أساسها ومصدرها ، وهو شمسها المنيرة ، وهل حياة من غير شمس ؟ وهو روح ه[illegible]

الكون ، وهل يعيش جسم بلا روح ؟ ولم يطق أن يسمع أنه قد مات ، فوثب مخترطا سيفه ، تنطقه عاطفته ، وحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يمنع الناس أن يقولوا : مات رسول الله انه لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابن عمران وقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات !

وكان أبو بكر رضى الله عنه غائباً فى منزله فى السنح ، وكان أبو بكر العقل الثابت الذى لا تقلقله الحادثات ولا تحركه النوائب ، وكان عمر يومئذ القلب الحساس الذى يفيض بالعاطفة وينبثق بالشعور ، فلما قدم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله ثم خرج وعمر يتكلم ، فاستنصته فلم ينصت ، ومضى يتكلم ، لا مخالفة لأبى بكر ، ولكن الحس الذى طغى على نفسه ، والحب الذى غمرها لم يدع فيها سبيلا لغيره . . حتى إذا تكلم أبو بكر فقال كلمته العظيمة :

أيها الناس : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، وتلا قول الله عز وجل :

(ومَا محمد إلاّ رَسول قَدْ خَلَتْ مِنْ قبلِه الرسلُ ، أفَإنْ ماتَ أوْ قتلَ انقلَبْتمْ علَى أعقابِكمْ ، ومَنْ ينقَلبْ علَى عقِبَيْهِ فلَنْ يَضرَّ اللهَ شيْئاً وَسَيَجزى اللهُ الشاكِرِينَ) وسمعها عمر ، أفاق كمن استيقظ من حلم ، فرأى أنه كان مخطئا ، وتحقق الرزية وأدرك أنه لن يرى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخارت قواه ولم تحمله رجلاه ، فسقط على الأرض

دمشق : **على الطنطاوى**



المرحوم اسماعيل صبرى باشا



المرحوم محمود سامى البارودى باشا



المرحوم حفنى ناصف بك



المرحوم احمد شوقى بك



المرحوم حافظ ابراهيم بك

٤ ـ دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

... ولعل أهم ما وصلنا من أساليب الجاحظ فى السخر والتهكم، تلك الرسالة التى وضعها فى التنادر على صاحبه احمد بن عبد الوهاب الكاتب، وهى الرسالة المعروفة برسالة التربيع والتدوير وقد تعرف أيضا برسالة الطول والعرض، والتوسع والتدوير، ورسالة المفاكهات(١)، ولكنها ذاعت ونشرت بين النـاس وطبعت فى مصر ولندن بهـذا الاسم الأول ، قال الجاحظ : « وقد كان احمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن معتدل القامة تام العظم؛ وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد ، رفيع العماد، عادى القامة عظيم الهامه، قد أعطى البسطة فى الجسم والسعة فى العلم؛ وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد ؛ وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفه للابانة عنها على قدر غباوته فيها؛ وكان كثير الاعتراض لهجاً بالمراء شديد الخلاف كلفاً بالمجاذبة متتابعاً فى العنود مؤثراً للمغالبة مع اضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة، والخطرفة عند قصر الزاد، والعجز عند التوقف، والمحاكة مع الجهل بثمرة المراء، ومغبة فساد القلوب... وكان قليل السماع غمراً ، وصحفيا غفلا ، لا ينطق عن فكر، ويثق بأول خاطر ، لا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس فى يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الأدب... »

فالرجل ـ على ما يصف الجاحظ ـ كان دعياً يبالغ فى قدره، ويشتط على نفسه ، فيجرى فى حلبة العتاق وهو كودن ، ويطاول السماء وأسبابه لاصقة بالأرض ، فكأنه الهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد، فهو يزور على الناس مخبره، ويدلس فى حقيقته، ويزعم لنفسه دعوى عريضة لا يد له فيها ولا رجل .. والظاهر أنه بالغ فى دعواه وأمعن. وأصر عليها وتهور، قال الجاحظ . « فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، رأيت أن أكشف قناعه، وأبدى صفحته للحاضر والباد، وسكان كل ثغر وكل مصر، بان أسأله عن مائة مسالة أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان فى مكة ليكفوا عنا من غربه، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به... » ولقد استطاع الجاحظ أن يبدى صفحة الرجل حقا، وأن يهزأ به ويبلغ منه ، فأخذه بأسلوب لاذع ، وغمره بفيض من السخر والتهكم والتعريض، وتندر عليه فى منظره ومخبره، وعلمه ومعرفته، وغروره وادعائه، وكذبه وتدليسه، وكل مازعمه لنفسه. وقد استهل الجاحظ القول فى براعة فائقة فقال يغمزه وكأنه يدعو له : « أطال الله بقاءك، وأتم نعمته عليك، وكرامته لك ! قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شىء حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة، وعلى حور العين، وجودة القد، وعلى طيب الأحدوثة ، والصنيعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هى خصائصك التى بها تكلف، ومعانيك التى بها تلهج... ثم أخذ الجاحظ يناقشه فى طوله وقصره، وعرضه واتساعه، وتربيعه وتدويره، وقده وخرطه... ثم أورد عليه شيئاً من آراء الناس عنه واختلافهم فيه، وحسدهم له !! ثم ابتدأ فقال : فأنت المديد وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب. فياشعراً جمع الأعاريض، وياشخصاً جمع الاستدارة والطول، مايهمك من أقاويلهم. ويتعاظمك من اختلافهم ؟. وهل فى تمامك ريب حتى يعالج بالحجة ؟ وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة ؟ وهل لك خصم فى العلم، أو ند فى الفهم، أو مجار فى الحكم، أو ضد فى العزم ؟ وهل يتبلغك الحسد أو يضرك الغبن، وتسمو إليك المنى، أو يطمع فيك طامع، أو يتعاطى شأوك باغ ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك، أو يأنف شريف أن يقصر دونك، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك ؟ وهل غاية الجميل إلا وصفك ؟ وهل زين البليغ إلا مدحك ؟ وهل يأمل الشريف الا اصطناعك ؟ وهل يقدر الملهوف إلا غناءك ؟ وهل للغوانى مثل غيرك ، وهل للماتح رجز إلا فيك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ وهل على ظهرها جميل حسيب، أو عالم أديب، إلا وظلك أكبر من شخصه ؟! وظنك أكثر من علمه، واسمك أفضل من معناه، وحلمك أثبت من نجواه، وصمتك أفضل من نحواه ؟ وهل فى الأرض حليم سواك ؟ وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ؟ وهل حملت النساء أجمل منك ؟ فمن يطمع فى عيبك بل من يطمع فى قدرك ؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلا وهى تعثر باسمك ، ولا قينة إلا وهى تغنى بمدحك، ولا فتاة إلا وهى تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهى تنقب الخروق لممرك، ولا عجوز إلا وهى تدعو لك ولا غيور إلا وقد شقى بك ! وكم من فتاة معذبة قد أفرج قلبها الحزن، وأجهد عينها الكمد،... فأصبحت والهة مبهوتة، وهائمة

---

(١) جمع الجواهر للحصري ٢١٢ .

مجهودة ، بعد ظرف ناصع ، وسن ضاحك ، وغنج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج ! ! وليس حسنك أبقاك الله بالذى تبقى معه توبة أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم ، أو يمهل صاحبه التثبت ، أو يتسع للتخير ، أو ينهنه زجر أو يهذبه خوف ! ! ولكنه شيء ينقض العادة ، ويفسخ المنة ، ويعجل عن الروية وننسى معه العواقب ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر بن حجاج (١) ».

ثم أمعن الجاحظ فى التنادر على الرجل ، وراح يتفنن فى السخر من حسنه وجماله وخلقه وتركيبه ، وبعد أن اقتحمه بنظرة إجمالية على نحو ما قدمنا لك أخذ ينظر إليه فى كل عضو من أعضائه فقال : « وما ندرى فى أى الحالتين أنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أو إذا تأملنا بعضك. فأما كفك فهى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ! وما ندرى آلكأس فى يدك أحسن أم القلم ، أم الرمح الذى تحمله أم المخصرة ، أم العنان الذى تمسكه ، أو السوط الذى تعلقه ؟ ! وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن وأيها أجمل وأشكل ؟ آللمة أم خط اللحية ، أم الأكاليل ، أم العصابة ، أم التاج ، أم العمامة ، أم القناع أم القلنسوة ؟ ! وأما قدمك فهى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طرف كريم ؛ وأما فوك فهو الذى لا ندرى أى الذى تتفوه به أحسن ، وأى الذى يبدو منه أجمل ؟ آلحديث أم الشعر ، أم الاجتماع أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف ؛ وعلى أننا ما ندرى أى ألسنتك أبلغ ، وأى بيانك أشفى ؟ أقلمك أم خطك ، أم لفظك أم إشارتك أم عقدك ؟ وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد ... وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضواً ، ومعوجاً شختا ، وأنت أبداً قمر بدر نجم غمر ، ثم هو مع ذلك يحترق فى السرار ويتشاءم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعا كما يكون ضرا ، ويقرض الكتان ويشحب الألوان ، ويخم فيه اللحم ، وأنت أبداً دائم اليمن ظاهر السعادة ، ثابت الكمال شائع النفع ، تكسو من أعراه وتكن من أشحبه ... » .

وانطلق الجاحظ بعد ذلك يندد بالرجل فيما يدعيه لنفسه من طراوة الشباب ونضارة الأهاب على أنه كبير السن قد شابت شواته وتخدد أديمه ، وسلخ من العمر غايته . وتجد الجاحظ ظريفاً طريفاً إذ يقول : « جعلت فداك ما لقى منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الخز ؟ ! كانا ينبهان بطول العمر ويبهجان ببقاء الحسن ، وبأن الدهر يحدث لهما الجدة إذا أحدث لجميع الأشياء الخلوقة ، فلما أربى حسنك على حسنهما ، وغمر طول عمرك أعمارهما ، ذلا بعد العز ، وهانا بعد الكرامة .. فيا عقيد الفلك كيف أمسيت ؟ ويافوه الهيولى كيف أصبحت ؟ ويا نسر لقمان كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ، ويا أسن من لبد ، ويا صنى المستقر ، ويا صاحب المسند . حدثنى كيف رأيت الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومنذ كم مات عوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وكم لبثتم فى السفينة ؟ وما حبس غراب نوح ؟ هيهات ! أين عاد وثمود ؟ وأين طسم وجديس ؟ وأين أمم ووبار ؟ وأين جرهم وجاسم ؟ أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شيء ينطق ! ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف ، وأى هذه الأودية أقدم : أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة ، أم جيحان أم سيحان أم مهران ؟ ... أبقاك الله ! وليس دعائى لك بطول البقاء طلباً للزيادة ، ولكن على جهة التعبد والاستكانة ، فإذا سمعتنى أقول : أطال الله بقاءك فهذا المعنى أريد ، وإذا رأيتنى أقول لا أخلى الله مكانك فالى هذا المعنى أذهب . وفيك أمران غريبان ، وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور الزيادة والنقصان إياك ، جوهرك فلكى وتركيبك أرضى ، ففيك طول البقاء ، ومع دليل الفناء ، فأنت علة للتضاد ، وسبب للتنافى ! فاياك أن تظن أنك قديم فتكفر ، وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك ، فان للشيطان فى مثلك أطماعا لا يصيبها فى سواك ، ويجد فيك عللا لا يجدها فى غيرك ، ولست - جعلت فداك - كابليس وقد تقدم الخبر فى بقائه إلى انقضاء أمر العالم وفنائه ، ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك ، وأنت أحق من عذر ، وأولى من ستر ، ولو ظهر لى لما سألته كسؤالى اياك وإن كان فى التجاذب مثلك فهو فى النصيحة على خلافك ، ولأنك إن منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم ، وهو إن منع منع بالغش والارصاد ، وأنت على أية حال شكل ، ونحن نرجع إلى أصل ونلتقى إلى أب ويجمع بيننا دين » .

ويزداد الجاحظ ظرفاً وملاحة ، ويشتد تهكما وسخرية إذ يدخل

(١) لنصر بن حجاج هذا حكاية فى كتب التاريخ ، فقد زعموا أن عمر سمع فى هدأة الليل امرأة تغنى :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ام هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فغضب وطلب نصر بن حجاج فاذا هو فتى وسيم الوجه اجمل مافيه شعره فأمر ان يحلق لتتقي فتنته فكان افتن الناس وهو حليق فأمر بنفيه من المدينة

على صاحبه من ناحية علمه، أو قل من ناحية جهله ! فقد أورد عليه كثيراً من الخرافات والمحالات وتلقف له جملة مما هو شائع عند العامة من الأكاذيب والأخبار، وجعل هذا كله من باب المسائل ورؤوس المعضلات ، فأخذ يعابيه بها ويسأله عنها : فسأله عن الشقناق والشهصبان، ومن قيرى ومن عيرى ومن جلندى ، ومن أولاد الناس من السعالى، ومتى تخزعت خزاعة، ومتى طوت المناهل طى ، وما القول فى هاروت وماروت، وما عداوة ما بين الديك والغراب، وما صداقة ما بين الجن والأرضة، وما علة خلق الخنزير ؟ وكيف اجتمع فى الذبابة سم وشفاء، وكيف لم تقتل الأفعى سمها، وكيف لم تحرق الشمس ما عند قرصها، ومذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية ، وبعد كم بطن أسود الزنجى وابيض الصقلبى ، وما عنقاء مغرب ، وما أبوها وما أمها ؟ وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ؟ ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى . إلى آخر ما تلقفه الجاحظ من الطرائف وبلغ به مائة مسألة كلها من هذا الطراز وعلى هذا النمط ، ولعل من المعلوم أنه لم يكن يطمع فى الاجابة من صاحبه بل إنه ليقول له : «وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً ؛ فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال، وما فيها صحيح وما فيها فاسد، فألزم نفسك قراءة كتبى ولزوم بابى وابتد بنفى التشبيه والقول بالنداء، واستبدل بالرفض الاعتزال، وأن أتنكر منعك بعد التمكين والبذل وبعد التقريع والشحذ فلا يبعد الله إلا من ظلم !»

ولا شك أن الجاحظ قد ابتدع رسالته هذه ابتداعاً ، وأتى بها على غير مثال سابق فى الأدب العربى، ولا شك أنها قد جاءت قوية رائعة تعلن عن فن الرجل فى بابها ، واقتداره على أمثالها . ولقد كان الجاحظ على اعتزاز بها غاية الاعتزاز ، فأشار إليها بالإكبار، وأحال عليها بالأقدار (١)، واقتبس منها فى بعض ما كتب . وقد تأثر بها بعض الكتاب فحاول الخوارزمى أن يحذو حذوها فقلدها فى رسالة كتبها إلى أحد أصحابه الشعراء يعرف بالبديهى فبلغ أربا، ولكن دون ما بلغ الجاحظ بكثير . ثم جاء البديع الهمذانى فانتهج الطريق فى بعض مقاماته إذ كان يهاجى بعض أصحابه ولكن يظهر أنه نظر إلى الخوارزمى أكثر مما نظر إلى أبى عثمان فسلبه كثيراً من تعبيراته، وخرج من التعريض إلى الشتم، ونزع عن التهكم إلى السب، وبدل التلميح بالتصريح، والمرح بالتجهم ، وهذا كله غير ذلك كله ، فتعرف الصنفين، وافرق بين الطريقين . . . ؟

« للكلام صلة »

محمد فهمى عبد اللطيف

---

(١) الحيوان ج١ ص ١٥٠ ط الساسى

شقية

للسيد عمر أبو ريشة

حثت خطاى الحمر عن هيكل القدس
وفى حمأة الأرجاس كفرت عن رجسى
وما استعذبت نفسى الشقاء وإنما
وجدت عزاء النفس أقتل للنفس
دعونى أعب السم من أكؤس الملا
وأفضى على تلك البقية من حسى
كفانى نفضت الكف من يانع المنى
وبعت صباى الغض بالثمن البخس ! !
وما من ضحايا النار ، حسناء كاعب
عليها جلال الحسن فى العرى واللبس
تمشت ونفحات المجامر حولها
ومن خلفها الكهان خافتة الجرس
ولما ذكت فى المذبح النار تمتمت
مصلية والضرس يقرع بالضرس
وزجت بها عريانة فتفجرت
جراح وقطرات الدما صبغة النفس
وفى كل جرح فوهة من جهنم
تولول كالريح المؤججة البأس
بأهلك منى عند فض مآزرى
على مذبح الشهوات للصبح الممسى ! !
يؤرقنى الماضى فأنشر طرسه
وألسنة الآلام تقرأ فى الطرس
وأهجس والأشباح تعتام ناظرى
فيرتد إشفاقاً فأقصر من هجسى
وأزجر دمعى أن يثور وزفرتى
فلا دمعتى تسلى ، ولا زفرتى تنسى
تغرُّ ابتساماتى عيون أخى الهوى
وخلف ابتساماتى جراح من البؤس
طلعت على الأيام والطهر حارسى
يحيك على عطفىَّ جلبابه القدسى

تشيعني الأبصار أين توجهت
خطاى فأمشى مشية الرجل النكس
وضج بأعطافى الغرور فلم ألِنْ
لصرخةٍ ولهان تمخضُ باليأس
كنرجسة فى الحقل تلثم ساقَها
ثغور من الأزهار طيبة الغرس
ولكنها ... والكبرياء تهزها
أبت أن ترى فى غيرها رفعة الجنس
حنت رأسها كيما تقبل ظلها
غرورا فاتت وهى محنيّة الرأس !!
ولما رأيت الفقر أزبد فكه
وكشّر عن أنياب منهرت طلَس
صحوت فلم أبصر حوالىّ راحما
يخفف من بؤسى ويطرد من تعسى
ألقتنى الأقدار فى كف أرعن
كما قبضت كف البخيل على الفلس
بثُّ لى النجوى فيطربنى بها
فأبنى من الآمال أساً على أس
سكنت كشاة ألفت العيش زاهرا
تروح على أنس وتغدو على أنس
هش لهــا الراعى فترقص حوله
فيلقمها الأعشاب بالأنمل الخس
سمنهــا ... للذبح وهى تظنه
رحيما يقيها صكة الناب والضرس
ولّت أمانىّ العذابُ تلاشـيـاً
كما يتلاشى الثلج من قُبلة الشمس
ضاقت بى الدنيا فهمتُ طريدة
أفتش عن سعدى فيلطمنى نحسى !
ما لاح لى إلا دم متلاطم
فنى لجه أغــدو وفى لجه أمسى
رى عنده للانتقام من الورى
مناهل تندى ما أجرّع من بؤس
رب فتى ما دنّس الخزى قلبه
نصبت له سهم الإساءة فى القوس
تمطيت لاستغوائه فتثاءبت بعينى أفواه الدعارة والرجس!
وما خفّ للذّات حتى تركته يصارع داءً قد تحفّز للغرس
إذا أن هزّت رعشة الأنس أضلعى وأفرحنى إن لاح فى صفرة الورس
فصرت إذا ما اشتدّ دائى تركته
ليعدى وإن أبصرت من خلفه رمسى !
كما النحلة الغضبى لدى وخز خصمها
تموت ... ولكن وهى مرتاحة النفس!!

(حلب) عمر أبو ريشة

أترانا فراشتين؟

للأستاذ خليل هنداوى

أتراها فراشةٌ سبحت فى مائج الكون، والخيالُ الجناح؟
دأبها أن تهيم فوق الروابى يلتقيها منها الشذا الفواح
عيشها بسمة تشع، وفيض من سنا اللهو ساطع وضّاح
الصباحُ الندىُّ يحنو عليها كل ما حولها ندى وأقاح!
ليلها دفقة من النور تمشى والليالى - مع الغرام - صباح

* * *

وترانى فراشةً حثها الشو ق وهمت فلم يطعها جناح
فترامت..! ولا تسل إذ ترامت! كان أدرى بحالها المصباح

خليل هنداوى

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٣ —

لم يقف ابن سينا عندما تقدم فى إثبات وجود النفس ومغايرتها للبدن، بل افترض فرضاً آخر هو من أبدع حججه وأكثرها ذيوعاً، ونعنى به فرض الرجل المعلق فى الفضاء. فلو تصورنا أن شخصاً ولد مكتمل القوى العقلية والجسمية، ثم غطى وجهه بحيث لا يرى شيئاً مما حوله، وعلق فى الهواء أو بالأولى فى الخلاء كى لا يحس بأى احتكاك أو اصطدام أو مقاومة، ووضعت أعضاؤه وضعاً يحول دون تماسها أو تلاقيها، فانه لا يشك بالرغم من كل هذا فى أنه موجود وأنه كان يعز عليه إثبات وجود أى جزء من أجزاء جسمه. بل قد لا تكون لديه فكرة ما عن الجسم والوجود الذى تصوره مجردا عن المكان والطول والعرض والعمق، وإذا فرض أنه تخيل فى هذه اللحظة يداً أو رجلا فلا يظنها يده ولا رجله، وعلى هذا إثباته أنه موجود لم ينتج قط عن الحواس ولا عن طريق الجسم بأسره: ولا بد له من مصدر آخر مغاير للجسم تمام المغايرة وهو النفس[1]. يقول ابن سينا: «يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا، ولكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات، وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما ما يحوج إلى أن يحس، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك فى إثباته لذاته موجوداً، ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولا شيئا من الأشياء من خارج، بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضا ولا عمقا. ولو أنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطا فى ذاته؛ وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت، والمقر به غير الذى لم يقر به. فإذن للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم يثبت[1]». وواضح أن هذه البرهنة قائمة على أن الأدراكات المتميزة تستلزم حقائق متميزة تصدر عنها، وأن الانسان قد يستطيع أن يتجرد من كل شىء اللهم إلا نفسه التى هى عماد شخصيته وأساس ذاته وماهيته. وإذا كانت الحقائق الكونية كلها تصل إلينا بالواسطة فهناك حقيقة واحدة ندركها إدراكا مباشراً ولا نستطيع أن نشك فيها لحظة، لأن عملها يشهد دائما بوجودها. وما أصدق سقراط حين قال: اعرف نفسك بنفسك. ولئن كنا نستدل على وجود جسم ما بالحيز الذى يشغله فالتفكير الذى هو خاصة النفس الملازمة لها دليل قاطع على وجودها

وقد سبق إلى هذا المعنى أغسطين فيلسوف المسيحية فى القرن الخامس الميلادى وسلك فى البرهنة على وجود النفس سبيلا تشبه من بعض الوجوه السبيل الآنفة الذكر، فذهب إلى أن الجسم والنفس حقيقتان متميزتان تمام التميز، ففى حين أن الأول يشغل حيزاً وله طول وعرض وعمق لا حيز للثانية مطلقا، وخاصيتها الوحيدة هى التفكير؛ ومن أجل هذا كان شعورنا بها وإدراكنا لها ادراكا مباشراً، فان الفكر لا يحتاج إلى واسطة فى فهم ذاته. وما دامت النفس تفكر فهى موجودة، لأن تفكيرها يساوى وجودها تمام المساواة. وقد يستطيع الانسان أن يتجرد عن جسمه وعن العالم الخارجى فى كل مظاهره، وأن ينكر الحقائق على اختلافها وأن يشك فى كل شىء إلا نفسه التى هى مصدر شكه ومبعث تفكيره فإنه لا يجد إلى الشك فيها سبيلا[2]

وهنا نتساءل: هل تأثر ابن سينا بأغسطين أم الأمر مجرد توافق خواطر؟ لم يثبت مطلقا أن مؤلفات الأخير نقلت إلى العربية: ولا نجد أية وسيلة سمحت لابن سينا بالأخذ عنه، ويرجح الأستاذ جلسن أنهما معا صدرا عن أصل اسكندرى ولا سيما وهما شديدا

(١) ابن سينا، (الاشارات)، ١١٩ ـ ١٢٠ (الشفاء)، ج ١، ص ٣٦٣

(١) ابن سينا، (المصدر السابق)، ج ١، ص ٢٨١.

(2) St Augustin, (De trinitate), X, cap. X, art. 13-16.- Gilson, (Introduction à l'étude de St Augustin), 56-59.

التعلق بأفلوطين وتعاليمه[١] ، بيد أنا لم نقف على شيء مما وصل إلينا يشهد بأن رجال مدرسة الاسكندرية حاولوا البرهنة على وجود النفس على النحو السابق. ولسنا ندرى ما المانع أن يكون برهان الرجل المعلق فى الفضاء من ابتكار ابن سينا واختراعه ، خصوصا وهو قد عودنا صوراً فرضية أخرى كثيرة كحديث حى بن يقظان ورسالة الطير التى تدل على خيال خصب ومهارة فى التصوير . وعلى فرض أنه عالة على من قبله فى بعض عناصر برهانه ، فليس هناك شك فى أن الصورة الجذابة التى صوره بها من بنات فكره واتجاهه الشخصى ، ويخيل إلينا أنه كان مغتبطا بفنه معجبا بتصويره ، ولا أدل على هذا من أنه أبرزه مرتين فى كتاب الشفاء وعاد إليه مرة ثالثة فى اشاراته [٢]

وهذا التصوير هو الذى ميز برهنته من برهنة أغسطين وان كانتا تلتقيان فى الغاية والمرمى . وهو الذى استلفت أنظار فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين واستولى على نفوسهم ، فأعاده الكثيرون منهم بنصه أحياناً ، وخاصة أتباع أغسطين مثل غليوم الأقرنى وحنا الروشينى ، وكأن هؤلاء قد ازدادوا تعلقاً بالفيلسوف العربى حين رأوه يقترب من أستاذهم اللاتينى [٣] .

ولا نظننا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن كتاب الشفاء ترجم إلى اللاتينية . وكان للجزء المتعلق بالنفس منه أكبر الأثر فى رجال الفلسفة المسيحية ، ولم يكد دومينقوس جندسالينوس يترجمه فى القرن الثانى عشر الميلادى حتى أقبلوا عليه يتدارسونه ويأخذون عنه مختلف الآراء ، ولا يرون على أنفسهم غضاضة فى أن يعزوا البرهان الذى نتحدث عنه إلى صاحبه ومبتكره ابن سينا

ويظهر أنهم استمروا يرددونه فيما بينهم إلى عصر النهضة وإلى أن جاء ديكارت فنادى بمبدئه المشهور Le Cogito الذى ينطوى على أفكار أغسطين وسينويه ، ففى بحثه عن الحقيقة عاهد نفسه على أن يرفض كل ما يتطرق له الشك ، لأن حواسنا فى حال اليقظة تخدعنا وتنقل الينا العالم الخارجى نقلا مشوها ، وتخيلتنا أثناء النوم تغدق علينا صوراً وأوهاماً لا أساس لها . وأخذ يشك فى كل شىء إلى أن انتهى به شكه إلى حقيقة ثابتة هى أنه يفكر ؛ ومادام يفكر فهو موجود . وفى مقدور الشكاك واللاأدريين أن يهدموا الحقائق على اختلافها إلا هذه الحقيقة التى تحمل معها برهانها [١] .

يقول ديكارت : « قد أستطيع أن أفترض أن لا جسم لى وأن لا عالم ولا مكان أحل فيه ، ولكنى لا أستطيع لهذا أن أفترض أنى غير موجود ، بل على العكس ينتج قطعاً وفى وضوح من شكى فى حقيقة الأشياء أنى موجود . . . فقد عرفت إذن أنى جوهر ذاته وطبيعته التفكير ، ولا يحتاج فى وجوده إلى مكان ولا يخضع لشىء مادى ، وعلى هذه الصورة الأنا أو النفس التى هى أساس ما أنا عليه متميزة تمام التميز من الجسم ، بل هى أيسر معرفة منه ، حتى فى حال انعدامه لا تنقطع هى عن أن توجد مع كل خصائصها » [٢] .

هذا هو الكوجيتو [٣] الديكارتى القائل : « أنا أفكر فأنا إذن موجود » . وهذه هى البرهنة عليه . ولا يجد القارىء صعوبة فى إدراك وجوه الشبه بين هذه البرهنة والبرهنتين السابقتين الأغسطينية والسينوية ، وقديماً لاحظ أرنولد أن ديكارت يحاكى أغسطين تمام المحاكاة فى إثباته وجود النفس وتميزها من البدن[٤] ولم يبق مجال للشك فى أن أبا الفلسفة الحديثة قرأ مؤلفات أغسطين وخاصة ما اتصل منها بالنفس وخلودها [٥] وحديثاً استطاع المسيو ليون بلنشيه أن يبين فى سعة وتفصيل جديرين بالأطراء الأفكار التى سبقت الكوجيتو الديكارتى ومهدت له [٦] ، غير أنه فاته أن يشير إلى الصلة بينه وبين برهان الرجل المعلق فى الفضاء . وقد حاول أخيراً المستشرق الايطالى فورلانى أن يتلافى هذا النقص ، فكتب فى مجلة Islamica فصلا عنوانه

---

(1) Gilson, (Archives), r. IV, P. 41 en bas.

(٢) ابن سينا ، (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، ٣٦٣ = (الاشارات) ، ١١٩ ـ ١٢٠ .

(3) Gilson (Archives), r, 53, IV, 41-42 en bas.

---

(1) Descartes, (Discours), 31-33 (èd. Tannery)

(2) (Thid.;) ef. (Meditatio 11).

(٣) فضلنا تعريب هذه الكلمة اللاتينية الأصل لما لها من منزلة تاريخية .

(4) Hamelin, (Le systéme de Descartes), P. 122.

(5) Bréhier, (Histoire de la plùlos.), 11,73.

(6) L. Biancher, (Les antécédents historique du je perse donc je suis), Taris, 1920.

«ابن سينا والكوجيتو الديكارتى» (١) . وفيه يعرض برهان الفيلسوف العربى وترجمته اللاتينية القديمة، ثم يقارنه بما جاء به ديكارت موجها عنايته الكبيرة إلى بيان أثر الحواس والمخيلة لديهما، وينتهى بعد كل هذا إلى النتيجة الآتية: وهى أنه يستبعد أن يكون ديكارت قرأ ابن سينا رأسا لقلة المطبوعات وعدم تداول مؤلفاته فى الأيدى، ويرجح أن يكون قرأه عن طريق غليوم الأقرنى (٢)

ولكننا نلاحظ أن ترجمة كتاب الشفاء اللاتينية، أعيد طبعها فى فينيس ثلاث مرات بين سنة ١٤٩٦ و سنة ١٥٤٦، فتكون آخر طبعة منها ظهرت قبل ميلاد ديكارت بخمسين سنة فقط. ونحن نعلم كيف أثيرت مشكلة النفس وخلودها لعهده، فمن المحتمل أن يكون الباحثون قد لجأوا الى كل المصادر الممكنة لحلها. وابن سينا من أطول الناس حديثا فيها وأكثرهم غراما بها. وقد أبان رينان من قبل مقدار تعلق السربونيين ورجال الدين فى باريس بالفلسفة الاسلامية بوجه عام ومناقشتهم لها وردهم عليها وبحثهم عن أصولها ومصادرها، فلا يمكن أن تكون قد فاتتهم مطبوعات فينيس المتقدمة (٣) وفى مكتبة باريس الأهلية أكثر من نسخة من هذه المطبوعات، ويغلب على الظن أنها وصلت السربون منذ ذلك التاريخ (٤) : وإذا كان أرنولد قد أشار إلى أغسطين فقط ليبين أن ديكارت عالة على من قبله. فلعل ذلك راجع إلى أنه تخير شخصية معروفة من العالم المسيحى المحيط به

على أن ديكارت لم يتنبه إلى ابن سينا بواسطة غليوم الأقرنى فقط، بل يغلب على ظننا أنه اهتدى اليه أيضاً فى ثنايا مؤلفات روجير بيكون التى قرأها وتأثر بها فى نواح مختلفة، ومهما يكن فسواء أقرأ ديكارت ابن سينا مباشرة أم عن طريق غير مباشر فكل الدلائل قائمة على أن برهان الرجل المعلق فى الفضاء جدير بأن يعد بين الأفكار التى سبقت الكوجيتو الديكارتى ومهدت

(1) G. Furlani, (Aiucenna e il Cogito).
(2) (Thid.), P. 70.
(3) Renan, (Averroès), 267-78.
(4) Catalogue de la Bibliothèque nationale, Réserve, R. 82 (1), 82 (2), 83, 618.

له (١) . وإذا كان ديكارت مديناً لأغسطين بشيء فى صوغه وتصويره فهو مدين بدرجة لا تقل عن هذا لابن سينا كذلك، خصوصاً وإلى الأخير يرجع الفضل فى بعث أفكار أغسطين من مرقدها وتوجيه اللاتينيين من جديد نحوها توجيهاً نشيطاً فى الأربعة قرون السابقة لديكارت. وهو مع زميله ابن رشد قد أثارا فى العالم الغربى منذ القرن الثانى عشر مشكلة العقل والنفس ونظرية المعرفة بوجه عام اثارة امتد صداها إلى عصر النهضة.

وغنى عن البيان أنه لا يعيب الكوجيتو مطلقاً أن يكون بعض الباحثين قد اهتدى إليه من قبل عن طريق آخر، فان اتفاق الآراء على أمر من الأمور يزيده قوة فوق قوته ويقيناً إلى يقينه. وليس ثمت داع لأن نجهد أنفسنا، كما صنع هملان وغيره فى أن نثبت بأى ثمن أن ديكارت مبدعه الأول، فان هذه محاولة فاشلة ولا تتفق مع روح البحث العلمى الحديث (٢) . ولا يعيب ديكارت نفسه أن يكون قد سبق اليه فى صورة غير الصورة التى أظهره فيها، وثوب غير الثوب الذى ألبسه إياه، فان الفكرة الواحدة تتشكل بأشكال مختلفة تبعاً للمذاهب الفلسفية التى تبدو فيها

يتبع

ابراهيم مدكور

(١) يوافقنا الأستاذ جلسن كذلك على هذا الرأى
(Archives, I, 63 en bas).
(2) Hamelin, (Le systéme de Descartes, 122. 23

١٥ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

ومن المحتمل أن يكون فجر العصر الذهبى للشعر العربى هو هـذه السنوات العشر الأولى من القرن السادس بعـد الميلاد . فحوالى هذا الوقت كان قد اشتدّ ضرام حرب البسوس التى سجّلت سنيها عاما فعاماً أشعارُ معاصريها إبّان ذلك الوقت ، كما أن أول قصيدة عربيـة أنشئت ـ كما تذكر أخبارهم ـ قصيدة نسج بردتها المهلهل بن ربيعة التغلبى فى رثاء أخيـه كليب الذى كان مصرعه سببا فى إشعال نار الوغى واشتجار رماح قبيلتى بكر وتغلب . وعلى كل حال ففى خلال القرن التالى لهذه الحادثة نجد كثيرا من المنشدين فى جميع أصقاع شبه الجزيرة العربية ظلوا مقتفين لهجة شعرية واحدة فى معانٍ مشتركة ظلّت محترمة لم تمسسها يد التغيير والتبديل حتى نهاية العصر الأموى (٧٥٠ م) ومع ذلك فقد سادت الأدبَ أيام الخلافة العباسية روح جديدة سرعان ما ثبتت قوائم سلطانها الذى ظل على قوته حتى اليوم تقريبا ، وكان هذا النمط يتمركز فى القصيدة [1] التى تعد الصورة ـ أو بتعبير أدق ـ المثل الأعلى لمـا يمكن تسميته بالعصر الرائع للأدب العربى . وتختلف القصيدة فى عدد الأبيات التى تتألف منها ، لكنها قلما تقلّ عن خمسة وعشرين أو تربو على المائة ، ولا يكون التصريع إلا فى المطلع ، ثم تجرى القافية على روىّ واحد حتى نهاية القصيدة . أما الشعر المرسل Blank Verse فغريب عن العرب الذين لا يرون الايقاع حلية وتنميقا أو تقييدا منهكا بل يعدونه روح القصيدة وجوهرها . وأغلب ما تـكون القوافى رقيقة فيها أنوثة كقولهم سخينا ، تلينا ، مهينا ، مخلدى ، يدى ، عوّدى ، رجامها ، سلامها ، حرامها . وإنّ تذليل عقبات القافية الواحدة ليتطلب مهارة فنية كبرى حتى فى لغة يكون من أشد خصائص تكوينها تعـدد القوافى وكثرتها ، وإن أطول المعلقات لأقصر من مرثية جراى . أما من ناحية الوزن فللشاعر الحرية فى اختيار أى بحر إلا الرجز الذى يعد أتفه من أن يستعمل فى القصيدة . بيد أن حريته لا تصل إلى اختيار الموضوعات أو إلى طريقة استغلالها بل نرى عكس ذلك ، إذ أن مجرى أفكاره مقيد بشروط قاسية لا يستطيع الفكاك منها ، وفى ذلك يقول ابن قتيبة : « وسمعت بعض أهل العلم يقول إن مقصد القصيد إنما ابتدىء فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكى وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازل العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه المدر لانتجاعهم الكلأ ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب لأن النسيب قريب من النفوس لما جعله الله فى تركيب العباد من محبة للغزل وإلف للنساء ، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب . فاذا علم أنه استوثق من الاصغاء اليه عقب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة ، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزه على السماح وفضله على الأشباه [1] » .

وهناك مئات من القصائد لا تخرج عن هـذا الوصف الذى لا يجب على كل حال أن يعتبر النموذج الثابت على الدوام إذ يتجاوز الشاعر فى بعض الأحيان عن المقدمة الغزلية وخاصة فى المراثى ، وإذا لم تقده على الفور إلى الغرض المنشود تلاها وصف دقيق صادق لبعير الشاعر أو حصانه الذى يحمله خلال القفار فى سرعة الظبى النافر أو الحمار الوحشى أو الظليم . وشعر البدو يفيض بالدراسة الجميلة لحياة الحيوان ووصفها [2] ؛ ولا شك أنهم كانوا يولون المديح همهم وعنايتهم ، كما كان أحب شىء إلى نفوسهم . وقد استطاع الشاعر أيام الجاهلية أن يرضى نفسه فلم تكن القصيدة وحـدة قائمة بذاتها ، ولـكنها أشبه ما تكون بمجموعة

---

(١) راجع التعاريف المختلفة لكلمة قصيدة عند :

Jacob : Studien in Arab. Ditchern, Heft III, P.203.
Ahlwardt : Bemerkungen uberdie Dechtheit der Alten Arab. Gedichte, P. 24. seq.

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة ليدن ١٩٠٢) ج ١ ص ١٤ س ١٠ وما يليه .

(٢) نلدكه Funf Mo'allaqat (المعلقات الخمس) ص ٣ وما يليها ويذكر نلدكه ملاحظة دقيقة تصور الطبيعة الصناعية لهذا الشعر تلك هى ان بعض حيوانات جد مألوفة ومعروفة عند العرب كالكقم واليربوع والأرنب قل أن يشار إليها أو يرد لها وصف فى شعرهم . ومن الواضح أن ليس من سبب لهذا سوى انها لا تدخل ضمن ما تعارفوا عليه .

صور رسمتها يد واحدة أو كما يقول الشرقيون مكونة من لآلىء مختلفة الحجم والقيمة ، ثم ألف منها عقد

***

قد يمكن وصف الشعر العربى القديم بأنه نقد تصويرى للحياة الجاهلية وأفكارها ، إذ نجد الشاعر فى هذه البيئة بعيداً عن التكلف والميوعة والبهرجة . وليست تسمية مجموعة أبى تمام « بالحماسة » من قبيل الصدف . أو لأن ذلك عنوان من عناوين الكتاب أو فصل من فصوله يشغل قرابة نصفه ، بل لأن الحماسة تشير إلى أجل فضيلة عظمها العربى ، فقد امتدح البسالة فى القتال والصبر عند اشتداد البلاء ، والجد فى طلب الثار ، وحماية الضعيف والازدراء بالأهوال ، أو كما قال تنيسون « كافح واطلب تجد ولا تخضع »

ومن صور المثل الأعلى للبطل العربى الشنفرى الأزدى ، وقرينه فى الغزو والسلب « تأبط شراً » فقد كانا قاطعى طريق طريدين ، كما كانا شاعرين مبدعين ، أما عن الاول فيروى أن بنى سلامان اختطفوه طفلا وربوه فيهم ، ولم يعرف أصله حتى نما عوده فأقسم لينتقمن من خاطفيه وعاد إلى قبيلته الأولى ، ونذر أن يفتك بمائة رجل من بنى سلامان فقتل بثمانية وتسعين ثم نجح مطاردوه فى أسره ، وبتر أحدى ذراعيه فى دفاعه عن نفسه فشد على أعدائه بيده الأخرى وقتل واحدا منهم ولكنهم تكأكأوا عليه فغلب على أمره وقتل وقد بقى على إيفائه نذره رجل واحد ، وبينما كانت أقحوفته ملقاة على الأرض مر بجوارها رجل من أعدائه فركلها بقدمه فدخلت فيها شظية من جمجمته ونغل الجرح ومات الرجل ، ومن ثم قتل المائة(١) ، وفى قصيدته الموسومة بلامية العرب يذكر طرفاً من صور بطولته وبسالته وعناء حياة السلب :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لِمَن خاف القلى متحوَّلُ
لَعَمْرُكَ ما بالأرض ضِيق على امرىء
سَرَى رَاغباً أو راهباً وَهوَ يعقِلُ
ولى دونكم أهلون سِيد عَمَلَّس
وأرقط زُهلول وعرفاء جَيْأَلُ
هُمُ الأهلُ لا مُستَودَعُ السرِّ ذائعٌ
لديهم ولا الجانى بما جرَّ يخذَلُ
وكلٌ أبىٌ باسِل غيرَ أنَّنى
إذا عرَضَتْ أولَى الطرائِد أبسَلُ
وإنْ مُدَّت الأيدِى إلى الزَّاد لم أكن
بأعجَلِهِمْ إذ أجشَعُ القَومِ أعجَلُ
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل
عليهم وكان الأفضل المتفضلُ
وإنى كفانى فقدُ من لستَ جازياً
بحسنَى ولا فى قربه متعلَّلُ
ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيع ،
وأبيض إصليت ، وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون يزينها
رَصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زال عنها السهم حنَّت كأنها
مرزَّأة ثكلى ترِن وتعولُ(١)

ثم يأخذ فى الكلام عن قبيلته التى تلفظه لفظ النواة وتتركه هائما على وجهه حينما يتكالب عليها الأعداء مطالبها بثار تلك الدماء المهراقة ويقول :

فلا تقبرونى إنَّ قبرى مُحَرَّمُ
عليكم ولكن أبشِرى أمَّ عامر
إذا احتملوا رَأْسِى وفى الرَّأس أكثرى
وَغُودِرَ عندَ الملتقَى ثمَّ سايرى
هنَا لك لا أرجُو حياة تسرُّنِى
سَجِيسَ الليالى مُبسَلاً بالجرايرِ(٢)

(1) Sir Charles Lyall : Ancient Arabian Poetry, P. 83.

(١) يجد القارىء هذه القصيدة كاملة بالعربية فى كتاب دى ساسى المسمى « كتاب الأنس المفيد للطالب المستفيد » و « جامع الشذور من منظوم ومنثور » وترجمها بنفسه إلى الفرنسية فى Chrestomathie Arabe ص ٣٣٧ وما يليها ، وكذلك ترجمها إلى الانكليزية شعرا G. Hughes (لندن ١٨٩٦ م) وقد اشار نلدكه إلى كثير من التراجم لها فى Beiträge Zur Kenntniss d. Poesie der Alten Araber, P. 200.

(٢) الحماسة ٢٤٢

أما ثابت بن جابر بن سفيان فهو من قبيلة «فهم» ويسمى تأبط شرا، وسبب ذلك أن أمه أبصرته ذات يوم خارجا من الخباء إلى الخلاء متأبطا سيفاً فسألها أحدهم «أين ثابت؟» فقالت: «لست أدرى، لقد تأبط شرا وخرج» وهناك قول آخر بأنه قد خرج فى بعض أموره فالتقى بغول فشدّ عليه وجزّ رأسه ثم حمله إلى بيته على هذه الحال، فقيل له تأبط شرا. وإن الأبيات[1] التالية التى يصوّر بها خاله شمس بن مالك لكفيلة بتصوير طبيعة الشاعر ونفسه تماما وهى انعكاس لعاداته:

قليلُ التَّشكى لِلمهم يصيبُهُ
كثيرُ الهوى شتى النَّوَى والمسالك
يَظل بِموْمَاة ويمسى بغيرها
جَحيشاً ويَعروَرى ظهُورَ المهالك
ويَسبق وفدَ الرِّيح من حيث ينتحى
بمنخَرق مِنْ شده المتَدارك
إذا حاص عَينيهِ الكرى النَّوْمُ لم يزل
له كالئ مِنْ قلب شيْحان فاتك
ويجعلُ عينيه ربيئة قلبه
إلى سلةٍ من حدٍّ أخلق صائِك
إذا هزّه فى وجه قِرن تهللت
نوَاجذ أفوَاهِ المنايا الضَّوَاحِكِ
يرَى الوَحشة الأنس الأنيس ويهتدى
بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوائك

وهذه الأبيات السالفة تصف فى دقة وتلم كل الالمام بالفضائل الأولية العربية من شجاعة وخشونة وبأس. وهنا نرى لزاما علينا أن ننتقل بالقارئ إلى ناحية بعيدة بعض الشىء عن الناحية الأدبية. تلك هى الناحية الخلقية التى تعد من الأسس المهمة التى قام عليها كيان المجتمع الوثنى الذى ليس لدينا من مرجع عنه سوى الشعر الجاهلى. لم يكن للعرب قانون مكتوب أو مرجع دينى أو أى شىء من هذا القبيل، بل كان هناك ثمة قوة أجل من

(١) الحماسة ٤١ - ٤٢ وقد ترجمها إلى الانكليزية:
Sir Ch. Lyall: Anc. Ar. Poetry, P. 16
A. B. Davidson: Biblical Literary Essays, P. 263

هذه وأعلى شأنا وأنفذ تأثيراً فى نفوسهم، تلك هى «الشرف»، ولكن ما هى خصائص الشرف البارزة وميزاته الواضحة التى تنطوى عليها فضيلة المروءة كما كان يفهمها عرب الجاهلية؟ لقد أشرنا إلى أن شجاعة العرب تشبه تمام الشبه شجاعة الأغريق، يولدها ثوران النفس ولكنها تتلاشى إزاء الابطاء أو التراخى[1] ومن ثم كان البطل العربى رجل جلاد يقتحم الأهوال، ويزدرى الأخطار، كثير الفخر كما يظهر لنا ذلك من معلقة عمرو بن كلثوم. وإذا رأى أن ليس لما يفوته بالهرب خطر عظيم أسرع غير مليم، ولكنه يحارب ويناضل حتى آخر رمق فيه ذابًا عن نسائه اللائى كنّ إذا جد الجد واشتبكت الرماح، صحبن القبيلة ووقفن خلف صفوف القتال:

لما رأيتُ نِساءنا يفحَصن بالمعزاء شدَّا
وبدَت لميسُ كأنها بدرُ السماء إذا تبَدَّى
وبدَت محاسنُها التى تخفَى وكان الأمرُ جدَّا
نازَلتُ كبشَهُمو ولمْ أرَ مِن نزَال الكبش بدَّا[2]

وكانت الديمقراطية دستور القبيلة يتولى الإشرافَ على تطبيقه شيوخها الذين استحقوا السيادة بما لهم من شرف النسب، ونبل الأخلاق، وسعة الثروة، وحكمة الرأى. وكمال التجربة[3] كما أشار إلى ذلك شاعر بدوى[4] بقوله:

لا يَصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سَراة إذا جُهَّالهم سادوا
والبَيتُ لا يبتَنى إلا له عمدٌ ولا عِماد إذا لمْ ترسَ أوتادُ
وإن تجمع أوتادٌ وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذى كادوا[5]

«يتبع» حسن حبشى

(1) Hahaffy: Social Life in Gree, P. 21

(٢) الحماسة ٨٢ - ٨٣، والأبيات للشاعر عمرو بن معديكرب احد فرسان الجاهلية المغاوير، اعتنق الاسلام وجاهد فى صفوفه إبان حرب الفرس

(٣) نزيد على ما ذكره نيكلسون ما رواه المبرد من ان معاوية سأل عرابة بن أوس بن قيظى الأنصارى عما كان من شانه حتى بلغ مرتبة الرياسة، فقال: «أعطيت فى نائبتهم، وحلمت عن سفيههم، وشددت على يدى حليمهم، فمن فعل فعلى فهو مثلى، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه، ومن تجاوزنى فهو أفضل منى» (الكامل ص ٧٠) وكذلك الفصل الأول من ترجمتنا لكتاب «تاريخ العرب باسبانيا» لدوزى. (المترجم) (٤) هو الأفوه الأودى (المترجم)

(٥) Delectus لنلدكه ص ٤ س ٨ - ١٠

الفنون

الفن المصرى

العقيدة الدينية أصل الباعث على الفن

للدكتور احمد موسى

انظر إلى خريطة وادى النيل الطبيعية ، تجد أن مصر واد جميل منبسط ، لا تتخلله ارتفاعات ولا انخفاضات خصوصاً فى المناطق المأهولة بالسكان . أما الأمطار فهى نادرة فيه ، فضلا عن أن الشمس تسطع عليه طوال أيام السنة

وتفكير الناس وتكوين إحساسهم وليد البيئة التى يعيشون فيها . ولما كان الفن وليد دقة الإحساس وسمو التفكير ، وجب أن يكون الفن المصرى بسيطا سهلا ، نظراً لبساطة الخيال المصرى ولين شاعريته ، على عكس الخيال الاغريقى مثلا

وكان المصرى ولا يزال قليل الاستمتاع بجمال الطبيعة لندرة تغيرها ، على حين نرى الاغريقى عظيم الاحساس بالجمال والاستمتاع به سريع التأثر بمظاهر الطبيعة المتقلبة ، كثير السعى والبحث وراء ما فيها من جمال وفن . كل هذا راجع إلى الاختلاف الطبيعى بين مصر وهى البلاد المنبسطه المكونة من قطعة واحدة غير منفصلة ، وبين اليونان وهى جزائر سواحلها كلها تضاريس ، فضلا عن كثرة الارتفاعات والانخفاضات فى سطحها

وقد أوضحت شيئا يسيراً عن الفن المصرى قبل التاريخ ، وقلت إن الالتفات إلى الدين كان قبيل عهد الاسرات ، وأن هذا الالتفات نما وازداد حتى عصر مينا ، الذى وحد بين الوجهين البحرى والقبلى مكونا مملكة واحدة

وإذا استطعنا أن نفهم شيئا عن تطور العقيدة الدينية ، فإنه يمكننا أن ندرك الفن المصرى إلى حد الاستمتاع

أنعم المصريون النظر فى الموجودات والمرئيات ، واتجهوا بنظرهم إلى السماء ، فتصور بعضهم أن القبة السماوية شىء أشبه ببقرة كبيرة رأسها متجه نحو الغرب ، وأن بلادهم بين أرجلها ، كما تخيلوا أن النجوم لا تخرج عن كونها زينة تتحلى بها

وتصور غيرهم أن السماء على هيئة امرأة انحنت متجهة بيديها ورأسها نحو الغرب ، وبأرجلها نحو الشرق ، وأن النجوم حلى منثورة على بطنها وصدرها

وإذا فكرنا قليلا نجد التشابه فى الفكرة عظيما ، ولا سيما وأن الذين تخيلوا السماء على هيئة بقرة ظنوا أن الشمس تولد (تشرق على هيئة عجلة صغيرة ؛ وأما الآخرون الذين تخيلوها على شكل امرأة فقد ظنوا أنها تشرق على هيئة طفلة تسير من الشرق إلى الغرب فلا تلبث أن تصير عجوزاً عند غروبها

ظل الحال كذلك حتى اتصل أهل مصر العليا بأهل مصر السفلى وتم التعارف بينهم ، وتبادلوا التجارة وتفاهموا فى شؤون الحياة وفى شؤون الدين

وكانت نتيجة هذا التعارف والتفاهم أن وجدنا أن هناك من رأو الصقر يطير بسرعة ، فتخيلوا الشمس مثله ، تطير بجناحين من الشرق إلى الغرب . وكان أثر هذا الخيال عميقاً فى الفن المصرى ، فترى الشمس قد رسمت بجناحين فى مناسبات مختلفة

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل نظر المصرى إلى الماديات وأوله وادى النيل ، فتخيله رجلا منبسطاً على الأرض ، ظهره إلى السما وعليه نمت النباتات ، وعاش الانسان والحيوان مستمدين الحياة من الشمس . وظنوا أن الدنيا تبدأ حيث بدأ النيل من ذلك المحيط اللانهائى جنوباً ، وتنتهى حيث يصب شمالا

واعتقدوا أن هناك آلهة للماء وللأرض وللهواء ، وتوسعو فى تصوراتهم فجعلوا للحياة الها وللموت آخر ، وللمسرات والحب غيرها وهكذا

وكانت عبادتهم للشمس قوية باعتبارها مصدر الحياة والنور فاختاروا لها مدينة خاصة أسموها عين شمس (هليوبوليس) ، أسموا الشمس (رع) عند الشروق و (اتوم) عند الغروب

ونظراً لدقة ملاحظتهم للقمر وإعجابهم بانتظام سيره الزمنى جعلوا منه منظما لزرعهم واعتبروه الها للعلوم والآداب ، واتخذو بلدة الأشمونين (قريبة من المنيا) مقراً لعبادته

ورمزوا للسماء ببقرة رسموها فى معبد درندرة (بالقرب من قنا) وبقطة فى صاالحجر (بالقرب من كفر الزيات) وبلبؤة فى ممفيس (بالقرب من البدرشين)

وكانت مصوراتهم التى رمزوا بها للآلهة بسيطة فى أول الأمر، مما يدل على بساطة معيشتهم فى ذلك الحين ، كما أن رسوماتهم لها لا تدل على أنهم أحبوا حيواناتهم حباً عظيما جعلهم يصورون رؤوس هذه الآلهة بصور تلك الحيوانات نفسها عند تدهور المدنية المصرية

وإذا دهشنا للعقلية المصرية من ناحية العقيدة الدينية ، فاننا لا نندهش عند ما نجد الكهنة يتركونهم مسترسلين فى عقائدهم حتى بذلك يدوم لهم السلطان

وكانت هذه العقيدة ، رغماً عن عدم انسجامها مع العقلية المصرية خير دافع للفن المصرى بل وإلى الحضارة المصرية إجمالا ، فكل ماوصل إليه المصريون من أبهة وعظمة كان عن طريق هذه العقيدة، وكل ما تركوه من آثارها لا يخرج عما شيدوه للدين

فانشاؤهم المقابر والاهرام والمعابد، كل هذا لم يكن إلا لرسوخ العقيدة الدينية فى أنفسهم . ولا يعنينا الآن وصف شيء من مقابرهم أو أهراماتهم ؛ أما معابدهم فكانت إجمالا عبارة عن حوش محدود بحوائط تنتهى بصالة مستطيلة ذات أعمدة ، وعلى يمينها ويسارها غرف لحفظ الأثاث والأدوات والهدايا ، وضمن هذه الغرف مساكن الخدم

وخصصوا غرفة وضعوا فى وسطها حجراً من الجرانيت المنحوت جيدا ، جعلوه قاعدة لتمثال المعبود الذى كان أحيانا من الخشب المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وبارتفاع يتراوح بين نصف متر ومترين

وكانت احتفالاتهم الدينية فى أول الأمر بسيطة ، ولكنها أخذت شكلا عظيما فيما بعد ، فبدأوا يقيمون حفلاتهم الدينية التى كانت تتخللها الموسيقى والغناء والرقص

وقام الكل يتموين هذه المعابد بالمأكل والمشرب ، ووصل بهم الحال إلى جعل الاشتراك فى هذه الاحتفالات إجباريا ، فاشتركت البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وقدموا هداياهم إرضاء للمعبود لينالوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة . وكان فرعون ، وهو الحاكم المطلق للبلاد يقوم علاوة على مهمته المدنية بمهمة الكاهن الأكبر ، وقد عين لنفسه نائبا فى كل معبد ، يقوم بتقديم القربان للمعبود : وبرئاسة المصلين الذين يدعون لفرعون بدوام الملك والأبهة . وكان من شأن الكاهن أن يقوم بالمحافظة على المعبد بمشتملاته وبمراقبة حساباته من إيراد ومصروفات

من كل هذا نرى أن الدين المصرى دفع المصريين فى إخلاصهم المتناهى له ، إلى بناء المعابد والاهتمام بشأنها وتنميتها وزخرفتها . وكل هذا لا يخرج عن كونه الفن المصرى إجمالا ، لأننا إذا ألقينا النظر على وادى النيل كله ، وتأملنا ما تركه المصريون قديما ، لا نجد إلا أهراما ومعابد ومدافن ، وما بداخلها لا يخرج أيضا عن متروكات ارتبطت بحياة الناس أو بموتهم

ويتلخص تاريخ الفن المصرى كدراسة خاصة ، فى التوسع فى وصف هذه الآثار ووضع قواعد لنماذجها وتطوراتها ورقيها وانحطاطها ، وعلاقة ذلك بالحياة الاجتماعية فى ذلك الحين ، مع الاستعانة بما وجد على الجدران والسقف من كتابات ونقوش وزخارف ، وما وجد من تماثيل وتحف ومحفوظات دلت بدرسها على ما وصلت إليه المدنية المصرية من مستوى يجعلها وحيدة فريدة بذاتها بين أمم العالم

ولاعتقاد المصريين فى عودة الحياة إلى الجسم بعد الموت (البعث) فضل عظيم فى إيجاد التقدير الهائل نحو الموتى الذين تمتعوا أثناء حياتهم بمشاهدة مقابرهم التى سيدفنون بها بعد موتهم

وفكرة شروق الشمس واعتقادهم بأنها تأتى معها بالحياة ، وفكرة غروبها واعتقادهم بانها تذهب ومعها الحياة ، جعلتهم يدفنون موتاهم على الضفة الغربية للنيل فى معظم الأحيان ، ليمثلوا بذلك الموت فى أظهر معانيه

وكانت هناك عقائد خاصة بمحال الروح بعد الموت ؛ فمن المصريين من اعتقد أنها تسكن عالماً آخر أسفل هذه الدنا ؛ ومنهم من ظنها تتحول إلى طير يطير بعد مفارقة الجسم إلى قرص الشمس ليعيش بجواره

وحرصهم على جثث موتاهم التى ستعود إليها الروح فى وقت ما ، جعلهم يمهرون فى فن التحنيط ، كما تفننوا فى طريقة المحافظة على الموميات ، فتراهم دفنوها دفناً منيعاً ، بعد وضعها فى تابوت من الخشب وضع فى تابوت آخر من الصوان أو الحجر الجيرى . وكانت مدافنهم على شكل الأهرام أو على شكل المصاطب أو فى جبانات عملت خصيصا

وكان الغرض من التحصين الحيلولة بين اللصوص وبين العبث بالجثث ، وبما دفنوه معها من أدوات وجواهر وتماثيل الخ .

واشتملت حوائط غرف الأهرام والمصاطب والمقابر على كتابات ونقوش ، كما اشتملت على رسومات تبين صاحب القبر يراقب الخدم أثناء اشتغالهم بخدمته والمحافظة على راحته بعد موته .

وكانت العناية ببناء المقابر فائقة فى كل أجزائها التكوينية والشكلية ، وسهر نفر معين من الناس للمحافظة عليها نظير أجر معلوم حصلوا عليه من أصحابها ؟

احمد موسى

من هنا ومن هناك

أونجين

لعل هذه التحفة النادرة هي أبدع مانظم پوشكين الشاعر الروسى طول حياته ، وقد بدأها سنة ١٨٢٣ وأتمها سنة ١٨٣١ . وهى خيال طريف لقصيدة بيرون بيو Beppo وإن تكن فى صدقها وروعة فنها خيراً من بيو ومن كل مانظم بيرون على الاطلاق . ونلخص اليوم تحفته أونجين التى تبذ كل ما كتب الأدباء الروس فنقول :

« يوجين أونجين أحد أبناء الطبقة المتوسطة من سكان بطرسبرج ، حسن البزة ، منسق الهندام ، عنى أبوه بتربيته تربية رفيعة ، وتوجيهه فى الحياة وجهة خاصة ، إذ وصله بالأستاذ لابيه فتفقه فى الفرنسية حتى ثقفها وأصبح يتكلمها كواحد من أهلها . وكان مشغوفاً فى ملبسه بالطراز الانجليزى من نسق لندن . وأجاد بضع رقصات كان أحبها إليه (المازورقا) ـ وكان متأنقاً فى عبارته . يتخير اللفظة الرنانة ، ويصقل الحروف صقلا أرستقراطياً يزيد فى فخامتها ، ويضاعف موسيقاها . وطالما كان ينثر فى حديثه أبياتاً من الأنيد (فرجيل) أو يستشهد بالحكمة اليونانية ، والمثل اللاتينى ، كأنما يريد أن يلفت السامع إلى تبحره فى الأدب . ورسوخ قدمه فى التاريخ ، وإلمامه بعلوم الأولين ... ... والآخرين ! وفى مشيته ، بل فى طعامه ، بل فى جلسته ، بل فى الايماءة الصغيرة بطرفه ، كان يتعمل تعملا ملحوظاً ، وكأنما أورثه تعمله هذا رذيلة الاضطغان ، والتبرم بجميع المخلوقات ! ... وكان أبوه رجلا متلافاً مبذراً ، لايكفى دخله المتوسط للمظهر المنتفخ الذى كان يبدو به بين الناس ، وكان لذلك كثير الاستدانة قليل السداد ... يقيم فى داره المراقص والمراقص ... وهو فى إفلاس وضيق ليس وراءهما إفلاس وضيق . فلما مات خلف تركة ثقيلة من الديون الفادحة ، أتت على أخضره ويابسه

واشتد الضيق على أونجين فارتحل إلى عمه فى الريف فوجده قد انتقل إلى الآخرة هو الآخر . وثمة تعرف إلى شاب ألمانى حدَث ، واسع أفق الفكر ، متشعب المعرفة ، درس كانت وشيللر وهجل وأدباء الألمان ، حتى ما يكاد ينطق إلا بكلامهم ولا يفيض إلا عنهم . ويقدمه هذا الشاب (لنسكى) إلى عائلة مجاورة قوامها أرمل وابنتان ، صغراهما أولجا ، فتاة يافعة ممشوقة ساحرة اللفتات ، رشيقة الحركات ، علقها لنسكى من كل قلبه ، وشغفه حبها حتى ما يفكر إلا فيها . والكبرى ، تاتيانا ، أقل جمالا من أولجا ، وإن تكن أرجح عقلا ، وأثبت جناناً ، وأكمل أنوثة . ترى أونجين فتحس بزائر جديد يحتل قلبها دون أن يستأذن ، وتشعر بانعطاف إليه يقرب أن يكون ولوعاً . وتكتب إليه بعد أن يكون التعارف قد اشتدت أواصره ، وتعترف له بما تحس نحوه فى أعماقها ، فى أسلوب صارخ ، وعبارة مجلوة منتقاة ، وكلمات تكاد تتوهج وتلتهب . وليس فى أشعار العالم شىء يشبه ما نظمه پوشكين فى رسالة تاتيانا هذه ، بل ليس فى فلسفة الحب صورة هى أروع ولا أصدق مما جاء فى خطابها إلى أونجين . لقد كان قلبها يتكلم ويتضرم ، وكانت نفسها الملتاعة الوامقة تسيل دماً على شباة القـــلم . ولقد قرأنا درة شللى (أبيسيكيديون) فى الحب ، ولكننا لم نلمس هذه الروح التى هبطت من وحى بوشكين فى رسالة تاتيانا ، ولم نلمح هذا القبس المقدس الذى أججه بوشكين العظيم فى شعره العظيم . . .

ويرد أونجين على هذه الرسالة العلوية بخطاب فاتر بارد فيدعى فيه أنه لم يخلق للحب ، ولا يفكر فى الزواج . وأنه غير جدير بها ، لأنه لم يشعر نحوها إلا بما يشعر به الأخ نحو أخته .

وإنهم جميعاً لفى مرقص ، فتدعو أولجا الصديق أونجين إلى رقصة اختارتها ، فينهض ملبياً طلبها ، وما تنتهى الموسيقى إلا وقد جن جنون لنسكى من الغيرة ، فينهض إلى أونجين وينتهره ، ويتحداه تحدياً يهيجه ، فتكون بينهما مبارزة هائلة يقتل فيها لنسكى — وتسود الدنيا فى عينى أونجين ، فيرحل عن هذا البلد ويتنقل فى أطراف البلاد . . وتنتقل الأرمل بابنتيها إلى العاصمة

حيث يفتتن أحد أغنيائها بتاتيانا. فيخطبها إلى أمها. وسرعان ما يصبحان زوجين سعيدين

ويلتقى بها أونجين فجأة فى إحدى حدائق بطرسبرج، فتثور فى نفسه الذكريات القديمة، ويهيج به ميله الماضى. فيبثها حبه ولكن.. ولكن.. الفتاة تدمع قليلا. ثم تصارح الفتى قائلة:

«أونجين! لقد أحببتك من صميمى، ولكنك استكبرت ورفضت حبى ... وها أنا الآن زوجة ... وعلى واجبات ... ولزوجى شرف، وله كرامة ... وهو يحبه لى خير منك بعبثك علىّ ... أونجين ... وداعاً!»

هذا ملخص مقتضب لهذه القصة الرائعة التى يخطىء مؤرخو الآداب فيقرنونها بدون جوان لبيرون

فن راسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩)

يعتز الفرنسيون براسين اعتزاز الانجليز بشاكسبير. ولكل من راسين وشاكسبير ميزة يفضل بها أخاه، فراسين يحكم العقل فى العاطفة ويسخرها له وبعكسه شاكسبير الذى يجعل العاطفة مسيطرة على العقل سيطرة تامة ويترك لها القياد فوق المسرح فتنتقل بالنظارة فى آفاق شعرية جميلة صاخبة لاوجود لها فى عالم الحقيقة. ولا يدرى أحد أيهما يفضل أخاه ولا يستطيع أحد أن يحكم لأحدهما على الآخر

والذى يلفت النظر فى فن راسين أنه مشيد على دعائم يونانية من فن سوفوكليس ويوربيدز فى حين تفيض فيه روح مسيحية عليها طابع قوى من جماعة الـ (Jansenists) (أو الطهريين الفرنسيين) ثم يزين ذلك كله رواء من أبهة لويس الرابع عشر وفخامته.

ولكن يوربيدز أقوى أثراً فى راسين من كل شىء آخر. ولا غرو، فقد كان راسين يسير على درب الأديب اليونانى الكبير ويمشى على مناهجه فلا يحيد قيد أنملة. اللهم إلا فيما يجعل دراماته ملائمة لعصر لويس العظيم. ففى (أندروماك) و (إفجنيا) و (فيدر) نلمس روح يوربيدز فى الأديب الفرنسى ونكاد نعقد المقارنة بينهما، وإن كان راسين قد لون فن أستاذه بمثل الألوان التى كان رافائيل يضفيها على صور لداته فيخلقها خلقاً آخر.

وليس شك فى أن (أندروماك) هى خير درامات راسين جميعا. ولا نبالغ إذا قلنا إن أية درامة أخرى لم تجمع أشخاصاً ذوى عواطف شتى وأحاسيس متناقضة كما جمعت أندروماك. ولا نستطيع أن نعلل الأسباب التى إليها يرجع عدم نجاح هذه الدرامة العنيفة على المسرح المصرى، إلا أنها قطعة كلاسيكية لم يعتدها الذوق المصرى بعد. وهذا ما يؤسف له! وإذا كانت أندروماك قد جمعت كل هذه الشخصيات المتناقضة فبعكسها (فيدر) التى ازدحمت فى قلب بطلتها متناقضات من عواطف غريبة ما برحت تتنقل وترتفع وتنخفض وتخبو وتشتعل حتى ختام المأساة. فقد أحبت فيدر ابن زوجها حبا شهوانيا اختلط بلحمها وخامر قلبها، ثم جعلت تتلطف إليه، ثم أعلنت إليه أنها تحبه، وطفقت تراوده، ولكن الفتى أبى أن يخون أباه أو يغمس شرفه فى الوحل، فتضرعت إليه، وانقلبت الضراعة فأصبحت مذلة وهواناً. فلما اشتط الفتى فى تمنعه انقلبت المذلة فصارت حقدا وغيظا، ثم اضطرم الغيظ فصار شرا تضمره فيدر ويمزق فؤادها... ثم اتهمت الفتى لدى أبيه أنه يراودها عن نفسها... فوقعت المأساة! فأنت ترى - إن كنت قد قرأت أندروماك أو شهدتها على المسرح - أن العواطف المتناقضة التى توزعت على أبطال أندروماك قد اكتظت كلها فى نفس فيدر؛ وهذا عمل فنى خالد لم يتح لكاتب مثل راسين.

كذلك قد قلد راسين الشاعر الكوميدى اليونانى أرسطوفان فى ملهاته (Les Plaideurs) التى احتذى فيها الكوميدية اليونانية (الزنابير!) (The Wasp) والتى أضحكت لويس الرابع عشر حتى ذهبت بوقاره المعروف عنه!

البريد الأدبي

وثيقة فرعونية عن المعاملات الشخصية

اقتنى متحف شيكاجو أخيراً وثيقة مصرية قديمة يرجع عهدها إلى ما قبل الميلاد بنحو مائة عام، أعنى الى أواخر عهد البطالسة تدل على أن المصريين القدماء كانوا يجرون فى القروض الشخصية على قواعد وأوضاع اقتصادية صارمة. وإليك خلاصة ما نصت عليه الوثيقة المذكورة التى حل رموزها الدكتور ناتانيل ريش العلامة الأثرى، على لسان المقترض:

« أنا العبد انسنا كومنى التابع لمقبرة زيمى، قد اقترضت من المرأة نخوتسى ٢٢٫٥ أردباً من القمح. وأتعهد برد هذا القرض مع أداء مثله بصفة ربح ليكون المجموع ٤٥ اردباً.

« وأن يكون الأداء من قمح حسن لاغش فيه، ويكال بنفس الكيل الذى استعمل فى القرض، كما أتعهد بأن أحمل القمح المذكور إلى منزل المرأة نخوتسى متحملا نفقات الارسال، وذلك فى آخر يوم من الشهر التاسع من السنة التاسعة دون طلب امتداد الميعاد، فاذا لم أستطع أن أؤدى القمح فى الميعاد المذكور فأتعهد بأن أدفع فى الشهر التالى عن كل أردب ستين قطعة من الفضة

« ولا حق لى مادام هذا الايصال فى يد نخوتسى أن أدعى الوفاء كله أو بعضه، هذا مع اقرارى بأن كل ما أملكه الآن أو أملكه فى المستقبل يكون رهناً لذمة نخوتسى حتى أؤدى الدين كاملا، فاذا اضطرت نخوتسى إلى مقاضاتى من أجل الوفاء فانى أتحمل كل ما يترتب على ذلك من التعويضات، هذا مع اعترافى باتباع كل ما يأمر به وكيل نخوتسى فى كل وقت بلا معارضة ولا ممانعة ».

نقول: فهل يستطيع رجل القانون المعاصر أن يكبل المدين لمصلحة الدائن بأوثق من هذه القيود؟

ذكرى بوشكين عميد الشعر الروسى

احتفلت حكومة جمهورية اتحاد السوفيت، وروسيا كلها، فى اليوم الحادى عشر من فبراير بالذكرى المئوية لوفاة الشاعر بوشكين أعظم شعراء روسيا الحديثة، وأطلق اسم الشاعر بهذه المناسبة على متحف الفنون الجميلة فى موسكو، وعلى مسرح لننجراد كما أطلق اسمه على عدة من الشوارع الهامة فى العاصمتين، وأطلق أيضاً على مدينة «دتسكيو زيلو» التى نشأ فيها الشاعر وتلقى تربيته. ويعتبر اسكندر سرجيفتش بوشكين فى الواقع شاعر روسيا القومى كما يعتبر شكسبير شاعر انجلترا، وجيته شاعر المانيا. وكان مولد الشاعر سنة ١٧٩٩ فى موسكو، ولما انتهى من دراسته القانونية عين فى وظيفة بوزارة الخارجية، وفى سنة ١٨٢٢، ذهب إلى جنوب روسيا وزار القوقاز، وألهمته هذه الزيارة موضوع روايته الشعرية الشهيرة «سجين القوقاز». ثم أخرج قصيدته الرائعة «ثناء نابليون» وكتاباً شائقاً فى حياة النور. واتهم بوشكين فى تلك الآونة فى عدة مؤامرات سياسية، ولكنه استطاع أن يفلت من العقاب نظراً لمكانة أسرته. وفى سنة ١٨٢٤ استقال من وظيفته لخلاف بينه وبين رؤسائه وتفرغ للكتابة والنظم. وأخرج فى العام التالى مأساته الشهيرة «بوريس جودونوف» وهى القطعة الخالدة التى حررت المسرح الروسى من نفوذ المسرح الفرنسى، ودفعت التأليف المسرحى فى روسيا إلى وجهة قومية جديدة، وفى سنة ١٨٢٨، ظهرت «بولتاوا» وهى قصة شعرية عن أيام بطرس الأكبر، ثم وصف شائق لرحلته الثانية فى القوقاز، وعاد بوشكين إلى سلك الوظائف سنة ١٨٣١، وكتب تاريخاً للثورة القوقازية التى وقعت يومئذ، ثم أخرج بعد ذلك قصته الرائعة «ابنة الكبتين»، ثم قصيدة «أوجين أونجين» وهى فى نظر النقدة ابدع ما نظم. وهي مزيج من الفكاهة والتهكم والقصص، يبدو فيها أثر اللورد بيرون واضحاً

جلياً . وهو أثر يبدو فى كثير من قصائد پوشكين الأخيرة . وفى فبراير سنة ١٨٣٧ وقعت بين پوشكين وبين البارون دانيتس الذى اقترن بأخت زوجته تاتاليا جورشاروف مبارزة جرح فيها پوشكين جرحاً أودى بحياته ، وبذلك انتهت حياته القصيرة الباهرة .

حول التاريخ الألفى للأزهر

كتب كاتب فى جريدة الجهاد الغراء مقالا يستعرض فيه قصة اللجنة التى أنشئت منذ ثلاثة أعوام لكتابة تاريخ شامل للجامع الأزهر لمناسبة عيده الألفى الذى تقرر الاحتفال به عند حلوله فى أوائل سنة ١٣٥٩ ﻫ ؛ وذكر الكاتب أن اللجنة المذكورة قد عقدت بضعة اجتماعات ، وأن لجنة فرعية من بعض الأعضاء ألفت لوضع برنامج لتاريخ الأزهر ، ثم لم يسمع بعد ذلك شيء عن اللجنة ولا عن أعمالها

وما ذكره الكاتب عن اللجنة صحيح فى مجموعه ، بيد أن هنالك بعض حقائق غابت عنه ولا بأس من ذكرها بهذه المناسبة ، ذلك أن إنشاء هذه اللجنة كان نتيجة للقرار الذى اتخذته مشيخة الأزهر فى عهد شيخه السالف بالاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ؛ فلما تغيرت المشيخة بعد ذلك بقليل ، رأى فضيلة الشيخ الحالى أن يرجىء جميع الأعمال الخاصة بالعيد الألفى لأنه فى رأيه لا يزال ثمة فسحة كبيرة من الأجل ، وبذا تعطل عمل اللجنة دون حلها ، هذا فى حين أن اللجنة كانت قد قطعت بالفعل مرحلة تذكر فى سبيل انجاز برنامجها ، وكانت اللجنة الفرعية التى ألفت لوضع برنامج العصر الفاطمى قد وافقت على البرنامج الذى وضعه أحد أعضائها الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ووزعت مواده بالفعل على بعض أعضاء اللجنة العامة ، وأنجز بعض الأعضاء ما عهد إليهم بكتابته وفى مقدمتهم الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والأستاذ عنان ، ثم وقفت اجتماعات اللجنة واجتماعاتها عند هذا الحد

وقد ظهرت أثناء مباحث اللجنة ومناقشاتها حقائق تلفت النظر ؛ من ذلك أن أقطاب المشيخة قد لمحوا أكثر من مرة إلى أن التاريخ المراد وضعه للازهر يجب أن يكون فى مجموعه وفى روحه نوعاً من التاريخ الرسمى ، وأنه يراد أن تخص منه عصور معينة دون غيرها ، وأن العناصر السياسية أو المذهبية التى يحفل بها تاريخ الأزهر يجب ألا تمثل فيه ، وكانت هذه التلميحات والرغبات داعية دهشة أعضاء اللجنة ، المدنيين ، ولا سيما المتخصصين منهم فى التاريخ ، وقد علقوا عليها بأكثر من مرة بأنه يجب إذا أريد أن يوضع تاريخ ألفى للازهر فيجب أن يكون تاريخاً بالمعنى الصحيح ، وعلى هذا سارت اللجنة الفرعية فى عملها

وثمة حقيقة أخرى كانت موضع النضال ، وهى أنه ظهر خلال المناقشة أن المشيخة تريد أن تنتفع بجهود العلماء المتخصصين فى التاريخ ، لينسب المؤلف فيما بعد فى مجموعه إلى « مشيخة الازهر » ؛ ولكن هذه النقطة كانت موضع الاعتراض الشديد إذ أصر الاعضاء المدنيون على أن ينسب كل فصل إلى صاحبه على طريقة المؤلفات العلمية الاخرى

هذه بعض حقائق عن لجنة التاريخ الألفى للازهر تجدر إذاعتها ؛ وإذا كان لنا أن نعلق على هذا الموضوع بشيء ، فهو أن تأليف اللجان الحاشدة ليس وسيلة عملية لكتابة التاريخ ، وأن كتابة التاريخ الصحيح قد أصبحت فى عصرنا علماً حقيقيا لا يستطيع أن يضطلع به إلا المتخصصون فيه

هذا وإنا لنأمل أن يكون لمشيخة الأزهر فى عهدها الجديد فى هذا الموضوع نظرة أوسع آفاقاً ، وأوفر سداداً وتوفيقاً

الذكرى السنوية الاولى للزهاوى

ستقيم وزارة المعارف العراقية حفلة تأبينية للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى ببغداد يوم الجمعة ١٢ مارس سنة ١٩٣٧ ، دعت إليها نفراً من كبار الأدباء فى البلاد العربية ، ثم أرسلت لجنة التأبين إلى جمهرة أخرى من الكتاب هذا الكتاب :

وبعد فانى أتشرف بأخباركم بأن حفلة تأبينية كبرى ستقام فى بغداد يوم الجمعة المصادف ١٢ مارس ١٩٣٧ إحياء للذكرى السنوية الأولى لوفاة شاعر العرب الكبير الفيلسوف الحكيم السيد جميل صدقى الزهاوى الذى خدم الأدب العربى مدة نصف قرن

ولما كنا نعتقد بأن حضرتكم ترغبون فى الاشتراك فى رثاء الفقيد الطيب الذكر نرجو أن تتكرموا بما تجود به قريحتكم فى هذا الشأن ليتلى فى الحفلة التأبينية أو يثبت فى الكتاب المزمع نشره تخليداً لذكرى الراحل الكبير . . .

تأبين الزهاوى فى وزارة المعارف ببغداد

الكتب

المتنبي مع طه حسين

للدكتور محمد عوض محمد

إن الذين يطالعون الكتاب الذى بين أيدينا على أنه كتاب لطه حسين فى المتنبي سيخطئون القصد ويفوتون على أنفسهم اللذة الحقيقية والمتعة العظيمة التى يستطيعون أن ينالوها من مطالعة هذا الكتاب على الوجه الصحيح : أى على أنه كتاب أدبى أو قصة أدبية شائقة لها بطلان المتنبي وطه حسين معاً . فليس الكتاب بحثاً تاريخياً جافا ، أو نقداً موضوعياً ، بل قصة ممتعة تشترك فيها شخصية المؤلف الأديب وشخصية المتنبي المدهشة ... ولهذا يجمل بنا أن ندعو الكتاب طه حسين مع المتنبي ، أو المتنبي مع طه حسين ؛ كما ينادون فى بعض المطاعم على الأصناف اللذيذة بأن يقولوا فراخ مع الأرز ، أو كوارع مع الفتة ...

فالكتاب الذى نحن فى حديثه الآن اسمه الصحيح إذن هو المتنبي مع طه حسين . . . .

والمتنبي مع طه حسين مظلوم ! . . فقد كان طه حسين معرضاً عنه إعراضاً تاماً ؛ وظل معرضاً عنه زمناً كدنا ألا نعرف له آخرا . . وقد قرر طه حسين أن يعرض عن المتنبي كل هذا الاعراض ، منذ ان كان يطلب العلم فى الأزهر الشريف . ثم لم يزل معرضاً عنه ممعنا فى الأعراض . لا يستمع لصوته القوى ، ولا يستجيب لندائه العذب . وهو يستعين على هذا الاعراض بضروب من الوسائل ؛ فجعل يضع القطن الغليظ فى أذنيه ، ويقيم الحجب والجدران بينه وبينه ، ويقول له : ابعد عنى ! لا أريد أن أصغى إليك . . .

وهكذا ظل المتنبي يهيب بالأديب الكبير ، والأديب الكبير ليس له ـ كما تقول العامة ـ سوى أذن من طين وأذن من عجين

ولكن لم كل هذا الاعراض ، أو التجنى ، أو التمنع ؟

سيقول لك خلطاؤه الذين لا ينظرون إلا إلى ظاهر الأمور إن إعراض طه حسين يرجع إلى الخصومات التى تنشأ بين الطلبة ، وتذهب بهم فى التشيع الأدبى مذاهب مدهشة ، فكان يكفى أن ينادى زيد بأن الطائى شاعر كبير ، لكى يخاصمه فى ذلك عمرو وبكر وخالد ؛ وكان يكفى أن يشتد إعجاب بكر بشعر المتنبي ويسرف فى مدحه ، حتى يتألف عليه الآخرون ، ويقاطعوا المتنبي المسكين من غير جريرة ولا ذنب

أقول إن هذا ما يزعمه الزاعمون . وقد يكون هذا ما يزعم طه حسين نفسه إذا سألته عن سبب إعراضه الطويل . ولكن الحقيقة أعمق وأبعد غوراً من هذا كله : وقد خفيت حتى على المؤلف نفسه . ذلك أن طه حسين كان يحس ـ إحساساً مبعثه الالهام الذى لا حول له فيه ولا قوة ـ أن شعر المتنبي متعة هائلة أولى به أن يدخرها ، وأن يؤجل التمتع بها كما يترك المرء أطيب الثمار إلى آخر الوجبة ، بادئاً بالفج الثقيل منها . قال لى بعض الناس مرة : هل رأيت إيقوسيا ؟ قلت : لا ! قال فانى أحسدك على هذا أشد الحسد . إنى لأعطى كل ما عندى لكى أرى إيقوسيا للمرة الأولى !

ومن هذا الجامد البخيل الذى لا يعطى كل ما عنده لكى يدرس شعر المتنبي للمرة الأولى ؟

ذلك هو السبب الحقيق لهذا الاعراض الطويل ؛ وكان لا بد لصاحبه إذا سأله لماذا لا تعنى بدراسة المتنبي أن يجيبك بأعذار ينتحلها انتحالا ، وإذا هو يصطنع خصومة بينه وبينه ، وقد ينتهى به الأمر إلى تصديق هذه الأعذار والايمان بأن تلك الخصومة المفتعلة تقوم على أساس أو شبه أساس .

إلى أن جاء الوقت ، واستطاع المتنبي أن يرغم طه حسين على أن يسهر مع الساهرين من أجل شوارد شعره التى كان ينام عنها هو مل‏ء جفنه . وأن يكب على دراسة المتنبي انكبابا عجيبا ، وأن يقيم للمتنبي أسبوعا كان من أجل وأروع أسابيع الجامعة المصرية ، وأن يصطحب المتنبي معه إلى أوربا ، وأن ينزله معه فى الباخرة وفى القاطرات وفى مختلف الفنادق والديار ! !

وهكذا اضطر طه حسين إلى أن يرى نفسه ـ على كره منه كما يقول ـ منصرفا إلى دراسة المتنبي ، وأن يبادر إلى المتعة التى ادخرها لنفسه هذا الدهر الطويل ، وأن يسلط على هذه الدراسة ما وهبه الله من ذكاء خصب ، واطلاع واسع ، وملاحظة دقيقة ، وقدرة على استنباط الحقائق من أيسر المعلومات التى يمر بها الناس مرا دون أن يروها . . ثم استطاع بعد ذلك أن يصور لنا المتنبي ، فاذا نحن نحسه وإذا نحن نلمسه ، وإذا نحن نراه ماثلا أمامنا ، وإذا نحن نسير وإياه جنبا إلى جنب ، وإذا شخصية المتنبي تبرز لنا من وسط هذه الصفحات بروزا غير محاط بلبس ولا إبهام

وطه حسين الذى أبدع هذه الصورة يقول لنا مع إنه ليس من

المعجبين بالمتنبي ، المشغوفين بشخصه وفنه ، ولكنه لحسن الحظ لا يطلب منا أن نصدق كلامه هذا بل يقول لنا إننا مخيرون فى أن نرى أن هذا الكلام يصدر عن تفكير أو هذيان أو شذوذ وجموح (ص ٧٠) . . وأنا أفضل الرأى الأخير . . ومن الممكن للمصور البارع الذى أبدع الصورة وجلاها للناظرين أن يزعم أنه لا يحب صاحب هذه الصورة ولكنه لم يجد بين الناس من يصدقه

ليقل طه حسين إذن فى علاقته الشخصية بالمتنبي ما يشاء . فإن القراء قد غفروا منه على كل حال بكتاب يمتلىء حياة وقوة . ليس المتنبي فيه اسما يذكر وأشعارا تتلى وجدالا يسرد ، بل شخصا حيا يسعى ويعمل ، ويحس ويشعر ، ونحن نشاركه كل هذه الحياة . واستطعنا بسبب هذا كله أن نزداد حبا للمتنبي وعطفا عليه . وهى نتيجة لم يكن المؤلف يريدها أو يفكر فيها . كذلك استطعنا أن نعجب بالمؤلف حين ينصف المتنبي ، ويبرز الخفى من أركان هذه الحياة الثائرة العجيبة . واستطعنا أيضا أن ننظر شزرا حين نرى المؤلف يحمل على المتنبي حملات أقل ما يقال عنها إنها لا تتفق مع ما يذكره المؤلف نفسه عن المتنبي حين يتناسى ما بينهما من الحزازات القديمة

ليس من الممكن هنا أن نعدد محاسن هذا الكتاب الذى قلما خدم شاعر فى العربية كما خدم به أبو الطيب . وسيرى القارىء من غير مشقة كيف استطاع المؤلف أن يزيد لذتنا ومتعتنا بأشعار المتنبي أضعافا مضاعفة . فقصيدة مثل «وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه» ونحوها . أصبحنا بعد أن صورت لنا حياة المتنبي والظروف المعقدة التى أنشدت فيها تلك القصائد ـ نرى فيها حياة وقوة وعمقا لم نكن نحس له وجودا

ومع هذا ـ وبعد هذا كله ـ فالمتنبي مع طه حسين مظلوم . لأن طه حسين لم يستطع دائما أن ينسى ما بينه وبين المتنبي من خصام ، بل يتذكر هذا الخصام أحيانا فيعود إلى ظلم المتنبي ، ويمعن فى التشنيع عليه . أنظر إليه حين يريد ان يوهمنا بأن المتنبي مداح كسائر المداحين وأنه ينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها . ويريد منا أن نصدق هذا ، وهو نفسه الذى يرينا فى صراحة وجلاء كيف أعرض المتنبي عن مدح اسحق بن كيغلغ ولم يعبأ بتهديده ووعيده . مع أن المنفعة العاجلة كانت تقضى من غير شك بانكار النفس وبذل المدح

ونحن نرى المتنبي لا يكتفى بهذا بل يهجوه هجاء مراً ، ذلك لأن المتنبي كان غاضباً من هذا الرجل الذى أبى أن يقبل منه المدح فيما مضى ، فجازاه المتنبي على إعراضه بأن أعرض عنه يوم أضحى شاعرا مشهوراً .

هذا كله لا يمكن أن يذكر للمتنبي إلا بالخير . فانظر كيف يصور لنا المؤلف هذا الحادث : « فلا تسل عن كبرياء الشاعر وما امتلأت به نفسه من الزهو والغرور ، وإذا هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذى رغبه فيه ، ويحتال الأمير فى ذلك فلا يوفق . وتشق عليه هذه الاهانة فيمسك الشاعر فى طرابلس ، ولا يخلى بينه وبين السفر ، وإنما يمسكه سجيناً كالطليق ، وطليقا كالسجين ،

والمنطق السليم يقضى بأن مسلك أبى الطيب هذا ينطوى على كثير من العزة والشمم . ولا يدل مطلقا على أنه يطلب العاجلة ، فينكر نفسه . ولا بد للمنصف أن يرى أن عبارة المؤلف فى وصف ذلك الحادث قاصرة لم يملها الانصاف ، بل إن للحزازات القديمة أثراً فيها

وفى حياة أبى الطيب أمثلة من الوفاء والاخلاص ، استطاع المؤلف أن يحولها إلى أمثلة من التزلف والخوف . انظر مثلا إلى الحادث الشهير يوم أن غضب أبو العشائر على أبى الطيب وأرسل غلمانه وراءه فرماه أحدهم بسهم وقال خذه وأنا غلام أبى العشائر . فأنشد أبو الطيب هذه الأبيات العجيبة الساحرة :

ومنتسب عندى إلى من أحبه ... وللنبل حولى من يديه حفيف
فهيج من شوقى وما من مذلة ... حننت ولكن الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى ... دوام ودادى للحسين ضعيف
فان يكن الفعل الذى ساء واحداً ... فأفعاله اللائى سررن ألوف
ونفسى له ـ نفسى الفداء لنفسه ، ... ولكن بعض المالكين عنيف
فان كان يبغى قتلها يك قاتلا ... بكفيه فالقتل الشريف شريف

وليس هنا مجال لسرد الحادث كله ، ولكن العجيب أن سرد المؤلف له يضع الذنب كله على المتنبي ، لأنه أهمل مدح أبى العشائر وكأنه يلتمس العذر لهذا الرجل فى غدره بأبى الطيب

لقد قرر المؤلف فى نوبة من نوبات الظلم التى كانت تعاوده وهو يملى كتابه هذا : أن المتنبي « عبد للطمع والمال ، لا للجمال والفن . » ولم يجد من الحوادث والاشعار مساعداً له على تأييد هذا الرأى ، فاضطر إلى أن يصبغ الحوادث بالصبغة التى تتفق مع هذا الظلم ، وأن يلتمس للشعر الخالص البرىء أسباباً غير خالصة ولا بريئة

وقد وجد الأستاذ المؤلف نفسه فى مأزق حرج أمام قصيد

المتنبي الشهيرة « واحر قلباه ممن قلبه شبم » فقد رأى المؤلف أنها قصيدة لا يمكن أن تصدر عن رجل خلقه الأساسى أنه عبد للطمع والمال لا للجمال والفن . فماذا يفعل بهذه القصيدة التي إن دلت على شيء فانها تدل على أن المتنبي رجل خلقه الأساسى الشمم والأباء . لم يكن للمؤلف بد من أن يمر بهذه القصيدة مراً ، وأن يختصر الكلام عنها . وعن الحادث الذى تدل عليه اختصاراً . وأن يعتذر عن ذلك بأن الناس قالوا فيها فأكثروا . . أما ما اشتملت عليه القصيدة من الفن الهائل فانه لايظفر من المؤلف إلا بالعبارة الآتية : نلاحظ مسرعين أن المتنبي قد وفق فيها إلى حظ لا بأس به (كذا) من الاجادة الفنية . . سلك طريق ابن الرومى فألح فى العتاب حتى كاد يبلغ الهجاء . وأسرف فى المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب . »

هذا كل مايقوله عن هذه القصيدة هذا المؤلف العجيب الذى يخصص ست صفحات من كتابه لقصيدة « كفرندى فرند سيفى الجراز » ونحن نلاحظ هنا أمراً مدهشاً قد ساق المؤلف إليه إصراره على تجاهل هذه القصيدة . .

ولنمر أولا - مر الكرام ، على قوله إن بها حظا لابأس به من الأجادة الفنية ، ولكننا نقف قليلا عند قوله إن المتنبي أسرف فى المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب »

إن أقل إلمام بهذه القصيدة يرينا أن ما اشتملت عليه من المدح ليس من النوع الذى يوصف بالاسراف . ومهما يكن من شيء فان هذا المدح مقدم فى أول القصيدة ، لا لإصلاح ما أفسده العتاب ، بل توطئة للعتاب القاسى واللوم المر ؛ والقصيدة تزداد شدة وعنفا كلما اقتربنا من النهاية ؛ حتى تنتهى فعلا بتهديد سيف الدولة بالانصراف عنه والرحيل من دياره

وهذه القصيدة تدل على براعة فنية هائلة ، وعلى خلق متين وعر . ولذلك لاتتفق مع الدعوى بان المتنبي عبد للطمع والمال ، ذليل للملك والسلطان ، ولذلك تجاهلها المؤلف ومر بها مرا سريعاً . . .

* * *

وبعد فليست بى حاجة لأن أدلى بأمثلة أخرى يظهر فيها مابين المؤلف والمتنبي من خصومة قديمة . . ففيما ذكرناه كفاية لأن يرى القارىء أن المتنبي مع طه حسين مظلوم . ولكن من العدل أن نقرر أن طه حسين كثيراً ما كان ينسى هذه الخصومة . والكتاب ممتلىء بقطع عديدة ، استطاع المتنبي أن يثأر بها لنفسه ، وأن ينال من المؤلف كل انصاف وتقدير بالرغم منه

والمواقف الظالمة التى وقفها المؤلف من الشاعر هى من الوضوح والظهور بحيث لن يخطئها القارىء ؛ ونحن لانشك فى أنها البقية الباقية من أيام العهد القديم حين كان بعضنا يتعصب للمتنبى وبعضنا يتعصب عليه ، وكان طه حسين دائما من الفريق الثانى . .

ولكننا برغم هذا التحامل - بل لسبب هذا التحامل - سنجد فى مطالعة هذه الفصول متعة شائقة ، بحيث لايمكن أن نتناول الكتاب ثم نلقيه قبل أن نفرغ منه

يجب أن نطالع هذا الكتاب لا على أنه تاريخ أو نقد ، بل على أنه قطعة أدبية فنية ، تمثل صورة وتقص قصة . ولك أن تطالعه إذا شئت على أنه كتاب لطه حسين عن المتنبي . ولكنك بهذا ستضيع على نفسك لذة عظيمة ومتعة فائقة . فالوجه الصحيح للتمتع بهذا الكتاب هو أن تقرأه على حقيقته التى كشفت لك عنها فى أول هذا المقال . فالموضوع الصحيح هو المتنبي مع طه حسين . أو إذا شئت اصطلاحا حسابيا فقل : « المتنبي مضروبا فى طه حسين » فالكتاب هو حاصل هذا الضرب

وبهذا الاعتبار أو ذاك ستجد فى مطالعة الكتاب لذة جديدة لم تكن تتاح لك من قبل . ولو كان فى هذا الزمان إنصاف لشكرنى الناس على الكشف الذى كشفت والهدى الذى هديت . ولكننا فى زمن كما يقول صاحبنا :

إنا لفى زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحسان وإجمال

* * *

والآن فبالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن عشاق المتنبي أسجل هنا ما أحرزناه من النصر بانضمام عدو عنيد إلى صفوفنا ؟

محمد عوض محمد

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الأوبرا

موسم الدرامة الانجليزي

Dublin Gate Theatre Productions

لناقد « الرسالة » الفنى

كان للظهر الفنى البديع الذى ظهرت فيه فرقة « دبلن جيت » الأرلندية فى العام الماضى ما جعل وزارة المعارف العمومية تستقدمها فى هذا العام أيضا لتحيي موسم الدرامة الانجليزي على مسرح الأوبرا الملكى

ويذكر قراء الرسالة أنه سبق لنا الحديث عن هذه الفرقة وعن مقدرة مخرجها المستر « هلتن ادواردز » الذى يعمد فى اخراج رواياته إلى الطريقة الايمائية إذ يراها وسيلة لاشغال بال رواد المسرح وتفكيرهم فيكونون بذلك عنصرا من عناصر الرواية والتمثيل . وعنده أن من يقصد المسرح يجب أن يجلس منتبه الحواس لكل كلمة وكل حركة أو إشارة تبدو من الممثلين فى حين أن من يقصد السينما يجلس فى مكانه هادىء البال مرتاح الفكر يرى الأشياء تعرض أمامه عرضا سهلا لا يكلفه عناء لأن المدير الفنى يجعل عدسة التصوير تحصر أمامه ما يريد أن يوجه الأنظار اليه.

وليس من شك فى أن طلبة البكالوريا هذا العام سيقصدون دار الأوبرا لمشاهدة رواية « لابورنم جروف » المقررة عليهم فنرجو أن يتنبهوا إلى طريقة المخرج وفكرته فى الاخراج : من استعمال المنظر الواحد لتمثيل مشاهد ومناظر متعددة مستعينا بالاضاءة وبالنظارة فى تخيل المنظر المتجدد وما إلى هذا من الطرق التى لم يألفوها فى المسرح المصرى ؛ فعليهم ألا يضيقوا بما يرون وأن يحاولوا ادراك مرامى هذا المخرج وأن يتتبعوا الممثلين ليستمتعوا بالقصة والتمثيل

وممثلو الفرقة ليسوا فى حاجة إلى أن أتحدث عنهم ، فهم على جانب عظيم من النبوغ والمقدرة لا سيما الممثل الأول المستر ميكائيل ماك ليمور الذى نال اعجاب النقاد ورواد المسرح فى العام الماضى عندما مثل هملت وروميو فى روايتى شكسبير وكذلك المستر هلتن ادواردز الذى أبدى مهارة فائقة فى اداء دور الملك فى رواية هملت والكابتن شانوفا فى رواية « بيت القلوب المحطمة » لبرناردشو .

وقد ضمت الفرقة إلى مجموعتها السابقة ممثلا كبيرا هو المستر « آنيو ماك ماستر » الذى يزور مصر للمرة الأولى وقد اشتغل فى أكبر مسارح الوست اند بلندن وقام بتمثيل كثير من الأدوار الرئيسية منها عطيل فى رواية شكسبير

هذا وستمثل الفرقة مجموعة طيبة من الروايات التمثيلية لأكبر الكتاب الارلنديين والانجليز والايطاليين منها : « مدرسة النميمة » لشريدان ، « اهمية انتحال اسم ارنست » لاوسكار وايلد « صورة فى الرخام » لهازل إليس ، « عطيل » ، « الليلة الثانية عشرة » لشكسبير ، « لابورنم جروف » لبريستلى ، « ملاك الموت فى أجازة » لالبرتو كاسللى وغيرها .

ملاك الموت فى اجازة Death Takes a Holiday

هى مهزلة خرافية ألفها الكاتب الايطالى « البرتو كاسللى » ونقلها إلى الانجليزية « والترفريس » فكرته عجيبة وطريفة حببت رجال السينما إلى إخراجها على الشريط وقد عرضت فى موسم القاهرة الماضى .

لاحظ ملاك الموت أن الناس يخشونه ويفزعون منه فأراد أن يعرف سر هذا الفزع وسر بغض الناس له وأن يدرك بنفسه ما يحبب الناس في الحياة والخلود .

نزل إلى الأرض كظل أو طيف يرى ، وبينما هو يطوف إذ يشاهد قصرا للدوق « لامبرتو » عامرا بالضيوف فيمر بالحديقة ويلتقى بفتاة جميلة تدعى « جرازيا » من اللواتى يعشقن الخيال والجمال والشعر فتفزع منه

ويظهر الموت لرب الأسرة ويفصح له عن حقيقته وأنه سوف يتجسد فى صورة إنسان ويأتى إلى القصر باسم الأمير « ساركى » حتى يستطيع فى معاشرته للضيوف أن يلبس السر الذى أتعبه وأقلقه كثيرا ويطلب إلى الدوق أن يكتم السر خلال أيام ثلاثة يقضيها بينهم عاطلا لا يموت فيها إنسان ولا تسقط ورقة من شجرة أو تذبل زهرة .

اختلط الأمير ساركى بين الضيوف فأحسوا بشىء من التغيير

فى حياتهم ، فهذا شيخ عجوز أحس بدم الشباب يجرى فى عروقه وعادله النشاط والمرح وتذكر الحب ، وهذه فتاة تحب الأمير وتختلى به ، فلما يحدق فيها وتحدق فيه ترى فى عينيه عمقا يفزعها وتكاد تلمس سره فتصرخ خائفة ، فيقول لها إنها لم تحبه وأن كل ما تحس به هى ، عاطفة الساعة ، وأحب ملاك الموت ، جرازيا الصغيرة ، وأحبته هى ورأى أنها تختلف عن الفتاة الأخرى تماما . ولما أخبرها أنه سيرحل بعيدا عن هذه البلاد طلبت إليه أن يأخذها معه . فلما بين لها صعوبة ذلك عليه وعليها قالت له إن الحياة بدون الحب لا تساوى شيئا .



الممثلة شيلاماى تطلب إلى ملاك الموت ، ميكائيل ، ماك ليمور أن يأخذها

ويعرف رب القصر بحبهما ويضطر أن يصرح لضيوفه بالسر الرهيب فيتبدل مظهرهم ويفزعون ، وهذا الشيخ المرح قد عادت إليه الكآبة وثقل السنين . وهذه الزهور تذبل ، ولكن أم الفتاة والدوق يخشيان أن تذهب الفتاة الصغيرة مع ملاك الموت دون أن تدرى حقيقة أمره فيطالبونه أن يصرح لها بالحقيقة كاملة . ولكنه يخشى أن يفقدها إذا هى عرفت ولكن أمام الواجب يفهمها رويدا رويدا ومع ذلك لا تفزع . فيتغير من إنسان إلى طيف فلا ترى فيه هذا التغير وترجوه أن يأخذها معه حتى إلى الفناء وتسير اليه فيفتح لها ذراعيه وتسقط أوراق الاشجار ويستأنف الموت مهمته فى الحياة . وهكذا أراد الموت أن يهزأ من الناس فهزأ الناس منه ،

استطاع المخرج أن يصور الطيف والظلال التى تسقط على الحجرات فى صورة بديعة كان لها الاثر المطلوب في نفوس النظارة ، وكانت الاضاءة غاية فى السرعة ، وقام المستر ميكائيل ماك ليمور بدور ملاك الموت فكان بديعا كما أجادت الآنسة شيلا ماى أداء دور حرازيا فى سذاجتها وروحها الشعرية

عطيل Otello

هى تراجيدية شكسبير المشهورة التى نقلها إلى العربية الأستاذ خليل مطران ومثل عطيل الاستاذ جورج ابيض ومثل ياجو امامه عدد من كبار الممثلين منهم منسى فهمى وزكى طليمات ويوسف وهبى

والرواية تصور لنا كيف أحب البطل المغربى ، عطيل ، الفتاة النبيلة ، ديدمونه ، وكيف استطاع ياجو أن يدوى فى أذنى عطيل بأن امرأته تخونه ويحيك خطة جهنمية تساعده على الوصول إلى أغراضه فيثور المغربى ويصرخ ويصل فى ثورته إلى حد الجنون والقتل

يقتل ديدمونة التى أحبها والتى أحبته وفضلته على كل النبلاء من أهل جنسها وتزوجت منه برغم والدها ، وأخيرا وبعد فوات الفرصة يعرف أنها كانت بريئة فيطعن ياجو ويغمد خنجره فى صدره ويجود بأنفاسه على قبلة من فم من أحبها ،

عمد المخرج إلى طريقته المعروفة فى الاعتماد على المنظر الواحد مستعيناً بالاضاءة بين فصل وآخر ، وكان موفقا إذ اختار ستارا خلفيا يمثل السماء كان له أثر كبير فى توضيح حركات الممثلين كلما كان الضوء خافتا فى مقدمة المسرح .



الممثل الارلندي ، آنيو ماك ماستر ، فى عطيل ولكنه خالع ملابسه

مثل المستر ، آنيو ماك ماستر دور عطيل فأعطى صورة قوية لهذه الشخصية . كان متطرفا فى البدء كعادة المحب ولكنه انقلب فى الفصل الثانى الى رجل هائل ثائر .

كان بديعا فى القائه وفى حركاته التى تعبر عما يضطرم فى نفسه عند كل كلمة يلفظها ياجو ، وكان عظيما فى ثورته فى الفصل الثانى وفى الفصل الأخير بعد ما قتل ديدمونة وأحس أنه فقدها .

ومثل المستر ادوارد دوريا جو فأعطى صورة طبيعية من الشخصية ولم يلجأ إلى المغالاة ، وكانت الممثلة ، آن كلارك ، بديعا فى دور ديدمونة

يوسف تادرس

5 me Année, No. 192

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 8 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
*
الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٥

العـدد ١٩٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ٨ مارس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـدد

جميل صدقى الزهاوى

بمناسبة ذكراه الأولى



من حق الزهاوى على (الرسالة) وهى ديوان العرب وسجل الأدب أن تقف على ذكراه العظيمة الأليمة وقفة الذاكر بالجميل تحيي بنثير الورد خلود مجده ، وتحيي بنثير الدمع مصاب فقده : فلقد ساعد على إنهاض العرب بوثوب فكره . وعلى إحياء الأدب بوميض روحه ، وعلى إنعاش (الرسالة) بعيون شعره . ومن حق الزهاوى على صاحب الرسالة أن يقوم فى هذه المناسبة فيفرغ فى سمع الزمان الواعى هذا الحديث الذى يتسم على ما أظن بخبرة الصديق وثقة المطلع ونزاهة المؤرخ ؛ فإنى ماذكرت العراق إلا ذكرت فى أول أشيائه

فندق (كارلتون) . وفى أول أشخاصه شخص الزهاوى : ذلك أن أول مكان لقيت فيه العراق هو هذا الفندق ، وأول إنسان سمعت منه العراق هو هذا الرجل !

كنت جالساً فى بهو هذا الفندق صباح اليوم الثانى لقدومى بغداد ، أروض قلبى على روعة الفراق ، وأذنى على لهجة العراق ، وعينى على غرابة الصور ، وإذا بأحد الندل يلقى إلى ببطاقة كتب عليها (جميل صدقى الزهاوى) . ولم تكد تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة ، حتى رأيت على باب البهو شيخاً فى حدود الثمانين قد انخزع متنه وثقلت رجله ورعشت يده فلا يحمل بعضه بعضاً إلا بجهد

أقبل على يتخلج على ذراع غلامه وقد انبسطت أسارير جبينه العريض وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم على تسليم البشاشة بيد مرتجفة ، ورحب بى ترحيب الكرم بصوت متهدج ، ثم انطلق يشكو جحود الأمة وإغفال الدولة وكيد الخصوم وإلحاح المرض ، وتطرق إلى خصومته العامة مع الأستاذ العقاد فذكر – والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم وهيئة الشهيد – كيف استغلها من سدد خطاه فى الشعر ، وأرجف بها من تولاه بالرعاية ؛ وحمد الله على أننى جئت بدله فقد كان وجوده كما كان يظن تأليباً متصلا على فضله ، وإزعاجاً مستمراً لسكينته

لم يدع لى الزائر الكريم فرجة بين كلامه الدافق أدخل عليه منها بالتخفيف والتسرية ، فان الزهاوى - كما علمت بعد - ديدنه أن يتكلم ، كالبلبل خاصته أن يغرد ، والزهر طبيعته أن يفوح ؛ فهو فى مجلس الصداقة شاك أو شاكر ، وفى مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفى مجالس الأنس مفاكه أو محدث .

كان الشيخ يتكلم أو ينشد ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف ، وشاربه النائم على فمه الأهرت ، وعينه البراقة تترأرى من خلف المنظار ، وشعره الشمط يتهدل على نتوء الصدغ ، تخيّل إلى أن طيفاً من أطياف الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجاة فى هذا المكان الصامت والنور القاتم والجو الغريب ؛ ولكن الحيوية التى تنبض فى حركاته ، والشبيبة التى تفيض فى كلماته ، والعزيمة التى تضطرم فى نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال وتجعلنى وجهاً لوجه أمام (كتلة) من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتتألم ، وتثور وتهدأ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبدا عن (الأنا) إذا صح هذا التعبير

* * *

دأبت (عربانة) الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلى صباح يوم الجمعة من كل أسبوع . فكنت أستقبله استقبال العابد المتحنث للكاهن الملهم ، ثم نقضى ضحوة النهار معاً يحدثنى فأعجب أو ينشدنى فأطرب ؛ وقد تكون أذنى إلى فمه وليس معنا ثالث ولكنه يجاهر بالالقاء ، ويصور المعنى بالصوت والإيماء ، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع . وهو بين الفترة والفترة يعود إلى شكاته وشكواه ، وأظل أنا أمام هذا الجيشان الروحى ساهما حالما أفكر فى الذهن الذى لا يكل ، واللسان الذى لا يفتر . والزهو الذى لا يتطامن ، والطموح الذى لا يتقاصر ، والقلق الذى لا يسكن . والتمرد الذى لا يهن ، والشباب الذى يلبس رداء الشيخوخة . والحياة التى تتخذ هيئة الموت

كنت ألقاه فى خلال الأسبوع مع الناس فى منتداه بشارع الرشيد ، أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروى الخبر الطريف ، فى بشاشة جذابة ، وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بمسبحته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية ، أو تمتد (بالآنة) إلى نادل القهوة كلما طلب الشاى إلى صديق

وكنت أزوره فى مثواه (بالصابونجية) فأراه فى مباذله قاعداً يشكو الوصب لأنه قضى الليل ساهدا يقرأ ، أو ذاهلا ينظم ، فالقصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده ، والمسودات مدسوسة تحت مخدته أو فى ثيابه ، فلا يتمالك حين يرانى أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمرى فى شعرى والأمة تقذفنى بالبهتان ، والحكومة تخرجنى من مجلس الأعيان ، والملك يستكثر علىّ أن أكون شاعر البلاط ! . انى سأذهب ، وستبقى أشعارى معبرة عن شعورى وناطقة بآلامى ، فهى دموع ذرفتها على الطرس ، وهى خليقة أن تبعث من عيون قارئها دمعة هى كل جزائى من نظمها ،

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

الطين الضعيف

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

سألنى صديق عن شىء لماذا أفعله أو أتركه - فقد نسيت - فكان مما أذكر أنى قلته له إنى أعيش الآن كما أحب لا كما يجب، فقد جاوزت الأربعين، والذى بقى لى من العمر ستفسده الشيخوخة المتهدمة لامحالة حين ترتفع بى السن فلا يبقى لى حينئذ من لذة الحياة إلا الوجود بمجرده لو أن هذا يفيد متعة، فمن حق فى هذه الفترة - التى أرجو أن تطول قبل أن يدركنى الذوى والذبول - أن أعتصر من الحياة كل ما يدخل فى الطوق اعتصاره من المتع واللذاذات، فأنا أقرأ ما أشتهى، وأذهب إلى حيث أريد، وأجالس من آنس به، ولا أبالى من غضب ممن رضى. فما فى الحياة فسحة لمبالاة ذلك؛ وأطلق نفسى على السجية كلما وسعنى ذلك، وليس للناس على أكثر من أن أؤدى واجباتى فيما عدا هذا

ودخل على وأنا أقول هذا لصديق شاب مهذب فحيا وقال إنه يقرأ الآن ديوانى، ففزعت ولكنى ابتسمت له وقلت «كان الله فى عونك. ومن الذى ابتلاك به...»

فأهمل السؤال وجوابه وأقبل على يسألنى: «انك تكتب بسرعة» فقلت «إن الذى أعرفه أنى أكتب فى غرفة تحيط بها جدران من الحجارة لا تنفذ العين منها على خلاف ماكان يصنع ديماس الذى كان يكتب على ما يقال فى دكان فيجىء الناس وينظرون اليه من وراء الزجاج.. أريد أن أعرف يا صاحبى ماذا تعنى بالسرعة»

قال «أعنى أنك تكتب إلى مجلات كذا وكذا وكذا.. وتكتب فى صحيفة يومية أيضاً. هذا كثير.. فمتى تستطيع أن تكتب كل ذلك.. إنه نشاط عجيب...»

فقلت «جواب السؤال أنى أكتب وأنا نائم. فالذى تقرأه لى هو أضغاث أحلامى.. وأما النشاط يا صاحبى فذاك أنى مازلت فى شبابى»

فتركنى وهو يقول إنه يدرس ما أكتب وإنه ينوى أن ينشر بحثا، فاستعذت بالله وحاولت أن أصرفه عن هذا العناء الباطل فما أفلحت، فتوجهت إلى الله عسى أن يصرف عنى هذا السوء بطريقة ما.. وهل كثير على الله أن يشاء أن تشب النار فى كتبى التى عند هذا الشاب، أو تنقلب الدواة كلما هم بالكتابة، أو تجمد أصابعه أو يحدث له غير ذلك من أسباب التعويق والتعطيل؟

وانفض هذا المجلس، ولكن خاطرا ثقيلا ألح على وظل يدور فى نفسى، ذلك أن كل من ألقاهم من إخوانى يذكرون هذا النشاط. ولا يكتمون تعجبهم. فلم يسعنى إلا أن أتعجب مثلهم وإلا أن أسائل نفسى: «أكان هذا يبدو لهم منى مستغربا لو أنهم كانوا يروننى شابا فى العشرين من عمرى مثلا؟ أتراهم يستغربون لأنى فى ظنهم خلفت شبابى ورائى فالمنتظر من مثلى فى اعتقادهم هو الفتور...» ولم يعجبنى هذا التأويل فانه ثقيل على النفس، وآثرت أن أقول إنهم هم معدومو النشاط ولذلك يتعجبون لى. ثم إنى لا أحس الا أنى مازلت شابا. والعبرة بالاحساس لا بهذه الشعرات البيضاء التى يقول عنها ابن الرومى إنها تزيد ولا تبيد فهى مثل نار الحريق.. وما قيمة هذه الشعرات.. لقد ابيضت وأنا فى العشرين من عمرى، وكنت يومئذ بها فرحا مزهوا، وكنت أعدها مظهراً للرجولة ومدعاة للاحترام. فماذا حدث حتى صرت أبغضها.. أو لا أبغضها وإنما أنظر إليها فى المرآة فأزوم، وتقول شفتاى «همممم»... ثم انى أرانى أجلد من أبناء العشرين، وأصبر على العناء والجهد، وأقدر على العمل والحركة، وأحسن تلقيا للحياة، وأسرع استجابة لدواعيها، فما قيمة هذا الذى تطالعنى به المرايا؟ وما حاجتى أنا إلى المرايا؟ ومتى كنت أنظر فيها حتى أنظر فيها اليوم؟ كلا.. إن امامى باذن الله حياة طويلة، وليست الحياة أن أظل باقيا فى الدنيا والسلام، وإنما هى أن أظل قادرا على العمل وكفؤا للأعباء، وهذا ما اعتقد أنه سيكون شأنى فما أشعر بدبيب الفتور ولا أرى أية علامة على ابتداء النضوب.

وضحكت وأنا أقول ذلك فقد تذكرت أنى قلت مرة لصاحب كان يحدثنى فى هذا الموضوع أو يسألنى على الأصح «هل تعرف حكاية الذى أراد أن يتزوج بنت السلطان.. لقد زعموا أن رجلا من الغوغاء زعم أنه سيتزوج بنت السلطان، فلما سألوه كيف يتسنى له ذلك، قال إن المسألة بسيطة؛ فقد رضيت أنا بزواجها

ولم يبق إلا أن يرضى السلطان . وكذلك أنا فقد عزمت أن أعيش إلى التسعين والمائة أيضا وأنا موافق على ذلك وراض بهذه القسمة وليس باقيا إلا أن يواتنى الحظ ويساعفنى القدر ... »

ويتفق لى كثيرا أن أقف بالسيارة حيث يطيب لى الوقوف . ويسرنى حين أفعل ذلك أن أنظر إلى الناس وهم يروحون ويغدون وأن أتأمل ما يكون منهم وكيف يمشون وكيف يتحدثون ويميل بعضهم على بعض وكيف يذهلون عما يكون أمامهم لأن ما هم فيه من الحديث يستغرقهم فيصطدمون أو يحدث غير ذلك مما يضحك ويشرح صدر المتفرج . وأنظر أيضاً إلى الفتيات الناهدات وهن يمشين متخلعات متثنيات متقصعات وعيونهن دائرات فى الرجال فاذا نظروا اليهن أغضين كأنما كن ينظرن عفوا . إلى آخر ما لا يسع المرء إلا أن يراه فى الطريق . فحدث يوما أنى اشتريت شيئا من دكان ثم دخلت السيارة وقعدت فيها وشرعت أدخن وأجيل عينى فى الناس فكان الرجال يمضون ويمرون بى ولا يعيرونني التفاتا ؛ أما الشبان فكانت عيونهم ترمقنى خلسة . وأما الفتيات فكن يحدقن فى وجهى صراحة ، فكنت ابتسم مسرورا بهذه المناظر . فمرت بى فتاتان بارعتا الجمال فلما بلغتا حيث كنت واقفا مالت إحداهما على الأخرى جداً وهمست وهى تنظر إلى : « ده عجوز » ومن الغريب أنى سمعت الهمسة الخافتة على بعد مترين ، وأحسب أنى ما كنت لأسمع ما تقول لو أنها صاحت بأعلى صوت . ما أحلاه وأجمله وأبرع شبابه ، وأكبر الظن أن الترام كان يمر حينئذ فيغرق هذا الثناء بضجته فيفوتنى ما يسرنى . أو تسقط عمارة فيفزع الناس ويذهلون ويشغل الخلق بذلك وأنا فى جملتهم ... وأنا أتكلم أولا ثم أفكر بعد ذلك : والأولى العكس ، ولكن هذا ما أصنع غير عامد . فلما سمعت الهمسة الثقيلة رأيتنى أصيح بالفتاتين « فشرت . فشرتما . فشرتن » فضحكتا وثنتا وذهبتا تعدوان

ولم يسؤنى قول الفتاة إنى « عجوز » فما كانت سنها تزيد على الرابعة عشرة وأنا فوق الأربعين بسنوات فهى طفلة بالقياس إلى وليس فى وسعها إلا أن تحس هذا الفرق . وغير منتظر أن تدرك أن صباها صبى جسم لا أكثر . وان شبابها الذى تزهى به طراوة ولين وملاسة ونعومة . وعزيت نفسى بلهجة المتشفى به بأنها ستفقد ذلك كله حين تناهز الأربعين وأنها لن تجد يومئذ عوضاً عما فاتها وأن نفسها ستسبق جسمها إلى الذوى . على حين أظل أنا فيما أرجو شاب النفس لا يضيرنى أن الزمن يكون قد حفر على وجهى وجلدى أخاديد عميقة . ومن العدل أن تباهى الفتاة وتزهى بما لا عوض عنه وليس من الانصاف أن أنكر عليها ذلك أو أكرهه منها

ثم رجعت أقول لنفسى ولكن ما قيمة شباب النفس وحده ..؟ ماجدواه إذا فقد الجسم شبابه ..؟ وتذكرت أبياتاً من قصيدة طويلة كنت قلتها منذ عشرين عاماً ولم أنشرها - بل نشرت بضع مئات منها فى صحيفة أسبوعية -

أيها الطينُ ما ترى بك أبغى لستَ - فيما أرى - لشيء كفاء
إن طلبتُ السماء قلت لى الأر ض - أو الأرض كنتَ لى عصاء

إلى آخر هذا الهراء ... ولم يكن هذا الطين يستعصى عليه شىء يومئذ . وما قلت ذلك إلا فى ساعة فتور شديد جعلنى كاليائس أو انسياقا مع المعانى التى ولدتها روح القصيدة وأنا أنظمها . ولم يكن يخطر لى أنى سأذكر هذه الأبيات التى رميتها وأهملتها حتى مرت الفتاتان بعد عشرين عاماً ونظرت إحداهما - واحلاهما - إلى الشيب فى فودى وقالت وهى تميل على صاحبتها « ده عجوز »

إيه يا فتاتى الصغيرة أما والله إنى لأشتهى أن أفتح ذراعى وأضم كل فتاة خود مثلك - أضم ملايينكن دفعة واحدة فى عناق مفرد كما أراد من نسيت اسمه - نيرون إذا كانت الذاكرة لم تخنى - أن يضرب أعناقكن جميعاً بضربة سيف واحدة .. ولعله استسهل هذا واستخف مؤونته واستضأل كلفته . وإنى لأرفق بكن منه - أو لعلى أقسى فما أدرى - ولكنكن ملايين والطين ضعيف واه .. وإنى لأرانى كما يقول ابن الرومى :

ضعيفاً جباناً - اشتهى ثم أنتهى
بلحظى جنابَ الرزق لحظَ المجانب

وإنى لأحس الحياة ثقيلة الوطأة على كاهل الصبر .. وإنى لأعود فى الليل إلى دارى فتقول لى زوجتى ألا تستريح ؟ فأقول كلا .. لا راحة لحى .. وأمضى إلى مكتبى وأجلس إليه وأهم بالكتابة فأرى النعاس يثنى رأسى على صدرى ، فأنهض متبرماً ، ساخطاً على هذه البلادة ، وأقول لنفسى وأنا أرتمى على الفراش أترى لو كنت فى مجلس لهو وطرب أكنت أفتر هذا الفتور ؟

ويغلبنى النوم قبل أن أسمع جراب النفس . . وإنى ليكون أمامى الطعام الجيد المشتهى فأمد إليه يدى محاذراً وأتناول منه مترفقاً وعلى قدر مخافة الكظة أو الانتفاخ ، ولم أكن أبالى ذلك قبل سنوات . . وإنى لأهم بزيارة الصديق فيصدنى أن درجات سلمه كثيرة فأرتد وألعن أصحاب العمائر الذين لا يتخذون المصاعد . .

ولم يرضنى هذا السخط على نفسى فقلت وأين هذا الفتور ؟ ومن ذا الذى لا يكل أحياناً ؟ . إنى أعمل كالحمار بالليل والنهار وأكتب فى اليوم الواحد فصولا ثلاثة أو أربعة لأكثر من صحيفة واحدة . وأقطع بالسيارة أكثر من خمسين كيلو فى نهارى ، وأسهر إلى منتصف الليل ، ثم أقوم فى الفجر مع الديكة والعصافير وأقصد إلى مكتبى وأروح أدق على آلة الكتابة حتى لقد غير جارى غرفة نومه لكثرة ما أزعجه وأطير النوم عنه فى الصباح الباكر . . وأنا أجالس الناس وأحادثهم وأفعل ما يفعله المرء بشبابه ولا أرانى أكل أو أعى أو أمل أو أفتر . . وإن رأسى لدائب لا يكف عن العمل فى يقظة أو نوم ؛ ولو كنت أقيد ما يدور فى نفسى لوسعنى أن أملأ الدنيا كلاماً ، ولكن المصيبة أنى لا أقيد شيئاً وأنى أنسى ، فالذى يبقى لى لا يعدل جزءاً من مائة مما يخطر لى ، وإذا كانت لى شكاة فتلك أنى لا أفتر ولا أرانى أقنع بما أستطيع وما يدخل فى وسعى . ولقد قال لى مرة طبيب حاذق شكوت إليه أنى لا أهدأ - إن بنائى كله من الأعصاب ، وأن جسمى ليس أكثر من شبكة أعصاب ركبت لها العظام لتمسكها ووضع لى هنا قلب وهناك معدة إلى آخر ذلك ، ثم كسى هذا كله جلداً رقيقاً ليمكن أن يقال إن هذا جسم إنسان ، ولكن المهم هو هذه الأعصاب ؛ فاذا كنت أشكو شيئاً فى بعض الأحيان فيحسن بى أن أعرف أنه من الأعصاب ليس إلا ، فأرحها حين تتعب تعد كما كانت فانها متينة . وأكبر الظن أن هذه ليست أعصاباً وإنما هى « جنازير من الحديد ، ويكفى أنها تتحملك » كذلك قال . ودليل صدقه أنى لم أشك شيئاً قط مذ سمعت منه هذا ؛ ولو كان بى شىء غير هذه الأعصاب لما نفعنى كلامه . ولقد خرجت من عنده إلى صيدلية فيها ميزان فوقفت عليه فاذا بى - بثيابى الشتوية لا أزن أكثر من سبعة وأربعين كيلو ، فضحكت وقلت : « كم ترى يكون وزنى فى الحمام . . بغير هذه الثياب . . أو فى الصيف الذى يستدعى التخفيف . . صدق الطبيب الحاذق فما هذا بجسم إلا على المجاز . . ولكن هذا البناء الواهى يحتمل النوم على الرمال وتوسد الحجارة . نعم فانى كثيرا ما أخرج إلى الصحراء فأرتمى على رمالها ساعة وساعتين وتحت رأسى حجر صلد كبير . وفى بيتى أترك الفراش الوثير إلى الكراسى الخشنة التى لا راحة لمخلوق عليها . . وأفتح النوافذ وأقعد أو أنام بين تيارات الهواء ولا أرى ذلك يضيرنى . وأحسب هذا وراثة . فقد كانت أمى رحمها الله تنام وأنفها إلى النافذة المفتوحة - صيفاً وشتاء . نعم أزكم أحياناً ولكن الفيل يزكم . . وساقى مهيضة ولكنى لا أتعب من المشى وإنما أتعب من الوقوف . . ولم أتخذ المدافىء قط . فاذا أوقدوا فى بيتنا ناراً تركت لهم الغرفة إلى أخرى لا نار فيها . . وما لبست معطفاً إلا فى أعقاب مرض وعلى سبيل الوقاية إلى حين . . وإنى لأرى مناعة جسمى تزداد عاماً فعاما وأرانى كلما علت سنى أحس أنى صرت أقوى وأصح بدنا وأقدر على العمل والحركة والجهد . . فلست بعجوز يا فتاتى الصغيرة وإنى وحياتك لأصبى من ابنى . وان الذى فى عروقى لنار سائلة لا دماء جارية ، وقد أحسنت بالانصراف بعد تلك الضحكة الفضية التى ستظل فى مسمعى تذكرنى بك وتصبينى إلى أترابك والسلام عليك والشكر لك . وإلى الملتقى « وأين منى يهرب الهارب ؟ » . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

٤ - صعاليك الصحافة . . . .

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وجاء أبو عثمان وفى بُروز عينيه ما يجعلهما فى وجهه شيئا كعلامتى تعجبُ ألقتهما الطبيعة فى هذا الوجه . وقد كانوا يلقبونه (الحدَقِى) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحدا لا يبين عن قبح هذا النتوء فى عينيه الا بمرادف ومساعد من اللغة . . . . وما تذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة .

وانحطَّ فى مجلسه كأن بعضَهُ يرمى بعضه من سخط وغيظ . أو كأن من جسمه مالا يريد أن يكون من هذا الخَلق المشوه ، ثم نصب وجهَه يتأمل ، فبدت عيناه فى خروجهما كأنما تَهمّان بالفرار من هذا الوجه الذى تحيا الكآبة فيه كما يحيا الهمّ فى القلب : ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعت عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان رجعت من عند رئيس التحرير زائدا شيئاً أو ناقصاً شيئا فما هو يرحمك الله ؟

قال : رجعت زائداً أنى ناقص ، وههنا شيء لا أقوله ، ولو أن فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين . لوقفوا على عمك وأمثال عمك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء .

وقال ابن يحيى النديم : دعانى المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدنى قول عمارة فى أهل بغداد . فأنشدته :

ومن يشترى منى ملوكَ مُخَرَّمِ ... أبعْ حَسَناً وابنى هشامٍ بدرهمِ
وأُعطى رجاءً بعد ذاك زيادة ... وأمنحُ دينارا بغير تندُّمِ

قال أبو عثمان :

فان طلبوا منى الزيادة زدتُهم ... أبادُلفٍ والمستطيل بنَ أكثمِ

ويلى على هذا الشاعر . اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما لعظم الدرهم . واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم : كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتّابا . ولكن ههنا شيئا لا أقوله

وزعموا أن كسرى أبرويز كان فى منزل امرأته شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم فقالت له شيرين : أمرت الصياد بأربعة آلاف درهم . فان أمرت بها لرجل من الوجوه ، قال : إنما أمر لى بمثل ما أمر للصياد . فقال كسرى : كيف أصنع وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أتاك فقل له : اخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى؟ فان قال أنثى . فقل له : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بقرينها ، وان قال غير ذلك فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : اخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى ؟ قال : بل أنثى . قال الملك : فأتنى بقرينها . فقال الصياد عمر الله الملك ، إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد . . .

قلت : يا أبا عثمان فهل وقعت في مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟

قال : لم ينفع عمك أن سمكته كانت بكراً . فانما يريدون إخراجه من الجريدة وما بلاغة أبى عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض . . . ولكن ههنا شيئا لا أريد أن أقوله .

وسمكتى هذه كانت مقالة جودتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان وجعلتها فى البلاغة طبقة وحدها . وقبل أن يقول الاوربيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : « الكتاب ملوك على الناس » . فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكا بتلك المقالة فاذا هو بها من (صعاليك الصحافة) .

لقد كانت كالعروس فى زينتها ليلة الجلوة على محبها . ما هى إلا الشمس الضاحية ، وما هى إلا أشواق ولذات ، وما هى إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هى إلا هى . فاذا العروس عند رئيس التحرير هى المطلقة ، واذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظرياً فنعم ، وأما عمليا فلا ، وهذا عصر خفيف يريد الخفيف ، وزمن عامى يريد العامى ، وجمهور سهل يريد السهل : والفصاحة هى إعراب الكلام لا سياسته بقوى البيان والفكر واللغة ، فهي اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت فى علم النحو

(١) كتب الدكتور زكي مبارك مقالا فى جريدة المصري الغراء زعم فيه أننا قلنا « إن الصحافة لا تنجح إلا فى أيدي الصعاليك » ولا ندري كيف أحس هذا المعنى . ثم تهددنا ! ! ! فقال : « ما رأيك إذا وقف لك حد الصحفيين (ولعله يعنى نفسه) فى معركة فاصلة ! ! ! ورماك بحب التكلف والافتعال فى عالم الانشاء والتأليف » ؟ « ما رأيك إذا حملك رجل منهم (ولعله يعنى نفسه) على عاتقه والقى بك فى هاوية التاريخ لتعيش مع صعصعة بن صفوان » ؟ — ابلغ خطباء العرب وانطقهم —

وجوابنا لصاحبنا هـذا : أن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التى تبيع لعب الأطفال ـ ألا يبيعوا « معركة فاصلة » ولا « هاوية تاريخ » . .

وحسبك من الفرق بينك وبين القارىء العامي : أنك أنت لا تلحن وهو يلحن

قال أبو عثمان : وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصى ويكثر العامي فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية . ويرجع الكلام الصحافي كله سوقياً بلدياً (حنشصياً) . وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلف والتوعر والتقعر كما يرون الآن فى الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهى إلى الأقل ، والأقل ينتهى إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة ، وجاءت فنون من الكتابة ما هى إلا طبائع كتَّابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها . ولو كان فى قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة ، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهو ومسلاة فراغ وفساداً وإفساداً . والمصيبة فى هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستنشطون القراء ويلهونهم . ونحن إنما نعمل فى هذه النهضة لمعالجة اللهو الذى جعل نصف وجودنا السياسى عدما ؛ ثم لملء الفراغ الذى جعل نصف حياتنا الاجتماعية بطالة . وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان فى هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) وتركه فى المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه فى أمس وكأنهم فى غد .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

***

فما شككت أنهم سيطردونه فان الله لم يرزقه لساناً مطبعياً ثرثاراً يكون كالمتصل من دماغه بصندوق حروف . . . ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم بهم النفاق ويتلون ، ولا كهؤلاء الأدباء الذى يتم بهم التضليل ويتشكل .

ورجع شيخنا كالمخنوق أرخى عنه وهو يقول : ويلى على الرجل . ويلى من الكلام الظريف الذى يقال فى الوجه ليدفع فى القفا . . . كان ينبغى ألا يملك هذه الصحافة اليومية إلا مجالسُ الأمة ، فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتَّاب جميعاً . أما فى هذه الصحف فالكاتب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ، ولو أن عمك فى خفض ورفاهية وسعة ، لكان فى استغنائه عنهم حاجتُهم إليه . ولكن السيف الذى لا يجد عملا للبطل ، تفضُله الإبرة التى تعمل للخياط . وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟ يملك مالا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها . ولا بالشمس والقمر ، إذ يملك عقله وبيانه . على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه يعقل ما شاؤا ويكتب ما شاؤا .

لك الله أن أصدقك القولَ فى هذه الحرفة اليومية . إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين . . .

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثلَ البارود فى دماغه ثم أشعله . فأردت أن أمازحه وأسرى عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان . جاءتنى بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب فى عرض دعواه : إن جار بيته غصبَه قطعة من أرض فَنائه الذى تركه حول البيت . وبنى فى هذه الرقعة دارا . وفتح لهذه الدار نافذات . فهو يريد من القاضى أن يحكم برد الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبنية فوقها ، و . . و . . وسد نافذاتها المفتوحة . . . !

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب فى الصحافة : كثرت ألفاظه ونقص عقله . « وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شراً من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ؛ كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض »[1]

والأدب وحده هو المتروك فى هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه إذ كان أرخص ما فيها ، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب ، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ . وصفحة الأدب وحدها هى التى تظهر فى الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد تأكل منه ولا تعطيه شيئاً .

ثم يأبى من تترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء ، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقرية إلا نَحَلَه نفسه ووضعه تحت ثيابه ؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشى الأخبار وقد يكون الرجل فى كتابته كالعامة ، فاذا عبته بالركاكة

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

والسخف والابتذال وفراغ مايكتب؛ قال: هذا مايلائم القراء. وقد يكون من أكذب الناسَ فيما يدّعى لنفسه وما يهوّل به لتقوية شأنه وإصغار من عداه. فاذا كذّبه من يعرفه قال: هذا ما يلائمنى. وهو واثق أنه فى نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تُملأ الساعة، فاذا هم جميعاً يقولون: تك تك.. تك تك.....

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل؛ جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب. كلّه سواء وكله بياناً[1]، وكان المكىّ طيبَ الحجج، ظريفَ الحيل، عجيب العلل. وكان يدّعى كل شىء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق. وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه. قلت له مرة: أعلمت أن الشارى حدثنى أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم، كأنه مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك، وأن المأمون بعث له بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب؟

قال: فان هذا الحديث أنا ولدته، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق...[2]

ثم قال أبو عثمان: وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف فى تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون، فنظر عمك فى هذا الذى ادعاه، فاذا الرجل على التحقيق، كالذى يزعم أنه اكتشف أمريكا فى كتاب من كتب الجغرافيا....

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور فى الصحف لا بأنه صدق ولكن بأنه «مكتوب فى الجريدة».... فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب - متى كان مغروراً - أنه إذا تهدد إنساناً فما هدده بصفحته بل بحكومته....

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة؛ ولكن ويحك: إن ثلاث دبابات ليست ثلاث قطع من أسطول انجلترا......!

***

وضحك أبو عثمان وضحكت فاستيقظت

(طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

(١) و (٢) هذا من كلام الجاحظ

من التاريخ

المهديون المنتظرون

لأستاذ كبير

قال الأستاذ محمد عبد الله عنان فى مبحثه البارع (ضوء جديد على مأساة شهيرة) فى الجزء (١٨٨) من هذه المجلة: إن رجعة[1] الحاكم قد بنيت على المقالة المهدوية، وذكر ثلاثة من الجماعة المنتظرة. وقد رأيت أن أطرف قراء (الرسالة) أقوالا موجزة فى (المهديين المنتظرين) مما خطه مؤرخو النحل الإسلامية ونقله رجال الأثر. وأنا فى ذلك راوٍ لا ينقد مقالة فرقة، ولا يجادل جماعة مذهب، ولا يضيف شيئا من عنده إلى نقله. وروايتى هى عن هذه الكتب: مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين للأشعرى، الفرق بين الفرق للبغدادى، الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم، الملل والنحل للشهرستانى، فرق الشيعة للنوبختى، سنن أبى داود، صحيح الترمذى، المحصل للرازى، شرح مواقف الأيجى للجرجانى، شرح الدرة المضية للسفارينى.

١ — على بن أبى طالب

قالت السبئية: «إن عليا لم يقتل، ولم يمت، ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، ويملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا. وهو المهدى المنتظر دون غيره[2]».

٢ — ابن الحنفية (محمد بن على)

قالت الكربية الكيسانية: «إن محمد بن الحنفية حى لم يمت، وإنه فى جبل رضوى، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل، يأتيه رزقه غدوة وعشية، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر، يحفظانه من أعدائه؛ وهو المهدى المنتظر[3]».

٣ — عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب

«زعمت الجناحية (فرقة من الكيسانية) أن عبد الله بن

(١) (الرجعة) عند الدروز اقترب أجلها، اذ مدة (الغيبة) ألف سنة، ورجال الدين منهم فى قلق وحيرة لدنو الميعاد. ويقول بعض لبعض: استعد، قربت (الساعة). وستشهد (القاهرة) - حسبما سطر فى كتب الجماعة - عجائب وغرائب. وتعز فيها أقوام وتذل أقوام...

(٢) البغدادى، النوبختى.

(٣) الأشعرى، البغدادى، الشهرستانى.

معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب حى بجبال أصبهان لم يمت ولا يموت . ولا بد أن يظهر حتى يلى أمور الناس ، وهو المهدى الذى بشر به النبى [١] »

٤ — محمد بن على (الباقر)

« قالت الباقرية : إن محمد بن على (الباقر) هو المهدى المنتظر بما روى أن النبى قال لجابر بن عبد الله الانصارى : (إنك تلقاه فاقرأه منى السلام [٢]) وكان جابر آخر من مات بالمدينة من الصحابة ، وكان قد عمى فى آخر عمره ؛ وكان يمشى فى المدينة يقول : يا باقر ، يا باقر ، متى ألقاك ؟ [٣] »

٥ — محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب

« قالت طائفة من الجارودية الزيدية : إن محمد بن عبد الله حى لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وهو مقيم بجبال ناحية الحاجر ، وهو المهدى الحديث الذى يقول فيه : يوافق اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى [٤] »

٦ — جعفر بن محمد (الصادق)

« قالت الناووسية : إن (الصادق) حى لم يمت ولا يموت حتى يظهر أمره ، وهو القائم المهدى . رووا عنه أنه قال : إن رأيتم رأسى يدهده عليكم من الجبل فلا تصدقوا فانى صاحبكم صاحب السيف [٥] »

٧ — اسماعيل بن جعفر الصادق

« قالت فرقة من الاسماعيلية الواقفية والناووسية : إن اسماعيل بن جعفر لم يمت إلا أنهم أظهروا موته تقية ، وعقد محضر أشهد عليه عامل المنصور بالمدينة . فهو حى لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . فالجماعة منتظرة اسماعيل بن جعفر [٦] »

٨ — محمد بن اسمعيل بن جعفر

« قالت القرامطة : ان محمد بن اسمعيل لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض ، وانه هو المهدى الذى تقدمت البشارة به ، وهو في بلاد الروم وهو القائم المهدى ؛ ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد . واعتلوا فى نسخ الشريعة (شريعة محمد) أنه قال : لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا [١] »

٩ — موسى بن جعفر (موسى الكاظم)

« قالت الواقفة (الموسوية ، المفضلية ، الممطورة) : إن موسى ابن جعفر لم يمت ولا يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها ، ويملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا . وهو المهدى المنتظر [٢] »

١٠ — جعفر بن على الهادى

« غلت النفيسية فى جعفر بن على الهادى وفضلته على على بن أبى طالب ، واعتقدت انه أفضل الخلق بعد رسول الله ، وادعت أنه القائم [٣] »

١١ — محمد بن القاسم

« قالت طائفة من الجارودية إن محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين (القائم بالطالقان أيام المعتصم) حى لم يمت ولا قتل ، ولا يموت ولا يقتل حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا [٤] »

١٢ — يحيى بن عمر

« قالت طائفة من الجارودية : ان يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (القائم بالكوفة أيام المستعين) حى لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا [٥] »

١٣ — الحسن العسكرى [٦] بن على الهادى

« قالت فرقة : ان الحسن لم يمت وهو القائم ، ولا يجوز أن يموت ولا ولد له ظاهر . وقد ثبت عندنا أن القائم له غيبتان ، وهذه إحدى الغيبتين . وسيظهر ويعرف ثم يغيب غيبة أخرى

(١) الأشعري ، ابن حزم .
(٢) نقلت الجملة كما رويت
(٣) البغدادي .
(٤) ابن حزم ، الأشعري ، البغدادى .
(٥) الأشعري ، الشهرستاني ، البغدادى .
(٦) الشهرستانى ، ابن حزم . البغدادي .

(١) الأشعرى ، النوبختى .
(٢) الأشعري ، البغدادى .
(٣) النوبختى .
(٤) ابن حزم .
(٥) ابن حزم .
(٦) نسبة إلى (العسكرية) من أسماء مدينة (سر من رأى) لما بناها المعتصم انتقل إليها بعسكره فقيل لها العسكر

وقالت فرقة ثانية : إن الحسن مات لكن سيجيء. وهو المعنى بكونه قائماً أى يقوم بعده (بعد الموت) [١].

١٤ — محمد بن الحسن العسكرى

« قالت الفرقة الثانية عشرة وهى الامامية : لله فى الأرض حجة من ولد الحسن بن على ، وأمر الله بالغ . وهو وصى لأبيه . ولا يجوز أن تخلو الأرض من حجة ؛ ولو خلت ساعة لساخت الأرض ومن عليها . فنحن مقرون بوفاة الحسن وأن خلفه هو الامام من بعده حتى يظهر ويعلن أمره . والامام (عليه السلام) أعرف بنفسه وزمانه منا [٢] » .

« لقبه المهدى والمنتظر ... والقائم المكرم المطهر
أكثر من سبعين شخصاً شاهدوا ... جماله ولاحت الشواهد
وغاب غيبتين (صغرى) امتدت ... وكانت الشدة فيها اشتدت
قريب سبعين من الأعوام ... كان اختفى عن أكثر الأنام
كان له من الموالى سفرا ... إذ غاب واختفى ورام السفرا
وغيبة أخرى الى ذا الآن ... وانه لصاحب الزمان
لكنه لا بد من أن يخرجا ... وبعد شدة نلاقى الفرجا [٣] » .

١٥ — محمد بن عبد الله . محمد المهدى ، الفاطمى

روى الترمذى وأبو داود «عن ابن مسعود أن رسول الله قال : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا منى . أو قال من أهل بيتى ، يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى ، يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً » [٤]

***

ومن الفرق التى تنتظر رجعة زعيمها فرقة الخلفية من الخوارج . فهم ينتظرون قيس بن مسعود وقد غرق فى واد منهزماً من الخوارج الحزبية [٥]

وممن - كانوا - ينتظرون منجدين ومغيثين - وإن لم يسموا بالمهديين - القحطانى والسفيانى [٦] . ومصدقو المقالة المهدوية يرتقبون هذين الرجلين وغيرهما (قبل الفاطمى) مفسدين فى الأرض وعاثين لا مغيثين

(١) الشهرستاني ، الرازي .
(٢) النوبختى .
(٣) ابن الحر العاملى المشغرى .
(٤) الترمذي ، ابو داود .
(٥) البغدادى .
(٦) السفيانى عند الأمويين وجماعتهم مثل المهدى عند الهاشميين وشيعتهم .

« ومن أقوى علامات خروج المهدى خروج من يتقدمه من الخوارج : السفيانى والأبقع والأصهب والأعرج والكندى . أما السفيانى فاسمه عروة واسم أبيه محمد ، وكنيته أبو عتبة . قال الشيخ مرعى فى فوائد الفكر ، وفى عقد الدر : إن السفيانى من ولد خالد بن يزيد بن أبى سفيان . ملعون فى السماء والأرض ، وهو أكثر خلق الله ظلماً . قال على : السفيانى رجل ضخم الهامة بوجهه أثر جدرى ، بعينه نكتة بياض ، يخرج من ناحية دمشق ، وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقر بطون النساء ، ويقتل الصبيان . ويخرج إليه رجل من أهل بيتى فى الحرم فيبعث إليه جنداً من جنده فيهزمهم ، فيسير إليه السفيانى بمن معه حتى إذا جاز بيداء من الأرض خسف بهم فلا ينجو إلا المخبر عنهم . أخرجه الحاكم فى مستدركه وقال هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه . والأبقع يخرج من مصر ، والأصهب يخرج من بلاد الجزيرة ، ثم يخرج الجرهمي من الشام ، ويخرج القحطانى من بلاد اليمن . قال كعب الأحبار : فبينما هؤلاء الثلاثة قد تغلبوا على مواضعهم إذ قد خرج السفيانى من دمشق من واد يقال له : وادى اليابس .

وفى الحديث : لا تحشر أمتى حتى يخرج المهدى يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة ، ويخرج إليه الأبدال من الشام ، والنجباء من مصر ، وعصائب أهل الشرق حتى يأتوا مكة فيبايع له بين الركن والمقام ، ثم يتوجه إلى الشام وجبريل على مقدمته وميكائيل على يساره . ومعه أهل الكهف . فيفرح به أهل السماء والأرض والطير والوحوش والحيتان فى البحر ، وتزيد المياه فى دولته ، وتمتد الأنهار ، وتضعف الأرض أكلها فيقدم إلى الشام فيأخذ السفيانى فيذبح تحت الشجرة التى أغصانها إلى بحيرة طبرية [١] » .

***

وهناك فرقة تنتظر نبياً (لا مهدياً فقط) عجمياً (لا عربياً) وهى اليزيدية من الخوارج أصحاب يزيد بن أنيسة ، قالوا : سيبعث نبى من العجم بكتاب يكتب فى السماء وينزل عليه جملة واحدة ، ويترك شريعة محمد إلى ملة الصابئة المذكورة فى القرآن [٢] » .

أحمد القراء

(١) السفارينى .
(٢) شرح المواقف .

داعى الدعاة

ونظم الدعوة عند الفاطميين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدعاية من أعظم العوامل التى عاونت على ظفر الحلفاء فى الحرب الكبرى ؛ وللدعاية فى عصرنا أعظم شأن فى تكوين الرأى العام ، وفى توجيهه إلى النواحى والغايات التى يراد توجيهه إليها ، ولا يخفى ما للرأى العام اليوم من القوة والنفوذ حيثما تتاح له فرص الظهور والاعراب ؛ فنى الأمم الديمقراطية التى مازالت الحريات العامة فيها قائمة مكفولة يتمتع الرأى العام بكل قوته ونفوذه ، ويحسب حسابه ، ويحدث أثره فى توجيه الحوادث والشؤون ؛ وحتى فى الأمم التى تسودها النظم الطاغية ، وتسحق الحريات العامة ، ويسلب الرأى العام والخاص كل حرية فى القول والاعراب ، تتبوأ الدعاية أهميتها كوسيلة قوية لتكوين رأى الكافة ، ومحاولة التأثير على الخاصة والمستنيرين ، وإخفاء ما يراد إخفاؤه من عيوب النظم الطاغية والاشادة بما تدعيه من الفضائل والمزايا وتحقيق الاصلاح والخير العام ؛ وفى سبيل هذه الغاية تعتمد النظم الطاغية على هيئات قوية محكمة للدعاية الشاملة تسيطر على جميع وسائل الدعوة كالصحافة والأدب والراديو والتمثيل والسينما وغيرها مما تلمس أثره فى تكوين الرأى العام وتوجيهه وتثقيفه

وتبدو هذه الهيئات المحدثة للدعاية كأنها بدعة فى النظم الجديدة ، وكأنها ابتكار لم يسبق مثوله فى غيرها ، وقد بلغت فى بعض الدول مرتبة الوزارة الخاصة ، وأضحت من دعامات الحكم الجديد التى يحسب حسابها فى حشد الرأى العام وفى توجيه حيثما شاءت السياسة العليا . بيد أنا سنرى فى هذا الفصل أن تنظيم الدعاية الرسمية على هذا النحو ليس ابتكاراً جديداً ، ولم تنفرد به تلك الدول والنظم التى تفاخر به وتعتمد عليه ، وانه قد عرف فى الدول الاسلامية قبل ألف عام ، واتخذ كما يتخذ اليوم أداة قوية لغزو الأذهان وتوجيه رأى الكافة ، وكان دعامة من دعائم الحكم والخلافة

أجل عرفت الدولة الاسلامية قيمة الدعاية ولجأت فى مختلف الظروف والحوادث لتحقيق غايات الدين والسياسة : بيد أنها لم تدمج فى هيئة خاصة ، ولم تنظم أصولها ووسائلها بصورة رسمية إلا فى الدولة الفاطمية . ففى ظل هذه الدولة القوية المدهشة نجد الدعوة تتخذ وسيلة من أنفذ الوسائل لحشد الأولياء والكافة وتوضع لها نظم هى آية الطرافة والبراعة . ونجد هذه الهيئة الرسمية التى تضطلع بهذه المهمة الخطيرة ترتفع إلى مرتبة الوزارة ، وتجعل الخلافة الفاطمية منها سياجاً منيعاً لأمامتها وزعامتها الدينية

لما استقر الفاطميون بمصر وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية ، ذلك أنها لم تجد فى مصر كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة مهداً خصباً لدعوتها ، بل ألفت فى مصر مجتمعاً متمدناً عركته الأحداث الدينية والسياسية والفكرية ؛ ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية ، وغزو الأذهان بطريقة منظمة ، لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة فان الدعاية المنظمة هى خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة . وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك ، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى ، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حمايتها وتدعيمها ، فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الاسلامية ؛ وكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها ، تنساب منه إلى جنبات الامبراطورية الفاطمية الشاسعة وإلى سائر الأقطار الاسلامية الأخرى

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية ، ومذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، نراها تنتظم فى القصر الفاطمى وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها ، وكان يقوم بالقاء هذه الدروس قاضى القضاة وغيره من أكابر العلماء المتضلعين فى فقه الشيعة ، وكانت تلقى أحيانا فى القصر وأحيانا فى الجامع الأزهر : وينوه المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية باقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس

والجلسات المذهبية فيقول لنا إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥هـ جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المتقادمات فى الزحام احد عشر رجلا ، فسكفنهم العزيز بالله . بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة التى بدأت فى صورة الدروس الفقهية المذهبية ، وهى دروس كان يطلق عليها مجالس الحكمة ، كانت ستاراً لدعوة أخرى بعيدة المدى ، كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، هى الدعوة الفاطمية السرية التى كانت الخلافة الفاطمية تجد فى بثها وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها فى حظيرتها المذهبية ، الدينية والسياسية ؛ وكان من عناية الخلافة الفاطمية بتنظيم هذه الدعوة وبثها أن أنشأت لها خطة دينية تضارع فى المرتبة والأهمية خطة الوزارة ذاتها ؛ وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التى أنشأتها الدولة الفاطمية وانفردت بها : وكان متوليه ينعت بداعى الدعاة وهو أيضا من أغرب الشخصيات الرسمية التى خلقتها الدولة الفاطمية ؛ وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بمثل امتيازاته ، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين فى العلوم الدينية وفى أسرار الدعوة ويعاونه فى مهمته اثنا عشر نقيبا وعدة كبيرة من النواب يمثلون فى سائر النواحى : وكانت هذه الدروس والمحاضرات الخاصة التى يشرف عليها داعى الدعاة ، تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته فى إيوان القصر الكبير : وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر ، وهو المسمى « بالمحول » ، وكان من أعظم الأبنية وأوسعها فاذا انتهت القراءة أقبل الأولياء والمؤمنون على الداعى فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين فى دخول المذهب ، ويؤدى له النجوى من استطاع ، وهى رسم اختيارى صغير يجبى من المؤمنين للانفاق على الدعوة والدعاة ، وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضا لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب - ورجال الدولة والقصر - ونساء الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم . ويحظر شهودها على الكافة ؛ وتعرض فيها الدعوة الفاطمية على يد دعاة تفقهوا فى درسها وعرضها ؛ وكان تلقين هذه الدعوة ، هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان فى الواقع أهم غاية يراد تحقيقها ؛ وكان للكافة أيضا نصيب من تلك المجالس الشهيرة ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ويعقد مجلس للأجانب الراغبين فى تلقى الدعوة : وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعا إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقا لمستوى الطبقات والأذهان فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا

وقد انتهت إلينا وثيقة رسمية هامة هى سجل فاطمى باقامة داعى الدعاة ، وبيان مهمته واختصاصاته وما يجب عليه اتباعه لاذاعة الدعوة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة ما يأتى : « وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الامامة والأئمة . وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ، يعلن باقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوفيقهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ، ويفضى بهم روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان . . . »

ومنها فى شرح واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك اخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه . . . ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك . . . ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع . ولا تلق الحبَّ الا فى مزرعة لاتكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات الى نور البراهين والآيات ؛ واتل مجالس الحكم التى تخرج اليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم الا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ،

ودل على اتصال الممثل بالممنون ؛ فان الظواهر أجسام . والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس . والظواهر أرواحها . . . » (١)

وفى هذه العبارات ما يلقى الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية وعلى وسائلها فى غزو الاذهان وحشدها من حولها ؛ ومن المعروف ان الخلافة الفاطمية كانت تتخذ الامامة الدينية شعارها . ومرجع زعامتها الدينية فى العالم الاسلامى ، وشرعية ملكها السياسى ، فالدعوة الفاطمية التى كانت تلقى فى مجالس الحكمة الى الكافة والى الخاصة متدرجة فى مراتب من السرية والتحفظ طبقا لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية ، كانت رغم صفتها الدينية . ترمى فى النهاية الى أغراض سياسية ؛ ذلك أن الخلافه الفاطمية كانت ترى أن تحشد جمهور أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين . ومتى اجتمعوا فى ظل الامامة وتحت لوائها ، استطاعت أن تحركهم وان توجههم وفق مصالحها وغاياتها ، وان تعتمد على تأييدهم ونصرتهم كلما اقتضت الظروف والأحوال

والدول المحدثة التى تعتمد فى عصرنا على سلاح الدعاية ترمى الى مثل هذه الغاية ؛ فهى تتوسل بما لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والراديو والسينما وغيرها لفرض مذاهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحيانا على جمهور الشعب والحصول على تأييده ونصرته . ولم تكن الخلافة الفاطمية . وهى من دول العصور الوسطى ، تتمتع بشىء من هذه الوسائل القوية المحدثه ، ولكنها مع ذلك استطاعت ان تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة . وأن تجنى كثيرا من الثمرات المادية والمعنوية ، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية . وذيوع هذه الدعوة فى قبائل إفريقية البربرية هو الذى جمع كلمة القبائل حول عبيد الله المهدى ، وهو الذى مهد لقيام الدولة الجديدة

والخلاصة ان فكرة الدعاية التى تتبوأ فى النظم السياسية والاجتماعية الحديثة ، ولا سيما نظم الطغيان الفاشستية ، مكانة خاصة ، وتعتبر من أقوى أسلحة الطغيان فى عصرنا . ليست جديدة فى ذاتها أو غاياتها ، وان كانت جديدة فى وسائلها ، وقد عرفتها الدول الاسلامية قبل الف عام ، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية أذكى وابرع وانفذ أساليبها

محمد عبد الله عنان

---

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها

في الأدب المقارن

الرومانسية والكلاسية

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطا صريح التعبير قريب المتناول ، مطلق السجية فى الإعراب عن الشعور الإنسانى ، وتظل له هذه السمة حينا ، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق إلى حياة المدينة . بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية ، فيرتقى الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغراضه ، بيد أن الحضارة المادية التى توفرها المدينة لساكنيها ولا توفرها الطبيعة للمتبدين ، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم ؛ وكذلك الثقافة العقلية التى فى ظلها يرتقى الأدب رقيا عظيما ربما زيفت على الإنسان شعوره ، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على إفساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الإحساس الصادق ، وتكبيله بالتقاليد والأوضاع ، وتضييق حدوده وسد آفاقه ، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعانى

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعى التقليدى انحط ولم يعد يسير إلا من تدهور إلى تدهور . وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرق منه وأصدق ، ولم يعد للأدب الذى غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض ، إلا الرجوع إلى الطبيعة والاقتباس من الأدب البدوى المرسل الطبع ، والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التى لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة ، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجمانا صادقا مبينا لها ، وبغير تلك العوامل الخارجية هيهات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته ، وإنما يزداد إمعانا فى التكلف السمج جيلا بعد جيل ، وإغراقا فى اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس ومزجها بألاعيب الألفاظ ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل

فحياة الطبيعة المطلقة فى أعنتها ، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة ، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيرا خاصا ، ولكل منهما مزايا هى قادرة على إيداعها الأدب : تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها وروائع أسرارها ومخاوفها ،

وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الثاقب والطموح إلى المثل العليا، وأسباب الإنشاء الأدبي الفني والجهد الأدبي المتصل، والتفنن في ابتكار صور الأدب وأوضاعه، والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين بنصيب، والأدب الذي اجتمع له رحب الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها، إلى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها، أدب لاشك بالغ من الرقي غاياته؛ أما الأدب المتبدى فيظل على صدقه وجماله قاصراً ساذجاً، وأما أدب المدينة الذي بالغ في الانغمار في جوها وأهمل جانب الطبيعة، فسائر إلى الفساد والانحلال لا محالة

والرومانسية هي الصفة التي ينعت بها عادة الأدب الذي يؤثر جانب الطبيعة، ويحفل بمظاهر عبادتها والتأمل في ظواهرها ووصف مشاهدها والسبح في آفاقها، يؤثر كل ذلك على اللفظ فلا يهتم بهذا إلا بقدر ما يستخرجه في إيضاح أغراضه. وعلى حياة المدينة فلا تستغرق شؤون السياسة وعلاقة رجاله برجالها ورجال البلاط والحرب كل جهده وتفاعله، ولا يصرفه الحاضر عن الولوع بالماضي والتأمل فيه وفي المستقبل، ولا ريب أن ذلك لا يعني إهماله لجانب الحضارة والثقافة، بل هو بهما شديد الولوع ويدرس ماضيهما ومستقبلهما شديد الشغف؛ والكلاسية هي النعت الذي يطلق على الأدب لذي استغرقته حياة المدينة وشغلها عن جانب الطبيعة وانغمر فيها رجاله، في مجتمعها ومنتدياتها ومعاركها السياسية والحزبية والشخصية، وآثر التأنق في اللفظ والشكل الأدبي وكفكف العاطفة لحل محلها الذكاء والبراعة واللباقة، وضيق مجالات القول وحدد أغراضه، وكل هاتيك صفات ولوازم تعلق بالمجتمع المترف وتعكس عنه في الأدب

وقد كانت الصفة الرومانسية هي الغالبة على الأدب الإغريقي في عهد عظمته، لأنه ترعرع في مجتمع قريب من البداوة، وفي حياة شديدة النشاط مطردة الحركة، تجيش بالمغامرة والجلاد، وفي حرية في الفكر والسياسة. أما الأدب اللاتيني فكان أكثر اصطباغاً بالكلاسية لأنه لم يبلغ ذروته إلا في ظل الملكية المطلقة والامبراطورية الموطدة المستقرة. فكان أدب مدينة وثقافة متأنقة، واشتهر أعلامه كفرجيل بإحكام الأسلوب والتشبث بمبادىء وتقاليد أدبية خاصة، وما زالت إلياذة هومير وإنياد فرجيل موضوع مقابلة من هذه الناحية. وكان أدباء الإنجليزية أكثر احتفالا باللاتينيين واقتداء بهم في العصر الكلاسي في الأدب الإنجليزي، كما كانوا في عهده الرومانسي أميل إلى اليونان وأكثر تغنيا بآثارهم، وبعدم اطلاع الأدب العربي على الأدب اليوناني فقد هذا العنصر الرومانسي الذي أصبح في حاجة إليه، حين انتقل إلى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقافة

وقد كانت الرومانسية هي الصفة الغالبة على الأدب الإنجليزي في العصر الإليزابيثي؛ ففي ذلك العهد كانت البساطة والخشونة تسودان المجتمع والبلاط؛ والحركة والنشاط والتطلع تتجلى في شتى نواحي الحياة: في العلم والأدب والكشف والمخاطرة والحرب. كان عهد نهضة تتحفز وتستشرف إلى الجديد وترمي إلى التوسع، لا تقنع بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود؛ وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويبرم بالأنيار والأقياد، فهو لا يرضاها في الأدب؛ ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المادة متلاطم العباب مترامي الآفاق، جياشا بشتى العواطف والمعاني، حافلا بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية، لم يتقيد رجاله بتقاليد فنية غير معقولة: فعلى حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التي أثرت عن الدرامة الإغريقية، انتفع الأدب الإنجليزي بخير ما في تلك الدرامة وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط؛ ولم يتقيد بألفاظ خاصة في الشعر، مما أصبح فيما بعد يسمى «الألفاظ الشعرية»، بل زاد على استعمال كل ما في لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية، واشتق ماراقه من ألفاظ. وأخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الإنجليزية شكسبير، وأنجب بجانبه أحد كبراء شعرائها سبنسر، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والفتوة، وتلاه عصر كلاسي طويل، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذي يليه، خمدت فيه روح المغامرة والتطلع التي كانت متنبهة في عصر اليزابث، واستراح الناس إلى حياة المدينة ومنتدياتها، وانغمر الأدباء في المعارك الأدبية فيما بينهم، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويفت ومعاصريهم، محتدم حينا ومترفق حينا، ومعلن تارة ومستتر أخرى؛ وانغمروا كذلك في المشادات السياسية وانضووا تحت ألوية الأحزاب، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط في سلكهم والذود عن مبادئهم بأقلامهم، فكان سويفت في صف المحافظين، وأديسون في جانب الأحرار، وكان ستيل يختلف من هؤلاء إلى أولئك. وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة ومجاليها، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار الأجنبية، لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة، فكانوا يتناولون في رسائلهم إلى أصدقائهم في الوطن شتى

المواضيع ماعداها . واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمام وقدموه صراحة على المعنى ، وجعلوا للشعر ألفاظا لا يتعداها ومواضيع لايتخطاها ، واتخذوا للشعر وزنا واحدا مزدوج القافية لم يكد أحد ينظم فى سواه ، وقلدوا الأقدمين من أدباء الاغريقية واللاتينية ونقادهما . وانصاعوا لمبادئهم انصياعا أعمى ؛ وبهذا كله ضاقت حدود الادب ضيقا شديدا ، وأرهقه التكلف وقدحته القيود . فسار إلى الانحلال

وزعيم هذا المذهب الكلاسى الذى بلغ أوجه على يديه هو بوب الذى نال الغاية من إحكام اللفظ ، وقد قال عنه بعض مترجميه إن شعره ليس إلا نثرا جيد النظم ، وذلك حق : فهو يتناول فى شعره مواضيع هى أقرب إلى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية ؛ وكان يسمى بعض قصائده « مقالات » ، ومنها مقاله فى النقد التى نظم فيها مبادىء المذهب الكلاسى فى الأدب ونقده ، فظلت مرجعاً لمن تلاه من شعراء المذهب ، ومنها يقول : « تعلم إذن التقدير الحق لمبادىء الأقدمين ، فمحاكاتها هى محاكاة للطبيعة ، فتلك المبادىء القديمة — التى إنما اكتشفت ولم تخترع — إن هى إلا الطبيعة ؛ غير أنها الطبيعة منظمة مهذبة » ، وقد ترجم بوب إلياذة هوميروس ترجمة قدسها معاصروه ، ولكنها قلما تذكر الآن أو يعتمد عليها أو تعد صورة صحيحة لشعر هوميروس ، إذ كان من المستحيل على أديب مشبع بالروح الكلاسى أن يخلص إلى روح الشاعر الاغريقى الرومانسى ؛ ثم دبت فى المجتمع الانجليزى روح جديدة ، وانتعش الأدب الانجليزى من خموله باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالأدب الالمانى ، والعودة إلى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحى . تمخض كل ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذى يليه عن نهضة رومانسية جديدة فكت الأدب من عقاله ونبهت الشعر من غفوته ، ورحبت آفاقه وبسطت جوانبه ، وسبحت به فى آماد الكون والطبيعة والانسانية . وأنجبت هذه النهضة جمهرة أخرى من أفذاذ الأدب الانجليزى : أنجبت وردزورث وبليك وكولردج ، ثم بيرون وشلى وكيتس ، ثم تنيسوت وبراونتج ، عدا من أخرجت من أفذاذ النثر الذين جاء نثرهم حافلا بمظاهر النهضة الجديدة ؛ ولا غرو : ففى العهود الرومانسية يتجلى الروح الشعرى حتى فى النثر ، وفى العصور الكلاسية يفيض الروح الشعرى حتى فى النظم ؛ وما تزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة فى الأدب الانجليزى ، على ما داخله من نزعة واقعية ، وإقبال على درس مسائل المجتمع كافة

والعصر الرومانسى فى الأدب العربى هو ولا شك عصر الجاهلية والعهد الراشدى وصدر العصر الأموى : فى تلك العهود وكان المجتمع العربى أدنى إلى البساطة والتبدى ، وكان الأدب مرسل السجية صادق التعبير عن خلجات النفوس : من حزن وطرب ولذة وألم ، وحب وبغض وحماسة ووصف ، خاليا فى أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظى أو التعمل فى المعنى أو التصنع فى الموضوع . وما تزال لحكم بعض الأعراب والأعرابيات ومراثيهم ، وحماسيات قطرى بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس ، روعة فى النفوس وغبطة شاملة ، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم ؛ هذا على رغم بساطة ذلك الأدب وخلوه من مظاهر التثقف والتعمق فى التفكير

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة ، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعى النظم ووسائل التفنن الأدبى ما لم يتوفر فى البادية ، فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضيع وعمق نظرة ووفرة محصول ، وتجلى ذلك فى خير آثار ابن الرومى والطائى والمتنبى والمعرى ، والجاحظ والبديع والجرجانى وأضرابهم . على أن الأدب فى طوره هذا انغمر فى جو المدينة انغمارا تاماً ، فكان هذا عهداً كلاسيا صميما : فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجاً باللفظ . واحتفاؤهم به ، ثم استعبادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادىء الموروثة عن المتقدمين . وضاقت مواضيع القول رويداً رويداً وكبلها التكلف والاغراب ، وتجمع الأدباء حول موائد الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب ، وخاضوا غمار مشاحناتهم ، وتشاحنوا هم أنفسهم فيما بينهم ، وهى مشاحنات تذكرنا بحملات سويفت ودريدن على الوزراء والقواد فى عصرهما ، وحملاتهما على غيرهما من الأدباء ، فمن هجاء الوزراء قول دعبل فى وزير المأمون :

أولى الأمور بضيعة وفساد ... أمر يدبره أبو عباد
يسطو على جلاسه بدواته ... فضمخ بدم ونضح مداد

ومن تهاجى الشعراء قول ابن الرومى فى البحترى :

أف لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب
البحترى ذنوب الوجه نعرفه ... وما عهدنا ذنوب الوجه ذا أدب

وقول المتنبى فى معاصريه :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ... ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ؟
وكم جاهل بى وهو يجهل جهله ... ويجهل علمى أنه بى جاهل

فى ذلك العصر الكلاسى الطويل أعرض الشعراء إعراضاً يكاد يكون تاماً عن الطبيعة وحديثها ومجاليها . وأقبلوا على حياة المدينة أى إقبال . وما منهم من له أمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهيئه

لأبنائها من أسباب اللذة والمتعة والشهرة ، فكان منهم طامح إلى الملك كالمتنبى والشريف الرضى ، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد ، وراغب فى الولاية حظى بها كالطائى وقصر عنها كابن الرومى ، ومغتبط بالحظوة والمنادمة كأبى العتاهية والبحترى ، وغير هؤلاء وأولئك ممن سعوا سعيهم ولم ينالوا مثل شهرتهم ؛ وممن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة . ونظير ذلك كله تراه فى العصر الكلاسى الانجليزى سالف الذكر : فقد تقلب دريدن بين الأحزاب وحرص على الحظوة فى البلاط . وتدرج أديسون فى المناصب حتى صار وزيراً للخارجية . ولم يقنع سويفت بما تولى من مناصب فى الكنيسة ، وكان إخفاقه فى مطامعه البعيدة أحد أسباب نقمته وتشاؤمه

وتجلت هذه الصفة الكلاسية فى الأدب ذاته : حددت مواضيعه وقصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة فى المدينة . وأهملت المواضع الرومانسية الصبغة ، كالالتفات إلى الماضى واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر ، ومعالجة خرافاته واستلهامها مابها من معانى الجمال والعظمة والبطولة ، وأهملت أحاديث الرحلات وأوصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة ، ما وجد منها فى الحقيقة وما يتخيله الشاعر ، وكفكف الخيال ونبذت آثاره من عالم الأدب .

خلا الأدب العربى فى ذلك العهد من كل هذه المواضيع ، وهى من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الأدب إذا ما تحضر أهلوه واتقفوا بالثقافة ، وإنما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامى ، فظل الأدب الفصيح أدباً كلاسياً وصار الأدب العامى هو الممثل للرومانسية

دام ذلك العصر الكلاسى الطويل فى الأدب العربى طوال عهد ارتقاء الأدب ، أى زهاء ثلاثة قرون ، ثم طوال عهد انحطاطه أى إلى العصر الحديث ، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلوائه وتصلح من فساده ، وتقيم ما اعوج من مبادئه الأدبية . وتعود به إلى الطبيعة التى هجرها واستغرق فى النوم فى أحضان المدينة : لم تنبعث فيه تلك النهضة التى انبعثت فى الأدب الانجليزى فى أعقاب القرن الثامن عشر ، حين بلغ العهد الكلاسى مداه من التحكم فى أساليب الأدب . وبلغ الأدب الدرك من الاسفاف والامحال ؛ ذلك لأن الأدب العربى كانت تعوزه تلك العوامل التى تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع إلى الطبيعة وتنبت الميل الرومانسى ، فكان استمرار النزعة الكلاسية المحتدمة فى الأدب أكبر أسباب تدهوره الطويل .

فالأدب العربى لم يكن على اتصال بآداب أجنبية فيأخذ عنها حب الطبيعة وإيثار البساطة ، ويلتفت باطلاعه عليها إلى حقائق الحياة الكثيرة التى أهملها . وهو لم يكن يتنازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الزراع والرعاة ، التى تنسم فيها نسائم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم ، وهو لم يكن يرجع إلى ماضيه الرومانسى الذى سبقت الاشارة إليه ، فينظر فيه نظرة حرة مميزة ، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله إلى حقائق الحياة ، إنما يرجع إليه طلبا للاسلوب واللفظ ، دون المعنى والموضوع . كان يعده كنز لغة فصيحة الأساليب والألفاظ لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة . فاذا نظر إلى المعانى حاول حكايتها وتقليدها تقليداً كاملا على ماهى عليه ، أى حاول الأديب أن يحيا فى أدبه حياة البدو ويشعرهم بشعورهم كله ، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعا ، ولا يهتم إلا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم ، ووجوب صدقه فى تعبيره عن شعوره الصحيح ، فى عصره وحياته المخالفين لما كان قبله

ظل هذا المذهب الكلاسى التقليدى سائدا الأدب العربى ، يقلد المتأخر المتقدم ويزيد عليه تقييدا وتضييقا فى مجالات القول وأوضاعه مادام الأدب محجوبا عن غيره من الآداب بعيدا عما جهله أو تجاهله من حقائق الحياة والأدب ، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية فى العصر الحديث ، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجا غبار التقليد والتقييد اللفظى والمعنوى ، وفتن بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التى كان عنها فى شغل ، وتناول شتى المواضيع التى كان حرمها على نفسه ، وبالجملة تقشع عنه عصره الكلاسى الطويل ، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جديدة

فخرى أبو السعود

فوائد قياس الذكاء فى التربية

للأستاذ على محمد فهمى

مدرس التربية التجريبية المساعد بمعهد التربية

تقدم قياس الذكاء منذ الحرب العظمى فذاع استعمال المقاييس فى المدارس حتى أصبحت ضرورية لكل مدرسة تعنى بجعل التعليم ملائماً للأطفال. وهذه هى أهم فوائد مقاييس الذكاء والتى لها أثر فى تعليم الأطفال وإرشادهم :—

أولا — قياس الذكاء والتعليم المدرسى

تعالج عيوب الامتحانات القديمة بجعلها موضوعية بواسطة المقاييس الدراسية التى تعتبر أحسن وسيلة لقياس معلومات الطلبة وما يحصلونه من العلم والمعرفة . ومقدار التحصيل المدرسى هذا يتوقف إلى حد كبير على الذكاء ، يدلنا على ذلك التجربة التى أجراها الأستاذ سيرل برت Cyril Burt على ٦٨٩ طالباً تتراوح أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة لاثبات العلاقة بين الذكاء والتحصيل المدرسى فوجد أن معامل الارتباط بينهما ٧٤ فى المائة ؛ وهذا معامل عال جداً يدل على شدة الاتصال بين الذكاء والتحصيل . ومن هذا كانت معرفة ذكاء التلميذ من الأمور التى تساعد المختبر على تفهم أسباب تقدمه وتأخره . فاذا فرضنا أن تلميذاً ضعيفاً فى دروسه فان قياس ذكائه يبين لنا إذا كان ضعفه نتيجة غباوة طبيعية أو نتيجة عوامل أخرى كاهمال التلميذ أو عدم ميله للدروس أو عدم ملاءمة البيئة المنزلية للدراسة . الخ

ولأهمية مقاييس الذكاء وضرورتها تستعمل بدل الامتحانات القديمة فى بعض الأحيان وتساعد الامتحانات الجديدة فى بعض الأحيان الأخرى ، وعلى هذا نجد أن مقاييس الذكاء والمقاييس الدراسية يكمل كل منهما الآخر . من أجل ذلك يتحتم على من يريد قياس التلميذ قياساً مضبوطاً ألا يكتفى بقياسه بالاختبار الدراسى فقط بل يقيسه أيضاً باختبار الذكاء . ويبنى حكمه على نتيجة هذين الاختبارين فيتعرف أولا ميول الطفل الطبيعية ثم يقيس ثانياً ما اكتسبه هذا الطفل عن طريق هذه المواهب

على أنه ليس من الضرورى أن نقيس ذكاء الطفل فى كل مرة نقيس فيها تحصيله الدراسى ، بل يكفى أن نقيسه عند أول عهده بكل مدرسة يلتحق بها فتساعدنا هذه المعرفة على الحكم عليه .

ولقد استعاضت بعض كليات الجامعات عن امتحانات القبول باختبارات الذكاء فتستعمل الآن كلية كولومبيا اختبار ثورنديك بدل امتحان القبول الذى كانت تعقده فى أول كل عام دراسى للطلبة الذين يرغبون الالتحاق بالكلية . ولقد نجحت هذه الطريقة نجاحا كبيراً يدل على ذلك ما قاله الأستاذ هوكس Hawkes عميد الكلية من أن الطريقة الجديدة ، تبين بوضوح ودقة أعظم مما عهدناه فى أية طريقة أخرى ما إذا كان الطالب سينجح فى جامعة كولومبيا أم لا ،

ثانيا — التوجيه التعليمى

يرجع ازدياد نسبة فشل الطلبة فى الامتحانات لعدة أسباب منها عدم ملاءمة الدراسة لكل الأفراد ، إذ أن مايلائم شخصا لا يلائم الآخر ، ولقد دعت نفس هذه الفكرة فى البلاد الأوروبية والأمريكية إلى امتحانات التحصيل المقننة واختبارات الذكاء . إذ يمكن من نتائج هذه الاختبارات الحكم على ملاءمة الدراسة للتلميذ أو تغييرها ثم ادماجه فى دراسة أخرى أكثر موافقة لمواهبه الطبيعية

وليس هناك شك كما قلنا فى أنه يوجد ارتباط وثيق بين مقدار تحصيل الطفل الدراسى وذكائه . فالطفل الذكى هو الذى يستمر فى دراسته بنجاح مطرد ، بينما الطفل الغبى هو الذى يفشل فيها ، ويرجع هذا الارتباط إلى أن الدراسة فى الفرق العليا تحتاج لدرجة ذكاء عالية ، وهذا مما يجعل الأغبياء فى الغالب يقفون عند حد لا يتعدونه مهما حاولوا التغلب وبذلوا من جهد . ولقد قدر الأستاذ ترمان بأن الذين يقل مستوى ذكائهم عن ٨٠ فى المائة لا يتمكنون من أن يدرسوا بعد الدراسة الابتدائية ، فاذا ما انتقلت هذه الفئة إلى دراسة تحتاج لمستوى ذكاء أكبر من هذا المستوى تكرر فشلهم ، وعلى هذا يجب أن يوجهوا إلى دراسات أخرى ، وهذا هو السر فى بعض حالات لا يتيسر لسوى المشتغلين بالذكاء أن يكشفوها . فكم من طالب مثلا كان فى دراسته الابتدائية ناجحا لا يفشل فى سنة من سنيه الدراسية حتى يعتقد والداه والمتصلون به أنه ذكى ، ومثل هذا الصنف من الطلبة إذا ذهب إلى المدارس الثانوية وجد صعوبات كثيرة فى الدراسة خصوصا الدروس المجردة والتى تحتاج إلى تفكير عميق كالجبر والرياضة . الخ إذ فى الغالب تتطلب هذه المواد ذكاء أكبر من ذكائه فيتكرر رسوبه ووالداه من ذلك فى دهشة ، ولكن الاختبارات كفيلة ببيان السر فى ذلك

وقد أجرى الأستاذ ترمان اختباراته الكثيرة لتعيين المستويات التى تتطلبها الدراسات المختلفة فوجد أن الدراسة الثانوية تحتاج لنسبة ذكاء لا تقل عن ٩٠ فى المائة أما الدراسة العليا فتحتاج إلى نسبة ذكاء لا تقل عن ١٠٠ ٪ وهناك تقسيم أدق من هذا للاستاذ اسماعيل القبانى ؛ فمن تتراوح نسبة ذكائهم بين ٧٠ و ٨٠ يتأخرون فى دراسة التعليم الابتدائى ولا يمكنهم إتمام الدراسة الثانوية ، وما بين ٨٠ ، ٩٠ يمرون فى الدراسة الابتدائية فى مدة أقل من الفريق الأول ويرجح ألا يمروا فى الدراسة الثانوية ، وما بين ٩٠ و ١١٠ عاديون يتممون

الدراسة الابتدائية بسهولة ويستطيعون أن يمروا فى الثانوى بصعوبة، وما بين ١١٠ - ١٢٠ يمرون فى الدراسة الثانوية بسهولة، ومن ١٢٠ فأكثر يسهل عليهم الدراسة العليا.

ثالثا — التوجيه المهنى

يجب أن نميز بين الاختبار المهنى والتوجيه المهنى، فالأول هو اختبار الشخص المناسب لمهنة ما والتوجيه المهنى هو اختبار المهنة المناسبة لشخص ما أو هو تسيير الشباب بنين وبنات نحو المهنة التى تتفق أكثر مايكون ومؤهلاتهم الفطرية، وأهمية هذا التوجيه فى تقدم البلاد وإسعادها لا تنكر. وليس معنى التوجيه فى المهنة أنه يبدأ عند انتهاء التلاميذ من دراساتهم، إذ أن الارشاد التعليمى هو أول خطوة للتوجيه المهنى كما أن ما ينادى به علماء العصر الحاضر هو تدريب الطالب على المهنة التى سيزاولها فى المستقبل أثناء مدة الدراسة

قيمة التوجيه المهنى والفائدة من وضع الفرد فى العمل الذى يليق به وبمواهبه الطبيعية لاتقتصر على الفرد نفسه بل تعود عليه وعلى الأمة بالنفع الجزيل، وإن الحاجة للتوجيه المهنى أصبحت حاجة العصر الحديث بعد الاختراعات الحديثة وانتشار الصناعة التى تتطلب الآن صفات خاصة

كيف نقوم بالتوجيه المهنى: تختلف المهن من حيث ما تتطلبه من ذكاء كما دلت على ذلك الأبحاث الحديثة فيقسمها الأستاذ ترمان إلى ثلاثة أقسام: (١) مهن تحتاج لمقدار كبير من الذكاء (٢) مهن تحتاج لذكاء متوسط (٣) مهن لا تحتاج لذكاء. ومن الأبحاث القيمة التى تهمنا فى هذا الموضوع بحث Yerkes فقد أوجد العلاقة بين مراتب الذكاء المختلفة والمهن المتعددة وقال إن النجاح فى مهنة ما لا يتيسر لكل شخص إذا كان الذكاء دون المستوى المعين. ومن هذا يتبين قيمة التوجيه المهنى وكيف أنه يعمل لمصلحة الفرد والمجتمع فى آن واحد. ولقد اهتم بايجاد مستويات الذكاء للمهن المختلفة كثير من العلماء. ولقد ذكر الأستاذ ترمان أنه يجب ألا يشجع أى شخص إذا كانت درجة ذكائه أقل من ١٠٠ لأن يمتهن مهنة من المهن الراقية التى ذكرها وهى تشمل الأطباء وقادة الرأى والمربين والمهندسين وأصحاب المشروعات والكتاب. فالنجاح فى مثل هذه المهن لا يمكن أن يحصل عليه إلا من كانت درجة ذكائهم أعلى من ١١٥ - ١٢٥ ولقد أجرى الأستاذ فلاندر Flander عدة تجارب استخلص منها أن من كان ذكاؤهم يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ يمكنهم أن يتخذوا الأعمال الآلية مهنة لهم؛ فعلاقة الذكاء بالتوجيه المهنى حينئذ تقع فى تحديد مستوى الذكاء المهنى الذى يمكن الفرد من النجاح. وهكذا نجد أن اختبارات الذكاء تفيد فى تحديد العمل الذى يمكن أن يؤديه الشخص على أحسن مايمكن. على أن هناك أشياء أخرى يجب دراستها لتوجيه الفرد توجيهاً مهنياً وهى: (١) القدرات الخاصة (٢) التحصيل المدرسى (٣) البيئة المنزلية (٤) الميول والمزاج (٥) الصحة والقدرات الجسمية (من حيث القوة والسرعة والدقة)

رابعا — تقسيم التلاميذ الى فرق وفصول

يقسم بعض نظار المدارس فى مصر التلاميذ إلى فصول مراعياً ترتيب أسمائهم حسب ترتيب الحروف الأبجدية، ويراعى البعض الآخر أجسام التلاميذ ويرتبهم حسب أطوالهم فيضع الصغار فى فصول والكبار فى أخرى، ويقسمهم البعض الآخر حسب ترتيب أعمارهم الزمنية. وقد ظهر فساد هذه الطرق بعد أن قسنا ذكاء عدد كبير من التلاميذ وتبين لنا أن القوة العقلية لبعض التلاميذ فى فصل من فصول السنة الثانية الابتدائية كانت تعادل قوة التلميذ المتوسط الذى عمره ١٣ سنة فى حين أن القوة العقلية لتلاميذ آخرين أقل من قوة الطفل الذى عمره ٧ سنين. وفى فصل من فصول السنة الثالثة بمدرسة أخرى وجدنا تلاميذ تعادل قوتهم قوة الطفل المتوسط من سن ٨ سنوات وآخرين قوتهم العقلية تزيد على قوة التلميذ المتوسط من سن ١٤ سنة وهكذا فى سائر الفصول

ولا يخفى ما فى هذا من الأثر السيء على كل من التلاميذ الأذكياء والأغبياء الذين يضطرهم اجتماعهم فى فصل واحد إلى السير إما حسب سرعة الأول ومقدرته فيعجز الأغبياء عن متابعتهم، وإن أجهدوا أنفسهم فلن يستمروا فى ذلك طويلا حتى يضنيهم الاجهاد فتثبط هممهم؛ وإما حسب سرعة الآخرين ومقدرتهم فلايجد الأذكياء مايستعملون فيه قواهم العقلية فتثبط هممهم أيضا. والنزعة الحديثة فى التربية تميل إلى جعل المدرسة ملائمة لعقول التلاميذ وكفاياتهم فلا يصح أن يجمع فى الفصل الواحد تلاميذ أقوياء ومتوسطون وضعاف إذ يلزم أن يكون تلاميذ الفرقة متجانسين حتى يمكنهم أن يقوموا بعمل مجد. وعلى ذلك فخير طريقة لتقسيم التلاميذ إلى فصول أن نقسمهم حسب نسبة ذكائهم: فنقسم التلاميذ إلى قسمين أو أكثر حسب العمر الزمنى ثم نقسم كل قسم إلى فصول حسب العمر العقلى، فمن كان عمرهم العقلى متقاربا وضعوا فى فرقة واحدة. فاذا عملنا بهذا نقصت نسبة الرسوب فى الامتحانات إلى أدنى حد، وبذلك نقضى على أهم عوامل الشكوى. هذا ولنلاحظ أن تقسيم الطلبة إلى فصول مهم جدا فى القسم الابتدائى، وتقل أهميته فى الثانوية، وهو غير مهم فى القسم العالى، وإن كانت نسبة الذكاء شرطا هاما فى الدخول. ويتخذ التقسيم فى القسم العالى حسب الملكات الخاصة

خامسا — انتقاء ضعفاء العقول

واضح من الابحاث السيكولوجية أنه اذا اختبرنا ذكاء عدد من الأشخاص نجد ثلاثة أرباع هذا العدد يقع تقريبا فى وسط المنحنى العادى ويتوزع الباقى على الجانبين، فالذين على الجانب الأيسر من المنحنى هم ضعفاء العقول والذين على الجانب الأيمن هم الأذكياء.

وضعف العقل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: (١) عته: وعقلية المعتوه عبارة عن عقلية طفل عادى لا تزيد سنه على ثلاث سنوات (٢) بله: الأبله عبارة عن شخص وقف نمو نوعه عند سن ٧ سنوات (٣) موروث: هم الأفراد الذين وقف نمو مخهم عند سن ١٢

ويرجع ضعف العقل إلى: (١) عوامل وراثية (٢) وعوامل مكتسبة (٣) وعوامل خارجية. والوراثة هى أهم العوامل المسببة ضعف العقل. فمثلا إذا كان الأب أو الأم مجنونا فليس من الضرورى أن يرث الشخص الجنون، بل يجوز أن يرث رذيلة من الرذائل أو ضعف العقل - ولقد استقصى بعض الاخصائيين ما للوراثة من تأثير فى أبناء الأسرة الواحدة، فبذل الأستاذ جودار جهدا كبيرا فى تتبع حياة أفراد أسرة واحدة هى أسرة كاليكاك. وقد كان مارتن كاليكاك شابا سليم العقل من أسرة كبيرة تطوع فى الحرب الاهلية الأمريكية، وكان يتردد على حانة تختلف إليها فتاة ضعيفة العقل توددت إليه فحملت منه سفاحا وولدت له ولدا ضعيف العقل. وفى سنة ١٩١٢ استطاع الأستاذ جودار أن ينتهى من عمله فأحصى أفراد هذه الأسرة فبلغ عددهم ٤٨٠ فردا جاءوا من ذلك الزواج غير الشرعى. وتتبع أحوالهم فوجد أن معظمهم (٩٩ ٪ منهم) عاهر أو فاسق أو سكير أو لص. على أن تلك الحرب لم تكد تنتهى حتى تزوج مارتن بفتاة أخرى سليمة العقل شريفة النسب، وتتبع الأستاذ جودار ٤٩٦ شخصا من أفراد هذه الأسرة فلم يعثر فيها على شخص ضعيف العقل وإنما وجد أن الأسرة كلها مكونة من أطباء ومحامين ومدرسين ومهندسين وتجار وغيرهم من لهم يد عاملة فى الحياة.

وضعاف العقول هؤلاء يربكون نظام التدريس فى المدرسة ويعطلون سير الدراسة، وذلك لأنهم يختلطون فى الفرق المختلفة مع العاديين والأذكياء. أما فى المجتمع فقد اتضح لنا من نتائج الابحاث التى قام بها الأستاذ جودار فى إصلاحية الأحداث فى الولايات المتحدة أن سبب سلوكهم الشاذ هو كونهم ضعاف العقول. ومن هنا نجد أن ضعاف العقول يهددون كيان المجتمع، ولذلك يجب أن نهتم بأمر تربيتهم حتى تخف وطأتهم: وبمقياس الذكاء يمكننا فصل هؤلاء فى فصول خاصة وتعليمهم تعليما يتلاءم مع درجة ذكائهم

ونسبة الذكاء هى الأساس السيكولوجى الذى يبنى عليه المربى تعليمه لضعفاء العقول، ويجب على المربى الذى يقوم بأمر تربيتهم أن يعين ذكاء كل واحد حتى يستطيع وضع طريقة تتفق مع قدرة كل منهم العقلية، ويستطيع أن يعين الموضوعات التى يمكن أن يتعلمها ضعيف العقل فى هذا العمر المعين

ولا يمكن أن يعلم هؤلاء الضعفاء أى عمل يحتاج إلى درجة من ذكاء أعلى من مستواهم. وقد حاول كثير من المدرسين ذلك فلم يستطيعوا. وكذلك فكرة تعليم هؤلاء الضعفاء حتى ترتقى عقليتهم إلى المستوى العادى فكرة خاطئة. ولكن توصل بعض الأطباء إلى إعادة بعض ضعفاء العقول إلى المستوى العادى، وذلك فى الحالات التى لا تنتمى إلى ضعف عقلى وراثى، وإنما ترجع إلى وقوف النمو عندهم بعامل من العوامل الخارجية. ومع كل فان هذه الحالات نادرة جداً، كما أنه لا يمكن للمربى أن يضيف شيئا إلى نسبة ذكاء ضعيف العقل وإنما كل ما يستطيعه المربى من تعليم ضعيف العقل هو تكوين عادات خاصة حتى لا يكون شراً ووبالا على المجتمع؛ وهنا نجد ضرورة تحديد نسبة الذكاء اللازمة لكل عمل أو موضوع يضعه المربى ليتأكد من أن استعداد ضعيف العقل يتمشى مع طبيعة هذا العمل الموضوع له؛ وقد توصل بعض العلماء أخيراً إلى ذلك. وعلى العموم يجب أن يكون نظام الدراسة فى مدارس ضعاف العقول قائما على اختيار المواد العملية النافعة والتعليم الحسن، أما العلوم التى تستدعى التفكير المجرد النظرى. وفهم الرموز فلا فائدة ترجى لهم منها

سادسا — انتقاء التلاميذ الموهوبين

من النوابغ من إذا وضع فى فصول عادية نجدهم متأخرين فى عملهم الدراسى؛ ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة: منها الكسل مثلا، أو عدم الاهتمام بالدروس لسهولة المادة وطول الشرح. والواجب يقضى علينا أن نبحث عن هؤلاء النوابغ وندرسهم درساً وافياً حتى يتسنى لنا تربيتهم بطرق تناسب قواهم العقلية وتهيئة الظروف لهم لإيقاظ نواحى النبوغ فيهم وذلك لأنهم هم الأسس التى تبنى الأمة عليها مدنيتها، فمن بين الأطفال النوابغ توجد الأرواح الحية الفعالة التى تتولى زمام المدنية وقيادتها فيما بعد، وعلى ذلك فتربية الطفل النابغة يجب أن تفصل عن غيره حتى تتمكن من توجيهه إلى ما فيه خيره وخير المجتمع الذى سيعيش فيه.

ومقاييس الذكاء هى من الاختبارات التى تكشف لنا عن هذه الفئة فلا يختار لفصول الأطفال النوابغ من كان أقل من ١٤٠. ويقول الأستاذ هورن Horn إن التلاميذ النوابغ يحنون كثيرا إذا ماساروا فى كل المواضيع إلى مستوى أعمق وبطرق مفصلة أكثر من التلاميذ المتوسطين، فالنابغة لا يقبل الحقائق والمعلومات كما هى وإنما يحاول أن يرجعها إلى أصولها ومسبباتها وإلى النتائج المشتقة منها كما أنهم يميلون أكثر الى المواد المعنوية.

وقد كان الرأى السائد أن الموهوب يكون عادة ضعيف الجسم أو عصبى المزاج أو يمتاز بشذوذ فى الناحية الخلقية أو العقلية، ولكن الأستاذ ترمان كان أول من خطأ هذا الرأى باظهاره أن الأطفال الموهوبين لا يقلون عن إخوانهم العاديين سواء أكان فى الصحة أم فى الحالة العصبية؟

علي محمد فهمي

١٦ - تاريخ الأدب العربى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

ومع ذلك فلا يجرؤ شيوخ العشيرة على فرض أوامرهم فرضا، أو إنزال العقوبات برجالها، إذ كان كل منهم ولى نفسه وسيدها. وله الحق أن يقتص ممن يناله بسوء:

فإن كنتَ سيّدَنا سُدتنا
وإنْ كنتَ للخالِ فاذهبْ فخَلْ(١)

ولم يكن معنى الوفاء عند العربى الوثنى الخضوع لرؤسائه، ولكن المساعدة الصادقة لمساويه وأنداده، وكان قوى الصلة بفكرة القرابة، وإن القبيلة أو العائلة التى تشتمل على غرباء عاشوا فى ظلها، واستظلوا بحمايتها، فان الذب عن هؤلاء أفرادا أو جماعات من أقدس الواجبات اللازم احترامها، كما كان الشرف يقضى على الرجل منهم أن يقف بجانب قومه فيما جل من أمرها أو حقر

وَهَلْ أنَا إلاَّ مِنْ غزيَّةَ إن غوَت
غَوِيتُ وَإنْ تَرْشُدْ غزيَّةُ أرْشُدِ ؟ (٢)

كما يقول دريد بن الصمة الذى تابع عشيرته بالرغم من رأيه المصيب فى غزوة كلفته رأس أخيه « عبد الله » وإذا نشد رجال القبيلة العون من أقاربهم فسرعان ما يُلَبّى نداؤهم دون اهتمام بقيمة الأمر الذى يقدّمون من أجله المعونة، فاذا أسيء التصرف فيها تحملوا مغبّة ذلك طويلا قبل أن يعودوا إلى مكانتهم السالفة وإن انتفاعهم بالصداقة ليتضح بجلاء من هذه الأبيات التالية (٣):

(١) الحماسة ١٢٢ (٢) الحماسة ٣٧٨ .

(٣) الأبيات التى يذكرها المؤلف لقراد بن العيار وكان ابوه شيطانا من شياطين العرب وهو القائل :

ولا نرعي المرون ولا المرينا إذا خارت ضغابيس الرجل
بنا يستعطف الامر المولى ويحسم داء ذى الداء العضال
ونخطم انف كل جعاظري شموخ الانف ينظر من معال
(المترجم)

فآخِ لِحَالِ السِّلمِ مَنْ شئتَ وَاعلَمَنْ
بأنْ سِوَى مَوْلاكَ فى الحربِ أجنَبُ
وَمَوْلاكَ مَوْلاكَ الذِى إن دعوته
أجَابَك طَوْعاً وَالدِّمَاء تَصَبَّبُ
فلاَ تخذُلِ المَوْلى وإنْ كانَ ظالماً
فإنَّ بهِ تُثأى الأمورُ وترأبُ(١)

وبالرغم من ذوقهم الجاف، فليس ثمت ما هو أخص فى العرب الجاهليين والمسلمين على السواء من روح الفروسية والتضحية بالنفس لنجدة الصديق حتى ولو لم تكن هناك أية فائدة شخصية من وراء هذه التضحية. ويقدم لنا الشعر القديم البراهين الجمة على أنهم كانوا يمقتون نكث العهد الذى اتفق عليه بين التاجر وعميله. أو الضيف ومضيفه، وأدب العرب زاخر بالشواهد الجمة على صدق هذا الفضل، وأقرب مثال إلى ذلك قصة السموأل الذى يضرب به المثل فى الوفاء فيقال هو « أوفى من السموأل » أو « وفاء كوفاء السموأل » ويقال إنه كان صاحب الحصن المعروف بالأبلق، واحتفر فيه بئرا عذبة، وكانت العرب تنزل به فيضيفها وتمتار من حصنه. ويقال إن امرأ القيس لما سار إلى الشام يريد قيصر نزل على السموأل ومعه أدراع كانت لأبيه ورحل إلى الشام فوجه ملك الحيرة جيشاً تحت امرة الحرث بن ظالم ثم قال للسموأل « أتعرف هذا؟ » قال نعم هذا بنى. قال: « أفتسلم ما قبلك أم أقتله؟ » قال: « شأنك، فلست أخفر ذمتى ولا أسلم مال جارى » فضرب الحرث وسط الغلام، فقطعه قطعتين وانصرف عنه فقال السموأل:

وَفيتُ بادرع الكندِي إنى إذا ما ذُمَّ أقوام وَفيت
وأوصى عادياً يوماً بالا تهدّم يا سَموأل ما بَنيت
بنى لى عادياً حِصناً حصيناً وماء كلما شِئت استقيت(٢)

كما أن المثل البدوى الأعلى للكرم والسخاء هو حاتم طىء الذى يروى عنه كثير من الأقاصيص المستطرفة، ويمكننا أن نعرف نظرة البدوى إلى هذا الموضوع مما ذكره الأغانى من أن أم حاتم وهى حبلى رأت فى المنام من يقول لها: أغلام سمح يقال له

(١) الحماسة ٣٢٧ (طبعة فريتاج) سنة ١٨٢٦ .
(٢) الأغانى ج ١٩ ص ٩٩ .

حاتم أحب اليك أم عشرة أغلمة كالناس ، ليوث ساعة الباس ، ليسوا بأوغال ولا أنكاس ؟ فقالت حاتم ، فولدت حاتما ، فلما ترعرع جعل يخرج طعامه فان وجد من يأكله معه أكله ، وإن لم يجد طرحه ، فلما رأى أبوه أنه يهلك طعامه قال له : الحق بالابل . ووهب له جارية وفرساً وفلوها ، فلما أتى الابل طفق يبغى الناس لا يجدهم . ويأتى الطريق فلا يجد عليه أحداً ، فبينا هو كذلك إذ بصر بركب على الطريق فأتاهم فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ قال تسألونى عن القرى وقد ترون الابل ؟ وكان الذين بهم عبيد بن الابرص وبشر بن حازم والنابغة الذبيانى ، وكانوا يريدون النعمان فنحر لهم ثلاثه من الابل فقال عبيد : « إنما أردنا القرى اللبن ، وكانت تكفينا بكرة إذا كنت لابد متكلفاً لنا شيئا » قال حاتم « قد عرفت ولكننى رأيت وجوها مختلفة وألواناً متفرقة ، فظننت أن البلدان غير واحدة ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا أتى قومه » فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله فقال حاتم : « أردت أن أحسن اليكم فكان لكم على الفضل ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب الابل عن آخرها أو تقسموها » ففعلوا ، فأصاب الرجل تسعة وتسعين بعيراً ومضوا على سفرهم إلى النعمان ، وأن أبا حاتم سمع بما فعل فأتاه فقال له : يا أبت طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر [1]

كما نسمع أن ابنة حاتم قد اقتيدت أسيرة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت له : « يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت أن تخلى عنى فلا تشمت بى أحياء العرب فإنى بنت سيد قومى ؛ كان أبى يفك العانى ويحمى الذمار ويقرى الضعيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط : أنا بنت حاتم طى » ، أجابها الرسول « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عنه . خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق [2] » .

وكان حاتم شاعراً معروفاً ، وفى ابياته التالية يخاطب زوجه ماوية :

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٩٨ س ٥ — ٢٢ .
(٢) الأغانى ج ١٦ ص ٩٧ س ١ — ٥ .
(٣) قام « F. Schulthess » بطبع ديوان حاتم وترجمه والتعليق عليه

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك
ويا ابنة ذى البردين [1] والفرس الورد
إذَا مَا صنَعتِ الزّادَ فَالتمِسِى لَه
أكِيلاً فَإنِّى لَستُ آكُلُهُ وَحدِى
أخاً طارقاً أوْ جارَ بيت فانى
أخافُ مَذَمّاتِ الأحاديث من بعدى
وإنى لَعبد الضيف ما دام نازلا
وما فىَّ إلا تلكَ مِن شيمة العبدِ [2]

« يتبع » حسن حبشى

(١) ذو البردين هو عامر بن احيمر بن بهدلة ، وحديث البردين أن الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء فأخرج المنذر بردين يلو الوفود وقال « ليقم اعز العرب قبيلة فليأخذهما » فقام عامر بن احيمر فأخذهما واتزر بأحدهما وارتدي بالآخر فقال له المنذر « انت اعز العرب قبيلة » قال « العز والعدد فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خندف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عوف ثم فى بهدلة ، فمن انكر هذا فلينا فرني » فسكت الناس فقال المنذر « هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى اهل بيتك ؟ وفى نفسك ؟ » قال « انا ابو عشرة واخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، اما فى نفسي فشاهد العز شاهدى » ثم وضع قدمه فقال « من ازالها عن مكانها فله مائة من الابل » فلم يقم إليه احد من الحاضرين ، ففاز بالبردين فسمى بذى البردين » « الحماسة » المترجم
(٢) الحماسة ٩٤٧

شخصية الزهاوى

بمناسبة مرور عام على وفاته

بقلم السيد احمد المغربى

لسنا نتمرر شيئاً جديداً إذا قلنا بأن الزهاوى كان شخصية فذة متعددة النواحى ، تشهد على مدى نبوغه وعبقريته ، ذلك لأن الزهاوى لم يكن شاعراً مجدداً . دقيقَ الحس مفتوحَ القلب مُرهَف السمع ، متقد العاطفة ، ثائرَ القلب فحسب ، بل كان إلى هذا كله فيلسوفا تعمق فى دراسة الفلسفة ونفذ إلى ما وراء المادة والطبيعة ، فخبر أحوالها وتفهم مادق من أسرارها وخفاياها . وكان فى فلسفته متأثراً بأبى العلاء المعرى ، مترسماً خطاه ، متبعاً أساليبه ؛ ونظرة فى ملحمته « ثورة فى الجحيم » ومعارضتها برسالة الغفران ، تؤيد مانذهب إليه . ولا غروَ فان كلا من الشاعرين الفيلسوفين كان يسخرُ من التقاليد الموروثة ؛ ولماذا نذهب بعيداً والزهاوى نفسُه يعترف بتلمذته عليه وإعجابه به وهو يشكو إليه ما أصابه من ظلم وحيف :

وإن أكبرَ شىء فيك يُعجبنى سُخرية بتقاليد وعصيانُ
وأنكروا فيك الحاداً وزندقة وعلَّ ما أنكروه فيك بُهتانُ
إنى تلمذتُ فى بيتى عليك وان أبلتْ عظامَك أزمان وأزمانُ
أصابنى فى زمانى ماأصابك من حيف فما ردهذا الحيفَ إنسانُ

أما شعرُه فحر طليق، لايتقيدبالسلاسل والاغلال، ينزع فيه نحو الطبيعة المطلقة، مخترقا التقاليد التى ورثها الأبناء عن الآباء، خالياً من الصناعات اللفظية والخيالات الوهمية ، نزّاعاً إلى التجدد ، ثائراً على النظام ، متمردا على الأوهام

إذا الشعرلم يهززك عند سماعه فليس خليقاً أن يقال له شعر

ما الشعر إلا شعورى جئت أعرضه
فانقده نقدا شريفاً غير ذى خللِ
الشعرُ ما عاش دهرا بعد قائله وسار يجرى على الأفواه كالمثلِ
والشعرُ ما اهتز منه روحُ سامعه
كمن تكهرب من سلك على غفَلِ

فيه إلى اليوم ماقلدتُ من أحد وما على غير نفسى فيه متكا[ل]
أفعمته حكماً تعلو ، وأمثلة تحلو، فسُرَّ به شعب وصفق.
وقد أعود به إبان أنظمُه إذا تذكرت أيامى إلى الغز[ل]

فالزهاوى كان كالبحترى شديدَ الزهو والاعجاب بشعر[ه] لأنه مرآة حقيقية تنعكس عليه نفسُه الشفافة وقلبُه الطيب

إننى إن بكيت أبكى بشعرى ولقد أهديه إلى الأحقاب
كل بيت منه إذا عصروه دمعة ثرّة على الآداب
بين شعرى ، ومايجيش بصدرى من شعور وشائج الأنساب
أنا عنه محدث وهو عنى وكلانا فى القول غيرُ محاب[ى]

ooo

أما قريضى هذا فانه نفثـــاتُ
شعر له من شعورى والصدقِ مستندات
وإنمـــا صقلته الخطوبُ والنكباتُ

والزهاوى ، بالرغم من إعجابه بشعره وإيمانه بأنه شا[ع]ر الأجيال وأن شعرَه خالد لا يموت يعترف بأنه لم يكن دا[ئم] التحليق ، بل انه كثيرا ماكان يُسِف تَبَعاً لحالته النفسية . . .

يا شعرُ أنت سماء أطير فيها بفكرى
طوراً أسِف وطورا أعلو كتحليق نسرِ
ان لم تصور شعورى فلست ياشعر شعرى
من بعد موتى بحين سيعلم القومُ قدرى
فقد وقفت حياتى لهم وأفنيتُ عمرى

ويكاد يخلو شعرُ الزهاوى من الغزلِ والتشبيب ، والتغ[نى] بمحاسن الحبيب ، وتبيان ما يقاسيه المحبون من ضروب الآ[لام] والاسقام ، ووصف ما يتكبدونه من عذاب الهجر ، و[...] الحرمان ولَوْعة الأسى وحلاوة الوصل ، وأكبر الظن أ[نه] لم يُتَحْ له أن يدخل فى شبابه فى زمرة المحبين ، لانشغاله فى نش[ر] رسالته ، وأما مانقرؤه فى هذا السبيل فقلما يثيرُ اعجابنا أو يستد[ر] عطفنا ورحمتنا ، وإذا ماتغزل بغادته «ليلى» فانما كان يتغزل بوط[نه]

ولعلَّ خيرَ قصائده الغرامية هى القصيدة التى يصف [فيها] الحب . . .

أولُ الحب فى القلوب شرَاره تختفى تارة وتظهرُ تا[ره]
ثم يرقى ، حتى يكون سِراجاً لذويه ، فيه هدى وإنا[رة]
ثم يرقى ، حتى يكون مع الأيــام ناراً حمراء ذاتَ حرا[رة]

ثم يرقى ، حتى يكون اتوناً ، بحراراته تذوبُ الحجاره
ثم يرقى ، حتى يكون حريقاً فيـه تَهلِكُ لأهـله وخساره
ثم يرقى ، حتى يمثل بركا ناً يرى الناس من بعيد نارَه
ثم يرقى ، حتى يكون جحيما ، عن تفاصيلها تضيق العباره

فأنت تلاحظ أن هذه القصيدة نفسها تغلبُ عليها روح التحليل العلمى الفلسفى ، وما الحبُ إلا عاطفة هوجاء صاخبة عاصفة . تتبرأ من العلم ، وتتهرب من الفلسفة ! !

الزهاوى العالم

وناحية أخرى من شخصية الزهاوى تحتاج إلى عنايتنا واهتمامنا هى الناحية العلمية ، فالزهاوى كان عالماً عبقرياً شُغِفَ بالابحاث العلمية ، ولاسيما فيما يتعلق بالجاذبية . وله فى هذا الصدد نظريات وآراء ، إن لم تحُز موافقة العلماء المحدثين ، فهى على الأقل تشهدُ على سعَة اطلاعه ومدى نبوغه ، ذلك لأن الزهاوى لم ينشأ فى بيئة علمية ، ولم يتلق العلم فى جامعات معروفة بل إن ما توصل اليه ، كان نتيجة بحثه وتفكيره . . .

وفى وُسعنا أن نوجز رأى الزهاوى فى الجاذبية ، بأن المادة لا تجذب المادة ، بل إن المادة تدفع المادة ، وعلى هذا فان الحجر الذى يسقط على الأرض ، لا يسقط لجذب الأرض إياه ، بل لدفع الموادِ فى السماء إلى الأرض .

وهو يعللُ أنواع الجاذبيات بناموس واحد ، وهو دفعُ المادة للمادة بسبب الكتروناتها التى تشعها بكثرة . وهو يفسرُ بان الحرارة والنورَ فى الشموس يتولدان من الأثير المنعكس عن مراكزها ، بعد جريانها اليها ، حفظاً للموازنة التى لا تزال تختلُ بطرد الالكترونات له من بين الجواهر فى كل جسم ، مبيناً أن هذا الأثير الجارى إلى الاجرام هو الذى يدفع الأجسام اليها : فيزعمُ العلماء هذا الدفعَ الخارجى جذباً داخلياً .

ثم يشرح الزهاوى بمبدئه سبب حدوثِ الزلازل ، وحالات ذوات الأذناب فيميط اللثامَ عن توجه أذنابها إلى خلاف جهة الشمس وعن سبب ابتعادها عن الشمس بعد أن تدور حولها دورة ناقصة ، وعن بقاء القوة ، وعن حقيقة الشمس وهو ينكر انحلال الشموس إلى السدم منكراً تولدها منها .

فلسفة الزهاوى - تحليل « ثورة فى الجحيم »

لعل فلسفة فقيدنا الكبير أظهر ما تكون فى ملحمته الشهيرة « ثورة فى الجحيم » ، وهى تحفة فنية خالدة أثبت فيها آراءه الفلسفية ومعتقداته الدينية ونزعاته الاصلاحية ، ولسنا نغالى إذ نقرر بأنها صورة حية صادقة للمبادىء السامية والمثل العليا التى وقف الزهاوى حياته على تحقيقها غير مكترث لما يعترض سبيله من العقبات ، بل إن هذه العقبات ما كانت إلا لتزيد عزيمته مضاء وإيمانه إيمانا بتلكم الرسالة المقدسة التى عمل على نشرها بين قومه .

وتتلخص هذه الرسالة فى التحرر من التقاليد البالية والعادات الموروثة التى وقفت سداً منيعا دون تقدم الشرق العربى فجعلته يرسف فى أغلال من الأوهام وقيود من الأحلام ، هى ثورة على القديم ، وانتصار للجديد فى مختلف نواحى الحياة . . . والثورة تتطلب الهدم . . والزهاوى كان ثائراً هداما

ثورة الزهاوى فى الجحيم : —

يتخيل شاعرنا نفسه ميتا قد احتواه القبر وإذا بمنكر ونكير يوقظانه من رقاده الأبدى فيعود إليه اشعوره ويشاهد أمامه نسرين هائلين تتطاير النارُ من عيونهما وتبدو ملامح الشرَةِ على وجهيهما . لكل منهما أنف غليظ وفم واسع وبأيديهما أفاع غلاظ تلوى وتدور

فيخورُ عزمه وتهنُ قواه ثم ما يلبث أن يستعيدَ جرأته ، ويتمالك جأشه ويجيبَ على الأسئلة التى كان يوجهها إليه الملكان ، فيعترفُ بأنه لم يأتِ فى حياته أمراً خطيرا فقد مارس الشعرَ دفاعا عن الحق وهو يفتخر بأنه كان يخالف جمهرة الناسِ فى الرأى والمعتقد فيثيرُ عليه نقمتهم فيُمعِنون فى ازدرائه واضطهاده حتى إنهم ليهُمُّون مرة بقتله . مع أنه كان يعتقدُ بالوحى ، ويؤمن بالأنبياء والمرسلين ويقوم بما يعرضه الاسلامُ على المؤمنين من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد

ثم يسأله أحدُ الملكين عن الحشرِ والميزان والحساب والصراط والجنان والجحيم ، فيجيبه الزهاوى بأنه كان فى شبابه مؤمنا كل الايمان فاذا بالشكوك تهبُ تلاحيه فيتعمقُ فى العقائد

إلا نفسه لا تزالُ مضطربة حائرة، فهو تارة مؤمن، وهو تارة ملحد، وهو يخشى الجحيم ولجج النار، ويرجو من الله أن يرفق بعباده فانهم ضعاف لاحول لهم ولا صبر على العذاب.

وهو يبدى ارتيابه فى كل ما عجز العقلُ عن تأويله إلا أنه لا يشك مطلقا بوجود الله فهو فى الجبال والوديان، فى البر والبحر، وهو واجبُ الوجود وواهبُ الوجود قد استوى على عرشه فى السماء إن أراد شيئا قال له كن فيكون

فيتهمه المَلَكان بالالحاد ويُمِضّانِه بالمقامع ضرباً وهو يستعطفهما فلا يعطفان عليه، وهو يسترحمهما فلا يرحمان دمعه الغزير وجسده الدامى بل يصبان فوق رأسه قطراناً فائراً شوى رأسَه ووجهه ويطيلان عذابه حتى يغيب وعيه فاذا ما عاد إليه صوابه الفى نفسه موثق اليدين بحبال مفتولة لا يستطيع حراكا فيحمله الملكان ويطيران به فى الفضاء إلى الجنة حتى يزداد عذاب ضميره من حرمانه إياها، ويبيح لهما رضوانُ دخول الجنة، وهنا تتجلى روعة الزهاوى الشعرية فى الوصف الدقيق الجذاب فيحلق فى سماء الفن ما شاء له التحليق، ويسمو فى عالم الخيال الرفيع سمواً ليس بعده من سمو: —

كلُّ ما يرغبونَ فيه مُباح ... كلُّ ما يشتهونه ميسورُ
وعلى تلكم الأسرة حور ... فى حُلى لهـــا ونعمَ الحورُ
ليس يخشين فى المجانة عارا ... وإن اهتز تحتهن السرير
وكأن الولدان حين يطوفو ... ن على القوم لؤلؤ منثور
إئت ما شئته ولا تخش بأسا ... لا حرام فيها ولا محظور
فاذا ما اشتهيت طيراً هوى من ... غصنه مشوياً وجـــاء يزور
وإذا مارمت أن يحول لك التين ... دَجَاجاً أتى إليك يطير
ليس فيها موت ولا موبقات ... ليس فيها شمس ولا زمهرير
لا شتاء ولا خريف وصيف ... أترى أن الأرض ليست تدور
ولقد رمتُ شربةً من نمير ... فتيممته ففرَّ النمـــيرُ
وكأن الماء الذى شئت أن أشـــربه ... بابتعاده مأمور

ويتذكر بأنه مطرود ملعون، لا يحق له أن يتمتع بما وُعِد به المؤمنون المتقون، فيرجو من الملكين أن يعودا به من حيث أتيا لأن ما يشاهده من النعيم يثيرُ أشجانَه ويَهيجُ أحزانه فيُخرجانِه من الجنة ويشدان وثاقه ويقذفان به فى جوف الجحيم

وكأنَّ الجحيم حفرة بركا ... ن عظيـــم له فم مفغور
تدلعُ النارُ منه حمراءُ تلقِى ... حِمما راح كالشواظ يطـــيرُ
وأشدُّ العذاب ماكان فى الها ... وية السفلى حيث يطغى السعيرُ
الطعامُ الزقومُ فى كل يوم ... والشراب اليحمومُ واليحمورُ
ولهم فيها كلَّ يوم عذابٌ ... ولهم فيها كل يوم ثبورُ
ثم فيها عقاربٌ وأفاعٍ ... ثم فيها ضراغمٌ ونمورُ
وقدت نارُها تئزُ فتغلِى ... أنفس فوق جمرها وتخورُ
ولقد كانت الوجوهُ من الصا ... لين سـودا كأنهن القيرُ
ولقد كانت الملامحُ تخفى ... ولقد كانت العيونُ تغورُ
لستُ انسى نيرانها مانجاتٍ ... تتلظى كأنهُن بحورُ
ولقد صاح الخاطئون يريدو ... ن نصيرا لهم وعز النصيرُ
وتساوى أشرافهم والادانى ... وتساوى غنيهم والفقيرُ

ثم يعدد لنا الزهاوى العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة الذين رآهم فى الجحيم، فيذكر لنا الفرزدق وجريرَ والأخطلَ والمتنيَ والمعريَ وبشاراً وأبا نواس والخيامَ ودنتى وشكسبيرَ وامرأ القيس.

أما بشار فكان حانقاً ثائراً مهتاجا وأما أبو نواس فكان كئيباً حزيناً، على أن الخيام لم يشغلهُ عذاب الجحيم عن التغنى بالخمرة بصوت شجى يطرب له أهل الجحيم

حبـذا خمرة تعين على النيـــران حتى اذا ذكتْ لا تضيرُ
اسقنى خمرة لعلى بها أر ... جع شيئاً مما سبتنى السعير
أنت لو كنت فى الجحيم بجنبى ... لم ترعنى نار ولا زمهرير

وكان سقراط أثبت القوم جأشاً يلقى خطبه على أصحابه واخدانه وعلى مقربة منه أفلاطون وارسطو وكوبرنيك الذى أثبت بأن الأرض تدور حول الشمس، ودروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء، وهيكل وبخنر وسبنسر ورنان وروسو وفولتير وزرادشت ومزدك والكندى وابن سينا وابن رشد والحلاج وغيرهم كثيرون

لم أشاهد بعد التلفت فيها ... جاهلا ليس عنده تفكير
انما مثوى الجاهلين جنان ... شاهقات القصور فيها الحور

وكأن أهل الجحيم قد شعروا أخيرا بما يحيق بهم من العسَف والحيف فعقدوا النية على الثورة لتقويض دعائم الاستبداد فاخترعوا الآلات المدمرة والأدوات الهدامة واخترق صفوف الملايين أحد الشباب ووقف فيهم خطيباً يبين لهم بصوت جهورى

زعزع عاصف ما يقاسونه من الآلام، ويدعوهم إلى مقاومة القوة الغاشمة بالقوة الغاشمة دفاعاً عن حقوقهم المهضومة وذودا عن كرامتهم المثلومة. فهاج أهل الجحيم وماجوا وعلا منهم الضجيج، فاطفأوا جمرة الجحيم وزحفوا ثائرين هائجين ونشبت حرب ضروس بينهم وبين زبانية النار عاضد فيها الشياطين أهل الجحيم وانجدت الملائكة زبانية جهنم ورموا بالصواعق والرياح والأعصار، والبروق والرعد، والبحار والجبال والبراكين. وكانت الحرب بادىء ذي بدء سجالا. الا انها اسفرت في النهاية عن انتصار أهل الجحيم، فطاروا على ظهور الشياطين يطلبون الجنان، فاحتلوها وطردوا منها البله المساكين

ومن الانصاف للعلم والحقيقة قبل الانصاف للزهاوي أن نقرر هنا بأن الزهاوي لم يقصد من ثورته في الجحيم الشك بوجود الله عز وجل كما ظن السوادُ الأعظم من بني قومه وإنما كان مسلماً قوى الايمان إلى أقصى حدود الايمان والأمثلة على صحة ما نذهبُ اليه وافرة نوردُ منها ما يتسع له النطاق الذي حددناه لهذه الكلمة:

قال ما دينك الذي كنت في الدنيا ... عليه وأنت شيخ كبير
قلت: كان الاسلام ديني فيها ... وهو دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذي عبدتَ فقلت ... الله ربي وهو السميع البصير
مذهبي وحدة الوجود فلا كا ... ئن غير الله القديم القدير
أنا هذا، فلا أبالي إذا ما ... اجمعت ثلة على تكفيري
أهل عصري لا يفقهون حديثي ... حبذا لو أتيت بعد عصور

أنا ما كفرت بكل عمري ... بالكتاب المنزل
أنا لم أزل اشدو بنعـت ... للنبي المرسل

يسائلني عن مذهبي وعقيدتي ... فريق من الأشياخ ما أنا منهم
فقلت لهم أما السؤال فبارد ... وأما جوابي فهو أني مسلم
ولكنني ما كنت يوماً مقلداً ... يرى أن حكم العقل في الدين مأثم
فما القلب مني بالسخافات مولع ... ولا الرأس مني بالخرافات مفعم

لا درَّ درّ الجاهلين فانهم ... يرمون بالالحاد من لا يلحد
إن كان من يبدي الحقيقة ملحداً ... فليشهد الثقلان أنيَ ملحد

أحمد الباري الذي يتساوى ... عنده إيماني به وجحودي
كلنا مؤمن يسبح للرحمـ ... ـن في ظل عرشه الممدود
إنني ما سجدت يوما لغير الله ... فالله وحده معبودي

(البقية في العدد القادم)

أحمد المغربي

٥ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

... والآن فلننظر إلى الجاحظ في ضحكه. ولقد كان الجاحظ ضحوكا طلقا تستخفه النادرة فيقهقه ملء شدقيه، ويقصد إلى الأضحاك فيبلغ من ذلك غايته. وإنك لتجده في ضحكه وإضحاكه - كما كان في تهكمه وسخره - مطبوعا موهوبا خفيف الروح، لطيف الاشارة، ظريف الأداء، طريف المقصد، فهو في إضحاكه يسلك السبيل اللاحب إلى القلب، ويصل إلى قرارة النفس في ملاطفة وسهولة. وخفة وبراعة، وإنه ليهز المشاعر بالنادرة يبتدعها، ويشفي القلب بالملحة يرسلها، ولقد تصرمت السنون وخلت القرون وما زالت نوادر الرجل ومضاحيكه في بطون الكتب إذا ماوقع عليها القارىء فلا يستطيع الامساك مهما كان في وقاره، ومهما اعتورها بالنظر ورددها في اللسان. وعلى أن النادرة لا يكون لها في الاضحاك مكتوبة كمثل ما يكون لها إذا ماجرت تحت المعاينة، فان المكتوب لا يصور لك كل شيء، ولا يأتي لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه (١)، وأما إذا ما أخذ الرجل في الضحك فأنه ينطلق في غير احتشام، ويجري في الشوط إلى أبعد غاية. حدث عن نفسه قال: صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلا، فلما صرت قرب منزله وكان أقرب إلى المسجد من منزلي، سألني أن أبيت عنده، وقال أين تذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندي لبأ لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، فملت معه فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر، فلما مددت قال يا أبا عثمان: إنه لبأ وبه غلظة، وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا، وما زال الغليل يسرع إليك، وأنت في الأصل لستَ بصاحب عشاء. فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ، كنت لا آكلا ولا تاركا وحرشت طباعك، ثم قطعت الأكل

(١) البخلاء ص ٤٧ ط الساسي

أشهى ما كان إليك ، وإن بالغت بتنا فى ليلة سوء من الاهتمام بأمرك ، ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلا ، وانما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً كان وكان ، والله قد وقعت بين نابى الأسد ، لأنى لو لم أجئك به وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به وبدا له فيه ، وإن جئت به ولم أحذرك منه ولم أذكرك كل ما عليك فيه قلت لم يشفق على ولم ينصح ، فقد برئت اليك من الأمرين جميعا ، وإن شئت فأكلة وموتة ! وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة !! فما ضحكت قط كضحكى تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن ، ولو كان معى من يفهم طيب ما تكلم به لأتى على الضحك أو لقضى على ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب (١)

فانظر يارعاك الله إلى أى حد كان يغرق الجاحظ فى الضحك والمرح ، وإلى أى حد كانت النادرة تستخف وقاره ، وتهيج نشاطه ، وتجلب له كل هذا من البِشر والسرور . وماذا تقول فى رجل لو وجد من يساجله الضحك ويجاذبه السرور لما أمن على نفسه الموت سروراً وضحكا ؟! على أن ما قاله صاحبه لم يكن ليحمل على كل هذا ولا يدعو إليه ، فياليت شعرى أكان الجاحظ يعيش فى الحياة بقلب فارغ من الهموم والمشاغل ، بعيد من الأحداث والأوصاب ؟ أم كان ذلك الرجل يضحك عن فلسفة ورأى ، فهو يعتقد أن هذه الحياة الفاجرة أحقر وأهون من أن يسفح الدمع فى الحرص عليها ، وأن يسجن القلب فى سبيل الودادة إليها ، وأن يتكلف لها ما يتكلفه بعض الناس من التزمت والوقار ، وكزازة النفس ، وضيق العطن ، أولئك الذين ابتعدوا من المرح لأنهم زعموه ينافى المروءة ، وحرموا أنفسهم نعمة الضحك لأنهم استقبحوه بالوقار !! قال الجاحظ ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى كأنه يضحك ضحكا وقد قال الله جل ذكره : وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، والله تعالى لا يضيف إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما . ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته . ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام . وبطاق وبطليق . وقد ضحك النبى صلى الله عليه وسلم وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ؛ وإذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن ، بسام العشيات وذو أريحية واهتزاز ؛ وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيا . وهو مُكفهر أبداً وهو كريه وبغيض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل منضوح (١) .

فالجاحظ إنما كان يقصد إلى الضحك والأضحاك : لأنه ذلك فى رأيه « يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ، وهو أول خير يظهر من الصبى » ، وإذن فليأخذ الجاحظ فى الضحك والاضحاك ما استطاع حتى يغتنم هذا الخير فيسر نفسه ويصلح طباعه ، وما أحوجه إلى ذلك . ومن ذا الذى لا يضحك على هذا الشرط ، ويسبق إلى الأضحاك إذا ما صح عنده هذا الاعتقاد الذى كان يعتقده الجاحظ ؟ وكان الله قد أراد أن يسعد الرجل فى هذه الغمرة ، وأن يعده لأداء هذه المهمة ، فبرأه مرح النفس أو على حد تعبيره ـ ذو أريحية واهتزاز كما براه فى منظر جهم ، وشكل هو المثل السائر فى القبح والدمامة فكان الرجل لا يتورع ولا يتحرج من أن يجعل من ذلك مصدر ضحك وإضحاك ، فيتفكه بقبحه ودمامته ، ويتندر بما فيه من شذوذ الوضع وجهامة الشكل ، بل لقد كان يحلو له ذلك ويتعمد ويسوقه إلى الناس وهو قرير العين . طيب الخاطر ، حتى لتحسب فى تلك الناحية ممثلا هزلياً وقف على الخشبة ليضحك الجمهور

(١) النجلاء ص ١٠٣ وما بعدها

(١) البخلاء ص ٥

ويدلهم على مواضع الدمامة فى شكله ، والنقص فى خلقته وماذا ترى فى رجل يحدث عن نفسه بهذه الصراحة فيقول : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى !!

وقال فيما قال عن نفسه : ما غلبنى أحد قط إلا رجل وامرأة فأما الرجل فأنى كنت مجتازاً فى بعض الطريق ، فاذا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية مؤتزر بمئزر وبيده مشط يمشطها ، فقلت فى نفسى : رجل قصير بطين ألحى ! فاستزريته فقلت : أيها الشيخ : لقد قلت فيك شعراً !! فترك المشط من يده وقال : قل فقلت :

كأنك صعوة فى أصل حش أصاب الحش طش بعدرش[1]

فقال اسمع جواب ما قلت ، فقلت هات ! فقال :

كأنك جندب فى ذيل كبش تدلدل هكذا والكبش يمشى[2]

وأما المرأة فأنى كنت مجتازاً فى بعض الطريق ، فاذا أنا بامرأتين رأيت إحداهما فى العسكر وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلى كلي معنا ! فقالت : إصعد أنت حتى ترى الدنيا ! ! فهو يعرض بطولها وهى تعرض بقصره

وأما الأخرى فأنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة وأريد أن تمشى معى ! فقمت معها الى أن أتت بى الى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا ! ! ثم تركتنى وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها فقال : انها أتت الىّ بفص وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ! فقلت لها ما رأيت الشيطان حتى يمكن أن أصوره ، فأتت بك وقالت ما سمعت ! !

وقد لا يخجل من أن يتندر على نفسه بالبلاهة وبالغفلة ، ومن ذلك ما ذكره عن نفسه إذ قال : جلست إلى المرآة وقد أمسكت بالمقراض أريد أن أقرض من لحيتى ما زاد على القبضة من تحت ولكنى نسيت فقرضت ما فوق القبضة ، وتلك من اختراعات الجاحظ وتلفيقاته . وللرجل من أمثال هذه كثير ، وكلها من هذا الطراز الذى يطل منه الجاحظ صريحاً فى الضحك على نفسه ، جريئاً فى الاضحاك بما يمسه فى سمته ، فلا يخجله أن يتحدث عن بشاعة منظره الذى أفزع المتوكل فصرفه عن تأديب أولاده ، وجعل المرأة تقدمه إلى الصائغ على أنه شيطان ، والأخرى تعرض بقصره ، والثالثة تخجله بالنادرة ، والشيخ يمثله بالجندب فى ذيل الكبش . . . فأما إذا ما أخذ الرجل فى الضحك على غيره من الاخوان والأصدقاء ، والحمق والنوكى والموسومين والمدخولين ، وأهل العىّ والحصر والنجلاء والأطلة ، والمكدين وأصحاب التطفيل ، فانه يكون أصرح وأجرأ ، وأحلى ، وأملح ، وقد عنى الرجل بأخبارهم واهتمّ بالحديث عنهم ، وما أعرف له كتابا يخلو من ذكرهم ، وإذا كان من الاطالة أن نسرد ما للرجل فى كل ذلك فلا بأس من أن نسرد بعض ما له في مقال آت

(لهُ تابع) **محمد فهمى عبد اللطيف**

(١) الصعوة عصفورة صغيرة كثيرة الصفير والحش بيت الخلاء والطش كثير المطر والرش قليله (٢) الجندب الجرادة

الى شباب العرب

للشاعر القروى

ثب يا شباب العرُب ثب مشت الشعوب وأنت نائم
ثب فالعلى نار تأجج فى العروق وفى العزائم
وردِ المجرّة بالضر اغم تحت أجنحة القشاعم
وأردد مجاهل هــذه الـ أكوان واضحة المعــالم

٭٭٭

حطمت قيدك فانطلق فى حلبــة العمل العظيم
واستغن بالعز الطر يف عن التغنى بالقديم
إن لم تجلّ عن الرميم بنهضة تحيي الرميم
ما أنتَ بالخلف الكريم لذلك السلف الكريم

٭٭٭

اليوم تجنى ما سقيــت بذوره العلق الثمينا
فاحرص على ما قد وجد ت بمن فقدت بميسلونا
حاشاك بعد بزوغ مجــدك إن تخون وان تهونا
ما نلت الاستقلال إلا بعد أن ذقتَ المنونا

٭٭٭

الناس حولك للوثو ب إذا غفت عين انتباهك
يتراقصون على أنينك شاربين كؤوس آهك
لم تغنك الصلوات ان سطت الذئاب على شياهك
الحرب من سنن الحيا ةِ ألأنت أحكم من إلهك

٭٭٭

ليس الفتى العربى بالذ ئب الخطوف ولا الخروف
لكنه البطلُ الشريــف القادر البطلَ الشريف
نحن الاولى نخروا الأنا م بكل جبّار لطيف
لا يستبد بغير طا غٍ مستبدٍ بالضعيف

٭٭٭

ما زلت فى بدء الجها د فلا تقل بطلَ الجهاد
اليوم يومك للسبا ق اليوم يومك ياجواد
فانهد إلى حوماته لا بالمهندة الحداد
بل بالتساهل والمحبّــة والوئام والاتحاد

٭٭٭

عش للعروبة هاتفاً بحياتها ودوامهـــا
وامدد يمين الحب با لبنانهـــا لشآمها
أنظر إلى آثارها تنبئك عن أيامها
هـذا التراث يمتُّ معــظمه إلى إسلامها

٭٭٭

مالى أراك برئت من دمها ومن أوطانها
أنسيت أنك ليث نهـــضتها ونسر بيانها
أتقول لست من الشآ م وأنت فى أحضانها
أتهـد ناطحة النجو مِ وأنت من أركانها

٭٭٭

إن فاتك الرأى السديــد فخذ برأى ذوى العقول
ودعِ الغبىَّ يقول ما شاء التعصب أن يقول
إلحق بشاعرك الأبى وفيلسوفك يا جهول
من سار خلف «الديك» يعــلم أين آخرة الوصول

٭٭٭

هلا ذكــرت فتوحهم بالمشرفيّـــة والقلم
أيام هـزوا للعلى والعلم فى الغرب العلم
جمعوا الذكاء إلى الوفا ء إلى الاباء إلى الشمم
قهروا العدى نشروا الهدى رضعوا الندى بدءوا الكرم

٭٭٭

قل لى بربك هـل ربحــت من الغريب سوى المحن
وفروغ جيبك واليدين وقتل روحك والبدن
كانت تدر الشهد أر ضك والسلافة واللبن
فغدا الوقوف على ربو عك كالوقوف على الدمن

٭٭٭

سيجرّ عزرائيل فو ق ربوعهم ذيل العفاء
ويطير الشيطان ما اخــترعوا بما اخترعوا هباء
ويطهر الأجواء من عقبانهم نسر القضاء
من كان يأباه الجحــيم فكيف ترضاه السماء

٭٭٭

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

— ٣ —

زهرة التذكار

وسقطت زهرة من طرتها ، فانحنى ليرفعها عن الأرض .

استوقفته بنغمة من صوتها الشجي قائلة : — دعها ، دع الزهرة التي صدمها الهواء ، وخذ هذه ، بدلا عنها .

أخرجتني من بين نهديها وأهدتني لحبيبها .

* * *

سمعته ينشد وهو يضمني إلى صدره : أيتها الزهرة المحبوبة ابقى معي إلى الأبد ، أنت زهرة التذكار .

وذهب بي إلى غرفته المنفردة ، حيث بللت في بكأس البلور .

كان ينظر إلى ، فيراها . ويهمس في وريقاتي قائلا : — يازهرة محبوبتي ، ما أقوى عبيرك وما أشد فعله في قلبي ! لقد لمستك يدها وتركت أنفاسها تهب على وريقاتك ، لو فقدتك بين آلاف الأزهار لما ضل عنك تذكاري .

* * *

شربت كثيراً من الكأس البلورية فلم أرتو ، ذبلت ككل شيء ينفصل عن أصله ، علا الاصفرار تويجي فانحنيت على نفسي ، رأيته يتقدم إلي والدمعة في عينيه ، يحدجني بنظراته الرائعة ، ثم قال : — ما أوجع احتضارك على مشهد مني يازهرة التذكار ! سيسطو عليك ملك الموت ولكنه لن يدنو من روحك الخالدة روح التذكار الدائم . تعالى لأدفنك في القبر المقدس حيث دفنت آمالي فيضمك وحياتي كفن واحد .

أخذني إلى خزانته وألقاني بهدوء بين أكفان الطروس ، بين رسائل من يهوى .

* * *

وكان مقري بين النار الكامنة في الكلمات ، والكلمات صامتة في الحروف السوداء .

لقد زارني مراراً في قبري ، فكنت عاكساً أميناً لخياله ، تنطبع نضارة تذكاره على اصفرار وريقاتي ، ويهب عبير غرامه من جفاف عروقي ، فيراني صبية رائعة الشباب تنفخ الفتوة في كهولة قلبه .

* * *

وما عدت أراه إلا من حين إلى حين .

ومنذ أيام أخذ كفني دون أن يلق على كلماته نظرة واحدة ودفع به الى اللهيب . ثم لحت لعينيه جافة صفراء فحدجني ملياً كأنه يفتش على ذكر لايهتدى اليه .

أمسكني بأطراف أنامله وتقدم يبطء إلى النافذة .

شعرت بمصادمة الهواء لوريقاتي النحيلة فارتجفت .

أنكر جميلي وأي إنسان ليس جاحداً ؟

أنا الزهرة المأخوذة من بين نهديكن ، أنا زهرة التذكار ؛ لفح الهواء وريقاتي الجافة فتبددت في الفضاء .

(ف . ف)

شيد على أنقاضها مدنيّة الخلق المتين
فلأنت بالتمدين دو ن الناس أجمعهم قمين
مثل المهند أن يهز فان يهزّ بك الحنين
فالغصن ، فالنسمات ، فالورقاء ، فالماء المعين

* * *

واهاً على عهد السذاجة والحماقات العِذابِ
ما ضرّ لو غادرتهن وطرت ، وحدك ياشبابي
خير الصحاب تركتني وتركت لي شر الصحاب
بعد الأماني العذا ب أمر ألوان العذاب

* * *

عش للتفاؤل يا شبا ب وللبشاشة والخلابه
عش للخيال وللجما ل وللغرام وللصبابه
عش للطموح وللجها د وللمناعة وللصلابه
قيل المهابة للشيو خ وأنت أجدر بالمهابة

* * *

سر في فتوح الخالدين وطرْ الى أقصى مطارك
الكهرباء على يميـنك والبخار على يسارك
طرْ لابساً إكليل غا رك رافعاً علم انتصارك
رحب الفضاء فناء دا رك والعوالم باب دارك

الشاعر القروي

من العصبة الاندلسية

أقصوصة

الخداع

مترجمة عن الفرنسية

بقلم الاستاذ فليكس فارس

بين الوهاد والجبال أمام روعة الطبيعة لم تدنسها يد الانسان كانت العساكر الفرنسية والانكليزية تتحين الفرصة للهجوم، وكل منها يتوقع الفوز بوفرة عَدده وضخامة عُدده. وكان قائد الحملة الفرنسوية شيخاً بلته الأيام فما زادته إلا صلابة وعزماً، وقد ملىء تذكاره بالوقائع الكبرى وعقد له النصر ألوية وسجل له التاريخ صفحات المجد خالدة.

حمى وطيس الحرب فتوالت الهجات وتفجرت الدماء على تلك الأرض الجرداء مثمرة الترمل والثكل واليتم. ومالبث أن أحاط الانكليز بأعدائهم إحاطة السوار بالمعصم فكادت تدور على هؤلاء الدائرة لولم يتدارك القائد الشيخ خطورة الموقف بعزمه وإقدامه

وكان هذا القائد ممتطياً صهوة جواده يفكر في إيجاد وسيلة تمكنه من اختراق صفوف الأعداء. فشاهد أحد أتباعه يتقدم إليه بخطوات ثابتة. وعندما وصل القادم إلى مقربة منه عرف أنه هنرى الذى تبناه بعد أن سقط والده قتيلا فى موقعة كان هو قائدها أيام الصبا. وحاط القائد هذا الطفل بكل رعايته حتى بلغ أشده فاتخذه معيناً له، وكان يستصحبه فى جميع معاركه وكان هذا الفتى الجميل قد عاد مرات من الحروب مثخناً بالجراح فضمدتها يد قرينة القائد الشيخ وهى فتاة فى ريعان الصبا كانت تزوجته بالرغم من تقدمه فى السن وبالرغم من أقوال الناس وتكهناتهم

وحدق القائد بفتاه معجباً بجمال طلعته وبسالته وقال له: — لاخلاص لنا من هذا المازق إذا نحن لم نخترق دائرة الأعداء المحيطة بنا، فعليك أن تقوم بهذا العمل، اختر من تشاء من الشجعان وسر فى مقدمتهم. فالواجب يدعوك إلى التضحية من أجل الوطن والمليك

وانتضى الفتى سيفه ونادى: ليحيى الملك

فرددت نداءه فرقة من الجند لمعت سيوفهم فى الفضاء. وتقدموا منضمين الى قائدهم الجديد منتظرين اشارة الهجوم

وارتمى هنرى بين يدى مربيه يضمه الى صدره قبل أن يقتحم المخاطرة الكبرى، فتمازج دمعا الفتى والشيخ وكل منهما موقن بأن لا لقاء بعد هذا الوداع

وفى تلك اللحظة شق الصفوف فارس آت من باريس، ترجل عن فرسه وقد علاه الغبار وأضناه التعب وتقدم الى القائد الشيخ مقدما له رزمة رسائل مختومة بالشمع الأحمر حاملة عنوان هنرى باحرف منمقة، ولم يكد يفض القائد الختم ووقعت أبصاره على السطور حتى جمد الدم فى عروقه وارتسمت على وجهه أمارات حزن عميق وحدق فى ربيبه مليا وقد جفت دموعه فجأة بين جفنيه

وكانت الرسائل من عقيلة القائد الشيخ موجهة الى هنرى. فى كل كلمة منها شرارة شوق وفى كل سطر شعلة غرام وجنون

وأدار الشيخ وجهه عن ربيبه وسرح أبصاره على ميدان المعركة كأنه يفتش عن هاوية تنفتح فيه فيذهب اليها ببقية حنان كانت تختلج فى قلبه لربيبه وبشبح غرام نورت أزهاره على غصن هرم ففاحت منها رائحة القبور

مزق الرسائل الواحدة تلو الأخرى على مهل وهو مصغ من أعماق روحه الى هتفة ماكان يعلم أمها أم من روح الوجود مصدرها: — ويل للعقوق، ويل للخائنة

وانتبه الشيخ كمن يستفيق من حلم وقال لهنرى: — ابق هنا وقم مقامى، فلسوف أقود مخترقى الصفوف بنفسى

فصاح الفتى: — ولم تريد حرمانى هذا الشرف، ياأبى؟

فادار القائد رأسه ليخفى ما ارتسم عليه من الحنق والألم وقال بهدوء: — ذلك أمر تلقيته الآن

واختنق صوته، فاندفع نحو الخطوط وتبعته فرقة المستبسلين وعلا دخان البارود وملأ الفضاء أزيز الرصاص، فلم يسمع أحد ما هتف به القائد الشيخ وهو يرتمى قتيلا عن صهوة جواده.

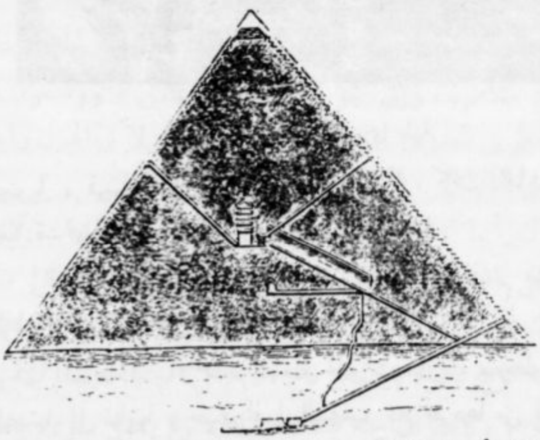
الفنون

الفن المصرى

١ - العمارة

للدكتور احمد موسى

دفع الدين والاخلاص له إلى الفن الذى بدأ به المصريون مبكرين. نظروا إلى السماء فقدسوها وإلى الشمس فعبدوها، وإلى النيل فعرفوا أنه مصدر حياتهم فجعلوا منه إلها للخير، ورأينا فيما سبق كيف كانت عبادة المصريين لمعبوداتهم، وكيف دفع بهم الدين إلى حضارة هى مثار الاعجاب للدارس الباحث على مر القرون



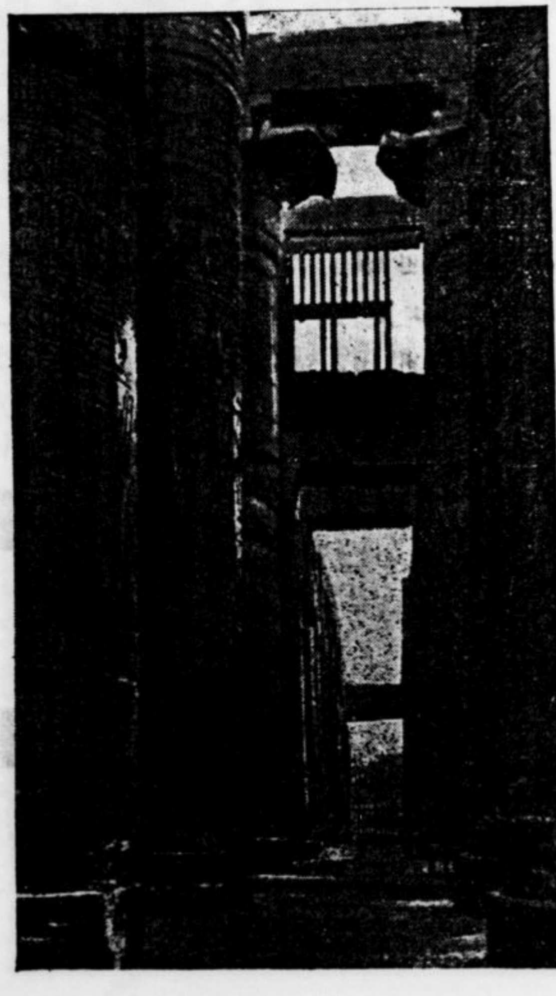
(ش ١) قطاع رأسى للهرم الأكبر بالجيزة يبين المدخل والمسالك والحجرات والمنافذ

وإذا كانت قواعد تاريخ الفن تشير بتقسيم التراث المجيد إلى أقسام معينة؛ فذلك لكى نحسن الفهم فيتم التقدير الذى يؤدى بنا إلى الاستمتاع بجمال الوجود، فضلا عما نستطيع وضعه من أصول نتمكن بها من ربط نهضتنا الحالية بالحضارة القديمة، فى انسجام وبغير خروج على الذوق العام.

بنى المصريون المقابر والأهرامات لثقتهم بعودة الحياة إلى الجسد بعد الموت، وبعد حساب عسير، ولن تتمتع بقسط من النعيم إلا بقدر ما قدمت من عبادة وتقديس للآلهة، فدفعهم هذا إلى تشييد المعابد التى لم يكن مستطاعا لهم فى غيرها القيام بالواجب الأسمى

فكان بناء المقابر والمعابد أول أقسام الفن، وأجدرها بالدرس لمن يريد معرفة الفن المصرى من بناء ونحت وتصوير، والوقوف على ما فيها جميعا من جمال أدى إليه الشعور بالوجدان وسمو المشاعر ونبل العاطفة

استغرق تاريخ مصر عدة آلاف من السنين، وشمل أسرات بلغت الإحدى وثلاثين، ولذلك ينبغى تقسيم عصر البناء (والفن من نحت وتصوير) إلى أقسام أولها عصر المملكة القديمة، حيث تم تشييد الأهرامات بالجيزة وغيرها. ثم عصر المملكة الوسطى وبعدها المملكة الحديثة



(ش ٢) صالة فى معبد الكرنك

ويرى الدارس للأهرام سر العظمة البنائية متجليا فيها ، كما يلاحظ الأبهة فى إخراجها والدقة المتناهية فى تكوينها العام ، بجانب ما يستطيع الوصول إليه بالفحص والتحليل من معرفة بعض ما بلغه المصريون فى علمى الهندسة والرياضيات ، ولا غرابة إذا اعتبر العلماء المعاصرون ، الاهرام أعظم نموذج عملى لعلم الهندسة المعمارية إطلاقا

ولم تدم مرحلة بناء الاهرام طويلا ، بل إنها لم تكن إلا فى عهد الأسرات الأولى فقط ، أما المعابد فانها بدأت معها ولكنها ظلت تشيد طوال عصور الحضارة المصرية القديمة

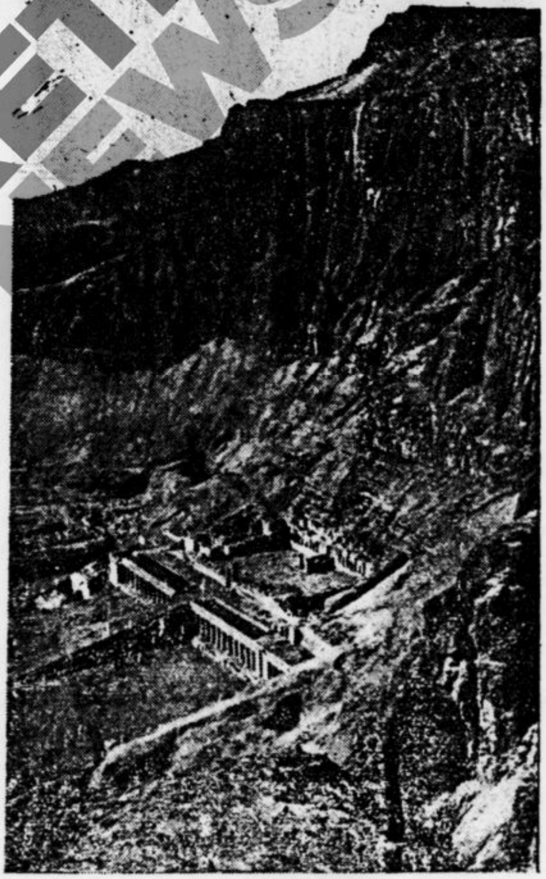
وأهم الأهرام ثلاثة ، أولها وأعظمها هرم خوفو البالغ ارتفاعه حالا ١٣٧ مترا وطول ضلع قاعدته ٢٢٧ مترا ، كله من الأحجار الضخمة التى استحضرت من محاجر طرة والمقطم ومن محاجر أسوان أيضا . ويبلغ حجمه الهائل حوالى مليونين وثلث مليون من الأمتار المكعبة ، له مسالك للسير فى داخله والوصول إلى حجرات الدفن ، كما أن له منافذ للهواء

أما هرما خفرع ومنقرع فهما أصغر قياسا وحجما ، كما أنهما نسبيا أقل أهمية من الهرم الأكبر . وتوجد بمصر أهرامات كثيرة فى أبى رواش وأبى صير وسقارة ودهشور وميدوم وغير ذلك ، لبعضها مميزات واضحة منها التدرج (كهرم سقارة المدرج) ومنها عدم استقامة أضلاع الزوايا (كهرم ميدوم) الذى كان فى الأصل مكونا من سبع طبقات بعضها فوق بعض لم يبق منها إلى الآن سوى ثلاث . كل هذه الأهرام كانت مقابر للملوك . ولعل ما تشعر به النفس من رهبة أثناء دخول الهرم الأكبر خير دليل على مبالغة الملوك فى الحرص على أجسادهم بعد موتهم الذى نظروا إليه بكل اعتبار وبكل تقدير

أما المعابد فقد اختلفت عن الأهرام اختلافا ظاهرا واختلافا



(ش ٣) طريق الاعمدة بمعبد الأقصر

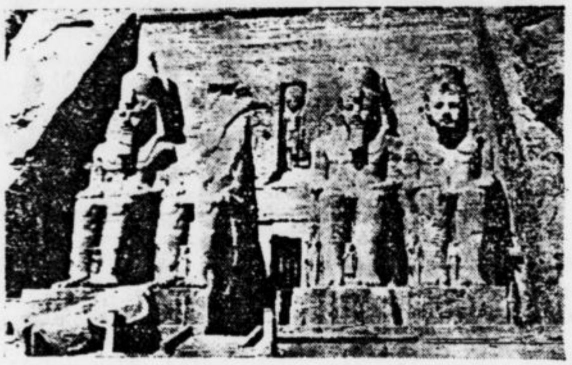


(ش ٤) معبد الدير البحرى بطيبة

معنويا ، فبينما كانت الاهرام مقابر للملوك ، كانت المعابد أماكن للعبادة . فضلا عن اختلاف الوضع والتصميم

والناظر إلى المعابد المصرية إجمالا يرى أنها تنقسم من ناحية طراز أعمدتها التى هى أبرز ما يلفت نظر الزائر لها إلى قسمين أولهما المعابد ذات الأعمدة الشاملة لقنوات سارت مع طولها ، من قاعدتها إلى نهايتها ، حيث تحمل السقف مع تجردها من التيجان وثانيهما ذات أعمدة لها حينا قنوات وحينا آخر خالية منها ، علاوة على وجود التيجان فى أعلاها . أما التيجان نفسها فكانت على هيئة زهر اللوتس أو زهرة البردى أو على شكل نهاية النخل (العمود النخلى أو كانت أحياناً عبارة عن مكعب على نهاية العمود الأسطوانى حفرت على كل وجه من أوجهه الأربعة رؤوس نساء (ش ٦) وبمقارنة المعابد المصرية المهمة بعضها ببعض ، يمكن أن نعرف أن عصر نهضة فن بنائها انحصر فى عهد المملكة الحديثة (١٥٥٥ - ٧١٢ ق . م . وأثناء حكم البطالسة وقياصرة الرومان (٣٣٢ ق م . وما بعدها

والدارس لتصميماتها يرى أنها شابهت إلى حد بعيد قصور الملوك والمساكن الخاصة ؛ فالمدخل العام للمعبد أنشىء بحيث يؤدى دائماً إلى فناء فسيح غير مسقوف ، وحوار ثلاثة جوانب منه وضعت أعمدة



(ش ٥) معبد رمسيس الثانى أبى سنبل

تشترك مع الجوانب فى حمل السقف، الذى كان بعرض كاف لتظليل الممر أسفله. اما الهيكل حيث اجتمع المصلون حوله لتقديم قربانهم، فقد توسط المعبد. وكان الفناء ينتهى عادة بردهة ذات أعمدة وضعت بنظام يقسمها ثلاثة أقسام، الأيمن والأيسر متشابهين من حيث مساحة الفراغ المحصور بين الحائط والأعمدة، وأما الأوسط فكان عرضه مساوياً لفراغ الاثنين معاً نظراً لأنه طريق المرور. وفى النهاية ثلاث غرف. الوسطى منها خصصت للإله المعبود، وأما اليمنى واليسرى فكانت لزوجة الإله ولأولاده أحياناً. وكانت هناك غرفة لحفظ أدوات التقديس والاطعمة وما إليها

وأقام المصريون أمام المدخل العام لمعابدهم أعمدة شاهقة ذات أوضاع متناظرة، وإلى جوارها مسلات وتماثيل، ووضعوا على جانبى الطريق العمومى المؤدى إلى المدخل تماثيل لأبى الهول رابضاً أو تماثيل للكباش

وكثيراً ما أدخل الملوك المتعاقبون تحسينات أو تغييرات كثيرة على مبانى المعابد التى شيدها من قبلهم. ولعل خير مثل لهذا معبد الكرنك، فأول من أمر ببنائه سيزوستريس الأول، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، حوالى عام ١٩٥٠ ق.م، خصيصاً لآمون إله طيبة، وكانت مساحته عندئذ ضئيلة، ولم يشمل سوى بعض ردهات وستة أعمدة، كانت خالية من الزخرفة، إلى أن جاء توتموزيس أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة فبنى غرفا عدة أمام هذا

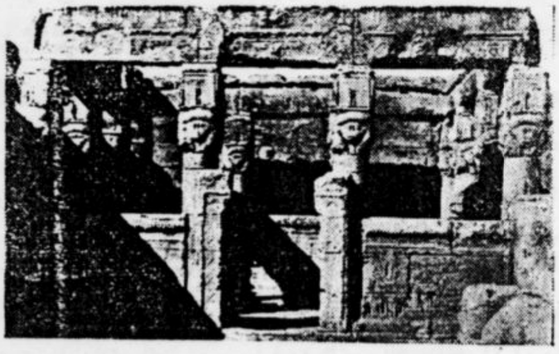


(ش ٦) معبد ايزيس بفيلا

المعبد. وحذا ملوك هذه الأسرة (١٥٤٥ - ١٣٥٠ ق.م.) حذوه فأدخلوا على معابد كثيرة شيئاً من التوسع جديراً بالذكر

ونهجت الأسرة التاسعة عشرة على منوال أدق (١٣٥٠ - ١٢٠٠ ق.م.)، فأضافت إلى معبد الكرنك الصالة الرائعة، التى بلغت مساحتها مائة متر فى خمسين متراً، بأعمدة ارتفاعها اثنى عشر متراً وربعاً، علاوة على بناء غرفتين صغيرتين، وفى عهد الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٤٥ ق.م) ثم عمل السور العظيم حول هذا المعبد الفذ

وأهم وأجمل المعابد المصرية راجع إلى المملكة الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٩٠ ق.م) تحت إشراف ملوك عظام، لايزال التاريخ يذكرهم أمثال توتموزيس الثالث والرابع، وأمينوفيس الثانى والثالث والرابع ورمسيس الأول والثانى والثالث، وسيتى الاول. ممن شيدوا القصور والمعابد التى لايزال بعضها رمزاً لأعظم حضارة وأقدمها. فعابد الكرنك ش ٢ و ٣، وأبى دوس، والأقصر ش ٤،



(ش ٧) المعبد الصغير أعلى معبد حاتور بدندره

والقرنة، ومدينة جالو. والدير البحرى ش ٥، وأبو سنبل ش ٦، وفيلا ش ٧، ودندرة ش ٨، وجرف حسين، كل هذه مشيدات لم تغالب الدهر فحسب، بل تحدث كل ماجاء بعدها عن مظاهر الأبهة والمدنية، ولا تزال إلى اليوم رمزاً خالداً يوحى بالعظمة والجلال. لو كان لشعب غير الشعب المصرى لواصل الليل بالنهار للعود بالمجد التالد إلى عالم الوجود

ومهما يكن من شيء، فأنى لم أف الموضوع حقه من العناية فى سطور ضئيلة قد لاتكفى إلا لاعطاء فكرة شاملة عن المعابد المصرية إجمالا، غير أن هذا لايمنع من التنويه بوجوب معرفتنا لآثار بلادنا، تمهيداً لايصال الحاضر بالماضى، حتى نكون قد أدينا رسالتنا نحو أنفسنا ونحن الوطن، ونكون قد لمسنا بعض ما ببلادنا من نواحى ووجوه للتثقيف والاستمتاع، التفت إليها الأجانب قبل أبناء مصر

أحمد موسى

البريد الأدبي

الصحافة المصرية فى معرض باريس

أذاع مندوب مصر العام فى معرض باريس بيانا قال فيه «إنه لما كانت مصر ستشترك هذا العام فى معرض باريس الدولى. ولما كان يحرص على أن يكون تمثيل مصر كاملا من جميع الوجوه. فانه لم ينس مكانة الصحافة المصرية كدعامة كبرى من دعائم رقى مصر الحديث، ولهذا فقد احتفظ لها بمكان فى القسم العام المخصص لمعرض الصحافة» وإذا كان لنا أن نلاحظ على هذا البيان بشيء فهو أنه جاء متأخراً، وقد كان يحسن التفكير فى أمر الصحافة قبل ذلك كى تستطيع من جانبها أن تستعد للمثول فى المعرض بالصورة اللائقة بها. بيد أن الفرصة ما زالت قائمة على أى حال، ولا يزال بيننا وبين افتتاح المعرض زهاء شهرين؛ وهذه فرصة حسنة لتعريف أمم العالم بالخطوات الباهرة التى استطاعت الصحافة المصرية الفتية أن تخطوها فى العهد الأخير، خصوصا وأن التبادل الصحفى بيننا وبين الأمم الغربية يكاد يكون معدوما من الناحية المصرية، لأن اللغة العربية ليست من اللغات التى يعنى بها فى مكاتب الصحافة الأوربية، وبينما تبذل صحافتنا جهودا متواصلة لتقف قراءها على سير التطورات والحوادث الأوربية، وعلى أقوال الصحف الخارجية بصورة سخية واضحة إذا بالصحافة الأوربية لا تكاد تذكر عن مصر وأحوالها شيئا مستقى من مصادره الأصيلة اللهم إلا ما يبعث به إليها مراسلوها من وقت لآخر: فعلى صحافتنا أن تستعد لانتهاز هذه الفرصة للمثول إلى جانب الصحافات الغربية الكبرى، والتعريف عن نفسها وعن مكانتها، ويجب عليها أن تنتهز الفرصة لتوثق روابطها مع دوائر الصحافة الغربية بصورة تلفت النظر إليها، وفى أهميتها باعتبارها مصدراً لأخبار مصر والأمم الشرقية ومرآة صادقة لتطوراتها وأحوالها يحسن الاعتماد عليها من جانب الصحافة الغربية والانتفاع بمعاونتها وجهودها

كتاب ألمانى جديد عن مصر الفرعونية

ما زالت حضارة مصر القديمة تثير دهشة العالم وطلعته وتحفز العلماء والمنقبين إلى مضاعفة الجهود فى سبيل الكشف عن حقائق تلك الحضارة العجيبة وأسرارها. ولعل حضارة من الحضارات العالمية الخالدة لم تظفر بمثل ما ظفرت به حضارة الفراعنة من البحوث والتآليف الجليلة، ففى كل عام تصدر عنها سلسلة حافلة من الكتب فى مختلف أقطار الأرض. وقد صدر منذ أسابيع قلائل كتاب جديد بالألمانية عن حضارة مصر القديمة عنوانه «العالم من وادى النيل صور من مصر القديمة» Die Welt am NilBilder aus dem alten Agypten بقلم أدولف ايرمان A. Erman والدكتور ايرمان من أشهر علماء ألمانيا الأثريين، وهو اليوم فى الثمانين من عمره وقد أنفق معظم حياته فى المباحث المصرية القديمة ولا سيما قراءة أوراق البردى وحل رموزها وأودع كتابه الجديد الذى وضعه فى مغرب حياته خلاصة جهود علمية وفنية شاقة. ويقدم إلينا ايرمان فى كتابه عرضاً وافيا لأحوال مصر الفرعونية الجغرافية والتاريخية والثقافية؛ ويبدى دهشته من أن هذه الأرض الفياضة بكنوز الفن القديم والمدنية القديمة لبثت منسية حتى نهاية القرن الثامن عشر؛ ولولا نابليون وحملته لبقيت عصراً آخر فى غمارها المجهولة، ويستعرض ايرمان جهود العلماء الأثريين خلال القرن التاسع عشر وما كشفت مباحثهم من الحقائق الجليلة عن حضارة مصر الفرعونية وعن تاريخها المجيد، وعن آثارها وكنوزها المدهشة، ويعنى ايرمان بنوع خاص بالنواحى العقلية والاجتماعية لمجتمعات مصر الفرعونية، ويحاول أن يصور لنا هذه المجتمعات فى حياتها المنزلية والاجتماعية والدينية، وفى طقوسها ورسومها وتفكيرها، وفى سائر نواحى حياتها المادية والروحية كما يصور لنا الملوكية المصرية القديمة فى مواكبها وفى روعتها، فى عصور الحرية. وفى عصور السلام

ويعتبر كتاب ايرمان من الوجهة العلمية ثروة جديدة فى تراث المكتبة المصرية الفرعونية

مجموعة ثمينة من رسائل جيته

تحتفظ مدينة فيجساك الألمانية الواقعة على نهر ويزر مجموعة ثمينة . من رسائل الشاعر الألمانى الأكبر جيته كتبها بخطه . وأرسلها جميعاً إلى صديقه نيقولا ماير من أهل مدينة ريمن ، وكان ماير قد زار فى شبابه مدينة ـ فينا ودرس فى جامعتها ، وزار الشاعر مراراً فى مقامه فى فيمار ، وعقدت بينهما واصر صداقة متينة استطالت زهاء ثلاثين عاماً ، واستمرت مراسلاتهما بانتظام إلى ما قبل وفاة الشاعر بنحو عامين فقط ، وهذه المجموعة مما كتب جيته إلى صديقه تبلغ وحدها خمسين رسالة ، تحتفظ بها مدينة فيجساك فى متحفها الصغير ، وهناك مجموعة أخرى من الرسائل أرسلها ماير إلى زوجه وولده ، وكانت هذه الرسائل تحفظ منذ مدة طويلة فى مكتبة شتراسبورج ، ولما كان يهم ألمانيا أن تجمع هذه المراسلات كلها فى مجموعة واحدة ، فقد بذلت على يد سفيرها لدى الحكومة الفرنسية السعى اللازم لاستعارة رسائل ماير من شتراسبورج وكلل سعيها بالنجاح أخيراً ، وحملت الرسائل إلى متحف فيجساك

معرض لتاريخ الدخان

مذ عرفت شجرة الدخان في سنة ١٥٥٠ على يد طبيب ومكتشف أسبانى يدعى ريكارد وديلافونتى ، حمله إلى أسبانيا مع النارجيلة التى كان يدخنه فيها الهنود يومئذ ، وأمم العالم كلها مقبلة على تدخينه ، واليوم يدخنه الشرق والغرب والشمال والجنوب والشبان والشيب ، والرجال والنساء ، ويرون فيه جميعاً وسيلة للترويح عن النفس ومطاردة الهموم . وقد أقيم أخيراً فى باريس معرض شرح فيه تاريخ الدخان منذ اكتشافه إلى يومنا ، وهو معرض « جاليرا » ، ويضم المعرض المذكور فى واجهاته الزجاجية طائفة كبيرة من الغلايين المصنوعة من مختلف المواد فى مختلف العصور ، وبعضها محلى بالذهب ، مما كان يملكه بعض الملوك ، ومشاهير السادة ، وكذلك مجموعة مختلفة من العلب التى يوضع فيها الدخان ، وتشكيلة عظيمة من مختلف السجائر فى مختلف أنحاء العالم .

جيل نموذجى فى ألمانيا الهتلرية

إن فكرة النسل المختار التى يدعيها ويدعو إليها زعماء ألمانيا النازية لم تعد فقط فكرة نظرية ، بل خرجت إلى طور التطبيق العملى ، فقد رأت ألمانيا الهتلرية أن تنشىء بالفعل جيلا نموذجياً من الناس ، وتحقيقا لهذه الغاية أنشأت فى مدينة يوناس دورف من أعمال باوتسن فى سكسونيا مستعمرة خاصة بالشبان الراغبين فى الزواج من أعضاء فرق الحرس الأسود ، ومن المعروف أن هذه الفرق تضم الشبان الأقوياء الذين يمتازون ببسطة الجسم وحسن التكوين والملامح ، ومن الجهة الأخرى فقد رؤى أن ينشأ فى نفس الوقت معسكر للبنات النموذجيات اللائى يصلحن ليكن زوجات لهؤلاء الشبان فأنشىء فى يوناس دورف مستعمرة من مائتين وخمسين فتاة يشترط فيمن تنتظم فيها أن تكون من الآريات الخلص وان تثبت أن الدم اليهودى لم يتسلل إلى أسرتها حتى سنة ١٨٠٠ ، ويوقع على الراغبات خمسة كشوف طبية متعاقبة للتحقق من سلامتهن وصلاحيتهن للنسل السليم . كذلك يمتحن كل من الفريقن فى مبادىء الحزب الفكرى ومراميه السياسية والاجتماعية ، ويزول أولئك الشابات والألعاب الرياضية المجهدة ويدربن على الأعمال المنزلية وشؤون الأمومة تدريبا حسنا ، ويراعى فى اختيارهن التناسب فى الجسم بينهن وبين الشبان الذين يتقدمون لخطبتهن . والمفهوم أن ولاة الأمر فى ألمانيا الهتلرية يفكرون فى مضاعفة هذه المستعمرات تدريجيا ، تحقيقا لمشروعهم فى ترقية النسل والجيل

احياء ذكرى حافظ ابراهيم فى دار الأوبرا

الآن والرسالة تتهيأ للصدور تقيم لجنة إحياء ذكرى حافظ ابراهيم حفلتها الأولى بدار الأوبرا الملكية في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥ بعد ظهر يوم السبت ٦ مارس سنة ١٩٣٧ تحت رعاية صاحب الجلالة الملك ورياسة صاحب المعالى وزير المعارف وهذا برنامج الحفلة

قرآن كريم الشيخ محمد الصيفى

كلمة الافتتاح لحضرة صاحب المعالى وزير المعارف

١ — حياة حافظ : للأستاذ ابراهيم دسوقى أباظه

٢ — قصيدة : للأستاذ أحمد الزين

٣ — الاجتماعيات فى شعر حافظ : للأستاذ أحمد أمين

٤ — قصيدة : للأستاذ أحمد الكاشف

٥ — أثر حافظ فى القومية : للأستاذ أمين الغريب

٦ — قصيدة : للأستاذ حسين شفيق المصرى

٧ — الغزل والنسيب فى شعر حافظ : للأستاذ السباعى بيومى

٨ — قصيدة : للأستاذ حليم دموس الشاعر اللبنانى

٩ — شكوى الزمان : للأستاذ حفنى بك محمود

١٠ — قصيدة : للأستاذ خليل مطران بك

١١ — حافظ والنقد : للدكتور زكى مبارك

١٢ — قصيدة : للشاعر على محمود طه المهندس

١٣ — حافظ الكاتب : للأستاذ عباس محمود العقاد

١٤ — قصيدة : للأستاذ محمد الأسمر

١٥ — حافظ فى السودان : للدكتور سعيد كنعان

١٦ — ذكريات شخصية : للاستاذ السيد محمد كرد على بك

١٧ — قصيدة للاستاذ محمد الهراوى

١٨ — الوصف فى شعر حافظ : للدكتور عبد الوهاب عزام

١٩ — حافظ العروبة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر

٢٠ — قصيدة للأديب محمود حسن اسماعيل

٢١ — السياسات فى شعر حافظ : للاستاذ عبد المجيد نافع

•••

الحفلة الثانية

وهذا برنامج الحفلة الثانية التى تقام فى الساعة ٤٥ : ٣ بعد ظهر يوم الأحد ٧ مارس فى دار الأوبرا الملكية .

قرآن كريم الشيخ محمد الصيفى

١ — حافظ واللغة : للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

٢ — قصيدة : للدكتور ابراهيم ناجى

٣ — الوطنيات : للدكتور محمد حسين هيكل بك

٤ — قصيدة : للاستاذ احمد محرم يلقيها عبد القادر المسيرى

٥ — شخصية حافظ وفكاهاته : للاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى

٦ — قصيدة : للاستاذ بشارة الخورى شاعر لبنان

٧ — لمحة عن حافظ الشاعر : للاستاذ فؤاد صروف

٨ — قصيدة : للاستاذ أمين ناصر الدين الشاعر اللبنانى

٩ — مزايا شعر حافظ : للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف .

١٠ — قصيدة : للاستاذ أبى الاقبال اليعقوبى الشاعر الفلسطينى

١١ — حافظ الراوية : للاستاذ محمد هاشم عطيه

١٢ — المديح والرثاء والتهانى : للأستاذ محمود البشبيشى

١٣ — قصيدة : للأستاذ فليكس فارس

١٤ — قصيدة : للأستاذ عبد اللطيف النشار

١٥ — حافظ القصصى : للأستاذ محمود تيمور

١٦ — قصيدة : للأستاذ احمد الغزاوى شاعر الحجاز

١٧ — حافظ الصديق الوفى : للأستاذ محمد فريد وجدى

١٨ — قصيدة : للاستاذ عزيز بشاى

١٩ — قصيدة : للاستاذ محمد الشريقى شاعر شرق الأردن

٢٠ — حافظ شاعر الشرق : للاستاذ قدرى حافظ طوقان

٢١ — قصيدة : للاستاذ محمد سعيد العباسى الشاعر السودانى

٢٢ — مختارات لبعض الكتاب والشعراء فى مصر والشرق يلقيها الاستاذ ضياء الدين الريس .

الكتب

سبأ ومأرب

رحلة فى بلاد العربية السعيدة

تأليف الأستاذ السيد نزيه المؤيد العظم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

لقد قصر الأواخر عن الأوائل تقصيرا معيبا فى وضع المدونات الجغرافية ووصف المسالك والممالك وصفا علميا مبنيا على ملاحظاتهم الخاصة وقائما على وجهة نظرهم ولا سيما وصف الأقطار التى يهمنا شأنها ولنا ارتباط بها خاص؛ ومن هذه الأقطار التى تكاد تكون غفلا من الذكر فى مدوناتنا الحديثة القطر اليمانى أو العربية السعيدة حتى صرنا إذا أردنا أن نلم بشيء من أخبارها وشؤونها اضطررنا إلى مراجعة ما دونه السياح الغربيون عنها أو إلى مؤلفات كتابنا من أهل القرون الوسطى. لذلك يعد هذا السفر الذى وضعه الرحالة الأستاذ نزيه المؤيد العظم تحفة ثمينة قد سدت ثغرة عظيمة فى تاريخ نهضتنا الأدبية السياسية العلمية

والكتاب مكتوب بطريقة قصصية سهلة وبأسلوب سلس خال من التعقيد والتكلف يكاد من يقرأه يظن أن مؤلفه يحادثه وجها إلى وجه ولا سيما من عرف المؤلف معرفة شخصية وتعود سماع حديثه والطريقة التى يدلى حججه بها. وهو لم يبسط فيه أحوال اليمن بسطا حياديا مجردا بل يتحين الفرص ليدلى بآرائه الشخصية ونظرياته الدينية والاجتماعية ويشير من حين إلى آخر إلى أغراض الدول المستعمرة فى تلك الأرجاء

ومما استوقف نظرى كثيرا ملاحظة منه سبق لى أن تجرعت منها الصاب وأنا واقف على أسكلة عدن فى أوائل سنة ١٩١٦، فقد حدث يومئذ أننى كنت قادما من الهند إلى مصر وكانت معنا فى الباخرة سيدة انكليزية أرلدية ملمة ببعض الشئون السياسية فذكرت لها النهضة العربية وكيف أن العرب يعملون لاعادة مجدهم الغابر واستقلالهم المنشود، فلما رست باخرتنا على عدن رأيت خليطا من الغوغاء بألبسة قذرة وأصوات منكرة وحركات همجية مزرية يتقدمون إلينا على زوارق كبيرة لنقل البضائع، فصاح بعض الانجليز من على ظهر السفينة «عرب عرب»، فجاءتنى السيدة الانكليزية مستفسرة بشيء من التعجب: «هل هؤلاء هم العرب الذين يغارون على مجدهم السابق واستقلالهم المنشود»؟ فبينت لها خطأ التسمية من اطلاق اسم جزء خاص على كل عام وأن حفاة أرلنده ــ وكانت أرلندة يومئذ تتحفز للثورة ــ ليسوا كل الأرلنديين. قال الأستاذ نزيه فى ملاحظته «ومما يؤسف له أن أكثرية الوطنيين العرب ــ فى عدن ــ أصبحوا خداما للأجانب فلا يتعاطون من الأشغال إلا الدنيئة كالخدمة فى المنازل وصيد السمك والحمالة ومسح الأحذية ونقل البضائع وخصوصا الفحم والغاز من السفن التجارية إلى البر»؛ وكذلك فى مصر من الفرنجة والمتفرنجين من يطلق كلمة «عرب» على هذه الطبقة من الناس

وفى الكتاب ملاحظات قيمة عن الزراعة فى البلاد وخصب الأرض وخدمتها والطرق الابتدائية المستعملة فى استنباتها وهو يقول أن محصولات اليمن تشمل البن والتنباك والقطن، وذكر لى أن جلالة الامام استحضر من مصر بزر (السكالاريدس) فنجح هناك نجاحا ظاهرا

ومن أغرب ما جاء فى هذا الكتاب مما يخالف المألوف ولا ندرى له سببا أن تضع الحكومة المتوكلية مكسا أو رسما جركيا اثنين ونصفا فى المائة على الصادرات ولا تضع شيئا على الواردات (ص ٣٧)

وان تعجب فعجب أن تكون اليمن وهى موطن أنفخر لا تشرب القهوة المعمولة من ثمره وإنما تشرب مغلى قشره مما يذكرنى ببلاد النمسا فهى تصنع أفخر الطرابيش لا يلبسها النمسويون بل لتصديرها إلى بلاد الشرق. واليمنيون إذا أرادوا إكرام ضيوفهم بهذا المغلى سألوهم أتقشرون أى أتريدون أن تشربوا القشر على قولنا أتتفكهون

وقد عرفنا قديما ان نساء اليمن فى الارياف يلبسن القبعات القش ولكن المؤلف رآهن فى حفلة عرس سافرات، وبعضهن كن عاريات الا من مئزر بسيط، وبعضهن كن لابسات اكماما قصيرة ــ ديكولتيه ــ وبعضهن وضعن على رؤوسهن حجابا أسود، وبعضهن وضعن فوق هذا الحجاب قبعة مصنوعة من قش القمح أو الشعير ذات حجم كبير لترد أشعة شمس تهامة المحرقة وهى من صنعهن، وقد علمتهن الحاجة التى هى أم الاختراع الا يتقيدن بعادة وقانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن»

ويخيل الى من يقرأ هذا الكتاب أن البلاد تحت نوع من الأحكام العرفية أو ان أهاليها فى مدرسة ليلية أو فى سجن اصلاحى لأن السير فى طرقاتها من بعد ساعة معينة من الليل محظور، فقد جاء فى الصفحة ٤٩ «وفى هذه الساعة الرهيبة ــ يعنى بعد تناول العشاء ــ لا يسمع المرء فى بلاد اليمن من اقصاها الى أقصاها الا نداء الجنود فى ثكناتهم وقلاعهم

وحصونهم (وامتوكلاه) - على طريقة بادشاهم جوق باشاقى الدولة العثمانية - وبعدئذ يضرب بوق النوم فيذهب جميع أهل المدن الى النوم ويصبح الخروج من المنازل الى الأزقة والشوارع محظوراً على الجميع عدا الجند.

واعجبنى جد اعجاب الغاء الرق فى بلاد اليمن ومنع الاتجار بالعبيد فلم يجد المؤلف لهذا الوضع أثراً فى تلك الانحاء بل قال فى الصفحة ٥٠ « ان الامام حفظه الله منع هذه التجارة منذ تولى الحكم ، وكان عنده عبد يدعى صمصام فاعتقه لوجه الله وزوجه من فتاة كانت فى خدمته ووظفه فى احدى الوظائف »

وكل كتاب عن اليمن لا يذكر النبات المخدر الذى يدعى (قاتا) لا يكون مستوفيا للشروط ، فالقات عند اليمنيين لا يقل شأنا عن الوسكى عند الانكليز والبوزه عند السودانيين ، وهو له مجالس خاصة ينهمك المجتمعون فيها بمضغه ، وأمام كل واحد منهم رزمة كبيرة منه والى جانبها إبريق من فخار ومبصقة من فضة ؛ أما الابريق فيستعملونه لغرغرة أفواههم من حين الى آخر ، وأما المبصقة فلطرح أوراق القات بعد مضغه . ويدوم هذا المجلس من بعد الغداء حتى المساء . ويسمى هذا النبات بالانكليزية (كاتا أديوس) وفيه مادة مخدرة تؤثر فى الأعصاب فيشعر من يمضغه براحة وبسط وانشراح

ثم ذكر الاستاذ نزيه أضراره فقال « انه يقلل من شهية الانسان للطعام ويزيد فيه الميل الى شرب الماء ويضر بالأسنان ويسودها ، وبالمعدة فيقلل من عصيرها وبالنسل فيضعفه . وبالرغم من جميع هذه المضار وبالرغم من علم أهل اليمن بها فهم يمتدحونه وينشدون القصائد فى مزاياه ويستعملونه باجمعهم ماعدا صاحب الجلالة الامام يحيى فقد منعه طبيبه الخاص من استعماله منذ عدة سنوات ولا يزال جلالته ممتنعا عنه الى اليوم »

ومن دواعى الأسف ان يضيع اليمنيون ثروتهم وصحتهم فى هذا المخدر الضار حتى ان الذى يشتغل منهم فى نهاره كله بفرنك واحد يصرف معظمه على القات . ويغرس شجره كما يغرس البن فى الأودية المرتفعة التى لا تتعرض لحرارة الشمس الحادة الا بضع ساعات فى اليوم ، وهو أثمن نبات فى اليمن على الاطلاق ؛ وتساوى الرزمة الصغيرة من أغصانه نحو ثلاثة فرنكات

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما لحظناه من وجود إيطاليين موظفين فى الحكومة المتوكلية من أطباء وغيرهم فالأطباء الموجودون هناك الآن من الطليان وقد أتوا الى اليمن عقب زيارة والى اسمرة السنيور غاسبريني اليها وعقد المعاهدة مع الامام وهم يتناولون رواتب تبلغ ستين جنيها شهريا للواحد منهم وبيدهم مستشفى الحديدة ومستشفى صنعاء وكذلك التلغراف اللاسلكى فى صنعاء فهو بيدهم ومن تأسيسهم بأمر الامام منذ بضعة أعوام .

وذكر حاخام اليهود الاكبر فى صنعاء واسمه يحيى اسحق للمؤلف أنه كان لليهود مملكة عظيمة فى اليمن إلى الشرق من صنعاء أسسها سليمان بن داود وربما كانت هذه المملكة فى نجران وأن اليهود فى صنعاء ذكوراً وأناثا يبلغون زهاء عشرين ألف نسمة لهم ١٥ مدرسة و ١٩ كنيسا وهم يمارسون شعائرهم الدينية كما يشتهون ويطبقون شريعتهم الموسوية كما يرغبون ويعلمون أبناءهم العبرية دون العربية . وعرف المؤلف أن للصهيونيين مخابرات طويلة عريضة مع صنعاء وأن لهم صناديق للاعانة فى كل دار من دور اليهود فى معظم مدن اليمن والاسرائيلى الذى يريد أن يتصدق بشىء مهما كان زهيداً يضعه فى هذا الصندوق ، ورب الدار ليس مأذوناً بفتحه بل يفتحه وكيل الجمعية فى كل شهر ويخرج مافيه ويرسله الى صندوق الجمعية الصهيونية فى القدس واسمه صندوق الأمة ، قال المؤلف : « حبذا لو كان زعماء الحركة الوطنية فى الشرق يقتدون باليهود ويأخذون هذا الدرس عنهم . »

هذه لمحة مستعجلة عن الجزء الأول من هذه الرحلة المباركة ولكن العمل الخطير والاكتشاف الأثرى العظيم هو فى الجزء الثانى حيث يدون المؤلف رحلته إلى بلاد سبأ وسد مارب فيذكر كيف حصل على الاذن من جلالة الامام بالسفر الى تلك الانحاء المحفوفة بالمهالك والمخاطر ويذكر الجنود الذين ساروا لحمايته من التعدى مما لم يسبق له مثيل ولم يحصل عليه أحد قبله . وكانت بداءة هذه الرحلة الى مأرب فى اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٣٦ إذ ترك صنعاء وسار مشرقاً فدخل فى واد يدعى (وادى السر) ومنه سار إلى قرية (القمعة) فقرية (آل الوزير) فوادى (حريب) فصرواح فقرية تدعى مخترجة وهى آخر قرية يسكنها اليهود فى شرق صنعاء وهكذا حتى وصل إلى سد مأرب ، ووصف ما رأى فى طريقه من آثار ومعادن ونباتات وأشجار فقال عن المعادن مثلا والحديد من جملتها انها كثيرة ومتنوعة ، ونقل الكتابة الحجرية الموجودة حول جدران قصر (صرواح) بخط يده وعرضها على من ترجمها له من المستشرقين الألمان ومن الاخصائيين المصريين فى القاهرة وكان وصوله إلى مأرب فى اليوم التاسع والعشرين من يناير سنة ١٩٣٧ بعد الظهر أى بقى على الطريق نحو أربعة أيام كأن المسافة كلها بين صنعاء ومارب ١٢٠ كيلو متراً ، ولما وصل الى مدينة مأرب هو وعامل الامام يحيى والجنود استقبلهم الاهلون بالطبول والأناشيد . وبعد ذلك نرى فى الكتب صور ثمينة للسد وجدرانه القائمة وأبوابه الواسعة والخطوط الموجودة على أحجاره وصفاً دقيقاً لمجارى المياه وكيف تتجمع وتتوزع ومن أين تأتى والجنتان اللتان كانتا تشربان منه والأشجار الباقية من خمط وسدر وأثل مما ينطبق كل الانطباق على ماورد فى القرآن الكريم

وقصارى القول ان هذه الجولة الأثرية فى بلاد مجهولة عندنا هى ذات قيمة علمية من الطراز الأول يهنأ عليها الاستاذ نزيه المؤيد العظم ولا سيما أن بعض الاوروبيين الذين وصلوا الى تلك الارجاء لم يتمكنوا من رؤية جزء صغير مما رآه سائحنا العربى بالنظر الى المخاوف التى كانوا معرضين لها ؛ ونعد عمله بادرة من بوادر نهضتنا العلمية العملية المباركة

عبد الرحمن شهبندر

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الاوبرا الملكى

صورة فى الرخام
Portrait in Marble

لناقد « الرسالة » الفنى

هى باكورة أعمال الآنسة « هازل اليس » الممثلة الايرلندية تنبئ عن مستقبل باهر واستعداد طيب للنبوغ وليست القصة فى المستوى العالى من التأليف ولكن حوارها قوى بديع يدل على أن الكاتبة تلم بأمور المسرح إلماما تاما وإن كانت بعض الشخصيات غير كاملة التصوير لأن الكاتبة لم تترك إلى جانب شخصية اللورد بيرون فراغا تكتمل فيه الشخصيات الأخرى

والقصة التمثيلية تصور حياة اللورد بيرون الشاعر الانجليزى العظيم بين النساء وتشرح بعض نزواته وأخلاقه ونظرته فى الحياة وما احاط باسمه من إشاعات لم يكن يبالى بدفعها عنه بل يترك الأمور تتفاقم حتى يجرى اسمه على كل لسان؛ كما تصور حبه لبلاد اليونان التى مات محموماً أثناء الدفاع عن حريتها

موجز القصة

اللورد بيرون ثائر ساخط متبرم بكل شىء لا يعبأ بأحد وأصدقاؤه فى بيته يتحدثون عن تصرفاته مع العظماء ، فهذا رئيس مجلس اللوردات يأتيه راجيا أن يكتب فيه بيتين من الشعر فى عمل مجيد أداه فيرده خائبا لأنه يرى أن الانسان لا يستحق المديح على واجب أداه . ويدخل بيرون ويتحدث عن حياته ويقول إنه سوف يجعل اسمه يجرى على كل لسان ويحدث أصدقاءه عن بلاد اليونان وعن حبه لها وألمه لأنها لا تتمتع بحريتها . وما يكاد يتم أقواله حتى تأتيه رسالة بموت أحب أصدقائه إلى نفسه فيصدم وينفجر مقهقها

فاذا كان المنظر الثانى رأينا حفلة راقصة يغشاها أشهر النساء وأجملهن ويجىء بيرون متأخرا قليلا ويعتذر ، وإذ يقف بعيدا إلى جانب الباب تقدم ربة الدار ضيوفها إليه فيذهب النساء إليه فى مكانه كأنه ملك . هذا التصرف يغيظ السيدة « كارولين لامب » التى ما تكاد تتقدم إليه حتى ترتد راجعة فيفهم بيرون كبرياءها ويهمس فى أذن إحدى صديقاته بأن سيجعل هذه السيدة تركع عند قدميه قبل انقضاء يوم واحد



« ميكائيل ماكليمور » في دور اللورد بيرون و « ميربل مور » فى دور كارولين لامب

ويدخل الجميع يستمتعون بالرقص عدا الليدى كارولين ويعود بيرون إلى القاعة وتدور مناقشة حادة بين الاثنين؛ وهنا تبرز قوة الكاتبة موهبتها فى الحوار وتنتقل من موضوع إلى موضوع ، وفجأة يطوقها بيرون بذراعيه ويقبلها فلا تمانع وهكذا يبدأ حب هذه السيدة لبيرون وهو فى الحقيقة لا يحفل بها !!

فاذا كان الفصل الثانى رأينا أصدقاء بيرون فى بيته يتحدثون عن سلوكه غير المرضى فهو جعل السيدة « كارولين لامب » تجن به حبا وتجرى وراءه ، ويرى أحدهم أن الذنب ليس ذنبه فهو قد قطع كل علاقة بها ولكنها تلاحقه فى الطرقات . ويجىء بيرون فيحدثونه فى أمر هذه السيدة فيقول إنه أرسل اليها خطابا يقطع كل علاقة له بها ويخبرهم أنه نوى الزواج بالآنسة « أنا بل ميلبانك » فيسأله صديق عما إذا كان يحبها فيقول : « ليس حبا عميقا »

ويجىء الخادم يعلن أن سيدة تصر على مقابلة اللورد فيرفض أن يستقبلها ولكن أمام الالحاح يخرج إليها ويعود بعد لحظة يرجو أصدقاءه أن ينتظروه فى غرفة مجاورة حتى يفرغ من حديثه مع هذه السيدة . وتدخل كارولين لامب وتحاول أن تعيده إليها فيرفض ويصرح لها بأنه ينوى أن يتزوج من الآنسة « ميلبانك » ، ويطلب إليها أن تذهب إلى بيتها فلا تتحرك وإذ هو يستدعى الخادم ليحضر لها عربة تهجم عليه تريد أن تطعنه بخنجر ولكنه يتمكن من أن يمسك يدها ويثور فيقدم الخادم والأصدقاء

وفى المنظر الثانى نرى زوجة بيرون تشكو إلى صديقة لها سلوك زوجها وأنها تنوى الانفصال عنه فتنصحها هذه بالتريث من أجل

ابنتها وأن عملا كهذا يهدم حياة الشاعر العظيم ويقضى عليه ، وتصرح الزوجة بأنها سمعت أشاعة مخزية عن علاقة اللورد بيرون باخته « أوجستا » ولكن الصديقة تتمكن من تبديد شكوك الزوجة ويدخل بيرون ، وسرعان مايقوم الشجار بينه وبين زوجه ، فيراها تبكى وتنتحب فيتأثر ويتقدم إليها مدللا وبعد قليل يراجع البريد وتستوقفه رسالة من شقيقته ويخبر زوجه أنها تنوى القدوم اليهما لقضاء بضعة أسابيع فتثور الغيرة فى نفس الزوجة وتطلب منه أن يرفض قبولها فى بيته فيحاول أن يعرف السبب فتمتنع أولا ولكنها تشير فى النهاية إلى الاشاعة التى تتردد على الألسنة وتطلب إليه أن يكذب هذه الاشاعة فتصدقه . وكعادته يرفض ويجيب بأنه ليس فى حاجة إلى تصديقها فتريد الاطلاع على الخطاب فيرفض فتحاول أن تختطفه فيصرخ فى وجهها ويحرق الخطاب ويلقيه فى المدفأة .

فاذا كان الفصل الثالث رأينا بيرون واقفا إلى جانب النافذة يرى الجماهير محتشدة أمام بيته ثائرة ويشير عليه أحد أصدقائه بالابتعاد عن النافذة حتى لا تصيبه أحجار الغوغاء . ويبدى بيرون عجبه من الشعب فهو لم يؤذه ولم يسىء إليه ومع ذلك يريد هذا الشعب أن يفتك به . ويطلب بيرون إلى الخادم أن يحمل رسالة إلى زوجته فى بيت والدها ويذهب الخادم ويجىء أصدقاء بيرون ويقولون أنهم شقوا طريقهم وسط كتل بشرية ويحدثهم بيرون بأن بلاده هى اليونان ويتحدث عن جمالها وعن آماله فى أن تثور وتحطم القيود التى تغلها . ويجىء الخادم يقول أن الزوجة رفضت أن تجيب على الرسالة وأنها تطلب من بيرون ألا يحاول مقابلتها أو الكتابة إليها فيصدم بيرون وتسمع بعد قليل أصوات باعة الصحف ويعرف بيرون من خادمه أن اليونان ثارت على تركيا مطالبة بحريتها .

وفى المنظر الثانى من الفصل الثالث نرى بيرون فى بيته يستعد للرحيل ويأتى أصدقاؤه فيخبرهم بأنه سيسافر إلى اليونان متطوعا ليحارب فى صفوفهم ويتركهم إلى تلك البلاد التى أحبها والتى قضى نحبه محموماً أثناء الدفاع عن حريتها .

الاخراج والتمثيل

لم يعمد المخرج فى هذه الرواية إلى الطريقة الايحائية التى ألفناها منه بل عمد إلى تركيز إخراجه فى منظر واحد وجعل أجزاء من حوائط هذا المنظر تتبدل فيتبدل المنظر بها ، وهكذا استطاع أن يخلق من المنظر الواحد مناظر متعددة . والاضاءة كانت غاية فى الدقة والروعة ولون المنظر أزرق داكن يلتئم مع جو الرواية

مثل المستر ميكائيل ماك ليبور اللورد بيرون فسما به وكان بديعا جدا ، وإنى أعد هذا الدور من خير أدواره التى رأيتها خلال هذا الموسم والموسم الماضى ولقد شاهدت كثيرا من الانجليز يهنئون الممثل على إجادته ، وبين هؤلاء المستر سكيف الأستاذ بالجامعة المصرية فقد كان إعجابه بالتمثيل أكثر من إعجابه بالرواية نفسها . ومثلت الآنسة « ميريل مور » السيدة كارولين لامب فأدته بنجاح ، ووفقت بقية الممثلين فى تأدية أدوارهم وهكذا رفع التمثيل والاخراج هذه الرواية .



آنيو ماك ماستر فى دور شارلز سيرفيس فى رواية مدرسة الفضائح

مدرسة الفضائح The School For Scandel

ريتشرد برينسلى شريدان وأوليفر جولد سمث من اعلام الكوميدى الانجليزى القديم وقد رأت فرقة دبلن جيت ان تخرج هذه الرواية لأن مؤلفها ايرلندى ولأنها من أحب الروايات الى شعب الامبراطورية . فهى تصور ناحية من نواحى المجتمع الانجليزى فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر وكيف كانت المجتمعات بؤرا تفرخ فيها الاشاعات وتنتشر على الألسنة وكيف كانت المخازى والفضائح تدبر وكيف كان الناس يخدعون بالظواهر فالرجل الذى يرون فى سلوكه مالا يرضيهم يعد شقيا سىء السلوك فى حين ان من يأتى النقائص فى الخفاء يكون موضع التجلة والاكبار ، فالشعب كان يخدع ويحكم على الأمور بظواهرها

والرواية ليست جديدة على المصريين إذ سبق للمسرح المصرى ان أخرجها باسم « مدرسة النميمة » فى مستهل النهضة المسرحية فلاقت نجاحا كبيرا . وأعتقد ان مثل هذه الرواية التى تقوم على المفاجئات والمواقف الكوميدية يفسدها التلخيص ويمسخها

أخرج الرواية المستر ادواردز وقام بدور بيتر تيزل فكان خفيف الظل عذب الروح مما جعل رواد المسرح يضجون بالضحك ؛ ومثل المستر ماك ماستر دور شارلز سيرفيس فملأ الشخصية حياة وكان بديعا فى أكثر مواقفه كما أجادت الآنسة « آن كلارك » دور لادى تيزل

يوسف تادرس

5 me Année, No. 193

Lundi - 15 - 3 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ـط
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٠٠

العـــدد ١٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ محرم سنة ١٣٥٦ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

جميل صدقى الزهاوى

بمناسبة ذكراه الأولى

(٢)



ولد الزهاوى (١) فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ ببغداد لأبوين كرديين كريمين تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب، فقد كان أبوه محمد فيضى الزهاوى مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهائها، فنشأ بين أبيه وأخيه يرتاض عقله ليثقف، ويرتاش خياله ليطير؛ ولكن أخاه كما حدثنى جميل، كان حرّ اللسان لا يتذوق الأدب؛ فكان يذوده عن رواية الشعر، ويصده عن دراسة اللغة، ويأبى عناده هو

(١) الزهاوى نسبة إلى زهاو وهى بلدة من أعمال كرمان شاه الفارسية كانت موطن جدته لأبيه .

وتساع أبيه إلا أن يديم النظر فى الأدب، ويروض القريحة على القريض. كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب دعوة وفلسفة. والاستعداد الموهوب فى الطبع هو مشيئة الخالق فى الخلق، جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة؛ وجعل من الرصافى أبا نواس وقد كان الألوسى رحمه الله يريد أن يبعث فى معروف الرصافة معروف الكرخ!

كان العراق أيام نشأ الزهاوى تركى السلطان سنى الحكومة، فالتعليم المدنى فيه كان تابعا فى لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبى وهواه، فلم يخرج الا رجال جيش يخضعون للنظام، أو رجال إدارة يذعنون للحكم. أما التعليم الدينى فقد ظل فى صحون الجوامع على ماعهده الناس، عربى اللسان حر النزعة طليق الفكرة مستقل الغاية. وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلى المطلق أن يخلق المجاهل للشعور البليد فيضل، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فيبلغ، ويساعد الجبلة فى الانسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط؛ فهو يساعد الهمة القاعدة على السقوط، والنفس القانعة على القنوط، والذهن المبطىء على التخلف، كما يساعد العقل الحائر على التزندق، والطبع القلق على التمرد، والارادة المستقلة على الزعامة. ورجال الثورة والاصلاح فى تاريخنا الحديث كانوا جميعا من أهل هذه الثقافة، كالأفغانى، وعرابى، ونديم، ومحمد عبده، وسعد زغلول، والكواكبى، والزهراوى، والزهاوى، ومن إليهم. والنابهون من أهل هذه الثقافة لا ينفكون دائبين على القراءة والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن أنفسهم معرة القدم. وهم عسيون إذا جددوا أن يسرفوا فى التجديد كذى العاهة يدفعه النفور من ذلة الضعف إلى الافراط فى العسف والتجبر.

فالزهاوى الجرىء بطبعه، الطموح باستعداده، تثقف بهذه الثقافة، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد الصحارى الملهمة؛ ثم نزعه عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر؛ والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب؛ ثم ابتلى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى النخاع الشوكى لازمه بقية حياته، ورمى بعد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشاءم؛ ثم منى من عصره بفساد السلطان واستطالة الجهل وانحلال الخلق، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين من الانذار والتضحية.

رأى وهو فى الآستانة عبد الحميد يلقى الأحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر، فأرسل إليه مع رسبوتينه أبى الهدى قصيدة منها:

أبأمر ظل الله فى أرضه بما   نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال ويننى مبرأ   ويسجن مظلوماً ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا   تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك ان طالت فلا تغترر بها   فان يد الأيام منهن أطول

فسجنه حيناً ثم نفاه.

وسمع وهو عضو فى (مجلس المبعوثان) عن بغداد مقرر الميزانية يذكر فى وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال جعلوه لقراءة البخارى فى الاسطول. فقال: أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف أما فى الحربية فالمفهوم أن الأسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى. فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة.

ورأى ماتعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل فهب لايقاظها ونصرتها، حتى كتب فى (المؤيد) مقاله المشهور (المرأة والدفاع عنها) فزلزل الناس فى بغداد وفى غير بغداد، فسعوا به إلى ولاة الأمر ليعزلوه، وحرشوا عليه دهماء الشعب ليقتلوه فاضطر إلى لزوم داره.

ونظم فى أعقاب عمره (ثورة فى الجحيم) ففزع المتزمتون من شرها إلى الملك فيصل؛ فلما كلمه فى ذلك قال: ماذا أصنع يامولاى؟ عجزت عن اضرام الثورة فى الأرض فأضرمتها فى السماء!

* * *

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل، ولم يعش على مروءات الناس كأكثر أهل الشعر، وإنما غامر فى خطير الأمور، وطمح إلى بعيد المدارك؛ فملأ حياته بالأمل الدافع والعمل المثمر: عين فى بغداد عضواً فى مجلس المعارف، ثم مديراً لمطبعة الحكومة، ثم محرراً للجريدة الرسمية، ثم انتخب عضواً فى محكمة الاستئناف. ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الآستانة لحرك فيها لسان النقد، وأقض بها مضاجع الجاسوسية، فانتقض أمره وساء مقامه. ولما أعلن الدستور عين أستاذاً للفلسفة الاسلامية فى (المكتب الملكى)، ثم مدرساً للآداب العربية فى (دار الفنون)؛ ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة فى مدرسة الحقوق، ثم انتخب نائباً عن العراق فى مجلس المبعوثان؛ وهو فى خلال ذلك كله حركة ذهنية دائرة، وجملة عصبية ثائرة، لا يفتر ليله عن الشعر أو القراءة، ولا يكل نهاره عن الحديث أو الكتابة، حتى غلب الترك وأديل منهم فى بغداد للعرب، فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة؛ أما الزهاوى وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش. وكان الشاعر قد ألقى للمجد معاذيره من انسراق القوى واستحكام العلل، فبات يرسل الأقباس والأضواء من جسمه المتهدم وقلبه المتضرم حتى خمد.

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

أبو حنيفة

ولكن بغير فقه

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قد انتهينا فى الأدب الى نهاية صحافية عجيبة ، فأصبح كل من يكتب ينشر له ، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا ، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول فى مذهبه ويرد على مذهب غيره

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور فى الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها ، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة ، مُنها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب ؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب ، وأدب الألفاظ وأدب الحياة ، والجمود والتحول ، والقديم والجديد . ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب ؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه ، والشافعى ولكن بغير اجتهاد ، ومالك ولكن بغير رواية ، وابن حنبل ولكن بغير حديث . أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها .

وليس يكون الأدب أدباً الا اذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه النوابغ من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان ، إذ لا يجرى الأمر فيها علا وتوسط ونزل الا على إبداع غيرَ تقليد ، وتقليد غيرَ اتّباع ، واتباع غيرَ تسليم ؛ فلا بد من الرأى ونبوغ الرأى واستقلال الرأى حتى يكون فى الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ، كما أن الحيَّ الجالس فى كل حي هو مجموعه العصبى ، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول فى الوجود الانسانى يرجع بالحياة الى ذرات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعانى مثل ما أبدعت ذرَّاتُ الخليقة فى تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف الا أنه المقلد الالهى . (١)

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربى فى عصرنا أو ينتهى ؛ وهل تراه يعلو أو ينزل ؛ وهل يستجمع أو ينفض ، وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو فى مكان بينهما ؟

هذه معانٍ لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلا أمرُّ فيه بعظام مبعثرة فى ثيابها لا فى قبورها . . . ولكنى موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها ، وإليه وحده يرجع ما نحن فيه من التعادى بين الأذواق والإسفاف بمنَازع الرأى والخلط والاضطراب فى كل ذلك ؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه ، وهم يرونه على أحسنه ، وحتى قيل فى الأسلوب أسلوب تلغرافى ، وفى الفصاحة فصاحة عامية ، وفى اللغة لغة الجرائد ، وفى الشعر شعر المقالة ، ونجمت الناجمة من كل علة . ويُزَيِّن لهم أنها القوة قد استحصفت واشتدت ، ونازع الأدب العربى إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دَعِيًّا فى آداب الأمم ، واستهلكه التضييعُ وسوء النظر له على حين يؤَتَّى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسن الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه

أين تصيب العلة إذا التمستها ؟ أفى الأدب من لغته وأساليب لغته ، ومعانيه وأغراض معانيه ؟ أم فى القائمين عليه فى مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم ؟

إن تقل إنها فى اللغة والأساليب والمعانى والأغراض ، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلد البليَّةَ من كل من يعمل فيها ؛ وقد استوعبتْ واتسعت ومادَّت العصورَ الكثيرة إلى عهدنا فلم تؤتَ من ضيق ولا جمود ولا ضعف . ثم هى مادة ولا عليها ممن لا يحسن أن يضعَ يدَه منها حيث يملأ كفَّه أو حيث تقع يدُه على حاجته

وإن قلت إن العلة فى الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم ، سألناك : ولمَ قصَّروا عن الغاية ، ولم وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح فى نَسبه مقامَ أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتَّاباً وشعراء ؛ ومع انفساح الأفق العقلى فى هذا الدهر واجتماعه من أَنْبَّرافه لمن شاء ؛ حتى لتجد عقول

(١) استوفينا هذه المعانى فى مقالة « الأدب والأديب » من مقالاتنا فى الرسالة

نوابغ القارّات الخمس تحتقب فى حقيبة من الكتب . أو تُصَنْدَقُ(١) فى صندوق من الأسفار

كيف ذهب الأدباء فى هذه العربية نشراً متبدّدين تعلو بهم الدائرة وتهبط ، فكلٌ أعلى وكل أسفل . هذا فلان شاعر قد أحاط بالشعر عربيه وغريبه وهو ينظمه ويفتنّ فى أغراضه ويولد ويسرق وينسخ ويمسخ ، وهو عند نفسه الشاعر الذى فقدته كل أمة من تاريخها ، ووقع فى تاريخ العربية وحدها ابتلاء ومحنة ؛ وهو ككل هؤلاء المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا فى لغات غير العربية لظهروا نجوما ، ولكن العربية جعلت كلا منهم حصاة بين الحصى . وتقرأ شعره فاذا هو شعر تتوهم من قراءته تقطيع ثيابك ، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً .

وهذا فلان الكاتب الذى والذى . . . والذى يرتفع إلى أقصى السموات على جناحى ذبابة .

وهذا فرعون الأدب الذى يقول : أنا ربكم الأعلى . وهذا فلان وهذا فلان .

أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه ، وليضبطوا آراءهم وهواجسهم ، وليعلموا أن حسابهم عند الناس لا عند أنفسهم ، فالواحدة منهم واحدة وإن توهموها مائة وتوهمها بعضهم ألفاً أو ألفين . ومتى قال الناس : غلطوا فقد غلطوا ، ومتى قالوا : سخفاء فهم سخفاء .

وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مسخرون بالجبر على قانون من التدمير والتخريب ، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة لا إقرار منها ، باغية لا إنصاف معها . نافرة لا مساغ إليها ، متهمة لا ثقة بها . طبيعة يتحول كل شىء فيها إلى أثر منها كما يتحول ماء الشجر فى العود الرطب المشتعل إلى دخان اسود .

* * *

يرجع هذا الخلط فى رأيى إلى سبب واحد : هو خلو العصر من إمام بالمعنى الحقيق يلتقى عليه الإجماع ويكون ملء الدهر فى حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله ، فان مثل هذا الإمام يُخَصُّ دائما بالإرادة التى ليس لها إلا النصر والغلَبة ، والتى تعطى القوة على قتل الصغائر والسفاسف ؛ وهو إذا ألقى فى الميزان عند اختلاف الرأى ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجَبين بآدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليات المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثَمَّ تتهيأ قوة الترجيح ويتعيَّن اليقين والشكر . والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجح ولا يعيَّن

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة ، ومقداره يزنُ المقادير ، فيكون هو المنطق الإنسانى فى أكثر الخلاف الإنسانى : تقوم به الحجة فتلزم وإن أنكرها المنكِر ، وتمضى وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصرَّ المِصرُّ على غيرها . لأن بالإجماع على القياس يَبين التطرفُ فى الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا ضَرَب ضرب المعصية بالطاعة ، والزيغَ بالاستقامة ، والعنادَ بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وَسْمُه ، ويزيغ من يزيغ وفيه صفتُه . ويصِرُّ المكابر واسمُه المكابر ليس غير وإن هو تكذَّب وتأوّل ، وإن زعم ما هو زاعم

ولكل القواعد شواذّ ولكن القاعدة هى إمام بابها ؛ فما من شاذٍ يحسب نفسَه منطلقاً مخلًّى ، إلا هو محدود بها مردود إليها ، متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذ إلا بما تعرف به أنها قاعدة ؛ فيكون شأنه فى نفسه بما تعيّن هى له على مَكرَهته ومحبته

والامام ينبث فى آداب عصره فكراً ورأياً ، ويزيد فيها قوة وإبداعاً ، ويزين ماضيها بأنه فى نهايته ، ومستقبلها بأنه فى بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى ؛ لأن هذا الامام إنما يختار لإظهار قوة الوجود الانسانى من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يأنَسُ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الواقع ، ويجد فيه قومه كما يجدون فى الحقيقة التى لا يكابر عندها متنطع بتأويل ، وفى القوة التى لا يخالف عندها مبطل بعناد ، وفى الشريعة التى لا يروغ منها متعسف بحيلة . ولن يضل الناس فى حق عرفوا حده ، فان ما وراء الحد هو التعدى ؛ ولن يخطئوا فى حكم أصابوا وجهه ، فان ما عدا الوجه هو الخلاف والمراء .

وقد طبع الناس فى باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فمن انفرد بالكمال كان هو القدوة ، ومن غلب كان هو السمت ، ولابد

---

(١) كلمة وضعناها على قياس تحتقب

لهم ممن يقتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مراشدهم ومصالحهم ، فالامام كأنه ميزان من عقل ، فهو يتسلط فى الحكم على الناقص والوافى من كل ما هو بسبيله ، ثم لا خلاف عليه إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلة بعد منزلة .

هو إنسان تتخير بعض المعانى السامية لتظهر فيه بأسلوب عملى ، فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه ، فإليه يرَد الأمور فى ذلك وبتِلوه يتلى وعلى سبيله ينهج ، فما من شىء يتصل بالفن الذى هو إمام فيه ، إلا كان فيه شىء منه ؛ وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها لأنه بفنه حكم عليها . فيكون قوة وتنبيهاً وتسهيلا وإيضاحاً . وإبلاغاً وهداية ، ويكون رجلا وإنه لمعان كثيرة ، ويكون فى نفسه وإنه لفى الأنفس كلها . ويعطى من إجلال الناس ما يكون به اسمه كأنه خَلْق من الحب طريقُه على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة فى الاسلام ووجوب ذلك على المسلمين ، فلابد على هذه الأرض من ضوء فى لحم ودم ، وبعض معانى الخليفة فى تنصيبه كبعض معانى « الشهيد المجهول » فى الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس ، ومعنى المفاداة وصمت يتكلم ، ومكان يوحى ، وقوة تُستمد ، وانفراد يجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة فى شرف الحياة والموت بل الحرب مخبوءة فى حفرة ، والنصر مغطى بقبر ، بل المجهول الذى فيه كل ما ينبغى أن يعلم .

* * *

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذ كل من يزعم نفسه إماما هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه .

ولعمرى ما نشأ قولهم « الجديد والقديم » إلا لأن ههنا موضعا خاليا يظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تنحاز من جهة ، فمنذ مات الامام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، ونتأت رءوس ، وزاغت طبائع . وكأنه لم يمت رجل بل رفع قرآن .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

جيلان

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« ألا تعرفنى ما هذا الجديد ؟ »

ولم يكن كلامنا فى الأدب أو الفنون وإنما كانت المساكن والأحياء هى مدار الحديث . وكان الرجل يناهز الستين ولكنه فى نشاط ابن العشرين ، وأنا آنس به وأسكن إليه . ويسرنى أن أجلس بين يديه وأصغى — أو لعل الأصح أن أقول أنظر — إلى عباب حديثه المتحدر فقد كان يذكرنى بالبحر ويروعنى مثله بمثل فيضه الزاخر

فقلت له « ياسيدى ، العارف لا يعرف . . ولكنى أستأذنك فى أن أقول لك إنكما جيلان — أنت وبنوك — ومن حقك أن تتبرم بهم وتسخط على نزعتهم فى الحياة وتستسخف مطالبهم فيها وغاياتهم منها . . أنت حر فى ذلك ولكن من حقهم أيضاً أن يضجروا منك لأنهم ينزعون غير نزعتك وأن يطلبوا من الحياة غير ما تطلب ، لأن وجوهها اختلفت . وأظن أن هذا عدل »

فصاح بى : « عدل ؟ . كيف تقول ؟ . عدل أن يخرجونى من بيتى ويحملونى إلى حى أنا فيه غريب لا أشعر إلا بالوحشة ؟ . ويقصونى عن أحبابى وأصحابى وعشراء الصبى وأخدان العمر كله ؟ . ما عيب بيتنا بالله ؟ . إنى لست متعنتا . . أنت تعرف بيتنا فهل تعرف فيه عيباً ؟ »

قلت « كلا . . وأشهد أن لا عيب فيه . . واسع وصحى وأسباب الراحة فيه موفورة . . نعم لا عيب فيه ولكنى أعترف بأنى لو كنت ابنك لما فعلت إلا ما فعل بنوك . . أى لخرجت منه »

فقال « أنت كنت تفعل ذلك ؟ . حاشا لله . . إنك عاقل . »

قلت : « المسألة ليست مسألة عقل . . وإنما هى مسألة حياة تغيرت وجوهها وزمن اختلفت المطالب فيه »

قال : « إنى أجادلهم كل يوم . . الكلام فى هذا لا ينتهى بيننا »

قلت « وهذا حسن . . وجدتم على الأقل موضوعاً للكلام لا تخشون أن ينضب معينه »

قال : « اسمع . إنى رجل كبير وقد أديت واجبى وربيت أبنائى وهم الآن رجال يعتمدون على أنفسهم ولا يحتاجون إلى .. فرغت من هذا الأمر .. وأحب أن أقضى مابقى من عمرى فى بيتى .. بيتى أنا .. البيت الذى ورثته عن أبى وقضيت فيه خير عمرى .. بل عمرى كله .. وحولى جيرانى .. أعرفهم ويعرفوننى وأستطيع أن أجدهم عند الحاجة . لقد رفسنى مرة حمار فى الطريق فأغمى على فلما أفقت الفيتنى فى بيتى على سريرى .. هل تعرف من حملنى ؟ . جيرانى .. عرفنى أهل الحى فحملونى إلى بيتى . لو وقع لى هذا فى الحى الجديد الذى نقيم فيه الآن لجاء الاسعاف وحملنى إلى مستشفى .. »

قلت « معقول .. أنت تفضل أن يحملك جيرانك وأهل حيك إلى بيتك فى مثل هذه الحالة ولكن بنيك يفضلون فى مثل هذه الحالة أن يحمل المرء إلى المستشفى .. زمنك لم يكن يعرف المستشفيات فأنت تنكرها وتشفق من أن تحمل إليها ولعلك تتطير من دخول المستشفى ، وعسى أن يكون اسم المستشفى مقروناً فى ذهنك بفكرة الموت . ولكن الزمن تغير ، والرأى فى المستشفيات اختلف ، وأبناء هذا الزمن الجديد يؤثرون العلاج فى دوره المجعولة له على العلاج فى البيوت : فالذى تعده أنت مزية يرونه هم نقصاً . والذى تراه أنت شراً يعتقدون هم أنه خير .. وهذا بعض الفرق بين الزمنين »

قال : « ولكنى كبرت ياسيدى .. ماذا يضرهم لو تركونى أقضى الأيام الباقية لى كما أحب ؟ »

قلت : « إنه لا يضرهم . وثق أنهم لا يأبون عليك ولا يكرهون لك أن تحيا حياتك على هواك ولكن تيار الزمن حملهم – وحملك معهم – إلى حيث لا تشعر إلا بالقلق وعدم الرضى ؛ والذنب للزمن لا لهم »

قال « إنهم يضحكون منى حين أقول لهم إن بيتنا قريب من المساجد فأنا أستطيع بلا عناء أن أزور السيدة نفيسة أو السيدة زينب وأن أصلى المغرب فى سيدنا الحسين ثم أشرب الشاى المغربى البديع هناك فى قهوة من القهوات القديمة . وأنتظر حتى أصلى العشاء ثم أعود إلى البيت .. يضحكون ياسيدى ويجعلون هذا موضوعاً لفكاهاتهم . لا يعجبهم إلا جروبى وشارع عماد الدين والسينما .. »

قلت : « أنت محق وهم غير مخطئين . لقد فرغت من حياتك أو من واجبك فيها ، فأنت تريد أن تفرغ لربك . ولكنهم هم فى بداية الأمر وأول مراحل الحياة ، ولكل حياة بداية ونهاية ؛ ومن العنت أن تفرض عليهم فى البداية الحالات النفسية التى لا تكون إلا فى النهاية . وأنت لا تشعر بالحاجة إلى السينما مثلا لأنك لم تعتدها إذ لم يكن لها فى زمنك وجود ، وقد عشت بغيرها أكثر عمرك ففى وسعك بسهولة أن تعيش بقية العمر من غير أن يخطر لك أن السينما لازمة أو أنها ملهاة مستحبة ، ولكنهم هم نشأوا فى ظلها فصارت من وجوه حياتهم المألوفة ، وأحسبهم حين تعلو بهم السن ويفرغون من أمور الدنيا سيظلون يذهبون إلى السينما كما تذهب أنت الآن إلى المساجد للعبادة ؛ ولن يكونوا حينئذ أقل منك زهداً فى الدنيا أو انصرافاً عن باطلها أو ابتغاء لرضى الله . ومن يدرى ؟ .. عسى أن تكون هناك يومئذ أشياء جديدة غير السينما يرتادها أبناؤهم فينكر أبناؤك على أحفادك هذا الشغف بالجديد الذى جاء به الزمن كما تنكر أنت اليوم على بنيك كلفهم بالسينما . لكل زمن ياسيدى حكمه ، ولكل جيل روحه .. ويحسن بالمرء أن يوطن نفسه على ذلك »

قال : « نعم نعم .. إنى لست جامداً ولا متعنتاً بل أنا أدرك ذلك كله »

قلت « إن الادراك وحده لا يكفى ، والمعول فى مثل هذه الأمور على العادة لا على الادراك »

قال « صحيح . ولكنى مظلوم .. تصور أنى لا أشعر برمضان فى هذا الحى .. لا نسمع المدفع ، ولا يدق الباب علينا أحد ليوقظنا للسحور .. ولا نسمع الطبلة القديمة .. ولا المؤذن .. لا .. لا شيء من ذلك . وقد احتجنا إلى المنبه لنستيقظ على صوته حتى لا يفوتنا السحور .. تصور هذا .. الحق أقول لك إنى كنت لا أشعر أن هذا هو رمضان . ولا أكاد أصدق أن صيامى مقبول .. أهذا هو رمضان .. ؟ من يقول هذا ؟ .. أين الأولاد الذين يطوفون بالمصابيح فيها الشموع الموقدة .. أين صيحات فرحهم وسرورهم بليالى رمضان .. أين السهرات اللذيذة .. سهرات الاخوان فى البيوت .. إنى أحس فى هذه الشقة الضيقة التى نسكنها أنى يتيم .. صحيح »

قلت « أو لست يتيما .. »

قال ، أعنى أنى أشعر بوحشة . . والباقى من عمرى قليل ، وكنت أرجو أن يتركونى أقضيه فى بيتى وبعد أن أموت يمكنهم أن يصنعوا ما شاءوا . . وأظن أن هذا عدل ،

قلت ، عدل ؟ . . من يدرى ؟ . . هل من العدل أن تفرض على ثلاثة أو أربعة ضربا من الحياة لا يوافق إلا واحدا هو أنت ؟ . . ربما كان العدل أن تحتمل أنت ما يوافق الأربعة . . على الأقل هذا أقرب إلى العدل أو أشبه به . . العدل ؟ . . من يدرى ياسيدى . . ،

قال ، إنى أنظر إلى فائدتهم . . نحن الآن نخسر خمسة جنيهات كل شهر أجرا للسكنى ، ولو كنا فى بيتنا لاستطعنا أن نقتصد هذا المبلغ أو أن ننفقه فيما هو أولى وألزم . . ألست توافقنى ؟ ،

قلت ، تسألنى الآن فجوابى نعم ، ولو سألتنى قبل عشرين سنة لكان جوابى لا . . الشباب يفعل ما يعجبه لا ما ينفعه . . ينفق بلا حساب لأنه يشعر بفيض الحيوية ولا يشعر بالحاجة إلى التدبير والاقتصاد . . مليونير . . كيف يبالى بالقروش والملاليم ؟ ؟ ،

قال ، ولكن ألا ينبغى أن يفكروا فى المستقبل ويعدوا العدة للضعف ؟ . ،

قلت ، إن هذا يكون أحجى ولكن الشباب رأسه مثل التليفون . . أعنى أنه يستطيع أن يقصى السماعة عن أذنه ويضعها فلا يسمع إذاهم صوت النذير بالكلام الثقيل . . ،

قال : ، يا شيخ لا تقل هذا . . إنه جنون ،

قلت ، صدقت . . إنه جنون . . ولكنه جنون القوة . . والشباب ينفض عن نفسه الهموم كما تنفض عن ثيابك التراب بأصبعك . . بلا عناء ولا اكتراث . . فى وسعه ذلك لأن عباب القوة زاخر . . والعقل يجىء . . مع الضعف . . والحساب له وقته . . أوانه ، عند مايحس المرء بأنه بدأ ينفق من رأس ماله . . يا سيدى هل تعرف مهندسا استطاع أن يوصد بوابات الخزان فى إبان الفيضان . . إنما يكون الخزن ويتيسر التدبير عند ما تفتر قوة الماء الدافق ويؤمن شر اندفاعه على كيان الخزان . . كذلك الإنسان . . هل كنت تنفق بحساب دقيق فى شبابك ؟ . . ،

فأطرق ، فقلت ، إنك تنسى أنك كنت كذلك . . لو استطاع الكهول أن يذكروا كيف كانوا فى شبابهم ولم يستغرقهم الإحساس بالحاضر وحده . . لعذروا . . . ،

قال ، يعنى إنك موافق على ظلمى ،

قلت ، اسمع . . لو كان أبى حيا لما صبرت على معاشرته ولا أطقت الحياة معه فى بيت واحد وتحت سقف واحد . . فأبناؤك خير منى ألف مرة ،

قال ، إن لك أبناء ؟ ،

قلت ، نعم ولا أسف ولا سرور . . وسأعنى بأن أدعهم يحيون حياتهم وحدهم وعلى هواهم حين يستغنون عن هذه التكأة التى هى أنا . . ،

قال ، إنى لا أضيق على أبنائى . . أنا معهم كأخيهم ،

قلت ، ليس فى وسعك أن تضيق عليهم . وحسبك منهم أنهم أكرم من أن يضيقوا عليك . . المثل يقول : إنك لا تستطيع أن تأخذ زمانك وزمان غيرك . . ولو استطاع الإنسان ذلك لما كان عدلا ،

قال ، صحيح . . بس مشوار من العباسية إلى السيدة ،

قلت ، ألا تعلم أن الله خلق الترام ،

قال ، ولكنى أحب المشى . . مفيد ،

قلت ، فى وسعك بفضل أبنائك أن تستفيد الآن جدا من المشى ،

ابراهيم عبد القادر المازنى

البـــزيع (*)

أعوذ بالله !

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

كانت الصحف قد ذكرت أن أحد أعضاء (مجمع اللغة العربية الملكى) اختار (البزيع) لفظة عربية (للجنتلمان) وروت (البزيع) بالذال لا بالزاى - فأمليت هذا القول :

فى (القاموس المحيط) : «البذع الفزع، والمبذوع المذعور المفزع، وصبح بن بذيع محدث خراسانى»

والخراسانى (والله) مخيف، وما سمى (بذيع) بذيعاً إلا لأنه كان يبذع الناس، أو جاء يوم قبلته [1] القابلة مشيّئاً [2] هولة [3]

فهل غزا (عضو مجمع اللغة العربية الملكى) هذه الكلمة المبذعة أم أراد (البزيع) بالزاى وهو الغلام الظريف الذى يتكلم ولا يستحى؟ فى (اللسان) : «بزُع الغلام بزاعة فهو بزيع وبُزاع : ظرف وملح، والبزيع الظريف، قال أبو الغوث : غلام بزيع : أى متكلم لا يستحى، وغلام بزيع وجارية بزيعة ولا يقال إلا للأحداث»

فبزيع ليست لجنتلمان، وان كان هؤلاء (الجنتلمنات) الانكليز قد عادوا يقولون ويفعلون ولا يستحون !

أجل، قد جاء فى (اللسان) أيضاً : «والبزيع السيد الشريف» لكن ليس من (أدب النفس) أن تسوء الرجل (السرى [4]) أو الكامل أو الفتى المهذب أو السيد الشريف بصفة شركه فيها الغلام الحدث

وفى (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت : «البزيع الظريف الحلو المجزىء، والحلو الذى يستخفه الناس يكون خفيفاً على أفئدتهم»

وتعريف (التهذيب) — وإن لم يكن فيه قلة حياء — فيه الخفة، ووصف «سرى» - بأنه حلو خفيف - مؤلم مر ثقيل عليه

وما أرى هذه الكلمة البزيعية الباذعة إلا من طغام الكلام [1] ولن يحسبها الأدباء العربيون [2] فى قبيل (اللسان المبين). والجزيرة أقاليم، والعربية لغات، والعرب أمم

وبزيع الجماعة يذكرنا بقصة (بوزع) وهى فوعل من البزيع، وقد رواها أبو الفرج فى كتابه، والبغدادى فى خزانته، وهذا بعضها وهو المهم المقصود فى الحكاية :

«قال جعفر بن أبى جعفر المنصور المعروف بابن الكردية لحماد الراوية :

أنشدنى لجرير، فأنشده :

بان الخليط برامتين فودعوا أو كلما اعتزموا لبين تجزع ؟

واندفع ينشده اياها حتى انتهى الى قوله :

وتقول بوزع :

قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع ؟

قال حماد : فقال لى جعفر : أعد هذا البيت، فأعدته : فقال : بوزع إيش هو ؟ قلت : اسم امرأة .

فقال : امرأة اسمها بوزع ؟ هو برىء من الله ورسوله ونفى من العباس بن عبد المطلب ان كانت بوزع الأغوال من الغيلان. تركتنى (والله) يا هذا لا أنام الليل من فزع بوزع .. ياغلمان. قفاه ...»

وانى لو سمعت أعضاء (مجمع اللغة العربية الملكى) يتجادلون فى (ديوانهم) فى (بزيع وجنتلمان) لصحت : ياقوم، انبذوا (البزيع) وخذوا (الجنتلمان) فما (فلان) واضراب (فلان) باقرب إلى مصر والعربية من (جورج لويد) و (برسى لورين) !

محمد اسعاف النشاشيبي

(*) من كتاب (أمالى النشاشيبى فى أوقات الضجر) وهو فى التهيئة للطبع

(١) قبلت القابلة الولد : تلقته عند خروجه

(٢) مشيأ : مختلف الخلق كأن فيه من كل قبح شيئا

(٣) الهولة : الكريه المنظر، وكل ما هالك يسمى هولة

(٤) السرى هو المرىء الشريف، والسرو او السراوة المروءة والشرف أو المروءة فى شرف فـ (السرى) عندى خير لفظة عربية لتلك الأعجمية (الجنتلمان) وقد فصلت ذلك فى مقالتين فى (الرابطة العربية)

---

(١) من طغام الكلام : من فسله، وفى سجعات الأساس : كلام الطغام طغام الكلام

(٢) قالوا : فارسى وفارسيون فقيل عربى وعربيون وفى المفضليات للمرقش الأكبر «كالفارسيين مشوا فى الكمم»

في أفق السياسة الدولية

الســــلام المسلح

بقلم باحث دبلوماسي كبير

السلام المسلح هو بلا ريب شعار السياسة الدولية هذا العام فالدول العظمى تتسابق كلها في ميدان التسليح بحماسة لم يسمع بها في التاريخ، ومع ذلك فالدول تؤكد نياتها السلمية، وتدعى جميعاً أنها تقوى أهباتها الدفاعية دفعاً للاعتداء وتقريراً للسلم؛ وقد كانت انكلترا إلى ما قبل أشهر قلائل أقل الدول العظمى تأثراً بهذه الحمى في سبيل التسليح، ولكنها اليوم تنزل إلى نفس الميدان ببرنامج للتسليح يفوق بضخامته كل ما عرف حتى اليوم، وترصد لهذا البرنامج اعتماداً يبلغ ألفاً وخمسمائة مليون من الجنيهات، وهو إسراف لم يسبق أن عرفته الأمبراطورية البريطانية في تاريخها الحافل رغم اهتمامها دائماً بشئون التسليح والدفاع، وفي نفس الوقت الذي تتقدم فيه السياسة البريطانية بهذا البرنامج العسكري الهائل تتقدم إلى العالم بنفس التأكيدات السلمية التي لم تنقطع عن ترديدها طيلة الأعوام الأخيرة، وتعلن أنها لا تتسلح إلا دفاعاً عن نفسها وحفظاً لكيانها ومصالحها، وتأييداً للسلام العالمي الذي كانت قوة بريطانيا العظمى دائماً عاملا كبيراً في تعزيزه وتأييده

والسياسة البريطانية لا تخفى أنها كانت مسرفة في حسن الظن بالعهود والمواثيق الدولية، وفي الاعتماد على مبادىء السلم وحسن التفاهم بين الأمم، وانها كانت مقصرة في مجاراة الأمم الأخرى في التسليح بالدرجة التي يقتضيها مركزها الدولي، ومصالحها الأمبراطورية العظيمة، فهي الآن تجرى على نفس سياسة السلم المسلح التي جرت عليها الدول الأخرى، بعد أن أيقنت أن التخلف في هذا المضمار يعتبر خطراً على هيبتها الدولية وعلى سلامتها وسلامة أمبراطوريتها المترامية الأطراف، وبعد أن لمست عن قرب هذا الخطر جاثماً يتربص بها ويحاول أن يجد فرصة في نقص أهباتها الدفاعية، وهي تعود اليوم فترى أن الوسيلة العملية الوحيدة لاسترداد مكانتها الدولية، وتأييد كلمتها وإرادتها وحفظ سلامتها وطمأنينتها، هي أن تضاعف أهباتها في التسليح حتى تستطيع أن تسحق أية قوة في العالم تفكر في مناوأتها والاعتداء عليها

وليس من العسير أن نستشف بواعث هذا التطور الحاسم في السياسة البريطانية الحالية وتحولها إلى خطة السلام المسلح، بعد أن كانت تعتمد على المواثيق الدولية والسلامة المشتركة والجهود السياسية، ففي حوادث العام الماضي تفسير شاف لهذه البواعث، وأولها وأهمها بالطبع هي المسألة الحبشية التي فتحت عيون السياسة البريطانية إلى حقائق لم تحسن تقديرها، فقد دبرت إيطاليا اعتداءها على الحبشة عامدة متعمدة، وغزتها واستولت عليها بوسائل عنيفة وحشية هي أدنى إلى القرصنة منها إلى الحرب الحقيقية، ولم تعبأ بالمعاهدات المعقودة والمواثيق المقطوعة ولا بكون الحبشة من أعضاء عصبة الأمم؛ وحاولت السياسة البريطانية أن تحشد دول العصبة ضد إيطاليا في جبهة أدبية اقتصادية تقاومها بالاستنكار والمقاطعة، فلم تحفل إيطاليا بهذا السلاح السلبي وسخرت منه كما سخرت من السياسة البريطانية ومحاولتها، وانتهى الأمر باستيلائها على الحبشة، ووطدت بذلك سلطانها الاستعماري في شرق افريقية بجوار السودان ومنابع النيل وكنيا وشرق أفريقية البريطاني. ولم يكن موقف السياسة البريطانية يومئذ دفاعاً عن الحبشة ذاتها، وإنما كان وسيلة للدفاع عن مصالح الأمبراطورية، لأن قيام العسكرية الفاشستية في الحبشة على هذه الصورة المتحفزة يهدد سلامة الأملاك البريطانية ويهدد المواصلات الأمبراطورية في البحر الأحمر، وتوطد سلطة إيطاليا الاستعمارية يهدد سياسة بريطانيا البحرية في البحر الأبيض المتوسط، ولم تستطع بريطانيا العظمى يومئذ أن تلجأ إلى سلاح العنف لمقاومة المشروع الايطالي. ولم تحاول أن تغلق قناة السويس في وجه القوات الايطالية لأنها أدركت يومئذ أنها ليست مستعدة للطوارىء تمام الاستعداد، وأن من الخطر أن تدخل مع العسكرية الفاشستية المتوثبة في معركة لا تؤمن عواقبها لهذا كله اكتفت بمراقبة الحوادث، وشهدت على كره منها ومضض ظفر الفاشستية بغزو الحبشة وقيام الأمبراطورية الايطالية الاستعمارية، وشهدت انهيار سياستها القائمة على تحريك العصبة؛ ولم يخف على السياسة البريطانية ما أحدثه ذلك الفشل

من صدع لهيبتها ونفوذها الدولى . ولم يخف عليها أنها كانت قصيرة النظر حينما اعتمدت على فكرة السلامة المشتركة ، وتخلفت فى مضمار التسليح حتى تفوقت عليها فيه أمم أخرى أصبحت تناوئها الآن وتشاكسها

وفى نفس الوقت الذى نفذت فيه إيطاليا اعتداءها على الحبشة على هذا النحو المثير ، أعلنت ألمانيا نقضها لميثاق لوكارنو الذى يكفل سلامة حدود الرين ، كما أعلنت نقضها لآخر النصوص العسكرية فى معاهدة الصلح المتعلقة بتحريم التسليح فى منطقة الرين . وانكلترا من الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو . ومع أنها لم تتأثر بتصرف ألمانيا قدر ما تأثرت فرنسا فإنها رأت فى انهيار هذا الميثاق الذى كان يعد ضماناً قوياً للسلام فى غرب أوربا نذيراً سيئاً بانهيار فكرة السلام المشتركة وتقويض صرح السلام الأوربى ، ورأت فيه بالأخص ضربة أليمة لشرعية العهود والمواثيق تنذر بانهيار سلطان القانون الدولى ، وتبعث إلى الريب فى قيمة العهود الدولية ، وتحمل على عدم الاطمئنان إليها ، ما لم تكن من ورائها القوة الكافية لتأييدها وضمان تنفيذها

ثم كانت المشكلة الأسبانية ، وتدخل ألمانيا وايطاليا فيها الى جانب الثوار الأسبانيين لاقامة حكومة عسكرية فاشستية فى أسبانيا ؛ وقد لمحت انكلترا منذ البداية شبح الخطر الذى يجثم من وراء هذا التدخل ، وأدركت فى الحال أن قيام حكومة فاشستية فى أسبانيا تؤيدها ايطاليا والمانيا ، وكلتاهما تضطرم طموحا الى الفتوح الاستعمارية ، مما يهدد سيادتها فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، وهى سيادة تحرص عليها بالسهر على مدخل هذا البحر من مضيق جبل طارق . وهو توجس لم تلبث ان حققته تطورات الحرب الأسبانية ، وتدفق الجنود الايطالية والألمانية الى أسبانيا ، وما قامت به الدولتان من المناورات الاستعمارية المزعجة فى جزر البليار ومراكش الاسبانية

إزاء ذلك كله شعرت انكلترا بحقيقتين بارزتين ، الأولى ان هناك خطرا حقيقيا على سيادتها فى البحر الأبيض يتفاقم يوما بعد يوم ؛ وان ايطاليا الفاشستية تبذل جهودا جبارة لتحطيم هذه السيادة ؛ والثانية أن سلام أوربا لم يعد مكفولا ، وان ألمانيا وايطاليا المدججتين بالسلاح أصبحتا بما لهما من القوة العسكرية تتحكمان فى سلام القارة ، وتهددانه فى كل لحظة بنزعاتهما واطماعهما العنيفة . وأنه أضحى من العبث ان تعتمد السياسة البريطانية على سياسة العهود والمواثيق والسلامة الاجتماعية ؛ وأنه لا بد من اعتمادها على القوة للدفاع عن سلامتها ومصالحها الامبراطورية الواسعة : ومع ان انكلترا عقدت فى يناير الماضى مع ايطاليا اتفاقا باحترام الحالة القائمة فى البحر الأبيض ، والاعتراف بالمصالح المتبادلة وهو ما يسمونه «باتفاق الجنتلمان» ، فان السياسة البريطانية لم تكن ترى فيه على ما يظهر اكثر من وسيلة لتهدئة الحالة وتسكين الأعصاب المضطربة واكتساب الوقت ؛ بل يلوح لنا ان هذا الاتفاق الذى علقت عليه يوم عقده آمال كبيرة ، ينهار اليوم من أساسه . لأن ايطاليا رأت فى برنامج التسليح البريطانى . وفى دعوة الحكومة البريطانية للنجاشى الى حفلات التتويج ، ما يسوغ لها الارتياب فى موقف السياسة البريطانية ، والسير فى سياستها العسكرية المطلقة دون تردد أو تقيد

وقد كان لهذا التحول فى السياسة البريطانية ، والتجاء بريطانيا الى سياسة التسليح الشامل وقع عميق فى المانيا وايطاليا : ومما يلاحظ انه وقع على أثر اثارة المانيا لمسألة المستعمرات ومطالبتها بمستعمراتها القديمة بصورة رسمية ، ورد انكلترا على مطالبها بالرفض المطلق ؛ وقد أكد مستر ايدن وزير الخارجية البريطانية فى عرضه لسياسة بريطانيا الخارجية . ان بريطانيا لا ترمى بالتسلح الى أية غاية اعتدائية ، ولا تفكر مطلقا فى تعكير السلم . وكل ما ترمى اليه هو الدفاع عن سلامتها وسلامة أملاكها ومصالحها الامبراطورية . ولم يخف الوزير أن ما شعرت به بريطانيا من خيبة الأمل فى قيمة العهود والمواثيق الدولية وقيمة السلامة المشتركة كان من أعظم بواعث هذه السياسة ، ولم يخف ان اخفاق العصبة في المسألة الحبشية كان صدمة أليمة للعصبة وجميع الدول التى تؤمن بمبادئها . بيد ان السياسة البريطانية ما زالت تؤمل فى مستقبل العصبة ومستقبل مبادئها السلمية الحرة . على أن هذه التصريحات الملطفة لم تخف الحقيقة البارزة فى تسلح بريطانيا ، وهى انه رد عملى على تسلح المانيا وايطاليا ، ورد القوة على القوة ، واعتزام التذرع بالعنف لرد العنف . ولن يستطيع منصف ان يلوم السياسة البريطانية على هذا التحول الذى اضطرت اليه لمثل هذه البواعث الحيوية القاهرة . ولكن برلين وروما لا تريان هذا الرأى . أما برلين فلا تؤمن بما تقوله السياسة البريطانية فى تبرير

هذا التسلح . بل ترى فيه تحديا وتهديدا خفيا لها لتأييد السياسة التى ترمى الى حرمانها من مستعمراتها ومطامعها الاستعمارية والاقتصادية المشروعة ، وأما رومة فلا تشك انه موجه اليها توجيها مباشرا لحرمانها من ثمرات تفوقها العسكرى وانتصارها فى الحبشة وتهديد سلامة امبراطوريتها الاستعمارية التى كسبتها بسيفها ، ولذلك رأينا المجلس الفاشستى الأعلى يجتمع بسرعة ويقرر مواصلة التسليح دون هدنة أو توقف . وان يترك فكرة الاتفاق على تحديد التسليح نهائيا ، وسيقترن هذا القرار باجراء مناورات بحرية وجوية كبرى فى مياه المضيق الواقع بين طرابلس وصقلية ، وهو المضيق الذى قد تفكر ايطاليا فى اغلاقه فى حالة الحرب لتقطع المواصلات البريطانية فى البحر الابيض المتوسط

وهكذا نرى معركة التسليح تضطرم بين الدول الكبرى . ولا ننس ان فرنسا قد اقرت كذلك برنامجا هائلا للتسليح ، وان روسيا السوفيتية قد دججت سلاحا وأضحت أقوى دول القارة . بيد أنه مما لا ريب فيه أن للتسليح البريطانى آثارا يغتبط لها أنصار السلام ، ذلك أن بريطانيا لا تطلب مزيداً فى السلطان والملك ، ولا تفكر فى فتوحات أو غزوات استعمارية جديدة ، وانما تريد الدفاع عن امبراطوريتها القائمة . ومقاصدها الدفاعية ظاهرة لا ريب فيها ، وفى وسع بريطانيا متى أتمت تسليحها واستكملت قوتها أن تغدو بما لها من الكلمة النافذة والقوة المرهوبة عاملا حاسما فى استتباب السلم العالمى (***)

فى الأدب المقارن

الحـــرب

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

حب الحياة والإقبال على متعاتها والرغبة فى التكثر من خيراتها مركب فى طبائع الأحياء . وليس لحاجات الحى ورغباته ومطامحه نهاية ، بل تبق له حاجة ما بقى كما قال الشاعر ؛ والنزاع بين الأحياء على خيرات الحياة من أجل ذلك متصل لا يفتر ، وهيهات يفتر وحب الخلاف والنزاع والجلاد ذاته بعض طبائع الأحياء ، والشغف بالقلب والتخايل بالقوة والزهو بالسيادة من أكبر مطامع الأحياء والانسان خاصة ، ومن ثم عرف الانسان الحرب من أول عصوره واشتغل منذ همجيته بمكافحة الأحياء من الوحش ومن أبناء جنسه ، وتم له النصر من قديم على أمة الوحش ، وما تزال معارك الانسان مع أخيه - أو عدوه - الانسان متصلة تشب بين حين وحين

وقد كابد الانسان فى شتى العصور أهوال الحروب وعلم علم اليقين عواقبها الوخيمة ؛ بيد أنه لم يستطع بعد أن ينبذها ، لقيامها على غرائز فى طبعه راسخة متأصلة ، ولما تليح به أمام عينيه من مزايا النصر ومغانمه ومجده ولألائه ، ومن ثم كانت مهمة دعاة السلم من أشق المهام ومطلبهم من أبعد المطالب ، وقد هبوا فى الفترة بعد الفترة يندددون بالحرب وبلاياها ومغباتها ، فكانت صيحاتهم تترك صداها فى نفوس الكثيرين ، لا سيما فى أعقاب الحروب الطاحنة التى أهلكت الحرث والنسل ، ثم لا تلبث غرائز الانسان الفطرية أن تعاوده على أشدها ، وتبدأ الأمم سيرتها الأولى من الطمع والتفانى وتحكم القوة التى لا يفصل سواها بين المطامع المتضاربة

وللحرب آثارها المشهودة فى أدب كل أمة بلا استثناء . ولتلك الآثار ثلاث نواح : فالحرب أولا من أهم وسائل اتصال الأمم واختلاط الأفكار وتلاقح الثقافات ؛ وهى ثانياً وحى الجم الغفير من نظم الشعراء ونثر الكتاب الواصفين لوقائعها وسلاحها ورجالها ، الممجدين لأبطالها وانتصاراتهم ، المفاخرين بما كان دحر الأعداء وحماية الذمار وسلامة الشرف الرفيع من الأذى ؛ والحرب من جهة ثالثة أوحت بآثار أدبية شتى فى تبغيض القتال ، وتسفيه اعتداء

الانسان على الانسان ، والحض على السلم والدعوة إلى الاخاء والصفاء وإن كان أثر هذه الدعوة فى الأدب أقل كثيراً مما فيه من الترنم بمجد الانتصار والتغنى بالعز والغلب ، ولم تكثر آثار تلك الدعوة فى الأدب إلا فى العصر الحديث

وكل هاتيك الآثار بينة فى الأدبين العربى والانجليزى . فقد خبت الأمتان وأوضعتا فى مجال الحروب . وكان بين كل منهما وبين جيرانها وأعدائها ملاحم ومواقع جسام ، وشهد أدبها قيام نهضة حربية عظيمة وتشييد أمبراطورية واسعة ، وأنجبت كل منهما عظماء القادة وحازت مشهود الانتصارات ، وذاقت أحيانا مرارة الهزيمة ، ووقفت مراراً حيال الأخطار الجائحة التى تهدد كيانها وحريتها وتقاليدها ، وشهدت الكثير من أمثال هذا كله يجرى بين الدول المجاورة والأمم المعاصرة لها ، وعلى كثرة ما يحتويه الأدب الانجليزى من آثار كل ذلك فان ما فى الأدب العربى منه أكثر ، وذلك لأسباب عديدة :

فأولا ارتقى الأدب العربى وتوطد والأمة العربية ما تزال منشقة متناضلة ، تتفاخر قبائلها بأيامها وانتصاراتها ، أما الأدب الانجليزى فلم يبلغ عظمته إلا فى ظل القومية الموحدة ، ولم تنشق الأمة على نفسها ويمتشق بعضها الحسام لقتال بعض إلا مرة واحدة فى عهد الصراع بين الملكية المطلقة والنظام الدستورى ، وهى الفترة التى أنجبت القائد العظيم كرومويل ، وفيما عدا ذلك يمتاز التاريخ الانجليزى بخلوه من الحروب الأهلية

وثانياً كانت الحروب أكثر طروءاً فى تاريخ العرب منها فى تاريخ الانجليز . حتى بعد توطيد الأمبراطورية : فان تلك الأمبراطورية ظلت - ما دامت لها قوتها - تجالد أعداءها فى الدين من روم ووثنيين ، حتى إذا ما وهنت قوتها انقسمت على نفسها ، وكثرت فى داخلها الدويلات والحروب

وثالثاً لأن كثيراً من أعلام الأدب العربى كعنترة وقطرى بن الفجاءة والمتنبى وأبى فراس ، كانوا جنوداً يشهدون الوغى ويتمدحون بمآثرهم فيها ، وقل من أدباء الانجليزية من كان كذلك ، بل لقد ذكر أن المقاتلة فى عهد التلاحم بين على ومعاوية والخوارج كانوا إذا تهادنوا ليلا تقابلوا تقابل الأصفياء يتناشدون الأشعار

ورابعاً كان جل شعراء العربية المتأخرين متصلين بالأمراء والقواد ، فلم يكن لهم ندحة عن وصف أعمال ممدوحيهم الحربية

كان العرب فى الجاهلية فى قتال لا يكاد يهدأ ، وكانت بين قبائلهم وأشرافهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهى حتى اضطروا أن يتخذوا لهم موضعاً حراما ووقتاً حراماً ما تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل أسباب الحياة والتعاون ، وبالتمدح بالنصر فى تلك الحروب والتفاخر بأيامها والتوعد والتربص ، كان أكثر ما قيل من شعر فى الجاهلية . وظلت لهذا الباب من الشعر المسمى بالحماسة مكانته بعد انقضاء عهد الجاهلية بطويل ، وبه بدأ أبو تمام مختاراته الشعرية وبه سماها ، وكثر فى الشعر الجاهلى ذكر السيوف والرماح والخيول وغيرها من وسائل الحرب ، وكثرت فى العربية أسماؤها وأوصافها ، وارتقى بين العرب البصر بالحروب وتأصلت فيهم ملكاتها ، حتى أخرجت الجزيرة صناديد الاسلام الذين اصطلوا كتائب قيصر وآل ساسان ، ومن الشعر الذى يعرض صور حروب ذلك العهد معلقة عمرو بن كلثوم التى يقول منها :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا

وكانت الرسالة النبوية ، وكان صاحبها يجمع إلى عبقرياته العظيمة المتعددة التى لم تجتمع لإنسان ، البصر بالحرب والبلاء . فيها فتخلف فى أشعار ذلك العهد ولا سيما شعر حسان أثر ما كان بين المسلمين والكفار من كفاح ؛ حتى إذا ماوحد الاسلام قلوب العرب انصرفوا إلى جهاد أعداء الدين ، ومن عجب أن عصر الفتوح الباهر الذى تلا ذلك لم يترك فى الأدب العربى إلا أثراً ضئيلا . وليس امتلاء النفوس برهبة الدين هو كل السبب فى ذلك ، بل يرجع ذلك أيضاً إلى جدة الحالة التى وجد العرب بها أنفسهم : من قتال أمم مخالفة لهم فى الجنس واللسان والمسكن ووسائل القتال ، ولعلهم لم يجدوا من اللذة والغبطة ودواعى الفخار فى اجتياح تلك الجيوش المرتبة ، ما كانوا يجدونه فى مصاولاتهم البدوية المملوءة بالكر والفر والمساجلات الفردية .

وأهم من هذا وذاك أنهم لم يتعودوا الفخر بالأعمال القومية ، التى يشترك فى فخارها المضرى والبكرى والتغلبى ، ولم يتعودوا أن ينظموا القصيد فى الفخر على أعجمى ، وإنما هم كانوا يترفعون على الأعجمى ترفعاً بدهياً بسيطاً لا يتكلفون له عناء النظم ، ولا يحتفون بالقول ، وآية ذلك حكاية الأعرابى الذى سئل : أتحب أن تكون ابن أعجمية ولك قصر فى الجنة ؟ فقال : لا أحب اللؤم بشىء . قيل : فان أمير المؤمنين ابن أمة ، قال : أخزى الله من أطاعه !

إنما كان الفخر كل الفخر عند العربى فى الظفر بعربى مثله ، من قبيلة معادية لقبيلته ، قد توارثت قبيلتاهما العداوة والتراث جيلا بعد جيل . وما هى إلا أن دبت الفتنة من جديد بين العرب حتى

ظهر أثرها فى الشعر : فهدد لمعاوية وحزبه ، ومناصر لبنى هاشم أو مناصب لهم . ومفاخر بكلب أو بتغلب أو معير لهذه أو لتلك ، إلى عهد بشار الذى يتمدح - على كونه من الموالى - بالغضبة المضرية التى تهتك حجاب الشمس ؛ وظل الشعراء الذين يمدحون الخلفاء والأمراء والقواد ويمدحون بلاءهم فى الحروب ، لا ينسون أن يذكروا مفاخر قبائلهم من قبل وبلاءهم فى الوغى ، فاذا مدح الشاعر الحجاج ذكر ثقيفاً . أو عبد الملك ذكر أمية ، وظل الشعر العربى دائماً يردد ذكر بنى مطر وبنى شيبان وبنى تنوخ وبلاء كل أولئك فى الحروب ، وكان التساجل بين الشعوبيين وأنصار العربية فلم يكد يترك أثراً فى الشعر العربى ، وحتى المتنبى يحفل شعره بذكر قبائل من مدحهم على التوالى ، رغم تعصبه للعربية ، وطول تألمه من أن يرى عرباً ملوكها عجم

بجانب تلك العاطفة القبلية نمت تدريجا عاطفة أخرى هى الرابطة الاسلامية ، إذ تمكن الاسلام من نفوس معتنقيه ومجتمعهم تمكنا أحله محل القومية ، وترددت تلك العاطفة فى أشعار الشعراء الممجدين لبلاء الخلائف والأمراء فى دفاع أعداء الملة ، وكان للاسلام فى أول ظهوره عدوان كبيران : الوثنية وزعيمتها فارس ، وقد فرغ من شأنها عاجلا ، والنصرانية وممثلتها الدولة الرومانية ، وقد ظل جهادها دائما من أول مهمات الخلفاء وولاة الثغور ، وظلت حربها من أهم ما يشغل بال المسلمين ويغذى عاطفتهم المشتركة وشعورهم القوى ؛ ويتجلى أثر تلك الحروب بين الدولتين ، أو بين الديانتين ، فى أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى ؛ ولما أعيت الدولة الرومانية الحيل استنجدت بغيرها من أمم النصرانية ، فكانت الحروب الصليبية ، التى ظهر أثرها فى شعر شعراء مصر والشام ، ومن ذلك قول البهاء زهير فى السلطان الأيوبى :

فابلغ رسول الله أن سميه حمى بيضة الاسلام من نوب الكفر
وأقسم إن ذاقت بنو الاصفر الكرى فلا حلمت إلا بأعلامه الصفر

وبلغ المسلمون المبالغ فى فنون الحرب البرية والبحرية ، وعنهم أخذ الصليبيون ، ومن لغتهم نقل الغربيون كلمة الأميرال أو أمير البحر وغيرها من مصطلحات القتال ، وحفل شعرهم بوصف المعارك والجيوش ، وما توقعه بأرض العدو من دمار ، كوصف أبى تمام تخريب عمورية ، ووصف الأساطيل ؛ والمتنبى هو أصدق وصاف الحرب فى المتأخرين وأروعهم لأنه كان يصف مايميل إليه بطبعه وما يمارسه ويشاهده بنفسه ، ولا تكاد ترتوى منه لهفته ، ومن ثم لا تقل أشعاره الحربية عن أشعار الجاهليين والاسلاميين صدقا وفطانة وتفوق بعضها جزالة وتجويدا ، ومن جيدها وصفه لخيل سيف الدولة الذى منه :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا وما علموا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحته وصهيل
كتائب يمطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف بسيل

ومن جيد وصف الأساطيل قول ابن هانىء الأندلسى :

أنافت بها آطامها وسمالها بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى كبكب وهو شاهق وليس من الصفاح وهو صلود
إذا زفرت غيظا قد ترامت بمارج كما شب من نار الجحيم وقود

ولم يقتصر ذكر الحرب على مواضعها الخاصة بها ، ومناسباتها بين الحين والحين ، بل كان أمرها من الشمول والاتصال والحضور فى أذهان الناس بحيث تسرب ذكرها فى شتى أبواب الأدب ، واستعيرت صفاتها وأحوالها لمختلف الأغراض : ففى النسيب استعيرت السيوف والسهام للجفون واللواحظ ، والقتل لشدة التتيم ، وبالسيف شبه الممدوح صقلا ومضاء وبه جرت الأمثال فقيل : سبق السيف العذل ، وشبه المتنبى المنون بعدو لا تجدى المشرفية والعوالى فى قتاله ، ولا تنجى السوابق المقربات من خببه ، وقرن التمدح بالبلاء فى الحرب بالتشبيب ، كما كان يفعل عنترة ، وكما قال أبو عطاء السندى وهو البيت الذى تمثل به صلاح الدين الأيوبى فى بعض رسائله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

وفى الأدب الانجليزى أوصاف رائعة للحروب ، وتمجيد شائق لأبطالها ، وتفاخر بانتصاراتها وما كسبته الأمة من اعتزاز وهيبة ، وللمتون ومارفيل وكامبيل وتنيسون وكبلنج فى ذلك أشعار مأثورة . وقد كان مجال القول أمام أمثال أولئك الشعراء ذا سعة : فتاريخ الامبراطورية حافل بعظائم جنودها . نعم كانت سياسة بناتها دائماً سلبية لا تلجأ إلى الحرب إلا فى الحالة القصوى . ولا تندفع إلى ميدان القتال لمجرد الرغبة فى الظفر والافتخار . ولكن الدولة كانت دائماً عزيزة فى وطنية أبنائها وقوة أسطولها ، وقد كسب لها جيشها وأسطولها انتصارات باهرة خالدة ، ودوخ أبطالها أمثال كرومويل وملبرا ونلسون وولنجتون الأمم ، وأعلوا كلمتها فوق كل كلمة .

ولا يستأثر الشعر دون النثر بحديث الحرب ووقائعها وأبطالها بل هناك كتاب سوذى عن نلسون ومقالات ماكولى عن كليف وهستنجز وفردريك الأكبر ، وتاريخه وتاريخ جيبون ، كل هاتيك حافلة بالوصف الدقيق البليغ لشتى المواقع والحروب ، هذا إلى ما فى مختلف القصص من ذلك ، ولا يكاد يكون فى العربية من مثل ذلك سوى بعض خطب الامام على بن أبى طالب ، ورسائل فى بعض

الخلفاء إلى ولاتهم ينهونهم أن يؤذوا المسالمين أو يعيثوا فى الحرث والنسل ، وخطب بعض القواد كتلك المنسوبة إلى طارق بن زياد والتى تفيض بلاغة وشجاعة . ولا غرو فقد كان للشعر دائماً التقديم على النثر ، وقد ظل طويلا يستأثر دونه بالحفاوة

ولم يقتصر شعراء الانجليزية على نظم القصيد فى تمجيد انتصارات وطنهم وعظائم أبنائه . بل التفتوا - كدأبهم فى كل فنون القول - إلى الماضى وإلى الخارج ، ونظموا فى المواقع التاريخية والخرافية ، إرضاء للفن وتسريحاً للخيال وتنشيطا للفكر ، فوصف تنيسون آخر معارك الملك آرثر وصفا أصبح من ذخائر الأدب المعدودة وآثاره السائرة ، أودعه كل مقدرته على تجسيم الوصف وخلق المنظر الكامل بدقائقه وألوانه وأصواته ، ونظم هاردى قصائد شتى فى حروب نابليون والثورة الفرنسية ، وكان له بحروب نابليون غرام كبير لقرب عهدها منه واشتراك بعض أقربائه فيها ، وفى تلك الحروب نظم ملحمته الكبيرة التى تعد أكبر آثار الشعر الانجليزى الحديث ، وفيها يتنقل بين شتى المناظر والأوصاف والنظرات والتأملات

ولم يخل الأدب العربى من ذم للحرب ودعوة إلى الاخاء ، ومن آثار ذلك أبيات زهير بن أبى سلمى المعروفة ، من معلقته حيث يمدح السيدين اللذين اصلحا بين عبس وذبيان بعد ما تفانوا ، ويستطرد إلى قوله : « وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم » ، غير أن ذلك قليل نادر . وقد كان الجهاد دائماً شعار الدولة الاسلامية ، وكان النزاع والغلاب دأب أمرائها ، وبذلك تفاخر فرسانها وبه امتدحهم مادحوهم من الشعراء ، وظل السيف والرمح والبنود والخيول فى شعر شعراء العربية مرادفات للعز والمجد والغلب والسيادة ، ولم يخل الأدب الانجليزى من محبذين للحرب متغاضين عن مغباتها كتنيسون الذى كان يرى الحرب وسيلة لا غنى عنها من وسائل العمران وتطهير النفوس من شوائب المادية والترف والأنانية ، غير أن الأدب الانجليزى أغنى بآثار النظرة الانسانية ، التى تنغض الحرب وتصور بشاعتها وبلاياها .

فى قصيدته « البطولة » يقول كوبر معرضاً بملوك فرنسا : « أيها الملوك الذين يستهويكم المجد وتؤيدون بالدم دعواكم ، وتهوون بالضربة ثم تبررونها بالدفاع عن النفس ، المجد بغيتكم والحق ذريعتكم ، تسكن عبر النهر الذى يحد ملككم الحق ، ويريكم مدى ما يجوز لكم أن تنشروا عليه حكمكم ، أمة لا مطمع لها فى تاجكم ، حريصة على السلام ، سلام جيرانها وسلامها ، ولكن يا لشؤم طالع تلك الأمة ! ويا شد ما تتقاضاها جريرتها الوحيدة ، جريرة مجاورتها إياكم ، أما هى إلا أن تنطلق الأبواق حتى تزحف كتائبكم إلى الخارج شاقة طريقها وسط المحصول الناضج ، يطأون فى كل خطوة حياة جماهير وخبز أمة . فالأرض أمامهم جنة يانعة ، وهى خلفهم يباب بلقع ،

وفى قصيدته عن موقعة بلنهايم التى كسبها القائد النابغة ملبرا ، يصف سوذى شيخاً ألمانيا جالسا ذات مساء أمام كوخه فى أرباض البلدة التى دارت حولها رحى المعركة ، بعد جيل من حدوثها ، وحفيداه يلعبان حوله ، فاذا الطفلة ترى أخاها يدحرج شيئا مستديرا قد عثر به بجانب الجدول ، فتناول الشيخ ذلك الشىء والطفلان مشرئبان إليه يريدان أن يعلما ما هو ، حتى هز الجد رأسه قائلا هذه جمجمة مسكين سقط يوم النصر العظيم . وكثيراً ما أعثر بهذه الجماجم فى الحديقة ، وحين أحرث الحقل كثيراً ما يثيرها المحراث من التربة ، ولا غرو فقد سقط آلاف مؤلفة فى ذلك النصر العظيم فيتساءل الطفلان بفارغ الصبر عن تلك الحرب وسبب تناحر الفريقين ، فيقول جدهما : شتت الانجليز صفوف الفرنسيين ، أما سبب ذلك فلا أعلمه ، بيد أن الجميع يقولون إنه كان نصراً عظيما ويمضى واصفا كيف أحرقت مزرعة أبيه وألجىء إلى الفرار وكيف هلكت الحبالى والرضع ، ثم يردف قائلا : ولكن مثل هذه الأشياء يا ابنى تحدث فى كل نصر عظيم ، فالمجد لدوق ملبرا ولأميرنا الطيب بوجين ، فتصيح الطفلة : كيف ؟ لقد كان ذلك أمراً إداً ! فيراجعها الشيخ . كلا يا بنيتى بل كان نصرا عظيما ، وكل إنسان أطرى الدوق الذى كسب تلك الموقعة ، فيصيح الطفل . وماذا كانت فائدة كل ذلك ؟ فيسلم الشيخ تسليم العاجز قائلا : أما ذاك فلا علم لى به بيد أنه كان نصراً عظيما .

فآثار الحرب وأحاديثها على مختلف ضروبها ظاهرة محسوسة فى جوانب الأدبين ، ولا ندحة من أن تكون ظاهرة محسوسة فالحرب ناحية من نواحى حياة المجتمع الانسانى جليلة الخطر حاضرة الأهمية دائما ، تتصل برفاهية الأفراد ومستقبل الجماعات ومصائر الدول والمدنيات ، وبالحرب تتعلق كل معانى القوة والحرية والذود عن الحقيقة ، وقد كانت الحرب أحيانا ممهدة لانتشار الحضارة وازدهار الثقافة ، كما كانت إذا استفحلت وبالا على العمران وبلاء على الانسان بيد أنها قد تركت فى الآداب تلك الأوصاف الممتعة لملابسات الحروب ومشاهدها وأعقابها ، وقد خلدت هذه الآثار الأدبية الرائقة عبرة ومتاعا للألباب ، بعد أن غبرت تلك الحروب وهدأت تلك المطامع والثارات ، وذهب مسعروها ومن اصطلوا بها واستوى فى الترب القاهر منهم والمقهور ؟

فخرى أبو السعود

اسكندر بوشكين (١)

Alexander Pushkin

أمير شعراء الروس

ترجمة الأستاذ عبد الكريم الناصري



بوشكين

في يوم ١٠ فبراير احتفل الروس في بلادهم وفي خارجها بمرور مائة عام على وفاة شاعرهم الأكبر اسكندر بوشكين

وقبل خاتمته الفاجعة ببضعة شهور كتب يقول: « لقد أقيم لذكراي نُصبٌ لم تصنعه يد . . . ولسوف يذاع اسمي في كل أرجاء روسيا، ولسوف يجري ذكري على كلِّ لسان، ولسوف يتغنّى بشهرتي كلُّ روسيّ . . . »

وقد أدهشت هذه النبوءةُ مريديهِ والمعجبينَ بهِ، فما عرفوهُ قطُّ من قبل يتحدث عن نفسه على هذا النحو، وإنما عرفوه حييًّا متواضعاً على ما أصاب من شهرةٍ ومجد. بيْدَ أنه كان مُصيباً في قوله. فإن شعرَهُ الآن جزء لا يتجزّأُ من العقليّة الروسية، وشهرتَهُ قد تجاوزت حدود بلاده، حتى أن بعض البلدان، كصربيا، وتشيكوسلوفاكيا، وفارس، احتفلت رسميًّا بذكراهُ المئوية، هذا فضلا عن الاحتفالات التي أقامتها شتى أقطار الأرض. ومع ذلك لم يصب بوشكين في خارج روسيا ما هو حقيق به من الشهرة والتقدير، ولم ينل منهما في انجلترا ما ناله في فرنسا وألمانيا، بالرغم من أن المجلات الأدبية الانجليزية ذكرته سنة ١٨٢٢، ووصلته بقرائها، وبالرّغم من أن جماعةً من الشعراء والأدباء، ومنهم جورج بورو، تصدوا لترجمة قصائده

وقد كتب الشاعر الانجليزي المعاصر « موريس بيرنج » (١) فصولا في تقويم أدبه، وتقدير شعره، تعد من أحسن ما كتب عنهُ في أية لغة من اللغات بما فيها الروسيّة. كما أنه ترجم بعض قصائده الوجدانية ترجمة تدعو إلى الاعجاب على الرغم من قوله: « إن التصدّي لترجمة أشعار بوشكين محاولة فاشلة، وعمل يائس، يشبه تصديك لتمثيل ألحان موزار بالرسوم والتماثيل، وتحويلها إلى الألوان والأحجار ».

ولد « الكساندر بوشكين » في موسكو، في الثامن من يونيو سنة ١٧٩٩، وتوفي في بطرسبورج، في العاشر من فبراير سنة ١٨٣٧. وهو سليل أسرة من الأشراف، كان من شأنها الاعجاب بكل ما يتصل بفرنسا والفرنسيين ولا سيما آدابهم. وكان الفتى اسكندر يحفظ عن ظهر القلب كثيراً من بدائع موليير وفولتير. ولم يكن الحفظ عسيراً عليه، لما أوتيه من ذا كرة قوية ممتازة. وقد ظل طوال حياته قارئاً نهماً، حتى روى أنه لما حضره الموت شخص ببصره إلى الكتب المرصوفة على الرفوف وقال: « وداعا يارفاقي الأعزاء ».

وأجداد بوشكين من جهة أمّه أفريقيون، ويحتمل أنهم أحباش، وقد جُلب جدُّه « أبرام هانيبال » إلى بطرسبورج — من القسطنطينية — هدية إلى بطرس الكبير، ثم صار سكرتيره الخاص، وكان بوشكين يفتخر بجده الأسود، وكان متأثراً بدمه الأفريقي، ولعل لهذا الدم يداً في نُضجه المبكر، وفي هذه الحرارة التي تفيض بها أغانيه، على أن هذا التأثير لم يبلغ من الشدة بحيث يظن كثير من الناس

وفي سنة ١٨١١ دخل الليسيه في تسارسكوي سيلو Tseraskoye Selo، وهي مدرسة داخلية أسسها القيصر المتحرر الفكر اسكندر الأول، وشيد بنايتها في جانب من بلاطه؛ وهناك أنفق بوشكين ست سنوات سعيدات، طبعت أثناءها أولى قصائده، وكان عمره عندئذ أربعة عشر عاماً

ولما ترك المدرسة التحق بوزارة الخارجية، ولكنه لم يحبّر قط بلاغا رسمياً، وما كان ينتظر منه ذلك، وما بلغ الثامنة عشرة حتى كان باعتراف شيوخ الأدب، من أمثال كارامازين وجوكوفسكي، زعيما لشعراء عصره، وحتى كان شعره بغية الشبان يدرسونه ويحفظونه

(١) مترجمة عن مقالة نشرتها مجلة « المستمع » الانجليزية، بقلم أريادنا تيركوفا ويلمز، والظاهر من اسمها وإنشائها أنها روسية

(1) Maurics Baring

وقد لعبت السياسة دوراً مهما فى حياته ، فمع أنه لم يكن عضواً فى الجمعية السرية التى تشكلت سنة ١٨١٨ ، ثم سحقها الجيش فى فتنه (١) التى شبّ أُوارُها سنة ١٨٢٥ ، فانه عبر فى قصائده عن أغراضها — وخلاصتها تأليف حكومة دستورية وتحرير الفلاحين — تعبيراً أقوى وأشد إقناعا من برامجها الطويلة ولكن مالبث الرأى العام أن اشتد فى مطالبته بالاصلاح والتحرير فقلّ تسامحُ القيصر وفترت همته الاصلاحية . وكان بوشكين أول من نزلت به عاقبة هذا الخلاف بين الأمبراطور ورعيته وذلك أنه نشر فى ذلك الوقت قصيدته الموسومة « بالحرية » ، وقصيدتين أخريين فى هجو أرا كتشيف Araktcheev ، فنفى على أثرها إلى جنوب روسيا

وقد هيأ له منفاهُ — الذى لم يك قاسياً جداً — فرصة لمشاهدة بلاد القوقاس والقرم و برارى صربيا . حيث عاش تلك العِيشة التى التمسها بيَرون (٢) ثم ظفر بها فى ألبانيا ، وكان بوشكين مسحورا بييرون ، وما سحرهُ منه أسلوبهُ الشعرى ، بل بساطتهُ وإخلاصهُ (٣) وعنفُ عواطفه . وفى سنة ١٨١٩ ، دخلت الترجمة الفرنسية لكتاب بيرون Childe Harold روسيا ، فرحب بها هو وطائفة من أصدقائه الأدباء ترحيبا حماسيا ، بالرغم من سقمها وركاكتها . وبلغ من إعجاب الشاعر الروسى العظيم بالشاعر الانجليزى أنه أخذ نفسه بتعلم الانجليزيه ليقرأه بلغته الأصلية ، ولكن أسرار النطق الانجليزى كانت تحيره وتربكه ، حتى أن أصدقاءه الذين تعلموا الانجليزية منذ طفولتهم كانوا إذا سمعوه يقرأ عليهم شكسبير لا يملكون أنفسهم من الاغراق فى الضحك لأنه ينطق بالألفاظ الانجليزية كأنها لاتينية !

تأثر بوشكين بييرون ولم يقلده ـ فما كان مقلداً وإنما كان مستعدا على الدوام لأن يتعلم ليس غير ـ وظهر هذا التأثير فى قصيدتيه « سجين القوقاس » و « نافورة باختشيساراى » . على أن التشابه قليل والفرق واضح بين الشاعرين : فبوشكين أرق وأودع ، وفكاهته النادرة أعمق ، فى غير إيلام ، وفهمه لطبائع الشعوب وخصائص البلدان أوسع وأبعد مدى .

بيد أن تأثير بيرون زايل شاعرنا بالتدريج حتى إذا بدأ بتأليف قصته الشعرية « إفجينى أونيجن » Evgeni Onegin لم

(1) Rising. (2) Byron. (3) Disenchantment

يكن بقى منه شىء . وتعد هذه القصيدة أول ما ألف من القصص الروسى الجيد ، وكان ترجنيفا يقول إن أربعة أبيات من مقدمتها تفضل آثاره جميعاً ، وكان لينين يجد فى صفحاتها مريحاً من عناء العمل ، وقد سمى القيصر نقولا الثانى ابنتيه الكبريين ـ تاتيانا وأولغا باسمىْ الأختين فى الرواية

ومع ذلك كان بوشكين يفضل عليها قصيدتيه « بوريس جودونوف » (١٨٢٥) . و « بولتافا » (١) (١٨٢٨) ، والأخيرة قصيدة تاريخية تصور النزاع بين بطرس الكبير وتشارلس الثانى عشر ملك السويد

أما الأولى فقد نظمها فى « ميخيلوفسكوى » Michailovskoye وهى ضيعة لأبيه ، كان الشاعر نفى إليها بعد عودته من منفاه الأول لوقوع السلطات على رسالة له فيها ما يكرهون . وفى هذه الأعوام اشتد تركيز ذهنه وتمت له السيطرة على صناعته ، وقوى فيه الشعور بقيمة اللفظ فى الشعر ، حتى كان لا ينشر القصيدة إلا بعد أن ينحى عليها بالتصحيح والتنقيح أعواما

كان بوشكين حين نظم « جودونوف » تحت تأثير شكسبير . وهو من أوائل الروس الذين عرفوا شكسبير وقدروه حق قدره . قال فى رسالة إلى بعض أصدقائه : « أى رجل شكسبير هذا !! وما أصغر بيرون ، كتراجيدى ، بالقياس إليه . . إن بيرون لا يقدر أن يصف إلا شخصية واحدة ، هى شخصيته . فهو يعطى لهذه كبرياءهُ ، ولتلك بغضهُ ، ولأخرى مزاجهُ السوداوىّ ؛ وهكذا ينتزع من شخصيته القوية النشيطة شخصيات كثيرة لا قيمة لها . وليس هذا من الفن التراجيدى فى شىء » (٢)

وقد خلصه النفى من الاشتراك فى الثورة التى قام بها أصحابه المعروفون بال Decabrists ولما أذن له القيصر نقولا الأول فى العودة من المنفى سنة ١٨٢٦ ، واستدعاه إلى موسكو . سأله « ماذا كان يكون موقفك يوم ١٤ ديسمبر فى موسكو ؟ » فأجابه بوشكين : « كنت أشترك مع إخوانى العصاة »

وكان اجتماع القيصر بالشاعر خطة مدبرة أريد بها التأثير فيه وفى جمعيته التى استثار غضبها إعدامُ خمسة من الثوار . ولم

(1) (Boris Godounoff ; Poltava).

(٢) يقصد أن بيرون لا يحسن أن يصور من الشخصيات إلا التى تتميز بصفة من صفاته . فاذا تقدم لتصوير شخصيه ليس لها هذه الصفة ، عاد خائباً . فكأنه لا يصور شخصيات ، وإنما يقطع شخصيته أوصالا عديدة : تؤلف كل منها شيئاً يحسبه شخصية ، وما هو بشخصية . (المعرب)

يكن بوشكين ـ على قوته العقلية العظيمة ـ ليختلف عن الطفل فى سذاجته وسرعة تصديقه وانقياده، ولذلك لم يجد القيصر صعوبة فى اختلابه واجتذابه وإقناعه بأن الهدنة قد عقدت أخيراً بينه وبين الحكومة. ولم يكتشف كيف عبث به القيصر بمساعدة رئيس البوليس ـ كونت بنكيندورف ـ إلا بعد سنين

لم يكن بوشكين يتصور وهو فى منفاه مدى الشهرة التى نالها بين قومه. فلما عاد إلى الاشتراك فى الحياة الاجتماعية أذهلته مقابلتهم له. فقد كتب بعض الكتاب يقول: «موسكو السعيدة تحتفلُ اليوم بتتويجين: تتويج القيصر وتتويج الشاعر»

وفى الثلاثين من عمره تزوج من فتاة جميلة فى الثامنة عشرة تدعى «نتالى جونخاروفا»، ولم يجلب عليه هذا الزواج سعادة بل ولاهدوءاً، وما كان بيت الزوجية أكثر من خان باهظ النفقات. كان الشعرُ آخرَ شيء تحفل له الزوجة الشابة، على أنها نجحت فى المجتمع نجاحاً كبيراً. وفى هذه الفترة من حياة بوشكين ساءت أحواله. فقد تراكمت عليه الديون، وتغير ذوق الجمهور فلم يعد يتحمس ذلك الحماس لروائع آثاره، وتزايد حقد بعض فرق الارستقراطية عليه، فعزم على الخروج بزوجه وأطفاله الأربعة إلى إحدى ممتلكات والده، حتى يتفرغ لمشاريعه الأدبية الكثيرة، لكن القيصر عارض الفكرة. فاضطرُ إلى البقاء، واستمر فى الكتابة فاتر الهمة مكتئب النفس: وحدث أن شاباً فرنسياً جميلاً يُقال له البارون دانت Baron D'Antes، تعرف بزوجته أخذ يتودد إليها فى إلحاح شديد، فدعاه بوشكين إلى المبارزة، بارزه وجرحه جرحاً بليغاً، أودى بحياته بعد يومين. وبموته نت نبوءة عراف قال له سنة ١٨١٩. إنه سيصير معبودَ قومه، ينفى مرتين، وبأن عليه أن يحذر رجلا جميلا قد يقتله حين بلغ السابعة والثلاثين

اعتبر الشعب موت بوشكين رزية وطنية، واشتد حزنه عليه حتى خشيت الحكومة أن يؤدى إلى قيام مظاهرات عدائية أمرت بنقل الجثمان سرا إلى مقبرة «سفياتيجيورسكى» ـ القرية ن ميخيلوفسكوى ـ وهناك دفن

فى أول ترجمة ظهرت بالانجليزية لحياة بوشكين ـ وهى ترجمة رائعة نشرتها مجلة «بلاكوود مجازين»[1] سنة ١٨٤٥ ـ كتب صاحبها توماس شو Thomas Shaw، أستاذ الانجليزية فى كلية (ليسيه) تسارسكوى سيلو، يقول: «يمكن أن يقال إن قصيدة (إفجينى أونجين) أصبحت جزءاً من لغة الشعب الروسى» ولا يزال هذا القول ـ وقد تقضت مائة عام ـ صحيحاً ملموساً

إن اسم «بوشكين» يرن فى أسماع الروس رنين الأغانى والأغاريد. وقد تأصلت شخصيته فى أعماق العقلية الروسية؛ وإن الروسى ليعجز، إن سألته، عن تفسير حبه لبوشكين، عجزه عن تفسير حبه للبحر أو لنور الشمس وقد يكون جوابه ابتسامة سعيدة يشرق بها وجهه

(بغداد) **عبد الكريم الناصرى**

(1) Blackwood Magazine.

جولات فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة

العلم فى القصة – القصة التحليلية العلمية

بول بورجيه P. Bourget ١٨٥٢ — ١٩٣٥

التحليل العلمى عند بورجيه . التحليل الحى . المثالية
الرواية التقليدية أو آثار بورجيه الاخيرة

تختلف بيئات الأشخاص — عند بول بورجيه — عن بيئات المدرسة الواقعية ، فأرواح أشخاصه تكاد تحيا منعزلة عن أجسادها ، وهى ليست مختارة من الأشخاص المرضى أو المنحطين . وبالاجمال لا يحيا أشخاصه فى بيئة تلك المدرسة . وليس أشخاصه من سواد الناس ولا بموسرين سئموا الحياة ، وان منهم النساء الكبيرات والعاطلين ، مفكرين أو فنانين . وقد عد أرباب المدرسة الواقعية رواياته من نوع (السنوبينم) لأنها فى أجزائها الأولى قد تجسدت من ذلك الايمان بالعلم الذى كان مذهب زولا

وقد علم بورجيه أن أبرز صفة للشباب الحديث هى صفة « القلق العلمى » . وهذا القلق هو الذى كان يهيمن عليه يوم كتب رواياته ، وكان معلموه منهم « ستندال » الذى قرن فعل الخيال إلى الدراسة النفسية ، و « تين » الذى ابتكر علم النفس ، والذى بين أن فى النفوس بعض أسباب وعلل تجر بالضرورة إلى بعض أفعال ، وهذا علم النفس هو الذى وضع لرجال التشريح النفسى مبادىء وقوانين خارقة ، وهكذا لم تعد القصة وضعاً ولا تحليلا وانما أصبحت إيضاحاً

إن الدرس العلمى فى امكانه أن يولد تحليلا جذابا وجدلا عميقا يجعل من صاحبنا مؤلف « تجاريب نفسية حديثة » نقاداً واجتماعيا أكثر مما يجعل منه قصصيا ، لأن القصة ما هى إلا التعبير عن الحياة ، والحياة لا تكون حياة إلا اذا ظلت محافظة على ظواهرها فى حريتها واختيارها ، أما التحليل العلمى فقد لا يكون إلا ضربا من التشريح . وكما يعلم بورجيه ، أن كل ما يشرح هالك ، على أن من حسنات عبقريته أنه وجد فى « ستندال » وفى « تين » وفى عبقريته الشخصية شيئا لم يقف عند التنقيب عن الاسباب والاعمال فانه تعلم — من وراء ذلك — حال تركيب العلل والاسباب ، وهو القائل « ان العقل المدرسى الذى يجدى فى المخاصمة الخطابية يجدب حين يريد أن يخضع لقوانين قوة النمو المخنوقة والمتبدلة فى الحياة ، والدرس العلمى ينبغى له ألا يقنع بتوضيح هذه القوات المشوشة . وإنما ينبغى له أن يعمل على اظهار التبدل فيها ، والدوافع والحياة ، ومن هذه الناحية وحدها تصبح آثار بورجيه روايات – لا مناقشات — كل شخص فيها عالم مستقل بذاته — عالم لاقانون — هذه خلاصة قصته « قلب امرأة » — وهى خير ما سطره يراعه ، لا تقف رواياته على التحليل المنطقى فحسب ، وانما هى توليد واحضار وبعث للنفوس .

أما المثالية Idéal العلمية عند بورجيه فقد اختلفت جد الاختلاف عن مثالية « تين » فهو لا يجحد المذاهب العلمية ، حتى اذا حاول أن يذود مثلا عن مذاهب سياسية تراه يجرب أن يجعلها قواعد تجريبية ترتكز على أعمال فى المجتمع وأعمال فى التاريخ ولكنه — فى عالم الايمان — نراه أخذ يتحرى عن شجرة غير شجرة العلم ، وعنه يقول النقادة « جول لميتر » : ان رجل اليوم هو عقلية مزيجة من العقل العلمى ، والشعور الرقيق الكئيب ، والقلق الخلقى ، والرقة والعطف ، والتصوف . الروح العلمية — عنده — لم تجنح إلى عمارة الدين والاخلاق ، ولكنها تركتهما قليلا قليلا يعملان على فرض قواعد الحياة ، وقبل أن يغدو بورجيه رسول دين وسياسة تحول عن حلقة العلم الضيقة .

وهو القائل : إن انسان الرغبة والأنانية ، الذى لا يحيا إلا ليحلل نفسه ، ولو كان من جراء ذلك تعاسة الآخرين ، هذا الانسان قد مات بنفسه ، وهو القائل : « بألا حياة حقيقية إلا فى مثل أعلى للاخلاص والتزهد . مثل أعلى فى الدين ، إذ لا تمكن الحياة مطلقة تحت رحمة الأهواء وتقلباتها المستمرة .

هنالك فئة من الأدباء حاربت أدب الديموقراطية والاشتراكية حربا عنيفة . ولقد عالج بورجيه فى روايته « التلميذ » المذهب

المادى ، وتطرق إلى قواعد تين وبرتلوريبو . والقصة ترى أن المذهب المادى خطأ . ولا يمكن فى كل الأطوار البرهنة على أنه مذهب حق . على أنه إذا كان حقا فلا يمكن نشر ذلك والجهر به ، إذ أن هذا التعليم يمكن أن يخلق تلاميذ كهذا « التلميذ » يرتكب جرائم خلقية ثابتة . يكون المعلم فيها هو الضامن الكفيل . فرجل الآداب والمفكر لا يحق لهما أن يكتبا كل شىء ، ولكن واجبهما أن يكونا نافعين . وهكذا تعلم قصص بورجيه أن الفرد ورضا الفرد وإرجاع العدل إلى الفرد كلمات فارغة . إذ يرى أن المجتمعات هى أعضاء منظمة مرتبة ، ملاجئها الحية هى الأسرة ، فكل مايضر ببقاء الأسرة وخصبها وتنظيمها يفنيها كما هو الحال فى الجرائم التى تودى بالكائن الحى . ومنها الطلاق والانهماك فى الفسق والزنا ، وهجر الأولاد قبل البلوغ . والمجتمعات حالها كحال الأعضاء فى استطاعتها أن تتحرك ولكنها لا تستطيع ذلك إلا ببطء ، وكل تبديل فجائى يجر معه المرض والموت . وهذه الأخيلة الباطلة التى تبشر بها المساواة والديموقراطية تؤول إلى هذه التغييرات والفساد ، فان الطبقات الاجتماعية لا تجوز مرحلتها ، إلا على مهل ، خارجة من الحياة العاملة إلى اكتساب الثقافة العقلية ، وحسن استعمال الثروة ومعنى السلطة . ومن أجل هذا ينبغى إجلال « سياسة محافظة ارستقراطية » وديانة توحى إلى الانسان احترام الأسرة واحترام نظامها . وهكذا تبدل بورجيه فى نهاية أيامه ، وأصبح رجل وعظ فى السياسة والدين .

فشل العلم

نقد الفلاسفة

كان لبورجيه كما كان لبرتلو وتين وغيرهما ، إيمان لا يتزعزع بالعلم ... والعلم وحده لا يكذب أصحابه ، وهو ينطوى على أسمى الآمال ، ولكن بورجيه لم يكن وحده حين هجر نبوءته ، وهجر الآمال الخادعة التى يذيعها فان الفلاسفة قبله قالوا : ليس للعلم مستقبل فيما وراء الطبيعة ، إذ أنه لا يقدر أن يعطى إلا يقيناً علمياً عملياً اصطلاحياً ، ولا يقدر أن يعطى اليقين ذاته . وقد قال « اميل بوتروس » فى إحدى مقالاته المنطقية : « إن المذاهب العلمية لا تأتينا واضحة إلا الآن مقاييسنا غير واضحة . ولا توضح الحوادث إلا بحوادث اصطلاحية قد لا تكون صميم الأشياء ولكنها — صك تحكيم — بين العقل والأشياء ، على أن هنالك عدداً من الفلاسفة الذين درسوا العلم وقالوا بأنه لا يعطى الحقيقة المطلقة . وهذا « هاملان » دون أن يجحد تأثير العقل قال : بأنه لا يستطيع أن يفهم الحقيقة العميقة إلا إذا أولها وفسرها . وأخيرا جاءت فلسفة هنرى برجسون جاحدة بالفلاسفة والعلم الذى آمن به « تين وبرتلو » من قبل

هنرى برجسون

نقد العقل Henri Bergson

ولد سنة ١٨٥٩ وأشهر تصانيفه « معلومات الشعور المباشرة ، مادة وذاكرة ، والقوة المبدعة » ويذهب برجسون فى « كتابه الاول إلى القول بأن الشعور المنطلق عن العقل . الشعور الفطرى فيه لا يتلاءم أبداً مع ما استخرجه العلماء من العقل المتحول المتبدل – كما أرادوه وسهلوه – . فالعلماء هم فى حاجة إلى قياس الفضاء وهو سهل عندهم ، وإلى قياس الزمان وهذا أقل سهولة . لأن قياس الزمان معناه الافتراض بأن الزمان تتألف أجزاؤه من طبيعة واحدة Homagéne وأن اللحظات المتتالية على حادث قد تكون من بعض وجوه متشابهة متطابقة ، تطابق طول متر مع طول متر آخر . ولكن هذا ماهو الافتراض ، إذ حين تتأمل نرى أن زمان هؤلاء العلماء هو زمان مجرد أو هو التجريد . أما الذى يوجد فهو الدوام ، والشىء الذى يدوم يختلف – فى لحظة ملحوظة – عما كان عليه قبل اللحظة السابقة ، ولهذا ينطوى هذا الشىء على شىء هو « دوامه » . فالدوام هو متألف من أجزاء مختلفة طبيعتها . تختلف عن ذاتها بدون نهاية ولكى ننكر صفة « الدوام » التى قال بها « زينون » ولم ينكرها عليه أحد ، نرى أن الشىء يمكن أن يكون ساكناً ومتحركا فى وقت واحد ، وأن « أشيل » العادى وراء سلحفاة لا يستطيع – عقلياً – إدراكها . وهكذا نرى العلم المبنى على الاصطلاح لا يمكن أن يكون إلا اصطلاحياً

وقد أتم برجسون فى كتابه « مادة وذاكرة » برهانه هذا ، فالانسان – بوهم عميق الجذور فيه – آمن بأن عقله يبسط له

الحقيقة ، إن عين الحيوانات ليست موضوعة لتعرف أصحابها بحقائق الأشياء ، وإنما وظيفتها وظيفة عملية تهدى أصحابها إلى الانتظام بين الأشياء . فلو عاشت هذه الحيوانات على غير الأرض لاختفت لأنها تصبح عديمة النفع . وكذلك لكى نستطيع أن نحيا بين الحوادث ، قادرين على استخدامها على وجهها الأحسن المستطاع ، نجد هذا لا يطلب إلينا أن نعرفها بحقيقتها كما هى . وإنما يطلب إلينا أن نختار ـ بصورة عملية ـ الوجه الأحسن استعمالا وفائدة لنا ، لأن عقلنا لا يلمح إلا هذه الناحية "عملية . إذ ليس هنالك عقل أو عقل شاعر الا حيث يمكننا أن نمسك جزءاً من الشىء الذى نفكر فيه . والعقل والفكر الشاعر ليسا بوسيلتين للمعرفة وإنما هما وسيلتان للعمل . والعلم الذى أوجداه وشيدا أركانه ماهو إلا نظام جديد لوسائل العمل . وفن مستقيم لاستخدام الحقيقة فى سبيل حاجاتنا . فهو لا يعلمنا الحقيقة ولا يكشف لنا أسرار الوجود كما هو الحال فى أن الأرنب لا يكشف لنا طبيعة السرعة والخفة .

نقد العلماء

وأما العلماء أنفسهم فقد قلبوا وجوه العلم ودققوا مسائله . فانتهوا إلى القول بأن العلم إنما هو مذهب ووسيلة إلى استخدام الأشياء ، والعلم لن يصل أبداً إلى « المطلق » ، وقد عملت بعض مدارس الطبيعيين على رد علوم الطبيعة إلى مذهب رياضى صرف غايته الأرقام التى تأتى نتائجها صحيحة ، وخلاصة هذا النقد توجز فى أبحاث الرياضى الكبير « هنرى بوانكاريه » فهو فى كل ما كتبه أعطى الأدلة القاطعة على بيان فضل العلم ، ودافع عن نفسه بأنه رجل شاك . وهو يرى أن التمحيص العلمى ليس عملا عبثاً . بل إنه عمل أقل عبثاً من غيره من أعمال الانسان . وهو فى الغالب يكون مذهباً مطلقاً . وكل العلوم ـ مثلا ـ هى علوم الحركة ، على أن من المحال أن نثبت حركة مطلقة ، وأن نبرهن ـ بقياس منطق ـ على حركة الأرض

وهكذا نجد الفلاسفة والعلماء ينضم بعضهم إلى بعض للاتفاق على هذه الخلاصة ، وهى أن هنالك حقيقة مركبة متحركة بدون انتهاء ، وعقلا عمل ـ من أجل ادراكها واستخدامها ـ على فرض بساطتها واتحاد فكرتها وقوانينها ولكنه بعمله هذا غير الثوب وأفسد الحقيقة .

الفلسفة الشاكة والنقد الشاك !

رينان فى عهده الأخير

جمع رينان عام ١٨٩٠ كتابه « مستقبل العلم » وأنجز تاريخه فى أصل المسيحية . وقد كان ذلك المعلم الذى يعلم « بألا تقبل الحقيقة فى التاريخ الانسانى والعلوم أيضا إلا ماشهد العقل عليه مرفوقا بالأعمال على أنه حقيقة » أما آثاره الأخيرة فقد جاءت تعلمه بأن ليس فى القدرة التثبت من أية حقيقة . وأن هذا العجز قد يكون ضروريا فى بعض الأحيان . إن محاوراته الفلسفية تعلمنا أن الحقائق المطلقة ، الحقائق الفلسفية ، لا يمكنها أن تكون هدف البراهين ! وقد يكون هذا خيراً . إذ من يعلم أن الحقيقة ليست بدافعة إلى الحزن ؟ من يعلم أن الأخطاء والأوهام ليست بنافعة أوضرورية ؟ لقد كان الشعب حيوانا ضارياً مولعا بالاعتقادات الباطلة . فذللت صرامته ومشادته باعتقادات باطلة مثلها . ماعسى يغدو الانسان إذا أصبح واقعيا ؟ إنه يصبح سيداً صارما احمق ! من يعلم بأن حكمة سليمان لم تكن على حق ، تلك الحكمة القائلة : « كل شىء باطل ، باطل الأباطيل ، وكل شىء باطل تحت الشمس » . وإذا لم يكن كل شىء باطلا فان الفلسفة الحقيقية قد تكون فلسفة الصراصير والقبرات التى لم تشك أبداً فى أن نور الشمس ليس جميلا ، وأن الحياة ليست هبة سنية ، والأرض ليست معقلا حسناً للأحياء . إن خير مانصنعه على هذه الأرض هو ألا نستغرق فى تعليل الأشياء والتحقيق فيها ، وإنما نعمل على محبتها . فان سر الحيـاة لا يقف على العلم ولكن على الحب . وبهذا عمل رينان على تهذيب شكه وتشذيبه . وشهد على أن أكثر الأشياء ضمانا وجداً ، مهما ذهب الظن . هو العلم . وهنالك فئة كبيرة ذهلت من شك رينان الذى غمرها ، وكان ذلك لعمر قصير ، ولكن عادت هذه الفئة إلى التأثر بمؤثرات جديدة أخرى

النقد المنفعل Impressionisme

« جول ليمتر » J. Lemaitre ١٨٥٣ - ١٩١٤

إن رينان قد أكمل دورة العلم قبل أن يناقشه ويحاكمه . وجول ليمتر لم يذهب إلى أبعد من ذلك . إنه أكمل دورة النقد

وحده . وقد لقى فى المنابر والنوادى والصحف الكبيرة نقداً له فذهب من مزاعمه أنه يهذب الرأى باسم الذوق السليم والعقل . فسانت بوف - برغم عبقريته - لم يترك فى النقد مدرسته ، وتين لم يأخذ عنه النقد إلا دساتيره ، وقد ألقى جول ليمتر أن هذا النقد عمله أن يحكم على بودلير وفلوبير وفرلين وهنرى بيك وسواهم . ووجد فيه مايبعث على السأم فشهد على أنه نقد فيه غش ومداهنة لأنه مبنى على أصول ومذاهب . ولكى يتم اليقين بهذه المذاهب ينبغى أن تبدل بمذاهب غيرها . وغيرها أيضا إلى مالا انتهاء . لأن هذه المذاهب مابين جيل وجيل إما أن ينقض بعضها بعضا ، وإما أن تتلاشى . إذ ليس هنالك فى الحقيقة إلا ارتياح أوضجر ، إلا انفعالات وتأثير . وقال أنا طول فرانس فى كتابه « الحياة الأدبية » : الحقيقة هى مالا تخرج عن نفسها أبدا وفى هذا أكبر بلائنا . فلنتحمل إذن بخلوص نية هذا البلاء ، ولا نصدر أحكامنا على الآثار ، ولنصدر انفعالاتنا !

لقد كان جول ليمتر صادقا ولكنه كان أقل اهتداء مما راح يزعم ، فلقد انتمى فى أواخر أيامه إلى مذاهب سياسية ، وكان زعيم الحزب الوطنى ، وهو - فى فترات راحته - لا تشعر منه بذلك الرجل الذى يتحدث للتحدث وحده ، ولكن تحس ذلك القاضى الذى يحكم ويدين . على أنه يبقى رجلا عالمياً ببعض آثاره العالية ، ومذهبه الانفعالى قد ترك له مجال الخوض واسعاً . فهو يستطيع أن يخوض حقولا مختلفة فى الأدب والفن لا يصرفه عن ذلك شىء ، وقد عمل على تجديد الأدب القديم وكانت له فيه محاولات لاستنقاذه من قيود الفصاحة التقليدية المدرسية لكى يندمج مع الحياة الراهنة . وإذا كان النقد الانفعالى لم يجعل همه التحقيق والاقناع فهمه إذن أن يسر ، وهكذا أراد جول ليمتر أن يسر ! ولقد كان هذا الناقد ممن أوتى روحاً وخفة وفناً متزناً مستقيما ، فكان تأثيره عظيما وأعظم آثاره « المعاصرون » .

* * *

ريمى دى كورمون Remy de Gourmont ١٨٥٨ - ١٩١٥

لا يمكن الخوض كثيراً فى الحديث عن « ريمى دى كورمون » فلقد كان له قراء أمناء ، لكن عددهم قليل . إذ كان يمقت الفوز والجماعات والمجد المدرسى ، على أنه كان معلماً ، معلم صفوة مختارة من القراء ، اتبعت تعاليمه ومذاهبه . وكانت تجد فيها فكرة رائعة متنوعة ، لا تقف على الأدب وحده ، لقد كان يفتش فى الآداب خاصة عن ترجمة صادقة للحياة ، وكان يرى أن ليس فى الامكان تفهم الحياة بغير العلماء والفلاسفة ، ولذا تناول فى بحوثه شخصيات مختلفة ، أرباب علم وأدب وطبيعة وطب وأرض واجتماع . وتحدث عنها كما يتحدث عن شعراء وروائيين ، ولكنه لم يحمل فى كل هذا علم اليقين . إذ لا يقين - عنده - فى العقل الذى لم يبلغ إلا ذرة من الحقائق الظاهرة ! إلا ذرة واحدة ! ولا فى القلب الذى لا يمثل لنا إلا فصولا مختلفة ، لاهم له منها إلا إلقاء السدول على العقل ، ولا فى نظريات « ما وراء الطبيعة » ، ولا فى الأديان التى تطفح بعوامل التعصب . ! نراه يجنح إلى الشك . لا شك التشاؤم : هنالك فلسفة السعادة ... ينبغى أن تحيا سعيداً ! وأن تكون فوق كل شىء وأن تحتقر كل شىء وأن تحب كل شىء ، وأن تدرك بأنه لا يوجد شىء ، وإن هذا اللاشىء فى الامكان أن يكون كل شىء ، والحياة بعد هذا كله - مشهد ، يكفر ما فيها من اللذة عما فيها من عناء وشقاء ، وأن فى الجهود المصروفة إلى تعرفها وتفهمها معنى قد يرفع العقل إلى ما فوق حدود الفناء .

وقد وضع فى حياته الأدبية سلسلة أفكار قيمة ، وقد ظل يؤمن بأن هنالك كتابا صعاليك وهم من يدعون « بالمدرسين » ، وكتابا لبقين دأبهم أن يتحروا عن الأساليب الجديدة والتعابير الحية فى الفن ، وقد حارب بشدة فى سبيل المدرسة الرمزية وناوأ خصومها أشد مناوأة ؟

خليل هنداوى

شخصية الزهاوى

بمناسبة مرور عام على وفاته

بقلم السيد احمد المغربى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

الزهاوى والمرأة

الحديث عن المرأة ، مهما اختلفت نواحيه وتباينت مناحيه حديث لذيذ يسترعى الأسماع ، ويستلفت الأنظار ، ويستهوى الأفئدة ، وهو حديث ، لا نكون بعيدين عن الصواب اذا ما قررنا بأنه يلذ للمرأة أكثر مما يلذ للرجل ، ولا سيما اذا كان صادراً عن الرجل نفسه ، فهى تتلهف شوقاً إلى الاطلاع على ما يضمره لها فؤاده وما يكنه ضميره ، وهى تبذل ما ملكت يمينها وما لا تملكه يمينها لاستماع حديثه عنها ، سواء أكان هذا الحديث مدحاً أم قدحاً ، ثناء أم ذماً ؛ بل ربما كانت إلى استماع حديث الذم والقدح أشد شوقاً وأقوى رغبة منها إلى حديث الثناء والمدح !

ذلك لأن المرأة كانت ولا تزال ، وستبقى ما بقيت المرأة ، سراً غامضاً كلما خيّل للرجل أنه توصل إلى سبر غوره ، واجتلاء حقيقته ، أسلمه هذا السر إلى سر آخر ، وهكذا حتى يقف مكتوف اليدين ، مطأطىء الرأس معترفاً بعجزه مقراً بضعفه .

من أجل هذا كان التضارب بين آراء الفلاسفة ، والأدباء والشعراء ، كل يصفها كما عرفها بنفسه ؛ ففريق يقول بأنها ملاك تذيع السلام وتنشر الوئام ، وفريق آخر يقول بأنها شيطان تسبب الأحزان والأسقام ، وتثير الأضغان والخصام ، فينهض الفريق الثالث ، فيعارض الاثنين بقوله ، إنها بين بين !.

ولقد كان فقيدنا الكبير يعتقد بسمو منزلة المرأة ويؤمن باخلاصها إخلاصا تاماً يحملك على الايمان بالسعادة الزوجية التى كانت تهيمن فى جو بيته ، حتى انه ليؤثر أن يبقى بدون ذرية على أن يجرح عاطفة زوجه بالبناء على غيرها .

والمرأة فى اعتقاده ، لا تقل عن الرجل ذكاء وفهماً وإدراكاً ، فهى أهل للحفاوة والتكريم ، جديرة بالاحترام والتعظيم .

وهى تجلو بابتسامها الحلو وحديثها العذب ، الكآبة والملل عن نفس الرجل ، وتخفف عنه آلام الحياة ومتاعبها ، وتبث فيه روح الجرأة والاقدام ، فيقتحم فى سبيلها الأهوال ، ويستقبل الارزاء بوجه باسم ونفس مطمئنة .

ويمثل لك الزهاوى مدى وفاء المرأة فى فتاة شاهدها بين أهل الجحيم قد اخضلت عيناها من شدة الأسى ولوعة الجفاء ومرارة النوى ، بشعر هو السحر الحلال : —

قلت ماذا يبكى الجميلة قالت ... أنا لا يبكينى اللظى والسعير
أنا يبكينى فراق حبيبى ... وفراق الحبيب خطب كبير
هو عنى ناء كما أنا عنه ... فكلانا عمن أحبّ شطير
فرقوا بيننا فما أن أرى اليو ... م سميراً ولا يرانى سمير
ولو أنا كنا جميعاً لخف الخطـ ... ـب فى قربه وهان العسير
لا ابالى ناراً وعندى حبيبى ... كل خطب دون الفراق يسير

ولقد وقف الزهاوى حياته على الدفاع عن حقوق المرأة المشروعة والذود عن كرامتها الضائعة ، وكان يقصد من مناصرته المرأة ، المرأة المسلمة ، فصور لنا ما تلاقيه من ضروب الذل والهوان ، فى بيت أهلها الذى وصفه بالسجن والقبر محرومة من رؤية النور ، وبين لنا ما للحجاب من مساوىء فادحة وأضرار بالغة حالت دون تقدم الشرق العربى ودعا إلى السفور حتى يتاح للمرأة أن تعاضد الرجل فى تحقيق الأمانى والآمال التى تختلج فى نفسه .

قال هل فى السفور نفع يرجّى ... قلتُ خير من الحجاب السفورُ
انما فى الحجاب شلٌّ لشعب ... وخفاء وفى السفور ظهور
كيف يسمو إلى الحضارة شعب ... منه نِصفٌ عن نصفِه مستور
ليس يأتى شعب جلائل ما لم ... تتقدم إناثه والذكور

* * *

قد عزوتم إلى السفور غروراً ... طائشاً قد يفضى إلى الهفوات
هل يحول الحجاب بين التى لم ... تتثقف والطيش فى الرغبات
بل أرى فى الحجاب تسهيل ما تخـ ... ـشونه من نُكْرٍ على الفتيات

وقد تحمل الزهاوى ، فى سبيل المرأة الأذى والهوان ، وعرض حياته لخطر الاغتيال ، وذلك أن قصائده أثارت عاصفة

من الاستياء الشديد فى العالم الاسلامى . فهاج الناس لها فى بغداد واتهموه بتحامله على الشريعة الاسلامية الغراء . وطلبوا من والى بغداد ، ناظم باشا فى عام ١٣٢٦ ﻫ أن يقيله من منصبه ، وازدادت نقمة الناس عليه حتى اضطر الى ملازمة داره . . .

الزهاوى الوطنى

لئن عُدَّ احمد شوقى شاعر الإسلام فإن الزهاوى كان ، بلا جدال ، شاعر العرب . فهو ينزع فى شعره نزعة عربية ، فيفتخر ببنى قومه العرب ويتغنى بذكرهم ، ويشيد بمحاسنهم

وهو يدعو إلى نبذ التعصب الدينى فهو مدعاة إلى التفرقة ، والتفرقة تستتبع الضعف ، وهذا العصرُ هو عصرُ القوة ، هو عصرُ التنازعِ على البقاء ؛ الضعيفُ فيه مقضىٌّ عليه بالموت

أصلُ العروبةِ قد رسا كالطودِ فى البلد الحرام
والفرعُ منها فى العرا ق ومصرَ يسمو والشآم
بغدادُ منـذ تأسستْ عُرِفتْ بعاصمة السلام
عاش النصارى واليهو دُ ومسلموها فى وئام
فى وَحْدَةٍ عربيـةٍ ليست تُهَدَّدُ بانفصام
تبنى سعادتها الشعو بُ على اتحاد وانضمام
لا خـيرَ فى شعب يعيـش من التعاسةِ فى انقسام

***

كونوا جميعاً سادةً لنفوسكم فالعصرُ هذا سيدُ الأعصار
أما تهاونكم فيجرح أمرُهُ فى القبر عِزةَ يعربٍ ونزارِ
ليس الحياةُ سوى نزاعٍ دائمٍ يا للضعيفِ به من الجبار
الفوزُ للجَلْدِ الجرىء فؤادُهُ والويلُ كل الويلِ للخوّار

ولقد رافق الزهاوى سيرَ القضيةِ العربية فى جميع أدوارها وجاهد فى سبيلها جهاد الأبطالِ البواسل . وكان فى هذا الجهادِ يحذرُ العربَ من عاقبةِ التهاون والتكاسل ، ويبث فى نفوسهم روحَ الجرأةِ والإقدام ، ليعيدوا مجدَ أجدادِهم شمِ الأنوف ، أباةِ الضيم : —

والدهر للرجل القوى على صلابته ظهيرُ
والدهر يخذل من ينى والدهر يصفع من يخورُ

***

إن هدَّمَ العزبى حوضَ حدوده سخطت عليه يعربٌ ونزارُ
لا يرفع الوطنَ العزيزَ سوى امرىء حرٍ على الوطن العزيز يغارُ

***

لقد صح أن الضعف ذل لأهله وأن على الأرض القوىَّ المسيطرُ
وأن اقتحامَ الهولِ أقصر مسلكٍ إلى المجدِ إلا أنه متوعرُ

***

يا قوم إن أذعنتم للذل أغضبتم نزارا
أنتم أحق الناس إن ترعوا لأنفسكم ذمارا
هل تقبلون لنفسكم عاراً وللأعقاب عارا

والاستقلال ، فى نظر الزهاوى ، يؤخذ بالقوة ، ولا يعطى .. فعلى العرب ، إذن ، أن يريقوا دماءهم الزكية ويتقدموا للموت بقلوب لا تهاب الموت ، أما اعتمادهم على الوعود والعهود فلن يحقق لهم استقلالهم المنشود !

ذكت دماء لأجل الحق سائبة فإنها وحدها للمجد أثمان
وكل شعب على الأوعاد معتمد لحظه فى عراك الدهر خذلان
إن لم تكن قوة للمرء بالغة فكل حق به قد لاذ بُطلانُ

وهو يدعو الأمة العربية إلى خدمة العلم ، إلى رمز الحرية والاستقلال ، فهو السياج الوحيد الذى يدرأ عنها الأخطار وعلى الجنـد إنه كسياج يقى الحرم

وبه يُستقلُ بالرغـم من عصبة الأمم
لا يجوسُ العدوُ مملكةً جيشها انتظم

نم قرير العين ، ياجميل ، فان فى بلادك نفوساً أبية ، وأنوفاً شماء ، تكره الذل وتأبى الاضطهاد !.

نم هادىء البال ، ياجميل ، فان الشباب . يتقد حماساً ، وانه فى حماسه ليغلى ، ليثور ثورة البراكين . . . انظره . . . ها هو ذا قد أجاب داعى الوطن . اسمعه . ها هو ذا قد أصاخ لصوت الله . ان المدرسة ومتاعب المدرسة لم تثنه عن خدمة علمه المفدى . أتعلم أين هم الآن . انهم يتدربون . انهم يحملون البنادق .

نم قرير العين ، ياجميل ، فان فى البلاد مليكا . هو رمز الشباب وأمل الشباب ، إنه غازى ، غازى القلوب ، ابن فيصل ، ابن الحسين ! .

أحمد المغربى

الزهاوى

للاستاذ أكرم زعيتر

كنت فى عداد الذين احتشدوا لتأبين الكاظمى الشاعر فى بغداد وأرهفوا آذانهم يستمعون إلى الزهاوى الشاعر المتفجع المتوجع .

جاء الزهاوى يومئذ يتوكأ على عصاه فى جسم متهدم يصارع العلل ويناجز الأدواء وصعد إلى مرزح الخطابة وجلس على كرسى ووقف خلفه شابان جرصا حين شرع يلقى قصيدته على أن يمسكا بذراعيه إمساك الشفيق الذى يحذر أن تجمح العاطفة بالشاعر فيثور وينهض من مقعده وهو لا يقوى على الوقوف فيصيب الجسم الذى ترادفت عليه الأسقام أذى شديد

راح الزهاوى يلقى قصيدته بصوته المتهدج ، ونغمته التى انفرد بها ، واضطرابه الجسمانى حتى وصل إلى قوله :

الكاظمى قد اعتنى ببلاده وبلاده بحياته لم تعتن

فنهض ، وهاج ، وتلظى قلبه الفتى يوشك أن يودى بجسمه المتهدم لولا حذر الشابين ، ثم أنهى الزهاوى نشيده :

يا بلبل الشعراء مالك صامتا من بعد تغريد بشعرك مشجن
قد سرت قبلى للردى متعجلا ولعلنى بك لاحق ولعلنى!

وردد الشطر الأخير نشيجاً مؤثراً : ولعلنى بك لاحق ولعلنى! التفت إلى صديق يجلس بجانبى فاذا بد معه يترقرق وقلت : أرأيت يا صديقى ؟ إن الزهاوى يرثى نفسه فى قصيدته ، إن هواجسه تنم عن دنو أجله ! ! قال : صدقت ولكن شعره اليوم فيه فتوة وفيه حياة ! قلت : إنها خفقة الذبالة الأخيرة كنذر بانطفاء السراج ؛ إننى مزمع على مغادرة بغداد قريبا وأحس برغبة ملحة تهيب بى إلى زيارته غداً زيرة الوداع الذى لا لقاء بعده . فماذا تقول ؟ قال : ذلك ما أبغى

وانطلقنا فى اليوم التالى إلى بيت الشاعر ، ودخلنا عليه فاذا به جالس على فراشه يتكىء على وسادتين ، فرحب بنا وسر بزيارتنا؛ وكان أول ما حادثناسا ألناعن وقع قصيدته فى رثاء الكاظمى ، فأعربت له عن أثرها فينا وقلت : إننى عائد إلى فلسطين وأود أن أدون فى مفكرتى ما يدور فى هذه الزيارة من حديث ! قال الزهاوى : حسن وهل اطلعت على « الأوشال » ؟ كنت أظن أن عظمى رق وأن زمنى لن يمتد بى كثيراً فسميت مجموعة قصائدى « الأوشال » ، ولكننى نظمت بعدئذ بعض القصائد وهى آخر ما أنظم ، وجمعتها فى ديوان صغير سميته « الثمالة » ، والثمالة آخر ما أنظم فى هذه الدنيا التى أرانى تاركها قريبا . قلت : وهل غير الثمالة للأستاذ شعر لم يطبع ؟ قال : أجل إنه ديوان فى ... وأحسب أنه لن ينشر فى القرن العشرين ؟ قلت وما عمر الأستاذ ؟ قال : أنا فى السنة الثانية والسبعين بالحساب الشمسى وفوق الأربعة والسبعين بالحساب القمرى !

وهنا أحس الشاعر بالألم وأخذ يئن ، فوجمنا ، ولكنه قطع وجومنا بقوله : لكل جريح أنة ، وصمت قليلا ثم قال : نظمت قصيدة لتتلى فى تكريم الدكتور حسين هيكل لمناسبة تأليفه « حياة محمد » ، ونادى خادمه فناوله كيساً انتزع منه القصيدة وتلاها علينا ثم استأنف الحديث : وطالما كنت أنشر قصائدى فى السياسة الأسبوعية وحدثنى طالب أن مئات النسخ من السياسة كانت تباع فى دار العلوم بمصر حين تنشر لى فيها قصيدة ؛ وطالما احتدم الجدل و تعارك الطلاب (وتباسطوا) بسبب انقسامهم إلى فئتين : واحدة تؤثر شوقى على ، والأخرى تؤثرنى على شوقى ! قلت :

وتطرق الزهاوى فى حديثه إلى بعض أدباء بغداد الذين يحاولون انتقاصه فندد بهم وحمل عليهم حملة شعواء ، ثم تحدث عن صفات الشاعر التى هى فى نظره استعداد ذاتى ومادة تتألف من ثقافة ولغة ثم طول ممارسة . وسألته عن خير قصائده فقال : أكو (يوجد) أكثر من أربعين قصيدة كلها (زينات) : خذ مثلا قصيدتى « هواى » ومطلعها : أذكرى إذ كنا صغيرين نلعب ! وخذ قصيدتى فى الغروب وقصيدتى فى الطلوع إنهم عصريتان جديدتان ، أما التصوير المؤثر الجميل ففى قصيدتى ومتى تخر أم لا ؟ ومطلعها :

يا ابنة الهم إن غرفتك القلـــب فلا تخرجى إلى الأبواب

إن هذه القصيدة بديعة ، بديعة !

وحدثنا عن رأيه فى بعض الشعراء ، فإيليا ابو ماضى يحلق أحياناً فى السماء عالياً ويهبط أخرى ، أما أحمد محرم فيمتاز شعره بجزالته ولكنه مشوب بالتقليد ، وأما الصافى فحبذا لو اتسـ

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

— ٤ —

بين القهوة والشاى

خطر يوماً لزهرة البن أن تجتاز الجبال والبحار من سهول الحجاز إلى الصين لتزور أختها زهرة الشاى ، فاستقبلت هذه زائرتها بكل ترحاب إلا أنها كانت مغرورة بنفسها تتكلف الود تكلفاً ككل مخلوق لا يعترف بفضل أحد

وكانت ابنة الصين تباهي بحضارة بلادها القديمة وتحسب ابنة الحجاز حديثة نعمة خرجت من قفار لا مدنية فيها ولا مجد

وما كانت ابنة العرب لتخدع بغرور صديقتها فثارت العزة العربية فى نفسها فقالت لزهرة الشاى : — أراك مغترة بنفسك يا ابنة الصين ، وما أنا ممن يتقلد المنة من أحد . جئتك زائرة لا مستجدية فلست أعرق منى نسباً ولا أرفع حسباً

وهزت زهرة الشاى رأسها باحتقار وقالت : — إن حسبى عريق يتصل بمن أسسوا مملكة الصين منذ ستين قرناً

— وما تقصدين بهذا ؟

— أقصد تذكيرك بما يجب عليك من احترامى

وكانت الزهرتان تتحدثان وهما جالستان إلى مائدة صفت عليها أوانى القهوة والشاى ، وكل زهرة تتناول من خلاصتها لتنبه قواها ؛ فقالت زهرة البن : ـ أنت كريهة الطعم ، ولو لم تكونى كذلك لما هجرك الصينيون لاجئين إلى الأفيون ، فما أنت بالمخدر يفتح أبواب الأحلام الجميلة

فانتفضت زهرة الشاى وقالت : ـ لقد غزوت الشعب الذى تغلب على الصين فأنا سيدة بلاد الانكليز

— وأنا أسود بلاد الفرنسيس

— لقد أنزلت الوحى على ولتر سكوت وبيرون

— وأنا بعد أن ألهمت وطنى أروع الافكار ألهمت موليير وفولتير

— أنت سم بطىء قتال

— أنا دواء للهضم

وساد السكوت لحظة ، فقالت زهرة الشاى : ـ انك لتسمعين من غليان مائى ما يشبه حفيف أجنحة الأرواح ، وما ضفائر الفاتنات بأجمل من أوراقى . أنا شعر الشمال يتدفق حزناً وحناناً

فقالت زهرة البن : ـ لى سمرة بنات الصحراء ، ولى لفتات عيونهن السوداء ، فأنا أخترق الأعصاب باللهب الخفى . أنا سحر الشرق وأنا غرامه

— أنت تحرقين ، أما أنا فأستنزل العزاء على قلوب الموجعين

— أنا أعطى القوة ، أما أنت فتنزلين الضعف بالجسوم

فقالت زهرة الشاى : ـ لى القلب

فقالت زهرة البن : ـ أما أنا فلى الرأس

واحتدم الجدال بينهما دون أن تذعن إحداهن للأخرى ، فقررت الزهرتان أخيراً أن تلجآ إلى مجلس محكمين يؤلفه شاربو القهوة وشاربو الشاى

قدمت القضية لهذا المجلس ومرت الأجيال والخلاف قائم بين أعضائه وهو لم يصدر حكمه حتى اليوم

(ف . ف)

اطلاعه اللغوى وارتقت ثقافته . قلت له : وفى العراق ؟ قال : الرصافى ماضيه خير من حاضره بكثير ، بكثير ؛ والشيخ رضا الشبيبى قل أن يحلق ، والجواهرى عربيته ضعيفة ، ولقد لازمنى سنتين أو ثلاثا وكان فى أثنائها . . . سامحه الله ! ولكن أملا قد يعقد على حسين الظريفى وابن أخى ابراهيم الزهاوى

وسألته عن قصيدته فى رثاء الكاظمى فقال : تقرؤها فى (الرسالة) ثم تحدث عن صاحبها وقال : والزيات هو الكاتب الذى تقرأ أخلاقه فيما يكتب

ودار الحديث حول المجمع الملكى اللغوى الذى تأسس فى مصر فأبدى تشاؤمه منه : وقال إنه لن يدوم اكثر من سنوات لجموده !

وحدثنا عن المرحوم الملك فيصل واعجابه بشعر الزهاوى ومما قال : ورأى فيصل رسمى وأنا نائم فاعجب به وأمر بتكبيره ، فنظمت بيتين كتبا تحت الرسم ، وأنشدهما الزهاوى ، واذكر أن شطرهما الأخير هو : ولكنى عن مدحك لا أنام ، وودعت الزهاوى وأنا موقن أنه الوداع الأخير

(نابلس) اكرم زعيتر

تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها ، وعاداتها ، ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

ولندع هذه الناحية برهة قصيرة لنلقى نظرة عابرة نلم فيها بمكانة المرأة ونتلمس أثرها فى المجتمع ليرى القارئ. كيف كانوا ينظرون إليها فى المجتمع الجاهلى ، وذلك أنهن كن فى مرتبة سامية ذوات أثر ملموس ، يخترن أزواجهن بأنفسهن ، ويرجعن إلى منازلهن الأولى إذا سيئت معاملتهن أو لم يجدن الراحة المنشودة فى حياتهن الجديدة ، وكن فى بعض الأحيان هن اللائى يطلبن الزواج وفى أيديهن العصمة ، وما كن جوارى أو متاعا بل كن مساويات لأزواجهن يلهمن الشاعر القصيد . ويثرن نخوة المحارب فى القتال ، ويبعثنه على الاستماتة والقوة . ولعل أصل فروسية القرون الوسطى يرجع إلى بلاد العرب الوثنية ، وإن الفروسية وامتطاء متن الصافنات حبا فى المخاطرة وتخليص الأخيذات ، وإغاثة الملهوف والنساء اللواتى أحاقت بهن المصائب ، كل هذه الأمور هى من الطبائع الجوهرية للعربى الصحيح ؛ وإن لفظ « الفروسية » ليشير إلى راكب الحصان ذى الطبع الشريف ، كما أنه لا ينال لقب « فارس » إلا من كانت تجرى فى عروقه دماء النبل [١] . ولكن نبل النساء لا يظهر أثره من احترام الرجال إياهن وبطولتهم من أجلهن فحسب ، بل تنعكس صوره أيضاً فى الأغانى والأقاصيص وفى التاريخ ؛ من ذلك أن فاطمة بنت الخرشب كانت إحدى ثلاث عرفن بالمنجبات ، وكان لها سبعة أبناء ، ثلاثة منهن يسمون « بالكملة » وهم ربيع وعمارة وأنس . وفى ذات يوم أغار حمل بن بدر الفزارى على بنى عبس وهى القبيلة التى تنمى إليها فاطمة ، ثم أسرها ، ولما أخذ بخطام البعير وابتعد بها عن الحى وأهله صاحت به : « أى رجل ضل حلمك ، والله لئن أخذتنى فصارت هذه الأكمة التى أمامنا بى وبك ـ وراءنا لا يكون بينك وبين بنى زياد [١] صلح أبداً ، لأن الناس يقولون فى هذه الحال ماشاءوا . وحسبك من شر سماعه » قال : « إنى أذهب بك حتى ترعى إبلى » فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير ، فماتت خوف أن يلحق بنيها عار فيها [٢] . ومن بين الأسماء التى غدت مضرب المثل فى الوفاء بين النساء فكيهة وأم جميل . أما عن فكيهة فيروى أن السليك بن السلكة [٣] أغار على بنى عوار (بطن من بطون مالك) فلم يظفر منهم بفائدة ، وأرادوا مساورته فقال شيخ منهم « إذا عدا لم يتعلق به شىء ، فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب ثقل ولم يستطع العدو وظفرتم به » فأمهلوه حتى شرب ثم بادروه . فلما علم أنه مأخوذ جاملهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم وهى فكيهة فاستجار بها فمنعته وجعلته تحت درعها واخترطت السيف وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها فجاءوا ودافعوا [٤] عنها حتى نجا من القتل [٥] ولولا ضيق المقام لكان من أمتع البحوث أن نسرد تفاصيل أوفى عن القصص التى وردت فى ذكر نبيلات النساء فى الجاهلية . ولقد صورت شعورهن المرهف بالشرف والوفاء ، ولكن لعلى أكون قد وفقت فى اختيار أمثلة تصور الشرف العريق والذكاء الحاد والعاطفة العنيفة . وكان الكثيرات منهن ينظمن الشعر الذى ينشدنه فى المآتم ويصغنه قلائد فى رثاء موتاهن ، ومن أسطع البراهين على سمو أخلاق المرأة فى الجاهلية ورفعة نفسها أن ترى أم البطل وأخواته يقضين على أنفسهن بملازمة الحزن عليه والاشادة بحامده .

---

(١) W. Blunt & Lady Anne Blunt : The Seven Golden Odes of Pagan Arabia, P. 14.

(١) هم أخوتها وكان زوجها من بنى زياد (المترجم)

(٢) الاغانى ج ١٦ ص ٢٢ س ١٠ ـ ١١

(٣) وكان أسود البشرة ولذلك يقال : أغربة العرب ثلاثة عنترة وخفاف بن ندبة والسليك بن السلكة (المترجم)

(4) Freytag : Arabum Proverbia, Vol II, P. 134.

الاغانى ج ١٨ ص ١٢٧ س ٥ ـ ١٩

(٥) ذكر الأغانى بعد هذه القصة أبياتا قالها السليك فى مدحها ، لا نرى بأسا من إيرادها اتماما للفائدة الأدبية :

لعمر أبيك والانباء تنمى لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الفخرات لم تفضح أباها ولم ترفع لاخوتها شنارا
كأن مجامع الأرداف منها نقا درجت عليه الريح هارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

وقد ذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف (طبعة وستفلد) ص ٤٤ (جوتنجن ١٨٥٠ م) أن قاتل السليك : أنس بن مدرك الخثعمي (المترجم)

أما مدح العاشق لمحبوبته فكانت له لهجة أخرى ، وذلك أن القصيدة لا تدع ناحية من نواحي المحاسن الجثمانية إلا وتصفها وصفا شاملا ، وقل أن نجد اهتماما أو تقديراً للجمال الخُلُقي ، ولا يشذ عن هذا سوى مطلع قصيدة للشنفرى ، أما سير شارلز ليبل الذي يهم كل مشتغل بالأدب العربي التعرف إلى رأيه لعطفه على الشعر العربي القديم ودقته في نقل صوره . فيقول عنها « إن هذه القصيدة أمتع صورة ترسم لنا الأنوثة التي خلفتها لنا الوثنية العربية ، وقد رسمتها نفس اليد التي خطت اللامية المنقطعة النظير ، وأدت خلالها المثل الأعلى لقوة الرجولة وصلابة [1] البطولة » .

لقدْ أعجَبتْني لا سَقوطاً قِناعُها
إذا ما مشتْ ولا بِذاتِ تَلَفُّتِ
تبيتُ بُعَيْدَ النوْم تهْدِي غَبوقَها
لِجارتِها إذا الهَدِيَّة قَلَّتِ
يَحُل بِمَنْجَاة مِن اللوْم بَيْتُها
إذا ما بُيُوت بالمَذمَّةِ حَلَّتِ
أمَيْمَة لا يُجْزِى ثَنَاها حَليلها
إذا ذكِرَ النُّسْوان عَفَّتْ وَجَلَّتِ
إذا هُوَ أمسى آبَ قُرَّة عَيْنه
مَآبَ السَّعيد لمْ يَسَلْ أينَ ظلتِ
فدقتْ وَجلَّتْ واسبكرَّتْ وأكملتْ
فَلَوْ جُنَّ إنْسَانٌ من الحُسْنِ جُنَّتِ[2]

وإن مثل هذا الخلق لا يمكن أن ينضج إلا في جو طليق حر بعيد عن التكلف والقيود المعدوم أثرها في الصحراء . وإذا نظرنا إلى هذه الأبيات وما توحيه من المعاني تجد أنها كافية في الرد على أولئك الذين يزعمون أن الاسلام قد رفع منزلة المرأة الاجتماعية ، وإن يكن من بعض الوجوه قد رفع مستواها الأدبي في الحضارة إلى حد عظيم [3] ولكن يوجد بجانب هذا أمر آخر ذلك أنه في بلاد كهذه حيث القوة هي الحق ، وحيث نرى أسلوب الحياة الأولى يجيز للأيد امتلاك ما يريد ، ومن استطاع مقاومته احتفظ بنفسه . في مثل هذه البلاد كان عجيباً ألا يندثر الجنس الضعيف (النساء)

أما عادة الجاهلية في وأد البنات أحياء فترجع - كما يظهر لنا - إلى المجاعات الجمة التي كثيراً ما تمنى بها بلاد العرب نظراً لقلة سقوط الأمطار ، وكذلك إلى محافظة موهومة على الشرف ، وكان الآباء يضنون أن يطعموا أفواهاً ليس لها من قيمة في الحياة كما كانوا يخشون أن يجلبن لهم العار إذا سُبين في حرب ، ومن ثم كانوا يعدون ولادة الأنثى خطباً كما نتبين ذلك مما ورد في القرآن [1] (ويَجعَلون لِلهِ البَنَات سُبْحَانهُ ولهُمْ مَا يشتَهون ، وإذا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالأُنثى ظَلَّ وَجهُهُ مُسْوَدًّا وهوَ كظيم . يتوَارَى منَ القَوْمِ من سُوءِ مَا بُشِّرَ به ، أيُمْسكه عَلى هُونٍ أمْ يَدُسهُ في التراب ، ألا سَاء مَا يَحكمون)

ويقال في أمثالهم [2] « تقديم الحرم من النعم » وقولهم « دفن البنات من المكرمات [3] » .

(يتبع) حسن حبشي

(١) سورة النحل ١٦ : ٥٧ ـ ٥٩

(2) Freytag : Arabum Proverbia, Vol I, P. 228.

(٣) شرحه ص ٢٢٩ ج ١

(1) Ancient Arabian Poetry, P. 81

(٢) المفضليات (طبعة ثوربك) ج ١ ص ٣٢

(3) Goldziher : Huh. Studien, Part a, P. 295 399

ذكرى حافظ ابراهيم

للعالم الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

أفى كل حين وقفة إثر ذاهبِ ... وصوغ دم أقضى به حقَّ صاحبِ
أودِّع صحبى واحداً بعد واحد ... فأفقد قلبى جانباً بعد جانب
تَساقطَ نفسى كلَّ يوم فبعضُها ... بجوف الثرى والبعض رهنُ النوائب
فيادهر دع لى من فؤادى بقية ... لوصل ودود أو تذ كرِّ غائب
ودع لى من ماء الجفون صُبابة ... أجيب بها فى البين صيحة ناعب
وهل صيغ قلبى أو ذخرتُ مدامعى ... لغير وفاء أو قضاء لواجب
فقارب أخاك الدهر والعيش مسعف ... فسوف ترَى بالموت غير مقارب
حياة الفتى بعد الأخلاء زفرة ... تَرَدَّدُ ما بين الحشا والترائب
رعى الله فتياناً وفوا حقَّ شاعر ... وفىٍّ على مَض الخطوب الحوازب
وفىِّ لمصر لم يدنس قريضه ... بحمد خؤون أو باطراء كاذب
وفىِّ وفاء الرسل بين معاشر ... نصيب الحمى منهم وفاء الثعالب
يدورون بالأمداح يبغون مأرباً ... فياضيعة الأوطان بين المآرب
فبينا ترى حمداً ترى الذم بعده ... يريك فصول العام شعرَ الأكاذب
فدع عنك شعرَ الحمد والذم إننى ... نصحت بما قد أقنعتنى تجاربى
وكن أمة لم تُعنَ إلا بأمَّة ... فنفسك لم تخلق لسخر الألاعب
متى تخلص الأقلام للنيل وحدَه ... فمن شاعر عالى الشعور وكاتب
إذا الشعب بالنواب عز مكانُه ... فشعرك إن تنصفه أبلغ نائب
وهل نائب زكيتموه كنائب ... يزكيه صوت الله أعدل ناخب
وشتَّان بين اثنين نائب أمة ... ونائب إنسانية فى المصاعب
فهذا إلى وقت من الدهر ينقضى ... وذاك عن الأجيال آت وذاهب
لقد فقدت مصر بفقدان حافظ ... لسانا كوقع المرهفات القواضب
فسل عنه فى الموتى (كرومر) إنه ... سقاه بكأس الشعر سمّ العقارب
ألم يرمه فى دنشواى بضربة ... سرى وقعها فى شرقها والمغارب
أطار صواب اللورد صاعق هولها ... فولى على أعقابه غير آئب
وشد على قصر الدبارة شدة ... تبين منها اللورد سوء العواقب
تداعت بها أركانه وتجاوبت ... مقاصيره تبكى بكاء النوادب
وكاد يقول القصر للورد: أخلِنى ... فلو دام هذا القذف لاندك جانبى
ظلمتَ فما ذنبى تعرَّض ساحتى ... عناد الليث مرهف الناب غاضب
فلو كان لى فى ساكنى متخيَّرٌ ... لأغلقت بابى دون إيواء غاصبى
وسل بعده غورست ما فعلت به ... بَوَاتِرُ أمضى من نصال المضارب
بَوَاتِر صاغتها قريحة شاعر ... من اللفظ لم تحفَل بحشد الكتائب
تمزق من أعراضهم لا جسومهم ... فما القتل ان تغنَى بحشو الجلابب
وما قتل الاحرارَ كالهجو إنهم ... يرون أليم الطعن طعن المناقب
ولم أر سيفا كاللسان قرابه ... فم وشباه من قواف صوائب
يُرى شِعرُه بين الصفوف محاربا ... وصاحبه فى الناس غير محارب
وسل مجلس الشورى تجبك من البلى ... مواقف صرعى الجاه صرعى المناصب
رآهم لأغراض العميد مطية ... وأن لحى الأشياخ لعبة لاعب
فأوتر قوس النقد غير مصانع ... وسوّد مبيّض اللحى غير هائب

***

فذاك جلال الشعر لا شعر عصبة ... يطالعنا تجديدهم بالحواصب
همُ جدَرِى الشعر آذوا جماله ... بما ألصقوا فى حسنه من معايب
عناوين كالألغاز حيرت النهى ... وما تحتها معنى يلذ لطالب
دواوين حسن الطبع موّه قبحها ... وهل يخدع النقاد نقش الخرائب
فياضيعة الأوراق فى غير طائل ... ويا طول ما تشكو رفوف المكاتب
وكم دافعوا عن مذهب العجز جهدهم ... فما غسلوا أسواء تلك المذاهب
وكم ملأوا بالزهر والنهر شعرهم ... بلا طيب مستاف ولا رىَّ شارب
وكم يذكرون الأيك والطير صدَّحا ... عليها فلم نسمع سوى صوت ناعب
وكم لهجوا بالشمس حتى تبرمت ... بهم وتمنت محوها فى الغياهب
وكم أقلقوا بدر الدجى فى سكونه ... وكم أغرقوا سماعهم بالسحائب

وكم هاتف بالخلد منهم وشعره   تُوُفِّيَ سقطا قبل عقد العصائب
وشاك أذاة الحب أطفأ جمره   بشعر كبرد الثلج جم المثالب
فأقسم لو يبغى وصالا بشعره   لجانبه من لم يكن بمجانب
اذا ما احتفى بعض ببعض فإنهم   نواصب علم تحتفى بنواصب
أكل متاع كاسد عند غيركم   يروج لديكم يا بلاد العجائب؟
وكل أخى زيف نفاه سواكمُ   يرى فيه من أخياركم ألف راغب
لقد راج دجل الشعر عند رجالكم
كما راج دجل السحر عند الكواعب
تواصت بغبن شيبكم وشبابكم
وفوضى الهوى ساوت مجدًّا بلاعب
فأحجم عن ميدانها كل سابق   جوادٍ وجلى فيه تهريج صاخب
وأمسى زمام الفكر فى يد عصبة
هم المثل الأعلى لسخف المواهب
علام يجيد الفن فى مصر متقن   اذا كان بالتهريج نيل المراتب؟
فياجهل واصلنا ويا علم فابتعد   ويا حمق لازمنا ويا عقل جانب
أرى الجهل نورا فى بلاد رجالها
خفافيش يعشيها ضياء الكواكب
اذا الشعب بالإهمال أرسب عاليا
فلا بدع لو يعلو به كل راسب

احمد الزين

حافظ

للأستاذ فليكس فارس

لعمرك ما فى الدهر ظلم ولا غدر   ولكن هى الدنيا مراحلها غمر
يرى المرء ما فى يومه وهو لا يرى   غدا، وغد سر سيتبعه سر
مسالكنا فى الأرض خطت سطورها
إذا ما تلونا السطر لاح لنا سطر
ومعنى الذى نتلو كمين بما تلا   فما يدرك المعنى ولو ختم السفر
هنا كلمات إن نهجأ حروفها   ففى العالم المستور آياتها الغر
وإن تهتك الغيب الضمائر ترتضى   بواقعها فالحق يحجبه الستر
وكم نال منا الأمس حتى إذا انقضى   تبين منه الخير وانقشع الشر

• • •

أحافظ، هل تشجيك فى ذلك العلا
هواتف آلام يرددها الذكر
أتشجيك حرب فى الحياة بلوتها   ويوجعك العزم المكابر والقهر
أتأسف للأيام عجلى ثقيلة   والليل عن صبح المكاره يفتر
وللأمل المغرور فى مهيع الصبا   وللحب لا تجنى إذا انتثر الزهر
وللعلم مجهولا وللفضل مغفلا
وللود والاخلاص سادهما الغدر
وللنار تبكى فيك قلبا مولها   بمصر وقد ذلت بأغلالها مصر
أتبكيك هاتيك الدموع ذرفتها   قصائد من سودائها انفلق الفجر

• • •

أحافظ، قل، هل كان دهرك ظالما
وفى ظله المكذوب قد كمن النصر
أما نفثت فى الخلد روحك روحها
فلاح بها مما ادّخرت لها الذخر
وقد ظهرت منك السريرة درة
على شاطىء الأزمان ألقى بها العمر
لحظك فى دنياك أنت أردته   ومن نفذ المقدور نفسك لا الدهر
بنو الشعر رسل فى الحياة سبيلهم   إلى الله آلام يمهدها الصبر

فصحتهم سقم وراحتهم عنا   وعزتهم وهم وإثراؤهم فقر
وسيان فيهم ذو يسار ومعسر   فذا سجنه كوخ وذا سجنه قصر
مشيت وشوقى واحدا صنو واحد
نخلنا كما شفعا وروحكما وتر
وقد كان شوقى حافظا فى شقائه   وحافظ شوقى أمره للعلا أمر
فللمجد والعلياء ماقد نظمتما   وللخلد فى دنيا كما هذه الخر
ترنح منها الثائرون كأنما   ألم بهم من كأس شعركما السكر

* * *

أحافظ كم نادى بما قلت شاعر   ولكن ما أطلقته الصرخة البكر
وماسمعت أقطار يعرب قبلها   هتافا تنادى فى مقاطعه القطر
قصائد من وحي الشعوب أنينها   فناظمها فرد وملهمها كثر
أتيت بها والروع مرخ سدوله   على كل فج ضاق فى رحبه الصدر
تسير به الأقوام حيرى وليس فى   مطالعها بدر ينير ولا زهر
فأوقدت للسارين قلبك مشعلا   تفجر من أشعاعه المجد والكبر
رأى القوم أن النور فى القلب فاهتدوا
إلى قلبهم يجرى بأعشاره الفخر
وهل فى قلوب العرب إلا مشاعل   من القبس الهادى أضاء به الذكر
خبا نورها حينا فضلت عن الهدى
ولولا انطفاء القلب ما أظلم الفكر

* * *

أحافظ . قد أديت فينا رسالة   ختمنا بها عصرا فلاح لنا عصر
وحملك الماضى لجيع احتضاره   فيالك حرا نال من روحه الأسر
تحملت لا يرميك بالعجز فاضل   وناضلت لا يرميك بالسفه الغر
وقد كنت مصريا صميما بلاده   وأوطانه قلب العروبة والنحر
وماعاش قلب دون جسم يضمه   وما عاش جسم قلبه عنه يزور
ألا رحم الله الذى مد كفه   على صفحات البحر فانفلق البحر
وسارت على أمن تصافح يعربا   فصافحها المعمور والمهمه القفر

* * *

أشاعرنا . هذى قوافيك ألهبت   دم الأسد الباكى ففى دمه جمر
وكم من شهيد لو نثرت دماءه   لفاح على الدنيا به ذلك الشعر

* * *

يقولون لولم يحكم الصمت حافظاً   ويطوى على غل قوادمه الصقر
خلق فوق النيرين جناحه
وفاض على الشرقين من روحه السحر
أما والذى أخفى عن النفس كنهها
فأدرج فى أسرارها الجهد والأجر
لكل من الأرواح قسط مقرر   لها وعليها لا كثير ولا نزر
إذا البلبل الصداح أكمل شدوه   وبلغ ما ألقى على روعه النشر
إذا الزهرة الملداء نوّر تاجها
وفاح على الأرجاء من نفحها العطر
فقد جاد كل منهما بحياته
فما تطلب الدنيا وقد نفد العمر

* * *

أحافظ ، أى الشعر أنشدت فى العلا
لسعد فمال الحور وارتعش السدر
تردده السبع الطباق مذيعة   لبشراك أن الشرق فى حقه حر
وما كان قبل العهد فى أرض يعرب
سوى صفحات كل عهد بها حبر
وهل يطلق النسر الأسير جناحه   إذا لم يحرر رأسه ذلك النسر
تنبه هذا الشرق والأفق مظلم
وقد سادت الدنيا المطامع والكفر
فما يؤمن الانسان إلا بنفسه   وقد محيت من لوحه الكلم العشر
جهاداً بنى قومى وسيراً على الهدى   فما بسوى آفاقنا للسرى بدر
وهل للورى نور سوى نور ربهم   وفى آيه الأسعاد والمجد والبشر

* * *

أحافظ ، هذا اليوم يومك إنما   جدير بذكر الحر موطنه الحر
وفى الأمس كان المجد مجدك أن نرى   وجوماً فلا إحياء ذكر ولا قبر
كتمنا القوافى ناحبات ذليلة   إلى أن أطل الفجر وابتسم الثغر
فاطلقت الذكرى لروحك حرة   وقد غار فى النسيان تذكارك المر

* * *

تحييك كف المصطفى فى جهاده
وقد أورقت فى الأفق أعلامه الخضر
يحييك من عرش الكنانة عاهل   تبسم للآفاق فانفلق الفجر

فليكس فارس

الفنون

الفن المصرى

٢ – النحت

للدكتور احمد موسى

يكاد لا يختلف اثنان فى تقدير الفن المصرى القديم وخلود عظمته . بل والتأكيد بأنه أصل الفنون جميعاً ؛ ذلك الذى حدا بكثير من علماء الفن والآثار إلى الاشتغال بتحديد الصلة بين الفن المصرى وبين ما جاء بعده من فنون الاغريق وغيرهم ، والقول أن الاغريق أول من اقتبس عن المصريين ، ويدللون على ذلك بمقارنات قياسية بين تصميم المعابد المصرية ، ونظيرها عند الاغريق كما يقارنون بين منحوتات المصريين وبين منحوتاتهم فى أول عهدهم ، ويحاولون إيجاد الشبه والمخالفة بين الاثنين ، ثم تراهم يعرجون بعدئذ على قواعد غاية فى الدقة تؤكد صدق قولهم . منها تناسب الأعضاء ، وتشابه المجموع الكلى وتناظر الانشاء الشكلى

كل هذا قد يكون صحيحاً إلى حد كبير ، ولكن أهم ما يجب علينا أن نعرفه ، هو أن الفن المصرى بدأ ونما وازدهر ، ثم انحط وانتهى دون أن يصل فى مرحلة من مراحله إلى المثل الأعلى بمعناه الفنى ، لأنه لم يمثل الحقيقة تمثيلا يدل على سمو الخيال وروعة التصور وكان هذا ولا يزال معدودا من القصور الحتمى الذى لم يمكن للتخلص منه بد ، لأنه نجم عن طبيعة أرض مصر ، ونفسية أهلها ، وصفاء سماء بلادهم ، وسهولة العيش دون الكفاح الكثير . وبالرغم من أن مرحلة الحضارة المصرية استغرقت حوالى ثمانية أضعاف الوقت الذى استغرقته حضارة الاغريق ، فانه للأسباب الطبيعية المذكورة لم يصل الفن المصرى إلى ما وصل إليه الاغريق .

وإذا كنا لا نزال نذكر ماقلته عن بعض منحوتات اكروبوليس أثينا ومعبد بارتنون ، وما يحتويه من تلك القطع الرائعة التى مثلت الحياة خير تمثيل ، وفى قوة وصلت إلى أقصى ما يمكن أن يصل اليه الفن اطلاقا ، أمكننا أن نعرف بالمقارنة مدى ما وصل اليه المصريون



(ش ١) تمثال الكاتب

فى هذا النوع من الفن ، معرفة أقرب إلى الحقيقة العلمية منها إلى حشو القول !

لون المصريون كل ما تركوه بمقابرهم وأهرامهم ومعابدهم بألوان صناعية اتخذوا بعضها من الأرض ، هذا عند ما كانت من الحجر الجيرى أو الرملى ، أما فى الحالات الأخرى حيث كانت من حجر الجرانيت الوردى أو الأسمر . أو حجر البازلت أو الديوريت أو السربنتين ، فانها تركت بدون تلوين اكتفاء بلونها الطبيعى . على أنه من المناسب أن أذكر شيئا عن الألوان الصناعية وكيفية عملها ، فاللون الأبيض كان من الجبس المخلوط ببياض البيض أو العسل ، والأصفر من الصنوبر أو الطفل ، والأزرق من مسحوق حجر الزبرجد أو من سلفات النحاس ، أما الأسود فكان من مسحوق العظام المحروقة

وإذا وجدت تماثيل خشبية أو حجرية من التى تقبل امتصاص الألوان وكانت غير ملونة ؛ فان هذا راجع فى الغالب إلى زوال الألوان بمرور القرون . أو لأنها تركت قبل إتمامها لطارىء لم يكن فى الحسبان .



(ش ٢) شيخ البلد (الأسرة الرابعة)

من هذا ترى أن الصلة بين النحات أو المثال وبين المصور أو المنمق كانت قوية وضرورية لإكمال الانتاج الفني ، وكان هذا من أهم العوامل التي مهدت السبيل إلى وجود شبه عظيم في تكوين كل من التماثيل والمصورات ، بل إنك لترى ما هو أكثر من ذلك ، إذا قارنت التماثيل بالمصورات من حيث الفكرة والانشاء ، فتقف حينئذ على مدى ارتباط كليهما بالآخر من حيث الناحية الفنية ، والمنهجية ، نعم كانت المنحوتات والتماثيل مجسمة ، على حين كانت المصورات نصف بارزة أو محفورة أو مسطحة ، فكان هذا دافعا إلى تصويرها من الجانب ، ولعله من الضروري أن أشير هنا إلى حالة شملها النحت النصف البارز والمحفور كما شملها التصوير ، لم تكن تعرف ولم تشاهد إلا في الفن المصري وحده . هذه الحالة التي تعد طابعا مميزاً « Caracteristic » تتلخص في أن المصور جعل تصويره للانسان كما لو كان ناظراً إليه من الجانب لمجموع الرأس والساقين والقدمين ، وكما لو كان مشاهداً إياه من الامام للعينين والصدر واليدين ، فهذا رغما عن أنه خطأ ، إلا أنه استمر طوال أيام الفن المصري كله منذ بدئه حتى نموه وازدهاره الذي أعقبه الانحطاط والانحلال ، إلا في بعض الأحيان التي لا يمكن اعتبارها قاعدة للفن من ناحيته العامة ، ولم يعرف للآن شيء عن الدافع لهذا اللهم إلا إذا كانت العينان والصدر واليدان أهم ما في جسم الانسان من أعضاء في اعتبار المصريين إجمالا أو في نظر الفنانين على وجه الخصوص .

أما تاريخ النحت الكامل والنصف بارز « Relief » فهو وصف شامل لمراحلهما منذ عصر المملكة القديمة ، خصوصا في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة إلى آخر أيام النهضة المصرية ، ولما كان المجال لا يسمح بدرس هذا التاريخ تفصيلا ، فاننا هنا نعالج تطور هذين الفنين المرتبطين معالجة أقرب إلى الاجمال منها إلى التفصيل ، متخذين من بعض التماثيل نماذج كافية بعض الشيء للتطور والتقدم .

كانت عناية المثال والنحات في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة (٢٧٢٠ - ٢٥٦٠ ، ٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق . م .) منصرفة إلى الاهتمام باخراج ملامح الوجه دقيقة التفاصيل صادقة التناسب ، أما بقية الجسم فكانت في المرتبة الثانية من حيث الدقة وصدق المحاكاة ، بل إن هذه البقية كانت أحيانا رمزية أكثر منها حقيقية .

وأهم تماثيل هذه المرحلة ـ التي تعد من أهم مراحل النحت المصري مما يناسب المقام هنا ، تمثال الكاتب المحفوظ بمتحف اللوفر وبمتحف القاهرة أيضاً .

والمشاهد للثاني منهما ، يراه جالسا على الأرض جلسة أقرب إلى تلك التي يجلسها الشيوخ القارئون اليوم (ش ١) ، واضعا قرطاسا على فخذيه ، ممسكا القلم بيمينه (المفروض هو أن يكون التمثال هكذا) شاخص العينين ، تدل ملامح وجهه على سحنة مصرية

وتمثال شيخ البلد تجده واقفا في شيء من اليقظة وضخامة الجسم



(ش ٣) الأمير راحوتب والأميرة نوفرت (الأسرة الرابعة)

التي يجب أن تتوفر فيمن يقوم بالشياخة ، كما ترى بالجزء الظاهر من هذا التمثال الخشبي (ش ٢) تناسب أعضاء الوجه وحسن اخراجها إلى حد بعيد ، أما ملامح الخلقة فتعطيك فكرة صادقة لمهمة هذا الرجل ، فهو بها أقرب إلى الآمر منه إلى المأمور . وتمثاله الكامل (بمتحف القاهرة) واقف وبيسراه عصا طويلة وصل ارتفاعها إلى الكتف ، متناسبة من حيث غلاظتها مع طولها والطول الكلي للتمثال

والصورة الثالثة تبين تمثالين ، الأيمن منها للأميرة نوفرت ، والأيسر للأمير راحوتب (بالمتحف المصري) من أمراء الأسرة الرابعة أيضا . جلسا جلسة متناظرة تكاد تكون متشابهة على مقعدين متساويي الارتفاع ، وترى على كلا المسندين إلى يمين ويسار رأس كل من الأمير والأميرة كتابة هيروغليفية دلت على شخصيتهما

أنظر إلى الأميرة . وتأمل إلى أي حد بلغت قدرة الفنان المصري في ذلك الحين ، فاستطاع أن يصور لك الاحتشام والجمال بكل معانيهما . ولاحظ اختفاء الذراع اليسرى واليمنى. إلا اليد فهي مبسوطة أسفل الثدي : ولم يخرج بروز الثديين عن حدود أصول الجمال والذوق والتناسب مع الشكل العام . تجلس الأميرة شاخصة إلى المثال وقد تحلى عنقها وأعلى صدرها وحول الرأس بجواهر سبق المصريون فيها



(ش ٤) أحد رجال الدولة (الأسرة ١٢)



(ش ٥) تمثال امنحوتب بن حابو

كل من عاصرهم أو جاء بعدهم . وعناية الأميرة بشعرها كما يتضح من مظهره ، كانت بلا شك فائقة . فتراه قد استرسل على الأذنين وغطى جزءاً من الجبين ، أحاطته من أعلى الرأس بطوق بديع الصنع ساعد على حفظ تصفيف الشعر كما زاد في تجميل الرأس دون ازدحام . والوجه جميعه دقيق الاخراج ، جميل الوضع ، رائع التناسب . أما جلستها مع ضم الساقين بعضهما إلى بعض فهي وإن كانت من القيود التي أبعدت الحياة عن مجموع التمثال ، إلا أنها تدل إلى حد كبير على نبل الجالسة وسمو شخصيتها .

وجلس الأمير راحوتب في وضع متشابه مع الأميرة ، ترى لأول وهلة أنه خالفها لوناً ومظهراً . فهو لم يغط من جسمه إلا الجزء الأوسط فضلا عن لونه الأسمر على نقيض الأميرة . ارتفعت الذراع اليمنى عن الصدر قليلا واليد مقبوضة الأصابع . كما تمتد الذراع اليسرى حتى تتمكن اليد من الاستناد على الركبة وهي مقبوضة الأصابع بشكل يتناسب وتوفر الارادة في صاحبها . والتمثال في مجموعه يعطيك فكرة واضحة لحسن انتباه الفنان حيث ترى البساطة في الملامح والمجموع الكلي .

وإذا انتقلنا إلى الأسرة الثانية عشرة فجأة ، فذلك لإمكان ادراك الفوارق بوضوح ، فالتمثال (ش ٤) يمثل أحد رجال الدولة جالساً بلباس ربما كان مخصصاً لأمثاله في ذلك الحين ، وبالنظر اليه اجمالا

نجد الجسم مغطى من أعلى القدمين إلى أسفل الثديين، كما نرى الرجل قد ترك الشعر مسدلا على الكتفين وقد اكتسب الوجه، علاوة على دقة تفاصيله شيئاً من الحياة، لاحظ تلك الابتسامة الضئيلة التي ارتسمت على محياه ثم تأمل في الانشاء الجموعي ولاحظ مع هذا أن التمثال مصنوع من الجرانيت. أما طريقة وضع متجاورين، واليدين أعلى الفخذين: فهذه هي نفسها الحالة التي شاهدناها بالتماثيل السابقة مع الفارق الزمني الفسيح.

ولعل تمثال أمينحوتب (ش ٥) أشبه بتمثال الكاتب (ش ١) من حيث الجلسة، أما اهتمام الفنان بتقليد طبيعة الجسم البشري من حيث الاجتهاد في إظهار الثنايا أسفل الثديين وأعلى البطن فهو جدير بالنظر. تامل ما طرأ على مظهر الرأس وملامح الوجه من علائم التفكير، والكيفية التي استطاع الفنان بها اظهار العينين والحاجبين. ثم الشعر وما فيه من تجاعيد زادت في حسنه، كل هذا دليل التطور والتقدم.

وكانت الأسرة الثامنة عشرة غنية بتماثيلها (١٥٥٥ - ١٣٥٠ ق. م.) وبالنظر إلى احداها (ش ٦) ترى أن الشكل العام للتمثال أصدق محاكاة، وأجمل تناسباً في الأعضاء مما سبق مشاهدته، والشيء الجديد الذي نلاحظه هنا هو تحلية الرأس بالأفعى المقدسة، فضلا عن ظهور الجسم على جانب كبير من جمال التكوين، وربما كانت الأذنان من أحسن الأجزاء التي يمكن مقارنتها مع ما شاهدناه في تمثالي أحد رجال الدولة (ش ٤) وشيخ البلد (ش ٢) إذ تتضح بذلك العناية بمختلف أجزاء الجسم مما يدل على إدراك أصول الجمال العام كنتيجة للتقدم العظيم في عهد المملكة الحديثة.



(ش ٦) تحوتمس الثالث (الأسرة ١٨)

وفي تمثال رمسيس الثاني (ش ٧) مع ضآلة ما هو ظاهر منه ترى تفاصيل الوجه من جانبه دقيقة كما يبدو الجسم متناسب الأعضاء أما القدرة التي تجلت في تكوين القدمين والأصابع فهي جديرة بالاعتبار حقا.



(ش ٧) رمسيس الثاني (الأسرة ١٩)

والزائر لمتحف القاهرة يستطيع بزيارة الصالات التي روعي في ترتيب محتوياتها التدرج التاريخي، أن يأخذ فكرة شاملة لفن رائع جمع إلى القدم، جمالا خاصا ميزه على سائر منحوتات غيره من الشعوب

(لها بقية) احمد موسى

البريد الأدبي

مؤتمر دولى للآثار

يعقد الآن بمدينة القاهرة بدار الجمعية الملكية الجغرافية مؤتمر دولى للآثار والمتاحف. وقد افتتحه وزير المعارف المصرية بخطاب نوه فيه بما لمصر من مركز خاص فى عالم الحفريات الأثرية، وبما بذله العلماء الأجانب لاستكشاف كنوزها الأثرية، وبما تبذله مصر لصون تراثها الأثرى؛ وتمنى فى خطابه أن تعمل الحكومات المختلفة على حظر إخراج الآثار القومية من وطنها، وأن تحل هذه المسألة الشائكة بما يرضى الفن والأمانى القومية

ويعقد مؤتمر الآثار والمتاحف الآن دورته الرابعة؛ وقد عقد من قبل ثلاث دورات: الأولى فى رومة، والثانية فى أثينا، والثالثة فى مدريد؛ وهو يعنى بالبحث فى كل ما يتعلق بالآثار والحفريات الأثرية وصيانة الآثار، والمتاحف وتنظيمها؛ وقد شهد الدورة الحاضرة زهاء خمسين مندوبا يمثلون عدة من الأمم الغنية بكنوزها الأثرية مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانكلترا وأمريكا وتركيا والعراق ومصر وغيرها

ولعقد هذا المؤتمر الأثرى بالقاهرة أهمية خاصة، لأن مصر تشكو منذ حين تبدد تراثها الأثرى على يد بعض العلماء الذين لا يراعون حرمة العلم، وبعض التجار ومهربى الآثار الذين يعملون بلا انقطاع على اختلاس كنوزها الأثرية وتفريقها فى مختلف الأقطار؛ والذين زاروا المتاحف الأورية من المصريين يعرفون كم تضم الأقسام المصرية فى المتاحف الأجنبية من آثارنا المفقودة، وكم تضم منها المتاحف والمجموعات الخاصة فى مختلف أنحاء العالم. وقد شعرت مصر أخيراً بوجوب التحوط لهذا الاعتداء المتكرر على تراثها الفنى؛ وربما كان فى مجاهرتها بالشكوى أمام هذا الحفل الكبير من علماء الآثار وممثلى الدول أثره فى تحقيق أمنيتها وتقريب وسائل العمل على صون تراثها الأثرى

مجمع اللغة العربية الملكى

اختتم مجمع اللغة العربية الملكى دورته الرابعة فى الاسبوع الماضى، وانفرط عقد أعضائه الشرقيين والغربيين، وقفل عدة منهم راجعين إلى بلادهم، وقد امتازت هذه الدورة من المجمع بظاهرتين: الأولى ظاهرة القلق والتكهن حول مستقبله ونظامه الجديد الذى تعنى وزارة المعارف بوضعه منذ حين؛ والثانية ظاهرة النشاط ولاسيما فى ميدان استنباط المصطلحات والألفاظ الجديدة. وقد أثار المجمع ونظامه فى هذه الدورة كثيرا من الجدل، ووجهت اليه وإلى جهوده حملات كثيرة، واضطر المجمع نفسه أن يخوض معركة الجدل للذود عن كيانه وعن جهوده؛ والواقع أن المجمع قد بدأ فى هذه الدورة لأول مرة يدرك خطورة مهمته، ويشعر بسهام النقد التى توجه اليه، ومعاول الهدم التى تشهر عليه؛ بيد أن من الانصاف أن نقول إن المجمع قد أبدى فى هذه الدورة نشاطاً يحمد، وإنه اذا كان فى تكوينه الحاضر بعض الشذوذ والاضطراب، فليس الذنب فى ذلك عليه، وإنما على الذين تأثروا فى تأليفه على هذا النحو باعتبارات لا علاقة لها بمهمته الأصلية. ورجاؤنا أن يوفق ولاة الأمر إلى إصلاح المجمع وتنظيمه بصورة جديدة تبدو فيها مصريته قوية واضحة، وتمثل فيه الكفايات المصرية التى أهملتها البواعث والأهواء الشخصية، وتحدد مهماته اللغوية والعلمية والأدبية تحديدا واضحا بحيث يغدو بهذا الاصلاح من القوة والهيبة الادبية فى مصاف المجامع اللغوية العريقة

احياء ذكرى حافظ ابراهيم

كان يوما السبت والأحد ٦ و٧ مارس الحالى موعداً للاحتفال باحياء ذكرى حافظ ابراهيم، ففى مساء يوم السبت قصد إلى دار الأوبرا جمهور يبلغ الألفين، وحضر الحفلة صاحب العزة محمد حسين بك مندوب حلالة الملك ومجلس الوصاية، كما حضرها بعض الكبراء.

وافتتحت الحفلة بالقرآن الكريم، ثم ألقى صاحب المعالى على زكى العرابى باشا وزير المعارف كلمة الافتتاح، وتلاه الخطباء والشعراء طبقاً للبرنامج الذى نشرناه فى العدد الماضى، وكذلك كان فى اليوم الثانى

وقد كانت الحفلتان مظهراً رائعاً للوفاء لحافظ، غير أننا نلاحظ أن كثيراً مما قيل فيها لم يكن معداً لهذه المناسبة، بل كان عهده قبل ذلك، كذلك التضييق فى الوقت على الخطباء والشعراء كاد يؤدى إلى

الاخلال بالغرض منه ، فان عدم إتمام الخطب والقصائد انصياعا لقانون الاذاعة لم يساعد على إيضاح النواحى المختلفة للشاعر المحتفل باحياء ذكراه - التى يتناولها الخطباء والشعراء ، وقد كان أحرى بلجنة الاحتفال أن تختزل الخطباء والشعراء ، وأن تقدر لكل خطيب وكل شاعر من الوقت ما يتسع لالقاء كلمته

ولعل لنا عودة إلى الكتابة عن الحفلة وما قيل فيها وتناوله بما يعن لنا من النقد

أسبوع الجاحظ فى الجامعة المصرية

ستحتفل كلية الآداب بالجامعة المصرية باقامة أسبوع للجاحظ بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاته ابتداء من يوم ٢٥ مارس . وهذه هى موضوعات المحاضرات وأسماء المحاضرين موزعة على أيام الأسبوع:

كلمة الافتتاح :		اليوم الأول
حياة الجاحظ :	للأستاذ عبد الوهاب عزام	
ثقافة الجاحظ :	« أحمد أمين	
منهج تفكير الجاحظ :	« أمين الخولى	اليوم الثانى
أسلوب الجاحظ :	« عبد الوهاب حمودة	
الجاحظ بين النقد والبلاغة :	« شوقى ضيف	اليوم الثالث
الجاحظ المعتزلى :	« عبد اللطيف حمزة	
كتاب الحيوان :	« كراوس	اليوم الرابع
البيان والتبيين :	« السقا	
دعابة الجاحظ :	« ابراهيم مصطفى	اليوم الخامس
مآخذ الجاحظ :	« أحمد الشايب	
فكاهة الجاحظ :	الدكتور طه حسين بك	اليوم السادس

مستقبل الكتاب

هذا موضوع يثير اليوم كثيراً من الجدل . ويتساءل أقطاب التفكير الرفيع اليوم هل سيقضى على الكتاب فى المستقبل القريب ؟ لقد تناقص قراء الكتب القيمة إلى درجة تثير الجزع فى جميع الدوائر الأدبية ، والاجماع على أن ذلك يرجع بنوع خاص إلى تأثير السينما والراديو ، والمجلات المصورة ، والمجلات الاسبوعية ، وذيوع الأدب الغث من القصص البوليسية وغيرها ذيوعا هائلا ؛ بيد أنا قرأنا أخيراً فصلا لكاتب فرنسى كبير يذهب فيه فى تعليل هذه الأزمة الأدبية مذهباً آخر ؛ فهو يسلم بما للسينما والراديو من أثر فى إحداثها ، ولكنه يقول إن هناك سببا آخر أشد أثرا ، وهو أن أقطاب الكتابة فى عصرنا لم يفلحوا فى الوصول إلى العاطفة الشعبية ، ففى القرن الماضى مثلا كان كتاب مثل بلزاك وفكتور هوجو وأميل زولا وفرانسوا كوبيه ، وغيرهم يصلون بسرعة إلى أعماق قلوب الشعب ، ولكن هذه الطبقات الشعبية تكتفى اليوم بقراءة الرواية البوليسية أو مشاهدة السينما ؛ وكيف لا يكون ذلك وأكابر كتاب العصر ، مثل جيد وبروست وفاليرى وغيرهم يقصدون بما يكتبون طبقة أو طبقات معينة من الخاصة ؟ فالشعب يقرأ فى الواقع ما يكتب له ، فاذا نأى عنه عظماء المفكرين فهو بدوره ينأى عنهم

وهكذا يغدو الميدان حرا لرواج الأدب الغث الرخيص ، ويفقد الجمهور شيئا فشيئا الرغبة فى تذوق الأدب القيم ، ولا يطلب إلا نوعا للتسلية وتمضية أوقات الفراغ فى المكتب أو المصنع أو قبيل النوم ، ويقضى على كل مجهود يبذل لترويج الكتاب القيم بالفشل لأنه لايلائم ذوق الجمهور ولا يرضى عواطفه

ونحن نوافق الكاتب فى أهمية هذا التعليل النفسى الذى يقدمه شرحا لأزمة الكتاب ؛ بيد أننا لانعتقد أنه تعليل حاسم ، وهناك بلا ريب عوامل كثيرة أخرى لها قيمتها ؛ ومن المحقق أن الكتاب فقد كثيرا من نفوذه وسحره القديم بفعل التطورات الفكرية والاجتماعية المعاصرة

الأستاذ لامبير

وفد على مصر فى الأسبوع الماضى العلامة المشترع الفرنسى الكبير المسيو ادوار لامبير عميد معهد القانون المقارن بجامعة ليون ، بدعوة من كلية الحقوق المصرية ليلقى سلسلة من المحاضرات القانونية ، وقد بدأ الأستاذ فألقى بالفعل محاضراته الاولى . وللأستاذ لامبير روابط علمية قديمة بمصر ، فقد كان ناظرا لمدرسة الحقوق الخديوية سنة ١٩٠٦ ؛ ومع أنه لم يقم بمصر أكثر من عام ، فانه ترك بها أحسن الأثر ، ولما عاد إلى جامعة ليون ، التف حوله هنالك فى كلية الحقوق جمهرة من الطلبة المصريين الذين تلقوا دراستهم القانونية تحت إشرافه ؛ وهم اليوم جمع حافل ، منهم بعض أكابر فقهائنا ، ومنهم كثير ممن يشغلون أسمى المناصب . واستمرت العلائق العلمية والودية بين الأستاذ لامبير وبين تلاميذه المصريين من ذلك الحين إلى يومنا ؛ وهو يزور مصر الآن بعد ثلاثين عاما ، وهو فى ذروة نضجه العلمى ؛ وقد استقبل الأستاذ من جميع تلاميذه القدماء بالتجلة والتكريم ؛ وسيواظب على إلقاء محاضراته فى « القانون المقارن » وكل ما يمت إليه من المسائل الفقهية والاجتماعية

مسرحية جديدة لشيلر

المعروف أن الشاعر الألمانى الكبير شيلر قد ترك حين وفاته مسرحية لم تكمل ، عنوانها « ديمتريوس » ؛ وقد لبثت هذه القطعة على

نقصها منذ وفاة الشاعر إلى يومنا . وأخيرا عنى الدكتور فلهلم هينتز بإتمامها تمشياً مع فكرة الساعة التى ظهرت من جزئها المكتوب. وقد مثلت فعلا لأول مرة بمسرح ماينتجن ، والمنظور أنها تمثل بعد ذلك فى جميع مسارح ألمانيا ، ثم تنقل إلى مختلف اللغات وتمثل فى فى جميع المسارح الأخرى .

المتاحف المتنقلة

وضعت إدارة متحف السويد القومى مشروعا جديدا للثقافة الفنية القومية خلاصته أن تنظم عرض بعض الآثار والتحف الهامة بصورة دورية وأن تتخذ لعرضها عربة من عربات السكك الحديدية ، تصنع بشكل بهو فنى ، ويمكن تسييرها إلى مختلف المدن ؛ وتقوم إدارة السكك الحديدية الآن بصنع هذه العربة الجديدة التى سيطلق عليها « عربة الفن » ، وستغطى نوافذ هذه العربة بألواح ضوئية لكى تعكس أكبر مقدار من الضوء على الداخل ؛ وتضاء بعد الغروب بجهاز كهربائى قوى ؛ وستجهز العربة أيضاً بجناح خاص لالقاء المحاضرات الفنية على الزائرين ؛ وسيطوف هذا المتحف المتنقل بالمدن والقرى الواقعة على السكك الحديدية والقريبة منها ، ويمكث أياماً فى كل منها ؛ وتعضد الحكومة هذا المشروع وترى فيه وسيلة حسنة لتعريف الطبقات التى لاتسمح لها ظروفها بزيارة العاصمة بالكنوز القومية الفنية ؛ وترقية ثقافتها الفنية

لوتسى كارولين رايتر احدى الفنانات البارزات

من الظواهر الفذة فى العصر الحاضر اشتغال كثير من السيدات بالفن وبروز بعضهن فيه ـ والسيدة لوتسى رايتر إحدى هؤلاء البارزات جاءت إلى مصر لأول مرة سنة ١٩٢٩ وظلت دائبة المشاهدة والبحث وراء المناظر الشرقية الرائعة مسجلة إياها على لوحاتها آنا بالزيت وحيناً بالباستيل ومرة بالطبع من لوحات اللينو ليوم التى حفرتها بنفسها بمختلف الألوان .

ولعل من الغريب أن تكون السيدة رايتر من فنانات الوقت الحالى ، ومع هذا لا تتجه بروحها إلى الفن الحديث الذى يعنى بالموضوعات من حيث معناها قبل العناية بتصويرها دقيقة التفاصيل ، لأنك تراها محافظة على تعاليم المدرسة النموذجية (كلاسيك) فى معظم لوحاتها :

زرت معرضها بصالة نيستري ، وشاهدت بعض لوحاتها التى دلت على ما لهذه السيدة من مقدرة فائقة فى صدق المحاكاة وحسن الاختيار . وجمال الاخراج وانسجام الألوان .

فأنت تنتقل من منظر لقهوة بلدية إلى منظر يمثل لك جامع الأزهر فى الغروب فتقف أمامه مأخوذاً بقوة ألوانه وانسجام تفاصيله وحسن بيانه ، ثم إلى لوحة بشارع الحمزاوى وإلى أخرى بباب المتولى فترى أنك أمام مجهود رائع جدير بالتسجيل والاعجاب

أما لوحاتها للمناظر الشخصية Portrait فكانت مع قلتها نسبياً دليل المقدرة والتفوق ، ولا نزال نذكر صورتها الرائعتين للسيدة مدام الدكتور م ومدام ب .

فبالأولى رأينا كيف استطاعت الفنانة أن تجمع فى صورة هذه السيدة بين الرقة والجمال وبين حسن التكوين الانشائى واختيار الألوان . أما القوة التى انبعثت من عينى السيدة المذكورة فانها حقيقة جديرة بالاعجاب فى أدق معانيه ، كما لاحظنا فى الصورة الأخرى رقة وعذوبة لا يسهل اخراجها بهذه العناية إلا لمن تمكن من الفن .

ولما كانت هذه السيدة النمسوية الأصل ستعرض لوحاتها فى معرض الفن الحديث الذى سيفتتح قريبا ، فإنا نرجو أن يقبل القراء على مشاهدة هذه المجموعة الرائعة إلى جانب ما سيعرض به من أعمال الفنانين الآخرين ؟

الدكتور أحمد موسى

مجمع علمى فى ألمانيا يجمع نوادر المخطوطات عن علوم القرآن

يقوم المجمع العلمى فى بافاريا منذ سنوات عديدة بجمع الكتب والنوادر المخطوطة باللغة العربية والمؤلفات الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه والقراءات وتاريخ القرآن . وقد اقتنى من ذلك مجموعات كبيرة بعضها امتلك أصوله الخطية وبعضها استنسخ منه لوحات فوتوغرافية كاملة . وأسس بهذه المجموعات كلها متحفاً خاصا كبير القيمة . وشرع بعد ذلك يطبع على نفقته بعض الكتب ذوات القيمة منها

وقد فكر المجمع بعد ذلك فى أن تقوم جهة من الجهات التى يعنيها أمر هذه العلوم بطبع ما بقى من هذه الكتب وهو كثير . ورأى أن أولى الجهات بتقدير مثل هذه المجموعة هى الأزهر الشريف والحكومة المصرية . فأوفد أحد أعضائه وهو الدكتور برتزل إلى مصر للتفاهم فى هذا الأمر . .

وقد قدم الأستاذ برتزل إلى رياسة الأزهر مذكرة تفصيلية بما قام به المجمع العلمى فى بافاريا فى هذا الشأن والقيمة العلمية والأدبية والتاريخية التى تقدر بها مجموعات الكتب التى حصل عليها أو على لوحاتها الفوتوغرافية منها . وشرح لرياسة الأزهر فكرة المجمع فى طبعها تحت إشراف الأزهر وعلى نفقته . وما يكون لذلك من الأثر فى نشرها وتقديرها وإخراجها فى عناية وضبط وإتقان . وشفع

مذكرته بقائمة بأسماء الكتب التى حصل عليها المجمع والكتب التى قام بطبعها فى ألمانيا .

وقد أحالت مشيخة الأزهر هذه المقترحات والمذكرة الملحقة بها إلى الأستاذ محمد فريد وجدى مدير مجلة الأزهر لدرسها وإبداء الرأى فيها وانتهى الأستاذ وجدى من درسها وأبدى رأيه إلى رياسة الازهر

وقد قابل الدكتور برتزل أمس صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر فى مكتبه قبل ظهر أمس وتباحثا فى هذا الموضوع

وقد أعرب المجمع عن استعداده أن يقدم إلى مشيخة الأزهر بعض الألواح الفوتوغرافية لهذه الكتب ليمكن رياسته أن تحكم على قيمة هذه المؤلفات وأصحابها قبل إقرار طبعها تحت إشراف الأزهر وتحمله نفقاتها . ولذلك أعرب المجمع عن استعداده لأن يرسل إليه الأزهر أحد رجاله لبحث هذه المخطوطات أو تصويرها فى لوحات خاصة لمشيخة الأزهر لتتمكن بمعرفة الاخصائيين من رجالها من تقرير المجموعة التى يريد المجمع طبعها والتنازل فى نظير نشرها عن جميع الحقوق والنفقات التى تكبدها فى سبيل الحصول عليها فى سنين طويلة

الى صاحب رسالة المنبر الأستاذ فليكس فارس

قرأت كتابك (رسالة المنبر إلى الشرق العربى) فما أحسن ما أبدعت وما أبدع ما أحسنت ، لكأن الشرق هو ألقى حكمته فى فك وأرسل كلمته من قلبك ، ثم نصب لك منبره العالى وقال لك – قم فتكلم .

لم أرك انحرفت عن الحقيقة ولا ملت عن وجه الرأى ولا نزعت إلى تقليد ولا جنحت إلى متابعة ولا غرك اسم فيلسوف ولا خدعك اسم كاتب ، بل كنت كالسيف لا يعمل إلا عمل حده القاطع ضاربا فى كل مرة ضربته فى كل مرة

وفى كتابك أنات هى رعد قلبك الحر ، وفى بيانك إشراق هو نور نفسك القوية ، فلا جرم كان ما كتبته من الكلام الروحى البليغ الذى يقرأ بالعين ويسمع فى النفس فى وقت واحد

ولقد أدركت بفطرتك السليمة وروحك الملهمة مافى دين الفطرة من الحكمة الاسلامية البالغة وجئت من ذلك بأشياء كأنها من نبع الوحى ، فكنت بعقلك وذكائك وإحساسك النبيل صورة أخرى لحكيم الألمان وشاعرهم (جيته) حين قال :— إذا كان هذا هو الاسلام فكلنا مسلمون

حياك الله وأدام النفع بك وأمتع بأدبك والسلام ؟

من المخلص

مصطفى صادق الرافعى

مؤتمر اللاسلكى الدولى

فى شهر فبراير سنة ١٩٣٨ يعقد فى القاهرة المؤتمر الدولى اللاسلكى وقد وجهت وزارة الخارجية الدعوات إلى الدول التى تشترك فى أعمال هذا المؤتمر كما وجهتها إلى اللجنة المختصة بجمعية الأمم

وبهذه المناسبة نذكر أن لمصر مطالب هامة ستعرضها على هذا المؤتمر وأهمها أن يكون لها موجة دولية خاصة بها . وقد سبق أن طلبت مصر هذا الطلب فى المؤتمر الذى عقد فى لوسرن ولكنها لم تفز إلا بالموجة الحالية التى تشاركها فيها محطة بروكسل ببلجيكا . وقد عدل هذا الطلب أخيراً وجعل بموجتين بدلا من موجة واحدة

وهاتان الموجتان المطلوبتان من الموجات القصيرة حتى يمكن أن تنقل الإذاعة اللاسلكية المصرية بجلاء إلى كثير من الأقطار التى ترغب فى الاستماع إلى الاذاعات المصرية وفى مقدمتها القرآن الكريم

وإذا رخص لمصر بهاتين الموجتين أمكن عندئذ إنشاء محطتين للاذاعة بطريق هاتين الموجتين قوة كل محطة من ١٥ إلى ٢٠ كيلوات بينما المحطة المصرية الحالية وقوتها ٢٠ كيلوات لا تسمع بجلاء تام فى بعض الأقطار الخارجية

على أن فى النية تقوية المحطة الحالية حتى تبلغ قوتها ١٠٠ كيلوات أى خمسة أضعاف القوة الحالية وستخصص للبرنامج العربى ، أما المحطة أو المحطتان الأخريان المراد إنشاؤهما فسيخصصان للاذاعات الأخرى

البعثات العلمية

أدرج فى الميزانية الجديدة للبعثات العلمية ١٠٠٫٠٠٠ جنيه منها ٢٧٨٠٠ جنيه لبعثة وزارة المعارف و ٣٩٦٠٠ جنيه لبعثة الجامعة المصرية و٤٢٠٠ جنيه لبعثة وزارة الزراعة و ٥٠٠٠ جنيه لبعثة وزارة الصحة و٥٤٠٠ جنيه لبعثة وزارة المالية و ٣٣٠٠ جنيه لبعثة وزارة الأشغال و٣٠٠٠ جنيه لبعثة وزارة المواصلات و ٩٠٠ جنيه لبعثة وزارة التجارة والصناعة و ٤٠٠ جنيه لبعثة وزارة الحقانية و ٧٣٠٠ جنيه للامتدادات و ٣٠٠٠ جنيه للبعثات الصيفية القصيرة المدى و١٥٠٠ جنيه نفقة زوجات الأعضاء فى الخارج و٣٠٠٠ جنيه لاسعاف الطلبة الذين يدرسون فى الخارج على نفقتهم فيكون المجموع ١٠٤٤٠٠ ولكن المنتظر عدم صرف مبلغ ٤٤٠٠ جنيه فيكون الاعتماد المقرر هو مائة ألف جنيه فقط

أما عدد أعضاء البعثات فيبلغ ٢٩٠ عضوا منهم ٧٥ عضوا ببعثة وزارة المعارف و ١٤٤ عضوا ببعثة الجامعة و١٢ عضوا موفدون من الزراعة و٩ أعضاء موفدون من الصحة و١٥ عضوا موفدون من المالية و ٨ أعضاء موفدون من الأشغال و ٤ أعضاء موفدون من المواصلات وعضوان موفدان من التجارة وعضو واحد من الحقانية

الكتب

البدائع

تأليف الدكتور زكي مبارك

للأستاذ يوسف محمد

كل كتاب بعنوان خلاب لم يخدعني خواه ولم يغرني مرماه ولم يخلف ظني واضعه «كأطباق الذهب» و«نسيم الصبا» بل لما ألق كتابا عنوانه أخاذ لم يخيب وهمي إلا هذا الكتاب الممتع الذي أنا بصدده، ففي هذه المرة فقط قد طابق عنوان الكتاب الواقع، وطابق باطنه ظاهره فهو على الحقيقة سلسلة نفيسة من الروائع والبدائع خليقة أن تخلد في مجلد.

حسبك أن تقلبه حتى توقفك فصوله لطرافتها، وحتى تنفرج لكَ صفحاته عن معرض، وعن أمتع الأشياء، أو عن حديقة غناء فيها ما فيها من بهيج الأزهار ويانع الثمار حتى لتحار أيها تقطف وأيها تجني لفرط البهر إذ كلها بهي نهي، كأنك صبي فتنته معروضات اللعب المتباينة الأشكال أو شره إزاء لذائذ الصحاف والألوان

الكتاب في جملته أشبه شيء بموسوعة موجزة، دال على ذهن خصب وعقل رصين وقريحة طلقة وسعة اطلاع لا تغيب عنها لا صغيرة ولا كبيرة، أحاط صاحبها بالغابر والحاضر والآجل، فبيناهو يذكرك بماضيك لأنك لا تفهم حاضرك إلا به إذا هو يتابع عصره ويساير النهضة ويساهم فيها ثم يفكر في المصير لأن الأمس واليوم يهيئان الغد

فاذا ما تصفحت الكتاب فكأنك تقوم برحلة شائقة تتفتح فيها لذهنك آفاق جديدة وأبواب مغلقة وتنثال عليك آراء لم تكن في حسبانك، فتحس تجدداً في الفكر والشعور كمن استفاق من نوم عميق معافا مستجما، يخرج بك من حديث أدبي معجب إلى موضوع غزل مطرب، وينتقل بك من نقد رفيق لاذع إلى حديث عن سيرة عظيم بارع، ثم يستدرجك من هذا إلى تفطينك إلى رائع الشعر الدفين ودقيق المعنى الكمين، ثم يتجاوز معك إلى النظر في بعض وجوه الأخلاق والاجتماع وكشف الغطاء عن طلاء بعض الطباع وبعد هذا المطاف يرجع بك إلى الوراء، إلى الماضي البعيد أو القريب فيريك من آياته عجبا، ولعلك تزعم أن هذه الفصول أشتات وتفاريق تعوزها الوحدة المنسجمة، ولكن مهلا: روح الكاتب السارية فيها جميعا سريان الماء في الأعواد كفيلة بالوصال الوثيق.

ومن خصائص هذا الكاتب أنه يملك ناصيته الحاسة الأدبية فيما يكتب، ولو أنه قليل الاستعارات والمحسنات، فإنه يرى الأشياء في دقائقها وجملتها كالمتفنن متأثرا بمفاتنها، مستغنياً عن التصريح بالتلميح. وعن العبارة بالاشارة حتى يوحي إليك بالمعاني إيحاء. يصف لك ما رأى وما سمع ولكن لا يريد الوصف للوصف وإنما لإماطة اللثام عن جانب من جوانب نفسية الناس أو يبين خبيئة من خبايا الجماعة لأن الإنسان لا يعنيه إلا الإنسان، وإن غضب أو رضى استرسل في الأسلوب الخطابي الفياض وتدفقت لعناته ومسراته كنهر زخار، اقرأ مثلا «عيد الحرية في باريس» و«أخلاق الناس» و«بين العقل والهوى»، تر صدق ما أقول وأكثر ما تتجلى فيه هذه الروح الأدبية حين يتناول الشعر بالتحليل والتعليل فاذا تحدث عنه ذوقك اياه تذويق الخبير، وبصرك بروعته تبصير العارف البصير، كأنما تلبس نفس الشاعر ثم عرفك بالصحيح منه والمزيوف كالصيرف الماهر، اقرأ في الكتاب «نقد ديوان شوقي»، ثم قصائد المديح في الأدب العربي توقن بما قدمت ايقانا تاما فلا أحد حبب إلى الشعر العربي وقد كنت منه نافرا إلا هذا النقاد الحاذق.

ثم يمتاز هذا الكاتب بالصدق والصراحة حيث تمثله كتاباته كل التمثيل وتشف عن عقليته كما يشف الثوب الرقيق عن الجسم الرشيق، تنم سطوره عن نزوعه إلى القديم القويم الجدير بالرعاية وتشي بمسايرته لعصره، ويشيع فيها الروح الديني الصوفي فهو حين يصور لك سحر باريس وفتنة باريس يصورها في لهف وشوق كمتعبد ربي على الحشمة والوقار وكبت النفس الامارة بالسوء ثم إذا هو قد لان ووهن وبروعة الجمال افتتن فذهب عقله شعاعا واتنى وقاره ضياعا، ولعل ما تميز به من وضوح الأسلوب والجلاء ناشيء من الصراحة المتناهية لأن من أسباب الغموض والاستغلاق ميل الكاتب إلى المداراة والتعمية والتنكر، ومن هنا كانت شخصيته قوية عصية على التقليد والفناء في غيرها، فهو لم يتأثر بأحد ممن لازمهم وأخذ عنهم لا في نمط التفكير ولا في طراز التعبير.

ربما سألت نفسك مرة إن عددت الجهل مزريا بك: لماذا اقرأ؟ فأنت تقرأ للهو والتسلية ونفي الملال ان كنت من أهل الفراغ ثم لتسر من مصادفتك لما يشبه ما يجول في خاطرك من المعاني ومن لقائك

من يشاطرك فى مشاعرك ثم لتصلح ما اعوج وفسد من أفكارك بالقياس إلى أفكار سواك إذ لابد من تصحيح التجارب الشخصية وتوطيدها بالقراءة، ثم لتضيف إلى ماتعلم ما لاتعلم فتزداد ثروة على ثروة ثم لتستوضح على ضوء القراءة ما يقوم بذهنك من المعانى العائمة القلقة الدائرة فى شبه الظل ثم لتمرن فكرك وتروضه على التأمل المستمر حتى لا يعلوه الصدأ وتذهب عنه مرونته ومتانته وحتى لا يصيبه الخمود والجمود والركود لأن القراءة ضرب من التفكير إذ فيها محاولة لمتابعة الكاتب فى سير تفكيره وإلا استدق عليك واستغلق ثم لترهف ذوقك لأن الذوق الرفيع لا يكتسب إلا بطول القراءة واستدامة الموازنة بين الجيد والردىء والغث والثمين ثم لتنبه ما غفى من عقلك وخمد من قلبك فكل هذا تكتسب من كتاب «البدائع» فعليك به تجد فيه المسلاة والمأساة والنور.

منذ انتشار الصحافة واتساع دائرتها ازدهر أول ما ازدهر عندنا من ألوان الأدب ما يسمونه بأدب المقال (Ess ayisme) حيث يسع هذا النوع بوجه عام جميع فنون القول والأغراض والبحوث فى فصول ورسائل تطول أو تقصر بحسب ما يقتضى المقام، فيصاغ فى هذا القالب من الأدب فصول فى النقد ونبذ فى التاريخ وأبحاث فى الأخلاق والاجتماع وتصب فيه النظرات والخطرات والمشاهدات حتى الأقاصيص الموجزة الصغيرة وقد كان هذا النوع من الكتابة عاملا مهما فى ترقية النثر إلى حد كبير وقد ساهم صاحب كتاب «البدائع» بفصوله فى إعلاء شأن أدب المقال كما ساهم فى هذا المجهود الجليل غيره من الأدباء الأجلاء أمثال الأساتذة الجهابذة احمد أمين ومصطفى صادق الرافعى والزيات والمازنى وعبد الوهاب عزام وسواهم من أئمة الأدب وأساطينه.

إلا أننا نؤاخذ صاحب «البدائع» ونعتب عليه وننكر كل الانكار ما أدرجه فى الكتاب عن طيش ونزق من بعض فصول فى الخصومة بينه وبين أحد أعلام الأدب والبيان وكان لزاماً عليه أن يتناساها لا أن يحييها بوضعها فى الكتاب فإن هذه الفصول الشائنة بين سائرها لهى كالنقط السوداء فى الصفحة البيضاء يعافها الذوق واللياقة والكياسة.

يوسف محمد

إلى المشتركين بالتقسيط

لقد اشترطنا حين فتحنا الاشتراك المخفض المقسط للطلاب ولرجال التعليم الإلزامى أن تكون الأقساط متتابعة، والاخلال بهذا الشرط يستوجب طبعاً إلغاء الاشتراك. فكل من لم يدفع القسط الثالث إلى اليوم أو الثانى من باب أولى ستنقطع عنه الرسالة والرواية ابتداء من هذا العدد.

العدد ١٨٣ من الرسالة

نفدت طبعة هذا العدد فليس فى الادارة منه شىء فنرجو من الذين يطلبونه أن ينتظروا حتى نعيد طبعه ويومئذ سنعلن فى الرسالة عن موعد توزيعه

5 me Année. No. 194

بدل الاشتراك عن سنة

م	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 22 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

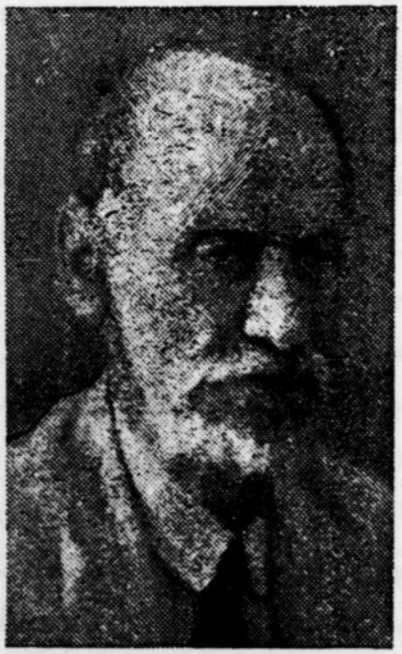
العـــدد ١٩٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ محرم سنة ١٣٥٦ — ٢٢ مارس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

جميل صدقى الزهاوى

بمناسبة ذكراه الأولى

(٣)



كأنما تفتح عقل الزهاوى قبل أن يتيقظ هواه ، وحلق فكره قبل أن ينهض خياله ، وادرك علمه قبل أن يولد شعره ! فلقد كان يهدف للثلاثين من عمره وليس له من أولمب الشعر وحى ، ولا فى برناس الشعراء محل ؛ إنما كان فى صدر شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ وسبيله إلى ذلك ما تُرجم من المقالات فى الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لا تصل فكر الانسان بالتطور ، ولا تنقع غلة الظمآن الى المعرفة. ومع ذلك استبطن الزهاوى دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى

ألف كتاب (الكائنات) فى الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) فى الطبيعة ، ذهب فيهما مذهباً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر ، كقوله : إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة ، وانما هى دفعها لها بسبب ما تشعه من الالكترونات . وسواء أنهض دليله أم دحض فانه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل . ورجاحة عقله هى التى حملته وهو فى ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله ؛ والمعهود فى عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك . فلما هيأته الاقدار الجليلة لرسالة الشعر كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته ؛ والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القريحة ، ويَرِد إليهن إلهام العبقرية ؛ ولكن الشعر لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة : أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضىء لها الطريق حتى يأمنا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين ، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين . فاذا تغلبا عليه كان الشرود والزيغ ، وإن تغلب عليهما كان الجفاف والعقم ؛ ومن هنا جردوا أكثر ما قال أبو العلاء وأقل ما نظم أبو الطيب من الشاعرية . والزهاوى شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة ، وليس له الأذن التى « تموسق »[1] ، ولا القريحة التى تصنع . فاللفظ قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة

الزهاوى عقلية أفاقة وحيوية دفاقة وطبيعة ساحرة : وهذا التوثب الحماسى فيه هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره . وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها ، فيذهب الشاعر ، ولا يبقى الفيلسوف ، ويكون الزهاوى معك كالآلة تدور مليئة متزنة ما دامت على شىء ، فاذا نفدت مادتها على فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة ، ذلك لأن الفكرة الفلسفية هى المادة الأصيلة فى شعر الزهاوى . وليس الشعر كله فكرة . وإنما هو فضلا عنها صورة يرسمها الخيال ، وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة الفيلسوف واضحة ، وجمالها فى هذا الوضوح وفكرة الشاعر خفية ، وسحرها فى هذا الخفاء . فإما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة ، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر . أما الخلط بين الفلسفة والشعر لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون فكالخلط بين التصوير والتشريح لأن المصور يدرس بواطن الجسم

***

كان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور ؛ ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف . ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه ، والتيه يذهب به ، فيحب الثناء ويبغض النقد . فهو لفرَقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى إلى التطرف ، ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ويعارض هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم ، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

والزهاوى بعد هذا وفوق هذا كان رسولا من رسل الفكرة الانسانية ، وبطلا من أبطال النهضة العربية . كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها الموقظة على ربوات بَرَدى ، وخمائل النيل ، وسواحل المغرب . وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط النهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف ؛ ثم تسعى لتعود أمة كما كانت ، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون .

احمد حسن الزيات

(١) لامانع فيما أظن من أن نشتق هذا الفعل من الموسيقى

حديث المال

بقلم ابراهيم عبد القادر المازنى

جلسنا ثلاثة من الاخوان نتحدث عن المال وكيف ينال ـ لقد مات زخاروف رجل الأسرار أو الظلام كما يسمونه وصار ذكره على كل لسان ولهجت الصحف بملايينه وأعماله الصحيحة و الموهومة وأخذ عنها الناس وراحوا يلغطون . وأحسب ان لو كان زخاروف حيا واستطاع أن يسمع ما يروى عنه ويعزى اليه لأذهله ذلك ويكفى أنه مامن ثورة أو حرب شبت فى الخمسين سنة الأخيرة الا وهو فيها يقال مضرم نارها

وقلت لصديق : « أما أنا فلست أعرف وسيلة للغنى الاهذه ـ أفتح عينى فى الصباح وأدس يدى تحت الوسادة لاتناول الساعة أنظر الى وجهها فاجد مكانها كوما عاليا من الأوراق المالية الكبيرة . وعلى ذكر هذه الأوراق الكبيرة أقول ـ ولا فخر ـ انى مارأيت ورقة بمائة جنيه الا مرة واحدة فى حياتى . . أم تراها كانت بخمسين فقط . . والله ما أدرى . . الحاصل . . أعطيتها بدلها وآخذ منها قدرا معينا وأرد الباقى فوضعتها فى جيب البنطلون وأبقيت كفى عليها خوفا من النشل وذهبت الى البنك ـ لصرف كما لا يسمى ـ ولا أطيل . وحسبى أن أقول ان الرجل كان ينظر الى نظرة من تحدثه نفسه بأنه يحسن حجزى حتى تجىء النيابة » . . وصار معى عدد كبير من الورق فوضعت حقى فى جيب والباقى فى جيب آخر اتقاء للاختلاط والحاجة الى إعادة العد والحساب . وقد تعلمان كرهى لهذا الحساب أو جهلى به على الأصح . وجاء الليل ـ وكنت أعمل فى ذلك الوقت فى جريدة صباحية ، فانا أعمل بالليل وأنام بالنهار ـ وتذكرت انى على موعد مع صديق فى الساعة الحادية عشرة وكنت جائعا فقلت أذهب الى محل جديد فى شارع عماد الدين وآكل لقمة أو اثنتين من السندويتش ، ثم أذهب الى موعدى . وكنت قد وضعت الأوراق فى المحفظة ـ على خلاف عادتى ـ ولم يكن معى من النقود الصغيرة غير قرش واحد . وحدثتنى نفسى وأنا آكل انه يحسن أن أشترى شيئا من هذه الفاكهة فان منظرها مغر ، فاخرجت جنيها ولكن الزحام كان شديدا فكادت روحى تزهق ورأيت أن الأمر سيطول فدسست الجنيه فى جيبى وانصرفت ولقيت صاحبى على القهوة ، وعدت الى البيت فأحسست وأنا أخلع ثيابى ان الجاكته خفيفة فنظرت فيها فاذا المحفظة قد طارت . أى والله . قطع النشال الجيب بسكين أو موسى أو لا أدرى ماذا وأخذ المحفظة . . »

وعدنا بعد هذه الذكرى الأليمة الى زخاروف والملايين فقال أحد الصديقين : « لماذا لا نرى فى الشرق ناسا يصبحون أصحاب ملايين كما يحدث فى الغرب كثيرا . . »

فقال ثالثنا : « ان الغنى العريض الواسع يستفاد من الصناعة والتجارة لا من الزراعة فانها محدودة وكل عمل لا يقبل التوسيع والنماء المطردين لا يمكن ان تجىء منه ملايين ولا مايقرب منها »

فقلت : « ولا تنس ياصاحبى ان الخِطار فى حكم المعدوم فى الشرق . ولا بد من المغامرة لطالب الثروة الكبيرة السريعة . ولعل إخواننا العرب أعظم منا جرأة واقداما وأكثر استعدادا للمغامرة . والمحقق أن المصريين اطلب للراحة والدعة والاطمئنان على الرزق . وهم يرضون بالقليل اذا كفل لهم الاطمئنان وقد كانوا الى بضع سنوات يعدون صاحب التجارة أحط مقاما من صاحب الزراعة وأحسب ان هذا لأن رزق الزارع مكفول ولكن الرزق من التجارة على كف عفريت . واسمعوا هذه الحكاية : لما عدت فى العام الماضى من العراق جاءنى صديق حميم وذكر لى ان له صاحبا يشتغل بصناعة الجلود وانه يرجو منى المعونة ليحتكر جلود الأضاحى فى موسم الحج فى الحجاز فقلت له : إنى أعرف أن الحكومة العربية تكره الاحتكارات ولا ترضى أن تظلم رعاياها على نحو ما يبغى صاحبك ثم إنى لا أستطيع أن أستغل علاقتى بهؤلاء القوم ، ولكنى أشير بما هو خير من ذلك وأجدى على صاحبك إذا كان عاقلا . . واقترحت عليه أن يؤلف صاحبه شركة مصرية عراقية لانشاء مصنع للجلود ومدبغة فى بغداد وقلت له : إنى أستطيع بمساعدة إخوانى فى مصر والعراق أن أقنع جماعة من العراقيين بالدخول فى هذه الشركة . ولصاحبك أن يدخل فيها بالقدر الذى هو فى طوقه . والجلود فى العراق وفيرة ورخيصة ، وجلبها من البلاد العربية إلى بغداد أسهل وأقل

كلفة من جلبها إلى مصر ، أما الأسواق فعديدة . فهناك أسواق العراق نفسها ـ والقوم هناك وطنيون عمليون يؤثرون صناعات بلادهم ، والحكومة عظيمة التشجيع لها ولا أعتقد أنها تتردد فى أخذ حاجة جيشها من هذا المصنع إذا أنشىء ثم ان هناك أسواق جزيرة العرب وأسواق فلسطين وأسواق الشام وفى هذه البلاد كلها يفضل الرجل مصنوعات بلاده فالمشروع لا شك فى حسن عائدته ولاخوف من الخسارة فيه وأنا مستعد أن أطلق الصحافة والأدب وأعمل معه وأقوم له بكل ما يستدعيه الحصول على رأس المال أولا واستيراد الجلود من الجهات المختلفة وتصريف المصنوعات فى أسواق الجزيرة والعراق وفلسطين وسوريا . فاقترح هذا على صاحبك وانظر ماذا يرى . . ووقف الأمر عند هذا الحد لأن فى المشروع مخاطرة بالمال !! . ولست أدرى أين المخاطرة ولكن هذا ما كان . وهكذا ضاعت على فرصة حسنة للتحرر من رق الصحافة والأدب . »

فسألنى أحدهما : « أو تكره الصحافة والأدب ؟ »

« قلت : لا أكرهما ولكن أعمل فيهما كالحمار ولا أفيد منهما إلا العناء . وإذا وسعنى أن أهجرهما إلا ما هو خير وأجدى فلماذا لا أفعل ؟ وصدقنى حين أقول لك إنى لا أكف عن التفكير فى وسيلة للنجاة منهما . وقد خطر لى أن أتخذ جراجاً ، ولكن الجراج ، لا يكون إلا محدوداً وأنا أريد عملا يحتمل التوسيع على الأيام . وخطر لى أن أتخذ مطبعة ولكنى رأيت أن المنافسة الشديدة بين أصحاب المطابع توشك أن تؤدى إلى خرابهم جميعاً . وخطر لى أن أكون بائع « طعمية » وهذا لا يتطلب رأس مال يستحق الذكر ، واقتنعت بأن هذا خير ما يمكن أن أصنع وأنه أحسن وجه للخلاص من الصحافة ، فذهبت أبحث عن محل صالح ولكنى كنت كلما عثرت على واحد واهتديت إلى مكان يمكن أن تروج فيه هذه البضاعة أجد أن غيرى قد سبقنى . . ولكنى لم أقنط من رحمة الله . . وما زلت أرجو أن أوفق إلى عمل صالح غير هذا الأدب الذى لا فائدة منه لأحد »

فسألنى ثانيهما : « هل تتكلم جاداً ؟ »

قلت : « أى والله . .لقد قرأت كل ما وسعنى أن أقرأ وكتبت كل ما دخل فى طوقى أن أكتب ، فهل أفدت إلا الغرور والنفخة الكذابة والصيت الفارغ . . وإلا العداوات والخصومات التى لا داعى لها . . لا يا سيدى . . وإنى لمستعد أن أنزل لك عن نبوغى وعبقريتى وخيالى الخصب ونشاطى الجم ولا أطلب إلا دكاناً صغيرا أقلى فيه « الطعمية » فى سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو فى بولاق . . أقف فيه وأمامى المقلاة وإلى جانبى الزيت ـ زيت الزيتون من فضلك ـ والفول المدقوق وعلى ثوب أبيض نظيف وورائى الموائد مصفوفة وعليها الأباريق والأكواب . وأصص الزهر هنا وهناك . والأرض مفروشة بالرمل الأصفر ، فانى أريد أن أرقى صناعة « الطعمية » وأجعل منها فناً . . نعم ، خذ أدبى كله وخلودى أيضا إذا كانا يستحقان شيئاً واعطنى هذا الدكان الصغير وزرنى بعد ذلك وشرفنى بالأكل عندى وعلى موائدى الأنيقة الجميلة واحسدنى يومئذ »

وقمنا صامتين لأن كلامى هذا لم يعجبهما . . ولو أعجبهما لرجوت أن أقنعهما بهذه المبادلة . . ولكن لا بأس . . لا بأس . ولا بأس أيضاً فلن أعدم صناعة أخرى أهتدى إليها فى يوم من الأيام . والعمر الطويل يبلغ الأمل كما تقول العامة فى أمثالها الحكيمة التى هى عصارة التجارب الانسانية على الدهور

ابراهيم عبد القادر المازنى

قنبلة بالبـــارود

لا بالماء المقطر ... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية ، لقد كتبتم الكلمات التى تصرخ منها الشياطين ...

– كلمات لو انتسبن لا نتسبت كل واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحى فى كتاب الله .

– فطلب تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمى الى هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » .

– وطلب الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية : « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن » .

– وطلب ايجاد المثل الأخلاقى لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة » .

– قوة الأخلاق ياشباب . قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

***

حياكم الله ياشباب الجامعة ؛ لقد كتبتم الكلمات التى يصفق لها العالم الاسلامىُّ كله

كلمات ليس فيها شيء جديد على الاسلام ، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجد إلا فيها .

كلمات القوة الروحية التى تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر لا بعوامل الهزيمة

كلمات الشباب الطاهر الذى هو حركة الرقى فى الأمة كلها ، فسيكون منها المحرك للامة كلها

كلمات ليست قوانين ، ولكنها ستكون هى السبب فى إصلاح القوانين .

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

***

يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين ، فان العلم لا يعلم الصبر ولا الصدق ولا الذمة .

يريدون قوة النفس مع قوة العقل ، فان القانون الأدبى فى الشعب لا يضعه العقل وحده ولا ينفذه وحده .

– يريدون قوة العقيدة حتى لذا لم ينفعهم فى بعض شدائد الحياة ما تعلموه ، نفعهم ما اعتقدوه .

يريدون السمو الدينى ، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هى فكرة إدراك الواجبات بغير معناها .

يريدون الشباب السامى الطاهر من الجنسين ، كى تولد الأمة الجديدة سامية طاهرة

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

***

أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من الدين

وما هى الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها ؟ فالصدق مناعة من الكذب والشرف مناعة من الخسة .

والشبابُ المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها . وهل الدين إلا فروضُ القوة على النفس ؟

وشبابُ الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعى ينفق دائما ولا يكسب أبدا .

والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة ، فتسألهم الحياة : ماذا تعودتم لاماذا تعلمتم ؟

قوة الأخلاق ياشبابُ ؛ قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

***

(١) رفع طلبة الكليات فى الجامعة المصرية إلى مديرها وعمدتها وأساتذتها طلبا يلتمسون فيه إدخال التعليم الدينى فى الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات إذ « لا إصلاح إلا بعد إصلاح روح الشباب الناهض حتى يكون له من قوة روحه وسمو أخلاقه سلاح يحارب به الرذيلة وينصر به الفضيلة » . قالوا : « ولا شك أن الامة بأسرها قد أحست بنقص الناحية الدينية فى المجتمع المصرى ، ونقص أخلاق الفرد ووطنيته تباعا »

وَأَحَسَّ الشبابُ معنى كثرة الفتيات فى الجامعة ، وأدركوا معنى هذه الرقة التى خلقتها الحكمة خالقة .

والمرأة أداة استمالة بالطبيعة ، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالارادة لأن رؤيتها أول عملها

نعم إن المغناطيس لا يتحرك حين يجذب ، ولكن الحديد يتحرك له حين ينجذب .

ومتى فهم أحدُ الجنسين الجنسَ الآخر ، فهمه بإدراكين لا بادراك واحد .

وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل ، وجمال الرجل إذا استقر فى قلب المرأة .

هما حينئذ معنيان ، ولكنهما على رغم أنف العلم معنيان متزوجان . . .

* * *

لا ، لا ؛ يارجال الجامعة . إن كان هناك شىء اسمه حرية الفكر فليس هناك شىء اسمه حرية الأخلاق .

وتقولون : أوربا وتقليد أوربا . ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخضوعنا لأوربا .

وتقولون : إن الجامعات ليست محل الدين . ومن الذى يجهل أنها بهذا صارت محلا لفوضى الأخلاق ؟

وتزعمون أن الشباب تعلموا ما يكفى من الدين فى المدارس الابتدائية والثانوية فلا حاجة إليه فى الجامعة

أفترون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط ؛ أم تريدونه شجرة تغرس هناك لتُقلَع عندكم . . . ؟

لا ، لا ؛ يارجال الجامعة . إن قنبلة الشباب المجاهد تملأ بالبارود لا بالماء المقطر . . . .

* * *

إن الشباب مخلوقون لغير زمنكم ، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية التى يحسُّون بها زمنهم

لا تجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال إنهم تلاميذكم ولكنهم أيضا أساتذة الأمة .

لقد تكلم بلسانكم هذا البناء الصغير الذى يسمى الجامعة . وتكلم بالسنتهم هذا البناء الكبير الذى يسمى الوطن .

أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار ؛ وأما الوطن فمحدود بالمطامع والحوادث والحقائق .

لا لا . إن المسلمين الذين هَدَوا العالم ، قد هدوه بالروح الدينية التى كانوا يعملون بها لا بأحلام الفلاسفة

لا لا . إن الفضيلة فطرة لا علم ، وطبيعة لا قانون ، وعقيدة لا فكرة ؛ وأساسها أخلاقُ الدين لا آراء الكتب

* * *

من هذا المتكلم يقول للأمة : « الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد فى شئونهم مهما يكن أمره » .

أهذا صوتُ جرس المدرسة لأطفال المدرسة ؟ : تِرِنْ تِرِنْ .... فيجتمعون ويتصاعون ؟

كلا يارجل ، ليس فى الجامعة قالب يصبّ فيه المسلمون على قياسك الذى تريد .

إن التعليم فى الجامعة بغير دين يعصم الشخصية ، هو تعليم الرذيلة تعليمها العالى

« ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لَحق وما أنتم بمعجزين »

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

(طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

حمـــام فرعون

للأستاذ حسن جلال

علمت وأنا فى مدينة الاسماعيلية بأن جماعة من رواد الجبال سبق لهم القيام برحلة إلى عين كبريتية فى جبل من الجبال التى فى جنوب مدينة السويس، وأنهم يعاودون التفكير فى تكرار هذه الرحلة ويتهيأون لها. فهفت نفسى إلى الاشتراك معهم لهوى قديم بينى وبين تلك الجهات كان يدفعنى منذ سنين إلى أن أقضى سحابة يوم الجمعة من كل أسبوع متقلباً بين ربوع جبال القاهرة وضواحيها.

وكانت تلك الجماعة تتألف من:

١ — أحد أعضاء مجلس النواب وشيخين من أقاربه.

٢ — ومن تاجر من كبار تجار الاسماعيلية

٣ — ومن تاجر آخر من عيون تجار القاهرة

٤ — ثم من رجل أجنبى من رجال الاعمال إيطالى الجنسية ، مزارع واسعة فى حدود مدينة الاسماعيلية.

فأما عضو النواب وقريباه فكانوا يشكون الروماتزم، وكان هذا هو الذى يحفزهم الى ارتياد تلك العين، فان لها على ما يقول الناس خواص سحرية فى شفاء الأمراض.

وأما تاجر القاهرة فقد سمع بحديث تلك العين من النائب فأغراه ذلك على أن يجرب سحرها فى أوصاله.

وأما تاجر الاسماعيلية فكان على ما فهمت رجلا لا يحتاج إلى الاستشفاء لا بالحار ولا بالبارد، وكل همه فى الحياة أن يجلس آخر النهار فى بعض المقاهى ونرجيلته بين ركبتيه يمصها فتقهقه له حتى تنقطع أنفاسها فيخليها لصاحبها ويعود إلى داره راضياً مرضياً، وكانت الأسباب كلها منقطعة بينه وبين تلك الرحلة لولا أن له سيارة جميلة أحب صاحبنا النائب أن يضمها إلى القافلة فدعاه للاشتراك فلبى الدعوة.

وأما التاجر الايطالى فكان هو عماد الرحلة وبطلها لأنه كان قائدها الذى يدلها على الطريق فى وسط الأودية المهجورة والجبال المتشابهة، يعاونه على ذلك دليل بدوى ممن يعملون فى مزارعه، ولم يكن له من حافز ظاهر إلى الاشتراك فى الرحلة غير ميله إلى الرياضة، أما أن أمثال هذه الرحلة قد تساعده على تنمية معلوماته عن الصحارى المصرية وطرقاتها فهذا حديث آخر لا محل للخوض فيه الآن، وللقارىء أن يستنتج لنفسه ما يشاء...

***

هؤلاء هم أشخاص الجماعة

أما النبع نفسه فقد سمعت أنه نبع حار يخرج من الصخر، ويصب فى مياه البحر الأحمر. وأنه نبع (مكبرت) كالنبع الذى فى حلوان. والفرق بين الاثنين أن هذا بارد. أما «حمام فرعون» فهو يخرج من بطن الجبل شديد الحرارة حتى لتلق السمكة فى مائه الدافق فتنضج فى دقائق معدودات. وعلمت أيضاً أن كهفا يقوم إلى جانب النبع. إذا دخله الانسان فانه لا يطيق البقاء فيه أكثر من ربع ساعة لفرط حرارته وشدة ما يعانى الانسان وهو بداخله من الوهج الذى يتفصد له الجسم عرقا. وقيل لى إن من دخل هذا الكهف وهو يشكو «الرطوبة» فانه لا يلبث أن يخرج منه كما ولدته أمه صحة وعافية. أما العين فانها وإن خرجت من ينبوعها حارة شديدة الحرارة إلا أنها تجرى على شاطىء البحر مسافة طويلة قبل أن تصب فيه. وأنها فى مجراها هذا تتفاوت حرارتها. فهى تبدأ حارة لا تطاق ثم تتناقص حرارتها كلما ابتعدت عن أصل النبع، حتى إذا جاءت ماء البحر وصلت وهى فاترة يطيقها كل إنسان. وقال لى من كان يحدثنى عنها: وإذا كانت مياه حلوان قد بلغت ما بلغت من الشهرة العالمية وهى باردة يرفعون حرارتها بأنابيب البخار، فلك أن تصور لنفسك مبلغ ما تمتاز به هذه العين وهى تخرج من بطن الأرض حارة حرارة طبيعية لم تتدخل فيها يد الانسان. وناهيك بحمام من مائها تعقبه خلوة قصيرة فى ذلك الكهف الذى يليها... إن الانسان ليدخلها ثم يخرج من الكهف بعدها كما يدخل المنديل القذر فى يد (الغسالة) ثم يخرج جافا ناصعا من عند (الكواء)!

***

وكان لى صاحب من ضباط البوليس أرتاح إلى صحبته فعرضت عليه رغبتى فى الاشتراك فى تلك الرحلة فتولى عنى مفاوضة الجماعة فى أمر انضمامنا إليهم. وعاد يبشرنى بأنهم يرحبون

بنا على شرط أن نكون ضيوفهم فى الحل والترحال : وتذللت بذلك آخر عقبة كنت أتوهم أنها تعترضنى فى سبيل تحقيق رغبتى لأنى لم تكن لى سيارة خاصة . وليست أمثال هذه الرحلة الطويلة مما يهون فيه الحصول على سيارة بالأجرة . وتحدد موعد القيام بعد يومين من إبرام هذا الاتفاق على أن نجعل قيامنا بعد الفجر بقليل فى اليوم المحدد . ولم يبق أمامى إلا أن أتولى إعداد توافه الأمور التى تركها لى مضيفى كالمناشف التى تلزم لتجفيف عرق وأنا فى داخل الكهف . والغطاء الذى أتدثر به عند مبيتى معهم على شاطىء البحر فى العراء . على أنى أبيت إلا أن أستصحب معى سراً بعض المرفهات التى أعلم أنها لم تكن لتخطر لزملائى على بال . فدسستها فى حقيبتى بغية أن أفاجئهم بها هناك وسط الصخور والجبال . وكانت عندى (ترامس) ثلاثة يسع كل واحد منها لتراً من الماء . فملأتها جميعا بالماء المثلوج — ونسيت أن أقول إن الوقت كان فى بداية الصيف — وعطرتها بماء الزهر وأخفيتها فى الحقيبة كما أخفيت معها آلة تصوير لألتقط بها بعض المناظر التى تخلد ذكرى هذه الرحلة . وقد دلت كل الدلائل على أنها ستكون رحلة عامرة بالذكريات التى تستحق التخليد . ولست أحتاج أن أقول إن زملاءنا كانوا قد صارحونا بأنهم سيحملون عنا مئونة تزويدنا بالماء والطعام . فلما سألت عما إذا كانوا سيحملون هذا الزاد من الاسماعيلية أم من السويس قيل لى إن العرب الذين سنصادفهم فى الوديان خلال الجبال كلهم رعاة أغنام . ونستطيع أن نحصل منهم على ما نشاء من ضأن وماعز . كما أن البحر هناك مرعى بكر يزخر بألوان السمك . والوديان لا ينقطع منها الماء الجارى . ورجال البدو لا يلبثون أن يحتاطوا بنا ويتنافسون فى خدمتنا . فكنت أستمع لهذا الحديث وأرسل أحلامى على سجيتها لتتم بألوانها الساحرة بقية تلك الصورة الخلابة التى لبثت يومين كاملين وأنا أسعد بالتقلب بين أعطاف خيالاتها !

• • •

وأخيراً حل اليوم الموعود ، وكنت على أتم أهبة للرحيل قبل بزوغ الشمس ، وأقبلت السيارات تنادينى بأبواقها ، فنزلت فاذا سرب طويل منها يضم الصحاب جميعاً ، فاستقللناها قاصدين إلى السويس ؛ والطريق مابين الاسماعيلية والسويس طريق جميل ممهد أعدته فى السنوات الأخيرة شركة قنال السويس ليكون متمما للطريق القديم الذى يوصل مابين الاسماعيلية وبور سعيد : وهذا الطريق يسير إلى جانب القناة ويتمتع السائر فيه بمناظر بحيرة التمساح والبحيرات المرة الكبرى والصغرى التى تمتد على يساره ، بينما تقوم الحقول الخضراء على يمينه وهى حافلة بالأكواخ الصغيرة الساذجة . وبألوان شتى من المواشى والأغنام ، وكلها دائبة فى رعى تلك المروج الناضرة البهيجة . ووصل الركب محطة « الكوبرى » حوالى الساعة السابعة صباحا . وهذه المحطة تقع فى شمال السويس ، وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها . وعندها تقع « المعدية » التى ينتقل عليها المسافر من شاطىء القنال الغربى ، إلى شاطئه الشرقى — أو من شاطئه الأفريقى إلى قرى شاطئه الآسيوى كما يقولون — فاضطررنا إلى الوقوف هنا ريثما يقوم عامل « الجرك » بتفتيش أمتعتنا . وقد عجبت لهذا العمل ونحن إنما ننتقل من أرض مصرية إلى أرض مصرية . فلما استفسرت عن السبب علمت أن المنطقة التى نريد أن ندخلها خاضعة لمصلحة الحدود . والنظام الادارى فى تلك المصلحة يكاد يكون مستقلا عن إدارة الحكومة المصرية . وأنه محظور على من يريد دخول الصحراء فى تلك الجهة أن يكون معه سلاح نارى تنفيذاً لأمر المصلحة الذى يقضى بعدم صيد الغزال مثلا فى تلك المنطقة . كما أنه من المحظور أيضاً أن يحمل المسافر معه آلة تصوير حتى لا يسجل بها مناظر ترى المصلحة أنه من الواجب المحافظة على سريتها . وكانت النتيجة الأولى لوقفتنا هذه فى محطة الكوبرى ، أنى خسرت آلة تصويرى ، لأنى اضطررت إلى تسليمها من تلقاء نفسى ، وبذلك ضاعت على فرصة احدى المفاجآت التى كنت دبرتها للاخوان . على أن هذه لم تكن خسارتى الوحيدة . فقد بدأ لبعضنا أن يتناول وجبة خفيفة فى ذلك المكان تكون بمثابة الفطور لمن فاته الافطار فى منزله . وكنت أنا من هؤلاء . فأردت بعد لقيمات ازدردتها أن آخذ جرعة من الماء فهممت بتناول واحد من (ترامسى) ولكن سبقتنى إليه يد أحد الزملاء الكرام يريد أن يبالغ فى الحفاوة بى فلا يدعنى أقوم بهذه الخدمة الهينة لنفسى فما راعنى الا أن أراه يملأ كوب الترموس من مائه المعطر المثلوج ثم يهزه فى يده هزات يريقه من بعدها على الأرض كما لو كنا

نستقى من (زير) بجوار سوق فى إحـدى قرى الريف ، فهو يريد أن يكفل نظافة (الكوز) مما يكون قد علق به من الغبار ! وأردت أن أعوض ماشربته الأرض من مائى العزيز فاقتصدت فى الجرعة التى شربتها واكتفيت منها بمصتين لأنى كنت أقدر مانحن مقبلون عليه من الجفاف والجدب . ولـكن حلا لبقية الصحب أن يستقوا فأدار الساق عليهم من أكوابى ، ودخلت الصحراء بنصف ما كنت تزودت لها به من الماء . وكانت هـذه خسارتى الثانية فى مستهل الطريق

وحملتنا (المعدية) بسياراتنا فنقلتنا إلى الشاطىء الشرقى . وبدأنا عقب ذلك رحلتنا الشاقة فى وسط الصحراء حيث لاشىء إلا الحصى والرمال فى طريق متشابهة لا أثر فيها لأى نوع من أنواع الحياة . ولبثنا نضرب فى تلك البيداء حتى أدركنا الظهر - ولـكننا على كل حال كنا نسمر بمختلف الأحاديث - وكان الذين سبقونا إلى ارتياد هـذا الطريق لا يضنون علينا بشرح ما يعرفونه من معالم . وأحياناً أيضاً بشرح مالا يعرفون استجابة منهم لنداء تلك الغريزة العجيبة التى ركبت فى كل نفس والتى تجعل صاحبها يلتذ أن يتظاهر بالعلم أمام من لايعلم !

وكانت سيارة الايطالى فى مقدمة الركب . وقد قبع الدليل البدوى على مقدمها ليلجأ إليه صاحبه كلما أعوزته المشورة فى أمر الطريق . وفى النهاية لاحت لنا أشجار « الطرفاء » التى تزين (وادى الغرندل) وهو واد واسع يكثر فيه النخيل ولا ينقطع منه الماء طول العام . وبدأنا نرى الناس من جديد بعد أن كنا نظن أننا انقطعنا عن العالم - ولـكن يالهم من ناس ! . . . لقد كانوا أشباحا فى أسمال . . . أجسام رقيقة مديدة ضمرها الجوع . وعيون فاترة غائرة أطفأها الفقر والجدب . كانوا يحيطون بنا ويعدون إلى جانبنا ويلاحقوننا كما كانت تفعل جنادب الوادى الذى يعيشون فيه . أما سياراتنا فكانت عند اجتيازها لهذا الوادى تجرى فوق مياهه . إذ لم يكن أمامنا طريق أخرى غير بطنه ، فكانت أشبه بالزوارق البخارية منها بالسيارات . ولقد عانينا كثيرا ونحن نجتاز هذه المرحلة من طريقنا لأن الماء كان يتسرب إلى داخل آلات السيارة كلما أدركنا خاضة بعيدة الغور نوعا ما . وكان الويل للسيارة التى يصيبها ذلك ، لأن الركب ماكان ليقف لأمثال تلك الأحداث ، فكانت السيارة المتخلفة تقاسى كثيرا قبل أن تلحق بالقافلة وتمسك معها بطرف الطريق . وتكررت حوادث فقد الطريق ونحن بالوادى ، ذلك لأن الطرق فيه متشعبة فكان المتخلف عرضة لأن يتبع آثار عجلات غير عجلات سياراتنا كلما غابت عن نظره بقية القافلة . وكم وقفنا وأطلقنا أبواقنا ليهتدى على صوتها من نفتقده من الزملاء . وكم كررنا نحن راجعين فى مسلك وعر كنا قد تشهدنا عندما اجتزناه ، فلما فرغنا منه وجدنا أننا قد ضللنا الطريق .

* * *

وأخيراً خرجنا من هذا الوادى وعدنا إلى الصحراء من جديد ولكنها كانت فى هذه المرة صحراء نافرة صخرية يكتنفها جبل عظيم أبيض اللون ناصعه تجوس فى سفحه عربات صغيرة وتدب معها نمال بشرية تتراءى من بعيد كأنها بعض هوام الجبل أو زواحفه . وسألت فعلمت أن شركة إيطالية قد حصلت من الحكومة على امتياز لاستغلال هذا الجبل وأنها تحصل منه على نوع من الرخام النادر تصدر معظمه إلى باريس بالذات دون بلاد العالم لكثرة الحاجة إليه فى مبانيها الأنيقة الحديثة . وأن هذه الشركة قد أثرت من وراء هذا العمل ثراء طائلا . فأحببت أن نقف قليلا لنصل بعمال هذا الحجر ونتحدث اليهم فنسرى عن أنفسنا ونسرى عنهم . وفى أمثال تلك البقاع النائية يصدق قول القائل : وكل غريب للغريب نسيب !

وكانت حالة السيارات تقتضى هذه الوقفة أيضاً ، فإنها كانت قد شربت كل ما معنا من الماء . وكانت فى حاجة أيضا إلى الماء . فترجلنا لنملأ صهاريجها ، واتجهت وبعض من معى إلى أولئك العمال فاذاهم جميعا من أهل الصعيد — تلك الطائفة النبيلة التى شيد أجدادها مجد الفراعنة وخلدوا آثارهم فى وادى الملوك وغير وادى الملوك ، وها هو ذا الخلف اليوم لا يجد من يستنجد بكتفه وذراعه غير الأجنبى فيلبى دعوة القوت وسط تلك الأصقاع السحيقة القاحلة يقضى عمره ويفنى حياته فى قطع الرخام وحمله ليجد هو فى آخر النهار ما يسد به رمقه . ولينعم حسان باريس بالرونق البهى والرواء الحسن . وليقف المقاول الايطالى بين الطرفين يستغل جهد المصرى وثراء الباريسى فى آن واحد .

وأردت أن أعرف من أين يحصل هؤلاء العمال على الزاد

والماء — ولعل الباعث الخفى لسؤالى كان حرصى على الاطمئنان على نفسى ومصيرها فى هذا القفر قبل أن يكون إشباع حب الاستطلاع فيها عن حالة هؤلاء المساكين — فقيل لى بأن باخرة تقدم من السويس كل شهر تقريباً فتحمل اليهم الزاد والماء الذى يكفيهم حتى موعد الزورة التالية، فبدت على أنا وزملائى علائم الاشفاق والرثاء. ولكن جرنا الحديث إلى ذكر المنائر التى تقع على شاطىء البحر الأحمر والتى تضم كل واحدة منها ثلاثة من الموظفين المصريين فى حالة عزلة تامة عن العالم لمدة تسعة شهور، إذ أن كل منارة من هذه المنائر يديرها أربعة من الموظفين يعمل كل واحد منهم تسعة شهور متتالية فى العام ويحصل على أجازة سنوية تستغرق الثلاثة شهور الأخرى. ولذلك فان ثلاثة منهم فقط يجتمعون فى العمل ويكون الرابع فى إجازته، حتى إذا عاد هو قام من يكون عليه الدور وهكذا. وأن الواحد من هؤلاء الموظفين متى استلم عمله فى فنارة فانه ينقطع عن العالم وأخباره حتى يحل موعد وصول الباخرة التى تأتيهم بالطعام والماء مرة فى كل شهر. وهم من خلال هذا الشهر لا يقرأون الصحف ولا سبيل لهم إلى معرفة ما يكون قد مر على العالم من أحداث، وما يكون قد طرأ عليه من حروب. وعجبت من شأن الحكومة مع هؤلاء الناس ومن شأنهم هم مع أنفسهم. فاننا أصبحنا اليوم نسمع الراديو فى السيارات الخاصة وهي تسير وسط الطرقات العامرة الزاخرة، ثم ها نحن أولاء نسمع من أمثال هذه المنائر التى تترك بغير جهاز ولا صفير من هذه الأجهزة الكفيلة بأن تنقل أهلها من عزلتهم فتضعهم فى وسط العمران والحياة

• • •

كان بيننا وبين (حمام فرعون) ونحن فى ذلك المحجر بضع كيلو مترات قد لا تزيد على خمسة أو ستة، ولكن ما كابدناه فى قطع هذه المرحلة القصيرة فاق كل ما لاقيناه فى طول الرحلة منذ بدايتها. ذلك بأن الطريق كان قد انقطع عند المحجر، وأصبح علينا بعد ذلك أن نسير فى أرض بكر لا تطرقها السيارات إلا كلما حلا لأمثالنا أن يزور ذلك المكان، وهو نادر قليل، وكانت طبيعة الأرض فى تلك الجهة جامحة نافرة، فبيناهى صلبة فى بعض نواحيها إذا هى رخوة تغوص القدم فى رمالها فى نواحيها الأخرى

وكان فى انتقال السيارة من الصلب إلى الرخو ثم من الرخو إلى الصلب ما فيه من إجهاد للسائق وللراكب والآلات نفسها، وذلك لما تستدعيه طبيعة كل ناحية من تغيير درجات السرعة وتحريك رافعات السيارة واحدة بعد أخرى بما يناسب حالة الطريق وقد حدث اننا خسرنا فعلا إحدى سياراتنا فقد انكسرت بعض آلاتها فى هذه التنقلات السريعة المفاجئة، واضطررنا إلى التخلى عنها وسط الطريق بعد أن توزعت حمولتها على بقية السيارات فزادت فى عسر حركتها وتعريضها هى الأخرى للتلف، وليس يفوتنى هنا أن أقول إن هذه السيارة بالذات كانت سيارة تاجر الاسماعيلية الذى لم يكن من سبب لأشراكه فى هذه الرحلة غير سيارته، ولكن هكذا قدر الله فى لوحه أن يأتى أجل هذه السيارة فى تلك البقعة الموحشة. وصدق الله العظيم و (ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) وقديماً قيل:

إذا ما حمام المرء كان ببلدة دعته اليها حاجة فيطير

وقبل العصر بقليل ألقت القافلة عصاها فى سفح جبل عال كان يواجهنا، وقيل لنا انزلوا: فهذا هو «حمام فرعون»

• • •

وثبتُ من سيارتى فرحا وقد نسيت أمام بلوغ الهدف كل ما لاقيته خلال الرحلة من مشقة. ولم أنتظر حتى يتقدمنى من له علم بالمكان. لأنى لم أكن رأيت فى حياتى قط عينا حارة — ولكنى كما هو الحال دائماً فى أمثال هذه الشئون كنت قد صورتها لنفسى بعين خيالى. وكنت شديد الشغف الآن بأن أقابل بين الحقيقة وبين الخيال. فما كان أشد الفرق بين الصورتين!

كنت أتصور النبع على صورة (الفسقية) ينبثق من وسطه خرطوم عال من الماء له رشاش من حوله ثم يتجمع الماء فى حوض حول العين ثم لا يلبث أن يفيض من الحوض إلى ذلك المجرى الطويل الذى حدثونا عنه. وكنت أتخيل هذا المجرى فى صورة قناة جميلة وسط صخور صلدة ينساب الماء فيها رائقا صافيا كتلك القناة الجميلة البيضاء التى ما تزال آثارها باقية فى «وادى حوف» بحلوان والتى كنا نتناول فيها غداءنا كلما رحلنا إلى تلك الجهة. فادرت عينى بسرعة فيما يحيط بى أبحث عن تلك الفسقية أو عن هذه القناة فلم أجد لإحداهما أثرا، فخاب ظنى لأول

وهلة وأحسست بقلبي يتراجع قليلا فى صدرى شأن من يفاجأ بأمر لم يكن يتوقعه . ولكن سرعان ما استغرق بصرى ذلك الجبل العظيم الذى كنا نقف فى كنفه. فصوبت عينى فيه وصعدتها فأخذتنى عظمته. ولمحت فى صفحته ثغرة سوداء قريبة من سطح الأرض، فأدركت أنها لابد أن تكون مدخل الكهف الموعود . وكان هذا الجبل يقوم على شاطيء البحر ليس بينه وبين الماء فى البقعة التى وقفنا فيها أكثر من خمسين مترا ، ثم هو يمتد محاذيا للشاطىء مسافة مائتى متر أو ثلثمائة متر ، وبعد ذلك يتصل بالماء رأساً فيرتطم موج البحر بقدميه ويتحطم على صخوره السوداء . ولفت نظرى فى ذلك المثلث الرملي الضيق الذى كنا نقف على قاعدته أن قناة ضحلة تجرى وسطه فتتبعتها ببصرى مسرعا فرأيتها تبدأ عند قاعدة الجبل ولكن لم أتبين من أين ينبثق ماؤها . فدلفت إليها حتى جئت المكان الذى ينبعث منه الماء فاذا هو ثلمة ضيقة بين صخرين يسيل منها الماء كما يسيل من صنبور متوسط الحجم فيجرى على الصخور المجاورة حتى تتسلمه رمال الساحل فتبلع منه ما تبلعه وتترك الباقى ينداح على صدرها حتى يصب فى البحر . وكانت رائحة الكبريت ساطعة تملأ الجو، ولكن الماء كان يجرى كالبلور المذاب لا يعلوه بخار ولا يبدو عليه أنه حار . فأغرانى ذلك بأن أمد إليه أصبعى ولكنى ما كدت أفعل حتى سحبتها صارخاً كأنما اندق فيها مسمار . فأثلجت هذه اللسعة صدرى . ومنيت نفسى بالحمام الساخن الذى قطعت من أجله كل تلك القفار . فلست أعرف فى متع هذه الحياة ما هو أحب إلى نفسى من الحمام الساخن !

° ° °

وكان إخوانى قد أدركونى وحف بعضهم بالنبع وانطلق بعضهم يساير القناة . أما الايطالى فانه اشتغل بنصب الخيام

وشاءت المصادفات أن يكون الهواء فى ذلك اليوم قوياً ثقيلا فكان يسفى علينا التراب ونحن لا نجد ما نحتمى فيه حتى قامت خيام الايطالى فآوينا اليها وقد نال منا الجوع ، ونشر الخادم بين يدينا علبه ولفائفه وأدار علينا الخبز فالتهمناه بما أصابت أيدينا من جبن وزيتون وقديد وما إلى ذلك مما كان قد أعد لتبتيل أغنام الرعاة المنتظرة وسمك الصيادين الموعود ، فأبت علينا المقادير إلا أن نأ كله هو متبلا بالتراب ومحشواً بصغار الحصا، ومع ذلك فقد كنا نتخاطفه ونتنافس فى التطويح بما نصيبه منه إلى أفواهنا قيل أن ننفخ فيه وننرو عنه ماعلق به من الرمال ، فيا سبحان الله ! أهكذا يحلو المر أحياناً فى هذه الحياة ! وماذا بقى لنا من الحقائق المطلقة فى دنيانا وكل شيء فيها اعتبارى كما نرى ؟ إلا أن الحسن إنما يكون حسناً فى ظل رضا النفس ، والقبيح إنما يقبح بزوال هذه الحالة عن النفس ! والسعادة مهما اختلف الناس فى أسبابها فهى من الكثير الغالب من صنع أيدينا وفى القليل النادر من صنع المقادير .

° ° °

ولم نهجع عقب الطعام بل انتشرنا فى المكان نرتاده ونتسلق الجبل وندخل الغار بأطراف رءوسنا ثم نخرجها سراعاً لكثرة ما ألقى فى روعنا من أنه شديد الحرارة يذيب نخاع الرءوس . وقضينا على ذلك ساعة وبعض ساعة حتى أوشك النهار أن ينقضى فتاهبنا لأخذ الحمام المرتجى ، وانصرف كل واحد منا إلى صخرة توارى خلفها فخلع ملابسه . وارتدى قميص البحر . ولم تكن إلا هنيهة حتى استحال المكان إلى « بلاج » أنيق صغير بأولئك الفراعنة الصغار الذين جاءوا من أقصى الأرض ليحققوا للمكان اسمه ويؤيدوا له لقبه . وكان الأعرابى الذى مع الايطالى قد احتمل فأساً وقصد إلى أوسع مكان فى القناة فعمقه وأبعد غوره كما يتسع لأجسامنا ويصلح للاضطجاع . فنزلناه واحداً بعد واحد وساعدنا ذلك على رفع مستوى الماء قليلا فما زلنا نتقلب فيه ونتلبط . وهواء المساء البارد يصفع أجسادنا الحارة ونحن نصر على أن نوهم أنفسنا باننا نأخذ حماماً ساخناً حتى أدركنا أن إصرارنا سيكون وخيم العاقبة اذا نحن تمادينا فى تحدى الطبيعة إلى أبعد من هذا الحد ، فخرجنا نتواثب من حفرتنا كجماعة الضفدع دهمها داهم وهى ترتل فى مخابئها أناشيد المساء !

ولما نزل بنا الليل كان الهواء الثائر قد سكن ، والتراب السافى قد استقر ، ولاحت النجوم فى السماء زاهية زاهرة . وأشهد أنى لم أر السماء طول حياتى كما رأيتها فى تلك الليلة . فلقد اعتدنا أن نراها ونحن فى المدن من خلال المبانى الضاربة فى الفضاء ، ومن خلال النوافذ الضيقة ، فكنا لانرى إلا قطعاً منها تذهب التجزئة

فيها بجمال المجموع . أما فى تلك الليلة فقد راقنا أن ننام فى العراء فبسطنا فراشنا فوق الرمل وألقينا عليه وسائدنا ثم انطرحنا على ظهرنا واتجهنا بأبصارنا فى السماء فراعتنا . وبدت لنا النجوم كما لو كنا لم نرها قط قبل تلك اللحظة . وإنى لأذكر الآن كيف أننا جميعاً أصابنا وجوم مشترك أمام عظمة هذا المشهد حتى لقد بقينا فترة لم ينبس فيها واحد منا بحرف . فلما نطق أول متكلم فينا وتحدث بماراعه من منظر السماء اندفعنا جميعاً نكرر معنى واحداً فى عبارات مختلفة ، وأدركنا أننا فى سكوننا كنا تحت تأثير واحد، وأن أحداً منا لم يستطع أن يفلت من جاذبيته !

* * *

وفى غداة اليوم التالى تنفسنا مع الصبح جميعاً . ومنا من كانت قد انقضت عليه أعوام وأعوام وهو لا يرى الشمس كل صبح إلا بعد أن ترقى حدود الأفق بزمان طويل . وهببنا من مضاجعنا خفافاً تفيض حركاتنا بالقوة والنشاط . وكانت مفاجأة الصباح التى أعدتها لنا طبيعة المكان أننا أردنا أن نحلق لحانا فامتنعت عن الصابون مياه النبع ؛ وعبثاً حاولنا إحداث الرغوة المطلوبة على الرغم من إسرافنا فى الدعك والفرك ؛ ولم نشأ أن نضحى بقية مائنا العذب فى شؤون زينتنا ، فطال ركوعنا على حافة القناة حيث اجتمعنا فى شبه (صالون) خشن حقير !

وكنا قد أحسسنا فى المساء أن ذخيرتنا من الماء كادت أن تنفد ، فاحتلنا فى الحصول على مدد فلم نجد إلا صفيحتين فارغتين من صفائح البنزين فبعثنا بهما مع خادم ليملأهما من ماء الوادى فعاد بهما إلينا ونحن نتناول طعام الفطور ، فكرعنا من مائهما ما كنا فى حاجة إليه ، فاذا هو فى مذاقه أشد نكراً من ماء النبع فهذا فيه طعم الكبريت . أما ذاك فانه عبق برائحة البنزين والبترول .

وكنت أزمع العودة مع بعض الصحاب فى ظهر ذلك اليوم فرأينا أن نقضى الساعة التى بقيت لنا فى جوف الكهف حتى لا يكون قد فاتنا شىء من « متع » المكان قبل أن نبرحه . فعدنا إلى قمصان البحر فارتديناها ونشرنا شيئاً من الفراش فى أرض الغار ثم دخلنا فرقدنا فوقها ولكننا لم نلبث أن اعتدنا حرارة المكان الذى استلقينا فيه ، فأوغلنا قليلا فوجدنا فارقاً محسوساً فى الحرارة فسرنا ذلك . وبقينا فيه أيضاً حتى ألفناه ثم أوغلنا ثانية ، وهكذا حتى أصبحنا فى قرار الكهف حيث الظلام الشامل . فما كان أروع منظرنا ونحن نزحف فى نواحى المكان كالخفافيش والعالم من خلفنا على باب الكهف ساطع بهيج ! وكنا قد احتملنا معنا مناشفنا فلم تكن ترى فينا إلا شبحا يستوى قاعدا فيأخذ فى تدليك جسمه بمناشفه حتى يجفف عرقه فلا يكاد يرقد حتى يقوم إلى جانبه شبح آخر يظل يهزج ويحك ذراعه بذراعه فلا ينتهى حتى يسلم هذه المهمة لسواه ، وهكذا حتى أحسسنا بحلوقنا آخر الأمر تكاد تجف من فرط ما عرقنا وأفرزنا من ماء جسومنا فعولنا على الانسحاب . وكان حتما علينا أن ننسحب متدرجين كما أوغلنا متدرجين حتى لا تقتلنا الطفرة أو يؤذينا الانتقال السريع . فقضينا فى هذا الانسحاب زمنا ليس بالقليل ولم نستطع أن نركب سياراتنا إلا بعد أن انتصف النهار . ونسيت أن أقول إننا أتينا بعد خروجنا على ماء الصفيحتين فشربناه وظللنا من بعده يومين ونحن نتجشأ بنزينا قويا يكاد ريحه يضىء ولو لم تمسسه نار !

* * *

انقضت بعد عودتنا أيام رأيت فى خلالها بعض الصحاب فكان حديثهم ترديدا لما لاقينا من وعثاء الطريق ، وما قاسينا من سعار الكهف . ثم قابلت صاحبنا الايطالى فكان حديثه أنه يفكر فى الحصول من الحكومة على امتياز لاستغلال النبع واقامة فندق صغير بجواره وتهيئة بواخر خفيفة تصل بينه وبين السويس حتى تنقلب الرحلة إلى متعة ينعم بها المستشفى بدل أن تبقى كما هى الآن مشقة ينوء بها الرياضى . فهتف فى نفسى هاتف : « يعيش الدوتشى ! » ، وقلت لمحدثى : لمثل هذا فليعمل العاملون .

حسن جلال

العدد ١٨٣ من الرسالة

نفدت طبعة هذا العدد فليس فى الادارة منه شىء فنرجو من الذين يطلبونه أن ينتظروا حتى نعيد طبعه ويومئذ سنعلن فى الرسالة عن موعد توزيعه

الألفاظ العربية

الاسلامية ، المولدة ، المعربة
العربية ، العبرانية ، السريانية
استعمال لفظة فى محلها : (سد بوزك)

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبى

الألفاظ فى العربية أقسام :

قسم عربى بحت . وهو الذى وضعته اللغة فى (الجزيرة) أو جاء من عند غيرها وخالط ألفاظها فعد كأنه منها ، وهو أعجمى تعرب ، والعربية عربية قوية ، فكان مثل « الهرمزان الذى أسلم وبدّل ثيابه . وتسمى بعرفطة . . » كما جاء فى (الطبقات) لابن سعد .

وقسم اسلامى أظهره الاسلام ، وما كان فى الجاهلية يعرف ، أو كان له معنى فيها غير الذى استجد . وهو مثل : المؤمن ، المسلم الكافر ، المنافق ، المخضرم (١) ، الجاهلية (٢) الدجاجلة (٣) الفاسق ؛ قال ابن الاعرابى : « لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم (فاسق) قال : وهذا عجيب وهو كلام عربى ، ولم يأت فى شعر جاهلى . وفى الصحاح نحوه » .

وقسم مولّد محدَث ، ولد فى غير (الجزيرة) مثل الطنز (أعنى السخرية) والكابوس الذى يقع على النائم ـ وفى هذا الزمان يقع على النائم واليقظان ـ والمطرمذ وهو الكذاب الذى له كلام وليس له فعل ، وما أكثر الطرمذة (٤) فى الناس ! والفشار ـ وهو الهذيان ـ وجُلّ الناس أوكلهم ـ كما يقول بعضهم ـ فشارون . .

(١) فى اللسان قال ابن خالويه : خضرم خلط ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والاسلام . وأما من قال مخضرم بفتح الراء فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر الى الاسلام

(٢) فى (كتاب ليس) لابن خالويه : ان لفظ الجاهلية اسم حدث فى الاسلام للزمن الذى كان قبل البعثة .

(٣) فى (كتاب ليس) : لم يسمع جمع الدجال من أحد إلا من مالك بن أنس فقيه المدينة فانه قال : هؤلاء الدجاجلة

(٤) فى (أمالى القالى) : الطرمذة لفظة عربية . وفى (اللسان) : الطرمذة ليس من كلام أهل البادية (الجوهرى)

ومن المولد الطرش والتشويش والمخرقة والقازوزة (١) والبحران (٢) ومنه (٣) (ستى) فى قولهم : ياروحى ، ياستى ! بمعنى ياسيدتى

وقسم معرب وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها تقول : عربته العرب وأعربته

فى (الصحاح) : المهندز الذى يقدر مجارى القنى والأبنية ، معرب . وصيروا زايه سينا فقالوا : مهندس لأنه ليس فى كلام العرب زاى قبلها دال

ومن المعرب (قالون) قال الثعالبى فى فقه اللغة : « سأل على شريحا مسئلة فأجابه ؛ فقال له : قالون : أى أصبت بالرومية » وفى (الفائق) للزمخشرى « أو هذا جواب جيد صالح . ومنه حديث ابن عمر (رضى الله عنهما) انه عشق جارية له (رومية) وكان يجد بها وجداً شديداً ، فوقعت يوماً عن بغلة كانت عليها ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ، وكانت تقول له : أنت قالون (أى رجل صالح) فهربت منه بعد ذلك فقال :

قد كنت أحسبنى (قالون) فانطلقت
فاليوم أعلم أنى غير (قالون)

ومن المعرب الشقلة وهى ان تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل ، قيل ليونس : بم تعرف الشعر الجيد ؟ قال : بالشقلة

ومنه (البوس) بمعنى التقبيل . ومن المعرب (خوداى) أى واجب الوجود وهو الله . وفى كتاب (المدهش) لابن الجوزى : « وقف أعجمى عند الكعبة والناس يدعون وهو ساكت ، ثم أخذ بلحيته فرفعها وقال : ياخوداى ، شيخ كبير !!! » .

ومن المعرب (الخز والديباج) وكون هذين معربين ـ شيء محقق (٤)

ومنه الفالوذج واللوزينج والجوزينج ومن يقدر ان يمارى فى تعريب ذلك ؟؟

(١) فى (اللسان) : القازوزة مشربة دون القرقارة ، أعجمية معربة

(٢) البحران : التغير الذى يحدث للعليل دفعة فى الامراض الحادة

(٣) فى المزهر : كل لفظ كان عربى الاصل ثم غيرته العامة بهمز أو تركه أو تسكين أو تحريك أو نحو ذلك مولد .

(٤) فى (أدب الكتاب) للصولى و انظر فارسى عربيا بين يدى يحيى بن خالد

ومنه (الدهدر) أى الباطل وهو تعريب (دَهْ دُلِه) أى صاحب عشرة قلوب ، والمراد به الرجل المتقلب . (قلت) : والرجل المتقلب ذو مئة قلب ومئة وجه

ومنه البشم : التخمة ، ولا ريب فى أنها معربة فما يجىء البشم الا من الافراط فى الاكل ، ومتى كان الشبع فى الجاهلية حتى يكون البشم ؟ !

ومنه أيضا : (أيضا) فارسيتها أيدى كما يقول كتاب الألفاظ الفارسية المعربة

ومن المعرب : (شاقرد) أو شاجرد ومعناه متعلم ، تلميذ تعريب شا كرد قال الأعشى :

وما كنت (شاجردا) ولكن حسبتنى ـ
إذا (مسحل) سدّى لى القول ـ أنطق[1]

وقال موسى بن عبد الله البختكان :

قد كنت شا كردى فيما مضى فصرت أستاذى ولا ترضى

ومن المعرب : التوت أو التوث وهو الفرصاد فى العربية الأولى . قال محبوب بن أبى العشنط :

لروضة من رياض الحزن أو طرف
من القُرَيّة جرد غير محروث
للنوْر فيه اذا مج الندى أرَج
يشفى الصداع وينقى كل ممغوث[2]
أحلى وأشهى لعينى ان مررت به
من كرخ بغداد ذى الرمان والتوث

وفى تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم بخطه : « قال نصر ابن محمد بن أبى الفنون فى كتاب أوزان الثلاثى : سين العربية شين فى العبرية ، فالسلام شلام ، واللسان لشان ، والاسم اشم ،

وقول ابن أبى الفنون يذكرنا بكلام لابن حزم فى كتابه (الإحكام فى أصول الأحكام) وهو :

« ان الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ـ واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذى يحدث من الأندلسى اذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيروانى اذا رام لغة أهل الأندلس ، ومن الخراسانى اذا رام نغمتهما

ونحن نجد من سمع لغة أهل (فحص البلوط) وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة . وهكذا فى كثير من البلاد فانه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله ، ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ فى اللغة العربية تبديلا ، وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ، ولا فرق ، فنجدهم يقولون فى العنب : (العينب) وفى السوط (أسطوط) وفى ثلاثة دنانير (ثلثدا) . وإذا تعرب البربرى فأراد أن يقول الشجرة قال (السجرة) ؛ وإذا تعرب الجليقى أبدل من العين والحاء هاء فيقول (مهمداً) إذا أراد أن يقول (محمداً) ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية[1] أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ماذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم ، وإنها لغة واحدة فى الأصل

* * *

ومن الألفاظ المولدة فى العربية لفظة (البوز) التى استعملها الجمهور فى مدينة يافا من أعمال فلسطين منذ أربع سنين حينما كان الوطنيون فى دار القضاء (المحكمة) يحاكمون ، فقد قال عامل عربى من عمال الشحنة أو الشرطة — البوليس أو البلوص كما يقال فى بعض الجهات — فانه قال كلمة منكرة فاحشة أنكرها الجمع العربى حتى ان النيابة وهي انكليزية أنكرتها وقسرته على أن يرجعها فرجعها ؛ فلما قالها صاح الناس هناك : (سد بوزك) وقد ظن بعضهم أن هذه اللفظة عامية والصحيح أنها معربة[2]

البرمكي فقال الفارسى : ما احتجنا اليكم قط فى عمل ولا تسمية ، وقد ملكتم فما استغنيتم عنا فى أعمالكم ولا لغتكم حتى أن طبيخكم وأشربتكم ودواويكم وما فيها على ماسمينا ، ما غيرتموه . فسكت عنه العربى . فقال له يحيى بن خالد : قل له : اصبر لنا ، نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ولا إلى شىء كان لكم

(١) مسحل : تابعة الاعشى (شيطانه) وفى الاساس : ركب فلان مسحله اذا مضى على عزمه . وتقول : اذا ركب فلان مسحله أعجز الأعشى ومسحله . أى اذا مضى فى قريضه .

(٢) ممغوث : محموم

(١) وفى (طبقات الامم) للقاضى صاعد الأندلسي : « تفرعت اللغة العبرانية والعربية من اللغة السريانية »

(٢) فى (كتاب) الالفاظ الفارسية المعربة : « البوز بكلام العامة معرب عن بوز وهو يطلق على فم الحيوانات (الكلب)

وفى (شفاء الغليل) البوز الفم ويطلقونها فى الاكثر على فم الكلب »

أو مولدة وهى — إن لم تكن نوحية ـ ألفية عمرها ألف سنة ، وقد استعملها كبار الأدباء . وهذه حكاية أوردها ياقوت فى كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جاءت فيها اللفظة المذكورة :

« حدث غرس النعمة محمد بن هلال قال : حضر يوماً (ابن جنى) — الامام اللغوى — فى الديوان يتحدث مع أبى اسحق الصابى ، وكان له عادة فى حديثه بأن يميل شفتيه ويشير بيديه ، فبقى أبو الحسين القمى شاخصاً ببصره يتعجب منه فقال له ابن جنى : ما بك يا أبا الحسين ، تحدق إلى النظر وتكثر منى التعجب ؟

قال : شىء ظريف !

قال : ماهو ؟

قال : شبهت مولاى الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا وبيده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودى إلى دار المملكة وهو على شاطىء دجلة يفعل مثلما يفعل مولاى الشيخ

فامتعض أبو الفتح بن جنى وقال : ماهذا القول يا أبا الحسين (أعزك الله) ؟ ومتى رأيتنى أمزح فتمزح معى ، أو أمجن فتمجن بى ؟

فلما رآه أبو الحسين قد غضب قال : المعذرة أيها الشيخ إليك وإلى الله (تعالى) أن أشبهك بالقرد ، وإنما شبهت القرد بك

فضحك ابن جنى وقال : ما أحسن ما اعتذرت ! وعلم أنها نادرة تشيع فكان يتحدث هو بها دائماً »

* * *

و يستعمل بعضهم (البوز) لبرطيل[1] الكلب . فيقول : بوز فلان مثل بوز الكلب

وإذا كانت اللغة خصت بها هذا الحيوان فيكون استعمالها لنوع من بنى الإنسان مجازياً ، والمجاز باب واسع . . .

فقول الجمهور لذلك (الشرطى) حين خرج الذى خرج من فيه ، من فمه ، من بوزه : (سد بوزك) — استعمال من جهة اللغة فى محله . . .

محمد اسعاف النشاشيبى

(١) البرطيل : خطم الفلحس وهو الكلب

الروايات الكنسية والنصرانية

وقيمتها كمصادر للتاريخ الاسلامى

للاستاذ محمد عبد الله عنان

وفقت دار الآثار المصرية أخيراً للحصول على نسخة مصورة من أثر كنسى هام له قيمته فى تاريخ مصر الاسلامية . هو مجموعة سير بطاركة الكنيسة القبطية منذ نشأتها حتى منتصف القرن السابع الهجرى . وقد كان للمجتمع القبطى دائماً شأن فى تاريخ مصر الاسلامية ، وكان للكنيسة القبطية دائماً علائقها الرسمية مع الحكومات الاسلامية ، ومع ذلك فان الرواية الاسلامية لم تفسح مجالا كبيرا لبحث هذه العلائق وتمحيصها . ولم تعن بالأخص بان تشرح لنا وجهة النظر الكنسية فى مختلف العصور شرحاً وافياً ، ولم تفطن دائماً الى الاستفادة من الآثار والمصادر النصرانية فى تفهم أحوال المجتمع النصرانى وزعامته الروحية .

ومن ثم كانت أهمية الآثار النصرانية التى تعنى بعصور من تواريخ الأمم الاسلامية ، ففى هذه الآثار نستطيع أن نفهم بوضوح موقف الكنيسة وموقف أوليائها حسبما يصوره لنا كتابها ودعاتها ، ونستطيع بمراجعة أقوالهم وتعليقاتهم أن نقف على كثير من الحقائق التى لم تعن الرواية الاسلامية بشرحها واستيعابها ، وكتاب سير البطاركة الذى أشرنا إليه من تلك الآثار التى تلقى ضوءا على موقف الكنيسة القبطية ، وموقف الشعب القبطي وأحواله فى مصر خلال العصور الوسطي ، وهى ناحية لها بلا ريب قيمتها وأهميتها فى تاريخنا القومى . وتنقسم النسخة المصورة التى حصلت عليها دار الكتب من الأثر الذى أشرنا اليه والتى نقلتها عن مخطوط باريس إلى قسمين : أولهما كتاب سير الآباء البطاركة الذى وضعه الأنبا سويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى عهد المعز لدين الله الفاطمى فى تاريخ بطاركة الاسكندرية ، وهذا الأثر معروف ومتداول لأنه طبع منذ أكثر من ثلاثين عاما بعناية الآباء اليسوعيين ، وقد عرفته الرواية الاسلامية منذ عصور وانتفعت به أحيانا فيما نقلته من أنباء الكنيسة والبطاركة . وقد كان الأسقف سويرس من أكابر الأحبار والمفكرين أيام الدولة الأخشيدية وأيام المعز لدين الله ، وكان أسقفا لمدينة الاشمونين التى كانت من مدائن

الصعيد الزاهرة يومئذ ، وتشيد الرواية الكنسية بعلمه وأدبه ومكانته الروحية والاجتماعية ، وتحدثنا عن صلاته بالمعزلدين الله ومحاوراته الدينية والكلامية معه ، وتعدد لنا كتبه وآثاره الأدبية والتاريخية . ويتناول سويرس فى كتابه سير بطاركة الاسكندرية منذ القديس مرقص منشىء هذا الكرسى حتى البطريرك افراهام بن زرعة السريانى الذى رسم بطريركا لليعاقبة سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) فى أوائل عصر العزيز بالله . وقد ورد فى مقدمة هذا القسم إشارة إلى طريقة وضع هذا الأثر وتأليفه نصها : « هذه السيرة جمعها واهتم بها من كل مكان الأب الجليل انبا سويرس بن المقفع أسقف مدينة الاشمونين ، ذكر أنه جمعها من دير أبو مقار ودير نهيا ، وغيرهما من الديارات وما وجده فى أيدى النصارى منها أجزاء مفرقة أنفق فيها أعواما طويلة حتى بلغ عمره الثمانين » (١) .

على ان هذا القسم المتداول ليس هو المقصود بالذات فى هذا التعريف والتعليق ، وانما نقصد بالاخص إلى التعريف بالقسم الثانى من الأثر الكنسى ، وهو الذى يشغل المجلدين الثالث والرابع من مخطوط باريس الذى نقلت عنه نسخة دار الكتب المصورة ، فهذا القسم الذى لم ير الضياء بعد يحتوى على سير البطاركة المصريين منذ أوائل الدولة الفاطمية إلى سنة ٦٣٥ هـ أعنى إلى نهاية عصر الملك الكامل . وقد نسب هذا الأثر بجملته فى فهرس مكتبة باريس الوطنية إلى سويرس بن المقفع ، وهى نسبة ظاهرة الخطأ لأن سويرس توفى فى أوائل عهد العزيز حوالى سنة ٣٧٠ هـ ، فليس من المعقول إذن أن ينسب إليه ما تضمنه الأثر الكنسى بعد هذا التاريخ : وظهر أثر هذه النسبة الخاطئة جليا فيما كتبه العلامة المستشرق سلفستر دى ساسى ، عن الحاكم بامر الله فى كتابه عن الدروز ، إذ ينقل كثيرا مما ورد فى الاثر الكنسى عن عصر الظاهر ولد الحاكم وعن عصر المستنصر بالله ولد الظاهر (٢) ، منسوبا إلى سويرس بن المقفع .

وقد أتيحت لنا فرصة لبحث هذا الاثر الكنسى واستقصاء مصادره ومساق واضعيه ، فانتهينا إلى هذه الحقيقة وهى أن الجزأين الثالث والرابع من المخطوط ليس لهما علاقة بمؤلف أسقف الأشمونين ، بل هما أثر مستقل بذاته . ذيل بهما الأثر الأصلى لأنهما فى نفس موضوعه وهو استئناف سير البطاركة من حيث وقف سويرس ؛ ويسمى هذا الأثر الملحق باسم آخر هو « سير البيعة المقدسة » . ولم يقم بتأليفه أو وضعه مؤلف واحد بل تعاقب فى وضعه وكتابته عدة من الأحبار المتعاقبين ، فتولى كتابة القسم الخاص بعصرى العزيز والحاكم مثلا قس معاصر يدعى الأب ميخائيل « كاتب السنوديقا بكرسى مار مرقص » (البطريركية) كما يقول لنا ذلك خلال الكتاب ؛ وكتب سيرة الأنبا فيلاتاوس البطريرك الثالث والستين وهو معاصر العزيز ثم الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين وهو معاصر الحاكم بأمر الله ، وأورد الكاتب خلال حديثه كثيراً من الأقوال والروايات الهامة عن الحاكم وحياته العامة والخاصة ، وعن حوادث العصر المدهشة . وكتب سير البيعة المقدسة أيام الظاهر والمستنصر قس يدعي « موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى الشماس » ويقول لنا : « إنه جمع سيرهم وكتبها واستخرجها من دير أبو مقار بوادى هبيب وذلك سنة ٨٠٦ للشهداء الموافقة لسنة ٤٨٠ هـ » . وكتب فى أيام المستنصر وبعده قس آخر يدعى يوحنا ابن صاعد بن يحيى المعروف بالقلزمى وهكذا حتى أواخر الدولة الفاطمية ؛ وهنا يقول لنا كاتب هذا القسم إنه سيتم سير الآباء وإنه بدأ بما شاهده فى عصره وخصوصا أيام زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، وهنا يميل الكاتب إلى التبسط فى سرد أحداث العصر ، ولا يتقيد بالناحية الكنسية بل يفيض فى سرد الحوادث جملة ؛ ويتحدث عن السلطنة وعن سيرها وأعمالها ويسير فى ذلك على ترتيب السنين القبطية أو سنى الشهداء ، حتى سنة ٦٣٥ هـ ، أو نحو سنة ٩٥٠ للشهداء ، حتى نهاية عصر الملك الكامل ناصر الدين

ولقد نوهنا فى بداية هذا الفصل بأهمية أمثال هذه الآثار الكنسية فى شرح موقف الكنيسة من الخلافة أو السلطنة وشرح وجهات نظرها فيما يتصل بها من الحوادث والشؤون وتبدو أهمية الرواية الكنسية بنوع خاص فى العصور التى تضطرم فيها فورات اضطهاد ضد الكنيسة والمجتمع النصرانى أو تتجه السياسة الاسلامية إلى الضغط عليهما لظروف وعوامل

---

(١) فى ديباجة سير الآباء البطاركة (طبعة اليسوعيين)

(٢) سلفستر دى ساسي Rèligion des Druses : (P.417 et Suiv.) ومما يلاحظ أن هذا العلامة هو الذى وضع فهرس الكتب العربية لمكتبة باريس ووقع فى هذا الخطأ ، الذى تابعه فيه البحث الحديث بنسبة الاثر كله الى سويرس ابن المقفع .

ناصة ، كما حدث بمصر فى عصر المأمون ، وفى عصر الحاكم مر الله وأيام الحروب الصليبية : فهنا تبدو الرواية الكنسية تنفساً حقيقياً للتعبير عما يخالج الكنيسة ورعاياها من العواطف الآراء نحو المجتمع الاسلامى ؛ وقد تحمل الرواية الكنسية فى ذه المواقف على المبالغة والاغراق فى أحيان كثيرة ، ولكنها تحتفظ مع ذلك بقيمتها وأهميتها فى إيضاح كثير من النقط المواقف التى تغضى عنها الرواية الاسلامية أو ترى فيها آراء أخرى.

ولا تقف أهمية الرواية الكنسية عند ذلك الحد ؛ فنى بعض لأحيان ، وفى عصور السكينة والسلام ، تغدو الرواية الكنسية صدراً قيما لاستعراض الحوادث التى تعنى بها . وفى القسم الأخير ن مجموعة « سير البيعة المقدسة » يبدو الكاتب مؤرخاً لا غبار ليه ، ويتبسط فى شرح الحوادث والشؤون العامة فى أواخر دولة الأيوبية ، ويقدم إلينا عنها رواية لا بأس بها

ونرى أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه توجد الى جانب هذه روايات الكنسية التى تعنى بناحية خاصة من تاريخ مصر الاسلامية تعطها الرواية الاسلامية دائما حقها من العناية ، طائفة من روايات النصرانية ، التى تتبوأ مقامها الحق بين مصادر التاريخ لاسلامى ؛ فلدينا مثلا تاريخ سعيد بن بطريق — بطريرك لاسكندرية الذى يصل فى كتابته حتى سنة ٣٢٦ هـ ، وتاريخ يى بن سعيد الانطاكى الطبيب والمؤرخ ، وقد كتبه ذيلا على ريخ ابن بطريق ، ووصل فى كتابته حتى أواخر عهد الظاهر عزاز دين الله الفاطمى ، وعنى فيه عناية خاصة بأخبار الحاكم شخصه وحوادث عصره ، وتاريخ المكين ابن العميد المسمى اريخ المسلمين الذى يستعرض فيه أخبار الخلافة والسلطنة حتى اخر القرن السادس الهجرى ؛ وتاريخ ابن العبرى المسمى ختصر تاريخ الدول الذى يصل فيه برواية حتى أواخر عصره نى إلى أواخر القرن السابع ، فهذه الآثار التى كتبها كتاب مؤرخون من النصارى ، وإن كانت تميل فى معظم الأحيان إلى تخص أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى باعظم قسط من ايتها ، تحتفظ دائما بقيمتها كمصادر لتواريخ العصور التى عنيت ا . وتمتاز هذه الآثار بميزة خاصة . هى أنها تعنى عناية فائقة ريخ الدولة البيزنطية باعتبارها حامية الكنيسة الشرقية ، نفيض فى تتبع أخبارها وعلائقها بالأمم الاسلامية إفاضة يقة ممتعة ، وهذه ناحية لم تخصها الرواية الاسلامية دائما بما ب من عناية ، بل هى تعتمد غالبا فى تناولها على هذه الروايات النصرانية ، مثال ذلك أن ابن خلدون يعتمد على ابن العميد فى معظم ما كتبه عن أخبار الدولة الرومانية والدولة الشرقية (البيزنطية) . ويرجع السر فى ذلك إلى أن أغلب الكتاب النصارى كانوا يعرفون السريانية واليونانية واللاتينية أحياناً ، ومن ثم كان اتصالهم بالمراجع الأجنبية وانتفاعهم بها .

وهكذا نرى أن الروايات الكنسية والنصرانية العربية بوجه عام فضلا عن قيمتها وأهميتها الخاصة فى سرد أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى ، وشرح مواقفهما فى مختلف العصور والمناسبات ، حقيقة بالدرس والمراجعة كمصادر قيمة لعصور معينة من التاريخ الاسلامى ، تلقى ضوءاً على كثير من نواحى الصلة والعلائق بين الشرق والغرب ، والنصرانية والاسلام

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الطير والحيوان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

وحدة الأحياء واشتراكهم في صفات ترفعهم جميعاً عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم. كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث اهتدى إليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها؛ وتنازع الأحياء البقاء، وغدوان أقواها على أضعفها وفوز القوي بالغلب والبقاء، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لحاتها في آدابهم؛ وقد كان موقف الانسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريباً لا يخلو من تناقض وطرافة: كان في أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها، ثم استأنس بعضها وسخره في أعماله تسخير العبيد، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعهم إلى مصاف الآلهة، لأنهم يدرّون على حياته خيراً وبركة، بينما ظل يتلهى باقتناص أوابد الوحش. ويجرب بأسه وفروسيته باصماء حشاشاتها، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار

واخترع خيال الانسان في تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيار ومخيف الكائنات، كما توهم البابليون وحشاً هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل، وكما تخيل الاغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤسها أفاع باغية، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والافاعي، وكما تصور العرب الغول والعنقاء، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ، وكما توهم أوائل الانجليز سبعاً ضارياً قد ألقى الرعب في مملكة بأسرها، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف في الملحمة المسماة باسمه؛ ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التي هذي بذكرها الانسان في عهوده الأولى، إلا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التي كانت تقطن البر والبحر في غابر الأزمان، وكان الانسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين

فلما بلغ الانسان طوراً من الحضارة أرقى، أنزل تلك العجماوات التي كان ألهها من محاريب عبادته، ونبذ تلك الخرافات وما بها من سباع وهمية، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل الوفي، وظهر من المثقفين ذوي النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل الحيوان والتغذي بلحمه والتلهي بصيده وتعذيبه وسجنه كأبي العلاء الحكيم العربي، وكالمصور الايطالي ليوناردو دافنشي، الذي كان يبتاع الطيور الحبيسة ليطلقها ويشفي نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها ذاهبة إلى الفضاء؛ وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الانسان والحيوان في الآداب: ففي الأدب الاغريقي وصف لمغامرات حملة الارغونوت التي خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع، وفيه وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوي العيون المفردة، وما كان بين كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح، وفي الأدب الفرنسي قطعتان بديعتان تفيضان رحمة وجمالا، تصور إحداهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب على أيدي الصيادين

والأدب العربي حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التي عرفها العرب في باديتهم، كالجمل والحصان والأسد والقطاة والحمامة، وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضاً منها كنايات: فأبو قيس للقرد وأبو خالد للأسد، وكان لبعضهم أسماء في لغتهم عديدة، وبها ضربوا الأمثال فقالوا: أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم، وسيروا الكنى فقالوا: جبان الكلب ومهزول الفصيل للجواد المضياف، واستعاروا أوصافها للإنسان فقالوا: جيد كجيد الغزال وعيون كعيون الجآذر وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام، وتشاءموا بأصوات بعض الحيوانات كالغراب والبومة، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها ويتشاءمون بالبارح، وأجروا الأمثال على ألسنتها كقصة الثيران الثلاثة المنسوبة إلى الامام علي، وكالقصص التي أنطق فيها الحيوان ابن المقفع، والمحاورات التي نحلها إياها إخوان الصفا، واسترعت أحوال الحيوان ومسعاته انتباههم فتدبروها مليا كما في تلك الرسالة البليغة عن النمل المنسوبة إلى الامام علي أيضاً، وفي التدبر في أحوال كثير من الطير والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم في شتى المواضع، ودعا الانسان إلى التفكير فيها، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعاً بين العلم والأدب

وقد أطنب أدباء العربية خاصة في ذكر الإبل ووصفها في أشعارهم، ووصف سيرها وحنينها إلى أعطانها واستحثاثها ومناجاتها، ولا غرو فقد كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته، اذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها، وهو قول وجيه؛ وقل شأن الإبل قليلا حين تحضر العرب، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر برا، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الاطناب في ذكر الإبل وتقديمه بين أيدي المديح

حتى استقلت الابل بجانب عظيم من الشعر العربى ، ومن خير أوصافها
ول طرفة فى معلقته :

إنى لأقضى الهم عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
بارى عتاقا ناجيات وأتبعت   وظيفا وظيفا فوق مور معبد

وأطنب أدباء العربية أيضا فى ذكر الخيل ووصفها فى أشعار لحماسة ، وما ذاك إلا لأنهم فى جاهليتهم وإسلامهم كانوا أمة جلاد كفاح ، الخيل أول عدتهم فى القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان عز مكان فى الدنى لديهم ظهر سابح كما قال المتنبى ، وطالت صحبتهم لخيل واطردت ملازمة الخيل لهم ، فكأنما ولدت قياما تحتهم كما قال لمتنبى أيضا ، وكأنما ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم فى لحروب ومواقف جيادهم ، كما فعل عنترة فى معلقته ، حيث يذكر كيف ازور حصانه من وقع القنا بلبانه . وكيف شكا إليه آلامه بعبرة تحمحم ، وصار لكلمة الخيل أو كلمتى الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب ، بعد أن استعملها القرآن الكريم فى تلك الآية البليغة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة ومن رباط الخيل » ، وتأنق أبو تمام والمتنبي فى وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزحوفها ، ومن بديع أوصافها فى العربية قول الفرزدق فى جواد أغر محجل :

فكأنما لطم الصباح جبينه   فاقتص منه فخاض فى أجشائه

وأبيات أبى تمام التى يقول منها :

وأولق تحت العجاج وإنما   من صحة إفراط ذاك الأولق

وقول أبى الطيب فى وصفه للمعركة التى دارت على ربى حصن الحدث :

إذا زلقت مشيتها ببطونها   كما تتمشى فى الصعيد الأراقم

وفاز الأسد والذئب باهتمام أدباء العربيه ، وتركا فى الشعر العربى أوصافا شائقة وقصصا ممتعا ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليوث عليهم فى جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم ؛ ومنه أيضا وصف الفرزدق للأطلس العسال الذى رأى ناره موهنا فأتاه ، فقاسمه عشاءه ، حتى امتلأ الذئب فتكشر ضاحكا ، ولكن الفرزدق حين رأى نيوب الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم ، بل جعل قائم سيفه فى يده بمكان ، وتاه على الذئب بما أنا له من قرى بدل أن يرشقه بشباة سنان ؛ أما البحترى فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه البحترى ، فرمى الانسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلا ؛ كذلك يصف المتنبى فى أبيات هى من غرر الشعر العربى ملاقاة بعض ممدوحيه للأسد ، وتعفيره إياه بالسوط ؛ وهناك كذلك وصف البديع فى بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدام وبين ملك الحيوان ، ومنه قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أنى   قتلت مناسبى جلدا وقسرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه   سواك ، فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمنى فرارا ،   لعمر أبيك قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر فى عليتهم الترف ، تأنقوا فى اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس ، وكثر فى الشعر وصف تلك الأفيال التى كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها فى مواكبهم . والمها التى كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد ، وقد وصف أبو نواس فى أبيات مشهورة كأساً له قد صورت عليها مها تدريها بالقسى الفوارس ، ووصف المتنبى لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جائمة ، وكان قد هيء ذلك المنظر فى حفل استقبل فيه سيف الدولة سفراء قيصر ، ولابن الرومى عينية بارعة فى وصف يوم طرد تمتع به فى رفقة له ، ومن نوادر أبى دلامة أنه خرج مع الخليفة المهدى وعلى بن سليمان للصيد ، فأخطأ على الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدى ظبياً   شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليما   ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما :   كل امرىء يأكل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان ، ويستعيروا صفاته لما هم بسبيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل إلى أعطانها ، ولوجدهم بوجد الظبية على خشفها قد صرعته نبال الصائد ، أو مزقته براثن السبع الضارى ، يصفون مصرع طفلها وافتقادها إياه وجزعها وتلددها لهلاكه ، فى أبيات كثيرة يبدأونها بقولهم : « وما ظبية . . . » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليها بقولهم : « بأوجع منى يوم بانوا . . . » أو ما إليه ؛ كما كان من التقاليد المتبعة فى أشعار النسيب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيها ، ومقابلة شجوها بشجو الشاعر ، ووصف تهييجها لذكرياته وتجديدها لآلامه ومن محاسن ما قيل فى الحمائم قول أعرابى :

وقبلى أبكى كل من كان ذا هوى   هتوف البواكى والديار البلاقع
وهن على الاطلال من كل جانب   نوائح ماتخضل منها المدامع
مزبرجة الأعناق غر ظهورها   مخطمة بالدر خضر روائع
ترى طرراً بين الخوافى كأنها   حواشى برد زينتها الوشائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها   خواضب بالحناء منها الأصابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا فى أحوالها وذكراً لها فى شعره فهو المعرى الذى بلغ من نفاذ البصر فى شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حبا ، والانكار للؤم طباعه حينا ، وطول التأمل فيها تاملا موضوعياً لاذاتيا ، مالم يبلغه غيره من شعراء العربية

فهو تارة ينعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع ظبى رمل فى كناس ، وتارة يسمح للذئب بالشاة علماً بما بالذئب من داء السغب ، وتارة يبكى للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها ، وطوراً يرميها بمماثلة غيرها من الحيوان فى الجور والعدوان ، وهو ينهى عن خجيعة النحل فى شهدها أو الناقة فى فصيلها فى حائيته الرصينة من لزوم ما لا يلزم

لا يكاد يوجد فى الأدب الانجليزى شىء من ذكر تلك الأنواع من الحيوان سالفة الذكر ، التى احتفى بها أدباء العربية أى احتفاء ، وحفل بذكرها الشعر العربى فى شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد والذئب ، ولا الحمائم والظباء ، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات الأدب وتشبيهاته وكناياته وأمثاله ؛ وذلك لاختلاف البيئة الاقليمية والاجتماعية ، فتلك ضروب من الحيوان لا تكثر فى انجلترا كثرتها فى بلاد العرب ، بل لا يوجد بعضها أصلا ، والانجليز كانوا جوابى بحار لا رحالى صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر ، فلا غرو ألا يمروا بتلك الأنواع إلا عرضا ، وأن يمتلىء أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء غير هذه

إنما يحفل الأدب الانجليزى بذكر الطيور الجميلة المغردة ، ووصفها ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها إلى آماد الخيال البعيدة والطيران معها على أجنحة الشعر ؛ فالأدب الانجليزى غنى بالشعر الطبيعى الذى قصد به الوصف الطبيعى وحده ، وهذا الوصف حافل بوصف الأطيار ، والأدب الانجليزى غنى أيضا بالوصف الطبيعى لم يقصد لذاته ، وإنما يتخلل شتى أغراض القول ؛ وهذا يملوه بذكر الطير أيضاً ، والشعر الانجليزى غنى فوق ذلك بالقصائد التى كتبت خاصة فى مناجاة الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يخل الأدب العربى من شىء من ذلك ، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصابىء للببغاء ، وهو من غرر الشعر العربى ومنه يقول :

عدت من الأطيار ، واللسان … يوهمنى بأنها إنسان

تنظر من عينين كالفصين … فى النور والظلمة بصاصين

تميس فى حلتها الخضراء … مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الانجليزى أغزر وأحفل بتلك الآثار . ولكل من وردزورث وكيتس وشلى وتنيسون وسوينبرن قصائد فى ذلك بالغة غاية السمو العاطفى والكمال الفنى ؛ ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطيار جزيرتهم الغريدة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم إلى الخرافة ، وتصور كولردج طائراً عجيبا سماه الالباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم ، ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله ، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك أصحابه

ومن غرر تلك الأشعار فى الانجليزية قول وردزورث : « أيها القادم السعيد ، ها أنذا أسمعك فأطرب ، أأسميك طائراً أم صوتا محلقا ؟ أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل إلى أنها تمر من ربوة إلى ربوة ، قريبة بعيدة فى آن واحد : ترسل أغاريدك فى الوادى المكسو بالأزهار وضياء الشمس ، فتثير فى نفسى رؤى بعيدة ، مرحبا بك يارسول الربيع ! يامن كنت إليه أستمع إذ أنا صبى بالمكتب . وطالما جعلنى هتافك هذا أتلفت فى كل ناحية باحثا فى الشجيرات والأدواح والسماء ، وطالما ضربت فى الغابات والأعشاب فى نشدانك ، وظللت أنت دائما أملا أو حبا يطول التشوق إليه ولا يرى أبداً ، وما أزال أستطيع الاستماع إليك والانبطاح فى السهل مصيخا إليك ، حتى أستعيد فى مخيلتى ذلك العهد الذهبى »

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضى مقطوعة عذبة فى مناجاة الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معانى وردزورث وتعبيراته وان لم يقل عنه جمالا وابتكارا ، قال : « مرحبا ياغريب الأراك الجميل ، يارسول الربيع ، هاهى ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ويردد الغاب صدى الترحيب بك ؛ إذا مارقش الأقحوان العشب أيقنا أن سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك دورة العام ؟ أيها الزائر المطرب ، إنى معك أرحب بأوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التى ترددها الأطيار فى حواشى الخمائل ؛ ويسمع صبى المكتب صوتك المنىء بالربيع الجديد ، وهو يطوف فى الغاب يقطف آخر زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك ؛ أيها الطائر المطرب : إن خميلك خضراء أبدا ، وسماك أبدا صافية ، وليس فى أغاريدك شجن ولا فى عامك شتاء ، فياليتنى أستطيع الطيران فأخف معك على جناح الحبور . نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض ، رفيق ربيع مستمر »

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة يحفل الشعر الانجليزى ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها ووقف القصائد والمقطوعات على الترنم بحبها غير شائع فى الأدب العربى ؛ فالشعر العربى أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر ، والشعر الانجليزى قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ؛ ولا غرو : فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ، يحمدون الابل التى هى قوام حياتهم والخيل التى هى عمادهم فى معركة الحياة ، ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات إلى الطبيعة ، ولا شديد عطف على أبنائها ، وأشعارهم فى هذا الباب لا تنم عن حب للحيوان أو شغف بحياته ؛ وكان حب الطبيعة والهيام بجمالها من أكبر مميزات الأدب الانجليزى ، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وحبورها من الأسود والذئاب ، فكثر فى الأدب الانجليزى وصف الطيور كما كثر وصف الأزهار والآجام والأنهار ؛ وفى شغف الأدب الانجليزى بهذه واحتفاء الأدب العربى بتلك رمز وبيان للصبغة الاجتماعية التى تربى على الأدب العربى ، والنزعة الطبيعية التى تتجلى فى الأدب الانجليزى

فخرى أبو السعود

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٤ —

لانظن بعد الذى تقدم أن الرئيس ابن سينا قد ادخر وسعا فى اثبات حقيقة مغايرة للجسم ومتميزة عنه كل التميز، وأن فى الكائن الحى شيئا غير لحمه ودمه هو مصدر حركته وحسه وتفكيره. وسواء كان موفقا فى برهنته دائما أم لا فالمهم أنه اعتمد ـ كما اعتمد أنصار المذهب الروحى قديما وحديثا ـ على بعض الظواهر التى لا يمكن تفسيرها تفسيرا ماديا، ورأى أنها تستلزم قوة كامنة ومبدأ خفيا هو النفس. وهذه الظواهر قسمان: جسمية وعقلية؛ ومن الأولى يتطرق الخلل والوهن غالبا الى برهنته. ففى اللحظة التى يتحدث فيها عن الإحساس أو الحركة زاعما أنها لا تفهم الا إن سلمنا بقوة روحية تشرف عليها وتنظمها نراه يبعد عن الآراء الحديثة كل البعد؛ أما حين يعرض للشخصية والتفكير والظواهر النفسية فى وحدتها واتصالها ويقرر أنها تستدعى أصلا غير الجسم وأمرا مخالفا للبدن فانه يدلى بأفكار تقربه من المحدثين بقدر ما تبعده عن زملائه ومعاصريه. وهذا هو الجزء الذى بقى للخلف من برهنته، والذى يجدر بنا أن ندخره ونحتفظ به. ولسنا ندعى مطلقا أنه أثبت وجود النفس بأدلة هى اليقين وحجج لا تقبل النقض؛ فتلك كانت ولا تزال مشكلة المشاكل وموضع الخلاف بين الماديين والروحيين. والمهم أنه اهتدى فى هذا الباب الى أكثر البراهين اقناعا وأعظمها وضوحا.

والآن وقد فرغ من اثبات وجود تلك الحقيقة المخالفة للجسم فلا بد له من أن يحددها ويبين ماهيتها ويعين خواصها ومميزاتها. وليس تحديد النفس من الأمور الهينة؛ فقد كان مثار اختلافات كثيرة بين الفلاسفة الأقدمين، ومبعث أخذ ورد طويلين بين أفلاطون وارسطو بوجه خاص. ولم يكن ابن سينا بعيدا عن هذه الآراء المتباينة والمذاهب المتفرقة، فان الباب الأول من كتاب النفس لارسطو، الذى يعد حجته الأولى ومصدره الرئيسى، موقوف فى جملته عليها وخاص بعرضها ومناقشتها(١). وسيراً على سنته يعقد فى كتابه الشفاء فصلا «فى ذكر ما قاله القدماء فى النفس وجوهرها ونقضه (٢)» وفيه يلخص كل ماجاء فى الباب الآنف الذكر. ليبين مذاهب الفلاسفة السابقين، ويناقشها على نحو يشبه كثيراً ماصنعه أرسطو. واختلاف هؤلاء الفلاسفة فى رأيه راجع إلى أن للنفس أثرين ظاهرين هما الحياة والحركة من جانب والادراك من جانب آخر، ففريق بهره الأثر الأول وحاول تجريد النفس بواسطته فقط، وفريق آخر لم يفهم فى طبيعتها إلا الادراك، وفريق ثالث رأى أن يجمع بين هذين الجانبين. ويراد بالفريق الأول كل أولئك الذين عدوا النفس مصدر الحياة والحركة الذاتية، فخلطوا بينها وبين الدم الذى إن سفح كان الموت، أو بينها وبين الجواهر الفردة ـ أو الهباء كما يسميه ابن سينا ـ التى كان يظن أنها متحركة دائما. وأما الفريق الثانى فيعتقد أن الشىء لايدرك سواه إلا إذا كان مبدأ له ومتقدما عليه؛ ولذلك عدوا النفس واحداً أو جملة من المبادىء التى يختلف نوعها وعددها تبعا للفلاسفة فظنوا أنها نار أو هواء أو أرض أو ماء أو بخار؛ أو جعلوها مركبة من العناصر الأربعة كما ذهب إلى ذلك أنباء دقليس زعما منه أن الشبيه هو الذى يدرك الشبيه، فلا بد أن يكون فى النفس جزء من الأشياء التى تدركها. وأما الفريق الأخير فيرد النفس إلى العدد لأن الأعداد مبدأ الوجود والحركة والادراك (١)

واضح أن ابن سينا يشير فى كل هذا إلى آراء الفلاسفة السابقين لسقراط فى النفس، أمثال طاليس وديمقريط وفيثاغورس وإن كان لم يصرح بأسمائهم. ولم يقنع بتلخيص هذه الآراء، بل ناقشها مناقشات طويلة عنيفة نكتفى بأن نسرد أمثلة منها. فيعترض على الفريق الأول أنه لم يفسر السكون، ذلك لأن النفس إن كانت متحركة بذاتها فكيف تسكن. على أنه ليس من السهل على هذا الفريق أن يحدد نوع الحركة الذى تقوم به النفس. ويرفض المذهب الذرى الذى أثبت بطلانه فى نواح أخرى. ولا يخفى تهكمه بأولئك الذين يزعمون أن الكائن لايدرك إلا ماصدر عنه ملاحظا أن الانسان يعلم أشياء كثيرة لم يقل أحد إنه أصل لها. وليس بصحيح مطلقا أن الشبيه فقط هو الذى يدرك الشبيه، لانه لو سلم هذا كان معناه أن العالم العلوى لايعرف من أمر العالم السفلى شيئا (٢)

ليس هناك شك فى أن وقوف ابن سينا على هذه الآراء ومناقشته لها قد هيأت له الفرصة لتخير أحسن تعريف يلتئم مع طبيعة النفس ووظائفها. إلا أن هناك عاملين قويين يتقاسمانه. وصوتين عظيمين يتجاذبانه، وهو بينهما فى حيرة واضحة وتردد ظاهر أو تناقض مكشوف أحيانا. فحين يقرأ عبارات أرسطو الأخاذة وتحليلاته المنظمة واعتراضاته المفحمة لايلبث أن يرددها ويسير وراءها. وحين يسمع أفلاطون ينادى بجوهرية النفس وتميزها التام عن البدن

---

(1) Aristote, De l'ame, I, 2-5.

(٢) ابن سينا، الشفاء، ج ١ ص ٢٨٢

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤.

يستولى عليه هذا النداء . ويصادف هوى فى نفسه وإن كان لا يتفق مع آراء أرسطو . وقد يقف موقفا وسطا بين هذين الطرفين المتقابلين محاولا الجمع والتوفيق .

يبدأ ابن سينا فيلاحظ أن الأجسام الطبيعية مكونة من هيولى وصورة . فأما الهيولى فهى تلك المادة التى يتكون منها الجسم كالخشب الذى يصنع منه الكرسى أو كالحديد الذى يعمل منه السيف . وأما الصورة فهى ما به تتميز الأجسام بعضها عن بعض وتتحدد ماهيتها وتقوم بوظائفها . فالأرض لا تفترق عن الماء بمادتها بل بصورتها ، والانسان إنسان بصورته لا بمادته المكونة من العناصر الأربعة ، والسيف لا يقطع بحديده بل بحدته . وبما أن الكائن الحى جسم طبيعى فهو مركب من هيولى وصورة ، والأخيرة هى التى تميزه من الكائنات غير الحية إذ أنها مصدر حياته وحسه وحركته . فالنفس إذن صورة الجسم . والصور كمالات كلها وكمالات أولية ، لأن وجود الأشياء المختلفة لا يكتمل إلا بها . وليست النفس كمالا أوليا لجميع الأجسام ، بل للأجسام الطبيعية فقط التى تمتاز بالحياة عن الأجسام الصناعية وتشتمل على آلات وأعضاء تقوم بوظائف متباينة . فهى كمال أولى لجسم طبيعى آلى (١)

يخيل إلينا أن القارىء سيدرك على الفور المصدر الذى أخذت عنه هذه الأفكار . فان ابن سينا لم يصنع شيئاً أكثر من أنه لخص الفصلين الأول والثانى من الباب الثانى من كتاب النفس لأرسطو (٢) ولم يكتف بأن يعتنق آراء الفيلسوف اليونانى ، بل أبى إلا أن يردد بعض ألفاظه وتعبيراته . فلفظ « كمال » الذى يتشبث به ويبنى عليه تعريفه ترجمة صحيحة لكلمة « أنتليشيا » اليونانية ، وقوله إن « النفس صورة الجسم » ترجمة أخرى لتعبير أرسطى مشهور (٣) فاذا كان التعريف السابق ناقصاً أو معيباً من بعض نواحيه فالذنب فى هذا لا يرجع إلى الفيلسوف العربى وحده ، وإنما يشاركه فيه أستاذه اليونانى صاحب الفكرة الأولى . وإذا تركنا جانبا لفظة « كمال » أو « أنتليشيا » وما فيها من غموض فإنا لا نلبث أن نصطدم بهذه الجملة : « النفس صورة الجسم » . تعبير رائع أخاذ من غير شك ، ولكنه لا يقدم كثيراً فى تفهم حقيقة النفس وتحديد ماهيتها . وكم عودنا أرسطو هذه التعبيرات الحلوة التى يدمج فيها بعض المشاكل دون أن يحلها وفكرة الصورة من الأفكار الجوهرية فى مذهبه إلا أنها فى الوقت نفسه من أدق نقطه وأصعبها تلاؤما مع نزعته الواقعية . فان من يقول بالصورة يدنو من المثالية الأفلاطونية وإن تحامل عليها . والواقع أن أرسطو لم يأل جهدا فى نقد مثالية أفلاطون التى تقول إن النفس حقيقة متميزة من الجسم . ويصرح بأن ما ذهب إليه الافلاطونيون والفيثاغوريون من أن النفس جوهر روحى أشبه بالخيال منه بالحقيقة ولا يستطيع أن يتصور أن نفسا ما تأتى من الخارج وتحل فى جسم ما وكيف نقبل هذا ومؤداه أن النفس تدخل الجسم كما يوضع مظروف فى ظرف خاص ؛ ومن المقرر أن المادة غير قابلة للعزل عن صورتها (١) ومع هذا فإن أرسطو يفسر النفس تفسيرا أدخل فى باب المثالية من فرض أستاذه ؛ فانه يعتبرها صورة ، وليست الصورة شيئا أو مادة بأى شكل من الأشكال . تناقض واضح ومنتظر من كل فيلسوف واقعى لا يزال يحتفظ بقدر من المثالية .

وكأن ابن سينا قد أدرك ما فى التعريف السابق من نقص بدليل ما لاحظه من أنه لا يفسر النفس من حيث هى وإنما يعرفها من ناحية صلتها بالجسم فقط (٢) . لهذا أخذ على عاتقه أن يتلافى هذا النقص وأن يوضح ذات النفس مميزا إياها بخاصتين رئيسيتين هما الجوهرية والروحية . وفى حديثه عن هاتين الخاصتين يعرب لنا عن جدلى ماهر ومحلل دقيق وباحث عميق . ونحن نعلم أن الجوهر والعرض متقابلان بل ومتناقضان وإن كان تناقضهما غير صحيح ، فإن كل ما ليس بجوهر عرض . فاذا استطعنا أن نثبت أن النفس ليست واحدا من الأعراض لزم من هذا أنها جوهر قائم بذاته . ولعل أول شىء ينفى عنها العرضية هو أنها مستقلة كل الاستقلال عن الجسم ؛ وهذا الأخير محتاج إليها تمام الاحتياج فى حين أنها لا تحتاج إليه فى شىء . ولن يتعين جسم ما ويتحدد إلا إذا اتصلت به نفس معينة . وعلى عكس هذا النفس هى هى سواء اتصلت بالجسم أم لم تتصل به . ولا يمكن أن يوجد جسم بدون النفس مع أن هذه تستطيع أن تعيش بمعزل عنه ؛ وما دامت هى مصدر حياته وحركته فلا وجود له بدونها . ولا أدل على هذا من أنه يتغير ويصبح شبحا من الأشباح إذا ما انفصلت عنه . فالنفس إذن جوهر قائم بذاته لا عرض من أعراض الجسم (٣) . وهنا يبتعد ابن سينا عن أرسطو بعدا واضحا ؛ فإن من المبادىء المسلمة لدى الأخير أن ليس ثمت وجود مستقل للصورة بمعزل عن مادتها .

وليس القول بجوهرية النفس من الآراء التى ابتكرها ابن سينا فقد سبقه إلى هذا أفلاطون وتوسع فيه رجال مدرسة الاسكندرية غير أن هناك فارقاً بينه وبينهم ، فبينما هؤلاء يعدون النفس جوهرا لا غير يقرر هو أنها جوهر وصورة للجسم فى آن واحد ، وفى هذا من التعارض ما فيه وإن كان يفسره بأنها جوهر فى ذاتها وصورة من ناحية صلتها بالجسم . والسر فى هذا التعارض الذى وقع فيه الفارابى من قبل أن الفيلسوفين العربيين متأثران بمصدرين مختلفين ؛ فقد أخذا

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ – ٢٨٠ – رسالة فى القوى النفسانية ، ص ٢٤ – ٢٦
(2) Aristote. De l'âme, II. 1-2.
(3) I bid., 412 a, 20.

(1) I bid., 407 b, 13.
(٢) ابن سينا ، الشفاء ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

فكرة الصورة عن أرسطو كما أخذا فكرة الجوهر عن أفلاطون؛ ولم يريا أية غضاضة فى أن يطلقا هاتين على النفس ، خصوصاً وقد ذلل لهما أرسطو ذلك؛ فانه لم يستعمل كلمة «جوهر» فى معنى محدود فيطلقها على المادة تارة والصورة أخرى وعليهما معاً مرة ثالثة. ومن الغريب أن صاحب كتاب الربوبية الحزانى يفسر عبارة ارسطو المشهورة: «النفس صورة الجسم» تفسيراً يشبه كل الشبه ماجاء به فلاسفة الاسلام؛ ولعل هؤلاء تأثروا به وخلطوا على نحو ماصنع الأرسطية والافلاطونية (١) ولكنه لايفوتنا أن نلاحظ أن ابن سينا كلما بعد عن جو الآراء الارسطية وخلص إلى نفسه عد الروح جوهرا فحسب ولم يشر قط إلى صورتها. فاذا كان يعرفها فى الشفاء والنجاه اللذين يحاكى فيهما جماعة المشائين أنها كمال وصورة للجسم فإنه لايتحدث عنها فى كتاب الاشارات الذى يبدو فيه استقلاله وشخصيته إلا باسم الجوهر والجوهر الروحى القائم بذاته. وفى هذا مايبين لنا كيف غلبت أفلاطونيته على انتسابه لأرسطو فى هذا الموقف.

«يتبع» ابراهيم مدكور

(١) كتاب الربوبية، ص ٤، ٧، ٢٤.

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

— ٥ —

قالت الزهرة المائتة للزهرة الخالدة:

— لقد تمتعنا بالحياة معاً على مرج واحد، وغداً تلفحنا نسمات الربيع المودع فتذوى وريقاتى وأموت، وتبقين أنت خالدة فى الحياة

ستقبلك الشمس مشرقة ومغربة فتشرب من وجنتيك دموع الصباح وأنت مصغية الى أناشيد الأطيار

ما أحلى الحياة وما أجمل البقاء! ويلاه من قضاء أبرم على حكم الفناء!

فأجابت الزهرة الخالدة: — كل شيء يتغير ويتطور وأنا وحدى أشهد فى جمودى نشوء الطبيعة وتحولها

تمر بى لفحات القر وتداعبنى نفحات الصيف فلا الشتاء يميتنى. ولا الربيع يحيينى، وأنا أحمل تاجى الأصفر الدائم فلا أخاف الموت ولا أشعر بالحياة

تمر بى أسراب النحل فلا أسمع لها طنيناً، ويجانبنى الفراش المتطاير فلا تلمسنى جناحاه

يهب النسيم فيمر بى سراعاً دون ان يستوقفه منى أريج يتضمخ به، وتقترب الغادة منى ثم تبتعد وهى تحدجنى بلفتات الاحتقار

من يقطف زهرة القبور، زهرة الخلود الصفراء الدائمة الذبول؟

تمايلى على ساقك النضير يازهرة الربيع، وارفعى أبصارك إلى السماء شاكرة، سقياً لك! فانك ستحلين رموز الموت بعد أن عرفت أسرار الحياة

أما أنا الضحية البريئة، فلسوف أبقى عرضة لحر النهار وبرد الليل، تضربنى شمس يوليه وتعانقنى ثلوج يناير، سوف أبقى فى الحياة لأسمع فى الليل أنين العظام البالية فى القبور

* * *

ستموتين يازهرة الربيع فترتفع روحك مع زكى عبيرك إلى السماء

اذهبى بسلام واحملى توسلى إلى العلى، قولى للذى خلقنا: إن دوام البقاء على الأرض ضربة لا عطية، توسلى إليه ليدعونى إلى مصدر كل سعادة وكل حياة (ف. ف)

١٣ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الاستاذ فليكس فارس

لسعة الأفعى

واستسلم زارا للكرى يوما تحت شجرة التين ، وكان الحر شديداً فستر وجهه بساعده فأتت أفعي ولسعته فى عنقه فصرخ متألماً وانتفض محدقاً بالأفعى فعرفت عينيه وتململت لتنصرف ، فقال لها زارا : — , لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكرى ، لأنك نبهتني فى الزمن المناسب لأقوم بسفر بعيد ؛

فأجابت الأفعى وفي صوتها غنة الأسى : — بل سفرك قريب فزعافى قاتل

وابتسم زارا وقال : وهل لزعاف الأفعى أن يقتل تنيناً ؟ خذى سمك ، إننى أعيده اليك فلست من الغنى على ما يسمح لك بتقديمه هدية لى .

وسارعت الأفعى الى الالتفاف حول عنق زارا تلحس جرحه.

وقص زارا هذه الحادثة يوما على أتباعه فقالوا له : وما هو المغزى الأدبى لهذه القصة ، فاجاب : — إن أهل الصلاح والعدل يدعوننى هداما للمبادىء الادبية فقصتى لا تتفق وهذه المبادىء .

اذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله اليكم ، والأجدر بكم ألا تحتقروا أحداً ، تظاهروا بالغضب ، واذا وجهت اللعنة اليكم ، فلا يسرنى أن تمنحوا البركة ، إن ما يسرنى هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضا ، واذا ما أنزلت بكم مظلمة كبيرة فبادلوا المعتدى مثلها وارفقوها بخمس مظالم صغرى ، لأنه ما من مشهد أشد قبحا من مشهد من لا يخضع إلا للظلم .

إن اقتسام المظالم بالتساوى إنما هو مساواة بالحق ، فهل كنتم تعرفون هذا من قبل ؟ من يقدر على إرهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضا .

لئن ينتقم الانسان قليلا ، فذلك أدنى إلى المعروف وليس من الانسانية أن يترفع المظلوم عن الانتقام . إننى لأنفر من اقتصاصكم إذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدى ، وإن من يسند الخطأ الى نفسه لأنبل ممن يعلنون فى كل آن أن الحق فى جانبهم ، وأخص من هؤلاء من كانوا حقيقة على صواب . ان أغنياء الروح لا يفعلون هذا .

اننى أكره عدالتكم الباردة ، فان فى عيون قضاتكم ازورار الجلاد ولمعان سيفه . فأين العدالة تلمح فى عينيها الصفاء . أوجدوا لى الحب الذى لا يكتفى بحمل كل أنواع العقاب ، بل يحمل أيضا جميع الخطايا .

أوجدوا لى العدل الذى يبرىء الجميع ليحكم على الانسان الذى يدين .

أتريدون أن أذهب الى أبعد مما قلت فأعلن لكم أن الكذب نفسه يصبح محبة للانسانية فى نفس من يتوق الى إقامة العدل .

ولكن هل بوسعى أن أقيم العدل بكل اخلاص . وكيف يمكننى أن أتوصل الى اعطاء كل ذى حق حقه . اذن ، لأكتفين بان أعطى أصحاب الحق حق الخاص .

وأخيراً ، حاذروا ظلم المنفرد ، اذ ليس بوسعه أن ينسى وأن يبادل الظالمين ظلما ، وما المنفرد الا بئر عميقة يسهل على من يشاء أن يلقى فيها حجراً . ولكن من يقدر أن يستخرج هذا الحجر اذا بلغ قعر البئر السحيق ؟

احترسوا من اهانة المنفرد ، واذا أنتم حقرتموه فاجهزوا عليه بقتله .

هكذا تكلم زارا . . .

الفصل الثانى

الطفل حامل المرآة

ورجع زارا الى الجبال ، الى عزلة كهفه ليحتجب عن الناس كالزارع ألقى بذوره فى أتلام أرضه وبات يتوقع نبتها ، ولكنه ما لبث أن حنت جوارحه الى أحبابه اذ كان عليه أن يمنحهم بعد كثيرا من الهبات وأصعب مايلقى المحب اضطراره الى قبض يده اجابة لداعى محبته وتفاديا للمنة فى عطائه .

ومرت على المنفرد الشهور والأعوام وحكمته تزداد نمو فتزيده ألما باتساع آفاقها .

وأفاق يوما ، من نومه قبل انفلاق الفجر واستغرق فى تفكيره وهو ممدد على فراشه وتساءل قائلا :

— لماذا أرعبنى هذا الحلم الذى استفقت منه مذعوراً ؟ رأيت كأن ولدا ، يحمل مرآة ، اقترب منى وهو يقول :

— انظر فى هذه المرآة يازارا

وما نظرت الى المرآة حتى صرخت وخفق قلبى خفوقا «شديدا» . لأن ما انعكس لى فى المرآة لم يكن وجهى بل وجها تقطبت أساريره بضحكة شيطان ساخر

والحق ما يفوتنى تعبير هذا الحلم وإدراك ما نبهت اليه فان تعاليمى مشرفة على خطر ، والزوان يريد أن ينتحل صفات الحنطة . لقد استأسد أعدائى فشوهوا تعاليمى حتى أصبح أتباعى يخجلون مما وهبتهم .

لقد فقدت صحبى وآن لى أن أفتش عمن فقدت

وانتفض زارا لا كمن استولى الذعر عليه بل كمأخوذ برؤى وكشاعر هزه شيطانه . فوجم نسره وأفعاه وحدقا بوجهه وقد لاحت بوادر السعادة عليه كتباشير الفجر . فقال لهما :

— ماذا حدث لى ؟ أفما تريان اننى تغيرت ؟ افما تحسان ان الغبطة قد نزلت على كأنها عصفات الرياح ؟

لقد جنّ شعورى بهذه السعادة فلن يسلم بيانى من اختلال هذا الشعور ، ان سعادتى لم تزل فى حداثتها فتذرعا بالصبر معى عليها

لقد أوجعتنى سعادتى فليكن أساتى كل من أرهقتهم الأوجاع

إن فى وسعى الآن أن أنحدر الى مقر صحبى والى مقرّ أعدائى

فقد أصبح زارا قادراً على استطراد القول والاحسان الى من يحب

لقد آن لحبى أن يتدفق كالذى يندفع من الأعالى الى الأعماق ، ويتجه من الشرق الى المغرب .

إن نفسى تندفع مرغية مزبدة فى الوديان متملصة من الجبال الصامتة تصخب فوقها عواصف الآلام . ولطالما تعللت بالصبر وعلقت أبصارى على بعيد الآفاق ، لقد أرهقتنى العزلة فما أطيق السكوت بعد

أصبحت وكأننى بأجمعى فمٌ أو هدير جدول يتحدر من شامخات الصخور . أريد أن أقذف بكلماتى الى الأغوار . فيجرى نهر حبى فى المفاوز البعيدة ، ولن يضل هذا النهر سبيله الى مصبه فى البحار

ان فى داخلى بحيرة وحيدة قانعة بنفسها . غير ان نهر محبتى يجتذبها فى مسيره ليقطع معها السيول ويترامى واياها فى لجة البحر

اننى أتبع مسالك لم أعرفها من قبل وألهمت بيانا ، جديدا ، بعد أن اتعبتنى اللهجات القديمة التى ترهق كل المبدعين وقدامتنع على فكرى أن يقتفى رواشم النعال المقطعة

مامن لغة إلا وأراها بطيئة تقصر عن مجاراة بيانى

سأقفز الى صهوتك أيتها العاصفة فألهبك أنت أيضاً بسوط سخريتى

أريد أن أقطع أجواء البحار كهتفة مسرة وحبور الى أن أستقر على الجزائر السعيدة حيث يقيم أحبابى ، وبينهم اعدائى أيضاً ، لشد ما أحب الآن جميع من يتسنى لى أن اوجه إليهم الكلام . وسيكون لهؤلاء الاعداء أيضاً قسطهم فى إيجاد غبطتى

عندما أتحفز لاعتلاء أشد جيادى جموحاً لا أجد لى معيناً أصدق من رمحى متكأً أرتفع عليه

هو رمحى أهدد به أعدائى ، ولكم يستحقون ثنائى اذا ماتمكنت من طرح هذا الرمح من يدى :

لقد طال اصطبار غيومى بين قهقهة الرعود وقد آن لى أن أرشق الأعماق بقذائف برَدَى .

إن صدرى سيتعاظم بانتفاخه حتى يزفر بالعاصفة الهائلة على الشامخات وهكذا سأفرّج عنه

فان سعادتى وحريتى سيندفعان اندفاع العواصف ولكننى أتمنى لو يحسب أعدائى أن ما يزمجر فوق رؤوسهم إنما هو روح الشر لا روح سعادة وحرية

وأنتم أيضاً أيها الصحاب سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتى الكاسرة ولعلكم تولون هاربين منها كما يهرب الأعداء

ليت لى أن أستدعيكم إلىّ بحنين شبابة الرعاة ، وليت تتعلم لبؤة حكمتى أن تزأر بنبرات العطف والحنان ، فلطالما وردنا سويا من مناهل العرفان ، ولكن حكمتى الوحشية تمخضت بآخر صغارها فى الجبال السحيقة بين الجلامد الجرداء ، وهى الآن تطوف بجنونها الصحارى القاحلة مفتشة على المروج الناضرة

إنها لشيخة وحشية هذه الحكمة التى تقصد إنزال أعز مالديها فى مروج قلوبكم الناضرة

هكذا تكلم زارا .

(يتبع) فليكس فارس

احياء النحو

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

لا شك فى أن نحونا العربى أصبح علماً جافاً يورث النظر فيه السأم والملل. ولا يسعنى مع هذا أن أنكر تلك الجهود الموفقة التى بذلها الأستاذ الجليل على الجارم فى تسهيل النحو وتجميله فى كتاب (النحو الواضح) فصارت به دروس النحو الأولى سهلة مقبولة لدى الناشئين، توتى أكلها كل حين بإذن ربها، وتقرن العلم بالعمل قرناموفقاً، ولكن نحونا العالى لا يزال فى الحالة السيئة التى وصل اليها من يوم أن أخذ من أحضان علم الأدب الذى نشأ النحو فى ظله، وترعرع فى أرضه الخصبة.

وكان الامام على بن عيسى الرمانى أول من انتزع النحو من حضنه بين الأدب وعلومه؛ وقد ولد الرمانى سنة ٢٧٦ ﻫ وأخذ عن الزجاج، وابن السراج، وابن دريد، ثم برع فى علم النحو حتى قال أبو حيان التوحيدى: لم ير مثله قط علما بالنحو، وغزارة بالكلام، وبصراً بالمقالات، واستخراجاً للعويص، وإيضاحا للشكل، مع تأله وتنزه. ودين وفصاحة، وعفاف ونظافة، وكان يمزج النحو بالمنطق، حتى قال الفارسى إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شىء - قلت: النحو ما يقوله الفارسى، ومتى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر، لم يعهد فيها شىء من ذلك.

على أن النحو لم يزل يبعد عن الأدب بعد الرمانى شيئا فشيئا، حتى أصبح العالم بالنحو لا يدرى شيئا من الأدب، ولا يستطيع أن يقوم لسانه أو قلمه إذا نطق أو كتب، وحتى أصبحت بعض الشواهد النحوية تروى مغلوطة وتمضى عليها أزمان طويلة فلا يتنبه إلى غلطها، ولا يعرف مع هذا قائلها، وليس هذا إلا من فصل النحو عن الأدب، والعناية بحفظ قواعده ونكاتها الفلسفية، وإهمال صبغته الأدبية التى كانت تراعى فى عهد ازدهاره.

وإني أسوق من ذلك هذا الشاهد الذى يذكر فى باب التوكيد

لكنه شاقهُ أن قيل ذا رجبُ   يا ليت عِدَّةَ حول كلِّه رَجَبُ

برفع كلمة (رجب) فى آخر البيت. فهذا الشاهد لا يعرفون قائله إلى الآن، وهم مخطئون فى رفع كلمة (رجب) فى آخر البيت لأنها من قصيدة رويها على النصب لا على الرفع. وقد جاء فى كتاب الكامل للمبرد وشرحه رغبة الآمل للشيخ المرصفى (ص ٢١٤ ج ٧) أن عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى كان يؤم بالناس فى مسجد الأحزاب بالمدينة، فلما وليها الحسن بن زيد منعه أن يؤم الناس فى هذا المسجد، فقال له: أصلح الله الأمير، لم منعتنى مقامى ومقام آبائى وأجدادى من قبلى؟ قال: ما منعك منه إلا يوم الأربعاء، يريد قوله:

يا لَلرجال ليوم الأربعاءِ أمَا
ينفكُّ يحدث لى بعد النُّهَى طَرَبَا
إذ لا يزالُ غزال فيه يفتننى
يأتى إلى مسجد الأحزاب مُنتقِبَا

يُخبِّرُ الناسَ أن الأجرِ همَّتُهُ   وما أتى طالباً للأجر محتسبا
لو كان يطلب أجراً ما أتى ظُهُراً   مُضمَّخاً بفتيت المسك مختضباً
لكنه شاقه أن قيلَ ذا رجب   ياليت عِدَّة حولٍ كلِّهِ رجَبَا
فإن فيه لمن يَبغى فواضِلَهُ   فضلا وللطالب المرتاد ما طلب
كم حُرَّةٍ دُرَّةٍ قد كنتُ آلفُها   تسدُّ من دونها الابوابَ والحجب
قد ساغ فيه لها مَشْىُ النهار كما   ساغ الشرابُ لعطشان إذا شرب
يقال شهر عظيمُ الحقِّ فى سَنَةٍ   يهوى له كلُّ مكروب إذا كرب
فاخرجنَ فيه ولا ترهبْنَ ذا كذب
قد أبطل الله فيه قول من كذب

وكانت ولاية الحسن بن زيد بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب المدينة سنة ١٦٠ ﻫ فى عهد أبى جعفر المنصور ثانى ملوك العباسين

فإحياء النحو عندى بأن تعاد له صبغته الأدبية التى كانت ل وليس إحياؤه بتطويل الكلام فى أن الفتحة ليست علامة إعراب كما قرأته فى بعض الكتب الحديثة، فإن هذا مما يزيد فيه الطين بلة، ولا يؤدى بنا إلى الاصلاح المنشود له

عبد المتعال الصعيدى

تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

وقد وضع الاسلام حداً لهذه الوحشية واستهجنها القرآن ونها عنها فى قوله (١) (ولاَ تَقتُلوا أَولاَدَ كُمْ خَشيَةَ إملاَقٍ نحنُ نَرزُقهُمْ وإيَّاكمْ إنَّ قتلَهُمْ كانَ خِطأً كبيراً) وربما كانت الأبيات التالية تفصح عن هذا تمام الإفصاح، وفيها نرى صراعا عنيفاً بين رجل وبين الفاقة، ويحمد الله أن كان مصرع ابنته قبل مصرعه حتى لا تكون تحت رحمة أقاربها (٢) :

لوْلاَ أُمَيْمَةُ لمْ أجزَعْ منَ العَدَمِ
ولمْ أقاسِ الدُّجَى فِى حِنْدِسِ الظلَمِ
وَزَادَنِى رَغْبَةً فى العَيْشِ معرِفتِى
ذُلَّ اليَتِيمة يجفوهَا ذَوُو الرَّحِمِ
أحاذِرُ الفقرَ يوْماً أنْ يُلِمَّ بِهَا
فيهْتِكُ السِّترَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ
يهْوَى حيَاتى وأهوَى موْتَها شغَفاً
والموْتُ أكْرَمُ نزَّالٍ على الحُرُمِ
أخشَى فَظَاظَةَ عمٍّ أو جفاءِ أخٍ
وكنْتُ أُبْقِى عليهَا منْ أذَى الكلِمِ (٣)

(١) الاسراء (١٧ : ٣١) وقد ورد فى القرآن الكريم فى موضع أخر (التكوير ٨ - ٩) يوم الموقف والسؤال (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت)

(٢) الحماسة ١٤٠ . وبالرغم من أن هذه الأبيات لم تنظم فى الجاهلية وانما ترجع إلى عصر متأخر فى الاسلام الا أنها تمثل هذه النزعة الوثنية تمام التمثيل وقد عاش ناظمها اسحق بن خلف أيام الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) وقد تبنى بنت أخته إذ ماتت ابنته . راجع كذلك الكامل للمبرد ص ٧١٥ ، وقد ترجم المقطوعتين سير شارلز ليل فى كتابه Anc. Ar. Poetry, P. 26

(٣) ذكر المبرد قصيدة فى هذا المنى وهى التى أشار اليها نيكلسون وترجها ليل:

أمست أميمة معموراً بها الرجم لقي صعيد عليها الترب مرتكم
ياشقة النفس ان النفس والهة حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أختى عليها أن تقدمنى الى الحمام فيبدى وجهها العدم
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى يهدا الغيور اذا ماأودت الحرم
للموت عندى أياد لست أنكرها أحب سرورا وبى مما أتى ألم
(المترجم)

ويقول آخر فى هذا الموضوع : (١)

لوْلا بُنيّاتٌ كزُغْبِ القَطا رُدِدْنَ منْ بَعْضٍ إلى بَعْضِ
لكانَ لى مضطَرَبٌ واسِعٌ فى الأرض ذاتِ الطولِ والعَرْضِ
وإنّمَا أوْلادُنا بيننَا أكبادُنا تَمشى على الأرضِ
لوْ هبّتِ الرِّيحُ على بعْضِهِمْ لامتنعَتْ عيني منَ الغمْضِ (٢)

***

الحب والبغض Adi et Amo هاتان الكلمتان هما جماع الآداب البدوية ؛ لأنه إذا كان العربى - كما رأينا - صديقاً حميما لخلانه ، فانه عدو لدود لا يهدأ له بال إذا عادى ؛ تضطرم نفسه وتتأجج بنيران الحقد والبغضاء ، وكانوا يعدون من لا يرد اللطمة التى أصابته جباناً ، ويستحيل على الرجل الكريم المحتد منهم أن ينسى ضرراً لحقه حتى يثأر لنفسه وينتقم لها ، وأنشد بعض الأعراب ، - وقد آلمه أن يغتصب المغير إبله - أبياتاً يقول فيها عن عشيرته التى لم تساعده فى استرجاعها :

لكنَّ قومى وإن كانوا ذوِى عدَدٍ
ليْسُوا من الشرِّ فى شيءٍ وإنْ هانا
يَجزُونَ من ظُلمِ أهلِ الظلمِ مَغفِرةً
ومن إساءةِ أهلِ السوء إحسانا (٣)

والبيت الثانى الذى قد يسرف فى مدح من يتصف به الاخلاقيون المسيحيون والمسلمون ألحقَ بمن قيل فيهم عاراً لا تمحى آثاره ، وإن المنهج البيِّن فى معاملة الأعداء ليتضح على أتمه من الأبيات التالية :

إذا المرءُ أوْلاكَ الهوَانَ فأوْلِهِ
هوَاناً وإن كانتْ قَرِيباً أواصِرُهُ
فانْ أنتَ لمْ تقدِرْ على أن تُهِينَهُ
فَذَرْهُ إلى اليَوْمِ الذى أنْتَ قادِرُهُ

(١) هو حطان بن المعلى (المترجم)

(٢) Charles Lyall : Anc. Arabian Poetry, P. 28. والحماسة ص ١٤٢

(٣) الحماسة ص ٧

وقارِبْ إذا ما لمْ تَكنْ لكَ حِيلة
وصَمّمْ إذا أيقنتَ أنكَ عاقِرُهْ [١]

وفوق كل هذا فان الدم يدعو الدم ، وهذا الارغام يظل يلاحق ضمير العربى الوثنى ؛ وكان الانتقام عندهم ضرورة طبيعية اذا لم تجب حرمتهم النوم والشهية والصحة ، كما كان ظمأ محرقاً لا يطفىء أواره أو يبل لهيبه سوى الدم ، ومرضاً من أمراض الشرف يمكن تسميته بالجنون ، وإن كان قليلا ما يمنع الرجل من أداء عمله فى هدوء وتبصر . وكانوا يثأرون من القاتل إن أمكن أو أحد أقاربه وأبناء عشيرته . وإذ ذاك تستقر الأمور فى نصابها ويندمل الجرح ، إلا أن هناك حالات كان الانتقام فيها فاتحة قتال دموى دائم . تشتبك فيه القبيلة بأجمعها صغيرها وكبيرها ، كما حدث ذلك فى مقتل كليب الذى أدى إلى حرب زبون ظلت الرماح فيها مشتجرة زهاء أربعين عاما بين قبيلتى بكر وتغلب ، ويقبل أقرب أقرباء القتيل الدية كفدية له وتدفع عادة جمالا وهى تعد مسكوكات الاقليم ، وان قبولهم ذلك ليوحى إليهم دائماً أنهم فضلوا اللبن (النياق) وآثروه على الدم [٢] ، وان الشعور العربى الحق ليشرئب من خلال هذا البيت الذى يقول فيه الشاعر :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً
على قضاء الله ما كان جالبا [٣]

وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تظل شاخصة على قبره وتسمى « الهامة » أو الصدى ، وتصيح : « اسقونى ، أسقونى » حتى يؤخذ لها الثأر ممن اعتدى على صاحبها ، ولكن الأفكار الوثنية عن الانتقام كانت مرتبطة بالماضى أكثر من ارتباطها بالمستقبل ولم يكونوا يحسبون للحياة الأخرى قيمة كبرى أو لم يكونوا يعلقون عليها أية أهمية بجانب الذكريات المتأصلة عن الحب الأبوى ، والشفقة البنوية وأخوة السلاح .

ومع أن النفس تستهجن هذه الطريقة المتبعة فى الانتقام والأخذ بالثأر إلا أن مغبتها إيجابية فى صد أولئك العابثين الذين لولا تلك الخطة — لأطلقوا لغرائزهم المجرمة العنان ، ولم يكبحوا لهاجماحا ، إذ لا يخشون إذ ذاك رادعاً أو إلا ، ولا يصدهم إرهاب ،

(١) الحماسة ٣٢١
(٢) راجع ما كتبه Ruckert فى ترجمته للحماسة ج ١ ص ٦٦ وما يليها
(٣) الحماسة ٣٠

أما من وجهة نظرنا نحن فان قيمة هذا الأمر لا تهمنا من حيث هو أحد الأسس الأولية فى إقامة دعائم صرح المجتمع العربى بقدر ما تهمنا من أنه يكوّن عنصرا من عناصر الحياة العربية والأدب العربى ، ولذلك فقد اخترت من كتاب الأغانى قصة تنعكس فيها هذه الصور بأكملها ، تلك هى قصة قيس بن الخطيم وكيف انتقم ممن اغتالوا أباه وجده [١] .

***

والقصائد التى يرد فيها ذكر الانتقام والأخذ بالثأر للدم المهراق تكشف القناع عن كل ما هو مستحسن ومستهجن فى العربى الوثنى ، فنجده من ناحية يصور لنا شجاعته وعزمه واحتقاره للموت وخوفه من العار وتبجيله الموتى واحترامه إياهم وعطفه الجدى على ذوى قرباه ومن كانوا من لحمه ودمه ، ومن ناحية أخرى نجده يصور نفسه المضطغنة ، وقسوته وغدره ، وضراوته فى تعقب القتلة ، وإن القصيدة التى تجسم لنا هذه الصفات كلها هى القصيدة المنسوبة إلى « تأبط شرًا » ، وإن كان البعض يزعم أن صاحبها « خلف الأحمر » المنشىء المعروف لقطعة الشنفرى ، والمقلد البارع الباهر للشعراء القدامى

(يتبع) حسن حبشى

(١) لم نشأ أن نذكر القصة كما ذكرها الأستاذ نيكلسون لطولها ، ويمكن للقارىء العربى الرجوع اليها فى الأغاني ج ٢ ص ١٦٠ أما عن عادات البدو فيمكنه مراجعة ما كتبه Burckhardt بيركهادت فى كتابه : Notes on the Bedowins and Wahàbys (London 1831) Vol. I, P. 160 sqq & 329 sqq.

شاعر الاسلام محمد عاكف*

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٤ —

نشر محمد عاكف شعره فى سبعة أجزاء صغار كلها تحمل اسم «صفحات»، ولكل جزء عنوان خاص ماعدا الجزء الأول وهى : —

١ — الجزء الأول وقد وضع عليه بعد العنوان العام: صفحات، هذا الاسم «برنجى كتاب» أى الكتاب الأول. وفى هذا الجزء أربع وثلاثون منظومة فى موضوعات شتى. ويتبين فيها كلف الشاعر بالتخلل فى طبقات الأمة. ووصف المعيشة العادية، والواقعات المألوفة يكشفها عما وراءها من عظات، وينطقها بما استسر على الناس من عبر. وحسب القارئ أن يرجع إلى المنظومات: قفة وحصير، والحانة، وقهوة المحلة، ليرى قدرة الشاعر على تصوير الحياة وجلائلها ودقائقها فى بيان يجمع يسر النثر الى جمال الشعر.

وقد عرف قراء الرسالة من منظومات هذا الجزء اثنتين: سيفى بابا، والزامر الأعمى.

٢ — والجزء الثانى سماه الشاعر: «فى كرسى السليمانية» (سليمانية كرسيسنده). وهو منظومة مزدوجة فيها زهاء ألف بيت يصف فيها جامع السلطان سليمان القانونى أعظم مساجد استانبول، ويتحدث على لسان واعظ سياح اعتلى كرسى الوعظ فى هذا المسجد واصفاً ما شهده فى سياحته من أحوال المسلمين وبين أدواءهم وأدويتهم. وقد اختار لهذا الحديث السائح المعروف عبد الرشيد ابراهيم الذى يطوف فى أرجاء العالم منذ ستين سنة أو أكثر، والذى قدم مصر مرات آخرها قدومه قبل سنتين فى طريقه إلى اليابان؛ وهو اليوم نزيل طوكيو، فعليه منا تحية وسلام.

٣ — والجزء الثالث أصوات الحق (حقك سسلرى) وهو منظومات فى معانى آيات قرآنية مثل قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء الخ. تلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. كنتم خير أمة أخرجت للناس.

٤ — والجزء الرابع فى كرسى الفاتح (فاتح كرسيسنده). منظومة فى نحو ثمانمائة بيت يبدؤها الشاعر بوصف مسجد الفاتح وصفا يذكر القارئ بالشاعر الفرنسى فكتور هيجو فى رواية Notre Dame de Paris ثم تكلم على لسان واعظ فى عقائد المسلمين وأعمالهم كلاما يتجلى فيه سمو الفكر. وصفاء القلب. والبصر بأسرار الدين، والحزن لما أصاب المسلمين.

٥ — والخامس «خاطرات» (خاطره لر). وفيه منظومات فى معانى آيات من القرآن، وأخرى فى موضوعات مختلفة. كقصيدته فى وصف آثار الأقصر التى أهداها إلى الأمير عباس حليم باشا رحمه الله؛ ومنظومة «خواطر برلين»، وهى طويلة تنتظم زهاء أربعمائة بيت. ويعرف قراء الرسالة من هذا الجزء القصيدة الخالدة «من نجد إلى المدينة».

٦ — عاصم: قصة طويلة منظومة فى نحو ألف ومائتى بيت بطلها شاب من الذين جاهدوا فى الحرب الكبرى، اسمه عاصم. وهو ابن كوسه امام تلميذ طاهر افندى والد الشاعر. وقد أبان فيها عن حال تركيا القديمة والحديثة، ووصف كثيرا من الأمور الأخلاقية والاجتماعية وصفا بليغا دقيقا يتناول أشد الموضوعات استعصاء على النظم فيعرضها فى أسلوب مطبوع بيّن لا أثر فيه للتكلف والجهد. وكان الشاعر يوصى بقراءة هذه القصة لما ضمنته من عبر ولما قاربت لغتها، اللغة العامية فى تركيا

٧ — الظلال (كوركه لر) هى الجزء الأخير الذى نشره الشاعر قبل وفاته بعامين، وقد نظم بعض منظوماته فى استانبول وبعضها فى انقرة ومعظمها فى حلوان. ومنها قصيدة فى الآثار المصرية سماها «مع فرعون وجها لوجه»، وأهداها إلى الأميرة خديجة حليم. ومنها قصيدة نشرت ترجمتها فى الرسالة بعنوان الفنان يصف فيها صديقه الشريف محيي الدين أكبر الموسيقيين

* حالت شواغل دون تتابع هذه المقالات فمعذرة

المسلمين ومفخرة العرب فى الموسيقى وهو نزيل بغداد اليوم

وقد أهدى الشاعر الجزء الأول من الصفحات الى أحد تلاميذه (محمد على) ، والثانى الى صديقه فطين خوجه ، والرابع الى صديقه الشاعر مدحت جمال ، والسادس الى صديقه فؤاد شمس، والآخر الى الشريف محيي الدين

وقد صدّر الشاعر الجزء الأول من صفحاته بخمسة أبيات لا عنوان لها ، وافتتح الجزء الأخير بستة أبيات عنوانها خسران. ويرى القارىء فى ترجمة هاتين القطعتين كيف كان فكر الشاعر فى أول شعره وآخره :

— ١ —

سلنى أيها القارىء الحبيب أنبئك . سلنى ماهذه الأشعار الماثلة أمامك ؟ انها أكداس من الكلم لا براعة فيها إلا الاخلاص . لست أعرف التصنع لأنى لست صانعا . يقال ان الشعر دمع العين . لا علم لى بهذا ، ولكنى أرى أن كل ما أسطر هو بكاء العجز . أنا أبكى فلا أستطيع أن أبكى ، وأشعر فلا أستطيع أن أبين. وان الشقاء ان يحرم القلب الشاعر لسانا : اقرأ ان كنت تنشد قلبا حساسا ـ اقرأ فما كتبت كلمتين الا سطرت هذا القلب

— ٢ —

وكتب على الجزء الأخير الذى نشره قبل وفاته بعامين أبياتا نظمها فى استانبول قبل قدومه الى مصر :

ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولى . لم يكن لى بد أن أنوح لأوقظ الاسلام . انما أريد أن تفور القلوب المرهفة الحس ، الراسخة الايمان ؛ وأما التفكير الطويل فقد هجرته منذ أمد بعيد . انى أنوح ولكن لمن ؟ أين أهل الدار ؟ أقلب طرفى فلا أظفر الا بأمم نائمة

لقد خنقت صرخاتى وحملت نعشها ثم مزقتها تمزيقا ودفنتها فى شعرى وتركتها

وها أنذا أسيل أنينى الذى هم بأن يعم الأودية كالسيل المنهمر ، أسيله فى غير هدير كالدموع الخفية . لا أجد فى هذه القبة الصماء لآلامى أثرا فليئن الخسران الذى فى « صفحاتى » دون حس ولا ركز .

عبد الوهاب عزام

فى حفلة تأبين الزهاوى

مضى الطائر الصداح

للأستاذ على الجارم بك

مندوب مصر فى حفلة تأبين الزهاوى ببغداد

جفا الروض مغبر الأسارير ماطره   وغادره قفر الخمائل طائره
ذوى نبته بعد البشاشة وارتمت   مصوحة أثماره وأزاهره
تلفت : أين الروض ، أين مكانه   وأين مجاليه ، وأين بواكره
وأين الذى لم يطرق الأذن مثله   إذا صدحت فوق الغصون مزاهره
حمائم ألهاها النعيم عن البكا   وأذهلها عن عابس العيش ناضره
اذا أرسلت ألحانها فى خميلة   توثب زهر الروض واهتز عاطره
لها صوت داود وحسن رنينه   اذا ما علت متن النسيم مزامره
اذا بدأت أشجاك اول صوتها   وان سكتت أعيا بيانك آخره
وان هتفت فى الدوح مال كأنما   يسايرها فى لحنها وتسايره
تحدت فنون الموصلى وطوحت   بأنفس ما ضمت عليه بناصره
أولئك أوتار الاله وصنعه   اذا عزفت فليسكت العود واتره
ألمت بأسرار النفوس فترجمت   كما فسر الحلم المحجب عابره
يصيخ اليها أسود الليل باسما   فتفتر عن زهر النجوم مشافره
يود لو أن الغيد ضمت شعورها   إلى شعره الداجى فطالت غدائره
ويرجو لو أن الفجر عوق خطوه   وطاش به نائى الطريق وجائره
وزلت بشطآن المجرة رجله   فطوحه فى غمرة اليم زاخره

* * *

سل الروض ان أصغت اليك رسومه   متى روعت أطلاؤه وجآذره
وأين الغدير العذب طاب وروده   لذى الغلة الصادى وطابت مصادره
اذا فاض بين الزهر تحسب أنه   يمانى برد أذهل التجر ناشره
تأزر من أثوابه الروض واكتسى   فرقت حواشيه وطالت مآزره
تدور به جم البلابل مطرقا   ولم تدر أن الدهر دارت دوائره
وتصغى فلا يجتاز سمعك نغمة   سوى أنة يلهى بها الحزن قاهره
وتدعو فلا تلقى مجيبا سوى النوى   تطارح مطوى الأسى وتحاوره
وقفت به والقلب يحبس وجده   فيطفى ودمع العين ينهل بادره
وما وقفتى بين الرياض وقد عفت   سوى حاجة يقضى بها الحق ناذره

أرى ما أرى إلا غبارا أثاره … خميس الليالى حينما ثار ثائره

* * *

مضى الطائر الصداح فالافق موحش … حزين النواحى عابس الوجه باسره

وأودى « الزهاوى » فانتهى ملعب النهى … وأطفئت الأنوار وانفض سامره

أقام على رغم النبوغ بحفرة … وسارت على رغم المنون سوائره

وغادر عرش اللوذعية ربه … وخلى ندى العبقرية شاعره

دعوا ذكر إعجاز البيان وسره … فقد غاب عنه طيلة الدهر ساحره

له خاطر لو سابق البرق فى الدجى … لجلى على برق السموات خاطره

تملك حر الشعر من يراعه … فيا عجبا إن حرر الشعر آسره

تمنى العذارى لو تقلدن دره … ورفت على أجيادهن جواهره

ويزهى العيون الدعج إن سوادها … شبيه بما ضمت عليه محابره

وما جاشت الصهباء إلا لأنها … وقد صفقوا مشمولها لا تناظره

تمر به مرا فيسبيك بعضه … وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره

نرى فيه هذا الكون صورة حاذق … أحاطت بأسرار الحياة بصائره

وتلمح فيه الرأى فى بعد غوره … كما غاص تحت الماء للدر ذاخره

وتلقى به الآذى فى ثورانه … إذا عقله الجبار مارت موائره

* * *

له قلم لو لامس الطرس مرة … تدانى له صعب القريض ونافره

لقد كان منظار النفوس فلم يحل … بنفس هوى إلا وطرفك ناظره

بلوح بعيد الرأى خلف زجاجه … وحاضر تاريخ الحياة وغابره

براه إله الخلق عزما وجرأة … تهاب الرواسى حده وتحاذره

وصوره عضبا تفر لهوله … ذئاب الدنايا شرداً وهو شاهره

كأن عصا موسى أعيدت بكفه … يصاول من يرمى بها ويغاوره

* * *

يقول جريئا ما يريد وربما … يقول الفتى ما لم ترده سرائره

وكم من فتى يقضى بنفسين عيشه … مظاهره نفس ، ونفس مخابره

نراه من النساك فى خلواتهم … وفى الحان قد نمت عليه ستائره

لسان كما طال الجرير مسبح … رياء ومن خلف اللسان جرائره

إذا لم يكن فى الحرب قلبك باترا … فماذا يفيد المرء فى الحرب باتره

* * *

حنانا له كيف استقرت به النوى … وكيف ثوى بعد التلفت حائره

وهل بعد ليل فى الحياة مؤرق … كثير التظنى أبصر الصبح ساهره

* * *

شققت إليك الطرق والقلب خافق … تراوحه آلامه وتباكره

تذكر آلافا ألموا فودعوا … كطيف خيال أرق الصب زائره

ونحن حياة والحياة إلى مدى … ولولا المنى لم يبذر الحب باذره

وأن المهود الزهر — لو علم الفتى … وفكر فى غايتهن — مقابره

سموت إلى بغداد والشوق نحوها … يساورنى حينا وحينا أساوره

كلانا نأى عن أهله وعشيره … ليلقاه فيها أهله وعشائره

حبيب إلى نفسى العراق وأهله … وسالفه الزاهى المجيد وحاضره

ديار بها الاسلام أرسل ضوءه … فسار مسير الشمس فى الأفق سائره

ومدت بها الآداب ظلا على الورى … تساوت به آصاله وهواجره

تجلى بها عهد الرشيد وعزه … وزاهر ملك الفاتحين وباهره

إذا شئت مجد العرب فى عنفوانه … فهذى مغانيه ، وهذى منائره

أطلت على الدنيا فأبصرت الهدى … كما لمعت فى جنح ليل زواهره

* * *

تفاخر بالغازى الذى سار ذكره … ودوت بآفاق البلاد مفاخره

هو الملك أمضى من شبا السيف عزمه … وأغزر من ماء السحائب هامره

نماه بناة المجد من آل هاشم … فجلت مراميه وطابت عناصره

أعاد إلى عهد البيان شبابه … فهب فتيا ينفض الترب دائره

يريك به المنصور مأثور حزمه … وتذكرك المهدى فيه مآثره

ذكرنا اسمه طول الطريق فذللت … مصاعب متنيه وضاءت دياجره

* * *

جميل ! نداء من أخ يقدر النهى … وإن لم يمتع باجتلائك ناظره

عرفتك فى آثارك الغر مثلما … تنبىء عن وجه الصباح بشائره

عرفت « جميلا » فى جميل بيانه … يشاطرنى وجدانه وأشاطره

تجاورنى فى دوحة النيل روحه … وروحى بأدواح العراق تجاوره

إذا اجتمع القلبان فالكون كله … مكان ، وإن شقت وطالت معابره

لنا نسب فى المجد يجمع بيننا … تعالت أواسيه وشدت أواصره

ألسنا حماة القول فى كل محفل … تتيه بنا فى كل أرض منابره

صببت عليك الدمع سحا ومدمعى … عزيز ولكن أجود الدر نادره

وأرسلت فيك الشعر لوعة موجع … تئن قوافيه وتبكى صدائره

عليك سلام الله نورا ورحمة … وغادتك من سيب الاله مواطره

على الجارم

لبيك نابغة العراق

للأستاذ بشاره الخورى
مندوب لبنان فى حفلة التأبين

قولى لشمسك لا تغيبى   وتكبدى فلك القلوب
بغداد يا وطن الجهاد   وموضع الأدب الخصيب
غناك دجلة والفرا   ت قصائد الزمن العجيب
رقصت قوافيها على   نغم البشائر والحروب
أعراس دارا من مقا   ضعها وخيبة سنحريب (١)
حتى إذا طلع الرشيـد   وماج فى الأفق الرحيب
صهر القرون وصاغها   تاجا لمفرقك الحبيب

بغداد يا شغف الجمال   وملعب الغزل الطروب
بنت المكارم للعرو   بة فيك جامعة القلوب
بيت من الأخلاق ضا   قت عنه أخلاق الشعوب
وسع الديانات السما   ح وضم أشتات الندوب
زفرات أحمد فى رسـالته   وآلام الصليب

بغداد ما حمل السرى   منى سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والـ   ـتفت الكثيب إلى الكثيب
وتنصتت زمر الجناد   ب من فرجات الثقوب
يتساءلون وقد رأوا   قيس الملوح فى شحوبى
والتمتمات على الشفا   ه مضرجات بالنسيب
تبكى لها قبل الصبا   ويذوب فيها كل طيب
يتساءلون من الفتى الـ   ـعربى فى الزى الغريب
صحراء يا بنت السماء   البكر والوحى الخصيب
أنا لو ذكرت ذكرت أحـ   ـلامى وأنغامى وكوبى
إحدى الشموع الذائبا   ت أمام هيكلك الرهيب
أنا دمعة الأدب الحزين   رسالة الألم المذيب
من قلب لبنان الكئيب   لقلب بغداد الكئيب

لبيك نابغة العرا   ق وحجة الشرق القريب
لبيك معجزة البيا   ن الحر والقلم الخضيب
حجاج روحك وهى ملء   الكون تقذف باللهيب
تخبو الشموس وتنطفى   وتظل نامية الشبوب
حلم سفكت دم الشباب   فدى لمبسمه الشنيب
حب الخلود وكم أريـق   عليه من جفن سكيب
لولاه لم تلد الطروس   الحمر إكليل الأديب
آليت اقتحم الجحيـم   على جواد من ذنوبى (١)
فأغوص فى الأبدية الخر   ساء والأزل القطوب
أتلمس الأشباح والأر   واح من خلل الحقوب
حتى إذا انكشف الجحيـم   يئز بالضرم الصخوب
سكنت ثائرة الضلو   ع وكاد يصرعنى وجيبى
وسألت عن « ذاتى » وعن   شيخ المعرة ذى الريوب
أحقيقة عرفا لظى   أم وصف مبتدع نجيب
« جميل ليلى » (٢) فيه ما   شاء التفنن من ضروب
صور ملونة الجنا   ح على مخيلة خلوب
آليت اقتحم الجحيـم   على جواد من ذنوبى
آليت . . . لكنى ارعويت   وقلت يا نفسى اهدئى بى
مهما سما عقل الحكيم   يزل عن حجب الغيوب

يا فيلسوف العـرب   والأيام كالحة النيوب
هلا ذكرت لنا العراق   ومجد غابره الذهيب (٣)
فلك ترصع بالحكـيم   وبالأديب وبالطبيب
يفتر عن مثل ابن سينـا   والنواسى الأريب
إرث وهبت له الصبا   وسقيته دمع المشيب
ونشرت أنجمه على   بغداد من كفن المغيب

شيخ القريض أبا الرصـين   الجزل والمرح اللعوب
ما زلت ألمحها على   لبنان طافرة الوثوب
من معصم النبع الدفيـق   لمعطف الغصن الرطيب
وأخو الوفا لبنان ير   فل منه فى الثوب القشيب
هو والعراق الحر مهـد   هوى وأيكة عندليب
جاران من مزن السما   ء ووردتان على قضيب

أسد العراق وما الرياح   الهوج طاغية الهبوب
أمضى وأنفذ منك إذ   تثبين للأمر العصيب
قلمت أظفار الزما   ن وروعت داهية الخطوب
وبنيت بالقلم الحليم   وبالمهندة الغضوب
ونشدت للعرش المفـدى   آية الفتح القريب
عرش « لغازى » المكرما   ت لمنتهى حسب الحسيب
نسب تنقل فى العلى   بين الأشعة والطيوب
عرش الملوك من السلا   ح وعرشه فلذ القلوب

بشاره الخورى

---

(١) دارا أحد ملوك الفرس الفاتحين وسنحريب ملك آشور الذي فشل تحت أسوار أورشليم

(١) الماع الى قصيدة الزهاوى (ثورة فى الجحيم)

(٢) « جميل ليلى » هو جميل الزهاوى وقد أكثر من ذكر ليلى فى شعره حتى أصبحت منه كليلى العامرية من قيس

(٣) الذهيب المذهب .

الفنون

الفن المصرى

٣ – التصوير والحفر

للدكتور أحمد موسى

يلاحظ الدارس للفن ، المحيط بأسراره بعض الاحاطة ، أن الفنان المصرى عمل مصوراته ومحفوراته البارزة والمنخفضة ، مقيدة بقيود ظلت طوال أيام الحضارة المصرية كلها ، تلخصت فى نظرته للأجسام . لا بحسب مظهرها الطبيعى أمامه ؛ بل بحسب وضعها الأصم الذى ظن أنه يجب أن تظهر به فى تصاويره وعلى لوحاته . وقد ظن بعض الناس أن هذا متعمد بقصد خلق روح فنية معينة ، وظن غيرهم أن هذا نوع من التشويه الفنى كما أسموه . وهذا فضلا عن كونه محض افتراء ، فانه بعيد عن الواقع وعن التقدير العلمى بعداً شاسعاً . فالفنان المصرى لم يتعمد شيئاً معيناً وإنما كان مقيداً بقيود طبيعية . دفعته إلى هذا الوضع وإلى هذا المنهج دفعاً لم يكن له فيه أى قصد ، بل ولم يكن ليتخلص منه بأى وسيلة . ولذلك كان إذا صور جماعة من الناس أو الحيوان أو المواد أو منها جميعاً تصويراً إنشائياً ، تراه يضعها بحيث يكون بعضها خلف بعض أو إلى جانبه ، من غير مراعاة الوضع الطبيعى لها ، الذى كانت تظهر به أمام عينيه ، وكان هذا هو الحال أيضاً عند ما أراد التصرف بعض الشىء – مثلا – فى تصوير مائدة عليها أدوات أو مواد . فتراه يصورها قطعة قطعة ، كما لو كانت متفرقة غير مجتمعة على مائدة واحدة ، ذلك لأنه لم يكن يعرف بعد أصول تصوير المجسمات . وعلاقة الحجم والبعد بالتصوير المنظور « Perspective » ، وكان هذا سبباً جوهرياً فى ظهور مختلف المصورات التى مثلت شئون حياته الزراعية والصناعية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، كما لو كانت متجاورة بالرغم من أن بعضها كان يجب أن يخفى البعض الآخر بحسب وضعه وراءها

نعم : شاهدنا فى بعض المصورات قوة ملاحظة الفنان بجعله الشىء الموضوع خلف شىء آخر غير ظاهر . ولكن هذا كان نادر الحصول بحيث لا يمكننا الأخذ به كقاعدة عامة لروح الفن المصرى فى التصوير والحفر

والجدير بالملاحظة والمعرفة . هو أن نعلم أن نظرة الفنان لجماعة من الناس بينها شخصية بارزة ، دفعته حيناً إلى إظهار هذه الشخصية بمقياس أكبر من المقياس الذى تقيده بتنفيذه فى مصوراته ، غير ناظر إلى موقع هذه الشخصية من حيث البعد أو القرب منه ، أو لوضعها بالنسبة لمجاوريها . فضلا عن نظرته إلى جسم الانسان على وجه الخصوص ، كما لو كان شيئا ينظر إليه من وضعين مختلفين ، فتراه – كما سبق التنويه بذلك فى المقال السابق – نظر إلى الرأس والبطن والساقين والقدمين من الجانب على حين نظر إلى العينين والكتفين والبطن من الأمام .

ويرى الزائر للمتحف المصرى أنموذجاً صادقاً لهذه الحالة إذا نظر إلى الصورة المحفورة على الخشب . التى تمثل الطحان واقفاً وجالساً ، (قطعة رقم ٨٨ – دولاب ب – الصالة ا – بالدور الأرضى) ، والتى تبين بوضوح الدقة العظيمة فى تصوير الوجه من الجانب

بدأ المصريون بهذه الدقة منذ عهد الأسرة الخامسة . واستمر التقدم حتى بلغ الغاية فى منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة (حوالى ١٤٥٠ ق . م .) وأعقب ذلك التدهور والانحطاط

وإذا قُدِّر للقارىء المصرى أن يعنى بتراث حضارته القديمة واحتمل مشقة السفر إلى الوجه القبلى بضع ساعات حتى يصل إلى الشيخ عبد القرنة (بطيبة بحرى راميسيوم) . وإلى تل العمارنة القريبة من دير مواس ، فانه يستطيع أن يرى أروع تصوير وأدق تمثيل ، فيشاهد الحيوانات مرسومة من الجانب بمنتهى مايمكن من الدقة ، فالتناسب بالغ منتهاه ، والحياة نابضة فيه ، حتى ليخيل إليك أنها صور فوتوغرافية لشدة صدق محاكاتها

أما الانشاء الكلى لفن التصوير ، فقد كان ثابتا على مر القرون ، إلا فى بعض أحوال معينة ، فترى معظم المصورات فى عهد المملكة القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٧٠ ق . م .) تمثل ممارسة الناس لأعمالهم اليومية فى الحقل والبيت بشكل رائع جميل . فضلا عما



(ش ١) آشوريون متجهون إلى ملك مصر لتقديم ولائهم

يمكن استفادته من هذه المصورات فى مختلف إنشائها وأزمانها لمعرفة مدى دقة ملاحظتهم وحضارتهم

وتَغَيَّرَ الانشاء الموضوعى بتغير العصر : فترى فى عهد المملكة الوسطى (٢١٩٠ - ١٧٠٠ ق . م .) أن المصورات شملت مشاهدات فى قصور الملوك والأمراء . كما أظهرت لنا طرائف أوضحت كيفية دفن الموتى وما إليها ، على أن هذا الاتجاه الاجتماعى الجديد نما وازدهر على وجه الخصوص فى عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ - ١٣٥٠ ق . م .) ، عندما بلغت مصر شأواً عظيما وفتحت بلداناً مجاورة ، الأمر الذى ترتب عليه اتساع الأفق الفنى أمام الفنان المصرى ، وشعر الملوك والأمراء باهمية الفن حتى لتراهم فى عهد أمينوفيس الرابع (١٣٧٥ - ١٣٥٨) قد اتصل الفنانون بهم ، واستطاع الفنان تصوير الحياة الخاصة للعائلة المالكة وللحاشية ، وهذا شىء جديد فى ذاته ، إذ أن اتصال مصور بالعائلة المالكة إلى هذا الحد لم يكن معروفاً طوال أيام الملوك السابقين ،



(ش ٢) إلى اليمين ، رمسيس الثانى فى عربته الحربية إلى اليسار ، بعض الآلهة فى حضرة الملك

لأننا لم نعثر ولا ينتظر أن نعثر على مصورات تؤيد غير ذلك

أما فى عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ - ١٢٠٠ ق . م .) ، وكذلك فى عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧) من الأسرة العشرين ، فقد كلف الفنانون بتصوير المناظر الحربية ، وتسجيل انتصارات المصريين تصويرا دقيقاً ، إذ بهذا يمكن إيقاظ روح الشعب للتعلق بحب الوطن والتفانى فى الاخلاص له ، كما يسجل المواقع والمذابح الحربية التى تبدئ بها فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، والتى لاتزال شعوب الأرض المتحضرة فى أيامنا هذه ناسجة على منوالها . وفى المتحف المصرى قطعة مقلدة من الأصل المحفوظ بمتحف فلورنسا ، تعد من أروع ما يستطيع الانسان أن يشاهده لمثل هذه الحالة ، تمثل عربة توتموزيس الرابع (١٤٢٠ - ١٤١١) يجدها الزائر تحت رقم ٣٠٠٠ داخل الصندوق حرف ط بالجناح الشرقى بالدرر الأعلى

وبدأ فن التصوير ينحط عند انتهاء عصر المملكة الحديثة ، فتراه قد عاد من حيث الضعف الفنى إلى عهد الأسرات الأولى ، بحيث أصبح كل ما صور بعد هذا العصر . لايخرج عن تقليد ضعيف لما سبق تصويره

أما النحت التصويرى فكانت أزهى عصوره عند الأسرة الخامسة فى المملكة القديمة ، وهذا يتفق مع عصر النحت الكامل ، وأحسن نماذجه وأروعها يمكن مشاهدتها بسقارة خصوصاً بمصطبة تى وبتاحوتب وكذلك بمعابد الملوك للموتى

على أنه يجب التنويه بأن الفن قد انحط فى عهد المملكة الوسطى ، وظل كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، حيث ترى فى معابد الأقصر والدير البحرى ومقابر الشيخ عبد القرنة دلائل التقدم

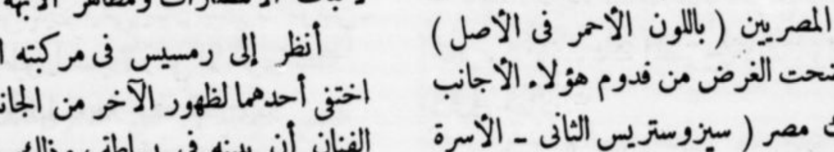
أما فى عهد البطالسة (٣٣٢ وما بعدها) فقد تقهقر الفن ، وأصبح التناسب ضعيفا بين المسافات التى كانت تخصص للحفر والتصوير وبين المساحات التى تركت بدونه ، كما أصبح توزيع المصورات على المساحات رديئا ، وخلت هى نفسها من كل جمال



(ش ٣) إلى اليمين ، صياد السمك إلى اليسار صياد الطيور

وانسجام ، وطغى عليها ازدحام أبعدها عن الذوق الفنى . والمشاهد لتراث هذا العهد يلاحظ التضخم باديا على المنحوتات الممثلة لجسم الانسان

ولعلنا بمشاهدة بعض المصورات التى أمكن الحصول عليها لتناسب المقال هنا ، يمكننا أن نفهم جيداً المدى الذى وصل إليه المصريون فى فن التصوير والنحت التصويرى : فترى فى الصورة - ١ - المنقولة عن حائط بمقابر بنى حسن ، منظراً رائعاً لجماعة من الآشوريين (الساميين) وهم سائرون وراء اثنين من المصريين . ومتجهون جميعاً فى طريقهم إلى مصر . فترى على اليمين أحد الموظفين المصريين (باللون الأحمر فى الأصل) يرفع بيمينه لوحة أوضحت الغرض من قدوم هؤلاء الأجانب وهو تقديم الولاء لملك مصر (سيزوستريس الثانى - الأسرة الثانية عشرة) ، ويعقبه مصرى آخر يسير وراءه كمن يرشد الجماعة إلى خط السير ؛ ثم ترى الثالث وهو يسير ممسكا عنزا من أحد قرنيها بيده اليسرى ، والرابع ممسكا غزالا أحاط عنقه بحبل قبض عليه بيسراه ، على حين قبض على القرن بيمناه ،



(ش ٤) إلى اليمين ، عصر العنب فى الوسط ، حلب البقرة ، إلى اليسار الرضاعة

أحضرهما كعينة لحيوانات بلادهم ؛ وبعدئذ نرى أربعة رجال يسيرون فى نفس الاتجاه ، والأخير منهم يتجه برأسه إلى الوراء كما لو كان يتحدث إلى من خلفه ، يحمل كل منهم السهم والقوس

أما الاثنان وراءهما ، فأحدهما ينظر إليه والآخر يلاحظ الطفلين اللذين ركبا حماراً وقد قعدا داخل مخلاة أشبه بحاجز يقيهما شر السقوط . وخلف الحمار ولد تعقبه أربعة نساء تركن الشعر منسدلا إلى الكتفين ، وخلفهن حمار آخر محمل بالهدايا ، ووراءه رجل يعزف على آلة موسيقية آشورية ذات خمسة أوتار ، وآخر يحمل نشاباً بيسراه وعصا بيمناه استعداداً للطوارىء . وسار المصريون حفاة الأقدام ، على حين كان الآشوريون تلبس نساؤهم أحذية من الجلد ، ورجالهم يحتذون نوعاً من الصنادل فضلا عن إمكان تمييزهم بذقونهم الطويلة .

والصورة - ٢ - تشمل منظرين وجدا بأبى سنبل (القرية من الدر) الأيمن منهما يمثل رمسيس الثانى على مركبته الحربية التى انتصر بها فى حروبه الافريقية ، وهى فى شكلها الكلى واضحة التفاصيل ، قوية الاحراج ، تسجل الناحية الجديدة فى الاتجاه الفنى لاثبات الانتصارات ومظاهر الأبهة والعظمة كما سبق التنويه .

أنظر إلى رمسيس فى مركبته الرائعة يجرها حصانان وقد اختفى أحدهما لظهور الآخر من الجانب ، وتأمل كيف استطاع الفنان أن يبينه فى بساطة ، وذلك برسمه خطاً رفيعا موازيا للحصان الظاهر . والمتأمل فى صدر رمسيس يلاحظ الكتفين وقد ظهرا من تحت الملبس ، مما يدل على أنه كان من قماش رفيع شفاف ، كما يراه قابضا على القوس وعلى جزء من لجام الحصان بيده اليسرى ، وعلى سهم وسكين باليمنى ، أما الحصان فظهر رائعا كامل الزينة مغطى بغطاء جميل الزخرف ، وأسفل الحصان ترى أسداً سائراً مع اتجاه العربة الملكية ، نقش جلده يقع أشبه بتلك التى تراها على جلد النمر ، قصد به الرمز للعظمة

والقوة . يقول ديودور أحد مؤرخي القرن الأول قبل المسيح إن فرعون كان يركب عربته حافي القدمين ، ولذلك ترى على الكتف اليسرى لخادمه السائر أمام الحصانين وعلى يسارها



(ش ٥) إلى اليمين محاكمة اللصوص إلى اليسار تنفيذ العقوبة

كيسا خصص لوضع حذائه داخله حتى يستطيع بذلك لبس الحذاء بمجرد مغادرته العربة .

والمنظر الأيسر مأخوذ عن نظيره بمعبد سيتي الأول (ميمنونيوم) بأبي دوس (بالقرب من البلينا) يبين رمسيس الثاني (تولى الملك بعد سيتي الأول وأكمل بناء معبده) جالسا على العرش في ظل شجرة . وإلى اليمين ترى إله الكتابة والتحرير يسجل اسم رمسيس بقلمه على ثمار الشجرة . والإله توت كاتب السماء . والإلهة الليل آتموالتي تسجل حظ الفرعون من الخير والمتعة

والصورة - ٣ - توضح الكيفية التي تم بها صيد الطيور (وجدت بطيبة) . فترى إلى أقصى اليسار رجالا ثلاثة ، يجذبون حبلا ربط إلى مجموعة من الشباك ، أحاطت بالطيور المصادة بها . أنظر إلى الساقين الأوليين على يمين وعلى يسار شجرة اللوتس ترى على زهرة الأولى منهما طيوراً صغيرة وعلى الأخرى بيضاً . وأما بقية التفاصيل فهي متروكة لدقة ملاحظة القارىء

والصورة - ٤ - هي لثلاث لوحات ، أولاها إلى اليمين تبين كيفية عصر العنب للحصول على النبيذ - والوسطى لطريقة حلب البقرة ، فترى القائم لعملية الحلب ومساعده الذي يحرص على منعها من التحرك - أما اليسرى فهي تريك منظراً جميلا ، استطاع الفنان أن يخرجه إخراجاً قوياً . أنظر إلى البقرة تثني عنقها لمداعبة ابنتها العجلة الصغيرة يشاركها في الرضاعة ولد صغير



(ش ٦) المصورون

والصورة - ٥ - ذات موضوع خلاب يهم المشتغلين بتاريخ القضاء ، فهي تمثل قاضياً جلس إلى منصة الحكم ، وأمامه رجل يقص حادث سرقة ووراءه آخر انتهى من تأدية شهادته . بعدئذ ترى أحد رجال الأمن قابضاً على عنق لص وعلى يده ، ثم ترى آخر وقد كبل رجلا من يساره بالحديد . وخلف الجميع رجل يجر الماعز المسروقة لاثبات الحادث

وإلى يسارها صورة تبين كيفية توقيع العقوبة بالجلد . وذلك بطرح المجرم أرضاً ، وضربه على الظهر بعصا . وإذا نظرت إلى أقصى اليسار ترى رجلا ممسكا بقدمي الجاني . أما يداه فقد أمسكهما رجلان قعدا عند رأسه

والصورة - ٦ - وجدت ببني حسن . وهي أيضاً طريفة الموضوع . تهم المؤرخ الفني ، فهي توضح في جلاء الطريقة التي اتبعها الفنانون في التصوير ؛ فترى الفنان وقد جلس متوسط الصورة ممسكا ريشته بيمناه ، وكأس الألوان بيسراه ؛ مستمر في تكميل تصويره لعجل صغير بعد أن أتم تصوير البقرة وأمامه جلس مساعده ممسكا لوحة التصوير

ووراء هؤلاء تشاهد فنانا آخر يلون تمثالا من الخشب أو الحجر ، كما كانت عادة المصريين دائما ، وكما سبق التنويه بذلك المثال في الفائت

ومن هذه الصور الست ، التي لا تعد شيئاً بجانب المئات التي تركها المصريون على حوائط معابدهم ومقابرهم ، يمكننا أن نستخلص أن الفن لا يكون إلا حيث توجد الحضارة . وأن مصر عرفت قيمته وعملت على ترقيته في القرن العشرين قبل الميلاد ، ولكنها مع مزيد الأسف لاتعرفه ، ولا تعترف بوجوده ، ولا تفهم حتى مدى نفعه أو ضرورته في القرن العشرين بعده ؛ ولا أبلغ مما قاله شاعرنا احمد الزين تسجيلا لهذه الحالة :

علام يجيد الفن في مصر متقن ... إذا كان بالتهريج نيل المراتب
فياجهل واصلنا وياعلم فابتعد ... ويا حمق لازمنا وياعقل جانب
أرى الجهل نوراً في بلاد رجالها ... خفافيش يعشيها ضياء الكواكب
إذا الشعب بالاهمال أرسب عاليا ... فلا عجب لو يعلو به كل راسب

احمد موسى

البريد الأدبي

العيد المئوي لوزارة المعارف

تحتفل وزارة المعارف العمومية فى التاسع والعشرين من مارس الجارى بمرور مائة عام على إنشائها، وستنظم بهذه المناسبة حفلات رياضية وتمثيلية، ويقام معرض للتعليم والتربية تستعرض فيه مراحل التعليم وتطوراته فى مصر مدى قرن، ويوضع كتاب ذهبي يتضمن تاريخ التربية والتعليم فى هذا القرن إلى غير ذلك مما ترى وزارة المعارف أن تتخذه للاحتفاء بعيدها المئوى. والواقع أن المناسبات والاحتفالات المئوية فى تاريخ مصر الحديث قليلة، ومن الواجب أن يعتنى بشأنها وأن يحتفى بها كلما سنحت، تجديداً للذكريات القومية، وشحذاً للهمم، وتوطيداً لبناء المستقبل.

وقد مضت مائة عام كاملة منذ أنشىء «ديوان المدارس» فى سنة ١٨٣٧، أنشأه مصلح مصر الكبير محمد على، بعد أن أنشأ من قبله عدة من المدارس العالية والخصوصية، وأوفد عدة بعوث علمية إلى أوربا، وبدأت ثمار هذه السياسة المستنيرة تتفتح، ويتسع نطاق التعليم والتربية. وكان ثمة قبل إنشاء ديوان المدارس هيئة تشرف على التعليم تسمى بمجلس شورى المدارس، فرؤى أن ينظم مكانه «ديوان المدارس» الذى أصبح فيما بعد وزارة المعارف، واشترك فى تنظيم الديوان المذكور عدة من رجال مصر المثقفين الذين تلقوا العلم فى أوربا، وانتخب لرآسته مصطفى مختار بك أحد خريجى البعثات فكان أول رئيس أو وزير لديوان المعارف المصرية؛ وشكل للاشراف على أعمال الديوان مجلس مؤلف من عدة من النوابغ الذين يرجع إلى رأيهم فى شؤون التربية مثل رفاعة بك الطهطاوى، وكلوت بك وغيرهما؛ وقام المجلس المذكور بوضع لائحة لنظم التعليم، وقرر إقامة عدد كبير من المدارس فى مختلف أنحاء القطر، منها عشرات من المدارس الابتدائية الاميرية، فى معظم المراكز ومئات المدارس الأولية أو الكتاتيب، وبذا وضعت أسس النهضة التعليمية فى مصر الحديثة

ومما يؤثر بالفخر أن التعليم كان يومئذ فى جميع المدارس على اختلاف درجاتها وأنواعها مجانيا، وكانت الحكومة تتولى الانفاق على التلاميذ، وتعنى باطعامهم وكسوتهم، وتجرى عليهم بعض الرواتب المالية، وكان عدد تلاميذ المدارس الأميرية يومئذ يبلغ نحو العشرة آلاف

وتقلب فى ديوان المعارف عدة من رجالات مصر الأفذاذ مثل على باشا مبارك، تولى سنة ١٨٨٨، وبذل فى تنظيم التعليم جهداً عظيما، ولا تزال آثار هذا الغرس زاهرة إلى يومنا

ووقعت وزارة المعارف مدى حين تحت سيطرة الاحتلال، وأخمدت روحها الاصلاحية أيام دانلوب ومعاونيه؛ ولكنها بدأت تتنفس فى عهد الاستقلال؛ ولكنها وأأسفاه مازالت مضطربة الأوضاع والنظم، ولم توفق إلى أن ترسم لها حتى اليوم سياسة ثابتة للتعليم

الصور الهزلية فى الفن المصرى القديم

أصبحت الصور الهزلية من أبرز نواحى الفن المعاصر، تتخذ أداة للتعبير اللاذع عن وقائع الحياة العامة، وأحوال الأشخاص وتصرفاتهم، وأضحت سلوة الألوف من القراء تثير ابتسامهم ومرحهم. وقد عرف المصريون القدماء فن الصور الهزلية، وألفوا فيه متنفسا للنقد اللاذع والسخرية العميقة. وتوجد لدينا نقوش وصور هزلية تدل على مبلغ ما انتهى إليه الفراعنة من الافتنان فى هذا الباب، فمثلا توجد نقوش على البردى ترجع إلى ألفى عام قبل الميلاد، سطرت بها قصص عجيبة كقصص ألف ليلة وليلة من مناظر سحرية وشياطين وحيوانات تلعب أدوارا مدهشة، وتوجد صور هزلية مسلية فى كثير من أوراق البردى المحفوظة فى تورينو ولندن، ويبدو فيها شغف المصريين

هذا النوع من تصوير الحياة العامة ؛ فالأمراء والوزراء وأكابر الزعماء يمثلون فى صور حيوانات مختلفة ترمز إلى معان هزلية . مثال ذلك صورة رسمت بها قطة تسير مضمومة الذراعين إلى جانب ثور مبجل (يمثل كبير البلاط) . وهما يسيران معا للمثول فى حضرة خصى قد صور فى صورة حمار ؛ أو صورة لفرقة الموسيقى الملكية مؤلفة من تمساح يبكى تأثرا ، وحمار يعزف على القيثارة ، وأسد يعزف على العود ؛ أو أسد (يمثل فرعون) وحمار (يمثل وزيره) يلعبان الشطرنج معا ؛ وهكذا . وكان للفنانين المصريين شغف بتمثيل مناظر الحياة العامة فى صور مضحكة لاذعة ، فمن ذلك صورة ذئب يقود الغنم ، وهرة تحرس الطير ، وكلاهما رمز لفساد الحياة العامة ؛ وهذه الصورة التى ترجع إلى بضعة آلاف من السنين تدل على مبلغ ما وصل إليه فن التصوير الهزلى لدى الفراعنة فى القوة والروعة . وعلى أن الفراعنة كانوا أيضا فى هذا الميدان أول الأساتذة والمبتكرين

كتاب جديد عن الاشتراكية الوطنية

ما زالت الاشتراكية الوطنية أو النظم التى تعيش فى ظلها ألمانيا الحاضرة مثار كثير من الجدل ، وقد ظهرت الى اليوم عنها تصانيف كثيرة بين الخصومة والتأييد ، ولكن روحها وغاياتها الحقيقية مازالت موضع الغموض والحدس

وقد ظهر أخيراً بالفرنسية كتاب جامع عن الاشتراكية الوطنية ربما كان أقوى وأوفى مؤلف ظهر من نوعه ؛ وعنوانه : « طغيان الفاشستية الألمانية » بقلم الآنسة جريته شتوفل La Dictature du Fascisme allemand ، ويمتاز الكتاب بالوضوح والترتيب ، وينم عن دراسة عميقة وفهم شامل للنظم التى تعيش فى ظلها ألمانيا الحاضرة . وقد استهلته المؤلفة بمقدمة تاريخية ، ثم تناولت سلطات الدولة الأساسية بالتعيين والشرح ، ففى شخص « الزعيم » (هتلر) تجتمع كل السلطات ، فهو رئيس الدولة ورئيس الحكومة ، وهو المتصرف المطلق فى جميع نواحيها الادارية والقضائية والعسكرية ، وهو المشرع الأعلى ؛ وهو يفوض سلطانه الى وزراء ، ليسوا إزاءه سوى موظفين أصاغر ، وأما الريخستاج (البرلمان) فهو اسم على غير مسمى ، فهو لا حق له ان يقترح أو يعارض ، وليس عليه إلا أن يوافق ويؤيد ، والحزب (حزب النازى) يندمج فى الدولة ، وهو مجمع الشعب ولا يقوم نظامه حسب قول هتلر الأعلى « السلطة والنظام والمسئولية والخضوع » ؛ ومن أدلة هذا الاندماج أن نفس الرجال يديرون الحكومة والحزب معا ، ورجال الحزب هم الذين يستولون على الوظائف ، وشعار الاثنين واحد هو « هايل هتلر » . بيد ان الحزب لم ينجح فى كسب الجيش ، ولكن الجيش فى يد الزعيم

وقد قضت الاشتراكية الوطنية على نظام ألمانيا الاتحادى واستأثرت الحكومة المركزية بكل السلطات ، أما النظام النقابى فيقوم على حشد العمال فى جبهة الاشتراكية الوطنية ، وتنظم جميع المهن والحرف فى طوائف تحشد فى نفس الجبهة . تحدثت المؤلفة بعد ذلك عن الخلاف بين الكنيسة والدولة وعن النظرية الآرية ومراميها الحقيقية ، وعن سياسة الاضطهاد الدينى والجنسى التى تضطرم بها الآن ألمانيا الهتلرية . هذا والطغيان الهتلرى لا يقوم إلا على الارهاب والعنف ، والقضاء خاضع لخدمة الدولة والتشريع الجنائى ليس إلا أداة للكفاح لا تعرف الرأفة أو العدالة ، وتقضى محاكم الشعب دون تحقيق ، وتسير فى قضائها تحقيقا لأهواء الحزب والزعماء . والخلاصة ان القضاء والبوليس والجيش والهيئات الحزبية تعمل كلها لسحق أعداء النظام وخصومه ومع ان كل الحريات قد سحقت ، فانه توجد معارضة كامنة والدولة النازية هى أتم وأوفى أداة للطغيان فى عصرنا ؛ بيد انها بوسائلها العنيفة فى الكفاح والقمع تنافى كل المبادىء والاعتبارات الاخلاقية والانسانية

هذه هى الصورة التى تقدمها الينا المؤلفة عن النظام الهتلرى وهى تقدمها الينا فى عرض بديع حقا مدعم بالأدلة والوثائق والاحصاءات . و يرى النقدة ان كتابها هو أقوى وأوضح بحث من نوعه ظهر حتى اليوم

حرب نيكوبوليس الصليبية

لعل أكبر الحوادث فى تاريخ الشرق والغرب هو تلك الحروب التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالصليبية ودامت عدة قرون ، تجلى فيها كثير من ضروب الفروسية والشجاعة مما يرى فيهما القصصيون مادة خصبة لهم . وقد كانت هذه الحروب ولا زالت ميداناً لكبار البحاث المؤرخين ، ولكن

مع ذلك لا تزال بحاجة للدرس والتمحيص . ومن الوقائع الشهيرة فى تاريخ العالم الاسلامى موقعة « نيكوبوليس » التى وصل فيها الأتراك إلى قلب أوربا ، وأصبحوا على أبواب المجر ، وهى مع مالها من أهمية قصوى لم يؤلف فيها أحد المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى كتاباً قائماً بذاته ، حتى قام بذلك أحد نوابغ الشبان المصريين الذى اختارته جامعات لندن وليفربول بانجلترا ، وبون بألمانيا أستاذاً بها ، ذلك هو الدكتور عزيز سوريال عطية ، فقد أفرد لها كتاباً خاصاً ألم فيه بمـا مهد لهذه الحرب . ويذهب المؤلف إلى أن الحروب الصليبية لم يكن بدء قيامها أو ختامها ما تآلفنا عليه ، بل هناك عدة حروب قبلها وبعدها كان الدافع لأوربا فيها على امتشاق الحسام عصبيتها الدينيه ضد الاسلام . ولقد أصدرت إحدى دور النشر الكبرى بانجلترا Methuen هذا الكتاب القيم Crusade of Nicopolis للدكتور سوريال . وبلغ من أهميته أن قرظه أعلام التاريخ فى انجلترا وفرنسا وألمانيا والمجر وأثنوا على صاحبه الثناء الجم ، فقالت جريدة التيمس فى ملحقها الأدبى : « إن هذا الكتاب دراسة رائعة عن الظروف السياسية والمالية فى نهاية عصر الفروسية فى أوربا » ، وختمت الديلى پوست تقريظها له بقولها : « إن مثل هذا الكتاب يكتبه أحد أبناء مصر لشىء يفخر به جميع المصريين . . . إن نهضة مصر فى طريقها » ، وقالت مجلة معهد الدراسات الشرقية بلندن : « إن هذه الاضافة العظيمة الرائعة للتاريخ هى من غير شك نتيجة بحث عميق وميل قوى للبوضوع .. وإنه لينبغى لكل مؤرخ أو باحث لهذه الفترة أن تكون لديه نسخة منه »

وقالت جريدة الجارديان : « . . . تقرير شامل يعتمد على المقارنة الدقيقة لمراجع كثيرة » ، ووصفه الأستاذ وليم ميللر فى مجلة التاريخ الانجليزية بأنه « كتاب دسم » ، كما أثني على مؤلفه وموضوعه كثير من المجلات الأخرى كجريدة الحربية ، والجيش والجريدة الأسيوية . وقالت مجلة الثقافة الاسلامية الانجليزية بالهند: « إن تعمق الدكتور عطية فى هذا الكتاب لا يوفيه المديح حقه ، وإن التعاليق التى كتبها وإضافاته لهى بحث جديد يضاف إلى دراسته النقدية لهذه الفترة » ، وقالت مجلة J. R. I. S « إن الدكتور عطية ملم بكل نواحى الحروب الصليبية ، وكتابه قائم على المصادر المعاصرة لها بل والنادرة أحياناً . . . وإنا لننتظر منه الكتاب الشامل الأكبر فى المستقبل » ، كما امتدحته مجلة « بلغارى » ومجلة الدراسات الشرقية الألمانية Orientalische Literaturzeitung فقالت : « ان هذا الكتاب أوفى ما كتب عن هذه الناحية ، وان مؤلفه ليعد حجة فى هذا الموضوع » ، ومع أهمية هذا الكتاب ، وتقدير أقطاب التاريخ له ومصرية مؤلفه فانه لم يترجم بعد .

تمثال شيخ البلد

قرأت بعدد الرسالة الأخير مقال الدكتور الفاضل أحمد موسى فى الفن المصرى القديم فاستوقفتنى تلك العبارة من كلامه عن تمثال (شيخ البلد) المعروف بالمتحف المصرى :

(وتمثال شيخ البلد تجده واقفاً فى شىء من اليقظة وضخامة الجسم التى يجب أن تتوفر فيمن يقوم بالشياخة الخ)

وقفت متسائلا : هل عرف النظام الإدارى القديم شيخ البلد كما تعرفه مصر الآن من أقصاها إلى أقصاها ؟ وبالتالى هل عرفت هوية صاحب هذا التمثال وعرف عمله فى الدولة ؟ أم أن الحقيقة هى ماقرأناه فى كتب التاريخ من أن عمال الحفر لما أخرجوا هذا التمثال من مكانه راعهم ماوجدوا من شبه قوى بينه وبين شيخ بلدهم فأطلقوا على التمثال (شيخ البلد) ثم لزمته التسمية ولم يغيرها علماء الآثار لما لم يعرفوا حقيقة صاحبه ولم يجدوا به من النقوش أو الكتابات مايبوح بسره وينم عن جلية أمره ؟

وهل للدكتور الفاضل أن يميط اللثام عن حقيقة التمثال المذكور خدمة للعلم والتاريخ فنكون له من الشاكرين ؟

(م . ح بأسيوط)

الكتب

ملحمة عبقر

للشاعر المطبوع شفيق معلوف

رمى الكثيرون الشعر العربى بالعجز والقصور عن متابعة الشعر الغربى فى القصة والملحمة والرواية التمثيلية ؛ ولكن ناظم عبقر ضرب لهؤلاء المثل الحى على أن العيب واقع على عاتق الشعراء أنفسهم لا على اللغة ولا الشعر . ولقد ظلت عبقر مدى العصور تتردد فى ألفاظ كثير من الشعراء ولكن لم يفكر واحد منهم فى أن يخرج لقراء الضاد قصيدة عنها بقدر ما توحى اليه من خيال ؛ كأنها أبت أن تكشف سترها وتميط اللثام عن حقيقتها إلا لهذا الشاعر المحلق فى سماء الخيال، فحمله شيطانه إلى عبقر ، وأوديتها السحرية ؛ وهناك كشف له سر الحياة ، فوقف على المجهول من أمرها ، حتى إذا عاد إلى دنياه صوره بلغة أهل الأرض ؛ فأبدع فى ذلك ما شاء له الابداع ، ورسم هذه العوالم الدفاقة بالسحر والخيال وقربها إلى قارئيها فاذا هم يعيشون ويتحركون ويتنفسون فيها ، وإذا هم يحيون فى مهابط الجن ، ويقضون مع حورها لحظات لا يحسون فيها لغب الواقع ، ولا تعب الحياة وأوضارها ، ولست أدرى أيهما خلد الآخر : هل خلق شفيق عبقر ، أم هى التى خلقته؟

حمله شيطانه إلى عبقر ذلك الشيطان الذى :

فى فمه من سقر جذوة ... يطير منها الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعه ... أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كوة ... يطل منها الزمن الغابر

ويمضى الشيطان بصاحبه إلى عبقر ليريه «جنا من النور جلابيبها» ، وإذ يهبط الاثنان عبقر ، يرى الشاعر «الغمائم الزرق» وفى أبراج المازل «تثور ضجة بها يضيق الأفق الأوسع» ، ثم يحط به الشيطان عند عرافة عبقر فاذا بها عجوز شمطاء طواها الكبر ، ولقد أبدع الشاعر أيما إبداع فى وصفها بقوله :

تلف ثعبانا على وسطها ... يكمن فى نابه كيد القدر
مجامر الصندل من حولها ... تألب الجن عليها زمر
ينبعث الدخان من شعرها ... ويلتظى فى مقلتيها الشرر
كأنما الله لدى بعثها ... زودها بكل ما فى سقر

وفى حديث العرافة له نرى الوصف المر الأليم للإنسان ، وما انطوت عليه نفسه من مكر وخديعة ، وترى روح التهكم تنبعث على لسان العرافة ساخرة بكبرياء ابن آدم وقد خال «نفسه أعلى من ربه» ، وحسب عيه فضلا ، وأية سخرية أشد وقعا مما انطلق به لسانها من أنها :

تخشى على الثعبان ... من شره
فى نابه السم كان ... وصار فى صدره

وينطلق به شيطانه إلى امرأة قد كورت من حلقات النور أضلاعها تلك هى «الشهوة» ، وإن وصفه الرائع لها ، ليجعل القارىء يخال الشهوة قد جسمت امرأة وهى تضج :

من لى بحب نوره ينبلج ... من شرر محتدم فى المقل
من لى بثغر لاهب تنفرج ... ثغرته عن شعلات القبل
يا حامل الجسم ألا أعطنيه ... وخذ إذا شئت خلودى ثمن
وشاحى النارى من يشتريه ... فإننى أبيعه بالكفن .

ويمضى به الشيطان إلى الكاهن سطيح الذى يرى أن الله خلصه برحمته حين استل منه العظام ، وملأ الفراغ من حكمته ، أما الكاهن شق فقانع بنصفه ، وما ضره أن حباه الله بيد واحدة إذ :

هل تنفع اليدان والواحدة ... تهدم ما تشيده الثانيه

ويخلص القارىء من مغزى هذه الحكمة أن فى النقص كمالا ، ولكن الشاعر يهوى به الأسلوب فى قوله «والله يهدينى سواء السبيل» فهى نابية فى موضعها لا تلائم الذوق الشعرى ، وإنك لتلمح رثاءه للبغايا وألمه لهن خلال وصفه الشعرى الجميل لهن فهن :

دسن من الحديد مجمره ... ورحن يقحمن البراكينا
يلغن فى الجمر ويغببنه ... غبا ويرشقن الشياطينا
زج بهن الله فى عبقر ... يبلو بهن العبقرينا

وينتهى بالشاعر المطاف عند رفات العبقريين من الشعراء والأدباء ، وفى نشيد جماجم هؤلاء العباقرة تلمح تقديس الشاعر لهم ، فهؤلاء أرواحهم تبنى قباب الخلود «بغير أحجار الورى» ، وهم فى موتهم يعيشون على . . الحب الذى :

إن كانت الأرض جحيما له ... وكان فيها تهنأ الأرض

هذه جولة فى عبقر المعلوف ، فاذا كان فوزى قد حلق على «بساط الريح» ، فان أخاه فى عبقر قد تغلغل فى ثناياها مع حورها وكهانها وعرافتها وشياطينها

وإن خيال شفيق لمنسجم مع تفكيره ، وهذا سر إبداعه ، فلا جرم إذا حلق خياله من شاهق ولم يسف فى شعره . ولا عجب إذا طالعنا ذلك الشاعر بنفحات من الشعر الخالد فى لفظ متسق ، وجمال مطبوع ، وبيان عذب فصيح ، وخيال لو قيل له اختر صاحبا لما اختار غير شفيق.

حسن حبشى

5 me Année, No. 195

بدل الاشتراك عن سنة

مـ ص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

Lundi - 29 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

العـــدد ١٩٥ ، القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ محرم سنة ١٣٥٦ — ٢٩ مارس سنة ١٩٣٧ ، السنة الخامسة

فهرس العـــدد

وزارة المعارف

بمناسبة عيدها المئوى



« مصطفى مختار » أول ناظر للمعارف

فى الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم تحتفل وزارة المعارف بانقضاء مائة عام على مولدها السعيد . ووزارة المعارف لا تزال ناشئة وان أدركت المائة : ولعلها لم تبلغ الرشد إلا منذ أعوام قلائل ، فان القرن فى عمر الأمة كالعِقد فى عمر الفرد ، والشباب المهمل وإن طال بلاهة وغفلة — كان يومها الذى أبصرت فيه الوجود من الأيام الغر الوِضاء فى عهد الأمى العبقرى الطموح محمد على باشا . رأى بعينه الكلوء أن ما بالغرب من حضارة وعمارة وقوة انما أساسه الجيش والعلم وأدرك بفؤاده اليقظ أن الجنود

الألبانيـة لا تؤمّن الخوف ولا تحقق المطامع ، وأن الجامعة الأزهرية لا تعلم علوم الدنيا ولا تدرس فنون الحرب ؛ وأ كبرَ ما ترك نابليون بمصر من الآثار الصالحة على قصر احتلاله واضطراب حاله ، فحصر هذا الرجل النظورُ همه وعزمه فى إنشاء مصر الجديدة على الوضع الذى استقر عليه الزمان الحاضر والانسان الحديث ؛ فأقام المدارس للحرب وما يتصل بها من الطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والكيمياء والعلوم والألسن ؛ ثم ربط هذه المعاهد المختلفة الدرجات والغايات بادارة واحدة سماها (ديوان المدارس) وجعل أعضاءه عشرة من المصريين الذى أوفدهم إلى أوربا ، والأوربيين الذين أقدمهم إلى مصر ، وجعل عليهم الأستاذ مصطفى مختار الدويدار

كان من ذلك الديوان الصغير ذلك الصورُ الذى انبعثت على صوته مصر ، والنسم الذى تنبهت من نفحته العروبة ، والقبس الذى استضاء بنوره الشرق . وكان من الطبيعى يومئذ أن يكون التعليم للحكومة لا للشعب ، وللبنين لا للبنات ، وللمادة لا للأدب ، فكانت الحركة الثقافية تتسع وتضيق تبعاً لحاجة الجيش والادارة . فلما فترتّ الوثبة العلوية فى عهد عباس وعهد سعيد زاد عرض هذه المصانع العلية، على طلب الدواوين الرسمية ، فوقفت البعوث ، وأغلقت المدارس ، وكانت ثلاثاً وستين مدرسة ابتدائية ، ومدرستين تجهيزيتين ، وإحدى عشرة مدرسة عالية ، فلم يبق منها إلا ثلاث للحربية والطب والصيدلة

***

أما اسماعيل فكان رجلا آخر . لم يكن سياسياً طامعاً كجده ، ولا عسكرياً فاتحاً كأبيه ، وإنما كان مدنياً باريسياً له ذوق ، وبه ترفع ، وفيه زهو ، فجعل التعليم للتمدين والتثقيف ، لا للتجنيد والتوظيف ، وطمح إلى أن تكون مصر جزءاً من أوربا ، فى مبانيها ومعانيها ، ورفاهتها وأنظمتها ، ففتح ما أغلق من المدارس وزاد عليها . وأعاد البعوث إلى أوربا ، وأقام نظارة المعارف على هذا الوضع المعروف وأنشأ لتغذيتها دار المعلمين ، وابتغى الأسباب لتقليل الأمية ، وتلمس الوسائل لتعميم الثقافة ؛ وسار الأمر على هذا الطريق الواضح حتى دهانا الاحتلال الانجليزى وكل شىء كان يتحفز للنهوض ويتوثب للرقى ، فكأنما صببت ماء فى نار ، أو أقمت سداً فى تيار !

كان التعليم فى أواخر عهد اسماعيل واسع النطاق متعدد المناحى شعبى الغرض ؛ فالمدارس موفورة العدد ، واللغة العربية لسان المعلم ولغـة الـكتاب ؛ فأخذ الانجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب هذه النهضة ، ويسيرون بالتعليم إلى وجهة أخرى ، فأغفلوا البعوث وأغلقوا مدرسة الألسن ، وأبطلوا المجانية وأهملوا اللغة العربية ، وجعلوا التعليم كله بالانجليزية ، وقصروه كما كان قبل اسماعيل على تخريج عمـال للحكومة لا إعداد رجال للشعب ؛ وصار اسم (دنلوب) علماً على نوع من التدريب الاستعمارى الآلى تروّض به النفوس المتمردة على الضراعة ، والألسنة الآمرة على الطاعة ، والعقول المستقلة على التبعية . فكان من عواقب هذه السياسة السفيهة أن اتسع التعليم وضاقت التربية وكثُر المتعلمون وقل العلم ؛ فتبجحت الجهالة ، وانتشرت البطالة ، وفسد الأمر فى الحكومة ، وساء الحال فى الأمة . ثم اشتعلت الحرب الكبرى فى أنظمة دنلوب وأمثالها فى كل دولة فأكلتها أكلا ذريعا . ثم خمدت فاذا بقاياها فى كل مكان عصيان وطغيان وثورة ، وإذا مصر تفلت من ربقة (جون بول) فتطلب الاستقلال ، وإذا المعارف تخرج من وصاية (دنلوب) فتبلغ الرشد ! ولكن الراشد لا يزال قريب عهد بالقصور ، فهو يختلج ليستقيم ، ويتذبذب ليعتدل ، ويتجمع ليثب . فاذا احتفلنا اليوم بمرور هذا القرن على وزارة المعارف ، فانما نحتفل بعهده السعيد الذى أقبل ، وتطورها الجديد الذى لاح ، ومستقبله الواعد الذى أشرق .

احمد حسن الزيات

فى المرقص

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

جلست فى ركن أرى منه الناس جميعا وذهبت أنتظر صديق . والانتظار ثقيل ولكنه هنا مما يهون أمره ، فقد كان اليوم يوم أحد ، وكان المكان غاصا بالفتيات الجميلات ، وكانت الموسيقى لا تكف عن العزف ، فالرقص لا ينقطع وحركته لا تفتر ، ولا يزال الشبان ينهضون ويتقدمون من الفتيات وينحنون لهن باسمين فترفع الواحدة منهن حاجبيها الدقيقين اللذين يبدوان كأنهما مرسومان وتبتسم وتنهض ويداها على ثوبها لتصلح منه ما أفسده الجلوس . وكان يخيل إلىّ أن كل إنسان هنا يعرف كل إنسان آخر إلا العبد لله ، فما كنت أرى وجه من أعرف . وصفقت فجاء خادم سمين أسود الوجه غليظه فقلت : اسقنى شيئا مما عندك ، وكان صوتى خافتا وقد زادت الضجة خفوته ، فمال الرجل على وهز وجهه الكبير فقلت : وهات أى شىء بارد .. أى شىء .. اذهب ، فقد كان يحجب عنى الدنيا

وأدرت عينى فى المرقص فسرتنى المناظر . آه ! .. هذه البيضاء ذات الثوب الأرجوانى ما أحلاها .. شعرها ذهبى وخصله الجميلة تهتز تبعا لحركة الرقص وكف زميلها على ظهرها تجعل هيف خصرها واستواء ردفيها أوضح وأوقع فى النفس وأسحر للعين ، وقد دارا الآن فأنا أرى كيف تمنح صاحبها صدرها .. إن صدرها ليس على صدره .. كلا .. ثديها الأيسر وحده هو الذى أراه على صدره .. ما أحلى هذا ! . ليتنى كنت مكانه ! وأحلى ما فيها إشراق وجهها النضر .. إنها مسرورة تضحك وتثنى رأسها راضية مغتبطة . فليت شعرى ماذا يقول لها هذا الشاب الحاذق ؟ ..

واختفيا عن عينى وحجبهما غيرهما من الراقصين والراقصات . آه .. هذه أيضا حسناء ولا شك .. ثوبها فيما يبدو لى قديم .. ووجها باهت اللون .. والأبيض كثير .. ولكن معارفها حسنة وعينها واسعة حوراء .. أم ترى هذا فعل الكحل ؟ .. لا أظن . ولكن صاحبها لا يدنيها من صدره وإنى لأرى بينهما مقدار شبر .. ولا يحادثها ولا يهمس فى أذنها بكلمة .. فهما يدوران فى صمت .. خسارة .. كنت أحب أن أرى وجهها وهى مسرورة تضحك .. ذهبت الآن على كل حال .. فلننظر إلى غيرها ..

وراقنى فرق ما بين الفتيات وهن يرقصن .. هذه واحدة تقف من صاحبها كالسيف .. خط جسمها مستقيم تماما .. وتلك التى تلبس هذا الثوب الأخضر تنأى بساقيها عنه وتلق بصدرها على الفتى ، فلو تخلى عنها لكان الأرجح أن تقع على الأرض مكبوبة على وجهها الجميل .. أم ترى هذا ليس إلا وهما ؟ ومن يدرى ؟ .. لعلها تتق أن يغلط مراقصها فيدوس أصابعها الصغيرة فهى لهذا تبعد بساقيها عنه .. ومن يدرى أيضا ؟ .. فعسى أن تكون غايتها أن تريح صدرها جدا عليه .. وهذه السمينة التى تحرك جسمها الثقيل ببطء .. صاحبها أسمن منها فهما مسكينان .. ألا ترى كيف يمسح عرقه .. ولكن الغريب أنى لا أراها تعرق مثله .. وأحسب أن هذا من فضل الله فلو تصبب عرقها لتَشَرّ على المسحوق ورسم خطوطا تجعل وجهها كأن فيه أخاديد .. ولكن لماذا وكيف لا تعرق ؟ ..

وسكتت الآلات وكانت الارجوانية من جيرانى ولكن وجهى كان إلى غير جهتها فلم أستطع أن أديره إليها .. قاتل الله الشعور بالذات .. لماذا لا أنظر إليها ؟ .. لن أخطفها أو آكلها .. ولا أظن أن نظرى إليها يسوءها كما يسوءها الانصراف عنها كأنما هى لا تستحق نظرة .. وإنها والله لآية .. ولمحت شيئا عظيما إلى يمينى فى مدخل النافذة فالتفت فاذا الخادم الأسود الضخم الجثة فضحكت — فى سرى فما أستطيع أن أقهقه وأنا وحدى فى هذا الحشد — وحدثت نفسى أن الله اختار لى أن يكون هذا الزنجى العظيم زميلى فى ليلتى هذه وأنيسى فى وحدتى .. وحولت وجهى عنه مستعيذا بالله ، ونظرت فى الساعة ورجوت أن يحضر صاحبى فيزيل هذه الوحشة وينحى عنى هذه الغمة الحالكة السواد .. ولكن صاحبى لم يجىء فلا بد أن أعتمد على نفسى فالتفت إليه وطلبت شيئا لأصرفه عن مكانه فذهب ووسعنى أن أجيل عينى مرة أخرى فى الجلوس فرأيت فتاة فى ثوب داكن الحمرة ذى شقين وفى أذنها قرط هو حبة كبيرة من اللؤلؤ .. المزيف بالطبع .. وهى سمراء فلعلها مصرية .. أعنى لا عبرانية ولا أوروبية .. وشغلنى من أمرها أنى لا أستطيع أن أتبين أهى بدينة أم نحيفة ..

وتعجبت لهذا . . ولكن المائدة أمامها وهي متكئة عليها بذراعيها فالبادي منها هو صدرها مضموما . . ووددت أن تقف . . أعني أن يدعوها أحد إلى الرقص . . ولكني لاحظت أنها لا ترقص أبدا . . ولم أر واحدا من هؤلاء الشبان دنا منها وانحنى لها أو ابتسم أو أشار أو فعل غير ذلك مما تدعى به الفتاة إلى الرقص . . فهل هم يعرفون أنها لا ترقص ؟ . هي مثلي إذا . . ولكني مهيض الساق فهل تراها . . ؟ لا لا . . إني رجل ، فلا بأس ولا ضير على من كسر يصيب ساق ولكنها تكون مسكينة حقا إذا كان الله قد امتحنها بمثل ما امتحنني به . . أعوذ بالله . . كلا . . لا أظن . . وشاء حسن الحظ أن تقوم الفتاة في تلك اللحظة وأن تقبل على جيراني فإذا قدها سخيف جدا فانصرفت عنها وحمدت الله الذي أبى أن يشغلني بها عن الجميلات . .

وأطفئت الأنوار وبقيت بضعة مصابيح حمراء وخضراء وعزفت الموسيقى لرقصة التانجو فقلت هذا أحسن وأمتع . . وإذا بشاب أسود وعلى عينيه نظارة يقترب من الفتاة الهيفاء ذات الثوب الارجواني ويهز لها رأسه فتنهض مرتاحة مسرورة يا أخي ! . . أما ان هذا لغريب ! . . من أين عرفها ؟ . . بل من أين جاء ؟ فقد درت بعيني في المكان كله ولم أدع ركنا أو زاوية الا حدقت فيها ؛ ولست أعمى ولا قصير النظر وان كنت أحمق قليل العقل . . وهززت رأسي مستغربا . . وقلت لنفسي لولا ان الله ابتلاني بساق لا خير فيها أما كنت انهض انا أيضا لأراقص هذه البنت الجميلة ؟ . . وزاد عجبي أني رأيته يحسن الرقص وأنها فرحة به ومقبلة عليه . ورنت ضحكتها الفضية فقلت لنفسي ياملعون !. وظريف أيضا ؟ . . اذن أنت تستحق هذه النعمة التي كنت أظنك غير جدير بها . وقد وهبتكها فليس أحق بها منك ! . .

وكانت أصابعي تعبث بعلبة الكبريت وتحركها على صوت الموسيقى أراعي الراقصين ولا يفوتني ان أنقد حركاتهم اذا كان قد فاتني ان أشاركهم فجعلت أقول لنفسي . . لا . . هذه الميلة ليست حسنة ولا رشيقة . . كان ينبغي أن يكون الانحراف فيها أقل . . هذا الأحمق يجب أن ينزل بكفه الغليظة الى الخصر . . ماذا يظن أنه يصنع ؟ . . ألا يرى أن الفتاة تميل الى الوراء فكيف يبقى كفه على طرف الكتف ؟ . أما انه لمجنون . . وهذا الأبكم ألا يجد كلاما يقوله لصاحبته فيشيع البشر في محياها ؟ . . لماذا يدعها كأنما صب وجهها في قالب ؟ . . في أي شيء غيرها يفكر هذا الأبله ؟ . . أما لو كنت أنا مكانه ؟ . . اذن لأريته . . ولكني مع الأسف قاعد أنظر ولا أرقص . وقد خدرت ساقي من طول ما تركتها على أختها فلأرحها قليلا

وأنزلت ساقي والتفت وأنا أعتدل في مجلسي فاذا الزنجي الضخم واقف الى جانبي ، فقلت يالها من ليلة سوداء ! . ماله لا يتحول عن هذه النافذة ؟ . . وخطر لي أنه يتوهم أني قد أهرب منها فإنها تؤدي الى شرفة تنتهي من آخرها الى السلم ، فقلت أعطيه القروش التي لا يستحقها وأريحه وأستريح فقد طلبت شيئا باردا فجاءني بشاي سخن . وأحسب انه لم يسمع أو لعله ظن الشيء شايا . . فما أذكاه ! . . وبدا لي أني أظلمه فليس ذنبه انه أسود وان جثته ضخمة وان شكله بغيض . ثم ان له حقا في الوقوف حيث يشاء مادام لا يزحم المكان ؛ وأين بالله يقف الا في مدخل باب أو نافذة استعدادا لتلبية الطلبات ؟ فلندعه على كل حال .

وأردت أن أنهض وأنصرف فقد تأخر صديق جدا ولم يعد من المنتظر أن يحضر ، ولكني استحييت أن أمشي أمام هؤلاء الفتيات الجميلات وضننت بهن أن أعكر عليهن صفوهن برؤية رجل أعرج يظلع أمامهن ، وقلت أنتظر حتى يستأنفن الرقص ويشغلن به عني . ولست أستحي من العرج الذي منيت به فما فيه ما يدعو الى الخجل ، لكني أكره الفضول وأستثقل من الناس أن يديموا النظر الى رجلي كأنها شيء غريب جدا . وما ركبت الترام قط الا ضايقني الناس بهذا الفضول . وما أكثر ما رأيتهم يتحدثون ويشيرون الى ساقي غير عابئين بشعوري . ولهذا رأيت أن أتخذ سيارة لأريح نفسي من هذا الفضول

وودعت الخادم الغليظ وتحريت أن أرضيه فقد ظلمته وان كان هو لا يدري ولا يعرف ماكان يدور في نفسي كلما وقف الى جانبي . وخرجت مترنحا ـ لا من السكر فما شربت الا ماء فقد تركت الشاي ـ وانما كنت أترنح لأن رأسي كان يدور . ولي العذر فقد يحتمل المرء واحدة جميلة ولكن من العسير أن يحتمل فتنة كل هذا الجمال الراقص

ابراهيم عبد القادر المازني

حافظ ابراهيم شاعر الفخامة

للأستاذ كرم ملحم كرم

حافظ العسكري اقتدى بالبارودى العسكري
لجاء شعره قوياً كالأمر دقيقاً كالنظام

ظهر الشعر ضعيفاً فى مطلع عهد الانبعاث . فكأنه ليس بالشعر ، إن هو إلاّ كلمات مرصوفة بعجز ، لا تدل على معنى سام ولا تزخر بالقوة . وكأن أولئك النظّامين يجهلون حسن الصياغة ، فنفحونا بشعر مائع فى معناه ومبناه . وكل ما رموا فيه إلى الاقتداء بالأقدمين . لا فى سبكهم الشعر بل فى مواقعهم من ولاة الأمر . فعلموا أن الأخطل كان يمدح معاوية ويزيد ويتمتع برحابة عبد الملك ، وأن أبا نواس مدح الرشيد والأمين ، وأن المتنبي تغنى بمآثر سيف الدولة ، إذاً عليهم أن يمتدحوا الحكام والولاة . عرفوا أن الشعر يبدأ بالغزل وينتهى إلى المدح ، فنهجوا هذا النهج اندفاعاً وراء البحترى والمتنبى ومهيار الديلمى ومن جرى مجراهم من شعراء العصر العباسى الأخير

وطالعوا فى صفى الدين الحلىّ الطباق والجناس وتسخير المعنى للألفاظ ، فقلدوا صفى الدين فيما أنشدوا من شعر ، وما نظموا من قصائد خالية فى معظمها من روعة البيان والابتكار

بلى ، لقد حاول الشيخ ناصيف اليازجي الخروج عن هذه الدائرة ، إلا أنه لم يكن ابن نفسه فى معظم ما أنشد . فهو مدين للمتنبي فى أكثر قصائده مع كونه شاعراً ، على أن الشاعرية لا تنفى التقليد

وأول من برز من الشعراء الأقحاح بعد الشيخ ناصيف اليازجى هو محمود سامى البارودى ، فجمع بين حسن الصياغة والمعنى . وإن يكن هذا المعنى غير مبسوط أحياناً ينحصر فى نطاق معلوم ، فهو خير ما جاد به علينا مطلع عصر الانبعاث . وتكفى تلك الصياغة المشرقة التى اهتدى إليها البارودى ونبذ بها الركاكة الشائعة يومذاك ليكون لهذا الشاعر فضل عميم على القريض . فالشعر العربى نهض بالاستناد الى البارودى نهضة نشاهد آثارها فى شعراء اليوم . وقد تكون نهضته نهضة ألفاظ أكثر منها نهضة معان . على أن نهضة الألفاظ هذه صقلت الشعر ، ونفت عنه الاضطراب ، وقادته فى طريق سوى انتهى به إلى شعر المعانى الأنيق ، البرّاق الظاهر ، الخالى من كل وهن وعيب سواء فى لغته أو تركيبه

وحافظ ابراهيم اقتدى بالبارودى فى حسن صياغته . فعمد الى الشعر العالى النفس ، المتين القالب ، يشد به نفثاته . وكأنما ونحن نقرأه نسمع الفرزدق أو بشاراً ، على ان هذا الشعر لم يكن موفقاً فى معظم الأحيان بمعانيه مثله بألفاظه

فهناك ألفاظ مختارة تعيد الى الاذهان عصر الجاهلية وما تلاه من أعصر أشرق فيها الأدب العربى وأزهر . ولا نكير أن الشعر فى الجاهلية وصدر الاسلام والأعصر العباسية كان أشد خصباً فى المعانى من شعر الانبعاث فى مستهله ، بيد أن النهضة لا تعتمد على الطفرة فى مسيرها بل تمشى وئيداً الى هدفها الأعلى . ولا بد فى مطلع كل نهضة أدبية من هزة لفظية تجتاح القوالب الرثة لتقيم الأدب الجديد على ركن لغوى سليم

والهزة اللفظية بدأها اليازجى الكبير والشدياق ونقلها الى مصر اليازجى الأمين ؛ فلا عجب اذا اعتمدها البارودى فى بيانه وتلاه حافظ ابراهيم . وحافظ تأثر بالبارودى فى شعره ومسلكه ، وطمع فى أن يرتقى يوماً الى مستوى هذا الشاعر العسكرى . فالبارودى تربع فى مقعد الوزارة ، وحافظ شاقه أن يجلس يوماً فى هذا المقعد وان يبلغ شأن زميله . وهو لما كان يرتدى ثوب ضابط فى السودان ما انفك عن التودد الى الشيخ محمد عبده . وكل قصده أن يمهد الشيخ له السبيل الى الوزارة أو الى منصب سام فى الجيش . بيد أنه لم يقع منه على ضالته . فالشيخ كان يتناول رسائل حافظ ويطويها دون أن يكترث كل الاكتراث لهذا الضابط الوافر الآمال . العاقد عليه رجاءه . فيئس حافظ أو كاد ، ودعا اخوانه الى التمرد على الأوامر العليا ، ومال عن الجيش الى الاشتغال بالأدب فى مصر . ومع كل مالقى من فتور الشيخ محمد عبده ظل له على وفاء وولاء . وانتابته الفاقة وهو يرقب انصاف الشيخ له وما تولى عمن تولى عنه .

* * *

وكان ميدان الأدب يضيق بالفرسان . فهناك شوقى ومطران وولى الدين واحمد محرم والمنفلوطى . وظهر شوقى فى القمة يزاحمه

عليها خليل مطران . على ان حافظاً لم يدركه اليأس . فدفع فى الحلبة جواده يبغى الوصول الى القمة شأن شوقى نفسه . على أن ما توفر لشوقى لم يتوفر له . فقد ملك شوقى المال والثقافة معاً . فكان واسع الاطلاع ، ناعم البال ، يعلم حق العلم ان عيشه مضمون فى حاضره وفى غده . على حين ان حافظاً فقد أمله فى الحاضر والمستقبل . فكافح الشقاء ، غير أن الشقاء أقوى منه . ونظر الى آتيه واذا الآتى يبدو مبهماً ان لم يبد فاحماً أسود

فى هذه البيئة المضطربة عاش حافظ بين الافلاس والشقاء والأمل الطعين . فلا يسعفه من اعتمد عليهم ولا ينجده دهره . ولم يبق لديه سوى بيانه . على أن البيان لم يوفر له العيش الرغد مع كل ما فطر عليه من حسن المخالقة وحلو الحديث ونبل النفس ؛ فلم يكن حافظ ممن يتسفلون الى استجداء اللقمة ، بل كان يجتهد ما استطاع فى صون كرامته وهو الرجل العسكرى الشديد الحرص على شرفه وواجبه

ولمعت قصائد حافظ الأولى . وقام الناس يقارنون بينه وبين شوقى . فأدرك حافظ أنه بلغ القمة التى يصبو إليها ، وأن الحجر العثرة فى الطريق هو شوقى دون سواه ، فان هو ذلل هذه العقبة هان عليه كل عسير ونال المشتهى . فليس أمامه غير هذا الخصم وعليه ألا ينام عنه ، ومما كان يؤلمه أن يلمع شوقى لدى الخديو عباس وأن يؤثره عزيز مصر على الأدباء أجمعين ، فلماذا يكون شوقى فى تلك المرتبة السامية ولا يترقى هو (حافظ) إلى المكانة نفسها ! . . ولقد كان يطمع فى مكانة أسمى ، فشاء أن يكون شاعر الخليفة العثمانى وأن يتفوق على شوقى فى أدبه ومنزلته إلا أن الاقدار لم تضمن له مايرجو .

فنقم على دهره وأبى أن يناصر مذهب شوقى السياسى فدرج على خطى محمد عبده خصم الخديو ، ونفخ فى بوق الوطنية فكانت قصائده تلهب الحماسة فى النفوس فيصفق لها العرب بأجمعهم لكون القوة تتجلى فيها . وغار منه شوقى فنسج على منواله فى رثاء مصطفى كامل وفى سقوط أدرنه وفى سقوط عبد الحميد . فكل مأثرة وطنية كانت تجد لها صدى فى قريحة الشاعرين ، إلا أن صداها فى منظوم حافظ أكثر صدقاً منه فى منظوم شوقى . فلم يكن منى شوقى إلا أن يتغلب على هذا المزاحم الوثاب . وكيف يزاحمه بسوى إطلاق بلاغته وبيانه ؟

والزحام كان جليل الفائدة . فالشاعران جالا فيه على ما يتسع لهما المدى . فبذلا كل ما يملكان من موهبة . وكان حافظ يتفوق حيناً وحيناً شوقى . وأحياناً كانا يتساويان . إلا أن ثقافة شوقى ساعدته فى استنزال المعانى أكثر مما توفر الأمر لحافظ . ولسنا ننفى عن حافظ اصطياد هذه المعانى المبتكرة ، إلا أنه لم يكن موفور التوليد فيها . فاللفظ وحسن الصياغة كانا يشغلانه عن المعنى . وهو لو كان يجيد لغة أجنبية ، لو اطلع على أدب الغرب مثله على أدب العرب لبات أوسع خيالا وأشد عمقاً فى منظومه ، إلا أن جهله اللغات الأجنبية[1] وقف به عند الأدب العربى ، فما تفتحت عيناه على آفاق بعيدة يخلو منها أدبنا القديم . فكان يجتهد فى الاقتداء ببشار وبالمتنبى فى صياغتهما . ويميل عن كل أسفاف فى المبنى . وهذا المجهود من حافظ فى إنقاذ آثاره من الضعف اللغوى أهاب بشوقى إلى الانعكاف على درس اللغة ليدفع عن قصائده هذا الشين

وإن يكن لابد من المقارنة بين شاعرين عاشا فى عصر واحد واندفعا فى طريق يكاد يكون واحدا فى مانظما وأطلقا من خواطرهما قلنا إن شوقى يتقدم حافظا فى معانيه وموسيقى ألفاظه . فيحلق فى جو أسمى من جو حافظ . فكأنه يملك جناحين أوفى انبساطا ، وأشد عزماً . كأنه كتلة من أعصاب تأبى إلا أن تندفع إلى الأعالى تقع فيها على كل جديد ، فترى وتلمس مالا يتفق لسوى من ملك قوتها فى اقتحام مسبح الفلك . وحسب شوقى أن يرصع صدر الملعب العربى بتلك الروايات التمثيلية . فشاء بها أن يضارع كبار شعراء العالم أمثال شكسبير وكورناى وراسين وفولتير وفكتور هيغو . فما « مجنون ليلى » غير « روميو وجوليت » لشكسبير ، وما « كليوباترة » غير « أندروماك » لراسين

وحافظ لم يخترق هذا الجو . فاكتفى بالديباجة الفخمة ، بعظمة الجند ، بالشارات العسكرية البراقة . فأنت تحس وأنت تقرأه بأنك أمام شاعر يتقلد سيفاً ويعلن أمراً . فلا محاباة ولا مصانعة ، بل قوة جياشة تدعوك إلى الإصغاء بكلام طنان ثابت فى مواضعه كأنه صب فيها صبا . والأوامر العسكرية معروفة لا زخرف فيها ولا طلاء بل فخامة وقوة . وهذه الأوامر غلبت على شعر حافظ كما غلبت على شعر البارودى فمالت بهما عن

(١) الصحيح أن حافظا كان ملما باللغة الفرنسية وعنها ترجم البؤساء بتصرف. (الرسالة)

التغريد المتعالى من شعر شوقى والخيال المغلف به منظوم شاعر الأمير
إذاً شوقى هو المتفوق . وشوقى روح عصر الانبعاث فى مطلع القرن العشرين . فهو مرآة الشعر فى هذا الزمن . ومن ينظر فى نتاج قرائح شعراء اليوم يقبل على شوقى فى الطليعة ومن المحال أن ننسى خليل مطران . على أن المفاضلة تتناول فى فى مبحثنا حافظاً وشوقى دون سواهما . وحافظ لم يكن خصباً كشوقى ولا متفنناً مثله . وإذا قيل إن شوقى أغار على الأقدمين فليس ينجو حافظ من التهمة . هـذا عارض من سبقوه وذاك عارض من سبقوه ، إلا أن أبواب الغزو لدى شوقى المطّلع على الأدب العربى والغربى معاً أكثر منها لدى شاعر النيل . وهذا سرّ من أسرار تفوق الأول ووقوف الآخر دونه فى الطريق

ومما نشاهد أن عطف الناس على حافظ أقوى منه على شوقى . فإن لحافظ فى القلوب منزلة لم يبلغها شاعر الأمير . فكل من وقف على بؤس حافظ وإخفاقه فى أمانيه وعزة نفسه مال إليه متأثراً وتألم لألمه . والبائس يجد حوله ذوى الرفق ، على حين أن القرير العين يصطدم أبداً بالناقمين الكارهين . وهذا هو موقف الشاعرين من أبناء اللغة العربية . أحبوا حافظاً لبؤسه وخفقت فى صدورهم محبة شوقى لغناه . على أنهم إذا جاءوا يفاضلون بين الشاعرين آثروا شوقى على حافظ دون ما تردد . وتلك العاطفة الروحية لا بدّ لها أن تتلاشى على ممر الأيام ، يوم يفنى هذا الجيل ويبيت أبناء الغد حيال أدب شاعرين يعتمدون فى تحليل آثارهما على نور الحقيقة لا على نبضات القلوب

وهذا الإيثار لا يحط من قدر حافظ . فهو من أقطاب الشعر فى هذا العصر . وإذا استثنينا شوقى ومطران قلنا إن البلاد العربية لم تنجب حتى الآن من أمثاله . ويسرنا أن تدرك أخيراً مصر قدره وتقيم له المهرجان تلو المهرجان . وكنا نود أن يلقى هـذا التكريم وهو فى قيد الحياة . فكان بحاجة إلى التقدير بعد كل ما عانى من بؤس وخيبة .

والتقدير لا يكفى إذا تهاون المصريون فى أمر ضريح الشاعر ، فإن لرفات هذا الشاعر الجندى المتوقد القريحة شأناً تاريخياً من حق مصر أن تعتز به . فلن يقوم فى كل يوم فيها شاعر كحافظ إبراهيم .

ولقد أثبتت الأقطار العربية الأخرى أنها تحترم حافظاً وتنحنى أمام أدبه العالى . فأوفدت ممثليها للاحتفال بذكراه والتغنى بمحامده . ولا ريب أن الملوك أنفسهم يشتهون أن ينالوا ما يتمتع به الشعراء بعد موتهم من خلود وتكريم . فالمتنبى والفردوسى لقيا من يحتفل بمرور ألف عام على موتهما . مع أن هذا التقدير العالى لم ينل مثله كسرى ولا هرون الرشيد . وأين الفردوسى والمتنبى من كسرى وهرون الرشيد فى إبان حياتهما ! . ولكن الأدب أبقى من العروش ، والشاعر أبعد خلوداً من الملوك ، وحافظ من هؤلاء الخالدين . ومن الراهن أن مصر تنسى المئات من أرباب التيجان الذين توالوا ويتوالون عليها ، ولا تنسى حافظا وشوقى والبارودى وصبرى وولى الدين ، وفى ذلك الدليل كل الدليل على أن الأدب وهو وليد النفوس ، أوطد أثراً فى قلب الدهر من التيجان والصوالجة ، وأن الأديب الأديب يرسخ فى أذهان الأجيال المقبلة رسوخاً لا يحلم به غير من دوخوا الأرض من أمثال الإسكندر ، ويوليوس قيصر ، وعمرو بن العاص ، ونابليون العظيم ! ...

(بيروت) كرم ملحم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »

من أدب التاريخ

قصة غرام فاطمية

موضوع مسرحية بديعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تقدم إلينا صحف القصور الاسلامية طائفة من القصص الغرامية الشائقة التى امتزجت بسير الخلفاء أو السلاطين ؛ بيد أن هذه القصص المشرقية بالرغم من ألوانها المشجية المؤسية أحياناً لا تحمل دائماً ذلك الطابع الروائى العنيف الذى يبدو فى قصص الحب فى القصور الغربية ؛ ويرجع ذلك أولا إلى روح العصور ، وثانيا إلى تباين الخلال والنظم الاجتماعية ؛ فى القصور الاسلامية كان يغلب دائماً ذلك التحفظ الذى يسبغ ستار الصمت والكتمان على حوادث وسير لا تحمد إذاعتها وتتق آثارها بين الكافة ؛ وكان نظام التسرى الذى يعمر قصور الخلفاء والسلاطين بأسراب الجوارى الحسان من مختلف الأمم والأجناس يحول دون اضطرام هذه العواطف والنزعات العنيفة التى كثيراً ما تضطرم فى قصور الغرب ، وتحمل فى طريقها عروشاً أو تؤثر فى مصاير أمم ومجتمعات ؛ ومن النادر أن نرى فى التاريخ الاسلامى جارية أو خليلة ، حظية خليفة أو سلطان ، تسيطر على أقدار الدولة ومصايرها بمثل ما كانت تسيطر غانية مثل بومبادور أو دوبارى على أقدار فرنسا فى عهد لويس الخامس عشر ، أو نرى ملكا وأمبراطورا عظيما كادوارد الثامن يهجر أعظم عروش الأرض وأجلها قدراً فى سبيل حب ليس فيه من الروعة والجمال ما يتناسب مع روعة التضحية التى أقدم عليها

بيد أننا نظفر فى صحف القصور الاسلامية مع ذلك ببعض السير الغرامية العجيبة التى تطبعها ألوان روائية تذكى الخيال إلى الذروة . ولولا أن الرواية الاسلامية تحجم فى كثير من الأحيان عن الافاضة فى تلك السير الشائقة ، وتكتفى بايراد الروايات الموجزة عنها لكان منها تراث روائى ساحر لا يقل فى روعته وجماله وتباينه عما تقدمه إلينا قصص الحب الغربية الشائقة

مثال ذلك قصة الخليفة الفاطمى الآمر باحكام الله وحبيبته البدوية فهى فى الواقع نموذج ساحر من ذلك القصص الغرامى الذى يصلح بموضوعه ومناظره وألوانه موضوعا لمسرحيات من الطراز الأول فى سحرها وروعتها

ولى الآمر بأحكام الله الخلافة وهو طفل فى نحو السادسة من عمره سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) رفعه إليها أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه وزير أبيه الخليفة المستعلى ، وجده المستنصر من قبل ، والمتغلب على الدولة ، والمستأثر بسلطانها ؛ ونشأ الآمر فى كنف هذا الوزير الطاغية ، كما ينشأ جميع الأمراء الذين ليس لهم من الملك غير رسومه ومظاهره ، محجوبا فى قصره ، مغمورا بأنواع الملاهى والمسرات ؛ بيد أنه نشأ مع ذلك طموحا ينزع إلى السلطان والبطش فلما بلغ أشده ، وشعر بوطأة المتغلب عليه أخذ يتربص به حتى استطاع أن يدبر مصرعه ، وقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ ؛ وتولى مكانه المأمون البطائحى ؛ وقبض مثل سلفه على السلطة بقوة وحزم ، فلم يلبث أن لقى نفس مصيره ، فقتل فى سنة ٥١٩ هـ ، واستأثر الآمر عندئذ بكل سلطة ، وأطلق العنان لأهوائه وإسرافه وبذخه ؛ وكان الآمر أميرا مرحا ، مضطرم النفس والأهواء ، مشغوفا بحياة اللهو والطرب ، وافر السخاء والبذل ، يعشق البذخ الطائل ؛ وكان يهيم بالجوارى والحسان ، لا يطيق الحياة دون حب وهوى ، وكان يشغف بفتيات البادية بنوع خاص ، وله مع إحداهن قصة غرام مؤثرة ، تنقلها إلينا الرواية فى ألوان ساحرة ، فكأنما تقرأ فيها كما تذكر الرواية ذاتها فصلا من فصول ألف ليلة وليلة ، أو ما يشابهها من القصص العجيب المغرق

كان الآمر يهيم كما قلنا بفتيات البادية ، ويرسل فى أثرهن رسله وعيونه ، يجوبون البوادى والنجوع ، ويبحثون عن روائع الجمال الساذج فى ثنايا الخيام وفى مهاد البداوة النقية ؛ فنقل إليه بعضهم أنه عثر ببعض أحياء الصعيد بجارية عربية هى مثال رائع للجمال العربى آية فى الحسن والرشاقة والظرف ، أديبة شاعرة وافرة الذكاء والسحر ؛ وإلى هنا تبقى القصة عادية ليس فيها ما يثير الدهشة ؛ بيد أن الرواية تجنح بعدئذ إلى نوع من القصص الرائع ، فتقول لنا إن الخليفة الآمر لما سمع بخبر هذه الفتاة البارعة فى الحسن وفى الجمال ، أراد أن يراها بنفسه قبل أن يتخذ فى شأنها أى إجراء ، فتزيا بزى الأعراب وغادر قصره بالقاهرة وسار إلى الصعيد ، وأخذ يتجول بين الاحياء حتى وقف على

حبها واستطاع أن يتصل بأهلها دون أن يعرفوه وأن يظفر برؤيتها وتأمل محاسنها ؛ فما أن رآها حتى اضطرمت جوانحه بحبها ، وأسرع بالعودة إلى القاهرة وقرر فى الحال أن يخطب هذه الفتاة التى تيمته حبا ، وأن يتزوج بها ؛ وبعث الآمر إلى أهل الفتاة برغبته ، فبادروا إلى تحقيقها فرحين مغتبطين ، وأرسلوا بالفتاة إلى القاهرة ، حيث حملت إلى القصر ، وغدت فى الحال زوجة للخليفة ، وسيدة البلاط الفاطمى

وإلى هنا ينتهى أول فصل فى القصة ، وهو فصل لا تنقصه عناصر الخيال الممتع ؛ ثم إن فتاة البادية العالية - وكان هذا اسمها - بعد أن سكنت إلى حياة القصر الباذخة حينا ، وأفاقت من دهشتها الأولى ، أخذت تشعر بثقل هذه الحياة الناعمة على ما فيها من متاع ونعماء وترف مستمرة ، وتبدو لها جدران القصر العالية ، وأبهاؤه الفخمة كأنها ظلام السجن ، وأخذت تحن إلى فضاء القفر الشاسع وهوائه النقى الساذج كما تحن الطيور فى أقفاصها إلى فضاء السماء ، أو كما تحن الأسود المعتقلة إلى أحراجها وأدغالها ، رغم ما تتمتع به فى سجنها من وافر العناية ؛ فلما رأى الخليفة الآمر ما أصاب حبيبته من الاكتئاب والوحشة ، دفعه الخيال إلى أن يلتمس لها متعة الفضاء التى تنشد على طريقته الملوكية . فامر أن تقام لها على النيل فى جزيرة الفسطاط (الروضة) متنزها عظيما يضم بستانا ساحرا وأجنحة ملوكية بديعة ، وسمى هذا المنتزه الرائع الذى لبث مدى حين من محاسن الدولة الفاطمية « بالهودج » فكان للتسمية مغزاها فى التشبيه بالهودج الذى هو خباء السفر فى البادية ؛ وأنس روح البدوية الهائم مدى حين إلى الرياضة فى « الهودج » والتمتع بمناظره الرائعة ونسماته العليلة بيد أنها لم تنس قط وهج القفر وسحر الفلاة

واليك فصلا ممتعا آخر من تلك القصة الغرامية الرفيعة . لقد ظفرت « العالية » بغزو قلب صاحب الخلافة والعرش ، وغدت سيدة القصر والبلاط ، ولكن ذلك لم يكن منتهى آمالها وسعادتها ؛ ذلك لأن قلبها البدوى المضطرم كان يخفق منذ أيام البادية بهوى فتى من بنى عمومتها يدعى ابن مياح . ربيت معه فى الحى منذ الطفولة ، وكان فتى رقيق الخلال وافر السحر ، فلما حملت الى قصر الخليفة لم تخمد فى قلبها جذوة حبه ، ولبثت فى قصرها تتجه بخيالها اليه : وفى ذات يوم هزها الشوق اليه . فبعثت اليه من قصر الخليفة بهذه الأبيات

يا ابن مياح اليك المشتكى ... مالكٌ من بعدكم قد مُلكا
كنت فى حبى مطاعا آمرا ... نائلا ما شئت منكم مدركا
فانا الآن بقصر موصد ... لا أرى إلا حبيبا ممسكا
كم تثنينا باغصان اللوا ... حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى ... حيثما شاء طليق سلكا

تقول الرواية ، فأجابها ابن مياح بهذه الأبيات

بنت عمي والتى غذيتها ... بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها ... لو غدا ينفع فيها المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى ... هالك وهو الذى قد هلكا
شأن داود غدا فى عصرنا ... مبديا بالتيه ما قد ملكا

ثم تقول الرواية : ووقف الخليفة الآمر على سر هذه المراسلة وقرأ أبيات ابن مياح ، فقال لو انه لم يسىء اليه فى البيت الرابع لرد الجارية الى حبه وزوجها منه

وأثارت هذه القصة نفس شاعر معاصر من بنى طيىء يدعى طراد بن مهلهل ، فنظم أبياتا ينحى فيها على الآمر باللائمة ويخاطبه بما يأتى :

ألا بلغوا الآمر المصطفى ... مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفة ... بها سحر الحى بين الرجال
كذا كان آباؤك الأقدمون ؟ ... سألت فقل لى جواب السؤال

فغضب الآمر حينما وقف على هذا الشعر ، وقال جواب السائل قطع لسانه على فضوله ، وبعث في طلب طراد فى أحياء العرب ، ففر منه واختفى

ولبث الآمر بعد ذلك أعواما : يطلق العنان لأهوائه ، وينعم إلى جانب حبيبته العالية . ويتردد معها إلى منتزه الهودج . وكان الآمر يثير سخط فريق من الزعماء ورجال الدولة بما جنح إليه من تمكين النصارى من مناصب الثقة والنفوذ . وما كان يمعن فيه من اللهو والبذخ والاستهتار بالرسوم والتقاليد ، ففى ذات يوم من أيام ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ركب من القصر كعادته إلى الهودج للتنزه ، فلما وصل إلى رأس الجسر الموصل إلى الهودج وثب عليه قوم قد كمنوا له . وأثخنوه طعناً بخناجرهم ، فحمل جريحاً إلى قصر اللؤلؤة على مقربة من مكان الجريمة . ولكنه لم يلبث أن توفى . ولم يجاوز الخامسة والثلاثين

وكان الآمر بأحكام الله شاعراً مجيداً . وله نظم قوى مؤثر فمن نظمه قوله :

دع اللوم عنى لست منى بموثق فلا بد لى من صدمة المتحقق
وأسقى جيادى من فرات ودجلة واجمع شمل الدين بعد التفرق

تلك هى قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية، وهى قصة تجمع بين حقائق التاريخ ومتاع القصة؛ ولا ريب أن الرواية قد أسبغت عليها حواشى وألواناً خلابة مصدرها الخيال الشائق، بيد أنها تحتفظ مع ذلك بطابعها التاريخى. ولقد عرج كثير من كتاب المسرح عندنا على بعض الوقائع والمآسى التاريخية واتخذوها موضوعا لمسرحياتهم، بيد أنها قلما تتمتع بذلك الطابع الروائى الخلاب الذى تتمتع به قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية، ألم يقف أحدهم بتلك القصة الفاطمية الشائقة التى وقعت بمصر فى ظل خلافة تنثر من حولها آيات الفخامة والبذخ الرائع؟ إن صحف التاريخ الاسلامى تقدم الينا كثيراً من هذا القصص الرقيق المؤثر، فهلا فكر كتاب المسرح فى ورود هذا المنهل الغزير والاقتباس من طرائفه؛ وإن المسرح المصرى ليبدو أروع وأبدع، وأوفر سحرا وفتنة إذا استطاع كتابنا أن يتحفوه ببعض هذه المناظر القومية الشائقة التى تبد فى ألوانها، وفى روعتها وبهائها كثيرا مما ينقلون الينا من تراث المسرح الغربى

محمد عبد الله عنان

حول مجمع اللغة العربية الملكى

هل لمجمع اللغة العربية وضع المصطلحات العلمية؟

للأديب مصطفى زيور

نشرت الأهرام فى عددها الصادر فى السادس من شهر مارس سنة ١٩٣٧ كلمة للكاتب الفاضل اسماعيل مظهر يناقش فيها حديثا مع مندوب الأهرام لعميد كلية الآداب الدكتور طه حسين بك بشأن مجمع اللغة العربية ومهمته التى يجب (فى رأى الأستاذ العميد) ألا يكون منها وضع المصطلحات العلمية. وما كنت لأزج بنفسى فى هذه المناقشات - فلست من المضطلعين بعلم اللغة - لولا ما تبينته فى كلمة الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر من إغفال حقيقة أوليه أخشى أن تكون فاتت أعضاء المجمع المحترمين، بل اليقين أنها فاتتهم لأن موقف المجمع منها يدل على ذلك، فكان فى ذلك الخطر وكان فى ذلك ما دفعنى إلى كتابة هذا.

ساق الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر فى كلمته رداً على رأى الأستاذ العميد الحجة الآتيه التى يستهلها بقوله: «إن حضرة الأستاذ العميد يحاول أن يثبت أن لمجامع اللغة طبيعة واحدة لا تختلف باختلاف الشعوب واللغات وظروف الأحوال فمضى يطبق القواعد التى يجرى عليها مجمع اللغة الفرنسى... كأن الطبيعة والتاريخ لا حساب لهما فى قياس الفارق بين اللغتين وحال الشعبين...» إذن ففى رأى الفاضل اسماعيل مظهر أن الظروف الملابسة لمجمع اللغة العربية تختلف عن ظروف المجمع الفرنسى بحيث تجعل مجمع اللغة العربية فى حل من أن يتقيد بمسلك المجمع الفرنسى فى الاحجام عن معالجة وضع المصطلحات العلمية. أما هذا الفارق فى الملابسات فيتلخص فى رأى الكاتب الفاضل فى أنه إذا كان للفرنسى المشتغل بالعلم أن يضع الاصطلاح العلمى دون أن يكون لمجمع اللغة فى بلده إلا أن يسجل الاصطلاح فذلك لأنه ينشأ فى مهده يسمع اللغة الفرنسية الصحيحة ثم هو يدرس بعد ذلك اللغتين اللاتينية واليونانية، فهو إذن قادر على الاشتقاق والنحت وأغلب الظن أن المصطلح الذى يضعه لا غبار عليه، هذا بينما نحن فى مصر لا نسمع فى طفولتنا إلا العامية ولا نحصل من اللغة الفصيحة بعد ذلك فى المعاهد إلا قدراً لا يغنى ولا يمكن المشتغل بالعلم أن يقوم بذلك العمل الفقهى دون مساعدة المجمع. والنتيجة المنطقية من هذا كله فى رأى الكاتب الفاضل كما يقول فى مكان آخر من كلمته «إن طبيعة لغتنا والظرف القائم فينا يجعل من أوليات المهام التى يجب أن يباشرها مجمع اللغة العربية النظر فى وضع المصطلحات العربية الصحيحة».

ولست أريد أن أناقش هنا هذه الحجة والنتيجة المستخلصة منها، لأنه من الواضح أن هذا القياس كله يقوم على زعم اقتنع به الكاتب الفاضل: وهو أنه إذا اجتمع لمجمع لغة ظروف بعينها فعليه أن يقوم بوضع المصطلحات العلمية. وهذا هو ما أنكره

أنكر أن يقوم مجمع لغة مهما يكن وفى أى بلد يكون ومهما تكن الظروف بوضع اصطلاح علمى. ومع احترامى الشديد لأعضاء مجمعنا الموقرين - ومنهم من كان لى أستاذا بل ومنهم من ترتبطنى به صلات هى أوثق من صلة التلميذ بأستاذه - فاننى لا أخفى أن فى إنكارى هذا إنكاراً لمجموع مجهودهم إزاء المصطلحات العلمية؛ فإن ثمة حقيقة أولية هى من الخطر بحيث لا ينبغى السكوت عليها: لا يختلف اثنان فى أن مهمة مجمع اللغة العربية هى العناية باللغة العربية - نصرف النظر الآن عن الطريق التى يسلكها إلى ذلك - كما أن مهمة مجمع اللغة الفرنسية هى العناية باللغة الفرنسية، وليس لأحدهما أن يعنى بلغة غير

اللغة المنوط به أمرها . فاذا كان الأمر كذلك فان هناك حقيقة أولية هى أن لغة العلم لغة دولية مستقلة لا شأن لها باللغة العربية ولا شأن لها بغيرها من اللغات ، هذا هو موضوع كلمتى هذه .

تصفح معجما فرنسيا متداولا مثل « لاروس » ثم تصفح معجما انجليزيا متداولا مثل « تشيمبرسز » ثم تصفح معجما ألمانيا متداولا مثل « سكس فيلات » فلن تجد كلمة (كروموسوم) التى تجنى الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر على أساتذة كلية العلوم المصرية بأن المجمع أوجد لها لفظا عربيا ، فاذا أردت الآن أن تتصفح معجما علميا مطبوعا فى فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو غيرها من البلاد وجدت كلة (كروموسوم) هى هىَ يستعملها العالم الفرنسى والانجليزى والألمانى على السواء . هل يريدنى الكاتب الفاضل أن أعلق على هذه الحقيقة ؟ كروموسوم التى ترجمها مجمع اللغة العربية بكلمة (صبغى) ليست فرنسية ولا ألمانية ولاانجليزية بل ولا يونانية ؛ نعم لا أرسطو ولامعاصروه يعرفونها ، ولاسكان اليونان الحاليون من غير المشتغلين بالعلم يعرفونها . هى ربط تحكمى بين أصلين يونانيين قديمين Xewpa أى لون و Kwpa أى جسم ، ربط لم يكن الداعى إليه كما زعم الكاتب الفاضل عجز لغة واضع الاصطلاح عن إسعافه بلفظ يؤدى المراد . وإلا فقل لى يا سيدى هل عجزت إحدى هذه اللغات الأوربية عن لفظة تقابل لفظة صبغى ؟

يخيل إلى أن القاعدة الأساسية التى قامت عليها حركة اشتقاق المصطلحات العلمية من اليونانية القديمة واللاتينية هى التى فاتنا فهمها فى مصر . لم يكن عجز اللغات الأوروبية الحديثة ولكن إرادة التخصيص والتمييز لمعان جديدة بينها وبين الألفاظ المتداولة بعض الصلات هو الدافع إلى خلق ألفاظ إذا كانت أعجمية بالنسبة إلى اللغة العربية فهى كذلك أعجمية بالنسبة لغيرها من اللغات الحية ، لقد فهم هذا اليابان والروس فاتخذ علماؤهم هذه الألفاظ العلمية التى لاصلة للغاتهم بأصولها اليونانية أو اللاتينية واستعملوها كغيرهم من العلماء . إذن فليس فى انحدار اللغة الفرنسية أو الانجليزية من اليونانية واللاتينية ، وليس تلقى الطالب الفرنسى هذه اللغات القديمة فى المعاهد مايفسر تعميم استعمال هذه المصطلحات فى أوروبا ، فإن شعوب الأرض قاطبة من المغول إلى الصقالبة إلى الجرمان إلى الانجلوسكسون إلى اللاتين جميعها تقول كروموسوم . فهل يراد بعلماء مصر أن ينفردوا عن سكان الأرض طرا ويقولوا صبغى ؟ ألا يفسر لك هذا ياسيدى أن كثيرين من أهل الذكر من العلماء فى مصر — كما قلت فى كلمتك — لم يكونوا على استعداد للتضحية فى سبيل اللغة فضنوا بمجهودهم على المجمع . ألا ترى أنهم تبينوا أنه تطلب منهم التضحية من حيث لا محل للتضحية لا للغة ولا لغير اللغة .

قلت لابد أن هذه الحقيقة الأولية حقيقة وحدة لغة العلم قد فاتت أعضاء مجمع اللغة العربية المحترمين ، فذهبوا يترجمون لا من الفرنسية ولا الانجليزية بل من لغة العلم إلى العربية : فاذا كان الباعث الرئيسى الذى دفعهم إلى ذلك هو إرادة استبعاد ماسموه بالألفاظ الأعجمية واستبدالها بألفاظ تسيغها عبقرية اللغة العربية فهم لاشك لن يستثنوا من « عملية » التطهير ، هذه لفظاً دون غيره .

فاذا كان الأمر كذلك وقد ترجموا كروموسوم بصبغى فقد بقى لدينا عدة مصطلحات أخرى كلها مشتقة من الأصل اليونانى Xewpa فلدينا مثلا (كروماتين) وهى كما يعرف الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر تلك المادة ذات التلوين القاعدى غالباً الموجودة داخل نواة الخلية ؛ ثم لدينا (كروم) وهو المعدن المعروف بباهر لون مركباته ، ثم لدينا (كروما) وهى وحدة إدراك الألوان فى البصريات لا أجهل أن عبقرية أعضاء المجمع المحترمين لن يعوزها ترجمة كروماتين ولكن ما القول فى الكروم . أيترجم هذا أيضا وهو اسم علم لمعدن لم يعرفه العرب ؟ إذن يجب ترجمة البلاتين ثم الراديوم والمزوتوريوم إلى آخر سلسلة المعادن ذات الأشعاع ، وكذلك الكلور والبروم واليود والبور الخ . ولكن هذه الكيمياء المعينة لها مشكلة أدهى وأمر : هى المركبات العضوية التى يتألف اسم الواحدة منها من خمسة أصول يونانية أو أكثر كل منها يدل على وظيفة كيميائية يجب ذكرها ، ولكنى أترك الكيمياء لحظة حتى ننتهى من هذا الحوار حول ترجمة المصطلحات المختلفة المشتقة من الأصل اليونانى Xewpa ، ذكرت لك أن وحدة الألوان هى كروما ، فهل ينبغى تمشياً مع عملية التطهير ترجمة هذه الوحدة أيضا كما ترجم بعض أعضاء المجمع المتر والياردة ؟ ! واذا كان الأمر كذلك فانه ينبغى أن نترجم الوحدات الفيزيقية الأخرى مثل (دين) و (ديوبترى) ثم (فلت) و (امبير) و (وات) الخ ، ولكن مهلا ! انك تعرف ياسيدى أن هذه الوحدات الأخيرة هى أسماء لعلماء كانت حياتهم وقفاً على خير الانسانية ، فاراد القوم أن يخلدوهم بتسجيل أسمائهم وحدات عالمية . ولا أخالك تجهل أن أحداً من المشتغلين بالعلم والعارفين فضل هؤلاء العلماء لن يقبل أن يسمع حتى الجدال حول ترجمة هذه الوحدات . بل أنى ولا أشك أنك تتفق معى أنه مهما شرع المجمع ومهما صدرت القوانين الصارمة بتحريم استعمال هذه الالفاظ « الأعجمية » فسيكون موقف العلماء فى مصر كموقف جاليلى حينما أرغم على القول بأن الأرض ساكنة ثم لم يلبث أن قال « ورغما عن ذلك فانها تدور » .

إذن فلابد لنا - ورغما عن أنفنا - من ألفاظ أعجمية . ولكن ماذا ؟ أيذهب بنا الطهر اللغوى أن نكون ملكيين أكثر من الملك

فنسى أن العرب أنفسهم لم يأنفوا من هذه الألفاظ الأعجمية ! وإلا فما قولك فى مصطلحات مثل فلسفة وكيمياء وقاطيغورياس وكلها يونانية محضة ؟ وما قولك فى هذا المجمع الفرنسى الذى يقبل ويسجل Alcool, Algébre, Alcali ، وكلها عربية محضة ؟ ثم ما قولك فى هؤلاء العلماء الغربيين الذين يقبلون ويستعملون اسم هذا الدواء الذى حضره الاستاذ الدكتور خليل عبد الخالق وسماه فؤادين تيمناً باسم المغفور له فؤاد الأول وهو اسم أعجمى بالنسبة لهم ولا تزكيه دلالة علمية ؟ ثم هذه المصطلحات الألمانية المحضة مثل (ماست زلن) وغيرها المستعملة فى علم الأنسجة فى فرنسا وانجلترا . وهذه المصطلحات التى تسم دائماً سمة يابانية و . . . وبعد فانه مهما يكن من الأصل الذى اشتق منه الاصطلاح العلمى فانه اذا كتب له البقاء ـ وليس هذا متوقفا على صحته من الوجهة الفقهية فهذه كلمة (بكتيريا) ومعناها فى اليونانية عصا أى جسم مستطيل ومع هذا فانهم يقولون بكتيريا مستديرة مثل (ستافيلو كوكاس) وهذه هى Hemoculture وهى مزج يتعارض مع أبسط قواعد الفقه اللغوى بين أصل يونانى Xipx أى دم وأصل لاتينى Cultura أى زراعة ـ أقول اذا كتب لمصطلح البقاء فانه يأخذ مكانه فى لغة العلم (بوضع اليد) ويفرض نفسه على الاستعمال مهما كان فيه من خطأ فهى لأنه نشأ عن مبدأ انفردت به لغة العلم وهو التخصيص والتمييز كما قلت آنفاً لمعنى جديد يشترك فى بعض صفاته مع معان متداولة ، فهم عندما قالوا (أنابولزم) لم تعوزهم كلمة فى اللغات الحية تقابل (البناء) التى وضعها مجمع اللغة العربية ترجمة لأنابولزم ، ولكنهم لاحظوا أنهم لو قالوا Construction فى الفرنسية أو Building فى الانجليزية مثلا فانه يختلط الفهم بين هذه الألفاظ العامة وبين المعنى الجديد المراد تحديده . بل إن فى المصطلحات العلمية معانى تشترك فى بعض صفاتها مع مصطلحات أخرى ، فهذه (فوتون) ذرة الضوء ، وهذه كروما وحدة إدراك الألوان ، وهذه ديوبترى وحدة الانكسار فى البصريات ، لا يخفى ما بينها من العلاقة ، ثم ما بين الأولى وبين الذرات الأخرى (الكترون) و (بوزيترون) الخ ، فوجب التمييز والتحديد بالرجوع إلى أصول تجهلها اللغات القائمة .

وليس هذا كل شىء ، فهناك أيضا إرادة مزج معنيين أو أكثر فى لفظة واحدة على أن تكون هذه المعانى واضحة تذكرها جميعاً إذا ما ذكر الاصطلاح . ويبدو هذا واضحاً فى الكيمياء العضوية ولكن على سبيل المثال المركب - (Dimethylaminodimethylpheny lpyrazolone) وهى (البيراميدون) المستعملة فى علم الأقرباذين ضد الحمى : فأنت ترى أن هناك خمسة وظائف كيميائية يجب ذكرها جميعاً عند التعبير كيميائيا . وليسمح لى الكاتب الفاضل بشىء من الفضول لأسأله كيف السبيل إلى ترجمة مثل هذه العبارات الفنية إذا بقى لدينا شىء من الاخلاص للعلم . وهلا يظن أن مثل هذه العبارات ليست أعجمية بالنسبة للغات الأوربية . ولكننا لم نسمع أن مجمعاً من مجامع اللغة فى أوروبا أو فى غيرها شن الغارة عليها بدعوى أن هناك غزوة ألفاظه أعجمية ضد اللغات الحية لأنه لم يقل أحد أن هذه المصطلحات لها شأن ما بلغة من اللغات .

وأخيرا فأنا لا أجهل أن لغة العلم لم تصل بعد إلى الوحدة المنشودة لها من العلماء فما زال كثير من المصطلحات يختلف باختلاف اللغات ، ولكن أغلب المصطلحات التى من هذا النوع والمستعارة من اللغات الحية رأسا قديم قليل التوفيق يترجم إما عن حركة علمية موضعية وإما عن اختلاف فى الرأى العلمى نفسه أو على الأقل عن وجهة نظر مختلفة ؛ فهذا شلل الطفولة الفقرى يدعى أحيانا (تفروميليت) وأحيانا (بوليو ميليت) وأحيانا أخرى (مرض هاين مدن) الخ . على أن هناك مجهودا متصلا فى استبعاد هذه الألفاظ «الأعجمية» عن لغة العلم ، ومن أجل هذا تنعقد المؤتمرات الدولية بين العلماء المختصين من البلاد المختلفة ؛ وفى هذه المؤتمرات ـــ وفيها وحدها لا فى مجامع اللغة ـــ يقترح اصطلاح جديد دولى يحل محل المصطلحات المتعددة بتعدد اللغات . ولا يخفى أن نجاح هذه المصطلحات الجديدة متوقف على التقدم العلمى الذى يوحد بين الآراء ؛ فهذا هو مؤتمر الكيمياء العضوية قد أقر مثلا لفظة (جلوسيد) لتحل محل هدرات الكربون ومرادفاتها : المواد النشوية والمواد السكرية ، وذلك بعد أن تبين أن جميع هذه المصطلحات التى كانت تختلف باختلاف اللغة قليلة التوفيق بل تعبر عن خطأ علمى ، وبالمثل فى (ليبيد) التى حلت محل Fatty Substances الانجليزية و Substaces granes الفرنسية ، ثم (بروتيد) التى حلت محل المواد الزلالية Albuminous وزميلتها المواد البروتينية الخ . وهكذا فقد أصبحت لغة الكيمياء موحدة فى جميع بلاد العالم . وقد تم مثل ذلك التوحيد فى لغة العلم فى كثير من فروع التاريخ الطبيعى . ثم هذه هى المؤتمرات الدولية يعقدها الفلاسفة وعلماء وظائف الأعضاء لهذا الغرض . ثم المعاجم الدولية فى فروع الطب يشترك فى تحريرها علماء من البلاد المختلفة للتقريب بين المصطلحات تمهيدا لتوحيدها .

والآن إذا كانت الحاجة ماسة ، والرغبة فى ترجمة الكتب العلمية الأجنبية إلى اللغة العربية ملحة ، فلا بأس من ترجمة الألفاظ التى لا زالت تختلف باختلاف اللغات . ولنضرب مثلا لذلك بالجهاز الذى يحول الشعاع الضوئى إلى تيار كهربائى والمسمى بالفرنسية Cellulephoto-electriqwe

وبالانجليزية Photo-electric cell وبالألمانية Photo elektrische zellen - فأنت ترى أن الكلمة التى تختلف هى Cellule, Cell, Zellen فيمكننا أن نقول فى مصر خلية فوتو ألكتريك ؛ ولكن حتى ترجمة مثل هذه الكلمة ليس من شأن مجمع اللغة بل هذا من شأن المشتغلين بالعلم. ولست فى ذلك متعنتا لأن هذه الترجمة تتطلب مجهودا عليا شاقا إذ أن هذه الكلمات التى تختلف باختلاف اللغات تدل فى كثير من الأحيان على اضطراب على وانقسام فى الرأى بين المدارس المختلفة. وقد رأينا مجمع اللغة العربية يختصر طريقه فى ذلك فاعتمد فى ترجمته على الكلمات الانجليزية — ومنها مابطل استعماله — كما لو لم تكن هناك حركات علمية فى غير انجلترا

أما قول الكاتب الفاضل إنه يذهب ، إلى أن من الواجب ألا تجيز وزارة المعارف كتاباً ليدرس فى المدارس وعلى الأخص كتب العلم ، من غير أن يجيزه المجمع من حيث اللغة ومن حيث المصطلحات ، فليس فيه قلب للأوضاع فحسب ، بل هو مؤذ إذا أخذ بمثل هذا الرأى الذى يفوح برجعية القرون الوسطى - وليعذرنى الكاتب الفاضل فقد جاوز قوله هذا كل حد - إلى حالة من الركود والشلل ، فسيقفل باب الاجتهاد فى وجه العلماء الذين يعرفون مادتهم دون غيرهم أو على الأقل خيراً من غيرهم ، وسيرى كل مؤلف نفسه مقيداً بأوضاع من التعبير جامدة هى ما شرع المجمع ، عليه أن يصب مادته فيها إذا أراد أن ينال حظوة محكمة المجمع مهما كان فى ذلك تشويه لفكره

وبعد هذا نعجب كيف يتقدم القوم فى أوربا بخطى المارد فى سبيل الثقافة والمدنية بينما نحن نتخبط، نتقدم خطوة ونرجع القهقرى خطوات! كلا ياسيدى ، ما بهذا يمكن إحياء اللغة والعناية بصفائها ، وليس يجيز لك حرصك على ألا تقتل الأعجمية المزعومة ما سميته بأدب العلم أن تلوح بهذه القيود الرجعية ، بل أنا أزعم أن جريمة القتل هى أن تشرع مثل هذه القيود ، وجريمة القتل أن تستبعد لغة العلم من مصر ويستبدل بها ألفاظ لاخير فيها . لست أجهل أن الحرية المطلقة هى نوع من الفوضى ولكنى موقن من جهة أخرى أن البقاء للصالح ؛ فكل مؤلف وكل وضع من أوضاع التعبير الجديد يحمل فى طياته الحكم عليه بالبقاء أو الزوال

فاذا كان الأديب الفاضل اسماعيل مظهر يرى أن المشتغلين بالعلم فى مصر غير قادرين على الاجتهاد ، لايصلحون للتأليف ، ومهما يكن من حقيقة حكمه هذا ، فان ذلك لايخول لمجمع اللغة أن ينسى تلك الحقيقة الأولية التى أشرت إليها آنفاً والتى عبر عنها بعض الناس بأن العلم مجموعة من مصطلحات خاصة أشبه بالرموز تكون لغة مستقلة قائمة بذاتها إذا تفهمتها فقد تفهمت العلم . حسن أن يبدو من مجمع اللغة حرصه على تقدم العلم فى مصر ، ولكن الطريق التى يسلكها إلى ذلك هى التى أنكرها عليه ، لأن اشفاقه من غزوة الأعجمية المزعومة للغة الضاد اشفاق وهمى ، فلن يضيرها أن يكتب مؤلف (سيتوبلازما) بدلا من حشوة التى وضعها المجمع فيتكلف الناس من المشتغلين بالعلم فى مصر استظهار معجم من الألفاظ العربية إلى جانب المعجم الدولى الذى لا يمكن الاستغناء عنه إذا أردنا تتبع العلم فى تطوره . وقد درجنا ودرجت من قبلنا ومن بعدنا عشرات الأجيال من الطلبة والأساتذة فى المعاهد المصرية على استعمال مصطلحات (ستاتيكا) و (دناميكا) و (كلور) و (مثيلين) و (پروتوبلازما) وغيرها من المصطلحات الدولية ، فكنا نعالج استعمالها فى غير شعور بما يسمى بالأعجمية ، كما كنا نستعمل ألفاظا مثل تشيكوسلوفاكيا واستكهلم ومترنيخ سواء بسواء . بل ما كنا نجد فى كل هذا من الغرابة ما كنا نجد فى تلك الألفاظ التى كانوا يضعونها فى حافظاتنا مثل افرنقع وغضنفر واسحنفر وغيرها من الألفاظ التى كنا نستعيذ بالله من وحشيتها . قل ما شئت فى قيمة الثقافة اللغوية لخريجى المعاهد المصرية فالعبرة بعد كل شىء فى الحكم على صلاحية لفظ أو عبارة بحظها لدى ذوق الجمهور من الخاصة أو من العامة ، فهذه مسرة وبرق يعرفهما كل الناس ولا يستعملهما أحد ، فتقرأ فى أكبر الصحف العربية تلغرافات كذا الخصوصية ، وتليفون رقم كذا ؛ أقول ذلك لأنى لا أومن بأن اللغة غاية فى ذاتها بل هى أداة ، وهى باعتبارها كذلك لا يمكن أن يكون المرجع فيها إلى مجلس يشرع بل إلى ذوق جمهور يستسيغ أو يعرض

وفى النهاية إذا كان لابد لمجمع اللغة أن يساهم فى النهضة العلمية فى مصر فليكن ذلك عن طريق ما أنشىء له أو ما كان يجب أن ينشأ من أجله ، وأقصد العناية باللغة من حيث هى ، ففى كتب العلم شىء آخر غير المصطلحات . هناك العبارة اللغوية والأسلوب ، ومهما كانت الأسباب فهناك حقيقة يعرفها ويتألم لها كثير من المشتغلين بالعلم فى مصر ، وهى أن العبارة من اللغة الأجنبية التى لم يدرسوها إلا سنوات محدودة بالنسبة للغة العربية تواتيهم فى سهولة تؤنسهم من لغتهم ، فليكن سبيل المجمع إلى إصلاح هذا الحال : حال ضعف اللغة العربية عند أهلها . ليكن نشاطه فى البحث عما يقوم لسان الكتاب والمؤلفين إذا تكلموا أو كتبوا عن طريق عملى يجعل من اللغة العربية لغة سهلة التناول فى مستوى اللغات الحية الأخرى . أما المصطلحات العلمية ، وأما لغة العلم فهذه شأنها إلى العلماء

باريس ١٣ مارس ١٩٣٧ **مصطفى زبور**

فى الأدب المقارن

الذاتى والموضوعى

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

تتأثر النفس الانسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة، فاذا ماعبر المرء عن تأثره ذاك نثراً أو نظما فى لفظ نقى ، كان تعبيره ذاك أدباً ، فالأدب نتاج عاملين : مؤثر هو مظاهر الحياة التى تحفز الأديب إلى الانشاء ، ويتخذها موضوعا لانشائه ، ومتأثر هو ذات الأديب التى يترجم القول المنظوم أو المنثور عن خوالجها ، وليس يخلو عمل أدبى من آثار هذين العاملين ممتزجين ، فكل عمل أدبى هو ذاتى وهو موضوعى ، غير أن الأعمال الأدبية تتفاوت حظا من هذا ونصيبا من ذاك، فاذا استرسل الأديب فى وصف ما هو بإزائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالها على علاتها ، مكفكفا من عنان عواطفه محكما دونها الفكر ، كان العمل الأدبى موضوعيا ، وإن أرخى الأديب العنان لعواطفه ملما بالموقف الذى هو حياله إلماما خفيفا ، كان عمله الأدبى ذاتياً .

فمظاهر الحياة المختلفة هى مادة الأدب لأنها مادة الاحساس والتفكير ، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور ، ولا تكون النفس إلا خواء تاما ولاالفكر إلافضاء مطلقا ؛ والنفس الانسانيةهى العامل الفعال الذى يعكس صور مظاهر الحياة تلك ، ويمنحها من الصفات ما يروق المرء حيناً ويطربه ويحببه فيها ، وما يسوؤه حينا ويؤلمه ويبغضه فى بعض تلك المظاهر ، والأديب مهما توفر على موضوعه الذى هو بصدده ، ومهما كان موضوعه ذاك بعيداً عن نفسه وعن محيطه وزمنه ، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأى المنزه ، لا يخلو من أن يكون معبراً فى عمله الأدبى عن ذاته ، مصدراً عن طبيعته ، وهى طبيعة يتفق فيها مع الآخرين إلى مدى ، ويختلف عنهم فى بعض نواحيها .

بل لايعدو الحق من يقول إن الأديب لايزيد مدى حياته على أن يعرض نفسه على قرائه ، مهما تباينت موضوعاته وتعددت أشكال أدبه ، فسواء راح مادحا أو ذاما أو واصفا أو قاصا ، أو ملاحظا لأحوال الناس أو متأملا فى ماضيهم ومستقبلهم ، فهو لايعدو محيط نفسه وتجاريبه وعواطفه ؛ بل إن بعض كبار الأدباء إنما بلغوا أوج نجاحهم الأدبى فى العمل الأدبى الذى يصف كل منهم فيه قصة حياته أو أهم تجربة من تجاريبه ، أو أزمة نفسية عبرت به ، كما قص لامرتين قصة حبه فى « رفائيل » ، وكما وصف كل من شاتوبريان وأناتول فرانس نشأته فى آثاره الأدبية ، وكما وصف تشارلز دكنز قصة طفولته فى « دافيد كوبرفيلد » ؛ وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم فى قصصهم التى كان أبطالها صورا من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية ، كما كان جيته فاوست ، وكما كان أناتول فرانس بعض أشخاص كل رواياته

وأناتول فرانس نفسه يقول إننا لانكتب إلا عن أنفسنا ، ويزيد فيقول إننا لانقرأ حين نقرأ إلا أنفسنا . ولا غرو فالمرء لا يدمن إلا قراءة الضرب الذى يعجبه من القول ويصادف هوى فى فؤاده ولا يصطفى من الكتاب إلا من يشاكله نفسا ، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأثيرة من آثار أدبائه المختارين يصبغ كل مايقرأ بصبغة نفسه ويؤوله على حسب إدراكه وطبعه ، ويستخلص منه ماقد لا يستخلصه غيره ، وما لعل المنشىء نفسه لم يقصده ، والناس إنما يقرأون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون فى نفسه صورة من أنفسهم ، وفى ذاته صدى من ذواتهم ، فاذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون نبذوه واستهجنوه ، ولم يعنهم مما يصف من أحوال ذاته التى لا يحسونها فى ذواتهم ، أكثر مما يعنيهم من أحوال معيشته الخاصة ومطعمه وملبسه

والذاتى فى أدب اللغة أسبق ظهوراً من الموضوعى : يبدأ الأدب فى عهده الاول بتعبير الانسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاريبه الحاضرة ، يرسل ذلك على سجيته وبديهته قولا سائراً أو أبياتا شاردة ، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها عناء طويلا ، ويرقى الأدب رقيا كبيرا وما تزال الصبغة الذاتية هى السائدة فيه ، وتظل هذه الصبغة مادام قريبا من البداوة غير آخذ أهله بشىء من الثقافة أو مقيدين لآدابهم بالكتابة ؛ فاذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعى ، إذ تتسع أفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل فى شؤون الحياة قصدا ، غير منتظرين التجارب التى تسنح عرضاً ، ويطلبون من مناحى الحياة ومذاهب التفكير الأبعد فالأبعد ، فتزاحم الصفة الموضوعية الصفة الذاتية

فغزارة الضرب الموضوعى فى الأدب من لوازم رقيه ووصوله إلى الطور الفنى ، بيد أن العنصر الذاتى لا يمحى ببلوغ الأدب هذا الطور ، بل يبقى ويزداد رقيا وحرارة وعمقا ، ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه ، ويقترن ضعفه وتلاشيه بضعف الأدب وفتور العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح

ففي عصور تدهور الأدب يسود الضرب الموضوعي ، وتتفق موضوعات بذاتها يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها ، ويكفكفون عواطفهم الذاتية ، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر في السمات والميول ؛ فالضربُ الموضوعي يظهر متأخراً عن الضرب الذاتي في الآداب ، ثم يبقى متخلفاً عنه عند اضمحلال الأدب ، يبقى على حال من الضعف والتكلف والابهام

ولما كان الضرب الذاتي من الأدب أسبق إلى الظهور في تاريخ الأدب ، كان مقترناً بالشعر الذي هو أسبق إلى الظهور من النثر الفني فالأدب في عهوده لا يكاد يزيد على أن يكون شعراً ذاتياً ، فاذا دخل الأدب طوره المتحضر الفني ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعي في الشعر والنثر معاً ، بيد أن الشعر يظل دائماً متعلقاً بالضرب الذاتي ، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعي ؛ فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن الوجدانيات ، والنثر لما له من مزايا الرحب والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الانشاء ، والاسهاب في شرح دقيقه وجليله ؛ فاذا جمع أديب بين الصناعتين رأيته يندفع اندفاعاً تلقائياً إلى النظم ، إذا حفزته ثورة نفسية متدفقة ، وينساق بداهة إلى النثر إذا أراد التأمل الهادىء والتوسع في الشرح والاستقصاء ؛ على أن هذا ليس بمانع أن يحتوى النثر أحياناً على بدائع من آثار الضرب الذاتي ، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعي

ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتي من الأدب ، والنثر أقرب إلى الموضوعي ، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المنكرين عليهم ، وكان الكتاب أدباء موضوعيين ، يتناولون من مجالات القول ما لا يمس أنفسهم وشخصياتهم إلا قليلاً ، بينما لا يكاد بعض الشعراء يخوض في غير شؤون نفسه ، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض ، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج ، أو بكاء طفل مدلل وضحكه يتتابعان بلا انقطاع ، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثراً ، فاذا فرغ الشاعر من صخبه وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئاً وقوراً ، يصرف في شعره نظر الحكيم الخبير ، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للدنيا حكم القاضي المتمكن ، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الأغرار ، ولا يزال النقاد يظهرون في مسرح الراشدين الأكبر منهم سناً وخبرة بالأمور .

ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر في هذا الصدد ، بل هناك أشكال من الأدب هي أصلح للذاتي وأخرى هي أوفق للموضوعي : فالقصة والترجمة والتاريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشىء عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال ، ومن أبناء الحاضر أو الماضي ، ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها ، وإن تكن لذاته في كل ذلك آثار تقل او تكثر ، والرسائل الاخوانية والمذكرات ، والتراجم الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها ، كلها أشكال من الأدب ذاتية يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته ، وإن خالط ذلك شتى النظرات الموضوعية ، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين .

وكما تفترق أشكال الأدب وتتميز في هذا الصدد ، كذلك تفترق وتتميز موضوعاته : فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب إلى الضرب الموضوعي من الفخر والحماسة والنسيب والشكوى ، أما الرثاء فيجمع إلى وصف خلال المرثى وهو أمر موضوعي ، وصف مشاعر الرائى وهي أشياء ذاتية ؛ على أن موضوعات الأدب هذه قلما ترد في أثر الأديب خالصة مستقلاً ذاتيها عن موضوعيها ، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال الادبية كثيراً ما تختلط ، فيتصل بالأثر الادبي الواحد الترجمة بالقصص مثلاً ، ويمتزج الوصف بالنسيب ، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف منظر وتنتهي بخواطر وجدانية ، ومن ثم تمتزج الذاتية والموضوعية في أكثر الآثار الأدبية .

ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر : فللذاتي من آثار الأدب محاسنه ، وللموضوعي مزاياه ، كما ان الشعر لا يفضل النثر ولا الاخير يرجح الأول ، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه ؛ فالعمل الأدبي الذي ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارته وإخلاصه وصراحته ، ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديده لشخصيته ، كما تحدد خطوط المصور شكل الصورة وجوانبها ، ويروع بقدرة صاحبه على التأمل في نفسه وتوضيح خلجاتها ، والضرب الموضوعي يسر إذ يعكس في صفحة الفن ما نشهد ونحس في عالم المشاهدة والخبرة ويروع بقدرة الأديب المنشىء على الملاحظة والتقصي والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو بصدده ، لكل من الضربين مكانته وروعته ما اتفقت له صفتان : الصدق والعمق .

وكل من الأدبين العربي والانجليزي حافل بآثار الذاتية والموضوعية في مختلف نواحيه ، ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على أدبائه ، أو تظهر في بعض عصوره ، أو تتجلى في أشكال منه وموضوعات دون أخرى ، بيد أنه لاختلاف تاريخي الأمتين واختلاف ظهورها في عصر الحضارة والثقافة ، يحتل الطور الذي كان الأدب فيه ذاتياً عهداً مهماً من عهود تاريخ الأدب العربي قبل

أن يظهر الضرب الموضوعي ويشيع في الأدب ، على حين لم يتخلف في الأدب الانجليزي من ذلك العهد شيء ذو بال ، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزي الحديث من عهد اليزابث ، والضربان الذاتي والموضوعي فرسا رهان في حلبته ، بل كاد الضرب الموضوعي أن يستأثر بالصدارة في ذلك العصر .

ففي عهد الجاهلية وحقبة من الاسلام كان الأدب العربي - إذا استثنى القرآن الكريم والحديث الشريف - أغلبه ذاتي الصبغة ، وكان للشعر فيه المكانة العليا ، وكان الشعراء دائبين يبدأون القول ويعيدونه فيما خالج أنفسهم من خواطر ، أو مس حياتهم من قريب من حوادث، فامتلأ قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح بكريم السجايا ، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب الشعر وتعددت مجالاته ، وظهر بجانبه النثر الفني ، وتناول كلاهما موضوعي الشؤون بجانب ذاتيها ، فكان من الفنون التي جدت في الشعر أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنب ، وتناول النثر رسائل الأمراء ، كما جال الجاحظ والبديع وغيرهما في نواحي الحياة ومذاهب التفكير وأحوال الماضي وخصائص الأحياء وأخبار الأمم ووجوه النقد الأدبي ، فغزرت في الأدب العربي منظومه ومنثوره في هذا الطور آثار الذاتية والموضوعية . يتحدث المتنبي مثلا عن عظمته وفتوته ومطامحه وأشجانه ، فيجيء شعره ذاتيا صادقا رائعا ، ويمدح سيف الدولة أو سواه ويصف مآثره ومواقعه فيميل إلى الموضوعية ؛ والأرجح أن الموضوعية كانت أظهر في هذا العصر ، لرواج ضربين من القول موضوعيين عج بهما الأدب : عج الشعر بمدح الأمراء ، وعج النثر برسائل الدواوين .

ذانك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربي من جهة الذاتية والموضوعية : الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذي كانت الذاتية فيه غالبة ، والثاني طور نضج الأدب الذي فيه اجتمع الضربان ؛ أما الطور الثالث فهو عهد اضمحلال الأدب تدريجاً ، وهو طور تغلب الضرب الموضوعي وتلاشي الضرب الذاتي تدريجاً : جمد الأدب على موضوعات خاصة اصطفاها الأدباء ، في مقدمتها المدح والهجاء - وعدوها وحدها مجال الأدب وشغل الأديب ، وطرقوها على أساليب خاصة يتنازعهم في ممارستها عاملان الحرص على تقليد الأقدمين ، والرغبة في إظهار البراعة بالتلاعب بالألفاظ والمعاني ، أما المشاعر الذاتية الصادقة ، والخصائص النفسيه المميزة ، فاختفت من الأدب ، وحتى في شرح عواطفه كان أديب ذلك الطور مقلدا ، لا يشرح عواطفه إلا على نحو خاص قد جرى به العرف ، وحض عليه النقاد ، وبذلك جاءت الآثار الذاتية نفسها موضوعية عامة مبهمة

ومن أحسن أمثلة الضرب الذاتي الصريح في الطور الأول قول عنترة :

فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل   مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فإنني مستهلك   مالي ، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلي وتكرمي

ومن أمثلة أشعار الطور الثاني التي يمتزج فيها الذاتي والموضوعي قصيدة المتنبي التي يعاتب بها سيف الدولة ، ومنها قوله :

مالي أكتم حبا قد برى جسدي   وتدعي حب سيف الدولة الأمم
فوت العدو الذي يممته ظفر   في طيه أسف في طيه نعم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا   حتى تعجب مني القور والأكم

ومن أمثلة أدب الطور الثالث الذي طغت فيه الموضوعات المأثورة وطمست الشخصية الذاتية قول القائل :

وقفت بأطلال الأحبة سائلا   ودمعي يسقي ثم عهدا ومعهدا
ومن عجب أني أروي ديارهم   وحظي منها حين أسألها الصدى

وكان للشعر المكانة الأولى في الأدب الانجليزي في العصر الاليزابثي ، وكان يتناول الضربين الذاتي والموضوعي من النظم ، تختص بالأخير الروايات التمثيلية التي ازدهرت إذ ذاك إزدهارا عظيما ، وتختص بالأول القصائد المرسلة طويلها وقصيرها ؛ وفي القرن الثامن عشر هبط فاضمحلت فيه النزعة الذاتية ، وأصبح أكثره موضوعيا مبهما ، واحتل مكانه النثر وشمل شتى النواحي الذاتية والموضوعية ، ففي الأولى كتب كاولي واديسون وستيل كثيراً من مقالاتهم ، وفي الثانية كتب جيبون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم في التاريخ والترجمة والقصص والمغامرات . فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر أفضليته ، وحفل بشتى الآثار الذاتية والموضوعية ، بين وصف الطبيعة وسرد الخرافات الشائقة ، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك ، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب ، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسي رهان ، يطرقان شتى المناحي بين ذاتيها وموضوعيها

بيد أن الذاتية ما زالت منذ عهد شكسبير إلى العصر الحاضر تطغى على الموضوعية رويداً ، وتستأثر شيئا فشيئا بالتفات الادباء . وتفوز بأشكال أدبية جديدة . ففي عهد شكسبير كان الروائي يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعداً كبيراً وفي القرن الثامن عشر عهد النثر الذهبي كان الادباء يكتبون القصص يضمنونه من طرف خفي صورا من حياتهم وجوانب من أنفسهم ، فيكتب سمولت الآفاق قصة كونت فاثوم المغامر ، ويكتب جولد سمث

ابن القسيس قصة قس ويكفيلد التى ليست إلا حكاية عهد نشأته فى أسرته ، ثم يكتب تشارلز دكنز فى القرن التالى قصة صباه فى كتابه دافيد كوبرفيلد ؛ ثم تزداد الذاتية بروزا ويرفع الأدباء حجاب التخفى وينبذون الأسماء المستعارة ، فيكتبون قصص نشأتهم ومذكرات رجولتهم وينشرون رسائلهم وتراجمهم الشخصية ، والأدب الانجليزى المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة

وقد امتازت بالذاتية الواضحة ، أو الأنانية الأدبية ، كثير من الأدباء الانجليز ، كانوا لا يملون التأمل فى نفوسهم والتحدث عن ذواتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف : فملتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية فى ملاحمه الثلاث ، ووردزورث يؤلف المطولات الشعرية فى تصوير صباه وخواطره من طفولته إلى كهولته ، وبيرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل ، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه ، وشلى يسمى نفسه « اريل » باسم إله إغريقى ، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان أشعارا ، وكل من هازلت ولام يصور تصويرا دقيقا أميناً ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه النواقيس تتجاوب مؤذنة بانتهاء العام أو نحو ذلك

ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثال جراى وكولردج ورسكن يستترون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادىء الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقدين ، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب ، فأكثر آثار هؤلاء موضوعية ، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية ؛ كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضربين بنصيب وافر ، ومن برزوا فى مجالى الشعر والنثر ، ومن أنهوا حياتهم الأدبية باصدار تراجمهم الشخصية ، ومن خلفوا فى النقد آثارا تبارى آثارهم فى النظم والانشاء ، أو تفوقها ، مثل دريدن وماكولى وماثيوارنولد

ويعد بعض المغالين تزايد هذه النزعة الذاتية فى الأدب الانجليزى علامة ضعف وانحلال ، ولا شك أن غلبة أحد العنصرين الذاتى أو الموضوعى على الأدب من دلائل نقصه ، وإنما يكون رقيه مقترنا برقى العنصرين فيه معا . يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات ، ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول النظرة واتساع أفق التفكير وتناول الادب لمختلف نواحى الحياة ؟

فخرى أبو السعود

« تصويب » جاء فى العدد الماضى ص ٤٥٦ س ١٥ : وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة ، والصواب من قوة .

من مشاكلنا الحاضرة

ســؤال ...

للأستاذ على الطنطاوى

كنت أسمع من أبى والأشياخ من أهلى أنه كان فى بلدنا — فيما كان فيها من أوقاف كثيرة — وقف على المشتغلين بالعلم والمنقطعين إليه . يفتحون لهم بريعه المدارس الواسعة ، ويعدون لهم الغرف المفروشة ، ويهيئون لهم فيها المكتبات القيمة ، ويقيمون لهم الخدم ويقدمون إليهم كل مايحتاجون إليه من طعام وشراب وحلية ومتاع ، ويفرّغون قلوبهم من كل هم إلا هم الدرس والبحث ، فكان الناس يرغبون فى العلم ، ويقبلون عليه ويبرزون فيه . .

. . . ثم ذهب ذلك كله بذهاب أهله ، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الأوقاف ، وأكلوا أموالها ، فتهدمت هذه المدارس ، وأمست خرائب واطلالا . ثم سرقها الناس فحولوها بيوتاً ، وطمسوا آثارها . . .

فأعرض الناس عن العلم وزهدوا فيه ، فقلنا : لا بأس ، انها قد تتحول تلك المدارس الى دور عجزة ، وقد تصير أحيانا ملجأ كسالى ، ومأوى عاطلين ، وعندنا المدارس الجديدة ، تسير على منهج مقرر ، ونظام معروف ، وطريق واضح ، فما نحن إلا كمن أضاع درهما ووجد ديناراً . وأقبلنا على هذه المدارس ، إقبال العطاشى على المنهل الصافى . ومنينا أنفسنا بكل جليل وجيل ولكننا لم نلبث أن خرجنا منها . وواجهنا الحياة حتى علمنا بأنها لم تقم بما كان يرجى منها ويجب عليها ... ووجدنا أننا لا نصلح فى هذه الحياة إلا لشىء واحد ، هو (الوظيفة) ؛ أما العمل الحرّ ، والمغامرة فى الحياة فنحن أبعد ما يكون امرؤ عنه ؛ ووجدنا سبيل الوظيفة مسدوداً وكراسيها مملوءة ؛ وكيف لا تكون كذلك وكل الناس يسعى إليها ويريدها ؟ هل يكون أبناء الشعب كلهم موظفين ؟ فكنا واحداً من رجلين : اما الغنى الموسر

فعاش بمال أبيه . وأقام منه سورا حوله . فلا يرى الحياة ، ولا تصل إليـه بآلامها ومصائبها . وأما الفقير فيتخبط فى لجة اليم : يم الحياة تضربه بأمواجها . فلا ينجو من لطمة إلا إلى لطمة . ولا يخلص من شقاء إلا إلى شقاء

وقد يكون فى هؤلاء الفقراء موهوبون ، وقد يكون فيهم ذوو الملكات ، وفيهم من إذا استراح من هم العيش واشتغل بالعلم برّز فيه وبرع ، ونفع أمته ووطنه وخلف للأجيال الآتية تراثا عليا فخما كالذى خلفه لنا الأجداد ... فماذا يعمل هؤلاء ؟ ومن أين لهم العقل الذى يدرسون به ، والهمة التى يؤلفون بها ، وعقولهم ضائعة فى البحث عما يملأ معـدهم الجائعة ، ويستر أجسادهم العارية ، وهممهم مصروفة إلى ضمان الكفاف ، والحصول على ما يتبلغون به ؟

لقد قال الشافعى رحمه الله منذ الزمن الأطول : لو كلفت شراء بصلة ، ما تعلمت مسألة ... فكيف يتعلم ويدرس ويؤلف من يكلف شراء الرغيف ، وشراء ثمن الرغيف ؟

إنى أعرف كثيرين ممن يؤمل لهم أن يبرعوا فى الأدب ، ويتفوقوا فى العلم ، قدر الله عليهم الفقر والافلاس ، وعلق بأعناقهم أسراً عليهم إعالتها ، والسعى فى إعاشتها ، فألقوا القلم والقرطاس ، ورموا الدفتر والكتاب ، وخرجوا يفتشون عن عمل . . . يطلبون وظيفة ؛ غير أن الطريق إلى الوظيفة وعر ملتو طويل ، لايقدر على سلوكه ، ولا يبلغ غايته ، إلا من حمل معه تميمة من ورق (البنكنوت) يحرقها أمام أبواب الرؤساء لتخرج شياطينها فتفتح له الباب . أو صحب معه (الشفيع العريان) وأين من هذين الشاب النابغ المفلس الشريف ؟ ثم إنه إذا بلغ الوظيفة وجدها لا تصلح له ولا يصلح لهـا ، وضاقت به وضاق بها !

أعرف كثيرين من هؤلاء يظهرون فجأة كتاباً مجددين ، وشعراء محسنين ، وعلماء باحثين . فما هى إلا أن تنزل بهم الحاجة وتنيخ عليهم (هموم الخبز) حتى تقطعهم عما هم فيه ، ثم تذوى ملـكاتهم وتجفف قرائحهم وتتركهم يموتون على مهل ، ويموت بموتهم النبوغ ، وأرباب الأقلام وأصحاب الصحف يشهدون مصارعهم فى صمت وإعراض ، لا يهتمون بهم ، ولا يظنون أن عليهم واجباً تلقاءهم . حتى إذا قضوا قاموا يطنطنون بذكرهم ويشيدون بمواهبهم ، ويركبون على قبورهم ليقولوا للناس : أنظروا الينا ...

هذه هى علة الشرق .

إنى عهدتك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

ورحم الله القاضى عبد الوهاب المالكى ، خرج من بغداد فخرج لوداعه عشرون ألفاً ، يبكون وينتحبون فقال لهم : ياأهل بغداد ، والله ما فارقتكم عن قلى ووالله لو وجدت عندكم عشاء ليلة ما فارقتكم . وهم يبكون وينتحبون ويصرخون : إنه يعز علينا فراقك ، إننا نفديك بأرواحنا ، ياشوقنا إليك ! يا مصيبتنا بفقدك ... !

***

هذه هى المسألة ... أفليس هناك طريقة لانقاذ الدماغ من المعدة ؟ لانصاف العلم من المال ، لحماية النبوغ من الضياع ؟

من يشتغل بالعلم والدرس والكتابة والتأليف إذا كان الفقراء لا يطيقونه ، والأغنياء لا يحسنونه أكان لزاماً على من يشتغل بذلك أن يموت من الجوع ؟ ألا يستحق هذا المسكين بطريقة من الطرق . بقانون من القوانين ، عشرين ديناراً ياخذها موظف جاهل خامل بليد ، لا يحسن شيئاً إلا النفاق والالتماسات والوساطات ، ولا ينفع الأمة معشار ما ينفعهم هذا الذى يذيب دماغه ، ويحرق نفسه ، ويعمى بصره ، وينفق حياته فى النظر فى الكتب ، والخط بالقلم ؟

أما فى ميزانية الدولة ، أما فى صندوق الجمعية ، أما فى مال الجريدة ، ما تشترى به آثار هذا الكاتب ، وأشعار هذا الشاعر وبحوث هذا العالم ، بالثمن الذى يعدل ما بذل فيها . ليعيش فيصنع غيرها

هذه هى المسألة !

هل يجب أن يموت النابغ لأنه نابغ ، ويعيش الأغبيا والجاهلون ؟ أم يجب عليه أن يميت نبوغه ليعيش ، ويبيع عقله وذكاءه برغيف من الخبز ؟

(بغداد) **على الطنطاوى**

الأقلام العربيـــة
فى المهاجر الأمريكية

للأستاذ يوسف البعيني

لا يجهل أحد فى مصر وسائر الأقطار العربية تلك النهضة الفكرية الأدبية التى يقوم بها فريق من خيرة كتابنا وراء البحار، فهنالك خطباء وشعراء وكتاب من الطراز الاول يعززون القومية العربية، ويغذون الجاليات بثقافتها وتاريخها وآدابها.

ولدى رسائل عدة من صفوة الكتاب هنالك يحمدون فيها (للرسالة) دعوتها، ويباهون بنهضتها، ويرونها بحق كتاب الشرق الجديد وديوان العرب المشترك.

ومن هؤلاء الكتاب المعجبين بالرسالة عبقرى مجدد ملك آداب الفرنجة فاجتذبها الى بيانه العربي فى حين تخطف هذه الآداب عددا كبيرا من الناشئة حتى فى عقر دارنا.

وهذا العبقرى هو الأستاذ يوسف البعينى الذى لا تخلو جريدة أو مجلة عربية فى شمالى أميركا وجنوبها من بدائعه، وقد رأي أن يرسل الىّ القطعة الآتية لتنشر فى الرسالة فاتحة لما سيتبعها من رسائل لاخوان لنا وراء البحار من حقهم أن نخصص لهم صفحة في ديوان العرب المشترك.

وإلى القراء هذه القطعة الرائعة.

ف . ف

حبٌ وغرام

فى كتبِ الحبّ وقصص الغرام مقاطع مشرَّبة بالعهود، وصفحاتٌ مبطّنة بالوفاء. فعند ما يُصغى الشاعر الحسَّاس إلى رنين ألفاظها وهمسَ معانيها تطفو عليـه موجةٌ مترعة باليأس والحنين. وكثيراً ما يشاهد فى قرارتها أحلامه المبعثرة بين فجر الماضى ومَسائه

ومَنْ يتفهّم مرامى تلك الصفحات الغراميّة يعلم أنّ كاتبيها وضعوها لتكونَ رمزاً إلى العهود على مدَى الليالى والأيام ... وأروعُ ما فى الحياةِ عندى هى العهود . . أجل العهود التى تعطينا صوراً جليّة عن أسرار القلوب وخفايا الأرواح

فان أكثر الحفّارين عنـد ما أرادوا أن يرسموا المثلَ الأعلى فى الحبّ لم يجدوهُ إلاّ فى العهود ... وهكذا أدركَ الشعراء أيضاً أن أجملَ ما فى الشعر صفحةٌ غرامية تعبّرُ عن الوفاء ... ومتاحف العالم اليوم طافحةٌ بدُمى الحفّارين. كما أنّ قصص الشعراء زاخرة بأخبار الحبّ والغرام. وفى اعتقادى أنّ الشاعر فى صفحاتهِ، والحفّار فى دُماه، إنّما كانتْ بغيتهما تخليدُ العهود!!

ولـكن هل فى الحياة حبّ مغموس بالوفاء، وغرامٌ منحوت من العهود؟ أم هما موجودان فحسب فى أحلام الشعراء ودمى الحفّارين؟ من يدرى ... وكلُّ ما أعلمهُ هو شاذٌّ عن أفهامِ الناس وعن أذواقهم

* * *

أنا لا أُريد أن أبحث عن صِحّة تلك الأحلام وعن خطأها، ولا أبتغى البحث عن جمال تلك الدمى وعن عللها: إنما أريد أن أتحدّث عما فيها من حبٍ وغرام، وهما أقربُ إلى العهود منهما إلى شىء آخر

فلقد قرأتُ فى الكتاب الشعرىّ الأنيق - تهاليل الفجر - الذى أخرجه الكاتبُ المجدّد، بيير لويس، موضوعاً شيقاً عن رسائل الراقصة الروسيّة الساحرة - إيذادورا دونكان - التى كانتْ ترسلها إلى حبيبها التعِس، إيفان بارشوف، عندما بلغها خبرُ مرضه وأنه يلهج باسمها فوق سَرير آلامه. وإنى لمورد فى ما يلى هاتين الرسالتين المشبعتين بغرامِ الراقصة الجميلة وحبّها المفعم بالوفاء

— ١ —

أيها الحبيب!

إنّ زهرةَ مخدعى التى أبقيتَ على أوراقها ذكراً يهولنى مرآها الشاحبُ الحزين ... والسراجَ الأحمر الذى كنتُ ألمحُ فى نظراتهِ بهجةً وإغراء فيما مضى يروعنى الآنَ منه نورهُ الواجمُ الضئيل ... والبلبل الغريد الذى كان ينبّهنى إلى إجتناء اللذات يشجونى نفورهُ المبهم، وصمتُـه العميق!!

إنّ روحى تريد أن تستهدى إلى قرارها فى ليل شوقها وحنينها فيصدُها العذاب ... عذابُ فراقكَ الطويل الذى أورثنى ملّةً خرساء كسكينة القبور

لقـد علمتُ أنك تقاسى من أجلى آلاماً مبرِّحة ... فهل عرفتَ أيهـا الحبيب أنّ فى قلبى المعذّب شجواً محنظلاً أمرّ من الموت؟

أحياناً ... تهفو على مخيّلتى أحلام ملولة مزعجة ... أحلام

سوداء مخيفة! فأحجب وجهي بكلتا يديّ وأغيبُ في غمرة موجعة متمنيّة بعدها المنيّة لأنه لا قدرة لي على استماع أنّاتك وشكواك! أضرعُ إلى الله أن يرحمني بشفائك. وثق أني سأبقى سجينة مخدعي، بعيدةً عن خلوات أحلامي، متجرِّدة من سروري وابتسامي، هاجرة شعاع القمر الشاهد على أويقات حبنا وغرامنا حتى تعود إلى ذراعي حبيبتك (ايذادورا)

— ٢ —

يا معبودي الجميل!

الآن وقد أرخى الليلُ سدوله على البسيطة مغلقاً بأنامله الناعمة أجفانَ النيام، تمرُّ بي أشباحٌ خفيّة هامسة في مسامعي اسم ذلك الحبيب الذي أجرى في أودية قلبي جدولا لا ينقطع خريره، وغرس في حديقة روحي زهرة معطرة لا تموت.

وعلى هذا النغم الشجيّ المؤثر الذي تلحنه الظلمة فيردّده الدجى باكياً منتاعا، أسمعُ نعياً منذراً بمأساة مرعبة فأمسى كورقة تهبُّ عليها الرياح السافيات.

لقد مات بلبلنا الحبيب صباحَ اليوم! مات ضمن قفصه وهو ينظر إلى الأعالي كأنه يرى بين الغيوم خيالا عجيباً، فبكيته طويلا وقلت في نفسي هل مات حبنا المقدس بموت هذا الطائر الصغير!

إن نفسي تلفحها الآن نار متلظية، نار محرقة تضرمها أيد مجهولة؛ فمتى تتحول هذه النفس إلى رماد هامد لا يحس؟ إن النفس التي تحس لهي شقية، إذ تحياها ثمة وراء أحلامها الشاردة. ولن أشعر بالراحة إلا عند ما تغمرني بقبلاتك الطائشة (إيذادورا)

***

وأذكر أنني عند ما قرأت هذه الرسائل — وكلها مطلية بالحب والغرام — استولت على كآبة خرساء بلا معنى، وأية روح مهما بلغ فهمها لفلسفة الحب لا تشعر بسلطان خفي مجنح يستأثر بها ويحملها إلى أمكنة نائية لا تنطق فيها إلا العهود، ولا يتمايل في أجوائها غير الوفاء.

إن هذه القبلة الطافية فوق ألفاظ العاشقة الوالهة، وهذا التوق الملح النابض بأسرار قلبها، وهذا الإيمان الثابت القاطن أعشاش صدرها... إن كل ذلك هل تحافظ عليه دون خداع في الحب؟ ولنفرض أن حبيبها حجبه الموت بعد حين فهل تبقى وفية له طوال أيامها؟

لقد مات — إيفان بارشوف — بعد كتابة هذه الرسائل بثلاثة أسابيع. فلا أذكر إذا كانت الراقصة المغرمة قد تفجعت عليه تفجعها في رسائلها إليه. ولكنني أعلم أنها نسيته سريعاً

فإنها لم تبكه بدمعة
ولم تنثر على ضريحه زهرة
ولم تذكرهُ بكلمة...
ولم تتلهف على أيامه الماضية

بل كانت، قبل أن يجف قبره، تعانق حبيباً جديداً لتنسى في دعابه ومزاحه ذلك العاشق المسكين الذي أسكنه الدهر تلك الحفرة الضيقة الباردة ليقضي فيها زمناً مجهولا غير عالم بما يجري في هذا الوجود

فالوفاء والعهود كلمتان نجدهما في كتب الشعراء وتماثيل الحفارين. أما في هذا العالم فلسنا نجد الا حباً كاذباً وغراماً سريع الزوال يعقبه دائماً نسيان أبدي على أثر محو القبلة التي تتبادلها الشفاه!

***

وهناك حب سريع الزوال، فهو وإن مازجته الدموع وأفعمته التنهدات، تمحوه الحياة كما يمحو شعاع الشمس لهاث الطفل العالق على لوح من زجاج

في أواسط الجيل الماضي تحدث الناس عاماً كاملا عن قصة غرامية جرت حوادثها بين الغادة الحسناء «المدموازيل إلسيت» وبين الشاعر الجميل — شارل هيكو. والذي عجب له الناس كثيراً هو هيام الحسناء بالشاعر الصغير وتفضيلها اياه على كُبار رجال باريس الذين غمروها بالذهب والحلي وأحاطوها بكل أسباب الترف والابهة والكبريا

وقد أبقى العاشقان رواية يُطرب استماعُها، ويشوق موضوعُها. فانّ الحسناء كانتْ كلفة كثيراً بالشاعر الى درجة انها لم تكن تقوى فيها على فراقه ساعة واحدة وفي ذات يوم حكم على العاشق الفتى أن يبرح باريس شهراً على الأقل. فلما عاد الى ذراعيها صدته عنها بحجة ان قبعته المعجب بها ليست ظريفة. وان الأشعار التي ينشدها اياها مختلسة من دفتر صغير أسود الغلاف يقبع دائماً تحت وسادة والده الشاعر الكبير فيكتور هيكو

وهذه الحجة الساخرة بما فيها من ضراوة المرأة المستهترة كثيراً ما تتمثل في الحياة. ولا أشك في أن القراء يجهلون تلك

القصة الدامية التى تركها الشاعر الالهى الساحر — دى موسيه — مع جورج ساند وكيف عبثت بقلبه الرقيق لتتعلق بطبيب إيطالى لأنه لا يهمهم فى الظلمة ... ولا يحب الخمرة ... مثل موسيه!

لقد يطول بى الحديث إذا أنا مررت بكل ما هنالك من شؤون وعبر. ولكننى مكتف الآن بايراد لمحة وجيزة عن غرام الشاعر المشهور — شارل بودلير — مع حبيبته المعبودة — جان ديفال — التى ألهمته أشجى أشعار الحب والجمال فى كتابه الخالد «أزاهير الشر» وهذه الحبيبة التى عشقها طول حياته كانت سوداء!!

وأعتقد أن الشعراء الساخرين ليضحكون من هيام الشاعر اللطيف بامرأة سوداء. نعم قد يضحكون.. ولكنه الغرام... الغرام القاهر الذى يستحوذ على القلب الضعيف فيقيده بالسلاسل ويغله بالأصفاد

وعلى الرغم من شغف الشاعر، ولهفة روحه، وثابت وفائه، فقد خدعته حبيبته الماكرة بعد أن نحت لها من غرامه تمثالا ومن حبه محراباً للعبادة. ولكن هذا الخداع فى الغرام، وهذه الخيانة فى الحب أغنيا الأدب الفرنسى لأنهما أفاضا دموع الشاعر وأوقدا نار وجده وحنينه!

***

أنا لا أريد أن أشجب الحب، وأن أهجو الغرام. كلا ما إلى هذا أذهب.. بل أريد إثبات أنهما موجودان وحسب فى كتب الشعراء وتماثيل الحفارين. والشاعر والحفار لا يصوران غالباً إلا كل ماسما فى فضاء الأحلام وما تمدد على سرير الشعور والاحساس

الرجل الذى يعتقد خلود الغرام ووفاء الحب هو رجل مسكين يستحق الشفقة... إذ لا قبلة يبقى طعمها على الشفاه، ولا وعود تظل محفوظة، ولا ذكرى تحيا فى القلوب

وجل ما هنالك حب كاذب وغرام خادع شبيهان بالخطوط التى ترسمها الأمواج على رمال الشاطئ. فاذا لم تمحها العاصفة لاتلبث الأمواج أن تمحوها. فالحب الذى لا تبدده الحياة يبدد نفسه بنفسه، والغرام الذى لا يعثره الموت يبعثر ذاته بذاته

هما حلم يراود الروح فى المنام، ولكن اليقظة تشتته ولا تترك منه إلا أثراً دامياً يحنظل الأمانى، ويشق الآمال

(البرازيل) **يوسف البعينى**

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

فى الجزر السعيدة

ها إن التين يتساقط عن أشجاره عطر النكهة حلو المذاق وقشوره الحمراء تتشقق بسقوطها، وأنا هو ريح الشمال يهب على هذه الأثمار الناضجة. إن تعاليمى تتساقط إليكم أيها الصحاب كمثل هذه الأثمار فتذوقوها الآن عند ظهيرة من أيام الخريف وقد صفت فوقكم السماء.

سرّحوا أبصاركم فيما حولكم من خيرات الأرض ثم مدوا بها إلى آفاق البحر البعيد فليس أجمل لمن فاض رزقه من أن يتطلّع إلى الأبعاد

لقد كان الناس يتلفظون باسم الله عندما كانوا يسرّحون أبصارهم على شاسعات البحار، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الانسان الكامل

إن الله افتراض وأنا أريد ألاّ يذهب بكم الافتراض إلى أبعد مما تفترض إرادتكم المبدعة.

أفتستطيعون أن تخلقوا إلهاً؟ إذن أقلعوا عن ذكر الآلهة جميعاً، فليس لكم إلا إيجاد الانسان الكامل

ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الانسان الكامل ولكن فى وسعكم أن تصبحوا آباء وأجداداً له. فليكن هذا التحول خير ما تعملون

إن الله افتراض وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور، فهل تستطيعون أن تتصوروا إلهاً؟ فاعرفوا من هذا أنّ واجبكم هو طلب الحقيقة فلا تطمحوا إلى ما يبلغه تصور الانسان وبصرُه وحسُّه. فأمسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم

يتحتم عليكم أن تبدأوا بخلق ما كنتم تسمونه عالماً من قبل فيتكون عالمكم من تفكيركم وتصوركم وإرادتكم ومحبتكم

وعندئذ تبلغون السعادة يامَن تطلبون المعرفة . وكيف تطيقون الحياة إذا لم يكن لكم هذا الرجاء ؟

على مَن يطلب المعرفة ألا يتورط فى ما يرده العقل من المعميات

لسوف أفتح لكم قلبى فلا تخفى عنكم خافية فيه ، فأقول لكم : لو كان هنالك أرباب أ كنت أتحمل ألا أكون رباً ؟ إذن ليس فى الكون أرباب

لقد استخرجت لذاتى هذه النتيجة ، وها هى تستخرجنى الآن

إن الله افتراض ولكن من له بتحمل كل ما يضمر هذا الافتراض من اضطراب دون أن يلاقى الفناء ؟ أتريدون أن تأخذوا من الخالق إيمانه ومن النسر تحليقه فى أجواز الفضاء ؟

إن الله عبارة عن إيمان ينكسر به كل خط مستقيم ويميد عنده كل قائم ، فالزمان لدى المؤمن وهم ، وكل فان فى عينيه بطل وخداع ، فهل مثل هذه الأفكار إلا أعاصير تتطاير فيها عظام البشر وتورث الدوار لشاهدها ؟ تلك افتراضات يدور المبتلى بها على نفسه كالرحى حتى يموت

أفليس من الشر والافتيات على الانسانية كل هذه التعاليم تقيم الواحد المطلق الذى لا يناله تحول ولا تغيير ؟

إن الرموز وحدها لا تتغير ، وطالما كذب الشعراء ، غير أن خير ما يضرب من الأمثال ما يصور الحاضر وآتى الزمان فتأتى حجة لكل زائل لا نقضاً له

ليس فى غير الابداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف أثقال الحياة ، غير أن ولادة المبدع تستدعى تحولات كثيرة وتستلزم كثيراً من الآلام

أيها المبدعون ستكون حياتكم مليئة بمرير الميتات لتصبحوا مدافعين عن جميع ما يزول

على المبدع إذا شاء أن يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديدة أن يتذرع بعزم المرأة التى تلد فيتحمل أوجاع مخاضها

لقد اخترقت لى طريقاً فى ميتات النفوس والأسرة وأوجاع المخاض غير أنى كثيراً ما نكصت على أعقابى لأنى أعرف ما تقطع الساعات الأخيرة من نياط القلوب .

ولكن ذلك ما تطمح إرادتى المبدعة اليه ، وبتعبير أشد صراحة ذلك هو المقصد الذى تريده إرادتى

إن جميع ما فىّ من شعور يتألم مقيداً سجيناً وليس غير إرادتى من بشير يؤذن بالمسرة ، ويأتى بالافراج عن الشعور

إن الارادة وحدها تحرر ، وما بغير هذه الآية من شرعة صحيحة للارادة وللحرية ، على هذا تقوم تعاليم زارا

بعداً وسحقاً لكل وهن وملال يشل الارادة ويوقف كل تقدير وإبداع

ان طالب المعرفة يشعر بلذة الارادة والايجاد وبلذة استحالة الذات الى ماتحس به فى أعماقها ، فاذا انطوى ضميرى على الصفاء فما ذلك الا لاستقرار ارادة الايجاد فيه . وهذه الارادة هى ما أهاب بى للابتعاد عن الله وعن الآلهة ، اذ لو كان هنا لك آلهة لما بقى شىء يمكن خلقه .

إن طموح إرادتى الى الايجاد يدفعنى أبداً نحو الناس اندفاع المطرقة فوق الحجر

أيها الناس اننى ألمح فى الحجر تمثالا كامناً هو مثال الأمثلة أفيجدر أن يبقى ثاوياً فى أشد الصخور صلابة وقبحاً

ان مطرقتى تهوى بضرباتها القاسية على هذا السجن فأرى حجره يتناثر

أريد أن أكمل هذا التمثال ، إن طيفاً زارنى وألطف الكائنات وأعمقها سكوتاً قد اقتربت منى

لقد تجلى بهاء الانسان الكامل لعينى فى هذا الخيال الطارق فما لى وللآلهة بعد : (١)

هكذا تكلم زارا .

الرحماء

لقد بلغنى ، أيها الصحاب قول الناس : « أفما ترون زارا يمر بنا كا نه يمر بين قطيع من الحيوانات .

وكان أولى بهم أن يقولوا : ان من يطلب المعرفة يمر بالناس مروره بالحيوانات

ان طالب المعرفة يرى الانسان حيواناً له وجنتان حمراوان ولم يراه هكذا ؟ أفليس لأنه كثيراً ما علته حمرة الخجل ؟

---

(١) ونحن نقول بدورنا لنيتشة متخذين قياسنا من قياسه : لو أمكن للانسان أن يخلق شيئاً لما كان هنالك إله ، وبما أن الانسان يقصر عن إيجاد ذرة وخطرة فكر فى عالمى المادة والروح فالكائن الأزلى مفروض فرضاً على العاقل وكل قول يخالف هذا القول نزنزة وجنون . . .

هذا ما يقوله طالب المعرفة أيها الصحاب : ـ ان تاريخ الانسان عار فى عار

ولذلك يفرض الرجل النبيل على نفسه ألا يلحق إهانة باحد لأنه يستحي جميع المتألمين

انني والحق أكره الرُحَماء الذين يطلبون الغبطة فى رحمتهم، فاذا ما قضى على بان أرحم تمنيت أن تجهل رحمتي والا أبذلها إلا عن كثب. أحب أن أستر وجهي حين اشفاقي وأن أسارع الى الهرب دون أن أعرف. فتمثلوا بي أيها الصحاب

ليت حظي يسوقني أبداً حيث ألتقي بأمثالكم رجال لا يتألمون وفى طاقتهم ان يشاركوني آمالي وولائمي وملذاتي

لقد قمت باعمال كثيرة فى سبيل المتألمين ولكن كنت أرى أن الأفضل من هذا زيادة معرفتي فى تمتعي بسروري. فان الانسان لم يسر الا قليلا منذ وجوده وما من خطيئة حقيقية الاهذه الخطيئة

اذا نحن تعلمنا كيف نزيد فى مسرتنا فاننا نفقد معرفتنا بالإساءة الى سوانا وباختراع ما يسبب الآلام

ذلك ما يدعوني الى غسل يدي اذا أنا مددتها لمتألم، بل والى تطهير روحي أيضاً ، لأنني أخجل لخجله وتؤلمني مشاهدتي لآلامه ولأنني جرحت معزة نفسه بلا رحمة عندما مددت له يدي

ان عظيم الاحسان لا يولد الامتنان بل يدعو الى اخماد الحقد ، واذا تغلب تافه الاحسان على النسيان فانه يصبح دوداً ناهشاً

لا تقبلوا شيئاً دون احتراس ، وحكموا تمييزكم عندما تأخذون. ذلك ما أشير به على من ليس لهم ما يبذلونه للناس

أما أنا فممن يبذلون العطاء. وأحب أن أعطي الأصدقاء كصديق؛ أما الأبعدون فليتقدموا من أنفسهم لاقتطاف الأثمار من دوحتي فليس فى اقدامهم على الأخذ ما فى قبولهم العطاء من مهانة لكرامتهم

غير أنه من اللازب أن يقطع دابر المتسولين لأن فى الجود عليهم من الكدر ما يوازي كدر انتهارهم وحرمانهم

وكذلك هو حال الخطاة وأهل الضمائر المضللة فان تبكيت الضمير يحفز الانسان الى النهش وإيقاع الأذى

وشر من كل هذا الأفكار الحقيرة وخير للانسان أن يسيء عملا من أن تستولي المسكنة على تفكيره

انكم تقولون « إن فى التفكير الملتوي كثيراً من الاقتصاد فى شر الأعمال » ، وما يستحسن الاقتصاد فى مثل هذا

ان لشر العمل أكلانا والتهاباً وطفحاً كالقروح ، فهو حر وصريح لأنه يعلن نفسه داء كما تعلن القروح . فى حين ان الفكرة الدنيئة تختفي كالنواحي الفطر وتظل منتشرة حتى تودي بالجسم كله. ومع هذا فانني أسر فى أذن من تملكه الوسواس الخناس : « إن من الخير أن تدع الوسواس يتعاظم فيك لأن أمامك أنت أيضاً سبيلا يوصلك الى الاعتلاء »

مما يؤسف له أن يكون جهل بعض الشيء خيراً من إدراك كله ؛ غير أن من الناس من يشف حتى تبدو بواطنه ، ولكن ذلك لا يبرر طموحنا إلى استكناه مقاصده . ومن الصعب أن نعيش مع الناس ما دمنا نستصعب السكوت

إن ظلمنا لا ينزل بمن تنفر منه أذواقنا بل يسقط على من لا يعنينا أمره .

وبالرغم من هذا ، إذا كان لك صديق يتألم فكن ملجأ لآلامه ولكن لا تبسط له فراشاً وثيراً بل فراشاً خشنا كالذي يتوسده المحاربون وإلا فما أنت مجديه نفعاً

وإذا أساء اليك صديق فقل له : انني اغتفر لك جنايتك علي ولكن هل يسعني أن أغفر لك ما جنيته على نفسك بما فعلت ؟ هكذا يتكلم عظيم الحب ، لأنه يتعالى حتى عن المغفرة والاشفاق علينا أن نكبح جماح قلوبنا كيلا تجر عقولنا معها إلى الضلال.

أين تجلى الجنون فى الأرض بأشد مما تجلى بين المشفقين ؟ بل أي ضرر لحق بالناس أشد من الضرر الناشيء عن جنون الرحماء ؟

ويل لكل محب ليس فى محبته ربوة لا يبلغها إشفاقهم

قال لي الشيطان يوماً : إن للرب جحيما هو جحيم محبته للناس

وقد سمعت هذا الشيطان يقول أخيراً : لقد مات الالَه وما أماته غير رحمته

احترسوا من الرحمة لأنها لن تلبث حتى تعقد فوق الانسان غماماً متلبداً : وما أنا بجاهل ما تنذر به الأيام

احفظوا هذه الكلمة أيضاً : ـ إن المحبة العظمى تتعامى عن رحمتها فان لها هدفها الأسمى وهو خلق من تحب

ـ إنني أقف نفسي على حبي ، وكذلك يفعل أمثالي : هذا ما يقوله كل مبدع ، والمبدعون قساة القلوب .

هكذا تكلم زارا ...

فليكس فارس

في طريق الوحدة

«محرم» بين السنة والشيعة ...

للأستاذ حسين مروه

أما أن اليقظة الاسلامية قد غمرت دنيا المسلمين على رحبها - فهو مما لا ريب فيه، وأما أن المصلحين من مختلف الأقوام الاسلامية قد خطوا هذا العام المنصرم إلى الوحدة والتقريب بين القلوب خطوة واسعة مباركة - فهو مما لا يخامرنا فيه أدنى هاجس من الشك، ولسنا اليوم بصدد التدليل على هذا كله، ولسنا كذلك نحاول أن نذهب فى تصوير الأمر مذهباً يُغَشى على الحقيقة فنجنى الجناية الكبرى على هذا الأمل المشرق الذى نمشى على هداه إلى المثل الكريم الأعلى الذى ننشده

لقد عمل المصلحون فى الآونة الأخيرة كثيراً، واستطاعوا أن ينشئوا خَلقاً جديداً فى المسلمين، خَلقاً يقول، إنَّ حوادث التاريخ إذا استحال أن يتغير مجراها فتنقلب عما وقعت عليه فليس من المستحيل أن نغير نحن مجرى أهوائنا المتدافعة، ونقلب هذه الأفكار السائدة علاقات أهل القرآن رأساً على عقب أو نستبدل بها خيراً منها، فاذا نحن أمة متكتلة تظلها راية الله العليا، تلك راية الإسلام الحنيف. ولكنَّ هنالك خَلقاً آخر فى المسلمين لما يزل من خَلق الأيام الغابرة السوداء، الأيام التى أخذ الناس فيها بالجانب البغيض من صفحتى التاريخ الاسلامى، وأعرضوا عن الجانب الحبيب الأغر اللامع، وهذا الخَلق فى المسلمين - وهو كثير وآأسفاه - يجب على المصلحين أن يرحموه، أن يشفقوا على ذهنيته الضيقة الساذجة فلا يوقرونها بما لا تطيق احتماله وهي على هذا الضيق بفهم الأمور، وأن يأخذوا بيده إلى مشارق النور بهوادة ورفق حتى يلبس الحق هو بنفسه. وأن يتملقوا أحاسيسه المختولة المخمورة بأغنيات التعصب - وناهيك بالتعصب ضارباً على وتر الأحاسيس الواهنة - ولا يحسبن القارئ الكريم أننى أدعو إلى اتباع العامة ومجاراة أهواء الدهماء ونزعاتها الهوجاء، فأنا - شهد الله - من أشد الناس نقمة على جماعة العلماء الذين يتملقون السواد، ويهابون اندفاعات الجماهير، ويسترون - من أجل ذلك - الحق خشية من غضب هؤلاء عليهم، فيقطعون معايشهم ويحطمون عروش أمجادهم، ويؤثرون عرض الحياة الدنيا على أن ينطقوا بكلمة الصدق ويقيموا شعائر الحق. غير أنى - على ذلك - أخشى هذا الفريق من رجال السوء الذين يستغلون ذهنية الجماهير لأنفسهم ويسخرونها لأهوائهم، فاذا ما تناسى المصلحون شأن الدهماء، وإذا ما أغمضوا أعينهم عما فى نفوسها من حقير العواطف وفى عقولها من ساذج الادراك، فقد يقوم هذا النفر المستغل يدعو بالويل والثبور، ويرفع عقيرته البغيضة نافخا فى الجماهير روح الفرقة، عاملا على صدع الصف، ضارباً بآمال المصلحين عرض الأفق فتصبح الآمال الحية أشلاء أباديد، فيجب على القائمين اليوم بأمر الاصلاح - والحال هذه - أن يقيموا الأوزان للجواهر قبل الاعراض، وأن يحفلوا باللباب دون القشور، وأما الأعراض وأما القشور فليس من ضير علينا أن ندع للذين يحفلون بهما أمر ما يحفلون به حتى يتبين لهم أن العرض عرض فينبذونه. وأن القشر قشر فيطرحونه: وليس من ضير علينا أن نستكفف شر ذلك النفر العائش على تمليق العامة بأن نحسم بعض القضايا التى يتخذها القوم هؤلاء مطية للغرض الأدنى، ووسيلة لاثارة النعرات المفرقة، وهَيْج العواطف الحانقة.

وفى طليعة هذه القضايا التى يطل رأسها اليوم - ورجالنا المصلحون يجهدون بجمع الشمل ورأب الصدع - قضية تقف بطائفتى المسلمين - السنة والشيعة على مفترق الطريق - والعياذ بالله - بعد أن كان يغمرنا موج من الفرح لهذه الظاهرات المباركة الطالعة علينا هنا وهناك ببشائر الوحدة الاسلامية المنشودة، ذلك أننا اليوم - حين نكتب هذه الكلمة - نعيش فى شهر من الشهور التى تحمل إلينا من ذكريات الماضى البعيد صورا ذات ألوان مختلفة. وأشكال متباينة فى ظاهر الأمر، وإن هى كانت فى الجوهر والروح، وفى نظر الذين يزنون الاسلام بميزانه الصحيح متسقة أحسن الاتساق، منسجمة أكمل الانسجام.

إننا اليوم فى شهر محرم الحرام ، وشهر المحرم هذا ذو صفحتين من الذكرى كلتاهما ذات خطر عظيم ، وكلتاهما ذات شأن كبير فى نفوس المسلمين ؛ ففى إحدى صفحتيه يحمل ذكرى هجرة المنقذ الأعظم ، رسول الله ، محمد بن عبد الله ، عليه صلوات من ربه وبركات ، ذكرى هجرته إلى يثرب حيث قامت سوق الاسلام وعمرت ، وحيث استفاضت أنوار الشريعة الغراء لألاءة الرواء ، ضافية البهاء ، ثرّةَ الأضواء ؛ ويحمل فى صفحته الأخرى ذكرى عاشوراء ، ذكرى حادثة الطف الدامية حيث استشهد ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسين بن على مجاهداً فى سبيل الحق ، وحيث نجم — لأول مرة — قرن الانقلابات الخطيرة ، والثورات الداخلية الجيّاشة .

هاتان صفحتان من الذكريات الاسلاميـة ذات الشأن يحملهما شهر المحرم ، ويطلع بهما على المسلمين ، فتستقبله طائفة من ناحيته الأولى فتجعل يوم مطلعه عيداً ميمون النقيبة ، محمود الأثر ، أغر الجبين ، وتستقبله طائفة من ناحيته الثانية فتجعل يوم استهلاله مأتماً قاتم اللون ، أغبر الوجه ، دامى القلب ؛ وتنظر - من بعد - كل طائفة إلى أختها النظر الشزْر ، وتتباعد وجهة النظر ، وتتسع شقة البين ، ويطلُّ النفر المستغل برأسه وينفخ فى بوقه ؟ وهذا هو الشر المستطير الذى نريد أن نكفكف من عاديته فى وجه الحركة الإصلاحية القائمة اليوم ، وهذا هو الأمر الجلل الذى نحاول أن يخفف المصلحون من سورته ، وهأنذا أضع - فى ختام هذه الكلمة - اقتراحاً على رجالنا العاملين فى حقل الوحدة الاسلامية ، أرجو أن يجدوا فيه حلا حاسما لهذه القضية التى يرى القارىء خطورتها . وأرجو إلى إخواننا علماء الأزهر المصلحين أن يقولوا كلمتهم فى « الرسالة » الكريمة حول هذا الباب ليرى العالم الاسلامى رأيهم المحترم المرموق بالتقدير :

يجمع المؤرخون - ياسادتى - على أن مقدم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، أى بعد أول المحرم بشهرين واثنى عشر يوماً ، كما جاء فى تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٥٣ باب (ذكر الوقت الذى عمل فيه التاريخ) ، وفى مروج الذهب للسعودى ج ١ ص ٤٠١ ، وفى غيرهما من مصادر التاريخ الاسلامى الموثوق بروايتها ؛ وتدل الروايات فى هذا الباب على أن أول من أمر بالتاريخ فى الدولية الاسلامية هو الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وأنه هو اختار هجرة النبى صلى الله عليه وسلم مبدأ للتاريخ الاسلامى . وقال يومئذ كلمته الصادقة الحكيمة حيث جمع الناس للمشورة ، فقال بعضهم : أرخ لمبعث رسول الله . وقال بعضهم : أرخ لمهاجر رسول الله ، فقال : « لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله فان مهاجره فرق بين الحق والباطل » ، وتدل هذه الروايات نفسها كذلك أنه هو — عمر — اختار شهر المحرم مبدأ لشهور السنة الهجرية قائلا أيضاً : نبدأ بالمحرم « فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام » ، والحق فيما قال من هذه الناحية ، غير أننى أقول الآن :

مادام قد وقع الاختيار على بدء السنة الهجرية بشهر المحرم لهذا الغرض الذى جاء فى كلام الخليفة الثانى الكريم ، وجرت على ذلك السيرة فى عصور الإسلام جمعاء ، فلتبق هذه السيرة مستمرة ولا ضير ، ولا نريد أن نبدع بدعاً فى هذا ، أما ذكرى الهجرة نفسها ، الذكرى التى هى لا غير مبعث تقديس المسلمين لرأس السنة الهجرية ، وهى التى يحتفلون بها ، ويجعلون يومها عيدا كريما مباركا — أقول : أما هذه الذكرى نفسها ، فليس من غضاضة فى أن يكون الاحتفال بهـا ، وأن يكون عيدها الميمون فى يومها الذى وقعت فيـه الهجرة النبوية الشريفة على التحقيق ، فى يومها التاريخى الصحيح حيث يكون عيدا للسلمين كافةً : يشتركون بأفراحه ، ويتبادلون مظاهر السرور ، ومجالى الاغتباط . وإذا ما جاء شهر المحرم - من بعد - اشتركوا جميعاً كذلك فى مشاعر الألم ، وهواجس الحزن للمأساة الاسلامية الرائعة التى تمثلت فى طف كربلاء . وكرموا نبيهم صلى الله عليه وسلم بالتأسى به إذ جاء فى الأسانيد الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان يستشعر الحزن فى هذا الشهر : شهر المحرم ، فنكون بذلك قد وضعنا حجر الزاوية فى بناء الوحدة الاسلامية المرجوّة ، ولا نكون قد فرطنا فى شىء من ما جريات التاريخ ، ولا نقضنا شعيرة من شعائر السلف أو حرمة من حرمات الاسلام .

فما قولكم ياسادتى ؟ ؟

النجف

حسين مروه

الزهــــاوى

فى أوائل أيامه وأواخرها

للسيد صلاح الدين عبد اللطيف الناهى

كنت فى السابعة أو الثامنة من عمرى يوم كان يستلفت نظرى شيخ هزيل نحيف، مرسل الشعر على الأكتاف. يمتطى صهوة حمار حساوى أبيض ويمشى فى ركابه خادم لا يتغير، وكانت سيماء الشيخ ومطيته تدلان على أنه من أعيان بغداد فقد كان الحمار مطية لا تزرى براكبها قبل ان تديل دولة «الميكانيك» من دولة الحيوان

ومرت فترة من الزمن فهجر الشيخ حماره واتخذ له «عربانة» تقطع به عرض الشارع العام «شارع الرشيد» وهو يطل منها على الناس أو يراقب الطير حائماً فوق مآذن بغداد الشامخة وقبابها الزرق، أو يحرك شفتيه بشعر

وسألت ذات يوم: من يكون هذا الشيخ وماله يهدل خصائل شعره شأن أحبار اليهود؟ فقيل لى انه فيلسوف. فلم أفهم مايريدون ولكن كتمتها فى نفسى كمن اقتنع بالجواب

ثم قل اهتمامى به لكثرة ما اعتدت رؤيته بعد ذلك، ولم اكن أقدر ان اعتنائى به سيزداد يوما من الأيام. ولكن العمر تقدم بى قليلا فعرفت قدر الشيخ الفيلسوف ورضت نفسى على قراءة ما وقع فى يدى من آثاره فبدا لى من أمره ما كنت أجهل

وكان الناس يومئذ فريقان فريق يدعوله ويكبر شأنه، وفريق ينكر أمره ويتبرم به ويرميه بالزندقة والالحاد. وكان هو محور هذا التطاحن العنيف بين هذين الفريقين. وانك لتلمس فى شعره هذا التطاحن اذا قرأته وتلمس تبرمه بجمود الجمهور وجهالة الجمهور، ولكنه لم ييأس ولم يتمثل بقول القائل:

غزلت لهم غزلا رفيعاً فلم أجد لغزلى نساجاً فكسرت مغزلى

بل التزم دائما سبيل الجهر بآرائه والدعوة لها وانك لتعجب من بسالة هذا الشيخ المتهدم يوم كان يدعو الى التحرر والى التجدد ويجاهر برأيه فى المرأة:

يرفع الشعب فريقا ن أناث وذكور
وهل الطائر إلا بجناحيه يطير

***

ليس يأتى شعب جلائل مالم تتقدم أناثه والذكور

***

مزقى يا ابنة العراق الحجابا واسفرى فالحياة تبغى انقلابا

ويجاهر برأيه فى الدين:

تحيرت لاأدرى أمام الحقائق أألى خلقت الله أم هو خالقى

فتضج الناس بالشكوى وتتبرم ويضيق به الأمر فيلزم داره أو يهجر بلده ويودع ليلاه لائذاً بمصر من غضب الناس نادباً لياليه فى بغداد ولكنه لم يلبث أن يجهر برأيه هنا وينشد القوم:

وسائلتى هل بعدأن يعبث البلى بأجسادنا نحيا طويلا ونرزق
... ...
وهيهات لا ترجى حياة لميت إليه البلى فى قبره يتطرق
تقولين يفنى الجسم والروح خالد فهل بخلود الروح عندك موثق

فتنزى الشيوخ من الغيظ ويثور الجمهور فاذا بالناس فريقان فريق له وفريق عليه حتى يضيق به الأمر فيعود إلى بلده وقد سكن روع الناس وعز عليهم أن يلجئوا الشيخ إلى الفرار فيناله المكروه فى سبيل ذلك وهو الشاعر الذى ينطق بآمالهم وآلامهم ويحفزهم إلى المجد، غير مبال بعوده الذابل وجسمه الذاوى. حتى ألف الناس منه هذه البسالة والجرأة والتف حوله الشباب وهو يدفع بهم إلى الثورة ويلوح لهم بكل جديد فى الرأى وطريف فى الفكر تلويحاً يدفع به أحياناً إلى تحميل الشعر والأدب مالا طاقة لهما به فيزج العلم فى ساحة الشعر فيمهد بذلك السبيل لخصومه ومنكرى شاعريته فيحتجون عليه بمثل قوله:

ليست الشمس من الشر ق إلى الغرب تدور
إنما الأرض من الغر ب إلى الشرق تسير

وما كان بالعلم من حاجة إلا من ينظمه لنا شعرا إلا حاجة فى نفس الشيخ قضاها

ولقد كنا نقرأ له القصيدة فنلمس وجدان الشاعر الموهوب فى ألفاظ الشاعر المطبوع وأفكار الشاعر الفيلسوف فنطرب لها. ثم نقرأ له القصيدة وقد أقحم فيها العلم اقحاما فنقف نافح الخصوم عما فيها من نظريات وآراء تلهيهم بذلك عن زلة الشاعر ونخرج بهم من نقد هذه الزلة إلى تأييد الفكرة والبرهان وننعى عليهم جمودا فى الرأى وضيقا فى الصدر ولولا تجاوزهم حدود النقد إلى التحامل لما تجاوزنا حدود الدفاع إلى المكر.

وإذا كان فى اختيار الألفاظ الجزلة للمعانى السامية مايدل على

صفاء نفس الشاعر وطول باعه ودقة احساسه وتمييزه وقع الألفاظ وموسيقاها فقد كان شاعرنا فى اختيار الألفاظ والنواسى فرسى رهان. وهو الذى يشير إلى ذلك بقوله:

إذا هلكت نخطوا جنب النواسى قبرى
إنى أمت إليــه وإن تأخر عصرى

على أنه يختلف بعد ذلك عن أبى نواس فى ميله من الدعابة والعبث إلى الفلسفة والحكمة، فهو يغوص وراءها فى كل لجة ويأتى بها بكرا لم تقع العين على مثلها، وهو بذلك يقتفى خطى المعرى. وبذلك يقول:

إنى تلمذت فى بيتى عليك وان أبلت عظامك أزمان وأزمان

وهو يقتفى أيضا خطى الشاعر الخيمى[1] لافى مجونه وإنما فى حكمته وشكه ويقينه، وحسبك أنه عمد إلى رباعياته فترجمها إلى العربية نظما

واشتقت مرة أن أحادث الشيخ الفيلسوف وأتعرف به قبل أن تختطفه المنون فلما اجتمعت به أبصرت أمامى هيكلا من الأعصاب الثائرة يكسوها جلد مجعد، ورأيته يرجحن فوق ساقين هزيلتين ماتنفكان تضطربان من الشلل

وقد أحاول أن أسعي فتمنعنى · رجل رمتها يد الأقدار بالشلل

فهو ينتفض بين الآونة والآونة فيتجهم وجهه ثم تنبسط أساريره ويتمتم قائلا: أعصابى! ثم ينصرف إلى محدثه فيما كان فيه، وأذكر أننى ما كدت ابدأه بالتحيه حتى قال لى:

« يا بنى تسمع بالمعيدى خير من أن تراه »

ثم لم يلبث أن قرأ لنا قصيدته « احساساتى » فاجتمعت حوله حلقة كبيرة من مريديه والمعجبين به وقفى ذلك بنكات بارعة وروى لنا أنه قرأ بين يدى جلالة الملك الراحل « ثورته فى الجحيم » وما زال بين نكتة وارتجاجة حتى انتصف النهار فودعنا وامتطى (عربانته) إلى داره. ومرت أيام فنعى الينا الشيخ ووقع ما كنا نخشاه.

مات الشيخ ولكن السبيل الذى كان يدعو إليه هانت صعابه وتطامنت وهاده

وبالرغم مما كانوا يتهمونه به من مروق فى الدين فقد قال:

عبدتك لا أدرى ولا أحددرى أسرك أم صدر الطبيعة أوسع
عبدت اسمك المحمود فى الليل والضحى
إذا الشمس تستخفى إذا الشمس تطلع

فأيقنت أن الكون بالله قائم وانك نور والحقيقة برقع

وقال:

أنا هــــذا فلا أبالى إذا ما أجمعت ثلة على تكفيرى
أهل عصرى لا يفقهون حديثى حبذا لو أتيت بعد عصور

وشيخنا فى تقلبه بين الشك واليقين إنما ينحو منحى بعض الفلاسفة الذين مروا فى تفكيرهم بأزمات فانكروا وآمنوا وهو فى كل مرحلة إنما سجل ما جاش بنفسه فجاء شعره صدى أطواره فى هذه الأزمات.

والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

وبعد فان الصدق فى الرواية يحتم على أن أقول إن ما أثبته هنا من أبيات لم أرجع فيها إلى دواوين الشيخ فقد خلفتها فى بغداد، وإنما هى مما علق بالذاكرة، وما أكثر ماتخوننى الذاكرة، فأضع كلمة مكان كلمة متى استقام لها المعنى ولو كنت فى زمن الرواية والحديث لما أبحت لنفسى أن أروى حديثاً فلتغفر لى روح الفقيد ما أكون قد وقعت فيه وتغمد الله روحه برحمته

صلاح الدين عبد اللطيف الناهى

(١) عمر الخيمى الشاعر المعروف ويسميه بعضهم خطأ بالخيام وقد جاء:
إن كنت زعين بأريج الصبا ذمى فاقرى السلام على العلامة الخيمى

٦ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

... وإنى لأعجب للجاحظ كيف اتسع وقته واتسع قلبه لكل هذا الضحك والأضحاك من الناس، فكأنه كان رقيباً يرقبهم فى كل ناحية من نواحى نقصهم، ليعود من وراء ذلك بالنادرة الطيبة، ويفوز بالفكاهة الضاحكة، وينثنى بالملحة البارعة، فهو يتسقط جهد طاقته — حيلة المتطفل، وحجة البخيل، ونحلة الأكول، وخفة الأبله، وسخافة الغبى، وغباوة الأحمق، ووقاحة الدعى، وتقعر المتعالم، وعنجهية الأعرابى، وملحة الأديب، وظرف النديم، فاذا ما أجرى ذلك وأشباهه على لسانه، أو تناوله بقلمه، وأخرجه على طريقته، وطبعه بأسلوبه، وأفرغ عليه من روحه وقلبه، فانه لاشك يستولى على لبك، ويهيج نشاطك، ويدفعك إلى الضحك دفعاً، وينتقل بك إلى روضة أريضة بالبشر والطلاقة، والشواهد لذلك كثيرة فى كتب الرجل وفيما تلقفه عنه الأدباء وأهل الرواية. حدث فيما حدث به عن بخل محمد بن أبى المؤمل وشدة حرصه وإقتاره فقال: واشترى — أى ابن أبى المؤمل — مرة شبوطة(١) وهو ببغداد، وأخذها فائقة عظيمة وغالى بها وارتفع فى ثمنها، وكان قد بعد عهده بأكل السمك وهو بصرى لايصبر عنه، فكان قدأ كبر أمرهذه السمكة لكثرة ثمنها ولسمنها وعظمها، ولشدة شهوته لها، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرد بأطايبها، وحسر عن ذراعيه، وصمد صمدها، هجمت عليه ومعى السدرى، فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضى، ورأى قاصمة الظهر وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتلى بالتنين، فلم يلبثه السدرى حتى فور السرة بالمبال، فأقبل على فقال لى يا أبا عثمان: السدرى يعجبه السدر! فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعاً، فأقبل علىّ فقال: والسدرى يعجبه الأقفاء، فما فرغ من كلامه إلا والسدرى قد اجترف المتن كله! فقال ياأبا عثمان: والسدرى يعجبه المتون! ولم يظن أن السدرى يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعذوبة لحمه، وظن أنه سيسلم له، وظن معرفة ذلك من الغامض، فلم يدر إلا والسدرى قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً!! ولولا أن السدرى أبطره وأثقله وأكمده وملأ صدره غيظا لقد كان أدرك معه طرفاً لأنه كان من الأكلة، ولكن الغيظ كان من أعوان السدرى عليه، فلما أكل السدرى جميع أطايبها وبقى هو فى النظارة، ولم يبق فى يده مما كان يؤمله فى تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ظن أن فى سائر السمكة مايشبعه ويشفى من قرمه، وبذلك كان عزاؤه وذلك هو الذى كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه؛ فلما رأى السدرى يضرى القرى ويلتهم التهاماً قال: يا أبا عثمان السدرى يعجبه كل شىء. فتولد الغيظ فى جوفه، وأقلته الرعدة فخبثت نفسه، فما زال يقىء ويسلح ثم ركبته الحمى وصحت توبته وتم عزمه فى ألا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً، ولا يشترى سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها إليه لايقبلها، وإن وجدها مطروحة لايمسها(١)

فالجاحظ فى هذه النادرة البارعة يحاول أن يدخل على نفسك من كل جهة، وأن يهز قلبك بالضحك فى تهويله وإغراقه، فهو يبسط لك فى العبارة، ويرادف الجمل على المعنى الواحد فاذا به يبهرك بصور معروضة لابألفاظ مسرودة. وخذ بالنظر الى هذه النادرة التى بين أيدينا، فأنت فى ضحك بالغ من اغراق الجاحظ فى تصوير بخل ابن أبى المؤمل حتى أنه لما رأى السدرى ، رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف! ورأى الحتم المقضى! ورأى قاصمة الظهر! وأيقن بالشر! وعلم أنه قد ابتلى بالتنين!! وأنت أيضاً فى ضحك بالغ من نهاية هذا الرجل تلك النهاية الأليمة: اذ ، تولد الغيظ فى جوفه، وأقلته الرعدة، فخبثت نفسه فما زال يقىء ويسلح!! ثم ركبته الحمى!! وصحت توبته وتم عزمه فى أن لا يؤاكل رغيباً ولا زهيداً، ولا يشترى سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها اليه لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها!! ثم أنت فى ضحك من صنيع السدرى وهو يقور السرة، ويقبض على القفا، ويجزف المتن، ويكتسح ما على

(١) الشبوط نوع من السمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المس تحدث عنه الجاحظ فى كتابه الحيوان وهو كثير فى دجلة.

(١) البخلاء ص ٨٣

الوجهين جميعا ، ثم وهو يفرى القرى ويلتهم التهاما !! ولقد كان السدرى من الأكلة ، وهو من الأشخاص الذين أولع الجاحظ بالتنادر عليهم ، وأغرق فى الضحك منهم ، ومع ذلك فكان يجالسه ويحادثه ويجاذبه الرأى والفكاهة ، فقال له يوماً : اذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة ! فقال السدرى : وكيف ؟ قال : لأنها تأخذ الدراهم ، وتتمتع باللباس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت ! فقال السدرى : فكيف عقل العجوز ؟ قال : هى أحمق الناس وأقلهم عقلا !!

على أن السدرى وهو على ما رأيت فى الشره والجشع لم يكن فى الأكلة بسباق الحلبة ولا هو بكبش الكتيبة فى رأى الجاحظ وتقديره ، وانما كان يقدم فى ذلك قاسما التمار ، وكان قاسم هذا ـ كما يقول الجاحظ ـ شديد الأكل شديد الخبط قذر المؤاكلة ، وكان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه ؛ وكان فى مؤاكلته يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط . وكان يجلس على طعام ثمامة بن أشرس فكان لا يرضى بسوء ادبه حتى يجر معه ابنه ابراهيم ، وكان بينه وبين ابنه فى القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين ، فكانا اذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد على ايمانهما وشمائلهما حظ فى الطيبات (1) ، وكان قاسم الى جانب ذلك سخيفاً مغفلا غبياً ، وقد حفل الجاحظ بأخباره ونوادره فأورد بعضاً من حوادثه فى الهجوم على خوان ثمامة وفتكه به فى كتاب البخلاء (2) ، كما اورد طرفا من سخافاته وحماقاته فى البيان والتبيين (3) ، وما أطيبه وهو يضحك من جهله اذ يقول فى باب اللحن : وقال بشر المريسى : قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها ! فقال قاسم التمار : هذا على حد قوله :

إن سليمي والله يكلؤها ضنت بشيء ماكان يرزؤها

قال الجاحظ : فصار احتجاج قاسم أطيب وأضحك من لحن بشر !! (4) ، ولولا التحرج لأوردنا شيئا من نوادر الرجل ومضاحيكه التى أحصاها الجاحظ عنه ، فان فيها مايعف القلم عن ذكره ، ولا يصح أن ينشر مطويه فى مجلة سائرة ! على أنها طيبة تفيض بالضحك وتحمل عليه !!

والجاحظ ولوع ببعض الأشخاص يتعقب أخبارهم فى الضحك والعبث ، ويذكرهم بأوصافهم فى كل مناسبة داعية ، فكما أنه يتندر على الكندى وابن أبى المؤمل وسهل فى البخلاء ، والسدرى وقاسم التمار فى الأكلة ، فهو يذكر كثيراً كيسان مستملى أبى عبيدة فى أهل البلادة . ولقمان الممرور فى أصحاب الغباوة ، وريسموس اليونانى فى الموسوسين ، وأبو حية النميرى فى المجانين ، وريطة بنت كعب فى الخرق ، ومالك بن زيد مناة فى النوكى ، وابن فنان فى المدخولين . وإنه ليطربك ويضحكك وهو يضحك من مستملى أبى عبيدة فى غفلته وبلادته ، قال الجاحظ : فكان يكتب غير ما يسمع ، ويقول غير ما يكتب ، ويستملى غير ما يقرأ ، ويملى غير ما يستملى . أمليت عليه يوماً :

قلت لمعشر عدلوا بمعتمر أبا عمرو !

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستملى أبا زيد ، وأملى أبا نصر (1) ! قلت وإذا كان فى هذا الوصف ما يحمل على الضحك ، فليس يبالغ من ذلك ما يبلغه وصف الجاحظ أيضا لغباوة أبى لقمان الممرور إذ يقول : وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذى لا يتجزأ ما هو ؟ فقال : الجزء الذى لا يتجزأ على ابن أبى طالب عليه السلام ، فقال له أبو العيناء : أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى ! حمزة جزء لا يتجزأ ! قال فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال أبو بكر يتجزأ ! قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين ، قال : فأى شىء تقول فى معاوية ؟ قال : لا يتجزأ !! قال الجاحظ : فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أى شىء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزأ هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة !! وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ !! ، (2)

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر كما يقولون ، فما أشبه أبا لقمان فى غفلته وجهله بعبيد الكلابى وقد سأله الجاحظ : أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار ؟ فقال : لا أحب اللؤم بشىء !

(1) البخلاء ص ١٦٧ (2) ص ١٦٦ و ١٦٧
(3) ص ٢١٨ جـ ٢ (4) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٥٧

(1) جمع الجواهر للحصرى ص ٢٠٣
(2) الحيوان للجاحظ

قال الجاحظ: فقلت له: إن أمير المؤمنين ابن أمَة (١)! فقال: أخزى الله من أطاعه. فقلت: نبي الله إسماعيل ابن أمة! فقال: لا يقول هذا إلا قَدَرى! فقلت: وما القدرى؟ فقال: لا أدرى إلا أنه رجل سوء!!

وللجاحظ كثير من المضاحيك السائرة والنوادر الذائعة التى نقلها عنه الرواة؛ فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن إسحاق قال: قال لى إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد: ألا تدخل على الجاحظ؟ فقلت مالى وله! فقال: إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه فلو دخلت إليه وسمعت كلامه؟ فدخلت عليه فقدم لنا طبقاً من الرطب فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت، ومرَّ فيه إبراهيم فأشرت إليه أن يمسك! فرمقنى الجاحظ فقال لى: دعه يا فتى فقد كان عندى بعض إخوانى فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه فأبى ألا أن يبرَّ قسمى بثلثمائة رطبة!!

وقال أبو العيناء: كان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات فجاؤا بفالوذجة (٢) فتولع محمد بالجاحظ وأمر أن يجعل من جهته مارق من الجام، فأسرع فى الأكل فتنظف مابين يديه!! فقال ابن الزيات: تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا أبا عثمان؟ فقال الجاحظ: لأن غيمها كان رقيقاً!!

وأدعى إلى الضحك من هـذا ما حدث به الجاحظ فقال: كان يحضر الىَّ رجل فصيح من العجم فقلت له: هـذه الفصاحة وهذا البيان لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها، فا جابنى إلى ذلك! فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذّه هذًّا، فقلت له: الآن لاتنه علينا! فقال: سبحان الله ان فعلت ذلك فأنا اذاً دعي!!

وشبيه بهـذا الأعجمى المتفاصح ذلك القاص المتعالم الذى أشار اليه الجاحظ فقال: وكان عندنا قاص أعمى ليس يحفظ من الدنيا الاحديث جرجيس، فلما أخذفيه بكى واحدمن النظارة فقال القاص: أنتم بأى شىء تبكون؟! انما البلاء علينا معاشر العلماء!!

فالجاحظ لاشك كان رجلا ضُحَكة ضُحُكة، ومضاحيكه كما قلنا ــ تمتلك اللب، وتهتاج النشاط، وتدفع الى الضحك دفعا...

«له بقية» محمد فهمى عبد اللطيف

(١) يريد به الخليفه المعتصم إذ كانت أمه جارية

(٢) حلوا. تعمل من الدقيق والماء والعسل وكأنها المعروفة الآن بالبالوذة

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار
ترجمة ف. ف

زهرة مقصوفة

ترطبت أهدابى بدموع الفجر، ففتحتُ عينى لأوائل أشعة الشمس.

مرت بى عند الصباح غادة استوقفها جمالى فخدجتنى بنظرات الاعجاب فابتسمت لها

وأمرت الغادة يدها الناعمة على وريقاتى فارتعشت وأسكرتنى اللذة، لكنها لم تطل حتى شعرت بعدها بألم هائل اخترق أحشائى، فأحنيت الرأس ذليلة على غصنى المقصوف

***

لِمَ لَمْ تقطفى تويجى، أيتها الغادة، لماذا قصفت غصنى فتركتنى بين الحياة والموت، وقد كان فى إمكانك أن توسدينى نهدك فأرقد عليه بسلام.

إن دمى يسيل ببطء من جرحى المفتوح، وصقيع الموت يلوّح وريقاتى بالاصفرار. وقد انطبق تويجى منقبضاً على أوجاعه

أتوقف النسيم عن مداعبة الأغصان؟ إننى لم أعد أسمع لأجنحته عليها حفيفاً. وهل صمتت الأطيار؟ فقد انقطع عن مسمعى تغريدها.

أين شعاع الشمس؟ إننى لم أعد أراه. ويلاه أخبرنى أيتها الرفيقات، هل تلاشى النور وساد الظلام؟.

***

لا، إن الليل لم ينشر أجنحته بعد، ولكنها أشباح الموت السودا تنطبق على، فسوف لا أرى لمعان النجوم فى قبة الفضاء. ولا أفتح وريقاتى لا قتبال ندى الفجر

ستتساقط بقاياى مبددة على التراب وترتفع روحى إلى الأعالى تاركة أريجى عالقاً بالأثير.

سوف ينتصب شبحى المتألم بوجهك، أيتها الغادة، سوف يثأر لى ضميرك منك، فتتألمين لقسوتك على وإهمالك للضحية البريئة

***

غفر الله لك، ووقاك من يد تغشاك بالأمل لتتركك فريسة الإهمال. أبعد الله عنك آلام الزهرة المقصوفة! أيتها الفتاة!

بين حب جديد وسلوة عن قديم

للعالم الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

فرغ القلب من عسى ولعلاّ فسلامٌ على غرامٍ تولّى
وخلا للهوى الجديد فؤادى مرحبا بالهوى الجديد وأهلا
ليت شعرى هل المُنَى فيه تدنو فكفانى ما ذقتُ فى الحبِّ قبلا
يا لَقَلبٍ ما قرَّ حتى تداعى ولدمعٍ ما غاضَ حتى استهلاّ
فدعى يا حبيبةَ الأمس قلبى لوَصُولٍ تجزى المودةَ مِثلا
تعرف الصبَّ كيف يقتله الحـــب فرقّت ولم تزِد فيه قتلا
لم تُطِعْ فيه عاذلاً وإذا ما صدق الحب لم يُطِعْ فيه عذلا
وإذا ما بذلت غالِىَ حُبٍّ بذلت من فؤادها الحبَّ أغلى
وإذا ما نما هواها بقلب لم تُمِتْهُ بالصدّ تِيهاً ودَلا
لا كتلك التى إذا نَبَتَ الحـــب بقلب أذوَتْه ضنًّا وبخلا
تحسب الصدّ والجفاء يزيدا ن فؤادى بها غراما وشُغلا
ما درَتْ أن صدّها وطّنَ القلـــبَ على طول بُعدها فتسلَّى (1)
فاطويا ذكر ذلك العهد عنى نَهِلَ القلبُ (2) بالسُّلوّ وعَلاّ
إيهِ يا جفنُ كم تساهدُ نجمَ الليـــلِ حتى مَلِلتَ والنجمُ مَلاّ
إيهِ يا ليلُ كم حمَلْتَ من الشكو ى وبثٌّ الشجونِ ما شقَّ حَملا
فأطلتَ المقامَ ترثى لحزنى وحشدتَ النجومَ حوْلِىَ أهلا
كم تواسى المحزونَ بالدمع حتى تدع الزهر بالندَى مُخضَلا (3)
فكلانا راثٍ لبثِّ أخيه وكلانا عن عهده ما تخلّى
إيه يا دمعُ كم تفيضُ لذكرى لمحةٍ لن ترى لها الدهرَ ظِلاّ
ذهبَتْ كالحباب أومثلما جفّفَ حـــرُّ الشعاع فى الروض طَلاّ
ومضت كالخيال فى غفوة العُمْـــرِ فهلاّ عزّيتَ قلبك هلاّ
إيه قلبى كم فرقةٍ ذقتَ حتى كدت تسلو الهوى فراقا ووَصلا

(1) تسلى : سلا .
(2) النهل والعل : الشرب الأول والثاني .
(3) مخضلا : مبتلا .

نحن والماضى

للأديب عبد اللطيف النشار

قضت أم أوفى ، بلل الغيث قبرها فعدٌ عن الدراج فالمتثلم
وأخلى الفراعين الكرام مقامهم لأشبه منهم بالحياة وأعظم
أمن نسل مينا أنت أم نسل جرهم إلى أى فرعى دوحة المجد تنتمى ؟
يقول حصيف الرأى من نسل آدم
له صبر مصرى وإيمان مسلم
أفخراً بان راضوا قوياً منعماً ولا فخر فى إحياء شلو محطم
عفاء على الدنيا إذا كان مامضى نهاية شعب تائق متوسم
مضى مامضى ، الاسلام ورحمة سلام وفاء لانفجع أيم
ولسنا من الماضين أدنى مكانه ولا كان أوفى الفضل للمتقدم
ورثت زهيراً شعره ومكانه وما مال نسل وارث بمحرم
فما وقف الماضون مجداً ليحبسوا على غير أحفاد لهم كل مغنم
ولكن مجدنا ملكهم فهو مجدنا ولم يبق منهم غير ذكرى وأعظم
ألا أيها الجاثى على قبر هالك تعز فان الدمع أغلى من الدم
تعز يعش مابين جنبيك قلبه فما مات ذو نسل عزيز مكرم
ولا عاش من لا ينطوى فى ضلوعه سوى زفرات الآسف المتندم
ومن كان ماضيه نهاية . جاهه يعش فى سديم من دجى الهم مظلم
بداية عمر المرء إشراق شمسه وكم من شموس ليس يدركها العمى
فخرت برمسيس ورمسيس جثة فخارُك أن تحيا بعزم مصمم
يفاخر بالأحياء حى ويزدهى بمن مات ذو قلب كسير مهضم
لعمرى لقد جفت سنابل يوسف وحامت على أبقاره أم قشعم

غير أنَّ الهوى حياةٌ لقلب غُرِسَ الحبُّ فيه مذ كان طفلا
إنَّ قلبا لم يُحيِه الحبُّ مَيْتٌ لا ترى فيـه للحياة محلاّ
وإذا الشعر لم يُفِضْه غرامٌ يَصهَر النفسَ بالجوى كان هزلا
فأعزّى بصادق الحبِّ شعرى كم أهنتُ القريضَ فى حب من لا..
وأفيضى علىَّ صفوا من الحـــب أُفِضْه صفوا من الشعرِ جَزْلا

احمد الزين

لقد أنقذ الأحرار من رق يوسف
بما أنشأوا فى كل أرض وعيلم
وأسراب طير من حديد محدم   وغائصة فى غائر القاع مظلم
وما الحرب إلا عزة واستطالة   فلا تنقضوا حكم القضاء المحتم
ولا تحسبوا فى السلم غنما لحالم   ألا ضل رأى الآمل المتوهم
يراد أخاء دائم وسلامة
ومن يرج معسولا من العيش يحرم
بلادى عداك الذم لست بخيلة   بجودى فإلا تفعلى اليوم تندمى
أنترك للأحلاف أن يدفعوا العدا
اذا غزيت مصر بجيش عرمرم
معاذ العلا ان يحمى النيل فى الوغى
سوى كل مصرى على الموت مقدم

هو العهد عهد الحرب لا كلفاً بها   ولكن من لا يتق الظلم يظلم
رجال غد لا تطلبوا المال مطلباً   فما العيش عيش الوادع المتنعم
ولكنما يحيا الذى يرهق العدا   ومن عاش فى أمن من الناس يسأم
ولا تحسبوا الماضى أعز مكانة   ألا تلك دعوى الخائب المتلوم
يمهد عذراً للهوان بذمه   بنى عصره فى كل قول مرجم
بني وطنى كونوا قلوباً تكن لكم   مناعتها من كل عار ومأثم
فما تسلك الأوزار فى الناس مسلكا
الى القلب لولا ثغرتا الجيب والفم
أحب الذى أعطيت نسيان موضعى
لدى كل نهب فى الحياة مقسم

عبد اللطيف النشار

الفنون

الفن البابلي الاشورى

للدكتور احمد موسى

اذا كنا قد عرفنا شيئاً عن الفن المصرى من عمارة ونحت وتصوير
همنا كيف أن هذا الفن كان إلى حد ما أساساً للفن الاغريق ، علمنا أن الحضارات تقاس بالفن ، أمكننا أن ننتقل اليوم إلى حضارة ة أخرى هى حضارة بابل القديمة (٣٨٠٠ — ٦٢٥ ق . م .) لجديدة (خالديا ٦٢٥ — ٥٣٨ ق . م .) وآشور (٢٢٥٠ — ٦٠ ق . م) التى لم تبلغ فى مجموعها مستوى عظمة الحضارة المصرية ياً ؛ فضلا عن أنها لم تكن أساساً اتخذه الاغريق لحضارتهم الفنية ، غما عن وجود بعض الشبه الضئيل بين النحت البابلي الآشورى وبين اغريق ، من حيث عدم الاكتفاء بالخطر المحدد للنحوتات النصف ارزة والمصورات (كما رأينا فى الفن المصرى) ، وإخراجها شاملة ض تفاصيل أعطت شيئا من الحياة قربها من النحت الاغريقى .

ويحسن قبل التكلم عن الفن البابلي الآشورى وعن مميزاته أن رف شيئاً عن نشأة بابل وآشور اللتين كانتا مصدر حضارة غرب سيا . ففى الجزيرة المحصورة بين نهرى دجلة والفرات التى تعد من خصب البقاع الصالحة للزراعة ، نشأت بابيلونيا من الجنوب وآشور لى نهر دجلة من الشمال .

وإذا رجعنا إلى التاريخ الذى اعتمد واضعوه على الآثار الدراسات الفنية ، فاننا نرى أن الحفريات التى أجريت فى مناطق كثيرة من هذه البلاد ، دلت على أن أول آثار الانسان المتحضر عا رجعت إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م .

على أنه لا يهمنا هنا أن نعرف إن كان أصل هؤلاء الناس من آريين أو من الساميين ، كما أنه لا يعنينا أن نبحث لتحديد نوعهم ، لكن المهم أن نعلم أن بابل نفسها انقسمت مملكتين شمالية وجنوبية ، م اندمجتا معاً حوالى عام ٢٣٠٠ (٢٠٠٠ ؟ ق . م) فى عصر الملك برى أكو Iri-Aku وكانت مدينة بابل على نهر الفرات (على خط رض يافا تقريبا) عاصمة لها

أما آشور فهى أقدم كثيرا من هذه ، إذ قامت الحضارة فيها عام ٢٢٥٠ ق . م . على أساس حضارة بابل . وكانت مدينة نينوى Nineveh لعهد طويل عاصمة لها ، وهى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة أمام مدينة الموصل الحالية ، وفيها ظهر الفن الآشورى الرائع فى المرحلة الزمنية المحصورة بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، واستمر التقدم فى هذه الفترة حتى تأسيس مملكة آشور ، وازدهار الفن فى عصر ساراجون (٧٢٢ - ٧٠٥) وسناهريب (٧٠٥ - ٦٨١) وأسوربانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق . م .) ولم يتدهور الفن إلا فى عصر نابو بولاسر واتجه بعد ذلك اتجاها آخر عند ما حكمها كيروس بن قبيز Kyros سنة ٥٣٩ ق . م . وضمها إلى مملكة الفرس

هذا سرد تاريخى بسيط اقتصرت فيه على ما لا استغناء عنه لمن يود الوقوف بشكل إجمالى على الحالة التى نشأ خلالها الفن البابلي الآشورى ، الذى ينقسم إلى عمارة ونحت وتصوير كالفن المصرى والاغريقى وغيرهما .

ونظراً لقلة الأحجار فى هذه البلاد ، تجد أن العمارة لم تكن رائعة ، فضلا عن تهدمها جميعها لضعف اللبن الذى استخدم فى معظم مبانيها إلى جانب الآجر .

وبالدراسة الاجمالية لبقايا العمارة البابلية الآشورية ، يمكننا أن نعرف أنها خلت من الأعمدة التى كانت من أهم مميزات الفن المصرى والاغريقى ، ولذلك تجد أن الحوائط كانت سميكة إلى حد بعيد ، فضلا عن إقامة أكتاف لها من البناء لتساعد على تقوية الحوائط المرتفعة .



(ش ١) الفروسية - نمرود

إلا أن لبابل وآشور ميزة قد تعادل النقص الناشىء عن عدم إنشاء الأعمدة ، وهى القباب التى بنيت على هيئة نصف كرة والقبوات التى أقيمت على شكل عقود نصف دائرية أو نصف بيضاوية ، بجانب

على عزة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان؛ ونفس لا تسفّ، وقلب لا يذل. وما تزال سيرة محمد فى عقله وقلبه، ولا يزال مجد الاسلام ملء جوانحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل ملء ضميره. فلن تقف دعوة الاسلام. إن دعوة الاسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلى والقلب الأبى فى نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون إنهم حماة الاسلام: إن الاسلام فى حماية أهله ورعاية تاريخه. ما أذل الاسلام إن ابتغى فى غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! ياحسرة على الحق إن التمس من الباطل حاميا! وياخسران العدل إن ابتغى من الظلم ناصراً! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه، ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله!

إن فى دين المسلم، وإن فى قلب المسلم، وإن فى خلق المسلم، مايربا به عن كل دنية، ويصمد به إلى كل هول، ويثبته فى كل كارثة، ويسمو به على كل عقبة.

أيها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حرباً طاحنة فى المشرق والمغرب، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرية، وكدتم لهم فى السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، ويئسوا وملوا قلتم: هلم أيها الضعفاء، فنحن الحماة الأقوياء!

أيها الحماة: شد ما قسوتم على المسلمين! ثم شد ما رفقتم بهم! أيها الحماة: لقد تعلمون أن بضعة آلاف من بنى الاسلام ثبتوا لكم وسخروا بقواكم وفنونكم وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عاماً ولم يكن سلاحهم إلا عزة الاسلام ومجد العرب.

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادى
يصابرون الأكبد الصوادى
ويأكلون الجوع فى البوادى
قد يئسوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب فى الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد

***

أبت لهم كرامة الاسلام
أبى إباء العرب الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهام
منيتهم مشـــارع الحمام

فلما تكسر فى أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق على عزائمهم كل مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار فى الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض؛ وهم اليوم مشردون فى الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم وجموعهم ونعيمهم ودعتهم ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم علم جهاد، وصحيفة فخار، وسجل مآثر، وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة الاسلامية، والأنفة العربية. ألا إن الاسلام لم تنته دعوته، ولم تضعف كلمته، وسيبقى كلمة الله فى الأرض، ودعوته إلى الحق. وحجة على الخلق، فى أمره بالأخوة والحرية، والعمل فى الحياة على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الاسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية لا تستعبد، ودعوة إلى العزة لا تذل، ودعوة إلى العمل لا تفتر

ألا إن الاسلام دعوة إلى السلام والاخاء، وإلى الصدق والوفاء. فان دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والاباء، والصبر على اللأواء، والموت فى سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

عبد الوهاب عزام

وبجمل التعريف أن المشاهد لبقايا المنحوتات والزخارف والتصاوير الخ ، يرى أنها مليئة بالحياة ، كما يلاحظ قدرة الفنان وثبات يده فى العمل . وقد وجدت رسومات نصف بارزه على لوحات من حجر الباستر المعروف شملت مناظر الآلهة والانسان والحيوان كما شملت كثيراً من طراز الملابس التى اعتنى باخراجها عناية شديدة

ولعلنا بمشاهدة بعض الصور هنا نلاحظ الدقة التى وجهت إلى إظهار تموجات الشعر والاكثار من الظل والنور .

ومما تجب ملاحظته أن هناك وجه شبه إلى حد ما ، بين ما رأيناه من منحوتات المصريين ومصوراتهم وبين ما نراه الآن من مخلفات بابل وآشور ، وذلك باظهار الأجسام كاملة التكوين والتصوير بحسب ما يجب أن تظهر به أمام المصور فى حالة من الجفاف والصمت ، ولكنها تميزت باشتمال الأجسام على شىء من خطوط التحديد الذى أظهر تفاصيل العضلات ، إلى جانب هذا كان النحت والتصوير الآشورى على وجه الخصوص متقدما إلى حد يقربه من روح النحت والتصوير الاغريقى .

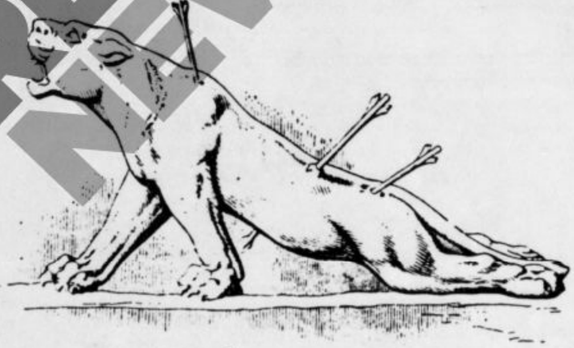
وما وقع فيه الفنان المصرى من الخطأ فى تصوير الحمامات ؛ وقع فيه الفنان البابلى الآشورى أيضاً ، فترى تصويره لها كان كما لو كانت كل قطعة منها قائمة بنفسها لا تتصل بمجاوراتها

ومن ضمن المميزات الفنية ظهور الأسد أحيانا برأس إنسان فى معظم المصورات البارزة والمسطحة ظهوراً مستمراً ، إلى جانب الأجنحة التى نحتوها أو صوروها عند ما مثلوا آلهتهم



(ش ٥) رأس آشورى - نمرود

وفى المتحف البريطانى ومتحف اللوفر وغيرهما مجموعات كبيرة ما وجده الأثريون من بقايا النقوش والزخارف والتماثيل ، وعدد هائل من اللوحات التى قيل أنها تكون مكتبة أسور بانيبال . والفضل فى ذلك راجع إلى شخصيات بارزة أمثال أميل بوتا وهنرى ليارد وهرمز رسام وجورج سميث وغيرهم ، اشتغل كل منهم فى منطقة معينة لا يتسع المجال لايضاحها وإيضاح نتائجها



(ش ٦) اللبؤة المصابة - كريونشيك

ولعلنا بالنظر إلى المصورات التى تشملها هذه المقالة ، نأخذ فكرة عامة عن الفن البابلى الآشورى كما أنه يمكننا بالمقارنة أن نعرف إلى أى مدى وصل هذا الفن نسبيا إلى الفن المصرى

أنظر إلى الصورة الأخيرة (ش ٦) تر أروع ما يستطيع فنان إخراجه ، فهى مليئة بالحياة وصدق المحاكاة ، إلى جانب دقة التناسب وعظمة الاخراج

فعند ما أصيبت اللبؤة بسهمين فى نصفها الخلفى انهزمت بهذا النصف ، ونلاحظ أن النصف الأمامى لايزال حياً برغم اختراق السهم الثالث للقلب أو لما يجاوره . أنظر إلى بروز المخلبين الأماميين وإلى اختفاء نظيريهما من الخلف ، ولاحظ ما ظهر على ملامح الوجه من علائم الألم التى تمثلت فى التجاعيد الواضحة على الأنف . أما الفم فهو يمثل الاستغاثة بكل معانيها

فهذه إلى جانب غيرها من الأمثلة الصادقة لفن إن لم يكن فى مقدمة الفنون القديمة ، دليل على أنه من الفنون التى لا يمكن للراغب فى فهم الجمال الفنى الاستغناء عن معرفتها ؟

« احمد موسى »

القصص

الوالد

للكاتب القصصي جي دو موباسان

جان دوفالنوا صاحب لى لا أفأ أزوره الفينة بعد الفينة . وهو يقيم فى قصر له على ضفة جدول فى بعض الغياض ، وقد لاذ بهذا الكن بعد أن قصف وترف فى باريس خمسة عشر عاما سوية . وقد عرته بغتة ملالة من كل ما فى هذه المدينة من مناعم ومآدب ورجال ونساء وملاعب ، وجاء يعتزل فى هذه الدار التى فيها ولد وفيها نشأ .

ويمضى إليه اثنين أو ثلاثة من الصحب نقضى معه أسابيع معدودات ، ولقد كان سروره بنا إذ يلقانا بعد نأى ، بالغا شديدا ، وابتهاجه باسترجاع ما أفلت منه من حبور بعزلته إذ تتولى عنه جما وفيرا .

ولقد وفدت عليه فى الأسبوع الماضى فهش وبش . وكنا نقطع الساعات تارة جميعاً وتارة منفردين ، والعادة أن يقرأ هو واشتغل أنا بالنهار ، وحين تأخذ عين الشمس فى الاغتماض نقبل على السمر إلى أنصاف الليل .

وكنا فى يوم الثلاثاء الماضى ، وكان يوما حروراً متلظيا ، قد جلسنا فى جنح ليله نتأمل جريان الماء فى الجدول تحت أقدامنا ، وكنا نتساجل ما يتوارد علينا من أفكار شديدة الغموض عن النجوم الخائضة فى الماء وكأنها بين أيدينا تمرح سبحاً . كنا نتناقل ما تتمخض به أذهاننا من خواطر كثر غموضها واشتد اختلاطها وأخش إيجازها ، ذلك أن عقولنا شديد قصورها ، مستفحل ضعفها . بالغ عجزها . أما أنا فقد كنت مشفقاً على الشمس المتوارية فى الحجب لدى الطفل . كنا نفكر فى هذه الكائنات المبثوثة فى هذه العوالم ، ومختلف أشكالها العجيبة التى يتقاصر دونها وهم الانسان ، وخواصها التى لا تدرك كنهها الفطن ، وأعضائها الخفية المحجوبة . والحيوان والنبات وكافة الأجناس وسائر الجواهر وشتى المواد ، مما لا تكاد ترتفع إليه أذهان الانسان .

وبينما نحن كذلك إذا بصوت على بعد يصيح :

ـ سيدى ، سيدى :

فقال جان :

هلم يا بابا تيست

فلما اهتدى إلينا الخادم قال :

ـ الغجرية يا سيدى

فجعل صاحبى يضحك كمن به مس ، وما عهدته يضحك كذلك إلا نادراً ، ثم قال :

إنا إذن فى ١٩ يوليو ؟

ـ نعم يا سيدى

ـ إذن قل لها تنتظر وأعد لها الطعام فانى عائد بعد عشر دقائق .

ولما انصرف الخادم أخذ صاحبى بذراعى وقال :

ـ فلنمش على مهل ، إنى قاص عليك قصة هذه المرأة :

منذ سبع سنين أى فى السنة التى حللت بها هنا : خرجت فى أصيل يوم أطوف فى الغابة . وكان يوماً طلقاً صافياً كيومنا هذا وجعلت أسير متئداً تحت أفنان الدوح أتأمل نجوم السماء من خلل أوراقها ، مستجلبا لرئتى بليل نسمات الليل وطيب زهر الغابة .

وكنت قريب عهد بهجرى باريس . إذ تملكنى سأم شديد وعافت نفسى كل ما رأت عينى وأخذت منه بنصيب من كل سخيف وزرى وذميم مدة خمسة عشر عاماً .

وأمعنت فى السير وتوغلت فى مسالك هذه الغابة ومضيت فى فج منها عميق يؤدى إلى قرية جروزى على مدى غلوة من هنا ، وإذا بكلبى قد وقف فجأة ونبح ، فظننت أنه رأى ذئباً أو وحشاً ضارياً فدلفت متسللا كظيم الخطو ولكنى سمعت بغتة صراخاً علا ، صراخ إنسان يستغيث مختنقا تتمزق له نياط القلوب من رحمة . فما شككت أنه رجل يغتاله مغتال فى خميلة فعدوت لنجدته وبيمينى هراوة غليظة ضربتها مردية

دنوت من هذا الصراخ الذى كان ينجلى كلما قاربته ولكنه خفيض مع ذلك مكظوم ، كأنه صادر من بيت ، وربما من خص حطاب ، وكان كلبى بوك يتقدمنى على قيد خطوات تارة يعدو . وتارة يقف ، ثم ينطلق انطلاق السهم هائجا حنقا مسترسل الهرير ولم نلبث أن برز لنا كلب آخر أسود عظيم الهيكل كأن عينيا جمرتان قد كشر عن أنياب عصل يلمع بين شدقيه بياضها

فهممت أن أهوى عليه بهروانى ولكن بوك سبقنى إليه فتلاحم

وتصارعا وتجاولا ، ومضيت أنا قدما ، وإذا بى أكاد أتعثر بجواد منطرح فى الطريق ، وإذ وقفت مبهوتا أتأمل هذه الدابة تحت عربة أمامى ، بل بيتاطاتفا ، أحد مسا كن هؤلاء الباعة المتجولين

من ههنا كان مصدر هذا الصراخ الفظيع المتلاحق . ولما كان الباب من الناحية الأخرى ، فقد درت بهذه العربة واندفعت أرقى الدرجات الثلاث الخشبية وأنا أهم بأن أصرع المعتدى بهراوتى

ولكنى شاهدت عجبا ، والتبس على الأمر فلم أفقه لأول وهلة شيئا : هذا رجل قد جثا على الأرض كأنه يصلى ، وعلى الفراش الذى استوى فى جوف هذه العربة شىء قد جثم لا سبيل إلى تمييزه : بشر نصف عار قد انطوى على نفسه وهو يتلوى كالثعبان لا أرى وجهه ، يميد ويضطرب وكأن صراخه خوار ثور

فاذا هى امرأة تعانى آلام الوضع

فما إن أدركت كنه الأمر وتبين لى ما غمض من حقيقة هذا الحادث الذى كان عنه هذا الصراخ حتى اذنتهما بوجودى ، فجعل الرجل وهو يشبه أهالى مارسيليا يسألنى ملحا ذاهب اللب أن أغيثه وأغيثها وهو يواثقنى بكلام لا آخر له على الوفاء والذكر الجميل ، بما أقضى منه عجبا . ولم أك قد رأيت ولادة قط ، ولا أسعفت أنثى قط فى مثل هذه الأحوال ، وذكرت له ذلك فى بساطة ، وأنا أنظر ذاهلا إلى هذه التى تصم الآذان جلجلة صراخها فى هذا الفراش

ثم سألت الرجل الواهن الحسير وقد استرددت جأشى : ما بالك لا تذهب إلى القرية القريبة ؟ فقال إن جواده هوى فى حفير فانكسرت ساقه فهو رازح لا يريم

— فقلت له : ياهذا لا بأس عليك . الآن نحن اثنان . إنا سنتعاون فى جر العربة بامرأتك إلى بيتى .

ولكنا لم يسعنا إلا الخروج إلى الكلبين ، إذ علا هريرهما وما فصلناهما إلا بضرب بالهراوة شديد كاد يخمد أنفاسهما ، ثم خطر لى أن أشدهما بين أقدامنا إلى العربة استعانة بهما ، هذا يمنة وذاك يسرة وما انقضت عشر دقائق حتى كنا على تمام الأهبة . وأخذت العربة تسير الهوينا ، فترج — باهتزاز عجلاتها فيما تخط فى الأرض ممعنة من أخاديد — تلك المرأة المسكينة الممزقة الأحشاء.

ويا لها من طريق! كنا نسير لاهثين لنازفير مرتفع ، وعرق ناضح . نزلق حيناً ، وحيناً نقع ، بينما الكلبان المسكينان يزفران بين أرجلنا كزفير النار

وقضينا ثلاث ساعات حتى بلغنا القصر ، وإذ دنونا من الباب انقطع الصراخ داخل العربة . وإذا الأم والمولود فى أحسن حال .

وأرقدنا الأم وطفلها فى فراش وثير . ثم ركبت عربتى لأستحضر الطبيب بينما كان صاحبنا المارسيلى وقد اطمأنت نفسه ، يلتهم الطعام فى شراهة ويحتسى حتى لا يعى من سكر ابتهاجاً بهذه الولادة السعيدة

وكانت بنتاً

وأقام عندى هؤلاء النفر ثمانية أيام ، والوالدة وهى السيدة ألمير لها بصر بالغيب عجيب ، وقد بشرتنى بحياة مديدة ومناعم عديدة

وفى العام الذى بعده وفى مثل هذا اليوم لدى الغسق جاء الخادم الذى حضر من هنيهة يدعونا ، وكنت فى حجرة التدخين بعد طعام العشاء ، يقول : « غجرية العام الماضى جاءت تشكر سيدى »

فأمرت بدخولها ، وعرتنى دهشة إذ رأيت بجانبها غلاما بالغا أشده ، ممتلئا شحما ولحما ، أشقر اللون من أهالى الشمال ، فسلم على ثم جعل يقول كزعيم لطائفته إنه علم ما كان من إكرامى للسيدة المير ، وأراد أن لا تمر هذه الذكرى دون أن يفدا للشكر والاعتراف بيدى عليهما

وقد أكرمت مثواهما وأمرت باحضار الطعام لهما فى المطبخ وأوفرت قراهما ليلتهما ، واحتملا فى الغد

وهكذا فى كل عام فى نفس اليوم تفد هذه المرأة مع مولودها ذاك ، وهى طفلة رائعة الحسن ، وفى كل مرة مع ... رجل جديد . إلا واحدا منهم فقط هو من أهالى أوفرنيا وقد بالغ فى شكرى وأجزل لى الثناء ، حضر معها حولين متتالين . والصبية تدعوهم جميعا « بابا » ، كما نقول « سيدى » عندنا

وكنا بلغنا القصر فلمحنا أمام السلم ثلاثة أشخاص فى انتظارنا وخطا أطولهم نحونا بضع خطوات وحيانا أحسن تحية ثم قال :

— سيدى الكونت إنما حضرنا اليوم لنبدى لك آيات الشكر . . .

أما هذا الرجل فكان بلجيكيا

ثم تكلمت بعده أصغر الثلاثة بتلك اللهجة المدربة المتكلفة فى الأطفال إذ يلقون عليك تهنئة أو ثناء

أما أنا فقد أبديت البساطة وانتحيت بالسيدة المير ناحية وبعد حديث قصير قلت لها :

— أهذا أبو طفلتك ؟

— كلا ياسيدى

— أمات أبوها ؟

— كلا ياسيدى . ما نبرح يلقانى وألقاه أحيانا . وهو من رجال العسس

— عجبا ! أليس هو إذا ذاك المارسيلى الأول صاحب يوم الولادة ؟

— كلا ياسيدى . ما كان ذاك إلا وغداً زنيما سلبنى مدخر مالى

— ورجل الدرك والد ابنتك الحقيقى أيعرف ابنته ؟

— نعم يا سيدى ، بل هو شديد الحب لها ، ولكنه لا يستطيع تعهدها ، إذ له من امرأته أولاد غيرها

أحمد أبو الخضر منسى

البريد الأدبي

حول تقرير مسيو فابر عن المسرح المصري

أتم المسيو أميل فابر الخبير المسرحي الذي انتدبته الحكومة المصرية لدراسة المسرح المصري والوسائل اللازمة لترقيته - مهمته أخيرا ووضع عنها تقريرا موجزا أذاعته الصحف، وخلاصة تقرير المسيو فابر، هو أن توجد بمصر نواة صالحة للمسرح ولانشاء فرقة قومية، وأن توجد بالأخص عناصر قوية للتمثيل الهزلي (الكوميديا) تضارع نظائرها في الأمم الراقية، وأن مصر تنقصها المسارح الحديثة، وأن الاختراع لا يزال متأخرا؛ بيد أن المسيو فابر لم يستطع أن يبدي رأيه في شأن التأليف المسرحي بمصر ولا في شان اللغة المسرحية التي يحسن اتباعها، وإنما ذكر في ذلك ملاحظات قال إنه سمعها من أصدقائه المصريين، وقد سبق أن لاحظنا حينما انتدبت الحكومة المصرية المسيو فابر ليقوم بهذه المهمة أن في هذا الانتداب شيئاً من الشذوذ، وأن مصر قد ذهبت بعيدا في سياسة الاستعانة بالخبراء الأجانب. ذلك أن المسيو فابر رغم مواهبه الفنية البارعة ورغم خبرته المسرحية الفائقة التي جعلته مدى ثلاثين عاما مديرا لمسرح الكوميدي فرانسيز، هو أبعد الناس عن روح المسرح المصري والظروف الاجتماعية التي تحيط به والخلال الشرقية التي تتصل بمهمته، وقد جاء تقرير المسيو فابر مؤيدا لما لاحظنا، فهو لم يستطع أن يقوم بدراسة عميقة لشئون المسرح المصري لأن هذا المسرح مغلق بطبيعته عليه، وإنما اكتفى بدراسة مظاهره المادية، وقد كان خيرا لو أن الحكومة بدلا من انتداب خبير أجنبي فكرت في أن توفد مندوباً مصرياً أو أكثر لدراسة المسرح الحديث في عواصم أوربا دراسة عميقة. والتوفر بعد ذلك على تنظيم المسرح المصري بما أفاد من خبرة ومقارنة، هذا هو الوضع الطبيعي للمسألة، أما انتداب خبير أجنبي لدراسة موضوع شرقي عربي فهو من تناقضات سياسة الاستعانة بالخبراء الأجانب في كل شيء وهي سياسة قد عفت اليوم.

حول العيد المئوي لوزارة المعارف

أشارت وزارة المعارف في بعض بياناتها عن احتفالها بعيدها المئوي أنها اضطرت إلى الاختصار في الاجراءات والحفلات نظرا لأنها لم تبدأ استعدادها لإحياء هذا العيد القومي في الوقت المناسب؛ وهذا اعتراف يؤسف له، والواقع أننا لم نوفق بعد إلى تنظيم الأعياد والذكريات القومية تنظيما مرضيا، وفي كل مرة تعرض فيها إحدى هذه المناسبات، نفكر في الاحتفاء بها بعد فوات الوقت. وأحيانا تعرض ذكرى العيد المعين قبل وقوعه بأعوام فيتحمس لها البعض، وتقوم حولها دعاية صحفية واسعة، ولكن الجهات الرسمية تبدي فتورا مدهشا. مثال ذلك ما حدث في مسألة الاحتفاء بالعيد الألفي للجامع الأزهر؛ فقد نوه بأهميته واقترابه منذ أعوام، ووضعت مشيخة الأزهر برنامجا للاحتفاء بهذا العيد؛ ثم حدث تغيير في المشيخة فانهارت كل التدابير السابقة، وجمدت كل حركة في هذا السبيل بحجة أن الوقت لا يزال فسيحا، مع أن الاحتفاء بهذا العيد القومي الجليل يقع في جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ أعني بعد ثلاثة أعوام فقط؛ ولم تتخذ مشيخة الأزهر بعد أي إجراء جدي في هذا السبيل. فمتى تغدو لنا همم وتقاليد صالحة للاحتفاء بأعيادنا وذكرياتنا القومية؟

ابرس أول مكتشف لأسرار الفراعنة

احتفل أخيراً في ألمانيا بمرور مائة عام على مولد القصصي والعلامة الأثري الألماني جورج إبرس G. Ebers ويرتبط اسم جورج إبرس بمصر والفراعنة ارتباطا وثيقا، فقد كان هذا العلامة هو أول من وقع على أول ورقة من أوراق البردي المصرية، وأول من استطاع أن يصف أحوال الفراعنة في أسلوب قصصي ممتع. وقد ولد إبرس في برلين سنة ١٨٣٧، وجالت بذهنه منذ الحداثة أمنية عزيزة هي أن يزور بلاد الفراعنة وما وراءها من البلاد التي تخلب سيرها لبه. وعني بدراسة تاريخ مصر القديم دراسة خاصة، وعين في سنة ١٨٦٥، مدرسا للتاريخ المصري القديم في جامعة فينا. ثم عين أستاذا له في جامعة لايبزج سنة ١٨٧٠؛ وهنا فكر إبرس في تحقيق أمنيته فسافر إلى مصر والنوبة، وعثر أثناء تجواله بمصر على ورقة البردي الشهيرة التي عرفت باسمه، وهي ترجع إلى نحو الف وستمائة عام قبل الميلاد وبها معلومات طبية فرعونية، فحملها معه إلى ألمانيا، وأذيعت محتوياتها، فأثارت في الدوائر الأثرية أعظم اهتمام، ونال إبرس

شهرة عظيمة ، وكان ذلك سنة ١٨٧٤ ؛ وعاد إبرس وذهنه يفيض بسحر مصر القديمة ، ويتوق إلى التجوال فى هذه السير العجيبة ووصفها ، وكان قد أصدر منذ سنة ١٨٦٨ كتابا عنوانه « مصر وكتب موسى » Aeggpten und die Bücher Moses ، وكتابا آخر عنوانه «مصر بالقول والوصف » Aeg. ni Wortcono Bild ، فرأى عندئذ أن يبدأ كتابة سلسلة كبيرة من القصص الفرعونية ؛ فاستقال من منصبه الجامعى ، وعكف على التأليف والكتابة ، وأخرج قصته الأولى «ابنة ملك مصرى» Eine agyptische Konigstochter وهى قصة فرعونية وقعت حوادثها فى عهد الملك ابسماتيك ، وفيها وصف لنضاله ضد الفرس . ثم أتبعها برواية « وردة » Uarda (سنة ١٨٧٧) ثم رواية « القيصر » Der Kaiser (سنة ١٨٨١) ثم سيرابيس (سنة ١٨٨٥) ثم « الأختين » Die Schwestern ، ثم « كليوباترا » (سنة ١٨٩٤) ؛ وقد اشتهرت قصص ابرس الفرعونية وذاعت ذيوعا عظيما . وطبعت مؤلفاته مجتمعة فى ٢٥ مجلدا سنة ١٨٩٥ ، وترجمت إلى معظم اللغات الأوربية . وتوفى إبرس فى سنة ١٨٩٨ ، بعد أن حقق با كتشافاته وكتاباته فى تاريخ الفراعنة فتحا عظيما

التسليحات . السباق والأزمة :

صدر أخيرا فى انكلترا كتاب سياسى خطير عنوانه : «التسليحات السباق والأزمة» Armamentsi the Race and the Crisis بقلم كاتب سياسى كبير هو فرنسيس هرست ، ومسألة التسليح ، والتنافس فيها هى مسألة اليوم فى أوربا ، وقد بلغت اليوم ذروة التنافس والاضطرام ، ويمهد المستر هرست لكتابه بمقدمة تاريخية يقول فيها إن التسابق فى التسليح فى القرن التاسع عشر يرجع إلى بواعث وهمية وإلى مخاوف لا أساس لها . وأما الخصومة فيما قبل الحرب بين انكلترا وألمانيا فترجع إلى أن اللورد جراى قد تدخل فى سلسلة المحالفات الأوربية .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك مسابقة التسليح التى تجرى منذ سنة ١٩٣٣ ، ويقدم عنها بيانات وأرقاما واضحة ، ومن رأيه أن حمى التسليح الحاضرة فى أوربا ترجع إلى السياسة الفرنسية فيما بعد الحرب ، وهى سياسة زادها الميثاق الفرنسى السوفيتى تعقيدا وخطرا ، وإن هذا الميثاق يرمى إلى تطويق ألمانيا . ثم يقول إن نفقات ألمانيا فى الأعوام الخمسة الأخيرة على التسليح هى بلا ريب أدنى من نفقات فرنسا ، وأدنى من نفقات روسيا ، وربما كانت مساوية لنفقات بريطانيا ؛ ورخاء ألمانيا الحاضر دليل على أنها تنفق على التسليح أقل مما يذاع . ثم إن ماتعانيه ألمانيا الآن من نقص فى المواد الأولية ينذر بأنها لن تستطيع المضى فى الإنفاق على التسليح بهذه الصورة . ويبدى مستر هرست على العموم تأييدا لوجهة النظر الألمانية ويقول مثل ما تقول ألمانيا إن تشيكوسلوفاكيا تسودها روسيا السوفيتية ، وأن روسيا تنفق على التسليح أكثر مما تعلن أرقامها

ويصور مستر هرست ألمانيا ضحية بريئة لهذا التسابق ؛ وهو رأى لا يقره عليه كثيرون ؛ وقد كان مستر هرست قبل الحرب من خصوم السياسة البريطانية التى تميل إلى مخاصمة ألمانيا ؛ ومن رأيه أن التسليحات الكبرى ليست ضمانا للسلام كما يرى البعض ، وأن الحرب لاتتقى بهذه الصورة بل لا بد لاتقائها أن تبحث أسباب الخلاف والخصومة ثم تعالج بما يزيلها ويمسحها

فى معرض باريس

من العجائب التى سيشهدها زوار معرض باريس الدولى رجل من زجاج من مقتنيات المتحف الصحى الألمانى ؛ وهو أعجوبة من أعاجيب الصناعة الفنية ؛ وهذا الرجل الزجاجى يعطى بالألمانية كل الايضاحات اللازمة عن تركيبه وعن أجزائه ؛ بيد أنه يراد أن يكون هذا البيان بالفرنسية ، ولذلك سيجهز الرجل الزجاجى بالآلات والأجهزة اللازمة التى تجعله ينطق بالفرنسية

كذلك سترسل ألمانيا إلى المعرض بجهر « سايس » الشهير ، وسيوضع فى مكان خاص به تمكن منه تجربة فى رصد الكواكب

تمثال شيخ البلد

يشمل سؤال حضرة م . ح . بأسيوط الفقرات الآتية :

١ — هل عرف النظام الادارى القديم « شيخ البلد » كما تعرفه مصر الآن من أقصاها إلى أقصاها ؟

٢ — هل عرفت هوية هذا التمثال وعرف عمله فى الدولة ؟

٣ — هل الحقيقة هى ما قرأناه فى كتب التاريخ من أن عمال الحفر لما أخرجوا هذا التمثال من مكانه ، راعهم ما وجدوا من شبه بينه وبين شيخ البلد ، فأطلقوا على التمثال « شيخ البلد » ؟

٤ — . . . لزمته هذه التسمية ، ولم يغيرها علماء الآثار ؛ لما لم يعرفوا صاحبه . ولم يجدوا من النقوش والكتابات ما يبوح بسره وينم عن جلية أمره .

٥ — هل للدكتور أن يميط اللثام عن حقيقة التمثال المذكور خدمة للعلم والتاريخ ؟

إنى أشكر حضرة الأستاذ الفاضل لاهتمامه بهذه النقطة ، كما أبدى مزيد سرورى للصلة الأدبية التى أوجدها حضرته بينى وبينه

فعن الفقرة ١ — أقول نعم عرف النظام الادارى القديم « شيخ البلد » لامن الناحية اللفظية ؛ بل من الناحية المعنوية والعملية ، أعنى

أن الذين قاموا بمراقبة تنفيذ أوامر الملوك والأمراء والكهنة ، وتقديم المخالفين للمعاقبة أو المحاكمة ، كانوا من هذه الناحية أشبه شيء بشيوخ البلدان ، كما أن الذين قاموا بملاحظة عمليات بناء الاهرام والمعابد والمقابر والقصور كانت مهمتهم إلى حد ما ، مهمة الرئاسة والاشراف وحصر المسئولية التي يمكن اعتبارها - اذا سمح الأستاذ - مهمة شياخة ! كما كان الذين جمعوا الأموال والضرائب أشبه شيء برجال الا دارة .

ويمكن لحضرة الاستاذ اذا رغب التوسع الرجوع إلى :

(1) Breasted : History of Egypt. London. 1925 P. 79 a. 80, about the « Adminstration in the Old Kingdom ».

(2) Erman Ranke : Aegypten im Altertum. Tuebingen, 1923 S. 96, 97 u. 98, ueber « Der Staat der aelteren Zeit ».

٢ - لم تعرف شخصية صاحب التمثال بالضبط ، ولكن يجب ألا ننسى أن العلامة ماريت والرئيس روبى - الذى حضر اكتشاف التمثال الخشبي الذى كان ناقص الساقين وقت اكتشافه ، وقد أكلا من خشب باللون الطبيعي - ما كانا ليوافقا على هذه التسمية على رغم مشابهة ملامح التمثال لشيخ بلدة سقارة فى ذلك الحين ، لو أنهما وجداه ممسكا بمقبض فأس أو قيثارة مثلا ! (راجع وصف التمثال : بدليل التحف المصرية الفاخرة لمدينة القاهرة ، تأليف جاستون ماسبرو وترجمة احمد كمال ، الطبعة الأولى سنة ١٩٠٣ صفحتى ٦٩ ، ٧٠)

٣ ، ٤ - تندمجان فى الفقرة السابقة .

٥ - اذا كان حضرة الاستاذ الفاضل قد عنى بقراءة كتب التاريخ التى استنتج منها عدم وجود نقوش وكتابات تبوح بسر التمثال . فانى أرى أنه بتكليفى كشف اللثام عن حقيقته - ميال إلى المداعبة ، وأعترف له بانى عاجز عن إماطة اللثام عن حقيقته لنفس الأسباب التى صادفت أساتذتنا من علماء التاريخ والاجيبتولوجى الذين لا أعتبر نفسى شيئاً مذكوراً إلى جانبهم والسلام .

الدكتور أحمد موسى

أسبوع الجاحظ فى الجامعة المصرية

قلنا فى العدد الأسبق إن كلية الآداب بالجامعة المصرية ستحتفل باقامة أسبوع للجاحظ بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاته ابتداء من يوم ٢٥ مارس ، ونشرنا برنامج المحاضرات لأيام الاسبوع

ونكتب هذا يوم الجمعة اذ كان أمس (الخميس) اليوم الأول من أسبوع الجاحظ ، فقبيل الساعة السادسة مساء وفد على قاعة المحاضرات بالجمعية الجغرافية الملكية جمهور كبير من المتأدبين . بينهم طائفة من السيدات والآنسات ، وظل الجمهور يتوافد إلى ما بعد ابتداء الحفلة حتى اكتظت بهم القاعة

وفى منتصف الساعة السابعة نهض إلى المنصة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب فافتتح الحفلة بكلمة بدأها بأنه يقوم بافتتاح الأسبوع لاعتذار مدير الجامعة لانحراف خفيف ، وشكر حضرات أعضاء قسم اللغة العربية لقيامهم باحياء ذكرى الجاحظ ، وقال : « أريد أن تتصل سنتنا هذه كما اتصلت فى العام الماضى بحيث تستحيل دروسنا العامة فى كل سنة إلى دروس تحليلية لكاتب أو شاعر أو عظيم »

وقام بعده الدكتور عبد الوهاب عزام فتحدث عن حياة الجاحظ وبدأ بطائفة من مأثور الكلم فى تقريظ الجاحظ ، وذكر سيرة مجملة له ، فقال : « ولد الجاحظ بالبصرة ونشأ بها فقيراً ، وروى ياقوت عن المرزبانى أنه رؤى يبيع السمك والخبز بسيحان ، ولكن الرجل المستوقد ذكاء ، المولع بالمعرفة لم يكن ليصده شيء عن طلب العلم ، فأخذ العلم عن شيوخ تصدوا للتعليم ، وأفاد مما قرأه ، وتثقف من الأعراب ، وحرص على أن يبحث فى كل ما يرى ويسأل كل من يرجو عنده علماً فى أمر جليل أو حقير حتى صارت معارفه خلاصة المعارف التى أدركها المسلمون فى عصره ، زيادة على ما أدركه هو واستنبطه » وقد أفاض الاستاذ فى التحدث عن نواحى حياة الجاحظ وأشار إلى ما وقع فى كتبه من الألفاظ الفارسية فقال : لا أحسب الجاحظ قد حذق الفارسية واستفاد من كتبها .

وتكلم الاستاذ احمد أمين عن « ثقافة الجاحظ » فقال : « ان الجاحظ أكبر شخص تثقف ثقافة واسعة فى العصر العباسى ، فقد أحاط بمعارف زمانه تقريباً » وقال انه ظل يحصل المعلومات المختلفة حوالى القرن فتيسر له بما منحه من الزمن والصبر والحافظة ما لم يتيسر لغيره ، وذكر الأستاذ أن الجاحظ تثقف ثقافة اعتزال ، وهى أوسع ثقافاته لأنها تتطلب من صاحبها الاحاطة بالأديان المعروفة فى عهده ، إلى أن قال : « وقد كانت للجاحظ ثقافة أخرى هى الأخذ عن الكتب ، وكان هذا معيبا ، وكان صاحبه يسمى «صحفيا» ، وبعد أن أفاض فى بيان شغفه بالاطلاع والاستقراء قال إن الجاحظ تفرد بالثقافة الواقعية إذ انغمس فى الحياة ودرس كل ما وقع تحت حسه ، وأنه أبدع فى الناحية الاجتماعية فتكلم عن التجار والصناع والجبناء والبخلاء الخ

وانتهى اليوم الأول من أسبوع الجاحظ بانتهاء محاضرة الاستاذ أحمد أمين .

وفاة درنكووتر

توفى الأديب الشاعر المؤلف التمثيلى المستر درنكووتر فى أثناء نومه بسكتة قلبية . وقد تكلمنا عنه بافاضة أيام وفد على القاهرة لالقاء بعض المحاضرات .

5 me Année, No. 196

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 5 - 4 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠٠

العـــدد ١٩٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ محرم سنة ١٣٥٦ — ٥ أبريل سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

العام الهجرى

عام الاسلام والسلام



هكذا تتعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة ، فتنفى الخبثَ وتطرح الغثاء ، وتَركُم الأحداث ، وتزيد فى سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ؛ وابن آدم الفانى محمول على غواربها الزُّعْن ، تقذف بعضه مع الرمل والزبد ، وتُرجع بعضه إلى العُباب واللج ! ومن يرجع فسوف يعود ؛ ومن عاد فسوف لا يرجع !

هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة ، فيلفظ القشر ، ويحفظ اللباب ، ويصفى أكدار الوجود بالعدم ،

فهرس العـــدد

ويُعفّى حطام الصيف برياح الخريف ، ويجدد مارثٌ من ديباجة العيش بأفواف الربيع ؛ وابن آدم فى يد القدر المصرِّف محراث ومنجل ؛ بعضه يزرع الأمان والعمران والخير ، وبعضه يقطع السلام والوئام والحب ، وبين هاتين القوتين المتكافئتين يسير هـذا الكوكب المظلم فلا يقف ، ويتدفق هذا الدهر الأتىُّ فلا يركد ، ثم لا ينسحق بينهما إلا هذا الغبى الذى سلط نفسه على نفسه !

* * *

لله الحمد ولنا المجد ! لم تكن أمتنا من شيعة الظلام ولا عصبة الخصام ولا فرقة الهدم ؛ إنما كانت خير أمة أخرجت للناس ، أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وأعلنت كلمة الله ، وبلغت رسالة الحق ، وحملت أمانة العلم . هذا تاريخنا ، تتألق أيامه الغرُّ فى ظلام الماضى ، كما تتألق الكواكب الزهر فى حَلَك الليل . أرشدْنا الضال فاهتدى ، وحمينا الذليل فعز ، وعلمنا الجاهل فتعلم ؛ ثم مكنا فى أرضنا الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير ، فقويت فى كل نفس ، وازدهرت فى كل جنس ، وانبعثت فى كل دين ، وانتشرت فى كل أفق ؛ وحققنا لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه : من الأخوة التى يعم بها النعيم ، والمساواة التى يقوم عليها العدل ، والحرية التى تخصب فيها المدارك ؛ لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاها الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، ويصلح نظاما بنظام ، وينقذ إنسانا بإنسان

فلما أدركنا ضعف المخلوق ونقص البشر ، فقدحتنا تكاليف الرسالة وأعباء المجد ، أغفينا حقبة لنسترفه ونستجم ؛ ثم صحونا اليوم نمسح الكرى عن الجفون ، وننفض الغبار عن الأوجه ، فاذا العالم يعصف به سُعار من الجشع المسلح والطمع الباغى ؛ واذا الذين الشرق يقلبه المزاج الغربى إلى كَلَب وغلَب : فعبقرية موسى رِباً ودسيسة ، وروحية عيسى خصومة وحرب ؛ واذا رجل لم تنبته صحراء العروبة ، ولم تنفحه عطور الشرق ، يطغيه الحديد ويبطره العديد ، فيقول وهو يحطم الصليب فى الحبشة : أنا حامى الاسلام !

واذَلّ الاسلام اذا لم يعزه أهله ! لا ياسيدى ! إن الاسلام قوته فيه ودفاعه منه ؛ ولا يزال كتابه فى أيدينا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس بالحياة : والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح ؛ أما قوة الأساطيل على الماء وفى الهواء فعمرها يوم وليلة ، ثم لا تكون إلا دخاناً فى السماء ، وحطاماً على الأرض !.

* * *

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح . فلا بد من تآلف العقليتين وتحالف القوتين لإقرار النظام فى الدنيا والسلام فى العالم . والاسلام ـ دستور الديمقراطية الصحيحة ، والاشتراكية المنظمة ، والاخوة الشاملة ـ يبسط يده لكل يد تدفع الانسانية إلى التقدم ، وترفع المدنية إلى السمو . وهؤلاء المستعمرون الجياع الذين هالهم سره وراعهم معناه ، فحاولوا أن يطفئوه فى مشرق نوره ، ويخنقوه فى مصدر صوته ، ليسرقوا الضمائر فى الظلام ، ويسلبوا الذخائر فى الغفلة ، قد أخطأوا فهمه وجهلوا قواه . فان نوره من الله ، وسيسطع ما سطعت الشمس ؛ وإن صوته من السماء ، وسيرتفع ما ارتفع الحق ؛ وإن سلطانه من العدل ، وسيبقى ما بقى الكون . فاذا انشقت الأرض ، وانفطرت السماء ، وانكدرت الشمس ، عاد إلى مصدره الأزلى باهراً كما صدر عنه ، طاهراً كما انبثق منه !

لقد أصابوا أخيرا فخطبوا وده وطلبوا حلفه . ذلك عهد جديد بين الشرق والغرب ، أو بين السلم والحرب ، سيقف فيه الحق الصريح أمام الباطل الخداع وجها لوجه . وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق ومصر ، والفرنسيون الذين عاهدوا سورية ولبنان ، أن الإسلام أصدق وعدا ، وأن العرب أوفى ذمة . ولعل هذه التجربة القريبة ترفع حجب الظنون عن القلوب والعيون فيعيش أولئك أصدقاء فى فلسطين ، ويعيش هؤلاء حلفاء فى المغرب

إن الاسلام روح فهو حياة ، وعقيدة فهو قوة ، وشريعة فهو دستور ، ومحبة فهو سِلم . فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا رفده ؛ أما الخداع والرياء ، أو الشدة والجفاء ، فتلك أسلحة مفلولة ، إن قطعت قبلُ بالأمس فلن تقطع بعدُ اليوم .

احمد حسن الزيات

فى غار حـــراء

للأستاذ أحمد امين



فى غار حراء - وهو غار يقرب من ثلاثة أمتار فى مترين فى قمة جبل على يسار السالك من مكة إلى عرفة - كان محمد وهو فى سن الأربعين قبيل الرسالة يتحنث

كان محمد فى هذه الأيام يألف العزلة « لم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده »

وكان يخرج إلى شعاب مكة وبطون أوديتها

وكان يقضى شهراً مجاوراً فى غار حراء

هكذا تقول كتب السيرة

فيم كان يفكر ؟ وما الذى كان يطلب ؟ وما هـذه الحالة النفسية الجديدة التى استولت عليه ؟ وما الذى جعله يهرب من الناس وقد كان بهم أنيساً ؟ يسعد بالوحدة ، ويسعى إلى العزلة ، ولا يطمئن إلا إلى نفسه وتفكيره ؟ وما الذى جعله يختار قمة جبل يشرف منه على العالم حوله فتسبح نفسه فى التفكير من غير أن يحدها حد أو يقف بها عند غاية

ماهذه الأفكار التى كانت تملأ نفسه شهراً فلا يمل التفكير ، ولعله كان يود أن يبقى كذلك أشهراً لولا واجب أهله وواجب عشيرته ؟

ولـكن هل لنا أن نتساءل هذه الأسئلة ؟ وإذا سألناها فهل فى استطاعتنا أن نجيب عنها ؟

هل فى استطاعة الجاهل أن يشرح أفكار الفيلسوف ؟ وهل فى مكنة من لا يحسن الرياضة أن يتخيل مايفكر فيه الرياضى ؟ وهل للنملة أن تتساءل فيم يفكر الإنسان ؟

ولـكن ماحيلة الانسان وقد خلق طموحا إلى أقصى حد وأبعد غاية ، لم يقنع فى باب المعرفة بشىء ، لم يقنع بالأرض ففكر فى السماء ، ولم يقنع بالظاهر ففكر فى الحقائق ، بل لم يقنع بآثار الله فأراد أن يعرف ذات الله ، وهيهات هيهات !

* * *

أكبر الظن أن « محمداً » فى هذه الفترة ، وعلى الأخص فى غار حراء كان فى حيرة ما أشدها من حيرة عبر الله عنها بقوله « ووجدك ضالا فهدى »

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ولا نوع حياتهم ولا كفرهم ولا إيمانهم ولا أخلاقهم ؛ وسافر إلى الشام فرأى فيها مدينة الرومان بما لها وأعمالها التجارية وترفها ونعيمها ودينها الرسمى ومظاهره ، فلم يعجبه شىء من ذلك . لقد رآهم يعيشون كما يعيش السمك يأكل بعضه بعضاً ، أو كما تعيش الذئاب والشياه فى حظيرة واحدة

رحماك الله ! ما هذه الحيرة الشاملة ؟ لا البداوة لسذاجتها ونظامها أعجبته ، ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبته . لم يعجبه ما رأى من وثنية ، ولم يعجبه ما رأى من نصرانية . فأين الحق ؟

لقد اطمأن إلى شىء واحد وهو أن كل ما رأى ضلال ؛ وحيره شىء واحد وهو سؤاله أين الهُدَى

حالة نفسية إذا تملكت نفسا مرهفة وشعورا دقيقا ملكت نفسه وغمرت قلبه ؛ فحلا له أن يعتزل الناس لأنهم يحولون بينه وبين تفكيره ويقطعون عليه سلسلة مشاعره

لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدها تفتح قلبه وتريح نفسه ، ووجد فيها مفتاحا لحيرته واتجاها لهدايته فبالغ فيها حتى بلغت الشهر !

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يُضْنُون نفسه فليهرب منهم ، وإن منظر الطبيعة بجمالها وبهائها وورنقها ليحيي نفسه فليطمئن إليه . يتعاقب عليه فى عزلة الليل والنهار فيجد فى كلٍّ غذاء نفسه : هذا الليل فى أعلى الجبل بسكونه وهدوئه ، وسمائه

ونجومه، والعالم حوله كله نائم. وهو يناغي النجم، ويشاطره الاضطراب والحيرة، وهذا النهار - في أعلى الجبل أيضاً - يشرف منه على العالم من تحته، فيهزأ بالناس وسخافاتهم هزؤاً مشوباً برحمة، واستخفافاً ممزوجاً بعطف

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفق له قلب محمد في غار حراء. لقد عرف الباطل، ويريد أن يعرف الحق؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى؛ ولم يحب ما عليه الناس، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغي أن يكون عليه الناس.

هذا الظلام فأين النور؟ وهذا العمى فأين البصر؟ وهذا ما يجب ألا يكون، فأين ما يجب أن يكون؟

• • •

لقد طلب الحق - في غار حراء - بعد أن تهيأت نفسه، واستعدت روحه، وكملت مشاعره، وتوجت بالحيرة، فكانت حيرته إرهاصاً لليقين، وضلاله إرهاصاً للهدى

لم يطلب الحق من طريق الشعر؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال، والشاعر يخلق ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون، والشاعر يغنى لنفسه - أولا - ولا بأس أن يسمع الناس، والشاعر يعيش في جو خيالي يخلقه بنفسه لنفسه. وليس هذا من النبوة في قليل ولا كثير. ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم، فكلاهما عبد المنطق، عبد الألفاظ، عبد الكتب، عبد النصوص؛ وأحسن أمرهما أنهما عبدان للعقل، والعقل معيب مغرور مضل؛ ولكل إنسان عقله، ولكل إنسان تفكيره، ولكل إنسان منطقه وقضاياه

إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله، وأرفع من ذلك كله: طلبه من طريق القلب، وأعلن أنه لم يطلب علماً ولكن طلب إيماناً. فأعلن أنه أمي وفخر بأميته. لأن القلب فوق اللغة، وفوق الكتابة والقراءة، وفوق العلم، وفوق المنطق؛ وهو القدر المشترك بين الناس، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان

من أجل هذا لم يذهب - وقد حار - إلى معلم يعلمه الكتاب، ولا إلى مثقف بالكتب والأديان، وإنما فضل على ذلك كله غار حراء حيث الطبيعة على فطرتها مفتوحة أمام قلبه، وحيث يتصل هو وهي بربها وربه

لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم. واتجه اتجاه الأنبياء، لا اتجاه الشعراء والعلماء. وتهيأ للأمر العظيم، فلمعت في قلبه الشرارة الالهية، كما يتهيأ السحاب فيلمع البرق

لقد أضاءت له هذه الشرارة الالهية كل شيء، وكانت رسالته من جنس هدايته؛ فرسالته أن يبعث الحياة في القلب، ويبعث الضوء إلى النفس، كالقمر يستمد نوره من الشمس، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس، يشترك في الاهتداء به العالم والجاهل، والذكي والغبي، والفيلسوف والعامي، على اختلاف فيما بينهم، لأن لديهم جميعاً قدراً مشتركاً من القلب صالحاً للاهتداء.

وليست العقول مسايرة في الرقي والانحطاط للقلوب، فقد يكون مريض القلب صحيح العقل، وقد يكون صحيح القلب مريض العقل، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص، وأسلمت جارية بني مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان

• • •

كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشراً، ومحمد بشراً رسولا. لقد صعد إليه إنساناً حائراً، وهبط منه إنساناً نبياً، مهتدياً مطمئناً. صعد شاكا، وهبط مؤمناً. لمع في قلبه النور الإلهي فإذا كل شيء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره

نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه، وأن يُحيوا قلبهم من حياة قلبه، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه، وأن يروا عظمة الله في كل أثر من آثاره

• • •

أي شهر كان هذا الشهر؟ لو وزن به الزمان لوزنه. وأي مكان غار حراء؟ لو فاضل كل مكان لفضله

أحمد أمين

نجم أحمـــد !

للأستاذ توفيق الحكيم



وقف اليهودى على أحد آطام يثرب ناظرا الى السماء يعلن إلى بنى قومه ميلاد النـــبى فى صيحة مدوية : طلع الليلة نجم أحمد ! عجبا من العجب ! أحقاً لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك الليلة ؟ يخيل إلى أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان . إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة يشع نورا من بداية الكون لو أن للكون بداية ، الى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية . نجم أحمد هو الحق . والحق لا يبدأ ولا ينتهى . ولا يظهر ولا يختفى . انه موجود

إذن ما الاسلام ؟ وكيف ظهر الاسلام بظهور محمد ، والمسيحية بظهور المسيح ؛ واليهودية بظهور موسى ؟ هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الاسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته . كذلك المسيحية وكذلك اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحد فى الجوهر وتختلف فى المظهر : وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب ؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء باسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا تكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ؛ إنما المفاضلة فى الأثواب

وهنا يخطر على البال سؤال : هل نجوز المفاضلة بين الأثواب وهى كلها من صنع الخالق المعصوم الذى لا ينبغى أن يخطىء ولا أن يصحح ماسبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شان الله ، أما الأسلوب الذى يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟ قبل الاجابة على هذا السؤال يجب النظر فى قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب عليه النبى أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبى دخل فى اتخاذ «القالب» الذى أفرغ فيه «موضوع» النبوة ؟ إن أجب على كل هذا بالايجاب فان التبعة فى «أسلوب» الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء . والنبى إذن مسئول عن الطريق الذى اتبعه للإبانة عن «الحق» مسئولية ملقاة على «شخصيته» التى صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ؛ وعلى قدر «الشخصية» ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فانى أستطيع القول إن النبى أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل انه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبى العربى ، وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبى لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . وهى ملكات تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التى جرت عليها الأديان فى عرض جوهر الحق على الناس . ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس فى كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التى يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذى قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله . وأنه فى كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحى يهديه السبيل ، يتصرف كما يتصرف البشر . هكذا فعل فى معارك بدر وأحد والخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأى من رجاله . وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل انه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التى ركبها الخالق فى البشر . والنبى الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الاسلام ظاهرة بين سائر الأديان . فهو

دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة . كل شيء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه انكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر من حيث تركيبهم المادى والمعنوى . ذلك أن أسلوب محمد فى إدراك « الحق » كان أسلوباً مستقيما . فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما هو « السبب » الذى يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو « النظام » إذ لا يتصور أن تكون « الفوضى » من عناصر الخليقة . بل إن « الفوضى » إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ؛ بل ان كلمة « الفوضى » لا محل لها إلا فى أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام ، هذا النظام الذى فرض على الانسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للانسان والأشياء مخالفة لله ؛ وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الاسلام فى الأفصاح عن « الحق » واضحاً جلياً ؛ لا يأمر بالرهبنة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية . أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شيء . فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيدا ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء . وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول . فإن الدين « المثالى » هو الدين البسيط . وهل أبسط من الإسلام شريعة وهى لا تعرف « رجال دين » ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ، ومن « الدين » مهنة تدر الرزق وتعطي متاع « الدنيا » ؟ إن أولئك الذين يجعلون « الدين » سلما « للدنيا » لا « الدنيا » سلما « للدين » قد طردهم الإسلام بعيدا عن حظيرته ، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار . نعم ، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوى الصافى من المبادىء البسيطة المستقيمة التى لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل فى قوانين الطبيعة الأساسية التى وضعها المبدع الأعظم . إذا تم ذلك للإسلام فى هذا العصر فلسوف يأتى يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهم يصيحون فى كل حول صيحة ذلك اليهودى :

« لقد طلع نجم أحمد ! »

توفيق الحكيم

الفنون

الفن البابلي الاشوري

للدكتور احمد موسى

اذا كنا قد عرفنا شيئاً عن الفن المصرى من عمارة ونحت وتصوير يهمنا كيف أن هذا الفن كان إلى حد ما أساساً للفن الأغريقى، علمنا أن الحضارات تقاس بالفن، أمكننا أن ننتقل اليوم إلى حضارة ة أخرى هى حضارة بابل القديمة (٣٨٠٠ — ٦٢٥ ق . م .) لجديدة (خالديا ٦٢٥ — ٥٣٨ ق . م .) وآشور (٢٢٥٠ — ٦٠ ق . م) التى لم تبلغ فى مجموعها مستوى عظمة الحضارة المصرية بياً؛ فضلا عن أنها لم تكن أساساً اتخذه الاغريق لحضارتهم الفنية، نما عن وجود بعض الشبه الضئيل بين النحت البابلى الأشورى وبين اغريق، من حيث عدم الاكتفاء بالخطر المحدد للمنحوتات النصف ارزة والمصورات (كما رأينا فى الفن المصرى)، وإخراجها شاملة ض تفاصيل أعطت شيئا من الحياة قربها من النحت الاغريقى.

ويحسن قبل التكلم عن الفن البابلى الآشورى وعن مميزاته أن رف شيئاً عن نشأة بابل وآشور اللتين كانتا مصدر حضارة غرب سيا. ففى الجزيرة المحصورة بين نهرى دجلة والفرات التى تعد من خصب البقاع الصالحة للزراعة، نشأت بابيلونيا من الجنوب وآشور لى نهر دجلة من الشمال.

وإذا رجعنا إلى التاريخ الذى اعتمد واضعوه على الآثار الدراسات الفنية، فاننا نرى أن الحفريات التى أجريت فى مناطق كثيرة من هذه البلاد، دلت على أن أول آثار الانسان المتحضر عاً رجعت إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م .

على أنه لا يهمنا هنا أن نعرف إن كان أصل هؤلاء الناس من آريين أو من الساميين، كما أنه لا يعنينا أن نبحث لتحديد نوعهم، لكن المهم أن نعلم أن بابل نفسها انقسمت مملكتين شمالية وجنوبية، م اندمجتا معاً حوالى عام ٢٣٠٠ (٢٠٠٠ ؟ ق . م) فى عصر الملك برى أكو Iri-Aku وكانت مدينة بابل على نهر الفرات (على خط رض يافا تقريبا) عاصمة لها

أما أشور فهى أقدم كثيرا من هذه، إذ قامت الحضارة فيها عام ٢٢٥٠ ق . م . على أساس حضارة بابل. وكانت مدينة نينوى Nineveh لعهد طويل عاصمة لها، وهى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة أمام مدينة الموصل الحالية، وفيها ظهر الفن الآشورى الرائع فى المرحلة الزمنية المحصورة بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، واستمر التقدم فى هذه الفترة حتى تأسيس مملكة آشور، وازدهار الفن فى عصر ساراجون (٧٢٢ - ٧٠٥) وسناهريب (٧٠٥ - ٦٨١) وأسوربانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق . م .) ولم يتدهور الفن إلا فى عصر نابوبولاسر واتجه بعد ذلك اتجاها آخر عند ما حكمها كيروس بن قمبيز Kyros سنة ٥٣٩ ق . م . وضمها إلى مملكة الفرس

هذا سرد تاريخى بسيط اقتصرت فيه على ما لا استغناء عنه لمن يود الوقوف بشكل إجمالى على الحالة التى نشأ خلالها الفن البابلى الآشورى، الذى ينقسم إلى عمارة ونحت وتصوير كالفن المصرى والاغريقى وغيرهما

ونظراً لقلة الأحجار فى هذه البلاد، نجد أن العمارة لم تكن رائعة، فضلا عن تهدمها جميعها لضعف اللبن الذى استخدم فى معظم مبانيها إلى جانب الآجر

وبالدراسة الاجمالية لبقايا العمارة البابلية الآشورية، يمكننا أن نعرف أنها خلت من الأعمدة التى كانت من أهم مميزات الفن المصرى والاغريقى، ولذلك نجد أن الحوائط كانت سميكة إلى حد بعيد، فضلا عن إقامة أكتاف لها من البناء لتساعد على تقوية الحوائط المرتفعة.



(ش ١) الفروسية - نمرود

إلا أن لبابل وآشور ميزة قد تعادل النقص الناشىء عن عدم إنشاء الأعمدة، وهى القباب التى بنيت على هيئة نصف كرة والقبوات التى أقيمت على شكل عقود نصف دائرية أو نصف بيضاوية، بجانب

على عزة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان، ونفس لا تسفّ، وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمد فى عقله وقلبه، ولا يزال مجد الاسلام ملء جوانحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل ملء ضميره. فلن تقف دعوة الاسلام. إن دعوة الاسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلى والقلب الأبى فى نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون إنهم حماة الاسلام: إن الاسلام فى حماية أهله ورعاية تاريخه. ما أذل الاسلام إن ابتغى فى غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! ياحسرة على الحق إن التمس من الباطل حاميا! وياخسران العدل إن ابتغى من الظلم ناصراً! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه، ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله!

إن فى دين المسلم، وإن فى قلب المسلم، وإن فى خلق المسلم، مايربا به عن كل دنية، ويصمد به إلى كل هول، ويثبته فى كل كارثة، ويسمو به على كل عقبة.

أيها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حرباً طاحنة فى المشرق والمغرب، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرية، وكدتم لهم فى السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، ويئسوا وملوا قلتم: هلم أيها الضعفاء، فنحن الحماة الأقوياء!

أيها الحماة: شد ماقسوتم على المسلمين! ثم شد مارفقتم بهم! أيها الحماة: لقد تعلمون أن بضعة آلاف من بنى الاسلام ثبتوا لكم وسخروا بقواكم وفنونكم وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عاماً ولم يكن سلاحهم إلا عزة الاسلام ومجد العرب.

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادى
يصابرون الأكبد الصوادى
ويا كلون الجوع فى البوادى
قد يئسوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب فى الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد

أبت لهم كرامة الاسلام
أى إباء العرب الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهام
منيتهم مشـــارع الحمام

فلما تكسر فى أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق على عزائمهم كل مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار فى الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض؛ وهم اليوم مشردون فى الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم وجموعهم ونعيمهم ودعتهم ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم علم جهاد، وصحيفة فخار، وسجل مآثر، وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة الاسلامية، والأنفة العربية. ألا إن الاسلام لم تنته دعوته، ولم تضعف كلمته، وسيبقى كلمة الله فى الأرض، ودعوته إلى الحق. وحجة على الخلق، فى أمره بالأخوة والحرية، والعمل فى الحياة على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الاسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية لا تستعبد، ودعوة إلى العزة لا تذل، ودعوة إلى العمل لا تفتر

ألا إن الاسلام دعوة إلى السلام والاخاء، وإلى الصدق والوفاء. فان دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والاباء، والصبر على اللاواء، والموت فى سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

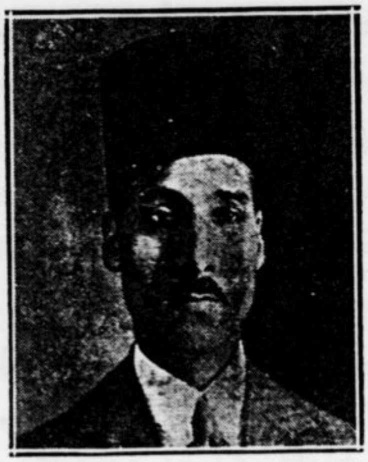
عبد الوهاب عزام

الدبلوماسية في الاسلام

العلائق بين مصر و بيزنطية

في عهــد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان



كانت بغداد محور السياسة الاسلامية في المشرق يوم كانت الدولة العباسية في ذروة قوتها وفتوتها ؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ بيصرها إلى بغداد قلب الاسلام النابض ، ترقب حركاتها ومشاريعها، وتتحوط لفوراتها وغزواتها . وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريبا أيام الرشيد والمأمون والمعتصم ؛ ولكن فتوة الدولة العباسية لم يطل أمدها ؛ فمنذ أواخر القرن التاسع تسرى إليها عوامل الانحلال والوهن، وتخبو فيها فورة النضال والغزو ، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية . ذلك أن مصر ، التي بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، غدت في ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة، وأخذت تجيش بمختلف الاطماع والمشاريع ، وألفت الدولة البيزنطية في قيام الدولة الحمدانية بالشام ، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية بمصر ، مواطن جديدة للخطر يجب اتقاؤها . وأخذ ميدان النضال بين الاسلام والنصرانيـة يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشام . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفرة جيوشها وأساطيلها ماينذر بتفاقم الخطر ، وأدركت أنها تواجه على يد هذه الدولة القوية فورة اسلامية جديدة تضطرم قوة وفتوة وطموحا ، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها في يقظة وجزع .

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذي كان يهددها في موطنها الجديد ، ويكاد ينذرها بالمحو والفناء العاجل . وألفت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشام من الاضطراب والفوضى ، فرصة للإغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب ؛ وكانت الدولة الحمدانية في حلب قد اضمحلت ولم تقو بعـد على رد الغزاة من الشمال ، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية إستبقاء لحياتها ، وإتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة . وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر ، وجيوش المعز الفاطمي تدفعهم عنها ، غزا الروم الشام ، وعاثوا في سواحله واستولوا على انطاكية ، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا ، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس ، واختتم عهد المعز لدين الله ، والروم يبسطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشام .

وفي عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين ؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية . وألفى الفاطميون والروم أنفسهم في سهول الشام وجها لوجه ؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والنهوض في عصر الأسرة البسيلية ، ولا سيما في عهـد الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) ، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله ؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الانتقاض أو الخروج في المملكة الإسلامية ؛ فلما همت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاث بنو حمدان بحلفائهم الروم ، سار الروم لقتال المصريين ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من أنطاكية (٣٨١ هـ - ٩٩١ م) ، فهزم الروم هزيمة شديدة ؛ وخشيت السياسة البيزنطية عواقب هذا الفشل ، فسار الامبراطور باسيل الثاني بنفسه إلى الشام وغزا حمص وأعمالها ، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام ؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير في حوادث الشام ، وهم العزيز بالمسير بنفسه إلى قتال البيزنطيين ، ولكن الموت أدركه في الطريق ؛ وخلفه ولده

الحاكم بأمر الله طفلا ، وتولى تدبير شؤون المملكة وصيه برجوان الصقلى: واضطربت حوادث الشام حينا ، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة فى صور ، وسار الروم فى البر والبحر لمؤازرة الثوار ؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف ، فبعث إلى الشام بجيش كبير ، استطاع أن يخمد الثورة ، وأن يهزم البيزنطيين فى عدة مواقع (٣٧٨ هـ - ٩٩٨ م) ، واضطر باسيل الثانى أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى . ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال :

وهكذا لبثت الشام مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية . كانت السياسة البيزنطية ترى فى قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشام خطرا جديداً عليها ، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت ؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطي عنها ، ولم تكن تجيش فى ذلك باكثر من نزعة دفاعية ، بينما كانت الدولة البيزنطية تجيش فى عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع . وكانت الخلافة الفاطمية تتوق الى اتقاء الأحداث والحروب الخارجية لتتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية ؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الامبراطور فى الشام واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكرى ، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية ، فبعث الى الامبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة . فاستجاب باسيل الثانى لدعوته ، وانفذ سفارة إلى بلاط القاهرة ؛ واحتفى البلاط الفاطمى بالسفير البيزنطى احتفاء عظيما وزين الديوان الخلافى لاستقباله زينة تنوه الرواية بفخامتها وروعتها ؛ وانتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله للسير مع السفير البيزنطى وتقرير شروط الهدنة مع القيصر وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين ؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطينية ، وقام بالمهمة ؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ؛ وأقام اريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى ؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح انها وقعت فى أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ (سنة ١٠٠٠ م)

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية وحروبها فى البلقان وأرمينية . وقنعت من الشام بانطاكية ، وهدأ النضال بين الدولتين حيناً ، وتحسنت العلائق بينهما ؛ ولكن سياسة الحاكم بامر الله إزاء النصارى ، واشتداده فى مطاردتهم ، وما اتخذه من الاجراءات العنيفة لهدم الكنائس والأديار ، ولاسيما كنيسة القيامة (القبر المقدس) ببيت المقدس أثارت حفيظة السياسة البيزنطية . وحفيظة الكنيسة الشرقية التى كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية فى المشرق ؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل فى سير الحوادث . وكانت الأميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة وتجاهد فى تلطيفها ، وكان لها حسبما تؤكد الرواية أكبر يد فى تدبير مصرع أخيها وانقاذ الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة . فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم ، وقام ولده الظاهر فى عرش الخلافة بتدبير ست الملك ورعايتها ، عادت الخلافة الفاطمية فى الحال إلى تسامحها المأثور نحو النصارى ، وردت اليهم حرياتهم وحقوقهم ، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم ، ولاسيما كنيسة القيامة ، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة مع الدولة البيزنطية ، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا إلى باسيل الثانى ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٤م) ويطلعه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الاجراءات لتحرير النصارى ورفع الارهاق عنهم وحمايتهم فى أموالهم وأنفسهم ؛ ولكن الأميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته ، ورده بلاط قسطنطينية بلطف ، فعاد ادراجه ، ولم يمض قليل حتى توفى باسيل الثانى (١٠٢٥ م) .

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمضى فى سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية : ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت فى الأعوام التالية فى عدة معارك وحروب محلية فى حلب وانطاكية مع الأمراء العرب المحليين ، وهزمت أمامهم غير مرة ، فان حكومة القاهرة لم تشأ ان تتدخل فى تلك المعارك ولا أن تنتهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين ؛ ووقعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله والامبراطور رومانوس الثالث لعقد معاهدة

صداقة بين الدولتين ، واشترط الامبراطور لعقدها ان يتولى إعادة تعمير كنيسة القيامة وان يعمر النصارى ماشاءوا من كنائسهم الدارسة ، وان يقيم بطريركا من قبله لبيت المقدس ، وان تمتنع حكومة القاهرة من التعرض لشؤون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلة فى حماية الامبراطور وتؤدى له الجزية ، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجمته الجيوش البيزنطية ؛ ولكن الظاهر رفض التخلى عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة ؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما ، سمح فيها للامبراطور ان يتولى تعمير القبر المقدس ، وللنصارى أن يعمروا كنائسهم وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه ؛ وأن يطلق الامبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه ، وان يعيد مسجد قسطنطينية كما كان ويسمح فيه بالأذان وبالخطبة للظاهر ؛ بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلا بعد ذلك بنحو عشرة أعوام فى عهد المستنصر بالله

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر اضطربت شئون الخلافة الفاطمية ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية ، وعانت مصر فى أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية تعرف بالشدة العظمى (٤٤٦-٤٥٤ هـ) وأرسل المستنصر بالله إلى الأمبراطور قسطنطين التاسع أن يمده بالغلال والأقوات ، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة ، ولكن الأمبراطور توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، فخلفته الأمبراطورة تيودورا ، واشترطت لتنفيذه شروطا جديدة أباها المستنصر ، واضطربت علائق الدولتين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك شديدة فى البر والبحر ؛ وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية العلائق واستئناف الصداقة ؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تتفاهم معهم ، وأخفق سعى السفير المصرى ؛ وكانت فورة السلاجقة قد اضطرمت قبل ذلك بالمشرق ، وأخذت تنذر باجتياح الشام ، وتطورت حوادث الشام فى الوقت نفسه تطورا سيئا ، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره ، فانتزعت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائيا ، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها ، وتضعضعت قوى الدولة فى الداخل والخارج ؛ ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلاؤهم على فلسطين ودمشق ؛ وأعقبت ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ماعرفت الأمم الاسلامية : تلك هى ثورة الحروب الصليبية التى اضطرمت منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وسرعان ما ظفرت بانتزاع الشام وفلسطين من قبضة الاسلام ؛ وحلت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس مدى حين ، وقامت الامارات النصرانية فى الشام حاجزا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية ، وتحول مجرى العلائق الدبلوماسية بين الاسلام والنصرانية ، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرم ؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير ، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة مماثلة من الضعف والانحلال

محمد عبد الله عنان

ليتنى كنت أدرى!

للدكتور محمد عوض محمد

١

ليتنى كنت أدرى!
ما طواه الغيبُ من نَيلٍ ووَيلِ
وشقاء لابسٍ ثوب نعيمِ
وظلامٍ أقتمِ الوجه بهيمِ
وقضاء مبرمٍ في جنح ليلِ
ليتنى كنت أدرى!

٢

ليتنى كنت أدرى!
يوم أن سرت على النهج القويمِ،
لم أحِدْ عنه يميناً أو يسارا
مُثبتاً طرفى وقلبى وجنانى،
فى طريق ضيّقٍ، واهى الأديمِ
يملأ الجفن تراباً
. . . . . وشقاء وغُبارا . . .
أن مِنْ حولى جِناناً
وهواءً خالصا . . .
يملأ القلب صفاء وسرورا وفخارا . . .
عالَمٌ قد حُفَّ بالخير العميمِ
ساحر المنظر موفور النعيمِ
ليتنى كنت أدرى!

٣

ليتنى كنت أدرى!
حينما أُلبِسْتُ ثوباً من حديدِ
ليس يَبْلَى . . . .
كى يقينى حادث الدهر العنيد . .
أنْ سيغدو الجسم مُضْنَى
ومُعَنَّى بالقيود . .
والفؤاد الحرُّ رهناً
بيسلاسلٍ وجودِ
يقتل الروح على الأيام قتلا . .
ليتنى كنت أدرى!

٤

ليتنى كنت أدرى!
حينما أمسكت كأسى بيمينى،
أحتسى منها رحيقا وسُلافا،
نَهِماً لا يرتوى منى غليلٌ
نَهِماً لا أبتغى عنها انصرافا،
أننى أشرب من داء دفينِ
أننى أرشفها سما زعافا
ليتنى كنت أدرى!

صوت الإله!

أنصِتى يا جبالُ! قد هدأ اللّيـلُ وأرْخَتْ جفونها الظلماء؛
ومضى اليوم مُتعباً ينشُد الأمْـنَ وقد كدَّ ظهرَه الإعياء،
وسَرَتْ فى الوجود لهفة مشتا ق لمعنًى ينشق عنه الفضاء.
جثم الكون رابضا مُرْهفَ الأذ ن لِسِرٍّ توحى به العلياء:
لنشيدٍ يسرى إذا سكن الليـل فترْوَى به النفوس الظِماءُ:
نَغَمٌ يترك النفوس وفيها منـه نور وروعة وصفاء؛
أنصتى يا جبال! قد هدأ الليـل وأرخت جفونها الظلماء!

* * *

أنصتى يا طيور! قد سكن النَّسْـرُ وآوت لوكرها العنقاء،
وغطاء الظلماء قد شمَل العا لم فالقبح والجمال سواء؛
فاستكنى فى الوكر أو فاستقرى فوق غصن تبلُّهُ الأنداءُ
وأقلى الإنشادَ! فالدهر والعا لم والليـل كله إصغاءُ:
لغناء ينساب كالجدول السا حر؛ ما للقلوب عنـه غَنَاءُ!
لا تعيه أذن السميع ولكن يملأ القلبَ حسنُهُ والرُّواءُ . . .
أنصتى يا طيور! قد سكن النسـرُ وآوت لوكرها العنقاء . . .

محمد عوض محمد

الذى نريده

للأستاذ عباس محمود العقاد

ما الذى نريده من حياة جديدة للمصريين والشرقيين ؟

الذى نريده كثير جدا من الطمأنينة التى مصدرها الشعور بالقوة، وقليل جدا من الطمأنينة التى مصدرها عدم الشعور

نريد أن نحس ذلك القلق الروحى الذى يحسه الغربيون على أثر كل معرفة جديدة ، وفى إبان كل اضطراب جلل ، وفى أعقاب كل دولة دائلة وفى مطالع كل مرحلة مقبلة . لأن القلق علامة النمو والحركة ؛ والنفس تنمو فيضيق بها كساؤها ، وتشعر بالحرج والتقلقل لا تستريح فيه ولا يريحها . وتحاول أن تخلع ما ضاق ورث ، وتلبس ما اتسع وحدث ، وهذا دواليك ما دامت تنمو وتستقبل الأحوال بعد الأحوال والأطوار بعد الأطوار

أما الطمأنينة التى تستقر بصاحبها لأنه لاينمو ولا يتحرك ، فتلك مصاب يرثى له وليست بنعمة يغبط عليها : أرأيت الحيوان الأعجم تفارقه الثقة قط ؟ كلا ! إنه يشبع ويسمن وينظر إلى الدنيا نظرة الرضى والتحدى كأنه بلغ الغاية وأوفى على الرجاء ... وهو قد بلغ الغاية حقا ولكنها غاية أقل من البداية ، وأوفى على الرجاء حقا ولكنه رجاء أخبث من القنوط . وشر ما يبتلى به المصرى والشرقى هذه الثقة وهذه الطمأنينة . فاللهم كثيرا جدا من القلق ، وقليلا جدا من الراحة والركود

* * *

الذى نريده كثير جدا من الايمان الذى يسكن بصاحبه لأنه نفى جميع الشكوك ، وقليل جدا من الايمان الذى يسكن بصاحبه لأنه يجهل الشكوك

الذى نريده كثير جدا من الخيال الذى لا يزال ينقلنا من واقع حسن إلى واقع أحسن ، وقليل جداً من « حب الواقع » الذى لايخرجنا مما نحن فيه ، لأن النوم واقع عند النائمين ، والجهل واقع عند الجاهلين ، والفقر واقع عند الفقراء ، والأسر واقع عند المستعبدين

زعموا أن الشرق مبتلى بداء الخيال والهيام بالأحلام

ألا ليت ما زعموه قد صدقوا فيه ! ألا ليت الشرق يحلم ويتخيل ، لأن الذى يعرف الحلم والخيال يعرف الأمل والطموح

إن « الطيارة » هى واقع اليوم ولكنها خيال الأمس . وهكذا ينتقل العاملون من خيال إلى واقع ، ومن واقع إلى واقع غير الذى كان .

وإن الخبز والمتعة واقع عندنا اليوم ، وواقع عندنا بالأمس ، وواقع فى جميع الأزمان ، ولن يزال واقعنا الوحيد حتى نحلم ونتخيل فنطمح ونأمل ونحيا ونعمل ، ونسوق الدنيا معنا من حال إلى حال ، ونخرج بها فى ركابنا من نطاق إلى نطاق

ألف ليلة وليلة ليست عالم الخيال والأحلام ، ولكنها هي واقع العاجزين والضائعين ، لان خبزها هو خبز المائدة ، غير أنه مفقود ليس بمأكول ؛ ولذتها هى لذة المخدع ، ومخدعها هو المخدع الذى ينال بالدرهم والدينار ، لولا أن الدرهم والدينار ناقصان ! ! ومن يحقق ألف ليلة وليلة لايحقق عالماً جديداً ولا فتحاً غريباً ، ولكنما يحقق « الواقع » الذى عرفه الناس من أقدم الأيام ولا يستطيعون أن يفقدوا المال والحطام ، وهما أيضاً من أوقع الواقع وأحس المحسوسات ! !

فلا يقولن قائل إن الشرق يحلم لأنه يكتب ألف ليلة وليلة ، بل هو مبتلى بالواقع محبوس فيه لأنه يحلم هذه الأحلام ويتخيل هذا الخيال

ألف شرق يدين بواقع العاجزين فدى لشرق واحد يبيع العيش الصغير بالأمل الكبير ، ويحلم ويتخيل لينقل الواقع من طبقة إلى طبقة ، ومن مجال إلى مجال

* * *

نريد كثيراً جداً من « الذوق » الذى مصدره الفهم واليقظة والدماثة .

وقليلا جداً من الذوق الذى مصدره التأنث والسقم والاصطناع

لقد شبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يصرخون من الهباء كما يصرخ الجسم الورم من لمس الذباب

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يتحلون بالتثنى والتأوه كما يتحلى بهما النساء

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يبرمون بالجد كما يبرم به الصغار الهازلون

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين ليس منهم عامل فى ميدان ، ولا نافع لبنى الانسان ، ولا مجتهد يحسن الاجتهاد ، ولا فكه يحسن الفكاهة ، ولا رجل عظيم أو مقبول فى زمرة العظماء

شبع الشرق من هذا الذوق ، فهو من شبعه هزيل الجسد والروح ، وهو من شبعه أجوع ممن صام الف عام

أما الذوق الذى لم يشبع منه الشرق فهو الذوق الذى يحس الصغائر لأنه يحس كل شىء ، لا لأنه على الصغائر موقوف ، وفى الصغائر محبوس ومقصور

وهو الذوق الذى ينفذ من « البوتقة » لأنه جوهر حميم ، ولا يفرق من وهج النار كما يفرق الزيف والغشاء المصبوغ

***

الذى نريده كثير جداً من الضحك الذى معناه الاقبال على الدنيا والاضطلاع بالاعباء والقدرة على التبعات

وقليل جداً من الوقار الذى معناه التهيب والرياء واتخاذ المظاهر درعاً يستر ماوراءه من ضعف وهزيمة وعجز عن الكفاح

الضحك ملء الصدور والحناجر خير من الوقار ملء اللحى والتجاعيد ؛ والضحك الرنان كأنه موسيقى النصر فى ميدان الكفاح خير من الوقار المجحم كأنه مخبأ الهارب من الميدان ، وراء غبار الهزيمة وغشاء الدخان .

***

الذى نريده كثير جداً من الحرية التى تعرف الحدود ، وقليل جداً من الحدود التى لا تعرف الحرية . فليس من مقياس لحق الحرية أصح وأحكم من قدرة النفس على احتمالها بغير رقيب ولا موجه ولا حسيب

ان الحرية التى يتبعها الرقيب هى منحة من ذلك الرقيب واستعباد فيه السيد وفيه المسود

أما الحرية التى تعرف حدودها فهى حق لصاحبها لا يعطيه أحد ولا يسلبه أحد ، لأن الحر الذى يعرف كيف يلتزم الحدود يعرف ولا ريب كيف يحمى الحدود

***

الذى نريده بين القديم والجديد أن نمتلىء بالحياة . فاذا بالتعبير الصالح الجميل ينبثق من تلك الحياة

فليس القديم بضائرنا اذا حيينا وشعرنا وعمدنا بعد ذلك إلى التعبير

وليس الجديد بنافعنا اذا عبرنا محدثين ، ونحن غير أحياء وغير شاعرين

ليست آفتنا أننا نعيش كما يعيش القدماء ، بل آفتنا أننا نندب القدماء ليعيشوا بديلا منا !

وليست آفتنا قلة الشعر الجديد ، بل قلة الشعور الجديد

وليست آفتنا أن القصة قليلة عندنا ، بل آفتنا أن القليل هو الحياة التى تستحق أن تكون قصة ، و « الواعية » التى تستوعب تلك الحياة

وليست آفتنا كساد المسرح ، بل آفتنا أننا فى مسرح الدنيا بلا أدوار ولا فصول ؛ ولو كانت لنا فى مسرح الدنيا أدوار وفصول لشاقنا أن نراها مروية فى أدوار الممثلين ، محكية فى أقوال المؤلفين

***

الذى نريده أن نفهم ما نريد وأن ننجز ما نريد ، وأن نعرف الفرق بين فهم القول وفهم الارادة . فانك إذا قلت لسامعك إنك تريد شيئاً من الأشياء فى يوم من الأيام فقد فهم ما تقول ، ولكنه لن يفهم ما تريد حتى ينجز ما طلبت فى الموعد الذى طلبت ، وهذا هو الفهم الأصيل

الذى نريده كثير جداً

وقليل جداً إذا استطعناه ، وإننا لمستطيعوه ببركة العزم والايمان

عباس محمود العقاد

الجزيرة والتاريخ الاسلامى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى



منذ بضع سنوات — ست أو سبع — زرت الحجاز وقضيت فيه أياماً أنظر وأسمع وأفكر . فرأيت أنى أصبحت أحسن فهماً للتاريخ الإسلامى والأدب العربى وأقدر على تمثل الصور والحقائق فيهما وإدراكها على نحو لم يكن يتيسر لى قبل ذلك . ولهذا اقترحت على صديق الأستاذ الدكتور هيكل بك - لما شرع يكتب « حياة محمد » وينشرها فصولا فى السياسة الأسبوعية أن يزور الحجاز فليس أعون على كتابة التاريخ الاسلامى من ذلك . والحجاز بلاد متحضرة ولكنى مع ذلك اهتديت إلى كثير وسأحاول أن أتخير طائفة من الأمثلة تجلو ما أعنى وتبين ما أقصد إليه . فمن ذلك أنى دعيت فى جملة من دعوا إلى الغداء فى « وادى فاطمة » وهو واحة جميلة فى صحراء جرداء . وهناك نصبت لنا الخيام وصفت الموائد وقد وصفت ذلك كله فى « رحلة الحجاز » فلا أعيده هنا . ولكنه اتفق أنى ذهبت أتمشى بعد الأكل مع بعض الاخوان فلقينا جماعة من البدو فقال لهم أحدنا إن فى السرادق آكالا طيبة كثيرة ودعاهم إلى الذهاب فذهب أكثرهم وبقى واحد تخلف معنا معتذراً بأنه « أكل البارحة » فاستغربت قوله هذا ولكنى كنت مثقل الرأس من كثرة ما أكلت فلم أستطع أن أجعل بالى إلى كلامه أو أن أعيره التفاتا . ومضت السنون وجاء إلى مصر صديق من أبناء سورية جاب بلاد العرب وطوّف فيها كثيراً ولا يزال يؤثر المقام فى الجزيرة ، فهو أكثر الوقت مع الملك العظيم ابن السعود . فجلسنا إليه نستمع إلى حديثه الممتع ووصفه البارع لتجاربه ومشاهداته العديدة الدقيقة . وأعنى به « خالد بك الحكيم » فتذكرت قول ذلك البدوى فى وادى فاطمة « أكلت البارحة » وقلت لنفسى إنى قد وقعت على الخبير فلأسأله فلن أجد أدرى منه وأعرف . فقال لى إن هذا معقول ، ولو أن البدوى قال « أكلت أول من أمس فأنا لا أستطيع أن آكل اليوم » لما كان ذلك إلا طبيعياً . وذكر لى أن البدوى يذهب فى الصحراء ماشيا على قدميه أو راكبا ناقته وعلى رأسه العقال وتحتها اللفافة — ويسمون العقال عقالا لأنه فى الحقيقة حبل يعقل به البعير — ويلتف بالعباءة ويتلثم ولا يكاد ينبس بحرف . فاما السكون وقلة الكلام فليدخر كل ذرة من قوته للجهد الذى تتطلبه الصحراء — والكلام جهد فهو إنفاق — وأما التلفف فليحتفظ برطوبة جسمه فيكون أقدر على احتمال الحر والصبر عليه . ويظل ماضيا حتى يبلغ مضارب عشيرة أو قبيلة فيسقى ماشاء من اللبن ويمضى عنها إلى سواها وكلما نزل على قوم بروه وسروه وسقوه اللبن لأن مثله ممن ينحر لهم القوم . ثم يتفق أن يأتى قوما نحروا لضيف كريم فاذا قام الضيف وإخوانه عن الطعام ، أقبل على « اللحم والأرز » من هم دونهم مقاما ، فيقعد الرجل ويهبر من اللحم ما شاء ومن الأرز ما أحب . قال صديقى « وصدقنى حين أقول لك إن هذا البدوى يأكل بعض أقات من اللحم وملء كيلة من الأرز . وهو يأكل كل هذا بعد أن لبث أياما — عشراً أو عشرين أو أكثر أو أقل — لا يجد من الطعام إلا اللبن وقليلا من التمر أحيانا فاذا أكل كل هذا اللحم والأرز وأثقل به معدته بعد ما يشبه الصيام أو فطام النفس كظها واحتاج إلى يوم كامل أو أيام للهضم .

فلم يسعنى إلا أن أفكر فى أمر هذا البدوى الذى يصبر على الصحراء وحياتها المرهقة ومطالبها المجهدة وعنائها الشديد ولا طعام له سوى اللبن « التمر أحيانا . إن هذا جلد لا أكاد أعرف له مثيلا . ومن كان يحتمل هذه الخاصة ولا يعجز مع ذلك عن مطالب الحياة التى لا رفق فيها من حرب وسعى وأسفار فى الفيافى المهلكة فان مثله يعدل ولا شك ألف جندى من جنود الدولة الرومانية المتخنثة ، ولا عجب إذاً إذا كان بضعة آلاف من هؤلاء

البدو الأشداء الخشنين المعروقين قد عصفوا بمئات من الآلاف من جنود الدولة الرومانية التى كانت تقيد جنودها وتصفدهم لتمنعهم أن يهربوا ويفروا . .

وأحببت أن أعرف قيمة الحياة فيما يحس العربى — أعنى البدوى — فلم أجد لها قيمة . وما عسى أن تكون قيمتها عند من لايكاد يجد طعاماً أو ماء ، ومن لايكاد يأمن غدر الصحراء وعصف رياحها . أولم نقرأ عن واقعة الخندق أن الرياح عصفت بجيش المشركين وقلبت قدورهم وهدمت خيامهم حتى يئس أبو سفيان ودعا قومه إلى الانكفاء إلى مكة ؟ . وحدثنى غير واحد ممن لقيت فى الحجاز أن المرء — بعد المعركة — يجىء إلى الواحد من هؤلاء البدو فيسأله عن صاحب له أو قريب أو ابن ماذا فعل الله به ، ويتفق أن يكون قد قتل فى المعركة ، فلا يزيد على أن يقول لك « ُبح » يعنى « ذُبح » ، ولكنه يأكل الذال فى النطق فلا تسمع منه إلا « ُبح » . . ثم لادمع ولا أسف ولا حسرة ولا لهفة ولا جزع ولا غير ذلك مما ألفنا أن نقرن به الموت . فكأن حياة البدوى الشاقة تفقدها قيمتها وتسلب الموت لذعه وتفتر وقعه . وما قيمة القتل فى حرب أو نحوها والحياة معرضة للبوار والتلف فى كل ساعة ؟ ؟ وتصور كيف يكون اقبال مثل هؤلاء البدو على الحرب وقس إليه ماعسى أن يكون من اقبال غيرهم من أبناء المدنية والترف والبذخ على القتال ! . إن الذى يقبل عليه البدوى ليس خيراً فيما تحس نفسه من الحياة التى كان يحياها . وإذا أضفت إلى هذا فعل العقيدة والايمان الراسخ بحياة أخرى أطيب وأعز وأكرم فهل يستغرب أحد أن هؤلاء البدو العراة الحفاة الذين لايملكون إلا السيف والرمح والايمان المستغرق ، اكتسحوا دولا كبيرة وممالك عظيمة ، وهدموا بناء كان يبدو شامخاً ؟ .

ولست ترى فى الصحراء قبراً أو صوى منصوبة تدل على أن فلاناً أو علاناً دفن هنا . والناس يعيشون فى هذه الصحراء ويموتون فيها ويفنون تحت رمالها ثم لا شىء بعد ذلك ، لأنهم لايعرفون المغالاة بقيمة الحياة إذ كانت لاقيمة لها عندهم . ولو أنهم اتخذوا المقابر وأعلوها ورفعوها وعنوا بها وكانت عندهم مقبرة مثل مقبرة « جنوى » التى يزورها الناس ليعجبوا ببراعة الفن فيها ، لما أمكن أن تخرج من جزيرة العرب تلك الأمة التى انحدرت على العالم المتحضر فى زمانها كما يتحدر السيل الجارف فأغرقته . ولم تغرقه فقط ولم تفتح البلدان أو تحكمها فحسب ، بل قلبتها عربية صرفاً . وقد استطاع الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وبروحهم القومية — كما لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا فيما استولى العرب عليه من بلادهم — لأن الفرس كانوا أقل تخنثاً من البيزنطيين . ولست مؤرخاً ولكنى أظن ان هذا هو السبب ، يضاف اليه ان البلاد التى فتحها العرب من دولة الأكاسرة كانت فارسية وأهلها من الفرس على خلاف مافتح العرب من بلاد الدولة الرومانية ، فانها كانت أجنبية لارومانية ولا بيزنطية ، فبقاء الشعور القومى فى بلاد فارس طبيعى ومعقول والفتح لا يمكن أن يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من أملاك الدولة الرومانية معقول أيضاً . لأنه لم يكن هناك فى الأصل . ولهذا بقيت فارس شوكة فى جنب الدولة العربية .

وقد زرت العراق وسورية — أوكما صارت الآن مع الأسف فلسطين ولبنان والشام — كما زرت الحجاز فلم أستغرب أن ينتقل مركز الثقل فى الدولة العربية من الحجاز إلى الشام أولا ثم إلى العراق ، فان طبيعة الأراضى الحجازية تجعل من المستحيل عليها أن تكون مقر دولة مترامية الأطراف عظيمة الرقعة . نعم تستطيع بسهولة أن تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم أقطار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر . وقد بقى الحجاز مقر الدولة العربية فى صدر الإسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هذا كان زمن التوسع والامتداد ، لا زمن الاستقرار والنظام الدائم ، فلما انتهت الفتوح أو معظمها وأهمها ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعى لدولة مستقرة تغريها ما أنست من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف ، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما فى اليد إلى هذا الزحف ، صارت جزيرة العرب لا تصلح أن تكون هى مركز الدولة . أما فى زمن أبى بكر فقد كانت الحاجة تدعو إلى توطيد الأمر فى قلب الجزيرة أولا قبل إمكان التفكير فى

غيرها . وأما فى زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر . نعم فتحت البلاد فى عهده ، ولكن الفتح يستدعى التمكين والتوطيد أولا . ثم إن عمر كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة ، وكانت صلته بالنبى عليه الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة ، حتى لو كان كل شىء قد استقر وانتظم . ولم يكن قد عاش فى الشام أو مصر أو العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة أخرى . وأما زمن على وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام ، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة ثابتة نهائية فى مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها كمركز للملك ومقر للدولة التى شادها بفضل ما تولى منها فى الفترة السابقة .

وبلاء جزيرة العرب أنها مجدبة قاحلة ، فاذا امتدت لها رقعة ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها ، لأن الحياة فى غيرها تكون أرغد والعيش أطيب . والمرء يحن إلى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والشظف ؛ وفرقٌ بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان ، وهجرةٍ تدعو إليها الفاقة والمحل . ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولةٍ كبيرة أن تكون هى ذات موارد كافية إلى حد ما . ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة . ومن ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً فى قلب بلاده . وما دامت الدولة واحدة فى الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على النزوح . وبذلك صارت الجزيرة أخلى من الناس وأقل صلاحاً لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة . وقد يتغير حال الجزيرة فى المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل أرضها عقبة فى سبيل الحياة . ومهما يبلغ من غناها فى المستقبل فانها ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها — إلى حد بعيد — على أن كلامنا على الماضى الذى لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى ذلك مما جد فى الدنيا لا على المستقبل الذى هو غيب .

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى



. . . مشى « عبدالله » حذراً ، يتلفت إلى الوراء خشية أن يراه بعض سفهاء قريش ، فيقطعوا عليه سبيله ، فلم ير أحداً . وكانت طرق مكة خالية لأن الناس قد أموا الحرم ليجلسوا فى مجالسهم كعادتهم فى كل مساء فاطمأن وسار قدما ، حتى إذا خرج من مكة وجاوز الحجون . واتسع الوادى أمامه وانفرج ، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار ؛ ونظر . . فراقه منظر الغروب . على هذه السفوح والذرى ، وأحس بجلال الموقف ، وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق . وهذه الصفرة التى تعم كل شىء ، فنسى غايته ووقف ينظر . . رأى مكة تلوح أبنيتها من فرجة الوادى ، وتبدو الكعبة قائمة فى وسطها ، والأصنام التى تحف بها تظهر على البعد كأنها لطخ سود . . فذهب به الفكر سريعا إلى ذينك الرجلين اللذين تركهما صباحا فى الغار . وذهب يتحسس لهما خبر قريش . ويعلم علمهما . ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وأباه الصديق (١) . . فخاف أن يكون قد أصابهما شر ، فاغمض عينيه عن هذه المشاهد ، ومضى فى طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت فى المجد والظفر ، وآثرت هذه القرية الجاثمة بين هذين الجبلين كأنما هى مخبوءة فى صندوق من الصخر . على السهول والجنان والمدائن التى أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودها اليها وانصرفت عن الراية التى دفعها اليها محمد ، لتسير بها إلى أرض النخيل والأعناب

(١) انظر كتابى « أبو بكر الصديق » صفحة ٩٠

فتركزها فى دمشق والاسكندرية، وعلى إيوان كسرى. وفضلت عليها رايتها التى لم تتعود الخفق فى سماء المعارك الكبرى، ولا ألفت الاهتزاز على أسوار المدن المفتوحة.. لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها. ويعطيها بدلا منها ملك كسرى وقيصر، ويعطيها العقل المبدع، والقانون العادل، والعبقرية والخلود، فأبت، وعكفت على أصنامها وتماثيلها.. فما أعجب عقل قريش!

ونظر إلى مكة مرة ثانية، فاذا الظلام قد لفها بردائه، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور يخالط نفسه سرور مبهم، وشعر بزوال هذا الخطر القرشى، واستروح رائحة الظفر. فامتلأ قلبه أملا، وجعل يجيل بصره فى الأفق الواسع، فيخيل إليه أنه يرى راية محمد ترقص على هام القصور البلق فى الشام، والصروح البيض فى المدائن... فمضى يتسلق الصخور إلى الغار، وهو يقفز قفزاً، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير!

***

وكانت الجزيرة يومئذ تتمخض بالموجة الكبرى... ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التى تلتهب فى أيام الصيف التهاباً، وهذه الرمال التى تتسلسل إلى غير ماحد، ففاضت على أرض العراق والشام وكانت منبع الحياة. لقد كان ذلك، والتاريخ جنين فى بطن العقل البشرى لم يولد بعد، وكان وهو طفل لايعى، وكان والتاريخ صبى يميز ويدرك، فرآه فسجله فى دفتره...

رأى وادى النيل، وحوض الرافدين، يمشيان إلى الخراب، قد نضبت فيهما الحياة، فما راعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة، من وسط الرمال، فتقذف إلى مصر بـ(مينا) ليكون أول فرعون فيها، وتلقى ببنى كلدة إلى العراق، فاذا هؤلاء الوافدون من أعماق القفر، يفتحون حقائب أدمغتهم، فيخرجون منها الحضارة الأولى، (حضارة البابليين القدماء) قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً

ويكر الزمن، وتدور الأفلاك، فتطحن الناس، وتحطم الحضارة وتطفىء الشعلة، فتنادى العراق والشام يطلبان المدد، وتسمع الصحراء فتهيأ وتتحرك وتموج موجة أخرى فيقذف إلى ساحل البحرين بأنشط « مجموعة بشرية » عرفها التاريخ القديم، ثم تأتى بها إلى ساحل سوريا لتطل على العالم، فلا تلبث أن تتغلغل فيه تحمل إليه تجارتها وحروفها ولا تلبث أن تغدو شريان الحياة فى العالم، وتنشىء فى كل موضع « مستعمرة فينيقية » هى فى الحقيقة مدرسة عالمية، كان من أمهر من تخرج فيها « اليونان »

ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى... ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى!

***

فكر « عبد الله » فى هذا وهو يتسلق الصخور، إلى الغار، وكان لطول ماسمع من حديث الاسلام شديد الرغبة فى توحيد العرب، وسوقهم إلى إنقاذ أرض الوطن « فى الشام والعراق » من الحكم الأجنبى، وكانت هذه الفكرة جديدة لم يعرفها العرب، أثمرتها فى رأس « عبد الله » الدعوة التى استجاب لها، وآمن بها، واستسلم عبد الله إلى أفكاره، وأطلق لها العنان، وشمل العالم كله بنظرة واحدة، فرآه ينتظر شعباً جديداً طاهراً لم تدنسه تلك الحضارة الزائفة، حراً لم تذله تلك الأنظمة الجائرة، أبيا لم يألف طغيان الملوك، وجبروت الأباطرة. ليختم صفحة الماضى السوداء، ويفتح فى التاريخ صفحة بيضاء جديدة

إن البناء القديم قد تهدم وخرب، ولم يعد صالحا، ولا بد من شعب قوى ماهر، يهدم هذه الأطلال البالية، ثم ينشىء بناء جديدا.

إنه ليس فى العالم إلا ثلاث كتل كبيرة... كتلتان تتصارعان صراع الديكة، قد أمسكت كل واحدة بعنق الأخرى، فسالت دماء الشعوب، والملوك يضحكون ويفرحون لأنهم سيصبغون بالدم ثيابهم لتغدو قرمزية حمراء، يمتازون بها من « سواد الشعب »، وطاحت جماجم الشعوب، والملوك يضحكون ويفرحون، لأنهم سيبنون منها برجا، يترفعون به عن غمار الشعب

هاتان هما الامبراطوريتان الفارسية والرومانية، وهناك كتلة أخرى فى زاوية الكون نائمة على ضفاف « الكنج » ووراء « همالايا » لا يدرى بها أحد...

أمم تشقى ليسعد أفراد. شعوب تفنى ليحيا رجال. مدن تحرق لتشعل منها « سيجارة »، إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد! فمن هو الذى ينقذ العقل البشرى من قيود الجهل والاستبداد! من هو الذى يمحو هذه الارستقراطية العاتية السخيفة؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقيم على أطلالها صرح الحضارة؟ من الذى يمهد السبيل للمستقبل المنتظر، لعصر الراديو والطيارة؟ لعصر العلم والفضيلة؟ لعصر الحرية والعدالة والمساواة؟ لعصر السوبرمان...

لا أحد!

كل شىء هادىء فى العالم!

إن القافلة تمشى ببطء فى عرض البادية، قد خرس الحادى، ومات الدليل، إنها تمشى نحو الموت!

إن السفينة تتخبط فى لجة اليم. تميل وتضطرب، لم يعد لها أمل، قد هبت العاصفة وطغى الموج، وغرق الربان!

يا من يهدى القافلة الضالة؟

يا من يخلص السفينة الحيرى؟

يا من ينصر الشعوب المظلومة ؟ يا من يحمى العقل المهان ؟ يامن ينقذ الفضيلة المعذبة ؟

ليس من مجيب ، كل شيء هادىء فى العالم !

* * *

بلغ السيل الزبى ، وعم اليأس ، واشتدت المصيبة ، فقلقت الناس فلم يجدوا أمامهم إلا البيع والكنائس ، فأموا بيوت الله ، ونفضوا أيديهم من الدنيا ، وجاءوا يبغون فيها الفرج ، لقد سدت فى وجوههم كل الأبواب ، ولكن باباً واحدا لا يزال مفتوحا فوق رءوسهم ، هو باب السماء .

وسمعوا الفرج على ألسنة الكهان ورجال الدين ، علموا أنه سيبعث نبي جديد ، يطهر الارض ، وينشر العدل ، فخرجوا فرحين مستبشرين ، قد احيا قلوبهم الأمل

وطفقوا يفتشون عن النبي الجديد ، فتشوا عنه على ضفاف الأنهار فى سهول العراق الجميلة . . . فتشوا عنه على جبال لبنان الشجراء ، وحدائق الشام الغناء ، فتشوا عنه فى المدن الكبرى ، عله يظهر إلى جانب القصور فى القسطنطينية والمدائن ، مثوى الجبروت البشرى ، فيهزها ويزلزلها ، فتشوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه ، إنه لن يخرج فى السهول ولا فى الجبال ولا فى المدن الكبرى - ولكنه سيخرج من حيث انبثقت الحياة ، من حيث بزغ فجرها من حيث خرجت الحضارات الأولى . . . من الجزيرة

تلك هى أم العالم فليلجأ العالم إلى أحضانها ، كلما حاق به خطر ؟

* * *

فتشوا عن النبي المنتظر فى كل مكان فلم يجدوه ، وازداد عسف الملوك ، وظلم الطغاة ، واشتد البلاء ، وكمت الأفواه ، وقيدت العقول ، وديس الحق . . . فلجأ الناس مرة ثانية إلى البيع والكنائس . فسمعوا فيها البشارة ، وكانت هذه المرة واضحة قريبة . . .

« يا شعوب العالم » !

« استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التى ستغمر العالم - وتغسله من أدران الماضى - لقد نشأت من غار عال منقطع . فى قنة جبل رفيع ، ومشت تقطع الرمال - نحو أرض الثمار والرياحين - نحو أرض المدنيات . . . لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخى : إن ركاب النبي المنتظر ، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب - إلى حماية العقل ، إلى إنقاذ الفضيلة ، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة والمساواة »

فخفقت القلوب فى كل مكان لذكر النبي المصلح ، وعاشت بحبه ، وسألت :

- إلى أين بلغ ؟ إلى أين بلغ ؟

- لقد بلغ الغار ، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة ، التى جاءها أعظم رجل ، بأعظم مبدأ ، فلم تفهم منه شيئا ، وحسبت أنها تستطيع القضاء عليه ، فهى تريد أن ترد النبى فتقتله أو تسجنه ، فهى تبعث رسلها ، يفتشون عنه فى أنحاء البادية ، وشعاب الجبال ، ومنعرجات الأودية ، وينفضونها نفضاً ، ولكنهم يعمون عن هذا الغار العالى المكشوف الذى يطل منه سيد العالم

- أهؤلاء يحرمون البشر من العصر الذهبى المرتقب ؟ ويقضون على الأمل الوحيد الذى تعيش به ملايين الخلائق ؟ يا للمجرمين ، يا للجاهلين المغترين !

وتفرق الناس يهتفون فى كل مكان باسم المنقذ الأعظم ، باسم النبى !

* * *

وانتبه « عبد الله » فاذا هو قد تأخر ، وضل الطريق ، فصحا من ذهوله ، وتسلق الصخر مسرعا نحو الغار ، لقد فهم معنى الهجرة ، التى لم تفهم قريش معناها - وحسبتها سفرا من مكة إلى المدينة ، لقد علم أنها انتقال من الماضى الأسود الكئيب ، إلى المستقبل المشرق المنير . . . فليقفز إلى الغار قفزا . . .

* * *

وبعد ، فيامن ينعمون بحضارة القرن العشرين : . .

يا من يعرفون قيمة الفكر البشرى ، ويستمتعون بثمراته . . .

يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة . . .

لاتنسوا أبداً أن المنار الذى اهتدت به القافلة الضالة ، والسفينة الحيرى ، إنما خرج من ذلك الغار ، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران غار (حراء) إذ بزغت منه أنوار الديانة التى هذبت العقل الانسانى ، وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال ، وغار (ثور) إذ بدأت منه الموجة التى نسفت قصور الظالمين ، وصروح العتاة ، وقفت على الماضى السخيف ، وحملت إلى العالم أسمى المبادىء وأعلاها ، حين حملت إليه تعاليم حراء

إن هذه الغيران كعبة فى التاريخ ، لاينبغ عقل ولا يمشى فى طريق التفكير الصحيح ، إلا بعد أن يطيف بها ، ويقف عليها . . .

إن العالم قد سار نحو الكمال ، يوم سار محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو الغار . . .

إنه لولا الهجرة ، ولولا الفتح الاسلامى . . . ماخرج العالم من الهوة ، التى دفعته إليها أرستقراطية السادة الأشراف ، وجبروت الملوك المستبدين . . . ولا كانت حضارة القرن العشرين !

. . . هذا هو معنى الهجرة ، التى نحتفل اليوم بذكراها ، لحق على كل متمدن أن يشارك فى هذا الاحتفال !

« عين التنه » - سوريا

على الطنطاوى

من صفحات البطولة

سلاميش

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التي ثار لهيبها في الشام نحو قرنين طويلين ؛ وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة انطاكية إحدى المدن التي كانت لا تزال باقية في يد المسيحيين . وكانت جيوش مصر تحارب ببسالتها المعروفة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوى بفرسه كالصاعقة وهو يصيح



صيحة الحرب فيوقع بعدوه الفشل فيتفرق ويتبدد ، ثم يشيط في رماحه وسيوفه .

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويبهر الأنظار ، فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة ، فالفارس في ملبسه الحربي عليه العلامة الصفراء تبرق في شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر اليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافي الحديد والفولاذ ؛ وكانت ملابسه من تحت تلك الغواشي لا تظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذيال من صافي الحرير والقصب ؛ وكان الفرس يختال تحت راكبه كأنما هو يزهى بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجد مغوار

ودافع المحصورون في أنطاكية دفاع الأبطال ، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم ، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم . وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس . ودخلت المدينة في أبهة النصر واختيال القوة . وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم يلجون أكبر معقل بقي للنصارى في الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله .

كان قائد الجند شابا في مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد في غير لباس الحرب لظنه أحد أبناء الملوك المنعمين . وجه مشرق إشراق الزهرة اليانعة ، وقوام ممشوق كأنه رمح رديني ، وعينه تلمع كأنها ريا بفرند سيف دمشق . ولكنه كان في عدة الحرب عليه اللأمة والدروع وفي يده الرمح وفي منطقته السيف ، ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبسا جاداً والجنود من ورائه لا يلتفت أحد منهم إلى يمين أو إلى يسار ، ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الأمر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين . وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قامتهم استقامة ، فان هم بعضهم ببسمة وقفت البسمة على شفتيه حذر أن يطلع عليها اذا هو التفت .

وكان يوم دخول انطاكية يوماً مشهوداً ، فكان نساء المدينة وصبيانها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم ؛ وكان رجالها وشبانها بين مقيد في الأصفاد ، وجريح في مثاوى العلاج ، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق . وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من في يده الحكم في مصائرهم ، وخمدت الأنفاس ، وهدأت الأصوات ، وأومأ القائد للجيش بالوقوف حول الميدان ، فوقف الجند ينظرون إلى أكوام الغنائم التي سيقسمها السلطان الأعظم بينهم وهي من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينظرون إلى قيودهم حانقين ، أو يبكون ويندبون معولين .

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضع خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الاذن للكلام ، فأذن لهم وهو معبس على عادته لا تفارقه تلك النظرة الجامدة التي في عينيه ، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم ما يقولون . وطلبوا اليه أن يمن عليهم بالفكاك وأن يهبهم نساءهم وذراريهم تقربا إلى الله الذي نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم ، وقالوا له فيما قالوا « حسبك من تقتل من شباننا وكهولنا ، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا ؛ فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت ، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت ؛ وكفاك من الحرب النصر فلا تضم اليه دموع المساكين ، ولهيب الفراق بين الأبناء والوالدين » غير أن سلاميش بقي على تعبيسه ووجومه ولم يجب إلا باشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه ، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبه .

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار في الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يجرون شخصا وهو يمانع ويجاهد ، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة ، فوقف وأمر

الجنود بالوقوف ، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ماهناك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جنديين يدفعانها ويترددان فى حملها . ولما اقترب منها رأى شابة نحيلة ممشوقة فارعة ، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة ، وفى عينيها حلاوة قد غشيتها صرامة ، وهى تنظر إلى الجنديين مرفوعة الرأس كأنها تزهى ، جامدة العينين كأنها تتحدى . وقد تمزق ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء ، لايكاد يستر من جسمها إلا مايستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول .

وقد انسدل على كتفيها غطاء من شعرها الفاحم وهو يلمع فى ضوء الشمس الغاربة . فدخلت الرحمة قلبه برغمه ، وتمهدت عبسته ولانت نظرته وأشار إلى جنوده بالكف عنها ، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فأسلمت له وسارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان فى صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته . ثم عاد وقد أطرق قليلا حتى علا صهوة جواده . ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظرته وعبسته . وأتى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم فى شغل من أمر جيشه حتى أوغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فآب إلى سرادقه .

وتذكر الفتاة التى كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكراها ، فأمر غلاما أن يحضرها إليه ، وجلس يستعيد صورتها ويتمثلها وهى تناضل على ضعفها وتتكبر على ذلها ، ولم يتمالك أن ربت الرقة إلى قلبه ، ولم يستطع قهر عبرة ترددت فى عينه . وغاب الغلام قليلا ثم عاد وحيدا فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به ، فقال الغلام بعد التحية « إنها لاترد بكلمة ولا ترفع إلى بصرها » . فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر ، ثم نهض متثاقلا وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألفاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها .

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال : « يحزننى أنهم أساءوا إليك »

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جمرة ، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحقد مرتسم على محياها ، ونار الغضب تضطرم فى عينيها ، وكانت الملابس الرثة التى أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يبدو كالزنبقة المبللة بالندى ، ودفعت يده التى مدها نحوها وقالت وفى صوتها بحة : « ابعد يدك عنى أيها القاتل السفاك . أدر وجهك الكريه عنى فأنت قاتل أبى وأخى ، وأنت سافك دماء قومى ، وأنت المعتدى على وطنى . ابعد عنى وافعل بى ماشئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك » .

وكانت وهى فى ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة ، وكان صدرها يعلو ويهبط فى هياجها ، وشعرها الطويل الاسحم يضطرب بعضه فوق كتفيها وبعضه على صدرها أو جوانب جسمها

ودهش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة فى لفظها ولا رخامة فى صوتها ، ولكنه لم يجب بكلمة ، بل رفع حاجبيه وانثنى راجعا إلى خيمته يسير فى بطء ويثور به شىء يشبه الحزن

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره ، وأتى إليه فجعل يسأله عن المدينة وأهلها ، وعن تلك الفتاة وبيتها . فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم ، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء أنطاكية ، وأن أباها كان شديد الولع بتثقيفها ، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس ، وكان لها أخ قتل فى أثناء الحصار ، ومات أبوها يوم الفتح ، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة ، وأراد أن يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انفراطه فاتهموه بالجبن ، وصاحوا فى وجهه ، أنه آثر السلامة ، فحملته الحفيظة مع كبر سنه على الركوب فى وجه الجيش الفاتح ، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر

وسمع سلاميش تلك القصة فأفلتت منه زفرة لم يستطع كتمانها ، وبات الليلة والأحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر ، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعا للتفكير فى الفتاة ولا فى همومها ، وكان كلما تذكر كلماتها له نازعته نفسه إلى القسوة عليها ، ثم لايلبث أن يلين ، وتعاوده رحمته . حتى إذا انقضى اليوم وعاد فى المساء إلى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها ، وتقرب إليها وهو يتردد ويترفق ثم وقف إلى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض :

« لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس »

فلم ترفع إليه بصرها ، بل بقيت جالسة ، ورأسها بين كفيها والتفت إلى خوان بالقرب منها ، فرأى عليه طعاما لم يمس . فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء : « وهل تريدين أن تموتى جوعا ؟ » فلم تجب على قوله بل حاولت كتم نحيبها .

فقرب منها ، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو محترس متلطف ، ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة : « أقول لك اتركنى »

فلم يستطع أن يخالفها ، فأبعد يده عنها ، وتراجع ، ناظرا نحوها ، ثم تنفس نفسا طويلا وخرج وفى قلبه حزن وقلق

وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيبا ، حتى لحظ أصحابه كآبته ، وعجب جنوده لجفائه ونفرته ، فكان لا يأمر إلا متبرما غاضبا ، ولا يسمع إلا متجهما ساهما ، حتى عجب الناس من ذلك الغضب ، فى عقب الانتصار ، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللا بالمجد والتوفيق . وما انتهى من عمله حتى اسرع الى سرادقه ، ووقف هذه

المرة مترددا وجلا ، ودخل في رفق وخشوع إلى مكان الفتاة ، فأبصرها على ما كانت عليه فى الصباح ، والخوان لا يزال إلى جانبها ، قد تبدل طعامه ، ولا يزال كاملا لم تنل منه شيئا

ونظر إليها مليا ثم قال برفق : « أما تكلميتنى ؟ إننى أرجوك أن تنظرى إلى وتنطق بما يجول فى نفسك ولو كان قاسيا »

ثم مد يده إلى رأسها ومسح عليه متلطفا ـ ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تغضب . وكأن نبرات صوته قد حملت إليها ما فى فؤاده من حزن من أجلها . على أنها بقيت ساكنة ، وهى جالسة فى مكانها كئيبة .

فجلس الى جوارها ساعة يحاول محادثتها وهى لا تجيب الا بدمعة تثور بين حين وحين فى عينيها فتمسحها بمنديل ثم تعود الى وجومها وسكونها ، فقال لها ولسانه ينم عن مقدار عطفه وحزنه :

« إننى لا أريد ايلامك ـ لأننى لا أستطيع أن أراك متألمة ـ ولو كان ذهاب ألمك بابعادك عنى لفعلت . ألك أهل فى عكا أو فى مدينة أخرى من المدن فأرسلك اليهم ؟ ان السلطان لن يرد لى طلبا اذا طلبت منه شيئا »

فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجيا مستعطفا ـ وكان أول ماقالته له أن هزت رأسها نحوه وقالت : « ليس لى أهل ـ قد قتلتهم جميعا » ثم شهقت بالبكاء واسترسلت فى هزة مريرة من الحزن

ولم يملك سلاميش نفسه من أن تجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهدأ من جأشه وقال لها :

« انى أرحمك فى حزنك ولكنى لا أملك دفعه . فقد كان أهلك أعدائى وكنا معا فى ميدان قتال يسعون فيه الى قتلى كما كنت أسعى إلى قتلهم . وهل للشجعان مصير الا الموت فى ميدان الحرب ؟ وهل كان أولى بأهلك ان يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلب وهم بين هؤلاء الأسرى ؟

انهم لو كانوا بين هؤلاء الأسرى لما ترددت فى افتدائهم من أجلك ولكنهم فى غير حاجة الى ولا اليك . انى قد رأيتك وبهرنى حسنك ، ثم رأيت حزنك فآلمنى حزنك . ثم تكشفت لى كبرياؤك فقهرت كبريائى ، ولو شئت أن تبعدى الى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة ـ وإن أحببت المقام هنا ـ كنت عندى ولا أقول لى حتى تقولى ذلك أنت »

نظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينها ذلك البريق القاسى الذى كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه ثم اغضت بعد أن طبعت فى خيالها صورته

ولم يذهب سلاميش ذلك المساء الى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذى قدم اليها فى ذلك اليوم ولم تنل منه قبل ذلك شيئا وفى ذلك المساء وفد الى سلاميش بريد السلطان يحمل اليه أمر الارتحال الى دمشق بمن معه من الجند . ويأمره فيه بتقسيم الغنائم بين أمرائه وجنوده وبتوزيع الاسلاب من أموال وسبايا . ووهبه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعترافا له بما كان من نضاله

وبكر سلاميش فذهب فى الفجر إلى خيمة الفتاة وهو خفيف الخطوة متهلل النفس إذ كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه ، فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طعما ؛ فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت فى مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ، ثم جلس قريبا منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبريائه ، بل كان فى حديثه خفيض الصوت مهتز الأنفاس .

قال لها : « قد أمرنى السلطان أن أتحرك اليوم إلى دمشق بعد أن انتهى الأمر هنا »

فلم تجبه بل نظرت نحوه ، كأنما تسأله عن مصير وطنها ، ومن فيه من رهطها ، وكأنه أحس بما فى نفسها من التساؤل فقال : « وقد أراد السلطان المعظم حفظه الله أن يجعل لى حظاً من هذه المدينة » فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها : « إذن فالمدينة فى يديك » فقال لها : بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيبى من الغنيمة من فى المدينة من الأسرى تاركا للجند أموالها وتحفها »

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة « وما ذا تفعل بهم ؟ »

فتبسم سلاميش نحوها وقال « هم لك »

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح « هل تفعل ؟ »

فقام ومد يديه نحوها وقال « لقدا كرمنى السلطان المعظم بنصيبه ، وسيكون أقر عينا إذا علم أين ذهبت به »

فدت يديها وامسكت بيديه الممدودتين وقالت « ما اسمك ؟ »

قال باسما « سلاميش » فنظرت إلى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض فقال « وإننى أود أن أعرف ما تحبين فأنفذه لك فان دارك هنا لم يمسها أحد من الجنود . لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها إلى مقره ، ولك أن ترجعى إلى دارك إذا شئت عزيزة فى ظل السلطان المعظم » .

فنظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت فى حياء « وأنت ؟ »

فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

« سأذهب إلى دمشق كما أمر مولاى »

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت :

« سلاميش ! وأنا كذلك إلى دمشق أسير »

ثم ارتمت بين ذراعيه .

محمد فريد أبو حديد

نســـيبة

للاستاذ ابراهيم مصطفى
المدرس بكلية الآداب

سيدة من بنى الخزرج من أهل يثرب ، ولم يكونوا إذ ذاك سموا أنصاراً ولا كان الرسول هاجر إليهم ، ولكن حديثه كان يملأ الجزيرة ودعوته تشغل العرب وقرآنه يبث بينهم ويتلى ، كما كانت الأشعار تنشد وتروى .

وكان أهل المدينة أشد عناية بهذه الدعوة وأحفى سؤالا عنها ، فهم أصهار قريش وشركاؤهم فى التجارة وحفظة طريقهم إلى الشام وبينهم اليهود أهل الكتاب ورواة المأثور ومجمع الأخبار

وجلست نسيبة فى مساء إلى زوجها وولدها يتحدثون فى أمر محمد وأنباء دعوته وما حدث من قرآنه ، وتلى تال (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) وآيات أخرى من كتاب محمد . وعجبت نسيبة للكافرين أن ينكروا على رجل منهم أوحى إليه أن يهديهم وأن يبشرهم وينذرهم ، وتساءلت بهذا السحر المبين أين يكون ؟ وما هى إلا الدعوة الصالحة والحق الواضح والبيان الجميل . لشد ما ظلم الرسول قومه وبئسما افتروا عليه . واشتاق القوم أن يروا محمداً وأن يستمعوا إلى حديثه ويستزيدوا من قرآنه .

وما جاء ميقات الحج حتى كانت القافلة تسير من يثرب الى مكة فى نحو خمسمائة حاج أكثرهم الرجال وقل فيهم النساء ومن بينهم نسيبة . وما قد أدرك الركب مكة وتوافى إليها الحجيج من كل فج واستقرت القبائل فى منازلها والرسول يسعى إليهم يعرض عليهم دينه ويبين رسالته ويتلو قرآنه بل يعرض نفسه أيضاً ، لقد ضاق به المقام فى مكة ونبا وآذاه أهله فى نفسه وفيمن من آمن به ، وبالغوا فى الايذاء والتنكيل حتى عاد بينهم كالعانى الأسير أو أنكد . وما يبغى الرسول ؟ إنما يريد من العرب قوماً يسعونه حتى يؤدى رسالته ، ويحمونه حتى يبين حجته ، ثم يدعون من آمن لايمانه ومن كفر لكفره . وما من قبيلة رضيت هذا أو انشرحت له صدراً إلا جماعة من أهل يثرب واعدهم الرسول اذا انحدروا من منى أن يوافوه فى الشعب الأيمن بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً وأن يستخفوا من قريش ويحذروا عيونهم وأرصادهم ، وما وافى الموعد حتى كان بين يدى الرسول سبعون منهم . بينهم نسيبة وسيدة أخرى عاهدهم وعاهدوه أن يسعوه بينهم وأن يحموه حمايتهم لأحدهم حتى يبين حجته ويبلغ رسالته . وراحوا بعهدهم يخفون من قريش ومن الناس أن يعلموه ، وعادت نسيبة إلى بلدها سعيدة بإيمانها فخورة بعهدها ، وقدرت ما يكلفها هذا العهد نفسها على الرمى بالنبل والضرب بالسيف وأعدت لهذا الجهاد ولديها حبيباً وعبد الله .

ودار الزمن وفر الرسول من مكة وهاجر الى المدينة وتلقاه الانصار بالنشيد والترحيب ، ثم نشبت الحرب بين الرسول وبين المشركين من قريش فى يوم «بدر» ، وشهدها المهاجرون الأولون والأنصار السابقون ونسيبة منهم تسقى من استسقى وتضمد الجرح لمن جرح ، وتشهد غلبة الحق لأول يوم انتصر فيه . وعظم هذا اليوم على المشركين وهم الأكثرون فأعدوا عدتهم وحشدوا للرسول فى «أحد» ، وشهدته نسيبة أيضا ومعها زوجها وولداها فى يمينها السقاء والضماد ، واستعرت الحرب وغلب المسلمون ثم نالتهم هزيمة ، فما ارتاعت نسيبة الا لجموع من المشركين تقصد إلى محمد تريد أن تحيط به وتكاد أن تبلغه والمسلمون عنه فى ناحية مثقلون بالهزيمة ، فألقت السقاء والضماد وسددت بالسهم . ورمت عن الرسول بالنبل ، حتى التحم به المشركون فشرعت السيف وجالدت القوم حتى جرحت وخارت وارتمت على الأرض مصروعة . وثبت الرسول وهزم عنه المشركون وانجلى من الغمرة ما انجلى وتساءلوا بنسيبة فاذا هى ملقاة يفور دمها من جرح غار بكتفيها . ضمدوا الجرح وسقوها الماء فما تنبهت حتى سألت : وأين الرسول ؟ وماصنع المشركون معه ؟ إنه لناج وانه منك لقريب . وجرحك الغائر ودمك السائل وقوتك الموهنة وولداك الناشئان وبعلك الشيخ - كل أولئك منك دون محمد ! ؟ أجل دون محمد ودون رسالة محمد ، لها خرجنا ومن أجلها قاتلنا ، ولها نحيا ، وفى سبيلها نموت . وبرئت نسيبة ونسيت الفخر إلا بهذا اليوم ، وبالأثر الباقى من ذلك الجرح . (روى ابن هشام عن أم سعد قالت : دخلت على نسيبة أم عمارة فقلت لها : ياخالة أخبرينى ؛ فقالت : خرجت يوم أحد ومعى وعاء فيه ماء فأتهينا الى الرسول الله

وهو فى أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله فكنت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح الىّ، وأرت على عاتقها جرحا أجوف له غور».

وقد أحسنت السيدة نسيبة تربية ولديها حبيب وعبد الله وملأت قلبهما إيماناً وصدرهما شجاعة وسواعدهما قوة، وعرف رسول الله فضلهما وقدرهما، وأحضرهما المشاهد وجعلهما سفراء ورسلا إلى من شاء من رجال العرب ورؤوس القبائل، أرسل عبد الله إلى اليمن مع معاذ، وأرسل حبيبا إلى مسيلمة الجبار البطاش المتنبئ كذبا فى قومه بنى حنيفة وهم من أكثر العرب عدداً وأغناهم وأقواهم بأساً. أتدرى ما صنع الكذاب بحبيب؟ لا يملك القلم أن يقصه عليك، وبأشق الجهد أن يرويه لك، فى الجزء الأول من أسد الغابة فى ترجمة حبيب «أن رسول الله أرسله إلى مسيلمة الكذاب الحنفى صاحب اليمامة فكان مسيلمة إذا قال تشهد أن محمدا رسول قال نعم، فاذا قال تشهد أنى رسول الله قال لا أسمع، فيقطع منه عضواً، ففعل ذلك مراراً وقطعه مسيلمة عضواً عضواً» اه

وقبض المصطفى عليه الصلاة والسلام لأجله، وزلزل المسلمون لموته وارتدت من العرب أحياء وجموع، وكان مسيلمة أشد الخصوم لددا وأقواهم كيداً وأكثرهم مالا وعدداً، كاثر بقومه بنى حنيفة واعتصم بحصونه فى «اليمامة»، وصمد إليه خالد بن الوليد بجيش فيه السيدة نسيبة وولدها عبد الله، واستعصى أمر مسيلمة وكاد يهزم المسلمون، ثم تجمع نفر من المستبسلين، رموا بأنفسهم مسيلمة لا يألون إلا أن يبلغوا إليه وينالوا نفسه، وفى هذا النفر نسيبة وولدها عبد الله، أما نسيبة فجالدت بالسيف حتى بتر ذراعها، وأما عبد الله فصمد وألح فى الهجوم على مسيلمة مستقتلا مستبسلا حتى أدركه وأغمده السيف. مات مسيلمة فماتت الفتنة بموته وتم أمر بنى حنيفة مع ابن الوليد صلحاً؛ وعادت نسيبة إلى بلدها بساعد واحد وولد واحد، وهى بما مضى أسعد منها بما بقى. كل إلى فناء، وإنما الفوز والمجد أن يكون فى سبيل الحق ذهاب ما ذهب منك

ونسى التاريخ نسيبة وأغمض العين عن بقية أيامها وضن أن يحدثنا بما نحب من ختام جهادها ومواطن مثواها. إلا أن مثواها الجنة، وإن ذكرها فى الطيبات لخالد.

ابراهيم مصطفى

من مواقف العروبة

للأستاذ محمد سعيد العريان



مَن ذلك الفتى الشّعاع، يختال فى العزم والقوة، والشباب والفتوة، حاسرا عن ذراعه، متقدما على صحابته، قد فرَعَهم طولا، وبهرهم تماما وحسنا ... ؟

قال أصحاب محمد: «ذلك قُزمان المدنى، ما نعرف فى أصحابه من يفوقه شهامة ورجولة؛ إنه ليعين الضعيف. وينتصر للمظلوم. ويسرع إلى الصريخ؛ لا تنى به عزيمته. عن أمر يقصد إليه؛ وما تعرف المدينة فى فتيانها أغيَرَ منه على حماه، وأبرَّ منه لأهله ...!»

قال محمد: «إنه لمن أهل النار ...!»

واستمع المسلمون لرأى النبى فى الفتى الذى اجتمعوا على الإعجاب به والتمدُّح بخلاله، فما راجعوه الرأى ولا ناقشوه العبارة؛ إنهم ليؤمنون بالنبى إيمانهم بكلمة الله؛ وإنهم ليعرفون محمدا أصدقَ نظراً وأنفذ بصيرة فما تخفى عليه من أصحابه خافية. إنه ليكاد ينفذ إلى سرائرهم جميعا بعينيه الثاقبتين، فيعرف ما تجيش به نفس كل رجل منهم. وإنهم ليعيشون من هذه المدينة فى جو من الحذر والتربص، بين المنافقين من أتباع عبد الله ابن أبى بن سلول، وبين اليهود من بنى قريظة والنضير؛ فما يسيئون الرأى فى واحد بينهم إلا حسبوه عينا وربيئة من عيون المنافقين واليهود؛ فمن يكون «قزمان» بين هؤلاء وأولئك؟ وهل يدرى أحد ممن هو وإلى من ينتسب؟ إنه لرجل يعيش فى المدينة كما يعيش أهل المدينة جميعا، ولكن أحدا منهم لا يعرف عنه أكثر مما يرى منه ...

...

وتذامر المشركون من أهل مكة على قتال محمد ، واجتمع إليهم من اجتمع من قبائل كنانة وأهل تهامة ، يطلبون الثأر لقتلى بدر . وسار جيش الشرك فى ثلاثة آلاف مقاتل ، ما منهم إلا موتور يحرص على الأخذ بالثأر ولومات دونه ؛ وتطايرت رمال الصحراء تحت سنابك الخيل وأخفاف الابل ، نذيرا بما سيكون فى غد بين الطائفتين ؛ وسال الوادى يقذف بالزبد رجالا على الصهوات تلمع سيوفها تحت الشمس ثائرة مهتاجة ؛ وتجاوبت جنبات البادية بحداء الرجال على نواصى الخيل ورنين الدفوف بين الظعائن ؛ حتى أشرف الجيش على (أُحُد) فتلبَّثوا ينظرون ما يكون من أمرهم وأمر محمد . . .

وخرج محمد وأصحابه سبعمائة رجل إلى لقاء الجيش عند أُحُد ، فما تخلَّف فى المدينة إلا الصبيان والشيوخ والنساء والعجزة . وما انخزل عنه إلا المنافقون من أتباع عبد الله بن أُبَىّ . وتخلَّف قزمانُ فيمن تخلف بالمدينة . . !

• • •

وغدا قزمان يمشى فى طرق المدينة لا يصحبه إلا ظله . أين رفاقه وصحابته ؟ لقد خرجوا جميعاً إلى لقاء العدوّ فما تخلف منهم غيره ، ففيم بقاءه ولا بقاء لمثله ؟ ولكن فيم خروجه وما يؤمن بما يؤمن به صحابته ؟ لقد خرجوا دفاعاً عن دينهم الذى يدينون الله عليه ، وذياداً عن الحق الذى يذعنون له ، بلى ، وحفاظاً على الوطن العزيز أن تطأ ثراه نعالُ الغرباء . . .

وتحدَّث قزمان إلى نفسه هُنيَّة : « ما مُقامى هنا وأصحابى هناك ؟ وَىْ ! وماذا تكون مقالتهم عنى وليس فى المدينة غيرى وغير هؤلاء ؟ » .

هؤلاء كل ماهنا لك : شيخ هِمٌ يمشى على عصوين ، وأعمى ضرير يتوكأ على عكازته ، وطفل لَدْن يركب عصاه يستبق مع لداته ، وعجوز عرقتها الأيام جالسة وراء الباب تنتظر ما يأتى به الركبان من أخبار الحرب ، وشابة مخضوبة البنان متوارية فى الخباء وأذنها إلى الطريق تتسمَّع نبأ عن زوجها الذى خرج للجهاد ؛ وهذا الفتى وحده . . . !

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه : « . . . وماذا يكون من أمرى حين يعود أصحابى أو حين تأكلهم الحرب فلا يعودون ؟ بل ماذا يكون إن كانت الهزيمة وعجز الأوسُ والخزرجُ أن تدافعا عن المدينة ؟ وما مُقامى وكيف أكون إن ظفر العدوُّ واستباح الحمى ووطئت نعاله ترابَ الوطن . . . ؟ يالأحساب قومى ، ويالعزة بلادى . . . ولكن . . . ! يالعروبة ! أتغفر لى أن أقاتل فى صفوف محمد وما أنا على دينه ؟ » .

وتوزَّعته الفكرتان لا تُسْلِمانه إلى رأى فيهدأ ، ثم لم يلبث أن خلع الفكرتين جميعا إلى خاطر هفَتَ له نفسه . . .

ومضى يحثّ الخطا إلى دار « سُلافة بنت طلحة » ، يلتمس فى الأنس بها ساعة من نهار هدوء البال وراحة النفس . مُنذُ كَمْ لم يجتمع قزمانُ وسلافة تَسُر إليه ويُسر إليها ؟ إن لها فى نفسه لمكانا ؛ وإن له فى نفسه لحديثا يَسره أن يلقاها فيحدثها به وتحدثه ؛ لقد كانت العيون بينهما حائلة ، فهاهى ذى الفرصة قد أمكنته ليجلس إليها ساعة فى غفلة العيون . . . وطرق الباب . . .

— : « من ؟ من يدق الباب ؟ » .

— : « قزمان . . . ! » .

— : « وىْ . . . ! قزمان ؟ وماجاء بقزمان الساعة ؟ » .

— : « سلافة . . . » .

— : « حسبتكَ هناك . . . ! » .

— : « أتظنين ياسلافة ؟ » .

— : « بل أعتقدْ . . قزمان لا يكون هنا وقومه هناك ! » .

— : « ولكنى هنا من أجلك ياسلافة ! » .

— : « وقومُك . . . ؟ وأهلك . . . ؟ ودينك . . . ؟ » .

— : « أنتِ قومى ، وأهلى ، ودينى . . . ! » .

— : « لست منك يا قزمان إن لم تكن من أهلى وقومى ودينى ؛ لَخَيْرٌ لى أن أفقدك فى الجهاد وأنت أحبُّ إلى . . . ! » .

— : « سلافة ! » .

— : « سلافةُ لقزمانَ البطلِ المجاهد وليست لك . . . ! » .

• • •

وغادر الفتى فتاته وقد اجتمع إليهم ثالث . وسار بين البيوت مطرق الرأس ، تتناوله نظرات الريبة والحدس . وسمع عجوزاً تتحدث إلى جارتها : « أما سمعت ياعاتكة ؟ » .

— : « ماذا ؟ » .

— : « حسيل بن جابر ، وثابت بن وقش ؛ إنهما من تعلمين : هل يقوى أحدهما أن يحمل نفسه من الهرم والضعف ؟ لقد لحقا

اليوم برسول الله يرجوان المثوبة فى الجهاد أو الشهادة ، وما عليهما والله إن بقيا فى الآطام مع النساء والصبيان ، وما منهما إلا له إخوة أو ولد فى الحرب يكفون عنه . . ! »

قالت صاحبتها : « بلى ، قد علمت يا أختاه ! فهل جاءك أن عمرو بن الجموح لم يمنعه من الحرب أنه يمشى برجل واحدة ، وأن له بنين أربعة مثل الأسد يشهدون المواقع مع رسول الله ؟ » .

وسمع الرجل ما تتحدث به المرأتان ، فكأنما كانتا ترجمانه بالحجر فما يستطيع أن يتماسك مما ينهال عليه . واستمر يمشى وكأنما تستعر الحرب فى رأسه لا فى الميدان البعيد

ومرت به « نسيبة بنت كعب » تحمل سقاء فيه ماء ، فاستوقفها يسألها عن خبرها فما أجابت نداءه ؛ لقد كانت فى طريقها إلى أحد ، لتقوم بما تقدر عليه فى صفوف المجاهدين . . !

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه : « ويلى ! ما أنا هنا والحرب هناك ؟ وما يكون من أمرى غدا على الحالين : فى النصر والهزيمة ؟ أفراراً من الموت ؟ أنكوصا عن الواجب ؟ أكفراً بالوطن والأهل والعشيرة ؟ ألا إنه يومك يا قزمان ، فليجاهدوا هم فى سبيلهم ، وليكن جهادى معهم لأجل الوطن . . . ! »

***

وترامت السهام ، وبرقت الأسنة ، والتقت السيوف ، وابتدأت المعركة بين الجيشين وقزمانُ غير بعيد ؛ لقد أدرك الجيشَ ولما يبدأ النضال ، فما فاته أن يشهد المعركة من البداية

مَن ذلك الفتى الشعشاع ، يختال فى العزم والقوة ، والشباب والفتوة ، حاسراً عن ذراعه والسيف فى يده ، يحتز الرءوس ، ويقطع الأوداج ، ويلقى الرعب فى قلوب الأعداء ؟

إنه قزمان نفسه ؛ لقد قاتل فى ذلك اليوم قتالا شديداً ، وأبلى بلاء حسناً ، فما وضع السيف حتى أثخنته الجراحة .

والتف المسلمون حول قزمان يخففون عنه ما ناله من أذى القتال ، وما منهم إلا معجب بصبره وقوة بلائه ، فهم يقولون : « والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر ! » ، قال : « بماذا أبشر ! فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ماقاتلت . . . »

ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض ثم انفضوا . . .

« إنه لمن أهل النار ! » هكذا كان يقول عنه محمد . صدق رسول الله !

ونظر قزمان إلى نفسه ، فاذا هو يتلاشى نفسا فى نفس ، وذكر صنيعه فى ذلك اليوم ، فعادت إليه الفكرتان الأوليان تصطرعان فى نفسه ، لا تسلمانه إلى رأى فيهدأ . أى الخطتين كانت أهدى سبيلا : أن يدع هذا الدين تمزقه أعداؤه وتمزق معه أهله وعشيرته شرَّ ممزَّق ، أو يقاتلَ فى صفوف قومه دفاعاً عن أحسابهم ؟

أما إنه لاسبيل إلى مافات . لقد أدى واجبه لوطنه ، ولكن ... ولكنه غير مستريح إلى ما كان منه ...

ونَزَتْ به نازية ، فلم يجد لنفسه خلاصا من عذاب الفكر إلا بالموت ، فاتكأ على سيفه فأزهق نفسه ... !

يالله ! لقد نفذت إلى نفسه بارقة من شعاع هَدَتْه سبيلَ الوطنية ، ولكن قلبه ظل فى ظلمات من الضلال والشرك .

لو عرف ذلك الدينَ الذى جاهد له يومَه الأخير ، لأشرقت له الدنيا كلها ، وانبثق الصبح فى قلبه ، ولمات يوم مات تشيعه الملائكة وتهزج له أناشيد الخلود !

ليته عرف ! ولكن ، حسبه أنه كان مثالا فى الوطنية . ليت كثيراً يعرفونه . . . !

(شبرا) محمد سعيد العريان

بين حراء .. وعرفات

للأستاذ عبد المنعم خلاف

وقف الرجل الذى تلخص فيه مجد الانسان وتحقق به وشاع منه على عرفات فى حجة الوداع، وقد احتشدت حوله فى ذلك الرحب الصامت الرهيب الذى فيه أول بيت وضع للناس، الأزمانُ والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكماء وأعضاد الانسانية وحاملى المشاعل على طريقها، وأفواج الخلائق من عالم الذر والبرزخ، وأجسادُ أولئك المتجردين من لبس المحيط والمخيط من صحابته المخبتين .. ومن فوق الحشد الخفيّ والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلق الكلمة الخاتمة للبلاغ الأخير بالآيات المنزّلة من حول العرش : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »... ويعلن حقوق الإنسان وواجباته ويسأل الجموع المحشودة : هل بلغتُ ؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التى كان يأوى إليها فى طلب الهدى ثم فى التخفى بالدعوة ثم فى الجهاد لها ـ الجوابَ الاجماعى فى اقرار وشكران

وما بدٌ من أن الكلمة الأولى : « إقرأ باسم ربك ... » التى طالعه بها الوحى فى « حراء » كانت تتردد على سمعه فى تلك البرهة الخالدة ، فتتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده فى الأرض التى كان كل قدس فيها رجسا ، وكل بَرّة فَجْرة ، وكل امرىء آثما فى عقيدة القلب ، خَرِفاً فى رأى العقل ، ضارياً فى معاملة الخَلق ، طفلا فى طقوس العبادة ... أيام أن كان يتخفى بالغار فى حيرة وانفراد ورهبة وصمت وشك وفراغ ، وأعصاب مرهفة ، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة ، وعقل عظيم ، ولكنه أمى ينظر إلى كون مبهم مختلط نظرا لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسى والأحجار والأخشاب ، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب فى قهر وصمت وطواعية ووجوم ... وهو ذا الآنَ على عرفات فى استعلانٍ ومعرفة وحشدٍ وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء فى العقل من عالم الشهادة ، وفى الروح من عالم الغيب ، وفى البدمن أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التى بين جنوبهم ، فهم فى يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا امتدادا منه وظلا من دعوته .. وقد امتلأ قلبه بالأمل الواثق بان الله متمّ نوره ومعلٍ كلمته . وقد شبِع عقله من جوعٍ إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحى ، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمُق ، ففيه لبنى الإنسان الهدى والحلَى والطهر .

وقد تعوّض نظره من رءوس الجبال التى حول حراء ، برءوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثا وعشرين حجة فى كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماءة أو صمت .. حتى صُقلوا وصاروا أناسا كالنجوم المصابيح .

* * *

بين الكلمة الأولى الآمرةِ المغريةِ المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علَق ، وقصةِ القلم ذلك الشىء العجيب الذى يجعل الدنيا كلمات بين البنان واللسان : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علَق . اقرأ وربكَ الأكرمُ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » وبين الكلمة الأخيرة المخبرة الهادئة الممتنة بكمال الدين واختيار الطريق : « اليوم أكملت لكم دينكم ... » ... دار الفلك ثلاثا وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذى كان عقله مرآة لما يدور فى السماء حول صلاح عُمّارِ الأرض . وها هو ذا يقف معلنا « أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وأن حركة بدءٍ واستهلال وولادةٍ ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام الوالدات ...

وإنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته فى اليوم الأول ! ومنذا الذى يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبيا ؟

إذاً هو الأب الثانى للبشر وُلدت منه الإنسانيةُ ولادة روحية وعقلية كما ولدت من آدم بالجسد . ألم يستدر الزمان معه كما بدىء مع آدم ؟ ألم تبلغ البشرية به رشدها وتترك طفولتها وسفهها ووقوفها عند المجسّمات من الأرباب والمعجزات ؟ ألم

يسلمها مفاتيحَ الطبيعة ويُهيب بها إلى الفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وكيف بدأ الخلق ؟ ألم يرفع الحجب والشفاعات بينها وبين ربها الأقرب إليها من حبل الوريد ؟ ألم يمح الفوارق بين أجناسها وألوانها وأوطانها كما يمحو الأب الحانى الفوارق بين بنيه من الجسد والروح ؟ ألم ينهها أن تقفو ماليس لها علم وأن تتبع الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ؟ ألم يدعها إلى أن تؤمن بجميع الرسل والأنبياء وبما أنزل الله من كتاب ؟ ألم يعلن حقوقها وواجباتها وأخوتها ومساواتها والعدل بينها ؟ ، لأن ربها واحد وأباها واحد ، ألم يترك لها ميراثاً خالداً منظماً مستوعباً شؤونها وحيوانها فى البيت والجماعة والحرب والسلم والعاجلة والآجلة ؟ ولم يترك موقفه الأخير منها وهى أمامه فى عرفات ممثلة فى الحبشى بلال الأسود والرومى صهيب الأصفر والفارسى سلمان الأبيض والعربى فى العدد الأكثر إلا وقد أخذ منها قراراً بابلاغه الأمانة وأدائه الرسالة وأشهد الله على ذلك . ولو سكتوا لنطق الحصى الذى كان يرجم به فى بدء الدعوة وحطام الاصنام التى هشمها بيمينه فى يوم الفتح . .

أيها الرسول المنقذ ! كلمة إقرار بالبلاغ يرسلها القرن الرابع عشر فى فجر عام جديد لتلحق باقرار صحابتك فى فجر القرن الأول ويوشك الزمن أن يأخذ هذا الاعتراف من أفواه أهل الأرض جميعاً بعد أن ابتدأوا يعرفونك وينصفونك .

لقد بلغتَ كتاب الدنيا ورسالةَ كل شىء ، إلى القلوب السليمة الكبيرة فجعلت من كل شىء محراباً تقف فيه لعبادة الله ذى المجد ، وحب الحق والخير والجمال . .

ولا يزال صوتك يدوى فى الآفاق مخترقاً أربعة عشر قرناً بسرعة الشمس والضوء ، ولن يزال كذلك يعلن الكلمة التي أضاءت لها الظلمات وقام عليها صلاح العالم .

***

الحقوق والواجبات التى خصصت حياتك لتقريرها وأعلنتها فى الخطبة الجامعة على الحشد الذى لم تلقه بعد كما توقعت . . صارت أبجدية الانسانية ومزمور أمانيها ، حملها العباد الذين كلفتهم حملها ممن شهدوا مقامك وسمعوا بلاغك أو سمعوا به ، . حملوها أنهارا تجرى من الصحراء أرض الجفاف إلى الوديان والسهول المخصبة بالنبات ، الكزة المجدبة من فضيلة الإنسان . فامرعت بالخير والحق والجمال والسلام

وقد ثارت البشرية لهذه الحقوق بعدك ثورات عدة كلما بدأت رءوس الأصنام البشرية أو الحجرية تتحرك بعد أن قمعتَها وحطمتها ببرهانك وفيصلك . . فالثورة الانجليزية لاقرار الشورى ، والثورة الفرنسية لإعلان حقوق الانسان . . إنما هما صدى يحكى فى خفوت وضآلة وبطء وتخلف ، ثورتك الكبرى على الأرباب الزائفين والطواغيت وعناصر الدمار والفساد التى تافك الانسانية وديعة الله فى الأرض وتصرفها عن وجه الله ذى الجلال ومقام الحق ونصاب العدل

وشتان ماينها وبينهما ! إنها ثورة رجل يهتف فى بوق النبوة له قلب فيه مَددٌ من هدى الوحى ، وسلام من رحمة الروح ، وله يد بريئة من الإثم والجبروت تضرب أحيانا بمبضع الطبيب لإذهاب الألم لا لاحداثه . وكلاهما وبخاصة الفرنسية ثورة دامية قاسية عمياء ضارية ، قامت بها أيدٍ أرضية حيوانية فيها أظافر ومخالب . . تدفعها قلوب فيها أطماع وغل وحقد مؤرث . ومن عماها أكلت الحطب والأيدى التى كانت تقدمه ، ولطخت وجه الحرية بمآثم وشناعات لاتزال تغض منها وتثير حول ذكراها سخطا واشمئزازا ، والتاريخ ميزان .

(بغداد) عبد المنعم خلاف

الخـــلود

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور



أمل حلو زاد التعلق به فلبس ثوب الحقيقة ، وخيال عذب طاب لنا أن نسبح وراءه فاكتسى بكساء الواقع ، وغيب شغفنا بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه فى مظهر الحاضر ، وسلوة نتسلى بها عن الحرمان أوعثور الجدوسوء الطالع ، وثار من الموت ذلك الخصم العنيد الذى يحمل الشاب على الرحيل فى عنفوان شبابه ، ويرغم الشيخ على السير وان تباطأ به ركابه . فهو إذن عون على الحياة وامتداد لها : عون على ما فيها من بؤس وشقاء وآلام وويلات ، وكثيرا ما نستطيب شدة اليوم فى سبيل فرج الغد ؛ ووصلة لأجل وإن طال قصير ، وعمر وإن بلغ أرذله عزيز ، وعيش وإن ساء مرغوب فيه . وربما كان حب الحياة أول ملهم بتجددها ، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول باستئنافها . وقد صور الانسان هذا الاستئناف وذلك التجدد بصور شتى وأشكال متباينة هى فى جملتها صدى لرغباته ونزعاته وميوله وأهوائه ، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التى يحياها . فتصور الهمجيون الذين يعيشون عيشة السلب والنهب والقتل وسفك الدماء الخلودَ على أنه عودة للانسان فى شكل مارد جبار شيطان رجيم يثأر لنفسه ممن عدا عليه . وظنه بعض المتحضرين ضربا من اليقظة يرفل فيه المرء فى حلل السعادة وآيات النعيم ، ولهذا أعدوا فى القبور وسائل الزينه والزخرف ولذيذ الطعام والشراب . ثم جاءت التعاليم السماوية فصورته فى صورة أسمى ، وكسته بكساء أفخم ، وأغدقت على الحياة المقبلة متنوع الأوصاف بين مادية وروحية وحسية وعقلية كى تقنع العامة والدهماء وترضى المفكرين والعقلاء .

كم كنا نود أن يبقى للخلود حلاوة الأمل فنسير وراءه سيرا أعمى ، وعذوبة الخيال فنتعلق به فى شوق وحرارة راغبين مخلصين ، وحرمة الدين فنؤمن به إيمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب ولا يعوزه برهنة أو استدلال . ولكن العقل الذى منحنا إياه وبلينا به فى آن واحد يأبى إلا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا من أحلام لذيذة . فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفه ، ويبحث ويعلل فيما يسمو عن البحث والتعليل ، ويقيس ويستنبط فيما لايخضع لمبادىء القياس والاستنباط . وقد سرت عدواه إلى موضوع الخلود منذ عهد بعيد ، فأخذ يتفهم سره وغايته ويبرهن على أمكانه أو ضرورته . وليس ثمت فلسفة إلا قالت فى الخلود كلمتها بالايجاب أو السلب ، بالقبول أو الرفض . وأى فيلسوف لم يتساءل من أين جئنا وإلى أين نذهب ولم يبحث عن المصدر والمرد والمبدأ والمعاد ؟

فاليونانيون وإن كانوا قد شغلوا بالكون وتغيراته والحياة الحاضرة وقوانينها لم يفتهم أن يدلوا فى هذا الموضوع الخطير بآرائهم . ورجال القرون الوسطى كان لابد لهم أن يبدئوا فيه ويعيدوا ويعترضوا ويجيبوا ، فهو من فلسفتهم الدينية فى صميمها ونقطة هامة من نقط التوفيق بين العقل والنقل التى ملكت عليهم أذهانهم . وفى التاريخ الحديث نرى الروحيين والماديين بين مثبتين للخلود ومنكرين . وإذا شئنا أن نمثل لكل عصر من هذه العصور برجل فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع الخلود إلا ذكرت ، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها فى هذا الباب تمثيلها ، ونعنى بها أفلاطون ، وابن سينا ، وكانت .

فأما أفلاطون فهو من غير شك أكثر فلاسفة اليونان اشتغالا بالخلود وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . تحدث عنه عرضا فى غير ما موضع . ثم لم يقنع بهذا فوقف عليه محاورة مستقلة مشهورة هى « فيدون » . وفيها يجرى ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسان أستاذه سقراط ومن حوله من الأتباع والتلاميذ . وأفلاطون روائى ماهر وقصصى مبدع يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم بريشة المصور الفنان . فهو يدع « سقراط » المتهم البرىء الذى

يرقب الأعدام بين عشية أو ضحاها ، والحى الذى يسعى إلى الموت فى خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ومختاراً أو شبه مختار ، يتحدث عن خلود الروح فى آخر يوم من أيام حياته فما أجل المحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث ! ولسقراط سنة معهودة فى حواره من استيلاء على نفوس محاوريه وإرشاد إلى سبل القول وهداية إلى مواطن الضعف وافتنان فى وسائل الأثبات . وتكاد ترجع برهنته على الخلود إلى نقط ثلاث : برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة . فنحن نلاحظ أولا أن الشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وأن الأكبر يتولد عن الاصغر والأحسن عن الأسوأ ؛ فهناك تبادل دائم بين الأضداد . وما دام الموت والحياة ضدين فهما متعاقبان . وقديما قالت الأرفيه والفيثاغورية بالتناسخ وتداول الأجيال البشرية ! وبهذا يخرج الحى من الميت كما يخرج الميت من الحى ، وتبقى النفس رحالة متنقلة من جسد إلى جسد دون أن يطرأ عليها عدم أو فناء . ونسلم ثانيا مع أفلاطون أن النفس تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية ! والشبيه وحده هو الذى يدرك الشبيه . فلا بد أن يكون للنفس ما للمثل من ثبوت وبقاء . وأخيراً النفس مشاركة للحياة بذاتها ومنافية للموت بطبعها، فهى بحسب مدلولها وحقيقتها حياة . ولا يمكن أن يجتمع فى ماهية واحدة ضدان ! فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال ، وأنى لأتساءل بعد كل هذا هل وفق أفلاطون فى برهنته ؟ إذا اختبرنا أدلته لم نتردد فى أن نجيب بالسلب ، فان فكرة صدور الصد عن ضده مرفوضة من أساسها ، ونظرية التناسخ واضح بطلانها . ولا نظن أن أحدا يسلم اليوم مع الأغريق أن الانسان لا يدرك إلا ما يشابهه . فإنا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الانسانية عند دائرة ضيقة ، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب النفسى القديم الذى كان يعد النفس فى آن واحد مصدر الحيـاة والحركة والاحساس والتفكير . على أن أفلاطون نفسه كان على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته ، فأنه يصرح على لسان سمياس أن العلم بحقيقة الخلود ممتنع أو جد عسير فى هذه الحيـاة . وجدير ببحث كهذا أن يوضع فى قالب القصة وكنى ، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين

وسواء أوفق أفلاطون فى برهنته أم لا فانه قد سن سنة استمسك بها من جاء بعده ، أو نهج نهجا حبب إلى الخلف السير فيه . فأنزل الخلود من السماء إلى الأرض ، وأحل فيه منطق العقول محل همس الضمائر والقلوب . وكان من أكبر فلاسفة القرون الوسطى تأثرا به فى هذا الصدد ابن سينا الذى قد يردد بعض أدلته أحيانا أو يؤيدها ويدعمها أحيانا أخرى ، لاسيما وقد توفر لديه مالم يتوفر لدى أستاذه ! فقد وقف على الوحى الألهى الذى صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء ، وسمع لغة القرآن الصريحة فى الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فرأى لزاما عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية ، وفى خيال حلو هو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط الروح من عالمها العلوى ومقامها فى هذا العالم الفانى ثم عودتها إلى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود

هبطت إليك من المحل الأرفع   ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر   وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما   كرهت فراقك وهى ذات توجع

***

ان كان أهبطها الاله لحكمة   طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب   لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية   فى العالمين فخرقها لم يرقع

ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال ، بل يأبى إلا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبته اثباتاً فلسفياً ، فيقرر أن النفس وهى جوهر بسيط لا يمكن أن تشتمل على مبدأين متناقضين ، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها فلا يمكن أن يكون فيها أى استعداد للفناء . وفوق هذا سواء لديها أبقى الجسم أم فنى ، فان صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل ، بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك . ولن يضير السيد فى شىء ما قد يلحق عبده من التغير ، كما لا يؤثر فى شخص المالك ما قد يطرأ على ملكيته من الفساد . فالنفس هى المتصرفة فى البدن والمدبرة لأمره ، ولن ينقلب الآمر مأموراً ولا المتأثر مؤثراً .

بيد أن حظ ابن سينا فى هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون . فان الجوهر البسيط الذى يفترضه هو موضع البحث والمنافسة ومثار الأخذ والرد ، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل ؛ ولم يتوصل أنصار المذهب الروحي على اختلافهم إلى حلها أو الفصل فيها بقول جازم

ولقد تنبه (كانت) الى هذا التهافت فى البرهنة والقصور فى الاثبات . فرفض فى كتابه « نقد العقل المجرد » الأدلة التى تساق لاثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة . وما كان للعقل أن يهتدى الى شىء يقينى فى دائرة الأمور المغيبة ؛ وفى هذا مايسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان فى جانبه ، وما يهيئ للوحى والالهام الفرصة أن يكملا نقص البحث والنظر . خصوصا والتبعة الأخلاقية لاقيام لها بدون الثواب والعقاب والحساب والمسئولية ، والواجب فى حاجة ماسة الى تأييد الدين ونصرته . لهذا نرى (كانت) يعود فى كتابه « نقد العقل العملى » فيحاول إثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن أظهر أنه لا يمكن اثباته فيما وراء الطبيعة . وذلك أن الخير الاسمى الذى ننشده والسعادة الحقة التى نسعى اليها لا سبيل الى تحقيقهما فى حياتنا الحاضرة القصيرة . فان شئنا أن يكون للواجب الذي تنادى به قيمته وللأخلاق التى ندعو اليها جلالها وحرمتها فلا بد أن نجزم بخلود الروح . ولا سيما والعدالة تأبى كل الاباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الاعدام ، وأن يستوى البر والفاجر فى مصير واحد وفناء لا رجعة بعده . وكأنى بكانت يردد ، هو كذلك ، فكرة تنبه لها أفلاطون ويوضح معنى أشار اليه من قبل شيخ الأكاديمى فى جمهوريته ؟ غير أن هذا البرهان الأخلاقى ليس أكثر إقناعا من سابقيه ؛ وكل ما يمتاز به أنه أقرب الى فكرة الخلود وأكثر تلازما مع طبيعتها وأميل الى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة . وما أشبهه بالغرض منه بالبرهان والمبدأ يسلم به احتراما وتقديسا لمبادىء أخرى .

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . وما كان أغنى الفلسفة أن تغامر بنفسها فى هذا المضمار وأن تنزلج فى هذا المأزق الحرج . فى مقدورنا أن نقول إنه ممكن أو محتمل أو ضرورى ، ولكن لاسبيل لنا بحال أن نقرر اعتمادا على عقولنا وحدها أنه أمر واقعى . وأنى لنا ذلك ومن وصلوا الى مرتبة الخلود يأبون أن يعودوا الى حياة قاسوا فيها الأمرين ، ولاقوا ما لاقوا من جهد وعناء ؟ ولم يصل استحضار الأرواح بعد الى درجة اليقين وليس فى وسائله ما يبعث على الثقة والطمأنينة . واذا كان العقل عاجزا عن إدعام الخلود وإثباته فهو أعجز عن دحضه وإنكاره . وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادى أن تجربتهم لا تسلم بحياة بعد هذه الحياة . وأن بحثهم يرفض أى وجود بعد هذا الوجود . فأن للتجربة ميدانا لا تتجاوزه ، وللبحث العلمى دائرة لا يتعداها ؛ ومن العبث أن تتكلم باسم العلم فى دائرة تسمو على العلم ، وأن نفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود . ولن يضير الخلود فى شىء أن تعجز عقولنا الضعيفة عن الانتصار له فانه يستمد جلاله ورهبته من مصدر أسمى ومقام أرفع . ولن يعيبه مطلقا أن تقصر لغة أهل الأرض فى بيانه فانه من خصائص سكان السماء ووقف عليهم . هو أمر خارج عن عالم الفناء وحقيقة مخالفة لما ألفه المحدثون ، وما كان لفان أن يدرك ادراكا واضحا ما يتنافى وطبيعته الا أن عرج الى سماء الخالدين

ابراهيم مدكور

نتاج العبقرية المنسية

فى الحسن بن الهيثم

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يفكر الدكتور النابغ الأستاذ مشرفة عميد كلية العلوم للجامعة المصرية فى إقامة مهرجان لأحياء ذكرى ابن الهيثم فى العام المقبل بمناسبة مرور ٩٠٠ عام على وفاته

ولا عجب إذا فكر العميد فى هذا ، فابن الهيثم من عباقرة العرب الذين نبغوا فى الطبيعة والرياضيات والهندسة وقدموا جليل الخدمات لها ، ولولاه ما كان علم البصريات (الضوء) على ما هو عليه الآن

ويؤلمنى أن اقول إنه لو كان ابن الهيثم من أبناء أمة أوربية لرأيت كيف يكون التقدير وكيف يذاع اسمه وتنشر سيرته على الناس وتدخل فى برامج التعليم ليأخذ منها الأجيال إلهاماً وحافزاً يدفعهم إلى الاقتداء به والسير على طريقته

أليس فى عدم معرفة ناشئتنا وشبابنا شيئاً عن ابن الهيثم أجحاف وعيب فاضح ؟ أليس إهمالا منا أن نعرف عن بطليموس وكيلر وباكون أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم ؟

ألا يدل هذا على نقص معيب فى برامجنا الثقافية القومية ؟ ولا يظن القارىء أن ابن الهيثم وحيد فى هذا الاجحاف والإهمال فليس حظ أكثر علماء العرب ونوابغهم وعباقرتهم بأحسن من حظه ، فها هي ذى حياتهم ومآثرهم لا تزال محاطة بغيوم الغموض وعدم الاعتناء وهى فى أشد الحاجة إلى أناس يتعهدون إزالة الغيوم وإظهار المآثر على حقيقتها للناس . ولا شك أن فى إظهارها انصافاً لهم وخدمة للحقيقة ، كما أن فى عرضها على الناشئة من العوامل التى توجد فيهم الاعتزاز بالقومية والاعتقاد بالقابلية وشعوراً يدفعهم إلى السير على نهج الأجداد فى رفع مستوى المدنية . ولا يخفى ما فى هذا كله من قوى تدفع الأمة إلى حيث المجد والسؤدد ، قوى تمهد السبل لتقوم (الأمة) بواجبها نحو نفسها ونحو الانسانية فتساهم فى بناء الحضارة وإعلاء شانها

والآن نرجع إلى ابن الهيثم فنقول إنه ظهر فى أوائل القرن الخامس للهجرة فى البصرة ونزل مصر واستوطنها إلى أن مات سنة ١٠٣٨ م . وقد عرف الاقدمون فضله وقدروا نبوغه وعلمه فقال ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء متفننا فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ، ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد ... » وقال ابن القفطى : « إنه صاحب تصانيف وتآليف فى الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متفننا فيه ، قيما بغوامضه ومعانيه ، مشاركا فى علوم الأوائل أخذ عنه الناس واستفادوا .. »

وكذلك عرف الافرنج قيمة ابن الهيثم فأنصفوه بعض الانصاف واعترفوا بتفوقه وخصب قريحته فنجد دائرة المعارف البريطانية تقول : « إن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات ... »

وجاء فى كتاب تراث الاسلام : « إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم » ، واعترف العالم الفرنسى لوتيرفياردو بأن كبلر أخذ معلوماته فى الضوء ولا سيما ما يتعلق بانكسار الضوء فى الجو من كتب ابن الهيثم . ويقول سارطون « إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله ... » .

ولعل الأستاذ (مصطفى نظيف) أول عربي فى هذا العصر أنصف ابن الهيثم بعض الأنصاف ووقف على التراث الضخم الذى خلفه فى الطبيعة ولا سيما فيما يتعلق ببحوث الضوء . قال الأستاذ نظيف فى مقدمة كتابه النفيس الفريد (البصريات) ما يلى : « .. والذى جعلنى أبدأ بعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة الأخرى أن علماً ازدهر فى عصر التمدن الاسلامى وكان من أعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأثراً الحسن بن الهيثم الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر ... » فلقد بقيت كتبه منهلا عاماً نهل منه أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وكبلر وليو ناردو فنسى وبوو تيلو وغيرهم . وكتبه هذه وما تحويه من بحوث مبتكرة فى الضوء هى التي جعلت ماكسى ومايرهوف يقول صراحة : « إن عظمة الابتكار الاسلامى تتجلى فى علم البصريات ... »

ومن أهم كتب ابن الهيثم وأكثرها استيفاء لبحوث الضوء كتاب « المناظر » ، ويتبين من هذا الكتاب أن ابن الهيثم هو

الذى أضاف قانون الانعكاس القائل بأن زاويتى السقوط والانعكاس واقعتان فى مستوى واحد . وقد أدخل فيه أيضا مسائل مهمة عرفت ، بمسائل ابن الهيثم ، اشتهر بعضها كثيراً كالمسألة الآتية : إذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف تجد على المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية النقطة التى تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها . ويعود سبب شهرة هذه المسألة إلى صعوبات هندسية تظهر فى أثناء الحل إذ ينشأ عن ذلك معادلة من الدرجة الرابعة استطاع أن يحلها (ابن الهيثم) باستعمال القطع الزائد . وأجرى تجارب عديدة تبين له منها أن الضوء ينتشر فى خطوط مستقيمة أثناء سيره فى الهواء أو فى وسط آخر ، وأن الضوء إذا سار من وسط إلى وسط آخر انعطف عن استقامته . وقاس كلا من زاويتى السقوط والانكسار وبين أن بطليموس كان مخطئاً فى نظريته القائلة بأن النسبة بين زاويتى السقوط والانكسار ثابتة ، وقال بأن هذه النسبة لا تكون ثابتة بل تتغير ولكنه على الرغم من ذلك لم يوفق إلى إيجاد القانون الحقيقى للانكسار . واستعمل آلة لايجاد العلاقة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار وهى تشبه الآلة التى نستعملها الآن . وعمل جداول أدق من جداول بطليموس فى معاملات الانكسار لبعض المواد . وأتى على تجارب عديدة اثبت فيها انعطاف الأشعة عند سيرها من وسط شفاف إلى وسط آخر شفاف . وقد شرح فى بعض كتبه الظواهر الجوية التى تنشأ عن الانكسار فكان أسبق العلماء إلى ذلك . ومن هذه الظواهر التى ذكرها وشرحها الانكسار الفلكى أى أن الضوء الذى يصل إلينا من الاجرام السماوية يعانى انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض ، ومن ذلك ينتج انحراف فى الاشعة ، ولا يخفى ما لهذا من شأن فى الرصد . فمثلا يظهر النجم على الأفق قبل أن يكون قد بلغه فعلا ، وكذلك نرى الشمس أو القمر على الأفق عند الشروق والغروب وهما فى الحقيقة يكونان تحته . ومن نتائج الانكسار ان قرص الشمس أو قرص القمر لا يظهر بالقرب من الأفق مستديراً بل بيضوياً . هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تعليلها تعليلا صحيحاً واستطاع أيضاً الوقوف على أسبابها الحقيقية . ومن الحوادث الجوية التى عللها الهالة التى ترى حول الشمس أو القمر . وقال بان ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون فى الهواء بلورات صغيرة من الثلج أو الجليد فالنور الذى يمر فيها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة . وحينئذ يصل النور الى عين الرأى كأنه صادر من نقط حول القمر أو الشمس فتظهر الأشعة دائرة حول الجرمين المذكورين أو حول أحدهما . وهو من الذين لم يأخذوا برأى اقليدس واتباع بطليموس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين الى الجسم المرئى ، بل قال بان شعاع النور يأتى من الجسم المرئى الى العين . وبحث فى كتابه أيضاً فى قوى تكبير العدسات ؛ ويرى كثيرون ان ما كتبه فى هذا الصدد قد مهد السبيل لاستعمال العدسات فى اصلاح عيوب العين . وكتب فى الزيغ الكرى وفى تعليل الشفق وقال انه يظهر ويختفى عند ما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الأفق ، وأن بعض أشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما فى الهواء من ذرات عائمة وترتد الينا فنرى بها ما انعكست عنه . وبين ان الزيادة الظاهرة فى قطرى الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الأفق وهمية ؛ وقد علل هذا الوهم تعليلا علمياً صحيحاً لم ينسبق اليه ، بناء على أن الانسان يحكم على كبر الجسم أو صغره بشيئين : الأول الزاوية التى يبصر منها أو زاوية الرؤية ، والثانى قرب الجسم أو بعده من العين . وابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام . وقد اعتمد فى بحوثه هذه على كتب التشريح التى كانت فى زمانه ، ووضع أسماء لبعض أقسام العين وأخذها عنه الأفرنج وترجموها إلى لغاتهم . وتقول دائرة المعارف البريطانية إن ابن الهيثم كتب فى تشريح العين وفى وظيفة كل قسم منها . وقد بين كيف تنظر إلى الأشياء بالعينين فى آن واحد . وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئى إلى العينين ، ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية فى محلين متماثلين . ولعل هذا الرأى هو أساس آلة الاستريسكوب

وفوق ذلك هو أول من بين أن الصور التى تنشأ من وقوع صورة المرئى على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التى تتكون بها صورة جسم مرئى تمر أشعته الضوئية من ثقب فى محل مظلم ، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذى دخل منه النور ، والسطح يقابله فى العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء . فاذا ما وقع الضوء . حدث تأثير انتقل إلى المخ ، ومن ذلك تتكون صورة المرئى فى الدماغ . وله أيضا معرفة بخاصيات العدسات اللامة والمفرقة والمرايا فى تكوين الصور ؛ وكتب فى المرايا المحرقة وأجاد فى ذلك إجادة دلت على إحاطته الكلية بمبدأ تجمع الأشعة التى تسقط

على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنه وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والألوان .

ويظن البعض أن ابن الهيثم لم يشتغل فى الرياضيات ، مع أن الواقع خلاف ذلك فله فيها بحوث تدل على سعة اطلاعه ونضجه العلمى ، فلقد بحث فى المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط . ويقال إن الخيام رجع إليها واستعملها . وقد حل كثيراً من المعادلات بطريقة تقاطع المنحنيين وتمكن من إيجاد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محور السينات أو محور الصادات . وتنسب إليه بعض رسائل فى المربعات السحرية واستعمل نظرية افناء الفرق ووضع أربعة قوانين لايجاد مجموع الاعداد الطبيعية المرفوعة الى القوى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ . وله بحوث فى الهندسة تدل على تعمقه فى علوم زمانه . ولقد طبق الهندسة على المنطق والف كتابا يقول فيه . . . . « . . . . كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أقليدس وابلونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالى اقليدس وابلونيوس » . وله مؤلفات أخرى قيمة فى الرياضيات والطبيعة منها كتاب شرح أصول اقليدس فى الهندسة والعدد وتلخيصه كتاب الجامع فى أصول الحساب ، وكتاب فى تحليل المسائل الهندسية ، وكتاب فى تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهناً ، وكتاب فى حساب المعاملات وكتب أخرى فى بحوث رياضية عالية . وله غير كتبه فى الرياضيات والطبيعة كتب فى الالهيات والطب يربو عددها على الخمسين .

واشتغل ابن الهيثم فى الفلك ويعترف بذلك سيديلو فيقول : « وخلف ابن يونس فى الاهتمام بعلم الفلك جمع منهم حسن بن الهيثم الذى ألف أكثر من ثمانين كتابا ومجموعة فى الأرصاد وتفسير المجسطى ... »

هذا بعض ما أنتجه ابن الهيثم فى ميادين العلوم الطبيعية والرياضية يتجلى للقارئ منها الخدمات الجليلة التى قدمها لهذه العلوم والمآثر التى اورثها إلى الأجيال والتراث القيم الذى خلفه للعلماء والباحثين مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذى يشغل فراغاً كبيراً فى الطبيعة ، والذى له اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات ، والذى لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ، تقدماً مكن الانسان من الوقوف على بعض أسرار المادة فى دقائقها وجواهرها وكهاربها وعلى الاطلاع على ما يجرى فى الاجرام السماوية من مدهشات ومحيرات .

والآن نقف عند هذا الحد آملين أن تخرج فكرة الدكتور مشرفة إلى حيز الوجود فيكون بذلك قد أنصف عالما عالميا من أفذاذ علماء الطبيعة والرياضة . ويكون أيضا قد أدى واجبا ثقافيا وطنيا هو من أقدس الواجبات ، وأضاف مأثرة إلى مآثره العديدة فى خدمة الثقافة العربية وبعثها .

(نابلس) **قدرى حافظ طوقان**

تصحيح نص عربي قديم

وفيه شاهد على تطور العقلية العربية بعد الإسلام

للأستاذ عبد القادر المغربي



جاء في كتاب (طبقات الشعراء) لأبي عبد الله بن سلاَّم الجُمَحي المتوفى (سنة ٢٣٢ هـ) نص يتعلق بأخبار (عقيل بن عُلَّفة) فيه اضطراب وفيه تلفيق أحببنا تحقيقه في هذا المقال. والنص – عدا ذلك يتضمن فائدة تتعلق بالاجتماع الإسلامي وتصف لنا ناحية من نواحي عقلية العرب وتطورها بعد الإسلام

وعقيل بن علَّفة هذا من أتباع (مدرسة المخضرمين) أو (مدرسة الخضرمة) إن سُمح لنا بهذا التعبير. وهي المدرسة التي تتلمذ فيها طائفة من الأعراب أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم؛ فكانت معرفتهم بآدابه سطحية. كانوا يراعون تلك الآداب حيناً ثم يغلبهم طبعهم الجاهلي فيعودون إلى ممارسة ما اعتادوه في جاهليتهم حيناً آخر. كانوا يتعزّون بعزاء الجاهلية. ويحاربون القبائل المعادية لهم عصبيةً لوشائج الأنساب لا إقامة لحدود الله وشرائع الإسلام. وما كانوا يتورّعون من شرب الخمر في بعض الأحايين ولا من الحنين إلى نزعاتهم الجاهلية: ومنها الفخر والمنافرة والمهاجاة والإفراط في الغيرة. كان فيهم جفاء وغلظة لم تخالطها بشاشة الإسلام وسجاحته ولين جانبه.

ومن أشهر تلاميذ هذه المدرسة (عقيل بن علّفة المرّي) و(عُلّفة) على وزان (قُبّرة) اسم للواحدة من ثمر الطلح. وهو ثمر أشبه باللوبياء.

كان عقيل أعرابيا جِلفا مفرط الغيرة، له نزوع شديد إلى عادات الجاهلية، فخوراً بها، داعيا إليها

هنأ يوما أحد فتيان قريش بزواجه قائلا له: «بالرفاء والبنين والطائر المحمود» فقيل له: يُكره أن يقال هذا في الإسلام وإنما هو من تهاني الجاهلية. فأجاب عقيل: يا ابن أخي! ما تريد إلى ما أحدِث؟ إن هـذا قول أخوالك في الجاهلية إلى اليوم لا يعرفون غيره»

وقد رويت كلمته هذه للزهري فقال إن ابن عُلّفة كان من أجهل الناس»

وعدا بنو جعفر على مولى لابن علفة، فعَدَا هو على مولى لهم ولم يرفع الأمر إلى عامل الخليفة وأنشد:

فلا تحسبوا الاسلام غيَّر بعدكم   رماح مواليكم فذاك بكم جهلُ

ومن أخبار جفائه ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج. (ج ١ ص ٤٤٠) نقلا عن ابن قتيبة. قال:

خطب هشام بن اسماعيل المخزومي والي المدينة (وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك الذي قال فيه الفرزدق بيته المشهور: وما مثله في الناس إلا مملكا الخ)

خطب إلى عقيل بن عُلفه ابنته فردّه وقال:

رددتُ صحيفة القرشي لما   أبت أعراقه إلا احمرارا

يريد أن فيه شبها للعجم وعرقا منهم فلم يزوّجه لذلك. وكان هشام أبيض أشقر فهو مظنة أن يكون أعجمي الأصل. والعرب تسمي الأعجمي أحمر، وتجمعه على أحامر. لأن الشقرة تغلب على جنسه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «بُعثت إلى الأسود والأحمر» يريد إلى العرب والعجم

وروى أبو عبيدة أنه قيل لعقيل: والله ما نراك تقرأ شيئاً من القرآن. قال: بلى والله إني لأقرأ. قالوا: فاقرأ. «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه» فقرأ «إنا خرّطنا نوحا إلى قومه» قالوا: أخطأتَ والله. قال: فكيف أقول؟ قالوا. تقول: «إنا أرسلنا نوحا» لا «خرّطنا نوحا» فقال: أشهد أنكم تعلمون أن

« أرسلنا » و « خرَّطنا » سواء ثم أنشد

خُذا صدرَ هرشَى أوقفاها فإنما
كلا جانبي هَرشى لهنَّ طريق

وهذا البيت يُتمثل به حين التسوية بين أمرين . و(هرشى) كسكرى ثنية قرب الجُحفة فى طريق مكة يُرى منها البحر ولها طريقان طريق عبَّر عنه الشاعر بصدر هرشى وطريق عبَّر عنه بقفا هرشى ، وضمير (لهنَّ) يرجع إلى النياق . والخطاب فى (خذا) يرجع إلى رفيق سفره فهو يقول لهما : اسلكا إلى هرشى أىَّ الطريقين شئتما : جهة صدرها أو جهة قفاها فأنتما واصلان إليها .

وهذا المثل الفصيح على حد المثل العامىِّ الشامىِّ (كل الدروب على الطاحون) أى تؤدى إليها . ومعنى (خرطنا) الذى قال عقيل إنه بمعنى (أرسلنا) ماذكره القاموس فى قوله (خرط عبده على الناس إذا أذن له فى أذاهم) .

قال التاج (شبه العبد بالدابة التى يُفسح رسنها وترسل مهملة تفعل ماتشاء) فالخرط أصله فى الدابة ثم نقل إلى العبد ، ونقله عقيل إلى نوح عليه السلام ، وهذا من عنجهيته وتعنته فى جاهليته

ولعقيل شعر يؤثر لفصاحته وبلاغته : من ذلك قوله يرثى ابنه علفة :

لتمش المنايا حيث شئن فانها
مُحلّلة بعد الفتى ابن عقيل

فتى كان مولاه يحل بنجوة
فحلَّ الموالى بعده بسبيل

يقول : إن حلفاء علفة أو جيرانه كانوا فى حياته ينزلون فى مرتفع من الأرض حيث هم مكرمون أو حيث تضىء نيرانهم للمدلجين بما يجود به عليهم علفة من القرى ، أما اليوم وقد مات علفة فنزولهم أصبح فى قوارع الطرق حيث يُمتهنون أو حيث يتكففون الناس طالبين صدقتهم كعامة أبناء السبيل . ونَسبَ إليه بعضهم البيت المشهور :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتد ساعده رمانى

وإنه قاله فى ابنه عميس والصحيح أن هذا البيت من أبيات لغيره . فلعله استشهد به كما استشهد به على بن أبى طالب رضى الله عنه فنسب إليه أيضاً .

أما النص الذى روى من أخبار عقيل وفيه اضطراب وتلفيق من جهة ، وعبرة اجتماعية اسلامية من جهة ثانية — فهو مافى كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام (صفحة ٢١٤) ونصه :

« حدثنى أبو عبيدة أن يزيد بن عبد الملك خطب إلى عقيل ابن علفة ابنته وقال : زوجنى فلست بواجد فى قومى مثلى . قال عقيل : بلى والله لأجدن فى قومك مثلك وما أنت بواجد فى قومى مثلى . فحبسه يزيد فضرب عقيل كتف ابنه جثامة وقال زوجه يابنى فأنت أحق باللائمة ، فزوجه أم عمرو ابنة عقيل ، فلما أهداها تمثل جثامة فقال :

أيعذر لاهينا ويلحين فى الصبى
وهل هن والفتيان إلا شقائق

فرماه عقيل بسهم وقال : أتتمثل بهذا عند بناتى ؟ فخرج جثامة مراغماً لأبيه (أى مفارقاً له على رغم منه وكراهة) فأتى يزيد ابن عبد الملك فكتب عقيل الى يزيد : إنه قد أتاك أعق خلق الله . وكان يزيد قد أعطاه وحباه . فأخذ ذلك منه وحبسه » انتهى نص ابن سلام .

لكن الخبر من عند قوله (فلما أهداها تمثل جثامة الخ لا يلتحم مع ما قبله إذ لا علاقة بتمثل جثامة بهذا الشعر : أيعذر لاهينا الخ مع تزويج عقيل ابنته من الخليفة . فلم يبق إلا أن الخبر مضطرب يحتاج إلى تصحيح . أو نقول هو ملفق يحتاج إلى تقويم وتوضيح .

والتلفيق أصله فى الثوب : يعمد إلى مابلى وما ورث من وسطه ثم يضم لفقاه (أى طرفاه) أحدهما إلى الآخر ويخاطان .

فالخبر المنقول من طبقات الشعراء ينتهى لفقه الأول عند قوله (فزوجه أم عمرو ابنة عقيل) وبين هذا اللفق واللفق الذى بعده وهو (فلما أهداها تمثل الخ) كلام ساقط سهواً من النساخ يمكننا العثور عليه فى معجم البلدان طبعة أوربا (ج ٤ ص ٦٦٧) عند الكلام على دير سعد . وهذا نص ما فى المعجم بعد حذف السند :

« خرج عقيل بن علفة وابنه جثامة وابنته الجرباء . (ولعلها غير أم عمرو التى زوجها من الخليفة فى الخبر المنقول عن طبقات الشعراء) حتى أتوا بيتاً له ناكحا فى بنى مروان بالشامات (يعنى أن عقيلا كان ناكحا أى متزوجا امرأة فى بنى مروان وقد أتاه زائراً مع ولديه . والشامات هى بلاد الشام) ثم إنهم قفلوا حتى

إذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل :

قضت وطراً من دير سعد وطالما — على عرض ناطحنه بالجماجم

ضمير قضت يرجع إلى النياق . وقوله (على عرض) بالعين المهملة ولعل صوابه (على غرض) بالمعجمة مصدر غرض إليه إذا اشتاق إليه) .

، ثم قال عقيل لابنه : أنفذ يا جثامة (أى أجز البيت بضم بيت آخر إليه) فقال جثامة :

فأصبحن بالموماة يحملن فتية — نشاوى من الادلاج ميل العمائم

إذا علم غادرنه بتنوفة — تذارعن بالأيدى لآخر طاسم

(طاسم بمعنى طامس وكأنه مقلوبه) ثم قال عقيل لابنته الجرباء : أنفذى يا جرباء فقالت :

كأنَّ الكرى سقاهمو صَرْخَدِية

عُقارا تمطى فى المطا والقوائم

(قول الجرباء هذا فى وصف الخمرة وتأثيرها فى ظهر شاربها وقوائمه راب أباها عقيلا وجعله يعتقد أن ابنته الجرباء من شاربى الخمرة وإلا لما أجادت وصفها)

فقال عقيل : شَرِبْتِهَا وربِّ الكعبة ، لولا الأمان لضربتُ بالسيف تحت قُرطك . أمَا وَجَدْت من الكلام غير هذا ؟

فقال جثامة أخوها (منافحاً عنها) : وهل أساءت ؟ إنما أجادت وليس غيرى وغيرك (يريد جثامة) أنه لا يضرّ أخته فى خلوتها مع أبيها وأخيها إذا قالت الشعر وأجادت فى وصف الخمرة ، وإجادتها لوصفها لا يستلزم أن تكون شربتها . وإنما هى أديبة متقنة لصنعة الكلام وقرض الشعر فهى إنما تدل فى شعرها على مقدرتها وإجادتها الصناعة لا أكثر ولا أقل . لكن دفاع جثامة عن أخته الجرباء غاظ أباه عقيلا فرماه بسهم فاصاب ساقه وأنفذ الرحل . ثم شدّ على الجرباء فعقر ناقتها . ثم حملها على ناقة جثامة وتركه عقيراً مع ناقة الجرباء . ثم قال لولا أن تسبنى بنو مرة لما عشت (وهذا خطاب لابنه العقير أو ابنته) ثم خرج متوجهاً إلى أهله وقال للجرباء : لئن أخبرت أهلك بشأن جثامة أو قلت لهم إنه أصابه غير الطاعون لأقتلنك . فلما قدموا على بنى القين ندم عقيل على فعله بابنه جثامة فقال لهم : هل لكم فى جزور انكسرت (يريد ناقة الجرباء التى عقرها) قالوا : نعم . قال : فالزموا أثر هذه الراحلة حتى تجدوا الجزور . فخرجوا حتى انتهوا إلى جثامة فوجدوه قد أنزفه الدم فتقسموا الجزور واحتملوا جثامة وأنزلوه عليهم وعالجوه حتى برئ وألحقوه بقومه ، فلما كان قريبا منهم تغنى :

أيعذر لاهينا ويُلحين فى الصِبى — وما هنّ والفتيان إلا شقائق

المراد بالصِبى اللهو الذى يكون فى زمن الصبى عادة : فقال له القوم إنما أفلتَّ (أو صوابه أبْلَلْتَ) من الجراحة التى جرحك أبوك آنفاً وقد عاودتَ ما يكرهه . فامسك عن هذا ونحوه إذا لقيتَه لا يلحقك منه شر وعُرّ (العُر الجرب والعرب يقرنونه بالشرّ لأنه يتلف إبلهم فكان أبغض شىء إليهم) فأجابهم جثامة : إنما هذه خطرة خَطَرَتْ ، والراكب إذا سار يغنّى) انتهى نص المعجم .

فقول جثامة : أيُعذر لاهينا الخ إنما جاء فى خبر رجوع عقيل مع ابنه وابنته من عند أصهاره بنى مروان المقيمين فى الشامات كما هو فى معجم البلدان ولم يجئ فى خبر تزويج جثامة أخته من الخليفة كما هو نص طبقات الشعراء . وقد تبين من هذا أن نص الطبقات ملفق من الخبرين المذكورين .

وفى الخبر الثانى الذى جاء فى معجم البلدان وصف لنفسية عقيل بن علفة الجاهلى الجافى الطبع ونفسية ولدَيه الناشئين فى الاسلام وقد فهما منه (أى من الاسلام) أنه لا يشدد النكير على متبعيه إلا فى ارتكاب منكر أو استباحة حرام . أما أن تقول الفتاة المسلمة الشعر وتحسن صنعته وتصف الخمرة بما جعله الله فيها من تأثير فى جسم شاربيها فلا يراه ذلك الفتى المسلم حراما ، وإنما الحرام شربها فهو الذى يجب تجنبه . ولذا وقف فى جانب أخته ينافح عنها . ويدرأ صولة أبيه الجاهلى عليها ويرفع صوته — كما علمه الاسلام — بان للفتيات الحق فى تناول متع الحياة المباحة كما للفتيان . وانه كما يعذر اللاهى من الفتيان ينبغى أن تعذر اللاهية من الفتيات : فلا يعذرون هم ويلحين هن بغياً وعدوانا إذ ليسوا جميعاً إلا شقائق وإخواناً . وقد جاء هذا الشعر الذى تمثل به جثامة قولا شارحاً للاثر المأثور : « النساء شقائق الرجال » .

« دمشق » — عبد القادر المغربى

على ذكر الحرب الأهلية فى اسبانيا

نهضة العلوم الطبية

فى اسبانيا العربية وتأثيرها فى اوربا

للدكتور زكى على

من بين الكتب التى ظهرت أخيراً عن الحرب الأهلية المروعة القائمة فى اسبانيا الآن كتاب « الثورة فى أسبانيا » قال فيه مؤلفاه هارى جانس وتيودور رابارد فى معرض الكلام عن ماضى اسبانيا : « إن طرد العرب من اسبانيا كان كارثة على مدنيتها وقد كان الباعث عليه التعصب للروح الاقطاعية السائدة فى أوربا والرغبة فى تقويض دعائم الثقافة العربية وتأثيرها »

وقد أعادت الحرب الحاضرة فى أسبانيا ذكريات تاريخها الماضى وكيف كان عهد العرب أزهى عصورها ، وكثيراً ما أشارت صحف أوربا إلى ذلك الماضى إما بالمقالات أو بالصور . وأذكر أننى رأيت صورتين رمزيتين تبعثان فى النفس مزيد الاعتبار إحداهما فى صحيفة أمريكية تمثل « عودة العرب » والأخرى على غلاف مجلة سويسرية مصورة تمثل « العرب على أبواب مدريد » إشارة إلى انتظام فرق من عرب المغرب الاسبانى فى سلك جيش الجنرال فرانكو لفتح اسبانيا ، ولكن شتان بين الفتحين ، وما أعظم الفرق بين العهدين . ولست بصدد الكلام عن تاريخ الفتوحات والحروب وإنما أحببت اتخاذ الأحوال الحاضرة وسيلة للتذكير بما كانت عليه أسبانيا من النهضة على عهد العرب قاصراً الكلام على العلوم الطبية وما كان لها من تأثير ونفوذ فى الحركة الفكرية فى أوربا فى ذلك الحين وهى التى صارت أساس نهضتها فيما بعد .

كان لتألق نجم الثقافة العربية فى سماء اسبانيا على أثر الفتح الاسلامى أعظم الأثر فى نهضة العلوم الطبية لا فى اسبانيا وحدها بل فى أوربا باجمعها . وكان لما أولاه الخلفاء العلوم والفنون من العناية والتشجيع فضل كبير فى ازدهار الحركة الفكرية والنشاط العقلى وانبعاث أضواء الحضارة العربية لتسرى فى سائر أنحاء أوروبا ، وسرعان ما أصبحت اسبانيا أسطع درة فى سلسلة الثقافة العربية الممتدة من ربوع الهند إلى أقصى غرب أوربا ، وعن طريق هذه الحلقات المتصلة من مدنية الاسلام تدفقت الكنوز الضخمة من علوم الأقدمين التى كانت نسياً منسياً قبل أن يبعثها العرب ويضيفوا إليها كنوزاً غنية جديدة بفضل عبقريتهم وأثر الاسلام فى حضهم على البحث وحثهم على الكشف والدرس والتحصيل

وما أتى القرن العاشر للميلاد حتى كان العرب قد أحضروا إلى أسبانيا مجموعة ضخمة من التآليف العلمية والطبية الاغريقية والعربية ، ووضعوا بذلك أساس الحركة الفكرية التى دامت فى عصرها الذهبى من القرن العاشر ، إلى الثالث العشر ، وجعلت اسبانيا فى ذلك الحين ، المركز الوحيد الذى يشع على أوروبا النور والعرفان ، والذى سرت منه الثقافة العربية ، حتى صارت ملموسة الأثر فى سائر أنحاء الغرب

ونبغ فى هذه الحركة طائفة كبيرة من علماء العرب وشخصياتهم الطبية البارزة ، وكان لأعمالهم وتواليفهم أثر مباشر فى نهضة العلوم الطبية لاسيما أن الخلفاء أكثروا من تشييد المستشفيات ، وكانوا يلحقون بها المدارس الطبية ومدارس الصيدلة والمكاتب العلمية .

وقبل أن نخص بالذكر هنا أشهر البارزين فى هذه النهضة نشير إلى ما يدل على مبلغ حضارة أسبانيا وازدهارها تحت حكم العرب ، فنذكر أنه فى القرن العاشر بلغ عدد سكان قرطبة أكثر من ثلاثمائة نفس ، وكان بها خمسون مستشفى وتسعمائة حمام وثمانمائة مدرسة وستمائة مسجد ومكتبة ضخمة تحوى ستمائة ألف مجلد وسبعون مكتبة خاصة . وإذا ما أشرنا فى هذا المقام إلى جامع قرطبة الشهير ، الذى يعتبر من ايات الفن – لا فى العصر الاسلامى وحده بل فى كل العصور – فإننا نذكر الكلمة الشهيرة التى وجهها شارل الخامس سنة ١٥٢٦ إلى مجلس الكاتدرائية الكاثوليكية توبيخا لهم على تشييد الكنيسة فى قلب الجامع العظيم ، إذ قال لهم : « قد بنيتم هنا ما تستطيعون ، وكل واحد سوا كم – بناءه فى جهة أخرى ولكنكم خربتم ما كان فريدا فى العالم كله »

وفى صدد الحضارة العربية أيضا يقول الطبيب المؤرخ الأمريكى فكتور روبنصن صاحب « قصة الطب » : « كانت أوروبا فى ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة ، كانت أوروبا قذرة ، بينما قرطبة شيدت ألف حمام ؛ كانت أوروبا تغطيها الهوام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة ؛ كانت أوروبا غارقة فى الوحل ، بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع ؛ كانت سقوف القصور فى أوروبا مملوءة بثقوب المداخن ، بينما قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة ؛ كان أشراف أوروبا لا يستطيعون إمضاء أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس ؛ كان رهبان أوروبا يلحنون فى تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة

قد أسسوا مكتبة تضارع فى ضخامتها مكتبة الاسكندرية العظيمة . »

والآن نعود لنذكر بين متقدمى المشاهير فى النهضة الطبية ابن الوافد الذى اشتهر فى أوربا باسم Abru Gue Fit (٩٩٧ - ١٠٧٤) وكان طبيباً بمستشفى طليطلة وامتاز بانه وضع أساس طريقة عقلية للعلاج مرتكزة على النظم الغذائية . وكان أشهر مؤلفاته كتاب الأدوية البسيطة De Medicamentis Simpzicibus طبع هذا الكتاب بعد ترجمته إلى اللاتينية أكثر من خمسين مرة . ثم هناك أبرز شخصية فى النهضة الطبية العربية وفخر الجراحة العربية أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الذى عرفته أوروبا باسم Albucasis (١٠١٣ - ١١٠٦) وإليه يرجع الفضل فى النهوض بمهنة الجراحة إلى المركز اللائق بها وكانت قبله قد انحطت إلى الحضيض ولكن سرعان ما بلغت الجراحة على يد أبى القاسم الزهراوى أعلى مراتبها فى ذلك العصر فانه ألف فى الطب النظرى والعملى كتابه الشهير « التصريف لمن عجز عن التأليف » وبه قسم خاص بالجراحة يقع فى ثلاثة كتب استوفى فيها أبو القاسم علوم الجراحة وعملياتها وبين آلاتها بالصور فكان تأليفه هذا أول كتاب موضح بالصور والأشكال فى الجراحة . ولا أجد فى هذا المقام قولا أدل على مكانة الزهراوى من قول الأستاذ الشهير فورج Forgue من أعظم الجراحين الفرنسيين فى الوقت الحاضر إذ كتب عنه منذ سنوات : « يعتبر الزهراوى بلا شك أعظم شخصية فى الجراحة العربية ، وهو الحجة التى كان يلجأ إليها كافة مؤلفى الجراحة فى العصور الوسطى مع أعظم الاحترام . وقد ولد فى الزهراء (من ضواحى قرطبة) التى كانت فرساى خلفاء بنى أمية فى الأندلس . ويستحق كتابه فى « الجراحة » أن يبقى فى تاريخنا كأول تأليف فى الجراحة على أنها علم مستقل مؤسس على قواعد التشريح . وصار كتابه فيما بعد مرشد الجراحين منذ ترجمه إلى اللاتينية حوالى وسط القرن الثانى عشر جيرار دى كريمونا . ومما يبرهن على أن الزهراوى كان الثقة والعمدة فى الجراحة والمشار اليه فى علومها أن سلفنا العظيم جى دى شولياك جراح مونبليه استشهد بأبى القاسم فى مؤلفاته نحو مائتى مرة !

« ولا مراء فى أن الجراحة العربية فى ذلك الحين تقدمت تقدماً عظيما فى الغرب . ويكفى أن نذكر أنه فى أواخر القرن الثالث عشر لما قدم الجراح لا نفرانك من إيطاليا ودرس مؤلفات أبى القاسم أصدر رأيه فى جراحى باريس لذلك العهد بقوله : « يقومون بالعمليات الجراحية مع درجة من الجهل يكاد لا يوجد معها شخص واحد منهم يمكن أن يعد جراحاً حقيقياً ! وقد كان أبو القاسم أول من كتب فى علاج الأقواس الضرسية (فى طب الأسنان) وتشوهات الفم ، وأول من ربط الشرايين قبل امبرواز باريه الفرنسى . وقد وصف عمليات تفتت حصاة المثانة وعملية استخراجها بالشق ، وتكلم عن مسألة التقيح ووصف الوضع المعروف باسم « وضع والحز » فى التوليد ، والشلل عقب كسر السلسلة الفقرية ، وتكلم بدقة عن إزالة الأجسام الغريبة من الأذن ، وأجرى عملية فتح قصبة الرئة Trachéo tomie ، وعالج الخراجات الكبيرة - بشقها وتفريغها تدريجاً ، واستعمل محلول الملح فى علاج الجروح ، ووصف علاج الناسور بالكى . وهو أول من استعمل « السنارة » فى استخراج الورم المسمى « بوليبوس » ، وتكلم فى موضوع الولادة عن مجىء الجنين فى الأوضاع غير المنتظمة ، وعن التوليد بالآلات . وهو أول من أدخل استعمال الحرير وأوتار العود بهيئة خيوط للربط فى العمليات الجراحية ، وتكلم أيضا عن وقف النزف بالكى ، وقد بقى كتاب أبى القاسم فى « الجراحة » أساس التعليم الجراحى ومزاولة مهنة الجراحة فى أوربا عدة قرون ، ونشرت ترجمته فى فينا سنة ١٤٩٧ ؛ وفى سنة ١٥٠٠ كان المعول عليه فى تعليم الجراحة فى مدرسة البندقية بايطاليا ، وطبع أيضاً فى « بال » بسويسرا سنة ١٥٤١

وأما أشهر أطباء العرب الاكلينكيين فى الأندلس فهو محمد بن مروان بن زهر الاشبيلى وعرف فى أوربا باسم Avenzoar (توفى سنة ١١٦٢) وهو ينحدر من عائلة عربية عريقة أنجبت كثيراً من الأطباء . وذاعت شهرته الطبية فى جميع الأنحاء . وهو أول من ثار على طريقة جالينوس وابتكر طرقا جديدة تدل على عبقريته ؛ وأهم كتبه « التيسير » وفيه وصف شامل لأمراض عديدة . وكان ابن زهر أول من وصف التهاب التامور المصلى وخراج المنصف الصدرى وشلل البلعوم والتهاب الأذن الوسطى . ووصف لبن الماعز فى الدرن ، ويعتبر أيضاً أول عالم بالطفيليات لأنه أول من أتقن وصف حيوان الجرب .

وأما أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد (Averroes) القرطبى (١١٢٦ - ١١٩٨) الطبيب الفيلسوف العظيم فمع أنه بلغ ذروة الشهرة كفيلسوف الاسلام وشارح أرسطو فقد كان له أيضاً فضل لا ينكر فى تقدم العلوم الطبية ؛ وهو الذى هز بناء التعاليم الجالينية من أساسها ، وزعزع نظرية صفة الأدوية الكثيرة Polypharmacie فى التذاكر الطبية ، وهو أول من أشار إشارة علمية إلى الدورة الدموية فى كتابه « الكليات » فسبق بذلك وليام هارفى . ومن أعظم الشخصيات الأندلسية فى القرن الثانى عشر الفيلسوف الطبيب الاسرائيلى موسى بن ميمون (Maimonides) الذى صار فيما بعد طبيباً خاصاً لسلطان صلاح الدين ، وله مؤلفات

عديدة فى الفلسفة والطب ترجمت من العربية إلى اللاتينية ومنها كتابه فى « السموم والتحرز من الأدوية القتالة » وكتاب« البواسير » (وترى هنا صفحة من هذا الكتاب الأخير عن نسخة خطية نقلت عن الأصل الذى كتبه ابن ميمون بيده) وكتابا « الوصايا » فى التغذية«وقانون الصحة » و « بيان الاعراض » و « مقالة فى الربو »الخ


البقول المسلوقة على البيض ويقدم البيض على لحم الطير ولحم
الطير مقدم على لحم الضأن وكذلك يقدم ما يلين الطبيعة
ويؤخر ما يعصم الطبع مثال ذلك أن يقدم [illegible]
السماقية أو الرمانية ومن هذا الباب ايضا موضع شرب الماء
وذلك أن شرب الماء البارد قبل الطعام ضار جدا مولد لامراض
صعبة وشربه مع الطعام اقل ضررا لكنه يضر في هضم الطعام
وأفضل اوقات تناول الماء بعد الطعام بساعة [illegible] وأما وقت
تناولها فانه لا ينبغي الاكل الا على الجوع الصادق ويحذر الحركة
بعد الطعام [illegible] حتى يهضم وكل حركة بعد الطعام
[illegible] لا حركة رياضية ولا حركة
جماع ولا حمام ولا حركات نفسانية فاذا اعتمد هذا القدر
الذي ذكرناه في تناول الطعام والشراب كان ذلك كافيا
جدا في جودة الهضم على العموم الباب الثاني
في الاغذية التي تجتنب لاجل هذا المرض قد علم ان اكثر
تولد هذه البواسير هو من الخلط السوداوي واما تولدها عن
كثرة الدم فقليل واقل من ذلك تولدها عن البلغم والمشاهد
دائما هي المتولدة من السوداء وذلك ان الدم اذا كثر فيه الخلط
السوداوي غلظ الدم وتعكر وتجنبه الاعضاء وتدفع ذلك
الفضل من عضو الى عضو الى ان يرسب ذلك الثقل والعكر

ويمتاز ذلك العصر بازدهار فن الصيدلة ايضاً وظهور التواليف العديدة فيه . واسم « ابن البيطار » أشهر من أن يذكر ، وقد ولد أبو محمد عبد الله بن احمد بن البيطار فى « مالقة » وصار أوحد زمانه فى علم النبات وأتقن دراية كتاب « ديسقوريدس » الاغريقى اتقانا بالغاً وكان حجة لا يبارى فى علوم الأدوية المفردة والحشائش ، وأهم كتبه « الجامع فى الأدوية المفردة » وهو فريد فى بابه إذ يشتمل على وصف دقيق لأكثر من ألف واربعمائة عقار كان جزء كبير منها جديداً فى ذلك الوقت ، وصار هذا الكتاب فى الواقع المرجع الأساسى فى أوروبا للمادة الطبية وعلوم الأغذية .

أما كتب الأدوية المركبة فكانت تسمى الأقرباذين (ماخوذة عن اليونانية) وهو اسم حرف فيما بعد فى المخطوطات اللاتينية المترجمة عن العربية إلى كلمة Grabadin والعرب هم أول من وضع دساتير الأدوية المعروفة الآن باسم « فارما كوبيا » وعنهم أخذتها أوروبا كما أخذت عنهم عادة وضع الأوانى الزجاجية الكبيرة المحتوية على السوائل الملونة عند مدخل الصيدليات وكان نظام الصيدلة عند العرب يقضى بالتميز بين مخازن العقاقير (ويقابله الآن Droguerie) لبيع العقاقير البسيطة بحسب تعريفة محددة وبين الصيدليات (الاجزاخات) (Pharmacie) لصرف العقاقير المركبة والتذاكر الطبية وكانت كلها موضوعة تحت الرقابة الشديدة بمقتضى القانون . وقد أدخل فردريك الثانى هذا النظام إلى أوروبا وأصدر سنة ١٢٣٣ قانوناً بقى نافذ المفعول زماناً طويلا فى صقلية ، كان يكلف الطبيب بمقتضاه أن يبلغ عن أى صيدلانى (صيدلى) يثبت له أنه يبيع أدوية فاسدة

وقد أخذت أوروبا عن العرب استعمال كثير من الأدوية الجديدة ذات المفعول اللطيف والتى أدخلها العرب فى المادة الطبية للعلاج مثل السنا المكى والراوند والتمر الهندى والمسك والقشية Cassia والمسن والكافور وجوز الطيب والقرنفل والزعفران والشمر وعرق السوس . وعن العرب أيضاً أخذت أوروبا طريقة طلاء حبوب الأدوية بالورق المذهب أو المفضض وتقطير ماء الورد ، كما أن أوروبا مدينة للعرب بإدخال الجوز المقيء فى القرن الحادى عشر والأكونيت (خانق الذئب) وشرح تأثير الإرجوت (الجويدار) والحنظل والقنب الهندى والعنبر . وكان دستور الأدوية (الفارما كوبيا الاسلامية) فى اسبانيا يحتوى على أكثر من مائتى نبات جديد لم تعرفها أوروبا من قبل . ولا يزال كثير من الكلمات العربية الأصل مستعملة فى الصيدلة إلى اليوم منها الكحول والشراب والقلى Alkali والنفط Naphtha والبازهر (بنزهير) be zoar والجلاب jalap .

ثم كان من مفاخر المدنية الاسلامية إنشاء المستشفيات فى معظم المدن الكبيرة مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية ومرسية والمرية ومالقة وغيرها ، وكان نظام هذه المستشفيات وإدارتها وتجهيزها تجهيزاً وافياً على نسق لم تعرفه أوروبا فى ذلك العهد . وفضلا عن أن هذه المستشفيات كانت مراكز لعلاج الأمراض فقد كانت أيضاً معاهد للتعليم الاكلينيكى وأكاديميات للمعارف الطبية ، وكانت مجهزة بمكاتب طبية نفيسة . ويعزى إلى العرب أيضا الفضل الأول فى إيجاد المستشفيات الخاصة بذوى الأمراض العقلية ومن أهم تلك المستشفيات ما أنشأوه فى بلنسية ، وقد شهد جميع مؤرخى الطب بأن للعرب فخر معاملة هؤلاء المرضى بالرفق والشفقة والانسانية بينما كان « المجانين » فى أوروبا يعاملون إذ ذاك كالمجرمين يعذبون

ويضطهدون . وقد أعاد جوان جيلابرت جوفريه بناء مستشفى بلنسية للأمراض العقلية عام ١٤١٠

كذلك لما أراد فيليب الثانى عام ١٥٦٦ أن يعيد تنظيم المستشفيات فى مجريط (مدريد) أقام على أنقاض معهد سان لا زاروا (وكان فى الأصل مستشفى أسسه المسلمون) مستشفى جديداً باسم سان جوان دى ديوس ، وضم اليه مستشفى دى لا باز للأمراض المعدية ولذوى العاهات .

وقد أظهر أطباء العرب فى اسبانيا فى فهم الأوبئة والعدوى مقدرة وذكاء منقطعى النظير بين كافة أطباء أوروبا فى العصر القديم والعصور الوسطى ، يدلك على ذلك أنهم بحثوا منشأ الأوبئة وانتشارها بالعدوى . وقد ألف الطبيب الشهير ابن الخطيب من غرناطة (١٣١٣ - ١٣٧٤) كتاباً نفيساً عن (الطاعون) وصف فيه الطاعون الذى حل بأوروبا فى القرن الرابع عشر وذكر فيه أن وجود العدوى تثبته التجربة ثم البحث ودليل الحواس ثم الرواية الموثوق بها عن انتقال المرض بالملابس والأوعية والحلى (كالقرط فى الأذن) ومن شخص لآخر فى المنزل الواحد وباصابة ميناء سليم بوصول أناس مرضى من أرض موبوءة . . . ! »

وكذلك كتب « ابن خاتمة » (توفى ١٣٦٩) كتابا عن الطاعون الذى فتك بالمرية فى اسبانيا فى سنتى ١٣٤٨ و ١٣٤٩ ، وهذا الكتاب يفوق فى دقته كل ما كتب فى أوروبا عن الطواعين من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر .

ولا يتسع المقام هنا للاسهاب فى ذكر سائر النوابغ من أطباء العرب فى ذلك العصر . وإنما ننوه بأنه كان من أهم عوامل بث العلوم الطبية العربية ونشرها فى أوروبا إنشاء مدارس الترجمة التى كانت أهمها مدرسة طليطلة التى شيدها فى سنة ١١٣٠ الأسقف ريموند وازدهرت حتى القرن الثالث عشر .

وكانت جامعات العرب فى اسبانيا إذ ذاك قبلة أنظار طلاب العلم من كافة أنحاء أوروبا فكانوا يفدون اليها من كل حدب وصوب لينكبوا على دراسة العلوم العربية وترجمتها ثم نقلها إلى بلادهم فظل النفوذ العربى سائداً فى الغرب قروناً عديدة وظلت تآليف الأطباء العرب مدة خمسمائة سنة برنامجا لدراسة الطب فى أوروبا .

ومما يدلك على مدى سريان النفوذ العربى وهيمنته على النهضة الطبية فى أوروبا أن الطبيب الشهير بطرس ألفونسو (ولد سنة ١٠٦٢) بعد أن أتقن الطب فى مدارس العرب فى اسبانيا قدم إلى انجلترا ليكون طبيباً خاصاً للملك هنرى الأول واشترك مع (والحز وبرايور أوف ما لفرن) فى وضع كتاب فى الفلك اعتمد فيه على المصادر العربية .وكانت جهود هؤلاء الثلاثة بمثابة أول أثر للعلوم العربية فى انجلترا ثم لم ينقض بعد ذلك وقت طويل حتى امتاز أديلارد أوف بات بكونه أول عالم أوربى كبير حضر إلى طليطلة للتخصص فى العلوم العربية ، فاتصلت بذلك الحلقة الثقافية بين اسبانيا العربية وانجلترا . ومن ثم ازداد اهتمام العلماء فى انجلترا بعلوم العرب وتفوق من بينهم ميشيل سكوت (١١٧٥ - ١٢٣٢) وروجر با كون (١٢١٤ - ١٢٩٤)

فأما سكوت فكان طبيبا وفيلسوفا ومتضلعا فى العربية ، وبعد أن درس فى اكسفورد وباريس انتقل إلى بالرمو وبولونيا بايطاليا ، ومن هناك واصل سفره فى طلب العلم إلى طليطلة ليروى ظمأه من ينابيع حكمة العرب وعلومهم وفلسفتهم ، واشتهر فيما بعد بتآليفه الكثيرة فى الكيمياء والفلك والطب وكان أكثر اعتماده على المصادر العربية .

وأما روجر با كون فقد اشتهر فى اكسفورد بكونه شارح الفلسفة العربية والارسطوطية وألف فى علم البصريات كتابا نقل فيه عن كتب الخازن ، وهناك فى مكتبة مجلس كاندرائية كانتربورى نسخة خطية مزخرفة من أواخر القرن الثالث عشر تسمى Vetus togica هى أقدم تفسير معروف لكتاب ارسطو فى المنطق ظهر فى انجلترا على أثر احياء العرب لفلسفة ارسطو ، وهى تحمل اسم جون دى لندن الذى أخذ عن روجر با كون العلوم العربية .

ويرجع إلى العرب ايضا فضل المحافظة على تراث الطب الاغريق القديم وهناك حقيقة ذات أهمية قصوى فى هذا الصدد وهى أن سبعة كتب من « تشريح جالينوس » وصلت أوربا عن طريق ترجمتها العربية أما أصولها الاغريقية فكانت قد فقدت .

وكان أشهر المترجمين للعلوم الطبية من العربية إلى اللاتينية « جيرار دى كريمونا » ١١١٤ - ١١٨٧ الذى اشتغل فى مدرسة طليطلة معظم حياته وأتم فى العشرين السنة الأخيرة منها ثمانين ترجمة بعضها فى غاية الأهمية ، ومنها كتاب الجراحة لأبى القاسم الزهراوى وقانون ابن سينا ، وكتاب المنصورى للرازى، وبعض أجزاء « الحاوى » .

ومن أعظم المترجمين والمفكرين من الأوروبيين فى العصور الوسطى جربرت دى أوريلاك (٩٣٠ - ١٠٠٣) الذى صار فيما بعد البابا سلفستر الثانى فانه عبر جبال البرانس وأتى إلى طليطلة لتحصيل علوم المسلمين ونقلها إلى أوروبا القوطية ، ثم إنه عاد إلى فرنسا وأذاع علوم العرب فى مدينة (ريمس) ثم نقل تلك العلوم إلى أنحاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ويعتبر أحد واضعى أساس النهضة العلمية والأدبية والدينية فى أوروبا فى القرن الحادى عشر ويقال إنه الذى أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية .

ومن بين مشاهير الذين حضروا من انجلترا إلى طليطلة روبرت

أوف إنجلاند ، (عاش حوالى ١١٤٣) وهو أول من ترجم القرآن ثم دانيل مورلى (١١٧٠)

وكان ارنولد دى فيلا نوفا (١٢٣٥ – ١٣١٣) آخر العلماء الاسبان الذين كان لهم نصيب وافر من ترجمة مؤلفات العرب الطبية إلى لغات الغرب ، وقد صار فيما بعد طبيبا خاصا لبطرس الثالث ملك أرغون ، ودرس الطب فى جامعة مونبليه ونقل عن العرب استعمال الصبغات فى الأدوية ، وأدخلها فى دساتير الأدوية الأوربية ، كما أنه ترجم كتاب ابن سينا عن القلب

وقد أنار العرب لأوربا سبيل الدراسة المبنية على التجربة والمشاهدة ويقول مؤرخ مونبليه الشهير جرمان (الفرنسى) إن بقاء مؤلفات الأطباء العرب فى برنامج الدراسة الطبية فى مونبليه حتى ختام القرن السادس عشر خير شاهد على صفات الايضاح والتنوير وعلى الطريقة التعليمية التهذيبية التى امتاز بها الكتاب العلميون فى الأمة العربية ،

وتوجد فى سجلات كلية الطب بباريس قائمة جرد للكتب الطبية بها فى سنة ١٣٩٥ تحتوى على اثنى عشر مجلدا كلها مؤلفات لأطباء العرب . وكان لويس الحادى عشر دائم القلق على صحته ولهذا كان حريصاً على أن تكون فى مكتبته كتب « الرازى » الطبيب العربى الأشهر ولم يكن منها إذ ذاك فى مكتبة مدرسة الطب بباريس سوى نسخة واحدة فاستعارها الملك بشرط أن يردها وقد فعل !

وأرى فى ختام هذا البحث أن أذكر كلمة المؤرخ « لبرى » : « ولولم يظهر العرب فى التاريخ لتأخرت نهضة العلوم والفنون (الرينسانس) فى اوروبا قرونا عديدة » .

(جنيف) **زكى على**

الفـداء

للأستاذ أمجد الطرابلسى

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم »

قرآن كريم

شعّ من بَسمةِ الصباحِ الضّياءُ … وأفاقتْ منْ نومها البطحاءُ
وتعرتْ كثبانُها والرّوابى … وتغطّتْ هضابُها السّمراء
وتبدّتْ ذُكاءُ فانتفضَ الرّمْـ … ـلُ ابتهاجاً لمّا تبدّتْ ذُكاء
وشّتِ الأرضَ بالظلالِ فنوناً … هىَ للطّرْفِ والنهَى إغواء
فمن الشمسِ والرمالِ نُضارٌ … ومن الظلّ واحَـةٌ غنّاء
السهوبُ الفِساحُ ، والأفُقُ الزّا … هى ، وتلكَ الغمائمُ الشّقراء
والخِضَمُّ المَوّاج بالماسِ والتبْـ … ـرِ المصفّى والقبّةُ الزرقاء
والبطاحُ الغرْقَى ، وسِلْسِلَةُ الكُثْـ … ـبانِ ، والرّمْلُ ، والحصَى ، والسّناء
صورةٌ تغمرُ العيونَ وسِحْرٌ … عبقرىٌّ ، ومُتعةٌ ، ورُواء
وَحشةٌ ملؤها الجمالُ وصمتٌ … خاشعٌ لاتشينُهُ ضوْضاء
أيها الشاعرُ اتّئدْ ! هل تؤدى … ماتؤدّي الطبيعة الخرساءُ ؟
إنْ صمتَ الرِّمال عودٌ ومِزما … رٌ ونأىٌ ومِزهرٌ وحُداء
نَغَم يفْعِمُ المسامِـعَ سِحْراً ، … وغناءٌ ، هيهات منه الغناءُ !

***

مَنْ هوَ السالكُ القفارَ وئيداً … للأسى فى جبينه سيماء ؟
كاسفَ البالِ ليس يَبْهرُه الحسـ … ـنُ ، ولا يستبيه ذاكَ البهاء
مطرقاً رأسهُ الصديعَ تبدّى … في أساريرِ وجههِ البأساء
وإلى جنبهِ ابنهُ حائرَ اللبّـ … ـمِ تنزّى فى صدرهِ الأهواء
يتأسّى خُطَى أبيـهِ وللحمْـ … ـلانِ بالشاةِ أسوةٌ واهتـداء
يسألُ الرّملَ عن وجوم أبيهِ … فاذا الرّمل منصتٌ والفضاء

يسألُ الأرضَ والسماءَ فما تنـ   ـبيه أرضٌ ولا تجيب سماء !
وتراه يهمُّ يسألُ عن ذا   كَ أباه الحزينَ لولا الحياء
يا إلهى ! هـذا خليلُكَ إبرا   هيم يغـدو لما أرادَ القضاء
وإلى جنبهِ ابنـهُ البرُّ إسما   عيل سلواهُ فى الدُّنى والعزاء
جاءه وحيُكَ المقدَّسُ فى الليـ   ـل وقد عمّتِ الدُّنى الظَّلْماء
قال « قرِّبْ إلى السماءِ القَرابـيـنَ ، فقد شاقتِ السماءَ الدماء
إنها تبتغى وحيـدَكَ ذبحاً   ليسَ فى غيرهِ لها إرضاء ! »
هبَّ من نومهِ الشرودِ مُراعاً   ونأى عن جفونهِ الاغفاء
إنما تطلبُ السماءُ فتاه !   ليسَ مما تبغى السماءُ نجاء !
قد قضى اللهُ ما أرادَ وأمضى   وقضاءُ اللهِ الرحيمِ مَضاء
ليكن ما أرادَ سوفَ يضحّى   بابْنهِ وهو عيشُه والهناء . .
يارحيمَ الأكوانِ إحكمتُكَ الغرّا   ء ، حارتْ فى كُنهها الحكماء
إنّ أضرَى الجراحِ يارب ماعا   ناهُ فى الأرضِ رسْلُكَ الخلصاء
أنت قدّرتَ أن يعذّبَ فى الار   ض نبيٌّ ، ويَنْعمَ الأغبياء !

***

طالَ سيرُ الفتى وناءت قواه   وعراهُ بعـد النشاطِ وَناء
أينَ يمضى به أبوه ولا زا   د لديهِ ، وليس فى القفرِ ماء
ألفيافى ممتـدّةٌ كالأمانى   لا تناهى وكلهـا جَرداء
فإلامَ السيرُ المضنُّ وما لِلـ   ـقفرِ من أوّلٍ وليسَ انتهاءُ ؟؟...
وَتجرّى وقال يَستطلِعُ السرَّ   وقـد آده الوَنى والظَّماءُ
وشجاه الصمتُ الطويلُ ، وللصَّمـ   ـت على القلب غمةٌ دكناء :
« أبتى طالَ سيرنا وعرانى   نصبٌ منـه مُرْمِضٌ وعناء
أين نبغى ؟ لعلنا قد ضَلَلْنا   نهجَنا ! أينَ قصدُنا والرَّجاء ؟
أبتاهُ كلَّت يداى ورجلا   ىَ ، وأدمتْ أصابعى الحصباء
مِلْ إلى الظلِّ نَستجمَّ قليلا   فلقدْ هدَّ قوّتي الاعياء ! »
فأجابَ الأبُ الرحيمُ بواسيـ   ـهِ وقد شفّه الأسى والشقاء
باسماً يمنع المدامع أن تجـ   ـرى ، وأن تستفزَّه البرَحاء :
« ياصغيرى الحبيبَ ، كيفَ خباعز   مُكَ ، أين الثبات أينَ المضاء ؟
غايةُ السيرِ ذروةُ التلِّ هـذا ،   وعليـه المقيلُ والإرساء
فوقه يا بنى تؤسى الجراحا   ت ، وتلقى الجهودُ والأعباء
فوقه يابنىَّ يرقُبنا المعطـ   ـف من اللهِ ربِّنا والرِّضاء »
فاستحى الطفل من أبيهِ وأغضى   منتهى البثِّ والأسى الإغضاءُ
ثمَّ سارا وفى الفؤادين نارٌ   وأحاديثُ جمَّةٌ وبكاءُ ! ...

***

واستوتْ فى سمائها الشمس عجباً   وتَلَظّتْ من وقـدها الرَّمضاء
وتغنّتْ فيهـا الجنادبُ فرحى   وعليها من الرِّمال خِباء
سكنتْ خطرةُ النَّسائم فالأرْ   ضُ لهيبٌ والأفقُ والأجواءُ
وأناخَ الخمولُ كَلْكَلَهُ المُضـ   ـنى ، وأغفتْ كالمتعَبِ البيداءُ
فبكى الطفل لا يحيرُ شكاةً   والفيافى عن بثّه صماء
مُطرِقا رأسَهُ الصغير ليَخفى   عن أبيه البُكى ، وكيفَ الخفاء ؟
وأبوه الساجى يُسارقُهُ اللحـ   ـظَ فتنزو فى صدره الأدواءُ
مَشهَدٌ يمنعُ القوافى مِنَ الجر   ى وَتَعيَا عن وصفه الشعراء !
إيه دمعَ البنينَ ماذا يُعاني   ويقاسى مِنْ سكبكَ الآباء !؟
رحمـةً للأب الشفيق وللأمِّ   م إذا ما تَباكَتِ الأبناءُ !

***

مَسَح الطفل أدمعاً فوق خدّيْـ   ـهِ وأهـدابهِ لها لألاءُ
قائلاً والشحوبُ فى وجهِـه با   دٍ كمن قد براه داءٌ عَياء :
« يا أبى قد دنا المكان وفيه   للمَهيض الهناء والنعماءُ
هو ذا المذبحُ المُقدَّس والحبْـ   ـلُ ، وهذى سكينك العوْجاء
وعلى منكبىَّ محرَقةُ الذَّبْـ   ـح ، فأين الضَّحيّةُ القرْناء ؟
أتُرى قد نسيتها أمْ تراها   سبقتنا بها إليـه الرِّعاء ؟ »
صُعِقَ الوالدُ الوجيع وسالت   عَـبرةٌ فوق خدِّه عصماء
وأجاب ابْنهُ مُشيحاً بوجهـ   ـهِ غضّنَتْه السّنون والأرزاء :
« ياصغيرى هناك يرقُبُنا القر   بان ، لا يقعُدَنْ بنا الابطاء
لنحثّ الخطى إليـه سراعاً   فسيخلو لنا هناك البقاء »
إيه ياموكبَ الجلال الذى ما   دتْ له من خشوعها الصحراء !

فالروابى ذواهــلٌ مطرقاتٌ   والنُّسَيْمات حوله سَجواء
إنَّ هذى الدموعَ ضجَّت لها الدنيـــا ، ورُجَّتْ لسكبها الأرجاء
وأجـل الدموع ما يَذرف القلــب ، وتعيى عن حبسِهِ الكبرياء
الفتى خافتُ الأنين صَموتٌ   قد بَراه طول المَدى والخفاء
وأبوهُ يبكى عليـهِ حناناً   يا لدَمْعٍ تَسُحُّه الأنبياء !
يا لدمعٍ تهزُّهُ رحمـةُ القلـــبِ ، فيُبقيه مِ الجفونِ الاباء !

***

ذاكَ إبليسُ فتنة الشَرِّ والآ   ثام ، مَنْ كلُّ همِّهِ الاغواء
ساءهُ أنْ يفوزَ ما أمر اللَّـــهُ ، وأنْ يُخْذلَ الخنا والرِّياءُ
فأتى هاجرًا يُنَبِّئُها الأمْـــرَ ، وإبليسُ ساعداه النساء
قال : « فيمَ الثَواءُ يا أُمَّ إسما   عيلَ ، والثُكْلُ بيِّنٌ والشقاء
لستِ تدرين مايحيك لكِ المِقــدار ، نامت عن حظِّها الأشقياء !
قد غـدا بابنكِ المحبَّبِ إبرا   هيم تحـدوهُ جُنَّةٌ هوجاء
زاعماً ـ والالهُ أعول من أنْ   تَصْطلى نارَ سُخطهِ الأبرياء ـ
أنَّ وحياً أتاهُ ، فى الليل ، والنا   سُ نيام ، والأرض والآناء
ودعاهُ ليذبحَ الطفلَ صبراً !   تلك رُؤيا كذوبة شنعاء
أسرعى! أنقذيه ! من قبل أن تُر   وى بقانى دمائه الغبراء ... »
فأجابته وهى تُخفى أساها   ولَظاها : « لن يكذبَ الإيحاء !
إن يكن ذاكَ ما أراد إلهى   فهُوَ الخير كله والهناء »

***

إيه إبليس ! خاب فألُكَ يا مِســـكينُ ! ما كلُّ غادةٍ حوَّاء !

***

وصلَ الوالد الحزين ، ولـكن   ودَّ لو طالَ سيره والعناء
وابنه من ورائه مُثْقَل الخط   ـو ، تلظَّى فى صدره الصُّعَداء
رازحٌ تحت عِبئه لاهث الصد   ر ، وللظهر كالمسنِّ انحناء
حطَّ عن منكبيه وهو يجيل الـ   طرْفَ : أين الخراف ، أينَ الظباء !
نظرَ الطفل حوله ، فاذا الأر   ض خلاء من الأضاحى قَواء
وتحرَّى فلم يجد حوله الذبحَ   ولا هزَّ مسمعيه ثغاء

فرنا ثائرَ الشكوك ، وفى عيـــنيه شوق للسرِّ واستقصاء
وأبوه يحار فى فمـه النط   ق ، وفى الرزء تبكم البلغاء
شدَّ من حزنه على قلبه الوا   هى ، وعشَّتْ عيونه الضرَّاء
وتهاوت دموعه مثل ما رفَّـــت على زنبق الربى الأنداء
ربِّ رحماك ! مايقول ؟ وما يفـ   ـشى ؟ وكيف المقال والإفشاء ؟
هبْه يارب من لدنك بياناً   فلقد يعقد اللسانَ البلاء !
قالَ يانورَ مُقلتىَّ ويامن   هو عيشى وسلوتى والرجاء
ياوحيدي ! يا مأملى ! يا سراجى   ماتدَجَّتْ همومى الـكدراء
طال ماقد كتمتُ عنك من السر   م وقد شاق سمعك الاصغاء
يارجائى ! ماذا أقول ؟ وهل للنُّـ   ـطق فى زحمة الدموع غَناء ؟
كلَّا همٌّ بالـكلام لسانى   أبْدَسَتْه المصيبة السوْداء !
أترى أنتَ إن ذكرتُ لك الأمْـ   ـرَ مطيعى أم غاضبٌ أبَّاء ؟
جاءنى الوَحْى فى المنام بأمر   ليس فيـه دفعٌ ولا إرجاء
قال لى : اذبحْ غداً وحيدَك ، يالَلْـ   ـهَوْل تنزو لذكره الأحناء
يابنىَّ ! انظرْ ماتراهُ ، ولا تأ   خُذْك بى غضبَةٌ ولا استهزاء
ليت شعرى ! أذاك أمرُ إلهى   أم تُرَى تلكَ لوثَتى الحمقاء ؟ »

***

فاقشعرَّ الفتى كما انتفضتْ فى   خَطرة الرِّيح وردةٌ حسناء
وسَرَت رهبةُ الرَّدى فى مُحيا   هُ ، ورفَّت غمامةٌ صفراء
ودَّ لو يكتُمُ الأسى عن أبيهِ ،   كيف يخفى عن العيون الداء ؟
رعـدةُ الموت ماتخلَّصَ منها   فقراءٌ قضوا ولا أمراء
إنما الموتُ حينما حلَّ فى الـكو   خِ وفى القصر غُمَّة وبلاء
هو للشيِّبِ مثلما هو للأطـ   ـفال ، غُولٌ ، وحيَّةٌ ، رقطاء
وأجاب الفتى يواسى أباه   لو يفيـد العزاء والتأساء !
« أبتاه ! هوِّن عليك ! فإنى   لستُ ممَّنْ من القضاء يُساء
حبَّذَا مصرعى بكفِّك إمَّا   كان فيـه لربِّنا إرضاء
أبتـاه ! افعل ما أُمرت ولا تأ   خُـذك بى رحمةٌ ولا أهواء
أنفِذِ الوحْىَ يا أبي! هل يطيع اللّـــهَ إلا المعاشر السعداء ؟

أبتاه ! إن حان يومى فهل عنـ   ـه محيد ، أو هل ليومى اتقاء ؟
أبنا خالد على هـذه الأر   ض ، وما للحياة فيها بقاء ؟
لاتهن يا أبى هـلم فأضجعـــنى   من قبل أن يدب المساء
ثم عصب عينى رفقاً بمنديـــل   ، فللموت سحنة نكراء
واشحذ الخنجر المظمأ حتى   تتلظى شباته الحمراء
ثم ضعه على خناق واذبحـ   ـى كما تذبح الظبا والشاء . . .
فإذا ماذبحتنى وتروت   من دمى هـذه الرمال الظماء
فاحترس أن يصيب كفك شىء   منه ، أو أن يبل منك الرداء
وتجنب رشاشه ، لايهن أجـ   ـرك فيه ، ولا يقل الجزاء
دعـه للرمل ينسرب فى حنايا   ه ، ففيه لحرها إطفاء
دعـه يذهب كما تبدد عطر   فى الفضا أو تغيبت أصداء . .
وإذا مافرغت منى وحالت   بيننا ظلمة الردى السحماء
وأردت الرجوع بعدى إلى الدا   ر ، فلى يا أبى إليك رجاء
ذاك ثوبى فانزعه عنى إذا مـــت   ، وقد خضبته منى الدماء
واحبه إذ تعود ذكرى لأمى   فيـه سلوة لها وعزاء
إيه ! أماه لو علمت مصيرى   وتبينت ما تريد السماء
لتمليت منك لثماً وتقبيـ   ـلا ، ولـكن هيهات منا اللقاء !
لست آملى إلا عليك من الدنيـــا   ، ولولاك لم يرعنى العفاء . .
عذب الموت فى سبيلك يارب   وساغ البلى وطاب الفناء
فمرور السكين فى العنق لثم   ولهيب النيران ظل وماء . .

***

أضجع الوالد ابنه مثلما تضـ   ـجع شاة وديعة خرساء
والفتى ساكن كما نام فى المهـ   ـد تغنيه أمه الحسناء
مغمض عينه على الدمع، هل يبـ   ـديه إلا الأذلة الجبناء ؟
والأب الواله المعذب تدوى   ثائرات فى صدره الأنواء
قبل الطفل ثم عصب عينيه   وقد ينفع البصير الغطاء
تولم المبصر الدياجى وتنجو   من قذاهن مقلة عمياء
وانتضى الخنجر الرهيب بكف   أرعشتها الفجيعة الحمراء
مثلما أرعشت بكأس الحميا   كف صب مجنونة هوجاء
كاد يردى فتاه لولا هتاف   فى السموات مطرب ونداء
وإذا بالسماء تلتمع الأنـ   ـوار فيها وتسطع الأضواء
وإذا باللحون ترقص فى الجو   حبوراً وتهتف الأصداء . . .
رفع الوالد المعذب عينـاً   ملأتهـا المدامع العصماء
فإذا بالدموع تضحك فى عيـ   ـنيه بشراً وتنجلى الضراء
وتهز البشرى الرحيمة كفيـ   ـه فتهوى سكينه الصماء
ملك فى الفضاء يحمل كبشاً   قد تعالى فى السحب منه الثغاء
هبط الأرض مثلما تهبط الرو   ض اشتياقاً حمامة بيضاء
فدية للصبى أرسلها الله   تهادى بحملها البشراء
رحمة الله كم تداركت الخلـ   ـق وقد أعوزتهم الرحماء !

***

ياخليل الرحمن هيا ارفع الطفـــل   فقد ردته إليك السماء
واذبح الكبش يانبى فداء   عظم المفتدى وطاب الفداء
واسجدا خاشعين شكر المنعم   البرايا نداه والآلاء
رحمة الله تغمر المجرم العا   صى ، فكيف الخلائق الأبرياء
إيه شعرى قد تيمتك البطولا   ت وأغواك نورها الوضاء
غنها فهى للجراحات ملهى   وعزاء وبلسم وشفاء
واروها فالشباب مصغ لما تنـــشد   قد هده الأسى والداء
والزمان الشقى ساد به الشر   وأخنى على بنيـه الشقاء
عـذبت فى جحيمه العبقريا   ت كما فاز بالنعيم الرياء . . .
غنها ربما تعزى جريح   أو تجافت عن ذلها الجبناء
سير الخالدين كم شب فى أحـ   ـضانها الخالدون والعظماء

دمشق   **أمجد الطرابلسى**

علم التاريخ عند العرب

للأستاذ عبد الحميد العبادى



التأريخ بالهمز والتاريخ بدون همز ، والتوريخ ، تعريف الوقت. وهو لفظ عربى أصيل . وقيل بل دخيل مأخوذ من أصل سريانى معناه (الشهر) ؛ وكانوا قبل الاسلام يوقتون بالنجوم والأهلة يكبسون الشهور إلحاقاً للسنة القمرية بالسنة الشمسية ؛ وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوهما . فلما كانت خلافة ثانى الخلفاء أمر عمر الناس فأرخوا من عام الهجرة ، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا

هذا فى اللغة ؛ أما فى الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الانسان والزمان. وهو على هذا المعنى قديم عندهم ، نما معرفة بسيطة ساذجة من معارف العرب قبل الاسلام ، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح علماً من أجل علومهم وأعظمها شأناً . فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة ؛ وشذ عن تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة أهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم لمعا من أخبار ملوكهم وشئونهم العامة ؛ ودون الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة وكنائسها

فلما جاء الاسلام ، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وأحواله استقصاء للسنة توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الاسلام بالتاريخ ، وإن كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من أنواع الحديث . وأقدم من كتب فى موضوع السيرة عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام ٩٣ هـ ، وأبان بن عثمان ابن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ . ثم انتهى علم السيرة والمغازى إلى رجلين من الموالى هما محمد بن اسحق المتوفى عام ١٥٢ هـ وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام ٢١٨ هـ ومختصره هذا هو الذى بأيدى الناس اليوم ؛ ثم محمد بن عمر الواقدى المتوفى عام ٢٠٧ ، وكثير من روايته مضمن فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ هذا إلى كتاب له فى مغازى الرسول مطبوع متداول

°°°

وفى أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية الكبرى ، ووقعت الفتن العظمى ، ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الاسلامية على أيدى رجال مثل كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤ هـ (؟) وعبيد بن شرية المتوفى حوالى عام ٧٠ هـ ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ فتوافرت أسباب شتى اقتضت جمع وتدوين الأخبار المتصلة بكل ذلك ؛ فتدوين أخبار القدماء مثلا دعت اليه رغبة العلماء فى فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت فى الكتاب والسنة ، وميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم ؛ هذا فضلا عن حرص الموالى على التنويه بمجد بلادهم القديم . ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مطاوعة لحاجة الشعراء اليها عامة فى مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها فى تقدير العطاء للجند . وكان الباعث الأقوى عل تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور فى معرفة ما فتح من البلدان صلحا ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج . فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الاسلام . وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ «الأخبار» وعلى المتخصص فى روايته «الأخبارى» كما عرف المتخصص فى رواية الحديث «بالمحدث» . ونلحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار فى رجال خواص منهم ابن اسحق والواقدى المتقدما الذكر . والمدائنى المتوفى عام ٢٢٥ هـ . فكل

من هؤلاء كان محدثا وأخباريا معا . كما نلحظ بداية التخصص فى الأخبار فى مثل محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦ هـ وكان مقدما فى علم الأنساب ، وعوانة بن الحكم المتوفى عام ١٤٧ وقد جمع أخبار بنى أمية ، وأبى مخنف المتوفى عام ١٥٧ ، وله كتب فى الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج . وسيف ابن عمر المتوفى عام ١٧٠ وله كتاب كبير فى الفتوح ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ٢٠٤ وله فى أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الاسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم فى كتاب الفهرست ، وقد طبع منها حديثا « كتاب الأصنام » .

وقد وجد فى تلك المرحلة نوع من التخصص المحلى فى رواية الأخبار ، فكان لبعض الأقطار الاسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها . قال ابن النديم : « قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره ، والمدائنى بأمر خراسان والهند وفارس ، والواقدى بأمر الحجاز والسيرة . وقد اشتركوا فى فتوح الشام » .

على ان المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعا وأسمى منزلة من الأخبارى ؛ وذلك يرجع إلى شرف موضوع الحديث والى أن الأخبار وخصوصا قديمها كانت مظنة الأغراب والتلفيق والاختلاق . ولقد بلغ الأمر بهم ان كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار ، فقد ضعفوا محمد بن إسحق وكان أصلا راوية للحديث . ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الأول . وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار . ذكر ابن خلكان « أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب وأنه مضى ليستمع المغازى من محمد بن اسحق أو غيره وأخل بمجلس أبى حنيفة ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة ، يا أبا يوسف امن كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام ؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولا ، وقعة بدر أو أحد ، فإنك لا تدرى أيهما كان قبل الآخر ، فأمسك عنه » .

• • •

وجملة القول أن أهل السيرة والأخبار قد رسموا فى أواخر القرن الثانى الموضوعات الأساسية للتاريخ عند العرب ، وهى « أمورا أربعة : (١) أخبار الماضين (٢) أحوال العرب قبل الاسلام (٣) السيرة (٤) أخبار الدولة الاسلامية . ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث زيادة جوهرية فى المادة التاريخية ودقة وتحررا فى مصادرها . فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولا سيما دواوين الانشاء والجند والخراج والبريد ، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها فى بحثهم ، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ، ومدد ولاية كبار الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفا وشتاء وغير ذلك . ثم إنه فى العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية . وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالى عام ١٤٠ لكتابى خدينامه وآيينامه فى تاريخ الفرس وأحوالهم ؛ ومن هذا القبيل كتاب عهد أردشير الذى ترجمه إلى العربية البلاذرى المتوفى عام ٢٧٩ ، ومنه أيضا ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالأندلس حوالى منتصف القرن الرابع . ثم إن سهولة الانتقال بين أنحاء الدولة الاسلامية حملت كثيرا من طلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة فى طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ ، ولرؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمعاينة . وعلى الجملة فان مؤرخى القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء (١) كتب السيرة والأخبار (٢) السجلات الرسمية (٣) الكتب المنقولة عن اللغات الأجنبية (٤) المشاهدة والعيان

وبتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأسا بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه ؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأنا ، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الاسلامية كرجال لهم خطرهم فى الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية . وتضاءل مدلول لفظ الأخبارى حتى أصبح كما فسره بعد السمعانى المتوفى عام ٥٦٢ بقوله : « ويقال لمن يروى الحكايات

والقصص والنوادر الأخبارى ، نذكر من بين مؤرخى القرن الثالث ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف وقد توفى عام ٢٧٠ ، والبلاذرى صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف وتوفى عام ٢٧٩ ، واليعقوبى صاحب التاريخ المضاف إليه وتوفى عام ٢٨٤ ، والدينورى صاحب الأخبار الطوال والمتوفى عام ٢٩٠ وابن جرير الطبرى صاحب تاريخ الرسل والملوك والمتوفى عام ٣١٠ هـ

• • •

أخذت الوحدة السياسية التي انتظمت الدوله العباسية تتداعى من منتصف القرن الثالث ، ولم تلبث تلك الدولة أن أصبحت مجموع دويلات عديدة يحكمها متغلبون مختلفو الأجناس فى مشارق الدولة ومغاربها . وجرت اللامركزية السياسية إلى لا مركزية أدبية ، فتوزعت الثقافة الاسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة فى حاضرة الخلافة وحدها . ونافست بغداد قرطبة والقيروان ومصر وحلب وأصفهان ، وغزنة والرى وبلخ وغيرها ، وكثر العلماء فى الأمصار كثرة عظيمة . كل ذلك أثر فى كتابة التاريخ عند العرب تأثيراً كبيراً يتضح فى كثرة ماظهر إبتداء من منتصف القرن الثالث من التواريخ المحلية وكتب التراجم والطبقات خاصة ؛ من ذلك تاريخ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧ ، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى عام ٣٥٠ وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ ، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ . والبيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع) . ومعجم الأدباء لياقوت الحموى (٦٢٦) . ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) وإلى جانب ذلك ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبرى ، فوضع المسعودى المتوفى عام ٣٤٦ كتابيه مروج الذهب وأخبار الزمان . وصنف ابن مسكويه (٤٢١) تجارب الأمم ، وابن الأثير (٦٣٠) كتابه الكامل

واستتبع التفرق السياسى وهن القوة الذاتية للعالم الاسلامى فطمع فيه أعداؤه من وراء الحدود واجترءوا عليه واستباحوا حماه ، وبدت مقدمات ذلك فى استئساد الروم وانتقاصهم شمالى الشام فى القرن الرابع ، ثم أغار الصليبيون فى القرن الخامس والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق ، ولم تكد تلك الغمة تنجلى عن العالم الاسلامى حتى كانت الداهية الدهياء والطامة الكبرى وهى غارة المغول ، فقضى على الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الاسلامية فى القارة الأسيوية تدميرا

واتضحت عبر التاريخ وصروف الزمن بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام ، فكان طبيعيا أن ينحو المؤرخ الاسلامى في التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفيا عميقا فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وأسباب سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك . وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخى العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ فى مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الاسلام على الاطلاق . ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يمكن أن يكون هو نفسه محلا للتاريخ فوضع فى ذلك الصفدى (٧٦٤) مقدمة كتابه الوافى بالوفيات ، والسخاوى المتوفى عام ٩٠٢ كتابه الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

فيرى القارىء أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون وتاريخ التاريخ للسخاوى ، قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر ، فلما نضب معينه بانحلال الحياة الاسلامية العامة المستقرة جرى عليه ما يجرى على الأحياء من حكم البلى والفناء متى انقطعت مادة حياتها

• • •

ذلك مجمل حال التاريخ عند العرب نشوءاً واكتمالا وهرماً وفناء ؛ أما من حيث الطريقة العلمية التى اتبعوها فالتاريخ ابتدأ عندهم كما رأينا فرعاً من علم الحديث فكان حرياً أن يتأثر بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها . فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلى وهو عادة رجل عدل له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها كما هى الحال فى رواية أخبار السيرة والاسلام ، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضاع ، أومن بعض أهل البادية ، وتلك كانت الحال فى رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الاسلام . فكان النقد عندهم أو الجرح والتعديل كما يسمونه ذاتياً منصباً على الرواة . لا موضوعياً منصباً على المرويات هذه الطريقة ضمنت

لهم إلى حد بعيدصحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخى من السيرة وبحوادث الدولة الاسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك فى أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام والقسم الأول من السيرة . والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة هى أضعف وأغمض نواحى كتب التاريخ عند العرب .

وإذا كان الأسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق بالسنين والشهور والأيام ، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا فى العصور الوسطى. قال المؤرخ الانجليزى (بكل) : ان التوقيت على هذا النحو لم يعرف فى أوروبا قبل عام ١٥٩٧ . على أن هذا النظام ابتدأ ضعيفا عندهم ، فكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع فى توقيته خلط شديد واختلاف كثير. ثم تكمل التوقيت على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التى سبقت الاشارة اليها .

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك فى تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعا وإجازة؛ فكتاب الأصنام مثلا تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبى من عام ٢٠١ إلى قريب من عام ٥٠٠ . ومثل ذلك يقال فى مغازى الواقدى وكثير غيره من كتب التاريخ . وتلك مبالغة محمودة فى المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكتب المعتبرة أمهات وأصولا .

تلك طريقتهم فى جمع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها ؛ أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازى والأخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أو كتباً تشبه أبواب الحديث ؛ ثم جاء المؤرخون فسلكوا فى عرض الحوادث طريقتين أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين ، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدى المتوفى عام ٢٠٧ ، ثم اتبعها من بعده الطبرى وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء . والأخرى الترتيب على العهود ، وقد جرى عليها اليعقوبى والدينورى والمسعودى وغيرهم .

ويتصل بعرض الحوادث أسلوب أدائها وتصويرها : أما الأسلوب فكان على وجه العموم سهلا غير متكلف . وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة كما فى العقود الأولى من تاريخ الطبرى وفى بعض فصول ابن مسكويه والصولى .

ويمكن تلخيص أوجه النقص فى طريقتهم فى أمور ثلاثة : ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام ، وادارتهم التاريخ على الأفراد والحروب والسياسة فى أبسط صورها ، وعدم عنايتهم بالشئون العامة للجماعات أو بتعليل الحوادث والنفاذ إلى أسرارها

على أنه مهما قيل فى نقص طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك فى صياغتها ما فاتهم . وإن العالم الحديث يسجل لهم أنهم أول من حاول ضبط الحوادث بالاسناد والتوقيت الكامل ، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخى ونوعوا التأليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخى الأمم الأخرى ، وأنهم أول من كتب فى فلسفة التاريخ والإجتماع وتاريخ التاريخ ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره ، وهو الصدق فى القول والنزاهة فى الحكم

عبد الحميد العبادى

التصوف الفلسفى فى الاسلام

للدكتور أبو العلا عفيفى
مدرس الفلسفة بكلية الآداب



سأعرض فى هذا البحث للتصوف الفلسفى من ناحية نشأته والعناصر التى دخلت فى تكوينه لا من حيث مسائله ولا نظرياته، وإن كنت سأشير إلى بعض هذه النظريات اشارة سريعة مجملة

ونشأة التصوف الفلسفى فى الاسلام متصلة بنشأة التصوف نفسه من جهة، وبنشأة الزهد الذى تقدم التصوف الفلسفى منه وغير الفلسفى

وربما خلط بعض الناس بين التصوف والتصوف الفلسفى من جهة، وبين التصوف والزهد من جهة أخرى؛ أو فهم الثلاثة أنها من المترادفات، وليس هذا بنادر الوقوع. أما الزهد فهو الناحية العملية من الطريق الصوفى؛ أو هو الحياة التى يحياها الصوفى، تلك الحياة البادية فى مظهره الخارجى من تقشف فى المأكل والمشرب واعتزال للناس وانقطاع إلى الله، والبادية فى حياته الباطنة الروحية من خشية من الله وورع وتقوى وعبادة وصوم وصلاة وذكر وتهجد وهجر للدنيا وزخرفها. وأما التصوف فأصدق وصف له أنه طريق لتصفية النفس ومجاهدتها ورياضتها والانتقال بها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام والترقى بها فى خطوات بطيئة عسيرة حتى يصل بها صاحبها إلى المقام الذى يطلق عليه الصوفية اسم مقام الشهود أو الوجد أو الفناء — وهو المقام الذى يدرك فيه الصوفى — وفى هذه الحالة لا فرق بين صوفى مسلم وصوفى مسيحى أو يهودى أو بوذى — يدرك من الحقائق ما لا سبيل للعقل الانسانى أن يدركه، ويتذوق من المعانى ما يكل اللسان الانسانى عن شرحه

وأما التصوف الفلسفى فهو الأساس الميتافيزيقى أو النظريات الفلسفية التى يحاول بها الصوفيون فى وقت صحوهم تفسير أو تعليل ما يجدونه فى وقت سكرتهم أو فى حالة وجدهم

وقد وجدت هذه الأنواع الثلاثة فى الاسلام وظهرت فيه ظهورا تاريخيا متواليا بحيث يمكن اعتبار كل منها دورا من أدوار التصوف هو بمثابة المقدمة المنطقية للدور الذى يليه، فظهر الزهد فى القرنين الأولين من الهجرة، وظهر التصوف فى القرن الثالث، وظهر التصوف الاسلامى فى القرن الرابع وما بعده، ولم يأت القرن السادس والسابع حتى بلغ التصوف الفلسفى أقصى حده فى النضوج ثم ضعف شأنه بعد ذلك تدريجياً

أما الزهد فقد ظهر فى الاسلام قويا فتيا بمجرد ظهور الاسلام تقريبا؛ ذلك أن الاسلام دين ورحمة وزهد وتقوى؛ وليس دين دنيا وشهوات ولذات كما يصفه بذلك أعداؤه الذين يحاولون تعليل نشأة الزهد فى الاسلام بأنها راجعة إلى عوامل كلها خارجة عن الاسلام، ويخصون بالذكر من بين هذه العوامل المسيحية والرهبنة المسيحية التى كانت منتشرة فى صحراء العرب وبلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية

نعم لم يدع الاسلام الى الرهبنة، بل هو صريح فى إنكارها فى القرآن والحديث. ولكنه دعا الى العبادة والورع والتقوى والتهجد وقيام الليل والصوم والصلاة

نعم لم يذكر القرآن كلمة زهد ولا مادة الزهد الا فى آية واحدة فى سورة يوسف فى قوله تعالى «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين» ولم يذكرها هنا على سبيل المدح ولا بالمعنى الذى نتكلم عنه. ولكنه وإن لم يذكر «الزاهد» فقد ذكر العابدين والسائحين والقانتين والمخبتين والركع السجود، وكل هذه من صفات الزاهدين

واذا كان الزهد طريقة للتقرب الى الله ومناجاته وذكره فقد وصف القرآن الله بأنه رحيم، وبأنه ودود، وبأنه قريب من عبده، بل إنه أقرب اليه من حبل الوريد، وبأنه سميع مجيب يجيب دعوة الداعى اذا دعاه

فلا حجة للقائلين بان فكرة الحب الالهى قد دخلت الى الزهد الاسلامى عن طريق المسيحية لأن الاسلام قد قضى على كل أمل فى الاتصال الروحي بين العبد وربه بوصفه الله بأنه جبار متكبر منتقم الخ

ظهر الزهد فى الاسلام اذن داعيا إليه الاسلام كما قلنا وداعيا اليه ظروف أخرى هي الظروف السياسية القاسية التى عاش فيها المسلمون فى عهد الخلفاء وعهد بنى أمية — فقد كان هذا العصر عصر حروب وفتن مستمرة وقلاقل واضطرابات — وفيه دخلت النظريات السياسية الى العقائد الدينية ، وتدخل الحكام فى آراء الناس الدينية ومعتقداتهم ، فاضطهدت الحرية وكبت التفكير الحر: فشعر من لم يميلوا إلى اعتزال الناس بضرورة العزلة وزهدوا فى الدنيا وزخرفها وفى الحكومة والحكام

أما الرهبنة المسيحية فقد كان لها أيضا أثرها فى الزهد الاسلامى لامن حيث أنها كانت السبب فى وجوده ، بل من ناحية أنه تسرب الى طريقة المسلمين فى الزهد كثير من تقاليد الرهبان المسيحيين وعاداتهم وطقوسهم

بل إن القرن الثانى لم يكد ينتهى حتى انتظمت حركة الزهد الاسلامى داخل أديرة وصوامع أشبه بأديرة وصوامع المسيحيين : فأسست خانقاه فى دمشق سنة ١٥٠ هـ وأخرى بخراسان سنة ٢٠٠ . ويقول عبد الرحمن جامى فى كتابه نفحات الأنس أن أول خانقاه أسست فى الاسلام كانت بالرملة بفلسطين أسسها فى القرن الثانى راهب مسيحى — وإن كان المقريزى يقول فى الخطط إن الأديرة لم تظهر فى الاسلام إلا فى القرن الخامس الهجرى — ولعله يقصد بذلك انتشار الأديرة فى البلاد الاسلامية لا مجرد وجود بعضها

وقد امتاز الزهد فى القرنين الأول والثانى — ولا سيما القرن الثانى بصدق الورع والتقوى وسلامة الايمان والخشية الشديدة من الله ومن عذاب جهنم ، والأمل الشديد فى الحظوة برؤية الله فى الدار الآخرة ، وكثرة المناجاة والكلام فى الحب الالهى

وقد تغلغل الزهد فى نفوس المسلمين العامة والخاصة على السواء ، وظهر منهم فى القرن الثانى أمثال الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ وهو المؤسس لفرقة الصوفية بالبصرة ، وابراهيم بن أدهم البلخى المتوفى سنة ١٦١ ، وداود بن نصير المتوفى سنة ١٦٥ ، والفضيل ابن عياض المتوفى سنة ١٨٦ ، ومن النساء رابعة العدوية التى توفيت سنة ١٣٥

وكانت رابعة آية من آيات الله فى الزهد : زهدت أولا فى الحياة الدنيا وزخرفها طمعا فى الآخرة وجنتها ، ثم زهدت فى الجنة طمعا فى الفوز بمحبة الله ورضاه

وقد حل الحب الالهى من قلبها كل مكان فأصبحت لا تناجى سوى الله ولا تتحدث إلا إليه ؛ وفى هذا يحكى شهاب الدين السهروردى فى عوارف المعارف أنها كانت تقول :

إنى جعلتك فى الفؤاد مؤانسى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد جليسى

ويقول القشيرى عنها إنها كانت تقول فى مناجاتها « إلهى ! تحرق بالنار قلبا يحبك ؟ » فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل ذلك؛ فلا تظنى بنا ظن السوء

***

أما القرن الثالث فدور انتقال من الزهد إلى التصوف بمعناه الحقيقى . والواقع أن هذا الدور كان أقرب إلى الزهد منه إلى التصوف . فى هذا القرن نجد كلمة « صوفى » شائعة الاستعمال ولم يكثر استعمالها قبل نهاية القرن الثانى خلافا لما ذهب إليه القشيرى ، فلم يفرق الناس بين زاهد وصوفى لأنه لم يوجد من الزهاد من ينطبق عليه وصف صوفى بالمعنى الدقيق . أما فى القرن الثالث فحصل التمييز بينهما فسمى الزاهد زاهدا وسمى الصوفى صوفيا أحيانا وعارفا أحيانا

بل إننا نجد فى هذا القرن تحولا فى وجهة نظر الزهاد أنفسهم ، فإنهم لم يعودوا ينظرون إلى الزهد باعتباره غاية فى نفسه ، بل نظروا إليه باعتباره وسيلة لتحقيق غاية أخرى هى الكشف : أى أنهم اعتبروا الزهد مرحلة من مراحل الطريق بواسطتها يصل السالك أو المريد إلى تصفية النفس والترقى بها فى معارج الحياة الروحية إلى أن يصل بها إلى حالة الفناء التى تنكشف له فيها الحقائق الألهية ، فتنعكس هذه الحقائق على مرآة قلبه كما تنعكس صور المرئيات على صفحة المرآة الصقيلة المجلوة

وفى هذا القرن أيضا نجد القوم يكثرون من الكلام فى المواجد والأذواق ، ويصفون الأحوال والمقامات ، ويتكلمون فى الصحو والسكر والمحو وفى الوحدة والسكرة والتفريد والتجريد والفناء

والبقاء وغير ذلك من أحوالهم الصوفية

يعرف معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ التصوف بأنه الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الناس؛ يريد أنه ادراك الحقائق الالهية بواسطة الكشف والزهد فى الدنيا. وهذا تعريف جديد للتصوف لم نسمع به من قبل

ونغمة أخرى جديدة نسمعها من ذى النون المصرى الذى كان أول من تكلم فى المعرفة الحاصلة بالكشف واعتبرها المقياس الحقيقى لحياة الرجل الصوفى، يقول: إنه بمقدار مايعرف الصوفى من ربه يكون إنكاره لنفسه. وتمام المعرفة بالله تمام إنكار الذات، وهى الحالة التى عبر عنها غيره بالفناء.

وفى هذا المعنى يقول الحسين بن على بن يزدينار: «يكون العارف بمشهد من الحق إذا بدا الشاهد، وفنى الشواهد. وذهب الحواس، واضمحل الاحساس، وهو قول ينسبه بعض الصوفية للشبلى، ونغمة ثالثة نسمعها من أبى يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١) فى الحال التى يعبر عنها القوم بالفناء: يقول أبو يزيد وقد سئل عن العارف (أى الصوفى): «للخلق أحوال ولا حال للعارف، لأنه محيت آثاره ورسومه، وفنيت هويته (أى شخصيته) لهوية غيره، وغيبت آثاره لآثار غيره؛ فالعارف خيار والزاهد سيار، وفى هذا إشارة صريحة إلى التفرقة بين الزاهد والعارف أو الصوفى

***

فى أثناء هذا القرن كان التصوف الفلسفى فى دور التكوين؛ فقد توفرت العوامل على ظهوره، وتهيأت النفوس لقبوله. وظهرت بوادره بالفعل فى عبارات بعض الصوفية أمثال ذى النون المصرى وأبى يزيد البسطامى. ولكن من المغالاة أن نقول إن لأحد من متصوفة القرن الثالث مذهبا فلسفيا خاصا أو عقيدة فلسفية صوفية معينة، على الرغم من أن كثيرا من أقوالهم يمكن تأويلها تأويلا فلسفيا

ولكن سرعان ما انتهى عصر الانتقال وبدأ التصوف يدخل فى دوره الثالث وهو الدور الفلسفى الحقيقى؛ وكان ذلك فى القرن الرابع وما بعده، فقد تحول التصوف إلى شكل جديد بدخول النظريات الفلسفية فيه. وربما كان أول السابقين إلى هذا الميدان الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ ﻫ

لم يقف الصوفية بعد القرن الثالث عند حد الكشف والشعور بالمواجد والأذواق فى أحوالهم الصوفية، بل حاولوا أن يفسروا ما يدركون ويؤولوا مايشعرون به، ويعللوا لما يتذوقونه من تلك المعانى التى هى فوق طور العقل، فكانت نتيجة شرحهم وتفسيرهم وتعليلهم أن وضعوا نظرياتهم الفلسفية. عرفوا الكشف فى أحوالهم فحاولوا أن يضعوا نظرية للكشف فى صحوهم: أدركوا وحدة الوجود فى حالة فنائهم فحاولوا تفسير وحدة الوجود. أدركوا الوحدة فى الكشف والتعدد فى الصحو فدعاهم ذلك إلى تفسير معنى الوحدة والكثرة، ومعنى الحق والخلق ومعنى الفيض والاتصال، والجمع والتفرقة وغير ذلك

فمجموعة تفسيراتهم لمظاهر الحياة الصوفية هى الذى نعنيه بفلسفتهم التى يمكننا أن نلخصها فى ثلاث نظريات: نظريتهم فى طبيعة الوجود، نظريتهم فى المعرفة، نظريتهم فى الانسان ومركزه فى العالم وموقفه من الله

على أن من الصوفية من رجال العصر المتأخر أمثال محيى الدين بن عدى، وشهاب الدين عمر السهروردى المقتول، من سلك مسلك الفلاسفة من بادئ الأمر، فكانت لهم وجهات نظر فلسفية خاصة فى طبيعة الوجود وفى الانسان والعالم، فاستعملوا المنهج النظرى الفلسفى وأساليب الفلاسفة واصطلاحاتهم واستدلالاتهم، ثم نظروا إلى التصوف باعتباره مرحلة متممة لمذهبهم، كما نظر الصوفية إلى الزهد باعتباره مرحلة متممة لطريقتهم

والفرق بين هذا النوع من الصوفية والنوع الأول أن الأولين أمثال الحلاج يضعون نظرياتهم الفلسفية فى عرض تأويلهم وتفسيرهم لما يشاهدونه فى أحوالهم ومواجدهم؛ أما الآخرون فيلجأون للكشف والذوق توكيدا وتحقيقا للنتائج التى يصلون إليها بالنظر العقلى

وهذه الطريقة ممثلة تمام التمثيل فى كتب ابن العربى بوجه خاص، فانه بعد أن يبحث المسائل الفلسفية بحثاً عميقا ويناقشها من جميع وجوهها يحس كأن العقل غير كاف فى الوصول إلى درجة اليقين فيها، فيحيل القارىء إلى الكشف والذوق، أو يخبره بانه هو نفسه قد أدرك حقيقتها كشفا أو ذوقا

صار التصوف الفلسفى بعد ذلك سيراً حثيثا بخطوات واسعة فسيحة وظهرت فيه المذاهب الفلسفية الكاملة، بل والمدارس الفلسفية، وألفت فيه المؤلفات أمثال الإحياء والمشكاة للغزالى

والنصوص والفتوحات لابن العربى وحكمة الاشراق للسهروردى والانسان الكامل لعبد الكريم الجيلى

أما العوامل التى ساعدت على ظهور التصوف الفلسفى فكثيرة ومتعددة ، فقد كانت البيئة التى يعيش فيها متصوفة القرن الثالث وما بعده مزيجا غريبا من الأمم المختلفة والثقافات المختلفة والديانات المختلفة والفلسفات المختلفة ، بل كان الجو الذى يتنفس فيه المسلمون خليطا من هذه العناصر كلها : فلا عجب إذن أن يأتى التصوف الفلسفى فى الاسلام ممثلا لكل مذهب من المذاهب ، حاويا لكل بدعة إسلامية وغير إسلامية ، فان فلسفة التصوف الاسلامى ليست مذهبا واحداً ولا عقيدة واحدة ، بل مجموعة من المذاهب بعضها يتفق مع روح الاسلام وبعضها يتعارض مع التعاليم الاسلامية معارضة صريحة

واهم هذه العناصر التى دخلت فى التصوف الفلسفى ومنها تركب هى :

أولا — التصوف نفسه بكل مافيه من وصف للحياة الروحية ، وكلام فى المقامات والأحوال ، وذكر للمواجد والأذواق ، وتعبيرات عن خاطر النفس ومحاسبتها ومراقبتها

ثانيا — القرآن والحديث : فان الصوفية قد اتخذوا كثيراً من الآيات القرآنية أساساً لنظرياتهم فأولوها تأويلات تتفق وروح هذه النظريات ، وذلك مثل قوله تعالى : كل شىء هالك إلا وجهه . وقوله : كل من عليها فان ، وقوله : الله نور السموات والأرض الخ فقد اولوا الوجه فى الآيتين الأولين على أنه الذات الالهية الأزلية المقومة لكل موجود ؛ وأولوا الهالك والفانى على أنه مظاهر الوجود أو الوجود المتكثر : أما النور ففسروه تفسيراً زرادشتيا على أنه الوجود الحقيق وضده الظلمة التى هى العدم المحض . أما الأحاديث التى يستشهد به الصوفية فاكثرها مدخول على النبى منتحل

ثالثاً — علم الكلام : فقد وصل علم الكلام فى إبان ظهور التصوف الفلسفى فى الاسلام أقصى حده فى النضوج الفلسفى ، وتسرب الكثير من نظرياته إلى نظريات الصوفية

والمعروف أن عدداً كبيراً من رجال الصوفية فى القرن الثالث كانوا من كبار المتكلمين أيضاً أمثال أبى القاسم الجنيدى والحارث المحاسبى وغيرهما

والناظر فى كتب التصوف أمثال اللمع للسراج والتعرف للكلاباذى والرسالة للقشيرى وغيرها يعرف مدى علم الصوفية بمسائل الكلام ومدى مزجهم لها بنظرياتهم . وتكفى الاشارة هنا إلى عقيدة وحدة الوجود التى هى أخص مظهر للتصوف الفلسفى الاسلامى ، فانها فيما أعتقد راجعة فى أصل نشأتها إلى تفكير إسلامى كلامى صوفى ؛ وليست كما يقول بعض المستشرقين راجعة إلى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الفلسفة الهندية ؛ فقد بدأ الصوفية يبحثون فى عقيدة التوحيد بحثا كلاميا فوقعوا من حيث لا يعلمون فى عقيدة وحدة الوجود . بدأوا يبحث الوحدانية فقالوا : الله واحد بمعنى أنه لا شريك له ، فنفوا الشريك والند والضد والمثل . وقالوا أهم صفة للأله الواحد وجوب الوجود . ثم بحثوا فى واجب الوجود فقالوا الله واجب الوجود بمعنى أن وجوده من ذاته ، وغيره ممكن الوجود أى وجوده من غيره ، ولكنهم زادوا على ذلك بقولهم إنه واجب الوجود بمعنى أن وجوده هو الوجود الحقيق وكل ما عداه فوجوده ظاهرى أو وهمى . ثم توسعوا فى معنى وجوب الوجود فقالوا ان واجب الوجود هو الفاعل لكل شىء والعلة فى وجود كل شىء - فانتهوا من بحثهم بنتيجتين :

الأولى : نفى العلل كلها والقول بأن لا فاعل على الحقيقة إلا الله

والثانية : نفى الوجود المتكثر الظاهر فى الكون والقول بأنه وجود زائل متغير - وأن المقوم لكل موجود والحقيق فى كل موجود هو الحق أو الله

وهكذا بدءوا بقولهم : لا إله إلا الله ، وانتهوا بقولهم : لا موجود على الحقيقة إلا الله . ثم وجدوا - أو خيل اليهم أنهم وجدوا - ما يعزز دعواهم هذه فى الحالة الصوفية التى يعبرون عنها بالفناء وهى الحالة التى يشعر فيها الصوفى بالوحدة المطلقة فلا يدرك فيها فرقا بين حق وخلق - وهى الحالة التى صاح فيها الحلاج بقوله : أنا الحق !

وقد سمى الصوفية عقيدة التوحيد بتوحيد العوام ، وعقيدة وحدة الوجود بتوحيد الخواص ، وأوردوا لكل منهما تعريفا خاصا يقول الجنيد فى تعريف توحيد العوام إنه إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته . ويقول فى تعريف الخواص إنه الخروج من ضيق الرسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية يعنى بذلك الفناء

رابعا — الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ـ لاسيما الافلاطونية الجديدة المتاخرة التى ظهرت فى كتابات برقلس ويمبليخوس والكاتب الافلاطونى المسمى خطأ ديو تسبوس الازيوباغى .

ولا نبالغ اذا قلنا إنه لاتكاد مسألة من مسائل التصوف الاسلامى الفلسفى أو نظرية من نظرياته تخلو من أثر للفلسفة الافلاطونية الجديدة : فنظريات الصوفية فى خلق العالم والفيض أو الصدور عن الواحد الحق ، وكلامهم فى النفس والعقل والقلب والكشف والمعرفة والشهود ، وفى العالم العلوى والعالم المحسوس وفى الانسان الكامل ، كلها مطبوعة بطابع هذه الفلسفة ومستنداليها

خامسا — المسيحية ولا نعنى بالمسيحية الديانة المسيحية وعقائدها ، بل الحياة المسيحية كما حييها المسيحيون فى البلاد التى انتشر فيها الاسلام ممثلة فى حياة الرهبان والمتصوفين ؛ ولم يأخذ الصوفية عن المسيحيين بعض أساليبهم فى الزهد ومظاهر التقشف ولباس الصوف الذى منه اشتق اسمهم فحسب ، بل أخذوا عنهم بعض نظرياتهم فى طبيعة المسيح وفى التثليث : فقال بعضهم بالحلول ، مثل الحسين بن منصور الحلاج الذى قتل بسبب هذه العقيدة سنة ٣٠٩ . ومن أبياته فى الحلول قوله :

سبحان من أظهر ناسوته سرَّ سنَا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهراً فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينـــه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

وقال بعضهم صراحة بالتثليث ، وأن التثليث أساس يقوم عليه أمر الخلق كله ، ولكنه تثليث اعتبارى قائم بالفردية الألهية . وبهذا المعنى يجهر ابن عربى فى غير مبالاة فى قوله :

تثلَّثَ محبوبى وقد كان واحداً كما صير الأقنام بالذات أقنما

وليست نظرية الصوفية فيما يسمونه النور المحمدى (أو الحقيقة المحمدية) الذى يقولون إنه كان فى القدم قبل أن يخلق الله العالم ، وأنه بواسطته ومن أجله خلق الله العالم ، سوى صورة من صور النظرية المسيحية فى المسيح الذى يطلقون عليه اسم « الكلمة » ويقولون انها كانت فى الأزل مع الله ، وأنه بواسطتها ومن أجلها خلق الله العالم

سادسا — الفلسفة الهندية التى دخلت الاسلام عن طريق فارس وما وراء النهرين وما جاورهما من حدود الهنـد ، فان المسلمين لم يفتحوا الهند إلا فى القرن الرابع الهجرى (فى زمن السلطان محمود الغزنوى المتوفى سنة ٤٢١) ، ولكن الفاسفة الهندية البوذية والتصوف الهندى قد شقا طريقهما إلى بلاد الفرس وما جاورها قبل الفتح الاسلامى بنحو ألف سنة ، وقد كان كثير من بلاد هذه الناحية مراكز مشهورة بالتصوف غاصة بالادارة الوثنية القديمة : نخص بالذكر منها مدينة بلخ

ومما هو جدير بالذكر فى هـذا المقام أن كثيرا من أوائل الصوفية فى الاسلام قد جاءوا من بلخ هذه وماجاورها ، وبواسطتهم دخل فى التصوف الاسلامى كثير من النظريات الهندية والتقاليد البوذية فى مجاهدة النفس ورياضتها وتعذيب البدن وما إلى ذلك . من هؤلاء إبراهيم بن أدهم الذى يقول عنـه الأستاذ جولدزيهر إن قصته قد حيكت على مثال قصة بوذا من أنه كان من بيت من بيوت الملك فزهد فى الملك والدنيا بأسرها وعاش من عمل يده ؛ ومثل أبى يزيد البسطامى الذى كان من أصل فارسى زرادشتى تلقى عقيدة الفنـاء عن أبى على السندى ، كما تلقى عنه الطريقة الهندية المعروفة بمراقبة الأنفاس ؟ والفناء الذى يتكلم عنه أبو يزيد والذى شاع بعده فى كلام الصوفية جميعهم هو ما يسميه الهنود « زفانا » أى انمحاء الشخصية الفردية والشعور بالوحدة العامة للوجود . ومما يدل على أن عقيدة الفناء هندية الأصل أنها ظهرت أول ما ظهرت فى كلام الصوفية من الفرس أمثال ابى يزيد البسطامى ، وليس لها وجود فى عبارات أهل مصر والشام أمثال ذى النون المصرى مع أن ذا النون كان من معاصرى ابى يزيد

* * *

كل هـذه العناصر وعناصر أخرى ثانوية الأهميـة دخلت التصوف الإسلامى فغيرت من عادته وصورته ، وعنها جميعها ظهرت ناحية من نواحى الحياة العقلية الروحية فى الإسلام على جانب كبير من الأهمية ، لأنها مرآة نرى فيها النشاط العقلى والروحى على السواء ، كما نرى فيها وصفا دقيقا لأحوال النفس الصوفية فى أرقى درجات صفائها ، ومحاولات فلسفية أراد بها أصحابها وضع نظريات فى طبيعة الوجود أو طبيعة المعرفة أو طبيعة الإنسان ومركزه من الله والعالم

ولم يقف الصوفية ، كما لم يقف فلاسفة الاسلام من هذه المصادر كلها موقفا سلبيا ، أى لم يكونوا مجرد نقلة أو مرددين لأقوال غيرهم ترديد الصدى للصوت ، بل مزجوا كل هـذه العناصر

المختلفة المتباينة مزجا ربمـا لم يعهده تاريخ الفلسفة ولا تاريخ التصوف فى أى أمة أخرى ، وخرجوا بعد كل ذلك بمذاهب فى التصوف الفلسفى كان لها أثرها ولها خطرها فى تطور الفلسفة والتصوف فى القرون الوسطى والحديثة ، لا سيما بعد أن بلغ التصوف الذروة الفلسفية فى مذاهب أمثال محيي الدين بن عربى ، وشهاب الدين عمر السهروردى المقتول ، وعبد الحق بن سبعين الأندلسى ، وعبد الكريم الجيلى ، والصدر القونوى ، وجلال الدين الرومى ، وعبد الرحمن جامى وغيرهم

من هـذا يتبين أن كل نظرية فى نشأة التصوف الاسلامى قائمة على فكرة إرجاعه إلى أصل واحد مقضى عليها بالفشل . إذ قد رأيت النواحى العديدة الاسلامية وغير الاسلامية التى استمد منها التصوف مادته .

ولكن بعض المستشرقين إن لم يكن أكثرهم لم يروا حرجا فى القول بأن التصوف الاسلامى قائم على أصل واحد أو مستمد من جهة واحدة : فذهب الأستاذ فون كريمر ودُوزى إلى أن أصل التصوف الاسلامى هندى أساسه مذهب الفيداتتا ؛ وذهب الاستاذ « مركس » إلى أن أصله الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ؛ وقال الأستاذ برون إنه فارسى فى جوهره وإنه نتيجة لرد فعل أحدثه ثوران العقل الآدمى ضد الدين الاسلامى الفاتح . وربما كان الأستاذ نيكلسون أكثر اعتدالا وأوسع نظرا من هؤلاء جميعاً ، إذ يعترف أن التصوف الاسلامى ظاهرة معقدة غاية فى التعقيد ، وأن أصوله متشعبة كثيرة لم يكشف البحث الحديث إلا عن بعضها فقط

والحق أن كل نظرية من هذه النظريات إنما تعبر عن جزء من الحقيقة لا الحقيقة برمتها ، وأن الذى دعا هؤلاء المستشرقين إليها قصرهم النظر على ناحية خاصة من التصوف دون النواحى الأخرى وملاحظتهم لبعض جهات الشبه بين التصوف الاسلامى والأحوال التى قالوا إنه مستمد منها ناسين أو متناسين الثقافة الاسلامية والعقلية الاسلامية التى هضمت كل ما وصل إليها من عناصر الفلسفة والتصوف الأخرى ، واستخلصت لنفسها فلسفة وتصوفا جديرين بالبقاء وجديرين بأن يطلق عليهما اسم الفلسفة الاسلامية والتصوف الاسلامى

أبو العلا عفيفى

صديق من صنوف الأعداء

للاستاذ أمين الخولى

— ١ —



مرت القرون تترى ، والغرب يرمى الشرق بأفلاذ أكباده ، ويرصد لكيده أنفس عتاده ، ويهيج لقتله غطاريف أجناده ، والشرق صامد باسل ، صابر على هذا البلاء النازل . . . يا عجبا ! هما يتنازعان قبرا ، وإن يكن لسيد الحواريين ، وكلاهما يؤمن أنه مرفوع ، وفى السماء قار . ليس فى الأرض مرقده ، ولا بين أطباق الثرى جسده . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . حكمة الله وسنة الاجتماع ، لتتصل الأسباب ، وتتم النواميس ، وتنمو الحضارات ، وتتواصل المدنيات

فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا الأتون لما يخمد ، يؤجج الحقد أواره ، ويورث البغض ناره ، كانت تتدانى قلوب بهذا التباعد ، وتتعارف نفوس بالتقاطع السائد ، ويأبى الله إلا أن يكون هذا الكون خيراً شيب بشر ، وشراً حمل خيراً ، وأن تكون الحرب ناراً ونوراً

— ٢ —

كان جرمانياً صلبة ، أوربياً محضاً ، غربياً صرفاً ؛ البابا وصيه وهو صغير ، والبابا مدبره وهو كبير ؛ نشأ فى حضن المسيحية ، وغذاه حب الكنيسة الكاثوليكية ، وبورك بها طفلا ، وفتى وزوجا وأباً ، ثم توج بها ملكا وأيد منها ، فبسط يده أمام المذبح يقسم أن يسير إلى الشرق غازياً ، ويخلص قبر المسيح فادياً ، ويعز النصرانية فى شرقها والغرب : ذلكم فردريك الثانى هو هنشتاوفن ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وملك صقلية - ١٢١٢ - ١٢٥٠ م -

— ٣ —

لكن الشرق الساحر ، بسنه الباهر ، ومجده الزاخر ، وعقله

القاهر، وفنه الفاخر، قد فتن الأنبرور على غربيته؛ واستهواه فى أوربيته، وأصباه على جرمانيته، فاذا العاهل شرقى فى هواه وميله، شرقى فى علمه وفنه، شرقى فى مزاجه وذوقه، شرقى فى خاصته وجنده؛ وإذا هو لا يبر للكنيسة بقسم، ولا يفى بموعد،.. ثم إذا هو حرب على صاحب مفاتيح الجنة، ينتهك حرمته، ويحقر قداسته؛ يرفع على رأسه سيفه، بدل أن يحنى أمامه رأسه. وإنها لمفارقة سجلها التاريخ دهشا

— ٤ —

كان ذوقه شرقيا، فى جده ولعبه، فى قصره وحاشيته، فى مركبه وسلاحه؛ يدبر ذلك من أمره أتباع شرقيون مسلمون، قد حكى فى ذلك ما عرف الشرق من قصور الخلفاء، حتى ما أفرد من مقاصير النساء (١) أنس إلى الفن الشرقى صامته وناطقه؛ تجرى حياته على أنماط وعادات شرقية (٢) تحرسه أجناد من بنى الشرق المسلمين (٣) يجيد العربية فيما يعرف من لغات حتى يتكلمها ويدرس بها (٤) وكم وراء ذلك من مظاهر فنية، وولع شرقى ليس أقل من هذا شانا ولا أيسر خطراً

كان عقله شرقيا، آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية (٥) وعمل على اكساب غربه من ذلك ما يصل إليه جهده، فنح التفكير العلمى لعصره اتجاها جديداً؛ وكان أقوى وأقدر من عرف الغرب فى حركة نقل المعارف عن الشرق فى تلك الأعصر؛ وفى كنفه نشط مترجمون من أنحاء أوربا المختلفة، لنقل ما حفظ الاسلام من تراث الانسانية، وذخر المدنية

ونسى أو تناسى ما بين الشرق والغرب إذ ذاك، من حروب مشبوبة، وعداوة مذكاة، فراسل ملوكه فى الود، وفى العلم، يسألهم فتاوى الرياضة، وفنون الحكمة، سواء فى ذلك دانى الشرق منه، وقاصيه عنه؛ فكتب إلى علماء سبتة يسألهم فى شئون فلسفية، رد عليه فيها ابن سبعين أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم الاشبيلى (٦)، كما كتب إلى الملك الكامل بمصر فى مسائل مشكلة من الهندسة والحكمة والرياضة، ورد عليه الشيخ علم الدين قيصر الحنفى وغيره من علماء مصر (٧): التى كانت تتلقى هجمات الغرب، وتلقنه أصول الحياة فى وقت واحد

(١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة — فريدريك الثانى هوهنشتاوفن —
(٢) المصدر السابق
(٣) تراث الاسلام ج ٢ تعليقة ٢ ص ٣٣
(٤) الدائرة السابقة
(٥) الدائرة المذكورة
(٦) دائرة المعارف الاسلامية — ابن سبعين —
(٧) السلوك «للمقريزى» القسم الاول من الجزء الاول ص ٢٣١

— ٦ —

كان شرقى الوجدان، غمره فيض الشرق الروحى، ونزوعه الصوفى فلم يأسره تلقينه، ولم يمقله تعميده؛ بل كان وراء ذلك كله: دخل بيت المقدس – حفظا لناموسه – برضا الملك الكامل صلحا فجامله المسلمون بمنع الأذان، وإذا هو يقول: والله كان غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل (١). وإذا المسلمون يحسنون تسامحه، فيقول مؤرخهم: إنه كان دهريا، وإنما يتلاعب بالنصرانية. وحقا قد عرفت منه الكنيسة أشد ما عرفت فى تاريخها من ثورة ونضال

— ٧ —

تلك شخصية خليقة بالدرس الفلسفى والتاريخى، رجل أنقذ العقل إذ الجهل حالك، والظلام قاتم؛ وحرر الوجدان إذ العصبية طاغية باغية؛ وعرف الاسلام وتحبب إليه إذ أنكره الغرب وقاتله جاهداً جاهلا، وأخلص له الصداقة حتى لقبه قومه «السلطان المعمد» (٢).

إلا أنه فضل الشرق ومثله لا يجحد، وأنه مجد الشرق ومثله يعشق، وأنه عرف الشرق ومثله لا يجهل

— ٨ —

أيها الشبان: تلك فتنة الشرق، فهل فقدها فيكم؟؟
أيها الشبان: تلك روحانية الشرق، فهل خسرها بكم؟؟
أيها الشبان: تلك قوة الشرق، فهل أضلها عندكم؟؟
ألا أجيبوا داعى الزمن المثوب!

أمين الخولى

(١) السلوك: الموضوع السابق ص ٢٣٢
(٢) دائرة المعارف الايطالية الجديدة – المادة السابقة

الجيش والبحرية

فى العصر العباسى الأول

للدكتور حسن ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب



استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذى نما نمواً عظيما على أثر دخول الكثيرين فى الاسلام وانضوائهم تحت لوائه ، وقد بلغ عدده فى عهد الخلفاء العباسيين الأوائل مئات الألوف من الجند ، ووصل هذا العدد فى العراق وحدها إلى ١٢٥٫٠٠٠ جندى . وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامى للدولة تدفع لهم رواتبهم بانتظام . ومن ثم قلت أرزاقهم تبعا لزيادة عددهم ، ولما بلغت قوة العباسيين أشدها فى بغداد ، أصبح الجندى يتقاضى راتباً شهريا قدره عشرون درهما (وكان الدرهم يساوى أربعة قروش تقريبا) ، وكانت هناك مع الجنود النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو ، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب مدفوعين بعوامل دينية أو مادية

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده : فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح ؛ وهؤلاء من جند العرب . والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين (وكان من سياسة الخلفاء أن يحكموا عرب الشمال والجنوب بتركهم يحارب بعضهم بعضا) ؛ حتى إذا ما انقضى العصر العباسى الأول دخل فى الجيوش العباسية عنصر جديد مالبث أن غدا له النفوذ ، وأصبح أشد خطراً من الخراسانيين ، وهو عنصر الأتراك الذين كانوا يكوّنون القسم الرابع من الجيش العباسى . وما انفكت جموع هؤلاء الأتراك تتدفق سنة بعد سنة على أسواق بغداد حتى استطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى جيش الخليفة أخيراً ؛ وقد خصهم الخليفة برعايته أملا فى أن يكونوا بذلك أقوى ساعد للخلافة العباسية . ومن ثم أصبحوا حراس الخلفاء ، وسرعان ما أضحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من جراء عنتهم وجورهم شيئا كثيراً ، وما لبث أن امتد نفوذهم إلى الخلفاء الذين غدوا تحت رحمتهم [1]

وكان أكبر القواد المعروفين فى أول عهد هذه الدولة أبو مسلم الخراسانى ، وكان تحت إمرته جند المشرق الخراسانية ؛ وعبد الله ابن على العباسى على جند المغرب ، وأكثره عربى من بلاد الجزيرة والشام . فلما خرج عبد الله بن على على المنصور وانتصر عليه أبو مسلم بجنده الخراسانى كان هذا انتصاراً للفرس على العرب ، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين فى الجيش ؛ بيد أن المنصور خشى شر أبى مسلم وشر جنده . فقضى عليه . ورأى عدم الاعتماد على الخراسانيين ، لأن العصبية العربية كانت لا تزال فى قوتها ، فاصطنع كثيرين من العرب ، وسلمهم قيادة جنده . كما استعان ببعض أهل بيته . فمن أعظمهم عيسى بن موسى الذى انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوى وأخيه ابراهيم . وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيبانى ، وكان من قواد الأمويين ؛ واشتغل مع يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه فى واسط ، ولما سلّم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الهاشمية الذى ثار فيه الراوندية على المنصور ، فقاتل عن الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ، ثم كشف للخليفة عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم ، وسماه « أسد الرجال » وولاه اليمن ثم سجستان ، فبقى فيها حتى قتله الخوارج بمدينة بست [2] سنة ١٥١ هـ . ومن قواد العرب عمر بن العلاء وهو

(1) Hell : Cultur der Araber, p. 69 - 70

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٧٤ - ١٧٥

أعظم قواد المنصور ، وفيه يقول بشار بن برد :

فقل للخليفة إن جئته نصيحا ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

وقد وجهه المنصور سنة ١٤١ هـ لإخضاع أهل طبرستان ، وكانوا قد خرجوا عليه ، فنازلهم ابن العلاء طويلا ، وفتح بلادهم من جديد ، ولم يزل ممتعا بعطف المنصور ، وابنه المهدى حتى مات فى خلافة المهدى (١)

أما الآلات الحربية التى كانت تجهز بها الجنود ، فلم تكن تختلف كثيراً عن الآلات البيزنطية ، فكان من أسلحتهم القسى والسهام والرماح والسيوف والفؤوس الحربية (البلط)

وكانت ملابس الجند تشمل تلك الملابس القديمة الملائمة لهم والتى كانت فى نفس الوقت ذات منظر يدل على ذوق سليم : خوذة ، ودرع ، ومنطقة ، وغيان . وكانوا يعنون عناية خاصة بالسيوف التى كانوا يصنعونها بطريقة فنية ، ويحلونها بالفضة . وكانت السروج مماثلة فى شكلها للسروج الإغريقية التى هى من نوع السروج الشرقية تماماً (٢) .

وكان عرض الجيش جزءا من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية وبخاصة فى عهد المنصور الذى اهتم اهتماماً كبيرا بالمسائل الحربية . وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ودرعه ، فكانت تصف الجيوش أمامه فى ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مضر) ، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون (٣) . ومما ذكره المسعودى فى كتابه مروج الذهب عن حصار جند المأمون بغداد تتبين وصف الآلات الحربية التى كان يستعملها العباسيون فى ذلك العصر . وهاك ماذكره المسعودى بنصه : « ونصب هرثمة بن أعين على بغداد المنجنيقات ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم السامين والميازر . وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ، ودرقاً من الخوص والبوارى ، قد قرنت وحشيت بالحصا والرمل . على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . فالعريف له أناس مركبهم غيرما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير ، وناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ، ومقاود قد اتخذت ، ولجم من مكاس ومذاب ، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة ، ويأتى النقيب والقائد والأمير ، فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول المعدة ، والجواشن والدروع والتجافيف والرماح والدرق التبتية (١) »

ولما ولى المتوكل الخلافة ، أمر كل الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية ، وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعوها فى مناطقهم حول وسطهم (٢) .

ومن أى جهة بحثنا فى الجيش فإننا نصادف ما يماثلها فى العصر الحديث ؛ من ذلك نظام الجاسوسية عند العباسيين ، فقد كانوا يستخدمون فى ذلك كلا الجنسين من الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم ، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم . ولم تكن الجاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية التى كانت لا تزال تنافس الدولة العربية ، والتى كان أهلها فى الماضى أساتذة العرب فى الفنون الحربية

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهى الثغور ؛ وهذا ضرب من الفنون الحربية التى تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب ونبوغهم الذى كان غريزيا فيهم . وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدرا للخطر بالنسبة إلى العرب ؛ وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة ، فكانت كفة النصر ترجح مرة فى جانب العرب وأخرى فى جانب الإغريق . لذلك كانت هذه الثغور وهى طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملطية ، تقع

---

(١) شرحه ج ١ ص ١٧٧

(2) Hell p 70 ; Khuda Buksh : Onent under the Caliphs, p. 328.

(3) Khuda Buksh : Ount under the Calipho, p 340, 344, 345; Hell, p 70.

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ – ٣٠٨ .

(2) Hell : p 71.

طورا فى أيدى العرب ، وطورا فى أيدى الروم .

ولما استولى المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية المقابلة لآسيا الصغرى مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم الثغور [1]

ولما ولى هرون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور ، جعل لها نظاما عسكريا خاصا وأقام فيها المعاقل ، كما أمدّها بحاميات دائمة ؛ ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضا قاموا بتعميرها ، وزراعتها هم وأسراتهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة ، وأصبحت أحوالها فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ، ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول [2] ، وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون الهدوء يلجأون إلى هذه الثغور والتفرغ للبحث والدرس .

وهناك ناحية أخرى تدل على قوة المسلمين فى ذلك الوقت هى الأساطيل الحربية . ولم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية فى صدر الإسلام لبداوتهم وعدم ممارستهم ركوب البحر . وكان أول من ركبه أبو العلاء الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد الفرس فى اثنى عشر ألفا من المسلمين دون اذن الخليفة ، وعادوا إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها إلى بلاد فارس . ولما علم بذلك عمر - وكان يكره ركوب البحر - غضب على أبى العلاء وعزله . ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر فى ركوب البحر كى يغزو بلاد الروم لقربها منه ، فكتب إليه يردعه عن ركوب البحر

ولما ولى عثمان الخلافة ألح عليه معاوية فى غزو بلاد الروم ، فاذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر ، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس فغزوا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، كما غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان البحر ، فحارب سنة ٣٤ هـ قسطنطين بن هرقل وانتصر عليه فى موقعة ذات الصوارى . وفى هذه السنة أيضا فتح العرب جزيرة قبرص ، كما جردوا حملة لغزو البلاد البيزنطية . ومنذ ذلك الوقت أخذت الحملات البحرية تترى على تلك البلاد

ولما ولى معاوية الخلافة عنى بإنشاء السفن الحربية ، وفى عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس . وفى ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ) ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص ؛ ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت لأول مرة سنة ٥٤ هجرية دار لبنائها فى جزيرة الروضة [1]

أما أن العرب كانوا مدينين فى الأصل للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية فهذا أمر لاسبيل إلى إنكاره ؛ إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة وإن تتلمذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن ، فانهم قد أصبحوا أساتذة أوربا فى هذه الفنون . يدلنا على ذلك هذه الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربة إلى اليوم ، والتى لاتزال محتفظة بعربيتها . وكان أثر العرب فى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص أبعد مدى من غيرهم من شعوب أهل أوربا . ويقول فون كريمر : « ومما يوضح لنا أن الأسطول العربى القديم كان نموذجا لأساطيل الاقطار المسيحية أن كثيراً من المصطلحات العربية البحرية لاتزال شائعة على ألسن البحارة فى جنوب أوربا نذكر منها كلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » العربى وكلمة Arsenal وبالايطالية (Darsenal) المأخوذة عن لفظ « دار الصناعة » وكذا كلمة Carvette المأخوذة من لفظ (غراب) العربية ، و Admiral المأخوذة عن لفظ « أمير البحر [2] »

حسن ابراهيم حسن

---

(1) Khuda Buksh : Orient p 349 suiv.; Hell, p 71

(2) Hell, p 71.

(1) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١ .

(2) Khuda Bukhsh : Orient under the Kaliphs pp 35 et seq.

تبصرة وذكرى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى



ليس خيراً فى الاحتفال بذكرى هجرة الرسول من الاجتهاد فى إحياء سنته صلوات الله عليه عن طريق التنبيه إلى بعض الأخطار التى تحف بها فى هذا العصر الذى تكالبت فيه عليها الميول والشهوات ومختلف النزعات الناجمة فى الغرب ، والتى توشك إن لم يجتهد أولو الرأى والدين فى صدها وإيقافها عن حدها أن تطمس من نور سنة صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم ونور كتاب الله نفسه ، فتعمى قلوب بعد إبصار ، وتنشأ ناشئة المسلمين فى دياجى الشك بعد أن كان يرجى أن تنشأ فى نور اليقين

وأخطر تلك النزعات الناجمة والشهوات الهاجمة نزعة التشكيك فى أحكام الدين من ناحية ، وشهوة تأويلها إلى ما يتفق وما يسمونه روح العصر ، أو بالأحرى رأى الغرب وحكمه من ناحية أخرى . وأصحاب هـذه النزعة حين يذكرون روح العصر أو يدعون إلى اتباع الغرب إنما يريدون تقمص روح الغرب واتباع خطواته فى الاجتماعيات ، أى فى الميدان الذى ما نزل الدين إلا لتنظيمه ، وما جاء الرسول إلا لتقويم الحياة فيه . والغرب كما نبهنا فى مثل هذا المقام من قبل لم يصب سنن الله إلا فى عالم المادة أما فى عالم الروح والاجتماع فالغرب لم يصب سنة ولا حكما ، بل هو فى حيرة من أمره : يضطرب بالنظم المتناقضة ، ويعج بالآراء والنظريات ، ويميد بالأهواء والشهوات ، حتى أصبحت عوامل القوة والأمن التى أصابها من ناحية علومه الطبيعية ، هى بذاتها عوامل الخطر والخوف فيه ؛ وأصبح من مدنيته هذه المادية المسرفة المغرورة كالساكن على حرف بركان

لكن الذين يدعون إلى الغرب فتنتهم قوته المادية ، وجهلوا ضعفه الاجتماعى ، فظنوا أن القوة فى ناحية معناها القوة فى كل ناحية ، وأنه لما كان على حق فى طبيعياته ، فهو على حق فى اجتماعياته ؛ فسبيل النهوض والقوة فى زعمهم هو أن يدع الناس ما هم عليه ، ويأخذوا بما هو عليه ، لا يبالون ماذا يتركون ، ولا يترددون ماذا يأخذون

لكنهم نظروا أيضاً فوجدوا أن هذا معناه الدعوة إلى ترك كثير مما أمر به الاسلام والأخذ بكثير مما نهى عنه . والاسلام مهما ضعف فى نفوس أهله فقد بقيت من روحه فيهم ومحبته بينهم بقية لا تؤمن معها عواقب هـذه الدعوة على الدعاة من ناحية ، ولا يرجى معها من ناحية أخرى أن يستجيب أهله إلى ما يخالف نظمه وأحكامه التى جرى عليها المسلمون منذ قام صاحب الهجرة صلوات الله عليه فوضح للناس الدين حكما وعملا باسم الله فاطر السموات والأرض وفاطر الناس . هنالك ذهب دعاة الغرب مذاهب ، وانقسموا طرائق ، فيما يدعون إليه ، وكيف يحملون الناس عليه

فمنهم من نظر فإذا القوة بيده ، ولاه الناس اياها فى ثقة به وغفلة عن نيته ، فرآها فرصة سانحة قد لا يؤتيه الزمن مثلها لحمل الناس على ما يريد ، وتحقيق ما كان يتمناه من زمن بعيد ، فحمل قومه على غير الدين ، بنفس القوة التى ائتمنوه عليها للدفاع عن الدين . واشتط حتى كان يشنق فى سبيل القبعة ، ويحبس ويجلد فى سبيل السفور والاختلاط ؛ ولم يقف حتى جرد الدولة عن الدين ، وحال فى أمته بين الإسلام وبين الحكم الذى هو أخص خصائصه ، وحتى استبدل بأحكامه أحكام أوروبا فى الميدان الذى لم تكن أوروبا لتطمع فى غزوه : ميدان الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتوريث . وشاءت رحمة الله ألا يطرد النجاح لهذا الصنف من المفتونين ممن أراد حمل الناس على سنن الغرب بالقوة رغم الدين ، فكان من هؤلاء من أفلح قومه فى الثورة عليه غضبا لدينهم حتى أنزلوه عن عرشه وشردوه عن بلده ، فكان فيما لقيه من الهزيمة والتشريد بعض العزاء للمسلم الذى ينظر الى ما يجرى فى أقطار الاسلام الأخرى من بعيد ، وشبه إنذار لمن عساه أن تحدثه نفسه بسلوك نفس الطريق . فوقف الخطر

من هذه الناحية وإن كان يخشى أنه لم يزل ، إذ يخشى أن يكون هذا النوع من الخطر كامنا فى بعض الأقطار ينتظر الفرصة ليشب كالنار

على أن مقلدة الغرب والمتحمسين له ليسوا كلهم ممن يستطيع أو يرجو أن يستطيع أن يحمل الناس على خطوات الغرب بالقوة. والذين ليس بيدهم القوة من دعاة الغرب لم يحملهم فقدان القوة على ترك السعى إلى غرضهم ، بل هم دائبون ناصبون فى سبيله لكنهم يكيفون وسائلهم بما يلائم الظروف . صحيح أن جميع وسائلهم يصح أن تتلخص فى « بث الدعوة » ، لكن سبيل الدعوة معبد لهم ميسر، فإن جميع مايراه الناس ويسمعونه فى ملاهيهم ومتروضهم، وجميع ما يقرأونه للتسلية لا يخلو مما ينألفهم إلى ما ينافى الدين ويبث فيهم روح الغرب الماجن من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون : فالأغانى بألحانها ومعانيها المتهالكة . والراديو بما يذيعه من مهازل المسارح ومما جن الصالات ، والسيما بما تعرضه من روايات صنعت فى الغرب لتمثل فيما تمثل نواحى الشهوات فيه بما يغرى بها الناس ، والمجلات والجرائد بما تنشر من قصص غير طاهر وصور غير نقية منقول أكثرها عن مجلات الغرب وجرائده من غير نظر الى الشرق والى البلاد الاسلامية منه على الأخص — كل هذا وكثير غيره يعمل عمله فى النفس المسلمة الناشئة وغير الناشئة فتضعف من روح التدين فيها ، وتمهد للغرب ودعاته سبيل الاستيلاء عليها

هذه العوامل فى ذاتها خطر كبير ، لكن لا يزال هناك فى المسلمين شعور بأنها خطر ، وأن من الواجب مقاومتها والعمل على تلافى آثارها . صحيح ان هذا الشعور أكثره كامن لا يبدو إلا حينا بعد حين ، وإذا ظهر قويا فترة عاد إلى مكمنه فترات ، لكنه على أى حال شعور سليم . وهو على كل حال موجود منتشر، ووجوده هو معقد الأمل والرجاء ان يصير يوما ما قوة دافعة تدفع هذه الكتل البشرية الاسلامية فى طريق الاسلام لتحيا فى بلادها حياة مسلمة ، ولتقيم على الأرض مرة أخرى دولة لا يكون الحكم فيها إلا لله العلى الكبير

لذلك كان الخطر الأكبر والشر الأعظم هو ما اتجه إليه دعاة ما يصح أن يسمى باللاإسلامية ، من تخدير هذا الشعور الاسلامى وإضعافه ثم إطفائه لما أوجسوا منه خيفة ، ورأوا فى إحساس المسلم بفرق ما بين تعاليم الغرب وتعاليم الاسلام ، عقبة العقبات فى سبيل دعوتهم التى يبثونها والتى ما فتئوا يوهمون الناس أن الخير كل الخير فيها . فتفتقت لهم حيلتهم ولطف كيدهم أن ينيموا هذا الشعور ويزيلوا هذا الاحساس فاتخذ كل منهم سبيلا إلى نفس الغاية ، او بالاحرى لم يدعوا سبيلا إلى تلك الغاية إلا سلكوها .

فمنهم من جعل يوهم المسلم المحافظ المتحفز للمقاومة أن المقاومة غير مجديه . وان روح العصر لاشك غالب . ففيم المغالبه والامر مفروغ منه والنصر مكتوب لاهل اراء الجديد من الجيل الجديد ؟ وهذه طريقة قد اثرت فى كثيرين بل قد افلحت مع بعض من كان يظن انه اعقل وأبصر من ان يجوز عليه هذه الخدعه من اهل القلم من المسلمين . فكتب حديثا ينبس فئة الشباب المتمردين فى حر لهم الدينية الحديثه ضد الاختلاط ، لا لان الاختلاط عنده صواب ولكن لأن وقت المقاومة قد فات . إذ الاختلاط قد بدأ منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ! ولو كانت هذه الحجة على أساس من الحق لما أصابت الدعوة اللاإسلاميه شيئا من النجاح ، لان عمرها كله لايزيد على ربع قرن . ومع ذلك لم ييأس اهلها ان يبدأوها برغم القرون الكثيرة التى رسخت فيها تلك النظم والتقاليد الاسلامية التى قاموا لمحاربتها : وقد بدأوها بالفعل واصابوا — لما اغتر المسلمون بقوتهم وضعفها — هذا النجاح الذى أوحى إلى ذلك الكاتب المسلم ما وحى من الكلام .

ومنهم من يحاول إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين المتململين بإيحائه إليهم ان لا ضير ولا خوف على الدين من ترك دعاة ما يسمونه الجديد يبشرون دعوتهم يمينا وشمالا فى اذهان الاطفال، وفى عقول النساء والرجال ، لان الحق سيتضح والباطل سينهزم والاصلح سيبقى ، وبتركهم يفهمون ان الباطل سينهزم من نفسه ، والحق سينتصر على رغم قعود اهله . وأن الدين له رب يحميه : وإذن فليس هناك من داع إلى أن يعملوا هم على نصرته او يكلفوا أنفسهم مشقة الجهاد فى سبيله . ويصادف هذا الإيحاء نفوساً تحركها للقيام كتحركها للقعود . فتجنح إلى القعود والراحة مرة أخرى وتترك الميدان خلواً أو شبه خلو لأولئك الدعاة ، وهى

بذلك تعرض نفسها للهلاك لأن رب الدين حين يحمى الدين يحميه طبق سنته التى خلت فى الاولين باهلاك القاعدين واستخلاف غيرهم من المجاهدين الذين (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

وأبلغ فى الكيد من هذا إذا أرادوا أمراً وعارضهم حكم الدين أن يشككوا فى ذلك الحكم ويزعموا للناس أن ليس فى الدين ما يمنع مايريدون ؛ فإذا قيل لهم إن الحكم ثابت عن طريق الإجماع أنكروا الاجماع أن يكون أصلا من أصول الدين ، أو طالبوك بأن تثبت انعقاد الإجماع ؛ فاذا جئت لهم بالنص على انعقاده تجده فى بطون الكتب ، جوزوا أن يكون الكتاب قد أخطأ أو أن يكون صاحبه قد كذب ، أو احتجوا لرأيهم برأى شاذ لبعض من كان لعله مثلهم فى ماضى الاسلام من الخارجين عن جماعة المسلمين . ولو كان الحكم لا يثبت فى الدين لرأى شاذ يراه واحد ولو كان من أهل العلم ما انعقدت بيعة أبى بكر ، فإن خلاف سعد بن عبادة وهو من كبار الصحابة فى أمر تلك البيعة معروف ، بل إذا كان الحكم فى جماعة ما يمكن تعطيله بمثل حجتهم الواهية هذه ما أمكن تنفيذ حكم أو دستور فى أمة من الامم فى هذا العصر أو فى أى عصر ، ولكان قولهم هذا أبلغ ما يبرر به حكم الفرد، إذ يصير حكم الفرد فى هذه الحالة هو البديل الوحيد من الفوضى

فإذا كان فى الحكم نص من السنة الكريمة واحتججت للحكم بذلك النص شككوا فى السنة وقالوا إن الذى وضع على الرسول كثير، فلعل هذا من المكذوب الموضوع . فاذا قلت إنه قطعا ليس من الموضوع لأنه وارد فى الصحاح ، قالوا إن الحديث الصحيح لا يمكن الجزم بأنه ثابت قطعا عن الرسول ، فإن ماثبت قطعاً عن الرسول هو المتواتر وهذا محدود معدود

ويحاولون أن يشككوك فى الحديث جملة باستغلال أمانة علماء الحديث ومبالغتهم فى التدقيق عند تميز درجات الحديث ، إذ جعلوا الاحتمال العقلى البعيد للسهو أو النسيان أو الخطأ فارقا بين الصحيح وبين مالا يمكن أن يتطرق إليه إلا ذلك الاحتمال وهو المتواتر مع أن حديث الرسول قد محص بما لم يمحص به حديث أو رأى أو فعل صدر عن بشر كائنا من كان ، وأن هذا الحديث الصحيح قد صح عن الرسول بالسند الممحص المنقود فاختبر عن طريق تمحيص السند من بين مئات الآلاف من الأحاديث فلم يتجاوز عدده بضعة الآلاف ، منها كثير مشترك . والمبالغة فى التدقيق فقط هى التى تجيز عقلا من بعيد ألا يكون مثل هذا الحديث مقطوعا بصدوره عن الرسول برغم ذلك التمحيص الدقيق . ولو كان مثل هذا الاحتمال مسقطا للحديث لسقط التاريخ كله ولكان من العبث الاعتماد على تاريخ ، أو كان هذا الاحتمال يجيز إهمال الحديث فلا يعمل به لجاز إهمال كل ماهو فى مرتبة دون مرتبة اليقين فى العلم وفى الفلسفة ، مع أن العلم يتمسك بالنظرية الراجحة حتى يثبت بطلانها؛ وأولئك المشككون أنفسهم يستندون فى تدعيم آرائهم إلى آراء ونظريات هى من ناحية الثبوت فى العلم أو الفلسفة دون مرتبة الحديث الصحيح بكثير من ناحية الثبوت فى الدين . على أن الاجماع منعقد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بوجوب الأخذ فى الأحكام بالحديث الصحيح . بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون فى أحكامهم بالحديث يثبت عن الرسول عن طريق فرد ذكر أو أنثى ، وكانوا يرجعون عما عساهم يكونون ارتأوه أو حكموا به مما يخالف ذلك الحديث كما ترى توجيه ذلك مفصلا فى الرسالة التى كتبها الامام الشافعى مقدمة للأم فى الأصول

ويلتحق بهذا النوع من كيد أولئك المشككة المعطلة ما يحاولونه من تعطيل القرآن وإبطال مفعوله عند المسلم بالتوسع فى تأويله وصرف الآى عن وجهه وتخصيص عمومه وتخريجه على نحو يوافق مايريدون ويعتقدون من آراء الغرب ونظرياته . ولقد لطفت حيلتهم فى هذا حتى وقع فى أحبولتها بعض قصيرى النظر ممن ينتسبون إلى الدين من المسلمين ؛ ووقوع ولو واحدا من رجال الدين فى أحبولتهم تلك دليل على مبلغ الخطر الذى يحف بالاسلام اليوم فى بلاده وصميم أهله . وإذا لم ينهض المسلمون لدرء هذا الشر ويصدقوا الله الجهاد فيه غير متوانين ولا متواكلين ولا مسوفين ، فسيجزيهم بتراخيهم ذلة فى الدنيا ، ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين يؤيد بهم دينه الكريم (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

محمد أحمد الغمراوى

في ظلال الهجرة

غـــزوة بدر

للأستاذ ابراهيم مأمون

ذِكرى، كما شاء الزمانُ أجالَها ... وخطى نكرت العالمين حيالَها
ما المرسلاتُ وما العواصفُ؟ ويحها ... هل جزن بيداً أم وطوين تلالَها؟
وإلامَ يحتثّ الهجان حداتُها ... في مهمهٍ سبقت عليه ظلالَها؟
قل للطوائر في الجواء حوائماً: ... ربُّ السماء لغيركن أحالَها
للريح. تنتظم الغمام ظعائناً ... وتمدّ من لُمَع الشعاع كلالها
حرم السماء مجالُها، وكأنها ... سفنٌ تخذن من العباب مجالها
يمشين في حرس السماء، تديرها ... أيدي الهواء. وما وعين عقالها

***

هي آذنت «بدراً» بنصر «محمد» ... وطى يديه استنزلت آمالها
جاءت «بجبريل السماء ووحيها»، ... وحدت بآمال العلا «ميكالها»
تلك السماء تشققت بغمامها ... تولي الرسالة في «العريش» صيالَها
أزجت إلى جيش الحنيف ملائكا ... لمس القليبُ طعانها ونزالها!
مثلَ الحمام برفعها وبخفضها، ... وجرى الهوانُ يمينها وشمالَها!
سائل جلودَ الشركِ عن تبريحها ... والشركُ يبكيها، ويندبُ آلها
واستوحِ أشلاء القليب. فإنها ... تبيانُ «بدرٍ» إن أردت مقالَها
يا يومَ بدرٍ: والمواقفُ جمّةٌ ... فيكَ الحنيفةُ زايلت أسمالَها
لبست دروعك سابغاتٍ في الوغى ... ومضت بساحك تستثير رجالها
تلقى «محمداً النبيَّ» يقودُها ... ويُعِزّ رايتها، ويُنهض فالها
ويذودُ عنها العادياتِ بحلمه ... حيناً، وحيناً يستجيبُ قتالَها
ما اللاتُ؟ ما العزّى؟ وأين مناتُهم؟ ... غال الحنيفُ عبادها، وأزالَها
والشركُ نكسه الجهادُ. فلم يقم ... أرأيتَ «هنداً» مثّلت أمثالَها؟
تدعو النساء إلى العويل، وتنتضي ... سيفَ المهانةِ لم يغث أبطالها
تغري الوغى بملاحمٍ دمويةٍ ... شعواء تنهض بالرماح سجالها
بعثت من البيض الخفاف رسالةً ... حلقت لها يافوخها وقذالها
وجفت غدائرها وألقت قرطها ... وتناهبت حسراتها خلخالها
تحدو الرجال إلى المواقع تارةً ... وتسير أخرى تستفزّ خبالها
كوساوسِ الشيطان أغرت مؤمناً ... فجفا مودّتها، وعافَ وصالها!
ما غاظها جيشُ السماء. وإنما ... جيشُ «المهاجر» يوم بدرٍ غالها!
برزَ الحنيفُ على الحياض إلى الردى ... يرمي الجهالةَ أو يدُعّ مطالها!
وكأنّ أرضَ الله تقذفُ مابها ... وسماءهُ تولى النبيَّ نضالها!
والكفر في بؤر الخنا متطلعٌ ... للعدوة الدنيا يرى رئبالها!
ويحسّ في كفيه أنفاسَ الوغى ... تُبدي من الصمتِ الرزين ملالها
ألوى بجيش الشركِ مرهوبَ القنا ... ونضا قواهُ، وما نضت سربالها

***

يا باسطَ الكفين في كنفِ العلا ... تدعو السماء. وما تركتَ سؤالَها
النصر وافى، واصطفتك مغانمٌ ... والله قسّم بينكم أنفالها
فلذات مكة في رباك سوائلٌ ... ترجو نداك وما رجوتَ نوالها!
كانت تريكَ ببطن مكة بغيها ... أفلا أرتك لدى الوغى استبسالها؟
خيرَ البرية: تلك عقبى صابرٍ ... لاحته مكة: ظاهرت جهّالها
جنباتُ مُلكِ الله فزّع دمعها ... دعواتك اللائي نثرت إلا لها
والعرشُ حوّم في رحاب المنتهى ... يُصغي لسدرتها وأنت حيالَها
ويمدّ أجنحةَ الجلال لمنكبٍ ... بادي اللآلئ يجتلي لألالها
جافته بردُ نسك الشريفة مذ رأت ... ملأ العلا يُضفي عليه مثالها
لو يعلم «الصدّيق» عند وقوعها ... ما تزدريه لهاله ما هالها!
وسباه من وادي السنا لمحاته ... ومضى إليها يبتغي إمهالها!
ليرى تحيتها لوجهك ضاحياً ... ويراك توليك العلا إجلالها!
ويراك والسبعُ الطباقُ خواشعٌ ... ويراك والدنيا تراك عالها!
نور الجلالة تحت ثوبك مشرقٌ ... يهدي السماء نجومها وهلالَها،
من غير هديك ماتبسم طالعٌ ... في أمة أغرى الهوى اهمالها!

***

تلك الخلائق يا محمدُ: أعرضت ... ورأت حطام الراشدين حلالَها!
رجعت بها الأهواءُ عن غاياتها ... وتنقّصت في العاجزين كمالها
فُتنت بزائفة النهوض، ولو رأت ... مجدَ الأوائل أكبرت أطلالَها
كفرت على مهدِ الندى آباءها ... وجفت على قرب المدى أخوالها
جادت على وادي السماح بروحها ... للناهبين، وما رعت إقلالها
جعلت لخاذل دينها تسليمَها ... ولناصريه المتقين جدالها
ولو انها التمست هداك لصافحت ... غدواتكِ البيض الخطا آصالها

ما اعتزّ من عزوا بغيرك هاديا | وبغيرك الدنيا رأتْ إذلالها
خطَرتْ تجرِ القيدَ تحسب أنها | بلغتْ أمانيها أو استِقلالِها !
نشوى بحكم الفرْد صاغ من العصا | قلمَ المؤدّب يجتوى إملالها
تدعو وتنهض فى الحياة مُضَلَّلاً | جعَل المتاحَ من الأمور مُحالها
تتزاحم الشورى على أبوابها | فتشيح عنها تبتغى أبطالها !
ويميتْ أكفاء الرجال هداتُها، | وَيَبح المواهب لاترى استفلالها!
وأدُوا البنين، كأنْ شرعتك انتهت | وكأنَّ عدْوانَ الزمانِ أدالها !
وكأنّ بغى الجاهلية لم يزَل | يُلغِى الحقوق ويزْدرى سُؤالها !
ولعلّ من وأد البنات أنابها | والجاهلية ترتضى إغفالها !
يا آسىَ التقوى : جفاها طبُّها ، | بكَ تستجير ، فهل ترى ابلالها؟
ذاق الأمرّين الأساةُ .وأخفقوا ؛ | فمن الذى يشفى المقام عضالها ؟
لجّت بصيحتها المشارقُ لم تجد | كفا تحلّ بحزمها إشكالها !
نُعلى المعابدَ لا قنوتَ لخاشع | فيها؛ ولا نَتقى هناك « بلالها » !
ما أكثر الداعين باسم هُداتها | حتى إذا نُودُوا جفوْا أقوالها !
ورأوْا مبادئها مسبّة جيلهم | وكأنها لم تنتظم أجيالها !
هى تلك يا طه شريعة دينهم؟ | أمْ تلك دنيا يشربون نهالها ؟

ابراهيم مأمون

في الأدب المقارن

الشعر والنثر

فى الأدبين العربى والإنجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الشعر أسبق ظهوراً من النثر فى عالم الفن الذى يحتفى صاحبه بانشائه وتنميقه ، ويتعمد إيداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء . فالشعر يظهر ويرتقى والأمة ماتزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران ، أما النثر الفنى فلا تدعو الحاجة إليه ولا تتم وسائله إلا فى أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية ، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على إنشاء النثر المنمق ، الذى يحوى تعمقاً فى التأمل واتصالا فى المجهود الأدبى وتدبيجاً للفظ ، وتتيح أيضاً للنثر الفنى أن يبقى ويذيع . أما الشعر فهو غنى بموسيقاه ورويه عن تقييد الطروس ، وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبدية ، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة ؛ ومن ثم ارتقى الشعر الاغريقى كما يتمثل فى ملاحم هوميروس رقياً عظيما ، والأمة ماتزال إلى البداوة أقرب ، وتطور حتى تفرع منه فن جديد هو فن التمثيل ، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليونانى ، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدى هيرودوت وثيوسيد وأفلاطون .

وكلا الشعر والنثر مدينان فى ظهورهما ورقيهما ـ كسائر الفنون ـ للدين والدولة بفضل عظيم : ينشأ الشعر مختلطا بالموسيقى مصاحبا للرقص فى الحفلات الدينية ، التى تحفلها الجماعات الأولى فى مواسم آلهتها ، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين إلى حظيرة الدولة ، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الاغريقى فى عصر الطغاة ، وعلى أيدى الكهنة يتألف أول ماتعرف الأمة من مبادىء النثر الفنى ، من نثرات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة ، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء إلى بلاطات الملوك ودواوينهم ، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم ؛ ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتى الديانة والدولة قليلا قليلا ، بشيوع الرقى العقلى وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة ، فيصبح كل منهما فناً غايته التعبير الجميل عن شعور الانسان بالحياة ، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام ، وتخلصه من الغرض المادى يكون رقيه الفنى وصدقه فى أداء رسالة الحياة .

فبانتشار الحضارة والثقافة يرتقى الشعر عما كان عليه فى عهد البداوة ، ويظهر بجانبه النثر فناً ثانياً مترجماً بالألفاظ عن شعور الانسان وتفكيره ، منافسا له فى كثير من مواضعه ومعانيه . فيتقاسمان النهوض بمهمة الأدب ، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين ، يبرزون فى كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهارهم بالثانى . ويشارك النثر الفنى الشعر فى كثير من خصائصه ، أى خصائص الفنون جميعاً ، كالموسيقية ، والخيال ، والتقابل ، والتماثل ، والتجاوب ؛ بيد أنه وإن تشارك الفنان فى شتى الخصائص والموضوعات ، فما يزالان متميزين فى خصائص ، مستقلا كل منهما دون الآخر بموضوعات هى به أشبه وهو على تأديتها أقدر . فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل فى باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحياناً ، وللنثر ما هو أقرب إلى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء ، ومن ثم يلجأ الشاعر الناثر إلى الشعر طوراً وإلى النثر تارة

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة ؛ وربما رق النثر فى كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر ، لايميزه عنه سوى انعدام الوزن

وإن ساواه فى الموسقية ؛ أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لها سبلا وأرحب مجالا ، إلا أن يجئ النثر الحماسى خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجاشة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ؛ وأما فى سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدراً . أطول باعاً . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التى يضطلع بها إذا ماتوطد وساير الشعر جنباً لجنب

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويلتقى الطرفان الآخران حتى يختلطا ؛ وإن الروح الشعرى قد يكون فى النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الردىء ؛ ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فن الطبيعى أن يرتقيا معاً فى عصور الرقى الانسانى وينحطا معاً فى عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الادباء والثانى فى انخذال وقعود ، تبعاً لما تميل إليه نزعة الشعب فى عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة احياناً ، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادىء للحقائق أحياناً حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الاغوار المتنقلة الاطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى ، وبعصور هدوء وركود ، وتأمل علمى وفلسفى ، يغزر فيها النثر ويلعب دوراً كبيراً ويخفت صوت الشعر

فاذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التى رسمها أرسطو لنظم الحكم فى المدن اليونانية ، بين ملكية وارستقراطيه وهلم جراً ، كان أول أطوار تلك الدورة طورا شعريا طويلا ، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيباً وافراً من الحضارة والثقافة ، يلى ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر فى أثنائه أوعقبه مباشرة ؛ فاذا ما انبثت فى الأمة روح جديدة جاء طور شعرى جديد سابق أيضاً ، يليه طور نثرى وهلم جراً . ولعل فى تاريخ الأدب الفرنسى مثالا لذلك واضحاً : إذ سبق الشعر الفرنسى بالظهور على أيدى التروبادور ورونسار ، ثم نهض النثر على أيدى رابليه ومونتين فى عهد النهضة الأوربية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى فى عهد لويس الرابع عشر على أيدى كورنيى وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فلتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كرينان وتين

يتشارك النثر والشعر – منذ ظهور النثر الفنى – فى تأدية رسالة الأدب ويتشاركان موضوعات وغايات ، ويتراوحان صعوداً وهبوطا مع تعاقب العصور ، ويظهر النوابغ فى كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين وإعجابهم ؛ بيد أن الشعر يظل آثر لدى المثقفين وأكثر استئثاراً بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف إذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا فى الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة فى تاريخ الأدب الانجليزى ، كل ذلك لما يمتاز به الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذاباً إلى العاطفة منه إلى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربى وارتقى فى البادية ، سابقاً للنثر ، إذ بلغ ما بلغه من الرقى على أيدى أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة . نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ولا « الخطابة » . ولم تذع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب . وكان الشعر والنثر معا فى بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والتنبؤ والسجع كانت معانى وألفاظا متلاحمة الوشائج . وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عدداً من الأنبياء عديداً ، وكان الشعر إلى ظهور الاسلام ينشد فى المواسم الدينية ، وتخاطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين فى طوافهم :

عك إليك عانية عبادك اليمانية

ولم يفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين ؛ بل بفضل الدين احتوى النثر العربى على أثر فنى لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذى ظل يحتذى ويدرس ويقتبس فى النثر والشعر معا طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس دينى اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب إلى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل فى دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربى خروجا تاما من طور خدمة الملوك ، إلى الطور الفنى الخالص المنزه عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، وإنما ظل الشعراء

والكتاب يعتمدون على رعاية الأمراء، ويسخرون فيهم لخدمتهم

وتوالت أطوار الشعر والنثر فى تاريخ الأدب العربى: فسبق الشعر فى الجاهلية، وحل محله النثر فى صدر الاسلام متمثلا فى الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم، واستعاد الشعر مكانته فى عهد الأمويين على ألسنة جرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثير وابن أبى ربيعة وأضرابهم؟ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة، فظهر النثر الفنى على أقلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبديع؛ وبلغ الشعر فى الوقت نفسه أوجه على أيدى معاصرى هؤلاء من الشعراء، كبشار وأبى نواس والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى والمعرى، ثم أفل نجم الشعر بدءا من القرن الخامس وأفسده التعمل، وأعوزته روح الطموح والمغامرة التى غاضت من نفوس الأمة التى أرهقها المتسلطون، وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نضج الثقافة الاسلاميه، فكان العصر التالى طور نثر طويلا أنجب من النقاد والمؤرخين والكتاب أضراب ابن خلكان والنويرى والقلقشندى وابن رشيق وابن خلدون، ممن كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة، وتنظيمها والتعليق عليها. ثم لحق الوهن والاسفاف النثر كما لحق الشعر. فلما كانت النهضة الحديثة، كان الشعر أسبق إلى النهوض والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد، فالشعر أسبق من النثر إلى الازدهار وأسبق منه إلى الذبول.

كان الشعر أسبق إلى الظهور والرقى فى الجاهلية، وكان العرب يعدونه ديوانهم، وكانت له لديهم مكانة عظيمة، وقد ظلت له هذه المكانة على توالى العصور، على رغم ظهور النثر الفنى ورقيه وحصول الكتاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة؛ وظل الشعر أعلق بالنفوس وآثر بالحفظ والذكر، ولم يسايره فى الحفظ والسيرورة من آثار النثر إلا القرآن الكريم، وهو ملوء بالروح الشعرى حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة. ولما ارتقى النثر الفنى راح يتتبع خطى الشعر: يقتبس أبياته ويضمن شطراته، ويتناول موضوعاته، ويحاكى موسيقاه ووزنه، فاصطنع السجع والازدواج والجناس، وأصبح السجع فى النهاية للنثر لازماً لزوم القافية للشعر. والحق أن الأدب العربى بفنيه الشعر والنثر اتسم دائما بالاحتفاء باللفظ وجرسه وتنميقه، والأسلوب وتقسيمه وتدبيجه، وقد ظل ذلك مستساغا مقبولا حينا ثم أفرط وسمج. وظل الشعر العربى شديد الحرص على فخامة الموسيقى ووضوحها واطرادها بلا اخلال، كالاخلال الذى يكثر فى الشعر الانجليزى ويلجأ إليه شعراء الانجليزية قصداً للتنويع واجتناب الاطراد الممل. وظلت القافية فى الشعر العربى كذلك واضحة جزلة مكونة فى الواقع من قافيتين صوتيتين، كما فى «عانيه» و«مانيه» فى البيت السالف الذكر، وهذا ما يعرف فى الانجليزية بالقافية المؤنثة، وقد دخلت الانجليزية نقلا عن الايطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها، لعدم ملاءمتها لطبيعة اللغة الانجليزية التى تمج الافراط فى الموسيقية نثراً أو نظما.

ولما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر، ونبغ فيه الكتاب واحترفوا إنشاء الرسائل الديوانية، وحرصوا على التزود بكل أسباب الثقافة، والتحلى بكل موجبات الفضل، عالج أكثرهم الشعر طبعا أو تكلفا، فاثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصولى وسعيد بن حميد وابن العميد وابن عباد والخوارزمى والبديع والجرجانى والعسكرى، أشعار قالها بعضهم تظرفا ورياضة للقريحة، وقالها بعضهم جادين فى التعبير عن خوالج صميمة وآراء صادقة. وقد قيل إن الجاحظ عالج قرض الشعر طويلا ثم أقلع حين لم يفلح. وكان البديع والحريرى يخالفان فى مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعروض، وفيما عدا ذلك يتساويان تنميق لفظ وبلاغة إنشاء، ومن أجمل أشعار الكتاب قول الجرجانى من أبيات هى من غرر الشعر العربى: —

يقولون لى: فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
إذا قيل: هذا مشرب قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية وكان أكثرهم يميل مع الشعر؛ على أنها مفاضلة لا موضع لها: فليس الشعر خيراً من النثر ولا النثر خيراً من الشعر، وإنما كلاهما ضروريان وكل منهما جميل فى موضعه، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا يدخلون فى حسابهم اعتبارات خارجية لا صلة لها بالفن الصميم، بل هى شؤون اجتماعية أو سياسيه أو فردية صاحبت الأدب فى بعض العصور، فأصحاب الشعر يستدلون على أفضليته بأن الشاعر يخاطب الأمير باسمه مجرداً وباسم أمه وبصيغة المفرد، وبأن الشعر رفع قبائل كأنف الناقة ووضع أخرى كنمير، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه ولا يستساغان نثراً؛ وأصحاب النثر يؤيدون حجتهم بأن الرسول الكريم لم يقرض الشعر، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم. وأن الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم وهلم جرا.

نشأ الشعر والنثر الانجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة، وكان مزاولوهما الأوائل أمثال تشوسر وسبنسر وهوكر من رجال السياسة والدين والحرب، أو كانوا على اتصال بالساسة والمحاربين وعلماء الدين. ومن الكنيسة خرج فن التمثيل ذو الصلة الوثيقة بالأدب، فكان قوامه الشعر أولا على عهد شكسبير؛ ثم انحاز تدريجاً إلى النثر؛ وكان للانجيل أثر بليغ فى اللغة الانجليزية؛ غير أن الشعر والنثر ما لبثا بعد ذلك أن انسلخا تدريجاً عن الملك والكنيسة

والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما مكان أولئك جميعاً على الجمهور القارىء ، ودخلا فى طور الفنون الخالصة التى لا غاية لها سوى وصف مشاعر الانسان وشعوره بجمال الحياة وغبطتها ، وهو الطور الذى لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماماً ؛ بل قام من الأدباء الانجليز من ناصبوا الملكية والكنيسة ، مثل شلى وبيرون

وكان الشعر الانجليزى أسبق إلى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه فى عهد اليزابث فى آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية حتى فى النثر القليل الذى خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ، فهوكر مثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفاً شعرياً رائعاً ؛ وتلا ذلك طور نثرى طويل فى القرن الثامن عشر ، بلغ فيه النثر الغاية من السلاسة ورحب الجوانب ،ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض الشعر فى العهد الرومانسى نهضة باهرة ، وكان كثير من شعرائها كتابا حذاقا أيضا تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح رومانسية ؛ ثم ارتقى النثر فى أعقاب ذلك مرة أخرى ، فظهر من النقاد ماكولى وارنولد ، ومن القصصيين ثكرى ودكنز ، وما زالت القصة فى ازدهار مطرد

وبلغ النثر الانجليزى من الرقى الشكلى والموضوعى ما لم يبلغه النثر العربى : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة الفنية . وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الانجليزى ، وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردى ، بل كانت ممارسة النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الانجليزية ، يبسطون فيه آراءهم فى النقد الأدبى والأحوال الاجتماعية . فكان دريدن وكاولى وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار شعراء العربية فقلما روى لهم نثر مطنب

على أن الشعر الانجليزى وإن زاحمه النثر فى العصر الحديث هذه المزاحمة . واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء ، لم يفقد موضعه الأثير من نفوس المثقفين ، وإنما هو يجتاز مثل عصر الركود الذى شهده فى القرن الثامن عشر ، إذ أن النثر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس الانسانية على اختلاف العصور ، بيد أن الناس حتى فى مثل هذا الطور لا ينزعون عن حبهم للشعر . بل يلتفتون إلى الماضى يروون صداهم من عبابه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلى منازل فى قلوب قراء الانجليزية ، كمنازل ابن الرومى والمتنبى والمعرى فى قلوب قرائهم ، لا يحتل مثلها الكتاب الناثرون فى كلا الأدبين

فخرى أبو السعود

بين يومى الهجرة والفتح

حمامتان تتناجيان

للأستاذ محمود غنيم



قالت الأولى :

هلمى يا أختاه نغادر سطح هذا الغار – غار ثور – قبل أن يدركنا هذا الجيش اللهام ، فيغطينا العثير الذى تثيره سنابك خيله . يالله ! إنه ليحث الخطى نحو قومنا – قريش – ولا قبل لقومنا به ، عشرة آلاف أو يزيدون – إن صدق حدسى – مع كل منهم سيفه القاطع ودرعه المنيعة ، ويقين أقطع من سيفه وأمنع من درعه . يا لله لقريش ! من أين أقبل هذا الجيش ؟

قالت الثانية : لقد جاء القوم عن طريق يثرب ، لكنى لا إخالهم جميعا يثربيين . أنظرى ، هذه خيل من سليم ، وهذه من مزينة ، وهذه من غطفان ، هم أمشاج أخلاط ، من كل فج وعلى كل لون ؛ ولكن شيئا لا أكاد أتبينه ، تبدو أنواره على أساريرهم ، ويشع بريقه من عيونهم – يؤلف بينهم ، ويجعل منهم كتلة واحدة كأنهم بنيان مرصوص

بيد أن شعورا داخليا فى نفسى يجعلنى لا أرهب هذا الجيش ، حتى لأكاد أقف على ذباب سيوفهم وفوق شبا رماحهم آمنة مطمئنة ، كأنى فوق منبر الحرم ، أو على حافة مقام ابراهيم . أنظرى معى ، أنعمى النظر ، ألا ترين تلك الكتيبة الخضراء التى تتوسط الجيش ؟ ألا ترين هذا الرجل الذى يتوسط تلك الكتيبة الخضراء ، يومىء للقوم فيسيرون ، ويقفهم فيقفون ؟ إن لى عهدا بهذا الرجل – إن لم تخنى الذاكرة – آه ! تذكرت يا أختاه ، أليس هذا صاحبنا بالأمس الذى استضفناه فى هذا الغار ثلاثة أيام منذ عشرة أعوام ؟ إنه محمد ، محمد ، محمد ، ألا تذكرين ؟

قالت الأولى : تذكرت كل شيء ، حتى لكأن هجرته بنت الصباح، وكأن مكانه في الغار لا يزال حارا ، وكأن جرس صوته يرن في أذنى وهو يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، ألم أحدثك يومئذ أن لهذا الرجل شأنا ؟ ما الذى أوحى إلينا يومئذ أن نحكم تدبير تلك المؤامرة التى اشتركنا فيها لتضليل القوم وإخفاء محمد عن عيونهم ؟ يوم عششنا بفم الغار ، وما كان فم الغار لابعش ، ونسجت العنكبوت خيوطها على بابه ، وما كان لها به عهد ، وأرسلت الشجرة الجرداء ذوائبها فاعترضت الطريق إليه . لقد تضافرنا على تضليل القوم حتى ضل القوم ، فظلوا يتخبطون فى كل مكان ، ويهيمون فى كل واد ، يبحثون عن محمد ، ومحمد منهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لعثر عليه

تذكرت يوم تألب شبان قريش على محمد ، وأحاطوا بداره إحاطة السوار بالمعصم ، ينتظرون طلوع الصباح ، فيعطرون أديم الأرض بأطيب دم جرى فى أطهر عروق ، ويفصلون أعظم رأس عن أكرم جسد ، وكيف أن محمدا تغفلهم فى الهزيع الأخير من الليل فاضجع عليا فى فراشه ، وسجاه ببرده الحضرمى ، ليوهم القوم أنه هو ثم انسل من بينهم ، والكرى آخذ بمعاقد أجفانهم . كم كان ليلا هادئا ساكنا ، لم يقطع عليه سكونه إلا دبيب محمد الخافت ، يسير على أطراف أصابعه ، وإلا طرقة هامسة من أطراف أنامله على باب صديقه أبى بكر سرعان ما استجاب لها ، كأنهما كانا على ميعاد . على أنهما لم يأمنا أن يخرجا من باب الدار ، فخرجا من فجوة فى الجدار ، ثم انجها فى طريق اليمن حتى طرقا علينا باب الغار ، وقد آذن أن يبلج النهار ، فقابلناهما بالنجلة والاكرام ، طيلة ثلاثة الأيام . كم كان يثير إشفاقى وإعجابى ما كان يبدو عليهما من الخوف المركب فى طبيعة الانسان ، مقرونا بالثبات الذى تبعثه قوة الايمان !

نعم تذكرت ذلك كله ، وتذكرت كيف كان عبد الله بن أبى بكر يندس بين قريش نهارا ، ثم يوافيهما فى الغار ليلا ، فيسر إليهما ما يأتمرون به ، وكيف كان عامر بن فهيرة غلام أبى بكر ، يمر بغنم عليهما موهنا فيحتلبان ويذبحان ، ثم يعفى بها على آثار عبد الله . وتذكرت يوم اعتزما الرحيل فالتمسا ما يعلقان به الطعام فشقت أسماء بنت أبى بكر — ذات النطاقين — نطاقها شطرين ، علقت الطعام بشطر ، وانتطقت بشطر . وتذكرت سراقة بن مالك وما كان من أمره يوم جعلت قريش لكل من يقبض على محمد مائة بعير ، فخرج يلتمس محمدا ، فاذا محمد منه عن كثب . لكنه ما كاد يصيح صيحة الظفر ، حتى شعر بجواده قد عثر ، فأنهضه فكبا ثانية ، ثم ثالثة ، حتى كأن الحصان فقد قوائمه ، أو فقد الأرض التى تستقر عليها قوائمه ؛ وإذ ذاك رأى الفارس أن الأرض أثبت ظهرا من حصانه ، فترجل

ودنا من محمد ، لكن لا ليقبض عليه ، بل ليعتذر إليه . ألم أخبرك يومئذ أن الرجل يكتنفه غموض وتحوطه أسرار ؟

قالت الثانية : دعينى مما تقولين ، أى سر فى جواد يكبو بصاحبه . أو فى حمامة تبيض ، أو عنكبوت تنسج خيوطها ، أو شجرة ترسل أغصانها ؟ إنما السر كل السر فى تعاليم هذا الرجل التى تنفذ إلى قلوب أصحابه ، فتفعل فيها مالا تفعل خمر الأندرين ولا سحر بابل . لقد هاجر الرجل وهو وحيد طريد ، فمن أين جاء بهذا العدد العديد ، الغارق فى يلب الحديد ؟ ، أتذكرين ما كنت تتنبئين به يومئذ من أن أهل المدينة لن يكونوا أبر به من أهله الذين آذوه وطردوه ، ولو تمكنوا منه لقتلوه ، ولا من اهل الطائف الذين أغروا به الصغار ، فحصبوه بالأحجار ؟ أما كنت تقولين : ماذا عسى أن تكون إقامة محمد بين ظهرانى أهل المدينة ، والمدينة معقل اليهودية التى يناصبها العداء ، ومهد الفتن التى لا تهدأ ثائرتها بين الأوس والخزرج ، وبينهما ما بينهما من تراث ودماء ، يتوارثها الأحفاد عن الأجداد ؟

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

لقد كنت تقولين ذلك ، وحق ما تقولين . فليت شعرى ماذا فعل محمد حتى استل تلك السخائم المستأصلة من نفوس القبيلتين ؟ وكيف هادن اليهود ، وهم اشد تمسكا بتوراتهم ، من اهل ملة بهيلهم ولاتهم ؟ بماذا تفسرين هذا ؟ وماهو هذا الذى يأتى به يسميه قرآنا . فيصبه فى الآذان كما تصب الخمر فى الأفواه ، ويتلوه عليهم كما تتلى الرقى والتعاويذ ؟ إن لم يكن خمرا ، ولم يكن سحرا ، فأى شيء هو ؟ لقد سافر محمد فى قلة وذلة ، لا ينفر منه وحش ، ولا تشعر بوطأته ارض ، فما باله يعود فتدكدك الأرض تحت وقع سنابك خيله ، وتلوذ الوحوش منه بقمم الجبال ؟ كان هو وزميله ودليله عند هجرتهم يسيرون ليلا ، ويختفون عن العيون نهارا كما يزور الحبيب الحبيب ، عند ما يخشى عين الرقيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

كانوا لا يأمنون نميمة الشمس ، ولا إغراء القمر ، ولا وشاية ظلالهم بهم ، ولا يطمئنون إلى سلوك طريق معبدة ذلول ، فهم أبدا يعوجون ويعرجون ويصدون وينحدرون ، فما بالهم الآن يسيرون فى وضح النهار ، ويكادون يغطون قرص الشمس بما يثيرون من غبار ، ويهتكون حجابها بكل صارم بتار ؟

لشد ما تغيرت الحال ! ولشد ما تدهشنى تلك المغناطيسية التى تجذب اليه الرجال ! ولعمرى ما رأيت اتباعا أشد تعلقاً بصاحبهم من تعلق أصحاب محمد بمحمد . أو ما تذكرين يوم كانت قريش تطرح بلالا على الرمضاء اذا اشتد الهجير ، وتلقى على صدره حجرا ينوء بحمله البعير . ليكفر عن اتباع محمد ، فلا يزيد على قوله : احد ، احد ؟ أو ما تذكرين يوم أسرت هذيل زيد بن الدثنة وباعته من قريش

لتقتله ببعض قتلى بدر ، فتقدم اليه أبو سفيان ، وهو واقف على أبواب الأبدية وقال : أنشدك الله يا زيد : أيسرك أن محمداً الآن فى مكانك تضرب عنقه ، وأنت فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن تصيبه شوكة فى قدمه وأنا فى أهلى . أليس معنى ذلك أن القوم يتفانون فى حب محمد ودين محمد ، وهم أشد ما يكونون تفانيا اذا حزب الأمر ، واشتدت اللازبة وتحرجت المواقف ؟

قالت الأولى : لقد ذكرتنى بأبى سفيان وإننى أكاد ألمح شخصاً يشبهه فى سواد الجيش ، يسير تحت لواء محمد . أنظرى معى ، أنعمى النظر ، كأنه هو ، عجباً ! أترينه هو أيضا سرى فيه تيار كهرباء محمد وجذبه مغناطيسه فاستجاب له ، بعد أن ناهضه من بدء دعوته ؟ أليس هو قائد جيش المشركين ببدر ، ثم بأحد ثم بالخندق ؟ ثم أليس هو زوج هند بنت عتبة التى مضغت كبد عمه حمزة بأحد ، وأرادت أن تشفى صدرها بابتلاعها لولا أن شعرت بمرارتها فلا كتها ، ثم قذفتها ، والتى آلت الا يطأ فراشها أبو سفيان بعد بدر حتى ينتقم لأبيها وأخيها ، والتى جدعت أنوف صرعى المسلمين بأحد ، وصلمت آذانهم ، واتخذت من كل ذلك قلادة تحلى بها عنقها ؟ ليت شعرى أترينها هى أيضا قد استجابت لمحمد فاستجاب بعلها ، إنها لأحاجى وألغاز

قالت الثانية : حقا أننى لألمح أبا سفيان يسير تحت لواء محمد بجوار عمه العباس ، وليس غريبا أن يكون تيار محمد جرفه كما جرف آلافا من أمثاله . إن تيار محمد جارف ، وريحه عاصفة تجتاح كل ما يعترضها فى طريقها ، ولئن كان أبو سفيان ناهض الاسلام ضعيفاً لما ضره أن يؤيده قوياً . وما أقل أشياع الضعيف حتى يشتد ساعده فيكثر أشياعه ، وينضوى تحت لوائه من أسرف فى عدائه . وهل تعتقدين أن كل من ناوأ الاسلام ناوأه مقتنعاً ببطلانه ، أو أن كل من أيده أيده بدافع من وجدانه ؟ وهل كان أبو سفيان بدعا فى الرجال ؟ كم لأبى سفيان من أمثال وأشباه ، كانت لهم تجارة وجاه أشفقوا عليهما وعلى أنفسهم من الهوان فصدهم ذلك عن الايمان . أما وقد تغير مركز محمد فيجب أن يعتدل موقف هؤلاء من محمد . وما يدريك أن أبا سفيان سيجنى من وراء إيمانه خيراً كثيراً ؟ وما يدريك أنه سيخرج من بين صلب أبى سفيان وترائب هند من يفتح البلاد ويتحكم فى رقاب العباد باسم محمد ودين محمد ؟ على أن أبا سفيان ما لجأ إلى الايمان ، إلا بعد ما قاساه من الهوان . أما سمعت ما تحدث به الناس أنه بعد أن نقضت قريش عهد الحديبية جعل قلب أبى سفيان لا يستقر بين ضلوعه خشية محمد وبطش محمد فتسنم راحلته ، وتوجه شطر المدينة ليؤكد العهد إن وفق ، أو يستشف نوايا محمد إن أخفق ، فنزل أول ما نزل على ابنته أم حبيبة زوج محمد ، فما كادت تراه حتى طوت فراشا كان مبسوطا أمامها ، فقال : أتطوين الفراش رغبة بأبيك عنه ، أو رغبة به عن أبيك ، فقالت : لا والله إنه فراش رسول الله الطاهر الأمين ، أخشى عليه دنس الشرك ورجس الوثنية ، فتشاءم الرجل ، ونهض مغضباً ، ودخل على محمد فازورعنه جانبه ، فلجأ إلى أبى بكر فطوى عنه كشحا فلاذ بعمر ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . عندئذ ارتد على عقبه يجر ذيل الفشل وخيبة الأمل . على أنه بعدها لم يغمض له جفن ، ولم يهدأ له جأش ، وجعل يتوقع غزو محمد لملكه . وإن كان محمد أحاط هذا الغزو بالكتمان . ولقد اشتد القلق بأبى سفيان ، فخرج منذ حين ليكشف أمر المسلمين . نعم لقد شاهدته منذ حين فى نفر من قريش ، خرجوا يستطلعون خبر الجيش ، فلقد تناقلت خبره الركبان ، رغم مبالغة محمد فى الكتمان . وكأنى بأبى سفيان ماكاد يلوح غبار الجيش لعينيه ، حتى سقط فى يديه . وكانت فى نفسه بقية شك فى دعوة محمد ، فما هو إلا أن رأى جيش المسلمين ، فاذا الشك يقين ، وكأنى به وقد مثل بين يدى محمد . فنظر اليه نظرة يكمن فيها شبح الموت ، ولسان حال الرسول يقول :

إن على الله أن تبايعا ... تؤخذ كرها أو تجىء طائعاً

فلم يسع أبا سفيان إلا التسليم والاذعان

قالت الأولى : ها هو ذا الجيش قد دنا من مكة حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، وإننى لألمح أبا سفيان واقفاً بمضيق تمر عليه جيوش المسلمين فيلقا فيلقا . وما إخال هذا إلا من تدبير محمد ، حتى يلمس الرجل مقدار ما يستهدف له قومه من الخطر إذا حدثتهم أنفسهم بالمقاومة ، فيذهب اليهم نذيرا ينقل ما ألقى فى نفسه من الرعب إلى قلوبهم . ياالله لسياسة محمد ! إنه يريد أن يتم الفتح بدون أن تتطاير الرءوس ، أو تتناثر الأشلاء ، أو تراق قطرة من دماء . هل تريدين أن تتبينى صدق ما أقول ؟ أرهفى أذنيك . أصيخى إلى هذا النداء : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » أسمعت النداء ؟ أتحققت صدق رغبة محمد فى السلام ؟ وكيف يريد أن يحقن دماء أهل المدينتين : التى ربته وليداً والتى آوته طريداً . ها هو ذا أبو سفيان يتقدم الفاتحين داعيا قومه إلى ترك الكفاح وإلقاء السلاح . وها هو ذا جيش الفاتحين ينقسم أربعة أقسام ، يدخلون مكة من جهاتها الأربع : الزبير بن العوام على رأس فريق ، وخالد بن الوليد على رأس فريق ، وسعد بن عبادة على رأس ثالث ، وأبو عبيدة بن الجراح على رأس رابع . ولست أظن أن هؤلاء سيلقون مقاومة ، وإن كنت أشك فى هؤلاء الذين

يقيمون باسفل مكة ، وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل ، فما أظنهم يخلدون إلى الاستسلام ، بلَ يابون إلا امتشاق الحسام . على أن خالدا سوف يعمل فيهم نباله ونصاله ، فلا يلبثون إلا ساعة من نهار يلوذون بعدها بأذيال الفرار ، وتستطيعين أن تعتبرى هذا اليوم فى تاريخ مكة فاصلا بين عهدين ، خالدا على مر الجديدين . هنيئا لمحمد ! لقد غادر مكة آبقا تحت أذيال الظلام ، ثم دخلها دخول القياصرة العظام ، فليصدح مؤذنه بالأذان حتى يشق أجواز الفضاء ، وليقم شعائره فى ضوء النهار لا من وراء ستار ، وليطف بأرجاء مكة آمنا مطمئنا ، وليتفقد منزله إن كانت أبقت أيدى القوم عليه ، وليزر معاهد صباه ، وليغش حراء الذى كان يتحنث فيه ، وليملأ عينيه من أرض مكة وسمائها ، وليملأ رئتيه من هوائها ، ليتنفس هواءها الآن نقيا صافيا ، بعد أن حرمه عشرة أعوام ، وتنفسه مسموما موبوءا ثلاثة عشر عاما . ولتتداع إلى خاطره الذكريات ، وليستجمع العمر فى لحظات . ويل لهبل ومناة ، والعزى واللات ، ولتلك الاصنام المشدودة إلى الكعبة بالرصاص . ولتلك الصور التى تمثل ملائكة السموات غوانى فاتنات . هذا آخر عهدهن بأستار البيت ، لشد ماكان يمقتها محمد . وكأنى به يعمل فيها معول التحطيم ويحرم من أجلها على قومه النحت والتصوير ، وهكذا تسىء الوثنية إلى الفن كما أساءت إلى الدين ، ولكن ما تظنين محمداً فاعلا لقريش ؟

قالت الثانية : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، إن محمدا أبر بقومه من أن يحقد عليهم أو يؤاخذهم بما اقترفوا ، وإنه لأكبر من أن يتشفى بالترة عند المقدرة ، وقريش بأسرها المعروف كما ترهبها حدة السيوف . ولو أن محمدا أراد الانتقام لرأى من المهاجرين محبذين ، ومن الأنصار أنصارا . إن سيوف أولئك وهؤلاء لتظمأ إلى ما فى عروق القوم من دماء ، أو ما سمعت سعد بن عبادة عندما دخل مكة صاح قائلا : « اليوم يوم الملحمة ؛ اليوم تستحل الحرمة ، فما هو إلا أن سمع محمد صياحه ، فتقلصت شفتاه ، وقدحت الشرر عيناه ، ثم اختطف الراية من سعد ، وأعطاها قيسا ابنه . إن الرجل لا يريد بقومه شرا ، وإنه ليضرب للعالم بذلك المثل الأعلى فى الصفح والمغفرة عند القدرة ، وإنى لأذكر لمحمد مواقف من هذا القبيل تعتبر مثلا عليا فى الصفح الجميل . فلقد سمعت أنه يوم حشد هذا الجيش لفتح مكة ، أخذ على الناس المواثيق أن يتكتموا أمره ولا يذيعوا سره ، ولكن حاطب بن بلتعة كان له بمكة ولد وأهل أشفق عليهم فكتب إليهم حتى يتجهزوا لقتال محمد ؛ بيد أن خبر الكتاب نمى إلى محمد ، فسرعان ما أرسل عليا والزبير فى أثر حامل الكتاب ، وكان امرأة فأدركاها فاعترفت بجرمها وأخرجت الكتاب من بين غدائرها . أتعرفين ماذا كان جزاء حاطب وهو من جيش الرسول ومن شهود بدر ؟ لقد جوزى على هذه الخيانة العظمى بالصفح والغفران ! قال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فان الرجل قد نافق ، فقال الرسول ـ بعد أن أطرق هنيهة ـ « دعه ياعمر وما يدريك أن الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » ، وهكذا تذكر النبى بجوار هذا الغدر موقف الرجل يبدر فاغتفر الاساءة اللاحقة للاحسان السابق وخالف مادرج عليه الناس ، فكل الناس

ينسى من الاحسان طودا قدرسا وليس ينسى ذرة ممن أسا

ولقد تمثلت محمدا إذ وقف بأحد بعد أن وضعت الحرب أوزارها فرأى عمه حمزة مبقور البطن مجدوع الأنف ممضوغ الكبد ممثلا به أى تمثيل . فأقسم لئن أظفره الله بقريش ليمثلن بسبعين من قتلاهم ؛ فها هى ذى قريش مطأطئة الرقاب ، وها هى ذى رءوس قريش دانية القطوف ، فما يمنع محمدا أن يطفىء من غلته ويبر بأليته ؟ إنه المتسامح فى أجمل صوره وأعلى أمثلته . على أننى لا إخال محمدا مهما بلغ من تسامحه يعفو عن الحويرث الذى أغرى على زينب ابنته عند هجرتها ، أو عن هذين الرجلين اللذين أظهرا الاسلام ثم ارتكبا جريمة القتل بالمدينة ثم ارتدا إلى الشرك ، أو عن قينة ابن خطل التى كانت تتغنى وتسمر بهجائه ، فهو لابد قاتلهم ، ولعلك لا تنكرين ذلك على محمد متناسية أن اللين لا بد أن يشوبه العنف وإلا شاه جماله . ولقد كانت لمحمد بجانب تسامحه البالغ صرامة بالغة . ولعلك تذكرين أنه يوم قبل الفداء من بعض أسرى بدر وأطلق بعضا آخر أبى إلا أن يضرب عنق النضر ابن الحارث وعقبة بن ابى معيط ، لشدة ماناله من الأذى على أيديهما قبل هجرته . ولعلك تذكرين أنه ما كادت جنود الأحزاب تتخلى عنه فى غزوة الخندق حتى تفرغ لليهود الذين تألبوا مع العدو عليه فى ساعة العسرة فأباح دماءهم وأموالهم ونكل بهم شر تنكيل ، وكيف أنه كان يعترض لقريش وغير قريش من المشركين يريق دماءهم ، ويسلبهم إبلهم وشاءهم حتى يعتصموا بالاسلام ، وما كان ذلك تجنيا من محمد ، ولكنها الدعوة الروحية يجب أن تؤيدها القوة المادية ، حتى ينظر إليها الناس نظرة جدية ، وهكذا تمهد السيوف للأقلام ، ويتضافر الاثنان على نشر لواء الاسلام

قالت الأولى : ثم ماذا بعد فتح مكة

قالت الثانية : ما يدرينا ؟ لقد كان محمد يعد قومه ملك فارس والروم فيتهكم به كفار قريش قائلين : « هذا ابن أبى كبشة ـ يعنون زوج مرضعه حليمة ـ سيرث ملك الأكاسرة والقياصرة » ، ولعله لو امتد بنا الزمان بضعة أعوام ، شهدنا تحقيق هذه الأحلام

قالت الأولى : لقد أحسنا إلى محمد يوم آويناه فى الغار ، وساعدناه على الفرار .

قالت الثانية : أكبر الظن أننا أحسنا إلى الانسانية جمعاء : استحدثنا ثقافة ، وأقمنا بناء حضارة ، وغيرنا مجرى التاريخ .

كوم حمادة

محمود غنيم
مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

نفحة شرقيـــة

في أدب غربي

للأستاذ عبد الرحمن صدقي



كان شاعر الالمان «جوته» يعنى منذ صباه بتاريخ الشرق وشعره. فدرس العبرانية وأدمن مطالعة التوراة. وكان يهتز لها لما يجده بها من أريحية الشعر، وبخاصة «قصة راعوث» و«نشيد الأناشيد». وهو يعتبر النشيد نسيج وحده في الرقة وحرارة الحب، وكان يستروح منه نسمة دافئة تهب من بقاع كنعان، وتتراءى له فيه حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيوب العاطرة. ويأنس من بعيد زحمة المدن ببني اسرائيل، وفيما وراء ذلك جميعه يتخيل ديوان سليمان وأبهة ملكه.

وينتقل جوته من العهد القديم العبري، إلى عصر الجاهلية العربي. حيث يقع على الكنوز المذخورة في المعلقات. تلك القصائد المطولات التي أحرزت الفوز بميدان النزال الأدبي في أسواق الشعر عند العرب. وهو يتمثل منها أهل البداوة الرعاة المقاتلين، لايبرحون في غارات إثر غارات، يؤججها مابين قبائلهم من ترات وخصومات. ويقول شاعر الألمان إن المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التي تربط أبناء القبيلة الواحدة، وعما انطبع عليه العرب من روح الاقدام والبسالة، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثار، وطلاب المجد، والتماس الفخار. وكيف أنهم كانوا يقدمون النسيب بين يدى هذه الفضائل الشديدة فيلطف عرامها وعنفها، بما يبثه من الأسى والحنين ولوعة الهوى وحسن الوفاء. ويزيد هذه القصائد العصماء قيمة عنده أن لكل منها سمة غالبة يلبسها القارىء ولا ينكرها

على أن الذي شغل جوته أكبر الشغل هو شخصية سيدنا محمد. وغير خاف أن العالم المسيحي كان من أيام الحروب الصليبية سيء الرأى بطبيعة الحال في صاحب الشريعة الاسلامية. وكانت الكنيسة تتجاهل وجود القران وتحرم ترجمته، حتى جاء القرن السادس عشر والسابع عشر، فعمد بعض العلماء إلى نشر تراجم له مشفوعة دائما بدحض ما جاء به وتفنيده. ولعل ذلك منهم من قبيل التقية ودفع الشبهة، وحرصا على تزكية عملهم والتكفير عنه عند أهل ملتهم. ثم بزغ على الأثر عصر الشك، أو ما يسمونه عصر النور. وكان دعاته يحملون على الأديان كافة حملتهم الشعواء، ولا يريدون أن يروا في أصحابها إلا دجاجلة مغررين يزعمون للناس أنهم ملهمون. إلا أن الأحوال تعدلت، وانبرى بعض المحققين من جهابذة الغرب إلى هدم التخرصات المنسوبة إلى محمد في العالم المسيحي، وكتبوا سيرته الشريفة بروح عالية توفر لها التجرد عن الهوى والاستغراق في الموضوع فانجلى لكل ذي عينين محمد رجل الدين، الثابت اليقين في الله الواحد الأحد، وعرفوا فيه رسولا من رسل العناية لنشر التوحيد من أقاصي الهند إلى ربوع الاندلس. واطلع شاعرنا جوته وقتئذ على سيرة محمد، وحيا فيه النبي العظيم والروح القوى الأمين، حاطم الأصنام الداعي إلى دين الفطرة

وقرأ جوته القرآن وطبع مختارات منه مأخوذة عن الترجمة الألمانية. وظل طويلا يمعن في درسه إمعان الباحثين. وهو يشير إلى أن القارىء الأجنبي قد لا يحبه لأول قراءته، ولكنه يعود فينجذب اليه، وفي النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظم

ويستشهد جوته بآيات الكتاب العزيز في بيان تعاليم الدين «ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالاخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم»

ويقول جوته إن القرآن يردد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة. ولا يرى جوته في هذا الترديد والتكرار مايراه النقاد الغربيون. لأن النبي لم يرسل للناس برسالة شاعر للتفنن والتنويع في ضروب الكلام، وعرض الصور المزوقة من الاخيلة والأوهام، لاستحداث اللذة وادخال الطرب على الاسماع والاذهان. بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف. وإنما هو نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها وانضواؤهم إلى لوائها. فالكتاب العزيز أنزل ليقتضي الناس الخبوت والايمان، لا لمجرد المتعة والاستحسان، واذا ما عرض للقصص فليس المقصد الأول هو التاريخ والاخبار، وإنما ضرب الامثال للموعظة والاعتبار

وقد أراد جوته تاليف قصة تمثيلية عن محمد، وشرع فيها من أيام شبيبته فنظم منها مناجاة للنبي وهو بالليل وحده في الخلاء تحت السماء.

الساجية السافرة النجوم . وقد اقتبس فيها هـذه الآيات فى دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ! إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأ كونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ، حنيفاً وما أنا من المشركين » . ثم أدار جوته حوارا بين محمد ومرضعته حليمة . كما أنه وضع نشيداً على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « على » ، وزوجه « فاطمة » بنت الرسول . وهو تصوير رائع لقوة هذا الانسان المبعوث من عند الله ، ووصف شعرى لفيض الاسلام وسرعة ذيوعه ودخول القبائل والأمم فيـه أفواجا أشبه ما يكون بالنبع فى الجبل لا يزال يتحدر من النجاد إلى الوهاد ، ويزخر بما ينصب فيـه من الروافد فيتسع مجراه وينتظم البلاد الواسعة والممالك العظيمة حتى يبلغ المحيط الأعظم

ولم تزل فكرة هـذه الرواية ماثلة فى مخيلة جوته حتى وضع مشروعها . وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير يسمو صعداً إلى الله تعالى الذى تستمد سائر الكائنات وجودها من وجوده . ويكاشف محمد بهذا الهدى زوجه خديجة فتؤمن به عن طواعية أول المؤمنين . ثم فى الفصل الثانى يقوم النبى يناصره على بالدعوة إلى دينه بين قومه فيلقى العطف من فريق ، والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وما ركب فى جبلته . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة . وفى الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ويطهر الكعبة من الأوثان . وتستوى دعوته دينا مقررا ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولا وفعلا . ويظهر الرجل السياسى إلى جانب الرجل الدينى . وفى الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ، ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهود خيبر ثكلت أخاها . والفصل الخامس والأخير يبلغ فيـه محمد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية . ثم تعاوده عقابيل السم فينتقل إلى جوار ربه . . . غير أن هذه الرواية وقفت عند حد المشروع ، مما نأسف له شديد الأسف .

وقد كان جوته فى مدينة « ويمار » - وهى الآن تكريما له عاصمة الريخ الألمانى - حين جاز بها الروس المسلمون من شعب البشكير على ظهور جيادهم ، ونزلوا بهـا ، واتخذوا أحد معاهد البروتستانت مسجداً للصلاة . ولا تسل عن فرحة جوته بهـم وحضوره صلاتهم واستماعه إليهم يرتلون آيات القرآن ومقابلته إمامهم وتحيته لأميرهم فى المسرح . وهو يذكر فى هزة المحبور أنهم اختصوه من رعايتهم بقوس وسهام لم يزل يعلقها فوق موقده طيلة عمره تذكارا باقيا . وبلغ من حب جوته للشرق أنه كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ورسم حروفها ، ويغتبط وهو يقيمها ويسطرها من اليمين إلى اليسار على عكس كتابة أهل الغرب

فهل وقف جوته عند هذا الذى عرفه وأحبه فى الشرق ؟

الواقع أن فيما عرفه جوته حتى الآن عن الشرق وفيما أحبه منه مقنعاً وأى مقنع . ولكن الرجل أبت له نفسه الرحيبة ألا يجتمع فيها الشرق السامى والشرق الآرى كما يقولون : شرق العبرانيين والعرب وقد تقدم ، وشرق الهند والفرس

فقد أقبل الرجل يتعرف إلى المئات والمئات من آلهة الهند ويشهد فى التهاويل والصور أوثانهم الهائلة المخيفة ، واطلع على مطولات أساطيرهم ، واحتار بين أتاويه مذاهبهم ، وتعجب لاختلاط الشهوات بالقداسات عندهم ، والتقاء الحضيض بالسموات فى نظرهم . وقد أخرج من ذلك أساطير هندية رائعة منها (الآله والراقصة) و(موبذ البراهمة وزوجه) وغيرهما

وقد أثنى جوته على حكايات الفيلسوف (بيدبا) التى وضعها للملك (دبشليم) على ألسنة الحيوان ، ويلاحظ جوته أن الفرس نقلوا هذه دون غيرها عن الهند لعدم اتصالها بالوثنية الهندية الفظيعة ، ونفور أذواقهم الدقيقة المهذبة من تلك الفلسفة الدينية العويصة . أما هذه الحكايات عن كليلة ودمنة فهى تقع موقع القبول عند الناس أجمعين ، وقد صار لها شأنها الكبير عند الفرس والعرب لما انطوت عليه من الحكمة العملية والخبرة بالحياة .

وكان شاعرنا الالمانى فى ذلك الأوان قد أوفى على الستين . ولكنه مجدد الشباب أبداً كالخالدين . وقد اختار لمطافه الأخير أدب فارس ، أدب الجنات والبساتين ، أدب الورد والبلابل ، والحب الحسى والوجد العلوى . ولقد استغرق جوته فى هذا الأدب ونسى عالمه الخارجى وكان يؤثر واحداً بين شعرائه الكثيرين ، وقد اتخذه صاحبه ومرشده الدينى فى هذا الجو الشرقى المشبع بالمتعة والحنين . وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازى أرق شعراء الفرس الغنائيين .

وزاد اعتزال جوته لما حوله ، وأبعد بفكره أميالا بعد أميال ، وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من ديوان حافظ الشيرازى أبواب الشرق ، الشرق مهد الانسانية ، بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والاخلاق والدين تختلف عما يعهده . فخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، الى الوحدة والبساطة .

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته بأقرب وشائج القربى. حياة حياها هو أيضاً ، حياة نفس تتقبل الوجود بمنتهى الحرية والمتعة، وتناجي الغيب دون أن تقطع ما بينها وبين الأرض . وتواجه التعصب والجمود بالتصوف الحي والاحساس بالشمول . لكأنما هي حياة جوته هذه التي يحكيها حافظ . الممالك تنهار ويقوم الحاكمون في إثر الحاكمين فلا تسمع منهما غير الغناء بنجوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة . وكلاهما يقف وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية — هذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام نابليون ، فلا تتخذل عبقرية الأدب في وجه عبقرية الحرب . إن جوته لمأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من اعماق نفسه . فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر . إذ يتصل فيها الجنسان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين . وهذا هو جوته يحس باستكمال شطره الثاني ، يحس بالشرق والغرب يلتقيان فيه . وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس هو « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » .

وأبواب الديوان اثنا عشر باباً ؛ وهذه هي باسمائها الشرقية على الترتيب : كتاب المغنى . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب التفكير . كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور . كتاب زليخا . كتاب الساقي . كتاب المثل . كتاب الفرس . كتاب الخلد . وفيما يلي ترجمة القليل من روائع هذه الأسفار :

تشير الهجرة

« الشمال والغرب والجنوب أقطارها تتناثر بدداً ، وعروشها تثل وممالكها تنهار . فهاجر وامض إلى الشرق الطهور ، تستروح الطيب من الآباء الطيبين . وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك ريعان صباك كأنما نضح عليك من نبع الشباب السرمد الخضر عليه السلام .

« هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرجعى إلى نشأة الانسانية الأولى . إلى الأزمان التي تلق فيها بنو الانسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض . فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا ذهنا . إلى تلك الأزمان التي كانوا فيها يبجلون السلف . وينهون عن كل دين غير دينهم

« أريد التملي من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود : فكر قانع وإيمان واسع

« أريد معاشرة الرعاة في المنتجعات ، والاسترواح في ظلال الواحات ، والارتحال مع القوافل متجرا في الطرح والبن والمسك ، طارقاً كل درب من البوادي إلى الحضر

« وسيان أنجدت أو أتهمت ، فان أغانيك يا حافظ تؤنسني في وعثاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذا طربا ، وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى ، ويرهب قطاع الطريق

« هناك في الشرق في ردهات حاماته وبين جدران خانه ، أريد أن أذكرك يا مولانا حافظ وقد رفعت حبيبتي خمارها ، وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر

« وليعلم الذين ينفسون على حافظ جمال حياته وحلاوة شعره ، والذين تطوع لهم نفوسهم التعريض بهتانا بكفره ، أن كلمات الشاعر لاتبرح حائمة حول جنة الخلد ، طارقة في لطف أبوابها تطلب الخلود »

تعويذة

« لله المشرق ، ولله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا

« هو الحق ، ومايشاء بعباده فهو الحق . سبحانه له الأسماء الحسنى ، وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علواً كبيرا

« ينازعني وسواس الغي . وأنت المعيذ من شر الوسواس . فاللهم اهدني في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم

« ومهما تضللنا النزعات وتزين لنا الشهوات . فالنفس التي لاتذهب في الغي شعاعا ولا تضيع ضياعا ، لاتلبث بالادخار والآباء أن تنطلق عارجة إلى أوج العلاء

« وللناس في ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير : هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب . فاشكر ربك إذا بليت . واشكر ربك إذا عوفيت

منن أربع

لكيما يسعد العرب في البيداء ، راتعين في بحبوحة الفضاء ، أولاهم المولى ذو الخير العميم مننا أربعا :

اولى هذه المنن : العمامة . وهي زينة أروع من التيجان كافة . ثم خيمة يتحملونها من مكان إلى مكان ، حتى ليعمروا كل مكان . ثم حسام بتار هو أمنع من الحصون وشاهق الأسوار . ثم القصيد يؤنس ويفيد ، ويسترعي أسماع الخرد الغيد)

الحرية

« دعوني كما أهوى على صهوة جوادي السابح ، وابقوا أنتم في بيوت المدر وخيام الوبر ! إنني لأنطلق جذلان في الفضاء الشاسع ، وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر

وما زينت السماء الدنيا بمصابيح ، إلا هدى للناس في البر والبحر ولتكون متعة للناظرين أبد الدهر كلما ولوا وجوههم قبلة السماء »

عناصر الشعر

« كم العناصر التي يقوم بها القصيد حتى يتملاه العامة ويلذ سماعه الخاصة ؟

« إذا قيل الشعر فليكن النسيب المقدم . فان الحب إذا مازج الشعر

زاد نبراته حلاوة وبعدها فليردد الشعر رنين الكؤوس ولتلألأ فيه كيت الخمر كالياقوت فانما العشاق والندامى هم وحدهم من ترتاح لهم وتهش لمجلسهم

كذلك يطيب فى الشعر سماع صلصلة السيوف ودوى النفير ولجب الوغى حتى إذا انجلى الحظ أبلج أزهر دان الناس للبطل ، وغدا بينهم مؤلها بما أصاب من النصر المؤزر

« ولا معدى للشاعر فى آخر الأمر عن التنكر لأشياء شتى والتعرض لها بالهجاء . فما كان لمثله أن يلقى القبيح المشنوء . بمثل ما يلقى الحسن المستحب

« فاذا اجتمعت للشاعر هذه المقومات الأربعة . فقد أشاع البهجة والحياة بين الورى أجمعين . إلى أبد الآبدين

أسير :

(هنا كان الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل ، قوام سبط ، وأعطاف بضة لينة ، كأنما هى لحورية من جنة النعيم .

(أكانت هنا حقا ؟ وأين مضت ؟ أجل ، هى بعينها التى جادت بهذا كله ، هى التى سمحت ثم ولت هاربة . لقد تيمتنى وتركتنى ما حييت أسيرها)

كتاب مطالعة :

(سفر ما أعجبه بين الأسفار ! ذلك سفر العشق . لقد أمعنت فى مطالعته . بضع صفحات من اللذة ، وأبواب مستفيضة فى الألم . اختص الفراق بجزء كامل واقتصر اللقاء على فصل وجيز . على مقطوعة . وللأشجان مجلدات مذيلة بحواش لا حصر لها ولا آخر)

سلام :

(واها ! ما أسعدنى ! ... كنت أتمشى خلال الحقول فإذا الهدهد يطفر فى طريق ، وكانت بغيتى البحث هنا وهناك عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضنى الهدهد فى اختيال ناشرا تاجه متبخترا فى هيئة المدل الساخر ، وإنه لسخر الحى بالميت . فقلت له : يا هدهد ! فى الحق إنك لطائر جميل . إنطلق يا هدهد وبلغ حبيبتى أنى لها وملك يمينها ما حييت . وكذلك كنت يا هدهد من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبا .

(فقال الهدهد : إن التى أنت موفدى لها ، قد أودعتنى كامل سرها ، فى نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا أغبطك على سعادتك . فأنت محب وأنت محبوب . ودوام الحب الزاهر مقترناً بالقوى الخالدة بقية أيامك قدر لك مقدور وطالع مكتوب)

قارورة العطر

(لكى يتحبب اليك المحب بالعطر العبق ، ويزيد فى انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد . فلابد له من عالم منها ليستقطر ملء قارورة صغيرة ، قارورة مخروطة مستدقة كأناملك لكى تهدى اليك ، فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسنا ويزيد فى متاعنا ! هيهات . وكم هلكت أنفس لا عداد لها فى سبيل عظمة تيمور)

لذة الإحسان

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهى تغمز بطرفها . ونظرة النديم تلمح عينه بالرضى وهو يحتسى كأسه . وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفه . وشعاع الشمس فى الخريف ينعشك بدفئه . فلكن أحلى من هذه جميعاً فى نفسك حركة الاستعطاف اللطيفة تمتد بها كف الفقير فى طلب الصدقة ، وتلقى منك بالحمد الجميل ما تجود به . فما أحلاها وقتئذ نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة فى السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجواد على الدوام .

مثل الايمان

تحدرت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة ، فأنحت عليها الأمواج خفقاً وضربا . ولكن الله جزاها عن صبر ايمانها خيرا . فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما . فاحتوتها الصدفة فى حرز حريز . وأتم الله عليها العز والجزاء الأوفى فهى اليوم على تاج الشاه درة تألق حلوة اللمح سنية البهاء

الدين

من الحماقة التعصب للدين . واذا كان الاسلام هو التسليم لله فقد وجب أن نحيا ونموت مسلمين أجمعين .

ونحن نقف من الديوان عند هذا الحد . وان كان فى الديوان زيادة للمستزيد . ولكن ضيق المقام يمنع من الافاضة . وفيما تقدم الكفاية للدلالة على ما انطوى عليه هذا الشاعر الغربى من الروح الشرقى .

والعجيب أن شاعرنا هذا كلما تقدمت به السن وآذنت شمس حياته بالغروب كان يزداد تطلعا إلى الشرق

وهذا عجيب ، ولكنه من جوته غير عجيب فان ذلكم الرجل العامر بالحياة كان حتى ساعة أن حضرته الوفاة مولعاً بكل مطلع للنور حسيا كان أو روحيا . وقد قضى نحبه ويده المرتجفة تشير برفع الأستار ، وعيناه إلى النافذة وهو يتمتم بهذه الكلمة العليا والمطلب الأخير : المزيد من النور ! المزيد من النور

عبد الرحمن صدقى

علوم القدماء عند العرب

ولا سيما فى القرن الخامس للهجرة بمصر

للدكتور يوسف شخت
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

أجمع علماء الشئون الشرقية على أن أحد أركان المدنية الاسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية فى آخر مراحلها

فلم يكد العرب يشتركون فى تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ودينهم . أما معظم المواد الأخرى فهو مأخوذ من ذلك التراث المجيد الذى تركه اليونان والذى قد توطن فى البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ذى القرنين . ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطن العلوم والآداب الاغريقية فى الشرق الأدنى ، ومكنتها من الازهار فى تلك المنطقة الرحيبة التى احتضنتها فى دائرة حدودها السياسية . فنجد أن حركة ترجمة الكتب اليونانية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب التى كانت قد بدأت فى تلك البلاد قبل فتح العرب لها قد نشطت إلى حد بعيد فى آخر القرن الثانى وفى القرن الثالث للهجرة . ولما كانت لغة التراجم الأولى هى اللغة السريانية فانها بهذا الوضع بقيت الوسيط بين تراث اليونان وبين مدنية الاسلام كما كان معظم المترجمين من النصارى النسطوريين وفى مقدمتهم الحكيم الفيلسوف حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠) الذى كان يشتغل « فى بيت الحكمة » ذلك المعهد العلمى الذى أسسه المامون الخليفة العباسى ببغداد لترجمة كتب العلوم . حنين هذا هو الذى خلق المركز الرائع لآراء جالينوس فى القرون الوسطى فى الشرق ومنه إلى الغرب

ويشهد بالمجهود العظيم الذى بذل فى ترجمة الكتب اليونانية أن الخلفاء أنفقوا على الرحلات للبحث عن مخطوطات قيمة ، وأن حنينا ، كما أوضح بنفسه لم يكتف بأصل واحد وإنما كان يراجع بقدر الامكان لا أقل من ثلاث نسخ ليستطيع بمقارنتها الحصول على متن صحيح

كانت هذه أى - دورة التراجم - مرحلة استعداد ، وتبعها فى القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الدور العظيم للعلوم الطبيعية والطبية فى بلاد الاسلام . وجد علماء المسلمين أنفسهم بعدئذ على أساس متين من العلوم اليونانية مضافا إليها بعض نتائج دراسات الفرس والهنود ، وبدأوا يضيفون إلى هذا التراث من مبتكراتهم . وفى الوقت نفسه فقد المسيحيون مركز احتكارهم (أوكاد) لهذه العلوم وارتفع إلى مستواهم المسلمون

إنّ أبرز ما فى ذلك العصر من الشخصيات العلمية الفذة ثلاثة : محمد بن زكرياء الرازى (المتوفى سنة ٣١١) وهو أكبر أطباء العالم الاسلامى وأحد أطباء الدنيا الخالدين ، وحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) وكان فيلسوفاً وباحثاً طبيعيا له أكبر الأثر فى أوربا بصفته وسيطا لنقل الطب الاسلامى إليها بمؤلفه الكبير المسمى بالقانون ، وأبو ريحان محمد بن أحمد البيروتى (٣٦٢ - ٤٤٠) وهو أكبر الباحثين الطبيعيين فى دائرة الحضارة الاسلامية وأبدعهم تفكيراً ومنهجا .

ما أجودَ ثقافة هذا الرجل الخوارزمى العجيب وإحاطته بمختلف العلوم والفنون من يونانية وعربية وإسلامية ، كما يظهر من مقدمة كتابه فى الصيدلة إذ يقول :

« وكل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم فى علم ما أو عمل ، واليونانيون منهم قبل النصرانية موسومون بفضل العناية فى المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها . ولو كان ذيسقوريذس فى نواحينا ، وتصرف جهده على تعرف ما فى جبالنا وبوادينا ، لكانت تصير حشائشها كلها أدوية ، وما يجتنى منها بحسب تجاربه أشفية ، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفازتنا بمشكور مساعيهم علما وعملا . وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتز لعلم غير الهند ، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغربيين ، ثم المباينة بيننا وبينهم فى اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم فى المجانبة بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن البين وتفصم عرى المباحثة . ديننا والدولة عربيان وتوأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية ... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت فى الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة فى الشرايين والاوردة ، وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها » .

لم ينحصر تقدير العلوم اليونانية مثل هذا فى فئة معينة من

العلماء، بل كان منتشرا بين الجميع طول القرن الرابع.

ها هي ذي بغداد بمدرستها الفلسفية الطبية التي هي خليفة مدرسة الاسكندرية المشهورة، ولا يصعب علينا اقتفاء أثر انتقالها من الاسكندرية إلى بغداد عن طريق انطاكية وحران.. ومن كبار العاملين بها في القرن الرابع المترجم المسيحي أبو بشر متى بن يونان (المتوفى سنة ٣٢٨)، وأبو نصر محمد الفارابي الفيلسوف الاسلامي (المتوفى سنة ٣٣٩)، وتلميذه الفيلسوف المسيحي يحيى بن عدى (المتوفى سنة ٣٦٤)، والباحث المحقق أبو الحسن المسعودي (المتوفى سنه ٣٤٦)، وغيرهم من الفضلاء. وقد خلد الأديب أبو حيان التوحيدي (المتوفى بعد سنة ٤٠٠) في مؤلفه المسمى «بالمقابسات» ذكر مجالس أبي سليمان السجستاني المنطقي (المتوفى بعد سنة ٣٩١)

فكان القرن الرابع هذا أزهى عصر لدرس العلوم اليونانية في الحضارة الاسلامية، واستمرت تلك الدراسات وازدهرت في القرن الخامس أيضا خصوصا في بغداد، مع امتداد أشعتها إلى بلاد أخرى ولا سيما إلى مصر.

نتمنى أن نبحث ذلك الدور الأخير لنفوذ التفكير اليوناني في الشرق الأدنى بمناسبة مخطوط محفوظ في إحدى مدارس الموصل يشمل مناظرة دارت بين طبيبين فيلسوفين، وإن كانا دون أولئك الفحول درجة إلا أنهما شغلا مكانا جليلا في تاريخ الطب والعلوم الطبيعية في عالم الاسلام. هما أبو الحسن المختار ابن بطلان من نصارى بغداد، وعلى بن رضوان المصري. تتلخص مناظرتهما في أن كل واحد منهما كان يرغب في التدليل على علو كعبه في علوم القدماء، وعلى مقدرته عن الآخر وبروزه فيها عليه. فإذا إن اطلعنا على تراجم حياتهما كما جاءت في تاريخ الحكماء لابن القفطي، وفي عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، نرى أن شخصية كل واحد منهما ليس بينها وبين شخصية الآخر أي تشابه، حتى ليخال القارىء أنه يستحيل عليهما أن يكونا صديقين؛ على أن تنافسهما ربما يرجع أيضا إلى غيرة كل منهما من صاحبه في صناعة الطب.

درس ابن بطلان الطب والفلسفة في الكرخ (حي من بغداد) على أشهر الأساتذة، وأكثرهم من النصارى، وتدل مؤلفاته على أنه لم يكن متطبيا فقط، بل تبحر أيضا في الآداب العربية والعلوم الاسلامية، كما قال عنه ابن أبي أصيبعة: «وكان ابن بطلان أعذب ألفاظاً (أي من ابن رضوان) وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به. ومما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته التي رسمها «بدعوة الأطباء». ففي هذا الكتاب يحمل ابن بطلان على الفشارين المدعين بالطب، ويظهر فسادهم ومضارهم الشائعة ذاك الحين.

يغلِب على الظن أن ابن بطلان لم يكن شابا عند ماترك بلدته التي حرمت عليه العودة اليها في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠ متجهاً الى رحلة طويلة ماراً بالأنبار فالرحبة فالرصافة فحلب حيث مكث زماناً، ثم واصل السفر الى انطاكية فاللاذقية فيافا حتى جاء مصر حيث مكث ثلاثة أعوام تعرف فيها بابن رضوان. ثم غادر مصر بعدئذ الى القسطنطينية ثم عاد منها في آخر الأمر إلى انطاكية. قال ابن القفطي: «فأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار، وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار، فغلب على خاطره الانقطاع فنزل ببعض أديرة انطاكية وترهب وانقطع الى العبادة إلى أن توفى بها». وكانت وفاته - خلافاً لما زعم ابن القفطي - بعد سنة ٤٥٥ بزمان لأنه قد أهل لبناء بيمارستان انطاكية في السنة المذكورة. وعند ماكان في مصر أرسل ابن بطلان الى المؤرخ الكاتب البغدادي هلال بن المحسن الصابىء كتاباً مفصلا عن رحلته، دل على دقة ملاحظته وعنايته بكل مارآه، كما أنه لا يزال هذا الكتاب مرجعاً جغرافياً تاريخياً مفيداً للنواحي التي زارها ابن بطلان، فلذلك أورد ياقوت الحموي في كتابه المسمى بمعجم البلدان كثيراً من كلام ابن بطلان. ودليلا على كل هذا نذكر شيئاً من وصفه لمدينة اللاذقية. قال: «وهي مدينة يونانية لها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة، وكان في أول الاسلام مسجدا، وهي راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه وآذان في أوقات الصلوات الخمس، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس، وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم».

أما ماذكره من أخبار الروم والمسلمين فهو إيضاح للحالة كما كانت. فهي دورة الانحلال والضعف السياسي للدولة الاسلامية، قد أصبحت البلاد التي كانت تتبع خلافة بغداد مستقلة، وقامت خلافة الفاطميين بمصر، أضف إلى هذا تفشي الوباء والمجاعات باقطار عديدة وموت كثيرين من رجال العلم أحس الباقون منهم بفقدانهم وبالخلوة من بعدهم. وإنه لما يسر ان نلاحظ ان تلك البلايا كلها لم تستطع ان تقطع النهوض العلمي العظيم ولا اتصال

العلماء بعضهم ببعض برحلات علمية وراء كل الحدود السياسية ولا ارتباطهم بروابط الصناعة رغما عن اختلاف العقائد الدينية على أن ابن بطلان النصرانى هذا الذى كان محترماً ومقدراً عند زملائه المسلمين قاسى متاعب من المسيحيين أنفسهم؛ فانه «لما دخل إلى حلب وتقدم عند المستولى عليها سأله رد أمر النصارى فى عباداتهم اليه، فولاه ذلك، وأخذ فى إقامة القوانين الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه، وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصرانى ... يحمل عليه نصارى حلب فلم يمكن ابن بطلان المقام بين أظهرهم، وخرج عنهم ... وللحلبيين النصارى فيه هجو قالوه عند ما تولى أمرهم» (مختصر من كلام ابن القفطى)

قال ابن أبى أصيبعة: «وتوفى ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولدا، ولذلك يقول من أبيات:

ولا أحد إن مت يبكى لميتتى سوى مجلسى فى الطب والكتب باكيا

كان ابن رضوان على النقيض لابن بطلان فى أكثر مزاياه؛ فلم يكن لابن رضوان فى صناعة الطب معلم ينتسب اليه، ولم يغادر نواحي القاهرة مرة، وكان معجباً بنفسه طماعا بخيلا، لما فقد ماله ذهب عقله، ولكنه مع ذلك كله لم يخل من خلق وعقل يحملاننا على العطف عليه والاعجاب به. هذا ما يمكننا تأكيده عن سيرة حياته: ذكر ابن أبى أصيبعة شيئاً غير قليل منها.

كان مولد ابن رضوان بالجيزة وكان أبوه فراناً، قال: «فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسى فى التعليم، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسى فى التعليم. ولما أكملت أربع عشرة سنة أخذت فى تعلم الطب والفلسفة ولم يكن لى مال أنفق منه فلذلك عرض لى فى التعليم صعوبة ومشقة، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم، ومرة بصناعة الطب، ومرة بالتعليم. ولم أزل كذلك وأنا فى غاية الاجتهاد فى التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين، فانى اشتهرت فيها بالطب وكفانى ما كنت أكسبه بالطب، بل وكان يفضل عنى إلى وقتى هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين». أما ابن القفطى فيقول «وكان فى أول أمره منجما يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كعادة المنجمين، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين. ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه، وسار ذكره، وصنف كتباً لم تكن غاية فى بابها، بل هى مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة. فاما تلاميذه فقد كانوا ينقلون عنه من التعاليل الطبية والأقاويل النجومية والألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة».

على أنه إذا اعتبره ابن أبى أصيبعة أطب من ابن بطلان وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها، فربما صح حكمه بالنسبة لمهارته الطبية، إذ استشاره بعض ملوك مكران كتابة. أما فى الفلسفة والأدب فلا تجد سبيلا إلى اعتباره متكافئاً مع ابن بطلان كما يظهر من مؤلفاته. رغماً عما يذكره عن نفسه فى قوله: «وأما الأشياء التى أتنزه فيها فلأنى فرضت نزهتى ذكر الله عز وجل وتمجيده بالنظر فى ملكوت السماء والأرض؛ وكان قد كتب القدماء والعارفون فى ذلك كتباً كثيرة رأيت أن أقتصر منها على ما أنصه من ذلك: خمسة كتب من كتب الأدب، وعشرة كتب من كتب الشرع، وكتب أبقراط وجالينوس فى صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريدس، وكتب روفس وأريباسيوس وبولس، وكتاب الحاوى للرازى، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب، ومن كتب التعاليم المجسطى ومداخله وما انتفع به فيه، والمربعة لبطليوس، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون وأرسطوطاليس والاسكندر وثامسطيوس ومحمد الفارابى وما انتفع به فيها؛ وما سوى ذلك إما أبيعه باى ثمن اتفق، وإما أن أخزنه فى صناديق. وبيعه أجود من خزنه».

وجدير بالذكر أن ابن رضوان المسلم اكتفى بذكر الكتب الاسلامية اجمالا وتادية للواجب بينما فصّل ذكر الكتب المنقولة عن اليونانية واحداً واحداً.

لا حاجة لنا بايراد تفاصيل اطراء ابن رضوان عن نفسه ومديحه لعمله اليومى ووصفه لمحاسن ترتيب بيته، ولكننا نذكر آخر أمره (عن ابن أبى أصيبعة):

«كان قد أخذ يتيمة رباها وكبرت عنده، فلما كان فى بعض الأيام خلالها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار، فاخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر، ولا عرف أين توجهت فتغيرت أحواله من حينئذ، و«تغير عقله فى آخر عمره»، وكانت وفاة ابن رضوان فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

يدل على تفانيه فى حب علوم قدماء اليونان افتخاره برؤية جالينوس فى منامه، قال:

« وقد كان عرض لى منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء فى عروق الرأس فقصدت فلم يسكن ، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس فى النوم وقد أمرنى أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال : فنسيت مابك من الصداع ، وأمرنى أن أحجم القمحدوة من الرأس ؛ ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان » .

هذا ما يكفى تعريفاً بابن بطلان وابن رضوان ، ونتجه الآن إلى المناظرة المشهورة التى قامت بينهما . قال ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان معاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه ، وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عند ما كان يرد على حنين بن اسحق وعلى أبى الفرج بن الطيب (وكان أبو الفرج هذا أستاذ ابن بطلان ببغداد) وكذلك أيضاً على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى . ومن هذا النوع كانت مناقشته لابن بطلان . وقال أيضاً : « وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه .

فاول من ابتدأ المجادلة هو ابن رضوان بمناسبة رسالة لابن بطلان لم تكن موجهة ضده اطلاقاً ، بل دارت حول مطلب من مطالب العلوم الطبيعية كثر الكلام فيه بين أطباء ذلك العصر ، وهو : أيهما أحرّ طبيعة الفرخ أم الفروج ؟ وكان ابن بطلان يعتقد ـ كما اعتقد السواد الأعظم من الأطباء ـ أن الفرخ أحر من الفروج ، ولكن اليبرودى الطبيب الدمشقى الذى قد درس مع ابن بطلان على أبى الفرج ابن الطيب كان عايا أطباء مصر بمسألة ألزمهم بها أن يكون الفروج أحر من الفرخ . فجمع ابن بطلان فى مقالته حججا يعضد بها رأى اليبرودى وينقض الرأى الصحيح « بقياس المتعلمين تطريقاً لهم ورياضة ... وبقياس العلماء أن يظهر فضلهم فى حلول الشكوك الغامضة . . . وبقياس المذعنين تبكيتا لهم وهجنة » ، وأورد فى آخرها واحداً وثمانين سؤالا تتعلق بالبيض والحضان والفراريج يدعو الأطباء المصريين إلى الاجابة عنها

يظهر ان ابن رضوان ظن نفسه أو بعض تلاميذه مقصوداً بملاحظة من ملاحظات ابن بطلان فى رسالته هذه فاجاب عليها بمقالة لم يبحث فيها عن موضع المشكلة نفسها أو يرد على أدلة المعاياة ؛ بل نجده فيها أقرب إلى السفسطة والطعن منه إلى أصول الجدل العلمى .

وحسبنا أن نلتقط من مقالة ابن رضوان هذه موضعا يذكر فيه المزايا التى لايخلو منها الطبيب الكامل ، قال : « وقد بين جالينوس ان الطبيب فيلسوف كامل ، وانه من قصر عن ذلك فهو متطبب لاطبيب . والفيلسوف الكامل هو الذى قد حصل له العلم التعليمى والطبيعى والالهى والمنطق ، فالطبيب هو الذى حصل كل واحد من هذه على الكمال » .

لم يقتنع ابن رضوان بهذه المقالة بل ألف رسالة أخرى ضد ابن بطلان يمكننا الحكم بانها لم تحتو الا هجاء وذما . فلم يستطع ابن بطلان ان يترك الأمر عند هذا الحد ووجد نفسه مضطراً الى رد مفصل هو من أظرف الكتب العربية ومن أبدعها سماه « المقالة المصرية » عرّج فيه عروجا علميا فائقا يقصد به فضح آراء ابن رضوان كلية . يشتمل على مقدمة وسبعة فصول . يعتذر ابن رضوان فى المقدمة إلى خصمه بأنه انما ألف كتابه هذا امتثالا لرغبة بعض الجهات الجليلة ، ويناشده بإله السماء وتوحيد الفلاسفة ، ان يجيبه بقلب طاهر نقى خال من درن الغضب ؛ « فثاميسطيوس يقول : قلوب الحكماء هياكل الرب ، فيجب أن تنظف كما تنظف بيوت عبادته . وفيثاغورس يقول : كما أن العوام تظن ان البارى تعالى فى الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيها ، كذلك يجب على من علم ان الله فى كل مكان أن تكون سيرته فى كل مكان كسيرة العامة فى الهياكل » . أما الفصل الأول فهو فى العلل التى لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف ، إذا ما كان قبولها للتعليم واحداً ، وهذا عكس مازعمه ابن رضوان الذى ، كما لاحظنا ، لم يدرس هو نفسه على أستاذ بل تعلم بالمطالعة فقط . والدليل السادس منها يوضح لنا جيداً مقدار الصعوبات والمشكلات التى تلقاها أولئك العلماء الناطقون بالضاد عند دراستهم للكتب العلمية اليونانية : « يوجد فى الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عدمت فى تعليم المعلم ، وهى اشتراك الأسماء ، والتصحيف العارض من اشتباه الحروف بعدم النقط . . . وسقم النسخ ورداءة النقل . . . وذكر ألفاظ مصطلح عليها فى الصناعة ، وألفاظ يونانية لم يترجمها الناقل وهذه كلها معوقة عن العلم . وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم » . والبيان السابع ينبنى على اجماع المفسرين أن فصلا من فصول أرسطو لو لم يسمعه ثاوفرسطس وأوذيمس من المعلم نفسه لما فهم قط من الكتاب . فاما الفصل الثانى فهو فى أن الذى علم المطالب من الكتب علما

ردينا ثار عليه باعتقاده أن الحق محال شكوك يعسر حلها . والفصل الثالث فى أن اثبات الحق فى عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت فى عقله المحال . أما الفصل الرابع فهو فى أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتابا من كتب القدماء ألا يقطعوا فى علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة ، يتضح فيه احترام ابن بطلان للعلماء الأقدمين من اليونان ومَن بعدهم كل الوضوح . قال : « إن من عادة القدماء إذا وقفت عليهم المطالب ، ولاح لهم فيها تباين وتناقض ، أن يعودوا إلى التطلب ، ولا يتسرعوا إلى افساد المطلب . فان ارسطو بقى يرصد القوس الكائن عن القمر أكثر عمره فما رآه إلا دفعتين ؛ وجالينوس واظب على تطلب السكون الذى بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه . . . وشيخنا أبو الفرج عبد الله بقى عشرين سنة فى نفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضا كاد يلفظ نفسه فيه . وما منهم رحمهم الله إلا من أنفق عمره فى العلم طلبا لدرك الحق . هذا والذى فى عقولهم مما بالفعل أكثر مما بالقوة ، فان كنا وما بالقوة فينا أكثر مما بالفعل أخلدنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا وخسرنا أشرف ما فينا . ولذلك يجب على كل نسمة عاملة دونهم فى المرتبة إذا رأت أقاويلهم متباينة ألا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة » . ثم أورد المؤلف أمثلة كثيرة من كتب أرسطو وجالينوس وابقراط وأضاف إلى كل هذا مع صغر شانه بقياس تلك الطائفة المعدودة الدفاع عن نفسه فى مسألة وصف التدبير المبرّد بمصر خلافاً لبغداد ، وحجته اختلاف الهواء . يقول فى خصائص بغداد : « بغداد بلد شمالى ليس بكدر الماء ، ولا تختلف الأهوية ، ولا تنقطع عنه الأمطار فى الشتاء ، بل قد ينزل فيها الثلج من السماء ، ويجمد لكثرة البرد شطا دجلة وتزيد مياهها عند زيادة المياه ، وتاتى فواكهها وأزهارها فى أوانها من فصول السنة ، لا يكاد يرى فيهم مقشور ولا جرب ، ولا من به ضيق نفس ولا حكة إلا فى الندرة . أرضها قطب اقليم قال فيه أرسطو إنه ينبت الأذكياء ، فلما اختار أهله للنسل من جُلب من للبلاد الجنوبية ، فلهذا أوجههم على الأكثر بيعض مشربة حمرة ، وأخلاقهم طاهرة ، وطباعهم كريمة ؛ ليست أرضها فى وهدة فتحرقها الشمس وتغرقها كثرة المياه وهى من أسباب العفونة نعم ، ولا فى غربها بحر ولا فى شرقها جبل فى سفحه مقبرة وتتراقى منها الأبخرة ، وتعكسها الريح الغربية إلى المدينة ، لكنها فى بسيط من الأرض مستو ، جهاتها مكشوفة للشمس والرياح الأربع ، وأهلها مع هذه الخصال المعددة المضادة لمصر محتاجون من التدبير المبرد أقل مما يحتاج اليه أهل مصر وما والاها . والمصريون محتاجون إلى أكثر منه كثيراً . فلهذه العلل عدلت بهم عن الأشياء الحارة إلى الأشياء الباردة على موجب قانون الصناعة . وإذا كان عذرى قد اتضح بادنى عناية ، وبان خطل من عجل فى تغليظى من غير ارتئاء ، فما ظن الشيخ باناس يجرون فى العالم مجرى الأنجم الزهر ، أبصارنا عند بصائرهم تجرى مجرى بصر الخفاش عند عيون العقبان فى ضوء النهار ، لاسيما المؤيد أبو زيد حنين بن اسحق الذى منح الله البشر علوم القدماء على يده ، فذوو العقول الى اليوم فى ضيافته يمتارون من فضله ويعيشون من بره » .

ويزعم ابن بطلان أن عمل خصمه تقليل من ذلك الاحترام الواجب لسلف العلماء كابقراط وغيره من جهابذة الفن ، كما أن إهمال كتب الأولين تقود ولا شك إلى هلاك المرضى . يؤيد ابن بطلان قوله هذا بما جرى بينه وبين بعض تلامذة ابن رضوان ؛ فلذلك ينبغى لابن رضوان أن يعلم الشبان تعليما صحيحاً ولا يشيع « عند الأحداث تخبط الاسكندرانيين فى تفاسيرهم وجوامعهم للكتب الست عشرة ، ومنهم اصطفن ومارينوس وجاسيوس واركيلاوس وانقيلاوس وبلاذيوس ويحيى النحوى المنجد البطل المحب للتعب . ولعل الشيخ يتعذر عليه معرفة أسمائهم على الحقيقة بالعربية . وهؤلاء مفسرو كتب الصناعة الطبية ليت شعرى كيف يذمهم فى عمل جوامع كتب فسروا فصوصها وعرفوا نصوصها » . ثم يجىء الفصل الخامس فى مسائل مختلفة ، والفصل السادس فى تصفح مقالة ابن رضوان الهجائية التى قال فيها على سبيل المباهلة أن يساله ابن بطلان ألف مسالة ويساله هو مسألة واحدة . قال ابن بطلان جواباً عن هذه المقالة إن الخطباء والأطباء والفلاسفة لكل واحدة من تلك الفرق طريقة تسلكها فى المحاورة ، وأورد لكل واحدة من تلك الطرق أمثلة من تاريخ الآداب اليونانية ؛ أما طريق ابن رضوان فهو ـ كما زعمه ابن بطلان ـ هجاء محض من غير وزن وقافية .

أما السب بقبح الخلقة الذى قد اجترأ ابن رضوان أن يوجهه إلى ابن بطلان فيرده هذا باوفى الذكاء والفطانة ذاكراً أقوال سقراط وأفلاطون وجالينوس ؛ مورداً بعض أعلام الآداب العربية تجردوا من جمال الشكل مثل الجاحظ وعبد

بنى الحسحاس ، وفى النهاية يستفتى ابن رضوان عن خلقه هو نفسه قائلا : « لو أن رجلا استفتى بفتوى نسختها : ما يقول الشيخ وفقه الله فى رجل أسود اللون ، مضطرب الطبيعة والكون ، غليظ الشفتين ، منتشر المنخرين ، جاموسى الوجه ، بقرى العينين ، قليل الأنصاف ، محب المراء والخلاف ، قلق المشية جهر النغمة ، يفتينا فى ذلك مأجوراً من الله ، للزمه أن يفتى بما نسخته : الجواب ومن الله المعونة : النفس الفاضلة تابعة لأشرف كيفيات الهيولى فهى توجب عن اللون المشرب حمرة وعن التخاطيط الخبيثة الأخلاق الكريمة ، وهذه المعددة هى اضدادهذه . فالنفس التابعة لها غير فاضلة . وكتبه على بن رضوان على مذهب القدماء وبحسب تفسير الصناعة الصغيرة »

وبعدئذ يدافع ابن بطلان عن حنين ابن اسحق فيما يرميه به ابن رضوان . فان المسئلة الوحيدة الجديرة بالاعتبار تتلخص - قال - فى اختلاف بين حنين وجالينوس في الظاهر فقط ، كما أن الاختلاف بين أبى حنيفة من جهة وبين أبي يوسف ومحمد ابن الحسن من الجهة الأخرى فى نكاح الصابئين وأكل ذبائحهم اختلاف فى الفتوى فقط

أما الفصل السابع والأخير فهو يتضمن لخص مفردات كثيرة من أغلاط ابن رضوان ، وينتهى بانذاره بحساب يوم القيامة « فسأطالبه فى الحق إذا جلس الله لفصل القضاء واستغاث المرضى وأشخصوا الأطباء ، وحضرت الملائكة الكتبة ، وخرست الألسن الناطقة ، وشهدت القوارير الصامتة ، بدلالتها كأنها على الحالة الحاضرة ، وظهر الغلط ، واعترف الأطباء بالذى فرط ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ... وليتحقق أن ... لنا موقف حساب ، ومجمع ثواب وعقاب ، يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم ، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم ، وإنهم ليسامحون الشيخ كما سامحته . . . ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين »

لم يتاخر ابن رضوان فى الرد على ابن بطلان مرتين . فلما وجد نفسه عاجزاً عن النقض الصحيح لذلك الكتاب رجع الى أسلوبه الكريه المعتاد . أما الرد الأول فقد عجل تاليفه قبل لخصه كتاب ابن بطلان كله ؛ وأما الثانى ففيه تلخيص لكل ماجرى بينهما من وجهة نظر مؤلفه ، وغرضه الصريح دعوة أطباء مصر والقاهرة الى مقاطعة ابن بطلان . يقول ابن رضوان فى آخره : « فهذا فيه كفاية فى ان تعجبوا من أمر هذا الرجل ، وتضحكوا منه وتتركوا مكالمته فيما تستانفونه منه ، ولا تلتفتوا إلى شىء يقوله بل تنزلوه بمنزلة إنسان قد خولط ووسوس ، فهو أبداً يهذو ويهذى فلا يستحق ان يرثى له ولا يرحم قط »

هذا غاية ما يسمح لى الوقت به من شرح تلك المناظرة بين الطبيبين الفيلسوفين . حاصل القول أن الخصمين مع كل ما لاحظناه بينهما من الاختلاف من جهة النشأة والتربية والبيئة والدين والأخلاق دانا بعلمهما الى الفكرة اليونانية دينا شديدا كانا به يعترفان ويفتخران ، يجتهدان فى التشبه بالعلماء الأقدمين ، كما أن علوم الأوائل كانت عنصراً لازماً لمدنية البلاد الاسلامية فى القرن الخامس . هذا هو العصر الأخير لأثر العقلية اليونانية العلمية فى الشرق الأدنى قبل أن تسير الى الاضمحلال التدريجى حتى تتلاشى . فان السلاجقة الذين يوافق ابتداء سيادتهم عصر ابن بطلان وابن رضوان لم يعنوا بتجديد النظام السياسى للناحية الشرقية من عالم الاسلام فحسب ، بل قاموا أيضا بتاييد السنة وبمحاربة كل الحركات العقلية التى يعتبرونها مخالفة لها ، فكان لعلوم القدماء حظ غير موفور ، لأن بعض المحافظين استمروا يسيئون الظن فيها خصوصاً بعد ما انتفع بها القرامطة والفاطميون فى إلباس تعاليمهم الباطنية ظواهر الحقيقة العلمية

ورغماً من هذا فقد جاء فى القرون المتأخرة من حين الى حين بعض علماء مبرزين خلعوا عن أنفسهم تلك الأغلال ، وأظهروا الروح العلمية الخالصة غير ملتفتين الى شكوك من دونهم . من هؤلاء الفيلسوف الاندلسى ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥) ، والجهبذ موسى بن ميمون (المتوفى سنة ٦٠١) والطبيب المصرى ابن النفيس (المتوفى سنة ٦٨٧) مكتشف الدورة الرئوية للدم ؛ إلا انه للأسف بقى أولئك الأفاضل فى أوطانهم غرباء منفردين لم تقدر آراءهم ولم تنتشر ، على حين كان ابن بطلان وابن رضوان من المعبرين عن الحركة العقلية العامة فى زمانهما التى اشتركا فيها مع رهط كبير من معاصريهما . لم تخل العلوم الأخرى غير الطبيعية والطبية من ذلك التدهور العلمى الذى نشاهده ابتداء من القرن السادس ؛ وهذا حجة ساطعة لقيمة تاثير الفكرة اليونانية على الأعمال العقلية فى كل نواحيها .

ومهما يكن من شىء فان ما تناولناه فى بحثنا هذا يصور لنا صورة واضحة لضحى العلوم اليونانية العربية فى بلاد الاسلام

يوسف شخت

5 me Année, No. 197

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 12 - 4 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة — « القاهرة في يوم الاثنين ١ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٢ أبريل سنة ١٩٣٧ » — العـدد ١٩٧

فهرس العـدد

الـــزواج

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

لا أدرى ماذا دها الناس ، فإنه يندر أن أسمع في هذه الأيام بزواج موفق ؛ فهل صار نظام الزواج غير صالح لهذا الزمن ؟ أم العيب في الناس لا في النظام ولا في الزمن ؟ ولا شبهة في أن للزواج عيوبه . فما يخلو شيء في دنيانا هذه من عيب ؛ وإن له لمتاعب ؛ وإن مسئولياته لعديدة وثقيلة ، ولكن النجاة من المتاعب عسيرة في الحياة ؛ وإنه ليظن حمقاً من يتوهم أنه يستطيع أن يحيا ويخلو مع ذلك من المتعبات سواء أتزوج أم آثر الوحدة والاستفراد . وأحسب أن كثيرين من الرجال والنساء أيضاً يقدمون على الزواج وهم يعتقدون أنه صفو لا كدرة فيه ، ومتعة لا تنقص ولا ينغصها أو يفسدها شيء ، وحلاوة لا تشوبها مرارة ، فتخيب آمالهم كما لا بد أن يحدث ، ويضجرون ويتأففون ويشكون وتتلف أعصابهم فلا تعود تقوى على احتمال ما كان ظنهم ألا يكون . وهذا شأن كل من يتناول الحياة بخفة ، وواجهها بغير ما ينبغي من التهيؤ للاحتمال ، ومن الاستعداد للتشدد والجلد والمقاومة .

وقد كنت أتكلم في هذا وما إليه مع صديق فقال : « الحقيقة أن الزواج نظام ثبت إخفاقه وقلة صلاحه في هذا

الزمن ، فعذرته لأنه ممن جر عليهم الزواج نكبات كثيرة يشق احتمالها ، ولكنى لم أر رأيه ، فقلت له : « لا تغلط ياصاحبى فان كل زمن ككل زمن ، وهذه الاختراعات الكثيرة لم تغير شيئا من حياة الناس وفطرهم ، ولم تقلب الحقائق الاجتماعية ، وما خلا ز من قط ممن يسعدهم الزواج وممن يشقون به ، ولا من الراضين والساخطين على هذا وغيره من أحوال الحياة ، وما زال الرجل كما كان ، والمرأة كما عهدها آباؤنا وأجدادنا عفا الله عنهم ورحمهم ، ومع ذلك قل لى ماذا تطلب من الزواج وأنا أقول لك ماذا ينبغى أن تبلغ به ، أو ما لابد أن يصيبك من خيره أو شره »

قال : « أطلب الراحة والاستقرار . . . ماذا أطلب غير ذلك ؟ »

قلت : « إن الراحة مطلب لا سبيل إليه فى الحياة ، وهى لا تكون إلا بالموت . على أن هذه لا تعد راحة مادام المرء لايحسها ولا يدرك أنه مرتاح ، ولا يعرف حتى ما صار إليه ؛ والاستقرار كذلك عسير لأن حياتك كلها قوامها التحول والتغير ، وجسمك ونفسك وخواطرك وآمالك وشهواتك وكل مافيك أو لك يتغير ، فكيف بالله يكون هذا الاستقرار ؟ وأين السبيل إليه ؟ »

قال : « إنما أعنى الراحة النسبية والاستقرار بالقياس إلى حياة العزوبة والوحدة »

قلت : « ولا هذه أيضاً . إن الزواج ليس أداة لراحة ولا وسيلة لاستقرار أو غير ذلك مما تتوهم ، وإنما هو نظام . فاذا كان يوافقك أن تحيا فى ظل هذا النظام فتفضل وأهلا بك وسهلا ؛ ولكن يجب حينئذ أن تعرف أن له مقتضيات ، وأن توطن نفسك على الاذعان لها واحتمالها ، كما يخضع الجند للنظام العسكرى ، ولم يقل أحد إن الجندية سبيل لراحة أو استقرار أو لذة ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وإنما هى نظام تقتضيه حياة الجماعة . وكل جندى يقول لنا إنه نظام شاق عسير ثقيل الوطاة ، ولكنه لازم ولابد منه . والفرق بين الزواج والجندية أن الجندى يعلم أنه داخل فى نظام لالذة فيه ولا متعة له منه ، وأنه سيلقى عناء ويكابد متاعب ، وأنه معرض للجلد والسجن ، بل للموت حتى من غير حرب . ولكن طالب الزواج يمنى نفسه الأمانى المستحيلة فيلقى خلاف ما كان يقدر ، ولو أنه وطن نفسه ـ كما يفعل الجندى ـ على التعب والنصب ووجع القلب ومعاناة المنغصات إلى آخر ذلك لسعد بالزواج ، ولفاز منه بلذات كثيرة ونعم جزيلة ومتع يضن بها على النسيان . وقد ذكرت الجندية على سبيل التمثيل ، ولكن للجندية علاقة وثيقة بالزواج ، لأن الزواج غايته تنظيم أمور النسل اللازم للجماعة ، أى مد الجماعة بالعدد الكافى من الأفراد للقيام بأعباء حياتها . فهو نظام تمهيدى للجندية . وأنا أستعمل الجندية هنا بالمعنى الأعم الأشمل ، وأعنى كل فرد لا الذين يحملون السلاح ويسيرون إلى القتال حين يدعون إلى ذلك ـ لا أعنى هؤلاء وحدهم ، فان كل فرد جندى للجماعة وإن لم يحمل سيفاً ولم يتقلد رمحاً ، إذا كان قد بقى فى عصرنا هذا من يتقلد رماحا . والواجب على كل حال أن يدرك المرء أنه بالزواج يكون كالذى يعمل فى شركة ؛ وللعمل نظامه . والعمل لا تطلب منه اللذة بل الثمرة ؛ والعمل لا يفيد الراحة بل التعب ؛ ولا آخر للتعب ما دامت الشركة قائمة تعمل وتؤدى ما هو منتظر منها . نعم يستطيع المرء أن يفوز باجازة ، ولكن هذا ميسور فى نظام الزواج : خذ إجازة كلما شعرت أنك تعبت ، وامنح زوجتك مثل ذلك كلما بدا لك أن أعصابها كلت . »

فعجب وسألنى : « كيف ذلك . . ؟ إن هذا مزاح »

فأكدت له أنى جاد ، وقلت : « إنى أعيش مع زوجتى كأننا صديقان ؛ وليس يسعنى أن أفعل غير ذلك ، لأنها إنسان مثلى ولها حياتها المستقلة عن حياتى وإن كنا متعايشين تحت سقف واحد . وأنا أحرص فى حياتى معها على الاعتراف بهذا الوجود المستقل فلا أحاول أن أنفى وجودها هذا وأجعله يغيب فى وجودى ؛ ولو تيسر لى هذا لما كان لى فيه أى لذة لأنى خليق أن أشعر حينئذ أنى أعايش آلة لا إنسانا محسا مدركا يبادلنى ما يسرنى أن أراه يبادلنى إياه من العواطف والاحساسات والخوالج . ولو أفنيت شخصيتها فى شخصيتى لانحطت فى نظرى إلى منزلة الخدم الذين تطعمهم وتنقدهم أجرهم على أن يفعلوا ماتريد ولا يجاوزوا مشيئتك . وليست زوجتى خادما ولا آلة ، وإنما هى رفيق حياة ، أى صديق معين . ولست أقول هـذا تملقا أو نفاقا بل أقوله لأنى لا أفهم معنى للزواج غير ذلك . كلا . لست أحاول أن أغلب إرادتى على

إرادتها لأنى لا أحس حاجة إلى ذلك ؛ وسبيلي التفاهم لا الا كراه، وأرانى أبلغ بهذا ما لا أبلغ بالقوة والضغط . ومطلبي ما هو أوفق لكلينا ، لا ماهو أوفق لي وحدى ، فان الشركة لا تصلح بهذا الاستئثار . والزواج شركة على التحقيق ، ولا يحسب أحد أن الرجل يضع فى هذه الشركة أكثر مما تضع المرأة ، وأنه لهذا مغبون فيها ، فان هذا خطأ . فليس السعى للرزق كل ما تقتضيه هذه الشركة ، وإن المرأة لتبذل حياتها كلها لا جهدها لإنجاح الشركة ؛ وحسبها الحمل والوضع . ولو أمكن أن يحمل الرجل لأمكن أن يدرك هول ما تتحمل المرأة فى سبيل هذه الشركة ، ولكنه لا يحمل مع الأسف ، فهو فى الغالب لا يستطيع أن يقدر نصيب المرأة وما يكلفها الزواج وما يعرضها له ، ولا كيف تضحى بها الحياة لتملأ الدنيا بمثلي ومثله ممن لا يستحقون هذه التضحية »

فترك هذا وقال : « ولكن ألا يجب أن يكون للبيت سيد . . . إن المركب يغرق إذا كان له رئيسان »

فقلت : « آه . . حكاية التركى الذى جرد سيفه ليلة الزفاف وأطار به عنق القطة ليرهب الزوجة المسكينة .. لا ياسيدى .. ليس الأمر أمر سيد أو سيدة ، فما ثم محل لذلك . وأين محل هذا ولكل من الرجل والمرأة عمل ؟ وأصدقك فأقول إنى لا أدرى كيف يمكن أن تجور المرأة على الرجل أو يجور الرجل على المرأة . أخل ذهنك من كل فكرة عن السيادة وأخل لها ذهنها أيضا . . تفاهما معا . . هى لها عملها وواجباتها التى لا تستطيع - حتى إذا أرادت - أن تشاركها فيها ؛ وأنت لك عملك وواجباتك التى يعييها أن تشاركك فيها ؛ وكل منكما يمضى بعد ذلك فى طريقه لينهض بأعبائه الموكولة إليه . فأين يكون الاختلاط والاحتكاك والخلاف ؟ وإذا حدث خلاف فلماذا لا يكون بالحسنى . . »

قال : « والغيرة . . أليست بلاء ؟ »

قلت : « طبعا . . والرجل أيضا يغار . . أليس هذا بلاء ؟ . . فلماذا لا تضع نفسك فى موضع المرأة وتنظر إلى الأمور من ناحيتها هى أيضا . . صحيح أن المرأة أسرع إلى الغيرة من الرجل وأن غيرتها أحمى ، فبلاؤها لهذا أعظم ، ولكن هذه طبيعتها ولا حيلة لها فى ذلك ، لأن الغريزة الجنسية فى المرأة أقوى منها فى الرجل إذ كانت هى مدار حياتها . ثم إن الواحد منا يتقبل أصدقاءه على علاتهم ويحتمل أمزجتهم التى تخالف مزاجه ، ويوفق بين رغباته ورغباتهم - وما أكثر ماتتباين - ويظل مع ذلك صديقهم ويظلون هم أصدقاءه ، فلماذا لا يكون هذا حال الزوجين . . ؟ لماذا لا يحتمل منهما الآخر على العلات وهما بذلك أولى من الصديقين . . ؟ المسألة يا أخى أن الرجل يريد أن يسود ، وأن المرأة تريد أن تتحكم ، لأن هذا هو « المودة » الجديدة . ولو تركا هذا وأهملاه فنزل الرجل عن الرأى الموروث فيما ينبغى أن تكون عليه علاقة الرجل بالمرأة ، وتركت هى ماتشير به « المودة » الحديثة من أن الست هى السيدة المطاعة والرجل هو التابع والخادم الذليل - لو تركا هذا وسارا فى الحياة سيرة شريكين متعاونين على إنجاح الشركة واحتمال متاعبها والصبر على بلاياها فى سبيل مزاياها وفائدتها لارتاحا جدا ونعما بالحياة الزوجية »

فسألنى : « هل أنت سعيد ؟ »

قلت : « إنى سعيد لأنى لا أطلب من الزواج سعادة ، ولو كنت أطلبها لشقيت على التحقيق ؛ وقد تزوجت وأنا موطن نفسى على أن هذا واجب أؤديه كما أؤدى واجبي بالعمل فى الصحافة وبالاشتغال بالأدب - واجب والسلام . فاذا فزت بمتعة فهذا فضل من الله ، وإذا فاتنى ذلك فما كنت أطمع فيه أو أرجوه . وقد أدخلت هذا فى رأس زوجتى فهى تفهمه حق الفهم ، وقد كان على أن أفهمها هذا فى أول الأمر لأنى أردت من البداية أن أجنب سبيل الاخفاق . وقد أفلحت ولله الحمد والشكر ؛ فاذا حدثتك نفسك بالزواج مرة أخرى فاصنع هذا »

فصاح : « أنا . . . أعوذ بالله ياشيخ ! »

فقلت : « أرانى لم أوفق إلى إقناعك . . لا بأس . . المسألة فى الحقيقة مرجعها إلى الاستعداد ، ولو شئت لقلت إلى العقل والحكمة وسعة الصدر ورحابة أفق النفس »

فقال : « متشكر ياسيدى »

فعلمت أنه غضب . ومع ذلك ماذا قلت . . إنى لم أزد على إبداء رأى ، فاذا كان لا يحتمل هذا بل يعده تعريضا شخصيا به فلا غرابة إذا كان قد أخفق فى زواجه

ابراهيم عبد القادر المازني

النجاح فى القرن العشرين

لأديب مجهول

فى قطعة تعد من أجمل نماذج النثر الانجليزى يصف الأستاذ السير جيمس فريزر العادة الغريبة التى كانت متبعة فى تولية القسس الحاكمين بغاب ديانا القريب من موقع مدينة لارتشيا الحالية بايطاليا : « فمن يوم إلى يوم ، ومن عام إلى عام ، فى الحر وفى البرد ، وفى الصحو وفى المطر ، يخرج القسيس من المعبد حذرا يترقب ويجوب الغابة ، والسيف مشهور فى يده ، وإن أغفى إغفاءة فقد يكون ثمنها حياته ويتولى من قتله الحكم مكانه . »

ذلك نوع من النجاح بعد به عنا الزمن ، وأنكرته المدنية حتى فى عهدها القديم (فإنى أذكر وأنا أكتب الآن أن الامبراطور كراكرا كان هو الذى أبطل قانون الغابة الذى سلف وصفه) لما تنطوى عليه فكرته من تغليب محض القوة أو الخديعة على كل اعتبار آخر وإباحة التخلص من وجود المنافس كلية بقتله ، وقد يكون المقتول أنفع لقومه من القاتل ، فضلا عن أن لا حياة لمجتمع ما إلا بالتواضع على حد أدنى من الأمن على النفس والمال وما يتصل بهاتين الغايتين من أفكار أدبية ونظم قانونية

وما زالت معايير النجاح تتغير تبعاً لاختلاف الجماعات والعصور حتى أتى هذا القرن وأوضح صفاته وصول التنافس الاقتصادى فيه إلى أشده سواء بين الأفراد أو الأمم ، وفى هذه الحالة مافيها من خطر على المدنية يكاد يرجع بها إلى عهد التناحر الأول ، ومااستمرار الحرب الهجومية إلى هذا الوقت إلا نذير بما تستهدف له العلاقات الدولية من عودة الإنسان فيها إلى حكم غرائزه البحتة

نترك هذا الجانب الدولى من الموضوع ، فليس هو المقصود ببحثنا الآن فضلا عن مساسه بمسائل هى أدق بكثير مما يتناوله البحث فى تنافس الأفراد

والآن فامقياس النجاح فى عصر الاقتصاد ؟ إن أسهل جواب على ذلك القول بأنه هو النجاح المشتق من روح العصر . أى النجاح فى الماديات ، وأسهل جواب ليس هو دائماً فصل الخطاب ، بل إن الأمر ليحتاج لنظر أدق وتفكير كثير ، فقد كان التنافس فى الماضى نضالا بين اثنين أو أكثر يفوز فيه أحسنهم مواهب أو فرصا ، فتحول الآن إلى جهاد للتخلص مما أحاط به هذا العصر بنيه من صعوبات نشأت عن انتشار الديموقراطية من جانب وزيادة السكان من الجانب الآخر . وأكبر أخطار الديموقراطية هو ماتحاول نشره يوميا (خصوصا بالسينما والراديو) من فرص للمساواة المزعومة بين الناس مما يسهل انعدام شخصية الفرد فى آلاف يراهم مثله . وأكبر أخطار زيادة السكان هو الفقر والعطلة ، فالتحول بالأخلاق من ينابيعها الأدبية والروحية إلى غرائز الاجرام الحيوانية الكامنة هى أيضا فى الطبيعة البشرية

ولا ريب فى أن الناشىء فى هذا القرن يقاسى من هذه الصعوبات مالا عهد للسابقين به ، ويتعرض من أخطاره لما لم يعرفه غيره ممن قبله ، غير أنه لاريب كذلك فى أن إطلاق مبادىء النجاح المادى من عقالها وترك النضال القديم الذى يعترف بحدود من الأخلاق والدين إنما هو فى الواقع هروب من الجهاد الصحيح إلى عراك آخر رخيص يبيح الصعود بالهبوط، والوصول لنعيم الجسم بفقدان الروح ، ولضخامة الكسب بموت الضمير

وسيكون اختيار الناس لهذا النوع أو ذاك من النضال تبع فهم كل منهم معنى الكرامة والحياة ، ولا فائدة على أى حال من خطاب من فسدت مقاييسه أو خبث طبعه ، ولكن الذى لابد من بيانه فى هذا الصدد أن النجاح برغم كل ماتقدم من وصف صعابه لايستلزم تغييراً فى كيف السعى بل فى كمه : وبعبارة أخرى هو يستلزم زيادة فى الجهد لا ما يدعو إليه المستهترون بالاجتماع السليم من اطراح ماقامت عليه المدنيات من قواعد الشرف والآداب

فاذا تبين أن سبيل النجاح الآن لا يخرج عما كان فى كل آن من أنه طلب التقدم بكل وسيلة شريفة بقى أن نبحث عن أهم شروط هذا الطلب فلا نجد غير إرادة النجاح ، والارادة هى إرادة الوسائل وعقد النية على العمل بها لا الارادة الجوفاء الشبيهة بالأحلام

وباعتبار ما تقدم القول عنه من امتياز هذا القرن بشدة التنافس الاقتصادى فيه يجب أن نضيف إلى شرط الارادة شرطاً آخر هو القدرة على إنزال المال منزلته الصحيحة من أنه وسيلة للحياة المادية ، وأنه هو والحياة المادية نفسها يجب أن يتخذا وسيلة لأن يحيا المرء حياته الروحية التى هو جدير بها . فاذا عمل عامل بهذه العقلية وتلك الارادة فداوم على تهذيب نفسه مع السعى لترقية حاله وحافظ على شخصيته فى كل الظروف فهذا هو الفضل وهو النجاح .

(...)

مصاير الحرب فى اسبانيا

والصراع بين انكلترا وايطاليا

بقلم باحث دبلوماسى كبير

مضت إلى اليوم تسعة أشهر مذ نشبت الحرب الأهلية الاسبانية فى أواخر يوليه الماضى، ومازالت على اضطرامها، ونستطيع بعد الذى شهدناه من تطور الحوادث خلال هذه الفترة أن نقول إن هذه المعركة الطاحنة التى تخضب أرض اسبانيا بالدماء وتبسط فى جنباتها أعلام الدمار والويل، لم تسفر حتى اليوم عن نتيجة حاسمة؛ بل لا نبالغ إذا قلنا إنها ما زالت حيثما بدأت من حيث أوضاعها الداخلية: فالجبهة الثائرة مازالت تجاهد جهاد اليأس لتنتزع ما تستطيع انتزاعه من المدن والأراضى؛ وجبهة الحكومة أو الجبهة الجمهورية ما زالت تصمد فى معظم الميادين وترد هجمات الثائرين؛ وقد أحرزت فى الأسابيع الأخيرة نجاحا يذكر فى المعارك التى دارت حول مدريد، ولا سيما فى وادى الحجارة (جوادى لاجارا) كما أحرزت بعض النجاح فى الشمال حول اوفيدو، وفى الجنوب فى بسائط قرطبة وغرناطة. وقد لاح مدى حين حينما استولى الثوار على مالقة فى أوائل شهر فبراير بموازرة الفرق الايطالية فى البر، والمدرعات الايطالية والألمانية فى البحر، ان الجبهة الثائرة تسير إلى نصر سريع محقق، وان الجبهة الجمهوريه قد اضحت على وشك الانهيار والتحطم؛ وكان سقوط مالقة فى الواقع تعويضا للثوار عما لحقهم أمام مدريد من فشل مستمر؛ وكان المظنون أن الثوار سيتابعون زحفهم الى المرية ثم إلى بلنسية حيث تقوم الحكومة الجمهورية؛ ولكن سقوط مالقة أذكى فى الجمهورية شعور الخطر، وأذكى فيها روح النضال، فضاعفت جهودها، واستطاعت أن ترد خطر الثوار فى الجنوب؛ واغتر الثوار بظفرهم فى مالقة فدبروا مع حلفائهم الايطاليين هجومهم الجديد على مدريد، واضطرمت حول العاصمة الاسبانية سلسلة جديدة من المعارك الطاحنة، ولكنها أسفرت فى تلك المرة كما أسفرت فى كل المرات السابقة عن فشل الثوار الذريع، بل أسفرت فوق ذلك عن احراز القوات الجمهورية لسلسلة من الانتصارات الباهرة فى جبهة وادى الحجارة وفى آفيلا، وعن تمزيق الثوار وحلفائهم الايطاليين، وردهم بعيدا عن حدود العاصمة وعن طريق مدريد ـ بلنسية الذى يحاولون احتلاله لقطع العاصمة عن باقى اسبانيا

وقد كان لهذا التطور الجديد فى مصاير الحرب الأهلية الاسبانية أثر عميق فى الموقف الدولى، فقد كشفت الحوادث والمعارك الأخيرة عن مبلغ تدخل إيطاليا فى الحرب الاسبانية وعن ضخامة الدور الذى تقوم به إلى جانب الثوار، وبالأخص عما ارتكبته من المخالفات الصريحة لاتفاق عدم التدخل، إذ تبين أنها أرسلت إلى اسبانيا عدة فرق عسكرية كاملة فى أوائل شهر مارس، أعنى بعد أن عقد ميثاق عدم التدخل فى لندن وتعهدت جميع الدول الموقعة عليه ومنها إيطاليا بان تكف عن تدخلها فى الحرب الاسبانية، وأن تقطع عن الفريقين المتحاربين كل معاونة عسكرية، وتبين أن معظم القوى التى قامت بالهجوم الأخير على مدريد كانت مؤلفة من الايطاليين وأنه يوجد الآن فى اسبانيا إلى جانب الثوار نحو خمسين الف جندى إيطالى؛ وقد كشفت السياسة الايطالية عن مبلغ تمسكها بهذا التدخل وتصميمها على معاونة الثوار على تحقيق الغرض الذى ترمى إليه، وهو إقامة حكومة عسكرية فاشستية فى اسبانيا تكون خاضعة للنفوذ الايطالى؛ وقد قررت إيطاليا فى لجنة عدم التدخل، على يد سفيرها فى لندن، أنها ترفض سحب جنودها فى اسبانيا وصرحت صحافتها الشبيهة بالرسمية، بان الجنود الايطالية لن تغادر اسبانيا حتى يتم الظفر النهائى لزعيم الثورة الجنرال فرانكو، وأن إيطاليا لن تسمح باى حال أن تقوم فى اسبانيا حكومة بلشفية، وهو الوصف الذى تطلقه على حكومة اسبانيا الشعبية الجمهورية. ولنلاحظ أن إيطاليا تقف هذا الموقف العنيف غداة هزيمة جنودها أمام مدريد، وهى الهزيمة الذريعة التى كدرت على موسولينى صفو رحلته الرنانة فى طرابلس، وحملته على العودة إلى رومه قبل أن يتم برنامجه

وهذا الموقف الذى تقفه إيطاليا من المسألة الاسبانية يثير فى لندن وباريس مخاوف كثيرة ؛ وقد كان موقف المانيا ازاء هذه المسألة من قبل يثير مثل هذه المخاوف ، ولكن ألمانيا تقف فى معاونتها للثوار عند الحد الذى بلغته قبل عقد اتفاق عدم التدخل . ولا تريد الآن على مايظهر أن تتوسع فى تدخلها بعد أن رأت فشل سياستها فى المسألة الاسبانية ؛ أما إيطاليا فانها تثير بموقفها صعابا جمة فى سبيل تطبيق سياسة عدم التدخل التى ترى لندن وباريس أنها خير وسيلة لحصر أخطار الحرب الاسبانية وصون السلام الأوربى من شررها المتطاير . وهنا تبدو الصبغة الدولية للحرب الأهلية الاسبانة وهى الصبغة التى نوهنا بخطرها وأهميتها مذ نشبت الثورة فى اسبانيا . فالعلائق الايطالية الانكليزية ، والنضال بين انكلترا وإيطاليا فى البحر الأبيض المتوسط ، تلعب أكبر دور فى تطور المسألة الاسبانية ، وفى سير الحوادث الدولية بوجه عام . والمسألة الاسبانية ليست إلا واحدة من مسائل عديدة يثيرها النضال بين الدولتين فى هذا البحر ؛ وإيطاليا لم تنس موقف انكلترا فى المسألة الحبشية ، ولم تنزل عن شىء من أحقادها ومشاريعها رغم عقد اتفاق « الجنتلمان » بينها وبين انكلترا على احترام الحالة الراهنة فى البحر الأبيض المتوسط . وإذا كانت انكلترا تمضى اليوم فى تنفيذ برنامجها الدفاعى الهائل فلأنها اعتبرت بحوادث الحرب الحبشية ، وشعرت بالخطر الذى يهدد سيادتها الأمبراطورية من جراء تفوق التسليح الايطالى فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وهى تستطيع اليوم بعد أن قطعت شوطاً كبيراً فى برنامجها الدفاعى أن تقف فى وجه السياسة الفاشستية وأن تناوىء اطماعها الخطرة . ولم ننس بعد تلك المعركة الصحفية المرة التى اضطرمت بين الصحافتين البريطانية والايطالية ، من جراء أقوال « الدوتشى » ومزاعمه المغرقة فى طرابلس حول حماية الاسلام والعرب ، وما أثارته تلك المزاعم من سخرية لاذعة فى العالم الاسلامى .

ولنلاحظ أن هذا النضال بين السياستين البريطانية والفاشستية كما أنه يحدث أثره فى المسالة الاسبانية أو غرب البحر الأبيض المتوسط ، فانه يحدث أثره العميق أيضاً فى شرق هذا البحر ، فنى الأشهر الأخيرة نشطت السياسة الايطالية فى البلقان وفى أوربا الوسطى ، وأحرزت أخيراً نجاحاً يذكر بعقد الميثاق اليوجوسلافى الايطالى ، ومن المعروف أن العلائق بين إيطاليا ومنافستها القوية فى بحر الادرياتيك لم تكن على ما يرام ، فعقد هذا الميثاق يحسم كثيراً من أسباب النزاع بينهما ، ويضمن لايطاليا حيدة يوجوسلافيا اذا وقع الصدام بينها وبين دولة أخرى ، كما أنه يضمن ليوجوسلافيا مثل هذه الحيدة ؛ والظاهر أن السياسة الايطالية تسعى إلى عقد مثل هذا الميثاق مع المجر حيث تتمتع بنفوذ واضح ، ومع تركيا الكمالية أيضاً . فاذا تم عقد هذه المواثيق ، فان ايطاليا الفاشستية تسوى بذلك علائقها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وتأمن غائلة الاعتداء من هذه الناحية ، وتستطيع أن تتفرغ لمقاومة السياسة البريطانية فى أواسط البحر الأبيض المتوسط وفى غربه أعنى فى أسبانيا

ولقد نوهنا من قبل غير مرة بخطورة هذا النضال بين ايطاليا وبريطانيا العظمى وشرحنا عناصره الظاهرة والخفية ، وليس من ريب فى أن هـذا النضال يستغرق اليوم كثيرا من نشاط السياستين البريطانية والايطالية ؛ واذا كانت السياسة البريطانية تبدى كعادتها كثيرا من الأناة وضبط النفس ، فانها مع ذلك لاتخفى اهتمامها بحركات السياسة الايطالية ومقارعتها . ولقد دللت ايطاليا الفاشستية فى العامين الأخيرين على ماتجيش به من الأطماع المتوثبة والنزعات الاعتدائية ولاسيما ضد الامبراطورية البريطانية ؛ فغزو الحبشة والاستيلاء عليها بالعنف ، يهدد مركز بريطانيا فى السودان وفى شرق افريقية ؛ وتحصين جزيرة بانتلاريا الواقعة بين طرابلس وصقلية يهدد مركز بريطانيا فى مالطة ، ومن ثم يهدد مواصلاتها الامبراطورية فى البحر الأبيض ؛ ومد الطريق البرى من طرابلس إلى الحدود المصرية يخفى وراءه غايات عسكرية أكثر مما يقصد إلى غايات سلمية وتجارية ؛ ونشاط السياسة الايطالية فى المسألة الاسبانية هو مظهر آخر لتلك النزعة التى ترمى إلى تهديد انكلترا فى جميع النقط الحساسة من نفوذها الاستعمارى أو سيادتها البحرية

ولكن السياسة البريطانية مع ما تبدى من ضبط النفس

لا تخفى أنها مصممة على سحق جميع هذه المحاولات الفاشستية والاحتفاظ بسيادتها فى البحر الأبيض المتوسط ، وتدعيم نفوذها وسيادتها حيثما يقتضي الدفاع عن امبراطوريتها الاستعمارية الشاسعة . والمسألة الاسبانية هى أول مظهر من مظاهر النضال بين السياستين ؛ فكما أن رومة تحاول أن تدفع تدخلها فى الحرب الأهلية الاسبانية إلى النهاية أو حتى يظفر الجنرال فرانكو وتقوم فى اسبانيا حكومة فاشستية تخضع لنفوذ ايطاليا ، فكذلك السياسة البريطانية تعمل على احباط هـذه المحاولة بتدعيم سياسة عدم التدخل ، وعزل ايطاليا عن باقى الدول ، وإظهارها بمظهر المعتدى المهدد لسلام القارة ؛ وانكلترا تفوز فى هذه السياسة بتاييد فرنسا التى تخشى عواقب التدخل الفاشستى فى اسبانيا مثل ما تخشاه انكلترا ، وتاييد روسيا السوفيتية التى تناصر الكتلة الديموقراطية ، والتى تعاون اسبانيا الجمهورية على مقاومة الثورة الفاشستية منذ نشوبها .

ومما يلاحظ أيضاً أن المانيا تبدى الآن فتورا ظاهرا فى تاييد وجهة النظر الايطالية مما يدل على أنها قد ملت التدخل فى مغامرة لاتؤمن عواقبها ؛ هذا إلى أن حوادث الحرب الاسبانية ذاتها تدل على أن الجبهة الثورية الفاشستية قد سرى إليها الضعف والوهن ، فانتصارات الجمهوريين الأخيرة حول مدريد وفشل الثوار فى جميع هجماتهم الأخيرة وما أذيع من وقوع التمرد فى بعض الوحدات الثورية فى المغرب الاسبانى ، كل ذلك يؤذن بان مصاير الحرب الاهلية تتطور فى صالح الجمهورية الاسبانية . ولنذكر أخيرا أن اتفاق عدم التدخل الذى وفقت الدول إلى عقده وتنظيمه ، سينفذ بطريقة فعلية فى أيام قلائل بحيث يغدو من المتعذر على أحد الفريقين المتحاربين أن يتلق المدد من أى ناحية . وفى اعتقادنا أن الثورة الاسبانية التى قامت منذ الساعة الأولى بتحريض الفاشستية ومعاونتها المادية ستنهار عندئذ بسرعة ، وتحسم هذه المعركة الطاحنة بفوز الديموقراطية الأسبانية ، وبذلك يقضى على تلك العوامل الخطرة التى تلوح فى الأفق منذ أشهر مهددة سلام أوربا ، والتى كان لشهوات الفاشستية ودسائسها المضطرمة أكبر فضل فى بعثها وتغذيتها

(***)

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٥ —

ليس تاثر ابن سينا بافلاطون من الأمور التى تتطلب اثباتاً جديداً ، فقد فرغنا منه من قديم وأضحى واضحاً وضوحاً لا يقبل الشك . وإذا كان شيخ الأكاديمية قد استطاع أن ينفذ إلى فلاسفة الاسلام جميعاً بالرغم من تعصبهم لأرسطو فان أثره فى الأستاذ الرئيس أعمق ، وملاءمته لتفكيره أتم وأكمل . وقد بينا فيما سبق كيف قال ابن سينا بجوهرية النفس على نحو مما ذهب إليه أفلاطون . ونريد اليوم أن نوضح موقفه إزاء روحيتها ، فنهيء بذلك فرصة أخرى لاظهار ما اشتملت عليه فلسفته من نزعات وآراء أفلاطونية

ابن سينا روحى فى طبيعته ، فالتغيرات الكونية ترجع فى رأيه إلى قوى خفية تحدثها وتشرف عليها ؛ روحى فى طبه ، إذ يعتبر النفس الانسانية مهيمنة على كل الأجهزة والعصارات الجسمية ؛ روحى فى فلكه ، فانه يذهب إلى أن الأفلاك والكواكب إنما تستمد قوتها وحركتها من نفوس خاصة موكلة بها ؛ روحى فى ميتافيزيقاه ، ولا أدل على هذا من أن عالم ما وراء الطبيعة فى نظره حافل بعقول قديمة أزلية كلها تفكير ونظر وتأمل ؛ روحى أخيراً فى أبحاثه السيكلوجية ، بدليل أن النفس عنده هى كل شيء والجسم والحواس مجرد آلة لها وأداة . ونستطيع أن نقول إن فلسفته كلها تتلخص فى مذهب روحانى تتجاذب أطرافه وتتناجى نواحيه . وفيلسوف هذه نزعته لا يدخر وسعاً فى البرهنة على روحية النفس ولا يمل حديثاً كهذا ، بل على العكس يعنى به ويذهب فيه مذاهب شتى ، فيلجأ تارة إلى بعض الأفكار الرياضية مستعيناً بما فيه من لباقة ومقدرة جدلية ليحمل القارىء على التسليم بهذه الروحية . ويركن تارة أخرى إلى معلوماته الطبية

وملاحظاته السيكلوجية فيتخذ منها أدلة أخرى لا تقل عن السابق إحكاما

فيقرر أولا أن النفس جوهر يدرك المعقولات والمعانى الكلية ويشتمل عليها ؛ وجوهر هذا شانه لا يمكن أن يكون جسما أو قائماً بجسم ، ذلك لأنا إن قلنا بجسميته لزم أن تحل المعقولات فى مكان ، وهذا محال . فانها ان شغلت حيزا فاما أن يكون قابلا للقسمة أولا ، ومالا يقبل للقسمة هو تلك النقط الهندسية التى يتكون منها الخط والتى لا توجد منعزلة مطلقاً ؛ فلا يمكن أن تكون محلا لشىء ما . وعلى هذا لم يبق إلا أن تكون المعقولات حالّة فى مكان قابل للقسمة . وفى هذا الغرض أيضاً صعوبات كثيرة لا سبيل إلى تذليلها ومتناقضات لا نستطيع رفعها ، وأهمها أن الكلى يصبح قابلا للقسمة تبعاً للحيز الذى يشغله فيصير شكلا هندسياً أوكمية عددية بدل أن يكون فكرة عقلية . وإذا قلنا بقسمته فهل هو مكون من أجزاء مكررة متشابهة أو غير متشابهة ؟ إن أخذنا بالأول قادنا إلى نتيجة واضحة البطلان وهى أن يتكون الكل المتنوع المميزات من جزء واحد مكرر ؛ وإن ذهبنا إلى الثانى كان معناه أن الكلى قابل للقسمة إلى مالا نهاية ، شأنه فى هذا شان الجسم الذى حل فيه . ونحن نعلم أن الكليات وإن قسمت إلى أجناس وأنواع ينبغى أن تقف عند حد فى هذا التقسيم . فهى فى ذاتها قابلة للقسمة إلى نهايته ، وتبعاً للحيز الذى تشغله يمكن تقسيمها عقلا إلى مالا نهاية ، وهذا تناقض صريح . على أن هناك معقولات بسيطة لا تقبل القسمة بحال فكيف نتصورها شاغلة لحيز قابل للقسمة ؟ وإذا بطل كل هذا فالجوهر الذى تحل فيه المعقولات روحانى غير موصوف بصفات الأجسام ، وهو ما نسميه النفس [١] . وواضح أن هذه النفس هى التى تجرد الكليات عن الكم والأين والوضع وتستخلصها من الجزئيات فلا يمكن أن تضعها فى حيز جديد ؛ ولن يصير الكلى كلياً ولا المعقول معقولا بالفعل إلا إذا انتزع من المكان وفهم فى ذاته بعيداً عن عوارض المادة [٢]

هذا هو أعنف برهان يستدل به ابن سينا على روحية النفس ؛ ويظهر أنه كان معتدا به كل الاعتداد ، فإنه ساقه فى كل كتبه السيكلوجية التى وصلت الينا فى أشكال وألوان مختلفة بعضها أغمض وأعقد من بعض ؛ وربما كان أوضحها نسبيا ماجاء فى كتاب النجاة . وليس القول بأن المعقولات لا تشغل حيزا فكرة مبتكرة اهتدى اليها ابن سينا وحده ، فإنا نجدها لدى الاغريق من قديم ؛ وأرسطو بوجه خاص يفصل الكلام فى وجود الكليات مبينا أنها موجودة فى الجزئيات بالقوة وفى الذهن بالفعل . والوجود الذهنى هو الوجود الحقيقى ؛ واذا كان بينه وبين الوجود الخارجى من فارق فهو أنه مجرد عن الماديات [١] . وإنا لنرى بين المسلمين كذلك الفارابى يحاول من قبل البرهنة على روحية النفس محاولة نظن أنها التى ألهمت ابن سينا برهانه الذى نحن بصدده ، فهو يلاحظ أن المعقولات تتنافى مع الحيز بطبيعتها ، وما دامت النفس تدركها وتشتمل عليها فهى جوهر مفارق للمادة [٢] . بيد أن الجديد لدى ابن سينا هو ذلك الجدل المحكم والالزام المبنى على أقيسة اقترانية وقسمة ثنائية لا يلبث المرء أن يسلم أمامها بالمطلوب رضى أم لم يرض . وقد لا نستسيغ نحن الآن كثيرا هذا الطراز من الاثبات ، فانه أشبه بالمناقشة اللفظية منه بالبحث العلمى ، إلا أنه كان من مميزات القرون الوسطى عامة ، ولابن سينا بوجه خاص فيه قدرة فائقه . ومع هذا فلن نعدم المايلة فى إنكار بعض مقدماته أو الطعن فى بعض قضاياه ، ولكننا لا نحب أن نسترسل فى أمر نعتقد أنه قليل الجدوى . ومهما يكن من شأن البرهان السابق فإنه يعتمد على مبدأ لا يزال علم النفس الحديث يقره . فإن المحدثين يفرقون بين الظاهرة الجسمية والنفسية بأن الأولى هى التى تشغل حيزا فى حين أن الثانية مجردة عن المكان ، وكل ماتقاس به هو الزمان الذى تحدث فيه . ولئن فات ابن سينا أن ينمى معلوماتنا السيكلوجية ببرهانه هذا فإنه سيعرض علينا ذلك ببراهينه التالية

(١) ابن سينا ، (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ : (النجاة) ، ٢٨٠ - ٢٨٩ : (الاشارات) ، ١٣٠ - ١٣٢ : رسالة فى القوى النفسانية ، ٦٧-٦٩

(٢) الشفاء ، ج ١ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ : النجاة ، ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(1) Aristote; de l'âme, III, 4.

(٢) الفارابى الثمرة المرضية ، ٦٤ ، ٧٦ : المفارقات ، ٧ - ٨ .

كم كنا نود أن نجد السبيل الى ملاحظة النفس فى ذاتها لنقف على طبيعتها ومميزاتها . فاما ولا حيلة لنا الى ذلك فلنلجا الى آثارها ووظائفها فان فيها خير معين على فهم كنهها . وكثيرا ما قام الأثر دليلا على المؤثر وأعانت الوظيفة على توضيح مصدرها . ومن أهم وظائف النفس وألصقها بها الادراك ؛ وانا لنلحظ فيه ظاهرة غريبة هى أن النفس تدرك ذاتها وتدرك أنها تدرك ، وفى هذا دليل قاطع على أن ادراكها مباشر وبدون واسطة . ذلك لأنها لو كانت تدرك بآلة جسدية لا نعدم كل هذا وما استطاعت أن تدرك نفسها ولا أن تكون شاعرة بإدراكها ، بل ولا أن تدرك الآلة التى تستخدمها . ويكفى أن نقارن هذا الادراك العقلى بالادراكات الحسية أو المتصلة بالجسم لنتبين الفرق بينها . فبينما النفس تدرك ذاتها وتدرك إدراكها لا تستطيع حاسة ما من حواسنا أن تحس نفسها ولا احساسها ولا العضو الذى يوصل اليها هذا الاحساس ، اللهم إلا إن عكس اليها بمرآة ونحوها . وكذلك المخيلة لا تتخيل ذاتها ولا فعلها ولا آلتها ، وانما تتخيل أمرا خارجا عن كل ذلك . واذن تكون النفس الناطقة من طبيعة غير طبيعة هذه القوى الجسمية (١) .

وفوق ذلك فهذه القوى تتأثر بما تقوم به من مجهود . فان عظم مجهودها أو استخدمت زمنا طويلا بدا عليها التعب والاعياء وعز عليها أن تقوم بوظائفها فى دقة . فالقراءة الطويلة تضعف العينين ، والضوء الشديد قد يعشيهما فلا تكادان تبصران ، والرعد القاصف قد يصم الأذنين . وليس أثر هذه الاحساسات الشاقة بمقصور على وقتها ، فقد يبقى بعدها زمنا ، فمن أبصر ضوءا عظيما لا يبصر معه ولا عقبه ضوءا ضعيفا ، ومن سمع صوتا قويا لا يسمع معه ولا على أثره صوتا ضئيلا ، ومن ذاق طعما شديد الحلاوة لا يحس بعده خفيف الطعوم ، وعلى عكس هذا يزداد العقل نضجا كلما استخدم وقام بوظيفته ، واذا حل مسألة معقدة كان فى هذا ما يعينه على حل ما هو أعقد منها . حقا أنه قد يبدو متعباً احيانا ولكن هذا راجع الى ما يتصل به من ظروف عضوية ، فانه يستعين بالمخيلة كثيرا وهى مرتبطة بالجسم ارتباطا وثيقا (١)

وأخيراً كل أعضاء الجسم تضعف تبعاً لتقدم السن ، ويبدأ هـذا الضعف عادة بعد سن الأربعين . لكن القوة الفعلية تخالف هذا تمام المخالفة ، فهى لا تكتمل إلا حين يجاوز الانسان هذه السن . يقول ابن سينا : « لاشك أن الجسم الحيوانى والآلات الحيوانية إذا استوفين سن النمو وسن الوقوف أخذن فى الذبول والتنقص وضعف القوة وكلال المنة ، وذلك عند الانافة على الأربعين سنة . ولو كانت القوة الناطقة العاقلة قوة جسمانية آلية لكان لا يوجد أحد من الناس فى هـذه السنين إلا وقد أخذت قوته هـذه تنتقص ، ولكن الأمر في أكثر الناس على خلاف هذا ، بل العادة جرت فى الأكثر أنهم يستفيدون ذكاء فى القوة العاقلة وزيادة بصيرة ؛ فاذن ليس قوام القوة النطقية بالجسم والآلة ، وإذن هى هى جوهر قائم بذاته (٢) » . وأما ما يبدو من نسيان أو ضعف فى التفكير أو خطا فى الأحكام أثناء الشيخوخة فليس راجعاً إلى نقص أو اضطراب فى القوة العاقلة ، وإنما مصدره مؤثرات جسمية وعضوية . وبيان ذلك أن النفس تؤدى مهمتين متباينتين ومتعارضتين تقريباً : فهى تسوس البدن وتدبر أمره ، كما تقوم بالتفكير والتعقل . وكثيراً ما عز عليها الجمع بين هذين الأمرين ؛ فيحول الحس دونها والاسترسال فى النظر والتأمل ، كما يصرفها البحث العميق ولو مدة معينة عن حاجات الطعام والشراب ، فما نظنه من ضعف التفكير أو تعطل العقل لدى الشيخ أو المريض منشؤه أن النفس قد شغلت بمهمتها الجسمية ، بدليل أنها تسترد كل قوتها العاقلة إذا مازال المرض (٣) .

هذا هو مجمل البراهين التى يستدل بها ابن سينا على روحانية النفس ، وفيها من غير شك ملاحظات سيكلوجية

(١) ابن سينا ، (الشفاء) ، جـ ١ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ : النجاة ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ : (الاشارات) ، ١٣٢ ـ ١٣٤ : (رسالة فى القوى النفسانية) ٦٩ ـ ٧٠ .

(١) (الشفاء) ، جـ ١ ، ص ٣٠٠ : (النجاة) ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
(٢) ابن سينا ، رسالة القوى النفسانية ، ص ٧١ .
(٣) الشفاء ، جـ ١ ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ : النجاة ٢٩٥ ـ ٢٩٧ .

جديرة بالتقدير ، فان ادراك القوة الناطقة لنفسها وإدراكها أنها تدرك أساس موضوع السفور الذى هو من أهم مباحث علم النفس الحديث ، ويمكننا أن نسلم إلى حد ما أن القوى الذهنية أقدر على تحمل المجهود من الأجهزة الجسمية . وليس بغريب على ابن سينا وهو الطبيب المعروف أن يقوم بمثل هذه الملاحظات ولا سيما وأستاذه أرسطو قد سبقه إلى بعضها ومهد له سبيل توسعتها[1] . ولكن الغريب هو أن تستخدم أفكار ارسطية فى إثبات أمر لا يقف أمامه أرسطو موقفاً واضحاً ، فانه غير صريح صراحة افلاطون فى القول بفصل النفس عن البدن وتميزها عنه ، فكأن ابن سينا ببرهنته السابقة ينتصر لأفلاطون فى الوقت الذى يزعم فيه أنه يردد آراء ارسطية . واذا ما شئنا أن نحكم على هذه البرهنة فى ذاتها ، وخاصة فى جزئها الاخير ، وجدنا قيمتها موقوفة على تفسير الصلة بين الجسم والروح ، وهذا ما سنحاوله فى الفرص المقبلة ان شاء الله .

ابراهيم مدكور

---

(1) Aristote, (De l'âme), III, 4.

فى الأدب المقارن

الطور الفنى

فى الأدبين العربى والإنجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

مما عرف به الانسان أنه حيوان يتذوق الفن ، لحب الفن طبع فيه ، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه ويتوفر له قوته وحاجاته ، فاذا ما فرغ من الضرورى من أموره التفت إلى الكمالى ، وطلب الفن والجمال ، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية ، وترتقى بينها وتتنوع بقدر ماتسمح به بيئتها ودرجتها من الرقى المادى والعقلى . والرقص والموسيتى والشعر من الفنون السابقة إلى الظهور ، لقلة ما تحتاج إليه من المواد الأولية ، أما التصوير والنثر الفنى والنحت والعمارة ، فأكثر تأخراً عنها ، لما تحتاج إليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار فى موطن

ومهما بلغ الشعر من التقدم فى عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار ؛ فاذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين ، اتسعت مواضيع الشعر باتساع جوانب العمران ، وبعد غوره باستفادته من العلم ، وجاد أسلوبه باستخدامه التدوين والتروى ، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن ، وظهر بجانب الشعر أخوه الأصغر سنا وهو النثر ، وظهر بجانب الشعراء الكتّاب ، وبظهور النثر يمتد مجال الأدب حتى يتاخم مجال العلم أو يتداخل وإياه ، وإذ يدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الاخرى ويطلع أدباؤه على آداب تلك الأمم ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، بعد أن كان الشعر فى عهد البداوة معزولا لا يحس به سواه ولا يعلم هو بوجود غيره ، وبتقييد الأدب يتوارثه جيل عن جيل ، ويزداد تراثه باطراد ، بعد أن كان فى عهد بداوته سريعاً إلى التلاشى فى ضباب النسيان ، لايكاد يذكر منه جيل عن أجداده إلا القليل المحرف غير المستيقن

لحين تتحضر الأمة وتتثقف ، يصبح شعرها فنيا ويظهر بجانبه النثر الفنى ؛ على أن هذا يستغرق زمناً ، ولا يجىء الفن إلا متأخراً عن الصناعة وعن العلم . فالانسان يعمد دائماً إلى الضرورى ، حتى إذا ماقضى منه وطره تحول إلى الفن ، أو تحولت الصناعة ذات الغرض المادى إلى فن لا غرض له خارجاً عن ذاته ، وهكذا ينشأ التصوير

والنحت والعمارة والنثر جميعاً ، تكون فى أول أمرها صناعات تخدم أغراضاً مادية وتسد حاجات الانسان ، من اتخاذ المسكن وزينته وتدوين المهم من الأحكام والمواعظ والأخبار ثم العلوم ، فاذا ما اطرد سلم الرقى تخلص الفن من تلك الأغراض الخارجية وصار غرضا فى نفسه ومتعة فى ذاته ، وتعبيراً عن الشعور خالصاً ، وعبادة للجمال منزهة .

إذا مادخل الأدب هذا الطور الفنى ، صارت الصنعة الفنية فيه أظهر والتجويد أوضح ، وليس يخلو الشعر حتى فى بداوته من صنعة ومعالجة وتجويد ، وبغير هذه لا يتصور له وجود ولا اتساق انتظام ؛ بيد أن الأديب فى الطور الفنى يصبح أكثر بصراً بتجويد اللفظ وتنسيق الأسلوب وتجميل المعنى ، لما يمتاز به دون شاعر البداوة من ترفه المعيشة ورقة الذوق وسعة القراءة ، والاطلاع على الآثار الأدبية والقواعد والآراء ، فكلما أمعن الأدب فى طوره هذا زاد الأدباء لألفاظهم تخيراً وتسهيلا ، ولأساليبهم تقسيما وتذليلا ، ولمعانيهم استقصاء وتوضيحاً

وتزداد موضوعات الأدب اتساعاً وبعداً عن أسباب الحياة الشخصية الحاضرة ، وتحليقاً فى عنان الفكر وأجواز الخيال وآفاق الماضى والمستقبل : فعلى حين يكون أكثر ماينظم من شعر البداوة نتيجة حادث طارئ أو خاطر عابر ، يتوفر الأديب فى الطور الفنى على تقصى غايات التفكير ، إرضاء لنزعة التأمل والتفكير فى ذاتها ، وعلى توخى مناحى الفن حبا للفن وحده ، ويمسى الأديب ويصبح ولا هم له إلا استقصاء حقائق الحس والمشاهدة وتصويرها فى أدبه ، وتكثر فى الشعر والنثر آثار التأمل الطويل والوصف الفنى

وإذا ماتكاثرت الآثار المتجمعة بالتدوين جيلا بعد جيل ، وزخر التراث الأدبى بما تجود به قرائح الأدباء من فيض ، إذا انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب كما يقول الطائى ، وكثر نظر الأدباء فيها واستظهارهم لها واحتذاؤهم إياها ، لم يعدموا أن ينتبهوا إلى شواهد فيها تتكرر ، وحقائق تتماثل ، وجزئيات تندرج تحت كليات ، فاستخلصوا من كل ذلك قواعد يجعلونها نصب أعينهم فى الانشاء ، ثم يحتفى بعضهم بجمعها وتبويبها والاستكثار من أمثلتها ، فتكون من ذلك علوم المعانى والبيان والبديع ، وكتب النقد والموازنة والتحليل ، وبرغم أن الفن سليقة والأدب ملكة لا اكتساب ، والشعر طبع لا تطبع ، فان تلك العلوم وهاتيك الكتب المستحدثة تترك أثرها فى تقويم السلائق ، وتوجيه الملكات وتحسين البصر بالأدب وأسبابه ، وجمع أشتاته ولم أطرافه ، ولا يستأثر النثر بهذا التبصر فى الادب ، بل ينظم الشعراء القصيد فى مزايا الشعر وأطواره وأحوال الشعراء .

ومن ذلك التراث الأدبى الزاخر يكتسب الأدب شيئاً آخر : يكتسب على ممر الأجيال لغة أدبية خاصة ، وألفاظا خاصة للشعر وأخرى للنثر ، قد صقلها الاستعمال الطويل ورفعها استخدام كبار الأدباء إياها إلى مرتبة عالية ، وارتبطت بمعان سامية ، مما يجعلها أهلا لمـا ينزع إلى تصويره الأدباء من عواطف رفيعة ، فيصير للشعر والنثر من كل ذلك لغة خاصة متسامية على لغة العصر المستعملة فى الكلام ، الممتازة بسهولتها وإسفافها أحيانا ، وتطورها المستمر بتطور الحضارة المادية ؛ وتظل لغة الشعر والنثر الخاصة تلك فى ازدياد كلما أضاف إليها أقطاب الأدب ألفاظا من اختراعهم أو اشتقاقهم أو مما يرفعونه بعبقرياتهم من لغة العامة ، أو يقتطفونه من لغات الأمم الأخرى ، وتتوارث فى الأدب بجانب ذلك تعابير خاصة جارية ومجازات وأخيلة وأمثال ، يموت بعضها تدريجا ويحيا بعض ، ويزداد بمرور الزمان صقلا واتساعا

هذا الطور الفنى لا شك طور نضج الأدب وبلوغه أشده : فيه يجمع بين حرارة الشعور وعمق الفكرة ، وبين طرافة الموضوع وجودة الأسلوب ، وفيه يتخلص من أقذاء المـادية وشوائب الصناعات ، وفى هذا الطور لا فى طور البداوة يظهر أكبر أدبائه وفحولة شعرائه ؛ وما يزال الأدب فى رقيه المطرد ، وترائه فى ازدياده المستمر ، مادامت فى الأمة فورة الحياة وصدق الشعور وصحة النظرة ، فاذا خمدت النفوس وزاغت النظرات ، انقلب الفن صناعة ، والحرية قيودا ، وتمسك الأدباء بالقشور دون اللباب ، وبالألفاظ دون الحقائق

كان أدب الجزيرة العربية فى الجاهلية وصدر من الإسلام بدويا : الشعر قوامه والبساطة سمته والقريب الحاضر من شؤون الحياة مادته ، محدود المواضيع ، غير متسق الأسلوب ولا منظم الأفكار ولا ظاهرا لوحدة فى القصيدة . وقد استعاض العرب عن التدوين بالراوية : يروى أشعار كل فحل ناشئ يقوم له مقام الديوان المخطوط ، ويقوم الشاعر من راويته مقام الاستاذ يبصره بالشعر ووجوه القول ؛ وبطريقة الرواية هـذه حفظ من شعر العرب شيء كثير ، وبها ترعرعت الصناعة الشعرية حتى بلغت فى هذا العصر مبلغا من التقدم يعتد به ، وصارت لها تقاليد خاصة فى الأوضاع والمعانى والألفاظ ، كتصريع البيت الأول من القصيدة وتقديم النسيب فى مستهلها ، تتجلى كل هـذه الميزات فى المعلقات ، التى يتحدث صاحب كل معلقة منها فى نفس القصيدة ، عن أحبابه وشرابه ، وحربه وأسفاره ، وحكمته وآدابه وقبيلته وعزها وهلم جرا

وبازدياد حظ العرب من الرفاهة والتثقف والتهذب ، ازداد

الشعر تهذيب لفظ واتساق أسلوب ، كما يتمثل فى شعر ابن أبى ربيعة وجميل ؛ وظهر النثر يستخدم أولا فى تدوين العلوم ورسائل الأمراء وإجراءات الحكومة ، ثم مازال حتى استحال على أيدى ابن المقفع والجاحظ والبديع ، فنا يتطلب الجمال اللفظى والمعنوى ويتوخى نواحى الفن ومذاهب التفكير بعيدة عن النفع المادى والغرض الحاضر . وبلغ الشعر الغاية من الصناعة الفنية والحلاوة اللفظية ، والتقسيم الموضوعى ، والتقصى فى المعانى ، والتفنن فى الوصف . على أيدى أبى نواس وأبى تمام وابن المعتز وابن الرومى وغيرهم ؛ وهؤلاء وأضرابهم هم لاشك فحولة شعراء العربية ، وإن ظل كثير من الأدباء لنزعتهم من المحافظة يقدمون امرأ القيس وأصحابه من الجاهليين . وظهرت كتب النقد وعلوم البلاغة ، ونظم الشعراء القصيد فى إطراء فنهم ، ودبجوا أشعارهم بالتشبيهات والأمثال يحتفون بطلبها ويكاثرون بعرضها ، كقول الطائى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقد سئل بشار فيما قيل : بم فقت أهل عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ فأجاب : بأنى لم أقبل كل ماتورده على قريحتى ، ويناجينى به طبعى ، ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت إليها بفكر جيد وغريزة قوية ، فأحكمت سبرها وانتقيت حرها ، وكشفت عن حقائقها واحترزت عن متكلفها . فهذا قول اديب صناع يروض المعانى والألفاظ ، ويعرف خطر التروى وإعمال الفكر ، ولا يرسل القول على عواهنه ، ولا يطمئن إلى الارتجال الذى كان شيمة الجاهليين . ومن امثلة التدقيق فى انتقاء الألفاظ ونقدها ومراعاة تناسب حروفها ومخارجها أيضا ، أن ابن المعتز عاب على أبى تمام تكرار كلمة « أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء ، وهما معاً من حروف الحلق ، وذلك فى قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا مالمته لمته وحدى

هكذا يجرى تاريخ أدب كل أمة : يبدأ بطور اولى ، الأدب فيه ظاهر البداوة ، يليه طور فنى تابع لتحضر الأمة وأخذها بأسباب الكتابة والعلم ، وقد استطال الطور الأول فى العربية وغزر ما حفظ من آثاره لظروف خاصة ، وإن يكن الكثير مما اثر من ذلك موضع الشك . أما الأدب الانجليزى فلا يحتوى تاريخه على آثار ذات بال تمت إلى الطور الأول المتبدى ، إلا أساطير وشذوراً اتخذها الأدب فيما بعد مادة لسبحاته الفنية ، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الصحيح بعصر اليزابيث الذى كانت الأمة فيه قد تشربت ثقافة اللاتين والاغريق ، واقتبست كثيراً من حضارة أوربا ، وخمدت فيها الفتن واستتب السلام فى ظل آل تيودور . ومن ذلك العصر يبدأ الطور الفنى للأدب الانجليزى وهو طور تاريخه تاريخ رقى مطرد للأدب فى الأشكال والمواضيع والافكار والاساليب ، وتخلص مستمر من شوائب الصناعة وتجرد تام فى عالم الفن الصحيح . والأدب الانجليزى فى هذا كله يمثل التطور الطبيعى المعقول لكل أدب : جرى الشعر إلى غاياته وتلاه النثر ، وتوسعت جوانب كل منهما تدريجا ، وتعددت مجالاته وتميزت أشكاله وتبينت أغراضه

تهيأت لكلا الأدبين العربى والانجليزى أسباب الدخول فى الطور الفنى . فازدهرت الحضارة وذاعت العلوم ودونت الكتب وانتشرت الرفاهية وتوفر الوقت للعمل الفنى المتصل ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد شوطا فى مضمار الفن الخالص ، وأكثر تجرداً من شوائب الصناعة والمادة التى تلازم الادب أو الفنون عامة فى بداءتها ، إذ أحاطت بالأدب العربى ظروف حالت بينه وبين التخلص من جميع هاتيك الشوائب ، فجاء الأدب الانجليزى أكثر فنية فى الموضوع وفى الأسلوب

ففى الموضوع احتوى الأدب الانجليزى من تصوير الطبيعة وسير الأبطال وخرافات الماضين وأوصاف الرحلات وآثار الفنون الأخرى كالتصوير ، مايفيض جمالا وتنسم منه نسمات الفن الخالص والفكر البعيد والانسانية الشاملة ، وكل هاتيك مواضيع لم يولها الأدب العربى مكانة أولى ، وفى الأسلوب توفر الأدباء الانجليز على استخدام اللفظ قدر المستطاع لأداء المعنى وتصوير المنظر ، مستعينين بجرس اللفظ ونغم الوزن فى النظم ، فى حين اهتم أدباء العربية للفظ فى ذاته لا على كونه مجرد وسيلة للمعنى ، وظهرت الوحدة الفنية أو الفكرة الجامعة فى القصيدة وفى المقالة وغيرهما من أشكال الأدب فى الانجليزية ، على حين ظلت القصيدة فى العربية وإن أصبحت أكثر تقسيما وأجود ترتيباً مما كانت عليه من قبل ، عديمة الوحدة مختلطة الأجزاء ، تثب من قريب إلى بعيد ومن نسيب إلى مديح ، ومن مديح للغير إلى فخر بالنفس ، ومن فخر إلى شكوى

ولم يتخلص الأدب العربى من شبهات الصناعة واسر المادى قط : إذ ظل أكثر الشعراء والكتاب يخدمون الأمراء ويتوخون مواقع رضاهم . وليس يخرج الأدب من حيز الصنعة إلى عالم الفن الحر مادام ذا غرض خارج نفسه . وذلك مالم ينكره أدباء العربية أنفسهم ، فظلوا يسمون الأدب صنعة أو حرفة أو آلة ، وكان النقاد يوازنون بينها وبين صناعة المغنين ، ويقول ابن

رشيق فى تعليقه على حكاية شاعر مدح علوياً ثائراً فدفنه المنصور حياً : إن ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقته ، إذ ما للشاعر وللزج بنفسه فى أمثال تلك المآزق وإنما هو « طالب فضل » ؟

واحتفى أدباء العربية بالألفاظ احتفاء متزايداً : فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما إليها فى الشعر والنثر معا ، حتى بدا اللفظ منافسا للمعنى مزاحماً له على انتباه القارىء وفهمه ، بل صارت له فى النهاية المكانة الأولى ، وتضاءل المعنى بين يديه واختفى ، وأصبحت همة الأدباء موجهة لا إلى الغوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور . بل إلى اقتناص شوارد الكلم وبارع النكات اللفظية ، فعيسى بن هشام مثلا يقول إنه كان يطوف البلدان « وقصاراى لفظة شرود أصيدها ، وكلمة بليغة أستزيدها » وعيسى بن هشام أيضا يعيب على الجاحظ أنه « قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ » .

وإنما قصر بالأدب العربى عن غايات الفن المطلق ، ماقيد به من اتصال بالأمراء ، وما أرهق به من تقليد للقديم : أدخلت الأولى فيه التكلف والصنعة ، وأبقت فيه غرضا خارجا عن نفسه وصرفت الثانية همه إلى اللفظ البليغ والعبارة الطنانة ، التى تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار فحولها المتقدمين ؛ ويتجلى الفرق بين مدى الأدب الانجليزى من الفنية الخالصة ، ومدى الأدب العربى منها ، من موازنة حياة الفن الخالص- والتأمل الدائب ، والمعالجة المستمرة لاشكال الادب ومواضيعه ، والطرق المتكرر لمذاهبه ومناحيه ، التى كان يحياها وردزورث وشلى وتنيسون مثلا ، وبين حياة البحترى والطائى والمتنبى المتصلة أوثق اتصال بالامراء ومنادمتهم وتملقهم ، كان الأولون كأنهم كهنة الفن المنقطعون إلى آلهته فى محاريبه المقدسة المصونة ، وكان الأخيرون يعيشون فى جلبة البلاطات وضجة المحافل والمواكب

فالادب الانجليزى بعد أن توفرت له أسباب الحضارة والثقافة والتدوين والفراغ ، التى لابد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه ، توفرت له أيضا مزيتا الاستقلال بنفسه عن إرادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التى لاتقلد الماضى ولا تقف عند حدوده وبهاتين المزيتين إلى تلك الاسباب تجمعت للأدب الانجليزى كل وسائل التطور الطبيعى وبلوغ آماد الفن الخالص ؛ أما الادب العربى فأعوزته هاتان الميزتان ، فقعد به إعوازهما فى مجال الفن ، وأبقى به بعض شوائب الصناعة ، ومن ثم أمكن القول بأن الادب الانجليزى بلغ طور الفن ، أما الأدب العربى فى جملته فظل أقرب إلى الصناعة الفنية ؟

فخرى أبو السعود

الجباية فى الاسلام [1]

للأستاذ فارس بك الخورى
أستاذ علم المالية والمرافعات المدنية
ورئيس المجلس النيابى السورى

استندت الجباية عند العرب على الأسس الآتية :

١ — على القواعد المستنبطة من الكتاب والسنة ؛

٢ — على ما استنه الخلفاء الراشدون ؛

٣ — على ما أخذوه عن الدول التى غلبوها على أمرها

فلم تكن أموال الدولة فى أيام الرسول سوى الغنائم يخرجون خمسها للنبى وأهل بيته ويقتسمون الباقى بين المسلمين . وكانت الخزينة فى عهده قائمة على ما يجتمع لديه من الصدقات والزكوات من ماشية ونقود وحبوب وعروض يتصرف بها فى وجوه المصلحة العامة . ثم عند ما اتسع أمر الاسلام عمد إلى وضع الخراج . فجعل على سكان جزيرة العرب من المسلمين خراج مقاسمة على حاصلات أرضهم من العشر إلى نصف العشر بحسب درجة الأرض من الخصب ونصيبها من الرى ، فكانت أرض الجزيرة بتمامها عشرية ماعدا خيبر فقد صالح يهودها على نصف حاصلات أرضهم . وكان يسم الماشية العائدة لبيت المال بميسم خاص ويتولى ذلك بنفسه ؛ وبلغت هذه الماشية فى عهده نحو أربعين ألفاً . وبقى خمس الأفياء يعطى لأهل البيت حتى تولى الخلافة عمر بن الخطاب فعين الرواتب لمستحقيها من أهل البيت ومن القائمين بخدمة الخليفة من الحاشية والبطانة وأجراها عليهم شهراً بشهر ، ورد الأخماس على بيت المال لتقسم على المسلمين

وعند ما توسع الفتح الاسلامى واستولى المسلمون على بلاد الروم والفرس فى العراق والشام اختلف زعماء العرب فى الخطة الواجب اتباعها باستحواز الأرض و « العلوج » الذين عليها ، فاراد قوم من الصحابة وزعماء العرب أن يقتسموا

---

(١) فصل من كتاب « علم المالية » يقوم بطبعه ونشره « مكتب النشر العربى بدمشق »

الأرضين التي يفتحونها غنيمة بينهم ويكون لكل منهم نصيبه منها مع من عليها من السكان فيبقى السكان اقناناً أى ارقاء ملحقين بالأرض يباعون معها وينتقلون بانتقالها . فقال عمر : فكيف بمن يأتى بعدكم من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت بمن عليها وحيزت ارثاً عن الآباء؟ ماهذا برأى . فقال عبد الرحمن ابن عوف : فما الرأى اذن ؟ ما الأرض والعلوج الا مما أفاء الله على المسلمين . قال عمر : اذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فبماذا تسد الثغور وما يكون للذرية ؟. وما زالوا به حتى جمع ندوة من المهاجرين والانصار قوامها عشرون رجلا من أهل الحنكة والعقل واستشارهم فى الأمر وقال لهم : سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا انى اظلمهم حقوقهم وانى أعوذ بالله ان اركب ظلماً ؛ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت انه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله واخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت ان أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم ؟ فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ فقالوا جميعاً : الرأى رأيك فنعما قلت وما رأيت ، ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ولم تجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم . وكان عثمان وعلى وطلحة بين القائلين بقول عمر . فقال : من لى برجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم ذلك فان له بصراً وعقلا وتجربة . فولاه مساحة أرض السواد من العراق فمسح سواد الكوفة وجباه مائة مليون درهم ، وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج الى المسلمين . قال أبو يوسف القاضى : ان الذى رآه عمر من ترك الأرض فى أيدى أصحابها وفرض الخراج عليها هو توفيق من الله فيه الخيرة لجميع المسلمين ؛ ولو لم يفعل ذلك لما شحنت الثغور وقويت الجيوش على السير فى الجهاد

وفى عهده وضعت القاعدة القائلة ، ايما دار من دور الأعاجم ظهر عليها الامام وتركها فى أيدى أهلها فهى أرض خراج ؛ وان قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر . وكل أرض من أراضى الأعاجم صالح الامام أهلها عليها وجعلهم ذمة فهى أرض خراج ، فضرب على الأرض الخراجية مالا مقطوعاً يستأداه أصحابها العاملون بها فى حالتى الخصب والجدب ؛ وجعل هذا الخراج يختلف باختلاف خصب الأرض وأسلوب الرى والقرب من المدن الحافلة بما فى ذلك من العون على كثرة الاستغلال وبيع الغلة ؛ وجعل العشر فى الأراضى العشرية على ما يشرب من ماء المطر ونصف العشر على ما يسقى بالدلو ، وجباه على ما يبقى فى أيدى الناس من الغلة الأرضية كالحبوب ووضعه أى رفعه عما لا يبقى كالبطيخ والخضر ، كما وضعه عن المسلمين فى البلاد التى فتحها وأقطعهم اياها ، وقال ليس على المسلمين عشر وانما العشر على اليهود والنصارى . وقال : يامعشر العرب احمدوا الله الذى وضع عنكم العشور . فهو أول من مسح الأرض ودون الدواوين ووضع أصول الجباية ورقم الداخل إلى بيت المال والخارج منه . وهو الذى رتب الجزية على الرجال من غير المسلمين وكلف غنيهم بثمانية وأربعين درهماً ، ومتوسطهم بأربعة وعشرين ، وفقيرهم باثنى عشر فى السنة ، وقال : درهم فى الشهر لا يعوز أحداً . وجعل المعادن لمخرجها على أن يؤخذ منه خمس المستخرج لبيت المال ؛ وكذلك ما يخرج من البحر من حلية وعنبر . وهو الذى وضع أكثر القواعد المالية فلم يجرؤ من جاء بعده على مخالفتها ، فبقى جانب عظيم منها نافذاً فى عهد الأمويين والعباسيين واستمر بعضها حتى الزمن الحاضر .

كانت منابع بيت المال فى عهد الخلفاء الراشدين منها المقرر ومنها الطارىء ؛ فالمقرر هو الخراج والعشر والصدقات والجزية ، والطارىء هو العشور والغنائم والافياء والاموال المستخرجة

من العمال وعوائد المصادرة وأمثال ذلك . فالخراج هو ما كان يوضع على الأرض التى استولى عليها المسلمون وتركوها فى أيدى أهلها ملكا لهم ، فكانوا يجعلونه أحياناً خراجا موظفاً ثابتاً كما جرى فى سواد العراق ، وأحياناً خراج مقاسمة . وبقيت ضياع البطارقة والأمراء المنهزمين ملكا لبيت المال يقبلها العمال ويستثمرونها لحساب الخزينة العامة . والعشر هو الحصة الشائعة المضروبة على حاصلات الأرض التى أسلم أهلها عليها من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن ، أو ملكها المسلمون عنوة من قوم لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان والمجوس ؛ ومثلها الارض التى احتازها المسلمون وقسموها بين الغانمين

والصدقات هى ما يعطيه المسلمون من أموالهم المنقولة ومكاسبهم ؛ وكانت فى الغالب بمعدل واحد فى الأربعين أى ربع العشر ؛ وتجبى على الأكثر من الماشية ، فكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين يجبون الصدقات ويردونها على بيت المال لتصرف فى مصالح الخلافة . ولعل هذا الاساس بقى معتمداً عليه فى الاسلام وتجلى فى عهد الخلافة العثمانية بأموال الاغنام والسائمة التى مازالت إلى اليوم تجبى على هذه النسبة نفسها

توسعت منابع الجباية بعد ذلك فتناولت مطارح أخرى من ذلك المكوس (الجمارك) التى كانوا يسمونها العشور لانها كانت تؤخذ بمعدل واحد من العشرة ، وأول ظهورها فى الاسلام على عهد عمر بن الخطاب عند ما كتب إليه أبو موسى الاشعرى عامله فى العراق يستشيره بما يأخذه الاجانب من تجار المسلمين الذين يدخلون بلادهم لبيع بضاعتهم ، فكتب إليه عمر أن خذ أنت منهم كما يأخذون من تجارنا ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين ربع العشر بقدر الزكاة المفروضة عليهم . فانتشرت قاعدة التعشير فى ثغور المسلمين وحدودهم واستمرت طول أيام دولتهم .

ليس لدينا إحصاء يعرف منه ما كان يدخل لبيت المال فى عهد الراشدين من الخراج أو العشور أو الزكوات أو الاخماس وغيرها من منابع الخزينة ، وجل ما نعلمه من هذه الجهة أن الدخول كانت جسيمة جداً وجميعها تنفق فى المصالح العامة ولا يختزن شىء منها . قدم أبو هريرة على عمر بمال من البحرين فقال له عمر : مامعك؟ قال: « خمسمائة ألف درهم » . فدهش عمر لكثرته وقال له : « أتدرى ماتقول ؟ » قال « نعم مئة ألف خمس مرات » فصعد المنبر وقال: « أيها الناس جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عداً » ، وهذا مثال على دهشة العرب بوفرة الاموال التى كانت ترد عليهم من فتوحاتهم ذهباً وفضة وعلى الاسراع فى توزيعها بين المسلمين . وكان أبو بكر وعلى لا يقلان عن عمر فى الزهد بالمال وتقسيمه بين الناس بالعدل

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالنقود الكسروية والرومية من الدراهم والدنانير وبقى هذا حالهم إلى عهد عمر فضرب الدرهم وجعل وزنه من الفضة أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال العشرين ، فكانت كل عشرة دراهم من دراهمه تزن سبعة مثاقيل ؛ ثم ضرب دراهم أخرى جعل وزن الواحد منها اثنى عشر قيراطاً . وكان يضربها على نقش الدراهم الكسروية ويزيد فى بعضها عبارات اسلامية كعبارة التوحيد أو عبارة الحمدلة . وضرب بعده عثمان دراهم نقش عليها عبارة التكبير . وحذا الخلفاء والامراء حذوهما فضربوا الدراهم والدنانير بعبارات وأوزان مختلفة . وكان أعظم الذين ضربوا النقود معاوية وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك وغيرهم . وانما كان عبد الملك بن مروان أول من ضرب الدنانير الاسلامية الصرفة بدون نقوش كسروية ، فكان وزن ديناره يتراوح من أربعة غرامات وخمس الغرام إلى أربعة غرامات وثلثى الغرام ، فهو بذلك يقارب نصف الجنيه الانكليزى الذى وزنه أربعة غرامات وربع الغرام من الذهب . وأما الدرهم الفضى فكان وزنه أقل من ثلاثة غرامات ، وأكثر عبد الملك من ضرب هذه النقود العربية فى أيامه فى الشام ومصر والعراق ، وانتشر استعمالها فاستغنى العرب بها عن نقود الروم والفرس ، وصار للعرب نقود خاصة بدولتهم تم بها استقلالها المالى

فارس الخورى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

ديباجة الكتاب

أهديتُ الى الأديب الكبير الأستاذ (خليل مردم بك) مائة نقلة من (نقل [١] الأديب) فأعطانى — وهو السخىّ السرىّ — هذه اللؤلؤة العُمَانية أو الكلمة المردمية

كالروض مؤتلقاً بحمرة نَوره ،
وبياض زهرته ، وخضرة عشبه
وكأنها ـ والسمع معقود بها ـ
شخصُ الحبيب بدا لعين محبه [٢]

بل هى فوق القول البحترى ووصفه « أفسحرٌ هذا ، أم هو كلام روحانى ؟! »

قال (الخليل) — وقوله ديباجة الكتاب [٣] — :

« كنت أحسب أنّ هدية الأستاذ (نقل) كاسمها فاذا هى سحرٌ وخمرٌ ونقل ؛ وذلك أن عنوانها يستدرج القارىء ويوهمه أنه نقل فكه ليس غير ، وهذا لعمرى أول أبواب السحر ، فاذا جاز هذا الباب (أو جازت عليه تلك الحيلة) وجد نفسه فى روضة فردوسيّة بين أقداح ونقل ؛ فالنقلة تغرى بالقدح ، والقدح يستدعى النقلة ، وهكذا دواليك حتى تستخفهُ نشوة الطرب وتتلاعب بنفسه ولبه :

سقونى وقالوا : لا تغنّ ، ولو سقوا
جبال حنين ما سقونى لغنّتِ

فياليت شعرى كيف يستجيز من حرّم الصهباء على نفسه أن يغوىَ الناس بالخمر ، ويفتنهم بالسحر ؟ »

***

١ — هذا بلاغ للناس

سئل على بن عيسى الرمانى فقيل له : لكل كتاب ترجمة [١] فما ترجمة كتاب الله ؟

فقال : « هذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِينذَرُوا بِهِ »

٢ — النيل

الأندلسى :

ما أعجبَ النيل ، ما أحلى شمائله !
فى ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فيّاض على ترع
تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا
وانما هى أرزاق وأرباح

٣ — بقية السحر فى مصر

ابن المغربى :

أيا ساكنى مصر ، غدا النيل جاركم
فاكسبكم تلك الحلاوة فى الشعر
وكان بتلك الأرض سحر وما بقى
سوى أثر يبدو على النظم والنثر

٤ — الهرمان نهداها

الشهاب الحجازى :

يا هرمى مصر لقد حسّنتما
رباها
عروس حسن قد غدت
وأنتما نهداها

٥ — مراتب الكلام

أبو هلال العسكرى فى (الصناعتين) :

لكل مقام مقال ، وربما غلب سوء الرأى وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقى والمملوك والأعجمى بألفاظ أهل نجد ومعانى أهل السَّراة [٢] ؛ لأن العامى اذا كلمته

---

(١) النقل ما يتنقل (أو يتنقل) به على الشراب وهو بضم النون (أو فتحها) وتسكين القاف كما فى اللسان والأساس ، وبفتح النون والقاف كما فى الجمهرة . وضم النون وتسكين القاف « هو الذى اقتصر عليه الجوهرى واشتهر على ألسنة العامة » كما فى التاج

(٢) البحترى

(٣) ديباجة الكتاب : خطبته ، فاتحته ، مقدمته

(١) يريد بترجمة الكتاب العنوان الذى يفسر مقصده، وترجمة الكتاب فاتحته

(٢) السراة جبل بناحية الطائف . قال ابن السكيت : الطود المشرف على

بكلام العِلْيَة سخر منك ، وزرى عليك كما روى عن بعضهم انه قال لبعض العامة : بِمَ كنتم تنتقلون البارحة ؟ (يعنى على النبيذ)

فقال : بالحمالين . . .

ولو قال له : أى شىء كان نقلكم لسلم من سخريته . فيجب أن يخاطب كل فريق بما يعرفون ، ويتجنب ما يجهلون

٦ — فى هذا مرة وفى هذا مرة

عن أبى بكرة : كنت عند النبى (صلوات الله عليه) وعنده أعرابى ينشده الشعر . فقلت : يا رسول الله ، أشعرا أم قرآنا ؟

فقال : فى هذا مرة ، وفى هذا مرة . . .

٧ — ظرف الدهر

فى تاريخ بغداد لابن الخطيب : حدث النضر بن حديد قال : كنا فى مجلس وفيه أبو العتاهية والعباس بن الأحنف وبكر بن النطاح ومنصور النمرى والعتابى ، فقالوا لمنصور : أنشدنا ؛ فأنشدمدائح الرشيد ؛ فقال أبو العتاهية لابن الأحنف : طرِّفنا بملحك (١) فأنشد أبياته :

تعلمت ألوان الرضا خوف عتبه   وعلمه حبى له كيف يغضب
ولى غير وجه قد عرفت مكانه   ولكن بلا قلب إلى أين أذهب؟

فقال أبو العتاهية : الجيوب من هذا الشعر على خطر ، ولا سيما إن سنح بين حلق ووتر . فقال بكر : قد حضرنى شى فى هذا فأنشد :

أرانا معشر الشعراء قوماً   بألسننا تنعمت القلوب
إذا انبعثت قرائحنا أتينا   بألفاظ تشق لها الجيوب

فقال العتابى :

ولا سيما إذا ما هيجتها   بنان قد تجيب وتستجيب (٢)

قال النضر : فما زلت معهم فى سرور . وبلغ اسحق الموصلى خبرنا فقال : اجتماع هؤلاء ظَرف الدهر

٨ — أمسلم هو ؟

فى (لسان الميزان) : مما يذكر من سرعة جواب المتنى وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن خنزابة وفيه أبو على الآمدى الأديب المشهور فأنشد المتنبى أبياتاً جاء فيها :

إنما التهنآت للأكفاء

فقال أبو على : التهنئة مصدر ، والمصدر لا يجمع . فقال المتنى لآخر بجنبه : أمسلم هو ؟

فقال سبحان الله ! هذا أستاذ الجماعة أبو على الآمدى

قال : فاذا صلى المسلم وتشهد أليس يقول : (التحيات)

قال : فخجل أبو على وقام

٩ — لا ندعه يبرد

قيل لأعرابى : ما تسمون المرق ؟

قال : السخين

قال : فاذا برد ؟

قال : لا ندعه يبرد

١٠ — هل رأيت أحدا يهب ولده

قال جحظة : قال على بن الجهم لخالد الكاتب : هبْ لى بيتك الذى تقول فيه

ليت ما أصبح من رقة (م) خديك بقلبك

فقال : يا جاهل هل رأيت أحداً يهب ولده ؟ !

١١ — لئلا يرى فى عينها منة الكحل

أبو النصر الزورنى :

ولا أقبل الدنيا جميعاً بمنة   ولا أشترى عز المراتب بالذل
وأعشق كحلاء المدامع خلقة   لئلا يرى فى عينها منة الكحل

١٢ — وهوميروس عند الجمهور

فى (الكلم الروحانية) : سئل ديوجانس عن أشعر اليونانيين فقال : كل واحد عند نفسه ، وهوميروس عند الجمهور

محمد اسعاف النشاشيبى

عرفة بنقاد إلى صنما . يقال له السراة فاوله سراة ثقيف ثم سراة فهم وعدوان ثم الازد ثم الحرة آخر ذلك

(١) الذى فى كتب اللغة مثل اللسان والتاج اطرفته كذا ، ولطرف معان أخر فيها

(٢) سيما قد تخفف

الديمقراطية

تساوى الفرص لا تساوى الأنصبة

للأستاذ أديب عباسي

ليس بين مسائل الاجتماع ما يسىء جمهور الناس فهمه ويخطئون دلالته كما يسيئون معنى الديمقراطية الصحيح فى مختلف مناحيها ونواحى تطبيقها على شؤون الحياة والاجتماع. فهى فى رأى قوم تحلل من قيود الاجتماع وخروج على كل عرف وعادة؛ وعند قوم غيرهم هى قسمة عادلة وملك مشاع لكل ما بيد الناس من متاع تالد ومال طريف؛ وعند فئة أخرى لا يكاد يعدو معنى الديمقراطية نطاق السياسة ومجال الحكومة، بل هذا المعنى الأخير للديمقراطية يكاد اليوم يطغى على كل معنى سواه، وذلك لكثرة ما يحمل محامل السياسة ويورد مواردها العديدة فى هذه الأيام.

أما أن الديمقراطية بمعناها الأعم ودلالتها الأدق ليست على الحصر هذا ولا ذاك مما مر، فشىء يحتاج إلى بعض البسط والبيان؛ فليست الديمقراطية انطلاق النفوس على سجاياها فلا قيود تراعى ولا حدود تلتزم، ولا هى تعنى تسليط النوكى والكسالى على جهد المجدين فينالون منه ويصيبون مثل ما يصيب المجد بالعرق الصبيب والجهد الدؤوب؛ ولا هى تحصر فى نطاق السياسة الضيق وإن وسعته الجرائد وضخمه الساسة. ليست الديمقراطية بمعناها الأدق أمراً من هذه الأمور، وإنما هى بدلالتها الصحيحة ومعناها العام تيسير على الناس وتهيئة لهم ليقفوا من فرص الحياة المتاحة موقفاً عادلا فيشتركوا شركة متساوية فى هذه الفرص المتاحة لا فى الأنصبة المحققة ونتائج الجهد المبذول.

وبعبارة أخرى تكون الديمقراطية ديمقراطية المثل الاعلى اذا انصرفت الى تهيئة الأسباب وتيسير السبل التى تجعل كل فرد من أفراد الأمة ينال على قدر استعداده وكفايته من فرص النجاح ووسائل التوفيق. واذا شبهنا الحياة بميدان للسباق فالديمقراطية الصحيحة أن ينطلق المتبارون من نقطة واحدة بعد أن يعدوا إعداداً عادلا لهذا السباق، لا أن يكبل البعض أو يحجز عن السباق أو يترك بلا اعداد ثم يحاسب على تخلفه ويلام على ابطائه!

وإذاً فالديمقراطية الصادقة هي ديمقراطية التيسير على الناس لاظهار كفاياتهم واقتدارهم الموهوب والمكسوب. وكل ما يؤدى إلى هذه النتيجة الأخيرة فهو فى صميم الديمقراطية الحق، وكل ما يؤدى الى عكسها فليس من الديمقراطية فى شىء. وفيما يلى شرح لوسائل تيسير الديمقراطية على النحو الذى عرفناها به.

وفى أول هذه الوسائل بل أولها أن يعم التعليم وينتظم التثقيف جميع أفراد الأمة، ثم يسار فيه على نهج واضح من الاختصاص والإفراد. وعموم التعليم يجىء فى أول وسائل الديمقراطية لأن عصرنا هذا عصر العلم والسرعة والاقتصاد، لا نجاح فيه مضمون إلا لمن توسل للنجاح فيه بوسائل من علم يتقن أو فن يكتسب. والأوربيون على أتم الادراك لهذه الحقيقة فتراهم لا يألون جهداً ولا يدخرون وسعاً فى تعميم التعليم وتيسيره بحيث ينتظم جميع أفراد الأمة ويصيب كل منه على قدر استعداده وكفايته. وهم يبالغون ويشددون فى هذا التعميم والتيسير فلا يكتفون أن يعدوا وسائل العلم والتثقيف ويتركوا أمر اكتسابها لاختيار الجمهور وهوى الأفراد، بل تراهم يفرضون العلم والثقافة فرضاً على جميع أفراد الأمة فلا يستطيع أحد أن يستمر على أمية أو يمضى فى جهل حتى لو أراده. والاوربيون بعد لا يكتفون بأن يعمموا التعليم ويفرضوه على جميع الافراد، بل تراهم ينوعون العلم ويعددون فروع الاختصاص حتى يصيب كل فرد من العلم ووسائل النجاح ما يتلاءم وكفاياته الخاصة ومواهبه الموروثة. وهذا هو الذى من أجله تفتح الجامعات ودور الفن الخاصة حيث يستطيع كل فرد أن ينال من العلم والفن كَمّا وكيفاً خيرَ ما يستطاع نيله. على أن حرص ذوى الشأن هناك على استغلال كفايات الأفراد أحسن استغلال لا يدعهم يتركون الأفراد وهواهم واختيارهم لما يشاءون من العلم والفن

بل تراهم فى كثير من الأحوال يتدخلون فى حرية الأفراد ويحددون اختيارهم ويربطون بنوع أبرز كفاياتهم ، فترى المربين وعلماء النفس يتوسلون باختبارات الذكاء العام والخاص ، ليدركوا مبلغ قابلية الفرد للعلم وليدركوا فى أى نواحى المعرفة والمهارة يستطيع أن يجيد ويبرز نسبياً أو إطلاقا ، ثم يدفعونه فى ناحية أبرز كفاياته ، فتكون النتيجة خيراً له ولقومه

ولا يكتفى أولو الشأن هناك بأعداد الفرد أحسن الاعداد وتزويده بأحسن زاد من العلم والخبرة ، بل تراهم يزيلون من طريقه الكثير من العثرات والعقبات المصطنعة غير الطبيعية ؛ فلا مذهب سياسى ولا عقيدة دينية ولا منزلة اجتماعية ولا نفوذ شخصى يمعط فرداً فرصة من النجاح لا تؤهله لها كفاياته على وجه الدقة أو التقريب . هذا ولسنا نزعم أن جميع الدول الأوربية بلغت من فهم الديمقراطية وتطبيقها هذا المبلغ ، وانما الذى نزعمه أن معظم هذه الدول الأوروبية تفهم الديمقراطية هذا الفهم ويسعى مخلصا لتطبيقها ، ومن هذه الدول من بلغت شأواً بعيداً فى التطبيق .

ولا يقف الأوربيون من تحقيق الديمقراطية عند هذا الحد الذى شرحنا ، بل تراهم يبذلون قصارى الجهد ليهيئوا لجميع أفراد الشعب جواً روحياً متقارباً لا فى دور التعليم وحسب ، بل فى كل مرحلة أخرى من مراحل الحياة . فترى الحكومات الأوروبية تبذل الجهود الكبيرة والأموال الوفيرة لانشاء الحدائق العامة ودور التمثيل والسينما والمكتبات العامة وخلافها من المؤسسات الاجتماعية الروحية ، فلا يكون ميسوراً لافراد دون أفراد سبيل الاستمتاع بما تيسره هذه المؤسسات من متع روحية غالية .

ويدرك الأوربيون العلاقة الوثيقة بين صحة الجسم وبين صحة الفهم وجودة الانتاج ، فترى الحكومات والجماعات غير الحكومية تبذل أقصى الجهد لانشاء الأطفال نشأة صحيحة سليمة ، ولا نزعم هنا أنهم بلغوا المثل الأعلى فى هذا الشأن وانما نزعم أنهم ساروا شوطاً بعيداً فى تحقيق هذا المثل ولا زالوا يسعون ليصلوا نهاية الأمد .

هذا ومعظم الدول الأوربية تسعى للمباعدة بين الأفراد وبين روح الاتكال ، وللضن بيذل الجهد أركاناً إلى ثروة تُورَّث أو مال يأتى عن غير طريق السعى والعمل ، فتراها تقتطع لنفسها من أموال الأرث مبالغ طائلة ، فتقلل بذلك من روح الاتكال فى الأفراد الوارثين ، وتبذل هذا المال المقتطع فى تيسير الكثير من أسباب الثقافة والاستمتاع والصحة لمن تعوزه إليها الوسيلة

وليس هذا كل ما يفضى إليه فهم الديمقراطية وتطبيقها على النحو الذى أبنا فى أول هذا المقال ، فمما لا ريب فيه أن الديمقراطية التى تفهم هذا الفهم وتطبق هذا التطبيق تكون الوسيلة التى ليس فوقها وسيلة لتحسين أنواع الانتاج المختلفة كما وكيفاً ، ولبث روح الرضى والاطمئنان فى نفوس الجمهور إذ ليس فى الحق أبعث على الرضى فى نفوس الأفراد من شعورهم بأنهم يعملون فى أحسن ما أُعدُّوا له من عمل ، وأن الحكومة والهيئة الاجتماعية قد أعدتا لهم أحسن الوسائل الحسية والفكرية والروحية لتوجيه كفاياتهم فى خير وجهاتها ثم الانتفاع من هذه الكفايات بإبرازها قوية واضحة أحسن الانتفاع

أديب عباسى



تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ (*)

لمندوب الرسالة

أتينا فى الرسالة (١٩٥) على خلاصة ماقيل فى اليوم الاول من أسبوع الجاحظ الذى قامت به كلية الآداب، وقد كان هذا غاية ما أدركته الرسالة وهى تحت الطبع، ونعود فنقدم إلى قرائنا إجمال ماقيل فى الأيام التى تعاقبت بعد ذلك

اليوم الثانى

كان القول فى هذا اليوم للأستاذين: أمين الخولى، وعبدالوهاب حمودة، وكان على الأول أن يقول فى منهج التفكير عند الجاحظ، وكان على الثانى أن يقول فى أسلوب الجاحظ

وقد ابتدأ الأستاذ الخولى كلامه فقال: يقتضينا منهج البحث والتفكير - ونحن نتكلم عن منهج الجاحظ فى التفكير أن نعرف هل كان الجاحظ يقول بالمعرفة أم كان سوفسطائياً، لأنه كان يقول بالشيء وضده. والحق أنه كان يقول بالمعرفة وينتهجها، وله فى ذلك من الآثار كتاب المعرفة وكتاب الجوابات وغيرهامن الكتب التى لم تصلنا، إلا أن موضوعاتها تدل على أن الرجل كان من القائلين بالمعرفة. قال الأستاذ: وطريق المعرفة عند الجاحظ للحواس والعقل على اتهام للحواس واطمئنان للعقل، ولا شك أن الجاحظ كان له فى الدين والأدب والحيوان وكثير من النواحى، وكان له فى كل ناحية من هذه منهج تفكير ينتهجه، فهل كان فى كل منهج منها على حظ واحد من الاجادة ودرجة متفقة فى السير؟ إننا نرى أنه كان فى كل مناهج تفكيره متكلما أكثر منه أى شيء آخر، فقد كان الرجل من علماء الكلام، وكان يتخذ الكلام صناعة وتلك كانت شنشنة المعتزلة فإنهم أهل جدل وكلام ومناظرة، وقد أخذ الجاحظ منهجهم واحتذاهم، وقد أمعن فى ذلك حتى طغى منهجه الكلامى على تفكيره الأدبى. فكان يحفل بالجدل ويعنى باختلافات القوم يسردها وينقدها. ثم عرض لمذهب الرجل فى الصدق والكذب وقال: أنه كان يحتج للشيء وضده تطبيقاً على رأيه فى الصدق!!

وتكلم على منهجه فى الرواية فاورد كلامه فى كتاب الحيوان عن اصطناع الكتب ثم قال: ومنهج الجاحظ فى ذلك مبنى على العيان والخبر، ولكنه ينقد ماوصل إليه من الأخبار ويرده إلى اليقين العقلى كما انتقد الخطبة المنسوبة لمعاوية (١)..

وأتى بعد ذلك على منهجه النظرى فقال: إنه كان يحترم العقل ولكنه مع ذلك لا يرى أنه يكفى لسعادة الناس فى دينهم ودنياهم؛ ثم هو يحترم أشياء قد جاءت على غير النهج العقلى وإنما هى نظرية سماعية كخلق عيسى وحواء وغير ذلك. وكان يرى أن الشرع انما جاء حاداً للعقل. وكان الجاحظ يشك فلسفيا ولكنه شك المتكلم يكتفى بالظواهر والمظاهر لأنه يعتد بعقله ويحترمه

قال: وكان الجاحظ يأخذ بالمنهج التجريبى ولكن منهجه فى ذلك كان ناقصا؛ ثم عرض لنظريته فى المشابهة بين الانسان والقرد، وقارن ذلك بنظرية « دارون » ليظهر الفرق بين التجربة الناقصه والتجربة الكاملة الممحصة. وضاق الوقت عن أن يتكلم الأستاذ فى منهج الجاحظ الفنى فاعتذر وقد ختم كلامه بقوله: إن منهجنا فى تكريم الجاحظ منهج ناقص، لأن آثار الرجل لم تصلنا كاملة، فلعلنا نعمل على اخراج آثاره للناس، فبذلك نكون قد كرمنا الجاحظ حقا وذكرناه وانتفعنا به

وقام من بعده الأستاذ حمودة فقال: إن أسلوب الجاحظ مرآة نفسه وحسه، وصورة عقله ومزاجه، وقد عرف الجاحظ فى أسلوبه بخصائص لم يسبق اليها، منها: مزج الفكاهة بالجد، والبرهان المقنع بالتهكم الموجع، وسبب ذلك دمامة شكله، فإن أهل الدمامة قوم تشيع فيهم الدعابة؛ واستدل على ذلك بما كان من حافظ وإمام العبد ونظير وأضرابهم. ثم تطرق الى دعابة الجاحظ فى شيء من البسط والإفاضة ثم قال: وكان الجاحظ يتخذ التهكم أسلوبا من أساليب النقد والاقناع، ورسالة التربيع والتدوير نمط من ذلك، وبعد أن قرأ الأستاذ فقرات من هذه الرسالة قال: وكثير من المتأدبين يحسبون أن ابن زيدون هو أول من اتخذ الأسلوب التهكمى فى رسالته الهزلية

(*) سمعنا أن كلية الآداب قررت طبع هذه المحاضرات فى كتاب خاص كما قررت من قبل ذلك طبع محاضراتها فى المتنبى، ولذلك لم تعط نسخها للصحف

(١) هذه الخطبة فى البيان والتبيين وقد قال الجاحظ إنها بخطب الامام على أشبه

الى ابن عبد وس، وانما هو تلميذ الجاحظ فى ذلك ، على أنفه أشبه بالهجاء وأبعد من التهكم والسخر

ثم وازن بين الجاحظ وبين ابن المقفع فقال : ان ابن المقفع حكيم يستمد حكمته من نفسه ؛ فتجربة الدنيا هى التى كانت تملى عليه ما يكتب ، ولكن الجاحظ كان ينهج نهج من درس خطابة أرسطو فتأثر بها الى حد بعيد (١) ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو ما عرف عند البديعين بالمذهب الكلامى ؛ وقد كان الجاحظ أول من قال بهذا المذهب واستخدمه وأنكر وجوده فى القرآن وتابعه ابن المعتز ورد عليه ابن أبى الأصبع ... قال وانما أخذ الجاحظ ذلك من كتاب الخطابة لأرسطو . وهناك دلالة قوية تدل على أن الجاحظ قد انتفع بكتاب الخطابة ، ولكن هناك يعترضنا سؤال وهو أن الجاحظ قد أنكر أن لليونانيين خطابة ، والجواب : أن الجاحظ حينما قال ذلك قاله وهو يرد على الشعوبية الذين كانوا يقولون إن الخطابة عند كل الأمم. تنقصا للعرب ، فموقف الرد هو الذى ألجأه الى ذلك الانكار . والجواب الثانى أنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونانيين ، والثالث أنه انتقد التراجم والمترجمين لليونانية وانتقد على الخصوص ، كتاب المنطق بأنه قرأه فى أسلوب سقيم مترجم !!

فالجاحظ لا شك قد تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو كثيراً ومنطقه ، وليس كتاب البيان والتبيين الا صدى لذلك الكتاب . وكان الجاحظ على طريقة أهل الخطابة يستخدم التمثيل اذا أحوجه الدليل وأعوزته الحجة ؛ ومن ذلك ما كان فى رسالته تفضيل السودان على البيضان . . . ثم قال : ومن خصائص الجاحظ : قصر الفقرات والازدواج ، وتعمد السجع دون أن يتكلفه ، وكذلك الافتنان فى الأسلوب ، والتنقل، والاستطراد ، والتقصى للمعنى حتى لا يترك فيه بقية . أما الخصائص التى يشركه فيها غيره ، فالسهولة والسجع وما الى ذلك من خصائص الكتابة الشائعة فى ذلك العصر .

وبعد ، فاسلوب الجاحظ نتاج عقله وفكره أكثر منه نتاجا لروحه وعاطفته ؛ هذا فى رسائله العامة ، أما فى كتاباته الخاصة فقد كان يقصد الى التنميق والتزويق ، ويحفل بالديباجة المشرقة ، ويعتد بالشواهد والأمثال يقحمها فى ثنايا كلامه

(١) نخالف الأستاذ الفاضل فى هذا الرأى ونعتقد أن ابن المقفع أكثر تأثرا من الجاحظ بالثقافة الفارسية واليونانية ، وقد كانت كل حكمته أو جلها من ذلك المعين

اليوم الثالث

وفى اليوم الثالث تكلم الأديبان شوقى ضيف وعبد اللطيف حمزة ؛ فتكلم الأول عن الجاحظ بين النقد والبلاغة فقال : لقد كانت مكانة الجاحظ فى ذلك كمكانة أرسطو فى الخطابة عند اليونانيين ، وكان الجاحظ لا يكتب للخاصة فكان يعرف أن كتاباته فى حاجة شديدة إلى التوابل لتقريبها لأذهان الجمهور

ثم قال : والنقد لم يبدأ كفن إلا فى العصر الأموى ؛ وقد كانت الشعوبية هى أول حافز على النقد لأنها كانت حركة هدامة تشك فى كل شئ ، وكانت تشك فى بلاغة الأدب العربى ، والشك فى بلاغة الأدب العربى شك فى بلاغة القرآن !

ثم جاءت بعد ذلك بيئة الأدباء واللغويين فى المربد وغيره من أندية الثقافة فأدوا كثيراً فى خدمة النقد والبلاغة ، وقد اتصل الجاحظ بكل هذه البيئات وأخذ عنهم . ونحن يصعب علينا أن نحدد ما للرجل فى ذلك وأن نميز أقواله من الأقوال التى اقتبسها

ومهما يكن من شىء فالجاحظ قد فصل الأدب عن الأخلاق وروى كثيرا من الأدب العارى . وكان يطلب من الكتاب أن يتثقفوا ولكنه لم يطلب من الشعراء ذلك . والحق أن الجاحظ كان ناقدا ممتازا ، وكانت له طبيعة فى ذلك ؛ وكان حر الرأى فلم يقدم القديم لقدمه ، ولم يرفض الحديث لحداثته . وكان عربيا ولكنه كان يحترم شعراء الشعوبية ويقدمهم فمدح بشارا وأبا نواس وأمثالهم . ولقد كان الجاحظ بآرائه حرياً بان يخلق من حوله حركة أدبية حافلة لو أن النقاد تابعوه ، ولكنهم انصرفوا عن ذلك واكتفوا بنقد النصوص نقدا لفظياً نحوياً ولغوياً

وليس كتاب البيان والتبيين فيما أرى صدى لخطابة أرسطو (١) وأنا لا أشك فى أن الجاحظ لم يره ، وما ذكره

(١) هو هنا يرد على الأستاذ حوفة ولكنه لم يمس حجته بالتفنيد

ابن النديم لا يفيد ذلك ، وإن كان العرب قد وقفوا على شيء من الثقافة اليونانية والجاحظ لم يكن من رجال المنطق . وقد عابه قدامة بانه لم يذكر أقسام البيان !!

وقد أثرت أراء الجاحظ فيمن جاء بعده (١) ، ولعل أهم هذه الأراء مسألة اللفظ والمعنى ، وقد أطال الجاحظ القول فى هذه المسألة وهى عنده قبل كل شيء مسألة دينية لاتصالها ببلاغة القرآن . وقد أسقط الجاحظ قيمة المعنى وجعل اللفظ هو كل شيء ؛ وقال إن المعانى مطروحة فى الطريق لكل الناس يلتقطها العامى وغيره . وقد فتن العلماء بعد الجاحظ بهذا الرأى ووافقوه عليه . وقلما نجد فيهم واحدا اهتم بالمعنى والبحث فيه ، بل إنهم أسقطوا المعنى ولم يروا له فضلا (٢) !!

ومن بعد ذلك أخذ الأديب عبد اللطيف حمزة فى الكلام عن « الجاحظ المعتزلى » فابتدأ القول فى نشأة الاعتزال ، فعرض لحركة الحسن البصرى فى مسجد البصرة وما كان بينه وبين واصل ، ثم قال : ومضت الدولة الأموية ، وأتت من بعدها العباسية ، وجاء الفرس بمزاياهم وبلاياهم ، وأقول بلاياهم لأنهم جاؤوا بالالحاد والزندقة ورفعوا لواء الشعوبية ، ولاشك أن المعتزلة هم الذين استطاعوا أن يردوا هجمات الفرس وأن يكبتوا الشعوبيين لأنهم تدرعوا لذلك بالنقل والعقل والفلسفة والكلام ، فكان المعتزلة قوة كبيرة تجاه الزنادقة والملاحدة .

وبعـد أن أورد الأصول المعتبرة عند المعتزلة وشرحها وحدد العلاقة بينها وبين غيرها من الفرق قال : وكان للمعتزلة مدرستان ، واحدة فى البصرة ، والأخرى بالكوفة ، وقد كان من أقطاب الأولى النظام ثم تلميذه الجاحظ ، وكان المعتزلة على مقتضى تعاليمهم يتوارثون حرية الفكر ، فهم ولا شك جماعة أحرار الفكر كما يسميهم المستشرقون . وكان يطلق على كل اتباع رجل منهم اسم هذا الرجل فيقال النظامية لاتباع النظام ، والجاحظية لاتباع الجاحظ ، ولقد كان لهم بحكم مهمتهم فى كل ناحية من نواحى الفكر ، فكانت حركتهم - كما يقول

(١) أنظر تجد الأستاذ قد ناقض نفسه فبينا يقول إن النقاد لم يتابعوا الجاحظ عاد يقول ان أراءه قد أثرت فيمن جاء بعده وهذا الرأى هو منها

(٢) الظاهر أن الأستاذ قد تأثر كثيرا مما كتبه الدكتور طه فى مقدمة نقد النثر ، والواقع أن قضية اللفظ والمعنى كانت من القضايا التى طال فيها جدال النقاد ، فاعتد بعضهم باللفظ واعتد بعضهم بالمعنى واعتد بعضهم بالاثنين معاً

الأستاذ أحمد أمين - إرهاصاً لحركة فلسفية منظمة تولاها الكندى والفارابى وابن سينا وأشكالهم .

ولقد أخذ الجاحظ عن المعتزلة جميع مزاياهم ، وكان بوقاً عظيما لآرائهم يذيعها فى الناس ويشرحها وقد ينتقدها ، ثم أشار إلى آثاره فى ذلك فقال : إن أكثر رسائله قد ضاعت فى أجواء العصور الخالية ، وقد وصلنا بعض نصوص تدلنا على أن الجاحظ كسائر المعتزلة يطعن على أهل الحديث الحشويين . وله رسالة فى مدح النبى ورسالة فى الاحتجاج للنبوة ، ورسائل أخرى فى الرد على اليهود والنصارى والرافضة وقد كانوا أعدى أعداء المعتزلة . ثم له رسالة فى فضيلة المعتزلة رد عليها ابن الراوندى برسـالة سماها فضيحة المعتزلة وهى التى عنى بدحضها ابن الخياط فى الانتصار

ولكن مهما قيل فى الجاحظ المعتزلى وأخذه بحرية الرأى لابد أن يكون له نظر فى حرية الارادة وهى مسألة المسائل بين علماء الكلام ومبعث الخلاف بين الفرق المختلفة ، وقـد كان الجاحظ كما عرفنا معتزليا شديد الاخلاص لفرقته . وأكبر الظن أن الرجل قد وجد حلا لهذه المسألة فى نظرية الطبيعيات . والظاهر أن الجاحظ قد طبق هذه النظرية على العالم الاخروى ، وقد حمله هـذا على الكلام فى مسالة المعارف أو المدركات على أن مسألة الطبيعيات لم تكن من ابتداع الجاحظ ولكنه شرحها وبسطها وطبقها ، وإنما هى لاستاذه النظام ؛ وقد جاءت هذه النظرية عند بعض الفرق الاخرى ، حتى نظرية العوارف التى أشرنا إليها قـد انتهج الجاحظ فيها نهج أرسطو ، فالمظاهر التى يتجلى فيها اعتزال الجاحظ تبدو فى تعصبه للمعتزلة والدفاع عن آرائهم والاشادة بفضلهم ، وخصوصاً بفضل أستاذه النظام ، ثم فى الاشياء التى عرف بها وخاصة رأيه فى حرية الارادة ، وأخذه بحرية الفكر إلى أبعد حد ، فإن الدولة كانت لاتشجع على حرية الرأى لغير المعتزلة (١) ، ومن ثم نعرف أن الجاحظ لم يضف كثيرا لآراء المعتزلة ؛ ولكنه تولاها بالشرح والاذاعة .

(البقية فى العدد القادم) م . ف . ع

(١) الذي نعرفه أن حرية الرأى كانت مكفولة لكل إنسان حتى وسعت ابن الراوندى فى مباذله وصحافاته ، وقد كان رجلا متقلبا يرتزق من الطعن فى الأديان وأهل الفرق . وكان يبيت مع اليهود ويصبح فى جانب النصارى

جولات فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثـــة

للأستاذ خليل هنداوى

النظرية الفنية للعقل - الرمزية

بينا أخذ المذهب الطبيعي يضمحل ثم ينتصر بعض أعوام فى القصة . كان مذهب جديد ينذر قرنه فى عالم الشعر والفن . هذا هو مذهب شعراء وفنانين كانوا يزعمون أنهم لايعلون الأدب كله ولكن تأثيره أخذ يمتد ، وحدوده بدأت تتسع ، حتى أصبح مذهب العقل والحياة الباطنة ، يؤثر فى كل أشكال الفن ، ويعمل فى كل حقول الفن . هذا مذهب « الرمزية » الذى نبتت أصوله عند الشاعر « بودلير » وكان تأثير « بودلير » آخذاً فى الانتشار . ومن يجحد ماكان لبودلير من تأثير فى شعراء « الرمزية » ولا سيما فى الشعر الحديث الذى تهيمن عليه نفحات « بودلير » . وهذه الرمزية الخفية تولدت من آثار « فرلين » ومن آثار « رامبو »

بول فرلين PAUL - VERLAINE

إحساس فرلين ، خياله ، فنه ، تطوره (١)

احساس فرلين

لم يكن لفرلين خاصة معلومة من خواص العقل ، لأن حياته لم تكد تقاد بتأملات عقله وإنما بغرائزه وإحساسه ، ولم تكن لغرائزه من حاجة ولا غاية ، وإنما هو الكسل والاخلاد إلى الدعة وطلب اللذائذ التى شغلته حتى لقى حتفه متسمما بالكحول . أما احساسه فلم يكن عميقاً ولم يكن معقداً . فبيناهو ينظم أبياتاً عاطفية على المذهب الوجدانى إذا به ينكر الهوى والتشاؤم العاطفى . ولم يكن يتحرى عن السمو فيما ينشده وكان يجهل الدركات التى تنحط فيها الانسانية فى شدتها وفاقتها . يحب الحب ويترنم بالحب . وإذا لم ينشد اللذة البسيطة فهو لم ينشد أيضاً حب الأهواء . إن جد كان حلماً ، والغوانى اللواتى أحبهن كن أقرب إلى الأوهام . وهذه الأوهام كانت عنده ظلالا وأشباحا . أحلامه هى قلق خفيف يتولد من طفولته ، وإحساسه احساس بسيط سرعان مايسأم . يلبس حينا رداء الصدق وحينا رداء الكذب . فيه حياة وإبهام . وقد يكون أوجه وسطا لو لم تدم به المخيلة والفن

مخيلة فرلين

إن المخيلة الكلاسيكية والرومانتيكية هى التعبير عن المعانى بصور فهمها العقل وحللها ، ويقدر على تحليلها . أما مخيلة « فرلين » فقد كانت مخيلة صافية ، أى أنها كانت تأسرها الصورة دون أن تجرب أن تفهم معنى الصورة . والشاعر يحس أن الصورة لها معنى وأنها تعبير عن حالة فى النفس . ولكن هذا التعبير ماهو إلا « مطابقة لها » إذ يصعب عليه أن يعبر عنها تعبيراً منطقيا . وهكذا تغدو المخيلة المحدودة بالمعايير المنطقية مخيلة تائهة شاردة . والاهواء الشاردة - عند فرلين - لاتغدو قاعدة أو مذهبا أدبيا . فان مخيلته الصبيانية تملك على أحلام صافية تعبر عن صور صافية . وتملك على أحلام أخرى يهيمن عليها نوع من النطق المشوش . وأحلام تلتحم مع افكار صافية لتضيعها ثم لتجدها . وهكذا يبدو على أسلوبه الخيالى سيماء الأسلوب المدرسى ، والأسلوب المتفكك . وليس لهذه المخيلة من قاعدة إلا الهوى والاختيار الباطنى . هذا هو مذهب فرلين ! إحساس متحرك صبيانى يلتقى بسرعة مع مخيلة سريعة الالتقاط للأحلام المتبدلة . إذ يرى واجبه أن يعبر عن هذه الرسالات السرية المحسوسة بشدة وحدة . وهى تربط هذه الحركة بهذه الأوهام . وهذه الانعكاسات بهذه الأشباح ، يغمرها كلها ظلمة لايمشى فيها نور . لأن روحه الشقية وعبقريته يجدان فيها الراحة والحياة . وقد دأب فرلين على التأمل فى الفن المدرسى وأصحاب هذا الفن ، ذاهبا متحريا عن الفن الذى يستطيع أن يعبر عن نفسه لنفسه ، ويخاطب نفسه به نفسه

فن فرلين

إن فرلين لم يبتكر كل شىء فقد تحرى شعراء قبله فى أوقات مختلفة عن هذا الفن الرقيق ، وفرلين نفسه لم يجحد ما كان « لبودلير ومدام دبيبور دفالمور » من تأثير فيه . كما أنه تأثر بشعراء من الانجليز ، تلاهم ودرسهم يوم كان فى انجلترا . على أن بودلير ومن ذهب مذهبه كانوا يحاولون أن يقرأهم الناس ويفهموهم . وكانوا - فى الساعات التى تتكاثف معانيهم - يصونون الوضوح فى التعبير والتركيب والنحو . أما فرلين فقد ذهب غير هذا المذهب إذ أراد أن يكون إنشاؤه خفيا ، وأراد أن يضع حجابا على لغته وأوزانه التى تعبر عن حالات نفسه الخفية ، وبهذا تراه - من أجل غايته هذه - خرق كثيراً من القواعد . فانت ترى بعض عباراته

(١) سبق لنا فصل عن « فرلين » نشر فى الرسالة

تقارب وتلاحق - غنية عن عناء المنطق - بنغمة باطنية من الهوى الذى يغمرها . وحركتها لاتكون إلا إيقاعاً موسيقياً لايجد فيها الاعراب أسباب جملة صحيحة . وإنما هى جمل موسيقية لا جمل منطقية ! على أن عبقرية «فرلين» تتجلى فى أنه عمل على إيجاد أوزان باطنية موسيقية للتعبير عن خطرات النفس الباطنة تحل محل الأوزان الظاهرة وقد كانت عاطفته فى ذاك دقيقة مرهفة ، وذوقه عميقا فى انتقاء الألحان الملائمة المنسجمة التى تعبر عن المعانى ، وإنك لتجد شعره - سواء كان صافيا أو مبهما - يبدو كأنه يتجرد من كل معنى . وينتهى من وصوله إلى العقل حتى ينسكب فى رعشات أحاسسنا الرقيقة

تطور فرلين

لقد كان « فرلين » من بدء حياته الشعرية هدفا لأطوار متباينة ، ولقد يكون انتقاله من طريق المذاهب المدرسية أقل حركة لو لم يتصل « بالشاعر رامبو » الذى كان تاثيره فيه تأثيراً عميقا . وقد اتصل به فرلين اتصالا وثيقا طوال سبعة عشر عاما . وهو الذى أوحى إليه بأن يزدرى هذه الحياة « العاقلة » والفن « العاقل » وهذه التأثيرات الرثة . وقد عكف « فرلين » على شرب الكحول حتى أرعشت قوته ، وطوت فتوته ، فانتابته الفاقة والشقاء والموت وأصبحت عبقريته الشعرية لاترسل إلا شعاعا . وأصبحت طريقته الموسيقية ، من عهد إلى عهد - تمتمة ضيقة الانفاس

أرتور رامبو

نشأ « رامبو » نشأة شعرية ، وكتب مقاطيع مختلفة على أساليب مختلفة . وقد حذا حذو « ليكونت دى ليل وبودلير وفرلين قبيل عام ١٨٧٠ ولكن آثاره كانت تطغى عليها مخيلة محمومة ملتهبة تدفعه دائما إلى المجهول . وسرعان ماتلاشى عنده وجود العالم الحقيق حتى أمسى عالما لمظاهر باطلة . إن الاحساس الحقيق هو هو إحساس ابن صدفته وابن حادثه ... هو الحجر المطروح فى الماء ،

أما ماهو أكثر اعتباراً فهو تلك الرعشات المترجرجة فى الينبوع . هنالك حيث يبصر العقل العادى - على شاطئ قناة مظللة مصنعا للخمر ، يؤكد لنا « رامبو » بأنه يجد على ضفة نهر لامع معبداً ! هذه الأوهام هى حقيقة الوجود . « وماعسى يغدو الوجود إذا خرجت منه ؟ » إنه فى هذا الوجود لغربة طبيعية ، فى هذا الوجود الحقيق وحده لايبقى للنطق المعهود إلا العمل . أما السحر الباطنى فله طرائقه التى لاتفهم ، ولكن الانسان يحسها ويتبعها بطريقة خفية وحاجة خفية كما هو الحال فى أجزاء خاتم غير متطابقة نراها طبيعية ضرورية . وإذا أردت الدخول فى عالم الشعر فلا تطلب ذلك العالم البالى السائم الكاذب محاولا أن تعبر عن عالم الظواهر العملية ، وإنما يجب أن تغادر هذا العالم وتفر منه إلى عالم جديد . فيه تتفتح الحقيقة الشعرية والاحلام الحية ... وقد وجد « رامبو » أن اللغة العادية عاجزة كل العجز عن التعبير عن هذه الحقيقة الوهمية ، فعمل على تنقيحها تنقيحاً فنيا ، فافترض لكل مقطع لونا وحركة ، وعمل لكل فعل معنى من معانى الشعر . وبذا تلونت الكلمات وأصبح لها أوقاع خاصة ... والكلمة عنده أصبحت تتألف من ألحان يجب أن ينظر فى توقيعها الموسيقى لا فى معناها ، وهكذا أخذ شعر « رامبو » ينزاح من زمن إلى زمن عن تأثير الصور الواضحة والمنطق ، وأخذ يغدو كجوقة موسيقية للحلم الباطنى بفصل أصوات « كلماته ورناتها .

المدرسة الرمزية(١)

نشأت مدرسة جديدة بتأثير « فرلين » و « رامبو » وفلسفة « شوبنهاور » وهذه المدرسة الجديدة اتخذت لها الرمزية اسما . وحقيقة أمر هذه المدرسة أنها نشأت ناقة على الشعر التقليدى عاملة على خلق شعر جديد . أما تعاليم هذه المدرسة فليست من الوضوح والترابط على شىء . وإذا شئنا أن نحلل معنى « الرمز » كما أرادوه لايصل بنا ذلك إلا إلى كلام لايغنى ! وإنما يفهم هذا الرمز ، ويفسر معناه العميق الحى من خلال آثار هذه المدرسة ونصوصها

وأما مذهبها العام فهو أن الشعر إنما هو تعبير عن الاحساس لا عن عقل الشاعر . وهو يتجه إلى إحساس القارىء . الشاعر يعروه إحساس ما فيعبر عنه بلغة عقله فيدركه القارىء بلغة عقله بعد أن يكلف إحساسه بالاهتزاز ! وفى هذه الأطوار نرى « التأثر » قد تغير وضعف وانعدم . إن الشعر الحقيق ينبغى أن يكون اشتراكا مباشراً لاحساس مع إحساس . إذ يجب ألا يتوقف على عرضه والتحدث عنه وإنما يتوقف على « التلقين والايحاء » كالوتر يرن باللحن الذى يعطيه .. ويقول فى هذا المعرض الشاعر « هنرى دى رينيى » « إن الشعر أصبح يهجر أسماله الخطابية القديمة التى ارتداها طويلا . أصبح لايحلل شيئا وإنما يلقن ويوحى .... » . ويقول مالارمى « إن تسميتك للشىء تذهب بثلاثة أرباع ارتياح الشاعر ، وذلك الارتياح الناشىء عن طربه بالتنبؤ عن الشىء قليلا قليلا ، إن التلقين هو الحلم »

(١) سبق لنا فصل عن المدرسة الرمزية نشر فى الرسالة

ولكى يدركوا هذه الغاية ولدوا طرائق مختلفة ، ففروا من الأشياء الواضحة ، أو أنهم لم يبحثوا عنها ، لأن جل الأحاسيس الشعرية فى زعمهم مشوشة مغمغمة بالصور المبهمة والأحاسيس التى لايمكن التعبير عنها بجلاء إلا بعناء . ويقول « أناطول فرانس » « لا شعر بلا معنى خفى » فمهنة الشاعر أن يتغلغل فى هذه العوالم الخفية والاسرار المحجوبة ، فيقرب هذه الخفقات الحية وهذه المعانى المبهمة . ويقول « دوهامل » فى معرض كلامه عن « بول كلودل » : « اذا كان كلودل خفياً مكتوماً فذاك لأن أبواب المواضيع التى يلجها انما تعبر عن سر كبير هائل » ؛ ولأجل التعبير عن هذه المعانى الخفية والأسرار المكتومة ذهب الشاعر إلى توليد الرموز ؛ وليس الرمز فى التشبيه والمجاز ، إذا مر التشبيه والمجاز من العقل الذى يولدهما ويقبلهما ، وانما الرمز هو تلك الصورة أو جملة صور متابعة آخذ بعضها بأعناق بعض يحس الانسان مباشرة أو يحس ولا يدرى سبب إحساسه بأن هذه الصور لا تترجم عن شىء ولكنها تعبر — أو بعبارة أوضح تنطوى على الفكرة . والتأثير الشعرى كالزهرة التى تفسر الغرسة التى هى منها وهى لا تشبهها .

ثم يغدو هذا الشعر الخفى الرمزى موسيقياً ، وقد كان تأثير الموسيقى فى الشعراء كبيراً فى فرنسا . ولبثت الموسيقى تعد فناً بين الفنون حتى عام ١٨٨٥ ، فالموسيقى تستطيع أن تستمد من الشعر ، كما أن الموسيقى يغترف من معين وحى الشاعر . ولكنها لم تسيطر على بقية الفنون ، ولكنها غدت فى ذلك التاريخ الفن العتيد الذى يشرف على كل الفنون . ولقد طغت موسيقى « فاجنر » الجرمانى على النوادى الادبية . وهدت كثيرين من اتباعها إلى القدرة على التعبير الرمزى فى الموسيقى . ومن ذلك الحين طفق الشعراء يعملون على ابتكار فن يؤثر رنين الألفاظ فيه تأثير الموسيقى دون أن يفتقر إلى العقل ليترجم معانيها ، أرادوا أن يجعلوا من الشعر رقية ، وهو لا يرتل ولكنه يرقى . . . واذا تلوته يغدو موسيقياً .

وقد قال « كلودل » فى مقدمته لآثار « رامبو » ملخصاً مذهبه « بكلمات لا ينبغى أن تتحرى عن معانيها وانما تقنع بتلقينها الصامت ، إذ قيمة اللغة — عندنا — فيما تشير اليه أكثر منها فيما تعبر عنه تعبيراً واضحاً . فالكلمات العرضية التى ترقى إلى العقل ، وترديد جملة دائمة قد تؤلف شيئاً من الرقية ، ولكنها تنتهى دائماً بتجميد الشعور . وظل الاشياء يقع رأساً على مخيلتنا ثم يأخذ يدور حول نفسه .

وقامت تجربة أخرى هى تجربة « الشعر الحر » فان الشعر الفرنسى برغم ثورة الرومانتيقيين فقد ظل يرسف فى قيوده وأوزانه ، فعمل البعض من الرمزيين على الانطلاق والتحرر منها لاسيما الشاعر « غوستاف كاهن » . . . المذهب الوحيد هو الموسيقى الباطنة ، والتعبير الرومانتيقى كان نوعا من هذه الموسيقى . . . وهنالك أنواع أخرى موسيقية يبتكرها التوليد وتخلقها النفس المستوحية .

مثلان من شعراء المدرسة الرمزية

هنرى دى رينى HENRI DE RÉGNIER

لم يكن « هنرى دى رينى » شاعرا رمزيا إلا لأنه عاش فى زمن الحركة الرمزية . ورويدا رويدا عاد إلى شعر فيه الروح المدرسية والبرناسية . وبذلك اختلط عليه الأمر وكان فى كثير من مقاطيعه فاضحاً للمعانى الرمزية .

نفس الشاعر تنطلق بكآبتها نحو حلم ، حلم قصيدة من قصائد الرعاة حيث تجتمع أفراح الحواس والقلب والفن وتمتزج فى رقة ناعمة صافية . حلم موطن بعيد يعج بالاشكال الالهية والافراح الشاعة ولذائذ الحياة . ولكن النفس الانسانية نفس قلقة مضطربة والانسان ابتكر الفكر والعلم والهوى والخطيئة . أراد أن يبدل الحياة وأن يستعيدها . فتحرى عن حقائقها المكتومة فى مظاهرها . وعن بقائها فى فنائها ، وعن هم المستقبل فى طرب الحاضر . وهذه تجربة عميقة مبتذلة أوحت إلى كثير من الشعراء . والشاعر المدرسى عبر عن هذه الخطرات بأسلوب واضح وأفكار منطقية . ولكن فى طبيعة هذا الحلم الباطنى اضطرابات وتموجات يحس بها قبل أن يبدأ العقل عمله .

فالحلم ينسل بين أمواج الخيالات الباطلة والقلق الراهن ، وعواصف الحياة الحقيقية ترفعه من هذه الاضطرابات المفاجئة وتحيطه بظلال سوداء تنزلق . وليس فى هذا مطابقات ، لأن هذه الخيالات انما تصاغ بتاملات مركبة تركيباً سيئاً . وهكذا يظل المقطع — بدون انقطاع — مشوشاً يتجاذب الخيال الشعرى والعقل الشعرى ، والصورة والرمز ، ثم يغدو الشاعر كجنية سكرى بالحياة الناعمة الخالية من الفكر ، والانسان يغدو صديقاً كئيباً لعيون الاحلام والعلم ، وليس من الضرورة أن يتناوب هذان الصوتان ، فقد يتعالى الصوت الواحد ممتزجاً بصدى مظلم ضجر يمل الصوت الآخر .

إننا لا نقدر أن نعرف هل يتركب الشعر من أحلام مزوقة ملفقة ، أو من أخيلة الماضى والذكريات ؟ إن ما نراه فى مقاطيع الشاعر كائنات غير مثبتة ، ليس لها أسماء ولا أوطان ، لا هى أرضية لاهى سماوية ، هى بعض كائنات ، هى عابرات راحلات غريبات ، ظلال ، وجنيات ، لا ندرى هل زوقها الشاعر بحياة الأحلام أو

بالحياة التى قضاها ، ذلك ما لا ندريه ولا يدريه الشاعر . الشعر الرمزى يتولد من هذا الاهتزاز الغير المحسوس ويتم عمله حيث لا تلفيق ولا حقيقة ، ولكن حقيقة ملفقة واحدة هى ابنة الحلم الباطنى

على أن هذا الشعر الرمزى فى كثير من الاحيان يتخذ له طريقة التعبير المدرسى . وإذا كان تعبيره يظل مائعاً ، وفكرته تبق فكرة تلقين متحركة هادئة فان الصورة تخرج شيئاً فشيئاً من الضباب الرمزى لكى تتوقع بأشكال موجزة رقيقة ، ولوحات جميلة ، قصور تتألف من ضباب . وحدائق تغرس من أحلام ، حيث يخيل الينا أن يداً مفكرة شالت تماثيل من رخام وأوانى من البرونز وطاقة من الزهر . ووردة واحدة ساطعة خافقة .

جول لافورج JULE LAFORGUE

يختلف تأثير شعر « لا فورج » عن تأثير « شعر هنرى دى ربنى » فهو لا يعمل على أن يحيا فى مثل أعلى من البساطة والجمال اليونانى ، لقد غرهشك يائس قاتم تسرب اليه من الشك الرومانتيق وملأ قلبه يأساً . وساعد على ذلك ما ابتلى به من صحة معتلة وحظ أنكد ، لقد كان يطمع فى أن يحيط عقله بأسرار هذا الوجود . فدرس كثيراً ، والتهم الفلاسفة التهاماً ولكنه عاد خائباً لانه لم يجد فى هذه التعاليم التى درسها إلا ظلاماً وإبهاماً ومتناقضات ! ورسا فى ذهنه أن أقرب هؤلاء الفلاسفة إلى عقله هم من علموا « الجهل الانسانى » والوهم الضرورى وانسياق الانسان إلى مقادير عمياء . هؤلاء هم فلاسفة « اللاشعور » والقدرية منهم « هارتمان وشوبنهاور » . العاقل يجرب أن يصل إلى التنسك بشعوره بزوال هذه الأخيلة ، وبتأمله هذا العقل المضطرب اضطراباً أبدياً فى هذه الجداول من الكواكب . إن هذا العقل لا يصرفه عن أن يكون شاعرا أى صارف . والشعر – بين الاخيلة الباطلة – هو أقل هذه الأخيلة خداعاً . وربما هبطت أغنية علينا لحظة وهزت حظوظنا البائسة السوداء . يمكننا أن نفكر فى نساء نواعم ، لان هذه الكائنات حسنة . أو أن نستدعى – كما فعل قبنى – الأبواق : الأبواق الكئيبة . بشرط ألا نخدع بأوهامها ؛ الشاعر ليس بإله ولا بساحر ولا بكائن يفارق البشر . الشاعر هو موقع ، وموسيقى يحسن التوقيع والضرب على القيثار .

كل الشعراء أرادوا أن يترجموا الشعر ، واختلفوا اختلافاً شديداً فى كنه الشعر ، ولكنهم ظلوا على ارستقراطيتهم يحقرون الحقيقة لانها حقيقة الشعب كما انهم خدعوا بالاوهام البهيجة . أما شاعرنا فهو لا يريد أن ينتق أوهامه انتقاء . هو يتقبلها كما هى وكما تتمثل له يتقبل منها على السواء ما ينير فيه كآبته وسأمته . وما يذهله عن هذه الحياة فى وادى الأحلام . يتقبل منها أوهام الحياة السطحية . والأوهام التى تلتف بالكائنات لتسبر أغوارها وتكشف أسرارها

ان « لافورج » قد هدم قاعدة قوية فى الفن هى قاعدة وحدة اللهجة الشعرية ، وأثر تأثيراً كبيرا فى بعض شعراء العصر الحاضر

اتباع المدرسة الرمزية

تهاوت على المدرسة الرمزية سهام نافذة من النقد ونوزعت نزاعاً عنيفاً وما كاد القرن التاسع عشر ينصرم حتى فقدت هذه المدرسة مذهبها كمدرسة . ولكنها – مهما ذهب الأمر فيها – فقد ساعدت على خلق أجواء جديدة من الفن والشعر تختلف عن الأجواء التى خلقتها المذاهب المدرسية والابداعية والواقعية . هؤلاء تحروا عن مثلهم الأعلى فى دلائل الحياة والأعمال والتجارب العلمية ووضوح الاشكال الفنية . هب علماء وفلاسفة يعلنون أن اليقين الذى حمله العلم إن هو إلا يقين الاصطلاح وأعمال الظواهر أما الحقيقة فلا تزال مكتومة . لم تنجع كل هذه الأسباب فى إزاحة الستار عنها . وبهذا بدأ فشل العلم وبفشله فشلت الحقيقة الظاهرة . ولكى نجد الحقيقة سواء كانت الحقيقة الأخلاقية أو الاجتماعية أو الفنية ينبغى لنا أن نفلت من هذا العالم المحسوس الذى لا فائدة ترجى منه إلا الفائدة العملية ، هذا العالم الذى طالما خدعتنا مظاهره وبياناته الكاذبة وإذا كان للحقيقة وجود فهى موجودة فى عالم خفى . . . وإنما على الفنان أو المبدع أن يذهب متحرياً عنها فى أطواء هذا العالم الخفى .

ولقد كان للمدرسة الرمزية أتباع وأنصار ، اتخذوا الصحف الخاصة والمجلات الخاصة ، يذيعون بواسطتها عن مدرستهم وآثار مدرستهم ، ويردون بمكرهم مكر خصومهم وأكبر هؤلاء الأنصار وأكثرهم ذيوعاً :

غوستاف كاهن : ومن آثاره الشعرية « القصور البدوية » وأغانى الحب ومسكن الجنية وكتاب الصور ، وهو أول من كتب بلغة الشعر المنثور وجعل للشعر المنثور حدوداً وقواعد ! وظل أسلوبه يغلب عليه الاسلوب المدرسى . وقيمة الرمز فى شعره نشأت عن عواطفه التى أراد أن يتغنى بها ، والتى تعبر عن ألوان النفس الناشئة كأنها رغبة محيطة مبهمة أو قلب دفين ! ولكى يعبر عن هذه الالوان المختلفة لجأ إلى الرموز والتعابير المبهمة وكل ما فرضته الرمزية من أنواع التلقين .

و « جورج رودانباخ » الشاعر البلجيكى وهو ممن غلب على أسلوبهم الاسلوب المدرسى برغم ما تناول أسلوبه من معانى الرمزيين ومن آثاره التى تمت بالمدرسة الرمزية « مملكة الصمت »

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

زهرة الخشخاش

كنت فيما مضى أرسل عبيرى على الارقين فيرقدون ، ولكن النوم لم يعد كافياً للناس فى آلامهم ، لم يعد الانسان يكتفى بالوسن فهو يطلب الأحلام . لذلك كنت نسياناً فأصبحت أوهاماً .

لقد احتقر الانسان عبيرى المنوم فطمع بدمى المسكر ، فهو يطعن قلبي بالنصال ويستى من جراحى أشباح سلوانه .

لا تكاد زهرتى ترتفع عن التراب حتى أحس بالمسبر الجارح فى قلبى مستنزفاً منه السائل المخدر يسكبه الناس فى أحشائهم فيذهب بالاشباح إلى رؤوسهم .

عند ما يرتشف الانسان كأس دمى تستنبت روحه الاوهام أجنحة ترفعه إلى الأوج فاذا هو روح منعتقة من قيودها تقف لحظة فى برزخ الحيرة ثم ترجع إلى أدراجها إلى الماضى أو تقتحم حجب المستقبل لترفرف على تذكاراتها أو آمالها .

***

مضى الزمن الذى كنت التى فيه يذورى إلى الناس فيجدون بمنقوعها الوسن الهادى بعد منهكات الجهود . ذلك زمان كنت فيه مبعث الأحلام الهادئة الجيلة . ذلك زمان كنت فيه أحمل الآمال الباسمة بالايمان . فأقف إلى جنب فراش الأم لأريها سعادة طفلها ، وأحوم حول فراش اليتيم لأريه أمه محنية فوق جبينه تهديه بركتها بقبلة سماوية .

فى ذلك الزمان كنت زهرة التعزية أعيش بسكون وأنقضى بسلام بعد حياة تنيرها بسمات الربيع .

***

من هدى الناس إلى دمى يستقطرونه شراباً يقتلهم ويقتلنى ولكن على م أحزن ... أفليس الشاعر أخى ، أفليست أشعاره كدمى كلاهما يقبضان على الروح ويرفعان بها إلى أجواء الخيال .

إن شعر الشاعر ودم الخشخاش كلاهما السم القاتل لمن يجود بهما ولمن يسكر بهما .

***

لقد كان الخشخاش جالباً للنوم وكان الشعر منزلا للتعزية فما كلاهما اليوم إلا سيال للسكر والجنون .

(ف . ف)

والحياة المسورة . وهى مقاطيع تحف بها غفوات حالمة وهدآت خفية . ونفوس يؤذيها الضجيج ومناظر قد يزورها الطرب أو الكآبة تتمشى خلالها أخيلة النسيان والموت . ولقد كان لهذا الشعر الناحل المتزهد تأثير كبير .

« بول فور » الذى أبدع « المسرح الفنى » صاحب « الارانيم » وصاحب طريقة الشعر المنثور التى عاناها كثيرون قبله ، فلم يستطيعوا أن يمرنوا على هذه الطريقة حتى جاء ابن بجدتها والضارب فيها كيف يشاء . ولقد أخضع الايقاع لوحى شعرى حيث تتعالى الصور بدون أن تنفد، طورا واضحة وتارة سرية محزنة ، فيه شىء من الواقعية يمتزج مع التلقين الرمزى . فتبقى المقطوعة الشعرية معلقة بين خيال الواقع وخيال الاسم كما أن « الايقاع » يعلق بين الشعر والنثر .

« وفرنسيس جامس » صاحب ديوان « من صلاة الصبح إلى صلاة المساء » وانتصار الحياة . يغلب على أسلوبه هذا القتام الرمزى حيث ترى الرمز يدخل فى السر والظل ، ويغيب فى الأحلام . وجامس يرى الشعر ـ بخلاف غيره ـ فى الأشياء البسيطة التى يلمحها ، وفى الحظوظ المتواضعة . وتظهر على شعره آثار الفاقة والمسكنة . وها هو ذا يقول :

« إلهى ! دعوتنى من الناس فهانذا جئت !
وكتبت بالكلمات التى ألهمتها أبى وأمى . . .

وقد يسخر القارئ من هذه البساطة فى المعانى . ولكن « جامس » اكتشف ينابيع حية ندية من الشعر . ببساطة عميقة مؤثرة . فهو يحب ويجعلك تحب مثله سلامة السريرة والنفوس الشاقة ، والحياة الهادئة الضعيفة للأشياء . والموسيقى الباطنة فى وزنه وصورة حية من صوره وكلمة ملونة .

كل هذا تراه يعبر لك عن هذه الرقة التى لا تلس ، وعن الجمال الخفى فى كل أثر من آثار المبدع الخلاق .

خليل هنداوى

١٩ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها ، وعاداتها ، ودياناتها

ترجمة حسن حبشى



ومهما يكن من أمر صاحب هذه القصيدة فان أبياتها تنضح بالوثنية، وأسلوبها يدل على ذلك ، كما أن أهميتها القصوى تتضح لنا من أنها أثارت جوته Goethe بعد أن قرأ ترجمتها باللاتينية فقام بطبع ترجمة لها بالألمانية مع نقد جميل للشعر فى « الديوان الشرقى West-Oestricher Divan »[1].

وفى هذه القصيدة[2] نرى الشاعر يصور كيف يلج به الثأر لخاله الذى قتله هذلى ، ويصف بطولة القتيل وخلقه والغزوة التى قام بها وانتصاره (الشاعر) فى النهاية على خصومه وظهوره عليهم فيقول :

إن بالشِّعبِ الذى عِندَ سَلْعٍ لَقتيلا دَمُهُ ما يُطَلّ
خلفَ العِبءَ علىّ وولى أنا بالعِبء له مستقِل
ووراءَ الثأرِ منى ابنُ أختٍ مَصِع عقدَتُهُ ما تُحَل
مُطرِق يرشح سماً كما أطـ رقَ أفعى يرشح السمَّ صِلّ
خبَر ما نابَنا مُصمئِلٌّ جلّ حتى دقّ فيه الأجل
بزّنى الدهرُ وكان غَشوماً بأبىّ جارُه ما يُذَل
شامس فى القُرِّ حتى إذا ما ذكَتِ الشِّعرَى فبردٌ وظِل
يابسُ الجنبينِ مِن غيرِ بؤس وندِى الكفين شهم مُدِل
ظاعن بالحزْم حتى إذا ما حلّ : حلّ الحزْم حيث يَحُل
غيث مزْنٍ غامر حيث يُجدِى وإذا يَسطو فليث أبل
مسبل فى الحىّ أحوَى رِفِل وإذا يغزُو فسِمع أزَل[1]
وله طعمان أرْى وشرْى وكِلا الطعمَين قد ذاقَ كل
يركبُ الهوْلَ وحيداً ولا يَصـ ـحبُهُ إلا اليمانى الأفل

***

وفتوٌّ هجَروا ثم أسرَوْا ليلهم حتى إذا انجابَ حلوا
كلّ ماضٍ قد تردّى بماضٍ كسَنا البرقِ إذا ما يُسل
فادرَكنا الثأرَ منهمْ ولمّا ينجُ مِ الحيَّين إلا الأقل
فاحتسَوا أنفاسَ نومٍ فلمّا هوّموا رُعتُهم فاشمعَلّوا[2]
فلئنْ فَلّتْ هُذيلٌ شَباهُ لبما كان هذيلاً يَفُلّ
وبما أدرَكَها فى مَناخٍ جعجعٍ ينقبُ فيه الأظَل
وبما صبّحها فى ذُراها منهُ بعدَ القتلِ نَهب وشَل

***

صلِيَتْ منى هُذيلٌ بخِرقٍ لا يَمل الشرّ حتى يَملوا
يُنهِلُ الصعْدَةَ حتى إذا ما نهلَتْ ، كان لها منهُ عَل
حلّتِ الخمرُ وكانت حراماً وبلأيٍ ما ألمّتْ تحُل

(١) الرفل : الواسع الثوب الكثير اللحم ، والسمع ولد الذئب (المترجم)
(٢) أى أسرعوا فى الهرب

---

(١) مما جاء فى كتاب تراث الاسلام (الطبعة العربية اكتوبر ١٩٣٦) فى الفصل الذى كتبه الأستاذ جب عن الأدب العربى قوله « وتيسر للأدب الفرق هنديا كان أم عربيا أم فارسيا أن يشغل فى تاريخ الأدب الالمانى فى القرن التاسع عشر حيزا لم يشغله مثله من قبل فى أوربا منذ عهدها بالادب الإسبانى فى القرون الوسطى وكان أولى الزهر وأينعه فى روضة الغرب كتاب جوته : West oslecher Divan » (ص ٢٠٨ س ٣ - ٨) المترجم

(٢) ذكر المؤلف قبل هذا كلاما ضربنا صفحا عن ترجمته لانه يشرح فيه لقراء الانكليزية ما صادفه من صعوبة فى التوفيق بين البحر المديد الذى اتبعه الشاعر العربى وبين البحر الانكليزى الذى ترجم به الاستاذ نيكلسون القصيدة ليكون قريبا منه فى روحه وموسيقاه . (المترجم)

فاسقنيها ياسوادَ ابنَ عمرو إن جسمى بعد خالى لخَلّ (١)
تضحكُ الضبعُ لقتلى هُذيل وترى الذيب لها يَستَهل
وعِتاقُ الطيرِ تَغدو بِطاناً تتخطاهم فما تستقل (٢)

* * *

ولم تكن الفضائل التى استوعبها العربى عن الشرف معدودة كأنها صفات شخصية فطرية أو مكتسبة ، بل إرثاً ورثه الخلف عن السلف منذ القدم ، ولا بد له من أن يحافظ عليه تماماً حتى يسلمه إلى أبنائه دون أن تشوبه شائبة مّا ، ولم يكن الأمل ، فى الخطوة بخلود النفس هو ما يحفز الشاعر العربى لأن « يقول القول ويفعل فعال الشرف » ، بل كان الرغبة فى أن يقاسم أسلافه ذكرهم ، وينافسهم صيتهم ، وهو بهذا أبعد ما يكون عن الفلاح الاسكتلندى ، حين يقول فى مثله الدارج « الانسان بشخصه أيًا كان أصله » لأنه كان ينظر نظرة الشك والريبة إلى هذه الجدارة التى ليس لها أصل مأثور عند الآباء:

وما تَستوِى أحسابُ قومٍ تُورِّثَت
قديماً وأحسابٌ نَبَتْنَ معَ البقلِ (٣)

وإن الحسب عندهم أشبه بحصن حصين قد جد فى إقامته الآباء للأبناء أو كجبل شامخ يضرب بقنته فى أجواز الفضاء ، يرتد عنه مهاجموه بالفشل دون أن ينالوا منه شيئاً (٤) ، وكان الشعراء يعرفون جيداً المفاخر والمثالب ، فيتشدقون بالأولى بشرف أجدادهم وكرم أرومتهم ، ويتخذون الثانية أداة ينالون بها من أعدائهم دون رعاية أو اهتمام بقواعد الأدب والحشمة .

* * *

لقد وجهت عنايتى أن أورد فى هذا المجال بعض الصفات الخاصة للشعر للعربى إذا ما قورن بالشعر العبرى أو الفارسى أو الانكليزى ، ولكن لما كان إيراد الأمثال ذا جدوى غير منكورة فإنى أبدأ حالا بالتكلم عن القصائد الشهيرة بالمعلقات التى تحتل مكانة سامية ، وذروة رفيعة فى الأدب العربى

* * *

الأرجح أن كلمة معلقة (١) قد اشتقت من قولهم « عِلق » أى الشىء النفيس الثمين العالى المستوى . إما لأن الانسان يتعلق بها تعلقا شديدا ، أو لأنها تعلق فى مكان شريف أو بين واضح كبيوت المال أو فى خزائن عامة (٢) ، وعلى مر الزمن تنوسى المدلول الحقيق لكلمة معلقة ، وأصبح من الضرورى ايجاد تفسير مقبول منصوب لها . وهنا ظهرت الخرافة التى أصبحت فيما بعد مألوفة لطول تكرارها . وكثرة استعمالها ، والتى تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم ، راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقديرا لفضلها الذى قضى لها به المحكمون فى عكاظ على مقربة من مكة ؛ حيث يجتمع الشعراء متنافسين فى انشاد أروع ما دبجته قرائحهم ، وأنها كانت تكتب بماء الذهب ، على القباطى (٣) الواردة من مصر قبل تعليقها على الكعبة .

« يتبع »

حسن حبشى

---

(١) كان من عادة العربى إذا قُتل له قتيل ألا يشرب الخمر أو يمس النساء حتى يثأر له .

(٢) الحماسة ص ٣٨٢ وما يليها .

(٣) الحماسة ٦٢٩

(٤) قارن هذا بما سيرد بعد قليل فى معلقة الحارث

---

(١) إن أحسن طبعة للمعلقات هى تلك التى نشرها سيرشارلز ليل سنة ١٨٩٤ (طبعة كلكتا) وسماها A Commentary on Ten Ancient Arabic Poems وهى تشمل إلى جانب المعلقات السبع المتفق عليها ثلاثة قصائد أخريات للأعشى والنابغة الذبيانى وعبيد بن الأبرص ، كما ترجم تلدكه خمس معلقات (مسقطا معلقتى امرىء القيس وطرفة) . وأرفق بها شرحا بالألمانية فى Sitzungsbevichte der kais. Akad. Der Wissenschaften in Wien, Philo. Histor. Klasse, Vols: 140-144 (1899-1901).

وتلك إلى حد بعيد أمتع ترجمة للباحثين والطلاب ، وليست هناك فى النثر الانكليزى أية ترجمة مقنعة ، ولكنى أشير على القارىء بمراجعة الترجمة الشعرية الانكليزية التى بلغت الغاية فى الجمال والروعة وإن يكن فيها شىء قليل من التصرف وهى التى نظمتها لادى أن بلنت Anne Blant ومستر ولفرد سكادن بلنت وسماها: The LevenGolden Odes of Pagan Arabia (London 1903)

(٢) راجع مقدمة سير شارلز ليل لكتابه An Cient Arabian Poetry وقد اقترحت عدة تفسيرات أخرى نحو « القصائد التى كتبت بالاملاء الشفهى » كما يقول فون كريمر ، أو « السولى المذهبات » كما يسميها أهلوارت ، أو « الاسماط » كالو كانت لآلىء مدلات من قلائد كما يدعوها أوجست موللر

(٣) يظهر أن الاعتقاد بأن المعلقات قد كتبت بماء الذهب ناشىء عن الخطأ فى فهم اسم « المذهبات » (بسكون الذال وفتح الهاء) أو المذهبات (بفتح الذال وتشديد الهاء المفتوحة) أى القصائد المكتوبة بالذهب ، وهو الاسم الذى يطلق عليها أحيانا نظرا لفخامتها ، كما هو الحال عند الأغريق الذين أطلقوا اسم « خراسيا أى Khrousia Epi » على قصيدة تنسب زورا إلى فيثاغورس أما القول بان بعضا من المعلقات قد أنشد فى سوق عكاظ فهذا أغلب ما يحتمل بل ما قد تأكد بثبوته بشأن ما كان من معلقة عمرو بن كلثوم (الأغانى ج ٩ ص ٢٢)

لمحة ...!

للسيد عمر أبو ريشة

أوقفى الركب يا رمال البيد   إنه تاه فى مداك البعيد
ظمئت نوقه وجف فم الحا   دى وغصت لهاته بالنشيد
والأشداء يلهثون كخيل ال   غزو عادت من يومها المشهود
عصفت فى جفونهم ريحك الهو
جاء والشمس عربدت فى الخدود
والصبايا من الهوادج ينظر   ن إلى الأفق نظرة المفئود
ليس يبصرن منك غير هضاب   فى هضاب مبعثرات الحدود
غابت الشمس يارمال، وهذا ال   ركب فى قبضة العياء الشديد
وخبا الليل يارمال وهذا ال   ركب أخنته وطاة التسهيد
فهوى فاقد الرجاء يرى المو   ت مشيحاً بمنجل من حديد
فتراءت إليه نار على البعـ   د فكانت إيماءة للشريد
فسرى فى سنائها فاطلت   خلفها مكة الفخار التليد
ياعروس الرمال يا قبس التا   ئه فى مهمه الضلال المبيد
أمنَ الركبُ فى جمالك فرديـ   ه إلى ذكريات تلك العهود
يوم أرخى على جوانبك الوحـ   ىُ جناحين من سماء الخلود
حاملا آية النبوة ما بيـ   ن شفاه علوية التأييد !!
صبّها قبلة على فم طفل   قرشى النجار سامى الجدود !
وحواليه من حمام الفراديـ   س حسانٌ مرنّحات القدود
ساحبات بيض البرود كما لو   جمد النور فوق تلك البرود
يتزاحمن واثبات ويلثمـ   ن من الشوق مبسم المولود !
فاذا بالسماء تهمى تسابيح   وتدوى أصداؤها فى الوجود
وإذا الكون بعد عيسى تعرّى   نصب عينى محمد من جديد !!

***

درج الطفل والهداية تحبو   ه بتاج من السناء فريد
«وبحيرا» فى الدير يضرب فى النا   قوس بشرى بالسيد المنشود
والنؤابات من قريش سكارى   فى هوى الجاهلية العربيد !
هتكت كبرياؤهم سنن العقـ   ـل وصالت بشرعها المردود
كم بنات لم تنفطم وأدتها   كفٌ باغ على القضاء عنيد
كم وراء الجدران فى الكعبة العصـ   ـماء من عابد ومن معبود
جلجلت صرخة النبى فردّت   رجع أصدائها أعالى النجود
وأشاحت يسراه بالمعول الصلـ   ـد ويمناه بالكتاب المجيد !!
فتهاوت تلك الصفوف من الأصـ   ـنام عن أوج عرشها المعقود
وتبارت - الله أكبر تعلو   من شفاه المؤذن الغريد !!!

***

أخذت غضبة البداوة تخبو   بعد إعنات ضلة وجحود
إنها النفس لا تبدل طبعا   ألفته فكيف نفس الحقود
ومن الصعب أن يشاهد أعمى   قبس الحق فى الليالى السود
يوم «بدر» فض النزاع وبث الـ   ـرعب فى كل أشهب صنديد
فقريش مغلوبة وأبو سفـ   ـيان فى شبه رجفة الرعديد
والميامين فى المدينة يطوو   ن سيوف السلام طى الغمود
فأتم النبى آيته الكبرى   على شعبه الكريم الودود
وانطوت بعدها الهيولى فثارت   فتنة فى النفوس ذات وقود
وتلاشت كأنها حلم الذعـ   ـر بجفن المسهد المكدود !!
الفجاءات كم تزلزل عزماً   وترد الرشيد غير رشيد !!

***

دفقت موجة الهدى تغسل الشر   ك وتروى النفوس بالتوحيد
وتبث الوئام والحب والرحـ   ـمة ما بين سيد ومسود
مذهب ضجت الأعاجم منه   وتعاموا عن شرعه المحمود
ورأوا فيه ما يدك عروشاً   شيدوها بالظلم والتهديد
فرمت بالكتائب الخرس «روما»
وبأبطالها الغزاة الصيد
وطغى الهول والكتائب ماجت   فى خضم من القنا والبنود
فاطلت تلك الفلول من العر   ب بعزم النبوة المشدود
وانحنت فوق ضمّر تعلك اللجـ   ـم وتنزو مجنونة فى الصعيد !
وأغارت ترمى الفوارس رمياً   وتحز الوريد إثر الوريد
كلما انهار حائط من جنود   أتبعته بحائط من جنود

وضفاف « اليرموك » ترسل منها
زمزمات الحداء لابن الوليد !!

جولة ترعف الصوارم فيها   وتصيح الأكف هل من مزيد
جولة كفنت بها الروم حلماً   بين أنقاض صرحها المهدود !
وكأن اندحارها لم يردّ « الـفرس » عن نشر بغيها المعهود
سخّرت كل فيلق كسروى   لم يذق قبل نكبة التشريد !
مزقتـه فى القادسية تلك الـ
بيض والسمر فى أكف الأسود
إن طود الرمال تحمله الريح   وتذريه فى الفضاء المديد

°°°

بسطت كفها الهداية والشر   ق تفيّا بظلها الممدود
رافعاً مشعل الحضارة والغر   ب صريع فى غفوة من جمود
إن فى الشام من معاوية الـسمح بقايا من الدهاء السديد
وببغداد مسحة من نعيم   تتغنى بذكريات « الرشيد »
وبغرناطة من الملك النا   صر آثار روعة « للنشيد »
أمة يعربية تركت فى   مسمع الدهر آية التمجيد ؟
إنما عقها البنون فزجوا   بالمروءات فى بطون اللحود
أسكرتهم لذائذ الترف الأهـ   وج عن يقظة القضاء العنيد
وتلوّت ما بينهم تنفث الـسُمّ أفاعى حفائظ وحقود !
وتناسوا ما بثه السيد الأعـ   ظم من سنة الوئام الأكيد
وخبت نارهم وصُبّت عليهم   عاصفات التعذيب والتنكيد
فاذا جبهة الشموخ لطيم   تتنزى بالجرح عند السجود
وانتهت سيرة الجدود الينا   فجررنا القيود إثر القيود
والتفتنا فلم نجد غير مُلك   مزقته أصابع التبديد
ونهدنا للذود عنه ولكن   ما حملنا غير الإباء الحميد !
ورَجعنا فكم جريح كئيب   يتلوّى وكم قتيل شهيد !!
ياعروس الرمال يا قبس التا   ئه فى مهمه الضلال المبيد
نحن فى هذه البلاد كذاك الـ   ركب غشى فى طالع منكود
أنظرى فالجموع شاخصة الأبـ   صار ترنو إلى ضياك الوحيد
فامددى الكف للكرام فغبن   أن تعيش الكرام عيش العبيد !

(حلب)   **عمر أبو ريشة**

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الطفل والزواج

لى سؤال أخصك به لأسبر أعماق روحك ياأخى :

— أنت فى مقتبل العمر وتتمنى أن يكون لك زوجة وولد ، ولكن قل لى ألست الرجل الذى يحق له هذا التمنى ؟ ألأنت الظافر المنتصر على نفسه ، الحاكم على حواسه ، السائد على فضائله ؟ أم أن تمنيك هذا ليس إلا شهوة حيوان أو خشية منفرد أو اضطراب من قام النزاع بينه وبين نفسه ؟

إن ما أريده منك هو أن تتوق بانتصارك وحريتك إلى التجدد بالولد . إذ عليك أن تقيم الأنصاب الحية لانتصارك وحريتك ، فترتفع هذه الأنصاب إلى ما فوق مستواك . وهل بوسعك أن تفعل إذا لم تكن متين البنية من رأسك إلى أخمص قدميك ؟

ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب ، بل عليك بخاصة أن ترفعها إلى ما فوق . فليكن عملك فى حقل الزواج منصبًا إلى هذه الغاية

عليك أن توجد جسداً جوهره أنقى من جوهر جسدك ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها على محورها ، فواجبك إذاً إنما هو إبداع من يبدع

ما الزواج فى عرفى إلا اتحاد إرادتين لايجاد فرد يفوق من كانا علة وجوده . فالزواج حرمة متبادلة ترسو على احترام هذه الارادة

ليكن هذا معنى زواجك وحقيقته ، أما مايدعوه الدخلاء الأغبياء زواجاً فامر أحار فى تصريفه ؛ فما هو إلا مسكنة روحية يتقاسمها اثنان ، ودنس يتمرغ به اثنان ، ولذة بائسة تحكم فى اثنين . ولكن الدخلاء يرون فى مثل هذا الزواج رباطاً عقدته السماء

وما أنا بالمرتضى بمثل هذه السماء ، سماء الدخلاء أطبقت

شباكها عليهم، تبًا لها، وسحقاً لمثل هذا، الاله الذى يتقدم متراجعا ليبارك اثنين لم يجمع هو بينهما

لا يضحكنكم هذا الزواج، فكم من طفل من حقه أن يبكى على أبويه

رأيت رجلا وقورا لحسبته بالغاً من النضوج ما يدرك به معنى الأرض، ولكننى رأيت امرأته بعد ذلك فلاحت لى الأرض كأنها ماوى المجانين. أود لو تميد الأرض بى عند ما أرى رجلا فاضلا يتخذ له زوجة حمقاء

من الناس من يتجرد كالأبطال سعياً وراء الحقائق، فلا يلبث حتى يصطاد رباطاً مزيفاً يدعوه زواجاً. ومنهم من اشتهر بحذره فى علاقاته وبصرامته فى اختياره، فاذا هو بين ليلة وضحاها قد أفسد حياته ووقف يدعو هذا الافساد زواجا. ومنهم أيضا من كان يفتش عن خادمة لها فضائل الملائكة، فاذا هو ينقلب فجاة خادما لامرأة وقد حق عليه أن يتصف هو بالفضائل الملائكية

فتشت فى كل مكان فما رأيت إلا مشترين يقلبون السلع وعيونهم تتدفق مكراً، ولكن أمكر هؤلاء الناس لا يتوصل فى آخر الأمر إلا إلى ابتياع هرة يدسها فى جلبابه

إن ماتدعونه عشقاً إنما هو جنون يتتالى نوبة بعد نوبة حتى يجئ زواجكم خاتماً هذه الحماقات بالحماقة المستقرة الكبرى. ويا ليت حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل كانا إشفاقا يتبادله إلهان يتألمان، ولكن هذا الحب لا يتجلى فى الغالب إلا تفاهما بين إحساس حيوانين. وما خير الحب لو تعلمون إلا تحول واضطرام فى ألم وخشوع، إنْ هو إلا المشعل ينير أمامكم مسالك الاعتلاء. وسيأتى يوم يتجه فيه حبكم إلى مقر أبعد وأرفع من مستقر ذاتكم، لقد بدأتم بتعلم الحب، لذلك ترتشفون الآن المرارة الطافية كالحب على كأسه

إن فى كأس كل حب إطلاقا وحتى فى كأس أرقى حب مرارة لابد لكم من تجرعها؛ وهذه المرارة هى التى تنبه فيكم الشوق إلى الإنسان الكامل وتلهب فيكم الظما إليه، أيها المبدعون. إذا كان هذا الظما هو الذى يدفع بك إلى طلب الزواج يا أخى، وإذا كنت تشعر بشوقك يندفع كالسهم نحو الانسان الكامل، فانى أقدس إرادتك وأقدس زواجك

هكذا تكلم زارا....

تخير الموت

كثير من يتاخرون فى موتهم، وكثير من يبكرون. فاذا قال قائل للناس بالموت فى الزمن المناسب، رفعوا عقيرتهم مستغربين. وزارا يعلم الناس أن يموتوا فى الزمن المناسب. ولكن أ ى لمن يعرف الحياة أن يتخير الموت فى أوانه؟

أفما كان خيراً للدخلاء على الحياة لو أنهم لم يولدوا. ولكن هؤلاء الدخلاء يريدون أن يولى الناس أهمية كبرى لموتهم، وكم من نواة تباهى بانها كسرت وهى جوفاء...

إنهم يعلقون أهمية على الموت لأنهم ماعرفوا بهجة الموت، فالناس لم يعرفوا حتى اليوم كيف يقدسون أبهج الأعياد. ولسوف انبئكم بالموت الذى يقدس، الموت الذى يدفع الأحياء ويجتذبهم بحوافزه وآماله. إن من أكمل عمله ياتى ظافراً وحوله من يحفزهم الأمل وتنطوى فيهم الأمانى. تعلموا أن تموتوا هكذا، ولكن اعلموا أن لاظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء باتمامه

تلك هى الميتة الفضلى، تليها فى المراتب ميتة من يسقط فى المعركة وهو ينشر عليها عظمة روحه. غير أن ما يحتقره المجاهدون والظافرون على السواء إنما هو ميتتكم الشوهاء التى تزحف لصاً وتتقدم آمرا مطاعا

ما أجمل ميتتى إذا أنا تخيرتها فجاءتنى لأنى أطلبها

ولكن متى يجدر بالانسان أن يطلب الموت؟

إن من يتجه إلى مقصد فى الحياة وله وريث، وجب عليه أن يتمنى الموت فى الزمن المناسب لغايته ولوريثه، لأنه يأنف حرمة لهما من أن يلقى بالأكاليل الذابلة على هيكل الحياة

انى لا أريد أن أحبك الخيوط وأنسحب إلى الوراء كمن يفتلون الحبال.

من الناس من لا يتجاوزون بأعمارهم الحد اللائق بالحقائق والظفر، وخليق بالفم المجرد عن أسنانه ألا يتناول ببيانه جميع الحقائق. على الطامحين إلى الظفر أن يودعوا الأمجاد فى الزمن المناسب ليتمرنوا على فن الرحيل عن الدنيا فى الزمن المناسب أيضاً، ومن واجب المرء أن يتوقف عن عرض نفسه للآكلين عند ما يكفون عن تذوقها، ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من يود الاحتفاظ بمحبة من حوله.

ولكن من الأثمار كالتفاح من تقضى طبيعته الحامضة عليه أن ينتظر النضوج إلى آخر أيام الخريف ، فاذا هو ماثل للنظر باصفرار الشيخوخة وتجاعيد أساريرها .

ومن الناس من يدب الهرم إلى قلوبهم أولا ، ومنهم من يدب الهرم إلى عقولهم ، ومنهم من يشيخون فى ربيع الحياة ، غير أن من يبلغ الشباب متأخراً يحتفظ بشبابه أمداً طويلا .

ومن الناس من ضلوا السبيل فى حياتهم ، فاضاعوا عمرهم ؛ فعلى هؤلاء أن يعملوا على بلوغ التوفيق فى موتهم على الأقل .

وهنالك أثمار لا تنضج لأنها سهراء فى الصيف ولكنها تبقى معلقة باغصانها لأن جبنها يصدها عن السقوط . وهكذا نرى فى العالم أناساً يلتصقون التصاقا باغصانهم ، فهل من عاصفة تهب على الشجرة لتسقط ماعليها من أثمار تهرأت ورعى الدود قلبها ؟ ليتقدم دعاة الموت العاجل وليهبوا كالعاصفة على دوحة الحياة ، غير أننى لا أرى غير دعاة للموت البطىء يعظون بالصبر واحتمال كل مصائب الارض .

انكم تدعون إلى مكابرة الارض ومجالدتها ، أيها المجدفون والارض صابرة عليكم صبرها الجميل .

والحق أن ذلك العبرانى الذى يمجده المبشرون بالموت البطىء قد مات قبل أوانه ، ولم يزل جم غفير يعتقد بان ميتته المبكرة كانت مقدورة عليه

وما كان هذا المسيح العبرانى قد عرف إلا دموع قومه وأحزانهم وكيد أهل الصلاح والعدل ، لذلك راودته فجأة شهوة الفناء .

ولو أنه بقى فى الصحراء بعيداً عن أهل الصلاح والعدل لكان تعلم حب الحياة وحب الأرض ، ولكان تعلم الضحك أيضاً .

صدقونى ، أيها الإخوة ، إن المسيح قد مات قبل أوانه ، ولو أنه بلغ العمر الذى بلغت ، لكان جحد تعاليمه ، وقد كان له من النبل ما يكفيه لاقتحام العدول عنها . ولكنه لم يبلغ النضوج ، ولم تبلغه المحبة فى الشباب ، فكره الناس وكره الأرض . وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض [1]

إن فى الرجل من الطفولة ما ليس فى الشاب ، فالرجل الناضج أقل حزناً وأقدر على فهم الحياة والموت ، لأنه يشعر بحريته للموت وبحريته فى الموت ، وإذا امتنع عليه أن يثبت شيئاً أنكره .

حاذروا أن يكون موتكم تجديفاً على الأرض والإنسان أيها الصحاب . تلك هى النعمة التى استجديها من وداعة روحكم

ليرسل فكركم وفضيلتكم آخر أشعتهما فى احتضاركم كما ترسل الشمس الغاربة آخر أنوارها على الأرض ، وإلا فان ميتتكم ستكون فاشلة . إننى هكذا أريد أن أموت ليزداد حبكم للأرض من أجلى ، أيها الأصحاب . أريد أن أعود إلى الأرض التى خلقتُ منها لأجد الراحة فى احضانها

لقد كان زارا يرمى إلى هدف وقد أطلق سهمه الآن فارموا إلى هذا الهدف بعدى ، لأننى من أجلكم أطلقت سهمى الذهبى . فما أشتهى شيئا إشتهائى أن أراكم تطلقون سهامكم الذهبية أيضاً ، ولسوف أبقى على الأرض قليلا لأمتع عينى بهذا المشهد ، فاغتفروا لى هذا التخلف إلى حين

هكذا تكلم زارا . . .

(1) يعترف زارا بان عيسى عرف دموع الشعب المظلوم وغطرسة من يدعون الصلاح والعدل ، فماذا يراد منه أن يعرف بعد ، وليس من قضية اجتماعية تخرج عن حدى دمعة الضعيف وكيد المستقوين فى الحياة . -

كان يريد زارا أن يبلغ عيسى ما بلغه هو من العمر ليجحد تعاليمه ويطلق جناحى نفسه فيحب الانسان والأرض ، فهل بلغ أحد من مصلحي الانسانية « باعتبار القضية الاجتماعية مستقلة جدلا عن المسألة الروحية » ما بلغه العبراني والعربي بعده من حب الانسانية والتضحية فى سبيل اصلاح الحياة .

وهل لنيتشه أن يدعى أنه أتى بشىء جديد فى فلسفته عند تصويره مبادىء الحياة ، أفليس كل ما أصاب فيه مستمدا مما أوحي الى رسل الله وأنبيائه الأطهار ، أفليس كل ما ضل فيه ناشئا عن محاولته الاستغناء عن أنوار هذا الوحى . . .

القصص

من القصص العربي

حديث سمر

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

على بساط من رمل الصحراء الأحمر، وفى ثنية من ثنايا الجبل السامق نحو السماء، وفى جو رخاء يتموج فى جوانبه نسيم العشية البليل، أخذ القوم مجلسهم كالعادة يسمرون ويتفكهون! انهم فتية شبوا فى ظلال الخفض والرفاهية، لم يثقلهم من الدهر هم، ولم يشغلهم من الحياة شاغل، فكلهم فى بيته سليل المجد، وربيب النعمة وأخو الفراغ والجدة. وكانوا من العمر فى طور الشباب تغمرهم الأمانى الواسعة وتستخفهم الأحلام اللذيذة، فالدنيا ما زالت في نظرهم حلوة خضرة، تتراءى لهم كالعروس قد جلتها يد الماشطة الصناع، فكلها اغراء وكلها فتنة، فتمردوا على العشيرة. وخرجوا على المجتمع، وجمعوا شملهم بالصداقة، وأقاموا الاخاء فيهم مقام القرابة، وشردوا عن أهلهم إلى البيداء، حيث مجال الحرية الواسع ومراد النظر السادر، وميدان الركض الفسيح!

وكان من عادة القوم أن يسمروا فى بيدائهم، وكانوا يجرون فى سمرهم على نظام متبع، وحياة رتيبة، فهم فى كل أمسية حول واحد منهم يسرى عنهم بالنادرة البارعة، ويفكههم بالملحة الشاردة، وكثيرا ما ينثني بهم نحو الماضى المنصرم، فيقص عليهم من ذكرياته الحلوة الطيبة، ومصادفاته الغريبة

وها هم أولاء قد أخذوا مجلسهم على عادتهم فى نظام واحد وأنصتوا. انتصب ذاكر منهم كان عليه حق الجماعة، ومن واجبه «حديث السمر» فى تلك الليلة فقال: لقد انحدرت مع قومى فيما سلف من الزمن إلى بغداد، فاكترينا داراً شارعة على أحد الطرق المعمورة بالناس، وكنا فى عيشنا نجرى على طبيعة الدهر بين الرخاء والبؤس، فمرة يغمرنا اليسر والرغد وطوراً يشملنا العسر والفاقة! لله تلك النفوس الطيبة يا إخوان؛ لقد كنا لا ننكر أن تقع مؤنتنا على واحد منا اذا أمكنه؛ ولقد يبقى الواحد فينا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول، وكنا اذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألينه، وانحدرنا إلى أسفل الدار، ننتهب اللهو، ونهتاج العواطف بالطرب، فاذا ما عدمنا ذلك انصرفنا إلى غرفة تتمتع منها بالنظر إلى الناس، ولكن لا أعرف أن النبيذ خلا من أيدينا على أية حال.

فانا لفي يوم من الأيام، صادفنا فيه افتقار القوت، وسعدنا منه بوفرة النبيذ، واذا بفتى يطرق علينا الباب طرقاً، فلما صعد إلينا بعد الأذن، ألفيناه حلو الوجه، سرى الهيئة، ينبيء رواؤه عن الخير، ويدل مظهره على النعمة، ابتدأنا بالتحية واستمر يقول: لقد سمعت بمجتمعكم، وحسن منادمتكم وصحة ألفتكم. وعلمت كأنما أدرجتم فى قالب واحد، فاحببت أن أكون واحداً منكم فلا تحتشمونى، وخذونى باوضاع الأخوة لا بواجب الضيافة. فكنا فى أنس بلقياه، ونشوة من حديثه، ولكنا كنا أيضاً فى هم وفكر من تدبير القوت له والحصول على الزاد الواجب لغدائه.

ولم يمض كثير حتى أشار الفتى إلى غلامه فوضع بين أيدينا سلة خيزران فيها طعام المطبخ من جدى ودجاج وفراخ ورقاق وأشنان ومحلب وخلة، وأجبنا صاحبنا إلى ما طلب من حق الأخوة فلم نحتشم طعامه فحططنا فيه، ثم أفضنا فى الشراب، وأفضنا فى الحديث، وانبسط الفتى معنا فى الكلام، فاذا به أحلى خلق الله إذا حدث، وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وأمسكهم عن ملامة إذا خولف. ثم أفضينا منه - على طول المقام - إلى أكرم محالفة، وأجمل مساعدة، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء يكرهه فيظهر لنا أنه لا يحب غيره، نطالع ذلك فى إشراق وجهه، وانبساط أساريره، فصرنا نغنى به عن حسن الغناء، وشغلنا بأخباره وآدابه، وشغفتنا نوادره وأماليحه، ومع ذلك فما وقفنا على اسمه،

ولا حققنا نسبه، وإنما عرفناه بأبي الفضل، وكنا ندعوه بذلك وجلس في يوم يطرفنا بنوادره ويقص علينا شيئاً من تاريخه فقال: ألا أخبركم بم عرفتكم، ولماذا آثرت صحبتكم؟ قلنا: إنا لنحب ذلك ونطمع فيه، قال: لقد أحببت جارية في جواركم، فشغفت نفسي حبا، وتدله قلبي في هواها فكنت أجلس في الطريق ألتمس اجتيازها فاراها! ودمت على ذلك حتى أخلقني الجلوس على الطريق، وأنكرت من نظرات السابلة، ورأيت غرفتكم هذه، ووقفت على خبركم في العيش وأخذكم بالائتلاف والمساعدة، فكان الدخول فيما أنتم فيه أسر عندي من تلك الجارية!

فقلنا: هون على نفسك يا ابن العم، وتمن في تحقيق مأربك، وسنجد في اختداع الفتاة حتى تصير اليك! فقال: حسبكم يا إخوان: إني والله على ما ترون مني من شدة الشغف والكلف بها ما قدرت فيها حراماً قط، ولا تقديرى إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فأشتريها، وبغير هذا لا يكون الوصول اليها مني على بال.

وأمضى الرجل في أخوتنا شهرين، فكنا في اغتباط بقربه، وأنس من صحبته، ثم خالسنا الفراق على غفلة فنالنا بذلك ثكل ممض، ولوعة مؤلمة، وما كنا نعرف له منزلا فنلتمسه، ولا باباً فنطرقه. فوالله لقد كدر علينا بعده، بقدر ما طاب لنا بقربه، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غما إلا ذكرناه لأفضال السرور بصحبته وحضوره، والغم بمفارقته وغيابه، فكنا فيه كما قال الشاعر:

يذكرنيهم كل خير رأيته وشر، فما أنفك منهم على ذكر

وتصرمت على غيابه عشرون يوماً وكأنها الدهر، وما لنا مطمع في لقياه ثانية، فان فترات الصفو محدودة، والحياة ضنينة في إرجاع ما كان، فبينا نحن نجتاز الرصافة يوماً إذا به يطالعنا في موكب نبيل، وزى جميل، وما أبصر بنا حتى انحط عن راحلته وانحط غلمانه، وإني ما زلت ألمحه في أعطاف الماضي وهو مقبل نحونا في لهفة يقول: والله يا إخواني ماهنا لي بعدكم عيش، ولا طاب لي أنس، ولا عرفت في نفسي معنى الصفو، ولست أماطلكم بخبري فاني أتبين فيكم اللهفة إلى ذلك فميلوا بنا إلى المنزل وهو قريب، فملنا معه عن رغبة، ولما تم بنا المجلس قال: لقد آن لي أن أكشف لكم عن نفسي! أنا العباس ابن الأحنف وطبعاً سقط لكم شيء من أمرى، وكان من خبرى بعدكم أني تركتكم أطلب منزلي لحاجة، فاذا بالشرطة في طلبي، وفي كثير من السرعة مضوا بي إلى دار الخلافة ودارة الملك، فصرت إلى يحيي بن خالد فقال لي: ويحك يا عباس؛ إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك، وحسن تأتيك؛ وإن الذى ندبتك في شأنه لجليل، فانت أعرف بخطرات الخلفاء، وإني أخبرك أن «ماردة» هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم، وقد جرى بينهما عتب، فهي بدل المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بعز الخلافة وشرف الملك يتعالى على ذلك. فقل شعراً يسهل عليه سبيل الوصل، ويقرب له شقة المعاودة. ثم اطرحني إلى غرفة خالية، وقدم القرطاس والدواة، وقال هيا يا عباس!!

ولا أكتمكم يا إخوان، لقد شرد مني الذهن، وتبلد الفكر، فتعذرت على كل عروض، ونفرت عني كل قافية، والرسل في كل فترة تعتبني، والأمير يستحثني، فما زلت أحاول وأداول حتى انفتح لي شيء. فجئت باربعة أبيات رضيتها إذ وقعت صحيحة المعنى، سهلة اللفظ، ملائمة لما طلب مني، وأخبرت عنها الوزير فقال في لهجة المستعجل: هاتها ففي أقل منها مقنع. وفي ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير الروى، ثم كتبت الأبيات الأربعة في صدر الرقعة وعقبت بالبيتين فقلت:

العاشقان كلاهما متغضب وكلاهما متوجد متعتب
صدت مغاضبة وصد مغاضباً وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحبتك الذين هجرتهم إن المتيم قلما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما دب السلوله وعز المطلب

ثم كتبت تحت ذلك:

لابد للعاشق من وقفة تكون بين الهجر والصرم
حتى إذا الهجر تمادى به راجع من يهوى على رغم

فدفع يحيي بالرقعة إلى من حملها إلى الرشيد، فلما وقف عليها قال: والله ما رأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأني قصدت به قصداً، ثم أخذ يعاود قراءتها وهو يقول: نعم! نعم! راجع من يهوى على رغم، أي والله أراجع على رغمي، لقد تمادى الهجر فلا بد أن أراجع، هات يا غلام النعل، ونهض فوصل ما انقطع

« البقية في ذيل الصفحة التالية »

البريد الأدبي

العالم الاسلامى اليوم

اطلعنا في بعض الصحف النمسوية الأخيرة على خلاصة آراء ومحاضرات يذيعها الدكتور يوليوس جرمانوس المستشرق المجرى فى الاسلام والعالم الاسلامى الحاضر ؛ وقد جاء الدكتور جرمانوس إلى مصر منذ عامين وقضى نحو أربعة أشهر فى تعلم اللغة العربية وحج إلى مكة (لأنه يعتنق الاسلام) ، ثم عاد إلى وطنه يلقى المحاضرات ويكتب المقالات العديدة عن العالم الاسلامى ، ويعلن فى كل فرصة أن أحداً لم يوفق مثل توفيقه إلى دراسة اللغة العربية وشئون العالم الاسلامى قاطبة . بيد أن الدكتور يبدى فى معظم الأحيان آراء لا تخرج فى جملتها عما نسمعه عن كثيرين غيره زاروا البلاد الاسلامية زيارات طائرة ، ثم زعموا أنهم يعرفون من أمرها ومن حاضرها ومستقبلها كل شىء ، فهو مثلا يقول عن اللغة العربية إنها تعتبر بالنسبة إلى اللغات (أو اللهجات) التى تتكلم بها الشعوب العربية مثل اللاتينية بالنسبة إلى اللغات الرومانية التى نشأت عنها ، وهذا تشبيه هو أبعد الأشياء عن الحقيقة لأن اللغة العربية لم يصبها فى أى عصر من عصور الركود ذلك الموت الذى اصاب اللاتينية ولأنها تكاد تكون بشكلها المصقول لغة الحديث العادى فى الطبقات المستنيرة بالبلاد العربية ، ثم يقول عن الاسلام انه أى الاسلام لايجوز اليوم نهضة ما ، وإنما الشعوب الاسلامية هى التى تجوز مثل هذه النهضة ، وأن الشباب فى جميع العالم الاسلامى يتأثر أشد التأثر بمبادىء مصطفى كمال واصلاحاته ، وأن مصر وسوريا والعراق وغيرها من الأمم الاسلامية ستسير فى أثر مصطفى كمال وتنهج منهجه ؛ والدكتور جرمانوس يخطىء فى هذا الرأى أشد الخطأ ، فقد أدركت الشعوب الاسلامية منذ بعيد ماتنطوى عليه الحركة الكمالية من الزيف والزيغ والخصومة المضطرمة للاسلام والعالم الاسلامى ؛ ولم تبق الحركة الكمالية عنوانا لغير تركيا التى أخرجت من عداد العالم الاسلامى ؛ ونستطيع أن نؤكد للدكتور جرمانوس أن مصر لم تتأثر فى يوم ما ولن تتأثر بمثل هذه الحركات الالحادية المفرقة . أما أن العالم الاسلامى لايجوز اليوم نهضة ما ، فكل الدلائل المعنوية والمادية تنم بالعكس عن نهضة إسلامية بعيدة المدى ، وهذه حقيقة يقررها كثيرون ممن هم أبعد نظرا وأكثر خبرة بشئون العالم الاسلامى من الدكتور جرمانوس

وفاة عميد الشعر الانكليزى

أشارت الرسالة فى العدد الماضى إلى وفاة الشاعر الانكليزى جون درنكوانز ، وكانت وفاته فجأة وهو فى عنفوان قوته

وكأن الخليفة قد أذهله السرور ، فلم يسأل عن الشاعر الذى أطربه ، ومضت فترة الرجاء وحسبت أنى نسيت فراودت نفسى بالانصراف وغدوت على يحيي أستاذنه فى ذلك فقال : مهلا ياعباس ! لقد أمسيت أنبل الناس ، إن ماردة لما وصلها الخليفة سألت عما حمله على ذلك فعلمت أنه الشعر ، وقد همها وهم الخليفة أن يعرفا الشاعر الذى قدم لهما هذه اليد فجاء الرسول يسألنى فى ذلك فقلت له إنه « العباس بن الأحنف » فامر لك الخليفة بجائزة طائلة ، وأمرت لك ماردة بأخرى ، ولك منى يا عباس الثالثة ، وإن من تمام اليد عندك ألا تخرج إلا فى الزى الجليل ، والمركب الفاره !!

فهذا يا إخوانى ما عاقنى عنكم ، فهلموا أقاسمكم ما نلت ، وأشاطركم ما كسبت فابينا وأبى ، وتمنعنا وأصر . ثم ذكر لنا الجارية ، وقال هيا نمضى اليها حتى نشتريها ، فمشينا إلى صاحبها وكانت جارية حلوة ظريفة لا تحسن شيئاً ، أكثر ما عندها ظرف اللسان وتأدية الرسائل ، وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار ، فلما رأى ميل المشترى أسام بها خمسمائة فلما أجبناه بالعجب حط مائة ثم حط مائة ، فقال العباس : مهلا يا إخوان ، إنى والله أحتشم أن أقول بعد ما قلتم ، ولكنها حاجة فى نفسى . فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ماكس فى ثمنها ، دعونى أعطه الخمسمائة كما طلب ، قلنا : وانه قد حط مائتين ، قال : وان فعل ؛ فصادف ذلك من مولاها رجلا حراً فأخذ ثلثمائة وجهزها بالمائتين ، وحملها إليه !

ألا رحم الله العباس وطيب ثراه ، فانه مازال الينا محسناً يرعى حق الأخوة فينا حتى فرق بيننا الموت !

محمد فهمى عبد اللطيف

وشاعريته ، ولما يبلغ بعد الخامسة والخمسين من عمره ، وقد فجع الشعر الانكليزي حقاً بوفاة درنكوانز ، ذلك أنه يعتبر منذ وفاة توماس هاردى ورديارد كبلنج عميد الشعر الانكليزى ، وكان مولده سنة ١٨٨٢ وتلقى تربيته فى أكسفورد وبرمنجهام ، وبدأ حياته كاتبا فى إحدى شركات التأمين ، وشغف بالمسرح والشعر منذ فتوته وعاون فى إنشاء مسرح برمنجهام التوقيعى الذى كان يشرف عليه الفنان الشهير السير بارى جاكسون . وظهرت له أول مجموعة شعرية فى سنة ١٩١١ بعنوان « الرجال والأوقات » Man and Hours ، وظهرت فى نفس العام أول قطعة مسرحية له موضوعة بالنظم ، ومنذ سنة ١٩١٤ يوالى درنكوانز اصدار مسرحياته ، وقد أحرزت جميعا نجاحا عظيما ، منها « الثورة » Rebellion ، وهى شعرية ، و « السيوف والمحاريث » Sowrds and ploughshares بيد أن أعظم قطعه المسرحية بلا مراء هى قطعته الشهيرة « ابراهام لنكولن » وقد مثلت لأول مرة سنة ١٩١٩ ، ورفعت شهرته إلى السماكين ، وفى سنة ١٩٢١ ظهرت قطعته « أوليفر كرومويل » ، بيد أنها لم تكن فى نجاحها وروعتها كسابقتها « ابراهام لنكولن » . وفى سنة ١٩٢٦ نشر درنكوانز رواية توماس هاردى الشهيرة « عمدة كستر بروج » فى صورة مسرحية . وكتب درنكوانز أيضاً عدة فصول نقدية بديعة ؛ ومن أبدعها وأقواها دراسته لحياة صديقه الشاعر روبرت بروك ، الذى توفى فى اليونان أثناء الحرب الكبرى

ومنذ عدة أعوام تزوج الشاعر من الموسيقية الشهيرة ، ديزى كندى ، وهى سيدة بارعة فى ثقافتها وفى فنها ، درست الموسيقى فى فينا وبرعت فى العزف على القيثارة براعة مدهشة ، وأحرزت شهرة عظيمة فى جميع عواصم القارة .

ويذكر القراء أن الشاعر الكبير وزوجته الفنانة البارعة قدما إلى مصر فى شتاء سنة ١٩٣٣ ، وسحرت ديزى كندى بفنها الرائع المجتمع المصرى الرفيع الذى هرع إلى سماع عزفها فى الحفلات التى أقيمت يومئذ .

صاحب الجلالة الملك فاروق يتحدث عن البلاد الاسلامية

قابل مندوب جريدة « ليزانال » جلالة الملك فاروق فأدلى إليه بالحديث التالى :

بدا الملك المحبوب حديثه قائلا :

لقد أصبحنا حلفاء انكلترا وسنعرف كيف نحافظ على هذا التحالف . إن شعبى يعترف بالجميل ، وهو ينسى الماضى ، ويعترف بالحاضر ، ويفكر فى المستقبل !

إن مصر كانت ولا تزال « عاصمة الاسلام » فى العالم الاسلامى ومركز الحركة الوطنية فيه ، وقد كان للعلائق الانكليزية المصرية الجديدة أكبر أثر فى جميع العالم الاسلامى

— وهل لمصر علاقة سياسية مباشرة مع البلاد الاسلامية ؟

— إن علائق المسلمين - ونستطيع أن نقول الشرقيين - هى علائق أخوة وتضامن واتحاد ، وإذا كان المصرى يهتم بقضيته الخاصة فانه لا ينسى قط قضايا البلاد العربية الأخرى . وإنك لتجد أن كل حادث يقع فى ناحية من أنحاء الشرق يشغل النفوس بسرعة فى القاهرة

— إذن تعتقد جلالتكم بوجود « الوحدة الاسلامية » ؟

— إن هذه الوحدة كما يفهمها الأوربيون ليست موجودة ؛ ولكن الشعور بالاتحاد والتضامن يعمر نفوس جميع المسلمين

إن اليقظة التى عمت البلاد الاسلامية - وخاصة البلاد العربية - بعد الحرب العامة ، بدأت تظهر بوضوح وصراحة . وسيكون للمسلمين شأن كبير فى المستقبل القريب

— وهل يضمر المسلمون روح « العداء للأجنبى »

المسلمون كثيرو التسامح ، وهم لا يضمرون عداء لأحد ، ولكنهم يطالبون بحريتهم واستقلالهم ، ويبدون استعدادهم لتوطيد علاقتهم الودية مع الأجانب

النقوش الأثرية فى الواحات المصرية

كثر تردد العلماء الأثريين فى العهد الأخير على الواحات المصرية ، فظهر أنها ميدان حسن للبحث والتنقيب ، وعثر العلماء فيها على كثير من النقوش القديمة التى ربما كانت ترجع إلى العصر الحجرى ، وعلى كثير من النقوش الفرعونية قد صورت على الصخور ، وعلى جدران بعض الابنية القديمة التى كشفت عنها الرمال ؛ وفيها صور لبعض مناظ الحياة الاجتماعية القديمة والحيوانات الضارية منقوشة إلى جانب بعض الآلهة المصرية القديمة ؛ وعثر المنقبون أخيرا على صور من طراز آخر منها صور تجار من اليونان والرومان ، وصور قوافل عربية أو بربرية قديمة ، ويقول العلامة الأثرى الألمانى الدكتور فنكلر أنه يستدل من النقوش المكتشفة أن الصحراء الواقعة على جانبى النيل كانت مسكونة منذ نحو ألف عام من البدو ؛ وأن هذه القبائل كانت تجرى على مثل الفراعنة فى عبادة بعض الحيوانات المقدسة ، وتوجد صور رجال قد تدلت شعورهم على أكتافهم ورجال قد زينوا رؤوسهم بالريش ؛ ويستدل من صور السفن المنقوشة على أن هذه القبائل لم تكن مصرية الأصل ، وأنها إنما نزحت من شواطىء البحر الأحمر الشرقية إلى الصحراء ؛ ولهذه النقوش أهمية خاصة فى الكشف عن أصول الشعوب التى سكنت هذه الوهاد فى العصر الغابر .

الكتب

فى سنن الله الكونية

تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى

عرض وتعليق — رجاء الى لجنة ترجمة معانى القرآن الكريم — واجب علمائنا الطبيعيين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

تفضل حضرة الأستاذ الجليل العالم المؤمن محمد أحمد الغمراوى المدرس بكلية الطب بالجامعة المصرية والمنتدب للتدريس بكلية أصول الدين من الجامعة الأزهرية فأهدى إلى نسخة من كتابه الحديث « فى سنن الله الكونية » فقلبت عينى فيه بشوق الذى يعرف علم الأستاذ بالطبيعة وفقهه فى الدين ، لأنى واحد من تلاميذ محاضراته ومحادثاته فى العلم والدين فى نادى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة ، تلك المحاضرات التى كان لها كبير الأثر فى أنى صرت « آخذ الاسلام بروح العلم وآخذ العلم بروح الاسلام » كما يجب أن يكون وكما حققه هو فى كتابه القيم ، اتباعا لمنهاج القرآن وتلبية لدعوته العقول إلى الطبيعة

والكتاب فى العلوم الطبيعية ، وقد درسه الأستاذ لطلاب قسم الوعظ والارشاد بالأزهر ، وقد وازنته بما درسته فى دور التعليم وما قرأته فى المجلات العلمية من جهة ما فيه من مادة العلم الطبيعى فقط ، وأؤكد للقارىء الكريم أننى خرجت منه بأشياء جديدة كثيرة ما عثرت عليها فى غيره على كثرة ما قرأت من هذه البحوث التى أحبها لأنها تصلنى بالحياة وقوانينها وسيرها بالأحياء . فى عبارة سهلة مشرقة محبوكة ، لأن المؤلف فوق أنه عالم طبيعى كبير ، هو أديب ضليع ومنطقى يقظ لكل ما يدور حول ما يكتبه . يشهد له بذلك كتاب « النقد التحليلى لكتاب (فى الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين بك » الذى بين به أن له قلما سابقا فى الآداب كسبقه فى العلم . « وفى سنن الله الكونية » يقع فى ٢٢٢ صفحة عدا الفهارس وهو مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب : الأول فى العلم والدين ، والثانى فى المادة وأصلها وخواصها وأحوالها وأنواعها وتغيراتها ... الخ ، والثالث فى الطاقة وأبحاثها وآثارها ... الخ

وأنت واجد فى المقدمة إهابة بالمسلمين ومعاهد الدراسة الاسلامية ألا يغفلوا مباحث الفطرة وعلوم سنن الحياة لأن العلم بها جزء من العلم بدينهم وأصل من أصول قرآنهم الذى يتحدث بخمس آياته عن الطبيعة والنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وكيف بدأ الخلق ... وأن يعلموا أن رجل الدين لا يسيغ العلم إلا إذا قدم له بروح الدين ، ورجل العلم لا يسيغ الدين إلا إذا قدم له بروح العلم ، وهى حقيقة نفسية يجب أن يلتفت إليها . وفى التمهيد بحث قيم عن موضوع العلوم الطبيعية وأثر دراستها فى الوصول إلى فاطر الخلق والتوحيد بها بين العقل والقلب والعلم والعبادة .

أما الباب الأول فهو بحث جديد قيم عن العلم والدين ، جدير بأن يترجم إلى المجامع العلمية ، وأن يدرس فى المعاهد الاسلامية ، لأن الأستاذ استطاع أن يبين بوضوح قرآنية اسم « العلم » بمعناه المحدود العصرى ، وقرآنية « موضوعه » ، وقرآنية « طريقته » ففتح بذلك فتحا جديدا « لعلم الكلام » الذى يجب أن يكون فى هذا العصر بعيدا عن منهج النظار والمتكلمين القدماء الذين كانوا يعتمدون على « تجريدات » الفلسفة اليونانية

إن قوانين العلم التى استخرجها الأستاذ من القرآن الكريم شىء ثمين جداً سيكون له أثر عظيم فى تطور الفلسفة الدينية ، وفى لفت الأنظار إلى القرآن الذى أتى بذلك قبل أن يأتى به فلاسفة العلم المحدثون بأحقاب وأزمان ؛ فالبرهان للإثبات ، والحذر من تطرق الظنى إلى اليقينى ، والغرضى إلى الظنى ، ومنع الخلط بين الأشخاص فى المبادىء ، ومنع التقاليد ، وتحكيم العقل العام ثم قانونا توافق واطراد الفطرة ، ثم اعتبار أصل المشاهدة واستعمال الحواس ، كل أولئك استطاع أن يتبسط فيه الأستاذ المؤلف بالشرح والبيان وأن يستخرج مستنداته من القرآن الكريم ، وأن يحبكه حبكة علمية باخراج فنى أخاذ

وأضف إلى ذلك أنه عقد مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث بين فيها كثيراً من أغلاط العلم القديم التى جره إليها طريقته وافتراضاته . وقد وقع بعض المسلمين فى خطأ كبير وإثم عظيم باعتمادهم على ذلك الأسلوب الفرضى حتى لقد بلغ بهم

الأمر أن كانوا يردون القرآن إليه مع أن منهاج القرآن فى طرق الاثبات والاستدلال واضح بينهم ينكر عليهم الشرود والوهم. ثم عقد الأستاذ فصلا بين فيه أدوار النظر العلمى من جمع الحقائق بالتجربة والمشاهدة، ثم استخراج القانون، وبين طرق اكتشاف قوانين الفطرة بالاستقراء والتلمس، ثم ضرب مثلين يوضحان طريقة التلمس، وختم هذا الباب القيم بهذا الكلام البديع : « إن هذه الحقائق الطبيعية التى يكشف عنها العلم ببحوثه إن هى إلا نوع من كلام الله أو هى كلمات الله الواقعة النافذة كما أن آيات القرآن هى كلمات الله الصادقة المنزلة. وقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات الله فى مثل قوله تعالى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » - (لقمان) « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف). وكلمات الله فى هاتين الآيتين الكريمتين لا يمكن أن تكون كلماته المنزلة على رسله لأن كلماته سبحانه فى كتبه المنزلة محصورة محدودة فى حين أن كلماته المشار إليها فى هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية. فلابد أن تكون هى كلماته النافذة فى خلقه والتى يبدو أثرها متجسما فيما نشاهد من الحوادث وفيما يكشف العلم من أسرار الكون. فالاسلام متسع للعلم كله حقائقه وفروضه؛ والمجتهد مثاب أخطأ أم أصاب ما دام يريد وجه الحق، وإن كان العلم لا يعرف إلى الآن أن سبيل الحق من سبيل الله »

* * *

أما بابا « المادة والطاقة » ففيهما يعرض الأستاذ المباحث الطبيعية عرض المطلع عليها فى مراجع العلم القديم والحديث، وفيهما مواقف ناجحة فى تطبيق بعض الآيات الكونية فى القرآن على حقائق العلم بما يضيف ثروة جديدة لنواحى إعجاز القرآن تمتلىء بها عقول الدعاة والوعاظ؛ ففى مباحث الجاذبية والأثير والظواهر الجوية والتمثيل الخضرى والضوء والظل والفىء حقائق أشار إليها القرآن يجدر بكل مسلم أن يعرفها ويجدر بلجنة ترجمة معانى القرآن أن تنتفع بها، فلا تقف عند ما كان يفهمه منها العرب الذين أنزل عليهم كما اشارت إلى ذلك فيما وضعته من القواعد الأولية التى تسير عليها فى الترجمة، فان القرآن ليس كتاب جيل واحد؛ ولنا أن نفهم منه غير ما كانوا يفهمون وبخاصة الآيات الكونية التى لم يكن علمهم ولا علم البشرية ليساعدهم على فهمها كما نفهمها نحن الآن. ولذلك كان القرآن يقول لهم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »، « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم »، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »، وإن فى وقوف الأستاذ المؤلف وهو عالم بقوانين الضوء والظل وفى القرن العشرين من قوله تعالى « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا »، ومن قوله « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً »، وقفة العالم أمام حقيقة لا تزال مخبأة.. لشاهداً قائماً على أن فى القرآن آيات لم تكن نازلة للجيل الذى شهد نزولها، فلا يصح أن نتحاكم نحن إلى فهمهم فيها مادام الزمن (أكبر مفسر للقرآن كما قال الشيخ حسن الطويل أستاذ الامام محمد عبده) قد أرانا بسير العلم وجها آخر يحتمله اللفظ ولا يأباه الأسلوب العربى

ولا يضر القرآن شيئا أن تتغير الأوجه العلمية التى يفسر بها كل جيل آياته، مادامت نصوصه هو ثابتة. وما دام كل جيل يجد فيه ما يرضيه، فان ذلك من أسرار إعجازه ومن عجائبه، فاذا فهمنا نحن مثلا معنى اللقاح من قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » على أنه تلاقح كهربائى بين الموجب والسالب فى السحاب كما فسر الأستاذ الغمراوى. وفهمنا سر الاستدلال على البعث من قوله تعالى « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا » كما بينه الأستاذ فأعتقد أنه لا يضر القرآن أن فهم من قبلنا فى هذين الموضعين وغيرهما وأن يفهم من بعدنا غير ما نفهم نحن الآن. على أن الوجه العلمى متى صار حقيقة دخلت فى صف الميراث العلمى الثابت، فحتوم على المفسرين أن يأخذوا به، كما يتحتم عليهم أن يؤولوا النص القطعى إذا لم يتفق ظاهره مع ما يلزمه العقل لتقرير القاعدة الأصولية.

* * *

وبعد فقد قرأت فى مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٣٧ قبل أن أقرأ كتاب الأستاذ الغمراوى ثلاث مقالات عن الذات الالهية لثلاثة من كبار علمائنا الطبيعيين هم : الدكتور على توفيق شوشة بك مدير معامل وزارة الصحة، والدكتور أحمد زكى بك مراقب مصلحة الكيمياء. والدكتور محمد ولى الاستاذ بكلية العلوم، فاذا بالدكتور شوشه بك يقول : إذا كان هناك أناس أحق بمعرفة الله ودرك عظمته والاقرار بوحدانيته فهم العلماء، ذلك لأنهم أكثر خلق الله اتصالا بالطبيعة وأقربهم إلى لمس غوامضها ثم يقول : إننى كلما جلست إلى المكرسكوب أو انصرفت إلى التجارب فى معملى لم أزدد إلا خشوعا أمام تلك القدرة الالهية »

وإذا بالدكتور زكى بك يقول فى آخر مقاله الطويل الممتع كأنه قصيدة، المطرب كأنه ترتيلة، المثبت لوحدانية الله بأسلوب عجيب. « وبعد فتسألونني: ما صورة الله؟ تلك هى صورته: تلك المشيئة الهائلة العاملة التى لا تنام ولا تغفل، تلك الارادة الواحدة التى تنتظم العالم جميعا ما عرفنا منه وما لم نعرف، تلك البصيرة النافذة فى كل شىء، الشاملة لكل شىء، التى هى ملء الأرض والسموات التى أنا وأنت من بعضها، تلك الوحدانية الشائعة الجبارة الغامضة، هى الصورة التى شاء الله أن نراها منه »

وإذا بالدكتور ولى يقول « هنالك يشعر الباحث الذى لم يتحيز إلى أى مذهب فلسفى والذى جرد نفسه من المؤثرات التى انكبت عليه أن هنالك سلطة وأن هنالك قدرة فوق كل هذه المحاولات، وتنزهت عن كل هذه الصفات التى تعودها فى أثناء بحثه واستقرائه » إلى أن يقول: « فالله هو هذه القدرة الباهرة التى تجردت عن الماديات وتنزهت عن كل ما هو مألوف للحواس »

قرأت هذا ثم قرأت كتاب الأستاذ الغمراوى الذى هو حجة من حجج إيمان العلماء، فاذا بى فى عجب وأسف من أمر هؤلاء الذين لم يعرفوا من العلم إلا قشوره وزيوفه وهم مع ذلك قد نصبوا أنفسهم دعاة للالحاد وإنكار الله استنادا إلى العلم! هؤلاء أكثرهم من الأدباء طالبى الشهرة الذين يغرهم ما « يصنعونه » من الألفاظ ويخيل اليهم غرورهم وفتنتهم بما يقولون أنهم متى صنعوا جملة من الألفاظ فان مواكب الزمان ستقف عن المسير، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، لأن أقلامهم هـذه معاول فيما يخيل إليهم، إذا ما أعملوها فى أهول الحقائق وأعظمها وأملئها للكون ألا وهى « فكرة الله » فان ذلك سيجعل البشرية تستجيب إليهم تاركة ما فى طبيعتها وما تنادى به الأكوان والأزمان من الايمان!

أجل إن أقلامهم معاول ولكنها لاتهدم إلا ضمير الجاهل أو طالب اللذة الذى يريد أن يتحلل من قيود هذه الفكرة، ومن رقابتها.

فهل آن الأوان لأن يجرد علماء الطبيعة - لا علماء الدين - حملة تدعو إلى الايمان بالله عن طريق العلم، حتى يدحضوا بها حجج أدعياء العلم والفلسفة ممن هم فى الواقع أعداء الجماعة وأنصار فوضى الضمائر والأوضاع كالشيوعيين الذين يحاربون الايمان بالله لأنه فى زعمهم منشأ الأوتوقراطية فيجب أن ينزلوه - تعالى عما يصفون - عن عرشه، كما أنزلوا القياصرة والمملكين!

إنى أعتقد أن ذلك من أوجب الواجبات على علماء الطبيعة الذين يعرفون الله أكثر من غيرهم والذين ما غرر بالناس إلا من طريق الانتساب إليهم. ولن يغنى البشرية شيئا انتفاعها المادى من علوم الطبيعة مادامت لاترى اليد الجبارة التى تدير قوانينها، ولا تسجد لها طوعا كما تسجد كرها. وها نحن أولاء نرى الانسانية تستحيل إلى قطعان من الحيوان لها من العلم الطبيعى سلاح لا تلطف وقعه تلك الفكرة الرحيمة التى تستمدها الضمائر من « رحمان » ولا يصده خوف من « جبار » ولا يمنعه خشية « من قيوم » على السموات والأرض، « ديان » للخلائق!

وإذا كان علماء الطبيعة من غير المسلمين لا يعترفون بإله معابدهم لأن له صورة غير صورة الإله الذى يجدون يده فى الطبيعة فهم لذلك بعيدون عن محيط الدعوة إلى الايمان والدين... فان من حسن الحظ فى الاسلام أن إله الطبيعة الذى وصل إلى الايمان به علماؤنا عن طريق الطبيعة... هو ذاته « الله » كما يصفه القرآن الكريم الذى ما مجد الطبيعة وظواهرها وما دعا إلى تعرف أسرارها كتاب مثل ما دعا... بل لقد بلغ من اعتزازه بها أنه لم يترك ظاهرة من ظواهرها إلا أقسم بها... فأقسم بالزمان والمكان والحيوان والنفس والفجر، والضحى والليل والنهار والشمس والقمر والرياح والنجم والشفق... إلى آخر ما فى الدنيا من ظواهر الخلق والأمر... أفلا يجب بعد هذا أن يبين علماء الطبيعة المسلمون أسرار هذه الاقسام؟ بلى إن ذلك من أمانة العلم قبل أمانة الدين

(بغداد) **عبد المنعم خلاف**

5 me Année, No. 198

Lundi - 19 - 4 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٣٤٥٥٠

العـــدد ١٩٨ «القاهرة فى يوم الاثنين ٨ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٩ أبريل سنة ١٩٣٧» السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

حول مؤتمر الامتيازات

منطق الواقـــع

مصر الآن أمام اثنتى عشرة دولة فى (مونترو)؛ تزيف الادعاء بالقانون، وتكفكف الغُلواء بالحزم، وتكشف المغالطة بالحجة، وتقول للذين ظلموها وظلموا العدل: ها أنذى أمامكم وجها لوجه، وعقلا لعقل، ولسانا للسان؛ أخاطبكم بلغاتكم كأنى منكم، وأجادلكم بعلومكم كأنى فيكم؛ فهل تجدوننى أقل منكم فقها لفلسفة التشريع، وعلما بمدنية العدل، وفهما لسياسة الحكم؟ هاهم أولاء بعض أبنائى أوفدتهم اليكم يحملون كلمتى ويمثلون ارادتى؛ فهل رأيتم أروع خطابا من النحاس، وأبرع برهانا من مكرم، وأقطع بيانا من ماهر؟ أليسوا هم حجتى العليا على أنكم تدافعون عن نظام لا يجد مساغا من طبيعة الناس، ولا مساكا من منطق الأشياء؟

لماذا تخشون أن يكون أمثال هؤلاء قضاة فى ديارهم بين مجرميكم، وهم يجرون مع أخياركم فى عنان، ولا يتخلفون عن أقطابكم فى ميدان؟

لماذا تأبون أن يتساوى الوطنى والأجنبى فى الحق والواجب، وأنتم ترون هذا النهر المبارك يفض عليكم النعمة، ويميزكم على أبنائه فى القسمة؟

***

ذلك ما تقوله مصر لخصومها (الممتازين) الذين احتشدوا

فى مونترو يفاوضونها فى تنظيم العدوان، ويعارضونها فى محو الاهانة. وهذا القول لاعيب فيه إلا اعتماده على الحق الذى زهق فى دول أوربا، واستناده إلى المنطق الذى اختنق فى كتب الفلاسفة. فلو أنه قيل على أسلوب الزمن الحاضر، وجرى على منهاج المنطق الحديث، لما قابله المكابرون إلا بالتصفيق. والمنطق الحديث منطق الفعل لا منطق القول. وإذا كان مدار المنطق الكلامى على القياس، فإن مدار المنطق العملى على الواقع؛ والواقع فى قانون الطبيعة له سلطان الأمر الموجود وقوة الشىء المحكوم به؛ والمفاوضة فيه تختلف عن المفاوضة فى النية المكتوبة والفكرة المقترحة.

كان بيننا وبين جيراننا فى المزرعة حد جرى عليه الخلاف فلم يتم، فاختلط الحق بالحق ودخل من ملكنا فى ملك الجار مقدار كبير. وفى الأسبوع الماضى ندبت الحكومة مهندسا يبين الحق المشتبه، ويعين الحد المجهول، فمسح الأرض، ورد المأخوذ، ودق الحديدة وحرر المحضر، وأمضاه الجيران وفيهم العمدة. وكان الحد بين مزرعتين، ولكن الخلاف بين قريتين، فاتفقنا نحن وهم على أن نقيم الحد فى اليوم التالى ونجعله مصفًّى ومروًى بينهما طريق. ولكننا علمنا فى الليل أنهم طمعوا فيما تحت أيديهم فلا يودون أن ينزلوا عنه. وتعليل هذا التحول يسير على من عرف غرائز الناس وخبر طبائع الريف. وفى الصباح الباكر كانت القرية فريقين: فريق الفأس والعمل وقد ذهب إلى المزرعة، وفريق المنطق والكلام وقد ذهب إلى القرية العنيدة. وانعقد مجلس القريتين فى دار العمدة؛ ثم انطلقت الألسنة البليغة تتجاوب بالعواطف الشاعرة تجاوب البلابل فى أعشاش الربيع. وكانت قوافى الأغاريد ترن موسيقاها بألفاظ الصداقة والود والمصاهرة والمجاورة والقانون والحق، فتطرب الآذان، وتهتز القلوب، وتشرق الأوجه.

فلما انتهينا إلى أن هناك حدا يجب أن يقام، وحقا يجب أن يُعطى، تكشر الوجه الضاحك، وتنكر الصوت الرخيم، وانتفخت لغاديد الشر، فتهور بالكلام وتهدد بالمعارضة؛ وكان فيهم رجل رشيد، فكان يملأ الدلو من حين إلى حين ويُفرغه على القوم فتقر الفورة ويهدأ الحديث. وفى فترة من تلك الفترات الساكنة، اقترح أن نجعل لجيراننا الطامعين أجلا متى حل وجب عليهم أن يردوا الحق من غير اعتراض ولا مطل. وارتاح القوم لهذا الحل لأنه يترك لهم العين ويأخذ منهم الأثر، ورضينا به نحن لأنه يحسم النزاع بين القريتين، ويذهب عن النفس المسالمة شعور الهزيمة.

وكان الخلاف أشد ما كان على مدة الأجل فبدأت بشهر وانتهت بخمسة. وكان الذين وضعوا أيديهم على الحق بالباطل أبسط لسانا فى الرفض، وأصلب عوداً فى القبول؛ أما نحن والقانون والحكومة فكان (ارتكازنا) على خلاء.

كتبنا الاتفاق وأمضوه بعد وقفات طويلة على كل نص من نصوصه؛ ثم أخذنا نستعد لنشيد الختام فى تمجيد الوئام والسلام، لولا رسول أقبل من الغيط يعلن أن رجال الفأس والكريك لم ينتظروا نتيجة المؤتمر. فحفروا المصفى، وشقوا المروى، وأقاموا الطريق، وحرثوا الأرض، وأنجزوا فى ساعتين، ما لا ينجز فى يومين.

كان هذا الخبر أضخم الدلاء التى صبت على المؤتمر، فشدهنا نحن، وخجلوا هم، وتذكر الجيران الأعزة حينئذ عواطف المصاهرة والمجاورة فقالوا: هذا هو الحق! ذلك ملككم وما ينبغى لأحد أن ينازعكم فيه!!

* * *

كان فى قدرة مصر أن تتخذ سياسة الأمر الواقع، فتلغى بإرادتها المطلقة هذه المعرة التى ورثتها عن الترك كما يورث الزهرى الافرنجي عن الأب المريض. ولو أنها آثرت هذه الخطة لوجدت حجتها فى القانون لا فى القوة، ولكن مصر الكريمة المضيافة لاتزال تجرى على أعراق آبائها الميامين فلا ترفع اليد ما دام يغنيها اللسان

على أن قوة الحق المصرى، وقدرة المفاوض المصرى، جعلتا القانون الأعزل أرفع صوتا من المدافع، وأبعد نفوذاً من القنابل. وأعجب العجب أن الأمم اللاتينية التى سايرت نهضتنا وعاشرت أمتنا قرناً وثلث قرن، كانت هى وحدها التى تجهل أن مصر دولة من دول البحر الأبيض لا أمة من أمم أفريقا، وأن لها ديناً سماوياً يهدى إلى الحق، وتشريعاً مدنياً يرمى إلى الخير، وخلقاً شرقياً يدعو إلى المحبة، وأن رعاياها كانوا قبل الامتيازات وبعدها يتقلبون فى خيرات النيل، ولا وزر لهم إلا أخلاق هذا الشعب النيل

احمد حسن الزيات

علي بك فوزي

للأستاذ أحمد أمين

لم يتجل لى وفاء المصرى وإخلاصه كما رأيته أول أمس فى جنازة أستاذى وصديق على بك فوزى. فقد استقبل النعش فى محطة مصر عدد كبير من أصدقائه وساروا فى مشهده يعزى بعضهم بعضا إذ أبى الفقيد أن يكون له ولد ولا مال ولا جاه؛ فكان أول مشهد عظيم رأيته لله وحده وكان أنبل ما رأيت منظر احمد باشا شفيق وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير يتحامل على صديق، ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا، ثم أسلم عليه وأسأله هل تعرف الفقيد فيقول: لا لم أره فى حياته؛ ولكنى سمعت بنبل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير فى جنازته.

***

رحمة الله عليه، فقد كان أمة وحده، ولم أر له نظيراً فى كل من عاشرت. ولئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر. متمدن على آخر طراز من طراز المدنية فى ملبسه وأناقته وآدابه ولباقته، متصوف إلى آخر حدود التصوف فى زهادته واحتقاره للمال والجاه والمناصب، وفوق ذلك كله فى روحانيته السامية.

لم يفخر فى حياته بنسب؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدخلا إلى نفسه، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذى قفز بفرسه من القلعة؛ وناهيك بعظمة المماليك أيام سطوتهم.

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير؛ ويتكلم الانجليزية كأحد أبنائها؛ ويحذق الفرنسية والألمانية والتركية. ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة، فاتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما ألف فيها؛ هذا الى صحة فى النقد وقوة فى الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأى مؤلف مهما عظم. ومع هذا كله تجلس اليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمى غبى جاهل بكل شىء، فهو ذهب خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتحكه وتصل إلى باطن نفسه؛ ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه، وحتى مع هؤلاء يقدم اليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو مختف وراء ذلك يحاول ألا يشعرك بنفسه، وإنما يشعرك بالفكرة نفسها، فكأن كلمة «أنا» لم تكن فى معجمه.

***

عرفته أول أمره أستاذاً لى بمدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الاسلامى؛ وتطاير إلينا قبل قدومه أخبار منثورة عن تاريخ حياته. إنه تخرج فى مدرسة المعلمين، ثم سافر فى بعثة الى انجلترا، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعتها، وهى أوصاف لم تتحمس لها كثيراً، فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبندقة الفارغة: منظر ولا مخبر، ورواء فى العين، ولا شىء فى اليدين؛ فقلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجاً فى اللسان ورطانة فى الألفاظ وإنكاراً لعظمة أى شىء مصرى، وعصبية لكل تافه أجنبى.

رحبسنا أنفاسنا عند قدومه نستطلع طلعته

دخل علينا رجل قصير القامة. يحاول أن يخفى قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه، أسمر اللون فى وسامة، واسع العينين فى خجل، كبير الرأس فى عظمة.

يتأبط كتباً كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه بين عربية وإنجليزية، ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره.

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها فى كل درسه، وفى كل دروسه بعد، وفى كل أحاديثه معنا فى الدرس، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة، فى طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربى والشعر العربى، مما لم أعرفه لأزهرى ولا لمدرس من دار العلوم. يجيد فهم عبارة الطبرى على صعوبتها، وابن خلدون على عمقها، والكتب الانجليزية العميقة، ويوضح ذلك كله بصياغة شهية لذيذة، ويطبعها كلها بالطابع العربى فلا تسمع لفظة انجليزية، ولا تستعصى عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية

ومما زادنا إعظاماً له أنه لم يكتف بالدرس بل اتصل أيضاً بنفوسنا ، فكان يخرج من الدرس أحياناً إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا ، وأخذنا بالنظام الشديد ، وكان يقدسه كل التقديس ، فيشمئز من الكلمة النابية ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلا عن موضعها ، ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ .

ولا تسل عنه في ورق الامتحان ، فقد كان يصحح أوراقنا في دقة غريبة ، ويأتي بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته في اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائي والخطأ التاريخي ، وينتقدنا انتقاداً لاذعاً لكن ظريفاً .

من أجل هذا كان الأستاذ المحبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الظريف والأستاذ العالم .

لم تطل دراسته في مدرسة القضاء ، وانتقل إلى وظيفة إدارية . ولم يطلب الانتقال لرغبة في مال فهو يحتقر المال ، ولا في جاه فهو يحتقر الجاه ، ولا رغبة عن التعليم فهو يحب التعليم ويصارحني أن أكبر غلطة ارتكبها أنه تحول من التعليم إلى الادارة ، ولكنه كان شديداً ، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديداً ، وكان لكل شخصيته القوية ، ولكل آراؤه في سياسة الطلبة ، فتصادما تصادماً نفسياً من غير أن ينبس أحدهما بكلمة ؛ وكان أن خرج « علي فوزي » من المدرسة آسفين عليه كل الأسف شاعرين أنه لا يمكن أن يعوض ، وكان « عاطف » أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة في استبقائه

كان حساساً إلى درجة لا تتصور . تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد ، والاشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة ، والإيماءة المعتادة فتحز في نفسه وتصل إلى أعماق قلبه .

فكيف يستطيع بعدُ أن يكون موظفاً ؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم ، كل منهم جرح نفسه جرحاً بل جروحاً . وأي الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهينات مع مرءوسيه ؟ وأي الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التي يوجهها إلى نفس كنفس علي « فوزي » ، وهو لا يرى أنها سهام أصلا بل قد يظنها نوعا من الملاطفة ؟ - لقد رآه وزير يكتب خطاباً بالانجليزية وأعجبته بلاغته فقال له : لعلك تحسن أن تكتب مثل هذا بالعربية ! فما كان أشدها وقعاً في نفسه .

ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق ، ويؤلمه أشد الألم الظلم الخفيف . وكان كل يوم يرى تصرفات في الوزارات لا تتفق والعدالة التي ينشدها : هذا يحابي المتملقين ، وهذا ينصر الأجانب على المصريين ، وهذا يمنح ترقيات وعلاوات لغير المستحقين

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات ؟ فهذا موظف في الدرجة الأولى وآخر في الدرجة الثانية ! إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتب صغير يزيد على القدم والكفاية ، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ، ويدل بها بعضهم على بعض

لا . لا . ثارت نفسه على كل ذلك ، في هدوء وسكون ، ومن غير أن يشعر أحد من أصدقائه دبّر أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية ، وألح في طلب إحالته إلى المعاش ، فكان له ذلك . ورضي بنحو خمسة وعشرين جنيها في الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسبان معاشات

***

بل ليست الوظيفة وحدها هي التي يجب الفرار منها ، بل يجب الفرار أيضاً من مصر ، فما مصر هذه التي يحكمها الأجنبي وتستسلم له ؟ وما مصر التي يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها ؟ وما مصر التي تجلس في مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومي الذي يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك ، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به ما يفعل بك ؟ وما مصر التي لم تستطع أن تكون غنية في أطبائها وعلمائها وتجارها وصناعها ولم تزل عالة في كل ذلك على غيرها ؟ لابد إذن من الهرب من الوظيفة ومن مصر معا

خرج من مصر ساخطاً غاضباً آسفاً حزيناً ، خرج هائماً على وجهه يمثل دور جده . لقد كان جده المملوك الشارد ، فكان هو الحر الشارد

خرج إلى أوربا هائماً في ممالكها ، ولكنه كان فيها مستوحشاً ،

نعم إنه يتكلم لغاتها ويفهم مدنياتها ولكن ليس قومها قومه، ولا دينها دينه، ولا روحانيتها روحانيته. ثم ألقى عصاه فى الأستانة عقب الحرب واطمأن إليها، فهى هى البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الاسلامية؛ وهى هى التى لا تذلها الامتيازات الأجنبية؛ وهى التى يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التى تشق السحاب. من أجل هذا اختار السكن فيها، وفى الأحياء الوطنية لا الأجنبية، واتخذ مجلسه فى مقهى تركى بلدى تحت شجرة زيزفون بجوار حائط مسجد بايزيد

ثم حاول اصدقاؤه جهدهم أن يحولوه عن رأيه ويعدلوا به عن غربته، فذهبت محاولتهم عبثا. عرضوا عليه وظائف مختلفة الالوان كان آخرها مدير دار الكتب، فكان جوابه: متى عرفتم سبب خروجى من الوظيفة وسبب خروجى من مصر لم تعرضوا هذا العرض؛ فالاصل قبل الفرع، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى

***

قد رزق عيناً يرى بها غير ما يرى جمهور الناس؛ فكثيراً ما كان يحتقر من يجله الناس، ويجل من يحتقره الناس، لأن له مقاييس فى التقدير تختلف عن مقاييس الناس. ليس فى مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه، ولا منظر، ولا حسب، ولا نسب.

حتى مكانه العام الذى كان يختاره لمقابلة أصدقائه لا يختاره لوجاهته، وإنما يختاره لنظافته، ولأن صاحبه مسلم، ولأنه يتنفس فيه جواً شرقيا لا غربيا، ولأنه ليس فيه امتيازات أجنبية، وهكذا من اعتبارات متعددة لم أستطع أن أعرف منه إلا بعضها

ويفضل أن يزور حلاقا كان زميلا له فى المدرسة على أن يزور باشا من الباشوات أو من يعده الناس كبيراً من الكبراء

***

قد أعظمه فى عيوننا صغر الدنيا فى عينه؛ فليس للمال عنده إلا وظيفتان: قليله يتبلغ به ويسد حاجاته الضرورية، وكثيرة للمروءة. وأعرف له فى ذلك فصولا غاية فى السمو، فلقد كان حيناً يسكن فى أسرة أوربية عميدها فرنسى، وربة الدار ألمانية ولهما ابن وبنت. حتى إذا نشبت الحرب العظمى جند عميد الأسرة. فأحلت الاسرة فقيدنا محله على رأس المائدة.

وكان كثيراً ما يدور الجدال على المائدة فى نظريات الحرب وخصوصا الفتى والفتاة، فكان الفتى يذهب مذهب أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها، والبنت تذهب مذهب أمها وتتعصب لألمانيا وحلفائها؛ ثم كان من الفتى أن طعن تركيا فى سمعتها وقيمتها. ولم يكن يعرف عصبية الفقيد لتركيا، فلم يعد على فوزى يطيق البقاء بعد فى البيت، ولكن ماذا يصنع ووفاؤه يقضى بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها، وعصبيته التركية تأبى أن يسكن فى البيت بعد ما كان من الفتى؟ لا يحل هذا الاشكال إلا احتقار المال. فقد تظاهر بأنه يأخذ درسا على السيدة الألمانية ودفع ما كان يدفعه أيام سكناه لم ينقص منه شيئاً وإن قل ذهابه بعد ذلك لأخذ الدرس

وكان منظره فى استانبول غريبا: يجلس فى مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون فهو يمنحهم ما أمكنه وهو الفقير الذى لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنيها، ينفق منها ثلثها على نفسه وثلثيها على مروءته، وطويل أن نعد مآثره فى هذا الباب

أحب العزلة وأكثر التفكير، فهو فى بيته وحده، إذ لا زوجة له ولا ولد، وفى تروضه وحده غالبا؛ هو وحده فى أكثر أوقاته، صديقه الكتاب، ثم ضعفت أعصابه ففقد صداقة الكتاب أيضاً إلا نادراً، وكان تفكيره فى العالم حيناً وفى نفسه كثيراً

وهذه حالة تستتبع الوحشة وتستتبع التشاؤم، وتستتبع الحزن والانقباض، وكذلك كان شانه

غلب عليه الخجل فى غلو، والخجل — كما يقول بعض علماء النفس — سببه كثرة تفكير الإنسان فى نفسه، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون مشيته؛ وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه؛ وإذا تحرك أو سكن أو تنفس فالناس يعدون حركاته وسكناته وأنفاسه؛ فكان هذا الخلق فيه أكثر شقائه. وبلغت به الحالة أن كان فى آخر أيامه إذا جلس فى مقهى اختار مكانه وراء عمود، وإذا سكن فى «بنسيون» صحا قبل أن يصحو

فى التاريخ السياسى

الدستور الهندى الجديد

هل يكون نذير ثورة قومية جديدة

لمؤرخ كبير

الهند الآن فى مفتتح عهد جديد من تاريخها قد يكون بدء استقرار وسكينة ، وقد يكون فاتحة مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية وبريطانيا العظمى . والمسألة الهندية تعود فتشغل الأذهان فى الهند وفى انكلترا ، وتستغرق أعظم جانب من اهتمام السياسة البريطانية . ذلك أن دستور الهند الجديد قد بدىء تطبيقه منذ أول ابريل الجارى ، وهو الدستور الذى أقره البرلمان الانكليزى بعد مناقشات طويلة عنيفة ، وصدر فى يناير سنة ١٩٣٥ باسم « قانون حكومة الهند » Government of India Bill ، مؤلفاً من أربعمائة وإحدى وخمسين مادة ، وخمسة عشر ملحقا على أن يبدأ تطبيقه منذ أول ابريل سنة ١٩٣٧

وقد اقترن تطبيق الدستور الجديد بحوادث داخلية خطيرة . ذلك أن الانتخابات التشريعية أجريت طبقاً لنصوص الدستور الجديد فى شهر فبراير الماضى ، فى إحدى عشرة ولاية تضم مجالسها التشريعية ١٥٨٥ كرسياً ، فتقدم لها نحو خمسة آلاف مرشح ؛ هذا عدا المجالس التشريعية العليا التى تضم ٢٦٠ كرسيا ؛ وبلغ عدد الناخبين نحو ثلاثين مليونا منهم خمسة ملايين امرأة ؛ ففاز حزب المؤتمر الوطنى وهو أعظم الأحزاب الهندية وحزب الوطنية المتطرفة ، وزعيمه الباندت جواهرلال نهرو بالأغلبية المطلقة فى ست ولايات من الاحدى عشرة . وكان المفهوم أن الحكومة المحلية الجديدة تؤلف من الأغلبية البرلمانية على قاعدة المسئولية الوزارية طبقاً للدستور الجديد ؛ ولكن حزب المؤتمر رفض أن يضطلع بأعباء الحكم فى الولايات التى فاز فيها ، فلجأت الحكومة البريطانية إلى اختيار أعضاء الحكومات الجديدة بطريق التعيين حسبما نص عليه الدستور أيضا ؛ بيد أن هذا الاجراء لا يمكن ان يعتبر فى بداية العهد الجديد حلا موفقا ، بل ربما كان بالعكس نذير مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية والسياسه البريطانية

وترجع هذه المقاطعة من جانب حزب المؤتمر ، حسبما صرح وزير الهند اللورد زتلاند فى مجلس اللوردات إلى ماطلبه حزب المؤتمر من ضمانات خاصة لتولى اعباء الحكم ؛ خلاصتها أن يتعهد الحاكم بأن يتبع مشورة وزرائه وألا يخالف القرارات الدستورية ، وألا يستعمل سلطته الخاصة فى التدخل أو الضغط على الوزارة ، وهى عهود أبى الحكام أن يقطعوها لحزب المؤتمر . وترتب على ذلك أن قرر الحزب التنحى عن قبول اعباء الحكم ، فخلق بهذا التنحى موقفا فى غاية الخطورة والحرج ؛ ويتأهب الحزب الآن ليخوض عن طريق المعارضة البرلمانية نضالا عنيفا لا يمكن التنبؤ بعواقبه

***

والدستور الهندى الجديد هو أقصى مرحلة بلغتها السياسة

الناس وعاد بعد أن ينام الناس حتى لا يراه الناس : وإذا عزم على الرياضة فليلا حتى تستره ظلمة الليل ، وإذا مشى فى الشارع ليلا اختار من الشوارع أحلاها من الناس

***

تملكه خلق الرحمة فظهر منه فى كل شىء : رحم الناس فخرج لهم عن ماله . ورحم المرأة فابى أن يتزوج ، ورحم الحيوان فعاش نباتيا ، وأخيراً رحم نفسه . وويل للإنسان إذا رحم نفسه وأشفق عليها ! إنه ليعذب فى ذلك عذابا لا يعذبه أحد . نعمة كبرى أن يرحم الإنسان غيره ، وشقوة كبرى أن يرحم الانسان نفسه ، فالرحمة استضعاف للمرحوم ، فاذا استضعف نفسه فهناك الألم وهناك الحسرة ، وهنك فقدان الثقة بالنفس ، وهناك انسحاب من الجهاد فى الحياة ، وهل الحياة إلا جهاد ؟

رحم الله « على فوزى » فقد عاش غريبا ، ومات غريبا ، وأخشى أن يبعث غريبا

احمد أمين

البريطانية فى تحقيق الأمانى الهندية فى سبيل الحكم الذاتى؛ وكان أول خطوة قطعتها السياسة البريطانية فى هذا السبيل فى سنة ١٩١٩، غداة الحرب الكبرى، حينما رأت أن تثيب الهند البريطانية عما قدمت لبريطانيا العظمى من جليل المعاونات فى الحرب الكبرى. ففى ديسمبر سنة ١٩١٩، استصدرت الحكومة البريطانية دستور الهند الجديد المعروف بدستور مونتاجو وشلمسفورد؛ والأول وزير الهند والثانى نائب الملك فى ذلك الحين؛ وبمقتضى هذا الدستور منحت الهند لأول مرة بعض الحقوق والمزايا الدستورية المحدودة؛ فألغى المجلس التشريعى الذى كان خاضعا لرأى نائب الملك، وأنشئت مكانه هيئة تشريعية جديدة تضم هيئتين: الأولى مجلس الدولة Council of state والثانية الجمعية التشريعية Legislative Assembly، وتؤلف الأولى من ستين عضوا منهم ستة وعشرون معينون، والثانية من مائة وأربعة وأربعين عضوا منهم أربعون معينون؛ واختصت الحكومة المركزية بالنظر فى الشئون السياسية والمالية والدفاع الوطنى والاشراف على الامارات وقصرت مهمة الحكومات المحلية (حكومات الولايات) على معالجة الشئون الادارية؛ ونص فى الدستور الجديد على أنه مؤقت وأنه تمهيد لانشاء الحكم الذاتى، وأنه سيعاد النظر فيه بعد فترة انتقالية قدرت بعشرة أعوام

ولكن هذه المنحة الضئيلة كانت صدمة شديدة للأمانى الهندية، فاضطرمت الهند من أقصاها إلى أقصاها بفورة قوية من السخط، وظهر مهاتما غاندى فى الميدان يذكى ضرام الحركة الوطنية بدعوته الى المقاطعة السلبية والعصيان المدنى، وجازت الهند مرحلة عنيفة من الاضطراب؛ ولجأت السياسة البريطانية الى وسائل القمع المنظم. وفى سنة ١٩٢٨ بدأت اللجنة الدستورية أو لجنة الاصلاح الدستورى التى ألفت برياسة السير جون سيمون مهمتها فى درس المسألة الهندية، وكان تألفها تطبيقا لدستور مونتاجو وشلمفورد، اذ نص على اعادة النظر فيه بعد عشرة أعوام، وحددت مهمة اللجنة الجوهرية بما يأتى:

ان تبحث فى كيفية سير الادارة الحكومية، ونمو التعليم وتقدم النظم النيابية فى الهند البريطانية وما يتعلق بذلك من الشئون، ثم التقرير عما اذا كان يرغب فى تطبيق مبدأ الحكومة الذاتية والى أى حد، أو ما اذا كان يجب توسيع او تعديل أو تقييد مرحلة الحكم الذاتى القائمة، ويدخل فى ذلك بحث ما اذا كان يرغب فى إنشاء قاعة تشريعية اخرى فى المجالس التشريعية المحلية. واستمرت اللجنة فى طوافها ودراستها بالهند مدى أشهر، وانقسم الرأى العام فى الهند ازاءها قسمين، فريق يؤيد التعاون معها، وفريق وهو الأغلبية يدعو الى مقاطعتها. وفى أواخر سنة ١٩٢٩ ألقى اللورد ايروين نائب الملك تصريحه المشهور بان الغاية التى تتوخاها الحكومة البريطانية من الاصلاح الدستورى هى الوصول بالهند الى مركز الأملاك المستقلة (نظام الدومنيون)؛ فبث هذا التصريح فى الحركة القومية روحا جديدا، وأيقنت انها سائرة الى الظفر، ونزل غاندى الى ميدان النضال كرة أخرى، وقام بحملته الشهيرة فى سبيل العصيان المدنى، وعادت السياسة البريطانية الى خطة القمع العنف، وقبض على غاندى وآلاف عدة من أنصاره، ولكن الاضطراب بلغ حدا اضطرت معه السياسة البريطانية الى التراجع، فتفاوض نائب الملك مع غاندى، وأطلق سراح الزعيم الكبير، واتفق على أن يشهد مؤتمر الهند الذى أزمع عقده فى لندن لبحث المسألة الهندية وان تلغى حكومة الهند جميع اجراءات القمع التى اتخذتها

وفى أثناء ذلك صدر تقرير لجنة سيمون فى مجلد ضخم، وفيه بحوث ضافية عن أحوال الهند الاجتماعية والطائفية. وخلاصة رأى اللجنة هو أن تجربة الاصلاح الدستورى مدى الأعوام العشرة ليست كافية لتقرير الخطة الدستورية الملائمة، وان الشعب الهندى، نظرا لظروفه الجنسية والطائفية، وما يفرق بين عناصره من اختلافات عميقة فى الدين واللغة والتقاليد والعادات والخواص، ليس أهلا للتمتع بحكومة ذاتية مسؤولة؛ وأما فيما يتعلق بالتوصيات، فقد أوصت اللجنة بعدة اصلاحات نظامية وادارية خلاصتها أن تعتبر الهند البريطانية دولة متحدة قوامها الولايات، وان تعدل حدود الأقاليم الحالية، وأن يمنح حق الانتخاب لبعض الطبقات بشروط معينة، وان يستبق المبدأ الطائفى فى توزيع الدوائر الانتخابية، وان تفصل ولاية بورما عن الهند لأنها تكون وحدة مستقلة، وبعض توصيات

ثانوية أخرى لاصلاح التعليم والنظم الادارية . وهكذا جاءت توصيات لجنة سيمون ضربة جديدة للأمانى الهندية القومية ؛ بيد أن الحكومة البريطانية أشارت يومئذ الى أن توصيات اللجنة لا تخرج عن الآراء الاستشارية ، وانمسالة الهند برمتها ستبحث فى المؤتمر الخاص بذلك ؛ وعاون اللورد ايروين بتصريحه بان الحكومة البريطانية تبغى بالاصلاح الدستورى أن تصل بالهند الى مركز « الدومنيون » ، على تهدئة الرأى العام والتمهيد لعقد المؤتمر فى نوع من التفاهم والوئام

***

وفى اكتوبر سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر الهند المعروف بمؤتمر المائدة المستديرة فى لندن ، وشهده غاندى ممثلا للهند مع عدد كبير من الزعماء الهنود يمثلون مختلف الطوائف والاحزاب ، ولكن المؤتمر عقد فى جو من الاضطراب والخلاف ، وانشق ممثلو الهند على أنفسهم فى المسألة الطائفية ، فرأى غاندى أن يتمسك بالانتخاب المطلق ، ورأى المسلمون ان يحتفظوا بالحقوق والنسب الطائفية . ولما اشتد الجدل والخلاف ، وعجز المؤتمر عن الوصول الى اتفاق شامل ، أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستتناول الأمر بيدها مادام الهنود أنفسهم لم يتفقوا

وهكذا استعادت الحكومة البريطانية حريتها فى العمل ، واتخذت تقرير لجنة سيمون ومقترحاتها أساسا لوضع الدستور الهندى الجديد ؛ وصدر قانون الهند الجديد فى يناير سنة ١٩٣٥ بعد مباحثات ومفاوضات شاقة بين الحكومة والأحزاب ، وبعد مناقشات عنيفة داخل البرلمان وخارجه ، وبدىء بتطبيقه فى الهند البريطانية منذ أول ابريل سنة ١٩٣٧ حسبما نص فيه ؛ فغدت الهند دولة اتحادية ، واستقلت ولاية بورما بشئونها ، وأجريت الانتخابات الأولى طبقا للدستور الجديد حسبما قدمنا

وقد شرح نائب الملك اللورد لنلثجو مذ كان رئيسا للجنة الهند قواعد الدستور الجديد فى بيان رسمى جاء فيه : « يقضى النظام الحالى بان تشرف الحكومة المركزية على أعمال الحكومات المحلية وتراقبها . ولكن الدستور الجديد يرفع هذا الاشراف ، وتغدو الحكومات المحلية مستقلة فى معظم شئونها ، ويتمتع السكان بحكوماتهم المسئولة . أما الحكومة المركزية الجديدة فسوف تغدو حكومة اتحادية

« بيد أن الحكومة المركزية تحتفظ بالنظر فى مسائل الدفاع عن البلاد وفى مسائل السياسة الخارجية ، وليس لوزرائها أن ينصحوها فى هذه الشئون . كذلك يعتبر كل حاكم ولاية مسئولا عن حفظ الأمن والنظام فى ولايته ، وله الحق فى أن يتخذ ما يجب من الاجراءات الضرورية دون رأى وزرائه

« وسيتلقى حاكم الولاية التعليمات مباشرة من وزير الهند ، كما يتلقى التعليمات من الحكومة المركزية . وهكذا نستطيع أن نقول ان الولايات الهندية ستحكم طبقا لآراء الوزراء الهنود المسئولين أمام البرلمانات المنتخبة ، ماعدا بعض مسائل خاصة تبقى خاضعة لإشراف البرلمان الانكليزى »

والآن يطبق الدستور الجديد فى ظروف دقيقة ويقف حزب المؤتمر الوطنى بعد ظفره بالأغلبية البرلمانية المطلقة فى الولايات الست موقف المعارضة . ولقد أعلن زعيم الحزب الباندت نهرو قبيل بدء الانتخابات ان حزبه يعارض الدستور الجديد منذ البداية ، وانه يخوض الانتخابات لا لكى يتعاون مع الحكومة ، ولكن لكى يستعين على محاربتها بالأغلبية البرلمانية ؛ وقد نفذ الحزب وعيده فأبى أن يضطلع بأعباء الحكم فى الولايات الست لأنه لم يحصل على الضمانات المطلوبة ، واضطرت السلطة التنفيذية أن تقيم حكومات من عندها ؛ وبذا يشل تطبيق الدستور الجديد منذ الساعة الأولى . والمعارضة تقوى كل يوم وتشتد ؛ فماذا تزمع السياسة البريطانية أن تفعل ؟ ان السياسة البريطانية لابد أن تجد لها مخرجا من هذا المازق سواء بالتفاهم والمفاوضة ، أو بالمضى فى تجاهل المعارضة وتحديها ؛ بيد أنها سوف تؤثر خطة اللين بلا ريب ؛ وقد رأت السياسة البريطانية ان تقف فى تحقيق الأمانى الهندية فى سبيل الحكم الذاتى عند هذا الحد المتواضع بعد أن لوحت للهند ابان اضطرام الحركة الوطنية ، بامنية الاستقلال الذاتى . أما اليوم وقد خبت الحركة الوطنية ، وسرى اليها التفرق والوهن ، فان الهند لا تستطيع أن تطمح الى نيل المزيد دون أن تخوض مرحلة جديدة من النضال

« مؤرخ »

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

– ٦ –

قد يكون أنصار المادية المفرطة معذورين فى زعمهم أن ليس ثمت إلا الجسم وأجهزته والمخ وآثاره، فانهم يرجعون الظواهر العقلية على اختلافها إلى مصدر ثابت ومنبع معين. كما أن المثاليين الغلاة يتفادون بعض الصعوبات حين يذهبون إلى أن النفس وحدها هى الحقيقة، وما وراءها صور وأوهام فان هؤلاء وهؤلاء لا يعترفون إلا باصل واحد ماديا كان أو روحياً يبنون عليه تفسيراتهم وحلولهم. أما من يقولون بالجسم والنفس، بالمادى والروحى، بالثنائية على العموم، فانهم يصطدمون بعقبة لم يجدوا السبيل إلى تذليلها. وكيف يمكن ربط المختلف والتوفيق بين المتنافر وضم أمرين من طبيعتين متغايرتين أحدهما إلى الآخر؟ لهذا كانت الصلة بين الجسم والنفس عقدة العقد ومشكل المشاكل فى كل مراحل التاريخ

فقديما نرى أفلاطون، وهو أكبر ممثل للثنائية لدى اليونان، مضطرباً وغامضاً إزاء هذه المشكلة، فيقول حينا إن النفس متميزة كل التميز من الجسم وانها الانسان على الحقيقة، ويظن حيناً آخر أنهما على اتصال وثيق وبينهما عراك دائم، فالجسم يصرف النفس عن الفكر ويجلب عليها آلاما كثيرة بميوله وأهوائه، وهى من جهة أخرى تحاربه وتجدُّ فى الخلاص منه، ولكن كيف يتم هذا التفاعل ويلتق الجسم بالنفس ويؤثر كل منهما فى الآخر؟ هذا ما لم يجب عليه أفلاطون. ولعل أرسطو قد حاول التخلص من هذا المأزق حين ذهب إلى أن النفس صورة للجسم؛ والصورة والمادة متصلان ومتداخلان بحيث يكونان شيئاً واحداً. بيد أن هذا الحل غامض كذلك ولا يخطو بنا إلى الأمام كثيراً. ومع هذا فقد قدر له نجاح كبير فى القرون الوسطى؛ فان أغلب الفلاسفة المدرسيين يزعمون أن النفس صورة للجسم فى الوقت الذى يقررون فيه أنها جوهر روحى ذو شخصية مستقلة، وهذا تناقض مكشوف

وفى التاريخ الحديث يعيدها ديكارت جذعة، ويثير هذا الموضوع فى شكل حاد، ويقول بجوهرية الجسم والنفس معاً مميزاً الأول بالحيز والثانية بالتفكير؛ وهذه هى الثنائية الأفلاطونية فى أجلى مظهر. ولكن عبثا حاول ربط هذين الجوهرين أو إيجاد علاقة بينهما. ثم طمع أتباعه فى أن يتلافوا هذا النقص فلم يكونوا أعظم منه خطأ. وربما كانت فكرة التناسق الأزلى التى قال بها ليبتنز هى أشهر محاولة فى هذا الباب، فهو يعتقد أن الجسم والنفس نسقا أزلا بحيث يتفقان وإن صار كل منهما فى طريق خاصة؛ وخضوع الأول لقوانين السببية لا يحول دونه، والارتباط بالأخيرة التى تخضع لقوانين الغائية. وما أشبههما بساعتين محكمتى الصنع تلتقيان فى قياس الزمن، وإن كانتا تبينانه بأشكال مختلفة. تصوير جميل ومهارة فى التوفيق، شأن ليبتنز فى كل فلسفته؛ غير أنه فى الواقع توفيق صورى وربط خيالى، فان مؤداه أن لا صلة بين الجسم والنفس، أو أن الصلة بينهما أنهما لا يتعارضان ولا يتعاكسان

لم يغفل ابن سينا هذه المشكلة ولم يتردد فى حلها وتوضيحها، وكيف يغفلها وهو من أنصار الروحية والثنائية؟ وقد سبق لنا أن لخصنا البراهين العديدة التى يستدل بها على جوهرية النفس وروحانيتها. وفى رأيه أن الجسم والنفس متصلان اتصالا وثيقا ومتعاونان دون انقطاع. فلولا النفس ما كان الجسم، فانها مصدر حياته والمدبرة لأمره والمنظمة لقواه. ولولا الجسم ما كانت النفس. فان تهيؤه لقبولها شرط لوجودها، وتخصصه بها مبدأ وحدتها واستقلالها؛ ولا يمكن أن توجد نفس إلا أن وجدت المادة الجسمية المعدة لها! فهى منذ نشأتها تواقة إلى الجسم ومتعلقة به ومخلوقة لأجله. وفى أدائها لمهامها الكثيرة تستخدمه وتعول عليه. ويكفى أن نشير إلى التفكير الذى هو عملها الخاص فانه لا يتم إلا أن أزقتها الحواس بآثارها (١). وواضح أن العقلى ذو دخل كبير فى الجسمى، فرب فكرة هيجت الجسم وأحدثت فيه انفعالات كثيرة،

(١) ابن سينا، الشفاء، ج ١، ص ٢٥٢ - ٣٠٣ : النجاة، ٢٩٧ - ٢٩٩.

وللجسمى أيضاً أثر على العقلى ، فقد تنتج الحركة فكرة ويبعث اعتدال المزاج على الغبطة والسرور(١) . يقول ابن سينا : « انظر انك اذا استشعرت جانب الله وفكرت فى جبروته كيف يقشعر جلدك ويقف شعرك ، وهذه الانفعالات والملكات قد تكون أقوى وقد تكون أضعف ، ولولا هذه الهيئات ما كانت نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك أو الاستشاطة غضباً من نفس بعض(٢) » .

فهناك علاقة إذن بين الجسم والنفس وتأثير متبادل ؛ وهذا قدر يتفق عليه كل أنصار المذهب الروحى ولا يعز عليهم إثباته ، ولكن المشكلة هى : كيف يتم هذا التأثير وكيف يلتقى الجسمى بالنفسى ؟ لكى يجيب ابن سينا على هذا السؤال يلجأ إلى طبه مستمداً منه بعض الملاحظات الفسيولوجية ، فيوزع أولا قوى النفس المختلفة على أجزاء الرأس ويعد لكل واحدة منها مقراً معينا . فالحس المشترك مثلا متمركز فى اول التجويف المقدم للدماغ ، والمصورة فى آخر هذا التجويف ، والوهم فى نهاية التجويف الأوسط ، والحافظة فى التجويف المؤخر(٣) . ويلاحظ ثانيا أنه لابد لهذه القوى من خدم تنفذ أوامرها ومطايا تحمل آثارها . ومطيتها جميعا جسم لطيف روحانى منتشر فى الجسم ، يخرج من القلب ويمتد إلى سائر الأطراف ، ولا أدل على هذا من أنه إذا تصلب أو انسدت مسالكه انقطعت الحركة والإحساس . وهذا الجسم هو الروح التى تمد الأعضاء بالحرارة الضرورية للحياة وتربط القوى النفسية بعضها ببعض ، فكأن القلب الجزء الرئيسى الذى يلتقى فيه الروحى بالمادى والعقلى بالجسمى . حقا إن الدماغ يشرف على الجهاز العصبى ويتقبل الاحساسات ويدفع إلى الحركة ، ولكنه هو أيضا خاضع للقلب ومحتاج إلى الحرارة العضوية التى يبعث بها أليه(٤)

هذه الفسيولوجيا تصعد إلى جالينوس وأبقراط وتمت بنسب ألى ارسطو . فان تركيز قوى النفس فى مناطق خاصة من الدماغ أمر عنى به جالينوس ، ثم أخذه عنه العرب فى شىء من التصرف ، فنراه لدى الفارابى كما نراه لدى ابن سينا وأغلب الأطباء والفلاسفة المسلمين . والروح التى تربط القوى النفسية باجزاء الجسم وتنفذ أوامرها ليست شيئا آخر سوى الأبنيما (Pneuma) التى قال بها اليونانيون الأول . وذلك أن ديوجين الأبولونى يزعم أن التفكير إنما يتولد من ذلك الهواء الذى يسبح فى أوردة الجسم وشرايينه(١) . ويقول هيرافليط إن التنفس يغذى النفس بالهواء الذى لولاه ما كانت حياة ولا عقل(٣) ومن هنا تولدت نظرية الأبنيما التى لعبت دوراً هاماً فى الفسيولوجيا وعلم النفس القديم .

ومعظم أطباء الأغريق لا يرون فى الابنيما مصدر القوة والحرارة الانسانية فقط ، بل يعدونها منبع التفكير ، وكثيراً ما يخلطون بينها وبين النفس . والرواقيون بوجه خاص وإن قالوا بجسميتها يصفونها بكل الصفات الروحية . وقد قدر لهذه الفكرة أن تحيا إلى أن استكشفت الدورة الدموية التى قامت على أنقاضها . ويظهر أن قسطا بن لوقا البعلبكى والمترجم المشهور المتوفى سنة ٨٣٥ ميلادية هو أول من أدخلها فى العالم العربى ، فقد كتب بحثاً صغيراً فرق فيه بين النفس والروح(٣) فبينما الأولى فى رأيه جوهر روحى بسيط غير قابل للفناء اذا بالثانية جسم لطيف يشرف على أعمالنا العضوية والعقلية ، واذا ما توقف عن الحركة كان الموت . فالروح إذن أداة النفس وبواسطتها يتحرك الجسم ويعد للادراك ، وبذا استطاع قسطا أن يوفق بين الابنيما التى يعول عليها الأطباء والنفس التى ينادى بها الفلاسفة ، وقد سار على سنته من جاء بعده من مفكرى الاسلام .

وأما الصلة بين القلب والدماغ وأثرهما فى الظواهر النفسية فتلك نقطة خلاف بين أرسطو وجالينوس . ففى حين أن الفيلسوف يرى أن القلب هو مركز القوى النفسية الرئيسية نجد الطبيب يصعد بذلك الى الرأس ويعتبره المهيمن على كل الحياة العقلية . وابن سينا ، وان كانت منزلته الطبية لا تقل عن درجته الفلسفية ، لا يتردد فى أن ينتصر لأرسطو . ويصرح ، على أى أساس لا أدرى ، أن الفلاسفة هم أصحاب

(١) الاشارات ، ١٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ١٢١ - ١٢٢ .
(٣) النجاة ، ٢٦٦ .
(٤) الشفاء ، ج ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

(1) Janer, Hisr. de la philos., 744.
(2) I bid., 752.
(٣) وصلنا هذا البحث عن طريق اللاتينية والعربية : ولقد نشر الاب لويس شيخو الاصل العربي سنة ١٩١١ .

الرأى والذين يستطيعون الفصل فى مثل هذه المسائل، ومع هذا فانه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل فى الحركة والاحساس.

ومهما يكن فلعل هذه الآراء هى منبع تعريف العقل المشهور الذى ردده المتاخرون من مؤلفى العرب، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله فى القلب ولها شعاع متصل بالدماغ

لا نظن أنا فى حاجة الى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فان كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الابنيما وما يتفرع عنها، ودراسة الجهاز العصبى الحديثة لا تدع مجالا لتلك الآراء التى كانت تعد القلب المركز الرئيسى للحياة النفسية. والنظرية القائلة بتوزيع المخ الى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص، وإن كانت قد صادفت أنصارا عديدين فى القرن التاسع عشر، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعا. على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظرى، ويخلط المادى بالروحى دون أن يوضح كيف يتفاعلان؛ والصعوبة كل الصعوبة فى توضيح هذا التفاعل. فهو اذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بين النفس والجسم ولم ياتنا فيها بجديد؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكارا أرسطية الى أخرى جالينوسية على الرغم مما بينها من تنافر أو تعارض.

(يتبع) **ابراهيم مدكور**

فى الأدب المقارن

القصص

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعيان فى الانسان، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع إلى مشاهده حوادث الحياة تترى أمام عينيه، يميل إلى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه. والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول. وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص، وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق، وبالقصص يشغف الأطفال اشد الشغف، وبه شغف الانسان فى عهد طفولته التاريخية.

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم. فما من شىء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلله. فكان قصص تلك العهود مملوءاً بالخرافات والأوهام، دائراً حول الآلهة والملوك والابطال والقبائل، وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات. وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر، يتمثل فى أساطير الاولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان، وبارتقاء الجماعة العقلى يتخلص العلم رويدا رويداً من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل فى شعر الملاحم وما شاكله

وإذا ما ظهر النثر الفنى فقد ولت فى آثاره أساطير الأولين تلك، وإن بطل الاعتقاد فى كثير منها، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره، فاتخذ وسيلة لأسداء المواعظ وإذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة. أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان، أو أفواه الأرواح

والجان ، وصيغ أحياناً فى شكل حوار ، كما يرى فى قصص إيزوب وجمهورية أفلاطون وحكايات لا فونتين وكتاب أميل لروسو ؛ ويتطور القصص الشعرى أيضاً فتظهر الرواية الشعرية التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلا عن الأدب متخلصاً جهده من الأساطير ، وإن ظل الاتصال بين التاريخ والأدب وشيجا طول العصور .

فاذا اطرد رقى الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النثر الفنى ، خطا القصص إلى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ، فصار فنا مستقلا من كل غاية خارجة ، غايته الوحيدة غاية كل الفنون ، وهى الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة ، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالملحمة والدرامه والخطابه ، وسامى به النثر الشعر وباراه جولانا فى ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر فى مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغا ، بل ظهر من الادباء من يجمع بين الشعر والقصص ، وذهب الوهم الذى كان سائداً من قبل من أن القصص مطلب هين ، وقنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وللقصص ، إذا ما بلغ هذا الطور السامى من أطوار رقيه مزايا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنثوره فهو يمتاز برحب المجال رحبا يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ، وهو يفسح للخيال متسعاً بعيد الآفاق ، ويمتع اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاصيلها إلى جانب جلائلها وبعيد أقطارها ، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعا باستقصائه إلى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسيب وقفا على الشعر دون النثر ، والقصص لسهولة متناوله يذيع فى الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفاً على خاصة المثقفين .

ولذيوع القصص فى الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظير لنشر آرائهم ودعاياتهم ، بتصوير الحال التى يكرهون وإبراز مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملافاتها ، كل ذلك فى أسلوب قصصى شائق تقبله النفس وتسيغه وتقتنع به اقتناعاً كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر فى صورة النصح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوى وإبسن وأبانيز وغيرهم ممن كان لهم أكبر الأثر فى الفكر الحديث وأعظم الضلع فى التطور العقلى والمادى ، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر فى سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة إلى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية ، وهى بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ماعداها من ضروب القول ، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر إلى اليوم لنهوض القصة الفنية ، التى تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادىء ، وذلك برقى السواد الأعظم من الأمة بعد ان كان هملا فى غابر العصور ، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذيوع مبادىء الحرية والديمقراطية ، هذا إلى ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية الأمراء والوجهاء

ولم تقتصر القصة فى رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضربا قائما من ضروب الادب ، يتوفر على ممارسته بعض اقطاب الأدب ، بل تطورت القصة تطورا داخليا ، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة التاريخيه التى تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصه البيتية التى تصور المجتمع المتواضع تصويراً شائقا ، والقصة النفسية التى تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحيانا ، والقصة الاصلاحية التى تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية او الاجتماعية ، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبلية التى تتنبأ بما سيصير إليه الانسان وتحاول تسديد خطاه إلى مايجب أن ينزع إليه فى مستقبله ، والقصة البوليسية التى تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبيهم من الشرطة ، وقصة المغامرات التى تصف أعمال بعض الأفاقين ورحلاته فى المجاهل

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية واهية القصد منتشرة النظام ، إلى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمة وحوادث متضاربة إلى شخصيات ناطقة وسياق منطقى منسجم ، ومن الخرافى والخارق والبعيد إلى الواقع والعملى والحاضر ، ومن الماضى بآلهته وأبطاله وعظائمه إلى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعاطفة الثائرة إلى المعنى المتدبر والتأمل الهادىء والوصف المفصل ؛ وهذه

الصفات التي تكتسبها القصة في طورها الراقي تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التي هي أسبق من صاحبتها إلى الظهور ، فتهجر الشعر إلى النثر ، والخيال إلى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لها ، لا تكادان تختلفان إلا شكلا وطريقة تناول . فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم ، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك إلا إلى مدى ؛ ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلا دقيقاً ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابة الرواية التمثيلية والقصة المقروءة

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيرهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شفاها ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق إلى الرقى ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربرى ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية في عصر اليزابث على يد شكسبير ومعاصريه رقياً عظيما ؛ وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فاتخذت وسيلة لغيرها : اتخذها صاحب كتاب « يوفيواس » وسيلة لشراح آداب الجنتلمان ، واتخذها مؤلف « يوتوبيا » وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، واتخذها كاتب « اطلانطس » وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفي كل هذه كان الفن هزيلا والشخصيات مطموسة أو معدومة والسياق متداعيا

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المنسجم المهذب الذي يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدا ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن في كل تطورات الطبيعة والمجتمع الانساني ، فانسلخت القصة رويداً رويداً عن المقالة الاجتماعية التي كانت منتشرة إذ ذاك في الصحف الدورية على أيدى ستيل وإديسون : كانت تلك المقالة تهتم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحللها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سيررودجر ، تتبعه في شتى المواقف وتنطقه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من مجموع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعي وهلم جرا ، ولم يبق امام الكتاب الذين جاءوا بعد اديسون وستيل ، إلا أن يزيدوا التصميم إحكاماً والحوار تسديدا والشخصيات بروزا

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطور ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتتابعت أزياؤها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم فيلدنج وديفو وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت برونتي ومسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وسكوت صاحب القصص التاريخية ، وديكنز وبلزر أصحاب القصص الإصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذي صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، إلى غير هؤلاء من القصصيين الذين لا يحصون ، وإلى غير تلك من ضروب القصص التي لا تستقصى . وفي تلك القصص تناول القصصيون اطراف الحياة المتباعدة وامتعوا النفوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصة في صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها

وفي خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثا جديداً ، على صورة مماثلة للقصة المقروءة ، قوامها النثر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرماها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الآراء والمذاهب ، وظهر في مجالها ارنولد بنيت وبرناردشو وجالزورذى وغيرهم ، وإلى الاخيرين يعزى الفضل في كثير من الإصلاح الذي طرا على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية في الجيل الاخير ، حتى شبه شو بمكنسه كهربائية ذهنية ، تنقى أوضار العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليد فاسدة

وكان للعرب في جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك في شعرهم ونثرهم ، مختلطا بثقافتهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالادب ممتزجاً بالتاريخ ، يظهر في كتابات الجاحظ والأصمعى والطبرى والاصبهانى ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ؛ وحيكت نوادر جديدة حول اعلام الحب والحرب ، كابن أبي ربيعة وأبي نواس وعنترة ومهلهل ؛ وحوى القرآن الكريم طرفا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن إلى نفوس الخاصة والعامة ؛ ثم انتشرت الكتابة وذاع النثر الفنى ، فدخل القصص طوره الثانى : الطور الذي فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فاتخذ في كليلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفي رسالة حى بن يقظان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة إلى القول بأن خصائص القصة الفنية في هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة في طورها الثالث الفنى :

باستقرار الحضارة والرفاهة ، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان ذلك فى القرن الرابع ، فبدأت تنمو بذور القصة الفنية التى تدرس المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفنى والفكرة الموحدة ، ويبدو كل ذلك فى مقامات بديع الزمان ، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه الوجهة مكان أديسون وستيل فى الانجليزية، وقد أبدى فى ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو جدير بأسمى أنواع القصص ؛ واخترع شخصية أبى الفتح الاسكندرى فكان على الأرجح المؤلف العربى الوحيد الذى اخترع شخصية شائقة واضحة من صنع الخيال المجرد . ولم تكن شخصيات المقامات التالية فيما بعد إلا نسخاً مكررة منه لا ابتكار فيها ، وشخصية أبى الفتح الاسكندرى تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التى تعينها شخصية سير رودجر ديكفرى من تطور القصة الانجليزية .

فمقامات البديع فى الأدب العربى بمثابة مقالات أديسون وستيل فى الأدب الانجليزى : تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية ، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه . ولم يبلغ مرحلته التالية ، لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة : فالمقامات ذاتها قد ظهرت متأخرة ، ظهرت فى أوج رقى الأدب العربى فى القرن الرابع . وكان أجدر أن تأتى متقدمة فى القرن الثانى مثلا ، فيليها باقى التطور المنشود الذى تلا مقالات أديسون وصاحبه فى الانجليزية ، وما ذاك إلا لنزعة الجمود والتقليد التى كانت دائماً مخيمة على الأدب العربى ، تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنويع فى الأشكال والموضوعات ، وفقدت المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعبا بالألفاظ والمعانى .

أضف إلى نزعة الجمود تلك استمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون جمهور الشعب ، فلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده وقيادة طريقه : فالحريرى مثلا حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه إلى تناول مشاكل المجتمع ومطامع الشعب بالدرس والعرض والاصلاح والتوجيه ، بل امتثالا لاشارة بعض الأمراء ممن « أشارته حكم ، وطاعته غنم » كما يقول هو فى مقدمته . ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية فى مجتمع أدباؤه متنصلون من مشاكل شعبه لائذون بظل أمرائه

زد على ذلك مكانة المرأة فى المجتمع ، التى كانت قد بلغت قبل أن يكتب البديع مقاماته حدا من التدهور بعيداً ، بعد ما كان من امتداد الفتوح واختلاط الأجناس وتفشى التسرى والعبث . فضرب على المرأة الحجاب ، وخيم عليها الجهل واعتزلت المجتمع ، والمجتمع بغير المرأة لا يخرج القصة الفنية التى تدرس الحب وتقدس الزواج وتشرح العواطف ، وإنما ينتج الشعر المستهتر البذىء كشعر بشار وابى نواس . وقد كان انهاض حال المرأة نصب عينى أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من القصصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص ، كما كان من النساء جم غفير من القصصيات كما تقدم .

وإلى نزعة التقليد التى كانت تسود الأدب العربى ، كان ذلك الأدب ينزع إلى الصنعة اللفظية : فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات ، ولا غرو ، فاذا كان الأدب قد تخلى إلى حد بعيد عن مشاكل المجتمع ، فلم يبق له من مواد القول إلا النذر اليسير ، فلما أعوزه الافتتان فى المعانى التفت إلى التلاعب باللفظ ، وإلى هذه الزركشة اللفظية قصد الحريرى أول ماقصد فى محاكاته للبديع ، ولم يفكر قط فى ابتكار جديد من جهة المعانى والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات الاجتماعية ، بل اكتفى بالتقليد الشكلى ، فجعل فى كل مقامة شخصين يروى أحدهما عن الآخر ، وتنقسم المقامة بذلك إلى قسمين . دهليز للقصة كما يقول العامة ، والقصة ذاتها التى تبدأ بظهور البطل ، ولم تجىء شخصية بطله فى وضوح شخصية أبى الفتح وتعدد نواحيها

فحالة المجتمع العربى ، ونظام الحكم فيه ، ومنزع الأدب العربى ، كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص إلى كماله ، فوقف عند بدء الطور الثالث ، وهو الطور الفنى الصميم ، فعرف الأدب العربى النوادر والأخبار والسير وما إليها ، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمى أو الخلقى ، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم والشخصيات الواضحة ، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفنى ، ولم تسم القصة فى الأدب العربى إلى منزلة عالية كالتى تمتع بها الشعر والخطابة والنقد ، وظل للشعر المكانة الأولى وبقى مستأثراً بأكثر ضروب القول ، ولم يظهر فى القصة من الأعلام أمثال من ظهر فى الشعر والنقد والخطابة ، وترك القصص المطول الحافل بالوصف الاجتماعى والخيالى للعامة

فخرى أبو السعود

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٣ — فى النيل

فى (حلبة الكميت) : ركب الأمير تميم فى النيل متنزها فمرّ ببعض الطاقات المشرفة فسمع جارية تنشد شعراً :

نبهتُ ندمانى بدجلة مَوْهناً والنجم فى أفق السماء معاق(١)
والبدر يضحك وجهه فى وجهها والماء يرقص حولها ويصفق

فاستحسنهما تميم وشرب عليهما ، ومازال يستعيدهما ويشرب حتى انصرف وهو لا يعقل سكرا . فلما أصبح قابلها بهذين البيتين :

شربنا على النيل لما بدا بموج يزيد ولا ينقص
كأنّ تكاثف أمواجه معاطفُ جارية ترقص

١٤ — شهادة . . .

كان أبو عيسى بن الرشيد يقول لعمه ابراهيم بن المهدى: السكر على صوتك شهادة(٢) ياعم . . .

١٥ — أتكابر ابليس ؟

فى (محاضرات الراغب) : قال أبو نُواس : كنت يوماً فى الحمام فقلت قصيدة وفيها :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى النار فى الفحَم(٣)

ولم يكن معى أحد فتراءى لى شبح فقال : قطع الله لسانك فإنك لا تفلح ! أتقول مثل ما يقول العوام ؟ ألا قلت :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

فقلت : هكذا قلت

فقال : أتكابر إبليس ؟ ؟

١٦ — أحسن الجواب

قال أبو العيناء : قال لى الخليفة المنتصر يوماً : ما أحسنُ الجواب ؟

فقلت : ما أسكت المبطل ، وحيّر المحق

فقالت : أحسنت والله !

١٧ — بالله ألا رحمت غربتها

فى (اليتيمة) : حكى أبو الخطاب بن عون الحريرى النحوى الشاعر أنه دخل على أبى العباس النامى قال : فوجدته جالساً ورأسه كالثغامة(١) بياضاً ، وفيه شعرة واحدة سوداء ، فقلت له : ياسيدى ، فى رأسك شعرة سوداء.

فقال : نعم ، هذه بقية شبابى وأنا أفرح بها ، ولى فيها شعر . فقلت : أنشدنيه ، فانشدنى :

رأيت فى الرأس شعرة بقيت سوداء تهوى العيون رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروّعها بالله إلا رحمت غربتها !
فقلّ لبث البياض فى وطن تكون فيه البيضاء ضرتها

ثم قال : يا أبا الخطاب ، بيضاء واحدة تروّع ألف سوداء ، فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء ؟

١٨ — المقادير تصير العى خطيباً

قال الطبرى فى تاريخه :

يحكى أن الحجاج ذُكر عنده رجل بالجهل فاراد اختباره فقال : أعظامى أم عصامى ؟ أراد أشرفت بآبائك الذين صاروا عظاماً أم بنفسك

فقال الرجل : أنا عصامى عظامى ، فقال الحجاج : هذا أفضل الناس ، فقضى حوائجه . ومكث عنده ثم فتشه فوجده أجهل الناس . فقال له : تصدقنى كيف أجبت بما أجبتنى به حين سألتك عما سألتك ؟

فقال : لم أعلم أعصامى خير أم عظامى ، فخشيت أن أقول أحدهما ، فقلت كليهما ، فان أضرنى أحدهما نفعنى الآخر

فقال الحجاج عند ذلك : المقادير تصير العيّ خطيباً

١٩ — اذا تمت صارت سياسة

فى تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء لهلال بن المحسن الصابى قال أبو الحسن بن الفرات : أصل أمور السلطان مخرقة فاذا تمت واستحكمت صارت سياسة

(١) موهنا : نصف الليل (دجلة) بالفتح والكسر

(٢) الشهادة اسم من الشهيد : المقتول فى سبيل الله

(٣) الفحم بفتح الحاء وتسكينها

(١) الثغامة واحدة الثغام وهو نبت أبيض الزهر والثمر يشبه به الشيب

٢٠ — بكت رحمة للورى بالدم

قال أبو الأصبع بن رشيد الأشبيلي لما هطلت بأشبيلية سحابة بقَطْر أحمر في يوم السبت الثالث عشر من صفر عام (٥٦٤) :

لقد آن للناس أن يقلعوا ويمشوا على السنن الأقوم
متى عهد الغيث (ياغافلا) كلون العقيق أو العندم[١]
أظن الغمائم في جوها بكت (رحمة للورى) بالدم

٢١ — اقرأ قرآنك

قال الشاطبي في (الاعتصام) :

كان في الزمن القريب رجل يقال له الفزاري ادعى النبوة واستظهر عليها بامور موهمة للكرامات والإخبار بالمغيبات، ومخيلة لخوارق العادات، تبعه على ذلك من العوام جملة . وكان مقتل هذا المفترى على يد أبي جعفر بن الزبير .

قال الحسن بن الجباب : لما أمر بالتاهب يوم قتله ، وهو في السجن الذي أخرج منه ، جهر بتلاوة سورة (يس) فقال له أحد الدعار[٢] ممن جمع السجن بينهما : اقرأ قرآنك ، لأي شيء تتفضل على قرآننا اليوم ؟ فتركها مثلا بلوذعيته ،

٢٢ — تعالوا نتكرم اليوم

قال أبو الحسن القروى يوماً لندمائه : تعالوا نتكرم اليوم

فقالوا : وأي يوم لا يتكرم فيه سيدنا ؟

قال : قولي (نتكرم[٣]) من (الكَرْم) لا من الكرَم

قالوا : وكيف ؟

قال : نأكل سكباجة[٤] وحصرمية ، وحلوى دبسية، ونشرب العنب، وتتنقل بالزبيب، لنكون قد استوفينا مرافق الكرْم ومنافعه

قال بعضهم : ينبغى أن نستوقد بقضبانه أيضاً ليتم التكرم .

فقال : أحسنت وجودت ، وأمر بذلك كله وطاب يومهم

٢٣ — إن غبت عنا دخل الصبح

قال القاضى الفاضل :

بتنا على حال يسر الهوى وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل وقلنا له : إن غبت عنا دخل الصبح !

٢٤ — صدق الأمير

في شرح (النهج) لابن أبي الحديد :

ناظر المامون محمد بن القاسم النوشجاني في مسئلة كلامية، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام ويستخذى له ، فقال : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك وقد ساءني ذلك منك، ولو شئت أن افسر الامور بعزة الخلافة وهيبة الرياسة[١] لصدقت وان كنت كاذباً ، وعدلت وان كنت جائراً ، وصوبت وإن كنت مخطئاً ؛ ولكني لا أقنع إلا باقامة الحجة ، وإزالة الشبهة ؛ وإن أنقص الملوك عقلا وأسخفهم رأياً من رضى بقولهم : صدق الأمير . . .

٢٥ — هناك والله قرارة اللؤم

وقف اعرابي فسأل قوماً فقالوا : عليك بالصيارفة .

قال : هناك (والله) قرارة اللؤم

٢٦ — كبرت

في (نفح الطيب) :

قال أبو محمد بن حزم الحافظ : كنت يوما في مجلس الرئيس الفقيه أبي بكر بن زهر ، فدخل علينا رجل عجمى من فضلاء خراسان ، وكان ابن زهر يكرمه ، فقلت له : ما تقول في علماء الاندلس وكتابهم وشعرائهم ؟

فقال : كبُرت !

فلم أفهم مقصده ، واستبردت ما أتى به ؛ وفهم مني ابو بكر ابن زهر أني نظرته نظر المستبرد المنكر .

فقال لي : أقرأت شعر المتنبي ؟

قلت : نعم ، وحفظت جميعه .

قال : فعلى نفسك (إذن) فلتنكر ، وخاطرك بقلة الفهم فلتتهم ، فذكرني بقول المتنبي :

كبرت حول ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

فاعتذرت للخراساني وقلت له : قد (والله) كبرت[٢] في عيني بقدر ما صغرت نفسي هندي حين لم أفهم نبل مقصدك

---

(١) العندم : دم الاخوين : شجر احمر ، وقيل صبغ احمر
(٢) الداعر : الشرير ، قاطع الطريق ، الفاسق
(٣) اشتق التكرم من الكرم وروى الثعالبي اللفظة في كتبه . والتكرم في لغة (الجزيرة) : التنزه عن الشيء ، وتكليف الكرم
(٤) السكباج معرب عن (سركه باجه) وهو لحم يطبخ بخل ، ويقال : سكبج الرجل إذا أعد سكباجا (التاج)

(١) في الأساس : كبر الرجل في قدره (بضم الباء)وكبر في سنه (بكسر الباء)
(٢) في كتب العلم والادب : الرئاسة والرياسة وفي كتب اللغة : الرآسة

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

— ١ —

هل الفلسفة الاغريقية وليدة الفلسفة الشرقية ؟

تمهيد

تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ مشكلة لم يهتدوا إلى حلها حتى اليوم حلا حاسما يقف تيار الاعتراضات من الجهات المعارضة، وإن كانت بحوث المستشرقين والمستمصرين فى العصر الحديث قد وصلت إلى ترجيح إحدى كفتى الميزان فى هذه الفكرة العويصة التى يترتب عليها تغيير اتجاه الحكم على اليونان وعلى الشعوب الشرقية القديمة إلى ناحية غير التى كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث. تلك المشكلة هى : هل الفلسفة اليونانية ابتدعت فى يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية ؟ أو هى تراث نظمه الاغريق ؟ وإذا كانت الأولى ، فهل يرجع مبدؤها إلى القرن السادس فقط كما زعم «أرسطو» حين قرر أن «تاليس» هو أول الفلاسفة جميعا ؟ أو يمكن إصعاد الفلسفة إلى عصور غابرة إغريقية محضة ؟ وإذا كانت الثانية ، فما هو أول تلك الشعوب الشرقية الذى نشأت الفلسفة بين ربوعه ؟

قرر أرسطو أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى فى تاريخ العقلية البشرية فى تلك المستعمرة اليونانية التى تدعى «أيونيا» والتى سبق أن أنشأها قوم من الاغريق القدماء الذين هاجروا فى عصور ما قبل التاريخ إلى آسيا الصغرى وأسسوا بها تلك المدن التى لم يلبث الاغريق الأصليون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسى والأدبى ، فافسحوا بذلك الطريق أمام العقل الاغريقى الجبار ، وحلوا عقاله الذى كان قد أمسكه فى آسيا عن الصولان فى عصور ماقبل الاستعمار الجديد . وأول من بدأت العقلية الاغريقية القديمة تتمثل فيه هو : «تاليس الملينى» ، أول فيلسوف فى الدنيا . وإذاً ، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر ، وهي لاتصعد فى رأى أرسطو إلى ماوراء القرن السادس قبل المسيح ، ولكن «ديوجين لاإرس» المؤرخ الاغريقى الشهير الذى عاش فى القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا فى كتابه «حياة الفلاسفة» عن فلسفة المصريين والفرس فى العصور الغابرة حديثا ممتعا يدل دلالة قاطعة على أن الشرق قد سبق الغرب إلى الفلسفة بزمن بعيد . وأنه كان أستاذه فى كل ماوراء الطبيعة كما كان أستاذه فى العلوم الطبيعية والرياضية بانواعها ، وأن الغرب جلس فى الازمان المظلمة مجلس التلميذ المستلهم من الشرق العالم المستنير

فأنت ترى تعارض هاتين الفكرتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ، وترى كذلك أن لكل منهما أشياعا ومؤيدين ، ففريق يسلك منهج أرسطو فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل فى هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظهر لفلاسفتهم بعد الاسلام من مجهودات فى شرح الفلسفة اليونانية وتوجيهها ؛ أما في العصور الاثرية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحى ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية ، بل إنهم نسبوا كل شىء عندهم إلى السماء ، حتى تلك المتناثرات الاخلاقية المنتزعة من الفضائل العملية والمصوغة فى حكم مقتضبة ، ويتخذون دليلا على هذا ما تزدحم به كتب التاريخ من إزهار الدين وإجداب الفلسفة فى الشرق كل هذا الوقت الطويل الذى تلا العصور الاثرية ، ويقولون : إنه لو كان للشرق فلسفة لشملها ناموس التقدم ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث فى بلاد الاغريق . ومن أشهر أصحاب هذا الرأى فى العصور الاخيرة «بار تلمى سانت - هلير» ، إذ يقول فى مقدمة ترجمته «للكون والفساد» ما نصه : «أما من جهة الفلسفة الشرقية فاننا لانعرف ، بل ربما لن نعرف أبدا من امرها شيئا معينا بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها ، فان أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء . إنها مستعصمة دون إدرا كنا مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات ، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافى لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا فى الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها

كثيراً . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر فى فلسفتنا مع التسليم بانها تقدمتها فى الهند وفى الصين وفى فارس وفى مصر فاتنا لم نستعر منها كثيراً ولا قليلا . فليس علينا أن نصعد إليها ، لنعرف من نحن ومن أين جئنا [١]

ثم قال :

ولقد تصديت فوق ذلك لتبين أن العبقرية الإغريقية هى التى دانت العالم بهذا النفع العلمى الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها ، فاذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية فى الابهام . لا مراء فى أن المصريين والكلدان والهنود لهم فى ماضى الانسانية مقام كبير ، ولكنهم مع ذلك فى الفلسفة أو فى العلم بعبارة أعم ليسوا شيئا مذكوراً فى جانب الاغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم [٢] .

وقال أيضا : « وإن العلم على جميع صوره كان معدوماً فى الشرق فاخترعه الاغريق ونقلوه إلينا » [٣] .

ولهذا الرأى مقلدون [٤] فى مصر كما هى الحال فى كل فكرة تطعن على الشرق .

وفريق آخر يذهب الى مانقله « لاإرس » من أن الفلسفة الاغريقية ليست إلا تراثا شرقياً متغلغلا فى القدم ويستندون فى هذا إلى براهين أهمها ما يأتى :

١ — إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظارنا مدنيات شرقية ضاربة فى التقدم بسهم نفاذ كمدنيتى مصر والعراق مثلا ، وأنبأتنا بأن هذه المدنيات سابقة على مدنية الاغريق بعدة قرون ، وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المدنيات وبين الفلسفة الاغريقية مثل علاقة نظرية « تاليس » الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو الماء بأنشودة خلق الكون الدينية العراقية التى تصرح بأن كل شىء فى الكون منشؤه الماء إذ تقول فى مطلعها ماترجمته : « حين لم تكن السماء العليا بعد قد فازت باسمها ولم تكن الأرض هى الأخرى قد تسمت بهذا الاسم كان أبوهما : « أبسو » ، وأمهما « تياما » وهما : « الماء » أو جوهر كل شىء ممتزجين امتزاجا تاما قصد التناسل والإخصاب » [١] .

فاذا لاحظنا أن الانشودة العراقية كانت قبل « تاليس » بعهد بعيد ، وأن سيادتها فى القرن السادس قبل المسيح كانت على أتم ماتكون قوة وتغلغلا فى النفوس ، ولاحظنا الصلات التجارية والاجتماعية فى ذلك العصر بين العراق وأيونيا استطعنا أن نرجح فى سهولة كفة تأثر تاليس بتلك الانشودة العراقية القديمة ، بل استطعنا ان نجزم بأن من المستحيل أن يكون تاليس قد ابتدع نظريته فى أصل الكون .

٢ — ان العلماء المشتغلين بالبحث فى الانسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه المختلفة قد قرروا أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الاغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقى ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

٣ — إن الباحثين الأثريين قد عثروا على كلمات : العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى فى الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها فى الغرب بقرون لا يعرف مداها ، بل إنهم قد تأكدوا من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق .

٤ — إن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبنى الاهرام فى بلد لم تقطع فيه الهندسة العلمية أشواطا بعيدة .

وفى هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر لم يكن فيها هندسة علمية ، وإنما كان فيها هندسة عملية فحسب [٢] .

٥ — هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية إلى ماوصلت اليه الأدلة السابقة ، وإن كان أنصار هذا الرأى يستأنسون بها مثل رحلة تاليس إلى مصر والشرق الأقصى ، ومثل وجود العناصر الأولى من منطق أرسطو فى المدارس الهندية السابقة

---

(١) راجع مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو ترجمة الاستاذ احمد لطفى السيد باشا صفحة ٢

(٢) انظر صفحة ١٠٤ من مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو

(٣) انظر صفحة ١٠٦ من هذه المقدمة

(٤) انظر قادة الفكر للدكتور طه حسين بك

---

(١) انظر صفحة ٢ من مقدمة الجزء الاول من كتاب « بريهيه »

(٢) انظر قادة الفكر للدكتور طه

لعصره ، ومثل وجود الكلام عن الجوهر الفرد فى المدارس الهندية كذلك أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود وغير ذلك مما يسند هذا الرأى الأخير ويقويه .

إذا عرفنا كل هذا وتبينا أن هذه الفلسفة اليونانية العظيمة إنما هى وليدة الاساطير الشرقية ، فقد وجب على كل باحث فى الفلسفة أن يبدأ بحوثه بفلسفة هذه الشعوب الشرقية ، ليكون على بينة من العناصر الأساسية التى تكون منها الجسم المراد درسه

غير أن هناك عقبات ومصاعب اعترضت ولا تزال تعترض سبيل دارس الفلسفة الشرقية وتقفهم موقف الحروجة والعسر مثل :

١ — مايزعمه بعض المتحاملين من المحدثين من أن فكرة بدء الخلق فى الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدها من الفلسفة : وإن شئت فقل : إن الدين والفلسفة فى الشرق شىء واحد ، ولهذا لم يعرف للتاريخ نظرية فلسفية ظهرت فى الشرق القديم مستقلة عن الدين ، وإنما مهد النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثرات الدينية من غير استثناء هو بلاد الإغريق . وهذا هو الباعث الأول الذى قلل من أهمية دراسة الفلسفة الشرقية فى نظر علماء العصور الحديثة وحط من قيمتها عندهم

٢ — إن المصادر التى وصلت إلينا عن فلسفة تلك الشعوب الشرقية قليلة لا تكفى لإشباع الرغبة العلمية عند الدارس المتقصى الذى لا يرضى من المشكلة بأقل من الاحاطة بجميع نواحيها ، وإن كانت هذه الندرة فى المراجع لم تحل بين الباحثين المحدثين وبين معالجة هذه الفلسفة الشرقية ووضع المؤلفات الضخمة عنها مثل كتب :

(ا) « هيكل تاريخ الفلسفة الهندية » تأليف « ماسون أورسيل » وقد ظهر فى سنة ١٩٢٣

(ب) « تاريخ فكرة وحدة الوجود الهندية » تأليف « أولترامار » ظهر فى سنة ١٩٢٣

(ج) « تاريخ الديانات » تأليف « دينيس سورا » ظهر فى سنة ١٩٢٤

(د) « أصول الديانة الاسرائيلية » : « الجيوفية القديمة » تأليف « س . كوسان » ظهر فى ١٩٣١

(هـ) « تاريخ الفلسفة الصينية » تأليف « زانكير » ظهر فى سنة ١٩٣٣

على أن هاتين العقبتين المتقدمتين لا تمنعاننا من أن نعتبر دراسة الفلسفة الشرقية هى أول مايجب على المشتغل بدراسة الفلسفة الاعتناء به ، أما امتزاج الفلسفة بالدين الذى كان من عوامل حروجة دارس موقف الفلسفة الشرقية فسنجتهد فى حله بأن نعين مهمة كل من هذين الممتزجين اللذين عقد امتزاجهما الموقف وجعله من المشاكل العويصة

ولكن قبل أن نعالج هذا الموضوع ينبغى لنا أن نشير إلى أن تلك العقبة الأولى الناشئة عن امتزاج الفلسفة الشرقية بالدين ليس مسلماً بها من جميع العلماء والباحثين المحدثين ، إذ يصرح بعضهم بأن هذا الامتزاج ليس خاصا بالشرقيين فى العصور القديمة ، وإنما هو طبيعة إنسانية عامة كما وجدت فى مصر والعراق فى الأزمان الغابرة ، كما وجدت كذلك فى أوربا فى القرون الوسطى . وليس القديس « أوجستان » والقديس « توماس » والقديس « أنسلم » — وهم مشاهير فلاسفة المسيحيين فى أوربا — إلا مظاهر لهذه الفترة البشرية التى نشأت على مزج الدين بالفلسفة ، بل إن « ديكارت » و « اسبنوزا » و « كانت » أنفسهم — وهم اعلام فلاسفة العصر الحديث — ليسوا إلا مظهراً آخر من مظاهر هذا الانعطاف الطبيعى . وإذاً ، فرمى الشرق القديم وحده بهذه النقيصة — إن صح أنها نقيصة — ضرب من العنت والجور اللذين يجب أن يتنزه عنهما الباحث المحايد

وسواء أصح الرأى الأول أم الثانى ، فإننا سنحاول هنا أن ندرس الفلسفة الشرقية الممتزجة بديانات الشعوب التى ظهرت فيها ، عاملين — كما قدمنا — على تمييز الفلسفة من العقيدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وسنبدأ دراستنا بأقدم هذه الديانات الوثنية عهداً ، وهى الديانة المصرية التي لم يعرف التاريخ أعرق منها فى أغوار الماضى البعيد .

(يتبع)

الدكتور محمد غلاب

هتاف الشيطان

للأستاذ عبد المغني علي حسين

كنا فى حجرة استقبال ، بدار انجليزية ، بإحدى مدائن انجلترا ، والفصل شتاء ، والوقت ليل ؛ فالستائر مسدلة ، ونار الفحم موقدة ، ونحن فى غمرة من الدفء الشهى ، ذلك الموج الخفى ، فى اللجى الأثيرى . وكانت الطبيعة فى تلك الليلة غضبى والريح تهب من جميع الجهات إلى جميع الجهات ، يجن جنونها فتثب على الشجر المنحف العارى تعركه عركا وتكاد تمزقه وتشظيه ، لولا تلويه ، فتختلط زمجراتها بعويل الشجر . كانت الريح فى الفينة بعد الفينة تهوى علينا من المدخنة ، كأنما تبحث عنا جاهدة ، فاذا استعصت عليها الأبواب والنوافذ لم تتحرج أن تأتى البيوت من سقوفها ، فتنقض علينا تنفث فى وجوهنا السناج والدخان . ثم ترتد من المدخنة لتكر على زجاج النوافذ تحصبه برشاش المطر .

كنا فى الحجرة اثنين . أما الثانى فسيدة انجليزية شقراء أرملة فى نحو الخمسين ، تنحنى على النار فتجيل فيها العود ، وتعتدل فتضع ساقاً على ساق ، وتنظر إلى اللظى بعينين رماديتين حالمتين حزينتين . هى (صاحبة البيت) كما كنا نسميها . كنا نسمر سمراً متراخياً أكثره سكوت ، إذ كان الحس موزعاً ما بين تخدير الدفء وتخويف الطبيعة . إلى أن حدث أمر أيقظ منا الحس ، وأهاج النفس ، فاذا هياج الطبيعة من هياج النفس كخطر النسيم من لفح الجحيم .

ذلك أنه كان على إحدى حوائط الحجرة لوحة فيها رسم فتى وفتاة كلاهما فى نحو العشرين أو دونها ، أما الفتى فكان صغير الجرم . فى وجهه إشراق الذكاء . وفى هيئته جد وحيوية ؛ يبسم للدنيا — الدنيا الخاتلة ! وأما الفتاة فكانت ناهداً هيفاء بسمتها الحلوة خليقة أن تمحو مرارة الدهر ، وتطرد الحزن من أقطار الوجود . شعرها مكور على رأسها على النمط الفكتورى ؛ ثوبها طويل محكم يبدى من سحرها النسوى ما لا أظن العرى يبديه ؛ وقفتها فيها ميل من الدل والطراوة ، وعيناها رماديتان حالمتان

كان فى الفتاة من سيدة الدار شبه ، ولكنه ضئيل جداً . لاحت منى التفاتة إلى تلك الصورة ، فقلت أسائل السيدة عنها وأجعلها موضوع حديث . فما إن فعلت حتى رأيتها وجمت وجوما انقبض له صدرى . قالت : « ألا تعرف من تكون الفتاة ؟ » قلت « من ؟ » قالت « أنا » . فلم أقل شيئاً ، ولكنى عجبت من فعل السنين ، لئن كانت تلك هى هذه فان الزمن لم يترك منها إلا بقدر ماترك فى جسم أبى الهول من شكل الأسد . لابد وأن تكون أهوال ألف عام قد حشدت فى عمر هذه السيدة حتى صارت مما كانت إلى ما هى الآن .

قلت فمن الفتى الوسيم ؟ قالت « زوجي » ، واغرورقت عيناها الحالمتان ، ومن الغريب أن الدموع لم توقظهما من أحلامهما .

حسبت أننى آلمتها بذكرى هناء ذاهب . وحبيب غير آيب ، فقلت متعثراً متعذراً : « أخشى أن أكون أدميت جرحاً عله كان اندمل » . فقالت « لا إخال مثل جرحى يندمل » . وتلا ذلك سكوت وجدته خيراً من الكلام ، ووددت لو أن كلاماً لم يكن ثم رأيت السيدة تنظر إلى نظرة فيها حنان الأم ، واذا بها تقول : « أوصيك يابنى ألا تذوق الخمر أبداً ، فان كنت شربتها فلا تقربها بعد اليوم » . فدهشت لهذا الكلام المفاجيء وعجبت له . قلت « ماهذا الذى تقولين ؟ » قالت « لقد كانت حياتى مأساة يؤلمنى أن أقصها فأحياها من جديد ، ولكنها عبرة نافعة لمن هو فى سنك ، فسأقصها عليك » .

كان زوجى فى أول عهدنا فتى جم المحاسن ، شديد الحب لى وللأطفال ، يهوى العش الذى بنينا ، وكان فى عمله مثال النشاط ، جم الكفايات . وشاء الجد العاثر أن ينقل إلى وظيفة (بالجمارك) ، فكانت مهمته تقدير المكوس على الخمر التى ترد من الخارج ، ومرت الأيام فاذا بى أشم ريح الخمر من فم زوجى ، فأبديت له مخاوفى ، فطمأننى قائلا انه يسترشد فى عمله أحياناً بتذوق عينات الخمر ، وانه انما يفعل ذلك بحذر وما يتناوله لا يذكر . ومرت الأيام فاذا به يعود إلى يترنح من الشراب ثم لم يعد المحب العطوف البسام ، بل صار غضوبا اذا كلمته رفع صوته بالجواب الخشن . ثم ازداد فكان لا يفرغ هراؤه مادمت بمرأى منه . ثم استغلظ فصار يضربنى ويضرب

الاطفال. كل ذلك وأنا حافظة عهده، أكتم ما أنافيه عن الناس ثم حدث ما لم يكن منه بد، ففصل من عمله لقلة كفايته وسوء خلقه، واستعجف عيشنا، فأكلنا ما ادخرنا فى العهود السمينة ويعلم الله أننا ما كنا نا كل بمعشار ما كان ينفق فى الشراب. ثم ساءت صحته، وألح عليه السعال، فكان يسعل الليل بطوله وأنا معه يقظى حتى الصباح. وذات صباح انتبهت من غفوة فلم أجده فى فراشه، فحسبت أنه بدورة المياه، ثم شممت رائحة غاز الاستصباح، فخفت أن يكون صنبوره بالمطبخ بات مفتوحا فذهبت إلى هناك، فوجدت باب المطبخ مغلقاً، فعالجته حتى انفتح، وتراجعت إلى الوراء خشية الغاز السام، ثم نظرت أمامى فرأيت... وياالهول مارأيت...» وغطت وجهها بكلتا راحتيها وزلزل صدرها بنهنهة خفت أن تحطمه. قالت: «رأيته ممدداً فى أرض المطبخ وقد استنشق من الغاز القاتل حتى قضى الأمر».

ثم كفكفت عبراتها، وهدأ صدرها، وجلسنا واجمين صامتين، كأنما الميت ممدد أمامنا ونحن لجلال الموت فى خشوع. أردت أن أقول شيئاً أنفس به عنها فلم أجد ما أقول، وماذا يقال فى رجل قتل عقله بالشراب، وقتل نفسه بالغاز. عمد إلى أنفس ما أعطاه الله، وإلى أقدس ما أعطاه الله فدمرهما، ومرغ معه فى رغام التعاسة سيدة فاضله وأطفالا بيض الصحائف.

وحان وقت انصراف السيدة، فجلست وحدى، أنظر إلى نار الفحم، وإنها لأبرد من نار الصدور، وذهب بى الخيال مذاهب عجيبة، حتى لقد خلت أنى أرى الشيطان نحيف الوجه مستطيله محروق الجلد طويل الاصابع أحمر العينين، فى مجلس من أعوانه، فى جوف بركان خامد، أول ظهور الانسان على الأرض، قرض الشيطان بأنيابه المعوجة وقال: «ماذا ترون فى الدمية التى صنع الله؟»، مشيراً بإبهامه إلى أعلى حيث سطح الأرض. قال أحد الأعوان: «إن فى رأس تلك الدمية، جوهرة تغشى بصرى، لو اعتنى بها ذلك المخلوق، وتبع ضياءها ببصره، كاد أن يرى الله جهرة!». فازداد قرض الشيطان بأنيابه وصاح: «أريد جديداً أيها الأبله». فسكت الجميع زمناً ثم عاد الذى تكلم فقال: «والله ما أحسب ذلك المخلوق إلا مفلتاً من أيدينا بجوهرته تلك، فهى خليقة أن تسمو به إلى حيث النور، ولا يبقى فى الظلام خائباً منبوذاً إلا نحن». فوثب عليه الشيطان وثبة فر أمامها فأخطأته. ثم عاد الشيطان إلى مقعده والشرر يتطاير من عينيه، واذا بجنى يهبط عليهم من فوهة البركان وهو يصيح: «أحطت بما لم تحيطوا به، وجئتكم بنبأ عظيم». فصاح به الشيطان: «والله لقد كنت أنتظرك أيها الملعون لأقطع أوصالك بعد هذا الغياب الطويل. قل فلعل عندك ما يشفع لك». فشرع الجنى يقول:

«بصرت بقبيل من تلك المخلوقات البغيضة يعيشون فى كهوف هذه الجبال، فتخيرت واحداً منهم قوى الجسم مغرورا، فصرت أزين له الفتك بأقرانه، وفى ذات يوم رأيت امرأته تدق الحب بالحجر لتطحنه، ثم وضعت الطحن فى حفرة بالصخر وذهبت لبعض شأنها، فزينت لأولادها العبث، فحملوا الماء وكفأوه على الطحن، ثم أنسيت المرأة طحنها يومين ليفسد، فتصاعد منه ريح خانق. وفى اليوم الثالث حضر الرجل من الصيد ظمئا يلهث، ونادى على المرأة لتسقيه ولم تكن المرأة بالكهف، فثار ثائره، وبحث عن ماء فلم يجد فانتهزت الفرصة وأرشدته إلى حفرة الماء والطحن ليشرب مما بها فيتسمم فيموت، فلما بلغ الحفرة نظر فيها وعاف رائحتها فزينت له الشرب منها، وكان ظمؤه بالغا، فشرب قليلا وسكت ثم عاد يشرب حتى امتلأ، وأنا أكاد أطير من الفرح، ثم رأيته يقوم مترنحاً يضحك ملء شدقيه، فعجبت، واذا به يسير بين الكهوف يجرى وراء النساء كالمجنون فيهربن منه مذعورات، ثم لقى امرأته فهجم عليها كالوحش وقتلها شر قتلة. ثم أخذ يقتل كل من صادفه من الرجال ويعتدى على النساء. ذلك الذى حسبته سيموت قد ازداد قوة وجرأة، وأخيراً ارتمى فنام، ثم صحا بعد ساعات فرجع اليه صوابه كما كان، فعلمت أن ذلك الشراب يفقد الرجل عقله إلى حين.

عاد الرجل الى كهفه، فلما رأى الخابية مال عليها يكرع وأعاد سيرة الأمس، وتحدث أهل القبيل بهذا الأمر العجيب فجاء الرجال وكرعوا من الخابية، وجنوا مثل صاحبهم، وقد تركتهم ولا عمل لهم إلا صنع ذلك الشراب والعب منه، وتهتيك النساء، وتقتيل الرجال ولا أحسب قبيلهم بعد قليل

على الطلال الماضى

ساعة فى ... «سُرَّ مَنْ رأَى»

«فى السنة الآتية يكون قد مر على انشاء سر من رأى ألف ومائة سنة» ع .

... الآن رجعت من التاريخ. إنى أرى الدنيا صغيرة خابية لأنى كنت فى دنيا أكبر منها وأحفل بالنور والعطر: كنت فى «سر من رأى» !

* * *

جلست أدون رحلتى إلى الحلة «دمشق العراق» ، ووقوفى على أنقاض بابل «أخت الدهر» ، وزيارتى السدة الهندية «القناطر الخيرية الثانية» ، وما أولانى الحليون من ألوان المنن وأنواع الكرم ... فلم أكد أمضى فى المقالة حتى عرضت لى رحلة جديدة إلى سر من رأى ... ومنذا الذى لا تفتنه سر من رأى ؛ ولا تهيج بلابل أشواقه ؟ ومنذا الذى نظر فى كتب التاريخ أوشدا بشىء من الأدب ثم لا يعرفها ولا يحس أن لها صلة بنفسه ؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات بصوت خافت كأنه مناجاة النفس ، بطىء كأنه هجس الضمير ، وأنتم تنظرون بعيونكم إلى بعيد ، تحدقون فى غير شىء ، فعل من يتذكر أمراً ، ثم انظروا كم يثير فى نفوسكم من ذكر وحوادث ، وفكر وعواطف ، أقل ماتوصف به ، أنها لا توصف ، وكيف تحتويها كلمات وهى عالم ؟ وكيف تنتظمها لغة الأرض وهى من لغة السماء ؟ ومتى كان الانسان ناطقا مبينا ؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة ، لكائنات عظيمة ؛ إن العواطف مئات ومئات وما ثم إلا كلمة واحدة ... وكذلك الجمال والحب والطبيعة ... لا . إن الانسان لا يزال طفلا لم يتعلم النطق ولم يحسن البيان !

* * *

سر من رأى ، وما سر من رأى ؟ هى التى نهضت لبغداد لما كانت بغداد عاصمة الأرض . ولما بلغت غاية المجد وأبعد الأمانى ، وبذت كل مدنية ، وكان فيها مليونان من السكان ، وكان فيها العلم والفن والسلطان ... نهضت لها تزاحمها وتنافسها ، فلم تكن إلا ليال حتى غلبتها وبهرتها ، وتربعت على دجلة من فوقها ، وسلبتها خليفتها وأبهتها وجلة أبنائها ، وكانت أجل منها وأعظم

سر من رأى ، المدينة الملوكية ، التى ولدت فجأة فاذا هى أجل المدن ، وإذا فى كل ناحية منها عرش ، وفى كل بقعة منها عرش ، وإذا هى تتشح بالنور وتتضمخ بالعطر ، وتنام على الزهر ، وإذا هى تبلغ مالم تبلغه من بعد الزهراء المدهشة ، ولا فرساى ...

ثم ماتت فجأة ، فاذا كل ذلك حلم سريع وبرق خاطف . لم تعش إلا نحو خمسين سنة ، (٨٣٨ — ٨٨٣) وما خمسون سنة فى عمر المدن ، إلا خمسون دقيقة ، أفرأيت الجميلة التى ولدت بأعجوبة ، فاذا هى الغادة الفتانة ، ثم إذا هى تقضى بعد ساعة ؟

لم تكد تزدهر وتستقر حتى نودى فيها بالرحيل والرجوع إلى بغداد ، فهب الناس مذعورين ، يحملون ماخف حمله وغلا ثمنه وتركوا المدينة العظيمة للرياح والوحوش واللصوص ...

* * *

قرأت ذلك من حديثها ، ثم لم أعد أعرف عنها شيئا ، ولم أدر ماصنع الدهر بها ... وأين من يسأل عن الآثار ويبحث عنها ؟ ومن يعرف اليوم ماذا جرى بالكوفة ومسجدها ؟ والبصرة ومربدها ؟ أو يعلم صفة القادسية أواليرموك ؟ من يسأل عنها وهذا مسجد بغداد العظيم ، مسجدها الجامع ، قد ابتلعته الدور وطغت عليه فلم يبق منه إلا منارته التى تقوم منحنية تبكى هذا المجد العظيم وهذا الماضى الفخم ، وتنادى لو وجدت سميعاً : وما كان ذنب هذا المسجد ، وما كان ذنب هذه الآثار ، إلا أننا نحن وارثوها لا الفرنسيس ولا الانكليز ، أولئك الذين لم يدعوا فى بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعة ، أو أثر من آثار الماضى ، إلا كتب عنه مؤرخوهم ، ووصفه أدباؤهم ، وصوره

إلا صائر أثراً بعد عين »

فما إن سمع الشيطان هذا الحديث حتى وثب على المتكلم ولكن ليعانقه ويقبله . وتصايح الجمع صيحات الفرح ، وأخذوا يرقصون ويقفزون . ثم رفع الشيطان يده فسكتوا . فقال : «أيها الاخوان ! لقد تجدد أملكم بذلك الشراب العجيب فانفروا إلى سطح الأرض . وانتشروا فى المشارق والمغارب ، وعلموا العدو الأبله صنع الشراب ، وزينوا له شربه ، فسيفرح الغبى به ، ويذيب منه جوهرته اللعينة ، فاذا شربه صار لعبة فى أيدينا ، وإذا أفاق اشتاق اليه فلا نزال به حتى نهلك منه الروح والجسد جميعا ، قولوا معى أيها الاخوان : لتحى الخمر .

فتدفقوا وهم يرددون هذا الهتاف ، ولا يزال هذا هتافهم إلى اليوم .

عبد المغنى على حسين

مصورروهم ، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجليلة ، وهدمناها بأيدينا لنبني بأنقاضها دورنا الحقيرة !

أسمعتم بالمدرسة النظامية التي درس فيها حجة الاسلام الغزالي والتي كانت من أكبر جامعات القرون الوسطى ؟ أتدرون ماذا بقي منها ؟ منارة مهدمة طولها أربعة أمتار ، في زقاق عرضه ثلاثة أمتار ، عند جامع مرجان في بغداد ، والمنارة مائلة قد انحنت تحت أثقال دار قد ركبتها ، وربما هدمت المنارة لتقام عليها الدار ، فمن يدري ؟ وأين من يدرس الآثار ويعنى بها ؟ وهذا قصر الخضراء في دمشق ، ما بقي منه إلا اسمه تحمله مصبغة ، في زقاق القباقيب . يالعجائب الزمان ! صار مثوى التاج ومحط العرش زقاق القباقيب . . . فمن سأل عنه ؟ ومن وصفه ؟ ومن حفر في أنقاضه ؟ أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا ، إذن لحرقت هذه البقاع حرقا ثم أخرجت كنوزها ، ثم ملأت نفوس أهلها عزة ، ثم كانت لهم أجنحة يطيرون بها في معارج العلاء . . . إن تحت هذه الأرض علما ومجدا وجلالا ، ولكن ليس فوقها من يحفل العلم والمجد والجلال !

أو ليس من أعجب العجب ، ياقومي ، أن آثارنا لم يبحث عنها ولم يكشفها إلا هؤلاء الأوربيون ؟ إن في دمشق قريتين هما معلولا وجبعدين تتكلمان السريانية منذ خلقتا ، فما فكر أحد في درس هذه اللغة ومعرفتها ، حتى جاء هذا المستشرق الشاب ، رايخ النمسوي من آخر الدنيا ليدرسها . . . بل هذه هي سر من رأى ، ما نقب فيها وكشفها للناس إلا هرسفلد الالماني ، الذي حفر فيها سنة ١٩١١ كلها وبعض سنة ١٩١٣ باشارة من أستاذه ساره (Sarre) وبنفقة المصرف الألماني وبعض كبار الألمان . بدأ الحفر في قصر المتوكل ثم انتقل إلى الجوسق ، وإلى القصر المعروف بقصر العاشق ، واستخرج من هذه البقعة الصغيرة كرائم الآثار ونفائس الأعلاق ، التي انتقلت إلى ألمانيا ، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذي أخرجه هرسفلد في مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مدهشة حقا ؛ وهو يصف في المجلد الأول نقوش الجدران وزخارفها ، ويقول انه لم تكن تخلو دار من هذه النقوش الجصية البارزة الملونة أحيانا ؛ وفي الثالث الرسوم والصور ، وأكثر هذه الصور مما وجد في حمام الجوسق ، وقد حلت هذه الصور مشكلة قصر المشتى الذي كشف سنة ١٩٠٨ ، ويتحدث في جزء عن الأواني الزجاجية والخزفية ، وقد ظهر أنه كان في سر من رأى معمل للزجاج ، ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعاته .

ومن أهم ماتمتاز به المدينة شوارعها ، التي لا تكاد تحوي مثلها (اليوم) مدينة في العالم ، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظام عجيب ، والشارع الأعظم ، (وآثاره باقية) يمتد بعرض مائة متر ، ودورها التي كان أكثرها كبيراً فيه خمسون غرفة ، وفيه مجار للماء وبرك ، ومجار أخرى للماء القذر ، وحمامات وسراديب للصيف مبنية على نظام يكفل لها حسن التهوية ، وكان أكثر الدور على طراز واحد ، فهي ذات ردهتين : ردهة حيال الباب تفضي إلى ردهة أخرى مستطيلة ، عمودية عليها والغرف من حولها



بقايا القصر المسمى بقصر العاشق

وقد صحب هرسفلد رجل عسكري يدعى (لودلوف) متخصص برسم المصورات ، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة $\frac{1}{2000}$ وصحبه رجلان مختصان بالنقوش هما (بارتوس وبيجر) على أن ما كشفه هرسفلد لا يعد شيئاً ، والمتحف العراقي عامل على موالاة التنقيب في الآثار ، وجمعها في متحف الآثار العربية ، وينتظر ظهور أشياء هائلة

* * *

سرنا إلى (سر من رأى) في قافلة مؤلفة من كبار طلاب (دار المعلمين العالية في بغداد) والدكتور كامل بك عياد (أستاذ التاريخ الاسلامي في الدار) و . . أنا ، فجزنا بالأعظمية ، وعبرنا النهر إلى الكاظمية ، ثم استقبلنا الفضاء .

ولم نقف في الطريق إلا على جسر حربى ، وهو جسر قائم في الفلاة ذو ثلاث قناطر . عليه كتابة ظاهرة تدل على أنه بني في أواخر العهد العباسي على نهر دجيل ليسقي مدينة حربى ، فتلفتنا فاذا النهر قد جف والمدينة قد محيت والعهد العباسي قد انقضى ، وإذا كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة ، وبلادنا تتأخر وتمعن في الخراب فوقفنا معتبرين . ومضينا مستعبرين .

ولم نسر من بعد إلا قليلا حتى طلعت علينا (الملوية) وهي

منارة جامع المتوكل ، عالية تبدو من بعيد كالصرح الهائل ، وقد شبهت مكانها من سر من رأى ، ببرج ايفل من باريز ، فهى علم البلد ورمزه . ثم بلغنا دجلة فعبرناه . ودخلنا (قرية) سامراء نستريح فى مدرستها ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات فى السيارة . ثم ولجنا حرم التاريخ ، يصحبنا معلمو المدرسة الذين أولونا من أياديهم وأرونا من كرمهم وحسن أخلاقهم ، ما نذكره لهم بالشكر ، فلولاهم ما رأينا شيئاً ، ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج فى هذا العالم الواسع !

إى والله . هو عالم ، هو شىء عظيم جداً .

سرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلا ، وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع إلى الدور العليا ، وإن إلى الدور السفلى لمثلها ، وإن هذا كله لنصف المدينة ، وعلى الضفة الأخرى مثله

أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه البرية الواسعة التى يضل فيها البصر ، مدينة عامرة ، وكيف كان الناس يقطعونها ، وان بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتى عشرة ساعة على الراكب



جسر حربى

* * *

كان أول ما رأينا المسجد الجامع ، وهو كبير جداً لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنها ، لم يبق منه إلا السور وهو مبنى من اللبن مثل سائر الأبنية العراقية ، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة ، ووراء السور المنارة ، وتعرف عند الناس بالملوية أى المستديرة ، وهى حلزونية الشكل سلمها من ظاهرها ، مؤلفة من سبع طبقات ، ارتفاعها (٧٥) متراً ، وتحتها قاعدة مربعة أقيمت حديثاً لتقويتها ، طول الضلع من أضلاعها (٤٠) متراً ، فصار ارتفاع المنارة قريباً من (٨٥) متراً وقد بنيت على غرارها منارة جامع ابن طولون فى القاهرة ، ثم تركت هذه الصفة فى المآذن واتخذ لها سلم من جوفها



منارة سامرا (الملوية) وتبدو فى الصورة الاربع طبقات العليا وهى مؤلفة من سبع طبقات ارتفاعها ٨٥ مترا

* * *

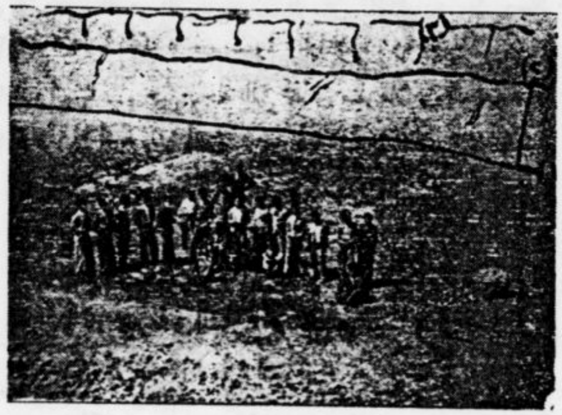
تركنا المسجد وسرنا فى وجهة واحدة ، كيلا نضل فى وسط هذه الاطلال ، وكان حولنا تلال من التراب ، كانت قبل ألف ومائة سنة ، دوراً عامرة ، وقصوراً فخمة ، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور كبير ، أخبرنا بها معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الواثق ، وعلا بنا على تل عال وقال : انظروا ، فنظرت فلم أر إلا برية واسعة ، لاشىء فيها . . . فقال : امعن ، انظر ، وحدق فى الأرض ، ففعلت فرأيت شيئاً أدهشنى ، وخفق له قلبى ، رأيت تلالا صغيرة منتظمة ، على شكل دوائر متقاطعة على نمط هندسى بديع ، تمتد إلى ما لا يدرك البصر آخره . . . فقلت وأنا مشدوه : ويحك ماهذا ؟ قال : حديقة !

وأى حديقة هى ؟ حسبى أن أقول : إنها شىء هائل !

* * *

ومضينا . . . نمر على الأطلال . حتى بلغنا آثار سور كبير جداً كأنه سور مدينة . . . فقال دليلنا : هذا بلاط الخليفة ، فترجلنا وسرنا فى طريق مبلطة باقية آثارها ، ونحن نتخيل كم مر فى هذه الطرقات من خلفاء وأمراء ، وكم شهدت من جلال وجمال ، حتى بلغنا مصيف المتوكل ، وهو أول ما استقبلنا من القصور ، ونسيت أن أقول إن البلاط بلدة واسعة ، فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها ، وفيها مسجد كبير ، وفيها البركة المتوكلية المشهورة ، بركة البحترى ، فولجنا المصيف ، وهو قصر كبير تحت الأرض ، به غرفة محفورة فيها حفراً ، وهى متصلة يفضى بعضها

إلى بعض ، ولها نوافذ كثيرة ، تضمن لها حسن التهوية ، وفى وسط القصر بركة ... وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الأرض ، فلما هبطنا إلى جوف القصر كدنا نهلك من البرد ...



فى وسط بركة المتوكل

الخط (١) يمثل استدارة البركة وسعتها الخط (٢) يمثل عمقها (٣) آثار الغرف التى كانت على جوانبها

وكان الصديق الأستاذ كامل بك يسرد فلسفته العلمية ويقص علينا قصة القصر وبناءه ، وفنه وقيمته التاريخية ، ولكن واحداً منا لم يكن يصغى أو يفهم شيئاً مما يقول ... فكف وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحية ، لا للعقل ومقاييسه الجافة ، وفلسفته الباردة ...

كنا نتخيل هذا القصر ، وقد كان يعج بالحياة ، ويفيض بالحب ؛ كنا نسمع الأصوات ، ونبصر الألوان ، ونشم عبق العطر ونحس كأنا نرى الخليفة ونشهد مجالس الأدب والغناء ، وخلوات الحب . .

كم عاش فى هذا المكان من عواطف ! كم خفقت فيه من قلوب ! كم امتلأ بالحياة . . . أفيودى ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة ، ويشمله العدم ولا يبقى له وجود قط ؟

أى امرىء عرف الحب ، وكابده وأدرك معناه ، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه ؟ لا . إن ذلك كله موجود ! موجود فى زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح ، إنه خالد لا يفنى أبدا ، إن فى هذا القصر ذكريات جمة ، تحتويها هذه الجدران الخرساء ، وهذا اللبن البارد ، إن فيه صدى تلك الهمسات التى كانت تتناجى بها الشفاه ؛ إن فيه خفقات تلك القلوب ؛ إن فيه رنات تلك القبل .

إن سؤال الديار ، واستخبار الأطلال ، أقدم فنون الشعر العربى ، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين ؟ أتراهم كانوا عابثين ؟

لا . إن فى هذه الأطلال لحياة ... إن كل شىء فى الوجود حى يذكر ويأمل ويشعر ويحلم ، ولكنه لا ينطق ولا يفكر ...
آه ... لو أن هذه الجدران كانت تنطق ، وتتحدث وتصف ما تشعر به ...

وخرجنا من القصر ، ونحن نحس كأنا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا إلى عالم آخر ، عالم تمتزج فيه الأحلام بالحقيقة ؛ عالم شعرى ساحر ... فررنا على جب واسع للماء خبرنا دليلنا أن بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدعون بأنه سجن ، ويختلقون حوله الأكاذيب ... وهؤلاء الأدلاء والتراجمة بلاء أزرق ، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الأفرنج تاريخ المسجد الأموى فى دمشق ، فقال لهم مانصه : « هذه هى المنارة التى بناها الوليد بن هارون الرشيد لسيدنا عيسى ، ولذلك سميت منارة عيسى » وهم يكتبون فى دفاترهم ما يقول ، فينشرونه على أنه كتاب على عن الشرق وأهله ، وليس العهد ببعيد بتلك الكاتبة الفرنسية التى كتبت كتابا عن دمشق قالت فيه : ويخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبى فى مكة القريبة من دمشق !!

***

أقول إننا سرنا إلى مسجد القصر . وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج منه آثاراً رخامية ومحراباً جميلا حملها إلى ألمانيا ثم انتهينا إلى البركة ، ولست أكتم القراء أنى كنت أظن أن البحترى يبالغ فى وصفها ، على طريقة الشعراء الخياليين وأقرر ذلك فى دروسى ، وأقول ما عسى أن تبلغ هذه البركة ، حتى تظل دجلة كالغيرى منها تنافسها وتباهيها ، وحتى تبدو فى الليل كأن سماء ركبت فيها ، وحتى أن السمك المحصور لا يبلغ غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها ؟ فلما رأيت انقاضها رأيت شيئاً عظيما . رأيت بحراً ، رأيت ميدان سباق ، دائرة قطرها نحو مائتى متر ، فأكبرتها وهى جافة فكيف لو رأيتها وهى ممتلئة بالماء ، ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة ، وقد عقد فيها مجلس الخليفة ، إذن لرأيت أكثر مما قال البحترى ، فرحم الله الشاعر وألهم شعراءنا تخليد ما يرون من جمال بلادهم ، وعظمة مصانعهم ، على نحو ما خلد البحترى البركة ، والجعفرى وطاق كسرى !



قصر الخلافة (منظر جانبى)

ثم سرنا إلى قصر الخليفة الرسمى ووقفنا فى إيوانه الكبير ، وهو بنى على شكل إيوان كسرى ، ولكنه أجمل وأصغر ، وقفنا صامتين خاشعين تتقاذفنا عواطف وذكريات لا يدرى مداها ، تخيل هذا الايوان وكم عقد فيه من مجالس ، وكم وقف فيه من ملوك ، وكم كتب فيه من تاريخ ، نبصر المعتصم وقد أخذ كأسه ليشرب فأبلغوه أن امرأة مسلمة أسيرة فى بلاد الروم صاحت : وامعتصماه .

امرأة أسيرة ، وأمير المؤمنين يشرب كأسه هانئاً ؟ امرأة تنادى : وامعتصماه ، والمعتصم لا يجيب ؟ إن هذا لن يكون



بقايا قصر الخلافة في سر من رأى

وأرى المعتصم يخرج فى الجيش اللجب الذى تضطرب له سر من رأى ، وتميد لثقله الأرض ، وتصعق لهوله المردة ، وترتجف الرواسى ، حتى يحط على عمورية ، فيدكها دكا ويعود مثقلا بالمجد والظفر والغنائم .

وأسمع أبا تمام ينشد آيته الخالدة .

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بنى الاسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب

ثم أنظر حولى فأرى كل شىء قد تبدل

تغير حسن (الجعفرى) وأنسه ... وقوض بادى الجعفرى وحاضره

تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره

إذا نحن زرناه أجد لنا الاسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

(غدا موحشا قفرا) كأن لم يقم به ... أنيس ولم تحسن لعين مناظره

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره

فإن الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بهيبتها أبوابه ومفاخره

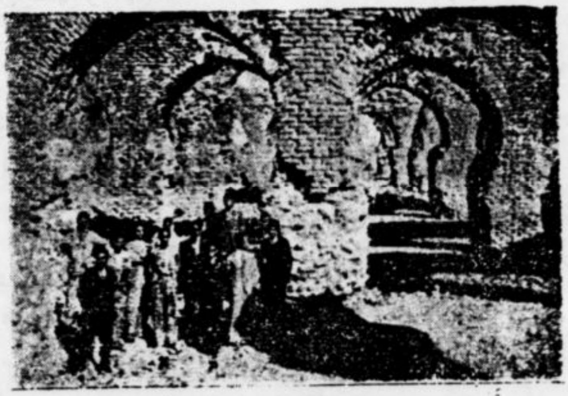
وأين عميد الناس فى كل نوبة ... تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره

لقد هجر الحياة . ونأى عن النعيم ، وجفاه ... حتى دجلة ... دجلة أعرضت عن القصر ، ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه . وجفته وكانت مع الدهر الدوار . . . والزمان الغدار ، حتى دجلة التى أفاضوا عليها المجد ، ووضعوا فيها الحياة ، وأعطوها أكثر مما أخذوا منها ... حتى دجلة التى تجرى منذ ملايين السنين ، فلم تجد أكرم ولا أعز ولا أعظم ، من أصحاب هذا القصر وبناته . . . حتى دجلة نسيت وكانت (١) ! !

* * *

ثم ودعنا البلاط وسرنا ـ وقد أودعناه قلوبنا وصببنا فيه نفوسنا ودموعنا ... سرنا فى الشارع الأعظم نصف ساعة فى السيارة ـ وقد رأيناه بيناً ، عرضه مائة متر والشوارع تتفرع عنه فى نظام عجيب ، وهندسة محكمة ـ والبيوت قائمة على الجانبين وقد استحال أثرها إلى تلال من التراب كأنها القبور . . .

فررنا على معسكر أشناس ، وهو أشبه بميدان فسيح جداً حوله سور . حتى انتهينا إلى المسجد المعروف اليوم بجامع أبى دلف وهو أكبر من مسجد المتوكل وفيه رواق قائم على خمس قناطر ومنارة كالملوية ولكنها أصغر منها . فوقفنا عليه .



قسم من رواق جامع أبى دلف فى سامرا

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فانتهت الرحلة هنا ، وعدنا ونحن صامتون خاشعون . . .

وقد علمنا لماذا يريدون منا أن نتجرد من ماضينا .

لأننا لا نستطيع أن نبنى المستقبل الفخم ، إلا على انقاض الماضى الفخم

(بغداد)

على الطنطاوى

---

(١) وحيال القصر من الجهة الاخري آثار قصر عظيم لم أعرف تاريخه بالضبط ولا لمن هو ـ يدعى اليوم قصر العاشق وبين القصرين آثار سد هائل في دجلة لاتزال إلى اليوم

تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ

لمندوب الرسالة

بقية المنشور في العدد الماضي

اليوم الرابع

كتابا الحيوان، والبيان والتبيين هما أهم ما للجاحظ من الآثار التي وصلتنا، والتي انتفع بها الكتاب والأدباء، ولقد كان اليوم الرابع ميعاداً للقول في هذين الأثرين الكبيرين، وكان درس الحيوان منوطاً بالأستاذ «كراوس» وكان الكلام في البيان والتبيين على الأستاذ مصطفى السقا.

وقد تكلم الأستاذ كراوس عن الحيوان كلاما مستفيضاً فوضح غرضه وأهميته. واهتم كثيراً بتحقيق الصلة بينه وبين كتاب الحيوان لأرسطو فقال: إن أبا منصور البغدادي قد ذكر أن الجاحظ لم يعمل شيئاً إلا ان سلخ معاني كتاب الحيوان لأرسطو، ثم ضم اليه ماذكره المدائني من حكم العرب وأشعارها في منافع الحيوان، ولكن البغدادي هذا كان يطعن على الجاحظ، وكان كثير النيل منه، فقوله قول خصم لايصح أن نقبله على علاته، ونحن وان كنا نعتقد أن الجاحظ قد اتصل بالثقافة اليونانية ووقف على آراء أرسطو في الحيوان، إلا أننا نعتقد أنه ألف كتابه ليعارض كتاب أرسطو، وليقيم الدليل للشعوبية على أن العرب أصحاب علم ومعرفة كسائر الأمم، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك إذ يقول في مقدمة الحيوان: «وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك. ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب»

ولذلك كان الجاحظ يهتم كثيرا بحشد أشعار العرب وأقوالهم وحكمهم في الحيوان، كما كان يهتم بالسخر من أقوال صاحب المنطق والضحك منها، فالبغدادي قد غبن الجاحظ وتجنى عليه وتنقصه بغير حق

وتكلم الأستاذ السقا من بعد ذلك عن البيان والتبيين فقدم بين يدى الموضوع كلاماً طويلا يتصل بشخصه أكثر مما يتصل بأمر الكتاب، فذكر أيامه في دار العلوم وهو طالب، وقال: إنه كان يكره البيان والتبيين ويستثقله وينفر منه، حتى حببه إلى نفسه نصيحة أستاذ مخلص، فأقبل عليه وانتفع به في ثقافته الأدبية. وبلغ من إعجابه به أن كان يعاود قراءته، ثم عرض لموضوع الكتاب وذكر أبوابه وفصوله، وتكلم في أسلوبه وطريقته وأفرغ عليه كثيرا من الثناء والتمجيد، ومن العجب أنه ذكر تعريف الانسان الذي نقله الجاحظ عن ارسطو فقال: إنه الحي الميت!! وقد سمعناه يعيده ثانية بهذا النص. وإنما هو الحي المبين على ما نعرف، ولكنه نطق التعريف كما جاء محرفا في الكتاب!!

اليوم الخامس

وكان القول فيه للأستاذين ابراهيم مصطفى وأحمد الشايب، وكان موضوع الكلام للأستاذ ابراهيم مصطفى عن «دعابة الجاحظ». وقد التبست الدعابة بالدعابة على السامعين، فانتظروا من الأستاذ أن يفيض عليهم من فكاهات الجاحظ ونوادره ولكنهم دهشوا إذ رأوه لايمس ذلك ولا يتقرب اليه، فجاؤا باللوم العنيف على الأستاذ، وقالوا: إنه أهمل موضوعه وخرج عليه، وما كان مبعث هذا كله إلا تلك «النقطة» الخبيثة التي أهملتها يد الطابع، فأساء إلى الأستاذ وأساء إلى السامعين!

وقد ابتدأ الأستاذ القول في دعاية الجاحظ بما كان بينه وبين أبي هفان اذ قيل لأبي هفان: لم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟! فقال: أمثلي يخدع عن عقله؟! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة!

وعلق الأستاذ على هذه النادرة فقال: ونحن اذا تأملنا هذه النادرة نجد أن أبا هفان الشاعر قد تراجع أمام الجاحظ الناثر، أو بالأحرى نجد الشعر قد انهزم أمام النثر، ذلك لأن

الجاحظ قد نصر النثر على الشعر ، فاستخدمه فى موضوعات لم تكن له من قبل ، وراضه على سبل استعصت على الكتاب السابقين ، ثم إن الجاحظ فى نثره قد اهتم بالتقرب من الجمهور ما استطاع ، فأخذ يطرق الأمور التى تشغل بالهم ، ويكتب فى المعانى والأغراض التى تحيط بهم فى حياتهم الأدبية والاجتماعية والأخلاقية والدينية ، ولما قامت الفتنة بين المأمون والأمين واندفع الناس فى تيار تلك الفتنة ، كان ذلك مما مكن الصلة بين الجاحظ والجهور ، لأنه ابتدأ يؤلف لهم فى هذا الذى انصرفت اليه عقولهم ، فكتب كتاب الإمامة لهم ، فوقع عندهم الموقع الحسن ، وقد قرظه المأمون وأثنى عليه ، وإن تقريظ المأمون فى الواقع لأدق وصف لكتب الجاحظ وكتاباته .

على أن الجاحظ فى تقربه من الجمهور والعامة لم يكن الا متبعا لتعاليم المعتزلة الذين أخذوا يعملون لدفع الجمهور للعلم ، وتقريب المعارف من نفوسهم بشتى الوسائل الممكنة ، ونحن اذا تأملنا كثيراً من كتبه نجده قد اختار موضوعاتها مما يليق بالجمهور ويروج عندهم مثل كتاب البخلاء .

ولقد كان الجاحظ يدخل على نفوس العامة من ناحية أخرى هى ناحية الدعابة والتفكه ، فإنه كان يحفل بذلك ويعتد به ، ولست أذكر من فكاهات الجاحظ وأساليبه فى ذلك ومبلغ قوته فى التصوير ، فإن من قرأ منكم شيئاً من كتب الجاحظ فقد أدرك ذلك وتحققه ، ثم عرض الأستاذ لكتاب التربيع والتدوير فقال : إنه نمط من فكاهة الجاحظ ، ولكنه ملآه بالأسئلة عن اشياء لا تصح ، وفيها ما يدور فى أذهان العامة والجمهور ، ولم يعمل الجاحظ على أن يجيب عنها ، وقد قال الجاحظ فى آخره : فان أردت أن تعرف الفاسد والصحيح من هذه الأسئلة فالزم نفسك باب دارى ، وقراءة كتبي (١)

وعرض للجاحظ فى موقفه من المرأة فقال : ان الجاحظ لم يتزوج ولم يؤكد علاقته بالمرأة ، ولكنه قد دافع عنها وأكبر من شأنها . وله كتاب « الحرائر والاماء » كتبه فى مناصرة الاماء والثناء عليهن وتفضيلهن على الحرائر (١)

ثم تكلم عن أسلوب الجاحظ بما هو معروف ، وقال إنه لم يؤثر فى أحد من بعده تأثيراً فنيا ، وإن ابن العميد الذى كان يتعصب للجاحظ ، ويلقب فى ألسنة الأدباء بالجاحظ الثانى لم يكن له من خصائص الجاحظ شىء ، حتى القاضى الفاضل الذى يقول فى كلام له : أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب الا من دخل من كتبه الحاره ، وشن عليها الغاره ، وخرج على كتفه منها كاره ، لا نعرفه قد تاثر بالجاحظ فى قليل ولا كثير (٢) ، ثم أخذ يقارن بين الجاحظ وبين المبرد فى طريقته وأسلوبه ، ولم ينس ثعلبا فى هذه المقارنة . . وانتهى بعد ذلك الى القول بان الجاحظ كان داعية كبيراً ، قد استطاع أن يتصل بالجمهور الى حد بعيد ، وأن يؤدى لنفسه وللمعتزلة من هذه الناحية شيئاً كثيراً ، فكان مثله فى ذلك مثل الصحفى الماهر فى أيامنا الحاضرة (٣)

وقام من بعد ذلك الأستاذ أحمد الشايب للكلام فى مآخذ الجاحظ فابتدأ القول بكلام الناس فى ثقافة الجاحظ واتساعها وثنائهم عليه من هذه الناحية ، وقال إن الجاحظ كان واسع المعارف حقا ، قد اتصل بكل النواحى الفكرية والعقلية فى أيامه ، ولكن ثقافته كانت ثقافة عامة أو قل ثقافة صحفية يتلقفها من دكاكين الوراقين ، وقد كان ذلك مذموماً فى عصره حتى كانوا يقولون : هو صحفى اذا أرادوا الذم . ونحن نرى أن الجاحظ وان كان قد ألم بكل شىء ولكنه لم يتبحر فى شىء ، فثقافته أخذ من كل شىء بطرف كما يقولون

قال الأستاذ : ولقد أخذت أنظر الجاحظ فى كل ناحية من نواحى ثقافته فما وجدته إلا على ما وصفت ، ثم انتقص كلامه فى الحيوان ، وأورد فى ذلك كلام الباحث الفرنسى كارادفو فى كتابه « مفكرو الاسلام » وقد كان غاية ما حاوله

---

(١) كأنى بالأستاذ الفاضل لم يتبين الغرض الذى كتب الجاحظ من أجله كتاب التربيع والتدوير ولذلك فهو يؤاخذه بهذه الخرافات التى سردها ، والجاحظ إنما قصد إلى ذلك للتهكم بصاحبه وهو قد أشار إلى ذلك فى أول الكتاب وفى الحيوان ، ثم إنه أورد العبارة الأخيرة على أنها خطاب للقارىء والجاحظ إنما خاطب بها صاحبه .

(١) المعروف للجاحظ كتاب الجواري وكتاب القيان

(٢) فى الواقع أن الجاحظ قد أثر فيمن جاء من بعده تأثيراً كبيراً بأسلوبه وطريقته وثقافته ولعلنا نستطيع أن نكشف هذه الناحية لقراء الرسالة فى بحث شامل

(٣) سمعت الاستاذ ينطق المبرد بالفتح وانما هو بالكسر حتى كان يقول برد الله من برده

الأستاذ أن ينتقص جهد الجاحظ وآراءه فى الحيوان والنقد والبلاغة ، وفى كل ناحية من النواحى التى كتب فيها . وقال إنه كان ينتهب آراء غيره ، وكان يخلط بين النقد والبلاغة ، على أن هناك فرقا بين الناحيتين ، ولقد كان الجاحظ فى مؤلفاته يثير كثيرا من المشاكل ويمس الأمور المعضلة القائمة فى عصره فيستطيع أن يشخصها ويكيفها ويلقى فيها الأسئلة القوية ، ولكنه كان يتركها عند هذا الحد ، فلا علاج يشفى ، ولا جواب ينتهى بالقارئ إلى رأى حاسم ، ولذلك كان من السهل على الجاحظ أن يؤلف فى الشىء وضده وأن يناقض نفسه بنفسه ما دام هو يقف فى ذلك عند الآراء الشائعة والمسائل الذائعة فى كل فرقة . ولقد روى أن أحد الأمراء أرسل إلى الجاحظ يطلب منه أن يحتج له فى رأى ، فكتب له الجاحظ بما طلب ، فعاد الأمير يقول له : إن الخادم قد غلط فى تبليغ الرسالة اليك وإنما أريد أن تكتب فى نقيض هذا الرأى ، فلم يتورع الجاحظ عن أن يكتب له .

قال الأستاذ : وقد كان الجاحظ من المتكلمين ، وكان الجدل والكلام فى عصره على غاية ما يكون من الشدة ، ولكنى لم أعرفه قد كتب كتاباً فى أصول الجدل أو ألف فى علم الكلام كما كانت تقتضيه وظيفته ويقتضيه عصره (١) ، ثم انتقد الجاحظ فى تحقيقه ، وأورد كلاماً للمسعودى فى ذلك إذ يقول : زعم الجاحظ أن نهر مكران الذى هو نهر السند من النيل . واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، وهذا تحقيق باطل ناقص ، لأن الجاحظ أقامه على قياس منطقى نظرى فاسد النتيجة ولو طاوعنا الجاحظ فى قياسه لكان كل نهر فيه التماسيح هو من النيل ، لأن النيل فيه التماسيح

وكان من رأى الأستاذ أن غاية ما للجاحظ هو الأسلوب ففيه براعته وشخصيته ومميزاته ... ثم انتقده بالتكرار الممل ، وقال إن الجاحظ كان يستعمل عبارات ثابتة يكررها كثيراً حتى كأنها « كلشيهات » (٢) فهو ينقلها من كتاب إلى كتاب ومن موضع إلى موضع ، ومثل لذلك بكلامه فى اصطناع الكتب إذ أورده فى كتابه الحيوان ، وأعاده فى المحاسن والأضداد (١) ، وكذلك كلامه عن الحسد وعبارات كثيرة يدركها كل من وقف على كتبه .

اليوم السادس

أما اليوم السادس وهو اليوم الأخير فقد اضطلع به الدكتور طه وحده ، وكان عليه أن يملأ فراغه فمد رواق القول على كثير من نواحى الجاحظ مع أن موقفه فى القول كان عند « فكاهة الجاحظ » ، فتكلم أولا عن إطراء الأدباء للجاحظ وما يجب أن يكون له من هذا الإطراء ؛ ثم تكلم عن دعاية الجاحظ بما تكلم به الأستاذ ابراهيم مصطفى من قبل ، فقال إن الجاحظ قد نصر النثر على الشعر ، وجعله أقرب وأعذب فى نفوس الجمهور والعامة ، ولقد أشرت إلى ذلك فيما كتبته فى تقدمة نقد النثر لقدامة ، وقد قلت إن الجاحظ أثر فى ابن الرومى من هذه الناحية ، فمهد له طريق التقصى فى المعنى والإسهاب (٢)

ثم تكلم فى فكاهة الجاحظ فقال : ولقد كانت الفكاهة من النواحى البارزة عند الجاحظ ، وما كان الرجل يقصد فى فكاهته إلى الضحك والإضحاك فحسب ، ولكنه كان يقصد أيضاً إلى التصوير ، ويقصد إلى التهكم والسخر ، ويقصد إلى النقد والهجاء ، وأورد فى الاحتجاج لذلك كلامه فى نقد الخليل ابن أحمد . ثم ذكر بعض فكاهاته فذكر من ذلك قصته مع محمد بن أبى المؤمل البخيل (٣) ، ثم انتدب الدكتور محمد عوض ليقرأ طرفاً من رسالة الجاحظ للمعتصم أو للمتوكل يحضه على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب ، وفيها كثير من ألوان الدعابة والشعر الفكه (٤)

قال الدكتور : وعندى أن الجاحظ كان كفولتير ، فكما أن فولتير لم يكن عالماً فحسب ولا أديبا فحسب ولا فيلسوفا فحسب ولا اجتماعيا فحسب ، وانما كان له فى كل هذا وأكثر من هذا ، فكذلك نجد الجاحظ له فى الأدب والفلسفة

---

(١) ليس هذا على ما نرى مما يعاب به الجاحظ ، لأن هناك فرقاً بين المتكلم والعالم بالكلام الذى من مهمته أن يؤلف فى الكلام ، وهل لنا أن نعيب المتنبى بانه لم يكتب فى الشعر وهو شاعر

(٢) هى المعروفة فى العربية بالرواسم . . .

(١) الذي نراه أن كتاب المحاسن والأضداد منسوب للجاحظ وما نعتقد أن أحدا درس الجاحظ يستطيع أن يقول غير ذلك .

(٢) هذه فى الواقع مبالغة لا تتصل بالحقيقة فى شىء ، ولست ادرى لماذا أثر الجاحظ فى ابن الرومى دون غيره من الشعراء وفيهم من كان يعاشره ويقاربه أكثر من ابن الرومى .

(٣) هى مذكورة فى البخلاء ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) تجد هذه الرسالة كاملة فى جمع الجواهر للحصرى ص ١٦٦ وما بعدها .

والاجتماع الى آخر ما هو معروف عنه ؛ وكما أن فولتير لم يكن فى سخره وتهكمه يقف عند حد الفكاهة ولكنه كان يقصد الى كثير من الأغراض الشريفة ، فكذلك كان الجاحظ ، فالمشابهة قوية بين الرجلين (١)

ثم قال : فالجاحظ لاشك من الشخصيات الكبيرة ، وأهل العبقريات النادرة ، وهو حرى بالذكر والتكريم ، ونحن اذ نقوم له بهذا الأسبوع بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاته ، فإنما نحن نؤدى له بعض الواجب ، ولا أكتمكم ياسادة اذا قلت لكم اننا فى حاجة كبيرة الى دراسة الجاحظ فى كتبه وآثاره دراسة وافية كما تجب الدراسة ، فاننا مع الأسف لا نعرف عنه الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط الينا من نوادره . وكلية الآداب اذا كانت قد فكرت فى اقامة هذا الأسبوع فانها أرادت أن تلفت الأذهان للعناية بالجاحظ ، وأن تنبه على وجوب دراسة تلك العبقرية الواسعة الشاملة

هكذا قال الدكتور الفاضل ، ولست أدرى اذا كانت كلية الآداب لا تعلم عن الجاحظ الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط من النوادر ، واذا كانت لم تقصد الا لفت الأذهان ، فمن الذى يكون عنده العلم بالجاحظ ، ومن الذى سيؤدى عنها هذا الحق للنقد والأدب

م . ف . ع

(١) لعل أستاذنا الزيات هو أول من نبه على الشبه بين الجاحظ وفولتير وإنه ليقول فى كتابه : إن الجاحظ هو فولتير الشرق .

العاطفة (١)

وهى تحفة من الشعر الوصفى الرائع المبتكر فى أغراضه ومعانيه

للشاعر العالم الأستاذ أحمد الزين

هى سرُّ الحياة فى كلّ حىٍّ ... خلجاتٌ تهفو بقلب الشجىِّ
هى والرُّوح فى فؤادك صِنوا ... نِ وفيض من عالم عُلوىّ
هى ذكرى بعد المشيب وسلوى ... فى اكتهالٍ وصبوة للفتىّ
ومُنّى للغلام يهفو إليها ... وحنان يحوط مهدَ الصبىّ
رافقتْ رحلة الحياة وآخت ... نِضوَ أسفارها إخاء الوفىّ
هى للقلب نعمةٌ أو شقاء ... كم سعيدٍ بها وكم من شقىّ
رُبَّ من يبهر العيون رُواء ... ناء من همها بداء خفىّ
ظاهر منه يخدع العينَ عمّا ... ضمن القلب مُن ضنى مطوىّ
من غرام مبرّحٍ أو فراقٍ ... أومنّى عُوجِلَتْ بصوت النعىّ
باسم بين صَحبه فإذا يخـ ... ـلو بكى شجوَه بدمعٍ شجىّ
وأخى منظر تراه فتَنْبُو الـ ... ـعَينُ عن منظر رَثيث زَرِىّ
يبصر الناس منه ما يبعث الرحـ ... ـمة فى قلب شانىءٍ وصفىّ
ما دَرَوْا أنه على البؤس يحيا ... بفؤادٍ خالٍ وبالٍ رخىّ
ملأت نفسه السعادة حتى ... لا يبالى بمنظر أو بزىٍّ
نزَعاتُ النفوس فى كلّ قلب ... ميَّزَتْ بين ساخطٍ ورضىٍّ
أسعدتْ آدماً وحوّاء حينا ... ثم أشقتهما بإفك الغوىّ
ورث النسلُ عن أبيه ميُولا ... لم تدَعه فى ظلِّ عيش هنىّ
ونفوسا حَيْرَى تقلّبها الأهـ ... ـواء مفتونة بكل طلىّ
فهى بين الآمال تمرح نَشْوَى ... ثم تصحو باليأس من كلّ شىّ
إنّ للعاطفات حُكما قويا ... ظلمُه عاصف بكلّ قوىّ
كم أذلّت جبارَ قومٍ ، وغَلّت ... من طليق ، وأسلَسَتْ من أبىّ
كم تولّى جهادَها فى قديم الـ ... ـدّهر نُصح لعالم ونبىّ
جاهَداها بالعقل حينا وحينا ... سخّرَا بعضها لقتل البَغِىّ
وهى تقوَى مع الجهاد فوَيْل ... للورَى من جهادها الأبدى

(١) تستعمل العواطف فى معنى ميول النفس ونزعاتها استعمالا شائعا فى كلام أهل العصر وهى المراد وصفها فى هذه القصيدة .

يوم عابس

فى الربيـــع الباسم

للأستاذ محمود غنيم

يالصباح أغـــبرِ الأديمِ   قد طعن الربيـع فى الصميمِ
أمطارُه قد شوّهت آذاره   وريحه قد صوحت أزهاره
قد يظفر الباحثُ بالعنقاء   فيـه ولا يرى ابنةَ السماء
فقلتُ: هل ضلَّ صباحُ اليوم   أم أغرقت شمس الضحى فى النوم؟
ويحك يا أيتها الشمس اطلعى   يا أرضُ غيضى يا سماء أقلعى
وقفتُ حيرانَ على الطريقِ   من غير ماء صرتُ كالغريق
الأرضُ تحتاجُ إلى عوّامِ   فـكيف بالسير على الأقدام
من رام أن يسعى يمينا أيسرا   ومن مشى قدّامَ عاد القهقرى
لـكننى شحذتُ غرب عزمى   وخضتُ موج ذلك الخضمْ
فلست بالنِّـكس ولا الجبانِ   إذا دعا الداعى إلى الميْدانِ
مشيتُ كالنشوانِ كلُّ همى   أنىَ أحفظ اتّزان جسمى
أسأل فى الطريق كلَّ سابلِ   كأنّنى أســيرُ فى المجاهل
دمع السماء فوق رأسى هامِ   والأرض من تحتىَ بحرٌ طامِ
والماء قدران على منظارى   فسرت أهتدى بصوت جارى
وبعد أن كنت على غيارى   اخشى من الرشاش والغبار
فرطتُ فيـه غاية التفريطِ   وصرت لا أخشى سوى السقوطِ
وعـثرةُ اللسانِ فى المقالِ   دونَ غبارِ الرِّجل فى الأوحالِ
وبينما نحن نجوزُ حارهْ   إذ داهمتنا عنـدها سيارهْ
تنطلق انطلاق سهمٍ مارقِ   سابحة فى خفة الزوارق
ينضحُ بالميـاهِ جانباها   على ثيابٍ ليس لى سواها
فطرزتْ إذ ذاك من ثيابي   ما أخطاته ريشةُ السحابِ
فقلت : ويلٌ للفقير العافى   من الغنى المترفِ المتلافِ
قال رفيقى : دنت الدروسُ   وبعد خمس يضربُ الناقوسُ
فقلت : مهلا أيهـا الرفيق   ما يفعلُ المدرسُ الغريقُ ؟
قال : «أجيما» تبتغي و«سينا»؟   أسرع فلست تجهل القانونا
قلت : قوانين البلاد جائرهْ   إن هى ساوتنا بأهل القاهرهْ
لا تذكر القانون فى الأريافِ   قد وضعَ القانونُ فى الجفافِ
حيث الشوارعُ التى لا تنضحُ   ولا يمكث الماء فيها تسمحُ
وهكذا . نشرب . نحن المطرا   وساكن المدن به ما شعَرا
وكل ما فى الريف من محامدِ   يذهب فى أمطارِ يومٍ واحدِ

(كوم حماده)

محمود غنيم

دافعات إلى الغواية أحيـــا   نا وحينا إلى الطريق السوىّ
كم يواسى بها الفقير وتنجيـ   ـه من البؤس رقة فى غنىّ
كم سقيم لولا ترفّق آسٍ   لقَضَى نحبَـه بداءٍ دَوِى
ومشوقٍ لولا التعلل أودى   يأسُه بالدم الطهور الزّكىّ
وجمالٍ لولا العواطف ساوَى الـ   ـقبحَ فى عقلِ أبلهٍ وذَكىّ
فبها قُــدِّر الجمالُ ولولا   ها لعاش الورَى بقلبٍ خَلِىّ
يا لنفسٍ تعيش بين ميُولٍ   أتعَبتْها ما بين رُشْد وغَىّ

احمد الزين

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الفضيلة الواهبة

— ١ —

وبعد أن ودع زارا مدينة (البقرة الملوّنة) التى شغف قلبه بها، شيعه عدد غفير ممن كانوا يدعون أنفسهم أتباعه حتى بلغوا إلى منعطف الطريق، فقال زارا إنه يريد متابعة سيره وحده. فودّعه أتباعه وقدموا إليه عصا قبضتها من ذهب بشكل أفعى ملتفة حول الشمس، فسر زارا من هذه الهدية واتكأ عليها قائلا لأتباعه:

— قولوا لى، لماذا أصبح الذهب ذا قيمة؟ أليس لأنه نادر ولافائدة منه، ولأنه وديع فى لمعانه، ويبذل نفسه فى كل حين؟ لم يبلغ الذهب أسمى مراتب الأشياء القيمة إلا لأنه رمز لأسمى الفضائل، فعين الواهب برّاقة كالذهب، ووهج الذهب رسول سلام بين النيرين.

إن أسمى الفضائل نادرة ولا نفع منها، فهى تتوهج بنورها الهادىء، وليس بين الفضائل من يطاول فضيلة السخاء.

والحق، أننى شاعر برغبتكم، أيها الصحاب. فانكم تطمحون مثل طموحى إلى الفضيلة الواهبة، فأنتم تريدون أن تحولوا نفوسكم إلى هبات وعطايا، وإلا لكنتم أشبه بالهررة والذئاب. ولهذا تتعطشون إلى حشد جميع الكنوز فى أنفسكم فهى لن ترتوى من جمع الجواهر والكنوز لأنها ظامئة أبداً إلى العطاء. تجتذبون كل ماحولكم ليتسرب إلى داخلكم فينفجر ينبوعكم بها كأنها هبة من محبتكم.

إن المحبة السخية الواهبة تستحيل إلى لص يمد يده إلى جمع الأشياء القيمة. وما أرى هذه الأنانية إلا عملا صالحا مقدساً.

غير أن هنالك أنانية أخرى تدهورت إلى أدنى درجات المسكنة فى مجاعتها المتحكمة أبدا فيها. تلك هى الأنانية التى تطمح إلى السرقة فى كل آن، فهى أنانية المرض بل هى الأنانية المريضة، تحدج كل شىء بنظرات اللص وبنهم الجائع، فتزن لقمات الآكلين من أبناء النعمة وتدبُّ أبداً حول موائد الواهبين. وما مثل هذه الشهوة إلا عرض الداء الدفين ودليل الانحطاط الخفى، وما الطموح إلى السرقة بمثل هذه الأنانية إلا نزعة من نزعات الجسوم العليلة

أى شىء نراه أقبح الأشياء، أيها الأخوة، أفليس الانحطاط أقبحها؟ وهل يسعكم إلا أن تحكموا بانحطاط مجتمع لا أثر لروح السخاء والعطاء فيه.

إن سبيلنا يتجه الى الأعالى، وما نقصده إنما هو الارتقاء من نوع الى نوع، لذلك نرتعش عند ما نسمع الانحطاط يهتف قائلا: (لى كل شىء)

وهل روحنا الا رمز لجسدنا وهى تطمح الى الاعتلاء، وهل الصفات التى ندعوها فضيلة الا عبارة عن هذه الرموز عينها؟

إن الجسد يقطع مسافات التاريخ بكفاحه، ولكن ما تكون الروح من الجسد يا ترى إن لم تكن المزيع لكفاح الجسد وانتصاراته؟ وما الجسد الا الصوت، وما الروح الا الصدى الناجم عنه والتابع له. ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخير والشر سوى رموز فهى تشير الى الأمور ولا تعبر عنها ولا يطلب المعرفة فيها ومنها الا المجانين

انتبهوا، أيها الاخوة، الى الزمن الذى يطمح فكركم فيه الى البيان بالرموز لأن فى هذا الحين تتكون الفضيلة فيكم، وفيه يبعث جسدكم ويتجه الى الأعالى مجتذبا عقلكم من سكونه ليدفع به الى مراحل الابداع حتى اذا ما سار عليها عرف قيمة الأشياء وأحب فاجاد فى كل أعماله

فى الزمن الذى يختلج فيه قلبكم تتكون فضيلتكم لأن هذا القلب يفيض باختلاجه كالنهر العظيم فيغمر القائمين على ضفافه بالبركة كما يهددهم بأشد الأخطار

إنما تنشا فضيلتكم عند ما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم. فتطمح إرادة الرجولة فيكم الى السيادة على كل شىء

إنما تنشأ فضيلتكم عند ما تحتقرون النعم والفراش الوثير وعندما لاتجدون راحة الا بعيدا عن مواطن الراحة

انما تنشا فضيلتكم عند ماتنصب ارادتكم على مقصد واحد، وعندما يصبح هذا التحول فى آلامكم ضرورة لا يسعكم التحول عنها

أفليس هذا شكلا جديداً للخير والشر؟ أفما تسمعون بهذا القول خرير الينبوع العميق الذى غربت مسالكه من قبل عنكم؟

إنها لفضيلة جديدة تمنح الانسان قوة وتبعث فيه عزماً، هذه الفكرة المتحكمة فى روح بلغت الحكمة لأنها شمس مذهبة التفت عليها أفعى الحكمة

— ٢ —

وصمت زارا مرسلا نظرات الحب الى أتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلا: ـ أخلصوا للأرض، يا إخوتى، بكل قوى فضيلتكم. لتكن محبتكم الواهبة ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الأرض، إننى اطلب هذا متوسلا

لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الأرض لتطير باجنحتها ضاربة أسوار الأبدية، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل

أرجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها أنا الى مرتعها فى الأرض. عودوا بها الى الجسد والى الحياة لتنفخ فى الأرض روحها، روحا بشرية

لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتهما آلاف الأمور، ولما يزل هذا الجنون يتسلط على جسدنا حتى أصبح جزءا منه فتحول فيه الى ارادة

لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلا على ألف سبيل؛ وهكذا أصبح الانسان عبارة عن تجارب ومحاولات ألصقت بنا الجهل والضلال. وليس ما استقر فينا من التجارب حكمة الأجيال فحسب، بل جنونها أيضا. ولكم يتعرض الوارثون إلى أخطار

إننا لم نزل نصارع جبار الصدف، ولم يزل العته سائداً على الانسانية حتى اليوم

ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للأرض وعقل لها. أيها الأخوة، فتتجدد بكم قيم الأشياء جميعها، من أجل هذا وجب عليكم أن تبدعوا

إن الجسد يطهر بالمعرفة، فيرتفع بمرانه على العلم، لأن من يطلب الحكمة يطهر جميع غرائزه، ومن ارتقى فقد أدخل المسرة الى نفسه

أَعِنْ نفسك، أيها الطبيب، لتتمكن من إعانة مريضك. إن خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه أنك قادر على شفاء نفسك

إن فى الأرض من السبل ما لم تطاها قدم بعد، فما أكثر مجاهلها وما أكثر خفاياها!!

اسهروا وانتبهوا أيها المنفردون لأن من المستقبل تهب نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع الا الآذان المرهفة

إنكم فى عزلة عن العالم، أيها المنفردون، ولكنكم ستصبحون شعباً فى آتى الزمان، ومنكم سيقوم الشعب المختار لأنكم اخترتم نفسكم اليوم. ومن هذا الشعب سيولد الانسان الكامل.

والحق أن الارض ستصبح يوماً مستشفى للأعلاء، فان فى نشرها عبيراً جديداً هو عبير الاخلاص والأمل الجديد.

— ٣ —

وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج فى فمه، وبعد أن قلب عصاه طويلا بين يديه، أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال:

— سأذهب وحدى الآن، أيها الصحاب، وأنتم أيضاً ستذهبون بعدى وحدكم لأننى هكذا أريد.

هذه نصيحتى إليكم، ابتعدوا عنى وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهى، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا. اخجلوا من انتسابكم إلىّ فلقد أكون لكم خادعاً.

على من يطلب الحكمة ألاّ يتعلّم محبة أعدائه فحسب بل عليه أيضا أن يتعلّم بغض أصدقائه. وما يعترف التلميذ اعترافا تاماً بفضل أستاذه إذا هو بقى أبداً له تلميذاً. لماذا لاتريدون أن تحطموا تاجى؟

إنكم تحوطوننى بالاجلال، ولكن ماهى الكارثة التى تتوقعونها من إعراضكم عنى، إن فى رفع الأنصاب لخطراً فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضى عليكم

تقولون إنكم تؤمنون بزارا، ولكن أية أهمية له؟

تقولون إنكم مؤمنون، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين؟ ما كان أحد منكم فتش عن نفسه قبل أن وجدتمونى، وهكذا جميع المؤمنين، فليس الايمان شيئاً عظيما. لذلك آمركم الآن أن تضيعونى لتجدوا أنفسكم، ولن أعود إليكم إلا عندما تكونون جحدتمونى جميعكم.

والحق، يا إخوتى، أننى فى ذلك الحين، سأفتش عن خرافى بعين أخرى فأبذل لكم حباً غير هذا الحب

سيأتى يوم تصيرون فيه أصحاباً لى إذا ما وحد بينكم الامل الواحد، عندئذ سأرغب فى الإقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بأنوار الهاجرة العظمى.

وستبلغ الشمس الهاجرة عند ما يصل الناس إلى منتصف طريقهم بين الحيوان والانسان الكامل. وعند ما يرون أملهم الأسمى على منتهى السبيل الذى يقودهم إلى الفجر الجديد

فى ذلك الحين يتوارى من يسير إلى الجهة الثانية وهو يبارك نفسه إذ ترتفع شمس معرفته لتتكبد الهاجرة

لقد مات جميع الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان الكامل. فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة عند ما تبلغ الشمس الهاجرة.

هكذا تكلم زارا . . .

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

السرو

كنت ولداً لأول مرة جلست فيها تحت ظلك يا شجرة السرو حين كانت أسراب الحمام تفتح أجنحتها للريح فاتبعها من روحى بأطيار تشق الأثير متجهة نحو السماء.

وها أنذا أتقدم اليوم ببطء تحت أغصانك لأطرح على الأرض جسدى المتعب وقد وقفت روحى عن تباع الأطيار فى اعتلائها. لقد صار الولد شيخاً.

لم تزل تظللنى أغصانك أيتها السروة، وقد أصبح جذعك متكأً لبدى المرتجفة، فأقف مستنداً إليه وأجيل أبصارى بين القبور حيث يرقد أجدادى وحيث أرقد أنا غداً.

ما أجملك، أيتها السروة، وأنت متجهة إلى ما فوق كصلاة المؤمنين، وحينما يمر الهواء بين أغصانك يخيل إلى المستغرق تحت ظلالك أنه يسمع ما تسر اليه قلوب أحبابه وقد استحالت إلى تراب فى القبور.

لقد مرت على صداقتنا السنون أيتها السروة الهرمة، ومنذ أول عهدى بك لم أزل أتفيأ غصونك لأناجيك مفكراً فى زوال الأيام. أنت أعرف منى بحالى، فأنا أستشهدك على إيمانى بالخلود واحتقارى لكل مرتجف أمام الفناء.

أحبك أيتها الأغصان القاتمة. أحبك يا زهرة المدافن لأنك رمز الراحة والسكون لمن أتعبته حركة الحياة

إلى متى تنطلق روحى من أسرها فتجول فى الفضاء الفسيح الغير المتناهى كما تجول أسراب الحمام فى آفاقها، فيرتفع مثلها فوق المآذن إلى السحاب إلى ما وراء كل منظور

هنالك السكون بالارتقاء إلى الأوج الأعلى، حيث لا شقاء ولا خداع. تقدم يا ملاك الموت وأطرق الباب فان وراءه روحاً أهرمها الدهر وهى مستعدة للرحيل

أيها الهواء الهاب على أغصان السروة القاتمة كأسرار الأبد، كل يوم أنتظر منك مناجاتى بساعة موتى وأنت فى أنينك ساكت عنها لأنها فى علم الله.

ف . ف

البريد الأدبي

الأزهر والجامعة المصرية في عيد جامعة أثينا

فى هذا الأسبوع تحتفل جامعة أثينا بعيدها المئوى ؛ فقد دعيت جامعتنا المصرية ودعيت الجامعة الأزهرية لشهود هذا الاحتفال العلمى ، فلبتا الدعوة ؛ وانتدبت الجامعة المصرية مديرها الأستاذ لطفى السيد باشا لتمثيلها ، وانتدبت الجامعة الأزهرية أحد أساتذة التفتيش . ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن الأزهر قد بدأ يتخذ مكانته فى هذه المهرجانات العلمية الدولية بعد أن لبث دهرا بعيدا عنها ، وهذه هى المرة الثالثة أو الرابعة التى يوفد فيها ممثليه إلى الخارج للاشتراك فيها . وقد نشأت جامعة أثينا منذ مائة عام (سنة ١٨٣٧) معهدا متواضعا على سفح الأكروبول ، وكان قيامها من نفثات الاستقلال الذى كسبته اليونان بدمائها قبل ذلك بأعوام قلائل ؛ بيد أنها قطعت خلال هذه المائة العام أشواطا عظيمة ، فأضحت جامعة كبرى تتمتع بهيبة علمية لا بأس بها

وسيشهد عيد الجامعة الأثينية ممثلو نحو خمسمائة جامعة ومعهد ، وسيفتتح الاحتفال الرسمى ملك اليونان ويلقى خطاباً فى هذه المناسبة وتمتد حفلات العيد مدى أسبوع من ١٧ إبريل الجارى إلى ٢٢ منه ؛ وقد وضع برنامج حافل يشتمل على خطب وأحاديث علمية مختلفة وعلى حفلات ومآدب اجتماعية ، ونزهات ورياضات خلوية مختلفة ؛ وسيلقى ممثل الجامعة المصرية وممثل الأزهر - كل كلمته فى هذا المهرجان

ذكرى مكتشف البلهارسيا :

تستعد الجمعية الطبية المصرية للاحتفال فى الشهر القادم بذكرى العلامة الألمانى تيودور بلهارس لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على وفاته : وقد اقترن اسم هذا العلامة إلى الأبد بأحد الأمراض المصرية المتوطنة وهو « البلهارسيا » التى ما زالت تفتك بمئات ألوف من المصريين ؛ وكان بلهارس أستاذاً بمدرسة الطب المصرية ، فعكف أعواماً على دراسة جراثيم الأمراض المتوطنة ، ووفق بعد مباحث طويلة إلى اكتشاف ديدان مرض البلهارسيا وبعض الجراثيم والطفيليات المتوطنة الأخرى ، وقد رأت الجمعية الطبية المصرية أن تقوم بواجب الوفاء لهذا العلامة الذى خدم الطب والعلم فى مصر ، فتكرم ذكراه فى حفلة جامعة تقيمها بكلية الطب فى مساء يوم الأحد ٩ مايو القادم ، وسيلقى بعض حضرات الأساتذة والأطباء المصريين كلمات فى ذكرى العلامة الراحل ، وفى حياته واكتشافاته الطبية ، ومن المحقق أن دوائر العلم الألمانى ستحتفى بهذه الذكرى أيما احتفاء ، فاشتراك الجمعية الطبية المصرية فى هذا التكريم تصرف محمود وعنوان على التضامن العلمي الذى لا يعرف واجباً ولا حدوداً

جوائز مدينة باريس الأدبية :

من أنباء فرنسا الأدبية أن مجلس باريس البلدى ، قد قرر إجابته لاقتراح مسيو رنيه جيوبن أحد أعضائه أن ينشىء جائزة أدبية قدرها خمسة وعشرون ألف فرنك (نحو ٢٣٠ جنيه) تسمى « جائزة مدينة باريس الكبرى » ، وتتولى منحها هيئة محكمين من الكتاب وأعضاء المجلس البلدى ؛ وتمنح عاما بعد عام لكبير من الكتاب أو الشعراء أو المفكرين . فتمنح فى العام الأول لكاتب « روائى » مثلا تحوز مؤلفاته قصب السبق ؛ ثم تمنح فى العام التالى « لشاعر » وفى العام الثالث « لكاتب وصفى أو ناقد » ، وفى العام الرابع « لمؤرخ أو فيلسوف » وهكذا ، ويمكن منح هذه الجائزة عن مؤلف بعينه أو عن جميع التآليف مجتمعة ، كذلك قرر المجلس البلدى أن يرفع الإعانة المقررة « لجمعية الأدباء » من عشرين إلى خمسين ألف فرنك فى العام

وهذه الجائزة الأدبية التى تقررها مدينة باريس ليست إلا واحدة من عشرات بل من مئات من الجوائز الأدبية

المختلفة التى تقررها الهيئات الرسمية وغير الرسمية من جمعيات علمية وأدبية وصحف وغيرها لتشجيع العلوم والآداب، ورعاية الحركة الفكرية وإذكاء همم الكتاب والأدباء والفنانين، فاين جوائزنا نحن؟ ومتى تفكر هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية فى ترتيب الجوائز الأدبية الموقرة التى يمكن أن تسبغ بهيبتها الأدبية على أدبائنا وكتابنا شرفاً يتسابقون إليه. كما تسبغ بقيمتها المادية على جهودهم نوعاً من المؤازرة والتشجيع؟

كتاب عن الرحلات القطبية

صدر أخيرا بالانكليزية كتاب عن المكتشف الامريكى الشهير روبرت بيرى وعن رحلاته القطبية المختلفة عنوانه: « Peary »، ومؤلفه المؤرخ الامريكى هويز W. H. Hobbs وقد اشتهر هويز منذ بعيد بكتاباته عن القطب والرحلات القطبية، فهو من هذه الوجهة أستاذ موضوعه؛ وهو يسرد فى كتابه الجديد رحلات بيرى القطبية منذ رحلته الاولى الى الجزيرة الخضراء فى سنة ١٨٨٦، وهى السنة التى اكتشف فيها رأس الثلج الشهير. وبيرى من أشهر المكتشفين والرحل فى عصرنا؛ وكان مولده فى ولاية بنسلفانيا سنة ١٨٥٦؛ والتحق بالبحرية الامريكية سنة ١٨٨١؛ وفى سنة ١٨٨٦، رحل الى الأرض الخضراء رحلته الاولى؛ وفى سنة ١٨٩١ رحل اليها للمرة الثانية وقطع الجزيرة من جنوبها الى شمالها على ظهر زاحفة ثلجية، وأنفق فى رحلته ثلاثة عشر شهرا واستطاع أن يتحقق من أن الأرض الخضراء جزيرة تحدها الثلوج من الشمال كما تحدها من الجنوب. ثم قام برحلته الثالثة الى الارض الخضراء فى سنة ١٨٩٣ ومكث فى الجزيرة نحو أربعة أعوام؛ وكان بيرى يستعين فى رحلاته برجال «الاسكيمو» واليه يرجع الفضل فى دراسة خواص هذا الجنس المدهش الذى يعيش بين الجليد الخالد. وفى سنة ١٨٩٨ قام بيرى برحلة جديدة على ظهر الباخرة القطبية «روزفلت» حول الجزيرة الخضراء من الشمال والشرق، ولبث بيرى طول حياته يتطلع إلى القطب واكتشافه؛ وفى سنة ١٩٠٥ قام بأعظم رحلاته فى اتجاه القطب الشمالى، ووصل فى سنة ١٩٠٨ على ظهر السفينة القطبية روزفلت إلى رأس شريدان. وهى أبعد نقطة وصل إليها إنسان، وقضى الشتاء فى تلك الوهاد الثلجية؛ وفى ابريل سنة ١٩٠٩، وصل بيرى إلى القطب الشمالى وحقق بذلك أمنية حياته؛ وكتب بيرى عدة كتب خلاصة عن رحلاته؛ ورقى إلى رتبة الأميرال فى سنة ١٩١١، وتوفى فى واشنطون سنة ١٩١٩

وقد استعرض مستر هويز فى كتابه الجديد حياة بيرى ورحلاته بأسلوب شائق، واستخلصها من كتبه ومذكراته ومعلوماته الخاصة، فجاء من أبدع الكتب التى صدرت عن الرحلات القطبية

قضية أدبية غريبة

رفعت إلى محكمة نيويورك العليا قضية أدبية غريبة تشغل دوائر النشر والأدب تدور حول هذا السؤال: هل يحق للعالم الذى أضحت حياته العامة ملكا للتاريخ أن يتمسك بإخفاء بعض حقائق فى حياته لاعتبارات خاصة؟، وخلاصة القضية أن العلامة الباثولوجى الأشهر الدكتور كارل لاندشتاينر الذى يحمل جائزة نوبل للعلوم، والذى يشغل مركزا هاما فى معهد روكفلر للمباحث الطبية رفع قضية على شركة نشر قاموس الأعلام whos who يطلب فيها الحكم على الشركة بان تمتنع عن نشر صورته وترجمته فى قسم «أعلام يهود أمريكا» فى طبعتها الجديدة، وأن تدفع له عشرين ألف جنيه تعويضا عما لحقه من الضرر المحقق فى حياته الخاصة وفى مهنته

وقد ولد الدكتور لاندشتاينر فى النمسا من أبوين يهوديين ولكنه نبذ اليهودية واعتنق الكثلكة فى سنة ١٨٩٠ وتزوج من سيدة كاثوليكية، ويقول محاميه انه، أى الدكتور، يعيش منذ خمسين عاما فى وسط مسيحى، ويغضى عن علائقه الدينية القديمة؛ وحق الخصوصية هنا قائم ويجب أن يحمى. ثم إن للمدعى ولداً فى التاسعة عشرة من عمره لا يعرف شيئا عن أصل والده اليهودى. فاذا وقف على هذه الحقيقة فى القاموس المشار إليه فانه يصطدم لذلك وقد يعرضه للمذلة فى الوسط المسيحى الذى يعيش فيه

ويقول الناشرون إن قاموس الاعلام هذا عمل تاريخى جليل، وإن كل ما يتعلق بحياة المدعى من الوقائع والحقائق إنما هو ملك للتاريخ وإن نشرها لا عدوان فيه على حقوقه الخاصة وهكذا تجد المحكمة العليا نفسها أمام مأزق دقيق

النقد

اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس
وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

لأستاذ كبير

المستر بيير كربتيس القاضى السابق بالمحاكم المختلطة مؤرخ محقق ، كتب فى تاريخ مصر كتبا قيمة اعتمد فى إخراجها على مصادر ووثائق أكثرها لم ينشر بعد ، رجع إليها فى دار المحفوظات المصرية بتصريح من جلالة الملك الراحل .

ويقول لنا الأستاذ صروف إنه يوشك أن يصدر فى تاريخ مصر كتابا آخر . وليس القاضى كربتيس أول رجال الولايات المتحدة الذين كتبوا عن مصر ، بل إن للكثيرين منهم على التاريخ المصرى فضلا كبيرا . ويمتاز هؤلاء المؤرخون ببعدهم عن التأثر بالمصالح والعواطف السياسية ، ولذلك تراهم ينظرون إلى الحقائق نظرة المحايد المحقق الذى يبحث ويتحرى ولا يهمه بعد ذلك أجاءت نتيجة البحث وفق ما يحب أم لم تجىء ؛ ومن أجل ذلك كانت كتبهم جديرة بأن تلق من الكتاب المصريين المؤلفين منهم والمترجمين ما تستحقه من العناية .

ولكن يؤسفنا أن نرى هؤلاء المؤلفين والمترجمين لا يعتمدون إلا على مصادر من نوع واحد ، ويغفلون المصادر الأمريكية مع أنها من أهم المراجع وأصدقها ، ومع أن أصحابها بحكم مراكزهم كانوا ملمين بالشئون المصرية وكان لبعضهم يد فى تصريفها

لذلك اغتبطنا حين أخرج الأستاذ صروف ترجمته لكتاب إسماعيل الخديو المفترى عليه ، ونرجو أن نرى فى القريب ترجمة لكتاب «ابراهيم» وأخرى لكتاب «فارمن» وثالثة «لما كون» ورابعة «لا دون ده ليون» ، وغيرهم من الكتاب المنصفين

وهذا المقام الذى نضع فيه المؤرخين الأمريكيين هو الذى حملنا على قراءة الترجمة العربية لكتاب كربتيس بعد أن قرأنا الأصل الانجليزى منذ عامين أو أكثر

ومن أجل هذا أيضا رأينا من الواجب علينا أن نبدى رأينا فى الترجمة لأن موضع الكتاب جليل ، يفتح فى التاريخ المصرى فتحا جديداً . ولأن المؤلف قاض نزيه وكاتب كبير ، ولأن المترجم من الكتاب المعروفين ، ولأن دار النشر الحديث قد بذلت فى إخراجه من العناية ما يجعلها جديرة بالثناء العظيم

وقبل أن نبدأ بالنظر فى هذا الكتاب يحسن بنا أن نضع أمام القراء المبادئ الأساسية التى سنسترشد بها فى نقدنا ، والتى نرى لزاما على كل مترجم أن يراعيها إذا شاء أن تكون ترجمته دقيقة أمينة سليمة

(١) فأول ما يجب على المترجم أن يكون ملما بموضوع الكتاب الذى يترجمه ، وإلا دفع فى الخطأ من حيث لا يدرى : ذلك بأن لكل علم ولكل فرع من علم مصطلحاته الخاصة التى يجب أن يعرفها المؤلف والمترجم . ويصدق هذا على التاريخ كما يصدق على العلوم الطبيعية والرياضية . فى التاريخ معان وضعت لها مصطلحات اتفق عليها ، وأصبح المؤلفون والمترجمون فى غير حاجة إلى اختراع ألفاظ جديدة للتعبير عنها ، بل أصبح من واجبهم أن يتقيدوا بها إن وجدت ، وإلا وقعوا فى الفوضى والاضطراب . وقد توجد فى الكتاب المترجم أغلاط مطبعية وغير مطبعية . وأسماء الأشخاص وأماكن محرفة أو غير محرفة ، ولا يستطيع المترجم أن يثبتها على حقيقتها إلا إذا كان عارفا بها أو كان فى استطاعته الرجوع إلى المصادر التاريخية التى تمكنه من تحقيقها . وتعريب الأسماء من اللغة الانجليزية يحتاج إلى

كثير من العلم والدقة ، وإلا خرج الكتاب مشوها بعيدا عن التحقيق التاريخي قليل القيمة غير مطابق للأصل المترجم

(٢) كذلك يجب أن تكون الترجمة كالأصل من غير زيادة ولا نقص ، ولسنا نرمى بذلك إلى الترجمة الحرفية التى يتقيد صاحبها بالألفاظ فيحتم على نفسه أن يأتى لكل لفظ بما يقابله ولكل عبارة بمثلها مساوية لها فى الطول وعدد الكلمات : ليس هذا هو المقصود بل المقصود أن يعبر المترجم عن جميع المعانى الواردة فى الأصل المترجم بلغة سليمة وأسلوب صحيح ، والأمانة فى الترجمة تحتم على المترجم أن لا يحذف من الأصل شيئاً إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، ويجمل به مع ذلك أن يذكر سبب هذا الحذف فى هامش الكتاب أو فى المقدمة إن شاء .

(٣) ويتفرع من هذا مبدأ ثالث عظيم الأهمية يتوقف عليه جمال الترجمة وسلاسة الأسلوب . ذلك أن اللغة الانجليزية تكتب جملا منفصلة قليلة الروابط اللفظية مع أن الفقرة الطويلة تعبر فى الغالب عن معنى واحد شامل مرتبط الاجزاء متسلسل الجمل . والفقرات كذلك مرتبط بعضها ببعض . لكن هذه الروابط روابط ملحوظة غير ملفوظة فى كثير من الاحيان ، ويتوقف إدراك المعنى على فهم هذه الروابط بين الجمل والفقرات ، وتختلف اللغة العربية فى ذلك عن اللغة الانجليزية . فالعبارة العربية تحتاج إلى الروابط اللفظية بين الجمل ، ومتانة الأسلوب تستدعى حسن الانتقال من فقرة إلى فقرة ، وإلا كان هذا الاسلوب مفككا غير فصيح وبعيدا عن الذوق العربى ، وكل خطأ فى فهم هذه الروابط والتعبير عنها يفسد الاسلوب ويغير المعنى . وربما كان ذلك أصعب شىء فى الترجمة ، وهو الذى يجعل الكتب المترجمة ركيكة الأسلوب أجنبية فى حقيقتها ، وإن كتبت بألفاظ عربية . والمترجم القدير هو الذى تقرأ كتابه فلا تشعر أنه مترجم ، بل تحس بأنك تقرأ كتابا عربياً فصيحاً

(٤) وثمة مسألة أخرى ترتبط بالمسألة السابقة وهى الأمثال والتشبيهات ونحوها ، وهل تترجم بلفظها أو بمعناها . ونحن نرى أن يترجم معناها ، واللغة العربية غنية بالأمثال والحكم والتشبيهات ، ولا يعجز الأديب المطلع عن العثور لكل تشبيه أو مثل انجليزى على ما يقابله فى اللغة العربية ، فاذا لم يجده فلا ضير عليه أن يترجمه بشرط ألا تكون الترجمة عسرة الفهم ولا بعيدة عن الذوق العربى السليم

(٥) وكثيراً ما يقصد المؤلف أن يؤكد بعض المعانى تأكيداً خاصاً لأهميتها فى نظره ، وكثيراً ما يسبغ على بعض المعانى ثوبا روائياً أو شعرياً يقتضيه غرضه ، وواجب المترجم القدير فى مثل هذه الاحوال ألا يغفل عن ذلك فى الترجمة ليكون أميناً على معانى المؤلف وروحه معا

تلك أهم المبادئ التى سنبنى عليها نقدنا لترجمة الأستاذ فؤاد صروف وبقدر انطباقها على الترجمة يكون حكمنا عليها وموعدنا بذلك العدد القادم إن شاء الله

الغنيمى

فى الـكتب

المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية

للأساتذة : محمد رفعت بك وزكي على ومحمد مصطفى زيادة
وأحمد نجيب هاشم والسيد أحمد خليل

للأستاذ أحمد الشايب

هذه أول مرة فى تاريخ الحياة المدرسية المصرية يعرض فيها التاريخ على التلاميذ عرضا عليا فنيا جميلا ، يحاول به الأساتذة أن يصلوا بين الأطفال وبين العصور الأولى أقوى صلة وأجملها ، وأنفعها ، وأحبها إلى هذه النفوس الغضة الحديثة العهد بالحياة . وما ظنك بدرس فى التاريخ - أو كتاب فى التاريخ - يشرك الطفل فى بناء الماضى درسا ، وقصصا ، وعملا ، ومتعة ، فيستمع به الناشيء إلى أحاديث الملوك السابقين ، ويرى آثارهم مصورة ، ويدخل إلى منازلهم ، ويلعب مع أطفالهم ، ويصنع مثل لعبهم ، ويتنقل بين الزراع ، والصناع ، والتجار ، فى المزارع ، والمصانع ، والمتاجر ، لا مشاهدا ومتحدثا فقط ، بل مشاركا ، مفيدا من الماضى خير الفضائل وأنبل الصفات . ذلك ، وأكثر منه ، وخير منه ، هو ما قام به هؤلاء الأساتذة الأفاضل مؤلفو كتاب المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية . وقد قرأت جزءه الأول الذى وضع فى حياة المصريين القدماء ، فإذا به يصور الخطوة القديمة لحياة مصر والمصريين ، ولكنها مع ذلك خطوة واضحة ، بهية ، استطاع واصفوها محتالين متلطفين أن يمزجوها بخطا الطفولة ومواهبها حتى لقد خشيت أن يستحيل أطفالنا ، بهذا الأسلوب الفنى الجميل ، أبناء فراعنة ، وأطفالا تاريخيين .

لنترك الباحثين يختلفون حول التاريخ ، أعلم هو أم فن ، ولنقف عند طور الطفولة وما يلائمه موضوعا وشكلا ، فلن نرى - فيما نعرف - خيرا من هذا الكتيب ولا أصلح منه لأبناء المدرسة الابتدائية ، سواء فى ذلك اختيار المعلومات ، وتنوعها ، وشمولها ، وطريقة عرضها ، وسهولة أسلوبها ، وما أعقبها من التمارين العملية . . وأما الرسوم والأشكال فهى وحدها مدرسة فى إيضاحها وفى جمالها الذى يفتن الأطفال ، ويبهر الأبصار .

عرف المؤلفون ، أو المربون ، طبيعة الطفولة فكان تاريخهم قصصا ، سهلا ، مشوقا ، متصلا بحياة التلاميذ وما يألفون ، وعرفوا غرائز البنين وشغفها بالعمل ، فحولوا الدرس من هذا الشكل النظرى إلى تمارين عملية تسد هذه الحاجة الغرزية ، ولم يقفوا عند هذا المران التقليدى حتى عمدوا إلى قوة الخيال ، فاعتمدوا عليها لتجسيم الصور الوصفية ، وكلفوا التلاميذ من ذلك قسطا حسنا ينزع بهم إلى هذه العادات العملية المحققة ؛ ولحظوا فتنة الأولاد باللعب الصغيرة ، والمناظر البهيجة ، فيسروا لهم الحصول على العرائس والكرات ، وزخرفوا صفحات الكتاب بأجمل ما ترك الفراعنة من صور وأشكال .

وبعد هذا ينتقلون بالطفل بين جوانب الحيـاة القديمة ، آباء عاطفين وأصدقاء مخلصين ، فهم به اليوم فى النوادى الرياضية يرونه المصارعة . وحمل الأثقال والترامى بالكرات ، وغدا يأخذون بيده إلى المدرسة فيشهد زملاءه لاعبين كاتبين حاسبين ، وبعد غد يعرضون عليه الجيش المصرى بأسلحته وعرباته وسفنه يفتح فى الأقطار ، ويكون الامبراطورية القديمة . ثم يدخلون معه منزلا لاحدى الأسر الراقية ليشهد مثل النظام ، والطاعة ، والألفة ، وحسن الآداب . وقد يحملونه على سفن الملكة حتشبسوت إلى بلاد الصومال بافريقية ليعود بالأشجار العطرية ، والحيوانات العجيبة . . وهكذا لا يتركون ناحية من هذه البيئة الفرعونية حتى يغرقوه فيها سامعا ، مبصرا ، عاملا ، خائلا كأنه يشترك فى تمثيل رواية أو حفلة ألعاب .

ليس فى الكتاب هذه العبارات الجوفاء ، والمبالغات الممقوتة التى يلجأ إليها كتاب التاريخ للأطفال حين تعوزهم المادة الممدودة ، وبراعة الأسلوب . ولقد سررت حين رأيت (خوفو) ينتهز فرصة فراغ المصريين من الأعمال الزراعية أيام فيض النيل فيملأ فراغهم وجيوبهم ببناء الهرم الأكبر ، كما سررت بهذه الناحية التهذيبية التى تصل بالأبناء إلى غاية الدرس التاريخى ، وتحملهم على التعلق بأسباب المجد والفضيلة ، فهذا الملك أحبته الرعية لاخلاصه فى خدمتها ، والاسكندر المقدونى بكرت إليه أمارات النجابة ، فكان ملكا كبيرا ، وهؤلاء الرسل أدوا رسالة الانسانية وصبروا فى سبيلها فكانوا البررة الكرام ، وهذه مصر المحبوبة العزيزة أصبحت بفضل هذا الماضى المجيد محج السائحين والباحثين من كل الأقطار .

أما بعد ، فلو كان لى طفل أو تلميذ فى مدرسة ابتدائية ، لما تركته ليلة دون أن أتدارس معه فى هذا الكتاب ، وأفيض على نفسه منه معرفة ، وتسلية وتهذيبا . . . ولعل التلاميذ قد ظفروا من هـذا الكتاب بحيـاة مدرسية حديثة حقا ، تجمع بين العلم والفن الجميل .

احمد الشايب

5 me Année, No. 199

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 26 - 4 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول

أحمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٩٩ «القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٣٥٦ — ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٧» السنة الخامسة

فهرس العـــدد

من أحاديث الشباب

حول الديمقراطية

— لا يا عزيزى ؛ أنا لا أتابعك على هذا التفسير . إن رأى الامام محمد عبده جلى صريح . وكلمة (ينهض) فى قوله المأثور : « لا ينهض الشرق إلا بمستبد عادل » أساس فكرته وعمود رأيه ؛ فان النهوض لا يكون إلا من القعود ؛ والأمة القاعدة أو الراقدة لا يبعثها إلا القرع الشديد والهتاف القوى ؛ ولا يمكن أن يكون هذا القارع الهاتف رأيها العام لأنه مفقود ، ولا ضميرها الاجتماعى لأنه ميت ؛ إنما يكون رسالة من الله على لسان نبي ، أو هداية من الطبيعة على يد مصلح ؛ وتنفيذ الرسالة الالهية ، أو الدعوة الاصلاحية ، يرجع إلى خليفة يحكم بأمر الله ، أو طاغية يحكم برأى نفسه . فاذا كانت الأمة قد نهضت بالفعل ، كان الاستبداد بأمورها كفاً لنزعاتها عن الطموح ، وحبساً لملكاتها عن العمل ؛ لأن النهضة معناها غافل أحس وجوده ، وخامل فهم نفسه ، وجاهل عرف حقه ، وعاطل أبصر واجبه ، وضال وجد سبيله . والحياة التى تسرى فى أفراد الشعب الناهض ، هى بعينها الحياة التى تجرى فى أعواد الربيع المنبعث : تتحرك فى الأمة

على صوت النذير فى الغفلة ، كما تتحرك فى الطبيعة على هزيم الرعد فى الشتاء . ومتى نفخ الله من روحه فى خمود الحى ، سيره على سنة الوجود وبصره بغاية الحياة ؛ وهنا يكون المستبد مهما عدل سحاباً يحجب النور الذى انبثق ، وسَموماً يصوح الزهر الذى تفتح

فقال صاحبي الشاب وقد أنى باله لما قلت ففترت حماسته بعض الفتور :

— ولكن المستبد برأيه أو الحاكم بأمره يختصر الآراء فى رأيه ، ويجمع الأهواء على هواه . فنأمن التشرد الذى يُضل ، والتردد الذى يعوق ، والتواكل الذى يضعف ، والتساهل الذى يحابى . فقلت له :

— ذلك يصح والشعب لا يزال قطيعاً من الحيوان الأبله . لابد له حينئذ من الراعى وعصاه . أما إذا أصبح هذا القطيع أمة لكل فرد من أفرادها كرامة وإرادة ورأى ومصلحة ، فبأى منطق تلغى هذه العقول الملايين التى جُعلت لتفكر ، وتنسخ هذه النفوس الملايين التى خلقت لتريد ، لتجعل مكانها نفساً واحدة تغصب قوة الشعب لتقوده ، وتسرق ثروته لتسوده ، ثم يسرف عليها سلطانها فتتخذ الناس عبيداً والبلاد ضيعة ؟

أنا أفهم أن المرء يُقهر فيخضع ، ويؤسر فيسترق ، لأن الأمر فى ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح ؛ ولكنى لا أستطيع أن أفهم كيف يستأسر شعب بأسره لواحد منه ، فيلقى بزمامه إليه ، ويعول فى جميع أموره عليه ، والشعب مهما صغر لا يقل عن شعب ، والفرد مهما كبر لا يزيد على فرد . والقوة والثروة والسلطان هى فى ذلك الجمع الذى فيه الجندى والفلاح والعامل ، لا فى ذلك المفرد الذى فيه السرف والترف والبغي ؟

لقد مات ذلك الإنسان المغفل الذى كان يجعل إلهه حيواناً يربيه ثم يمجده ، أو جماداً يصنعه ثم يعبده

ان الديمقراطية ياصديقى أخلق النظم بكرامة الانسان وسلامة العالم . هبط وحيها على الانسان المفكر الحر فى أثينا ، ثم أصابها ما أصاب رسالات الخير فى الأرض من شيوع الجهالة ، وبلادة الحس ، وأثرة الهوى ، وطغيان الحكم ، فصارت عروساً من عرائس الخيال كالحق والعدل والحرية ، تتمثل فى الأحلام ، وتتراءى فى المنى ، وتُقتل فى سبيلها الأنفس الكريمة ، حتى ظفر بها الأوربى الحديث بطول جهاده وكثرة ضحاياه ووفرة علمه وقوة شعوره ، فأصبح كل فرد بمقتضاها صاحب حق فى الوطن ، وصاحب رأى فى التشريع ، وصاحب صوت فى الحكم ؛ وصار العامل الفقير والصانع الأجير والفلاح المتواضع قادرين على أن يلغوا الوظيفة التى لا تفيد ، ويسقطوا الحكومة التى لا تعدل .

الديمقراطية هى المساواة فى الحق والواجب ، والمشاركة فى الغنم والغرم ، والميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الأمد فيه عائق من نسب أو لقب أو ثروة . فكيف يجرى فى ذهنك هذا الخاطر وأنت من أصفى الشباب حساً وأنبلهم نفساً وأكثرهم ثقافة ؟

***

لم يجد الشاب فى نفسه ما يقوله ؛ لأن الواقع فى ذهنه هو اضطراب الحيرة لا اختمار الفكرة ، فعبر عن كل مابقي فى خاطره بهذا السؤال :

— وماذا تقول فى موسولينى وهتلر ؟

— أقول إنهما مظهر حادٌ من مظاهر الديمقراطيه . كلا الرجلين يعمل بالشعب وللشعب ؛ وكلاهما يمثل قوة الأمة وينفذ إرادة الأمة ؛ وكلاهما يعتقد أن اليد التى استطاعت أن ترفع تستطيع أن تضع .

ولباب الأمر أن تعترف للأمة بالسلطان ثم تظهره بعد ذلك فى أى رجل شئت ، وتحت أى عنوان شئت .

ابتسم صديقى الشاب ابتسامة المقتنع ، وحيا تحية المسلِّم ، ثم قال وهو يضع يده فى يدى : إن جهودنا معشر الشباب كانت مسددة إلى غرض واحد هو استقلال الوطن . فلما أسفر الجهاد عن وجوه الفوز اضطربت الجهود وتشعبت الآراء واحتجنا فى هذا العهد الجديد ، إلى توجيه جديد . فقلت له : ذلك ما ستحاول « الرسالة » علاجه ابتداء من العدد القادم .

احمد حسن الزيات

حيرة العقل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أرانى فى هذه الأيام لا أكاد أعرف لى رأياً فى شىء، لا لأنى كففت عن التفكير فلعل الأمر على خلاف ذلك، وعسى أن أكون مسرفاً فى النظر والتدبر وفى التماس الوجوه المختلفة للأمر الواحد الذى يعرض لى، وإنما ترجع حيرتى إلى أن إطالة النظر تكشف لى كل يوم عن جديد، وإلى أن تدبر النواحى المختلفة تجعل الجزم عسيراً، وتغرى بالتردد، وتدفع إلى الشك، ومن طال وزنه للأمور وتقصيه لوجوهها وتأمله فى البواعث والاحتمالات قل بته - وعمله أيضاً - لأن العمل يراد منه الغاية، فلا بد من المجازفة والتعرض لعواقب الخطأ من بعض النواحي. وكل رجل عمل يضطر إلى الأخذ بالأرجح فيما يرى، وإلا تعذر عليه العمل بل استحال. ورجال الحرب والسياسة والمال والتجارة ومن إليهم لا يسعهم إلا المخاطرة لأن غايتهم ليست الاهتداء إلى الحقيقة بل بلوغ الغرض. وكثيراً ما أرانى أسأل نفسى لفرط ما أرى من ترددى وحيرتى، «هل أصبحت غير صالح للعمل؟» ولا يسرى ذلك فأروح أقول إن قدرة النفس على التكيف لا حد لها فيما أعرف، وإن العمل الذى يحوج إلى سرعة البت والجزم بلا تردد يضطر المرء إلى النزول على مقتضياته، وما أكثر ما تكون مواهب الانسان كامنة، فلا يظهرها إلا انتقال الأحوال به، وأنا مع طول ترددى بين الآراء أرانى مع ذلك أتصرف فى مواقف العمل بسرعة وضبط وإحكام. وليس هذا من الثناء على النفس، ولكنه من الواقع الذى أعرفه بالتجربة

ومن طول حيرتى بين الآراء أصبحت أثق بخطاى ولا أثق بصوابى، وأقدر الضلال فى كل ما أنتهى إليه، ولا أطمئن إلى السداد فيه، ومن أجل ذلك لا أزال أراجع نفسى فى كل قضية، وأنقض اليوم ما أبرمت بالأمس، ولولا أنى معجل فى حياتى لكان الأرجح أن أحجم عن المجاهرة برأى مخافة أن أكون قد أخطأت الصواب فيه. وأنا أعزى نفسى - لو أن فى هذا عزاء - بقول ويندل هولمز - على ما أذكر - إن الحقيقة «كزهر» النرد لها أكثر من وجه واحد، فاذا كنت قد رأيت وجهاً واحداً دون سائر الوجوه فان لى العذر إذا كان هذا كل ما بدا لى، وأين فى الناس من يرى وجوه الحقيقة كلها من كل جانب ؟؟

ولهذه الحيرة عللها المعقولة فأنا قد ورثت آراء، وأفدت من مخالطة الناس آراء، واكتسبت من الاطلاع آراء، وكنت أسلم بما ورثت واكتسبت، وأنا فى سن التحصيل، وكنت ربما كابرت بالخلاف فيما أخذته من بيئتى، أما ما كنت أفيده من الكتب فكنت أتلقاه بالاكبار والاقرار، لأنى لم أجد من يهدينى أو يرشدنى. فلا البيت كان لى فيه هذا المعين، ولا المدرسة كنت أجد فيها هذا المعلم الحاذق المرشد. وظل احترامى للكتب على حاله حتى احتجت فى سنة أن أبيعها، وشق على ذلك فى أول الأمر، وكنت لا أكاد أطيق أن أدخل الغرفة التى كانت مرصوصة فيها. وظللت أياماً أحس كلما نظرت إلى الرفوف التى خلت مما كان عليها أنى فقدت أقرب الناس إلى وأعزهم على، وأشعر أنى مشفى على البكاء إذا لم أحول عينى عن هذه الرفوف الخالية. ولم يكن ما أتحسر عليه زينتها، وما أضعته فيها من مال خسرته بالبيع، وانما كانت الحسرة على فقدان أساتذتى واخوانى. وبقيت بعد ذلك زمناً لا أمر بمكتبة عامة إلا أشحت بوجهى عنها من فرط الألم، وإلا أحسست أن يداً عنيفة تلوى أحشائى وتحاول أن تقتلعها. وكان من غرائب ما حدث أنى لبثت أكثر من سنة لا أقتنى شيئاً من الكتب كأنما زهدتنى الحسرة على ما ضيعت فى كل جديد غيره

ومن الغريب أن هذا هو نفس الاحساس الذى عانيته لما توفيت زوجتى، فقد ظللت سنوات لا أطيق أن أنظر إلى امرأة. ثم فتر الألم وخفت وطأته، كما هى العادة. وكنت فى خلال ذلك قد احتجت أن أنظر بعينى وأفكر بعقلى فألفيتنى أشك فى كثير مما كنت أسلم به ولا أكابر فيه بل ما كان لا يخطر لى أن أعترض عليه، وتغير الأمر. فبعد

أن كنت آخذ الآراء من الكتب أو الناس ، صرت آخذها من الحياة بلا واسطة ، وأعرضها على عقلى بلا مؤثر فاعتدت الاستقلال فى النظر ، والحرية فى التفكير ، وخلا تفكيرى وإحساسى شيئاً فشيئاً من تأثير الكتب ، وسواها ، وبرزت نفسى بعد طول التضاؤل ؛ ثم أخذت أروض نفسى على التماس الجوانب الأخرى التى تخفى فى العادة ، فصارت وجوه الحقيقة تتعدد فيما أرى ، والفت ذلك حتى صار هذا ديدنى مع الناس . فاذا رأيت من صاحب لى ما يسومنى حاولت أن أضع نفسى فى مكانه وأن أنظر إلى الأمر بعينه هو ، وأن أتمثل بواعثه وإحساساته إلى آخر ذلك ، فينتهى الأمر فى الأغلب بان أعذر ولا ألوم ، ويذهب الألم أو الغضب أو غير ذلك مما أثار صاحبى بما صنع .

بل ترقيت من هذا إلى ما هو أرفع ، فصار نظرى إلى الناس نظراً إلى مادة تدرس لا إلى مخلوقات تعاشر ويصدر عنها ما يسوء أو يسر ، ولا شك أن الفعل الحميد يحسن وقعه فى النفس ، وأن السوء يؤلم أو يغضب ، وليس يسعنى إلا أن أتلقى ما يكون من الناس بالحمد أو الذم ، وبالرضى أو السخط ؛ ولست بإنسان إذا لم يكن هذا شأنى ، ولكنى أعنى أنى لا أعجل بالذم والسخط ولا أندفع مع أول الخاطر ، بل أراجع نفسى وأجيل عينى فى الأمر لأراه من ناحية غير الناحية التى طالعتنى فى البداية ، فيتحول الموضوع من عمل أو قول باعث على الرضى أو الامتعاض إلى مادة للتفكير ، وتذهب عنه الصبغة الشخصية ، فكأنى أمتحن نظرية ولست أزن صنع إنسان أساء أو أحسن .

ويخيل إلى الآن أنى أعيش فى معمل ، فكل ما ألقاه فى الحياة من خير وشر ، وما أجدنى أو أجد سواى فيه ، من جد ولهو ، أتناوله بالتحليل والبحث لأستخلص منه ما يتيسر لى استخلاصه من الحقائق ، ثم أروح أقيسه إلى تجاربى الأخرى وأقارن وأقابل ، ولا أزال أفعل ذلك حتى يهدنى التعب ، وقلما أهتدى ، وكثيراً ما أضل ، ولكنى لا أسأم ولا أضجر لأن هذا صار متعتى النفسية التى لا أعدل بها متع الدنيا ، بعد أن وجدت نفسى ، وعثرت عليها تحت طبقات الكتب التى بعتها والحمد لله على ما كنت أتوجع وأذم الدنيا من أجله ، فلولا أنى بعت هذه الكتب لما وجدت نفسى ، ولكان الأرجح أن أظل كالذى يعبد أصناماً .

والشك حيرة ولكنه حرية ، وسعة الأفق خير من ضيقه ، على الرغم من العناء الذى يكابده المرء من إرسال العين وإدارتها فى النواحى الخفية أو البعيدة ، وإنه لعذاب ، وإن جدواه لقليلة ، بالقياس إلى الجهد الذى يبذل فيه ، ولكنه خير وأمتع من التحجر الذى يؤدى اليه التسليم ، بلا نظر ، وحسبك من متعته أنه يريك كل يوم جديداً ، وقد يكون ما تهتدى إليه وتحسبه جديداً ، قديماً جداً فى الحقيقة ولكن المتعة فى الجهد نفسه لا فى النتيجة ، والشأن فى هذا كالشأن فى الألعاب الرياضية فان الغاية منها ليست الغلبة أو التفوق أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وإنما العبرة فيها بما تفيده من التدريب وما تكتسبه بفضل الجهد الذى تنفقه فيها ، ولذتها فى مزاولتها لا فيما تنتهى به من الفوز وإن كان للفوز قيمته ومزيته ، ولكنه ليس كل ما تزاول الألعاب من أجله

ومتى صار كل شىء مادة للدرس والبحث فقد صارت الحياة أوسع وأرحب ، وصار المرء كأنه يحلق فوقها وإن كان يخوضها ويعانيها . وهذا ما أروض عليه نفسى الآن ـ أن أكابد الحياة والناس ، وأن يسعنى مع ذلك أن أقف منها ومنهم موقف الناظر المتفرج ، فكأنى اثنان لا واحد ، أحدهما يعيش ويجرب ، ويسعد ويشقى ، ويسر ويحزن ، ويجد ويهزل ، ويفعل ما يفعل الناس غيره ؛ وثانيهما يتلقى هذه التجارب وينشرها أمامه ، ويعرضها على عقله ، ويقارنها ويقابلها ، ويفحصها ويضم المتشاكل منها بعضه إلى بعض ، ويجمع ما يمكن أن يأتلف ، ويعمل خياله فيما يراه ناقصاً ليملأ الفراغ ويسد الثغرة ، ويصنع على العموم ما يصنع الكيميائى فى معمله الذى يجرى فيه تجاربه ، ولا يتأثر بالواقع ، ولا يعنيه ما عانى منه ، وهذا الازدواج عسير ولا شك ، ولست أطمع أن أبلغ منه الغاية وأوفى على الأمد ، ولكنى أطمع أن أوفق فى بابه إلى الكفاية مع المواظبة والصبر ، ويطمعنى فى

الأسد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلس أبو علي أحمد بن محمد الرُّوذَبَادي البغدادي (١) في مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبي الحسن بُنَان الحمال الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية (٢) وكان يُضرب المثل بعبادته وزهده، وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته فكان يومه يوما كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا؛ ما بقي أحد إلا اقتنع أنه في شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق، إذ ينظر كل امرئ في مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة باللمس لا بالبصر، وبالتوهم لا بالتحقيق، وعلى دليل نفسه في الشيء لا على دليل الشيء في نفسه، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة؛ ثم يأتي الموتُ فيكون كالماء صُبَّ على الدقيق والتراب جميعا فلا يرتاب مبصر ولا أعمى، ويبطل ما هو باطل ويحق الذي هو حق.

وتكلم أبو علي فقال: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد (١) في بغداد فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الريّ والجبال في وقته (٢) يقول فيه: لا أذاقك الله طعمَ نفسك فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً. قال: فجعلت أفكر في طعم النفس ما هو وجاءني ما لم أرضه من الرأي حتى سمعت بخبر بُنان رحمه الله مع احمد بن طولون أمير مصر، فهو الذي كان سبب قدومي إلى هنا لأرى الشيخ أو صحبه وأنتفع به.

والبلد الذي ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الالهية، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب ألبتة، وإن كان كل أهله علماء، وإن كان في كل محلة منه مدرسة، وفي كل دار من دوره خزانة كتب، فلا تغني هذه الكتب عن الرجال، فإنما هي صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهي إلى الروح، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العلم إذ هو تفسير الحقائق في العمل الواقع وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسها. ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في معاني الفضائل ووسائلها ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثم رأوا رجلا فاضلا بأصدق معاني الفضيلة وخالطوه وصحبوه - لكان الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها وأدلَّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب. ولهذا يرسل الله النبيَّ مع كل كتاب منزل ليعطي الكلمة قوة وجودها، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشئ الفضائل الانسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير.

وما مثل الكتاب يتعلم المرء منه حقائق الأخلاق العالية، إلا كوضع الانسان يدَه تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض، فقد أنشأ يعمل ولكنه لن يرتفع. ومن ذلك كان شر الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروسا أخرى تعمل عملا آخر غير الكلام؛ فان أحدهم ليجلس مجلس المعلم ثم تكون حوله رذائله تعلم تعليما آخر من حيث يدري ولا يدري، ويكون كتاب الله مع الانسان الظاهر منه وكتاب الشيطان مع الانسان الخفي فيه

***

(١) توفي سنة ٣٢٢ (٢) توفي سنة ٣١٦

(١) توفي سنة ٢٩٨ (٢) كانت وفاته سنة ٣٠٤

النجاح أن كل إنسان له أكثر من شخصية واحدة وإن كان لا يدري ذلك.

ويثقل على نفسي خاطر واحد يكاد يصدني عن المواظبة، هو ما جدوى ذلك كله؟.. ما آخر هذا العناء الذي أراه باطلا؟. آخر ذلك كله معروف. وهل ثم من آخر سوى الفناء؟. ولكني أعود فأقول لنفسي إن هذا الآخر لا آخر سواه، سواء أبذل المرء الجهد، أم قعد عنه وضن به، فلا فائدة من التقصير، ولا ضير من السعي. والحياة أن تحيا، لا أن تجمد وتركد وتأسن. أما الجدوى فلماذا أعذب نفسي بالسؤال عنها؟ وما جدوى أي شيء في الحياة؟. إن كل ما أعرفه أني موجود، وأني وهبت قدرة على الاحساس والتفكير، فكيف أعطل هذه المواهب وأبطل عملها؟. وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأتمتع بالشعور به وأنا أعطل ما أعطيت؟ ويعرف الجدوى من أعطاني الحياة، فلندع ذلك له فهو أعرف به.

ابراهيم عبد القادر المازني

قال أبو علي : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن وآخذ وأحقق ماسمعت من خبره مع ابن طولون . فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذ شيخنا الجنيد يتلألأ فيه نوره ويعمل فيه سره ؛ وهما كالشمعة والشمعة فى الضوء . وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة . وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه ، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكا ، فله معنى أبوة الأب فى أبنائه لا يراه من يراه منهم إلا أحسَّ أنه شخصه الأكبر . فهذا هو الذى تكون فيه التكملة الإنسانية للناس وكأنه مخلوق خاصة لاثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن قارَبها أو لامسها ، وأن القوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها ، ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كاصابة المرض تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتفقد الشيء ماهو به شيء ، فتتحول قيمته . فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

واذا عدم الناس هذا الرجل الذى يعديهم بقوته العجيبة فقلَّما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد ، وكبار الشجعان ، وكبار العلماء وأمثالهم ؛ كل هؤلاء من باب واحد ، وكلهم فى الحكمة ككبار المرضى

* * *

قال أبو علي : وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون فقطعتني هيبته ، فقلتَ أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الري « لا أذاقك الله طعم نفسك » . وبينما أهيىء فى نفسى كلاما أجرى فيه هذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لى على فلان مائة دينار وقد ذهبت الوثيقة التى كتب فيها الدين وأخشى أن ينكر اذا هو علم بضياعها ؛ فادع الله لى وله أن يظفرنى بديني وأن يثبته على الحق . فقال الشيخ : إنى رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى . فاذهب فاشتر لى رطلا منها وأمتعنى به حتى أدعو لك .

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع فى ورقة فإذا هى الوثيقة الضائعة . وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهى . ثم إنه التفت إلى وقال لو أن شجرة اشتهت غير مابه صحة وجودها وكمال منفعتها فأذيقت طعم نفسها ، لأكلت نفسها وذوت

* * *

قال أبو علي : والمعجزات التى تحدث للأنبياء والكرامات التى تكون للأتقياء ، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق ، كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هذا . فلم تبق بى حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنى أرى بعينى رأسى كل ما سمعت ، بيد أنى لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضى أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (١) ذاك الذى يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهى واحد وعشرون مصنفا فيها الكبير والصغير . فقال لى : لعلك اشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون فمن أجله زعمت جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضع فلم يخبرنى وهبته فلم أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون (٢) من جارية تركية وكان طولون أبوه مملوكا حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفا عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك . فولد أحمد فى منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت هاتان طبيعتيه إلى آخر عمره ، فذهب بهمته مذهبا بعيدا ، ونشأ من أول أمره على أن يتم هذا النقص ويكون أكبر من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالى ، وظل يرمى بنفسه وهو فى ذلك يكبر ولا يزال يكبر كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على مايعلم الله

قال : وكان عقله من أثر طبيعتيه كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة ويده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذى بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء وشرط إذا جىء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس

(١) توفى سنة ٣٢٢

(٢) كانت امارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة وتوفى سنة ٢٧٠

ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، ولم يكن هذا قبل إمارته . وهو أول من نظر فى المظالم من أمراء مصر . وهو صاحب يوم الصدقة ، يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه ، ومراتبه لذلك فى كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس . ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون فى اثنين منها فالوذج[1] وفى الآخرين من القدور ، وينادى من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر . وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو فى المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . وكان راتب مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، واقتدى به ابنه خمارويه ، فأنشأ بعده مطبخ العامة[2] ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار ، كل شهر

وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها فى مدة ولايته ألفى ألف ومائتى ألف دينار[3] وكان كثير التلاوة للقرآن ، وقد اتخذ حجرة بقربه فى القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبرين ، يتعاقبون الليل نوباً ، يكبرون ويسبحون ، ويحمدون ، ويهللون ، ويقرأون القرآن تطريباً وينشدون قصائد الزهد ، ويؤذنون أوقات الآذان ، وهو الذى فتح انطاكية فى سنة خمس وستين ومائتين ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها ، فلما نابذه أهلها وقاتلهم ، أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ليبلغ ذلك طاغية الروم ، فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس فيكون بهذا كأنه قاتله وصده عن بلد من بلاد الاسلام ويجعل هذا الخبر كالجيش فى تلك الناحية

ومع كل ذلك فانه كان رجلا طائش السيف يجور ويعسف وقد أحصى من قتلهم صبراً أو ماتوا فى سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفا . وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة فى حادثة معروفة وقال له : غرك قول الناس ما فى الدنيا مثل بكار ؟ أنت شيخ قد خرفت ؛ ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء . فكانت عشرة آلاف دينار ؛ قيل إنها وجدت فى بيت بكار بختمها لم يمسها زهداً وتورعا

ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر طاش عقله فأمر بالقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذى طار فى الدنيا حتى بلغك فى بغداد

* * *

قال : وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم ، فجىء بالأسد من قصر ابنه خمارويه . وكان هذا خمارويه مشغوفاً بالصيد لا يكاد يسمع بسبع فى غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم

وكان الأسد الذى اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم ، جسيماً ، ضارياً ، عارم الوحشية ، متزيل العضل ، شديد عصب الخلق ، هراساً ، فراساً ، أهرت الشدق ، يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبىء أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته ، يهم أن ينقذف على من يراه فيأ كله .

وأجلسوا الشيخ فى قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه ، فجذبوه فارتفع ؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه فانطلق يزجر ويزأر زئيراً تنشق له المرائر ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة .

ثم اجتمع الوحش فى نفسه واقشعر ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقى من أجل الشيخ إلا طرفة عين . ورأيناه على ذلك ساكناً مطرقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به ، وما منا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والاشفاق على الرجل .

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته فأقعى على ذنبه ثم لصق بالأرض هنيهة يفترش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد ، فمشى مترفقاً ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذى يأنس به ، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة بين الرجل

(١) نوع من الحلوى وهو ما يسميه العامة (البالوظة)
(٢) هذا هو الأصل فى مطعم الشعب
(٣) الدينار نصف جنيه مصرى فعدة ذلك مليون ومائة ألف جنيه ، صدقاته على بغداد وحدها رحمه الله

التق والأسد ، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله .

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمى عمل ، ولم يكن منه بازاء لحم ودم ، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل فى روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة ، ولا يسرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التى هو مؤمن بها ومتوكل عليها كحياة الدودة والنملة ، وما دونها من الهوام والذر .

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدى الأسد ولكنه هو والأسد بين يدى الله ، وكان مندمجاً فى يقين هذه الآية : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيُنِنَا »

ورأى الأسد رجلا هو خوف الله ، نخاف منه ، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ، فليس فى الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس فى الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رأى الاسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التى يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه فى تلك الساعة أو اختلجت فى نفسه خالجة من الشك ، لفاحت رائحة لحمه فى خياشيم الأسد فتمزق فى أنيابه ومخالبه

***

قال : وانصرفنا عن النظر فى السبع إلى النظر فى وجه الشيخ فاذا هو ساهم مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً فى تفكيره ، فمن قائل انه الخوف أذهله عن نفسه . وقائل إنه الانصراف يعقله إلى الموت ، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد . وأكثرنا فى ذلك وتجارينا فيه حتى سأله ابن طولون : ما الذى كان فى قلبك وفيم كنت تفكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن على بأس ، وانما كنت أفكر فى لعاب الأسد أهو طاهر أم نجس ......

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

القاهرة المعزية

وجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أعوام قلائل احتفلت فرنسا بذكرى إحدى مدنها العتيقة ، وهى مدينة قرقشونة (كاركاسون) الرومانية لمناسبة مضى ألفى عام على قيامها ؛ وما زلنا نذكر ما أفاضت به الأنباء يومئذ طرافة هذا الاحتفال وروعته وأهميته من الوجهة القومية . وقرقشونة احدى مدن ولاية « سبتمانيا » السبعة ، وقد كانت مدى حين معقلا اسلاميا فى جنوب فرنسا ؛ وما زالت على صغرها وتواضعها شهيرة بآثارها الرومانية وتاريخها الحافل أيام الرومان والقوط والعرب

وإن مصر لتستطيع أن تفخر بمدنها الألفية عنوان تراث مجيد وحضارة خالدة ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا المقام عاصمتيها الجليلتين ، الاسكندرية ثغرها العظيم التالد ، والقاهرة عروس العواصم الاسلامية ؛ فقد قطعت الإسكندرية من عمرها المديد أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ؛ وأشرفت القاهرة على ألفها ؛ وإذا كانت العاصمة الكبرى تقترب من عيدها الألفى بخطى سريعة فان من بواعث الأسف أن يقترب هذا اليوم التاريخى العظيم دون أن تتأهب مصر للاحتفاء به واحاطته بما يجب من ضروب الاشادة والتكريم ؛ ومن بواعث الأسف ألا يرتفع حتى اليوم صوت رسمى ينبه إلى هذا الحادث القومى الجليل ، وينوه بخطورته وأهميته ، ويدعو المختصين إلى الاهتمام بأمره

ولقد احتفلت مصر بالأمس بالعيد المئوى لوزارة معارفها ، واحتفلت من قبل بالعيد المئوى لمدرسة الطب ، والعيد المئوى للمدرسة الخديوية ، والعيد الخمسينى لانشاء المحاكم الأهلية ، وغيرها من المواقف والحوادث القومية ، وأدركت ماوراء الاحتفاء بهذه المناسبات التاريخية من بعث للماضى ، وتكريم للذكريات المجيدة ، وإذكاء للعاطفة القومية ، ووصل بين

مراحل تاريخنا. بيد أن هذه الذكريات والمناسبات الحافلة تبدو ضئيلة متواضعة إلى جانب الاحتفاء بالعيد الألفي لمدينة القاهرة

ذلك أن الاحتفاء بالعيد الألفي للقاهرة المعزية يعتبر حادثاً منقطع النظير في تاريخ مصر الاسلامية. وليس بين عواصم العالم الكبرى سوى مدن قلائل قطعت عمرها الألفي؛ وأشهرها وأعظمها من الوجهة التاريخية هي بلا ريب أثينه والاسكندرية وروما وقسطنطينية. وإذا كان العالم الاسلامي يضم عدة مدن ألفية أخرى، فانه ليس بينها من تضارع القاهرة في ضخامتها وجلالها وأهميتها السياسية والفكرية والاجتماعية

ألف عام هجرية كادت تنقضي على قيام المدينة الفاطمية المتواضعة، القاهرة المعزية أو قاهرة المعز لدين الله؛ ففي ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ، ٧ يوليه سنة ٩٦٩ م، دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي مدينة مصر أو مدينة الفسطاط غازية ظافرة، وعسكرت عند مغيب الشمس في الفضاء الواقع في شمال غربي الفسطاط؛ وفي نفس الليلة وضع القائد جوهر تنفيذاً لأوامر المعز أول خطة في مواقع المدينة الجديدة التي اعتزم الفاطميون إنشاءها بمصر لتكون لهم منزلا ومعقلا. وحفر أساس قصر جديد في نفس الفضاء الذي نزل فيه جيشه، فكان هذا مولد القاهرة التي سميت كذلك تفاؤلا وتيمناً بالنصر؛ وقامت المدينة الجديدة بسرعة تتوسطها القصور الفاطمية والجامع الأزهر الذي أنشئ بعد ذلك بأشهر قلائل (في جمادى الأولى سنه ٣٥٩) ليكون منبراً للدولة الجديدة وملاذاً لدعوتها؛ ولم تلبث أن غدت منزل الخلافة الفاطمية مذ قدم المعز لدين الله إلى مصر بأمواله وأهله وبطانته وتوابيت أجداده، واستقر في عاصمته الجديدة في رمضان سنة ٣٦٢ هـ (يونيه سنة ٩٧٣ م)

ولبثت القاهرة مدى حين ملوكية عسكرية لا تضم سوى القصر الفاطمي ودواوين الحكم وخزائن المال والسلاح ومساكن الأمراء والبطانة ومن إليهم من الاتباع النازحين في ركب الغزاة؛ ولكن لم يمض جيل واحد حتى اتسعت جنبات المدينة الجديدة ونمت نمواً عظيما وترامت معالمها وأحياؤها إلى ماوراء السور الذي أنشأه حولها القائد جوهر واتصلت بمدينة مصر (الفسطاط) وامتزجت المدينتان وتداخلتا وصارتا تكونان معا مدينة من أكبر وأعظم مدن الاسلام في العصور الوسطى. وكان اسم القاهرة يطلق اصطلاحا على المدينة الفاطمية التي يضمها السور الذي أنشأه القائد جوهر ثم وسعه وأعاد إنشاءه أمير الجيوش بدر الجمالي في أواخر عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٦ هـ) وأدخل فيه عدة أحياء ومواقع جديدة: وأما المناطق التي بقيت خارج السور والتي كانت تمتد فيما بين الجامع الطولوني وقلعة الجبل إلى الجهة المقابلة على ضفة النيل، فكانت تعرف بظاهر القاهرة، وكان اسم مصر يطلق دائما على الفسطاط القديمة، ويطلق على المدينتين معاً «مصر القاهرة»

وما زالت معالم القاهرة المعزية وحدودها القديمة قائمة يحدها من الشمال موقع باب الفتوح وباب النصر والسور الذي يصلهما وهو بقية من سور أمير الجيوش بدر الجمالي، ويحدها من الجنوب باب زويلة، ومن الشرق سفح الجبل، ومن الغرب موقع الخليج القديم، وما يلي ذلك حتى ضفة النيل، وما يزال الجامع الأزهر قائما وسط المدينة القديمة حيث قام منذ ألف عام تحيط به معظم الأحياء والدروب الفاطمية القديمة بعد أن تغيرت أسماؤها ومعالمها

ولقد شهدت القاهرة في ظل الخلافة الفاطمية ألواناً من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدتها في ظل دولة اسلامية أخرى؛ ومع أنها نمت بعد ذلك نمواً عظيما. واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت في القرن التاسع الهجري اضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين، فانها لم تسطع بمثل ما سطعت في عهدها الأول، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة، ورسومها وأعيادها الباذخة ولياليها وحفلاتها الباهرة؛ كانت القصور الفاطمية آية الفخامة والبهاء وإن الخيال ليضطرم إلى الذروة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التي تقدمها الينا الروايات المعاصرة من عظمة الخلافة الفاطمية وروعتها في مظاهرها العامة، وعن حياة الخلفاء

الخاصة داخل القصر وأبهائه وأجنحته المنيفة. وقد كان القصر الزاهر يشرف من الغرب على ميدان شاسع يسع عشرات الألوف من الجند والنظارة يعرف بميدان بين القصرين، وهو اسم شهير فى تاريخ القاهرة المعزية شهرة ميدان «القديس مرقص» (سان ماركو) فى تاريخ البندقية، وقد سمى كذلك لوقوعه بين القصر الفاطمى الكبير والقصر الصغير المواجه له وهو المعروف بالقصر الغربى؛ وقد لبث «بين القصرين» أيام الدولة الفاطمية مسرحاً لأعظم المواكب والمظاهرات الخلافية والعسكرية، والحفلات العامة، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية عصراً أعظم ميادين القاهرة، وأزخرها عمارة وأشدها احتشاداً، وإنك لتستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهرى فى ميدان ما بين القصرين، كما تستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الجمهورية البندقية فى ميدان القديس مرقس، كلاهما امتزج بحياة الدولة والشعب، واتخذ مكانة فيها.

***

ومنذ بضعة أعوام شعرت بعض الجهات الرسمية بأن الجامع الأزهر يدنو من عمره الألفى. وفكرت فى أن تحتفل بهذا العيد احتفالا عظيما يتفق مع روعته التاريخية، ووضع بالفعل برنامج لتنظيم هذا الاحتفال. وانتدبت لجنة لوضع تاريخ شامل للأزهر منذ قيامه إلى يوم عيده، ثم وقف المشروع لأسباب غير معروفة؛ بيد أن الذى يثير الدهشة حقاً، هو أن تخطر للقائمين بالأمر فكرة الاحتفال بالعيد الألفى للجامع الأزهر دون أن تخطر لهم فكرة الاحتفال بالعيد الألفى لمدينة القاهرة، مع أن القاهرة تسبق الأزهر فى مولدها بعدة أشهر؛ وقد أنشىء الأزهر فى الأصل، لا ليكون جامعة للدراسة، ولكن ليكون مسجداً للعاصمة الفاطمية الجديدة وليكون منبراً للدولة الجديدة ومعقلا لدعوتها

فاذا كان مما يحمد أن فكر القائمون بالأمر فى تخليد الذكرى الألفية للجامع الشهير، فان ما يبعث إلى الأسف أن يفوتهم حتى اليوم التفكير فى تخليد ذكرى القاهرة الألفية؛ وهذه الذكرى الخالدة تدنو بسرعة. فقد وضعت أسس العاصمة الفاطمية كما رأينا فى منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ فنى منتصف شعبان سنة ١٣٥٨ هـ، أعنى بعد نحو عامين ونصف فقط تبلغ القاهرة المعزية عمرها الألفى المديد

وبعد أشهر قلائل من ذلك التاريخ، أعنى فى جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ يبلغ الجامع الأزهر عمره الألفى أيضاً، إذا اعتبرنا تاريخ البدء فى إنشائه وهو جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ

وانه لمن بواعث الفخر حقاً أن يكون تاريخنا حافلا بمثل هذه الذكريات العظيمة التى هي عنوان تراث قومى مؤثل

فعلينا أن نفكر ملياً فى الاحتفاء بهذين العيدين القوميين الجليلين وإذا كان قد فاتنا حتى اليوم أن تؤلف للاحتفاء بهما اللجان الخاصة، وأن نضع البرامج اللائقة، فان ما يزال ثمة متسع من الوقت لتحقيق هذه الأمنية؛ ولقد ارتبط اسم القاهرة المعزية والأزهر دائما حتى أنه ليكفى أن تؤلف هيئة واحدة للقيام بهذه المهمة، فتضع للاحتفال بعيد القاهرة الالفى برنامجا خاصا وتضع برنامجا آخر للاحتفال بالعيد الألفى للجامع الأزهر، يراعى فى كل منهما ظروفه ومناسباته الخاصة؛ ومن الطبيعى أن يحتوى البرنامج على وضع تاريخ ألفى شامل لمدينة القاهرة وتاريخ شامل للجامع الأزهر؛ وأن تنظم فى العيدين طائفة من المهرجانات العلمية والاجتماعية الباهرة وأن يدعى لعيد القاهرة رؤساء البلديات فى جميع المدن الكبرى ممثلين لحكوماتهم ومدنهم، كما يدعى لعيد الأزهر ممثلو الجامعات فى جميع أنحاء العالم، وأن ينظم بهذه المناسبة حج خاشع إلى معالم القاهرة المعزية وآثارها الباقية ومنها الجامع الأزهر، وأن تقام بها الأعمدة واللوحات التذكارية المختلفة. وأن تفتتح بهذه المناسبة طائفة من المشاريع العلمية والخيرية

وانه لما يسبغ على هذه الاحتفالات روعتها وجلالها، أن تقام إلى جانب هذه المعالم الخالدة وفيما بينها.

فهل يحدث هذا النداء المتواضع أثره؛ وهل يبادر أولو الأمر فيتخذوا الاهبة العاجلة لتحقيق هذه الأمنية القومية الرفيعة؛ وهل تشهد القاهرة المعزية، ويشهد الأزهر كلاهما عيده الألفى فى فيض من الروعة والجلال: أم تغيض هذه الذكريات العظيمة فى غمر الجدل والمناقشات العقيمة؟

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

أثر المجتمع

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إنما يقصد الأديب فيما ينشئه إلى التعبير عن شعوره وأفكاره لأنه يحس حافزاً يدفعه إلى ذلك التعبير، ويشعر براحة وغبطة إذا ماطاوع ذلك الحافز، بيد أنه يتأثر في كل مايحس ويفكر ويكتب ببيئته الجغرافية ووسطه الاجتماعي وجيله الذي يحيا فيه، لامندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والاصالة في الابتكار عن التأثر بكل ذلك، بل لانغالي إذا قلنا إن عبقرية الأديب ليست إلا مجموعة مؤلفة من تلك العوامل، والأديب الذي يعتزل مجتمعه لايتأثر به سائر أدبه إلى الاضمحلال وأن يكون سطحيا، وكلما كان الأدب صادقا حيا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة، وإن لم يمنعه ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة

فالأديب يتأثر بالمجتمع تأثراً تلقائيا غير مقصود ولا محسوس أحيانا، ثم هو يتأثر به تأثرا واعيا مقصودا، وذلك حين يلجأ الأديب عمداً إلى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع، وما يحمد منها وما يذم، ومن يصادفهم ويخالطهم في المجتمع من افراد ذوي خلائق متباينة، يلذ للأديب أحيانا عرض كل ذلك في أدبه كما تعرض الصور والدمى في المعارض والمتاحف، ويغتبط أي اغتباط بقدرته على تصوير ماراءه من تلك الحقائق والسلائق على ماهي عليه، وقد يزيد فيجلوها في مجلى الفكاهة والسخرية، أو يزيد فيندد بما يرى من مساويء ويدعو إلى الاصلاح ويوضح وسائله، ويؤلف لنفسه مبادىء يرضاها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين وهلم جرا، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد فحسب، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعي إصلاحي، ولا ريب أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون، من التعبير الصحيح عن صادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها، فاذا ماظهر بجانب ذلك غرض اجتماعي أصبح للأدب غرضان، بيد أنهما لايتنافران بل يأتلفان في يد الأديب القدير أحسن ائتلاف، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله، أما في يد الداعية المتحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعة الأسلوب، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الادب إلى حيز العلم، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية او السياسة أو غير ذلك، أما الأدب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية، ووظيفته الكبرى في بيان الشعور وما اتصل به من أفكار

وتدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنيه لاشك مجال للأدب رحيب، ومسرح لفن الاديب خصيب، ومهما تغيرت احوال المجتمعات على تتابع الأجيال، فإن طباع الانسان المركبة فيه واحدة لاتتغير، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وادعاء وغرور ونفاق، وولع بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدثة، كل هاتيك أمور تتكرر ولا تتبدل، وتبدو في شتى الأشكال والازياء وهي في الصميم سواء، ومن ثم نرى صورا لها في شتى آداب الامم على تباعد عصورها ومنازلها: فالمسيو جوردان المحدث النعمة الذي رسمه موليير متعثرا في أذيال ثروته مكاثرا بها في سذاجته، هو أحد « النوابين » المحدثي النعمة الذين اولع بتصويرهم كتاب الدرامة الانجليز في أواخر القرن الثامن عشر، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذي صدع رأس عيسى بن هشام في المقامة المضيرية بتعداد محتويات بيته واتمانها ومزاياها؛ فالأديب الحاذق يفطن إلى الخطوط الرئيسية في الصورة الشخصية التي يبغي رسمها، فاذا ماصورها لم تكن صورة فرد من الافراد، بل جاءت صورة ضرب من الناس في شتى الأمم والعصور

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور في الأدبين العربي والانجليزي، واختلط ادباهما بتاريخيهما اختلاطا شديدا، ولا غرو فالأدب من بين الفنون أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطا، وتبينت في ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابعة، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية، وقام فيهما من الآثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه، بجانب الآثار التي قوامها نظر الأديب في ذات نفسه وبوحه بأشجانه واطرابه؛ بيد ان الأدب الانجليزي كان أبعد في تناول الشؤون الاجتماعية مدى، وكان أدباؤه أكثر شغلا بالدعوة إلى الاصلاح، وإن لم يهملوا التعبير عن خوالجهم الفردية، ولم يقصروا في تصوير شخصياتهم المستقلة

ترى طابع العصر الاليزابثي في أدب شكسبير ومعاصريه:

فهو عهد فتوح ومغامرات ، فامتلأت رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار والحماسة الوطنية وتاريخ انجلترا ، وهو عصر لم تبدد الثقافة بعد أوهام سواد أبنائه ، فسرحياته تعج بذكر الشياطين والسحرة والأشباح والعرافة والتطير ، ولم تكن نفوس أبناء ذلك العصر قد رقت ولا أذوقهم قد صقلت ، ولذلك تكثر فى رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء ؛ وكان عهد تعصب دينى ، ومن ثم يسخر أدباؤه من أبناء النحل الأخرى كاليهود ، ولم يكن الحكم الدستورى قد توطد بعد ، وما تزال للملك اليد الطولى والكلمة العليا فى السياسة الداخلية والخارجية ، ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه فى روايه هنرى الرابع وغيرها نظرية سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة ، ويعدها أساس نظام الكون

ونرى أثر عهد الإصلاح الدينى فى انجلترا فى أدب عهد المطهرين : إذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التى لا يطمئن إليها عادة المتشددون من المتدينين ، واتصف الأديبان الكبيران اللذان ظهرا إذ ذاك ـ ملتون وبنيان ـ بالاهتمام بالشئون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعا وأسلوبا ؛ ونرى أثر عصر المجون الذى تلا ذلك فى مسرحياته المملوءة بالسقاط ؛ حتى إذا ما أشرق العصر التالى وقد اطمأنت النظم الدستورية وانتشرت الثقافة والثروة فى جمهور الشعب أوغل الادب فى تناول الشئون الاجتماعية ، ولم يقنع بالأشكال الموجودة أصلا ، فاتخذ لنفسه شكلا أدبيا هو أليق لتصوير المجتمع ونقده وهو القصة ؛ وفى قصة القرن الثامن عشر وفى شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من تأنق وتصنع ، وحرص على تعلم اللغات وممارسه بعض الفنون ، ويجرى ذكر خروج الارستقراط للصيد بخيلهم وكلابهم ، ويبدو مع ذلك ما كان يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وإدمان للشراب وإفراط فى الطعام وما كان يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء

اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع ، وقد أدت غرضها ذاك خير أداء ، وكيف لا تؤديه والقصة فى يد الأديب الحصيف ليست إلا قطعة من المجتمع الحى المتحرك منقولة على القرطاس؟ قطعة من المجتمع طوع بنان الاديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء ويبرز بها من الآراء ما يختار ، فلا غرو ازدادت القصة الاجتماعية رقيا وذيوعا فى القرن التالى ، بازدياد المبادىء الديمقراطية انتشارا أعقب الثورة الفرنسية ، وانتشار التعليم العام ، وتعقبه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة ، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية ، ونزاع الرأسماليين والعمال ، ونهضة المرأة ورقى علوم الاجتماع والنفس والتربية ، وخاض الأدباء غمار كل هاتيك الحركات والتيارات المتضاربة ، ونقلوا فى غضون قصصهم صور هاتيك المعارك الفكرية والأحوال المادية ، وفى قصص مريديث ودكنز وبتلر وهكسلى وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصى ، ومن تلك القصص نستخرج صور لتلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة

وطمت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية ، فى القصة المعاصرة ، وأقطاب القصة والدرامة المعاصرون أمثال شو وهاردى وولز وجالزورذى ، كلهم متأثرون بالكشوف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة ، والأحوال الاجتماعية الراهنة ، ولكل منهم مبادئه ودعواته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتركون ، لا على المذاهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى ، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذه المبادىء لا على مبادىء الفن والأدب ينقسمون شيعا ومدارس ، ويسرف بعض الكتاب كبرتراند رسل فى التحمس للدعوة الاجتماعية وإطراح الأسلوب الأدبى ، حتى تخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب ، ولا تعد إلا فى كتب العلم إن كانت لها قيمة هناك !

كان الشعر العربى فى الجاهلية حقاً ديوان العرب كما دعوه : كانوا يقولونه فى شرح أحوالهم الفردية ، من حب وذكر للديار ومناجاة للمطايا ، وفى شرح أمورهم الاجتماعية ، من التمدح بالقرى والتفاخر بالبلاء فى الحرب والتوعد بالثأر وإباء الضيم ، يرسلون كل ذلك على السجية فيجىء رائعاً بصدقه معجبا برجولته ، ويصوغونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد ، فظل شعر ذلك العصر ممثلا صادقا له رغم عبث العابثين به ؛ بل لعله كان أهم مصادر تاريخ ذلك العهد حين دون تاريخه ، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يذكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها أبيات الشعر مستشهدين

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والنجاح فى ظل الأمويين فى غزليات ابن أبى ربيعة وجميل واضرابهما ، ومفاخرات جرير والفرزدق وأشياعهما ، ثم ظهر أثر الافراط فى تلك الثروة والفراغ والاسراف فى اجتناء لذات الحضارة ، فى شعر بشار وأبى نواس وأمثالهما ، ثم كان العهد التالى بدء التدهور والانحطاط المادى والخلقى : فهوت مكانة المرأة إلى حضيض من القهر والازدراء والجهالة ، وفشت الرشوة والمحاباة والمصادرة بين الحكام ، وكثر

الفقر من جراء ذلك وادعاء الفقر والتسول والاحتيال باسم الدين والطب والأدب والعلم، وذاع الفساد وفاحش القول ومبتذل التندر

يبدو أثر كل هذا فى تنديد المعرى بالمرأة وسخر غيره من الشعراء منها، وتلك الأقاصيص التى افتن الجاحظ والاصفهانى وابن دريد فى جمعها وتأليفها، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات ووجوب تشديد الحجاب عليهن، فكان ابن دريد مثلا يخترع الحكايات يفسر بها الأمثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها. وبدا أثر تلك الحال السالف شرحها أيضا فى مقامات بديع الزمان والحريرى، حيث لا يزال بطل المقامات يتنقل من تسول إلى احتيال إلى خديعة، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه فى أسفاره اذا ما هبط بلداً أن يتعرف إلى واليه أو قاضيه أو بعض ذوى الكلمة فيه، يتقى بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة، ويتحاشى غوائل الارهاق والمصادرة والسجن. ويقف كاتبا المقامات المذكورة صفحات طويلة على استعراض ضروب الشتائم والبذاء يتقاذفها أشخاص الأقصوصة. ويقول ابن الرومى واصفاً حال الموظفين والتجار وأضرابهم:

أتراني دون الألى بلغوا الآ ... مال من شرطة ومن كتاب؟

أصبحوا ذاهلين عن شجن النا ... س وإن كان حبلهم ذا اضطراب

وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى فى النفوس والأحباب

هذه لمحة خاطفة إلى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة فى الأدب العربي، إذ كان من المحال تقصى تلك الآثار الاجتماعية التى تنعكس فى الأدب، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه، وما يزال الناظر فى مخلفات الشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعهم على جديد. وفى نوادر أبى نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الأصفهانى دلائل متفرقة على شتى نواحى الحياة الاجتماعية فى عصورهم. واذا قرأنا فى مقامات البديع مثلا أن أبا الفتح اصطنع فيما اصطنع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرفة القرادة، فرآه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بألاعيب قردة، علمنا أن تلك الحرفة التى ما تزال مشاهدة فى بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان، كانت تمارس منذ تلك العهود. وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب إلى مقر الخلافة يبتغون الرزق تارة بالصيرفة إذ يقول الجاحظ إنه لا يكاد يوجد ذو تجارة رابحة إلا وصاحب كيسه سندى؛ وتارة باضحاك العامة — شأن أبى الفتح الاسكندرى — بألاعيب الفيل، وذلك إذ يقول دعبل:

هذا السنيدى لا فضل ولا حسب ... يكلم الفيل تصعيداً وتصويباً

كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل، واضحة فى الأدب العربى شعره ونثره؛ يبدو أن أغلبها قد جاء فى الأدب عفوا أو عرضا، ولم يقصد لذاته ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمدا لوصفه وبيانه، بله نقده وإصلاحه، فأكثر أدباء العربية بعد الاسلام وبعد استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم فى شغل، قد يرون من أموره ما لا يرضيهم، وقد تكون لهم آراء فى السياسة ومذاهب فى الدين لا ترضى أصحاب السلطان، ولكنهم كانوا فى أغلب الأحوال يكتمون مثل تلك الآراء والنظريات، وكيف يبوحون بنقداتهم وهم بين رجاء لنوال السلطان وإشفاق من غضبه؟ إن النقد الصريح الحر والنظر الاجتماعى الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه، إنما كان يجهر الأدباء بالنقد والمعارضة فى الجاهلية وصدر من الاسلام، وهما عهد الحرية واستقلال الفرد؛ فلما توطدت الملكية المطلقة خفتت أصوات الأدباء وقطعت ألسنتهم. وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويون رؤوسهم عبرة لسواهم من الشعراء وقد مدح سديف الشاعر بعض العلويين الثائرين فواده المنصور، وثار المتنبي فى صباه يبتغى إصلاح الأحوال المتعاقبة فزج به فى السجن.

فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها فى أمر، وانقلبت بالأمة العربية بذلك من النقيض إلى النقيض. كان العرب فى جاهليتهم مسرفين فى الاستقلال والفردية، فصاروا فى ظل الملكية مسرفين فى الخضوع والاستسلام، وفرضت تلك الملكية على الأدباء أن يعيشوا عالة عليها وعلى المجتمع، لا يشاركون الشعب آماله وأعماله، ولا يقودون أفكاره وحركاته، فلم يكن المجال متسعاً أمام الأديب العربى، كما كان متسعا امام الأديب الانجليزى، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوة إلى إصلاحه. فان هو فعل ذلك عرض نفسه للتهلكة ولم يفد المجتمع فتيلا. إنما يؤمل الاديب الانجليزى أن يفيد مجتمعه بآرائه، لانه يخاطب بآثاره الادبية الرأى العام فى بلاده؛ الذى هو فوق الحكومة يملى عليها إرادته: أما فى ظل الملكية المطلقة فى الدولة الاسلامية، فلم يك هناك رأى عام، وكان رأى الحكومة الاعلى

لذلك عاش أدباء العربية طالبي فضل، يمدحون الامير ويعيشون من عطاياه، وهى السبيل الى ألجئ إليها المتنبي بعد محنة سجنه، وعاش بها حياته على مضض باكيا مما هو به محسود، واستوزروا

للأمراء وكتبوا وعملوا لهم ، وطلبوا بذلك النجاح الشخصى لأنفسهم لا النفع الشامل لمجتمعهم . أما أدباء الانجليزية فقل منهم من عاش فى ركاب الملوك ومن فضلهم على هذا النحو ، وكان أكثرهم إما مثرين غانين عن العمل لكسب القوت متوفرين على فنهم وحده ، وإما مساهمين فى الحياة العملية بجانب الحياة الفنية ، فكان منهم من ضربوا بسهم فى السياسة والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ومن أولئك فيلب سدنى وبيكون ورالى وملتون وبنيان وأديسون وبيرون ، وكان أكثرهم فى صف الشعب وجانب الحرية

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانسانى قاطبة ، ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وكره التقاليد والاعراف السائدة ، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال فلتير وروسو اكتفوا بالعمل النظرى وتركوا التنفيذ لغيرهم ؛ أما معاصروهم ومن جاءوا بعدهم من أدباء الانجليز ، فحاول بعضهم تنفيذ مبادئهم بأنفسهم ، ولهذا الغرض انتقل بركلى إلى أمريكا وشلى إلى أرلندة ، يريد كل منهما إنشاء مدينته الفاضلة ، وإن كانا قدمنيا بالفشل لضخامة المشروع . وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم فى أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر ، واستشهد بيرون فى حرب استقلال اليونان .

ولقد أبدى بعض أدباء العربية فى عهد نضج الحضارة والثقافة والأدب شغفاً بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقهم وظهر ذلك فى كتب الجاحظ ؛ على أنه كان يروى الأشياء على علاتها ويخلطها بفكاهاته ؛ وفى مقامات البديع ، ولم يكن أيضاً يزيد على التصوير المجرد ، فاذا ما صرح بسخطه على بعض الأحوال والأحكام والأنظمة ، فتصريحاً سريعاً فيه تسليم واقتناع بعدم جدوى محاولة الاصلاح وعدم إمكان أحسن مما كان . وظهر ذلك الميل أيضاً فى شعر ابن الرومى ، الذى صور كثيرا من الشخصيات الفكاهية ، على أنه كان يتناولها من ناحيته الفردية وينحى عادة على أعدائه الشخصيين ؛ وظهر نفس ذلك الميل إلى تتبع أحوال المجتمع فى شعر المعرى خاصة ، وذلك من الأبواب التى تفرد بها أو كاد بين أدباء العربية ، وسبق فى التصريح بها عصره ، وله فى ذلك أبيات رائعة ليست إلا خلاصة موجزة لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد فى العصور الحديثة ؛ ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية ، ونقمته على عدم تساوى توزيع الثورة ، وذلك قوله من لزومياته :

مل المقام فكم أعاشر أمة   أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا حقها   وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته   فقير معرى أو أمير متوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة   ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعى والاصلاح الشعبى ، وإنما مجال ذلك النثر الذى هو أكثر شيوعا وأقرب إلى متناول القارئين ، والذى هو أرحب صدراً بالشرح والتفصيل والاسهاب ؛ والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار ، ولكن النثر العربى لم ينهض بهذا العبء ، ولم يزد أن خطا الخطوة الأولى فى هذا السبيل فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع ؛ وقد جاءت هذه الخطوة متأخرة . ولما جاء الجيل التالى لم تتبعها خطوة أخرى ، بل أعقبها تقهقر إلى الوراء ، فلم تتطور المقامة إلى قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده فى سبيل الاصلاح ، بل تحولت فى يد الحريرى وغيره إلى معارض للألفاظ المزركشة والالغاز المعماة والحيل الملفقة ، فقد كانت الأمة فى طريقها إلى الانحلال ، والأذهان فى انحدارها إلى الخمود ، والحكام يزدادون على مرافق الأمة وطأة ، والأدب يتقلص رويداً رويداً ، ويهجر لباب الحياة إلى قشور الألفاظ .

فالأدبان العربى والانجليزى قد تأثرا فى مختلف العصور تأثرا كبيرا بأحوال مجتمعهما ، وهو أمر لم يكن منه بد ، بيد أن الادب الانجليزى كان أكثر بالمجتمع تأثرا وأكثر فيه تأثيرا ، وأشد تشابكا وتفاعلا معه ، لما أحاط به من ظروف مساعدة ، مرجعها سيادة الحكم الديمقراطى وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأى العام ؛ أما الأدب العربى فلبلوغه أوج ازدهاره فى ظل الملكية المطلقة ، قد كاد يقتصر تأثره بالمجتمع وتأثيره فيه على ما جاء عرضا غير مقصود ، وما تم بحكم الظروف وطبائع الأشياء ، وكان تناول أدبائه لشئون مجتمعهم رفيقا محدودا ، وفيما عدا ذلك كان كل منهم عاكفا على وصف خطراته وأشجانه وصبواته ، مولعا بذم أعدائه ومساجلة صحابته ، إلى غير ذلك من الشئون الفردية

فخرى أبو السعود

وفاة شاعر تركيا الكبير

عبد الحق حامد بك

١٨٥١ — ١٩٣٧



ولد عبدالحق حامد بك يوم ٥ فبراير سنة ١٨٥١ بجهة بيك من الأستانة . والده خير الله افندى من المؤرخين المعدودين. وجده حكيم باشى مُلَّا عبد الحق

تلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة (كوليج روبرت) الأمريكية ، وتلقى دروسه العربية والفارسية على معلمين خصوصيين وهم الأستاذ بهاء الدين، وسليم ثابت، وخوجا احسان. وقد ظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء من صغره حينما كان يقرأ فى المدرسة المذكورة فعرف له ذلك معلموه فى المدرسة ومعلموه الخصوصيون

يعرف عبدالحق حامد من اللغات عدا التركية - الانكليزية والفرنسية والعربية والفارسية معرفة تامة ، وله فى اديات هذه اللغات تعمق ونظر نافذ شهد له به كل من عرفه من اهل تلك اللغات

ولما كان له من العمر ستة عشر عاماً عين والده سفيراً لطهران فذهب معه ، وهناك توفى والده فعاد إلى الأستانة ولازم قلم الترجمة فى الباب العالى . ثم أخذ ينشر أسفاره وابتدأت شهرته تذيع بين الأدباء. فتعرف وهو شاب بسبب شهرته بالأديبين الكبيرين فى ذلك الوقت شناسى ونامق كمال الدين ؛ عرفا للشاعر مزيته وقدرا نبوغه فى ذلك الحين . وكان بالأخص الصديق الحميم لنامق كمال الذى يكبره باثنى عشر عاما عين وهو فى الخامسة والعشرين من عمره كاتبا ثانياً بسفارة تركيا فى باريس ، ثم رقى إلى (باشكاتب) بسفارة تركيا فى لوندرا ، ثم عين شاهبندراً فى بومباى ، ثم عاد إلى (باشكتابة) سفارة باريز مرة ثانية ؛ وآخر وظائفه الحكومية تعيينه سفيراً فى بروكسل ١٩٠٨ . وأخيراً عاد إلى تركيا بعد إعلان الحرب فانتخب عضواً فى مجلس الأعيان وتولى فيه نيابة الرياسة مراراً وإلى حين وفاته شغل دورتين فى انتخاب مجلس الأمة الكبيرة فى عهد الجمهورية ١٩٣١ ، وكان فى المجلس المذكور أكبر الأعضاء سناً .

آثاره الأدبية

ابتدأ أثناء إقامته فى أوروبا (وقد قضى عشرين عاماً فى لندرا) ينشر آثاره البديعة متبعاً طريقة جديدة مما اقتبسه من الآداب الغربية فاستحق بما أبدع من التجديد أن يشغل أعظم محل من الأدبيات التركية . وطار صيته وتسنم ذروة الشهرة بما كتب في رثاء زوجه فاطمة التى توفيت أثناء عودته من الهند ودفنت فى بيروت. فكان لأثره المسمى (مقبر) أثر فى الأدبيات التركية بلغ درجة الاعجاز . ثم انتشرت مؤلفاته الكثيرة التى منها :

مقبر - أولو - ماجراى عشق - أشبر - تهزاد. صبروتبان - طارق بن زياد - نظيفة - فينتين - ديوانه لكلرم - نسترين - صحرا - عبد الله الصغير - تفيله - طيفلر كجيدى - زينب - ساروانبال - فتنت - آلام وطن - دوهترى هندى - طورخان - ايجلى قيز - روحلر - بالادن برسس . ابن موسى - ارخيلر - غرام - يبانجى دوستلر - وغير ذلك من آثاره النادرة المثال .

وقد منع من النشر أكثرها زمن عبد الحميد بدعوى أنها مسممة لروح الشباب ، مهيجة للأفكار على حكومة الاستبداد .

ولكنه تبوأ بتآليفه هذه أعظم مكان فى نشر الأدبيات الغربية التى بدأ بنشرها قبله شناسى ونامق كمال ، ولكن عبد الحق حامد فاقهما وأربى عليهما بما وفق إليه من الأسلوب العذب والصناعة الأدبية الفائقة ، فنال عنوان إمام المجددين دون رفيقيه اللذين تقدماه . وظل مدة ستين عاماً أستاذاً للأدباء الأتراك فأسدى إلى اللغة التركية والأدب التركى من

التجديد والاختراع ماليس له نظير ولن يكون له نظير فيما بعده .

يقول الأدباء الأتراك : لولا حامد لتأخر انتشار الأدب الغربى فى بلادنا عصراً كاملا ، ولظل مكان حامد فارغاً كما سيظل الآن خالياً ؛ ولكن لله الحمد جاء حامد وأدى مالم يكن غيره ليؤديه للأدب فكان أدبه حياً ملهماً من شعور الأمة ؛ لا بل الأمة هي التى تستلهم من شعوره الحساس وروحه الفياضة ، فهو فى شعور الأمة وحياتها من الخالدين إلى الأبد .

وخلاصة مايقال فى شعر حامد بك وطريقته الأدبية ، أنه لم يتقيد بالمألوف القديم من شعر الدواوين ، بل ابتدع طريقة عصرية جديدة ، لايقال إنها اليوم أساس المدرسة الأدبية التركية ، بل ستكون فى المستقبل أيضاً منبع الإلهام الفياض لآداب الأجيال المقبلة .

كان يرجح الأدب الروائى فى مؤلفاته وينتخب موضوعات تاريخية يبرزها فى صور شائقة ممتعة (لتقرأ أكثرمنها لتمثل) بلغة سهلة ممتعة تدل على براعته واقتداره فى صنعته التى جعلته نسيج وحده .

توفى مساء الأثنين ١٢ ابريل الجارى عن ٨٦ عاماً قضاها فى خدمة وطنه وخدمة الادب حتى أنه قبل وفاته بيوم واحد استجمع قواه وقام إلى مطالعة كتبه والبحث فى تأليفه الاخير الذى يقال إنه سيكون اعظم أثر أدبي عصرى ، وتذاكر مع الاديب الكبير أحمد فاضل وأنشده بيته الاخير وهو قوله :

ذوق يوق كيجه سنده كوندزنده

بن نه ايله يم بوير يوزنده

ومعناه تقريباً —

مالى ودنيا كثرت أكدارها لا ليلها يصفو ولا نهارها

وكانت وفاته تشابه وفاة شاعرنا الزهاوى من بعض الوجوه . فبينما كان جالساً فى نادى الشرق أحس بألم شديد اضطره إلى الذهاب إلى بيته واستدعى إليه الطبيب ؛ وبعد فحصه أوصى بألا يخرج من البيت ويلزم الراحة التامة . وبعد ذهاب الطبيب اشتد عليه المرض ، وتحسنت صحته فى الغد فأحضر له طعام فلم يقبله ، وطلب فاكهة أكلها (كما أكل الزهاوى كماة) ثم قام كما قدمنا إلى كتبه وتأليفه وتذاكر مع الأديب أحمد فاضل وأنشده بيته الأخير الذى ترجمناه . وفى اليوم التالى اشتد به المرض إلى الظهر ، ثم نام نوماً هادئاً الى الليل ، وانتبه مدة ثم نام النومة الأبدية رحمه الله . وخلف عدا بناته من زوجه فاطمة ابنة عبد الحق ، حسين وحميد . وقد تزوج بعد فاطمة بالسيدة الانجليزية نيللى التى عاشرته عشرين عاماً ، ثم تزوج بعدها بالسيدة لوسيان البلجيكية التى مات عنها . ولم يولد له من الاخيرتين أحد

وقد شيعت جنازته باحتفال فخم لم يسبق لأديب أن شيع بمثله ؛ اشتركت فيه الأمة التركية بدافع المحبة والتقدير لشاعرها الكبير . وأرسل رئيس الجمهورية أحد ياوريه نائباً عنه من أنقرة . ووضعت جنازته على عربة مدفع ملفوفة بالعلم التركى . ودفن فى المقبرة العصرية فى زنجيرلى قويو ؛ وهذه المقبرة أنشأتها البلدية حديثاً ، وسيكون الشاعر العظيم أول دفين فيها . وسيقام له تمثال فى مكان لائق . رحمه الله رحمة واسعة

رفيق آطلاوى

على هامش كتاب

نظام الطلاق فى الاسلام (١)

للأستاذ محمود حمدان

كنت منذ زمن أرى أن ما تعارف الناس من أمر إيقاع الطلاق جملة ، وفى أى مناسبة ، ويميناً ، وتعليقاً - عبث لا يتفق مع الحكمة ، ويجعل أقوى العقود رباطاً ، وأقدسها حرمة ، وأهمها فى الحياة قدراً ، أوهن من بيت العنكبوت . فما كان الله ليجعل المرأة الضعيفة تتقاذفها الأهواء كالريشة فى مهب الهواء

وكنت قد طلبت الفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فما وجدت فى الكتب التى بين يدى . ولا عند الأشياخ الذين تلقيت عنهم جواباً عما يخالجنى . فكنت أسكت وفى النفس شىء لا أستطيع أن أبوح به . وكنت كلما وقع بيدى مقال لبعض المصريين حول موضوع الطلاق أقرأه بشغف لعلى أجد فيه ضالتى ، فلا أجد إلا ثرثرة متحذلق فأطرحه كاسف البال

وبعد أن تركت الأزهر الشريف كان يتاح لى فى بعض الأحيان أن أقرأ للمرحوم الأستاذ رشيد رضا مواضيع مختلفة ، فصرت ألمس روحاً غير الذى كنت ألمسها فى الأزهر : صرت ألمس روح الحرية فى الفهم وتحكيم العقل والرجوع إلى القرآن الكريم ، فاطمأن قلبى وشعرت بنور الاسلام يغمرنى ويكوننى خلقاً آخر

قلت إذن لتحل مشا كلنا على ضوء العقل الذى وهبنا الله ، ونور القرآن الكريم الذى حفظه الله كما أنزل ليكون حجة على الخلق إلى يوم الدين ، لا على رأى غيرنا ، ولا بمقتضى كتب لم يكتب الله لها العصمة

ورجعت إلى مشكلة الطلاق فاقتنعت بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة ولا يقع ثلاثاً لمخالفة ذلك لمقتضى اللغة ولصريح القرآن وللعقل أيضاً ، لأنه حصل فسخ عقد النكاح بقول المطلق : أنت طالق . فلم يبق محل لايقاع الفسوخ الأخرى بالوصف العددى ، وأفتيت بهذا مراراً . وأثناء اشتغالى بالمحاماة الشرعية أفتيت فى حادثة من هذا القبيل لو وصلت إلى المحكمة لقضى بالتفريق بين الزوجين ببينونة كبرى كما يقولون

بيد أنه لم يتح لى دراسة هذا الموضوع دراسة وافية من جميع نواحيه حتى علمت من قراءتى للرسالة الغراء — نفع الله بها وحفظ صاحبها — بصدور كتاب (نظام الطلاق فى الاسلام) للعلامة المجتهد الشيخ احمد محمد شاكر القاضى الشرعى . فقلت : ابن بجدتها ، علم غزير ، وذكاء وفير ، والمهنة مستوجبة للدرس ، والظروف مؤاتية .

قرأت الكتاب بشغف قوى وبما يستحق من عناية وانعام نظر ، فرأيته - ولا أريد أن أمدح - نعم الكتاب هو ، وافياً بالغرض ، قائماً على الحجة القوية من كتاب الله وسنة رسوله مسترشداً بالعقل وقوانين اللغة ، بعيداً عن اللغو ومواطن الزلل ، ورأيت الاخلاص للحق ماثلا فيه بدليل توفقه - بأسلوب سهل - للاحاطة باطراف الموضوع فى موجز كهذا (وهو بالنسبة لخطورة الموضوع وجيز) وبدليل بعده عن الخوض فى (سب سادات مضوا) شأن كثير ممن يتعرضون للكتابة فى مواضيع اختلفت فيها الآراء وتشعبت الأقوال .

ومسأله الكتاب ؛ إخراج الطلاق من حيز العبث الذى أدخله فيه الناس إلى حيز الحكمة التى ابتغاها الشارع الحكيم من مشروعيته ، واعتباره علاجا لاصلاح ما قد يطرأ على الرابطة الزوجية من أمراض تنغص العيش ، وتذهب بالسكينة المنشودة من الزواج (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها) والذى يجعل لاصلاح العلاقة الزوجية لا يستعمل لقطعها إلا إذا تعذر الاصلاح وكان العلاج هو القطع . ومن هنا أذن الله للرجل فى الطلاق وجعل له فيه أداة ومهلة يتروى فيها ويراجع نفسه (لعل الله يحدث بعد

---

(١) كتبت على أثر المكاتبة فى هذا الموضوع بين سماحة المجتهد الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء وبين فضيلة مؤلف الكتاب . وحالت موانع دون اعادة النظر فيها وارسالها .

ذلك أمراً) وبهذا تتجلى حكمة الطلاق ويبدو أنه تشريع منظم غاية التنظيم .

وقد حرص المؤلف على تقرير هذا المعنى فى المواضع المناسبة ؛ غير أن ما اشترط لصحة وقوع الطلاق غير كاف للحيطة من العبث به وتعجيل الفراق ، فقد اشترط فى طلاق المدخول بها أن يكون الطلاق فى طهر لم يمس فيه وقال : (فاذا رد الرجل مطلقته فى عدتها إلى عصمته بالرجعة تجدد العقد بينهما ، فكانه وصله بعد إذ قطعه ، فيمكن قطعه وفسخه مرة أخرى ، وكذلك الثالثة . ص ٧٢) وهذا كله يتصور فى طهر واحد ، كان يطلق فى طهر لم يمس فيه ثم يراجع نفسه فيرجعها بشروط الرجعة - ثم يرى طلاقها فيطلقها فى نفس الطهر قبل أن يمس ثم يعود اليه صوابه فيرجعها ، ثم يرى طلاقها فى نفس الطهر أيضاً قبل أن يمس فيطلق . وحينئذ يقع الفراق الذى لا رجعة بعده فى طهر واحد ، ويكون قد تعجل الطلاق وخالف الحكمة فى تفريقه . وليس فيما حقق الاستاذ ما يمنع المطلق من إيقاع الطلاق على الصورة الذى ذكرنا أو ما يبطل طلاقه لو فعل .

والذى أراه يتمشى مع الحكمة هو التمشى مع نصوص القرآن الكريم ، وذلك بعدم إجازة الرجعة التى تترتب عليها صحة الطلاق الثانى الا عند نهاية العدة لقوله تعالى : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) وقوله تعالى : (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) فانه رتب الامساك (وهو الرجعة) على بلوغ الأجل . وبلوغ الأجل فى حق الرجعة يراد منه قرب بلوغ الأجل لأن الرجعة لا تصح بعد بلوغه

وحرمان الزوجين من بعضهما مدة العدة أدعى للوفاق بينهما فيما بعد . لأن الزوجة بسبب هذا الحرمان تصلح من شأنها . والزوج بسببه لا يقدم على طلاق آخر إلا أن كانت الضرورة ماسة جدا خلاف ما لو راجع حالا فانه لا يشعر بشيء يزجره ويذيقه بالفعل خطورة ما أقدم عليه

وقرب بلوغ الأجل ، أى نهاية العدة ، يكون فى الحيض الأخير أو الطهر الذى قبله ، فان حصلت المراجعة فى الطهر الذى قبل الحيض الأخير ومست الحاجة للطلاق الثانى طلق إن شاء قبل أن يمس كما فى الحديث . وإن حصلت الرجعة فى الحيض الأخير صحت الرجعة ويطلق فى الطهر الذى بعدها إن شاء قبل أن يمس . وهكذا فى الطلقة الثالثة

وبهذا النظام لا تقع الفرقة النهائية إلا فى ظرف واسع كاف للتروى والتفكير ومراجعة الرأى . وهو وقت يقرب من ثلاث عدد . ومن لم يحسن العشرة فيه كان مستحقا لعقاب الحرمان الأدنى من رفيقه . أو ألا يرجع إليه إلا بعد زوج آخر ، وهو ما لا ترضاه النفوس غالبا

***

بقى : هل يبطل الطلاق فى الحيض أو يقع ويحرم ؟

رجح المؤلف بطلانه . وهو رأى بعض الأئمة ؛ ورجح غيره حرمته فقط ، وسمى بالطلاق البدعى . استدل المؤلف بحديث ابن عمر من روايات متعددة ذكرها فيما بين الصفحة ٢٣ والصفحة ٢٨ ، واحتج القائلون بالوقوع بحديث ابن عمر نفسه من روايات أخرى قال المؤلف عنها : (ليس فيها شيء صريح وألفاظها مضطربة وهى تخالف ما ثبت صريحاً بالروايات الصحيحة ، وتخالف أيضا ما يفهم من ظاهر القرآن)

وأنا أصدق المؤلف فيما قال فى الروايات التى تمسك بها خصوم رأيه ، ولم أطالعها ، ولكننى أقطع النظر عنها وأقول : إن الروايات التى تمسك بها هو لا تساعده على رأيه لأن قوامها :

١ - ماروى مالك فى الموطأ عن نافع (أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليراجعها ، فليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس . فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء)

٢ - وما روى ابن وهب فى كتابه الجامع : (قال ابن أبى ذئب إن نافعا أخبرهم عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهى

حائض ، فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد ذلك وإن شاء طلق قبل أن يمس . فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء . وهي واحدة)

وهذان الحديثان هما من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم وقد صرح فيهما بقوله فليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق . فلو كان الطلاق الاول الذي طلقه ابن عمر غير واقع لم يكن فائدة لقوله فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، بل كان ينبغي أن يقول فليمسكها حتى تطهر ثم إن شاء طلقها قبل أن يمس ، ولا داعي لتعدد الحيض والاطهار

وأعجب للمؤلف كيف يقول : (فلو كانت الروايات التي يحتج بها القائلون لوقوع طلقة ابن عمر في الحيض صحيحة لكان الأمر بمراجعتها ثم التربص بها إلى أن تطهر ثم يطلقها إن شاء في الطهر الثاني قبل أن يمس - أمراً باطالة عدتها زمناً أكثر مما أريد من الرفق بها) أعجب له لأن التربص بها إلى أن تطهر الاطهار المعدودة في الحديث ثم يطلقها إن شاء هو مناط الحكمة في تفريق الطلاق (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وليس لاطالة عدتها بل لاحتمال رجوعه عن إرادة الطلاق فيما بعد . أما الطلاق الأول فقد وقع والتربص عدة حيض واطهار كما في الحديث دليل على وقوعه ، وإلا فهو حر في طلاقها حين تطهر الطهر الاول . وقوله في الحديث وإن شاء طلق قبل أن يمس فيظهر أنه إن شاء طلاقاً ثانياً ، ولا ينافيه قوله بعد ذلك (وهي واحدة) لأن الضمير فيها للطلقة الاولى المفهومة من سياق الكلام والتي هي محط السؤال ، فلا جرم يكون الجواب عنها بالاضمار ولا يمتنع ذلك ، وهو أسلوب عربي صحيح ، ولا نسلم للمؤلف (أنه لا يمكن أن يعود الضمير اليها) .

وأما الروايات الأخرى التي استند إليها المؤلف فاثنتان وهما :

١ - رواية ابن جريج عن ابن الزبير (وقال عبد الله فردها علي ولم يرها شيئاً)

٢ - ورواية مسلم والنسائي بحذف كلمة ولم يرها شيئا

فهاتان الروايتان ليستا من لفظ النبي عليه السلام ، بل هما من فهم عبد الله بن عمر بحسب سماع ابن الزبير وفهمه ، والأخذ بلفظ النبي عليه السلام أولى من الأخذ بفهم غيره

والرواية الثالثة وهي رواية الامام أحمد . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليراجعها فانها امرأته ، تحتمل على الأقل الوقوع والامر بالمراجعة . وعدم استعمال لفظ المراجعة في القرآن بهذا المعنى لا ينفي استعماله في الحديث

وبعد فهل الروايات التي تمسك بها القائلون بوقوع الطلاق في الحيض ، أو بالتالي هل وقوع الطلاق في الحيض يخالف ما يفهم من ظاهر القرآن كما قال المؤلف ؟

الجواب عندي أن حديثي مالك وابن وهب اللذين تمسك بهما المؤلف يفهم منهما مايساعد على تأويل القرآن الكريم بما لا يخالف وقوع الطلاق في الحيض

فالذي يفهم من الحديثين أنه أوقع الطلقة الاولى وكانت في الحيض ، وأمر بالتريث حيضا وإطهارا بين هذه الطلقة وبين إيقاع الطلقة الثانية إن شاء المطلق ذلك وقال (فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء)

فالطلاق للعدة المأمور به في القرآن معناه أن تطلق المرأة الطلقة الثانية بنهاية العدة من الطلقة الاولى ، ويكون تفسير آية الطلاق هكذا :

(يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) أي الطلاق المعهود في قوله (الطلاق مرتان) من سورة البقرة وهي أول سورة نزلت بالمدينة ، (فطلقوهن لعدتهن) أي أوقعوا الطلقة الثانية لعدة الاولى أي بنهاية عدتها كما فسر ذلك الحديث حيث أوقع الاولى وأحصى العدة بتعداد الحيض والاطهار وقال بعد ذلك (فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء)

وليس غريبا أن يكون هذا هو التفسير فالقرآن يفسر بعضه بعضا والحديث مبين للقرآن (لتبين للناس ما نزل إليهم) فمن آيات الطلاق مع الحديث يؤخذ أن الطلاق لا يقع الا متفرقا بين كل طلقة وأخرى مقدار عدة ، وأن الرجعة لاتصح الا بنهاية العدة . وحيث كان الطلاق يختل نظامه اذ لم يراع فيه ذلك فقد أكد الله هذا المعنى بتكريره في آيات الطلاق فقال تعالى في سورة البقرة (وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن

فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) فرتب الامساك والتسريح على بلوغ الاجل . وذكر مثله فى سورة الطلاق .

والحاصل أننى استنتج من هذا البحث ثلاثة أمور :

الاول : وقوع الطلاق فى الحيض .

الثانى : أن الرجعه لاتصح إلا قرب نهاية العدة .

الثالث : وهو مترتب على الثانى — أن الطلاق الثانى لايقع إلا قرب نهاية العدة من الطلاق الاول . والطلاق الثالث لا يقع إلا قرب نهاية العدة من الطلاق الثانى

وبذلك يصبح نظام الطلاق فى الاسلام ثابتا لا يتسرب إليه الخلل ولا يمكن العبث به مهما حاول ذلك المحاولون .

فأرجو من فضيلة الاستاذ العلامة الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر مؤلف كتاب (نظام الطلاق فى الإسلام) أن يتفضل بالجواب عما رآه هذا العاجز سواء بالسلب أو بالايجاب مع الادلة الوافية لنستنير برأيه الراجح ، وله منا جزيل الشكر ومن الله عظيم الثواب

داود حمدان

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى الفونس كار

زهرة الأقحوانه

نهضت الصبية مع الصباح وسارت نحو البرارى . وكانت العصافير قد فتحت عيونها للنور وبدأت تزقزق وقد أحنت رؤوسها مثقلة بتيجان من لآلىء الأنداء

سرحت الغادة أنظارها على المرج ، فاستوقفتها زهرة الأقحوان ، زهرة النضارة والجمال ، مفتحة عينها الصفراء ، محدقة بالسماء

انحنت على الزهرة وقالت لها : سوف تكشفين لى سر الأسرار يا ابنة الأرض والسماء . سوف تعلن لى وريقاتك ما لا يعرفه فى الانسان إلا إله الانسان ، سوف تقولين لى إذا كان يحبنى . . .

وأخذت الفتاة الزهرة بين أناملها وأخذت تنزع وريقاتها

ودفعت الزهرة بالأنين لأول ورقة سقطت من تويجها على الأرض . وقالت : لقد كنت مثلك أيتها الصبية جميلة ومليئة بالحياة ، مثلك كنت سعيدة ، وكما أحببت أنت أحببت أنا ، وما سال النسيم الذى هام بى عن سر غرامى احداً ، بل كان يمر بى كل ساعة ويحمل من عبيرى كلمة الغرام حرفا فحرفا . كان يقتلع هذه الحروف من قلبى كما تقتلعين أنت اليوم وريقاتى من تويجى بلا شفقة ولا رحمة . لقد سرق منى كل عبيرى ، وما عبيرى إلا شعورى يحيط طهارتى بسياجه المنيع

ذهب الشعور كلمة فكلمة ، وبقى قلبى عارياً كما سيبقى تويجى بين أناملك الآن . كنت أتعذب وأتأسف على عواطفى المخلوبة ، على وريقاتى البيضاء . . .

مالى ولك أيتها الصبية ؟ دعينى ، لا تنزعى وريقاتى ، أنا أختك زهرة الأرض يا زهرة العالم ، ارحمى الحياة التى وهبنيها الله ، فأجود عليك بسر عظيم جزاء على إشفاقك

إن المرأة تأخذ الزهرة وتنضو وريقاتها لنستمع الجواب على سؤالها المزدوج : يحبنى ، لا يحبنى . . . .

والرجل يطلب الجواب نفسه من المرأة عندما ينثر وريقاتها البيضاء على الأرض .

أيتها الفتاة ، أبقى جوابك فى قلبك . . . إن الرجل ليطرحك بعيداً عنه إذا ما نزع وريقاتك البيضاء . . . (ف . ف .)

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٧ — جنة في نار

دخل بدوى حماما فاستطابه فقال لصاحبه :

ان حمامك هذا غير مذموم الجوار
ما رأينا قبل هذا جنة في وسط نار

٢٨ — على أنه قيل في الوقت

في (أغاني) أبي الفرج :

قال أبو المستهل : دخلت يوما على سلم الخاسر واذا بين يديه قراطيس ، فيها أشعار يرثي ببعضها أم جعفر وببعضها جارية غير مسماة وببعضها أقواماً لم يموتوا . وأم جعفر يومئذ باقية . فقلت له : ويحك ما هذا ؟ !

فقال : تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ، ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد . فنعد لهم هذا قبل كونه ، فمتى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديما على أنه قيل في الوقت .

٢٩ — الاذن الشرعي والقياس اللغوي

في (طبقات) السبكي .

دخل رجل على الجبائي يوماً فقال : هل يجوز أن يسمى الله (تعالى) عاقلا ؟

فقال الجبائي : لا ، لأن العقل مشتق من العقال وهو المانع ، والمنع في حق الله محال فامتنع الاطلاق . قال الشيخ أبو الحسن فقلت له : فعلى قياسك لا يسمى الله (سبحانه) حكيما لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج ، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وقول الآخر (جرير) :

أبني حنيفة . أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن اغضبا

أي نمنع بالقوافي من هجانا ، وامنعوا سفهاءكم . فاذا كان اللفظ مشتقاً من المنع ، والمنع على الله محال . لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه (سبحانه وتعالى) . فلم يحد جواباً إلا أنه قال لي : فلم منعت أنت أن يسمى الله (سبحانه) عاقلا ، وأجزت أن يسمى حكيما ؟ فقلت له : لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الاذن الشرعي دون القياس اللغوي ، فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه ، ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه ، ولو أطلقه الشرع لأطلقته

٣٠ — ما قتل المحب حرام

قال القاضي المقرى : سألني ابن حكم عن نسب المجيب في هذا البيت :

ومهفهف الاعطاف قلت له انتسب فاجاب : ما قتل المحب حرام

ففكرت ثم قلت : أراه تميمياً لالغائه (ما) النافية فاستحسنه مني لصغر سني يومئذ

٣١ — أجد بيانها في قلبي

في (وساطة) الجرجاني :

قال يونس ابن عبد الأعلى : سألت الشافعي عن مسئلة . فقال : إني لأجد بيانها في قلبي ، وليس ينطلق لساني

٣٢ — بارت قريتك

في (مفيد النعم) للسبكي :

ذكر الزبير ابن عمار أن بعض المتقعرين كتب إلى وكيل له بناحية البصرة : احمل إلينا من الخوزج والكنعد [1] المقورين [2] ، والأوز المهوج [3] ، ولحم مها البيد ، ما يصلح للتشرير [4] والقديد

فكتب إليه وكيله : إن لم تكف عن هذا الكلام بارت قريتك ، فان الفلاحين ينسبون من ينطق بهذه الألفاظ إلى الجنون

---

(١) نوع من السمك البحرى
(٢) مقور السمكة المالحة تقعها في الخل
(٣) مهوج البطن مسترخيه
(٤) التشرير : التجفيف

٣٣ — عبودية الطاعة وأخوة العبد

كتب أبو حيان التوحيدى إلى صاحب له : كنت أعلمتنى أنك استحسنت منى هذين البيتين وهما :

ان كنت تطلب فضلا اذا ذكرت ومجداً
فكن لعبدك خلا وكن لخلك عبدا

وكان سببهما أن صديقاً لى ضرب عبداً له ، فحضره صديق له ، فمنعه الصديق فلم يمتنع ، فكتبت إليه بهذين البيتين أذكره بحق الصديق فى عبودية الطاعة ، وأخوة العبد فى حق الايمان قال (تعالى) : « إنما المؤمنون إخوة » هذا مع ما فى النساط على المماليك من الدناءة

٣٤ — يخاف أن أعلم عليه

فى (زهر الآداب) للقيروانى :

قال الفتح بن خاقان : مارأيت أظرف من ابن أبى دؤاد ، كنت يوماً ألاعب المتوكل بالنرد . فاستؤذن له عليه ، فلما قرب منا هممت برفعها ، فمنعنى المتوكل وقال : أجاهر الله بشىء وأستره عن عباده ؟ فقال المتوكل لما دخل : أراد الفتح أن يرفع النرد . قال : يخاف (ياأمير المؤمنين) أن أعلم عليه . فاستحليناه وقد كنا تجهمناه

٣٥ — الوجه الحسن والشعر المطبوع

قال أبو عمر بن سالم المالقى : كنت جالساً بمنزلى بمالقة فهاجت نفسى أن أخرج إلى الجبانة ، وكان يوماً شديد الحر فراودتها على القعود ، فلم تمكنى من القعود ، فمشيت حتى انتهيت الى مسجد يعرف برابطة الغبار ، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالقى ، فقال لى : إنى كنت أدعو الله أن يأتينى بك وقد فعل فالحمد لله ، فاخبرته بما كان منى ثم جلست عنده فقال : أنشدنى ، فأنشدته :

غصبوا الصباح فقسموه خدوداً
واستوعبوا قضب الأراك قدوداً
ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم
فتقلدوا شهب النجوم عقودا
وتضافروا بضفائر أبدوا لنا
ضوء النهار بليلها معقوداً
صاغوا الثغور من الأقاحى ، بينها [١]
ماء الحياة ، لو اغتدى مورودا
لم يكفهم حد الأسنة والظبا
حتى استعاروا أعينا وخدودا [٢]

فصاح الشيخ وأغمى عليه ، وتصبب عرقاً ، ثم أفاق بعد ساعة وقال : يا بنى ، اعذرنى فشيئان يقهراننى ولا أملك نفسى عندهما : النظر إلى الوجه الحسن ، وسماع الشعر المطبوع

٣٦ — أنا لا أسمع لوما فى حبيب

فى خزانة ابن حجة :

كان صلاح الدين الصفدى ، مذهبه تقديم أبى الطيب المتنبى على أبى تمام حبيب الطائى . فاتفق أن صلاح الدين اجتمع بابن نباتة بالديار المصرية ، وذاكره فى أبى الطيب وأبى تمام ، فوجده على مذهبه . واجتمعا بعد ذلك بالشيخ أثير الدين بن حيان وذاكراه فى ذلك ، فقدم أبا تمام ، فلاماه على ذلك فقال :

أنا لا أسمع لوماً فى حبيب

٣٧ — كالحسن شيب لمغرم بدلال

فى (المثل السائر) لابن الأثير :

قال أبو تمام :

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وهذا من غريب ما يأتى فى هذا الباب . وقد تغالت شيعة أبى تمام فى وصف هذا البيت ، وهو لعمرى كذلك

---

(١) الاقحوان : من نبات الربيع له نوار أبيض كأنه ثغر جارية حديثة السن ، وهو البابونج يجمع على اقاح واقاحى بتشديد الياء وقد خففت فى البيت .

(٢) أبو عبد الله بن اليمن البطليوسي

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢ —

الديانة المصرية

يجمع الباحثون على أن الديانة المصرية هي أولى الديانات البشرية التي ظهرت على وجه الأرض من غير استثناء. ويؤكد بعضهم تأكيداً قاطعاً بأنه لم تظهر ديانة في الدنيا إلا ولها في عقائد وادي النيل عنصر، وأن كل الديانات الانسانية ليست إلا فتاتا متساقطا حول مائدة بلاد الفراعنة الذين سبقوا جميع سكان الكرة الأرضية إلى حمل لواء المعرفة وفتح كثير من مغلقات العلم وحل ألغاز الكون. ومن أشهر العلماء الذين يعتنقون هذه الفكرة العالمان الانجليزيان: «بري» و «اليوت سميث». أما الأستاذ «دينيس سورا» فيؤمن بالفكرة الأولى وهي سابقية الديانة المصرية على جميع الديانات الانسانية، ولا يستبعد أن تكون جميع التطورات الدينية قد وجدت في مصر من الوثنية المحضة إلى الروحية المغالية في التجردية، بل إلى «اللاأدرية» المطلقة، ولكن الذي يعارض فيه هو أن بقية الشعوب القديمة قد تغذت من تساقط فتات المائدة المصرية، كما يقول بعض العلماء؛ وبراهينه في هذه المعارضة هي:

أولا: أنه لم يثبت عن المصريين أنهم بعثوا بعثات إلى البلاد الأجنبية للتبشير بديانتهم حتى انتشرت بين ربوع تلك الأمم.

ثانيا: ان الآثار المصرية التي يعتمد عليها العلماء في حكمهم هذا لا تؤيدهم في دعواهم إذا تأملوا في الأمر تأملا دقيقا، لأنها ليست إلا رموزا وطلاسم قصد بها كاتبوها غايات دينية محضة لا تسجيل حقائق علمية ولا إذاعة أسرار الدين وإبانة تطوراته المختلفة. وإذاً، فلا يمكننا أن نعتمد على تلك الآثار في حكمنا، وفوق ذلك فإن أسرار العقيدة المصرية الأصلية لم تذع بين أفراد الشعب إلا في عصور التدهور أي حوالي القرن السادس قبل المسيح. وبناء على هذا يكون العامة - وهم الذين يحتكون بالأجانب في المعاملات - قد ظلوا جاهلين بحقيقة هذه الديانة حتى القرن السادس أي بعد ظهور كثير من الديانات الشرقية. وبهذا ينتفي تأثير الديانة المصرية على تلك الديانات.

ولا ريب أن البرهان الأول في رأينا برهان ضعيف، لأن الديانة كما تنتشر بوساطة المبعوثين المختصين، تنتشر كذلك عن طريق الاحتكاكات التجارية والسياسية والاجتماعية. ولا جرم أن هذا كان موجوداً وثابتاً الثبات كله. أما ادعاء أصحاب هذا الرأي جهل الشعب بالعقائد المصرية حتى القرن السادس فهو غير صحيح، لأن الأدب المصري - وهو مرآة الحياة الاجتماعية بما تحتويه من دين وأخلاق وغيرهما - قد أنبأنا في مواضع تجل عن الحصر بكثير من أسرار العقيدة، أضف إلى هذا أن الرسوم والنقوش التي تكتظ بها المعابد تذيع أكثر هذه الأسرار الدينية، وليس سرا ما يعلمه الكهنة والأمراء، ورجال البلاط، وكبار الموظفين، والرسامون والعمال. على أنه إذا جازت سرية ما لدى هؤلاء جميعا - وهي بعيدة - فلا تجوز سرية ما لدى الأدباء. والكتاب الذين أفعموا أسفارهم بوصف هذه المعلومات بأسلوب ضاف مسهب. وإذا فالأرجح - إن لم يكن مؤكدا - أن جميع الأمم القديمة من غير استثناء هي تلميذات مصر في الدين كما هي تلميذاتها في العلم والأدب والفن.

غير أنه بالرغم من صحة هذه النظريات القائلة بأخذ الأمم الشرقية دياناتها عن مصر في نظرنا يجب علينا أن نخطو إلى إثباتها خطوات حذرة متبصرة تأتلف مع تلك المعلومات البسيطة التي اكتشفها المستمصرون، منتظرين ما تأتي به المكتشفات المقبلة عن هذه الأمة العريقة التي سمى العلماء بلادها بحق: «أرض الأسرار والعجائب».

قداسة الحيوان وأسبابها عند المصريين

رأى علماء أوروبا في العصور الحديثة، الآثار المصرية مكتظة بالحيوانات المقدسة، ورأوا كذلك بعض الشعوب

البربرية المتوحشة فى جنوب إفريقيا وفى أطراف آسيا وأمريكا تقدس الحيوانات فى هذا العصر الذى نعيش فيه تقديسا لا يقل عن تقديس المصريين إياها فى العصور الغابرة ، فانخدعوا بهذه المشابهة السطحية وتوهموا أن تقديس المصريين القدماء للحيوانات هو من نوع تقديس المعاصرين المتوحشين لها ، وحسبوا أن التقديس المصرى هو : « Totemisme » توتيميسم ، وهى كلمة تدل على قداسة الحيوان الناشئة عن اعتقاد القبيلة فى قرابتها أو صلتها الوثيقة بهذا الحيوان ، وهذا « التوتيميسم » موجود حقا عند المتوحشين العصريين ولاسيما فى أطراف أمريكا . وقد عنى العلماء باستبطان دواخل هؤلاء المتوحشين ، فسألوهم عن هذه الحيوانات المقدسة فأجاب البعض بأنها أجدادهم الاولون ، وأنهم حين يقدسون هذه الحيوانات لا يزيدون على أنهم يجلون عنصرهم الأول ويحترمون دماء أسلافهم التى تجرى فى عروق هذه الحيوانات . ورد البعض الآخر بأنها أقارب أجدادهم ، وأكد البعض الثالث أنها من خلفاء أولئك الأجواد ، وأعلن الرابع أن الحيوان المقدس عنده إنما هو إله قبيلة .

وقد شاهد العلماء أيضا فى بعض الجهات المتوحشة القبيلة تنقسم إلى أربعة بطون : البطن الأول يقدس الكلب ، وهو جده الأعلى ، والثانى يقدس الخنزير ، وهو عنصره الأول ، والثالث يقدس الوزغ ، وهو مبدؤه الأساسى . والرابع يقدس التمساح ، وهو رأس الأسرة الأولى من هذا البطن .

فلما رأى العلماء هذا التقديس للحيوان عند الشعوب المتوحشة ورأوه عند المصريين الغابرين ، جزموا بأن أولئك وهؤلاء متشابهون فى عقيدتهم وتقديسهم لا يفرق بينهم إلا هذه العصور المترامية الأطراف

وقد أفاض بعض هؤلاء العلماء فى هذه الموازنة إفاضة أنزلت آراءهم منزلة خيال الشعراء وأحلام النائمين . وأبرز هؤلاء العلماء الحالمين هو الأستاذ « فرازير »[1] الانجليزى مؤلف كتاب « الغصن الذهبى »

وقد عارض كثير من العلماء الأدقاء فى هذه المشابهة معارضة شديدة وصرحوا بأنها تنقصها الأسانيد العلمية التى يعتمد عليها من ناحية ، وبأنها غير متناسقة الجزئيات من ناحية أخرى ، واستدلوا بأدلة على أن منشأ تقديس الحيوانات عند المصريين ليس هو « التوتيميسم » ، وإنما هو سبب آخر سنذكره هنا . وإليك شيئا من هذه الأدلة :

(١) إن المصريين القدماء كانوا يبيحون زواج الاخ من أخته مع أن جميع قبائل التوتيميسم تعد هذا العمل أكبر جرائمها التى تستوجب السخط والغضب ، بل إنها مجمعة من غير شذوذ واحد منها على أن زواج الرجل بامرأة من البطن الذى هو منه محرم ، وهذا خلاف واضح يجعل المشابهة بعيدة كل البعد

(٢) إنه قد عثر على كثير من القبائل المتوحشة تجهل « التوتيميسم » جهلا تاما ولا تنظر إلى الحيوان إلا بمثل الاغضاء والاهمال اللذين ينظر بهما إليه أرقى المتمدنين العصريين

(٣) إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن عنصرهم هو السماء فلا يمكن أن ينتسبوا إلى الانسان العادى فضلا عن الحيوان

(٤) إنهم صرحوا فى عدة مواضع من آثارهم بأسباب تقديسهم لتلك الحيوانات ، ولا يمت أى واحد من هذه الأسباب بصلة إلى تسلسلهم من الحيوان . وإذاً ، فلا يمكن أن نسمى تقديس المصريين للحيوان : « توتيميسم » إلا إذا خرجنا بهذه الكلمة عن معناها الأصلى ، وجعلناها مرادفة للتقديس فحسب بدل مرادفتها للتقديس الناشىء عن البنوة أو القرابة . على أن الذين يوافقون من المستمصرين على تسمية تقديس المصريين للحيوان « توتيميسم » يجمعون على قصر هذه « التوتيميسمية » على عصور ما قبل التاريخ كما يجمعون على وجوب فصل عقائد تلك العصور « التوتيميسمية » عن عقائد العصور التاريخية الراقية .

أما منشأ هذه القداسة فهو يرجع — فى رأى العلماء المحققين — إلى أنه قد حدثت حروب بين القبائل المصرية فى عصور ما قبل التاريخ تجلت عن انتصار بعض هذه القبائل وانهزام البعض الآخر ، فرمز المنتصرون لبلادهم ببعض الحيوانات القوية ولقرى خصومهم المنهزمين ببعض الحيوانات الضعيفة ، فبقيت هذه الرموز دالة على معانيها ردحاً من الزمن

(١) يلاحظ أن أكثرية الآراء الخاطئة التى يذيعها الاستاذ سلامة موسى مستقاة من مؤلفات هذا العالم الخرافى .

ثم تعاقبت الأجيال فنسيت الأسباب الأولى وبقيت أسماء تلك الحيوانات عالقة بهاتيك القرى ورامزة لها فى شكل خفى غامض . ولما كانت النفوس البشرية مجبولة على تقديس ما تجهله فقد قدست مصر تلك الحيوانات دون تفريق بين قويها وضعيفها .

ولما ارتقت مصر نوعاً ، ونظمت بلادها وقسمتها إلى مقاطعات وأنشأ سكان كل مقاطعة على حدة راية خاصة بهم ظل بعض تلك الرموز القديمة باقياً ونقش كل منها على مقاطعته . كما اختفى البعض الآخر الذى لأمر ما لم يصلح للحياة ، ولكن ذلك البعض الذى بقى لم يظل جامدا على راية حاله الأولى ، وانما تطور انسجاما مع المدنية الحديثة مثل البازى الذى كان فى عصور ما قبل التاريخ رمزاً لأحد الانتصارات الغابرة ثم أصبح فى العصور التاريخية رمزاً للاله « هوروس » إله القوة والخير والبركة ، وكالبقرة التى كانت كذلك فى العصور الأولى رمزاً لأحد تلك الانتصارات التى سجلت على القرية المنهزمة ضعفها ، فرمز اليها بحيوان صغير كالتمساح مثلا ثم أصبح رمز البقرة رمزاً للاله « هاتور » .

ومع طول الزمن اندمج بعض المقاطعات فى البعض الآخر وأصبح الكثير منها تحت إمرة إله واحد كما حدث فى الماضى أن أصبح المنهزم تحت إمرة المنتصر ، وهذا هو مأتى تقديس الحيوانات فى مصر القديمة ؟

« يتبع »

محمد غلاب

سر مجهـــول

فى تحريم لحم الخنزير

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

فى التشريع الإسلامى أسرار لا يعلمها إلا من طهر الله قلوبهم لحكمته ، وألهمها من العلم مالا يقاس به شىء عندها . وقد كان الناس يظنون أن الحكمة فى تحريم لحم الخنزير تعبدية إلى ان أخذوا فى هذا العصر يلتمسون حكم التشريع ، ويعنون بالبحث عن فوائده ومزاياه ؛ فحينما بحثوا فى حكمة تحريم لحم الخنزير ظنوا أنه استثناء من أصل أحل لحمه ، فأخذوا يبحثون فى تحريمه عن حكمة خاصة به . وقد ذكروا من ذلك ان الخنزير يصاب فى كثير من الأحيان بديدان تنتقل منه إلى من يأكل لحمه ، وتتربى فى جسده ، فتكون منها الدودة الوحيدة الخطيرة ؛ وذكروا أيضاً أن فى الخنزير ديدانا أخرى تتربى فى لحمه يقال لها (تريشين) ، ومن عادتها أن تكون محاطة بكيس ينتهى أمره بأن يتحجر فتموت تلك الدودة فيه ، ولكن هذا لا يكون إلا بعد أن تلد ألوفاً لا تحصى من الديدان ، وكل دودة منها ينتهى أمرها إلى مثل ما انتهى اليه أمر الدودة الأولى ؛ فاذا أكل الانسان لحم الخنزير نزلت هذه الأكياس الحجرية الحاوية لهذه الديدان إلى معدته ، وذابت فيها بتأثير العصارة المعدية ، فتخرج منها ديدانها وتتكاثر فى جسمه وتسكن فى لحمه ، وهذا من أقبح الأمراض وأشنعها وناهيك بمرض يكون فيه لحم الانسان كله مساكن لتلك الديدان المؤذية .

وقد يكون هذا من ضمن الأسباب التى حرم الله بها لحم الخنزير ، وإن كان لا يوجد له نظير فيما حرم الله أكله علينا ؛ ولكن يبقى بعد هذا أن يقال : هل حرم الله علينا الخنزير لأنه خنزير ، أو لأنه من جنس السباع التى حرم علينا أكلها لحكمة عظيمة سنبينها ؟ ولقد سألنى بعض المخالفين منذ سنين

عن الحكمة فى تحريم الاسلام لحم الخنزير ، فأجبته بان الله حرمه لأنه سبع من السباع ، ثم ذكرت له الحكمة فى تحريم لحمها . فسكت سكوت المفحم أو المقتنع، ولم يعقب على كلامى بكلمة تبين لى حقيقة أمره ، فاكتفيت منه بذلك وتركته ، وهأنذا أفصل هنا ما أجملته فى جوابى له :

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كل ذى ناب من السباع فأكله حرام . فهذا الحديث يدل على تحريم ما له ناب من السباع ، والناب هو السن خلف الرباعية ، كما جاء فى القاموس ، والسبع هو المفترس من الحيوان كما جاء فى القاموس أيضاً ، وجاء فيه أن الافتراس الاصطياد . وجاء فى كتاب النهاية لابن الأثير أن السبع هو ما يفترس الحيوان ويأكله قهرا وقسرا ، كالأسد والذئب والنمر ونحوهما . وقال أبو حنيفة : كل ما أكل اللحم فهو سبع ، حتى الفيل والضبع واليربوع عنده من السباع ، وكذلك السنور . وقال الشافعى: السباع المحرمة هى التى تعدو على الناس كالأسد والنمر والذئب ، أما الذى لا يعدو منها على الناس فهو حلال ، كالضبع والثعلب

فاذا أردنا بعد هذا أن نعرف أمر الخنزير فى ذلك وجب أن نرجع إلى ما كتب فى علم الحيوان عنه . وقد جاء فى كتاب حياة الحيوان للدميرى أن الخنزير يشترك بين البهيمية والسبعية ، ففيه من السبع الناب وأكل الجيف ، ومن البهيم الظلف وأكل العشب والعلف . ويقال إنه ليس لشىء من ذوات الأنياب ما للخنزير من القوة فى نابه ، حتى إنه يضرب به صاحب السيف والرمح فيقطع كل ما لاقى من جسده من عظم وعصب

وجاء فى دائرة معارف البستانى أن الخنزير يمتاز بقوة أنيابه المعوجة ، وأن منها نابين فى الفك الأعلى ونابين فى الفك الأسفل يقدر أن يجرح بها جراحاً غائرة ، وهو فى الغالب يضرب بها الأماكن الرخوة عند الهجوم عليه ، كبطن الفرس والإنسان ونحوهما . وقيل إنه يتغلب أحيانا بأنيابه على الأسد

ثم ذكر أن الخنازير الآبدة أقوى وأضخم من الخنازير المستانسة ، وأنها أشرس منها طباعا . وأعظم أنيابا ، وأنها تصاد بالحمل عليها وهى فى كهوفها ، وبنصب الفخاخ لها ونحو ذلك ، وقد تطارد بالكلاب إلى أن تقف مصادمة مطارديها ، ويكون وقوفها عند رجلى الفرس ، وكثيراً ما تتمكن من جرحه فى ساقيه بنابيها المخيفين ، وقد تأتى إلى جنب الفرس وتطعنه بنابيها فى بطنه فتشقه قبل أن يتمكن منها راكبه . وبعض الخنازير فى أمريكا إذا حمل إنسان أو وحش على القطيع منها يقف على شكل دائرة ، ويدفع بأسنانه الحادة هجمات العدو عليه ، وإن كان النمر الأمريكى المشهور بالقوة . وكثيرا ما تقتل هذه الخنازير الكلاب التى تستعمل فى صيدها ، وكثيرا ما تقتل صيادها أو تجرحه ، وكثيراً ما تجاهر الناس العداء بشجاعة لامزيد عليها ، فتحمل على الإنسان بدون أن يغيظها ، وإذا رأت كلباً غير متعود صيدها تحيط به حالا وتقتله ، وهى على العموم شديدة البأس ، كثيرة الحمق

وقد ذكر أيضا أن للخنزير ستة أضراس أو سبعة فى كل جانب من جوانبه ، وأن الأمامية منها تشبه أضراس آكلة اللحوم ، أما الخلفية فتشبه أضراس الإنسان ، وهذا يدل على أنه يأكل النبات واللحم

وكذلك ذكر الأستاذ أحمد ندى فى كتابه (الحجج البينات فى علم الحيوانات) أن الخنزير يسكن الغابات ويتغذى فيها بالجذور والثمار ، ولكنه إذا فقد هذا الغذاء يصير آكل لحوم ، فيفترس الحيوانات الحية ، ويأكل من لحومها

وينقسم الخنزير إلى قسمين : خنزير برى وخنزير بحرى . ومن الخنزير البحرى نوع يسمى عند الفرنجة (بيروسا) أو الخنزير الملاسمى ، ويوجد فى جزائر الهند الشرقية ، وهو شرس الطباع كالخنزير البرى ، قادر على السباحة طويلا . وقد ذكر الدميرى فى كتابه (حياة الحيوان) أن الخنزير البحرى هو الدلفين على المشهور ، وقد سئل مالك عنه فقال : أنتم تسمونه خنزيراً ، يعنى أن العرب لاتسميه بذلك ، لأنها لاتعرف فى البحر خنزيرا

(للبحث بقية)

عبد المتعال الصعيدى
المدرس بالقسم العام بمعهد طنطا

بين القاضي منصور الهروى والوزير أبو سهل الزوزنى

للأديب الفارسى عباس اقبال
ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

مقــدمة :

لما قامت الدولة العثمانية فاستولت على آسيا الصغرى والعراق العربى والشام وجزيرة العرب ومصر وشمال افريقية تقطعت الأواصر العلمية والأدبية التى جمعت بين العهد العباسى بين المسلمين فى الأقطار كلها من بخارى وسمرقند إلى القيروان ومراكش

اشتدت المنافسة الدينية والسياسية بين الصفويين فى إيران وسلاطين آل عثمان فى البلاد الاسلامية الأخرى وانتهت إلى العداء والحرب ، فأقامت سداً منيعاً بين مسلمى إيران وإخوانهم فى الدين ، فتقطع ما بينهم من روابط. فسلمو الشرق الذين كان اهتمامهم بالفارسية يزيد يوماً بعد يوم بحكم الزمان ، والذين كانوا ينصرفون عن العربية لزوال دولها المستقلة سلكوا طريقاً غير الطريق التى سلكها مسلمو الغرب تحت سيطرة الترك العثمانيين ولواء السلطان حامى مذهب أهل السنة والجماعة .

وكانت عاقبة هذا أن الايرانى حرم الاستفادة من المؤلفات التى كانت تكتب خارج حدود بلاده والكتب القديمة التى كانت مدخرة فى غير وطنه . وكذلك حيل بين رعايا العثمانيين وبين آثار النهضة العلمية والأدبية فى إيران . وزاد تعصب الفريقين هذه الفرقة على مر الزمان . واليوم وقد نهضت أهل مصر والشام لأحياء الآداب والمعارف الاسلامية ، لا نزال نرى العلماء والأدباء على براءتهم من التعصب والحمد لله يهملون كل ما كتب بالفارسية - إحدى لغتى التمدن الاسلامى العظيمتين - ويصدفون عما كتبه علماء المذهب الشيعى - أحد المذهبين العظيمين فى الاسلام . يتبين من مطالعة الكتب والمقالات التى يكتبها فحول الكتاب والمؤرخين فى مصر والشام أنهم متمكنون فى الآداب العربية وتاريخ الاسلام . بصيرون بكثير من الحقائق الراجعة إلى الفرنج وآدابهم . حتى إذا عرض بحث عن إيران والآداب الفارسية ، أو مذهب الشيعة كبا جوادهم وكثرت زلات أقلامهم . ونرى بعض هؤلاء الكتاب يحاولون الرجوع إلى المراجع الفارسية وهم يجهلون لغتها فيتوسلون إليها بالمراجع الأوربية فيحرفون الأعلام حين ينقلونها من الحروف اللاتينية إلى الهجاء العربى تحريفاً يغير معالم التاريخ والجغرافيا

كتب أحد كتاب مصر (ونمسك عن ذكر اسمه إجلالا لمقامه) ترجمة ناصر الدين شاه والوزير ميرزا تقى خان . وكان أخذه عن كتاب انجليزى فكتب «نصر الدين» و«طاغى خان» ، والذى يعرف العربية يدرك الفرق بين ناصر ونصر وتقى وطاغى . وللتحرز من مثل هذا اللبس عنى العلماء المدققون من قبل بتأليف كتب مثل «المؤتلف والمختلف» و «المشتبهات» و «المشترك» وغيرها . واجتهدوا فى ضبط الاعلام وتعيين لفظها ورسمها .

وهذا الخلط والمسخ ظاهران فى ترجمة دائرة المعارف الاسلامية التى تنشر فى مصر الآن فهى مليئة بأغلاط من هذا القبيل لا يتيسر تعدادها .

انما يريد الكاتب من هذه المقدمة أن يلفت أدباء العربية ومؤرخيها ومحققيها الذين يجتهدون فى كشف حقائق التمدن الاسلامى على سنن المحققين من الفرنج ، إلى هذه النكتة الدقيقة : وهى أن أمامهم مصدرين عظيمين لتكميل معارفهم فى كل ما يرجع الى التمدن الاسلامى - مصدرين لا يعنى بهما كثير من الباحثين على ما ضمنا من حقائق لا يظفر بها الباحث فى الكتب العربية المعروفة . هذان المصدران هما الكتب الفارسية وكتب الشيعة التى ألفت فى إيران بالعربية أو الفارسية

أرى كثيراً من فضلاء الشبان فى مصر والشام يكتبون رسائل أو كتباً عن حكماء الاسلام وعلمائه ومؤرخيه فلا يستطيعون بلوغ الغاية فى التحقيق بما جهلوا الفارسية فحرموا

الاستفادة من الكتب المعروفة فى إيران . كيف يستطيع كاتب أن يحقق تاريخ ابن سينا وفلسفته وهو يغض الطرف عن كتبه الفارسية : « دانشنامة علائى » و « رسالة نبضية » ومعراجنامه ، أو عن أشعاره الفارسية . وكيف يستطيع أن يوفى البحث عن أبى الريحان البيرونى وهو يغفل النسخة الفارسية من كتاب التفهيم فى صناعة التنجيم وما كتبه عنه مؤلفو الفارسية القدماء مثل أبى الفضل البيهقى فى تاريخ آل سبكتكين، ونظامى العروض للسمرقندى فى جهار مقاله وفيه حقائق لا تلفى فى كتب أخرى ؟ ومثل هذا يقال عن كثير من العلماء أمثال الامام فخر الدين الرازى ، والعلامة قطب الدين الشيرازى ، والامام عمر الخيامى ، وجار الله الزمخشرى ، ورشيد الدين الوطواط ، ونصير الدين الطوسى .

من ذا الذى يعنى بالتاريخ ومايحتاج إلى كتبه مثل تاريخ قمّ (وقد فقد أصله العربى ، ولم يبق إلا جزء من ترجمته الفارسية) ومحاسن اصفهان لسعد الدين البافروخى ، وكتاب الفهرس للطوسى ، ومعالم العلماء لابن شهراشوب ، والفهرست للقمى ، وكتاب الرجال للكشى ، وكتاب الرجال للنجاشى ، وكتاب الرجال الكبير للاسترابادى ، وروضات الجنات للخونسارى ، وكلها من أمهات كتب الشيعة ؟ أوكيف يغض الطرف عن كتب التاريخ الفارسية مثل جهانكت للجوينى ، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الوزير ، وتجزية الأمصار وتزجية الأعصار أعنى تاريخ الوصاف ، وزبدة التواريخ للحافظ ابرو ، ومطلع السعدين لعبد الرزاق السمرقندى ، وظفر نامه للنظام الشامى ، وشرف الدين على اليزدى ، وحبيب السير ، وروضة الصفا ، ومجمع الأنساب ، وتاريخ كراميره وكلها ثقة فى تاريخ المغول وعصر تيمور ؟

كل متأدب فى العالم العربى سمع اسم أطباق الذهب لشرف الدين عبد المؤمن الأصفهانى ، كتبه على نسق أطواق الذهب لأبى القاسم الزمخشرى ، وربما لا يوجد فى هذه البلاد من يعلم أن شرف الدين المذكور (ويعرف باسم شرف الدين ابن شفروه) واحد من أشهر شعراء الفارسية له ترجمة فى كل كتاب فارسى مترجم للشعراء . وكذلك كتاب الفخرى لصفى الدين محمد بن على بن الطقطقى طبقت شهرته الآفاق ، ولكن قليلا من فضلاء العربية من يعلم أن فى الفارسية نسخة من هذا الكتاب أكثر تفصيلا كتبها هندوشاه النخجوانى سنة ٧٢٤ ، ويؤخذ من هذه النسخة الفارسية أن اسم كتاب الفخرى الحقيق : « منية الفضلاء فى تواريخ الخلفاء والوزراء »

أرجو أن يعذرنى القراء الكرام فى تطويل هذه المقدمة التى يمكن أن يكتب فى موضوعها كتاب والتى يرى القارىء فيها وفيما بعدها أن الفرع قد زاد على الأصل . إن عذرى فى هذه الإطالة رجائى أن يكون فيها بعض الفائدة

* * *

ومن أمثلة ماذكرنا فى المقدمة أعنى الأمثلة التى تبين أن الكتب الفارسية تعين على إيضاح مسائل تاريخية ودقائق فى الأدب العربى أو تتضمن أحياناً فوائد لا تلفى فى الكتب العربية ، قصة القاضى منصور الهروى أحد الشعراء النابهين فى القرن الخامس الهجرى ومن ذوى الصيت الذائع فى البلاد الاسلامية الشرقية فى هذا العصر .

القاضى أبو أحمد منصور بن أبى منصور محمد الأزدى الدولى ، المعروف بالقاضى منصور أو منصور الفقيه (١) ، ولى قضاء هرات فى عهد الملوك الغزنويين ، وكان منصب القضاء وراثة فى أسرته . وكان القاضى مع هذا المقام الجليل ، يمضى أكثر أيامه فى مصاحبة أهل الطرب ومنادمة إخوان اللهو والتمتع بالعيش الرضىّ ، والوجه الجميل ، يرى طبعه الشاعر أن الحياة فى السرور والطرب ، وكأن لسان حاله بيتا شمس الدين محمد حافظ الشيرازى :

« صديقان أريبان ، ومنوان من الخمر المعتقة ، وفراغ ، وكتاب وزاوية فى المرح ، لاأبيع هذا المقام بالدنيا والآخرة وإن يكن الناس قد اتخذونى إماما)

والقاضى منصور من معاصرى أبى منصور الثعالبى مؤلف يتيمة الدهر وتلميذه أبى الحسن الباخرزى مؤلف دمية القصر ، وقد أثبت هذان المؤلفان له ترجمة مختصرة

---

(١) ينبغى التميز بين منصور الفقيه هذا أعنى القاضى منصور الدرى الازدى ومنصور الفقيه المصرى أعنى أبا الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر التميمى الضرير ويذكر غالبا فى الكتب القديمة باسم منصور الفقيه . وكان شاعرا أيضا توفى سنة ٣٠٦ .

ونبذة من شعره فى يتيمة الدهر (٤ — ٢٤٣) وتتمة اليتيمة (٢ : ٤٦ — ٥٣) وفى دمية القصر (فى ذيل شعراء خراسان)

وهذه نبذة مما كتبه الباخرزي :

وكان مغرى بالشراب ، مغرماً بالأطراب ، يمناه متوجة بكأس الرحيق ، ويسراه مقرطة بعروة الإبريق . وخمرياته مما يحكم له فيها بالفضل على الحكمى ، وغزلياته مما يحصل بها مطاوعة الغزال الآبى ،

وكذلك فى معجم الأدباء طرف من أخباره وقطع من أشعاره (٧ — ١٨٩ — ١٩١) ويقول ياقوت إن القاضى منصور كان من مادحى القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢) وأنه توفى سنة ٤٤٠ .

وفى تاريخ آل سبكتكين الذى ألفه بالفارسية أبو الفضل محمد بن الحسين البيهق (٣٨٥ — ٤٧٠) ، وهو من معاصرى القاضى وأصدقائه ، فصل ممتع فى ترجمته لا يلفى فى مصدر من المصادر المذكورة ، ولا فى غيره من المراجع المشهورة . ونحن نثبته هنا إفادة للقراء وإثباتا لدعوانا فى المقدمة (طبع طهران ص ٥٩٩ - ٦٠١) . يقول أبو الفضل البيهقى :

وكان بهرات رجل يقال له القاضى منصور له قدم فى كل علم وفضل قد سكن الى الشراب واللهو ، وأخذ حظه من الدنيا الغادرة وجعل شعاره : خذ العيش ، ودع الطيش . وكان ريحانة الأكابر لا يأنسون بمجلس لا يضمه . وكان صديقاً لأبى سهل الزوزنى[1] قد أحكمت مودتهما أواصر الأدب . وكانا يتلازمان ويعكفان على المدام . بكر القاضى منصور يوماً الى لهوه وشرابه ، وأرسل اليه أبو سهل أبياتا ، فأجاب بديهة على رويها ؛ وأعاد أبو سهل الكتابة فأجاب أبو منصور ولم يحضر ومضى اليوم .

وهذه هى الأبيات التى كتبها الشيخ أبو سهل الزوزنى :

أيهـا الصدر الذى دا نت لغرته الرقاب
انتدب ترضى الندامى هم على الدهر كتاب
وأسغ غصة شرب ليس يكفيها الشراب
واحضرن لطفا بناد فيـه للشوق التهاب
ودع العذر وزرنا أيهـا المحض اللباب
بينك المر عذاب وسـجاياك عذاب
انمـا أنت غنـاء وشراب وشـباب
جودك المرجو بحـر فضلك الوافى سحاب
انمـا الدنيـا ظلام ومعاليك شهـاب

فاجابه القاضى فى الوقت :

أيهـا الصدر السعيد المـاجد القرم اللبـاب
وجهك الوجه المضىء رأيك الرأى الصواب
عنـدك الدنيـا جميعا وإليهـا لى مآب
ولقـد أقعدنى السكـر وأعيانى الجواب
فى ذرى من قد حوى من كل شىء يستطاب
ولو اسطعت قسمت الجـسم قسمين لطاب
غـير أنى عاجز عنـه وقلبى ذو التهاب
فبسطت العذر عنى فى أساطير الكتاب

وكتب اليه أيضا أبو سهل :

أيها الصدر تأن ليس لى عنك ذهاب
كل ما عنـدك فخر كل ما دونك عاب
وجهك البـدر ولـكن بعد ما انجاب السحاب
قربك المحبوب روض صدك المكروه غاب
عـذرك المقبول عنـدى أبد الدهر يصاب
أنت إن أبت إلينا فكما آب الشباب
أو كما كان على المحـل من الغيث الضباب
بل كما ينتاش ميت حين واراه التراب

فكتب منصور بعد ما أدركه السكر :

نام رجلى مذ عبرت القنطره
فاقبلن إن شئت منى المعذره
ان هـذا الكأس شىء عجب
كل من أغرق فيـه أسكره

(باريس) **عباس اقبال**

(١) الشيخ العميد أبو سهل محمد بن الحسين الزوزني كان من كتاب السلطان شهاب الدولة مسعود بن محمود الغزنوى (٤٢٠ - ٤٣٦) ورئيس ديوان رسائله .

زهرة فى مستهل الربيع

للأستاذ محمود الخفيف

قد بعثتُ القديم من أحلامِى   إذ تبسّمتِ للربيع الجديد
يا ابنةَ الصبح قد ثكلتُ غرامى   وتأسيْتُ من زمان بعيد
ما لهذا الندَى يزيد أوامى   ويُثير الجوى بقلبى الشهيد!

فيم أحيَيْت بابتسامك وجدى   يا عروس الربيع رفقاً بقلبى
كيف أصبو إلى جمالك وحدى   أيُّ حُسن يخالج اليوم لبى؟
يتساوى القتاد والزهر عندى   وتناسىْ ماضى العيشَ حسبى

يوجعُ النفس أن ترى اليومَ حُسناً   كان بالأمس من بهيجٍ رواها
تنظرُ العين لا ترى فيك معنًى   من معانى الجمال إلا شجاها
أغنيات المنى تألفن لحناً   صارَ للنفس من صميم أساها!

صوّرَت لى كآبة العيش حولى   عند لقياكِ كلَّ معنى كئيب
ذائب الطل ليسَ عندِى بطلّ   هو سحُّ الجفون عند النحيب
وكأنّ الزمان مسكِ مثلى   بالضنى كفهُ وبالتعذيب

إنّ هذا النماء يوحى لنفسى   صوراً هُن من نسيج الفناء
سوف يُطوَى بهاؤه حين يمسى   يومكِ الضاحكُ المديد الضياء
كلما زاد قلّ رونقُ أمسى   بالموتِ رأيته فى النماء!

هكذا يا ابنة الربيع حياتى   غير أنى معذّبٌ بشعورى
حائر النفس بين ماضٍ وآت   غاب فى لجّةِ الزمان حبورى

سوف تطوى يد المنية عمرى   بعد أن يطوِ الزمان شبابى
للوَنى والنحولِ فى الدهر سيرى   لا ترى العينُ غـــيرَ لمع السراب
فسواء صبرتُ أم رثُ صبرى   وسواء مسرّتى واكتئابى

فيكِ رمز لكل ما هو فانٍ   عابر ان يقيم إلا قليلا
يا عروس الربيع كم من معان   فيكِ زادت غليل قلبى غليلا
يا لقلبى ما طارقات زمان   لم تذَر لى فى الكون معنىً جميلا

أنتِ كالعيش فتنة وغرور   وأمانىُّ كلها للنفاد
أنتِ كالحب نشوة وفتور   ورُؤى تَمّحى بلا ميعاد
لمع كلهن مَين وزور   الليالى لهنّ بالمرصاد

خيلت لى عيناى صورة أنس   برهة ثم خيلت لى ثبورا
ورأى القلب فيكِ موحش رَمْسٍ   يضحك الزهر فوقه منثورا
لَسواء زينت ساحة عرس   يا ابنة الصبح أم كسوت القبورا

موتكِ الباكر المحتم يوحى   لفؤادى الهموم من كل جنس
كم صبى كالزهر غض صبوح   كالرياحين عوده طيب غرس
ناعم كالملاك رقة روح   موته يوجعُ القلوب ويؤسى!

كم فتىً فى ضحوة العمر ولى   مثلما متِّ، نابهٍ عبقرىٍّ
ومحيا من ضاحك الزهر أحلى   قد محاه الفناء قبل الذوِىِّ!

كنت ألقاك فى الربيع فألقى   ألف معنى فى سحر ذاك الشباب
يمعن الحس عند مرآك عمقاً   فأرى الروح من وراء حجاب
وكأنى والقلب يسجد خفقاً   هيكل ليس ينتمى للتراب!

ينجلى فيكِ والزمان نضير   ومعانى الربيع تملأ نفسى
أمل ضاحك وعيش غرير   وطيوف تثير كامن حسى
كان لى منك فى الصباح بشير   وأنيس إن غاب طائر أنسى

يا ابنة الصبح كم رأى الصبح منى   نظرات المتيم المسحور
من بنات الهديل أقبس لحنى   حبذا السجع فى صفاء البكور
وسطور الرياض تبهر عينى   فأملى بوشيهن سطورى

كان هذا الزمان حلماً تقضى   أى حلم خياله لن يزولا
أى حسن يبقى على الأرض غضاً   آية الحسن أنه لن يطولا
كم قطعت الرياض طولا وعرضاً   فرأيت النماء ثم الذبولا

يا ابنة الصبح قد ذكرت زمانى   حين أومأت فى رواء بديع
كل شىء بعثت إلا الأمانى   أفلا كنت مثل هذا الربيع؟

الخفيف

البريد الأدبي

مظاهرة علمية خطيرة :

تفيض الصحف الانكليزية في التعليق على موقف الجامعات الانكليزية من الدعوة التي وجهت إليها من جامعة تبنجن Teubingen الألمانية للاشتراك في عيدها الذي سيقام في يونيه القادم احتفاء بانقضاء مائتي عام على تاسيسها ، فقد قررت الجامعات الانكليزية كلها أن تعتذر عن قبول الدعوة وأن تقاطع هذا الاحتفال ، ويقولون إن الجامعات الأمريكية قد تحذو حذو الجامعات الانكليزية في هذه المقاطعة . وقد كان لهذه المقاطعة العلمية وقع عميق في المانيا . وقد شرحت الصحف الانكليزية موقف الجامعات الانكليزية ، فقالت إنه لا يرجع إلى أية بواعث سياسية ، ولا يرجع بالأخص إلى أية خصومة نحو المانيا أو الشعب الألماني ، ولكنه يرجع إلى بواعث علمية محضة ، ذلك أن المانيا الهتلرية قد أخضعت العلم للسياسة وبالغت في اضطهاد الفكر ، وجعلت من الجامعات الألمانية أدوات للدعاية السياسية والجنسية ، وسحقت بذلك هيبة العلم وثلت تراث الجامعات الألمانية ، وقد كانت في مقدمة جامعات العالم صيتاً وهيبة ؛ ولم تبق الجامعات الألمانية كما كانت قبل قيام الحكم الهتلري منابر لأعلان الحقائق العلمية ، بل غدت منابر لبث النظريات العنصرية والسياسية والجرمانية الجديدة وتسخير الحقائق العلمية لخدمة مزاعم سادة المانيا الجدد ومبادئهم المفرقة . وقد علقت مجلة « سبكتاتور » الانكليزية على هذا الحادث بمقال رنان استعرضت فيه حالة التفكير الألماني الحاضر وما انتهى اليه في ظل الطغيان الهتلري من الانحلال ، وأشارت بهذه المناسبة إلى ما صرح به وزير المعارف الالمانية في العام الماضي في الاحتفال بعيد جامعة هيدلبرج ، من « ان العلم الألماني الجديد يرفض المبدأ القائل بأن شرف العلم وغايته ينحصران في البحث عن الحقيقة دائماً » ؛ وأشارت إلى ما وقع في العهد الحاضر من تخريب الجامعات وتشريد الأساتذة بسبب كونهم من اليهود ، أو لأنهم من خصوم النظام الحاضر حتى بلغ ما طرد منهم في الأعوام الثلاثة الأخيرة أكثر من ألف وسبعمائة أستاذ بينهم فطاحل العلم الألماني في كل فن وضرب .

وهذه أول مظاهرة دولية علمية خطيرة ضد المانيا الهتلرية وسيكون لها بلا ريب مغزاها العميق في الحكم على المبادىء والمزاعم المفرقة التي تتخذها المانيا النازية شعاراً لها وخصوصاً في المسائل العلمية التي تعتبر بالاجماع مسائل إنسانية تهم العالم بأسره ، ولا يمكن أن تدعى فيها أية أمة أو دولة شيئاً من الاختصاص ، ولا يمكن أن تسيرها سوى المباحث والحقائق المجردة عن كل اعتبار قومي أو جنسي او سياسي .

كتاب عن الواحات المصرية النائية

أصدرت الجمعية الجغرافية الملكية المصرية أخيرا مؤلفاً جديدا بالفرنسية عنوانه « الاكتشافات الأخيرة في صحراء لوبية » Récentes Explorations dans le Désért Libyque بقلم الكونت الماسي الرحالة المعروف ؛ وفيه يقص المؤلف محاولاته لاستكشاف واحة « زرزورة » ، وهو اسم كان يجرى على الالسن مجرى الأسطورة ؛ وكان أول أوربي ذكره هو الرحالة الانكليزي ولكنسون في كتابه الذي صدر سنة ١٨٣٥ ، وهو يصف الاسم بانه علم على واحة تقع بعيدا فيما وراء الواحات المصرية الغربية ؛ وأسفرت الاكتشافات الصخرية في الأعوام الأخيرة عن اكتشاف صحراء « العوينات » ، التي لم تكن معروفة في الناحية المصرية من الصحراء ؛ وكان عرب الواحات المصرية يعتقدون انه ليس بعد واحاتهم أي واحة أو بقعة خضراء أخرى تجاه الغرب . ثم اكتشفت واحة الكفرة بواسطة عرب من قبيلة الزاوية التي نزحت من برقة

استطاعوا الاتصال ببعض سكان صحراء تيبو المجاورة . وفى سنة ١٩٢٣ قام البرنس كمال الدين برحلته الأولى الى العوينات، وتبعه بعد ذلك السير جلبرت كلايتون واكتشف كلاهما بعض الأودية الجديدة . وفى سنة ١٩٣٣ قام الكونت الماسى برحلة أخرى الى واحة العوينات ، واتصل فى واحة الكفرة ببعض زنوج تيبو ، واكتشف بواسطتهم بعض وديان أخرى . ويستعرض المؤلف هذه الرحلات الصحراوية الشائقة ، ويورد بعض النصوص والمقارنات التاريخية القديمة من أقوال هيرودوتوس وغيره ، ويورد صورا لبعض النقوش العتيقة التى عثر عليها فى بعض صخور الصحراء

الفن المصرى القديم

صدرت أخيراً طبعة انكليزية لكتاب الفن المصرى القديم تأليف الدكتور هيرمان رانكه العلامة الأثرى . وأهمية هذه الطبعة فى أنها تسهل على القارىء اقتناء هذا السفر وقد كان من قبل بطبعته الألمانية التى أصدرتها شركة فيدون النمسوية الشهيرة محجوبا عن القارىء لارتفاع ثمنه إلى بضعة جنيهات للنسخة الواحدة ، إذ تعتبر الطبعة الألمانية من حيث الصور الفنية والتلوين تحفة فنية لا يستطيع اقتناءها سوى الهواة ودور الكتب . أما الطبعة الانكليزية فمع أنها قد احتوت جميع اللوحات والصور الفنية فان ثمنها لا يتجاوز ثمانية شلنات

ويحتوى الكتاب على تاريخ للفن المصرى القديم بقلم الدكتور رانكه وعلى موجز لتاريخ مصر الفرعونية ، وبه ٣٤٠ لوحة وصورة فنية ، منها صورة بديعة لرأس الملكة نفرتيتى تبين بوضوح سحابة عينها اليسرى وهو عيب لا يبدو فى الصور الجانبية ، وصور عديدة لأبدع التماثيل والرسوم الفرعونية الشهيرة ؛ وفى الاستعراض النقدى الذى يقدمه الدكتور رانكه عن الفن المصرى القديم مقارنات وملاحظات قيمة جداً من الوجهة العلمية والفنية

كتاب للمرشال دى بونو عن الحرب الحبشية

شغلت الأوساط السياسية والأدبية فى أوروبا هذه الأيام بالكتاب الخطير الذى وضعه المارشال دى بونو أول قائد عام فى الحملة الايطالية على الحبشة عن هذه الحرب وأسماه (العام الثالث عشر، الاستيلاء على إمبراطورية) وسر الضجة العظيمة التى أثارها هذا الكتاب هو ما حواه من أسرار واعترافات عن تأهب ايطاليا للحملة قبل ظهور الذرائع التى تذرعت بها لارسال جيوشها والاصطدام بالاحباش، ثم ما جاء فيه عن الأساليب التى اتبعها للتمهيد للفوز فى الحرب . فقد اعترف بأنه وضع مع السنيور موسولينى خطة الحرب من سنة ١٩٣٣ وجعلاها سراً بينهما لكيلا يطلع عليها الجمهور فيقاوم الفكرة ؛ ثم بين ما دفعته ايطاليا من الرشى لاشتراء بعض الأحباش والجواسيس الذين بثهم فى أرجاء الامبراطورية فصار يعرف كل كبيرة وصغيرة فيها . وأشار الى أن ايطاليا أنفقت فى هذا الباب بسخاء عظيم وقد أفادتها الدعاية فحرمت الامبراطور من حوالى ٢٠٠,٠٠٠ محارب

ويسهب دى بونو فى وصف الاستعدادات العظيمة التى قامت بها ايطاليا قبل الحملة سرا وكيف زادت قواتها فى الاريترية وأنشأت المطارات وأرسلت الطيارات للاستكشاف على الاراضى الحبشية وأخذ الصور .

والظاهر ان ايطاليا كانت متوقعة أن تعلنها بريطانيا بالحرب فقد أشار الى أن موسولينى أرسل اليه قبيل الحملة يأمره أن يوقف الحرب الحبشية اذا أعلنت بريطانيا الحرب والتزام الدفاع عن الاريترية .

والكتاب مصدر بمقدمة من السنيور موسولينى نفسه

المبرد (١)

من مزايا ابن خلكان فى كتابه ضبط الاسماء وقد قال : « والمبرد بضم الميم وفتح الباء الموحدة والراء المشددة وبعدها دال مهملة وهو لقب عرف به . واختلف العلماء فى سبب تلقيبه بذلك » ثم ذكر قصة (المزملة) التى أوردها ابن الجوزى فى (كتاب الالقاب) وان صحت رواية فى (إرشاد الأريب) وهى « لما صنف المازنى كتاب الالف واللام سأل (المبرد) عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازنى : قم فأنت المبرد (بكسر الراء) أى المثبت للحق فحرفه الكوفيون

(١) راجع الجزء الماضي الصفحة ٦٦٨ الحاشية

وفتحوا الراء . - فان صح ذلك فقد غلب عليه اللقب المحرف على ان ابن خلكان يقول ان الذى لقبه بالمبرد (بفتح الراء) هو شيخه أبو عثمان المازني . ومما يثبت قول (وفيات الاعيان) هذه الطرفة : « لقى برد الخيار المغنى أبا العباس المبرد فى يوم ثلج بالجسر فقال له : أنت المبرد وأنا برد الخيار واليوم كما ترى ، اعبر بنا لا يهلك الناس من الفالج بسببنا » .

أحمد الفراء

تركية تحيى ذكرى الفيلسوف العظيم ابن سينا

نشطت اللجنة التى تألفت أخيراً برعاية جمعية التاريخ التركى وبرآسة نائب سيواس فى المجلس الوطنى الكبير شمس الدين وعضوية كبار العلماء المشتغلين فى جمعية التاريخ التركى فى اتخاذ التدابير اللازمة للاحتفال بذكرى وفاة الحكيم الفيلسوف ابن سينا ، وذلك فى يوم ٢٠ يونيه القادم إذ يصادف ذلك اليوم بلوغ وفاة الفيلسوف الأشهر العام التسعمائة . وستقام هذه الحفلة الكبرى فى ابهاء الجامعة التركية بعد انجاز جميع المعدات

وتشير جريدة قورون التركية إلى هذا الاحتفال الممتاز قائلة :

« إن الفيلسوف ابن سينا الذى طبقت شهرته الشرق والغرب ، كان أبوه من بخارى ، وأمه من بلخ ، فهو ولا ريب كان تركياً ؛ بيد أنه لما كانت اللغة العربية على عهده هى لغة الثقافة فى العالم الاسلامى قاطبة فقد كتب ابن سينا جميع تآليفه بالعربية باستثناء مؤلفين وضعهما باللغة الفارسية .

أما تآليف ابن سينا فتنقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة : الطب والفلسفة والاخلاق ، ويؤلف كل من هذه الاقسام الثلاثة مجلدات ضخمة ، وكتابه الموضوع فى الطب باسم (القانون) قد ترجم إلى اللغة التركية ترجمه عالم تركى يدعى توقاتلى مصطفى ؛ وهذه الترجمة موجودة اليوم فى مكتبة بايزيد وهى مكتوبة بالخط وفى مجلدات يبلغ عددها العشرين مجلداً

وإننا لمغتبطون جداً لانصراف الهمة إلى طبع كتاب ابن سينا (القانون) طبعا جديدا لمناسبة الاحتفال بذكراه . وستنشر لجنة الحفلة مؤلفا تضمنه شخصية ابن سينا العلمية والفلسفية تشرف على تأليفه طائفة من كبار العلماء المتضلعين فى الطب والفلسفة والاخلاق . وستعرض فى الحفلة تآليف ابن سينا المطبوعة والمخطوطة » .

إلى المشتركين بالتقسيط

لقد اشترطنا حين فتحنا الاشتراك المخفض المقسط للطلاب ولرجال التعليم الإلزامى أن تكون الأقساط متتابعة ، والاخلال بهذا الشرط يستوجب طبعا إلغاء الاشتراك . فكل من لم يدفع القسط الرابع إلى اليوم أو الثالث من باب أولى ستنقطع عنه الرسالة والرواية ابتداء من هذا العدد .

النقد

اسماعيل المفترى عليه

تاليف القاضى بيير كربتيس
وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

— ٢ —

ذكرنا فى العدد السابق المبادىء الأساسية التى يجب أن يتقيد بها كل مترجم والتى يحكم بمقتضاها على ترجمته . واليوم ننتقل إلى الترجمة نفسها؛ ونحب قبل هذا أن نذكر للأستاذ حسنة من حسناته وهى إصلاحه خطأ مطبعياً وقع فى الكتاب . ذلك أن اسم محمود باشا وزير البحرية قد حرف مرة فكتب « محمد باشا » فتدارك الأستاذ هذه الغلطة وذكر اسمه الصحيح

كذلك أصلح الأستاذ غلطة مطبعية أخرى وهى قول المؤلف عند الكلام على امتياز القناة إنه لا يحق لأحد من حملة الأسهم أن يكون له أكثر من صوت واحد فأصلح المترجم ذلك إلى عشرة أصوات كما ورد فى الأصل الانجليزى بعد سطور قلائل

وإذا رجعنا بعد ذلك إلى الكتاب المترجم لم نجد الأستاذ صروف قد وفى بالشرط الأول؛ ولسنا نريد أن نقول إن الأستاذ غير ملم بتاريخ اسماعيل وكل مايتعلق به . كلا إنا نعتقد أنه ليس فى الكتاب المصريين ولا سيما رجال الصحافة من لايعرف تاريخ اسماعيل ، ولكن الأستاذ لسبب مالم يكلف نفسه عناء البحث عن صحة الأسماء وبخاصة الأسماء التركية فحرف بعضها تحريفاً يضل القارىء ويربكه ؛ وبدل أن يرجع إلى المصادر المطولة ليحقق هذه الأسماء وضع بدلها أسماء من عنده كثير منها لايتسمى به الأتراك . وقد تكون هذه الأسماء لأشخاص نكرات ولكن هذا لايعفى المترجم من البحث عنها وضبطها ؛ والأتراك فى مصر كثيرون ومن السهل على الأستاذ أن يعرف حقيقة الأسماء منهم إذا لم يشأ أن يرجع إلى الوثائق التى وردت فيها أو إلى كتب التاريخ نفسها ؛ وبعض هذه الأسماء لرجال شغلوا أكبر مناصب الدولة ولم يكن يليق والحالة هذه أن تحرف . وإلى القارىء مثل واحد من هذا النوع يدل على الفرق بين الأسماء الأصلية والأسماء التى أوردها الأستاذ . ذكر المؤلف اسم أحد الأتراك الفارين من الاضطهاد وكتبه هكذا Suavir Eff ، وبدل أن يحقق الأستاذ هذا الاسم ليعرف أن صاحبه هو علي سعاوى أفندى ، كتبه موافى أفندى مع أن الحروف الانجليزية أقرب ماتكون إلى الاسم التركى ، وأمثلة هذا كثيرة . كذلك لم يتقيد الأستاذ بالمصطلحات العلمية الدقيقة الصحيحة واخترع بدلها ألفاظاً من عنده لا يقبلها الذوق فسمى الدين السائر بالدين العائم وذكر هذا اللفظ الأخير فى مواضع متعددة مع أنه قد استعمل اللفظ الصحيح الأول مرة فى الترجمة ولا ندرى لم عدل عنه واستبدل به اللفظ الآخر . وسنذكر هذا كله مفصلا فيما بعد

ننتقل بعد ذلك للأمانة والدقة فى الترجمة ومطابقة الكتاب المترجم للأصل فنقول إن الأستاذ لم يكن موفقا فى هذه الناحية أيضاً فلم يحرص على معانى المؤلف بل تناولها بالحذف والتغيير بغير سبب ؛ فالعبارات التى تحتاج إلى شيء من العناية لفهمها أو التعبير عنها قد حذفها أو بدلها ، وكثيرا ماوضع بدلها عبارات تؤدى عكس المعنى المراد ، بل إن كثيراً من العبارات السهلة العادية قد نالها أيضاً مانال اخواتها الصعبة . وسيرى القارىء فيما بعد أمثلة من ذلك .

أما أسلوب الكتاب فيختلف باختلاف أجزائه ، فالجمل فى بعض أجزائه مرتبطة متصلة وفى البعض الآخر مفككة منقطعة العلاقة ، وحروف العطف التى استعملها لربط هذه الجمل لاتظهر هذه الصلة ؛ ويشعر القارىء وهو يطالع الفصول الأخيرة من الكتاب بنوع خاص أنه يقرأ جملا مترجمة منفصلة لاموضوعا تاريخياً مرتبط الأجزاء .

وأما التشبيهات والأمثال الواردة فى الكتاب فقد ترجم الأستاذ الكثير منها ترجمة لفظية سببت غموض المعنى مع أن اللغة العربية كما قلنا غنية من هذه الناحية ، ويستطيع الباحث أن يجد فيها مايغنيه عن هذه الترجمة فى معظم الأحيان . وبعضها قد حذفه الأستاذ ولم يترجم لفظه أو معناه

هذه كلمة مجملة عن الترجمة ننتقل بعدها إلى بيان الأغلاط التى وقعت فيها . وكنا نحب أن نقسمها أنواعا ونذكر كل نوع على حدة ، ولكننا وجدنا فى ذلك عناء . ووجدنا وقتنا أضيق من أن يتسع إلى هذا الترتيب ، ولذلك سنذكر أغلاط كل فصل مجتمعة . وقد أحصينا أغلاط الفصول الأولى من الكتاب فوجدناها لاتقل عن خمسين فى كل فصل لاتدخل فيها عيوب الأسلوب وسنكتفى بذكر أمثلة منها :

(١) قال الاستاذ صروف مشيرا إلى الفرمان الذى انتزعه محمد على من السلطان أنه « يقضى باحترام شعائر الاسلام » بنصه على أن وراثة العرش تكون لأكبر أفراد الاسرة . وليس هذا من شعائر الاسلام فى شىء ولم يقل المؤلف ذلك بل قال إنه يقضى باحترام التقاليد الاسلامية Traditions وفرق بين التقاليد والشعائر

(٢) وترجم الاستاذ Intellectical monenity بالجهل ومعناها الحقيقى الغباوة أو عدم الفطنة

(٣) وترجم European progress بقوله أنه كان يكره « كل ماهو غربى » ، وهذا تعميم لم يقله المؤلف بل قال انه يكره الحضارة الغربية

(٤) وترجم عبارة Ghastly farce برواية هزلية وإذا صح ترجمة farce برواية هزلية فأين ترجمة Ghastly وهى تؤدى معنى جديدا هو الذى ينطبق على هذه المهزلة ، وهل غاب عن الاستاذ لفظ مروعة أو رهيبة أو نحوهما

(٥) He reached Cairo with his mute Companion without exciting suspicion.

اقتصر الأستاذ فى ترجمة هذه العبارة كلها على قوله « ووصلا إلى القاهرة من دون أن يدرى أحد بالحقيقة » وإذا فرضنا أن عبارة من دون أن يدرى أحد بالحقيقة تؤدى معنى without exciting suspicion وهو ما لا نسلم به فأين ترجمة with his mute companion أى مع رفيقه الصامت يريد جثة الوالى .

(٦) Aided by the habitual Shrinking from observation which characterised his master.

ترجم الأستاذ هذه العبارة بقوله : إن عباسا « اعتاد أن يسير فى طريقه لا يلتفت يمنة ولا يسرة » ، ولا ندرى كيف يستطيع الوالى أن يسير فى الطريق دون أن يلتفت يمنة ولا يسرة . وهل هو جندى فى ميدان التمرين ؟ وليس فى العبارة الانجليزية من الغموض ما يعذر الأستاذ معه على هذا الخطأ فى ترجمتها بل هى سهلة لالبس فيها ولا غموض ومعناها « وساعده على ذلك ماعرف عن سيده من كرهه رؤية الناس إياه »

(٧) He caused his guns to be pointed on the city, strongly reinforced the garrison and declared the truth.

ترجم الأستاذ العبارة السابقة بقوله « أمر بتصويب مدافعها إلى مدينة القاهرة وكانت تحرسها حامية قوية » ، والمؤلف لم يقل إن حامية القلعة كانت قوية بل قال إنه « عزز حامية القلعة »

(٨) The prince to whom this cold blooded stage-manager sought to transfer his master's throne was Abbas Pasha's eldest son.

ترجم الأستاذ هذا المعنى كله بقوله « وكان الأمير إلهامى هذا ابن عباس باشا الأكبر » ، ولا ندرى لم أغفل الأستاذ كل مافى العبارة الانجليزية من معان لم يذكرها كاتبها عبثاً وهل صعوبة ترجمتها تبرر هذا الاغفال ؟

(٩) Had not diplomatic pressure put the fear of God into the breast of the intriguing governor.

قال الأستاذ فى ترجمة ذلك « لولا الضغط السياسى الذى أعاد محافظ القاهرة إلى صوابه وأوقع الفشل فى فؤاده » ، فهل هذا هو المعنى ؟ أو أن معنى عبارة المؤلف « لولا قوة دبلوماسية (أو سياسية إذا شاء) أشعرت المحافظ الدساس خشية الله » .

(١٠) He gave orders that the youth should climb the mast..., them jump the rope, row for a while.

ترجمت هذه العبارة هكذا : وأمر أن يتسلق صارى أحد المراكب . . . ثم يقفز من الصارى إلى الماء . ويسبح زمنا !

فهل معنى Jump the rope يقفز من الصارى إلى الماء ؟ وهل معنى row يسبح فى الماء ؟

(١٣) To safeguard the child's morals... He should visit no other house than that of Mathieu.

ترجمت هذه العبارة هكذا « ومنعه من زيارة أى منزل من منازل العامة » ، فأضاف العامة من عنده وجعل القارىء يفهم انه كان يسمح له بزيارة منازل الخاصة . ثم أين سبب هذا المنع وهو حرص محمد على على أخلاق سعيد ؟

(١١) When the two young men were revelling in the joys of the Latin quarter de Lesseps did not suspect etc ... His attention was not yet riveted upon the Isthmus of Suez.

لم يترجم الأستاذ أول هذه الجملة وآخرها واكتفى بترجمة وسطها وكلاهما يؤدى معنى ؛ فالجزء الأول يشير إلى أن دلسبس وسعيد كانا يمرحان فى مسرات الحى اللاتينى بباريس ، والثانى يدل على أن برزخ السويس لم يكن قد استرعى نظره .

(١٢) De Lesseps was marking time and temporarily unassigned.

قال الأستاذ فى ترجمة ذلك « ولبث دلسبس يترقب الفرص » ولكن أين قول المؤلف إنه لم يكن يتولى منصباً أو يقوم بعمل

معين . وهل صعوبة هذه العبارة تبرر حذفها ؟

(١٣) And by placing France in control of that strategic waterway make bis country mistress of the seas.

كل ما ترجم به الأستاذ هذه العبارة هو قوله « لكى تصبح فرنسا سيدة البحار » وترك الجزء المهم وهو قول المؤلف « بسيطرتها على هذا الطريق المائى ذى المركز الحربى الخطير

(١٤) It had but one immediate objective, simple and well-defined but not too obvious.

اقتصر فى ترجمة العبارة السابقة على قوله « كانت غايته المباشرة أن . . » وترك الصفات التى وصف بها المؤلف هذه الغاية ؟

(١٥) All at once a rainbow of surprising beauty charmed my vision runming from East to West.

قال الأستاذ صروف فى ترجمة هذه العبارة وخيل إلى وأنا أنظر إلى السماء أننى أرى قوس قزح ذات جمال باهر .

فهل خيل إليه أنه رأى قوس قزح أو أنه رأى قوس قزح حقا ؟ وأين هذه العبارة العربية من عبارة المؤلف المنقولة عن دلسبس نفسه والتى يقول فيها « ثم ظهرت على حين غفلة ندأة فى السماء امتدت من الشرق إلى الغرب وكانت ذات جمال خلاب افتتن به ناظرى » وكل ما وصف به دلسبس هذه الحادثة فى حاجة إلى أسلوب غير الأسلوب الذى ترجمه به الأستاذ صروف .

(١٦) وصف المؤلف موقف محمد على من قناة السويس والتجارة الأوربية الهندية بقوله :

He did not adopt a dog-in-the-manger attitude.

أى أنه لم يكن من أولئك الذين لا يفعلون الخير ويمنعون غيرهم من فعله وقد ترك الأستاذ العبارة من غير أن يحاول ترجمتها

(١٧) My studies and reflections about the canal passed repidly through my mind.

قال الأستاذ صروف فى ترجمة هذه الجملة « ومرت بمخيلتى صورة ترعة السويس بسرعة البرق » ومعنى العبارة بالضبط « وأخذت أفكارى وأبحاثى عن قناة السويس تمر بخاطرى سراعا »

(١٨) Professor charles W. Halberg of Syracuse University

عرب الأستاذ Syracuse بسرقسطة فنقلها بذلك مكان Saragossa

(١٩) Halberg agrees with the judge who resigned and the deposed sovereign.

« قال فى ترجمتها وذهب الأستاذ هلبرج مذهبا يتفق وماذهب إليه القاضى الهولندى الذى تقدمت الاشارة إليه » فأين هذا من عبارة المؤلف التى يقول فيها « إنه يتفق فى الرأى مع القاضى المستقيل والأمير المخلوع » ويقصد بالأمير المخلوع سمو الخديو السابق

(٢٠) He had a hobby and he was enamoured of it.

تركها الأستاذ من غير ترجمة

(٢١) L'homme le plus desinterrsé du monde.

ترجمت هذه العبارة هكذا « إنه كان أزهد الناس فى العالم »(١) فهل هذا هو معنى العبارة الفرنسية . أترك الجواب عن ذلك إلى الأستاذ الكبير صاحب الرسالة .

(٢٢) He had everything to gain and nothing to lose

لم يحاول الأستاذ صروف ترجمة هذه العبارة على سهولتها ووضوح معناها الذى لم تسبق الاشارة إليه فى الكتاب

(٢٣) Moh. Said is to be judged by other standards.

ترجم الأستاذ هذه العبارة بقوله « فالحكم عليه يجب أن يكون مع مراعاة هذا الاعتبار » والمؤلف يقول إن الحكم عليه يحتاج إلى موازين أخرى (غير الموازين التى توزن بها أعمال دلسبس) فأيهما أوضح ؟

(٢٤) But when hours become days, days weeks, and weeks months,his stranglehold usually weekens.

لم نعثر فى الكتاب على ترجمة هذه العبارة فهل هى خالية من المعنى أو أن معناها لا يستحق الترجمة ؟

(٢٥) « وأن رئيس دولة يمنح أحد رعاياه امتيازاً » زاد الأستاذ من عنده على عبارة المؤلف قوله « أحد رعاياه » وهى زيادة لا مبرر لها افسدت المعنى ولا ندرى ما الذى دعا الأستاذ إليها وهو الذى حذف من عبارات المؤلف ما حذف

(٢٦) And drew his moral portrait in the act.

هل معنى هذه العبارة « هو » ويسىء إلى ذكراه بنفسه » كما قال الأستاذ صروف أو أن معناها « هو » ويكشف عن خبيئة أخلاقه » قد يقول الأستاذ صروف إن هذه العبارة هى وما قبلها « يقضى على طيب أحدوثته » ترجمة لقول المؤلف Wrote his own epitaph

وفى هذه الحال يكون قد ترك العبارة الثانية من غير ترجمة

(٢٧) That day which began with a rainbow and ended with a target practice.

لم يزد الأستاذ فى ترجمة هذه العبارة على قوله « اليوم الذى سبقت الاشارة إليه » فهل هذه العبارة الغامضة تؤدى معنى عبارة المؤلف

(٢٨) It might have been proclaimed from the house tos and probably was.

لم ير الأستاذ أن هذا المعنى يستحق الترجمة فتركه

هذه طائفة من أغلاط الفصل الأول من كتاب اسماعيل ذكرناها على سبيل المثل نضعها امام القراء حتى لا يخفى عليهم ما كتبه المؤلف نفسه ؛ ونقول بعد ذلك إنصافا للأستاذ صروف أن أسلوب هذا الفصل ليس فيه من التعقيد ما فى الفصول الأخيرة

وسنذكر فى العدد التالى أغلاط الفصل الثانى إن شاء الله

الغنيمى

(١) لعل الصواب أنزه لا أزهد (الرسالة)

الكتب

(١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢) من حديث الشرق والغرب

تأليف الدكتور محمد عوض محمد

للأستاذ محمود الخفيف

هما كتابان، أشعر بكثير من الغبطة إذ أقدمهما للقراء على صفحات الرسالة، ذلك لأنى أرى فى كليهما مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية الحديثة فى مصر، جديراً بالاعتبار والعناية.

أما أولهما فأثر جديد من آثار الأستاذ عنان، والأستاذ عنان كما أعتقد، قد أصبح بآثاره وبحوثه ناحية مستقلة فى نهضة التأليف المعاصرة، ذلك أن آثاره تمتاز جميعاً بما تمتاز به الآثار العلمية القيمة، من دقة البحث، مع استقامة النهج ووضوح الغاية، وقوة الأسلوب؛ هذا إلى أصالة وسلامة منطق وبسطة فى العلم، تظهر كلها واضحة فى تمحيص الروايات المختلفة فيما يعرض الأستاذ من حوادث وفيما يسرد من وجوه الرأى.

عرفنا له تلك الخلال فيما سلف من آثاره، وإنا لنراها اليوم على خير ما يرجى من كتابه هذا، فهو يدور حول موضوع كان ولا زال مثار الجدل الشديد ومبعث التناقض والاضطراب؛ ومن ثم فهو موضوع تظهر فيه مدى قوة المؤلف ونشاط ذهنه، وحسبك الحاكم بأمر الله وحوادث عصره، وما اكتنف شخصه من غموض وخفاء.

على أن الكتاب لا يدور كله على الحاكم، بل إن نصيب الحاكم منه لا يزيد على نصفه بكثير. ولقد أحسن الأستاذ صنعا، إذ جعل بقية الكتاب لدراسة أسرار الدعوة الفاطمية وخواص العصر الفاطمى، هذا إلى ما أورده الاستاذ فى نهاية كتابه من الوثائق والسجلات الفاطمية.

مهد الأستاذ عنان لبحثه بمقدمة موجزة متينة عن حال مصر قبيل الفتح الفاطمى، ثم بكلمة عن نشأة تلك الدولة فى مهدها، وذكر بعد ذلك فتح مصر وأورد طرفاً من سيرتى المعز والعزيز، كل ذلك فى إحكام المؤرخ المتمكن الذى يستطيع على رغم الايجاز أن يمهد السبيل لموضوعه خير تمهيد.

تناول الأستاذ بعد ذلك سيرة الحاكم، وشرح فى جزالة ووضوح خلاله وصفاته وما لجأ اليه من سفك الدماء، وما أقام من مراسيم اجتماعية ودينية، وما اكتنف الدولة من الاحداث الخارجية، ثم ما كان من أمر اختفائه، ويعجبك منه فى هذا القسم من كتابه مهارة مناقشته الروايات المختلفة ودقة التعليق عليها، تتبين ذلك فى مثل شرحه لنسب الحاكم وأخته ست الملك، ثم فيما أورد من روايات عن صفاته ومزاجه وأخيرا فى حادث اختفائه.

على أن أهم الأشياء عندى فى الكتاب وأولاها بالدرس والاعتبار، هو رأى الأستاذ المؤلف فى الحاكم وصفاته، وهو رأى لم يسبقه إليه غيره فيما أعرف، فالاستاذ لا يرى فى الحاكم ما اعتاد المؤرخون أن يروا فيه من رجل معتوه أخرق، يبطش لمجرد البطش، ويصدر من الأحكام الغريبة ما يدل على شذوذ وحمق. بل إنه على العكس يراه مصلحاً من كبار المصلحين، كانت أعماله التى اعتاد الناس استنكارها وسائله إلى ما يتوخى من إصلاح لا أكثر من ذلك ولا أقل: نعم كان الحاكم عنده، ذهناً بعيد الغور، وافر الابتكار، وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل، وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ فى التاريخ مكانها الحق،

والاستاذ لا يرسل القول جزافاً، وكيف يقع لمن كانت له مثل متانة حجته وحصافة رأيه أن يجازف برأى؟ وإنما راح الاستاذ يدافع عن رأيه هذا دفاعا قوياً يبهرك ويستميلك. أليس القتل والطغيان هما من أقوى وسائل الديكتاتوريات الحديثة فى إقامة نظمها؟ ثم أليست سياسة الحاكم هى السياسة الميكيافيلية التى قد يلجأ اليها كثير من الحكومات فى شتى

الظروف ؟ أليس الحد من حرية النساء مما تلجأ اليه اليوم المانيا النازية وايطاليا الفاشستية من وسائل محاربة الخلاعة والفجور اللذين يؤديان الى انحلال المجتمع؟ إلى غير ذلك من حجج الاستاذ وآرائه النيرة الظريفة التى تشوقك وتلذك . والاستاذ لا يبرر بها مسلك الحاكم كما استدرك ، ولكنه يدفع بها ما اتهم به .

بيد أنى وإن أعجبتنى تلك الآراء واستمالتنى فى كثير من المواقف ، قد أحسست شيئاً من الصعوبة فى أن أحمل نفسى على الأخذ ببعضها . نعم رأيت مشقة فى أن أنفى الشذوذ بل الجنون عن شخص يحرم الجرجير لأنه ينسب إلى السيدة عائشة ، والملوخية من أجل معاوية ، والمتوكلية من أجل الخليفة المتوكل العباسى ؟ وكيف أسيغ تشجيعه الدعوة الإلحادية ؟ وعلى أى أساس من العقل أحمل قتله قائده الفضل بعد أن هزم أبا ركوة الذى احتل مصر ؟ بل كيف يجوز فى عقل خروجه ليلا إلى الجبل على ظهر حماره فى غير قوة تحميه على الرغم مما كان يضطرم به المجتمع يومئذ من الرغبة فى الانتقاض عليه والتخلص من طغيانه .

على أن الأستاذ يصرح فى نزاهة المؤرخ وإنصافه ، أنه ليس يدعى أنه يستطيع أن يعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ينفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعا ، فهناك كثير منها مما لا يستطاع فهمه وتعليله ،

وقصاراى فى هذا المجال الضيق أن أعلن إعجابى بهذا الكتاب ، وأن أنوه بما أفدته من دراسة أسرار الدعوة الفاطمية ونواحى العصر الفاطمى ، ذلك العصر الفذ الذى تجد من آثاره الأزهر المعمور - دراسة لم أظفر بمثلها فيما كتب حديثا عن الدولة الفاطمية . وكم كان عظيما من الأستاذ عنان ذلك الجهد المرير الذى تستبينه فيما يشير إليه من مراجع مكتوبة وخطية ليس ثمة من يستوعبها إلا من كان له مثل جلده ودأبه واخلاصه . ولا عجب أن جاء كتابه مظهراً من مظاهر الجد والقوة فى نهضتنا الأدبية ، وهو مطبوع طبعاً جميلا فى دار النشر الحديث ويقع فى مائتين وست وسبعين صفحة من القطع الكبير ، بآخره ثبت حافل للمصادر ، وفهرس أبجدى عام

— ٢ —

يأتى بعد ذلك الكتاب الثانى « من حديث الشرق والغرب » للدكتور عوض ، وأحب أن أتخطى الكتاب إلى صاحبه برهة فأعرض عليك طرفاً من خلاله ، لا أرى مندوحة عن عرضه فى مثل ذلك المقام . الدكتور المؤلف بما له من مكانة فى حياتنا الأدبية غنى عن التعريف ، ولكنى أذكر لمن لم يعرفه إلا فى آثاره أن من أبرز صفاته الذكاء الحاد وعذوبة الروح ومحبة الأدب حباً صادقاً ، حتى لو أنه حاول بكل ما فى وسعه أن يهجر الأدب لما استطاع ذلك الهجران ؛ محدث ماهر طلى الحديث ، يميل إلى الفكاهة ولكنها الفكاهة التى يتخللها الجد المرير فى غالب المواقف ؛ يحب قومه وبلاده حباً مؤكداً ؛ مثقف من الطراز الأول فى الادبين العربى والغربى

ذكرت من خلاله ماذكرت لأمر يعنينى الساعة ، ذلك أن كتابه الذى أقدمه لك صورة صادقة من شخصه ، وذلك لعمرى خير ما يوصف به كتاب لصاحبه مثل هاتيك الخلال . ولا جرم أن الصدق فى الآثار الأدبية أكبر عامل فى نفاذها إلى القلوب ودوامها على الأيام ، وإنك لتجد الصدق فى هذا الكتاب فى مقدمة فضائله

وبعد فما موضوع هذا الكتاب ؟ أهو سلسلة مقالات فى شتى الفنون ؟ كلا فلست تجد فيه ما تجد غالباً فى المقالات من غلظة وثقل يتقاضيانك كد ذهنك والتحامل على نفسك . إذاً فهل هو قصة أو مجموعة من الأقاصيص ؟ كلا ليس هو من ذلك الفن من فنون الأدب وإن كنت تحس روح القصة وتتمثل شبحها فى كثير من مواضعه . ليس الكتاب من أدب المقالة وإن كان موضوعات متفرقة ، ولا هو من القصة وإن كان للكثير من موضوعاته شبحها ، وإنما هو « حديث » نعم هو « أساطير وخاطرات خطرت ملكت على الفكر سبله فلم يستطع تشريدها أو الفرار منها »

ينتظم هذا الكتاب ما جاشت به نفس صاحبه من معان وخطرات ، فاذا عدت الى ما سردت عليك من خلاله ، أمكنك أن تدرك موضوع الكتاب جملة وتلمح شيئا من روحه .

ذكرنى هذا الكتاب الطريف الفذ ، بآثار الأديبين الانجليزيين الكبيرين « اديسون » وصاحبه « ستيل » . عمد هذان الكاتبان فى كثير مما كتبا فى مستهل القرن الثامن عشر الى نقد بعض أحوال المجتمع ودراسة بعض الأشخاص ، بطريقة لطيفة هادئة ، لا ترى فيها أثراً للهجوم اللاذع ولا التجريح القاسى

العالم المسرحي والسينمائي

اليتيمة

على مسرح الأوبرا الملكية
إخراج الفرقة القومية المصرية

استأنفت الفرقة القومية موسمها الثانى ابتداء من مساء الأحد الماضى ١٨ ابريل الجارى ، مفتتحة هذا الشطر من الموسم بمسرحية محلية هى « اليتيمة » من وضع الأديب السعيد يوسف موسى

وقد عالج المؤلف فى مسرحيته ناحية من نواحى النقص الاجتماعى فى البيئة المصرية ، إذ جعل من بطل الرواية وبطلتها ضحيتين للتقاليد القديمة الموروثة المتسلسلة فى دماء الطبقة العليا فى الشعب ، الذين لا يزالون يستمسكون بمعتقداتهم فى أن الله جعل الناس طبقات فى الغنى والجاه والحسب والنسب ، وليس فى العلم والفضل والقيمة الاجتماعية ، ولا يعترفون بعاطفة إلا ما وافق منها تلك العادات البالية .

لهذا نرى صبرى باشا يقف حائلا شديد الكثافة بين ولده ووحيده ثابت الطالب الذى يدرس الاقتصاد السياسى فى فرنسا وبين ابنة ناظر زراعته المتوفى « أمينة » على الرغم من أنها نشأت فى بيت الباشا نفسه وتعلمت وتثقفت كابنته ، وعلى الرغم من تعلق ولده بها وولع كل منهما بصاحبه وتعاهدهما على الوفاء والزواج

لا يعبأ الباشا بهذه الاعتبارات ، فينتهز فرصة عودة ابنه إلى فرنسا لاتمام دراسته ، ثم يرغم حبيبة ابنه على الزواج من أحمد افندى ناظر زراعته الذى حل محل أبيها

ولما كان هذا الزواج باكراه وإرغام ، فقد اعترى الفتاة يأس وأصابها غم ، فاستحال بيت الزوجية جحيما ، وانقلبت نعمى ذلك البيت الوادع بؤسا وشقاء ، واستمر الخصام بينها

البغيض ، بل ترى الرفق واللين اللذين يفعلان مالا يستطيع العنف أن يفعل ، كل ذلك فى خفة روح ورقة دعابة وروعة تصوير

وأنت ترى ذلك واضحا فى كتاب الدكتور عوض ، وانى أقرر هنا أنه ما قصر به فنه عن فنهما ، ولا نزل به أسلوبه عن مستواهما ؛ بل لست أغلو ان ذكرت أن بعض قطع عوض قد فاقت عندى بعضا مما قرأت لهما . خذ لذلك مثلا « فى طريق البغال » و « الثور فى مستودع الخزف » و « معهد الطفيليات » اقرأ تلك وأمثالها ، فلا يسعك الا أن تسلم معى أنه يحق لأدبنا العصرى أن يفخر بها . ثم اقرأ تلك القطعة : « الكائن الممسوخ » ، وانظر كيف كان الدكتور ماهرا مهارة يستحق عليها كل ثناء وتقريظ فى معالجة هذا الداء الوبيل ، داء الاهتمام بكل ما هو غربي فى رفق وقوة معا . لقد أعجبتنى تلك القطعة بنوع خاص ، وانى أدعو شبابنا الى قراءتها وأستحثهم على ذلك

الكتاب كله كما قدمت صورة من نفس صاحبه ، فسواء استمعت الى الدكتور أو قرأت له ، فستجد الأمر سواء . فستظفر بعذوبة روحه فى فكاهاته البارعة ، وخطرات نفسه فى تهكمه الرقيق العميق ، كما ستلمس سموه فيما يتوخى من غرض وما يحرص على بلوغه من غاية . هذا وتحملنى صراحة الدكتور أن أذكر له قطعتين لم أسغهما كما كنت أحب ، هما « عاصفة فى قدح » و « عقد من اليشب » . ذلك أنى لم أجد محلا للملكين فى القطعة الأولى ، ولا انسجاما فى الزمن فى القطعة الثانية . ولقد أذكر أيضا أنى لم أفهم ماالذى أحال العسل خلافى قطعة « ثم أرادت أن تجعل منه رجلا » ، فجعل الزوج بغيضا فى عين زوجته

وإنى لأحس أن أدب الدكتور أعز عليّ من أن أمر على بعض هنات سقطت إلى أسلوبه دون أن أشير اليها ، ذلك أنه يضع فى كلامه عبارات معروفة تظهر نابية حين يوردها فى غير مواضع المزاح كقوله « أذن مؤذن الطعام » ، ثم كنت أعثر على بعض الأخيلة التى لم أسغها ، كقوله : « الهواء مغرب فى الضحك » و « سنديان الشقاء » و « مطرقة البلاء » و « شمر عن ساعد الفلسفة » وأمثالها .

على أن هذه كما ذكرت هنات ما أشرت اليها إلا لأنى رأيتها غريبة وسط هذا الأسلوب المشرق البديع ، فى هذا الكتاب الذى أحببته وأكبرته ، وأعتقد أن القراء سيحبونه مثل ما أحببت ، ويكبرونه مثل ما أكبرت . « الخفيف »

وبين زوجها واتصلت أسباب التشاحن والتغاضب حتى كره الزوج حياته وكره نفسه .

وفى صباح يوم نشبت بينهما مغاضبة اشتركت فيها « أم احمد » وجعلت تعير الفتاة وتهجوها وتقول إن الناس يتقولون على بيتهم منذ دخلته إذ يزعمون انها ما زوجت من ناظر الزراعة إلا لأن ابن مخدومه عبث بها ولوث شرفها وفوجئت الفتاة بهذا الاتهام فدهشت له وأدركها الحزن واليأس .

وجاء الباشا يعلن أن ابنه عاد من باريس وأنه قادم إلى هذا البيت ليرى « أمينة » وهو لا يعلم أنها تزوجت من احمد افندى

ويفزع الزوج لهذا الخبر ويجزع من رؤية هذا اللقاء ، فيستعفى الباشا ويذهب إلى الدائرة ويأخذ الباشا فى تهدئة الفتاة التى تشكو إليه ظلمها وتتضرع إليه أن يعفيها من هذا العذاب

وبينما هما فى ذلك إذ يدخل « ثابت » ، فتهرع إليه الفتاة وتتعلق بعنقه ويكون بينهما لقاء تطرب له قلوب العشاق وتنفطر له مرائر الأزواج الذين يكرهون على مثل هذه الزوجية ، ويطول بينهما العناق وتستمر شكواهما حتى يقول الفتى : أحبك إلى الأبد فيقول الباشا : حتى ولو كانت متزوجة ؟ . .

وينزل الخبر على الفتى نزول الصاعقة ويموت رجاؤه وينفصل عن الفتاة ، فترجوه وتبثه آلامها وتقول إنها أرغمت وأكرهت على هذا الزواج ، ولكنه يقول إنها لوثت ودنست بالزواج فهو لذلك يتركها ويدفن آماله فيها .

وحين تيأس الفتاة منه تلقى بنفسها من النافذة وتنتهى القصة

وإلى هنا نجد أن المؤلف عالج الموضوع أو فى علاج وكشف عن مستور هذه العلة وبين سوء أثرها فى المجتمع موفقا فى ذلك أعظم توفيق ، ولذلك نعتقد أن الفرقة أنصفت حين اختارت هذه المسرحية واخرجتها .

* * *

أما إخراج الرواية فقد تولاه مخرج الفرقة الأستاذ عزيز عيد وليست لنا ملاحظات على إخراج هذه المسرحية إلا أنه فى الفصل الثانى حين استيقظت « أمينة وثابت » ، وهما فى بيت احمد أفندى ثم جاء الناظر وامه طلب هذا إلى والدته أن تجيئهم بطعام الافطار فخرجت لهذا الغرض ، ولكنهم لم يذكروا شيئا عن ذلك فيما بعد ولم يحضر الطعام .

* * *

وقد أدى « احمد علام » والسيدة زوزو حمدى الحكيم دورى البطولة فى هذه الرواية وبذلا فيه جهدا جبارا كان عاملا كبيرا فى نجاح الرواية إلى أبعد الحدود وفى آخر فصل من الرواية أظهرت « زوزو » منتهى ماتصل إليه عبقرية الممثلة

وكان جميع الممثلين يعرفون أدوارهم ويفهمونها تمام المعرفة والفهم، فظهر وا بمظهر الاتقان البالغ الذى يستحقون عليه التهنئة الحارة الصادقة .

الحل الأخير

اخراج استوديو مصر

لم يكن أصحاب شركات السينما الناشئة فى مصر يعنون فى الروايات التى يخرجونها بالموضوع والمغزى . ولعلهم لا يرون الموضوع عنصراً مهماً فى روايات السينما . وبحسبهم العناية بالمناظر والاخراج ، وأن يكون الممثلون من الشخصيات المعروفة . فكانت رواياتهم خالية من المغزى أو هى ذات مغزى تافه ، وكان ذلك من أهم المآخذ التى تؤخذ عليهم

نذكر هذا أمام التحدث عن رواية الحل الأخير التى عرضت بسينما رويال ، وهى الرواية الثانية لاستديو مصر ، وهى من الروايات المصرية القليلة التى تتضمن مغزى وتدور حول فكرة ، وموضوعها من صميم الحياة . يسرد المؤلف حوادثها فى تسلسل طبيعى حتى ينتهى إلى المغزى الاجتماعى الذى يرمى إليه ؛ والمخرج صور هذه الحوادث على طبيعتها من غير تهويل ولا خروج عن الحقيقة . وقد فهم الممثلون مايرمى إليه المؤلف فقاموا بأدوارهم كأنهم أبطالها الحقيقيون لا يمثلون على الشاشة البيضاء ، فتم بذلك التعاون بين التأليف والاخراج والتمثيل على تصوير الغرض وابراز الحقيقة

ولم يجر المؤلف فى هذه الرواية على عادة كثير من المؤلفين فى وضع الأدوار والمواقف لتناسب أشخاصا معينين ، بل وضع روايته كما يقتضى انسجام الحوادث، ثم اختار لها الممثلين الموافقين فجاءت منسجمة متماسكة

وعمل المخرج على ابراز هذه الحقيقة فوجه عنايته إلى تنسيق المشاهد تنسيقا طبيعيا أكسبها روعة وجلالا ، وتجنب المواقف المصطنعة او المناظر المستفزة للشاعر

وتعد هذه الرواية بحق مثلا يحتذى فى روايات السينما المصرية وتدل على اتجاه استوديو مصر إلى الاتقان فى صناعة السينما ، وقد تنبه إلى أهم عنصر من عناصر النجاح فى الروايات ، وهو الموضوع والمغزى ، فانه الأثر الذى تتركه الرواية فى نفوس الجمهور ؛ والحوادث التى لا تخرج عن مجال الحقيقة الرائعة إلى التهويل والمبالغة تشعر الجمهور بروعة الحياة الطبيعية التى يعيش فيها إحساسه وفكره

فلعل المتصدين لصناعة السينما يلتفتون إلى هذه الحقائق ويعملون بها ، متجهين إلى الفن فى ذاته ، نابذين غير ذلك من الوسائل التى لا تغنى ولا تجدى

(ع)

5 me Année, No. 200

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 3 - 5 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

العــدد ٢٠٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ صفر سنة ١٣٥٦ — ٣ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــدد

الى الشباب

حول الديمقراطية أيضا

لأستاذ كبير

لست أدرى والله أى يومى (الرسالة) أمجد وأعلى ، أهو الأمس وقد قصدت إلى عالى الأدب تنشره ، وسامى المثل تضربه ؟ أم هو اليوم وقد ضمت إلى ذلك مناجاتها لشباب البلاد وتوجهها إليهم لتحاورهم فيما يمس حياتهم ، ولتلتمس معهم سبيل الهداية إلى ما هو أحرى بالقصد وأجدى على الوطن؟

ولقد أصاب مقالها الأخير فى الديمقراطية مكانا من النفس هز أوتارها ، فإنا فى أول عهدنا بحكم أنفسنا كما تقول وقد تشعبت أمامنا السبل ونشطت الآمال من عقالها ؛ ولا بد لنا من أن نسترشد فى هذا العصر بالعقل الرزين والمنطق المتين ، كما لا بد لنا أن نستلهم الشرف والوطنية ، وأن ننأى عن كل مظنات الخطأ أو الإسفاف . وليس أحق من الرسالة بأن تلج هذه المعانى وتعالجها معالجة صريحة قويمة ؛ وليس أحق من شباب البلاد بأن يرمى فى هذا الحوار بسهمه ويدلى بدلوه ، فإن المستقبل للشباب ، ومصير البلاد آيل إليهم بعد حين ؛ وما يكون اليوم خطأ يكون عليهم فى المستقبل

حملا ثقيلا ، بل ربما يكون فى سبيلهم عقبة لا يطيقونها ولا يقومون على تذليلها إلا بتضحيات ومشقات . فإذا نحن قلنا إن مصلحة البلاد فى توخى هذه السبيل أو تلك فإن الشباب أول من يعنيه هذا القول ، وينبغى لهم أن يكونوا أول المصريين اهتماما للبحث وسعيا وراء المصلحة ، لأنهم الذين سيجنون ثمار الخير إن كان خير ، أو يحملون أوزار الخطأ إن كان لا قدر الله خطأ .

ولقد ثارت فى الأيام الأخيرة كلمة فى صحيفة من الصحف ، ثم تبعتها كلمة أخرى فى صحيفة أخرى ، تناول فيها كاتباها موضوع الديمقراطية ؛ وهاهى الرسالة ترددالمعنى بنفسه وتبحث فيه على أسلوبها ونبالة مراميها . وهذا الترديد فى نفسه عظيم الدلالة ، لأنه يدل على أن فى النفوس معنى تحاول أن تستجليه ، وذلك المعنى طبيعى لمن كان فى عصرنا هذا يعيش بين تيارات مختلفة فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ فبعض البلاد قد اتجه وجهة يسمونها الفاشية أو الدكتاتورية ، ويحاول أنصارها أن يدعوا لها ويمهدوا لحكمها بكل ما استطاعوا من وسائل الدعاية ، ويدعمون حجتهم بأمرين : الأمر الأول أن تلك البلاد تهددها أخطار جمة من جميع النواحى ، فلا قبل لها بمقابلة تلك الأخطار إلا بجمع الشمل وضم الصفوف واتحاد الأفراد تحت إرادة واحدة لا يشذ عنها أحد . والأمر الثانى أن الطغاة القائمين على تلك الدول قد أصلحوا مرافق البلاد وزادوا فى مجدها وقوتها ورفعوا شأنها بين بلاد العالم

ولسنا فى صدد مناقشة هذه الحجج ، ولا نريد أن نبين ما فيها من وجوه المغالطة والمداورة . وحسبنا أن نكرر هنا تلك الكلمة البديعة التى جاءت فى افتتاحية العدد الأخير من الرسالة : « أنا أفهم أن المرء يُقهر فيخضع ، ويؤسر فيُسترق ، لأن الأمر فى ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم كيف يستأسر شعب بأسره لواحد منه فيلقى بزمامه إليه ، ويعول فى جميع أموره عليه ، والشعب مهما صغر لا يقل عن شعب ، والفرد مهما كبر لا يزيد على فرد » ؟

ولعل مصر أبعد بلاد العالم عن فكرة الطغيان ولعل شعب مصر أشد شعوب العالم كرها لحكومات الطغاة . ولقد جربت تلك المحاولة مرات فى مصر الحديثة ، وجربها من قبل دول فلم تدم تجربتها طويلا على أساس ثابت . وجربها ساسة فأسفرت تجربتهم عن فشل ، وعادوا من التجربة بصفحة شوهاء ؛ ولم يفوزوا بما أرادوا من ثبات الحكم بل ضاعت مجهوداتهم فى مناضلة روح الشعب الثائرة ، ولم يستطيعوا التفرغ لإصلاح ولا لتجديد . وحسب البلاد انها عرفت ان مآل الطغيان الى الانهيار ، فلا نحسب أحدا يحدث نفسه بتجربة أخرى فى ذلك السبيل ، ولا نظن احدا يجرؤ على الدعوة اليها صراحة ، لأن الشعب كله يشعر بأن ذلك جرم اجتماعى لا ينبغى له أن يتسامح فيه . فلذلك لا نرى ثمت حاجة تدعو الى التعرض لفكرة الدكتاتورية بالنقد أو الهدم اذ قد كفانا الماضى شرها فهدمها فى عقائد الشعب وأظهرها له فى أبشع صورها وأشنع آثارها

ولكنا مع ذلك نحمد للرسالة الغراء أنها هتفت بذلك الاسم الحبيب الى النفس وهو (الديمقراطية) لأن الشباب جدير بأن يجعلها قبلته وشعاره . فان الشعب الذى يحترم نفسه لا يتسامح فى أمر حكم نفسه ، بل يصر على أن يكون مرجع كل أموره الى ارادته ، ويصر على أن يكون رأى الفرد وارادة الفرد ومجهود الفرد وحرية الفرد اساسا ثابتا للمجتمع لا يحد من ذلك كله الا حد الدستور وحد القانون

ولكن الحكم الديمقراطى لا يكون حقيقياً إلا إذا كان متغلغلا فى كل نواحى الحياة غير مقصور على حكومة الدولة . فجدير بنا فى هذا العهد أن نتجه إلى شبابنا ناشده أن يقيم كل حياته فى مجتمعاته ومشروعاته على ذلك الأساس الحر الديمقراطى فيكون فى مدارسه وفى جمعياته وفى نواديه صادراً عن عقيدة ثابتة فى أن الفرد الكامل الحر هو الوحدة الصالحة للمجتمع الصالح الحر . وأن المجتمع الذى يقنع بأن يسير وراء إرادة فرد سيرا أعمى لا عن عقيدة بل عن خمول واستخذاء لن يكون مجتمعا جديرا بالحياة .

(مصرى)

ندرة البطـــولة

للأستاذ أحمد أمين

قالوا — انا تلفت يمنة ويسرة فلا نجد فى عصرنا بطولة من جنس بطولة العصور الماضية ، ولا نجد نبوغا رائعا قويا كنبوغ من نبغ فى الأجيال السابقة . فتش — اذا شئت — فى كل لون من ألوان البطولة ، وفى كل ناحية من نواحى النبوغ تجد هذه الحقيقة واضحة

فهل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟

وهل تجد فى النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون وعمرو بن مسعدة ؟

وهل تجد فى قيادة الحروب أمثال خالد بن الوليد وأبى عبيدة ؟

وهل تجد فى سياسة الأمم أمثال عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز ؟

وهل تجد فى الغناء أمثال اسحق الموصلى وابراهيم بن المهدى ؟

وهل تجد مؤلفا فى الأغانى كأبى الفرج الأصفهانى ؟

وما لنا نذهب بعيدا ويوم فقدنا السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده لم نجد عوضا عنهما فى العلم بالدين والأخلاق والسياسة ؟

ويوم فقدنا البارودى وحافظا وشوقى لم نجد لهم خلفا فى شعرائنا

ويوم فقدنا عبده الحمولى ومحمد عثمان نتبلغ من الغناء بالقليل ويوم فقدنا الشيخ على يوسف لم نر من يسد مسده فى الصحافة

ومن الغريب أنهم يشكون فى أوروبا شكايتنا ، ويلاحظون عندهم ملاحظتنا ، فيقولون أن ليس عندهم فى حاضرهم أمثال فجنر وبيتهوفن ، ولا أمثال شكسبير وجوته ، ولا أمثال رفائيل ولا أمثال دارون وسبنسر ، ولا أمثال نابليون وبسمارك

فهل هذه ظاهرة صحيحة ؟ وان كانت فما سببها ؟

قد كانت كل الظواهر تدل على أن الجيل الحاضر أحسن استعدادا وأكثر ملاءمة لكثرة النبوغ وازدياد البطولة ، فقد كثر العلم وسهل التعلم ، ومهدت كل الوسائل للتربية والتثقيف ، وكثر عدد المتعلمين فى كل أمة ، وفتح المجال أمام النساء كما فتح أمام الرجال ، فأصبحت وسائل النبوغ ممهدة للجنسين على السواء ، وتقطر العلم الى العامة فاصبحوا يشاطرون العلماء بعض معلوماتهم ، وانتشرت الصحف والمجلات تغذى جمهور الناس بالعلم والأدب ، واتصل العالم بعضه ببعض اتصالا وثيقا فى المواصلات والعلم والسياسة والاقتصاد وما الى ذلك

كل هذا كان يجب أن يكون ارهاصا لكثرة النبوغ والتفنن فى البطولة ، لا لقلة النبوغ وندرة البطولة ؛ فلم أصيبت الأمم كلها بهذا العقم وكان مقتضى الظاهر أن كثرة المواليد تزيد فى كثرة النابغين ، وكان مقتضى الظاهر أيضا أن عصر النور يلد من الأشخاص الممتازين أكثر مما يلد عصر الظلام

* * *

يظهر لى مع الأسف — أن الظاهرة صحيحة وان الجيل الحاضر فى الأمم المختلفة لا يلد كثيرا من النوابغ ، ولا ينتج كثيراً من الأبطال ، وأن طابع هذه العصور هو « طابع المألوف والمعتاد » لا « طابع النابغة والبطل »

بقى علينا معرفة السبب فى ذلك

من الأسباب القوية على ما يظهر أن الناس علا مثلهم الأعلى فى النابغة والبطل ، فلا يسمون بطلا أو نابغة الا من حاز صفات كثيرة ممتازة قل أن تتحقق ؛ وهذا طبيعى ، فكلما رقى الناس ارتقى مثلهم الأعلى

قد كنا الى عهد قريب نعد من يقرأ ويكتب ، وبعبارة أخرى « من يفك الخط » رجلا ممتازا لأنه نادر وقليل ، فكان ينظر اليه نظرة تجلة واحترام ؛ فلما كثر التعليم بعض الشىء كان من أخذ الشهادة الابتدائية شابا ممتازا ؛ فلما كثرت انتقل الامتياز الى البكالوريا ، ثم الى الشهادة العليا ، ثم الى شهادات جامعات أوروبا ، ثم أصبحت هذه أيضا ليست محل امتياز ، وارتفعت درجة النبوغ الى شىء وراء هذا كله

والناس — على الجملة — استنارت أذهانهم إلى حد بعيد ،

وا كتشفوا سر العظمة ، فأصبحت العظمة المعتادة لا تروعهم ، انما يروعهم الخارق للعادة ، وأين هو تحت هذه الأنوار الكشافة؟

ثم شعر الناس بعظمتهم هم أيضا وبشخصيتهم ؛ والبطولة تأتى — فى الغالب — عند ما يسلس الناس زمام نفوسهم للبطل ، فهم بطاعتهم له واستسلامهم لأمره واشارته يزيدون فى عظمته ، ويغذون بطولته — فان كانوا هم أيضا يشعرون بعظمة أنفسهم قلت طاعتهم وقل تبجيلهم وخضوعهم لكائن من كان ، وبذلك لا يفسحون للبطل بطولته فلا يكون . فلو وجد اليوم شخص فى أخلاق نابليون وصفاته ومميزاته ما حققوه فى عصرنا ، ولا كان الا رجلا عاديا أو ممتازا بعض الامتياز ؛ فأما أن تطيعه الخلائق هذه الطاعة العمياء وتبيع نفوسها رخيصة فى سبيل مجده ، وتسفك دماءها أنهارا لتحقيق عظمته ، فذلك مالا يكون اليوم كما كان بالامس

قد تضرب لى اليوم مثلا بموسولينى ومصطفى كمال وهتلر ، ولكن الفرق عظيم جداً ، فهؤلاء يؤثرون فى شعوبهم من ناحية أنهم خدام للشعوب لا سادة لهم ، وان الشعب اذا عظمهم فلأنهم يخدمونه ، ويوم يثبت له أنهم لا يعملون لخيره ينفضون يدهم عنه . فأين هذا من الطاعة العمياء التى كانت لنابليون ؟ ولهذا نرى كلا من هؤلاء يتملق شعبه ويحاول أن يقيم البرهان كل يوم على أنه عامل لخيره ساع فى سعادته لشعوره التام بأنه انما يحكم الشعب بارادة الشعب لا بارادته هو ، فاذا هو لم يتمتع بهذه الثقة سقط من عرشه ، وهذا — من غير شك — يقلل شان البطولة

***

ولهذه الأسباب التى ذكرت أنها كانت تؤذن بكثرة النوابغ هى بعينها التى قللت النوابغ ؛ وتعليل ذلك معقول ، فكثرة العلم واستنارة الشعب جعلت النبوغ عسيراً لا سهلا يسيراً

ومصداق ذلك أن الأمم فيما مضى كانت تمنح المشعوذين والمخرفين ألقاب البطولة ، وتنظر إليهم نظر تفوق ونبوغ ؛ من أمثال من كانوا يسمونهم « الاولياء » فيكفى أن يتظاهروا بالجذب ويتصنعوا الصلاح ويدعوا معرفة الغيب ليهرع اليهم الناس ويقبلوا أيديهم ويلتمسوا منهم البركة ويرفعوهم فوق النوابغ والأبطال ؛ وأحيانا يلقبوهم « بالأقطاب » فلما فتح الناس عيونهم ، وعقلوا بعد غفلتهم ، واكتشفوا حيلهم ومكرهم لم تعد لهم هذه المكانة ، وحل بعض محلهم المصلحون الاجتماعيون الذين يخدمون أمتهم بعملهم . ومعنى ذلك أن الشعوذة والمخرقة حل محلها مقياس المنفعة وسار الناس فى طريق التقدير الصحيح وهو الاحترام والتبجيل على قدر ما يصدر من الشخص من خير عام حقيق

***

ومن أجل هذا أيضا رأينا التيار فى هذه الأيام يتجه إلى تقليل شأن البطولة فى الأعصر الماضية ، فلم يعد البطل القديم فى الأدب والسياسة والفن والعلم يقدر التقدير الكبير الذى كان يقدر به من قبل ، لأن الناس أخذوا يحللون كل بطل ، ويبينون سر بطولته ، ومتى ظهر السبب بطل العجب ، ولم يقنعهم ما كان يحيط به من غموض فألقوا أضواء كثيرة على من كانوا يسمون الأبطال ، فأحيانا يؤديهم البحث إلى إنكار بطولة بعض الأشخاص بتاتا ، وأحيانا يقللون من قيمة البطل ، بل وأحياناً يرون بطلا من أنكر الناس قديما بطولته

ذلك لأن مقاييس البطولة تغيرت وأصبحت عند المحدثين خيرا منها عند الأقدمين ، ولأن المحدثين رأوا أن القدم نسج لكثير من الناس أثوابا من البطولة لم تكن موجودة أيام حياتهم ، وكلما تقدم الزمن منحهم الناس شارة بطولة جديدة - فلما عرض هذا كله للنقد وأزاح أهل العلم الحديث ستائر القدم تبين البطل فى صورته الحقيقية أو قريبا من صورته الحقيقية ، فأحيانا يرتفع الستار عن لا بطل ، وأحيانا يرتفع عن بطل ، ولكن دون ما كان يقدره القدماء ؛ ونادرا ما يبقى البطل بطلا كبيراً حتى بعد ما ترتفع حجب القدم

ولهذا نجد كثيراً من المعاصرين هم فى الحقيقة نوابغ ، وهم يفوقون بمراحل بعض نوابغ الأقدمين ، ولو كانوا فى العصور الماضية لا رتفعت منزلتهم فوق ما ارتفعت اليوم ، ولكن لم نمنحهم نحن لقب البطولة للأسباب التى أشرنا اليها قبل من أننا رفعنا إلى حد بعيد المثل الأعلى للنبوغ ، ولأننا نحلل

النابغ ونكتشف سره ، وذلك يقلل من تقديره ، ولأن معاصر والمعاصرة أعدى أعداء الاعتراف بالنبوغ

وقد يتصل بهذا أن كثرة النبوغ تضيع الاعتراف بالنبوغ ، فكل أمة راقية الآن لديها عدد كبير من المتفوقين فى كل فرع من فروع العلم والفن — فى القانون — فى الأدب — فى الطبيعة — فى الكيميا — فى الرسم — فى التصوير . فلما كثر هؤلاء فى كل أمة أصبح من العسير أن تميز أكبر متفوق منهم لتمنحه صفة النبوغ ؛ ومن العسير أيضاً أن تسميهم كلهم نوابغ ، لأن النبوغ بحكم اسمه ومعناه يتطلب الندرة ، فلما كثر النابغون أضاعوا اسم النبوغ . وعلى العكس من ذلك الأمم المنحطة ، لما لم يوجد فيها إلا قانونى واحد أو أديب واحد أو موسيقى واحد كان من السهل أن يمنح لقب النبوغ .

***

ثم إن الديمقراطية التى سادت الناس فى العصور الأخيرة ونادت بالمساواة والحث فى الطلب أوجدت فى الشعوب حالة نفسية كان لها أثرها فى موضوعنا اذ أصبح الناس لا يؤمنون بتفوق كبير ، لا فى المال فهم يريدون الاشتراكية ، ولا فى السياسة فقد يتبوأ الحكم حزب العمال فيدير الأمور كما يديرها الأرستقراطيون فى السياسة بل أحسن منهم

فدعتهم هـذه الحالة النفيسة إلى أن يكفروا بالتفوق أو بعبارة أخرى يكفرون بالنبوغ ؛ وبعيد أن يُعترف بنبوغ فى جو يكفر به — لقد كان الناس قبلُ أكثر إيماناً بالفروق فى المال والكفاية والعلم فكان هذا الأيمان وسيلة صالحة لظهور النبوغ ، فلما جحدوا كل شىء كان النبوغ مما جحدوا

وأخيرا كان من أثر هـذه الديمقراطية تعميم التعليم ، والبحث فى خير الوسائل لنشر العلم ، فقامت النظريات المختلفة فى التربية والتعليم وأصبح العلم شعبيا بعد أن كان أرستقراطيا

واستخدمت الوسائل المختلفة لتبسيط العلم وتحبيبه إلى النفوس ، وغيرت نظم المدارس . فأنشئت رياض الأطفال مكان الكتاتيب ، والمدارس الناعمة بدل المدارس الخشنة ، واخترعت البيداجوجيا وسائل لتسهيل الدرس وإيصاله إلى الذهن من أقرب طريق

كان من نتيجة ذلك كثرة المتعلمين وقلة النابغين ، واتساع البحر وقلة عمقه ، وذلك لأن من كان يتفوق فى الماضى كان يصادف عقبات لاحد لعددها ولا حد لصعوبتها ، فكان من الطبيعي ألا يجتازها إلا الأقلون . ولكن من يجتازها تكون لديه الحصانة الطبيعية ويكون قد تعود اجتياز العقبات واحتمل مشقة السير ، فكان ذلك سبب النبوغ من ناحيتين ، من ناحية قلة من يجتاز العقبات ومن ناحية من يجتازها

أما وقد أصبح التعليم معبدا ميسرا فقد زاد عدد المتعلمين وقل النابغون وأصبح الفرق بين العهدين كبذرة تربى فى حديقة بستان وبذرة تنبت فى الجبال حيث الرياح العاصفة والشمس المحرقة والمطر الذى لانظام له . فأين نبت البستان من نبت الجبال ، واين الحيوان المستأنس من الحيوان المستوحش ؟

وبعد ، فما أحق هذا الموضوع بالدرس ، وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة ؟

احمد أمين

قرائى الذين يحبوننى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

لكل كاتب قراؤه . وما من كاتب يعدم قارئاً من كل طبقة ، ولكن المعوّل على الأوفياء الثابتين على الولاء ، فان هؤلاء طريق الرزق ، ووسيلة الاطمئنان والدعة ، ولولاهم لما عرف المرء متى يمكن أن يتاح له أن يأكل ، وإن كان لا يجهل كيف يجوع . ولست أعرف ماذا يصنع غيرى ليهتدى إلى طبقات قرائه ، ولكنى أعرف أن مصلحة البريد أغنتنى عن عناء السعى ومشقة التفكير فى الوسائل المعينة على الاهتداء ، فان رسائل كثيرة تأتينى منها فاستخلص منها العلم الذى أطلبه والمعرفة التى أشتهيها . وما أكثر ما قلت لنفسى إن الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب ومن إليهم من هؤلاء الزملاء والرصفاء ، كانوا مساكين . — أوه جداً — فما عرفت الدنيا فى أيامهم مصلحة البريد . وقد كان من الصعب ولا شك أن يعرفوا مبلغ حب الجمهور لهم وإعجابه بهم وماذا كان يمكن أن يبلغ من رواج كتبهم لو أنها كانت تطبع وتباع فى المكاتب ، وقد حرمهم هذا الحال الاستقلال عن الأمراء ومن إليهم . ومن الصعب أن يعمل المرء فى الظلام . نعم كان الواحد منهم لا يعدم تشجيعاً من الشعب ، ولكن هذا كان فلتة لا تحتسب ولا يعول عليها . ومن السهل أن يتصور المرء أن الجاحظ مثلا كان يلتقى فى الطريق واحداً يتقدم إليه ويقول له : « اسمح لى . . هل أنت الذى يسمى الجاحظ ؟ . »

فيهز رأسه أن « نعم » وهو راجف القلب لأنه يخشى الاعتراف الصريح المقيِّد ، لئلا يكون هذا السائل من الشرطة

فيقول الرجل : « لقد صدقوا . . أظنى أن اسمه فى محله . . على كل حال . . ثابر يابنى ! . . فانى أتنبأ لك بمستقبل باهر . . »

ويربت له على كتفه ويمضى عنه مبتسما ، وعينه إلى الملك الذى ينبغى أن يكون محتفظاً بمكانه على يمينه ، مرهف الأذن مقيما سنّ القلم على الدفتر المفتوح ليقيد له هذه الحسنة — حسنة التبرع الكريم بالتشجيع

وإذا كانت الرسائل التى ترد إلى دليلا على شىء ، فانى أكون أحب الناس — أعنى الكتاب — إلى ثلاث طبقات : — المرضى ، واللصوص ، وقد نسيت الطبقة الثالثة . . لا باس من يدرى ؟ . . ربما تذكرتها أثناء الكلام . وقد عرفت هذا من الرسائل التى يحملها إلىّ البريد ، كما قلت . وهذا نموذج منها :

« . . . . وبعد فانى لم أسمع باسمك من قبل ، ولكن مرضت ودخلت المستشفى ، وجاءنى زائر فترك لى كتاباً أتسلى به ، غير أنى لم استطع أن أتصفحه فى أول الأمر لشدة وطأة المرض ، فلما خف قليلا مددت يدى إليه وبدأت أطالع . وأؤكد لك أنه سرنى جدا . وأنا صحيح الجسم فى العادة ، ولكن الأمراض لا أمان لها ، كما تعرف ، فارجوا أن تبعث إلىّ بمجموعة من كتبك كلها — ومعها جملة نسخ منها — استعداداً للطوارىء فان الحيطة واجبة وإن كان الأمر كله بيد الله

وتقبل سلام المعجب بك المعتمد بعد الله عليك »

وفى وسع القارىء أن يدرك مبلغ حيرتى ، فانه لا يسعنى إلا أن أتمنى لمثل هذا الرجل الصحة والسلامة ، ولكن المصيبة والبلاء العظيم أنه إذا صح وسلم كان خليقاً ألا يعود إلى كتبى ليقرأها ، فما العمل ؟ . . هذه هى المسألة — كما يقول هملت — وليس ذنبى أن الأمراض تحبب الناس فى كتبى ، فاذا كنت أسر حين أقرأ فى الصحف أن الملاريا انتشرت فان لى العذر ، فما كان هذا ظنى ، ولا خطر لى قط على بال ، ولكن مشيئة الله جعلتنى مثل « الحانوتى » الذى يسره ويفرحه ما يحزن الخلق ويبكى المفجوعين . ولهذا ترونى إذا سمعت بفشو مرض أدخل مسروراً على أهل بيتى وأقول لزوجتى : « خذى يا امرأة . . (وألقى إليها بكل ما يكون معى ، قل أو كثر) خذى وأنفق بلا حساب ، فان ما عند الله أكثر »

فتعجب وتسألنى : « ماذا جرى ؟ . . . هل ربحت ورقة يانصيب ؟ . »

فأقول منكراً عليها هذا الخاطر : « وهل مثلى يعنى بورق

اليانصيب ؟ سبحان الله يا امرأة فى طبعك ! »

فتقول ضاحكة : « ولكن ألا تخبرنى ؟ .. إنى أكاد أموت شوقاً إلى المعرفة »

فأقول وأنا أرمى إليها بالصحيفة التى قرأت فيها خبر المرض المتفشى ، وعجز وزارة الصحة عن مكافحته : « خذى واقرئى ، واشكرى الله ، وقبلى يدك بطناً وظهراً ، فلن نجوع أو نفتقر ، مادام فى الدنيا شىء اسمه مرض وشىء آخر اسمه وزارة الصحة . لقد جعلوها وزارة .. رفعوها ورقوها ووسعوها .. أليس هذا باعثاً قوياً على الاطمئنان والثقة بالله ؟ »

***

وقد بالغت حين قلت إنى محبوب من اللصوص وما أردت إلا أن لصاً واحداً - على ما يظهر لى الآن - هو الذى يحبنى ، فلقد تلقيت مرة كتاباً يذكر لى فيه أنه سمع باسمى وشهرتى ، فعرف أنى كاتب عظيم جداً ، فهو يكتب إلى مستنجداً فقد اتهموه بسرقة كلب . والقضية معروضة على القضاء ، وكان محبوساً رهن التحقيق ، ثم أفرجوا عنه بالكفالة الشخصية ، وهو يحتاج إلى محام يدافع عنه ولكنه لا مال معه فهل أستطيع أن أدله على محام كريم ، أو أعينه بطريقة أخرى ..؟ وهو يترك الأمر بين يدى واثقاً من مروءتى وكرمى فان مثلى لا يخيب من يقصده

هذا هو الزبون الجديد ، وقد قلت لنفسى لما تلقيت هذا الكتاب العجيب : « والله نجحت يامازنى ! .. بلغت شهرتك أخفى الزوايا وتغلغلت إلى لصوص الكلاب .. ماشاء الله ! . أحسب أن اللص حين يخرج إلى السرقة بعد اليوم ، ستقول له زوجته أو أمه أو لا أدرى من غيرهما :

« هل أنت متأكد أن معك كل ما تحتاج إليه ؟ »

فيقول : « أيوه .. أيوه »

فتقول : « احذر أن تكون نسيت الطفاشة ! .. العدة كلها معك ؟ .. »

فيقول : « قلت لك أيوه .. ألا تسمعين ؟ »

فتقول : « والمازنى ؟ .. هل أخذته معك ؟ .. »

فيقول : « أوه .. طول الليل وأنا أقرأ كتابه .. وهل أستطيع أن أعمل شيئاً دون أن أقرأه ؟ .. أتظنيننى مغفلا ؟ أم تحسبين أنى حديث عهد بالفن ؟ »

فتقول : « لا .. إنما أردت أن أطمئن .. واسمع .. امش بحساب .. والبس القفاز قبل أن تلمس أى باب أو مفتاح أو حائط .. حاذر ! »

فيقول : « اطمئنى .. كل شىء على مايرام .. ومعى المازنى فلا تخافى ولا تقلقى »

ويلمس صدره حيث وضع الكتاب تحت ثوبه

***

ولكل قاعدة شذوذ واستثناء . وقد حدث منذ بضعة أيام ما كاد يغرينى بتغيير رأيى فى طبقات القراء الذين يحبوننى ويؤثروننى على من عداى من كتاب هذا الزمان . ذلك أنى كنت مدعوا إلى مادبة عشاء فاتفق أن أجلسونى إلى جانب سيدة عجوز شمطاء ، ودار الكلام على الأكل وكان بعض الذين يخاطبوننى يدعوننى : « الأستاذ » والبعض يؤثر أن يرفعنى درجة فيقول لى : « يا بك » ولكنه لم يدعنى باسمى أحد كأنه عيب لا يليق أن يذكر ولا سيما على مسمع من السيدات

ثم التفتت إلى العجوز وقالت : « إنى سعيدة »

فقلت باختصار : « أهنئك »

فألحت فى صرفى عن جارتى الأخرى ، وكانت فتاة هيفاء نضيرة الحسن وصوتها كالتغريد

« صحيح .. سعيدة جداً .. كل كتبك قرأناها »

فتركت الفتاة وأدرت وجهى إلى هذه العجوز وسألت باهتمام : « صحيح ؟ »

فقالت باضطراب رابنى : « كلها كلنا »

فقلت مردداً قولها : « كلكم ؟ .. كلها .. ؟ شىء جميل ؟ »

فقالت : « ابنى على الخصوص .. إعجابه بك لا حد له »

فأردت أن أستوثق وسألتها : « هل هو مريض ؟ »

قالت : « أعوذ بالله .. إن صحته جيدة جدا »

فقلت لنفسى إن هذا جديد ، فيحسن أن أتقصى الأمر وسألتها : « ألم يصبه مرض قط ؟ »

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

أمراء للبيع ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي الملقَّب طُوير الليل أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة (١) :

كان شيخنا الامامُ العظيم شيخُ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد (٢) لا يخاطب السلطان إلا بقوله: (يا إنسان) ، فما يخشاه ولا يتعبّد له ولا يَنحَلُه ألقابَ الجبروت والعظمة ولا يُزينه بالنفاق ولا يُداجيه كما يصنع غيره من العلماء . وكان هذا عجيبا ؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحدا قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينِه (يا إنسان) ، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسنَ ما في هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الانسانية .

ثم كان لا يعظم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء ، فاذا خاطب منهم أحداً قال له (يافقيه) . على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرفعة (٣) . ثم يخص علاء الدين بن الباجي وحده بقوله (يا إمام) ؛ اذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجة لا يكاد يقطعه أحد في المناظرة والمباحثة ؛ فهو كالبرهان إجلاله إجلالُ الحق لأن فيه المعنى وتثبيتَ المعنى .

وقلت له يوما : ياسيدي أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة ، فان علوت قلت (يا إنسان) وإن نزلت قلت يا إنسان ؛ أفلا يُسخطه هذا منك وقد تذوّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هي ظلُ الكلمات التي يوصف اللهُ بها ، ثم جعله الملك إنسانا بذاته في وجود ذاته حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة ، يستويان في العنصر ويتباينان في القدر ، وأقله مهما قلّ هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر ؟

فتبسم الشيخ وقال : يا ولدي إيش هذا ؟ إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه لا بمعناها في نفسها ؛ فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون دينا ؛ ولو نافق العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه ؛ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود . والمنافق رجل مغطًى في حياته ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لامغطى ؛ فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة ؛ وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل فاذا نافق فقد كذب ؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين فاذا نافق فقد كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهراً بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ويقومون بحجتها ، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور ، تحويه في نفسها وتلقيه على غيرها فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معا .

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف ؟ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير

---

(١) توفي سنة ٧١٧ هـ (٢) كانت وفاته سنة ٧٠٢ (٣) توفي سنة ٧١٠

قالت : « أبدا . . أبدا . . قوي جداً . . كسيد نصير »

قلت : « عجيب هذا . . »

فقالت : « كتبك كلها عندنا تراها في كل غرفة . . »

فسألتها : « أهي حسنة التجليد ؟ »

قالت : « لا . . كما اشتريناها . . كل بناتي وأحفادي يقرأونها ويحملونها معهم حيثما يكونون »

قلت : « شيء جميل »

فقالت : « أوه . . لشد ما يفرحون الليلة حين أقول لهم إني كنت جالسة إلى جانب تيمور بك »

ابراهيم عبد القادر المازني

حاشية – أرجو من الأستاذ تيمور بك أن يحول الى الشاء الذي يغلط به الناس كما حولت إليه حقه المازني

وعالم السوء يفكر فى كتب الشريعة وحدها ، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفى ، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة فى صاحب الشريعة فهو معه فى كل حالة يسأله : ـ ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الدينى لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجىء كل يوم من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلها لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء. هذا الذى لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه : هم يعطوننى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار يا ولدى اذا كان صحيحا فى أحد وجهيه دون الآخر أو فى بعضه دون بعضه فهو زائف كله . وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع أمثال هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم . . . فينزلونهم بذلك منزلة البهائم تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها . والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله . . .

فاذا رأيت لعلماء السوء وقارا فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو محاسنة فقل انها النفاق ، أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها

* * *

قال الامام وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام (١) . فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالى هلك فيه أو عاش إذ هو فى الدم كالقلب لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره . ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهام القوة قوة لا تغلب . وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التى تخيف كل شىء ولا تخاف؛ وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى فى الملك . فلو أن الشيخ دعا الناس إلى الخروج على لانتزع منى المملكة

(١) هو الامام العظيم شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركة الدنيا فى عصره توفى سنة ٦٦٠

وكان سلطانه فى دمشق الصالح اسماعيل ، فاستنجد بالافرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً ، فأتبعه الصالح بعض خواصه يتلطف به ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يامسكين أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدى . أنتم فى واد وأنا واد :

ثم قدم إلى مصر فى سنة ٦٣٩ فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتخفى به وولاه خطابة مصر وقضاءها . وكان أيوب ملكا شديد البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً ، ولا يتكلم فى أحد بحضرته ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك مالم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر . فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم : يا أيوب! ثم أمره بابطال منكر انتهى إلى علمه فى حانة تباع فيها الخمر . فرسم السلطان لوقته بابطال الحانة واعتذر إليه

فحدثنى الباجى قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت ياسيدى كيف كانت الحال ؟

قال يا بنى رأيته فى تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره ، فكان ما باديته به

قلت : أما خفته ؟

قال : يا بنى استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامى كالقط (١) . ولو أن حاجة من الدنيا كانت فى نفسى لرأيته الدنيا كلها ؛ بيد أنى نظرت بالآخرة فامتدت عينى فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شىء فى صورة شىء

نحن ياولدى مع هؤلاء كالمعنى الذى يصحح معنى آخر ، فاذا أمرناهم فالذى يأمرهم فينا هو الشرع لا الانسان . وهم قوم يرون لأنفسهم الحق فى إسكات الكلمة الصحيحة أو

(١) هذه كلمات الشيخ بحروفها

طمسها أو تحريفها ؛ فما بدٌّ أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق فى إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها . فاذا كان ذلك فهنا المعنى بإزاء المعنى ، فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها فيكون باطلا مزوَّراً فى صورة الحق وهنا تكون الذات مع الذات فيخشع الضعف أمام القوة ، ويذل الفقر بين يدى الغنى ، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف

كلا يا ولدى ! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها . فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير . وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذى فيها إذا هى لم تخزه ؟

إن العالم الحق كالمسمار ؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة . . .

***

قال الامام تقى الدين : وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس ؛ وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة ؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها . ففكر شيخنا فى هؤلاء الأمراء وقال إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد ؛ إذ يحسبون كل حَسَن منها هو الحَسَن وإن كان قبيحاً فى ذاته ولا أقبح منه ؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح وإن كان حَسناً ولا أحسن منه

وقال : ما معنى الأمارة والأمراء ؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد الكبير ، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله . وكان ينبغى أن تكون هذه الامارة أعمالا نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد ، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك ، فحكم الرق مُسْتَصْحَب عليهم لبيت مال المسلمين ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم ؛ ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة ، وأنه لا يصحح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى

ثم جعلوا يتسببون الى رضاه ويتحملون عليه بالشفاعات وهو مصر لا يعبأ بجلالة أخطارهم ولا يخشى اتسامه بعداوتهم ، فرفعوا الأمر الى السلطان فأرسل اليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه وهو رجل ليس له الا نفسه وما تكاد تصل يده الى ما يقيمه ، وهم وافرون وفى أيديهم القوة ولهم الأمر والنهى

وانتهى ذلك الى الشيخ الامام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه ، وأزمع الهجرة من مصر فاكترى حميرا أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج الى الشام . فلم يبعد الا قليلا نحو نصف بريد حتى طار الخبر فى القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى ، وسار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجه خروج نبى من بين المؤمنين به . واستعلنت قوة الشرع فى مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير ، فقيل للسلطان : إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك

فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الامة ، وأطلق له أن يأمر بما شاء وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه ، ولبس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر فى صورة الطائر

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم للساومة فى بيعهم وضرب لذلك أجلا بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كل القاهرة ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسوم فى هذا الرقيق الغالى

***

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة فبعث الى الشيخ يلاطفه ويسترضيه فلم يعبأ الشيخ به . فهاج هائجه وقال :

كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض ؟ وما الذى يفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه ؟ إنه يفقد مالا يملك ويفقد غير الموجود ، فلا جَرَمَ لا يبالى ولا يرجع عن رأيه مادام هذا الرأى لا يمر فى منافعه ولا فى شهواته ولا فى أطماعه كالذين نراهم من علماء الدنيا . أما والله لأضربنه بسيفى هذا فما يموت رأيه وهو حى .

ثم ركب النائب فى عسكره وجاء الى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب

فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى فانقلب الى أبيه وقال له : انج بنفسك ، إنه الموت ، وإنه السيف ، وإنه وإنه

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له : يا ولدى ! أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت فليس فيه الانسانى بل الالهى ؛ ونظر الى نائب السلطنة وفى يده السيف ؛ فانطلقت أشعة عينيه فى أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها

وتناوله بروحه القوية فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ

وأخذ النائب يبكى ويسأل الشيخ أن يدعو له ؛ ثم قال : ياسيدى ما تصنع بنا ؟

قال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم

— وفيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين

— ومن يقبضه ؟

— أنا

وكان الشرع هو الذى يقول (أنا) ، فتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء واحدا واحدا واشتط فى ثمنهم لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ . وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه . . .

ودمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع :

أمراء للبيع ! أمراء للبيع . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

القاهرة المعزية

ووجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

تقترب القاهرة المعزية من عيدها الألفى دون أن يثير ذلك فى دوائرنا الرسمية أو الأدبية كبير صدى ؛ ومن الغريب أن بعض الأجانب الوافدين الذين يكتبون عن بلادنا الفصول والملاحظات الطائرة لم يفتهم أن ينوهوا فيما يكتبونه عن القاهرة بأنها مدينة ألفية ، وأنها موطن الجامعة الألفية الوحيدة فى العالم ؛ ذلك أن هذه الحقيقة التاريخية تثير حقاً أعظم إهتمام من كل أولئك الذين يضطرمون إعجاباً بعظمة التراث الحافل ، ويحنون رؤوسهم إجلالا لروعة التاريخ

وإذا كانت القاهرة ليست هى المدينة الألفية الوحيدة بين حواضر العالم القديم ، وإذا كانت أثينة ورومة والاسكندرية وقسطنطينية تشاطرها هذا الفخر وتفوقها فى مداه ، بل تشاطرها هذا الفخر حواضر إسلامية أخرى مثل بيت المقدس ، ودمشق ، وبغداد ، فإنها مع ذلك تمتاز على هذه الحواضر جميعا بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنبا إلى جنب ؛ فالآثار الفرعونية الباهرة التى تغيض فيما وراء القرون تشرف عليها مجللة بروعة الخلود ، وآثار العصور الاسلامية المختلفة تنبث فى جنباتها وتسبغ عليها لونا إسلاميا عميقا وتزينها بكل ما ازدانت به هذه العصور المجيدة من فن وروعة وبذخ ؛ ثم أن بشائر العصر الحديث وأمارات الحضر الناضج ، وكل ألوان الحضارة المعاصرة بما فيها من تطور وتجديد وابتكار . تطبعها بطابعها القوى ، فهى من هذه الناحية من أجمل وأحدث العواصم القديمة ، بل هى تفوق من هذه الناحية عواصم العالم القديم : رومة وأثينة وقسطنطينية ، ومع ذلك فان هذا التجدد السريع لم يجردها من جلالها القديم ، ولم يخلع عنها تلك الروعة التى يسبغها تعاقب الأحقاب على الحواضر التالدة

وفى وسع القاهرة أن تتيه على عواصم العالم القديم كلها بتراثها الأثرى والفنى الباهر ؛ ذلك أنها فضلا عما يحتويه متحفها الفرعونى الشهير من الكنوز الرائعة التى لا تضارعها أية كنوز أثرية أخرى ، تحتفظ بأعظم مجموعة من آثار العصور الوسطى يمكن أن تفخر بها مدينة عظيمة ومنها آثار المدينة الألفية القديمة التي ما زالت ماثلة إلى يومنا

والقاهرة ليست مدينة عظيمة فقط ، وإنما هى كباقى حواضر العالم القديم عنوان حضارة ومجمع تاريخ ؛ وتاريخ الأمصار العظيمة من أهم النواحى فى تاريخ الحضارات والدول ، ولاسيما فى العصور الوسطى ، حينما كانت حياة المدينة ترتبط أشد الارتباط بمصاير حضارة أو دولة معينة . وإذا كان تاريخ أثينة والمجتمع الأثينى يعنى تاريخ اليونان القديم دولة وحضارة . وإذا كان تاريخ رومة ومجتمعاتها فى عصور الجمهورية والامبراطورية ، هو تاريخ الرومان والحضارة الرومانية ، وإذا كان تاريخ قسطنطينية فى العصور الوسطى ، هو تاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها ، فان تاريخ القاهرة وتاريخ أسرها الملوكية ومجتمعاتها الرسمية والشعبية هو تاريخ مصر الاسلامية وتاريخ حضارتها فى العصور الوسطى

٭٭٭

ولا ريب أن العيد الألفى لمصر من الأمصار التالدة أو منشأة من المنشآت الجليلة هو من الحوادث القومية العظيمة التى يحق للأمم أن تفخر بها وتعتز ؛ ذلك أن هذه الأعياد الألفية ليست من الاحداث العادية فى تواريخ الامم ، بل هو بالعكس احداث فريدة نادرة ، ومثولها فى تاريخ أمة من الأمم دليل على عراقة هذه الأمة فى ماضيها وحضارتها ودليل على ما تمتاز به من الحيوية والصفات الأزلية ؛ ومصر أمة أزلية بلا ريب ، وهى من هذه الوجهة تستطيع أن تتيه على أمم الأرض جميعا بما حباها الله به من صفات الأزلية والخلود التى ترجع بها إلى ما قبل عصور التاريخ ؛ وتتخذ الأمم العظيمة من الاشادة بهذه الذكريات والخواص الأزلية وسيلة للدعاية ، وتحيطها بأعظم مظاهر التكريم ، وتتبع فى ذلك سياسة ثابتة تقوم على تنفيذها هيئات خاصة يقظة لكل ما يجد من هذه المناسبات؛

وقد تضع هذه الهيئات برامجها وتبدأ استعداداتها للاحتفاء بأحدى الذكريات القومية العظيمة قبل وقوعها بأعوام عديدة ، فاذا حل موعد الذكرى كانت الاحتفالات العظيمة والمهرجانات الباذخة والمظاهرات القومية الرائعة التى تحج اليها الوفود من كل صوب ، والتى تتخذ وسيلة للدعاية الواسعة فى سائر الأقطار الأخرى

ولن يمض سوى القليل حتى تواجه مصر عيدين من أجل الأعياد القومية : هما العيد الألفى لقيام القاهرة المعزية ، والعيد الألفى للجامع الأزهر ؛ فماذا فعلت دوائرنا الرسمية والعلمية للاحتفاء بهذين الحادثين العظيمين ؛ أكبر الظن أنه لم تتخذ حتى الآن أية خطة رسمية مقررة فى هذا الشأن سوى ما رددته مشيخة الأزهر منذ ثلاثة أعوام فى شأن الاحتفال بعيد الأزهر ، ثم انقطع صداه بعد حين ؛ وأكبر الظن أنه سيمضى حين آخر قبل أن توضع برامج أو تقرر اعتمادات أو تتخذ أهبات فى هذا السبيل ؛ فاذا وفقت الجهات المختصة إلى اتخاذ أية خطوة عملية كان ذلك بعد فوات الوقت أو فى آخر لحظة ، وعندئذ يجىء الاحتفال خلواً من الروعة التى يجب أن تحاط بها مثل هذه المناسبات

والواقع أن ما تبقى من الوقت بيننا وبين هذين العيدين الجليلين لا يكاد يكفى لاتخاذ أهبات غير عادية ؛ فليس بيننا وبين عيد القاهرة الألفى الذى يقع فى شعبان سنة ١٣٥٨ سوى ثلاثين شهراً ؛ ويقع العيد الألفى للأزهر بعد ذلك بعدة أشهر فى جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ ؛ بيد أنه مازال ثمة متسع من الوقت يكفى للعمل الجدى المتواصل فى سبيل تنظيم الاحتفاء القومى بهذين العيدين فى نوع من الفخامة والجلال

٭٭٭

ولقد كانت القاهرة المعزية منشأة فاطمية ، نمت وترعرعت فى كنف الدولة الفاطمية الباذخة ، وشهدت فى ظلها ألوانا ساحرة من الفخامة والبذخ والبهاء ، يقصها عليك المؤرخون المعاصرون مثل المسبحى وابن الطوير وابن المأمون ؛ وكان الأزهر غرس الدولة الفاطمية اليانع ، بل كان أينع ما غرست دولة اسلامية ، وأعظمه قدراً ، وابعده أثراً ، وأبقاه على كر

العصور ؛ ولقد قامت الخلافة الفاطمية بمصر بعد قيام القاهرة والجامع الأزهر بقليل، فى رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ (يونية سنة ٩٧٣ م) حينما قدم المعزلدين الله أول الخلفاء الفاطميين بأهله وماله إلى القاهرة عاصمته الجديدة ؛ فنى أعوام قلائل يكون قد مضى ألف عام على قيام الخلافة الفاطمية بمصر . وقد كانت هى الخلافة الاسلامية المستقلة الوحيدة التى قامت بمصر الاسلامية، وعاشت فى ظلها أكثر من قرنين

أفلا يجمل أيضا أن نحتفى بذكرى الخلافة الفاطمية منشئة القاهرة والجامع الأزهر لمناسبة مرور ألف عام على قيامها بمصر ؟

إن ذكرى الخلافة الفاطمية ترتبط أشد الارتباط بذكرى القاهرة والأزهر حتى إنه ليصعب أن نحتفى بعيديهما دون أن تشغل ذكرى الخلافة الفاطمية مكانتها فى هذين العيدين ؛ ولن يكون للاشارة بهذه الذكرى سوى معناها التاريخي الجليل، ولن تحيط بها أى اعتبارات دينية أومذهبية ؛ ونذكر للتنويه بهذا المعنى التاريخي الجليل، أن اسبانيا النصرانية لم تر بأساً من الاحتفاء بذكرى الخلافة الاسلامية ؛ فنى سنة ١٩٢٩ احتفلت جامعة قرطبة بذكرى الخلافة الاسلامية لمناسبة مرور ألف عام على قيامها بقرطبة ؛ وقد كان قيام الخلافة الاسلامية فى قرطبة كما نعرف سنة ٣١٧ ﻫ الموافقة لسنة ٩٢٩ ميلادية، وكان أول خلفاء الأندلس من بنى أمية عبد الرحمن الناصر ، وهذه الذكرى التاريخية الجليلة هى التى احتفلت بها جامعة قرطبة فى سنة ١٩٢٩ ، وكان لتصرفها أجمل وقع فى العالم الاسلامى

ولقد جرت مصر الفتية الناهضة على انتهاز كل الفرص والمناسبات العلمية والاجتماعية الدولية والاشتراك فيها ، والاعلان عن نفسها بأحسن ماتعلن أمة حديثة ناهضة ؛ وهى تلبى كل عام عشرات الدعوات لشهود المؤتمرات والمعارض الدولية المختلفة والمهرجانات العلمية ولا تبخل فى ذلك السبيل بالانفاق لأنها تقدر كل ما تجنيه من الفوائد المعنوية والمادية من الاشتراك فى تلك الاجتماعات الدولية الكبيرة ؛ وقد كانت آخر مناسبة من هذا النوع اشتراكها فى معرض باريس الدولى، وهو اشتراك اقتضت نفقاته الرسمية منها زهاء عشرين الف جنيه ؛ فهل تبخل مصر بأن ترصد مثل هذا المبلغ بل أن ترصد اضعافه للاحتفال بعيد القاهرة وعيد أزهرها الألفى ؟

ان اقامة مهرجان ألفى لمدينة القاهرة تحج اليه وفود الأمم من أنحاء الشرق والغرب يكون أعظم دعاية لمصر التالدة ومصر الفتية الحديثة معا ، وأعظم وسيلة للتعريف عن ماضيها الباهر وعظمتها السالفة ؛ وأن اقامة مهرجان ألفى للجامع الأزهر تشترك فيه وفود الجامعات والهيئات العلمية من جميع الأمم يكون مظاهرة اسلامية علمية رائعة للاعلان عن الدور العظيم الذى أدته الجامعة الألفية فى تكوين التفكير الاسلامى لا فى مصر فقط ولكن فى العالم الاسلامى كله . وعن الصرح العلمي العظيم الذى كان الازهر قوامه والذى لبث ملاذ التفكير الاسلامى والآداب العربية قرونا مديدة ولا سيما فى عصور الاستعباد والانحلال الفكرى والاجتماعى

تلك دعوتنا المتواضعة نرسلها للمرة الثانية راجين أن تجد صدى قويا فى دوائرنا الرسمية والعلمية . فتعمل على تحقيق هذه الأمنية القومية الكبرى بكل ما يجب لها من روعة وجلال

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الوصف

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الوصف من صميم الفن ولباب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب، إذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجديد المرئيات من أشد الأمور تأثيراً في نفس الأديب، واستجاشة له إلى التأمل، ودفعاً له إلى القول؛ وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه، كما تحصى الصورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة من الشيء المصور، وإنما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصورة، وأبان عن أثرها في النفس، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطياف وأشجان وإطراب، وارتحال الأديب من صقع إلى آخر، ومن بلد إلى سواه ومن دواعي لجوئه إلى الوصف، يعرض فيه ما يتوالى على عينيه وحواسه من آثار ومظاهر؛ ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث في حياة الأديب بل من أهم مكونات شخصيته.

والوصف من أشد آثار الأدب امتاعا للنفس واستدعاء لانتباهها وإرضاء لغرائزها: إذ هو يرضى من الانسان غريزة التقليد والحكاية اشتى المرئيات والمحسوسات، ويروى منه الميل إلى إحساس صدى عواطفه لدى الآخرين، فهو يستريح إلى الأديب الذي يصف من المشاهدات ويروى من الاحساسات ما قد يكون القارىء مر به في مختلف أطوار حياته. والوصف أيضا يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة. ومن ثم نرى البيت أو البيتين يعرضان في القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو إحساس، فيكونان غرة القصيدة وأحب أبياتها إلى النفوس.

ولما كان الوصف ضربا من القول فنياً صميما، وكان يحتاج لتجويده إلى إطالة النظر وطول التقصي ورياضة الكلام، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تفي، كان الوصف يبلغ أوج ازدهاره حين يبلغ الأدب طوره الفني، باستقرار الأمة وتحضر مجتمعها وذيوع الثقافة بين أبنائها، واستعمال الكتابة الخطية وتوفر الفراغ للتروي والمعالجة والمعاودة للمنشآت الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التي تتسع وتترقى في طور الأدب الفني ذاك. ومصداق ذلك واضح في الأدب اليوناني قبل ازدهار الحضارة وبعده: ففي أشعار هوميروس لا يأتي الوصف إلا عرضاً ولا يوصف من الأشياء إلا ما دعت إليه الضرورة، وأكثر الاهتمام مصروف إلى القصص؛ فلما جاء شعراء الدرامة واستغلوا نفس موضوعات هوميروس أحياناً، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها.

وفي الشعر العربي الجاهلي شذرات من الوصف رائعة، إذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حداً لا باس به؛ وكان لبعض الشعراء إلمام بالموصوفات يبدون فيه ما عرف به العربي من توقد القريحة ونفاذ البديهة وبلاغة الايجاز؛ ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولا سيما الجياد والابل والظباء، وللمواقع والأطلال والأنواء، وفي المعلقات نماذج لكل ذلك ممتعة، حيث يصف كل من عنترة وامرىء القيس جواده ويصف لبيد ناقته، ويصفون جميعاً أطلال ديار أحبتهم

ومن أجود أوصاف الحرب في الشعر الجاهلي قول القائل:

صريف أنيابها صوت الحديد إذا	قض الحديد بها أبناؤها الوقر
في جوها البيض والماذى مختلط	والجرد والمرد والخطية السمر
جاءت بكل كمي معلم ذكر	في كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سرابيل من ماء الحديد ومن	نضح الدماء سرابيل لهم أخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم	لونان جون وأخرى فوقهم حمر

وبانتشار الحضارة وذيوع الثقافة اتسع باب الوصف في العربية أعظم اتساع، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وقصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم، ووصفوا الخمر ومجالس الشراب والطرب، ووصفوا الجواري والغلمان، ووصفوا الصيد والسباق، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية، فصوروا مناظر في الحمام وفي السوق ومواقف التخاصم والتقاضي، وأجريا الحوار بين شتى الأشخاص عاليهم وسافلهم. واشتهر أبو نواس بوصف الخمر، والبحتري بوصف القصور، والمتنبي بوصف الحروب، وابن الرومي بوصف الفواكه والمآكل وتصوير الشخصيات الهزلية ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللفظية والنكتة المعنوية

والتأنق والتظرف ، انعدم الحس أو كاد فى الوصف ، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء كالمحبرة أو الاسطرلاب أو القلم أو الكأس ، أو ماشابه ذلك مما هو فى غنى عن الوصف ، وما وصفه إلا تحصيل حاصل وإضاعة وقت ، فان الأصل فى الوصف الفنى كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم ، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فاترة . وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظرى ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم ؛ فلما أوغل الأدب فى التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول فى التعمل والإغراب ، انقلب الوصف فى أيدى أكثرهم إلغازاً ، فألغزوا فى أنواع المآكل والأسماء والآلات ، وبأمثلة هذا الضرب من الاحاجى السقيمة تمتلئ مقامات الحريرى وأشعار ابن نباتة المصرى وأضرابه

والأدب الانجليزى حافل منظومه ومنثوره بمحاسن الأوصاف؛ بيد أن باب الوصف فيه مخالف للوصف فى الأدب العربى من وجوه شتى : فهما مختلفان فى الموضوعات التى اتخذها كل منهما مادة وأدمن طروقها ؛ فقد تناول الأدب العربى — كما تقدم — وصف أنواع من الحيوان ، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية ، وتناول بعد ذلك قليلا من وصف الطبيعة والمجتمع ؛ أما الأدب الانجليزى فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أى شىء آخر ، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل ، ووصفها كان دأبهم أيا طرقوا من موضوعات القول ، فامتلأ الأدب الانجليزى بكنوز من أوصاف الطبيعة ، تكاثر ماقيل فى أى باب آخر من أبواب الشعر والنثر ؛ فالوصف الطبيعى مادة جانب عظيم من الشعر الانجليزى ، كما أن الوصف الاجتماعى مادة جانب عظيم من القصص والدرامات

وفى الأدب الانجليزى ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربى ، على أنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالانسانية الشاملة والشعور العميق ، ذلك هو وصف آثار الاقدمين من عمائر وحصون وتماثيل وصور وأبناء وعظائم ، ففى ذلك كله منادح للخيال ومجال للابتداع ومذاهب للفكر ، وتأملات فى أحوال الانسان وتقلب العصور والأحداث ، وتعظيم لقدرة الانسان وتقدير للفنون ، وكل ذلك يكاد يكون معدوماً فى الأدب العربى ، والمثل الرائع الفريد فى هذا الباب هو سينية البحترى التى لو كثرت مثيلاتها فى الأدب العربى لكان أرفع قدراً ، وكان أعلامه أسير فى العالمين ذكرا

ولم يقتصر أدباء الانجليزية على آثار التاريخ يستوحونها ما فيها من منادح الوصف الشائق والتصوير المجسم ، بل عمدوا إلى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ ، إذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الانسانية ومثلها العليا فى القوة والجمال والسعادة ، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلا لمنشآتهم ، ورصعوها بما شاءت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا فى أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالا لفنهم ، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سردا فنيا مسهب الوصف مشبعا بجميل المناظر والعواطف .

وكما يختلف الوصف فى الانجليزية عنه فى العربية فى الموضوع اختلافا كبيراً ، يخالفه فى الوسيلة مخالفة معدودة ، ففى العربية أوصاف بالغة من الكمال والامتاع ، بيد أنها جميعاً تعتمد على المعنى دون اللفظ ، وعلى التشبيهات والمجازات ، وتحتوى على كأن أو كاف التشبيه ظاهرة أو مستترة ، أما فى الانجليزية فيستعين الشعراء بجانب هاتيك جميعاً على وسيلة أخرى ، ليست أقل أداء للغرض وتصويراً للمنظر وإشباعا للخيال والحواس ، تلك هى الملاءمة بين صوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه

وهذه الطريقة التى يلجأ إليها الانسان عمدا وعن وعى فى طور الأدب الفنى ، قد لجأ إليها فى عهوده البدائية ، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلا منها على كائن من الكائنات ، أو صوت من الأصوات ، أو عمل من الأعمال ، أو غير ذلك . فالفاظ الرشاش والشواظ والسلسبيل والسكون وغيرها ، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين إنما اشتقوها من هيئة مدلولاتها ، فعلوا ذلك عفوا وبداهة ، حتى إذا ما بلغ الأدب الطور الفنى واستعان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجها إلى المعانى؛ وعند هذا الحد من التطور افترق الأدبان العربى والانجليزى فى طريقة استخدام الألفاظ . فأما الأدب العربى فجعل اللفظ غاية فى ذاته ، وجعل التأنق فيه مطمحا مستقلا ، وأما الأدب الانجليزى فعالج اللفظ وراضه وتانق فى صياغته ، ولكن لا على أنه غاية فى نفسه ، بل على أنه وسيلة للمعنى لا اكثر

فاذا كان فى المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد ، استخدم الشاعر الانجليزى بحراً من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ، وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع ، اختار من الالفاظ تلك التى تحتوى على حروف خشنة قوية ، وإذا كان يصف منظراً ساكناً وادعا

لم يذكر ذلك فى القصيدة ذكراً، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ماشاء له فنه، ككثرة العطف أو القطع، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطور أو الأبيات الكاملة. وقد اشتهر بالتفنن فى هذا التصوير اللفظى تنيسون وسبنسر وملتون، بل سائر أقطاب الشعر الانجليزى، بل جاراهم فى ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسون

وقد وقع شىء من ذلك فى بعض أشعار الوصف فى العربية، ولكنه كان إلهاماً محضاً أو اتفاقا عارضاً ساقت الشاعر إليه الصدفة السعيدة أو السليقة الجيدة، دون أن يتعمده عن وعى أو يتكلف فيه عناء كالذى تكلفه فى استخراج مابه من تشبيه ومجاز. ويتجلى الفرق بين الأدبين فى هذا الصدد فى علم البديع فيهما: فالبديع فى العربية يشمل الجناس والسجع وهلم جرا، وهى محسنات للفظ مستقلا بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى، أما علم البديع فى الانجليزية فيشمل الملاءمة بين جرس الألفاظ وبين المعانى التى تؤديها، ويشمل تشابه الحروف الأولى فى جميع ألفاظ الجملة الواحدة لأداء المعنى بطريق الجرس أيضاً، وغير ذلك من حيل بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم إليها فى العربية، لأنها لم تكن من مألوف أدبائها (١)

واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عبابها وتعدد أوزانها وقوافيها، وجمعها بين وعر الألفاظ ولينها، ودقيق الأوصاف وجليلها، وما لها من مرونة فى التراكيب ورحب فى الأساليب ومطاوعة لفن الأديب، هى خير معوان له على إبراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاور التراكيب، وتدفع الأوزان ورنين القوافى. انظر إلى الوزن كيف ساعد على إبراز المعنى فى قول بشار فى صوت مغنية:

تميت به أرواحنا وقلوبنا ... مرارا وتحييهن بعد هجود

وقول ابن المعتز فى خيل السباق:

خرجن ولعضهن قريب بعض ... سوى فوت العذار أو العنان
ترى ذا السبق والمسبوق منها ... كما بسطت أناملها اليدان

ساعدت السليقة المواتية أو الجد الموفق بشارا، فجاء بيته ذاك ببحره الطويل وحروف اللين المتتالية الوئيدة الحركة فى «تميت» و «أرواحنا» و «قلوبنا» و «مرارا» و «تحييهن» و «هجود» أصدق مصور لصوت المغنية إذا هى مددته وخالفت بين المدات فيه والقصرات، ويبدو ذلك جلياً إذا قرىء البيت على مهل. كذلك حالف التوفيق ابن المعتز فاختار لبيتيه البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل فى مجالها. وحالفه التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان، وفضلا عن أن تتابع هذين اللفظين مما يزيد الحركة جلاء، فإن ذكرهما مما يزيد الصورة تجسيما، فإن ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيرا ما يزيد الصورة وضوحا، ويبعث من تلقاء نفسه باقى الأجزاء إلى الخيال. ولذلك مثال آخر فى قول جميل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة، فهو يستتبع إلى المخيلة منظر الابل والأباطح والركب، ويرسم حركة المطى معا. ومما يزيد الحركة تصويرا أيضاً اختيار الشاعر البحر الطويل البطىء النغم. وهناك وسائل أخرى لتجسيم الحركة البطيئة، منها كثرة العطف ففيها دلالة على التطاول والتوانى، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة فإنها تستغرق نفس القارىء حتى يكاد يلهث بعد قراءتها، ومن ثم يشعر بالبطء فى المعنى تبعاً للبطء فى اللفظ. ومثال الوسيلة الأولى قول امرىء القيس فى تطاول الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

ومثال الثانية قول المتنبى:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منه زمازم

فقد احتوى بيت امرىء القيس على ثلاث جمل معطوفة، واحتوت الشطرة الأولى من بيت المتنبى على خمس كلمات كلها قصير، إذا قرأها القارىء متروياجاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش أو موحية بضخامته، فلم يذكر المتنبى صراحة ومباشرة أن الجيش كان ضخما، فيعتمد على المعنى وحده فى إعطائنا الصورة، بل أوحى إلينا بمعنى الفخامة بوساطة كلمات الشرق والغرب والزحف، ولاعلاقة لهذه الكلمات فى غير هذا البيت بالضخامة قط، وبذلك استخدم المتنبى اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهى هى الوسيلة التى استغلها أدباء الانجليزية قصداً وعمداً أكبر استغلال وأبدعه. أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المتدفع، وهو لذلك خير ما يصور فيه عدو الجياد، كما فى قول المتنبى

أقبلت تبسم والجياد عوابس ... يخببن بالحلق المضاعف والقنا

وقول ابن هانىء الأندلسى:

وفوارس لا الهضب يوم مغارها ... هضب ولا الوعر الحزون حزون

فى هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل. وقد ساعد التوفيق

(١) ليس فى اللغات كلها أوسع ولا أدق من علم البديع فى اللغة العربية. والمحسنات المعنوية فيه ثلاثة أرباعه. والنوع الذى يصفه الكاتب الفاضل فى الانجليزية يشبه (ائتلاف اللفظ والمعنى) فى العربية (الرسالة)

الشاعرين فى ألفاظهما بجانب الوزن الذى اختاراه ، فتكرار حرف الباء فى بيت أبى الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلة ووضوحا ، وتكرار كلمتى الهضب والحزون فى بيت ابن هانىء يوحى إلى المخيلة تتابع الهضاب والروابى أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الانسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة إلى ربوة . ويكاد البيت يعرض أمامك شريطاً سينمائيا متحركا ، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعته ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مفازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولهة ... حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

وقول ابن حمديس :

وراقصة لقطت رجلهـــا ... حساب يد نقرت طارها

وقول المتنبى :

فى سعة الخافقين مضطرب ... وفى بلاد من أختها بدل

ففى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تلفح وجوهنا وتمثلها تضرب جوانب الصخور ؛ وفى بيت الصقلى تتمثل حركة الراقصة السريعة الخاطفة ؛ وفى البيت الثالث تتمثل المتنبى على ظهر ناقته وهى تخالف بين أظلافها ممعنة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب الحركة واندفاعها ، على حين يمتاز بحر الخفيف بالتؤدة وزنة الحزن ، مما يجعله أليق البحور بالمراثى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب سيماء الوقار والشجن التى تتسم بها دالية المعرى المشهورة التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى ... نوح باك ولا ترنم شاد

وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتويا على بدائع من الوصف ، هى غذاء اللب ومتاع الخيال ؛ بيد أن آثارها فى الأدب الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعددا ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ، ووسائلها أكثر عددا واختلافا ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصرا بها وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعا إلى المجهود المتبصر الواعى ، بجانب الطبع الصادق المواتى على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت بعض أمثلته راجعا فى أكثر الأحيان إلى عفو الخاطر وهداية البديهة ، وما ذاك إلا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفا على فنهم ، وتفرغا لأدبهم . على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعريتهم به أولى

فخرى أبو السعود

ثورة دجـــلة

للأستاذ على الطنطاوى

« ازدادت دجلة يومي الاربعاء والخميس ٣ ، ٤ صفر ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد عرضة للغرق بين كل لحظة وأخرى ، وسبق الناس كلهم للعمل على إقامة السدود ، ولم تغمض فى بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شىء عظيم ... »

كانت تجرى فى الوادى حالمة سكرى ، غارقة فى بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التى تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء ، تختطفها منها فى غفلة من الطبيعة ، فلا يبصرها إلا الشفق الذى يطل من نافذة الأفق يرميها بنظرة الكاشح الحاشد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الخجل ، وتغمض عينيها من الحياء ثم تسرع فى جريها . . .

وكانت تلتقى بين ذراعيها العاشقين المدلهين ، كلما دجا الليل وأطفىء مصباح الكون ، وهم فى الزوارق ذوات الأجنحة البيض التى تشبه قلوبهم فى بياضها وخفقانها ، فتحدب عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنحهم الخلوة الحلوة الآمنة ، ، تترع نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغيبوا عن الوجود فى حلم فاتن بعيد . . .

وكانت تغضى عن هذا النخيل العاشق ، وقد تعانق كل زوجين منه ، وتلامسا بالشفاه ، واستسلما إلى الغيبة الهنيئة ، وعن هذه القصور التى تفيأت ظلاله ، سكرى بخمرة الجمال ، قد ضمت احناءها على حياة لذة وادعة ، ملؤها الحب . . .

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته . . .

° ° °

وكنت أذهب كل مساء ، إلى جسر مود ، انحدر إليه من الرصافة ، أمشى فى طريق ضيق ، كأنى أهبط وادياً من أودية بلادى الحبيبة ، ثم أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فاسلك شوارع الصالحية ، حتى أصل إلى المطار . . . حيث أبقى ساعة شاخصا إلى الأفق البعيد أتبصر فيه طيف موطنى الأصغر(١) وأتحسس نسمه فأشم فيه شذا الغوطة ، وانشق ريا نشرها العطر ، وعرف آسها ونسرينها ، وفلها وياسمينها ، وزنبقها ونرجسها . . حتى إذا قضيت

(١) أما موطنى الاكبر ، وموطن كل مسلم ، فكل بلد يقول أهله . لا إله إلا الله محمد رسول الله ، سواء لدى أقالوها بالعربية أم باى لسان

من ذلك وطراً ، عدت وقد خلا الجسر ، لحييت دجلة ، وصببت فى أذنيها آلامى وأحزانى ، واستمنحتها الراحة والاطمئنان ، ثم مضيت إلى وكرى المنعزل ، فى « الأعظمية » بنفس هادئة كدجلة مطمئنة كاطمئنانها . . .

* * *

وذهبت فى مساء الأمس ، كما كنت أذهب ، فاذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا الجسر الذى كان واديا تنحدر إليه ، قد أمسى جبلا تتسلقه ، وصار أعلى من الشارع وقد كان تحته ، وإذا الناس يقبلون عليه ، فأقبلت معهم وعلى وجهى من الدهشة والحيرة مثل ما على وجوههم من الروعة والفزع ، ونظرت فاذا النهر الذى كان يجرى فى الأعماق هادئا متطامنا حالما ، يبدو كأنه صفحة المرآة ، لا تنداح عليه دائرة ، ولا تموج فيه موجة ، قد علا وارتفع وعاد ثائراً هائجاً فضاحا ، له هدير ودردرة ، قد علاه موج كالروابى . . . وإذا هو قد نسى سنه ووقاره . وأضاع حلمه وعقله ، ورجع شابا مجنونا أهوج ، يقفز ويصرخ ، ويقرع الأرض بقدميه ، ويضرب بقبضته القويتين المخيفتين أبنية الشاطىء الآمن ، ويعبث بهذه الكرات الحديدية الضخمة ، التى أقيمت لتثبيت الجسر العائم والتى ترجح بالقناطير ، وتزن الصخور الجلاميد ، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبى كرته . . . وإذا هو مرعب حقا ، يدخل الروع على أجلد الرجال . . .

وكانت الوجوه كالحة ، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد والماء يرتفع ، لم يبق بينه وبين الشاطىء إلا شبر واحد . لقد بلغ عمق المياه خمسة وثلاثين مترا وعشرين معشارا . . . وخمسين . . . إنه لا يزال يرتفع . . . لقد صاقب الشاطىء . . . إن بغداد فى خطر !

* * *

وطارت كلمة الخطر على الألسنة ، ففزع الشعب ، واهتمت الحكومة ، ووضع قانون المساعدة الالزامية ، فابتدر الناس الشاطىء ، واستبقوا إلى العمل . . . يقيمون السدود ، ويضعون للجنون القيود ، ولكن المجنون لا يبالى بقيد الذباب . . . إنه يقتل أمة منها بضربة واحدة . . .

إن النمر(١) يقفز فى حبسه ويثب ، لقد جن : إنه يريد أن يخرج فينبعث فى الأرض ، يريد أن يمشى إلى هذه الجنات الظليلة ، التى طالما أمدها بالحياة . وحمل إليها النعمة ، ليحمل إليها الموت !

, بدأ الصراع المهول بين الطبيعة والانسان . . . وامسى المساء على بغداد وهى قائمة على قدم وساق ، ليس فيها من يبيع أو يشترى أو يلهو أو يلعب ، أو يطعم أو يشرب . . ليس لها إلا غاية واحدة ، هى النجاة من الغرق . . .

وكنت قد بلغت منزلى فصعدت السطح ، فانحسرت أمامى صفحة دجلة . وهى تلتوى من حول الأعظمية كالأفعى ، اطبقت بها كالقضاء النازل ، وقد استرخت عند المنحنى وتمددت على الحقول والدور التى هجرها أهلوها ، فصار عرضها أكثر من ألفى متر . . . وصارت بحراً خضما ، ولكنه يركض دفاعا يحمل فى طياته الموت والغرق والخراب ، وكانت حمرة الشفق تخالط الماء ، فيلتهب فيبدو كأنه أتون مستعر ، أو كأنه جهنم الحمراء . . .

وبسط الليل ثوبه الأسود على الدنيا ، فأخفى تحته ثمانية وأربعين ألف شاب ، يشتغلون لينقذوا بغداد من الغرق المحقق ، من ورائهم أربعمائة ألف قلب ، تحوطهم بالرعاية والحب . . .

واستمر الصراع المهول . . .

* * *

وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم فى يوم القيامة ؛ غير أن المرء فى يوم القيامة يجد ما يشغله عن أمه وبنيه ، وصاحبته وأخيه ؛ وهنا أم حائرة مولهة قد ضاع منها ولدها فى وسط الزحمة فهى تعدو وتصيح من غير وعى لا تدرى أهو فى الأحياء ، أم افترسه هذا النمر الجبار . . . وهنا بنت تفتش عن أمها ، وولد ينادى أخاه ، وأسرة قد هيأت متاعها ووقفت على باب الدار تنظر الساعة الرهيبة التى يطغى فيها الماء فيدك أدوارها وما فيها ويدعها فقيرة مسكينة ، مسكنها الشارع ... وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون ، يتسابقون إلى الخطر ... وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت ، والجنود يعملون فى كل مكان بهمم الأسود ...

كان الصراخ يملأ الجو : هتاف الشباب ، وأنغام الجند ، وصياح النساء ، ونداء الأولاد ، والنهر فوق ذلك كله يهدر هديره المستمر المرعب ، فيكون له فى هذا الليل دوى مخيف ، والحركة متصلة ، والشوارع ممتلئة بالناس . . .

ولكن السلامة توالت . ووقف النهر عن الارتفاع ، ولم يقع البثق (أى الكسر) الذى كانوا يخشونه ، وكان قد تصرم الهزيع الأول من الليل ، فأمن الناس ، وتفرقوا إلا قليلا قاموا يحرسون النهر ، ودخلوا بيوتهم ، وولجت دارى أستريح ، فما لبثت أن ذهبت فى رقدة عميقة .

* * *

رأيت المياه تنساب فى كل جهة ، تغنى أغنية الرعب ، تقتلع البيوت ثم تلقى بها إلى بعيد ، وتلج فى باطن الأرض ثم تقلبها بما

(١) اسم دجلة بالفرنسية (Tigre) وبالانجليزية (تايجرس) ومعناها كلها . . . النمر !

عليها ، وتصعد فى الجو ، ثم تنزل كالبلاء المصبوب . . ثم انصدع صدع عظيم وهويت إلى قعر الهاوية ، وكان حولى مئات من النمور والفهود والأفاعى ، وسمعت رعداً شديداً ، ورأيت برقاً ومطراً ، ثم عادت السيول تجرى وتدحرج آلافا من الصخور .

. . . ففتحت عينى . . وإذا الحلم حقيقة ، وإذا الصيحة فى الحى والقيامة قد قامت ، وخفارات الحراس ، وأبواق الجنود تصدح باستمرار ، والنساء يولولن ويعدون ، والأطفال تبكى وتركض فى كل مكان ، والرجال تصيح طالبة النجدة ؛ وتبينت وسط الضجة الكلمة الرهيبة : كسر النهر . . النهر انكسر !

وتدفق سيل العرم !

* * *

إن هذا النهر الذى جاء من قمم الأناضول الشاهقة وسلك على السهول الممرعة ، والصحارى المجدبة ، قد تعب من سيره الطويل المضنى . فجاء يستريح على هذه الحقول التى زخرفها الربيع وأزهر فيها النارنج ، وفتح الورد والقرنفل والفل ، وانزع نسيمها العطر . فيحيل ذلك كله إلى صحراء قاحلة . . جاء يغرس هذه الحياة الرخية السعيدة بزور اليتم والفقر والنكد .

ولكن الذنب علينا ؛ لو أنا أنشأنا له ماوى يستريح فيه وسريراً ينام عليه ، لهجع فيه إلى أيام الصيف ، ثم لخرج بالبركة واليمن إلى أراضينا وبلادنا !

* * *

تركت الدار وخرجت أسبح فى هذا الخضم من الناس ، أدفع النساء والشيوخ والشباب ، لأصل إلى الشاطئ فأعمل عملا ولست أدرى ما ذا أعمل ؟ ولست أحسن السباحة ، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابى ، ولم أفكر فى شىء من ذلك لأن الانسان لا يفكر فى ساعة الخطر ، وإنما يعمل . . فلما وقفت على الصدع هالنى وارعبنى أن النمر قد أفلت من القفص . وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب ، كاشراً عن أنيابه يزمجر ويزأر ، ويبرق ويرعد

إن الماء يندفع إلى العلاء بقوة الديناميت ، ثم ينزل على الحقول ، فنقضى فيها مكتسحاً كل شىء فى طريقه ، يقتلع الأشجار الضخمة ، ويقذف بها كأنما هى عيدان الكبريت ، وينسف البيوت كأنما هى أعلب من الورق ، ويتدفق من كل جهة . . . وقد ابتلع صوته المدوى كل ضجة ، وملأ الأسماع بترتيلة الموت المستمرة . . . وكان لمنظره فى ظلمة الليل صورة لا توصف . .

وأقدم الناس ، يسبقون الماء ليقيموا فى وجهه السدود ، ليقيدوا هذا النمر الهائج بحمية منقطعة النظير ، وحماسة نادرة المثال . . . وأقدمت أخوض هذه اللجة من الناس ، لأصل إلى هذه اللجة الطامية من الماء أمشى فى ظلمتين : ظلمة هذا الحشد المزدحم . وظلمة الليل البهيم ، أتعرض لرهبتين : رهبة الليل وسواده ، والسيل واندفاعه . أصغى إلى لحنين : لحن الروع على ألسنة الناس ، ولحن الهول على لسان النهر . . .

ولم أخش شيئاً . . .

إنها ساعة الخطر . . .

بوركت ياساعة الخطر ! أنت لحظة الانسانية . أنت التى تورق فيك أغصان الحب ، ويزهر فيك الاخلاص ، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين . قد خرجوا من أطماعهم ومات فى نفوسهم الحسد والبغضاء وعاش فيها الحب والتضحية والاخلاص والوئام . .

* * *

تقدمت إلى الأمام ولكنى لم أصل إلى شىء ، لأن الناس كانوا يستبقون العمل ، ويهرعون إلى الموت ، كأن العمل غنيمة ، والموت وليمة . . وكانوا يصرخون صراخ الحمية ، ويهتفون باسم الوطن والمروءة والشجاعة . . ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع ، والماء يزداد اندفاعاً ، فكلت الأيدى النشيطة ، وجمدت الصيحات والأناشيد على الشفاه ، وخامر الناس اليأس . .

هنالك انتبهت فا ذا أنا أسمع النشيد الذى ارتقبه وأصبوا إليه ، ليس نشيد الوطن والمروءة ولكنه أجل وأقوى ، النشيد الذى له قوة السيل ، وعظمة البحر ، وبهاء الشمس ، وصلادة الصخور . النشيد الذى لا يقوم له شىء ، النشيد الذى كان أجدادنا يهتفون به ، كلما حاقت بهم ضجة فيدكون به كل حصن ويكتسحون كل عدو ، ويخلصون من كل خطر . النشيد الذى يحيل الجبان بطلا . واليأس أملا ، والطفل رجلا . .

ذلك هو نشيد الرجال والنساء والأطفال بصوت واحد يجرى على قرع الطبل ، فيشق الليل ، ويخشع له كل من يسمعه حتى النخيل والحقول ، والسحاب والنجوم ، وهذا النمر الثائر

الله أكبر ـ الله أكبر ـ لا إله الا الله

الله أكبر ـ الله أكبر ـ ولله الحمد

* * *

وبدأ الصراع كرة ثانية . .

وأقبلوا على العمل بهمم لا تنثنى ، وقلوب لا تلين ، وسواعد لا تكل . .

وصب النشيد فى عروقهم روح الظفر . . .

فظفروا . . .

* * *

وعند ما كانت الشمس تطبع أول قبلاتها على جبين الكون كان الموكب الظافر قد رجع ، يحمل أجمل أزهار الرياض التى أنقذها وحماها من الغرق . . . يمشى فيه الجند والطلاب ، بصفوف

سر مجهـــول
فى تحريم لحم الخنزير
للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

ويمكننا بعد هذا أن نحكم بأن الخنزير من جنس السباع مثل الكلب ، لأنا إذا جرينا على ما جاء فى القاموس من أن السبع هو المفترس من الحيوان فالخنزير يفترس الحيوانات كالسبع ، خصوصا إذا لم يجد ما يأكله من العشب . فإنه يصير إلى أن يكون آكل لحوم ، فيفترس الحيوانات الحية ، ويأكل من لحومها ، كما جاء فى كتاب (الحجج البينات فى علم الحيوانات)

وكذلك إذا جرينا على ما جاء فى كتاب النهاية لابن الأثير من أن السبع هو ما يفترس الحيوان ويأكله قهرا وقسرا ، لأن هذا يوجد فى الخنزير أيضا . أما إذا جرينا على ما ذكره أبو حنيفة من أن كل ما أكل اللحم فهو سبع فأمر الخنزير فى السبعية عليه أظهر ، لأنه لا يشترط فيها الافتراس كما اشترطه فيها غيره ، بل يكتفى فيها بأكل اللحم ، ولذلك عد الفيل ونحوه من جنس السبع

فأما إذا جرينا على ما ذكره الشافعى من أن السباع المحرمة هى التى تعدو على الناس فانا نجده ضيق فى ذلك بما لم يضيق به غيره ، ولكن الخنزير يدخل فى السباع على ذلك أيضاً ، لأن الخنازير كثيراً ما تجاهر الناس العداء وتحمل على الانسان بدون أن يغيظها ، كما جاء فى دائرة معارف البستانى

على أن الحديث الوارد فى تحريم السباع (كل ذى ناب من السباع فأكله حرام) يظهر منه أن لأنياب السباع أثراً فى تحريمها ، بل الظاهر منه أنها هى العلة فى هذا التحريم . ولا شك أن هذه العلة فى الخنزير أظهر منها فى سائر السباع لأن قوة نابه لا توجد فى غيره منها ، وقد بلغ من أمرها أن يتغلب بها أحياناً على الأسد ، كما جاء فى كتاب حياة الحيوان وغيره من الكتب القديمة والحديثة فى علم الحيوان

وإذن يكون تحريم لحم الخنزير لسبعيته ، وتكون هذه السبعية هى التى جعلت الاسلام ينظر إليه هذه النظرة البغيضة . وإذا كان الاسلام قد اهتم بأمره أكثر من غيره من السباع فأنزل تحريمه فى القرآن الكريم ، وحكم بنجاسته مع تحريمه ولم يحكم بنجاسة غيره من جنسه ، فان الجاحظ رحمه الله قد بين حكمة ذلك فى كتاب الحيوان (ج ٤ ص ١٣) وإن كانت هذه الحكمة قد جاءت فى الموازنة التى عقدها بينه وبين القرد ، لا فيما نحن بصدده من ذلك الأمر السابق ؛ وهذا ماقاله فى تلك الحكمة : إنما خص الخنزير بالذكر دون القرد مع استوائهما فى المسخ لما فيه من قبح المنظر ، وسماجة التمثيل ، وقبح الصوت ، وأكل العذرة مع الخلاف الشديد ، واللواطة المفرطة ، والاخلاق السمجة . وقد زعم ناس أن العرب لم تكن تأكل القرود . وكان بعض كبار القبائل وملوكها يأكلون الخنزير ، فأظهر الله لذلك تحريمه إذ كان هناك عالم من الناس . وكثير من الاشراف والوضعاء . والملوك والسوقة ، يأكلونه أشد الأكل ، ويرغبون فى لحمه أشد الرغبة .

منتظمة ، قرأت فيها أروع شعر الحياة . . . كما تلوت فى هذه الجماهير المنثورة فى كل مكان أبلغ « نثرها » . . .

وكان الاشراق يكسو الوجوه ، وغناء النصر يرقص على الألسنة . . .

فوقفت أحيي هذه المواكب الماجدة ، حتى غابت عنى فى طريقها إلى بغداد :

ألف تحية أيها الأبطال الذين مشوا إلى الموت ، لينقذوا بلادهم من الموت .

ألف تحية أيها الشعب القوى العامل الجرىء .

ألف تحية أيها الطلاب المبرؤون الذين حملوا الفئوس والمعاول ، وأقاموا من جسومهم الملساء الناعمة سداً فى وجه هذا السيل الطامى . . .

ألف تحية أيها الجنود البواسل ، ياحماة الديار ، يامن وطنوا نفوسهم على محاربة كل من يريد ببلادهم شراً ، سواء لديهم أكان جبارا من جبابرة الأنس ، أو عفريتا من عفاريت الجن ، أو قوة من قوى الطبيعة . . .

لكم منى ألف تحية ، ألف سلام !

(بغداد) **على الطنطاوى**

ثم ذكر أن الخنزير يكون أهلياً ووحشياً كالحمير والسنانير مما يعايش الناس ، وكلها لا تقبل الآداب ، وأن الفهود وهى وحشية تقبل كلها ذلك ، كما تقبله البوازى والشواهين وغيرها ، والخنزير وإن كان بهيمة فهو فى طباع ذئب

فهذه الخصال التى اجتمعت فى الخنزير هى التى جعلت الاسلام يهتم بأمر تحريمه ذلك الاهتمام ؛ والمهم منها فى نظرنا ما ذكره الجاحظ من شغف كثير من الناس بأكل لحمه واستطابته فان هذا فى الحقيقة هو الذى اقتضى أن يعنى بأمر تحريمه فى الاسلام هذه العناية .

وقد أجمع الفقهاء بسبب ذلك على تحريم لحم الخنزير واختلفوا فى تحريم لحم غيره من السباع ، لأنه لم ينص على تحريمها فى القرآن كما نص على تحريمه ، ولكن جمهورهم على تحريم لحمها أيضاً ، ومن خالفهم فى ذلك قال بكراهة لحمها دون تحريمه . وقد اختلفوا أيضاً فى تحريم الخنزير البحرى ، قال الربيع : سئل الشافعى رضى الله تعالى عنه عن خنزير الماء ، فقال : يؤكل

وروى أنه لما دخل العراق قال فيه حرمه أبو حنيفة وأحله ابن أبى ليلى ، وروى هذا القول عن عمر وعثمان وابن عباس وغيرهم . وقد أبى مالك أن يقول فيه شيئا ، وأبقاه مرة أخرى على جهة الورع . وحكى ابن أبى هريرة عن ابن خيران أن أكارا صاد له خنزير ماء وحمله إليه فأكله ، وقال كان طعمه موافقا لطعم الحوت سواء . وقال ابن وهب سألت الليث بن سعد عنه فقال : إن سماه الناس خنزيرا لم يؤكل ، لأن الله حرم الخنزير

وهذه العلة التى ذكرناها فى تحريم لحم الخنزير قد علل بها تحريم لحم الكلب أيضا ، ولا يخفى أن الخنزير والكلب يتساويان فى نظر الشارع من هذه الناحية . وقد صرح ابن حميد السالمى الفقيه الاباضى بهذه العلة فى تحريم لحم الكلب فقال فى باب أحكام صنوف الحيوانات من أرجوزته المسماة (جوهر النظام فى علمى الأديان والأحكام)

وما الكلابُ عندنا حلالُ ولا السّنانير كما يقالُ

لأنها من السباع الضارية وبعضهم أحلها علانيَه

وهذه العلة أظهر فى الخنزير من الكلب ، لأنها تعتمد على وجود الناب الذى يحصل الافتراس به ، وقد سبق أن الخنزير أقوى الحيوان ناباً ، حتى إنه يتغلب بقوة نابه على الأسد وغيره

أما حكمة تحريم لحم السباع فحفظ الانسان من صفاتها الوحشية المنافية لبقاء العمران ، لأن غذاء الانسان له تأثير كبير فى صفاته وأخلاقه . وقد غالى بعض الشرائع فحرم لحم الحيوان مطلقا لأنه يورث فى نفوس البشر ما يورث من القسوة والغلظة . والشريعة الاسلامية تنظر إلى لحم الحيوان نظرة معتدلة ، فتبيحه فى اعتدال ولا تحرمه على أهلها . وقد روى أن من داوم على أكل اللحم أربعين يوما قسا قلبه . وقيل فى ذلك أيضا (إنما أهلك الناس الأحمران النبيذ واللحم) وعن عمر رضى الله عنه قال : إياكم واللحم فان له ضراوة كضراوة الخمر وإن الله يكره أهل البيت اللحميين . ولعل الأيام المقبلة تظهر فى تحريم لحم السباع حكما أخرى غير هذه الحكمة .

عبد المتعال الصعيدى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

٣٨ — فمن لها بزياد أو بحجاج

الأبيوردى الأموى :

دهر تذأب من أبنائه نقد
وأوطئت عرب أعقاب أعلاج (١)
وأينع الهام لكن نام قاطفها
فمن لها بزياد أو بحجاج (٢)
وكم أهبنا إليها بالملوك فلم نظفر بأروع، للغماء فراج !

٣٩ — أفضل المناديل

فى (الكامل) :

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه (وكان يجتنب غير الأدباء) : أى المناديل أفضل ؟

فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرْقىء البيض (٣)

وقال آخر : مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع (٤)

فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً . أفضل المناديل ما قال أخو تميم (يعنى عبدة بن الطيب) :

ثمت قمنا إلى جُرْدٍ مسوَّمة أعرافهن لأيدينا مناديل (٥)

٤٠ — كفيت الدعوة

فى (مجمع الأمثال) للميدانى :

أصل هذا المثل : (كفيت الدعوة) أن بعض المجان نزل براهب فى صومعته ، وساعده على دينه ، وجعل يقتدى

(١) النقد : صغار الغنم واحدتها نقدة والجمع نقاد . يقال : هو أذل من النقد

(٢) فى خطبة الحجاج فى الكوفة : انى لأرى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها وانى لصاحبها

(٣) الغرقىء قشر البيض الذى تحت القيض ، والقيض القشرة العليا اليابسة على البيضة . والآح والغرقد بياض البيض والمح صفرة البيض

(٤) الأنوار : الازهار

(٥) الجرد : الخيل لقصار الشعرة . المسومة : المعلمة

به ، ويزيد عليه فى صلاته وصيامه ؛ ثم إنه سرق صليب ذهب كان عنده ، واستأذن لمفارقته ، فأذن له ، وزوده من طعامه . ولما ودعه قال له : (صحبك الصليب) على رسم لهم فيمن يريدون الدعاء له بالخير . فقال له الماجن : (كُفيت الدعوة . .) فصار مثلا لمن يدعو بشىء مفروغ منه

٤١ — فارجف فى السما

كان ببغداد شخص يقال له ابن بشران ، وكان كثير الأراجيف فمُنع من ذلك ، فقعد على الطريق ينجم ، فقال فيه ابن صابر :

إن ابن بشران ولست ألومه من خيفة السلطان صار منجما
طبُع المَشْوُم على الفضول فلم يُطق فى الأرض إرجافاً فارجف فى السما (١)

٤٢ — انك عن لسانه تنطق

فى (طبقات الشعراء) للجمحى :

أتى الفرزدقُ الحسنَ البصرىَّ (٢) فقال : إنى قد هجوت ابليس فاسمع

قال : لا حاجة لنا بما تقول

قال : لتسمعنّ أو لأخرجنّ فأقول : إن الحسن ينهى عن هجاء ابليس . .

فقال الحسن : اسكت فانك عن لسانه تنطق . .

٤٣ — الشيطان أصلح للشاعر

فى (ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) للثعالبى :

من ظريف أمر حسان أنه كان يقول الشعر فى الجاهلية فيجيد جداً ، ويغبّر فى وجوه الفحول ، ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه ـ كعبارة الشعراء فى ذلك ـ فلما أدرك

(١) فى (شفاء الغليل) ميشوم ومشوم خطأ عامي وصوابه مشؤم قاله الزبيدى . وفى (القاموس) . رجل مشؤم ومشوم . وفى (التاج) ومشوم نادر وحكمه السلامة

(٢) بكسر الباء نسبة الى البصرة وفى بائها ثلاث لغات والعالية الفتح . وفى (اللسان) البصرة حجارة رخوة الى البياض وبها سميت البصرة . وفى (القاموس) أو هو معرب (بس راه) أى كثير الطرق

الاسلام وتبُدِّل بالشيطان الملاكُ تراجع شعره، وكاد يرك قوله؛ هذا ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر، وأليق به . . .

٤٤ — متى تجوع ببطن غيرك

فى (كتاب القضاة): قال سهل بن على: كنت ألازم خير بن نعيم القاضى وأجالسه وأنا يومئذ حديث السن. وكنت أراه يتجر فى الزيت، فقلت له: وأنت أيضا تتجر؟! فضرب بيده على كتفى ثم قال: (انتظره حتى تجوع ببطن غيرك) فقلت فى نفسى: كيف يجوع انسان ببطن غيره؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم

٤٥ — عمل كل واحد محضرا

قال ابن خلكان: أخبرنى ابن مطروح انه جرى بينه وبين أبى الفضل جعفر بن شمس الخلافة منازعة فى هذا البيت:

وأقول: يا أخت الغزال ملاحة!

فتقول: لا عاش الغزال ولا بقى!

فزعم ابن شمس الخلافة ان هذا البيت له من جملة قصيدة هى فى ديوانه، وعمل كل واحد منهما محضرا شهد فيه جماعة بان البيت له. وحلف لى ابن مطروح ان البيت له، وكان محترزا فى أقواله، ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له

٤٦ — الحظوظ مقسومة

فى (معجم البلدان) لياقوت الحموى: رووا عن ابن عباس انه قال: الحظوظ المقسومة لا يقدر أحد على صرفها ونقلها عن أما كنها. ألا ترى سكة اصطفانوس (فى البصرة) كان يقال لها سكة الصحابة، نزلها عشرة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم تضف الى واحد منهم، وأضيفت الى كاتب نصرانى من أهل البحرين وتركوا الصحابة؟

٤٧ — ماتنكر لله قدرة

فى (كتاب قضاة قرطبة):

من المستفيض عن القاضى (أسلم بن عبد العزيز) قوله لرجل من أهل لبلة وقد أتاه وسلم عليه ثم جلس ثم قال: أتعرفنى ياقاضى؟

قال له: لا

قال: أنا قاضى لبلة

فقال أسلم: ما تنكر لله قدرة . . .

٤٨ — أحسن توجيه

فى (خزانة) البغدادى:

كان أمين الدولة أبو الحسين بن صاعد الطبيب قاطع (محمد بن حكينا) ثم استماله، وكان ابن حكينا قد أضر بصره وافتقر فكتب اليه:

وإذا شئت ان تصالح بشار بن برد فاطرح عليه أباه. فنفّذ اليه بردا واسترضاه فاصطلحا. وهذا أحسن ما سمعت فى التوجيه [1]. قوله (بشار بن برد) أى: أعمى (فاطرح عليه أباه) هذه لفظة بغدادية، يقال لمن يريد أن يصالح: اطرح عليه فلانا أى احمله إليه ليشفع لك. ولم يتفق لأحد فى التوجيه أحسن من هذا

٤٩ — ابن ورد يبغى أباه

مر العالم أبو القاسم بن ورد بجنة لأحد الأعيان، فيها ورد، فوقف بالباب وكتب إليه:

شاعر قد أتاك يبغى أباه
عند ما اشتاق حسنه وشذاه

فلما وقف على قوله علم أنه (ابن ورد) فبادر من جنته إليه، وأقسم فى النزول عليه، ونثر من الورد ما استطاع بين يديه

(النقل ممنوع)

(١) التوجيه أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالا مطلقا من غير تقييد بمدح أو غيره وتوجيه (المتأخرين) هو ابهام (المتقدمين) ومن شواهد الابهام:

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن
يا امام الهدى ظفر ت ولكن ببنت من؟

ومن شواهد التوجيه:

من أم بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن (قرة) والكف عن (صلة) والقلب عن (جابر) والاذن عن (حسن)

قرة بن خالد السدوسي، صلة بن أشيم العدوى، جابر بن عبد الله (لا جابر الجعفى) الحسن البصرى.

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٣ —

الديانة المصرية — التأليه فى العصور التاريخية

أثرت أقاصيص المعارك التى اشتعل أوارها بين المصريين فى عصور ما قبل التاريخ فى نفوس أبنائهم المصريين المدنيين تأثيراً دفعهم إلى تحوير هذه الأقاصيص الاجتماعية إلى أساطير دينية فزعموا أن « أوزيريس » — وهو إله الانبات والخصوبة وبالجملة إله النيل — قد استعان بأخته وزوجته « إيزيس » إلهة الحكمة والتشريع والسحر ورمز الوفاء والإخلاص ، وبوزيره « توت » إله العلم والتدبير وبعض الآلهة الآخرين على تكوين مملكة إلهية عظيمة فى مصر . وكان لهذا الآله أخ وهو « سيت » إله الشرو القحط والاجداب فحقد عليه من أجل هذا الجلال الباهر الممثل فى مملكته العظيمة الصافية ، ولأنه لا يستطيع مجابهته وجها لوجه رهبة منه وفرقاً أمامه ، فقد غدر به إذ احتال عليه بحيلة شيطانية حتى أدخله فى تابوت كان قد صنعه خصيصاً لهذه الخديعة بحجة أنه يود أن يعرف سعة هذا التابوت ، ثم أقفله عليه وقذف به فى النيل فحمله التيار إلى المصب وسلمه إلى البحر الأبيض فحمله هذا البحر من المصب إلى « بيبلوس » . وفى أثناء ذلك افتقدته زوجته الوفية فلم تجده ، فأدركت ما حدث له ، فصممت على أن تفتش عنه حتى تعيده إلى الحياة وإلا لحقت به ، وظلت تجهد نفسها فى البحث عنه حتى عثرت عليه وأعادته إلى الدلتا وقبل أن تتمكن من فتح التابوت فاجأها « سيت » وتغلب عليها بقوته ثم مزق جسم أخيه أشلاء عددها اثنان وسبعون شلوا ، ألقى بكل شلو منها فى مقاطعة من مقاطعات مصر ، وكان عددها إذ ذاك يساوى عدد هذه الأشلاء ، فلم يفت ذلك فى شجاعة إيزيس ولم يضعضع من عزيمتها ، بل ثابرت على جمع هذه الأشلاء المتناثرة حتى استكملتها ووضعت كل واحد منها فى مكانه الطبيعى ، ثم تلت عليه بعض ما تعرفه من الرقى والتعاويذ السحرية ، فعاد إلى الحياة ، ولكنها حياة لا تشبه الحياة الأولى ، فلم يلبث على الأرض إلا بقدر ما أنسل « هوروس » ثم غادرها واستبدلها بمملكة الأموات العظيمة حيث أصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم واصدار الأمر لهم أو عليهم بالنعيم أو بالجحيم

وقد استخلف على مملكة الدنيا من بعده ابنه « هوروس » ، ولكن « سيت » عاد الى مشاكسة هذا الإله الشاب من ناحية القانون فأعلن أنه ليس ابن « أوزيريس » لأن « أوزيريس » قد مات منذ عهد طويل ، ولأنه من غير الممكن أن ينسل فى هذه الفترة الوجيزة التى عاد فيها إلى الحياة على الأرض . واذاً فليس للعرش الإلهى وارث شرعى إلا هو . وقد رفع بهذه الدعوى قضية أمام محكمة الآلهة فهبت « إيزيس » تدافع عن شرفها ، و « هوروس » يثبت بنوته من « أوزيريس » ثم استشهدت الزوجة المتهمة والابن المجحود بالإله اللبق الفصيح « توت » فشهد بشرف الوالدة وشرعية الولد فحكمت المحكمة بالعرش المقدس لذلك الآله الشاب

ومما يلفت النظر فى هذه الأسطورة الشيقة هو أن « إيزيس » أثناء طيرانها للبحث عن أشلاء زوجها بكت حزنا عليه فسقطت من عينها دمعة فوق النيل فزاد لساعته ، وكان ذلك فى شهر بؤونة ، فظل النيل يزيد فى هذا الشهر من كل عام إلى اليوم . ومن الغريب أن يوم بدء هذه الزيادة يسمى فى أرياف مصر الى الآن بـ « يوم النقطة » أى نقطة الدمع التى نزلت من عين « إيزيس » . فانظر كيف أن هذه الثمانية آلاف سنة لم تستطع أن تمحو هذه الأسطورة من صحائف الوجود ؟ !

روت بعض الأساطير المصرية الأخرى قصة « أوزيريس » و « هوروس » على نحو يخالف ذلك ، ولكن هذه الرواية هى أصح الروايات أو بالحرى هى أكثر الروايات تنسيقا على نظام الحقائق

ومهما يكن من شيء ، فإن أهم الملاحظات العظمية القيمة فى هذه الأسطورة هو أن روح القانون والأنظمة الشرعية كانت سائدة فى مصر سيادة تامة حتى فى عهود ماقبل التاريخ ، ولولا ذلك لما طلب « سيت » عزل « هوروس » عن العرش بحجة أن بنوته من « أوزيريس » لم تثبت ، ولأن موته سابق على مولد هـذا الإله الشاب بزمن طويل . ولولا سيادة هذه الروح القانونية أيضا لما اضطرت « إزيس » إلى الاستشهاد بـ « توت » على براءتها وشرعية ابنها وأحقيته فى العرش .

ويجمع على هذه الملاحظة كل العلماء الباحثين ويعدونها برهان رقى الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية وإن كانوا يختلفون فى موضوع القضية الواردة فى الأسطورة فيذهب البعض إلى تأييـد الرأى الذى ذكرناه آنفا ، وهو أن الغاية من القضية كانت إثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » بوساطة زواجه من أخته « إيزيس » ويرجعون زواج الإخوة بأخواتهم عند قدماء المصريين إلى هـذه الأسطورة التى يقول البعض : إن « إيزيس » قد اذعتها لتبرر بها موقفها بعد أن ولدت «هوروس» من ناحية ، ولتمكن ابنها من الصعود إلى العرش بوسيلة شرعية من ناحية أخرى .

ويؤكد البعض الآخر من الباحثين أن القضية التى أقامتها « إيزيس » أمام محكمة الآلهة لم تكن لإثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » وإنما قصدت بها إثبات حق ابنها «هوروس» فى العرش بحجة أنه ابنها هى ، وهى أخت « أوزيريس » الإله الراحل ، لأن احترام المصريين القدماء للمرأة كان يجعل الوراثة عن الخال أمرا محققا ؛ ولـكن الذى لا شك فيه هو أن هذه الأسطورة على وجهها تشهد بالشوط البعيد الذى كانت مصر قد قطعته فى المدنية حتى فى عصر ما قبل تكوين المملكة الأولى .

ظل ذلك النزاع الذى احتدم لهيبه بين « هوروس » وعمه أو خاله « سيت » إله الشر والغدر رمزا لتلك الحروب العديدة التى كانت تقع من حين إلى آخر بين رؤساء مقاطعات الوجهين القبلى والبحرى زمنا طويلا تطورت بعده إلى فكرة أجرأ من الرمز ، وهى أن كلا من الرئيسين المتحاربين أصبح يمثل أحد ذينك الإلهين المتنازعين ، ومازال هذا شأنهم حتى هب ذلك الفرعون العظيم : « مينيس » أو « مينا الأول » فكان أكثر جرأة وأعظم صراحة ، فأعلن فى غير مواربة أن الإلهين كليهما قد حلا فى جسده ، وأن جسمه يشتمل على الجوهر الأساسى أو روح القدس للإلهين جميعا ، وأنهما لهذا قد استخلفاه على ذلك العرش السامى الذى طالما كان موضع نزاع بينهما ، وأنه حين يضع فوق رأسه تاج الوجهين: القبلى والبحرى ويضمهما تحت إمرته فى شيء عظيم من الحزم لا يزيد على كونه منفذا فعليا لأمر الإلهين .

وقد تم له ما أراد ، إذ أصبح إلها حيا جامعا بين القوتين اللتين ظلتا مفترقتين إلى عهده . ومنذ هذا العصر أطلق على « مينا » وأعقابه اسم الاله أو مليك القطرين أو اسم : « هوروس » و « سيت » أو مصدر الخير والشر ، والنور والظلمة ، والخصوبة والجدب ، وأصبحت زوجته تدعى بالملكة التى تحظى فى كل ليلة بـ « هوروس » و « سيت » ولكن « سيت كان فى الأناشيد والأغانى يظل كامنا فى أغلب الأحايين ولا يبرز على مسرح الأساطير المصرية إلا فى حالات السخط والغضب ، أما فى الظروف العادية فلا ترى فى الأناشيد إلا فرعون ممثلا لهوروس ، مشيدا بنعمه ، شاكرا لآلائه ، متحدثا على لسانه بعظمة مصر وعرشها عنده ، كما جاء فى هذه الأنشودة الموجهة إلى مصر : « تحية إليك يامخلوقة « هوروس » التى زينها بذراعيه مجتمعتين والتى لم يسمح لها بأن تخضع لسكان المغرب ولا لسكان المشرق ولا لسكان الجنوب ولا لسكان الشمال ولا لسكان الوسط المركزى ، وإنما له هو وحده فحسب . أنت لا تخضعين إلا لهوروس الذى خلقك وأسسك ثم سواك وزينك ، وأنت تحملين إليه كل ما فيك من خيرات حاضرة ومستقبلة وتقدمين إليه كل ما يشتهيه قلبه (١) .

« يتبع » محمد غلاب

(١) راجع كتاب الكسندر موريه « من البطون إلى الأمبراطوريات » صفحتى ٢١٤ - ٢١٥



الى أين يتجه الشباب ؟

الآن تقف مصر وأكثر بلاد الشرق العربي على مفرق الطرق فى تاريخها الحديث ، فهى تودع عهداً كان غرضها فيه واحداً استنزف كل ما لديها من حيوية ونشاط ، وهو استعادة سيادتها المغصوبة ومجدها المفقود ؛ وتستقبل عهد الإصلاح والإنشاء لتعوض مافات عليها من فرص الاصلاح الداخلى ، فتصلح ما أفسده العصر المنصرم ، وتنشىء ما يطلبه العصر الجديد .

ومن شأن هذا العهد الانتقالى أن يحمل الأمة على إعادة النظر فى أساليب الكفاح ، فلكل ميدان عدته ، ولكل عهد أساليبه .

والرسالة يهمها فى هذا الباب مصير الشباب ، فنحن موقنون بأن العهد الجديد سيتناول موقفه بالتغيير وغرضه بالتحديد

حمل الشباب بالأمس علم الجهاد الوطنى ، فكان جندى المعركة المضحى بوقته ومستقبله ودمه . وسجل فى تاريخ الحركة الوطنية صفحات خالدات من الاخلاص والبطولة والتفدية .

اما الآن وقد صمت النفير ، وتوارى الخصم المهاجم وراء المعاهدة ، وارتدى ثوب الحليف ، وآب المجاهدون إلى الزرع الذى تركوه ، وإلى الأرض التى أغفلوها ، فقد انفتحت للكفاح ميادين جديدة ، وأبواب عديدة ، وضاق الميدان السياسى عن الجهود الشابة والحماسات الدافقة

فهل يخرج الشباب من الميدان السياسى لينكب على تحصيل العلم وجمع الثروة وتنظيم الحاضر وتدعيم المستقبل ثم يتركه لقادة الرأى من شيوخ السياسة ورجال الادارة ؟ أم يبقى فيه ويظل زيته المضىء المحترق على أن يتطور مع مقتضياته الجديدة ؟

وإذا أخذ بالرأى الثانى فإلى أى اتجاه يتجه بين مزدحم الآراء ومهب الأهواء فى هذا العالم المضطرب الصاخب ؟

ذلك ما فتحنا لأجله هذا الباب ، مقدرين أن تتبارى فيه مطامع الشباب وتجارب الشيوخ

ويهمنا على الأخص رأى الشباب لأننا نريد أن نطلع على انفعالاته واتجاهاته ، فنقف منها موقف البستانى من نبت الحديقة ، يستأصل أشواكها وزوانها ، ويتعهد أورادها وريحانها .

ولا بد لنا من كلمة ندخل بها إلى هـذا الموضوع ؛ فنحن لانرى للشباب الانسحاب من ميدان الكفاح السياسى ، فالجيل الماضى قد انهكته المعركة الكبرى ، وهو الآن يقوم بآخر خدماته فيمهد العمل للجيل الناشىء إذ يتعهده برعايته ، ويظلله بحمايته ، حتى يشتد ساعده فيترك له الميدان . وطبيعى أن اتجاه الكفاح فى ميدان الاصلاح الداخلى ، وتعقد مرامى هذا الاصلاح وتشعبها يتطلب شباباً كامل الثقافة صادق العزيمة واسع التجربة ، يتخذ موقف المدرس لا موقف المحمس ؛ وسيحتاج إلى اقناع الجماهير بالحجة ، لا إلى إغرائها بالعاطفة

٭٭٭

وأما الاتجاه فميدان الاصلاح الداخلى واسع الجنبات ، وحرية اندفاع المثل والكفايات فيه أكثر ، وسيتلمس كل فريق الرأى الذى يراه أكثر اسراعاً فى تعمير البلاد ، فيلتفت الشباب بطبيعة الحال إلى الغرب يسترشد بتجاربه ويستضىء بنوره . وهنا نحذره من أن تغره مظاهر الأمور ؛ وهنا نقرع له جرس الخطر ، ونصيح به صيحة الحذر ، فان أوربا

الآن تعج بأفكار خلابة ودعوات أخاذة زادتها الدعاية المقصودة بريقاً وضجة، فعسى الا يغره هذا البريق ، فهذه الافكار وليدة المحنة ، محنة ما بعد الحرب ؛ فاوربا الآن محمومة ؛ واذا كان لا بد لنا من الاقتداء بها فلنميز بين أسباب الرقى الحقيقية وبين ما انتجته هذه الحمى من أعراض وهذيان وفوضى . ونقول بصراحة أكثر : ـ إن فى أوربا الآن تطاحناً ظاهراً بين القومية والماركسية ، وقد اندفعت الأولى للفاشية ، والثانية للشيوعية ؛ ولكل منهما مظهرها المتطرف الذى لا ينفع هذه البلدان الناشئة

نحن لا يفيدنا الا كثار من قرع الطبول ولا حرب الطبقات ، فقد كان كفاحنا فى الماضى رزيناً قوياً فنجح لأنه استمد قوته من طبيعة الأشياء ، فقاوم العبودية التى يعافها الانسان ؛ ويجب أن يظل فى دوره الجديد على هذه الصبغة الأصلية لينجح

ربما تبهرنا تلك المظاهر بضجة العمل وسرعة التنفيذ ، وتظهر لنا ان العمل الانشائى فى العهد الجديد أبطأ مما تصورناه ؛ فايانا أن ننسب ذلك الى عيب فى نظمنا الأساسية ، لأن أشر ما نعانيه هو من أثر التحكم الأجنبى وانشغال الأمة عن تلافى نواقصها ومداواة عيوبها

وهل يعنينا الا أن يكون الصرح وإن تراخى الزمن فى انشائه متين البنيان يستطيع مقاومة الزعازع التى تنتاب البلدان الناشئة؟

يجب أن نحتفظ بوحدة الصفوف وان نبق لجهادنا العام صبغة التطوع المشترك من كل طبقاته

إننا نريد أن نبني أمة قوية لا تيتم بفقد فرد ، ولا تضل بزوال حزب . نريد أمة توجه ساسة ، لا ساسة يوجهون أمة.

وخير ما نختم به هذه الكلمة أن نخاطب شبابنا بما خاطب به المستر بلدوين قومه بالأمس اذ قال :

« فى هذا العصر تستطيعون السير بسرعة ستين ميلا فى الساعة آمنين ، فاياكم أن تسيروا بهذه السرعة فى طريق التغييرات الدستورية ، فانكم اذا سرتم على هذا المنوال تحطم فى يدكم الدستور ، وجرفى تحطمه الخراب واهراق الدماء . قد تكون الأفكار فى بعض الأحيان مجلبة للخطر العظيم ، فان مئات الملايين تحكم الآن فى روسيا وألمانيا وايطاليا بافكار غريبة عن هذه البلاد ، فاتقوا شر الشيوعية والفاشية ينبئكم بعض من يتحدثون عن التغييرات الدستورية والأساسية بغير حساب فراقبوهم »

بهذا الخطاب يودع السياسى البريطانى الشيخ ناخبيه وهو مشفق على أمته المسكينة أن تحطمها الآراء المتطرفة . وبمثل هذا نوصى الشاب الناشىء ، فالامم الجديدة أحوج الى مثل هذه النصيحة . وان فيما تصنعه الافكار المتطرفة فى أسبانيا عبرة للمعتبرين

(محرر الصحيفة)



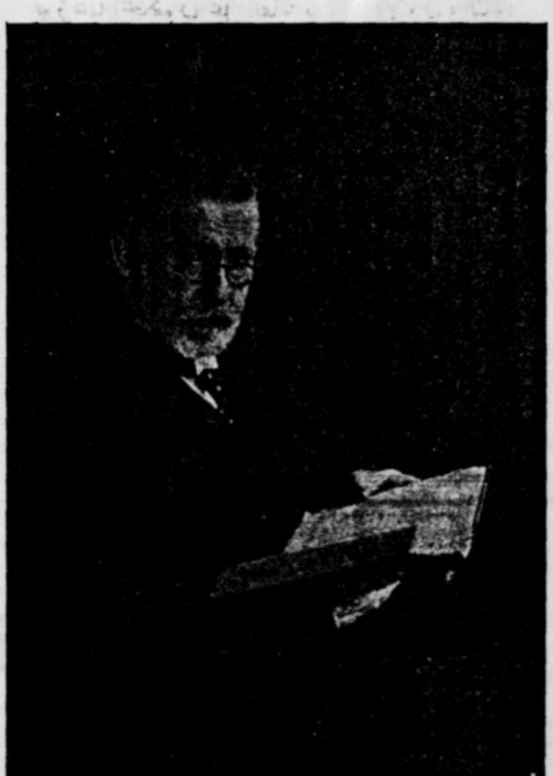
قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى
مراقب مصلحة الكيمياء

الرصاصة المسحورة

— ١ —



بدأنا هذه القصة بلوفن هوك ، بهذا الرجل الذى لا يعرف إلا الحقيقة الواقعة يتوجه إليها قُدُماً دون مداورة أو محاورة ، وبدأناها به لأنه منذ نحو من مائتين وخمسين عاماً نظر بعين من السحر ، نَظَر بعدسه ، فرأى المكروبات أولَ من رأى . نقول بعين من السحر ، وهو لو سمعنا نَصِف مكرسكوبه بأنه من السحر لشخر ونخر كما قد يفعل اليوم بعض مواطنيه الهولانديين استهزاء بنا واحتقاراً لوصفنا

وهانحن أولاء نختتم هذه القصة بپول إِرْلِيش Paul Ehrlich وهى خاتمة مباركة سعيدة ، والخواتيم المباركة السعيدة لا بد منها لكل قصة جدية ذات بال . كان صاحبنا رجلا مِفراحا ، وكان يدخن فى اليوم الواحد خمساً وعشرين لفيفة من لفائف التبغ الطويلة الثخينة (١) cigars ، وكان مشغوفا بشرب كوب من البيرة على الملأ مع خادم معمله القديم ، وأكواب كثيرة أخرى مع زملائه من ألمانيين وانجليزيين وأمريكيين . ومع أنه جاء فى العصر الأخير الحديث ، إلا أنه كان به شىء كبقية من العصور الوسطى ، فقد كان يقول : « يجب أن تتعلم صيد المكروب برصاص من عَبْقَر (٢) » ، فضحك الناس منه . وأما أعداؤه فصوروه صوراً مضحكة وكتبوا تحتها « الدكتور فَنْتازُس » (٣)

على أنه مع هذا قد صنع حقاً رصاصة من عبقر . وكان له مزاج الكيماويين القدماء الذين يُحيلون الرصاص إلى الفضة ويستخرجون من خسيس المعادن الذهب ، ولكنه صنع فوق ما حسب هؤلاء أنهم صانعوه : قَلَبَ سماً معروفاً مألوفاً يتخذه القتلة المجرمون لإبادة الأنفس ، فصيره دواء وشفاء وخلاصاً لتلك الأنفس من داء من شر داءاتها . طبخ

---

(١) المسماة فى مصر بسجائر زنوبيا

(٢) جلد الجن

(٣) كلمة يونانية من فنتاذيا ومعناها الشبح أو الخيال . أعنى أنه رجل وهم وخيال وتخريف .

الزرنيخ طبخة ومزجه مزجة أحالته إلى عَقار يذهب عن مرضى بنى الانسان بلعنة ذلك الداء الكريه ذى المكروب اللولبى، ذلك الداء القبيح الاسم [1] الذى هو جزاء الخطيئة الكبرى . وكان لإرليش خيال غريب عجيب مقلوب ، لا يتصل بالمألوف فى هذه الأرض ، ولا بالمعروف فى العلم ، فأعانه هذا الخيال فدار بصُيّاد المكروب فى طرائق البحث دورة جديدة . وطلع بهم وبعلم المكروب فى صحراء المجهول طلعة جديدة كشفت لهم من فوق رابية عن وديان من الأرض جديدة ، ولكنهم وآأسفاه لم يدروا إلا القليل منهم ماذا يصنعون بالوديان الخصبة الجديدة التى حلوها ولهذا السبب سنختتم هذه القصة بأرليش

وليس معنى هذا أن بحث المكروب انتهى وجاء ختامه . فأنا مؤمن ، كإيمانى بطلوع الشمس غداً ، بأن أبحاث المكروب لم يجئ بعدُ ختامها ، وبأن الغد كفيل بخلق قوم كإرليش يأتون من عبقر بمثل رصاصته التى أتى . ولعلهم يكونون كارليش رجالا برغم ابتكارهم مفاريح مماريح مهازير مفاكيه . فالأدوية الرائعة لا تُستخرَج من العمل الجدّ المتواصل والمعمل البديع وحدهما . . . أما اليوم ، فلا يوجد من صُيّاد المكروب رجال إذا هم اقتنعوا بالذى يرونه ركبوا رؤوسهم فى سبيله واقتحموا كل معارضة لبلوغ مقصدهم منه ولو خالف المألوف واصطدم بالشائع المعروف . فهكذا إرليش ، ينظر فى عينيك بُوسنَعَىْ عينيه محدِّقا محدِّجاً يريد أن يقنعك بأن الاثنين تضاف إلى الاثنين فتجعل منها خمساً . وولد فى سيلسليا [2] Silesia فى مارس عام ١٨٥٤ فلما شبّ أرسلوه إلى المدرسة الثانوية فى مدينة برسلاو [3] Breslau فسأله أستاذه أن يكتب مقالة إنشاء موضوعها : الحياة حُلم . فكتب هذا الصبي اليهودى الذكى يقول : ان الحياة تعتمد على الأكسدة العادية . . . والأحلام مظاهر من مناشط المخ ، ومناشط المخ ليست إلا أكسدة . . . إن الأحلام أشبه شىء بفسفرة مُخّيَّة ! »

(١) يقصد بالداء القبيح الزهري

(٢) مقاطعة أكثرها فى ألمانيا وأقلها فى تشيكوسلافيا

(٣) مدينة معروفة فى سيليسيا الالمانية

وبالطبع كان حظه من هذا الانشاء رقم خسيس ، ولكن هذا لم يعكر عليه صفوه ، فقد كان قد مَرِن على هذه الأرقام الخسيسة عن أعماله المدرسية . ومن المدرسة الثانوية ذهب إلى مدرسة للطب ، بل إلى ثلاث مدارس للطب أو أربع . هكذا كان ارليش وهكذا تعلم . وفى كل مدرسة ممتازة فى الطب دخل من استراسبورج إلى فرايبورج إلى ليبزج ، ارتأى فيه الأساتذة أنه طالب غير عادى ، وارتأوا فيه أنه طالب سىء بالغ أقصى درجات السوء ، وذلك لأنه أبى أن يحفظ ١٠٠٥٠ كلمة طويلة زعموا أنه لابد من حفظها لعلاج المرضى . كان ارليش ثائراً ، وكانت ثورته جزءا من تلك الثورة التى بدأها الكيماوى بستور Pasteur وطبيب القرية كوخ Koch وسأله أساتذته أن يقطّع جثث الموتى ويتعلم أجزاءها . ولكنه بدل هذا قطع جزءاً من جثة واحدة . وقطعه سليخة سليخة ، وجعل هذه السلائخ غاية فى الرّقة ثم أكبّ على تلوينها بشتيت من أصباغ أنلينية Aniline [1] جميلة بديعة اشتراها أو اقترضها أو سرقها على عين مدرّسه

ولم يكن يدرى هو نفسه لِمَ يفعل هذا . وبقى إلى آخر أيامه يجد متعته الكبرى فى النظر إلى كل لون بهيج وصناعة كل صِبغ زاهٍ جميل . أقول متعته الكبرى ولا أذكر تلك المتعة الأخرى التى كان يجدها فى الجدَل الجموح والنّقاش الشرود الذى كان يتعاطاه على مناضد البيرة ومن فوق أكؤسها

وكان يكره التربية الكلاسيكية ويَعُدّ نفسه من نصراء الجديد ، ومع هذا كان يحسن الالمام باللاتينية ، ومن هذه اللاتينية كان يصوغ تلك الجمل الجامعة المنلاَّمة التى كان يدعو بها كلما خاض غمار حرب ، واستعدى العقول فى الحملة على الخصماء . فتلك الجمل الصارخة كان يُعنَى أكثر من عنايته بالمنطق . كان يصرخ : «Corpora non agunt nisi fixata» أى ، أن الأجسام لا تعمل إلا بعد تثبيتها ، وكان فى صرخته يضرب المنضدة بيده حتى ترقص الصِّحاف التى عليها ، فظلت تلك الصرخة بتلك الجملة تقوى قلبه وتحيي أمله فى ثلاثين سنة

(١) الأنيلين مركب كيماوى عضوى شهير هو أصل لمشتقات عدة منها الأصباغ المذكورة

لم يكن له فيها غير الخيبة . وكان إذا حدثك بهذه اللاتينية يُلوح فى وجهك بنظارته فى إطارها القرنى وهو يؤكد معناه فى نفسك ويقول : « لعلك سامع ! لعلك فاهم ! » . ولو أنك أخذته بجده لحسبت أن هذا الهراء اللاتينى لاعقله البحّاث هو الذى أفضى به إلى النجاح أخيراً . وعندى أنه أفضى بعض الشىء إلى هذا النجاح يقيناً

وكان إرليش أصغر من كوخ بعشر سنوات ، وكان يعمل فى معمل كنهايم Cohnheim فى اليوم الذى عرض فيه كوخ على الناس بشلة الجمرة لأول مرة : وكان إرليش زنديقاً لا يؤمن بالله ، فلما افتقد فى السماء ربا يعبده توجه بعبادته إلى رب فى الأرض ، فكان كوخ . وبينا هو يصبغ بألوانه كبدا مريضه وقع على جرثومة السل ورآها قبل أن يراها كوخ بزمن ، ولكن لجهله ، ولقصور ذكائه عن ذكاء كوخ ، ظن تلك القضبان الملونة التى رآها بلورات جامدة ، فطاش سهمه بعد أن كاد . ولما جاء مارس عام ١٨٨٢ وجلس فى بعض أمسائه فى تلك الحجرة فى برلين يستمع الى كوخ وهو يشرح كيف اكتشف جرثومة السل ، اهتز للذى سمع واتضح لعينه ما كان غم عليها ، ورأى الحقيقة واضحة صريحة . ووصف هذه الحادثة فقال : « إنها أكبر الحوادث أثرا فى نفسه فى كل ما صادف فى حياته العلمية » ، قالها بعدها بزمن طويل . وعلى اثرها اعتزم ان يتصيّد المكروب هو أيضا ، فذهب الى كوخ وأطلعه على طريقة بديعة يصبغ بها مكروب السل فيتراءى فى العين سهلا واضحا — وهذه الطريقة لا تزال تتّبع الى يومنا هذا بلا تغير يذكر . ولزمه وهو يشتغل بمكروب السل حماسةُ الصاحب ، فلوّث نفسه من قدمه الى رأسه بالمكروب ، فأصابه السل فكان لا بد له أن يذهب الى مصر ففعل

— ٢ —

وكان عمره إذ ذاك أربعا وثلاثين سنة ، ولو أنه مات عندئذ فى مصر . اذن لنُسى أمره بدون شك ، أو إن هو ذُكر فانما يذكر بأنه رجل مِفراح مِمراح أحب الألوان وأغرم بالخيالات ثم خاب . وكان كالمولد الكهربائى dynamo فى جهده الفياض ونشاطه المتواصل . واعتقد أنه يستطيع الجمع بين صيادة المكروب ومعالجة المرضى . وتعين رئيساً للأطباء فى دار للعلاج شهيرة فى برلين ، ولكنه كان مرهف الحس مضطرب الأعصاب لا يقوى على استماع صراخ المرضى وأنين من يوشك منهم أن يموت بعد أن استعصى داؤهم وعز علاجهم . نعم علاجهم . علاجهم الحق . علاجهم الشافى لا علاج الظن والتخمين ، ولا العلاج بالتأسية الكاذبة والتلطف الفارغ عند سرير المريض ثم ترك الأمر للطبيعة عساها تحل العقدة التى أعجز الطب حلها . وساورته هذه الأفكار وأمثالها فأفسدت عليه صناعة التطبيب فكان طبيبا مخيّبا ، ذلك لأن المؤاساة ولو كانت كاذبة صفة لابد منها للأساة ، أما اليأس من الأمراض ولو مؤنسة وقطع الأمل وتقطيعه على أسماع المرضى فلا يؤدى بالطبيب الا الى الخيبة . وعدا هذا فقد ساء إرليش طبيبا عندما لعبت برأسه لواعب الأحلام : كان ينظر إلى جسم المريض فينفذ بصره إلى ماوراء جلده وكأنما يستعير لعينه مجهراً بالغ التكبير ، فتتراءى له مادة الخلية المرتعشة وقد ارتسمت فى عينه رمزاً كيماويا كبيراً لمادة كيماوية معقدة . وتراءت له حلقات البنزين وسلاسلها الجانبية (١) فى تلك الخلايا بمثل ماتراءت له فى رموز أصباغه ، ونحى جانباً أحدث النظريات فى علم وظائف الأعضاء ، واصطنع لنفسه كيمياء للأجساد غريبة قديمة فجاءت كالثوب ذى الزىّ العتيق تلبسه فى غير عصره . واختصاراً تستطيع أن تصف إرليش بما تحب إلا أنه مطبب عظيم ، ولو أنه كان طبيباً لحسب إذنْ لحقّت عليه الخيبة ولمات ذكره . . . . ولكنه لم يمت !

وصاح إرليش : « إن فى اعتزامى أن أصبغ الحيوانات وهى حية ، ولِمَ لا وكيمياء أجسامها لا تختلف عن كيمياء أصباغى ؟ وصبغها وهى حية قمين أن يكشف لى عن كل شىء فيها » وعلى هذا تناول صبغته الحبيبة ، وهى أزرق المِثلين Methlene blue وحقن قليلا منها فى وريد بأذن أرنب ، وتتبع بعينه انسياح الصبغة الزرقاء فى دم الأرنب وجسمه فوجدها تمر بكل جزء منه ثم تنقشع فلا يصطبغ بها شىء إلا

(١) حلقات البنزين هي حلقات في الكيمياء العضوية مركبة من ست ذرات من الكربون . والحلقة البنزينية تدخل فى تركيب كثير من المركبات العضوية . وقد يرتبط باحدي ذرات كربونها تركيبات من عناصر أخرى تسمى بالسلسلة الجانبية

أطراف الأعصاب الحية. فعند هذه الأطراف وحدها وقفت الصبغة وصبَغَتها دون سائر ما مرت عليه فكأنما تخيرتها تخيراً! ألا ما أغرب! ألاَ ما أعجب! ونسى علمه الأصيل برهة، وأغرى بالمداواة وازدهته الطبابة لحة، فقال فى نفسه: «ألا من أدرانى. فلعل هذه الصبغة الزرقاء تقتل الألم!» وما نطق بهذا حتى صدق نفسه وأخذ يحقن هذه الصبغة فى المرضى وهم يتوجعون. ولعل آلامهم خفت بعض الشىء من جراء هذا، ولكنه ما لبث أن اعترضته فى سبيل ذلك صعوبات لو تحكى ماخلت حكايتها من المتعة والفكاهة. فأجفل مرضاه من الصبغة؛ ومن ذا الذى يلومهم؟

خاب إذن إرليش فيما اعتزمه من إيجاد دواء يقتل الآلام توًّا، ولكنه اهتدى إلى تلك الحقيقة الغريبة عن أزرق المثلين: أنه يقع من أنسجة الجسم ومادته الحية على أشتات مئات مختلفات فلا يتعلق إلا بواحدة منها؛ ومن هذه الحقيقة ابتدع فكرة أشبه بالخيال قادته أخيراً إلى اختراع رصاصته المسحورة.

وتحدث فى أحلامه قال: «هذه صبغة بين يدى لا تصبغ من أنسجة الحيوان جميعها إلا نسيجا واحدا. وإذن فلا بد من وجود صبغة لا تصبغ من أنسجة الانسان شيئا. ولكن مع هذا يكون من شأنها أن تصبغ المكروبات التى تعدو على الانسان فتقتلها. وعاوده هذا الحلم خمس عشرة سنة أو تزيد قبل أن تتهيأ له الأمور لتجربة الفكرة التى تضمنها

وفى عام ١٨٩٠ عاد من مصر ولم يكن مات هناك من السل وحقنه كوخُ بدوائه الفظيع المزعوم للسل رجاء شفائه، ولكنه لم يمت من هذا أيضاً. ولم يلبث أن بدأ العمل فى معهد كوخ ببرلين فى تلك الأيام العظمى التى كان فيها بارنج Behring يقتل الخنازير الغينية فى سبيل خلاص الأطفال من الدفتريا، وكان فيها كيتا ساتو اليابانى يصنع العُجاب بالفئران ذوات الكزاز الفكى. دخل إرليش هذا المعهد الذى أثقله الوقار وأناخت عليه الرزانة بكلكلها فكان روحه الحىّ وفيضَ حياة ثوّارة فيه. وكان له معمل تدخله فلا تكاد تجد سبيلك فيه لشدة امتلائه ولتبعثر الأشياء فيه، تتألق فيه صفوف الزجاجات وتتلألأ وتزهو بالذى فيها من أصباغ كثيرة ضاق وقته عن استعمالها. ويدخل كوخ على تلميذه وهو فى هذا الامتلاء وعلى هذا التبعثر ليرى ماذا يصنع، وكوخ ذو سلطان فى معهده كسلطان قيصر فى دولته. وما كان كوخ يرى فى أحلام إرليش عن رصاصاته المسحورة الا أنها بعض أحلام خرِفة. أقول يدخل كوخ على إرليش فى معمله فيقول: «أى عزيزى إرليش خبِّرنى ما الذى خبَّرتكَ به تجارب اليوم». فيأتى الرد من إرليش متدفّقاً مضطربا يفسر هذا ويوضح ذلك فى غزارة وتلاحق كأنه عين ماء ثرّة تدفّعت أمواهها ساخنة إلى السماء. وذات مرة كان إرليش يبحث فى الحصانة التى تأتى الفئران ضد السم الكائن فى حبوب الشَّشم والخروع إذا هى تعاطته. فلما دخل عليه كوخ فسأله فى ذلك تدفّع يقول: إنى أستطيع أن أقدر بالضبط مقدار السم الذى يقتل فى ثمان وأربعين ساعة فأراً زنته عشرة جرامات. فهذا المقدار دائماً واحد... والآن أستطيع أن أخطّ خطا بيانياً يرينا كيف تزيد الحصانة فى الفار — إنها تجربة تضارع فى دقتها تجارب علم الفيزياء.... أمُلق سيدى سمعك إلى؟ ووجدت أيضاً كيف يقتل السم الفئران. إنه يجبن كرات الدم فى شرايينها، وهذا كل تفسيرها...» وهو فى أثناء ذلك يلوح بأنانيبه الزجاجية وقد امتلأت بدم الفئران المنجمد القانى فى وجه رئيسه العظيم مؤكداً له أن مقدار السم الذى جبّن هذا الدم هو عينه الذى يكفى لقتل الفار الذى جاء هذا الدم منه. ولا يلبث كوخ أن يجد نفسه بين أرقام وتجارب تنصب عليه انصباباً فلا يكاد يلاحقها. ثم إذا هو يقول لإرليش

«ولكن مهلا يا عزيزى إرليش، فانى أكاد أجاريك. أرجوك أن تزيد تفسيرك وضوحاً». فيجيب: «على العين والرأس يا سيدى الدكتور فأنا أعطيك المزيد من ذلك فوراً»، ولا ينقطع كلامه برهة، بل هو يختطف قطعة من الطباشير ويرجع على ركبتيه ويخط على أرض المعمل أشكالا هائلة توضح آراءه. ثم ينظر إلى كوخ فيقول: «والآن ياسيدى أفهمتَ ما عنيتُ؟ أواضح تفسيرى لك الآن؟»

«يتبع»

أحمد زكى



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمي

— ٣ —

ذكرنا في العدد الماضي طائفة من أغلاط الفصل الأول من الترجمة العربية لكتاب اسماعيل، والآن نذكر طائفة أخرى من أغلاط الفصول التالية. ويظهر أننا سنضطر إلى الاكتفاء بذكر أمثلة قليلة من هذه الأغلاط في كل فصل حتى لا نستأثر وحدنا بباب النقد في الرسالة

(١) اقتضب الأستاذ صروف الفقرة الأولى من هذا الفصل اقتضاباً أفقدها نصف معانيها. أنظر إلى قول المؤلف:

But even his magnetic optimism would not have sufficed had English statesmanship been able to appeal to the Nonconformist conscience of the rank and file of the liberal electorate. It seems strange that Lord Palmerstone did not drive home the message that the Frenchman etc.

ثم انظر إلى الترجمة العربية: « إلا أن روح التفاؤل التي كانت تملأ صدره ما كانت لتمكنه من التغلب على تلك الصعاب لو أن الوزارة الانجليزية التي كانت يومئذ في الحكم أفهمت الرأي العام البريطاني أن دلسبس ينوي . . .

(٢) The man who thought in terms of civis romanus sum should have known that whatever the Concessions...

كل ما ترجم به الأستاذ هذه العبارة هو قوله: « ومهما يكن من أمر الامتياز »

(٣) The fame of De Lesseps called up the name of Egypt.

هل معنى هذه العبارة هو: « كان اسم دلسبس على فم كل إنسان في مصر »، كما قال المترجم أو أن معناها: « إن شهرة دلسبس جعلت الناس يذكرون اسم مصر »

(٤) « ترجم الأستاذ عبارة Floating debt » بالدين العائم وهو اصطلاح لم نره قبل الآن. والذي نعرفه أن معنى هذه العبارة الانجليزية « الدين السائر »

(٥) He undoes everything, does very little and is preparing us for some great catastrophe.

اكتفى الأستاذ في ترجمة هذه العبارة بقوله: « وأخشى أنه يمهد لكارثة » وترك قول المؤلف إنه يفسد كل شيء ولا يكاد يفعل شيئاً

(٦) His figures differ a little from those of the anthor just quoted.

قال الأستاذ في ترجمة هذه العبارة « وقد أورد أرقاما تختلف قليلا عن الأرقام التي أوردها لورد كرومر »، وقد جاء الأستاذ باسم لورد كرومر من عنده فغير بذلك المعنى، لأن المؤلف يشير الى السير أوكلندكلفن لا إلى اللورد كرومر

(٧) في ص ٢٤ من الأصل الانجليزي يذكر المؤلف اختلاف المؤرخين في مقدار ديون سعيد باشا ثم يرجع هذا الاختلاف إلى شيئين: الديون السائرة، وديون سعيد الشخصية فيقول:

This difference is explained by Rae's reference to floating debts. It is also touched upon by the German economist . . . who published au interesting book on Egypt entitled Das heutige Agypten.

اقتضب الأستاذ هذه العبارة اقتضابا قطع الصلة بينها وبين ماقبلها فقال « وقد بحث الأستاذ . . . وهو من كبار علماء الاقتصاد الالمان في هذا الدين في كتاب له »

(٨) He served in the Egn. army at a time when the memory of Said's reign was still green.

ترجم الأستاذ صروف هذه العبارة بقوله إنه « كان في الجيش المصري في أيام سعيد باشا » مع أن الأستاذ يعرف ان اسماعيل باشا هو الذي استخدم الضباط الأمريكيين في جيشه وان الجنرال لورنج لم يكن في جيش مصر أيام سعيد. وعبارة المؤلف صريحة في هذا لأن معناها انه خدم في الجيش المصري وقت ان كانت ذكرى سعيد لاتزال ماثلة في الأذهان

(٩) He was not phuysically prepossessi'ng

ليس معنى هذه العبارة أنه « لم يكن قوى الجسم » كما قال الأستاذ صروف بل معناها انه لم يكن حسن الهيئة منظريا

(١٠) When his featurés were in repose his dark eyes seemed half closed.

اكتفى الاستاذ بترجمة جزئها الأخير فقال « وكان يخيل الى الناظر أن عينيه نصف مغمضتين » فغير بذلك معناها

(١١) His successor wisely kept in the background

قال الأستاذ فى ترجمتها « وكان خلفه مهملا مغضى عنه » وما أبعد هذا القول عن المعنى الذى يقصده المؤلف وهو ان خلفه رأى من الحكمة ألا يراه الناس كثيراً

(١٢) And from the vantage point of a man who moved behind the scenes and whose business it was to know what was going on the same writer brin8s out that during the days when Said was being more generous to de Lesseps than Esau was to jacob.

لم يزد الأستاذ صروف فى ترجمة هذه العبارة التى يصف فيها المؤلف ادون ده ليون « وإكرام محمد سعيد لدلسبس على قوله « وذكر هذا الكاتب أيضا » وأين هذه الألفاظ الأربعة من قول المؤلف « وقد قال هذا الكاتب نفسه الذى كان يرقب الأمور من وراء ستار ، والذى كانت مهمته ان يلم بتصاريفها ، قال انه فى الوقت الذى كان فيه محمد سعيد يكرم دلسبس أكثر من اكرام عيسو ليعقوب » وان شاء الاستاذ ان يعرف قصة عيسو ويعقوب فليرجع إلى سفر التكوين من الكتاب المقدس . واذا جاز للأستاذ ان يترك ما أشار به المؤلف الى قصة عيسو ويعقوب فهل يجوز له أن يترك ما وصف به ادون ده ليون قنصل امريكا العام فى الاسكندرية والتى أوردها ليدل على سعة اطلاع هذا القنصل وصدق أخباره ؟

وهنا نحب أن نرجو الاستاذ المترجم ألا يضيف شروحاً من عنده إلى ألفاظ لاتحتاج إلى شرح ، وبخاصة إذا وضع هذا الشرح فى صلب الكتاب وكتب إلى جواره لفظ المعرب كوضع كلمة كوبرى بعد كلمة جسر ؛ واعتقادنا أن ليس فى قراء ترجمة الاستاذ صروف كلهم من لا يعرف معنى جسر

وسنكتفى بذكر هذا العدد من أغلاط الفصل الثانى لننتقل بعد ذلك إلى ذكر بعض أغلاط الفصل الثالث .

(١) Of this formidable sum the 16, ooo, ooo spent on the Suez Canal was the only portion for which assets of any value could be shown, the balance . . . had been squandered.

ترجم الاستاذ صروف هذه بقوله : « انفق منه (من ٩١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه) ١٦ مليون جنيه على قناة السويس وانفق الباقى توديراً وتبذيراً .

فهل هذه هى ترجمة العبارة الانجليزية ؟ وماذا أعجب الاستاذ فى لفظ توديرالذى كرره فى كتابه أكثر من مرة . نعم انه لفظ عربى فى معاجم اللغة ولكن الأذن لا تستسيغه ولدينا بدلا منه التبذير و لاسراف وبسط اليد والاتلاف الخ

(٢) Isnail himself is as fine a type of the pend-thrift as can well be found whether in history or in fiction. No equally reckless prodigal ever possessed equelly unlimited control of equally vast resources. He came to the throne etc.

انظر إلى ترجمة الاستاذ لهذه العبارة المقتطفة من كتاب لورد ملنر فقد قال :

« ان اسماعيل خير مثال للرجل المبذر عرفه التاريخ أو تصوره مؤلفو الروايات . وما من مبذر طائش كان له سلطان غير محدود على موارد غير محدودة . فقد ارتقى العرش »

ما هى العلاقة التى يستطيع القارىء أن يفهمها بين الجلة الثانية وما قبلها أو بعدها ؟ ان لورد ملنر يريد أن يقول : « إن اسماعيل باشا خير مثال للرجل المبذر عرفه التاريخ أو القصص ، ولم يؤت أحد مثل ما أوتى اسماعيل من الطيش والتصرف المطلق من كل قيد فى موارد لا حد لها وقد اعتلى عرش مصر الخ .

(٣) قال المؤلف يشرح سبب بقاء ادون ده ليون فى مصر بعد ان اعتزل منصبه :

The climate of Egypt is most attractive. Cairo is, in many, ways, what the Germans call a welt-stadt. It is thus easy to understand why this official kept for years in close touch with the scenes where he claims to have played an important part.

كل ما عنى الاستاذ بترجمته من هذه العبارة هو أنه « أقام عدة سنوات بالقاهرة بعد اعتزاله منصبه » أما سبب مقامه فيها وما كان لوجوده من الأهمية فلم يذكر الاستاذ صروف منه شيئاً .

(٤) The labours which used to constitute his pleasure have become an imperious necessity.

قال الاستاذ فى ترجمة هذه الجلة : « فالأعمال التى كان يقوم بها على سبيل التسلية قد أصبحت ضربة لازب عليه » فهل كان الخديوى يقوم بأعمال الدولة كلها التى ذكرها المؤلف قبل هذه العبارة على سبيل التسلية أو أنها كانت واجبات يراها فرضاً عليه ولكنها فى نفس الوقت كانت « مصدر سروره وغبطته »

(٥) ثم انظر إلى الفقرة الآتية من قول الاستاذ صروف : « والكاتب لا يقتصر على القول بأن قصر عابدين بناء وضيع الشكل من الوجه الهندسى بل يضيف اليه قوله إن بهو المآدب والحفلات لايشف مرآه أو أثاثه أو زخرفه عن شيء من العظمة » « واقرأ بعد ذلك معناها الحقيق الذى يريده المؤلف » لكنه فى كتابته يبدى آراء من عنده إلى حد ما ولا يقتصر على ذكر الحقائق المجردة حين يصف قصر عابدين « بأنه متواضع البناء » وحين يقول : « إن حجرة الاستقبال غير فاخرة الأثاث أو بديعة النقش » ولا داعى إلى ذكر النص الانجليزى لأن ماأوردناه هنا هو ترجمته الحرفية ونحب أن نقول هنا أن ترجمة Modest بوضيع كما فعل الاستاذ أكثر من مرة ليست ترجمة دقيقة .

(٦) An equally sincere visitor might perhaps have arrived at a diametrically opposite view of the same physical conditions.

هذه معان لم يترجم منها الأستاذ صروف شيئاً

(٧) But, however this may be, the following lines cannot be brushed aside without accusing the man who wrote them of subjective untruthfulness

وهذه العبارة كلها أيضا لم يترجمها الاستاذ بأكثر من قوله « وعلى كل يجدر بنا أن نقتبس العبارات التالية توفية للكلام حقه »

(٨) Writing to his chief a confidential report which was not inteuded for publication and in which he could call a spade a spade he said.

قال الأستاذ صروف فى ترجمة هذه العبارة « أما البيان الذى قدمه القنصل فلم يكن يراد نشره ولذلك أطلق لنفسه العنان ليقول كل ما يخطر بباله . ونحن نجل هذا القنصل عن أن يطلق لنفسه العنان ليقول كل ما يخطر بباله ونعتقد انه « فى هذا التقرير السرى الذى كتبه الى رئيسه والذى لم يكن يراد نشره كان صريحا كل الصراحة لا يخفى من الحق شيئا »

(٩) لينظر القارىء معنا الى هذه الفقرة الطويلة من قول الاستاذ صروف « على أن إسماعيل لم يكتف بان صرح بعزمه على الغاء السخرة ، وفى الحقيقة ان كلمة السخرة كانت على كل شفة حتى ان القنصل الفرنسى العام كتب يومئذ الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول « ان هذه اللفظة تفرق بين الأعمال الحكومية والمصالح العامة وهى تنطوى دائما على إشارة الى الاعمال الجارية فى ترعة السويس بحيث ان جميع العيون تشخص الى » ، وليقل لنا هل يفهم لها معنى ؟

(١٠) ولينظر إلى هذه العبارة الأخرى من ترجمة الأستاذ صروف « وليس ثمة سبب يحملنا على القول بأن الخديو كان مستعداً أن يسلك تلك الخطة لو لم يكن مقتنعاً بصوابها . وعلى كل فقد أظهر بمعاداة فرنسا جرأة عظيمة

ألم يكن أسلس من ذلك أن يقول مثلا « وليس ثمة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الوالى قد فعل ما فعل وهو غير مقتنع بانه إنما يؤدى الواجب المفروض عليه . وسواء أ كان ذلك أو لم يكن فقد كان وقوفه فى وجه فرنسا عملاجريئاً . أما عبارة المؤلف فهى : —

There is no reason to believe that the Viceroy would have done what he did had he not been convinced that it was the proper thing to do. At all events it was a bold act on his part to antagonise France.

(١١) The conviction is thus driven home that Ismail's first official contact with the consular corps accredited to him tends to refute the Milner indictment and the popular heresy that Imail was etc

إلى القارىء كيف ترجم الاستاذ صروف هذه العبارة : « وعليه فان الصدمة التى صدم بها اسماعيل قنصل فرنسا فى مصر تدحض التهمة التى وجهها ملنر إلى اسماعيل » . فهل هناك ترجمة أبعد عن الحقيقة من هذه الترجمة ؟

تلك أمثلة من أغلاط الفصلين الثانى والثالث ذكرناها موجزة لكى يتسع لها باب النقد فى الرسالة ولكى يسمح لنا الأستاذ الأديب صاحبها أن نواصل نقدنا حتى نتمه ، وسنسير على هذا الايجاز فى الفصول المقبلة إن شاء الله .

الغنيمى



ملاحظات على التعليم فى مصر

نشرت جريدة المنشستر جارديان فى أحد أعدادها الأخيرة فصلا طويلا عن التعليم فى مصر ومسائل الطلبة المصريين فى حاضرهم ومستقبلهم بقلم الدكتور ماكلانهان عميد قسم الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية استهله الكاتب بتقديم الاحصاءات الأخيرة عن عدد الطلبة المتخرجين فى مختلف الكليات والمعاهد الفنية والخصوصية، وتبيان التقدم السريع الذى طرأ على سير التعليم العالى والفنى . وفى رأيه أن هذا التقدم إنما هو نتيجة طبيعية مشروعة لآمال الشباب المصرى الذى يرغب فى مهن ومراكز رفيعة فى الحياة العملية . بيد أن اضطراد هذا التقدم يثير مشكلة دقيقة ، فهل تستمر مصر على ترك حبل التعليم العالى على غاربه ؟ وهل تظل على تخريج هذه الجموع الحاشدة من الشباب الطموح المتعطل ؟ أم أنها سوف تتخذ الاجراءات لتقييد بعض أنواع التعليم ؟ يرى الكاتب أن مصر ستحذو حذو الأمم الأخرى فى الاحتفاظ بحرية التعليم . على أن ما يثير القلق هو أن جماعة الطلبة قد اعتادت فى الأعوام الأخيرة أن تأخذ الأمور بيدها وأن تطالب بأمور كثيرة فيما يتعلق بمصاريف التعليم ونظام الدراسة ، وما سيكون نصيب الطلبة من إدارة الشؤون العامة ولم يشذ عن هذه القاعدة طلبة الجامعة الأزهرية الذين يبلغون وحدهم اثنى عشر ألفا

وتبدى جماعة الطلبة رغبة قوية فى الاشتراك فى بحث المسائل السياسية والاقتصادية المصرية ، بل يمكن القول بأنها تأثر فى حركتها بالنزعة الفاشستية ، وذلك على رغم ارادة الزعماء السياسيين .

وقد اتخذت الحكومة بعض خطوات فى سبيل ترقية التعليم التجارى ورفع مستواه ، ولكن الشركات والمتاجر الأجنبية تصر على توفر معيار خاص من الكفاية . وما زال على مصر أن تبحث فى المستقبل القريب عن حل هذه المشكلة الدقيقة ، أعنى مشكلة التعليم ، وعما إذا كان من الواجب أن تسير فى سبيل التوسع في شئون التربية أم فى سبيل تقييدها ولا ينكر أحد ضرورة التعليم كعامل فى تقدم الأمة ، بيد أنه يجب أن تتخذ بعض التحوطات ؛ ويخشى أن يفضى التقدم السريع إلى أزمة . أما إذا كانت مصر قد عولت على السير الحثيث ، فسوف يطلب إليها أن تؤدى الثمن . وقد أدركت بعض الدول الأوربية خطر تدخل الشباب فى الشئون العامة وتأثره بنفوذ الزعامات الشعبية الطائفة ، فعملت على تجنبه

نقول . وهذه ملاحظات جديرة بالعناية والتأمل من كل أولئك الذين يعنون بتربية الشباب ومستقبله

ثلاثة كتب عن الحرب الحبشية

ظهرت أخيراً عن الحرب الحبشية ثلاثة كتب هامة ، أولها وأهمها كتاب المارشال دى بونو وعنوانه : « السنة الرابعة عشرة . فتح امبراطورية » Anno XIV ، أعنى السنة الرابعة عشرة لقيام النظام الفاشستى فى إيطاليا وهى سنة ١٩٣٦ التى تم فيها استيلاء ايطاليا على الحبشة . والثانى بقلم الماجور بولسون نيومان المعروف بمؤلفاته عن مصر والشرق الأدنى وعنوانه : « فتح إيطاليا للحبشة » Italy's Conques of Abyssinia ، والثالث بقلم الصحافى الأمريكى هربرت ماتيوس وعنوانه « شاهد عيان فى الحبشة » Eyeurtness in Abyss ، وكتاب المارشال دى بونو هو بلا ريب أهم هذه الكتب وقد نوهت عنه الرسالة فى عددها الماضى ؛ فقد كان المارشال كما نعلم أول قائد للحملة الايطالية على الحبشة ، وقد

قاد هذه الغزوة فى أشهر الحرب الأولى ؛ وأهمية الكتاب فى أنه يميط اللثام عن حقائق سياسية وعسكرية خطيرة ؛ مثال ذلك أن المارشال يعترف لنا فى كتابه أن مشروع غزوة الحبشة يرجع إلى سنة ١٩٣٣ أعنى قبل حادث وال وال الذى اتخذته ايطاليا حجة لغزو الحبشة بعامين ، وإن موسولينى وضع هذا المشروع خفية مع المارشال ، وفكر فى تحقيقه أولا بالعمل على اضرام نار الثورة فى الحبشة ، ثم التدخل بحجة المحافظة على السلام ؛ وقد أنفقت إيطاليا فى سبيل هذه المحاولة مبالغ طائلة ، ولكن القبائل لم تثر فى وجه النجاشى كما أريد وحبط المشروع ، فلبث موسولينى وقائده يتربصان بالحوادث حتى وقع حادث وال وال ، وزعمت ايطاليا عندئذ أن الحبشة تنوى الاغارة على المستعمرات الايطالية ، ووقع الاعتداء الشنيع على الحبشة وقد عجب الرأى العام حين صدر كتاب المارشال ولم يعترض موسولينى على ظهوره متضمناً لهذه الأسرار التى تفضح مشاريع إيطاليا الاستعمارية ونياتها المبيتة على الاعتداء ولكن الظاهر أن السياسة الفاشستية لم تعد تقيم للرأى الدولى وزناً ولا ترى فى لومه أو مؤاخذته عاملا يحسب حسابه ، ومن جهة أخرى فقد اعتبر التصريح للمارشال باصدار كتابه حراً طليقاً تعويضاً أدبياً عما أصابه من آلام العزل خلال نشوب الحرب وانتداب المارشال بادوليو لاتمامها وفوزه بشرف الظفر دونه .

وأما كتاب الماجور نيومان فهو كباقى كتبه عرض للحوادث من الوجهة الاستعمارية ، وفيه يحبذ افتتاح الحبشة ويعرب عن ثقته بأنها سوف تستقبل فى ظل الحكم الأوربى عهداً جديداً ، وأن الزمن كفيل بتسوية الاخطاء التى ارتكبت

وأما الكتاب الثالث ، وهو كتاب «شاهد عيان فى الحبشة» فهو مشاهدات صحفى . صحب الحملة الايطالية منذ بدء الحوادث وتنقل معها فى جميع الميادين . فهو ليس تاريخاً بالمعنى المقصود ولكنه جريدة يومية للوقائع مشبعة بروح العطف على الغزاة .

دار لنوادى القلم فى باريس

كان الكاتب الفرنسى الكبير جول رومان رئيس نادى القلم الدولى قد أذاع فى إحدى خطبه منذ أشهر أن الحكومة الفرنسية ستنشىء فى باريس داراً لأعضاء نادى القلم من كافة أنحاء العالم . وقد تحقق نبأ المسيو جول رومان ؛ ففى أنباء باريس الأخيرة أن الحكومة الفرنسية قد اختارت فى حى الشانزليزيه داراً عظيمة فخمة ، وخصصتها للوافدين على باريس من أعضاء نوادى القلم فى انحاء العالم ؛ وستحتوى الدار المذكورة على غرف للنوم ، وابهاء للمطالعة والاجتماعات ، وستزود بمكتبة عظيمة ؛ وسيكون بها قلم سكرتيرية دائمة تعاون الضيوف على زيارة معالم باريس وقضاء مهامهم . وللدار المذكورة شرفة عظيمة تسع خمسين شخصاً خصصت لجلسات الصيف ؛ وسيقدم طعام الافطار للضيوف الذين يبيتون فى الدار

ولما كان مؤتمر نادى القلم الدولى سيعقد هذا العام فى باريس بدعوة من نادى القلم الفرنسى فانه من المنتظر أن يفد كثيرون من أعضاء نوادى القلم فى مختلف أنحاء العالم على باريس لتمثيل هيآتهم فى المؤتمر ؛ وسيكون نادى القلم المصرى ضمن النوادى الماثلة فى هذا المؤتمر على يد ثلاثة أو أربعة من أعضائه ؛ وسيعقد المؤتمر المذكور ، وهو الخامس عشر من نوعه ، فى شهر يونيه القادم

وهذا الخطوة التى تتخذها الحكومة الفرنسية لتكريم الكتاب الأجانب هى من أثر المساعى الجمة التى يبذلها مسيو جول رومان لتقوية نفوذ هذه الهيئة الأدبية الدولية

اكتشاف مدينة مصرية قديمة

روت الصحف السويدية نبأ اكتشاف أثرى هام وفقت إليه البعثة الأثرية السويدية التى تقوم بالحفر فى مصر برياسة الدكتور يلمار لارسن ؛ وكانت حفائر البعثة هذا العام فى منطقة أبو غالب . فكشف المنقبون عن مدينة مصرية قديمة ترجع إلى نحو أربعة آلاف عام ؛ وظهر من أحيائها جانب يشمل عدة منازل ، ومنها منزل ظهرت به سلالم كاملة ، ومخازن للغلال ؛ ووفقت البعثة أيضاً إلى اكتشاف عدة آنية وتحف أثرية أخرى ؛ بيد أن الحفر لم يكشف عن كل شىء بعد ؛ ويرى الدكتور لارسن أن هناك منطقة أثرية هامة سيكشف عنها قريباً ، وقد توفق البعثة إلى اكتشافات عظيمة

الشأن من الوجهة التاريخية ، وتؤمل الدوائر السويدية أن ينال متحف ستوكهلم الوطنى شيئاً من الآثار المكتشفة تزيد فى قيمة مجموعته المصرية

متحف لحياة الطلبة

من أنباء ألمانيا أن مدينة فرزبورج قد قررت أن تنشىء فى قلعتها الشهيرة معهداً لتاريخ الجامعات الألمانية ، وسيلحق به متحف هو الأول من نوعه ، لأنه سيخصص لاستعراض حياة الطلبة فى الجامعة ؛ وقد جمعت إلى الآن نحو ألف وستمائة قطعة مختلفة من جامعات ألمانيا من صور وأدوات وأسلحة وغلايين وبرانيط ، وثياب ، مما يستعمل الطلبة فى مختلف العهود والفصول ؛ هذا إلى كثير من الدفاتر والمحابر والأوراق والقصائد والصور التذكارية ، وأدوات اللعب المختلفة نسقت جميعها فى أروقة وأبهاء تمثل حياة الطلبة أثناء الدرس وأثناء اللعب والتريض

مشروع معجم للأعلام عن مصر

تصدر شركة انكليزية قاموسا للاعلام فى أوربا الوسطى وأوربا الشرقية بعنوان Who's who in C. and E. urope وهومرجع الأعلام الوحيدمن نوعه . وقد فكرت الشركة الناشرة أخيراً أن تضع ملحقا لهـذا المعجم عن الاعلام فى مصر فى طبعته القادمة ؛ وأوفدت بالفعل أخيراً إلى مصر مندوبا خاصا لها لمقابلة الشخصيات البارزة فى مصر وجمع المعلومات اللازمة عنها لوضع التراجم الخاصة بها

ونظام هذا المعجم على نظام المعجم العالمى الكبير فى وضع تراجم موجزة تدرج بها أهم الخواص عن الشخص مثل تاريخ ميلاده ، وشهاداته ، ووظائفه وعنوانه الدائم

المبرد

كنت أخذت على الأستاذ ابراهيم مصطفى فى أسبوع الجاحظ أنه نطق المبرد بالفتح ، فكتب أحد القراء الكرام إلى الرسالة ينتصف فيها للأستاذ وينصره ، والواقع أن هذا خطأ شائع فى ألسن الناس حتى فى الألسن المثقفة ، وإنى لأجعل الحكومة فى هذه القضية لحجة اللغة والأدب أستاذنا المرصفى إذ يقول فى تقدمة كتابه رغبة الآمل فى شرح الكامل : « كثيراً ما يتساءل الناس عن كلمة المبرد ، أبكسر الراء أم بفتحها ؟ والقول الثابت عندنا ما ذكره ياقوت فى كتابه معجم الأدباء قال : وإنما لقب بالمبرد لأنه لما صنف المازنى كتاب الألف واللام ساله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب فقال له المازنى : قم فأنت المبرد بكسر الراء أى المثبت للحق ، فحرفه الكوفيون ففتحوا الراء ؛ وعن السيوطى فى مزهره أن شيخه أبا عثمان المازنى ساله عن عويصة فأجاب بجواب برد به غليله ، فقال له : قم فأنت المبرد ، فهو الذى لقبه به ، وكان الكوفيون يفتحون الراء تهكما به !

قلنا : ولذلك كان الرجل يقول : برد الله من بردنى ، والرجل أدرى بحقيقة لقبه ، ونعوذ بالله أن تحق فينا كلمته فنكون من المبردين

محمد فهمى عبد اللطيف

احياء ذكرى المنفلوطى

لجنة إحياء ذكرى المنفلوطى تناشد أساطين الأدب وأعلام البيان العربى باسم الوفاء لفقيد اللغة والأدب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى أن يتفضلوا بالكتابة عن أدبه الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاما على وفاته وتمهيداً لإقامة مهرجان أدبى لإحياء ذكراه فى ١٦ يوليو القادم

وترجو حضرات الكتاب والأدباء أن يعدوا مباحثهم الأدبية التى سيلقونها فى مهرجان إحياء الذكرى وليتكرموا بمخابرتنا بمصر بشارع ذهنى رقم ٨ بالظاهر . وسنعلن فيما بعد عن المكان الذى سيقام فيه الاحتفال فى الموعد المحدد علنا نكفر عن تقصيرنا فى حق الفقيد الراحل ثلاثة عشر عاماً

سكرتير اللجنة
متولى حسنين عقيل

كتب الرحلات

كتب الرحلات من الأسفار التي يعنى الأوربيون بالاكثار منها لأنها وسيلة من وسائل إيقافهم على مجرى أساليب الحياة في الأقطار الأخرى، ولعل أكثر الأمم اهتماماً بذلك الشعب الانجليزي، فقد جبل على حب المخاطرات والتنقل بين بلدان الشرق والغرب، وهذان كتابان أصدرتهما مطبعة Hutchinson في الشهر الماضي أما الأول فهو رحلة إلى سمرقند وبعض البلدان الأسيوية South to Samarkand لسيدة انجليزية هي إثيل مانين E. Mannin وهي تذكر في كتابها هذا ما لاقته من صعاب البيروقراطية الروسية في منعها من الدخول هناك، وتقص كيف تمكنت من عبور الحدود ودخول تركستان الروسية من «كراسنوفدسك» الواقعة على بحر قزوين ثم منها إلى تاشقند. وذلك في أسلوب يستهوي القارىء وتصف معيشة أهل السهوب والقفار وتقول في سياق حديثها «وفي القوقاز، كنا أول سيدات انجليزيات يزرن هذه البلدة الألمانية الصغيرة جراندنبرج، تلك الواحة المنسية في بحر مترامي الأطراف من العشب، كما تلم بعادات القبائل الكردية والفارسية والقوقاز، والأزبك والتتار، وتصف حياة النساء مما يدل على أنها تغلغلت بين طبقات هذا المجتمع الذي يعد حلقة اتصال بين البداوة في صورها الأولى والحضارة الغربية وتقول إن الحرية التامة متوفرة بين هذه الشعوب الشرقية، وإن الحضارة الأوربية إنما تفقدهم الكثير من صفاتهم الجميلة ولكنها لا تصيرهم غربيين.

أما الكتاب الآخر فعن ألمانيا الهتلرية وعنوانه German Journey ألفه شاب انجليزي حدث يدعى C. Sidgwick سمع الكثير عن ألمانيا النازية من مدح وقدح فأحب أن يلمس ذلك عن قرب. فسافر اليها، وفي الفصول الاولى تقدمة تاريخية عن ألمانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر ويصف فيه محاسن النازية ومثالبها، وإن كان يميل في الغالب لاستحسان أعمالها على وجه الاجمال

حفلات غنائية هائلة

تقام في شهر يولية القادم بمدينة برزلاو بالمانيا حفلات غناء هائلة يشترك فيها مائة وعشرون ألف مغني؛ وتنظم فيها جماعات للغناء والنشيد المشترك تضم الواحدة ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا من المغنين؛ وهذه أعداد ضخمة لم يسمع باجتماع مثلها من قبل في حظيرة واحدة للغناء؛ ولهذا اتخذت إجراءات غير عادية لتنظيمها وتدريبها، ومهدت لها أبهاء فسيحة يجري إعدادها منذ أعوام؛ وقد تم منها بهوان عظيمان أحيط أحدهما بالمنابر وبلغ مسطحه ١٤٠ ألف متر مربع، ويمكن أن يتسع لاربعمائة ألف وعشرين ألفا من الناس، وأقيمت في البهو الثاني منصة هائلة تتسع لثلاثين ألفا من المغنين؛ وانه لمن الصعب أن يتصور المرء كيف تجتمع هذه الالوف الحاشدة من الفنانين في حظيرة واحدة، وكيف ترتفع هذه الأصوات بالغناء المنسق المنتظم؛ ولكن عصرنا أضحى أهلا لكل أعجوبة وكل مدهش

كتاب عن الرهبنة

ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الرهبنة والرهبان في انكلترا عنوانه «الرهبان الانكليز وإلغاء الأديار» English Monks and Suppression of Monastries بقلم المستر جوفري باسكرفيل وهو كتاب شائق في موضوعه وفي أسلوبه، وقد لعبت الأديار في العصر القديم دوراً هاما في تاريخ انكلترا كما لعبت دورها في تواريخ الأمم الأخرى؛ ومن ثم كانت أهمية هذا الكتاب؛ ولدينا نحن بالعربية أكثر من كتاب عن تاريخ الأديار والكنائس



عالم السدود والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد

للأستاذ كامل محمود حبيب

أهو كتاب أدب ؟

أهو بحث فلسفى اجتماعى ؟

أهو نقد يراد به إصلاح ناحية خاصة ؟

أهو سرد حوادث مرّت على عينى الكاتب فسجلها يُراد المتعة وإزجاء الفراغ ؟

أهو صرخة من أعماق قلب رجل طوحت به الأيام إلى قرارة سجن . . . فتلمس فيها الثورة والحنق . . . ؟

أم هو ماذا ؟ . .

لقد كفانا الأستاذ - وهو يقدم لكتابه - مئونة التخبط بين هذه الأسئلة فقال : « لست أعنى بها (الصفحات) أن تكون قصة ، وإن كانت تشبه القصة فى سرد حوادث ووصف شخوص ؛ ولست أعنى بها أن تكون بحثاً فى الإصلاح الاجتماعى ، وإن جاءت فيها إشارات لما عرض لى من وجوه الإصلاح ؛ ولست أعنى بها أن تكون رحلة ، وإن كانت كالرحلة فى كل شىء إلا أنها مشاهدات فى مكان واحد ؛ ولا أستقصى كل ما رأيتُ وأحسستُ وإن كنتُ أقول بعد هذا أن الاستقصاء لا يزيد القارىء شعوراً بما هناك ، لافرق بينه وبين الخلاصة إلا فى التفصيل والتكرار . . .

نعم ، لم يرد المؤلف شيئاً من هذا وإنما أرادها جميعاً ، فجمع بين أشتاتها وألف بين أطرافها ثم زاد عليها نقداً فى سخرية ، وتهكما فى مرارة ، بثهما فى أعراض هذا السفر الصغير فهو قد قال فى باب « المنع والترخيص » . . . « فاذا أبيح الشىء مرة فانما يُباح فى حالة لا تسرى إلى غيرها ، وفى وقت لا يمتد إلى ما بعده . . الخ الخ ، وفى قصة الفجل والجرجير ص ٥٢ ، ص ٥٣ نوع من هذا التهكم اللاذع

ولا يبرح الاستاذ العقاد فى كتابه يطرفنا بنكتة مستملحة أو حادثة ممتعة منذ دخل فى عالم السدود والقيود إلى أن خرج منه ، ففى باب « الليلة الأولى فى السجن » وكذا فى باب « أحمد حمزة » ، من الدعابات مالا يستطيع معها القارىء أن يمسك عن الانفجار ضحكا وقهقهة كأنه أراد أن يزيل عن القارىء بعض ما يسيطر عليه من الجد وهو يقرأ ، أو كأنه أراد أن يستحث القارىء فيدفعه إلى آخر صفحة من الصفحات ، أو كأنه نسى بعض ماقاسى فى السجن وهو يكتب . . !

وقد يجول بالخاطر أن الإجرام ينزع عن الإنسان إنسانيته فيبدو حيواناً مفترساً يفرمنه الناس ، خوف التعدى وخشية الضرر ، غير أننا نرى فى الكتاب براهين وأدلة تأتى على هذه الخاطرة من أساسها ، نراها فى الصفحات (٧٣ - ٨٠) وفى صفحة ١٩٧ . . . وقد تدفع الضرورات رجلا دمثاً إلى اقتراف جرم محظور ، فيكشف ويناله الجزاء ، إلا أنه لا يندر أن يظل بعد ذلك رجلا دمثاً كما كان . . .

وإذا كان « السجن إصلاح وتهذيب » كما يقولون ؛ فلم لا نرى أثر ذلك فى سجوننا لما ينال السجين من ظلم وإعنات وتحقير ومهانة واستصغار . وإذا كانت هذه الشدة تفيد فى قليل من الحالات فما لاريب فيه أنها تبذر الحنق والضغينة والحفيظة فى نفس السجين إن كان دمثاً ، وتغرس فيه الثورة والجنوح إن كان شريراً . ولقد أشار المؤلف إلى نظام السجون الأوروبية لنرى ماييننا وبينهم من بون شاسع

فى هذه الناحية ، وإن كان بعض الأمم قد جاوز الحد فيما خولوا السجين من حرية وتسلية . ولقد هفت بى نفسى نحو سجون موسكو — وأنا أقرأ بعض ما كتبه جيمس برفن ستيوارت ص ٢١٠ إلى ص ٢١٤ - لأستمتع بما يستمتعون به بعيداً عن عناء العمل ، وعناء الأمل ، وعناء الفكر ، إلا أنى - وأستميح الاستاذ عذراً - لا أستطيع أن أعمل ثمانى ساعات كل يوم تتخللها ساعة واحدة للطعام ...

ولقد رأيت فى الكتاب هدوء من يقص قصة لا تضطرب حوادثها فى نفسه ، ولا تلبس مفاجآتها قلبه ، فعجبت - بادىء ذى بدء - غير أنى عدت إلى نفسى فقلت : لعله النسيان قد محا كثيراً من الذكرى ، أو لعله الاطئنان إلى كل ما يجىء به القدر ، أو لعله الايمان بالتضحية ، أو لعلها حكمة الشيوخ ورزانتهم لا تعبأ ...

هذه كلمة إن لم يكن فيها الاستقصاء ففيها التعريف بالكتاب وليس بالمؤلف .

كامل محمود حبيب

أحسن القصص

للاساتذة : محمد عطيه الابراشى ، محمود السيد عبد اللطيف ، حسن محمد جوهر

القصة ضرب من الأدب الرفيع تجمع بين رقيق النثر ، ورشيق الشعر ، فلها من الشعر سحره وجماله ، ومن النثر ترسله وانسجامه ، يسير سلساً كالماء ساعة الأصيل رقراقا كالنسيم العليل ، لا تقف فى طريقه جنادل الأوزان ، ولا يغل بأغلال القافية ، وقد صيرت وزارة المعارف القصة أساسا من أسس التعليم فى منهج المدارس الابتدائية مااستطاعت إلى ذلك سبيلا ، وتنافس الكتاب فى إصدار القصص ، فهذه قصة تاريخية ، وتلك جغرافية والأخرى أدبية ، والتلاميذ يستسيغون جميع ذلك

وبينا نحن نتمنى للقصة « فى أفق المدارس » الكمال والسلامة من زيف الخيال ، وزيغ المطابع والأقلام برزت الحلقة الأولى من حلقات « أحسن القصص » لأساتذة أمجاد بارعين فاذا هى مزيج من الأدبين العربى والافرنجى ، وصلة بين الخيالين الغربى والشرقى فى أسلوب هو - كما يقولون - السهل الممتنع ، والقريب البعيد ، وإذا كان هذا أول الغيث ، فإنه غيث ممرع ، وصيب بالخير مترع ، فالحلقة خالية من التكلف والصنعة مفعمة بالروعة والمتعة ، قد أنفق عليها مؤلفوها عن سعة إيماناً بفنهم واطمئناناً إلى آثارهم ، فالغلاف جميل أنيق يحدثك دون قراءة عنوانه أنه قصة ، وتنطق ريشة المصور بأنها ساحرة ، والورق ناصع ، والطبع صاف دقيق والصور خلابة ، وإن بدا للقارىء أن الكتاب فى غنية عن التصوير ؛ فقلم كاتبه أفصح من ريشة مصوره ، وسحر عبارته آخذ من دقائق صورته .

يشتمل الكتاب على أربع قصص : قصتين عربيتين وأخريين مصريتين ، تلمس فى الأولى حياة العرب فى حضارتهم وجدهم فى دعتهم ، ومزحهم فى حكومتهم ، وسماحتهم فى ضيافتهم ، وتقرأ فى الثانية مثلا لحقد المرأة ، وآخر للحب الظافر ، وفى الثالثة وصف محكم للصحراء وجوها وللواحات وثمراتها ، ولصبر البدو وعزمهم وثباتهم على العقبات فى جلد وصرامة ، وتنتظم الرابعة مواقف محرجة سهلة الابتداء عسيرة الانتهاء ، وفيها مثل نبيلة للحنو والعطف .

وإذا كان على الناقد أن يتقصى الحسنات والسيئات فإنا لانكاد نلفى فى هذه الحلقة سيئات تذكر ، اللهم إلا هنات تبدو كالكلف فى جبين الحسناء ، من ذلك أن صورة الغلاف لا تمثل منظراً فى الكتاب ، والرقصة الموصوفة بأنها عربية فى « خليفة فى الخيال » لا تمت إلى العرب من قريب أو بعيد ، كما أرى وجوه الراقصات وجوها غير عربية ، فالوجه العربي مستطيل غالباً ، وأرى أن توضيح الصور بالكتابة تحت الرسم تزييف لها ، فللرسم لغته ، وهو غنى عن الكلام ، وإلا عد دليل الضعف والقصور ، وتسمية القصة الثالثة « عزة فى الصحراء » تسمية غير موفقة إذ مكانتها فى القصة ثانوية ولا يرفع من منزلتها أنها وحيدة أبيها ، ولفت نظرى تكرار عبارة « حباً وكرامة » فى روايتين عربية وإفرنجية ، وحبذا لو نوعت العبارة ولدى المؤلفين من أفانين القول معين لا ينضب ، على أن الكتاب مع ذلك طاقة يانعة من أزاهير الجمال

المعادى عبد العظيم على قناوى